

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الأول

نور من

القرآن والسنة

د / السيد عبد الحليم محمد حسين
الأمين العام المساعد لجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الأول

رقم الإيداع
٢٠٠٧/ ١٧٥٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله على نعمة الإسلام ، وكفى بها نعمة ، فضلاً عن جميع أنعمه التي غمرنا بها بلطفه ومنه .

والصلاة والسلام على رسول الهدى ، وإمام أهل التقوى .

وبعد :

فإنه لا عزة لنا إلا بالإسلام ، ولا نصرة ، ولا كلمة لنا إلا به .

فلقد قال لنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمن ابتغى العزة بغيره ذل» .

والإسلام بمصدرية المعصومين : -الكتاب والسنة- هو الطريق الوحيد الذي رضي له لنا ربنا جل علاه لأن يكون نبراس حياتنا ، ومصدر عزنا نتربى في جميع مناحي الحياة على هديه ، ونغترف من لآله ، ونصدر عن نواهيه وأوامره وقد عز المسلمون الأوائل به .

والمسلمون اليوم في غفلة بالغة عما لديهم من أصول التربية الإسلامية وحقائقها ووسائلها .

لذا فالأمة الإسلامية مدعوة لاستخراج ما تملكه من كنوز الوحيين وما تضمنته من سيرة الرسول الأكرم وسنته المطهرة ، وتاريخ مجيد ، لتنشئة المسلم الحقيقي على أصول صادقة ، وأمجاد بارعة .

وهذه محاضرات من الكتاب والسنة تهتم بالجوانب التربوية الإسلامية التي يعتز بها المسلم ويسعد .

بعض هذه المحاضرات كان معدًا . والأخرى أُلقيت في مناسباتها دون إعداد . أردت بها أن تكون زادًا للدعاة ، ونورًا للسالكين .
سائلًا المولى أن ينفع بها . إنه على ما يشاء قدير .

الدكتور

السيد عبد الحليم محمد حسين

المحاضرة الأولى :

الرسول المعلم ﷺ

انطلاقاً من الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب العلم في باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم قال : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان ، حدثنا عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنما مثل المسلم ، حدثوني ما هي؟ قال : فوق الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : فوق في نفسي أنها النخلة . ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال : هي النخلة» .

إمام المحدثين :

من المعروف عند العلماء المحدثين وغيرهم أن الإمام البخاري واسع الجوانب في إمامته وعلمه ، عميق النظر في إدراكه وفهمه ، دقيق الاستنباط في استخراج الأحكام من النصوص ، قرأنا كانت أو سنة ، وله في ذلك الباع الأوسع ، والقدرة الفائقة العجيبة ، لم يلحق به لاحق ، ولم يسبقه إلى ما أبدع فيه سابق ، وهو إلى جانب إمامته في الحديث ، وإمامته في الفقه ، وإمامته في تاريخ الرجال ، وإمامته في الجرح والتعديل ، إلى جانب ذلك كله هو مرب كبير عظيم ، وإذا عد المربون في ملتنا وأمتنا- وما أكثرهم- فلا شك أن الإمام البخاري هو أحد أولئك المربين العظام ، بل هو في طليعتهم ، فإنه من أوائل من عنوا بالوقوف ملياً أمام أحاديث رسول الله ﷺ التربوية والتعليمية ، يتملاها ويتأملها ، ويدعوننا لأن نقف معه فيها ، نفكر فيها ونتأملها ، ونستخرج قواعد السلوك التربوي والتعليمي ، وكان ذلك منه في عملين اثنين :

١- بإفراده في «صحيحه» بابًا بل كتابًا هامًا هو «كتاب العلم» ، ثم كتاب آخر هو «كتاب الأدب» ، وكل منهما فيه أبواب وفصول رائعة ثمينة ، ولفتات تربوية وتعليمية على غاية من الأهمية والنفاسة .

٢- بتأليفه كتابًا كبيراً مستقلاً في الأدب بمعناه العام ، وهو حسن السلوك مع الله ثم مع الناس دينًا ودنيا ، وهو الكتاب المشهور باسم «الأدب المفرد» ؛ لأنه أفرده وجعله مستقلاً عن كتابه «الجامع الصحيح» . وقد استقرأ فيه البخاري ألوانًا من السلوك الخلقي والاجتماعي اللائق بالمنزلة العالية التي أقام فيها القرآن العظيم ، والإسلام الكريم ، هذا الكائن الإنساني الرفيع الذي قرر له كرامته في محكم كتابه فقال : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ونحن في تأملنا في صنيع البخاري فيما أورده في «صحيحه» في «كتاب العلم» ، وفي «كتاب الأدب» ، وفيما أورده في كتابه «الأدب المفرد» ، نجد أنفسنا أمام مرب كبير من أعظم المربين ، وتاريخ الفكر التربوي والتعليمي لا ينسى أبدًا أن البخاري هو أب المنهج الحديثي الذي شق للناس طريقًا في نقل الخبر عن النبي ﷺ ، وتمييز الحديث الصحيح من غيره ، ثم إفراده الصحيح في كتاب .

والبخاري المربي هذا هو الذي خط منهجًا كان له أثر كبير في الحياة الإسلامية الثقافية والتعليمية ، أعني منهجه الحديثي وشرطه المعروف فيه .

والبخاري هو الذي أوتي الفهم الدقيق لمضمون الحديث ، واستخراج ما فيه من حكم وأحكام ، وتوزيعه الحديث الواحد على الأبواب . أي تقطيعه له ، وإيراده منه في كل باب ما يناسبه : يدل على مدى تصور البخاري

لشمول الإسلام ، وضرورة تحري كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ في كل أمر من أمور الحياة دقيقًا كان أو جليلاً .

وقد عني البخاري - رحمه الله تعالى - بشئون التربية والتعليم عناية بالغة ، وجعل «كتاب العلم» أول شيء بعد «كتاب الإيمان» في «صحيحه» ونثر فيه فصولاً تربوية هامة ، كما سنشير إلى ذلك في كلمات وجيزة عند استعراض مواطن الحديث الذي سنشرحه . وإنما أورد البخاري «كتاب العلم» بعد «كتاب الإيمان» الذي هو أول كتاب في «صحيحه» إشارة منه إلى أن العلم في نظر الإسلام هو أفضل المنح من الله بعد الإيمان بالله ، وأنه أحوج ما يكون إليه الإنسان بعد الإيمان بالله ؛ لأن العمل فرع العلم ، ولا عمل بلا علم .

ونحن المسلمين نملك تراثاً تربوياً وتعليمياً لا يجارى ولا يبارى ، وما أحوجنا إلى أن نراجع هذا الرصيد التربوي الضخم الزاخر ، وما أحوج جامعاتنا إلى أن تولي عنايتها بدراسة هذا التراث العظيم وإبراز كنوزه للناس ، ليتفتح به بنو الإنسان في كافة أصقاع الأرض ، وليعلم المسلمون خاصة أن الله أغناهم في أصول تربيتهم الإسلامية بما أعطاهم من الدين الحق عن أن يتطفلوا على غيرهم من الأمم . ورجال الفكر والتوجيه والمسؤولون منا مطالبون جميعاً أن يعملوا على إحياء التربية الإسلامية الحققة ، التي لولاها ما ساد أجدادنا الدنيا ، ولا ملكوا كنوز الأرض ، ولما كانوا هم أمة العلم والعرفان ، وأمة الفضيلة والحق والقوة جميعاً ، يوم كانوا آخذين بالإسلام وهدية في كل شئونهم .

وبحسبنا وقد ألمعنا إلى مكانة الإمام البخاري في ميدان التربية الإسلامية ، وأثره الطيب فيها أن نعود إلى شرح الحديث الذي سبق ذكره .

تخريج الحديث:

وإلى بيان من أخرجه من العلماء في كتابه فنقول :

هذا الحديث الشريف رواه البخاري في عشرة مواضع من «صحيحه» ،
فرواه في أربعة مواضع من كتاب العلم :

أولاً : في باب قول المحدث : أنبأنا وأخبرنا وحدثنا ، يريد البخاري بهذا أن هذه الألفاظ الثلاثة : التحديث والإنباء والإخبار تكون بمعنى واحد ؛ لأنه جاء في رواية من روايات هذا الحديث أن النبي ﷺ قال : «فحدثوني ما هي؟» ، وفي رواية : «أنبئوني؟» ، وفي رواية : «أخبروني؟» .

ثانياً : روى البخاري هذا الحديث في باب : طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم .

ثالثاً : في باب : الفهم في العلم .

رابعاً : في باب : الحياء في العلم .

خامساً : ورواه في «كتاب البيوع» في باب : بيع الجمار وأكله .

سادساً : ورواه في «كتاب الأطعمة» في باب : بركة النخلة .

سابعاً : وفي باب : أكل الجمار .

ثامناً : ورواه في «كتاب التفسير» في تفسير سورة إبراهيم عليه السلام عند ذكر قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿٢٤﴾ تَوَقَّى أَكْلِهَا كُلَّ حِينٍ إِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥] .

تاسعاً : ورواه في «كتاب الأدب» في باب : ما لا يستحيى من الحق للفقهاء في الدين .

عاشراً : وفي باب إكرام الكبير وابتداء الأكبر بالكلام والسؤال .

ورواه الإمام مسلم في «صحيحه» في أواخر «كتاب صفة القيامة والجنة»، قبل «كتاب صفة الجنة وأهلها ونعيمها».

ورواه الإمام أبو عيسى الترمذي في «سننه» في أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ في باب: ما جاء في مثل القارئ للقرآن وغير القارئ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

ورواه الإمام مالك في كتابه «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره، أما رواية يحيى الليثي فإنه لا وجود لهذا الحديث فيها، كما أفاده الإمام السهيلي ونقله عنه المفسر القرطبي في «تفسيره».

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» في ستة مواضع من مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه. كما رواه ابن حبان في «صحيحه»، وأبو عوانة في «صحيحه» أيضاً.

وقد رأيت أن أجمع بين رواية هؤلاء لهذا الحديث الشريف ليكون لنا منها جميعاً نص كامل نتبين منه ما سنشير إليه من الأحكام والآداب والفوائد الغالية المستنبطة.

يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فأتني بجمار نخلة، فقال وهو يأكل منه: إن من الشجر شجرة خضراء، لها بركة كبركة المسلم، لا يسقط ورقها، ولا يتحات، وإنما يتتفع بها مثل المسلم، أو قال: تشبه المسلم أو المؤمن، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فحدثوني ما هي؟ قال عبد الله بن عمر: فوق الناس في شجر البوادي، فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، وقالوا، وقالوا، فلما لم يقولوا شيئاً ولم يصيبوا، وقع في نفسي أنها النخلة، فأردت أن أقول: هي النخلة، فالتفت فإذا أنا عاشر عشرة، أنا غلام شاب أحدثهم؛ أصغر

القوم ، ورأيت أبا بكر وعمر ثمة لا يتكلمان ، فلما لم يتكلما كرهت أن أتكلم فاستحييت وسكت ، فلما لم يقولوا شيئاً قالوا : يا رسول الله أخبرنا بها ، حدثنا ما هي ؟ فقال رسول الله ﷺ : هي النخلة . فلما قمنا خرجت مع أبي وحدثته ما وقع في نفسي ، وقلت : يا أبتاه : والله لقد كان في نفسي أنها النخلة ، من أجل الجمار الذي أتى به رسول الله ﷺ ، فقال : ما منعك أن تقولها ؟ قلت : ما منعني إلا أني لم أرك ولا أبا بكر تكلمتا ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً ، فقال عمر : لأن تكون قلتها كان أحب إلي من كذا وكذا ، أحسبه قال : كان أحب إلي من حمر النعم .

ترجمة رواية الحديث :

نعود بعد هذا إلى ترجمة رواية الحديث بسند البخاري بإيجاز :

فأول هؤلاء الرواة من جهة البخاري : خالد بن مخلد ، وهو أبو الهيثم القطواني البجلي الكوفي ، روى عن سليمان بن بلال وعن سفيان الثوري ، وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وروى عنه البخاري وأبو بكر بن أبي شيبة وصالح بن القطان وعباس الدوري . وثقه البخاري والعجلي وابن معين . وأما قول الإمام أحمد فيه : يروي المناكير . فما يريد أحمد بذلك أنه ضعيف الحديث ، وإنما يريد أن له أحاديث أفراداً لا متابع له عليها ، كما بينه الإمام اللكنوي في كتابه : «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل» . وكانت وفاة خالد بن مخلد سنة ٢١٣ هـ .

وثاني هؤلاء الرواة : سليمان وهو أبو محمد سليمان بن بلال المدني الفقيه المشهور ، روى عن زيد بن أسلم وعبد الله بن دينار وحيد الطويل وهشام بن عروة وجعفر الصادق وغيرهم ، وروى عنه أبو عامر العقدي وعبد الله بن المبارك ويحيى النيسابوري وغيرهم ، أثنى عليه مالك ، ووثقه

أحمد وابن معين ، وقال ابن سعد : كان ثقة عاقلاً ، حسن الهيئة جميلاً ، يفتي الناس بالمدينة ، مات سنة ١٧٢ هـ .

الشيخ الثالث في سند البخاري : هو عبد الله بن دينار ، وهو عبد الله بن دينار العدوي المدني التابعي الجليل ، مولى ابن عمر ، روى عن عدد من الصحابة ، منهم ابن عمر وأنس رضي الله عنه ، وروى عن سليمان بن يسار ونافع القرشي وغيرهم ، وروى عنه الإمام مالك وشعبة بن الحجاج أبو بسطام ، وعبد العزيز بن الماجشون وجماعات غيرهم ، واتفقت الكلمة على توثيقه وصدقه ودينه وفضله ، وما قاله ابن الحذاء في «رجال الموطأ» من أنه لا يعلم له إلا رواية عن أحد إلا عن ابن عمر ففيه قصور شديد ، كما نبه إليه الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ، وكانت وفاة ابن دينار سنة ١٢٧ هـ . وعبد الله بن دينار هذا ليس هو الذي عناه أبو العلاء المعري بقوله :

بنو الدهر جاءتهم أحاديث جمة فما صححوا إلا أحاديث ابن دينار

فإنه إنما عني بابن دينار وتصحيح حديثه : خضوع الناس لصاحب المال والدينار ، وتعلق أكثرهم بالدنيا وحطامها ، وإنما ورى بعبد الله تورية .

الشيخ الأخير في سند البخاري هو سيدنا عبد الله بن عمر ، وهو الصحابي ابن الصحابي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يكنى أبا عبد الرحمن ، ولد سنة ثلاث من مبعث سيدنا محمد ﷺ ، وأسلم قديماً وهو صغير ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة وهو ابن عشر سنين ، وعرض نفسه على النبي ﷺ في غزوة أحد فاستصغره النبي ﷺ وردّه ، ثم عرض نفسه يوم الخندق فأجازه الرسول ﷺ ، وكان عمره حينئذ خمس عشرة سنة ، فشهد غزوة الخندق وبيعة الرضوان وما بعدهما من المشاهد ، وكان رجلاً ضخماً آدم اللون .

روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن عمه زيد وعن عائشة وعن أخته حفصة وعن غيرهم من الصحابة .

وروى عنه أبناؤه السبعة : بلال وزيد وحزمة وسالم وعبد الله وعبيد الله وعمر وأبناء أبنائه وأبناء إخوته ونافع وأسلم وسعيد بن المسيب ومجاهد وابن دينار وخلائق غيرهم لا يحصون كثرة .

أثنى عليه رسول الله ﷺ وزكاه خير تزكية ، فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : «إن عبد الله رجل صالح» .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبد الله بن عمر» . وقال جابر بن عبد الله : «ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها إلا عبد الله بن عمر» . وقال سعيد بن المسيب : «ما رأيت أحدا أشد اتقاء للحديث عن رسول الله ﷺ من ابن عمر» .

قلت : ومع هذا فقد روى من الحديث عن رسول الله ﷺ الشيء الكثير ، روى ألفاً وثلاثمائة وثلاثين حديثاً . وأفتى ابن عمر الناس ستين سنة ، وكان من التمسك بآثار رسول الله ﷺ بالسبيل المتبين ، والمتابعة التامة لأفعال رسول الله ﷺ ، روى الإمام أحمد في «مسنده» عن مجاهد قال : «كنا مع ابن عمر في سفر ، ومر بمكان فحاد عنه ، فسئل لم فعلت هذا؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت» . وروى البيهقي في كتاب «الزهد» بسند صحيح أن ابن عمر ما ذكر عنده رسول الله ﷺ إلا بكى ، ولا مر على ربهم إلا غمض عينيه . وقيل لنافع مولاه : ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال : الوضوء لكل صلاة والمصحف بينهما ، وفاتته مرة صلاة العشاء بجماعة فقام يصلي الليل كله ، وكان يصوم في السفر ولا كاد يفطر في الحضر ، وكان مرة يمشي في فلاة ، فمر براعي غنم فقال له :

هل من جزرة؟ أي هل من غنمة سمينة صالحة للذبح والأكل؟ فقال له الراعي: ليس هاهنا ربها أي صاحبها! فقال له ابن عمر: تقول له إن الذئب أكلها! فقال له الراعي: اتق الله. فاشترى ابن عمر الراعي والغنم وأعتق الراعي، ووهب له الغنم.

قال الحافظ أبو نعيم: أعطي ابن عمر القوة في المجاهدة والعبادة والرجولة والمعرفة بالآخرة والإيثار لها، وما مات حتى أعتق ألف إنسان أو أزيد. وتوفي سنة ٧٤هـ. بعد الحج، ومات وهو مثل عمر في الفضل. قال سعيد بن المسيب يوم وفاة ابن عمر: ما في الأرض أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله من ابن عمر، ولو شهدت لأحد أنه من أهل الجنة لشهدت لابن عمر. والحديث عن ابن عمر لا ينتهي طيبه ولكن فيما ذكرنا كفاية.

شرح الحديث:

فلنعد بعد هذا إلى شرح ألفاظ الحديث:

أما «جمار النخلة» فهو قلب النخلة وشحمها، يكون ليناً ويؤكل بالعسل، قال أبو بكر بن العربي: ويقال له الجامور أيضاً.

وأما «بركة النخل» فهي خيره ونفعه العميم.

فأما قوله: «لا يتحات ورقها»، أي لا يتناثر ولا يتساقط.

وقوله: «تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»، أي تعطي ثمرها كل وقت أفتة الله تعالى لذلك الثمر بإرادة خالقها سبحانه.

وقوله: «فوق الناس في شجر البوادي» أي ذهب أفكارهم إلى أشجار البادية، فجعل كل واحد منهم يفسرها بنوع من الأنواع، وذهلوا جميعاً عن النخلة.

وأما قوله : «حمر النعم» يعني الجمال الحمر ، وهي عند العرب أشرف أموالهم .

وأما قوله ﷺ : «ولإنها مثل المسلم» ، فهذا اللفظ الكريم روي بكسر الميم وسكون الثاء ، وروي بفتح الميم وفتح الثاء أي مثل المسلم ، وكلاهما بمعنى واحد .

قال الجوهري في «الصحاح» : مِثْلُ الشيء ومِثْلُهُ : كلمة تسوية ، كما يقال : شَبَّهه وشَبَّهَهُ بمعنى واحد ، قال : والمثل أيضًا ما يضرب من الأمثال .

وقال المناوي في «فيض القدير» : المثل الصفة العجيبة ، وهو في الأصل المثل بالمعنى النظير ، ثم استعير للقول السائر الممثل به مضربه بمورده ، وذلك لا يكون إلا قولاً فيه غرابة ، ثم استعير لكل ما فيه غرابة من قصة وحال وصفة .

ووجه شبه النخلة بالمسلم قائم من جهات كثيرة ، وذلك في كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام ، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه أنواع حتى ييبس . وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة ، فخشبها وورقها وأغصانها تستعمل جذوعاً وحطباً وعصيّاً ومخاصراً وحصرّاً وحبالاً وأواني وغير ذلك مما لا يخفى . ثم آخر شيء نواها ، فإنه ينتفع به علماً للإبل .

أما جمال نباتها ، وحسن هيئة ثمرها ، وفارع طولها ، واستمرار خضرة أوراقها ، وتماسك جذعها ، من أن تلعب به الرياح والأعاصير ، وكريم ظلها لمثل من كان في قلب جزيرة العرب : فمنافع مشهودة ومتع محمودة .

وكذلك المسلم والمؤمن كله خير ونفع ، فهو ثابت الإيمان بالله كثبوت النخلة على أساسها ، باهي العمل ، سامي القول كعلو النخلة في السماء ،

كثير الطاعات على ألوانها ما بين صائم ومصل ، وتال للقرآن ومتصدق ، وذاكر لله ومذكر بالله ، وأمر بالمعروف ونه عن المنكر ، يخالط الناس ويصبر على آذاهم ، ألف مألوف ، ينفع ولا يضر ، مكارم أخلاقه مبدولة للناس ، لا يزيده طول الأيام إلا بسوقاً وارتفاعاً ، ولا تجده فيه الشدائد والأهوال إلا ثباتاً ورسوخاً على الحق ، وسمواً إلى الخير والنفع ، وشفوقاً عن الدنيا والسفاسف ، عمله صاعد إلى ربه بالقبول والرضوان ، إن جالسته نفعك ، وإن شاركته نفعك ، وإن صاحبتة نفعك ، وإن شاورته نفعك ، وكل فعل من أفعاله نفع ، ومما يصدر عنه من العلوم فهو قوت للأرواح والقلوب ، لا يزال مستوراً بدينه لا يعرى من لباس التقوى ، ولا ينقطع عمله في غنى أو فقر ، ولا في صحة أو مرض ، بل لا ينقطع عمله بعد موته إذا نذر من حياته لآخرته ، وغنم من يومه لغده ، ينتفع من كل ما يصدر منه حيّاً وميتاً ، إذ مبعث أعماله كلها الإيمان والنفع .

وأما وجه الشبه بين النخلة والمسلم من جهة ، عدم سقوط الورق ، فقال الإمام أبو بكر بن العربي : هو أن النخلة لا تعرى عن لباسها من الورق ، فالمؤمن لا يعرى عن لباس التقوى ، فإن اللباس الظاهر يقيه من آفات الدنيا ، والتقوى تقيه من آفات الآخرة .

وقال الحافظ ابن حجر : وجه الشبه بينهما هو ما رواه الحارث بن أسامة في هذا الحديث من وجه آخر عن ابن عمر ، ولفظه : «كنا عند النبي ﷺ ذات يوم ، فقال : إن مثل المؤمن كمثل شجرة لا يسقط لها أغلة ، أتدرون ما هي ؟ قالوا : لا ، فقال النبي ﷺ : إنها النخلة» .

ثمرات من هذا الحديث:

وأفاد الحديث الذي نشره أحكامًا كثيرة وفوائد عديدة ، وبين العلماء هذه الفوائد وهذه الأحكام :

أفاد الحديث : بركة النخلة وما تثمره ، ويكفي في الدلالة على ذلك أن النبي ﷺ ضرب بها المثل بالمؤمن ، وأن الله تعالى ضرب بها المثل في كلمة التوحيد ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥] .

واستدل الإمام مالك رحمه الله من هذا الحديث على أن الخواطر التي تقع في القلب في محبة الثناء على أعمال الخير لا يقدح فيها ذلك إذا كان أصلها لله تعالى ، وذلك مستفاد من تمني عمر بن الخطاب رحمه الله أن يكون ابنه قال في جواب سؤال الرسول ﷺ : هي النخلة . ووجه تمني عمر رحمه الله ما طبع الإنسان عليه من محبة الخير لنفسه ولولده ، ولتظهر فضيلة الفهم في الولد من صغره ، وليزداد من النبي ﷺ حظوة . ولعله كان يرجو له إذ ذاك أن يدعو رسول الله ﷺ له بالزيادة في الفهم .

وفي الحديث أيضًا : امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى ، مع بيانه لهم إن لم يفهموه ، كما بوب البخاري .

وفي الحديث أيضًا : إشارة إلى أن الملمغز له ينبغي أن يفتطن إلى قرائن الأحوال الواقعة عند السؤال ، وأن الملمغز ينبغي ألا يبالغ في التعمية ، بحيث يجعل للملمغز له بابًا يدخل منه ، بل كلما قربته كان أوقع في نفس سامعه .

وأما ما رواه أبو داود من حديث معاوية عن النبي ﷺ أنه «نهى عن الأغلوطات»، وهي صعاب المسائل . فإن ذلك محمول على ما لا نفع فيه ، أو على ما يقال على سبيل التعنيت والتعجيز .

واستفيد من حديث ابن عمر التحريض على الفهم في العلم ، وقد بوب البخاري عليه بقوله : «باب الفهم في العلم» كما استفيد منه استحباب الحياء ما لم يؤد إلى تفويت مصلحة ، ولذلك تمنى عمر أن يكون ابنه لم يسكت .

أما تشبيه الله تعالى كلمة التوحيد بالنخلة ، فهذه الكلمة الطيبة هنا في الآية الكريمة عبر بها عن المبدأ الكلي الجامع ، الذي يعتنقه الإنسان المؤمن ويقول به ويعلنه في الناس .

والآية الكريمة تبرز فضل مبدأ التوحيد ، وأنه هو وحده المبدأ الخصب الذي يثمر ثمرات لا نهاية لها ولا انقطاع ، فهو إن استقر في القلب أعطى نتائج خيرة عجيبة ، وثمرات مباركة فائقة لصاحبه وللناس حوله ، وناهيك بهذا المبدأ وما يثمره من رقابة إيمانية لا يدانيها ولا يضارعها أي قاعدة أخلاقية أخرى .

وإذا لاحظنا أن الإنسان الذي يفارق الإيمان قلبه - والعياذ بالله - يتحول إلى وحش ضارٍ له من الوحش قوته ، ومن الإنسان ذكاؤه وعقله ، وحيلته ودهاؤه ومكره ، تبين لنا أن ذلك الإنسان عندما يخلو قلبه من الإيمان بالله ليس إنساناً حين ذاك ، ولا حيواناً أعجم ، بل هو شيطان عات ومارد لا يشق له غبار في المكر والغدر والإيذاء ، وبهذا يتبين لنا فضل التوحيد وأثره ببعض التبيين .

وفي الحديث أيضاً : ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام ، وتصوير المعاني لترسخ في الذهن ، ليحدد الفكر النظر في حكم الحادثة .

كما فيه الإشارة إلى أن تشبيه الشيء بالشيء لا يلزم أن يكون ذلك المشبه نظير المشبه به من جميع وجوهه ، فإن المؤمن كما قال الإمام أبو بكر بن العربي : لا يماثله شيء من الجمادات ، ولا يعادله حتى الكعبة المعظمة التي يستقبلها في العبادة ، فلا شيء بعد الله ورسوله أعظم من المؤمن .

وفي الحديث الشريف : توقير الكبير وتقديم الصغير أباه في القول ، وأنه لا يبادره بما فهمه ، وإن ظن أنه الصواب .

وفي الحديث أيضًا : أن العالم الكبير قد يخفى عليه ما يدركه من هو دونه لأن العلم مواهب ، والله يؤتي فضله من يشاء ، وقد قال الإمام ابن مالك الجبائي النحوي في أول كتابه «التسهيل» : «وإذا كانت العلوم منحًا إلهية ، ومواهب اختصاصية فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين ، نعوذ بالله من حسد يسد باب الإنصاف ، ويصد عن جميل الأوصاف» .

وفي الحديث أيضًا : الإشارة إلى حقارة المال النفيس في جلب النعم ، فإن عمر رضي الله عنه قابل فهم ابنه لمسألة واحدة بحمر النعم ، مع عظم مقدار ثمنها وغلائها عند العرب آنذاك .

وفي الحديث أيضًا : أكل النبي ﷺ بحضرة القوم ، وهو سيد السادات ، ويستفاد منه أن ذلك لا يغض من مقامه العظيم إذا فعله .

وبعد : فقد تضمن هذا الحديث لوًا من ألوان التعليم عند النبي ﷺ .

صفات الرسول ﷺ التعليمية :

وقبل أن نستوفي أساليبه ﷺ في التعليم ، علينا أن نتحدث عن الصفات التعليمية الكريمة التي كان يتحلّى بها هذا المعلم الكبير ﷺ .

لقد أثبت القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ بعث معلماً للناس والبشرية جميعاً، على أميته وصحراوية بيئته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

كما أثبتت السنة المطهرة أن الرسول ﷺ معلم هاد بصير، روى ابن ماجه في «سننه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين.

أحدهما: يدعون الله لأ ويرغبون إليه.

والثاني: يعلمون الناس، فقال: أما هؤلاء فيسألون الله سبحانه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيعلمون الناس، وإنما بعثت معلماً، ثم عدل إليهم وجلس معهم»^(١).

وروى مسلم في «صحيحه» في «كتاب الطلاق» في قصة تخير رسول الله ﷺ زوجاته الشريفات رضي الله عنهن، «أن عائشة رغبت من رسول الله ﷺ ألا يخبر غيرها من زوجاته بما اختارته، فقال لها عليه الصلاة والسلام: إن الله لم يعثني معتاً ولا متعتاً، وإنما بعثني معلماً ميسراً».

وروى مسلم أيضاً في «صحيحه» عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: «بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت له: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩)، والدارمي في «السنن» (٣٤٩)، وابن المبارك في «الزهد»

(١٣٨٨) عن عبد الله بن عمرو، مرفوعاً، به. وضعفه السندي في «الزوائد». انظر

«مصباح الزجاجة» (١/ ٣٢).

يصمتونني سكت ، ولما صلى رسول الله ﷺ دعاني ، فبأي وأمي ما رأيت أحداً قبله ولا بعده معلماً أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهرني ، أي ما نهمني ، ولا شتمني ولا ضربني ، ولكن قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن .

وكذلك أثبت التاريخ أن رسول الله ﷺ كان معلماً وأي معلم ، فنظرة يسيرة إلى ما كانت عليه البشرية قبل رسول الله ﷺ ، وإلى ما آلت إليه البشرية بعد الرسالة المحمدية ، نظرة يسيرة إلى هذا وذاك تعطينا أوضح شاهد ودليل على ذلك ، وإذا لاحظنا النماذج التي شهدتها البشرية من النوع الإنساني بعد رسالة الرسول المعلم الأمين ﷺ ، رأيناها تدل أقوى الدلالة على عظم هذا المعلم المربي الكبير الذي تتقاصر أمامه كل أسماء الذين عرفوا وذكروا في عالم التربية وتاريخها ، فأَي معلم من المربين تخرج على يده عدد أقوى وأهدى من هذا الرسول الكريم الذي تخرج به هؤلاء الأصحاب والأتباع؟ وإن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل قاطع على عظمة هذا المعلم المربي الفريد ، وهذا يذكرنا بكلمة طيبة جيدة جداً للشيخ ابن تيمية رحمه الله يقول فيها : إن أصحاب رسول الله ﷺ من معجزات رسول الله ﷺ .

ونحن الذين نحب أن نتملى من سيرة هذا المربي الأول الأُمي الكريم من كل جانب من جوانبه في الوسائل والغايات جميعاً لا يتسع لنا المقام لأكثر من أن نمر ببعض أساليبه ﷺ في التقيف والتعليم . أما الأهداف الكبرى التي وجه إليها هذا المعلم الكبير فللحديث عنها مجالات أخرى .

هذا المعلم للخير ﷺ على أنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب قد منحه الله العلم الذي لا يدانيه فيه أحد من البشر ، وأتم عليه النعمة بما آتاه من شخصية

فذة جامعة فريدة. وامتن عليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۖ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٩].

فنهض ﷺ ينشر العلم في الناس ويذيعه بينهم، وكان بحق المعلم الأول للخير في هذه الدنيا، في جمال بيانه، ونصاعة منطقته، وحلاوة أسلوبه، ولطف إشارته، وإشراقة روحه، ورحابة صدره، ورقة حنانه، وعظيم انتباهه، وسمو ذكائه، وبالعناية، ورفقه بالناس، حتى قال ﷺ: «إننا بعثت معلماً».

تحذيره ﷺ من «علم لا ينفع»:

وقبل الدخول في أساليبه في التعليم أرى من المناسب أن أذكر كلمة وجيزة في حذر هذا المعلم الكبير من العلم الذي لا ينفع، حتى جعل ذلك دعاء له يدعو به في أكثر أحيانه، روى مسلم في «صحيحه» عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

شخصية الرسول ﷺ التعليمية:

ولهذا كان ﷺ معلماً بحاله ومقاله جميعاً. كما أرى من المناسب أيضاً أن أذكر كلمة وجيزة عن شخصيته التعليمية تعرفنا بتلك النفس الكريمة التي صنعها الله لرسالته، لتصنع الخير للناس جميعاً، وتبلغ الدين للبشر كافة، لقد كان رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة، وترك العنت، وحب اليسر، والرفق بالمتعلم، والحرص عليه، وبذل العلم والخير له في كل مناسبة بالمكان الأسمى والخلق الأعلى.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وروى البخاري ومسلم عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال : «أتينا رسول الله ﷺ ونحن شعبة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً ، فلما ظن أننا قد اشتقنا أهلنا سألنا عمن تركنا بعدنا ، فأخبرناه . فقال : ارجعوا إلى أهليكم ، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ، ومروهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم» .

وقال الحسن بن علي رضي الله عنه : سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصافاً لرسول الله ﷺ فقلت له : صف لي منطق رسول الله ﷺ فقال : «كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، طويل الصمت ، لا يتكلم بغير حاجة ، يفتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل ، لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافي ولا المهين ، لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه ، جُلَّ ضحكه التبسم ، يفر عن مثل حب الغمام» .

وكان ﷺ يعطي كل واحد من جلسائه وأصحابه حقه من الالتفات إليه والعناية به حتى يظن كل واحد منهم أنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ .

وعن أنس رضي الله عنه : «أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : يا رسول الله : إن لي إليك حاجة . فقال لها : اجلسي في أي طريق المدينة شئت أجلس إليك» ^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، مرفوعاً ، بنحوه .

أساليب الرسول ﷺ في التعليم:

بعد هذه الإمامة بشخصية هذا الرسول المعلم ﷺ نعود إلى بيان أساليبه ﷺ، فقد كان ﷺ يلون الحديث إلى أصحابه ألواناً كثيرة، فكان تارة يكون سائلاً، وتارة يكون مجيباً، وتارة يجيب السائل بقدر سؤاله، وتارة يزيده على ما سأل، وتارة يضرب المثل لمن يريد تعليمه، وتارة يصحب كلامه القسم بالله تعالى، وتارة يلفت السائل لسؤاله لحكمة بالغة منه ﷺ، وتارة يورد الشبهة ليذكر جوانبها، وتارة يسلك سبيل المداعبة والمحاكاة مع أصحابه فيما يعلمهم، وتارة يمهد لما يشاء تعليمه، وتارة يسلك سبيل المقايضة بين الأشياء، وتارة يشير إلى علل الأشياء وحكمها، وتارة يخص النساء ببعض مجالسه ويعلمهن ممن يحتجن إليه من العلم، وتارة كان يراعي حال من بحضرته من الأطفال والصغار فيتناول إليهم ويعلمهم بما يلاقي طفولتهم ولهوهم إلى غير ذلك من فنون تعليمه التي سنمر بها.

الحوار والاستجواب:

وكان من أبرز أساليبه ﷺ الحوار والاستجواب، روى الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتدرون من المسلم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، قال: أتدرون من المؤمن؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: من آمنه المسلمون على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه»^(١).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٠٦، ٢١٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وهو عند البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) بنحوه.

وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
«أرأيتم - أي أخبروني - لو أن نهرا غمزا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم ليلة
خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال :
فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ :
«أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ،
فقال ﷺ : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة ،
يأتي قد شتم هذا ، وضرب هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم
هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، ويعطى هذا من حسناته ، حتى إذا فنت
حسناته ولم يقض ما عليه طرح عليه من سيئاتهم ، ثم طرح في النار» .

فكان في سؤاله ﷺ لأصحابه أولا ، ثم تبيينه ما هو جواب سؤاله ثانيا ،
تنبيه للأذهان جميعا أن الإفلاس الحقيقي هو الإفلاس يوم القيامة .

القسم :

وكان ﷺ في كثير من الأحيان يبدأ حديثه بالقسم بالله تعالى ، تنبيها إلى
أهمية ما يقوله ، من ذلك قوله ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» : «والذي
نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا
أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» .

وروى البخاري من حديث أبي شريح رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
«والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، الذي لا يأمن جاره بوائقه» -
أي شروره وأذاه - فما كان قسمه ﷺ في هذين الخبرين وهو الصادق
المصدق ، إلا للتنبيه على أهمية أثر السلام في توثيق الصلة ، والتحاب بين
الناس ، وإلا للتنبيه على شناعة أذى الجار ولتنغيصه وإضراره .

السؤال:

وتارة كان ﷺ يسأل أصحابه عن الشيء وهو يعلمه ، يسألهم ليشير فطنتهم ويحرك ذكاءهم ، ويسقيهم العلم في قالب الحاجة ، ومن ذلك حديثنا الذي نشرحه : «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنما مثل المسلم» .

وكذلك من هذا الباب ما رواه أبو داود في «سننه» ، والترمذي في «الشائل» عن أنس رضي الله عنه «أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يستحمله بعيراً من إبل الصدقة ، ليحمل عليه متاع بيته ، فقال له رسول الله ﷺ : إني حاملك على ولد الناقة ، فقال الرجل : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال له ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق؟»^(١) ، وأفهمه ﷺ من طريق هذه المداعبة اللطيفة أن الحمل ولو كان كبيراً ويحمل الأثقال الثقال ما يزال ولد الناقة .

تبيين الشبهات:

وكان ﷺ يعلم أصحابه جواب الشبهة قبل حدوثها ، خشية أن تنزل بهم ، وتقع في نفوسهم ، فتستقر تلك الشبهة ، وبعد ذلك يصعب نزعها ، وتفعل فعلها السيئ .

من ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ من خلق كذا؟ وكذا؟ فيقول : الله ، فيقول له : من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل : آمنت بالله ، وليستعذ بالله وليتته» .

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨) ، والترمذي في «السنن» (١٩٩١) ، وفي «الشائل» (٢٣٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه . قال الترمذي : «حسن صحيح غريب» . وصححه الضياء في «المختارة» (١٨٩٩) .

وفي تناول أيديهم ، وفي هذه الطريقة تيسير للفهم على المتعلم ، واستيفاء تام سريع لإيضاح ما يعلمه أو يحذر منه ، روى النسائي في «سننه» عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل جليس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شيء أصابك منه ريحه ، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير (أي كمثل الحداد ينفخ النار على الحديد) ، إن لم يصبك منه سواده أصابك من دخانه»^(١) ، وفي هذا التشبيه النبوي الكريم أبلغ ترغيب في الخير وأزجر تحذير عن الشر ، بأقرب أسلوب يدركه المخاطبون .

استخدام اليد :

وكان ﷺ يعدل في بعض الأحيان عن التعليم بضرب المثل إلى التمثيل بيديه ، ومن ذلك ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ، وشبك رسول الله ﷺ بين أصابعه .

وروى مسلم في حديث جابر الطويل ، في حجة رسول الله ﷺ قوله :

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦٧٣٣) عن أنس رضي الله عنه .

وهو في البخاري (٥٠٢٠ ، ٥٠٥٩ ، ٥٤٢٧ ، ٧٥٦٠) ، ومسلم (٧٩٧) عن أنس بن مالك ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

«لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحج وليجعلها عمرة ، فقام سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال : يا رسول الله ألعاننا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى ، وقال : دخلت العمرة في الحج ، دخلت العمرة في الحج ، لا بل للأبد» .

وروى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين ، وحرك بين السبابة والوسطى» .

وتارة كان رسول الله ﷺ يستعين فيما يعلمه بالإشارة ، روى الترمذي في «سننه» عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : «قلت : يا رسول الله حدثني بشيء أعصم به ، قال : قل : رب الله ثم استقم . قال : قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ قال : فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال : هذا»^(١) .

وروى الهيثمي في «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة ، فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ إلى الخاصرة ، ومنهم من يبلغ إلى عنقه ، ومنهم من يبلغ إلى وسط فيه» وأشار عقبة بيده فألجم فاه ، وقال : رأيت

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٠) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي . قال الترمذي : «حسن صحيح» . وصححه ابن حبان (٥٦٩٩) وغيره . وهو عند مسلم (٣٨) بمعناه عن سفيان الثقفي أيضًا .

رسول الله ﷺ يشير هكذا ، ومنهم من يغطيه عرقه ، وضرب بيده إشارة إلى ما فوق رأسه»^(١) .

وتارة كان رسول الله ﷺ يحمل بيده الكريمة الشيء الذي ينهى عنه ويرفعه إلى أنظار المخاطبين ، فيجمع لهم بين النهي والمشاهدة للمنهي عنه ، ليكون ذلك أزر للنفوس ، وأقطع في الدلالة على التحريم والمنع ، روى الإمام أبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم عن علي رضي الله عنه قال : «أخذ رسول الله ﷺ حريزاً بشماله ، وذهباً بيمينه ، ثم قال : هذان حرام على ذكور أمتي ، حل لإناثهم»^(٢) .

الرسم :

وتارة كان عليه الصلاة والسلام يعدل عن الإشارة والتمثيل إلى الرسم على الأرض والتراب ، ومن ذلك ما رواه الإمام أبو عبد الله المروزي في كتاب «السنة» ، عن جابر وابن عباس وما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن جابر أيضاً قال : «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فخط بيده في الأرض خطاً هكذا أمامه ، فقال : هذا سبيل الله ، وخط خطين عن يمينه وشماله ، وقال : هذه

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤ / ١٥٧) ، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٣٠٢) ، وابن حبان في «الصحيح» (٧٣٢٩) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به . قال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٣٣٥) : «وإسناد الطبراني جيد» . وهو عند مسلم (٢٨٦٤) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، بنحوه .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٥٧) ، والنسائي في «المجتبى» (٥١٤٤) ، وابن ماجه (٣٥٩٥) ، وأحمد (١ / ١١٥) ، وصححه ابن حبان (٩٦ ، ٥٤٣٤) ، ونقل الحافظ في «التلخيص» (١ / ٥٣) عن ابن المديني أنه قال : «حديث حسن ورجاله معروفون» ، وأعله ابن القطان بجهالة بعض رواته . انظر «نصب الراية» (٤ / ٢٢٢) .

سبل الشيطان ، ثم وضع يده في الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وروى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً ، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخط خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، ثم قال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي هو خارج عن الخط أمله ، وهذه الخطوط الصغار الأعراض - أي الحوادث والنوائب المفاجئة - فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه كلها أصابه الهرم» . فبين لهم رسول الله ﷺ بما رسمه أمامهم على الأرض كيف يحال بين الإنسان وآماله الواسعة بالأجل المبالغت ، أو العلل والأمراض ، أو الهرم المفني ، وكانت وسيلة إيضاح : الأرض والتراب .

التعليم العملي :

وكان ﷺ تارة يعدل عن الرسم إلى التعليم بالفعل والعمل أمام السائل ، روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : «أن رجلاً أتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف الطهور؟ يعني كيف الوضوء؟ فدعا رسول الله ﷺ بماء في إناء ، فغسل كفيه ثلاثاً حتى استوفى الوضوء ، ثم قال : فمن زاد على هذا أو نقص فقد تعدى وظلم» ^(١) .

(١) أخرجه أبو داود (١٣٥) ، والنسائي في «المجتبى» (١٤٠) ، وابن ماجه (٤٢٢) ، وأحمد في «المسند» (٢ / ١٨٠) من طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده . قال الحافظ في «الفتح» (١ / ٢٣٣) : «إسناده جيد ، لكن عدّه مسلم في جملة ما أنكر على عمرو بن شعيب ؛ لأن ظاهره ذم النقص من الثلاث» . وانظر «نصب الراية» (١ / ٢٩) .

وروى البخاري في «صحيحه»: «أن رسول الله ﷺ توضعاً أمام جمع من الناس، ثم قال: من توضعاً نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد صلى عليه الصلاة والسلام مرة بالناس إماماً وهو على المنبر؛ ليروا صلاته كلهم، وليتعلموها من أفعاله ومشاهدته.

روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ قام على المنبر، فاستقبل القبلة وكبر وقام، وقام الناس خلفه، فقرأ وركع، وركع الناس خلفه، ثم رفع رأسه ثم رجع القهقري، فسجد على الأرض، ثم عاد إلى المنبر، ثم قرأ وركع ثم رجع فرفع رأسه، ثم رجع القهقري حتى سجد على الأرض، فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتوا بي، ولتعلموا صلاتي».

القصص:

وكثيراً ما كان ﷺ يعلم أصحابه بطريق القصص والوقائع التي يحدثهم بها عن الأقوام الماضين، فيكون لها في نفوسهم أطيّب الأثر، وأفضل التوجيه، وتحظى منهم بأوفى النشاط والانتباه، ومن ذلك حديثه في الترغيب في الحب في الله، والمؤاخاة الخالصة للخير والدين.

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً - أي على طريقه - فلما أتى عليه قال - أي الملك - أين تريد؟ قال الرجل: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها، أي تزوره من أجلها وتتعهده من أجل تلك النعمة؟ قال: لا، غير

أني أحببته في الله تعالى ، قال : فإني رسول الله إليك ، بأن الله قد أحبك كما أحببته في الله .

ومن تعليمه ﷺ بطريق القصص والوقائع الماضية أيضاً حديثه في الخس على الرحمة بالحيوان والإحسان إليه ، والتحذير من أذاه والإساءة إليه . روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها ، فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث من شدة العطش ، قال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ بي ، فنزل الرجل البئر ، فملاً خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي على يده ، فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال عليه الصلاة والسلام : في كل كبد رطبة أجر» يعني في الإنسان إلى كل ذي روح أجر .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن ابن عمر وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : «عذبت امرأة في هرة سجتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، فلا هي أطعمتها ، ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» . أي حيواناتها الصغيرة .

القياس :

وكان ﷺ يقيس الأحكام ويعللها لأصحابه إذا اشتبهت عليهم مسالكها ، وغمض عليهم حكمها ، فيتضح لهم ما اشتبه أمره ، وخفي فهمه ، ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : «إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، (يعني ذهب أهل الغنى بالفضل والثواب) : يصلون كما

نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : أو ليس الله قد جعل لكم بكل تسيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وبكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة ، (أي في معاشر الرجل وزوجه الحلال صدقة) ، قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ قالوا : بلى ، قال : فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر .

وروى البخاري ومسلم في «صحيحهما» : «أن امرأة من خثعم جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أبي أدركته فريضة الحج شيخاً لا يستمسك على الراحلة ، أفأحج عنه؟ فقال لها رسول الله ﷺ : أرأيت - أي أخبريني - لو كان على أبيك دين أفكنت قاضية له؟ قالت : بلى يا رسول الله . فقال لها رسول الله ﷺ : فدين الله أحق بالقضاء .

وتارة كان رسول الله ﷺ يشعر السائل بعله الحكم إذا كان الحكم خفياً عليه ، ومن ذلك ما رواه أصحاب السنن الأربعة والحاكم في «المستدرک» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : «سمعت رسول الله ﷺ يسأل عن شراء التمر بالرطب ، فقال رسول الله ﷺ لمن حوله : أينقص الرطب إذا يبس؟ قالوا : نعم . فنهى عن ذلك»^(١) . وبديهي كل البداهة أن النبي ﷺ كان يعلم أن الرطب ينقص إذا يبس ، وهو أمر عادي في جزيرة العرب ،

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٥٩) ، والترمذي (١٢٢٥) ، والنسائي في «الكبرى» (٦٠٣٤) ، وابن ماجه (٢٢٦٤) ، وأحمد في «المسند» (١ / ١٧٥) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، به . قال الترمذي : «حسن صحيح» ، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٢ / ٣٨) وغيره .

لا يخفى على أقل الناس معرفة ، ولكنه ﷺ أراد تنبيه السائل والسامع إلى أن علة النهي عن بيع الرطب بالتمر نقصه عند يسه .

اقتناص المناسبات للتعليم :

وكان ﷺ كثيراً ما ينتهز المناسبة المشاكلة لما يريد تعليمه ، فيربط بين المناسبة القائمة والعلم الذي يريد نشره وإذاعته ، فيكون من ذلك للمخاطبين أبين الوضوح ، وأفضل الفهم ، وأقوى المعرفة بما يسمعون ويعلمون ، ومن ذلك ما روى مسلم عن جابر رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ مر بالسوق من بعض العالية والناس كنفته ، أي على جنبه ، فمر بجدي ميت أسك - أي : صغير الأذنين - فتناول النبي ﷺ ذلك الجدي الميت الأسك ، فأخذ بأذنه ، وقال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ يعني بلا شيء ! قالوا : والله لو كان حيًا كان هذا السكك عينا فيه ؛ لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ ! فقال لهم رسول الله ﷺ : فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم .

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «قدم على رسول الله ﷺ سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها ، إذ وجدت صبيًا في السبي ، أخذته فألزقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال لهم رسول الله ﷺ : أرايتم هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله ، وهي قادرة على أن لا تطرحه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها .

وروى البخاري عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : «كنا جلوسًا ليلة عند رسول الله ، إذ نظر ﷺ إلى القمر ليلة البدر ، فقال : إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، إن استطعتم

ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا ،
وقرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : ٣٩] .

تعليم الأطفال :

وكان ﷺ له عناية خاصة فائقة بتعليم الأطفال بالأسلوب الذي يلاقي
طفولتهم ومداركهم ، وقد جاء عنه في هذا الصدد توجيه قولي وعملي ، فمن
أقواله ﷺ في رعاية مدارك الأطفال : «من كان له صبي فليتصاب له» .

ومن توجيهاته العملية ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن
الحارث قال : «كان ﷺ يصف عبد الله بن عباس وأخويه عبيداً وكثيراً ،
ويقول لهم : من سبق إلي فله كذا ، فيستبقون إلى رسول الله ﷺ فيقعون
على صدره ، فيلتزمهم ويقبلهم»^(١) .

فلقد وجه ﷺ الأطفال الصغار وهو يداعبهم ويلاعبهم ، إلى أن الحياة
جد وسباق ، ونظم لهم في هوههم درساً بليغاً ، يتعلمون منه ثمار الجهاد
والسبق في ميادين الحياة ، وهم لا يشعرون ، ولا يرون رسول الله ﷺ إلا
أنه يداعبهم ويضاحكهم .

هذه نماذج يسيرة من أسلوب الرسول المعلم ﷺ وهي مما رأيتكم وسمعتكم
سموًا وعلوًا وفذاذة ، ولا عجب فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي تولى
تربية عبده محمد ﷺ وولاه تربية الناس بالمنهاج التربوي القويم ، الذي
لن تجد البشرية طريقًا غيره يربيهها ، ويصل بها إلى أعلى مدارك الرقي
الإنساني المقدر لها .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ٢١٤) عن عبد الله بن الحارث ، به . وحسنه الهيثمي في
«المجمع» (٩ / ١٧) ، وعبد الله بن الحارث من كبار التابعين . قال الحافظ في «تهذيب
التهذيب» (٨ / ٣٧٦) : «وهو مرسل جيد» .

ولا ننسى أن الغاية من تلوين هذه الأساليب النبوية الكريمة تعليمًا وإرشادًا، وأمرًا ونهيًا، وتحبيًا وتنفيرًا، إنما تلك الغاية هي صنع الإنسان السوي، على المثال الذي يحبه الله ويرضاه لعباده، والأنبياء على الحقيقة صلوات الله عليهم هم الموجهون من بني آدم، ونبينا محمد ﷺ هو أكمل أولئك الأنبياء المربين، وأعظمهم أثرًا في التاريخ البشري، وهذه التربية التي جاء بها محمد ﷺ ليست قاصرة على وسائل التدريس والتعليم، وإنما هي أعلى من ذلك وأكثر مقصدًا، إذ هي تخط الغايات كما تخط الوسائل، بل هي تحمل الصياغة التامة المثلى للطبيعة البشرية، كيف لا وهي صياغة الله للإنسان الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

إن المسلمين اليوم في غفلة بالغة عما لديهم من أصول التربية وحقائقها ووسائلها، وهم في الوقت الذي يرون أنفسهم فيه فقراء من هذه الأصول والحقائق التربوية، فيتجهون إلى ما في أيدي غيرهم، ممن لا يتلاقون معهم في عقيدة أو خلق أو مفهوم للحياة، هم في هذا الوقت نفسه أغنى في شئون التربية من كل أمم الأرض قاطبة، وذلك بما لديهم من ميراث النبوة المحمدية، الحافل بالتربية المثلى وطرقها، التي أخرجت من أمثال أبي بكر وعمر وخالد وأبي حنيفة والشافعي ومالك وطارق بن زياد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن تيمية وعمر المختار، وغيرهم ممن أتوا للإنسانية وميادين العلم بالخير الذي لا ينفد.

والبلاد الإسلامية اليوم مدعوة لاستخراج ما تملكه من كنوز تربوية، تتضمنها سيرة الرسول الأكرم ﷺ وستته المطهرة، بل تتضمنها هذا الإسلام العظيم، بما فيه من قرآن وسنة وسيرة وتاريخ مجيد، إنها مدعوة

لاستخراج هذه الكنوز؛ ليكون للعاملين في حقل التربية أصول تهديهم لإنشاء الإنسان المنتظر، الذي هو أسمى مما جاء به الشرق والغرب، وهو الفرد المسلم السوي الكامل، الذي كان له من سيرة المعلم الأول خير نموذج بل نقول: ما بعث محمد ﷺ ولا أقيمت الشريعة، ولا وضعت الأحكام إلا لإخراج هذا المسلم المؤمن السوي الحر الكريم، الذي تتمثل فيه العبودية لله حقًا، وإخاء الإنسان للإنسان ينبع من قلبه ويربطه بربه ويصدق فيه قول الله جل جلاله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فإنه لا عزة لنا إلا بالإسلام، ولا نصرة لنا إلا بالإسلام، ولا كلمة لنا إلا بالإسلام، فلقد قال أمير المؤمنين المحدث الملهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قولته المشهورة: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمن ابتغى العزة بغيره ذل».

ويجب أن نعلم أن إنقاذ فلسطين وغسل الذل عنها وعن المسلمين جميعًا شرف عظيم لمن سيكون على يديه، وهذا الشرف العظيم لن يكتب إلا لمن آمن بالله أولاً؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وحكم في كيانه ووجوده دين الله ثانيًا، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وأخلص لله النية، وأعد ما استطاعه من قوة، ونادى بعد ذلك: لبيك لبيك يا فلسطين، لبيك لبيك يا مسرى رسول الله ﷺ، لبيك لبيك يا مهد عيسى ابن مريم، لبيك يا أيها المسجد الأقصى، لبيك يا مصلى عمر بن الخطاب، لبيك يا محراب نور الدين الشهيد، لبيك لبيك يا سور صلاح الدين، لبيك لبيك يا فلسطين للخلاص من راية الذل إسرائيل.

ولن يتحقق هذا أيضًا إلا بإنشاء شباب عارف بالإسلام، يذوقه ويطعمه، فيرى الموت في سبيله أطيب من الحياة الهنية الرافهة، وأن شجرة الإيمان وما تزال - والحمد لله - لا يسقط ورقها، ولكنها تحتاج إلى سقي وري؛ فإذا هي خضرة نضرة، ذات ثمار عجيبة مدهشة، والإسلام لا يزال قائمًا في نفوس المسلمين رجالهم ونسائهم، شيوخهم وشبابهم، فما يحتاج إلا إلى صقل صحيح حتى يظهر لمعانه، وتذهب أدرانته، وتبدو عزمات الرجولة في الشباب والفتيات المؤمنات على أقوى ما تكون، وتتبدد أخلاق الميوعة والانحراف والذوبان في غيرنا.

هذا لن يتحقق أيضًا إلا إذا خطط له تخطيط صادق صحيح، وتبارت في تميته وتسديده العزائم المؤمنة، والمسئوليات الكبيرة، فعندها يرجى أن تعود فلسطين على أيدي كتائب الإيمان الذي قاد مثلها نور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، تسيل تلك الكتائب إلى بطاح فلسطين من المشرق والمغرب، ويكون كل من فيها يقولون قولة ذلك الرجل الشيخ العجوز الذي رآه نور الدين الشهيد وهو يستعرض الصفوف، رآه وهو يحمل سيفه بيده، ويشد عليه شدًا يريد القتال في سبيل الله، فقال له نور الدين: (يا أيها الشيخ العجوز إن لك من شيخوختك وكبر سنك ما يعذرك عند الله، وفي سواعد الشباب ما يغني غناءك)، فقال له الرجل العجوز: إليك عني يا نور الدين، إليك عني يا نور الدين، اشترى الله وبعنا، اشترى الله وبعنا^(١).

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَرْبَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم دخل في غمرات القتال ، وعطر تربة بيت المقدس بدمه الزكي الطاهر ، وعند هذا ، وبمثل هذا : يرجى أن تعود فلسطين ، ويعود العز للمسلمين ، ويومئذ يفرح المسلمون بنصر الله .

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق والتقوى .

اللهم ردنا إلى دينك ردًا صادقًا جميلًا .

اللهم رد علينا بيت المقدس .

اللهم رد لنا عزتنا وكرامتنا .

وردنا إلى إسلامنا وديننا .

واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع العليم ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

(١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الصفات : ١٨٠ - ١٨٢] .

المحاضرة الثانية :

حياة الشهداء

فضل الجهاد :

روي في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة بن صخر الدوسي رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيماناً به ، وتصديقاً برسله ، أن يرجعه بما نال من أجر وغنيمة ، أو يدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ووددت لو أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل» .

هذا الحديث الشريف قوي الدلالة والحجة على فضل الجهاد والتضحية في سبيل المبادئ المقدسة ، والمواطن المهددة ، وأبى ﷺ إلا أن يبرز هذا الفضل الذي تكفل به المولى سبحانه وتعالى في صورتين :

في قوله ﷺ : «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية» ، وفي تمنيه ﷺ تكرار الفضل في سبيل الله ، فالجهاد حياة سامية وعزة باقية ، وحديث لا ينسى ولا يمحو .

وأخرج الإمام مسلم في «جامعه الصحيح» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « يا أبا سعيد من رضي بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالإسلام ديناً ، وجبت له الجنة ، فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها عليّ يا رسول الله ، ففعل ذلك ﷺ ثم قال : وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، قلت : وما هي يا رسول الله؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله» ، هكذا كررها رسول الله ثلاثاً ، وقد كان من عادته ﷺ أنه إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم .

وإن كشف هذا الحديث شيئاً فإنما يكشف أن قيمة المسلم تكمن في إيمانه واستعداده ، وفي نشاطه واجتهاده ، فالرضا بربوبية الله وبمحمد ﷺ معناه الإيمان بوجود الله ، والتصديق برسالة محمد ﷺ ، والرضا بالإسلام ديناً معناه العمل بما جاء به محمد ﷺ من التوجيه والتشريع ، وآخر الحديث الشريف يعلن أن الجهاد إعلاء لكلمة الله ، وأن من أعلى كلمة الله في الدنيا أعلى الله مقامه في الآخرة بما شاء من عليا المراتب والدرجات .

وأخرج الإمام الترمذي في «جامعه» عن أبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قال : قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر : الإسلام ، وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد»^(١) .

وهذا الحديث الشريف يؤكد أن الإسلام في حاجة إلى الجهاد عند وجوده وظهوره ، وعند نهوضه ونفوذه ، فهو الذي يرفع أوليائه ، ويدفع أعداءه ، وينفذ شرائعه ، ويؤمن أوطانه .

وأخرج الإمام أبو داود في «سننه» عن أبي هريرة رضي الله عنه : «أن عمرو بن أقيش رضي الله عنه كان له ربا في الجاهلية ، فكره أن يسلم قبل أن يأخذه ، فلما كان يوم أحد جاء وقال : أين بنو عمي؟ قالوا : بأحد ، قال : أين فلان؟ قالوا : بأحد ، قال : أين فلان؟ قالوا : بأحد ، فلبس لأمته ، وركب فرسه ، ثم توجه قبلهم ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ، قال : إني آمنت ، فقاتل حتى جرح وحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال لأخته : سليه أكان ذلك

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، والنسائي في «الكبرى»

(١١٣٩٤) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٣١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً ، به . قال

الترمذي : «حسن صحيح» ، وصححه ابن حبان (٢١٤) وغيره .

حمية وغضباً لقومك أم كان ذلك غضباً لله ﷻ؟ قال: بل غضباً لله ﷻ ورسوله ﷺ، فمات فدخل الجنة وما صلى صلاة قط^(١).

وعند ابن إسحاق: «أنه ذكر للنبي ﷺ، فقال: إنه من أهل الجنة»، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط، فسكت الناس، فيقول أبو هريرة: إنه أخ بني عبد الأشهل أي عمرو بن أقيش رضي الله عنه^(٢).

وأصل هذا قول الله ﷻ في كتابه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وأخرج الإمام مسلم عن سهل بن حنيف البصري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من سأل الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون.

أسباب النجاح:

وبعد، فإن حياة الإنسان معركة ذات ألوان، وحركة تختلف باختلاف ظروف الزمان، وإن النجاح في هذه المعركة منوط بقيام أصليين ساميين، ووجود عنصرين أساسيين، وهذان الأصلان الساميان هما:

العقيدة الراسخة . والعمل المرتب المحبوك .

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٣٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً، به. وصححه الحاكم في «المستدرک» (١١٣ / ٢). وقال المنذري: «ذكر الدارقطني أن حماد بن سلمة تفرد به». انظر «عون المعبود» (٧ / ١٥٢).

(٢) ذكره الحافظ في «الإصابة» (٤ / ٦٠٨) عن ابن إسحاق قال: حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن أبي سفيان مولى بن أبي أحمد، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه. وفيه تصريح ابن إسحاق بالتحديث.

وهذان العنصران الأساسيان هما اللذان يسيران دواليب المعركة، ويرسمان خطوط آفاق المعجزة، ويحققان النصر في نهاية المطاف، فإذا توفرت العقيدة ورسخت وتهيأت الفكرة، وثبتت تيسر لأي مجتمع من المجتمعات أن يجند طاقته للعمل، وأن ينجز كل ما يحلم به من الأمل، فيصل إلى الغاية والهدف عن طريق إيمانه الصحيح، ونشاطه الصالح، من دون أن تصده العراقيل والعقبات، ولا أن تفت في عضده المصاعب والأزمات، فالعقيدة بالعمل والعمل بالعقيدة، ومعنى ذلك أن الحياة لا تكون بمعزل عن العقيدة أبداً، وأن أهداف الحياة لا تتحقق إلا باجتماع هذين الأصلين، وتضامن هذين المبدأين.

ولذلك نرى الكتاب العزيز الذي أنزله الله على عبده ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله في ليلة أفضل، وفي ملاء أعلى، والذي شرف به هذه الأمة وجعلها تعتصم بهداه، وتسير على خطاه، نرى الكتاب العزيز يقرن بين الإيمان والعمل في مواده الخالدة، ويشيد بذكرهما في آياته المحكمة، فالسمو الروحي، والجمال الخلقي، والنهوض الفكري والمادي، والمواهب والاستعدادات والخصائص والملكات، كل ذلك تصيغه العقيدة الحية الصادقة، وينتجه العمل الصالح المتناسك.

أما الضعيف في عقيدته، والمتخاذل في عزيمته، وهو الذي يتوقع الهزيمة قبل النصر، ويتحدث بالخسارة دون الربح، فإنه لا يحقق معجزة، ولا يكسب معركة، ولا ينجح في قيادته ولا في سياسته؛ لأنه لا تتوفر فيه عناصر القوة، ولا تتجمع فيه آيات النجاح.

فالإيمان النافذ واليقين الصادق هما الأداة المحركة والقوة الدافعة إلى إقامة مجتمع فاضل ناهض، أي إقامة حياة الطهر والعفاف، وحياة العدل

والإنصاف ، و حياة اليقظة والاستعداد ، و حياة الجهاد والاجتهاد ، و حياة التواطئ السليم والتضامن المستقيم ، فالعقيدة لا تتجزأ ولا تتضاعف ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥] .

والقوة الروحية والمعنوية هي سناد القوة المادية ، والإسلام يعتمد هاتين القوتين في حياته ، ويتحرج أن يكون ظالماً ، ويتجنب أن يكون مظلوماً ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] ، أي لا تظلمون الناس ولا تقبلوا الظلم المقصود من الناس ، بل ادفعوه وانصروا المظلوم ، وأقنعوا الظالم ، كما قال ﷺ : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ، ونصر الظالم معناه كفه عن ظلمه ، ونصر المظلوم القيام بجانبه .

وإنه ليحز في النفوس ما ألم بالإسلام والمسلمين من النكبات ومن النائبات ، وذلك مثل النكبة النفسية ، والحرب المعتدية التي بيتتها الصهيونية والصليبية ، والتي تركت أثراً سيئاً ومنكراً في النفوس .

ولو أن قومنا كانوا على أقوى سبب ، وأبلغ حجة ، وأهدئ طريق ، ما كان أمرهم غامضاً ومتلجلجاً ومضطرباً .

ولو أنهم كانوا يزنون الأمور بميزانها ، وينظرون إلى الأشياء من قبل في مستقبلها .

ولو أنهم كانوا يستشيرون القرآن في حياتهم ، وفيما ينزل من الأحداث بجانبهم .

ولو أنهم كانوا يؤمنون بأخوة الإيمان والإسلام، ويؤمنون بضرورة التآزر والتناصر، ما ضاع لهم شبر من الأرض، ولا طاحت فلسطين المقدسة فريسة للغدر والمكر، ولما كان الاستعمار والغصب طريقًا للملك، وحجة للتصرف، ولكننا أضعنا خطوط الأخوة، وفرطنا في الأسس وفي الروابط التي تقوم عليها نهضة الإسلام وهدايته.

وعسى أن يستفيد القوم من هذه الحملة القاسية الضارية، ومن هذا الحدث المؤلم، والتصرف المجرم، عسى أن يستفيد الناس من وراء ذلك دروسًا تأديبية وتوجيهية وتنظيمية، وأما استرداد الشرف المسكوب الذي انتهكه الشذاذ، والتراث المغصوب الذي انتزعه النزاع فهو شيء لازم للمسلمين جميعًا، ودين يتعلق بدمهم وأعناقهم، وبرهان يدل على مدى قوة إيمانهم وصحة إسلامهم، إلا أن ذلك ليتقاضى منا أن ننهض بالدين الحنيف ليوحدنا، وننصر الله لينصرنا، ونصر الله معناه الحق في توحيده وفي عبادته، وفي إقامة العدل، وتحريم الظلم بين عباده، وفي قيادتهم وفي طريق سوي إلى نعمة الدنيا وسعادة الآخرة، ثم نقرع النبع بالنبع فتتلاقى لأحكام السياسة والدعاية، ونتداعى بقوة المال، وبقوة السلاح، وبصفاء القلوب ليعاودنا نصر الله الذي عهدناه، فنأخذ الثأر، ونغسل العار، ونزيل الغبار: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الوحدة الإسلامية:

وإن أول سلاح يجب أن نتضيه في وجه أعداء السلام هو سلاح الاتحاد والنضال، ذلك السلاح الذي لا يفل، ولا يثلم، ولا يقهر، ولا يظلم،

وبكل أسف نرى هذا السلاح عند العدو الأزرق ، وعند الخصم الألد ، ولعله سر النصر في المعركة الأولى ، ذلك أنه ما من يهودي في العالم إلا وهو يذكر إسرائيل ، ويخدم إسرائيل بنفسه وجسمه وبماله ، من دون أن يفرق بين اليهودية والصهيونية ؛ لأن مذهب الصهيونية قد أقيم بإحكام على أساس اليهودية ، ونحن يجب علينا أن نكسب هذا السلاح ، وأن نوفره وأن ندخره ، وأن نحافظ عليه في كل وقت وفي كل حين ، كما يجب علينا أن ننظر إلى القضايا الإسلامية في كل مكان بمنظار السياسة المتآخية لا بمنظار السياسة المتعادية .

كما يجب علينا أن نعيد النظر في طريق التربية ، وفي إصلاح العقلية ، وفي تنظيم القوات الدفاعية ، لنعود قادرين على تصريف سياستنا ، وتوضيح مشاكلنا ، وتأمين مكاسبنا ، ومواجهة أحداثنا ، وإذا ما أقمنا الدين ونصرنا الله فقد انتصرنا على خصومنا : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

وإذا ما وفرنا كل ذلك فقد وفرنا وسائل الدفاع عن حقوقنا ، ولقد تعلمنا من منطق الشريعة الإسلامية أن الله لا يغير عوائده على عباده المؤمنين حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يمل من إسباغ النعم عليهم حتى يملوا ، ولا يمنحهم نصره حتى ينصروه : ﴿ يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ دَارِ الْحُكْمِ وَيُؤْتِيَهُمُ الْغَنَاءَ وَالْجَلَالَ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

ولقد كان لنا أسوة حسنة في رسول الله ﷺ ، وفي الصحابة الذين استجابوا لله ولرسوله ، والذين استطاعوا بفضل هذه الاستجابة ، وبفضل إيمانهم الصادق ، وجهادهم الناطق أن يملئوا عيون أعدائهم ، وأن يمهّدوا

طريق الإسلام ويعبدوه في أجل قريب، الأمر الذي جعل الاجتماعيين والفلاسفة المفكرين يحارون في هذا الأمر، ويذهبون مذاهب شتى في تحليله وتعليقه.

وكما استطاعوا بفضل اعتقادهم واجتهادهم أن يقفزوا قفزة رجل واحد، استطاعوا كذلك أن يؤمنوا هذه العقيدة، وأن يحيطوها بهالة من التقديس، وسياج من الاحترام، وأن يؤمنوا مواطنها ومكاسبها، وأن يحملوا غيرهم على احتمال كرامتهم والاعتراف بضلاعتهم، وظلوا يمارسون الحياة بإيمان واتحاد، يحملون راية العدل والجهاد، فلا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، حتى انتشرت دولة الإسلام، وأوغلت في الشرق والغرب، وانتصرت لغتها وحضارتها، واستظلت الأمم بظلها العادل، واستفادت الأمم من نظامها الفاضل، ذلك النظام الذي يؤمن الناس على عقائدهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم، والذي يذهب بهم في طريق مستو مستقيم إلى سعادة البلد، وإلى سعادة الأبد.

وكل ما ثبت لهم من عز ومجد ومن قوة ونفوذ فإنما كان نتيجة لعقيدة الاتحاد والجهاد، أما الاتحاد فهو أجدى وسيلة، وأكبر وسيلة، وأكبر قوة الانتصار في معركة السعادة وفي معركة الشهادة.

وأما الجهاد فهو الذروة والسنام، وهو القوة الطبيعية لدحر اللئام، ولقهر أعداء الإسلام، وفي هذين العنصرين الساميين ينطق كتاب الله تعالى فيقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُ اللَّهُ يَكْتُمُ الْغُيُوبَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ

الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ أَفْوَزُ الْعَظِيمِ ﴿[التوبة: ١١١]، وهذه الآية ومثلها آية سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] هذه الآية وأختها تجعل المؤمن بين أمرين لا ثالث لهما إما أن يعيش سعيدًا، وإما أن يموت شهيدًا.

والمؤمن الصادق في محبة الله وفي محبة رسول الله ﷺ، لا بد وأن يقيم البيعة على هذه المحبة بمتابعة الأقوال والأفعال، وبمطابقة الأخلاق والأحوال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، والجهاد في سبيل الله أكثر ما ينبئ عن هذه المحبة التي يكون شرطها المتابعة والمطابقة.

جهاد النفس والأعداء:

والجهاد في سبيل الله له جانبان: جانب الأهواء، وجانب الأعداء، وواجب أن يجاهد المرء في هذين المبدئين جميعًا، وذلك ما يراد ببيع الأنفس والأموال المشار إليه بهذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، وكأن الحكمة في اشتراء الله تعالى ذلك مع أن الكل خلقه وملكه هو الإشارة أولاً إلى ضرورة تسليم العبد نفسه لربه، إذ لا يتم البيع إلا بتسليم المبيع لربه، وأعلاه تأكيد هذا الوعد ثانيًا في الموضوع المخصوص الذي هو الجهاد بالنفس والمال، حتى يكون ذلك حقًا لازمًا لا فكاك منه، ولذلك أفرغ

هذا الوعد في صورة البيع والشراء ، والله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء ، ولكن له أن يلتزم لعباده بما شاء باختياره كما التزم لهم بالرزق في قوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] ، وكما التزم لعباده المؤمنين بالنصر في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] ، وإنما أثبت سبحانه وتعالى الشراء لنفسه صراحة دون أن يثبت مثل ذلك للمؤمنين ؛ لأن اشتراؤه تعالى من المؤمنين البائعين أموالهم وأنفسهم فيه غاية الشرف ، وكمال الرضا لهم ، ذلك أن نفاسة السلعة تعرف بأحد أمرين :

إما بعظم المشتري ؛ لأن عظيم القدر لا يتولى في العادة شراء الأشياء الخسيسة ، وإما بعظم الثمن ؛ لأن الشيء الحقير لا يدفع فيه الشيء الخطير ، وأن في المؤمنين الكمال ؛ لأن مثل هذا البيع لا يتعاطاه ضعفاء النفوس ولا فقراء الإيمان ، وقوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي مَحَلِّهِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِكُمْ مِنْ فَتْرَةٍ يَخْرُجُ فِيهَا فَاكِلًا فَارْتَحِلًا يَمْشِي فِي الْأَسْجِدِ يَأْتِي السُّبْحَانَ مِنْ حُرُومِ الْبَيْتِ يَرْجُو تَوَلُّعًا بِمَقْعِدِ اللَّهِ يَتَكَلَّمُ بِمَا كُذِّبَ بِهِ إِلَّا نَذْرًا لِمَنْ يَخْلَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُخَلِّفُ فِيهِ تَتَلُّفًا ﴾ [البقرة: ١٨٨] ، واقع في محله ومركزه ، إلا أنه عندما يسمعه السامع المتشوق من قبل إلى معرفة الثمن ، يتمكن في نفسه فضل تمكن ، ويرسخ فيه خير رسوخ ، والمراد أن لهم الجنة بما كسبوا وبما عملوا كما قال الله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] .

ولما نزلت آية الشراء هذه كبر رسول الله ﷺ ، وكبر المسلمون ، وارتج المسجد ، فسمع ذلك بعض الأنصار ، فجاء وهو يجرد رداءه ، فقال : نزلت هذه الآية يا رسول الله ! فقال : نعم ، فقال الأنصاري : بيع رابح ، لا نقيل ولا نستقيل^(١) .

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣٥/١١) عن محمد بن كعب القرظي وغيره . وقال ابن حجر في «الفتح» (٤/٦) : «مرسل» .

ونقول بالإجمال لا بالتفصيل ، لما أخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم كأنهم قالوا : ربنا ما الثمن في هذا البيع؟ قال : ﴿بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة : ١١١] .

كأنهم قالوا : ربنا كيف نسلم ما وقع عليه العقد؟ قال : ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة : ١١١] ، وإذا فعلتم ذلك فقد سلمتم المبيع ، ووفيتم ما لزمكم في هذه الصفقة ، ووجبت لكم الجنة عوضاً عن عملكم .

كأنهم قالوا : ربنا قد قلت في كتابك العزيز : ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وأمرت بكتابة الوثائق بين المتبايعين ، فمن أشهدت في هذا البيع ، قال : ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة : ١١١] ، وأنتم تتوثقون بوثيقة واحدة وهذه ثلاث وثائق ، وأنتم تتوثقون بشاهدين ، وهذه ثلاث أمم : أمة التوراة ، وأمة الإنجيل ، وأمة القرآن .

كأنهم قالوا : ربنا أنت الذي تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء ، قال : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ١١١] .

ولما كان من البيوع ما يعقبه الحسرة والندامة لما يقع فيه من النقص والغبن والخسارة التفت سبحانه إلى خطابهم وبشرهم بالفوز العظيم في بيعهم : ﴿فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١] .

ولقد نطق الكتاب العزيز في سورة النساء فقال : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٥] .

وهكذا كان لرسول الله ﷺ ولأصحابه الأبرار مواقف رائعة وبطولات نادرة، وبفضل العقيدة المتمكنة في قلوبهم، والإيمان المنبعث من أعماقهم، والعمل الدائب المستمر في جهادهم، لم تمض عليهم سنوات معدودة حتى حكموا الدنيا من مشرقها لغربها، وخضعت لهم البلاد بأسرها، وارتفعت راية الإسلام ترفرف بالإخاء والعدل، وتشرق بالنور والفضل.

أسباب انتصار المسلمين:

وهكذا كان المسلمون من قبل، وإنهم في آخرهم لا يصلحون إلا بما صلح به أولهم، فلا تبتسم الدنيا في وجوههم، ولا تفسح الحياة صدرها إليهم إلا إذا استعادوا دينهم، واستشاروا كتابهم، وجاهدوا شهواتهم، وجندوا طاقاتهم للوصول عن طريق الإسلام الصحيح إلى المرتبة العالية، والمكانة السامية، ورحم الله من استمسك بعروة الدين، واستعصم بحبل الله المتين، وأدرك أن في ذلك القوة والغلبة، والعزة والمنعة، والنهضة والبركة، فإن الدنيا لا تقوم بدون أخلاق ولا بدون استقامة، وأن أهل الإيمان والتقوى يمنحهم الله محبته، ويوليهم فضله وعنايته، وينصرهم على أعدائه، ويكتب محبته في قلوب عباده، كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

والإيمان الذي يصلح القلب ويقومه ويجمعه على الله وينوره هذا الإيمان إكسيروه وكيمياؤه هو محبة الله تعالى من دون تسوية ولا اشتراك، فأصل كل دين لله وأصل كل إيمان بالله هو محبة الله وإيثاره على ما سواه، ومن شأن محبة العبد لله أن تثمر محبة الله للعبد، وإذا أحب الله العبد اعتنى

به وهدهداه ، وصحبته وقواه في كل حركة من حركاته ، وفي كل وظيفة من وظائفه ، وفي الحديث القدسي : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني ل أعطينه ولئن استعاذني لأعيزنه»^(١) .

وواجب أن تكون محبة الله أكثر من محبة الإنسان لنفسه ولآبائه ولأبنائه ، وكذلك محبة النبي ﷺ ؛ لأنها من محبة الله تعالى ، وفي الحديث الشريف : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»^(٢) ، وكل محبوب لا يجب من أجله فمحبتة عناء وتعبد ، وكل عمل لا يراد من أجله فهو ضائع وباطل .

ومن المتحابين في الله طلاب المعرفة ، والتقنية في المدارس ، وعشاق الصلاة ، والموعظة في المساجد ، والمتجمعون على عهد شيخ التربية لمعالجة الأمراض النفسية والقلبية ، والمرابطون في سبيل حيطة الأمة والدفاع عن هيبته وكرامتها ، وهذه الكتل والطوائف يرجع أمرها إلى تحقيق أمر الله في التعليم والتربية ، والإعداد والاستعداد .

ومن محبة الله تعالى محبة المؤمنين بعضهم لبعض ، كما قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» يعني ويكره لأخيه ما يكره لنفسه ، وهذه المحبة هي من حسن الإيمان وكماله ، يجب اجتماعهم ويكره

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .

(٢) أخرجه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .

انقسامهم، يحب تعاونهم ويكره تقاطعهم، يحب نهوضهم وتقدمهم، ويكره جمودهم وتخلفهم، يحب عزتهم وقوتهم، ويكره ضعفهم وذلتهم.

وهكذا ينبغي أن نخيم على المجتمع الإسلامي في عمومه وخصوصه هذا الجو، جو التأخي والتعاون، وجو التصافي والتناصر، ولذلك فإن كل مؤمن صحيح، وكل مسلم سليم يتمنى ويرجى أن يقوم اتحاد إسلامي وجامعة إسلامية تحفظ كيان المسلمين وتجمع شتاتهم، وتضمن مصالحهم وتقرر مصيرهم، إلا أنه ينبغي فيما يظهر أن يسبق ذلك حركة ثقافية قوية ليقل الجهل، وحركة اقتصادية مهمة ليخف الفقر، ذلك أن التقدم الاجتماعي مرتبط كل الارتباط بالتقدم الثقافي، كما أن التقدم المادي والاقتصادي متوقف على التقدم العلمي والتقني، فالقوة الاجتماعية تعالج القوة الاقتصادية، والقوة الاقتصادية تهيب الوحدة السياسية، ويجب أن تعتمد الحركة الثقافية على الأخلاق الإسلامية والسيرة النبوية، إذ ذلك خير ما يربي أفكار المسلمين على الثقة بالنفس، وطاعة أمر الله، وعلى إحكام الصف وتوحيد الاتجاه، وعلى الاستماتة والتضحية في سبيل الله، كما ينبغي أن تشمل الحركة الاقتصادية إنشاء بنك إسلامي يتولى تمويل المشاريع الإنشائية، وإقامة سوق مشتركة تقبل مختلف البضائع الإسلامية، حتى يستفيد من خبرة البعض ومن طرق اقتصاده وأسلوب تقنيته، وذلك على غرار ما يسمى بالبنك الدولي والسوق الأوروبية، وهذه الجولة لا غنى عنها إذا كانت الرغبة صادقة في إقامة وحدة إسلامية، وفي تكوين قوة مهيبة، يحسب حسابها، وينتظر غيابها.

وعندما تنتهى الظروف لتحقيق هذين المجالين فإن الوحدة تقوم بإذن الله وتسير إلى أهدافها السامية ، وما ذلك على الهمم المعقودة والعزائم المشحودة ببعيد ولا بمتعذر .

مظاهر حب الله للإنسان :

ونرجع فنقول : جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١) ، وفي رواية أخرى : «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فيقول : إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(٢) .

وجاء في «صحيح الإمام مسلم» عن سهيل بن أبي صالح المدني أنه قال : كنا بعرفة فمر علينا عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم ، فقام الناس ينظرون إليه ، فقلت لأبي : يا أبتى إني رأيت الله يحب عمر بن عبد العزيز ، قال : وما ذاك؟ قال : لما له من الحب في قلوب الناس ، فقال : إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ ، وذكر الحديث السابق .

وقد أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» ، وزاد في آخره : فذلك قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .

قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» .

قال الحافظ ابن كثير : الشهداء على أقسام : منهم من تسرح روحه في الجنة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة .

والصحيح في حديث حياة الشهداء ما يروى عن النبي ﷺ : «أن أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون» .

وقد أخرج الإمام أحمد في «مسنده» حديثاً فيه بشارة لكل مؤمن ، وأن روحه تسرح في الجنة ، وترى ما فيها من النضرة والنعيم ، وتشاهد ما أعد الله لها من الخير والفضل ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من أصحاب المذاهب المتبعة ، فقد رواه الإمام أحمد رحمه الله عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله ، عن إمام الأئمة مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله ، عن محمد بن مسلم الزهري رحمه الله عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك رحمه الله عن أبيه كعب بن مالك الأنصاري رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجع إلى جسدها يوم البعث» . وهذا الحديث يثبت أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء فهي كما سبق في حواصل طير خضر .

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «طير الجنة كأمثال البخت ، ترعى في شجر الجنة ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن هذه الطير لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : آكلها أنعم منها . قالها ثلاث مرات ، ثم قال النبي ﷺ : وإني لأرجو أن تكون من

يأكلها»^(١). والخطاب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم إن سورة آل عمران تنهى عن ظن موت الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وآية البقرة تحذر من تسمية الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

فرفع الله بذلك مقام المجاهد في سبيل الله، ونفى عنه منال المكروه من كل جهة، حيث نهى عباده المؤمنين أن يسموهم بالأموات، وأمر عباده المؤمنين أن يسموهم بالأحياء؛ لأنهم أحياء عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، تفسير للمراد بالحياة في هذا المقام، وأنها حياة روحية سامية، وفي ذلك ما يدل على أن روح المؤمن جسم لطيف لا تفنى بخراب البدن، ولا يتوقف إدراكه والتذاذه وتألمه على وجود البدن، ومن يقول بتجريد النفوس الناطقة من جميع علائق المادة يقول: إنه يخلق لها عند مفارقة أبدانها هياكل على شكل طير خضر تتعلق بها، وتكون خلقاً لها أبدانها، وهذه الحياة البرزخية لا يدرك الإنسان حقيقتها، ولا ما يجري حولها، كما أفصح الله عن ذلك في سورة البقرة: ﴿وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، أي بحياتهم، ويلزم من نفي الشعور نفي الإدراك.

ولقد قالوا: إن الحياة على أوجه ثلاثة: حياة القوة النامية التي يكون بها الغذاء والشهوة إلى الغذاء، وهي موجودة في النبات والحيوان والإنسان،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢١) عن أنس رضي الله عنه، مرفوعاً، به. وصححه الضياء في «المختارة» (٥/ ١٣) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥٦٩٠): «رواه أحمد بإسناد جيد». وأخرجه الترمذي (٢٥٤٢) بنحوه وقال: «حسن غريب».

وحياة القوة الحاسة التي كون بها الإدراك والحركة ، وهي موجودة في الحيوان والإنسان ، وحياة القوة العاقلة وهي تختص بالإنسان دون غيره ، وهي مناط التكليف في عالم الدنيا ، وهي المرادة هنا في سورة آل عمران ، وسورة البقرة .

وعلى هذا فمتى كان الإنسان محسنًا كان منعماً بروحه ، مسرورًا بمكانه إلى يوم القيامة ، ومتى كان الإنسان مسيئًا كان معذبًا بروحه شقيًا بمكانه إلى يوم القيامة ، وهذا ما تدل عليه الآيات والأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ، كحديث «الصحيحين» : «الأرواح جنود مجنده ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» .

وكحديث الإمام مسلم أنه قال : «لما قتل من قتل من صناديد قريش في وقعة بدر وجمعوا في قليب واحد ، أقبل عليهم النبي ﷺ ، وقال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا ، فقالوا له : يا رسول الله ، أتخطب جيفًا؟ قال : ما أنتم بأسمع منهم ولو قدروا لأجابوا» . إلى غير ذلك من الأحاديث الظاهرة في هذا المعنى ، والدالة على أن الروح تتنعم وتتألم وتتكلم وأن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان كما شاء واختار : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص : ٦٨] .

وركبه في أحسن صورة ناطقة ، وجعل ما ينتقل فيه من الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ -وهي ما بين الموت والبعث- ودار الآخرة ، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها .

فجعل أحكام الدنيا جارية على الأبدان والأرواح تبع لها ، ولذلك كانت الأحكام الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات الجوارح وإن أضمرت النفوس خلاف ذلك .

وجعل دار البرزخ جارية على الأرواح والبدن تبع لها، وكما تبعت الأرواح الأبدان في دار الدنيا فتألمت بألمها والتذت بلذاتها، كذلك تبعت الأبدان الأرواح في نعيم دار البرزخ وعذابها، فلا بد أن الأبدان في دار الدنيا ظاهرة والأرواح خفية، وعلى العكس من ذلك في دار البرزخ فالأرواح ظاهرة والأبدان خفية.

وقد أَرانا الله سبحانه وتعالى نموذجًا من حال النائم فإن ما ينعم أو يعذب به في نومه ويجري على روحه أولاً وبالأصالة، وعلى بدنه ثانياً وبالتبعية، فيرى النائم في نومه أنه ضرب، فيصبح وأثر الضرب في جسمه، ويرى النائم أنه أكل وشرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه، ويذهب عنه الجوع والظما، فإذا كانت الروح في المنام تتألم ويصل ذلك إلى بدننا بطريق الاستتباع، وكذلك البرزخ بل هو أعظم؛ لأن تجرد الروح من المادة هناك أقوى وأكمل، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، وهو أمر لا شك فيه، عاد الألم والنعيم على الأرواح والأبدان باديًا وظاهرًا، وإذا ما تبصرنا في هذا الموضوع وتدبرناه حق التدبر، أدركنا ما أخبر به النبي ﷺ من عذاب القبر ونيعمه، ومن ضيقه وسعته، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، هو مطابق للعقل والمنطق وأنه حق لا مرية فيه، وأن السبب فيما يشكل من ذلك راجع إلى جمود الفكر وسوء القرينة، ثم إن قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، أي بما أعطاهم الله من الثواب والأجر الذي لا يتبعه سلب، ولا يعقبه كرب، ولكن هذا في فرح الآخرة.

وأما فرح الدنيا فقد نهى الله عنه في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وفي قوله تعالى:

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] ،
 وفي قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥] ، وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ
 لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ، ذلك أن الفرح في
 الدنيا مشوب بالأغيار والأكدار فلا يصفو لأحد ، وربما آذن هذا الفرح
 بالاطمئنان إلى حياة الدنيا والاشتغال بها عن غيرها ، وربما أدى بصاحبه إلى
 الكفر والطغيان ، وإلى إنكار الحق والإيمان ، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
 عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠] ،
 أي بالمجاهدين الذين تركوهم من خلفهم ولم يقتلوا فيلحقوا بهم ، وقوله
 تعالى : ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠] ، بدل من
 الذين لم يلحقوا بهم ، قصد به بيان أن استبشار الشهداء بمن تركوا خلفهم
 هم بأحوالهم لا بذواتهم ، والمعنى يستبشرون بما تبين لهم من حال الذين
 تركوهم من خلفهم وهو أنهم يبعثون يوم القيامة آمنين مطمئنين ، لا
 خوف عليهم ولا يحزنون ، بشرهم الله بذلك ، فهم به مستبشرون ، وفي
 ذكر حال الشهداء واستبشارهم بحال الذين تركوا خلفهم من المجاهدين
 ترغيب للناس في الجهاد ، وفي الالتحاق بساحته ، وفي الانضواء تحت رايته
 لنيل منازل الشهداء الذين يسعدون بحياتهم ، ويرزقون عند ربهم .

وقوله تعالى : ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١] هذا
 تكرار للاستبشار قصد به بيان أن الاستبشار لا يكون بمجرد عدم الخوف
 والحزن بل به وبما يقارنه من الخير والنعمة والفضل والكرامة ، وذلك كثرة
 ثوابهم ، ووفرة أجورهم ، ورفعة مقامهم ، وهو أجل قدرًا وأعظم خطرًا من

النصر والظهور والغنيمة ، ولقد وقع التعبير عن الشهداء بالمؤمنين إظهاراً لسمو رتبة الإيمان ، إذ هو المناط فيما نالوا من الخطوة والسعادة في الآخرة ، هذا ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى من قبل عباده المؤمنين بما هو أعظم منه وأكثر نعمة وهو منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] يعلمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، فكل بلية وكل محنة تصيب العبد بعد حصوله على هذا الفضل العظيم ، والخير الكثير هو شيء يسير ، وأمر خفيف بالنسبة إلى من حازوا عليه من مقتضيات الأحوال ، ومميزات الخير ، والفضل والكمال ، ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجمعة : ٣٦ ، ٣٧] .

المحاضرة الثالثة :

أي الإسلام خير ؟

انطلاقاً من قوله ﷺ : «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» قاله لرجل .

قال : أي الإسلام خير ؟

أخرجه البخاري في كتاب الإيمان في باب إطعام الطعام من الإسلام ، وفي كتاب الاستئذان في باب السلام للمعرفة وغير المعرفة .

١- متن الحديث من «صحيح البخاري» :

باب إفشاء السلام من الإسلام :

وقال عمار : «ثلاث من جمعهن فقد جمع الخير كله : إنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار» .

إملاء وشرح :

٢- هذا باب عظيم من أبواب الإمام البخاري رحمه الله ، وهي في كتاب الإيمان من «صحيحه» ، وقد جمع فيه وفي الأبواب المتناسقة المتوالية أحاديث كثيرة من شعب الإسلام ، أي : الخصال الإسلامية التي تفسر طريق الإيمان في داخل الإسلام ، وقد عبر عنها النبي ﷺ في الحديث الشريف الذي رواه البخاري إذ قال : «الحياء شعبة من شعب الإيمان» ، وفي الحديث الآخر الذي رواه في «الصحيح» أيضاً بلفظ : «شعب الإيمان ست وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذنى عن الطريق» .

ولا شك أن الحديث الذي رواه الإمام البخاري في هذا الباب ، وجواب النبي ﷺ عن سؤال السائل : أي الإسلام خير؟ - من شعب الإيمان .

وهذا الحديث مشتمل على جوامع الكلم ، وقبل أن نتكلم عنه ونفصل القول في إطعام الطعام وإفشاء السلام ، يجب أن نتعرض في مدخل قصير لبعض المسائل المهمة ، ثم نتبعها بتمهيد مختصر كذلك .

أما المدخل : فستعرض فيه لحقيقة الإسلام والإيمان ، وللتصور الإسلامي للعالم ، ومركز الإنسان في هذه الحياة .

وأما التمهيد : فنتناول فيه شعب الإيمان .

وبعد ذلك نخلص للحديث عن هاتين الشعبتين وهما إطعام الطعام وإفشاء السلام .

المدخل :

٣- منذ أوجد الله الإنسان في هذا الكون وهو على نوعين :

طائفة أهمها أمر نفسها فهي لا تفكر إلا في أشخاصها ، تعتبر أنها من أعظم الناس وأكثرهم قيمة ومنزلة ، وأن مكانتها في الدنيا لا توازي ، وتكفر لذلك بالله ولا تعتبر له منة عليها ، حاسبة أن ما حصلت عليه في الدنيا من خير ومن نعم إنما هو بكسبها ، أوتيته على علم منها كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص : ٧٨] ، ومن هؤلاء فرعون الذي قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] . وهؤلاء كلهم طغاة مستكبرون يعيشون في الأرض فسادًا ، ولا يألون الناس ظلمًا واستبدادًا ومكرًا واستعبادًا .

أما الطائفة الثانية : فهي تحتقر نفسها ولا تعطيها مزية ، وتحتقر معها الإنسان كله ، رأت الظواهر الكونية فاستعظمتها ، فأهمها أمر الشمس والقمر والعواصف والأمطار ، والبحار والأنهار ، ورأت الموت بعد الحياة

ظاهرة الفناء بعد ظاهرة الانبثاق ، فاحتقرت نفسها وأكبرت تلك الظواهر وخافتها فعبدها من دون الله ، وهكذا عبدت الشجر والحجر والشمس والقمر والجن والمملك ، وكل كائن غير حقيقي أو متخيل .

لقد وجدت هاتان الطائفتان منذ خلق الله الدنيا ، ولما جاء الإسلام أوضح للناس أنهم ليسوا على واحدة من الحالتين ؛ ليسوا على تلك الدرجة من العظمة والجبروت ، ولا على تلك الدرجة من الحقارة والمهانة والعجز ، ولكنهم خلقوا كالخلق ، أنشأهم البارئ في أحسن تقويم ، وأوجدهم في كون ذي نظام ونواميس ، وجعل قيمتهم بالأعمال التي يقومون بها .

نبه القرآن الطائفة الأولى إلى أصلها الذي نشأت منه ، وأنها خلقت من مني يُمْنَى ، وتدرجت في أطوار من النشوء من صنع الله تعالى وحسن تدبيره ، وذكرها بأن ما تقوم به من أعمال في هذه الدنيا ليس من صنعها وإنما هو من صنع الله ، وكل ما يصل إليها من خير ومنفعة من عند البارئ ﷻ ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ٧٧ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧-٧٩] .

فينبغي للإنسان أن يتدبر في نشأته ليعلم أنه خرج من نطفة مذرة تدفقت عند شهوة إنسانية ، ثم تحولت بإذن الله إلى كائن إنساني مختلف الحالات ، من هذه النطفة خرج العلماء والفلاسفة والمفكرون والأنبياء والمرسلون والأولياء الصالحون والقواد العسكريون والصناع والعمال والأمراء والرؤساء والحكام ومجرمو الناس وشياطينهم .

لو نظر الإنسان إلى نفسه وتدبر في أصله لعلم أنه إنما خرج للعالم بقدرة المدبر الحقيقي وهو الله ، وإنما يستمر وجوده بإمداده المتوالي ، فلا بد له من إله

يوجده ثم يمده في كل وقت ، ولا يتصور أن يستغني عنه لا إيجاباً ولا إمداداً ؛ إذ هو بمثابة العرض الذي لا يبقى زمنين ، لذلك أرشدنا الله ﷻ للتخلي عن صفات الطائفة الأولى ، التي هي الكبرياء والاستعلاء .

ونبه تعالى الطائفة الثانية إلى أنه لم يخلقها محتقرة ذليلة بل مكرمة عزيزة ذات حرمة عند الله ومكانة في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] فهذه الكرامة التي أعطاها الله للإنسان وفضله بها على غيره من المخلوقات مزية عظيمة له ، ما كان لينالها من ذاته أو من أصله ، وإنما نالها بفضل الله تعالى الذي أراد أن يجعله في هذه الأرض ذا كرامة وحرمة .

وقد أرشدنا القرآن والسنة النبوية أن طبيعة الإسلام تريد من الإنسان أن لا يقف الموقف الأول : موقف الكبرياء والجبروت ، ولا الموقف الثاني : موقف التحقير لبني آدم ، بل عليه أن يقف في الوسط ، يؤمن بنفسه ويعترف بقيمته التي وهبها الله تعالى له ، ولكن يعد ذلك منة منه سبحانه ، ونعمة تستوجب الشكر وإخلاص العبادة للباري ﷻ .

خلافة الإنسان في الأرض :

٤ - فإذا انتفت الصفتان ، بقيت صفة الكرامة وحدها ، وهي تستلزم مقام الخلافة الذي أعطاه الباري للإنسان كل إنسان ، فقد استخلفنا الباري على هذه الأرض لنعمرها ، والناس كلهم - مسلمهم وكافرهم - متساوون في هذه الصفة صفة الخلافة عن الله ، أي على معنى التكليف بها وبمستلزماتها ، ولكن التحقق فيها لا يتم إلا للمؤمنين المتقين إذا آمنوا ثم

اتقوا وأحسنوا . وأما غيرهم فيصيرون للمثال الذي آل إليه إبليس لما أبى واستكبر وكان من الكافرين .

فالخلافة أعظم مظاهر الكرامة ، ولكنها لا تتم إلا بالعلم والامثال ، وكلكم يعرف قصة آدم عليه السلام وكيف أمر الله الملائكة بالسجود له ، فسجدوا إلا إبليس رأى أنه أفضل من الإنسان ؛ لأنه خلق من نار وخلق الثاني من طين . فبين الباري للملائكة أن المسألة ليست مسألة أصل وسلالة ، طين أو نار ، وإنما هي مسألة قابلية واستعداد ومعرفة ، ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

والمراد أن الله خلق الإنسان ذا مقدرة علمية وملكة يستطيع أن يدرك بها الأشياء ، وذلك ما يعده لتسخير الأكوان له ، وإذا كان قادرًا على التحكم في الشجر والحجر والشمس والقمر فكيف يمكن أن يتردى إلى عبادة هذه الأشياء التي هي في قبضته ؟ قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣ ، ٣٤] ، فالإنسان إذا هو قطب الوجود ، والظواهر الكونية كلها موجودة لخدمته ، ومطوية في قبضته ، إذا هو سار في الطريق المطلوبة منه ، وارتوى من العلم ما ينمي قابليته ويزيد في قدرته ، معترفًا بنعمة الله عليه ، وقائمًا بمهمة الخلافة المنوطة به ، مؤمنًا بأن مقامه في الدنيا مؤقت لأداء مهمته وتبليغ رسالته ؛ لأن الدنيا دار عبور لا دار قرار .

وتعني الخلافة أن الإنسان بمثابة نائب الملك أو الرئيس ، عليه أن يطيع من ينوب عنه ، وينفذ ما يصدر إليه من أوامر ، ويجتنب ما يعطيه من

نواهي ، سالكًا ما تقتضيه تعاليمه وما يعلم أنه يرضيه من الأعمال ، على أن يسلك مع الرعية أفرادًا وجماعات ما يعلم أن الملك يسلكه معهم . فالرحمة والعناية اللتان يمنحهما البارئ للخلق يجب على الإنسان كخليفة لله أن يسلكها مع الناس ، وأن يعاملهم ويعاملوه بالحسنى ، ويتساعد معهم متضامنين في الحياة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظهر من مظاهر هذا التضامن الإنساني .

الأخلاق في الإسلام :

٥- ولم يتكلم شراح الحديث كثيراً عن معنى هذا الحديث ، بل لم يكتبوا إلا سطرين أو ثلاثة كلها ترجع للغة أو للنحو ، فنحن مضطرون إلى الكلام عليه بما يؤدي إليه الفهم في هذا العصر ، مبينين معانيه الشيقة وما تهدف إليه من مقاصد النبوة التي تمتلئ بها أحاديث الرسول المروية في الكتب الصحيحة والتي هي شعب الإيمان ومحتوى الرسالة الخالدة .

ولقد قلنا : إن الخلافة مهمة طوق بها الإنسان فوق الأرض تقوم في الدين مقام المواطنة في المدينة ، ونزید الآن بأن الله يريد من خلفائه أي من كل المواطنين أي من كل الناس ، أن يسلكوا في سيرتهم ما يقضي به البارئ ﷻ . فموافقة عمل الإنسان لإرادة الله وسعيه لتحقيق هذه الموافقة هما معنى الرسالة الإنسانية وفحوى الخلافة الربانية .

وهذه الأعمال الموافقة لإرادة البارئ ، هي شعب الإيمان ، وهي أخلاق الإسلام ، وفلسفة الأخلاق إذن هي أنها صفات الإسلام ، ليست مأخوذة من المجتمع والاستفادة من المنفعة ، كما يقول بعض الفلاسفة الأوربيين مثل : ديكارت وسبينوزا وأمثالهما . وليست هي القيام بالواجب كما يقول

أنصار داروين وسبنسر وأضرابهم ممن يؤمنون بالقوة وبالأنانية ، خلق (الأنثى) وليست مجرد تطور من تطور العادات كما يراه فلاسفة متأخرون . وإنما الأخلاق في نظر الإسلام ثمرة الإيمان ، فحينما يؤمن الإنسان يشع نور الإيمان على أعماله وسلوكه ؛ فيصير ممثلاً لأوامر الله مجتنباً لنواهيه أي متخلقاً بأخلاق الإسلام ، يعني منفذاً لخطابات الله التي تقول له : افعل ، لا تفعل ، أنت مخير بين الفعل والترك ، فأحكام الشريعة إذاً من أخلاق الإسلام ، ولا يسير وفق الشريعة إلا من يؤمن بأنها من عند الله الذي يوقن بربوبيته ، فلا يتصور في الإسلام خلق مستقل عن الإيمان ، وليس ثمرة له ، والذين زعموا من المستشرقين الغربيين أن الإسلام لا يشمل على أخلاق ؛ لأنه غير مبني على القواعد التي بنيت عليها المسيحية ، لم يفهموا الإسلام ، وما كان لهم أن يفهموه وقد غطى التعصب الأعمى أبصارهم وبصائرهم ، مع أن أخلاق الإسلام واضحة بينة ، ولكنها ليست مستقلة عن الإيمان ، أو مجرد خلق للمدينة أو الجماعة كما يقولون ، ولا تطوراً ناشئاً عن عوامل اقتصادية واجتماعية ، بل هي ثابتة ؛ لأنها أوامر ونواه من عند الباري ﷻ ، وهذه ناشئة عن طبيعة التكليف الذي تحمّلناه بإيماننا ، فلما آمنا وجب علينا أن ننفذ تعاليم الإله المنزلة في كتابه الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ .

تلكم هي الأخلاق الإسلامية لا نقصدها إلا ثمرة للإيمان ، ولا تسمح طبيعة الإسلام أن نتصور إنساناً غير مؤمن ، ونعطي لما يتشبث به من تقاليد صفة الأخلاق الإسلامية ، حتى ولو كانت تلك التقاليد الإسلامية الأصل ، وتدل عليها تعاليم الإسلام ؛ لأنها إذا لم تستند إلى الإيمان سقطت ولم تعد أخلاقاً إسلامية ؛ لأن العبرة في الخلق الإسلامي ليس مجرد

السلوك المظهري بل الباعث على السلوك والغاية منه ؛ لأن السلوك يصبح نفاقاً أو عادة إذا لم يكن معه باعث الإيمان وغاية الطاعة لله ، وليصبح السلوك خلقاً إسلامياً يجب أن يكون ثمرة إيمان ورغبة في موافقة العمل لإرادة الله وحباً في طاعته ، وهذا هو السر في عدم قبول أعمال غير المؤمنين ، وفي عدم إثابة المشركين على ما يقومون به من أعمال صالحة في الظاهر ؛ لأن الغاية المقصودة منها تنقصها وهي رضا الله ، كما ينقصها الباعث عليها وهو الإيمان وطاعة الباري ﷻ .

ومعلوم أن الغاية التي يعمل لها الإنسان في هذه الحياة ، والتي جعلها الباري غاية من خلق البشرية في هذه الدنيا وتكليفها بأنواع التكاليف هي الحصول على رضا الله . فكل عمل صالح يقوم به المؤمن إنما يقصد به إرضاء الباري تبارك وتعالى ، وإلا كان عملاً لا قيمة له ، وأي قيمة تبقى لعملنا إذا رد علينا ولم يقبله الله منا ، ويكفي أن يحظى المؤمن بتقبل الله بعض أعماله لينال السعادة الكبرى ، وكم من عمل صالح يرد على الإنسان لنقص فيه ، وقد قال ﷺ في المصلي الذي ينقب صلاته نقب الديكة : «إنها ترد عليه كما يرد الثوب الخلق» ، وقال بعض الصالحين : لو علمت أن صلاة واحدة قبلت مني لكان ذلك أفضل لي من الدنيا وما فيها .

وهذا يعني أن الساعة التي يحظى فيها الإنسان بتقبل الباري لأعماله ، ساعة عظيمة بالنسبة له ، وكرم الله يستوجب أن يتقبل من عباده بعض أعمالهم الناشئة عن إيمان به ، وسعي في رضاه ، كما يستوجب أن يوفقهم لبعض الأعمال الصالحة الجديرة بالقبول منه تعالى . نسأل الله أن يتقبل منا أعمالنا دائماً ، ويوفقنا إلى عمل ما يرضيه .

الإيمان والعمل:

٦- وإذا كانت الأخلاق الطيبة التي يأمر بها الإسلام لا تكون طيبة إلا إذا كانت ناشئة عن الإيمان ، فإن الإسلام كذلك لا يتصور إيماناً من غير عمل . فلا تجد في كتاب الله كلمة المؤمنين إلا مقرونة بالعمل الصالح : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة : ٢٥ وغيره من المواضع] ، فلا يعتبر الإيمان كاملاً إلا مع العمل الصالح ، ولهذا بحث العلماء الأقدمون في الإيمان هل يزيد وينقص أم لا؟

فالإمام البخاري الذي يقول : إنه يزيد وينقص ، فإنه لا يفرق بين الإيمان والإسلام ، بل يجعلهما مترادفين ، والذين يقولون بزيادة الإيمان ينظرون إلى الأعمال كثمرة الإيمان ، فالبخاري الذي يجعل الإيمان عين الإسلام لا يختلف عنه ، يقول : إنه يزيد وينقص باعتبار الأعمال الصالحة إذ لا شك أن الأعمال تختلف ، فثم من يعمل كثيراً ، ومن يعمل قليلاً ، ومن يخلط الصالح بغيره .

وعلى كل حال فالإيمان ضروري للقيام بالإسلام ، وهو ضروري للعمل الصالح وكما لا يتصور الإسلام الإيمان إلا بالعمل الصالح لا يتصور العمل الصالح إلا بالإيمان ، ولا فائدة للأعمال الطيبة إذا لم يكن معها إيمان بالله وكتبه ورساله ، وإذا لم تكن ناتجة عن وعي بذلك الإيمان وعن دافع نفساني رباني روحاني ، ومتى تحققت صفات تلك الأعمال كانت ناجحة ومثمرة .

والإيمان مشتق من الأمن فيلتقي مع الإسلام الذي هو استسلام وسلام ، والإيمان متركب من ألف وميم ونون ، أي من الأمن ، والأمن هو السلام

الذي يطلبه الإنسان حينما يطمئن للباري ﷻ كما نبينه ؛ لأن المؤمن في الحقيقة يقع له السلام في نفسه وتقع له الطمأنينة أيضاً .

شعب الإيمان :

تقديم :

٧- أما شعب الإيمان التي أشرنا إليها وهي موضوع التمهيد فهي جمع شعبة ، ويفسرونها بالخصلة وبالطريقة أو بالقطعة من قطع الإيمان ، ويسمى بعض الإيمان شعب الإيمان ؛ لأن أمور الإيمان في الإسلام أي داخل الإسلام ، هي بمثابة تلك المشارب المتفرعة عن بحر أصلي هو بحر الإيمان تتشعب في داخل الإسلام ثم ترجع إليه .

وثبت في بعض الأحاديث أنها ست وسبعون بزيادة عشرة ، وقال القاضي عياض : إنها ست وتسعون ، وإنه لا بد أن يجد الإنسان صعوبة كبيرة إذا أراد حصرها .

وقد اشتغل جماعة من علماء الحديث بها وألفوا فيها ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الإمام البيهقي وكذلك ابن حبان ، قال الحافظ ابن حبان : تتبع شعب الإيمان في الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ فلم تبلغ تسعا وستين ، ثم قرأت القرآن وتبعت كل ما فيه من شعب الإيمان فلم تصل بالقرآن وحده إلى التسع والستين ، ثم جمعت ما بين الشعب المذكورة في القرآن وما بين الشعب المذكورة في الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ فإذا بها تتم لي تسع وسبعين من شعب الإيمان فعلمت أن النبي ﷺ قصد مجموع الشعب المذكورة في القرآن أو في الحديث . وكتاب ابن حبان لم يصلنا ، ولم يصل كذلك للإمام الحافظ ابن حجر ، وقد قال هذا الحافظ :

إن الذي نفهمه مما نقل عن ابن حبان أن لهذه الشعب أصولاً ثلاثة : شعباً قلبية ، أي : تتعلق بالقلب ، وشعباً لسانية أي : تتعلق باللسان ، وشعباً بدنية أي : راجعة لشئون البدن .

أعلى شعب الإيمان :

وأعلى الشعب المتعلقة بالقلب الإيمان بمدلول كلمة الشهادة ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويدخل في الإيمان بالله الإيمان بصفاته ، وينضم إليها الإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر ، الإيمان بالبعث والنشور والصراف والميزان والحوض والجنة والنار وسؤال الملكين بعد الدفن ، وغير ذلك من الأمور التي ورد وجوب الإيمان بها في الكتاب وفي السنة ، والتي لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحي .

والغيبات هذه هي التي يسميها الفلاسفة ما وراء الطبيعة ، وقد تكفل الإسلام ببيان الغيب جملة واحدة ولم يترك فيه مجالاً للبحث وإنما أوجب الإيمان به كما ورد ، إذ أفلأ محل للبحث من غير الوحي عن كل ما يرجع لما وراء الطبيعة ، وبذلك حذرنا الإسلام من تضييع الوقت فيما لا يمكن الوصول لمعرفة يقينية عن طريق العقل أو التجربة ، وأراد منا أن نشتغل باكتشاف مجاهل الطبيعة نفسها ؛ لأننا في قلب الطبيعة ولسنا خارجين عنها ، فيمكننا البحث عن أسرارها وأسبابها ومسبباتها حتى نسخرها لخدمة الإنسانية عامة والإسلام والمسلمين خاصة ، فنحن مأمورون بالإيمان بالغيب وبالشهادة ، ولكننا مأمورون بالإمساك عن البحث في الغيب وبالنظر في شئون الشهادة أي ما يمكن إدراكه بالتجربة والبحث .

وتتضمن كلمة الشهادة الإيمان برسالة الرسول وكونه خاتم النبيين ،
ومن علامة هذا الإيمان اعتقاد القلب بمحبته واحترامه وتعظيمه واحترام
أهل بيته وعلماء شريعته لأنهم ورثة النبوة وحفظة الدين .

شعب اللسان :

وأما شعب اللسان فلا تتجاوز سبع شعب منها : التوحيد ، أي النطق
بكلمة الشهادة ، إذ لا يكفي الإيمان بها قلبياً إلا من العاجز عن ذلك ،
ويعد من أبى أن ينطق بها مع قدرته على ذلك كافراً ، وأما من ترك النطق
في غفلة فقد اختلف في كفره ، قال عياض : «إنه كالآبي» ، وقال الجمهور
وأبو منصور الماتريدي : «إنه يعد كمن نطق بها» .

وثانيها : تلاوة القرآن ، والثالثة : تعليم العلم ، والرابعة : البر اللساني
أي المساعدة على أعمال البر ، والخامسة : الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، والسادسة : ترك اللغو أي عدم الكلام بما لا يعني ، وعدم الخوض
فيما ليست فيه مصلحة دينية أو دنيوية مشروعة ، وقد ثبت في الحديث : «
إن الرجل يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين
خريقاً» ، والسابعة : عدم الاستماع للغو والمزح بغير الحق .

ونفهم من ذلك أن الإنسان ينبغي له أن يعرض عن قراءة الكتب
والصحف الخلية أو الداعية لهدم الدين وإفساد الأفكار أو الاستماع
للإذاعات ورؤية المتلفزات التي من هذا القبيل ؛ لأن ذلك يغري بالفساد
ويضيع وقت الإنسان في غير منفعة .

هل الحديث موقوف أم مرفوع؟

١٠- وهذا الحديث مروي هنا على أنه موقوف على عمار، ورواه أحمد بن حنبل في «مسنده» عن جماعة من الصحابة مسنداً إلى النبي ﷺ، وكان عبد الرزاق يتحدث بهذا الحديث لجماعة في آخر عمره مسنداً إياه إلى النبي ﷺ، وقال ابن حجر: إن حديث عبد الرزاق معلول من جهة السند؛ لأنه اختلط في آخر عمره، ولكن ثبت من جهة أخرى عند الطبراني أنه مسند إلى النبي ﷺ فيكون الحديث غير موقوف بل من كلام الرسول ﷺ، وفي هذه الطريق الثانية ضعف.

قال ابن حجر في كتابه «تغليق التعليق»: «روي هذا الحديث من طرق كثيرة، ويصح أن يكون مرفوعاً إلى النبي ﷺ».

ومهما يكن فقد أجمع حفاظ الحديث وشراحه على أن هذا الكلام سام وعال يشبه في أسلوبه جوامع الكلم وذلك ما يقوي الظن أنه من نطق النبي ﷺ.

الإنصاف؛

١١- قال عمار: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك» هذه الأولى، أي إذا تعلم الإنسان كيف ينصف الله والناس من ذنبه يكون قد حصل على ثلث الإيمان والإسلام.

وطبعاً فإن ذلك لا يتأتى إلا بمعرفة الحقائق على وجهها، ومعرفة الأمور والمنهيات الشرعية، فإذا تم ذلك للإنسان وحصل منه خطأ فارتكب أمراً يضر دينه وبآخرفته تذكر وندم وأنصف من نفسه، فاعترف بأنه مذنب واستغفر الله وتاب إليه، وإذا أساء إلى غيره ولو بظن

السوء في أخيه يندم ويستسمح ممن أساء إليه ويعتذر إليه ، ولا شك أن تبادل الإنصاف بين الناس من طرق إفشاء السلام .

بذل السلام :

أما الشعبة الثانية فهي : «وبذل السلام للعالم» ، وينبغي أن نتدبر هذا التعبير الجليل السامي الذي استعمله سيدنا عمار رضي الله عنه ، فهو لا يدل على مجرد قراءة السلام على من عرفنا وعلى من لم نعرف ، بل يدل على نشر السلام في العالم ، والمقصود بالسلام ليس التحية ، ولكن الأمن والطمأنينة بحيث نهتم بسلام الناس قاطبة ، وببذل ما نستطيعه من جهد وجهاد وتعاون مع ذوي النية الحسنة والرغبة الصادقة حتى يحل السلام في العالم محل الحروب ، والأمن الخاص والعام مكان الخوف من مصائب اليوم والغد ، ويريد الإسلام منا أن نكون في الحرص على السلم والدعوة إليه مثلاً صالحاً ، فقد جعل الله السلام من أسمائه واشتق منه الإسلام فسمانا بالمسلمين على اعتبار أن لا تبقى في نفوسنا ولا في سلوكنا شائبة من جاهلية ، ووعدنا جزاء على عملنا بدار السلام عند ربنا ، وسمى المدينة بدار السلام ، وأمرنا أن نجعل السلام تحيتنا ، ووعدنا أن تكون تحيتنا في الدار الآخرة سلاماً ، كل ذلك لنعلم أننا مكلفون برسالة خالدة هي نشر السلام والإسلام في العالم ، وضمان القوت للعالم كما سيأتي ، فقول عمار أو نقله عن الرسول ﷺ : «بذل السلام للعالم» يبين لنا الغاية من إفشاء السلام ، وما التحية إلا جزء من هذه الغاية ووسيلة لتحقيقها ؛ لأن تبادل التحية مما يزرع المحبة بين الناس ، وقد قال الشاعر :

كيف أصبحت كيف أمسيت مما يزرع الود في فؤاد الكريم

الإنفاق:

والشعبة الثالثة في حديث عمار: «والإنفاق من الإقتار» أي عند الإقتار وهو الفقر، والمقصود أن إنفاق الغني من فيض ماله محمود، ولكن الذي هو من شعب الإيمان هو إنفاق الفقير مع فقره لما فيه من الإيثار، وقد قال الشاعر:

ليس العطاء من الفضول ساحة حتى تجود وما لديك قليل
وقد وصف القرآن الأنصار بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فالإسلام يحث على الإنفاق حتى عند الإقتار، ويجعل ذلك من شعب الإيمان.

فإذا اجتمع للإنسان مع إيمانه، إنصافه من نفسه، وبذل السلام للعالم، وإنفاقه مع الإقتار، فقد تحقق له معنى الإيمان، وتم له مدلول الإسلام.

ومن الواضح أن هذه الشعب الثلاث تؤدي كلها إلى السلام، فالإنصاف الذي هو أدق من العدل لأنه يعني قيام ضمير عدل عند كل إنسان يدفعه إلى عدم الاعتداء على أحد، أو الإجحاف بحق أحد، ولو لم يكن هنالك رادع قضائي يؤدي إلى السلام؛ لأن التنصيف يعني عدم التخاصم، وإطعام الطعام من الإقتار يجعل الإنسان يفكر في الضعفاء والمحتاجين، ومتى سدت حاجة الجميع إلى الطعام، ومتى قام الكل بما يجب من توفير التغذية للناس قاطبة زال سبب كبير من أسباب التطاحن ودواعي الخصومة وحل محله سبب الرضا والأمن، ثم إذا كان الجهد الإنساني كله بعد ذلك مبدولاً لإزالة أسباب الحروب والتقرب بين الشعوب تحقق السلام للعالم.

رسالة المسلمين:

١٢- ورسالة الإسلام إذن ملخصة في هذا الحديث ، على المسلمين أن يسيروا عليها ويدعوا لها ويجاهدوا في سبيل تحقيقها ، عليهم أن يكونوا مثلاً صالحاً في إقامة العدل والإنصاف في محاكمهم وفي معاملاتهم الخاصة والعامة ، وفي التعاون مع الغير على إقرار علاقات دولية بين الشعوب والحكومات ، شعارها الإنصاف ، ومناطها التساوي في الحقوق وفي الواجبات .

وعليهم أن يحققوا العدالة الاجتماعية بضمان القوت للجميع ، عن طريق توفير أسباب الكسب وإتاحة الفرصة لكل مواطن حتى يسد حاجته عن طريق جده ونشاطه ، وفي الوقت نفسه ينفقون العفو من مالهم ولو كان ما بيدهم قليلاً ، ويدخل في ذلك تعاونهم الدولي على توفير التغذية للناس كلهم ، ودعوتهم العالم إلى التخلي عن النفقات الزائدة في الحروب والاستعداد لها ، وفي الابتكارات الجهنمية والتنافس في أسباب القهر والغلبة ، ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢] ، وحجز تلك النفقات لضمان أسباب الحياة للشعوب المتخلفة حتى يكون للناس قاطبة حقهم فيما خلقه الله من خير لهم جميعاً .

وأخيراً .. عليهم أن يكونوا دعاة سلم ، وبناء عالم آمن مطمئن ، يسارعون إلى كل ما من شأنه أن يوحد بين الأمم ويجمع الناس على الأخوة والتضامن ، والتحالف على تحريم الحرب مطلقاً ، مع إقامة نظام عالمي ضمن جمعية أممية حقيقية للوقاية من الاعتداءات التي من شأنها أن تثير الحروب ، وتخرج بالإنسانية عن صراط الله السوي ، صراط العدل

والإنصاف والضمان الجماعي ، وحق الكل في التمتع بالحرية وكسب الحياة ، وبذل السلام للعالم .

١٣- ذكر الإمام البخاري حديث عمار هذا معلقًا ، والتعليق عدم رواية المؤلف الحديث بسنده المتصل إلى النبي ﷺ ، ومع ذلك فهو حديث صحيح ، ولعله لم تجتمع فيه شروط البخاري التي اشترطها لتخريج الحديث في «صحيحه» ، ومن عاداته أن ما كان كذلك يرويه معلقًا ، ولكن البخاري روى لنا حديثًا آخر مقصودًا بالذات من الترجمة .

قال : (حدثنا قتيبة) : تصغير قتب ويجمع على أقتاب وهي الأمعاء . وقتيبة هو ابن سعيد أبو الرجاء علي .

قال : (حدثنا الليث) هو ابن سعد إمام المصريين المجتهد الكبير ، الحافظ الحجة .

قال : (عن يزيد بن حبيب) وهو من حفاظ الحديث ورواته . ورجال هذا الحديث مصريون .

قال : (عن أبي حبيب ، عن أبي الخير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص) رضي الله عنهم جميعًا .

وبهذا السند يروي الحديث البخاري هنا ، وقد خالف فيه ذكر اثنين من شيوخه ، ورواه في كتاب الإيمان في باب إطعام الطعام من الإسلام .

وفي الباب الثاني : إفشاء السلام من الإسلام ، وفي باب السلام على المعرفة وغير المعرفة ، وكذلك رواه مسلم في باب التفاضل بين أعمال الإسلام .

قال البخاري : (إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ) لم يسم البخاري الرجل في هذا الحديث ، والذي قاله جمع من المحدثين إنه هو أبو ذر الغفاري ، وما أجدر أبا ذر أن يسأل هذا السؤال ويجاب ذلك الجواب .
(أي الإسلام خير؟) أي ما هو أفضل أنواع الإسلام؟ .

١٤- حقيقة الإسلام:

يجب أن نقف هنا قليلاً لفهم معنى كلمة الإسلام؛ لأن كثيراً من الكلمات المشهورة لدينا نستعملها في كل الأوقات ونذكرها بمناسبة وغير مناسبة ، ولكننا ننسى معناها الحقيقي وما المقصود منها ، نحن مسلمون ولكننا لا ندري معنى أننا مسلمون ، هل نعرف ما تقتضيه منا صفة المسلم وما تكلفنا به؟ إننا ندعي التمسك بالإسلام ، ولكن ما هو الإسلام؟ هل هو مجرد قشور أو هو أمر أعلى وأعظم؟

لكي نفهم ذلك يجب أن نرجع إلى تحليل المجتمعات الإنسانية ففي الناس طوائف : واحدة : لا تؤمن بالله أبداً وتعطي لنفسها الحرية المطلقة تفعل ما تشاء وترك ما تريد ، لا تلتزم بطاعة ولا تتكلف القيام بعمل من الأعمال .

هذه الطائفة موجودة في كل زمان ومكان ، وهي التي تسمى نفسها اليوم بذوي الفكر الحر ، أولئك الذين لا يؤمنون بدين ، ولا ينتظمون في طاعة ، ولا يتخلقون بخلق ثابت ، يحسبون أن الحرية هي الإباحية ، مع أنها صفة سلبية تقتضي أن لا يفعل الإنسان ما يريد بل ما ينبغي له أن يفعله ، وقد كانت هذه الطائفة موجودة عند بزوغ الإسلام .

أما الطائفة الثانية : فهي التي تتمسك بإيمان ما ، أو على الأقل تزعم أنها تؤمن بالله وبرسله وكتبه ، وتعرف الحلال والحرام والخير والشر ، ولكن أعمالها تختلف تمامًا عن أفكارها وعن ادعاءاتها ، وكانت هذه الطائفة ممثلة عند مجيء الرسول ﷺ في اليهود الذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويكذبون على الله ورسله ، ويرتكبون أفظع المحرمات زاعمين أنها تتفق مع دينهم .

والحال أن الديانة الموسوية الحقبة بريئة من أعمالهم ، كانوا يقولون : ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٥] ، كانوا يرفثون وينهبون ويظلمون ، ويعاملون بالربا كل من ليس إسرائيليًا زاعمين أن ذلك هو الدين اليهودي ، ولا يزالون يسلكون هذا المسلك إلى اليوم ، كما رأينا أعمالهم في فلسطين وفي القدس الشريفة ، إنهم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ويحتقرون من عداهم من الشعوب ، وقد سلك غير اليهود مسلكهم فادعوا الإيمان واتباع دين من الديانات ، ولكنهم ارتكبوا كل ما يتنافى مع ذلك الدين في معاملات الناس وفي سلوكهم الخاص ، وناهيك ما قام به المسيحيون من مظالم استعمارية واعتداءات رأسالية ، مع أن ذلك كله مناف لتعاليم المسيح الذي يزعمون الإيمان به ويطرونه إلى حد ادعاء الألوهية له .

أما الطائفة الثالثة : فتمسك بما وجدت عليه آباءها وأجدادها ، تقتفي أثرهم في كل ما يفعلون ، لا تبحث هل هو خير كله أم شر كله ، فإذا قيل لهم : لا تفعلوا ، قالوا : تلك سنة آبائنا وطريقة أجدادنا لا يمكن أن نخرج عنها ، وهذه أغرب الصفات التي توجد في الإنسان صفة التقليد والجمود على مخلفات الآباء والأجداد ، ولذلك شنع الله على هؤلاء في

المحاضرة الثالثة

٨٩

قوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [لقمان : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أُولُوْ جِثَّتْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ [الزخرف : ٢٤] ، وقال ﷺ : ﴿أُولُوْكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

ويدخل في هذا الباب ادعاء أن كل ما فعله الماضون حسن جميل ، وأن كل ما جد في العصر محدث قبيح ، فقد يجد في العصر من الظواهر الحسنة ما لم يتأت مثله من قبل ، ومثل ذلك ادعاء أن كل ما وقع في هذا العصر جميل ، فكم نتائج جدت في عصرنا ، أو ادعاء أن كل ما تفعله الدول الأجنبية كله حسن ، يجب أن يتبع ويقتدى به ؛ لأنهم أرقى منا أو أسبق إلى أنواع من الحضارة الحديثة ، مع أن لكل مجموعة بشرية محاسن ومساوئ ، وعلمنا أن نقيس كل شيء بمقياس الشرع ، فنأخذ ما يوافقه ونترك ما يخالفه ، طبقاً لصراط الله المستقيم الذي أمرنا بالسير فيه وعدم الانحراف عنه ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم أولئك ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأَلْبَابُ﴾ [الزمر : ١٨] . ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣]

صفات المجتمع المسلم :

١٥ - تلکم هي صفات المجتمعات الثلاثة التي كانت عند بعثة النبي ﷺ ، وقد دعا ﷺ إلى إلغائها كلها ، وبناء مجتمع إسلامي يقوم على أساس الطاعة لله ، ولما جاء عن الله على لسان رسول الله ﷺ . يتخلق أفراداً بأخلاق القرآن ، ويتمسكون بشعب الإيمان ، كما كان الرسول ﷺ ، فقد وصفته عائشة فقالت : (كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويغضب لغضبه) .

أعطانا ﷺ القدوة من نفسه لئيبين لنا أن هذه الشرائع والأخلاق والشعب الإسلامية يمكن تحقيقها في الأشخاص إذا هم آمنوا وأخذوا على أنفسهم ممارستها ، وإذا كان ﷺ مصحفاً يمشي على قدميه ، فقد أصبح المثل الأعلى والإنسان الكامل الذي يمكن لكل منا أن يقتني منه على قدر طاقته ولكن يظل دائماً يعمل ويجد السير في معارج السلوك والمعرفة التي توصله إلى مقام الصديقين ، وإذا كان لا مطمع في وصول درجة النبوة فلا أقل من أن يتطلع المؤمن إلى ما هو في مكتته وأن يموت وهو مصمم العزم على طلب المقامات العليا ، وكما قال البوصيري :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرقاً من البحر أو رشقاً من الديم

وصف عائشة خلق النبي ﷺ بأنه القرآن ، يؤذن بأن المورد العذب والمنهل الصافي الذي يجب أن يستقى منه المؤمن هو كتاب الله ؛ لأنه الكتاب الذي يهدي إلى الحق والإيمان ويفصل شرائع الإسلام وأخلاقه .

ولقد اهتمت المسلمون الأولون بهدي القرآن واقتفوا آثار الرسول ، فكان منهم جيل عظيم مثل : أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وبلال ، وسمية ، وعمار بن ياسر وأضرابهم من الصحابة الكرام الذين كانوا يحفون برسول الله ﷺ ويقتبسون من نوره .

صفات المسلمين الأوائل :

١٦- تصوروا أيها المؤمنون أننا ندخل المسجد النبوي في فترة من الفترات فنجد النبي ﷺ يدخل ومعه هذه المجموعة من الصحابة : أبو بكر بجلاله وشخصيته ومقامه بين المسلمين الأولين ، وعمر ذو المواقف الكبيرة في نصره الإسلام ، وعثمان ذو النورين الذي تستحي منه

المحاضرة الثالثة

٩١

ملائكة الرحمن ، وعمار المعذب في سبيل الله ، وطلحة ، والزبير ، وعلي بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، وأبو عبيدة ، وبلال ، لتصور هؤلاء الأبطال الأولياء ، وغيرهم من رفقاءهم ، يدخلون وما منهم إلا بطل كبير أو قطب عظيم في الدين وفي الدنيا ، في السياسة وفي العسكرية ، وملابسهم بسيطة ، لا يأكلون إلا ما يسدون به الرمق لا يجمعون بين إدامين ، يصومون ويصلون ، تبيت جنوبهم تتجافى عن المضاجع ، يذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار ، يسبحون ربهم ويقصدون اسمه ، فإذا دعوا إلى غزوة تقدموا كالأسد لا يهابون الموت ولا يؤثرون الحياة ، فإذا كانت مجالس العلم هبوا إليها آخذين ومعطين ، متعلمين ومعلمين ، لا يشغلهم ذلك كله عن الضرب في الأرض والأخذ بأسباب الكسب ، وتنظيم الأسرة والدولة ، والسفر لنشر الدعوة أو لكسب الحلال .

أولئك هم المسلمون حقًا ، وتلكم هي الصورة الحية التي يجب أن تظل بين أعيننا ونستشعرها كلما قلنا إننا مسلمون ، إن أولئك الصحابة جلهم كانوا موجودين قبل البعثة لم تتغير أجسامهم عما ولدوا عليه ، هم خلائق كالخلائق برءوسهم وأفواههم وأنوفهم وأيديهم وأرجلهم ، ولكن الإسلام غيّر من عقلهم ومن ذهنيتهم وطهر قلوبهم .

لقد كان عمر بن الخطاب يصنع الصنم من الحلواء يعبده ثم يأكله ، كان يؤد بنته ، وتحكي الرواية أنه جاء يدفن بنته وهي تنفض التراب عن خيته ، لم يتأثر لها لأن سلطان العادة فوق كل عاطفة ، هذا لعمرى أصبح بعدما أسلم أعظم رجل في الدنيا بعد أبي بكر ، بطلاً في النضال وعبقرياً في الحكم ، ونبراساً في الملمات ، عطوفاً براً ، يتألم للآخرين وللمكر بهم .

ويبكي مخافة أن يصاب جهل في الصحراء دون أن يكون له علم بذلك ، فيعاقبه الله عليه ، لقد وصل به الهم حتى كان يقول : « ليت عمر لم تلده أمه » . « ليتني كنت نباتاً ملقى في الثرى » . إنه الذي قال لابن الأكرمين : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وهذا الإمام هو الذي دخل فاتحاً بيت المقدس راكباً أتاناً ورجلاه تطين في نعلين ، وجاءه القياصرة والأكاسرة وهو نائم في المسجد فقام وتكلم معهم كلام العارف بما يجب له وعليه .

أليس الإسلام هو الذي صنع هذا البطل ؟ أليست شعب الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ هي التي ربته ؟ لننظر كل واحد من الصحابة الأولين ، فعمار بن ياسر مثلاً كان يثقل بالحجارة ويوضع ، وهو ثابت في إيمانه يقول : أحد أحد .

وبلال ذلك الأسود الذي كان عبداً محتقراً عند سيده يعذبه لإيمانه ، أصبح إماماً من أئمة المسلمين ، قال عمر في حقه : « إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

هذا الإسلام الذي حول المسلمين إلى هذه الصفة الإنسانية الحرة الكريمة التي أصبحت تبحث عن الخير ، وسأل أحد أبنائها النبي ﷺ : « أي الإسلام خير ؟ » .

١٧ - هذا السؤال الذي ينم عن وعي ، والذي لا يصدر إلا في مجتمع يؤمن بالله ويعمل بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، مجتمع يدرك معنى الحرية وأنها لا تتعدى الحدود الشرعية ولا تتجاوز ما أباح الله للإنسان ، يعلم أن الحرية كما قلت صفة سلبية ، تلجم الإنسان ، فلا

المحاضرة الثالثة

٩٣

يكون كالماعز التي تدخل أرضاً فيها الكلاً والمرعى فلا تبالي أي زهرة أو نبتة أصابت ، لا يجرها عنها إلا الراعي بعصاه ، بل يكون ذا ضمير يردعه ونفس مؤمنة تزجره ، ذلك مجتمع الإسلام .

والإسلام في اللغة يعني الاستسلام أي الطاعة والخضوع لأوامر الباري ﷻ ، استسلام الواعي العارف بما يأتي وما يذر ، ويقابله الجهل ، فالإسلام مقابل الجاهلية والمسلم غير الجاهل .

وليس المقصود بالجهل عدم العلم ولكن الوحشية ، والنمرة السلالية والعنجهية التي كان العرب في جاهليتهم يتصفون بها ، ولذلك قال النبي ﷺ لأبي ذر حين عير بلالاً بنسبه : «إن فيك خصلة جاهلية» .

وقال عمرو بن كلثوم في معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجاهلية هي الوحشية وهي التي سماها النبي ﷺ في الحديث بالحمية فقال : «إن الله أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالأنساب ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود ولا على أحمر إلا بالتقوى»^(١) ، قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] . هذا هو الإسلام ، والمتصفون به هم المسلمون ،

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥ ، ٣٩٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه ،

بطرفه الأول . قال الترمذي : «حسن غريب» .

وأخرجه أحمد في «المسند» (٤١١ / ٥) ، والحاثر بن أبي أسامة في «المسند» (٥١ -

زائد) عن سمع خطبة النبي ﷺ ، بطرفه الأخير . قال الهيثمي في «المجمع» (٣/

٢٦٦) : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» .

وفي الاستسلام طمأنينة وأمن فهو سلام كما أن في الإيمان معنى السلام لا اشتقاقه من الأمن ، قال الصحابي للرسول : «أي الإسلام أفضل؟» ، والإسلام ليس فيه فاضل ولا مفضول ، فالمقصود أي أعمال الإنسان في الإسلام أفضل؟ وهذه الأعمال لا تفضل بذاتها وإنما تفضل بالنفع الذي يحصل منها ، فلذلك أجاب النبي ﷺ بقوله : «إطعام الطعام ، وإفشاء السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف» ، أو تطعم الطعام وهو كما قال الشراح على تقدير : «أن» ، وعليه فيقرأ بفتح الميم كما تضم تاء المضارعة ، ويمكن أن يقرأ بضم الميم على طريقة : تسمع بالمعيدي خير من أتراه ، واللغتان صحيحتان ، ويمكن أن يقدر : أنت تطعم ، وأنت تسمع بالمعيدي .

إطعام الطعام :

١٨ - من المعلوم أن الإسلام يحث على إطعام الطعام للفقراء والمساكين ، ولم يبذل النبي ﷺ جهداً بعد نشر الإيمان والتوعية به بقدر ما بذله في سبل إزالة الفقر عن المسلمين وتحسين أحوالهم المادية والمعنوية .

وأول شيء نبهنا إليه هو أن لا ننظر إلى الدنيا على أنها شر ، وأنه يجب الزهد في كل ما تحتوي عليه ، لا نتمتع بشيء من خيراتها ، بل إنه على العكس من ديانات أخرى حثنا على التمتع بخيرات الدنيا ، وقال لنا : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، أي هي للذين آمنوا ولغيرهم من الكفار في الحياة الدنيا ، وهي لهم وحدهم خالصة يوم القيامة . وقال لنبيه ﷺ : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ﴾ [التحریم : ١] .

فالإسلام يأمرنا بالكسب والسعي لنيل نصيب من الدنيا ونصيب من الآخرة ، ويدعونا إلى عدم الاستبداد بما نكسبه من مال بل نعتبر ذلك إحساناً من الله لنا يستوجب منا أن نحسن إلى غيرنا ، قال تعالى : ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص : ٧٧] ، وقال سبحانه : ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٨ ، ٩] .

ويحثنا الإسلام على الإطعام في كل الأوقات ، ويتخذ لذلك تشريعات مهمة بعضها واجب وبعضها مندوب ، وبعضها واجب وجوباً وقتياً . فقد شرع الزكاة الإلزامية ، والإسلام أول من شرعها لإصلاح حالة المجتمع والقضاء على الفقر ، إذ لم تكن الصدقات من قبل إلا اختياراً حتى جاء الإسلام فجعل في مال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، وهي واجبة في المسائل السبعة المذكورة في كتب الفقه بمقاديرها وأنصبتها .

واختلف العلماء فيما وراء ذلك ، وقال بعضهم : إن المسائل السبعة إنما هي أمثلة لما تجب فيه الزكاة ، والحقيقة أن من الصعب القول بوجوب الزكاة في القمح وعدم وجوبها في القطن ، مع أنه شكل واحد للإنتاج ، والثمرة المادية واحدة ، ولذلك وسع جماعة من العلماء مواضع الوجوب للزكاة واستقرءوها حتى أبلغوها نيفاً وأربعين نوعاً ؛ منها التجارة والفلاحة وملكية العقار وغير ذلك . أما المالكية فيقولون : إن الزكاة الواجبة هي ما ذكره الله في كتابه ، وهي المعروفة لدينا في ما نؤدي عنه الزكاة والعشر .

ونقول بعد : إن في المال حقاً غير الزكاة ، وقد ثبت في الحديث : أن في المال حقاً غير الزكاة ، والظاهر أن هنالك حالة يكون الواجب فيها على

المسلم هو الزكاة ، وذلك حينما تكون الحالة الاجتماعية حسنة ، والاقتصاد سائرا سيره الطبيعي ، والشعب كله مكفي المئونة ، وليس هنالك ما يهدد بيضة المسلمين ويمس حريتهم ، وهنالك حالة تكون الحاجة فيها ماسة إلى مزيد من الدخل العام لبيت المال ، إما لظروف اجتماعية كمجاعة أو جفاف أو بطالة ، وإما لتهديد خارجي يستوجب الدفاع ونفقاته ، حينئذ يجوز لمن ولاه الله أمر المسلمين أن يفرض أداءات أخرى ، ويوجب على القادرين مغارم على نسبة الحاجة الماسة ، نص على ذلك الإمام الشاطبي صاحب «الموافقات» ، وهو من الفقهاء الممتازين المجهولين ويا للأسف من كثير من المسلمين ، ولا يهتم بدراسة آثاره ومعرفة ترجمته والمجهودات التي بذلها في سبيل الإصلاح الديني إلا القليل من رجال الفكر والعلم . مع أن كتابه «الموافقات» من أعظم المؤلفات في الأصول حتى لو قال قائل : إنه وضع علما جديدا للأصول لكان مصيبا ، إنه في هذا الميدان بمثابة ابن خلدون في علم الاجتماع ، وكلاهما بقي عمله بكرة لم يجد من يواصله ، ويعنى بالزيادة به أو النقص أو التنقيح ، وتلك ظاهرة من ظواهر التخلف الذي أصاب المسلمين ينبغ فيهم نوابغ ولكنهم لا يستفيدون منهم .

المقصود أنه يمكن لولي الأمر أن يفرض من الجبايات ما فيه مصلحة المسلمين بشرط أن ينفق ذلك في المصالح العامة أو في تحسين أحوال الفقراء والمساكين ، إذ الإسلام يفرض على الدولة ضمان الأقل الحيوي لكل إنسان ، فقد رويت لكم أن عمر كان يقول : «لو باتت ناقة جائعة في الخلاء لسئل عنها عمر» . فالإسلام لا يسمح بشعب جماعة وجوع أخرى ، بل على من وجد وسيلة الشعب أن يشاطر أخاه الجائع ، ولأمر المؤمنين أن يفرض من الضرائب ما يستوفي به هذا الحق ، وأن يحجز من الدخل

القومي ما يخصصه للضمان الجماعي ، إذ الضمان الجماعي في الإسلام ليس خاصًا بالعمال ولا بالعاطلين ، ولكنه شامل لجميع أفراد الأمة . وقد قال النبي ﷺ : «طعام الواحد يأكله الثلاثة» ، فمن في بيته طعام يكفيه يلزمه أن يقاسمه عند الحاجة اثنين آخرين .

وهذه مسائل معروفة في كتب السنة والفقه لا حاجة للإطالة فيها ، ومذهب مالك على الخصوص واسع في هذا الميدان لا سيما فيما يرجع للملكية العقارية التي تدل روايات عن الإمام أنه كان يقول : إن ملكية العقار مباحة للأشخاص ، ولكن يجب على المالك أن يزدرع العقار بنفسه أو يسلمه لمن يزدرعه ، ولا يجوز له إكراهه بالمال ولا إعطاؤه بطريق المخابرة أي ببعض ما يخرج منه ، ولأمر المؤمنين أن ينتزع الأرض من يد مالكيها المهمل لها ويسلمها لمن يزدرعها ويتنفع بها دون تفويت للملكية الأصل على صاحبها ، والإسلام لا ينكر حق الملكية ولا يعتبرها مثل الاشتراكيين وظيفة اجتماعية بل لها وظيفة اجتماعية ، والفرق بين الأمرين أننا إذا اعتبرنا الملكية وظيفة اجتماعية بنفسها لم يصح لنا إزالتها أو نزعها أما حينما نقول : إن لها وظيفة اجتماعية ، فإننا نعتبرها مؤسسة لهذه الغاية فإن قامت بها فذلك وإلا استبدلنا بها نظامًا آخر ، والإسلام لا يقول بأن هنالك حقًا طبيعيًا وإنما هنالك جعلية ؛ لأن الطبيعة لا تعطي شيئًا ، وهي إذا تركت على طبعها لم يكن لها إلا ما يشبه الأدغال والغابات العذراء التي لا تدع لمار منفذًا . فلا بد من تشذيب الطبيعة وإزالة الأشواك منها ، والمسلمون اليوم حينما يقولون : هذا حق طبيعي إنما يضاھون قول الذين كفروا من قبل ، جهلاً منهم بحقيقة الإسلام ، فليس هنالك شيء طبيعي ، وإنما هنالك شيء شرعي ، الحرية نفسها عطاء شرعي أي مكتسب بالشرع .

وكذلك الأخلاق ، فالمحبة لم تكن من طبيعة البشر في بداية أمرهم كما أثبت ذلك علماء الأنثريولوجي ، ولم تكن الأم تحب وليدها بل تخاف منه ، ولا الولد يحب أبويه ، حتى نزل الوحي ووصى المؤمنين بالأبوين والأبناء ، ولو أن الأمر كان طبيعياً ما احتاج الدين للاهتمام به ، ولكن الناس تعلموا الدين وتخلقوا بتعاليمه حتى صار ذلك ممتزجاً بهم فعدوه طبيعياً ، والعادة كما قيل طبيعة ثانية ، وكم احتاج الإنسان من تربية وتوجيه حتى أصبح على هذا الشكل الحضاري الأخلاقي الذي نراه اليوم ، وصدق المثل القائل : «الله أعلم بمن أهبطها من الجبل» .

من أهداف المسلم : ضمان الطعام للناس :

١٩- وفي الأمر بإطعام الطعام إرشاد للمسلمين ليكونوا رسلاً لبث هذه الدعوة المحمدية إلى ضمان القوت للناس ومقاومة الجوع والعري في الدنيا ، لقد أصبح المالكون ذوو الثروات الضخمة في أوروبا وأمريكا يزعمون أن العالم قد ضاق بالسكان ويشيرون بتحديد النسل مبشرين بمجاعات تقع في السنين المقبلة وهم في الواقع مغرضون ، همهم ستر أمرهم والاحتفاظ بثرواتهم ، فقد أثبتت الإحصاءات الدولية لمنظمة التغذية العالمية أن مكنات العالم تتضاعف وستزيد في المستقبل على ما هي عليه اليوم ، وإن في الدنيا من الأطعمة ما يكفي سكانها ، وتصرف في أمريكا عشرات الملايير لإحراق البطاطا ، وفي المدة التي بين ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، صرفت روسيا وأمريكا في صنع القنبلة الذرية ما يربو على التسعمائة مليار من الدولار ، وتقول المنظمة الدولية : إن هذا القدر كاف للنهوض بالشعوب المتخلفة في العالم كله ، فالتجوع والحرب ناتجان في العالم عن تكوين الثروة في يد الكبار لتكون أمة أكبر من أمة ودولة أغنى من غيرها ، وقد أمر القرآن بتوزيع الغنائم بين الناس لئلا تكون دولة بين

الأغنياء؛ فالإسلام لا يقبل أن تصبح غاية الناس أن تتفوق جماعة على أخرى، وأن تجوع طوائف لتشبع طائفة، بل يريد أن يكون الناس سواء في التمتع بالحياة والاستفادة من خيراتها، متضامنين في حلو الحياة ومرها، وقد أوضح القرآن أن قتل النفس الواحدة بغير حق كقتل البشر كله، وإحياء النفس الواحدة كإحياء أمم الأرض جميعها، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وإطعام الطعام إحياء للناس وتجويع بعضهم تفويت لحياتهم.

ومن دلائل هذا الحديث وجوب قيام المسلمين بتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية، وتزعمهم العمل على أن يكون ما خلقه الله للناس كافة، وتنظيم العمل الدولي لضمان التغذية العامة للناس، وتنظيم العمل كذلك على إيصال كل واحد ما ينوبه، رسالة على المسلمين أن يؤدوها، ومن ضمنها مقاومة الاحتكار وكل سياسة تؤدي إلى إشباع فئة على حساب أخرى.

ومما زعمه المترفون أن الأرض ضاقت بالسكان مع أن الإحصاءات الرسمية للمنظمات الدولية تبين أن متوسط السكان في كل كيلو متر اثنين عشر شخصاً، مع أن هولندا يقطن في كل كيلو متر منها ألف شخص، إذن يسع الكيلو متر الواحد ألف شخص، وشتان بين ألف وبين اثنين عشر شخصاً، فلا ينبغي أن نتحدث عن ضيق العالم قبل أن يمتلئ كل كيلو متر مربع منه بألف من الناس، وإلى أن يقع ذلك سيكون الله قد هدانا للمخرج، وربط بيننا وبين مناطق كونية أخرى، أليس هو الذي يقول: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، فالقمر والنجوم والكواكب مسخرات بأمره وليس علينا إلا أن نعمل.

المال مال المسلمين:

٢٠- قالوا: إن القصد من إطعام الطعام الذي أمر به الحديث الحث على الصدقة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [١١٠] إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿[الإنسان: ٨، ٩]، وقوله ﷺ: ﴿فَلَا أَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ﴾ [١١١] وَمَا أَذْرُكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿[١١٢] فَكَ رَقَبَةٍ ﴿[١١٣] أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿[١١٤] يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿[١١٥] أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿[البلد: ١١-١٦].

وكل هذا صحيح، فالصدقات مطلوبة، والزكاة واجبة، ولكن لا ينبغي للناس أن يعيشوا على الصدقات، بل على الحقوق التي أعطاها الله لهم، ولما قال معاوية: إن المال مال الله، قال له أبو ذر: لا، المال مال المسلمين. أي يجب أن يعطى للمسلمين ويصرف في مصالحهم، في ضمان أكلهم ولبسهم وسكنائهم وأمراضهم وعلاجهم، على الدولة أن تضمن الأقل الحيوي للجميع، ثم يبقى بعد ذلك لمن كد واجتهد أن يستفيد من نتيجة عمله وكسبه.

الإسلام لا يمنع الإنسان من الكسب ولا ينزع عنه ماله بغير حق، وإنما يطلب منه الإنفاق أي عدم احتكار المال وادخاره، قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والغفو هو الفاضل عن حاجة الإنسان، وليس المقصود بالإنفاق فيما أفهمه من هذه الآية بذل المال الفاضل كله عطاء لا رجعة فيه، ولكن إخراج المال ليروج ويدور، فالقصد الإسلامي هو أن لا يدخر المسلم المال الفاضل عن نفقته ونفقة عياله.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، لقد قال المفسرون وكل المجتهدين: إن هذه الآية توعد لمن منع الزكاة، وأن الكنز مع أداء الزكاة واجب، وقال أبو ذر: إنها دالة على منع كسب ما زاد على نفقة الإنسان، وروي في المعنى حديث مرفوع للنبي ﷺ: «اجعل المال درهمين: درهما تنفقه لعيالك، ودرهما تقدمه لآخرتك، الثالث يضررك ولا ينفعك لا تريده»^(١).

فالمقصود بالإنفاق وعدم الكنز، إخراج المال وترويجه ليسير في سبيل الله ينفع كل من يمر بيده، فالإسلام لا يفرض علينا أن نتصدق بجميع مالنا، ونزهد فيه ونعيش عيشة الفقراء، وإنما أمرنا أن لا نترك المال في يدنا دون أن نستعمله، ومن غير أن نوظفه وقد حرم الشارع الربا؛ لأن كسب الفائدة من الادخار يؤدي إلى الكنز المحرم، وأوجب الزكاة في المال الذي يدور عليه الحول دون أن ينفق؛ لأن ذلك يشجع على إخراجهِ وترويجه، إذ الزكاة تنمي المال، والربا يمحقه.

والخلاصة أن الحديث يجعل من خير الأعمال أن نطعم الطعام بأنفسنا، وندعو القادرين عليه، ونحارب الجوع حتى يتمتع كل إنسان بالحرية وطيب الحياة، وهذه هي الشعبة الأولى، أما الشعبة الثانية فهي التي تدل عليها الفقرة الأخيرة من الحديث، وهي قوله ﷺ: «قراءة السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف»، أما شراح الحديث هنا فهم لا يخرجون

(١) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩٠٤) من طريق حنش الكتاني، عن أبي ذر رضي الله عنه، وفيه: «وزاد غيره» ثم ذكر الحديث، ولم يصرح باسم صاحب هذه الزيادة. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٥) من طريق الثوري، عن أبي ذر.

بالسلام عن التحية ، كل ما يروونه دالاً عليه أن يطالب المسلم بمبادأة أخيه بالسلام بأن يقول له : «السلام عليكم» ، سواء عرفه أو لم يعرفه ، والتصرف اللغوي في قراءة السلام ، أنك إذا أردت أن تقول لأحد : بلغ السلام لفلان . تقول له : اقرأ على فلان السلام . وإذا كتبت له تقول : اقرأ لفلان السلام ، والسلام بهذا المعنى تحية المؤمن في الدنيا وفي الآخرة ، وهو مشتق عن الإسلام ، والمقصود به الطمأنينة والهناء ، فأنت تبادر حينما تلقى أخاك بتأمينه وطمأننته ، وقد حثنا الشارع في أحاديث كثيرة على تبادل التحية ، وقال عليه السلام مبيناً قيمة الفعل : «يعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» ، والغرض هو عدم التقاطع وتبادل المحبة والوئام واستعمال الوسائل المؤدية لذلك ، ومن جهلتها أداء السلام ورده بأحسن منه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء : ٨٦] ، والسلام المذكور في الحديث يشمل التحية قطعاً ولكن لا يخصها وحدها وإنما يجعلها وسيلة من الوسائل الموصلة لغاية أسمى وأعلى وهي نشر الأمن بين الناس ، وهذا ما يلزم أن نفصل القول فيه :

٢٢ - دعوة الإسلام للسلام :

لكي نفهم تعاليم النبي ﷺ على حقيقتها ينبغي أن ندرك أنه جاء داعياً إلى دعوة لم يتقدم لها مثيل في تاريخ الرسل والمصلحين ، إنه لم يكن بدعاً من الرسل ، جاء بالعقيدة والأصول العامة التي جاءوا بها ، ولكنه جاء مبشراً بالرشد الديني وبختم النبوة ، فاشتملت دعوته على أشياء لا قبل للديانات بها من قبل ، في مقدماتها توحيد الإسلام ، فقد نظر الإسلام كيفما كان ، وفي أي مكان وجد ، فالعالم منظم من قبل الله تنظيمًا طبعيًا خاصًا ، ليس فيه فطور ولا اختلاف ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

كثيراً ﴿[النساء: ٨٢]، السماء مرفوعة على شكل عجيب، أفلاكها تدور طبقاً لنظام مرسوم وإلى أجل معلوم ومكان معلوم، وتسير البحار وحدها تتوالى مع بعضها ولا ينبغي أحدها على الآخر، والأشجار والجبال والروابي كيف وضعت على الأرض، ويعيش الإنسان في هذه الدنيا وهو منسجم نوعاً ما مع الطبيعة يبحث فيها ويستفيد منها، وقد أبان سبحانه في عدة آيات وأحاديث لا نطيل سردها، أن في الكون انتظاماً لا يزول، وتناسقاً لا يتخلف، وفي الوقت نفسه يبين الإسلام أنه لا تتخذ على الله عادة، إذ في استطاعته سبحانه أن يغير ما يشاء ويحول ما يريد، وقد جرت إرادته أن لا تبديل لكلماته، بذلك قضت حكمته، والمعجزة حينما تقع توافق سنة كونية يعلمها هو وحده، ليست خارقة للعادة بالنسبة إليه، ولكنها خارقة للعادة بالنسبة إلينا.

وتريد هذه النظرة الكونية من الناس أن يكونوا إخواناً وعلي الخير أعواناً منسجمين مع الكون؛ لأنهم جميعاً صنع الله وإخوان فيه، هو الذي أنشأهم وأعطاهم الخلافة في الأرض، فينبغي أن يتخلقوا بالسلام صفة البارئ ﷻ، ويدعوا إلى السلام، لا السلام الدولي فقط، بل كل أنواع السلام، سلام الضمير، أي السلام الباطني للفرد حينما يوحد الإنسان الله ويؤمن بصفاته وبرسالته ورسالته، يجد اطمئناناً لا تؤثر فيه دعوات التثليث والشرك، ولا يثيره قلق الذين يعبدون الشجر أو الحجر أو البقر، يؤمن بعقيدة سهلة فطرية يدركها العقل البشري وينسجم معها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ليس هنالك ألوهية لبشر ولا لحيوان أو نبات أو كوكب أو ملك، والرسول سبيل لنزول الوحي إلينا، بشر مثلنا يوحى إليه، إذا انسجمت هذه العقيدة مع الضمير زالت الأوهام والخرافات، وأصبح المرء مؤمناً بما وراء الطبيعة كما جاء به الدين، عارفاً أن كل بحث

أو تفلسف في شأنه عبث ، إنه الغيب الذي لا يمكن إدراكه إلا بالوحي ، ومن ثم سكت عنه المسلمون وانكبوا على ما في الشهادة يبحثونها ويجادلون فيها ، إنها ميدان العلم الذي نحن مكلفون بدراسته وتبادل الرأي فيه والجدل الطيب في مسأله . ذلك ما يرجع للسلام الباطني سلام الضمير ، سبله الإيمان ، وهديه الدين والعلم .

سلام المعاملة :

ثم يأتي سلام المعاملة مع بعضنا ، فقد طلب الإسلام منا أن يجب بعضنا بعضاً ، وفي الحديث القدسي : «طوبى للمتحابين من أجلي»^(١) ، وفي الكتاب العزيز : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، فكانت الصفة الوحيدة للمسلمين هي الأخوة ، ويطلب الشارع كل ما يؤدي إلى الحب وإلى الإخاء ، ومنه تبادل التحية وعبادة المريض ومواساة المنكوب والدفاع عن المظلوم والصلح بين الإخوان ، فإذا بغت طائفة على أخرى وجب التضامن مع المعتدى عليه حتى يرجع المعتدي لأمر الله ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] ، وهذا الإجراء الذي كلفنا به القرآن يدل على وجود تضامن جماعي بيننا ، بحيث لا يمكن أن لا نهتم بإقرار السلام بين الإخوان ، ولا يجوز لنا أن نترك الأمر يتفاحش حتى يؤدي إلى تحاقد مستمر أو حرب قاسية ، ولا شك أن العزم على الضرب على يد الظلم يستوجب من

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥٣) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٦) ، وعبد بن حميد في «المسند» (١٢٥) ، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٨٠) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، بنحوه . وصححه ابن حبان (٥٧٥) وغيره . قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٠) : «رواه مالك بإسناد صحيح» .

المسلمين قيام قوة دولية تستعملها سلطة عليا في سبيل إقرار القسط والقيام بالإصلاح بين المتخاصمين ، وهو نظام دولي ما تزال الإنسانية تتعثر دون الوصول إليه ، ولو وصلوا إليه لما بقيت هذه الحروب الأهلية والدولية ؛ لأن مجرد وجود قوة أكبر من القوات المحلية كاف في ردع من تحدته نفسه بالبغي والاعتداء .

السلام العائلي :

وبعد ذلك يأتي السلام العائلي ، وقد شرع الإسلام له نظام الأسرة ، وجعل الزوجات قائماً على المودة والرحمة وعلى اعتبار المرأة سكناً يسكن إليه الرجل وتطمئن بها نفسه كما تطمئن هي إلى صدره ، وعلى الرجل أن يقوم بشئونها واحترامها ، وكانت آخر وصاياه ﷺ وهو محتضر - فداؤه أبي وأمي - : « النساء وما ملكت أيمانكم » ، وفرض الإسلام على الرجل والمرأة أن يسلكا سلوكاً حسناً مع بعضهما ومع أقاربهما وأبنائهما ، وجعل الأمر شورى بين الزوجين في كل ما يتعلق بالبيت ، وجعل رئاسة الأسرة للرجل بشرط أن لا يتحكم أو يشطط في استعمال حقه ؛ لأن الشطط في استعمال الحق ممنوع ، وقد قال ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » ، فإذا لم تطب العشرة فقد شرع الإسلام الطلاق دون أن يترك الأسرة تتلظى في جحيم الخصومة ، على أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، فهو ضرورة تقدر بقدرها ، ويحرم استعماله تعدياً وظلماً أو لمجرد الشهوة ، وأباح المراجعة أولاً وثانياً ، فإن وقعت الثالثة فقد أبيحت المراجعة بعد أن تنكح زوجاً غيره ، وذلك دليل على رغبة الشارع في استمرار الزوجية ودوامها .

ومن وسائل السلام العائلي : تربية الأولاد والقيام بغذائهم وكسائهم وتعليمهم والاهتمام بأمورهم ، وعليهم البر بالوالدين والإحسان إليهما : ﴿إِذَا بَلَغْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا

تَنَهَّرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وفرض الإسلام حسن المعاملة للإخوة والإنفاق عليهم إن لم يكن عندهم ما يسد حاجتهم، بل أوجب ذلك على الأغنياء في حق الفقراء مطلقاً.

تلك سبل السلام في الأسرة اختصرنا القول فيها، وإلا ففيه مجال كبير.

سلام المجتمع:

ويأتي بعد ذلك سلام المجتمع، وهو في السلوك الحسن مع العموم ومجادلة المخالفين بالحسنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، والوفاء بالعقود للجميع، ثم في إقرار العدل الاجتماعي، وإعطاء الحرية للناس ليعبروا عن آرائهم، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر في استقامة وموعظة حسنة.

وسبيل السلام الاجتماعي مراقبة الباري ﷻ، واعتقاد أنه ينظر إلينا وإلى أعمالنا، وأنه يريد من أن نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا.

وبعد هذا نخلص للسلام في الحكم، فليس شرع الشارع الخلافة ووضع الحكومة في الأرض، إلا لتكون مدعاة للأمن ونفاذ حكم الله، وتدبير مصالح المؤمنين الدينية والدنيوية، وأحسن تعبير عن صفة الحاكم المسلم قول النبي ﷺ: «سيد القوم خادهم»، فالحاكم ليس مخدوماً بل هو الخادم للناس، وقيمة أمير المؤمنين ليس في القدرة على الاستبداد والظلم، ولكن في إقرار العدل وخدمة المواطنين والسهر على مصالحهم، وهو وإياهم في خدمة المجتمع وإعطاء كل ذي حق حقه، وكلنا راع وكلنا مسئول عن رعيته، كما في الحديث، فالمسئولية موزعة والحاكم الأعلى

أعظم مسئولية ؛ لأنه مطالب بالحرص على أن يقوم كل بواجبه ، وإمتاع كل واحد بحقه ، ونحن مسئولون أيضاً لأننا مطالبون بالحرص على أن يقوم الحاكم بواجبه ، ويؤدي مهمته .

السلام الدولي :

وأخيراً يأتي السلام الدولي ، وقد أشرنا إليه في البدء ، وقد عرفنا أن من مقاصد الإسلام العمل على نشر السلام في العالم والقضاء على الحروب ، وقد جاء الإسلام وفي الدنيا أنواع من الحروب ، فحرم الحرب في سبيل المال ، وحرم الحرب لأسر الناس واستعبادهم ، وحرم الحرب لمجرد إظهار الشجاعة والاستعلاء ، وحرم الحرب لأن تكون أمة هي أربى من أمة ، وهي الحرب التوسعية ، ولم يترك مباحاً من الحروب إلا حرب الدفاع حينما يهدد أمن العقيدة ، أي إذا تجرأ العدو على محاولة إكراه المسلمين على الكفر ، ومنع المسلمين من نشر دينهم وبث تعاليمه ، فحينئذ يجوز لهم أن يقاتلوا للذب عن حرية العقيدة ، قال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ [الحج : ٣٩ ، ٤٠] ، وقال عز من قائل : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۚ ﴾ [البقرة : ١٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ومع ذلك فإن هذه الإباحة للحرب موقوتة وضرورة تقدر بقدرها ، فإذا ظهرت سانحة للسلام وجب علينا أن نقتنصها ، ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٦١] .

ومن مقاصد الإسلام بذل السلام للعالم ، قال تعالى : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، إنه لنداء رباني لجميع الناس ، علينا أن نتأمله ونذكر مغازيه ، إننا نحن المسلمين مكلفون بتبليغه للبشرية ودعوتها إليه ، وبذله لها ، فمن مهمتنا أن نعمل على أن يقبل العالم تحالفًا دوليًا بتحريم الحرب في جميع الحالات ، وبقيام نظام دولي يحول دون وقوع الحرب واندلاعها ، ويضمن القوت للجميع ، وحرية الشعوب في أن تحكم نفسها بنفسها في الوقت الذي تدخل في السلم كافة ، في وفاق تضامني يحميها من نفسها ومن تحدثه نفسه بالاعتداء عليها .

ذلك معنى هذا الحديث الشريف الذي يبين أن أفضل الإسلام : إطعام الطعام ، وإفشاء السلام على من عرفنا وعلى من لم نعرف ، وهما قضيتان أساسيتان ، السلم والقوت ، شعبتان يجب أن نسلكهما وندعو الدول الشقيقة والصديقة والعدوة إليهما ، إن فيهما نجاة العالم وأمنه وازدهاره ، وفيهما بذور المحبة والإخاء ، ورحم الله عملاً فقد أضاف إليهما في روايته : الإنصاف من النفس ، لو أنصف الفرد من نفسه والقاضي من نفسه والمجتمع من نفسه والحاكم الأعلى من نفسه لزالت الحروب وزال الجوع ، وحل الأمن والرخاء في كل الدنيا .



المحاضرة الرابعة :

رؤية النبي ﷺ في المنام

«من رأى فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتمثل بي» ، حديث شريف

قصتي مع هذا الحديث النبوي طويلة تبدأ منذ أن كنا شتاتاً مبتدئين في طلب العلم ، ولم يكن لنا من مصدر لتلقي المعرفة إلا ما نسمعه من شيوخنا الأوائل رحمهم الله تعالى ، ثم كان هناك ما نسمع ويسمعه الكثير إلى يومنا هذا من أخبار ورؤية النبي ﷺ ، يعلن قوم أنهم رأوه وكثير ما نرى النشرات التي توزع من قبل بعض سدة الحرمين ، ومن قبل بعض المقيمين بجوار المساجد القائمين عليها ، ومن قبل الكثيرين من بعض الشيوخ المتصوفة من أصحاب الطرق نرى تلك النشرات التي يعلن فيها أصحابها أنهم رأوا النبي ﷺ في منامهم ، وأنه قال لهم كذا وكذا ، وأمرهم بكيت وكيت وكثيراً ما كنا نرى بعض المريدين من أتباع شيوخ الطرق يفعلون أفعالاً ويقولون : إنهم سمعوا من شيوخهم أنهم رأوا الرسول ﷺ في المنام وأنه قال لهم ذلك ، هذا كنا نسمعه كثيراً ويتردد في الأسماع إلى يومنا هذا .

هذه النشرات وأمثالها كانت مثاراً لتفكيري وكنت أرى أنه من الممكن أن يكون ما يقولونه صحيحاً كما أنه من الممكن أن يكون مستغلاً يستغل به أناس من هؤلاء سذاجة بعض السذج ، وكما أن الحديث النبوي الأصيل قد وجد فيه وضاعون وضعوا الحديث المكذوب على لسان النبي ﷺ رغم أنه القائل : «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ، فمن طريق الأولوية أن يوجد من يدعي أنه رأى الرسول ﷺ اعتماداً على الحديث النبوي الكريم ويكون ما قاله غير صحيح ولكنه

يستغل به العقول ؛ فالكذب في المنام هذا أسهل من وضع الحديث ، على أن هذه المشكلة كنت أرى أن من السهل التغلب عليها لأن العلماء الأيقاظ من الممكن أن ينبهوا الناس إلى أن هذه الرؤى التي تعلن لا يمكن أن نعتبر كل من يدعوها صادقين ، فمن الممكن أن يتولى العلماء تحذير الناس في هذا السبيل على أنه بعد أن قويت ضلوعنا في طلب العلم قليلاً وملكنا من مفاتيح المعرفة ما يمكن أن نستقل به في الرأي عن شيوخنا وما يمكن أن تتضح به مصادر العلم الأصيلة ونعترف منها ونكون لأنفسنا الأفهام الصحيحة .

الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الأحلام :

في هذه الحال كنت أواجه مشكلة أخرى ، تلك المشكلة هي أنه كيف نوفق بين هذا الحديث النبوي وبين ما يقرره فقهاؤنا من أن الأحكام الشرعية لا يجوز أن تؤخذ من الرؤى المنامية ، ويقولون : إن من رأى النبي ﷺ في المنام يأمره أو ينهاه لا يجوز له أن يفعل إلا بعد أن يعرض ذلك على أصول الشريعة وفقهها وأحكامها ، فإن وجد موافقاً عمل به ، وإلا لا يجوز له أن يعمل به .

ووجدت أيضاً أن علماء الحديث المحققين كابن حجر مثلاً كلهم أيضاً يتفقون مع الفقهاء فيما يقررون من أنه لا يجوز أن تؤخذ الأحكام من هذه الرؤى المنامية التي يرى فيها أصحابها الرسول ﷺ .

هذا قد أعاد المشكلة في نفسي ورأيت أنه لا بد من التوفيق بين ما يقرره فقهاؤنا المحققون وبين ما يوحى به ظاهر هذا الحديث النبوي الذي يصرح بأن رؤياه عليه الصلاة والسلام حق ، وبعد ما وجدت لنفسي التعليل

بالنسبة لموقف الفقهاء فقلت : إن الفقهاء لهم معذرتهم رغم صحة الحديث ، وإنه لا مجال للشبهة فيه ، فإن من المقرر ولهم أن يقولوا : إن طريق أخذ الأحكام الشرعية الذي تعبدنا الله سبحانه وتعالى به هو النصوص ، فالله تعالى إنما تعبدنا أن نأخذ أحكام شريعته من نصوص الكتاب والسنة ، ولم يجعل طريق الرؤى طريقاً لأخذ الأحكام الشرعية بقطع النظر عن صحة الحديث أو عدم صحته .

عند هذا الحد كان من الممكن أن نقف ، وأن نكتفي في هذا بالتوفيق الذي قام في نفسي ، ولكن كما نعلم أن الإنسان - تطلعة وولعه - لا يقف طموحه في الاطلاع عند حد ، وبذلك بقيت نفسي تتطلع إلى مزيد من التعمق والبحث عن معنى هذا الحديث وعن شموله ، وما يمكن أن نفهمه منه .

روايات الحديث :

فاتجهت عندئذ إلى استعراض الروايات ورأيت أن الطريق العلمي هو البحث أولاً في روايات الحديث والنظر في أسانيده وما يقوله الشراح .

ومن هنا اتجهت إلى تحقيق النص ورواياته فوجدت في باب : من رأى النبي ﷺ في المنام في «صحيح الإمام البخاري» أحاديث أربعة فيمن يرى الرسول ﷺ بدأها بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بي» .

وثانيها : عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي» .

وثالثها : عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «من رآني فقد رأى الحق» .

ورابعها : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «فمن رآني فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكونني» .

ووجدت عند مسلم أيضًا مثل ذلك ولكن جاء عنده في بعض الروايات اختلاف في بعض الألفاظ له أهميته في فهم الحديث فيما أرى كما سأبينه .

ففي الحديث الأول عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو : «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» ، جاءت الرواية عن مسلم فيها الزيادة التالية : «فسيراني في اليقظة أو لكانما رآني في اليقظة ، لا يتمثل الشيطان بي» ، ولولا هذه الزيادة عند مسلم لأمكن القول بأن حديث : «فسيراني في اليقظة» لا علاقة له بموضوعنا هنا ؛ لأنه وعد من الرسول ﷺ لمن لم يستطع من أصحابه اللحاق به في الهجرة ، وعد منه لهم بأن من رآه في المنام فسوف يلتقي به في اليقظة ، كما بينه وفسره شراح الحديث ، ولكن تلبيد أبي هريرة نفسه رضي الله عنه بقوله : «فسيراني في اليقظة ، أو لكانما رآني في اليقظة» ، جعل من الواضح أن هذا الحديث المقصود به ما ورد في بقية الأحاديث الأخرى حول الرؤيا وليس حول لقاء المستقبل للرسول ﷺ .

وجاء أيضًا عن أنس ، عند مسلم ، عن جابر رضي الله عنه مثل حديث أنس ولكن جاء في آخره : «فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي» ، بدلًا من قوله : «فإن الشيطان لا يتمثل بي» ، وفي رواية أخرى في مسلم ، عن جابر أيضًا رضي الله عنه : «إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي» ، هكذا : «أن يتمثل في صورتي» ، بدلًا من قوله : «أن يتمثل بي» .

وفي «صحيح الإمام الترمذي» روي عن عبد الله عن النبي ﷺ مثل حديث أنس رضي الله عنه وفي آخره : «فإن الشيطان لا يتمثل بي» ، ثم قال الإمام الترمذي بعده : وفي الباب عن أبي هريرة وأبي قتادة وابن عباس وأبي سعيد وجابر وأنس بن مالك الأشجعي عن أبيه وأبي بكرة وأبي جحيفة ، وقال الترمذي بعد ذلك : هذا حديث حسن صحيح .

هذا ما يتعلق بتحقيق نص الحديث ومختلف رواياته .

آراء الشراح في معنى هذا الحديث النبوي :

شراح الحديث النبوي لهم في تفسير هذا الحديث كلام كثير وتصورات عديدة ويمكن تصنيفهم إجمالاً إلى فريقين :

الأول : فريق المتحفظين أريد بالمتحفظين الذين يحددون المراد بهذا الحديث النبوي من هو المقصود به ، ويبينون بأن الحديث مقيد بأن يكون الرائي قد رأى الرسول ﷺ على صورته المعروفة ، فأما إذا رآه على غير صورته المعروفة ، كما لو رآه بلحية بيضاء مثلاً ونحو ذلك فإنهم لا يعتبرون هذه الرؤيا ، وإنما يعتبرون أنها رؤيا من الرؤى .

هؤلاء الفريق في طليعتهم محمد بن سيرين والقاضي عياض ، وهنا ينقل العلامة ابن حجر في «فتح الباري» تأييداً لهذا الرأي ببعض الأدلة فيقول : «إن الدليل على ذلك والمؤيد له ما أخرجه الحاكم عن عاصم بن كليب قال : حدثني أبي قال : قلت لابن عباس : إني رأيت النبي ﷺ في المنام قال : صفه لي ، قال : فذكرت الحسن بن علي فشبهته به ، قال ابن العباس : قد رأيته» ، قال ابن حجر : وسند هذا الحديث جيد .

وقال العلامة ابن حجر أيضًا : « قال القاضي عياض : يحتمل أن يكون معنى الحديث أنه إذا رآه على الصفة التي كان عليها في حياته لا على صفة مضادة لحاله ، فإن رأي على غير صفته المعروفة في حياته كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة ، فإن من الرؤيا ما يخرج على وجهه ، ومنها ما يحتاج إلى تأويل » .

الفريق الثاني : هم الموسعون أقصد بالموسعين الذي يرون خلافًا للفريق الأول أن هذا الحديث المراد به على عمومته وإطلاقه أن كل من رأى النبي ﷺ في المنام فإنه يراه حقيقة سواء كانت رؤياه إياه على صفته المعروفة أو على غيرها .

وفي طليعة هذا الفريق المازري والنووي ، وقد تعقب النووي في شرحه على صحيح مسلم ما قاله القاضي عياض فقال ما نصه : « هذا الذي قاله القاضي ضعيف ، بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كانت على صفته المعروفة أو غيرها كما ذكره المازري » .

لكن العلامة ابن حجر تعقب رأي النووي هذا وقال عنه : إن هذا الذي رده الشيخ - يعني النووي - تقدم اعتباره عن محمد بن سيرين وإمام المعبرين ، وإن الذي قاله القاضي - أي عياض - هو توسط حسن .

الرأي الذي انتهيت إليه واطمأنت إليه نفسي في فهم المراد بهذا الحديث النبوي الكريم أن كل من رأيتهم من المتحفظين كالإمام ابن سيرين والقاضي عياض مع تحفظهم واشتراطهم أن تكون الرؤيا موافقة لصفات الرسول ﷺ المعروفة وصورته المعتادة كلهم متفقون على أن الحديث ليس مقيّدًا بزمان ولا بأناس فكل من رأى الرسول عليه الصلاة والسلام في المنام ، وكانت صورته التي رآه فيها توافق أوصافه عليه الصلاة والسلام

المنقولة إلينا في الشرائع فإن رؤياه تكون صحيحة معتبرة وينطبق عليه الحديث النبوي .

غير أنني بعد تأمل كثير وتفكير طويل وتقليب الأمر على وجوهه رأيت أن هذا الحديث الشريف من النبي ﷺ خاص بعصر الرسول ﷺ وصحابته الكرام ، وليس لهم امتداد في الزمان ولا في الأشخاص .

ذلك أني رجعت إلى القواعد (أصول الفقه) في فهم الحديث وحكمتها فيه ، ورجعت إلى ما قاله الإمام الشاطبي رحمه الله في «موافقاته» في بحث طويل له عنوانه : إن الشريعة عربية ، وإن القرآن عربي . وهذا العنوان قد يوهم في بادئ ذي بدء أنه من البديهيات ، ولكن الإمام الشاطبي رحمه الله يشرح هذا شرحاً نفيساً ، ويبين كلاماً جديراً بأن يكتب بهاء الذهب ويقول : إننا يجب أن نفهم نصوص الكتاب والسنة على قواعد العربية لأنه عربي ، وقواعد العربية لا يجوز أن نحكم فيها أفهامنا وقواعدنا الطارئة واصطلاحاتنا ، وإنما علينا أن نفهم الكتاب والسنة وعلى كل عالم متبحر أن يفهمه كما يفهم نص القرآن والحديث ، والبدوي الذي يكون قابلاً في البيداء في خيمته وهو ابن اللغة وهو الحكم فيها فكما يفهم النصوص ذلك الأعرابي ، والبدوي في البادية في أصالته اللغوية يجب أن نفهم الكتاب والسنة بهذا الشأن لا أن نحكم فيه أي رأي فلسفي أو أي اصطلاح علمي طارئ أو أي مفهوم اعتدناه أو تكون لدينا .

لا يرى الرسول ﷺ إلا الصحابة :

ففي ضوء هذا المبدأ رأيت أننا إذا نظرنا في نص الحديث الشريف فقد قال الرسول ﷺ : «من رآني» ومعنى رآني : ياء المتكلم هنا تقع على ذاته الشريفة ، وذاته الشريفة هي ما عليه صورته وهيئته وحليته التي كان يراه

فيها أصحابه الكرام ، وعندئذ من الذي يمكن أن يرى النبي ﷺ على صورته كما هي في الحقيقة والواقع لا يمكن عقلاً أن نتصور أن أحداً يستطيع أن يقول : إنه رأى النبي ﷺ على صورته الحقيقية التي عرفه بها أصحابه إلا إذا كان من أصحابه الذين شاهدوه ، فأما من لم يشاهده ممن جاء بعدهم من الأخلاف ، ممن لم يشاهدوه وإنما تلقوا أوصافه بالتلقي والوصف مهما كانت أوصاف الرسول ﷺ التي نقلت إلينا تدل على كمال الخلقة والجسم والهيئة والجمال فإن هذه الصورة يمكن أن يتصورها ويتخيلها الإنسان بأشكال عديدة ، فمن رأى النبي ﷺ في المنام من المتأخرين الذين لم يدركوا زمنه ولم يشاهدوه لا يمكن أن يستطيع القول بأنه رأى الرسول على صورته ، وإنما يمكن أن يقول : إنه رآه في صورة تتناسب مع ما نقل من شأله عليه الصلاة والسلام ، وهذا يخرج عن مدلول الحديث فالرسول عندما يقول : «من رآني» يعني من رآني كما يعرفني بشخصي الذي أنا عليه وهيئتي وحليتي وليس أحد من هؤلاء الذين رأوه إلا الصحابة ولذلك وهذا يدل عليه - عندما رجعت إلى التوسع في تحقيق النصوص والروايات - يدل عليه قول الرسول عليه الصلاة والسلام في إحدى الروايات عن جابر : «فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي» ، فكلمة «صورتي» ، هنا لها أهمية عظيمة وهذا ما أشرت إليه سابقاً إلى أنني سأبينه فمستحيل أن يراه أحد على صورته التي لا يمكن للشيطان أن يتمثل بها إلا إذا كان قد رآه في حياته عليه الصلاة والسلام .

وعندئذ انشرح صدري لهذا المعنى ووجدت فيه الحل لكل مشكلة من مشاكل الدعاوى الزائفة التي يستغلها بعض الناس في دعواهم رؤيا الرسول ، وكثير منهم يظهر من أحوالهم أنهم غير صادقين .

وعندئذ انتهيت إلى النتيجة التالية وهي أن هذا الحديث النبوي مقيد بعهد الرسول ﷺ وصحابته الكرام وأن هذا الحديث النبوي ينتهي مفعوله بوفاة آخر واحد من الصحابة الكرام فبعد وفاة جميع الصحابة لم يبق مجال لأحد أن يقول إنه رأى النبي ﷺ على صورته فهو حديث موقوف لأسبابه المعروفة .

هذا ما اطمأنت إليه نفسي ، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون صواباً ، فإن كان صواباً فمن عنده ، وإن كان خطأ فمن عندي والله سبحانه وتعالى هو الموفق .

المحاضرة الخامسة :

المستحقون للصدقات

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

ذكرها الله تبارك وتعالى في تضاعيف الكلام على المنافقين الذين كانوا يشغلون بال المسلمين ، وذكرها للرد عليهم ، ولحسم أطماعهم التي كانوا يعتقدونها من أن لهم حقوقاً في الزكاة ، فرد الله تبارك وتعالى عليهم ذلك ، وبين أن لا حق لهم في هذه الصدقات التي يعيرون النبي ﷺ في قسمتها .

والقرآن إذ يضع هذه الآية التشريعية ، ويتكلم على جزئية من جزئيات التشريع الإسلامي ، يريد بذلك إصلاح الفساد الذي كان منتشرًا في العالم ، في التاريخ الذي بعث فيه النبي ﷺ ؛ ذلك أن المؤرخين أجمعوا على أن القرن السادس والقرن السابع الميلاديين كانا من أحط أدوار تاريخ البشرية ، فكانت الإنسانية تسير سيرًا حثيثًا نحو السقوط في الهاوية ، وكان الإنسان في هذا التاريخ قد نسي نفسه ، ونسي خالقه وفقد رشده ، ولم يبق لديه من التفكير ما يميز به بين الخير والشر وأصبحت الديانات السماوية لعبة بين يدي العابثين والمحرفين ، وفقدت كل مقوماتها ، حتى إن أصحابها الذين جاءوا بها لو بعثوا لما عرفوها ، وإزاء هذا الوضع الفاسد ، الذي كان منتشرًا آنذاك في الشرق والغرب ، بعث الله النبي ﷺ مؤيدًا بالقرآن الذي هو المعجزة الخالدة ، والذي لا يزيده مرور الأيام إلا قوة وإعجازًا .

مقاصد القرآن:

وإذا تتبعنا القرآن ونظرنا إلى مقاصده ، نجد أنه يهدف إلى غرضين اثنين :

*** الأول منهما :** هو الثورة على التقاليد الفاسدة ، التي كانت رائجة في ذلك التاريخ ، والتي كان الناس يقلدون فيها آباءهم ورؤساءهم من غير تدبر ولا تعقل .

*** والثاني :** هو إصلاح المجتمع إصلاحًا شاملاً سواء من ناحية علاقته بالله تبارك وتعالى ، أو من ناحية علاقته بالمجتمع ، وبهذا العموم الذي شمله القرآن من تناوله للناحيتين ، يخالف مفهوم الدين الإسلامي عند المسلمين مفهوم الدين عند الغربيين ، ذلك أن الإسلام جمع بين ناحية صلة العبد بخالقه ، وناحية صلة العبد بالمجتمع .

أما الدين عند الغربيين فإنهم وضعوه في دائرة ضيقة منحصرة ، فقالوا : إن الدين هو عبارة عن القواعد التي تربط الصلة بين الإنسان وبين خالقه ، كما قالوا ذلك في دائرة المعارف الفرنسية للآداب والعلوم والفنون ، هذه الدائرة التي وضعوا فيها الدين .

وأعتقد أن هذا التعريف إنما وضع بعدما فصلت أوروبا الدين عن الدولة ، ومن أجل ذلك عرفت الدين بأنه يخص علاقة الإنسان بالله ، ولا علاقة له بالمجتمع .

وتحقيقًا لهذين الهدفين اللذين أشرنا إليهما ، نرى القرآن قد تناول بالدرس والتدقيق العقائد والعبادات والأخلاق والحقوق ، تناول القرآن العقائد أولًا ، ذلك أن النبي ﷺ عندما كان بمكة أول ما اشتغل به هو إصلاح العقيدة ، ذلك أن العقيدة تتعلق بالقلب ، والقلب إذا صلح صلح

الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، لذلك كان أول ما فعله النبي ﷺ هو الاعتناء بالعقيدة ، وهذا الذي كان ينزل فيه الوحي غالباً في مكة .

ثم بعد ذلك تناول القرآن العبادات بالدرس ، وهذه العبادات تناولها هي أيضاً من جملة ما يتعلق بصلة العبد بخالقه .

ثم تناول القرآن الأخلاق ، ذلك أن الأخلاق هي روح العبادة ، فإذا لم تكن هناك أخلاق ، ولم يكن الإنسان يضبط نفسه سواء باعتبار علاقته بالله ، أو باعتبار علاقته بالمجتمع ، فإن عبادته كجسم بدون روح .

لذا يقول أبو العلاء المعري :

صل وصم وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له شهواته لم يلف بالمتماسك

إذن فالأخلاق هي روح العمل ، ولهذا كانت من جملة الأشياء التي تناولها القرآن بالدرس والتحليل ، وهذه الأخلاق تارة تكون متعلقة بالجانب الإلهي ، وتارة تكون متعلقة بالجانب الإنساني .

ثم بعد هذا يتناول القرآن الحقوق ، وفي تناول القرآن للحقوق نجد أن الحقوق التي تناولها القرآن بالدرس هي متعددة الجوانب ، فإننا نجد فيه القانون الدولي بنوعيه ، العام والخاص ، فيتناول مثلاً ما يقع بين الأمة الإسلامية وبين غيرها في الحرب ثم يتناول القانون الدولي الداخلي ، وذلك في تطبيق قانون الأمة على الأجانب ويتناول المسائل الجنائية ، وتنظيم الأسرة ، والتنظيم المالي الذي تعد الزكاة التي نحن بصدد الكلام عليها جزءاً من جزئياته .

الزكاة:

فما هي الزكاة؟ الزكاة بالمعنى اللغوي : هي النمو ، أما بالمعنى الشرعي : فقد وقع الاختلاف في التناسب بين المعنى اللغوي وبين المعنى الشرعي على ثمانية أقوال ، كما ذكر في التنبيهات ، إلا أن ابن رشد رجح بأنها اسمها زكاة ؛ لأن صاحبها يزكو ويعلو قدره عند الله تبارك وتعالى ، هذا باعتبار اللغة .

أما باعتبار المعنى الاصطلاحي ؛ فقد عرفها ابن عرفة بتعريفين : عرفها بالمعنى المصدري وعرفها بالمعنى الحاصل بالمصدر ، وبعبارة أخرى عرفها بالمعنى الاسمي ، وعرفها بالمعنى المصدري ، فعرفها بالمعنى الاسمي : هي جزء من المال شرط وجوبه لمستحقه بلوغ المال نصاباً ، هذا تعريف لها بالمعنى الاسمي ؛ لأنه قال : جزء من المال ، فأطلقها على الجزء المخرج ، ثم عرفها بالمعنى المصدري ، فقال : هي إخراج جزء من المال شرط وجوبه بلوغ المال نصاباً ، والإخراج فعل الفاعل .

هكذا عرفها ابن عرفة ، إلا أن تعريف ابن عرفة هذا يرد عليه ؛ لأنه ليس بمطرد ، ذلك أنه يرد عليه النذر المقيد ، كما إذا قال الإنسان إن اجتمعت عندي مائة درهم فلله علي درهم ، فهذا يدخل كذلك فيما قاله ابن عرفة ، فيصدق على تعريفه أنه غير مانع أو غير مطرد ، ومن شرط التعريف أن يكون مطرداً وأن يكون منعكساً ، أي جامعاً مانعاً كما يقول الأصوليون ، كما أنه يرد عليه أيضاً أنه قال : شرط وجوبه لمستحقه بلوغ المال نصاباً ، فيرد عليه أن النصاب سبب وليس بشرط ؛ ذلك أن السبب يؤثر بطرفين ، يؤثر بطرف الوجود ، وبطرف العدم ، بحيث يلزم من وجوده الوجود ، ومن عدمه العدم ، بينما الشرط إنما يؤثر بطرف العدم ، ولا يؤثر بطرف الوجود ، وهذا ينطبق على ملك النصاب ، فهو يؤثر بالطرفين يلزم من وجوده الزكاة ومن

عدمه عدم وجوب الزكاة، إذن فهو سبب وليس بشرط سنن إلا أن ابن عرفة تسامح في هذا .

ويؤخذ من قول ابن عرفة شرط وجوبه لمستحقه، أن الزكاة فيها عنصر الإلزام، بمعنى أن الله تبارك وتعالى أوجبها على الإنسان، وأنه لا بد له من إخراجها، وليست موكولة إلى نظره إن شاء زكى وإن شاء لم يزك .

وإذا كانت تشتمل على عنصر الإلزام فهل معنى ذلك أن تدخل في القانون بالمعنى الحديث إذ يعرفون القانون بأنه القواعد التي تضبط سلوك الأمة، التي وضع فيها ذلك القانون، ويجب على الكافة احترامها احتراماً تكفله السلطة بإيقاع الجزاء ولو أدنى الحال إلى القوة .

هذه هي القاعدة القانونية، فهي قاعدة عامة، يجب على الكافة احترامها، وهذا الاحترام تكفله السلطة، والسلطة توقع الجزاء على المخالف، ولو أدنى الأمر والضرورة إلى القوة، وهل هذه الحقيقة تنطبق على الزكاة، فتتوفر فيها هذه الشروط، يقول علماء القانون: إنهم إنما زادوا قيد حماية السلطة ليخرجوا من التعريف قواعد الدين، وقواعد الأخلاق، وقواعد المجاملات الدولية، فهذه المسائل الثلاثة، وإن كان فيها إلزام وفيها الجزاء، ولكن ليست السلطة هي التي تتولى تنفيذ ذلك الجزاء، فالإخلال بالدين إنما يتولى الجزاء عليه الله تبارك وتعالى، والإخلال بالأخلاق إنما يتولى الجزاء عليه الشعب أو الضمير، والإخلال بالمجاملات الدولية يرجع إلى المتعارف عليه بين الدول وماذا يستحق ذلك الإخلال .

فالزكاة هل هي من القواعد القانونية على هذا النظر، أو ليست من القواعد القانونية؟ أما على النظر الغربي فهي ليست من القواعد القانونية؛ لأن السلطة لا تتولى حمايتها، أما على نظر الإسلام فإن السلطة تتولى حمايتها .

ذلك أن الخلافة في الإسلام هي نيابة شخص عن النبي ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا .

فالإمام هو الذي يتولى حراسة الدين ، وهو الذي يتولى سياسة الدنيا ، إذن فالإنسان إذا أخل بالزكاة ، أو أخل بالصلاة ، أو بأي قاعدة من قواعد الإسلام ، فإن للسلطة أن تطبق عليه الجزاء ، وأن تعاقبه على ذلك ، وعليه فتكون الزكاة من القواعد القانونية على النظرة الإسلامية ، وإذا كانت الزكاة من القواعد القانونية في الإسلام بسبب إلزامها ، هل هناك من دليل يدل على ذلك من عمل السلف الصالح ، أو ما أشبه ذلك .

إن التاريخ خير شاهد على ما نقول ، فالنبي ﷺ عندما توفي وولي أبو بكر الأمر بعده ، وارتد من ارتد عن الإسلام ، قام أبو بكر بإشهار الحرب على المخالفين ، وعلى الذين منعوا الزكاة ، وقال قولته المشهورة : والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، إذن فالدين الإسلامي شمل القواعد القانونية عامة ، سواء كانت من ناحية الدين أو كانت من ناحية الأخلاق ، أو من أي ناحية من نواحي الحياة ؛ لأن الدين الإسلامي يجمع بين الدين والدنيا ، وليس خاصًا بناحية من النواحي ؛ لأنه سبق لنا أن قلنا : إن الغربيين إنما يخصصون الدين بالجانب الذي يتعلق بالله ، أما ما يتعلق بالمجتمع فهذا لا علاقة للدين به ، ولهذا يقولون : ما للدين والاقتصاد . هذه هي حقيقة الزكاة ، وما فيها من عنصر الإلزام .

بقي لنا بعد هذا أن ننظر الأموال التي تجب فيه الزكاة ما هي ؟ .

الحقوق الأخرى غير الزكاة:

بقيت لنا مسألة أخرى تتعلق أيضًا بالزكاة ، وهي أن الإنسان إذا أخرج زكاته فهل بقي عليه من حق في ماله ، اختلف الأئمة في هذا في عصر التابعين ، ثم فيما بعدهم فقليل : إن الإنسان إذا أخرج زكاته لم يبق في ماله حق ، فإذا أخرجها فلا شيء عليه ، وقيل : إن في المال حقًا سوى الزكاة ، وعلماء الحديث عندما يتكلمون على الحديث المضطرب يذكرون هناك حديثًا روته «فاطمة بنت قيس» ، قالت : سألت أو سئل رسول الله ﷺ عن الزكاة ، فقال : «إن في المال حقًا سوى الزكاة»^(١) هذا ما رواه عنها ابن ماجه وروى الترمذي : «ليس في المال حقٌ سوى الزكاة» بمعنى أنه إذا أخرجت الزكاة فلا صدقة فيه بعد ذلك ، هكذا روي هذا الحديث .

وقد ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام حديثًا آخر ذلك أنه قال : حدثنا معاوية بن مروان ، قال : حدثنا الضحاك بن مزاحم ، قال : نسخت الزكاة كل صدقة في المال ، هكذا يقول الضحاك بن مزاحم ، والضحاك ابن مزاحم هذا قال فيه ابن حبان : كل ما يرويه فيه نظر ، وليس ذلك لفسق فيه ، أو ما إلى ذلك ، وإنما لكونه لم يكن من أهل الحديث ، فلا معرفة له بالحديث ، ولهذا رد كل ما يرويه .

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٩ ، ٦٦٠) ، وابن ماجه (١٧٨٩) ، والدارمي في «السنن» (١٦٣٧) ، وابن عدي في «الكامل» (٤ / ١٣) من طريق أبي حمزة الأعور ، عن الشعبي ، عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، وقد اختلف في متنه . قال الترمذي : «هذا حديث إسناده ليس بذلك ، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف ، وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث قوله وهذا أصح» . وانظر «التلخيص الحبير» (٢ / ١٦٠) ، «تدريب الراوي» (١ / ٢٦٦) .

ثم عقب أبو عبيد على هذا قال ، وما قاله الضحاك هو مخالف لمذهب أبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأصحاب رسول الله ﷺ أعلم بتأويل القرآن ، وأولى بالاتباع ، قال : وهو مذهب طاوس والشعبي ، إذا ففي المال حق آخر سوى الزكاة .

وقد ذكر أيضًا أبو حمزة قال : سألت الشعبي قلت : إذا أدت زكاة مالي فهل يطيب لي؟ قال : فقرأ عليه الشعبي قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

ووجه الاستشهاد بهذه الآية هو أن الله تبارك وتعالى ذكر إيتاء المال لذوي القربى ، ومن بعدهم ، ثم بعد ذلك قال : ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ ، فلو لم يكن للزكاة معنى زائد على ما سبق لما كان لذكرها فائدة .

فثبت بهذه الآية أن في المال حقًا سوى الزكاة ، وقد وقعت مناقشة بمجلس سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه ، وكان حاضراً بالمجلس كعب الأحبار ، وأبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه ، فقال سيدنا عثمان : رأيت إذا زكيت مالي فهل علي بعد ذلك من شيء؟ فقال كعب الأحبار : لا ، ثم إن أبا ذر رضي الله تعالى عنه قال : تبًا لك أتعلمنا ديننا يا ابن الفاعلة ، ثم تلا عليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ، هذا ما يتعلق بأن في المال حقًا سوى الزكاة .

وهذه الحقوق التي في المال هي حقوق متعددة ، غير أن هناك من العلماء من إذا سئلوا عن موقف الإسلام من الفقراء يسرعون إلى ذكر الزكاة ،

فيقولون : إن الله تبارك وتعالى أوجب للفقراء الزكاة ، مع أن أهل العصر الحاضر يقولون : إن الزكاة إنما هي العلاج المؤقت للمجتمع المريض ، فالزكاة وحدها لا تكفي ، وإنما الزكاة هي بيان للقدر الأدنى الذي يجب على المسلم إخراجه .

وهناك حقوق أخرى كان المسلمون ينافسون فيها ، وكانوا يتصدقون وينفقون فيها ، يدل على ذلك ما وقع في غزوة تبوك وفي غيرها ، مما كان الصحابة فيه ينفقون أموالهم الطائلة ، فمنهم من يأتي بماله كله ، ومنهم من يأتي بنصف ماله ، على أننا إذا راعينا الظروف التي فرضت فيها الزكاة ، نرى أنها فرضت في ظروف كانت فيها موارد المسلمين متعددة ، فكان هناك الفيء والخراج والجزية ، ثم الزكاة .

فلو فرضنا أن هذه الأبواب كلها قد أغلقت وما بقيت إلا الزكاة فهل نأمر الفقراء أن يكتفوا في سد حاجياتهم بالزكاة ، ولو لم تف بها ؛ لأن الأبواب الأخرى قد سدت اللهم لا ، ولهذا يكون من حق الدولة أن تنظر في أن تفتح أبوابا أخرى إذا سدت بعض الأبواب كما في الخراج ، فينبغي للدولة أن تفكر فيما تسد به حاجيات الفقراء ، وحاجيات أصحاب الزكاة .



المحاضرة السادسة :

الزكاة في النظام المالي في الإسلام

تهييد :

هذا ما يتعلق بالحقوق التي في المال سوى الزكاة ، بقي لنا أن ننظر في وضع الزكاة باعتبار النظام المالي في الإسلام .

لا شك أن مسألة المال هي من المسائل التي اهتم بها العالم قديماً وحديثاً ، فمسألة المال هي من الضروريات الخمس ، أو الست على ما يقول الأصوليون عندما يتكلمون في مسالك العلة على المناسب الحقيقي ، فيتكلمون على هذه الضروريات الخمس ، التي يقولون : إن المثل قد أجمعت على وجوب المحافظة عليها ، إلا أن هذا الاتفاق قد تعقبه النووي ، وتعقبه الشوكاني أيضاً في كتابه «إرشاد الفحول» ؛ لأن من جملتها المحافظة على العقل ، يقولون : ومن أجل ذلك حرم الخمر في جميع المثل ، فقال الشوكاني : إنه راجع التوراة والإنجيل فلم يجد فيهما شيئاً من ذلك ، وقد راجعنا نحن التوراة والإنجيل باعتبار ما هو مترجم الآن فلم نجد فيهما نصاً يدل على تحريم الخمر ، إذن فدعوى الاتفاق ليست مسلمة .

وعلى كل فالمال هو من المسائل الضرورية التي تجب المحافظة عليها .

والمال في حد ذاته لا يوصف بخير ولا بشر ؛ لأن المال لا عمل له والقيمة التي يعبر عنها بالخير أو بالشر أو بالحسن والقبح إنما تكون في الأعمال ، أما كون الشيء جامداً ، ويوصف بالحسن والقبح ، إنما هو باعتبار انتفاع البشرية به ، فالمال بحد ذاته ليس بخير ولا بشر ، وإنما يعرض وصفه بالخير والشر باعتبار ما يجمع منه ، أو ما ينفق فيه .

والمسألة الاقتصادية في وقتنا الحاضر تشغل بال العالم ، وبالأخص بعد النهضة الصناعية التي وقعت في أوروبا ، وبعد الاتجاه المادي الذي حدث في أوروبا ، والذي أخرج الإنسان عن قيمته الإنسانية التي هي العقل ووضعه في وضع غيره من الحيوانات حتى صار لا يفكر إلا في ملء بطنه ، فتراهم يفكرون في رفع المعيشة أو ما إلى ذلك دون أن يتعرضوا للجانب الروحي الذي هو المهم في الإنسان ودون أن يتعرضوا لما يرقى مستواه العقلي ، حتى إذا ما تعرضوا له تعرضوا له عرضاً ليتوصلوا به إلى أغراضهم الدنيوية .

قلنا : إن المسألة المالية في عصرنا الحاضر تشغل بال الساسة وتشغل بال الاقتصاديين وبال الفلاسفة ، والأنظمة الاقتصادية الموجودة في العالم الآن ، والمشهور منها اثنان : النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي الشيوعي .

المال في النظام الرأسمالي :

أما النظام الرأسمالي فهو مبني على النزعة الفردية المطلقة ، وينبني على دعائم ثلاث من جملتها المصلحة الشخصية كهدف ، ومن جملتها الحرية التامة في أن ينتج الإنسان ما شاء وأن يملك ما شاء كيفما أراد كماً وكيفاً ، بحيث لا مراقبة ولا حفيظ عليه .

ومن جملة القواعد المنافسة الحرة ، فالمنافسة لا بد منها في اقتصاد النظام الرأسمالي ؛ لأن المنافسة هي التي تحفز الإنسان إلى العمل ، هذه هي القواعد التي تحفز الإنسان إلى العمل ، هذه هي القواعد التي بنى عليها النظام الرأسمالي اقتصاده .

المال في النظام الشيوعي؛

أما النظام الشيوعي فهو على النقيض من ذلك ، فهو يرى وجوب محو الملكية الفردية .

هذا من المسائل الأساسية في النظام الشيوعي ، كما أنه يوجب توزيع المستهلكات على جميع الناس حسب حاجاتهم ، كما أنه يوجب تحديد الإنتاج كمًّا وكيفًا حسب حاجيات المجتمع ؛ ذلك أننا إذا جعلنا الإنتاج حرًّا فإن ذلك يؤدي إلى تراكم السلع في السوق ، وهذا يسمى بالعرض ، وإذا غلب العرض على الطلب تنزل القيمة ، وإذا نزلت القيمة ، أغلقت المعامل ، وإذا أغلقت المعامل وقعت البطالة ، وإذا وقعت البطالة وقعت الفوضى في المجتمع ، وذلك مما يؤدي إلى الخراب ، هكذا تقول الشيوعية .

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ الشيوعية نجد أن أسبابها التي هيأتها هي الرأسمالية ، ذلك أن الرأسمالية نشأت ونشأ المذهب الرأسمالي بعد الثورة الفرنسية التي كان مثلها الأعلى : دعه يمر دعه يعمل ، فنشأت بعد ذلك الرأسمالية وكان قد سبقها في التاريخ في القرون الوسطى نظام الإقطاع وسبقها نظام النبلاء وغير ذلك من الأنظمة التي كانت من جملة النظم الاجتماعية .

فنشأت الرأسمالية بعدما نشأت النهضة الصناعية ، وهذه الرأسمالية جعلت المعامل الصغرى تندمج في المعمل الكبير ، فأدّى ذلك إلى تعطيل المعامل الكثيرة الصغيرة ، وهذا ما أدّى إلى وجود البطالة ، وأدّى وجود البطالة إلى وجود طبقة كادحة تعمل ليلها ونهارها ولا تجد ما تعول بها نفسها وعائلتها ، ووجود طبقة لا عمل لها ، ومع ذلك تعيش في رفاهية لا يمكن أن توصف .

فكانت الشيوعية كرد فعل للرأسمالية ، وقام ماركس وإنجلز بتأليف الكتاب الذي يسمى كتاب «رأس المال» وذكرنا فيه مبادئ متعددة يبنّي عليها الاقتصاد وكانت لهما وجهة خاصة سواء من ناحية التاريخ أو من ناحية الفلسفة فعندهم ما يسمى بفلسفة اليالكتيك أو الفلسفة الجدلية ، وهذه عندهم تنبني على ما يسمى في علم المنطق بمبدأ التناقض .

ومبدأ التناقض هذا هو أن يكون الشيء هو ولا هو ، ومبدأ التناقض هذا كان قديماً عند هيغل الألماني قبل أن يوجد ماركس ، إلا أن هيغل الألماني استعمله للدلالة على وجود الله تبارك وتعالى ؛ لأنه كان مسيحياً .

أما ماركس فإنه لم يستعمله في هذه الناحية وإنما استعمله لتحطيم الرأسمالية ؛ ذلك أنه قال : إن كل شيء يحمل نقيضه في نفسه ، فابتدأ من عصر الإقطاع ، قال : إن عصر الإقطاع كان يحمل نقيضه الذي سيحطمه في المستقبل في نفسه ، وهي طبقة النبلاء ثم طبقة النبلاء تحمل نقيضها في نفسها الذي سيحطمها فيما بعد وهي طبقة البرجوازية ، وهي الطبقة التي كانت من التجار الصغار ثم إنها لما تولت الحكم ارتقت إلى طبقة عليا فصارت من طبقة الأغنياء ، ثم إن هذه الطبقة تحمل نقيضها في نفسها .

والرأسمالية تحمل نقيضها في نفسها ؛ حيث إنه سيقوم عليها يوم من الأيام العمال ويحطمونها .

وبذلك تتحقق العدالة حيث يتولى الصعاليك والعمال أمور الناس وتسييرهم ، وتتم العدالة ولا يبقى هناك خلاف ونزاع بين الطبقات .

والذي نلاحظه هنا على ماركس هو أنه لا يطبق مبدأ التناقض تماماً ؛ ذلك أنه يطبق التناقض على الإقطاع وعلى النبلاء وعلى الرأسمالية ،

ولكنه عندما يصل إلى الشيوعية يسكت عن ذلك كأن الشيوعية خارجة عن هذا النظام، فهي لا تحمل نقيضها في نفسها.

النظام المالي في الإسلام:

هذا ما يتعلق بنظام الشيوعية، فما هو النظام المالي في الإسلام؟ لقد رأينا أن النظام الرأسمالي يحتفظ بالملكية الفردية ويجعل الحرية التامة للشخص أن يمتلك ما شاء وأن ينتج ما شاء، والشيوعية تدعو إلى محو الملكية، فما هو موقف الإسلام من هذين النظامين؟

سبق أن قلنا: إن الرأسمالية هي ناتجة عن الفردية المتطرفة، فالشيوعية ترى أن الفرد لا قيمة له وأن المعتبر هو الجماعة، والرأسمالية ترى أن الفرد هو كل شيء وأن الجماعة والحكومة ما وجدت إلا للمحافظة على صالح الفرد، هكذا ترى الرأسمالية والشيوعية.

لكن الإسلام يقف موقفًا وسطًا بين ذلك، فلا هو بالشيوعي، ولا هو بالرأسمالي، ولكن مع الأسف نجد أن بعض الناس يرمون الإسلام بأنه رأسمالي؛ لأنه يحافظ على الملكية، ونجد أن بعضهم الآخر يدافع عن الإسلام ويريد أن يزج به في الاشتراكية، مع أن الإسلام بعيد من هذا وذاك.

فالإسلام له اتجاهه الخاص، فلا هو بالشيوعي ولا هو بالرأسمالي، فهو يحافظ على الملكية الفردية، كما تقول بذلك الرأسمالية، ولكنه لا يوافق الرأسمالية على هذه الحرية المطلقة، بل يقيد هذه الملكية ويجعل لها قيودًا تارة بالمحافظة على المال، وتارة بالتخفيف من طغيانه، فهو يبيح الملكية الفردية التي تكون ناتجة عن مجهود الإنسان، وهذا أمر طبيعي؛ لأن مسألة محو الملكية الفردية ما هي إلا عبارة عن الرجعية القديمة ذلك أن الله تبارك

وتعالى عندما خلق البشر كما يقول علماء التاريخ كانت جميع الأشياء مشتركة ومشاعة بين الناس ثم بعد ذلك ابتداءً يقع التزاحم شيئاً فشيئاً ، فابتداءً أولاً تملك القبيلة ، ثم سرى بعد ذلك تملك العائلة ، ثم سرى بعد ذلك تملك الفرد ؛ فابتدأت الملكية يعترف بها شيئاً فشيئاً فتكون الملكية الفردية مرحلة من مراحل التاريخ البشري .

فالشريعة التي تريد إشاعة جميع الأشياء بين الناس ، تريد أن ترجع الناس إلى الوراء وإلى المرحلة التي كانت عليها البشرية في عصرها القديم ؛ لهذا لم يوافقها الإسلام على هذه النظرية بل جعل الملكية الفردية حقاً مشروعاً للإنسان الذي يكتسب الشيء من وجهه المشروع ، إلا أنه لم يجعل للإنسان الحرية الكاملة في كل ما يريد امتلاكه ، ذلك أن الإنسان خلقه الله تبارك وتعالى محبباً للتملك وهي غريزة بشرية في الإنسان لهذا لم يكلفنا الله تبارك وتعالى بجمع المال ، وإنما نجد النصوص التي توجهنا في المال كيف نجمعه وكيف نفقه من غير أن تكلفنا بجمعه ؛ لأن الغرائز لا يمكن أن يقع التكليف بها ، وإنما الذي يقع هو توجيهها وجهة حسنة ليتتفع بها الفرد والمجتمع ، لهذا قلنا : إن الإسلام أباح الملكية الفردية ووضع لها قواعد للمحافظة عليها ، ووضع قواعد من طغيان المال .



المحاضرة السابعة :

قواعد للمحافظة على المال في الإسلام

اختبار اليتيم :

فمن جملة هذه القواعد التي وضعها للمحافظة على المال اختبار اليتيم إذا بلغ ، بحيث لا يمكننا أن ندفع له أمواله إلا بعد اختباره ، هل آنسنا منه الرشد أم لا؟ ذلك أننا إذا دفعنا له أمواله دون أن نختبره يمكن أن يبذرهما وأن يرجع عالة على المجتمع فيتضرر هو في حد ذاته ، ويتضرر المجتمع أيضاً ؛ فلهذا أمرنا الله تبارك وتعالى بأن لا ندفع الأموال إلى المحاجر إلا بعد اختبارهم ، بقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَابْتَلُوا الَّتِي تَمْنَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء : ٦] .

تحريم الربا :

فالربا نص القرآن على تحريمه ، ونص النبي ﷺ على تحريمه أيضاً ، إن الربا يكون محرقة للأعمال ، ويكون مخرباً لها ، فالمرابي يصطاد حاجة الناس وحاجة الضعفاء ، فيأكل أموالهم بغير حق ، وذلك يلزمه تخريب الأموال ؛ لتقوم بها الأشياء ، لا لتكون هي مقومة في حد ذاتها ، فلهذا حرم الله تبارك وتعالى الربا ، وسنعود إلى هذه المسألة .

تحريم القمار :

ثم بعد ذلك وضع الإسلام قاعدة أخرى للمحافظة على المال ، وهي تحريم القمار ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْحِمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠] ،

فإن الله تبارك وتعالى حرم القمار ؛ لأن القمار قد يؤدي بالإنسان إلى الإفلاس في لحظة واحدة ، بعدما يكون غنيًا ، فتذهب أمواله ويرجع عالة على المجتمع ، وفي ذلك ضرر عليه وعلى المجتمع ؛ لهذا حرم الله تبارك وتعالى القمار .

الحجر على السفهاء :

ومن جملة ما شرعه الإسلام للمحافظة على الثروة أنه شرع الحجر على السفهاء الذين لا يحسنون التصرف في أموالهم ، فيجب أن نحجر عليهم ؛ حتى لا تلعب أيديهم في أموالهم دون أن يشعروا ويرجعون بعد ذلك عالة على المجتمع ، وإلى هذا يشير قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ [النساء: ٥] ، وقد عبر الله تبارك وتعالى هاهنا بقوله : ﴿ أَمْوَالَكُمْ ﴾ للدلالة على أن المال هو للسفهاء ظاهرًا ، ولكنه في الحقيقة مال الأمة ؛ لأن الأمة هي التي تنتفع به ، فإذا استقل الإنسان وعال ، رجع على الأمة فتضرر به ، أما إذا كان غنيًا فإن الأمة تنتفع به ؛ لأن الأمة تتكون من الأفراد فإذا صلح أفرادها صلحت الأمة .

تحريم الإسراف :

من جملة القواعد التي وضعها الله تبارك وتعالى للمحافظة على المال تحريم الإسراف في نفقة الأموال في غير وجهها وفيما هو زائد على حاجة الإنسان الضرورية والكمالية ، حرمه الله تبارك وتعالى .

وهناك كثير من الأمم تذهب أموالها إلى دول أوربا في العطل الصيفية وفي غيرها ، فالأموال التي تريد أن تنتفع بها الأمة في داخلها تذهب للبلاد الأوربية ، وهذا مع الأسف ما هو مخالف للدين الإسلامي ولمصلحة الأمة .

كتابة العقود :

ومن جملة المسائل التي أمر الله تبارك وتعالى بها للمحافظة على الأموال كتابة العقود ، ذلك أن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَأَكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، فأمر الله تبارك وتعالى بالكتابة للديون حتى لا يقع هناك نسيان ، وحتى لا تقع مشاحنات ، فيؤدي ذلك إلى التنازع بين الأفراد ، ويؤدي إلى التناكر ، فتضيع الأموال بسبب ذلك ، والله تبارك وتعالى لا يريد لأموال الأمة الإسلامية أن تضيع فأمرهم بالتوثق بالكتابة ، هذه كلها قواعد وضعها الدين الإسلامي للمحافظة على المال .

المحاضرة الثامنة :

قواعد تخفيف طغيان المال

الوصية :

وهناك قواعد أخرى وضعها للتخفيف من طغيان المال فنرى أن الله تبارك وتعالى أمر بالوصية -وأراد- وهذا ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٨٠] ، هكذا يقول الله تبارك وتعالى ، ثم يأتي العلماء بعد ذلك فيقولون : إن هذه الآية قد نسخت ، نسخها قول النبي ﷺ : « لا وصية لوارث » ، ولكن الذين يقولون بعدم النسخ يقولون : إن هذا من قبيل خبر الآحاد ، والقرآن هو متواتر ومن شرط الناسخ على الأقل أن يكون مساوياً للمنسوخ ، ومن باب أولى وأحرى أن لا يكون دونه ، فلا شك أن خبر الآحاد هو دون القرآن لأنه ظني والقرآن متواتر ، فلا يمكن أن ينسخه ، ولكن مذهب الجمهور هو جواز النسخ ، ذلك أن النسخ إنما هو متوجه للحكم ، والقرآن هو متواتر المتن ظني الدلالة فيما لم يكن نصاً في معناه .

إذن فيكون الأمر هنا من قبيل نسخ الظني بالظني ، ولكن أبا محمد ابن حزم في كتابه « المحلى » تعرض للمسألة ، وقال : إن الآية منسوخة في جانب ، ولكنها غير منسوخة في جانبها الآخر ، قال : ذلك أن النبي ﷺ قال : « لا وصية لوارث » ، فعلق نفي الوصية على وصف هو الإرث ، ولا شك أن تعليق الحكم على المشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق ، فيكون علة المنع هو الإرث ، فإذا لم يكن هناك إرث فالوصية لا تزال واجبة .

وعلى هذا ذهب مدونة الأحوال الشخصية المغربية حيث إنها أوجبت الوصية للأحفاد إلا أنه يرد على المدونة ها هنا سؤال وهو ما وجه تخصيص الحفدة من بين القرابة؟ أجاب على هذا أبو محمد بن حزم قال : إن الله تبارك وتعالى قال : ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ، وأقرب الأقربين هم الحفدة ، إذن فالوصية للقرابة غير الوارثين لا تزال على حكمها .

هذا من جملة ما فرضه الله تبارك وتعالى للتخفيف من حدة طغيان المال ؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يقبل على الله تبارك وتعالى وتصدق من ماله فإن ذلك ينقص من نصيب الورثة فيؤدي ذلك إلى التخفيف من طغيان المال .

الإنفاق في سبيل الله :

ومن جملة ما فرضه الله تبارك وتعالى للتخفيف من طغيان المال : الإنفاق في سبيل الله الذي كان يتصف به سلف هذه الأمة ، والذي كانت الأمة تتنافس فيه ، فالإنفاق في سبيل الله هو من جملة المسائل التي تخفف من حدة طغيان المال .

فالإنسان إذا أنفق في سبيل الله من ماله لا شك أن ماله ينقص ولكن نفسه تتهذب ، فلا يطغى عليه المال .

هذا من جملة ما شرعه الله تبارك وتعالى للتخفيف من طغيان المال .

تحریم الاكتناز:

ومن جملة ما شرعه الله تبارك وتعالى للتخفيف من طغيان المال تحریم اكتناز الأموال ؛ لأن ذلك يؤدي إلى طغيان المكتنز الذي يكتنز الأموال الطائلة ، ولأنه يفقد النقود معناها ، لأن النقود ما جعلها الله تبارك وتعالى إلا لتروج ، وما جعلها لتكون تحت التراب .

هذا ما شرعه الله تبارك وتعالى للتخفيف من طغيان المال .

الميراث:

ومن جملة ما فرضه الله تبارك وتعالى للتخفيف من طغيان المال أيضًا هو مسألة الميراث ، فمسألة الميراث إذا مات الإنسان وترك ثروة طائلة فإن ورثته يقسمونها وبذلك تصير الملكية الضخمة الكبيرة مجزأة إلى أجزاء صغيرة ، فيؤدي ذلك إلى التحديد من طغيان المال .

وإن كان (آدم سميث) كما اعتقد وكذلك (لورد كينز) الذي كان رئيسًا لصندوق النقد الدولي ينتقدان مسألة الإرث ، إلا أن الإنسان إذا أمعن النظر يرى أنهما ليسا على حق فيما يقولان ؛ لأن التعليل الذي يعلن به هو أن هذا الإنسان الذي يصل إليه المال يكون قد اكتسبه من غير عمل ، هذا كل ما هنالك ، ولكن ما دام اللورد كينز من بريطانيا أو ما دامت بريطانيا تحافظ على الملكية الفردية ، فإذا مات الإنسان وترك ثروته فإن تلك الثروة إنما يرثها عنه ورثته ، ولا معنى لأن لا يرثها ورثته وتذهب سدئى إلى ناحية أخرى .

الضمير:

هذه هي المسائل التي وضعها الله تبارك وتعالى للتخفيف من حدة طغيان المال ، ثم بعد ذلك هناك مسألة أخرى فوق ذلك كله ، ذلك أن الله تبارك وتعالى وضع هذه المسائل كلها ، ولكنه راعى في ذلك مسألة عليها صلاح الجميع ، وهي مسألة الضمير .

فالله تبارك وتعالى في كل جزئية يقع تشريعها إلا وينبه على ما للإنسان من الثواب إذا امتثلها ، وما عليه من العقاب إن خالفها ، وإن كانت محرمة ينبه على ما فيها من العقاب إذا هو فعلها ، وما له من الثواب إذا هو تركها ، فتكون جميع الأعمال راجعة إلى الضمير موكولة إليه ، وبذلك تكون أعمال الإسلام منوطة بالضمير مراعية له في جميع أحواله ، وفي جميع معاملاته .

المحاضرة التاسعة :

مصارف الزكاة

هذا ما يتعلق بمسألة النظام المالي في الإسلام، ثم بعد هذا بقي لنا أن ننظر في المسألة الأخيرة من درسنا هذا وهي مصارف الزكاة، وهي التي أشارت إليها الآية التي نحن بصددھا، قال الله تبارك وتعالى فيها: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، عبر الله تبارك وتعالى هنا بأداة الحصر، والحصر كما عند الأصوليين هو نفي الحكم عن المسكوت عنه، وإنما هذه وقع الاختلاف فيها، هل تفيد الحصر أو لا تفيده؟ فذهب ابن الحاجب والآمدي إلى أنها لا تفيد الحصر مدعين أنها مركبة من أن وما الزائدة، وهذه الأجزاء لا تدل على الحصر، فكذا المركب، وأجيب عن هذا بأن المركب قد يفيد ما لا تفيد أجزاؤه.

ولكن أبا إسحاق الشيرازي والغزالي وإلكيا والإمام الرازي ذهبوا إلى أنها تفيد الحصر، إلا أنهم اختلفوا في إفادة الحصر هل هو بطريق المنطوق، أو هو من طريق المفهوم، وعلى كل فإنها هنا أولى بها للحصر وللدلالة على أن المسكوت عليهم لا حق لهم فيما صرح به هنا، فالمسكوت عليهم الذين هم غير الفقراء لا حق لهم في هذه الزكاة.

نرى أن الله تبارك وتعالى هنا عبر باللام وأدخلها على الفقراء الذين يستحقون هذه الصدقة، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، بينما نجده عندما تعرض للخمس قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ

خُمْسُهُ وَلِلرَّسُولِ ﴿[الأنفال: ٤١] ، ويقول في الفبيء : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧] ، فلماذا لم يقل ها هنا : فله وللرسول وللفقراء؟ يؤخذ من هذا بأن مسألة الفبيء ومسألة الخراج وجهًا خاصًا لا يوجد في الصدقة ، ذلك أن مال الفبيء ومال الخراج هو مال أخذ من الكفار ليوزع على المسلمين الذين يستحقونه ، أما مسألة الصدقة فإنها مال المسلمين يرد على فقرائهم ، ولأجل هذه النقطة وقع التعبير في الخمس والفبيء بلفظ : ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ .

ووقع التعبير في الصدقات بلفظ للفقراء ، قال : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ ، وقول الله تبارك وتعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ، قال البيضاوي : هذا من قبيل حصر الجنس أي جنس الصدقات ، والله تبارك وتعالى علق الصدقات هنا على وصف الفقر ، وهذا ما يناسب قول النبي ﷺ : «أمرت أن أخذ الصدقات من أغنيائكم وأردها على فقرائكم»^(١) . فالذين يستحقون الزكاة هم الفقراء .

الفقراء والمساكين :

وستتبع هذه الأصناف لنرى هل كلها استحققت الزكاة بوصف الفقر أو هناك بعض الأصناف التي لم يوجد فيها وصف الفقر قال الله تبارك وتعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ ، اختلف في الفقير والمساكين قيل : إن الفقير هو المسكين والمسكين هو الفقير ، وهذا ما ذهب إليه صاحب «الأحكام السلطانية» فقال : إنها مترادفان ، وإذا كانا مترادفين فلماذا عبر عنهم أولًا بالفقراء ، ثم عبر عنهم بالمساكين ، قيل : إنه إنما عبر عنهم

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، مرفوعًا .

بالمساكين أخيراً إشفافاً عليهم ، وهذا مستعمل في اللغة العربية ، وإليه يشير قول الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

فقد أطلق عليهم هنا المساكين باعتبار الشفقة ، إذن عبر أولاً بالفقراء ثم أعيدوا بذكر المساكين من أجل الرحمة والشفقة ، وقيل : إنها متغايران ، وعلى تغايرهما فهل الفقير هو الذي يملك ما لا تجب فيه الزكاة ، والمساكين هو الذي لا يملك شيئاً ، أو العكس ؟ في ذلك اختلاف ، ولكن الذي عليه الجمهور هو أن الفقير هو الذي يملك ما لا تجب فيه الزكاة ، يدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ، فقول الله تبارك وتعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ﴾ لا يمكن أن يكونوا بهذه الصفة إلا إذا كان لهم من المال ما يتسترون به عن أعين الناس حتى يحسبهم الجاهل أغنياء ، إذن الفقير يكون مالكا لبعض المال ، وإلى هذا يشير أيضاً قول الشاعر :

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سد

فوصفه بكونه فقيراً ، ومع ذلك أثبت له الحلوبة إذن فالفقير هو الذي يملك بعض المال والمساكين هو الذي لا يملك شيئاً ، ولكن يرد على هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] ، فقد نسب الله تبارك وتعالى لهم السفينة ومع ذلك وصفهم بالمساكين .

وأجيب عن هذا بأن هذه السفينة إنما كانوا أجراء فيها ولم تكن مملوكة لهم ، إذن يتحقق من هذا مذهب الجمهور وهو أن الفقير هو الذي يملك بعض الشيء والمسكين هو الذي لا مال له ، هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ .

العاملون على الزكاة :

وقوله : ﴿ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ، فالله تبارك وتعالى علق إعطاء الزكاة ها هنا على وصف العمل ولم يعلقه على الفقر فوصف الذي استحق به هذا الشخص هو عمله على جمع الزكاة وعلى توزيعها .

ولكن ما هو القدر الذي يأخذه هل هذه الأصناف كلها تقتسم الزكاة فيما بينها؟ وهذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي ناظرًا إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ ، قال : إن فيه مقابلة الجمع بالجمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة على الآحاد كما هو مقرر في علم الأصول ، إلا أن الإمام مالكًا يرد عليه ذلك ويقول : إن هذه القاعدة الأصولية هي حق إلا أن سياق الآية يرد بعضهم دون البعض ، فهذا لم تتعرض له الآية ، لا من بعيد ولا من قريب ، فقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ، المراد ها هنا الذين يعملون على الزكاة .

والعاملون على الزكاة كانوا موجودين في زمان النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي زمن أبي بكر وفي زمن سيدنا عمر رضي الله عنه ، إلا أن مراقبة السلطة كانت تشملهم حتى لا تتسرب إلى أيديهم أموال الناس ، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أرسل رجلاً عاملاً ، ثم لما جاء قال : « هذا لكم وهذا لنا فقام النبي عليه الصلاة والسلام خاطبًا فقال : ما بال أقوام نوليهم

عملنا، ثم يأتون فيقولون: هذا لكم وهذا لنا، ما بالهم لم يجلسوا في دور آبائهم حتى يأتي لهم^(١)، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وسيدنا عمر رضي الله عنه كان عين محمد بن مسلمة لمراقبة عماله، فكان يراقبهم ويحاسبهم حتى إنه ذهب إلى عمرو بن العاص بمصر فحاسبه حتى شاطره نعليه، إن هذا ما كان يفعله سيدنا عمر رضي الله عنه.

ومن هنا يشرع قانون من أين لك هذا؟ فالإنسان الذي يتولى أموال الدولة ثم لا تمر عليه أيام وجيزة، حتى نجد عنده ما يساوي مرتبه أضعاف المرات، هذا ينبغي أن يعمل معه ما عمل النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا ما يتعلق بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِ﴾، ويستفاد من قوله: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِ﴾ أن الإمام هو الذي يتولى أخذها، إلا أنه ينب عنده.

المؤلفة قلوبهم:

قال: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ المراد بالمؤلفة قلوبهم هنا هم أقوام كان النبي عليه الصلاة والسلام يدفع لهم الأموال، وكانت هذه الأموال التي يدفعها تأليفاً لهم، فكان من هؤلاء الأقرع بن حابس وسعد الخير وعلقمة بن علاثة فكان النبي عليه الصلاة والسلام يعطي هؤلاء كلهم تأليفاً لهم إلى الإسلام، فهذا هو المراد بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ يعني الذين يتألفهم، إما بتألفهم للثبوت على الإسلام؛ إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام، أو بتألفهم ليدخلوا في الإسلام، أو بتألفهم للدعاية للإسلام.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢) عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

وإذا نظرنا في هذه المسألة نرى أن دولة الإسلام هي أول دولة خصصت قسطاً من ميزانيتها للدعاية؛ ذلك أن هذا القسط الذي هو قسط المؤلف قلوبهم من جملة ما يدخل فيه الأناس الذين كان يعطيهم النبي ﷺ لكي يدعوا للإسلام وينشروا الدعوة الإسلامية لصالح الإسلام، وليدخل فيه أناس آخرون، فيكون الإسلام قد سبق أوربا إلى هذه الناحية.

إلا أن مسألة المؤلف قلوبهم كان قد وقع الاستغناء عنها في زمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه، ذلك أن الأقرع بن حابس كان قد طلب من أبي بكر أن يقطعه أرضاً كانت عنده فأقطعه إياها، وكتب له بها عقدًا، فذهب إلى سيدنا عمر ليشهد له على ذلك، فأخذ العقد ومزقه، وقال له: إن النبي ﷺ كان يعطيكم تأليفاً لقلوبكم والإسلام ضعيف، أما الآن فالإسلام قوي، فإما أن تثبتوا على الإسلام وإلا فالسيف بيننا وبينكم.

وكانت هذه من جملة أوليات سيدنا عمر، فرأى أن يحذف هذا القسم، ولكن إذا نظرنا الآن إلى المصلحة نرى أن هذا القسم يجب أن يبعث من جديد، ذلك وفي بعض البلاد التي توجد فيها بعض الأقليات الإسلامية، يقاسون هناك من المبشرين، ومن العنصرية الدينية ما يقاسون.

فيجب أن يعاد هذا النصاب ليصرف إلى أولئك تأليفاً لهم، إما لأجل ثبوتهم على الإسلام رغم الاضطهاد الذي يلاقونه من الديانات الأخرى التي يعيشون وسطها، وإما جبراً لهم حتى لا يخرجوا من الإسلام إلى غيره، وهذا نحتاج إليه حتى في بلدتنا هذه، ذلك أن التبشير قد سلط على الشباب، وصار يزين له المسيحية.

مع أن هؤلاء المبشرين حسبما خبرناه منهم ، وحسب اجتماعاتنا بهم التي قد تكررت لنا في السنة الماضية ، وتجاوزت مدة العام لا يفقهون شيئاً ، لا عن ديننا ولا عن دينهم ، وإنما يريدون أن يفتنوا الشباب عن دينهم ، فقد كانت المناظرة بيننا وبينهم حول مسألة التثليث ، وتناظرنا حول مسألة العذراء وتناظرنا حول بعض المسائل التي تتعلق بالإسلام .

وأخيراً كان آخر سؤال ألقيناه عليهم هو مسألة الكتب السماوية ، هل يمكن لهم أن يثبتوا لنا بالحجج تاريخ كتبهم الدينية؟ وحضر معنا حتى بعض اليهود فكتبنا لهم كتاباً وأسئلة ، كان ضمنها أن يكتب اليهود عن كتابهم المقدس الذي يسمونه بالعهد القديم ، وأن يبينوا لنا تاريخه ، ومن كتبه ؛ ليتمكن لهذا الكتاب أن يثبت أمام البحث ؛ لأنه لا يمكن لنا أن نبحث في كتاب نجهل مؤلفه ونجهل من كتبه ، ونجهل الظروف التي تحف بتلك الكتابة كما أننا طالبنا من المسيحيين ذلك ، إلا أن الجواب كان سلبياً في الحال فلم يستطيعوا أن يتكلموا في هذا الموضوع وربما نكون نحن أعلم بهذا لأننا قد طالعنا حسب ما وصل إلينا من تاريخ المسيحية ومن تاريخ اليهودية ما لا يعلمه حتى بعض المسيحيين ، فينبغي أن يعاد النظر في مسألة المؤلفات قلوبهم تأليفاً لمن دخل في الإسلام حديثاً ومنعاً لمن يغرهم المبشرون الذين تكالبوا على العالم الإسلامي وخصوصاً في القرن العشرين حينما عقد مؤتمر التبشير العالمي الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ ، وبعدها عقد مؤتمر إيدنبورج في بريطانيا سنة ١٩١٠ ، وبعدها عقد مؤتمر الهند سنة ١٩١١ .

بعد هذا كله اجتمع المبشرون لتغيير خطة التبشير التي كانوا يسيرون عليها؛ لأنهم رأوا أنها لم تفدهم شيئاً، فكان ويا للأسف من جملة الخطط التي وضعوها أنه ينبغي للمبشرين أن يعدلوا عن خططهم السابقة في التبشير، وأنه لا فائدة في طبع الأناجيل والنشرات لتوزع على المسلمين، وإنما الذي ينبغي أن يسلكه التبشير من جديد هو أن يسلك الميدان الثقافي، وأن يتصل بالشباب، حتى إذا ما دخل إلى فكر الشباب الثقافة الغربية، ودخلت إليه الحضارة الغربية بمفهومها عند الغربيين، من غير أن يختار منها القبيح من الصحيح إذا دخل إلى فكره ذلك فإنه يمكن زعزعته عن الإيمان، ولا قول بتكفيره حتى إذا ما شد هذا الجيل الذي يزعم الإيمان، يمكن في يوم من الأيام أن يسير في ركاب أوروبا إذا واثته الفرصة.

ونرى الآن المبشرين يحاولون التقرب من الشباب، ويتجولون في كل ناحية لبث أفكارهم هذه، فينبغي للمسلمين أن يتنبهوا إلى ما يراد بهم وما يريده منهم المبشرون، ذلك أن المبشرين كانت توجد عندهم فكرة في القرون الوسطى، وهي تكوين ديانة عالمية بحيث لا توجد ديانة إلا المسيحية، وجدوا أكبر عقبة تقف في طريقهم هي الديانة الإسلامية، وقالوا بل قال بعض رؤساء الحكومات البريطانية وهو غلادسون، قال: إنه لا يمكن أن يقر للغرب قرار ما دام هذا يتلى في العالم الإسلامي ووقف وسط مجلس العموم البريطاني وأخذ المصحف بيده.

فليعلم المسلمون ماذا يراد بهم، وماذا يراد بدينهم، وماذا يراد بكتابتهم، فالذي يبتغيه المبشرون منهم هو أن يمحووا من الوجود، ولكن محوهم من الوجود عسير على أولئك الذين يريدونه، ولكنهم إذا وجدوا من يعينهم

على ذلك ، وبقوة السلاح كالصهيونية التي احتلت الأماكن المقدسة ويا للأسف ، وهي الآن على أبواب الأماكن المقدسة الأخرى ، فهي تهدد العالم الإسلامي في صميمه والمسلمون لا يأبهون بذلك ، ولا يلتفتون إلى ما طالبهم به المسلمون من الاتحاد .

هذا الاتحاد الذي يدعوهم إليه هو الذي دعا إليه الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿ وَلَا تَتَزَعُّوْا فَتَفْشَلُوْا وَتَذْهَبَ رِجَاكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، وهو الذي دعا إليه النبي ﷺ وهو أول عمل عمله بعد الهجرة ، حيث إنه آخى بين الأنصار والمهاجرين ، فليعلم المسلمون ، أقول : إذا وجدوا ذلك ، فإنهم يؤيدونه بكل ما لديهم من إمكانيات .

إن نقطة الانطلاق التي يجب أن ينطلق منها المسلمون ليلغوا إلى غايتهم المنشودة ، هي اتحادهم وائتلافهم واتحاد كلماتهم ، ولا ينبغي أن يكون الاختلاف والحزازات القبلية شاغلاً لهم عن أعدائهم ، بل إننا نرى مع الأسف العدو على حدود بعض البلدان الإسلامية والنزاعات الداخلية تتناوبها فيما بين أفرادها ، وهذا ما كان سبباً في سقوط الأندلس ، هذا ما كان سبباً في انحطاط العالم الإسلامي ، فيا للأسف لهذا الوضع الذي نحن فيه الآن ، هذا قول الله تبارك : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

في الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ نرى أن الله تبارك وتعالى ها هنا غير الأسلوب ، فقال : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ للدلالة على أن هذه الأربعة الباقية ليست كالأربعة السابقة ؛ لأن الأربعة السابقة تأخذ المال في يدها ،

وهذه الأربعة الباقية لا تأخذ المال في يدها ، وإنما يؤخذها الغير ؛ ففي الرقاب الذي يأخذ المال هو السيد ، وفي الغارمين الذي يأخذ المال هو رب الدين .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذا لا يدخل إلى يد المجاهدين ، وإنما ينفق عليهم ؛ فتصلهم النفقة من غير أن يتوصلوا بالأموال .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ هذا وإن كان هذا المال يدخل إلى يده إلا أنه يتردد بين أمرين ؛ فهناك من يقوله : إنه ينبغي أن يقرض حتى إذا ما رجع إلى بلده كان غنيًا أرجع ما اقترضه ، وهناك من يقول : إنه يعطاه دون أن يجب عليه الرد ، وعبر عنه بابن السبيل للملازمة الطريق ، وهذا نظير قول الشاعر :

أنا ابن الحرب ربنتي وليدا إلى أن شبت واكتهلت لداة
ومثله أيضًا قول الشاعر :

فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى حليف الندى ما للندى عنك مذهب



المحاضرة العاشرة :

تأملات في قصص القرآن

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣] .

قبل أن أكتب في هذا الموضوع أريد أن أعترف أنه شائك كثير الأطراف وقد يحتاج إلى كتب وإلى أزمان تتواصل ، من أجل هذا فإني سأعرض عن أربعة أمور إن تعرضت إليها قد أفعل ذلك عرضاً .

هذه الأمور الأربعة على أهميتها لا يتسع لها الزمن :

أولاً : سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن القرآن قد قصها وفصلها ، وهي تحتاج إلى أزمان طويلة وكتب وفحص كثير .

الأمر الثاني : سورة الكهف فيها ثلاث عجائب : قصة أهل الكهف وقصة صاحبى سيدنا موسى ﷺ وقصة ذي القرنين .

الأمر الثالث : سورة النمل فيها أربعة أمور : منطق الطير ، وحديث النمل ، وفيها علم الكتاب الذي أحضر العرش في أقل من ارتداد الطرف ، وفيها الدابة التي تكلم الناس .

الأمر الرابع : سورة الأعراف وفيها سبعة أمور :

الأول : يتعلق بما قبل بدء الخليقة في عالم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] .

الثاني : عند بدء الخليقة وخلق آدم وسجود الملائكة .

الثالث : عندما أثقلت بعد أن حملت حملاً خفيفاً فمرت به وراودها الشيطان في نذرها وهي أمنا حواء على أرجح أقوال المفسرين .

الرابع : هو طلب سيدنا موسى ﷺ أن يرى ربه فصعق .

الخامس: يتعلق بنهاية الكون وبيوم الحساب ، وهو أمر الأعراف وأمر المحاسبة وأمور ما تلقى الأمم يوم القيامة .

السادس: هو أمر المسخ الذي حدث للقرية التي كانت حاضرة البحر فصار أهلها قردة وخنازير .

السابع: هو أمر الذي أوتي الآيات فانسلخ منها بعد أن أوتي الآيات . هذه الأمور الأربعة أتجاوزها الآن .

تفسير الآية:

الآية في تفسيرها ذكر أن الصحابة سألوا النبي ﷺ أن يقص عليهم قصصاً يخفف عنهم فجاءت هذه الآية : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : بوحينا إليك هذا القرآن ؛ فأصبح القصص هو القرآن ، ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ ﴾ أي : كنت لا تعلم أمر الدين وأمر الشرع فأوحيناها إليك .

هذا يدل على أن قصص القرآن حق ، وعلى أنه آخذ بأسباب الشريعة وبأسباب الدين ، قال تعالى : ﴿ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧] ، وقرئ : (يقضي الحق وهو خير الفاصلين) ، وكلتاها قراءة صحيحة ، والمعنيان يلتقيان على ما رجحه ابن جرير من أمر القراءة الأولى .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ [هود: ١٢٠] ؛ ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ ﴾ أي : الذي نقصه كله بالحق ، ف«كُلًّا» منصوبة على رأي النحويين بالاشتغال ، أي : لا نقص كل القصص ، وإنما الذي نقصه ، نقصه كله بالحق في هذه السورة وفي غيرها ؛ لأنه تعالى يقول : ﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧] ، فكل قصص القرآن حق .

وقد يأتي التشريع في القرآن، وتذكر أسباب النزول كما في: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةً بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦] في سورة المائدة؛ فإن القصة غير مذكورة وتوجد لها مشارف، وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١٠] ذكر طرف من القصة، وفي أمر الجمعة قدم الأمر ثم ذكر طرف من القصة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَوْاءً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

وهذا كله يتعلق بما قدمته آنفاً من أمر السيرة وقلت: إني سأتجاوز ذلك، ولكن الأمر الذي سأقف عنده هاهنا هو أمر اشتغال القرآن بالحق، وأن القصص الذي فيه للحق؛ إما للعبارة وإما للحكم وإما للتشريع.

في هذا الباب لم يخرج القرآن عن مذهب العرب في القصص؛ فإن العرب كانوا أهل بلاغة وكانوا في بلاغتهم الشعرية يدعي أحدهم أنه يقول الحق، ويذكر القصة على أنها حدثت؛ لا يخرجون من ذلك إلا في أكاذيب الأعراب الذين زعموا أنهم أصحاب الغول وصاحبوا الجن، وإلا في أخبار الأطفال الذين يحدثونهم عن كلام الحية والضب وما أشبه ذلك.

والنابغة الذبياني كان أكثر الشعراء استعمالاً للقصص، وفي استعماله للقصص هجا قوماً فنزلهم منزلة الأطفال وقال:

وإني لألقى من ذوي الضيم منهم وما طفقت تهدي من الغي ساجرة

كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما زالت الأمثال في الناس سائرة

وقص قصة ذات الصفا؛ لأنه أراد أن يحقر هؤلاء القوم، أما عادة

العرب في القصص أن يقول أحدهم فعلت وفعلت ورأيت ورأيت:

ومدجج كره الكساء نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم
جالت يداي له بعاجل طعنة ليس الكريم على القنا بمحرم
إلى آخر ما قال :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
إلى آخر ما قال عمرو في المعلقة .

فالقرآن جاء بقصص يستند على الحق ، وأعداء النبي ﷺ أرادوا أن يقللوا من كلمة القرآن في أول الأمر : ﴿ وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] .

ولكن الله ﷻ كذبهم في هذا في عدة وجوه فرجعوا من قول : إن القرآن أساطير ، إلى قول : إن القرآن كلام شاعر . وشبهوا النبي ﷺ من بين الشعراء بالنابغة الذي كان يتمثل الأمثال أو يقولون : ﴿ شَاعِرٌ نَتَرِصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، قالوا : نتربص به ما أصاب النابغة وأمثاله من هذا الموت .

فالقرآن تحدى العرب فنزلت الآية : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ الآية [الإسراء : ٨٨] .

وفي أثناء التحدي كان يواجههم : ﴿ فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وفي سورة هود ابتدأت السورة بتحدي العرب أن يأتوا بمثل القرآن فقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُّوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [هود : ١٣] ثم لما استمرت السورة قليلاً وجاء خبر قصة سيدنا نوح ﷺ في أوصاف حديثه عندما قال لقومه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤ ، ٣٥] أي : كأن القرآن التفت هاهنا إلى قريش ، هذا الخبر عن نوح ليس بافتراء هو حق .

فهذا الجانب من أن قصص القرآن حق ينبغي أن يهتم به وأن ينظر إليه وأن يعتبر في تقديره ؛ ذلك لأن بعض الأمم القدامى كانت تنظم القصص وكانت تعتمد فيه التخيل .

ومن كبريات هؤلاء الأمم أمة اليونان ، وتصدى لها بعض فلاسفتها فأنكر هذا الضرب من الأدب بأنه أكاذيب ، وبأنه لا يصح ، وهو صاحب الجمهورية .

وتعقبه المعلم الأول أرسطاطاليس فاعتذر عن عمل الشعراء اليونان ، وقال : هؤلاء الشعراء لهم منافع ؛ هذا الكلام الذي يقولونه ليس بكذب ؛ لأن المؤرخ يأتي بالأمر الواقع ، أما الشاعر فيأتي بالأمر المحتمل ؛ ولذلك لا يمكن أن يوصف بالكذب ، وإنما يذكر فلاناً وفلاناً ممن مضى عليهم الدهر ، ويعلمه الناس ليقرب الأمر أنه محتمل ، لا ليقول : إن فلاناً فعل كذا وفلاناً فعل كذا .

ثم هذه الأحداث التي انتقدها الفيلسوف أفلاطون إنها تجعل الرجل الفحل يبكي كما تبكي النساء إذا ما رأى قصة مسرحية ، قال : إن هذا ينبغي أن لا نعجب له ، وأن لا ننتقده لأنه يثير في قلوبنا الرحمة والخوف ، ويحدث ما سماه (كسايس) ، واختلفوا في (كسايس) هذه وما معناها ، فقال قوم : إن معناها التطهير .

فهذا الذي صنعه اليونان جاء إلى العرب عندما تقدمت حضارتهم وترجموا علم اليونان ، وعندما نظروا في شعر اليونان وفي ملاحهم ومآسيهم عجبوا كل العجب لهذه الأمة التي بلغت المبلغ العظيم في الفلسفة كيف ترجع إلى حديث الخرافات وحكايات العجائز ، فنبذوا شعرهم على أنه أساطير وعلى أنه أخبار عجائز ؛ ذلك لأنه لم يكن قائماً على أرض صلبة من الحق .

هذا اختلاف كبير بين طريقة القصص العربي والشعر العربي وشعر اليونان ، وتناول العرب شعر اليونان : فابن سينا ذهب فيه مذهباً قريباً من مذهب أفلاطون ومن مذهب العرب ، وانتقد اليونان على إكرامه لهم بأنهم جاءوا بأشعار كأساطير العجائز .

وتناول الموضوع حازم القرطاجني من متأخري نقاد العرب ومال شيئاً إلى كلام ابن سينا ، وتردد ثم جاء ببائقة ؛ هذه البائقة قال : من هذا النوع من الأدب عند النابغة الذبياني ، ومنه في القرآن ، ولعمري لو كان القرآن صار على مذهب اليونان لكان العرب أعلق شيء به .

والذي صوبه أرسطاطاليس من مذهب اليونان أنه احتمالي هو نفسه منتقد لأن الشعر العربي يقول : إن ليثاً وإن لون عينيه هذا لم يحدث وإنما العبرة بما حدث وبما وقع .

وقد تنبه بعض متأخري نقاد الإفرنج لما خفي عن حازم ، وهذا الناقد المتأخر وأحسبه (كوليردج) صاحب السيرة الأدبية لا يخلو بل أوشك أن أجزم أنه نظر في كلام نقاد العرب وفي القرآن ؛ لأن القرآن كان مترجماً باللاتينية ، وكان هو من أعرف الناس باللاتينية ، عرف أنواع الأدب كالشعر وما إليه بأن المقصود منها الإمتاع .

وأما الكلام المقدس فيراد به الحق لا الإمتاع ؛ لذلك سفر أشعيا ليس من ضرب الإمتاع الذي يقع في الشعر ، وإنما هو ضرب من الحق ، أما ضروب الإمتاع التي تقع في الشعر فقد ترتفع إلى الحكمة وإلى الخلق والإبداع ، وقد تنزل عن ذلك .

أوشك أن أجزم أنه نظر إلى القرآن وإلى أدب العرب ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] .

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، ثم قال من بعد: ﴿فِيذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، فالإمتاع الحادث من القرآن ليس إمتاعاً، وإنما هو فوق الإمتاع إنما هو شفاء.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والحيوان أي الحيان، كقولك: الغليان والطوفان، أي هي الحياة الحقيقية.

فالشفاء هو الذي يصل بالحياة إلى المراقي ويخرجها من السقم والمرض، لذلك قول الحق الذي يثبت، والذي يهدي، والذي يدل على هذا شفاء للناس؛ لذلك القرآن ليس بشعر.

من هاهنا أنتقل إذا أمكنني الزمن إلى وجهين من قصص القرآن: أحدها: سأختصر فيه جداً لأنه لاحق بسيرة النبي ﷺ وهو جانب المثل، والمثل في العربية؛ يعني القصة الصغيرة، الحكاية الصغيرة، أو الصفة التي تدل على معنى حسن يمكث في النفوس، قال تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن تَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقف الزمخشري عند هذه الآية لبيان أن المثل لا ينبغي أن يكون قصة، وأمثال القرآن كثيرة، منها ما ورد عرضاً وسط قصة من قصص الأنبياء كخبر قارون، ومنها ما سيق للحكمة كخبر لقمان، ومنها الأمثال التي تأتي على وجه التشبيه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧]، مثلاً: ﴿كَبِيسَطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَا﴾ [النحل: ٩٢].

أقف عند هذين المثلين :

الأول: ﴿كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: القرآن لا ينظر إلى الأساطير القديمة ويأخذ منها ، أقرب الوجوه في التفسير أن آخذ المعنى كما هو ، وهنا واضح أن هذا منتزع من حياة العرب إذا بسطت يدك إلى الماء لم تستطع أن تأخذ الماء فتشرب منه ، ولكن قد يسأل السائل : فلماذا يبسط الباسط يده للماء ؛ لماذا لا يحنوها قليلاً حتى يشرب ، أليس في هذا بعض النظر لقصة (تأنثرس) الذي زعموا أنه عوقب بالعطش ووضع عنده الماء فيرفع الماء إلى قليل من فمه ، فإذا أراد أن يأخذ منه انحسر وتدللى عناقيد الفواكه بعيداً؟!

ويرد على هذا أننا لو قلنا هذا بالتكلف ؛ لأن العرب كانوا يعرفون قدرًا ما وبلادهم كانت من أعطش البلاد .

ولعل قصة (تأنثرس) أخذت من حياة العرب ؛ لأن حياة العرب فيها السراب ، والسراب يبدو ماء حتى إذا وصلته انحسر وصار رملاً ، فلا نحتاج إلى الأساطير ، فهذا أمر مشاهد في الحياة اليومية .

ومن المشاهد في حياة العرب اليومية أن يجيء أحدهم إلى الماء يدحر وهو شديد العطش يكاد يسقط ميتاً من عطشه ، فيريد أن يشرب منه فإذا أراد أن يتأنى بيديه وأن يترفق ويشرب فليس بشارب ؛ لأنه قد يضع يده في الماء ولعل أصبعه يكون أعلى من سمك الماء ، فالوجه إذن أن ينحني وأن يشرب بفمه كما يشرب الحيوان ، فالآية منتزعة من واقع حياة العرب .

والثاني: ﴿كَأَلَيْ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ .

وأنكاثاً أي : أنقاضاً ، قال بعضهم : أنكاث جمع نكث وأنكاث كما تقول : نقض وأنقاض ، والراجح أنها جمع ، تقول العرب : حبل أرام

المحاضرة العاشرة

١٥٩

وضرمة أعشار وصحراء أمرات وخيط أنكاث أو حبل أنكاث؛ لأنه صار بعد أن كان شيئاً واحداً صار أشياء متعددة .

والمفسرون الأقوياء فسروا هذا على حالة التشبيه بالمرأة الخرقاء التي صنعت غزلاً ثم نقضته لخرقها : ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْآيَمْنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١] ، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢] ؛ لأن نقض الأيمان بعد توكيدها فيه نوع من العبث بالذي تعاهده ثم الذي يعاهدك ، سيظن أنك عابث ولا يحترم كلمتك ويسمي المرء الذي يفعل هذا : أحق .

فقد أكدوا فيما روى سعيد بن جبير ومجاهد على أن الآية على عمومها ، وإلى هذا الوجه ذهب محمد بن جرير .

وذكر بعضهم أن امرأة خرقاء كانت بمكة تعزل وتنكث وزعم بعضهم أنها كانت مجنونة تجمع الليف والصوف ، وزعم بعضهم أنها كانت حبشية صفراء ، أحسب هذا في «الدر المنثور» ، ثم إنها كانت مجنونة ، ثم امرأة بهذه الصفة طلبت النبي ﷺ أن يدعو لها فقال لها : «أو تصبرين» فأثرت الصبر فدخلت الجنة ، وزعم بعضهم أنها ربيعة بنت سعد بن تيم من قريش ، وقالوا : هذه كانت لها جوار .

وأحسب هذه القصة أشار لها الدكتور عبد الهادي التازي في حديثه أن هذه المرأة كانت لها جوار وكن يغزلن من أول الصبح حتى إذا جاء العشي نقضن ما صنعته ولم يذكر لماذا صنعن ذلك .

ولكن القصة يظهر أن لها أصلاً قديماً موعلاً في القدم وأخذها اليونان ، فزين لها (غمرس) قصة (الأوديسا) ولكنها في (الأوديسا) تتصل بالمرأة

(بينيلوب) زوجة (أوزيسيس) أو (يوليسيس) وكان زوجها غائباً ودهمها رجال طمعوا في مالها وفي جمالها وكل منهم يخطبها ، وكانت تكرمهم وتماطلهم وتقول لهم : إنها نذرت نذراً ثوباً تصنعه فتغزل وتنسج ليلاً ، وتنقض ما صنعت وتعتذر لهم بذلك ، فهذا النقض من جانبها كان حزمًا ، وهم لتعلقهم بها قبلوا ، ولو كانوا أهل عهد معها ولو كان أمرت لواجهوها ولكن كلاً منهم كان طامعاً .

وأقول : إن القصة كانت قديمة لأن اسم ربيعة معناه قطعة من القماش ، فكأن اسم ربيعة يشتمل على هذا المعنى ، ثم في اسم ربيعة نسبة إلى بني تيم وهم رهط سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ورهط عبد الله بن جدعان القرشي الغني قبل الإسلام وكانت له مائدة فخمة وكانت له جوار ، كانت له امرأة جميلة تزوجها علي كبر في السن يقال لها : ضباعة بنت عامر بن صعصع ، هذه المرأة طمع فيها رجل آخر من قريش فأرادها أن تطلق عبد الله بن جدعان فقالت له : إنه أخذ علي العهود ، منها : أن أنحر كذا إن طلقته وأن أنسج نسيجاً يبلغ ما بين الكعبة وأجباد ، وهذا مثل النقض والإبرام ، وأن أطوف عارية بالكعبة في خبر ذكره الله وموجود في تفسير سورة الأنعام في كتاب محمد بن جرير وذكره محمد بن إسحاق في «السيرة» .

وذكرت هذا الخبر لأن هذه المرأة متصلة ببني تيم ، وكأن قصة الربيعة قديمة موهلة نقلت بين الناس .

وأما القرآن فنظر إلى قصة من تنقض الغزل لأن المراد ليس الحزم ولا الإشارة إلى المكر ، وإنما المراد بمثل هذا العمل فيه خرق وفيه حماقة وفيه طيش كمن يصنع عملاً ثم ينقضه .

من قصص الأنبياء:

هذا وأريد بعد أن أتجاوز عن هذه الأمثال أن أنظر إن تمكنت من ذلك في أمر ما جاء من القصص عن نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام، وبالآية من خبره استهللنا الحديث: أَلر (ألف لام ر): ﴿الرَّتْلَكْءَايْتُ أَلِكْتَبِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ ﴿يوسف: ١-٣﴾.

الخبر الثاني: خبر سيدنا نوح عليه السلام وهو مذكور في سورة نوح ومذكور في سورة هود، ومذكور في سورة المؤمنون، ومذكور في غير ذلك كالشعراء والأعراف، ولكنني سأكتفي بما في سورة هود إن شاء الله.

الخبر الثالث: خبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو مذكور في سور كثيرة من القرآن من أول الكتاب إلى آخر جزء: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨، ١٩].

وعن سيدنا موسى عليه السلام في سورة القصص، وفي غيرها ثم عن سيدنا عيسى عليه السلام وأمه: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

يوسف عليه السلام:

أول شيء خبر يوسف، وقد أفردت له سورة كاملة، وهذه السورة فيها أشياء كثيرة منها ما يتعلق بسيدنا يوسف، ومنها ما يتعلق بالعلوم عامة.

أولاً: فيها تعبير الرؤيا وهذا علم فطن له الأقدمون، وإنما أخذ في العصور الحديثة بجذ منذ عهد (فرويد) وبهذه المناسبة أقول - وإن كان

الاستطراد لا يحسن : إن كثيراً من المعارف الإسلامية وجدت سبيلها إلى الغربيين عن طريق اليهود ؛ لأن الكنيسة كانت تمتعض من الرجوع إلى أمور الإسلام ، وكان اليهود يرجعون إلى بعض أمور المسلمين ثم يدعونها لأنفسهم ويخبرون بها على أنها شيء جديد ، فهذا باب يحسن بأن يتتبع عند عارفه والمتخصصين فيه .

ثم في قصة سيدنا يوسف خبر المرأة التي راودته ، ومما يلفت إليه في هذا الباب أن هذا الخبر مقصوص على وجه واقعي مؤثر لا يشك قارئه أو سامعه من تلاوته في صدقه أو في تمثيله لحالات شهوة النفوس ، وقد كتب الشعراء في هذا ، نظم امرؤ القيس ما نظم ، ونظم غيره من بعده ومن قبله ما نظم وأنت حين تقرأ كلامهم أو يقرأ عليك تحس أن فيه التزيين وأن فيه التوشي وأنه صدق الله العلي العظيم عندما قال : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٤﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤] ؛ تشعر بالزينة .

أما في خبر هذه المرأة فهذا أمر واقع وحركة عنيفة متتابعة حتى تصل إلى الباب وتلقى سيدها ، وتقول : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ [يوسف : ٢٥] على أن الأمر الذي أريد أن أقف عنده قليلاً من دون تطويل عند أمر سيدنا يوسف ، أن السورة اعتمدت إعطاءنا -والله أعلم بمراده- ونعوذ به أن نقول في علمه ما لا نعلم ، السورة بينت لنا أمر قائد نبيل إداري حازم ، متجه إلى أمر من الإدارة مهم لا يعدل عنه يمته أو يسره ؛ لأنه هدى للناس ، هذا الأمر منه جانب اقتصادي ومنه جوانب أخرى تتصل بالعلم الذي أعطاه إياه الله .

المحاضرة العاشرة

١٦٣

وما كانت هناك لحظة أصعب على سيدنا يوسف عليه السلام من ابتلائه بهذه المحنة : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] ، أما فيما عدا ذلك لم يضعف ، راودته فاستعصم ، أثر السجن على الشهوة ، جاءه رجلان يختصمان إليه في السجن ، وقصا الرؤيا فأفتاهما ، فلما أفتى يذكر أنها قالا له : إننا لم نر هذه الرؤيا ، ولكن افعلناها فقال لهما : ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] ؛ لأنها كانا قد رأياها ، ثم إنه مكث في السجن بضع سنين ، فلما جاءه البشير وقال له : قد خلصت من السجن لم يخف قال له : ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] أراد أن يبرأ قبل أن يخرج من السجن ؛ لأن الأمر الذي هو ملتزم به ينبغي أن يكون فوق الشبهات ، ثم لما جاءه إخوته ؛ إخوته هؤلاء خدعوا أباه واستحقوا نوعاً من العقاب مع ما في قلبه من الرحمة لهم فعاقبهم بمثل ما صنعوا من الخديعة ، فضم إليه أخاه و : ﴿أُذِّنْ مُؤَدِّنُ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] هذا ما كان من أمر سيدنا يوسف اختصرته اختصاراً .

نوح عليه السلام :

وأنقل الآن إلى قصة سيدنا نوح ، القيادة التي مثل بها سيدنا يوسف قيادة حكيم نبيل ، متجه إلى تدبير لا ينبغي أن يحيد عنه وينبغي أن يكون فوق الشبهات ، ويعلل الناس هذا التدبير ، أن سيدنا نوحاً أمر بأمر فالتزم به ولم يكن كثير الكلام ، كان قومه إذا جادلوه أجابهم بالكلمة القاطعة : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤] ، ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] ، كان لا يطيل الكلام معهم .

والتزام الأدب واجب علينا في هذه المقامات ، أشبه الأمور بمن يعين أميًا عامًا حافظًا حارسًا على أمر يقبل على تدبيره وإدارته لا يحيد عنه ويلتزم بأموره ، فهو في هذا ليس صاحب التصرف الجديد يريد أن يعلمه الناس كسيدنا يوسف ولكنه صاحب رسالة وعزم ، وكان البلاء الذي وقع عليه شديدًا ومن أشده أن الناس لم يستمعوا له مكث بينهم السنين الطوال ، وهم لا يستمعون له ، وهو مأمور بصنع الفلك في مكان ليست فيه الفلك ، ويسخرون منه وهو يصنعه حتى جاءت الساعة التي ينزل فيها أمر الله ، حتى في هذه الساعة ابتلي البلاء العظيم ؛ لأن امرأته كانت تميل إلى العصاة .

وذكر الله الحق ﷻ في سورة التحريم ولأن ابن المرأة - وهو ابنه وكان يحبه كما يحب الأب ابنه - كان يميل إلى رأي العصاة ، هذا الابن في الساعة الحاسمة دخله نوع من التردد مع شيء من الكبرياء فاعتزل عن العصاة إلى مكان عالٍ وناداه أبوه : ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] ، ولكنه آثر الكبرياء : ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] ، محل هذه الفاء مهمة ؛ لأنه قبل هذه الفاء وقبل أن يحول الموج كانت السفينة جارية : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] ، وهذا الابن في معزل ثم حال الموت وغرق .

ثم بعد هذا : الواو لا تفيد ترتيبًا ، ولكنها في هذا الموضع تفيد الترتيب ؛ لأن الفاء وهي تفيد الترتيب فصلت بينها وبين ما قبلها : ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] ، في هذه اللحظة الحاسمة السريعة التي كان فيها هذا الأب النبيل المحب الشفيق على ابنه ، شفيقًا على ابنه بالأبوة وشفيقًا على ابنه بالنبوة يريده أن يجوز من الضلال إلى الهدى ، في هذه اللحظة غلب الضلال على الولد وحال

المحاضرة العاشرة

١٦٥

الموج بينه وبين أبيه فغرق وفجع الأب فيه ولكنه التزم بأمر ربه ونفذه كله ، فسأل الله عن ابنه ، لما سأل الله عن ابنه أتاه الجواب من الله ﷻ : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٦] ، هنا الأمين الحفيظ المطيع النبي الصدوق ، التقي خضع لله فقال : ﴿ وَالْأَلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٧) قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ [هود: ٤٨] .

هذا الأمر لو نظرنا في المعادلة القرآنية له معادل من خبر أبينا آدم ، وأبونا نوح هو الأب الثاني بعد آدم ، آدم ﷺ جاء بمعصية فعوقب بالهبوط : ﴿ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦] ، وهو دعا هو وحواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] ، هي نفس دعوة نوح دعواها ، فقبل لهم : ﴿ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، أما نوح فرفع من مقام خشوعه ليهبط بسلام وبركات عليه وعلى أمم ممن معه ثواب الله له على عزمه وعلى هذه اللحظة الإنسانية الفاجعة التي مرت به وجاوزها صابراً لله محتسباً .

إبراهيم ﷺ :

سيدنا إبراهيم ﷺ ضرب ثالث من الأنبياء كان مفكراً ذا حجة قوية ذا تساؤل لا يقبل الأمر كما يبدو له يريد أن يخلص إلى غوره . ومساءلته مع الأجرام السماوية - حتى اهتدى إلى هدي ربه - مذكورة في سورة الأنعام ، وحديثه مع النمرود عندما قال له : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، فقال له إبراهيم : ﴿ إِنْ أَلَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

مع هذه الحدة الذهنية والتساؤل رزق رحمة ورأفة شديدة حتى إنه من بره لأبيه ظل يستغفر له حتى نهي عن ذلك ، ثم رفع قواعد البيت ودعا الدعوة التي بوركنا فيها بمجيء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم أذن للناس بالحج والحج بركة عظيمة في العبادة وفي التعليم وفي ملاقة الناس .

ومن مساءلة إبراهيم الشديدة من غلبة هذا التفكير عليه سأل ربه : ﴿أُرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، ولم يوفق ، أراه الله لعلمه بيقينه وعلمه بمساءلته كيف يحيي الموتى وقص علينا خبر ذلك في سورة البقرة .

موسى عليه السلام :

ثم خبر سيدنا موسى ، نلحقه بهذه النماذج الثلاثة العظيمة التي ذكرنا ؛ الإداري المبتكر الحازم الملتزم المحافظ بأمر الله المتسائل المتفكر في خلق السموات والأرض مع القلب الرحيم الحنون ، وهنا القائد القوي الشخصية مع قوة الإيمان ، هذا سيدنا موسى .

وكانت شخصيته قوية جدًا ، وكان رجل عمل لا يتردد أن يعمل ؛ لما رأى الرجلين اللذين يقتتلان دخل في العمل مرة واحدة ففضى عليه ، لما جاء عند بئر مدين وجد عندها أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فقال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ، لم يتردد وقص قصة في ذلك .

ووجوه القصص تختلف ولكن الأمر أنه بادر وسقى لهما .

هذا الجانب العملي في سيدنا موسى يبدو في القرآن وفي الحديث أيضًا . وسأعرض هذه المسألة إن أمكنني بعض الزمن ولكني أريد أن أشير إلى أمر هام وهو قوة شخصية سيدنا موسى واندفاعه إلى العمل كان دائمًا يأتي

معه بلاء من المولى سبحانه وتعالى ، وهنا يأتينا دليل الإيمان لأن قوة الشخصية قد تتوفر في أناس لم يكونوا قويي الإيمان بالله .

والأمثلة على هذا لا حصر لها ، ومن أولئك خصم موسى فوعون ذو الأوتاد ، كان قوي الشخصية قال للناس : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات : ٢٤] ، ولكنه لم يكن مؤمناً ، كان الإيمان عنده أن يؤمن الناس به ولكن سيدنا موسى كان قوي الإيمان ، وكان الابتلاء يظهر إيمانه حيناً بعد حين ، ومرت به ساعات ولحظات وقع عليه فيها هذا البلاء من ذلك - ونختصر منها - أنه في ساعة أنسه وفرحه بعد أن خدم ثمانين سنين أو عشر سنين على الأرجح لأنه قيل في التفسير : إنه قضى أطول الأجلين وأتمهما وسار بأهله في غور هذه الفرحة نودي ليلقى فرعون الذي قتل رجلاً من قومه والذي يدعي أنه رب الناس الأعلى ، فالتزم بذلك ولم يتردد عندما أعطي الألواح وفيها موعظة وتفسير لكل شيء ، وجاء بها قومه يحملها إليهم لكي يرشدهم ولكي يدلهم وجدهم يعبدون العجل فألقى الألواح ، أخذ برأس أخيه يجره إليه : ﴿يَبْتُؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه : ٩٤] . من هنا فسيدنا موسى صدم هذه الصدمة .

وفي ساعة التجلي الأكبر عندما كلمه ربه وعندما أعطاه سألته ربه ، سألته لأنه رجل عمل سألته في ساعة النشوى وأراد أن يتجاوز الكلام إلى ما هو أرقى من الكلام ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، قالوا : مرت الملائكة على موسى وهو صاعق فلكرته ، هذا من أحاديث المفسرين ، قالوا : يا بن النساء الخيض لقد سألت ربك كذا وكذا ، فلما أفاق استغفر وقال : أنا أول المؤمنين ، وسأل الله أن يكتبه في كتابه إنا هدنا إليك : ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴿[الأعراف: ١٥٦]﴾، فكان الجواب : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴿[الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧]﴾ ؛ أي الرحمة الواسعة ليست لموسى وقومه ؛ للنبي الآتي ، وسيدنا موسى احتمل هذا بقوة ، إيمانه هذا مثل من أمثلة الأنبياء .

عيسى عليه السلام :

وأخيرا سيدنا عيسى وأمه التي ابتليت بها يشين المرأة في عرضها ؛ لأن الناس لن يصدقوها ولكنها في الساعة الحرجة والطفل بين يديها أتت به قومها تحمله ولما سألوها وقالوا لها : ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ، وبعض المستشرقين يحسبون أن القرآن أخطأ في حساب أن مريم أخت هارون ؛ لأن التوراة تذكر مريم أخت حصارون في أحد أسفارها وهم المخطئون ؛ لأن الخبر الذي ذكر في التوراة هو نفسه محرف ؛ لأنه زعم أنها أخت هارون ولم يزعم أنها أخت موسى ، وزعم أنها انتقدت موسى فدعا عليها فبرصت : ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ، هذا أسلوب العرب : ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] .

وهارون بيت من بيوت بني إسرائيل كان معروفاً وهي منه وهي أخت هارون ، هي من آل هارون .

وقال بعض المفسرين شبهت برجل صالح اسمه هارون ، والمرء له أن يأخذ هذا أو يأخذ هذا ، قال الشاعر العربي :

كلا جانبي خرشالهن جانبي هرشالهن طريق

وسيدنا عيسى أحيى الموتى ، وداوى الأكمه والأبرص ، وأنزل مائدة من السماء ، القصة التي جمعت في خبر سيدتنا مريم وسيدنا عيسى قصة إعجاز محض ؛ ولذلك أتى إلى الناس من ها هنا فظنوا أن هذا تأليه ونسبوا عيسى إلى بنوة الله ﷻ ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولذلك جاء في خبر القيامة : ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ ﴾ [المائدة: ١١٦] ، فأجاب سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ [المائدة: ١١٦] .

فهذه الأمثلة سقتها لأبين أن قصص القرآن لا يأتي للتسلية والإمتاع ، وإنما يأتي لشفاء الصدور ، ولإحقاق الحق .

مثلاً إخوة يوسف لما جاءوا يكذبون على أبيهم قالوا : ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ١١] ، مرسومة في المصحف ليست بالنون المشددة قولاً واحداً ، ولكن بنون ذكر كل من روى القرآن وقرأه أن قبله نوناً ، وهنا شيء يقال له : الإشمام ، وها هنا حكاية ترددهم واحتياهم على أبيهم ، ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ ، ثم في القرآن أمثلة كثيرة في الموازنة والمعادلة بين الشيء والآخر كالذي ذكرته لكم في خبر سيدنا نوح وما يعادل به خبر سيدنا آدم ، وكذلك في السور نفسها يأتي الخبر في أول الأمر على وجه ثم يرد في آخر على وجه .

المحاضرة الحادية عشر :

المؤمن قوي أمين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١) .

فبالسند الصحيح إلى رسول الله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ...» إلخ الحديث .

المؤمن قوي أمين ، والقوة في هذا الحديث بالذات يراد بها أولاً القوة المعنوية بدليل بقية الحديث ؛ قوة العزيمة قوة الإرادة ، قوة التصميم ، قوة الفكرة .

المؤمن القوي في إرادته ، في عزمته ، في تصميمه ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف الإرادة ، ضعيف التصميم ، ضعيف العزيمة ، وفي كل خير نسبياً ، فالمؤمن القوي على قدر ما فيه من قوة ، فيه خير ، وعلى قدر ما فيه من قوة عزيمة ، فيه قرب وحب إلى الله ﷻ ، والمؤمن الضعيف على قدر ما فيه نسبياً فيه خير .

«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء»
بعد الاحتياط والتخطيط العلمي الإسلامي ، لا بد من معرفة التخطيط أولاً ، لا بد من تخطيط المؤمن لنفسه ، ولا بد للدولة أن تخطط لنفسها ، ولا بد للجماعة أن تخطط تخطيطاً علمياً مدروساً على أساس ، وكل تخطيط

(١) صحيح الإمام مسلم .

له احتمالات ، ليس كل تخطيط ناجزا على حسب التخطيط ، وعلى حسب ما أراحه المخطط ، فالظروف تختلف ، فالإنسان عليه أن يخطط تخطيطاً علمياً ، وبعد ذلك تأتي الظروف ، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، لكن بالأكثر تسعون في المائة التخطيط ناجح ، نافذ منجز .

وهذه الظروف المحتملة إذا قابلناها لا تقعدنا ولا تثبط همتنا ولا تضعف عزيمتنا ، ولا تفت في عضدنا بل نقابلها بما يصح أن نقابل به .
« احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

« إن لو » لو هذه لها معنيان : إن الناس يستفيدون من الأخطاء الماضية ، فلو قلنا : لو فعلنا كذا كان كذا ، إذن في المستقبل نفعل كذا ، هذه استفادة من الدروس الماضية ، لا شيء فيها ولا غضاظة ، ولا ينهى الرسول ﷺ عن هذا ، إنما لو التي ينهى عنها الرسول ﷺ هي المقعدة التي يقعد صاحبها ويفكر في الماضي ، ويقول : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ويسكت ، ولا ينهض من عثرته .

فالإنسان لو عثر ونهض من عثرته ، وقال : لو أني فعلت كذا ، لكان أحسن ، هذه استفادة من الدروس الماضية ، إنما الذي يعثر ويبقى في عثرته نائماً ، ويقول : لو ، ويبكي على الماضي ويقلب صفحات الماضي ، ويقول : لو ، هذا مفتاح للشيطان يدخل الشيطان فيشط عزيمته ويقعد همته ويكسره ، فيقول : لو ، ويكتفي بلو ، إنما المؤمن إذا عثر نهض ، وإذا كبا قام ، وإذا وقع نهض ، وإذا أخطأ استفاد من أخطائه .

في مبنى الحديث نجد أن رسول الله ﷺ يمدح القوة : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» .

ما هذه القوة؟ القوة المتبادرة من الحديث هي قوة العزيمة ، ولكن القرآن العظيم جاء بالقوة بمعنيها : القوة المادية ، والقوة المعنوية ، قال تعالى في القوة المادية : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

روى البخاري : «عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقرأ الآية ، ويقول : ألا إن القوة الرمي - ثلاثا - » .

فالقوة هذه مادية وتحتاج إلى قوة معنوية ، فالسيف لا يعمل إلا في يد بطل ، فيه قوة معنوية في قلبه ، وقوة مادية في يده ، والقرآن جاء بالقوة المعنوية كثيراً أيضاً .

أتسمعون قول الله تعالى : ﴿ يَنْحِىْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١] ، كيف يؤخذ الكتاب بقوة؟ إن التلميذ الذي يأخذ الكتاب هكذا بقوة : ليس المراد أن يأخذ الكتاب بعضلاته ، وإنما معنى : ﴿ يَنْحِىْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بقوة نفس ، وانشراح صدر ، وتفتح آمال ، ووضع خطة للاستفادة ، وتنظيم وقت ، وتفتح ذهن ؛ ليستفيد من الكتاب فلا يكون التلميذ مرغماً على العلم ، ولا مرغماً على التعلم ، ولا مرغماً من أبويه ، إنما يقبل على العلم بقوة نفسه ، بقوة ذاته : ﴿ يَنْحِىْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] ، وقال تعالى : هذه التعليمات التي نزلت في التوراة يقول الله له : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ .

روى البخاري : عن مجاهد أنه قال : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بعمل ما فيها ،
فالقوة المرادة هنا قوة العمل ؛ ﴿ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ : أي اعملوا
بما فيه .

فالعلم : طاقة والطاقة قوة ، والعلم إذا تحول من طاقة وقوة إلى تنفيذ
كان فنا ، فالفن كل الفن أن نحول الطاقة إلى قوة وحركة ؛ فالسيارة -
بإيقاد شرارة البنزين - تأتي القوة والطاقة ، وبفتح وضغط ودوسان على
مواضع خاصة تتحول الطاقة إلى قوة ، قوة إيجابية : حركة ، حركة نفعية .

فالمهارة كل المهارة أن نحول القوة إلى طاقة ، أن نحول العلم إلى عمل ،
أن نحول هذا الكلام الكثير على صفحات الجرائد والمجلات ، وعلى أمواج
الإذاعات ، أن نحول هذا الكلام إلى عمل ؛ لأن الكلام كثير والعلم
النظري دائماً إذا لم يحول إلى عمل كان عاطلاً ، والرسول ﷺ تعوذ بالله من
علم لا يحول إلى عمل ، كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من
علم لا ينفع » من علم يحضر وقت الجدل ويغيب وقت العمل ، فتحويل
العلم إلى طاقة ، إلى قوة إلى حركة ، هذا هو الفن ، لو قرأت فتاة كتاب
طهي ، وما دخلت المطبخ ما استفادت منه شيئاً ؛ لأن كتاب الطهي علم
يتحول إلى طاقة وقوة بالتنفيذ ، لو قرأ شخص كتاباً وما عمل به ، يكون
قد عطل العلم .

فالعلم بتحويله إلى فن وعمل يكون مهارة ، ويكون تنفيذاً ، فمعنى :
﴿ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي حول هذا الكلام إلى تنفيذ وحركة ، ﴿ خُذُوا
مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ ، حولوا هذا الكلام إلى تنفيذ وحركة ، فالكلام كثير ،
ولكن أين العمل ، أين تطبيق هذا الكلام ؟ « المؤمن القوي خير وأحب
إلى الله من المؤمن الضعيف » .

قوة الرسول ﷺ المادية والمعنوية:

القرآن جاء بالقوة بمعنيها: القوة المادية والقوة المعنوية، وكان ﷺ تطبيقاً للقرآن، ذات الرسول وأعمال الرسول تطبيق للقرآن، فكان ﷺ قوي الذات، قوي العضلات، قوي الفكرة، قوي التصميم، قوي الشخصية، قوي العينين، مرفوع الرأس، قوي الخطوات في مشيه، كان في الحرب أقوى الجنود، أقوى قائد.

في الحديث الصحيح: «كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ»، فهو في الميدان أقوى شخص، وفي المحراب أقوى عابد، وفي الحلول السياسية أقوى مفكر، وفي كل شيء أوتي من القوة أحلاها؛ تتصورون حتى في المصارعة التي يأخذها المحترفون كان ﷺ ممتازاً في المصارعة؛ جاءه ركانة وقال له: ما الدليل على أنك نبي؟ فقال له: «ما شئت»!

ركانة هذا كان مصارعاً فتياً قوياً، لا يصارع أحداً إلا صرعه، واشتهر بين العرب في جزيرة العرب، وجاء يتحدى رسول الله ﷺ في مكة ويريد أن يأخذ عليه غلبة ليقول: إني غلبت محمداً، ولكن الله ﷻ الذي أرسل رسوله محمداً أيده بكل دليل وبكل حجة حتى في قوة العضلات، فقال ركانة: تصارعني فإن غلبتني شهدت لك، قال: «نعم» واجتمع الناس وأخذ رسول الله ﷺ وأخذوا الخطوات اللازمة للمصارعة؛ واحد، اثنين، ثلاثة، ودخلا في بعضهما، فصرعه رسول الله ﷺ قال ركانة: الثانية، قال: «نعم»، فأقامه، وحاول معه الثانية فغلبه رسول الله ﷺ، قال ركانة: والثالثة، قال: «والثالثة»، وغلبه رسول الله ﷺ.

فالرسول ﷺ أوتي أنواع القوة حتى في بيته كل واحد يتزوج له سياسة قوة في بيته ، ولكن الرسول ﷺ تزوج تسعاً ، وعرف كيف يسيرهن تسعة بيوت ، عرف كيف يسوسهن ، عرف كيف يقوم بواجبهن ، في الرجولة أقوى رجل ، في السياسة أقوى سياسي ، في الحكمة أقوى حكيم ، في المصارعة أقوى مصارع ، في الحرب أقوى قائد ، في العبادة أقوى عابد ، وأحلاه في المشي .

يقول عبد الله بن مسعود : كان رسول الله ﷺ يمشي هادئاً ونحن نجري وراءه لا ندركه في تخطي العقبات .

في حديث البخاري يقول عمر : نزل رسول الله ﷺ نزلة رياضية من فوق جذع وحذب ، وأنا ما عرفت أن أنزل حتى أمسكت بيدي ونزلت . فالرسول كانت له خطوات رياضية حتى في النزول ، حتى في الصعود ، في تخطي العقبات ، فكان ﷺ قوياً .

القوة في القرآن الكريم :

القرآن الكريم جاء بالقوة بمعنيها ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ جميع الرسل ، من أول رسول إلى سيدنا محمد ﷺ ، وكل رسول معه قوة مادية ، وقوة معنوية : ﴿ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ميزان العقل ، وليس ميزان القبان ، إنما هو ميزان العقل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ، هذا الميزان وهذا العقل ، وهذه العدالة ، وهذه القوانين تحتاج إلى قوة تحميها ، تحتاج إلى قوة تصونها .

فقال الله في الآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ هل الحديد نزل؟ نزل من السماء الكتاب، نزل من السماء الوحي، والحديد عبر الله عنه بالإنزال لعلو مكانته، لا لعلو مكانه، خلق الله الحديد في طبقات الأرض من عناصر خاصة، ولكن الله عبر عن الحديد بالإنزال وعن المعادن بالإنزال ليعطيه معنى الإنزال، ومعنى التكريم، كما أنزل التوراة، كما أنزل الإنجيل، كما أنزل الزبور، كما أنزل القرآن، كما أنزل صحف موسى وصحف إبراهيم، كما أنزل الله هذه الصحف، عبر الله للحديد بلغة التكريم، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾؛ ليعطي الحديد مكانة الكتب السماوية، مكانة التكريم؛ لنحتفظ بحديدنا ونعرف قيمته، نعرف كيف نحول الحديد إلى طاقة، إلى قوة، إلى حركة، إلى عمل إيجابي: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، ففي الآية قوة مادية، وقوة معنوية، قوة مادية في الحديد، وقوة معنوية في الكتاب والميزان.

القرآن الكريم نوه بالقوة ونوه بشأنها ومدحها، وأمر الرسول ﷺ والمؤمنين بها: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أشداء ﴿يَتَأَيَّدُونَ النَّبِيَّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، غلظة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فهذه القوة غلظة، شدة، قوة، حديد.

كأنني الآن أسمع قعقة السلاح، ورنين الحديد، وكأنني أحمل ثقل الحديد بين يدي، وكأن القرآن جاء بثقل الحديد وبالكتب السماوية ليعطي قداسة لهذا، وقداسة لذاك.

المؤمن القوي بكل هذه الإمكانيات، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.

احرص على ما ينفعك :

« احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » ، احرص على ما ينفعك أولاً بتدبيرك وعقلك ، فالكيس العاقل ، الكيس : بمعنى العاقل هو الذي يدبر لنفسه ، أما ترك الأمر همجاً ، وترك الأمر إهمالاً بالبركة ، هذا لا يتأتى وما ورد في الشرع ، ترك الأمر إهمالاً بالبركة أبداً ، لا بد من العقل أولاً والتدبير ثانياً .

« احرص على ما ينفعك » ابحث عن كل ما ينفعك في حياتك أولاً ؛ فإن الضال هنا ضال هناك ، ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢] ، نحسن تدبير أمور دنيانا أولاً ؛ لنعرف قيمة الآخرة .

« احرص على ما ينفعك » هذا أمر من الله ، أمر من رسول الله ﷺ للمؤمن أن يحاول بكل جهده وضع خطة فيها حرص على ما ينفعه ، وبعد الحرص على ما ينفعك استعن بالله .

وإني والله حين أتلو القرآن أعرف الجوّ الذي فيه الكلمات والآيات ، أكثر آيات التوكل على الله في القرآن كلها في وسط ميدان القتال ، في غزوة أحد ؛ في غزوة الخندق ، في الغزوات ، في غزوة بدر ، وتوكل على الله في دعوة الأنبياء ، وتوكل على الله ، الله ﷻ لا يأتي بآيات التوكل دائماً إلا في وسط الميدان ، بعد قعقة السلاح ، بعد لبس الدروع والوقاية والخوذات ، بعد الوصول إلى وسط الميدان ، ووسط المعركة والمعمعة ، يقول له : وتوكل على الله ، أما النوم فما يأتيهم توكل أبداً ، في معارك الصلح للأسرة ، في معارك الميدان للحرب تأتي آيات التوكل .

الاستعانة بالله :

وهكذا يا قوم نفهم معنى قول الرسول ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله » ، لم يقل : استعن بالله ثم احرص على ما ينفعك ، إنما أعطاك أنت لتدبر لنفسك ، لتخطط لنفسك ، ولتحرص على مصلحة نفسك ثم تستعين بالله ، وتستعين بالله ، « ولا تعجز » ، معنى لا تعجز : ولا تهمل ، قال الشراح : ولا تكسل ؛ إنما أقول -أنا- : ولا تهمل ، أفسرها بحديث آخر .

روى الإمام أبو داود بسنده : عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : « اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ فقاضى الرسول بينهما ، فلما انتهى من حكمه حكم على فلان لفلان ، فلما انتهى من حكمه قال المحكوم عليه : حسبي الله ونعم الوكيل » ، كأنه غضبان ، وكأنه يستعين بالله على هذا الحكم ، وكأنه يستجير من حكم جائر ؛ حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال له الرسول ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا أحسنت أمرك فقل : حسبي الله ونعم الوكيل ، إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإن أصابك شيء بعد ذلك فقل : حسبي الله ونعم الوكيل »^(١) .

فالرسول ﷺ ينبه هذا المتظلم لأنه فرط في إثبات حقه ، ووثائقه ومستنداته ، وليس معه حجج يقدمها للقاضي ، والرسول ﷺ بشر لا يعلم

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧) ، وأحمد في «المسند» (٦ / ٢٤) ، والطبراني في «الكبير» (١٨ / ٧٥) ، والبخاري في «المسند» (٢٧٤٩) ، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٨١) من طريق سيف الشامي ، عن عوف بن مالك رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .
قال المنذري كما في «عون المعبود» (١٠ / ٤١) : «في إسناده بقية بن الوليد ، وفيه مقال» .

الغيب ، يقضي بنحو ما يسمع ، ولعل أحد الطرفين أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وهذا المظلوم حقيقة وواقعاً ، لم يقدم مستندات ، ولم يحسن وضع حقيقته في قلبها ، ولم يقدم وثائقه التي تثبت حقه ، ولم يحتط لنفسه من أول الأمر ، ولم يأت بشهود يثبتون حقه ، وترك الأمر فوضى ، وجاء يرفع قضية لا مستندات لها ، يرفع قضية لا وثائق لها ، وينتظر أن الرسول ﷺ يعلم الغيب ويحكم بواقع الأمر ، إن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب ، فإذا ما دعي الحق ضد ما يطلب قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، كأنما يستعين بالله ويستعيز به على الحكم الذي حكم ، فقال له الرسول ﷺ : «إن الله يلوم على العجز» إن الله يلوم على الإهمال ، أهملت في تقديم الوثائق ، ثم تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ؟ أهملت في تقديم المستندات ثم تأتي وتقول : حسبي الله ونعم الوكيل ؟ المغبون ، لا مشكور ولا مأجور . المفرط أولى بالخسارة ، المضيع حقه ثم يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، لا تنفعه هذه الحسبلة ، لا تنفعه هذه الاستعانة بالله ، «إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس» .

الكيس :

ما هو الكيس ؟ كلمة كيس يا قوم ، تتبععتها في السنة فوجدت معناها : العقل ، قال ﷺ : «الكيس من دان نفسه» دان نفسه يعني أشعر نفسه من نفسه بأنه مسئول ، الكيس من دان نفسه بدل أن يأخذ الأمر غليظاً على نفسه ، يقول لنفسه : أنا مسئول ، فأنا مدين ، فأنا آخذ بهذه التعليمات ، فكأنه يسير في الأمور الواجبة اختيارياً ، فيكون وقع الأمر خفيفاً عليه .

فالكيس : العقل ، وهو ضد الحمق ، والكيس العقل ، والعقل معناه التدبير ، قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لا عقل كالتدبير » ، فالعقل معناه التدبير ووضع الخطط ، فإن نجحت فيها ، وإن أخطأتك الخطة وأخطأك التوفيق فعد لغيرها ، ولا تنم باكيا ، وقم من عثرتك ، وانهض إلى غيرها وجرب غيرها ، والكيس من دان نفسه ، وقال الرسول ﷺ لسيدنا جابر بن عبد الله في حديث البخاري ومسلم : « الكيس الكيس يا جابر » العقل العقل يا جابر ، وقال الرسول ﷺ في مدح الزاهدين : « أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » .

وهكذا نجد يا قوم كلمة الكيس معناها العقل ، والعقل معناه التدبير ، وبهذا نفهم أن الرسول ﷺ نبه الرجل المفرط في حقه وفي حق نفسه وقال له : « إن الله يلوم على العجز » إن الله يلوم على الإهمال .

ولا تعجز:

فكلمة الرسول ﷺ في هذا الحديث : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » أي ولا تهمل ، تهمل ثم تتهم القضاء :

وعاجز الرأي مضيع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وعاجز الرأي دائماً يضيع الفرصة ، ويقول : ربنا أراد ، ربنا أراد ، هذه إرادة ربنا ، نحن مسلمون ، وكيف ، وكيف ونحن المسلمون ، وهكذا .

قل لمن نام وهو يطلب مجداً فاتك المجدي حليف الوسائد

فالعاجز المهمل لا ثواب له ؛ لأنه أهمل ؛ فإن أصابك شيء بعد التخطيط الواضح أصابك شيء بعد التدبير العلمي الكافي ، إن أصابك شيء بعد هذا فلا تنم للمصيبة ، ولكن انهض من عثرتك وقل : قدر الله .

الْقَدَرُ:

كلمة قدر فهمها الناس على أوسع ما يراد منها ، كيف هذا؟ قدر معناها حسب ، والتقدير معناه الحساب ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] ، بنسب ، فالماء هذا بقدر .

١ - أوكسجين .

٢ - أيدروجين = مأكّل = العناصر ، بقدر .

فإذا زاد العنصر انقلب الناتج ، فمعنى قدر حساب ، «فاقدروا له» أي للشهر ، بمعنى احسبوا الأيام ، وهكذا نجد ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] بنسب ثابتة لا تختلف .

وهكذا يا قوم فهم الناس القدر أنه أمر ينزل من السماء لا بد منه ؛ لا أن القدر معناه التقدير ، ولكن قل : قدر الله ، إن الطفل الذي يتربى في بيئة فاسدة قدر الله له النسب ، إن من عاش ثلاث سنوات في بيئة فاسدة تطبع منها ، هذا حساب ، قدر الله ، إن من تزوج امرأة من بيت سوء فإنه يبتلى منها ببلايا كثيرة ، هذا قدر وحساب ، قدر الله الأشياء بحكمته وبعلمه .

وتتبع آيات القدر في القرآن -والله يا سادة- تتبعتها جميعاً فما وجدت قدراً بمعنى أمراً ينزل طابقاً من السماء على عين الإنسان فيعميه وعلى بصيرته فيطمسها - لا وربى ، إنما القدر في القرآن كله ذكر مرات عديدة ، ومعناها الحساب والتقدير .

«ولكن قل : قدر الله» يعني أن الله بين في الحساب أن من أهمل ، وأهمّل الخطّة ، وأهمّل الاحتياطات كلها ، أصابه ما أصابه ، ومن انتبه فهو ينجح ٩٩٪ ، وقد يخطئ بحسب اختلاف الظروف ، «ولكن قل : قدر الله وما

شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان» الذي ينام ويعج الخطيئات ولا ينهض من عثرته يدخل الشيطان في قلبه فيتهم القضاء هذا معنى أن لو تفتح عمل الشيطان .

يا قوم فرغنا من بعض مباني الحديث ومعانيه .

الإسلام استيعابي :

الإسلام استيعابي ، ومعنى استيعابي أنه مجموعة من التجارب من الأجيال السابقة ، آلاف الأجيال ، مجموعة التجارب والحقائق السليمة ، والمساويات والمعادلات المحلولة ، مجموعة التجارب الناجحة بحلولها ونتائجها جاء في القرآن .

فأخطاء الماضين نزهنا الله عنها ، وعثرات الماضين نبهنا الله إليها في قصص القرآن ، فجاء القرآن استيعابياً ؛ استوعب إصلاح الحياة كلها في المعنويات والماديات ؛ فإذا قرأنا القرآن فلنستوعب ما فيه وما حوله .

الزعامة والقوة :

إن درسنا المؤمن قوي أمين ، فأبدأ بالزعماء ، زعماء العوالم ، لا أقول : زعماء المسلمين ، ولكن أقول : زعماء العوالم ، زعماء الملأ الأعلى ، زعماء الملأ الخفي ، والملأ الموجود الظاهري ، نتبعهم فنجد الزعامة مقترنة بالقوة والأمانة .

جبريل عليه السلام :

نبدأ بزعيم الملائكة سيدنا جبرائيل عليه السلام قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير : ١٩ ، ٢٠] فجمع الله سيدنا جبريل عليه السلام القوة والأمانة ، ودعوة سيدنا جبريل عليه السلام مادية

ومعنوية ﴿إِنَّهُ - هو أي القرآن - لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ما معنى كريم هنا؟
إننا نفهم فلائًا كريمًا يسقي الناس الشاي، ويطعم الناس الطعام،
ويفرق على الناس أشياء وهدايا، هذا الكريم! يا سيدي جبريل لا يسقي
الناس ولا يفرق الطعام، فلماذا وصفه الله بأنه كريم هنا؟

إن القرآن الكريم، كريم يعني مستور، كريمتك سعاد- البنت البكر
التي لم يطلع عليها أحد- ﴿أُنَبِّتُنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]،
النبات الزهرة فيها حبوب لقاح، وتلقيح وإخصاب، وأثمار وإنتاج بدون
أن يمد أحد يده في داخل الزهرة، فكان نباتًا كريمًا وتلقيحًا بدون أن
يمسه أحد، رمضان كريم، ثوابه مستور، لم تفضح ثواب رمضان بغيبة
أو نسيمة أو أكل حرام؟

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣] صحف الملائكة التي تكتب فيها
الأعمال، لا يخلو محو ولا تدخلها «جهن» ولا «أستيكا» ولا يدخلها شطب
ولا تغيير أبدًا: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ
- سفراء - ﴿كَرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦] فالسفير كريم -سفير الله إلى
الأرض كريم - ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كَرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿[عبس: ١٥، ١٦]، ﴿إِنِّي
أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ [النمل: ٢٩] بلقيس تقول: جاءني كتاب كريم -
فالكتاب الكريم خطاب موثوق - لا يقرؤه أحد: ﴿وَأَعْتَدْنَا هَا رِزْقًا
كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١] الرزق الكريم الذي ليس حوله فضائح ولا
إشاعات، ولا اختلاسات ولا تحقيقات، ولا نهب من مال الدولة، ولا
سؤال ولا جواب ولا ولم؟ وشكاوى ولا دموع يتامى ولا بكاء أرامل،
ولا نهب، ولا دعاوى مظلومين، فهو رزق كريم مستور.

إذن عرفنا من مادة «كرم» معناها الستر، فوصف الله ﷻ سيدنا جبريل بأنه كريم، كريم يستر ما معه كريم أمين السر، كاتم للسر، كريم لا يزيد ولا ينقص؛ إنه لقول جبريل - قول رسول كريم مستور، ساتر ما معه، لا تمتد يده بتغيير حرف، ولا بتغيير معنى، ولا بزيادة كلمة، ولا بزيادة حرف، أو نقص حرف، إنه لقول رسول كريم، ووصف الله القرآن، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، كريم أي مستور، لم تمتد يد إليه بمحو أو إثبات.

وصلنا من هذا إلى أن مادة كريم معناها الستر ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جبريل ذي قوة، وجبريل يهبط بالوحي في لحظة، في غمضة عين، ويرتفع في لحظة، في غمضة عين، أمين الله على وحي الله، يسأله الرسول ﷺ السؤال فيقول جبريل: «حتى أسأل ربي» وهو يعلم الجواب؛ لأنه كان عند اللوح المحفوظ - ولكنه أمين - جبريل مع قوته يتمسك بقيود الحرية؛ لأن القوي قد يفلت منه زمام الحرية - ويقول: أنا قوي أفعل ما أشاء.

في حديث البخاري أن الرسول ﷺ قال لجبريل: «لماذا لا تزورنا أكثر يا جبريل؟» فقال جبريل: حتى أسأل ربي. ثم سأل ربه ونزل بالآية: ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

فجبريل القوي، لا ينزل لزيارة سيدنا محمد باختياره، بل إنه مقيد بقيود الحرية، قوي وحر، وحر ومقيد، فالقيد قيد الحرية، شرف قيد الحرية كرامة، قيد الحرية إنسانية، قيد الحرية نفع، فالشمس في فلکها مقيدة بمدار خاص وهي شمس، والنجوم في أفلاكها مقيدة بمدار خاص، وهي نجوم، والأرض مقيدة، وجبريل في قوته مقيد: ﴿وَمَا

تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴿١١﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٢﴾ ذِي قُوَّةٍ ﴿١٣﴾ قُوَّة نكرة ؛ لتفهم فيها النفس كل فهم ، ﴿١٤﴾ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٥﴾ له مكانة - مطاع هناك : ﴿١٦﴾ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ ﴿١٧﴾ [التكوير: ٢١] فاجتمعت القوة والأمانة في زعيم الملائكة ، وهو المطاع هناك لم ينفذ أوامره بالقهر ، وإنما مطاع ، لم يقل الله مرهوبا ، مخوفاً منه ، له سطوة ، وإنما قال : ﴿١٨﴾ مُطَاعٍ ﴿١٩﴾ فجبريل مع قوته مطاع طوعاً اختيارياً ، فاجتمعت القوة والأمانة في زعيم الملائكة جبريل .

ثم نأتي إلى عالم خفي - عالم الجن - نجد الأمانة والقوة فيه أيضاً في زعيم الجن ، قال سيدنا سليمان : ﴿٢٠﴾ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٢﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] .

الجن مناط العفرتة ومبدأ الشيطنة ، ومع ذلك يتمسك بأداب القوة والأمانة ، ومع أنه جن وشيطان وعفريت يمكنه أن يصعد أو يجري أو يخفي ومع ذلك قوي أمين ، يتقيد بقيود القوة والأمانة ، فهو زعيم الجن .

موسى عليه السلام :

نأتي إلى زعيم من زعماء الإنس - يا سادة - سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وصفه الله بأنه قوي أمين ، والقصة تعرفونها حينما ذهب من مصر هارباً ، وذهب إلى فلسطين إلى جهة العقبة ، ووجد فتاتين تذودان غنمهما ، ولا تعرفان أن تسقيا غنمهما من شدة الزحام : ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ [القصص: ٢٤] ، فذهبت الفتاتان إلى أبيهما وأخبرتاه ، وجاءت إحدهما تقول له : تعال كلم أبي ،

فذهب معها فمشت الفتاة أمامه فكانت الريح تسفي ثوبها بالضغط هكذا ، فتبين قطعات من جسمها ، ولمحات جسمها ، فقال لها سيدنا موسى : إلى الورا ، تعالي امشي ورائي ودليني على الطريق يميناً أو شمالاً أو أماماً ، فمشت وراءه ، فهو الأمين ، لم يرض أن يعطي عيناه مناهما من نظرة في جسم يسير أمامه ، وخلا الطريق بهما في العراء - فكان الأمين - ودافع عنهما حتى سقى لهما الغنم ، فكان القوي ، فقالت إحدى الفتاتين : ﴿يَتَأَبَّاتِ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] .

فزعيم من زعماء الإسلام في زمانه نبي ورسول ، وصفه الله بأنه قوي أمين .

يوسف الصّالِح :

وسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام قوي أمين : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥] .

طيب أمين عرفناه ، أين القوة : حفيظ ، كلمة ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ لأن الحفيظ غير الحافظ ، حفظ فعل ماض ، اسم الفعل منه حافظ والصفة المشبهة منه حفيظ ، والصفة المشبهة أدوم وأثبت في العمل ، كما تقول : كريم ، صفة ثابتة دائمة ، فحفيظ تعطي معنى دائماً ، والحفيظ على الشيء فيه قوة وأمانة ، كالعساس : الحارس فيه قوة وأمانة .

وسيدنا يوسف كان حفيظاً أميناً ، أميناً وقد خلا مع امرأة العزيز ، فقال : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ

هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴿يوسف: ٢٣﴾، أميئًا على الأسرار، أميئًا على كرامته - في نفسه - فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، كان الأمين الحفيظ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ قال الملك: ﴿أَتُتُونِي بِهِ؟﴾ أولًا فذهب إليه رسول، فقال: لا، لا أخرج واعتد بنفسه، أعيدوا التحقيق مرة أخرى، إن كنت كاذبًا فلا بقين في السجن حتى أموت، وإن كنت صادقًا أخرج مرفوع الرأس عالي الهمة موفور الكرامة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، قال ملك مصر: هذا كلام صحيح، وعقد جلسة وكان هو رئيس الجلسة، وبدأ يخاطب ويسأل الشهود: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، قالت التي ادعت عليه أولًا: ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴿ [يوسف: ٥١-٥٣].

والحق ما شهدت به الأعداء، فلا داعي بعد هذا أن نقول: همت وهم؛ لأن هم في اللغة العربية معناها بدأ الخناق، بدء معركة، تتبعت كلمة: هم في السنة والقرآن، فوجدت أن كلمة هم بكذا معناها بدء معركة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، ﴿أَلَا تَتَّقِيتُلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، وهكذا نجد ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ

وأمانة ، وزعامة سيدنا محمد بقوة وأمانة ، وورق دخول الجنة : القوة والأمانة ، فلا بد من اجتماعهما اجتماعاً اتحادياً ؛ لينتج منهما ثالث ، فلو كونت عنصراً وعنصراً ، نتج عنصر ثالث من عنصريين سابقين ، فلا نريد قوة تنفرد عن الأمانة ، فالموظف في مكتبه بيده قوة السلطة ، والجندي في مكانه بيده قوة ، وصاحب العمل بيده قوة ، وصاحب الشركة بيده قوة يعطي ويمنع ، ولكن كل قوة تحتاج إلى أمانة معها على طريقة الازدواج معها ؛ لتصون القوة الأمانة ، وتحرس الأمانة القوة .

أما إذا وجدت إحدى الخصلتين بدون الأخرى كان الخراب وكان الدمار ، قال عمر - عمر الذي حل كل الإشكالات ، لم تقف أمامه مشكلة أبداً ، عمر بقيت أمامه مشكلة واحدة لم يجد لها حلاً ، قال عمر : أشكو إلى الله ضعف الأمين وقوة الخائن .

آه ! أشكو إلى الله ضعف الأمين وقوة الخائن ؛ شخص أمين نعطيهِ عملاً فهو ضعيف يسرق ويضحك عليه ، ويداس وتفوت عليه الحيلة ، ويؤخذ وتضيع الأموال من تحت يده ، وهو الأمين لكنه غير قوي ، ضعف الأمين وقوة الخائن ، خائن نبه فطن حذق لا يضيع منه شيء ، ولا تفوت عليه الحيلة ، ولكنه يأخذ من عشرة تسعة ، آه يأخذ من العشرة تسعة ويخلي واحداً بقوته ، فعمر يقول : أشكو إلى الله ضعف الأمين وقوة الخائن ، ماذا أعمل؟! .

انفردت القوة في خائن ، وانفرد الضعف في أمين ، ماذا أعمل؟! أريد تلقيحاً بين القوة والأمانة ؛ لتأتي الزعامة كما وصف الله جبريل مرة ثالثة ، وصف الله جبريل زعيم الملائكة بالقوة والأمانة ، وعفريت الجن بالقوة والأمانة ، يا زعماء العالم ، القوة والأمانة ، التاريخ ، موسى ، يوسف ،

القوة والأمانة، آخر الرسائل وخاتمها سيدنا محمد، القوة والأمانة، دخول الجنة، القوة والأمانة، فإذا انفردت إحداهما كانت خراباً، وكانت ضياعاً.

القوة والعقل:

هذه القوة تحتاج إلى فرملة، نسبة الخلط أولاً قبل الفرملة، نسبة الخلط تحتاج إلى فن، لو أردنا أن نعمل صنفاً من الكعك، نأتي بالعسل الأبيض والدقيق، قد يكون العسل أكثر من الدقيق فيضيع طعمهما، قد يكون الدقيق أكثر من العسل، فيضيع طعم العسل، فلا بد من نسبة فنية للمزج والخلط، هذه النسب لا بد منها، لا بد من الاحتفاظ بنسبة الخلط بين الشيئين.

هذه النسب لا بد منها - يا سادة - من فن ومعرفة، كذلك نسبة خلط القوة بالأمانة لا بد فيها من فن ومعرفة هذه النسبة، ثم بعد ذلك نقول: قال ﷺ: «ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم»^(١) حلم عقل، يا قوم حلم يعني عقل.

الناس يفهمون الحلم على غير معناه - حلم يعني عقل: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصفات: ١٠١]، يعني عاقل كما قال الشاعر:

أجسام البغال وأحلام العصافير

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٤٦) عن علي عليه السلام، مرفوعاً، بنحوه. وضعفه الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٢١). وذكره الديلمي في «الفردوس» (٦٣٧١) عن أبي أمامة. وأخرجه الدارمي في «السنن» (٥٧٦)، والبيهقي في «المدخل» (٥٠٧) من قول عطاء بن يسار. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٣٦) من قول حبيب بن حجر القيسي. وذكره الترمذي في «نواذر الأصول» (٤/ ١١) من قول الشعبي.

فحلم يعني عقل ، فالناس يفهمون الحلم هكذا ، ويطأطئ رأسه هكذا حلیم طيب ينضرب ويقول : الله يسامحك . لا يا سيدي ، ليس هذا هو الحلم - الحلم معناه العقل ، وقد وضحنا العقل بأنه التدبير ، الحلم معناه الفهم والفتانة والعقل : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ؛ يعني عاقل .

وهكذا نفهم معنى الحلم بأنه العقل ، فالرسول ﷺ يقول : « ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم » - إلى علم وتخطيط عقل يدبر ويخطط وعلم ينظم هذا التخطيط « ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم » يا من طبعوا اللوز مع السكر بنسب خاصة ، وتفننوا في الطعام ، ضع معي بالله عقلاً وعلماً بنسب ثابتة ، يا من وضعوا العسل مع الدقيق بنسب ثابتة ، وتأكل الحلوى ، بالله ضع معي حلماً وعلماً ، يعجبني فيك خصلتان الحلم والأناة ، في العقل والتأني ، والحلم يدور مع العقل وجوداً وعدماً .

وهكذا نجد الرسول ﷺ يمدح أحسن الأخلاق وأحسن الامتزازات وأحسن النسب مع بعضها ، حلماً إلى علم ، عقلاً إلى علم ، تدبيراً وتخطيطاً في علم ، وعلى أساس علم ، لا بد من فرملة ، يا قوم ، مع القوة والأمانة ، لا بد من فرملة ، يأتي الشباب ويقول : هيا هيا ، ويأتي الشيوخ ويقولون مهلاً مهلاً فإذا انفرد الشباب وقالوا : هيا هيا ، وخالفوا رأي الشيوخ ضاعوا وضاعت الدولة .

فالشاعر يقول :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

الرأي الناضج ، والشجاعة الكاملة ، لا بد من فرملة ، بيد الشيوخ
توقف الشبان عند حدهم بلا هيجان ، لا بد من فرملة بيد العقلاء ، توقف
الهائجين المائجين عند حدهم ، لا بد من رأي وشجاعة يمتزج هذا بذاك ،
أو كسجين + أيديروجين = يكون خليطاً آخر اسمه الماء العذب :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتماعاً لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

رأي وعقل ، رأي وشجاعة ، رأي وتنفيذ ، رأي وتنجيز ، رأي وقوة ،
ولكن في فرملة في ضابط في عقل ثابت ، ولذلك يقول الرسول : «ما تزال
أمي بخير ما وقر صغيرهم كبيرهم وعطف كبيرهم على صغيرهم»^(١) .

لتكون الفرملة بيد الشيوخ ، فإذا انتفعنا بالشباب في قوته وإقدامه
فلتكن الفرملة بيد الشيوخ ، وعجلة القيادة في يد الشيوخ ، بإمساك بيد
الشيوخ ، بتوجيه وتنظيم العقلاء ، فتجتمع القوة والعقل وينتج منهما
نتائج آخر هو السعد والعزة والانتصار ، والحكمة والقيادة الرشيدة ،
والسيادة الحكيمة ما أحلى اجتماعهما ، ما أحلى قول الرسول ﷺ : «ما
اجتمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم» ما اجتمع شيء إلى شيء
أحسن من رأي ناضج إلى شباب قوي .

(١) أخرجه الترمذي (١٩٢٠) ، وأحمد في «المسند» (٢٠٧ / ٢) عن عمرو بن شعيب ، عن
أبيه ، عن جده ، مرفوعاً بمعناه . قال الترمذي عقب (١٩٢١) : «حديث صحيح» .
وفي الباب عن عبادة بن الصامت ، وعبدالله بن عمر ، وأبي أمامة رضي الله عنه وانظر «كشف
الخفا» (٢١٥٧) .

وهكذا نجد يا قوم أن الله ﷻ وصف زعماء الإنسانية بالقوة والأمانة في آيات أخر سأذكرها فيما بعد: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [١٥] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ [ص: ٤٥-٤٧]؛ سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي﴾ كناية عن القوة: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ الأبصار البصائر، البصيرة النيرة، الضمير محط اللوم والعتاب والتوجيه والرقابة: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، التقوى هاهنا، الرقابة هاهنا، الإحسان هاهنا، والشعور هاهنا، التوجيه هاهنا، والمحكمة هاهنا، الجنحة، العقاب، محضر، غرامة، هاهنا، التأنيب التشجيع هاهنا، فهؤلاء أولي الأيدي والبصائر.

لهم ضمائر في قلوبهم، ولهم محاكم في نفوسهم، ولهم رقابات في صدورهم، ولهم توجيهات من أنفسهم بدوافع ذاتية، وبنهضات ذاتية، لا يرهبون عصا من ورائهم، فعصاهم هنا، ولا يرهبون سطوة تسوقهم؛ لأن سطوتهم السائقة هنا، ولا يرهبون محكمة تقبضهم؛ لأن محكمتهم هنا: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ فجمعوا القوة هنا، وفي الجسم كله، وجمعوا الضمير والمحكمة والعقل والأمانة هنا، فهم مجموعة، مجمعة فيها كل أنواع السلطات التشريعية، التنفيذية، القضائية، الرقابة، كل شيء مجمع، مجمع السلطات كله في شخص واحد.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ الله على الشريف والإضافة، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي﴾ قوة، جميع أنواع القوة، أيدي

المحاضرة الحادية عشر

١٩٥

قوة بجميع أنواعها ، قوة الضمير ، قوة الشخصية ، قوة العضلات ، قوة التنفيذ ، قوة التصميم ، قوة الجهر بالحق : ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني البصائر : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة : ١٤] ، الضمير محط اللوم ، محكمة الإنسان ، تشجيعة ، مجمع فيه كل شيء ، هؤلاء القادة مدحهم الله ؛ لأن فيهم قوة وأمانة ، اسمع القرآن : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف : ٦٨] ، هذا سيدنا هود : ﴿يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف : ٦٧ ، ٦٨] ، وهو النبي القوي الفتى بعثه الله بالقوة ومع ذلك يقول : ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء : ١٠٥-١٠٨] .

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء : ١٢٣-١٢٦] ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء : ١٤١-١٤٣] ، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء : ١٦٠-١٦٣] ، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٣٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء : ١٧٦-١٧٩] ، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٣٤﴾ أَنْ أَذُودَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ [الدخان : ١٧-١٩] .

فهؤلاء أولي الأيدي والأبصار ، نطقوا على أنفسهم أنهم أمناء ، ففيهم الأمن والأمانة ، وفيهم القوة ، جمعوا بين القوة والأمانة جميعاً .

من مظاهر القوة والأمانة :

يزيد الرجل قوة وفتوة ، ويرفعه إلى مصاف الزعماء ، مظهر الأمانة والقوة في البيت ، الرجل أعطاه درجة : ﴿ وَلِلرَّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، أعطاه الله القوامة ، ففيهم قوة السلطة في البيت ، ولكن عليه أن يكون أميناً ، قال سيدنا رسول الله ﷺ : «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة رجلاً يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه»^(١) .

فالرجل الذي له القوامة والهيمنة في البيت والدرجة ، لابد أن يكون مع هذه السلطة أميناً ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، فلها قوامة أيضاً على قدرها ، فلا بد أيضاً أن تكون أمينة على سر زوجها ، وهو أمين على سرها ، لا يفضح أحدهما الآخر .

والقوة والأمانة في مكتب الموظف ، القوة والأمانة عند أوراق الموظف وفي مكتبه ، يقول سيدنا رسول الله ﷺ : «الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه ، فيدفعه إلى الذي أمر له به ، أحد المتصدقين»^(٢) يعني واحد رئيس حسابات ، وأمر لشخص من الناس بمخالصة ، تخليص حق مائة ألف دولار ، وذهب إلى المحاسب ليقول له : ناولني هذا مكتوب لي ، لا يعطيه ٩٩ ألف دولار ، ويقول له : خل

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٨) ، ومسلم (١٠٢٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .

الباقى ، ويقول : الله يسامح ويتركه ويمشي ، لا لا يا سيدي ، لا تحاول معه أن تستغله في ألف دولار ، لا تستغل من أمر له بشيء في ورقة ، فأنت خازن مسلم أمين ، أمين على مال الدولة ، على أوراق الناس ، على تنفيذ أعمال الناس ، لا تعطل الأوراق لتأخذ ، ولا تطرده اليوم حتى يأتي غداً ، ويقول لك : خذ بعد أن يتعب ، فإن الرشوة المقنعة سحت ، ولو كانت هدية فهي سحت وحرام ، إنها رشوة في ثوب هدية ، ولكنها حرام .

فالرسول ﷺ يعطيك يا أيها الرجل الذي جلست على شباك التذاكر ، على شباك الصرف ، شباك الشيكات ، شيكات القبض والأخذ ، ومعك الأوراق والتعليمات ؛ إذا جاءتك ورقة لا تعطلها ، لا تحاول أن تأخذ منها ، لا تستلم منها قليلاً ولا كثيراً ، فالخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به ، ويراجع ويطمئن فيعطيه كاملاً طيبة به نفسه .

مبارك عليك حبيبي ، الله يبارك لك طيبة به نفسه ، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين ، يعني كأنه تصدق بهذا المبلغ ، مبارك عليك أيها الصراف ، مبارك يا صاحب الأموال والشيكات ، ولا تعطل أموال الدولة ، وأعمال الناس فكأنك تصدقت بهذه الأموال ، كل يوم تصرف ملايين من الدولارات لك مثل ثوابها عند الله ، أنجزت أعمال الناس وسهلت أمورهم ، ولا عطلتهم ولا أوقفتهم ، ولا أرجعتهم ليوم آخر ، مرة أخرى .

وفي حديث البخاري ، قال رسول الله ﷺ : «الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه ، فيدفعه إلى الذي أمر له به ، أحد المتصدقين» هذا مظهر من مظاهر القوة والسلطة ، يمكن أن يقول له : تعال غداً ، أو ناقص إمضاء ، أو تاريخ ، أو صفر ، أو رقم ، لا ، أنت خازن مسلم أمين ؛ إذا سهلت أمور الناس وأنجزتها لك مثلها صدقة .

مظهر آخر من مظاهر الأمانة يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: «فيقوم محمد يتشفع لربه فيأذن له، فتأتي الأمانة والرحمة على جنبتي الصراط يميناً وشمالاً»^(١) هل عرفت الصراط؟ ونحن نمشي على الصراط يوم القيامة؛ لنصل إلى الجنة؟

أتعرف ماذا يسندك على الصراط حتى لا تزل، وحتى لا تقع، الأهل والأمانة، تسندك يميناً وشمالاً فلا تقع في جهنم، عليك بالأمانة لتجد سنداً إلى الصراط، وضمان توصيل إلى الجنة، صل الرحم لتجد سنداً إلى الجنة، وضمان توصيل إلى الجنة، لا يعجبك في الرجل ظرفه وعقله وفكاهته، فالرسول ﷺ يقول: «حتى يقال للرجل: ما أجده، ما أظرفه، ما أعقله، وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»^(٢)؛ لأنه لا إيمان له.

يا قوم، إن الأمانة والقوة مظهر الزعماء، زعماء العالم، زعماء الإنسانية، وزعماء الملائكة والدين والخلق، جمعت فيهم القوة والأمانة، وبئست الخيانة، كان ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع؛ فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئس البطانة»^(٣)، والله ﷻ يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، مرفوعاً، به بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣) عن حذيفة رضي الله عنه، به.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٠٣، ٧٩٠٤)، وابن ماجه

(٣٣٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً، به. وصححه الحاكم في «المستدرک» (١/

٥٣٤) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً. وانظر «كشف الخفا» (٥٧٧).

من علامات الساعة: تضييع الأمانة:

يا قوم، إن كلمة القيامة لها معنيان؛ معنى أولي عاجل في الدنيا، ومعنى نهائي في الآخرة، قامت قيامة بني فلان أي انتهى أمرهم، هذا تعبير عربي، قامت الساعة على بني فلان، كذلك فالرسول ﷺ في درسه يتكلم مع القوم ويحدثهم فإذا: أعرابي جاء يقول: يا رسول الله، قال: «نعم»، قال: متى الساعة؟ فالرسول ﷺ استمر في حديثه ولم يرد على السؤال، فقال: سمع ما قال وكره ما قال، حتى فرغ الرسول ﷺ من حديثه الذي بدأ به، ثم قال: «أين السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله. فقال ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» فقال السائل: وكيف تضييع الأمانة؟ فقال ﷺ: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(١)، اسمعوا هذه الكلمة الجميلة، وهذه البلاغة: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»، «إذا أسند» ما معناها؟ معنى وسادة: متكئ، فكأن الرسول ﷺ يقول: إذا كانت الوظائف وسائد ومخدرات ونومًا على الحرير واستنزاف أموال الناس ويأكل الجوع الناس، إذا كان الأمر هكذا فانتظر الساعة.

فالوظائف استغلالية، ومتكأ وكفى، أما إخراج إنتاج للدولة وعمل؛ هذا آخر ما يفكر فيه، أسند الأمر إلى غير أهله بغير كفاءة علمية، ما يتقن ذلك العمل بمحسوبية، تولى غير ما يحسن، تولى غير ما يفقه لأجل خاطر فلان، جلس على الكرسي، لا يحسن القيام بأعبائه، إذا أسند الأمر إلى غير أهله فيجب أن يكون الرجل الصالح في الموطن الصالح، رجل كفء في المكان اللائق به، وإذا وضع الرجل الصالح لينتج في الدولة فلن

(١) أخرجه البخاري (٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا، بنحوه.

تقوم قيامة هذه الدولة ، إذا وضع الرجل السيئ في المكان الذي لا يليق به ، أما إذا كانت الوظائف متكأ على حرير فانتظر قيام هذه الدولة .

«إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» لا ، السائل يسأل عن الساعة الأخيرة لخراب الدنيا وفنائها ، فلقنه الرسول ﷺ بأسلوب حكيم إلى ساعة وقتية ، إلى قيامة وقتية على جماعة مخصوصة ، فالأسلوب الحكيم أن نجيب السائل على غير ما ينتظر : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، سئل الرسول ﷺ عن الهلال لماذا يصغر ثم يكبر فقال الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ .

أجابهم بما يفهمون ، أو بما ينبغي أن يفهموا ، فالسائل يسأل عن ميعاد يوم القيامة ، وما يستفيد هو إذا عرف القيامة تقوم بعد كذا ، ألف سنة ، أو في يوم كذا ، تاريخ كذا ، إذا كان القرآن لم يحددها ويقول : ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، فما الداعي إلى هذا الشطط والتنطع ، متى تقوم القيامة؟ لماذا ماذا تفعل لقيام القيامة أو لمعرفة تاريخ قيام القيامة ، ماذا يفيدك من هذا؟ يأتي ولذلك ويترك الواجب الحساب والهندسة والجبر ، كيف التلفزيون ينقل الصور؟ لماذا التلفزيون وهذه القناة؟ فتقول له : أد الواجب ، ذاكر الحساب ، ذاكر الهندسة ، ذاكر الجبر ، وبعد ذلك أخبرك : وهكذا تلفت السائل إلى ما ينفعه فالسائل يسأل متى الساعة متى تقوم القيامة؟ ماذا يفيد؟ والله إن القرآن واضح صريح : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤] ، القرآن قطع السبيل عن السؤال عن الساعة ، ولكن الرجل سأل فهل يردده الرسول وينهاه ، ولكن الرسول وجهه إلى ما يفيد ،

فقال له : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : كيف إضاعتها؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» .

القوة والأمانة (مرة ثانية) :

وهكذا نجد يا قوم الأمانة أمرًا خطيرًا ، مع القوة ، أمرًا عاليًا ، وفلسفة عليا في الدين ، واستيعابًا لأنواع الكمالات ، تحرق أفلاطون في مدينته الفاضلة ليرى المثل العليا ممثلة في مدينة فما نالها؟ تحرق أرسطو في تجاربه ومثله ، وما وصل إليها ، وصار الزعماء والفلاسفة من قديم الزمان يبحثون ويبحثون ولهم عذرهم فيما يبحثون ، ووصلنا بعض ما بحثوا .

وجاء القرآن الكريم بهذه التجارب سليمة ، وبهذه المعادلات محلولة ، وبهذه المسائل واضحة ، فلا نحن نعاني حل المسائل الصعبة ، ولا المعادلات المشكلة ، ولا النظريات الفلسفية الشاطة ، وإنما جاء بها واضحة ، فبين القرآن الكريم أن القوة والأمانة هما المؤهلان إلى دخول الجنة ، المؤهلان إلى الزعامة ، إلى الرفعة ، القوة والأمانة في كل شخص ؛ لأن اللبنات تبنى فيتتج بناء قوي ، ولو كان حجرًا مكسرًا ، مفتتًا يكون البناء ضعيفًا .

فالرسول ﷺ حين بدأ بالحديث قال : «المؤمن القوي» لم يقل المؤمنون الأقوياء ، وإنما بدأها بالفرد فقال : «المؤمن القوي» ؛ لتكون كل لبنة في الجدار سليمة ، كل وضع في البناء سليمًا ، كل خطوة في العمل سليمة ، كل موضوع في جسم البناء سليمًا ، المؤمن الفرد القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، فالرسول ﷺ يأمرنا أن نبني بناء الأمة من أفراد أقوياء أمناء ، قوي أمين ، ينتج بناء سليما متينا ، وأمة مصونة محوطة بالكمال ، محوطة بالسيادة والعزة .

أنا لا أتكلم عن العزة فأنتم تعرفونها، ولا أتكلم عن الأمانة وحدها فأنتم تعرفونها، إنما كلامنا عن مزج القوة بالأمانة، قوي أمين؛ لينتج منهما فرد قوي وأمة قوية وزعامة متينة كما نالها سيدنا جبريل عليه السلام زعامة في السماء، وفي العالم الخفي زعامة لعفريت، وفي التاريخ القديم زعامة للأنبياء والمرسلين.

يا قوم، إن الله حين أرسل إلينا سيدنا محمد ﷺ وبعث معه القرآن الكريم، جاءنا بحلول سليمة، وجاءنا بتعليمات واضحة، استوعب فيها كل ما يصلح لنا، وبين فيها كل ما يوضح أمرنا، وينهض بحياتنا، فأوصيكم ببناء اللبنة الأولى لقوانا، وأوصي نفسي بأن أنهج هذا الطريق، طريق القرآن وطريق السنة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، أدعو إلى طريقة واضحة أنا ومن سار معي: ﴿فَقَبِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، أعط نفسك همتها ولا تقل غيري نائم وأنا أتعب وغيري يأخذ إجازات ورخصات ويهمل المكتب، قم بعملك خير قيام.

والله يا قوم، إن الذي يتلاعب بأمر الدولة، الله يعامله بتلاعبه، اجتهد أنت، وانشط أنت، والله يعطي المعونة على قدر المثونة، وعلى قدر الخدمة للدولة، يعطيك الله البركة لأولادك في مرتبك، ومالك وصحتك، وانظر إلى الرسول ﷺ يطبق عليه الله القانون ﴿فَقَبِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وتقدم أنت والله معك، كذلك أنت اعمل للدولة وللصالح العام حتى لا يفنى الفرد في الجماعة، ولا تفنى الجماعة في الفرد، بل لكل حقه وواجبه.

هذه تعاليم القرآن استوعبها الله لآخر قرآن نزل، ولآخر الرسالات جاء

بها القرآن لتستوعبها ، وإذا ما قرأت آية من القرآن في القوة وجدت حولها جواً من الأمانة : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨] .

قرأت آيات الأمانة فوجدت جواً مصحوباً بالقوة ، فالله يسوق الأمانة حولها قوة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ [المؤمنون: ١] ، معنى الفلاح الشق ، فإذا شققت في الجبل شقاً فقد أفلحت الجبل ، ويسمى الفلاح ؛ لأنه يفلح الأرض ويشقها بعرق الجبين ، وبتعري اليد والساعد والرجل ، وبالثور والمحراث ، فالفلاح يتعب في الشمس والحر والبرد ويفلح الأرض أي يشقها ، ففي الآية جو قوة ، فأحاط الله الأمانة بهالة من القوة .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] ، القاف تحتاج إلى ملء الفم ، والదال تحتاج إلى قلقلة وحركة ، ثم ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الواو والنون كعجلة تدور ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢] ، اسمع الصاد والخاء والشين والعين ، كل الحروف هنا قوية جداً ، والموسيقى قوية ، والأوتار تعطي نغماً قوياً ، والآيات قصيرة لتأخذ نفسك فتخرج الكلام قوياً ، يعطي الله الآية ، آية الأمانة هالة من القوة ، حتى يكسو الأمانة بالقوة .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [المؤمنون: ١-١١] .

هذه قوة في الحروف والأصوات والأوتار والنغم والقاف والفلاح والمادة أفلح في آية المعارج ، هناك قوة أعنف من هذه القوة ، هنا قوة جهاد

النفس ، قوة التحول من طباع سيئة إلى طباع كريمة ، وأصعب شيء على النفس تحويلها من طباع سيئة إلى طباع كريمة .

اسمع التحول ، اسمع قوة جهاد النفس ، اسمع العنف الذي يعانيه الإنسان حين يتحول من طبع سيئ إلى طبع كريم : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ حتى كلمة هلوعا تحتاج إلى قاموس ، وهنا حيرة ماذا هلوعا؟ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ [المعارج: ١٩-٢١] ، فيه بخل شحيح ، وفيه جزع مريع ، كيف يبرأ من هذا البخل والشح ، وكيف يبرأ من هذا الجزع إذا مسه مس ، ليست إصابة ولا ظرفاً ولا قبلة ، ولا شيئاً كمس العين كما يمس الطبيب العيون بالمرود في جفن العين ، مس أقل من اللمس ، فالله يحكي عن هذا الرجل أنه سريع التأي ، سريع البخل ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ .

وكيف الخلاص من هذه الطباع الشريرة ، خلق هكذا ، فكأنها طبيعة في النفس ، وهل يتخلص الإنسان من طبيعة؟ نعم ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢] ، هذا دواء مركب سيدي ، هذا دواء مركب ، وعادة الدواء المركب في الصيدلية أنه إذا نقص منه عنصر لا ينفع منه الدواء ، فلا بد من وضع العناصر كلها ، وإلا لما أفاد الدواء ، عادة الدواء المركب يا سادة هي أن توضع العناصر كما هي بالنسبة المطلوبة من الطبيب .

فالله ﷻ بين أن ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إلا الذي يتعاطى الدواء المركب ، أيش يا طبيب؟ الدواء المركب؟ وأيش يا صيدلي الدواء المركب؟ وكيف تركب هذا الدواء؟ اسمع تركيب الدواء :

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، صل الصبح ولا داعي للظهر والعصر والمغرب والعشاء، لا: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ] [لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ] [المعارج: ٢٣-٢٥]، هذا عنصر آخر، الصلاة والزكاة: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦]، المسؤولية والجزاء في الآخرة، واعتقادهما، وأنه سيلقى الله ويحاسبه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ [إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ] [وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ] [إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ] [فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعَادُونَ] [وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ] [وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ] [وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ] [أُولَٰئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ] [المعارج: ٢٧-٣٥].

هذا هو الدواء المركب مركب من سبعة عناصر، إذا جمعت بين الصلاة والزكاة والتصدق بيوم الدين، والخوف من عذاب الله والقيام بالشهادة، إذا جمعت بين هذا كله فقد ركب الدواء الناجع، إذا داومت على الصلاة صباحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء؛ لأن علامة الصبح المتقبل أن تقف لصلاة الظهر، الظهر الله يتقبله إذا وقفت لصلاة العصر، بماذا تعرف أن الله تقبل العصر إذا وقفت لصلاة المغرب شحنت بطارية، ماذا عرفك أن البطارية مشحونة، وأن الرجل لم يضحك عليك ولم يستغفلك، إذا ما وصلتك البطارية إلى المكان الذي تقصده بقوة ما فيها وبقوة حملتها فصلاة الظهر شحن بطارية توصلك إلى العصر، وصلاة العصر شحن بطارية توصلك إلى المغرب، والذي صلى الصبح وما صلى الظهر، تقول له: بطايرتك هذه ما شحنت، فعلاصة الحسنة المتقبلة أنها توصل إلى حسنة بعدها.

المحاضرة الثانية عشر :

صادق الإيمان في ميزان القرآن

حقيقة صادق الإيمان في ميزان القرآن ؛ انطلاقاً من قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢، ٣] .

سأتناول في هذه الآية الكريمة بيان موضوع الجملة التي عبارتها جاءت بإنما التي تفيد الحصر ، وقد يوحي ذلك الحصر إلى أن غير المؤمنين حقاً ليسوا بمؤمنين أصلاً ، وأبين الترابط بين هذه الآية والآيات التي قبلها .

تلك الآيات التي تنص على الأوامر الثلاثة ، ينبغي للمؤمنين أن ينفذوها : تقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١] ، ثم أتناول هذه الأوصاف الخمسة وصفاً إثر وصف ، وأنهى عند اقتضاء الأمر للانتهاء .

وهذه الأوصاف الخمسة في الواقع هي أوصاف جميلة ونعوت جليلة ؛ لها عظيم الأثر في الناحية الروحية والكمالات الإنسانية ؛ لأنها ترسم أمام أعيننا صورة شخصية المسلم الكامل في أفقها الأعلى :

وهي : الوجل عند ذكر الله بمعنى الخوف والحزن .

والوصف الثاني : زيادة الإيمان عند سماع آيات القرآن .

والوصف الثالث : التوكل على الرحمن في جميع الشئون في كل زمان ومكان .

والوصف الرابع : إقامة الصلاة وأداؤها على أكمل وجه بطريق الإتيان .

والوصف الخامس : وهو النهاية بذل بعض المال في الأعمال الصالحة التي يعود نفع ذلك إلى الأشخاص والأوطان : فنقول وبالله القائل والمقول .

المؤمنون :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ هذه الجملة علة لما قبلها ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، خصوصاً النكرة ذكرت أولاً وأعيدت معرفة والقواعد المقررة أن النكرة إذا أعيدت معرفة فهي عين الأولى : ﴿ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ولذلك جيء بالجملة مفصولة لا موصولة ؛ لأن المقام يقتضي الفصل لا الوصل ، كما هو معلوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقرئ (إنما المومنون) وذلك أن جماعة من الشيوخ وهم سبعة قرءوا هذه المادة وما اشتق منها المؤمنون والمؤمنين ، والمؤمن وأنؤمن إلى غير ذلك ، قرءوها بالهمز ، وهم : قالون تلميذ نافع ، والدوري تلميذ أبي عمرو البصري ، وابن كثير ، وحمة ، والكسائي ، وعاصم ، والشامي ، وقرأ المؤمنون بالبدل بدون همز ، السوسي تلميذ البصري ، وورش تلميذ الإمام نافع .

وكيفما كان الأمر فلفظ المؤمنون هو وصف مشتق ، وقد اختلف أهل العربية والأصول هل هو حقيقة في الحال أو في الاستقبال ، والذي عليه المحققون أنه حقيقة زمان النسبة ، ولفظ «المؤمنون» ذكر في القرآن خمساً وثلاثين مرة ، أولها في سورة البقرة : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، وآخرها في سورة المدثر : ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المدثر: ٣١] ، المؤمنون مشتق من الإيمان ،

والإيمان في لسان الشرع هو التصديق بما عُلم مجيء النبي ﷺ به ، تفصيلاً فيما علم تفصيلاً ، وإجمالاً فيما علم إجمالاً ؛ لقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الإيمان معرفة والمعرفة تسليم ، والتسليم تصديق .

ومعنى هذا أن من آمن بالله ورسوله إيماناً صادقاً يصدق جميع ما جاء عن الله وعن الرسول تصديقاً أعظم مما يصدق به ما رآته عينه ؛ لأن الغلط قد يتسلط على الحس ، فيظن الرائي السراب ماء ، ويظن الورم شحمًا .

أعيذها نظراتٍ منك صادقة أن تحسب الشحمَ فيمن شحمه ورم
فما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وأما الإيمان عند أهل الأثر ، فالمعرفة بالجنان ، والعمل بالأركان ، والإقرار باللسان ، واختلفوا هل المكلف بالإيمان الجسم أو الروح أو هما معاً؟ وهو الظاهر ، ومحل الإيمان القلب على القول المشهور .

محله القلب على المشهور للوحي وهو مذهب الجمهور

وقد دل على ذلك ، الكتابُ العزيز إثباتاً ونفيًا : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، وقال للأعراب : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] ، وقال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] ، وقال ﷺ : «يا رب ثبت قلبي على دينك» .

والإيمان في الواقع حقيقة ثابتة واقعية ينبغي أن ينظر إليها بعين الجد الثابت ، وليس الإيمان كلامًا يلوكه اللسان ، أو جملًا تتحرك بها الشفتان ، أو أمرًا يكفي فيه مجرد الانتساب ؛ إذ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] أو أمرًا على هامش وجود الإنسان ، لا بل الإيمان قضية مصيرية تنتهي بالإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة ، تنتهي به تحت رحمة الله إلى النعيم المقيم في الجنان .

والإيمان في الواقع رسالة وهدف يقتضي بذل المال وبذل النفس في سبيله دلالة على صدقه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والإيمان نور من نور الله يستقر في قلب المؤمن ويصدق به صالح العمل، وكل نور لم يكن مأخوذاً من نور الله فهو ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسِبُهُ الظُّمَّانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

ومن الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز في القرآن الكريم أنه لا يذكر النور إلا بصيغة الأفراد؛ لأنه يعبر عن الحق: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، لا نجد في كتاب الله أنواراً بل نجد النور مفرداً: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨]، ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وإذا أشرقت شمس الإيمان في جوانب نفس المؤمن في إرادتها وإدراكها ووجدانها ينتج ذلك النتائج الإيجابية النافعة للمؤمن في العاجلة والآجلة ، أما الفوائد الإيجابية في العاجلة وهي الدنيا ، فبحصول العزة للمؤمن وحفاظه على إنسانيته ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] .

وأما النتائج الإيجابية النافعة في الآخرة فبنيل رضا الله ، ونيل الثواب العظيم عند الله ، والنظر إلى وجه الله ، فهذه نتائج نور الإيمان إذا أشرقت شمسها على جوانب نفوس المؤمنين .

إنما المؤمنون : مشتق من الإيمان ، دخل رسول الله ﷺ على بعض الصحابة فقال لهم : « ما أنتم ؟ » قالوا : مؤمنون يا رسول الله ، قال : « وما علامة إيمانكم ؟ » قالوا : نصبر عند البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القدر . فقال لهم رسول الله : « مؤمنون ورب الكعبة »^(١) .

ومر حارث بن مالك الأنصاري على رسول الله ذات يوم في بعض الطرق فقال له رسول الله ﷺ : « يا حارث كيف أصبحت ؟ » فقال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال له الرسول ﷺ : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال الحارث : يا رسول الله ، أبعدت نفسي عن الدنيا ، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة وهم يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١٣٣٦) ، وفي « الأوسط » (٩٤٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، مرفوعاً ، بنحوه .

قال الهيثمي في « المجمع » (١ / ٥٥) : « في إسناده يوسف بن ميمون ، وثقه ابن حبان ، والأكثر على تضعيفه » .

أهل النار وهم يتضاغون، فقال له ﷺ: «عَرَفْتَ فالزَمَ - (ثلاثًا) - عَرَفْتَ فالزَمَ، عَرَفْتَ فالزَمَ»^(١)، ولذلك الإيمان هو نور يستقر في قلب المؤمن، ويصدقه صالح العمل.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، ثم إن الله وصفهم بأوصاف خمسة :

وجلّت قلوبهم:

الوصف الأول: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ إذا ذكر الله ارتعدت فرائضهم واقشعر جلدتهم، وخافت قلوبهم تهيئاً لعظمة الله وسلطانه، أو نظراً إلى وعده ووعيده، أو نظراً إلى محاسبته لخلقه، فيفزعون ويخافون ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ والوجل كما في حديث أم الدرداء وحديث عائشة هو كضربة السعفة في القلب، يعني كاشتعال نوع من الجريد في قلب الإنسان؛ بمعنى أن ذلك الخوف يحدث قشعريرة في قلب الإنسان، كما قالت أم الدرداء لابن حوشب لما ذكر الوجل، قالت له: كضربة السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: إذا وجلت فادع الله؛ فإن الدعاء يستجاب عند ذاك، وكذلك سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما الوجل إلا كضربة السعفة، فإذا وجل أحدكم فليدع الله؛ فإن الله يستجيب دعاءه عند ذلك.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾، والمقصود بذكر الله ذكر القلب لعظمة الله وسلطانه، أو لوعده ووعيده، سواء صحبه ذكر اللسان أم لا؛ لأن الله

(١) أخرجه عبد بن حميد في «المسند» (٤٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٦٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٩١) عن الحارث بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً، بنحوه.
قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٧٥): «وفيه ابن لهيعة».

تعالى لا ينظر إلى الصور والأشباح ، ولكن ينظر إلى القلوب وما ينشأ عنها من إصلاح ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠] ، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَنَشَرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [١] الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿[الحج: ٣٤ ، ٣٥] ، ﴿إِنَّمَا تَحْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ هَدَسًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] .

وقد وصف الله أهل المعرفة بقوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] .

وروى الإمام الترمذي وصححه عن العرياض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال : «وعظنا رسول الله موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب» .

وَوَجَلْ يَأْتِي مضارعه على أربعة أوجه ، يقال : وجل يوجل وياجل ، وييجل ، وييجل ولكن لغة الواو هي لغة القرآن .

كما قال الشاعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أيّنا تغدو المنيّة أول

وقال تعالى في حوار إبراهيم مع ضيفه المكرمين : ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [٢] قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ ﴿[الحجر: ٥٢ ، ٥٣] ، وجاء في سورة الفلاح المؤمنون : ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ إِلَيْهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، ولكن الوجل ذكر في سورة الفلاح مقترناً بالعمل الصالح ، وهو البذل والعطاء ،

﴿لَا تَوَجَلْ﴾ يعني لا تخف ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت قلوبهم ،
لكن الوجل يكون لأمرين بمعنى الخوف :

الأمر الأول : من العاقبة المجهولة ، فيخاف الإنسان من العاقبة المجهولة
في الأمور .

والأمر الثاني : من الإجلال والمهابة ، وهو أن يخاف الله تعالى إجلالاً له
وهيبة ؛ لأن الجلال والهيبة يفضيان إلى المخافة كما قال الفرزدق في وصف
زين العابدين في قصيدته الشهيرة المعلومة التي مدح بها آل البيت :
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَسَمَّ

﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، ذكر الله عظمته ، ذكر سلطانه ، ذكر
أوامره ، ذكر نواهيه ، فذكر الله يشمل في الواقع بشمول معناه جميع أنواع
الطاعات ، وذكر الله ﷻ هو منشور الولاية لا بد منه في البداية والنهاية ،
وما أحسن قول بعضهم :

الذكر أعظم باب أنت داخله لله فاجعل له الأنفاس حراسا
قول الشاعر هنا : فاجعل له الأنفاس حراسا ؛ يعني يحذر من تضييع
الوقت ؛ لأن الوقت - كما يقال : من ذهب ، إن لم تحرص عليه ذهب ،
فالوقت هو رأس مال حياة الإنسان ، وعمره كنز حياته .

الذكر أعظم باب أنت داخله لله فاجعل له الأنفاس حراسا

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نعم أفادت هذه الآية خوف القلوب
عند المؤمنين عند ذكر الله ﷻ عند ذكر عظمته وسلطانه ووعدته وووعيده ،
فهناك آيات أخرى لا تناقض هذه ، وهي رجاء المؤمنين لرحمته تعالى ؛ لأن
المؤمنين كما يؤمنون بهذه الآية يؤمنون بقوله تعالى : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ

أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿[الزمر: ٥٣]﴾ ، ويقول له تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿[الأنعام: ٥٤]﴾ ، فيرجون رحمته كما يخافون عقابه ، فيكون المؤمن كالطائر ، جناحيه بين الرجاء والخوف ، فيبين الرجاء والخوف كن مثل طائر .

تعاذل الخوف والرجاء فلم يفرط بهم طمع يوماً ولا وجل

وقد جاء في الحديث القدسي : «إن الله تعالى قال : ما غضبت غضبي على من أتى ذنباً فاستعظمه في جنب عفوي ، وعزتي وجلالي ، لو كنت معجلاً العقوبة لعجلتها على من يؤس من رحمتي» ؛ لأن رحمة الله ﷻ سبقت غضبه .
وقال ابن العربي الحاتمي : قال الله :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، فصار الكل في رحمة الله ، ولو قال الله : القهار على العرش ؛ لذاب هذا الكون .

والرحمن ذكر في القرآن سبعا وخمسين مرة ، أولها في سورة الفاتحة :
﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣] ، بعد البسملة ، وآخرها في سورة النبأ (في سورة عم) : ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] .

إذن الآية تفيد أن الخوف لا ينفك عن قلوب المؤمنين عند ذكر عظمة الله وسلطانه : ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠] ، ولكن رحمة الله تعالى وسعت سائر المخلوقات كما هو معلوم : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

زيادة الإيمان :

الوصف الثاني زيادة الإيمان ونقصانه عند سماع القرآن ، إليه يشير قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ﴾ المنزلة على خاتم أنبيائه سيدنا

المحاضرة الثانية عشر

٢١٥

محمد في كتاب الله : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ، ومعنى ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ زادتهم تصديقًا و يقينًا في الإيمان وقوة في الاطمئنان ونشاطًا في صالح الأعمال ؛ لأن تظاهر الأدلة وتعاقد الحجج يوجب زيادة اليقين ، فهذا إبراهيم عليه السلام قال لربه : ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، وهو مؤمن وموقن بأن الله يحيي الموتى ، فقال له الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، فمقام الطمأنينة يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالاً وهذا لا يخرج حقيقة الإيمان بمعنى التصديق عن حقيقته إلى الشك لماذا؟ لأن اليقين له مراتب متفاوتة : علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين .

فقول الله في حق إبراهيم : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] ، من المدركين عين اليقين .

علم اليقين : إنسان مثلاً لم يعرف الكعبة ولم يرها ولكن علم بوجودها بواسطة الأخبار المتواترة ، هذا علم اليقين ، جاء إلى جبل أبي قبيس ونظر إلى البيت فهذا حق اليقين ، اطلع على البيت ظاهراً وباطناً ، فهذا عين اليقين ، ولذا مقام الطمأنينة يزيد في الإيمان على الإيمان المطلق قوة وكمالاً .

وزيادة الإيمان ونقصانه ، زيادته بالطاعة ونقصانه بالمعصية ، له دليلان : دليل عقلي ودليل نقلي ، أما الدليل العقلي فإننا لو لم نقل بتفاوت الإيمان لتساوى إيمان آحاد الناس مع إيمان الملائكة والأنبياء والمرسلين والصالحين ، ولكن اللازم باطل ، والملزوم مثله .

أما الدليل النقلي فهو كثير في القرآن العظيم منها هذه الآية ومنها :

قوله تعالى : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدْمَةٌ إِيمَانًا فَمَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] .

لأن منتهى العلم إلى الله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ،
والعلم المحيط بكل شيء هو علم الله .

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهالة يتغمغم

كما قال الزمخشري .

فلذلك العلم التفصيلي بالإيمان هو أعظم من العلم الإجمالي ؛ لأن العلم
التفصيلي هو العلم بسنن الكائنات على اختلاف أنواعها .

وقد قال ابن مالك في «التسهيل» كلمته الشهيرة : غَيْرُ مستغرب أن
يدخر الله لبعض المتأخرين ، ما عسر فهمه على بعض المتقدمين ، هذا هو
الوصف الثاني : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ .

التوكل على الله :

الوصف الثالث : ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ جاء في حديث عبد الله بن عباس رضي الله
تعالى عنهما في تفسير الآية قال ابن عباس : المنافقون لا ينال قلوبهم شيء
من ذكر الله ، ولا يؤمنون بآيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يُصَلُّون
إذا غابوا عن أعين الناس ، ولا يؤدون زكاة أموالهم .

فوصف الله المؤمنين بهذه الآيات فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا
ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ
إِيمَانًا﴾ أي تصديقاً بالله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا يرجون سواه .

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة : ٤] .

نجعل مسك الختام التوجه إلى الله العلي القدير بقلوب تذوب من جلاله ،
وتتماسك من جماله ، سائلين الله من فضله أن يديم النصر للمؤمنين .

المحاضرة الثالثة عشر :

العبودية لله

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

إن هذه الآيات الإيمانية العظيمة الكريمة تفتح لنا مجالات كثيرة للتفكير ، وقد تختلف المناهج في التعرض إليها ، فربما من ينظر إليها بلغة التفسير اللغوي النصي ، وهنالك الأساتذة المفسرون للقرآن الكريم ، ومنها من ينظر إليها عن طريق الاستدلال لأنهم يستعملون هذه الآية ويستغلونها لرد مزاعم الكائدين والأعداء ولتأكيد أو إثبات الإيمان للمؤمنين ، وربما لإرجاع المتشككين إلى الصواب .

فهذه الآية تعطينا صورة كاملة للعبودية لله ، وهي أن كل ما هو موجود في الكون ، من أجرام جامدة أو من كائنات حية ، أو من بشر يعبدون الله ، يسبحون ويسجدون له .

وقد يوجد من ينظر إليها نظرة الاستلham أي أنهم يحاولون أن يجدوا فيها سبيلاً إلى معرفة الله والتقرب منه .

وستتبع خطة العلم والتحليل محاولين أن نجد ما في هذه الآية من حكمة ومن معان ، إن هذه الآية الكريمة تشير إلى ثلاث قضايا تقريباً :

القضية الأولى : هي كيف نفهم سجود المخلوقات بصفة عامة .

القضية الثانية : هي كيف نفهم أن الإنسان من بين المخلوقات جميعاً قد يمكن له أن يسجد ويمكن له أن لا يسجد وهذه قضية خطيرة جداً سنحاول إن شاء الله أن نتفكر فيها .

الكائنات الحية:

النوع الثاني من المخلوقات ، هي الكائنات الحية : وهنالك مجموعتان أي مجموعة النبات ومجموعة الحيوان .

وكلنا يعلم - لما درسناه ولما قرأناه ولما شاهدناه- أن كل هذه المخلوقات الحية لها نظام ولها قوانين لا تخرج عنها .

هذه الحياة تتميز عن الجامدات بأنها تنمو ، وبأن لها نظامًا معقدًا ، وبأنها تتوالد ، وبأنها تتغذى وبأنها تتنفس ، وبأنها تأخذ منها - من هذه الجامدات التي في الكون تأخذ من الطاقات ومن العناصر الطبيعية- تأخذ منها لتصنع منها الأعضاء الحية ، تأخذ من الهواء الغاز الكربوني ، تأخذ من الأرض المعادن ، تأخذ من المياه ، وتأخذ من الطاقة الشمسية ما يتحول إلى كائنات حية ، إلى فواكه وبقول وأزهار ، وتأخذ من الكائنات الحية ما تتوالد بها وتنمو كل هذه الكائنات الحية ، سواء كانت نباتا أو حيوانًا تخضع للقانون الذي سنه الله في هذا الكون .

البشر:

النوع الثالث من المخلوقات هو هذه المجموعة البشرية : وهي كما نعلم تابعة للحيوان وللدواب ؛ لأن الإنسان مخلوق مثل الحيوان ؛ الإنسان له أعضاء تشبه الحيوان ، يخضع لقانون الطبيعة ولقانون الحياة ، ولو أننا أخذنا ربما عضوًا من أعضائه ، كالقلب ، أو كالمخ ، أو كالرئة ، أو كالكلوة لا نفرق ، أو لا يفرق غير الاختصاصي بين كبد شاة أو كبد إنسان ؛ لأنه يخضع من ناحية إلى القانون الذي يوجد في الدواب .

ولكن هذا الإنسان فضله الله وكرمه بأشياء كثيرة ، فضله لأنه سخر له كل المخلوقات تلك ؛ سخر له الشمس والقمر والطاقات التي توجد في

الكون ، سخر له الكائنات النباتية ، سخر له الكائنات الحيوانية ، سخر له المياه ، والرياح ، والأمطار ، وسخر له كل شيء في هذه الأرض .

ثم إنه فضله بأن أعطاه من الفضائل الكريمة ومن العلم ومن العقل ما لا يوجد عند الكائنات الأخرى ، حتى إنه أمر الملائكة أن تسجد له : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] .

هذه من المسخرات ، ثم كذلك فضله بأن حملة أمانة لم تتحملها السموات والأرض ، حملة أمانة قاسية : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

﴿ظُلُومًا﴾ لأنه أساء إليها ، و﴿جَهُولًا﴾ لأنه لم يعطها قيمتها التي خلقه الله من أجلها ، هذا الإنسان كذلك كلفه الله وتعاهد معه في مواعيد وعهود ، وفضله بكثير عن كثير من المخلوقات ، لكن هذا التفضيل كانت عاقبته أن هذا الإنسان قد يقع في الزلة ، قد يقع في الظلم ، وفي الجهل ، وهذا التمييز والتفضيل كان يصاحبه ما يسوء إلى ذلك التبجيل وإلى ذلك التفضيل .

لماذا يخطئ الإنسان؟

ما هي الأشياء التي تجعل أن هذا الإنسان يتعرض إلى تلك الزلات .
لابد هنا أن ننظر إلى الإنسان ككائن حي ، وككائن متميز ، فالإنسان يخضع لكل قوانين الحياة ، وحتى لكل قوانين الجهاد ؛ لأن الإنسان متكون من المواد الجامدة .

فإذا حللنا هذا الإنسان نجده متكوناً مثلاً من ٧٠ ٪ سبعين في المائة من الماء ، ومن خمسة في المائة ٥ ٪ من الأملاح والمعادن ومن الكربون الذي يأخذه من الهواء .

وكل هذه الأشياء التي توجد في جسده تخضع لقانون «الكيمياء» ، و«الفيزياء» ، إذن هي خاضعة لتسوية الله في المخلوقات .

ثم إنا نجد هذا الإنسان نجده نباتاً وحيواناً لأنه يخضع لقانون الحياة لأننا نأكل ونعطش ونتناكح وندافع عن أنفسنا أمام الاعتداءات والآفات .

هذا الإنسان يتميز إذن بأنه يخضع لقانون الأشياء التي تكون جسمه ، يخضع لقانون الحيوان ، كإنسان ، كبشر ، كحيوان ، كدابة في الأرض .

ولكن هذا الإنسان يتميز بالعقل الذي خوله الله له ، وهذا العقل جاء في طبيعة الإنسانية تتابع فيه هذه المكونات ؛ لأن الإنسان له فطرة غريزية ، فطرة حيوانية وشهوات فطرية ، وله عقل يدبر به ويفكر فيه ، وله شيء لم يوجد عند غيره ، وهو أنه اتصل به الوحي وعلمه ما لم يكن يعلم .

أما الإنسان في فطرته فقد يميل أكثر إلى الحيوانية ، وإذا مال إلى الحيوانية فقد يكون أضل من الحيوانات لأنه إذا مال إلى الحيوانية فلم يؤد وظيفته الوجودية ، بينما الحيوان وكل الحيوان يؤدي الوظيفة التي خلق من أجلها ، بينما الإنسان إذا رجع إلى الحيوانية فإنه لا يقوم بأي وظيفة في الوجود .

لكن الفطرة الإنسانية مربوطة بذلك العضو الكريم الذي يوجد في جسم الإنسان ، وهو العقل المفكر والمدير ، فإذا كان العقل على مستوى بسيط فإنه يؤثر في فطرة الإنسان ويتحول إلى تصور وتخيل .

هذا الإنسان الذي بفطرته يتشوق إلى وجود الله وإلى عبادته وطاقته، ولكن إذا كان عقله بسيطاً فإنه يحول الأفكار إلى أشياء غير طبيعية، يعني أنه يفكر في الظواهر وفي الأجرام الكونية التي تحيط به، ويعتقد أن فيها الألوهية، فنراه يعبد الشمس، ويعبد القمر، ويعبد الريح، ويعبد الحيوان، ويعبد الطاقات التي توجد من حوله.

هذه هي المرحلة التي مرت عليها الإنسانية في عصور من عصورها، وحتى في يومنا هذا يوجد من الناس من يعبدون هذه الطبيعة، وحتى من علماء يدعون أنهم اكتشفوا قوانين الطبيعة وجدلية الطبيعة، ويخضعون أفكارهم إلى جدلية الطبيعة.

وفي الحقيقة يرجعون صفات الألوهية إلى الطبيعة فيقولون: إنها هي التي تخلق الكائنات وهي التي تصور وهي التي تجعل فيها النظام وتجعل فيها القوانين يعني أن هذا النوع من التصور الوثني قد يوجد حتى عند علماء هذا العصر.

الفكر الإنساني يتمنى ويتقوى ويتساءل ويبحث ويمر على مرحلة العقلانية، يعني أنه يريد أن يكتشف في هذا الكون ما هي أسباب وجوده، ما هي أهداف وجوده، ما هي القوانين التي تسيره هل قوانين عفوية، أو هي قوانين أزلية حكيمة.

وهذا العقل قد يصل إلى افتراضات وإلى الأفكار التي ليست بالحقيقة؛ لأن العقل ينظر إلى المجهودات، وينظر إلى القوانين التي يصل إليها بغريزته وبطاقاته، وقد يرى عند كثير من الناس في القديم وفي الحديث من ينظرون إلى الطبيعة كأنها هي الله.

وقد نجدُ حكماء وعقلاء مثل ما كان في الصين ، وما كان من اليونان من ينظرون إلى هذه الطبيعة وقوانين الطبيعة فيستتجون منها أن هذا النظام وهذه العجائب التي توجد في الكون لا يمكن لها أن تكون موجودة بالصدفة ، وإنما هي نتيجة لأمر من خالق خلقها .

وحتى أولئك الحكماء لما ينظرون إلى هذا الكون لا يكتشفون حقيقة الأزلية أو حقيقة الربوبية ؛ لأن العقل البشري لا يصل إلى ما هو غيبي مهما تعمق علمه ومهما توسعت معارفه ، فإنه لا يدرك الغيبات ، لا يدرك الأسباب التي جعلت هذا الكوني يكون والتي جعلت هذه المخلوقات تكون ، والتي جعلها تحيى ، ولا يدركون ما هي نهاية هذا الكون ، وما هي نهاية هذا الإنسان البشري بعد موته ، هذه كلها الأشياء لا يصل إليها العقل ولا يمكن له أن يدرك ما هي ؟ هل هنالك جنة أم هنالك نار ، أم هنالك ملائكة ، هذه أشياء لا يصل إليها العقل .

ولهذا يحتاج ذلك العقل إلى نوع جديد من الأنباء ، ذلك النبأ الذي يأتيه من صاحب العلم ، من صاحب الحقيقة المطلقة ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وينزل إليه الوحي ويرشده إلى هذه الغيبات كما يرشده إلى التعلم ، وإلى التعرف بالمخلوقات والمشهودات .

هذه المراحل مر عليها سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يعيش في قوم يعبدون الأصنام ، يعبدون الأجرام السماوية ، يعبدون الشمس ، ويعبدون القمر والنجوم ، وينحتون لها في الخشب ، وفي الحديد ، وفي الحجر ينحتون أرباباً يعبدونها .

وكان سيدنا إبراهيم ينظر إليهم ويتساءل هل هذه أرباب حقيقية؟ ولما يمتحنها يجدها أنها أرباباً كاذبة ، وينظر في ملكوت السماوات وينظر إلى

الشمس وإلى القمر وإلى النجوم ، ويجدها خاضعة إلى قانون تسير عليه خاضعة له .

وهكذا سيدنا إبراهيم ينتهي به الأمر إلى أن كل هذه الأديان كاذبة ، يعني عقله يؤديه إلى تكذيب التصورات والتخيلات التي كانت عند الناس إلى تكذيب الأوثان ، ولكن هنا عقل سيدنا إبراهيم ينتهي دوره ويلتمس القدرة العالية لتهديه إلى الطريق ولتهديه إلى الحقيقة العلمية .

هذه التجربة التي نجدها في القرآن هي التجربة التي مرت عليها الإنسانية في عصورها القديمة ، ونجدها حتى اليوم في عصورها الحديثة . العقل البشري هو ذلك العقل الذي جعله الله ليتدبر آياته ، وليتدبر في هذا الكون .

هذا العقل البشري هو الذي يدرك به الإنسان حقيقة الكون ، وقوانين الكون ليسخر ذلك الكون ليفهم ذلك الكون ، فعلم الكون هو علم للاستفادة ، وعلم كذلك للإيمان ، فكلما اكتشف الإنسان آية من آيات الله في هذه المخلوقات كلما يزداد إيمانه بالله .

الله سبحانه وتعالى خلقنا وخلق الإنس والجن : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ولكن هذا الإنسان يستعمل فطرته ، غريزته التي تدعوه إلى وجود الله ، ويستعمل عقله الذي يدبر به ويتدبر به في مخلوقات الله ، وأعطاه ذلك الكتاب المبين ليخرجه من الظلمات إلى النور .

هذه المسؤولية وهذه التكاليف التي اختص بها الإنسان مسؤولية عظيمة ، مسؤولية توجد على مستوى الفرد وتوجد على مستوى المجموعات الشعوب والأمم ، وهنالك عقد بين الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان ، عقد بين الله

وبين الكون ، عقد بين الله وبين الأمم السابقة ، عقد بين الله وبين بني إسرائيل ، عقد بين الله وبين النصارى ، عقد بين الله وبين الأنبياء ، عقد بين الله وبين الأمة الإسلامية ، عقد بين الله وبين كل فرد مسلم .

وما يمكن أن نستخلصه من هذا المدخل لمعرفة الكون ، ولمعرفة القدرة الإلهية فيه ، ولمعرفة أن هذا الكون مخلوقا ، وأن هذا الكون يسبح ويسجد لله .

هو أننا نتفكر ونتذكر فيما جاءنا من بعد ذلك من بعد هذا العلم ، من بعد هذه المعرفة ، وهو أننا منوطون بقدرة إلهية ، وأنا عابدون لله ومسبحون له ، وأن لنا مسئولية خاصة ، مسئولية على مستوى الفرد ، ومسئولية على مستوى المجتمع ، ومسئولية الفرد هو أن يقوم بكل مكوناته في طاعة الله ، في مكوناته الجسمية والشهوانية ، في مكوناته العقلية والعلمية ، وفي مكوناته الأخلاقية ، في مكوناته الروحية .

يعني أننا نعبد الله بكل ما لدينا من أبعاد ، نعبد الله بأجسامنا وجوارحنا ، نعبد الله بأقوالنا وحواسنا ، نعبد الله بعقولنا وتدبرنا وأفكارنا ، ونعبد الله بما أمرنا أن نعبد به من صلوات وصيام ونسك ، نعبد الله بالعقول ، ونعبد الله بالطاعة وبالدين وبالإيمان .

هذا ما يطلبه منا الدين ، هذا ما يتوقف عليه الفوز عند الله ، ثم أمرنا كذلك أن نكون له طائعين كأمة إسلامية ، وجعل الله بيننا وبينه عقداً وعهوداً ، لهذا يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

هذه الآية هي آية العقد بين الله وبين المؤمنين هي آية عظيمة جدًا ، ولو اتبعها المسلمون كأمر وكشعوب لكان لهم الحظ الأوفر في حياتهم وفي وجودهم وفي كفاحهم ضد أعدائهم : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ .

يعني أنهم يعطيهم الملك ، يعطيهم السلطان ، يعطيهم الوجود في هذا الكون ، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يعني أن يكون الدين هو الذي يسري وهو الذي يجري به في حياة الإنسان وفي حياة الأمم ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ .

وكلنا نعلم أن الأمة الإسلامية لم تخرج من هذا الخوف الذي يصيبها في صحة الأفراد ، وفي الخوف من الفتن ، وفي الخوف من الاعتداء ، وفي الخوف من الظلم ، وفي الخوف من الأشياء الكثيرة التي يخاف منها الإنسان .

وإذا رأينا أن الأمة الإسلامية تشتكي من كل هذه الآفات ، وتشتكي من كل تلك الخصومات ، فنعلم أنها لم تقم بشيء من الأشياء ؛ لأنها لم تحقق ما أمر الله به في الحياة .

وهذه الآية الكريمة تبين لنا ماذا يطلب من الأمة الإسلامية ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، عبادة الله هي في طاعته ، ليس فقط في أمور الدين ، وإنما طاعته في أمور الدنيا ، في تنظيم المجتمع ، في العدالة ، في السباحة ، في الإخوة ، في الزكوات ، في كل الأشياء التي تضمن لهذا الإنسان حياة طيبة حياة ...

ويعبدونني لا يشركون به شيئاً ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يعني أن لا نجعل ثقتنا في غيرنا من أعدائنا ولا نجعل ثقتنا في الطواغيت التي قد توحى إلينا المسالك ، وتوحى إلينا السياسات ، وتوحى إلينا أن نخرج من

هذا الدين ، وكل هذه الأشياء تجعلنا أننا نرجع في كل أمورنا وفي كل شئونا إلى هذه النصائح الكبرى ، النصائح الواضحة التي نجدها في القرآن الكريم من الآية الأولى إلى الآية الأخيرة .

وهي الآيات التي ترينا كيف نسلك في هذه الأرض ، حتى كيف نأكل وكيف نشرب ، وكيف نتعامل .

ترينا كيف أننا لا نتمكن في هذه الأرض إلا إذا جمعنا كل المكونات الحضارية أن الإسلام لا ينتصر والأمة الإسلامية لا تنتصر إلا إذا تمكنت في كل مكوناتها الحضارية ، إلا إذا تمكنت في الاقتصاد الذي نحن فيه ضعفاء الذي نحن فيه عالة على غيرنا من الأمم إلا إذا تمكنت من العلوم .

ونحن اليوم نأخذ علومنا من غيرنا ، من الغرب ومن الشرق ، نتمكن في أخلاقنا .

ونحن كم ساءت أخلاقنا كمسلمين في هذه الأرض ، وكم نرى أن أمماً غيرنا يتمسكون بهذه الأخلاق ، ونحن ابتعدنا عنها .

وترينا كذلك أن هذه الأمة لا تقوم لها قائمة إلا إذا رجعت إلى قرآنها ، إلا إذا رجعت إلى عبادة الله وطاعته ، ليس فقط في الحركات والشكليات ، وإنما في الخفايا في قلوبنا ، في رحمة القلوب وفي الوعي ، وفي كل ما هو يهيم هذا الإنسان إلى أن يكون مسلماً ، ولهذا تعيد علينا الآية القرآنية : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] .

وهذه الأشياء قد تنقصنا كثيراً في هذه العهود .

ونرجو من الله سبحانه أن يرجعنا إلى ما فقدناه من هذه الخصائص ، ومن هذه الخصال الحميدة التي لا زال القرآن الكريم ولا زالت سنة الرسول ﷺ تدعونا إليه .

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يرشدنا إلى ما فيه خيرنا في حياتنا الدنيا ،
إلى ما فيه خيرنا أفرادًا وجماعات .

نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يرجعنا إلى ما فقدناه من عزة وكرامة في
هذه الأرض : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا سَاطِئِينَ أَوْ أَخْطَاءً رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

ربنا زدنا علمًا وإيمانًا ورشدًا .

المحاضرة الرابعة عشر :

الإسلام دين الحنيفية السمحة

انطلاقاً من قول الله تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] صدق الله العظيم .

الإسلام دين الحنيفية السمحة ، وحول قول الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُيَسِّرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء : ٢٦-٢٨] عَظِيمًا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٦-٢٨] هذا الموضوع يتألف من عشر نقط .

الموضوع :

النقطة الأولى : قاعدة التكليف ، وقاعدة التخفيف .

النقطة الثانية : أدلة قاعدة التخفيف من الكتاب والسنة .

النقطة الثالثة : على أي أساس بنيت قاعدة التخفيف ، وفي هذه النقطة يكون الحديث عن الوجه الأول والوجه الثاني ، وعن حجج كل من الوجهين .

النقطة الرابعة : هل المشقة مقصودة في التكليف ؟

النقطة الخامسة : ما هي المشقة التي يعتبرها الشرع مبرراً كافياً للتخفيف ؟

النقطة السادسة : هل رفع المشقة حق لله أم حق للعبد ؟

النقطة السابعة : ما هي طرائق التخفيف التي شرعها الشارع ؟

النقطة الثامنة: ما هي أسباب التخفيف ومبرراته التي اعتبرها الشارع؟

النقطة التاسعة: إلى أي حد يمكن أن يصل التخفيف؟

النقطة العاشرة: ضرر التساهل وضرر التزمّت على الأمة والدولة الإسلامية .

النقطة الحادية عشرة: تخفيف الراعي عن الرعية ، والختام : خاتمة ودعاء ، وأمل ورجاء ، فإذا سمح لي مولاي أن أتناول بالتحليل هذه النقاط بكل إيجاز واختصار أكون ممنونا لجلالته ، وأشرع في الحديث .

النقطة الأولى: قاعدة التكليف، وقاعدة التخفيف:

إن الله تعالى لما اقتضت مشيئته أن يخلق الخلق ، وأن يملأ هذه الأرض بالإنسان خليفته فيها ، وعليها اقتضت الحكمة الإلهية أن يشمل الإنسان برعايته وتكريمه ، وكما أن الله أنعم عليه بالإيجاد وأنعم عليه بالإمداد ، فقد أراد أن يتميز بنعمة التوجيه والإرشاد ، ذلك أن الله تعالى له الخلق وله الأمر ، وأحق من يوجه الإنسان هو خالق الإنسان ، فوضع الأمانة على عاتقه ، تلك الأمانة التي ناءت بثقلها السماوات والأرضون : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] وتلك أمانة التكليف ، فالإنسان مكلف من قبل الله تكليفا يقود خطواته ، ويرشده في مجالات الحياة وفجاجها ، حتى يعيش أكرم عيشة ، ويسعد أكبر سعادة ، وينال الخير في الدنيا والآخرة ، ومن هنا قامت قاعدة التكليف على أساس الخالقية ، وعلى أساس الحاكمية .

الخالقية كون الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان وغيره من بقية الأكوان ، والحاكمة كون الحق سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وأجدر من يقود خطوات الناس أجمعين ، وحيث إن قاعدة التكليف تطبق على الإنسان ، والإنسان يتقلب بين صحة ومرض ، وسفر وإقامة ، وجهل وعلم ، وذكر ونسيان ، وحرية وإكراه ، ونقص وكمال ، فالله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يجعل الشريعة المحمدية مستجيبة لحاجات الإنسان في جميع ظروفه وحالاته ، فكان إلى جانب قاعدة التكليف قاعدة التخفيف ، وتلك هي قاعدة رفع الحرج ، وأن الشريعة الإسلامية لا تضيق بأي احتمال ، ولا تعجز عن إعطاء الحل اللائق والمناسب لظروف الإنسان في مختلف الحالات والأوضاع ، مع التخفيف والرفق بالمكلفين ، والأخذ بيدهم في طريق الحياة وفجاجها ، وهذه القاعدة قاعدة التخفيف ، كما أن أصل التكليف وقاعدة التكليف تقوم عليها دلائل لا حد لها ولا حصر من الآيات والأحاديث ، فقاعدة التخفيف ورفع الحرج جاءت بصدها آيات كثيرة في كتاب الله ، وفي طليعتها هذه الآية التي جعلناها محور الحديث ، والتي عنونا بها هذا الموضوع ، وهي قول الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٦-٢٨] فها هنا يقرر الحق سبحانه وتعالى قاعدة التخفيف ، ويبين حكمته فيها وإنعامه بها على الإنسان ، ويبين في نفس الوقت مبرر هذا التخفيف والداعي إليه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يريد إعناء الإنسان ولا إرهاقه ؛ لأنه مخلوق مهما كان مقتدرا

وقويا فهو ضعيف ، إذ جميع ما يملكه الإنسان من قوات وملكات إنما هي هبة من الله ووديعة مستعارة من كرمه سبحانه وتعالى : ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] .

فضعف الإنسان كان مبرراً وداعياً إلى التخفيف عنه في كل الظروف التي يلزم فيها ذلك التخفيف ، ويقول الله تعالى في آية أخرى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿[الأنفال : ٦٥ ، ٦٦] فهاهنا يبين الحق سبحانه وتعالى كيف أنه خفف على المسلمين تبعة الجهاد ومسئوليته ، وخفف القدر الذي كان يجب أن يقاومه المسلم ، وأن يقف في صف المعركة تجاهه من عدد أكبر إلى عدد أخف ، وهو عدد الضعف لا أزيد ولا أقل ، فالله تعالى يقرر هنا مبدأ التخفيف ويجعل مبرره والدافع إليه رحمته وإحسانه بالإنسان ؛ لأن الإنسان ضعيف : ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال : ٦٦] ، ويقول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج : ٧٧ ، ٧٨] .

فهاهنا يقرر الحق سبحانه وتعالى أن هذا الدين الإسلامي الحنيف بعيد عن الحرج بريء من الحرج وأن ملة الإسلام هي ملة إبراهيم عليه السلام

ونجد آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وذلك سياق قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، ونجد أن الآية الكريمة تتجه إلى النبي ﷺ مباشرة: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فهو أيضا داخل مع عموم أمته في رفع الحرج ورفع الضيق، ونجد المؤمنين كذلك عموما يتحدث الحق سبحانه وتعالى عنهم، ويمتن عليهم برفع الحرج ويبين أن من حكمته أن يرفع عنهم ذلك الحرج: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لكي لا يكون على المؤمنين حرج.

ونجد الله تبارك وتعالى يقول بصدد أولئك الذين تقدموا إلى الرسول ﷺ ليغزوا معه وليذهبوا معه في غزوة تبوك ولم يجد ما يحملهم عليه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ونجد قول الله تعالى بخصوص ذوي العاهات والأمراض: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، ويتكرر هذا المعنى وهذا اللفظ في سورتين من كتاب الله، سورة النور وسورة الفتح،

ونجد قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي
الَّذِينَ قُتِلُوا بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ
شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فنجده سبحانه وتعالى يمتن على عباده المسلمين
بأن وضع إلى جانب الدية والتخفيف من القتل: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ونجد قول الله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، في سياق قوله
تعالى: ﴿فَسَاكُنِيَا لِلَّذِينَ يَقْنُونَ وَيُؤْتَونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

فهاهنا يمتن علينا سبحانه وتعالى بأن بعث إلينا رسولا يرفع عنا
الآصار والأغلال، ويزيل عنا الأثقال التي كانت تكاليف شاقة على غيرنا ممن
سبقنا من الأمم السالفة، ونجد قول الله تعالى في سياق الحديث عن الصيام:
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا
اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذه آيات كلها
تدل دلالة قاطعة على قاعدة التخفيف التي وضعها الإسلام، والتي شرعها
الدين، ثم نجد أحاديث نبوية في نفس المعنى.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» أي بالملة
المستقيمة التي لا اعوجاج فيها، السمحة السهلة، وهذا الحديث أخرجه
أحمد في «مسنده» من حديث جابر بن عبد الله، وحديث أبي أمامة.

ونجد كذلك حديثاً آخر : « قيل : يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله؟ قال : الحنيفية السمحة » ، أخرجه أحمد في « مسنده » ، والطبراني ، والبزار عن ابن عباس مرفوعاً .

ونجد حديثاً ثالثاً يقول فيه النبي ﷺ : « إن الله شرع الدين فجعله سهلاً سمحاً واسعاً ، ولم يجعله ضيقاً » ، أخرجه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً .
ونجد قول النبي ﷺ : « إن دين الله يسر » وكررها ثلاثاً فيما رواه أحمد من حديث أبي هريرة .

ونجد حديثاً خامساً يقول فيه النبي ﷺ : « إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » ، رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة ، ونجد حديث عائشة ؓ في « صحيح البخاري » : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما وأسهلهما ما لم يكن إثماً » .

فهذه آيات وأحاديث تؤكد صبغة القاعدة العامة في الإسلام ، قاعدة التخفيف ورفع الحرج ، وهذه الأدلة تتجاوز حد القطع ، أولاً بالنصوص العامة التي دلت عليها ، ثم باستقراء جزئيات الآيات والأحاديث التي تتعاطف فيما بينها ويقوي بعضها بعضاً .

على أي أساس قامت قاعدة التخفيف؟

ومن هنا ننتقل إلى النقطة الثانية ، على أي أساس قامت وبنيت قاعدة التخفيف ، عندما نريد أن نحلل بطريقة فلسفية إسلامية هذه القاعدة نجد أنها قامت على أساسين اثنين ، الله تعالى لم يرد أن يجعل المسلمين في حرج ، لماذا؟ لأمرين اثنين :

الأمر الأول : إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحافظ المسلمون على التمسك بالدين وألا ينقطعوا عن عبادة الله ، وأن يحسوا بأن التكليف الذي هم مكلفون به تكليف رحيم وميسور ، وألا يبغض إليهم العبادة ، فهو سبحانه وتعالى إذا وقع المسلمون في حرج يخشى عليهم أن يكرهوا التكليف ، ويخشى عليهم أن يبغضوا العبادة ، ويخشى عليهم أن يتكاسلوا عنها ويتركوها ، ويخشى عليهم أن ينقطعوا في وسط الطريق ، وبذلك يضيع المقصود من التكليف . التكليف هو الهداية والإرشاد والإمساك بزمام الخلق في كافة الخطوات ، وفي كافة المراحل ، وفي كافة المواقف والأزمات ، فإذا انقطع الحبل الرابط بين المكلف والمكلف ضاع السر في التكليف من أصله ، فرفع الحرج ليبقى الرباط قائما بين الحق وبين عباده ، وليبقى الرباط قائما بين الشريعة وأتباعها ، وينتظم تحت هذا المعنى كل ما يمس الإنسان من فساد ، يلحقه في جسمه أو عقله أو ماله ، فالشرع الإسلامي يحمي المكلف من كل شيء يمكن أن يصيبه في مال أو عقل أو جسم ، أو في أحواله الخاصة والعامة ، ويريد أن يحميه من كل تلك المخاوف ، من أجل ذلك رفع الحرج .

الوجه الثاني : إن المكلفين هم بشر ليس لهم نوع واحد من التكليف ، فلهم حقوق نحو الله ، وعليهم حقوق نحو الناس ، وعليهم واجبات نحو ربهم ، وعليهم واجبات نحو أنفسهم ، وعليهم واجبات نحو مجتمعهم ، والإنسان إذا كان مطالباً بأن يقوم بهذه الواجبات دون أن يخل بشيء منها ، فهو في الحقيقة لابد أن يهيا له الجو الصالح للقيام بها ، فإذا ناله الحرج والضيق ، وإذا دخل في مسلك ضيق ، واقتصر على نوع من العبادات الشاقة ، أو من الأعمال الدقيقة الحرجة ، أو من التكاليف التي لا يطيقها ، فإنه ينوء بعبء التكاليف الأخرى ، ويقصر فيها ، وأحيانا قد ينقطع عنها ،

وبذلك تضيع حقوق جمهرة كبيرة من الناس ، ولا سيما حقوق الغير ، ويصبح ملوماً محسوراً ؛ لأنه في الحقيقة لم يقم بأي واجب ، ولم يؤد أي حق من الحقوق ، إذ بتضييع عدد من الحقوق يصبح غير قائم بالواجبات ، ومقصراً فيها .

والشارع يريد أن يهيئ الجو حتى يتم للمكلف الوسائل الكفيلة ، بألا يخل بأي حق من الحقوق ، وأن يقوم بها بتوازن وتناسق وبانسجام بحيث لا يطغى حق على حق ، ولا يضيع حق من أجل حق ، ومن أجل ذلك رفع الحرج ؛ لأن المكلف عليه وظائف متعددة ، وتكاليف متنوعة ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان المكلف يحس أنه يتحرك في جو اليسر والسماحة ، وفي جو من الطائفة العادية ، التي تنسجم مع قدرته ، ومع استعدادة كبشر خلق ضعيفا .

فلو فرضنا أن إنسانا أراد أن يقتصر على الصلاة ليلا ونهارا ، وألا يتركها باستمرار ، هذا الشخص الذي يداوم على الصلاة نافلة وفرضا في الليل والنهار ، ماذا يمكن أن ينتظر منه من القيام بالحقوق الأخرى؟ إن أهله وأبناءه معرضون للضياع ، وإن المجتمع لا يستفيد من عبادته قليلا ولا كثيرا ، وإنه لا يستطيع أن يقوم بالواجبات العديدة التي أوجبها الله عليه .

وكذلك لو فرضنا أنه قام بالليل وصام بالنهار ، فهذا الرجل هل يستطيع أن يكسب قوت عياله ، وهو منهوك القوى خائر العزيمة؟ كلا ، إنه سيضطر لأن يترك الحقوق التي عليه في سبيل ذلك الأمر الذي اشتط فيه وغالى فيه وبالع في شأنه .

ومن هنا قال المحققون : إن الحق الذي جاءت به الشريعة والذي يذكر في كتاب الله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النساء: ١٠٥] .

معنى الحق : هو أن يأخذ المكلف من حظوظ نفسه واحتياجاته الخاصة بالنصيب الكافي، وأن يقوم من التكاليف الشرعية بالنصيب الكافي، بحيث لا تغطي حظوظ نفسه على تكاليف الشريعة، ولا تغطي تكاليف الشريعة على حظوظه، فيوزع نفسه وطاقاته بعدل، ويقسم ذلك قسمة بالقسط، بين الاثنين وذلك الميزان، وذلك الفرقان الذي يعتبر حقاً، وهو الذي يعبر عنه كتاب الله بالحق الذي جاء به الإسلام.

ومما يستحق التنبيه أن المكلف، حتى لو فرضنا أنه حمل على نفسه أعباء لم يطالب بها، فإن الشريعة الإسلامية تلغي تلك الأعباء، مادام فيها إعنات وخرج.

لو فرضنا أن إنساناً نذر نذراً لا يطاق، أو نذراً التزم أمراً يصادم ضرورة من الضروريات، أو حاجة من الحاجيات، فإن الشريعة تعتبر ذلك الأمر لاغياً وباطلاً، فلو حلف أن يتصدق بماله كله لكان حلفه غير لازم، ولأجزأه أن يتصدق بالثلث لا غير، ولو نذر أن يمشي إلى مكة راجلاً وهو غير قادر على المشي لأباح له الشارع أن يمشي راكباً ولا يمشي راجلاً، ولو نذر ألا يتزوج مطلقاً أو ألا يتناول الطعام الفلاني فإن الشريعة تلغي ذلك النذر، ولا تعتبره قائماً، وتبيح له الزواج وتبيح له أكل ذلك الطعام، ذلك لأن هذا الإنسان جاوز حد الشفقة على نفسه، وبالع في إعناتها وإرهاقها، والشارع يعتبر نفس الإنسان وديعة بين يديه وأمانة في يديه، فهو لا يسمح له باستعمال نفسه استعمالاً غير مشروع، واستعمالاً فيه إرهاق وإعنات، إذ ملكاتك أيها الإنسان وطاقتك إنما هي وديعة من الله في يديك، إن استعملتها استعمالاً لائقاً فبها ونعمت وإلا تدخلت الشريعة لتحملك ولتحمي طاقاتك وملكاتك ضد نفسك، وهكذا كان الفرق الشرعي مرافقاً للإنسان في جميع مراحل حياته، في جميع أحواله.

أدلة وبراهين:

والآن بعد أن بينا الوجه الأول والوجه الثاني نريد أن نستدل للوجه الأول ببعض الآيات والأحاديث .

فالوجه الأول: وهو أن التخفيف الذي قعده الشارع أراد به صيانة الإنسان من السامة والملل ، والحفاظ عليه حتى يبقى قائما بالأعمال الموكولة إليه ، وحتى لا ينقطع عن العبادة وعن التزام التكليف ، هذا الوجه يدل له قول الله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ [الحجرات : ٧] .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يرفض كثيرا من أعمال أصحابه ، ومشاريعهم التي قد يجاوزون فيها الحدود الوسطى للتعبد وللتكليف ، ومن الأحاديث ما ثبت : « أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فوجد جبلا ممدودا بين ساريتين ، فقال عليه السلام : ما هذا؟ قالوا : جبل لزينب تصلي ، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به ، فقال ﷺ : حلوه ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد»^(١) ، وهكذا منع رسول الله ﷺ من هذا الإرهاق .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» ، أي فسيروا فيه برفق لا بشدة ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، «فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى»^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (١١٥٠) ، ومسلم (٧٨٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، مرفوعا ، به .
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٨٨٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعا . وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٣٤) موقوفاً عليه . وفي الباب عن جابر رضي الله عنه عند الفضايعي في «الشهاب» (١١٤٧ ، ١٤٤٨) . وانظر «العلل المتناهية» (٢ / ٨٢١) ، «فتح الباري» لابن حجر (١١ / ٢٩٧) ، «كشف الخفاء» (٧٩٤ ، ٢٣٣٩) .

وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : «خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا»^(١) .

وفي «صحيح البخاري» عن عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته «أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل في رمضان ، فصلى في المسجد ، فصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فاجتمع في اليوم التالي أكثر من اليوم الأول ، فصلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا فكثرت أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله ﷺ فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله ، أي ضاق المسجد بأهله لكثرة الوافدين حتى خرج ﷺ لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال : أما بعد ، فإنه لم يخف علي مكانكم ، يعني أن رسول الله ﷺ استقر في بيته ولم يخرج إلى المسجد وتركهم مجتمعين ، إلى أن وصل وقت الفجر ، فجاء لصلاة الفجر ، «لكنني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها» .

وكذلك جاء في «صحيح البخاري» قال : حدثني أبو صالح ، سمعت أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت عن سرية ، ولكن لا أجد حمولة ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ويشق علي أن يتخلفوا عني» ، هذا بالنسبة للغزوات ، فإن رسول الله ﷺ لم يكن يخرج في كل سرية رفقا بأمته أن يتطوع للجهد في سبيل الله ؛ لأنه إذا خرج كان المسلمون مطالبين بمرافقته ومصاحبته .

(١) أخرجه البخاري (١١٥١) ، ومسلم (٧٨٥) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، مرفوعا ، بنحوه .

وروي في «صحيح البخاري» كذلك : «أن رسول الله ﷺ فيما رواه ابن عباس ، أتم ليلة بالعشاء - يعني تأخر بصلاة العشاء - حتى رقد الناس واستيقظوا وورقدوا واستيقظوا ، فقام عمر بن الخطاب فخرج يقول : الصلاة يا رسول الله ، رقد النساء والصبيان ، فخرج رسول الله ﷺ ورأسه يقطر وهو يقول : لولا أن أشق على أمتي - أو على الناس - لأمرتهم بالصلاة في هذه الساعة» ، أي لكانت صلاة العشاء في وقت متأخر من الليل ، لكن حرصاً منه ﷺ على الرفق بأمة لم يرد أن يسن هذه السنة لتبقى بعده ، فبقيت صلاة العشاء في وقتها العادي في وقت متقدم .

ونجد النبي ﷺ تروي عنه عائشة رضي الله عنها قالت : ما لقي الله تعالى حتى ثقل عن الصلاة ، وكان ﷺ في آخر حياته يكثّر من الصلاة قاعداً ، ولا سيما الركعتين قبل العصر ، فكان النبي ﷺ يصليهما في بيته ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمة ، وكان يحب ما يخفف عنهم ، فامتنع ﷺ عن الصلاة في المسجد رفقا بأمة حتى لا يكون ذلك تكليفاً لأمة .

ونجد النبي ﷺ يقول فيما رواه البخاري : «لولا أن أشق على أمتي - أو على الناس - لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة» .

وروى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «أكثرت عليكم في السواك» ، معنى هذا أنه ﷺ يرغب أمة في تطهير الفم والأسنان قبل الصلاة ، حتى يقابل المسلم ربه ويناجيه وفمه طاهر ونظيف زكي الرائحة ، وليست فيه رائحة خبيثة ، وذلك هو السواك ، وأنه لولا الخوف من أن يشق ذلك على أمة ويعنتهم لأمرهم به عند كل صلاة أمراً إجبارياً ، كما فرض عليهم الوضوء للصلاة ، ولكنه من أجل المشقة لم يلزمهم بذلك ، وهنا يأتي الحديث المشهور بالنسبة للصيام ، وهو قول النبي ﷺ : «لخوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» .

وهذا الحديث يفهمه بعض المتنطعين أنه دعوة إلى أن يترك الإنسان فمه خبيث الرائحة، خلال شهر رمضان، وهذا الشيء لا يتفق مع الروح الإسلامية، ولا مع نفس هذا الحديث، فالنبي ﷺ يشير إلى السواك على أساس أنه مرغوب فيه، مطلوب في جميع الصلوات، معنى ذلك أن القاعدة العامة هي تطهير الفم كتطهير جميع الأعضاء عند مناجاة الحق سبحانه وتعالى، لكن إذا فرضنا أن إنسانا في رمضان بسبب عدم امتلاء المعدة، وبسبب وقوع شيء في المعدة يؤدي إلى رائحة غير طيبة، فإن تلك الرائحة عند الله أطيب من ريح المسك، يشير بذلك إلى رفع درجة الصيام، وإلى رفع مكانة الصائم، لكن ليس في ذلك تحريض على ترك الفم غير طاهر، وعلى ترك رائحته غير نظيفة، كلا؛ لأن القاعدة الأساسية هي تطهير الفم بطريق السواك؛ لأنه لولا أن يشق على أمته لفرض عليهم السواك، فالسواك إذن قد ارتفع إلى أن أصبح في درجة الوجوب، وإنما منع من إيجابه ما في ذلك من مشقة وإعنات لا غير.

ونجد كذلك حديثا روي عن الحولاء، وهي من بني أسد قرشية، هذا الحديث ذكرته عائشة رضي الله عنها روي عنها وهو «أن رسول الله ﷺ سمع أن امرأة تصلي الليل ولا تنام، فقال ﷺ من هذه؟ فقالت له عائشة: الحولاء بنت تويت لا تنام الليل. قالت عائشة: فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ كره هذا الأمر حتى عرفنا الكراهية في وجهه، ثم قال: إن الله لا يمل حتى تملوا، أكلفوا من العمل ما لكم به طاقة»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٧٨٥/ ٢٢٠) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مرفوعا، به.

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن الشريعة الإسلامية حريصة على حفظ رابطة المكلف بالتكليف ، وعلى تهيئة جميع الأسباب والوسائل ، حتى لا ينقطع عن التكليف بحال .

وكذلك روينا عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى أيضا مما يتصل به أن أنس بن مالك حدث قتادة ، أن النبي ﷺ قال : «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي ، مما أعلم عن شدة وجد أمه من بكائه»^(١) ، فهذا هو رسول الله ﷺ يخفف الصلاة خوفا على الأم أن يشغل بالها بكاء ابنها وطفلها ، ومن أجل ذلك يحرص كل الحرص على الرفق بها وعدم إعنتها .

ونجد كذلك في «صحيح البخاري» «أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : إني يا رسول الله لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان ، وفلان ، هذا هو معاذ ابن جبل رضي الله عنه فقد كان يطيل الصلاة ، ويطيل القراءة بمن وراءه ، قال فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبا في موعظة أشد منه يومئذ ، قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن منكم منفرين ، فأياكم صلى بالناس فليتجوز -أي فليخفف- فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة» ، وهؤلاء كلهم لا يستطيعون إطالة الصلاة ، ولا إطالة القراءة .

ومما يتصل بهذا المعنى أنه قيل للزبير بن العوام رضي الله عنه : ما لي أراكم يا أصحاب محمد من أخف الناس صلاة ، فقال رضي الله عنه : نبادر الوسواس .

معنى ذلك : أننا نخفف الصلاة ؛ لأن التخفيف فيها يجعلنا متمكنين من ضبط أنفسنا ومن ضبط خواطرننا مع الله ، فإذا طالت الصلاة ربما وسوس لنا الشيطان ، وشاركنا وسيطر على مشاعرنا ، وعلى نوازعنا ، فتفاديا للوسواس يخففون الصلاة .

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩) ، ومسلم (٤٧٠) من طريق قتادة ، عن أنس رضي الله عنه ، مرفوعا ، به .

ونجد كذلك عن رسول الله ﷺ حديثاً آخر عن أبي موسى الأشعري ، أنه قال : «كنا مع رسول الله ﷺ ، فكنا إذا أشرفنا على واد ، وكان ذلك في غزوة ، هللنا وكبرنا ، وارتفعت أصواتنا ، فيهللون ويكبرون بصوت عال مرتفع ، فقال لنا النبي ﷺ : يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم - هونوا على أنفسكم - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، وإنكم تدعون الله ، والله أقرب إلينا من حبل الوريد ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب تبارك اسمه وتعالى جده» (١) .

ونجد كذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا» (٢) أي يعظنا بين الفينة والفينة ، فهو لا يواصل الموعظة ليل نهار صباح مساء في كل يوم ، ولكنه يعظهم بين الفترة والأخرى ، حفاظاً على حماسهم ، وعلى انتباههم وعلى عدم السامة والملل فيهم .

ونجده ﷺ يقول : «لا تشادوا الدين فإنه من يغالب الدين يغلبه الدين» (٣) ، إذا حاول الإنسان أن يسمو إلى أعلى درجات التدين فإنه يخسر الصفة ، إنه لا يستطيع أن يساير مطالب الدين إلى نهايتها وإلى أقصى درجاتها .

ثم نجد من كلام السلف الصالح لابن عباس رضي الله عنه يقول : إياكم والغلو في الدين ، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين .

ونجد مطرف بن عبد الله يقول : الحسنة بين سيئتين ، بمعنى أن الغلو في البر سيئة ، والتقصير في البر سيئة ، والحسنة هي ما بين الغلو والتقصير .

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) عن أبي موسى رضي الله عنه ، مرفوعاً ، بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري (٧٠) ، ومسلم (٢٨٢١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، مرفوعاً .

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً ، بنحوه .

ونجد ابن طاوس يحكي عن أبيه ، أنه قال : أفضل العبادة أخفها ؛ لأنها إذا كانت خفيفة من الناحية المادية ، كانت خفيفة كذلك من الناحية النفسية ، فتجد النفس فيها راحة ، وتجد النفس إليها ميلا وإليها شوقا لتجددها كلما دعت الضرورة «أرحنا بها يا بلال» .

ومن اللطائف في هذا الأثر أفضل العبادة أخفها ، إنها رويت كما رواها بعض العلماء بالياء لا بالباء ، فرواها فضل العبادة أخفها ، بمعنى أن عبادة المريض أفضل نوع فيها هو أن تكون خفيفة ، وهذا المعنى لا شك فيه هو موضع اتفاق بين العلماء والحكماء ، اللهم إلا إذا كان المريض يجد راحة في دعوة صديقه إلى البقاء بجنبه ؛ لأن في ذلك سلوى و تأنيسا ، وحكى القاضي عياض رحمته الله عن ابن وهب إمام المالكية أنه آلى ألا يصوم يوم عرفة أبدا ، لماذا؟ لأنه كان في الموقف حاجا يوم عرفة ، وكان صائما ، وكان اليوم شديد الحر ، فاشتد عليه الحر ، قال ابن وهب : فكان الناس ينتظرون الرحمة وأنا أنتظر الرحمة والإفطار ، ومن ثم امتنع وآلى على نفسه ألا يصوم يوم عرفة أبدا ، وهنا نشير إلى حديث الحولاء وهو قوله ﷺ بعدما كره عملها واستنكره ، وهو أنها تصلي الليل ولا تنام ، إذ قال : «إن الله لا يمل حتى تملوا ، وأكلفوا من العمل ما لكم به طاقة» .

ألفاظ مشبهة :

ها هنا ألفاظ تثير الشبهة وتستثير الفكر : «إن الله لا يمل حتى تملوا» ، من غير شك أن الحق سبحانه وتعالى لا يلحقه ملل ، ولا تلحقه سآمة ، سواء مل الناس أو لم يملوا ، سئموا أو لم يسأموا ، فالله تعالى أعلى وأجل من أن يناله ملل أو سأم ، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

ولكن الأسلوب هنا أسلوب عرب، والنبي ﷺ هو خير العرب وأفصح العرب، فهو جار في الكلام على لسانهم، والعرب عندما تريد أن تربط بين معنيين بينهما رابطة، فقد تستعمل اللفظ الذي استعملته في المعنى الأول، تعيده بالنسبة للمعنى الثاني من أجل التقارب بين اللفظين والازدواج في النطق والرنه والصوت، فتنطق بالكلمة متشابهة، وإن كان اللفظ في وضعه الثاني يحمل معنى غير المعنى الذي يحمله اللفظ في وضعه الأول، «إن الله لا يمل حتى تملوا»، ذلك أن العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء، ذكروه بمثل لفظه، وعلى سبيل المجاز، وإن كان ذلك مخالفاً له في معناه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، والجزاء لا يكون سيئة، وإلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ ❶ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ❷ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، فالله تعالى ليس محلاً للكيد ولا للمكر ولا للهزاء، إنما ذلك تعبير عن جزاء مكرهم وهزئهم وكيدهم، فذكر الجزاء بمثل لفظ الابتداء لما وضع بجواره.

هذا من الناحية اللفظية أما من ناحية المعنى، «إن الله لا يمل حتى تملوا» فمعناه عند أهل العلم: إن الله لا يمل من الثواب والعطاء على العمل حتى تملوا أنتم، ولا يسأم من إفضاله عليكم إلا بسأمتكم عن العمل في سبيله وأنتم متى تكلفتم من العبادة ما لا تطيقون لحقكم الملل والضعف، وأصابتكم السامة، ووقتئذ انقطع عملكم فانقطع عنكم الثواب لانقطاع

العمل ، إن الله لا يمل حتى تملوا معنى ذلك أن رسول الله ﷺ يحضهم على القليل الدائم ، ويخبرهم أن النفس لا تحتمل الإسراف عليها ، وأن الممل سبب إلى قطع العمل ، فهذا معنى حديث الحولاء ، وما قاله رسول الله ﷺ : «إن الله لا يمل حتى تملوا» هذه أدلة الوجه الأول ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى رفع الحرج عن هذه الأمة حتى لا تسوء نيتها بتكليفه ولا تنقطع عن عبادته وتبقى مرتبطة برابطة الإذعان والخضوع والثقة في الله تحت كفالته ورعايته سبحانه وتعالى .

أما الوجه الثاني : وهو أن الإنسان المكلف عليه وظائف وحقوق متعددة ومتنوعة ، وأنه ملزم أن يقوم بها جميعا ، وأنه متى أخل بواحدة منها أخل بحق لا يرضي الله عن الإخلال به ، وأنه في سبيل ذلك رفع الحرج حتى يتمكن المكلف من القيام بسائر واجباته ، فهذا الوجه نستدل عليه ببعض الأدلة كذلك :

في صحيح البخاري عن ابن جحيفة ، قال : «أخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء -يعني زوجة أبي الدرداء- رآها متبذلة ، أي لا تعتني بلباسها ولا بحالتها ، تهمل شأنها ، فقال لها : ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليست له حاجة في الدنيا؟ - انظروا إلى هذا التعبير اللطيف ، وعمادا يدل عليه : أخوك أبو الدرداء ليست له حاجة في الدنيا؟ وإذن فلا سبيل إلى غير التبذل والإهمال ، فسكت سلمان إلى أن جاء أبو الدرداء ، فلما دخل دعا سلمان وصنع له طعاما ، وقال له تفضل يا سلمان كل فإني صائم ، فقال له سلمان ، ما أنا بأكل حتى تأكل معي ، فما وسع أبا الدرداء إلا أن يأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء

ليقوم الليل ، فقال له سلمان : يا أبا الدرداء نم ، فما وسعه إلا أن نام ، ثم أبى إلا أن يقوم فقام سلمان ، وقال له نم يا أخي ، فلما كان من آخر الليل قام سلمان وأيقظ أبا الدرداء ، وقال له الآن قم ، قال سلمان فصلينا ، فقال لأبي الدرداء : يا أخي إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل حق حقه ، ولا تضيع حقا من أجل حق ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، فما كان جواب النبي ﷺ إلا أن قال : صدق سلمان ، صدق سلمان ، إن لنفسك عليك حقا ، ولربك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه .

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه إنك لتقل الصوم ، فقال : إن الصوم يشغلني عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب إلي .

ونقل عن الإمام مالك رحمته الله أنه كره إحياء الليل كله ، وقال : لعل الذي أحياء يصبح مغلوبا ، وفي رسول الله أسوة ، ولم يكن رسول الله يقوم الليل كله ، بل كان يقوم جزءا منه .

وكما وقع في شأن أم الدرداء التي حدثت سلمان وقالت له : إن أخاك ليست له حاجة في الدنيا ، نجد مثل هذه القضية تحدث في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فتأتي امرأة إلى مجلس عمر رضي الله عنه وتشكو عنده زوجها في شكل لطيف خفيف ، فماذا قالت له ؟ وصلت إلى مجلس عمر وقالت : إن زوجي فلان من خيار أهل الدنيا ، يقوم الليل حتى الصباح ، ويصوم النهار حتى يمسي ، ثم سكنت وأدركها الحياء ، فلم ينتبه عمر إلى ما تريد ، فقال لها : جزاك الله خيرا ، فقد أحسنت إلينا ، أخبرتنا خبرا طيبا ، فلما خرجت وولت التفت إليه أحد جلسائه من أذكيا المؤمنين ، فقال له يا أمير المؤمنين : لقد أبلغت في الشكوى ، لقد شكيت وأبلغت في الشكوى إليك ،

قال وما اشتكت؟ قال : اشتكت زوجها ، فنادى عمر : علي بهما ، فدعا الزوج والزوجة ، فقال لكعب الذي كان جالسا عنده : اقض بينهما ، فقال : أأقضي وأنت شاهد ، قال : إنك فطنت إلى ما لم أفطن إليه ، فما كان من كعب إلا أن قال صم ثلاثة أيام ، وأفطر عندها يوما يخاطب زوجها ، وقم ثلاث ليال ، وبت عندها ليلة ، فقال عمر : هذا أعجب إلي من الأول ، فبعثه قاضيا لأهل البصرة ، فكان يقع له من الحكومة والفراسة في القضايا ما جعله مضرب الأمثال .

فهذه قضية ثانية توضح كيف أن الحقوق يجب ألا تختلط وألا تتعارض ، ويجب أن تسير في توازن وانسجام ، بحيث لا يضيع منها حق من أجل حق آخر .

ونجد في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو قال : «دخل علي رسول الله ﷺ فقال : ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قال : بلى ، فقال له رسول الله ﷺ : لا تفعل ، قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا - ويريد النوم وعدم السهر - وإن لزورك عليك حقا - أي للزوار الذين يفدون عليك - ، وإن لزوجك عليك حقا» .

وروي في «صحيح البخاري» كذلك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر الله فيسب نفسه» .

معنى ذلك أنك إذا أردت أن تصلي وكنت مغلوبا بالنوم فاذهب لتنام خير لك من أن تصلي فإن صلاتك وأنت مغمى عليك أو شبه مغمى عليك من كثرة السهر والحاجة إلى النوم ، تلك الصلاة لا حاجة لله بها ؛

لأنك لن تناجيه فيها المناجاة الصحيح ، ولن تستحضر فيها الاستحضار الواجب ، فاذهب لتأخذ حظك من النوم والراحة ، وبعدما تنام وتكفي حاجتك من النوم قم وتوضأ وصل .

فهكذا نجد سماحة الإسلام ويسره على لسان رسول الله ﷺ : «إذا نعى أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم»^(١) ، فهذه أدلة على الوجه الثاني .

هل المشقة مقصودة؟

ومن هنا نتقل إلى النقطة الرابعة ، وهي هل المشقة مقصودة من التكليف أم لا؟ الواقع أن حكماء الشريعة الذين استقرءوها واطلعوا على مصادرها ومواردها مجمعون على أن الهدف الأول من التشريع الإسلامي هو ضمان مصالح الناس ، جلب المصالح لهم ودرء المفسد عنهم ، وكون الشارع يعنت المكلفين ويشق عليهم ويرهقهم هذا الإرهاق وهذا الإعناء ، لا يمكن أن يندرج تحت اسم المصلحة ، فالإعناء ليس مصلحة مطلقة ، لذلك فالمشقة في ذاتها ليست مقصودة للشارع ولا هدفا من أهداف التكليف ، وإذا كانت التكاليف قد يترتب عنها في الاستعداد لأدائها أو يعد القيام بها شيء من المشقة ، فذلك يعتبر لازما خارجيا عن طبيعة التكليف نفسه ، كما يقع للطبيب إذا أمرك وأنت مريض بأن تتناول دواء مرا بشعا من أجل الشفاء ، فإن الغرض من إعطائك ذلك الدواء هو العلاج من المرض لا أن يحملك على أكل الشيء المر ، وعلى أكل الشيء البشع الذي لا ترضاه ولا يطيب لك ذوقه ، وكذلك قد يكون لك ابن هو

(١) أخرجه البخاري (٢١٢) ، ومسلم (٧٨٦) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، مرفوعا ، به .

أعز الناس عليك ، ويصاب إصابة تدعو إلى بتر عضو من أعضائه لحفظ روحه ومهجته وحياته الباقية ، فتأذن في بتر ذلك العضو منه ، لا لأنك تريد تكليفه وإعناته ، ولكن في سبيل إطالة حياته وبقائه وإنقاذ حياته من تلك المصيبة التي نزلت به حتى لا يضيع بالمرّة .

وهكذا نجد الشارع لا يقصد إلى إعنات المكلف ، إن المكلف عند قيامه بالتكاليف قد يلزم عند قيامه بها شيء من المشقة وشيء من التعب ، ولكن ذلك التعب وتلك المشقة إنما هو وارد عرضاً من أجل مصلحة عليا ، وتلك المصلحة هي التي قصدها الشارع من التكليف لا الإعنات ولا المشقة .

المشقة المعتبرة شرعاً :

ثم نتقل إلى ما هي المشقة المعتبرة شرعاً؟ هل كل مشقة يعتبرها الشخص في حد ذاته مشقة وجب أن يعتبرها الشرع مشقة؟ هذا الموضوع يقع تفصيله على الوجه الآتي :

١- المشاق التي توجد تنقسم إلى قسمين :

النوع الأول : هناك مشقة لا تنفك العبادة عنها غالباً ، هي ملازمة للعبادة كأنها مشقة طبيعية عادية ، تماثل أنواع المشاق التي تلازم كل الأعمال العادية ، فالإنسان عندما يأكل يتحمل مشقة ، إذ تحريك اللسان ، وتحريك الأضراس ، وعملية المضغ والهضم هي مشقة كذلك ، وكم من عملية يقوم الإنسان بها في حياته العادية ويتحمل في سبيلها شيئاً من المشاق العادية التي لا يعتبرها هو مشقة ، كذلك هنالك مشقة لا تنفك عنها العبادة أبداً ، مثل مشقة الوضوء والغسل في فصل الشتاء ، ومشقة إقامة الصلاة في الحر ، أو الصيام في فصل الصيف ، أو القيام لصلاة الفجر ، أو مشقة أداء فريضة الحج ، أو مشقة الرحلة في طلب العلم

والاجتهاد في تحصيله ، أو مشقة إقامة الحدود على الجناة ، فهذه المشقة لا تنفك عنها العبادة ، وجود هذا النوع من المشقة لا يمكن أن يعتبر وسيلة من وسائل التخفيف ، لأنها مشقة عادية لا أثر لها في إسقاط العبادات والطاعات ولا في التخفيف منها .

النوع الثاني : مشقة تنفك العبادات عنها غالبا ، هذا الضرب الثاني هو الذي يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع : فهناك مشقة خفيفة جدا ، كوجع ضئيل في الأصبع ، أو صداع قليل في الرأس ، أو سوء مزاج ، مشقة خفيفة تنفك عنها العبادة غالبا ، هذه المشقة الخفيفة لا عبرة بها في نظر الشارع ، ولا أثر لها عنده ، هناك عكسها مشقة فادحة يخشى أن تؤثر على النفس أو على الأعضاء أو على وظائف الأعضاء ، وقتئذ يعتبرها الشارع ويجعلها مثارا ومبررا للتخفيف والإسقاط ، وهي مدار الحديث هنا ، وبين هذين النوعين توجد درجات مختلفة متفاوتة ، مشاق تملو وتسفل ، فما هو النظر في شأنها؟ النظر في شأنها أن كل مشقة قربت من الحد الأعلى فإنها تدخل وينطبق عليها حد التخفيف ، وكل مشقة نزلت إلى الحد الأسفل وهو الحد الخفيف فإن الشارع يلغي اعتبارها ولا يعتبرها ، وهذا هو المعيار الذي عير به علماء الشريعة مسألة المشقة ، وأنها غير مقصودة في التكليف ، وأن المشقة التي يعتبرها الشرع كافية للتخفيف وأنها هي المشقة الفادحة وما قاربها .

رفع المشقة حق لله أم حق للعبد؟

وهنا ننتقل إلى النقطة السادسة وهي : هل رفع المشقة حق لله؟ أم حق للعبد؟ هذا الموضوع أثاره علماءنا الحكماء رحمهم الله ، فالذين قالوا : إن رفع المشقة حق لله لأن الله تعالى وضع التكليف وأرسل الرسل وأنزل

الكتاب أنزله بالحق وحدد حدودا للتكليف ، وهو لا يريد مجاوزة هذه الحدود ، فحق الله إذن في رفع الحرج قائم .

معنى ذلك أن الشارع حيثما وجهنا اتجهنا ، وكل عمل استنكره واعتبره شاقا وحرجا يجب أن نتجافاه ولا نقوم به وأن نتركه ، ولو كنا قادرين على القيام به ، وإذن يكون محور رفع المشقة عائدا إلى الله تعالى الذي هو الحاكم ولا حكم إلا لله .

والنظرية الثانية هي أن رفع المشقة حق للعبد ، بمعنى أن الله تعالى إنما رفع الحرج عنا والمشقة عنا ووضع طرق التخفيف رفقا بعباده ورحمة لهم ، إذن فالأمر يتعلق بهم ، فإن اختاروا أن يتنفعوا برحمته وإرفاقه كان لهم ذلك ، وإن كانوا قادرين على أن يتجاوزوا هذا الحد وأن يعتنوا أنفسهم دون أن ينالهم من ذلك ضرر ، وأن يتحملوا ذلك مهما كلفهم من الضرر ، فلهم أن يفعلوا ذلك ، وهذا الوجه الثاني .

قال الشاطبي رحمته الله في «الموافقات» : إنه هو الراجح بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء : ٢٩] ، وإنه بعدما ذكر هذه الآية : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء : ٢٩] ، جاءت الآية بعد ذلك تقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء : ٢٩] ، إذن فالعبرة والمناط لرفع المشقة هو العبد ، هو المكلف ، هو الإنسان ، فعندما يعجز عن تحمل المشقة فالله قد رفع عنه المشقة فلينتعف بأجر الله وبتسهيله وبتخفيفه ، وعندما يعطى القوة الروحية الكافية لأن يمارس التكاليف الشاقة فليفعل فله ذلك ، وهذا الموقف في الحقيقة يرمي إلى تبرير مواقف العباد والزهاد من رجال هذه الأمة ، من أولئك الذين اشتبهوا بصيام النهار وقيام الليل ، والإقبال على

الزهد والعبادة دون انقطاع من سلف الأمة الصالح ، فيوجد في سجل هذه الأمة الإسلامية عدد غير قليل من أمثال هؤلاء الرجال والأئمة الكاملين المعروفين عند الأمة بدينهم وزهدهم وورعهم وقدرتهم على تحمل مشاق التكليف دون ملل ولا انقطاع ولا شكوى ، لكن يبقى إذن أن من غلب جانب حق الله تعالى منع من المشقة بإطلاق ، ومن غلب جانب العبد بدلم يمنع عنها بإطلاق ، ولكن جعل ذلك إلى خيرة المكلف وإلى خياره ، فهذه هي النقطة السادسة .

منهج التخفيف :

أما النقطة السابعة : وهي طرائق التخفيف التي شرعها الشارع ، شرع التخفيف ووضحه وبين وجوهه ، ولأجل أن يتم ذلك اهتم الحق سبحانه وتعالى ، واهتمت الشريعة بأن توضح لنا طرائق التخفيف ومناهجه وأساليبه ، وبأي وجه يتم التخفيف ، ذلك أن الله تعالى يعتبرنا مكلفين فنحن في إطار التكليف لا نملك اختياراً إذا خفف عنا ، ولكن لا نملك الاختيار في أن نخفف عن أنفسنا بالوجه الذي نريد ، بل أن يتم ذلك التخفيف على الطريقة التي يريد بها هو لا على الأسلوب الذي نريده نحن ، وهذه الطرائق استقرأها علماء الشريعة وبلغ استقراءهم أنها سبع طرائق :

الطريقة الأولى :

ما يسمونه تخفيف الإسقاط ، ومعنى ذلك أن الشارع عندما يكون المكلف في حرج يسقط عنه التكليف بالمرة ، فذلك التكليف الذي كان واجباً عليه يصبح لاغياً ساقطاً لا يجب عليه إذا قام القدر الداعي للإسقاط فإنه يسقط عنه ذلك الواجب ، مثال ذلك إسقاط الجمعة بعذرهما ،

وإسقاط الصوم بعذره ، وإسقاط الحج بعذره ، فهذه الفرائض قائمة إذا وجد القدر المبرر لإسقاطها يسقطها الشارع عنك بالكلية فلا تبعة عليك ولا إلزام لك بشيء منها .

الطريقة الثانية:

تخفيف التنقيص أن ذلك الواجب الذي أوجبه عليك الشارع يأتي إليه ويأذن لك في تخفيف عدده ، فإن كانت الصلاة أربع ركعات فلتخفف إلى ركعتين ، وإن كانت الصلاة لا بد فيها من ركوع وسجود والمكلف عاجز عن أحدها فالشارع ينقص عنه ما عجز عنه ، ومثال ذلك قصر الصلاة الرباعية ، وتنقيص ما عجز عنه المريض من أفعال الصلوات كتخفيف الركوع والسجود وغيرهما إلى القدر الميسور له من ذلك .

الطريقة الثالثة:

تخفيف الإبدال ، معنى ذلك أن التكليف الشرعي الذي كان عليك يلغيه الشارع ويعطيك عوضه تكليفا جديدا ، وهذا التكليف الثاني يقوم مقام التكليف الأول ، مثال ذلك أن الشارع ألزمننا بالوضوء وألزمننا بالغسل ، فإذا قام العذر الذي لا يتم معه لا وضوء ولا غسل أعطانا بدلا منه التيمم ، والتيمم شيء آخر غير الغسل وغير الوضوء ، وكذلك الأمر في الصلاة ، فالشارع أمرنا بالقيام ، فإذا عجزنا أسقط عنا القيام ، وأذن لنا بالعود بدلا من القيام ، وإذا كان القعود غير ممكن أذن لنا بالاضطجاع ، وإذا كان الاضطجاع غير ممكن رفعه الشارع عنا وأذن لنا بالإيماء بالعين فقط ، بالعين تصلي وتركع وتسجد وتشهد وتناجي الحق سبحانه وتعالى بمجرد العين ، فهذه الطريقة الثالثة طريقة الإبدال .

أما الطريقة الرابعة:

فهي طريقة تخفيف التقديم، معنى ذلك أن الشارع شرع للعبادة وقتا معيناً محدوداً هذا الوقت لم يأت بعد وأنت مطالب بسفر أو بقضاء حاجة تضطرك إلى حركة، إلا أنه عندما يأتي وقت الصلاة تكون في عمل وفي شغل يعتبره الشرع مبرراً، فالشارع يسمح لك أن تقدم تلك الفريضة قبل وقتها، وأن تصليها وتضمها إلى تلك الفريضة التي قبلها فتصليها معها، فمثلاً نجمع الظهر مع العصر ونحن في وقت الظهر فتصلي العصر أيضاً قبل أن يحل وقته، وذلك تخفيف التقديم، وكذلك تأتي في صلاة المغرب وتصلّي المغرب في وقتها وتضيف لها في الحين صلاة العشاء فتجمع بينهما جمع تقديم.

الطريقة الخامسة:

تخفيف التأخير وهي أن الفريضة لها وقتها المعين ولكنك لا تستطيع لعذر من الأعذار، فالشارع يبيح لك أن تؤخرها إلى وقت آخر، فالظهر مثلاً له وقته شيء لا نصليه في وقته وإنما نصليه عند حلول العصر، ثم تنزع في العصر مباشرة في وقت العصر، ونصلي العشاء إلى جانب المغرب كذلك نجمع بين المغرب والعشاء، وتؤخر رمضان إلى وقت آخر لسبب الأعذار الطارئة، فهذا تخفيف التأخير.

الطريقة السادسة:

تخفيف التغيير، معنى ذلك أن العبادة لها نظام خاص معروف، فيأتي عذر من الأعذار فيبيح لنا الشرع أن نقرب نظامها على وجه آخر، وأن نأتي بها بشكل مخالف للمعتاد، مثال ذلك صلاة الخوف، ليس معنى ذلك أن المسلمين يقومون بها عندما تكون نفوسهم مرهوبة وهم خائفون، فالمسلم لا يخاف إلا الله،

ولا يخاف عدوا أبدا، وإنما صلاة الخوف عندما يكون المسلمون في وجه العدو ويخافون غدره، ويحذرون كل الحذر من أن يباغتهم، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، إذا ضربتم في الأرض إذا سافرتم فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتهم من أجل ذلك، سميت صلاة الخوف: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢]، هذه صلاة المعركة صلاة مواجهة القتال، ومعنى ذلك أن الإسلام لا يسمح لمعتنقيه بترك الصلاة حتى في وقت المعركة، لأن الصلاة تعتبر مددا روحانيا، وقوة إلهية تزيد من قوة المسلمين ومن حماسهم وتبهيء لهم النصر القريب والفتح المبين، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، وهذا حكم من الله تعالى يعبر به عن نية أعداء الإسلام في كل عصر وفي كل جيل، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في صلاة الخوف تسع صفات وتسع أشكال، من أشهرها أن رسول الله ﷺ في مثل هذه الحالة صلى بالقوم الأول ركعة، والفوج الثاني مسلح يراقب الأعداء من وراء المصلين، صلى ﷺ ركعة ثم ثبت قائما، وهذا الفوج الذي صلى مع رسول الله ﷺ ركعة يواصل الركعة الثانية لأنها صلاة قصر، فإذا أتم الفوج الأول الركعة الثانية سلم وحل ملح الفوج الثاني الحارس له من قبل، فأتى ذلك الفوج الثاني ليصلي مع رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ واقف مستقبل

للقبلة ، فيكبر الفوج الثاني ويصلي مع رسول الله ﷺ ركعة ، والرسول قائم ثم يجلس رسول الله ﷺ ، ويؤدي الفوج الثاني وحده الركعة الثانية لیتتم صلاته ، فإذا جلس الفوج الثاني اتم برسول الله ﷺ وهو جالس ، وسلم رسول الله ﷺ معه ، وهكذا كان الفوج الأول قد صلى ، والفوج الثاني قد صلى ، ورسول الله ﷺ صلى بالفوجين معاً ، فهذا معنى قول الله تعالى في الآية السابقة : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء : ١٠٢] ، فهذه هي الطريقة السادسة طريقة تخفيف التغيير .

أما الطريقة السابعة والأخيرة :

من طرائق التخفيف فهي طريقة تخفيف الترخيص ، الرخصة ، وهذا آت في التشريعات التي شرعها الله تعالى عزائم بصفقتها مستندة إلى أصل التكليف ، ثم تأتي التشريعات استثنائية من تلك التشريعات الابتدائية ، وهذه التشريعات الثانية الاستثنائية تنبثق عن قاعدة التخفيف لا عن قاعدة التكليف ، وذلك هو تخفيف الترخيص ، ومن أمثلة ذلك أن الخمر وهي حرام إذا غص المسلم بريقه دون أن يجد ماء فإن الشارع أباح له أن يزيل الغصة بالخمر ، وكذلك إذا اضطر وأصبح مهدداً بالهلاك ولم تكن أمامه إلا الميتة ، فله أن يأكلها ، وكذلك إذا أكره على النطق بالكفر فله أن يتلفظ بلفظة الكفر وهو آمن ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦] ، فهذه هي الطريقة السابعة من طرائق التخفيف ، ومنها ننتقل إلى .

مبررات التخفيف:

النقطة الثامنة : وهي أسباب التخفيف ومبرراته التي اعتبرها الشارع ، معنى ذلك أنه متى يقع التخفيف ؟ يقع التخفيف عن المسلمين والمكلفين عندما يصيبهم وينزل بهم وضع من الأوضاع الآتية :

السبب الأول : هنالك حالة يكون المسلم فيها جاهلاً بحكم الله في أمر من الأمور ، إذا كان ذلك الأمر مما يتعذر الاحتراز عن جهله ، بمعنى أنه لا سبيل إلى أن يسبق العلم به إلى تلك العبرة ، مثال ذلك أن المسلم لا يزال على حالة من البداوة والجهل ، فهو لا يفرق هل بعض الكلام يعتبر كفراً أم يعتبر إيماناً ، بعض الألفاظ وبعض الصيغ ينطق بها على أنها لا تكفر ، وإنما هي كلام عادي ، فينطق بكلمة تحمل الكفر وهو لا ينوي الكفر وهو جاهل بذلك ، فإذا فرط منه مثل هذا القول فإن الشارع لا يعتبره كافراً بل يعذره بالجهل ويخفف عنه ، يكون المسلم في معركة يحارب الكفار وقد يكون مع أولئك الكفار أحد المسلمين فيتجه إلى قتل مسلم آخر ظاناً أنه كافر في صفوف المسلمين ليس مسلماً ، فيقتله جهلاً بأنه مسلم ، فإذا وقع هذا القتل منه جهلاً يعتبر عذراً له كافياً .

يأتي المكلف فيقبل بنهم على أكل الطعام قد يكون شديد الجوع ولا يعرف أن ذلك الطعام يتضمن نجاسة ، فيأكله جهلاً منه بأن في الطعام نجاسة ، فهذا العمل يعفى عنه ولا يؤاخذ به الشارع .

وهكذا ففي مثل هذه الحالات التي يتعذر الاحتراز عنها عادة فيها يعتبر الجاهل عذراً ومبرراً للتخفيف ، أما المسائل التي لا يمكن أن يحصل فيها التعذير ولا يشق العلم بها فإن الإسلام لا يقبل العذر فيها أبداً ؛ لأن الإجماع قائم على أن كل مكلف لا يمكن أن يقدم على فعل أمر حتى يعلم حكم الله

فيه ، كما نقل ذلك الإجماع الشافعي في «الرسالة» ، والغزالي في «الإحياء» ، فمن أراد أن يشتغل بالتجارة فعليه أن يعلم حكم الله فيها ، ومن أراد أن يشتغل بالإجارة فعليه أن يعلم حكم الله فيها ، وهكذا فالجهل بالأحكام على العموم لا يعتبر عذرا في دار الإسلام ، وإنما يعتبر عذرا إذا كانت بعض الظروف لا يتم فيها العلم ، ويصعب فيها الحصول على العلم .

السبب الثاني : كذلك من أسباب التخفيف ومبرراته أن يصاب الإنسان بنسيان ، فالنسيان قد يهجم على الإنسان قهراً ولا حيلة له في دفعه عنه ، قال النبي ﷺ : «إن الله قد وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١) ، حديث حسن أخرجه ابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» ، والحاكم في «مستدركه» ، فإذا فرضنا أن الصائم أكل ناسياً فإنه لا يعتبر متهاكاً لحزمة الصيام بل يحكم عيه حكم الناسي ، فيقضي ولا كفارة عليه ، وإذا ترك المسلم التسمية على الذبح ناسياً فإنه لا يعتبر وثئياً ولا مشركاً ، وإنما يعفى عن نسيانه ، وإذا كان المصلي يصلي وأكل ناسياً ، غفل في فترة من فترات الصلاة وأكل ، فإنه كذلك لا يعتبر متهاكاً لحزمة الصلاة ؛ لأن ذلك صادر عن النسيان ، والنسيان من مبررات التخفيف .

السبب الثالث : وهو المرض فعندما يصاب الإنسان بالمرض وتلك حالة طبيعية يتعرض لها كل الناس ، كذلك يصبح المكلف محل تخفيف فيسمح له بالتميم عند مشقة استعمال الماء ، بل إنه نقل المنع من الطهارة

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) ، والدارقطني في «السنن» (٤ / ١٧٠) ، والبيهقي في «الكبرى» (٧ / ٣٥٦) عن ابن عباس ؓ ، مرفوعاً . وصححه ابن حبان (٧٢١٩) ، والحاكم في «المستدرك» (٢ / ١٩٨) وقد تكلم عليه غير واحد . انظر «علل الرازي» (١٢٩٦) ، «جامع العلوم والحكم» الحديث التاسع والثلاثون ، «كشف الخفا» (١٣٩٣) .

عند الخوف والانتقال إلى التيمم إذا كان ذلك يؤدي إلى تلف ، وكذلك يسمح للمريض بالفطر في رمضان ، ونقل عن مالك رحمته منع الصوم إذا خاف التلف به ، وكذلك يترك للشيخ الهرم حرية الإفطار دون أن يقضي مطلقاً ، وإنما يفدي بسبب الهرم الذي يعتبر كالمرض الدائم ، وكذلك يباح النظر إلى العورة والسوأيتين بالنسبة للطبيب بسبب المرض .

السبب الرابع : وهو السفر وذلك عندما يكون الإنسان غير مرتاح الراحة الكافية ، وهو قاصد إلى قضاء أوطار وقضايا مستعجلة ، ففي حالة السفر يخفف عنه الشارع فيسمح له بتقصير الصلاة ، وفطر رمضان ، وترك الجمعة ، والمسح على الخفين .

السبب الخامس : النقص في الأهلية بمعنى أن الشخص يكون عديم الأهلية ، فإذا كان الإنسان صبياً أو مجنوناً فالتكليف ساقط عنه بالمرّة ، وكذلك إذا كان الفرد في حال تبعية للغير فإنه كذلك يخفف عنه في كثير من الشؤون ، فالزوجة مثلاً تكون تحت كفالة الزوج وقوامة الرجل : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء : ٣٤] ، فلا يمكن لها أن تحضر الجماعة ولا الجمعة ولا الجهاد ، اللهم إلا إذا كانت الدعوة عامة والنفير عاما إلى كفاح العدو ، فإن المرأة تخرج إلى الجهاد ولا تحتاج حتى إلى استئذان زوجها في ذلك .

السبب السادس : هو الإكراه عندما يفقد المكلف حريته واختياره ويكره على عمل من الأعمال قد يكون فيه ضرر للغير أو ضرر على نفسه ، ففي هذه الحالة يخفف الشارع عنه من مسؤوليات التكليف ويعتبره غير مخير بل مسخراً ، فكل الأعمال التي يقوم بها مما يتصل بالإضرار بالغير كلها تعتبر معفوا عنها غير مؤاخذاً عليها ، لا إثم فيها ، ولا يعتبر متطاولاً ولا معتدياً على الغير ، وإن كانت في بعض الصور تؤدي إلى التزامات ناتجة

عن تلك العمليات ، وآثار مادية تتبع ذلك الإكراه ، فمثلا يباح بالإكراه التلفظ بكلمة الكفر ، ويباح بالإكراه القذف ولا حد فيه ، ويباح بالإكراه إتلاف مال الغير ، ويباح بالإكراه السرقة ، ويباح بالإكراه شرب الخمر وأكل الميتة وفطر رمضان وترك الصلاة ، وكل ما يتصل بحق الله سبحانه ما دام هناك إكراه وإكراه ، وهذا تخفيف من الشارع على المكلفين .

السبب السابع والأخير : هو عموم البلوى ، معنى ذلك أن المجتمع يحتاج إلى نوع من المعاملات والتصرفات لو تركها الناس وأهملوها لشقت عليهم الحياة ، ولأصبحوا في عنت لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها ، فهنا يتنزل الشارع بسهولة وبمرونة وبعطف عن توجيهاته لترضية حاجات الناس ، وقد يتنازل من غير تخفيف عن شروطه ، وعن كثير من أركانه ، وعن كثير من توجيهاته في سبيل حاجيات الناس ومصالحهم حتى يطمئنوا إلى الحياة .

هذا السبب وهو عموم البلوى يمثل له بعض الأمثلة ، منها مثلا إسقاط الصلاة عن أيام الحيض ، ومنها مثلا الاكتفاء برؤية الجزء البارز من الدار بدلا من أسها ، ومنها مشروعية الرد بالعيب ، ومشروعية الخيار في العقد ، ومشروعية بيع السلم ، وهو بيع معدوم موصوف في الذمة غير حاضر ولا يتمشى مع الشروط والقيود المشترطة في أركان البيع ، وإباحة الانتفاع بملك الغير عن طريق الإجارة والإعارة والقراض ، ومشروعية الطلاق والفراق عندما تصبح الزوجية متعذرة بالتنافر والتنافي القائم بين الزوجين ، إذ لا سبيل إلى بقائهما : ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ، ومشروعية الرجعية في العدة لصالح الزوج ، إذ كثيرا ما يقع الطلاق في حالة خصام وغضب فيكون الزوج أحق بها من غيره ما دامت

في عدتها ، ومشروعية التخيير بين القصاص بقتل الجاني وبين الدية بحيث نكتفي بدية القاتل ولا نقتل روحين ، فيوافق أولياء القتيل على عدم قتل القاتل وعلى قبول الدية عوضاً عن القصاص .

وفي ذلك منفعة للمجتمع وقضاء على أسباب الإحن والمشاكسات العائلية ، ومشروعية الوصية عند الموت ، وذلك لتدارك ما فرط من الشخص في حالة الموت ، فعند ذلك يصبح غير أهل لأي تصرف من التصرفات ، ولكن الله تعالى قد أعطاه آخر تصرف في آخر حياته وهي وصيته بثلاث ماله ، فلعموم البلوى شرعت الوصية عند الموت ، لكننا في نفس الوقت حافظنا على حق الورثة وأعطيناه التصرف في ثلث ماله فقط حتى لا نضر بالورثة ، ومما يدخل في ذلك التجاوز عن اشتراط العدالة في الشهود متى ضعفت عدالة الناس ، وقبول الأمثل فالأمثل منهم ، وكذلك تولية الولاية وإن كانوا غير صالحين من الناحية الكاملة ، وغير مستوفين لشروط العدالة ، فنأخذ منهم الأمثل فالأمثل لعموم البلوى ، فإذا أخطأوا اعتبروا لا إثم عليهم في خطئهم ، ويكتفى منهم بالوصول إلى الظن بدلا من اليقين عندما يتعذر عليهم اليقين ، فهذا هو السبب السابع .

حد التخفيف:

ومن هنا نتقل إلى النقطة التاسعة وهي : إلى أي حد يصل حد التخفيف؟
الشرعية الإسلامية جاءت أولا شريعة كريمة ميسرة منسجمة مع الفطرة الطبيعية : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] ، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] ، هذه الشريعة رفعت عنا الآصار والأغلال فجاءت أحسن الشرائع وألينها وأيسرها ، ثم في حدود الشرعية الإسلامية وضعت التكاليف للأحوال العادية عندما يكون

الإنسان صحيحاً غير مريض ، مستقراً بالبلد غير مسافر ، ذاكراً غير ناس ، عالماً غير جاهل ، حراً غير مكره ، كاملاً غير ناقص ، ثم وضعت تخفيفات من جميع التكاليف لكل الأحوال المناقضة التي تحتاج إلى التخفيف حتى نبقي نعيش في إطار الشريعة في جميع أحوالنا ، لأن الشريعة جاءت عامة في أحكامها ، وجاءت لنا عامة في جميع أحوالنا عامة .

فإلى أي حد يصل التخفيف؟ هل ننقل من كل هذا ونقول لنترك التكاليف كلها ، ولنتحلل من القيود جميعها ، فنحن في حاجة إلى الحرية وكفانا من العبودية ، فإن التكاليف استعباد وإرهاق ، والأولى بنا أن نخرج من دائرة التكاليف إلى دائرة الحرية المطلقة والإباحية المطلقة كلا! .

فالشريعة الإسلامية تدعو إلى المحافظة على الأخذ بالحد الوسط ، فالتخفيف قائم ، والتكليف قائم ، ولكن التكليف لا يجب أن ينتهي إلى الشطط ، ولا إلى التشدد والتزمت ولا إلى الإفراط ، والتخفيف يجب أن لا ينتهي إلى الحد الأبعد ، فلا نصل به إلى الانحلال والتساهل ، وفسخ التكليف والقضاء عليه من أصله ، بل لا تشدد ولا تعنت ، ولا انحلال ولا تساهل .

والحكيم في الإسلام والعالم الحقيقي في الإسلام هو من حمل الناس على حد الوسط ، من حمل الجمهور على الحد الوسط ، لا يحملهم على التشدد لأنه إذا تشدد بهم ودخل بهم مدخل الإعنت والإرهاق كرههم في الدين ، وبغض إليهم العبادة ومردهم ، جعلهم متمردين على أحكام الشريعة ، وإذا أخذ بهم في طريق التساهل والتفسخ ، وإسقاط التكاليف فإنه يخرجهم إلى ناحية الفوضى ، والخروج عن الطاعة والانقياد والامثال ، بذلك يخرجون من دائرة الحاكمية الإلهية التي يجب أن تبقى مهيمنة على الناس «لا حكم إلا لله» ، فحد التخفيف يجب ألا يزيد عن هذه الناحية ، وهاهنا

في هذا المجال لا ينبغي لعلماء الإسلام أن يشجعوا الأمة الإسلامية على التكاسل والخمول، فيذكرون لها كثيرا من البشائر، ويحدثوها كثيرا عن الأحاديث التي تفهم على غير وجهها، من ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» حدثنا أنس بن مالك «أن النبي ﷺ وكان معه معاذ -رديفه على الرحل- قال: يا معاذ بن جبل، فقال له معاذ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، وكان هذا تنبيهها من رسول الله لمعاذ حتى يتنبه ويستيقظ لما سيلقى عليه؛ لأن الأمر لالذي سيلقى عليه أمر جليل، فقال له رسول الله ﷺ: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار، فقال معاذ: يا رسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذن يتكلوا»، إذا عرفوا هذه البشارة ووصلت إلى أذهانهم فكثير منهم يحملونها محملا غير سليم، وينقطعون عن القيام بالتكاليف، وعن القيام بالواجبات، ويقولون كفانا، لقد قلنا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذن نسقط التكليف ونلغي التكاليف والواجبات والحقوق، ولنرتع في الحياة كما نريد، وكما يشاء لنا الهوى، قال له رسول الله ﷺ: «إذن يتكلوا».

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري: «قلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا».

معنى ذلك أن فريقا من المؤمنين قد لا يفهمون هذا المعنى، المؤمنون الكمل يفهمون هذا الحديث ولا يزيدهم إلا استبشارا وغبطة في طاعة الله، والقيام بواجبات الله وحقوق الله وحقوق العباد، ولا يزدادون مع ذلك إلا تفانيا لأنهم عرفوا الغاية، ومن عرف ما قصد هان عليه ما وجد، ولكن هناك غفل

من المؤمنين متى سمعوا هذه البشارة اطمأنوا إليها واتكلوا عليها وتركوا جميع التكاليف ، فها هو رسول الله ﷺ منع معاذاً من أن ينشر هذا الحديث وأن يبشر به ، وذكر الإمام البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك -راوي الحديث- أن معاذ بن جبل استمر كاتماً لهذا الحديث عن الناس ، ولم يخبر به أحداً حتى حضرته الوفاة ، فلما حضرته الوفاة ، وأحس أنه مقبل على الله ، وخاف أن يضيع هذا الحديث على المسلمين ولا يعرفونه ، وخاف أن يدخل تحت قوله ﷺ : «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من النار»^(١) ، وقتئذ في ساعة الاحتضار نطق بهذا الحديث ورواه لجلالته ، قال أنس : وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً ، أي حذراً من الإثم ، فهكذا كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم .

ومما يستحق لفت الأنظار أن الإمام البخاري رحمه الله بوب لهذا الحديث بالعنوان الآتي ، فقال رحمه الله وهو أمير المؤمنين في الحديث والفقه والدين : «باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا» .

معنى ذلك أن رسول الله ﷺ رأى أن معاذاً يستطيع أن يحمل هذه البشري ، وأن يستمر على طاعته وعلمه ويكتمه في سنين الوقت ، علم أن غيره لا يستطيع أن يتحملها وأنه سيء فهمها ، وأنه قد ينتقل إلى عكس المراد ، فمنعه أن ينشرها بين الناس ، فهكذا يجب أن تكون الدعوة الإسلامية ، وهكذا يجب أن تكون التربية الإسلامية لا تساهل ولا انحلال ولا تشدد ولا تعنت ولا إفراط ولا تفريط .

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦٥) عن أبي سعيد رحمه الله ، مرفوعاً ، بنحوه . وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٩ ، ٥٠٨) ، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٨٩ ، ٢٨٦) عن أبي هريرة رحمه الله .

وصححه ابن حبان (٩٥) . وفي الباب عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعمر بن عبسة رحمه الله ، انظر «العلل المتناهية» (١/ ٩٦) .

ضرر التساهل وضرر التشدد:

ومن هنا ننتقل إلى النقطة العاشرة وهي : ضرر التساهل وضرر التزمّت وقد شرحناها ، فننتقل بعد ذلك إلى ضرر التساهل وضرر التزمّت على الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية .

من مظاهر التزمّت الذي وقع ، والتشدد في الإسلام أنه جاء وقت وجد فيه بعض العلماء ضيقوا إطار الشريعة وفهموها فهما ضيقا ، وحصروا طرق الحكم فيها وطرق الإثبات في عدد قليل من الطرق ، وأصبحت الدولة الإسلامية عاجزة عن أن ترضي كل احتياجاتها في إطار ذلك الفهم الضيق الذي فهمه أولئك العلماء ، ومن أجل ذلك وقع ما يدعى بالقوانين السياسية والإدارية ، فخرجت عدة اختصاصات من دائرة القضاء ومن اختصاصات الشريعة الإسلامية ، نظرا للحاجة ولعموم البلوى ، وهذا الموضوع أثير ذات يوم في مجلس بين عالم كبير من علماء الحنابلة ، وبين عالم كبير من علماء الشافعية ، وهذا العالم الكبير من الحنابلة هو أبو الوفاء بن عقيل إمام الحنابلة في عصره ، أما العالم الشافعي فلم يذكر إلينا اسمه فيما نقل إلينا ، فجرت مناظرة بين هذين العالمين هل الشريعة تتسع للسياسة أم لا؟ أم أن الشريعة ضيقة ولا تتفق مع السياسة في شيء؟ فجرئ في حضرة هذا المجلس أن الشافعي ، قال : لا سياسة إلا ما وافق الشرع ، فأجابه ابن عقيل : السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يقله الرسول ، ولا نزل به وحى ، فإن أردت بقولك لا سياسة إلا ما وافق الشرع - يخاطب زميله الشافعي - أي لم يخالف ما نطق به الشرع فكلامك صحيح ، وإن أردت أنه لا سياسة إلا ما نطق به الشرع

فكلامك غلط ، وتغلط بنفس الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين تصرفات عديدة لا توجد منصوطة في الكتاب ولا في السنة ، ولكنها لا تخالف روح الكتاب والسنة ولا مفاهيمها ، فها هنا على هذا الأساس قامت مناقشة في هذا الموضوع بين علماء الإسلام ، وتولي شرح هذه المناقشة وبيانها إمام الشريعة وفيلسوفها ابن قيم الجوزية ، ربما في كتابه «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ، وانفصل على أن من له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالاتها وعلى تضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وعلى مجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين العباد ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنت من المصالح ، قال ابن القيم : «من علم ذلك تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزاء الشريعة ، وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بتفاصيل الشريعة وحسن وضعها وحسن فهمها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها» .

قال رحمه الله : «السياسة نوعان : سياسة ظالمة الشريعة تحرمها ، وشريعة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهي جزء من الشريعة غير خارجة عنها ، علمها من علمها وجهلها من جهلها» .

فأي طريق استخرج منها العدل والقسط فهي من الدين ، والقسط فهكذا يقول العالم ابن قيم الجوزية ، وهذا أتينا به إشارة إلى أن التزمت في الشريعة يضر ولا ينفع ، ويؤذي ولا يفيد ، فلولا تزمت أولئك المتزمتين لبقيت الشريعة مهيمنة على إطارات الدولة كلها ، ولكانت كلمة القضاء الإسلامي في الشريعة الإسلامية واحدة نافذة ، ولكانت جميع الولايات من ولايات الإسلام مطبوعة بطابع الإسلام ، إنها تجد في إطاره طريق

السير إلى الأمام ، وتجد في إطار الشريعة كافة احتياجاتها مهما اختلفت الظروف والأحوال ، ومهما كانت الأزمات واختلفت في السراء والضراء فالشريعة تتسع لكل الأحداث ، وتصلح لجميع الأزمان .

تخفيف الراعي عن الرعية :

ومن هنا ننتقل إلى آخر نقطة : لقد تحدثنا عن قاعدة التخفيف ورفع الحرج ، وتحدثنا عن الرفق في الشريعة الإسلامية ، وأنتم تعرفون نظريات علم النفس ، وأن من جملة تلك النظريات نظرية تداعي الأفكار ، وتوارد الخواطر ، وما دمنا نتكلم عن الرفق من الله لعباده ، ونحن في مقام أمير المؤمنين ومجلسه الكريم ، لا نستطيع أن نبعد عن ذهننا نصيب أمير المؤمنين في الرفق برعيته ، رفق الراعي بالرعية ، لقد روينا في «صحيح البخاري» عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال يخاطب عائشة : «مهلا يا عائشة مهلا يا عائشة ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» ، لقد وردت عدة أحاديث نبوية في رفق الراعي بالرعية ، والحرص على مصالح الرعية ، واهتمامه بشئونها بصفته أباً لها ووكيلاً عنها ووصياً عليها ، وأن أحاديث رسول الله ﷺ في ذلك لا تحصى .

ومن اللطائف في هذا الباب أن الإمام ابن خلدون تناول في «مقدمته» في هذا الموضوع ، ولي فكرة في «مقدمة ابن خلدون» خاصة ، وهي أن مقدمته ليست موسوعة للعلوم الإسلامية ، وأساساً للنقد التاريخي ، ودراسة جديدة لظواهر الاجتماع ، ولكنها -في نظري- تمثل نفس الفكرة التي أوجت إلى ميكافلي كتابة كتابه «الأمير» ، فهذه «المقدمة» -في نظري- أراد بها ابن خلدون أن يتحدث عن الأوضاع والأنظمة القائمة في عصره ، وأن يعالجها

بالتحليل والنقض لبيان الصالح منها من الفاسد ، والصالح للبقاء من الصالح للفناء ، فقد كانت الحالة في العالم الإسلامي قد استدارت دورتها ، وقد كانت موجة الكفر العاتية تطارد قوة الإسلام في الأندلس ، وابن خلدون ألف كتابه ليرشد الولاة ، ولیدعو الأمراء والملوك إلى إصلاح أحوال الرعية ، وإصلاح أنظمة الدولة ، وكان يأتي بذلك في صورة دراسة لطواهر العمران والاجتماع ، ولكن الغرض منها فوق ذلك الغرض ، منها إرشاد وتوجيه وإنقاذ للأمة الإسلامية وللحضارة الإسلامية .

ومن الفصول التي كتبها في «مقدمته» ، فصل جعله ضمن الكتاب الأول في الولاية العامة ، والملك والخلافة ، والمراتب السلطانية ، فصل عنوانه : إن إرهاب الحكم مضر بالملك ومفسد له ، ومقصوده بذلك أن الشدة التي يشتد بها الحاكم على المحكومين تؤذي الدولة وتسيء إليها ، وأن الرفق الذي يعامل به الحاكم رعاياه يكون طريق خير ، وسبيل رشد ، وضمان صلاح ونجاح والتحام ووثام وانسجام تام بين الراعي والرعية ، ففي هذا الفصل تحدث بعباراته عما يماثل في عصرنا الحاضر الأنظمة البوليسية في العالم ، ووصفها بنفس الأوصاف التي نصفها بها اليوم ، وتحدث عن الأنظمة الحرة التي تعالج الشعوب وتربيتها في عطف وحنان وإحسان وسعة صدر وسعة أفق .

وأعيد عليكم بعض الفقرات من هذا الفصل :

«إن الملك والسلطان من الأمور الإضافية وهي نسبة بين نسبتين في حقيقة السلطان ، أنه مالك للرعية والقائم في أمورهم عليهم ، فالسلطان من له رعية ، والرعية من لها سلطان ، والصفة التي له من حيث إضافته إليهم هي التي تسمى الملكة أو الملكة» .

وبعدما تحدث ابن خلدون على النظام الذي يكون قاهرًا باطشًا ، هذا تعبيره قاهرًا باطشًا بالعقوبات منقبتا عن العورات ، مما نعرفه اليوم باسم النظام البوليسي ، تحدث عن النظام الحر السمع الرقيق ، فقال : «ويعود حسن الملكة أو الملكة إلى الرفق ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فإذا كان الملك رفيقا بهم ، متجاوزا عن سيئاتهم ، استناموا إليه ، أي الرعية ولاذوا به ، وأشربوا محبته ، واستماتوا دونه في محاربة أعدائه ، فاستقام له الأمر من كل جانب ، وأما توابع حسن الملكية فهي النعمة عليهم ، والمدافعة عنهم ، فالمدافعة عنهم بها تتم حقيقة الملك ، وأما النعمة عليهم والإحسان إليهم فمن جملتها الرفق بهم والنظر لهم في أمر معاشهم» .

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات : ١٨٠-١٨٢] .



المحاضرة الخامسة عشر :

القرآن والعلم

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه المبين مخاطبا من اصطفاه لتبليغ رسالته إلى خلقه سيدنا محمد ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] .

هذه الآيات الكريمة هي ابتداء انطلاقة ثورية لم يعهد لها التاريخ مثيلا، قلبت وجه العالم، وتحكمت في مصير الإنسانية كلها، وأخرجت أكثر الشعوب من ظلام الجهل وظلم المتحكمين إلى نور العلم، وتحقيق ما يتناسب مع الكرامة الإنسانية من عدل ومساواة، وقد ظهرت هذه الدعوة في بيئة صحراوية أمية لا تكتب ولا تحسب، ولا عهد لها بالحضارة والتقدم في ميادين العلم والصناعة .

فما السر في نجاح هذه الدعوة التي انبثقت وسط هذه الأمة التي لم يكن لها من مزية تمتاز بها من بين الأمم إلا فصاحة لغتها، وخيال شعرائها الأميين الذين كان ينطقون به من شعر عن سجية وطبيعة، لا يتعلمون ذلك في مدرسة ولا صلة لهم بالعلوم التي كانت معروفة عند غيرهم .

وقد يحار كذلك العقل في السرعة التي تم بها هذا الانقلاب المفاجئ، مما يتعجب منه المفكرون والكتابون، وكل الذين درسوا انبثاق هذه الدعوة الإسلامية العظيمة . وذلك أن التاريخ لم يرو لنا قبل الإسلام ولا بعده تطورا سريعا مثل الذي تم به خروج العرب من طور البداوة والأمية إلى طور الحضارة والعلم .

فقد سبقت الحضارة الإسلامية مدنيات راقية من الصين إلى جزر اليونان ، ولكنها تدرجت قرونا عديدة أن تبلغ المستوى العالي الذي وصلت إليه ، وحتى المدنية التقنية التي تسيطر الآن على العالم فإنها تطلبت كذلك قرونا قبل أن تصل إلى الحالة التي هي عليها في وقتنا .

أما الدعوة الإسلامية فإنها بخلاف ذلك لم يمر عليها إلا نحو قرن حتى بلغت درجة عليا في طريق التقدم العلمي والحضاري ، وتلك هي معجزة الإسلام وتعاليم القرآن ، تلك هي معجزة ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

وذلك أن محاولات الحضارات السابقة في ترقية المجتمعات البشرية كانت تسعى إلى هذه الغاية ، بمحض الدوافع المادية من جهة وبسبب الطموح إلى المعرفة الكامن في الطبيعة البشرية من جهة أخرى ، وهي دوافع لا شك كافية للوصول إلى نتائج مرضية ، ولكنها لا يمكن أن تساوي عمل الأوامر السماوية في نفوس ملئت إيمانا وتسابقا إلى امتثال ما يحدث عليه بل يوجهه الله تعالى في كتابة المنزل على صفوة أنبيائه سيدنا محمد ﷺ .

ويجب أن نبحث أولا كيف أشربت نفوس المسلمين الأولين الإيمان برسالة سيدنا محمد ﷺ .

لا شك أنه كان لشخصية الرسول الكريم بما هيأه الله له لتحمل أعباء رسالته الدور الأساسي في جعل من يعرفونه ويتصلون به يصدقونه في دعوى النبوة لما كانوا يتحققون من صدقه واستقامته وطهارة أخلاقه ،

وكل الصفات الحميدة التي كان معروفا بها في وسطه ، حتى أنهم كانوا يسمونه الأمين ، وكانوا كذلك يعلمون أنه لم يكن بشاعر ينظم الألفاظ بعضها إلى بعض ، وكان فوق كل هذا أميا لا يكتب ولا يقرأ ، فأمنوا به وآزروه وعضدوه ، ولكن الجماهير الأخرى التي تبعته كان لها حافز آخر قوي للإيمان برسالته ، وهي المبادئ التي جاء ينشرها ويناضل عنها من نصر المستضعفين ، وتحقيق المساواة بين البشر ، وتخليص الإنسانية من عبادة الأوثان ، والإشادة بوحداية الخالق سبحانه ؛ تحقيقا لكرامة الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ، ولا يجمل بمن كانت هذه مكانته عند المولى تعالى أن تحجب عقله غشاوة الجهل والضلال ، فيسجد لإحجار نصبها بنفسه ، ونسب لها القدرة والألوهية .

القرآن معجزة محمد ﷺ :

نقول كان لكل هذا أثره في الإيمان بسيدنا محمد ﷺ ، ولكن فوق كل هذا بهر هؤلاء العرب جمال ما ينطق به الرسول الكريم مما لم يكن لهم سابق عهد بمثله ، وهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة ، والرسول ﷺ يقول لهم : لا عجب في ذلك ؛ لأنه ليس من عندي وإنما هو كلام الله أنزله علي ، وليس لي منه إلا أمانة التبليغ .

فيؤمن به من سبقت له الحسنى ، هذه هي معجزة الإسلام الخالدة ، التي تفوق كل معجزات الأنبياء السابقين عليهم صلوات الله وسلامه ، لأن تلك انقضت بانقضائهم ، وهذا القرآن شاهد دائم مستمر على صحة رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

ولما أخذ المشركون يقاومونه ويكذبونه ويطالبونه بالإتيان بالمعجزات الخارقة للعادات كان يرد عليهم بأن معجزته هي القرآن ، ويأمره الله تعالى أن يتحداهم بالإتيان بمثله ، فيقول جل من قائل في سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ويقول في سورة يونس : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْطَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] ، ويقرر سبحانه وتعالى استحالة ذلك عليهم بقوله في سورة الإسراء : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

الحروف المقطعة والإعجاز:

وهنا ينبغي أن نتعرض لمسألة طال الكلام فيها عند المفسرين وعلماء الإسلام ، وهي مسألة فواتح السور المبتدئة ببعض حروف الهجاء ، مثل : «الم ، حم ... إلخ» ، وقد اختلفت الأقوال في معناها ولا أريد أن أورد هذه الخلافات ؛ لأن في مثل هذا المقام لا فائدة من جلب الأقوال المتباينة ، وإنما ينبغي أن يقرر ما عليه الجمهور ، وما يوافق مبادئ الإسلام المبنية على العقل .

وإذا لم يكن هناك إجماع فيتعين الترجيح فلذلك لا أرى أن يكثر على الطلاب من ذكر الخلافات مما يجعلهم يخرجون من الدروس وقد استولت على عقولهم البلبلة والشك ؛ لأن في كل شيء أقوالا متعددة .

وإنما ينبغي أن يترك هذا للباحثين وللدروس التخصصية بعد أن يكون الطلاب حصلوا لب العلم فيلقنوا ذاك أقوال الناس وأفكارهم وكيف توصلوا إلى استخراج هذه الأقوال أما العلم الذي ينبغي أن يثبت في النفوس فهو العلم الخالص المصفى ، ولنرجع الآن إلى هذه الفواتح التي لا يعرف كثير من الناس حقيقة معناها وإنما يتعبدون بتلاوتها ؛ لأنها وردت هكذا في القرآن الكريم .

والذي يظهر لي في هذه الفواتح وقد ألمح إليه جماعة من المفسرين هو أن لها علاقة بالإعجاز ، فالله تبارك وتعالى وهو يتحدى المشركين في الإتيان بمثل هذا القرآن إن كانوا لا يؤمنون بأنه من عند الله ، وإنما هو من عند محمد بن عبد الله ، فكأنه يقول لهم : ما لكم لا تستطيعون مماثلته وإنما هو كلام مركب من حروف مثل الألف واللام والنون والصاد ... إلخ .

والدليل على هذا التفسير هو أن كل السور التي تبتدئ بهذه الفواتح يتبعها الله تعالى باسم الكتاب والقرآن والآيات البينات إلا في سورة أو سورتين كما سنبينه ، وفي ضمن هذا التفسير معجزات أخرى باهرة لنينا عليه الصلاة والسلام .

وذلك أن عدد السور التي تبتدئ بهذه الفواتح تسع وعشرون بعدد حروف اللغة العربية بما في ذلك حرف الألف الذي هو في الحقيقة علامة فقط للمد تارة ولحمل الهمزة تارة أخرى ، ولكنه له رسم خاص فيعد بهذا الاعتبار من حروف اللغة العربية ، وهذه في نفسها معجزة ، ثم إن عدد هذه الحروف أربعة عشر وتعد نصف الحروف الهجائية باستثناء الألف الذي قدمنا أنه لا صوت له وإنما هو علامة .

وهذا كذلك من أسرار الإعجاز وهذه الحروف هي : «الألف والحاء والراء والطاء والكاف واللام والميم والنون والصاد والعين والقاف والسين والهاء والياء» ويلاحظ أن كل هذه الحروف مهملة بما في ذلك النون والقاف والياء التي تكتب في رسم القرآن لما تكون مفردة بدون نقط ، مما يدل على أنها هي الطريقة المثلى ، وهذا أيضا من عجائب هذه الفواتح .

وها أنا أسرد عليكم السور التسع والعشرين التي وردت في أوائلها هذه الحروف :

البقرة : ﴿الْم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة : ١-٢] .

آل عمران : ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران : ١-٣] .

الأعراف : ﴿الْمَص ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿٢﴾﴾ [الأعراف : ١، ٢] .

يونس : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس : ١] .

هود : ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ﴿١﴾﴾ [هود : ١] .

يوسف : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف : ١] .

الرعد : ﴿الْمَرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [الرعد : ١] .

إبراهيم : ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم : ١] .

الحجر : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الحجر : ١] .

- مريم : ﴿ كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَزَكَرِيَّا ﴾ [مريم : ١، ٢].
- طه : ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ ﴾ [طه : ١، ٢].
- الشعراء : ﴿ طسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الشعراء : ١، ٢].
- النمل : ﴿ طسَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [النمل : ١].
- القصص : ﴿ طسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [القصص : ١، ٢].
- العنكبوت : ﴿ التَّ ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١، ٢].
- الروم : ﴿ التَّ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [الروم : ١، ٢].
- لقمان : ﴿ التَّ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [لقمان : ١، ٢].
- السجدة : ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [السجدة : ١، ٢].
- يس : ﴿ يَسَ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [يس : ١، ٢].
- ص : ﴿ صَ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٢﴾ ﴾ [ص : ١].
- غافر : ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [غافر : ١، ٢].
- فصلت : ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [فصلت : ١، ٢].
- الشورى : ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ عَسَى ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [الشورى : ١-٣].
- الزخرف : ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الزخرف : ١-٣].
- الدخان : ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الدخان : ١، ٢].

الجاثية : ﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجاثية : ١، ٢] .

الأحقاف : ﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

[الأحقاف : ١، ٢] .

ق : ﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق : ١] .

القلم : ﴿ بَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] .

وأنتم ترون أنها كلها أتبعَت بما يدل على تنزيل الكتاب المبين إلا ما كان من سور ثلاث هي : مريم ، والعنكبوت ، والروم .

فأما الأولى : فإنها وإن لم يرد بعد الحروف المبتدأة بها اسم القرآن والكتاب بالتصريح فإن لفظ ذكر في قوله تعالى : ﴿ كَهَيْعَتِ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم : ١، ٢] هو من أسماء القرآن كما في أول سورة ص : ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص : ١] ، فذكر الله هو كلامه القديم ، والذكر الحكيم ، هو القرآن بعينه ، فإذاً كذلك تعتبر أنها أتبعَت بما يشير إلى الذكر وإلى القرآن .

وأما الثانية : وهي سورة العنكبوت فإنها وإن كانت لم يل الحروف التي في أولها ذكر القرآن ، أو الآيات البينات ، فإني أرى أن السر في ذلك راجع إلى كونها تحتوي على ذكر كل الكتب السماوية المنزلة ، على الرسل إلى نبينا ﷺ ، حيث يقول فيها الله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله الكريم : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۝ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٧، ٤٨] .

والتصريح بأنه ﷺ لا يعرف التلاوة والكتابة، زيادة في التحدي لمشركي قريش، خصوصا من يعرفون منهم الكتابة والقراءة، بأن يأتوا بسورة من مثله، فكأنه يقول لهم: أنتم ترون أن هذا القرآن هو مركب من حروف ومن حروف أبجدية منقوطة وغير منقوطة، وأن الذي أوحى إليه لا يكتب ولا يخط بيمينه شيئا.

فلا درجة فوق هذا في التحدي، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله، وهكذا يكون الابتداء ب: ﴿الْم﴾ [البقرة: ١] من باب تعجيزهم. فتبقى سورة الروم وحدها من بين السور التسع والعشرين التي لم ترد فيها إشارة إلى التنزيل. وهنا تأويلات تؤيد هذا النظر الذي ذهبنا إليه. فهناك ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: هو أنه لما جعل هذه الحروف في أول تسع وعشرين سورة، خصص ثمان وعشرين منها للحروف التي تقابل الحروف الحقيقية من الإشارة إلى الكتاب أو الآيات البينات، أو ما يفيد ذلك.

الوجه الثاني: هو أنه لما بدئت هذه السورة بحرفين هما الألف واللام وقد وردا في أول ثلاث سور أخرى وهي البقرة والعنكبوت ولقمان لم يحتج إلى تكرير هذه الإشارة.

الوجه الثالث: هو أنه في هذه السورة كما سنراه في الكلام على إعجاز القرآن، من حيث الإخبار بالمغيبات السابقة واللاحقة، تحدى كذلك المشركين، لأنه سيخبر الله تبارك وتعالى فيها بغيب، وهو أن الروم ستغلب في حروبها مع الفرس، بعد أن كانت مغلوبة، فكأنه يقول لهم أيضا: إنني بهذا الكلام المتركب من حروف عادية أخبر أيضا بالمغيبات التي ستحقق بعد ذلك.

وخلاصة القول : أن التحقيق النهائي -حسب نظري- في هذه الحروف هو أنها تشير إلى إعجاز القرآن وهي من باب التحدي لقريش ، فالله تبارك وتعالى يقول لهم : إن هذا القرآن مركب من حروف عددها تسعة وعشرون حرفا بعدد السور التي تبدئ بهذه الحروف وأن أربعة عشر منها مهملة ، وهي نصف عدد الحروف الحقيقية .

وكل هذه التدقيقات لم تكن معروفة إذ ذاك حتى عند العرب إنهم كانوا كما قلنا أمة أمية ، وكان شعراؤهم لا يعرفون عروضاً ولا قوافي ، وإنما ينظمون الشعر سجية ، وإعرابهم لكلامهم لم يكونوا يتلقونه عن أساتذة بل كان لهم ملكة حتى جاء العلماء بعد ذلك وحققوا حروفهم وقسموها إلى شمسية وقمرية ، ومعجمة ومهملة ، ومع ذلك نرى في القرآن الكريم هذا الترتيب العجيب ، وهذه التدقيقات التي شرحناها باختصار .

من الإعجاز القرآني :

هذا وجه من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم وقد تصدى علماء الإسلام لشرح كل ما يتعلق بالإعجاز كالإمام الباقلاني ، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما ، ولكنهم جميعاً يهتمون بالناحية التي كان لها -بلا شك- أثر عميق في نفوس العرب ، وجعلتهم يتيقنون أن مثل تلك البلاغة لا يمكن أن تصدر عن بشر مما دفعهم للإيمان بالبعثة المحمدية ، ولكن القرآن معجز من عدة نواح أخرى ، وهو كله معجز ، فهو معجز بالإخبار عن مغيبات سابقة ولاحقة .

الإعجاز بالأخبار الماضية :

فأما السابقة فهي مثل قوله تعالى في سورة يونس مخاطباً فرعون موسى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس : ٩٢] ، هذه

الآية الكريمة تشرح لنا أنه لما سلم موسى عليه السلام وخرج مع بني إسرائيل واتجه نحو فلسطين تابعه فرعون بجنوده فما كان إلا أن غرق وغرقت جنوده ولكن الله تبارك وتعالى يخبرنا أن جسده لم يضع وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ﴾ [يونس : ٩٢] ، قال السيوطي في تفسير هذه الآية : «بجسدك الذي لا روح فيه» .

ومعنى ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يبقى هذا الجسد مصوناً حتى يمثل للعيان كعبرة للمعتبرين ، وكمصداق لأمانة تبليغ الرسالة الإلهية ، التي أنيطت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف يمكن أن يكون هذا الحادث عبرة للمعتبرين؟ ذلك ما حققته الاكتشافات الأثرية سنة ١٨٨١ عندما وجدت مومية رمسيس هذا فرعون موسى ، وهذا أمر خارق للعادة ، وإلا فكيف له أن يعلم أن جسد فرعون لم يذهب في قعر البحر مع بقية الغارقين من جنوده وأنه سيحفظ وتكتشف موميته في القرن التاسع عشر؟ وهكذا تحققت النبوة ببقاء هذا البدن محفوظاً حتى يراه الناس ليكون عبرة للمعتبرين .

وقد وقفت على هذا الجسد المحنط في متحف الآثار المصرية القديمة بالقاهرة ، وقد كتب عليه أنه فرعون موسى فأخذتني عند مشاهدته قشعريرة وخشية أمام هذه الآية الماثلة للعيان ، ولم أر من ربط هذا الاكتشاف بالآية الكريمة .

الإعجاز بالأخبار اللاحقة :

ومن الأخبار بالمغيبات اللاحقة قوله تعالى في أول سورة الروم : ﴿الْمَغْلَبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين ﴿[الروم : ١-٣] ، إشارة إلى الحرب التي كانت قائمة بين الفرس والدولة البيزنطية التي يسميها العرب «الروم» وقد وقعت هزيمة على

جنود هرقل ، أو هرا قليوس كما يسميه الروم في أدنى الأرض أي في فلسطين ، في السنين الأولى بعد البعثة المحمدية أي سنة ٦١٤ وسنة ٦١٩ ، ثم أعاد الروم الكرة على كسرى وجنوده وانتصروا عليهم في موقعة نينوى سنة ٦٢٧ أي خمس سنوات قبل وفاته ﷺ وتحققت هذه البشارة لأن المسلمين كانوا يفضلون أن ينتصر أهل الكتاب من النصارى على المجوس لذلك قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ١ ينصرون **اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** [الروم : ٤ ، ٥] .

أسرار الكون والإعجاز القرآني :

ولكن في القرآن مع كل هذا ناحية أبلغ في الإعجاز -وهو كله بليغ ومعجز- وهو ما يحتوي عليه من أسرار الكون ، ودقائق علومه ، وهي ناحية لم يبرزها علماء الإسلام بالكيفية التي تستحقها كما كان شأنهم مع آيات الأحكام .

وهذا أمر ضروري لا شك ؛ لأن الإسلام جاء للهداية وللشريع ، ولتنظيم حياة الأمة الإسلامية ، ولكن للناحية العلمية البحتة حظ كبير من عناية القرآن الكريم ، وقد اشتغل العرب بهذه العلوم وقدموها ووصلوا فيها إلى انتصارات عظيمة ، وكل واحد يعلم أن الدورة الدموية مثلا كان أول من اكتشفها وعرفها هو ابن النفيس ، وأن الجبر والأرقام العربية مما يرجع الفضل في وضعها للعرب ، ولولا اكتشاف ما يسميه مؤرخو الرياضيات بالمعجزة العربية ويعنون بها اكتشاف الصفر لما بلغ التقدم المادي والعلمي والتقني إلى هذه الدرجة التي يوجد عليها الآن ؛ لأن أساس هذا التقدم هو العلوم الرياضية التي برز فيها العرب ، ولكن مع ذلك لم يتابعوا البحث حسب ما يأمر به الله تبارك وتعالى في كتابه المبين إذ أن الآيات الكونية في القرآن تبلغ أكثر من سبعمائة آية ، كلها تتعلق بعلم الطبيعة ، وبالحيوان والفلك والأكوان

كلها ، في حين أن الآيات الصريحة المتعلقة بالأحكام هي نحو الخمسين ومائة وقد أبلغها أبو بكر بن العربي إلى خمسمائة ، وهكذا فإن الآيات الكونية تحتل مقاما كبيرا في القرآن الكريم ، مما يدل على أن الإسلام جاء لحث الناس على البحث والنظر واقتباس المعرفة .

وهنا يظهر السر في كون أول ما نزل على النبي محمد ﷺ هو هذه الآيات الكريمة : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

إن محمداً ﷺ بعث للقضاء على الشرك ومحاربة عبادة الأصنام التي لا تليق بكرامة الإنسان ، الذي جعله الله خليفة في الأرض ، ولا يليق به أن يبني بنفسه أحجارا أو يصنع بنفسه تماثيل ، ثم يصير يعبدها وينسب إليها الإرادة والقدرة ، فالإسلام جاء للقضاء على هذه الضلالات ، ولإحلال الحق في المكانة التي يستحقها ، كما جاء لإقرار المساواة بين البشر ولتنظيم المجتمع الإنساني على طريقة تضمن للإنسان السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة ، وللأمر بالتخلق بالأخلاق الفاضلة والكمالات الإنسانية والإقبال على استكناه أسرار الكون واكتساب المعارف كلها وتعلمها وتعليمها .

العلم في الإسلام :

لكن الله تبارك وتعالى اختار من بين كل هذه المبادئ التي أرادت مشيئته أن يقوم رسوله الأمين بتبليغها لعباده ، بمبدأ تعلم العلم وتعليمه بالقراءة والكتابة ، مؤذنا بأن الإسلام هو دين العلم قبل كل شيء ؛ لأن بالعلم تكتسب كل تلك الفضائل فتوحيد المولى تعالى يجب أن يركز على اليقين الذي يؤدي إليه العلم ، وكل التنظيمات الاجتماعية والترتيبات الإدارية

والتقدم في الميادين الحضارية كل ذلك لا يتأتى بدون علم ، وقد جمع الله تعالى كل ما يتعلق بالعلم والتعليم في هذه الآيات الثلاث .

الحث على طلب العلم :

لذلك كان الحث على طلب العلم من أوجب الواجبات في الإسلام ، فالأحاديث الواردة في ذلك كثيرة معروفة ، ولا أريد أن أطيل عليكم بهذه الأحاديث ، فإننا كثيرا ما نسمعها ونعرفها والحمد لله ، بفضل هذه الدروس العظيمة التي ادخر أجراها لمولانا أمير المؤمنين ، وهي أحسن وسيلة لتثقيف الأمة كلها ، لأنها لا تقتصر فقط على هذه النخبة من العلماء ، ومن رجالات الدولة ، وإنما بما حققه العلم من اختراعات الإذاعة والتلفزة يستفيد منها من يستطيع أن ينصت إليها بواسطة هذه الأجهزة .

لكن نجتزئ من هذه الأحاديث باثنين وهما قوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(١) .

والتنصيب على المسلمة كما ورد في إحدى الروايات إشعار بأن المرأة في الإسلام شقيقة الرجل في الحقوق والواجبات ، وإلا فلفظة مسلم في عمومها تشمل الذكر والأنثى ، وهذا أيضا شيء جاء به الإسلام ، ولم يكن

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٩) ، ٢٠٠٨ ، ٢٤٦٢ ، ٨٣٨١ ، ٨٨٣٣ ، وأبو يعلى في « المسند » (٢٨٣٧ ، ٢٩٠٣ ، ٤٠٣٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨ / ٣٢٣) من طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وفي الباب عن علي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وجابر ، وأبي سعيد رضي الله عنه . انظر « العلل المتناهية » (١ / ٦٤) ، « كشف الخفا » (١٦٦٥) . وذكره الحاكم في « علوم الحديث » (ص : ٩٢) في المشهور من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ .

له في الديانات الأخرى ولا في المدينيات السابقة ، ولا حتى في الحضارة العصرية ما يماثله ، فالإسلام هو الذي أعطى المرأة المقام الذي تستحقه ، إذ سواها بالرجل إلا فيما كان يختص بها من حيث تكوينها الطبيعي .

والحديث الثاني هو قوله ﷺ : « اطلبوا العلم ولو في الصين »^(١) .

ومعنى ذلك أنه يجب عليك أن تسعى إلى اكتشاف العلم والمعرفة ولو تطلب ذلك منك مشاق السفر إلى أقصى الأرض .

ويؤخذ من هذا الحديث ثلاث مسائل هامة :

أولها : أن على المسلم أن يأخذ العلم ولو عن الكفار وإلا لما قال ﷺ ولو بالصين ؛ لأن من المعلوم أن الإسلام لم يكن وصل إذ ذاك إلى الصين .

والمسألة الثانية : هي أن العلم لا يراد به هنا علم الدين الإسلامي ، وإنما المقصود به العلوم على اختلافها من فلك ، وطب ، ورياضيات ، وتاريخ ، وفلسفة ، وقانون ، إلى غير ذلك من العلوم .

المسألة الثالثة : الحض على تعلم اللغات الأجنبية ؛ لأنه لا يعقل أن يطلب العلم بالصين بدون معرفة لغة علمائها .

أما ما في القرآن الكريم من تقدير العلم وحث على طلبه ، وعلى تدبر ما في الكون ، فذاك البحر الزاخر ، ويكفي أن نعلم أن عدد الكلمات المشتقة

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٣٠) ، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١٧٧) ، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٨٢) ، والرافعي في «التدوين» (١/ ٤٩٢) عن أبي العاتكة ، عن أنس رضي الله عنه . قال العقيلي : « لا يحفظ ولو بالصين إلا عن أبي العاتكة ، وهو متروك » . وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ١٧٧) وضعفه عن أبي هريرة رضي الله عنه . وانظر «كشف الخفا» (٣٩٧) .

من مادة «علم» تفوق عدد كلمة الله والإيمان به كل المواد اللغوية ، فقد عددها فوجدت أنها خمس وعشرون وسبعمائة مفردة ، فإذا أضفت إليها المفردات المشتقة من مادة «كتب» وهي خمس وثلاثمائة والمشتقة من مادة «قرأ» وهما ملازمتان للعلم ، إذ لا علم بدون كتابة وقراءة ، يكون المجموع ست عشرة ومائتين وألف مفردة .

وهذا لا يوجد في كتاب ديني آخر ، زيادة على ما في القرآن الكريم من حكم وقصص وتشريعات ، ولكنه يمتاز بالحث على طلب العلم وبتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون .

وهذا وحده كاف للتدليل على أن الإسلام دين العلم ، وأن مناقشة : هل العلم لا يتفق مع الدين مسألة مدسوسة على الإسلام ، فالدين هو العلم ، والعلم بكل ما تؤديه هذه اللفظة من معان ، وكيف يكون العلم منافياً لدين كان أول ما أوحى من كتابه : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ﴿٢﴾ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٣﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ ﴿٦﴾ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

و«ما لم يعلم» شامل لكل ما يمكن أن يعلم وكيف يكون العلم متنافياً مع دين يدعو كتابه من أوله إلى آخره إلى الاعتبار والنظر ، ويعطي للعلماء ذلك المقام الذي نراه لهم في القرآن الكريم؟ وهكذا فهم المسلمون آيات كتابهم المبين ، فكانت هي الحافز الأول للعرب للوصول بالعلوم إلى الدرجة السامية ، التي بلغوها امتثالاً لتعاليم القرآن ، بعد أن اقتبسوا العلوم من الأمم السالفة ، وبحثوا عنها وترجموها كتب العلم من لغات أمم غير إسلامية ، وطبقوا تلك المعلومات وزادوا فيها ، وعملوا على نشرها .

وإذا كان واضحاً أن تبتدئ الرسالة المحمدية بهذا الأمر الصارم في الإقبال على استكناه أسرار الخلق، فإن المعجزة الكبرى أن يوجه هذا الخطاب لرجل أمي يعيش وسط أمة أمية، لا تكتب ولا تحسب، ليجعل منها أمة العلم التي لا يمر عليها إلا يسير من الزمن بالنسبة لتاريخ تطور العلوم في الأمم السابقة، حتى كدست مئات الآلاف من المؤلفات في كل أنواع المعرفة مما لو بقي كله وعد لفاق كل ما كتب في المدينيات السابقة والحاضرة، بما في ذلك هذه المدنية العصرية وبكل اللغات، إذ طوال هذه الأربعة عشر قرناً والعرب يكتبون، والمسلمون يكتبون، وغير المسلمين ممن تثقفوا بالثقافة الإسلامية والعربية يكتبون، كل هذه من بركة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ أَكْرَمَ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥].

ومن المعجز كذلك أن هذا الأمر بالإقبال على القراءة اقترن في نفس الوقت بمنهج، وهو أن الإنسان يجب أن ينظر أولاً إلى نفسه وجسده، ويرى كيف كون ومن أي شيء خلق، ليتدرج بعد ذلك إلى معرفة أسرار المخلوقات كلها، مما تزخر به آيات القرآن.

ولو أردنا أن نتدبر كل الآيات الواردة فيه، والمتعلقة بالعلم والمعرفة والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، وشرح كل ذلك بما وصل إليه العلم إلى الآن - لتطلب هذا العمل وضع المجلدات الضخام.

وهذه الآيات الكونية أو جلها التي قدمنا أنها تفوق سبعمئة آية ترد مقرونة بمثل قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، أو بمثل قوله تعالى في نفس السورة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أو بمثل قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الرعد: ٣] ، أو ما كان في معنى ذلك ، وكل هذا تنبيه منه تبارك وتعالى لخلقه ليتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، وليتفقهوا ليس فقط في أوامره ونواهيه ، مما هو لا شك أنه الغاية من الرسالة المحمدية ، وإنما أيضا في علوم الكون ليزدادوا إيمانا ويقينا فيتبعوا عن طوعية أوامره ويتجنبوا نواهيه ، إذ النفوس منفطرة على حب الشهوات لما تجده فيها من لذة بدون الالتفات إلى مضرتها ، فلا يمكن أن يصدها عنها إلا الاقتناع التام المنبعث من عقيدة راسخة ، وذلك الإيمان الصحيح .

فالمقصود من الإقبال على العلم هو في نفس الوقت لما يترتب عليه من فوائد دينوية ، ولما يؤدي إليه من التخلق بالأخلاق الفاضلة ، ثم إن أمر الله تعالى خلقه بالتفكير في أسرار الكون يدل على أن أساس الدعوة الإسلامية هو إحلال الإنسان في المكانة اللائقة به كمخلوق وهبه الله تعالى العقل والتفكير من دون كافة مخلوقاته .

فالجدير به أن يعرف أسرار الكون ، وأن يبحث عنها ويتطلع إلى معرفتها لتسمو مداركه وينتفع في شئون معاشه بالطيبات التي يسرها الخالق تعالى له ، وجعلها طوع يديه ، إن هو أقبل على تعلم وسائل استشارها .

أما ما يتعلق بشرح الظروف التي نزلت فيها على نبينا ﷺ هذه الآيات الأولى من القرآن الكريم فقد تكفلت بذلك كتب الحديث والتفسير ، وهي في ألفاظها الظاهرة واضحة بينة ، إلا أنه ينبغي بيان المناسبة لوصف الله تبارك وتعالى نفسه فيها بالإكرام ، ومعناه مطلق لله سبحانه وتعالى ، والكرم الذي أنعم به على عباده لا يعادله كرم ، وذلك أنه تولى في كتابه تعليم البشر ما لم يكونوا يعلمون بما ضمنه من الآيات البينات في شتى مناحي الحياة ، ومختلف العلوم ، وهل هناك كرم أعظم من أن يمن

على الإنسان بالعلم والتعليم والكتابة ، التي تنبثق عنها كل هذه المدينيات وهذه الاختراعات ، وهذه الاكتشافات ، وهي أكبر كرم تكرم به الله تبارك وتعالى على الإنسانية ، لذلك وصف نفسه هنا بأحد أسمائه الحسنئ وهو الأكرم إشارة منه تعالى إلى أنه أكرم الجنس البشري ؛ لأنه أعطاه العقل ، وأعطاه العلم ، ويسر له المخلوقات بما يصل إليه من اكتشافات .

وتخصيصه في هذه الآيات الأولى المنزلة على رسوله الأمين ، ذكر خلقه - سبحانه- الإنسان من علق تنبيه إلى وجوب تدبر أسرار الخلق كلها ، مما فصله - سبحانه- في محكم كتابه لمن يعلمون ويتفقهون ، هذه الآيات الكونية .

وذلك كما قدمنا ما حدا بعلمائنا الأولين إلى الإقبال على استكناه المجهول في شتى مناحي المعرفة ، مستندين إلى المبادئ العلمية التي تضمنها القرآن الكريم ، والتي لا نجد لها مثيلاً في الكتب السماوية الأخرى .

ويتعين على علمائنا اليوم المختصين في العلوم البحتة من طبيعيات وكيمياء إلى غير ذلك أن يتدبروا هذه الآيات ويخرجوا منها ما لا يستطيع غيرهم أن يعرفه ؛ لأن في القرآن الكريم من هذه الأسرار ما نمر عليه ونؤمن به ، ولكن لا يستطيع كل واحد أن يتفهم مغزاه وأن يدخل في أسرارهِ ، ولا يمكن ذلك إلا للعلماء الأخصائيين ، وقد وقعت محاولات في هذا الباب من علماء الشرق ، ولكنني أهيب بعلمائنا أيضاً وبأساتذتنا في الجامعات أن يهتموا بهذه الناحية ، ويدرسوا أسرار الكون في القرآن ، ويطبّقوها على ما يعرفه العلم الآن ، ثم إن الحكمة الإلهية اقتضت أن الإنسان بما وصل إليه من نمو في فكره وعقله يجب عليه أن ينحى اتجاهها جديداً في الحياة ، وأن يقبل على ترقية مداركه ، فتحته المولى تعالى أولاً على استعمال عقله في تفهم كل الظواهر الطبيعية والقوانين الكونية ، ليكون

إيمانه بالخالق جلت قدرته إيمانا مبينا على اليقين، الذي ينتج عنه الاطمئنان، فإنه إذ يخاطب المؤمنين يخاطب عقولهم.

وإذ قرر -مثلا- في سورة البقرة وحدانيته بقوله جل من قائل : ﴿وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ويردف هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتِلَّقُومُ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ويندد في آيات كثيرة بالذين يؤمنون تقليدا ويتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان هؤلاء لم يستعملوا عقولهم ليتبينوا ما كانوا عليه من الضلال، فيقول تعالى في سورة البقرة كذلك : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِ آبَاءَنَا ۖ أُولَٰئِكَ كَانُوا ءِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

هذه المكانة التي أعطاها القرآن للعقل هي التي فتحت أمام المسلمين طرائق البحث، وجعلتهم يكتشفون من أسرار العلوم في الفلك والرياضيات والطبيعات وعلم النفس والطب، وكل العلوم ما تزخر به مؤلفاتهم التي بلغت عددا لم تبلغه مدنية قبلهم ولا بعدهم، إذ من المقرر أن الكتب التي وضعها المسلمون والمثقفون بثقافتهم، وبلغه القرآن في هذه القرون الأربعة عشر، لو بقيت كلها وقورنت بما وضع في المدنية المعاصرة لفاقت مجموع ما ألف فيها على كثرته وبسائر اللغات.

ومن الأمر بالنظر والتفكير ينتقل القرآن الكريم بالمؤمنين إلى الحث على اكتساب العلم، وذلك بتقرير مقامه السامي، إذ يقول سبحانه في سورة

الزمر: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]،
وإذ يقول جل من قائل مبيناً مقام العلماء من خشيته تبارك وتعالى، وذلك في
سورة فاطر: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾
وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلَا تَعْلَمُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، أي العلماء الذين يتدبرون هذه الظواهر
الطبيعية وهذه المخلوقات التي أحسن صنعها الخالق سبحانه وتعالى، وهذا
أكبر دليل على أن العلم المقصود به قبل كل شيء في القرآن هو علم الكون،
وهو علم هذه الأشياء التي ذكرها الله تبارك وتعالى وأردفها بقوله: ﴿إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وعندما نسمع هذه الآية تنصرف أفكارنا دائماً إلى الذين يعلمون
الشرائع والفقهاء وهم محترمون، وهم ضروريون، وهم الذين حافظوا لنا
على ديننا وحافظوا على ثقافتنا، وعلى لغتنا، ولكن ينبغي أن نتفهم
كلام الله كما نزل، فهو عندما يذكر سبحانه العلماء يقصد بهم كل من يعلم
علماً سواء كان من علوم الشريعة، أو من العلوم الطبيعية من أحياء وهيئة
وفلك وطب وأنواء وغيرها من العلوم التي فصلها الله تبارك وتعالى في
هذه الآية وفي غيرها من آيات الذكر الحكيم، ثم إن تقدير القرآن للعلم
وللعلماء ما يذكره سبحانه وتعالى من فضله على بني آدم إذ بعث سيدنا
محمداً ﷺ برسالة تعليم البشر ما لم يكونوا يعلمون فيقول في سورة
البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا
وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ويتولى الخالق تعالى - تشريفا للنوع البشري - تعليمه بواسطة رسوله الأمين وكتابه المبين فيقول في سورة البقرة كذلك: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فهذا تكريم عظيم للنوع البشري كون الله تبارك وتعالى الخالق البارئ هو الذي تولى تعليم البشر وإرشادهم .

ثم إنه من البديهي أن الله تبارك وتعالى لم يقصد أن يجعل من الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله هداية البشر كتاب تعليم للعلوم الكونية بتفصيل المسائل وتبويبها، وذكر جزئيات العلوم، وإنما وضع مبادئ وتعاليم أوجب على المسلمين السير على هداها ليلبغوا ما أراده لهم من استكمال إنسانيتهم وتحقيق كرامتهم .

وأعطي أمثلة من الحقائق العلمية منها ما توصل العلماء المسلمون إلى تفهمها، وشرحها وبيان جزئياتها، ومنها ما لم يتضح إلا بعد تقدم العلوم الكونية في هذه العصور .

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتبع هذه الآيات الكونية، ونورد ما يقول فيها العلم الحديث، كالآيات العديدة المتعلقة بعلم الفلك مثل قوله تعالى في سورة يس: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وكتقرير أن الحياة تقتزن بالماء ومنه أصلها كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولبيان تكون الجنين إلى أن يخرج بشرا سويا مثل قوله تعالى في سورة المؤمنین: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ ١١٦ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَدْنَيْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وهذا التدرج في تكون الجنين من أول عملية الإخصاب إلى أن يصير خلقا آخر أي ذا عقل وإحساس ، بعد تكونه المادي هو وصف دقيق يتفق تماما مع ما توصل إليه علم الأجنة وعلم التشريح .

ولو تتبعنا ذلك من الناحية العلمية التي لا يعرفها إلا المختصون لرأينا أن ذلك يكون باللفظ هو ما يسير عليه التكون منذ أن تلتقي نطفة الذكر ببيضة الأنثى مما لم يكن معروفا مطلقا عند العرب قبل الإسلام ، ولا عند الأمم التي سبقتهم إلى العلم والمعرفة ، بل لم يتوصل حتى علماء الإسلام إلى هذا التدقيق مع أنه كان لهم من كلام الله ما يرشداهم إليه .

ولكن هذه سنة الله في جعل أعمال البشر تسير بالتدرج في المعرفة والبحث فجعلت هذا الفضل يدخر لعلماء هذا العصر .

وكم في القرآن من عجائب من هذا النوع لا تزال مغلقة علينا وتحتاج إلى من يتصدى لها لمحاولة استكناه حقائقها ، بل أرى أن لو عمد علماء الطبيعيات والفلك وغيرهما من العلوم الكونية إلى الآيات التي تتعرض لهذه الظواهر ، وهي كما قدمنا تفوق السبعمئة آية وجعلوها أساسا لدراسات جديدة ، واتخذوها كفروض بحث معتمدين على ما تم تحقيقه في العلم الحديث ، لتوصلوا إلى ما يبهر العقول ، ويزيد في تقدم المعرفة عوض أن ينتظروا أن يقرر العلم مثلا أن الجنين يتكون بكذا وكذا ، فيقولون هذا ما نراه في القرآن ، فيجب أن يتيقنوا أن كل ما ورد في القرآن الكريم حق ولو لم تبلغه مداركنا .

من عجائب ما أيده العلم في تكوين الجنين ، أن الخصيتين في مبدأ تكوينهما ، وكذلك المبيضان بالنسبة للأنثى تكون في ظهر الجنين عند أسفل الكليتين بالضبط ، وتبقى تحتها حتى الشهور الأخيرة من حياة الجنين في بطن أمه ، ثم تنحدر إلى الأسفل على ما حققه علم الأجنة . فإذا عرفنا هذا ورجعنا إلى قول الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] تبين لنا معنى أخذ الذرية من الظهور ، حيث إن المقر الأول لمواد النسل الأساسية يكون في ظهر الجنين ، هذه أيضا من معجزات القرآن ، ومن هذه الآيات البينات التي شرح العلم الحديث مغزاها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] .

فقد أظهر علم الأجنة أنه لا يمكن سماع قلب الجنين ينبض في بطن أمه إلا بعد وصوله هذه المدة المقررة في هذه الآية المعجزة ، وكلام الله كله معجز سبحانه وتعالى .

ومن أروع الأمثلة على هذه الحقائق العلمية التي وردت في القرآن الحكيم ، والتي بقيت مغلقة لا تدركها العقول لأن مدارك الإنسان لم تكن بلغت من العلم إلى ما تفهمها بعدها عن المعتاد البشري ، فجاء العلم الحديث يؤيدها ويقررها ، قوله تعالى في سورة الحج : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] .

فذهب المفسرون إلى أن هذا الطول إنما هو بالنسبة لعذاب الآخرة ، فيظهر للمعذبين عذاب يوم أنه ألف سنة ، وحتى المفسرون المعاصرون لا يزدون على هذا ، فترى مثلا في الجزء السابع عشر من تفسير القرآن

الكريم لثلة من العلماء أنهم يقولون : «وإن يوما واحدا من أيام الآخرة التي يكون فيها الأمر لله لشدته وهوله أيها الكفار ليرى كألف سنة مما تعدون في الدنيا لأن أيام الشدائد يستطيل الإنسان كل ثانية فيها» .

ومن البديهي أنه لم يكن في مقدور المفسرين القدماء منهم والمحدثين أن يعرفوا نظرية النسبية قبل اكتشافها ، ولا تطبيقها في التنقلات بواسطة الصواريخ عبر الفضاء ، وذلك أنه من المقرر علميا الآن أن الحركة تؤثر في الزمن كما بينه منذ بضع سنين الأستاذ أرزليليس وهو من أساطين علماء الفيزياء ، خصوصا فيما يتعلق بنظرية النسبية ولتأليفه شهرة عالمية وقد ترجمت إلى عدة لغات ، قال هذا الأستاذ في درسه الافتتاحي للسنة الجامعية ما ملخصه : «إن نظرية الزمن التي تقتضي أنه لا يتغير لم تعد مقبولة ، منذ أصبح علماء الفيزياء متجهين اتجاهها جديدا ، بعد أن وضع الفيزيائي العظيم أينشتاين نظريات نسبية للفيزياء وصارت فكرة الزمن موضوع دراساتهم وتوصلوا إلى نتائج مذهشة .

وأول خاصية غريبة اكتشفوها هي تلك التي أطلقوا عليها لفظ (تمهل الزمن)» .

وإليك وصف هذه الظاهرة : لنفرض مجموعة من ساعات دقاقة ، ولنضعها على الأرض مستقرة لا تتحرك ، ولنعمد إلى ساعة تتحرك بسرعة خاصة وهي تشير قبل ابتداء حركتها إلى نفس الوقت الذي تشير إليه الساعات المستقرة ، فإننا نلاحظ أن الساعة المتحركة عندما تمر أمام إحدى الساعات المستقرة ، تشير إلى زمن متأخر عن زمنها ، فإذا سبب هذا التأخر هو الحركة وهو ينمو حسب السرعة .

وعلق الأستاذ على هذه الحقيقة بتقرير ما يلي : إنه إن قدر لمسافر في سفينة فضائية تسير بسرعة معينة أن يغادر الأرض وهو ابن ثلاثين سنة

مثلا وترك في الأرض زوجها لها نفس عمره ثم رجع بعد عام من حسابه يجد أن زوجته صارت عجوزا في الغابرين مع أنه لا يزال شابا وأردف هذا التقرير بنكتة حيث قال : «لهذا كان التشريع الذي يفرض على المرأة أن تصاحب زوجها في أسفاره تشريعا معقولا» .

ومن جملة ما ورد في هذا الدرس الممتع أن هذه الأشياء ليست من قبل الخيال في شيء ، وليس من عادة العلماء الفيزيائيين أن يطلقوا العنان لخيالهم ، وإنما هم لا يقولون إلا ما تؤكدته التجربة والواقع ، بل نستطيع الآن كما يقول علماء النسبية أن نحسب المعادلات بين التجربة والواقع ، بل نستطيع الآن كما هو مع السرعة التي تعد بأرقام فلكية ، وبين الزمن الذي ينقضي في نفس الوقت على الأرض ، وهذه هي المعادلات بالنسبة لسرعة معينة : «إذا قطع المسافر عبر الفضاء ثلاث سنوات تمر في الأرض عشر ، وإذا قطع ستا تقابلها مائتان ، وإذا قطع عشرا تقابلها إحدى عشرة ألف سنة ، وخمس عشرة سنة في الفضاء يقابلها في الأرض مليونان من السنوات» . وهذا بالحساب العلمي لا بالخيال .

وهكذا يأتي العلم بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن المبين ويشرح أن السنين التي نعدّها في الأرض لا تعد في ملكوت الله سبحانه إلا بالدقائق والثواني .

ومن تمن في الآية الكريمة يرى أن قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧] . لا يترتب على العذاب كما فهمه المفسرون الأولون ، وإنما على الاستعجال ؛ لأن الاستعجال يقابل الزمن وهم ذهبوا جميعا إلى تفسير طول اليوم بالعذاب الشديد ، ولكن سياق كلامه تبارك وتعالى يقتضي أنه يجيبهم لا عن العذاب ولكن على

الاستعجال ، فكأنه سبحانه يقول لهم : مهلاً عليكم فإن لي الزمن كله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧] . فإن هذا العذاب سيحل بهم ولو طال الزمن ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٨٣] .

ونستخلص من هذه الملاحظات حول مقام العلم والعقل في الإسلام أنه ينبغي في هذا العصر الذي عمت فيه بلبلة العقول من جراء هذه الانقلابات والتطورات في الحياة الاجتماعية المترتبة على ما حققه التطبيق العلمي للاكتشافات العلمية ، مع ما يتبع ذلك من ظهور آراء جديدة ، ونظريات غريبة ، تستولي بالخصوص على الشباب الذي يتطلع إلى مستقبله بعين كلها حيرة وتساؤل ، ينبغي أمام هذه التيارات أن يكون توجيه شبابنا منطلقاً من هذه الناحية الإعجازية في القرآن .

وينبغي إذن لنصد الشبان عن هذه التيارات أن نرسم لهم الطريق من هذه الناحية ، وهي تقرر أن الإسلام هو دين العبادة ، ودين الاستقامة ، ودين الأخلاق الفاضلة ، ولكنه أيضاً دين العلم ، يجب أن نخاطبهم بما يعلمون وبما يرون عند غيرهم ، فإذا قلنا لهم أنتم ترون أن هذه الأشياء التي توصل إليها غيرنا هي عندنا ، ولما كنا سادة الدنيا كنا نعمل بكتابنا ، وكنا نتبع آياته حتى بلغنا درجة لم يبلغ أحد سوانا مثلها ، وقد من علينا الله بالبقاء ؛ لأن الأمم الأخرى التي أصابها مثل ما أصابنا اضمحلت من الوجود ، مما يدل على الحيوية العظيمة التي يمتاز بها الإسلام إذ رغم هذا التأخر الكبير الذي كان وصل إليه المسلمون في الدنيا فإنهم بقوا ، وأحوالهم الحالية تبشر كلها إن شاء الله بالتقدم ، وبأنهم سيستعيدون مجدهم القديم ، والشبان على خلاف ما يعتقدونه

الناس ، هم مستعدون للخير أكثر من غيرهم ، وأستطيع أن أؤكد بما اطلعت عليه في أسفاري عبر العالم الإسلامي ، وفيما أعلمه من شبابنا أن نفوس هؤلاء الشباب متعطشة إلى من يشرح لهم دينهم على الطريقة الحديثة ، هذه الطريقة التي يفهمونها ويدركونها ، فإذا عمدنا إلى هذا في كتبنا وفي أحاديثنا وفي وعظنا ، وفي دروسنا ، وفي كل ما نكتبه للشبان وللملأ ، أمكننا أن نردهم إلى الدين بهذا الاتجاه ، لا بالوعد والوعيد ، وبذكر الجنة والنار ، فذلك لاشك يؤثر فيمن سبق له الإيمان ، والذي هو مؤمن حقا ، فهو تقشعر جلوده من الوعيد ، وأما الذي ما زال في عنفوان شبابه ، وفي الحالة التي تدعوه إلى الثورة وإلى التساؤل وإلى البحث ، يجب أن نجيب على تساؤلاته ، فتلک الأشياء التي يتساءل عنها ينبغي أن يجاب عنها بطريقة حديثة يفهمها ويعقلها ، فإذا كانت معجزة القرآن بالنسبة للمخاطبين الأولين -وهي معجزة دائمة مستمرة طبعاً - هي بيانه فإن معجزته بالنسبة لجيلنا الحاضر هي هذه الحقائق العلمية التي بينها قبل أن يصل العلم إلى اكتشافها .

وهكذا نستخلص من هذه الآية الكريمة أنه يجب علينا أن نتجه اتجاهها جديداً في برامجنا وفي تدريس العلوم خصوصاً بالمدارس الأصلية كالأزهر وغيره ، فقد مر عليها زمن وقد أخرجت -كما تعلمون وترون- علماء أفاضل يحافظون لنا على لغتنا ، وعلى ديننا .



المحاضرة السادسة عشر :

قدر الأمانة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

الآية الجليلة تنقسم في مبناها وفي معناها إلى قسمين :

القسم الأول : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .
القسم الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وسنبين أن هذه الآيات مختلفة في المبنى والمعنى تمام الاختلاف ، ونبدأ أولاً بشرح المفردات .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ﴾ : بمعنى عرض .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ : والأمانة هي ضد الخيانة يقال فلان خائن وضده فلان أمين ، والأمين هو الذي يحافظ على ما أؤتمن عليه ولو أدى به ذلك إلى أن يعرض نفسه وأهله وماله الخاص للخطر ، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ ﴾ .

﴿ فَأَبَيْنَ ﴾ : أبى بمعنى رفض ، وقد جاء لفظ الرفض بالفعل «أبى» في القرآن في حق إبليس حينما أمره الله بالسجود ﴿ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ولكن الفرق بين رفض الجبال والسموات والأرض ، وبين رفض إبليس ، هو أن إبليس أبى واستكبر على الله سبحانه وتعالى .

أما الجبال أبين وأشفقن ، وأما الأول فقد أبى واستكبر بدون تعليل ،
وأما السماوات والأرض والجبال أبين فأشفقن .

والإشفاق له معان كثيرة ، يقول علماء اللغة : إنه الإحذار ، أو الزهد ،
فزهدين في المسئولية ، أما الإحذار : ففيه نوع من الخوف وعدم التصرف
ونوع من الإجبار ، أما الزهد : ففيه نوع من الحرية والاختيار ، مثلما
يقال : عرضت على فلان القضاء فزهد بمعنى امتنع حينما قدر مقومات
هذه المسئولية ، وحينما قدر راحته وراحة ضميره بعد اختيار مرير وطويل
زهد في القضاء ، وزهد في الرتبة ، وزهد في الشهرة ، حتى يبقى في حل
واستقامة وطمأنينة مع ضميره ، فمن الناحية اللغوية هنا لفظ الزهد يقدم
على لفظ الإحذار .

هذه الآية الأول .

أما الآية الثانية :

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، حاولت
أن أبحث في جميع القراءات هل سأجد «حملها» وحدها أو «تحملها» أو
«حملها» بضم الحاء لكان المعنى منعكسا تماما لما سنحلله ، ولكن كانت
القراءات كلها هي ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَنُ﴾ بفتح الحاء ، أي حملها الإنسان عن
طواعية واختيار ، وحينما وصف بظلم جهول كأنه يتهافت عليها وهو
يطلبها من الله ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ظلم جهول هي صيغة المبالغة
هل لكثرة ظلمه وجهله سمي ظلوما جهولا؟ ، أنا أظن أنه كان ظلوما
جهولا لاستمراره في ظلمه وجهله لاستمراره كبشر ، ولا استمراره كجنس
بشري ، كسلسلة تشد حلقتها الحلقة الأخرى منذ خلق الله آدم إلى يومنا
هذا ، واستمراره في الظلم كبشر منذ ولادته إلى مماته ، واستمرار آبائه من

قبله وأبنائه من بعده ، استمرار الجنس البشري هو الذي برر استعمال صيغة المبالغة ، ظلوما جهولا .

هنا يمكن أن نسبح في بحر لا ساحل له ، إذا نحن فتحنا الباب لماذا لم يسبق جهولا على «ظلوما» ، لأن المسؤولية هل تقتضي أن الإنسان يكون ظالما قبل أن يكون جاهلا ، أم تقتضي أن يكون جاهلا بالمسؤولية فيصير بذلك ظالما؟

مقارنة بين جزأي الآية :

نحن الآن فسرنا هنا المفردات ، فلنحاول الآن أن نعمل هنا مقارنة بين جزأي الآية .

المقارنة في المبنى كأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقول في كتابه بأنه يكرم ابن آدم ، كأنه في حديثه الطويل بالنسبة للجهادات والحالة أنها ليست جهادات ، يطيل ويكرم السماوات والأرض والجبال ، ولا يكرم ابن آدم ، فالله سبحانه وتعالى يقول : إنا بجلالة قدرنا تنازلنا فعرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال .

وأتى سبحانه وتعالى برفضها ، ثم أتى سبحانه وتعالى بتبريرهن لرفضهن ، فكانت جملة طويلة شافية للبحث ، ثم : قف ، وبعد ، نرى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فكأن القارئ يمكنه بل يجب عليه أن يقرأ الآية الأولى بشيء من البطء وبما أن الإنسان خلق من عجل فكأنه يجب على القارئ أن يمر بسرعة على الآية الثانية لأن تركيبها وألفاظها وحروفها تتطلب الإسراع ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ كل واحد يمكنه أن ينطق بهذه الآية بسرعة .

وأتحده أن ينطق الآية الأولى بسرعة ، هذا هو الفرق من ناحية المبنى .
أما من ناحية المعنى لماذا أشفقت الجبال وأشفقت السماوات والأرض ،
وأبين المسؤولية والأمانة ، ولماذا حملها الإنسان؟ هل لأن السماوات
والأرض والجبال جامدة والإنسان متحرك؟ لا .

هل لأن السماوات والجبال والأرض ميتة والإنسان حي؟ لا ، أبدا لأن
العلوم الحديثة أظهرت لنا بأن السماوات والأرض والجبال متحركة ولا
حياة إلا بقدرة السميع العليم .

السماوات السبع ، والكواكب ، والنجوم ، وما يقع فيها ، وما يعرج
إليها وما يتلقى السمع فيها ، والجراثيم التي نراها والتي لا نراها ، والحياة
الميكروبيولوجية التي ربما تكون موجودة على سطح الأقمار وعلى سطح
الكواكب ، والتي لا نعلمها ، كل هذا يدل على أن السماء متحركة حية
والأرض ، نعلم الآن من العلماء الذين لهم شغف بالتنقيب عما في تخوم
الأرض بأن الأرض حية زيادة على أنها متحركة ، وكل منا يعلم أن الأرض
تدور حول نفسها ، وأنها تدور حول الشمس حسب قواعد «كيبار» المنجم
المشهور : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠] ، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي
هَآأَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس : ٤٠] .

أما حياتها فهي لأنه مرارا نرى أراضي قد يخسف بها وتغطيها البحار ،
ونرى جزرا تخرج من قعر البحار ، ونرى جبالا تنزلق ، ومعلوم أن هذه
العمليات وهذا التغير يكون على آلاف السنوات ، ولكن هذا يدل على
حياة الأرض وحركتها .

فإذا كان الإنسان حيا وهذه المخلوقات الأخرى حية، وكان الإنسان متحركاً، وهذه المخلوقات الأخرى متحركة، فما هو السبب في كون الله سبحانه وتعالى قبل من السماوات والأرض والجبال رفضهن للأمانة والحالة هذه أن الله سبحانه وتعالى عنده أحسن من هذه الجمادات عنده الإنسان .

الإنسان الذي أهله لذلك .

الإنسان الذي رباه على ذلك .

الإنسان الذي باهى به بين ملائكته .

الإنسان الذي أراد أن يستخلفه في الأرض .

الإنسان الذي قال له سوف نعلمك الأسماء كلها، وسوف نعلمك كيف تكون هذه، وكيف تكون تلك، وسوف نعطيك من السلاح، وسوف نعطيك من العلوم ما يمكنك على الأقل في القرون الأولى أن تعيش حياة ممكنة على سطح الأرض .

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّبِعُكُمْ أَنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة ٣١-٣٣] .

فكان الله سبحانه وتعالى حينها أناط بآدم المسؤولية أراد أن يظهر لملائكته أن آدم قادر على تحملها، وذلك حينما تحداهم آدم واجتاز ذلك الامتحان ونجح .

فعندما يكون بالطبع آدم مؤهلاً لخوض المعركة لحمل الأمانة ، وفي نظري أن الأمانة هنا هي المسئولية ، وسوف أتطرق إلى هذا الباب من بعد .

من الطبيعي أن يمر عليه قول الله تعالى مر الكرام ، ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ^ع إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

الآن وقد حاولنا باختصار أن نشرح الفرق بين إباء السماوات والأرض والجبال وإشفاقهن ، وبين قبول - بل تهافت - بني الإنسان على تحمل المسئولية ، وقد شرحنا الأسباب التي دعت بني آدم أن يتحمل المسئولية ، ذلك لأن الله أهله بما لقنه من علوم ومعلومات ، لتتطرق إلى الكنه والمغزى الحقيقي لهذه الآية ألا وهو لفظ الأمانة .

الأمانة في الإسلام :

الأمانة في الإسلام لا الأمانة الفقهية ، لا الوديعة ، ولكن الأمانة المنوط بها الإحسان ، وهو الضمير المهني ، والمنوط بها الإيمان ، والمنوط بها المواطنة الصادقة ، والمنوط بها مسئولية الراعي ، «كلكم راع وكل مسئول عن رعيته» .

وما هي مرتبة الأمانة من الواجبات الأخرى في الدين الإسلامي؟

الأمانة هي من باب المعاملات سواء كانت خاصة أو كانت عامة ، ولا نرى ذكراً للمعاملة كيفما كانت لتكون من علامات قيام الساعة إلا فيما يخص ضياع الأمانة ، نعم نراها في ضياع العبادات ، أو أركان الإسلام الخمس ، أما في المعاملات لا نرى معاملة غير الأمانة يضرب بها موعد لقيام الساعة .

والصحيح في ذلك هو حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل

شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام قال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت - هذا جبريل يقول للنبي ﷺ صدقت - قال سيدنا عمر : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال سيدنا جبريل : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره - ويزاد - حلوه ومره ، والله أعلم .

قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة : قال النبي ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق ، فلبث مليا ، ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم .

نكتة :

هنا نكتة من ناحية صناعة الحديث أريد أن ألفت نظر المحدثين إليها .
إننا تعلمنا أن هناك صنفين من الحديث :
الحديث القدسي ، والحديث العادي .

فالحديث القدسي هو الذي يتكلم فيه النبي ﷺ باسم الله : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» .

والحديث العادي : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» .

ولم ييؤب أي محدث بهذا النوع من الحديث الذي يأتي فيه جبريل فيخاطب النبي ﷺ ، فلا هو بالحديث العادي ، ولا هو بالحديث القدسي ، فإنني أضع هذا السؤال وأطرحه أمامكم لعله يجد قريباً الجواب عنه .

يمكن للقائل أن يقول قلت : إن الأمانة هي القاعدة الوحيدة في المعاملات التي جاءت كأمانة إذا هي ضاعت لوقوع الساعة ولم أر هنا لفظ الأمانة أو أسمعه بكيفية جلية .

هناك حديث آخر رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قيل يا رسول الله ، وما إضاعتها ، قال النبي ﷺ : إذا وسد الأمر لغير أهله ، أو أسند الأمر إلى غير أهله» ، فهذه هي الخلاصة التي تفسر لنا : «أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان» ، الأمانة قيام الساعة .

معنى الساعة :

للساعة معنيان : المعنى الميتافيزيقي حينما تقوم الساعة ، الساعة معروفة -ومع الأسف- العامة في بلاد الإسلام والشعوب في بلادنا السائرة نحو النمو ، الساعة عندهم هي أن تفنى الأرض ومن عليها والحالة هذه أنها هي ساعة وساعات ، لكل بلد ساعة ، لكل نظام ساعة ، لكل قارة ساعة ، لكل حضارة ساعة ، متى أسند الأمر إلى غير أهله .

وإذا أسند الأمر في بلد ما ، أو في قارة ما ، أو في مجموعة بشرية ما إلى غير أهله فانتظر الساعة ، وما هي هذه الساعة؟

إن التاريخ قد علمنا أن الشعوب يمكنها أن تتغلب على عدة مصاعب ومتاعب ، يمكنها بالأخص أن تتغلب على الصعاب والعراقيل المادية ، حيث إن الإنسان خلق في هذه الأرض ليكافح كفاحا مستمرا ، وجهادا غير منقطع ، ولكن حينما ترى هاته الدول وهاته النظم نفسها أمام مشاكل عقائدية ، أو مشاكل مذهبية ، أو مشاكل خلقية ، وحينما ترى الاعوجاج في سلوكها ، والبدع في معتقداتها ، والفسوق في أخلاقها ولا تريد أن تحارب هذا الاعوجاج ، ولا تريد أن تقوم تلك الأخلاق ، هناك تقرب ساعتها ، لماذا؟ لأن الفساد لا يقاومه إلا الطهر ، ولا يقاوم الفاسقين إلا ذوو الأخلاق ، ولا يقاوم الخائنين إلا المخلصون ، ولا يقاوم المبتدعين إلا السنيون القائمون بالقسط .

فتمنى أعطى الله لبلد قادة كانوا غير صالحين دينا ودنيا إلا وواكبهم أو واكب عصرهم بفتن في أموال رعيته ، وفي أعراض رعيته ، وفي معتقدات رعيته ، فتصير إذ ذاك الرعية دون راع ف :

إذا كان رب البيت للطلب ضاربا فلا تلم الصبيان في حالة الرقص

فإذا كان الراعي في حالة انحلال ، أو كان لا يعطي أي وزن للفضيلة الإسلامية أو للأخلاق الإسلامية ، فكيف تريدون أن يقاوم باسم الله ، وباسم كتابه ، وقول نبيه ﷺ ، فتكون إذن المتناقضات .

أما إذا وهب الله لأمة ما أو مجموعة ما رؤساء مهذبين بآداب الإسلام ، حافظين لعقودهم ولضمايرهم ، محافظين على لغتهم ودينهم وشعائرهم ،

إذ ذاك ولو تأتي زوبعة من حيثما أتت ، ولو تأتي جراثيم وكيفما كان نوعها لا يمكنها أبدا بأي حال من الأحوال أن تنخر جسد تلك الأمة ، أو تصيره غير قابل للإصلاح والتلقيح .

الأمانة هي المسئولية :

فالأمانة إذن هي المسئولية التي يتحملها كل واحد منا ، والمسئولية تنقسم إلى قسمين :

المسئولية المطلوبة . والمسئولية المفروضة .

كل منا يجد نفسه أمام نوع من المسئوليات ، أما النوع الأول المسئولية المفروضة إزاء ربه حينما يبلغ سن الرشد ، المسئولية البيتية حينما يتزوج ويكون له عيال ، المسئولية المهنية حينما يحترف حرفة خاصة لا ثقة به من الحرف غير العمومية ، هذه هي المسئولية المفروضة أحبينا أم كرهنا .

عندما نبلغ سن الرشد يجب علينا أن نتحمل مسئولياتنا الدينية بمعنى أن ننهض بالأمانة الدينية ، وأن نقيم الشعائر الدينية ، وحينما نتزوج وحينما نقرر أن نتزوج يجب علينا أن نقوم بمسئولية بيتنا ، وبالأخص مسئولية أبنائنا ، من تربية وتغذية وكساء وإيواء .

وحينما نمتهن مهنة من المهن ، ونحترف حرفة من الحرف لابد لنا من أن نتحمل المسئولية ، وإلا قضت علينا المزاحمة وصرنا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر غير محترفين ولا ممتهين بل صرنا مساكين فقراء نمد اليد .

هذه هي المسئوليات المفروضة ، وهناك المسئوليات المطلوبة وهي المسئوليات التي يطلب من فلان وفلان أو جماعة لما عرف فيها من كفاءة ودراية أن تتحمل مسئولية معينة في الزمن وفي المكان .

تحمل هذه المسؤولية في نظري أخطر من تحمل الأولى ؛ لأن الأولى :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

فهي المسؤولية المفروضة ، فإذا أخذ الإنسان مسؤوليته ولم يتوفق في حفظ الأمانة في النوع الأول صار إثمه عليه ومن معه ، ولم يؤاخذ به المجتمع ، ويصير ذنبه ذنبا خاصا به وبمن يعوله .

أما المسؤولية الأخرى وهي المسؤولية المطلوبة تلك التي لا نجبر أحدا على أن يأخذ بيدها تلك التي لا تتطلب من الشخص لا جسدا قويا ، ولا أعضاء قوية ، ولا عضلات للجهد ، إنما تتطلب منه قلبا صافيا ، وذهنا مرتبا ، وضميرا مهنيا ، إذا هي حملت فحملت فلم يقم بها أحسن قيام فهي المسؤولية المصيبة التي قال فيها النبي ﷺ : «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

فلينتظر ذلك النظام أو تلك الدولة أو تلك القارة أو تلك المجموعة ساعته ، لماذا؟ لأنه حينما يفقد الضمير المهني ، وحينما يفقد معنى الإحسان ، والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، والإحسان وهو ما يصير بذلك الفتى الذي يظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، الذي قلبه معلق بالمساجد ، أي معلق بأخلاق الله ، وبأوامر الله ، تلك الأوامر التي ينصت إليها في المسجد ، والتي يتلقاها في المسجد ، والتي تتلى عليه في المسجد ، فإذا هو ضيع الإحسان ، وضيع الضمير المهني ، وصار يتلاعب بالمسؤولية ويتلاعب بالأمانة ، لم ينحصر تلاعبه في شخصه ؛ لأن المصيبة هي أن ذلك التلاعب يجري مجرى الدم ، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فحينما يتلاعب بالنسبة لضميره لا يذهب إلى المكتب والحالة أنه يجب عليه أن يذهب إليه ، إلا وتسامح مع نفسه ، صار من الطبيعي إذا هو

لم يخف أن يوشى به أو أن يشكي أن يتسامح مع من هو دونه ، فإذا هو تسامح مع من هو دونه تسامح هو الآخر ، تسامح مع من هو دونه ، فصار المسلم من الأعلى إلى الأسفل بضياح الأمانة ، وإذا هو تسامح المرة الأولى ، وكما يقول فقهاء الاجتماع ، لا أخطر من الكأس الأولى ، فإذا هو شرب الكأس الأولى من خيانة الضمير ، إلا وتسرب إليه جميع أنواع الانهيار والانحطاط وفقدان حاسة المسؤولية ، من محابة ومحسوبيات ورشوة ، وما إلى ذلك مما يشين .

بالطبع إذا فسد جهاز إداري هذا الفساد ، ولم ينه عنه ، ولم يعزل أو يوقف أصحابه ، تسرب ذلك إلى الأجهزة الأخرى حتى يصير ذلك الإخلال بالأمانة ليس استثناء ، ولكن قاعدة ، فيصير الرجل ذو الضمير كأنه غريب في قومه ، وعن قومه على جزيرة فيها جنس آخر من البشر لا يتكلمون لغة واحدة ، ولا يستعملون مفردات واحدة ، ولا يطمحون إلى مطمح واحد ، وبالعكس إذا قاوم الإنسان نفسه وقاوم شيطانه .

والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى كرّمنا أي تكريم حينما أعطانا وسائل الاختيار ، وحينما كتب في خاتمة ذلك الاختيار ، إما التضحية وهو الربح ، وإما عدم التضحية والتقهقر وهو الخسران ، وأشرح قولي : لا خير في تضحية إذا لم تكن منطلقاً لمعترك في نفس الإنسان ، ما الشيء الذي تركه والإتيان به لا تعطيه نفس البشر أية قيمة ، لا يمكن أن يكون محل أو موضوع اختيار ، أما الاختيار الحقيقي فهو الذي ينهك الذات ، وهو الذي يكون عراكاً مستمراً في ذهن الإنسان بين ما هو حلو ، وبين ما هو أحلى منه ، وبين ما هو حسن وما هو أحسن منه ، وبين ما هو سهل وما هو وعر ، وبين ما هو في طريق الجد ، وبين ما هو في طريق غير الجد .

ولكن أعطانا الله سبحانه وتعالى وسائل الاختيار، أعطانا ضميراً نقيس به الأعمال، وأعطى لكل واحد منا درجة في الإرادة، فمننا من يحارب نفسه، ومنهم من يسالمها، ومنهم من يجهلها تمام الجهل حتى لا تضع عليه أي مشكل أو أي اختيار وحتى لا يترتب عن ذلك الاختيار أية تضحية.

وهنا يجب التنبيه إلى أن النبي ﷺ جعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا فرديا وجماعيا في آن واحد، جعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا جماعيا حيث قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١)، حيث إنه نهى ﷺ عن الخروج عن الجماعة، حيث إنه ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، حيث إنه ﷺ نصح ولا زال ينصح أصحابه بالاتحاد والوحدة، ولكن في آن واحد جعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا فرديا، بمعنى أنه جعل من كل واحد منا مرشدا يجب عليه الإرشاد، وتجب عليه النصيحة، لذا لم تضع أمانة الإسلام.

الدين النصيحة:

إن من معجزات الإسلام أن هناك حضارات وحضارات وصلت إلى قمتها ثم انهارت، أما الحضارة الإسلامية فلم تنهر، ففكرت في الأسباب التي جعلت الجماعة الإسلامية بقيت كما بقيت عليه، فالله سبحانه وتعالى أعطى لكل واحد منا الفرصة في أن يكون قاموس العرب بحفظ لغة واحدة، في أن يكون مرشد المسلمين؛ لأن هناك ديناً واحداً ومعتقداً واحداً، وفي أن يكون قائماً بالوعظ والإرشاد، كلكم راع وكل راع مسئول

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً، به.

اللهم رغم نكبتنا لم نرجع إلى الأخوة الصادقة فأخ بيننا .
اللهم إنك قلت : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ، ورغم النكبة والنكسة
التي نعيشها لازلنا نتنازع بالألقاب فطهر قلوبنا .
اللهم إنك علقت آمال الملايين والملايين ومآت الملايين من قلوب
المسلمين ، وآمالهم على الذين وليتهم أمر عبادك .
اللهم عاقب منا من لا إيمان له ولا نية صالحة له ، وجاز من يعتبر منا
أنك إن تعلم في قلبه خيرا فآته خيرا .



المحاضرة السابعة عشر :

الدين القيم

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

إن المتأمل في كتاب الله المتدبر لآياته الباحث فيما تناوله هذا الكتاب واشتمل عليه من أغراض وموضوعات ، ليجد من خصائصه ودقائقه وأساره وتصرفاته ، ما يجعل التوصل إلى خفي المدارك أمرا ميسورا ، لما تضمنه هذا الكتاب من بيان وإعجاز .

وإن الطرق الموصلة إلى إدراك ذلك تتفتح لعيون العلماء ولقلوب الفقهاء ، ولسبيل كل من أناب إلى ربه وأراد أن يهتدي بكتابه ، وأن يأخذ بأسباب الخير من هذه الطريق التي هي كتاب الله وسنة رسوله وإذا نحن تأملنا هذه الآية الكريمة التي ننطلق منها إلى الحديث عن الدين القيم ، وجدنا إطارا يقدم لنا هذه الصورة في أجمل شكل وأبهى حلة ؛ لأن ما تقدم هذه الآية في أواخر سورة الأنعام ، يفصل لنا ويتحدث عن المجتمع العربي الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ، وقد كان هذا المجتمع منقسما على نفسه ، متعدد النحل والمذاهب ، متنازعا آخذا بأسباب الباطل معرضا عن الحق ، وقد جاء النبي ﷺ فجاهد وجاهد بالقرآن ، من أجل أن يقنع هذه الجماعات ، وأن يعرفها بالعقيدة الصحيحة ويهديها السبيل ، لكن جماعات كثيرة ضلت وأضلت ، وأظهرت العناد وأصرت ، ولم يبق من سبيل إلى إقناعها إلا بالصدع بكلمة الحق .

ولذلك صور القرآن قبل هذه الآية ذلك المجتمع بقوله جل وعلا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] .

فهذا وضع حدا فاصلا بين الحق والباطل ، بين سبيل المجرمين الكافرين والمشركين ، وسبيل عباد الله المتقين الذين اتبعوا هذا النبي الأمي ، وساروا في طريق الهداية على أثره متمسكين بأسباب الحق وطرق الخير .

والنبي ﷺ حين أنزل عليه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، أجرى الله على لسانه بعد أن أمره بأن يحدث الناس بتلك الأصول الضرورية التي يتحقق بها الدين القيم ، ولذلك ولشرف المقول أو المقالة ، تكرر الأمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه بقوله : ﴿قُلْ﴾ أي قل يا محمد للناس ، ماذا قال رسول الله ، أو ماذا أمره الله به ليقوله للناس؟ ثلاث مقولات : المقولة الأولى هي قوله : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي﴾ [الأنعام: ١٦١] إلى آخر الآية ، والمقولة الثانية : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ، والمقولة الثالثة : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

فيتلخص من هذه الآيات الثلاث ، المعنى الذي نريد أن نستشفه من الآيات القرآنية الكريمة الواردة لبيان معنى الدين القيم .

فالدين القيم هو إعراض عن الأرباب المزعومة والآلهة الباطلة ، وإخلاص الوجه لله ، والانقياد له انقيادا مطلقا ، ثم شكر المنعم على ما أنعم ، وممارسة الحقوق والواجبات في إطار الهداية التي منحها الله رب العالمين لعباده المتقين .

المحاضرة السابعة عشر

٣٢١

فَالآيَةُ الْأُولَى إِذْ نِ الْتِي هِي مَوْضُوعُنَا هِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، فَالْقَوْلُ أَوْ الْأَمْرُ أَوْ الْإِذْنُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بِأَنْ يَقُولَ ، تَأْدِيبَ لِعِبَادِهِ ، وَبَيَانِ لِلْمَسْلُوكِ الَّذِي سَلَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَسْلُكُوهُ ، فَكَانَ الْمَسْلُوكُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

فَجَاءَتْ بِصِيغَةِ التَّوَكِيدِ ، ثُمَّ جَعَلَ أَوَّلَ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ تِلْكَ الْهُدَايَةُ الشَّرِيفَةُ الرَّبَّانِيَّةُ ، وَلَمْ يَقُلْ هِدَانِي اللَّهُ قَالَ : هِدَانِي رَبِّي ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِي الرَّبُوبِيَّةِ ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ لِلْمَرْبُوبِينَ ، إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ ، هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي نُرِيدُهُ لِحَيَاتِنَا ، هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ عِبَادَةً خَالِصَةً لَا إِشْرَاقَ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ وَصَفَ هَذَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ دِينًا قِيمًا ﴾ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَنْصُوبًا دِينًا قِيمًا بَعْدَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، فَهُوَ بَدَلٌ مِنْ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، الَّذِي مَحَلُّهُ النَّصْبُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، وَإِبْرَاهِيمُ هُوَ أَوَّلُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، الَّذِي تَمِيزَ بِدَعْوَتِهِ الصَّرِيحَةِ لَوْحِدَانِيَّةِ اللَّهِ الْخَالِصَةِ ، وَالبَعْدُ عَنْ كُلِّ أَلْوَانِ الْإِشْرَاقِ ، وَحَمَلَ النَّاسَ حَمَلًا قَوِيًّا عَلَى الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا قَالَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ؛ لِأَنَّ الْحَنِيفَ هُوَ الْمُنْحَرِفُ ، أَيْ الْمُنْحَرِفُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي عَصَرِهِ .

﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] فَهَذِهِ الْآيَةُ تَوْجِبُ أَوْ تَشْعُرُ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ امْتَثَالَ لِرَبِّهِ ، شَكَرَهُ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ ، عَلَى هِدَايَتِهِ لَهُ ، وَعَلَى عَنَايَتِهِ بِهِ ، وَعَلَى بَيَانِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَيْهِ ،

ثم على أن جعله من أتباع إبراهيم ، الذي كان حنيفا وبعيدا عن الإشراك في جميع الحالات والصور .

هذا المعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة ، إنما جعل أساسا للاقتداء برسول الله ﷺ فيما نطق به وأعلن عنه ، لأن المؤمنين ملزمون بأن يسيروا هذا السير وأن يتبعوا هذا المنهج ؛ ولأن رسول الله ﷺ حين أعلن ذلك كأنه يقول : لا صلة بيني وبين المجرمين المشركين ، فهذا فارق بين ما كانوا عليه ، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الصادق .

فتوجيه المؤمنين الصادقين هذا التوجيه ، وسلوكه ﷺ سلوكا عمليا من وقت نزول هذه الآية ، بل من وقت اصطفاه الله سبحانه وتعالى للرسالة وللنبوة ، وليكون خاتم النبيين إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] كان رسول الله ﷺ يجاهد من أجل تحقيق هذه المعاني يغرسها في النفوس ، وينميتها في القلوب ، ويدفع بها الناس إلى تحقيق الخير .

فما هو إذن الدين القيم :

الدين القيم مجموعة أشياء متكاملة يربط بعضها أو يرتبط بعضها بأعناق بعض .

أولها : هذا القرآن الذي أوحى به إلى رسول الله ﷺ وهو الحبل المتين بيننا وبين رب العالمين .

ثم بجانب ذلك ما دعا إليه هذا القرآن ، وهو التوحيد ، والإيمان بالله وحده ، من غير شريك ، ومن غير ند ، ومن غير أن يكون هناك من يلتفت إليه ، تأكيداً لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ،

وبالإضافة إلى هذا ، بالإضافة إلى القرآن الذي هو وحي الله وكلامه إلى رسوله الذي اجتبا به ، واختاره له ، وهذا التوحيد الخالص الذي هو الذي عليه ملة إبراهيم ، وعليه المسلمون قاطبة ، من يوم بعث الله الأرض أو خلق الأرض إلى يوم الدين ، يضاف إلى ذلك شريعته التي تضمنتها آياته ، وجاء بها كتابه ، وهي الميزان الحق لأعمال الناس ولعلاقاتهم ببعضهم ، وللمعاملات بينهم ، ثم المنهج المتميز الذي كتبه الله للإسلام ، حتى كان ديناً ظاهراً على غيره من الأديان ، وحتى كان مشتملاً على جميع المبادئ الأساسية والقيم الشريفة العالية ، التي لا يأخذ بها أحد من العالمين إلا وجد سبيله إلى السعادة وطريقه إلى العناية الربانية والرحمة اللدنية التي تأتي من الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين .

ونقف قليلاً عند قوله تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ما هو الدين القيم ؟

هو الدين القائم على السداد ، والآية قرئت بوجهين : فالكوفيون قرءوا : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ وهو مصدر من قام ، مثل الشَّبع : شَبِعَ شَيْعًا وقام قِيَمًا ، ويراد بالدين القيم ، الذي يكفي الناس ما يحتاجون إليه من المصالح ، فهو كفاية المصلحة ، وأما ابن كثير ونافع وأبو عمرو فقد قرءوا : (دينًا قِيَمًا) بتشديد الياء وكسرها ويريد من ذلك ، أو معنى هذه القراءة ، هذه الرواية ديناً قِيَمًا بجعل قيم من صيغة فَعَّلَ ، التي هي زنة تدل على قوة ما تصاغ منه ، فمعنى الدين القِيَم : الدين المستقيم الذي لا عوج فيه .

وهناك من المعاني الأخرى المرتبطة بهذا القيم الذي هو بمعنى : المعتدل ، الغير المعوج .

وهذا إذا وصف به الدين يكون وصفاً مجازياً ولكن المعنى الحقيقي الشديد القيام والإصابة .

والقيم أيضا يطلق للمبالغة في القيام بالأمر ، ومنه القيوم قيوم السماوات والأرض ، فالإسلام باعتبار كونه يقوم بأعباء الأمة وحاجاتها ، ويحقق لها الأهداف التي من أجلها وجدت في الأرض واستخلفها الله عليها وعمرها بهم ، هؤلاء يجدون في القرآن كل متطلباتهم وكل حاجاتهم ، ويجدون في دين الله ما يحقق لهم أغراضهم وأهدافهم .

ونحن عندما نتتبع هذا اللفظ وهو الدين القيم نجده قد ورد في القرآن في ثمانية مواضع : ستة منها وصف للدين ، وموضعان كان القيم أو القيمة أو قيما ، وصفا للكتاب الذي هو القرآن أو للكتب .

فالآية الأولى هي : ﴿ دِينًا قِيمًا ﴾ [الأنعام : ١٦١] كما في سورة الأنعام .

والثانية : ﴿ لِلدِّينِ الْقِيمِ ﴾ [الروم : ٤٣] ، كما في سورة الروم و ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ [الروم : ٣٠] كما في سورة الروم أيضا الآية ٣٠ و ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، و ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، و ﴿ ذَٰلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴾ [البينة : ٥] ، و ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قِيمًا ﴾ [الكهف : ١ ، ٢] ، و ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ [البينة : ٣] ، فهذه الآيات المترابطة والآخذ بعضها برقاب البعض ، والتي تنتهي في جملتها إلى إبراز حقيقة الدين القيم ، هي التي نود أن نقف عند سياقاتها المختلفة ، لتبين المعاني الأساسية ، والمعاني المقارنة لها في تقدير الله سبحانه وتعالى بحيث لا يكون هذا الدين قيما ، حتى تتم هذه المعاني أو الصفات المقارنة للدين القيم .

السياق الأول من السياقات الأربعة هو ما في هذه الآية التي افتتحنا بها الدرس وفي الآية الثانية التي هي في سورة الروم والتي نصها ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٤٣] ، الدين القيم هنا هو : القصد ، هو الاتجاه الصحيح الصادق ، هو الجدية في

التصور وفي الإدراك وفي التعامل ، هو الاستقامة التي ينبغي أن يتحلّى بها المسلم في كل أعماله ، ولذلك حذر الله سبحانه وتعالى أن تدرك الناس الآخرة ، أو أن يدركهم الموت ، ولما يأخذوا بسبيل هذا الدين القيم فيكون ذلك وبالا عليهم .

وأما السياق الثاني فهو الذي أشرنا إليه بالصيغة الثانية التي أوردناها ، والتي هي إشارة إلى هذا الدين القيم ، والتي فيها تنويه بالدين القيم : ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ، وهذا ورد في آيات ثلاث :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠] ، في هذه الآية ، اقترن معنى الدين القيم بالفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهذه الفطرة بمعنى : الخلق والهيئة التي أبدعها صانعها وهو الله سبحانه وتعالى .

ولذلك فإنك تقول : فطر على كذا ، بمعنى خلق وكون على كذا ، فالفطرة في الإنسان هي القدرة التي يستطيع أن يفرق بها بين المصنوعات ، ويستدل بها على ربه ويعرف بها شرائع خالقه ، فالفطرة إذن هي نعمة من النعم ، هي هذا الخلق الذي يكون عليه الإنسان ، من بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، هذا الخلق الذي يقترن مع الذات التي أوجدها الله بها فطر عليه هذه الذات ، وهو التوحيد ، فالتوحيد فطرة ، والإشراك تبديل للفطرة .

وقد جعلوا أن من أهم ما رزقه الله عباده من حقائق الفطرة ، هذا العقل الذي يتدبرون به آياته ويدركون به معجزاته ، ويتصورون به إنعامه عليهم ويستطيعون به الارتقاء درجة فدرجة ، حتى يصبحوا من الكُمَّل

المعدودين في الصادقين ، والمتنسين لدين رب العالمين ، نحن نرى بأن هذا العقل يعتمد المقدمات والآراء الكثيرة ، التي يستدل بها ، ويستدل بها أكثر الناس ، ويستدل بها العلماء والأفاضل منهم ، وبذلك فإن الإسلام يكون في أصل الاعتقاد ، جاريا على مقتضى الفطرة العقلية ، وجريانه على مقتضى الفطرة العقلية ، بمعنى يأتي أو أتى بتشريع وأحكام ، تتماشى مع فطرة الإنسان ولا تعارضها ولكنها تهديه وتسويه وتقوم اعوجاجه وتبلغ به إلى إدراك الغايات والمقاصد ، التي أرادها الله من وراء تشريعاته .

وهنا قد نقول : كيف يصح هذا المعنى ونحن نجد من غير المسلمين عبادا كثيرين ليسوا بمؤمنين ، ولكنهم من اليهود ، أو من النصارى ، أو من الوثنيين ، أو من غيرهم ، فلو كانت هذه الفطرة أو كان الدين فطرة لكان جميع الناس مطبوعين على هذه الفطرة وسائرین عليها ، وهذا ما يجيب عنه رسول الله ﷺ في حديث قدسي يرويه عن رب العالمين قال عز وجل : «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»^(١) ، وكذلك الحديث الآخر ، وهو قول رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه»^(٢) .

فالفطرة إذن هي التوحيد ، والعدول عن التوحيد تبديل للفطرة وتغيير لها ، وعدم السير في المنهج الرشيد الذي أمر به الله ، هو خروج عن هذه الفطرة ، ومعارضة لما جبل عليه الإنسان من خير ؛ لأنه بالصدوف عما أمر به ، والإعراض عما دعاه إليه الله ، يكون قد وضع بينه وبين

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار رضي الله عنه ، مرفوعا ، بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعا ، به .

الغايات التي خلق من أجلها حواجز وموانع ، لا تجعله يصل إلى تحقيق المقصد من وجوده .

أما الآية الثانية : وهي قوله تعالى من سورة يوسف : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٤٠] ، فهو من حديث يوسف عليه السلام فيما أجراه القرآن على لسانه في هذه الآية من كلام من صاحبي السجن ، عندما كان يتحدث إليهم عن دينه ودين آبائه فيقول لهم : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يستطيع أن يشارك الله في الحكم أحد ؛ لأن الحاكمية مرتبطة بالألوهية ، وكل حاكم يحاول أن يسير على وفق المنهج الإلهي في قوانين الحاكمية وتطبيقها ، يكون على هدى من ربه ، وكل من خالف منهج الإله ، وعارض آيات القرآن وصدف عن الهدى النبوي ، لا يمكن أن يكون على سداد من أمره ، ولذلك جاءت هذه الآية تؤكد على ارتباط الحاكمية بالألوهية ، بحيث لا يقبل التشريع إلا من الله ، وليس هذا معنى دخول الإجراءات المدنية ، وما إلى ذلك من أشياء ، نضعها في هذا العصر تكون معارضة أو مقوضة لهذا المعنى الأساسي ، بل إن الناس في عهد النبي ﷺ ، وفي عهد الخلافة الراشدة فيما - لا نص فيه - قد اجتهدوا ووضعوا قوانين وأشياء ، لا تصرفهم عن حقيقة الدين ، ولكنها تمكنهم من بلوغ الغاية في تطبيق أصول هذا الدين .

أما الآية الثالثة : التي في نفس هذا السياق فهي قوله سبحانه وتعالى من سورة التوبة : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة : ٣٦] .

هذه الآية تشير إلى اضطراب وقع في المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام ، وبعد مدة من انقضاء البقية الباقية ، ومن دين إبراهيم ، ومن دين إسماعيل ، الذي جعل البلد الحرام محرما في أشهر أربعة : شهر مفرد ، هو شهر رجب ، وثلاثة أشهر متتابعة هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

وأنتم تدركون بحق أن المجتمع العربي كان يعيش على الغزو ، وعلى الغارات ، وعلى قطع السبيل ، وعلى أخذ أموال الناس ، فإذا كانت المدة طويلة بهذا الشكل ممتدة ثلاثة أشهر ، فإن ذلك يجعلهم في خصاصة ، ولا يمكنهم من ممارسة ما طبعوا عليه من هذه الغارات ، وما يزدادون به كسبا ومناعة وقوة بين القبائل العربية ، بمثل هذا الانقطاع والانزواء عن القيام بممارساتهم ، فجاء من غَيَّرَ فجعل العام كبيسة : ثلاثة عشر شهرا بدل اثني عشر شهرا ، وجعل بعض الأشهر الحرام حلالا ، وبعض الأشهر الحلال حراما ، فأحلوا شهر المحرم ، وحرموا شهر صفر ، وذلك ليتمكنوا من القيام بما يشتهون ، وكان يخرج إلى ذلك بعض بني كنانة ، ومن بينهم القلَمَس وهو أول من اشتهر بهذا المعنى ، حتى قيل : «ومنا ناسئ الشهر القلَمَس» ، وكانوا يقولون :

ألسنا الناسئين على معد شهر الحل نجعلها حراما

لماذا؟ لأنهم بذلك يستطيعون أن يتمكنوا من فرض إرادتهم ، وتوجيه عامة العرب إلى ما يريدونه ، وكان القلمس ومن جاء بعده يخرجون في نهاية أيام منى ، ويعلنون بين الناس أن محرم القادم سيكون حلالا ، وأن صفر سيكون حراما ، فجاء القرآن يمنع ذلك ، ويقول : إن استدارة الكون ونظامه وأوضاعه ، جعلته على النحو الذي بينا : اثنا عشر شهرا ، وما دام

العام يتكون من اثني عشر شهرا؛ فإنه لا يجوز بحال أن يزداد فيه، كما لا يجوز بحال تغيير الأشهر الحرم إلى أشهر الحل، وتغيير الأشهر الحل إلى الأشهر الحرم، وهذا ما سماه القرآن النسيء، وقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

ثم إذا كان هذا التشريع الإلهي، ويمكن أن ينطبق على كثير من الصور التي نحيها ونعيشها، يدفع بعض الضعفاء -بعض ضعفاء الإيمان، وقليلي المعرفة بالدين الإسلامي- إلى تغيير هذه الأشياء التي جاء ضبطها في كتاب الله، وجاء تحديدها في سنة رسول الله، بحيث كانت نصا من القرآن والسنة، فإن تغيير ما كان نصا من القرآن والسنة، يعتبر ضلالا بعيدا وكفرا، ولذلك ألزم الله الناس كلمة التقوى، وحملهم على أن يأخذوا بهذا الهدي.

أما السياق الثالث فهو الذي ورد فيه لفظ: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ هو: الصيغة الثالثة في السياق الثالث، وهذا كما نلاحظ دين القيمة، تركيب إضافي، الإضافة حقيقية إن قلنا هو: دين الأمة القيمة، أو دين الكتب القيمة، والإضافة صورية شكلية إذا كانت من باب إضافة الموصوف إلى الصفات، وقد ورد في بعض القراءات الدين القيمة: أي دين الملة القيمة.

وأما الاستعمال الأخير أو السياق الأخير الذي لم يكن فيه القيم أو القيمة وصفا للدين، ولكنه كان وصفا للكتاب أو للكتب فهو قوله جل وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ قِيَمًا﴾ [الكهف: ٢، ١].

فهذه الآية الكريمة من سورة الكهف ، تلقن رسول الله ﷺ والمؤمنين جميعا ، حمد الله والثناء عليه ، لما أنزله من هذا الكتاب وهو القرآن الكريم .
الثناء على الله بما هو أهله ، وشكره على نعمه التي بعضها خاص بالنبي ﷺ ، وبعضها عام يشمل المؤمنين كافة .

ف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ : فيها إشارة إلى النعمة الخاصة ، وهي اصطفاء النبي ﷺ لتلقي أسرار هذا الكتاب ، واصطفائه للتبليغ والبيان .

وأما النعمة علينا معشر المؤمنين ، فهي ما تضمنه هذا الكتاب من تكاليف ، ومن أحكام ، ومن قيم ، ومن مبادئ ، كلها تعين على إقامة العدل بين الناس ، وتحقيق الأمن الاجتماعي ، ورفع جميع ألوان الظلم عن الناس وعن البشر ، وتحقيق المساواة ، وجعل المؤمنين مترابطين متضامنين ، كل ذلك بفضل تلك التكاليف ، وتلك الأحكام والقيم والمبادئ ، فالآية فيها جزءان :

الجزء الأول : يشير إلى أن هذه النعمة بالقرآن العظيم ، جعلت من الكتاب كتابا متميزا ؛ لأنه لم يجعل له عوجا ، أي مستقيما وقيما ، فهي موالية للوصف الأول ، وهو لم يجعل له عوجا . فهل القيم بمعنى الاستقامة هنا؟ وهل هي التأكيد للاستقامة المرادة من قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ؟ لا ؛ لأن الآية معناها : لم يجعل له عوجا بمعنى كاملا .

وأما قوله : ﴿ قِيَمًا ﴾ فهي حال من الكتاب يريد مكملا لغيره ، قائما بمصالح الغير ، فليست أبدا تأكيدا للاستقامة .

وهذا على نحو قوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ أَلَكِتَبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

وصفه بكونه لا ريب فيه ، وهدى للمتقين ، ليس واردا تأكيداً لكونه من عند الله ، ولكن يراد به الإشارة إلى جانب آخر ، هو السبب لهداية الخلق وإكمال حالهم .

فالقرآن إذن هو لسان الحق والدين ، وهو قيم بميزان العقيدة ، يرد الناس إلى الإيمان ، وإلى العمل الصالح ، وهو قيم أيضاً بهدي الأمة وصلاحتها ، وقد بين رسول الله ﷺ هذا المعنى ، عندما أشار إلى الصفتين اللازمتين للمسلم ، هناك صفة عالية جداً ، وصفة أخرى دون ذلك في المرتبة الدنيا .

أما التي في المرتبة العليا فهي : الإيمان بالله إيماناً صادقاً ، وأما التي في المرتبة الدنيا فهي : إمطة الأذى عن الطريق .

فالإسلام الدين القيم يجمع بين كل الكمالات ، أعلاها وأرقاها ، وأبسطها وأذونها ، ولذلك قال ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(١) .

وأما التأكيد على العمل الصالح ، والأخذ به لتحقيق الخير للمجتمع الإنساني ، فذلك ما أشار إليه في قوله : كل سلامي من الناس عليه صدقة ، وكل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته

(١) أخرجه مسلم (٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً . وهو عند البخاري (٩) أيضاً بلفظ : «بضع وستون» .

فتحملة عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

ولكن التكليف الشرعي لا يتحقق بالبذل والفعل فقط ، يتحقق - أيضا- بالترك والانكفاف ، وذلك عن كل ما يضر المجتمع ، وعن كل ما يلحق الضرر بغيره ، ولذلك جاء في الحديث النبوي الشريف : « لا ضرر ولا ضرار » .

ونحن نخلص من هذا إلى أن القرآن الكريم الذي هو غير ذي عوج لكونه كاملا ، والذي هو قيم لكونه يحقق الكمال في غيره من المجتمعات الإنسانية والأفراد ، فيه إصلاح هذا العالم وإزالة الفساد منه ، وفيه تصريح بالمعاني الحقيقية ، والمعاني العرفية التي اصطلح عليها الناس لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية من هذا الدين الإسلامي .

في هذا الكتاب جِزْءٌ على جلب المنافع ودرء المفسدات ، فيه تنويه بالسماحة والسهولة المحمودة ، فيما اعتاد الناس التشدد فيه ، فيه التيسير ورفع الحرج عن الناس ، وفيه قبل ذلك وبعده حفظ نظام العالم ، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه ، وهو الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض واستعمره فيها .

وأما الآية الأخيرة فهي قوله تعالى : ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة : ٢] ، فكأن هذه الآية تشير إلى أن القرآن الكريم جمع ما في الكتب القديمة كلها من هدى وخير ؛ لأن النبي ﷺ يتلو هذه الصحف المطهرة التي فيها كتب قيمة ، وهي ما ورثه القرآن أو أبقى

عليه من حقائق الدين الإسلامي ، الذي جاء ديننا للعالمين من عهد آدم ﷺ إلى خاتم النبيين ﷺ .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، اللهم ارزقنا محبتك ، وأنلنا رضاك ، واشملنا بعنايتك ، وعافنا واعف عنا .

المحاضرة الثامنة عشر :

لا إكراه في الدين

قال الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وسأتناول في البداية مقدمة في الإكراه في الدين ، ثم أفسر هذه الآية الكريمة ، ثم أقف وقفة خاصة بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] ، وقوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله»^(١) ، ثم أبين وجه الحق في مسألة الإكراه في الدين ، وأضرب مثلاً من سيرة الرسول ﷺ وبه أختتم هذا الموضوع .

الإكراه في الدين عبر التاريخ :

إن المتأمل في تاريخ البشرية يجد أنها عرفت حروباً كثيرة ، تواجهت فيها أمم وشعوب ودول وعروش ، وأزهقت فيها أرواح وخربت حضارات ومدنيات ، وتقهقرت مسيرات باسم الدين ، وكان كل طرف يتحمس لهذه الحروب ويعتبرها حروباً مقدسة يتقرب إلى الله بها ، ويعتبر المخالفين لدينه أعداءً له تجب عليه حربهم .

بل وفي الدين الواحد نجد أتباع الديانة الواحدة يتفرقون شعباً وشيعاً ، ويتحاربون ويتناحرون فيما بينهم باسم الدين كما وقع عندنا في الإسلام بين الخوارج والشيعة وغيرهما من الفرق ، وكما وقع بين الفرق المسيحية فيما بينها ، وفي الفرق اليهودية فيما بينها .

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، مرفوعاً ، به .

وينظر الإنسان إلى العصر الحاضر فيجد الأرواح ما زالت تزدهق، والحروب ما زالت تشن باسم الدين، ويجد بلداناً تحتل، ونزاعات تحدث، ودائماً باسم الدين، وهذا ما يجعل هذا الموضوع في الحقيقة جديراً بالدراسة وجديراً بالبحث هذا الوضع في الحقيقة يجعل موضوع الإكراه الديني موضوعاً جديراً بالدراسة كما قلت، لا سيما في هذه الظروف التي أصاب الدين فيها تشويه كبير، ووقع الزج به في متاهات الإرهاب والعنف.

وإذا كان الإكراه في الدين يقتضي استعمال القوة والقسر فإن المجتمع الإسلامي لم ينج من دواعي ممارسة هذا الإكراه.

ومن هذه الدواعي أن بعض الآيات والأحاديث تتضمن أوامر واضحة بالجهاد ومقاتلة الكفار من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، فإذا أسيء فهمها أصبحت تشكل خطورة لا يمكن تصورها.

ومن هذه الدواعي أيضاً أن بعض الفقهاء تأثروا بالمواجهات والحروب التي عرفت تلك العصور التي وضعوا فيها كتبهم فمالوا إلى تغليب جانب الجهاد وتعميمه حتى إنهم قرروا كما جاء في كتاب «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» لابن جماعة: أنه إذا كان الكفار مستقرين في بلادهم لم يقصدوا بلاد الإسلام ولم يتعرضوا لها فجهادهم فرض كفاية، وأن أقل ما يجزئ في كل سنة غزوة فلا يجوز خلو دين الإسلام عنها، أما إذا قصدوا أرض الإسلام فإن جهادهم فرض عين.

ومن هذه الدواعي أيضاً أنه بالنسبة لعصرنا نجد كثيراً من المسلمين ممن ينظرون إلى الدنيا نظرة تشاؤم راعهم ما آل إليه أمر الإسلام والمسلمين وهالهم وضع الإنسان فيما يسمونه: بجاهلية القرن العشرين، وأفزعهم ما ينتظره من سوء المصير، وأذهب عقولهم هول الهجمة التي تشنها قوى الشر

على الإسلام والمسلمين ، وأذهلهم سكوت الأمة وهي ترى عرى الإسلام تنحل ، وثوبه ينسل ، فأصبحوا مستعدين نفسيًا وفكريًا لاستعمال القوة والمبادرة إلى السلاح ، ووجدوا في أحكام الجهاد خير سند .

ومن هذه الدواعي كذلك أن الإسلام أصبح يتكلم فيه كل أحد ، ويكتب فيه كل أحد فسموا الجهاد ثورة ، ونشر الإسلام : تصدير للثورة ، وسموا الصحابة : مناضلين ، وسموا الأنظمة : طاغوتًا ، إلى آخر ما عندهم .

إلا أنه إذا كانت هذه الدواعي كلها متوفرة كما كانت متوفرة في كل عصر من العصور السابقة ، فإن الله تعالى أرشد عباده إلى ما يحفظهم من الفتنة وذلك بوسيلتين :

الوسيلة الأولى : أنه شرع نظام الخلافة وجعل بيد أمير المؤمنين جميع مقاليد الأمة ، ولم يترك لأحد حق القيام بالجهاد إلا بإذن أمير المؤمنين وأمره ، وفرض على الجميع طاعته لتنضبط الأمور في أعلى مستوياتها ، وليكون قرار الحرب أو السلم بيد تلك السلطة العليا التي لا تتأثر بالغوغاء ولا تميل مع رياح الحماس ، وإنما تتصرف من منطلق المسؤولية والأمانة التي في عنقها أمام الله ، الذي وكل إليها أمر النظر في مصالح عباده ، واستخلفها فيهم لضبط زمامهم وتوجيههم إلى ما يحییهم .

والوسيلة الثانية : هي أن الله تعالى ترك ميراث الأنبياء بيد العلماء وجعلهم كالنجوم في السماء تهدي بهم الأمة في حلقة الظلمة ، وجعلهم أمناء هذا الدين وحفظته ، وقال : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وإذا حصرت خشيته على هذا الشكل في علمائه ، وجب على الأمة ألا تكل أمور دينها إلا إليهم .

وإذا تأملنا في واقع العالم الإسلامي وجدنا أننا لما تخلينا عن هذه التعاليم ظهر فينا من يحملون السلاح ليخوضوا باسم الدين حروبًا غير مشروعة ، إن حمل السلاح باسم الدين لابد أن يكون مبنياً على تعاليم دينية مستندة إلى أدلة شرعية من الكتاب والسنة وأقوال العلماء ، وأن يكونوا مأمورين به من طرف أمير المؤمنين .

وإذا عالجنا جانباً مهماً من جوانب هذه الظاهرة الخطيرة التي أصبح الإسلام يشكو منها ، وإذا تحدثنا عن الجهاد والغزوات والكفار والمشركين فإننا لا نعيش في الماضي ، ولا نتحدث عن أشياء مضي زمانها ، وإنما نعيش في عمق الحاضر ؛ لأن النصوص المتعلقة بهذه الأشياء هي التي تستعمل اليوم بعد تحريفها وتحويلها عن مقاصدها .

أسباب نزول ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ .

يقول الله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وأسباب

نزول هذه الآية اخترنا منها سببين :

السبب الأول : هو أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف يسمى الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وأراد أن يستكرههما على الإسلام ، وتكلم في ذلك للرسول ﷺ ، وقال له : ألا أستكرههما على الإسلام ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

ويذكر سبب آخر في نزول هذه الآية وهو أن النساء في الجاهلية كانت المرأة منهن تكون مقلاة لا تلد ، فتندر إذا ولد لها ولد لتهودنه ، فلما جاء الإسلام

وأسلمن وأجلت بنو النضير كان في اليهود بعض من أبناء هؤلاء المسلمين ، فأرادوا أن يردوهم إلى الدين كرهاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

ومعنى قوله : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ : هذا أمر في صيغة الخبر ، أي : لا تجبروا أحداً على هذا الدين الذي هو الإسلام .

ومعنى قوله : ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ : الرشد : مصدر من قول القائل : رشدت رشداً ، وذلك إذا أصاب الحق والصواب ، أما الغي : فهو مصدر من قول القائل : غوي ، يغوي ، غيًّا وغواية ، إذا عادى الحق وتجاوزه فضل ، وعليه فالمعنى : قد وضع الحق من الباطل فلا تكرهوا على دينكم فإن من حاد عن الحق بعد استبانته فإلى ربه أمره ، وهو ولي عقوبته في معاده .

ومعنى قوله : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ﴾ ، قيل : الطاغوت : الشيطان ، وقيل : الساحر ، والكاهن ، وقيل : هو كل ذي طغيان على الله ، عبد من دونه طوعاً أو كرهاً إنساناً كان ، أو شيطاناً أو صنماً أو وثناً ، وأصل الطاغوت : الطاغوت كالجبروت من قوله : طغى يطغو إذا عدى قدره فتجاوز حده ، والمعنى : من يجحد ربوبية كل معبود من دون الله ويؤمن بالله وحده ، فقد استمسك بأوثق ما يتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه وهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها أي : لا انقسام لها ولا انكسار فلا يخشى مع اعتصامه بالله خذلانه إياه .

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ : يسمع إقرار عبده بتوحيده ، ويعلم ما عزم عليه من الإخلاص في ذلك ، لا ينكتم عليه سر ولا يخفى عليه أمر .

وقد يكون المعنى والله أعلم : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لا تكرهوا مسلمًا على أمر من أمور الدين ، فإن من قال : لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . فكفر بالطاغوت وآمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها فلا يخشى عليه شيء ، وهذا مثل قوله ﷺ : «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة . قيل له : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق - وأعيدت عليه ثلاثًا - وإن زنى وإن سرق ، وأنفأ أبي ذر في التراب»^(١) .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ في سورة البقرة في سياق متكامل ، فيه بيان لواحدانية الله ﷻ وقدرته وهيمنته على السماوات والأرض وإحاطة علمه بأحوال البشر وما بين أيديهم وما خلفهم ، وإحاطة تدبيره بإحيائهم وإماتتهم وبعثهم ونشورهم ، وأنه كما يخرجهم من ظلمات العدم إلى نور الإيجاد ، كذلك يخرج من يشاء من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، هو الذي يتولى ذلك وحده ، وهو وحده القادر عليه وليس في وسع أحد أن يغير شيئًا مما أراده الله أو يستدرك على حكمه وقضائه لا بالإكراه ولا بغيره .

ومهد الله في بيان ذلك بآية من أعظم آيات الذكر الحكيم وهي قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . الآية . ثم جاءت آيتنا : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ، ومسلم (٩٤) عن أبي ذر رضي الله عنه ، مرفوعًا ، به .

هناك فريق من العلماء عمد إلى قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، وإلى شبيهاتها ، ثم نظر إلى قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وشبيهاتها ، وإلى قول الرسول ﷺ الذي سبق ذكره ، فوجد أن هناك تعارضاً بين هذه الأدلة ، وأنه لا بد أن يكون بعضها ناسخاً لبعض ، وأن ما استقر عليه العمل هو القتال . فلا بد أن يكون القتال ناسخاً لعدم الإكراه ، وناسخاً للصفح ، وناسخاً للترك ، فقال أصحاب هذا الفريق : إن قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ منسوخ بقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ .

وإذا سرنا مع أصحاب هذا الرأي فإن قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قد انتهى العمل به ولم يبق إلا السيف والجهاد والقتال ، وذلك حسب قولهم : لإعلاء كلمة الله ، ولإخضاع جميع البشرية إلى حكم الله ؛ لأن الرسول ﷺ لم يرسل إلى العرب وحدهم ، وإنما أرسل إلى البشر كافة . هذا هو الرأي الأول .

الرأي الثاني : حاول فيه أصحابه أن يسلكوا مسلكاً أخف وطئاً منه ، فقالوا : إن هذه الآيات بعضها من قبيل المنسأ ، وبعضها من قبيل المحكم ، بمعنى أن المسلمين إذا كانوا في وقت ضيق وقلة سلاح وقلة مؤنة ، فإن ما يصدق عليهم وما يليق بهم هو قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر : ٨٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر : ٩٤] ، وما إلى ذلك من هذه الآيات ومثيلاتها .

أما إذا كانوا في وقت قوة ووفرة عدد وعدة ، فإنما يليق بهم القيام للجهاد والقتال ، فإن قعدوا عن ذلك أثموا جميعاً ، ولذلك فنحن لسنا بين

آيات من قبيل الناسخ والمنسوخ ، وإنما نحن أمام آيات من قبيل المنسأ ، والمنسأ هو ما تأخر حكمه إلى وقت الحاجة إليه .

وهناك رأي ثالث وهو أن ما بين هذين الآيتين وما بين شبيهاتهما هو عموم وخصوص فقط بمعنى أن قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نزلت في أهل الكتاب خاصة ، هؤلاء لا يكرهون ولا يجبرون على الدخول في الإسلام ، وإنما يؤدون الجزية ويبقون تحت حكم المسلمين ، وأما غيرهم من أهل الأوثان والكفار فيقاتلون . فتبقى آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ خاصة بأهل الكتاب ، وآية : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ عامة في المشركين وأهل الأوثان ومن ليسوا بأهل الكتاب ، هذا هو التخريج الثالث .

التخريج الرابع : هو أن هذه الآية : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نزلت في غير العرب فقط ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بعد إسلام العرب ، وقوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله» أي أمرت أن أقاتل العرب ، أما غير العرب فلا يجب علينا قتالهم ولا جهادهم إلا في الظروف والأسباب التي يجب فيها القتال والحرب معهم . ولماذا العرب ؟ لأن العرب هو قوم النبي ﷺ العارفون بلغة القرآن والمطلعون على أسرار قومهم وعلى خفائهم ، فلا يعقل أن يتركوا خارج دين الإسلام ؛ لأنهم إذا تركوا لا يستقيم أمر الإسلام فوجب إذن قتالهم ، لاسيما أن هذا الدين جاء بلسان عربي مبين ، ونزل على أمة العرب ، فلا يعقل أن يبقى أحد من العرب خارجاً عن دين الإسلام .

أما الرأي الخامس في هذه الآية فهو أن قوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله» أي أمرت أن أقاتلهم لأهلهم على

إظهار الإسلام، فالنبي ﷺ لا يقاتلهم على اعتقاد الإسلام؛ لأن اعتقاد الإسلام أمر قلبي لا يطلع عليه أحد ولا يستطيع أحد أن يشق على قلب أحد ليعرف هل دخله الإيمان أم لا؟ وإنما يقاتلهم على إظهار الإسلام.

ويبقى التوفيق إذن بين قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» وبين قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ينصب على الاعتقاد، أي إننا لا نحارب أحدًا لحمله على اعتقاد الإسلام، وإنما إذا حاربناه فإنما نحاربه لنحمله على إظهار الإسلام، فإذا قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. اكتفينا منه بذلك.

ويستدل على هذا بحديث أسامة بن زيد والذي فيه: «أن رسول الله ﷺ أرسلهم في سرية، فطاردوا رجلًا حتى أصابوه، فلما غشوه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولكنهم ضربوه حتى قتلوه، فأخبروا النبي ﷺ، أخبر أسامة بين زيد النبي ﷺ فاستنكرها وقال له ﷺ: ومن لك بلا إله إلا الله يوم القيامة، قال: يا رسول الله، وإنه ما قالها إلا مخافة السلاح، فقال له ﷺ: ومن لك بلا إله إلا الله يوم القيامة، وما زال يرددها كما يقول أسامة بن زيد حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ»^(١). أخذوا من هذا الحديث أن الشخص نقاتله على إظهار الإسلام فقط ولا نشق عن قلبه لنرى هل أسلم أم لا؟ وفي هذا الحديث قال له ﷺ: «هلا شققت عن قلبه حتى تعرف هل من أجل ذلك قالها أم لا»، ولامه لومًا شديدًا.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، مرفوعًا، بنحوه.

هذه حصيلة الأقوال التي جاءت في هذه الآية ، وهي في الحقيقة لا تحل مشكلًا ، ومن جهة لا تصمد أمام البحث والتمحيص .

فإذا رجعنا إلى القول الأول وهو أن قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ منسوخ بقوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ . نجد أن شروط النسخ غير متوفرة إطلاقًا ؛ لأن من شروط النسخ أولاً معرفة التاريخ ، معرفة تاريخ نزول كل آية حتى نعرف المتقدم من المتأخر ، وحتى نتأكد أن الله حقًا هو الذي نسخ السابق ، وإذا كنا نجهل التاريخ فإننا لا يمكن أن نقول بالنسخ ، وإذا قرأنا «أحكام القرآن» للجصاص نجده يقول : جائز أن تكون آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نزلت قبل آية ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ .

ومعلوم أن الأحكام لا تؤخذ بالظنون ولا تؤخذ بقولنا جائز بل تؤخذ باليقين . إذن هذا الشرط وهو معرفة التاريخ غير متوفر .

والشرط الثاني الذي لا بد منه للقول بالنسخ هو التعارض ، والتعارض غير متوفر ، كما سنبينه فيما بعد ، ولذلك فدعوى النسخ باطلة ، وكذلك باطل قول من قال بأن جميع آيات الصفح والعفو والشرك وعدم الإكراه منسوخة بآيات القتال والجهاد ؛ لأن هذا سيجعلنا نطرح جزءًا مهمًا من كتاب الله تعالى .

أما القول الثاني وهو أن قوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ . هو من قبيل المنسأ وهو ما تأخر حكمه إلى وقت الحاجة إليه ، هذا أولاً إذا قلنا به ، وقلنا : بأن في وقت الحرب نأخذ بآيات القتال ووقت السلم بآيات عدم الإكراه سيجعلنا مضطربين في

أحكامنا غير مستقرين على حكم ، مع أن حكم الله تعالى لا يتبدل بتبدل الظروف والأحوال .

وزيادة على هذا فإن المسلمين لم ينتظروا إلى أن تقوى قوتهم ويكثر عددهم ليحاربوا في سبيل الله بل واجهوا إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم وهم قلة والله تعالى يقول : ﴿ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، فإذن القول بأن آية الجهاد من قبيل المنسأ غير وارد ولا معنى له ، كذلك ما قيل بأن الرسول ﷺ مأمور بقتال المشركين فقط ومنهي عن قتال أهل الكتاب ، وأن قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ خاص بأهل الكتاب ، والآيات الأخرى آية القتال عامة في المشركين ، هذا القول أيضا يردده أن الله تعالى اعتبر في بعض الآيات أهل الكتاب والمشركين ، من الكفار الذين يجب قتالهم فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، فإذا قلنا بأن آية : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ خاصة بأهل الكتاب فماذا نفعل بهذه الآية؟

ثم إذا انتقلنا إلى دليل آخر وهو أن : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ معناها : لا إكراه في الدين بعد إسلام العرب وأن قوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» أي العرب ، فإننا نجد أن النبي ﷺ قاتل العرب وغير العرب ولم يقاتل العرب أبداً من أجل إكراههم على الدين ، وإنما قاتلهم لرد عدوانهم ، ثم إنه ليس بأيدينا شيء يقيدنا بهذا القيد ، ويجعل هذه الآيات العامة خاصة بالعرب ، ويجعل

الرسول ﷺ وهو يقول : «أمرت أن أقاتل الناس» أنه يقصد العرب فقط ، هذا شيء لا يستقيم .

أما قولهم : بأننا أمرنا بقتال الناس على إظهار الإسلام . فإنه يرده أن النبي ﷺ في رواية أخرى لهذا الحديث : «أمرت أن أقاتل الناس - يقول : أمرت أن أقاتل الناس - حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» ، وفي رواية أخرى : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا إلي» ، وهذا ليس مجرد إظهار الإسلام ، «يؤمنوا بي» ، والله تعالى يقول : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي من الشرك ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة : ٥] .

إذن المسألة لا تتعلق بإظهار الإسلام ، وإنما تتعلق بالإيمان ، ولا يمكن أن نأخذ الأحاديث كحديث أسامة بن زيد دليلاً على أن المقصود هو القتال على إظهار الإسلام فقط .

ثم إن المسألة ستكون عبثاً لأننا إذا قمنا نقاتل الناس من أجل إظهار الإسلام فسنكون قد رضينا بوجود فئة بيننا تظهر الإسلام ولا تؤمن به ، وهذا ليس من مقاصد الشرع أبداً ، وليس في هذه الفئة أي خير للأمة ، نعم العلماء قالوا : بأن وجود هذه الفئة المقصود منه أن يعيشوا في وسط المسلمين لعلهم يتشبعون بتعاليم الإسلام مما يشاهدونه في وسط المسلمين وما يسمعونهم وما يعيشونه من أحكام ترغبهم في الدين ، فقبل منهم أولاً الظهور بمظهر الإسلام ، ثم بعد ذلك ينقادون من تلقاء أنفسهم نحو الدين وهذا شيء مظنون فقط ، فاليقين لا يترك من أجل الظن .

هذا بالنسبة لمن يقول بأن القتال يتجه إلى العرب ، والنبي ﷺ يقول : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ، وهذا يقتضي الإيمان ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يقيم الصلاة ولا أن يؤتي الزكاة وهو غير مؤمن .

وإذن وبما أن هذه المحاولات لم توصلنا إلى دفع الإشكال فإنه لا يبقى إلا أن نتأمل في القرآن لنبحث فيه عن الحل ؛ لأن كتاب الله تعالى هو النور الذي يمكنه أن يهدينا ، وهو وحده الذي فيه الهداية ، وإذا لجأنا إلى كتاب الله تعالى والتمسنا الهداية بنوره نجده يقول : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝﴾ [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ] [الحج : ٣٩ ، ٤٠] ، ونجده يقول : ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝﴾ [البقرة : ١٩٠] ، ونجده يقول : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَتِّلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝﴾ [نَمَّا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَّهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] [المتحنة : ٨ ، ٩] ، ونجد الخالق سبحانه يقول أيضاً في كتابه العزيز : ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝﴾ [فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [١١٢] وَتَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ [البقرة: ١٩١-١٩٤].

وآيات واضحة ، القرآن واضح كل الوضوح يبين أن الله تعالى لم يبح لنا إلا الحرب المشروعة والحرب العادلة ، وهي التي تتجه إلى الدفاع عن النفس وحماية بيضة الإسلام ، ورد عادية الأعداء وحماية حق من حقوقنا فقط .

هذه هي الظروف والأحوال التي يبيح لنا الله تعالى فيها أن نقوم بالحرب وأن نهب إلى الجهاد ، والله تعالى يحذرنا من الاعتداء ، والله تعالى لا يكتفي بأن ينهانا عن الاعتداء على الذين لم يعتدوا علينا بل يوصينا ببرهم والقسط إليهم .

فإذا لا يمكن أن نفهم قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ إلا في إطار شامل توضع فيه آيات القرآن بعضها بإزاء بعض ، وينظر إليها نظرة شمولية تستوعب الشواهد العامة والشواهد الخاصة ، وتستوعب ما هو من قبيل الكلليات ، وما يندرج تحته من جزئيات ، وما هو من قبيل القاعدة وما هو من قبيل الاستثناء من القاعدة .

فإذا وضعنا قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ في هذا الإطار وجدنا أنه لا يتعارض أبداً مع آيات القتال لأن آيات القتال إنما شرعها الله تعالى وأنزلها الله تعالى لدفع العدوان وحماية بيضة الإسلام .

وكذلك إذا نظرنا إلى قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، فلا يمكن أن يفهم إلا في هذا المنظور، ويكون تقدير كلامه ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس الذين أمرت بقتلهم حتى يشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، هكذا يكون تقدير كلامه ﷺ، فيخرج من ذلك كل من يؤمر ﷺ بقتلهم فيخرج الذين لم يعتدوا علينا، والذين لم يخرجونا من ديارنا، والذين لم يظاهروا على إخراجنا والذين لم يقفوا عرقلة في وجه نشر ديننا.

ويخرج منه المستأمنون والمعاهدون والذميون؛ لأنه في الذمي يقول الرسول ﷺ: «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة»^(١)، وبالنسبة للمعاهد يخرج من القتال بدليل قوله ﷺ: «من قاتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»^(٢).

ويخرج المستأمن والمستجير بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

وهكذا تخرج أصناف من الناس من قوله: «أمرت أن أقاتل الناس»، ويبقى الناس بين مؤمن وكافر، ولكل أحكامه، ولكل ظروفه.

وإذن الحل كما قيل، هو أن ننظر هذه النظرة الشاملة الكلية التي تنضبط فيها جميع الآيات، وتجتمع فيها الكليات والجزئيات في إطار متكامل متناسق.

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨ / ٣٧٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، مع استنكاره. وأخرجه أبو داود (٣٠٥٢) بمعناه وفي إسناده مجهولون. وانظر: «المنار المنيف» (٢٧٨)، «كشف الخفا» (٢٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً، به.

وبطبيعة الحال فإننا إذا نظرنا هذه النظرة وسلكننا هذا المسلك وجدنا أن قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، هو قاعدة وأصل من أصول الدين لا يدخله النسخ ولا ينتهي العمل به ، ولا يتوقف حكمه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا هو التأكيد على سلامة الإسلام وعلى ساحة الإسلام ، وعلى الوجه السلمي المشرق للإسلام ، وهذا ما ينبغي أن نؤكد عليه في هذه الظروف الصعبة التي يجتازها الإسلام والمسلمون ، والتي جعلت بعض الناس يؤولون الإسلام تأويلات لا تتفق مع مقتضيات كتاب الله تعالى ولا مع سنة رسول الله ﷺ .

* * *

المحاضرة التاسعة عشر :

الورع واتقاء الشبهات من مكملات الإيمان

وبالسند المتصل إلى الشيخ الإمام ، الحافظ الحجة الهمام ، أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي الفارسي ، وبه عنه قال : «باب فضل من استبرأ لدينه ، وعرضه» .

تمهيد : هذه ترجمة الإمام البخاري لهذا الحديث ، ومعلوم من منهجيته الحديثية ، أنه يضمن فقه الحديث الترجمة ، يضمن الترجمة فقه الحديث ، ولذلك ارتأى عبد ربه أن يختار عنوان اتقاء على الحكاية ، «اتقاء الشبهات ذريعة إلى الورع من مكملات الإيمان» ، أي حالة كون الورع من مكملات الإيمان .

وديدن المؤمن دائما أنه يهفو إلى تمام إيمانه ، وإلى ما يؤدي بإيمانه إلى الكمال ، لا إلى النقصان على العكس ، وهذا الحديث عقد له الترجمة - كما قدمنا - بفضل اتقاء الشبهات ، الفضل الذي يحصل لمتقي الشبهات هو الورع ، والورع هو عنوان كون المكلف لا يقف أمام الفروض والواجبات ، أي المفروضة عليه ، والواجبة عليه ، بل يكون قويا نشيطا بتعديها إلى النوافل المرغب فيها شرعا ، وهذا يرشد إليه : «المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ، فقد حللوا هذا الحديث ، وحملوه على كون المؤمن القوي يكون أحب إلى الله من الضعيف ، والفرق بينهما أن هذا وفقه الله ، فوجد قوة إيمانية ، ونشاطا بدنيا مارس به النوافل الزائدة على الفروض والواجبات ، فشملة الحديث القدسي الذي رواه مسلم ، والذي جاء فيه محل الشاهد : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي

يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه .

هذا هو المؤمن القوي الأحب إلى الله من الضعيف الذي لا يجد قوة ، ولا نشاطا يتخطى به الواجبات إلى النوافل .

ولا شك أنه دون سابقه مرتبة ، وبينهما تفاوت ملموس ، ولذلك صح التفاضل ، ويرشد إلى هذا ما جاء في نفس الحديث ، وهو «وفي كل خير» ، ولا يتصور في الطرف الثاني أن يكون مخلا بالواجبات وإلا لما كان فعله من قبل الخير أصلا ، فالذي يقابل بمن هو أحب عند الله ، وهو الذي يجد نشاطا يتعدى به الواجبات إلى النوافل ، ويكون من مشمولي من يتناولهم الحديث القدسي ، هو الذي قام بالواجبات ، ولكنه لم يستطع القيام بالنوافل الزائدة .

فصل اتقاء الشبهات : هو الحصول على صفة الورع ، التي قدمنا ما يتعلق بها ، ولكن صفة الورع ، تأتي بسبب اتقاء الشبهات ، واتقاء الشبهات هو مسبب عن قذف نور في القلب بمقتضى حكمة الله ، المسبب - أي النور القلبي - عن أكل الحلال .

وهنا ينجلي السر ، في كون الحديث ابتدئ فيه بالحلال ، الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات ، ووقع الختم بالقلب : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

وانتقلنا إلى صميم الحديث ، وإن كنا لازلنا في الترجمة لإبانة منهجية الإمام البخاري الحديثية ، وبالأخص في الصحيح ، وهو أنه يضمن فقه الحديث الترجمة ، يضمه الترجمة .

الحلال قوبل بالقلب ، قلنا : بأن بأكل الحلال ينور القلب ، إذا نور القلب ، نتج عن ذلك اتقاء الشبهات ، إذا مارس اتقاء الشبهات وكان على حذر منها ، وكلما رأى في الأمر شبهة تنكبه ، اتصف بصفة الورع .

وكان ممن يشملهم قوله ﷺ في الحديث الآخر : «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير ؛ لأن الكل حافظ على الواجبات ، بيد أن هذا فاق الآخر بكونه تخطى الواجبات إلى المستحبات إلى الأشياء المرغوب فيها ، النوافل مطلقا الزائدة على الفرض .

«الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات» .

تنسيق البخاري للحديث : قبل الخوض في الحديث ، لا بأس بالنظر إلى تنسيق الإمام البخاري لهذا الحديث ؛ لأن تنسيقه دائما يكون مبنيا بناء ماسا بصميم الحديث ، فنراه وسطه في «صحيحه» بين حديث أبي سفيان ، وبين حديث وفد عبد القيس ، وسط حديث الدرس بينهما ، لم ؟ إذا بحثنا وجدنا أن السر في ذلك هو أن الغرض من هذا الحديث هو بيان أن لفظ الدين إذا أطلق عم الإيمان والإسلام وعموم الأعمال ، فهو قد وسط حديث الدرس بين حديث أبي سفيان ؛ لأن فيه جُمع في بعض فقراته التي هي من جملة الفقرات التي دار الحوار بها بين هرقل عظيم الروم ، وبين أبي سفيان ، بصفته رئيس الوفد ، ومما جاء فيها قول هرقل : سألتك - مخاطبا أبا سفيان - سألتك هل يزيدون - أي من دخلوا في الإسلام - هل يزيدون أم ينقصون ، فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فأجبت بلا ، وكذلك الإيمان ، فهذا هو الإيمان ذكر أولا ، والدين ثانيا مع أنهما بمعنى .

أستفيد من هذا أن الدين قد يطلق على خصوص الإيمان ، وإن كان يطلق على الجميع ، هذا بالنسبة للحديث السابق ، بالنسبة للاحق ترجم له الإمام البخاري ، وهو حديث وفد عبد القيس ، بأداء الخمس من الإيمان ، أداء الخمس من الإيمان ، هذا عمل من الأعمال ، هو من الإيمان ، نعم فيكون الإتيان به لاحقا لأجل بيان أن الإيمان قد يطلق على عموم الأعمال من بينها أداء الخمس ، وهذا يرشد إليه أنه أتى بحديث ، وهو حديث أبي هريرة : «إن الدين يسر» ، لأنه عام في العناوين الثلاثة الإيمان والإسلامي وعموم الأعمال فإنه وإن كان حديث أبي هريرة «إن الدين يسر» وإن كان محتملا أن المراد به خصوص الإيمان الذي هو التصديق القلبي ، ومحتملا أن المراد به خصوص الإسلام الذي هو الانقياد ، ولكن الأظهر ، أنهما مرادان معا ، وذلك لتلازمهما ، أما عن عموم الأعمال فلأنها التي تتصف بالعسر واليسر ، ولفظ الحديث فيه : «إن الدين يسر» .

الإيمان بمعنى التصديق القلبي ، لا يوصف باليسر والعسر ، إذن بقي وصف اليسر مُتَضَبِّاً على الأعمال ، فمن ثم كان حديث أبي هريرة : «إن الدين يسر» عاما في الإيمان والإسلام ، وعموم الأعمال ، هذا من حيث التنسيق .

رواة الحديث : أما بالنظر إلى السند ، فإننا نجد الإمام البخاري ، يروي حديث الدرس عن أبي نعيم .

أبو نعيم : هذه كنيته ، أما اسمه فعمر بن حماد بن طلحة القرشي الكوفي القناد ، نسبة إلى القند ، وهو عسل قصب السكر ، هذا شيخ البخاري الذي يروي عنه حديث الدرس ، وهو أبو نعيم من حيث التوثيق قد وثقه ، قد قال فيه كل من ابن معين وأبي حاتم : صدوق ، وقال

فيه مطين : ثقة ، بيّد أن أبا داود قال : إنه من الرافضة ، وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين ومائتين (٢٢٢) .

هنا لنا وقفة ، قوله : من الرافضة ، هذا مبتدع ، ابتداعا صريحا ، كيف يؤمن على حديث الرسول ، ويتخذ الإمام البخاري ، وما أجدره بالتحري ، بل بغاية التحري والمعرفة ، وسعة الاطلاع ، شيخا يروي الحديث عنه ، لا إشكال أن هذا المبتدع ، لم يكن داعية ومعلوم أن أئمة السنة اختلفوا في رواية المبتدع ، على أقوال أربعة ، ولكن الذي انفصلوا عليه من الخلاف ، وهو الذي يهمننا ، هو أن رواية المبتدع قد تقبل ، وقد لا تقبل ، وبعبارة فيها تفصيل ، إن كان داعية إلى بدعته ، لم تقبل روايته ، لاحتمال أن يروي ما يؤيد به بدعته ، أما إن لم يكن داعية ، فالرواية عنه مقبولة ، وهذا ما نلاحظ في غير هذا الباب ، وبالنسبة لغير هذا الحديث ، أنه قد يروي الإمام البخاري ، مع شدة تحريه وسعة اطلاعه ، ومهارته في الميدان ، رغم ذلك نجده ، يروي عن بعض المبتدعة كهذا ، ولكنه عند البحث لا يوجد أنه داعية ، وإلا لما روى عنه .

هذا أبو نعيم أحد شيوخ البخاري يروي حديث الدرس عن زكرياء .
زكريا : و زكرياء هذا هو ابن أبي زائدة ، الحافظ الكوفي الذي وثقه الإمامان ، أحمد جبل السنة ، وأبوداود ، غير أن هذا الأخير قال فيه إنه مدلس ، وهنا لنا وقفة أيضا ، هو مدلس تقبل روايته ، لا يكون لنا وقوف وبحث ، إلا إذا روى من رمي بالتدليس عن شيخه بـ «عن» ، وكان في السند عنعنة .

أما إذا روى من رمي بالتدليس بطريق التحديث فإنها تقبل ولا إشكال فيها ، يعني ولا يوصف السند بالضعف ، أما إذا روى بالعننة فحيثئذ

يتسرب الضعف إلى السند، ويعتبر السند ضعيفا ما دمنا لم نقف على أن نفس هذا الذي رمي بالتدليس، ثبت أنه روى عن شيخه نفسه الذي روى عنه بـ «عن» بواسطة التحديث، وبطريق التحديث، وإلا قبل ولم يكن في السند الذي عنعن فيه ضعفٌ أبداً، وهذا السند من هذا القليل، وهذا الراوي الذي يروي عنه حديث الدرس شيخ البخاري، وهو زكرياء بن أبي زائدة، هو رمي بالتدليس كما قال أبو داود، ولكن الحافظ، وكفى به حجة أنه بعدما وصفه بذلك، أي التدليس، قال: ولم أره في الصحيحين وغيرهما راويا عن الإمام الشعبي إلا معنعنا، إلا وهو يروي عنه بـ «عن». قال: إلى أن وقفت في فوائد ابن الهيثم من طريق يزيد بن هارون عن زكرياء، قال: حدثنا الشعبي، لما ثبت في فوائد ابن الهيثم أنه روى عن الشعبي بطريق التحديث، حيث ثبت هذا ارتفع الإشكال، وزال أمر التدليس؛ لأن هذا الشيخ الذي روى عنه بالنعنة هنا، ثبت في فوائد ابن الهيثم أنه روى عن شيخه نفسه، وهو الإمام الشعبي، بطريق التحديث، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائة (١٤٨)، وهو يروي الحديث عن أحد أعلام السنة.

الشعبي: وهو الشعبي، واسمه عامر الحميري الشعبي، الذي قال فيه أبو مجلد: ما رأيت فيه أفقه من الشعبي، وقال فيه العجلي: مرسل الشعبي صحيح، وقال فيه ابن عينة، كانت الناس تقول: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، وكانت وفاته سنة ثلاث ومائة (١٠٣)، وهو يروي عن الصحابي الجليل، النعمان بن بشير رضي الله عنه.

النعمان بن بشير: النعمان بن بشير هذا هو أنصاري خزرجي، وهو أول مولود أنصاري ولد في الهجرة، وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغ

عددها إلى مائة وأربعة وعشرين حديثاً «١٢٤»، اتفق الشيخان على خمسة منها، وانفرد الإمام البخاري بواحد، وانفرد الإمام مسلم بأربعة.

شرح الحديث : والحديث الذي يروى والمعني بالدرس هو : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات» إلى آخر الحديث .

«الحلال بين» : الحلال بين المراد ببين الحلال ، ما نص أو أجمع على حليته ، وقد ورد في عدة آيات ، منها الآية الثانية والثلاثون من سورة الأعراف وهي قول الله جل علاه ، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، تلك الآية التي جمعت بين ثياب الزينة ، والطيبات من الرزق ، وسائر المستلذات التي أباحها الله لعباده .

«الحرام بين» والحرام بين ، وبين الحرام ، هو ما نص أو أجمع على حرمة ، وتشير إليه الآية بعدها ، وبالإثر ، وهي قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ وعبر عن الذنوب في الآية بالفواحش والكبائر ، ونص في الآية على أن المراد عموم الذنوب سواء منها الظاهرة والباطنة ، الظاهرة من قتل النفس بغير حق ، والزنا ، وشرب الخمر ، والتعامل بالربا ، والسرقة ، وما إلى ذلك من المحرمات ، وبالأخص الكبائر منها ، والمنصوص عليها في مختلف الآيات والأحاديث .

وكذلك الباطنة من كِبَرٍ وَعُجْبٍ وَرِيَاءٍ وَسَمْعَةٍ مَثَلًا .

الشبهات : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات» هذه بيت القصيد ، ولنا أن نعتبر قوله ﷺ : «وبينهما مشبهات» أنها المحور الذي يدور عليه هذا الحديث ، والمحور الذي يدور عليه الحديث هو : «بينهما

مشبهات» ، لذلك ينبغي للباحث أن يحصر النظر في هذا المحور ، في عناصر ثلاثة :

العنصر الأول : الروايات التي ورد بها الحديث ، وهي أربع .

العنصر الثاني : هل هذا التشابه ذاتي أم عارض .

العنصر الثالث : البحث عن الأحاديث التي وردت في معنى حديث الدرس لتربط به ، وتستخلص النتائج من المجموع ، لا من الفرد ، وكذلك ما للحديث اتصال به من القواعد الأصولية ، كمسألة الشك ، وانقسامه إلى الأقسام الثلاثة في تقسيم توسّع فيه الإمام القرافي ، وكتقسيمه لسد الذرائع ، فإن هذه قواعد أصولية ، لها ارتباط بالحديث ، كما سيتضح .

روايات مشبهات : «وبينهما مشبهات» أمّا بالنظر للروايات الأربع ، فقد ورد مشبهات ، ومشتبهات ، وشبهات ، ومتشابهات ، ولضيق الوقت لا نطيل فإن هذه الصيغ الأربع ، يجمعها معنى واحد ، فلا تفاوت في المعنى أبداً ، ما هذا المعنى ، هو ما حاز الشبه من الطرفين ، طرف الحلية ، وطرف التحريم ، ما حاز الشبه يصدق عليه أنه مشبه ، يصدق عليه أنه متشابه ، يصدق عليه أنه مشتبه ، يصدق عليه أنه شبهة .

أما أن توحد هذه الصيغ الأربع في المعنى الواحد ، فلا يكون بينها فرق للفرار من إشكال نقع فيه ، فلنا أن نحتاط قبل الوقوع ، وهو أن يقال من الصيغ المتشابهة ، وكيف المتشابه يرد في القرآن أو في السنة الصحيحة ، مع أنه لا يوجد بالاستقراء وتتبع المفسرين والمحدثين ، لا يوجد لفظ متشابه لا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ، بالنسبة للأحكام ، يعني في آيات

الأحكام، وسنن الأحكام، لا يوجد لفظ متشابه البتة، وكون لفظ المتشابهات هنا، هذه الرواية الرابعة، يوقعنا في الإشكال، ولكن نجيب، قبل الوقوع في الإشكال، نجيب من الخلف قبل الوقوع فيه، وذلك بأن هذا المتشابه ليس هو المتشابه في اصطلاح المتكلمين، والذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿مِنْهُ ءَايَتٌ مُحْكَمَةٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ﴾ [آل عمران: ٧].

ويوجد الخلاف على مذاهب ثلاثة: مذهب السلف لا يُؤوّل ويُؤوض، ومذهب الخلف يُؤوّل، وهل هو الأعلم...؟

هذا بحث مستفيض لا نتصل به إلا من محل مباشر، وهو أنه ليس المراد بالمتشابه هنا، ذلك المتشابه، ذلك من اصطلاح المتكلمين ولا اتصال للأصولي به، والذي للأصولي الاتصال به، هو المتشابه بمعنى المشبه وبمعنى المشتبه إلى آخر الصيغ الأربع، وهو ما حاز الشبه من الطرفين، طرف الحلية، وطرف التحريم، يعني ولم يرد نص بأنه محرم، هذه الجزئية محرمة، ولم يرد نص بأنها حلال، وهي حازت الطرف من الشبهين، هنا نقف ونقول: من كان محرزا وفقه الله وأحرز على صفة الورع يتنكب هذا الذي له شبه بالطرفين، احتياطا لجانب التحريم، ومن كان دونه، وهو الضعيف، الحديث السابق، ارتكب ذلك، فإن قلت له، وربما كان حراما، يقول لك: الواقع أنه لم يرد دليل على تحريمه، ولا على إباحته؛ لأن الأصل في الأشياء الإباحة، المتشابه قلنا: هذا هو المراد به، والذي يهم الأصولي، هذا التشابه الذي يقع فيه المجتهد، والذي أشار إليه النبي ﷺ في الحديث، بقوله: «لا يعلمهن كثير -أو لا يعلمها كثير، أي المشبهات- من الناس»، يعني وإنما يعلمها القليل، وهم الخاصة المجتهدون،

الذين يتوفرون على أهلية الاجتهاد، واستنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ: «لا يعلمها كثير من الناس» في رواية، وخير ما فسرته بالوارد في حديث الإمام الترمذي، ورد: «لا يعلمها أهي من الحلال أم من الحرام كثير من الناس، وإنما يعلمها الخاصة، وهم المجتهدون، ذوو الكفاءة والأهلية».

عندما يقع المجتهد في الاشتباه، ويشتبه عليه دليان، له مسطرة أصولية مقررة في الأصول، وهي أنه عند تعارض دليلين ينجح إلى النسخ، فإن علم المتأخر، فإنه يعتبر ناسخا للمتقدم، وإن لم يكن النسخ انتقل إلى الجمع، فإن أمكن الجمع، وقع الجمع، وإن أمكن الجمع بين بيتين -يقول ابن السبكي في «جمع الجوامع»- جمع، وإن تعذر عليه الجمع انتقل إلى الترجيح، وطرقه مقررة في مصطلحات أهل السنة، وكذلك في اصطلاح الأصوليين، فإن رجح أحدهما، عمل بالراجح، وترك المرجوح، وإن تعذر الترجيح، فماذا يصنع هذا المجتهد؟

أشار له المرشد الأعظم ﷺ، بأنه يستفتي نفسه، ففي حديث الفاروق أن النبي ﷺ قال: «الحلال بين والحرام بين، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، هذا أمر من النبي ﷺ للفاروق.

وكذلك في حديث وابصة سألت النبي ﷺ عن البر والإثم فقال: «يا وابصة استفتي نفسك، واستفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب». ها هو ﷺ يرشد وابصة إلى استخدام الرأي، فالرأي ثابت بالسنة النبوية، بالنظر إلى الحديثين، يعني بالقول -ومعروف أن تحديد السنة أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته- هذان الحديثان ما فيهما يدل على ما هو من باب القول، فهو سنة، إذن استخدام الرأي عندما يقف

المجتهد ، هذا مقرر بالسنة ، هذا سنة ولا إشكال ، كذلك يضاف إلى أن هذا وهو استخدام الرأي ثبت أيضا بالتقرير ، وبإقراره ﷺ معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن ، قال : «بِمَ تقضي؟» إلى أن قال : «أجتهد رأيي» ، أخيراً . هذا محل الشاهد ، «أجتهد رأيي» ، قال : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله» فأقره على ذلك . إذن استخدام الرأي عند التوقف عليه ، وعند الحاجة ، هذا مشروع وسنة مقررة بالقول والإقرار .

استبرأ لدينه : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات ، فمن اتقى المشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه» استبرأ لدينه ، بمعنى تدينه ، استبرأ لتدينه من الاختلال بحصول النقص فيه ، في تدينه ، بارتكاب الشبهات ، ولعرضه حتى يكون في مأمن من الطعن ، الطعن باتهامه بعدم المبالاة بمحارم الله ، والبعد عن الورع ، هذا ما يتهم به ، وهذه ثلثة تكون في شخص ، فلذلك كان من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه كما استبرأ لدينه بمعنى تدينه .

«من» : «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات -رواية البخاري التي بين أيدينا- كراخ» ، وهي الرواية ، الوجه الإعرابي فيها أن «من» شرطية ، وذكر الجواب ، ولم يذكر الجواب في رواية الإمام البخاري ، في رواية الإمام البخاري لا تكون شرطية ، تكون موصولية ، فتحتاج إلى خبر ، فالخبر هو «الكاف» «كراخ» فيكون التقدير : «الذي يتقى الشبهات يكون كراخ» .

ف «كراخ» الكاف اسمية ، بمعنى مثل ، وهو خبر عن «من» بمعنى الذي الموصولة ، هذا على رواية البخاري التي وردت بحذف الجزاء ، فلذلك انصرفنا من الشرط ، من الشرطية إلى الموصولية ، أما على رواية

الدارمي فهي هكذا، «فمن وقع في الشبهات، وقع في الحرام» وقع في الحرام، هو الجواب.

فالجواب في رواية الدارمي مذكور، جاء بعده «كراع» الصورة التمثيلية، جاءت بعده «كراع» لكي تكون مستأنفة، جملة مستأنفة.

«اتقى» نرى التعبير بـ «اتقى» ولم يقع التعبير بـ «ترك» مع أنها بمعنى، فما السر؟ قال: السر هو أن التعبير بـ «اتقى» هو يفيد أن ترك المشبهات، لا يكون مقبولا شرعا إلا إذا كان خاليا من الرياء، بمعنى أن صاحبه تركه، مشاهدا ربه إيمانا به وبما جاء في كتابه وسنة نبيه، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة، هذا الذي وقع التعبير بـ «اتقى» إلى جانب أنه وقع التعبير بـ «اتقى» ولم يقع التعبير بـ «ترك»، وإن كانا بمعنى؛ وذلك لأن اتقى تُصور لنا وتشخص لنا أن هذا المتقي وهذا التارك للشبهات ضرب سورا منيعا بينه وبين محارم الله، وذلك بترك الشبهات.

كراع حول الحمى: فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات - في رواية الدارمي - وقع في الحرام، وكان «كراع».

شبه ﷺ المحارم بالحمى، محارم الله، بالحمى المعهود لدى العرب في الجاهلية، كان عملا يقوم به رؤسائهم، تبعهم بعد ذلك بعض الملوك يقتطعون أرضا للصالح العام، تكون محرمة على الدواب، على دواب الأشخاص، بمعنى أن الراعي يكون على حذر؛ لأنه سيقع في العقاب من طرف الرؤساء، رؤساء الجاهلية، رؤساء القبائل، ومن طرف الملوك إذا كانت الأرض معينة للصالح العام، فلا معنى للاقتراب منها، حتى لا يقع الإنسان في الشرك، ويقع في المحارم في محارم الله، شبهت على طريق

التمثيل البياني لإخراج المعنى من حيز التعقل إلى حيز المشاهدة، فكأننا نشاهد أنه شبهت محارم الله بالحمى، ولزم تشبيه الاقتراب من المحارم بالاقتراب من الحمى، فكما أنه يحترز على الحمى خوف عذاب الملوك والرؤساء، بل إذا كان ذلك للاحتراز من عذابهم، فأولى بذلك محارم الله، بمعنى معاصيه، فإنك تجنبها بصفتك مؤمناً بطريق الأولى والأحرى بل لا نسبة؛ لأن هذا عمل العبد، وهذا عمل الرب، هذا شيء شرع على أن المعاقب له هذا الذي اجتاز المحارم، يعني اجتاز الشبهات، ووقع في الحمى بالنسبة للملوك والرؤساء، هو يكون متوعدا بالعقاب، وإذا كان هذا يحترز لأجل عذاب الخلق والعبيد لله، فما بالك بالله، كيف تتهجم على محارمه، ومعاصيه، كيف لا ترتعد فرائصك في التنكب عنها وفي اجتنابها حتى لا تقع فيها، فيكون وراءك عقاب هو أشد لأنه عقاب الله.

والرب رب، والعبد عبد، تكون معذبا حينئذ بعقاب الله، وهو أشد، وبعباده وهو أشق.

يوشك أن يواقعه: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام» - علي رواية الدارمي - كراع حول الحمى يوشك أن يواقعه» وما هو السر الذي من أجله وقع التعبير بـ «يوشك أن يواقعه» ولم يقع بـ «وقع في الحرام» كما في رواية الدارمي، ما ذلك إلا لفرق، نعم، وقع في الحرام؛ لأن الواقع، أن من تساهل في ارتكاب الشبهات، لا يلبث أن يقع في الحرام، بحيث بالمداومة على الشبهات يجد نفسه في الحرام في فترة ما.

فلا يلبث أن يجد نفسه في الحرام ، لذلك وقع في رواية الترمذي التعبير بـ «واقع» لأن المتوقع كالواقع ، «كراع حول الحمى يوشك أن يواقعه» .

ألا : ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله محارمه ، التعبير بألا نجده من هنا ابتداءً وسيتهي في الآخر ، بقوله عليه الصلاة والسلام : «ألا وهي القلب» تعدد أربع مرات ، وذلك لنكتة بيانية كما تعلمون وهي الاعتناء بما بعدها لأنه مؤكد لما قبلها ، ها هو ﷺ في الحديث بعد ما أتى لنا بالصورة التشبيهية ، أعقبها بـ «ألا» وإن لكل ملك حمى ، التعبير بـ «ألا» لإفادة أن ما بعدها مؤكد لما قبلها ، وهي الصورة التشبيهية ، فهو تأكيد لتجنب واجتناب الشبهات .

القلب : ثم أردف ﷺ ، أردف بقوله : «ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» ، وسبق لنا حتى نقرن صدر الحديث بآخره ما استطعنا لنكون دائماً في جو استحضار المعنى بتمامه .

قلنا إنه صدر الحديث بـ «الحلال بين» ، وختم بـ «ألا وإن في الجسد مضغة ألا وهي القلب» عبر عنه بمضغة وهو قدر ما يمضغ من اللحم ، وذلك للتنقيص على أنه وإن صغر حجماً ، وكان مقدار مضغة ، فقد كبر معنى ، فهو له اختصاصات امتاز بها عن غيره ، ومن ثم كان سلطان الأعضاء سلطان الذات ، القلب كان سلطان الذات ، من خصائصه أنه محل النية ، ومعلوم أن النية قوام العمل بشاهد قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» .

وهو متبوء العقل ، على قول ، وهو مأوى العلم الذي به يسمو الإنسان ، وبه يميز الخبيث من الطيب ، وهو مهبط الإلهام ومورد الأسرار ، إلى غير

ذلك من الخصائص ، ومن ثم نتج عن ذلك أنه سلطان الذات ، أن سائر الأعضاء تابعة له ، فحيث صلح صلحت كلها ، فأدعى ذلك إلى القول بأن الذات كلها تصلح ، والعكس بالعكس ، وما ذاك إلا أساسا بالنظر إلى ما يتناول الحلال أو ما يروج فيه ، هل هو حلال أو حرام ، إن كان حلالا تنور قلبه ، فنشأ عن ذلك كما قدمنا ، فنشأ عن ذلك أنه يتقي الشبهات ، فينشأ عن ذلك أنه يتصف بصفة الورع وما أحسنها وعلى العكس من ذلك ما إذا تناول الحرام ، فإن قلبه مظلم ، وبالتالي يأخذ في ارتكاب الشبهات ، فيفسد القلب وتتبعه الأعضاء ، وبالتالي تخر معنوية الجسد كله ؛ لأنها إذا كانت خالية من الصلاح فهي كالعدم بل عدمها أولى .



فهرس الموضوعات

٥	 مقدمة
٧	 المحاضرة الأولى : الرسول المعلم ﷺ
٧	 إمام المحدثين
١٠	 تخريج الحديث
١٢	 ترجمة رواية الحديث
١٥	 شرح الحديث
١٨	 ثمرات من هذا الحديث
٢٠	 صفات الرسول ﷺ التعليمية
٢٣	 تحذيره ﷺ من «علم لا ينفع»
٢٣	 شخصية الرسول ﷺ التعليمية
٢٥	 أساليب الرسول ﷺ في التعليم
٢٥	 الحوار والاستجواب
٢٦	 القسم
٢٧	 السؤال
٢٧	 تبين الشبهات
٢٨	 التمهيد
٢٩	 تنبيه السائل لغير ما سأل عنه
٢٩	 ضرب المثل

٣٠	استخدام اليد
٣٢	الرسم
٣٣	التعليم العملي
٣٤	القصص
٣٥	القياس
٣٧	اقتناص المناسبات للتعليم
٣٨	تعليم الأطفال
٤٣	المحاضرة الثانية : حياة الشهداء
٤٣	فضل الجهاد
٤٥	أسباب النجاح
٤٨	الوحدة الإسلامية
٥١	جهاد النفس والأعداء
٥٤	جهاد الرسول
٥٦	أسباب انتصار المسلمين
٥٩	مظاهر حب الله للإنسان
٦٠	عاقبة الجهاد
٦٨	المحاضرة الثالثة : أي الإسلام خير؟
٦٨	متن الحديث من «صحيح البخاري»
٦٨	إملاء وشرح
٦٩	المدخل

٧١	 خلافة الإنسان في الأرض
٧٣	 الأخلاق في الإسلام
٧٦	 الإيمان والعمل
٧٧	 شعب الإيمان
٧٧	 تمهيد
٧٨	 أعلى شعب الإيمان
٧٩	 شعب اللسان
٧٩	 شعب الإيمان البدنية
٨١	 شرح الحديث
٨٢	 هل الحديث موقوف أم مرفوع ؟
٨٢	 الإنصاف
٨٣	 بذل السلام
٨٤	 الإنفاق
٨٥	 رسالة المسلمين
٨٧	 حقيقة الإسلام
٨٩	 صفات المجتمع المسلم
٩٠	 صفات المسلمين الأوائل
٩٤	 إطعام الطعام
٩٨	 من أهداف المسلم ضمان الطعام للناس
١٠٠	 المال مال المسلمين

- ١٠٢ دعوة الإسلام للسلام
- ١٠٤ سلام المعاملة
- ١٠٥ السلام العائلي
- ١٠٦ سلام المجتمع
- ١٠٧ السلام الدولي
- ١٠٩ المحاضرة الرابعة : رؤية النبي ﷺ في المنام
- ١١٠ الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الأحلام
- ١١١ روايات الحديث
- ١١٣ آراء الشراح في معنى هذا الحديث النبوي
- ١١٥ لا يرى الرسول ﷺ إلا الصحابة
- ١١٨ المحاضرة الخامسة : المستحقون للصدقات
- ١١٩ مقاصد القرآن
- ١٢١ الزكاة
- ١٢٤ الأشياء التي تجب فيها الزكاة
- ١٢٥ مستحقو الزكاة
- ١٢٦ الحقوق الأخرى غير الزكاة
- ١٢٩ المحاضرة السادسة : الزكاة في النظام المالي في الإسلام
- ١٢٩ تمهيد
- ١٣٠ المال في النظام الرأسمالي
- ١٣١ المال في النظام الشيوعي
- ١٣٣ النظام المالي في الإسلام

المحاضرة السابعة : قواعد للمحافظة على المال في الإسلام	١٣٥
اختبار اليتيم	١٣٥
تحريم الربا	١٣٥
تحريم القمار	١٣٥
الحجر على السفهاء	١٣٦
تحريم الإسراف	١٣٦
كتابة العقود	١٣٧
المحاضرة الثامنة : قواعد تخفيف طغيان المال	١٣٨
الوصية	١٣٨
الإنفاق في سبيل الله	١٣٩
تحريم الاكتناز	١٣٩
الميراث	١٤٠
الضمير	١٤٠
المحاضرة التاسعة : مصارف الزكاة	١٤١
الفقراء والمساكين	١٤٢
العاملون على الزكاة	١٤٤
المؤلفة قلوبهم	١٤٥
في الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل	١٤٩
المحاضرة العاشرة : تأملات في قصص القرآن	١٥١
تفسير الآية	١٥٢

١٦١	من قصص الأنبياء
١٦١	يوسف عليه السلام
١٦٣	نوح عليه السلام
١٦٥	إبراهيم عليه السلام
١٦٦	موسى عليه السلام
١٦٨	عيسى عليه السلام
١٧٠	المحاضرة الحادية عشر : المؤمن قوي أمين
١٧٤	قوة الرسول ﷺ المادية والمعنوية
١٧٥	القوة في القرآن الكريم
١٧٧	احرص على ما ينفعك
١٧٨	الاستعانة بالله
١٧٩	الكيس
١٨٠	ولا تعجز
١٨١	القدر
١٨٢	الإسلام استيعابي
١٨٢	الزعامة والقوة
١٨٢	جبريل عليه السلام
١٨٥	موسى عليه السلام
١٨٦	يوسف عليه السلام
١٨٨	القوة والأمانة

١٩١	القوة والعقل
١٩٦	من مظاهر القوة والأمانة
١٩٩	من علامات الساعة تضييع الأمانة
٢٠١	القوة والأمانة (مرة ثانية)
٢٠٦	المحاضرة الثانية عشر : صادق الإيمان في ميزان القرآن
٢٠٧	المؤمنون
٢١١	وجلّت قلوبهم
٢١٤	زيادة الإيمان
٢١٨	التوكل على الله
٢١٩	المحاضرة الثالثة عشر : العبودية لله
٢٢٠	سجود الكائنات
٢٢١	المخلوقات الجامدة
٢٢٢	الكائنات الحية
٢٢٢	البشر
٢٢٣	لماذا يخطئ الإنسان؟
٢٣٢	المحاضرة الرابعة عشر : الإسلام دين الحنيفية السمحة
٢٣٣	النقطة الأولى : قاعدة التكليف ، وقاعدة التخفيف
٢٣٨	على أي أساس قامت قاعدة التخفيف؟
٢٤٢	أدلة وبراهين
٢٤٨	ألفاظ مشتبهة

- هل المشقة مقصودة؟ ٢٥٣
- المشقة المعتبرة شرعاً ٢٥٤
- المشاق التي توجد تنقسم إلى قسمين ٢٥٤
- رفع المشقة حق لله أم حق للعبد؟ ٢٥٥
- منهج التخفيف ٢٥٧
- الطريقة الأولى ٢٥٧
- الطريقة الثانية ٢٥٨
- الطريقة الثالثة ٢٥٨
- الطريقة الرابعة ٢٥٩
- الطريقة الخامسة ٢٥٩
- الطريقة السادسة ٢٥٩
- الطريقة السابعة ٢٦١
- مبررات التخفيف ٢٦٢
- حد التخفيف ٢٦٦
- ضرر التساهل وضرر التشدد ٢٧٠
- تخفيف الراعي عن الرعية ٢٧٢
- المحاضرة الخامسة عشر: القرآن والعلم ٢٧٥
- القرآن معجزة محمد ﷺ ٢٧٧
- الحروف المقطعة والإعجاز ٢٧٨
- من الإعجاز القرآني ٢٨٤

٢٨٤	الإعجاز بالأخبار الماضية
٢٨٥	الإعجاز بالأخبار اللاحقة
٢٨٦	أسرار الكون والإعجاز القرآني
٢٨٧	العلم في الإسلام
٢٨٨	الحث على طلب العلم
٢٨٩	ثلاث مسائل هامة
٣٠٣	المحاضرة السادسة عشر : قدر الأمانة
٣٠٥	مقارنة بين جزأي الآية
٣٠٨	الأمانة في الإسلام
٣١٢	الأمانة هي المسئولية
٣١٥	الدين النصيحة
٣١٧	دعوات خالصة
٣١٩	المحاضرة السابعة عشر : الدين القيم
٣٣٤	المحاضرة الثامنة عشر : لا إكراه في الدين
٣٣٤	الإكراه في الدين عبر التاريخ
٣٣٧	أسباب نزول : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
٣٤٠	بين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ والأمر بقتال الكفار
٣٥٢	المحاضرة التاسعة عشر : الورع واتقاء الشبهات من مكملات الإيمان
٣٥٢	تمهيد
٣٥٣	فضل اتقاء الشبهات

٣٥٤		الحلال بين والحرام بين
٣٥٤		تنسيق البخاري للحديث
٣٥٥		رواة الحديث
٣٥٨		الحلال بين
٣٥٨		الحرام بين
٣٥٨		الشبهات
٣٥٩		روايات «مشبهات»
٣٦٢		استبرأ لدينه
٣٦٧		فهرس الموضوعات



نور

هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الثاني

المحاضرة التاسعة عشر:**التنافس في الخير للغير**

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه آمين :

باب الاغتراب في العلم والحكمة وقول عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتعلمون على كبر سنهم .
حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني إسماعيل بن أبي خالد على غير ما حدثناه الزهري قال : سمعت قيس بن أبي حازم قال : سمعت عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ».

هذا الموضوع قسمته إلى مباحث ثلاثة :

المبحث الأول : فيما يرجع للترجمة .

المبحث الثاني : فيما يتعلق بسند الحديث .

المبحث الثالث : فيما يرجع لبيان معنى الحديث الشريف .

ترجمة الحديث :

ففيما يرجع للترجمة نجد الإمام البخاري يقول : باب الاغتراب في الحكمة والعلم .

هذا الباب هو من الأبواب التي ذكرها الإمام البخاري في كتاب العلم .

الإمام البخاري له كتب على قاعدته في التأليف ، كتاب العلم كتاب الإيمان . . . إلخ ذكر فيها عدة أبواب ، باب فضل من علم ، وعلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، باب الخروج في طلب العلم ، باب الجلوس لأهل العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة ، وقول عمر رضي الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا .

الاجتباط:

الاجتباط هو مصدر اغتبط . يقال : اغتبط في الشيء إذا فرح به ، وتعلقت همته به . وفعله اغتبط ، اغتبطه هو كغبط وغبط . غِطَّ يَغْطِطُ وغبط يَغْطِطُ . فالمعنى واحد . فالغبطة والاجتباط ، هو أن يتمنى المرء مثل النعمة التي هي على المنعم عليه كأن يتمنى مثل دار سكناه ، أو يتمنى مثل ضيعته ، أو يتمنى زوجته العفيفة الصالحة الطاهرة ، وغير ذلك من الأشياء ، فالغبطة غاية ما هناك أن الإنسان يتمنى مثل ذلك الشيء .

أما إذا تمنى نفس النعمة التي هي عند الشخص ، أو تمنى زوالها عنه مطلقا ، سواء انتقلت إليه أو لم تنتقل ، فلا تسمى غبطة ، وإنما تسمى حسدا . وسيأتي مزيد بيان لهذا عند الكلام على الحديث عند قوله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين » .

العلم:

باب الاجتباط في العلم والحكمة ، هكذا يقول البخاري . الاجتباط في العلم المراد بالعلم . هناك من قال : إنه لا يعرف ، وهو ما نقل عن أبي بكر بن العربي المعافري - رحمه الله - دفين مدينة فاس . قال بأنه أبين من أن يبين ، ومثل هذا قاله الإمام الغزالي ، حيث علل ذلك بأنه يسير .

ونقل عنه مرة أخرى أنه قال لا يعرف لأنه عسير . وعلى كل حال ، طريقة المتقدمين أنهم كانوا لا يتعرضون لتعريف الحقائق . إنما يبحثون عن الأشياء التي تنبني على تلك الحقائق ، عن العطاءات والإيجابيات التي تنبني على تلك الحقائق . نعم المتأخرون تنزلوا لتعريف الحقائق والمواعد ، بحيث عمدوا إلى العلم ، فقالوا : إن العلم معناه معرفة ما كان مجهولا . ويطلق على الإدراك ، ويطلق على الملكة التي تحصل للإنسان بمزاولة المطالعة والقراءة ، ويطلق على القواعد التي هي ثابتة في ذلك العلم . والعلم يختلف باختلاف متعلقه فهو عند علماء المنطق ، حصول صورة الشيء في الذهن . إلا أن هذا الشيء الذي يحصل في الذهن ، إن كان من قبيل إدراك المفرد ، فيسمى تصورا وإن كان من قبيل إدراك النسبة الخارجية فيسمى تصديقا . وهذا هو الذي أشار إليه الشيخ عبد الرحمن الأخرسي بقوله :

إدراك مفرد تصورا علم ودرك نسبة بتصديق وسم

أما عند علماء الأصول ، فهو معرفة المعلوم على ما هو به .

ولكن هذه المعرفة معرفة المعلوم ، تشتمل على المعرفة بالدليل ، وتصدق بالمعرفة على جهة التقليد الصحيح . ولكن إذا عرف بأنه حكم الذهن الجازم المطابق للموجب ، خرج التقليد الصحيح ، وبقيت المعرفة الحقيقية .

ثم إن العلم من حيث هو ، ينقسم إلى قسمين ، إلى فرض عين ، وإلى فرض كفاية . ففيما يتعلق بمعرفة ما يجب على المكلف القيام به ، من توحيد أولا ، وعبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج ومعاملات ، إذا كان صاحبها يتعاطاها ، فهذا من قبيل فرض العين .

يجب على كل واحد إذا أراد أن يؤدي الصلاة ، أو يعطي الزكاة ، أو يصوم شهر رمضان ، أو يحج البيت ، يجب عليه أن يكون عالماً بالقواعد الشرعية فيما يتعلق بذلك ، وأن يتعبد وهو يعرف ، وإلا صدق عليه قول الشاعر :

ذاك الذي بغير علم يعُبد لا يُصلحُ العمل لكن يُفسدُ

وفيما زاد على ذلك ، مما يخدم الكتاب والسنة ، كعلم البلاغة ، وعلم الأصول ، وعلم النحو ، وكذلك علم الحساب لمعرفة مواقيت الصلاة ، ولقسمة التركات . ويتبع ذلك ما هو بمنزلة ما ذكر ، كعلم الهندسة ، وعلم الطب ، وغير ذلك من الأمور التي تتوقف عليها حياة المجتمع ، فهذا كله من قبيل الكفاية . إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقيين ، وإن تركه الكل أثم الجميع .

الحكمة :

قال الإمام البخاري : باب الاغتباط في العلم والحكمة .

الحكمة قد ذكر فيها علماء الحديث عدة معان ، منهم من قال : إن الحكمة هي القرآن ، ومنهم من قال : إن المراد بالحكمة ما منع من الجهل ، وزجر عن القبيح . ومنهم من قال : إن المراد بالحكمة اللين والتعطف ، وعدم استعمال المخاشنة ، والتعنيف . ومنهم من قال : إن المراد بالحكمة ما كان رأياً صواباً . ومنهم من قال : إن الحكمة هي الذكاء والفطنة . وعلى كل حال ، هناك احتمالات متعددة . ويميل الإنسان إلى القول باستعمال اللين واستعمال التلطف عند المذاكرة أو عند الحاجة .

تفقهوا :

باب الاغتراب في العلم والحكمة . ثم قال الإمام البخاري : وقول عمر تفقهوا قبل أن تسودوا تفقهوا ، أمر . والمراد بالتفقه ، المعرفة والتعلم .

والغالب أن القصد بذلك ، التفقه في الدين ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : «من يرد الله به خيرا ، يفقهه في الدين»^(١) . هذا الأمر إذا كان فيما يرجع لأمر العبادات ، سيكون من قبيل الأمر الواجب ، وفيما زاد على ذلك من قبيل الأمر المندوب . والأمر يرد لعدة أمور . الأصل فيه أنه يرد للوجوب ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١] . ويرد للندب كما جاء في كتاب الله عند قوله : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ٣٣] .

ويرد للإباحة كما جاء في سورة المائدة عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة: ٢] . ويرد للأداب كقول الإنسان لآخر : كل مما يليك . ويرد للإرشاد كقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] . ويرد للتهديد ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور: ١٦] ، ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠] .

ويرد للتعجيز ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] . ويرد للدعاء : ربنا اغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ؛ فهذه كلها ، الأمر يرد إليها .

(١) أخرجه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مرفوعاً ،

به .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

باب الاغترباط في العلم والحكمة ، وقول عمر : تفقهوا .

عمر هو سيدنا عمر بن الخطاب العدوي القرشي ، ثاني الخلفاء الراشدين ، أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من أرخ التاريخ الهجري ، وأول من وضع الدواوين للعطايا ، وأول من سن الإقامة الإجبارية بالنسبة لبعض الناس .

وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو الشخصية الثانية بعد أبي بكر الصديق فكان هو وأبو بكر الصديق بمنزلة الوزيرين لرسول صلى الله عليه وسلم وهما ضجيعاه في قبره .

فتح رضي الله عنه عدة أمصار : فتح مصر ، والشام ، والعراق ، وأرض فارس . ثم عندما فتح أرض فارس ، طلب منه المجاهدون أن يقسم بينهم الأرض المفتوحة . واستدلوا له بقول الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال: ٤١] .

ومضت ثلاث ليال وهو يفكر ، فراجعهم وقال : إن هذه الآية لا تصلح للاستدلال ؛ لأن الآية إنما هي فيما ينقل ، والأرض لا تنقل . وذكر لهم بعد ذلك ، أنه إذا قسمت الأراضي المفتوحة إذا أتى ذراري وأناس بعد هؤلاء ، فبأي شيء يشتغلون؟ وماذا يفعلون ويعملون؟ وارتأى واجتهد أن يبقيا بيد أصحابها ، وضرب عليهم الجزية ، وتلك الجزية انتفع بها بيت المال ، حيث وقع ملؤه لسد الثغور وحماية الحدود وهذا هو الذي أشار إليه عبدربه في منظومته التي نظمها في اختلاف آراء الأئمة عند قوله :

توفي النبي وقد تركنا على المحجة البيضاء ودعنا

كتاب ربنا به أوصانا ستته الغراء بها أتحننا

ووقت وحدثت نوازل لم تكن قبل عرفت لسائل
وهكذا أفتى أبو حفص عمر بما يرى فيه الصواب قد ظهر
قضية الأرض بفتح فارس تركها للفارس لا للفارس
ثم قال الناظم بعد ذلك :

أعطى أبو بكر لأم الأم نصيبها بعد استشارة لأهل العلم
الشاهد عندنا هو أن اجتهاداته رحمته الله كانت موفقة ، كان يجتهد وهو
الذي قال هذا المقالة .

تسودوا :

قال : «تفقهوا قبل أن تسودوا» . قبل أن تسودوا ، ذكر الحافظ ابن
حجر فيها احتمالات ثلاثة ، قبل أن تسودوا ، يعني قبل أن تصيروا سادة
ورؤساء ، فإذا لم تكونوا قد حصلتم على الفقه والعلم والمعرفة والثقافة .
واتفق أن كنتم رؤساء وسادة فإنكم أولاً لا تنتفعون بتلك الرياسة .
ولا ينتفع منها غيركم ؛ ولذلك ينبغي لكم أن تتفقهوا قبل أن تسودوا .
فالمراد بأن تسودوا يعني قبل أن ترجعوا وتصبحوا سادة ، ولعل
البخاري قصد بنقل هذه الآثار التنبيه على أن الإنسان إذا تفقه وعرف
وعلم ربما يزهد في الرياسة .
ربما يزهد فيها لأن معه الرياسة المعنوية ، فإنه يزهد في ذلك ، ولا يقيم
له وزناً ، هكذا يقال .

هذه من الاحتمالات المذكورة هنا ، تفقهوا قبل أن تسودوا ، وهناك
احتمال ثان ، قبل أن تسودوا قبل أن تتزوجوا ؛ لأن الزوج في بيته سيد ،
سيما إذا ولد له أولاد .

وإذا كانت له مسئولية الأولاد ، فهل يمكن له أن يحصل على العلم أو أن يقرأه؟ غير ممكن ، وإطلاق السيد على الزوج ، هو إطلاق معروف عند الأقباط ، مذكور في سورة يوسف : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف : ٢٥] المراد بالسيد هنا الزوج ، هذا الاحتمال الثاني .

الاحتمال الثالث : قبل أن يظهر السواد في لحاكم ؛ يعني تعلموا وأنتم صغار ؛ لأن التعلم في الصغر كالكنقش على الحجر ، والتعلم في الكبر كالنقش على الماء .

على كل حال ، هذا لا يمنع من أن يتعلم الإنسان وهو كبير السن ؛ ولذلك أتبع البخاري كلام سيدنا عمر بن الخطاب بقوله : وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ على كبر سنهم ؛ لأن الإنسان يمكنه أن يتعلم وهو كبير السن ، وإن كان كبير السن ربما يقعد به عن المعرفة وعن الاطلاع بخلاف ما إذا كانت سنه مبكرة ، فهو يستطيع أن يحصل على المعرفة وأن يحصل على الثقافة بسهولة ، تفقهوا قبل أن تسودوا وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ على كبر سنهم ، هذا ما يمكن أن يقال حول المبحث الأول .

رواة الحديث :

الحميدي :

المبحث الثاني : قال الإمام البخاري : حدثنا الحميدي .

الحميدي هو عبد الله بن الزبير بن عيسى بن أسامة بن أسد ، وبعبارة الحميدي نسبة إلى حميد ؛ حميد بن أسامة من بني أسد ، بطن من بني أسد ، رهط خديجة زوجة النبي ﷺ ، يجتمع الحميدي معها في قصي ، الحميدي هذا هو أول شيخ أخرج له البخاري الحديث في كتاب «الجامع

الصحيح» ؛ لأنه ابتداءً رحمه الله بالحديث عن الوحي ، قال : كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣] . ثم قال : حدثنا الحميدي .

قال الحافظ ابن حجر : إن السبب في كونه ترك غير الحميدي ، واقتصر على الحميدي ، الحميدي مكي قرشي ، ومنذ الحين كان بمكة ، فناسب أن يكون الحديث الذي يروى فيما يرجع لبدء الوحي ، ناسب أن يكون الشخص الذي ينقل عنه البخاري مكياً .

وإذا تتبعنا هذا فسوف تجد الحديث الذي بعد ذلك قد نقل عن الإمام مالك ؛ فهو في المدينة ، والمدينة كانت تناسب الأحكام الشرعية والهجرة ، وغيرها ، «إنما الأعمال بالنيات» إلخ .

المقصود هو أن الحميدي هو الشخص الأول الذي روى عنه الإمام البخاري ، شارك ورافق الشافعي في الطلب ، هو والشافعي كانا معاً يطلبان العلم ، توفي سنة مائتين وتسع عشر (٢١٩) .

سفيان بن عيينة :

حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، المراد به سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي منشأ وداراً ، من كبار تابعي التابعين ، يروى أنه أخذ عن أكثر من سبعين تابعياً ، هذا الرجل كان يشارك مالكا رحمته الله ، إمام دار الهجرة في أكثر من شيخ ، وكانت له معه صلة .

زار سفيان الإمام مالك رحمته الله معاً في بيته ، فصافح الإمام مالك سفيان ، وقال لسفيان : لولا أن المعانقة بدعة لعانقتك ، فقال له سفيان : فعل هذا من هو خير مني وخير منك . قال له : تعني قصة جعفر؟ قال :

نعم ؛ لأن الرسول ﷺ لما فتح خيبر قدم عليه سيدنا جعفر ، فقال : «بأي شيء أسر؟ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر» ، قال له مالك : ذاك شيء يخصه . أجابه سفيان بقوله : ما يخصه يخصنا ، وما يعمه يعمنا ، قال القاضي عياض : فسكت مالك ولم يُجِبْ سفيان ، وعلم أن الحق في جانبه .

ويؤخذ من هذا أنه تجوز معانقة الرجل للرجل ، ومعانقة الرجل للصغير ، فكان ﷺ عانق سيدنا الحسن معانقة رحمة ، وما عدا ذلك لا يجوز شرعاً .

وهذه المعانقة كما ثبتت بهذا الأسلوب الذي ذكرت ، كذلك هي موجودة في «الشئائل المحمدية» فيها : «أن الرسول ﷺ خرج في وقت من منزله لا يخرج فيه عادة ، فلقاه أبو بكر الصديق ، فقال له رسول الله : ما أخرجك يا أبا بكر؟ قال : اشتقت إلى رؤيتك ، وأريد أن أراك ثم سارا جميعاً ، فلقيا عمر بن الخطاب فقال له الرسول : ما هو السر في خروجك؟ قال : أخرجني الجوع ، قال ﷺ : وأنا أخرجني بعض ذلك ، قال أبو بكر الصديق : وأنا كذلك»^(١) لأنه استحيا أولاً أن يقول : إنه أخرجته الجوع .

(١) أخرجه الترمذي في «السنن» (٢٣٦٩) ، وفي «الشئائل» (٣٧٣) والحاكم في «المستدرک» (١٣١ / ٤) من طريق شيبان بن عبد الرحمن ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه . قال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح غريب» ، ثم رواه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة مرسلًا . والحديث أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من طريق أبي حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالوا : الجوع يا رسول الله . . .» الحديث .

فالشاهد عندنا أنهم ذهبوا بثلاثتهم أخذهم الرسول إلى بيت أبي الهيثم بن التيهان، كان رجلاً ذا شجر وجاه، فسألوا صاحبة الرجل، قالوا: لها أين صاحبك؟ قالت: ذهب يستعذب الماء، يأتي لهم بالماء البارد، فبينما هم على تلك الحالة؛ إذ بأبي الهيثم قد جاء بقربة تزعبه؛ يعني يدفعها وتدفعه، فرأى الرسول فطرحها والتزمه، والالتزام هو المعانقة، وما غير الرسول أمر ذلك.

فدل ذلك على أنه يجوز للرجل أن يعانق الرجل، ويجوز للرجل أن يعانق الولد الصغير، رحمة به وشفقة عليه، وهذا مما يمكن أن يجوز شرعاً، ويجوز للرجل أن يعانق زوجته... إلخ.

المقصود هو أنه ﷺ ترك أبا الهيثم ولم يؤاخذه؛ فدل ذلك على أن المعانقة جائزة شرعاً ولا ضرر فيها.

إسماعيل بن أبي خالد:

حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثني إسماعيل بن أبي خالد الأحمسي، روى عن عبد الله بن أبي أوفى من الصحابة، وروى عن والده، وهو ثقة، هناك من يضعه في صف الزهري.

نقف هنا فنجد أن الأسلوب في الحديث قد تغير، قال: على غير ما حدثنا الزهري، والقائل لهذا هو سفيان، سفيان حدثه إسماعيل بن أبي خالد بهذه الرواية المذكورة هنا، وحدثه الزهري برواية أخرى بألفاظ غير الألفاظ المذكورة هنا، وهي الموجودة في كتاب التوحيد: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله المال فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».

فقوله : على غير ما حدثناه ، يعني الزهري حدثه ، ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم : محمد بن مسلم بن شهاب الزهري شيخ مالك ، أدرك عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم ، وأخذ عنه مالك العلم الكثير .

قيس بن أبي حازم :

قال سمعت قيس بن أبي حازم ، وفي رواية سمعت قيس بن حازم ، بإسقاط أبي . وقيس هذا مخضرم ، عاش في الجاهلية ، وعاش في الإسلام ، ومع ذلك لم تثبت له صحبة لما قدم المدينة لأجل أن يجتمع بالرسول ﷺ . ويصدق عليه أنه صحابي ، وجده قد التحق بالرفيق الأعلى ، ولم يلق إلا أبا بكر الصديق ، ومع ذلك فهو تابعي مشهور ، له قيمته وله حرمة ومكانته .

عبد الله بن مسعود :

قال : سمعت عبد الله بن مسعود . عبد الله بن مسعود هو أشهر من يعنعن عنهم من الصحابة . أسلم قديماً . يقال إنه عندما أسلم ، كان سادس الستة ، وكان صاحب نعلي الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أحد الأربعة الذين قال الرسول فيهم ﷺ : «خذوا القرآن منهم» ؛ عبد الله ابن مسعود ، أبي بن كعب ، سالم مولى أبي حذيفة ، معاذ بن جبل .

عبد الله بن مسعود كان يكنى بابن أم عبد ، ابن أم عبد هذا ، إنما كني به ؛ لأنه لما أسلم كانت معه أمه . أسلمت كذلك ، فاشتهر بها . أما أبوه فلا يعرف له الإسلام . ولي على بيت المال من قبل أبي بكر الصديق . وولي كذلك على بيت المال من قبل عمر بن الخطاب . وأخيراً التحق وولي على ذلك في مدينة الكوفة . وأخيراً التحق بالمدينة وبها توفي . يقال : إنه أحد

المكثرين للحديث عن الرسول ﷺ ، ليس هناك شيء يقطع به . وقد أشار إلى ذلك عبد ربه في قوله :

المكثرون من الحديث عدة أبو هريرة كذاك عائشة
وابن عباس وابن عمر وجابر وأنس أبو سعيد يذكر
وعُدَّ فيهم كذاك ابن عمر أما ابن مسعود فقليل قد أكثر
هناك من يعده من المكثرين ، وهناك من لا يعده . وهذا ما يتعلق بلباس
السند في الجملة .

معنى الحديث :

وأخلص الآن إلى معنى الحديث الشريف .

الحسد :

قال ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين » . الحسد هو أن يتمنى المرء زوال النعمة على المنعم عليه ، وقد ذكر الإمام الغزالي له مراتب ثلاثة ؛ المرتبة الأولى وهي أقبحها ، وهي أن يتمنى زوال النعمة عن فلان : له مثلاً معرفة أو له علم أو له جاه أو له رياسة ، يتمنى زوالها عنه . وهناك المرتبة الثانية أن يتمنى زوالها وانتقالها إليه . أما المرتبة الثالثة أن يتمنى مثلها ، فإن عجز عن ذلك ، تمنى زوالها عن فلان . فهي مراتب ثلاثة أقبحها المرتبة الأولى . ولا شك أن الحسد هو من الذنوب القبيحة ؛ لأن فيه اعتراضاً على الله ، وإساءة للآداب .

الله أعطى لفلان نعمة ، فأنت تحسده عليها ، وتريد أن تنتقل منه إليك ، أو تنتقل إلى غيره ، لا يهكم أمر ذلك .

المقصود ألا تبقى عنده ؛ لأن النفس مجبولة على حب الخير ، فإن كان هناك من هو أعلى منها ، فتحسده على أن يكون في مستواه ، وإن كان يعني

من هو في مستواه تحسده النفس على أن يكون أدنى منه . وعلى كل حال ، الحسد من قبيل ما حذر منه التشريع الإسلامي . أول حسد وقع هو أن إبليس لما أمره الله بأن يسجد لآدم عليه الصلاة والسلام ، حسده ؛ فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] .

وأول حسد وقع في الأرض ، يرجع لكون قابيل حسد أخاه هابيل : ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧-٣٠] .

الشاهد عندنا أن أول حسد وقع في الأرض حسد قابيل لأخيه هابيل ، ومعلوم أن كتاب الله ورد في معرض التوعيد على من يتعاطى ذلك : ﴿ أَمْرٌ مَّحْسُودٌ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] ، ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

الله تعالى أمر رسوله في سورة الفلق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ١-٥] .

وقد ذكر الشعراء في ذمه عدة أبيات شعرية :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
وأقبح خلق الله من بات حاسدا لمن في نعمائه يتقلب

ألا قل لمن ظل لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني وسد عليك وجوه الطلب
المقصود أن الحسد مذموم .

نحن الآن نريد أن نفهم الحسد المذكور في الحديث ، ما دمنا نرى أن
الحسد ذنب وجريمة وخلق سيئ ، فلا بد إذن أن نحاول فهم الحديث .

الحديث إذا قرأناه بحسب الظاهر : « لا حسد إلا في اثنتين . . . » القاعدة
المقررة أن الأصل في المستثنى أنه يكون من جنس المستثنى منه ، فيكون
ظاهر الحديث أن الحسد يجوز في هاتين الخصلتين ، مع أنه لا يجوز إلا فيهما
ولا في غيرهما ، فما العمل ؟

أجيب عن ذلك بثلاث أجوبة :

الجواب الأول : أن الحسد المراد به الغبطة ؛ شبهنا الغبطة بالحسد بجامع
مطلق التمني ، واستعرنا اسم المشبه به للمشبه ، فكانت الاستعارة تصريحية
أصلية في المصدر .

فمعنى لا حسد : أي لا غبطة ، وإذا فسرنا الحسد بالغبطة انحل
الإشكال بالمرّة .

وهناك احتمال ثان : أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

المستثنى هو بمعنى الغبطة : لا حسد ، لكن الغبطة في اثنتين محمودّة ،
والقاعدة أن المستثنى إذا كان منقطعاً ، فلا يكون من جنس المستثنى منه .

وهناك احتمال ثالث : وهو لا يخلو من فائدة ؛ الكلام في الحديث خرج
مخرج المبالغة ، إن كان الحسد يجوز ، فإنه يجوز في هاتين الخصلتين ، وإن
كان لا يجوز لا فيهما ولا في غيرهما .

نقول : فهي احتمالات ثلاثة ، لا حسد إلا في اثنتين ، إلا في خصلتين اثنتين .

رجل :

قال البخاري بعد ذلك الحديث : «رجل آتاه الله» الرجل المذكور ، الأصل إلا في اثنتين ، خصلة رجل آتاه الله مالا ، حذف المضاف واقتصر على المضاف إليه ، فارتفع ارتفاعاً فيقرأ : «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله ...» فإنه لما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه ، فإنه ارتفع ارتفاعاً ، فيقال : رجل آتاه الله مالا .

آتاه :

آتاه من الإيتاء ، أتى يؤتي إيتاء ، أما أتى فمصدره إتيان ، ومعنى آتاه أعطاه : ﴿وَأَتُوا آلَيْتَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢] أعطوا اليتامي أموالهم . ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] أي أعطوا النساء صدقاتهن نحلة .

مالاً :

«آتاه الله مالاً» أوتي بالمال منكراً ، فيشمل القليل والكثير ، وسواء أعطاه الله المال الكثير أو أعطاه الله المال القليل ، فهو ينفع به غيره ، ولا مفهوم للمال يعني النقد ، المراد بالمال المتمول ، الصادق بالنقد بالعين ، والصادق بالتمولات بالعروض ، وبالمطعومات وغيره من الحيوانات وغير ذلك .

سلطه :

«آتاه الله مالاً فسلطه» ، ومعنى سلطه ، قاوم شح نفسه ، قاومها وأحرق بها حتى لا يمكن لها أن ترده ، أو أن تمنعه من إنفاقه وإهلاكه في الحق .

على هلكته في الحق :

فقوله : «على هلكته» أي على إهلاكه في الحق .

الخصلة الأولى التي يغبط الإنسان عليها ، ويتمنى أن تكون عنده ليفعل بها ما يفعل هذا الشخص ، أن يكون عنده مال فيهلكه ويفنيه في الحق .

قال الحافظ ابن حجر : المراد بالحق الطاعات ، والطاعات لا شك أنها تشمل الواجبات والمندوبات ، «فسلطة على هلكته في الحق» بالإنفاق على نفسه ، وعلى أسرته ، «فسلطة على هلكته في الحق» بإخراج الزكاة منه ، «فسلطة على هلكته في الحق» بأداء الكفارات في رمضان أو في الحنث في اليمين أو في الظهار .

إذن الحق يشمل الطاعات الواجبة ، «فسلطة على هلكته في الحق» من الطاعات الواجبة الإنفاق على الحيوان ، وعدم إهماله ، وعدم حبسه ، وعدم الإنفاق عليه ، هذا كذلك من قبيل ما يدخل في الحق ، «فسلطة على هلكته في الحق» ، وهناك نوع من الحق ؛ لأننا قلنا : إن المراد بالحق الطاعات ، هذه الطاعات تشمل الواجبات والمندوبات ، «فسلطة على هلكته» أنفقه في البر ، أنفقه في الإحسان ، أنفقه في المعروف ، أنفقه في ترصيف الطرق ، أنفقه في بناء المدارس ، أنفقه في المعاهد ، أنفقه في بناء الدور الخيرية ، كل ذلك يصدق عليه قول الرسول ﷺ «فسلطة على هلكته في الحق» .

وإنما أريد قوله : «بالحق» لأن الكلام إذا قيد بقيد فروح ذلك الكلام هو ذلك القيد ، وإن يتوجه مثله إلى الإثبات ، مفهومه أنه إذا أطلقها في غير الحق كالتبذير ، كالفجور في اللهو في اللعب ، هذا يغبط أو لا يغبط؟ أبداً

لا يغط ، والذي يحق لنا أن نغطه هو هذا الذي سلطه على إهلاكه في الحق ، وهو الذي يصدق عليه قول الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦] .

«فسلطة على هلكته في الحق» أنفقه في سبيل الله ، وكذلك المندوبات في الجهاد في سبيل الله ، في تجهيز الجيوش ، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق ، عندما أتى بماله كله إلى الرسول ﷺ ووضعه بين يديه ، فقال له : «ما أبقيت لأهلك؟» قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، كما فعله عمر بن الخطاب ، عندما أتى بنصف ماله ووضعه ، وما فعله سيدنا عثمان من كونه جهز ثلاثمائة من الإبل بأحلاسها وأقتابها ، وما فعله كذلك غيرهم من الصحابة ، حيث شاركوا بسبعين وسقاً من التمر ، وشاركت النساء كذلك .

هذا كله يصدق عليه قول الرسول ﷺ : «فسلطة على هلكته في الحق» ، هذه هي الخصلة الأولى ، خصلة : «رجل آتاه الله مالاً» فأنفقه في سبيل الله ، وفي الحق ، ومن أجل الخير ، ومن أجل فعل المعروف ، وبذل الإحسان ، ومن أجل التجهيز للمسكين والضعيف ، والمحتاج ، ثم قال ﷺ بعد ذلك : «ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» .

الحكمة :

«ورجل آتاه الله الحكمة» ؛ آتاه أعطاه الحكمة ، سبق بيانها وشرحها ، الحكمة ؛ من الناس من فسرّها بالقرآن ، ومنهم من فسرّها وقال : إنها هي العلم ، فيكون ذلك من قبيل عطف التفسير على كل حال ، هناك رجل ثان ، الغبطة فيه بالنسبة إليه محمودة ، وليست بمذمومة .

يقضي بها :

«آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها» يقضي من القضاء ، والقضاء قال أبو منصور الأزهري : يطلق على عدة أمور ، مآلها هي الانتهاء من الشيء والفراغ منه في اللغة .

فمن ذلك قول الله تعالى ، يطلق على الإتمام : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ١٠٣] أتممتوها ، قضيت لك بكذا ، يطلق على الإعلان ، أعلنتك بكذا : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] .

أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، يطلق على الفعل : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢] أي افعل ما أنت فاعل .

وقد يطلق على الموت : ﴿ لَيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ليمتنا ، يطلق على الفصل بين الخصمين ، وإطلاقه على الفصل بين الخصمين ، يجرنا الكلام على إطلاقه عند الفقهاء ، هناك في عرف الفقهاء ، من عرف القضاء بأنه الفصل بين الخصمين وهذا باد قصوره ؛ لأنه يؤخذ منه أن القاضي لا يكون قاضياً إلا إذا جلس للحكم ، في حين أن القاضي إذا عين من قبل أمير المؤمنين فتصبح صفة القضاء قائمة به ، حكم أو لم يحكم ، كان في الشارع ، أو كان في المسجد ، أو كان في المنزل ، فهو قاض أو ليس بقاض ؟ لا شك أنه قاض ، وقولنا : الفصل بين الخصمين ، يدل على أنه لا يطلق اسم القضاء ، إلا إذا خاصم بالفعل ، مع أنها قامت به الصفة صفة معنوية تقديرية ، يقدر أن ذلك قائم به قيام الصفة الحسية بالموصوف ، وعُرف من قبل القرافي بأنه إنشاء إلزام أو إطلاق .

القاضي إما أن ينشئ إلزامًا ، يلزم الزوج بالنفقة ، أو ينشئ إطلاقًا في صورة من الصور يقع الترافع فيها إليه ، فهذا كذلك ليس بجامع ، وليس بمانع ؛ لأنه يمكن أن يكون هذا حتى بالنسبة لغير القاضي فيما يرجع للحكمين .

عند خوف الشقاق بين الزوجين : ﴿ فَابْتَغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٣٥] .

وعرفه ابن رشد بأنه الإخبار بحكم الشرع على وجه الإلزام ، وهو كذلك لا يخلو من نقد ؛ لأن الذين شرطوا في التعريف ما ذكر ، قالوا : إنه لابد من أن يكون جامعًا وأن يكون مانعًا .

يقول السبكي في «الأصول» : والحد الجامع المانع ، ويقال : المطرد المنعكس .

ويقول الشيخ عبد الرحمن الأخصري :

وشرط كل أن يُرَى مُطَرِّدًا منعكسًا وظاهرًا لا أَبْعَدًا

إِذْ ، بحثنا فوجدنا أن الحد الذي يوصف بالجمع والمنع ، هو الحد الذي ذكره الفقهاء ، وهو أنه صفة حكمية توجب لموصوفها نفوذ حكمه الشرعي ، ولو في التعديل أو التجريح ، لا في عموم مصالح المسلمين ؛ لأن القاضي إنما هو له نيابة عن الإمام ، كما يقول ابن عاصم في «التحفة» :

منفذ بالشرع للأحكام له نيابة عن الإمام

واستحسنت في حقه الجزالة وشرطه التكليف والعدالة

وإن يكن ذكرًا حرًا سلم من فقد رؤية وسمع وكلم

ولذلك إذا حكم القاضي وهو أعمى فإن حكمه ينفذ ولكن يجب عزله .

يقول الشيخ خليل : ونفذ حكم أعمى وأصم ، ووجب عزُّه ثم إن هذا القاضي الذي يتولى وظيفة القضاء هي حقيقة منصب خطير : «من تولى القضاء فقد ذبح بغير سكين» وقد قال العلماء : إن الذبح بالسكين فيه عناء ساعة ، أما الذبح بغير سكين ، ففيه عناء ساعات وأزمنة طوال ، ولذلك فالقاضي يشترط فيه ما ذكر ، فإذا كان يرى أنه أهْلٌ للقضاء فله أن يطلبه .

وإذا كان بعيداً عنه ، وعين من قبل الإمام ، فيجب عليه أن يقبله ؛ لأن المدار على المصلحة ، يقول الشيخ خليل : ولزم القبول والطلب ، فإذا نودي على شخص له معرفة وإطلاع ، ونزاهة ومقدرة ، ويستطيع أن يقيس الأشباه والأمثال والنظائر وتملص من ذلك ، فإن الإمام يلزمه بأن يتولى القضاء مخافة أن يتولى غيره الذي لا يحسن الفصل بين الناس ولا الحكم بينهم ، كذلك إذا كان يحس من نفسه ، ويأنس أن له القدرة على التولية ، فله أن يطالب بذلك ، وإن كان هذا ربما يتنافى مع قول الرسول - بحسب الظاهر - : «إننا لا نولي هذا الأمر من طلبه» ، ولكن في صورة مثل ما إذا كان في بلد له ، وكان الإمام يبحث عمن هو أهل له ، وهو مختبئ لا يريد أن يعرفه الناس ، فيجب عليه أن يتقدم وأن يطلب ذلك ليحكم بين الناس بالحكم الشرعي ، يقول الله تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة : ٤٩] .

«ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» يؤخذ من هذا الكلام أن قوله : «ويعلمها» أن العلم لا يؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من أفواه الرجال ؛ لأن التعلم يجب أن يكون في حلقة الدرس ؛ ولذلك يقول بعض الحكماء : من أخذ الفقه من الأوراق غيّر الأحكام ، ومن أخذ النحو من الأوراق لحن في الكلام ، ومن أخذ الطب من الأوراق أمارت الأنام ، فلا بد من التطبيق .

ينبغي للإنسان إذا أراد أن يقرأ شيئاً ، أو أن يتعلم طبّاً ، أو أن يتعلم عربية ، أو أن يتعلم فقهاً ، ينبغي له أن يجلس بين يدي المعلم ، ويتعلم منه ؛ لأن العلم كما قلت : يؤخذ من أفواه الرجال ، لا أنه يؤخذ من الأوراق ، وعليه فما نجحت أمة ولا أفلحت إلا على أساس أن تكون هي المتعلمة ، يجب عليها أن تتعلم ؛ لأن الازدهار والتقدم والمعرفة والحصول على المراتب العليا ، كل ذلك يكمن في التعلم ؛ لأن من لم يتعلم ، فلا فائدة فيه ، ولا قيمة له .

وهذا هو الذي جعل أمير المؤمنين أعز الله أمره ، ونصره وأيده ، جُعِلَتْ قرة عينه في نشر المعرفة في سائر ربوع مملكته ، بحيث يعلم مسبقاً - حفظه الله وأعز أمره - أن العلم هو الذي يتقدم بالإنسان ، وبه تزكو النفوس ، وبه تعلو المراتب ، وبه نستطيع أن نزاحم غيرنا .

فهو أعزه الله ، منذ أن ولاه الله أمر البلاد ، وشئون العباد ، إلا ويعمل ما في وسعه لأجل إسعاد أمته ، وإسعاد شعبه ، بتلقيهم المعرفة والتثقيف على اختلاف أشكالها وأنواعها وأحوالها ؛ لأن المملكة هي في حاجة إلى الفقهاء ، وإلى الأدباء وإلى الشعراء وإلى الأطباء وإلى المهندسين وإلى الفلاحين وإلى المزارعين .

والكل إذا كانت نيته صالحة فإنه يحصل له الثواب والأجر من قبل الله ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١) .

(١) أخرجه البخاري (٥٤) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

والمقصود «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» فإذا كان الطبيب ينوي بتعلمه الطب أنه سينفع أمته فله الأجر والثواب ، وكذلك المهندس ، وكذلك الفقيه ، وكذلك المؤدب للصبيان ، وهكذا بالنسبة لسائر الميادين كلها .

المحاضرة العشرون:

أصل الخلاف الفقهي

مقدمة:

قال الله جل علاه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية مبينة لأصول التشريع ، فأشارت إلى الأصل الأول وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيكون التقدير : أطيعوا الله واعملوا بكتابه ، إذ العمل به هو طاعة الله تعالى .

وأشارت إلى الأصل الثاني ، وهو سنة الرسول ﷺ المبينة لكتابه بمقتضى حكمته ، وإلا فالكل منه سبحانه : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فالعمل بها طاعة الرسول ﷺ .

وأشارت إلى ثالثها بقوله سبحانه : ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] والمراد بهم الأمراء والحكام ورؤساء مختلف المصالح العامة ، وبعبارة أهل الحل والعقد ، فطاعة هؤلاء - إذا أجمعوا على أمر من مصلحة الأمة ليس فيه نص عن الشارع في حالة اختيار ، ودون إكراه قوة أحد ولا نفوذه - واجبة ؛ إذ بذلك يزول التنازع وتجتمع كلمة الأمة .

وأشارت إلى رابعها ، بقوله سبحانه : ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إن المطلوب من أولي الأمر أن المسائل المتنازع فيها يعرضونها على القواعد والأحكام العامة المعلومة في كتاب الله سبحانه وسنة نبيه ﷺ مستنبطين أحكامها بطريق القياس .

وبهذه الآية يرد على من أنكر القياس ، إذ المراد بالرد إليهما إلحاق مجهول الحكم وهو المتنازع فيه ، بمعلومه منهما ، وهل القياس إلا حمل معلوم - أي متصور - على معلوم لمساواته في علة حكمه عند الحامل - أي المجتهد .

وهكذا فالآية قد نسقت لنا أصول التشريع الإسلامي المتفق عليها ، ومعلوم أن ما عدا الإجماع كان مقررًا منذ عهد النبوة ، أما الإجماع فسيأتي عند الكلام على أدوار التشريع أنه لم يظهر إلا بعد عصور حيث مست الحاجة إليه ، وبذلك يعلم أن القياس مقدم عليه وجودًا لا رتبة .

الأطوار التي مرت بها أصول التشريع :

وبهذا يتضح أن هذه الأصول لم تعتمد جميعها منذ نشأة التشريع بل عبر الأدوار التي مر بها والتي يمكن إرجاعها إلى أربع :

الأول : طور النشأة ، وهو عهد النبوة ؛ لأن فيه نزل القرآن على النبي ﷺ والسنة توضحه ، وبذلك كان مرجع الأحكام في عصر الرسالة محصورًا في الكتاب والسنة المتجلية في بيان الرسول ﷺ وأقضيته .

وكل اختلاف بين الصحابة في هذا العهد فمرده إليه ﷺ ، وذلك عندما يكونون بَعْدَاء عنه ﷺ لسفرهم أو لإقامتهم بين قبائلهم ، أو أعمالهم فيلجئون إلى القياس - ويسمونه فهمًا أو رأيًا أو اجتهاذاً .

وأصل ذلك ما شرعه لهم ﷺ من الأخذ به ، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام لما أرسل معاذ بن جبل إلى أهل اليمن سألهم بم تحكم؟ قال معاذ : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد . قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد . قال : أجتهد برأيي . فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذي هدى رسول رسول الله

لكنهم كانوا -رضوان الله عليهم- لا يلبثون أن يعرضوا أفهامهم واجتهادهم على النبي ﷺ أول ما يعودون إليه فيقرهم أو يخطئهم أو يصحح لهم .

وبذلك كانت مصادر التشريع في العهد النبوي منحصرة في الكتاب والسنة ، والقياس كان مؤقتًا يعقبه استفسار وتصحيح ، أما الإجماع فليس ثمة مجال لتصوره ، وبذلك يكون الإجماع -كمصدر تشريعي- متأخرًا عن القياس وجودًا وإن كان مقدمًا عليه رتبة واعتبارًا حيث اتفق أئمة الإسلام وعلماء الأصول أن نصوص القرآن مقدمة في الاعتبار على كل ما سواها ، ثم نصوص السنة ، ثم الإجماع ، ثم القياس .

الثاني : طور الصحابة وكبار التابعين -الذي انتهى بعد القرن الأول الهجري بقليل- وفي هذا الدور كان قد انقطع الوحي بوفاة النبي ﷺ وعرفت فيه الدولة الإسلامية اتساعًا كبيرًا ؛ حيث تمت فيه فتوحات ودخلت أمم كثيرة في الإسلام ، وكانت البلاد المفتوحة غنية وممدنة .

فواجه المسلمون مسائل كثيرة في كل شئون الحياة تحتاج إلى تشريع كانوا في غنى عنه وهم بالجزيرة حيث ظهرت مشاكل تنتظر الحلول ومعاملات تتطلب معرفة موقف الشريعة منها .

ذلك أن القرآن والسنة الصحيحة لم يدع أحد أنهما نصًّا على كل المسائل الجزئية كل ما كان وما هو كائن . ولذلك نجد بعد عصر الرسالة أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يجمعان الصحابة في الحوادث ويشاورانهم فإن لم يعرف أحد منهم فيها عن النبي ﷺ نصًّا أو قضاء ، وانفقوا فيها على حكم أنه هو مقتضى قواعد الشريعة عمل الخليفان فيها بما اتفقوا عليه ، وإن لم يتفق الصحابة على حكم الحادثة اجتهد الخليفان بآرائهما في الحكم الأصح

والأقرب شبهًا بأقضية الرسول بدلالة القياس أو المصالح مما نتج عنه أن اعتمد أصل آخر من أصول التشريع ، وهو الرأي الذي نظم بعد وسمي بالقياس .

ثم بعد ذلك كانت الحاجة في العصور التالية تتطلب التعرف على ما اتفق عليه فقهاء الصحابة ليتخذ أساسًا في فقه الشريعة ، ثم ألحق به في الاعتبار ما اتفق عليه فقهاء التابعين من الثقات المجتهدين ؛ لأنهم هم الراسخون في علم الشريعة ومرجع فهمها إليهم .

فأصبح الإجماع بذلك مصدرًا من مصادر الأحكام ؛ ولرسوخ علماء الصدر ومن تبعهم في معرفة أحكام الشرع واتفاقهم على حكم هو السبب في تقديم الإجماع في الاعتبار - كما سلف - على القياس ، حيث لم يلجأ إليه إلا عند عدم تحقق الإجماع أو لم يثبت نقله أو روايته في موضوع ما ، فعندها لم يكن بد لكل فقيه أن يلجأ إلى الطريق التي كان يلجأ إليها الصحابة أنفسهم عندما يعوزهم النص حيث سار على هذا النهج كثير من الصحابة فاستعملوا الرأي فيما لا نص فيه ؛ مثل إرث الجد مع الإخوة .

فالقرآن لم ينص على هذه المسألة وإنما نص على الأب مع الإخوة وكذلك السنة ، فذهب ابن عباس وأبو بكر رضي الله عنهما إلى أنه يحجبهم كالأب .

وذهب آخرون ومنهم زيد بن ثابت وعلي وعمر رضي الله عنهم إلى إرثهم معه مراعين فيه أنه ليس في الحقيقة أبا فهو لا يحجبهم .

وكذلك لما رفعت إلى زيد بن ثابت مسألة : من ماتت عن زوج وأبوين أعطى للأُم ثلث ما بقي . فقال ابن عباس رضي الله عنه أين وجدت في كتاب الله ثلث ما بقي . فقال زيد : أقول برأيي وتقول برأيك . فمستند زيد بن

ثابت ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم أن للأُم ثلث الباقي بعد الزوج ؛ لأن مقتضى التشريع أن للذكر مثل حظ الأنثيين فللأُم ثلث النصف الباقي بعد الزوج وهو السدس ، وللأب الباقي وهو السدسان .

وملاحظ ابن عباس أن للزوج نصف التركة وللأُم الثلث وللأب سدس الباقي عملاً بظاهر النص وهو قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ [النساء : ١١] .

ورفعت إلى عمر رضي الله عنه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليتها . فتردد عمر هل يقتل الكثير بالواحد؟ فقال له علي رضي الله عنه : رأييت لو أن نفراً اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم؟ قال : نعم قال : كذلك . فعمل عمر برأيه وكتب إلى عامله أن اقتلها . فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم^(١) .

ولما سئل علي -كرم الله وجهه- عن عقوبة شارب الخمر قال : من شرب هذلي ، ومن هذلي افترى ، فأرئى عليه حد المفترى ؛ وهو القاذف .

وهكذا يتجلى من خلال مختلف اجتهادات الصحابة وفتاويهم أن منهم من كان يعتمد إلى المقصود من تشريع الحكم ، ومنهم من كان يعتمد على ظواهر النصوص .

فبالنسبة لأصحاب الاتجاه الأول فإن عمر رضي الله عنه كان من أكثر الصحابة استعمالاً للرأي ، ومنشأ ذلك ما كان يواجهه في فترة خلافته من قضايا ونوازل تحتاج إلى معرفة نظر الشرع ، حيث تم فتح العديد من الأقطار في عهده فكان رأيه وموقفه إزاء المستجدات الناتجة عن الاحتكاك بحضارات

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٥٦) .

البلاد المفتوحة أصلاً لمن تبعه أو أتى بعده من الفقهاء ؛ وبذلك يعتبر رائد مدرسة الرأي التي أشهر من سار عليها زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه في العراق . وقد كان معجبا بأراء سيدنا عمر رضي الله عنه وكذلك سار في هذا الاتجاه الحسنُ البصري ١١٠ .

وبذلك يكون منحى عمر رضي الله عنه في التفكير حجة لمدرسة أهل الرأي في العراق من فقهاء الطبقات التالية . فقد تأثر هؤلاء بفقهاء ابن مسعود في الكوفة وكان هذا الأخير معجبا بعمر رضي الله عنه كما سلف ، ويسير على طريقته حيث كان منهجه في استنباط الحكم يعتمد على روح النص لا ظاهره مثال ذلك : منعه عن المؤلفلة قلوبهم من الموجودين في عهده ما كانوا يتناولونه من بيت المال من عطاء مع أن سهم المؤلفلة قلوبهم في العطاء مقرر بنص القرآن . فنظر إلى علة النص لا ظاهره . فقد كانت علة إعطائهم تأليفهم لاتقاء شرهم عندما كان الإسلام ضعيفا فلما تقوى زال الداعي إلى إعطائهم .

أما بالنسبة لأصحاب الاتجاه الثاني الذين شكلوا مدرسة الحديث فإن روادها من الصحابة ابن عباس ، والزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، والشعبي ١٠٣ من التابعين .

وهكذا كان لكبار الصحابة كعمر وابن مسعود وعلي رضي الله عنه أثر توجيهي في البلاد التي حلوا بها . فتكونت تبعا لشخصياتهم واجتهاداتهم مدارس الفقهاء المختلفة في البلدان على أيدي تلاميذهم من التابعين الذين أصبحوا قادة تلك المدارس وأئمتها كسعيد بن المسيب في المدينة ، وعطاء بن أبي رباح في مكة ، وإبراهيم النخعي في الكوفة ، والحسن البصري في البصرة ، ومكحول في الشام ، وطاوس في اليمن . فبهؤلاء ومن تلاهم من تابعي التابعين دارت عجلة الفقه دورتها المذهبية ، وكان كل منهم متأثرا بفقهاء من لازم من الصحابة وطريقته الاجتهادية .

وبذلك تشكلت الخطوط العريضة للمدارس الفقهية والتي كان أهمها مدرستا المدينة والكوفة أي مدرستا الحجاز والعراق . وذلك تبعا لاتجاه الشيوخ الأولين من الصحابة رضي الله عنهم وتبعاً للظروف البيئية .

وسميت بعد ذلك المدرسة الأولى أهل الحديث ؛ لكثرة رواية حديث الرسول ﷺ بينهم في الحجاز ولقلة حاجتهم إلى استعمال الرأي في الاجتهاد لندرة الحوادث .

فحفظ الحديث متوفر في المدينة أكثر من غيرهم لوجود الوفرة من الصحابة بها أكثر من غيرها^(١) لذلك وجد فقهاء المدينة من الأحاديث ينبوعاً يروي عطشهم عند الحاجة . ولذلك لم يلجئوا إلى الرأي إلا إذا عدموا نصاً في المسألة . وقد كان ذلك قليلاً لندرة الحوادث كما سلف .

أما المدرسة الثانية : فسميت بأهل الرأي لقلة انتشار الحديث النبوي في العراق بادئ الأمر ولتعقد الحياة المدنية فيه وتشعب الأفكار ، وكثرة الحوادث التي لم يعرف فيها نص صريح مما كان يلجئ إلى استعمال الرأي . كانت هذه حالة الفقه في منتصف القرن الأول إلى أوائل الثاني .

الثالث : وهو طور النضج والكمال والذي يبتدىء من أوائل القرن الثاني إلى منتصف الرابع . ففي هذا العصر تضخم الفقه ونهض نهضته الرائعة . وفي هذا الدور نشأت مذاهب واجتهادات فقهية . منها المذاهب الأربعة وغيرها .

(١) التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وترك بالمدينة اثني عشر ألف صحابي ، تفرق منهم ألفان في مختلف الأقطار ، وتوفي بها عشرة آلاف - رحمهم الله .

وقد اشتد في أوائل هذا الدور الخلاف بين مدرستي الرأي والحديث ، ثم استقر فيه اعتبار الرأي طريقة فقهية صحيحة بحدودها وأصولها الشرعية التي أوضحها أصحابها . ودفعوا بها عن هذه الطريقة الشبهات بما يبعدها عن القول بالتشهي والهوى المجرد عن الدليل الشرعي .

لكن الفارق لم يستمر طويلا بين أهل الرأي والحديث حيث إن الطبقة التي جاءت بعد الأئمة أصحاب المذاهب وتلاميذهم تلاقوا في أخذهم جميعا بالأحاديث وبالرأي وإن اختلف أخذهما بأحدهما دون الآخر كثرة وقلة ، وذلك ما يفسر لنا ما نجد في كتب الفقه على اختلاف المذاهب من وجود للرأي وللحديث فيها .

الرابع : وهو طور التقليد إلا أنه لم يخل من مجتهد عام ، أو مجتهد خاص بمذهب من المذاهب المعروفة أو مجتهد فتوى .

هذا وبتبين هذه الأطوار التي مر بها التشريع الإسلامي يتجلى أن الخلاف برز في الطورين الثاني- الذي انتهى بانتهاء القرن الأول- والثالث- الذي انتهى في منتصف الرابع . والملاحظ أن أسبابه في الثالث زادت عنها في الثاني .

وستتناول -بحول الله- فيما يلي دراسة أسباب الخلاف في كل من الطورين ؛ ذلك أن البحث عن أسباب اختلاف أئمة المذاهب الفقهية ينبغي أن يتقدمه البحث عن أسباب اختلاف كبار الصحابة^(١) فيما كانوا

(١) الخلاف في عصرهم رضي الله عنهم لم يكن بالشئ الكثير ؛ لأن الأقضية بقدر ما ينزل من الحوادث ، ثم إنها لم تدون رغم قلتها ، فهو دور انتهى ، والفقه : نصوص القرآن الكريم ، والسنة الطاهرة المتبعة ، وما ارتضاه كبار الصحابة مما رواه الصحابة لهم أو سمعوه هم منه رضي الله عنهم .

يفتون به رغم قرب عهدهم ﷺ برسول الله ﷺ . ويمكن حصرها في ثلاثة :

١ - اختلافهم في فهم القرآن . وهذا له وجهان :

أ- أن يرد في الآية مثلاً لفظ يحتمل معنيين . فتختلف الفتوى تبعاً لتردد اللفظ بين معنييه . وذلك كاختلافهم في فهم لفظ -القرء- الوارد في قوله سبحانه : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فممن فسرهم من الصحابة بأنه الحيضة : الخليفة عمر ، وابن مسعود ﷺ ، ومن فسرهم بأنه الطهر : زيد بن ثابت ﷺ .

وكأن يكون النص القرآني مثلاً دائراً بين احتمالين ، وذلك كما في مطالبة المولي بالفيء أو الطلاق المشار إليها بقوله سبحانه : ﴿إِنْ فَأَءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] وذلك بعدما نصت الآية : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦] على ما جعله سبحانه للمولي أجلاً يحق له أن يتربصه .

ذلك أن قوله سبحانه ﴿إِنْ فَأَءُو﴾ . . . الآية ، دائر بين احتمالين :

الأول : أن تكون المطالبة المذكورة عقب مضي الأجل المحدد وهو أربعة أشهر .

والثاني : أن لا تكون إلا داخل المدة المذكورة بحيث إذا انتهت لم يبق محل له ويتعين الطلاق .

ب- أن يرد حكمان مختلفان لمحكوم عليهما مختلفين ، ثم يرد ثالث يظن بكل من السابقين أنه يتناوله : وذلك كآية الوفاة وهي ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] الآية .

فقد نصت على أن مدة عدة المتوفى عنها : أربعة أشهر وعشر ، وجاءت آية الطلاق ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ٤] فنصت على أن عدة الحامل بوضع حملها .

ثم وردت الثالثة وهي المتوفى عنها زوجها وهي حامل فترددت بين الآيتين . ونشأ عن ذلك أن بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا . فمنهم من رأى أنها من مشمول الآية الأولى فقال : لا بد من تربصها أربعة أشهر وعشرا ، وإن وضعت حملها داخل مدة عدة الوفاة هذه . ومنهم من رأى أن عدتها تكون بوضع حملها ولو وضعت داخلها وقبل مضيها .

٢- اختلافهم بسبب السنة . وذلك أن من المعلوم أن سنته ﷺ الشاملة لأقواله وأفعاله وتقريراته ، منها ما كان يعلنه للجسم الغفير من الصحابة فيكون تحمله عاما شائعا في الجميع ككيفية الصلاة وأعداد ركعاتها ، وكشعائر الحج مثلا . ومنها ما كان يعلنه ﷺ من أقواله وأفعاله بحضور واحد أو اثنين - وقد قالوا : إنه أكثر السنة القولية - فيقصر التحمل حينئذ على القليل ممن حضر .

ثم إنه بعد التحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى كان المفتون من الصحابة رضي الله عنهم إذا نزلت نازلة وبحثوا في كتاب الله - تعالى - فلم يجدوا لها نصا بادروا لسؤال من معهم هل عندهم في النازلة من قضائه ﷺ شيء ، فإن وجدوا من يروي لهم حديثا أفتوا به وذلك بعد التثبت الشديد من روايته . وهنا ينبغي التنبيه على أن تدقيقهم رضي الله عنهم في قبول ما يروى من السنة بلغ أوجه . فهذا الخليفة أبو بكر رضي الله عنه قال في توريث الجدة : ما سمعت رسول الله ﷺ قال فيها شيئا .

ولما صلى الظهر قال : أيكم سمع عن رسول الله ﷺ في الجدة شيئاً؟ قال المغيرة بن شعبة : أنا ، قال : ماذا؟ قال : أعطاه رسول الله ﷺ سدساً فقال : أيعلم ذلك أحد غيرك؟ فقال محمد بن مسلمة : صدق ، فأعطاه أبو بكر السدس .

وهذا الخليفة الفارون رحمته الله كان يطلب من راوي الحديث أن يأتي بمن شاركه في سماعه ، وربما توعدته إن لم يأتي به ، وهذا ما وقع له مع الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري كما في رواية الجريري المتضمنة أن أبا موسى بعدما سلم على عمر رحمته الله من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له رجع فأرسل عمر في إثره وسأله لم رجعت؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع»^(١) .

قال : لتأتيني على ذلك بيينة أو لأفعلن بك ، فجاءنا أبو موسى متتقاً لونه ونحن جلوس فقلنا : ما شأنك؟ فأخبرنا وقال : فهل سمع أحد منكم؟ فقلنا : نعم كلنا سمعنا ، فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره .

وربما لم يقبل رحمته الله شهادة بالحديث كما وقع له مع الصحابية فاطمة بنت قيس التي شهدت عنده بأنها كانت مطلقة الثلاث ، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى ، فقد رد شهادتها وقال : لا نترك كتاب الله بقول امرأة لا ندري أصابت أم أخطأت حفظت أم نسيت .

وهذا الإمام علي -كرم الله وجهه- كان يستحلف الراوي ولا يقبل الحديث منه إلا بعد الحلف .

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٥) ، ومسلم (٢١٥٣) عن أبي موسى الأشعري رحمته الله مرفوعاً ، به .

وبتدبر ما سلف يتبين أن عدم ذبوع الرواية في صدر الإسلام وتدقيق كبار الصحابة رضي الله عنهم في قبول مروي السنة أمران كان وجودهما سبباً حاملاً لهم رضي الله عنهم على أن يفتوا أننا بما يفهم من عموم نصوص القرآن الكريم مع احتمال أن هناك سنة مخصصة - مثلاً لعموم الآية ، بحيث لو وجدوها لأفتوا بمقتضاها ، وأننا يفتون بالرأي والاجتهاد إذا لم يكن هناك نص من القرآن أو السنة .

٣- اختلافهم بسبب الرأي ، والمراد به عندهم العمل بما فيه مصلحة وأقرب إلى روح التشريع ، ومنه أن الخليفة عمر رضي الله عنه حتم على محمد بن مسلمة أن يمر خليج جاره في أرضه ، وذلك بعد امتناعه والترافع إليه ، وإنما حتم عليه ذلك لأن فيه نفع الطرفين من غير إلحاق ضرر بمحمد بن مسلمة .

أسباب اختلاف أئمة المذاهب

أما أسباب اختلاف أئمة المذاهب التي برزت في عهد التدوين فهي ستة :
أولاً : تردد الألفاظ وهو إما أن يكون بين طرق العام والخاص الأربعة ، أو تردد اللفظ بين أن يكون له دليل خطاب - وهو مفهوم المخالفة - أو لا يكون له .

فبالنسبة للأول وهو العام يقال : إنه ينظر فيه من حيث تعريفه ، والألفاظ السبعة التي يتحقق بواسطتها وانقسامه إلى أقسام ثلاثة ، حيث ينقسم إلى : عام باق على عمومته ، وعام أريد به الخصوص ، وعام مخصوص .

أما تعريفه فهو كما عرفه في «جمع الجوامع» : لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر ، فلفظ كجنس في التعريف ؛ إذ يشتمل المستغرق وغيره ،

وقيد بـ يستغرق ليدل على أنه شأنه ذلك وإن انحصر باعتبار الواقع في واحد، وذلك مثل ألفاظ الشمس والقمر والسماء والأرض، وهو قيد لإخراج كل من المطلق والنكرة في سياق الإثبات.

أما الأول فلعدم دلالة على شيء من الأفراد، وأما الثاني فلتناوله الأفراد على سبيل البدل، وعبر فيه -بالصالح له- باعتباره قيدًا لبيان الماهية -أي الحقيقة- لا للاحتراز نظرًا لكونه ليس لنا لفظ يستغرق ما لا يصلح له حتى يحتاج إلى الاحتراز عنه، وقيد بـ -من غير حصر- لإخراج أسماء العدد فإنها تتناول ما صلحت له لكن مع حصر.

أما الألفاظ السبعة التي يتحقق بواسطتها فهي الآتية :

١ - الجمع المعروف بـأل أو بالإضافة، بقيد تجرد الأول منهما من قرينة تدل على كون -أل- للعهد ومثاله قوله سبحانه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون : ١] و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] و﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة : ٢٢٨] و﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّكُمْ يَرْتَضَوْنَ بِأَنْفُسِكُمْ آلَ إِيمَانَ﴾ [آل عمران : ١٧٣] الآية^(١)، ومثال الثاني : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ [البقرة : ٢٣٣] الآية .

٢ - المفرد المعروف بـأل بقيد أن لا يكون بـأل للعهد أو للجنس^(٢)، وإلا لم يدل

(١) الناس جمع -أنس- أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل، وقيل : اسم جمع كالرهب والقوم، له واحد من غير لفظه، وهو -إنسان- ويصغر على نويس .

(٢) والمعهود إما ذكرى كاقتنيت ثوبًا فبعث الثوب، أو ذهني كحضر الأمير، إذا كان معهودًا بينك وبين مخاطبك، أو حضوري كالיום فرغت من دراسة الكتاب، أما الجنسية فهي إما استغراقية -إن خلفها كل ﴿وخلق الإنسان ضعيفًا﴾، أو لتعريف الحقيقة -إن لم تخلفها- فهي حينئذ لا تفيد العموم .

على العموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآية، و﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]^(١) الآية وحديث: «مطل الغني ظلم»^(٢) فبإضافة لفظ مطل للغني يعم كل مطل.

٣- النكرة في سياق النفي أو شبهه وهو -النهي أو الشرط- كقوله سبحانه ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] وقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»^(٣)، و«لا وصية لوارث»^(٤).

٤- أسماء الشرط كقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، و﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، و﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨] الآية.

٥- أسماء الاستفهام كقوله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، و﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١].

(١) سببها على ما قيل -كما «بالمحلى» رجل سرق رداء صفوان، ومن نفس الآية ما يؤيد قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ذلك أن ذكر السرقة قرينة أنه لم يرد بالسارق خصوص من نزلت فيه الآية.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، به.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، به. وأخرجه مسلم أيضاً (١٨٦٤) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، به.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨٧٠، ٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً، به مطولاً. قال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه ابن الجارود في «المنتقى» (٩٤٩).

وأخرجه الترمذي (٢١٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٦٤٦٨، ٦٤٦٩)، وابن ماجه (٢٧١٢) عن عمرو بن خارجة رضي الله عنه، به. قال الترمذي: «حسن صحيح». وانظر «علل الرازي» (٨١٧)، «نصب الراية» (٤/ ٤٠٣).

٦- الأسماء الموصولة كقوله سبحانه: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤]، و﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] الآية، و﴿وَالَّتِي لَمْ تَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤].

٧- لفظ كل كما في قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله ﷺ: «كل راع مسئول عن رعيته»^(١).

وأما انقسامه إلى عام باق على عمومه، وعام أريد به الخصوص، وعام مخصوص فيقال عن أولها الباقي على عمومه: أن ما مثل به له من مختلف الآيات هي كلها في غير الأحكام الفرعية، كما قال الإمام السيوطي ٩١١، مستظهرًا به قول الإمام البلقيني: إن مثاله عزيز ومستخرجًا من القرآن الكريم مثالًا له بعد الفكر: وذلك بآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية، فإنها لا خصوص فيها.

وعن ثانيها العام الذي أريد به الخصوص أن من أمثلته قوله -جلت قدرته: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية، إذ القائل واحد، وهو نعيم بن مسعود الأشجعي أو أعرابي من خزاعة، وإنما أطلق عليه لفظ الناس العام لقيامه مقام كثير في تشييطه المؤمنين عن ملاقاته أبي سفيان، ومما يقوي كون المراد به واحدًا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] حيث وقعت الإشارة بصيغة الجمع إلى واحد بعينه.

ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿أَمْرٌ مَحْسُودٌ النَّاسُ﴾ [النساء: ٥٤] أي النبي سيدنا محمد ﷺ، وذلك لجمعه ما في الناس من الخصال الحميدة.

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، به.

ومن أمثلته : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] أي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كما جاء فيما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس رحمهما الله .

وعن ثالثها العام المخصوص أنه ينقسم باعتبار المخصص له إلى متصل ومنفصل .

ثم إن المفهوم ينقسم إلى مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة ، فالأول ما وافق فيه حكم المسكوت عنه حكم المنطوق ، ثم إن كان -أي حكم المسكوت مع الموافقة لحكم المنطوق- أولى به ففحوى الخطاب ، ويقال له أيضاً : تنبيه الخطاب ، وذلك كفهم تحريم ضرب الوالدين من الآية المذكورة -كما سلفت الإشارة إليه- نظراً لكونه أولى بالتحريم من التأفيف لما فيه من الإهانة وشدة الإيذاء ، وإن كان مساوياً في الحكم فهو لحن الخطاب ، والثاني : ما خالف حكم المسكوت عنه حكم المنطوق ، وهو المصطلح عليه أصولياً بدليل الخطاب ، وله شروط يتحقق بها وهي :

١- أن لا يترك المسكوت عنه خوفاً من ذكره ، وذلك كأن يقول قريب عهد بالإسلام -والمسلمون حاضرون- لعبده : تصدق بهذا على المسلمين وهو يقصد غيرهم - وإنما ترك التعبير به خوفاً من أن يتهم بالنفاق .

٢- الجهل بحال المسكوت عنه كـ «في الغنم السائمة الزكاة» وأنت تجهل حكم المعلوفة .

٣- أن لا يكون القيد المنطوق به خرج مخرج الغالب كقوله سبحانه : ﴿وَرَبِّبْكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] .

- ٤- أن لا يكون المذكور خرج لجواب سؤال عنه ، أو حادثة تتعلق به ، أو لجهل المخاطب بحكمه ، كأن يخاطب من جهل حكم سائمة الغنم - وهي التي تترك للرعي دون المعلوفة ، فيقال : في الغنم السائمة زكاة .
- ٥- أن يكون تخصيص المنطوق بالذكر لأجل الامتنان كما في قوله سبحانه : ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤] فإنه لا يدل على منع القديد .

وضابط الشروط المذكورة وما في معناها ما نبه عليه الجلال السيوطي حيث قال : أن لا يظهر لتخصيص المنطوق بالذكر فائدة غير نفي الحكم عن المسكوت عنه مما تقدم من الشروط .

أما أنواعه فخمسة :

- ١- مفهوم الشرط ، وضابطه أن يكون اللفظ دالاً بمنطوقه على حكم معلق على شرط ، فيدل بمفهومه على نقيض ذلك الحكم عند عدم الشرط ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦] فهو دال بمنطوقه على وجوب النفقة للمطلقة بشرط أن تكون حاملاً ، فيفهم منه منع عدم وجوبها إذا انعدم الشرط بأن لم تكن حاملاً .

- ٢- مفهوم الغاية ، وضابطه أن يدل اللفظ بمنطوقه على حكم ممدود إلى غاية فيدل بمفهومه على نقيض الحكم بعدها - أي الغاية - كما في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فيدل بمنطوقه على أن المبتوتة المطلقة ثلاثاً يمتد تحريمها على زوجها ما دامت لم تتزوج غيره ، ويفهم منه أنها تحل له بعد ذلك .

٣- مفهوم العدد . وضابطه أن يدل اللفظ بمنطوقه على حكم مقيد بعدد ، ويدل بمفهومه على نقيض ذلك الحكم فيما عدا ذلك العدد . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ [النور : ٨ ، ٩] فقد دل بمنطوقه على أن الملاعنة لا تنجو من عقاب الزنا بعدما يعطي الزوج الأيمان إلا إذا حلفت خمسة أيمان . ويفهم منه أنها إذا لم تحلف الأيمان الخمسة فإنها تعاقب .

٤- مفهوم الصفة . بأن يكون اللفظ دالا بمنطوقه على حكم لموصوف بصفة فيدل بمفهومه على نقيضه إذا انتفت الصفة . وذلك كحديث «في سائمة الغنم الزكاة»^(١) فهو دال بمنطوقه على وجوب الزكاة في سائمة الغنم إذا بلغت النصاب ويدل بمفهومه على عدم وجوبها في الغنم المعلوفة - يعني على القول بعدم وجوب زكاتها .

٥- مفهوم اللقب . بأن يكون اللفظ دالا بمنطوقه على حكم باسم جامد فيدل بمفهومه على نقيض الحكم على غير الجامد ، ومثاله قوله ﷺ : «مطل الغني ظلم» فهو يدل بمنطوقه على أن المدين الغني إذا ماطل دائئه كان ظالماً . ويفهم منه أن الفقير إذا ماطل دائئه لم يكن ظالماً له .

ثانياً : الاشتراك اللفظي . وهو إمّا في اللفظ المفرد أو في اللفظ المركب .

(١) قال ابن الملقن في «خلاصة البدر المنير» (١٠٠٥) : «لا أعرفه هكذا» ، ثم ذكر معناه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وذكر ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢ / ١٥٧) أن ابن الصلاح عزاه لقول الفقهاء والأصوليين . وحديث أنس المذكور أخرجه البخاري (١٤٥١) مرفوعاً ، بمعناه .

فمن الأول لفظ القرء فإنه يطلق على الحيض وعلى الطهر ، ولفظ الأمر فإنه دائر بين الوجوب والندب ، ولفظ النهي فهو دائر بين التحريم والكراهة بالناسخ وانتهى الأمر ، وإلا فيبحث عن طريق لترجيح أحدهما على الآخر .

فإن ثبت عمل بالراجح ، وإلا سلك فيهما طريق الجمع ، فإن لم يكن - والفرض أنهما متساويان في الدرجة - كما تبين من خلال التعرف على الشروط الثلاثة - فهنا يركن على قلبه ويختار ما ترجح لديه .

وقد أوضح ابن القيم في «إعلام الموقعين»^(١) معنى الرأي الفقهي على حد ما كان يفهمه الصحابة ، فأفاد أنه ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات .

وأصل هذا من السنة ما رواه الطبراني في «الأوسط» : عن عمر رضي الله عنه الذي جاء فيه : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٢) ، وحديث وابصة الذي ورد فيه : «استفت قلبك واستفت نفسك . . . ، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(٣) .

(١) إعلام الموقعين (١ / ٧٦) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في «الكبرى» (٥٢٢٠) ، وأحمد في «المسند» (١ / ٢٠٠) عن الحسن بن علي رضي الله عنه مرفوعاً ، به . قال الترمذي : «حسن صحيح» . وصححه ابن خزيمة (٢٣٤٨) ، وابن حبان (٧٢٢) ، والحاكم في «المستدرک» (٢ / ١٥) .

(٣) أخرجه الدارمي في «السنن» (٢٥٣٣) ، وأحمد في «المسند» (٤ / ٢٢٨) ، والحاثر بن أبي أسامة في «المسند» (٦٠ - زوائد) ، وأبو يعلى في «المسند» (١٥٨٦) عن وابصة بن معبد رضي الله عنه مرفوعاً ، به مطولاً . وحسن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٦٨٣) . وقال ابن حجر في «الفتح» (١ / ٢٢١) : «حديث مشهور» .

ثم إن من أمثلة التعارض بين آيتين التعارض بين قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] المفيدة بظاهرها أن عدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشرًا مطلقًا - أي حاملًا كانت أو غير حامل ، وقوله سبحانه : ﴿وَأُولَئِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] المفيدة أن عدة الحامل وضع حملها مطلقًا - أي كانت مطلقة أو متوفى عنها ، فوقع التعارض بين الآيتين بالنسبة لمن توفي عنها زوجها وهي حامل ، فنشأ الخلاف فيها .

فمن ثبت عنده تأخر الثانية عن الأولى اعتبرها ناسخة لها وجعل عدتها وضع حملها بحيث بتحقيقه تخرج من العدة ولو داخل أربعة أشهر وعشر .

ومن لم يثبت عنده نسخ جمع بينهما بما يفضي إلى العمل بهما معًا ، وهو أن عدتها -أقصى الأجلين- أي أجل وضع الحمل وأجل عدة الوفاة الذي هو أربعة أشهر وعشر .

ومن أمثله بين حديثين : حديث : «إنما الربا في النسيئة»^(١) ، وحديث : «لا تبيعوا البر بالبر إلا سواء بسواء»^(٢) ، فقد تعارضا بالنظر لما هو داخل في حيز ربا الفضل وهو أن يبيع الشيء بجنسه متفاضلاً حالاً .

فمقتضى الحديث الأول أنه لا يحرم ، وبه قال ترجمان القرآن ابن عباس رحمهما ومقتضى الثاني أنه يحرم وبه أخذ جماهير الصحابة رحمهم مجيبين عن الحديث الأول بأنه جاء فيه ما تعودوه .

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٦) عن أسامة بن زيد رحمته مرفوعاً ، به .

(٢) أخرجه مسلم (١٥٨٧) عن عبادة بن الصامت رحمته مرفوعاً ، بنحوه .

ومن تعارض آية وحديث قوله سبحانه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] الآية ، فقد تعارضت مع حديث : «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، ألا لا وصية لوارث» .

فقد منع الحديث ما أوجبت الآية للوالدين والأقربين ، وقد أجاب جماهير الفقهاء عن هذا التعارض بأن ما ثبت بالآية من وجوب الوصية للوالدين والأقربين منسوخ بهذا الحديث المتأخر عنها حيث لم يقله ﷺ إلا بعد نزول آيات الموارث ، أو بآية الموارث هذه عند من لا يجوز نسخ القرآن بالسنة .

ومن تعارض قياسين مسألة كون مرافق الأرض الزراعية كالشرب والمجرى وغيرهما -تدخل في الوقف وإن لم ينص عليها قياساً على الإجارة- التي تدخل فيها بدون تنصيب عليها لما بينهما من الشبه من حيث أن كلاً منهما لتمليك منفعة الأرض ، أو لا تدخل إلا بالنص عليها في العقد قياساً على البيع الذي لا تدخل فيه إلا بذلك لما بينهما من الشبه من حيث أن كلاً منهما يخرج الأرض عن ملك البائع والواقف .

هذا وقد تتعدد الأدلة المتعارضة لدى المجتهد فيجري نفس المسطرة الآنفة الذكر .

ومن أمثلة ذلك اختلاف الأئمة في مدلول الصعيد الطيب في آية التيمم الواردة في سورتي النساء والمائدة ، هل المراد به التراب الذي له غبار خاصة ، وهذا ما فسر به ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما حيث فسر به تراب الحرث ، أو المراد به كل جزء من أجزاء الأرض .

فذهب أحمد والشافعي وإسحاق وأبو يوسف وأبو داود إلى الأول ،
وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة التيمم بكل ما كان من أجزاء الأرض
ولو حجرًا صلدًا لا غبار عليه .

فوجد في المسألة مذهبان متقابلان ، وقد احتج مناصرو كل مذهب
بحديثين ، فاستدل مناصرو الفريق الأول بما أخرجه الإمام الشافعي في
«مسنده» : عن علي كرم الله وجهه وهو أنه رضي الله عنه قال : «أعطيت ما لم يعط
نبي من أنبياء الله ؛ جعل لي التراب طهورًا» .

وثانيهما : ما ورد في بعض روايات مسلم : «وجعلت تربتها طهورًا» .
واستدل مناصرو الفريق الثاني بما أخرجه البخاري : عن جابر رضي الله عنه
الذي جاء فيه : «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» .

وبما رواه الإمام أحمد : عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه رضي الله عنه قال : «جعلت
الأرض كلها لي ولأمتي مسجدًا وطهورًا ، فأينما أدركت رجلًا من أمتي
الصلاة فعنده طهوره» .

وقد رد على أئمة المذهب الأول بأنه لا دليل في الحديثين على اشتراط
التراب لأمرين :

١- أن التراب هو بعض أفراد الصعيد ، ومن المقرر أصوليًا أن ذكر بعض
أفراد العام لا يخصه .

٢- أنه لقب ومفهومه لا يعمل به عند الجمهور ، ثم إن الدقاق والصيرفي
من الشافعية وابن خويز منداد من المالكية وبعض الحنابلة لما احتجوا
لمذهبهم -أن مفهوم اللقب يعمل به- بأنه لا فائدة في ذكره إلا نفي
الحكم عن غيره كالصفة رد عليهم الجمهور بأن فائدته استقامة
الكلام ؛ إذ بإسقاطه يختل .

أما طريق الجمع الذي سلكه مناصرو الفريق الثاني فهي أن التيمم يصح بكل جزء من أجزاء الأرض ترابًا كان أو غيره ، إلا أن التراب أفضل ، فإذا وجد تراب طاهر لدى مريد التيمم وحجر صلد فالإتفاق على أفضليته وتقديمه على غيره ، ومن ثم نرى الشيخ خليلًا من المالكية عند التعرض لما يتيمم به من أجزاء الأرض صدر به قائلًا :

وصعيد طهر كتراب وهو الأفضل



المحاضرة الحادية والعشرون:

الحرية والمسئولية في الإسلام

الحديث :

روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الشركة في بابها ليقرع في
القسمة والإسهام فيه قال رحمه الله :

حدثنا أبو نعيم ، حدثنا زكريا قال : سمعت عامراً يقول : سمعت
النعمان بن بشير رحمته الله عن النبي ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله
والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها
وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من
فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن
يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا
جميعاً» .

روايات الحديث :

هذا الحديث الشريف رواه البخاري في موضعين من «صحيحه» كما
رواه الترمذي في موضعين من «جامعه ، وسننه» ، وكما رواه الإمام أحمد في
أربعة مواضع من «مسنده» في مسند النعمان بن بشير رحمته الله .

وقد رأيت أن أسرد رواياته في الكتب المذكورة لأن بعضها يزيد بعضاً
وضوحاً ، وأسوق معها عناوين الأبواب التي أوردت فيها لأنها بمثابة
شرح وجيز لمضمون الحديث كان السلف يسلكونه في كتبهم ليبينوا لنا
أفهام محدثينا وفقهائنا وطرق استنباطهم من هذا الحديث .

فالرواية الأولى للبخاري ساقها في كتاب الشركة في بابها ليقرع في القسمة وقد سمعناها تتلى قريباً والرواية الثانية للبخاري ساقها في كتاب الشهادات في باب القرعة في المشكلات فقال بسنده إلى : النعمان بن بشير رضي الله عنه قال النبي ﷺ : «مثل المدهن في حدود الله -أي المداهن في الحدود- والواقع فيها ، مثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها ، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به ، فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة فاتوه فقالوا : ما لك ، قال : تأذيتم بي ولا بد لي من الماء ، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» .

وأما الإمام الترمذي فقد أشار إليه في «سننه» في أبواب الفتن في باب الفتن في باب ما جاء من نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، فساق أولاً حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي يقول فيه : «يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» .

ثم قال الترمذي : باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب وساق سنده إلى : النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء ، فيصبون على الذين في أعلاها ، فقال الذين في أعلاها لاندعكم تصعدون فتأذوننا ، فقال الذين في أسفلها : فإننا

نثقبها من أسفلها فنستقي ، فإن أخذوا على أيديهم فمنعواهم نجوا جميعا ، وإن تركوهم غرقوا جميعا» .

وأما روايات الإمام أحمد في مسنده فهي في ثلاثة مواضع موافقة لروايته البخاري والترمذي لا تخرج عنهما وفي السياقة الرابعة فيها مغايرة لهما فقد جاء فيها التمثيل قائما على ثلاثة أشخاص ركبوا السفينة وهذا نص تلك الرواية : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها مثل ثلاثة ركبوا في سفينة فصار لأحدهم أسفلها وأوعرها وشرها ، فكان يختلف -أي يذهب- إلى أعلى السفينة ليستقي الماء ، ثم يعود إلى موضعه في السفلي منها ، وثقل عليه كل ما مر ، أي ثقل عليه هذا المرور بالماء على أولئك الذين في أعلاها ، فقال : أخرج خرقا في نصيبي يكون أهون علي ولا يكون مختلفي أي مروري عليهم . فقال بعضهم : إنما يخرق في نصيبه ، وقال آخرون : لا ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهكوا» .

رواة الحديث :

أبو نعيم :

أما رواية البخاري في سند هذا الحديث فأولهم : أبو نعيم وهو الفضل بن دكين ، واسمه : عمرو بن حماد التيمي الكوفي ، روى عن الأعمش وفطر بن خليفة وسفيان الثوري ومالك وغيرهم من الأئمة ، وروى عنه الإمام البخاري فأكثر ، وروى عنه الإمام عبد الله بن المبارك ومات قبله بدهر طويل كما روى عنه عثمان بن أبي شيبة ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإبراهيم الحربي وخلق كثير غيرهم من فحول رجال الحديث ، وأثنى عليه الإمام أحمد فقال : أبو نعيم أعلم بالشيوخ وأنسابهم وبالرجال ، ووکیع بن الجراح أفقه منه .

وقد وصف أبو نعيم بألقاب من التوثيق عظيمة فقليل فيه : الحجة ، الثبت ، الثقة ، الصدوق ، اليقظان في الحديث ، العارف به ، أمير المؤمنين في الحديث ولد سنة ثلاثين ومائة من الهجرة ومات سنة ثمان عشرة ومائتين من الهجرة رحمه الله .

زكريا :

ثاني الرواة في سند هذا الحديث زكريا ، وهو أبو يحيى زكريا بن أبي زائدة الوادعي الكوفي ، روى عن أبي إسحاق السبيعي وعامر الشعبي وعبد الملك بن عمير وغيرهم ، وروى عنه ابنه يحيى وسفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وعبد الله بن المبارك ويحيى القطان وأبو نعيم وغيرهم وثقه النسائي فقال : ثقة حلو الحديث وكان قاضيا بالكوفة توفي سنة سبع وأربعين ومائة .

عامر :

ثالث الرواة في سند هذا الحديث عامر وهو أبو عمير عامر بن شراحيل الشعبي الحُميري ، الهمداني ، الكوفي التابعي الجليل ، لقي خمسمائة من الصحابة وروى عن نحو خمسين منهم روى عن علي ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبادة بن الصامت ، وأبي هريرة ، والنعمان بن بشير ، والعبادلة الأربعة ، وعائشة ، وأم سلمة ، وميمونة ، وأم هانئ وغيرهم ، روى عنه أبو إسحاق السبيعي وزكريا بن أبي زائدة وسعيد بن مسروق الثوري وأبو إسحاق الشيباني والأعمش وجماعات غيرهم . لقيه سيد التابعين الحسن البصري فوصفه فقال : كان والله كثير العلم ، عظيم الحلم ، قديم السلم يعني الإسلام . وكان من الحفظ على درجة عجيبة قال عن نفسه : ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل

بحديث إلا حفظته ولا حدثني رجل بحديث فأحببت أن يعيده علي .
قال الإمام ابن جرير الطبري فيه : كان الشعبي ذا أدب وفقه وعلم
وكان فيه دعاة . توفي سنة ثلاثة ومائة من الهجرة رحمه الله تعالى .
النعمان بن بشير رحمته الله :

رابع الرواة وآخرهم في سند هذا الحديث النعمان بن بشير الصحابي
ابن الصحابي والصحابة أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي المدني ، صحب
رسول الله ﷺ وروى عنه وعن عدد من الصحابة وروى عنه ابنه محمد
والشعبي ، وعروة بن الزبير فقيه المدينة ، وأبو قلابة الجرمي وغيرهم ،
تولى قضاء دمشق بعد فضالة بن عبيد وجعله معاوية أمير حمص بعد أن
كان أمير الكوفة وكان رحمته الله أخطب من سمعت ، روى من الحديث عن
رسول الله ﷺ أربعاً وعشرين ومائة حديث ، وتوفي سنة خمس وستين من
الهجرة رحمته الله .

ألفاظ الحديث :

أما ألفاظ الحديث ومفرداته :

«القائم على حدود الله» فقوله ﷺ : «مثل القائم على حدود الله» أي
المحافظ على حدود الله لا يجاوزها ولا يتهاون بها ، وحدود الله جمع حد ؛
والحد في اللغة معناه: الفصل بين الشيئين والمنع ، ومنه حَدُّ الدار وهو ما
يمنع غيرها من الدخول فيها ومنه الحديد ، سمي حديداً لأنه يمنع وصول
السلح إلى البدن ومنه سمي السجن حداداً ؛ لأنه يمنع من في السجن من
الخروج منه ويمنع الخارج عنه من الدخول إليه . فالحدود لغة معناها
الموانع والحواجز .

فأما الحدود بالمعنى الشرعي وتطلق على العقوبات المعينة المترتبة على ارتكاب جريمة مثل جريمة السرقة والزنا والقذف وشرب الخمر ونحوها، كما تطلق الحدود أيضا على أحكام الله وشرائعه وأوامره وزواجره ومنه قوله تعالى في أول سورة الطلاق: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

ومنه قوله تعالى في أوائل سورة النساء بعد أن ذكر مقادير الموارث وأحكامها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣] أي في إقامة حدوده وبتنفيذ أحكامه: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣، ١٤] أي يخالف أوامره وأحكامه: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

والحدود بمعنى أحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيها هو المعنى المراد في الحديث الذي أشرحه، وسميت حدود الله لأنها فصلت بين الحلال والحرام ولأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها، كما سميت العقوبات المعينة على فعل السرقة والزنا ونحوهما حدودًا لأنها تمنع أصحابها من العودة إلى أمثالها، بل وتمنع غيرهم من الترددي فيها؛ ولهذا أضاف الله الحدود إلى نفسه فسميها حدود الله إشارة منه سبحانه إلى أنه هو الحارس لهذه الأحكام والحفيظ عليها، فأى مؤمن إذن يتعرض لحدود يحرسها الله فله الهلاك والبوار: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١] ظلم نفسه لتعريضها - هكذا - لبأس الله القائم على

حدوده يحرسها ويرعاها، وظلم نفسه بظلم غيره، فمن يظلم غيره يظلمك باعتبار: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].
وقوله ﷺ: «والواقع فيها» أي المرتكب الوقوع في الحدود مخالفة أمر الله تعالى.

وقوله ﷺ: «والمدهن فيها» أي المداهن والمحابي، وهو الذي يوالي للواقع في الحدود ويضيع الحقوق، ولا يغير المنكر.
وقوله ﷺ: «استهموا على سفينة» أي اقترعوا فأخذ كل واحد منهم من السفينة التي أصابوها سهمًا أي نصيبًا معينًا بالقرعة.
وقوله ﷺ: «فإن أخذوا على يديه» أي منعه وكفوه عن النقب في نصيبه من السفينة.

شرح الحديث :

تمهيد :

الأمثال في السنة النبوية :

هذا بعض ما يتعلق بألفاظ الحديث ومفرداته، وقد بدئ هذا الحديث الشريف بلفظة: «مثل» فهو مثل من الأمثال التي ضربها رسول الله ﷺ لبيان الحقائق الشرعية والتوجيهات الإسلامية، ولضرب المثل كما قيل شأن لا يخفى ونور لا يطفأ، يرفع الأستار عن وجوه الحقائق ويميط اللثام عن محيا الدقائق ويبرز المتخيل في معرض اليقين، ويجعل الغائب كأنه شاهد ومعين، وربما تكون المعاني التي يراد تفيهما معقولة صرفة، فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما في العقل، فبضرب الأمثال تبرز في معرض المحسوس فيساعد الوهم العقل في إدراكها حتى كأنها من

المللموس وهناك تنجلي غياهب الأوهام ويرتفع شغب التردد والخصام ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . وقد ذكروا أن المَثَل بفتحيتين كالمثل بكسر فسكون ، والمثيل في الأصل النظر والشبيه وكأن المثل مأخوذ في اللغة من المَثُول وهو الانتصاب والوقوف ومنه الحديث الشريف «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار» ، ثم أطلق لفظ : مَثَل على الكلام البليغ الشائع الحُسن المشتمل إما على تشبيه للشبيه أو على استعارة رائقة للنبية أو على كلمة أو موعظة نافعة أو كناية بديعة جامعة أو نظم من جوامع الكلم الموجز .

ولا يشترط في المثل أن يكون مجازاً ، فهذه أمثال العرب أفردت للتأليف وفيها الكثير من الأمثال مستعملاً في معناه الحقيقي ، ولكون المثل يكون فريداً في بابه ، إماماً في محرابه ، يبين الحقائق ويكشف الدقائق ، وقد قصدت حكايته لتوضيح أمر من الأمور لم يجوزوا تغيير لفظه لفوات المقصود منه حين ذاك .

وقد ضرب سيدنا رسول الله ﷺ الأمثال في أحاديثه كثيراً ، حتى قيل فيما نقل عن عبد الله بن عمر أنه قال : حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل ، لكن قال شيخ ديار المغرب في عصره أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : لم يصح ذلك ، وقد تفرد الإمام أبو عيسى الترمذي من بين المحدثين فأفرد في كتابه سنن الترمذي باباً للأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ أمثالاً فقال رحمه الله تعالى في أواخر «سننه» : أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ ثم أورد أربعة عشر حديثاً كان الحديث الذي أشرحه أحدها .

قال الإمام أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذى ، ولم أر أحدا من أهل الحديث صنف فأفرد للأمثال النبوية بابا غير أبي عيسى الترمذي ولله دره لقد فتح بابا أو بنى قصرا أو دارا ولكن اختط خطا صغيرا فنحن نقنع به ونشكره عليه . ومن الغريب أن الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى أورد في كتابه الجامع الصغير من الأحاديث التي بدأت بلفظة «مثل» اثنين وأربعين حديثا ولم يورد هذا الحديث الشريف فيها وهو مثل الأمثال في موضوعه .

هذا الحديث والحرية والمسئولية في الإسلام :

وبعد هذا التمهيد بشرح ألفاظ الحديث أتوجه إلى شرح الحديث وما يتناوله على سبيل الإيجاز والاختصار فأقول هذا الحديث أصل من أصول الإسلام في بابه فهو أصل في تحديد الحرية والمسئولية وهو أصل في تحديد تصرف الإنسان بحقه بالنظر إلى حقوق غيره . وهو أصل في وجوب تقديم دفع الضرر العام على الضرر الخاص كما يفيد لزوم تقديم الحق العام على الحق الخاص عند تعارضهما ويفيد أيضا لزوم الصبر على الضرر اليسير خوفا من الضرر الكثير فالذين في أعلى السفينة ويتأذون بتقاطر الماء عليهم ينبغي أن يصبروا على هذا الأذى الخفيف خوفا مما هو أشد منه وهو خرق السفينة وغرقها وغرق من فيها أعلاها وأدناها . والحديث أيضا دليل في مسئولية الجاني أو الخاطئ ولو كان بحسن نية أخطأ ودليل أيضا على مسئولية كل قادر على رده ومنعه وأن المتسبب بالإضرار للغير مؤاخذ ولو كان فعله في حقه ونصيبه وملكه .

أصناف الناس أمام حدود الله :

١ - الواقعون فيها :

وقد أفاد الحديث بمجموع رواياته أن الناس أمام حدود الله ﷻ ثلاثة أصناف :

فصنف واقع في حدود الله ومعاصيه يرتكب المخالفات ويقع في الظلمات لا يبالي ظلم نفسه أو ظلم الناس ، وقد مثل له الرسول ﷺ بالذي أخذ فأساً وجعل يخرق في السفينة وصنيعه سبب الهلاك والغرق لنفسه ولغيره .

٢ - المداهن :

وصنف ثان مداهن يحابي ويرائي ، يضع الحقوق ويسكت على المنكر ولا يغيره وقد مثل له رسول الله ﷺ بالشخص الذي أقر من يخرق في السفينة ودافع عن الذي يخرقها قائلاً : إنما يخرق في نصيبه . فهذا مؤازر للباطل ومعين على الهلاك والغرق لنفسه ولغيره أيضاً .

٣ - القائم على الحدود :

وصنف ثالث قائم على حدود الله حافظ لها يقظان على حراستها ، لا يمكن أحداً يتعدها أو يتهاون بها وقد مثل له الرسول ﷺ بالآخذ على يد خارق السفينة لا يدعه يخرقها ولو في نصيبه فينجيه وينجي نفسه وغيره ومرتبة حفظ حدود الله تعالى تأتي في قمة المراتب الإيمانية وفي أعلى سنامها ولنستمع إلى القرآن الكريم إذ يبين تصاعد تلك المراتب الإيمانية فيقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

التَّوَرَّةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ
الْعِبَادُونَ الْحَمِيدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَنَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

فقد جاءت هذه المرتبة السامية بعد مرتبة التوبة، والعبادة والحمد
والصيام والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ذروة المراتب
التسع المذكورة.

ما يؤخذ من الحديث :

إطار الحرية والمسئولية :

وأعود بعد هذا إلى ما يستخلص من الحديث الشريف بوجه عام،
فالشرع الإسلامي قرر الحرية وقرر المسؤولية، والحديث الشريف الذي
نتمتع بسماحه ودراسته حدد إطار الحرية ولزوم القيام بالمسئولية .

فالحرية في الإسلام مرعية كل الرعاية لكنها تحاط بتنظيم إلهي يدفع
عنها غائلة الشطط والفساد والإفساد ومحاطة أيضاً بالمسئولية عن صلاح
الآخرين وسلامتهم .

فلإنسان الحرية في التجارة ، فله أن يتاجر ويربح ويجمع المال ويتوسع
به ويدخره ، فله أن يتاجر في البر والبحر والبناء والأراضي والمنقولات
وكل ما ينفع الناس ، فإذا أراد التجارة بالمخدرات نالته يد الحاكم بالمنع
والزجر ؛ لأن في تجارته هذه إثراء له ، ولكن بطريقة مؤذية قاتلة لا ينتبه
إليها هو إذ أعماه الطمع والجشع وحب المال ولو حراماً ، ولأن في تجارته

إفسادًا للآخرين بنفسه وبالمجتمع ؛ ذلك أن انهيار الأخلاق والأجسام بالمخدرات والموبقات ، سيعود على بيت هذا الرجل بالفساد والزنا والفواحش بعد قليل ، ويعود على المجتمع كله أيضًا بمثل ذلك فمنعه من تجارة المخدرات إنجاء عاجل له وللآخرين على السواء ، وتركه يتاجر بها إهلاكًا لنفسه وللآخرين على السواء .

وللإنسان الحرية في الصناعة ، وقد جاء في «صحيح مسلم» عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كان زكرياء نجارًا» ، وجاء في «الصحيح» أيضًا : «كان نبي الله داود يأكل من عمل يده» .

فالصناعة مشروعة في الإسلام ، فإذا قام الصانع بصناعة ما فيه غش أو إفساد للأخلاق ليربح المال ويثري بسببه أخذ على يديه ، وفي ذلك سلامة له وللآخرين ؛ ذلك لأن الفساد والغش في الصناعة إذا فشا من عمله وانتشر في الناس فستعطل الطاقات الخيرة ويتنشر الغش والخيانة ، ويتحول السلوك إلى مفاسد ووباء في المجتمع فيصيبه ذلك الوباء ، كما يصيب الآخرين .

فإذا أخذ على يديه نجا من الإفساد ونجا الآخرون ، وإذا ترك هلك وهلك الآخرون .

وللإنسان الحرية في الزراعة وهي مشروعة حض الشرع الحنيف عليها ، فللإنسان أن يزرع ما شاء مما فيه نفع الإنسان والحيوان والمجتمع ، فإذا انحرف عن الجادة ، فزرع ما يمرض الناس أو يودي بحياتهم ، أو يضعف صحتهم وسلامتهم نالته يد المنع من الحاكم ، فمنع من هذا النوع من الزراعة لأن فيه ضياعًا وإضرارًا بنفسه وببني جنسه ؛ لأن إضراره بغيره إضرار بذاته من حيث أن طبيعة المجتمع الإنساني وحدة متكاملة مترابطة ،

فإذا لحق ببعض أفرادها ضرر فقد وقع أثره على الآخرين وفيهم القائم بالزراعة المحظورة لأنه من المجتمع نفسه .

وهكذا الإدارة والتعلم والتعليم ، فللإنسان أن يتعلم ما شاء مما فيه خيره وخير غيره ، فإذا تعلم الشعوذة والسرقه والاحتتيال والسطو على الآخرين فذلك من نطاق ما يسمى بالعلم على رذالته وهبوطه وسقوطه ، ولكنه علم يضر بالآخرين فيشل وجودهم أو يعطل عقولهم ، أو يسرق منهم واستقرارهم ، فيمنع من هذا العلم لأن ضرره سيعود عليه كما يعود على سواه من الناس ، فإذا أخذ على يديه نجا من الفساد والإفساد ونجا معه المانعون ، وإذا تركوه فقد هلك وهلكوا معه .

بل للحاكم المسلم أن يتدخل في حفظ المواهب العالية والمهارات النادرة أن تصرف إلى شيء تافه غير مفيد ؛ فقد روى أبو بكر الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» حادثة وقعت في عصر هارون الرشيد رحمه الله تعالى : فقد تقدم إلى هارون الرشيد شخص وقال له : يا أمير المؤمنين إنني أستطيع أن أرمي بإصبعي الإبرة فتغرز في الأرض ثم أرمي الثانية فتدخل في خرمها وهكذا إلى مائة إبرة ، فقال له هارون الرشيد متأكداً : وهل تستطيع ذلك حقاً؟ قال : نعم ، قال : فبادر فافعل فأخرج الرجل من جعبته إبرة ، ثم رمى الإبرة الأولى بإصبعيه فغرزت في الأرض ثم رمى الإبرة الثانية فدخلت في خرم الأولى ، وهكذا رمى الإبر كلها حتى الإبرة المائة ، فأعجب به هارون الرشيد ، ودهش لمهارته العجيبة ، فأمر له بمائة دينار ، وأمر أن يضرب مائة جلدة أيضاً ، فقال الرجل يا أمير المؤمنين : جمعت لي بين العذاب والنعيم ، وما الذي كان مني؟ قال : المائة دينار تقدير لمهارتك ، والمائة جلدة تعزير على إضاعة مهارتك في شيء لا ينفع المسلمين .

وللإنسان الحرية أن يلبس من الثياب ما شاء مما تقتضيه ظروف البيئة أو العمل أو الصحة عنده ، فإذا لبس لباسًا يضر بالآخرين في أخلاقهم واستقرار نقاء مجتمعهم منع من ذلك ؛ لأن ضعف الأخلاق الناشئ عن ذلك سيدخل إلى بيته بعد قليل ، فيكون هو الساعي إلى حتفه بظلفه ، ولكنه لا يبصر ما يبصره الحاكم الراعي الأمين المسئول عن الناس جميعًا ، فإذا منع من ذلك نجا هو ونجا الآخرون ، وإلا هلك وهلكوا .

وكذلك الكافر الذي أقره الشرع الحنيف على دينه فهو حر في مزاوله طقوسه وعباداته بينه وبين نفسه في محيطه سماحة الإسلام الحنيف ، وانتظارًا به أن يتعرف الإسلام بقربه من المسلمين فيسلم أو تقوم الحجة عليه زيادة بين يدي الله تعالى يوم حسابه ، فإذا خرج هذا الكافر إلى الناس يدعوههم إلى ذلك الاعتقاد المنحرف نالته يد المنع والحظر من الحاكم وحجبه من الدخول في هذا المسلك لأن الشارع لما أقره على التعبد بدينه مع الحكم بكفره أقره من باب الحرية والبصيرة على نفسه .

وقد بسط له الدعوة وبلغه إياها على وجهها الملزم ، وهو قادم على ربه وسيحاسبه على مذهبه وعمله .

أما أن يخرج إلى الناس فيدعوهم إلى معتقده بدافع اسم الحرية فهذا تسلط منه بالإخراج للناس عن دين الفطرة فلذلك يمنع ويصادر تصرف هذا وحرية قاصرة على ألا يتأذى بها الآخرون .

وأما المسلم فله أن يدعو غير المسلم إلى الإسلام وذلك لأنه يعود به إلى دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ففي الحديث القدسي الذي رواه مسلم في «صحيحه» يقول الله ﷻ : «خلقت عبادي حنفاء كلهم ، فأنتهم الشياطين فاجتالتهم وأخرجتهم عن دينهم» .

وفي الحديث الشريف الآخر: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

ونلاحظ من هذه الأمثلة القليلة أن الإسلام أعطى الحرية ونظمها بحيث تنفع ولا تضر، وتبني ولا تهدم وتصلح ولا تفسد، والمانع أو الموجه في ذلك كله للمشئت عن جادة الحرية هو الحاكم ويستعين بأهل العلم وذوي الرأي ولا يصح أن يترك الأمر فوضى لكل بصير وضير وفهيم وسقيم، وكبير وصغير وجاهل وغبي، فإن ذلك مدعاة البوار والانهيار للناس كلهم وللمجتمع بأسره:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالم سادوا

ومن هذا كله تبدو أهمية وجود الحاكم المسلم والعالم المسلم والمجتمع المسلم؛ لأن في بعض الناس ضعفاً يشتط بهم ذات اليمين وذات الشمال، فلو تركوا وما اشتطوا إليه هلكوا وأهلكوا من تبعهم، وإذا ردوا إلى الجادة نجوا ونجاء أئوهم.

وهذا المنع من الحاكم المسلم لا يتحقق إلا بمعاونة الأعوان الصالحين والمواطنين المخلصين، فكثير من الناس يضعون المسؤولية على عاتق الحاكم ويقعدون عن الحق وتأييد القائم به فكأنهم يرقبون من الحاكم أن يكون صاحب معجزات وخوارق سماوية تغلب القوانين التي أودعها الله في الناس.

فالمجتمع مؤلف من حاكم ومحكوم، ولكل منهما حقه وعلى كل منهما مسؤوليته فلا تتحقق سلامة المجتمع وتقدمه وازدهاره الصحيح إلا بالتعاون من الأمر والمأمور والكبير والصغير والرجل والمرأة والخادم والمخدوم.

فنسأل الله الذي من علينا بهذا الشرع الحنيف ، وهذا الهدي النبوي
الكريم أن يفتح قلوبنا لطاعته ويكرمنا باتباع شريعته حتى تكون أحب
إلى أنفسنا من الماء البارد على الظمأ .



المحاضرة الثانية والعشرون:

مناهج العلماء في تأويل الكتاب

قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

مقدمة:

ففي هذا الشهر الكريم المبارك تتصل السماء بالأرض ويرتفع إلى الله سبحانه وتعالى دعاء المؤمنين وأذكار الذاكرين، وتنزل من السماء على الأرض الرحمات والبركات من لدن رب العالمين.

في هذا الوقت يتجه المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها وفي كل مكان محافظين على القيام وعلى الصيام، إلى تلاوة كتاب الله وتدبره والتأمل في معانيه والاستفادة منه حتى يكون منهجهم في هذه الحياة ويكون سبيلهم إلى السلام كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى.

وإذا كان كتاب الله هِجْرَهُمْ في أيام رمضان ولياليه، وإذا كانوا يقبلون إقبالاً خاصاً في هذا الشهر على تلاوته وتدبره وقد قيل قديماً: إن فهم القرآن مع قلة ما يتلوه الإنسان أفضل من كثرة التلاوة مع عدم الفهم.

جعل الناس يشعرون بهذا الشرف وهو شرف الانتساب إلى كتاب الله والالتزام به والقراءة لسوره والعبادة لربه بتلاوة هذا الكتاب الذي فرضه عليهم ليكون ذكرهم الذي يصلهم بالله.

هذا المعنى أشار إليه كثير من العلماء.

وقال بعضهم: وقد ذكر ذلك أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط»:

نعم السميع كتاب الله إن له حلاوة هي أحلى من جنى

به فنون قد جمعن فما يقدن من عجب إلا إلى عجب
 أمر ونهي وأمثال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتب
 لطائف يجتليها كل ذي بصر وروضة يجتنيها كل ذي أدب
 أغراض الآية الكريمة :

فهذه اللطائف التي يجتليها كل ذي بصر وتلك الأزاهر التي تملأ
 الروض ويجتنيها كل ذي بصر ، وتلك الأزاهر التي تملأ الروض ويجتنيها
 كل ذي أدب هي التي أرادها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَبَرَى الَّذِينَ
 أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ
 الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

وبذلك فإن الآية الكريمة من سورة سبأ تشير إلى أغراض ثلاثة :

الغرض الأول : هو التنبيه إلى أن الذين يعرفون هذا الكتاب حق
 المعرفة ويستفيدون منه ويدعون له ويرفعونه بين الناس حتى يكون الحكم
 الفصل إنما هم الذين أوتوا العلم .

وقد ذهب المفسرون قديماً إلى أن المراد بالذين أوتوا العلم : الأحبار
 والقساوسة الذين يجدون في الكتاب المنزل على أنبيائهم ، على نبيهم عيسى
 أو موسى عليهما السلام ، يجدون في التوراة وفي الإنجيل ما يدعو إلى
 الإيمان برسول الله ﷺ وبالإيمان بالكتاب الذي سينزل عليه ، وهذا
 الكتاب هو الحق فيجدون الدعوة إلى ذلك في كتبهم ، ولذلك فإنهم لا
 يستطيعون التنكر لهذه الدعوة ولا لهذا الدين ولا للكتاب الذي أنزل على
 نبينا ﷺ .

وذهب آخرون من المفسرين إلى أنه لا يلزم التقيد بهذا المعنى وأن اللفظ يمكن أن يتناول ما هو أوسع ، فإن الذين أوتوا العلم هم الذين يظهرون في كل زمان وفي كل مكان ومن أي قبيل وفي أي جيل ، ويكونون قد تدبروا القرآن تدبراً كاملاً وفهموا معانيه وتوصلوا إلى إدراك أسرارهِ وعلموا خصائصه ، فإن هؤلاء هم الذين يرون أن الذي أنزل على النبي ﷺ هو الحق ويرون أن هذا الكتاب يهدي إلى صراط العزيز الحميد .

وهذا المعنى الذي هو أوسع وأشمل أليق بما نحن فيه ، لأن المفسرين الذين تولوا بيان هذا الكتاب وشرح معانيه وتفصيل أغراضه والتنبيه إلى الأحكام الواردة فيه إنما هم من أولي العلم ، فأولو العلم ليسوا مقصورين على الأخبار ولا على القساوسة ولا على أهل الكتاب ، ومن ثم فإن البيان للكتاب والتفسير له والشرح لأغراضه ومعانيه عندما يكون صادرًا عن علم صحيح وعن رأي مستقيم فإنه لا بد أن ينتهي بالإنسان أي بالعالم إلى إدراك صدق هذا الكتاب والقول بكونه الحق ، فإن الإيمان بكونه حقًا لا يمكن أن يتحقق إلا مع صحة العلم واستقامة الرأي وذلك لما يورثه التدبر بالنسبة للعالم من إدراك لأسرار الإعجاز مثلاً ودلائل الصدق فيه وسمو التشريع الذي أتى به ، فكل هذه الأشياء يستحيل أن تحصل أو أن تصدر عن جهة أخرى غير الجهة التي صدر عنها هذا الكتاب وهي الله سبحانه وتعالى باعتبار كون هذا الكتاب أو هذا القرآن كلامه .

ومن ثم فإن الغرض الأول الذي أشارت إليه الآية من كون الذين أوتوا العلم يعترفون ويرون أن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق يكون قد حقق الغرض الذي أشرنا إليه .

الغرض الثاني :

ويبقى الأمر الثاني الذي هو المفعول الثاني بالنسبة للرؤيا، الرؤيا القلبية أو الرؤيا العلمية وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

هذه الهداية تقود الإنسان إلى طريق إلى مسلك يسلكه وقد عبر عنه هنا بالصراط ، والمراد من الصراط المنهج الذي وضعه الله لهذا الكون لتكون جميع الكائنات في رحاب هذا العالم بجميع مقوماته متناسقة ومتعايشة . ثم ليس هو ذلك التناسق أو التعايش فحسب الذي ينبغي أن يكون الصراط دالا عليه وإنما هو أيضا بجانب المنهج الذي يمكن أن نفسير به الصراط هو الناموس ، هو القانون الذي يحكم المخلوقات جميعها ويعطي كل ذي حق حقه ويبين حدود التصرف ونوع العلاقة بين الإنسان وكل هذه الكائنات من حوله التي سخرها الله لخدمته وليكون محققا لإرادته سبحانه وتعالى في إيجاد العدل وفي السباق إلى الخير وفي الدعوة إلى الحق وفي الإيمان بالله وفي العبودية الخالصة التي ينبغي أن يأخذ بها الإنسان نفسه ليكون متصلا بربه في كل حالاته .

وأما قوله تعالى : ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فنحن نتساءل يهدي إلى صراط العزيز أي الله لأن العزيز والحميد من الأسماء الحسنی أي القوي ذو العزة والحميد الذي توفرت فيه جميع صفات الكمال المطلق ، وهو بذلك يستحق الحمد ، فالطريق العزيز الحميد أو الصراط ، صراط العزيز الحميد الذي دعانا له الله يمكن أن يتحقق بما يتفق في النفس الإنسانية البشرية من حقائق لا تنال إلا عن طريق هذا الكتاب .

ما يهدي إليه القرآن الكريم :

فالكتاب يمكن الإنسان المسلم من معرفة هذه الحقائق وأولو العلم هم الذين يركزون تلك الحقائق في نفس المؤمن ، فإن هذا الكتاب يورث فهما خاصا ويورث فكرا خاصا ويورث سلوكا معيئا ، كما يورث أو يعلم الإنسان حكما ، هذه العناصر الأربعة التي أشير إليها هنا هي التي يهدي إليها الكتاب .

١- الفهم :

فالكتاب يهدي المؤمن إلى تصور الوجود بشكل معين يختلف تماما عن التصور الذي يكون لغير المؤمن ، فإذا أدرك الإنسان المؤمن أن هذا الكتاب يأمر بالتي هي أقوم ويهدي إلى الصراط المستقيم ويأمر بأشياء وينهى عن أخرى ويلزم المؤمن بسلوك معين ويادرك العلاقات التي تكون في الوجود بينه وبين غيره من الموجودات سواء كانت تلك الموجودات من الأساس أو من غيرها أو من الكون الفسيح الرحب وبما فيه من قوات يمكن أن يستخدمها لتحقيق العبودية لله وتنفيذ إرادة الله في هذا الكون .

فذلك هو الفهم الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن ، وهو لا يستطيع الوصول إليه إلا عن طريق أسرار هذا الكتاب .

٢- التفكير :

وأما التفكير فإن القرآن يكون للمؤمن فكرا ، هذا الفكر الذي نقول عنه فكرا إسلاميا ، وهذا الفكر الإسلامي يختلف عن كل الأفكار الأخرى أو عن كل أنواع التفكير الأخرى ، والخطر كل الخطر أن نجد أصواتا ترتفع في هذا العصر قتلغي المعنى الإسلامي من التفكير بالنسبة للمسلمين حتى

يصبحوا بعيدين عن حقيقة دينهم غير ممارسين للسلوك الذي ينبغي أن يسيروا فيه أو عليه وغير متبعين للنظم والأسس التي جاء بها كتاب الله والتي تفرض عليهم الاتجاه الحميد الذي يتميز به التفكير الإسلامي عن غيره من بقية ألوان التفكير .

مرتكزات التفكير الإسلامي :

التفكير الإسلامي يركز أولاً وبالذات على العقيدة الصحيحة ويرتكز أيضاً على الامتثال والانقياد لأوامر الله سبحانه ، فإذا كان الإنسان مقطوع الصلة بالله فإن تفكيره لن يكون تفكيراً إسلامياً .

٣- السلوك :

ثم إن هذا الكتاب يهدي إلى سلوك ، والسلوك يتغير بتغير المقصود بالهداية إلى هذا السلوك ، هناك السلوك الفردي وهناك السلوك الجماعي ، وهناك سلوك الأمة جميعها ، وهناك سلوك المجتمع الإنساني ككل .

هذه الأنواع من السلوك التي تختلف من الفرد إلى الجماعة ومن الأمة إلى الإنسانية قاطبة هي التي جاء القرآن ليجدد أصولها ويبين طريقها ويفرض على المؤمن أن يكون بالتزامه لما أمر به وباجتنابه لما نهى عنه آخذاً نفسه بأشياء لها أثر كبير في تحديد وتقويم هذا السلوك هي :

أولاً : المراقبة للذات في كل أمر ، في كل عمل ، في كل ما يأتيه الإنسان وما يذره ، ثم بجانب المراقبة .

الأمانة : المحافظة على الأمانة ، التي ثقلت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، هذه الأمانة الثقيلة ينبغي للمؤمن أن يتحملها وأن يكون عارفاً بفضل الله عليه في تمييزه عن غيره من المخلوقات وتكليفه بها .

الغرض الثالث :

ثم الأمر الثالث هو تحقيق معنى الاستخلاف ، لأننا بسلوكنا نحقق الاستخلاف الذي هو أكبر خير وفضل من الله سبحانه وتعالى لعبيده في الأرض ، ولتحقيق آثار الاستخلاف سخر لهم كل شيء .

٤-الحكيم :

وبجانب الفكر والفهم والسلوك هناك النظم والتشريعات أو الأحكام .
فالله سبحانه وتعالى قد جمع في كتابه الكريم كل الأحكام والتشريعات التي ينبغي أن يأخذ بها الناس ليكونوا على بينة من ربهم وعلى هدى منه .

مناهج تفسير القرآن الكريم ومراحلها :

كان النب ﷺ خير المعلمين وأول المعلمين ، وهو الشارع في لغة الفقه الإسلامي ، وهو الذي يلتجأ إليه لفهم أسرار الكتاب ، كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن كثير من الألفاظ أو الكلم التي تأتي في الكتاب ولا يفهمونها على الوجه الصحيح وكان ﷺ يجليها لهم ويبين هذه الألفاظ ويفسرها ، وكان أكثر من ذلك بالنسبة لما ورد من الآيات مجملا يفصله ويبينه إما بالقول وإما بالعمل ، ولذلك كانت السنة مبينة للمجمل في القرآن ، كما أن النبي ﷺ بأحاديثه الكثيرة أي سنته الشريفة وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى كان يتولى تقييد المطلق وتخصيص العام في الآيات الوارد بها كثير من الأحكام حتى تتجلى هذه الأحكام للناس ولا يقعون في لون من الاضطراب أو من الاختلاف .

هذا التراث النبوي أو هذا الميراث النبوي هو الذي أخذ به صحابة رسول الله ﷺ فكانوا يفسرون القرآن بما روه عن رسول الله ﷺ وهذا هو

المنهج الأول عند المفسرين هو الذي نسميه التفسير بالأثر ، كانوا يفسرون القرآن الكريم بما روه عن رسول الله ﷺ من آثار ، أي من أحاديث ومن أخبار ، أي من أحداث تاريخية واكبت نزول تلك الآيات القرآنية وهي التي تسمى عند المحققين وعلماء الشريعة الإسلامية بأسباب النزول أو كما قال شيخنا : الأستاذ الفاضل ابن عاشور كان يسميها ملابسات النزول ، فهذه الملابسات ، ملابسات النزول وتلك الأخبار التي هي الأحاديث النبوية الشريفة يضمها الصحابي العربي السليق اللسان إلى معرفته باللغة العربية لأن القرآن نزل بلغته فكان يفهم ما يريد الله بحكم كونه عربيا وبحكم كون القرآن عربيا وبحكم كونه نزل بلغة قريش وهم أدري بمعانيها وتصرفات القول فيها والخصائص التي تتولد عن تلك التصرفات من المعاني الدقيقة والتفصيلات الجريئة ، فكان هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على تفسير القرآن الكريم بالأثر بما يجمعون بين الرواية عن رسول الله ، وما شاهدوه أو حضروه من أسباب النزول ، وبما يعلمون من أحكام اللغة العربية والتصرف القولي فيها .

بعد هذه الفترة جاء بعد الصحابة رضي الله عنهم التابعون وكثر في الفترة ما بين الصحابة والتابعين في الفترة التي وجد فيها كثير من المخضرمين ، كثر وضع الحديث على رسول الله ﷺ وأنتم تعلمون أن وضع الحديث حرام ، ولا يجوز للإنسان أن يقول على رسول الله ﷺ شيئا لم يقله وقد هدد بالوعيد في ذلك «من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»^(١) لكن بعض الفقهاء أو بعض الناس ترخصوا في الوضع بما يكون فيه ترغيب في

(١) أخرجه البخاري (١٠٩) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه . والحديث عند البخاري (١٠٨) ، ومسلم (٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، بنحوه .

الدين أو تخويف من الخروج عن الهدى وعن الطريق المستقيم ، وهذه الفئة متنازع في قولها وقد انتهى الأمر في ذلك إلى أن ما كان من الأحاديث متصلا بالأحكام الشرعية فهو غير مقبول ، فلا يمكن أن يوضع فيه شيء ، ولا يقبل أبداً من الأحاديث إلا ما ثبتت نسبته إلى رسول الله ﷺ ، وما لم يكن متصلا بالأحكام بأن يكون متصلا بالآداب أو الرقائق أو نحوها فإن بعض المسلمين أو بعض العلماء أجاز ذلك لكننا حين نبحث عن الوضع الذي كان عليه الناس في ذلك الوقت ، كانت هناك فتن سياسية وكانت الظروف تكاد تمزق العرب والمسلمين تمزيقا ، وأصبح الذين يضعون هذه الأحاديث يدسون ما يحققون به ذلك التفريق أو ذلك التمزيق لشمول المسلمين ، ولهذا انتصب علماء الحديث والرواية إلى نقد هذه الآثار نقداً دقيقاً حتى غربلوها غربلة كاملة ونفوا منها ما ليس بصحيح النسبة إلى رسول الله ﷺ .

وكان ذلك النقد للأحاديث مركزاً على أمرين : على الأسانيد من جهة ، وعلى المتن من جهة أخرى ، وهذه المرحلة هي التي هيأت لنا بعد ابن عباس رضي الله عنهما من المحدثين وبعد عبد الملك بن جريج الذي جمع كل ما سمع عن ابن عباس وعن غيره من الأحاديث التي فسر بها أو يقال : إن الرسول ﷺ فسر بها القرآن .

جاء يحيى بن سلام ووضع تفسيراً فريداً نقد فيه كل الأحاديث ولم يبق منها إلا ما صح ، وجاء البخاري فأتى إلى مجموعة كبيرة تروى عن ابن عباس رضي الله عنهما تقدر بألف حديث فنزل بها إلى العشر ، وذلك لأنه بتبعه للأسانيد وتبعه للمتن اكتشف أن بعضها ضعيف أو موضوع فلم يأخذ به ولم يثبت في كتابه أي البخاري في «الجامع الصحيح» إلا ما صح .

بعد هذه المرحلة تكون نشاط جديد لم يتناول القرآن من كل النواحي ، وإنما اهتم البلغاء وعلماء الأدب ورجال الأدب بجانب ، والفقهاء ورجال الشريعة والأحكام بجانب ، وعلماء التاريخ بجانب ، هكذا ألفت كتب كثيرة هي من التفسير وليست من التفسير ، هي تقوم بخدمة القرآن الكريم وتبين جوانب متعددة لا يمكن الوصول إلى كلها من طريق مؤلف واحد ، فكانت هذه المؤلفات وهذه الآثار كلها يشارك بعضها بعضها في خدمة التفسير أو في خدمة النص القرآني ، وذلك مثل كتب معاني القرآن ، وكتب مشكل القرآن ، وكتب مفردات القرآن ، وكتاب المجاز القرآني لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب نُظْمُ القرآن للجاحظ ، وكتب القراءات ، والكتب التي تبين أسباب النزول والوجوه والنظائر والكتب التي تفصل المناسبات بين الآيات والمناسبات بين السورة والسورة ، وكتب إعجاز القرآن ، وكتب أحكام القرآن .

وقد اختلفت بين مذاهب كثيرة مثل ابن العربي في «أحكام القرآن» بالنسبة للمالكية ، والخصاص بالنسبة للحنفية ، وما إلى ذلك .

ثم نجد كتباً في الحكمة القرآنية وكتباً في العقيدة القرآنية ، وكتباً في الهدى الديني أو طرق إصلاح المجتمع الإسلامي .

هذا كله كان لبنة أولى أو مواد متعددة تجمع لها بعد ذلك العلم ؛ لأن المرحلة هذه لم تدون فيها العلوم .

ولما دونت العلوم ، وكل من له أدنى مشاركة في العلوم الإسلامية ، يعلم أن التأليف اللغوية والنحوية والبلاغية وما إليها تسمى علوم الوسائل وأن أصحابها ينبهون في أول الكتاب إلى أن المقصود من ذلك هو صحة النطق بالقرآن الكريم أو هو فهم القرآن الكريم أو هو إدراك

الخصائص التي اشتمل عليها الكتاب الكريم ، فكان هذا دافعاً بالناس إلى التبحر في علوم الوسائل ، ثم الانتهاء بعد ذلك إلى علوم المقاصد فوجدت كثير من العلوم وقعدت القواعد لهذه العلوم ووضعت العلوم ، علوم اللغة وعلوم البيان وعلوم الفقه وأصول الفقه وأصول الدين وما إلى ذلك .

فجاء بعد ذلك علم التفسير ليكون العلم الشامل والعلم المهيمن ورأس العلوم لكونه يتعلق بأشرف شيء وأكمل ما يمكن أن يتجه إليه العقل البشري وهو القرآن الكريم لما توفر هذا ، وتكونت المواد العلمية والاختصاصات المختلفة .

جاء دور النظر في كتاب الله نظرة علمية مدققة تبني على تلك الاكتشافات التي توصل إليها أصحاب البلاغة أو أصحاب الفقه أو أصحاب اللغة أو رجال العربية .

كل ذلك جمعه واعتمده أيضاً إلى جانب الأثر وإلى جانب الخبر وإلى جانب اللغة واشتقاقاتها .

فأصبحوا يفسرون القرآن على هذا الأساس ، ولذلك في هذه المرحلة أصبح علماء التفسير ينهون إلى أن التفسير حرام إذا كان من يقدم على التفسير غير واع بهذا الكتاب وبأسراره غير قادر على الوصول إلى دقائقه ؛ لأن من قال برأيه في القرآن وأصاب فقد أخطأ ، ولأنه يحرم على الإنسان أن يقول في كلام الله بغير علم .

وهذه أحاديث نبوية مرفوعة إلى رسول الله ﷺ وقد رأينا عدداً من الصحابة وحتى من العلماء ، بعض العلماء - مثل الأصمعي وهو من هو في اللغة - يمسكون عن تفسير القرآن ، ولا يريدون القول فيه بشيء خوفاً من الله وخشية من أن يقعوا في الخطأ أو في الحرام .

لكن العلماء الذين أرادوا أن يفسروا القرآن وأن يتخذوا لذلك السبيل الصحيح حتى لا يخطئوا حصروا العلوم التي سموها علوم استمداد التفكير ، فكان من بين العلوم المحدودة في استمداد التفكير أصول اللغة ، التعرف على الاشتقاق اللغوي والتأمل في دقائقه وتصرفات اللفظ فيه حتى تكون كل إشارة أو طريقة في التعبير به مؤديا للمعنى الذي قصده اللغويون أو الذي ثبت بالاستقراء والتتبع أنه هو المعنى الصحيح الذي يقصد من ذلك اللفظ ، ويتبع قضية اللغة التصرفات البيانية والتصرفات التي هي من وجوه النظم والتي ترجع إلى علم المعاني ، فالذين لا يعرفون الفرق بين التكرير والتعريف واختلاف أنواع التعريف بالموصولية والإشارة وما إلى ذلك ولا يفرقون بين التقديم والتأخير في الإسناد .

هؤلاء لا يستطيعون أبداً أن يتوصلوا إلى وضع أيديهم على دقائق التعبير القرآني والمعاني البيانية التي اقتضت إعجازه ، ثم نجد إلى جانب اللغة وقوانينها والقواعد التي تحكم النحو والتصريف والبيان والمعاني نجد الآثار ، وهي الأحاديث النبوية الصحيحة والأخبار ، وهي جوانب تاريخية تتصل بأسباب النزول وما ورد في القرآن الكريم من قصص الأنبياء التي قد يكون الرجوع فيها إلى مصادر أخرى يسمح للإنسان بأن يتصور ما تريد أن تشير إليه الآية الكريمة التي جاءت مختصرة .

ثم علم آخر له أهميته أجد بعض الناس يهاجمونه اليوم هو علم أصول الفقه ، علم أصول الفقه الذي هو ليس فلسفة ولا رياضة فكرية فحسب بل هو تعمق في الاستنباط للأحكام الشرعية من القرآن الكريم بعد التفصيل والتأكد من النظر المنتج فيه الذي يفرق بين الأمر وبين النهي وبين الحقيقة وبين المجاز وبين أنواع الدلالات ، دلالة الإشارة ودلالة

الالتزام ودلالة الاقتضاء وما إلى ذلك من أنواع الدلالات ثم ما يمكن أن يدخل في الجمل القرآنية أو الآية الكريمة من عموم وخصوص، ثم المعرفة بالناسخ والمنسوخ، فكل ذلك لا سبيل إلى فهم القرآن ولا إلى تفصيل القول فيه ولا إلى استنباط الأحكام الشرعية منه إلا إذا كان الإنسان عارفاً تمام المعرفة بعلم الأصول الذي وضعه الأئمة وعلى رأسهم الإمام الشافعي ثم الإمام مالك رحمهما الله والأئمة من الحنفية والحنابلة وغيرهم ليتمكن هؤلاء العلماء من استنباط الأحكام الشرعية.

ومن علوم الوسائل أيضاً العلوم التي يعتمد عليها في تفسير القرآن، علم العقيدة، وعلم القراءات؛ لأن القراءات قد تختلف وفي اختلافها قد يظهر تمايز بين المعاني فيحاول المفسر أن يختار المعنى الأوفق الذي يتصل بالدلالة التي يراها للآية الكريمة، وهذا ما فعله كثير الطبري وما مشى عليه الزمخشري وما فصله تفصيلاً دقيقاً في كتابه «المحرر الوجيز» ابن عطية.

على أن هؤلاء الثلاثة الطبري الذي قيل عنه بكونه من المفسرين بالمأثور أو بالأثر هو ليس مستقلاً بالأثر أو بالمأثور بل قد أضاف إلى ذلك جانباً آخر هو جانب الاجتهاد الشخصي، ثم الزمخشري كان متعمقاً في الناحية البلاغية والبيانية كاشفاً عن أسرار التعبير بما لم يستطع أحد من قبله الوصول إليه، ثم بعد ذلك ابن عطية الذي هو في عصر الزمخشري وليس من أهل بلده لكونه مغربياً، والذي استطاع أن يأتي بأشياء عجيبة تأثر بها العلماء والأئمة وأشادوا بها وقالوا بأن تفسيره خير التفاسير.

ثم جاء بعد ذلك جماعة آخرون نذكر منهم البيضاوي الذي كان متتبعا لكلام «الكشاف»، لكلام الزمخشري ومحاولاً تنقيته من بعض الآراء أو المواقف التي تتفق مع مذهب أهل السنة، ثم الرازي الذي كان يعتني

اعتناءً خاصاً بالمسائل الكونية والحكمية التي لم يتحدث عنها المفسرون القدماء بمثل ما تحدثوا به عن الجانب الشرعي أو الأحكام أو عن الجانب البلاغي أي البيان ، ثم جاء ابن عرفة فكان من أئمة الفقه المتبعين للمسائل والأحكام الشرعية في هذا الدستور الذي أنزله الله على نبيه ليكون هاديًا للبشر أجمعين ، ثم الألوسي الذي أضاف إلى كل التقريرات الموجودة عند غيره إشارات أو جوانب من التفسير الإشاري .

وفي هذا العصر نجد مثلاً الإمام محمد عبده وسيد قطب اللذين يتجهان اتجاهًا خاصاً في تفسير القرآن لا يعنون فيه بكثير من المسائل لا النحوية ولا البلاغية ولا الفقهية وإنما يعنى بالإصلاح وبالهداية إلى المثل والقيم الإسلامية التي جاء بها القرآن ليخرج الناس مما هم فيه من الضلال ومن الحيرة ، ثم نجد تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله ، وهو كتاب «التحرير والتنوير» الذي كان على أساس ما قدمنا الإشارة إليه من الكتب العلمية أي من الكتب التفسيرية التي تعتمد المنهج العلمي .

التفسير بالرأي الذميم :

هذه كلمة لا أظنني أستطيع أن أتناول فيها أو بها كل المذاهب التفسيرية التي عرفها المسلمون وكل المناهج التي وجدت .
لكنني أريد كما فعل الأسلاف أن أنبه إلى نوع من التفاسير هو الذي دعاني إلى اختيار الموضوع .

هذا النوع هو ما سماه أو أشار إليه علماءنا بالتفسير الذميم ، التفسير بالرأي الذميم ، والتفسير بالرأي الموصوف بكونه ذميماً هو التفسير الذي لا يخضع لشيء من القواعد اللغوية ولا يحتكم إلى أي لون من تصارييف اللغة العربية ، ولا ينطق في توجيه الناس وهدايتهم إلا بأشياء هي أغمض من الكتاب

القرآني الذي جاء بيئاً ومبيئاً ، فتكون هذه الأشياء من الإغراق في الضلالة وفي الظلمة وفي الجهل بحيث تصل بالإنسان إلى عمايات ، لكون هؤلاء المفسرين يضعون ألغازاً ورموزاً يركزون عليها ليسيروا آراءهم .

وأكثر هؤلاء من أصحاب العقائد الفاسدة والنحل الباطلة ، وأكثرهم من الذين يتهمون على السنة النبوية ولا يعتدون بها ، وأكثرهم أيضاً من الذين يسخرون من التراث الإسلامي العظيم من كتب المفسرين ولا يلقون إليها بالاً ولا يشغلون بها أنفسهم ويقولون : نحن آتون بما لم يأت به الأوائل ثم يتصرفون في ذلك تصرفاً لا يتقيد بمنطق ولا بعلم ولا برأي ولا بقانون من قوانين المعرفة .

ولذلك فإن هؤلاء يكونون قد استبدلوا الجهل والضلال والإلحاد والكفر بالعلم والهدى والاستقامة والإيمان .

ولا أريد أن أذكر كل ما ورد في هذا الباب ولكنني أشير إشارة قصيرة إلى ما نحن فيه ، ذلك أن هذا اللون من التفسير ظهر على أيدي الباطنية في الزمن القديم بالنسبة إلينا يكون ذلك راجعاً إلى القرن الثالث والرابع الإسلامي .

هذه النزعة الباطنية التي تطورت ووصلت حدها الأقصى فيما دعت إليه وروجته من افتراءات لمقاومة الإسلام ، يأتي الحديث فيها أو عنها على لسان أحد دعايتها ، وهو يتحدث عن القرآن وعن الكتب السماوية .

هذا الرجل هو عبيد الله بن حسن القيرواني ، يكتب إلى أحد دعاة الباطنية من أتباعه سليمان بن حسن الجناني فيقول : وإني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وأن تدعوهم إلى إبطال الشرائع والمعاد والنشور والملائكة في السماء والجن في الأرض .

وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم .

فهذا يكشف كشفًا لا ستر وراءه عن هذا الاتجاه الخاطيء ، الاتجاه المتعمد للإلحاد والكفر ، الاتجاه الذي يريد أن يفسد على الناس دينهم هو اتجاه الباطنية ؛ ولذلك اتخذوا شعارهم أنهم لا يؤولون الآيات القرآنية بما يفيد ظاهر النص ، ولكنهم يقلبون من وراء ظاهر النص المعاني الباطنية وهو الدلالة الباطنية ، ولذلك سميت النحلة بالنحلة الباطنية .

مثلاً الوضوء عندهم ليس هو الوضوء الذي نهى به أنفسنا للصلاة ، بل الوضوء معناه موالاة الإمام ، والصلاة هي الرسول لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فيكون المقصود من الصلاة هو الرسول والغسل هو تجديد العهد لمن أفشى سرًا عن الباطنية .

فهو يغسل بمعنى يعود إلى التوبة والإنابة وإلى تجديد العهد مع الإمام حتى يكون على بينة وحتى يكون موثقًا به .

والجنة في القرآن هي راحة الأبدان من مشقة التكليف ألا يصلي وألا يصوم وألا يفعل شيئًا من ذلك ؛ لأنه بذلك تتحقق له الجنة .
والنار عبارة عن مشقة الأبدان بالتزام التكليف .

وأنهار من لبن هي معادن العلم ، وأنهار من الخمر هي علم الظاهر ، وأنهار من عسل مصفى هي علم الظاهر الذي يتلقاه هؤلاء عن الإمام المعصوم .

ولا يقف الأمر عند هذا فإني قرأت في المجلة الآسيوية « Le journal Asiatique » فصولاً عن هذه الفرقة تغير كلام الله ، تغير القرآن نفسه ،

وتزيد في القرآن من مثل هذه الزيادة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا :
﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ١-٣] «وجعلنا عليًا صهرك» .

ومن بين الزيادة سورة دعوها بسورة النور؛ سورة طويلة لفقوها بكثير من الآيات وأدخلوا فيها أن المقصود بالرسالة هو علي، ثم نجد التغيير كما يقرءون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢] (وإن عليًا للهدى).

ولا يقف الأمر عند هؤلاء فإن بعض المستشرقين الذين درسوا هذه النحل وتأملوا المذاهب أخذوا بأفكارهم ودسوها في كتبهم ومحاضراتهم في الجامعات وأصبحوا يشككون الناس في صحة القرآن وفي كثير من أحكام القرآن .

وجاءت بعد ذلك طائفة أخرى منها، أذكر آثارهم للتنبيه عليها هي كتاب «القرآن والمفسرون» الذي لا يعتمد اللغة العربية في تفسير مدلولات الألفاظ إطلاقاً وإنما ما يخطر له ببال وما يتخيله من معان، ثم كتاب «الهداية والعرفان في تفسير القرآن» الذي ينكر السنة ويحاربها ولا يأخذ بشيء منها، ثم كتاب «التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي»، الذي ينقض كل الأحكام وكل الحدود الواردة في القرآن ويحاول تميمها، ثم «رسالة الفتح» وكتاب «القرآن محاولة لفهم العصر» وكتاب «حول تفسير تاريخي واجتماعي عصري»، وننتهي إلى ما ظهر في الأيام الأخيرة، إلى ما ظهر في بعض المقالات التي نشرت وأستطيع أن أحدد فأقول إنها نشرت في مجلة تدعى «الفكر المعاصر» هذا المقال الذي نشر بعنوان «الإسلام والعلمنة» خصص فيه صاحبه فقرة بالقرآن الكريم يقول فيها أولاً :

إن هذا القرآن الذي روي لنا عن السلف رواية مقطوعاً بها عند عامة المؤمنين في طريقة جمعه أي جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه وجمعه علي يد عثمان رضي الله عنه وطريقة الجمع وإحراق بقية المصاحف حتى لا يختلف الناس في قراءة القرآن يشك في هذه الطريقة ويقول :

إن القرآن ليس حقيقة ما جمعه عثمان وبقي متلوا إلى اليوم عند الناس وموجوداً بين أيديهم ، بل ينبغي أن نطلب وثائق أخرى تصحح لنا المادة القرآنية وذلك بالرجوع إلى ما عند أهل السنة وما عند الشيعة وما عند الخوارج وما وقع اكتشافه في هذه الأيام الأخيرة في جوار البحر الميت وعلى سواحله من مخطوطات نادرة لم يتفطن إليها العلماء ولم يكن المسلمون يقدرون على الوصول إليها ، ثم يقول إن المكتبات الخاصة مثل المكتبات الموجودة عند الدروز والمكتبات الموجودة عند الإسماعيليين والمكتبات الأخرى الموجودة عند الزيديين أو العلويين يمكن أن يكون فيها شيء الكثير مما حذفه أهل السنة ولم يرد في مصحف عثمان ، ولذلك فهو يشك في القرآن .

بجانب هذا التشكيك يقولون :

التشكيك ليس تفسيراً ونحن نبحث عن المنهج التفسيري ، بالنسبة للمنهج التفسيري يقول ينبغي أن نعود بقراءتنا للقرآن إلى قراءة جديدة لأن القراءات السابقة ليست صحيحة والقراءة الجديدة التي يدعو إليها هي القراءة السيمائية الألسونية القائمة على تفريق اللفظ وتقطيعه والرجوع به إلى أصوله من غير نظر إلى المكان الذي يوجد فيه ويعتمد في تقويم المعنى واستظهاره وبيانته للناس ، فهذا الإفك والشرك والضلال وأنواع الاستهتار بالدين التي تريد أن تقوض المجتمع الإسلامي وتريد

أن تقضي على وحدته واجتماع كلمته على الأقل في ظلال القرآن والتي تريد أن تحارب الله فيما التزم الله بحفظه وهو الكتاب الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. إذا كانوا يريدون هذا بالقرآن ويريدون بتأويل القرآن ما وصفنا بعضه أو أشرنا له مجرد إشارة فإن المسلمين لن يسكتوا ، وإن علماء المسلمين من وراء أئمتهم . وإن فيما رأينا من سلوك ينحاز للحق .

وينبه على هذا الأمر الخطير حتى يكون الناس على بينة من أمر دينهم وعلى حق من ربهم ، ثم بجانب ذلك ، وما تقوم به من دعوة إلى الله ومن نشر للكتب الإسلامية القيمة ، وخاصة الكتاب الكريم والتفسير التي وضعها علماء الإسلام الصادقون الموفقون ، مثل كتاب المحرر الوجيز الذي لم يكن معروفا عند الناس ولم يخرج للناس ، والذي يتميز عن غيره من كثير من كتب التفسير حتى قال بعضهم : هو أجمع وأخلص من كتاب الزمخشري أي من الكشاف ، وقال آخرون هو خير التفسير جميعها ، هذا العمل المبارك هو الذي يدعونا إلى أن نلتفت إلى أنفسنا ونصونها ونقيها من هذه الضلالات والأوهام والطرق المعكوسة التي تجعل الإنسان عربيا وهو غير عربي ، ولغويا وهو غير لغوي ، ومفسرا وهو يضع الأقوال على عواهنها من غير تدبر .

المحاضرة الثالثة والعشرون:

القدس في الإسلام

وسأتحدث عن هذا الموضوع من النقاط التالية :

أولاً : ارتباط القدس وفلسطين بالعقيدة الإسلامية كما بينتها نصوص الكتاب والسنة والأثر

ثانياً : القدس تاريخ وجهاد .

ثالثاً : القدس حضارة وأمجاد .

رابعاً : القدس في محنتها المعاصرة .

وأبدأ بالنقطة الأولى :

مكانة القدس في الإسلام :

تتبين مكانة القدس في الإسلام وارتباطها بالعقيدة الإسلامية من خلال

الحقائق التالية :

أولاً : اختارها الله من بين بقاع الأرض مسرى لنبيه محمد ﷺ فكان مبدأ الإسراء مكة ومنتهاه القدس وحكمة شاءها الله أن تكون القدس وفلسطين منتهى الإسراء ، وأن تكون القدس وفلسطين بداية المعراج لحكمة شاءها الله وهو يعلم الماضي والحاضر والمستقبل ، يعلم ما سيتهدد القدس وفلسطين من أخطار التهويد لتستقر في قلب المسلم عقيدة أن حرمة المسجد الحرام بمكة وأن الخطر الذي دهم القدس وفلسطين يتهدد المسجد الحرام بمكة ويتهدد مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة إذا لم يجمع المسلمون كلمتهم ويوحدوا صفهم تحت راية الإسلام والجهاد في سبيل الله لإنقاذ أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وإن هذا الخطر قد

أظهرته حوادث التاريخ عندما احتل الصليبيون بيت المقدس ، أخذ حاكم الكرك (أرناط) يعتدي على قوافل الحجاج ، وكان من نذر صلاح الدين أن إذا مكنه الله منه قتله بسيفه ، ومكن الله صلاح الدين أن يفني بنذره يوم فتح بيت المقدس .

وكان هذا الخطر ما ذكره صاحب «الوفاء» الإمام السمهودي أن الإمام الصالح نور الدين الزنكي رحمه الله رأى في منامه رسول الله ﷺ يقول له أنقذني يا نور الدين من هذين وأشار إلى رجلين شقراوين ثم نام نور الدين ورأى رسول الله ﷺ مرة أخرى ثم مرة ثالثة يقول له : أنقذني من هذين ولسنا مع من حجر الرؤيا على أحد من الصحابة رضوان الله عليهم لأن هذا الفضل في فتح كوة ونافذة للأحباب ليروا فيها رسول الله ﷺ هو من فضل الله تبارك وتعالى الذي من به على هذه الأمة ولكن ليس بتفريط المفرطين ولا بتوسع المتوسعين وإنما عند رأي القاضي عياض رحمه الله تعالى .

هنا قام نور الدين وذكر الرؤيا على عالم صالح كان رفيقا له ، فقال له إنها رؤيا حق . فانطلق إلى المدينة المنورة سرا وهناك قال لأهلها أراد أن يزور قبر رسول الله ﷺ ليصلي في مسجده الشريف ويعرف أحوال أهل المدينة ولا تتركوا أحدا إلا يأتي ويسلم عليه .

فجاء أهل المدينة ولم ير هذين الرجلين فقال : وهل بقي أحد؟ قالوا : نعم ، بقي رجلان شقراوان يزعمان أنهما من الحجاج المغاربة جاء إلى هنا للعبادة والذكر ، فقال : ايتوني بهما . فجاءوا بهما وإذا هما الشقراوان اللذان رأهما في المنام ، فذهب إلى خيمتهما وإذا بسرداب ممتد من الخيمة إلى داخل المسجد النبوي الشريف ولم يبق بينه وبين القبر إلا مسافة قصيرة وهنا تبين

له من التحقيق أنهما من الصليبيين جاء لیسرقا جثمان رسول الله ﷺ ويكيدا للإسلام والمسلمين .

فنجى قبر نبيه وجسد نبيه ، وإرث نبيه بهذا الإمام الصالح ولكن ترك لنا العبرة ، أن المسجد الأقصى حين يحتل ، فإن درع المسجد الحرام بمكة ودرع قبر النبي ﷺ في المدينة قد أصبحا في خطر .

المسجد الأقصى درع المسجد الحرام وما احتل المسجد الأقصى إلا وكان الخطر يهدد المسجد الحرام ويهدد الإسلام والمسلمين .

والنقطة الثانية :

أن القدس والمسجد الأقصى مسجد الأنبياء من قبل ومحمد ﷺ هو وارث النبوة وإمام النبيين والمسجد الأقصى هو القبلة الأولى .

أخرج الإمام أحمد والطبراني في «الكبير» والبخاري عن ابن عباس رضيهما الله عنهما : كان النبي ﷺ يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما هاجر إلى المدينة بقي ستة عشر شهرا يصلي إلى القدس ثم حول إلى الكعبة وفي هذا تشربت القلوب محبة القدس وفلسطين حتى إذا ما اشتدت المحبة وأثمرت شاء الله أن يتم الربط بين المسجد الذي بدأت منه رسالة التوحيد بإبراهيم عليه الصلاة والسلام والمسجد الذي إليه تفرغت وانتشرت .

ثم كان التشويب بعد التأويب ، والمسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة الذي تشد إليها الرحال روى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

والمسجد الأقصى من أقدم المساجد في الأرض روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» بسنديهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ﷺ أي

مسجد وضع في الأرض أول؟ قال : المسجد الحرام قال : قلت ثم أي؟ قال : المسجد الأقصى» .

وأخرج الإمام أحمد عن ميمونة بنت سعد قالت : «يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس ، فقال لها : أرض المحشر والمنشر اتوه فصلوا فيه فإن صلاتكم فيه كآلف صلاة . فقالت : رأييت فإن لم يطق أن يأتيه؟ قال : فأئهد له زيتا يسرج فيه فإنه من أهدى كمن صلى» ومن فضل الله تبارك وتعالى على هذه الأسرة الكريمة الحاكمة في المغرب أن إمامها محمد الخامس رحمه الله وطيب ثراه كان قد زار المسجد الأقصى قبل أن يحتله اليهود وكان قد فرشه بالسجاد وكانت زيارة هذا الإمام العظيم زيارة جهاد وزيارة دعوة للعالم العربي والإسلامي ينبههم للأخطار المحيطة بالمسجد الأقصى ويدعوهم للمحافظة عليه ﷺ وأرضاه .

وفضل الإحرام بحج أو عمرة من المسجد الأقصى . روى أبو داود بسنده عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه» ويستحب ختم القرآن في المسجد الأقصى روى سعيد بن منصور في «سننه» عن أبي مجلز قال : كانوا يستحبون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج : المسجد الحرام ، ومسجد النبي ﷺ ومسجد بيت المقدس وكان الإمام سفيان الثوري ﷺ يختم به القرآن الكريم ويستحب المجاورة فيه والمرابطة فيه والموت فيه روى الحاكم في «مستدركه» عن ثور بن يزيد عن مكحول قال : كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس ﷺ يسكنان بيت المقدس ، وفي «سنن أبي داود» قال ﷺ : «ستكون هجرة بعد هجرة وخير أهل الأرض يومئذ ألزمهم مجاورة إبراهيم» .

وروى البزار بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء» هذه النصوص الكريمة تبين أن أرض فلسطين والقدس الشريف جزء من العقيدة الإسلامية نحافظ عليها ، كما نحافظ على ديننا وقرآننا ونبينا محمد ﷺ .

القدس تاريخ وجهاد :

والنقطة الثانية : القدس تاريخ وجهاد .

دعوة القرآن لتحرير القدس :

دعا القرآن الكريم لتحرير المسجد الأقصى في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهِ ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤] .

قال الإمام القرطبي في «تفسيره» : وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاربه ، وقيل : الكعبة ، وقيل : سائر المساجد ، وكان في الأرض عند نزول هذه الآية المسجد الحرام بمكة الذي حولته الجاهلية الوثنية إلى معبد للأوثان والمسجد الأقصى في القدس الذي أساء إليه استعمار الرومان .

ولأن المسجد يمثل القيادة الفكرية والثقافية والتوجيهية للأمة كلها فإذا عطل عن وظيفته وأداء رسالته الحضارية كان الظلم والفساد والخراب في الأرض أذن الله للأمة محمد ﷺ أن تستلم هذه المساجد وقد استلمت مركز القيادة والتفكير والتوجيه والهداية في هذه الأمة .

وشاء الله أن تكون هذه المساجد الثلاثة في أرض الحجاز وبلاد الشام منارات هداية وحصون عقيدة ووحدة لهذه الأمة .

سعي الرسول ﷺ لتحرير القدس :

وقد سعى الرسول ﷺ لتحرير المسجد الأقصى بعد تحرير المسجد الحرام بمكة .

فكانت غزوة مؤتة التي كانت أول مواجهة مع الروم الذين يحتلون بلاد الشام ومنها فلسطين والمسجد الأقصى واستشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم .

ثم قاد رسول الله ﷺ المسلمين في غزوة تبوك وأيضا كان يتوجه إلى بلاد الشام وتحرير هذه البلاد ، ثم قبل أن يموت ، قبل أن يلتحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى أمر بأن ينطلق جيش أسامة فجهزه أبو بكر رضي الله عنه وأمره أن يطأ خيله أرض الدارون من أرض فلسطين .

عمر بن الخطاب يحرر القدس :

وبعد أن تحقق للمسلمين النصر العظيم في معركة اليرموك أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه أن يتوجه من بلاد الشام إلى بيت المقدس فتوجه أبو عبيدة بجيش عدده خمسة وثلاثون ألف مقاتل وحاصر مدينة القدس أربعة أشهر طلب بعدها السكان من أبي عبيدة الصلح على شروط أهل الشام وأن يتولى إبرام العقد معهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء عمر ، ولم يأت عمر لمدينة غير مدينة القدس وذلك لعظيم أمرها وجليل خطرها وكبير مكانتها في الإسلام .

وخرج صفروان يوسف بطريق القدس وسلم المدينة إلى عمر بن الخطاب وبناء على طلب البطريق أعطاه عمر رضي الله عنه وثيقة الأمان المعروفة بالعهد العمرية أمنهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم وتم الفتح

دون قتال وكان أول ما فعله عمر رضي الله عنه بعد الصلح أن سلك الطريق المؤدية إلى المسجد الأقصى .

وقال كما يذكر الإمام الطبري في تاريخه : لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك هدف يحبه الله ورسوله تطهير المسجد الأقصى من رجس الكفر والمعاصي والقاذورات في ظل فساد بني إسرائيل وجاهلية الرومان ليستقبل هذا المسجد في عهد الإسلام بقيادة عمر عهداً جديداً في طاعة الله تبارك وتعالى وليكون مركزاً للحضارة و الهداية والإشعاع وأبى عمر رضي الله عنه في هذه الليلة إلا أن يحى الليل كله قائماً راکعاً ، ساجداً يذكر الله تبارك وتعالى يريد أن يعيد لهذا المسجد عهده الزاهر حتى إذا جاء الصحابة الكرام لصلاة الفجر صلى بهم إماماً في المسجد الأقصى وقرأ في الركعة الأولى سورة (ص) التي يذكر الله فيها داود وسليمان عليهما السلام وفي هذا يعني عمر أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي وارثة داود وسليمان ووارثة النبوة والرسالات وفي الركعة الثانية قرأ سورة الإسراء التي تبين كيف انتقلت الراية إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأتمته وذكر الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء فساد بني إسرائيل الذي بسببه عذبهم الله على يد البابليين وبختنصر وعلى يد الرومان ومزقهم في البلاد لتسلم الراية بعدهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن ولذلك كانت الآية التالية فساد بني إسرائيل ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] .

تحرير القدس مرة ثانية :

وسقطت القدس بيد الصليبيين سنة ألف وتسعة وتسعين ميلادية بعد هزيمة السلاجقة وقتل الصليبيون ما يزيد على سبعين ألفاً من المسلمين

داخل القدس حتى خاضت الخيول بالدماء إلى الركب فكانت المقاومة وكان التحرير وسارت المقاومة في خطين : العلماء الصالحين ؛ والحكام القادة المجاهدين .

وصنفان إن صلحا صلح الناس : العلماء ، والأمرء . وفي ظل هذا المناخ الصالح الذي بعث فيه العلماء الصالحون روح الجهاد والزهد والإقبال على الله والتوبة النصوح ، كان القائد نور الدين زنكي ، وكان القائد صلاح الدين الأيوبي رحمتهما وأرضاهما ، وبنى صلاح الدين ونور الدين من المساجد والزوايا والربط والتكايا بقدر ما بنيا من القلاع والحصون في سبيل تعبئة قوى الأمة الروحية والمادية لاسترداد بيت المقدس . وكان الأدب والشعر والإعلام في خدمة الجهاد في خدمة إعداد الأمة لتحرير الأرض ، وإنقاذ المقدسات .

وكان من الشعراء المجيدين في هذه الفترة الشاعر ابن القيسراني الذي مدح صلاح الدين بقصيدة بعد انتصاره في إحدى المعارك وقال له لا يتم النصر إلا في القدس :

كأنى بهذا العزم لا فل حده وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طهر
وصلت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع و ساجدها وتر
وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر

ووصفه أحد شعراء هذه الفترة وهو يرى إيمانه وجهاده :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أعظم المحراب في المحراب

وعندما فتح قلعة حلب في صفر سنة خمس مائة وخمسة وسبعين هجرية جاءه إمام المسجد الأموي في دمشق محيي الدين بن زنكي يمدحه في قصيدة يقول له فيها :

وفتحكم حلب الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

وحقق الله البشري وفتحت القدس في السابع والعشرين من رجب سنة خمسائة وثلاثة وثمانين هجرية ليتم الفتح العسكري مع الفتح الروحي الذي بدأه رسول الله ﷺ في إسرائه الشريف وكان من أعمال صلاح الدين قبل أن يحقق هذا الفتح الوحده ، وحد الأمة تحت راية الإسلام بين المنهج الذي تلتقي فيه الأمة ، ثم وحدها عليه فوحد مصر وسورية وأعدها إعداداً إيمانياً إسلامياً وإعداداً عسكرياً جهادياً ووجه ضربته إلى الباطنية والحشاشين الذين تعاونوا مع الصليبيين ونزل بقواته على القدس في منتصف رجب سنة خمسائة وثلاثة وثمانين هجرية الموافق ألفا وسبعة وثمانين .

ودخل القدس في السابع والعشرين من رجب سنة خمسائة وثلاثة وثمانين هجرية وكان خطيب الجمعة التالية للفتح هو محيي الدين بن زنكي الذي بشره يوم فتح حلب ، وألقى خطبة الجمعة .

وكان من قوله فيها : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الأنعام : ٤٥] أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الإسلام ، الله أكبر فتح الله ونصر وغلب الله وقهر وأذل من كفر .

القدس حضارة :

القدس حضارة وجهاد ومع الفتح الإسلامي لبيت المقدس تحولت إلى قلعة من قلاع العلم والحضارة وقد عين عمر رضي الله عنه فيها الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ليكون قاضياً ومعلماً . وأصبحت موئلاً للصحابة والعلماء والعباد والزهاد ، وقام بنو أمية والعباس والفاطيون والمماليك

كلهم بدورهم في إحياء هذه المدينة وبعث حضارتها والعناية بها فعبداً الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة الإسلامية بنى قبة الصخرة المشرفة التي جاءت درة فريدة في هندستها وزخرفتها وأنفق عليها خراج مصر لمدة سبع سنوات ثم ولده الوليد بن عبد الملك بنى المسجد، وسليمان بن عبد الملك أخذ البيعة في هذا المسجد .

وزارها من العباسيين المنصور مرتين وزارها كثيرون من الخلفاء والملوك على توالي العصور ثم كان للمغرب العربي المسلم وجود حضاري وجهاد عظيم في هذا المضمار وقد تحلى هذا الوجود الحضاري بالوقف الذي وقفه صلاح الدين على المغاربة الذين أبلوا أحسن البلاء في تحرير بيت المقدس تقديراً لجهادهم وصبرهم ومرابطتهم عند مسرى رسول الله ﷺ .

ثم في هذه الوقفيات التي وقفها أبو مدين الغوث من المحسنين وهذه الوقفيات مسجلة ومجموعة في سجل خاص محفوظ في المحكمة الشرعية في القدس إلى يومنا هذا .

القدس في محتتها المعاصرة :

ولقد شاء الله أن يكون هذا الوقف المغربي الخيري وقف جهاد ومقاومة يقف في وجه مؤامرات إسرائيل لتهويد المسجد الأقصى وبنه المسلمين إلى كيدها منذ عهد الخلافة العثمانية الإسلامية إلى يومنا هذا ، ذلك أن موقع هذا الوقف كان بجوار الحائط الغربي للمسجد الأقصى الذي يزعم اليهود أنه حائط الهيكل وحاولوا في زمن الخلافة العثمانية ثم في زمن الانتداب البريطاني على فلسطين أن يحتلوا موقع كرسي على أرض هذا الوقف ليتصدى لهم كل مرة ناظر الوقف المغربي فيحبط كيدهم .

وفي عام ألف وثمانمائة وأربعين للميلاد كانت القدس تحت حكم محمد علي باشا على إثر ثورته ضد السلطان العثماني ولكنه كما هو معلوم كان قد اعترف بسيادة السلطان العثماني والقوانين العثمانية الإسلامية وكانت الإدارة المصرية بارعة في كسب ود القوى الأوروبية في هذا الصراع عن طريق إظهار العطف على الأقليات النصرانية واليهودية .

وفي ظل تلك الظروف قام القنصل البريطاني بتقديم رغبته بالسماح ليهودي بريطاني بإعادة وترميم رصيف المبكى ، وقام المجلس الاستشاري لمدينة القدس بالنظر في الطلب فرفضه بشدة بعد الاستماع لشهادة ناظر الوقف المغربي ناظر وقف أبي مدين ، وهو من المحسنين ، جاء ليعلن جهاده ، أحبط كيدهم .

وأبرزت مناقشات المجلس حقيقة أن اليهود أصبحوا مزعجين المقيمين في المنطقة ، وفي الثاني عشر من تشرين الثاني للسنة المالية العثمانية ألف وثلثمائة وسبعة وعشرون (١٣٢٧) هجرية ، رفع متولي وقف أبي مدين في القدس دعوة لمجلس إدارة القدس وهو محفوظ لدى مديرية أوقاف القدس هذا نصها :

إن متولي أوقاف أبي مدين الغوث شبيب قدس الله سره قد رفع استرعاء يبين فيه أن أفراد الطائفة اليهودية الذي جرت عاداتهم بالذهاب إلى الحائط المعروف بالبراق الكائن خارج الحرم الشريف بالقدس ؛ لجهته الغربية على أن يبقوا في أثناء زياراتهم واقفين على أقدامهم وبما أن البراق من أملاك الوقف المغربي المذكور أعلاه ويؤدي إلى زقاق غير نافذ فقد طلب المتولي المشار إليه توقيف هذه الحالة حالاً تجنباً لادعاء اليهود في المستقبل بملكية المكان ، وعند تقديم هذا الاسترعاء لفضيحة مفتي القدس بين الحكم ،

وأنه محذور بموجب الشرع من جميع الوجوه وضع كرسي أو غيره يشعر بالملكية، وصدق المجلس هذا الحكم، ورفع الاسترعاء إلى سعادة المتصرف لإجراء الإيجاب.

وهكذا بقي وقف أبي مدين يقاوم عن حائط البراق ويقاوم عن المسجد الأقصى خلال العصور.

وانتهت الحرب العالمية الأولى باحتلال الإنجليز للقدس، وقال الجنرال اللنبي عند دخوله القدس: اليوم انتهت الحروب الصليبية.

وأصدرت الحكومة البريطانية قبل أسبوع من احتلال القدس وعد بلفور المشؤم الذي ينظر بعين الرضا لإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين.

وكان هذا الوعد هو الصك الذي اعتمدته الحركة الصهيونية لتحريك اليهود وتجميع حماسهم، ولكن سياسة الحكومة البريطانية وقتئذ كانت بالنسبة للأماكن المقدسة، وأماكن العبادة المحافظة على التشاريع والأوضاع السابقة.

وحاول اليهود أن يستغلوا الوضع الجديد بالاحتلال البريطاني، وقام وايزمان بتوجيه خطاب شديد إلى بلفور يطالبه بتسليم حائط المبكى بقوله: إنه المكان المقدس الوحيد المتبقي لنا نحن اليهود؛ إذ أن معظم نصبنا المقدسة في مدينتنا المقدسة هي في أيدي جالية مغربية متدينة، وأنهى خطابه مطالبًا بترحيل المغاربة مقابل دفع تعويضات لهم.

وتقدم حاكم القدس العسكري البريطاني للمفتي باسم (وايزمان) ونيابة عنه يطالب برصيف المبكى، وكان الجواب المنتظر من المفتي أن

تلك الأرض وقف إسلامي وهو وقف أبي مدين الغوث لا يباع ولا يوهب ولا يرد .

وفي الخامس من حزيران سنة ألف وتسعمائة وسبعة وستين (١٩٦٧) وقع القدس الشريف في الأسر ، وكان من أول أعمال اليهود أن استولوا على وقف أبي مدين وهدموه وهدموا حي المغاربة ، وأقاموا قلاعاً وحصوناً .

ولكن بقي وقف أبي مدين يجاهد يبطل على لسان السياسة الدولية وعلى لسان المشاعر الإسلامية وعلى لسان العقيدة الإسلامية إبطال قراراتهم وظلمهم وعدوانهم .

وضع مخطط تهويد القدس عندما احتل اليهود القدس في ثلاث مراحل ؛ مخطط وزارة الإسكان الإسرائيلية ، مخطط دائرة أرض إسرائيل ، مخطط رئيس دائرة الاستيطان .

واستولوا على القرى المجاورة للقدس ، وأخذوا يحفرون بجانب المسجد الأقصى يريدون أن يحولوه إلى كنيس ، وفي ٢١-٨-١٩٦٩ حرقوا المسجد الأقصى وحرقوا منبر صلاح الدين ومحراب صلاح الدين .

اللهم اجعل لنا طريقاً إلى القدس يجمع هذه الأمة تحت راية الإسلام ، ويوحدها تحت راية محمد عليه الصلاة والسلام .



المحاضرة الرابعة والعشرون:

الفتح المبين

قال الله جل ذكره وتعالى كلماته : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ [الفتح : ١-٤] .

تمهيد :

هذه سورة الفتح وسميت سورة الفتح لذكر الفتح فيها في أكثر من موضع ، فقد افتتحت بالفتح ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ .

وجاء ذكر الفتح في معرض الحديث عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة ، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨] .

وجاء ذكر الفتح مرة أخرى في معرض الحديث عن تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ، إذ قال : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧] .

وسورة الفتح تعتبر مشهدًا خالدًا من حياة الجماعة المسلمة الأولى ، التي كافحت تحت قيادة الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه ، حتى ظهر الإسلام وعز وانتشر .

وفيهما الإشارة إلى أحداث ومشاهد سفرة الحديبية وصلحها، وما يسره الله للمؤمنين من فتح خيبر وغنائمها، على ما أجمع عليه المفسرون، وكتاب السيرة الأقدمون.

وفيهما تثبيت وطمين ربانيان، بمناسبة تلك الأحداث والمشاهد.

وفيهما الإشارة إلى مواقف بعض الأعراب المسلمين.

وفيهما الإشارة كذلك إلى وجود مؤمنين يكتمون إيمانهم بمكة.

وفيهما إيدان بوعده الله بإظهار الإسلام على الدين كله، وتنويه بأصحاب رسول الله ﷺ وما كانوا عليه من تقوى وورع.

نزول سورة الفتح : الزمان :

نزلت سورة الفتح ليلاً في سفر من أسفاره ﷺ وبذلك تكون من السور القليلة التي نزلت ليلاً ومن هذه السور، سورة المنافقين، وسورة المرسلات، وآيات الثلاثة الذين خلفوا في سورة براءة، يدل على أنها نزلت سفرًا وفي الليل، ما أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه قال : باب إنا فتحنا لك فتحا مبينا حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه، أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عن شيء فلم يجبه ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب ثكلت أم عمر، تسأل رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك.

قال عمر فحركت بعيري فتقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في القرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال، «لقد

أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ إنا فتحنا لك فتحا مبينا» وهذا السفر الذي أبهم في الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، نص عليه في حديث آخر أنه سفر الحديبية يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبه ، والإمام أحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من الحديبية ، وكان رسول الله ﷺ قد خرج إليها يوم الإثنين هلال ذي القعدة ، بعد سنة ست من الهجرة ، فأقام بها بضعة عشر يوما ، وقيل عشرين يوما ، ثم قفل راجعا .

فبينما نحن نسير إذ جاءه الوحي ، وكان إذا جاءه اشتد عليه فسري عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى ، فأخبرنا أنه أنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ .

المكان :

بل جاء في الحديث الشريف ما يعين المحل الذي نزلت فيه السورة الكريمة ، أخرج الإمام أحمد في مسنده عن مجمع بن جارية الأنصاري ، وكان من القراء الذين قرءوا القرآن ، قال شهدت الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فلما انصرفنا إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله ﷺ . فخرجنا مع الناس نرجف فإذا رسول الله ﷺ على راحلة بكرع الغميم ، وقد أحاط به الناس فقرأ عليهم : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ .

إذن سورة الفتح نزلت ليلا في سفر من أسفاره ﷺ بكرع الغميم وقد قرأها النبي ﷺ على المسلمين ، وهو على راحلته .

وكراع الغميم ، موضع بين مكة والمدينة ، فتكون السورة إذن مدنية بناء على القول المشهور وهو أن المدني من القرآن ما نزل بعد الهجرة ، سواء نزل بمكة أو بالمدينة ، أو بسفر من الأسفار ، وأن المكي ما نزل قبل الهجرة ، ويدخل فيه ما نزل حتى في سفر الهجرة ، وقد نزلت سورة الفتح من أولها إلى آخرها في سفر الحديبية هذا .

يدل لذلك ما أخرجه محمد بن إسحاق ، عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، عن عروة عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها ، وإن جاء في صحيح الإمام مسلم ما قد يفيد أنها ربما لم تنزل من أولها إلى آخرها في سفر الحديبية ، وأن الذي نزل هو الآيات الأول منها فقط ، ونص حديث الإمام مسلم الذي أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَوَرَّأَ عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٥] .

مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهدى بالحديبية فقال لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا .

سبب نزول سورة الفتح :

أما سبب نزول السورة الكريمة فقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه : إن المشركين واليهود ، والذين نافقوا شتموا رسول الله ﷺ عندما نزل قول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٩] وقالوا كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به ، ولا بأصحابه ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وحزن حزناً كبيراً ، فلما نزلت

سورة الفتح قرأها على أصحابه ، وقال لهم أنزلت علي سورة ما أحب أن يكون لي بها حمر النعم؟

على أن السورة الكريمة نزلت في أعقاب صلح الحديبية ، وهي تصف حالة المسلمين ، وموقف المشركين والمنافقين من المسلمين ، وهذا الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع مشركي مكة يومئذ لم يرض عنه كثير من المسلمين ، واعتبروه غبنا على المسلمين ونصرا للمشركين حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثار وقال : لم نعطي الدنية في ديننا ، كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه ، قال حدثنا أحمد بن إسحاق السلمي ، حدثنا يعلى ، حدثنا عبد العزيز بن سياه ، عن يحيى بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله فقال ، كنا بصفين فقال رجل ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله ، فقال علي بن أبي طالب نعم ، فقال سهل بن حنيف اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي انعقد بين رسول الله ﷺ والمشركين ، ولو نرى قتالا لقاتلنا فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ألسنا على الحق وهم على الباطل ، أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال رسول الله ﷺ بلى .

قال فلم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ، ولما يحكم الله بيننا ، فقال رسول الله ﷺ ، يا ابن الخطاب إني رسول الله ، ولن يضيعني الله أبداً ، فرجع متغيظاً ، فلم يصبر حتى أتى أبا بكر فقال يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ، فقال يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً .

فنزلت سورة الفتح .

فسورة الفتح إذا نزلت لتضع حدا لشكوك المسلمين ولنظرتهم الخاطئة ، التي كانوا ينظرونها ، وهي أن هذا الصلح يعتبر نصرا للمشركين وهزيمة للمسلمين ، فبينت السورة الكريمة أنه على العكس بل هو انتصار للمسلمين وانهازام للمشركين وسنين ذلك من خلال تحليلنا لمظاهر النصر في الحديبية .

تفسير سورة الفتح :

قال الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، لا تطيل الكلام في البسملة ، ولكننا نكتفي بذكر فضائلها .

فضائل بسم الله الرحمن الرحيم :

أخرج الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره» بسنده إلى سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه «أن سيدنا عثمان رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال رسول الله ﷺ هو اسم من أسمائه تعالى ، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب» .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم في المستدرک واللفظ للنسائي عن أبي حاتم بن أسامة عن أبي يعلى أنه قال : «كنت رديف رسول الله ﷺ فعثر بعيرنا فقلت تعس الشيطان ، فقال رسول الله ﷺ لا تقل تعس الشيطان فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ، ويقول بقوتي صرعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنه يصغر حتى يصير مثل الذباب» .

وروى ابن عطية والقرطبي وابن كثير في تفاسيرهم عن سيدنا عبد الله ابن مسعود أنه قال من أراد أن ينجيهِ الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنها تسعة عشر حرفاً فيجعل كل حرف جنة من واحد منهم .

ما المراد بالفتح :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

١ - رأي الجمهور : الفتح صلح الحديبية :

اختلف العلماء في الفتح ما المراد به ، الجمهور على أن المراد بالفتح صلح الحديبية ، والفتح لغة هو إزالة الإغلاق ، وأما الفتح في الاصطلاح فهو فتح البلد مثلاً أو غيره عنوة أو صلحاً ، لأن البلد مثلاً يكون منغلقاً ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح ، وسمي صلح الحديبية فتحاً على هذا نظراً لاشتراكه مع الفتح في الغلبة والظهور على المشركين ، لأن المشركين ما سألوا الصلح من رسول الله ﷺ حتى ظهر عليهم المسلمون ، فيكون إطلاق الفتح على الصلح مجازاً بالاستعارة ، ذلك أننا شبهنا الصلح بالفتح بجامع الظهور والغلبة في كل ، ثم استعرنا اسم الفتح للصلح واشتقنا من الفتح فعل فتح فكانت استعارة تصريحية تبعية ، وقيل إن صلح الحديبية سمي فتحاً لكونه سبباً في كل ما أعقبه من الفتوحات .

ومن المعلوم أن صلح الحديبية كان حداً فاصلاً بين عهدين : عهد ركود الدعوة الإسلامية ووقوفها في المجال الضيق ، وعهد انطلاقها وانبعاثها ، وانتشارها ، وخروجها من المجال الضيق إلى المجال الواسع ، قال الزهري لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، فيه اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في سنتين اثنتين خلق كثير ، كثر بهم سواد الإسلام ، فلم تمض سنتان إلا وقد جاء المسلمون إلى مكة في عشرة آلاف ، ففتحوها ، وحينئذ فإطلاق اسم الفتح على صلح الحديبية لكونه سبباً في الفتح يكون من باب المجاز المرسل من إطلاق اسم

المسبب على السبب ، وإسناد الفتح المراد به الصلح الذي هو فعل رسول الله ﷺ إلى الله تعالى ، فجاز في الإسناد لأنه إسناد إلى غير ما هو له .
ولا يعترض على هذا بما قد تقرر في علم الكلام من أن الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى ، وعليه فإسناد الفتح إلى الله تعالى ، إسناد إلى ما هو له ، فلا مجاز ، لأننا نريد بإسناد ما هو له ، ما حقه أن يسند إليه في العرف والعادة ، وإلا لو ذهبنا على قول المتكلمين لكان إسناد جميع الأفعال إلى الله تعالى حقيقة ، وإلى غيره تعالى مجازاً .

وكون صلح الحديبية هو المراد بالفتح ، هو الذي تؤيده النصوص ، أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن سيدنا أنس رضي الله عنه أن المراد بالفتح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ صلح الحديبية ، وأخرج الإمام البخاري أيضاً في صحيحه عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك لرسول الله ﷺ فجاءها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم أنها أصدرتنا مما شئنا نحن وركائبنا ، وفي الصحيحين عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى الأعمش عن أبي سفيان عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال ما كنا نعد الفتح إلا صلح الحديبية .

ولقد خفي كون صلح الحديبية فتحاً على كثير من المسلمين حتى فسره لهم رسول الله ﷺ ، أخرج البيهقي عن سيدنا عروة رضي الله عنه قال أقبل

رسول الله ﷺ من الحديبية فقال رجل ما هذا بفتح ، لقد صددنا عن البيت وصد هدينا وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية و رد رجلين من المسلمين خرجا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال بنس الكلام هذا إنه أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويرغبون إليكم في الأمان ، ويطلبون منكم القضية إن القضية أن هذا أعظم الصلح ، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم في أخراكم ، أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ ﴾ [الأحزاب: ١٠] .

فقالوا : صدق الله ورسوله إنه والله لأعظم الفتح يا رسول الله ، والله ما فكرنا فيما قلت ، ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا .

صلح الحديبية :

فما هو هذا الصلح الذي انعقد في الحديبية ، والذي لم يفهم الكثيرون من المسلمين معناه؟ ذلك ما نوجزه باختصار .

لقد مكث المسلمون في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها ست سنوات ، والمشركون يمعنون في صد المسلمين عن بيت الله الحرام ، وكان المسلمون يتحرقون شوقاً إلى زيارة بيت الله الحرام ، وينتظرون بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي يصلون فيه إلى هذا البيت ويطوفون به .

وفي يوم من الأيام خرج رسول الله ﷺ على المسلمين فبشرهم بأنه رأى -ورؤيا الأنبياء حق- أنه دخل إلى مكة هو وأصحابه آمنين مطمئنين ففرح المسلمون بهذه الرؤيا وانتظروا تحقيقها ، ثم أذن رسول الله ﷺ بأن يخرجوا

وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج في ذي القعدة من سنة ست وخرج معه علي أصح الروايات نحو ألف وأربعمائة رجل ، علي ما رواه سيدنا جابر بن عبد الله ، ولقد عمم رسول الله ﷺ الدعوة إلى الخروج إلى بيت الله الحرام بحيث تشمل حتى الذين يعظمون هذا البيت ، وليسوا مسلمين ، ولكن تباطأ الكثيرون عن هذا الخروج ، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه من المهاجرين والأنصار ، يتقدمهم علي ناقتة القصواء ومعه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، وقد ساق من الهدي نحو سبعين بدنة .

وفي ذي الحليفة أحرم رسول الله ﷺ والمسلمون بالعمرة وبلغ الخبر إلى المشركين ، فقرروا صد رسول الله ﷺ عن البيت ، ولو كلفهم ذلك ما كلفهم ولما كان رسول الله ﷺ بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فسأله رسول الله ﷺ عما لديه من أخبار قريش ، فقال : لقد علموا بخروجك ، وقرروا أن يصدوك عن بيت الله الحرام ، وقد عقدوا على جيش لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، وخرجوا إلى ذي طوى ، فقال رسول الله ﷺ : «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن قاتلوا قاتلوا و بهم قوة ، فماذا تظن قريش؟ فوالذي نفسي بيده لا أزال أقاتل على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة» .

والسالفة : هي صفحة العنق ، وكنى بها عن الموت ؛ لأنها تنفرد عما يليها إلا به ، وإمعاناً من رسول الله ﷺ في سلوك طريق السلم .

قرر أن يسلك طريقاً غير طريقهم ، وسلك فعلاً طريقاً غير طريقهم ، حتى انتهى إلى ثنية المزار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ، وعلمت قريش

أن رسول الله ﷺ سلك هذا الطريق ، فرجعوا إلى مكة يركضون حتى يدافعوا عنها إذا ما دهمها رسول الله ﷺ والمسلمون .

وبينما كان رسول الله ﷺ يمر بثنية المزار بركت ناقته القصواء ، فقال المسلمون : خلأت القصواء ، فقال رسول الله ﷺ : «ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها» .

وأمر المسلمين أن ينزلوا في الحديبية ، فقالوا : يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه ، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً ونزل به إلى بئر من تلك الآبار المنتشرة هناك ، وغرزه في رمالها فجاشت بالماء الرواء ، وفي الحديبية بدأت المفاوضات بين رسول الله ﷺ والمشركين ، وبدأ السفراء بين رسول الله ﷺ والمشركين .

فكان أول من قدم على رسول الله ﷺ من قريش بديل بن ورقاء الخزاعي سأل رسول الله ﷺ عن الذي دفعه إلى المجيء إلى مكة فأخبره الرسول الأكرم أنه ما جاء إلا احتراماً للبيت وتعظيمًا له وأنه ما جاء إلا لأداء العمرة ومناسكها ، فرجع بديل إلى المشركين وأخبرهم بقصد رسول الله ﷺ ، ثم تتابع السفراء ، فجاء عروة بن مسعود ، وأخيرا جاء سهيل بن عمرو ، ولكن رسول الله ﷺ رأى أن سفراء قريش ربما لم يكن لهم من الشجاعة ما يجعلهم يبلغون رسالة رسول الله ﷺ إلى قريش على حقيقتها ، فقرر أن يبعث هو سفراء من جانبه إلى قريش ، فأرسل أولاً شخصاً ، ثم بعد ذلك سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، بعدما كان قد قرر أن يرسل عمر ولكنه اعتذر ، وذهب رسول رسول الله ﷺ إلى المشركين وبلغهم رسالة رسول الله ﷺ .

وطال احتباس سيدنا عثمان رضي الله عنه عند المشركين ، ولعل ذلك كان للبحث عن مخرج من المشكل الذي وقعوا فيه وبلغ الخبر إلى المسلمين بأن عثمان قتلته قريش فدعاهم رسول الله ﷺ إلى البيعة وقال لهم لا نبرح حتى نناجز القوم ، وكانت بيعة الرضوان التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] ثم جاء عثمان بعد ذلك واتصلت المفاوضات .

بنود صلح الحديبية :

وتقرر أن يعقد رسول الله ﷺ والمشركون صلحا ومعاهدة ، فانعقد الصلح بين رسول الله ﷺ والمشركون ، هذا الصلح هو الذي أثار غضب المسلمين ، فماذا كان في هذا الصلح لقد جاء في الصلح :

أولا : أن يرجع رسول الله ﷺ هذا العام عن مكة ، وأن يدخلها إن شاء في العام المقبل ومعه أصحابه ، بعد أن يخرج عنها المشركون ويمكن فيها ثلاثة أيام ، وكان من جملة ما جاء أيضا في هذا الصلح .

أن من أتى رسول الله ﷺ من المسلمين بدون إذن وليه فإنه يردده عليهم وأن من أتى المشركين من أصحاب رسول الله ﷺ لا يرد عليهم ، وأن هذا الصلح يمتد عشر سنوات على ما ذهب إليه أكثر كتاب السيرة ، ولما انتهت ذلك وأراد رسول الله ﷺ أن يكتب هذا الصلح دعا سيدنا علي فأملى عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل ، لا أعرف بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ لعلي اكتب باسمك اللهم ، ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو فقال سهيل أمسك لو كنت أشهد أنك رسول الله ما صددتك عن البيت ، فقال

رسول ﷺ اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فكان ذلك مما أثار غضب المسلمين أكثر، وفي نهاية هذا الصلح جاء أبو جندل بن عمرو بن سهيل بن عمرو وهو يرسف في قيوده فقام إليه والده وأخذ يضربه ويجره إلى المشركين وهو يستغيث بالمسلمين ويقول أتردونني إلى المشركين ليفتنوني في ديني، فقال رسول الله ﷺ «اصبر واحتسب يا أبا جندل فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا» .

وفي هذا الوقت قام سيدنا عمر بن الخطاب وأخذ يمشي إلى جانب أبي جندل ويقول له اصبر يا أبا جندل واحتسب فإنما هم المشركون وإن دم أحدهم كدم الكلب، وكان عمر يكلم أبا جندل وهو يدين قائم السيف منه رجاء أن يتناول السيف فيضرب به والده ولكن أبا جندل لم يفعل، وبذلك تم هذا الصلح بين رسول الله ﷺ والمشركين، وعندما انصرف المسلمون من الحديبية نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فلم يبق إذن شك في أن هذا الصلح فتح مبين. فهل كان صلح الحديبية فتحاً؟ نعم بدون شك لأنه قول الله تعالى .

مظاهر الفتح في صلح الحديبية :

فما هي مظاهر الفتح والنصر في هذا الصلح لقد أثبتت الأيام أن هذا الصلح حكمة سياسية، وبعد نظر من رسول الله ﷺ، كان لهما أكبر الأثر في مستقبل الإسلام، وفي مستقبل المسلمين، فلقد كانت هذه أول مرة اعترفت فيها قريش برسول الله ﷺ، لا على أنه تائر خارج ولكن على أنه ند وعدل، وبذلك كانت قد اعترفت بالدولة الإسلامية القائمة في المدينة المنورة، ثم إن إقرار المشركين للمسلمين بحق زيارة البيت، وأداء مناسك الحج، اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه

جزيرة العرب ، والهدنة التي انعقدت بين المسلمين وبين المشركين أتاحت الفرصة للمسلمين ، وجعلتهم يطمئنون فلا يخافون غارات قريش عليهم من ناحية الجنوب ، ثم إنها أتاحت للإسلام أن يزداد انتشارا وقد انتشر الإسلام فعلا ، فلقد انتشر انتشارًا أكثر أضعافًا مما كان عليه من قبل .

يدل لذلك أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية كانوا ألفا وأربعمائة ، وعندما جاء إلى فتح مكة بعد سنتين كانوا عشرة آلاف وأشد ما أثار غضب المسلمين هو أن الرسول ﷺ يرد الذين جاءوا مسلمين إلى المشركين ، وكان رأي رسول الله ﷺ في هذا أن من أسلم وأراد الالتحاق برسول الله ﷺ والمسلمين فإن الله سيجعل له فرجا ومخرجا ، وأما من ارتد عن الإسلام والتحق بالمشركين فإنه لم يعد جديرا بأن يرجع إلى صفوف الجماعة الإسلامية ولقد صدقت الأيام رأي رسول الله ﷺ حتى شاهد المسلمون هذا الفتح .

فقد وفد أبو بصير إلى رسول الله ﷺ في المدينة ينطبق عليه العهد برده إلى المشركين فأرسل المشركون يطلبون أبا بصير وكتبوا إلى رسول الله ﷺ كتابا يذكرونه بالعهد ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بصير إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا في ديننا الغدر ، فارجع إلى قومك ، فرجع أبو بصير وكان معه حارس يحرسه ، وفي الطريق تمكن أبو بصير من أن يأخذ السيف من يد الرجل الذي كان يحرسه وضربه به حتى قتله ، و فر أحد الحارسين إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال إن هذا شخص رأى فزعا ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى طلع أبو بصير متوشحا سيفًا وهو يوجه الحديث إلى رسول الله ﷺ قائلا : يا رسول الله لقد أدنى الله عنك وبرئت ذمتك أسلمتني بيد القوم ، وأبى الله إلا أن يخلصني بديني

نور من القرآن والسنة

١١٣

من أن أفتن فيه أو يعث بي ، فقال رسول الله ﷺ ويله مسعر حرب لو كان معه رجال .

وخرج أبو بصير إلى طريق قوافل قريش ، وتسامع به المسلمون ممن كان المشركون قد حبسوه في مكة فاجتمعوا عليه اتخذوه لهم إماما ، وأخذوا يقطعون الطريق على قوافل قريش ، فلا تمر بهم قافلة إلا اقتطعوها واحتجزوها ، ولا يمر بهم مشرك إلا قتلوه وعندئذ أدركت قريش أنها هي الخاسرة بحرصها على إبقاء هؤلاء المسلمين في مكة ، وكتبت إلى رسول الله ﷺ تسأله بإرجاع الذي آوى إليه من هؤلاء المسلمين حتى يتركوا طريق الشام آمنا مطمئنا وبذلك تنازلت قريش عن الشرط الذي ألح عليه سهيل بن عمرو ، واعتبره نصرا للمشركين ، والذي أثار غضب المسلمين تنازلوا عنه ، وسلموا فيه و دعا رسول الله ﷺ المسلمين إليه فرجعوا ، ولكن أبا بصير لم يرجع ، لأن كتاب رسول الله ﷺ جاءه وهو يحتضر .

وقصة أبي بصير وأبي جندل تحكي لنا قصة العقيدة المكافحة وتحكي لنا أن الإيمان يحقق المعجزات ، وهي توضح لنا أيضا من جهة أخرى أن الإيمان بالله قد أخذ طريقه إلى هؤلاء النفر ، مجردا عن كل شيء إلا عن سلامة الجسم ، فقد هؤلاء المسلمون الإمدادات الروحية التي كانت تأتيهم من مخالطة رسول الله ﷺ ، وهم يستمعون إليه ، وهو يتلو وينصح ويعي ، ولكنهم استعاضوا عنها بمخالطة القرآن الكريم ، ، والاقتباس من هديه وآدابه ، فكانوا في اهتدائهم للحق وإبائهم الضيم ، وسلوكهم طريق المغامرة ، كانوا مثلا حسنا للإسلام المكافح العزيز .

روى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير صادروا قافلة لقريش ، وأسروا

جميع من فيها ، وكان فيها العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ ، فحدثت زينب بنت رسول الله ﷺ والدها عما وقع لزوجها ولأصحابه فخطب رسول الله ﷺ وقال لهم : «إنا صاهرنا أناساً ، وصاهرنا أبا الربيع فنعم الصهر وجدناه ، وأنه أقبل من الشام في قافلة له ، فأخذهم أبو بصير وأبو جندل وأخذوا جميع ما كان معهم من أموال ، وأن زينب بنت رسول الله ﷺ سألتني أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون ، أبا العاص وأصحابه»^(١) .

فقال المسلمون : نعم وبلغ هذا الجوار أبا جندل وأبا بصير فأفرجوا عن الأسرى جميعاً ورددوا عليهم كل ما أخذ منهم .
وجاء كتاب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وهو يجود بأنفاسه الأخيرة فمات ، وكتاب رسول الله ﷺ موضوع على صدره .

وهكذا يتبين لنا أن صلح الحديبية كان فتحاً مبيئاً ، وأن رسول الله ﷺ عندما عقد هذا الصلح مع المشركين كان قد وضع حجراً في بناء الإسلام لا ينقض ، وفي سياسته وانبعاثه وانتشاره هذا هو القول الأول ، وهو أن المراد بالفتح صلح الحديبية .

٢-القول الثاني : المراد بالفتح خيبر :

والقول الثاني أن المراد بالفتح خيبر .

وخيبر كما يقول ياقوت : مدينة كبيرة ذات حصون ومروج على بعد ثمانية برود من المدينة إلى جهة الشام ، وقد فتحها رسول الله ﷺ في محرم من سنة سبع من الهجرة على ما ذهب إليه ابن إسحاق ، ورجحه الحافظ ابن حجر ، ونقل

(١) أخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٥) من طريق محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن الزهري مرسلًا ، به ، بنحوه . وانظر «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٩) .

عن الإمام مالك ، وجزم به ابن حزم أنه كان في سنة ست .

ولعل الخلاف في هذا يرجع إلى الخلاف في التاريخ الهجري ، فالجمهور على أن التاريخ الهجري بدايته شهر محرم ، وخالف في ذلك ابن حزم حيث جعل التاريخ الهجري ابتداء من ربيع الأول الذي هو شهر الهجرة الحقيقي .

وقد فتح رسول الله ﷺ خير بالمسلمين الذين بايعوه تحت الشجرة فقط ، ورفض أن يصحب معه الآخرين ممن تخلفوا عنه ، وعرضوا عليه أن يخرجوا إلى خير ، ولعل السر في هذا أن رسول الله ﷺ يريد أن يقاتل اليهود ويطهر الجزيرة منهم .

وكانت خير هي البقايا الباقية في الجزيرة من اليهود بعدما قضى رسول الله ﷺ على بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قينقاع .

رفض رسول الله ﷺ أن يخرج هؤلاء ؛ لأنه يريد أن يكون جيشه مؤلفاً من المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأن لا يخرج معه المترددون المتخاذلون ؛ لأنه ليس من شأن المتخاذلين أن يجلبوا النصر ، ولكن المؤمنين هم الذين يستطيعون أن يحققوا النصر .

كان هذا هو السر في أن رسول الله ﷺ رفض أن يصحب معه هؤلاء الذين عرضوا عليه أن يخرجوا معه ، ولم يصحب معه إلا المسلمين المؤمنين الذين بايعوه تحت الشجرة .

وعلى هذا يكون إطلاق الفتح إطلاقاً حقيقياً ، ويكون إطلاق الماضي عليه نظراً لكونه لم يكن قد تحقق في وقت النزول ، بناء على ما رواه المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من أن السورة نزلت من أولها إلى آخرها في سفره ﷺ من مكة إلى المدينة .

في هذه السفرة ، سفرة الحديبية يكون مجازاً بالمشاركة ، ويكون استعمال

الماضي لتحقيق الوقوع .

القول الثالث :المراد بالفتح مكة :

وقيل : إن المراد بالفتح مكة .

وفتح مكة هو الذي سماه ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» الفتح الأعظم ، الذي نصر الله به دينه ، واستنقذ به بلده ، وطهر به حرمة واستبشر به أهل السماء ، وضربت به أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل بعده الناس في دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الدهر ضياء وابتهاجا .

وقد كان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وكان مع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المسلمين الذين دخل بهم إلى مكة .

فتح مكة بالقوة أم صلحا :

واختلف العلماء في فتح مكة ، هل كان عنوة أو صلحا ، فجمهور العلماء أن فتح مكة كان عنوة ، والأقلون على أنه كان صلحا ، ومنهم الإمام الشافعي في إحدى رواياته عن سيدنا أحمد بن حنبل رحمته الله .

يقول أصحاب الصلح : لو فتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ؛ لكان قد قسم الغنائم بين المقاتلين ، ولكن رسول الله ﷺ لم يفعل ، وعندما أسلم أبو سفيان واستأمن لأهل مكة بإذن رسول الله ﷺ كان بمثابة عقد إعطاء أمان لهم ، وإلا لكان المسلمون أحق بدور مكة وبأموالها من المشركين ، ولجاز إخراجهم منها .

ولكن رسول الله ﷺ لم يحكم بذلك ، بل لم يرد على المهاجرين دورهم التي أخرجوا منها ، وهي بأيدي الذين أخرجوهم منها وتركهم رسول الله ﷺ ، وأمرهم على بيعها وشرائها والانتفاع بها وسكنها ، وهذا كله مخالف للعنوة ،

بل إن رسول الله ﷺ صرح بإضافة الدور إلى أهلها حيث قال : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن» .

أما الذين قالوا : إن مكة فتحت عنوة ، فقد قالوا : لو فتحت صلحاً لما قاتلهم رسول الله ﷺ ولكن الرسول الأكرم قاتلهم ، فلقد قاتل خالد بن الوليد حتى قتل منهم جماعة ، ثم إن رسول الله ﷺ قال : «أحلت لي ساعة من نهار» ، ولو كانت صلحاً لكانت على حرمتها ، ولا تخرج بالصلح عن الحرمه ، وقال رسول الله ﷺ أيضاً ، فإن أحداً ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقالوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم .

ومعلوم أن الإذن المختص برسول الله ﷺ هو الإذن بالقتال ، وليس الإذن بالصلح ؛ لأن الإذن بالصلح عام للجميع ، ولو كانت أيضاً صلحاً لما قاتلهم ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قاتلهم وعبأ جيشه وقال لأبي هريرة : «اهتف بالأنصار» فهتف بهم ، فأطافوا برسول الله ﷺ ، وقال لهم : أرايتم أوباش قريش وأتباعهم ، ثم قال بيده إحداهما على الأخرى : «احصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا» ، وحتى قال أبو سفيان : أبيحت خضراء قريش يا رسول الله ، لا قريش بعد اليوم ، وهذا كله مناف للصلح .

فإذن مكة فتحت عنوة ، ولالإمام ابن حزم رأي في القضية ، وهو أن مكة لم تفتح عنوة ولا صلحاً .

وأن رسول الله ﷺ آمن أهلها واستثنى من قاتل أو من استنابه رسول الله ﷺ ، استثنى طائفة منهم ، قتل بعضهم وترك الباقي .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وعلى كل حال حذف

المفعول للقصد إلى نفس الفعل وللإيذان بأن مناط التبشير إنما هو نفس الفتح المنسوب إلى الله تعالى ، وقدم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ قدم لك على ﴿ فَتَحْنَا مُبِينًا ﴾ وإن كان الأصل تقديم المفعول المطلق على سائر المفاعيل وذلك للاهتمام وللإيذان بأنه مدار الفائدة .

ومبين من أبان بمعنى بان اللازم ، أي ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحًا مُبِينًا ﴾ ظاهر الأمر مكشوف الحال ، أو فتحًا فارقًا بين الحق والباطل .

﴿ لِيَغْفِرَ ﴾

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحًا مُبِينًا ﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ﴾ مذهب الأشاعرة أن أفعال الله تعالى لا تعلل ؛ وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق وأعطى الأوامر والمنهيات دون علة ولا باعث ؛ وذلك لأن من شأن العلة والباعث أنها تقيد إرادة الله تعالى ، والله تعالى فوق كل شيء وخلق كل شيء ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] .

وعليه ، فقد قالوا : إن اللام هنا عاطفة ، وشبه مدخول اللام بالعلة الغائية في ترتيبه على متعلقها ، وترتب المغفرة على الفتح بحيث إن في الفتح جهاد أمته ﷺ ، لأجل إعلاء كلمة الله ، بمواجهة الخطوب والكروب ، والسند على أن أفعال الله تعالى معللة بالمصالح ، والعلة لا تقيد إرادة الله تعالى ، بل إنها هي التي تعطي لأفعال الله تعالى ولأوامره ونواهيه الحكمة التي اقتضاها الله تعالى ، والتي وصف بها نفسه ، فقال : حكيم .

أما المعتزلة فإنهم يقولون : إن الله تعالى في أوامره ونواهيه لا يفعل إلا

الحسن ، ولا يأمر إلا بالحسن ، ويجتنب القبيح ولا يأمر بالقبيح ، وأساس هذا عندهم أن للأفعال حسنًا ذاتيًا وقبحًا ذاتيًا .

ومذهب السلف أن أفعال الله تعالى معللة ، وذلك لوجود العلة في كثير من الآيات القرآنية ومن الأحاديث النبوية ، وليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قالوا : هنا إن الفتح لا يصح أن يكون سببًا للمغفرة ، وأجيب بأن الفتح يصح أن يكون سببًا للمغفرة ، من حيث إنه جهاد للعدو ، فيجوز أن يكون عليه الثواب والمغفرة من الله تعالى .

وقال الزمخشري : إن الفتح ليس سببًا للمغفرة وحدها ، ولكنه سبب للمغفرة وما عطف عليها من إتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز .

فكان الله تعالى قال : نصرناك على عدوك وفتحنا لك ، لنجمع لك بين خير الدارين ؛ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ما مفعول ، وهي للعموم ، والمتقدم والمتأخر للإحاطة كناية عن الكل .

والمراد بالذنب هو ما فرط من خلاف الأولى ، بالنسبة لمقامه ﷺ ، فرب حسنة من شخص سيئة من شخص آخر ، كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقيل : إن المراد بالذنب هنا ما هو ذنب بالنسبة إلى نظره ﷺ ، وإن لم يكن ذنبًا ، ولا خلاف الأولى بالنسبة لله تعالى ، كما ترمز إليه تلك الإضافة .

استغفار رسول الله ﷺ :

وقد ذكر أن لسيدنا رسول الله ﷺ عروجاً في كل لحظة من مكانة إلى مكانة أرقى منها ، فيكون الذنب بالنسبة إليه ، هو المكانة التي انتقل منها بالنسبة إلى المكانة التي انتقل إليها ، فيستغفر الله تعالى منه ، وقد كان رسول الله ﷺ يكثر من الاستغفار .

لقد روى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن الأغر المزني رحمته الله : قال «إنه ليغان على قلبي وإني أستغفر الله في كل ليلة مائة مرة» .

وأخرج الإمام النسائي وابن ماجه عن سيدنا أنس عن سيدنا أبي موسى الأشعري رحمته الله قال رسول الله ﷺ : «ما أصبحت غداة قط إلا واستغفرت الله فيها مائة مرة» .

وقال الإمام البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه» : باب ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ .

حدثنا صدقة بن الفضل ، أخبرنا ابن عيينة ، حدثنا زياد عن قتادة عن المغيرة بن شعبة رحمته الله قال : «كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل حتى تورمت قدماه ، فقيل : يا رسول الله غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً» .

وفي حديث لأم المؤمنين عائشة رحمته الله أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنتشر قداه ، فقالت عائشة رحمته الله : «أتصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال رسول الله : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً» .

ومغفرة ما تقدم من الذنب وما تأخر هي خصوصية له ﷺ .

فليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال غفران ما تقدم من ذنب غيره وما تأخر، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة، والبر والاستقامة، التي لم يصل إليها غيره من المتقدمين ولا من المتأخرين.

فضل رسول الله ﷺ :

ومعلوم أنه ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق، ومن أعظم ما يدل على عظمة رسول الله ﷺ أن الله تعالى أقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وفي شريعة الله أن الأيمان إنما تنعقد بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه، لا بدون ذلك.

قال الإمام الحافظ ابن الجوزي في «الوفاء»: أقسم الحق ﷻ بحياته، وإنما يقع القسم بالمعظم والمحبوب، وأخرج الإمام الترمذي عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: ما خلق الله و ذراً أنفساً هي أكرم على الله من محمد ﷺ، ما سمعت أن الله أقسم بحياة غيره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال ابن عاقل: وأعظم من قوله تعالى لموسى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وبيان ذلك أن الله تعالى جعل اللام في قوله: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ التي هي للملك والاختصاص واسطة بينه وبين موسى، ولم يجعل بينه وبين رسول الله ﷺ واسطة، بل قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

وأخرج الطبراني وصححه أن رسول الله ﷺ قال : «أتاني جبريل فقال : إن الله تعالى يقول : أتدري كيف رفعت لك ذكرك فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم ، فقال : إذا ذكرت ذكرت معي ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴾ ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ » [الشرح : ١-٤] .

قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه : يريد الأذان والإقامة ، والتشهد والخطب على المنابر .

قال : ولو أن شخصاً عبد الله تعالى ولم يعصه في أي شيء ، ولكنه لم يشهد أنه رسول الله فإن أعماله لا تقبل ، ويكون كافراً .

وفي رسول الله ﷺ قال سيدنا حسان بن ثابت شعراً :

أغر عليه للنبوّة شاهد من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن أعظم ما يدل على مزايا رسول الله ﷺ فضله على سائر الأنبياء .

إن الله تعالى دعاهم بأسمائهم مجردة فقال : ﴿ يَتَقَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ

وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾

[مريم : ٥٦] ﴿ يَنْوُحُ أَهْبَطَ بِسَلَمٍ مِّنَّا ﴾ [هود : ٤٨] ﴿ يَتْلُو بَرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ

هَذَا ﴾ [هود : ٧٦] ، ﴿ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف :

١٤٤] ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ [ص : ٢٦] ﴿ يَحْيَىٰ خُذِ

الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : ١٢] ﴿ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

ولما خاطب سيدنا محمد ﷺ دعاه بألقاب التعظيم والتفخيم ، فقال :
﴿ يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [الأنفال: ٦٤] .

ولما دعاه باسمه قرنه بلقب الرسالة فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩]
﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [محمد: ٢] ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] .

ولما ذكر سيدنا محمد ﷺ وسيدنا الخليل ﷺ ذكر الخليل باسمه مجرّداً ،
وذكر رسول الله ﷺ باللقب .

فقال : ﴿ إِنِّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [آل عمران: ٦٨] .

قال الله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ۞ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۞ .

السكينة :

ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤]
والسكينة التي ينزلها الله في قلوب المؤمنين هي الطمأنينة من السكون ،
بمعنى الثبات والسكينة التي أنزلها الله في قلوبهم ، كانت سبب الصلح
الذي انعقد في الحديبية .

وذلك إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والمراد
بإنزال السكينة خلقها وإيجادها .

والتعبير عن ذلك بالإنزال إشارة إلى علو مكانة السكينة .

قال الراغب : إنزال الله نعمه على عبده إعطاؤه إياها ، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ ﴾ [الدخان : ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] أو إنزال أسبابه والهداية إليه ؛ كإنزال الحديد ونحوه .

وقيل : إن المراد بإنزال السكينة ، بالإنزال في مكان إذا حط رحله فيه ، والمعنى : حط السكينة في قلوبهم فكانت قلوبهم منزلاً لها ومأوى .

وقيل : إن السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه ، وذلك كما قال سيدنا علي عليه السلام : إن السكينة لتنطق على لسان عمر ، وقيل : إن المراد بالسكينة أيضاً هي الوقار ، والعظمة لله تعالى ، وقيل : هي الرحمة ، وقيل غير ذلك ، والسكينة تنزل بالقرآن وتتنزل بذكر الله .

وأفضل الذكر تلاوة القرآن الكريم ، أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه قال : بينما رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقرأ وفرس له مربوط في الدار ، فجعل ينفر فخرج الرجل فنظر فلم ير شيئاً ثم جعل ينفر فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « تلك السكينة تنزلت بالقرآن » .

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه فيما بينهم ، إلا تنزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

والسكينة لفظ معبر مصور، وهي عندما تنزل في قلب شخص ما معناها الثبات واليقين والاستسلام والرضا.

قلوب المؤمنين :

وقد كانت قلوب المؤمنين في صلح الحديبية تحيش بمشاعر شتى، وبانفعالات متعددة، فقد كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام، ولكنهم فوجئوا بقريش وبصد رسول الله ﷺ عن البيت الحرام.

فكان ذلك صدمة للمسلمين، تلك الصدمة التي ظهرت على لسان عمر رضي الله عنه، فقد جاء إلى سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وقال له : أوليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت ونطوف به .

فقال سيدنا أبو بكر : بل، أفأخبرك بأنك تأتيه العام، قال : لا، قال : إنك تأتيه وتطوف به، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به، قال : «بل، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قال : لا، قال : «إنك تأتيه وتطوف به» .

هذا مظهر من مظاهر المشاعر التي كانت تحيش به خواطر المسلمين، وعندما نتصور أن المسلمين صدوا عن البيت، وأن المشركين حاولوا قتالهم وأن رسول الله ﷺ قبل ذلك الصلح، وأنه رد المسلمين إلى المشركين نتصور معنى السلامة، ونحس بردها وسلامها في قلوب هؤلاء المؤمنين .

إن تاريخ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ قد ارتبط بأسماء أربعة من عظماء المسلمين، هؤلاء العظماء أتيح لهم أن يخدموا كتاب الله وسنة رسوله، فيما لم يتح مثله لغيرهم، هؤلاء هم أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وعمر بن عبد العزيز .

أما الثلاثة الأول فقد انصب عملهم على العناية بكتاب الله ، فمنعوه من كل تحريف ، وحققوا بذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

أما الخليفة الرابع الذي هو عمر بن عبد العزيز فقد اهتم بسنة رسول الله ﷺ حيث أصدر أوامره إلى عماله ، وإلى العلماء للاهتمام بها وتدوينها حتى لا تضيع .



المحاضرة الخامسة والعشرون:

دعوني ما تركتكم

بالأسانيد التي سعدنا بأخذها عن أساتذتنا البررة وشيوخنا المهرة إلى كبير المصنفين وإمام المحدثين أبي عبد الله سيدي محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري: قال: حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».

وبها إلى الإمام مسلم بنفس السند والمتن، وبها إلى الإمام مسلم إلى وهب بن منبه ثم إلى أبي صالح؛ كلاهما عن أبي هريرة، وساق الحديث مع بعض التغيير، وبها إلى الإمام مسلم إلى الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة وساق الحديث، وفيه تقديم وتأخير، ولفظه: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم؛ إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».

وبها إلى الإمام مسلم إلى محمد بن زياد عن أبي هريرة وساق الحديث، وله مقدمة ونصها: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، ثم قال: لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، دعوني ما تركتكم...» إلى آخر الحديث.

وبها إلى الدارقطني بأسانيد كثيرة، إما إلى سيدنا علي وساق الحديث، وفيه أن السؤال إنما ألقى بعد أن نزلت الآية الكريمة وهي قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وفيه نزلت : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] .

وإما إلى أبي هريرة رضي الله عنه وساق الحديث ، وفيه كذلك نزلت : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ...﴾ إلى آخر الآية .

ولهذه الزيادة شاهد عن ابن عباس فيما رواه الإمام الطبري في «التفسير» ، وفيه : «لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ولو لم تستطيعوا الكفرتم» .

وفيه كذلك زيادة فأنزل الله : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ .

ترجمة الحديث:

ساق الإمام البخاري : هذا الحديث في كتاب الاعتصام ، وجعله خاتمة للأحاديث التي ساقها في الباب المعنون بقوله : باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

ولست بحاجة إلى أن أطيل في بيان التقعيد الذي برهن عليه الإمام البخاري في وضعه للأحاديث في موضعها وترتيبها في المكان اللائق بها فهو حين قال : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة أتبع هذه الترجمة بأحاديث توضح أن رسول الله ﷺ حمل المؤمنين على أن يتمسكوا بكتاب الله وبسنة رسوله وعلى أنها وحدهما هما الخلاص ووسيلة النجاح ، وجاء بهذا الباب ليؤكد هذه الحقيقة وليركزها ، فبمجرد أن ذكرها ساق الآية الكريمة : ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] .

فكان البخاري يقول : إن الاعتصام والاقتداء لا يتأكدان في المعرفة والاطلاع وفي الرجوع إلى كتاب الله بمجرد النظر وكفى ، بل إن ذلكم الاعتصام ، وذلكم الاقتداء لا يتأكدان إلا بتقمص الحق الذي يتجلى في القرآن ويبرز في آيات الله ؛ إذ لا يمكن أن يكمل الاقتداء إلا إذا كان من يتمسك بالقرآن إماماً في التقوى ، وزعيماً في الهدى ، ولذلك قال : ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ .

وعقب الآية بالحديث المعلق الذي هو نحن أئمة نهتدي بمن قبلنا ، ويهتدي بنا من بعدنا ، فصلة القرآن بالشخص لا تعود إليه بصفة انفرادية ، فكان البخاري : يقول : إن الاعتصام والاقتداء لا يتأكدان بمجرد أن يهتدي الشخص وحده ، وأن يغوص في تلكم الأعماق القرآنية لجته الضخمة بل لابد أن يكون حلقة تربط بين من مضى بمن يأتي ، وذلك بأن يتلقى ما انتهى إليه من بحث وتنقيب ، وأن يأخذ من أولئك الذين سبقوا وهم الأئمة ثم يبلغ الذين يأتون ما قام به من البحث والتنقيب فهو الرائد لهم .

وهكذا نأخذ مما ساقه الإمام البخاري أن الاعتصام بالكتاب والسنة ، والاقتداء برسول الله ﷺ ليس نظرية وكفى ، بل هو عمل متواصل ، وكفاح متلاحق ، وسعي مستمر لا يفتر ولا ينتهي أبداً ، الأئمة يتلقونه ويهتدون بهديه ، والعلماء يتلقونه وهم الذين يبينونه للناس ، وبهم جميعاً تنتشر في طول البلاد وفي عرضها ظلال القرآن ، وهدى القرآن ، وسمو القرآن .

وختم الباب بهذا الحديث ، وفيه السؤال ليحقق به الرابطة بينه وبين الباب الذي سيتلو هذا الباب ، لكونه عقده للأحاديث التي تتعلق بما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه .

إن الإمام البخاري ساق هذا الحديث هنا بهذا السند ، ولم يسقه في أي موضع من صحيحه فهو من أفراده وقليلًا ما يأتي الإمام البخاري بالحديث دون أن يكرر ذكره في مواضع شتى ؛ لكونه يأخذ من ترتيبه في مواضعه عدة استنباطات واستحضارات ، يأخذها من كل جزئية من جزئيات حديث رسول الله ﷺ .

ومن الغريب أن ينتقد الكثير هذا التكرار ، ولكنه في الحقيقة سهو وإغفال ، فبتكراره لذكر الحديث في الموضعين أو الثلاث أو الأكثر ، كأنه يقول للقارئ إن كلام رسول الله ﷺ خيره غير محدود ، وفضله غير منته ، فأنت حين ترجع إلى موضع كذا تجد الهدي من هذا الحديث ، وإذا عدت بك إلى موضع كذا من أحكام الله تجد الهدي كذلك في نفس الحديث ، وهكذا ، وبذلك تتحقق المعجزة القرآنية ، أولاً ، والمعجزة النبوية ثانياً .

رواة الحديث:

شيخ الإمام البخاري في هذا الحديث هو إسماعيل ، وإسماعيل هو ابن أبي أويس كما جزم به الحافظ الهروي ولم يرو عن الإمام مالك خصوصاً إسماعيل ، بل رواه كثيرون ، رواه عنه كذلك عبد الله بن وهب عند الحافظ الهروي ، ورواه كذلك إسحاق بن محمد الفروي ، وكذلك عبد العزيز الأوسي ، والأربعة عند الدراقطني ، كما أنه كذلك يوجد عنده بالإضافة إلى هؤلاء في غرائب مالك ، أي الأحاديث التي لم يذكرها في الموطأ ، يوجد عنده رواية آخرون عن الإمام مالك وهم أبوقرة ، موسى بن طارق ، وسفيان ، ومحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ، فكمل الذين رَووا الحديث عن الإمام مالك سبعة ، ولم يرو الإمام مالك وحده الحديث

عن أبي الزناد، بل هناك رواية آخرون، رواه المغيرة بن عبد الرحمن، والوليد بن مسلم.

وكذلك أبو عوانة من رواية ورقاء، كلهم عند الإمام مسلم، ولم ينفرد كذلك الأعرج برواية الحديث عن أبي هريرة، بل هناك رواية آخرون رواه الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن ورواه محمد بن يزيد، ووهب بن منبه، وأبو صالح، كلهم عن أبي هريرة ورواياتهم في صحيح مسلم، وبرواية أبي صالح ساق هذا الحديث الإمام الترمذي.

إسماعيل:

أما رجال هذا الحديث الشريف فإسماعيل هذا هو ابن عبد الله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي وثقه الإمام أحمد وابن أبي حاتم، وضعفه النسائي، روى عن خاله الإمام مالك، وعن أخيه عبد الحميد وغيرهما، وروى عنه جماعة، ومات سنة عشرين ومائتين هجرية.

أبو الزناد:

وأما شيخه بواسطة مالك فهو أبو الزناد، واسمه عبد الله بن ذكوان، وعبد الله هذا من أئمة الحديث روى عنه الكثيرون، وروى عن الكثير وهو ثقة عند الجميع، وتوفي ثلاثين ومائة.

الأعرج:

أما شيخ ابن الزناد فهو الأعرج عبد الرحمن بن هزمز وهو أحد القراء، مات سنة سبع عشرة ومائة.

الإمام مالك :

أخرت الكلام عن الإمام مالك شيخ إسماعيل لا لأطيل ولكن لأنبه إلى أنه جوهرة عقد السند ، يكفي أن يقول فيه الإمام الشافعي : حجة الله في أرضه . إن مذهبه تاخم أوربا المسيحية ، ولعب دورًا كبيرًا في تنبيهها وإخراجها من العصور المظلمة ، واستقر أخيرًا في ديارنا المغربية ، وهو يمتاز بشيئين مجتمعين هما :

أ - تطبيق الحديث . ب - المرونة والعمق .

ويصعب استقصاء من روى عنهم الإمام مالك ، كما يصعب استقصاء من رواوا عنه ، ومن جملتهم شيوخه روى عنه أزيد من ألف حديث ، يشتمل كتابه «الموطأ» على ما يقرب من نصفها ، توفي سنة تسع وسبعين ومائة .

أبو هريرة رضي الله عنه :

أما الصحابي الجليل الذي روى الحديث فهو أبو هريرة وناهيكم بالرجل العصامي ، الذي لعب أخطر الأدوار في تركيز سنة رسول الله ﷺ ، ونشرها في أقطار الدنيا ، وتثبيت قواعدها وحمل ألويتها ، ومن الأسف الشديد أن نجد من يطعن في أبي هريرة بحجة أنه أكثر جدا لكونه روى أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف حديث عن رسول الله ﷺ ، اتفق البخاري ومسلم على تخريج خمسة وعشرين وثلاث مائة منها ، وانفرد البخاري بتسعة وسبعين ، وانفرد مسلم بثلاثة وتسعين ، مع أنه لم يكن من السابقين ؛ لكونه أسلم في السنة السابعة من الهجرة ، زيادة على أنه لم يكن خبيرًا بالكتابة .

هذه مبررات جعلت من ينتقد أبا هريرة يستبعد كثرة الحديث وإني لأؤكد أن مثل هذا الانتقاد إنما هو صادر عمن يأخذ الأمر ظاهرياً دون أن يبحث كما يجب عليه أن يبحث، ودون أن ينتقد الانتقاد المبني على الأسس المتينة، وعلى النظم التي ينبغي أن يسير عليها الناقد النزيه .

إنني لا أريد أن أدافع عنه إلا بما حكى هو عن نفسه، ولا أعلق بعد ذلك؛ ففي صحيح البخاري في أول كتاب البيوع بسنده إلى أبي هريرة قال: إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟ وأن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم سبق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وإن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصفة، أعني حين ينسون وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه: «إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمعه إلى صدره إلا وعى مقالتي»، فبسطت نمرة علي حتى إذا قضى رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلى صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء .

ولئن كان هذا الحديث يؤكد أن المقالة الخاصة هي التي لم تنس فهناك حديث آخر يؤكد أنه لا ينسى أي شيء مما سمعه من رسول الله ﷺ، ففي كتاب العلم عند البخاري إلى أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله ﷺ إني أسمع منك كلاماً كثيراً أنساه فقال له رسول الله ﷺ: «إبسط ردائك». فقال أبو هريرة: فبسطته. قال: فغرف بيده ثم قال: «اضمم»، فضممته، فما نسيت شيئاً بعد .

هذا إذن تدخل نبوي ، وهذا أمر رباني حققه الله لهذا الرجل العظيم ، وهو يعترف بما يقول فيه هؤلاء ، لا على أنه تنقيص ، ولكن على أنه كمال لا يبقى معه شأن للكتابة الداعية للحفظ .

ففي كتاب العلم كذلك أن أبا هريرة قال ما من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب .

ويكفي أن أختتم الحجة لأبي هريرة وتبوءه مقامه الرفيع بشهادة عظمى تقطع كل لسان ، وتوقف كل تنطع ، أداها رسول الله ﷺ لأبي هريرة ، ذلك أن الإمام البخاري : عنون فقال : باب الحرص على الحديث ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني سليمان عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد بن أبي سعيد المقبري أن أبا هريرة قال : يا رسول الله ﷺ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ؛ لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » .

وهو ﷺ قال مبرراً حرصه الشديد على تبليغ كل ما سمعه من أحاديث الرسول ﷺ : لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ، ثم يتلو ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَاهْتَدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] ، إلى آخر الحديث الذي رواه البخاري .

وفي البخاري كذلك أنه رحمه الله قال: «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين: فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم»
والشيء الذي لم يبح به هو من الأسرار التي ألقاها الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي على قسمين:

منها ما أباح الله لنبيه أن يبلغها لا على سبيل التشريع الإلزامي.

ومنها ما منع الله نبيه أن يبلغها وقد أكد هذه الحقيقة الإمام المفسر البيضاوي حين فسر قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فقد ذكر هناك أن الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تشريع، وسر فيه ما حرم الله عليه أن يذيعه.

من لطائف الإسناد:

إن مجال البحث هنا واسع ولكن مواضع الدرس تستحثنا، فلنعد إلى الحديث الشريف.

هذا السند الذي روى به الإمام البخاري هذا الحديث الشريف هو ثاني السندين اللذين هما من أصح الأسانيد التي يروى بها الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأما ثاني السندين فهو الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الحافظ السيوطي في ألفيته:

ولأبي هريرة الزهري عن سعيد أو أبو الزناد حيث عن

فهو إذن سند صحيح مركز لأقدس كلام نتلقاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

شرح الحديث: «دعوني ما تركتكم»:

قال رسول الله ﷺ «دعوني ما تركتكم»، هذا الخطاب إذا راعينا فيه المدلول اللغوي، نجد أنه موجه إلى الحاضر بصفته الشخصية لا إلى الغائبين، سواء كانوا في العصر الذي أُلقي فيه الخطاب، أو كانوا غائبين عن العصر الذي أُلقي فيه الخطاب، فلو أننا راعينا أو أردنا أن نراعي المدلول اللغوي لتوجيه الأمر النبوي الذي هو «دعوني» لقلنا: إن الخطاب مخصوص بتلكم الطائفة التي كانت حاضرة، ورسول الله ﷺ يخاطبها بقوله: «دعوني»، وإذا حصرنا المدلول اللغوي في هذا النطاق، كان الأمر إذن متعلقاً بهم ولا صلة له بمن عداهم من المسلمين، ولو كانوا معاصرين لهم فأحرى بالنسبة إلينا، فهل هذا هو المراد من الخطاب؟ إن الأمر يتوقف على شيء من الإمعان كما سنبين.

أما أننا لو أردنا أن نراعي الخطاب من جهة مدلوله الشرعي فإنه يكون عاماً لمن حضر ولمن لم يحضر، لمن كان في ذلك العصر حياً، أو بالنسبة لمن سيتلاحق من الناس ويتعاقب إلى يوم القيامة، بعد أن تتوفر فيهم شروط التكليف؛ ذلك لأن التكليف الشرعي هو متعلق بأفعال المكلفين بمجرد أن يتحقق فيهم البلوغ والعقل، فسواء كانوا حاضرين أو غائبين، فكل خطاب جاء في القرآن أو ورد في حديث رسول الله ﷺ فهو يتصل بهم مباشرة، ما داموا متساوين جميعاً في أن ينطبق عليهم الحكم، ويتعلق بهم الأمر بالنسبة لذلك، أما الخصوصية أو الرخص؛ فذلك أمر يجعل الخطاب لا يعم، بل هو محدود في الشخص أو الجماعة التي خصت بالخطاب أو الحكم.

وبالنسبة لقوله ﷺ : «دعوني» هل الخطاب يراعى فيه مدلوله اللغوي أم هل يراعى فيه المدلول الشرعي ، إننا نعلم طبقاً للقاعدة الأصولية أن الخطاب إذا كان شرعياً فإنه يراعى فيه تطبيق مدلول العرف الشرعي قبل غيره ، كما أن العرف العام يقدم على المدلول اللغوي فإذا ذكرنا كلمة الدابة ، فمدلولها اللغوي هو كل ما يدب على وجه الأرض ، ولكن العرف العام يقيدنا ويفرض علينا أن نقدم خصوص ذوات الأربع ، وكذلك إذا ذكرت الصلاة ، وكان الذي يذكرها له صلة بالتشريع ، لا بد أن يحمل اللفظ على معناه الشرعي ، ولا ينصرف الذهن إلى المدلول اللغوي .

وبمقتضى هذا فإن الذي يلائم تطبيق القاعدة أن نحمل قوله ﷺ : «دعوني» على المدلول الشرعي ، لكنني أعود إلى ملابسات السؤال لأناقش هذا الوضع الذي من أجله ساق رسول الله ﷺ الأمر بترك السؤال .

إن سبب هذا السؤال قد تبين من رواية أبي هريرة بسند متصل إلى محمد بن زياد كما ذكرت أولاً ؛ لأن فيه : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا أيها الناس ، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا...» إلخ .

فهذه المقدمة هي سبب ورود الحديث ، ثم إن الحديث نفسه هو كما رأينا في رواية الدارقطني عن سيدنا علي وسيدنا أبي هريرة ، وكما رأينا في رواية الطبري في تفسيره عن سيدنا عبد الله بن عباس ، كان سبباً في نزول الآية الكريمة وهي قوله سبحانه : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] .

فللحديث سبب ورود وهو سبب في ورود الآية وإن كانت هناك أقوال أخرى في سبب نزول الآية ، بل إنها أقوى من هذا السبب .

ففي صحيح البخاري، عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً وقف وقال: يا رسول الله ﷺ من أبي؟ فقال: «أبوك فلان» فنزلت الآية، وفيه أيضاً: أن رجلاً سأله عن مدخله فأخبره به، ثم قال: «لا يسألني أحد عن أمر إلا أخبرته به». وهكذا حتى تدخل سيدنا عمر، وقال: رضينا بالإسلام ديناً، وبالله رباً، ورجع رسول الله ﷺ عن الاسترسال في أجوبة الأسئلة التي يذكرها الناس ولا صلة لها بالتشريع. فنزلت الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾.

إن قوله ﷺ: «دعوني ما تركتكم»، وفي رواية مسلم: «ذروني» معناه: خلوا بيني وبينكم، فيما يرجع للأحكام التي لها أوثق الصلات بالتشريع؛ لأنني أنا لا أشرع، وإنما أتلقي الوحي من قبل الله، فما نزل علي به الوحي، يقول ﷺ بلسان الحال: فأنا أبلغه لأن مهمتي التبليغ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومستحيل عقلاً أن لا أبلغه، فلا تستعجلوا الأشياء فقد تتضررون بذلك الاستعجال؛ إذ قد يكون كثرة السؤال سبباً في أن ينزل ما هو ثقیل على أنفسكم فيؤدي إلى ترك الامتثال، فتقع المخالفة لله ولرسوله، وذلك ما لا يمكن للمسلم وخاصة في صدر الإسلام أن يقع فيه، فهو إذن أدب نبوي عظيم، فلمراعاة هذا المعنى الذي هو لا تستعجلوا مجيء الأحكام فإنني أتلقيها من قبل الله، وأبلغها ولا أشرع منها شيئاً، يكون الأمر في الحديث يتعلق بالحاضر بحسب مدلوله اللغوي، مع توسع مراعاة للغائبين عن مجلس الخطاب.

إذ من واجب المؤمنين بعد أن نزلت الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] أن يسألوا

وأن يبحثوا لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ولأن النبي ﷺ حث في أحاديث كثيرة كما حث الله تعالى في آيات كثيرة على العلم، وأخبرنا بأن كل ما أخذناه من العلم هو قليل مهما بلغ بحثنا، ومهما وصلنا إلى ما وصلنا إليه في نطاقه، سواء كان دنيوياً أو دينياً.

فالخطاب عام، وإن توجه إلى خصوص الرسول في قوله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والحض على التعلم عام حين يقول الله تبارك وتعالى موازناً بين العالم وغيره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

والتنبيه كذلك مطلق حين يقول الله تبارك وتعالى في حظه على العلم: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

إذن فالنهي عن السؤال هو تبيان وتواضع في نفس الوقت تبيان للمؤمنين أنه ﷺ لا يشرع، وتواضع لكونه يقول لهم ما أنا إلا مبلغ عن الله، فما جاءني بلغته ولا أتجرأ على المشرع بشيء: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ذلك تحليل لحمل قوله ﷺ: «دعوني» على مدلوله اللغوي.

وإذا راعينا أن النهي عن السؤال ورد في كثير من المواضع كالآية الكريمة التي نتلوها آناء الليل وأطراف النهار: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وكذلك قوله ﷺ: «وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان» يعني لا تكثروا من السؤال عنها.

وكذلك وقع الحض من قبل السلف الصالح ألا يسألوا عن الأشياء التي لم تقع أو عن كثرة الأسئلة التي تؤدي إلى التنطع ، إذا راعينا ذلك يكون الأمر موجهاً إلى الجميع ، فكل مؤمن من حقه أن يبحث ، ولكن ليس من حقه أن يأتي بالسؤال الذي لا يتعلق بالحكم الشرعي ، ولا صلة له بالعقيدة الدينية ، وإنما له صلة ببعض الأشياء التي قد تؤدي إلى فرح أو إلى حزن ، أو إلى شيء مادي كقول الرجل : من أبي؟ إلى غير ذلك مما لا يؤدي إلا لضرر كبير .

بل قد يشجع على أن يضع السائل أسئلة أعنف وأكبر حتى يقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل بالنسبة للبقرة ، وبالنسبة لسؤالهم عن الله : ﴿ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] .

وبالنسبة كذلك لغير بني إسرائيل من المتنطعين في أمم الأنبياء قبل أمة سيدنا محمد ﷺ ، فالخطاب عام كما بينا ، والأمر هنا موجه إلى جميع المسلمين مراعاة للعرف الشرعي المتبادر .

وهنا أذكر ما بدا لي وأرجو أن يكون سليماً بالنسبة للسؤال .

هناك سؤال يضعه الكافرون فقط ، وهو سؤال تنطعي ، يبرهن عن حقد ، ويدل على ضغينة ، ويفصح عن فساد كقول الكفرة : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] وكذلك تعجبهم من كونه ﷺ بشراً : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧]

إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا يمكن أن تكون لها صلة بالثقافة ولا بحسن التدبر والتجروء فيها ، وكذلك التعتت صريح واضح .

هؤلاء قد تأثروا بمن قبلهم فإن بني إسرائيل حين ذهب موسى إلى الميقات اتخذوا العجل وعبدوه ، والمسيحيون طلبوا أن تنزل عليهم مائدة من السماء ، كما طلب بنو إسرائيل أن ينزل عليهم المن والسلوى من السماء .

وهي أشياء كلها لا تنبني إلا عن التنطع أو الترهات على الأقل ، فمثل هذا سؤال لا يضعه المؤمنون ، ولكن حذر رسول الله ﷺ المؤمنين من أن يكثروا من السؤال حتى لا تنزل أقدامهم ، بأن يضعوا مثل هذا السؤال .

أما الأسئلة التي تتعلق بالمؤمنين فهي قسمان كما أراها ، قسم يتعلق بمعرفة الحكم يرجع إلى التشريع ، فهذا مطلوب مفروض .

فالمؤمنات يسألن عن المحيض : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، والمؤمنون يسألون عن ضبط الوقت بالنسبة للهِلال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، وغير ذلك من الأسئلة المتكاثرة ، ويسألون عن الله في تحقيق التبعيد لا في تحقيق التجرد : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَلِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] إلى غير ذلك من الأسئلة .

أما بالنسبة للسؤال الذي لا صلة له بالحكم ولا تفقه فيه ، فهذا من الأفضل تركه ، وعليه يحمل قول النبي ﷺ : «دعوني ما تركتكم» ، وأما السؤال الذي يرجع إلى التفقه فهذا أمر ضروري ولا بد منه ، والدين قام على معرفة الأشياء والفقه فيها خصوصاً ، وأن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] فهذا تشجيع لتحقيق الكمال في العلم ، وإن كان الكمال فيه لا يمكن أن يتم ، وإنما الكمال فيه أن يقف الباحث إلى نقطة فإذا عجز أو

راح إلى الدار الآخرة جاء الذي يليه فابتدأ من النقطة التي وقف فيها أخوه ، وينطلق باحثًا إلى أن يقف بحثه إلى نقطة أخرى وهكذا .

من واجب المؤمن كما بين الله له في القرآن وفي مبادئ الإسلام ، أن يكون بحثه متواصلًا ؛ ليكون هو مؤتمًا بمن سبقه ، وليكون هو إمامًا لمن بعده .

الكمال هو الوقوف في منزلة من منازل الكمال ، حين يعجز الباحث أو يروح إلى دنيا أخرى التي هي الدار الآخرة ؛ لينطلق حيث وقف ، فإذا رجعنا إلى الأسئلة الطيبة التي تحقق تشريعًا نجد أن الله تبارك وتعالى يذكر في القرآن والسنة أسئلة يجاب بها السائلون بمقتضى ما سألوا كقوله تعالى : ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، وهناك أسئلة لا يجاب السائل فيها بمقتضى ما سأل ، بل يوجه توجيهًا آخر ، كمثل قول الله تبارك وتعالى ، وأسوق هذه الآية مرة أخرى لأنني أقف عندها نظرًا لما ظهر لي فيها ، أريد أن أعرضه على أنظار جلالة الملك ، وعسى أن يكون له حظ وقبول .

هذه الآية هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] يذكر المفسرون أن السائلين أجيبوا بما لا يقتضيه مقتضى ظاهر الحال ، فالخطاب خرج عن مقتضى الظاهر إلى خلاف مقتضى الظاهر ؛ لأنهم سألوا عن حقيقة الهلال ، ويدل على أنهم سألوا عن حقيقة الهلال ما رواه ابن عساكر بسنده إلى ثعلبة بن غنم ومعاذ بن جبل جاء إلى النبي ﷺ فقالا : «يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ، ثم ينمو ويكبر حتى يتم ويعظم ويتكامل ويستدير ثم يأخذ في النقصان لا يبقى على حاله» .

ومن الواضح أن القاعدة المنطقية أن «ما» يسأل بها عن الجنس فالمقتضى للسؤال أن يجاب السائلون بما يؤكد شرحاً واضحاً أو مجملًا لحقيقة الهلال، لكن رسول الله ﷺ صرف السائلين عن هذا، فقال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ وهذا الصرف هو الذي حمل بعضهم كما في تفسير الإمام الألوسي على أن يقولوا في هذه الآية دليل على أن الإسلام لا يجذب علومًا تتعلق بالأفلاك والنجوم؛ لكون الله تبارك وتعالى صرف هؤلاء المؤمنين عن أن يوجه نظرهم إلى هذا الاستفسار عن حقيقة الهلال.

وعرف المستشرقون كيف يستغلون هذا الفهم من قبل المفسرين وأكدوا بما نشره أو حاولوا أن يؤكدوه بخلق حجج على أن القرآن إنما يهدي إلى الروحانيات، ولا صلة له بالماديات، لا من قريب ولا من بعيد، فهو محجر أكثر منه مشجع، ولكنني أبسط فكرة لي ذلك أن السؤال وقع عن شيء مادي وهو الهلال.

والشيء المادي هو في مقدور الإنسان وفي استطاعته أن يكسبه، فإذا كان في مقدور الإنسان أن يكسبه، وكان دنيويًا، فإن التشريع جاء لا ليحجر على الإنسان بأن يجيبه على كل ما في مقدوره أن يحققه في زمن قريب أو في زمن بعيد، لو أجابنا الله بواسطة رسوله ﷺ عن كل الأمور التي تتعلق بشئوننا الدنيوية لتركز فينا ركود، ولما استطعنا أن نبحث لأننا نعلم أنه في استطاعة رسول الله أن ينبئنا بحقيقة الأمر، ولعرضنا أنفسنا كذلك للوقوع في المحذور.

ويؤكد هذا أن ابن حذافة سأل رسول الله ﷺ من أبي؟ فقال ﷺ: «حذافة»، فرجع إلى أمه كما ذكر ابن عبد البر، وعنفته فقالت له: كيف تحقق افتضاحاً لأم كانت قد وقعت في شيء مما وقع فيه الجاهلون، فقال لها: فوالله لو أسندني إلى زنجي لجعلته من نسبي.

إذن فالصرف هو تنبيه خاص .

كان رسول الله ﷺ يقول : إنني لا أجيبكم إلا عن الأشياء التي لا صلة لها بعقولكم وهي من وراء عقولكم ، ولا تكتشفون منها لا قليلاً ولا كثيراً ، ولو بحثتم لأنها راجعة إلى الأمور الغيبية كأحوال الجنة والنار ، فما يتعلق بهذا أو بالأحكام فإنني أجيبكم عليه ؛ لأنه يرجع إلى تقعيد عقيدتكم ، وتقويم الأحكام التي تعتقونها ، أما ما يرجع إلى أمور دنياكم فأنتم به أدرى ومن واجبكم أن تبحثوا .

وينبغي هنا أن نسوق لماذا وضعوا السؤال عن حقيقة الهلال ، إنه ليس فضولاً ، فالقرآن لا يفهم بمجرد النظر إلى مدلولات الألفاظ اللغوية وكفى ، لابد مع ذلك أن تكون هناك رعاية للملابسات ، وأن تكون هناك مراعاة لأحوال وحوادث التاريخ .

جميع المجريات التي كانت تؤدي حين وضع السؤال أو حين الحادثة وبذلك يفهم القرآن على حقيقته مع شيء من التضلع في مختلف العلوم دنيوية كانت أو دينية ، فالعرب كانوا في الجاهلية لا يقيمون وزناً للهلال ، وإنما هو كوكب كباقي الكواكب ، ولكن لهم فطرة هدتهم إلى أن ينظروا في الأنواء ، وبها جعلوا حساباتهم وتشاءموا وتفاءلوا ، بمقتضى تحركاتها ، وأداهم ذلك التشاؤم وذلك التفاؤل إلى أن يعتقدوا أشياء لها صلة بتحركاتها كما ذكرت .

والهلال شيء لا صلة لهم به بصفة خاصة ، وإنما صلتهم به كصلتهم بباقي الكواكب ، وكانوا يحجون بالعدد ، وكانوا ينسئون الشهور مما يدل على أنهم كانوا لا يعتمدون على الهلال .

فلما جاء رسول ﷺ ركز حسابهم الديني على حركة الهلال بالنسبة للإفطار والصيام والحج ولمنافع كثيرة .

وهذا التوجيه جعل الهلال يسترعي نظرهم ، ويمعنون فيه وفي حركته فوضعوا السؤال على حقيقة الهلال ، ورسول الله ﷺ حين صرفهم كأنه يقول لهم : إنكم قد وضعتم اللبنة الأولى في البحث ، وسيبقى سؤالكم هذا مطروحاً لا على الأفراد ، ولكن على النوع البشري ومراعاة هذا الجانب تجعلني أقول : إن السؤال قد جرى على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، ولكن لا على أنه أجيب به الأفراد .

ولكن أجيب النوع البشري الذي يدخل في نطاقه سائر الأفراد ، فكأن رسول الله ﷺ قال لهم : إن سؤالكم هذا سيبقى مطروحاً على النوع البشري الذي سيحقق أفراده المتعاقبون عبر الدهور والأزمان حقيقته ومراده ، ولم أخرج بهذا عن هدي القرآن .

بل في الحقيقة أكدت ذلك الهدي لأنني لم أعد إلا أن طبقت قاعدة من قواعد اللغة .

فلئن كان البلاغيون يقولون : إن مقتضى ظاهر الحال ، والخروج عن مقتضى ظاهر الحال ، يراعون في ذلك خطاب الأفراد ، فأنا راعيت خطاب النوع وكثيراً ما يتوجه على أساس أن الذي يقوم به هو أفراد .

إما الحاضرة أو المتلاحقة ، وهكذا كان القرآن حافزاً لا مثبطاً وكان مشجعاً لا معوقاً .

إذن يكون السؤال قد خرج على خلاف مقتضى ظاهر الحال بشكل يحفز على مواصلة البحث والعمل ، لا على تشييط العزائم والهمم ، ولم يكن في الجواب تأكيد لا على سبيل الاستحسان ولا على سبيل الوجوب ، وإنما جعل الكلام بمقتضى الضرب الابتدائي ، الذي يلقي فيه الكلام ، ويراد أن يبين للسائل ما غاب عن ذهنه ، الذي خلا عنه ذلك الحكم الذي اقتضاه السؤال .



المحاضرة السادسة والعشرون:

الإسلام دين الحكمة

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

تمهيد:

الأمة الإسلامية تعرف حقيقة تاريخية وقعت في أول عهد خلافة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، هذه الحقيقة لا تغيب عن ذهن الصغار ولا الكبار، ولا المبتدئين ولا المنتهين، هي التي رواها الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

قال أبو هريرة: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر بعده وكفر في عهده من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله؟» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

هذا الحديث الذي رواه البخاري يشير إلى أول محاولة وقعت في الإسلام للتفريق بين أجزاء الشريعة الإسلامية وتفتيتها ومحاولة القضاء عليها في مهدها ، وقد كان أبو بكر رضي الله عنه نافذ البصيرة بنور الحكمة المحمدية التي آتاه الله إياها ، فأدرك أنه إذا فتح الباب لتجزئة الشريعة وتفتيتها والأخذ ببعضها دون البعض وقبول بعضها ورفض البعض ، فإن مصيرها الزوال والاضمحلال .

لقد ثار أبو بكر وقاتل من أجل شيء جمعه الله هو الصلاة مع الزكاة ، وانقطع دابر هذه الفتنة في عالم الإسلام بصفته كلا لا يتجزأ صلاة وزكاة وعقيدة وشريعة ، دولة وأمة ، واستمر يكافح عبر القرون والأجيال وكان ذلك القتال الذي قاتله أبو بكر رضي الله عنه من خير ما ألهمه الله لصد هذه الفتنة ، والقضاء عليها .

الكتاب والحكمة :

لكن مضت الأيام تلو الأيام ، فإذا بالمسلمين يفعلون ما هو شر مما وقع في تلك المحاولة الأولى إذ يفرقون بين ما جمعه الله ، لقد جمع الله الكتاب والحكمة ولم يفرق بينهما ، فأخذ المسلمون رويدًا رويدًا يهجرون الكتاب ويتعدون عن ساحته وتوجيهاته ، فهجروه وجعلوه ، ثم أخذوا بعد ذلك يطفئون مصابيح الحكمة مصباحا مصباحا حتي أصبحوا يعيشون في ظلام دامس ﴿ فِي حَرِّ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [النور: ٤٠] فكانت هذه التفرقة بين الكتاب والحكمة اللذين جمعهما الله في صعيد واحد ، وربطهما برباط واحد ، هذه التفرقة هي بداية الهزيمة للعالم الإسلامي ، الهزيمة الفكرية والهزيمة السياسية ، والهزيمة الاقتصادية ، هي بداية الهزائم ، وبداية النهاية في فجر الإسلام وعزته .

القرآن يجمع بين الكتاب والحكمة :

الكتاب والحكمة جمع الله بينهما ؛ لأنه لا يمكن أن يفهم الكتاب إلا بالحكمة ، ولا يمكن أن يفسر الكتاب إلا بالحكمة ، ولا يمكن أن يطبق الكتاب تطبيقاً صالحاً إلا بالحكمة ، ولا يمكن أن يستنبط من الكتاب ما يلائم الظروف والأحوال الجديدة إلا عن طريق الحكمة ، بالحكمة يسوس رجل الدولة المسلم ، وبالحكمة يفتي المفتي المسلم ، وبالحكمة يقضي القاضي المسلم ، وبالحكمة يعلم العالم المسلم ، فإذا ضاعت الحكمة ضاع الكتاب ، وأصبح جثة هامدة لا حركة فيها ولا حياة .

هذه الحكمة وهذا الكتاب نرجع إلى كتاب الله فنجد أن كتاب الله جمع بينهما في كل مقام جاء فيه ذكر الحكمة ، بحيث لم ترد آية واحدة فيها الحكمة مفصولة عن الكتاب من قريب أو بعيد .

الأنبياء والحكمة :

ونجد في كتاب الله آيات تدل على أن الله تعالى عمم لجميع الأنبياء والرسول فاتاهم نعمة الكتاب ونعمة الحكمة ، فما من نبي نبي وما من رسول أرسل إلا وآتاه الله الكتاب والحكمة .

دليلنا على ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ [آل عمران : ٨١] ، مزدوجين مترابطين متلازمين ، ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] .

فالكتاب والحكمة من خصائص الأنبياء جميعا، ومن نعم الله على الأنبياء جميعا، وما قامت نبوة وما برزت رسالة إلا على أساسهما مزدوجين متلازمين، ثم نجد كتاب الله يتحدث عن الطائفة البارزة في الأنبياء آل إبراهيم، إبراهيم وآله الكرام، فنجد الحق سبحانه وتعالى يمتن عليهما بما أتى آله من الكتاب والحكمة، يقول الله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤]، ثم يعقب بعد ذلك: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

ثم نجد كتاب الله يتحدث عن داود وهو في طليعة الأنبياء الذين اجتباهم الله واصطفاهم، وتحدث عنهم كتابه بكل تنويه، فيقول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطُّبَيْرِ﴾ (٥) ﴿مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (٦) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧-٢٠].

ويقول الله تعالى عن داود أيضا: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥) ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]، ونجد كتاب الله يتحدث عن عيسى بن مريم، ومقامه بين النبيين مقام كريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الزخرف: ٦٣]، ويتحدث عنه كتاب الله كذلك قبل أن يولد وعندما ولد: ﴿...وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١١) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٤، ٤٥]،

إلي أن قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧، ٤٨)، التوراة هي أيضا كتاب والإنجيل هو كذلك حكمة .

ويتحدث كتاب الله كذلك عن عيسى بن مريم أيضا إذ يمتن عليه الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] .

ثم نجد كتاب الله يتحدث عن إبراهيم الخليل أبي الأنبياء ، ويذكر دعوته لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ لب الباب من ذريته ، فيقول الحق سبحانه وتعالى متحدثا عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

في ذلك المشهد العظيم عندما يقيم أركان الكعبة المشرفة والبيت الحرام ، في ذلك الوقت بالضبط يلتجئ إلى الله ويتوجه إليه سائلا طالبا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩] .

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يستجيب لدعوة إبراهيم ويحل الوقت الذي دار فيه الزمان واستدار فيولد سيدنا محمد ﷺ الولادة الجسمية ، ثم يولد ولادة روحية عند مبعثه على رأس أربعين سنة ، ويقول الله تعالى ممتنا عليه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] ، ويخاطبه الله سبحانه

وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٣٩] ، ويقول له الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

ويمتن الحق سبحانه وتعالى على أمهات المؤمنين فيخاطبهن الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤] .

ويمتن الحق سبحانه وتعالى على الأمة المحمدية جمعاء فيقول : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة: ٢٣١] ، وها هنا يعبر كتاب الله بأنه أنزل الكتاب والحكمة علينا كما أنزلها على رسوله خاتم النبيين والمرسلين .

ويأتي كتاب الله في آية أخرى موجهها خطابه إلى الرسول الأعظم وإلى أمته فيقول مخاطبا أمته : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ١، ٢] .

ولا يمتن فقط على الذين أكرمهم الله بصحبة الرسول ومشاهدة الرسالة ، بل يعم هذه المنة وهذه النعمة ليشمل بها جميع أجيال المؤمنين المتلاحقة عبر القرون والأجيال ؛ فيقول تعالى في تمام الآية : ﴿ وَءَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣] ، وآخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد ، فهم كذلك يعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم يتحدث كتاب الله في لفظ مجمل

جامع مانع عن قيمة الحكمة وأثرها ونفعها، فيقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

الكتاب والحكمة والميزان والفرقان:

وكما نجد كتاب الله قارن بين الكتاب والحكمة هذه المقارنة المتلازمة المترابطة، نجده كذلك زواج بين الكتاب والميزان، وزواج بين الكتاب والفرقان، فإذا وضعنا هذه الكلمات الثلاث (كتاب) يعادلها ما يقابلها من الكلمات الثلاث الأخرى، حكمة، ميزان، فرقان.

فالحكمة هي الميزان، والميزان هو الحكمة، والفرقان هو الحكمة، والميزان الكتاب، بدون ميزان بدون فرقان بدون حكمة لا يفهم ولا يفسر ولا يطبق ولا يستنبط منه ولا يستفيد منه أي إنسان.

فالحكمة والميزان والفرقان هو جوهر هذا الكتاب، وهو روح هذا الكتاب، وهو المنهج الوحيد للانتفاع انتفاعاً مباشراً ودائماً بنصوص الكتاب وهداية الكتاب.

يقول الله تعالى في ربط الكتاب والميزان، كما جاءت الآية السابقة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١]، ها هنا تأتي الآية كذلك: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ [الحديد: ٢٥] جميعاً ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، فكما أن الكتاب والحكمة متلازمان وهما من خصائص الأنبياء جميعاً، فالكتاب والميزان كذلك متلازمان مترابطان في رسالة الرسل، وفي نبوة الأنبياء لا يغني أحدهما عن الآخر ولا ينفصل أحدهما عن الثاني: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

وفي تلازم بين الكتاب والفرقان نقرأ قول الله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [٤، ٣: عمران] . هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ في مطلع الآية ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ في ختامها ، ونجد قول الله تعالى في هذا الشهر المبارك منوهاً به : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، ونجد قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣] ، ونجد قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] .

وهكذا نجد تلازماً تاماً وترابطاً كاملاً بين الكتاب والحكمة والميزان والفرقان .

فالكتاب بدون ميزان ولا فرقان ولا حكمة يساء تفسيره ، ويساء تأويله ، ويساء تطبيقه ، وتتنزع منه صفة الإكسير الذي ينفع لكل داء ويعالج كل الأدواء .

ارتباط الكتاب بالحكم :

ومن اللطائف التي نستمدّها من كتاب الله ارتباط الكتاب بالحكم ، ليس فقط بالحكمة والميزان والفرقان ، بل بالحكم نفسه كأن الحكم لا يكون حكماً عادلاً ، ولا يكون حكماً سليماً فاضلاً إلا إذا ارتبط بالكتاب ، يقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ﴾ [الجاثية: ١٦] ، ويقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ

أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿[آل عمران: ٧٩].

ونجد كذلك ارتباط الحكم بالعلم وتوقفه عليه؛ فيقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ طَآءَ اتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وفي يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، وفي موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآسَتَوَى ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، وفي سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

والذي يعرف سر القرآن وينزله منزلته ويقدره قدره لا يستطيع أن يقول: إن هذا الترابط والتلازم والازدواج عبث؛ فإن كتاب الله لا عبث فيه، والشرعية ليس فيها مجال للعبث: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢]، فكل كلمة لها مكانها ولها مغزاها ولها فحواها، ويجب أن نقف عندها الوقفة اللازمة للتأمل والتدبر والاعتبار.

الله الحكيم:

وكما رأينا كتاب الله يمتن على الأنبياء جميعاً وعلى فريق منهم من الخواص بالكتاب والحكمة وعلى رسوله خاتم النبيين بالكتاب والحكمة، وعلى أمته بالكتاب والحكمة، امتن عليهم جميعاً، نجد كتاب الله يرجع هذه الحكمة التي هي نعمة ومنة من إمداده وإيجاده نجده يرجعها إلى مصدرها الأصيل ومنبعها الأول ألا وهي حكمة الخالق الحكيم أحكم الحاكمين.

ولا نجد في كتاب الله وصفاً بارزاً متكرراً في المواقف المختلفة وفي المجالات المتنوعة قبل وصف الحكمة؛ فوصف الحكيم نجده في كتاب الله مكرراً خمساً وثمانين مرة؛ حكيم، الحكيم.

ومن لطائف كتاب الله أننا نجد الحكمة ووصف الحكيم الذي وصف الله به نفسه مرتبطاً بوصف العزيز، ووصف العليم، ووصف الخبير، ووصف التواب، ووصف الواسع .

فقد جاء وصف الحكيم مقترناً بوصف العزيز ستاً وأربعين مرة في كتاب الله، وجاء وصف العليم مرتبطاً ومقترناً بالحكيم أربعاً وثلاثين مرة، وجاء وصف الخبير مرتبطاً ومقترناً بالحكيم ثلاث مرات، وجاء وصف التواب والواسع مرتبطين بالحكيم مرة لكل واحدة .

والحكيم معناه محكم الأشياء بخلقها على نظام وتدبير .

والعزيز معناه من لا يعجزه شيء؛ من لا يغالب ولا يغلبه غالب، المنيع الذي لا ينال جانبه .

والعليم من يعلم السر والنجوى، ويعلم السر وأخفى .

والخبير العالم بالخفايا والذي لا تغيب عنه أية شاذة ولا فاذة .

والتواب الذي يرفع العبد من حال المعصية إلى حال الطاعة .

والواسع الذي عمت قدرته وإرادته وعلمه كل شيء، والذي يسع بجلوده وعطائه كل شيء، والذي لا يتعاضمه ذنب؛ لأن مغفرته تتسع لكل ذنب، والذي يعطي كل ما يسأل عنه، والذي يمنح رزقه ورحمته لكل الناس، فالله تعالى يقول: ﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿الْعَزِيزُ﴾ [المك: ٢]، ﴿الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤] .

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١] .

هذا التكرار لصفة الحكمة صفة الله العليا ليس عبثاً في كتاب الله ، بل إنه قائم على أساس أنه هو القاعدة التي انبثقت منها النبوة ، وانبثقت منها الرسالة ، وانبثقت منها نظام البشرية ونظام الكون ، نظامه الطبيعي ونظامه البشري .

كل ذلك منبثق عن الحكمة صادر عنها ، والله تعالى عندما يأتي بوصف الحكمة والحكيم في كتاب الله نجده يأتي بذلك في معرضين اثنين ؛ فهناك أحكام كونية تتعلق بآيات الله في الآفاق والأنفس ، كلما جاء حكم كوني من آيات الله في الآفاق والأنفس مما يدق عن أنظارنا ويحل عن أفكارنا إلا وجاءت الآية بعد ذلك معقبة بأن الله عليم حكيم .

والمعرض الثاني الذي ترد فيه صفة الحكمة ووصف الحكيم ، معرض الأحكام الشرعية ، فكلما شرع الله لعباده شريعة ووضع لهم نظاماً إلا وجاء بعد ذلك التنظيم وبعد ذلك التشريع التعقيب بأن الله عليم حكيم ؛ إشعاراً للخلق بأن شريعة الحق ليس فوقها شريعة ، ولا يماثلها قانون ولا نظام ، وأنها أصلح الأنظمة وأصلح الشرائع ، وأوفق القوانين لحياة البشر ولنمو الإنسان وسعادته وازدهاره .

فلتمثيل الأحكام الكونية التي تأتي بعدها صفة الحكمة ، نذكر قول الله تعالى مثلاً : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦] ، فهذا مجال لا يستطيع الإنسان أن يبت فيه برأي وإنما الرأي وإنما القول الفصل في هذا المجال لخالق الخلق ، فهو سبحانه الذي يقضي بحكمته هل يعذب أم يثيب؟ هل يجازي بالحسنة أم يعاقب على السيئة؟

ذلك أمر موكل إلى الله ، ونجد في هذا الصدد مثلاً قول الله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣]

في حالة يعقوب وقد فارق يوسف وقد انضاف إلى يوسف أخوه ونكب في أبنائه وهو لا يدري مصير هؤلاء الأولاد البررة الأعزاء ، فإنه ، يكل الأمر إلى الله ؛ لأنه مغيب عنه لا يعرفه إلا العليم .

ونجد الله تعالى يقول في معرض الحديث عن قوة الله وتسخيره لمخلوقاته وأن ما في الكون يعتبر جنداً معبئاً لأمره ونهيه : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤] ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨] ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨] ؛ لأن هذا المجال مجال لا يستطيع الإنسان أن يبت فيه برأي .

ونجد عيسى بن مريم عليه السلام وقد وقف بين يدي الله مسئولاً أمامه فيقول : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] .

فيفوض الأمر إلى الله ؛ لأن أمر الغفران والعقاب بيده لا بيد غيره ، فهذا نموذج من الآيات التي تتعلق بالأحكام الكونية ، والتعقيب عليها بأن الله عليم حكيم .

أما الآيات التي تتعلق بالأحكام الشرعية والتي يأتي التعقيب عليها بوصف الحكمة ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء: ١٢٨] ، إلى أن تقول الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠] .

فالمجال هنا مجال التشريع ، والمجال هنا مجال إقناع ؛ لأن هذا التشريع هو أوفى وأوفق لمصلحة الأزواج ، ونجد الله تعالى يقول في معرض التشريع : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ﴾ [المتحنة : ١٠] ، إلى أن يقول كتاب الله : ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحنة : ١٠] .

والتشريع هنا في موطن حرج ، موطن يمس العواطف ، والعلاقات الزوجية ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في معرض الحديث عن اليتامى والتشريع الملائم لهم : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

هذه تعقيبات لا شك أن وراءها غرضاً ومغزى هو إقناعنا نحن المؤمنين بأن هذه التشريعات الإلهية التي صدرت عن الله لا مجال لتبديلها ولا لتغييرها ولا للتطاول عليها ؛ لأن حكمة الله فوق كل حكمة ، والله أحكم الحاكمين ، فما علينا إلا أن نقبلها وأن ننفذها فهي أصلح الحلول لمشاكلنا التشريعية .

وهكذا نجد وصف الحكمة ، والحكيم مرتبطاً بقدر الله وشرعه تفصيلاً وإجمالاً ، ونجد الترابط التام بين كيان الكون وبين الحكمة الإلهية ، وبين النبوة والرسالة ، وكل ما انبثق عنها من هداية وإرشاد .

اندماج الكتاب في الحكمة:

ثم ننظر إلى كتاب الله نفسه ، لقد رأينا فيما سبق أن الكتاب يوازي الحكمة ، فهما متوازيان لا بد أن يمشي أحدهما بجانب الآخر ، وها نحن نرى الآن أن الكتاب اندمج في الحكمة ، والحكمة اندمجت في الكتاب ، فالكتاب حكيم ، والحكمة كتاب ، ها هو الحق سبحانه وتعالى يحدثنا عن الذكر الحكيم ، عن عملية المزج بين الحكمة والكتاب : الذكر الحكيم ﴿ ذَلِكْ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨] ، ﴿ الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس: ١، ٢] ، ﴿ يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ﴾ [يس: ١-٥] .

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يصف القرآن من أفق أعلى بأنه علي حكيم ، فيقول الله تعالى : ﴿ حَم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١-٤] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ طس ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ١] ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦] ، وكتاب الحكيم حكيم .

ونجد الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] .

ونجد الله تعالى يقول : ﴿ الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ حَم ۝

عَسَقَ ﴿١﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾
[الشورى: ١-٣] ، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] ، ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾
[الأحقاف: ١-٣] .

فها هنا نجد كتاب الله امتزج بالحكمة ونجد الحكمة امتزجت
بالكتاب ، فكونا دواء واحدًا وعلاجًا واحدًا ، دلالة على أن أية حكمة لا
تنسجم مع القرآن ولا تنبع من هداية القرآن هي حكمة مخبولة ومدخولة
ولا سبيل إلى نجاحها ولا إلى فلاحها .

الحكمة في السنة النبوية :

ونترك الآيات الكريمة لننتقل إلى الأحاديث النبوية وما جاء فيها عن
الحكمة ؛ فنروي في «صحيح البخاري» رحمته الله عليه ضمن كتاب الصلاة ، باب
كيف فرضت الصلوات في الإسراء : عن أنس بن مالك قال : «كان أبو ذر
يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل
ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة
وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء
الدنيا» . ونجد كذلك في «صحيح البخاري» في باب ذكر الملائكة :

حدثنا أنس بن مالك قال : عن مالك بن صعصعة قال : قال النبي ﷺ
بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، فأوتيت بطست من ذهب ملئ
حكمة وإيمانًا ، فشق من نحري إلى مراقي البطن ، ثم غسل البطن بماء
زمزم ، ثم ملئ حكمة وإيمانًا ، وأوتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار -
البراق - فانطلقت مع جبريل .

ونروي في «صحيح البخاري» كذلك في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]: عن شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة، حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله بماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديدته يعني عروق حلقه، ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، ما امتن به عليه من أنه أنزل عليه الكتاب، وآتاه الحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً.

ثم نروي في «صحيح البخاري» ضمن كتاب العلم، باب الاغتياب في العلم والحكمة،: عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

ويروي البخاري رحمه الله ضمن كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة فيأتي بباب عنوانه هكذا: باب ما جاء في اجتهد القضاة ومدح النبي ﷺ صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلمها، ومشاورة الخلفاء وسؤالهم أهل العلم، ثم يروي عن قيس بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، - وآخر - هكذا الرواية - آتاه الله حكمة - نكرة - فهو يقضي بها ويعلمها».

ثم نجد في «سنن الترمذي» ضمن أبواب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها» ، هكذا اللفظ في «سنن الترمذي» ، قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

ونجد في «سنن ابن ماجه» في باب الحكمة ضمن أبواب الزهد ، عن إبراهيم بن الفضل عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها» .

ونجد في «سنن ابن ماجه» كذلك ضمن أبواب الزهد في الدنيا ؛ حدثنا يحيى بن سعيد ، عن أبي فروة عن أبي خلاد - وكانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدًا في الدنيا وقلة منطق ، فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة» .

ونجد في «سنن الترمذي» باب ما جاء في التجارب : حدثنا قتبية حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حلیم إلا ذو عثرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة» .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا أعرفه إلا من هذا الوجه .

ومعنى الحديث : «لا حلیم إلا ذو عثرة» أنه لا يكون حلیمًا كامل الحلم إلا من وقع في زلة وحصل منه خطأ ، ثم أحب أن يستر عيبه وألا يظهر ، وأحب أن يعفو عنه من رآه فإنه إذا وقع الإنسان في العثرة وأحس لذة العفو فإنه يكون أقرب الناس إلى أن يعفو عن المذنبين وعمن أصابتهم عثرات .

«ولا حكيم إلا ذو تجربة» معناه؛ أن من جرب الأمور فعلم ضررها ونفعها وصالحها وفاسدها وخبيثها وطيبها هو الذي يستطيع أن يسمو إلى الأفق الذي يجعله إذا أتى أمراً من جديد فإنه لا يأتيه إلا عن بينة، ولا يصدر عنه إلا إذا كان متمكناً عارفاً بمقدماته ونتائجه، وأنه يؤدي إلى الصلاح لا إلى الفساد، وإلى الخير لا إلى الضرر.

ثم نجد في «صحيح البخاري» باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وهذا الباب ضمن فضائل الصحابة: حدثنا مسدد، قال: حدثنا عبد الوارث عن خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس، قال: «ضمني النبي ﷺ إلى صدره، وقال: اللهم علمه الحكمة».

وفي «سنن الترمذي» في أبواب المناقب باب مناقب عبد الله بن عباس عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنه: «دعا لي رسول الله ﷺ أن يؤتيني الله الحكمة مرتين».

وفي «مسند الإمام أحمد بن حنبل» عن عكرمة عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قال: اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل».

وبفضل هذا الدعاء الكريم كان ابن عباس ترجمان القرآن الذي ينظر من وراء ستر رقيق لمعاني القرآن الكريم ومغازيه، والذي كان عمر بن الخطاب إمام المستنبيين وقائد المجتهدين يقول عندما يكون في مجلس مع الصحابة يستشار إلى جانبهم وهو لا يزال شاباً فتياً يقول له: غوص غواص؛ لأنه كان ذا نظر نافذ وبصيرة نيرة، وفهم دقيق، بفضل هذا الدعاء الصالح للنبي ﷺ.

ونجد النبي ﷺ يقول فيما رواه البخاري ضمن كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز : أن رسول الله ﷺ قال : «إن من الشعر حكمة» .
 فيعترف رسول الله ﷺ ويقر أن في الشعر حكمة ، وليس كله لغواً ، وأن فيه ما يدفع إلى العلا ، ويحض على الخير ، ويعظ وينهى عن الفحشاء والمنكر .

وهذه الأحاديث لا غرض من ذكرها إلا تجلية معنى الحكمة في كتاب الله ، فخير ما يفسر به : كتاب الله وسنة رسوله .

فمن هذه الاستعمالات التي استعملتها الأحاديث النبوية يتضح لنا معنى الحكمة المراد في استعمال القرآن ولغته وأسلوبه ، ثم نجد الحكمة في كلام السلف الأولين .

فنروي في «صحيح البخاري» عن أبي السوار العدوي قال : سمعت عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ : «الحياء لا يأتي إلا بخير ، فقال بشير بن كعب : مكتوب في الحكمة : إن من الحياء وقاراً ، وأن من الحياء سكينه ، فقال له عمران بن حصين أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحديثي عن صحيفتك!»

وفي هذا إشارة إلى أن السلف الصالح كانت تروج بينهم صحف مكتوبة تتضمن الحكم والأمثال ، ونجد علي بن أبي طالب يقول : خذ الحكمة أنى أتتك ؛ فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صاحبها ، ونجده يكتب إلى ولده الحسن عليه السلام فيقول له : أحي قلبك بالموعظة ونوره بالحكمة وقوه بالزهد والغنى عن الناس .

ونجد أم الدرداء زوجة أبي الدرداء - الصغرى لا الكبرى - فقد كانت له زوجتان يطلق علي كل واحدة منهما أم الدرداء ، وكانت الصغرى هي الشهيرة بالفقه والعلم والحكمة - كما قال البخاري رحمته الله في «صحيحه» عنها أنها كانت فقيهة، وذلك في باب سنة الجلوس في التشهد قال رحمه الله : وكانت أم الدرداء تجلس في صلاتها جلسة الرجل ، وكانت فقيهة ، ولما مات زوجها أراد معاوية بن أبي سفيان أن يخطبها وأن يتزوجها فامتنعت وفاء لزوجها .

هذه الفقيهة الصالحة من السلف التي كانت تعلم العلم وتخوض مجالس الحكمة والدين كتبت على لوح عبدربه بن سليمان بن عمير وكانت تعلمه كتبت له في لوحه هذه الكلمة : تعلموا الحكمة صغاراً ، تعملوا بها كباراً ، وإن كل زارع حاصد ، ما زرع من خير أو شر .

تعريف الكتاب والحكمة :

فها نحن نرى كلمة الحكمة كيف استعملت في كتاب الله وفي سنة رسول الله وفي كلام السلف الصالح .

والآن فما هو الكتاب ؟ وما هي الحكمة لغة واصطلاحاً ؟

تعريف الكتاب :

الكتاب في الأصل مصدر كتب يكتب ، هو مصدر سمي به المكتوب من تسمية المفعول باسم المصدر على التوسع الشائع ، وهو يعبر في اللغة عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والقضاء والحجة الثابتة من جهة الله والصحيفة ، وعن مجموعة من الكلمات في ديوان خاص .

وهو في عرف الفقهاء ما يتضمن الشرائع والأحكام؛ ولذلك جاء الكتاب والحكم مقترنين متعاطفين في القرآن الكريم، ووجه ذلك أن الشيء بالنسبة لكل مشرع يراد -ولا تتعلق به الإرادة- ثم يقال ويعبر عنه بالنطق والكلام ثم يسجل ويكتب ليكون ميثاقاً قائماً بين الحقوق والواجبات بين الحاكمين والمحكومين.

فالشئ يراد ثم يقال ثم يكتب، فالإرادة هي المبدأ، والكتابة هي المنتهى لكن أطلقت النهاية على البداية، فقليل: الكتاب والمعنى إرادة الله وميثاقه وأوامره المسجلة في كتاب؛ لأن الوثيقة ولأن الأمر والنهي والحكم إذا سجل في كتاب كان ذلك الكتاب مستنداً يرجع إليه المتحاكمون، ويعود إليه الراعي والرعية، ويعود إليه الرسول والأمة عندما تدعى كل أمة أمام رسولها، وتدعى كل أمة إلى كتابها لتسأل هل نفذت هذا الكتاب أم لم تنفذه؟ هل اطلعت عليه أم أهملته؟ هل قامت بحقه أم هجرته؟ وقد نص ابن العربي رحمه الله في كتابه «أحكام القرآن» على أنه لم يخل زمن - منذ آدم إلى عهد إبراهيم عليه السلام - لم يخل من شرع إلا أن تلك الشرائع كانت عبارة عن قول مطلق غير مدونة ولا مكتوبة، فلما أذن الله بتطور البشرية ودخولها في مرحلة أفضل وأكمل وجاء إبراهيم أبو الأنبياء كانت بعثته نقطة انطلاق لكتابة الشريعة فكانت صحف إبراهيم هي الصحف الأولى التي كتبت، ثم جاءت تورا موسى فكانت كذلك مكتوبة، ثم جاء إنجيل عيسى فكان كذلك مكتوباً، ثم جاء كتاب الله لب الباب وخاتمة الكتب المنزلة فكان مكتوباً كذلك.

وهكذا أصبحت الشرائع دائماً لا ترى ولا تفهم ولا تعرف إلا عن طريق الكتاب؛ لأن هذا الكتاب يظل ميثاقاً قائماً بين أتباع الملة وبين

رسولها وبين الرعية ورعاتها : ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾  صُحُفِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿ [الأعلى: ١٨، ١٩] .

تعريف الحكمة:

أما كلمة الحكمة وكلمة الحكم ، فهي من الوجهة اللغوية ، نجد في اللغة العربية إحكام الفرس إذا جعل للجامه حكمة ، والحكمة بالتحريك هي الحديدية التي تكون على أنف الفرس وحنكه لتمنعه من الجموح ومخالفة راكبه من الذهاب في غير قصد ، والحكمة في اللغة المنع .

قال جرير :

بني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي امنعوهم ؛ امنعوا السفهاء ، ويقال : أحكمه عن الشيء رده .

والحكم في اللغة العرف والمنع للإصلاح والفصل والبت والقطع ، يقال : حكم في الشيء فصل فيه وبت فيه وقطع فيه ، وهو مصدر حكم ومثله حكومة ، والإحكام بمعنى الإتقان للشيء ، وإتقان الشيء منعه من أن يكون فيه عيب ، والحكم والحكمة يأتيان أحياناً بمعنى واحد ، فقد وردت رواية في الحديث : «إن من الشعر حكمة» ، ووردت رواية ثانية : «إن من الشعر حكماً» ، وكل حكمة حكم في معناها اللغوي ، هذه هي مادة الحكم والحكمة من الناحية اللغوية .

أما من الناحية الاصطلاحية في علوم الشريعة فقد أطلقها وفسرها علماء الحديث والتفسير والشريعة بعدة تفاسير وتعاريف منهم من قال : الحكمة هي العلم ، وآخر قال : هي كمال العلم ، وآخر قال : هي العقل وثان قال : هي الفهم ، وآخر قال : هي العدل ، وآخر قال : هي القضاء ،

ثم قال ثالث : هي الحكم ، ثم قال رابع : هي القوة التي هي منشأ القضاء ، وقال آخرون : هي معرفة الحق والعمل به ، أو المعرفة والعمل بها ، أو المعرفة بالدين ، أو معرفة النفس ما لها وما عليها ، أو العلم بأحكام الله التي لا تعرف إلا عن طريق الرسول ، أو الفهم المصيب ، أو الفهم الذي هو منحة ونور من الله سبحانه وتعالى ، أو الإصابة في القول والعمل ، أو إصابة الحق بالعلم والفضل ، أو صواب الأمر وسداده ، أو الفصل بين الحق والباطل ، أو الحجة المفيدة لليقين ، أو المنع من ترك المصالح الخاصة أو الراجحة ، والمنع من فعل المفاسد الخالصة أو الراجحة .

وفسرت الحكمة بأنها هي السنة ، وفسرها البعض بأنها هي النبوة ، وفسرها البعض بأنها هي القرآن ، وفسرها البعض بأنها هي الإنجيل ، ثم قال عدد من العلماء : إن كلمة الحكمة يمكن أن تصدق على كل كلمة وعظمتك أو دعوتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح ، كل ذلك حكمة .

وهذا المعنى الذي ذكره العلماء من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ؛ لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة وذكر الله منته على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله ، وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله : ثم يقول في مكان آخر عن رأي بعض الأئمة : إن السنة في نظرهم هي ذلك النوع الذي ينطق به الرسول ﷺ ليحدث به من تلقاء نفسه تشريعاً زائداً على الكتاب ، وزائداً على النصوص ، فالسنة ثلاثة أنواع :

سنة تؤكد الكتاب وتزيد معناه توكيداً ، فهي مرادفة له تؤدي نفس المعنى الذي يراد في الكتاب .

وهناك نوع من السنة يفسر الكتاب ؛ لأن الكتاب جاء مجملًا ويحتاج إلى بيان .

والقسم الثالث : سنة تتضمن تشريعًا زائدًا على الكتاب ليست منصوصة في الكتاب لا بالتفصيل ولا بالإجمال .

هذا النوع الثالث هو الذي رأى بعض العلماء أنه هو الذي يصح أن يطلق عليه اسم الحكمة على اعتبار أن هذا النوع أُلقي في روع النبي ﷺ من عند نفسه ، فهو صادر عنه بحكم كونه رسولاً مرضياً عنه موثقاً معصوماً من كل خطأ ، موكولاً إليه النظر في مصالح الأمة وفي منافعها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] .

وهكذا يقول الشافعي : ومنهم من قال : أُلقي في روعه كل ما سن وسنته الحكمة التي ذكر الله وما نزل عليه فهو كتاب الله ، وما أُلقي في روعه فهو سنة رسول الله .

والوجه الذي يفسر به هذا المعنى أن الحكمة هي السنة ، هذا المعنى آت لعدة مناسبات .

أولاً : إن الحكمة في معناها العام تنتظم العلم والعمل ، والسنة تنتظم القول والفعل ، فهناك سنة قولية تقابلها الحكمة العلمية النظرية ، وهناك سنة فعلية تقابلها الحكمة العملية .

والسنة إذا أردنا أن نفهمها أنها هي الحكمة فعلى أساس أن ما آتاه الله لرسوله من الحكمة يتجلى في مظاهر وفي تصرفات وفي أعمال وفي مواقف . فأقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته ومواقفه المختلفة الخاصة والعامة

هي نابعة عن أصل أصيل في نفسه من فقه عميق وذوق سليم وحكمة بالغة جعلته يتصرف تصرف الحكماء وجعلته يقف موقف الحكماء وجعلته يفعل أفعال الحكماء وجعلته ينطق بأقوال الحكماء .

فالسنة هي في الحقيقة مرآة للحكمة الباطنة التي من وراء النصوص ، ومن وراء الأفعال ، ومن وراء التصرفات ؛ إذ الملكة التي انبثقت عنها الكل هي الحكمة التي آتاه الله إياها .

وكلمة الحكيم في عرف العلماء تطلق عندنا في رأي البعض على المتيقظ المنتبه العالم ؛ هكذا فسر ابن الأعرابي كلمة الحكيم ، وفسرها أبو البقاء : الحكيم العالم صاحب الحكمة المتقن للأمور ، وفسرها الإمام ابن حجر والشيخ المرتضى شارح «الإحياء» بأن الحكيم : من وضع الأشياء مواضعها .

وفسر ابن كثير هذه الكلمة -كلمة حكيم- بأن معناها : المانع من الفساد .

فالحكيم من منع الوقوع في الفساد ، فهذه التفسير كذلك توضح المعنى الحقيقي والمدلول الصحيح لمعنى الحكمة المستعمل في كتاب الله وسنة رسول الله وكلام السلف الصالح .

ونحن إذا أردنا أن نستعرض نماذج من حكمة رسول الله ﷺ فإننا لا نجد من الوقت ما يكفي ؛ لأن الحكمة النبوية بحر لا ساحل له .

الإسلام والحكمة :

هناك حكمة تتجلى في سياسة الإسلام في التشريع ، وهناك حكمة تتجلى في عدة مواقف حكيمة وطرائق سليمة ، من جملتها :

- التذكير بأبوة إبراهيم :

من حكمة الإسلام أنه قام على أساس التذكير بأبوة إبراهيم وملته؛ فإن العرب كانت تتراعى إليهم أصداء عن أبوة إبراهيم وعن إسماعيل وعن بناء الكعبة وعن ملة إبراهيم وشريعته؛ فلما جاء كتاب الله وجاء الإسلام كانت الدعوة الإسلامية الأولى هي أن الإسلام يدعوهم إلى ملة أبيهم، فقال الله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

فكان هذا التذكير بالعلاقة القديمة بين العرب وإبراهيم دفعًا لهم إلى أن يشعروا بأنهم عندما يعودون إلى ملة الإسلام، وينتقلون من الوثنية إلى الإسلام إنما ينتقلون من عائلة غريبة عنهم، ومن عقيدة دخيلة فيهم إلى العقيدة الأصيلة وإلى الأسرة الأولى التي هم منها وإليها والتي هم ذريتها.

- الحظ في البداية على مكارم الأخلاق:

ونجد كذلك أن كتاب الله أول ما ابتدأ في الدعوة اقتصر في البداية على الحظ على مكارم الأخلاق، والعرب كانوا يكرمون الأخلاق ويحبونها، فمن دعاهم إلى مكارم الأخلاق حرك مشاعرهم، وضرب على الوتر الحساس في نفوسهم، فكانت الآيات تنزل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا أَلْفَاوِحَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيلِ﴾

وَالْمِيزَانُ ﴿[الأنعام: ١٥٢]، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق .

ثم أخذت الدعوة طريق العقيدة ، فالإسلام يمزج الأخلاق بعقيدة التوحيد ، ويمزج ذلك بمبادئ عامة بعمومات ومشروعات كلية ، لا تخصيص فيها ولا تقييد تترك الحرية للمقبلين على الإسلام أن يتصرفوا في تطبيق تلك المبادئ وفي تنفيذ تلك التشاريع على الطريقة التي يستطيعونها ، وبالأسلوب الذي يفهمونه في حدود الطاقة التي يتمكنون منها دون تحديد لواجب ، ولا تقييد بفرض ولا تقدير لقدر معين .

من حكمة التشريع الإسلامي :

السكوت عن بعض أمور الجاهلية :

ثم نجد التشريع الإسلامي يسكت عن عدد كبير من الأمور كانت شائعة في الجاهلية مستعملة فيها ، فلم يمسه من قريب ولا من بعيد طيلة العهد المكي ثلاث عشرة سنة ، وهو مقتصر في الدعوة على العقيدة ، وعلى الدعوة إلى الأخلاق وعلى المبادئ العامة دون تقييد في التشريع ، وترك العرب الذين دخلوا ويدخلون في الإسلام على سجايهم الأولى في عدد كبير من الأعراف والعوائد التي كانت عميقة الجذور في المجتمع العربي دون أن يمسه من قريب ولا بعيد .

ونجد الأحكام التكليفية التي جاء بها الإسلام لم تأت دفعة واحدة ، إنما جاءت تدريجيًا ؛ تكييفًا بعد تكليف وفرضًا بعد فرض حتى لا يقع النفور من الإيمان ولا الفرار من الإسلام ؛ وذلك لأن عادة البشر أنهم يأخذون بالأشياء التي يستأنسون بها حتى يستعدوا لقبول ما هو أكثر منها ، وينقادوا لما هو فوقها .

التشريع حسب النوازل:

ونجد التشريع الإسلام في حكمته سلك مسلك التشريع حسب النوازل والوقائع والأحداث، فارتبط التشريع دائماً بالنوازل المجسمة، وبأحداث معينة تقع في المجتمع العربي، وليس معنى ذلك أن كتاب الله كان يبتدئ الحكم من جديد؛ فإن كتاب الله كان محفوظاً في اللوح المحفوظ.

والدين الإسلامي كان منذ أن أراد الله أن يظهره وينشئه ديناً كامل الجهاز، كامل التكوين، إلا أن صفحات هذا الكتاب لم تبرز كلها دفعة واحدة، إنما كانت كل واقعة تحدث، وكل نازلة تنزل بمناسبتها يتجلى لرسول الله الصفحة المقابلة لتلك الحادثة التي تمسها وتتحدث عنها، فتتكشف له ويتجلى له نورها وتنطبع في قلبه، ويوحى إليه بها، وهكذا كلما حدثت نازلة وقعت عين الرسول وقلبه على الصفحة المقابلة لتلك الواقعة والحادثة من كتاب الله المحكم الأزلي الذي لا يتجدد فيه شيء، ولا يزداد فيه شيء، والذي هو كامل بدءاً وختاماً.

التدرج في التكاليف:

ثم نجد حكمة التشريع الإسلامي تتجلى في تمهيد التكاليف بما هو خفيف الوقع لا ثقل الوقع؛ فمثلاً أمر الله تعالى بالعدل في المجازاة، ونهى عن تجاوز المثل في العقوبة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، ثم خطا خطوة إلى الأمام فبين أن الإغضاء وترك المؤاخذه أفضل من المؤاخذه، فقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، ثم خطا خطوة ثالثة أبلغ وأكمل فرغب في الصبر نهائياً عن المؤاخذه والتنازل تماماً.

وفي هذه المرحلة وجه الخطاب إلى الرسول الأعظم ﷺ مباشرة ليكون أتباعه ملزمين باتباعه والافتداء به ، وليتنازلوا عن أنانيتهم لامتنال الأمر الذي وجه إلى الرسول الأعظم ، فقال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧] .

ثم نجد حكمة التشريع الإسلامي تتجلى كذلك في البدء بما هو أيسر وأقرب إلى المألوف ، نجد ذلك عندما فرض الله الصلاة ، فقد كان العرب لا يعرفون الصلاة على وجهها الكامل ، فكانت الصلاة مرخصاً فيها بالكلام ، فكان المسلم يصلي وإلى جانبه أخوه يكلمه ويحدثه وهو يصلي ، ثم خطا الإسلام خطوة حكيمة أخرى فمنع الكلام على المصلين ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] .

قال زيد بن أرقم : كنا نتكلم في الصلاة ؛ يكلم الرجل صاحبه إلى جنبه حتى نزلت : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا على الكلام .

الرسول ينفذ التشريع على نفسه :

ثم نجد حكمة التشريع الإسلامي تتجلى في مظهر آخر ذلك أنه في كثير من الأحيان لا تكون الأمة مستعدة لقبول التشريع الجديد ، ففي هذه المرحلة يجب أن تكون الخطوة الأولى من إمام الأمة وراعيها ورئيسها ، فهو الذي يبدأ ويخطو الخطوة الأولى ، وينفذ التشريع على نفسه ثم يدعو الأمة إلى أن تتبعه وتلاحقه ، فتكون أكثر استجابة له وتجاوباً معه ، وذلك ما وقع في التشريع الإسلامي .

الرسول يفطر في السفر:

فقد وقع أن رسول الله ﷺ كان مسافراً مع أصحابه في رمضان فدعاهم إلى أن يفطروا شفقة عليهم ورفقاً بهم ، وكان ﷺ صائماً فلم يتحرك منهم أحد للإفطار ، وعز على رسول الله ﷺ أن يضيقوا ذرعاً بالصيام في حالة رخص الله فيها بالإفطار ، فما كان منه ﷺ إلا أن أفطر فأفطروا ، وهكذا سبق إلى العمل فتبعوه .

نحره وحلقه في صلح الحديبية قبل أصحابه :

وكذلك وقع عندما كان رسول الله ﷺ في قضية الحديبية ، ووقعت تلك الجولة التي كانت في مظهرها هزيمة للإسلام ، وكانت في باطنها أكبر نصر وأكبر فتح عندما انفض كتاب الصلح بين رسول الله وقريش ، قرر رسول الله ﷺ أن يرجع لأنه لن يدخل مكة في ذلك العام ، فأمر المنادي أن ينادي ويقول : قوموا وانحروا واحلقوا ، فلم يتحرك أحد من الصحابة الذين كانوا مع الرسول ، وكانوا وقتئذ حوالي ألف وخمسمائة شخص لم يتحرك منهم أحد ، فنادى رسول الله ﷺ ثلاث مرات : «قوموا ثم انحروا» فلم يتحرك أحد ، فدخل إلى أم سلمة أم المؤمنين وحكى لها ما جرى فكانت مشيرة بالرأي السليم المطابق لحكمة الرسول ﷺ ، وقالت له : «اخرج لا تكلم منهم أحداً ، انحروا وحلق فسينحرون ويحلقون» ، وكذلك فعل رسول الله ﷺ ، فخرج فلم يكلم هذه المرة أحداً منهم حتى نحر بدنته ، ودعا حالقه فحلق ، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد أن يقتل بعضهم بعضاً غمّاً من شدة الازدحام ، وهكذا سبق الشارع إلى تنفيذ تشريعه لاتباعه الآخرون .

إلغاء تبني زيد :

وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى أدعياء المؤمنين من الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية ، فقد كان رسول الله ﷺ يعيش تحت ظله زيد بن حارثة الذي كان مسبيًا من الشام ، والأدعياء أي أزواج الأبناء المتبنين الذين ليسوا أبناء حقيقيين ، أولئك الأزواج يحل لمن كان متبنياً أن يتزوج بهن ، هذه الحقيقة قالها الرسول ﷺ فلم ينفذها أحد من الصحابة وامتنعوا عنها : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وهكذا سبق الشارع إلى تنفيذ ما شرعه .

من حكمة التشريع : تأخير كثير من الفرائض :

وتبرز كذلك حكمة الإسلام والتشريع الإسلامي في أن كثيراً من الفرائض الأساسية في الإسلام التي هي الآن لا يمكن أن نتصور الإسلام إلا على ضوءها وفي إطارها ؛ الصلاة ، الصيام ، الزكاة ، الجهاد ، تحريم الخمر ، تحريم الربا .

كل هذه الأشياء مصالح وتشريعات أساسية لجوهر الإسلام ، ولكن الإسلام أخرها جميعاً ، أخرها سنوات طوالياً ، أكثر من خمس عشرة سنة ، بالنسبة للبعض .

أسلم عدد من المسلمين وظلوا مسلمين أكثر من خمس عشرة سنة ، دون أن يؤدوا هذه الفرائض ودون أن يلتزموها ؛ لأنها لم تفرض بعد .

الصلاة:

فمن ذلك إيجاب الصلاة، فرض الصلاة، لم تفرض إلا في ليلة الإسراء، والإسراء كان قبل الهجرة بسنة واحدة، ففي ليلة الإسراء فرضت الصلاة خمس صلوات في اليوم والليلة، معنى ذلك أن الفترة التي سبقت حوالي اثنتي عشرة سنة لم تكن الصلاة فيها مفروضة.

الصوم:

كذلك بالنسبة للصيام، تأخر وجوب الصيام، فلم يفرض إلا في السنة الثانية للهجرة، ثم فرض على درجات ثلاث:

المرحلة الأولى: كان فرضه على التخيير، لك أن تصوم، ولك أن لا تصوم وتطعم عن كل يوم مسكينًا.

المرحلة الثانية: عليك أن تصوم، لكن إذا نمت قبل الإفطار فلا حق لك في الطعام، بل يجب عليك أن تنتظر إلى الليلة المقبلة.

المرحلة الثالثة: عليك أن تصوم ولك الحق في أن تأكل وتشرب، ولو نمت ما دام الفجر لم يحل وما دام لم يتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر، وهكذا كان الصيام الذي هو فريضة أساسية متأخرًا إلى عهد بعيد.

الزكاة:

كذلك الأمر بالنسبة للزكاة؛ فقد تأخرت زكاة المال على زكاة الفطر سنين طوَالًا، وشرعت الزكاة في السنة الثانية للهجرة، ولما شرعت بقي الأمر فيها يتمشى تدريجيًا ولم يبعث رسول الله ﷺ العمال لقبضها من

المسلمين في الجهات والأقاليم إلا في السنة التاسعة للهجرة ، وتولى الله قسمة الصدقة بنفسه ، فجعل هذه الزكاة تتجلى وتحقق في مظهرين اثنين ينتفع بها عدد من الأصناف بوصف الحاجة والفقر ، وينتفع بها عدد من الأصناف بوصف المنفعة والفائدة للإسلام .

الجهاد :

ثم نجد الجهاد ، هذه الفريضة قد تأخرت فقد بقي المسلمون طوال العهد المكي لم يسمح لهم بالجهاد ، وكان الجهاد في مكة إنما هو جهاد حجة ، حتى أذن الله بالجهاد في العهد المدني ، وكان الجهاد كذلك على مراتب متعددة :

الأولى : أذن الله في الجهاد فقط فهو مجرد إذن وإباحة : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ [الحج : ٣٩] .

ثم المرحلة الثانية : أعطى لهم الأمر لقتال من قاتلهم فقط : ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

ثم اتسع الأمر فأذن لهم بقتال المشركين كافة ، وهكذا تدرج تشريع الجهاد .

من حكمة الشريعة في التحريم :

تحريم الخمر :

ثم نجد تحريم الخمر ، فقد بقي الخمر كذلك مسكوتاً عن أمره ، لم يتعرض له الشارع بحكم سنوات طوآلاً في الإسلام حتى أذن الله بتحريمه ، فجاء هذا التحريم كذلك على مراتب ومراحل :

الأولى : وقع الاكتفاء بالتنبيه على مفسدة الخمر ، مع السكوت عن الحكم الذي يقتضي أنه مفسدة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

ثم جاءت الآية الثانية : فمنع الإسلام من الخمر في حالة الصلاة دون غيرها : ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] .

ثم جاءت المرحلة الثالثة : فحرم الخمر بتاتا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] .

تحريم الربا :

وكذلك الأمر في تحريم الربا ، فقد بقي الربا يتعامل به سنين طوالا في الإسلام ؛ ذلك لأنه يمس مصالح كثيرة ، مصالح مادية قوية ، والعرب كانوا تجارا قبل كل شيء ، وقد فشلت فيهم معاملات الربا عن طريق الاتصال باليهود ، فجاء تحريم الربا متأخرا ، وتقريبا في آخر مرحلة قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل .

وجاء هذا التحريم متدرجا كذلك ، فحرم من الربا ما كان أضعافا مضاعفة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] .

ثم تدرج التحريم إلى أن وقع التحريم آليا ؛ فأصبح لا مرد له بالنسبة للجميع ، وكان ذلك في خطاب رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، عندما قال

رسول الله ﷺ: «ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب»^(١).

وهنا نجد الشارع يبدأ بأقرب الناس إليه ﷺ؛ حتى يشجع الآخرين على أن ينفذوا التشريع الجديد عن طوعية أنفسهم، ومن تلقاء أنفسهم.

تأخر قوانين الزواج والطلاق؛

نجد كذلك مسألة الأسرة ونظامها؛ فقد بقي نظام الأسرة العربية على طريقته المعهودة في الجاهلية سنين طويلاً، لا تحديد للطلاق ولا تحديد للزوجات.

ولم يحدد ذلك ويقنن إلا في المرحلة الأخيرة من الفترة التشريعية، فوقع تأخير القصر على ثلاث طلقات عندما نزل قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ثم نزل كذلك قول الله تعالى فيما يخص عدد الزوجات: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، فكان هذا التشريع من أواخر التشريعات التي جاءت في الإسلام.

وهذه كلها كانت مصالح جوهرية وتكاليف شرعية أساسية من صميم الإسلام تنبثق عن مبادئه الأولى انبثاقاً منطقياً وطبيعياً، ولكن الإسلام في سبيل العقيدة الرئيسية؛ الإيمان العقيدة الرئيسية، الأخلاق العقيدة الرئيسية، القضاء على الشرك والوثنية، جلب الأمة والأخذ بيدها

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) من حديث جابر رضي الله عنه في صفة حجة النبي ﷺ... بطوله.

واستثناسها ، والسعي إلى انقيادها ، وقبول الشرائع شيئاً فشيئاً في سبيل هذه المصلحة العليا ، تنازل عن تلك المصالح وأخرها إلى زمن محدود إلى أجل مسمى .

الإسلام يجب ما قبله :

وكذلك نجد حكمة الإسلام تتجلى في تشريعه عندما أمر الله وأذن أن كل من أراد الدخول في الإسلام من غير المسلمين من أية ملة غير إسلامية ؛ فإنه لا يؤاخذ الإسلام بأي ذنب من ذنوبه الماضية ، فهو لا يؤاخذ بذنب سابق وذلك تحبيبا في الإسلام .

فالذي يخرج من النصرانية واليهودية والوثنية ليدخل في الإسلام يدخل إليه وقد تطهر من كل ذنوبه وتحرر من أسرها وآثامها ، وعن عقدها النفسانية كامل التحرر ، وقد أصبح شخصا جديداً ، وولد في الإسلام ميلاداً جديداً ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] .

وقد جاء إلى رسول الله ﷺ جماعة كانوا زنوا وأكثروا من الزنا ومن غيره من الفواحش ، فقالوا لرسول الله : إن ما تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

ثم نجد سياسة الإسلام وحكمته تتجلى في إقرار كل من أسلم على زواجه السابق وعلى علاقته الزوجية أصلاً وفرعاً .

فالمزوجة التي كانت قبل الإسلام على غير شرائع الإسلام وعقد عليها يعتبرها الإسلام زوجة شرعية ، والأبناء الذين نشئوا من ذلك الزواج لا يشك الإسلام ولا يضع موضع السؤال بنوتهم هل هم أبناء شرعيون أم لا؟ وإن كانت تلك العقود على خلاف الإسلام وذلك كله تحييبًا في الإسلام .

حكمة الإسلام في معاملة المحاربين :

وكذلك نجد حكمة الإسلام تتجلى في أنه إذا كان هناك حربيون حاربوا المسلمين ، كانوا معهم في حرب ، وأتلفوا أنفس المسلمين وأموالهم خلال الحرب التي كانت قائمة بينهم وبين المسلمين ؛ فإن هذا الحربي إذا أراد أن يدخل في الإسلام فإن الإسلام يتقبله بكلتا اليدين ويحتضنه معانقًا ولا يطالبه بأي شيء ، بأي اعتداء وقع على نفس أو مال مما مس المسلمين في شيء ، وبذلك يعتبر غير مطالب ، تسقط عنه الغصوب ، وتسقط عنه النهوب ، وتسقط عنه الغارات ، وتسقط عنه جميع المطالب الخاصة بالحرب ، وذلك تحييبًا في الإسلام .

حكمة الإسلام في معاملة أهل الذمة :

ونجد سياسة الإسلام وحكمته تتجلى كذلك في الذمي الذي دخل في ذمة الإسلام ، فهذا الذمي إذا أراد أن يدخل في الإسلام فإننا نقبله ونتقبله بكلتا اليدين ، ولا نقول له إنك قضيت كذا سنة لم تصل ، فقم بالصلاة وإنك قضيت كذا سنة لم تزك فهات الزكاة ، وإنك كنت تبيع الخمر والخنزير فكل مكاسبك حرام .

كلا إن الإسلام يعتبر مكاسبه مشروعة ، ويعتبر كل ما كان عليه من حقوق الله صار ساقطاً ، لا يطالب به ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله .

حكمة الإسلام في معاملة المنافقين :

ونجد كذلك رسول الله ﷺ تتجلى له حكمة الإله التي آتاه الله إياها في معاملته للمنافقين ، فقد كان بين المسلمين منافقون ولا يزالون هؤلاء المنافقون كان رسول الله ﷺ يعرفهم معرفة اليقين ، يعرفهم بأعيانهم وبأسمائهم وبأفعالهم ، ولكنه ﷺ لا يقضي فيهم بعلمه يعلم عنهم من الجرائم ما يستحقون به ألا يعصم لهم مال ، ولا تعصم لهم نفس ، وأن يقتلوا ويشردوا .

ولكن رسول الله ﷺ رغماً عن براءته من كل تهمة ، وبراءته من كل غرض ، وبراءته من أن يتهم أنه قضى عليهم لغرض سياسي ، فإنه ﷺ رغماً عن كل ذلك ستر أحوالهم وتركهم ، ولم يجر عليهم القانون ، ولم يحكم فيهم بحكم لم يلزم أن يحكم عليهم به ، وهو حكم الإعدام والقتل ، وذلك كما قال ﷺ نفسه : «إنه لا ينبغي أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(١) .

وهكذا برئت يد الرسول ﷺ من دم المنافقين ومن كل دم غير طاهر حرصاً على حماية الإسلام ، وحرصاً على سمعة الرسالة الإسلامية وعلى طهارتها ونظافتها .

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .

ورسول الله ﷺ يعلم أنه كان في منقلبه من غزوة تبوك كان على علم بأن اثني عشر من المنافقين - وكانوا ملثمين - تعرضوا له في الطريق ، وكان ﷺ يمشي في العقبه ، فتعرضوا له في الطريق قاصدين اغتياله ، فعرفهم وكشف حالهم ، ومع هذا فإنه ﷺ لم يؤاخذهم ولم يقتلهم ، رغم أن الصحابة عرفوهم واطلعوا عليهم ، ونادوا بقتلهم والقضاء عليهم ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] ؛ إشارة إلى المؤامرة التي دبرها المنافقون ورسول الله ﷺ منقلب من غزوة تبوك التي دشنت بها الفتح الإسلام نحو الأراضي البيزنطية ليفك الحصار عن الإسلام ، وليفتح أقاليم الأرض في وجه الدعوة الإسلامية بعدما تركزت الدعوة في جزيرة العرب وظفرت وانتصرت ، في ذلك الوقت كان هؤلاء المنافقون يترصدون لرسول الله ﷺ يريدون اغتياله ، ومع ذلك لم يحكم عليهم ولم يعدمهم .

حكمة الإسلام في تأليف القلوب :

ونجد رسول الله ﷺ تتجلى فيه الحكمة النبوية التي آتاه الله إياها في تأليف المؤلفة قلوبهم ، فقد كان هناك طائفة من زعماء العشائر ومن رؤسائها المطاعين في عشائريهم ، وكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطايا وبالإحسان ؛ امثالاً لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وهؤلاء المؤلفة كانوا صنفين ؛ كانوا كفاراً ، وكانوا مسلمين ، أما الكفار فكانوا يعطون لأربعة أسباب : لكف أذاهم ودفع مضرتهم أولاً ، والاستعانة بهم على غيرهم من المشركين ثانياً ، وللحيلولة دون أن يمنعوا

من أسلم من قومهم من الثبات على الإسلام ؛ لأنهم رؤساء مطاعون في عشائرهم وذوو نفوذ ثالثاً ، ولاستمالة قلوبهم وقلوب غيرهم أملاً في أن يدخلوا في الإسلام ويتقبلوا من الكفر رابعاً .

فمن أجل هذه العوامل الأربعة اقتضت حكمة الرسول ﷺ تأليفهم بالعطايا والإحسان .

وأما المؤلفة من المسلمين فقد كانوا ثلاثة أصناف يعطون لثلاثة أسباب ؛ إما لكونهم حديثي العهد بالكفر حتى لا يرجعوا إلى الكفر ، وإما لكون يقينهم لا زال ضعيفاً حتى يقوى إيمانهم ، وإما لجلب نظرائهم وأقرانهم إلى الإسلام تشجيعاً لهم عليه .

حكمة الرسول ﷺ في معاملة الصحابة :

وهكذا نجد كذلك من حكمة الرسول ﷺ التي تتجلى في تصرفاته ما كان يسعى إليه دائماً من معاملة أصحابه باللين والرفق : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وما كان يقوم به من استشارتهم في الأحداث الجسام ، هذه الاستشارة لم يفتر عنها حتى قال أحد الصحابة : ما كان أحد يشاور أصحابه مثل رسول الله ﷺ ، وأنزل الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] .

ومن تلك الاستشارات استشارته لهم يوم الحديبية ، واستشارته لهم يوم بدر ، واستشارته لهم يوم الخندق ، واستشارته لهم في غزوة تبوك ، وهكذا في مراحل كثيرة .

وكان ﷺ يقصد من هذه الاستشارة الأمن من عتبهم ، والتعرف على مصلحة قد يختص بعضهم بعلمها دون بعض ، وكذلك الإشعار بأن لصحابة منزلة في الأمة وأنهم أهل للثقة والاجتهاد ، وأنهم أهل للتابع . وكذلك إعطاء الدليل للحاضرين والغائبين على يقينهم وصحة يمينهم ، وأن باطن ضمائرهم مرضي عند الله تعالى ؛ ولذلك استحقوا أن يكونوا مستشارين لرسول الله ﷺ .

قال سفيان بن عيينة : أمره الله بالمشاورة : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ؛ لتقتدي به أمته فيها ، ولئلا تراها منقصة ، كما مدحهم تعالى بأن أمرهم شورى بينهم .

وقال الحسن والضحاك : جمع الله لهم بذلك أمرين في المشاورة :

الأمر الأول : هذه المشاورة لإجلال الصحابة ، ورفع أقدارهم .

والأمر الثاني : لتقتدي به الأمة الإسلامية في السير على هذه السنة ؛ سنة الشورى .

هكذا كان رسول الله ﷺ تتجلى في جميع تصرفاته الحكمة والميزان والفرقان .

وهكذا نجد لرسول الله ﷺ عدة نماذج من الحكمة في كثير من المجالات : في مجال العبادات ، في مجال العقيدة والدعوة ، وفي مجالات المعاملات ، وفي مجال الشؤون العامة ، كل ذلك يدل على الحكمة التي آتاه الله إياها ، ويعطينا نماذج للاقتداء والاهتداء ، والله تعالى عندما آتى رسوله الحكمة آتاه إياها ؛ لأن العرب أيضاً كانت عندهم حكمة .

وكما أن للعرب بلاغة وفصاحة جاء القرآن بتحديها ، وكما أن للعرب أمثالا جارية جاء القرآن بتحديها ، كذلك كانت لهم حكمة جاء القرآن بتحديها ، فكانت حكمة القرآن تفوق كل حكمة .

وقد حفظ التاريخ أسماء عديد من حكماء العرب ومن حكيماهم لا يسمح المقام بذكرهم الآن .

وكذلك نرى أن الحكمة التي جاء بها كتاب الله لم يقصرها فقط على الأنبياء وعلى المرسلين .

بل إن الله تعالى فتح باب الحكمة وتقبلها حتى من غير الأنبياء ؛ ولذلك جاءت سورة لقمان فيها الحكمة : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان: ١٢] ، وذكر الله حكمته في كتابه ليفتح بذلك الآفاق في وجه المسلمين أمام كل حكمة غير إسلامية ، حتى يطلعوا عليها ويفهموها ويقارنوا بينها وبين حكمة الإسلام ، وحكمة الإسلام هي المعيار الذي يرعى كل شيء .

الخلاصة :

والآن نريد أن نستخلص من هذا الحديث خلاصته الأخيرة ، هذه الحكمة التي أشار إليها كتاب الله على أنها ميراث للأنبياء جميعا ، وعلى أنها ميراث لداود وعيسى وموسى ، وعلى أنها ميراث لمحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، هل هي قاصرة على الأنبياء أم عامة لهم ولغيرهم .

ها هنا نجد كتاب الله يقول عن نبينا ﷺ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢] ، ونجد كتاب الله يقول : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة: ٢٣١] . ونجد كتاب الله يقول : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣] .

فهذه الآيات التي تدل على أن الحكمة التي آتاه الله لرسوله منزلة علينا ، وأن الحكمة التي آتاه الله إياها يجب أن تكون تراثاً محفوظاً في هذه الأمة تتناقله جيلاً عن جيل وعصرًا عن عصر ، وأن لا تخل به وأن لا تفرط فيه ، ولذلك فالحكمة الإسلامية والحكمة النبوية هي تراث ثمين جرى عليه واستفاد منه الصحابة والتابعون والمجتهدون والمجددون والمصلحون .

وهكذا بقي باب الحكمة مفتوحاً لأن الضرورة إليها ماسة في كل عصر وفي كل حين ، ماسة في القضاء ، ماسة إليها في الحكم ، ماسة إليها في الفتوى ، ماسة إليها في السياسة ، ماسة إليها في الدعوة .

فكل هذه الأعمال بدون حكمة لا تجدي ولا تفيد ، والعلماء يقال إنهم ورثة الأنبياء ، في ذلك حديث شريف ، فهذه الوراثة ليست قاصرة على الكتاب ولكنها وراثة للكتاب والحكمة معاً ؛ ولذلك يجب على العلماء أن يحافظوا على الحكمة كما يحافظون على الكتاب ، وأن لا يفكوا الرباط القائم بين الحكمة والكتاب ، وأن لا يكتفوا بدراسة النصوص وفهمها وحفظها وأن لا يتنكروا للحكمة التي من ورائها ، والتي من جوهرها والتي هي لبها .

بل ينبغي أن يتأكد الرباط بين الكتاب والحكمة ؛ لأن المسلمين لم يتأخروا إلا عندما فرقوا بين الكتاب والحكمة ، وكما أن أبا بكر امتنع أن يقبل التفرقة بين الصلاة والزكاة ، فيجب علينا معشر المسلمين أن لا نقبل التفرقة بين الكتاب والحكمة .

وفي هذا المقام ونحن لا نزال في أعقاب النكسة التي أصابت المسلمين في أرض الإسلام ، نرجع إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ؛ فنجد في

حكمة الرسول ﷺ حكمة ثابتة لو كنا يقظين واعيّن مطلعين عليها غير متنكرين لحكمة الرسول التي آتاه الله إياها لما وقعنا في هذه النكبة .

روينا في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله» .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود...» إلى آخره .

وروي في «صحيح البخاري» عن الزهري قال : أخبرني سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وهذا الحديث فيه البشرى من النكسة والإذن بالنصر وبالفوز إن شاء الله ، يقول ﷺ : «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم» .

هذا كلام الرسول وعد منه للمؤمنين : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ، «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم ، ثم يقول الحجر : يا مسلم هذا يهودي من ورائي فاقتله ، هذا يهودي من ورائي فاقتله» .

فلو كان قادة المسلمين على صلة بكتاب الله وحكمة رسوله ، ولو كان علماء المسلمين على صلة بكتاب الله وحكمة رسوله ، ولو كانت جماهير المسلمين على صلة بكتاب الله وحكمة رسوله لما وقعت النكبة ولما وقعت النكسة ؛ لأن كتاب الله قائم وسنة رسوله قائمة ، والرسول ينظر بنور الله ، وينظر في أعقاب الأجيال قروناً فوق قرون .

إن العودة إلى الجمع بين الكتاب والسنة واجبة ، فهل هناك أبو بكر لهذه الأمة ، هل هناك من يقاتل بالحجة والبرهان ليجمع المسلمين مرة ثانية

بين الكتاب والحكمة ، بين الكتاب والميزان بين الكتاب والفرقان ، ولا نفرق بينهما أبداً من بعد أن تأخر المسلمون ، إنما كان بهذه التفرقة جهل الكتاب ، هجر الكتاب ، أطفئت مصابيح الحكمة مصباحاً مصباحاً ، فأصبح المسلمون في ظلام دامس يتخطبون لا هادي ولا مرشد ولا رائد ولا قائد ، والنور بين أيديهم ، والكنز موضوع بين أيديهم ، علينا أن نرجع إلى كتاب الله ، وإلى حكمة رسول الله .

يجب أن نخرج للأمة الإسلامية علماء حكماء لا علماء نصوص وأوراق ، ولا علماء تزويق وزخرفة ، علماء برهان وحجة وبصيرة نافذة ومنطق سليم ورأي قوي .

فأبو بكر أول رجل في الإسلام وخليفة الرسول الأول ، والصديق الذي ذكره الله وميزه : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

أبو بكر هذا ، رويناه في «صحيح البخاري» قال : حدثنا النعمان أبو النعمان ، حدثنا أبو عوانة عن بيان أبي بشر عن قيس بن أبي حازم قال : دخل أبو بكر على امرأة من أحسن يقال لها : زينب ، فرآها لا تتكلم ، فقال لها : ما لها لا تتكلم ؟ قالوا : حجت صامته أي نذرت ألا تكلم ، فقال ﷺ : تكلمي فإن هذا لا يحل ، هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت فقالت : من أنت أيها الرجل ، قال : امرؤ من المهاجرين ، قالت : أي المهاجرين ؟ قال أبو بكر : من قريش ، قالت : من أي قريش ؟ فقال لها أبو بكر : إنك لسئول ؛ يعني كثيرة السؤال ، فيك فضول ، أنا أبو بكر أنا أبو بكر ، فلما عرفت من تسأله قالت : —واسمعوا هذا السؤال من مؤمنة كبيرة لا تزال على الفطرة ، تعرف فضل الله عليها بالإسلام وتقدره قالت

- لم تفكر في عطاء ، لم تقل له : أعطني ولا ارزقني ولا انفعني ، بل سألته عن مصير الأمة الإسلامية ، عن مصيرها البعيد والقريب ماذا قالت؟ قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح -تشير إلى الإسلام- الذي جاء الله به بعد الجاهلية- يعني كيف يمكن أن يستمر هذا الصلاح وهذا النور الذي جاء به الإسلام ، يبقى حيًا خالدًا سرمدًا إلى الأبد؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه : بقاؤكم عليه ما استقامت به أئمتكم -الإمام هو الرأس هو القلب هو المخ هو جوهر حياة الأمة ، هو مركز حساسيتها ونبض قلبها ، إن نبض قلبه بالإيمان نبض قلبها بالإيمان ، وإن اهتدى اهتدت ، وإن ساقها إلى الخير والرشد رشدت واهتدت ، بقاؤكم عليه ما استقامت به أئمتكم ، وهي لم تفهم كلمة الأئمة ، ما معنى الإمام قالت : وما الأئمة؟

قال أبو بكر -على سبيل المثال- : أما كان لقومك رءوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت : بلى ، قال : الأئمة هم أولئك على الناس هم الأئمة ، بقاؤكم عليه ما استقامت به أئمتكم .



نور هج القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الثالث

المحاضرة السابعة والعشرون:**الوظيفة العمومية في الإسلام**

موضوعنا فقهي قانوني يقتضي التزام التعبير الدقيق ، الذي لا يتسع للمبالغة ، ولا للفظ الرشيق .

والوظيفة العمومية ، نظرية تعتمد بدءًا وختمًا على نصوص الشريعة ، ومقاصدها ، وقواعدها الشرعية .

والنقاط التي يتضمنها هذا الموضوع :

- ١ - معنى الولاية العامة (الوظيفة العمومية) .
- ٢ - شروط انعقادها ، ومدى امتدادها .
- ٣ - الألفاظ التي تنعقد بها الولاية .
- ٤ - طريق ثبوت الولاية .
- ٥ - القدرة على الولاية شرط في التكليف بها .
- ٦ - النهي عن الولاية عند فقد الأهلية .
- ٧ - الصفات الخاصة اللازمة في المرشح للولاية .
- ٨ - لا يقدم للولايات إلا أقوم الناس بها .
- ٩ - اشتراط العدالة في الولاية ، والحكمة في اشتراطها .
- ١٠ - ما هو العمل عندما يكون المرشح وحيدًا .
- ١١ - ما هو العمل عند تعدد المرشحين (ما العمل إذا كان المرشحون في مستويات مختلفة وإذا كانوا في مستوى واحد) .
- ١٢ - ما هي الحكمة في إجراء القرعة بين المرشحين المتساويين .

- ١٣- ما هو العمل عندما يكون الترشيح من تلقاء المرشح نفسه .
- ١٤- ترشيح من هو غير صالح مع وجود الأصلح .
- ١٥- ترشيح من هو غير صالح لعدم وجود الأصلح .
- ١٦- تعدد الأفراد في الولاية الواحدة .
- ١٧- هل الأفضل تضييق اختصاص الولاية أو توسيع اختصاصها؟ .
- ١٨- تحديد مدة الولاية بعامين اثنين .
- ١٩- متى يصح العزل ومتى يمتنع؟
- ٢٠- هل يعتبر التشكي مبرراً كافياً للعزل؟
- ٢١- ضمانات للولاية وللرعية .
- ٢٢- مدار الولايات العامة على الصدق والعدل .
- ٢٣- الولايات العامة يجب أن تكون مبرأة من الحظوظ الشخصية .
- ٢٤- الولاية يقومون بالمصالح العامة ، وبيت المال يقوم بمصالحهم الخاصة .
- ٢٥- العطاء الجاري على الولاية جارية لا إجارة .
- ٢٦- ما هي الحكمة في ربط الولاية ببيت المال لا بغيره من الناس .
- ٢٧- كل من يتولى أمراً لمصلحة المسلمين فله في بيت المال حق الكفاية .
- ٢٨- الجوائز والصلات وضروب التخصيصات .
- ٢٩- التعويضات العائلية .
- ٣٠- العطلة الأسبوعية .

٣١- قطع الجراية عند التخلي عن الولاية ، وإعادة ما أخذ عنها غلطاً إلى بيت المال .

٣٢- عدم مؤاخذه الولاية بالخطأ والغلط ، وعدم تغريمهم على ذلك .

٣٣- ما هو مقصود الشرع من الولايات ؟

٣٤- جميع الولايات العامة موضوعة تحت نظر الشرع .

٣٥- أصناف الولايات ومراتبها .

٣٦- هل للولايات حد محدود في الشرع بحيث لا تتعداه ؟

وبعد هذه المقدمة لم يبق أمامنا إلا أن ندخل في صميم الموضوع مستعينين بالله فنقول :

١- معنى الولاية العامة :

تطلق الولاية العامة في هذا الموضوع على التكليف بإقامة المصالح التي لا تنتظم حياة الناس إلا بحصولها ، ولا تستقيم أحوالهم إلا بها ، وتندرج تحتها جميع المصالح العامة ، دينية كانت أو دنيوية ، إذ إنها لا تقصر رعايتها على مصلحة دون أخرى ، ولا على شخص دون آخر ، ولا على فريق دون فريق ، بل إنها ترعى مصالح الجميع .

٢- شروط انعقادها ومدى امتدادها :

شروط انعقاد الولاية العامة ثلاثة :

الشرط الأول : معرفة ولي الأمر للشخص المولى أنه على الصفة التي يجوز أن يولى معها ، فإن جهل ولي الأمر ذلك لم يصح تقليد المولى وتعيينه .

الشرط الثاني : ذكر صنف الولاية التي أسندت إليه ، من قضاء أو جباية أو شرطة أو غيرها ، ليعلم على أي نظر عقدت له الولاية ، فإن جهل ذلك فسدت .

الشرط الثالث : ذكر البلد الذي عقدت له عليه الولاية ، لتمييز عن غيره .

وإذن فعقد الولاية إنما يتناول منصبًا معينًا وبلدًا معينًا ، بحيث يعتبر المتولي معزولًا عما عداهما ، ولا ينفذ حكمًا في غيرهما ، ولا يعتبر تصرفه صحيحًا إلا في حدود ما نص عليه عقد الولاية ، فإذا نهاه ولي الأمر عن الاستخلاف لم يكن له أن يستخلف ، وإذا أذن له استخلف على مقتضى الإذن ، وإذا تجرد عقد الولاية عن النهي والإذن معًا لم يستخلف إلا بإذنه ؛ لأنه بمنزلة الوكيل المخصوص .

٣- الألفاظ التي تنعقد بها الولاية :

من هذه الألفاظ ما هو صريح ، ومنها ما هو كناية .
ويندرج في النوع الأول أربعة ألفاظ ، وهي : وليتك - قلدتك - استخلفتك - استنتبتك .
ويندرج في هذا النوع الثاني ثمانية ألفاظ ، وهي : عهدت إليك - أسندت إليك - فوضت إليك - وكلت إليك - اعتمدت عليك - عولت عليك - جعلت إليك - رددت إليك .

٤- طريق ثبوت الولاية :

تتوقف صحة الولاية ونفوذ أحكامها على ثبوتها ، وثبوتها للمتولي يقع بثلاثة وجوه :

- ١- إما بالشهادة على الإمام مشافهة أنه ولاه على كذا .
 - ٢- وإما بالاستفاضة وانتشار الخبر أنه قد ولاه الولاية الفلانية .
 - ٣- وإما بكتابة الإمام له مرسومًا بالتولية .
- وقد حفظت كتب السنة والسيرة أسماء عدد من العمال والولاة وأمراء السرايا والسفراء إلى الملوك عينهم رسول الله ﷺ ، بمراسيم نبوية ، وعهد إليهم فيها بأمره ونهيه ، وبها باشرُوا مهامهم في النواحي التي ولاهم عليها ، وقاموا بالشئون التي كلفهم بها ، ومن بين الكتب التي كتبها الرسول ﷺ لعماله الكتاب الذي ولى به عمرو بن حزم على اليمن ، ونصه محفوظ في الجزء العاشر من «صبح الأعشى» .
- وهذه المراسيم والكتب النبوية هما الأصل في المراسيم التي جرت عادة أئمة المسلمين بكتابتها لولاتهم ، ويطلق على الواحد منها اسم (الظهير) نظرًا لما يقع بمرسوم التولية الصادر عن الإمام من إعانة للمتولي على القيام بمهمته وما يضيفه من صبغة شرعية على ولايته ، ومعلوم أن كلمة (ظهير) تعني في أصلها (المعين) .

٥- القدرة على الولاية شرط في التكليف بها :

من المعلوم شرعًا أن محور التكليف هو قدرة المكلف على القيام بما كلف به ، فمن كان عاجزًا عن القيام بأمر لم يصح تكليفه به ؛ لأن التكليف بما لا يطاق لا محل له في الشريعة .

وبناء على هذا المبدأ لا يكلف بالولايات العامة إلا من كان أهلاً للقيام بها ، والغناء فيه ، ولا يصح أن يكلف بها من لا يبدئ فيها ولا يعيد ؛ لأن تكليفه بها رغمًا عن عجزه عنها يكون بالنسبة إليه من باب التكليف بما

لا يطاق ، يكون في نفس الوقت من باب العبث ، بالنسبة إلى المصلحة المراد جلبها ، والمفسدة المراد دفعها ، لعجزه عن جلب أية مصلحة ، ودفع أية مفسدة ، وهما الغرض الأساسي من الولايات العامة .

٦- النهي عن الولايات عند فقد الأهلية :

لقد سأل أبو ذر رسول الله ﷺ أن يؤمره ، فقال له ﷺ : « يا أبا ذر ! إني أراك ضعيفا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم »^(١) ، وهذا النهي النبوي منصب على ولاية الإمارة وولاية الكفالة ، وكلاهما من فروض الكفاية ، وإنما نهى رسول الله ﷺ أبا ذر عنهما ، لعدم توفر الأهلية فيه لهما ، وعلى هذا السنن جرى خلفاء الرسول ﷺ من بعده .

٧- الصفات الخاصة اللازمة في المرشح للولاية :

علاوة على شروط الأهلية العامة الضرورية في كل تكليف لا بد في المرشح للولاية من الاتصاف بعدة صفات تؤهله لها بالخصوص وهذه الصفات تتلخص فيما يأتي :

- أولاً : في القوة على الاضطلاع بالمسئولية ، والقدرة على تحمل أعبائها .
- ثانياً : في الأمانة والعفة ، بحيث يكون مأمون الجانب ، مؤتمناً على الرعية والراعي ، عفيفاً عن أموال الناس وأعراضهم ودمائهم .
- ثالثاً : في العلم والفطنة ، بحيث يكون عنده من العلم باختصاص ولايته ما يلزم لها ، وعنده من اليقظة والبصيرة ما يجعله في حرز من الخديعة والغفلة .

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٦) عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

رابعًا: في العدل والنصيحة ، بحيث يلتزم العدل في الأمر والنهي والأخذ والعطاء ، ويأخذ على نفسه نصح الراعي والرعية .

خامسًا : في مشاورة أهل الرأي ، بحيث يستعين على ولايته ، باستشارة أهل الخبرة والتجربة فيها ، ولا يستبد برأيه دونهم .

وكل صفة من هذه الصفات نقضت في المتولي ظهر الخلل في ولايته من جهتها حتمًا .

٨- لا يقدم للولايات إلا أقوم الناس بها :

من الواجب على الإمام أن يبحث عن المستحقين للولايات ويوليهم فيها ، ومن الواجب على نوابه أن يستنيوا ويستعملوا أصلح من يجدونه ، والضابط الشرعي في عموم الولايات أن لا يقدم إلا أقوم الناس بجلب مصالحها ، ورد مفسادها ، بحيث يقدم للولاية من هو أقوم بأركانها وشرائطها على الأقوم بمجرد سننها وآدابها ، روى ابن سعد في «طبقاته» أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الرجل من أصحاب النبي ﷺ مثل عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، ويدع من هو أفضل منهم ، مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ونظرائهم ، لقوة أولئك على العمل والبصر به ، ولإشراف عمر عليهم وهيئتهم له .

ثم الواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها ، فيقدم في ولاية الحرب مثلاً من هو أقوم بمصالح الحروب من سياسة الجيوش ، ومكايد الأعداء وحسن السيرة في الاتباع مع النجدة والشجاعة .

ويقدم في ولاية القضاء مثلاً من هو أكثر تفتناً لحجج الخصوم وخدعهم ، وأكثر معرفة بقواعد الأحكام ، ويقدم في الفتوى مثلاً من هو أنقل للنصوص وأشفق على الأمة ، وأحرص على إرشادها لحدود الشريعة .

وإذا رشح اثنان أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية ، وأقلهما ضرراً فيها ، وأقربهما إلى تحصيل المقصود منها .
فإذا كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد ، قدم الأمين منهما ، مثل ولاية حفظ الأموال ونحوها .

وإذا كانت الحاجة في الولاية إلى القوة أشد ، قدم القوي منهما ، مثل قيادة الجيوش وإمارة الحروب .

وإذا رشح اثنان لولاية القضاء ، أحدهما أعلم ، وثانيهما أروع ، قدم الأعلم فيما يدق حكمه ويخاف فيه الاشتباه ، وقدم الأروع فيما يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى ، روي في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل عند حلول الشهوات»^(١) .

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجلين يكونان أميرين على الجيش في الغزو أحدهما قوي فاجر ، وثانيهما صالح ضعيف ، مع أيهما يغزى؟ فقال : أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوي الفاجر ، وقد قال النبي ﷺ : «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٢) .

وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة .

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨٠ ، ١٠٨١) ، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٩٥٤) من طريق الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .

والحسن لم يسمع من عمران كما ذهب إليه ابن المديني وابن معين وأحمد وغيرهم ، انظر «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص : ٣٨ ، ٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به مطولاً .

٩- اشتراط العدالة في الولاية والحكمة في اشتراطها :

من المعلوم أن الشريعة الإسلامية قائمة على احترام أهل الفضل والتقوى والعدالة ، وجعلهم عمدة في الولايات والشهادات وإقامة معالم الدين والدنيا ، ومن أجل ذلك اتفق أئمة الإسلام على أنه لا بد في المتولي من أن يكون عدلاً .

والمراد بالعدالة في هذا المقام الصلاح في الدين ، والاستقامة في السلوك ، والبعد عن مظاهر الفسق والفجور ، بحيث يتجنب الشخص كل ما يندسه ويشينه ، ويرتكب كل ما يجمله ويزينه .

قال الإمام الشافعي في «رسالته» الشهيرة في الأصول : «وليس للعدل علامة تفرق بينه وبين غير العدل في بدنه ولا لفظه ، وإنما علامة صدقه بما يختبر من حاله في نفسه ، فإذا كان الأغلب من أمره ظاهر الخير قبل ، وإن كان فيه تقصير عن بعض أمره ؛ لأنه لا يعرئ أحد رأيناه من الذنوب» .

وإنما اشترطت العدالة في الولايات العامة لأمر ثلاثة لها علاقة مباشرة بالولاية نفسها .

الأمر الأول : أن الثقة بنصح المتولي في ولايته ، وعدم التقصير في واجباتها ، لا تحصل ولا تتم إلا إذا كان متصفاً بالعدالة ، فالعدالة هي الدليل على أن المتصف بها يخشى الله ، ولا يقصر في حق من حقوق الله ويتبع ذلك أن لا يقصر في حق ولايته ، وأن يقوم بها أحسن قيام ، أما فاقد العدالة الذي يتجرأ على ربه فلا شيء يحول بينه وبين التجرؤ على خلقه ، ولذلك يسهل عليه أن يضيع مصالح الناس وتفقد الثقة به من الأساس .

الأمر الثاني: إن حرص المتولي على إقامة العدل ، وسعيه في جلب المصالح ودرء المفسد لا يتوقع منه إلا إذا كان متصفاً بالعدالة ، فالعدالة هي الدليل على أن المتصف بها لا يتعدى حدود الله ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وإنه أهل لأن يؤدي الأمانات إلى أهلها ويحكم بين الناس بالعدل ، أما فاقد العدالة فلا يمنعه أي شيء عن الجور والظلم ، ويحول - بكل سهولة - الولاية العامة من أداة للصالح العام ، إلى أداة للفساد العام .

الأمر الثالث: إن فاقد العدالة ، بحكم استهتاره وتظاهره بالفسق وممارسة الفجور ، يتعرض لتلويث سمعته ، وسقوط كرامته ، واحتقاره من طرف الجمهور ، وبذلك لا يقتصر أثر سلوكه على شخصه وحده ، بل يتعداه إلى الولاية العامة التي هو مكلف بها من أصلها ، وتنعكس نتائجه السيئة عليها ، مما يؤدي إلى سقوط حرمتها وامتهانها ، وضياع هيبتها من النفوس .

١٠- ما هو العمل عندما يكون المرشح وحيداً؟

إذا كان المرشح للولاية هو الشخص الوحيد الجامع لشروطها ، والكفاء للقيام بأعبائها ، بحيث لو لم يقم بتلك الولاية لعم الفساد والضرر مصالح الناس ، والحال أنه لا يوجد لها سواه ، فإن الولاية تصير في حقه فرض عين ، ولا يقبل منه رفض القيام بها ؛ لأن تقاعده عن القيام بها حينئذ يؤدي إلى الإخلال بالمصلحة العامة ، والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، إذ لا سبيل إلى تعطيل مصالح الخلق في الوقت الذي يوجد فيه الشخص الصالح لإقامتها ، وله من الغناء فيها ما ليس لغيره ، وقد بالغ في تقدير المصلحة العامة في مثل هذه الحالة سحنون وغيره حتى قال : إنه «يجبر على ذلك بالسجن والضرب إن امتنع» .

١١- ما هو العمل عند تعدد المرشحين؟

أ- إذا كان المرشحون في مستويات مختلفة :

قدم الأفضل فالأفضل ؛ لأن المصلحة فيه أعظم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «من ولي من أمر المسلمين شيئاً، ثم لم يجهد لهم ولم ينصح ؛ فالجنة عليه حرام» ، وفي رواية : «لم يدخل الجنة معهم»^(١) .

وفي هذا المجال يمكن الاستئناس بالقانون الذي وضعه ابن خلدون للخدمة في «مقدمته» ضمن (الفصل الثالث في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي) .

وفيه يقول : إن القائم بالخدمة لا يعدو أربع مجالات :

- ١- إما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده .
- ٢- وإما غير مضطلع بأمره ولا وثوق فيما يحصل بيده .
- ٣- وإما مضطلع غير موثوق .
- ٤- وإما موثوق غير مضطلع .

أما الصنف الأول : وهو الخديم الذي يستكفي بخدمته ويوثق به لغنائه ، فقد أصبح كالمفقود ، ولا يستعمله عند وجوده إلا الأمراء أهل الجاه العريض .

وأما الصنف الثاني : وهو الخديم الذي ليس بمضطلع ولا موثوق به ، فلا ينبغي لعقل استعماله ؛ لأنه يحفف بمخدومه في الأمرين معاً ، وهو يضيع مصلحته ويخون أمانته ، وهو كَلٌّ على مولاه في كل حال .

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (٢٢٧ / ١٤٢) عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، بنحوه ، وأخرجه مسلم (١٤٢) باللفظ الثاني .

وأما الصنف الثالث : وهو المضطلع غير الموثوق فإنه يؤمن من تضييعه باضطلاعه ، ويحاول على التحرز من خيانتة ، جهد الاستطاعة .

وأما الصنف الرابع : وهو الموثوق غير المضطلع ، فإن ضرره بالتضييع أكثر من نفعه ولو كان مأموناً .

ثم قال ابن خلدون في نهاية هذا التحليل وختام هذا الفصل : «فاعلم ذلك واتخذ قانوتاً في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما شاء» .

ب- وإذا كان المرشحون في مستوى واحد :

وقع البت في كل حالة من حالاتهم بما يناسبها حسب ما يأتي :

١- إذا تساوا من كل وجه ، والجهة واحدة (أي المنصب الشاغر واحد) تخير الإمام من بينهم من شاء .

٢- إذا تساوا من كل وجه ، والجهات متعددة ، ولي كل واحد منهم في الجهة التي تليق به .

٣- إذا تساوا من كل وجه ، وكانت الولاية الشاغرة واحدة ، ولا ضرر في تجزئتها ، ولي كل واحد منهم جزءاً منها بشرط أن لا يقع بينهم تنازع واختلاف يؤدي إلى تعطيل مصالحها .

٤- إذا تساوا من كل وجه وكان المصير كبيراً- كالعواصم الكبرى- ولي كل واحد منهم في جانب من جوانب المصير (كما يقع في تعدد قضاة المصير الواحد مع الاختصاص بدائرة أو بنوع من الأحكام) .

٥- إذا تساوا من كل وجه ولا سبيل إلى تعيينهم جميعاً أقرع بينهم فمن خرج سهمه قدم ، ومن لم يخرج سهمه أخر .

١٢- ما هي الحكمة في إجراء القرعة بين المرشحين المتساويين؟

- ١- أن لا يحقد المؤخر منهم على الإمام ، بسبب تقديم غيره عليه .
 - ٢- أن لا يحقد المؤخر منهم على نظيره المقدم ؛ لأن الإنسان يأنف عادة من تقديم نظيره عليه ، ولا يأنف من تقديم من هو خير منه .
- وهكذا يكون تقديم من قدم بواسطة القرعة مردّه إلى الله ، ولا دخل فيه لأحد ، وبذلك يقع تفادي الضغائن والأحقاد .

١٣- ما هو العمل عندما يكون الترشيح من تلقاء المرشح نفسه؟

للبت في أمر هذا المرشح لابد من النظر في أهليته أولاً ، وفي الدافع الذي دفعه إلى ترشيح نفسه ثانياً .

وبناء على هذا الأساس يرفض طلبه في ثلاث حالات :

الحالة الأولى : إذا كان غير أهل للولاية ؛ لأنه يكون عاجزاً عن القيام بحقها ، وأداء ما يجب عليه فيها .

الحالة الثانية : إذا كان الدافع له إلى طلبها مجرد غرض شخصي ، كحب الجاه والتباهي بالمنصب ؛ لأن مقصوده الخاص من الولاية يكون مضاداً لمقصود الشارع منها ، وهو خدمة الصالح العام .

الحالة الثالثة : إذا كان الدافع له إلى طلبها حب الانتقام من الأعداء ، أو قبض الرشوة من الخصوم ، أو ما أشبه ذلك ؛ لأن تمكينه من الولاية بهذه النية يكون هدماً للولاية العامة من أساسها ، وتسخييراً لها لعكس ما أقيمت لأجله ، وهو جلب المصالح ودرء المفاسد .

ويقبل طلب من رشح نفسه في حالة واحدة ، وهي حالة ما إذا كان أهلاً للولاية واثقاً من نفسه بالقدرة على القيام بحقوقها ، وكان الدافع الذي دفعه إلى طلبها مجرد الرغبة في إعانة ولي الأمر على إقامة العدل ، ونصر المظلوم وكف الظالم والإصلاح بين الناس ، ومحاولة القيام بما فرض الله عليه عيناً أو كفاية .

وفي هذه الحالة بالخصوص يجوز له شرعاً أن يرشح نفسه ، ويعرف ولي الأمر بأهليته للولاية العامة ، مقتدياً في ذلك بيوسف بن يعقوب عليهما السلام ، إذ رشح نفسه قائلاً فيما حكاه عنه الذكر الحكيم : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

١٤- ترشيح من هو غير صالح مع وجود الأصلح :

نظراً لأن اختيار الأمثل فالأمثل للولايات العامة ، هو الأساس الذي يبنى عليه النظام الإداري في الإسلام ، فإن العدول عن الأمثل والأصلح ، الذي هو أحق بالولاية ، إلى غيره ممن دونه ، لاعتبارات خارجة عن مقصود الولاية ، يعتبر تضييعاً للأمانة ، وتضحية بالمصلحة العامة ، ويدخل في النهي الصارم والعقاب اللازم الذي تضمنه قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

ومن أمثلة الاعتبارات الجانبية التي يجب أن لا يكون لها دخل في الترشيح للولايات العامة ، اعتبار القرابة والصداقة ، والانتماء إلى بلد واحد ، أو مذهب واحد ، أو طريقة واحدة ، وتناول الرشوة مقابل الترشيح ، واستعداد المرشح لمحاباة ومداهنة من رشحه في إطار ولايته ،

وكون المرشح ابنًا لوالٍ كفء مات ، فخلفه ابنه ولو كان غير كفء ، وكون الأحق بالولاية ليست له علاقة ودية مع من بيده الترشيح ، فيرشح غير الأحق من أصدقائه أو خدامه وكون من بيده الترشيح عاجزًا عن التمييز بين الصالح والطالح فيرشح من خدعه فانخدع له ؛ لأنه لا يعرف الأصلح للمنصب من غير الأصلح .

١٥- ترشيح من هو غير صالح لعدم وجود الأصلح :

القاعدة أن ولي الأمر لا يستعمل هو ولا نوابه في الولايات إلا الأصلح الموجود ؛ لأنه الأحق بالترجيح ، فإذا لم يكن في موجوده من هو صالح للولاية بعد التحري والاجتهاد في البحث عنه ، لم يسعه إلا بحسبه ، وإذا سلك هذا المسلك يكون قد قام بواجبه ، أدّى الأمانة الملقاة على عاتقه ، ولا يؤاخذ بما قد يقع بسبب غيره من الاختلال في بعض الأمور إذا لم يمكن إلا ذلك ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، ويقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ويقول النبي ﷺ : «إذا أمرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١) .

١٦- تعدد الأفراد في الولاية الواحدة :

إذا كانت الولاية الواحدة متشعبة الأغراض متنوعة المصالح ، ولم تقع الكفاية فيها بواحد ، رشح لها العدد الكافي بحسب المؤهلات المطلوبة لكل غرض ، مثل ولاية الأموال وولاية الجيوش .

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، به .

١٧- هل الأفضل تضيق اختصاص الولاية أو توسيع اختصاصها؟

للجواب عن هذا السؤال تصدى أحد كبار الفقهاء قائلاً: «إن الولاية كلما ضاقت قوي الوالي على القيام بجلب مصالحها ودرء مفسدها، وكلما اتسعت عجز الوالي عن ذلك».

وهذا الرأي الفقهي رأي سليم يؤيده الواقع وتسانده التجربة، إذ لا يمكن للمتولي أن يواجه في آن واحد بنفس المقدرة ونفس الفاعلية عدة اختصاصات متشعبة أو متباينة، وسيكون مضطراً لأن يعتني بجانب منها ويهمل الجانب الآخر، وبذلك يفقد التوازن المطلوب في رعاية مجموع المصالح العامة على اختلاف أنواعها، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

١٨- تحديد مدة الولاية بعامين اثنين:

مرد تحديد مدة الولاية بعامين اثنين بالنسبة لنفس المنصب ونفس المكان يرجع إلى أمرين اثنين:

أولاً: لتفادي المحاباة والمحسوبية، إذا طالت المدة أكثر، وكثر الأصحاب والأخذان بعين المكان وفي نفس الولاية.

ثانياً: لفتح الطريق أمام المؤهلين الآخرين حتى يكثُر المدربون على الولاية ولا يستبد السابقون إليها وحدهم بالعمل فيها، فتصبح نوعاً من الاحتكار، وقد أوصى عمر بن الخطاب حين كتب عهده بأن لا يولى العامل أكثر من عامين، وأخذ بذلك الموحدون في ولاية القضاء بتونس، حيث كانوا لا يولون الشخص منصب القضاء أكثر من عامين.

١٩- متى يصح العزل ومتى يمتنع؟

١- إذا كان المتولي ، لا يوجد من يقوم مقامه في الولاية ، فإن الولاية تبقى لازمة في حقه ، ولا يسوغ له التخلي عنها ، بحيث لو طلب الانعزال رفض طلبه ولا يجوز لولي الأمر عزله .

٢- إذا كان المتولي يوجد من يقوم مقامه وظهرت عليه ريبة وجب عزله ، دفعًا لمفسدة الريبة عن المسلمين ، وتفاديًا لما يخشى من خيانتة في الولاية وكذلك الأمر إذا ثبتت في حقه جرحة فإنه يعزل حفظًا لمكانة الولاية وهيبتها في النفوس ، لكن إذا استطاع المعزول لجرحه أن يثبت خلاف ما اتهم به ، وأن يحصل على البراءة منها جاز للإمام أن يعيده إلى منصبه .

٣- إذا كان المتولي يوجد من يقوم مقامه لكن لم يثبت في حقه جرحة ، ولم تظهر عليه ريبة ، فهاهنا يجب النظر فيمن سيخلفه .

أ- فإن كان الغرض تولية من هو أفضل منه في منصبه نفذ الإمام عزله ، تقديمًا للأصلح على الصالح ، لما فيه من تحصيل المصلحة الراجحة للمسلمين .

ب- وإن كان الغرض تولية من هو مساو له في منصبه جاز عزله- في نظر فريق من الفقهاء- لما للإمام من حق التخيير عند تساوي المصالح ، وحق التخيير عند تساوي المصالح ، وحق التخيير بين المتساويين في ابتداء الولاية ، وامتنع عزله- في نظر فريق آخر من الفقهاء- لأن عزله لا يحقق أي شيء أصح للمسلمين من جهة ، ولأنه يؤدي المعزول بالعزل ، إذ يعرضه لاتهامات الناس ، وترك الفساد بالنسبة لمن يراد عزله أولى من تحصيل الصلاح لمن تراد توليته .

ج- وإن كان الغرض تولية من هو دونه في منصبه لم يجز عزله بالمرة ، لما في ذلك من تفويت المصلحة الحاصلة به على المسلمين دون مقابل ولا مبرر .

٢٠- هل يعتبر التشكي مبرراً كافياً للعزل؟

في هذا الموضوع نظريتان :

النظرية الأولى : يقول بها أصبغ ، وهي أنه إذا تشكى الناس بالوالي ووجد بدله فالأولى عزله (حتى لا يبقى والياً عليهم وهم له كارهون) ، وقد عزل عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص على ما هو عليه من العدالة والفضل لشكوى طائفة من أتباعه به . لكن ينبغي للإمام أن يخبر الناس بأن عزله لم يكن من مسخطة عليه ولا خيانة ولا عجز كما فعل عمر بن الخطاب بالنسبة لسعد بن أبي وقاص نفسه بعد عزله .

النظرية الثانية : يقول بها أشهب وابن رشد ، وهي أنه إذا كان القائمون بالتشكي متهمين في شكواهم ، وكان المتشكى به مشهوراً بالخير والعدالة والأمانة ، فإنه لا ينبغي للإمام أن يعزله ، بل يبقيه في منصبه ؛ لأن مجرد الشكوى به لا يبرر عزله شرعاً .

٢١- ضمانات للولاة وللرعية:

حرصاً على كرامة الولاة حتى لا تتهمهم الرعية بدون حق ، وحرصاً على مصالح الرعية حتى لا يظلمها الولاة بسوء تصرفهم قرر فقهاء الإسلام أن من واجبات (الإمام الأعظم) الكشف عن الولاة والقضاة والعمال ، والتعرف على مذاهبهم وطرائقهم ، وتصفح أحوالهم حتى لا يظلموا الرعية ، هذا من جهة ، وكذلك الكشف عن أحوال الرعية وتتبع

أخبارها، وعدم الغفلة عن مجريات حياتها، حتى لا يترتب على الغفلة ضرر عام قد لا يمكن تداركه .

ونصح فقهاء الإسلام الإمام الأعظم بأن يختار لهذه المهمة قومًا من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته، وممن بايعوا الإمام على النصح له ولرعيته، يكون عملهم بالسؤال عن سيرة الولاة وما عملوا به في البلاد، وإبلاغ الإمام الأعظم أخبار رعيته بانتظام، دون أن يستروا عنه خبرًا عن رعيته، ولا عن ولايته، ومن نصح الإمام أن لا تظلم رعيته .

وإنما نص الفقهاء على اختيار العدول الثقات، الذين لا يهتمون ولا يخذعون لهذه المهمة العظمى؛ لأن المكلفين بها، إذا لم يكونوا كذلك إما أن يميلوا مع العمال والولاة ضد الرعية، فيستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس، وإما أن يميلوا ضد الولاة والعمال إذا لم يرضوهم فيكتبوا عنهم بما لم يفعلوا، متظاهرين بالميل إلى الرعية والدفاع عنهم ضد الولاة والعمال، وفي كلتا الحالتين لا ينبغي للإمام أن يقبل لهم خبرًا في والٍ ولا قاضٍ ولا عاملٍ؛ لأن من لم يكن عدلاً ثقة لا يحل ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله .

ويشهد لفائدة الكشف عن أحوال الولاة وأحوال الرعية ما رواه الترمذي في «شئله» من حديث ابن أبي هالة الطويل: «كان رسول الله ﷺ يسأل الناس عما في الناس» .

ويشهد له قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية دولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقتطع دوني، أما عما هم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ، أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا» .

٢٢- مدار الولايات العامة على الصدق والعدل :

(الصدق والعدل) قرينان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يفترقان قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] ، (الأفك) : الكاذب ، و (الأثيم) : الظالم الفاجر .

وقال ﷺ لما ذكر الولاية الظلمة : «من صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ولا يرد علي الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وسيرد علي الحوض»^(١) .

والمتولون بالنسبة لما هم مطالبون به من الصدق والعدل نوعان :

النوع الأول : المتولي الذي يطلب منه الصدق ؛ لأنه يكون بمنزلة الشاهد المؤمن ، مثل المتولي على مداخيل بيت المال ومصاريفه ، ومثل المتولي على الأخبار المكلف باطلاع ولي الأمر على أحوال الرعية وسير العمال .

النوع الثاني : المتولي الذي يطلب منه العدل ؛ لأنه يكون منه موكولاً إليه الفصل في الخصومات وتنفيذ العقوبات ، مثل القائم بولاية القضاء وولاية الحسبة وولاية المظالم .

على أن أغلب الولايات تتوقف على الجمع بين الصدق والعدل في آن واحد ، ولا تستغني عنهما مجتمعين .

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٩) ، والنسائي في «الكبرى» (٧٨٣٠) ، وأحمد في «المسند» (٢٤٣/٤) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به . قال الترمذي : «صحيح» . وصححه ابن حبان (٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥) ، والحاكم في «المستدرک» (١ / ٧٩) .

٢٣- الولايات العامة يجب أن تكون مبرأة من الحظوظ الشخصية :

(الضروريات) التي تتوقف عليها الحياة الإنسانية نوعان :

النوع الأول : ما تتوقف عليه حياة الفرد ، ويكون الغرض المباشر منه تحقيق حظ شخصي عاجل ، وذلك لقيامه بمصالح نفسه وعياله ، مثل الاقتيات واتخاذ السكن واللباس وما يلحق بهما من المتممات ، كالبيوع والإجارات وغيرها من وجوه الاكتساب التي يقوم بها أود الإنسان .

النوع الثاني : ما تتوقف عليه حاجة الجماعة ، ويكون الغرض الأصلي من خدمة المصالح العامة ، اللازمة لبقاء الجماعة واستمرارها ، بحيث إذا فرض انعدامه أو إهمال الناس له انخرم النظام ، مثل الولايات العامة المقصود بها في الأصل خدمة الصالح العام ، كالإمامة العظمى والقضاء والجهاد والتعليم .

وهذا النوع الثاني يختلف عن النوع الأول في كونه لم يعتبر فيه الحظ الشخصي لأي فرد من الأفراد ، ولم يشرع لنيل أية مصلحة شخصية .

وبناء عليه فإن من تحمل أعباء الولاية العامة يجب عليه أن لا يتصرف فيها لمصلحته الخاصة ؛ لأنه إذا تصرف فيها على ذلك الوجه يكون في واقع الأمر واليًا على مصلحة نفسه لا غير ، ولا يدخل في عداد الولاة على المصالح العامة لجماعة المسلمين ويعتبر حينئذ (واليًا خاصًا) لا (واليًا عامًا) .

وما دام القصد الأول من الولاية العامة هو خدمة الصالح العام ، لا استغلال النفوذ ولا شرف الأمر والنهي ، فيجب أن تكون هذه الولاية مبرأة من الحظوظ الشخصية ، وغير مسخرة لها بالمرة ، حتى تحافظ على صبغتها الأصلية التي هي (صبغة عامة) .

٢٤- الولاية يقومون (بالمصالح العامة)، و (بيت المال) يقوم (بمصالحهم الخاصة) :

يعتبر القيام بمصالح الولاية الخاصة التي لا يقوم أود من يعيش تحت كفالتهم إلا بها، أمرًا مطلوبًا ومتأكدًا وذلك مقابل قيامهم بشئون المسلمين، وتفرغهم لخدمة مصالحهم العامة، إذ لا يمكنهم الجمع بين القيام بالمصلحة الخاصة بهم والمصلحة العامة للناس، فمن أخذ على عاتقه القيام بالمصالح العامة لا يبقى له من الوقت ما يكفي للتفرغ لكسب معاشه وقضاء مصالح نفسه، ويصبح واجبًا على عامة المسلمين أن يقوموا له بمصالحه حتى يتفرغ للنظر في مصالحهم، ومال (بيت المال) هو المرصد لمصالح المسلمين والإنفاق عليها وعلى خدامها نيابة عنهم جميعًا، ويستأنس في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، وبقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود في «سننه» ضمن (باب في أرزاق العمال) عن المستورد بن شداد مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: «من كان لنا عاملًا فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا».

والشرط في قيام بيت مال المسلمين بالمصالح الخاصة لولايتهم أن يقع على وجه لا يدخل بمصالح المسلمين ولا يلحق ضرارًا بمصالح الولاية.

٢٥- العطاء الجاري على الولاية:

جراية لا إجارة:

(الأرزاق)- بمعنى العطاءات الجارية- والإجارات كلاهما بذل مال بإزاء منافع الغير لكن يوجد بينهما عدة فروق .

أولاً : إن (الأرزاق) إعانة من بيت المال للولادة على القيام بالمصالح العامة والتفرغ لخدمتها ، وليست عوضاً عما وجب من القيام بها ، ولذلك جازت في أبعد الولايات عن المعاوضة ، وهي ولاية القضاء والحكم بين الناس .

بينما الإجازات عوض عن عمل ، وقبض العوض في مثل هذا المقام يؤدي إلى الاتهام بمعاوضة صاحبه .

ثانياً : إن (الأرزاق) أدخل في باب الإحسان وأبعد عن باب المعاوضة ، ولذلك يجوز فيها التقليل والتكثير ، كما يجوز فيها الدفع والقطع والتغيير ، باعتبار أنها معروف ، يحدده الإمام الأعظم بحسب المصلحة ، وكيفما دارت المصالح دار العطاء معها قلة وكثرة .

بينما الإجازات عقد معاوضة مطبوع بطابع المكايسة والمغابنة ، وقدر الإجارة يجب تسليمه بعينه من غير زيادة ولا نقص ، نظراً لأن الوفاء بالعقود واجب .

ثالثاً : إن (الأرزاق) لا يشترط فيها مقدار خاص من العمل ، ولا أجل محدود تنتهي إليه بينما الإجازات - من حيث إنها معاوضة لا معروف - يشترط فيها الأجل ، ومقدار المنفعة ، ونوعها حسب قواعد الإجارة .

٢٦- ما هي الحكمة في ربط الولاية (ببيت المال) لا بغيره من الناس :

الحكمة في ربط الولاية ببيت المال ، وقيامه دون غيره بمصالحهم الخاصة مقامهم بالمصالح العامة للمسلمين ، تتضح من عدة وجوه :

الوجه الأول : أنه لو لم يقيم بيت المال بمصالحهم الخاصة وتكفل بها أفراد معينون ، فإن هؤلاء الأفراد يصبحون في حرج ، إذ ربما لا يتيسر لهم

ذلك في كل وقت ولا في كل حال ، ويلحقهم الضرر من جراء هذا التكليف الذي لا ضابط له .

الوجه الثاني : إن ارتباط الولاية في مصالحهم الخاصة بأولئك الأفراد المعينين ، لا بيت المال ، قد يؤدي إلى الضغط عليهم من طرفهم ، وضياح استقلالهم ، ويدفع بهم إلى الميل لجهة أولئك الأفراد وخدمة مصالحهم ، بدلاً من إحقاق الحق وإبطال الباطل ، الذي هو الغاية الأولى من إقامة الولايات العامة لصالح العموم ، ومن اعتبار الوالي قيمًا في ولايته للغني والفقير ، والصغير والكبير .

الوجه الثالث : إن الولاية إذا أصبحت حياتهم الشخصية رهناً بعباء أولئك الأفراد المعينين ، ورضوا بهذا الوضع تتطرق إليهم الظنون والتهم ويتعرضون للطعن في نزاهتهم ، وإلى فقدان الثقة بهم .

الوجه الرابع : إن الولاية إذا أصبحت مصالحهم الخاصة تحت رحمة أولئك الأفراد المعينين يتعرضون للمن والأذى ويصبحون في حالة مزرية لا تتفق مع كرامتهم كولاية عموميين يقومون بمصالح المسلمين .

وتفاديًا لهذه المساوئ والأضرار ، وحتى لا تكون على الولاية منة لأحد ، قررت الشريعة أن ينفق على مصالحهم الخاصة من بيت المال ، وربطتهم به دون غيرهم من أفراد الناس .

٢٧- كل من يتولى أمرًا لمصلحة المسلمين فله في بيت المال حق كفاية :

قال حجة الإسلام الغزالي في (كتاب الحلال والحرام) من كتاب «الإحياء»^(١) ما نصه بالحرف الواحد : «فكل من يتولى أمرًا يقوم به

(١) «الإحياء» (٢/ ١١٥) .

تتعدى مصلحته إلى المسلمين- ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه- فله في بيت المال حق الكفاية، ويدخل فيه العلماء كلهم؛ أعني العلوم التي تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون، وطلبة هذه العلوم أيضًا يدخلون فيه، فإنهم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب.

ويدخل فيه العمال، وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم، ومنهم الأجناد المرتزقة، الذين يجرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغي وأعداء الإسلام، ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج، أعني العمال على الأموال الحلال لا على الحرام.

فإن هذا المال للمصالح، والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا، فبالعلماء حراسة الدين، وبالأجناد حراسة الدنيا. والدين والملك توءمان، فلا يستغني أحدهما عن الآخر.

والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني، ولكن يرتبط به صحة الجسد، والدين يتبعه، فيجوز أن يكون له ولمن يجري مجراه في العلوم المحتاج إليها في مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد، إدرار من هذه الأموال، ليتفرغوا لمعالجة المسلمين، أعني من يعالج منهم بغير أجر.

وليس يشترط في هؤلاء الحاجة، بل يجوز أن يعطوا مع الغنى، فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة.

وليس يتقدر أيضًا بمقدار، بل هو إلى اجتهاد الإمام، فله أن يوسع ويغني وله أن يقتصر على الكفاية، على ما يقتضيه الحال وسعة المال.

وقد نقل الفاكهاني في «المنهاج» عن حجة الإسلام الغزالي أنه قال : «يجب لحافظ القرآن في كل سنة من بيت مال المسلمين مائة دينار» ، ونقل صاحب «الأجوبة المهمة» عن الحافظ جلال الدين السيوطي أنه قال : «إن لمعلم الصبيان من بيت مال المسلمين مائة دينار ، فإن لم يكن من بيت المال فعلى جماعة المسلمين» .

٢٨- الجوائز والصلات وضروب التخصيصات :

علاوة على الأرزاق الجارية للولاة ومن ألحق بهم من خدام المصالح العامة للمسلمين ، الدينية والدنيوية ، فإن ينبغي لولي الأمر أن يرغب الممتازين من الولاة وأفراد الرعية في المزيد من العمل الصالح ، ويشجعهم عليه بالثناء أحياناً وبالجوائز المناسبة أحياناً حتى تقوى عندهم الرغبة في ممارسة وجوه الخير ، ويتنافسوا في الإقبال عليها والتفاني فيها بكل حماس . وفي هذا المعنى يقول حجة الإسلام الغزالي في «الإحياء» (كتاب الحلال والحرام) : «كذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوي الخصائص بالخلع والجوائز ، فقد كان يفعل ذلك في السلف .

ولكن ينبغي أن يلتفت فيه إلى المصلحة ، ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتشبه به ، فهذه فائدة الخلع والصلات ، وضروب التخصيصات ، وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان» .

وفي نفس المعنى يقول تقي الدين ابن تيمية في كتاب «السياسة الشرعية» : «فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة ، والإعانة عليه ، والترغيب فيه بكل ممكن ، مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح من مال أو ثناء أو غيره .

ولهذا شرعت المسابقة بالخيّل والإبل ، والمناضلة بالسهم (المباراة في الرمي) وأخذ جعل عليها ، لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله ، حتى كان النبي ﷺ يسابق بين الخيل هو وخلفاؤه الراشدون ويخرجون الأسباق من بيت المال أي يخرجون من بيت المال ، المال الذي يتراهن عليه المتسابقون ، ويطلق عليه السبق والجمع أسباق .

٢٩- التعويضات العائلية :

منذ العصر الأول للإسلام- عصر الرسالة والخلافة- أقرت الدولة الإسلامية حق التعويضات العائلية للمواليد والزوجات .

ففي عهد الرسالة كان ﷺ إذا أتاه الفيء أعطى المتزوج منه حظين اثنين ، حظاً له وحظاً لزوجته ، وأعطى الأعزب حظاً واحداً عن شخصه لا غير ، تشجيعاً للزواج وإعانة على تكاليفه ، يدل على ذلك ما أخرجه أبو داود في «السنن» عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه ، فأعطى صاحب الأهل حظين ، وأعطى العزب حظاً ، فدعيت- وكنت أدعى قبل عمار- فأعطاني ﷺ حظين ، وكان لي أهل ، ثم دعي بعدي عمار بن ياسر ، فأعطي حظاً واحداً . (لأنه كان أعزب) .

وفي عهد الخلافة كان عمر بن الخطاب يخص كل مولود بمجرد نفاس أمه به وخروجه من بطنها بعطاء يبلغ مائة درهم ، فإذا ترعرع المولود رفع عطاءه إلى مائتي درهم ، فإذا أدرك سن البلوغ زاده فوق ذلك .

وسلك نفس المسلك سميّه المقتدي به أحسن الاقتداء عمر بن عبد العزيز ، فكان يفرض في بيت المال لمن بلغ خمس عشرة سنة ضمن (المقاتلة) وكان

يفرض لمن هو دون ذلك ضمن (الذرية) ، وكتب بذلك إلى عماله لتعميم هذا الحق بين مواليد المسلمين ، حسب ما روى ذلك القاضي أبو يوسف في كتاب «الخراج» الذي كتبه هارون الرشيد .

٣٠- العطلة الأسبوعية :

مبدأ الاستجمام من العمل والترويح عن النفس ، للعودة إلى العمل واستئناف النشاط بقابلية وشوق مبدأ يقره الإسلام ويرعاه ؛ لأن الاستجمام على هذا النحو فيه دواء للإعياء والملل ، وفيه متنفس للنفس .

وبناء على هذا المبدأ قرر حجة الإسلام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» : إنه ينبغي التعطيل يوم الجمعة ، وعلل ذلك بقوله : «لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام» ، ثم زاد قائلاً : «فالعطلة معونة على العمل ، واللهو معين على الجد ، واللهو على هذه النية يصير قرينة من القربات» .

ومما حفظه تاريخ الدولة الإسلامية أن الدواوين في دار الخلافة كانت تغلق يومين في كل أسبوع : يوم الجمعة ويوم الثلاثاء ، فقد جاء في كتاب «الوزراء» للصابي : «أن الخليفة العباسي المقتدر- الذي كان يعيش في القرن الثالث الهجري- أمر بجعل العطلة الأسبوعية خلال هذين اليومين ، وعلل قراره بأن يوم الجمعة يوم صلاة ، وبأن يوم الثلاثاء يقع في وسط الأسبوع ، والناس يحتاجون في وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر في أمورهم ، والتشاغل بما يخصهم» .

٣١- قطع الجراية عند التخلي عن الولاية وإعادة ما أخذ منها غلطاً إلى بيت المال؛

من له رزق مخصوص من الإمام على وظيفة معينة وانقطع عن القيام بتلك الوظيفة فإنه لا يجوز له أن يتناول العطاء عليها؛ لأن الإمام إنما خصص له ذلك العطاء من بيت المال على تلك الوظيفة المعينة، وما دام لم يعد يقوم بها فلا حق له في العطاء، إذ لا يجوز له أخذه إلا على الوجه الذي خصصه الإمام.

وإذا تسلم الجراية غلطاً من بيت المال بعد تخليه عن الوظيفة عدت (أمانة شرعية) في يده، وكان عليه أن يردّها إلى بيت المال وإذا لم يردّها إليه كان للإمام أن ينتزعها منه ويستردّها لبيت المال.

وهذا لا يمنع الإمام - بعد اطلاعه على عدم قيام المتولي بوظيفته - من أن يخصص له نفس الجراية نظراً لمصلحة أخرى غير تلك الوظيفة، وإذا ذاك يصبح مستحقاً للجراية من جديد، لكن بالإذن الثاني لا بالتقرير الأول.

٣٢- عدم مؤاخذة الولاية بالخطأ والغلط؛

إذا حكم الحاكم أو نائبه بما ظنه حقاً بناء على الحجج التي بين يديه، ثم تبين له خلاف ظنه فإنه يكون قد ارتكب خطأً معفواً عنه.

وإذا أدى عمله في معرض التصرف بالأحكام إلى ارتكاب غلط في حق المحكوم عليه، فإنه لا يطالب بالضمان، ولا يستحق التعريم.

وإذا أدى التصرف الحاكم أو الإمام إلى إتلاف شيء من الأموال والأنفس في إطار تصرفهما للمصالح العامة، فإن مسؤولية ذلك تصرف

وأثارة تقع على بيت المال دون الحاكم أو الإمام ؛ لأنها لما تصرفا لمصالح المسلمين صار المسلمون كأنهم هم المتلفون ، وعلى بيت مال المسلمين رفع ضرر ذلك الإلتلاف وتبعته .

٣٣- ما هو مقصود الشرع من الولايات؟

مقصود الشرع من الولاية العامة أيًا كان نوعها هو قيام المتولي لها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدائرة الخاصة بولايته ، بحيث يتخذها ذريعة توصله إلى جلب المصالح ودرء المفاسد في نطاق اختصاصه ، كيفما كان ذلك الاختصاص .

مثال ذلك : ولاية الأمن العام ، عندما تدعو الناس إلى حفظ الأمن والتزام السكينة تكون أمرة بمعروف ، وعندما تقف في وجه دعاة الفوضى والفتنة والمحرضين على إقلاق الراحة العمومية تكون ناهية عن منكر .

وولاية المالية العامة عندما تدعو الناس إلى أداء ما عليهم من حقوق لبيت المال تكون أمرة بمعروف وعندما تعزز المهاطلين في أداء حقوقه أو الممتنعين من أدائها تكون ناهية عن منكر وهكذا بقية الولايات .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على كل مسلم قادر فهو على أهل الولاية والسلطة فرض عين ؛ لما لهم من القدرة على القيام به وما تحت يدهم من الوسائل المعينة على التمكن من أدائه ، أكثر من بقية الناس ، وبديهي شرعًا وطبعًا أن القادر يجب عليه ما لا يجب على العاجز .

وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو مقصود الشرع من جميع الولايات العامة يشير إلى قوله تعالى في سورة الحديد : ﴿لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد]:
٢٥، فهذه الآية الكريمة التي افتتحنا بها مطلع الحديث في هذه
المحاضرة يتعلق شقها الأول بالأمر بالمعروف القائم على (الكتاب)،
ويتعلق شقها الثاني بالنهاي عن المنكر المتوقف على (الحديد)، إذ إن من
عدل عن الكتاب يقوم بالحديد، و(الميزان) الذي ذكرته الآية إلى
جانب (الكتاب والحديد) هو ميزان (العدل) الذي هو عبارة عن الأمر
والنهاي معاً، وبذلك لا يقع ظلم من الراعي للرعية، ولا من الرعية
للراعي، ولا من الرعية بعضها لبعض.

قال أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي في كتابه «مدارك التنزيل
وحقائق التأويل» بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة: «والمناسبة بين هذه
الأشياء الثلاثة - أي الكتاب والحديد والميزان - أن الكتاب قانون
الشريعة، ودستور الأحكام الدينية، يبين سبل المرشد والعهود،
ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى
عن البغي والطغيان، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنما يقع
بآلة يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي والتعادل، وهي الميزان،
ومن المعلوم أن الكتاب الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعية
للتعامل بالسوية، إنما تحض العامة على اتباعهما بالسيف، الذي هو
حجة الله على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد، وهو
الحديد، الذي وصف بالبأس الشديد».

وفي مثل هذا المقام كان أحد شيوخنا الكبار رضوان الله عليهم ينشد قول الشاعر :

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف تقيم ظباه أخدعي كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

فالواجب على المتولي المسلم أن يجتهد في تحقيق مقصود الشرع من الولاية بحسب وسعه ، وأن يبذل فيها جهده المستطاع لإقامة مصالح المسلمين ودرء المفاسد عنهم وبذلك يؤدي ما أوجب الله عليه ، ولا يؤاخذ به بما لم يستطع الوصول إليه .

٣٤ - جميع الولايات العامة موضوعة تحت نظر الشرع :

نظرًا لامتداد نفوذ الشريعة على كل مجالات الحياة الإسلامية الخاصة والعامة وعموم التكليف بأحكامها للحاكمين والمحكومين فإن جميع الولايات العامة في دار الإسلام تعتبر من هذه الجهة ولايات دينية ومناصب شرعية ، ولو كان موضوعها دنيويًا وسياسيًا ؛ لأن حكم الله شامل للجميع .

ولذلك فإن كل متولٍ لأية ولاية من الولايات يجب عليه أن يراعي فيها مقتضى العدل ، وأن لا يتصرف فيها تصرفاً غير مطابق للشرع ، وعليه أن يقوم بما فوض إليه في الولاية الموكولة إليه ، في نطاق ما تحدده مقاصد الشريعة وتسمح به قواعدها العامة .

وكل من مارس ولاية من هذه الولايات وساسها بعلم وعدل ، وبروح إسلامية صادقة ، كان معدودًا في نظر الشرع من الولاة العادلين الأبرار .

٣٥ - أصناف الولايات ومراتبها:

الولاية لها طرفان وواسطة ، فأعلاها الإمامة العظمى ، وأدناها التحكيم الذي يكون من جهة المتنازعين ، وبين هذين الطرفين وسائط كبيرة ، منها ما يفيد أهلية الأحكام كلها كولاية القضاء العامة ، ومنها ما يفيد أهلية بعض الأحكام دون بعض كولاية الحسبة وولاية المظالم ، ومنها ما لا يفيد أهلية الحكم ، وإنما يقتصر على التنفيذ ، كولاية صرف النفقات لمستحقيها ، وإيصال الزكوات لأصنافها ، ومنها ما لا يفيد أهلية التنفيذ وإنما يقتصر على الحكم كولاية الحكّمين ، ومنها ما لا يفيد أهلية حكم ولا تنفيذ ، كولاية الكاتب والحاسب والترجمان والمقوم .

والولايات العامة درجات بعضها فوق بعض ، تبعاً لما تجلبه كل ولاية في حد ذاتها من المصالح وتدرؤه من المفاصد ، فهي من أجل ذلك مختلفة المراتب مختلفة الأجور .

وبناء على هذا الأساس لا تعتبر ولاية الإفتاء وولاية القضاء في درجة واحدة ؛ لأن القاضي يفتي ويلزم فله أجران أحدهما على فتياه ، والآخر على إلزامه ، بينما المفتي يقتصر عمله على الإفتاء المجرد ، فله أجر واحد كما لا تعتبر ولاية الحج وولاية الجهاد في درجة واحدة ؛ لأن منفعة الجهاد أعظم من منفعة الحج وأعمق أثراً ، وإذا ارتفعنا إلى الولاية العظمى وهي ولاية (الإمام الأعظم) نجد أنها أفضل من ولاية القضاء والإفتاء وجميع الولايات الأخرى ، ونجد أجرها عند الله أعظم وأجل ؛ لأن ما يجلبه الإمام الأعظم من المصالح وما يدرؤه من المفاصد أتم وأعم .

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام في كتابه «قواعد الأحكام» ما نصه بالحرف الواحد : «فإن الإمام يقول الكلمة الواحدة في دفع بها مائة

ألف مظلمة فما دونها ، ويجلب بها مائة ألف مصلحة فما دونها ، فيا له من سعي راجح ، واتجار رابح ، ويا له من كلام يسير ، وأجر كبير» .

ولعلو مرتبة الإمام العادل وقع البدء به في الحديث الشريف : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل . . .»^(١) الحديث ، فوقع البدء به ؛ لأنه أعم السبعة نفعا لعموم المسلمين .

ومجمل القول : إن الولايات العامة على اختلاف أصنافها ومراتبها تعد شرعا من أفضل الطاعات ، وأن العادل من الأئمة والولاة والحكام أيّا كان نوع اختصاصه أعظم أجرا من غيره ، بإجماع أهل الإسلام ، حسب ما نص على ذلك عز الدين بن عبد السلام .

٣٦ - هل للولايات حد محدود في الشرع بحيث لا تتعداه؟

نص شمس الدين بن قيم الجوزية في كتابه «الطرق الحكمية» على أن عموم الولايات وخصوصها ، وما يستفيدة المتولي بالولاية يتلقى في ولاية القضاء في بعض الأزمنة والأمكنة- على حد قوله- ما يدخل في ولاية الحرب في زمان ومكان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال . . وتابعه على ذلك غيره من فقهاء الإسلام .

ومعنى ذلك أن الولايات العامة عرضة للتبديل والتغيير تبعا لاختلاف الظروف واختلاف الأعراف وعوامل التطور ، فلا حد في الشرع بالنسبة لأصنافها وعددها ، ولا حد في الشرع بالنسبة لاختصاصاتها ، ولا حد في الشرع بالنسبة لألقابها ، بل الأمر فيها موكل إلى ما تقتضيه ظروف المسلمين ومصالحهم واختباراتهم ، في كل وقت بحسبه .

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا ، به .

وقد دل تاريخ الدولة الإسلامية على أن أصناف الولايات العامة منها ما يبقى لبقاء موضوعه واستمراره ، ومنها ما يزول لزوال موضوعه واندثاره ، وعلى أن عددها يزيد وينقص حسب الظروف .

كما دل تاريخ الدولة الإسلامية على أن اختصاصات الولايات العامة تتعرض لكثير من التغيرات ، فمنها ما يضيق اختصاصه بعد السعة ، ومنها ما يتسع اختصاصه بعد الضيق ، ومنها ما يتأرجح بين الأمرين معاً مدّاً وجزراً .

ونفس الشيء وقع بالنسبة لألقاب الولايات ، بحيث نجد مدلول اللقب الواحد يختلف من قطر إلى قطر ومن حكومة إلى أخرى ، ونجد المعنى الواحد والولاية الواحدة يطلق عليهما ألقاب مختلفة باختلاف الأمصار والأعصار .

ومن محاسن الشريعة الإسلامية البارزة أنها في مثل هذا المجال تهتم بالجواهر واللباب ، ولا تقفل في وجه التغيرات المنتظرة النوافذ والأبواب .



المحاضرة الثامنة والعشرون:

الورع واتقاء الشبهات من مكملات الإيمان

وبالسند المتصل إلى الشيخ الإمام ، الحافظ الحجة الهمام ، أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي الفارسي ، وبه عنه قال : «باب فضل من استبرأ لدينه ، وعرضه» .

تمهيد : هذه ترجمة الإمام البخاري لهذا الحديث ، ومعلوم من منهجيته الحديثية ، أنه يضمن فقه الحديث الترجمة ، يضمن الترجمة فقه الحديث ، ولذلك ارتأى عبد ربه أن يختار عنوان اتقاء على الحكاية ، «اتقاء الشبهات ذريعة إلى الورع من مكملات الإيمان» ، أي حالة كون الورع من مكملات الإيمان .

وديدن المؤمن دائماً أنه يهفو إلى تمام إيمانه ، وإلى ما يؤدي بإيمانه إلى الكمال ، لا إلى النقصان على العكس ، وهذا الحديث عقد له الترجمة -كما قدمنا- بفضل اتقاء الشبهات ، الفضل الذي يحصل لمتقي الشبهات هو الورع ، والورع هو عنوان كون المكلف لا يقف أمام الفروض والواجبات ، أي المفروضة عليه ، والواجبة عليه ، بل يكون قويا نشيطا بتعديها إلى النوافل المرغب فيها شرعا ، وهذا يرشد إليه : «المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ، فقد حللوا هذا الحديث ، وحملوه على كون المؤمن القوي يكون أحب إلى الله من الضعيف ، والفرق بينهما أن هذا وفقه الله ، فوجد قوة إيمانية ، ونشاطا بدنيا مارس به النوافل الزائدة على الفروض والواجبات ، فشمله الحديث القدسي الذي رواه مسلم ، والذي جاء فيه محل الشاهد : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي

يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه» .

هذا هو المؤمن القوي الأحب إلى الله من الضعيف الذي لا يجد قوة ، ولا نشاطا يتخطى به الواجبات إلى النوافل .

ولا شك أنه دون سابقه مرتبة ، وبينهما تفاوت ملموس ، ولذلك صح التفاضل ، ويرشد إلى هذا ما جاء في نفس الحديث ، وهو «وفي كل خير» ، ولا يتصور في الطرف الثاني أن يكون مخلا بالواجبات وإلا لما كان فعله من قبل الخير أصلا ، فالذي يقابل بمن هو أحب عند الله ، وهو الذي يجد نشاطا يتعدى به الواجبات إلى النوافل ، ويكون من مشمولي من يتناولهم الحديث القدسي ، هو الذي قام بالواجبات ، ولكنه لم يستطع القيام بالنوافل الزائدة .

فضل اتقاء الشبهات : هو الحصول على صفة الورع ، التي قدمنا ما يتعلق بها ، ولكن صفة الورع ، تأتي بسبب اتقاء الشبهات ، واتقاء الشبهات هو مسبب عن قذف نور في القلب بمقتضى حكمة الله ، المسبب - أي النور القلبي - عن أكل الحلال .

وهنا ينجلي السر ، في كون الحديث ابتدئ فيه بالحلال ، الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات ، ووقع الختم بالقلب : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

وانتقلنا إلى صميم الحديث ، وإن كنا لازلنا في الترجمة لإبانة منهجية الإمام البخاري الحديثية ، وبالأخص في الصحيح ، وهو أنه يضمن فقه الحديث الترجمة ، يضمنه الترجمة .

الحلال قوبل بالقلب ، قلنا : بأن يأكل الحلال ينور القلب ، إذا نور القلب ، نتج عن ذلك اتقاء الشبهات ، إذا مارس اتقاء الشبهات وكان على حذر منها ، وكلما رأى في الأمر شبهة تنكبه ، اتصف بصفة الورع .

وكان ممن يشملهم قوله ﷺ في الحديث الآخر : «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير ؛ لأن الكل حافظ على الواجبات ، بيد أن هذا فاق الآخر بكونه تخطى الواجبات إلى المستحبات إلى الأشياء المرغوب فيها ، النوافل مطلقا الزائدة على الفرض .

«الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات» .

تنسيق البخاري للحديث : قبل الخوض في الحديث ، لا بأس بالنظر إلى تنسيق الإمام البخاري لهذا الحديث ؛ لأن تنسيقه دائما يكون مبنيًا بناءً ماساً بصميم الحديث ، فنراه وسطه في «صحيحه» بين حديث أبي سفيان ، وبين حديث وفد عبد القيس ، وسط حديث الدرس بينهما ، لم ؟ إذا بحثنا وجدنا أن السر في ذلك هو أن الغرض من هذا الحديث هو بيان أن لفظ الدين إذا أطلق عم الإيمان والإسلام وعموم الأعمال ، فهو قد وسط حديث الدرس بين حديث أبي سفيان ؛ لأن فيه جُمع في بعض فقراته التي هي من جملة الفقرات التي دار الحوار بها بين هرقل عظيم الروم ، وبين أبي سفيان ، بصفته رئيس الوفد ، ومما جاء فيها قول هرقل : سألتك - مخاطباً أبا سفيان - سألتك هل يزيدون - أي من دخلوا في الإسلام - هل يزيدون أم ينقصون ، فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فأجبت بلا ، وكذلك الإيمان ، فهذا هو الإيمان ذكر أولاً ، والدين ثانياً مع أنهما بمعنى .

أستفيد من هذا أن الدين قد يطلق على خصوص الإيمان ، وإن كان يطلق على الجميع ، هذا بالنسبة للحديث السابق ، بالنسبة للاحق ترجم له الإمام البخاري ، وهو حديث وفد عبد القيس ، بأداء الخمس من الإيمان ، أداء الخمس من الإيمان ، هذا عمل من الأعمال ، هو من الإيمان ، نعم فيكون الإتيان به لاحقا لأجل بيان أن الإيمان قد يطلق على عموم الأعمال من بينها أداء الخمس ، وهذا يرشد إليه أنه أتى بحديث ، وهو حديث أبي هريرة : «إن الدين يسر» ، لأنه عام في العناوين الثلاثة الإيماني والإسلامي وعموم الأعمال فإنه وإن كان حديث أبي هريرة «إن الدين يسر» وإن كان محتملا أن المراد به خصوص الإيمان الذي هو التصديق القلبي ، ومحتملا أن المراد به خصوص الإسلام الذي هو الانقياد ، ولكن الأظهر ، أنهما مرادان معا ، وذلك لتلازمهما ، أما عن عموم الأعمال فلأنها التي تتصف بالعسر واليسر ، ولفظ الحديث فيه : «إن الدين يسر» .

الإيمان بمعنى التصديق القلبي ، لا يوصف باليسر والعسر ، إذن بقي وصف اليسر مُنْصَبًا على الأعمال ، فمن ثم كان حديث أبي هريرة : «إن الدين يسر» عاما في الإيمان والإسلام ، وعموم الأعمال ، هذا من حيث التنسيق .

رواة الحديث : أما بالنظر إلى السند ، فإننا نجد الإمام البخاري ، يروي حديث الدرس عن أبي نعيم .

أبو نعيم : هذه كنيته ، أما اسمه فعمر بن حماد بن طلحة القرشي الكوفي القناد ، نسبة إلى القند ، وهو عسل قصب السكر ، هذا شيخ البخاري الذي يروي عنه حديث الدرس ، وهو أبو نعيم من حيث التوثيق قد وثقه ، قد قال فيه كل من ابن معين وأبي حاتم : صدوق ، وقال

فيه مطين : ثقة ، يئد أن أبا داود قال : إنه من الرافضة ، وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين ومائتين (٢٢٢) .

هنا لنا وقفة ، قوله : من الرافضة ، هذا مبتدع ، ابتدعا صريحا ، كيف يؤمن على حديث الرسول ، ويتخذ الإمام البخاري ، وما أجدره بالتحري ، بل بغاية التحري والمعرفة ، وسعة الاطلاع ، شيخا يروي الحديث عنه ، لا إشكال أن هذا المبتدع ، لم يكن داعية ومعلوم أن أئمة السنة اختلفوا في رواية المبتدع ، على أقوال أربعة ، ولكن الذي انفصلوا عليه من الخلاف ، وهو الذي يهمننا ، هو أن رواية المبتدع قد تقبل ، وقد لا تقبل ، وبعبارة فيها تفصيل ، إن كان داعية إلى بدعته ، لم تقبل روايته ، لاحتمال أن يروي ما يؤيد به بدعته ، أما إن لم يكن داعية ، فالرواية عنه مقبولة ، وهذا ما نلاحظ في غير هذا الباب ، وبالنسبة لغير هذا الحديث ، أنه قد يروي الإمام البخاري ، مع شدة تحريه وسعة اطلاعه ، ومهارته في الميدان ، رغم ذلك نجده ، يروي عن بعض المبتدعة كهذا ، ولكنه عند البحث لا يوجد أنه داعية ، وإلا لما روى عنه .

هذا أبو نعيم أحد شيوخ البخاري يروي حديث الدرس عن زكرياء .

زكريا : و زكرياء هذا هو ابن أبي زائدة ، الحافظ الكوفي الذي وثقه الإمامان ، أحمد جبل السنة ، وأبوداود ، غير أن هذا الأخير قال فيه إنه مدلس ، وهنا لنا وقفة أيضا ، هو مدلس تقبل روايته ، لا يكون لنا وقوف وبحث ، إلا إذا روى من رمي بالتدليس عن شيخه بـ «عن» ، وكان في السند عنعنة .

أما إذا روى من رمي بالتدليس بطريق التحديث فإنها تقبل ولا إشكال فيها ، يعني ولا يوصف السند بالضعف ، أما إذا روى بالعننة فحينئذ

يتسرب الضعف إلى السند ، ويعتبر السند ضعيفا ما دما لم نقف على أن نفس هذا الذي رمي بالتدليس ، ثبت أنه روى عن شيخه نفسه الذي روى عنه بـ «عن» بواسطة التحديث ، وبطريق التحديث ، وإلا قبل ولم يكن في السند الذي عنعن فيه ضعفٌ أبداً ، وهذا السند من هذا القبيل ، وهذا الراوي الذي يروي عنه حديث الدرس شيخ البخاري ، وهو زكرياء بن أبي زائدة ، هو رمي بالتدليس كما قال أبو داود ، ولكن الحافظ ، وكفى به حجة أنه بعدما وصفه بذلك ، أي التدليس ، قال : ولم أره في الصحيحين وغيرهما راويا عن الإمام الشعبي إلا معننا ، إلا وهو يروي عنه بـ «عن» . قال : إلى أن وقفت في فوائد ابن الهيثم من طريق يزيد بن هارون عن زكرياء ، قال : حدثنا الشعبي ، لما ثبت في فوائد ابن الهيثم يا مولاي أنه روى عن الشعبي بطريق التحديث ، حيث ثبت هذا ارتفع الإشكال ، وزال أمر التدليس ؛ لأن هذا الشيخ الذي روى عنه بالعننة هنا ، ثبت في فوائد ابن الهيثم أنه روى عن شيخه نفسه ، وهو الإمام الشعبي ، بطريق التحديث ، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائة (١٤٨) ، وهو يروي الحديث عن أحد أعلام السنة .

الشعبي : وهو الشعبي ، واسمه عامر الحميري الشعبي ، الذي قال فيه أبو مجلد : ما رأيت فيه أفقه من الشعبي ، وقال فيه العجلي : مرسل الشعبي صحيح ، وقال فيه ابن عيينة ، كانت الناس تقول : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، وكانت وفاته سنة ثلاث ومائة (١٠٣) ، وهو يروي عن الصحابي الجليل ، النعمان بن بشير رضي الله عنه .

النعمان بن بشير : النعمان بن بشير هذا هو أنصاري خزرجي ، وهو أول مولود أنصاري ولد في الهجرة ، وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغ

عددها إلى مائة وأربعة وعشرين حديثاً «١٢٤»، اتفق الشيخان على خمسة منها، وانفرد الإمام البخاري بواحد، وانفرد الإمام مسلم بأربعة.

شرح الحديث: والحديث الذي يروى والمعني بالدرس هو: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات» إلى آخر الحديث.

«الحلال بين»: الحلال بين المراد بين الحلال، ما نص أو أجمع على حليته، وقد ورد في عدة آيات، منها الآية الثانية والثلاثون من سورة الأعراف وهي قول الله جل علاه، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، تلك الآية التي جمعت بين ثياب الزينة، والطيبات من الرزق، وسائر المستلذات التي أباحها الله لعباده.

«الحرام بين» والحرام بين، وبين الحرام، هو ما نص أو أجمع على حرمة، وتشير إليه الآية بعدها، وبالإثر، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ وعبر عن الذنوب في الآية بالفواحش والكبائر، ونص في الآية على أن المراد عموم الذنوب سواء منها الظاهرة والباطنة، الظاهرة من قتل النفس بغير حق، والزنا، وشرب الخمر، والتعامل بالربا، والسرقة، وما إلى ذلك من المحرمات، وبالأخص الكبائر منها، والمنصوص عليها في مختلف الآيات والأحاديث.

وكذلك الباطنة من كبر وعجبٍ ورياء وسمعة مثلاً.

الشبهات: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات» هذه بيت القصيد، ولنا أن نعتبر قوله ﷺ: «وبينهما مشبهات» أنها المحور الذي يدور عليه هذا الحديث، والمحور الذي يدور عليه الحديث هو: «بينهما

مشبهات ، لذلك ينبغي للباحث أن يحرص النظر في هذا المحور ، في عناصر ثلاثة :

العنصر الأول : الروايات التي ورد بها الحديث ، وهي أربع .

العنصر الثاني : هل هذا التشابه ذاتي أم عارض .

العنصر الثالث : البحث عن الأحاديث التي وردت في معنى حديث الدرس لتربط به ، وتستخلص النتائج من المجموع ، لا من الفرد ، وكذلك ما للحديث اتصال به من القواعد الأصولية ، كمسألة الشك ، وانقسامه إلى الأقسام الثلاثة في تقسيم توسّع فيه الإمام القرافي ، وكتقسيمه لسد الذرائع ، فإن هذه قواعد أصولية ، لها ارتباط بالحديث ، كما سيتضح .

روايات مشبهات : «وبينهما مشبهات» أمّا بالنظر للروايات الأربع ، فقد ورد مشبهات ، ومشتبهات ، وشبهات ، ومتشابهات ، ولضيق الوقت لا نطيل فإن هذه الصيغ الأربع ، يجمعها معنى واحد ، فلا تفاوت في المعنى أبداً ، ما هذا المعنى ، هو ما حاز الشبه من الطرفين ، طرف الحلية ، وطرف التحريم ، ما حاز الشبه يصدق عليه أنه مشبه ، يصدق عليه أنه متشابه ، يصدق عليه أنه مشتبه ، يصدق عليه أنه شبهة .

أما أن توحد هذه الصيغ الأربع في المعنى الواحد ، فلا يكون بينها فرق للفرار من إشكال نقع فيه ، فلنا أن نحتاط قبل الوقوع ، وهو أن يقال من الصيغ المتشابهة ، وكيف المتشابه يرد في القرآن أو في السنة الصحيحة ، مع أنه لا يوجد بالاستقراء وتتبع المفسرين والمحدثين ، لا يوجد لفظ متشابه لا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ، بالنسبة للأحكام ، يعني في آيات

الأحكام، وسنن الأحكام، لا يوجد لفظ متشابه البتة، وكون لفظ المتشابهات هنا، هذه الرواية الرابعة، يوقعنا في الإشكال، ولكن نجيب، قبل الوقوع في الإشكال، نجيب من الخلف قبل الوقوع فيه، وذلك بأن هذا المتشابه ليس هو المتشابه في اصطلاح المتكلمين، والذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

ويوجد الخلاف على مذاهب ثلاثة: مذهب السلف لا يُؤوِّل وَيَقْوِضُ، ومذهب الخلف يُؤوِّل، وهل هو الأعم . . . ؟

هذا بحث مستفيض لا نتصل به إلا من محل مباشر، وهو أنه ليس المراد بالمتشابه هنا، ذلك المتشابه، ذلك من اصطلاح المتكلمين ولا اتصال للأصولي به، والذي للأصولي الاتصال به، هو المتشابه بمعنى المشبه وبمعنى المشتبه إلى آخر الصيغ الأربع، وهو ما حاز الشبه من الطرفين، طرف الحلية، وطرف التحريم، يعني ولم يرد نص بأنه محرم، هذه الجزئية محرمة، ولم يرد نص بأنها حلال، وهي حازت الطرف من الشبهين، هنا نقف ونقول: من كان محرزا وفقه الله وأحرز على صفة الورع يتنكب هذا الذي له شبه بالطرفين، احتياطا لجانب التحريم، ومن كان دونه، وهو الضعيف، الحديث السابق، ارتكب ذلك، فإن قلت له، وربما كان حراما، يقول لك: الواقع أنه لم يرد دليل على تحريمه، ولا على إباحته؛ لأن الأصل في الأشياء الإباحة، المتشابه قلنا: هذا هو المراد به، والذي يهم الأصولي، هذا التشابه الذي يقع فيه المجتهد، والذي أشار إليه النبي ﷺ في الحديث، بقوله: «لا يعلمهن كثير -أو لا يعلمها كثير، أي المشبهات- من الناس»، يعني وإنما يعلمها القليل، وهم الخاصة المجتهدون،

الذين يتوفرون على أهلية الاجتهاد، واستنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ: «لا يعلمها كثير من الناس» في رواية، وخير ما فسرته بالوارد في حديث الإمام الترمذي، ورد: «لا يعلمها أهلي من الحلال أم من الحرام كثير من الناس، وإنما يعلمها الخاصة، وهم المجتهدون، ذوو الكفاءة والأهلية».

عندما يقع المجتهد في الاشتباه، ويشتبه عليه دليان، له مسطرة أصولية مقررة في الأصول، وهي أنه عند تعارض دليلين ينجح إلى النسخ، فإن علم المتأخر، فإنه يعتبر ناسخا للمتقدم، وإن لم يكن النسخ انتقل إلى الجمع، فإن أمكن الجمع، وقع الجمع، وإن أمكن الجمع بين بيتين -يقول ابن السبكي في «جمع الجوامع»- جمع، وإن تعذر عليه الجمع انتقل إلى الترجيح، وطرقه مقررة في مصطلحات أهل السنة، وكذلك في اصطلاح الأصوليين، فإن رجح أحدهما، عمل بالراجح، وترك المرجوح، وإن تعذر الترجيح، فماذا يصنع هذا المجتهد؟

أشار له المرشد الأعظم ﷺ، بأنه يستفتي نفسه، ففي حديث الفاروق أن النبي ﷺ قال: «الحلال بين والحرام بين، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، هذا أمر من النبي ﷺ للفاروق.

وكذلك في حديث وابصة سألت النبي ﷺ عن البر والإثم فقال: «يا وابصة استفت نفسك، واستفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب». ها هو ﷺ يرشد وابصة إلى استخدام الرأي، فالرأي ثابت بالسنة النبوية، بالنظر إلى الحديثين، يعني بالقول -ومعروف أن تحديد السنة أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته- هذان الحديثان ما فيها يدل على ما هو من باب القول، فهو سنة، إذن استخدام الرأي عندما يقف

المجتهد ، هذا مقرر بالسنة ، هذا سنة ولا إشكال ، كذلك يضاف إلى أن هذا وهو استخدام الرأي ثبت أيضا بالتقرير ، وبإقراره ﷺ معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن ، قال : «بِمَ تَقْضِي؟» إلى أن قال : «أجتهد رأيي» ، أخيراً . هذا محل الشاهد ، «أجتهد رأيي» ، قال : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله» فأقره على ذلك . إذن استخدام الرأي عند التوقف عليه ، وعند الحاجة ، هذا مشروع وسنة مقررة بالقول والإقرار .

استبرأ لدينه : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات ، فمن اتقى المشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه» استبرأ لدينه ، بمعنى تدينه ، استبرأ لتدينه من الاختلال بحصول النقص فيه ، في تدينه ، بارتكاب الشبهات ، ولعرضه حتى يكون في مأمن من الطعن ، الطعن باتهامه بعدم المبالاة بمحارم الله ، والبعد عن الورع ، هذا ما يتهم به ، وهذه ثلثة تكون في شخص ، فلذلك كان من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه كما استبرأ لدينه بمعنى تدينه .

«من» : «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات -رواية البخاري التي بين أيدينا- كراع» ، وهي الرواية ، الوجه الإعرابي فيها أن «من» شرطية ، وذكر الجواب ، ولم يذكر الجواب في رواية الإمام البخاري ، في رواية الإمام البخاري لا تكون شرطية ، تكون موصولية ، فتحتمل إلى خبر ، فالخبر هو «الكاف» «كراع» فيكون التقدير : «الذي يتقى الشبهات يكون كراع» .

ف «كراع» الكاف اسمية ، بمعنى مثل ، وهو خبر عن «من» بمعنى الذي الموصولة ، هذا على رواية البخاري التي وردت بحذف الجزاء ، فلذلك انصرفنا من الشرط ، من الشرطية إلى الموصولية ، أما على رواية

الدارمي فهي هكذا ، «فمن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام» وقع في الحرام ، هو الجواب .

فالجواب في رواية الدارمي مذكور ، جاء بعده «كراع» الصورة التمثيلية ، جاءت بعده «كراع» لكي تكون مستأنفة ، جملة مستأنفة .

«اتقى» نرى التعبير بـ «اتقى» ولم يقع التعبير بـ «ترك» مع أنها بمعنى ، فما السر؟ قال : السر هو أن التعبير بـ «اتقى» هو يفيد أن ترك المشبهات ، لا يكون مقبولا شرعا إلا إذا كان خاليا من الرياء ، بمعنى أن صاحبه تركه ، مشاهدا ربه إيمانا به وبما جاء في كتابه وسنة نبيه ، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ، هذا الذي وقع التعبير بـ «اتقى» إلى جانب أنه وقع التعبير بـ «اتقى» ولم يقع التعبير بـ «ترك» ، وإن كانا بمعنى ؛ وذلك لأن اتقى تُصور لنا وتشخص لنا أن هذا المتقي وهذا التارك للشبهات ضرب سورا منيعا بينه وبين محارم الله ، وذلك بترك الشبهات .

كراع حول الحمى : فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات - في رواية الدارمي - وقع في الحرام ، وكان «كراع» .

شبه ﷺ المحارم بالحمى ، محارم الله ، بالحمى المعهود لدى العرب في الجاهلية ، كان عملا يقوم به رؤسائهم ، تبعهم بعد ذلك بعض الملوك يقتطعون أرضا للصالح العام ، تكون محرمة على الدواب ، على دواب الأشخاص ، بمعنى أن الراعي يكون على حذر ؛ لأنه سيقع في العقاب من طرف الرؤساء ، رؤساء الجاهلية ، رؤساء القبائل ، ومن طرف الملوك إذا كانت الأرض معينة للصالح العام ، فلا معنى للاقتراب منها ، حتى لا يقع الإنسان في الشرك ، ويقع في المحارم في محارم الله ، شبهت على طريق

التمثيل البياني لإخراج المعنى من حيز التعقل إلى حيز المشاهدة، فكأننا نشاهد أنه شبهت محارم الله بالحمى، ولزم تشبيه الاقتراب من المحارم بالاقتراب من الحمى، فكما أنه يحترز على الحمى خوف عذاب الملوك والرؤساء، بل إذا كان ذلك للاحتراز من عذابهم، فأولى بذلك محارم الله، بمعنى معاصيه، فإنك تجتنبها بصفتك مؤمناً بطريق الأولى والأحرى بل لا نسبة؛ لأن هذا عمل العبد، وهذا عمل الرب، هذا شيء شرع على أن المعاقب له هذا الذي اجتاز المحارم، يعني اجتاز الشبهات، ووقع في الحمى بالنسبة للملوك والرؤساء، هو يكون متوعدا بالعقاب، وإذا كان هذا يحترز لأجل عذاب الخلق والعبيد لله، فما بالك بالله، كيف تتهجم على محارمه، ومعاصيه، كيف لا ترتعد فرائصك في التنكب عنها وفي اجتنابها حتى لا تقع فيها، فيكون وراءك عقاب هو أشد لأنه عقاب الله.

والرب رب، والعبد عبد، تكون معذبا حينئذ بعقاب الله، وهو أشد، وبعذابه وهو أشق.

يوشك أن يواقعه: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، و من وقع في الشبهات وقع في الحرام» - على رواية الدارمي - كراع حول الحمى يوشك أن يواقعه» وما هو السر الذي من أجله وقع التعبير بـ «يوشك أن يواقعه» ولم يقع بـ «وقع في الحرام» كما في رواية الدارمي، ما ذلك إلا لفرق، نعم، وقع في الحرام؛ لأن الواقع، أن من تساهل في ارتكاب الشبهات، لا يلبث أن يقع في الحرام، بحيث بالمداومة على الشبهات يجد نفسه في الحرام في فترة ما.

فلا يلبث أن يجد نفسه في الحرام ، لذلك وقع في رواية الترمذي التعبير بـ «واقع» لأن المتوقع كالواقع ، «كراع حول الحمى يوشك أن يواقعه» .
 ألا : ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله محارمه ، التعبير بألا نجده من هنا ابتداءً وسيتهي في الآخر ، بقوله عليه الصلاة والسلام : «ألا وهي القلب» تعدد أربع مرات ، وذلك لنكتة بيانية كما تعلمون وهي الاعتناء بما بعدها لأنه مؤكد لما قبلها ، ها هو ﷺ في الحديث بعد ما أتى لنا بالصورة التشبيهية ، أعقبها بـ «ألا» وإن لكل ملك حمى ، التعبير بـ «ألا» لإفادة أن ما بعدها مؤكد لما قبلها ، وهي الصورة التشبيهية ، فهو تأكيد لتكذب واجتناب الشبهات .

القلب : ثم أردف ﷺ ، أردف بقوله : «ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» ، وسبق لنا حتى نقرن صدر الحديث بآخره ما استطعنا لنكون دائماً في جو استحضار المعنى بتمامه .

قلنا إنه صدر الحديث بـ «الحلال بين» ، وختم بـ «ألا وإن في الجسد مضغة ألا وهي القلب» عبر عنه بمضغة وهو قدر ما يمضغ من اللحم ، وذلك للتنقيص على أنه وإن صغر حجماً ، وكان مقدار مضغة ، فقد كبر معنى ، فهو له اختصاصات امتاز بها عن غيره ، ومن ثم كان سلطان الأعضاء سلطان الذات ، القلب كان سلطان الذات ، من خصائصه أنه محل النية ، ومعلوم أن النية قوام العمل بشاهد قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» .

وهو متبوعاً بالعقل ، على قول ، وهو مأوى العلم الذي به يسمو الإنسان ، وبه يميز الخبيث من الطيب ، وهو مهبط الإلهام ومورد الأسرار ، إلى غير

ذلك من الخصائص ، ومن ثم نتج عن ذلك أنه سلطان الذات ، أن سائر الأعضاء تابعة له ، فحيث صلح صلحت كلها ، فأدى ذلك إلى القول بأن الذات كلها تصلح ، والعكس بالعكس ، وما ذاك إلا أساسا بالنظر إلى ما يتناول الحلال أو ما يروج فيه ، هل هو حلال أو حرام ، إن كان حلالا تنور قلبه ، فنشأ عن ذلك كما قدمنا ، فنشأ عن ذلك أنه يتقي الشبهات ، فينشأ عن ذلك أنه يتصف بصفة الورع وما أحسنها وعلى العكس من ذلك ما إذا تناول الحرام ، فإن قلبه مظلم ، وبالتالي يأخذ في ارتكاب الشبهات ، فيفسد القلب وتتبعه الأعضاء ، وبالتالي تخر معنوية الجسد كله ؛ لأنها إذا كانت خالية من الصلاح فهي كالعدم بل عديمها أولى .



المحاضرة التاسعة والعشرون:

الفضيلة والحقوق

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

تمهيد: والأمن -كما جاء في التفسير- لا تحققه البندقية ولا المدفع، وإنما تحققه الفضيلة، عندما رجعت إلى كتب القانون، ورجعت إلى كتب الفقه أبحث عن موضوع الفضيلة في مجال الحق لم أجد من تحدث عن موضوع الفضيلة في مجال الحقوق.

أقصى ما تحدث عنه رجال الفقه والقانون أنهم تحدثوا عن الطبيعة الاجتماعية للحق وهذا اتجاه جديد في عالم الفكر القانوني، وكان الفكر القانوني من قبل لا يتحدث عن الطبيعة الاجتماعية للحق، كان الحق في نظر الفكر القانوني ذا طبيعة فرضية محضة يمارس الإنسان حقه بطريقة فردية دون أن ينظر إلى الطبيعة الاجتماعية، قبل قرن من الزمن ابتدأ رجل القانون ورجال الفقه القانوني يتأثرون بالتيارات الاجتماعية، وجاء القانون الفرنسي فأقر بالطبيعة الاجتماعية للحق، وقال: إذا كان للحق صفة فردية فإن ممارسة الحق ينبغي أن يراعى فيها البعد الاجتماعي فالحق قد أقره المشرع لغاية اجتماعية لا يجوز فيها أن يمارس ذلك الحق بطريقة أنانية فردية وإنما ينبغي أن يراعى البعد الاجتماعي لذلك الحق.

سوف أتناول هذا الموضوع من جوانب عدة:

أولا : سأحدث عن التعريف ، تعريف المصطلحات ، ما المراد بالقانون؟ لا أود أن أتحدث هنا عن الفضيلة كقيد اختياري أخلاقي إنما أريد أن أؤكد هنا أن الفضيلة قيد إلزامي يترتب عليه بطلان الحق ، فالمشروعية ، الهدف الاجتماعي من المشروعية ليست إعطاء الفرد تلك المشروعية لكي يمارس الحق بطريقة تنسجم مع المصالح الاجتماعية وأنا لا أعني بالفضيلة ذلك البعد الفردي أو الأخلاقي فحسب وإنما أريد بالفضيلة هي الفضيلة بمفهومها الأخلاقي ، بمفهومها الاجتماعي العام الذي يراعي من خلاله الإنسان مصالح المجتمع وهو يباشر حقا مشروعاً أحقه الشرع أو أقره الدستور أو أقره القانون ، سأحدث في البداية عن تعريف المصطلحات .

ثم سأحاول في **النقطة الثانية** أن أتحدث عن تأصيل الفضيلة كعنصر مقيد للحق وأعتمد على أدلة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة .

ثم سوف أتناول في **النقطة الثالثة** المؤيدات التي تؤيد ضرورة مراعاة الفضيلة في استعمال الحق ، وهي مؤيدات تشريعية ومؤيدات أخلاقية ومؤيدات اجتماعية .

وفي **النقطة الرابعة** سوف أتحدث عن انعكاس الفضيلة في مجال الحقوق فالإنسان عندما يمارس الحق بطريقة يراعي فيها الفضيلة فإن هناك انعكاسات على الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية وفي النهاية سوف أتكلم عن دور الدولة عندما تتدخل لحماية الفضيلة باسم القانون لتحديد من سلطان الحق ولتقيده بطريقة يترتب عليها الهدف من إقرار الحق .

النقطة الأولى: التعريف ما المراد بالحق؟

كلنا يتحدث عن موضوع الحقوق ، الحق له معنيان :

المعنى الأول: هو معنى الثبوت ، فنقول حق الحياة ثابت للإنسان ، وهذا معنى الثبوت ليس هذا المعنى هو الذي أريده إنما أريد أن أتحدث عن الحق بمفهومه الآخر ، وهو السلطة أو القدرة فالحق هو السلطة يمارسها الإنسان على شيء يملكه ، فنقول الحق يترتب من خلاله عنصران أساسيان ، إذا توفر العنصر الأول والعنصر الثاني فعندئذ ينبثق الحق كقدرة إرادية يباشر من خلالها الإنسان تلك السلطة على ما يملك ، إذن تلك القدرة الإرادية تنبثق لدى الإنسان من خلال وجود مصلحة فردية أو اجتماعية تلك المصلحة يترتب عليها اعتراف شرعي انبثق الحق عن ذلك الاعتراف الشرعي ، فلا حق في هذه الحالة ، وهنا لا سلطة يباشرها الإنسان في تلك المصلحة ، فالمصلحة ملغاة في هذه الحالات ، إذن المصلحة الفردية أو المصلحة الاجتماعية التي يباشرها الإنسان هذه المصلحة كل فرد منا يباشرها له مصالح كثيرة ، له مصلحة في الحياة وله مصلحة التعليم وله مصلحة التعبير ، وله مصلحة في الزواج وله مصلحة في الطلاق وله مصلحة في كل تصرف من التصرفات في هذه المصالح ، وله مصلحة في أن يرتشي ، وله مصلحة في أن يتاجر بالخبر ، فأبي المصالح هنا يترتب عليها الحق؟

فاعترف التشريع بمصالح للإنسان ، كحقه في الطلاق وحقه في الحياة وحقه في التعليم ولم يعترف للإنسان بحقوق أخرى بمصالح أخرى لم يعترف في مصلحة المرتشي في أن يرتشي ، ولم يعترف بمصلحة الإنسان في أن يتعامل بالربا ولم يعترف بمصلحة المحتكر وهو يحتكر ، واعترف بمصالح الإنسان الأخرى فترتب على ذلك حقوق هي موضوعنا .

إذن هناك أركان ثلاثة:

الركن الأول:

هو المصلحة الفردية أو الاجتماعية .

الركن الثاني:

الاعتراف الشرعي بتلك المصلحة ، أو الاعتراف القانوني في مجال القانون ، إذا وجد الاعتراف الشرعي تولد ، هنا انبثق الحق كسلطة اعتبارية يمارس من خلالها الإنسان سلطته على الشيء الذي أقر الحق فيه ، فمن أراد أن يتزوج له مصلحة في الزواج ، جاء الاعتراف الشرعي أصبح له سلطة في أن يتزوج ، وهناك اعتراف شرعي فإذا نقول حق الإنسان في الزواج من أراد أن يطلق له مصلحة في الطلاق ، جاء الاعتراف الشرعي بتلك المصلحة ، ترتب عليه حق نقول حق الإنسان في الطلاق حديثنا هو عن القيد ، هل المشروعية أو هل مشروعيتنا في الفضيلة ، هل هذا الحق الذي يباشره الإنسان هل هو حق مطلق؟ أم حق مقيد بقيد ، فلنصطلح على تسميته بالفضيلة ؛ لأن الفضيلة هي المعنى الأعم ، ولا نقول كما قال علماء القانون : يقيد بالمصلحة الاجتماعية ، وإنما أريد أن أقيده بالفضيلة في مفهومها الأعم ، ومن معاني الفضيلة القيد الاجتماعي ، أو الطبيعة الاجتماعية لممارسة الحق .

هذا هو مفهوم الحق أما الفضيلة .

ما الفضيلة : فما معنى الفضيلة التي هي قيد من قيود الحق؟ الفضيلة هي الزيادة ولكن أي زيادة هي ، هي الفضيلة؟ هل كل زيادة فضيلة لا على وجه التأكيد ، رجعت إلى ما كتبه الفلاسفة والمفكرون ، وأخيرًا

وجدت كلمة دقيقة قالها الغزالي في الجزء الأول من كتابه «إحياء علوم الدين» تحدث عن فضيلة العلم ، وتحدث عن الفضيلة بكلمة مختصرة ، ولكنها دقيقة ، قال : الفضيلة هي الزيادة المؤدية إلى الكمال .

إذن ليست كل زيادة مؤدية إلى الكمال ، فقد تكون زيادة ليست مؤدية إلى الكمال ، مثال ذلك عندما نقول الفضيلة في الخيول سرعة الجري ؛ لأن الخيل تقتنى لأجل الجري ، ففضيلتها هي سرعة الجري ، وقد لا تكون هذه فضيلة في الأغنام ، الأغنام هي الزيادة فيها هي زيادة الوزن ؛ لأنها تقتنى لهذه الغاية ، وأيضا بالنسبة للإنسان زيادة الوزن ليست فضيلة ، وزيادة الجري ليست فضيلة ، إلا أن يكون رياضيا ، زيادة القوة وهكذا تكون الفضيلة بحسب كل إنسان ، فالأستاذ الجامعي له فضيلة ليست هي فضيلة الرياضي والتاجر له فضيلة ، وهكذا الفضيلة هي الزيادة المؤدية إلى الكمال .

علماء الفلسفة عندما يتحدثون عن الفضيلة وهي الزيادة يقولون العدل ما وجه العلاقة بين العدل ، ويقولون العدل هو أم الفضائل كيف ، كيف يكون العدل فضيلة وأم الفضائل والعدل هو عدم الزيادة والنقصان هو رد الشيء الزائد والناقص إلى معيار واحد بغير زيادة ولا نقصان ، العدل هو إعطاء من يجب ما يجب كما يجب ، إعطاء من يجب وهو الشخص المعطى ما يجب الكمية كما يجب الكيفية؟ والفضيلة هي زيادة فكيف نوفق بين معنى العدل الذي هو معيار يقوم على أساس التساوي وبين الفضيلة التي تقوم على أساس الزيادة؟

مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق» قال : الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وهكذا عندما نقول فضيلة الشجاعة قال : الشجاعة وسط بين رذيلتين بين جبن وبين تهور فهنا رذيلة وهنا رذيلة ويكون الوسط هو الفضيلة ،

السخاء وسط بين رذيلتين بين تبذير وتقتير وهنا نجد أن الوسط وليس الزيادة الوسط وهو الاعتدال والفضيلة ، عندما نأتي إلى العدل العدل يقابله الجور ، أين تكون الفضيلة؟ العدل هو الفضيلة ، زيادة العدل فضيلة وليس رذيلة ، ونقصان العدل رذيلة فكيف نوفق بين الحالتين هنا ، نجد هنا أن العدل ، بعض الفلاسفة يقولون العدل العلاقة بين العدل والتفضل علاقة دقيقة والتفضل هو زيادة أيهما الفضيلة ، هل التفضل هو الأفضل أم العدل هو الأفضل هنا نجد أن الفلاسفة يقولون التفضل هو زيادة لأجل الاحتياط والفضيلة هي العدل وهذا كلام لا يمكن أن يكون دقيقا ولو رجعنا إلى المفهوم القرآني لوجدنا مفهوما دقيقا يحدد لنا المفاهيم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، فما الغاية من العطف هنا ، العدل ليس هو الإحسان على وجه التأكيد ولو كان الإحسان هو العدل لما احتاج إلى العطف وإلى ذكر كلمة الإحسان ، العدل هو التساوي هو الأفق الأخلاقي ، هو الأفق القانوني وهناك أفق أعلى من العدل وهو الإحسان وهو التفضل وهو تنازل القوي عن جزء من حقه لصالح الضعيف كالقصاص عدل .

ولكن هناك عدل أعلى من القصاص وهو العفو ، ﴿ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ ، عندما أقرض من إنسان مائة درهم ، ويرد لي مائة درهم ، هنا عدل ولكن أين الفضيلة ، الفضيلة عندما يتنازل القوي عن جزء من حقه لصالح الفقير .

وهنا نجد معنى التفضل ، التفضل هو الأفق الأخلاقي لمعنى العدل ، فالعدل بين غير متساويين ظلّم كما إذا تعامل الأب مع طفله الصغير بالعدل ، فلا يجوز أن يتعامل مع طفله الصغير بالعدل وإنما يتعامل

بالإحسان، الرجل القوي يتعامل مع أبيه الضعيف بالإحسان، ولا يتعامل بالعدل ولهذا فإن رجلاً من الصحابة «جاء النبي ﷺ يستفسر ماذا ينفق على أبيه، غضب النبي ﷺ وقال: أنت ومالك لأبيك»^(١).

كيف يسأل عن العدل والموطن هنا موطن إحسان، التعامل بين الإنسان القوي وبين والده يقوم على الإحسان، لا يجوز لذلك الإنسان أن يقول لوالده خذ هذا ولا أعطيك أكثر، هذا الإنسان الذي كان سبب في وجود الإنسان، يتعامل معه بالإحسان وهذا هو الأفق الأعلى والأسمى.

الدليل على أن الفضيلة قيد:

النقطة الثانية: وهي موضوع الفضيلة قلنا ما هو الدليل على أن الفضيلة هي قيد من قيود الحق، عندنا أدلة كثيرة وردت في القرآن.

الدليل الأول:

نلاحظ أن القرآن عندما يتحدث عن الحقوق يتحدث عن الطبيعة الاجتماعية للحق ويركز في مواطن كثيرة أن الحقوق ليست مطلقة في نظر القرآن وفي نظر الإسلام فالحق لا وجود له إلا بالاعتراف الشرعي بذلك الحق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩٢)، وأحمد في «المسند» (١٧٩ / ٢) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً، بنحوه. وصححه ابن الجارود في «المتقى» (٩٩٥)، وقال ابن حجر: «حديث مشهور». وانظر «كشف الخفا» (٦٢٨).

هنا هذا الإنسان يستعمل حقه وهو الاكتناز ولكنه استعمل هذا الحق بطريقة منافية للفضيلة بطريقة منافية للمصلحة الاجتماعية ولهذا كان في نظر الإسلام آثماً ، ولأنه استعمل حقه في الادخار بطريقة مضرة بالمصلحة الاجتماعية ، وهذا يؤكد لنا أن الإنسان لا يجوز له أن يستعمل حقه المشروع بطريقة منافية للفضيلة ونحن هنا نتحدث عن المشروعية ولا نتحدث عن خارج نطاق المشروعية لأن القيد يكون مع المشروعية أما خارج نطاق المشروعية فلا قيد ؛ لأننا نستطيع أن نتبع الأمر بعدم المشروعية .

إنما نتحدث هنا عن الحق والمشروعية والقيد يكون مع وجود المشروعية .
الدليل الثاني : أدلة كثيرة قال تعالى : ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] مع أن الإنسان عندما ينفق فإنما ينفق من ماله ولكنه لا يجوز أن يستعمل حقه بطريقة مطلقة وإلا أدى ذلك إلى انتهاك الفضيلة الاجتماعية .

رجعت إلى السنة وجدت حديثاً في السنة واضح الدلالة على معنى التقيد ، هذا الحديث أنقله بنصه حديث سمرة بن جندب ، روى أبو داود في «سننه» «أن سمرة بن جندب كان له عضد من نخل في حائط رجل من الأنصار ، ومع الرجل أهله وكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به وشق عليه فطلب إليه أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن ينقله فأبى فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وطلب إليه النبي ﷺ أن يبيعه فأبى فطلب أن ينقله فأبى ، قال : فهبه ولك كذا وكذا ، فأبى ، غضب النبي ﷺ وقال : أنت مضار ، وقال الرسول ﷺ للأنصاري : اذهب فاقلع النخلة» .

لماذا؟ لأنه حاول أن يستعمل حقه بطريقة منافية للفضيلة الاجتماعية في مفهومها العام فقد أراد أن يستبد بذلك الحق بطريقة يلحق الضرر بذلك الجار الذي عرض عليه كل وسيلة ممكنة لكي لا يلحق به الضرر .

وهناك حديث آخر عن عمر بن الخطاب رواه الإمام مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن الضحاك بن خليفة ساق خليجا وهو نهر صغير له من العريض مكان ، فأراد أن يمر به في أرض محمد بن مسلمة ، فقال له الضحاك : لم تمنعني وهو لك منفعة تشرب به أولا وأخيرا ، ولا يضرك ، فأبى محمد أن يسمح لجاره بأن يمر بالماء في أرضه فكلّم فيه الضحاك عمر بن الخطاب ، فقال عمر : لم تمنع أخاك ما ينفعه ، وهو لك نافع تسقي به أولا وأخيرا وهو لا يضرك ، فقال محمد : لا والله فقال عمر بغضب : والله ليمرن ولو على بطنه -بصيغة الخطاب- : والله ليمرن ولو على بطنه ؛ لأنه ما كان يريد أن يسمح لجاره بأن يمر بالماء في أرضه .

إذن هنا هذا يؤكد لنا أن الحق يستعمل بطريقة لا تتنافى مع الفضيلة فصاحب الحق عندما يريد أن يستبد بحقه بطريقة منافية للفضيلة ، فإنه بذلك يتحدث مشاعر المجتمع والحق عندما أقره التشريع للإنسان فإنما أقره لهدف اجتماعي لا يجوز للفرد أن يتجاهل الدور الاجتماعي لذلك الحق ، والحقوق كثيرة ، بعضها حق إنساني يرتبط وجوده بوجود الإنسان كحق الحياة ، يرتبط بوجود الحياة فإن وجدت الحياة وليس بحاجة إلى اعتراف شرعي وهناك حقوق أقرتها الشريعة ولو لم تقرها الشريعة لما كان هناك حق كحق التعدد وحق الطلاق وحقوق كثيرة وهناك حقوق أقرها الدستور وهناك لو لم يصدر الإقرار من الدستور لا يمكن اعتبارها حقا وهناك حقوق تأتي عن طريق القانون ، هذه الحقوق عندما يحاول المشرع

أن يقرها فإنما يقرها لهدف اجتماعي لا يجوز لأي فرد من الأفراد أن يستعمل ذلك الحق بطريقة تتنافى مع الفضيلة الاجتماعية وإلا تعسف وألحق الضرر بالآخرين والحقوق تستعمل بطريقة منظمة ، ولو استعمل كل فرد حقه بطريقة دقيقة لا يحدث أي اصطدام بين حق وحق كالكواكب في السماء فإنها تسير وفق نظام محكم لو أن كوكبا من الكواكب خرج عن الدائرة التي يمشي فيها فإنه لا بد أن يصطدم بغيره من الكواكب وكذلك حقوق البشر والناس يتعاملون من خلال نظام حقوقي في تعاملهم في نطاق الأسرة ، في نطاق الفرد ، في التعامل المدني في جميع الحقوق حتى في نطاق العلاقات الدولية فهناك قانون دولي ينظم العلاقة بين الأفراد وبين الدول فمن تجاوز تلك الحقوق فقد تجاوز مبدأ المشروعية ، والمشروعية إذن لا تتنافى مع الفضيلة ولا يحتاج بها في مطاردة الفضيلة بل إن الفضيلة هي التي تقيد المشروعية فلو أن إنسانا قال هذا حقّي واستعمل ذلك الحق بطريقة تتنافى مع الفضيلة نقول له لقد أسأت وتعسفت في استعمال حقك ، وهذا ليس من حقك ، فالإسلام إذن أقر حقوقا والقانون أقر حقوقا فلا يجوز للإنسان أن يستعمل حقه بطريقة مضرّة بالآخرين .

النقطة الثانية : هي التأصيل من النصوص .

مؤيدات الفضيلة :

النقطة الثالثة : هي المؤيدات التي تؤيد دور الفضيلة كقيد من قيود الحق ، المؤيد الأول مؤيد اعتقادي ، والمؤيد الثاني مؤيد تشريعي ، ومؤيد ثالث : مؤيد أخلاقي .

المؤيد الاعتقادي :

المؤيد الأول : مؤيد اعتقادي يترتب على فاعله! ثم عندما يتجاوز الفضيلة في ذلك التصرف فمن طلق زوجته بغرض الإضرار بها فهو آثم عند الله ومن تزوج زوجة ثانية بهدف إذلال زوجته الأولى وأقول بهدف الإذلال فقد استعمل حقه بطريقة منافية للفضيلة عن طريق الظلم أو الاستغلال فقد خرج عن نطاق الفضيلة ومن عاقب موظفا صغيرا بطريقة ليست منسجمة مع الفضيلة ، الفضيلة كما أقرها القانون فقد خرج عن نطاق المشروعية ، وهكذا في كل تصرف من التصرفات حتى عندما نتحدث عن حق التأديب وقد أقر الإسلام للوالد أن يؤدب أولاده بنية التربية فمن ضرب أولاده بنية إذلالهم ، أو الانتقام منهم فقد خرج عن نطاق المشروعية لأن التأديب حق أعطي للأب لأجل التربية ، وعليه أن يستعمل هذا الحق بما ينسجم مع الفضيلة في أسلوبه وفي غايته ، فمن استعمل ذلك الحق لإذلال أولاده فقد استعمل ذلك الحق بطريقة منافية للفضيلة ، يترتب عليه إذن هنا إثم عند الله حتى ولو كان التصرف جائزا من الناحية الشرعية .

ولدينا حادثة تؤكد هذا أن رجلا من الصحابة طلق زوجته في مرض موته ، وكان يهدف إلى حرمانها من الإرث ، فورثها رغما عنه عثمان بن عفان ؛ لأن الطلاق ما جاء لأجل إضرار الزوجة ، وإنما هو حق أعطيه الإنسان عندما تتعذر الحياة الزوجية فمن حقه أن يستعمل ذلك الحق لكي ينهي حياة زوجية لا تتوفر فيها صفات النجاح ، أما أن يستعمل ذلك الحق بهدف حرمان الزوجة وإذلالها من حقها في الإرث فهذا لا يجوز في نظر الإسلام : لا ضرر ولا ضرار ، وأمثلة كثيرة لدينا تؤكد هذه الحقوق وتؤكد هذه الطبيعة الاجتماعية الحق .

المؤيد التشريعي :

أما المؤيد الثاني : فهو المؤيد التشريعي ويترتب عليه البطلان وهذا هو وجه استشهادي بالآية : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] ، وقد استعمل القرآن كلمة الإبطال ليؤكد أن الصدقة من استعمل حقه بالصدقة وارتبط بذلك الفعل ما يتناقض مع الفضيلة ففعله معرض للإبطال والإبطال هنا الإزالة ، الإزالة هي محو الشيء ، وكأنه لا أثر له فإذا هذا الإنسان الذي يتصدق بطريقة تتنافى مع الفضيلة ، فعله معرض للبطلان ، البطلان إذن سبب أو مؤيد من المؤيدات التي اعتمد عليها التشريع في إبطال بعض التصرفات ، ومنها أيضا عقد الاحتكار ، الاحتكار عقد من العقود المدنية ، ولكن التشريع الإسلامي أبطل ذلك العقد وفرض على المحتكر أن يبيع بثمن المثل لأنه حاول أن يربح ربحا فاحشا مستغلا حقه في الربح وحقه في البيع ليحقق ربحا زائدا لا يقره المجتمع وأحيانا يكون من المؤيدات التشريعية حق التقييد كما هو الشأن فيمن يملك مالا ثم يتصرف بذلك المال بطريقة لا يتصرفها العقلاء عادة وهذا يطلق عليه اسم السفية ، فالسفيه هو الذي يتصرف في ماله بطريقة لا يتصرفها العقلاء فهنا جاء النص الشرعي وهو مؤيد باعتباره سفيا والسفيه لا يتصرف في أمواله لأنه يحجر عليه .

المؤيد الأخلاقي :

المؤيد الثالث : وهو المؤيد الأخلاقي ومهمة المؤيد الأخلاقي أنه يوجد رأيا عاما مؤيدا للفضيلة في المجتمع ، فمن خرج عن نطاق الفضيلة في ممارسته للحق ، فإن ذلك الرأي العام الذي له صفة الهيمنة والسيطرة على المجتمع يرفض ذلك التصرف فهذا الإنسان يشعر بنظرات الغضب تنظر

إليه من المجتمع ؛ لأنه استعمل حقه بطريقة منافية للفضيلة كما إذا تصورنا ، أن رجلا يسكن في بيت وكان في حادث وفاة عند جيرانه فإن هو أقام حفلة فرح في تلك الليلة فإن نظرات الازدراء ، تتجه إليه لأنه استعمل حقه بطريقة منافية للفضيلة ، فهنا ينظر إليه نظرة ازدراء ؛ لأنه لم يحترم مشاعر المجتمع ، فالإنسان إذن عندما يستعمل حقه ينبغي أن يستعمل حقه المشروع بطريقة لا ترفضها الفضيلة كالغني عندما يتحدث في مشاعر الذي يعيش في مجتمع فقير يتحدث من خلال إنفاقه الكبير مشاعر المجتمع فهذا الإنسان ينبغي أن ينفق في إطار الفضيلة بما لا يسيء إلى مشاعر المجتمع الذي ينتمي إليه .

انعكاس مراعاة الفضيلة :

أما النقطة الرابعة : وهي انعكاس مراعاة الفضيلة المنتج من حقه أن ينتج ولكنه ينبغي أن ينتج الإنتاج الذي يسهم من خلاله في اقتصاد بلده وأمتة ولا يجوز أن ينظر إلى الربح فقط ؛ لأنه استعمل حقه بطريقة تتنافى مع الفضيلة كما إذا أنتج سلعة لا تفيد المجتمع ، أو إذا أنتج سلعة مضرّة بالمجتمع أو إذا تعاون مع أعداء بلده بنية الربح فهذا الإنسان قد استعمل حقه المشروع بطريقة تتنافى مع الفضيلة ، فالشريعة لا تبيح له أن يستعمل ذلك الحق بطريقة منافية للفضيلة والتاجر عندما يربح ربحا لا يقره المجتمع يعتبر أيضا متعسفا في استعمال حقه وإذا كان الإسلام قد أباح البيع ، فإن ذلك البيع ينبغي أن يكون بالمعروف ، وأن يكون مقدار الربح هو المقدار الذي يرتضيه المجتمع في الظروف العادية فإن احتكر أو استغل أو ظلم فإنه قد استعمل حقه بطريقة تتنافى مع الفضيلة .

وهكذا في كل تصرف من التصرفات ، هذا في المجال الاقتصادي وهذا يؤكد لنا أن المشروعية دائما تستهدف تقوية الروابط الاجتماعية في نطاق المجتمع ، يترتب على مراعاة الفضيلة وجود علاقات محبة في إطار المجتمع الواحد ، فالأستاذ في المدرسة عندما يتعامل مع الطلبة في إطار الفضيلة والمسئول في إدارة عندما يتعامل حتى وهو يعاقب موظفا من الموظفين ، يتعامل مع من عاقبه في إطار الفضيلة من غير إذلال وهكذا لأن المشروعية أعطت لهذا الإنسان الحق في أن يتصرف ، ولكنه لم تعطه حقا مطلقا في أن يمارس سلطة شخصية ، وإنما هي سلطة اعتبارية لتحقيق هدف معين خلال ممارسته لذلك الفعل والإنسان حتى عندما يريد أن ينقد ، عندما يريد أن يكتب مقالة في صحيفة ينبغي أن يكتب ذلك في إطار المشروعية بأن يستعمل الألفاظ التي لا تسيء إلى الآخرين ، ولا تجرح مشاعر الآخرين ؛ لأن استعمال الحق لا يعني أن هذا الحق مطلق ، وإنما ينبغي أن يستعمله في إطار الغاية الاجتماعية .

هل يجوز للدولة أن تقيّد الحقوق؟

النقطة الأخيرة : وهي هل يجوز للدولة أن تتدخل عن طريق القانون لتقييد الحقوق وهذه قضية دقيقة في عالم الفكر الاقتصادي بين مؤيدي لفكرة التدخل الحكومي في الحريات والحقوق الفردية وبين من يقول لا يجوز للدولة أن تتدخل ، والقضية أيضا مطروحة في مجال الفكر الإسلامي ، فما موقف الإسلام من تدخل السلطة لتقييد الحقوق المشروعة ، وقلنا نحن في إطار المشروعة كالاستملاك : عندما تتدخل الدولة لكي تستملك أرضا هذا تدخل في حق فردي هل يجوز للدولة أن تتدخل أم لا تتدخل؟ الجواب على ذلك : أننا عندما نقول أن هناك أمرا ونهيا فهناك تدخل لأن

الأمر لا يجعله أمراً إلا عندما تتدخل الدولة فتحاول أن تجعل من الأمر أمراً وتوقع عقوبة على من يرفض الامتثال ، والنهي لا يكون نهياً إلا عندما تتدخل الدولة لتفرض ذلك النهي وتعاقب من فعله .

ولهذا فإن الفلاسفة عندما يتحدثون عن العدل ، يقولون العدل لا بد له من معيار فهناك عدل ساكت وهو الدرهم تقاس به المقاييس والمبادلات وهناك عدل ناطق وهو الحاكم عن طريق القضاء والقضاء هو الذي يقيس الحقوق بين الناس فإذاً مبدأ التدخل أحياناً قد يجب على الدولة أن تتدخل حماية للفضيلة الاجتماعية في مفهومها العام فالدولة عندما تتدخل لتحديد الحد الأدنى من الأجور أو لكي تقول في بعض الأحيان لأصحاب القطاع الخاص إن الإجارة المرضية ينبغي أن تكون إجارة مأجورة هذا تدخل في الحقوق ، هذا يدخل ضمن اختصاص الدولة ولا يمكننا أن نقول لا يجوز للدولة أن تتدخل بل يجب على الدولة أن تتدخل وهذا هو مبرر وجود الدولة .

وهناك شروط وضوابط لهذا التدخل :

ضوابط تدخل الدولة :

الشرط الأول : شرعية سلطة الدولة عندما تتدخل ، تتدخل عن طريق صفة اعتبارية هي صفة التفويض ، فعندما يتدخل محتسب أو قاض فإنما يتدخل بصفته مفوضاً من قبل أمة ، عن طريق جهاز يعطيه صفة التفويض فهنا يتدخل ، فإذا كان متبرعاً وإذا كانت سلطة تفتقد صفة الشرعية عن طريق البيعة أو عن طريق الانتخاب فهي سلطة مغتصبة والسلطة المغتصبة لا تملك سلطة التفويض ، ولا تملك سلطة التقييد .

الشرط الثاني : عدالة السلطة وهنا نقول هذا القاضي عندما يتدخل أو المحتسب عندما يتدخل ينبغي أن يتدخل لحماية المصلحة العامة لا أن يتدخل لمصلحة شخصية فلا يجوز له التدخل ؛ لأنه استعمل حقه بطريقة تعسف فيها فلا يجوز له أن يتدخل إلا في نطاق المصلحة العامة .

الشرط الثالث : عدم التعسف في التدخل ، ومثال ذلك عدم استهداف الضرر ، فمن وجد أن هناك مصلحة في استملاك أرض من شخص لمصلحة عامة ، أو أن السلطة وجدت مصلحة في تأميم مرفق اقتصادي من المرافق العامة لهدف عام ، يجوز للدولة أن تفعل ذلك ، ولكن ألا يكون هناك إضرار لا نريد أن نرفع الضرر عن طريق إيقاع الضرر بصاحب الملك فلا بد من وجود تعويض عادل ليتمكن به صاحب الحق من أن يراعي ذلك الهدف الاجتماعي فلا يجوز لنا أن نرفع الظلم بظلم آخر .

إذن هذه شروط تتعلق بموضوع التدخل الحكومي فيما يتعلق بتقييد الحقوق الفردية رعاية للفضيلة ، وهناك أمثلة كثيرة في واقعنا فكم نتساءل أحيانا في قضايا حق الإنسان في تنظيم النسل ما هو رأي الإسلام في ذلك؟ ولا نتساءل هل يجوز للإنسان أن يقوم بعملية التنظيم لا أقول التحديد ؛ لأن التنظيم ليس هو التحديد التنظيم هو التحكم في عملية الإنجاب بزيادة أو نقصان فالتحكم أمر ليس هناك ما يؤخذ عليه كما أن الإنسان يتحكم في طعامه وفي شرابه وفي نومه يتحكم في دخله ، يتحكم في علاقاته الجنسية فهذه قضية التحكم ، فالتحكم يمارس حقا ليس هناك أحد يمنعه من تحديد أو ممارسة ذلك الحق بشروط ثلاثة :

الشرط الأول : ألا يكون في ذلك إهدار لحق الطرف الثالث هو الجنين ، فلو أن الإنسان أراد أن يحدد النسل أو أن ينظمه عن طريق الإجهاض ، فنقول : لا لأن هناك طرفا ثالثا قد وقع عليه الظلم فلا يجوز .

والإجهاض في اللحظة الثانية بعد لقاء البويضتين وليس بعد ثلاثة أشهر؛ لأن تلك البويضة في اللحظة الثانية لو تركت على حالها فسوف تنجب وليدا بعد التسعة أشهر، فإذا اعتداء على حياة الطرف الثالث ممنوع ولا يجوز.

الشرط الثاني: ألا يكون في ذلك إهدار لمصلحة طرف آخر، كمن أراد أن يستقذر أسلوبا سيئا إلى زوجته فهذا لا يجوز، لأنه يستعمل حقه بطريقة تتنافى مع الفضيلة، فلا يجوز له إذن أن يستعمل حقه بطريقة تلحق الضرر النفسي أو المادي بزوجته.

الشرط الثالث: ألا يكون في ذلك إهدار لمصلحة اجتماعية عامة، كما إذا اتفق الناس جميعا على تحديد النسل أو التقليل منه إلى درجة تضر بمصلحة الأمة فهذا ممنوع ولا يجوز؛ لأن مصلحة الأمة مصلحة معتبرة فلو أن الأمة تواطأت على اتفاق خاطئ على أن لا يكون هناك إنجاب فهذا أمر ممنوع لأن هذا الحق، لأن الإنسان يستعمل حقه بطريقة منافية للفضيلة الاجتماعية.

المحاضرة الثلاثون:

الأسرة الغربية والأسرة الإسلامية التطور والمصير

انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] .

إن المرحلة التي تجتازها الأسرة دقيقة للغاية في الشرق وفي الغرب ، في الشمال وفي الجنوب ، الحضارة التي نعيشها قدمت خدمات جليلة إلى الإنسان ؛ إلى الإنسان كفرد وإلى مؤسساته الاجتماعية والاقتصادية وغيرها باستثناء مؤسسة الأسرة التي كادت أن تعصف بها هذه الحضارة وتدمرها .

واخترت المقارنة بين الأسرة في الغرب ، والأسرة في العالم الإسلامي ؛ لأن في كل منهما نظمت الأسرة برسالة سماوية ، وفي كل منهما - وإن كان ذلك بصورة متفاوتة - حدث العراك وطالت المناقشة حول فهم النصوص الموحى بها ، وتجاوز الجدل ذلك في العالم المسيحي إلى إبعاد الدين نهائياً عن تنظيم الأحوال الشخصية ، ولم يخل المجتمع الإسلامي من دعوات أو تطبيقات مماثلة ، وإن كانت دائرتها محدودة إلى الآن .

وأعرض أولاً الأسرة في الغرب ثم الأسرة في العالم الإسلامي ثم أتساءل في الأخير عن آفاق المستقبل .

أولاً: الأسرة في الغرب: التطور والمصير:

كانت الأسرة الغربية في مجملها خاضعة لأحكام الإنجيل المنزل على الرسول عيسى عليه الصلاة والسلام بالشكل وبال تفسير اللذين وصل بهما إلى الكنيسة ورجالها .

ونعتقد أن الأحكام الأساسية للأسرة لم تكن تختلف فيما أوحى به إلى عيسى عنها فيما أوحى به إلى الرسول محمد ﷺ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

وفي مقدمة هذه الأحكام اعتبار الأسرة أو الزواج المؤسسة الوحيدة المعترف بها للتعايش والحفاظ على النوع ، فكل من الديانتين المسيحية والإسلامية ترى في العلاقة خارج الزواج ذنباً كبيراً ، وانحرافاً مقيتاً .

ولكن إلى جانب الوحي هنالك تفسير النصوص الموحى بها ، وهو ذو أهمية كبرى ، نرى هذه الأهمية في المجتمع الإسلامي الذي أمامه من ناحية نصوص ثابتة بالقطع ، ومن ناحية ثانية طريقة التفسير الخاضعة للمنهج الاستدلالي العلني الذي يمكن لأي فرد أن يناقشه .

فكيف بنصوص ووصايا جمعت بعد مئات السنين ، وخضع تفسيرها لقدسية وسرية لا يسمح للعموم بمناقشتها أو البحث عن سندها مع مقاومة كل جديد ، وعدم الاعتراف بغير ما أنتجه ذلك التفسير ؟

ولسنا بصدد انتقاد التفسير الكنسي للتعاليم المسيحية وإنما الهدف هو التنبيه إلى الدور الهام الذي يمثله الشرح إلى جانب النص الأصلي المقرر للحكم ، وإلى أن الشرح أو التفسير الذي يعتقد أنه قادر على التحكم في

الواقع دون مراعاة خصوصياته وملابساته ، يصبح في صراع مع هذا الواقع ، وقد يخسر المعركة معه في النهاية .

هذا هو ما حدث للكنيسة في موقفها إزاء تنظيم الأسرة فقد تحقق في القرن الخامس عشر الميلادي بالنسبة لأوروبا انتهاء عصر وبداية عصر ، وكان العصر الذي ابتدأ معتمداً على مقومات قوية ناتجة عن تغير علاقة الإنسان بعالمه الخارجي في المجالين الفكري والمادي على السواء .

فماذا كان نصيب الأسرة من هذا الانتقال من عصر إلى آخر؟ وكيف تطور الصراع بين الكنيسة وتيار التغيير؟ وما هو المصير الذي انتهت أو كادت أن تنتهي إليه الأسرة في الغرب؟

نتكلم أولاً عن بداية الصراع ، ثم عن تطوره ، وأخيراً عن الوضعية الحالية للأسرة ومصيرها المنتظر .

١- بداية الصراع:

بدأ الصراع مع النموذج الكنسي للأسرة من منطلق داخلي يستهدف إعادة قراءة تعاليم المسيح عليه السلام ، وتفسيرها بروح واقعية في أفق الأفكار التي أخذت تنتشر حول مركز الفرد في المجتمع وعلاقات الإنسان بالعالم الخارجي على ضوء ما اكتسبه من معرفة حديثة بهذا العالم .

هذا ما كانت تمثله الثورة البروتستانتية التي بدأها رجل الدين الثائر مارتين لوتر Martin- Luther عام ١٥٢٠ من فوق منابر الكنيسة بألمانيا ، ثم تحولت إلى حرب دموية استمرت ما يقرب من قرنين من الزمن ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الأبرياء قبل أن ترغم الكنيسة الأم على الخضوع في النهاية للأمر الواقع وتعترف بشرعية الحركة الدينية الجديدة .

وفي مجال الأسرة الذي يهمننا القول إن أهم ما استحدثته البروتستانتيون فيه ، هو تقرير مبدأ الطلاق ، وإخراج الزواج من الأسرار السبعة التي ما تزال الكنيسة الكاثوليكية تؤمن بأن عيسى عليه السلام لقنها لشعبه لتحقيق له بالمحافظة عليها السعادة الأبدية . إضافة إلى ذلك السماح للرهبان ورجال الكنيسة بالزواج وقد بدأ مارتين لوثر بنفسه فتزوج من راهبة .

إن هذا التفسير الجديد للتعاليم المسيحية اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية انتهاكاً لقدسية الزواج وانحرافاً عن العقيدة المسيحية الصحيحة ، ولذلك عندما وقعت اتفاقية الصلح والتعايش مع البروتستانت كان من بين بنود الاتفاقية احترام عقيدة الأفراد في المناطق التي استولى عليها كل طرف بحيث أن من ينتقل منهم إلى منطقة الطرف الآخر يبقى خاضعاً لأحكام موطنه الأصلي المنسجمة مع عقيدته .

ومن هنا نشأت قاعدة «شخصية قواعد الأحوال الشخصية» التي أصبحت فيما بعد من أسس القانون الدولي الخاص وامتدت إلى العالم الإسلامي الذي أخذ بدوره بالفصل بين قانون الأحوال الشخصية وبين غيره من فروع القانون الأخرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الاضطهاد الكاثوليكي للفكر طيلة القرون الوسطى ، والأفكار المفتحة للبروتستانت التي جردت الزواج من قدسيته الغيبية ، إلى جانب ما حققه العقل من ثورة في مجال المعرفة ، كل ذلك مهد الطريق للتيارات المناوئة للكنيسة كلها ، والداعية إلى إدماج الأحوال الشخصية في العلاقات المدنية وتنظيمها بنصوص وضعية بعيدة عن تعاليم الدين أيّاً كان تفسيرها ، أي أن الكنيسة أدت ثمناً غالياً لموقفها

المتصلب ، والتعصب الأعمى للرأي الموروث ، ومقاومة الانفتاح على الواقع حتى عن طريق الاجتهاد في تفسير النصوص مسيطرة لحياة الناس وتصوراتهم إزاء علاقات التعايش الاجتماعي الخاضعة لسنة التطور .

٢- تطور الصراع؛

لقد كان شق عصا الطاعة الذي أعلنه البروتستانت رغم نزيفه الدموي مجرد خلاف حول التقليد والاجتهاد في فهم وتفسير نصوص الوحي ووصايا القديسين . إلا أن هذا الخلاف الديني الداخلي ما لبث أن تطور إلى نزاع حول حدود سلطة الدين وموقعه من تنظيم التعايش بين الأفراد : قاد هذه المرحلة الثانية من الصراع اللائكيون أو الوضعيون الذين عملوا في القرنين السابع والثامن عشر على فصل الدين عن الدولة ، وفي القرن التاسع عشر تمكنوا من إبعاد الدين نهائياً عن تنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد .

وبموقفهم هذا من الدين سموا بالعلمانيين (بفتح العين) ترجمة لكلمة «Seculiers» التي كانت في الأصل تفيد انتقال أحوال الكنيسة إلى الملك المدني طبقاً لاتفاقية «ويستفاليا» ، وانتقال الراهب إلى الحياة المدنية دون أن يتخلل ضرورياً عن رهبنته^(١) .

والعلم (بفتح العين) معناه في العربية : العالم أو المخلوقات قال الفيروزابادي في «القاموس» : «والعلم والعالم : الخلق كله أو ما حواه بطن الفلك» .

(١) تقول دائرة المعارف الفرنسية : إن هذين المعنيين الأصليين يكادان يكونان منسيين

الآن . انظر كلمة : La secularization .

فكان المقصود بالعلمانيين إذن اللائكيون أو الدنيويون الذين يعارضون تدخل الدين في تنظيم العلاقات الاجتماعية والشؤون الدنيوية^(١).

(1) أما العلمانية (بكسر العين) فتعني اعتماد الوسائل والمقاييس العلمية للكشف عن الحقيقة.

فليس بين الكلمتين: «العلمانية» (بالفتح) و «العلمانية» (بالكسر) إلا الاشتراك اللفظي، أما معناهما اللغوي فمتباين ولا علاقة لإحدهما بالآخرى. ومع ذلك إذا رجعنا إلى الكتابات العربية نجد الخلط بينهما واضحاً، فالكاتب لا يشير إلى أنها بالفتح أو بالكسر، والقارئ يقرأها كيفما اتفق، بل إننا إذا رجعنا إلى المعاجم نجدها تفسر «العلمانية» (بالكسر) باللا دينية أي أنها تعطى نفس معنى «العلمانية» (بالفتح).

ويبدو أن هذا خطأ فادح، فهو إما ناشئ عن خطأ في القراءة بسبب عدم كتابة الحركات في العربية، وإما أن يكون سببه تفسير «العلمانية» (بالكسر) بالفلسفة التي تقول إنه لا حقيقة إلا ما أدركه العقل عن طريق العلم، وأن العلم قادر على إدراك كل شيء، فهذه الفلسفة لا تعترف بالحقائق الدينية، إلا إذا أكدها العلم عن طريق التجارب المخبرية، أو المقاييس العقلانية المتعارف عليها...

لكن مع هذا نرى أن معنى كل من الكلمتين يجب أن يظل متميزاً عن الآخر فالفلسفة التي تقول إنه لا حقيقة إلا ما أدرك العقل... إلخ، لم تعد اليوم مقبولة حتى من أقطاب العلم التجريبي، وقد تعرضت لتراجع واضح منذ أوائل هذا القرن وعن طريق العلماء الطبيعيين الأمريكيين أنفسهم.

إذن يبقى معنى «العلمانية» (بالكسر) هو مجرد التقيد بطرق البحث العلمي في اكتساب المعرفة والوصول إلى الحقيقة، مع الاعتراف بوجود حقائق دينية لا يستطيع العقل أن يردها لعلة عدم خضوعها لمقاييس المعرفة التي ألفها، فالرأي السائد اليوم لدى العلماء الموثوق بهم في مختلف مجالات المعرفة أن وسائل المعرفة ومقاييسها التي يعتمد عليها العقل الإنساني غير قادرة على إدراك كل شيء، وبالتالي فإن ما تخبر به الأديان السماوية أو تقررته يبقى مصدرًا مستقلاً للمعرفة لا يملك العقل الطعن فيه لمجرد عدم تناسق ذلك مع أدواته المعرفية المألوفة.

وقد استطاع هؤلاء العلمانيون أن ينتصروا على الكنيسة بفرعها التقليدي والجديد، وصدرت قوانين مدنية وضعية أدمجت فيها الأحوال الشخصية ونموذجها القانون المدني الفرنسي ١٨٠٤.

ولعل من أهم ما ابتعدت فيه هذه القوانين الوضعية عن تعاليم الكنيسة هو:

- إسناد إبرام عقد الزواج إلى موظف مدني عوض رجل الدين في الكنيسة.

- إقرار الطلاق وتنظيم إجراءات الحكم به من طرف القضاء.

- تنظيم التبني الموروث من القانون الروماني رغم محاربته من الكنيسة منذ إقرارها لتحريمه في مؤتمر نيسيه Nicee عام ٣٢٥ م.

ومع ذلك فإنها سمحت بإبرام الزواج بصيغته الدينية، إما بعد إبرامه مدنيًا كما فعل القانون الفرنسي^(١) أو على أساس ترك الحرية للأفراد ليختاروا الصيغة الدينية أو الصيغة المدنية لزواجهم كما فعل القانونان البريطاني والإيطالي مثلاً.

وحافظت هذه القوانين على الفراق الجسدي الذي كانت قد سنته الكنيسة الكاثوليكية للتخفيف من آثار منعها للطلاق.

ولعل بقاء مثل هذه المقتضيات الموروثة من تقاليد الكنيسة وتعاليمها هو الذي جعل القوانين المدنية الوضعية تحافظ على قاعدة شخصية قوانين

(١) القانون الفرنسي رخص بإبرام الزواج بالصيغة الدينية ولكن شرط أن يسبق ذلك إبرامه مدنيًا أمام الضابط المختص، وقد عاقب القانون الجنائي (م ١٩٩ و ٢٠٠) الصادر عام ١٨١٠ كل رجل دين أبرم عقد زواج قبل أن يتأكد من سبق إبرامه مدنيًا.

الأحوال الشخصية التي قررها الاتفاق الكاثوليكي البروتستانتي .
وملاحظة أخيرة يمكن إبرازها إزاء القوانين المدنية الوضعية هي
اتسامها بالإجحاف بحقوق المرأة ، وأصدق مثال على ذلك القانون المدني
الفرنسي الذي كان لا يعترف لها بأي دور إيجابي في سير شئون الأسرة
إضافة إلى حرمانها من الأهلية المدنية بمجرد زواجها بحيث لا يحق لها أن
تترافع أمام القضاء ولا أن تمارس مهنة ، ولا أن تبرم عقد تفويت أو رهن
أو تملك مالا بعوض أو بدونه ، إلا بحضور زوجها أو بحصولها على إذنه
السابق^(١) .

هذا الإجحاف هو الذي أذكى حملات الدعوة إلى المساواة بين الرجل
والمرأة التي أتت أكلها بعد الخمسينات كما سنرى ذلك في الفقرة الموالية .

٣- الوضعية الحالية والمصير المنتظر:

مع اقتراب منتصف هذا القرن شهدت قوانين الأسرة في الغرب موجة
من الإصلاح والتغيير يمكن القول أن الذي بدأها المشرع الفرنسي بقانون
١٨ / ٢ / ١٩٣٨ الذي عدل به بعض مواد القانون المدني المتعلقة بأهلية
المرأة المتزوجة وبمركزها في البيت الزوجي .

ثم توالى التعديلات في القانون الفرنسي وفي باقي قوانين الدول
الغربية الأخرى منذ الخمسينات إلى الآن .

هذه التعديلات والإصلاحات كان لها هدف مزدوج :

- المساواة .

(١) انظر (م ٢١٥ و ٢١٧) كما صدرت عام ١٨٠٤ .

- وحقوق الإنسان^(١).

فباسم المساواة ألغيت كل الامتيازات التي كانت للرجل كزوج وكأب وأصبح هو والمرأة متساويين في جميع الحقوق والالتزامات والمسؤوليات الأسروية بدءاً من إبرام عقد الزواج إلى تدبير الشؤون المادية والمعنوية للأسرة وتربية الأطفال والولاية عليهم وإنهاء العلاقة الزوجية^(٢).

(١) مصطلح «حقوق الإنسان» ظهر قبل هذا الوقت بكثير بالنسبة لأوروبا، وتمكن من الذبوع والانتشار عن طريق الثورة الفرنسية التي أصدرت (إعلان حقوق الإنسان والمواطن).

ولكن مفهوم حقوق الإنسان إذ ذاك كان يركز على الحقوق السياسية، وكذلك الحقوق الاقتصادية بالمفهوم الليبرالي الذي يلخصه مبدأ «دعه يعمل، دعه يمر». فالمواطن الأوروبي كان يعاني من الحرمان من المشاركة في القرار السياسي والمساهمة في سير جهاز الدولة.

أما بعد الحرب العالمية الثانية- ونتيجة لما عانته أوروبا من الأنظمة الديكتاتورية الثلاثة: الشيوعية، والفاشية، والنازية- فقد تبلور لمصطلح (حقوق الإنسان) مفهوم آخر يهدف إلى صيانة حقوق الفرد (ضد الدولة) وإلى الحد من تدخلها في (شئونه الخاصة).

وهذا ما تعكسه مدرسة الدفاع الاجتماعي في المجال الجنائي، ويعكسه كذلك خارج المجال الجنائي التيار الداعي إلى الحد من تدخل الدولة وترك الفرد يعيش وفق إرادته واختياره في أكبر دائرة ممكنة.

وقد كان من نتائج ذلك: صدور (ميثاق حقوق الإنسان) عام ١٩٤٨ من هيئة الأمم المتحدة، وإبرام الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان عام ١٩٥٠. فالميثاق تلتته عدة اتفاقيات أخرى يخص بعضها الطفل والمرأة، ويشمل بعضها الآخر كل الأفراد.

أما الاتفاقية فكانت السبب في تحريك الزوبعة التي شملت أوروبا كلها منذ الستينيات وأدت إلى تعديلات جوهرية في قوانين الأحوال الشخصية.

(٢) انظر مثلاً: التعديلات التي أدخلت على القانون الفرنسي في السنوات ٦٥ و ٧٠ و ١٩٧٥.

وأصبح من النادر اليوم العثور في القوانين الأوروبية على عدم المساواة بين الزوجين مثل ما يقضي به القانون الهولندي من أن السلطة الأبوية^(١) يمارسها الأبوان معاً، وفي حالة الخلاف يؤخذ برأي الأب، على أن يبقى للأم حق رفع الأمر إلى القضاء إذا كان رأي الأب يلحق ضرراً مادياً أو معنوياً بأبنائهما القاصرين^(٢).

وباسم حقوق وحرية الإنسان أخرج كثير من أحكام قانون الأسرة من النظام العام^(٣) لعل أبرزها نموذج الأسرة ذاته وهو الزواج، والعمود

وفي بلجيكا: قانون ١٩٥٨/٤/٣٠، وتعديلي ٧٤/٧/١ و ٧٦/٧/٦ لبعض مواد القانون المدني، وأخيراً قانون ٧٦/٧/١٤ الذي وضع حدّاً نهائياً للمساواة بين الجنسين التي استمرت حوالي مائة وستين عاماً كما يقول الأستاذ Rigaux من جامعة Louvin

Mariage et famille en question p. 89- Leuon 1980

وفي هولندا: قانون ١٩٧٠ المطبق بموجبه الكتاب الأول من القانون المدني الجديد الذي أدخل تعديلاً عاماً على الأحكام المتعلقة بحقوق الأشخاص والأسرة. قانون ١٩٧١ المعدل لقانون الطلاق (المطبق ابتداء من ١٠/١/١٩٧١) والذي بموجبه لم يعد ثبوت خطأ أحد الزوجين سبباً للطلاق، وإنما أصبح له سبب وحيد هو (الانشقاق المستمر : durable disunion) الذي يعتبر الطلاق وسيلة لعلاجه.

(١) الواقع أن مصطلح (السلطة الأبوية puissance paternelle) لم يعد مستعملاً في القوانين الغربية، وإنما عوض بمصطلح (ولاية القربة : autorite parentale) كما في القانون الهولندي منذ تعديل ١٩٧٠ والقانون السويسري بتعديلي ٧٢ و ١٩٧٦ والقانون الفرنسي (تعديل ١٩٧٠/٦/٤).

(٢) انظر الأستاذ D.C FOKKEMA بجامعة Leyden في المرجع المشار إليه في هامش ٦ ص ١٢٩.

(٣) وفي ذات الوقت، ومن منطلق حقوق الإنسان والمساواة كذلك توسع القضاء الأوروبي في تطبيق قوانينه الداخلية على الجاليات الأجنبية من العالم الثالث، مستبعداً قوانين هذه الأخيرة للأحوال الشخصية باعتبارها متعارضة مع النظام العام لبلد القاضي.

الفقري له في القوانين الأوروبية التقليدية وهو الوفاء أو الإخلاص بين الزوجين «La Fidelite» .

إن دول أوروبا الغربية التي وقعت اتفاقية روما في ٤/١١/١٩٥٠ المتعلقة بحماية حقوق الإنسان وحياته الأساسية ، اضطرت إلى ملاءمة قوانينها الداخلية مع هذه الاتفاقية^(١) .

ومن الغريب حقاً أن يكون للمساواة وحقوق الإنسان انعكاس سلبي على الأسرة بمفهومها القانوني وعلى صفتها كمؤسسة اجتماعية يربها ويحميها القانون .

إن أغلبية دساتير الدول الغربية^(٢) لا تعترف بغير الأسرة المنبثقة عن عقد زواج ، وتفرض على الدولة حمايتها ، الأمر الذي يمنع - نظرياً - المشرع نفسه من الاعتراف بنظام آخر للأسرة غير قائم على هذا العقد .

لكن بالرغم من ذلك فإن الواقع المعيش يعكس حقيقة دامغة وهي أن الأسرة كما تصورها تلك الدساتير في طريقها إلى الاندثار ، تؤكد ذلك ظاهرة ثلاثية الجوانب :

- تراجع في نسبة الزواج .

- ارتفاع في نسبة الطلاق .

(١) سيما وأن الاتفاقية أسست اللجنة الأوروبية لحقوق الإنسان التي يحق لأي فرد أن يرفع أمامها ما يراه مأساً بحقوق الإنسان ، كما أسست «المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان» التي يمكن الطعن أمامها في أي قانون داخلي لا يحترم مقتضيات الاتفاقية .

وقد أصدرت المحكمة مثلاً في ١٣/٧/١٩٧٩ قراراً لاحظ أن التشريع البلجيكي الخاص بالأطفال غير الشرعيين ، لا ينسجم مع مقتضيات (م ٨) من الاتفاقية .

(٢) بما فيها الدساتير الحديثة مثل دستوري ألمانيا وإيطاليا .

- تزايد سريع في نسبة المساكنة الحرة أو ما يعبر عنه بالأسرة الواقعية التي لا تقوم على عقد زواج قانوني^(١).

هذه الظاهرة التي تفاحشت منذ الستينات يتساءل الكثير من الباحثين عما إذا كانت مجرد ظاهرة عابرة، أم أنها بداية لتحول جذري في مؤسسة الأسرة؟

نعتقد أنها بداية تحول وليست حدثاً عابراً مرتبطاً بظروف وقتية ونستخلص ذلك من المؤيدات أو الأسباب التي أدت إلى ظهورها وهي :

- نسق الحياة .

- والمفهوم القانوني الذي يضمن على حقوق الفرد .

أ- فمن ناحية نسق الحياة يمكن الإشارة إلى :

- المبدأ الذي اعتنقته المدنية المعاصرة وهو حث المرأة وتشجيعها على إظهار مفاتها والتبرج بزيتها في الحياة العامة ، وهذا ما يبرزه النمط الذي سلكه تطوير لباس المرأة وما رافقه من صناعة أدوات الزينة .

- ما يميز الفرد الأوربي من النظر بحذر إلى الماضي والمحاولة المستمرة لتجاوزه بأفكاره ومؤسساته ، وهو ما تعبر عنه صراحة نسبة مهمة من

(١) في لقاء بأساتذة كلية الحقوق بالرباط يوم ٢٧ فبراير ١٩٨٦ قالت الباحثة Evelyne Sullerot أستاذة علم الاجتماع بباريس : إن نسبة الأطفال الذين ازدادوا في فرنسا خلال عام ١٩٨٥ من أبوين لا يربطهما عقد زواج هي ٥١٪ مقابل ٤٩٪ ازدادوا من علاقة زواج .

وأكدت أن ظاهرة تناقص عقود الزواج وارتفاع نسبة الطلاق ، والأبناء المزدادين خارج علاقات الزواج ، تعم مجموع دول أوروبا بنسب متقاربة مع النسبة الموجودة في فرنسا .

المستجوبين في موضوع الزواج حيث يجيبون بأن الزواج نظام عتيق أصبح الآن متجاوزًا.

- أسلوب توزيع الدخل التابع لنمط الإنتاج والعمل الذي ينتهي بتوزيع الدخل توزيعًا فرديًا ، الأمر الذي يساعد على تفكك الروابط العائلية وبالتالي استقلال كل فرد باختيار أسلوب حياته داخل المجتمع .

- مجموعة عوامل^(١) فرضت استقلال الفرد عن أسرته في سن المراهقة الأمر الذي يجعل اختياره لنهج الحياة لا يرتبط فيه بتقاليد الماضي إضافة إلى أن تركه في هذه السن وجهًا لوجه مع مشاكل الحياة لا يشجعه على تحمل مسئولياتها .

ب- ومن ناحية المفهوم القانوني لحقوق الإنسان يلاحظ أنه وإن لم يوجد إلى الآن اعتراف مباشر من القانون بالواقع الجديد ، إلا أن عدة مؤشرات توحي بأن هذا الاعتراف أصبح وشيكًا .

هذا ما أكدته الواقع التشريعي والفقهية :

فالتشريع تأثرًا بالمفهوم الذي أعطي لحقوق الإنسان وحرية ، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أخذ مجرد شيئًا فشيئًا الأسرة من وصفها

(١) يمكن أن يدرج في ذلك :

- ما أدى إليه الابتعاد عن الدين من اختفاء التقاليد والمبادئ الأخلاقية التي كانت تساهم في تنظيم العلاقات الاجتماعية عمومًا وعلاقات أفراد الأسرة خصوصًا .
- النزعة المادية التي تتسم بها الحضارة المعاصرة .
- الميل إلى الاستهلاك الذي يساعد عليه التقدم العلمي بما يوفره من مواد الاستهلاك ومجالاته .
- مبادئ حرية وحقوق الفرد التي تدعو إلى عدم التدخل في شؤنه الشخصية سيما بعد سن الرشد .

كمؤسسة اجتماعية ينظمها ويحميها القانون ، ويقترّب من اعتبارها مجرد اجتماع نفعي تقوم فيه الحرية الفردية بالدور الأساسي .

- هذا ما تترجمه إباحة العلاقات بين الجنسين ، وإباحة الخيانة الزوجية ذاتها بإلغاء النصوص الجنائية التي كانت تعاقب عليها^(١) ، وهو ما وجه طعنة نجلاء إلى مبدأ الوفاء **La fidelite** الذي تحرص كل القوانين الغربية على النص عليه في القانون المنظم للزواج .

- التوسع في دائرة الاتفاقات الإرادية في عقد الزواج^(٢) .

- تنظيم وحماية حقوق الولد الطبيعي الراجعة إلى علاقته بأبويه ، واعتبارهما في نفس المركز القانوني للأبوين المرتبطين بعقد زواج ، الأمر الذي يتضمن الاعتراف بعلاقتها وإن كان لا ينظمها عقد زواج .

أما الفقه فإنه بدوره جاد في البحث والاستدلال على المبررات القانونية لشرعية المعاشرة الحرة التي يعبر عنها بالأسرة الواقعية **La famille de fait**

(١) كما فعل المشرع الفرنسي بقانون ١٩٧٥ / ٦ / ١١ الذي ألغى به (م ٢٣٦ - ٢٣٩ ج) وفي القانون الهولندي يقول **D.C FOKKEMA** الأستاذ بجامعة **Leyden** أن القانون كان يقبل إثارة المتابعة الجنائية بالخيانة الزوجية وإن كان ذلك بشروط جعلت هذه الإثارة نادرة جداً ، ثم يضيف ولكن بعد قانون ١٩٧١ هل ما يزال ممكناً للزوج الضحية إثارة المتابعة الجنائية باعتبار الخيانة تشكل خرقاً للالتزام بالوفاء **La fidelite** ؟
ويجيب عن السؤال بأن أغلبية الفقه لا ترى ذلك وأن المتابعة بالخيانة الزوجية لا تتسم (مع مبدأ الحرية الفردية ومع الاحترام للحياة الخاصة) **Mariage et famille en question** نشر المركز الإقليمي في ليون **Lyon** التابع للمركز الوطني للبحث العلمي **C.N.R.S** الفرنسي ١٩٨٠ - ص ١٤٦ .

(٢) انظر مثلاً - ١٤٩٧ و ١٥٢٧ م . ف . المعدلتين بقانون ١٩٦٥ / ٧ / ١٣ . راجع في التعليق على هاتين المادتين جرار كورنو **G. Cornu** في كتابه **Les Regimes matrimoniaux** ص ٦١٤ وما بعدها .

والفقه في التعاطف الذي يبيده مع الأسرة الواقعية ينطلق من مبدأ الدفاع عن حقوق الإنسان والحريات الفردية بالمفهوم الذي يضيف اليوم على هذه الحقوق والحريات .

وبطبيعة الحال لا تعوزه النصوص التي تؤيد بها ما يذهب إليه ،
وكمثال على ذلك ما يقول به عدد من الفقهاء الإيطاليين^(١) من أن الأسرة الواقعية تجد سندها القانوني في نصوص الدستور .

ذلك أن الدستور وإن لم يتحدث في المادتين ٢٩ و ٣٠ إلا على الأسرة القانونية المنبثقة من زواج دون سواها ، فإن المادة الثانية منه تنص على أن الدولة تعترف بالحقوق الأساسية للفرد وترعاها سواء بصفته الفردية أو بصفته عضواً في المجموعة الاجتماعية التي يمارس نشاطه داخلها .

وبناء على ذلك يقول هؤلاء الفقهاء : إن من الحقوق الأساسية للفرد التي يجب على الدولة أن تعترف بها وترعاها الطريقة التي يختارها للارتباط أو العيش مع الجنس الآخر .

إذن في الغرب واقع معيش مجهز وبسرعة على النظام القانوني للأسرة وعلى صفتها كمؤسسة اجتماعية ترعاها وتحميها الدولة هذا الواقع يزيده ترسيخاً وتمكيناً كل من نسق الحياة كما أفرزته المدنية المعاصرة ، والمفهوم الجديد لحقوق الفرد وحرية .

ولذلك أعتقد أننا نقع في غلط فادح عندما نتحدث عن القوانين التقدمية والعصرية التي أنقذت الأسرة في الغرب وقدمت لها الخدمات للتطور والنمو . . .

(١) أخذنا إيطاليا كمثال باعتبارها دولة متوسطة تتلقى (العصرية) من الشمال مهد (التحضر والتجديد) ، ويكفي أن نتذكر أنها لم تقرر الطلاق إلا في سنة ١٩٧٤ .

ويمكن النظر إلى رؤية الاتجاهات العربية المعاصرة بالأسرة من خلال مجموعة من الزوايا :

- الزاوية الفكرية .
- الزاوية التشريعية .
- الزاوية الواقعية .

١- الزاوية الفكرية :

في مجال الفكر النظري والرأي يمكن أن نلاحظ الاتجاهات التالية :

أ- الاتجاه المحافظ :

وهو يرى بصورة عامة الاحتفاظ بأحكام الأحوال الشخصية كما هي مدونة في الكتب المذهبية ، دون إمكانية الخروج من مذهب إلى مذهب آخر .
وبذلك يتمسك بأحكام لم تعد منسجمة مع العلل التي كان يربطها بها الفقه نفسه ، أو يصدر أحكاماً وفتاوى يصعب أو يتعذر تطبيقها .

من أمثلة الاتجاه الأول :

تحويل الولي حق رفض الزواج إذا لم تتوفر الكفاءة وصداد المثل ، وكل الفقه يعلل ذلك برفع العار عن أسرة المرأة والحفاظ على سمعتها وصون مركزها الاجتماعي^(١) ؛ لأن انعدام الكفاءة وانخفاض المهر عن صداد المثل يلحق ضرراً معنوياً واجتماعياً بأسرة المتزوجة .

(١) ولذلك كان مفهوم الكفاءة وصداد المثل مرتبطاً بالعرف ، وهو ما جعل جميع عناصر «الكفاءة» محل خلاف بين الفقهاء ، بسبب اختلاف الأعراف الاجتماعية من إقليم إلى آخر ، فقد تتفق بعض المذاهب الفقهية على بعض الكفاءة ، ولكن لا يوجد اتفاق بين كل المذاهب ولو على عنصر واحد من عناصر الكفاءة .

فهل ما تزال توجد فعلاً معايير اجتماعية «للكفاءة» التي يؤدي تخلفها في الزوج إلى إلحاق السبة بأسرة الزوجة والمساس بمركزها الاجتماعي؟ وهل ما يزال المهر البسيط وصمة عار تخدش بها عائلة المتزوجة؟

ومن أمثلة الحالة الثانية :

- فتوى صادرة عن رئيس لجنة الإفتاء بالجامع الأزهر تقول : «لا ولاية لكافر على المسلم» .

«تزوجت مسلمة بمسلم وطلقتها المحكمة الأمريكية ، ثم تزوجت بآخر ، فما حكم الطلاق والزواج؟ ليل . واشنطن .

- إن طلاق المحكمة الأمريكية لهذه الزوجة طلاق باطل ؛ لأنه لا ولاية للكافر على المسلم ، وبالتالي زواجها بآخر يكون زواجاً باطلاً وعليها أن تمتنع من هذا الزوج الثاني حتى تحكم لها المحاكم المسلمة بالطلاق ثم تتزوج زواجاً جديداً صحيحاً .

والمطلوب ممن يعيش في بلاد الكفار أن يحتكم إلى المراكز الإسلامية أو إلى جماعة من المسلمين تعلم أحكام الدين وتنفذها فتكون الولاية للمسلم على المسلم . هذا إذا كانت المحكمة الأمريكية قد حكمت بتطليقها .

أما إذا كان الزوج قد طلقها أمام المحكمة فإنه طلاق صحيح وبالتالي فالزواج الثاني صحيح . . . والله أعلم»^(١) .

إن هذه الفتوى تحتاج في التعليق عليها إلى مجلد ضخم لما تناوله من موضوعات ذات أهمية كبرى في حياتنا المعاصرة وفي طرق الاجتهاد

(١) نص السؤال والفتوى كما نشرتها جريدة «المسلمون» في العدد ٦٩ الصادر بتاريخ

واستنباط الأحكام . . . والذي يهم الآن ونتناوله بإيجاز شديد هو اعتبارها لأحكام «محاكم الكفار» غير سارية على المسلمين الذين يجب عليهم دائماً أن يحتكموا «إلى المراكز الإسلامية أو إلى جماعة من المسلمين لتكون الولاية للمسلم على المسلم» وأنه «لا ولاية للكافر على المسلم» .

فصياغة الفتوى - فيما يبدو - تمنع التحاكم إلى غير المسلم (الكافر) أيًا كان القانون الذي يطبقه أي ولو كان غير مخالف لأحكام الشريعة .

ب- الاتجاه العلماني (بافتح) أو اللائكي :

ظهوره العلني في العالم الإسلامي كان على يد ثورة مصطفى أتاتورك عام ١٩٢٢ وبعد ذلك أخذت بعض الكتابات الفردية تنشر في الشرق العربي تدعو إلى تبني الاتجاه اللائكي في صياغة قانون الأسرة، على أساس أنه الوسيلة الكفيلة بتدعيم الوحدة الوطنية حيث كانت تلك الكتابات تظهر على الخصوص في الدول التي يعتنق بعض مواطنيها الديانة المسيحية .

وفي الوقت الحاضر امتد الاتجاه إلى كل الدول الإسلامية تقريباً ، ولم تعد الوحدة الوطنية المبرر الوحيد لدعائه ، وإنما يركزون أكثر على ما يسمونه بالحرية ، والانعتاق من التقاليد . . .

هذا ما نقرأه بين حين وآخر في مؤلفات أو مجلات أو صحف ، وفي أبحاث جامعية ، كثيراً ما يبقى هذا الجانب من محتوياتها بعيداً عن مناقشة الهيئة الأكاديمية الموكول إليها تقييم البحث . . .

وعلى كل حال فالاتجاه اللائكي وإن كان وجوده يتفاوت بين دولة وأخرى فإنه على العموم ما يزال في مستوى محدود بالنسبة للعالم الإسلامي ككل .

ويقترّب من هذا الاتجاه الرأي الداعي إلى النقل الحرفي للنظام الغربي للأسرة .

٢- الزاوية التشريعية:

تشريعات الأحوال الشخصية في البلاد الإسلامية تعكس في الواقع الاتجاهات الفكرية في هذه البلاد التي سبق الحديث عنها .

فبعد الأخذ بمبدأ التمييز بين الأحوال الشخصية وبين غيرها من فروع القانون بالنسبة للمصدر المعتمد في كل منهما يمكن أن نلاحظ وجود ثلاثة نماذج من التشريعات للأحوال الشخصية :

أ- نموذج البلاد التي ما تزال تطبق الاجتهاد الفقهي كما هو مدون في الكتب الفقهية للمذهب المعمول به فيها .

ب- نموذج الأقطار الإسلامية التي أصدرت قوانين للأحوال الشخصية بالصياغة التشريعية الحديثة، اقتبست أغلب أحكامها من الاجتهاد الفقهي المذهبي، مع الخروج أحياناً عن المذهب المعتمد، إما بالأخذ بآراء من مذاهب أخرى، وإما بالرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة (وهذا نادر جداً) وإما باستحداث أحكام يقتضيها التنظيم الاجتماعي المعاصر . . .

لكن أغلب الإصلاحات التي تضمنتها هذه التشريعات لا تجد مجالاً للتطبيق لسبب أو لآخر .

من ذلك مثلاً إلغاء ولاية الإجماع على المرأة التي تحول التقاليد الموروثة دون تطبيقه في كثير من الأحيان .

وفيه أيضاً اعتبار طلاق الزوج رجعيًا في كل الأحوال - ما عدا بعض المستثنيات - حيث ما يزال التطبيق العملي يجرّد هذا الطلاق من آثاره وتصفى العلاقة الزوجية فور صدوره لا فرق بينه وبين الطلاق البائن الذي كان الاجتهاد الفقهي يسمح للزوج بإصداره متى شاء .

ج- نموذج الأقطار التي حاولت اقتباس تشريعاتها للأحوال الشخصية- أو تطعيمها على الأقل- من أنظمة الأحوال الشخصية الغربية أو الشرقية .

وهذا النموذج وإن كان ما يزال قليلاً ، ولكن يبدو أنه آخذ في النمو والانتشار . . .

٣- الزاوية الواقعية:

مهما اختلفت وجهات النظر حول النموذج الأمثل لقانون الأحوال الشخصية في العالم الإسلامي ، فمن المتفق عليه أن واقع الأسرة في هذا العالم ليست في الوضع المرغوب فيه ، وترجم ذلك عدة مظاهر سلبية لعل في مقدمتها :

- التفكك الأسري .
- انعدام التوازن المادي والمعنوي داخل الأسرة .
- كثرة وتزايد نسبة الطلاق^(١) .

(١) خلال عام ١٩٨٥ بلغت حالات الطلاق في مدينة الدار البيضاء ٤٦٪ بالنسبة لعقود الزواج المبرمة خلال نفس السنة كانت هذه النسبة عام ١٩٧٥ تصل إلى ٤٠,٢٢٪ . هذا وأن الإحصاء السنوي الوحيد- في علمنا- الذي نشر بالمغرب بصفة شبه رسمية يتعلق بعام ١٩٧٥ (مجلة الملحق القضائي عدد ٢ ص ٤٨) حيث بلغ عدد وثائق الطلاق ٣٢٨٩٣ أي ٣٢٪ من مجموع عقود الزواج التي وثقت خلال نفس السنة (ولا يشمل الإحصاء على أحكام التطليق الصادرة من القضاء) . وفي تونس بلغ عدد قضايا الطلاق التي بتت فيها المحاكم التونسية خلال تسعة أشهر (فاتح أكتوبر ١٩٧٤ إلى متم يونيو ١٩٧٥) ٨٩٢٥ قضية وهي تقارب النسبة المسجلة بالمغرب ، ولكن بفضل ما يقرره القانون التونسي من وجوب إخضاع الطلاق للمسطرة القضائية ، تم

- استمرار الزواج العرفي .
 - ظهور بواذر «المساكنة الحرة» على غرار ما هو موجود في الغرب .
 - العزوف عن الزواج بالنسبة للجنسين معاً^(١) .
- هذه إذن جوانب : الفكر ، والتشريع ، والواقع المتعلقة بالأسرة في العالم الإسلامي ، فما هي الآفاق المستقبلية؟ وهل هناك بواذر حل بديل قادر على إعادة الاستقرار والطمأنينة إلى الأسرة؟

ثالثاً: آفاق المستقبل:

- فيما نشر ويذاع نقراً أن الحل هو :
- التشبث بما هو قائم .
 - تقليد الغرب أو الشرق .
 - محاولة البحث عن انطلاقة ذاتية قادرة على مواجهة التحديات ، فلنقل كلمة وجيزة عن كل من هذه الحلول :

١ - التشبث بما هو قائم :

لن أدخل في جدال مع الداعين إلى هذا الحل ، وإنما أكتفي بالإشارة إلى بعض الوقائع التي أعتقد أنها حقائق مؤكدة .

الصلح في ٣٢٩٢ قضية أي حوالي ٤٠٪ من مجموع قضايا الطلاق ، الأمر الذي يؤكد أهمية تدخل القضاء في مسطرة إصدار الطلاق .

(١) في إحصاء ١٩٧١ كان غير المتزوجين ممن تجاوزوا الخامسة عشرة يصل ٢٥٪ من الإناث و ٣٢٪ من الذكور ، وفي إحصاء ١٩٨٢ ارتفعت هذه النسبة على التوالي إلى ٣٣٪ و ٤١٪ .

أ- أولى هذه الحقائق وضع الأسرة في العالم الإسلامي الذي يبدو أنه لا أحد يمكنه أن يقول إنه مريض ومستقر . . .

ب- لعل من المفيد أخذ العبرة من موقف الكنيسة المتزمت من رياح الإصلاح التي هبت على أوروبا في القرن السابع عشر ، لقد كان المصير هو إفلات الزمام من يدها ، وخضوع تنظيم الأسرة لقانون وضعي لا علاقة له بالكنيسة وتعاليمها ، وأخيرًا التمرد حتى على القانون الوضعي ، وظهور ما يسمى بـ «الأسرة الواقعية» التي أخذت تحل بسرعة محل «الأسرة القانونية» .

وما حدث خلال القرن الحالي في تشريعات بعض الدول الإسلامية للأحوال الشخصية ، وما يشاهد في الحياة الواقعية لمجتمعاتنا ، ألا يعتبر كل ذلك نذيرًا بالمصير المرتقب؟!

ج- التحديات التي تواجهنا يبدو من المستبعد التغلب عليها بمجرد موقف سلبي لا يتسلح بسنة التطور .

إن هذه التحديات منها ما هو داخلي ، ومنها ما هو خارجي :

فمن التحديات الداخلية :

- ما يكتب ويقال داخل المجتمعات الإسلامية حول قانون الأسرة ، ومهما يكن موقفنا من الذين يكتبون ويقولون ، فإنهم يمثلون جانبًا من الرأي العام الذي لا يمكن تجاهله إلى ما لا نهاية .

- تطور أفكار الناس وتصوراتهم حول النظام الأمثل للتعايش الاجتماعي .

- وجود مبادئ وقواعد قانونية ضاغطة على أحكام قانون الأحوال الشخصية ، مثل : الرشد القانوني ، ومبادئ الحريات العامة ، وما

يقضي به الدستور من المساواة بين الجنسين أمام القانون ، وفي الحقوق السياسية والتربية والشغل ، وحق التجول والاستقرار في أنحاء المملكة^(١) ، ومبادئ الضمان الاجتماعي والحد الأدنى للأجر ، ونظام التقاعد ، يبدو معها قانون الأحوال الشخصية كجزيرة معزولة وسط المحيط ، فالمرأة المتزوجة مثلاً لا تتقاضى عن عملها غير نفقتها اليومية ، وإذا انتهت العلاقة الزوجية توقفت حتى هذه النفقة^(٢) .

- نموذج الحياة الذي نعيشه مثل توزيع الدخل ، ونمط السكن ... يصعب كذلك أن يستوعبه قانون الأحوال الشخصية .

هذه بعض التحديات الداخلية التي تضغط باستمرار على الإطار القانوني القائم في مجال تنظيم الأسرة .

(١) صحيح أن ما ورد في الدستور هو مجرد مبادئ عامة ، تخضع ممارسة الحقوق الواردة فيها إلى تنظيم القانون .

ولكن القانون لا يمكن أن يصادر تلك المبادئ ، كما أنه من ناحية ثانية يتعين أن يكون للأحكام التنظيمية التي يقرها مبررات مقبولة ، فالتمييز في الحكم مثلاً على أساس الجنس قد يكون من الصعب تبريره بأساس مقبول ، وكيف تتعايش الحضانة المفروضة على المرأة في م.ح.ش. إلى أن تتزوج ، مع الاعتراف لها بالرشد القانوني ، وحق التجول والاستقرار في أنحاء المغرب؟

وكيف نوفق بين حق الشغل المعترف به للجنسين وبين مقتضيات الأحوال الشخصية التي تخول الزوج حق منع زوجته من العمل بأجر خارج بيت الزوجية بل وحتى داخله حسب الاجتهاد الفقهي المكمل لنصوص المدونة .

(٢) ذلك أن المذهب المالكي المكمل للمدونة يرى أن المطلقة طلاقاً بائناً وكذا المتوفى عنها لا نفقة لها أثناء العدة ، أما المطلقة طلاقاً رجعيّاً فتستمر نفقتها خلال العدة باعتبارها ما تزال زوجة للمطلق .

- وإلى جانبها نجد تحديات خارجية قد تكون أكثر خطورة ، وفي مقدمتها :
- حضارة الغرب التي لا ينكر أحد مدى تأثيرها على سلوكنا الفردي وواقعنا الاجتماعي بحكم ما تمتلكه من وسائل التأثير الفعالة عن طريق الثقافة والاحتكاك ، والتبعية الحضارية التي نزيد فيها غرقاً جيلاً بعد جيل .
 - الاتفاقيات الدولية التي استطاع الغرب فرضها عن طريق ما يسميه بالمساواة وحقوق الإنسان .
 - فهناك عدد من الاتفاقيات التي أبرمها المغرب مثلاً مع الدول الأوروبية التي توجد بها جاليات مغربية مهمة .
 - وإذا كان المغرب لم ينشر رسمياً بعد هذه الاتفاقيات ، فإن الطرف الآخر صادق عليها ونشرها ، وهي تتضمن بالتأكيد مقتضيات مخالفة لما تنص عليه مدونة الأحوال الشخصية .
 - وإضافة إلى الاتفاقيات الثنائية توجد الاتفاقيات التي وافقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة ، أخص بالذكر منها :
 - اتفاقية ١٩٦٢ المتعلقة بتحديد سن الزواج ، ومنع وضع قيود تشريعية على الزواج ترجع إلى الجنس ، أو اللون ، أو الوضعية الاجتماعية ، أو العقيدة^(١) .

(١) بسبب مصادقة تونس على هذه الاتفاقية ظهر في الفقه التونسي رأي يقول : «إن زواج المسلمة بغير المسلم في تونس يكون صحيحاً» .
ومن يقول بهذا الرأي السيد سالم حازم في رسالة دبلوم قدمها أمام «بارس ٢» عام ١٩٧٤ بعنوان : «زواج المرأة المسلمة بغير المسلم في تونس» .

- واتفاقية عام ١٩٦٦ المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية ، وقد صادق عليها المغرب بتاريخ ٨ / ١١ / ١٩٧٩ الجريدة الرسمية عدد ٣٥٢٥ ص ٦٣٦^(١).

والسيد فيصل غديرة في رسالة دبلوم كذلك ناقشها بكلية الحقوق التونسية عام ١٩٧٨ بعنوان : «زواج المسلمة بغير المسلم» . وانظر كذلك محاضرة للسيد الهادي كرو نشرت في مجلة القضاء والتشريع التونسية عدد فبراير ١٩٧١ ص ١٤٣ .

ويعتمد القائلون بصحة زواج المسلمة بغير المسلم في تونس على مصادقة المشرع التونسي دون أي تحفظ على اتفاقية ١٩٦٢ ، وعلى عدم وجود نص صريح في مجلة الأحوال الشخصية التونسية يمنع هذا الزواج .

فقد اكتفت المجلة في «م . ٥» بالنص على أنه «يجب أن يكون كل من الزوجين خلوا من الموانع الشرعية . . .» ، وعبارة «الموانع الشرعية» ترجمت في النص الفرنسي للمجلة بـ : **Les empêchements legaux** أي الموانع القانونية ، وليس في مواد المجلة نص يمنع زواج المسلمة بغير المسلم .

وعلى كل حال ، فإن هذا الرأي يعتبر مرجوحاً ، إذ ما تزال أغلبية الفقه التونسي وكذلك القضاء متمسكين بالمنع تأسيساً على أن عبارة «الموانع الشرعية» تعني الموانع المنصوص عليها في الشرع ، ومن بينها زواج المسلمة بغير مسلم .

(١) وقد جاء في «م . ٣ و ٢٣» من الاتفاقية ما يلي :

«م . ٣- تتعهد الدول الأطراف في الاتفاقية الحالية بضمان مساواة الرجال والنساء في حق الاستمتاع بجميع الحقوق المدنية والسياسية المدونة في الاتفاقية الحالية» .
«م . ٢٣-»

١- العائلة هي الوحدة الاجتماعية الطبيعية والأساسية في المجتمع ولها الحق في التمتع بحماية المجتمع والدولة .

٢- يعترف بحق الرجال والنساء الذين في سن الزواج ، بالزواج وبتكوين أسرة .

٣- لا يتم زواج بدون الرضا الكامل والحر للأطراف المقابلة عليه .

٤- على الدول الأطراف في الاتفاقية الحالية اتخاذ الخطوات المناسبة لتأمين المساواة في الحقوق والمسؤوليات عند الزواج وأثناء قيامه وعند فسخه . . .» .

- واتفاقية ١٩٧٩ المتعلقة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة .
أليس من الغرور أن نزعّم أننا قادرون على الصمود أمام التحديات من هذا الحجم عن طريق موقف سلبي غير قادر على الحركة؟ وهل من الجدل الادعاء بأن قواعد الأحوال الشخصية يمكن الاحتفاظ بها كسفينة متأرجحة وسط أمواج محيط دون أن تتأكل أو تتأثر بالنصوص التشريعية الأخرى ، وبتفاعلات التطور الاجتماعي ، وسلوك الأفراد وتصوراتهم؟!

٢- تقليد الغرب أو الشرق :

سند هذا التيار فيما يدعو إليه هو أن الغرب والشرق «متقدمان» ويمسكان بناصية الحضارة المعاصرة ، فلكي «نتقدم» نحن كذلك يجب أن نسير على مناهجهم وننسج على منوالهما شبرا بشبر وذراعا بذراع ...
وليس هنا مجال لمناقشة مفهوم «التقدم» ، وإنما الذي يهمنا هو التقليد في تنظيم الأسرة وقواعد الأحوال الشخصية .

أ- بالنسبة لتقليد الغرب :

عندما نتكلم عن الأسرة في الغرب يبدو أننا نركز فقط على الجانب القانوني الصرف ، وعلى فترة ما قبل الخمسينات بينما هناك «واقع» إلى جانب نصوص القانون ، وحتى التشريع نفسه خضع منذ الخمسينات إلى تحرير هام في اتجاه نقل الأسرة من مؤسسة اجتماعية يحميها القانون ، إلى مؤسسة نفعية تلعب إرادة الأفراد الدور الأساسي في بنائها مضمونا وشكلا .

ولذلك يبدو من الضروري عند الحديث عن «الأسرة الغربية» تحديد ماهية هذه الأسرة التي نحبذ الاقتداء بها والاقتراس من أحكامها ...

إن الغرب أوصله إلى تصوره الجديد للأسرة أو على الأصح «لا اجتماع الجنسين» المفهوم الذي أعطاه للمساواة، وحقوق الإنسان .

وإذا كان الإسلام لا يمكن أن يكون ضد المساواة وحقوق الإنسان فإن الذي يبدو محل خلاف فيه مع الغرب هو تفسير مفاهيم هذين المصطلحين وكيفية تعايشهما مع حقوق الجماعة وأنظمتها . وهذا ما يفرض أن يكون الحديث عن الاقتباس أو الاقتداء بالغرب ، مسبوقاً بتحديد معالم «الأسرة» المراد تنظيمها وموقعها بين الإطار الاجتماعي وإطار الحرية الفردية .

فهل تقبل مثلاً إخراج العلاقات الجنسية من النظام العام نهائياً واعتبارها من الشؤون الفردية التي لا حق للمجتمع في التدخل فيها حتى ولو كان ممارسة الجنس «متزوجاً» ؟...

ب- بالنسبة لتقليد الشرق :

هناك أصوات عدة تحبذ تقليد الشرق في تنظيم الأسرة ، وهذا مع العلم بأن الشيوعية تعتبر الأسرة إحدى المؤسسات التي أفرزتها الطبقة ، وأنه لذلك يجب أن تختفي عند استقرار دولة البروليتاريا مثل غيرها من مؤسسات دولة الرأسمالية الطبقة .

ولذلك عندما انتصرت ثورة ١٩١٧ وقف «لينين» خطيباً ليعلن أن ما كان يسمى بـ «الطلاق» قد انتهى إلى الأبد ؛ لأن الطلاق يلحق «العلاقة الزوجية» التي لم يعد العهد الجديد يعترف بها^(١) .

(١) وإذا كانت الثورة السوفيتية قد اضطرت فيما بعد إلى إصدار قانون لتنظيم الزواج والطلاق ، فإنها لم تتخل عن النظرة الشيوعية إلى الأسرة ؛ ولذلك جاء في «م . ١١» من

فما معنى إذن الاقتباس من «الشرق» لبناء الأسرة وتطويرها؟ وكيف يمكن الجمع بين متناقضات باعتماد فلسفة لبناء وتقديم الأسرة، والحال أن من بين أعمدة تلك الفلسفة وأهدافها: اختفاء الأسرة والقضاء عليها، وتحليص المجتمع الجديد منها...؟!.

جاء في مقدمة لقانون الأحوال الشخصية في بعض الدول الإسلامية: «تقديرًا من السلطة لدور الأسرة في بناء المجتمع، وتربية أبنائه تربية صالحة تجعل من نشئه عناصر حريصة على الوطن... المعبرة عن آمال جماهير الشغيلة».

وحرصًا من الدولة على ضرورة تنظيم علاقات الأسرة تنظيمًا... ينهي إلى الأبد كافة العلاقات القديمة التي حكمت روابط الأسرة...». ثم جاء في مادته الأولى أن الزواج «غايته خلق الأسرة المتناسكة باعتبارها اللبنة الأساسية للمجتمع».

فكيف يجتمع نظام جماهير الشغيلة الذي يسعى إلى أن ينهي إلى الأبد كافة العلاقات القديمة التي حكمت روابط الأسرة، مع القانون الذي يهدف إلى خلق الأسرة المتناسكة باعتبارها اللبنة الأساسية للمجتمع؟! إنه بالتأكيد التهافت الذي يختلط عليه المنطلق والهدف، ويمزج بين وسائل الهدم والبناء...

هذا القانون بأنه: «يكون كل من الزوجين حرًا في اختيار العمل والمهنة ومكان الإقامة».

فالمساكنة الزوجية غير مفروضة في قانون الاتحاد السوفيتي.

٣- الانطلاقة الذاتية لمواجهة التحديات :

لعل فيما أسلفنا ما يقنع بأن كلاً من إبقاء ما كان على ما كان ، والاقتداء بالغرب أو الشرق ، غير قادر على إنقاذنا من الكبوة التي تردينا فيها ، وعلى الصمود في وجه الزوابع التي شرعت بجذ في اقتلاع أعمدة الأسرة عموداً تلو عمود . . .

إن كل موجود من الإنسان إلى الحيوان إلى النبات ، إلى الأنظمة القانونية المختلفة ، إما أن يواجه التحديات ويسير تطورات الحياة فيحافظ على وجوده واستمراره ، وإما أن يعجز عن المسيرة ، وعن التكيف مع الظروف المستجدة ، يكون مصيره الفناء والاندثار .

هذا في اعتقادي ما يصدق على نظام الأسرة اليوم ، فالحضارة المعاصرة استطاعت أن تربط تصوراتها للاجتماع وتعايش الجنسين بمبادئ وأوليات تبدو غير قابلة للجدل ، وأعني بذلك : المساواة ، وحقوق الإنسان ، وحرية الفرد .

وشريعة الإسلام - كما سبقت الإشارة - لا يمكنها إلا أن تبارك إقامة التعايش الاجتماعي على هذه المبادئ .

فقيم نختلف إذن مع حضارة الغرب في بناء الأسرة؟ وما هي وسائل مواجهة الخلاف؟

أ- مجال الخلاف :

إن الخلاف - في نظرنا - يتركز في المفهوم الذي يعطى للمساواة وحقوق الإنسان ، وما أكثر اليوم المصطلحات السياسية والاجتماعية المتفق على لفظها والمختلف في معناها .

لقد أعطي للمساواة وحقوق الإنسان مفهوم واسع جدًا على حساب النظام العام والأخلاق الحميدة التي تشكل «الوجه المقابل» لحقوق الفرد وحريته، أو «سلطة المجتمع» التي يحمي بها التعايش الاجتماعي.

فمن الخطأ إذن أن نتحدث عن المساواة أو حقوق الإنسان دون التحديد المسبق لمفاهيمها، إن ذلك هو المنزلق الفكري الذي يقع فيه الكثير منا بصورة لا شعورية.

إن موضوع تحديد مفهوم المساواة وحقوق الإنسان هو الذي يشكل وسيلة مواجهة الخلاف القائم بيننا وبين حضارة الغرب والذي نتناوله فيما يلي:

ب- وسائل مواجهة الخلاف :

حول النموذج الأمثل لتنظيم الأسرة لن يفيد النقاش حول الجزئيات فمثل هذا النقاش محكوم عليه بالفشل؛ لأن الأحكام الجزئية مجردة عن المبادئ التي يجب أن تتحكم فيها، تبقى أحكامًا جامدة تفتقد عنصر المرونة وتكون بذلك غير قادرة على مواجهة حجج الخصم التي تنطلق من مبادئ وتصورات شمولية لموضوع التعايش الاجتماعي.

وهذا ما حملنا منذ البداية على الدعوة إلى مواجهة تحديد مفهوم المساواة وحقوق الإنسان اللذين انطلق منهما التيار الداعي إلى إعادة النظر في كل الأسس والقيم التي كانت تنظم الأسرة ويقوم عليها التعايش بين الجنسين.

إن انطلاقة ذاتية لتحديد ذلك المفهوم نعتقد أنها قادرة على مواجهة التحديات وعناصر هذه الانطلاقة متوافرة وتحققها ليس بعيد المنال.

فنحن نؤمن بشريعة أنزلت من خالق الكون ، وهذا يضعنا أمام حقيقة بديهية يتجاهلها الكثير منا للأسف ، وهي أن أحكام الشريعة أنزلت لإقرار العدل والإنصاف ، ودفع البغي والظلم بين الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل : ٩٠] .

والإيمان بهذه الحقيقة لا يمكن أن ينفصل أو يتجزأ عن الإيمان بالله وشريعته ، إذ كيف يصح إيمان بشريعة سماوية مع الشك في عدالة أحكامها؟!

بناء على هذا يكون تأسيس تنظيم الأسرة على المساواة وحقوق الإنسان ، ليس أمراً غريباً عن شريعة الإسلام ، وإنما هو متطابق معها كل المطابقة ، على أساس أن لا يستورد لها مفهوم هذين المصطلحين جاهزاً من فلسفة ما ، أو من تيار فكري معين ، وإنما يتعين أن يتحدد ذلك المفهوم في إطار مبادئها للعدل والإنصاف^(١) ، ومن خلال منظورها لوظيفة المجتمع

(١) يمكن أن يقال : إن المساواة وحقوق الإنسان وما إليها من مصطلحات لا خلاف في تحديد مفاهيمها لتعلقها بالمقومات الأساسية لوجود الفرد وحرية . غير أن هذا القول لا يبدو سليماً ، فكلا المصطلحين عرفتهما أوروبا منذ قرون ، والثورة الفرنسية أصدرت بمجرد انتصارها : «ميثاق حقوق الإنسان والمواطن» ، وكانت المساواة أحد شعاراتها الثلاث : «الإخاء ، الحرية ، المساواة» .

ولكن مفهوم كل من المساواة وحقوق الإنسان تركز إذ ذاك على الجانب السياسي حيث كان المواطن الأوروبي محروماً من حقوقه السياسية ، ولا يساهم في تكوين وتسيير مؤسسات الدولة ، وكذا على الجانب الاقتصادي بمفهوم المذهب الليبرالي ، ثم بمفهوم المذهب الاجتماعي .

ومنذ منتصف القرن الحالي تطور مفهوم المساواة وحقوق الإنسان ، وكان سبب ذلك قيام الأنظمة الديكتاتورية بأوروبا (الشيوعية ، النازية ، والفاشية) التي اتسمت

الإنساني ومصيره ، ومناقشة مفهوم المساواة وحقوق الإنسان في الثقافة الإسلامية يتعين أن تتم - حسب اعتقادنا - أولاً في أصول الفقه ، ثم ينعكس تطبيقها في الدراسات الفقهية .

أصول الفقه :

- فبالنسبة لأصول الفقه نجد أن الأصوليين حددوا المقاصد الضرورية للشريعة في خمسة ، هي : حفظ الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال .

وهذا التحديد كان عن طريق الاجتهاد بطبيعة الحال ، ونراه يقتصر على ضرورة الحفاظ على السلامة الجسمية للفرد وعلى سلامة عقله ، ولم يتناول جوانب أخرى من علاقات الفرد بالمجتمع وتعامل الدولة معه مما يمكن

بطغيان حقوق الدولة على حقوق الفرد ، فلم تكد الحرب العالمية الثانية تنتهي بالقضاء على الفاشية والنازية ، حتى ساد شعور بضرورة حماية الفرد من الدولة وتم ذلك عن طريق إضفاء مفهوم جديد على حقوق الإنسان يهدف إلى حماية الفرد ومنع الدولة من الظهور إزاءه بمظهر «السلطة المسيطرة» ومن التدخل في شئونه وحياته الخاصة إلا عند الضرورة القصوى .

هذا ما يترجمه ظهور مدرسة الدفاع الاجتماعي في المجال الجنائي عقب انتهاء الحرب مباشرة ، على اعتبار أن «العقاب» كان أهم وسائل «التسلط» الذي تمارسه الدولة ضد الفرد .

ولم يقتصر الأمر على المجال الجنائي بل امتد المفهوم الجديد لحقوق الإنسان إلى كل مظاهر تدخل الدولة في شئون الفرد وحرية ، وفي مقدمة ما شمله هذا الامتداد : قانون الأسرة ، وتعايش الجنسين وما يرتبط به من ممارسة الجنس وعلاقته بالنظام العام .

ونتيجة لذلك أدخل تحوير عميق على قوانين الأحوال الشخصية بأوروبا منذ الخمسينات مسيرة لمفهوم حقوق الإنسان الذي كرسه الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان الموقعة في روما عام ١٩٥٠ .

مفهوم حقوق الإنسان إذن ليس مفهوماً جامداً ، وإنما يتطور بتفاعل مع ظروف الحياة الاجتماعية ومع الأهداف والغايات التي يرغب المجتمع والأفراد في تحقيقها .

أن نسميه بالمساواة وحقوق الإنسان، أو بالعدل وحقوق وحرية الفرد^(١).

وللأصوليين ما يعذرون به في عدم إبرازهم لتلك الجوانب ضمن المقاصد الضرورية للشريعة^(٢) ولكن الآن أصبح لا غنى عن اعتبار «العدل» و «حقوق الفرد» مثلاً من المقاصد الضرورية للشريعة، والتي يؤدي عدم الحفاظ عليها إلى هدم أركان بناء المجتمع الإسلامي^(٣).

(١) ليس معنى ذلك أن الأصوليين وكذا الفقهاء، أهملوا تطبيق مبادئ العدل وحقوق الفرد في اجتهاداتهم، وإنما القصد هو أن عدم التركيز على هذه المبادئ كأحد المقاصد الضرورية لبناء المجتمع الإسلامي كان له أثره على العناية التي وجهت إليها في الكتابات الفقهية وفي ربط الأحكام التفصيلية بها. وأكبر دليل على ذلك أن تشريعاتنا الحالية للتنظيم الدستوري والحريات العامة، والعمل، والضمان الاجتماعي... إلخ، تكاد تعتمد كلياً على ما قاله ويدعو إليه الآخرون ولم يكن لتراثنا دور مباشر في تنظيم أحكامها وصياغة نصوصها.

(٢) لعل من أهم ما يعذرون به :

أ- طبيعة علاقة الفرد بالدولة حيث كانت تتسم باستقلال الفرد في تدبير شئونه من جهة، وباقتصار تدخل الدولة على ما يهم الأمن والنظام والدفاع من جهة أخرى.

ب- حساسية تلك الموضوعات بالنسبة للسلطة السياسية، وهذا ما يفسر التفاوت الكبير بين الكتابات الفقهية في العبادات والمعاملات أو القانون الخاص، وبين ما كتب في فروع القانون العام، الأمر الذي يؤكد أن الفقه لم يكن متمتعاً بكامل حرية الكتابة في التنظيم الدستوري والحريات العامة، وقواعد ضبط سلطة الدولة بإزاء الفرد.

ج- أن الحاجة إلى ضبط معالم الحدود الفاصلة بين تدخل الدولة وحرية الفرد لم تتأكد ضرورتها إلا في وقتنا الحاضر الذي يتميز بدقة وتعقد التنظيم الاجتماعي، وبالتالي بتدخل الدولة في تنظيم وتوجيه كل جوانب الحياة الاجتماعية حتى وإن بدت بعيدة عن المفهوم التقليدي لمصطلح: «الشئون والمرافق العامة».

(٣) يقول الشاطبي في «الموافقات» :

إن الخطوة الأولى إذن في سبيل بناء الانطلاقة الذاتية لمواجهة تحديات الحضارة المعاصرة ، تبتدى من الدراسات الأصولية بإعادة النظر في تحديد المقاصد الضرورية للشريعة ، فعن طريقها نتمكن من تحديد معالم العدل وحرية الفرد كمقصد ضروري للشريعة ، وفي إطار تعاليمها ونظرتها الشمولية لبناء المجتمع ، مستغنين بذلك عن استيراد المعاني الجاهزة للمساواة وحقوق الإنسان .

أما الخطوة الثانية فهي :

الدراسات الفقهية :

إن عناية أصول الفقه بالعدل وحرية الفرد كمقصد ضروري وهدف أساسي من أهداف الشريعة ، سيكون له تأثير واضح على صياغة الأحكام الفقهية التفصيلية ، إذ إن هذه الأحكام يجب أن لا تتعارض مع تلك المقاصد أو الأهداف ، بمعنى أن المقاصد هي التي تتحكم في تقرير الحكم التفصيلي أو الجزئي ، ويمتنع وجود حكم مخالف للمقصد .

والكثير من أحكام قانون الأسرة يقتصر الجدل فيه على مرجعها الفقهي الجزئي وهو ما يجعل المناقشة عديمة الجدوى في أغلب الأحوال ، ولو ارتبطت المناقشة بمقاصد الشريعة وأهدافها لانتهت إلى نتائج أكثر إيجابية وفائدة .

وربط الأحكام الفقهية بمقاصد الشريعة هو ما تعنيه العبارة : «أن الفقه يتعقل» .

«فأما الضرورية (أي المقاصد الضرورية للشريعة) فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا ، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، بل على فساد وتهاجر ، وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين» «م ٢ ص ٨» .

فتعقل الفقه إنما يتم بتقصي مقاصد الشريعة ومبادئها العليا، ثم ربط الأحكام الجزئية بها، بحيث لا يكون أي حكم جزئي خارجاً عن تلك المبادئ أو متعارضاً معها وهذا هو السبيل الوحيد لإمكانية إعادة الحيوية إلى قانون الأسرة (وإلى غيره من بقية فروع الفقه) وتمكينه من التغلب على التحديات الخطيرة التي تواجه نظام الأسرة اليوم في العالم الإسلامي وفي خارجه .

الخلاصة :

إن الأسرة كمؤسسة اجتماعية يحيطها «النظام العام» بالرعاية، ويحمي القانون قواعد تنظيمها، قد أخذت في الغرب تتراجع، وتحل محلها «الأسرة الواقعية» بوصفها مؤسسة نفعية يرجع أمر «تنظيمها» إلى الإرادة الفردية لمنشئها، ولا يتدخل القانون إلا بمقدار وفي حدود علاج بعض الآثار الناجمة عنها كمصالح الأطفال الذين ينتجون عن «التجمع أو الالتقاء الحر» للأبوين .

ومن الغريب أن تزايد الإقبال على «الأسرة الواقعية» كان في العقدين الأخيرين اللذين تم فيهما تعديل جذري لأنظمة «الزواج الرسمي» في الغرب بهدف تحقيق المساواة وإضفاء المرونة على تدخل القانون وتقييده حرية الزوجين . . . والوسائل قد تأتي بعكس النتائج المستهدفة منها . . . !!

وتعديل قوانين الأسرة في الغرب وانتشار ظاهرة «التجمع الحر» كانا معاً نتيجة للمفهوم الجديد الذي أعطي للمساواة وحقوق الإنسان عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، هذا المفهوم الذي يهدف من جهة إلى المساواة بين الجنسين، ومن جهة ثانية إلى تقليص تدخل الدولة في شؤون الفرد وحرية، وتجريدها من الطابع السلطوي والدركي في تعاملها معه .

وقد استطاع الغرب أن يفرض هذا المفهوم ليس في تشريعاته الداخلية فقط ، ولكن في اتفاقيات دولية كذلك أصدرتها هيئة الأمم المتحدة .

والعالم الإسلامي لم يتمكن بعد من توحيد رؤياه حول موضوع تنظيم الأسرة ، وكل ما فعله هو الاقتداء بالغرب في فصل قانون الأحوال الشخصية عن فروع القانون الأخرى ، ثم اختلف في أسلوب صياغة هذا القانون : فمن أقطاره من اختار طريقة الصياغة التشريعية مع التقيد في أغلبية الأحكام بمذهب فقهي معين ، ومنها أخيراً من حاول - كلياً أو جزئياً - الاقتباس من الغرب أو الشرق .

وكل هذه الأساليب لم تستطع أن تخلق أسرة متماسكة مستقرة ، كما يثبت ذلك الواقع الذي تعيشه الأسرة في مجتمعاتنا .

ويزيد هذا الواقع تذبذباً واضطراباً ما يواجهه من تحديات داخلية وخارجية سبقت الإشارة إلى أهمها ، فإن تجاوز الواقع غير المستقر الذي نعيشه والتغلب على التحديات التي تواجهنا ، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق «انطلاقة ذاتية» تعتمد أولاً : تحديداً سليماً للمقاصد الضرورية للشريعة اعتماداً على استقراء مبادئها العامة ونظرتها المتكاملة إلى بناء المجتمع وعلاقات التعايش بين أفرادهِ .

مع الاستئناس بما استجد من الأنظمة والعلاقات والتصورات الاجتماعية .

وثانياً : ربط الأحكام التفصيلية أو الجزئية لتنظيم الأسرة بتلك المقاصد ، وإخضاعها لها عند الاستنتاج وتفسير النصوص ، والله المسئول أن يهدينا سواء السبيل .

المحاضرة الحادية والثلاثون:

الفكر العلمي المعاصر بين الشك واليقين

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

نقسم هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يرمي إلى إبراز مظاهر اليقين في الفكر العلمي باعتمادنا على الانتصارات التي حققها العلم في شتى الميادين، وعندما نتكلم عن العلم فإننا نقصد العلوم العقلية، وعندما نتكلم عن اليقين، فإننا لا نقصد ذلك اليقين الذي نزع إليه الإمام الغزالي، وإنما اليقين الذي يعتمد على العقل، أي على المنطق، وعلى التجربة العملية، وهو بذلك يكون ربما أقل عمقا من هذا الذي بحث عنه حجة الإسلام طوال حياته.

والقسم الثاني: يرمي إلى إبراز وجوه الشك في الفكر العلمي الذي تسرب إليه مفهوم جديد، وهو مفهوم الصدفة أو المصادفة إلى أن أصبح من جرائها العلم والعلماء، بل أصبح الفكر العلمي يتأرجح بين الشك واليقين.

وفي القسم الثالث: سنحاول التوفيق بين هذا وذاك باعتمادنا على قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

إننا سوف نركز على القسمين الأخيرين اللذين اجتهدنا فيهما ما شاء الله تعالى، وبه التوفيق، ولا شك أن لهذا الموضوع جوانب أخرى لا يسع الوقت للخوض فيها، ومنها الجانب الأخلاقي لتردد الفكر العلمي بين الشك واليقين، وهو جانب مهم جدا، وكذلك الجانب النفساني لهذا التردد إلى غيرهما من الجوانب.

مظاهر اليقين في الفكر العلمي:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وخلق الأجرام السماوية وأخضعها كلها لقوانين محكمة، وخلق الأرض وأنبت فيها نباتا، وخلق منها الإنسان والدواب المختلفة، وجعل هذه الطبيعة مائلة بإدراك الإنسان لإدراكه الحسي ولإدراكه الذهني، ثم جاءت الدعوة الإسلامية إلى الناس أجمعين لتخرجهم من الظلمات إلى النور، ولترفع بهم من حضيض الجهالة والعمل الباطل إلى سمو المعرفة والعمل الصالح، ولتحدد مسئولية الإنسان في هذه الدنيا وتكشف له عن سر الأمانة التي حملها بكل حرية.

وعندما نتأمل الآيات البيّنات والآثار السنية، يتبين لنا أن الدعوة المحمدية تنفرد من بين الدعوات التي تقدمت بين يديها بمعجزات عقلية، وبإشادتها بالعقل حيث مُيز به الإنسان عن بقية الحيوانات، وجُعل من خلاله الشرف كله للآدمية.

وقد ذكر العقل في القرآن الكريم سبعاً مرة.

كما جاءت الدعوة المحمدية لتحث على العلم ولتدعو الناس إليه وتدعو إلى طلبه إلى أن جعلت من هذا الطلب -جعلت منه- واجبا إسلاميا ربما يسمو على كثير من الواجبات، وذلك ما أفضى بالقاضي عياض: حيث قال في كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان: مداد الأقلام كدم الشهداء، كما جاءت الدعوة المحمدية كذلك لتحث على التربية

الصالحة ؛ لأنه بدون تربية لا يمكن للعلم أن يكون مجديا ، ولا يمكن للإنسان أن يتصرف بعقله وملكاته التصرف اللائق .

ومن ثم يتبين لنا أن الأمانة التي حملها الإنسان ربما تكمن -والله أعلم- في العقل في تحمل العقل ، وذلك ما نزع إليه بعض الفقهاء ومن بينهم الراغب الأصبهاني رحمه الله ، ذلك العالم الإسلامي الكبير الذي ما عرف أحد مفردات القرآن ومعانيها كما عرفها هو ؛ لأن العقل يؤدي إلى المعرفة ويؤدي إلى العلم ، ذلك العلم الذي به وله ومعه تنكشف أسرار الطبيعة وأسرار الكون ، وبه يندثر الشك الماثوث في قلب الإنسان ، وبه يبلغ العبد مراتب الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، وبه يتمكن الإنسان من معرفة خالقه وقدرته وجلاله ، وبه يرجو رحمة ربه ويخاف مكره كما يقول الشاعر :

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
وآمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

وكان موقف الإنسان تجاه الطبيعة موقف الاندهاش والانبهار ، فقد أبهرته السماء وكواكبها ونجومها ، وأبهره طلوع النهار وطلوع الشمس وغروبها ، كما أبهرته كذلك الأقمار المختلفة والأجرام المختلفة إلى أن بلغ هذا الانبهار إلى درجة الشرك .

وأمام هذا الانبهار وهذا الاندهاش صار الإنسان يتساءل ويتساءل ، ثم يسعى إلى معرفة الطبيعة وإلى معرفة الكون ، وقد اكتسب سعيه أساليب متعددة ؛ إذ لكل حضارة أسلوب معين ، هكذا نجد عند ما يسمى بالإنسان البدائي روايات ترمي إلى شرح نظام الكون وموقع الإنسان والمجتمعات الإنسانية فيه ، كما نجد عنده كذلك معتقدات كلها تستند على الأسطورة كما بيّن ذلك العلماء الذين انتحلوا المدرسة البنيوية ، ومع ظهور الديانات السماوية وتطور

المنطق عند اليونان وعند علماء الكلام وتقدم العلوم الرياضية الموروثة عن اليونان وعن العرب وعن غيرهما وبزوغ المنهج التجريبي .

أولاً : عند العرب ؛ لأنهم كان لهم قصب السبق في ذلك حين كان شعارهم هو جرب وشاهد ولاحظ تصر عارفا ، وتقدمه خلال النهضة الأوروبية أصبح فكر الإنسان ، عقل الإنسان ينفذ إلى مغاور المجهول باعتماده على العقل أي على المنطق وعلى العلوم الرياضية وعلى التجربة العملية .

وبفضل ذلك حقق العلم انتصارات هائلة لا داعي لذكرها ، وترتبت على هذه المعارف تقنيات متعددة استغلها الإنسان لصالح معاشه ووقايته من الأعراض المحدقة به ، ومكنته كذلك من النفوذ من أقطار السموات والأرض ، وكل هذه الانتصارات المهمة حملت العلماء المتبعين للعلم إلى الاعتقاد أن العلم قادر على امتلاك الطبيعة وعلى تسخيرها والسيطرة عليها ، وقادر كذلك على التنبؤ بمستقبل الكون بمستقبله البعيد والقريب ، وبمستقبل كل ما يحويه من أجرام ومن خلائق صغيرة كانت أم كبيرة ، حية كانت أم جامدة حيث طفق الشعراء والأدباء والفلاسفة يتغنون بالعلم حتى أغرقوا فيه إلى درجة التأليه .

والأشعار التي قيلت في حق نيوتن الذي وصف بموسى الجديد الذي انكشفت له فجأة أسرار الكون والروايات الخيالية كروايات «جول فيرن Jule Verne» و «إدوار هيل Edward Hil» و «ويز waz» إلى غيرها من الروايات والمواقف المتعصبة المتشددة للمدرسة الفلسفية الوضعية التي ظنت أن العلم قضى على الدين .

كل هذا وذاك يشهد على اليقين الذي أصبح يهيمن على الفكر العلمي ، وذلك إلى حدود منتصف القرن العشرين .

وجوه الشك في الفكر العلمي:

وسرعان ما أضحى الشك يخيم على الفكر العلمي ابتداء من القرن العشرين ، وخاصة ابتداء من الخمسينات وذلك من منطلقين اثنين :

المنطلق الأول : منطلق فلسفي .

والمنطلق الثاني : منطلق علمي محض .

أما المنطلق الفلسفي : فتدخل فيه عدة اعتبارات لا يسع الوقت لتحليلها وتفصيلها كاملة ، منها مسألة موضوعية العلم ، مسألة مفهوم الزمان ، مسألة الحتمية العلمية ، مسألة السببية وارتباطها بحرية الإنسان ، إلى غير ذلك من المسائل ، ولكن يمكن أن نجمل ما هو مهم في هذه المواقف ، ذلك أن طائفة من العلماء الذين انتحلوا المدرسة الاسمية وتأثروا بفلسفة «برجسون» قد شكوا وشككوا في قدرة العلم على إدراك الحقيقة .

فقد جزم هؤلاء العلماء أن العلم مجموعة معارف اصطلاحية ومعطيات وقوانين ابتكرها العالم ولا قيمة لها إلا من حيث إنها قواعد عملية ، أما اليقين الذي يوحي به ذلك العلم إنما هو يقين ظاهري نظرا لاصطلاحية العلم ، وأصلهم في ذلك اعتقادهم أن الواقع لا يوجد إلا في انطباعاتنا العابرة المتغيرة ، وهذا الواقع قد يتلاشى ويضمحل كلما حاول العقل النفوذ إليه .

وقد ذهب بعضهم مثل العالم «برترون لوروا Pertrond Leroi» مذهب التشاؤم والتطير ، حيث زعموا أن العقل بحكم تفاعله مع الواقع يحرف كل شيء ، ولئن كانت هذه المواقف تكشف عن بعض الحقائق إلا

أننا نعتقد أنها تتسم بالمبالغة حيث تصف العلم كله بالاصطلاحية ؛ لأن الذي نشاهده كل يوم كدوران الأرض وكبياض النهار وسواد الليل والقوانين التي مكنت الإنسان من استكشاف الفضاء لا يمكن أن توصف بالاصطلاحية ، وإلا فكيف يمكن أن نعلل الالتحام الموجود بين هذا العلم الذي يوصف بالاصطلاحية ، وبين الظواهر الطبيعية الموضوعية .

أجل إن هناك ميدانا مهما من العلم ابتكره الإنسان بكل حرية وبتوفيق الله له وهو ميدان العلوم الرياضية ، وإن كانت بعض أطرافها مستوحاة من الواقع الملموس كهندسة إقليدس مثلا ، كما أن هناك مفهومات وقوانين نميل تارة إلى اعتبارها اصطلاحية وتارة إلى اعتبارها موضوعية ، ولكنها في الحقيقة هي موضوعية اصطلاحية في آن واحد ، فمفهوم كمفهوم الجاذبية مثلا اصطلاحية من حيث لا يتماثل للإدراك الحسي ولكن له قيمة موضوعية من حيث يترجم علاقة موجودة بين الأجرام السماوية وبين الأجسام .

أما التشاؤم أو التطير الذي ذهب إليه هؤلاء العلماء من أن العقل يعرف كل شيء ، فإن هذا التشاؤم لا يمكن على الإطلاق أن يغني لا عن العقل ولا عن المشاهدة ، أجل إن للإنسان ملكات متعددة ربما تختلف عن العقل وعن العين الباصرة كالإحساس والحدس والإيمان والقلب والتي تجعلنا نلمس أشياء لا تدرك بالأبصار ، ونشعر بأشياء أخرى لا تدرك بالعقل ، ولكن هذه الملكات لا يمكن أن تغني عن العقل ولا عن المشاهدة ، وإن كانت غالبا ما توجه العقل والنظر ، وتيسر لهما الطريق ، وإلا لما كان فرق بين الإنسان والحيوان .

من عناصر المنطلق العلمي للشك :

أما المنطلق العلمي للشك فإنه كذلك متعدد العناصر ، فسنتصر على عنصر واحد وهو عنصر الصدفة أو المصادفة .

الصدفة :

وأستسمح مولاي إذ استعملت كلمة الصدفة بدلا من المصادفة ؛ لأن المعنى العلمي المقصود لا تعبر عنه في اعتقادي كلمة المصادفة .

إن مفهوم الصدفة كما يتبادر إلى الأذهان وأريد أن أبتدى بهذه النقطة ؛ لأنها مهمة حتى لا يبقى غموض في مسألة الصدفة ، إن الصدفة كما تتبادر إلى الأذهان بمعنى حدوث أمر أو حدث أو فعل بدون فاعل أو بدون سبب هذا المفهوم مرفوض من وجهة العقيدة الإسلامية ؛ لأننا نحن المسلمين نؤمن بالقضاء والقدر ونعتقد ، أي نعتقد أن الأفعال كلها صغيرة كانت أو كبيرة ، فهي منبثقة من إرادة الله سبحانه وتعالى ، ولا دخل لأي مخلوق فيها .

هذه من جهة ومن جهة ثانية نعتقد أن الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في هذه الدنيا ، والخلافة تقتضي المسؤولية ، والمسئولية تقتضي الحرية ، وممارسة الحرية ليست بالأمر الهين ، معها الخطأ ومعها الصواب ، والإنسان بحكم طبيعته المبنية على الامتحان على ارتكاب الخطأ والصواب ، تركت له حرية اختيار الأفعال التي يرتضيها لنفسه ، فإن اختار الأفعال التي تتفق مع ضميره ومع العقيدة الإسلامية ومع القوانين ، قوانين الحكم العادل الذي يعيش تحت ظله فيسر له الله السبيل كما يقول ابن عطاء الله : إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب

إليك ، وإن اختار الأفعال الطالحة التي تبدو طالحة في ظروف معينة ، طالحة بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه ، والتي يوحى بها إليه دعاة الشر ، دعاة السيطرة الجسمانية فذلك بمحض إرادته ، ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] .

هذه جملة لا تفصيلا ، الفلسفة الإسلامية في مسألة القضاء والقدر كما فهمناها عن علمائنا وكما فصلها تفصيلا الأشاعرة والماتريديون .

مستويات الصدفة :

ولنأت الآن إلى تعريف الصدفة كما جاء بها العلماء فهي من ثلاثة مستويات :

أولا : نقول : إن أمرا حدث صدفة عندما يكون احتمال وقوعه يعادل تقريبا الصفر ، وهنا مثال مشهور وهو ما يسمى بمعجزة القردة ، وأعوذ بالله من هذه التسمية ذلك إذا افترضنا أن لنا جيشا من القردة يضرب كل واحد منهم على آلة كتابة بكيفية عفوية فالسؤال المطروح هو الآتي : فما هو احتمال إعادتهم لكتابة جميع كتب دار الكتب مثلا .

فإذا قدرنا أن كل كتاب يحتوي على ما معدله مليون كلمة فحساب بسيط يبين أن هذا الاحتمال يساوي واحدا على عدد معين ، وهذا العدد كبير جدا لا يدركه العقل بحيث يتكون من ألف مليار رقم ، فكما أن العدد مائة يتكون من ثلاثة أرقام ، والعدد ألف من أربعة أرقام فالعدد المذكور يتكون من ألف مليار رقم .

وليتضح لنا هذا العدد ، إذا أردنا كتابة هذا العدد وافترضنا أن الفارق بين رقم والرغم المجاور له هو مليمترا واحد فكتابة هذا العدد يبلغ طوله مليون كيلو متر بينما المليار مثلا لا يبلغ إلا تسعة مليمترات .

شيء آخر إذا أردنا نطق جميع الأرقام التي يتكون منها ذلك العدد وقد رنا أن نطق أرقام عدد يتكون من ثلاثة أرقام هو ثانية واحدة فالوقت المطلوب لنطق جميع أرقام ذلك العدد يربو على خمس عشرة ألف سنة أي أكثر من مائة وخمسين قرنا وهذا يبين أن العدد كبير جدا ، أما احتمال معجزة القردة هو واحد على ذلك العدد أي أن الاحتمال يساوي تقريبا الصفر ، وبذلك يقولون : إن هذه المعجزة إذا وقعت فتقع صدفة بهذا المعنى .

ويقول العلماء : إن ظهور الحياة على ظهر البسيطة يبلغ احتمال معجزة القردة ، وبذلك يقولون إن الحياة ظهرت على وجه البسيطة صدفة فلا يجب على المسلم أن يسخر من هؤلاء العلماء ؛ لأنهم لا يرجعون هذه الأسباب إلى مصدرها الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم يكشفون عن بعض من معجزات الله سبحانه وتعالى بطريقة غير مباشرة وهذا هو المهم ، أما أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا فذلك مرجعه إلى الله سبحانه وتعالى ، إن الله لغني عن العالمين .

ثانيا : نقول : إن أمرا وقع أو حدثا وقع عندما ينتج عن التقاء أسباب مستقلة ، لا يوجد مبرر منطقي ولا موضوعي لالتقاءها وسأعطي مثلا بسيطا : إذا افترضنا أن إنسانا كان يمشي في الشارع وعندما مر بجانب عمارة سقطت آجرة فوق رأسه فأردته قتيلا ، فالإنسان كان يمشي لسبب معين ، يمكن معرفته والآجرة سقطت لسبب معين . كذلك يمكن معرفته ، ولا علاقة له بالسبب الأول ؛ لأن سبب مشي الإنسان لا يؤثر على سبب سقوط الآجرة كما أن سبب سقوط الآجرة لا يؤثر على سبب مشي الإنسان ، وعندما التقى هذان السببان وقع ما وقع .

ويقول علماء البيولوجيا : إن التغير الوراثي يقع بالتقاء عدد كبير من الأسباب كلها مستقلة ثنائيا ، وبذلك يقولون ، بهذا المعنى يقولون : إن التغير الوراثي يقع صدفة .

وثالثا : نقول : إن حدثا يقع صدفة عندما لا يمكن أن نعرف الأسباب ولا توجد لنا القدرة على معرفتها ، وذلك ما يحدث عندما يشاهد العالم نسقا ماديا صغيرا يبلغ حجمه حجم الذرة .

مفهوم تأويلات الصدفة :

وقد آل مفهوم الصدفة إلى تأويلات متعددة من طرف العلماء ، فقد تساءلوا هل الصدفة مفهوم اصطلاحي أو مفهوم موضوعي ؟ بمعنى هل الصدفة مفهوم يعكسه عقل الإنسان ، على المادة على الطبيعة على الظواهر الطبيعية نظرا لجهله لدقائق الأمور ؟ أم الصدفة مفهوم كامن في المادة وعنصر منها وخاصة من خاصياتها ؟

فقد اختلف العلماء طرائق قدا ، منهم من قال بذاتية الصدفة ، ومنهم العالم أينشتاين ، ومنهم من قال بموضوعية الصدفة ومنهم تقريبا جميع علماء البيولوجيا ، وعلى رأسهم جاك مونوث ، ومنهم من يتعامل مع الصدفة ، تارة بمثابة مفهوم اصطلاحي ، وتارة بمثابة مفهوم موضوعي ، وهناك من بقي في حيرة في شأن هذا المفهوم .

ولي نظرية أو فكر في هذه المسألة ، فكر متواضع وهو أن الصدفة ليست موضوعية ولا اصطلاحية ، وإنما هي ناتجة عن العوامل الثلاثة :

ناتجة أولا : عن المنهج التجريبي نفسه الذي يبسط الطبيعة ، ضروري تبسيط الطبيعة وإلا ما كان العلماء يصلون إلى ما وصلوا إليه .

ثانيا : ناتجة عن بعض الأحكام المسبقة التي ينطلق منها العامل يقول بمقتضاها أن قوانين الطبيعة قوانين بسيطة ، وناتجة كذلك عن حساب الاحتمالات التي وضعت لملء الثغرات الناجمة عن جهلنا للأسباب الغائبة ، وجهلنا للعلل الخفية للظواهر الطبيعية ، ذلك الحساب الذي استعمله العلماء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، ذلك لما كان العالم لا يمكن أن يقول إلا بعدد محدود من التجارب ، ولما كان يعتقد أن أسبابا متقاربة تؤدي إلى نتائج متقاربة ، ولما كان يعتقد أن قوانين الطبيعة قوانين بسيطة فكان لابد عند تحليله لنتائج تجاربه وعند استنباط القوانين منها واستقراءها كان لابد ، كان حتما أن يستعمل حساب الاحتمالات .

وحساب الاحتمالات يحمل في طياته الشك ويحمل في طياته وجوب الصدفة كما ألمحنا إليها آنفا ، وتسرب كذلك مفهوم الصدفة إلى العلم عندما أراد العلماء تدقيق معرفتهم للمادة ، ذلك لأن المادة في آخر الأمر تتكون من برتونات تتركب من برتونات وإلكترونات ، ومعرفة المادة تقتضي معرفة هذين العنصرين ، وهنا تقع المشكلة ؛ لأن مشاهدة نسق مادي صغير يقاس حجمه بحجم الذرة شيء صعب ؛ لأنه يخلق اضطرابا في ذلك النسق بحيث ما نكتسبه من معلومات عن ذلك النسق لا يترجم الحالة؟ حالة ذلك النسق من حيث هو إنما حالته بعد اضطرابه من جراء المشاهدة ، من جراء أدوات المشاهدة ، ويقولون : إن النسق يخضع لقانون الصدفة وإن كان في هذا التعبير تناقض لأن الصدفة والقانون شيان متناقضان .

إن هذه المادة التي قصر العلماء حياتهم قصد معرفتها ، هذه المادة التي كان الفيلسوف بوركلي لا يعتبرها إلا بمثابة حجاب رفيف يفصل بين

عقل الإنسان وخالقه، هذه المادة التي حدث بالشاعر والمفكر «بول فاليري» إلى القول: إن الإنسان مبهم من خلال ما يبحث عنه، وعظيم من خلال ما يتوصل إليه.

إن هذه المادة ربما ستبقى إلى الأبد موطن الألغاز بالنسبة لعقل الإنسان، وظهر لي فكر أقوله هنا وأنتقل من أجله إلى القسم الثالث من هذا الموضوع، لنقف وقفة تأمل عند مسألتي الشك واليقين ومسألة معرفة الإنسان، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

أجل إن هناك غيبيات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ولا نعلم منها إلا نزرا يسيرا، أتى به القرآن الكريم وحتى هذا النزر أو بعض من هذا النزر كان موضع تأويلات الفقهاء، ولكن هل الأمر كذلك بالنسبة للعلم الذي يدرك بالعقل، يدرك بالمشاهدة، يدرك بالتجربة العلمية نقول: نعم، ما أوتي الإنسان من هذا العلم إلا نزرا يسيرا من العلم الذي يدرك بالعقل، يدرك بالمشاهدة والتجربة العلمية، ولبيان ذلك سننطلق من المجموعة الآتية: ربما تبدو مبهمة، وهي المجموعة المتكونة من جميع ابتكارات العقل البشري واكتشافاته العلمية المتصلة بالعلوم النظرية، والعلوم التجريبية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وكذلك الفلسفات المختلفة، وما نسجه عقل الإنسان من فن وآداب.

ونضيف إلى هذه المجموعة الاكتشافات التي يمكن أن يتوصل إليها الإنسان مع تعاقب السنين والقرون، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ونطلق على هذه المجموعة اسم عالم الإبداعات.

لقد ركز الفيلسوف «كارل بوبر» على الجانب الأخلاقي والفلسفي لهذه المجموعة لدحض مبدأ الحتمية العلمية ، ولا شك أن لعالم الإبداعات علاقة مع عالم الأفكار عند أفلاطون وربما حتى مع عالم الفكر عند «هيغل» ، والسؤال الذي نطرحه وهو الذي يتصل بمسألتي الشك واليقين نصوغه كما يلي : هل عالم الإبداعات محدود أم لا؟ أو بعبارة أخرى : هل لمعرفة الإنسان منتهى أم لا؟ فلو افترضنا أن عالم الإبداعات محدود وأن الإنسانية ستصل في وقت ما إلى منتهى المعرفة ، ففي تلك الحالة ستكون لها نظرة متكاملة عن الواقع وسيزول الشك ولا يبقى إلا اليقين ، لماذا؟ لأن بمقتضى هذا الافتراض أي أن عالم الإبداعات محدود ، بمقتضى هذا الافتراض لو كان بقي شك لكنت هناك مسألة لم تجد حلا يقبله العقل ، أي أن هناك خصاصا في عالم الإبداعات ، وهذا متناقض مع الافتراض الذي انطلقنا منه ، وإذا كان عالم الإبداعات غير محدود فلا يمكن على الإطلاق أن يزول الشك أبدا كما لا يمكن ليقين الإنسان أن يكون إلا يقينا تقريبا ومؤقتا ، وسنبين أن عالم الإبداعات غير محدود باعتدانا على عنصر من عناصر هذا العالم ، وهو عنصر عالم الرياضيات ، ذلك إذا حللنا معطيات مبدأ علمي من عالم الإبداعات ، يتبين لنا أنه يستند إلى مسلمة معينة ، وهذه المسلمة يقبلها العقل وتتفق عليها عقول الناس ولا يمكن إثبات صحتها من الوجهة المنطقية .

ذلك لأن كل أطروحة علمية ، وكل خطاب منطقي ، ينطلق من بداية ليؤدي إلى نهاية . وهذه البداية ، تكون إما بديهية فلا تحتاج إلى بيان ، وإما غير بديهية فتحتاج إلى بيان يعتمد على افتراض معين .

وهذا الافتراض بدوره يكون إما بديها فلا يحتاج إلى بيان ، وإما غير بديهي فيحتاج إلى بيان يعتمد على افتراض آخر ، ولما كان التدرج على هذا المنحى لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية ، فكان لابد لكل مبدأ علمي أن يستند على مسلمة معينة يقبلها العقل ، وتقبلها عقول الناس ، ولا يمكن إثبات صحتها من الوجهة المنطقية .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، ولكن المهم أن تكون هذه المسلمات خاضعة لشروط معينة :

أولا : ألا يكون هناك تناقض في هذه المسلمات ، هذه واحدة .

ثانيا : أن تكون هذه المسلمات مستقلة ثنائيا وأن تكون كل مسلمة مستقلة عن المسلمات الأخرى .

ومن ثم يتبين لنا أن عكس مسلمة معينة من مجموع هذه المسلمات مستقلة كذلك عن المسلمات الأخرى ؛ لأنه لو كانت تستنتج من المسلمات الأخرى لوقع التناقض وهذا التناقض هو الموجود بين الشيء وعكسه .

لذلك يتبين لنا أن : ما من مذهب علمي معين يستند على مسلمة يمكن أن نستنبط منه عددا من المبادئ مختلفة عن المبدأ الذي انطلقنا منه وهذا ما فعله كل من العالمين لوباتشفسكي وريمان عندما استنبطا من هندسة إقليدس هندستين تحمل اسمهما وهما : هندسة لوباتشفسكي ، وهندسة ريمان .

أكثر من ذلك انطلاقا من هندسة إقليدس إذا غيرنا مفهوم المسافة لأن هناك مسلمة تقول : إن أقرب طريق يؤدي من نقطة إلى نقطة هو الخط المستقيم فإذا غيرنا مفهوم المسافة ؛ لأن في العلوم الرياضية عددا لا حد له

من مفاهيم المسافة ، فيمكننا أن نستنبط من هندسة إقليدس عددا لا نهاية له من الهندسات .

يقول قائل : إن هذه الهندسات هي التي يخضع لها شكل الكون كما بينه العلماء ، ومن بينهم أينشتاين ، فشكل الكون لا يخضع لهندسة إقليدس المتداولة بيننا بل يخضع لإحدى هذه الهندسات ، فمن ثم يتبين لنا أن عدد الهندسات عدد لا حد له .

وهناك شيء آخر ، تعليل أو دليل آخر أتى به العالم النمساوي «كورك كوديل» عندما قال الشيء الآتي : إن كل مبدأ علمي لا يمكن أن يكون متكاملا بمعنى أنه يمكن أن تظهر في إطار ذلك المذهب مسائل علمية لا يمكن إثبات صحتها كما لا يمكن إثبات عدم صحتها منطقيا انطلاقا من معطيات ذلك المذهب .

ولتقدم العلم لابد لنا أن نفترض أن هذه المسائل الغير المثبوتة من المسلمات ، ونضيفها إلى المسلمات الأخرى كي يتقدم ذلك المذهب وكي يتقدم العلم ، فيتبين لنا إذن أن عالم الرياضيات عالم غير محدود وبالتالي أن عالم الإبداعات عالم غير محدود كذلك ، فهنا نضع السؤال الآتي : فأين توجد الحقيقة؟ أتوجد في هندسة إقليدس أو توجد في العدد العديد من الهندسات؟ أتوجد في المذاهب التي لدينا الآن أو في المذاهب التي يمكن أن نستخرجها ونستنبطها من المذاهب التي لدينا الآن؟

لا ندري ولكن الشيء الذي يمكن أن نقوله : إن للحقيقة وجوها متعددة ، ولا يمكن لمذهب من المذاهب أن يحيط بجميع هذه الوجوه ، فلا بد أن تنصب على هذه الحقيقة جميع عناصر عالم الإبداعات ، وعندما نقول عناصر فإننا لا نستثني العناصر التي لها علاقة بخيال الإنسان من

آداب وفن وفلسفات ، لابد أن تنصب على هذه الحقيقة لتحيط ربما ببعض جوانب هذه الحقيقة .

فقد كان العالم «ريمون بوان كاري» قد أحدث ضجة كبيرة عندما قال بإمكانية افتراض أن الأرض لا تدور ؛ لأن الحقيقة لا تتغير من جراء ذلك وإنما الذي نفقده هو بساطة المعادلات التي تترجم العلاقة الموجودة بين الأجرام السماوية .

وقد كان لهذا ردود فعل شديدة من طرف الفلاسفة وخاصة من طرف «برترند رسل» ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه المقولة بمثابة تأكيد للإعدام الذي صدر في حق «كاليلي» ؛ لأن كاليلي كان يقول بدوران الأرض إلى أن حكمت عليه الكنيسة الأرثوذكسية بتأييد المدرسة الأرسطاليسية ، حكموا عليه من أجل ذلك بالإعدام .

ولابد أن نخلص إلى نهاية لنقول : إن الوضع الذي يظهر عليه الفكر العلمي المعاصر وهو في ذهاب وإياب بين الشك واليقين إنما يعكس وضع الإنسان الذي قدر له أن يتأرجح بين الخوف والرجاء ، أن يتأرجح بين الشك واليقين ، يشك فيحفزه ذلك على التغلب عليه قصد الوصول إلى يقين لم يلبث قليلا حتى يزول ويحل محله شك آخر ، يليه يقين مؤقت ويقين آخر ، ثم شك جديد فيقين مؤقت ونسبي جديد ، وكلما حاول الإنسان تدقيق بحثه عن كنه الأشياء عن روح الأشياء وكلما تقدم في معرفته عن الأسباب والمسببات إلا واصطدم بلغز جديد ، لغز يكتنفه الإبهام والغموض ، لغز يطلق عليه البعض اسم الصدفة ، وما هو في الحقيقة إلا معجزة من معجزات الله ، وأمر من أمور الله .

وهكذا تتجلى لنا ضخامة أمانة الإنسان التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، وهي أمانة العقل ذلكم العقل الذي قدر له أن يتردد بين الشك واليقين ؛ لأنه ما أوتي من العلم إلا قليلا ، أن يتردد بين الخوف والرجاء ؛ لأن الإنسان خلق ضعيفا ، وفي ترده عرفان رتبته ، وفي ترده عرفان قدرة الله سبحانه وتعالى .



المحاضرة الثانية والثلاثون:

بين الحلال والحرام

بالسند المتصل إلى إمام المحدثين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري مولاهم الجعفي رحمه الله تعالى ورضي عنه قال : باب من استبرأ لدينه :

حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى ، يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

هكذا أخرج الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب الإيمان ، وأخرجه في كتاب البيوع بأسانيد وطرق مختلفة ، مستعملاً حاء التحويل ، و مترجماً له ببعض الحديث حيث قال : باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات .

وبه إليه قال : حدثني محمد بن المثنى بن أبي عدي عن ابن عون عن الشعبي قال : سمعت النعمان بن بشير رحمته الله يقول : سمعت النبي ﷺ ، ولم يذكر الإمام البخاري لفظ هذه الرواية ، وهي عند أبي داود والنسائي وغيرهما بلفظ : «إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات - وأحياناً يقول مشبهة - وسأضرب لكم في ذلك مثلاً : إن الله حمى حمى ، وإن حمى الله ما حرمه ، وإن من يرعى حول الحمى يوشك أن يخالطه ، وإن من يخالط الريبة ، يوشك أن يجسر» .

ثم قال : حدثنا ابن عيينة ، عن أبي فروة عن الشعبي ، قال : سمعت النعمان عن النبي ﷺ حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا ابن عيينة عن أبي فروة قال : سمعت الشعبي سمعت النعمان بن بشير رحمته الله عن النبي ﷺ ، ولم يذكر الإمام البخاري لفظ ابن عيينة عن أبي فروة في الطريقين معاً .

ولفظه كما عند ابن خزيمة في «صحيحه» ، والإسماعيلي من طريقه : «حلال بين وحرام بين ومشتبهات بين ذلك» ، فذكره وفي آخره : «ولكل ملك حمى وحمى الله في أرضه معاصيه» .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن أبي فروة عن الشعبي عن النعمان بن بشير رحمته الله قال : قال النبي ﷺ : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع» .

معنى (ح) في السند :

هكذا أخرج الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب البيوع ، وقد استعمل فيه (ح) التحويل وعدد طرقه وأسانيده ، وذلك لنكتة سنشير إليها .

أما استعمال حاء التحويل فإنها جرت عادة المحدثين أنهم إذا انتقلوا من سند إلى سند فإنهم يكتبون عند الانتقال ح مفردة إلا أن من المحدثين من ينطق بها ومنهم من لا ينطق بها ، والذي ينطق بها ينطق بها مقصورة .

وقد اختلف المحدثون في هذه الحاء فقليل : إنها مأخوذة من التحويل للإشارة إلى أن المتن له إسنادان فأكثر كما هنا ، وقيل : إنها تعبر عن الحيلولة بين شيئين فهي كحاجز بين سنيين .

وإذا كانت مأخوذة من الحيلولة فلا ينطق بها ، أما المحدثون المغاربة كابن عبد البر فإنهم يقولون : إنها مختصرة من الحديث ، ومنهم من يقول : إنها مأخوذة من صح .

وأصح الأقوال أنها تشير إلى التحويل أي الانتقال من سند إلى سند ، وأنها ينطق بها مقصورة .

لماذا كرر البخاري هذا الحديث؟

أما النكتة التي جعلت الإمام البخاري يعدد طرق هذا الحديث فهي الرد على يحيى بن معين ، حيث حكى عن أهل المدينة أن النعمان بن بشير لم يصح له سماع من النبي ﷺ ، كما أن فيه الرد على الواقدي ومن تبعه حيث ادعى أن النعمان بن بشير لا يصح سماعه من الرسول ﷺ ؛ نظرًا لصغر سنه ؛ لأن النبي ﷺ التحق بالرفيق الأعلى وللنعمان ثمان سنين وأشهر .

ومسألة سماع الصبي وتحمله قبل البلوغ ثم أدائه وروايته بعد البلوغ ، مسألة خلافية ، مذهب جمهور المحدثين والسلف الصالح على قبول رواية الصبي المميز ، ودليلهم على ذلك هو قبول رواية جماعة من صغار الصحابة تحملوا في صغرهم ، وذلك كالسبطين الحسن والحسين وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، والمسور بن مخرمة ، والسائب بن يزيد ، وغيرهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

وقد قبل الناس روايتهم من غير تفرقة بين ما تحملوه قبل البلوغ أو بعده ، كما أن العلماء وأهل الحديث كانوا يحضرون الصبيان في مجالسهم الحديثية ويعتبرون روايتهم بعد البلوغ .

وخالف في هذا بعض العلماء ، وإلى هذه المسألة أشار الإمام ابن السبكي بقوله : مسألة ، لا يقبل مجنون وكافر ، وكذا صبي في الأصح - أي لا يقبل في الرواية - فإن تحمل فبلغ فادئ قبل عند الجمهور .

قال الحافظ العراقي في «ألفيته» :

وقبلوا من مسلم تحملا في كفره كذا صبي حملا
ثم روى بعد البلوغ ومنع قوم هنا ورد كالسبطين مع
إحضار أهل العلم للصبيان ثم قبولهم ما حدثوا بعد الحلم

ومما يؤكد سماع النعمان بن بشير هذا الحديث من رسول الله ﷺ زيادة مسلم والإسماعيلي من طريق زكرياء التي أخرجه منها الإمام البخاري : وأهوى النعمان بأصبعيه إلى أذنيه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ...

وأخرج الحميدي حديثه هذا في مسنده عن ابن عيينة فصرح فيه بتحديث أبي فروة له وبسماع أبي فروة من الشعبي ، وبسماع الشعبي من النعمان على المنبر ، وبسماع النعمان من النبي ﷺ .

وكما أخرج الإمام البخاري هذا الحديث في كتابي الإيمان والبيع أخرجه الإمام مسلم أيضاً في كتاب البيوع ، وقد روينا به سندنا المتصل إليه قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن نصير الهمداني ، حدثنا أبي ، حدثنا زكرياء ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير رحمته الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وأهوى النعمان بأصبعيه إلى أذنيه : «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ...» وساق الحديث ، كما ساقه الإمام البخاري أولاً .

وأخرجه أيضًا الأربعة؛ الثلاثة في كتاب البيوع، وابن ماجه في كتاب الفتن.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا، ولفظه: «الحلال بين والحرام بين، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

وأخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم في «مستدركه» رضي الله عنه مرفوعًا، ولفظه: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه».

لماذا اعتنى العلماء بهذا الحديث؟

وما اعتناء العلماء بهذا الحديث وكثرة رواياته وطرقه إلا أعظم دليل على علو منزلته، وعظمة قيمته، ولا عجب في ذلك، فهو من أعظم الأحاديث وأجلها، وأكثرها فائدة وأعمها.

عظم العلماء شأنه، وعرفوا مكانته وقدره، حتى قال الشيخ النووي: في حقه: إن هذا الحديث عليه نور النبوة، وقد عده الإمام أحمد بن حنبل ثالث ثلاثة تدور عليها أحكام الشريعة.

أما الحديث الثاني فهو حديث: «الأعمال بالنيات» الذي افتتح به الإمام البخاري «صحيحه».

والحديث الثالث: هو حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» الذي أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» موصولًا، وقال فيه: حديث حسن صحيح.

قال أبو داود السجستاني - الذي قيل عنه: إنه ألين له الحديث، كما ألين الحديد لداود عليه السلام قال: كتبت من الحديث خمسمائة ألف حديث

الثابت منها أربعة آلاف ، وهي ترجع إلى أربعة أحاديث ؛ الثلاثة التي أشرنا إليها ، والرابع هو حديث : « لا يكون المؤمن مؤمناً ، حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه » .

وروي بدل هذا الرابع حديث : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » .

وقد نظمها بعضهم بقوله :

عمدة الدين عندنا كلمات اربع من كلام خير البرية

اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعينك واعملن بنية

قال الحافظ ابن حجر : والمعروف عن أبي داود عد « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه » الحديث ، بدل : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . . . » ، وروي عنه غير هذا .

وكيفما كانت الروايات ، فإن حديثنا هذا متفق على دخوله في الثلاثة أو الأربعة التي تدور عليها أحكام الشريعة ، بل إن الإمام ابن العربي أشار إلى أنه يمكن أن يتنزع منه وحده جميع الأحكام .

قال العلامة القرطبي : لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره ، وعلى تعلق الأعمال بالقلب ، فمن هنا يمكن أن ترد إليه جميع الأحكام .

ما علاقة هذا الحديث بكتاب الإيمان؟

قال الإمام البخاري : باب من استبرأ لدينه : حدثنا أبو نعيم . . . إلخ .

لابد هنا من الإشارة إلى المناسبة التي جعلت الإمام البخاري يسوق هذا الحديث في كتاب « الإيمان » .

قال الشراح هنا : إنه ساقه للاستدلال على أن استبراء الدين هو من الإيمان ، ويظهر لي أنه تأكيد لمذهبه في أن الإيمان يزيد وينقص ؛ ذلك أنه جعل عنوان الباب هو : فضل من استبرأ لدينه ، واستبراء المؤمن لدينه ، لا يكون متساويًا ، بل هو متفاوت الدرجات ، فمن محتاط قليلاً ومن محتاط كثيراً ، وهذا التفاوت يشعر بزيادة الإيمان ونقصه .

وقضية زيادة الإيمان ونقصه شغلت العلماء ، واهتم بها الباحثون ، وكل ضرب بالسهم الوافر ، وعزز رأيه بما يراه صالحاً للاحتجاج من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ومضمن هذا أن الإيمان هل هو التصديق وحده أو هو التصديق بضميمة العمل ؟ فعلى القول بأن الإيمان هو التصديق وحده يكون الإيمان لا يقبل الزيادة ولا النقصان ؛ لأن ما نقص عن درجة اليقين يكون غير مقبول في صحة الإيمان ، فمن ظن أو شك أو توهّم فهو كافر .

وعلى القول بأن الإيمان هو التصديق بضميمة العمل ، أو هو العمل وحده ؛ فإن الإيمان يزيد وينقص ، وهذا قول جمهور العلماء ، وفي طليعتهم المحدث الإمام الأكبر الإمام البخاري الذي عقد كتاب الإيمان ، في أول صحيحه ليؤكد هذا المذهب ولذلك قال : كتاب الإيمان وهو قول وفعل ويزيد وينقص ، ثم ساق بعد ذلك عدة آيات وآثار تؤكد هذا المذهب من جملتها قول الله تعالى : ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ، وقول الله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] ، وقول الله تعالى : ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] ، وقول الله تعالى : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ، وقول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ، وقول الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] ، إلى غير ذلك من الآيات التي ساقها .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص .

ثم بعد ذلك ساق الإمام البخاري الأبواب التي تؤكد هذا المذهب ، ومن جملتها هذا الباب : باب فضل من استبرأ لدينه .

وإلى هذا الخلاف أشار العلامة ابن زكري بقوله :

من فسر الإيمان بالتصديق لا زيد لا نقص على التحقيق
ومن يرى إضافة الأعمال أو أنها فيه على الكمال
صح دخول الزيد والنقصان فيما ترى من جملة الإيمان

شرح الحديث:

قال الإمام البخاري : باب فضل من استبرأ لدينه :

حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

بما أن الحديث طويل ، ومواضعه أجدر بالبحث ، فإني سأختص السند لأدخل إلى صلب الحديث ، فأقول وبالله التوفيق :

قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلال بين والحرام بين» .

فما هو الحلال؟ وما هو الحرام؟ وما معنى البينونة؟

تمهيد:

قبل بيان ذلك ينبغي أن ننبه إلى أن الحلال والحرام هما من جملة التعلق بالتنجيزي لخطاب الله الذي هو كلامه المسمى في الأزل خطاباً حقيقة على الأصح .

وبيان ذلك أن خطاب الله له تعلقان، تعلق صلاحية قبل وجود المكلفين، وهذا قديم، وتعلق تنجيزي بعد وجود المكلفين مستوفين لشروط التكليف وهو حادث، وبه فسر ابن السبكي الحكم حيث قال : والحكم خطاب الله المتعلق بفعل المكلف من حيث إنه مكلف . فأما خطاب الله المتعلق بذاته وصفاته فليس له إلا تعلق تنجيزي قديم .

الحلال:

قال : «الحلال بين والحرام بين» اختلف العلماء في معنى الحلال على قولين : الأول لمالك والشافعي ومن تبعهما ، والثاني لأبي حنيفة ومن تبعه . أما مالك والشافعي فقالا : إن الحلال هو ما لم يرد بتحريمه دليل ، فكل ما لم يرد بتحريمه دليل من كتاب أو سنة أو إجماع فهو حلال ، فيصدق هذا التعريف بالواجب والمندوب ، وكذا يصدق بالمكروه والمباح على الخلاف الذي سنبينه في المشتبه .

وقال أبو حنيفة : إن الحلال هو ما دل الدليل على حله ؛ فيصدق بالواجب والمندوب فقط ، وثمره الخلاف تظهر في المسكوت عنه الذي جهل أصله ، فمقتضى قول مالك والشافعي أن المسكوت عنه من الحلال ، وهذا هو اللائق بسهولة الدين ويسره ، والمناسب للآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] .

وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها» .

وأخرج البزار والحاكم في «مستدركه» وصححه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ورفعته: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته؛ فإن الله لم يكن ينسى شيئاً»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] .

وأخرج الترمذي في «جامعه» عن سلمان مرفوعاً: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفي عنه» .

أما مقتضى تعريف أبي حنيفة فإن المسكوت عنه هو من الحرام؛ لأنه لم يدل الدليل على حله، فتعريف أبي حنيفة أخص من تعريف الإمامين، وإنما كان أخص منهما؛ لأنه أكثر قيوداً، كما أن تعريفهما أعم؛ لأنه أكثر إفراداً، والقاعدة: الأعم ما ازداد فرداً، والأخص ما ازداد قيداً .

بين:

وقوله: «بين» من البينونة، وهي الظهور، والمراد به في الحديث أن الحلال ظاهر واضح في عينه ووصفه، يعرفه كل أحد فلا اشتباه فيه ولا

خفاء في حله ، وذلك كالمشي والكلام والأكل والشرب والبيع والشراء وغير ذلك مما لم يتعلق به نهي لحق الله أو العباد .

والحلال تارة يذكر في القرآن الكريم بمادته نصًّا أي بمادة الحل ، كقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ [المائدة: ١] ، وقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ [المائدة: ٩٦] ، وقول الله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ [النساء: ٢٤] .

وتارة لا يقع التعبير عنه بمادته ، وهو قسمان : إما أن يقع التعبير عنه بالنص على نفي الحرج أو الجناح أو الإثم كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرُّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣] ، وتارة يقع التعبير عنه بالأمر الذي قامت القرينة على أنه للإباحة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة: ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] .

هل طلب الحلال واجب؟

ثم إن طلب الحلال هو واجب بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨] ، وقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ، وقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١] .

وقد تلا النبي ﷺ هاتين الآيتين ، ثم قال : إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به المرسلين^(١) .

وأما السنة فقال ﷺ : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(٢) .
وأما الإجماع : فقد أجمع العلماء على أن طلب الحلال فرض عين على كل مكلف .

ووردت في أكل الحلال آثار كثيرة ، ورد أن : « من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه ، وأجرى ينابيع الحكمة على لسانه » ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : عماد الدين وقوامه طيب المطعم .

فمن طاب كسبه زكا عمله ، ومن لم يطب كسبه خيف عليه أن لا تقبل صلاته وصيامه وحجه وجهاده وسائر عمله ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] .

وورد في التوراة : من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أي باب من أبواب النار أدخله .

ومن خواص أكل الحلال استجابة الدعاء ؛ فقد سأل سعد بن أبي وقاص النبي ﷺ أن يجعل دعوته مستجابة فقال ﷺ : « أطلب لقمتك » ،

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به .
(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٩٩٩٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢١) ، (١٢٢) ، والبيهقي في « الكبرى » (٦ / ١٢٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .
قال الهيثمي في « المجمع » (١٠ / ٢٩١) : « وفيه عباد بن كثير ، وهو متروك » . وقال الذهبي في « السير » (١٥ / ٤٢٢) : « تفرد به عباد ، وهو ضعيف » . وانظر « المجروحين » لابن حبان (٢ / ١٦٩) ، « كشف الخفا » (١٩٢٩) .

قال سعد : ففعلت ذلك فوجدته كما قال^(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو ما يجري على ألسنة بعض الناس من أن الحلال أصبح ضالة مفقودة ، وأنه لا وجود له في هذا الزمان ، مع أن الأمر ليس كذلك ، بل الحلال موجود في كل زمان ومكان ، ولو لم يكن موجوداً لما كلفنا بطلبه من قبل الشارع كما تقدم ، ولانقطع عباد الله الصالحين الذين جعل الله قوتهم من الحلال .

نعم الذي لا جدال فيه هو أن الحرام قد كثر ، وأن الفساد قد عم في الأرض ، والذي ينبغي هو التثبت والاحتياط ؛ ولذلك قال العلامة الفاكهاني : يتعين الاجتهاد في طلب القوت وتحصيله من جهة تسكن إليها النفس إن تعذر معرفة أصل الشيء ، وهو الغالب في هذا الزمان ، ثم قال : والذي عندي في هذا الزمان أن من أخذ قدر الضرورة لنفسه وعياله من غير سرف ولا زيادة على ما يحتاج إليه لم يكن حراماً ولا شبهة .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله : ولا يظن الجاهل أن الحلال مفقود ، وأن السبيل إلى الوصول إليه مسدود ، حتى لم يبق من الطيب إلا الماء والحشيش النابت في الموات ، وما عدا ذلك فقد خربته الأيدي العادية ، وأفسدته المعاملات الفاسدة ؛ فإنه ليس الأمر كذلك ، بل قال ﷺ : «الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهة» .

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : بلفظ : «يا سعد ، أظن مطعمك تكن مستجاب الدعوة» . قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١ / ٢٦٠) : «إسناده فيه نظر» ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٩١) : «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم» .

ولا تزال هذه الثلاث مفترقات كيف كانت الحال ، وإنما الذي فقد هو العلم بالحلal ، وكيفية الوصول إليه ، حتى صار غموض علمه سبباً لاندراست العمل به .

فالحلal إذن موجود ، وإنما الذي فقد هو العلم به ، وكيفية الوصول إليه .

الحرام :

ثم قال ﷺ : « والحرام بين » تعريف الحرام ظاهر مما ذكرناه في تعريف الحلal ، يجري فيه الخلاف أيضاً ؛ فهو عند مالك والشافعي ما ورد بتحريمه دليل ، وعند أبي حنيفة ما لم يدل الدليل على حله .

وقوله : « بين » في الحرام ؛ أي ظاهر واضح أيضاً ، وهو ما منع منه شرعاً اتفاقاً ، إما لصفة في ذاته ظاهرة كالسم والخمر وسائر المسكرات ، أو خفية كالزنا وربا الفضل ، أو لخلل في تحصيله كالغصب والسرقة وبيع الغرر والربا وغير ذلك .

والحرام أيضاً تارة يذكر في القرآن الكريم بما يدل على التحريم بهادته كقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ [المائدة : ٣] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] الآية ، وقول الله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ [المائدة : ٩٦] ، وقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحِلُّ هُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وتارة لا يقع التعبير بهادته وهو أقسام ثلاثة ؛ إما أن يقع التعبير عنه بصيغ النهي عن الفعل أو عن قربانه ؛ كقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿البقرة: ٢٢٩﴾ ،
وقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾
[الإسراء: ٣٢] .

وتارة يقع التعبير عنه بالأمر باجتنابه ؛ كقول الله تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] .

وتارة يقع التعبير عنه بالتوعد على الفعل ، وهذا لا يكاد يخلو منه
محرم ؛ كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] .

بين:

وكلمة : «بين» التي وصف بها الحرام تؤكد أن المراد منه هو ما ورد في
الكتاب والسنة ، والشأن في المحرمات التي يرد بها النص في الكتاب والسنة
أن تكون من الكبائر .

وقد اختلف العلماء في الكبائر على أقوال أربعة ، أشار لها الإمام ابن
السبكي في «جمع الجوامع» بقوله : وقد اضطرب في الكبيرة ، فقليل : ما
توعد عليه بخصوصه ، وقيل : ما فيه حد ، و قال الأستاذ أبو إسحاق
الإسفرائيني والشيخ الإمام -والد المصنف : هي كل ذنب ، ونفيا
الصغائر ، والمختار وفاقاً لإمام الحرمين : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث
مرتكيها بالدين ورقة الديانة .

وبعد أن ذكر الإمام ابن السبكي هذا الخلاف أخذ يعدد الكبائر ويمثل
لها ، وقد أوصلها إلى نيف وثلاثين ، وهي ليست منحصرة في هذا العدد ،
بل هي أكثر من ذلك بكثير حتى قال ابن عباس رضي الله عنه : هي إلى السبعين

أقرب ، وقال سعيد بن جبير رحمته الله : هي إلى السبعمئة أقرب ، ولا بأس من الإشارة إلى بعضها تعميماً للفائدة وتذكيراً ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

فمن المحرمات : الكبائر : السبع الموبقات التي ورد بها الحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» .

وهذه الموبقات السبع كلها ندد بها القرآن الكريم في عدة آيات .
ومنها الزنا : قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وأخرج الإمامان البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «قال رجل : يا رسول الله ، أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعو الله ندًا وهو خلقك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تصديقها : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ١٦ يُضْعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ١٧ إِلَّا مَنْ تَابَ ١٨﴾ الآية [الفرقان : ٦٨-٧٠] .

ومنها شرب الخمر ، وسائر المسكرات : قال الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠] .

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» والنسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قالوا : يا رسول الله ، وما طينة الخبال؟ قال : عرق أهل النار» .

وأخرج الستة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها في الآخرة» .

قال الخطابي رحمه الله : معنى قوله : «لم يشربها في الآخرة» لم يدخل الجنة .

وأخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : «لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، ومبتاعها ، وواهبها ، وأكل ثمنها» .

ومن الكبائر المحرمات : تقديم الصلاة على وقتها أو تأخيرها عنه من غير عذر .

روى الإمام الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : «من جمع بين صلاتين من غير عذر ، فقد أتى بابًا من أبواب الكبائر» وأولى بذلك تركها نهائيًا ؛ فقد ورد فيه من الوعيد الشديد الشيء الكثير .

ومنها : منع الزكاة : قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ تُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا نَفْسَكُمْ فذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقهما، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحيى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي الله بين العباد فيرى سبيله؛ إما إلى الجنة، وإما إلى النار»^(١).

وأخرج الإمام البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زببتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - أي بشدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]».

ومنها السرقة والغصب: قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال ﷺ: «من اقتطع شبراً من أرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين» أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم، وفي رواية للإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حق خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين».

ومنها النسيئة: قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: «لا يدخل الجنة نمام».

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، به.

وروى البخاري ومسلم أيضاً «أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير - يعني عند الناس ، زاد الإمام البخاري في رواية- بل إنّه كبير - يعني عند الله - أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستجمر من بوله» .

ومنها الغيبة : أخرج أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» .

وفي القرآن الكريم : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(١) والبهت : هو الكذب والافتراء .

ومنها : اليمين الفاجرة : قال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق ؛ لقي الله وهو عليه غضبان ، ثم قرأ رسول الله ﷺ مصداقه من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]» .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

وأخرج الأئمة مسلم والنسائي ومالك عن إياس بن ثعلبة أن رسول الله ﷺ قال : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، فقال رجل : يا رسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً، قال : وإن كان قضيباً من أراك» .

ومنها : الرشوة : قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] .

وقال ﷺ : «لعنة الله على الراشي والمرتشي» .

أخرجه ابن ماجه وغيره ، وزاد الترمذي في رواية : «في الحكم» وحسنه ، وزاد الحاكم في رواية : «والرائش الذي يسعى بينهما» ، وقال فيه بدون الزيادتين : صحيح الإسناد ، وقال الترمذي بدون الزيادتين : حسن صحيح .

ومنها : التحاسد والتباغض والقطيعة بين المسلمين : قال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه» .

وفي الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

وإن ما أصاب المسلمين مما أصابهم من الويلات والنكبات هو بسبب التفرقة والاختلاف والتنازع والتنافر، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وإن مصيبة المسلمين في ضياع بيت المقدس هي أعظم من مصيبتهم في فقدان الأندلس الذي كان السبب فيه هو التفرقة والاختلاف والتنازع والتنافر.

إن تحرير الأراضي المقدسة وتطهيرها من رجس المعتدين هو واجب في عنق جميع المسلمين؛ ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢].

المشبهات:

الحلال بين والحرام بين: كما قال ﷺ، ويتجاذب الحلال والحرام أشياء أخرى سماها النبي ﷺ: بالمشبهات، حيث قال: «وبينهما مشبهات»؛ أي بين الحلال والحرام شئون وأحوال مشبهات لم تتضح حليتها ولا حرمتها.

وقوله: «مشبهات» فيه ثمان روايات، والمشهور منها، كما قال الحافظ العراقي هي رواية الأصيلي وابن عساكر، وهي رواية مسلم: «مشبهات»، ومعنى كونها مشبهات أنها تشبه على بعض الناس دون بعض، لا أنها في نفسها مشتبهة على كل الناس، لا بيان لها، بل العلماء يعرفونها؛ لأن الله تعالى جعل عليها دلائل يعرفها بها أهل العلم.

لا يعلمها كثير: ولهذا قال ﷺ: «لا يعلمها كثير من الناس»؛ أي لا يعلم حكمها من تحريم وتحليل كثير من الناس، وقد ورد هذا واضحاً في رواية الترمذي بلفظ: «لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم من الحرام»، ومفهوم قوله: «كثير من الناس» أن معرفة حكمها ممكن للقليل،

وهم العلماء المجتهدون ؛ فإنهم يعرفونها بطريق من طرق الاجتهاد ، فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة ، ولم يكن هناك نص ولا إجماع ، اجتهد فيه المجتهد ، وألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي .

فالمشبهات على هذا إنما هي في حق غير العلماء ، وقد تقع لهم حيث لا يظهر لهم ترجيح أحد الدليلين .

قال القاضي عياض : قوله : « لا يعلمهن كثير من الناس » ، يدل على أن المشتبه له حكم ، ولو كان لا حكم له لم يقل : « لا يعلمهن كثير من الناس » ؛ لأن الكل حينئذ لا يعملونها .

وهذا المعنى واضح لأن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله ﷺ مبيئاً للأمة جميع ما يحتاجونه في دينهم ، كما تدل على ذلك الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .

قال مجاهد : لكل شيء أمروا به أو نهوا عنه ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : ١١٥] .

وأسند سبحانه وتعالى ما أشكل من التنزيل إلى الرسول ﷺ حيث قال : ﴿ وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

وما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى حتى أكمل الله له ولأمته الدين ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال ﷺ: «تركتم على بيضاء نقية، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١)، وقال العباس رحمه الله: ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً وأحل الله الحلال وحرم الحرام.

وباختصار، فما من حلال ولا من حرام إلا وقد بينه الله ورسوله، غير أن هذا البيان متفاوت في الخفاء والظهور، فما هو واضح بيانه لم يبق فيه شك، وما كان بيانه دون ذلك، فمنه ما اشتهر بين العلماء خاصة، فأجمعوا على حله أو حرمة، ومنه ما لم يشتهر حتى بالنسبة للعلماء فاختلّفوا في تحريمه وتحليله.

ما المراد بالمشبهات؟

ولأجل هذا الخلاف اختلف العلماء في المراد بالمشبهات ومعناها على أقوال اقتصر الحافظ ابن حجر منها على أربعة:

أحدها: أن المراد بالمشبهات ما تعارضت فيه الأدلة.

ثانيها: أن المراد بها ما اختلف فيه الأئمة، وهي مأخوذة ومتزعة من الأولى؛ لأن اختلاف العلماء إنما يكون فيما تعارضت فيه الأدلة؛ وذلك كالخيل فإنها محرمة على أحد الأقوال عند الإمام مالك؛ لأن اللام في قوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] تفيد الحصر عنده، وهي مباحة عند غيره.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد في «المسند» (١٢٦ / ٤)، والطبراني في «الكبير» (١٨ / ٢٤٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨)، وأبو نعيم في «المستخرج» (٢) عن العرباض بن سارية رحمه الله مرفوعاً، بنحوه. وصححه الحاكم في «المستدرک» (١ / ٩٦)، وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٩٣).

ثالثها: أن المراد بها المكروه؛ لأنه عقبة بين الحلال والحرام، يجتنبه جانباً الفعل والترك، فالورع تركه، وبهذا قال الماوردي.

رابعها: أن المراد بها المباح، قال الحافظ ابن حجر: ولا يمكن لقائل هذا القول أن يحمله على متساوي الطرفين، من كل وجه، بل يمكن حمله على ما يكون من قسم خلاف الأولى، بأن يكون متساوي الطرفين، باعتبار ذاته راجح الفعل أو الترك باعتبار أمر خارج.

ومن المعلوم أن قسم خلاف الأولى زاده الإمام ابن السبكي على الأصوليين أخذاً من كلام المتأخرين من الفقهاء حيث قارنوا المكروه بخلاف الأولى من مسائل كثيرة وفرقوا بينهما، ومن نقل الفرق بينهما وأقره إمام الحرمين في النهاية بالنهي المقصود وغير المقصود.

قال ابن السبكي في «جمع الجوامع»: فإن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاء جازماً بإيجاب، أو غير جازم فندب، أو الترك جازماً فتحریم، أو غير جازم بنهي مخصوص فكراهة، أو بغير مخصوص فخلاف الأولى.

أما المتقدمون من الفقهاء فإنهم يطلقون المكروه على ذي النهي المخصوص وغير المخصوص، وقد يقولون في الأول: مكروه كراهة شديدة، كما يقال في قسم المندوب: سنة مؤكدة.

وعلى كل حال فالذي فسر المشبهات بالمباح لابد أن يحمله على قسم خلاف الأولى، وقد نقل ابن المنير في مناقب شيخه أنه كان يقول: المكروه عقبة بين العبد والحرام، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام، والمباح عقبة بين العبد والمكروه، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه.

قال الحافظ ابن حجر : وهو منزع حسن ، ويؤيده رواية ابن حبان من طريق ذكر مسلم إسناده ولم يسق لفظها فيها من الزيادة : «اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال ، من فعل ذلك استبرأ لدينه وعرضه ، ومن ارتع فيه كان كالمرتع إلى جنب الحمى يوشك أن يقع فيه» .

وقد رجح الحافظ ابن حجر الوجه الأول وهو تعارض الأدلة ، واستدل له بما وقع عند الإمام البخاري في كتاب البيوع من رواية أبي فروة عن الشعبي في هذا الحديث : «فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان له أترك ، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان» ثم قال : ولا يبعد أن يكون كل من الأوجه مراداً ويختلف ذلك باختلاف الناس .

فالعالم الفطن لا يخفى عليه تمييز الحكم فلا يقع له ذلك إلا في الاستكثار من المكروه ، ودون العالم الفطن تقع له الشبهة في جميع ما ذكر بحسب اختلاف الأحوال .

حكم المشبهات :

وكما اختلف العلماء في المشبهات ومعناها ، اختلفوا أيضاً في حكمها ، فقليل : إن حكمها التحريم ، وعلى هذا فترك المشبهات واجب ، وهذا القول مردود ، كما قال الحافظ ابن حجر ؛ لأن الشارع أخرجها من القسم الحرام فلا توصف به ، وإنما هي مرتاب فيها ، وقد قال ﷺ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ، وهذا هو الورع .

ثانيها : أن المراد بها المكروه ، وصوب القرطبي هذا القول .

ثالثها : أنها حلال يتورع عنها ، وهو قول مردود أيضاً ؛ لأن المباح هو ما استوى طرفاه فلا ورع فيه ، وقيل : إنها منزلة بين الحلال والحرام ، وهو قول الإمام أحمد ، وقيل : إن حكمها هو الوقف ، وهو كالحلاف فيما قبل الشرع ، أي في حكم الأشياء قبل ورود الشرع ، والذي يرجح هذا القول هو أن الدليل قد يكون غير خال عن الاحتمال فالورع تركه ، لاسيما عن القول بأن المصيب واحد ، وهو مشهور مذهب الإمام مالك ، ومعلوم أن مسألة الخطأ والصواب في الاجتهاد مسألة خلافية ، هل كل مجتهد مصيب ، أو المصيب واحد؟

اختلف العلماء في ذلك ، والمشهور في مذهبنا أن المصيب واحد ، وأن المخطئ لا إثم عليه .

اتقى :

ثم قال رحمه الله : «فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه» .

اتقى : من التقوى ، وهو لغة : قلة الكلام ، والحاجز بين الشئيين ، واصطلاحاً : التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتنال أوامره واجتناب نواهيه .

والشبهات :

الاختلاف في لفظها بين الرواة كالاختلاف في التي قبلها .

استبرأ :

ومعنى قوله رحمه الله : «استبرأ لدينه وعرضه» ؛ أي برأ دينه من النقص ، وعرضه من الطعن فيه ؛ لأن من لم يعرف بترك الشبهات لم يسلم من قول من يطعن فيه ؛ ولهذا قال رحمه الله : «استبرأ لدينه وعرضه» ، والمراد بالعرض هو النفس ؛ إذ هي موضع المدح والذم من الإنسان ، كما قال إمام الحرمين

في «النهاية» ، والفيروزبادي في «القاموس» ، فأشار عليه السلام في الحديث بالأول إلى ما يتعلق بالحق ، وبالثاني إلى ما يتعلق بالخلق .

وفي عطف العرض على الدين إشارة إلى أن طلب براءته مطلوب للممتقين ؛ فبراءة العرض إذا لم يتركها تطاول إليها السفهاء بالغيبة ونسبوه إلى أكل الحرام فيكون ذلك مدعاة لوقوعهم في الإثم .

وقد ورد أنه عليه السلام قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم»^(١) .

وورد في الأثر أيضاً : «من وقف وقفة سوء فلا يلومن من أساء الظن به» .

وقال علي كرم الله وجهه : إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره ، وإن كان عندك اعتذاره ، فرب سامع نكراً لا تستطيع أن تسمعه عذراً .

وقد كان النبي عليه السلام واقفاً مع زوجته صفية فمر به رجلان ثم أسرع في مشيهما ، فقال رسول الله عليه السلام : «على رسلكما ، إنها صفية - خوفاً عليهما أن يهلكا - فقالا : سبحان الله ؛ فقال عليه السلام : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وقد خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً»^(٢) .

وخرج أنس رضي الله عنه إلى صلاة الجمعة فوجد الناس راجعين ، فتوارى عنهم ، وقال : من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله .

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٢٦٠) ، وذكره العجلوني في «كشف الخفا» وعزاه لـ «الكشاف» .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها مرفوعاً ، به .

وقد وجد النبي ﷺ ثمرة مسقطة في بيته فقال : «لولا أن تكون صدقة لأكلتها» ، كما روى ذلك الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفي رواية همام عن أبي هريرة أنه رضي الله عنه قال : «أجد ثمرة ساقطة في فراشي فأرفعها لأكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها» ، وهذا من شدة ورعه رضي الله عنه .

الورع:

ترك الشبهات هو من الورع ، وباب الورع واسع كبير ، ولكنه صعب الدخول ، لا يلجّه إلا الصالحون الصديقون المتقون ، وقد قسم الإمام الغزالي الورع إلى أربعة أقسام :

الأول : ورع العدول ، وهو الامتناع عن فعل ما فعله فسق .

والثاني : ورع الصالحين ، وهو الامتناع مما يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتي ترخص في تناوله بناء على الظاهر .

الثالث : ورع المتقين ، وهو الامتناع من فعل ما لا تقدم في حليته شبهة ، ولكن يتقي خوف أن يؤدي إلى المحذور كما قال رضي الله عنه : «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس»^(١) .

وقال أبو الدرداء : ما تمت التقوى للمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الوقوع في الحرام .

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) ، وعبد بن حميد في «المسند» (٤٨٤) ، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ١٦٨) ، والبيهقي في «الكبرى» (٣٣٥ / ٥) عن عطية السعدي رضي الله عنه مرفوعًا ، به . قال الترمذي : «حسن غريب» .

وقال سفيان بن عيينة : لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه .

وقال عمر رضي الله عنه : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام ، وروي عنه رضي الله عنه أنه أمر زوجته أن تبيع طيباً للمسلمين من النساء ، ففعلت ثم مسحت خمارها بما تعلق بأصابعها فدخل فقال : ما هذه الرائحة؟ فأخبرته بذلك ، فأخذ الخمار وغسله بماء وطين ، فهذا من ورع المتقين ، وإن كان غسل الخمار لا يرد الطيب إلى المسلمين ، ولكن خوف أن يؤدي ذلك إلى غيره ، وكل ذلك من ورع المتقين .

الرابع : ورع الصديقين ، وهو الامتناع من فعل ما لا تقدر في حليته شبهة ، ولا يتقي خوف أن يؤدي إلى حرام ، ولكن لم يتناول لله ما يقوي على عبادة أو استبقاء حياة أو توصل إليه بمكروه أو اتصل بمكروه .

ومن ذلك ما ورد في كتاب «الصفوة» عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : جاءت أخت بشر الحافي إلى أبي فقالت : إنا نغزل فوق سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ويقع الشعاع علينا أفيجوز لنا الغزل على شعاعها؟ فقال لها : من أنت عافاك الله؟ فقالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد بن حنبل وقال لها : من بيتكم خرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها .

وورد في كتاب «الحلية» لأبي نعيم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه جاء يوماً وهو جائع فقال لغلامه : هل عندك شيء؟ قال : قطعة لحم قال : اشوها وهاتها ، فلما أكلها قال له الغلام : ما لك ما سألت عنها على عادتك؟ قال : كنت جائعاً فمن أين هي؟ قال : مررت على قوم من الجاهلية قد عملوا عرساً فأعطوني هذه القطعة ، فقام أبو بكر ولم يزل يتقيؤها حتى

أخرجها وهي مصبغة بالدم ، فقليل له : يا صاحب رسول الله ، وما مقدار هذه؟ قال : والله لو لم تخرج إلا بروحي لأخرجتها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل لحم نشأ عن سحت فالنار أولى به»^(١) .

وورد أيضًا كما قال الغزالي : أن أبا بكر شرب لبنًا من كسب عبده ، ثم علم أن عبده تكهن به لقوم فقام وأدخل أصبعه في حلقه ، ولم يزل يتقيأ حتى كادت نفسه تخرج ، ثم قال : اللهم إني أعوذ بك مما حملت العروق وخالط الأمعاء .

وهذا كله من ورع الصديقين ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، وأن يحشرنا في زمريتهم ، وأن يجمعنا معهم يوم القيامة ، إنه سميع مجيب .

من :

ثم قال ﷺ : «ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى» هكذا في جميع نسخ الإمام البخاري محذوف جواب الشرط على إعراب من شرطية ، وقد ثبت المحذوف في رواية الدارمي عن أبي نعيم شيخ البخاري في هذا الحديث بلفظ : «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى» .

ويمكن إعراب من في سياق الإمام البخاري موصولة لا شرطية فتكون مبتدأ والخبر قوله : «كراع يرعى» ، وحينئذ لا يكون فيه حذف ؛ إذ التقدير : والذي وقع في الشبهات مثل راع يرعى ، ولكن الأول أولى يعني

(١) أخرجه الترمذي (٦١٤) ، وأحمد في «المسند» (٣ / ٣٢١) ، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٣٠) ، وفي «الصغير» (٦٢٥) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه مرفوعًا ، به . قال الترمذي : «حسن غريب» ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٣٠) : «رجال ثقات» .

إعرابها شرطية لثبوت المحذوف في رواية مسلم وغيره من طريق زكرياء التي أخرجها منها البخاري ، وعلى هذا فيكون قوله ﷺ : «كراع يرعى» جملة مستأنفة وردت على سبيل التمثيل للتنبيه بالشاهد على الغائب ، فهو من باب التشبيه بالمحسوس الذي لا يخفى حاله .

الحمى :

«ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراع يرعى حول الحمى» .

والحمى : في عرف الفقهاء هو ما قصر الإمام الانتفاع بما تنبته أرض معينة على حيوان معين لمصلحة دينية ، كما فعل النبي ﷺ عندما حمى لإبل وخيل المهاجرين ، وكذلك الخلفاء بعده كانوا يحمون الأراضي لخيول الأنصار ولإبل الغزاة .

والحمى جائز شرعاً إذا كان لمصلحة دينية ، فالإمام يجوز له أن يحمي أرضاً معينة إذا كان ذلك لمصلحة دينية أو دنيوية ترجع على الأمة بالخير والنفع والصالح والنجاح .

فقوله ﷺ : «كراع يرعى حول الحمى» ، هو مثال ضربه ﷺ للبعد عن الشبهات ، وفي اختصاص التمثيل بذلك نكتة ، وهي أن ملوك العرب كانوا يحمون لرعي مواشيهم أماكن خاصة يتوعدون من يرعى فيها بالعقوبة الشديدة فمثل لهم النبي ﷺ بما هو مشهور عندهم ، فالخائف من العقوبة لا يقرب من ذلك الحمى خشية أن تقع مواشيه فيه ، وغير الخائف يقرب منه ، ويرعى من جوانبه فلا يأمن أن تنفرد الفاظة فتقع فيه ، أو يجذب المكان الذي هو فيه ويقع الخصب في الحمى فيقع فيه من غير قصد ، والله تعالى هو الملك حقاً ، وحماه محارمه .

يوشك أن يواقعه :

ولهذا قال ﷺ : «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه» أي يقرب أن يواقعه ؛ لأن أوشك من أفعال المقاربة ، ثم قال : «ألا وإن لكل ملك حمى» أشار بهذا إلى أن لكل ملك من الملوك مكانًا خاصًا يحميه لرعي مواشيه ، ويتوعد غيره من الوقوع فيه ، فمن دخله بغير إذنه عاقبه عقوبة شديدة ، ومن احتاط لنفسه لا يقاربه خشية الوقوع فيه .

وقد كان كليب ، وهو من عرب الجاهلية إذا مر بمرعى وأعجبه حماه ، وعلامة ذلك عنده أن يأخذ جرّاً ويقطع أذنه وذنبه ، وقيل : قوائمه ، ويتركه في ذلك المكان ينبح فإذا سمعت العرب نباحه تجنبت ذلك المرعى . وقد قامت بين العرب في الجاهلية حروب وخصومات كثيرة بسبب ذلك استمرت عشرات السنين ، وذلك ممنوع شرعاً ، وإنما يجوز الحمى إذا كان لمصلحة الأمة ولمصلحة دينية .

المحارم :

ثم قال ﷺ : «ألا وإن حمى الله محارمه» ، والمراد بالمحارم ، فعل المنهي المحرم أو ترك المأمور الواجب ، ولهذا وقع التعبير في رواية أبي فروة بالمعاصي بدل المحارم ، ووقع في رواية الطبراني : «حمى الله في أرضه حلاله وحرامه» .

المضغة :

ثم قال ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

المضغة: هي القطعة من اللحم الصغيرة قدر ما يوضع الماضغ، وعبر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية، ويعني أنها صغيرة الحجم عظيمة القدر.

وقوله: «إذا فسدت»، و«إذا صلحت» بالفتح والضم.

القلب:

ثم فسر عَلَيْهِ السَّلَام المضغة فقال: «ألا وهي القلب» والقلب معلق بالنياط، وهو أخص من الفؤاد وقيل: هما مترادفان، ويعبر عنه بالصدر، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وبالشباب، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنَابِكَ فَطَهَّرَ﴾ [المدثر: ٤]؛ أي قلبك على أحد التفاسير.

ويطلق على العقل كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال المفسرون: أي عقل، وعبر عنه بالقلب؛ لأنه محل استقراره، وما قلناه من العقل محله القلب هو مذهب المتكلمين، وقد احتجوا بالآيتين السابقتين، وبظاهر هذا الحديث، وهو أيضًا مذهب الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو.

وذهب الأطباء إلى أن العقل محله الدماغ، ويحكى هذا القول عن أبي حنيفة، واحتجوا بأنه إذا فسد الدماغ فسد العقل، وأجيب بأنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن الدماغ آلة عندهم وفساد الآلة لا يقتضي فساده، غايته أن الله تعالى أجرى العادة بذلك إذا فسد الدماغ فسد العقل.

لكن ما احتج به المتكلمون من الآيتين ومن ظاهر الحديث هو احتجاج غير ظاهر أيضاً؛ لأنها ليست نصّاً فيما احتجوا بها من أجله، وإنما هو احتجاج يمكن أن يستأنس به فقط، وذلك حتى لا يصطدم القرآن الكريم مع هذه التطورات الجديدة، والكشوف العلمية الحديثة من زرع القلوب ومن محاولته لتبديل الدماغ وغير ذلك.

فلو أننا أخضعنا القرآن الكريم للحقائق العلمية الموجودة فقد يتبين بعد ذلك أن هناك نظريات أخرى، وأن هذه النظريات مخالفة تمام المخالفة للنظريات الأولى، وبذلك نكون قد حججنا على القرآن الكريم وأخضعناه لحقائق علمية غير ثابتة، قد تتبدل وتتغير.

فها نحن نرى اليوم أن هناك عمليات كثيرة لزرع القلوب يتم فيها نقل قلب إنسان إلى إنسان آخر، وقد نجحت العمليات نسبياً، ومع ذلك تبقى طبيعة الشخص كما كانت في أول الأمر، فلو أننا قلنا: إن العقل محله القلب كما قال المتكلمون وأكدنا ذلك، فإننا نصطدم بحقائق علمية تثبت عكس ما أكدناه.

نعم، لو وقع تغيير في تفكير الشخص الذي زرع له قلب جديد، أو في عواطفه وميوله وغير ذلك في تصرفاته العقلية لاستطعنا أن نؤكد نظرية المتكلمين، أما الأمر على عكس ذلك، فإنني أقول: إن نظرية المتكلمين هي نظرية قديمة، وأن احتجاجهم بما ذكر من الآيتين والحديث إنما هو احتجاج استثنائي، وهي تحتمل تأويلات أخرى.

فلو أنه ظهر في الكشوف الحديثة علامات أخرى تدل على وجود العقل في مكان آخر - ولا أرى ذلك ممكناً - لأعطانا هذا الاكتشاف رأياً آخر في مكان العقل غير الذي عرف عن المتكلمين وغيرهم.

ويظهر لي والله أعلم أن العقل هو كالروح لا يعلم مقره إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ أَلْعَلِمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

فلهذا وجب أن لا نخضع القرآن أبداً إلى سائر الحقائق العلمية ، بل نقول : إن القرآن الكريم فيه إشارات إلى كثير من هذه الحقائق ، وأنه لا يتعارض مع العلم ، إلا أن الحقائق العلمية قابلة للتطور والتجديد حسب تطور الزمان والعقل الإنساني ، وإنما سمي القلب قلباً لسرعة تقلبه بالخواطر ، كما قال الشاعر :

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقال الآخر :

وما سمي القلب قلباً إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل

وإنما كان صلاح البدن وفساده تابعاً لصلاح القلب وفساده ؛ لأنه مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية .

فإذا صدرت عنه إرادة صالحة بسلامته من الأمراض الباطنية ؛ كالغل والحسد والكبر والبخل وغير ذلك تحرك الجسد بحركة صالحة .

وإذا صدرت عنه إرادة فاسدة بعدم سلامته مما ذكر تحرك الجسد بحركة فاسدة ؛ ولهذا يقولون : إن القلب هو كالمملك والجسد وأعضاؤه كالرعية .

ولا شك أن الرعية تصلح بصلاح المملك وتفسد بفساده ، وأيضاً يقولون : إنه كالأرض وحركات الجسد كالنبات : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨] .

ولهذا لما سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً من رعيته : كيف حال أميركم؟ قال : يا أمير المؤمنين إذا طابت العين عذبت الأنهار .

وكان لقمان عبداً حبشياً فأعطاه مولاه شاة ، وقال له : اذبحها وائتني بأطيب مضغتين فيها ، فذبحها وأتاه بالقلب واللسان ، ثم أعطاه شاة أخرى وقال له : اذبحها وائتني بأخبث مضغتين فيها ، فأتاه بالقلب واللسان ، فسأله عن ذلك فقال : ما شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وقال الشاعر زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال ﷺ كما في حديث الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه : «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله ﻋﻠﻴﻚ في كتابه : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] .

وعن الأعمش قال : كنا عند مجاهد فقال : القلب هكذا وبسط كفه ، فإذا أذنب العبد ذنباً قال هكذا فعقد واحداً منهم ، فإذا أذنب ذنباً قال هكذا وعقد اثنين ثم ثلاثاً ، ثم أربعاً ، في الذنب الخامس يطبع الله على قلبه .

قال مجاهد : فأياكم يرى أنه لم يطبع على قلبه .

وورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في دعائه : «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، فقليل له : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ فقال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء» .

وفي مسند الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه...» .

هذا بعض من كثير مما يمكن أن يقال في هذا الحديث الجليل، ولا ينفع عند الله تعالى إلا القلب السليم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] .

ولا شك في أن سلامة القلب تعظم وتقوى بعظم المهام التي يقوم بها المسلم ويستطيع أن يطبقها .

المحاضرة الثالثة والثلاثون:

الإسلام والثقافة

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] .

يستهدف هذا الحديث عن الثقافة من المنظور الإسلامي تحديد نظرة الإسلام إلى الثقافة أو تحديد خصوصية هذه النظرة وسط مفاهيم ومنظورات شائعة عن الثقافة تغاير المفهوم الإسلامي وتعتبر أحيانا نقيضا له .

لكني لا أستطيع بحكم منهجية العرض والتحليل وبرغم ضيق الوقت أن أتخلى عن تناول عدة عناصر تمهيدية ومقارنات أولية تتصل بالموضوع في صميمه .

وهكذا سيتجه الحديث في تناول الموضوع من خلال ثلاثة محاور :

١- الواقع الثقافي السائد في عصرنا ، من حيث المفاهيم والتصورات وما يتجاذبه من نزعات وتيارات .

٢- المنظور الإسلامي للثقافة ، وموقفه من هاتيك النزعات والتصورات .

٣- الوقوف عند الآية الكريمة باعتبارها مثلاً يختصر المواقف جميعاً .



الواقع الثقافي من حيث المفاهيم والتصورات

يتميز الواقع الثقافي اليوم بثراء المفاهيم وغزارة المناهج التحليلية للثقافة؛ إذ لم تبق الثقافة تحدد اليوم في ضوء قاموس يعتمد مادة «ثقف» ومشتقاتها وتطورها، بحيث تقتصر الثقافة على معنى الحذق والإتقان أو اكتساب ملكة من الملكات، وحيث يكون غرض المحلل اللغوي أن يربط بين دلالة الفعل المادية التي هي الحذق تارة، والظفر بالشيء تارة أخرى، وبين ما صار إليه المدلول من معنى التحصيل للمعرفة والتهديب للنفس، والتقويم لها من خلال ذلك التحصيل.

وإنما صار مفهوم الثقافة يحدد في ضوء علوم إنسانية متعددة، بعضها يمس الثقافة باعتبارها ظاهرة من ظواهر الاجتماع، وهو علم الاجتماع، وبعضها يختص بها، وهو «علم الإناسة» الأنثروبولوجيا، وبعضها يمسها باعتبارها مؤثرا في حياة المجتمعات كالتاريخ، وبعضها يتصل بالثقافة من نواح أخرى كالفلسفة وتاريخ الحضارة.

وعلى وجه الإجمال هناك تداولان لمفهوم الثقافة، تداول عامي لا يهمننا الآن، وتداول علمي نجده عند علماء الاجتماع والإناسة والتاريخ والمفكرين ذوي الاختصاص المتصل بالحضارة الإنسانية، وهذا التداول العلمي لا يقتصر على مفهوم واحد، وإنما يشمل عدة مفاهيم، بحسب منهج كل طائفة من الباحثين والمفكرين، ونظرتهم إلى الظاهرة الثقافية.

فطائفة تعتبر الثقافة هي مجموع ما يبدعه أفراد المجتمع من ضروب الإنتاج، من حيث هي تعبير عن ملكات هؤلاء الأفراد ومواهبهم، في سبيل تكييف الطبيعة لصالح المجتمع، ومن هذا المنظور لديهم لا يختص

بممارسة هذه الثقافة المفكر أو الأديب أو الفنان ، وإنما يسهم فيها كل الأفراد ماديا ومعنويا ، وهو منظور غير غريب عن فكرنا العربي عند عالم كابن خلدون الذي اعتبر العلوم من جملة الصنائع التي يزدهر بها العمران البشري .

وطائفة تعتبر الثقافة بنية فوقية للمجتمع ، بمعنى أن البنية التحتية هي نظام الإنتاج والاستهلاك ، والعلاقات الاقتصادية السائدة بين أفراد المجتمع وطبقاته ، فالثقافة تشكل النظام الثقافي من دين وعقيدة وآداب وفنون وفكر ومناهج ، وهو النظام الذي يبرر مصالح طبقة اجتماعية ويكرس تحكمها في أخرى .

وطائفة تعتبر الثقافة هي الحضارة في مجموعها ؛ لأن الثقافة لا يمكن أن تتجلى إلا في إطار حضاري ، كما أن الحضارة لا يمكن أن توجد إلا باعتبارها إنجازا ثقافيا ، فالمفهومان معا وجهان للعملة الواحدة .

وطائفة تعتبر الثقافة عبارة عن منظومة متكاملة من القيم والعلاقات التي يفرزها الفكر ، ثم يتعامل معها ، فالثقافة هي بنية عميقة ، أو تنطوي على هذه البنية العميقة ، إنها نظام من العلاقات والأنساق المتحركة في كل الظواهر الإبداعية والإنتاجية والمعرفية .

هناك إذن عدة مفاهيم وتصورات ومناهج تتناول الثقافة بالتحديد والتحليل ، وهي التي تسود الفكر المعاصر ، وهي في مجموعها تؤكد أمرين اثنين :

الأول : أن الثقافة من حيث هي فعل وإنجاز إنما تستهدف تكييف المادة أو الطبيعة لتلائم حياة الإنسان ، والثقافة من هذا المنظور هي

المستوى العقلي والفني الذي يمتلكه الإنسان ، فيمكنه من الإنتاج ، فهي بهذا القصد تؤهل إلى حضارة .

الثاني : أن الثقافة هي انعكاس لنظام ما ، سواء كان هذا النظام نظاما داخليا هو البنية كما هو تصور الإنشربولوجيين ، أو كان هذا النظام هو البنية الاقتصادية كما هو رأي الماديين الجدليين ، أو كان هذا النظام هو المنظومة المعرفية كما هو رأي فلاسفة الحضارة .

ومن خلال تتبع تطور الثقافات في عصرنا يلاحظ الباحث أن توجه الثقافات البشرية أخذت تسير في اتجاهين متعارضين :

١ - اتجاه الحفاظ على الخصائص الذاتية للمجتمع ، أي الاتجاه نحو الحفاظ على الخصائص القومية والأصالة الوطنية .

٢ - واتجاه التفتح على الثقافة العالمية أو الثقافت مع الثقافة العالمية السائدة .

في هذا التجاذب بين الاتجاهين المتقابلين ، أو بين الخصوصية و«الكونية» ، وقعت البلاد الإسلامية فريسة للتناقض إثر خضوعها للاستعمار الغربي ، وانفتاحها في ظل هذا الاستعمار أمام حضارة الغرب وثقافته .

فهذه الشعوب الإسلامية إن كانت لم تتردد في الواقع ، لا أمام تعبئة نفسها لمقاومة الاحتلال ، ولا أمام استرجاع استقلالها السياسي ، إلا أنها وقفت مبهورة أمام حضارة الغرب وتقدمه ، وقوة سلطانه وعلومه ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فأجمعت حركاتها الإصلاحية التي قادها المصلحون المفكرون على ضرورة الاقتباس من تلك الحضارة ومن علومها للخروج من التخلف ، وكان الخروج من التخلف يعني بغير

خلاف بين أولئك المصلحين اصطناع ثقافة الغرب ، وإتقان لغاته وتكوين الأطر العليا في جامعاته ومعاهده .

كان التأثير بالثقافة الغربية واللاحق بحضارتها أمرا حتميا ، بقدر ما كان ينطوي على مخاطر تتمثل في أمرين بالغين الخطورة وهما :

١ - انتقال السلطة الفكرية من ثقافة إلى أخرى داخل البلاد الإسلامية .

٢ - تصدع الوحدة الفكرية بين المثقفين ، بظهور الازدواجية الثقافية ، بين ثقافة تقليدية وثقافة عصرية ، وما ينتج عن هذه الازدواجية من تجاذب بين التراث والمعاصرة .

هكذا واجهت الثقافة الإسلامية أخطر أزمة عرفتها في تاريخها ، وقد أخذت هذه الأزمة عدة إشكاليات ، واستغرقت حياة أجيال من المفكرين المصلحين .

فبعض هؤلاء المفكرين حددوا الأزمة في إشكالية التوفيق بين الإسلام وبين المدنية الحديثة ، فرأى هؤلاء أن الاستفادة من الغرب ومن علومه وحضارته أمر حتمي ، وأن الدخول معه في رفض وقطيعة إنما هو تكريس للتخلف ، ولم يصعب على هؤلاء أن يجدوا مواطن الاتفاق بين ديمقراطية الغرب ونظام الشورى الإسلامي ، وبين اشتراكية الغرب ، والعدالة الاجتماعية الإسلامية ، ليبرروا ذلك التوافق بين جوهر الإسلام وجوهر المدنية الحديثة .

وبعض أولئك المفكرين كان يتساءل : هل بإمكان المجتمعات الإسلامية التي تدخر لنفسها من الرصيد الحضاري والثقافي والروحي ما

يميزها تمييزاً جوهرياً عن الغرب ، هل بإمكانها أن تتعامل مع حضارة الغرب وثقافته من غير أن يكون لهذا التفاعل نتائجه الخطيرة على المجتمع الإسلامي ، إن لم نقل إن هذا التفاعل كان قد انطلق بالفعل ، وأخذت نتائجه الخطيرة تستشري في كيان المجتمعات الإسلامية ، وتهدها بالانقسام الداخلي والتبعية المطلقة للفكر الغربي والانسلاخ عن الدين .

وبعض هؤلاء المفكرين كان يتساءل : هل يمكن فك الارتباط بين ما ينبغي أن نقتبسه من الغرب ، من علوم وتكنولوجيا وأنظمة متقدمة ، وبين ما نحذر منه من ثقافة وفلسفات ونزعات وقيم تتناقض مع الإسلام؟ كان فك الارتباط هذا عسيراً إلى حد أن طائفة اعتبرته وهماً ، وقد أعلن أحد هؤلاء في بداية الأربعينيات قائلاً : «يجب أن نسير سيرة الأوروبيين ، ونحذو حذوهم فيما يحمد منهم وما يعاب حتى نكون لهم أندادا في الحضارة خيرها وشرها ، فنحقق لأنفسنا ما حققوه من تقدم ورخاء ونظام ، ومن زعم لنا غير ذلك فهو إما خادع وإما مخدوع»^(١) .

وبعض أولئك المفكرين كان لا يتردد في الدعوة إلى تجاوز الماضي بتراته وحضارته الإسلامية ولا يتردد في الدعوة إلى التغريب الكلي تارة أو إلى الاتجاه القومي الضيق تارة أخرى .

منذ هذه اللحظة أخذت الثقافة الإسلامية تواجه النزعتين الأكثر شيوعاً في الفكر المعاصر في حقل الثقافة ، وهما :

١ - النزعة القومية : التي تدعو إلى الثقافة الوطنية ، التي تؤمن بضرورة إبراز خصوصية الشعب في مزاجه وفنونه وتاريخه ولهجاته .

(١) طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» .

٢- والنزعة العالمية : التي تدعو إلى التباهي مع الثقافة الغربية باعتبارها الثقافة الكونية التي تستقطب الحركة التقدمية لشعوب العالم .
والنزعة الأولى الداعية إلى الثقافة القومية هي التي تنطلق كما يقول كلود ليفي شتراوس من مبدأ أن الإنسان لا يحقق طبيعته ضمن إنسانية مجردة أو مطلقة ، بل ضمن ثقافة قومية لم تقو أعتى التغيرات الثورية على نزع كل الرواسب منها^(١) .

كما تنطلق من مبدأ آخر يقول بأن الثقافة الحق هي الثقافة الشعبية التي هي الثقافة العضوية ، والتي هي نسيج يساهم فيه كل أبناء الشعب بإبداعهم وإنتاجهم ، وهي الثقافة التي لا تتحقق إلا في إطار قومي يتماهى فيه الفرد مع ثقافته ، ويتعامل معها بوجدانه ، ولغته اليومية .
وكل ثقافة مفروضة عليه من فوق أو موروثه من تاريخ مشترك غير محدد الهوية هي حاجز لا محالة دون نمو شخصيته ، فضلا عن ازدهارها .

يقول أحد المشايخين لهذه النزعة الثقافية في العالم العربي :

«الثقافة العضوية في المجتمع العربي هي بالطبع الثقافة الشعبية ، أما الثقافة الإسلامية الكبرى فلا يمكن أن ننعثها بالعضوية ، ذلك أن أنماط المثقفين في المجتمع القديم كالأديب والفقير كانوا يحملون جميعا ثقافة موروثه ، لا تتأثر بالمحيط الطبيعي والاجتماعي ... كل منهم صالح للعمل في كل بيئة ، فأبو علي القالي يخرج من بغداد ليعلم في الأندلس ، وابن خلدون يخرج من المغرب ليكون قاضيا في المشرق ... فكل اختلاف

(١) «مقالات في الأناسة» ص (١٧٠) .

في البيئة والمجتمع يذوب في الثقافة الواحدة ، هذه إذن حالة انفصام بين الثقافة والمحيط الطبيعي والاجتماعي ...»^(١) .

هذا هو المنظور القومي للثقافة الذي ينشد الخصوصية الوطنية في الثقافة ويعتبرها أفضل بديل لثقافة الوحدة الإسلامية ، باعتبارها هذه الأخيرة لا تعكس شخصية الشعب ومقوماته المتميزة .

أما النزعة الثانية الداعية إلى الإدماج أو التماثل مع الثقافة الغربية الكونية فهي تعتبر هذه الثقافة ثقافة الإنسان المعاصر بغير استثناء ، إنها ثقافة عالمية ؛ لأن مناهجها وإنتاجها وعلومها وأنظمتها هي ما تسعى كل شعوب العالم إلى اكتسابه .

يقول أحد المنظرين^(٢) : «ألسنا نرى العالم بأسره يستعير من هذه الثقافة أو الحضارة الغربية تدريجيا ، تقنياتها ، ونوع معيشتها وحتى تسلياتها وطرز ملابسها؟ وأن ما تنتقده البلدان غير النامية على الدول الكبرى في المؤتمرات الدولية ليس محاولة تغريبها ، بل عدم تزويدها بوسائل هذا التغريب بالسرعة المطلوبة» .

(١) عبد الله العروي : «ثقافتنا في ضوء التاريخ» .

(٢) ليفي شتراوس : «مقالات الأناسة» ص ١٩٢ .

المنظور الغربي للثقافة :

ويجب التنصيص على أمر جوهري ، وهو أنه عندما ننتع هذه الثقافة الغربية بكونها ثقافة عالمية أو كونية فإننا نجردها حينئذ من طابعها القومية أو خصوصياتها الإقليمية ، فننظر إليها في نزعتها العامة ، وفيما لها من رؤية كونية مدعمة بفلسفات ومناهج تقوم على الاعتداد بالعقل وحده ، وعلى مبدأ التقدم وحده ورفض ما عداها ، وما يترتب على هذين الأصلين من قيم وأنساق وأخلاق .

بهذا المعنى تُقابل الثقافة الغربية الثقافة الإسلامية ، تُقابل مذهبين أو منهجين مختلفين ، سواء في تصورهما للكون وللحياة ، أو لوضع الإنسان في الكون أو لرسائلته وأهدافه .

وإذا كانت الثقافة أي ثقافة مرتبطة بتاريخها وبأصولها فينبغي أن نشير إلى أن الثقافة الغربية من هذا المنظور الشمولي لم تنشأ من حركة التاريخ الأوربي الحديث فقط ، وإنما نشأت أيضا من روافد عميقة المجرى تمت بصلات قوية إلى الثقافة الهيلينية والميثولوجيات اليونانية ، وإلى المسيحية الغربية .

والملاحظ أن هذه الثقافة بمختلف روافدها الكبرى «الثقافة اليونانية والمسيحية الغربية وفلسفات عصر النهضة ومناهج العصور الحديثة» لم تقدم للإنسان الذي أبدعها أي تصور صحيح عن الحقيقة الإلهية من ناحية ، ولم تُقّم له المسؤولية الأخلاقية على أي أساس يتميز بالثبات والكلية والشمول من ناحية أخرى .

فالله في تصور الفلسفة المشائية - مثلاً - هو علة الكون فقط ، ولا يترتب على كونه علة للكون أي التزام أخلاقي للإنسان تجاهه ، ولا أي نظام يحمل الإنسان على إتيان سلوك ما ، فالشيء الوحيد المطلوب من العقل في هذا الكون وتبعاً لهذا التصور هو النفاذ إلى كنه التراتب الهرمي الذي يمثل كل حد من حدوده العلة الغائية التي تتجه بفعلها حركة الأدنى إلى الأعلى ، والفلسفات اليونانية بكل مذاهبها تضع الكون داخل شكله الهندسي والهرمي ، فتجعل غاية الإنسان فيه أن يكتشف بعقله التوافق مع الذات والموضوع ، والعلة والمعلول ، والتراتب بين المادة والصورة .

أما في العقيدة المسيحية الغربية فـ «الله» في تصورهما هو أقانيم ثلاثة متكاملة «الله ، والكلمة ، وروح القدس» ، مع اختلاف بعيد في تحديد هذه الأقانيم وطبيعتها .

والإنسان في هذا التصور أيضاً رازح تحت وطأة الخطيئة الأصلية ، وخلصه إنما يكمن في رهبانية يتخلص بها من ماديته فيكبت غرائزه ، ويعيش في صراع دائم ، فإما أن يتماوت قبل أن يموت ، وإما أن ينساق لمطالب جسده ، فهو في صراع مع واقعه وخلصه .

وعندما يتغلب التيار العلماني في تاريخ أوروبا بانتصار مبادئ الحرية والاعتداد بالعقل وحده ، وفصل الدين عن الدنيا ، وإحلال الدين الطبيعي محل العقيدة الغيبية تزدهر العلوم التجريبية ، ويكتشف الإنسان الغربي مصادر الطاقة ، وقوانين الطبيعة ، ويسخرها في تنمية ثرواته وتوسيع نفوذه ، ويتراءى له أن التحرر من الدين كان البداية الموفقة للتقدم .

وتعبر «الوضعية الفلسفية» لدى أوغست كونت عن هذه التحولات الرئيسية، حينما تعتبر الإنسانية قد عرفت ثلاثة أطوار، هي الطور الديني، ثم الطور الميتافيزيقي، ثم الطور الوضعي الذي تحياه حتى الآن. وتعتبر أن كل طور قد نسخ ما قبله، كما تعبر «النتيشوية» -نسبة إلى الفيلسوف فريدريك نيتشه- عن مبدأ الصراع الذي قام بين هذه الأطوار في تاريخ الفكر الغربي، حين ذهب إلى أن الثقافة الغربية هي مرآة لحركة الهدم والبناء، وأنها - أي الثقافة الغربية - كانت دائما قناعا للضعف، وحربا على الطبيعة الإنسانية المتدفقة؛ لأن الثقافة كانت دائما تحاول تقييد اندفاع الطبيعة الحرة بالمثل والقيم الوهمية.

فالمسيحية إنما جاءت لتوهن قوى الإمبراطورية الرومانية، وحركة الإصلاح الديني إنما جاءت لتقاوم روح عصر النهضة، والليبرالية إنما جاءت لتقويض الحركة الإصلاحية الدينية، والاشتراكية إنما جاءت لتقويض الليبرالية.

فالثقافة الغربية في ضوء تحليل فلاسفتها أنفسهم تعكس الصراع الداخلي فيما بينها، بعد أن قوض فلاسفتها العقيدة المسيحية، أو كل عقيدة دينية من أساسها، فانعدام الأساس «الميتافيزيقي» أو المطلق للأخلاق أو للقيم الأخلاقية، وترتب على ذلك أن فقد الحق والواجب طبيعتهما الإلزامية، ولم تعد لهما أصول نابعة من عمق الكون، أو من خارج الذات الإنسانية نفسها، فأصبحا نسييين، بل أصبحت النظريات الأخلاقية بعد ذلك مفتقرة كلها إلى مبادئ الضرورة والكلية والثبات.

وحل محل هذه المبادئ مبادئ أخرى، مشتقة من جدلية صراع الطبقات الاجتماعية أو من التطورية البيولوجية، أو من الوضعية المنطقية، أو من

قوة السلطة القائمة ، أو من الضغط الاجتماعي ، بحيث أصبح الإنسان في مناخ الفكر الغربي لا يعرف لنفسه مسئولية كونية أو هوية متميزة أو غاية يسعى إليها غير الخضوع لروح القطيع الذي يتحرك فيه .

هذه سمات الوضع الفكري السائد بالنسبة للمفاهيم والتصورات التي تقف وراء الثقافة الغربية ، وهي تصورات تعكس الصراع الداخلي الذي ينهض عليه كل تصور ، والصراع الخارجي بين هذه التصورات فيما بينها .

وبما أنها تصورات انتقلت إلى العالم الإسلامي عبر الثقافة الغربية وفلسفاتها ومذاهبها ، فهي لذلك تضع المثقفين في البلاد الإسلامية - من غير المتشبهين بالثقافة الإسلامية - في تجاذب عنيف بين النزعة القومية في الثقافة ، وبين النزعة الكونية ، بين التبعية للغرب بغير تحفظ ، وبين القول بالقومية الثقافية في حدود ما يمكن أن يكون قائما على هذه الخصوصية كالآداب والفنون .

ويجب التنبيه إلى أن الأسس العلمية الغربية من مناهج ومبادئ فكرية قائمة على معطيات التحليل المادي للتاريخ ، والتحليل المادي للتطورية البيولوجية والتحليل النفسي المادي للنفس الإنسانية تظل قاعدة مشتركة بين هاتين النزعتين الثقافيتين المتواجدين في البلاد الإسلامية لدى دعاة الخصوصية ودعاة «العالمية» .

المنظور الإسلامي للثقافة :

ماذا فعل الفكر الإسلامي المعاصر لمواجهة هذه المفاهيم والتصورات؟ إنه من البديهي لمواجهة هذا المنطق «العلموي» الذي يجد كل التجاوب معه

في صفوف المثقفين من أجيالنا الحاضرة، أقول من البديهي أن نحدد التصور الإسلامي لمفهوم الثقافة، باعتباره أداة منهجية أساسية لمواجهة المنطق «العلموي»، ولبعث الثقافة الإسلامية، ولجعلها أصلاً تقوم عليه حياة المسلمين في توازن حقيقي مع الثوابت والمتغيرات كما يتصورها الإسلام نفسه.

وعني عن البيان في هذا السياق أن الثقافة الإسلامية التي نتحدث عنها -وخصوصاً في هذا المجال- هي جوهر الثقافة الإسلامية بعد تجريدها من طابعها القومية والإقليمية والتاريخية، كما فعلنا مع الثقافة الغربية، حين جردناها من تلك الطوابع، والتقينا بروحها العامة، وكشفنا ما وراء هذه الروح من تناقض أو قصور أو صراع داخلي، وانعدام للإلزام الأخلاقي.

إن الثقافة الإسلامية باعتبارها منظومة معرفية وأخلاقية تقوم على أسس ومبادئ جوهرية في توجيه الإنسان وتحقيق القيم المثلى في حياته لا يمكنها أن تتجاوب مع ثقافة تقوم على نقيض تلك المبادئ والأهداف الأخرى.

وكما أنه لا يمكن تفكيك الثقافة الغربية ولا التعامل مع جزئياتها فكذلك لا يمكن تفكيك الثقافة الإسلامية إلى عناصر وأجزاء، ولا التعامل مع بعضها دون البعض، فضلاً عن ذلك فإن الثقافة الإسلامية تتميز بما يتميز به الإسلام في جوهره من كونه رسالة سماوية إلى العالمين، ودعوة إلهية لهداية البشر على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وألوانهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الَّذِي يَأْتِي بِاللَّهِ بِكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

غير أن هذه النظرة إلى عموم الرسالة المحمدية لا تنطوي مع ذلك على أي تعارض مع تقدير ما للحياة الاجتماعية في إطارها الجغرافي والبيئي من خصائص، ولا أي تعارض مع تقدير ما للشعوب الإنسانية من خصائص ومميزات إقليمية وسلامية؛ لأن قيام المجتمعات الإنسانية على أساس هذه الفروق القومية والسلالية أمر حتمي.

فليكن هذا التمايز وليكن الاعتراف بالخصوصية، ولكن ليكن مبعث تمايز لا تغالب، ومبعث تعارف لا تناكر، وعلى أساس أن تظل القيمة العليا للإنسان ليس فيما له من هذه الفروق والخصائص العرقية والقومية، ولكن فيما يستطيع أن يحققه لذاته من الكمال الأخلاقي، كما يتصوره الإسلام، ويحدده في مفهوم «التقوى».

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد تحقق في التاريخ الإسلامي هذا التكامل بالفعل بين الخصوصيات القومية وبين الكونية الإسلامية.

فقد انضوت شعوب مختلفة في الإسلام عبر تاريخ طويل، وأسهمت بكل ما لها من إبداع وفكر وإنتاج في حضارة الإسلام وثقافته، من غير أن تضار خصائصها القومية ولا ثقافتها الوطنية التي تجلت في أشكال وإبداعات عكست روح الثقافة الإسلامية من ناحية، وطبيعة البيئة التي نبتت فيها من ناحية أخرى، فالقرآن لم ينشئ أمة العرق والسلالة، وإنما أنشأ أمة العقيدة، ولذلك أنشأ ثقافة تتطابق مع هذه الوحدة العقدية من ناحية، ولم يقف في وجه أي ثقافة وطنية أو قومية داخل البلاد التي انضوت تحت الإسلام من الصين إلى المغرب من ناحية أخرى، إذ ظل

لثقافة الإسلامية الكبرى إطارها الاعتقادي والفقهى والأخلاقي الجامع بين المسلمين، بينما احتفظت الثقافات الوطنية بلغتها وآدابها وفنونها وتقاليدها القومية، مما لم يتناف مع الروح الإسلامية العامة.

لكن ماذا نعني بالكونية الإسلامية التي حملتها ثقافة الإسلام إلى هذه القوميات؟ إن الكونية الإسلامية هي جماع التصور الكوني الذي يقدمه الإسلام لمعتنقيه، وهو ما يترتب على تحديد المنظور الإسلامي للثقافة بوجه عام، وهذا المنظور قائم على التصور الكلي الشمولي الذي حمله القرآن إلى الإنسانية، باعتباره رسالة إلهية كونية حقا، وباعتبار مصدره علميا كلياً حقا.

فمنذ اللحظة الأولى لنزول الوحي يخاطب الرسول ﷺ بـ ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، إيذانا بنزول الكتاب الإلهي أو تلقي الكتاب الذي سيكون مصدر كل علم وهداية للإنسان، فمن ناحية أولى يسمى القرآن الوحي: «علما» وما دونه أهواء، فيقول تعالى: ﴿وَلَبِنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

ومن ناحية ثانية فإن القرآن بالنظر إلى عموم ما جاء به من علم وما كشف عنه من حقائق الكون، وما حث عليه من منهج النظر والاستدلال، وما ضرب من الأمثال، وما تضمنت هذه الأمثال من أنواع القياس والحكم، فإنه بهذا كله قد وجه الفكر البشري إلى إقامة ثقافة شمولية، نافذة إلى حقائق الكون والنفس، هادية للسلوك الأقوم، محققة للسعادة القصوى.

وخلصها من المنطق الصوري الذي يكتفي بتحديد الماهيات ، ويخضع لها الأعيان والوقائع ، وحدد منهج الاستقراء والنظر في الظواهر ورصدها منهجا قويا لاكتشاف حقائق الكون الطبيعي ، فظهرت النزعة التجريبية في العلوم الإسلامية قبل أن يكتشفها الغرب .

والجانب الآخر الذي لم تكثر له الفلسفة القديمة هو حث القرآن على اعتبار المعرفة ملزمة أخلاقيا ، ولذلك أعلن القرآن مسئولية الإنسان عن مصيره بعد أن كشف له هذا المصير ، فخلص الفكر من التناقض والحيرة والتردد بين الروحانية المسرفة أو المادية المسرفة ، وهو الموقف الذي وجد الإنسان نفسه مترددا فيه بين واقعه وبين القيم الأفلاطونية والمشائية والغنوصيات الشرقية .

قال تعالى في سياق توضيح مسئولية الإنسان عن تحديد مصيره : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم : ٣٦-٤٢] .

بهذا التصور الكلي الذي قرن العلم بالعمل ، والعقيدة بالسلوك والثقافة بالأخلاق ، يتحدد المنظور الإسلامي إلى الثقافة باعتبارها منهجا وأداة ، وباعتبارها ثمرة للمعرفة وليست مجرد معرفة حيادية .

وقد سمى القرآن هذا التطابق بين المعرفة والسلوك «حكمة» فقال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وقد أدرك علماء الإسلام هذا التطابق وضرورته بين العلم والسلوك فقال أبو بكر بن العربي في «العواصم من القواصم»: «وليس للحكمة معنى إلا العلم وليس للعلم معنى إلا العمل، إلا أن في الحكمة إشارة إلى ثمرة العلم وفائدته».

وقال غيره: «سميت الحكمة حكمة لأنها العلم الصحيح يصير صفة محكمة في النفس حاكمة على الإرادة موجهة إلى العمل بمقتضى العلم».

وقد وفق الإمام الشاطبي في تحليل مسألة التلازم بين العمل والعلم في الإسلام، فذهب: إلى أن أهل العلم من حيث طلبه وتحصيله والعمل به على ثلاث مراتب:

١- مرتبة أهل التقليد الذين لا يستوفون من العلم غير نصيب قليل قائم على تصورات فقط، فهم إن عملوا بما علموا فبمقتضى الحمل التكليفي من ترغيب وترهيب وأمر ونهي وزجر، وهذه مرتبة عامة الناس.

٢- مرتبة الواقفين على مدارك العلم القادرين على الاستدلال والاستبصار، غير أن العلم عندهم يظل صفة عقلية أكثر مما هو صفة نفسية، فنفس هؤلاء تخف للقيام بالتكاليف الشرعية أكثر من أهل المرتبة السابقة، ولكنك تجد للأهواء النفسية سلطاناً على عقولهم، فهم في تردد وتجاذب بين ما تعلمه عقولهم، وبين ما تهواه أنفسهم.

٣- ومرتبة من صار العلم صفة متحركة في نفوسهم، فتجاوز علمهم حدود الاستدلال إلى أفق اليقين، ولا يتم ذلك إلا لمن عاين الحقائق بحواسه وعقله وقلبه.

وهذه درجات تقابل في نظري مستوى الإسلام ومستوى الإيمان ومستوى الإحسان ، وقد كانت هذه هي رتبة الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : «إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة : أعلمت أم جهلت ، فأقول : علمت ، فلا تبقى آية من كتاب الله تعالى أمرة أو زاجرة إلا جاءني تطلب فريضتها ، فتسألني الأمرة : هل ائتمرت ؟ وتسألني الزاجرة : هل ازدجرت ؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع» .

والخلاصة :

أن المنهج الإسلامي كما تجل في الخطاب الإلهي ، وكما تجل في السنة النبوية ، وكما تجل في سلوك الصحابة والعلماء كان قائماً على توجيه القوى النظرية والعملية في الإنسان ؛ ليلائم بين ما يعلمه ، وبين ما يمارسه ؛ لأن القوى النظرية إنما تحقق كمالها بمعرفة الحقائق على ما هي عليه ، أما الثانية فتحقق كمالها بما ينبغي من الأعمال .

وقد جاء التكليف في الإسلام بالنوعين وخطاب القوتين ، فخطاب القرآن العقل بالعلم ، وهو مقدم على العقيدة ذاتها ، ثم خاطب الجوارح بالأعمال ، فقال تعالى مقدماً الخطاب الأول : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] ، وهو المعنى الذي ترجمه البخاري بباب العلم قبل القول والعمل .

وقد تمكن الفيلسوف أحمد بن محمد مسكويه «المتوفى سنة ٤٢١ هـ» في كتابه «تهذيب الأخلاق» من صوغ نظريته الأخلاقية على هذا الأساس الإسلامي ، فاعتبر الكمال المنشود لدى الإنسان كمالين اثنين : كمالاً للقوة العاملة فيه ، وكمالاً للقوة العاملة فيه ، وأن العلاقة بين الكمالين هي كعلاقة

المادة بالصورة ، فليس يتم أحدهما إلا بالآخر ، فالعلم بدون تخلق به هو بمثابة مبدأ لا تمام له ، والعمل بدون علم كفرع بدون أصل .

وبعد ، فإن بوسع المرء بعد هذا العرض الموجز عن روح الثقافة الإسلامية والعرض قبله عن روح الثقافة الغربية وروح الثقافة الإسلامية أن يستخلص من المقارنة بين التصورين العامين لكل من ثقافة الغرب ، وثقافة الإسلام أن هناك خلافا عميقا بين هذين التصورين ، وخلافا فيما يترتب عليهما من المبادئ الأخلاقية ، فثقافة الإسلام هي ثقافة التوحيد بالله والالتزام بعبادته والسعي لمرضاته ، من حيث تركز على القيم المطلقة والثوابت الأخلاقية ، فهي ثقافة علم وعمل أي حكمة ، بينما الثقافة الغربية لا تعترف بشيء من هذه الأصول ، بل تؤله العقل وتنكر الدين من حيث هو أمر موحى به ، ولا تقول بغير النسبي والمتطور والنافع في الحياة المادية ، وتعتبر الأخلاق نظاما من القيم والمواضعات التي يفرضها الضغط الاجتماعي أو القانون

وفي القرآن مثال مضروب نستفيد من مشمولاته والقياس عليه هذه الحكمة التي توحد بين الفكر والعمل ، والثقافة والأخلاق ، والثوابت والمتغيرات في نسق متجدد ، ولكنه ثابت مع تجده ، وهو مثال الشجرة الإلهية التي هي ثمرة شجرة الإسلام ، وذلك حين ألف كتاب «روضة التعريف بالحب الشريف» على أساسه ، وتوسيع صورته .



الآزمة الحضارية للعالم الإسلامي :

إن الأزمة الحضارية التي يعانيها العالم الإسلامي اليوم هي الانفصام المفجع بين حقائق هذه الثقافة التي يؤمن بها وبين واقعها ، وهو انفصام أخفق بسببه العالم الإسلامي في الإسهام في الحضارة الغربية والاندماج الكلي فيها ؛ لأنه لا يتعامل مع مبادئها ، ولا يقبل ما يترتب على تلك المبادئ من أخلاق وسلوك .

كما أنه أخفق في تنمية ثقافته الإسلامية أو الزيادة فيها على ما تركه السلف ؛ لأنه لم يبق ملتزما بمبادئها ولا بمناهجها بصورة عميقة ، ولذلك غدت هذه الثقافة في صورتها الراهنة ثقافة متوقفة عن النمو والعطاء ، ولن نستطيع أن نخرج من هذا الوضع إلا بثلاثة أمور على الأقل :

- أن نعيد للثقافة الإسلامية ارتباطها بالواقع الاجتماعي والحضاري ، وذلك بأن تخضع حياتنا من جديد للمبادئ الإسلامية وللشريعة الإسلامية ، وللقيم الأخلاقية فتستعيد هذه الثقافة تكاملها مع الواقع .

- أن تتسع هذه الثقافة لكل العلوم الإنسانية المعاصرة فتحتضن البحث وتنميه في عقول الإنسانيات من اجتماع واقتصاد وتاريخ ولغات وعلم نفس وفلسفات ، فتسود البحث العلمي نزعة المعرفة التجريبية كما يدعو إليها الإسلام في إطار العقيدة .

وعندئذ نحدد لأنفسنا المفاهيم والتصورات التي نجابه بها المفاهيم والتصورات القائمة على أساس مخالف فالغزو الفكري الذي نجابهه لا يجد منفذا إلى عقولنا إلا عندما يجد أمامه فراغا في الفكر وخواء في الوجدان .

- أن تجابه هذه الثقافة التحديات المناوئة والغزو الفكري بالأسلحة

المنهجية ذاتها التي يصطنعها الغرب ، وبالإطلاع العميق على ثقافة الغرب ، ونقول الإطلاع ؛ لأننا لا نخشى على أنفسنا من هذا الإطلاع بعد تعميق صلتنا بالإسلام لنتمكن من إدراك كل مواطن الضعف والقوة في تفكيره ومناهجه .

وإننا لموقفون باستعادة ثقافة الإسلام بهذه الحياة الفعالة ؛ لأن القرآن هو الذي علمنا أن هذه الشجرة المباركة ستعطي أكلها كل حين بإذن ربها .



المحاضرة الرابعة والثلاثون:

القَسَمُ مِنَ النَّبِيِّ وَالْعَطَاءُ مِنَ اللَّهِ

انطلاقاً من قوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .
 عن معاوية خيَّله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، والله المعطي وأنا القاسم ، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» .
 رواه الإمام البخاري في باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وبالأسانيد المتصلة إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ورضي عنه ، من كتاب الغنائم ، في باب قول الله ﷻ : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، يعني له قسم ذلك ﷻ ، وقال ﷻ : «إنما أنا خازن ، وقاسم ، والله سبحانه المعطي» إلى آخر الحديث .

تمهيد:

هذا الحديث الشريف رواه الإمام البخاري خيَّله عنه في أماكن من «صحيحه» بحسب ما استفاد منه في الأبواب التي عقدها له ، فرواه أولاً في كتاب العلم ، ورواه في كتاب المغانم ، ورواه كذلك في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ورواه الإمام مسلم كذلك في كتاب الزكاة ، وفي كتاب الفتنة ، ورواه جماعة من الأئمة بأسانيد مختلفة وبألفاظ مختلفة .

والباب الذي عقده البخاري هنا إنما يرجع إلى قسمة الغنائم ، وقد بين فيه الإمام البخاري المذهب الذي يتمذهب به فيما يرجع لحق النبي ﷺ في قسم الخمس لا في أخذه ، ولذلك قال : باب قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ ، وهذه الفقرة من الآية الكريمة هي من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١] ، وخلاصة ما ذهب إليه الإمام البخاري : هو أن النبي ﷺ يختص بالخمسة ولكن لا يأخذه لنفسه ، ولا ينفق على أسرته من خمس الغنائم ، وإنما يأخذه ليتولى قسمه بحسب المصلحة العامة ، هذا هو المذهب الذي مشى عليه البخاري ، وهو الذي روى له هذا الحديث المعلق في أول الباب ، وهو قوله ﷺ : «إنا أنا قاسم وخازن والله سبحانه المعطي» ، والمسألة فيها خلاف بين الأئمة ، وهي ترجع إلى قضية قسم الغنائم . . .

ثم بعد ذلك نتحدث عن لفظ الحديث ، فمجموع المسائل التي سنتكلم عنها بمقتضى هذا الحديث أربعة أبواب :

أما الباب الأول فيرجع إلى مسألة الغنائم لبيان التعليق الذي ذكره الإمام البخاري في أول الباب .

وأما ثانيًا ففي شرح معنى قوله ﷺ : «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» .

وأما الجزء الثالث فيرجع إلى قوله ﷺ : «إنا أنا قاسم والله المعطي» .

والرابع في قوله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

ترجمة البخاري وتقسيم الغنائم:

فأما الترجمة التي ترجم بها البخاري ، فقد بينا أنه يقصد منها مسألة تقدير مذهبه الذي ذهب إليه ، وهو أن النبي ﷺ له الخمس ، ولكن لا يصح له أن ينفق شيئاً منه على نفسه ، أو على أسرته ، وإنما ينفقه في سبيل الله ، بمعنى أن له الاختيار المطلق في توجيه النفقات التي ينفق ذلك الخمس فيها ، فمثلاً يمكنه أن يتألف بها المؤلفة قلوبهم ، ويمكنه أن يصرف بها في الكراع وفي السلاح ، ويمكنه أن يجهز بها جيشاً مثلاً ، ويمكنه أن يعطي بها الجوائز لأولئك الذين قال لهم ﷺ قبل أن يدخلوا المعركة : «من قتل قتيلاً فله سلبه» ، ويمكن كذلك أن يؤدي بها واجبات بعض الخدمات التي قام بها بعض الصحابة رضوان الله عليهم في أثناء القتال .

هذا هو المذهب الذي سار عليه الإمام البخاري ، وهذا المذهب يتناول قول الله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ ، على أن ذكر الله سبحانه وذكر رسوله ﷺ إنما هو من جهة الاستفتاح ؛ لأن كل شيء هو لله سبحانه وتعالى .

ثم بعد ذلك يذكر رسول الله ﷺ أنه هو الذي يتولى القسمة في الأشياء ؛ لأنه هو في الواقع رئيس الدولة الإسلامية المكلف بقسم تلك الغنائم التي يناها المقاتلون المسلمون ، وقد أعطي هو من الصلاحية في طريقة القسم ، وفي توجيه ذلك بما يتفق مع المصلحة العامة بما لا يحتاج معه إلى استشارة ولا إلى غيرها ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾ ، هذا مذهب البخاري ، وفي المسألة خلاف .

وذهب جماعة من الفقهاء أن النبي ﷺ يحق له أن يأخذ لنفسه ، وأن يأخذ لقرباته ، وأن يعطي سهم الله كذلك ، فعلى هذا يكون هناك لله سهم ، ولرسول الله ﷺ سهم ، ولليتامي والمساكين وأبناء السبيل سهم ، والباقي من الأربعة الأخماس يكون للغزاة ، وهذا هو الذي رواه أبو العالية عن النبي ﷺ أنه كان يؤتى بالغنائم ، فكان ﷺ يقسمها خمسة أخماس ، أربعة أخماس يوزعها على المقاتلين الذين شهدوا تلك المعركة ، والخمس يضرب فيه بيده ﷺ ، فما علق بكفه منه فإنه لله سبحانه وتعالى يصرفه في الكعبة ؛ في تطيبها وتزيينها وفي مصالحها ، ثم الخمس الباقي يصرفه في قضايا المسلمين ، وكذلك في نفقة النبي ﷺ ، ونفقة قرباته .

أما الأربعة أخماس فإنها تنفق على المسلمين الغزاة بالتساوي ، لا فرق بين فقيرهم وغنيهم ؛ لأنهم جميعاً أبلوا البلاء الحسن . هذا هو المذهب الثاني .

وأما المذهب الثالث فإنه مذهب ابن عباس رضي الله عنه ، وأنه لا فرق بين سهم الله وبين سهم رسوله ﷺ ، في أن للنبي أن يأخذ من ذلك ، ولكن ينفق الباقي في المصلحة العامة للمسلمين ، وهذا هو الذي مشى عليه محمد بن الحسن من الحنفية ، وهو الذي مشى عليه الحسن البصري ، وهو الذي مشى عليه عطاء بن أبي رباح ، وقتادة ، وجمع من الأئمة الكرام رضوان الله عليهم .

وذهب جماعة إلى أن القسمة يجب أن تكون سداسية ، طرف لله ، وطرف للنبي ﷺ ، والباقي وهو الأربعة أخماس تصرف على الغزاة ، ويصرف منها كذلك على الفقراء واليتامي والمساكين وأبناء السبيل .

وذهب جماعة آخرون إلى أن لا فرق بين سهم الله وسهم رسوله ﷺ ، وأن الجميع يرد إلى بيت المال ، وأن النبي ﷺ إنما ينفق ذلك بحسب المعروف ، وأن الأئمة من بعد رسول الله ﷺ يمشون على ما مضى عليه عليه الصلاة والسلام ، فينفقون ذلك بالمعروف ، ويعطون بحسب المصلحة لقربة الرسول ﷺ ، وهؤلاء القربة في نظرهم هم بنو هاشم وبنو المطلب ، واختلف فقهاؤنا المالكية هل القربة هي بنو هاشم وبنو المطلب أو هاشم فقط ، أما بنو عبد شمس وبنو عبد مناف فإنهم أسقطوا في زمن النبي ﷺ ، «وقد جاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فطلبوا منه أن يلحقهم ، فقال : لا ، وإنما بنو المطلب هم شيء واحد مع بني هاشم ، في الجاهلية والإسلام ، ولم يفرقوا قط» ، فيكون ﷺ ينفق من هذه الغنائم على قرابته ﷺ من بني هاشم وبنو المطلب ، وبعد ذلك ينفق أئمة المسلمين على بني هاشم والمطلب ، أو على بني هاشم فقط .

وبحسب هذين المذهبين اختلفت نسختا الشيخ خليل رحمه الله تعالى حيث إن في بعض النسخ : بني هاشم لا المطلب ، وفي بعض النسخ : بنو هاشم والمطلب ، وهل سهم القربة للرسول ﷺ لا يزال باقياً أم لا؟ اختلف في ذلك الأئمة ، ومذهب الإمام أبي حنيفة رحمته الله أن سهم القربة قد انقطع بموت النبي ﷺ ، وحينئذ فلا يبقى هنالك محل للاختلاف في مسألة بني هاشم وبنو عبد المطلب ، وإن كان الجميع متفقاً على أن آل البيت الذين هم بنو هاشم وبنو المطلب لا يصح لهم أن يأخذوا من الزكوات ولو كانوا من مستحقيها ، وقد عوض لهم ذلك في نظر هؤلاء الفقهاء بما يعطونه من مال الغنائم من خمس النبي ﷺ .

هذا هو خلاصة ما تكلم عليه الفقهاء في هذه المسألة ، وقد نظر العلامة المصلح الشيخ جمال الدين الأفغاني نظرة أخرى في مسألة القرابة وفهمها أنه إذا كانت هذه القرابة في عهده عليه السلام فينبغي أن تؤول على أن هذه القرابة يقصد بها قرابة المقاتلين ، وقال الإمام جمال الدين الأفغاني رحمته الله : إن هذا الفهم هو الذي يبين لنا أن هذه الغنائم وقسمتها كانت هي الطريقة التوجيهية الأولى لإشراك جميع المسلمين في موارد الثروة المالية للدولة الإسلامية ؛ لأنه إذا كان المصدر الوحيد الذي يرد للدولة من تلك الغزوات التي كان يقوم بها عليه السلام وأصحابه ، فلما اكتسب المسلمون بتلك الغنائم أموالاً تقرر بالدين وبالشرعية وبالقرآن كيفية القسم الذي ينبغي أن توزع به هذه الثروة الطارئة على المسلمين .

قال جمال الدين : فهذه الثروة الطارئة توزع بطريقة العطاء التي أعطيت بدون شك لرئيس الدولة وللموظفين وللقواد ولغيرهم ، ويعطى كذلك جميع الذين قاتلوا ثم طبعاً هذا هو الجيش ، ثم ينفق من ذلك على اليتامى ، والمقصود باليتامى والقرابة هنا قرابة المقاتلين ویتاماهم ؛ لأنه لا يعقل أن يذهب المقاتلون إلى المعركة وتبقى قرابتهم من غير أن يأخذوا شيئاً ينفقونه على أنفسهم ؛ لأنهم فقدوا عائلهم فلا بد لهم من أن تقوم الدولة بالنفقة عليهم ، وكذلك ما يرجع لمسألة اليتامى هم يتامى الحرب المذكورون في هذه الآية ، وبعدما تسد حاجات هذه الأشياء تعمم النفقات بعد ذلك على عموم اليتامى وعلى المساكين وعلى ابن السبيل ، فحينئذ تكون الدولة متحملة للنفقات على جميع الذين يشتغلون معها ولحسابها ، وكذلك على أولئك الذين أقعدهم الفقر وقلة ذات اليد وعدم المقدرة وعدم التجهيز على الكفاح معها بحيث لا يبقى هنالك ضعيف ولا مسكين إلا وينال من هذه النفقات العامة .

ويظهر أن هذا الوجه الذي بينه السيد جمال الدين الأفغاني يجمع بين أقوال المذاهب كلها، ويبين لنا أن المقصود بإعطاء ذوي القربى ليس لقربابتهم من الرسول ﷺ فقط، ولكن لكونهم قرابة رسول الله ﷺ الذي هو في الوقت نفسه القائد الأعلى للجيش، ورئيس الدولة الإسلامية، فهم يأخذون بهذه الصفة؛ لأنه هو الذي ينفق عليهم، وهو عائلهم ﷺ، أما إذا كانوا فقراء أو مساكين فإنهم يأخذون كذلك أسهمهم من بيت المال، ولكنهم لا يأخذون الزكاة، وهذا تكريم لهم؛ لأن النبي ﷺ منع نفسه، بما أنه هو الذي سيتولى قسمة الزكاة فقد تنزه ﷺ هو وأسرته الكريمة عن أن يأخذوا الزكوات، «وقد كان في بيت النبي ﷺ وهو في صحن المسجد صبرة من تمر، فجاء حفيده سيدنا الحسن، وسيدنا الحسين عليه السلام، وأرادا أن يأخذا ثمرة من تلك الصبرة، فقال لهما: كخ كخ، يعني لا تأخذا فإنها لا تصلح لكما، وقال: إنما هي أوساخ الناس»، فهذا من باب التنزه الذي تنزه به سيدنا ﷺ وذريته عن أن يأكلوا من هذه الصدقات التي هي في الحقيقة خاصة بالضعفاء والمساكين، ولها مصروفات خاصة مذكورة في كتاب الله.

والمقصود من كل هذا هو أن الغنائم قد تولى سبحانه وتعالى قسمها بنفسه، وسنين ذلك في شرح الحديث الشريف بعد هذا، وإنما هذه مقدمة نبين بها الخلافات الواقعة بين الأئمة، ومذهبنا -نحن المالكية- هو الذي قاله عبد الملك بن الماجشون: إن الله سبحانه وتعالى آسى أي ساوى بين الأغنياء والفقراء في مسألة الغنائم وفي الفيء؛ لذلك كل ما يرد على بيت مال المسلمين من الموارد الشرعية التي هي الغنائم، والتي هي أيضاً الفيء، والتي هي أيضاً الجزية التي يأخذها المسلمون من أهل الذمة،

والأشياء التي يصلح عليها الأجانب مثلاً ، وكذلك المداخل التي تأتي من التجار الحربيين الذين يفدون إلى بلاد الإسلام للتجارة فيها فإنهم كذلك يدخل ما لهم إلى بيت المال ، ويوزع كذلك هذا التوزيع الذي توزع به الغنائم ، وكذلك ما يؤخذ من موارث المشركين الذين لا وارث لهم ، وكذلك ما يؤخذ من بعض الجمارك التي يعطيها أهل الذمة الذين يتجرون بين بلدان المسلمين ، إلى غير ذلك من هذه المداخل المختلفة التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، ويقاس عليها من المداخل الأخرى ، فما أخذ من ذلك فإنه ينفق أولاً على أرزاق ولي الأمر أولاً ، ثم على أرزاق القضاة ، أرزاق الموظفين ، وأرزاق الذين تحتاج إليهم الدولة كلها ، وتبني بذلك قناطرهم ، هكذا يقول عبد الملك بن الماجشون ، وتبني بذلك مساجدهم ، ثم بعد ذلك يوزع الباقي على اليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، بحيث تقوم الدولة بمسألة الضمان الجماعي فيما يرجع لعموم طبقات الأمة .

وإذا قلنا الغنيمة ، فإن الغنيمة في اللغة : هي كل ما يغنمه الإنسان ويكسبه ، وأما في الاصطلاح : فهي المال الذي يناله المسلمون بمشقة ، يعني هو المال الذي يوجف عليه المسلمون بالخليل والركاب هذا هو الذي يسمى غنيمة ، وأما ما يأخذه المسلمون عن طريق الصلح فهذا يسمى فيئاً ، وله أحكامه الخاصة ، وهي التي أشار الله سبحانه وتعالى لها في كتابه الكريم حيث قال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] ، هذه الآية الكريمة تبين لنا

كذلك طريقة قسمة الفيء في القرآن : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ ، أي ما فتح الله على رسوله من القرى من غير أن يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، فإنها كذلك لله ولرسوله ولذي القربى ولليتامى والمساكين وابن السبيل .

وهكذا ينفق هذا القدر كله كما تنفق الغنائم السابقة ، إلا الزكاة ، فإن لها مصروفاتها الخاصة التي يشير إليها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، فهذه التنظيمات المالية التي جاءت في القرآن لموارد الدولة ، ولنفقاتها ، على هاته الصفات التي ذكرناها ، وقد قال سبحانه وتعالى في ختام آية الفيء : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ، علل ذلك التقسيم وهذا التوزيع الذي تنفق به الأموال حتى لا يكون دولة يعني يتداوله الأغنياء فقط ؛ لأن المال إذا بقي يتكدس في أيدي جماعة خاصة ، فإنه لا يتصرف فيه إلا الأغنياء ، ولا يصل إلى أفراد الأمة ، ولا إلى الفقراء ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ .

ولهذه الآية قصة ينبغي أن نرويها هنا ، وهي أن الصحابة المهاجرين رضوان الله عليهم ، حينما هاجروا مع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ، جاء منها جماعة كانوا فقراء ، وليس عندهم ما يحملونه معهم ، وكان معهم جماعة من الأغنياء ولكنه سمحوا في أموالهم وخرجوا عنها ، كأبي بكر رضي الله عنه ، وكسيدنا عثمان رضي الله عنه ، وكسيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذين كانوا من أغنى القرشيين ، هؤلاء سمحوا في ديارهم وأموالهم وهاجروا يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، فلما وصلوا المدينة المنورة

وجدوا الأنصار فأووهم ونصروهم : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] ، فكانوا يؤثرون الصحابة المهاجرين عليهم السلام على الجميع ، وكانوا يشركونهم في أموالهم ، وحتى أرادوا أن يشركوهم بأن يتنازلوا لهم عن بعض نسائهم ، ولكن المهاجرين رضوان الله عليهم امتنعوا عن ذلك ، وكثير منهم أخذ قليلاً من المال وأخذ يتجر ، وكان الأنصار هم أصحاب فلاحه ونخيل ، ولكن المهاجرين الذين جاءوا من مكة كانوا أصحاب تجارة وقوافل كما هو معلوم ، فبقي عليه السلام ينظر إلى هذه الحياة ويرى أن المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ، وإن كان يقوم على الإيثار الذي يؤثر به الأنصار المهاجرين فإن فيه نوعاً من عدم التوازن ، هنالك طبقة من الأغنياء الأنصار ، وهنالك طبقة من المهاجرين عالة على أولئك الأغنياء من الأنصار ، ولم يكن عليه السلام بحاجة إلى أن يطلب من الأنصار أن يعطوا شيئاً ؛ لأنهم قد أدوا كل ما يراد منهم كما شهد بذلك القرآن ، فانتظر عليه السلام حتى كانت موقعة بني النضير فاستولى النبي عليه السلام على قريتهم من غير أن يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وإنما أخذت صلحاً ، فأخذ تلك القرية بما فيها من وسائل الثروة كلها وقدمها هدية للمهاجرين وحدهم دون الأنصار وأعطى لاثنتين من الأنصار كانا يشتركان في الحالة التي كان عليها المهاجرون ، اثنان من الأنصار كانا فقيرين هما اللذان أخذوا مع المهاجرين ، وقد قبل المسلمون ذلك ، وقال النبي عليه السلام للأنصار : «أتحبون أن يذهبوا بالشاة والبعير وتذهبون بمحمد عليه السلام؟» ، فرضوا بذلك وقبلوا .

ففي هذا التصرف الذي تصرف فيه النبي عليه السلام ، وفي هذا التفسير والتعليل الذي بينه القرآن في قوله : ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَعْيَانِ مِنْكُمْ﴾ ، ما يواجهه

المسلمين إلى أنه إذا لم يكن هناك توازن مستمر في المالية ، وكانت هنالك طبقة تتمتع بثروة ضخمة عظيمة ، وطبقة فقيرة ، فإن الموارد الآتية يقدم فيها ، لا أقول تؤخذ أموال الأغنياء كلها ، ولكن ما يرد على الدولة من المال فإنه يقدم به الضعفاء والمساكين ، حتى يصبح هناك نوع من التوازن بين هذه الطائفة وتلك ، ويكون هنالك تقارب بين الطبقات ، ولا تستفحش الطبقة الغنية على الطبقة الفقيرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ، يعني حتى لا يبقى المال متداولاً في يد الأغنياء ، وهذا هو الذي يقع اليوم بسبب الرأسمالية الربوية البنكية ، حيث إن الأموال تتكدس في يد طائفة قليلة في العالم كله ، ومنها تنتقل إلى يد فيد ، وإلا فمجموع الشعوب إنما هي جماعات تشتغل في الحقيقة لهذه الطبقة فقط .

هذا ما يقتضيه بيان الآيات الكريمة في قوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ يعني ما أعطاكم من مال فخذوه : ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧ ، ٨] ، يعني هذا المال سيعطى للفقراء المهاجرين الذين سمحوا في ديارهم وفي أموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، فمنهم من أوتيت لهم أموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، فمنهم من أوتيت لهم أموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، فهذا هو مقتضى هذا الحديث الذي ذكره الإمام البخاري تعليقاً في الباب ، والصحيح أنه ليس بتعليق وإنما هو ترجمة ؛ لأنه فسر الآية بقوله : يعني له قسم ذلك ، أن لرسول الله ﷺ قسم ذلك .

رجال الحديث :

قال : وبه إليه قال :

حبان :

حدثنا حبان ، هذا حبان المروزي .

عبد الله بن المبارك :

قال : أخبرنا عبد الله ، هذا سيدنا عبد الله بن المبارك ، هذا إمام من أئمة المسلمين ، وفيلسوف من فلاسفتهم ، ومحدث عظيم من محدثيهم ، وشاعر كبير من شعرائهم ، وقد ترجم له الكثيرون ، وهو من الرجال القلائل المفكرين الذين جمعوا بين العلم الديني ، والحديث ، والفكر والنظر ، حتى عد في عداد الفلاسفة المسلمين باكرًا .

يونس :

عن يونس ، هذا يونس أيضًا ابن يزيد عن يونس بن يزيد الأيلي ، وعبد الله بن المبارك أيضًا مروزي .

الزهري :

عن الزهري ، هو ابن شهاب محمد بن شهاب الزهري الحافظ المشهور .

حميد بن عبد الرحمن :

عن حميد بن عبد الرحمن ، هذا حميد نجل سيدنا عبد الرحمن بن عوف رحمته الله أنه سمع معاوية ، يقول :

معاوية بن أبي سفيان رحمته الله :

سيدنا معاوية بن أبي سفيان ، هو معاوية بن صخر ، يوجد في الصحابة عشرون رجلًا يسمى باسم معاوية ، ولكن ليس فيهم أحد اتفق اسمه

واسم أبيه مع معاوية بن أبي سفيان ، فهو معاوية بن صخر وحده ، وقد أسلم عام الفتح ، وتوفي عام ستين من الهجرة ، وعاش ثمانية وسبعين سنة ، وأصيب في آخر عمره ببلقوة ، و قد عاش ثمانية وسبعين سنة ، وروى من الأحاديث مائة وثمانية وستين حديثاً ، روى منها الإمام البخاري ثمانية ، وروى منها الإمام مسلم خمسة ، واتفق البخاري ومسلم في رواية أربعة من أحاديثه رحمهم الله ، وترجمة سيدنا معاوية معروفة ، وقضيته مع سيدنا علي واختلافهم في مسألة الخلافة شيء معروف ، والصواب هو الإمساك عما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم .

شرح الحديث :

قال : قال رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، قال عليه الصلاة والسلام :

«مَنْ» :

«من» هذه ، صلة يعني الذي يريد به الله خيراً ، ولكنها تدل على معنى الشرط «من يرد» ، ولذلك جزمت الفعل الذي بعدها و «يفقهه في الدين» كذلك مجزوم ؛ لأنه في مكان جواب الشرط وجزائه .

«يرد» :

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» : والإرادة عند المتكلمين هي صفة مخصصة لأحد المقدورين بالوقوع ، هذا هو التعريف الصحيح عند جماهير المتكلمين ، صفة إلهية مخصصة لأحد المقدورين لأحد الشيئين اللذين يقدرهما الله تبارك وتعالى بالوقوع وبالتحقيق ، فهنا المقدوران هو التفقه وعدم التفقه .

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، أي يرجح جانب أحد المقدورين على الآخر، وهنالك من فسر الإرادة بأنها هي اعتقاد النفع والضرر، وهنالك من فسرهما بأنها الميل إلى الاعتقاد، ولكن تفسير الإرادة الإلهية بالميل إلى الاعتقاد لا يصح لأن الميل لا يصح في الإله القدير.

«خيراً» :

«من يرد الله به خيراً» : والخير نكرة في جواب الشرط هنا تعتبر عامة تعم فتعم كل الخيرات، فكأنه قال : من يرد الله به الخيرات وخير هنا ليس فعل تفضيل ولكنه مجرد اسم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

والخير هنا يقصد به كل أعمال الخيرات، ويقصد به المصير النهائي الذي هو الدخول إلى الجنة؛ لأننا سنتكلم بعد ذلك عما يقابل عدم المتفقيين في الدين بأن مصيرهم هو النار، كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم .

«يفقهه» :

«من يرد الله به خيراً يفقهه» : يعني يجعله فقيهاً، الفقه في اللغة هو الفهم، وليس هو العلم لأنه أعم من العلم، والعلم أخص؛ لأن العلم بأشياء معينة، وأما الفقه فهو العلم مع الفهم، فلذلك يفقهه هذا الفقه، بمعنى يقال : فقه الرجل فهو فقيه من جماعة الفقهاء أو هو فقه بدون ياء من جماعة فقهاء، ويقال : فقه الرجل ككرم، إذا صار فقيهاً، يعني إذا تخرج في ميدان الفقه، وأما في ميدان اللغة فإنه يقال كل من فقه شيئاً فهو فقيه، من تعلم صناعة فهو فقيه في صناعته، ثم أطلقت بعد ذلك في الاصطلاح على العلم بأنواع الأحكام الشرعية المستنبطة من الأدلة التفصيلية، وهذا الإطلاق الذي استعمل في هذا الموضوع .

يقول الإمام الغزالي : إنه انتقال من الإطلاق الذي كان في عهد السلف إلى اصطلاح متأخر ، وقد اختلف جماعة من الفقهاء هل الفقه أطلق في المعنى في الصدر الأول بمعنى الفقه الذي نسميه الآن يعني القانون ، أو أنه أطلق فقط على قراءة القرآن ، وعلى كل ما يوصل إلى الباري سبحانه وتعالى ، ولكن الذي يظهر إن إطلاق الفقه وإن لم يكن خاصاً بهذه الأشياء .

الأبواب المعروفة الآن في كتب القانون المتعلقة بأحكام الأسرة والمتعلقة بأنواع السيوع والمعاملات ، وغير ذلك من الأحكام ؛ لأنه كان يشمل العبادات ، وكان يشمل كذلك التوحيد وغير ذلك ، ولكنه كان إطلاقاً عاماً يشمل كل ذلك أيضاً ، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، فالمقصود من التفقه في الدين هو أن يعرفوا أحكام الدين ومواعظه ، ويرجعوا إلى قومهم لينذروهم لعل قومهم يحذرون ذلك .

ومن جملة الإنذار الذي سيحمله هؤلاء المتفقهون ما يقوله الله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَسَلُّوا إِلَيْهِمْ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : ١٢٣] ، فهذا في الحقيقة من المواعظ التي سينقلها هؤلاء المتفقهون في الدين كما في الآية الكريمة ، فلذلك الفقه يطلق في الأصل على الفهم ، ويطلق على الأحكام الشرعية وعلى المواعظ ، مواعظ القلوب ، وعلى كل ما يشملها التصرف والعقائد ، ولكنه انتقل بعد ذلك في العصور المتأخرة إلى التخصص بأحكام الفقه المعروفة ، التي يتدارسها الناس في الكتب وهي كتب القوانين الفقهية مثلاً .

هذا ما قاله الغزالي وما قاله معه جماعة من الفقهاء ، ونحن إذا رأينا الصدر الأول فإننا نجد أحاديث كثيرة وآيات كريمة تحث على الفقه وعلى التفقه في الدين ، من جملتها : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين : «تفقهوا قبل أن تسودوا» أو قبل أن تسودوا إما قبل أن تتزوجوا ؛ لأن الزوج هو سيد كما في الآية الكريمة في سورة سيدنا يوسف : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف : ٢٥] ، يعني زوجها ، فلذلك قبل أن تسودوا يعني قبل أن تتزوجوا فتشتغلوا بزواجكم وأسرتكم ، ولا يبقى لكم مجال لطلب العلم ولطلب الفقه ، وإما أن يقال أن تسودوا يعني قبل أن تناولوا السؤدد والمكان الرفيع في وظائفكم أو في أشغالكم العامة فتصيرون محترمين في الوسط فلا تقدرون على الطلب ، ولذلك زاد أبو عبد الله البخاري بعد رواية كلام سيدنا عمر ، قال أبو عبد الله : وبعد أن تسودوا وقد طلب الصحابة الفقه بعد أن كانوا كباراً . الترجمة في إحدئ تراجم البخاري ، قال هذا يعني أن الصحابة رضوان الله عليهم ما طلبوا العلم صغاراً ولكن طلبوه كباراً ، ولذلك ينبغي لنا أن نطلب العلم قبل أن نسود وبعد أن نسود بحسب إرشاد الإمام البخاري رحمته الله .

حث الرسول ﷺ على الفقه :

ومن جملة الأحاديث التي تحثنا على تعلم الفقه هو أن الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود : «أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا» أي إذا صاروا فقهاء ، وعلي يروي لنا حديثاً مهماً وهو أن النبي ﷺ قال : «ألا أدلكم على الفقيه كل الفقيه؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيس الناس من روح الله ، ولم يؤمن الناس من

مكر الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه ، وإلا لا خير في عبادة من غير فقه ، ولا في علم من غير تفهم ، ولا في قراءة من غير تدبر»^(١) ، هذا هو الحديث الشريف الذي رواه علي عن سيدنا محمد ﷺ قال : «ألا أخبركم بالفقيه كل الفقيه؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله» :

«يقنط الناس» : يجعلهم قانطين من رحمة الله بحيث لا يذكر لهم إلا الشدائد ، وإلا المصائب ، لا يعتبر الرحمة والمغفرة ، وإنما يعتبر العقاب الشديد .

«ولم يؤيس الناس من روح الله» ؛ لأنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

«ولم يؤمن الناس من مكر الله» ؛ لأنه لا يأمن من مكر الله ، إلا القوم الخاسرون ، في الحديث القدسي : «لا تأمن مكري وإن أمتك» ؛ لأن الإنسان ينبغي أن يبقى بين الخوف والرجاء .

فهذا الحديث يبين لنا أن الفقيه الحقيقي ليس هو الذي يعرف المسائل الفقهية فقط ، ولكن الذي عنده حاسة ، ومقدرة ، وأسلوب في السلوك ، ومعرفة في حسن التربية ، وحسن المعاملة مع الناس ، بحيث إذا سئل عن شيء يجيب بصفة تجعل الناس يقبلون ذلك الحكم ، يحدث الناس على قدر

(١) أخرجه الدارمي في «السنن» (٢٩٧ ، ٢٩٨) من طريق ليث بن أبي سليم عن يحيى بن عباد ، عن علي قوله ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم وفيه ضعف . انظر «تهذيب الكمال» (٢٤ / ٢٧٩) ، «تهذيب التهذيب» (٨ / ٤١٧) . وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١ / ٧٧) من طريق أبي إسحاق ، عن عاصم بن ضمرة ، عن علي موقوفاً أيضاً ، وفي إسناده أبو إسحاق السبيعي هو مدلس ، وقد عنعنه .

ما يفهمون ، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله؟ ، كما في الحديث الشريف ،
فهذا الحديث في الحقيقة يقول : من يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم
من روح الله ، ولم يؤمنهم في الوقت نفسه من مكر الله ولكن تارة وتارة ،
ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه :

يقول المنذر بن سعيد البلوطي العالم البربري المغربي :

عذيري من قوم إذا جئت طالبًا ذليلاً أجابوا هكذا قال مالك
فإن قلت قال الله جدوا وأكثروا وقالوا جميعاً أنت قرم ماحك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المدارك

فالمهم أنهم لا يقبلون النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ويكتفون
بأقوال الناس ، ومع الاحترام الكامل لجميع الأئمة رضوان الله عليهم
ولجميع الفقهاء الذين لهم الفضل في تفهم الكتاب والسنة ، ينبغي لنا أن لا
نقتصر على ذلك ، بل ينبغي أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ،
ودراستهما الدراسة الكافية .

فيستفاد من مجموع هذا أن مما يطلب من المسلمين أن يتفقهوا في الدين ،
والدين المقصود به الإسلام . . . لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ
اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، والفقهاء في الدين واجب على جميع
المكلفين ؛ لأن كل واحد من المسلمين يجب عليه أن يعرف أحكام
التوحيد ، وأحكام العبادات ، وبعض الأحكام التي يتوقف عليها في شئون
الزوجية وغير ذلك ، وكل واحد يريد أن يقوم بعمل من الأعمال إلا
ويجب عليه أن يتعلم الفقه فيما يرجع لتلك المسائل التي سيقوم بها ؛ لأن
الإجماع من المسلمين على أنه لا يجوز لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى
يعلم حكم الله فيه .

هذا ما يرجع للفقه بهذا المعنى ، ولكن لكي نفهم الآية الكريمة على وجهها ينبغي لنا أن نرجع إلى القرآن ، فالقرآن يقول في آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَا نَعْمٍ بَلْ هُمْ أَصْلٌ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، فهذه الآية الكريمة تبين لنا ما هو الخير المذكور في قوله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ يعني : ولقد خلقنا وبشنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، كما خلقنا وبشنا كذلك للجنة كثيراً من المخلوقات .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ ولماذا؟ ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ القلب في اللغة إذا أطلق وأريد به الجسم فمن المعروف أنه هو تلك المضغة الصنوبرية الموجودة في الجانب الأيسر من جسد الإنسان ، وإذا أطلقت في اللغة وأريد بها النفس الإنسانية فإنها يراد بها الإدراك الذي يكون عند الإنسان ، ويراد بها إلى جانب الإدراك كذلك التفهم ، وأثر ذلك في سلوك الإنسان وفي وجدانه الأخلاقي والعقلي ، فتطلق على العقل وتطلق كذلك على الوجدان ، وهو ما يسمى في هذا العصر بالضمير ، ويمثلها في اللغة اللب ، اللب : هو كذلك العقل ، ويمثلها النية ، وجمعها نهي : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤] ، أي لأصحاب العقول الذين يتفهمون الأشياء على وجهها ، ولنتدبر قول الله سبحانه : ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فلم يقل ليس لهم قلوب يفقهون بها ، ولكن قال : ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ؛ لأنه لو قال ليس لهم قلوب ما كانت عندهم كلفة ولا مسئولية ؛ لأنهم خلقوا من غير قلب ، ولكن هؤلاء لهم قلوب ومع ذلك لا يفقهون بها ، بمثابة أولئك الذين لهم عيون ولا يبصرون بها ، ولهم آذان ولا يسمعون بها .

الفقه في القرآن :

وإذا رجعنا إلى القرآن نجد أن مادة الفقه قد ذكرت في عشرين محلاً من القرآن ، تسعة عشر منها تدل على دقة الفهم ، كما قال قوم شعيب لشعيب : ﴿ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود : ٩١] ، وهو كلمهم بلغتهم التي كانت معروفة في ذلك الوقت وهم يعرفون اللغة ، ومع ذلك قالوا له : ﴿ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ ؛ لأنه ليست عندهم دقة الفهم ، وليست عندهم القابلية التي يتقبلون بها تلك المعلومات ، وتلك الإرشادات التي يعطيها لهم نبيهم ﷺ ، وقد لبث فيهم زمناً طويلاً دون أن يحصل منهم على نتيجة ، فلذلك قالوا : ﴿ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ .

فالفقه حينئذ ليس هو مجرد معرفة القواعد الفقهية والأحكام ، ولكن التذوق لهذه الأشياء ، وتكون الحاسة الموجودة عند الإنسان التي يدرك بها الفرقان بين الحق والباطل ؛ لأن الله تعالى إذا اتقاه الإنسان جعل له فرقاناً . الصواب في تفسير الفرقان أنه الفارق بين الحق والباطل يعني يعطي الله المؤمنين المتقين حاسة يدركون بها الحق من الباطل ، وهذا ما ينسجم مع مجموع المذكور في هذا الحديث ، وما يجب عن الأسئلة التي أوردها الشراح هنا ولم يستطيعوا لها حلاً ، جميع الشراح : العيني ، وابن حجر ، وغيرهما لم يستطيعوا حلاً ، لكون هذا الحديث يشتمل على ثلاث فقرات ، كل فقرة منها في ناحية ، فما وجه الاتصال بينهما ؛ لأن مسألة الفقه هي في ميدان العلم ، ولكن الحقيقة الفقه لم يذكر هنا للحث على تعلم الفقه وإنما ذكر لبيان فقه القلوب ، بدليل الآية الكريمة : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَهَا ﴾ ؛ فالقلب يطلق في اللغة بمعنى العقل ، كما في الآية الكريمة : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ لَهَا تَعْمَى أَلْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦]، فهنا القلب بمعنى العقل والقلب يكون في القرآن وفي الإطلاقات اللغوية بمعنى الوجدان أو الضمير: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].
الاشمئزاز، ضميرهم يقع فيه اضطراب: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨].

فهذه الآية الموجودة في هذا المعنى التي تدل على أن القلب يضطرب ويشمئز ويقع فيه وجف هي بمعنى الاضطراب وبمعنى الوجدان، والسبب في الإطلاق اللغوي للقلب على هذه المعاني، هو أن الإنسان حينما يشمئز، وحينما يضطرب، يضيق صدره، وحينما يتقبل الأشياء بضميره ووجدانه فإنه حينئذ يحصل له انشراح في الصدر، هذا هو السبب الذي استعمل العرب كلمة القلب في هذا المعنى، وإلا في الواقع فإن المعاني اللغوية ليس من الضروري أن تتوافق مع القواعد العلمية، ولكن هذا الإطلاق الذي استعمل في القلب على العقل، وعلى الضمير، يتفق مع ما اكتشف الآن من أن التفكير الإنساني ليس هو عقلاً، ولا قلباً، ولكنه شيء خارج عن هذه المواد كلها، فلذلك، الآية الكريمة تنسجم مع آخر ما عرف في هذا المعنى خصوصاً بعد زرع القلوب، تبين أن القلب يمكن أن يتجدد وليس هو الذي يؤثر في الحياة، ويتحدثون عن إمكان زرع المخ كذلك، ومن هنا نعرف أن الحياة هي من أمر الله، وأن الروح من أمر الله سبحانه وتعالى. فالقلب أطلقه العرب على هذه اللطيفة الروحية التي لا يمكننا أن ندركها: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ لأنه يمكن أن تتركب في جسم الإنسان آلات ومواد مختلفة، ويعيش الإنسان كما تبين ذلك بطريق العلم، وكما يتنبأ به

العلماء في المستقبل ، ولكن مع ذلك يموت الإنسان بحالة لا يعرفها أحد ، ولا يمكنه أن يعرفها ؛ لأن الموت والحياة مكتوبان لأبد منهما ، قد يطول عيش الإنسان ولكن الموت لأبد منه ، لأبد من أن يصل إليه كل إنسان ، ولذلك فالفقه هنا يطلق بمعنى الدقة في الفهم .

فإذا رجعنا للآيات التي سردناها نفهم أن الله سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين مبيّنًا لهم أحوال الأمم السابقة ، والمشرّكين والكفار ، ولماذا هم كفار؟ ولماذا لا يؤمنون؟ ولماذا حالتهم سيئة ، وحالة المسلمين في ارتفاع؟ يبين لهم ذلك ، بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها ، وعيونًا لا يبصرون بها ، وأذانًا لا يسمعون بها ، فهم بمثابة الأنعام ، بل أضل من الأنعام ، والأنعام لا يستعملون عقولهم إلا في بعض المسائل البسيطة التي يتوقفون عليها في الأكل والشرب ، فكذلك هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله حق الإيمان ، ليس لهم قلوب يفقهون بها معنى الإيمان ، ومعنى التوحيد لله سبحانه ، وما هي الحرية التي ينالها الإنسان حينما يوحد الله ﷻ ويعبده لا شريك له ، ولا يعبد شجرًا ولا حجرًا ويتعلق به وحده ، ولا يتعلق بأحد ، لا من الجن ولا من الإنس ، ولا نبي ، ولا ملك مقرب ، ولا ولي من الأولياء ، وإنما يتعلق بالباري ، ولا يستعمل الخرافات من تائم ورقى وغير ذلك من تلك الخزعبلات التي هي من أنواع الشرك والضلال ، التي ورثناها عن الجاهلية الأولى ، هؤلاء الناس الذين عندهم الفقه يعني فقاهة في الدين ، ودقة في الفهم ، لا يمكنهم إلا أن يوحدوا الله وحده لا شريك له ، ويعبدوه عبادة صادقة بكل معاني الكلمة ، فهذه العبادة التي بهذه الصفة ، هي تحتاج إلى دقة الفهم ، وليس لهم قلوب يفقهون بها ، حتى يعرفون لذة العبادة ، ولذة الصلاة ، ولذة الصيام ، ولذة الزكاة ، ولذة

الحج، فهم يعتبرون شهواتهم ويقدمونها على غيرها، وليس لهم قلوب يفقهون بها حتى يعرفوا أن دراسة العلم، وتناول الأشياء، واتباع الأنظمة الصحيحة، والسير على منوال متين، كما بينه الله سبحانه لرسوله في القرآن وفي السنة النبوية، والتنظيم، والاستعداد في وقت الحاجة إلى الحرب، واستعداد الأمة، وتكوين الصنائع المهمة، وغير ذلك من الحاجات التي يتوقف عليها الإنسان؛ لأن هذه كلها عبادة لأنها من العبادات الكفاحية، وهؤلاء الذين هم كفار في قلوبهم، جاحدون لا يفقهون، لهم قلوب لا يفقهون بها هذه الأشياء، وهم يتجولون في الأرض ويرون الأمم كيف تقدمت؟ وكيف ارتقت؟ ويرون المسلمين في ذلك الوقت، ولهذا قال سبحانه في بعض الآيات: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]، لأنتم أيها المسلمون أشد رهبة وخوفاً في نفوس الكفار من الله، يخافونكم أكثر مما يخافون الله، وقد قال النبي ﷺ: «إنه نصر بالربع مسافة شهر»، حينما يتحرك يخاف الذين أمامه لمسافة شهر من المشركين ومن الكفار، هذه الصفة لماذا؟

لأنهم قوم لا يفقهون السر الذي جعلكم تتقدمون وتتحدون، السر الذي وحد هذه القبائل العربية بعد ما كانت متفرقة، السر الذي جعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

السر الذي جعلكم تطيعون إمامكم، وتنظمون نفوسكم، وتستطيعون أن تتقدموا في الحروب بالصفة الهائلة التي يغلب فيها القليل منكم الكثير منهم.

ولكن بغاية الأسف هذه الأخلاق : أخلاق المسلمين قد انقلبت ، فيصح أن يقال لنا اليوم هؤلاء أشد رهبة في نفوسنا من الله ؛ لأننا قوم لا نفقه ، لأن مقتضى هذه الديانة ، أن المسلمين يكونون أعلم بغيرهم ، وأفقه من غيرهم ليس في مسألة العبادة فقط ، ولا في مسألة الاقتصاد ، ولا في غيرها ، بل حتى في مسائل النظم الحربية ، وما تتوقف عليه من أعمال ، ومن صناعات ، ومن إنتاجات ، ومن سياسات ، ومن استراتيجيات جديدة ، يجب عليهم أن يكونوا مثل ذلك .

هذا من أثر الدين الإسلامي ؛ لأن الدين الإسلامي ليس دين كنيسة ، ودين خمول ، ولكنه دين عمل في جميع الميادين ، فحيث إن المسلمين اليوم قد أعرضوا عن تعاليم الدين ، وأصبحوا لا يفقهون ، ولم يرد الله بهم خيراً حتى يفقههم في الدين ، هذا الفقه الذي هو فقه القلوب ، لا غرابة إذا أصبحوا لا يعرفون شيئاً ولا يعرفون كيف ينظمون أنفسهم ، ولا كيف يتقدمون أمام أعدائهم ، ولا غرابة إذا لم يتحدثوا ، ولا غرابة إذا لم يجتمعوا ، ولا غرابة إذا لم تتحد كلمتهم ؛ لأنهم قوم لا يفقهون ، لا يعرفون سر الحرب ، وسر النجاح ، وسر الانتصار ، وهو الوحدة ، وهو الاستقامة ، وهو الثقافة ، وهو التعلم ، والتطور في الحياة مع الحياة ، كما يريد الله سبحانه وتعالى . فلذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ، وهكذا نجد الآيات الكريمة كلها (١٩) آية في القرآن ، كلها في الحقيقة في هذا المعنى ، ونجد آية واحدة هي التي تدل نوعاً ما على الفقه بمعنى : الفهم ، والإدراك ، فهم اللغة وإن كانت لا تبعد عن معنى الدقة في الفهم ، وهي قضية سيدنا موسى : ﴿رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾

وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٧٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٧٨﴾ [طه : ٢٥ - ٢٨] ، فهذه هنا بمعنى اللغة ؛ لأن اللسان منعقد فيحتاج إلى تفهيم الكلام ، ولكنها ليست بعيدة عن المعنى العام الذي ذكره القرآن .

والخلاصة أن المقصود من قوله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، ليس الفقه بمعنى العلم ، وليس علم الفقهاء فقط وإن كان الفقه مطلوباً من الدين وواجباً على المسلمين ، ولكن المقصود ما هو أعظم من ذلك ، وهو فقه القلوب ، وهو أن يتفهم المسلمون الفقه بحقيقته ، وأن يدركوه على وجهه حتى يمكنهم أن يتذوقوا بأنفسهم ذلك .

ومجموع الحديث يدل على هذا المعنى : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، ولا يحتاج إلى أن يأتي فيسأل النبي ﷺ ، لماذا أعطيت فلان أكثر من فلان؟ لأنه ﷺ هو قاسم والمعطي هو الباري ﷻ ، فهذا هو السر في جمع هذه الأشياء في هذا الحديث ، ولم يتنبه لذلك الشراح أبداً ، لم يتنبهوا مع أن المعنى واضح تماماً ؛ لأن النبي ﷺ في موقعة خاصة وزع الغنائم على المسلمين ، ووزع الخمس كما اقتضت المصلحة العامة ذلك ، فجاء بعض الأعراب ، يسأله : لماذا أعطيت فلاناً أكثر من فلان؟ فقال ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، يعني يكون عنده الحاسة الفقهية ، الحاسة الذوقية القلبية التي يدرك بها أن محمداً ﷺ ليس إلا مجرد قاسم ، وأنه لا يمكنه أن يتجاوز في قسمته ما أمر الله به ، «إنما أنا قاسم والله المعطي» ، وفي الحديث السابق : «إنما أنا خازن» ، وهذه الفقرة الثانية من الحديث الثاني في الواقع تتوقف على شيء كثير من الكلام ، ولكننا سنوجز ذلك بقدر الإمكان وهو أن نقول :

النبي ﷺ قاسم والله المعطي :

إن النبي ﷺ قاسم ، بمعنى مكلف من الله بأن يقسم لعباده ، والله المعطي : فسر أيضاً الشراح هنا المعطي بأن الله هو الذي يقدر - حقيقة - الله الذي يقدر ، والله الذي يعطي كل شيء ، والله الذي أعطانا نبينا ﷺ أيضاً ، وأعطاه حق القسمة بين الناس ، ولكن ليس هذا هو المقصود في الحديث . المقصود في الحديث : «أنا قاسم والله المعطي» ، ومعنى المعطي : الله الذي يعطي كل واحد ما يستحقه تشريعاً لا تقديرًا فقط ؛ لأن الله هو الذي أنزل الآيات في القرآن : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال : ١] ، ثم نسخها بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال : ٤١] ، ثم قال في آية أخرى : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [الحشر : ٧] ، ثم قال في الآية الأخرى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فكل ذلك بوحى من الله ، والنبي ﷺ ليس له إلا أن يتبع السياسة المالية التي أمر الله باتباعها في الأرض ، والسياسة المالية في الإسلام تعتمد باختصار تارة على التشريع ، وتارة على التوجيه . فسيدنا محمد ﷺ يشرع في المالية أشياء كثيرة ، فقد شرع مثلاً الزكاة ، وجب أن نؤدي الزكاة لتؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء بأنصبتها المعروفة ، وتوزع على بعض الأشخاص ، وعلى بعض المصالح ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ ؛ لأن فيه الأشخاص ، وفيه كذلك سبيل الله ، وابن السبيل ، فسبيل الله كما قال الإمام الشافعي : سبيل الله كثيرة ، بحيث ما تنفق فيه الزكوات ، وكذلك أيضاً فرض علينا ما زاد على الزكاة ؛ لأن النبي ﷺ قال : «في المال حق غير الزكاة» ، بحيث لولي الأمر إذا

اقتضت المصلحة العامة ، إن يفرض فرائض أخرى وجبايا أخرى بحسب المصلحة العامة ، إذا كان يتوقف عليها لتجهيز جيوش المسلمين ، أو كان يتوقف عليها للقيام بمصالحهم ، في التعليم ، أو في مصالحهم أيضاً في النمو الاقتصادي ، أو في غير ذلك من هذه الأشياء بحسب المصلحة العامة ، كما أفتى بذلك أبو إسحاق الشاطبي ، وعلماء الفقه المالكيين ، والأندلسيون بالخصوص هم زعماء الدفاع عن هذه الفكرة ، وأن في المال حقاً غير الزكاة ، بحيث تبقى الزكاة محجوزة فقط للضمان الجماعي الذي يشمل العمال وغيرهم .

هذا ما يرجع للتشريع . . . الزكاة أولاً ، الغنائم كيف تقسم؟ ثم زاد على ذلك بحسب ما تراه الحكومة الإسلامية ويراه إمام المسلمين ، أما التوجيه ، جانب التوجيه فالنبي ﷺ قد وجهنا لننفق كل ما عندنا : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ أَلْعَفْوُ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، أي الفاضل : الفاضل عن قوتك ، وقوت عيالك ، ينبغي لك أن تنفقه ولكن ليس واجباً ، هذا وإنما يوجهنا الشارع لئلا ندخر المال ولئلا نكتنزه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [التوبة : ١١١] ، ليس فقط النفس : الجود بالنفس أقصى غايات الجود كما يقول الشاعر ، ولكن كذلك الجود بالمال ، بحيث يجود الإنسان بنفسه وبماله ، فإذا أنفق ذلك كله فإنه سيصل إلى النتيجة المطلوبة التي هي إنفاق كل شيء في سبيل الله ، وقد روى أبو ذر رضي الله عنه قال : «خرجت مع النبي ﷺ يوماً نحو أحد فقال لي : يا أبا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا هكذا ، وأشار ﷺ بيمينه ويساره يعني أنفق ماله

يمينا ويسارا ثم سار النبي ﷺ مع أبي ذر ، وقال له : يا أبا ذر ، فقلت له : فذاك أبي وأمي يا رسول الله ، فقال النبي ﷺ : ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله وأترك منه حين موتي شيئاً ولا قيراطين ، قال له أبو ذر : ولا قنطارين يا رسول الله ، قال : لا ، ولا قيراطين ، أريد الأقل ، وتريد الأكثر يا أبا ذر .

فهذا الحديث الشريف يدل على توجيه المسلمين نحو الإنفاق بقدر ما يستطيعونه في سبيل الله ، لهم الحق في أن يكتسبوا وأن يملكوا وأن يكون لهم كل شيء ، ولكن ينبغي لهم زيادة على النفقات الواجبة أن ينفقوا هذه الأشياء ، وليس مقصودنا أن ننهب إلى أنهم ينفقون كل ما عندهم ، ولكن المقصود أن ننهب إلى أن الإسلام يربي المسلمين إلى أنهم بعدما يؤدون الواجبات يكون لهم استعداد نفسي لقبول ما تقرر الأمة ، وما تقرر الدولة أخذه من أموالهم لأجل المصلحة العامة ، فهم يعتبرون بمثابة الوكلاء في أموال الأمة .

وهذا الحديث الكلام فيه طويل لأنه يتوقف على بيان مصادر الملك في الإسلام التي شرعها الإسلام ، وطريقة إنفاقه ، وكذلك طريقة المسائل المحرمة ، وطريقة التنمية الاقتصادية من هذا الحديث ، كما أن خاتمة الحديث التي ترجع إلى مسألة الاستبشار بأنه لا بد لكل أمة ، لا بد أن يبقى من هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم ، تحتاج إلى بيان وإلى الإجابة عن الإشكالات ؛ لأن هذا التنبؤ النبوي مع الحالة الظاهرة الموجودة عند المسلمين ، ولكننا نأخذ من ذلك على الأقل الأمر بأنه يجب على المسلمين أن تبقى منهم فئة ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله ، وأن هذا وإن صدر في مقام التنبؤ ولكنه ينبغي أن يؤخذ على أنه أمر واجب على المسلمين في جميع الأرض .

وليس من الضروري أن تكون الأمة الإسلامية كلها بهذه الصفة ، بل تكون منها جماعة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ولتكن منكم هذا تجريد من المسلمين جردوا من أنفسكم أمة ، بمعنى أن الأمة كلها يجب أن تكون قائمة بهذا الواجب ، كما تقول لصاحبك : ليكن لي منك صديق .

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لصالح الأعمال ، وأن يصلح أحوال المسلمين في جميع البقاع ، وأن يحرر بلاد المسلمين ، وأن يرد بلاد المقدس وبلاد فلسطين ، ويحمي الأماكن المقدسة كلها ، حماية ربانية ، ويوفق المسلمين إلى الوحدة وإلى التوافق والتصالح حتى يستطيعوا أن يقوموا بواجبهم أمام هذه المصائب التي تهاجمهم ، ليتحقق فيهم هذا الوعد الذي وعد به نبينا ﷺ ، وهو لا بد أن يتحقق إن شاء الله .

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الرابع

المحاضرة الخامسة والثلاثون:

البر الموصول إلى الجنة

قال الله ﷻ: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تُجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦] .

هذه الآيات الكريمة الأربع من سورة آل عمران ، وسورة آل عمران مدنية عدد آياتها مائتان ، فهذه السورة مدنية ، وإن كانت مفتوحة بحروف التهجي : ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران : ١ ، ٢] ذلكم أن العلماء ذكروا للمكي علامات يتميز بها عن المدني ، وذكروا للمدني علامات يتميز بها عن المكي ، وقالوا : إن كل سورة افتتحت بحروف التهجي تعتبر مكية ، واستثنوا من ذلك سورتين اثنتين هما سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وفي سورة الرعد خلاف .

وقبل أن أشير إلى ما ورد في فضل هذه السورة وإلى مناسبتها للسورة التي قبلها ، وإلى أهم المواضيع التي تتحدث عنها هذه السورة ، أشير باختصار إلى تعريف المكي والمدني .

تعريف السور المكية والمدنية :

للعلماء آراء ثلاثة في تعريف المكي والمدني :

١- رأي الجمهور ويتضمن أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أو بسفر من الأسفار ، وإلى هذا الرأي أشار بعضهم بقوله :

وكل ما نزل بعد الهجرة فمدني يدرى لدى الأئمة
ولو بمكة بعيد ما ذكر كالיום أكملت لكم كما شهر

٢- أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، وعلى هذا تثبت الوساطة ، فما نزل بالأسفار لا يوصف بأنه مكي ولا مدني .

ويدخل في مكة ضواحيها : كمنى وعرفة والحديبية .

ويدخل في المدينة ضواحيها : كبدر وأحد وسلع .

٣- أن المكي ما كان خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما كان خطاباً لأهل المدينة .

فالتعبير بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعتبر خطاباً لأهل المدينة .

والتعبير بـ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعتبر خطاباً لأهل مكة ، ولم يرد

التعبير بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في السور المكية .

أما في السور المدنية فقد ورد التعبير بـ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ سبع مرات :

١- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ٢١] .

٢- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ...﴾ [البقرة : ١٦٨] .

٣- فاتحة سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] .

٤- قول الله عز من قائل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] .

٥- قول الله عز من قائل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَاقِمُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾ [النساء: ١٧٠] .

٦- قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] .

٧- قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

لكن ما هي الطريقة التي يمكن أن نصل بها إلى معرفة المكي والمدني؟
يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين .
ثم ما هي الفائدة التي تعود على الدارس والباحث من تمييزه بين المكي والمدني؟

يستفيد كل من الباحث والدارس من ذلك فائدة مهمة جليلة ذلكم أنه لا يمكن للإنسان أن يجتهد ، ولا أن يستنبط الأحكام إذا لم يميز بين المكي والمدني ، إذ بالتمييز بين المكي والمدني يعرف الناسخ من المنسوخ ، والمتقدم من المتأخر وما إلى ذلك ، وإلى ما ذكر أشار بعضهم بقوله :

ليعلم النسخ والتخصيص مجتهد يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر

فضل سورة آل عمران :

أما ما ورد في فضل هذه السورة فنقتصر الآن على ما ذكره الإمام مسلم في «صحيحه» ، ونقله عنه كثير من المفسرين في تفاسيرهم .

أخرج الإمام مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، وضرب لهم رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد ، قال : كأنها غمامتان ، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحاجان عن صاحبهما» .

وأخرج الإمام مسلم أيضًا عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيابتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة» أي السحرة ، كما ورد ذلك مفسرًا .

أسماء سورة آل عمران :

ولهذه السورة أسماء :

منها : سورة آل عمران ، لذكر آل عمران في أثنائها ، قال الله ﻋﻠﻴﻬﻲ ﺍﻟﺼﻠﺔ : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران : ٣٣ - ٣٥] .

وتسمى أيضاً سورة الاستغفار لذكر الاستغفار فيها ، من ذلك قوله ﷻ :
﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] ، وقول الله تعالى :
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وتسمى سورة البقرة وسورة آل عمران الزهراوين : إما لكونهما نيرتين
بمعنى أن قارئتهما يهتدي بهما ، وتكونان له نوراً يوم القيامة ، وإما لكونهما قد
اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم ، لما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت
يزيد أن رسول الله ﷺ قال : «إن اسم الله الأعظم في هاتين السورتين»^(١) (أي
في البقرة وآل عمران) .

في البقرة في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ، والتي في آل عمران : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ
الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] ، أي في فاتحة آل عمران : ﴿اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَلَ ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ﴾ [آل عمران : ١ - ٣] .

مناسبة «آل عمران» لسورة «البقرة» :

أما عن مناسبة هذه السورة لسورة البقرة ، فلقد ذكر المفسرون عدة
وجوه من وجوه المناسبات ، أقصر منها على ما يلي :

في سورة البقرة ذكرت قصة آدم ، الذي خلقه الله من تراب - من غير
أب ولا أم - ثم قال له : كن .

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦) ، والترمذي (٣٤٧٨) ، وابن ماجه (٣٨٥٥) ، وإسحاق
ابن راهويه في «المسند» (١ / ١٨٣) ، وأحمد في «المسند» (٦ / ٤٦١) عن أسماء بنت
يزيد رضي الله عنها ، بنحوه . قال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح» .

وفي سورة آل عمران ذكرت قصة عيسى عليه السلام ، وقصته تشبه نوعاً ما قصة آدم عليه السلام ، حيث إن عيسى عليه السلام خلق من غير أب ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران : ٥٩ ، ٦٠] .

ومن وجوه المناسبة أيضاً أن فاتحة سورة البقرة تناسب خاتمة سورة آل عمران ، ففاتحة البقرة ذكر فيها المتقون - وإن كان المتقون ذكروا مراراً في البقرة وآل عمران - قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، وفي ختام سورة آل عمران قال الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

ومن وجوه المناسبة - أيضاً - أن سورة البقرة تحدث كثيراً عن اليهود ، وسورة آل عمران ورد فيها الحديث عن وفد نجران ، وهو وفد من النصارى يتركب من ستين راكباً ، جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاجونه في شأن عيسى ويدعون أنه ابن الله ، فرد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، أن عيسى عليه السلام إنما هو عبد الله ورسوله ، وروح الله وكلمته ، فلما لم يقتنعوا دعاهم إلى المباهلة ، فامتنعوا خوفاً على أنفسهم ، قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران : ٦١] .

مواضيع السورة الرئيسية :

وأهم المواضيع الرئيسية التي تحدثت عنها هذه السورة موضوعان مهمان :

١ - قصة هذا الوفد وهو وفد نجران .

٢ - غزوة أحد - وفي أثناء الكلام عن غزوة أحد وردت هذه الآيات الكريمات التي نتناولها بالتفسير والتحليل حسب المستطاع .

بعد أن نهى الله ﷻ عباده المؤمنين عن أكل الربا أي التعامل به في قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران : ١٣٠] .

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالتمسك بالتقوى ؛ لأن التقوى سبيل النجاح ، وسبيل الفوز والسعادة في قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٠] .

وبعد أن حذر الله تعالى عباده من النار المعدة للكافرين في قوله : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] .

وبعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعة الله ، وطاعة رسوله في قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] .

أمرهم هنا بالمبادرة إلى ما يؤدي إلى الغفران والرضوان وإلى الفوز بالجنة ، تلکم الجنة التي أعدها الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين ، والتي وصفها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

يذكر الزمخشري نقلاً عن أبي حنيفة أن أبا حنيفة : كان يقول في قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] يقول : إنها

أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله عباده المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ، إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ، وبعد ذلك قال : ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى .

المسارعة إلى المغفرة:

في قوله سبحانه : ﴿ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] قراءتان :

١- قراءة بدون واو (سارعوا) وهي قراءة نافع وابن عمر وعليها قراء المدينة والشام .

٢- أما القراءة الثانية فهي قراءة باقي القراء السبعة : خمسة من القراء قرءوا بإثبات الواو : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، قال الألوسي في «تفسيره» : وهذه هي القراءة المشهورة .

أقول : إن القراءتين معا صحيحتان ؛ لأنها داخلتان في القراءات السبع ، والسبع متواترة كما يذكر ابن السبكي وغيره .

وهناك قراءة ثالثة بالمرادف ، ولكنها ليست متداولة ولا مشهورة قرئ : (وسابقوا إلى مغفرة من ربكم) ، يؤيد هذه القراءة ما يوجد في سورة الحديد ، من قول الله ﷻ : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

وأمال الكسائي : (سارعوا) ، قال أبو علي : والإمالة هنا حسنة لورود الراء المكسورة بعدها .

والمسارعة مفاعلة، تقتضي التسابق، فكأن الناس يتسابقون إلى فعل الخير، وكل واحد منهم يريد أن يسبق، ونعم ما يتسابق إليه الناس. والتعبير بالمسارعة هنا يصور أداء هذه الطاعات في صور حسية حركية... يصوره سباقاً إلى هدف أو جائزة تنال.

قال الله تعالى: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٣٣]، المغفرة: إلباس الله العفو للمذنبين كما ذكر في «النهاية».

وتنكير: ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، و﴿جَنَّةٍ﴾ للتعظيم بدليل الوصف: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾.

لكن ما هو الشيء الذي يتبادر ويتسابق الناس إليه؟ أو ما هو الشيء الذي تجب المبادرة إليه والإقبال عليه لنيل الغفران والرضوان؟

لقد اختلفت آراء السلف من عهد الصحابة، فمن بعدهم من التابعين، وتابعي التابعين في تأويل هذا الموضوع، فلقد نقل عن بعضهم، أن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بالمبادرة إلى فعل الطاعات.

ونقل عن أنس ومكحول: إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بالمبادرة إلى تكبيرة الإحرام، بمعنى أن الناس يجب عليهم أن يحافظوا على الصلوات في الجماعة بحيث لا تفوتهم تكبيرة الإحرام.

ونقل عن الإمام علي أنه قال: المبادرة إلى أداء الفرائض.

ونقل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن المراد: الإخلاص.

ونقل عن بعضهم، أن المراد: الجهاد، أي: سارعوا إلى الجهاد، وهو قول الضحاك وابن إسحاق، وهو مناسب للمقام حيث إن الآية وردت أثناء الكلام على غزوة أحد.

هذه كلها أقوال خاصة ، ومن المعلوم أنه يجب الحمل على العموم ، ولذلك يجب أن نحمل الآية على العموم ، ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بالمبادرة إلى فعل جميع الخيرات .

قال الألوسي في «تفسيره» : «تمسك كثير من الأصوليين بهذه الآية على أن الأمر بالمعروف يقتضي الفور» ، وبناء على ما ذكر يستفاد من قوله تعالى : ﴿سَارِعُوا﴾ ، أن المبادرة إلى فعل الخيرات واجبة فوراً .

هذا الموضوع تحدث عنه الأصوليون كثيراً ، ومضمون كلامهم ، هل الأمر إذا لم يرد مقيداً بترأخ ، ولا بفور بل ورد مطلقاً ، يحمل على التخيير ، أو يحمل على الفور ، أو يكون محتملاً للأمرين معاً ؟
مذهب الأكثر أنه يكون محتملاً للأمرين معاً .

وصف الجنة :

﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ، وصف الله الجنة هنا بقوله : ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ .

ولقد ورد في القرآن وصف الجنة بكون عرضها كعرض السموات والأرض في سورتين اثنتين :

في هذه السورة التي نحن بصدد تفسير هذه الآيات منها ، وفي سورة الحديد في قول الله ﷻ : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد : ٢١] .

﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ، في الكلام حذف - دلالة اقتضاء كما يعبر الأصوليون - أي عرضها كعرض السموات والأرض ، على حد قوله تعالى : ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان : ٢٨] ، أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها .

ومن هذا القبيل قول الشاعر :

كأن عذيرهم بجنوب سلى نعام قلق في بلد قفار

يتحدث الشاعر عن حالة قوم هزموا ، فقال : كأن حالتهم في الهزيمة حالة نعام تغدو مذعورة .

لكن ، ما المراد بكون الجنة عرضها كعرض السموات والأرض ؟
تعددت آراء السلف في تأويل هذه الآية :

نقل القرطبي ، وجل المفسرين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال في تأويل هذه الآية : « تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض ، كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض ، فذلك عرض الجنة ، ولا يعلم طولها إلا الله تعالى » .

يؤكد هذا ما رواه أبو ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، والكرسي ، إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض ، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض » ^(١) .

وما ورد : « أن ما بين المصراعين من أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة » ^(٢) .

وما ورد أيضًا من : « أن في الجنة شجرة ، يسير الراكب المجد في ظلها مائة لا يقطعها ، أو مائة عام لا يقطعها » ^(٣) ، كما ورد في رواية أخرى .

(١) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٢ / ٧٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٦٦) عن أبي ذر رضي الله عنه . وصححه ابن حبان (٣٦١) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه ، بنحوه .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨١) ، ومسلم (٢٨٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، بنحوه .

هذا يدل على اتساع الجنة ، وعلى أن الناس الذين يتفضل الله سبحانه وتعالى بإدخالهم الجنة لا يجدون فيها ازدحاماً .

دليلنا على هذا ، ما رواه الإمام مسلم رحمته الله عن أبي سعيد الخدري رحمته الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنى ويتمنى حتى إذا انقطعت به الأماني ، قال الله تعالى : لك ذلك وعشرة أمثاله» .

ولقد ورد وصف الجنة بكون عرضها كعرض السموات أيضاً في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحديث الأول : رواه ابن جرير في «تفسيره» ، والقرطبي في «تفسيره» وغيرهما ، ومضمونه : أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءته رسالة من هرقل - من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كاتب ملوك الدول ورؤساءها في ذلكم التاريخ يدعوهم إلى الإسلام - ومن جملة من كاتبهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هرقل الذي أجابه برسالة حملها التنوخي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنوخي يحدث يعلى بن أبي مرة بهذا الحديث ، والرواة ينقلونه عن يعلى بن أبي مرة : «جاء التنوخي بهذه الرسالة ومكنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وناولها رجلاً عن يساره ، فقال التنوخي : من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا : معاوية . فإذا كتاب صاحبه أي فإذا في هذا الكتاب : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟» .

وبمثل هذه الحجة الواضحة أجاب عمر رحمته الله جماعة من اليهود ، جاءوا عنده وقالوا له : تقرأون في كتابكم : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ، فأين النار؟ فقال عمر بن الخطاب رحمته الله : أين الليل إذا جاء النهار؟ وأين النهار إذا جاء الليل؟ فقالوا : نزعت بها في التوراة . أي أتيت بها يشبهها .

هم يعرفون في التوراة أن الجنة عرضها كعرض السموات والأرض ، ومع ذلك يأتون ليسألوا عمر بقصد التشويش .

كذلك ورد هذا الوصف فيما رواه الإمام مسلم في «صحيحه» ، وابن المنذر والحاكم وصححه : «أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . فقال عمير بن الحمام : جنة عرضها السماوات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، فقال عمير بن الحمام : بخ ، بخ ، لا والله يا رسول الله لا بد أن أكون من أهلها ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : فإنك من أهلها . . . عمير بن الحمام كان عنده تمرات ، أرد أن يأكل منهن ، شرع في الأكل ، ثم قال : إن حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، ثم رمى بهذه التمرات وتقدم إلى المعركة ، وقاتل حتى قتل رحمته الله» .

وهكذا كان المسلمون يتقدمون للمعارك وللجهاد في سبيل الله ، وهم يحبون الاستشهاد في سبيل الله ؛ لأنهم إن انتصروا فلهم الحسنی ، وإن استشهدوا فلهم الحسنی ، ونعمت الحياة حياة الشهداء : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

هذه القصة يقول الحافظ ابن حجر في «الإصابة» : أنه وافق مسلماً أيضاً في روايتها بعلو ودرجتين .

وفي «سيرة ابن إسحاق» : «أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فقال عمير بن الحمام أحد بني سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : بخ ، بخ ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، فقاذ التمر من يده وأخذ سيفه ، فقاتل حتى قتل رحمته الله وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد»^(١).

فالله سبحانه وتعالى وصف الجنة بكون عرضها كعرض السماوات والأرض، وطولها لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقال ابن كثير في «تفسيره»: وقيل: «عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير طوله وعرضه سواء». ثم قال: «ويشهد لذلك ما في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن».

التقوى:

﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أي هذه الجنة هيئت للمتقين.

استدل جماعة من العلماء بل جمهور العلماء على أن الجنة مخلوقة بدليل هذه الآية وأمثالها، وكذلك جهنم مخلوقة الآن بدليل الآيات والأحاديث الواردة في هذا الشأن.

فالله سبحانه وتعالى قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال في النار: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، والتعبير بالماضي يدل على أنها مخلوقة الآن.

(١) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤ / ٩٩)، وفي «الاستيعاب» (٣ / ١٢١٤)، وابن حجر في «الإصابة» (٤ / ٧١٥)، وفي «تعجيل المنفعة» (٢ / ٨٦) ونسبها لابن إسحاق. والحديث أخرجه مسلم (١٩٠١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، بدون ذكر الآيات.

ويشهد لهذا- أيضاً- ما في «الصحيحين» وغيرهما في حديث الإسراء من أن النبي ﷺ رأى الجنة والنار .

وقالت المعتزلة : إن الجنة والنار ليستا مخلوقتين الآن ، وإنما ستخلقان بعد فناء الدنيا ، واستدلوا على ذلك بأن الدنيا دار تكليف والآخرة دار جزاء ولا يمكن أن يجتمعا في آن واحد .

والصواب ما قاله جمهور العلماء ، بدليل ما ذكره الرسول ﷺ في حديث الإسراء والمعراج ، وبدليل التعبير بصيغة الماضي هاهنا : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

قال الحافظ ابن حجر الهيتمي في كتابه : «الفتح المبين في شرح الأربعين» : التقوى في اللغة : جعل النفس في وقاية مما يخاف .

وقال القرطبي في «تفسيره» : التقوى ، أصلها في اللغة : قلة الكلام ، ومنه التقي ملجم ، والتقي فوق المؤمن والطائع .

والتقوى مأخوذة من الوقاية وهو ما يجعله الإنسان بينه وبين ما يكره بدليل الحديث : كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ .

ومن هذا القبيل : قول الشاعر النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقينا باليد

أما في الشرع : فالتقوى : حفظ النفس من الآثام وما يجر إليها .

ولقد قيل في التقوى ، وفي المتقين أشياء كثيرة ، فلقد نقل عن بعض السلف أن المتقي ، من إذا قال ، قال لله ، ومن إذا عمل ، عمل لله .

وقال أبو سليمان الداراني : المتقون هم الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات .

تذاكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي بن كعب لعمر بن الخطاب : هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال : نعم . قال : فما عملت فيه؟ قال : تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

أخذ ابن المعتز هذا المعنى ونظمه :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقوى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

ولقد سئل علي رضي الله عنه عن التقوى فقال : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

والخلاصة أن التقوى فيها جماع الخير كله ، وهي وصية الله سبحانه وتعالى في الأولين والآخرين ، وهي خير ما يستفيد به الإنسان كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء ، فقال رضي الله عنه :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرا
يقول المرء فائدتى ومالي وتقوى الله أفضل ما استفاد

وكان زيد بن أسلم شيخ الإمام مالك يقول : ابن آدم اتق الله يحبك الناس وإن كرهوا .

وعلى الإنسان أن يتقي ربه في السر والعلانية ، في الليل والنهار ، في الخلوة والجلوة ، أي سواء كان بمحل يراه فيه الناس ، أو كان بمكان لا يراه فيه أحد ، اكتفاء بنظر الله ومراقبته ، وصدق الله العظيم : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »^(١) .

ويقول الباري ﷻ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

ويقول الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .
والتحقيق أن الآيتين معاً محكمتان : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، تعتبر موضحة ، ومفسرة ، ومبينة لقول الله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ، فالإنسان يتقي الله حسب استطاعته .

قال ابن جزى رحمته في «تفسيره» : درجات التقوى خمس :

- ١- أن يتقي العبد الكفر ، وذلك مقام الإسلام .
- ٢- أن يتقي المحرمات والمعاصي ، وذلك مقام التوبة .
- ٣- أن يتقي الشبهات ، وذلك مقام الورع .
- ٤- أن يتقي المباحات ، وذلك مقام الزهد .
- ٥- أن يتقي حضور غير الله على قلبه ، وذلك مقام المراقبة .

ثم قال والبواعث على التقوى عشرة :

خوف العقاب الدنيوي والأخروي ، ورجاء الثواب الدنيوي والأخروي ، وخوف الحساب ، والحياء من نظر الله ﷻ ، وهو مقام المراقبة ، وشكر الله تعالى على نعمه ، وهذا الشكر لا يكون إلا بالطاعة ، فلا يكون بالمعصية ،

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) ، وأحمد في «المسند» (٥ / ١٥٣) ، والدارمي في «السنن» (٢٧٩١) عن أبي ذر رضي الله عنه ، مرفوعاً ، به . قال الترمذي : «حسن صحيح» ، وصححه الحاكم (١ / ٤٥) ، ورجح الدارقطني في «العلل» (٩٨٧) إرساله .

وإجلال الله تعالى وهذا مقام الهيبة ، والعلم ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا ﴾ [فاطر: ٢٨] ، فمن كان لا يخشى الله تعالى لا يعتبر علماً ، فالعلم الحقيقي هو الذي يبعث على الخشية ، فكل علم لا يبعث على الخشية لا يعتبر علماً ، وصدق المحبة ، فمن كان يحب الله يجب عليه أن يطيعه ؛ لأن من أحب شخصاً أطاعه فلا يمكن أن يقول : إنني أحبه وهو يعصيه ، ولذلك يقول القائل :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

والمثقون شرفهم الله بالمدح والثناء في قوله : ﴿ وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وشرفهم بالحفظ من الأعداء في قوله : ﴿ وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

وشرفهم بالنصر والتأييد في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] .

وشرفهم بالنجاة من الشدائد ، وبالرزق من الحلال في قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ، قال أبو ذر رضي الله عنه : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال : «لو أن الناس كلهم عملوا بها لكفتمهم»^(١) .

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٦٠٣) ، وابن ماجه (٤٢٢٠) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٧٨) ، والدارمي في «السنن» (٢٧٢٥) من طريق أبي السليل ضريب بن نفير ، عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً ، به . وصححه ابن حبان (٦٦٦٩) ، والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٤٩٢) .

وشرف الله المتقين بقبول أعمالهم حيث يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مَنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وشرفهم بالإكرام والإعزاز عنده فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

وشرفهم أيضاً بالنجاة من النار حيث قال عز من قائل: ﴿وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وشرفهم بالخلود في الجنة في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الدالة على شرف المتقين، ونكتفي بهذا القدر فيما يرجع للتقوى والمتقين.

قال الله ﷻ: ﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبَظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

الإنفاق:

وصف الله سبحانه المتقين الذين أعدت لهم الجنة بأوصاف:

أول هذه الأوصاف: الإنفاق في السراء والضراء، السراء: الحالة التي تسر، والضراء: الحالة التي تضر.

والمنفقون الممدحون في هذه الآية الكريمة هم الذين ينفقون أموالهم في جميع الأحوال، في النشاط وفي المكروه، في الشدة وفي الرخاء، في الصحة وفي المرض، في السر وفي العلانية، في الليل وفي النهار، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ٢٧٤﴾ .

كان السلف الصالح لا تمنعهم حال فرح وسرور ، ولا حال محنة وبلاء من المعروف ، وكانوا يصرفون أموالهم في سبيل الله : إما للإنفاق على المحتاجين ، وإما لتجهيز المجاهدين ، ونعم ما يصرف فيه المال تجهيز المجاهدين ؛ لأن بالجهاد تكون عزة الإسلام ، والجهاد هو ذروة سنام الإسلام ، والله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين الجهاد بالأموال وبالأَنْفُس .

لكن في عصرنا هذا الحروب تحتاج إلى فن ، وتحتاج إلى تدريب ، وبما أن الناس لا يمكن أن يشاركوا كلهم في الجهاد بأنفسهم ، فالواجب عليهم أن يشاركوا بأموالهم ، وخصوصاً فيما يرجع لتحرير بيت المقدس الذي دنسه الصهاينة ، فالجهاد يكون بالنفس وبالمال .

وكان السلف الصالح أيضاً يصرفون أموالهم للإنفاق على طلبة العلم ولإنشاء المشاريع الخيرية وهكذا .

وكل واحد ينفق حسب استطاعته ، وحسب قدرته كما قال الله تعالى في شأن النساء المعتدات فيما يرجع لحقوقهن : ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا﴾ [الطلاق : ٧] .

ولقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات تحث الناس على الإنفاق ، ووردت أحاديث نبوية شريفة تحث الناس على الإنفاق .

فما ورد في القرآن الكريم ، قول الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ومما ورد أيضًا قول الله تعالى :

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ومما ورد أيضًا قول الله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه : «أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان يملك كثيرًا من النخل بالمدينة ذا ثروة طائلة ، وكانت عنده حديقة جميلة مهمة جدًا يحبها كثيرًا تسمى بيرحاء ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل إلى هذه الحديقة ليشرب من ماء فيها طيب ، فلما نزلت هذه الآية ؛ جاء أبو طلحة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن الله تعالى يقول : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وإني أردت أن أتصدق بها وأجعلها ذخرًا وبرًا وأدخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فأشار عليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقسمها بين أقاربه ، فوزعها أبو طلحة بين أقاربه وبنو عمه» .

ومما ورد في هذا الموضوع قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : «دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ؛ أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك» .

وفي الحديث المتفق عليه : «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» .

وروى الشيخان رضي الله عنهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما من يوم يصبح فيه العبد إلا ملكان يتزلاان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا» ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

لكن نرى الله ﷻ يجعل في مقدمة أوصاف المتقين : الإنفاق لماذا؟
لأمرين اثنين :

الأمر الأول : أنه في مقابلة الربا ، فالربا منهي عنه لأن فيه استغلال الغني حاجة المعوز ، والإنفاق مأمور به لأن فيه إعانة للمحتاج ، ولهذا ما ذكر الله ﷻ في القرآن الربا إلا قبحه ، ومدح معه الزكاة ، قال الله في سورة البقرة : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، وقال في سورة الروم : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وََمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] .

الأمر الثاني : أن الإنفاق في سبيل الله أدل على التقوى ، وأشق على النفوس ، وفيه نفع عظيم للناس ، فهو أنفع للناس من سائر الأعمال .

كظم الغيظ والعفو:

قال الله ﷻ :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، هذان الوصفان الجليلان من أوصاف المتقين الذين أعدت لهم الجنة ، وهما : كظم الغيظ والعفو عن الناس .

كظم الغيظ:

الغيظ هو هيجان طبع الإنسان عندما يرى شيئاً يكرهه ، والفرق بين الغيظ والغضب : أن الغضب تتبعه إرادة الانتقام ، وليس كذلك الغيظ ، وهناك من قال : إن الغضب حالة نفسية تظهر آثارها على الجوارح والبشرة من غير اختيار الإنسان .

قال الراغب في «مفرداته»: والغيظ أشد الغضب وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه . ويقال : فلان كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً غمًا وحزنًا ، قال الله تعالى : ﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٨٤] .

قال ابن عطية في «تفسيره»: الغيظ أصل الغضب ، وكثيرًا ما يتلازمان . لكن توهم البعض أن الغيظ والغضب مترادفان ، بحيث يصح إطلاق أحدهما على الآخر وليس الأمر كذلك ؛ لأن الغضب كما ذكرنا حالة نفسية تظهر آثارها على الجوارح ، ثم قال : ويصح ويجوز إسناد الغضب إلى الله ، ولا يجوز إسناد الغيظ إليه ، فغضب الله معناه : عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم ، ذلك الأثر الذي يحدث هو غضب الله ﷻ .

العفو:

أما العفو فلقد ذكر أبو بكر بن العربي في كتابه : «أحكام القرآن» في الجزء الأول عند تفسير قول الله تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

ذكر أن للعفو في موارد اللغة معان : الطلب والإسقاط والعطاء والذهاب والكثرة . هذه هي المعاني الخمسة ، لكن ما هو المعنى المناسب للآية التي نفسرها الآن : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ ؟

الإسقاط عدم المؤاخذه ، هذا هو المعنى المناسب في هذا المقام .

﴿وَالْكَظِيمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، قال الرازي في «تفسيره» عند تفسير قول الله تعالى : ﴿وَالْكَظِيمِينَ الْغَيْظَ﴾ ، قال : هم الذين يكونون غيظهم عن الأعضاء ، ويردونه في أجوافهم ، وهذا وصف يعتبر

من أقسام الحلم والصبر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقال في قول الله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: نقل عن القفال أنه قال: يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ذم فعل المشركين في أكل الربا، فنهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عن ذلك، وأمرهم بالعفو عن المعسرين.

ويؤيد هذا ما ذكر عقب قصة الربا في سورة البقرة حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، فالمؤمنون يجب عليهم إذا كان عندهم مدين فهذا المدين إذا كان دينه إلى أجل وانتهى الأجل وكان معسراً وثبت عسره يجب أن لا يقولوا له: إما أن تقضي وإما أن تربي. كما كان يفعل المشركون، بل يجب عليهم أن يؤجلوه وأن يعفوا عنه كان ذلك أحسن، وصدق الله العظيم: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال: ويحتمل أن يكون هذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال: ويمكن أن تكون الآية تتحدث عن غضب رسول الله ﷺ يوم أحد، لما انصرف الناس من المعركة، ووجد عمه حمزة قد مثل به، اغتاز رسول الله ﷺ وقال: «لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فدعاه الله تعالى إلى العفو، وإن شاء أن يعاقب فليعاقب بالمثل، وإن صبر كان خيراً له، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ [النحل: ١٢٧].

كان ﷺ سيد العافين ، فقد عفا في مواطن كثيرة :

عفا عن الرماة في غزوة أحد لما خالفوا أمره ، وغادروا المكان الذي عينه رسول الله ﷺ لهم من الجبل .

وعفا أعظم عفو على مشركي قريش لما فتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة الفتح المبين ، خرج رسول الله ﷺ من جوف الكعبة ، ثم طاف ، ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، والناس ينظرون ماذا سيفعل محمد عليه الصلاة والسلام بكفار قريش ، ثم قال ﷺ : « يا معشر قريش ! ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فالعفو عند المقدرة واجب ، وعلى كل حال فالآية عامة ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل مسلم أمره الله سبحانه وتعالى بالعفو . ولقد وردت آيات كثيرة وأحاديث نبوية شريفة في كظم الغيظ ، وفي العفو عن الناس :

قال الله ﷻ في سورة الشورى : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقال تعالى في سورة التغابن : ﴿ وَإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْصَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٤] .

وقال تعالى في سورة النور : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ ۚ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال في سورة المائدة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ^٤ إِنَّ اللَّهَ سَحِيبُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

ووردت أحاديث نبوية كريمة من جملتها :

أن النبي ﷺ كما في «سنن أبي داود» قال ﷺ: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه»، وفي رواية أخرى: «أن ينفذه» لكن أن ينفذه أحسن لأنه ورد في حديث آخر: «على إنفاده»، من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً، ومن ترك لبس ثوب لجمال، وهو قادر كساه الله حلة الكرامة، ومن توج لله كساه الله تاج الملك».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء».

وروى الإمام أحمد في «مسنده»: «أن حارث بن قدامة السعدي جاء عند رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأقلل علي لعلي أعيه فقال ﷺ: لا تغضب فأعاد عليه فقال ﷺ لا تغضب وفي مسند الإمام أحمد أيضاً جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أوصيني فقال: لا تغضب، قال السائل: ففكرت حين قال الرسول ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله».

وفي «مسند الإمام أحمد» أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « إذا كان يوم القيامة ، ينادي مناد ، يقول : أين العافون عن الناس ، هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة »^(١) .

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» : « أن رجلاً جاء عند رسول الله ﷺ يسأله عن الإيمان ، قال : يا رسول الله ! ما الإيمان ؟ قال : الصبر والسماحة وحسن الخلق » .

وكان ﷺ يقول في دعائه : « اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي » .
وفي «مسند الإمام أحمد» رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب » ، هذا الحديث أيضاً رواه الشيخان من حديث مالك .

الصرعة : هو الذي يصرع الناس ، ويغلبهم ، فنقل إلى الذي يستطيع أن يصرع نفسه ويغلب نفسه ، ويقهرها ؛ لأن من استطاع أن يقهر نفسه يكون قد قهر أعدى أعدائه وشر خصومه ، ولقد قيل : أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .

قال الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ : ﴿ وَالْكَظِيمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، قول الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هذا يعتبر تذييلاً لمضمون الآيات السابقة ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(١) ذكره في «كنز العمال» (٧٠١٥) ونسبه لأبي الشيخ في «الثواب» عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، به .

وذكره ابن كثير في «التفسير» (٢/ ١٠٣) عن الضحاك ، عن ابن عباس مرفوعاً ، وانظر «تحفة التحصيل» لابن العراقي (١/ ١٥٥) .

والتذييل في اللغة الشيء ذيلًا للآخر ، وفي الاصطلاح أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴾ [سبأ: ١٧] ، فهل نجازي إلا الكفور هو تذييل لما سبق كذلك ، قول الله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] .

الإحسان :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الإحسان : هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق المستلزم لحسنها الوصفي والذاتي ، وقد فسر في حديث جبريل : فسر النبي ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه » .

ويطلق الإحسان ويراد به الإنعام على الغير على وجه يكون عاريًا من القبح ، ويحمل هنا على الإحسان إلى الغير والإنعام على الغير ، ويؤيد هذا ما ذكره البيهقي رحمه الله : « ذكر أن جارية لعلي بن الحسين رضي الله عنه كانت تخدمه ، وكانت تأتي له بوضوئه ، ذات يوم أتت بالوضوء ليتوضأ فأخذت تفرغ عليه وهو يتوضأ فسقط الإبريق فشجه فرفع رأسه ، فقالت : قال الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ، فقال : كظمت غيظي ، ثم قالت : قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، فقال : لقد عفا الله عنك ، وفي رواية أخرى : لقد عفوت عنك ، ثم قالت : قال الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فقال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى » .

والإحسان إلى الغير يتضمن أمرين : يتضمن النفع ودفع الضرر ، فلا يمكن أن نكون قد أحسنا إلى الغير ، إلا إذا نفعناه ودفعنا عنه الضرر ، ولذلك ذكر الله تعالى الوصفين معًا .

فالنفع يتمثل في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ،
 ودفع الضرر يتمثل في قول الله ﷻ : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ
 النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قال الله ﷻ : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
 فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

في «تفسير الرازي» ما مضمونه : وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها ، ذلكم أن
 الله سبحانه وتعالى أعد جنته للمتقين فبين هنا أن المتقين صنفان :

صنف أقبلوا على الطاعة وعلى الإخلاص والعبادة وهؤلاء هم المشار
 إليهم بقول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ
 الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

الصنف الثاني : عباد أذنبوا لكن ندموا واعترفوا بذنوبهم ثم تابوا
 وأصلحوا ورجعوا إلى الطريق المستقيم ، هؤلاء يعتبرون متقين ويلتحقون
 بركب الأولين .

فيكون المتقون : طائفة لزمّت الطاعة مدة طويلة ، وطائفة أذنبت ثم
 تابت ورجعت إلى الله .

التوبة :

وإذا كان الإنسان مطالبًا بالإحسان إلى غيره ، فكيف لا يكون مطالبًا
 بالإحسان إلى نفسه ، وإحسان الإنسان إلى نفسه يتمثل في كونه إذا أذنب
 يجب عليه أن يعترف بذنبه ، ويجب عليه أن يتوب ويرجع إلى الله ، وذلك
 إحسان منه إلى نفسه .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ، هذه الآية ذكر المفسرون أسبابًا في نزولها ، والسبب قد يتكرر وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فتحمل على كل من فعل فاحشة ، لكن نشير إلى بعض الأسباب التي ذكرها المفسرون في سبب نزول هذه الآية .

روي عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه قال : إن هذه الآية نزلت في نبهان التمار شخص كان يبيع التمر ، فجاءته امرأة حسناء فراودها عن نفسها ونال منها قبلة ، ثم ندم على ما فعل واعترف بذنبه ، فجاء عند رسول الله ﷺ يعلن توبته وندمه فنزلت : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ .

ونقل عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : جاء أصحاب رسول الله ﷺ عند رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ! كان بنو إسرائيل أكرم على الله منا ، حيث كان إذا أذنب منهم شخص أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على باب داره : اقطع أذنك مثلاً ، اجدع أنفك ، افعل كذا ، وكذا كفارة الذنب كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية توضح أن الأمة المحمدية هي أكرم على الله من غيرهم ، فكفارة ذنبهم سهلة ، إنما هي التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله ، فلا يفعلون شيئاً آخر .

وعلى أيّ ، هناك أسباب أخرى نمسك عن ذكرها نظراً لضيق المقام .

الفاحشة : هي الفعل المتناهية في القبح ، وحملها بعضهم على الزنا .

وظلم النفس الذنب مطلقاً ، فيكون عطفه على الفاحشة من باب عطف العام على الخاص ، وهناك من قال : المراد بها الكبيرة وظلم النفس المراد به الصغيرة ، وهناك من قال : إن الفاحشة ما يتعدى إلى الغير ، وظلم النفس ما لا يتعدى إلى الغير ، ومما يتعدى إلى الغير : إفشاء الذنب .

وإفشاء الذنب يعتبر من المجاهرة بالمعاصي ، روى الشيخان : البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل أمتي معافى إلا المجاهرين» ، وفي رواية أخرى : «كل أمتي معافاة إلا المجاهرين» من الإجهار ، كما في «صحيح مسلم» : «أن يعمل الرجل عملاً بالليل ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه فيكشف ستر الله عنه» .

هذا يعتبر قد جهر بالمعصية وإفشائه للذنب يعتبر دعوة للآخرين ليشاركوه في هذا العمل ويفعلوا مثله ، وإذا كان إفشاء الذنب يعتبر من المجاهرة بالمعاصي ، فكيف بالذين يتجاهرون بالمعاصي ويفعلونها علانية ولا يتسترون . فلقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألم بشيء منها فليستتر»^(١) .

ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر» أن هناك من العلماء من يرون أن الذنوب كلها تعتبر كبائر فليست هناك صغائر ، ومن هؤلاء إمام الحرمين ، وأبو بكر الباقلاني ، والمعتمد أن الذنوب قسمان : كبائر وصغائر ، بدليل قول الله تعالى : ﴿وَكُذِّبَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانُ﴾ [الحجرات : ٧] ، فجعلها رتباً ثلاثة ، وبدليل قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم : ٣٢] .

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤ / ٢٤٤ ، ٣٨٣) ، والبيهقي في «الكبرى» (٨ / ٣٣٠) من طريق يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، بنحوه . وأخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢ / ٢٤٨) من وجه آخر عن يحيى ، عن عبد الله بن دينار مرسلًا . قال الدارقطني : «المرسل ، أشبه» . انظر «التلخيص الحبير» (٤ / ٥٧) .

وأوضح دليل على تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ولقد اختلف العلماء في تحديد الكبيرة ما هي؟

وأتى ابن حجر الهيتمي في كتابه «الزواجر» بتعاريف متعددة تقتصر منها على تعريفين:

التعريف الأول: أن الكبيرة هي كل ذنب ورد فيه وعيد شديد بخصوصه، من الكتاب والسنة.

التعريف الثاني: أن الكبيرة ما فيها حد من الحدود.

ولكن التعريف الأول يكون أشمل وأعم؛ لأن هناك كبائر لا حد فيها.

هناك كبائر فيها حد، كشرب الخمر وغير ذلك، وهناك كبائر لا حد فيها، كالغيبة والنميمة فالتعريف الأول هو أشمل.

وهناك من العلماء من حاولوا حصر الكبائر فجعلوها سبعة واستدلوا على ذلك بحديث رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١).

ونقل عن ابن عباس أنه قال: إن الكبائر هي التي ذكرت في سورة النساء من أولها، إلى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

ونقل عنه أيضًا، أنها إلى السبعين أقرب.

ونقل عن تلميذه سعيد بن جبير، أنها إلى السبعمائة أقرب، أي باعتبار أصناف أنواعها.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، به.

المحاضرة السادسة والثلاثون:

اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق

قال الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وبالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، إلى أن قال من «سننه الكبرى» : حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا شريح بن يزييد الحضرمي ، قال : أخبرني شعيب بن أبي حمزة قال : أخبرني محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رحمتهما قال : «كان النبي ﷺ إذا استفتح الصلاة كبر ثم قال : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وقني سيئ الأعمال وسيئ الأخلاق ، لا يقي سيئها إلا أنت» .

تمهيد

تطاول بلا منطق :

كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، أولئك الذين يتطاولون على دراسة القرآن العظيم من غير المؤمنين به ، ويخيلون أنهم في دراستهم تلك يهتدون إلى الحق أو يهدون إليه حين يسندون القرآن العظيم إلى النبي سيدنا محمد ﷺ ، وحين يضعون اسمه الشريف من التراجم التي يصدرونها للقرآن العظيم بالموضع الذي يوضع فيه اسم المؤلف من الكتب المنشورة .

عظمت فرية هذه التي يفترونها ، ليست عظيمة في الافتراء والبهتان ؛ لأنهم يفترونها على الإسلام والقرآن فحسب ، بل إنها وراء ذلك فرية حتى على الحق والعقل ، وإنهم في صنيعهم هذا يتظاهرون بما يتظاهرون به من ادعاء المنهجية والموضوعية في دراسة القرآن العظيم ، وما أبعد هذا الصنيع المنكر عن المنهجية وعن الموضوعية .

فإن إسناد القرآن العظيم للنبي محمد ﷺ باعتبار أن القرآن يرجع إليه ، رجوع الآثار إلى منشئها ، والكلام إلى محريه ، إنما هو إخلال عظيم بما يريدون أن ينتسبوا إليه ويتظاهروا به من المنهجية ومن الموضوعية . فهو من جهة : إخلال بالمنهجية ، ومن أخرى : خروج عن الموضوعية ؛ لأن المنهجية تقتضي أن يصور القرآن العظيم للناس وعلى ما هو عليه في ذاته ، ووقعه بدون فتح مجال لإدخال الادعاءات الاعتقادية التي هي راجعة إلى معاني الكفر بالإسلام والجحود بالقرآن العظيم .

والموضوعية تقتضي أن لا يدخل في دراسة الموضوع أي عنصر من العناصر التي هي آتية من خارج الموضوع ، وإنما تقتضي أن يقتصر على الموضوع كما هو في ذاته حتى تكون دراسته دراسة مقتصرة عليه ، متجافية عما يمكن أن يثار حول ذلك الموضوع من الدعاوى والمجادلات ، فنسبة القرآن العظيم إلى النبي ﷺ هي كما لا يخفى مدار المعركة بين الإسلام وبين جاحديه ومناوئي دعوته ومعانديها .

وقد كان هذا الأمر مدار المعركة بين الدعوة التي جاء بها النبي ﷺ في حياته وبين الذين انتصبوا لمقاومتها من المشركين والمكذبين والمعاندين ؛ لأن الأمر بني على أن النبي ﷺ أتى الناس بكلام يخبرهم أنه تلقاه عن ربه تعالى بطريق الوحي ، وأنه أمر بتبليغه إليهم ، وأنه بلغ ذلك إليهم ، وأقام الحجة على صحة ما يدعي من أنه ليس من عنده ، وأن الله تعالى هو الذي أوحى به إليه ، وبين القرآن العظيم بلسان الصدق أن هذا الكلام ما كان له أن يكون من عند محمد ﷺ بعد أن أقام الآيات البينات على أن بشرًا لا يستطيع أن يأتي بمثل ذلك الكلام ، وأن محمدًا ﷺ بما عرف الناس قبل نبوته من أمانته وصدقه أبعد الناس من أن يفترى على الله تعالى كذبًا ، وأنه بما عرف الناس من أميته وعدم مخالطته للكتاب يكون أبعد الناس عن أن يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام بما اشتمل عليه من المعاني ، وبما تعلق به من الإشارات إلى العقائد ، وإلى الأصول النظرية العليا التي بنيت على ما جاء في الكتب السابقة ، وسمت عليها فوق ذلك درجات .

فكان موقف المعاندين للدعوة المحمدية مبنياً على الافتراء بالالتهام والتكذيب ، إذ كانوا يحاولون جهدهم أن يسندوا هذا الأمر إلى محمد ﷺ ؛ لأن في إسناد هذا الأمر إليه نقضاً لدعوى رسالته ، وتنزيلاً لمقامه العظيم - جل مقامه العظيم عن ذلك - فعوض أن يسندوا إليه أمر

الرسالة ويقروا له بتلقي الوحي ، فإنهم يدعون في ذلك أنه غير صادق فيما يبلغ عن الله تعالى ، وأن هذا الذي أتى به من عنده ، وأنه ليس إلا أساطير الأولين اكتتبها ، إلى غير ذلك مما كانوا يتآمرون به ضد النبي ﷺ في حياته شر التآمر ، فهؤلاء الذين يدعون اليوم إسناد القرآن إلى النبي ﷺ إنما يثيرون هذا الاتهام الذي تعلق به المشركون حتى قامت عليهم حجة القرآن العظيم ، بأنه ما كان له أن يأتي بمثله لو لم يكن ذلك وحياً موحى إليه من الله تعالى .

وإذا كان هؤلاء الذين يحيون هذا الاتهام اليوم ليسوا من المؤمنين بالرسالة المحمدية ، وليسوا من المقرين بأن القرآن وحي من الله تعالى ، فإننا لا نطلب منهم أن يكونوا مؤمنين بذلك ، ولا نكرههم على الإيمان بما كفروا به ، وإنما نجادهم مجادلة علمية نظرية نحاول أن نردهم فيها إلى ما يتعلقون به من المنهجية والموضوعية ، فنطلب منهم أن يجعلوا القرآن موضوع دراستهم وأن يتقدموا لمعرفة القرآن العظيم على ما هو عليه في ذاته ، وكما قدم القرآن العظيم للناس من لدن الذي أتى به ﷺ ، على معنى أنه ناقل له ومبلغ لا على معنى أنه منشئ له ومبتكر .

وإذا كان المطلوب من هؤلاء أن يرجعوا إلى معرفة القرآن العظيم ، وأن يصوروا القرآن العظيم على ما هو عليه في ذاته ، وأن يبرزوا ماهيته وحقيقته الذاتية على نحو ما برز به هذا الكتاب الكريم للناس فإن أول ما يطلبون به في ذلك أن يحققوا ضبط ماهية القرآن العظيم ، أي أن يعرفوه ويعرفوه الناس تعريفاً دقيقاً ، على ما ينبغي لكل من انتصب أن يدرس موضوعاً من المواضيع النظرية .

تعريف القرآن الكريم:

ومعلوم أن القرآن العظيم عندنا معاشر المسلمين غني عن التعريف ؛ لأنه قد استقر من إيماننا بالمنزلة الأولى من عموم النواحي التي استقر منها القرآن بالمقام الأول في نفوس المؤمنين ، ولذلك كان تعريف القرآن العظيم غير آخذ حظه في الدراسات التي تعلق بالقرآن العظيم من طرف المؤمنين به من المسلمين ؛ لأنهم يجدون أنفسهم في غنى عن ذلك بما هو معروف .

فإذا قيل : إن تعريف العلم ، وإن تعريف الحد الذي هو التعريف ، أمور لا حاجة إليها ؛ لأن المعرفة الحاصلة بها عند جميع الناس تغني عن محاولة تعريفها ، فمن باب أولى أن يقال في القرآن العظيم إنه بهذه المنزلة وأزيد ؛ لأن مقام معرفته ، والإيمان به ، واليقين بصدقه ، وتمييزه عن كل ما يمكن أن يشبهه أو يتصل به ، قد أصبح أمراً من المعلوم الضروري عند المسلمين ، ضرورة أنه أساس الإيمان .

ولذلك فإننا نجد علماءنا اختلفت طرائقهم في تعريف القرآن العظيم ، وليس ذلك في حقيقة الأمر من الاختلاف في تعريف القرآن ؛ لأنهم ما كانوا في ذلك يحاولون تعريف القرآن العظيم في ذاته وإنما كانت التعاريف التي اتجهت إلى تمييز القرآن العظيم تعاريف مختلفة باختلاف العلوم ، ومتجهة إلى نواح مختلفة باختلاف ما يقصد إليه كل علم من العلوم من التعلق بالقرآن العظيم من جهة من جهاته وناحية من نواحيه .

ولذلك فإننا نجد تعريف القرآن عند الفقهاء والأصوليين غير تعريفه عند المتكلمين ، ونجد تعريفه عند البلغاء غير تعريفه عند الفقهاء وعند المتكلمين ، وذلك لأن كل طائفة من هؤلاء العلماء لم تكن تقصد إلى

تعريف القرآن العظيم ، إنما كانت قاصدة إلى تعريف الناحية التي يتعلق منها القرآن بموضوعها فحسب .

ولذلك نظر الفقهاء والأصوليون الذين موضوع نظرهم الأحكام الفرعية إلى ما يتعلق من الأحكام الفرعية بالقرآن العظيم باعتبار كونه متعبداً به ، فأدرجوا ذلك في تعريفه .

وعلماء الكلام الذين موضوع علمهم إقامة الأدلة اليقينية على العقائد الدينية نظروا إليه باعتبار كونه متعلق صفة من صفات الله تعالى ، فعرفوا الصفة الأزلية لله تعالى ، التي هي صفة الكلام التي صدر عنها القرآن تعريفاً يرجع إلى صفة أزلية من صفات الله تعالى ، وبناء على ذلك بنوا مسألة أن القرآن ليس بمخلوق باعتبار أنه صفة من صفات الله تعالى ، ولا يليق قيام الحادث بالقديم .

وعلماء البلاغة لما كانوا يدرسون القرآن العظيم للكشف عن أوجه إعجازه ، فإنهم أيضاً نظروا إليه من هذه الناحية فاعتبروه الكلام البالغ من مطابقة مقتضى الحال حد الإعجاز ، وبنوا على ذلك المقاييس التي وزنوا بها القرآن العظيم بالآثار البلاغية في اللغة العربية حتى بينوا أن المبلغ من الإحاطة بمطابقة مقتضى الحال الذي توفر في القرآن العظيم يستحيل أن يتوفر في غيره من الكلام ؛ لأنه لا يمكن أن يتحقق إلا إذا استند إلى علم محيط بجميع مقتضيات الأحوال ، وإلى إرادة طائلة يستطيع بها أن يطابق كل مقتضى من تلك المقتضيات بصورة لا يمكن أن تتأتى لعلم البشر ولا للمقدرات البشرية .

وعلى ذلك تشتت الطرائق قدداً في تعريف القرآن العظيم ، والذي يتعلق بظاهر تلك الطرائق يعتبرها أوجهًا مختلفة أو محاولات متعددة لتعريف القرآن .

وما هي في الحقيقة إلا محاولات راجعة - ومصيبة فيما ترجع إليه - إلى نواح معينة من القرآن ؛ لأنهم لم يحاولوا أن يعرفوا القرآن من حيث هو لأنهم كانوا مستغنين عن ذلك بما هو معلوم من الدين بالضرورة .

أما إذا وضعنا القرآن العظيم بموضع الدراسة والجدل العلمي فيما بيننا معشر المسلمين وبين غيرنا من الذين لا يؤمنون إيماننا بالقرآن العظيم ، فإننا لا محالة نكون مضطرين إلى أن نسلك ما استغنى أسلافنا من العلماء المتقدمين عن سلوكه من المناهج في تعريف القرآن العظيم ، وأن نعتمد إلى تعريف القرآن العظيم تعريفاً موضوعياً .

فإذا كانت التعاريف التي اختلفت بينها طرائق العلماء التي أشرنا إليها تعاريف نسبية لا ذاتية يصدق عليها في مصطلحنا المنطقي أنها من التعريف بالرسم الذي هو تعريف ناقص ، فإننا نريد أن نعرف القرآن العظيم تعريفاً ذاتياً حقيقياً يكون في مصطلحنا المنطقي من باب التعريف الكامل التام الذي هو التعريف بالحد لا التعريف بالرسم ، وهو التعريف الذي يميز الماهية على ما هي عليه ببيان ما تشترك فيه مع غيرها من المواهي القريبة منها ، ثم بتمييزها بالفصل بعد الفصل عن كل ما يتصل بها في كل فصل من تلك الفصول حتى لا تقف إلا على الماهية التي يراد إبرازها منفصلة عن غيرها متميزة عما عداها .

وبذلك فإنه يمكن أن يقال في القرآن العظيم بالنظر إلى ذاته ، أي بالنظر إلى ما يقتضيه نص القرآن العظيم ، وبدون إدخال أي عنصر خارجي عن الموضوع من العناصر الاعتقادية ، سواء من عناصر المؤمنين أو من عناصر الجاحدين ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى ذات القرآن وأن ندرسه وأن نستخلص ما يصف به هذا الكتاب نفسه ، وما يجعل لنفسه من مقام بمقارنته بغيره من ضروب الكلام وأصنافه ، فنجد أن القرآن العظيم يمكن أن يعطينا من ذاته تعريفاً حدياً حقيقياً ، يمكن أن نعبر عنه بمصطلح اليوم بأنه تعريف موضوعي ؛ لأنه ناشئ من وصف القرآن على ما هو عليه ، أي على نحو ما يصف القرآن نفسه حين تقول : إن القرآن هو كلام الله تعالى الذي نزل على محمد ﷺ مراداً به الإعجاز ، وإذا أخذنا تعريف القرآن على هذا الوجه ورمينا به إلى إقامة تعريف حدي أو إلى بيان حقيقة موضوعية للقرآن العظيم بحسب ما هو في ذاته وواقعه .

فالركن الأول من هذه الأركان : هو أنه «كلام الله» ، وذلك هو الذي اعتبرناه كما يقول المنطقة جنساً في التعريف ؛ لأنه يعم المعرف المقصود بالدراسة ويعم غيره من كل ما يتصل به من قريب في هذه الماهية وهي كلام الله .

والركن الثاني : هو ما يشير إليه الفصل الأول من الفصلين الملتحقين بجنس التعريف وهو أنه «مقصود به الإعجاز» . فإذا نظرنا إلى الجنس وهو كلام الله تعالى اعتبرنا الفصلين الفارقين اللذين يحترز بهما عن كل ما يمكن أن يتصل بجنس القرآن العظيم ، وليس منه في ماهية النوعية ، فإننا نجد أن هذا التعريف يثير حقائق خمسة هي :

١ - وجود الله تعالى .

٢- وصدور الكلام عنه .

٣- وإثبات الوحي الذي هو تلقي عبد من عباده لكلامه بطريق من طرق الإدراك، زائد على طرق الإدراك العادية للإنسان التي هي : الحاسة ، والغريزة ، والعقل ، فهذا طريق أسمى من هذه يمكن أن يدرك به بعض من خصه الله تعالى بطريق الاصطفاء كلام الله تعالى وهذا هو معنى الوحي .

٤- ثم الحقيقة الرابعة هي وجود الموحى إليه وهو محمد ﷺ .

٥- والحقيقة الخامسة هي وجود القصد الذي هو أن يكون هذا الكلام معجزة ، أي أمراً خارقاً للعادة ، قائماً بين يدي النبي محمد ﷺ ، ليكون برهاناً قائماً على صدقه ، ومؤيداً معنى قوله تعالى : «صدق عبي فيما يبلغ عني» ، ومعلوم أن هذه الأمور وهي وجود الله تعالى ، وأنه متكلم ، وأن الوحي موجود ، وأن محمداً ﷺ رسول ، وأن القرآن معجزة وحجة قائمة له ، إنما هي العناصر الأولى والأركان الأساسية التي تقوم عليها الدعوة الإسلامية ، وهو من هذه الناحية يشير إلى أن القرآن العظيم لما اتصل باعتباره حقيقته العامة باعتبار الجنس الذي شمله ويشمل غيره ، وهو «كلام الله تعالى» ، وباعتبار الفصول التي التحقت بذلك الجنس وهي : أنه أوحى به على محمد ﷺ ، وأنه قصد به الإعجاز ، فإننا نجد أن هذا يضع القرآن العظيم موضع المقارنة بثلاثة أشياء :

أولها : الكتب السماوية الأخرى التي هي كلام الله تعالى الذي نزل به الوحي .

ثانيها : أنواع الوحي المحمدي التي هي غير القرآن العظيم ، والتي تجمعها كلمة السنة : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى﴾ [النجم : ٤] .

والثالث : هو ضروب الكلام العربي وفنون الآثار الأدبية التي وضع القرآن العظيم نفسه موضع المقارنة بها ، لأجل أن يتبين أنه ليس من صنع البشر ، ولتقوم الحجة على تصديق النبي ﷺ ، وذلك هو الذي عبر عنه البلغاء بحد الإعجاز .

ولسنا في هذا المقام متعلقين بإيراد شرح المقارنات التي يمكن أن تجري بين القرآن العظيم وبين أنواع الوحي المحمدي وهي السنة ، ولا المقارنات التي تجري بين القرآن العظيم وبين فنون الأدب العربي ، وهو معنى الإعجاز الذي قام عليه علم البلاغة .

ولكننا نقتصر من ذلك على مقارنة القرآن بالكتب السماوية مقارنة بسيطة سريعة مقتضبة لأجل أن نتوصل فيها إلى بيان نسبة النبي محمد ﷺ من القرآن حتى يتبين بالقطع أنه لا يمكن أن يكون القرآن العظيم مضافاً إلى النبي ﷺ كما تضاف الآثار إلى منشئها ، وهذه المقارنة التي تجري بين القرآن وبين الكتب السماوية إنما ترجع إلى نواح من المقارنة :

الناحية الأولى : هي ناحية القصد .

والثانية : هي طريقة النقل .

والثالثة : هي ناحية اللغة .

والرابعة : هي ناحية الأسلوب .

أما بالنظر إلى الناحية الأولى : وهي ناحية القصد ، فإننا حين ننظر إلى القرآن العظيم في ذاته نظراً موضوعياً بحسب ما يدل عليه أصله ، وننظر إلى ما لدينا من الكتب السماوية الأخرى بقطع النظر عن كونها صحيحة أو غير صحيحة ، سالمة أو محرفة - بقطع النظر عن ذلك كله - ونجري مقارنة موضوعية بحسب

ما اشتمل عليه نص كل كتاب من الكتب السماوية ، مما يبين معنى القصد من إنزال ذلك الكتاب ، فإننا نجد أن قصد الإعجاز من إنزال القرآن العظيم هو أمر ثابت في القرآن العظيم بذاته .

فالقرآن هو الذي وصف نفسه بأنه معجز ، وهو الذي تحدى الناس ودعاهم إلى معارضته حتى يكون عجزهم عن المعارضة برهاناً على صدق النبي ﷺ فيما يدعي ، وأمانته فيما يبلغ ، وهو الذي جعل كل جزء من أجزائه آية أي معجزة كآيات التي أوتيتها الأنبياء من قبل .

فإذا كان القرآن العظيم معجزاً بحسب موضوعيته أي بحسب ما يدل عليه القرآن في ذاته ، فإننا حين نرجع إلى الكتب السماوية الأخرى نجدها خالية تماماً عن الإشارة إلى هذا المعنى من الإعجاز ، فما جاءت التوراة ولا كتب أنبياء بني إسرائيل التي بعد التوراة ، ولا جاء الإنجيل - على اختلاف نصوص الإنجيل بحسب اختلاف رواته من الحواريين - مشيراً إلى قليل أو كثير من هذا المعنى .

وما من شك في أن كل نبي من الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم إنما كان مؤيداً بمعجزة ، ولكن الفرق بين القرآن وبين الكتب الأخرى : أن الكتب الأخرى تذكر المعجزات وتتحدى بالمعجزات الواقعة على معنى أنها أمور خارجة عن نص كتاب الدعوة ومحكية فيه ، ومشار إلى وقوعها على وجه الحكاية .

وأما ادعاء أن ذلك الكلام المتضمن للدعوة الإلهية التي بلغها النبي ﷺ هو بذاته معجزة ، وأمر خارق للعادة يتحدى به ، وتطلب من المنكرين والمعاندين معارضته على وجه التعجيز ، فإن هذا أمر لم تشتمل عليه الكتب

السمائية الأخرى ، ولذلك فإن القرآن من ناحية القصد يمتاز بأنه كتاب إعجاز ، وهذا أمر لا يشترك معه فيه كتاب من الكتب السماوية الأخرى .

وأما الناحية الثانية : وهي طريقة النقل ، وهذه تابعة للمعنى الأول ؛ لأنها مرتبطة بقصد الإعجاز ، فإنه لا يخفى أن القرآن العظيم لما كان معجزة فإنه كان موجهًا إلى المؤمنين والجاحدين على السواء ، بل إنه كان موجهًا إلى الجاحدين أكثر من توجيهه إلى المؤمنين ؛ لأنهم المطلوبون بمعارضته ، المراد إفحامهم بعجزهم عن المعارضة ، وبذلك كان موجهًا إليهم ، وكان النبي ﷺ يتحداهم به ، ويتلوه على رءوسهم ، وكان يفتخر عليهم بأنهم عجزوا عن معارضته ، وكانت آيات القرآن العظيم بذاته تستخلص من ذلك العجز حجة قائمة وبرهانًا قاطعًا على أن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ ، وإنما هو من كلام الله .

ولذلك كان الناقلون للقرآن العظيم عبارة عن عنصرين مختلفين متعددين متنافرين ، لا يمكن بينهما ائتلاف ، ولا يمكن أن يجمعهما تأمر ؛ لأن المعنى الذي يمكن أن يجمع الناس من التأمر على شيء أو الاتفاق على اختلاف أمر غير موجود إنما يكون مبنياً على الاتفاق في الغاية والاتفاق في المصلحة ، وهذان العنصران لا توافق ولا تجانس بينهما ، ولذلك فإن اتفاق العنصرين على النقل قد كان آية على أن النص القرآني إنما هو النص الحقيقي الذي سلم ببلوغه إليه من لدن محمد ﷺ ناقلًا إياه عن الوحي : الكافرون والمؤمنون على السواء ، وبذلك تحقق فيه معنى التواتر الذي هو طريق قطعي لإثبات الواقع ، وليس التواتر راجعًا على عدد الناقلين ولا منوطًا بالكثرة والقلة ، كما حققه المحققون من علماء الكلام ومن الأصوليين ، ولكنه راجع إلى هذا المعنى الذي عبر عنه الأصوليون بأنه اتفاق قوم

يستحيل تواطؤهم على الكذب ، واستحالة التواطؤ على الكذب لا تأتي من العدد ومن الكثرة وإنما تأتي من اختلاف الغايات ، واختلاف المقومات الذهنية التي بمقتضاها لا يمكن أن يجمع تأمرهم بين طرفيهم .

فالقرآن العظيم حينئذ منقول بطريق التواتر والاشتهار ، بطريق اجتماع عليه المؤمن بالقرآن وغير المؤمن به ، واعتمد نقله على السماع ، وعلى النقل اللفظي ، ولم يعتمد على الكتابة التي هي مظنة لإمكان التدليس ، ومحتاجة إلى دراسات عميقة ودقيقة ليتمكن إثبات نسبتها إلى عصرها ، وإنما هو أمر منقول بالسماع ، وما كانت كتابة المصاحف إلا عن سماع ، وما كانت كتابتها إلا لتسند النقل المسموع .

وقد مضت حياة النبي ﷺ وهو يتلو القرآن والناس يتلون به بين يديه ﷺ ، والمعارضون منكبون عليه طمعاً في إمكان معارضته ، أو تعلقاً بنقضه بما حاولوا نقضه به من الأمور الواهية التي تعلقوا بها ، في حال أن الكتب السماوية الأخرى إنما نقلت كما تدل على ذلك هي بنفسها بطريق الكتابة ، وكانت من فرد إلى فرد ؛ لأنها بمنزلة الوصايا والعهود ، وكانت كتابتها معرضة إلى ما يتعرض إليه الكتاب من الاندثار والضياع والحاجة إلى التحقيق بصورة جعلت نقل القرآن العظيم وهي طريقة غير متوفرة للكتب السماوية الأخرى بما ورد فيها هي بذاتها مما وقع من اختلاف ومن دواعي الاختلاف ، التي هي راجعة .

أولاً : إلى الاعتماد على الكتابة .

وثانياً : إلى الاستناد إلى أخبار الآحاد .

وأما الناحية الثالثة : وهي ناحية اللغة فإننا عندما ننظر إلى العصر الذي نزلت فيه الكتب السماوية ، ونرجع كل كتاب من الكتب السماوية إلى أصله ، ونكتفي في ذلك بأشهر الكتب السماوية ، وهي كتابا العهد القديم والعهد الجديد ، ثم ننظر أيضًا إلى القرآن العظيم بذلك الاعتبار ، فإننا نجد أن اللغة التي كانت لغة موسى ﷺ لما نزلت عليه التوراة ولغة قومه لما خاطبهم بالتوراة إنما هي كما يعرف من تاريخ اللغات السامية ، اللغة العبرانية القديمة أو العبرانية الأولى التي تعتبر الآن من اللغات المنقرضة البائدة ؛ لأن بني إسرائيل لما دخلوا العراق بلاد بابل في حالة الأسر اختلطت لغتهم باللغة السريانية اختلاطاً تولدت منه لغة جديدة هي المعبر عنها بالعبرانية الحديثة ، أو الآرامية ، وذلك كان في القرن السادس قبل الميلاد أي بعد رسالة موسى ﷺ بأكثر من ثمانية قرون .

وتلك اللغة وهي العبرانية الحديثة أو الآرامية هي التي يوجد بها أقدم نصوص التوراة التي توجد الآن عند المتعبدين بالتوراة المتدينين بها ، وهذا يقتضي أن نص التوراة الأول الذي ينتظر أن يكون بلغة عصره وهي العبرانية الأولى وهو نص ليس بموجود ، وأن هذا الموجود بأيدينا ليس إلا نقلًا أو حكاية أو تلخيصًا أو ترجمة للتوراة ، وأن نص التوراة الأصلي ولاسيما الأسفار الخمسة الأولى التي هي ما نزل على موسى من العهد القديم ، فإنها موجودة الآن باللغة الآرامية التي هي لغة نشأت بعد موسى بثمانية قرون ، وكذلك نجد في الأناجيل ؛ فإن المسيح ﷺ إنما بعث في بني إسرائيل ، وقد كانت لغتهم تلك اللغة التي نشأت لهم منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وهي اللغة الآرامية وبها تكلم المسيح ، وبها خطب ، وبها بلغ رسالته إلى الناس ، وبها استمع إليه حواريوه ، ولكن نصوص

الإنجيل التي نجدها الآن لا نجد منها نصًّا بالآرامية أبدًا، فأقدم نصوص الأناجيل هي بين نصوص بالسريانية ونصوص باليونانية، والحال أن المسيح عليه السلام ما نطق بالكلمة السريانية ولا بالكلمة اليونانية، وبذلك كان الموجود من الإنجيل مثل ما هو موجود من التوراة، هو عبارة عن حكايات وترجمات أو تلاخيص؛ لأن كلمة المسيح الحقيقية بالحرف الذي نطق به المسيح لا يمكن أن تكون باللغة السريانية ولا باللغة اليونانية.

أما القرآن العظيم فإن اللغة التي جاء بها والتي هو موجود بها يتلى بين الناس جميعًا، سواء في ذلك المصدقون به وغير المصدقين، إنما هي لغة عصره التي هي لغة الشعر الجاهلي، والتي هي اللغة العربية الجامعة التي انتظمت اللهجات القبلية المختلفة، والتي كانت لغة العصر الذي نزل فيه القرآن، وبها نطق النبي صلى الله عليه وسلم، وبها استمع إليه، فيقتضي هذا أن القرآن العظيم في نصه الأصلي في الحرف الذي نزل به كما يقتضيه عصره، وأن الكتب الأخرى إنما هي في ترجمات أخرى.

وأما الناحية الرابعة: وهي الأشد اتصالاً بموضوعنا الذي نقصد إليه ناحية الأسلوب: فأسلوب التعبير في القرآن العظيم قد بني على أن هذا الكلام إنما هو كلام الله تعالى، فالذي يسند الكلام إلى نفسه، والذي هو معاد ضمير المتكلم في القرآن العظيم بحسب ما تدل عليه الصيغة القرآنية دلالة موضوعية إنما هو الله تعالى.

والقرآن العظيم قد وصف صراحة بأنه كلام الله تعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم الذي يريدون أن يسندوا القرآن إليه ليس وجوده في النص القرآني إلا وجود المخاطب أو وجود المتحدث عنه، فالله تعالى يخاطبه أحيانًا بمثل

قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وبمثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٥]، وبمثل قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وبمثل قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، أو يتحدث عنه بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، أو قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أو بمثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

في حال أن النصوص الأخرى للكتب السماوية عندما نبحت عن شخص النبي نجده حاضراً في تلك النصوص باعتبار كونه هو المتكلم، وباعتبار أن ضمير المتكلم عائد إليه، وأن الله ليس مذكوراً في تلك الكتب إلا على معنى أنه يتحدث عنه، معرف به، مدعو إليه، أو على معنى أنه تعالى مخاطب متوجه إليه بالدعاء أو بالاستغفار أو التمجيد أو كما هو وارد في التوراة والإنجيل والזبور.

فإذا اتضح أن شخص الرسول ﷺ في القرآن العظيم هو خارج عن مقام التكلم، فإن الذي يحاول أن يسند القرآن إلى محمد ﷺ إنما هو يحاول أن يخرج عن الموضوعية؛ لأنه يصور القرآن على خلاف ما هو عليه، بحيث أن الذي يقرأ القرآن ثم يكون قد علم أن القرآن قد أسند إلى محمد ﷺ فإنه يجد نص القرآن العظيم متناقضاً مع هذا المدعى، وهذا ما أصبح به في نظرنا القرآن العظيم مشتملاً على معنى زائد على معنى الوحي، فالقرآن العظيم وحي، ولكنه يزيد على الوحي بأنه كلام الله تعالى الذي صدر عن ذاته العلية مباشرة، بالحرف الذي يعبر عن المعنى، بخلاف غير القرآن

العظيم من الوحي الذي تضمنته السنة الشريفة ، فإنه وحي من الله تعالى لا محالة ، ولكنه لا يشتمل على هذا الأمر الزائد على الوحي ، وهو أنه وحي بكلمة الله تعالى التي أصدرها على صفتها تلك مرادًا بها الإعجاز .

ولذلك فإن بعض العلماء المسلمين في مقام من مقامات المناظرة بينه وبين أحد دعاة الأديان الأخرى لما عرض عليه المتكلم بلسان الدين الآخر : هل يقبل المسلمون أن تجري على نصوص القرآن العظيم ومخطوطاته القديمة الدراسات العلمية التي تجري على مخطوطات العهد القديم ومخطوطات العهد الجديد؟

أجابه هذا العالم المسلم : بأن القرآن العظيم عند المسلمين ليس بمنزلة الكتب السماوية الأخرى عند الدينين الآخرين ، وليقرب له ذلك عرفه أن منزلة القرآن العظيم عند المسلمين إنما هي منزلة المسيح بذاته عند النصارى ؛ لأن القرآن العظيم هو كلمة الله ، والمسيح عند النصارى هو كما لا يخفى يعبرون عنه أيضًا بالكلمة ، كما عبر عنه القرآن العظيم ، وبذلك يكون هذا المعنى الزائد الذي اشتمل عليه القرآن العظيم ، زيادة على كونه وحيًا ، وهو أنه كلام الله تعالى على الحقيقة أمرًا يجعله مختلفًا اختلافًا واضحًا عن الكتب السماوية الأخرى ؛ لأن الكتب السماوية الأخرى إنما هي من تعبير الأنبياء أو من تعبير أصحابهم وحواريهم حكاية عنهم ، فمنزلتها عند الآخرين إنما تقابل بمنزلة السنة الشريفة عندنا ، وأما منزلة القرآن العظيم فليس لها ما يقابلها في الكتب السماوية الأخرى .

﴿ قل إن صلاتي ... ﴾ :

فإذا تقرر هذا فإن موقع الكلمة التي افتتحت بها الآية ، التي هي

موضوع دراستنا وتفسيرنا في هذا الحديث ، يتضح جلياً بمعرفة أن النبي ﷺ إنما ينزل في القرآن بمنزلة المخاطب المأمور ، وتلك هي كلمة : ﴿قُلْ﴾ ، وقد وردت هذه الكلمة ، وهي الأمر بالقول في مقام الافتتاح في كلام كثير من القرآن العظيم ، فكم من آية افتتحت بـ ﴿قُلْ﴾ ، وكم من سياق افتتح بـ ﴿قُلْ﴾ ، وتكررت فيه كلمة ﴿قُلْ﴾ .

وقد ذكر القاضي البيضاوي في تفسير سورة الإخلاص أن هذه الكلمة وهي : ﴿قُلْ﴾ قد يكون موضعها من بعض الآيات التي وردت فيها متعيناً بحيث لا يمكن أن تحدث ولا يمكن أن يفرض عدم ورودها ؛ لأنها لو حذفت أو فرض أنها لم ترد لأصبح المعنى منعكساً ومختلفاً ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون : ١] ، أو في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، وأحياناً يكون موقعها ممتنعاً بحيث لا يمكن أن تدخل على صدر الكلام ويكون دخولها عليه مخلاً بالمقام البلاغي ، أو موقعاً في عكس الموضوع ، وذلك كقوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد : ١] ، وقوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى﴾ ① ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح : ١] ، فإن هذا إنما هو اتجاه بالخطاب ابتداء إلى النبي ﷺ بصورة لا تحيز كونه هو قائله . أو حديث عمن يكون صدوره عنه ﷺ مخلاً بما هو عليه من مقام الأدب ، نظرًا إلى أنه يتعلق بتسفيه عمه أبي لهب ، ولأجل ذلك بين البيضاوي أن موقع ﴿قُلْ﴾ في مثل هذا إنما يكون ممتنعاً .

والصورة الثالثة : هي الصورة التي يستوي فيها موقع ﴿قُلْ﴾ بين الثبوت والامتناع ، بحيث يكون جائزاً إثباتها وجائزاً حذفها ، وذلك كما في

سورة الإخلاص ، وهذا هو ما وجه به القاضي البيضاوي اختلاف القراءتين بين القراءة المشهورة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، والقراءة التي لا تثبت ﴿قُلْ﴾ وتبتدئ باسم الجلالة : ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، والآية التي هي موضع تفسيرنا : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ ، هي آية يتبين من موقع افتتاحها بـ ﴿قُلْ﴾ أنها ترجع إلى حالة من الحالات المتقدمة ، وهي الحالة التي يتأكد فيها أن يكون الكلام مشتملاً عليها ، مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، وهي الصورة الأولى من الصور الثلاث التي أشار إليها البيضاوي .

موقع الآية من السياق :

وهذا الموقع لكلمة ﴿قُلْ﴾ في افتتاح الآية الكريمة لا يتبين على وجهه إلا إذا تبين موقع الآية من سياق الكلام الذي قبلها ، ولذلك فإنه ينبغي أن نستعرض هذا السياق حتى يتبين لنا عن عيان ملموس أن موقع ﴿قُلْ﴾ في صدر هذا الكلام إنما هو موقع متأكد كموقعها في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، فإن هذه الآية هي من سورة الأنعام ، ومعلوم أن سورة الأنعام سورة مكية بلا اختلاف ، وقد ذهب بعض علماء أسباب النزول إلى ادعاء أن آية معينة منها هي غير مكية ولكنها مدنية ، كما هو واقع في سور كثيرة من القرآن العظيم ، ولكن الذي عليه جمهور المفسرين ، وجمهور علماء السنة : أن سورة الأنعام كلها مكية ، ليس فيها مدني ، وأنها تتنظم سياقاً واحداً من أول السورة إلى آخرها ، وأنها نزلت جملة واحدة .

وقد استندوا في ذلك إلى الحديث الذي أخرجه الطبراني أن النبي ﷺ قال : «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة ، يشيعها سبعون ألف ملك ،

لهم زجل بالتسييح والتحميد^(١).

فإذا كانت سورة الأنعام مكية كلها ، وكانت قد نزلت مرة واحدة ، كما يشير إليه هذا الحديث ، وكما هو مختار المحققين من المفسرين ومن علماء السنة ، فإننا إذا رجعنا إلى الاختلاف في المكي والمدني ، وتجاوزنا مثار هذا الاختلاف في أن الاعتماد في ذلك على التاريخ - وهي طريقة أولى - أو الاعتماد على المكان - وهي طريقة ثانية - أو الاعتماد على صيغة الكلام : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ ، و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ - وهي طريقة ثالثة - وجنحنا إلى الطريقة التي ترجع إلى المعنى ولا تعتمد لا على اللفظ ولا على الزمان ولا على المكان ، وهي الطريقة التي ارتضاها الإمام أبو إسحاق الشاطبي حين قسم القرآن العظيم باعتبار ما يشتمل عليه من المعاني ، وباعتبار ما يؤخذ منه من التشريع والأحكام المتعلقة بالقلوب أو المتعلقة بالجوارح ، إلى أنه ينقسم إلى تشريع مكي وتشريع مدني ، وأن التشريع المكي هو ما يرجع إلى تقويم العقائد ، والتشريع المدني هو ما يرجع إلى تقرير الشرائع والتكاليف الفرعية التي تتفرع عن الأصول الاعتقادية التي تأسست في التشريع المكي ، فإننا نبتين أن سورة الأنعام هي مكية بهذا المعنى ، ويؤيدنا في ذلك تاريخ نزولها والظرف الذي نزلت فيه من حياة الدعوة المحمدية الكريمة .

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٢٠) ، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤٤ / ٣) من طريق يوسف بن عطية ، عن ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، بنحوه . قال أبو نعيم : «غريب من حديث ابن عون» . وقال الهيثمي في «المجمع» (٧ / ٢٠) : «وفيه يوسف بن عطية وهو ضعيف» . وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٩٣٠) من طريق علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، بنحوه .

وإنه لمن المعلوم أن تسمية هذه السورة بسورة الأنعام لا يقتضي شيئاً من ربط غرضها ومعناها بكلمة «الأنعام» التي جعلت علماً عليها، وشأنها في ذلك شأن غيرها من سور القرآن التي سميت بأسماء ما هي في الحقيقة إلا أمارات لمراجعة الحفظ، وهي تستند غالباً إلى الأشياء أو الألفاظ التي وردت بصورة مفردة في تلك السورة حتى تكون مميزة لها عند الحافظين، وليس لذلك أي ارتباط بالمعنى والغرض الذي تقوم عليه السورة، فسورة البقرة وسورة النحل وسورة النمل، لا خصوصية لواحدة منها بما يدل عليه اللفظ الذي جعل علماً على هذه السورة.

فمن الخطأ البين أن يعتقد أن هذه السور إنما يجري بينها وبين ما سميت به معنى من التناسي المعنوي حتى إن كثيراً يجعلون من شرف الشيء الدلالة على أن سورة سميت به في القرآن، وهذا أمر لا تقتضيه التسمية أصلاً، ولذلك كان السلف يحتززون تورعاً من هذه التسميات فلم يكونوا يضيفون هذه الألفاظ مباشرة إلى أسماء السور، وإنما كانوا يختارون أن يقولوا: السورة التي يذكر فيها كذا، والسورة التي يذكر فيها النمل، أو يذكر فيها النحل، حتى لا يكون في ذلك إبهام من التخصيص، نعم إن هناك سوراً سميت بحسب ما تدل عليه وبما تشتمل عليه من الأغراض، وتلك تسميات وقف العلماء المتقدمون منها عند حدود ما ورد في الآثار، كتسمية سورة أم الكتاب، وتسمية سورة الإخلاص، وما عدا ذلك من الأسماء فإنه قد وقع الاقتصار فيه على ما اشتهر، ولم يرد المتأخرون أن يبتكروا لها أسماء تدل عليها؛ لأن ذلك يكون من باب التحكم، ومن باب فرض رأي في التفسير على الآيتين، عندما يستخلص إنسان بحسب اجتهاده وفهمه غرضاً من الأغراض فيسمي به السورة، فيصبح ذلك أمراً

ملزماً للذين يأتون من بعد حتى لا يستطيعوا أن يستنبطوا منها خلاف ما استنبط ، فيكون ذلك من التحكم في القرآن العظيم ، ومن القول في القرآن بالرأي ، وهذا هو القول بالرأي الذي هو ممنوع .

فإذا علمنا أن تسميتها بالأنعام لم تكن لمعنى فيها ، ولم تكن لغرض تشتمل عليه فإننا نستطيع أن نبين أنها بحسب كونها مكية ، وبحسب ما اشتملت عليه من الأغراض ، وبحسب كونها أتت في الفترة التي هي فترة الثلاث سنوات الأخيرة من مقام النبي ﷺ في مكة التي هي السنين التي اشتد فيها أمر المعارضة والعناد على النبي ﷺ ، وعظمت الأحزان من حوله ﷺ بسبب ما أصاب دعوته من المعارضة ومن الجحود والكفران ، فإن هذه السورة تعتبر متلاقية مع هذا الظرف ، وموفية بالغرض الذي يتطلع النبي ﷺ إليه من القرآن العظيم ، ألا وهو غرض تلقين الحجة للنبي ﷺ . وتأليف نفسه الكريمة ، وتثبيت موقفه في مجابهة المعاندين والمعارضين .

ومعلوم أن تلك الشدة التي نالت الدعوة الإسلامية في أخريات عهد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إنما كانت مؤثرة حزناً شديداً في صدره ﷺ وقد قال الله تعالى في هذه السورة : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وكان ﷺ متأثراً تأثراً عظيماً مما ألحق به مما يجل مقامه الكريم عنه من التكذيب ، حتى إن ذكر التكذيب والجحود والعناد إنما تردد في هذه السورة تردداً كثيراً مطرداً ، فلذلك ناسب أن يكون غرض تلقين الحجة وتأليف النفس وتثبيت الموقف قاضياً بالتوجه إلى النبي ﷺ توجه الخطاب ، وبالإكثار من ذلك التوجه .

ولذلك فإننا نرى أن صيغ الأمر قد تتابعت وتكاثرت في هذه السورة بصورة يشعر بها كل من يتلو سورة الأنعام متدبراً فيها تدبر المقارنة مع

سور أخرى من القرآن ، فإنه يجد كثرة للأمر وتوجيه الخطاب المقتضي إحضار النبي ﷺ إحضار التلقي بصورة لا تكاد تنتظم فيها صورة أخرى .

وهذا المعنى من تتابع صيغ الأمر في مثل : ﴿ قُلْ ﴾ و﴿ افعل ﴾ و﴿ وَأَعْرِضْ ﴾ ، إنما هو معنى من التوجيه والتلقين يرجع إلى قصد التأنيس للنبي ﷺ والتأليف لنفسه الكريمة ، والتأييد له في موقف الشدة ، ببيان أن له عوناً من الله تعالى ، وأن عناية من الله تعالى تحفه من أمره كله ، حتى يتبين ﷺ أنه لم يكن بالموقف الذي يخشى منه ، وكان كثيراً ما يستعيز منه ، وهو أن يكله الله تعالى إلى نفسه ، فبين الله تعالى أنه بمحل العناية ، وأنه بمحل الاتصال ، وأن له من يوجهه ويشير إليه ويأمره بالفعل بصورة يتقوى بها ، وتثبت قدمه الشريفة التي هي ثابتة بالذات .

ولذلك فإن هذه السورة وهي سورة الأنعام ناسب أن يقع استهلالها بالحمد لما في الحمد من معنى التطمين والتطهير لنفس النبي ﷺ ، وإشعارها بأن تجعل ملاحظة النعمة قاضياً على ملاحظة المحنة ، ثم بين تعالى أن الخلق كله راجع إليه ، وأن لا خالق سواه ، وأن الكفر والإنكار مع ذلك يقوم في وجه هذه الحقيقة وهي أن الأمر والخلق بيد الله تعالى .

وفي هذا السياق وقع مزج عجيب بين التشنيع بالإنكار والكفر من جهة ، وبين ما امتزج بتلك الحكاية التشيعية من الوعيد والتذكير ، عسى أن يكون في ذلك إقامة الحجة على الكافرين الجاحدين ، ثم جاء الالتفات إلى النبي ﷺ بخطاب فيه التقوية والتمكين من الحجة في الحوار ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [الأنعام : ١٠] ، ثم بقوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلّٰهِ ﴾ [الأنعام : ١٢] .

ثم وقع الانتهاء إلى ذكر المستمعين إليه بين عارف مكابر وبين مستمع مطموس على قلبه ، وإن عاقبة الجميع إنما هي الندامة ، وإنه ينبغي أن يستعصم بموقف المعرفة وموقف التواضع الذي ينبغي لمقامه الكريم ﷺ على علوه ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

ثم وقع الرجوع إلى انفراد الله تعالى بالعظمة ، وأن الإنسان يلتجئ إليه التجاء المضطر ، ويجأر إليه ، وذلك هو الغرض الذي ابتدئ بقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ثم وقع ضرب المثل بقصة إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء ليكونوا في ذلك قدوة للنبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ آفْتَدِ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

ثم وقع الالتفات إلى اليهود من أهل الكتاب بقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] . وعظم عليهم أمر الكذب على الله ، وبين لهم هول المعاد ، ثم أظهر آيات الله في الكون وأنها جميعاً تقتضي ألا تكون العبادة موجهة إلا إليه بقوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

ثم بين أن هذا البيان ليس هو لطمع في اهتداء هؤلاء ولا رجوعهم إلى الحق ، فأعلن اليأس منهم وأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم فقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] الآية .

وبين أن الضلال غالب ، وأن الهدى نادر بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وأن

مظهر ذلك الضلال إنما يبدو في سوء السلوك العملي أعني في التوجه إلى غير الله تعالى بما هو من حق الله تعالى وحده من العبادة الذي يرجع إلى تقريب القرابين لغير الله تعالى ، وإلى قتل الأولاد امتثالاً للشركاء الذين اتخذوهم ، وإلى تحجير الأنعام وتسيبها ، وبين أن نعمة الزرع والضرع كلها من الله تعالى ، وأن جميع النعم منه ، وجميع الكائنات من خلقه ، فما الفرق بين الذي جعلوه لله ، وبين الذي جعلوه لغير الله ، وأن الذي حرموه من ذلك حرموه من دون نص ولا كتاب مبين ، وأن التحريم لا ينبغي أن يكون إلا بنص من الله .

ثم أخذ الله تعالى يبين المحرمات الحقيقية في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، فانتهى بعد ذلك إلى ذكر أهل الكتاب والمشركين ببيان أن أهل الكتاب أنكروا القرآن ، وأن المشركين استندوا إلى الأمية ، وقطع عذر كل فريق في ذاته .

ثم بين أن كل واحد من هذه العناصر سيجزئ الجزاء الوفاق بقوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

ثم توجه إلى أمر النبي ﷺ بأن يعرض عن هؤلاء ، وأن يقبل على الاعتزاز بالهدى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

ثم أن يجعل عمله خالصاً لله تعالى بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، وبذلك يتبين أن موقع ﴿ قُلْ ﴾ هنا إنما هو موقع متعين ؛ لأنها وردت في مقام استئناف وانقطاع عن كلام كان موجهاً إليه ليقدم النبي ﷺ بذلك على ما ينبغي له أن يكون مقبلاً عليه من معرفة الحق الذي لا يبالي فيه بأمر المخالفين .

والملاحظ أن كلمة ﴿قُلْ﴾ قد تكررت في سورة الأنعام من أولها إلى ﴿قُلْ﴾ هذه في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أكثر من أربعين مرة، وأن ﴿قُلْ﴾ هذه إنما وقعت موقعًا وسطًا بين قوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، بصورة جعلت إعلان العقيدة أولاً، وإعلان حسن السلوك ثانياً، وإعلان القطيعة مع المعاندين واليأس منهم ثالثاً، بحيث إن السلوك الذي أمر به ﷺ في قوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، إنما هو سلوك مبني على ملاحظة مقدمته التي هي رسوخ عقيدة التوحيد، وغايته ونتيجته التي هي الإعراض عن المشركين والمعاندين وعدم المبالاة بهم، وفي هذا إشعار بلاغي بانتهاء الكلام على الطرائق البلاغية المعهودة وهي نكتة رد العجز على الصدر التي هي فن من فنون حسن الاختتام الذي يعبر عنه عند البلغاء ببراعة المقطع، فإنه يحين تقدم ذكر الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وتقدم ذكر الذبائح لغير الله التي هي النسك.

وأمر النبي ﷺ بأن يكون أول من أسلم، فإن جميع هذه المعاني من أن الصلاة لله والنسك له، وأن النبي ﷺ يكون أول من أسلم، هي المعاني التي تكررت هنا على معنى رد العجز على الصدر.

ثم إن معنى الإعراض عن المعاندين وعدم المبالاة بهم هو أيضاً معنى من المعاني التي يحسن الانتهاء إليها، والتي تكون مناسبة لانتهاء الكلام، على معنى براعة المقطع، فيكون وزن هذا الكلام في ختام سورة الأنعام، وزان قوله تعالى في خواتم سور عديدة، مثل قوله في ختام سورة براءة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿التوبة: ١٢٩﴾، وقوله تعالى في ختام سورة الرعد: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وفي ختام سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٤٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقوله في ختام سورة الأنبياء: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۖ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله في آخر سورة السجدة: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

ولذلك فإن آخر هذه الآية ناسب أن تقع في نهاية الكلام وأن يكون موقعها في آخر الكلام محسنًا بديعًا راجعًا إلى ما يعبر عنه البلغاء ببراعة المقطع، فإنها تضمنت الأمر بالصدع بأمور سبعة عند التفصيل وهي: أن الصلاة لله، وأن النبي ﷺ مأمور من الله، وأنه أول المسلمين، وأن النسك لله، وأن المحيا لله، وأن الممات لله، وأن الإخلاص لله:

الصلاة:

أما الصلاة فإن معناها معروف، ومقامها باعتبار أنها عماد الدين معروف مشهور أيضًا، وغايتها من حيث إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر معروفة أيضًا، ولا داعي إلى إطالة البحث في اشتقاق الصلاة؛ هل الدعاء أصل وأن الأعمال المتعبد بها منقول إليها؟ أو العكس أي أن الأعمال هي الأصل وأن الدعاء هو المنقول إليه على معنى التشبيه أو على معنى إطلاق الأعم على الأخص، وقد تعرض إلى تفصيل ذلك الإمام ناصر الدين البضاوي في تفسير سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

[البقرة: ٣].

النسك:

وأما النسك فإن مادة ذلك في اللغة العربية تستعمل في أصلها بمعنى الانقطاع للعبادة والتقرب إلى الله، وقد شاع استعمالها في ذلك المعنى بتخصيص الذبائح والقرايين التي تقدم إلى الله تعالى منذ عهد الجاهلية، فالمقصود بالنسك هنا إما أن يكون عموم العبادات، وإما أن يكون خصوص الضحايا والقرايين.

وإذا كان القاضي البيضاوي قد رجع الأول وهو عموم العبادات تعلقاً بتوسيع المعنى، كما هي طريقته، فإننا نرى أن المعنى الثاني وهو تخصيصها بالقرايين أرجح لما تبين من الارتباط بين موقع القرايين هنا وموقعه فيما تقدم حتى تتأتى لنا النكتة البديعية وهي رد العجز على الصدر.

المحيا والممات:

وأما المحيا والممات فإنه يجوز في كل منهما أن يكون اسم مكان، كما يجوز أن يكون مصدرًا ميميًّا دالًّا على معنى الحدث، فإذا كان اسم مكان فإن المعنى بالحياة ما تشتمل عليه الحياة من الأعمال، ومن الممات الأعمال المتصلة الدائمة إلى ساعة الممات، أو أن يكون المعنى بالحياة هنا ما تشتمل عليه الحياة من الأعمال، ومن الممات ما يرجع إلى الميت من الأعمال التي تضاف إلى ما بعد الموت، وتلك هي الأعمال التي لا تنقطع من الصدقة الجارية، والولد البار الذي يدعو لأبيه، وبث العلم، إلى غير ذلك مما قامت الأدلة الشرعية على أنه من الأعمال المتصلة فيما بعد الموت، وبناء على أن المحيا والممات مصدران ميميّان يدلان على مجرد الحدث، فإن

المقصود يكون نفس الحياة ونفس الموت على معنى أن الحياة لله تعالى أي لأجله أي في رضاه وطاعته وفي سبيله ، وأن الموت بذاته يكون لله تعالى أي لأجله أيضاً بمعنى أن الحياة تكون للعمل في سبيل الله ، وأن الموت تكون شهادة في سبيل الله ، وهذا يرجع إلى معنى تمنى الشهادة في سبيل الله الذي شهدت به شواهد قطعية من السنة .

وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الجهاد ترجمة لتمنى الشهادة ، وخرج في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ، ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل» .

وهذه الأربعة أمور التي هي الصلاة والنسك والمحيا والممات علقتم باسم الجلالة الدال على ذات الله تعالى ، موصوفاً «برب العالمين» ، لأجل التعريض بمخالفة المشركين ، يعني أنهم إذا كانوا يجعلون أعمالهم وقرابينهم وصلواتهم وأعمالهم في الحياة وأعمالهم في الممات لأجل شركائهم ، فإن الذي أعرض عنهم آيساً منهم لن يجعل ذلك إلا إلى الحق ، بأن يكون ذلك موجهاً إليه الذي هو الله تعالى ، وهو رب العالمين .

وفي وصف الله تعالى برب العالمين إشارة إلى برهان التوحيد ؛ لأن العالمين جمع عالم ، فإذا اعتبرنا كل عنصر من عناصر الكائنات الممكنة عالماً من العوالم فإن تلك العناصر جميعاً مشتركة في أنها تطلب الرب والخالق والصانع الذي يكون أصلاً لصدورها ، فتتظم العوالم كلها في حاجة إلى الخالق ، ويكون التوحيد مبيناً على أن ما تتطلع جميع العوالم إلى تحقيقه إنما هو محقق بإثبات الله تعالى الذي هو الواحد لا شريك له .

الإخلاص:

وأما الأمر الخامس : وهو الإخلاص ، فإن الإخلاص إنما هو راجع إلى ملاحظة التوحيد في العبادات ، واستحضار أن العبادة لا تكون إلا لله تعالى وحده ، بحيث تنزه عن الشريك ، وتنزه عن الرياء ، وبذلك تكون جملة : ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ، جملة حالية لا أن تكون جملة استئنافية ؛ لأجل أن تبين أن العبادة إنما تكون لله تعالى مع ملاحظة هذا المعنى في حال العبادة بالصلاة والنسك ، وفي جميع أعمال المحيا وأعمال الممات ، فإنه يتقرب إليه بذلك ملاحظاً أنه لا شريك له .

النبي ﷺ مأمور:

وأما الأمر السادس : وهو أن النبي ﷺ مأمور فهذا يرجع إلى تأكيد المعنى المكرر في القرآن ، وهو أن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء ، وأنه ما كان له أن يأتي بما أتى به من تلقاء نفسه ، وفي ذلك إيقاف واضح على معنى العبودية الشاملة ببيان أن التكليف إنما يكون بخطاب الله تعالى ، وأن الأعمال إنما توصف بالحسن أو القبح باعتبار تعلق أمر الله تعالى بها أو نهيه عنها ، وفي ذلك بيان سر العبادات ، فإن سر العبادات هو ما يتحقق فيها من الامتثال للأوامر ، وما عسى أن يكون في العبادات من المصالح إنما يعتبر أمراً يعلل بحسب فهمنا نحن ، تعلق أمر الله تعالى بذلك ، بدون أن يكون ذلك مقتضياً أن المصلحة هي التي اقتضت ذلك ، وإنما الذي اقتضى كونه عبادة أنه يحصل به الامتثال لأمر الله تعالى .

النبي ﷺ أول المسلمين :

وأما الأمر السابع : وهو أن النبي ﷺ أول المسلمين . فإنه لا يخفى أن الإسلام إنما هو عبارة عن الامتثال للأوامر والنواهي ، وفي هذا إيقاظ للغافلين عن حقيقة العبودية ، بالتنبيه إلى أن أكرم الناس على الله تعالى ليس إلا أول المكلفين ، بما كلف الله تعالى به عباده الآخرين ، حتى لا يظن بالنبي ﷺ أنه على شفوف بالنسبة لأمته ، أو بالنسبة للمبلغ إليهم ، وأنه يبلغ أموراً هو خارج عنها ﷺ ، في غير ما قام الدليل على خصوصيته فيه ، مما يرجع غالباً إلى زيادة التكليف بالخصوصية لا إلى النقص فيه ، ولذلك عبر علماء الكلام بأن إسلام كل نبي مقدم على إسلام أمته ؛ لأن أول الإسلام إنما هو الامتثال للأمر بالتبليغ الذي به يمكن أن تبلغ الأوامر والنواهي إلى المكلفين بصورة يرجى بعدها أن يمتثلوا لذلك ، ولذلك فأول الممتثلين لكل شريعة بالطبع إنما هو المكلف بتبليغها للناس قبل أن يحصل امتثال المبلغ إليهم .

فتلاوة النبي ﷺ لهذه الآية إنما هو مظهر من مظاهر الامتثال ، والتزامه ﷺ ذلك إنما هو مظهر من مظاهر امتثاله للطاعات ودأبه ﷺ عليها .

ولذلك فإنه كان ﷺ يتلوها بدون ﴿ قُلْ ﴾ لأن ﴿ قُلْ ﴾ إذا كان لها موضع التأكد من صدر هذا الكلام باعتبار صدورها عن الله ، فإن الامتثال لذلك من النبي ﷺ إما أن يكون بتلاوة الآية وتكريرها ، فيتعين أن يقال فيها ﴿ قُلْ ﴾ ، وإما أن يكون بالامتثال للإتيان بالمأمور به ، فيتعين حينئذ أن تعرى عن ﴿ قُلْ ﴾ ، ولأجل ذلك ورد أن النبي ﷺ في هذا الحديث كان يقول : « إن صلاتي ونسكي » .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، فإنه الأولية وإن لم يكن فيها ما يقتضي الشفوف فإن الأولية بذاتها فيها شيء مما يشعر بالتقديم ، والنبي ﷺ مفطور على التواضع على أن يكون أكمل المدركين لمعنى العبودية له تعالى والتواضع له ، ولذلك كان يعدل عن صيغة الآية إلى دعاء مقتبس منها إذ يقول ، كما ورد في بعض روايات سنن النسائي : «وأنا من المسلمين» ، فإن الروايات اختلفت : ورد في بعضها : «وأنا أول المسلمين» كما هو في سياق الآية ، وورد في البعض الآخر : «وأنا من المسلمين» ، فعلى الأول يكون تلاوة للآية ، وعلى الثاني يكون دعاء مقتبساً منها مبنياً على الامتثال لها ، ويكون فيه تلقين للمسلمين بأن يقولوا ذلك ؛ لأنه إذا كان النبي ﷺ يصح أن يقول في خطاب ربه أنه أول المسلمين ، فإن غيره لا يصح أن يقول ذلك إلا على معنى تلاوة الآية ، لا على معنى الدعاء بما اقتضت الآية أن يدعى به .

ولذلك فإن الذي ورد في هذا الحديث من أن النبي ﷺ إذا استفتح صلاته كبر ثم قال : ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢] الآية . . . وورد عليه إشكال يرجع إلى ما ورد في الحديث من موقع هذا التوجه وهذا الدعاء من الصلاة ، إذ بقطع النظر عن مسألة دعاء الاستفتاح وما فيها من الخلاف بين المذاهب ، فإنه لا يخفى أن دعاء الاستفتاح حتى عند القائلين به لا يكون جهرياً ، فكيف للراوي وهو جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن يكون علم أن النبي ﷺ يقول ذلك بعد التكبير ، فعلى ذلك ورد إشكال لا يمكن دفعه إلا ببيان أن الاستفتاح للشيء يكون بما يتصل به قبله ، وبما يتصل به بعده ، وأن ما يتصل بالاستفتاح قبله قريب مما يتصل به بعده ، ومعلوم

أن ما قرب من الشيء يعطي حكمه ، ولأجل ذلك يكون التعبير بأنه يتلو هذا بعد التكبير ، أي بعد تكبير الإحرام ، والاستفتاح إنما هو محمول على تعبير مجازي ، بأنه يكون قريباً منه متصلاً به قبله ، أو محمول على أنه ظن تعلق بذلك ، فأدرج الذي وقع قبل تكبير الإحرام في سياق ما يقع بعد تكبير الإحرام .

والجمع بين هذا وبين الحديث الطويل الوارد في صفة صلاة النبي ﷺ وما تشتمل عليه من الأقوال هو الذي يحتم هذا المحمل ، وذلك ما ورد في الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» ، وتابعه غيره من أصحاب السنن : وهو أن النبي ﷺ كان إذا قام للصلاة قال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ [الأنعام : ٧٩] ، ثم قال : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، الآية ، وبذلك يكون حمل الحديث في هذه الرواية على ما ورد في الرواية الأخرى ، بحيث يكون محمولاً على أنه أمر يقع قبل استفتاح الصلاة لا بعد تكبيرة الإحرام .

وقد جرى النبي ﷺ في هديه الكريم على أن يتبع تلاوة هذه الآية الكريمة ، أو ذكر الدعاء المقتبس منها بدعاء هو : «اللهم اهديني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وقني سيئ الأعمال وسيئ الأخلاق ، لا يقي سيئها إلا أنت»^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .

وهذا توجه إلى الله تعالى بالدعاء وطلب للأمر الذي تحقق به الامتثال للآية المتلوة أو المقتبس منها وهي: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وذلك أنه يطلب من الله تعالى أن يعينه على أن يكون محياه لله ، ومماته لله ، وذلك بأن يهديه الله للحسن ، وأن يقيه السوء ، والحسن في الأعمال والأخلاق ، والسوء كذلك في الأعمال والأخلاق ، فحسن الأخلاق والأعمال أن تكون لله تعالى ، وسوء الأخلاق والأعمال أن تكون لغير الله تعالى .

وقد جمع ﷺ هنا بين العمل والخلق ؛ لأن الخلق هو انطباع نفسي يخلقه تعالى في نفس العبد ، والسلوك الحسن هو عون من الله تعالى على أن يكون المظهر السلوكي صالحاً ، فهو يدعو الله تعالى إذن أن يجعله متخلقاً بما يفعل ، وأن يجعله فاعلاً لما يتخلق به ، حتى لا تحصل تلك النبوة التي يعبر عنها بالأزمة الأخلاقية التي تجعل الإنسان معتقداً الخير في شيء غير مستطیع أن يأتيه ، معتقداً الشر في شيء لا يستطيع أن يتجنبه ، ولذلك لم يقابل الأحسن بالأسوأ ، وإنما قوبل الأحسن بالسيء ؛ لأن الحسن إنما يطلب منه أكمله ، ولأن السوء إنما يتعوذ من أقل مقدار منه وإن مواظبة النبي ﷺ على هذا بهذه الصيغة تعليم للمؤمنين وإرشاد لهم إلى ما ينبغي أن يتوجهوا إلى الله على ما هو شأنه ﷺ في هديه : من تعليم المسلمين الأدعية والأذكار التي عقدت لها الأبواب في كتب السنة ، والتي يرجع تعليمها إلى طريق من ثلاثة طرق : التزام النبي ﷺ ذلك حتى يشعر الناس بأنه أمر حسن ، مرغّب فيه ينبغي لهم أن يلتزموه ، كما ورد تعليمه لذلك التوصية به ، كما ورد في حديث العباس المشهور أن النبي ﷺ أوصاه أن يدعو بالعافية ، وأحياناً يكون ذلك بالتنويه بالثواب وعظيم الفضل الذي يكون

لذكر من الأذكار، كما ورد في حديث: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

اللهم كما شرفتنا بالتعلق بالنبي ﷺ في تدارس آيات نبوية، والاستنارة بهديه وحكمته، فاجعلنا اللهم لسنته من التابعين، ولشريعته من الممثلين، ولحزبه من المواليين والمحبين، واجعلنا يا رب بشفاعته من الفائزين، وأوردنا عليه الحوض آمنين غير مزادين.



(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المحاضرة السابعة والثلاثون:

الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ خُنْ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣٦﴾ تَزْلَ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٩﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥ - ٣٩] .

هذه الآيات الكريمة من سورة السجدة أو فصلت كما تسمى ، التي أولها :

﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ١ - ٣] ، وهذه سورة مكية .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ اعترافاً بربوبيته ، وإقراراً بوحدانيته : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ ، في العمل أدوا ما عليهم من واجبات ، واجتنبوا ما نهوا عنه ، هؤلاء : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ ما تقدمون عليه : ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خلفتم ، ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على لسان الرسل : ﴿ خُنْ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ نلهمكم الحق ونحملكم على فعل الخير : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بالشفاعة والكرامة حيثما يتعادل الكفار وقرنائهم : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴿١﴾ من اللذائذ : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب : ﴿نُزُلًا مِّنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى عبادته وطاعته ، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه .

ونلاحظ أن القرآن الكريم لا يكتفي بالقول فقط ، بل دائماً يطلب القول مقروناً بالعمل ففي أول الآيات يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، وهنا يقول : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فهو يصر على طلب العمل مع القول ؛ لأن به الفائدة الكبرى ، والقول بدون العمل لا يفيد شيئاً ، بل يذهب هدراً لا قيمة له .

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي اتخذ الإسلام ديناً يمشي على تعاليمه ، ويحترم حقوقه ، ويؤدي فروضه ، والآية عامة لجميع من استجمع صفات المسلم الحق : ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة : ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادفع السيئة حيث اعترضتك بالتي هي أحسن منها أو بأحسن مما يمكن دفعها به من الحسنات : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإذا فعلت ذلك صار عدوك اللدود مثل الصديق الحميم الشفيق : ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا﴾ وما يلقي هذه السجية وهذا الخلق العظيم ، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ والصبر سجية عظيمة ، وصفة كريمة لا تقدر ...

﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير وكمال النفس والتحلي بخلق القرآن وأدب الإسلام .

ففي هذه الآيات الكريمة تأديب لنا بأرفع الآداب العالية ، وتعليم لنا وتهذيب بأرقى الأساليب ، وأسمى التوجيهات الربانية ، التي لو اتبعناها حقًا لكنا أعظم الأمم ، ودخلنا في عداد قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فقد اتخذ الإسلام من وسائل التأديب والتهذيب أوفاهها وأقومها ، ومن طرائق التربية والتعليم أنبلها وأنجعها : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] ، وقصد أن يجعل من الإنسان المؤمن في ذاته مثلاً صالحاً ، فلا يصدر منه ما يوجب اللوم ، ولا يقع منه ما يخل بالمروءة ، أو يقلل من قيمته ، أو يحط من قدره .

وقد جمل الإسلام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بخلال حميدة ، وحلاهم بشمائل نبيلة ، ظهر أثرها ، وشمل نفعها الأفراد والجماعات في مجتمعاتهم ، كالحرص على اجتناب الريب ، والكسب بعرق الجبين ، والثبات على المبدأ ، والثقة بالله وضبط النفس ، والاحتمال والصبر ، والخضوع للحق والتزام الصدق ، والمحافظة على الأوامر والنواهي ، وطاعة الله والرسول وأولي الأمر ، والمحافظة على أموال الناس والدولة ؛ لأنها أموال الشعب ، والتلطف بالعمال ، والإحسان إلى الخدم ، ورعاية حقوق الجار ، وشعور المسؤولين بالتبعية ، والصدق في النصيحة وبذل الجهد في النفع العام ، والسياسة العادلة ، والصفح الجميل .

ولما كان المسلمون متمسكين بأخلاق دينهم ، كانوا جمال الدنيا وزينتها ، ذكرى فعالهم سارت مسير الشمس ، وطبقت تخوم الأرض ، وانتظمت الشرق والغرب ، حكموا فعدلوا وأخذوا راية الإسلام بحققها ، ونصروا الله فنصرهم .

وأن ما يجري اليوم فينا من ضعف وتفكك، وطمع الأعداء فينا، ومهاجمتنا في عقر دارنا، وسلب أعز ما نملك، ما هو إلا من نتائج تفرقنا، وترك ديننا، والبعد عن آداب الإسلام، ومجانبة العمل الصالح، والجري وراء أخلاق وعادات مستوردة، بعيدة عن ديننا، بعيدة عن خلقنا، بعيدة عن مجتمعنا وأدبنا .

وإنني بهذا الحديث الموجز سأستعرض طرفاً من أدب الإسلام الذي أدبنا الله تعالى به، بالقرآن الكريم، وعلى لسان نبيه العظيم صلوات الله عليه وسلامه، ومن أقواله وأفعاله وأخلاقه .

أدب الإنسان مع المجتمع:

الإنسان مدني بطبعه : أي مضطر إلى حياة الاختلاط والعشرة بدافع الغرائز والميول ، ولا يمكن أن يكتفي بنفسه بتكميل ذاته ، بل لابد له من معاونة الكثير لتتم سعادته الإنسانية .

وهو مدني بالضرورة تدفعه عوامل الحاجة إلى الحياة الاجتماعية ، إذ يستحيل عليه أن يستقل بجميع حاجاته ، ويقوم وحده بكل ما تتطلبه معيشته ، فالصلة بين الفرد والمجتمع وثيقة ، كالصلة بين الجسم وأعضائه ، فقوة أحدهما وسعادته قوة وسعادة للآخر ، وكل مجتمع صغر أو كبر تتجلى فيه تلك العلاقة ، علاقة الجزء بالكل والكل بالجزء ، كما قال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

فالمجتمع يشبه جسم الإنسان الذي يتألف من أعضاء ، يقوم كل منها بوظيفته التي قدرت له ، فكل فرد في المجتمع ككل عضو في الجسم ، وظيفته أن يتعاون مع غيره ، ويعمل معه لحفظ كيان المجتمع ، ولكل عمل مهما كبر أو صغر فائدته ونفعه ، وكل الأعمال التي تؤدي في المجتمع شريفة ، وكل عمل يكسب الإنسان منه رزقه شريف ، ولا يوجد فرد أحسن من فرد ، ولا إنسان أفضل من إنسان إلا بالعمل الصالح ، والخدمة المفيدة لوطنه وبني قومه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إن جميع الأعمال ضرورية للبلاد ونافعة وشريفة ، فلا يتكبر أحد على أحد ، ولا يتعالى جندي على معلم ، ولا موظف على تاجر ، ولا توجد مهنة حقيرة مهما كانت ؛ لأن المجتمع محتاج إلى جميع المهن والوظائف والصناعات والأعمال .

وليعلم حق العلم أن أفضل الناس أنفعهم للناس ... وقد كان كبار الصحابة يعملون ، ويكسبون رزقهم بعرق جبينهم ... فالإسلام يريدنا أن نعيش في هذا العصر ...

وإن قيمة الإنسان إنما تكون في صلته بالجماعة وتعاونه معهم ، فأعماله وأغراضه ، وعاداته وأخلاقه ، وعواطفه ، وعلمه ومعتقداته لا يقومها إلا المجتمع ، فهو هبة من هباته ، ولا قوام له بدونه .

فالإنسان مضطر إلى الاجتماع بأبناء جنسه لحاجته إليهم ، وحاجتهم إليه ، في قضاء مآربه ومآربهم ، ورحم الله الشاعر حيث يقول :

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ويقول ابن مسكويه : «لما كانت الخيرات الإنسانية وملكاتهما التي في النفوس كثيرة ، ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنساني ، وتحصل لهم السعادات ، فيكون كل واحد منهم بمنزلة عضو من أعضاء البدن ، وقوام الإنسان بتمام أعضائه بدنه» .

وإن الناظر في الدين الإسلامي قرآنه وسنته وآدابه يجده موثقاً العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ومنظماً لصلات المسلمين ومن يعيش معهم تنظيمياً دقيقاً محكماً كما يجده مشرعاً حكيماً شمل بنظراته الفرد والمجتمع وبين لكل ما له من حقوق ، وما عليه من واجبات ، فقد حثت الشريعة الغراء على الألفة والتعاون ، لما فيهما من سعادة وقوة للفرد والمجموع .

ونفرت من الفرقة والتنازع ، كما قال تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وقال : ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُ اللَّهُ وَتَذْهَبَ رِجْزُكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقال النبي ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١) ، وقال : «لا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٢) إلى آيات وأحاديث لا حصر لها تدل على شدة حرص الدين الإسلامي على بقاء الكتلة الإسلامية متماسكة منيعة سليمة ، وعلى التوثيق بين عناصرها توثيقاً شديداً . فالشرع الشريف وآدابه القويمة تدعو إلى وحدة الصف والهدف ، وبناء المجتمع السليم بالقول والعمل .

(١) أخرجه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٩) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

حسن المعاملة:

الدين الإسلامي دين سمح بسيط سهل ، يأمر بخفض الجناح ولين الجانب ، فقد أوجب على الإنسان أن يعامل الناس برفق ولين ، وأن لا يخاطب أحدًا بغلظة ، وأن لا يتكبر أو يتعظم على أحد منهم ، بل يعمل على جلب محبة الناس بمكارم أخلاقه وحسن معاملته ولطف صنيعه ، وأن لا يكثر من الجدل والمراء والخصومة معهم ، وأن يبتدئ من عرف ومن لم يعرف بالتحية ، وإذا حياه أحد بتحية حياه بأحسن منها أو يردّها ، وأن يلقي غيره بالبشاشة والبشر وطيب الكلام ، ولا يؤذي أحدًا بقول أو عمل ، وأن يعفو عمن أذنب ، ويصفح عن التائب ، ويتودد إلى مواطنيه بكل وسائل الخير .

ولقد جاء القرآن الكريم مبيّنًا أكمل الآداب على أحسن وجه وأوفاه ، مرشدًا إلى ما يجب التخلق به ، وما يجب اتخاذه في معاملة أفراد المجتمع ، من كل ما يجلب رضاهم ومحبتهم ، حتى تتحد كلمتهم ، وتتألف جماعتهم ، ويسعوا فيما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر والضير ، وذلك ما بينه في الآية الكريمة من مقابلة الإساءة بالإحسان ، والجزاء على الذنب بالغفران ، مع بيان الثمرة المترتبة على ذلك في قوله جل من قائل : ﴿ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

فهل يوجد أرقى من هذه التعاليم ، وهل هناك أحلى وأجمل من هذه الكلمات ، وأروع من هذا الأسلوب؟ كلمات بسيطة متقاة ، وأسلوب بديع ، إن هذه الآية دستور كامل للأخلاق الرفيعة والآداب العالية .

وإن من يعمل بهذه الوصية الربانية ، فيعفو عن الهفوات ويتجاوز عن السيئات ، ويحسن إلى من أساء إليه ، فقد استكمل صفات الخير ، وعد من الصابرين القانتين ، ذوي العزائم والقلوب الثابتة العامرة بالإيمان .
والنتيجة المترتبة على ذلك ، دوام المحبة بين الناس والألفة والسعادة الحقيقية .

وقال تعالى يُعَلِّمُ نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ مُحَاسِنُ الْأَدَبِ ، ومكارم الأخلاق مع جميع أصحابه وتابعيه : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

فأمره أن يلين جانبه ويتواضع للمؤمنين ؛ لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليه ومحبتهم له ، وقيامهم بكل ما يرضيه ، وبذلهم النفس والنفيس في سبيل نشر دينه ، وسعيهم في إعلاء كلمته ، ونصرته على أعدائه ، وهذا ضرب من التدبيرات الإلهية ، والسياسات الشرعية التي تجب على كل من قام بالدعوة ليرشد الناس ويهديهم إلى ما فيه صلاح حالهم في الدنيا والآخرة .

وقال جل ذكره يعلمنا فيما يجب أن يقابل الإنسان به خصمه من حسن المعاملة والملاطفة ، واللين ، حتى يكون ذلك سبباً في قبول قوله ، وإجابة طلبه ، مخاطباً بذلك نبي الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعوا إلى عبادة الله تعالى : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِقَائِيَّتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٢ - ٤٤] .

هذا ما أمر الله نبيه موسى وأخاه هارون من حسن المعاملة لفرعون ، واللين له في القول والتلطف به ، وهما من صفوة خلقه ، وفرعون خارج عن طاعته ، فكيف بمعاملة المؤمنين بعضهم لبعض ، إنهم أولى باستعمال الملاطفة ، وخفض الجانب .

وحسن المعاملة تتضمن أمورًا كثيرة منها :

الوفاء بالعهد ، وهو بالنسبة إلى الله ﷻ امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وبالنسبة للخلق أن لا يعد أحدًا وعدًا إلا وفى به وأنجزه ، وقد مدح الله تعالى سيدنا إسماعيل بكونه صادق الوعد فقال : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم : ٥٤] ، وكذلك نوه بإبراهيم فقال : ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم : ٣٧] .

ومن حسن المعاملة : العطف على الفقراء وعدم التكبر عليهم ، ومن أهم بواعث الخير في الإنسان : أن يستشعر في نفسه الشفقة ويفيض رقة وحنانًا على كل بائس وضعيف ، ويندفع بكل جوارحه إلى تخفيف ويلات المضطرين ، ومسح دموع اليتامى والمعوزين ، فالشفقة هي التي تبعث على رحمة الصغير ، ومعونة الضعيف ومساعدة البائس المسكين ، وهي التي تدعو إلى معاملة الخدم معاملة طيبة ، بالتخفيف عنهم ، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون ، ودفع أجورهم إليهم غير منقوصة ولا مؤجلة ، والإحسان إليهم ، حتى يشعروا بالعطف والحنو ، فيقبلوا على عملهم مخلصين مجدين .

والواجب على الأغنياء وذوي المقدرة والجاه أن ينشئوا الجمعيات الخيرية حتى تؤسس المستشفيات والمدارس والمعاهد لمساعدة الفقراء والضعفاء ، وتذلل لهم وسائل الحياة ، وبهذه الأعمال يساعدون الحكومة

على القيام بمهامها ، ويرضون ربهم ودينهم بما يقدمونه بين أيديهم من بر وإحسان ؛ لأن الدولة لا تستطيع أن تعمل كل شيء من مالها وخزيتها ، وبذلك يتم التعاون بين الشعب والدولة ، وتتقارب وجهات النظر بينهم ، وتزداد الثقة فيما بين المجتمع ، وإن التعاون الصحيح قوة تؤلف بين أفراد المجتمع فتجعل منهم أسرة متحدة في ميولها وأغراضها فهي بمثابة قانون الجاذبية الذي يؤلف بين الكواكب ويربط بعضها ببعض ، فيجعل منها جماعة متعاونة يدور أصغرها حول أكبرها على وتيرة واحدة ، ونظام محكم ، واتصال لا انفصام لعروته ، وكلما زاد هذا الميل في الجماعة توثقت عرى المحبة بينها ، وأحكمت روابط الألفة فيها ، فسعوا للخير متعاضدين متسابقين .

ومن أهم الناس الذين تجب مساعدتهم : ذوو القربى والأرحام ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

ورحم الإنسان أقاربه ، وهم أكثر الناس بعد الوالدين مساعدة للإنسان ، وأقواهم رغبة في إسداء الخير إليه ، وأشدّهم شفقة عليه ، ولهم عليه حقوق لا بد من أدائها عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وقد جعل الله تعالى الأقرباء أولى من غيرهم بالصلة والمودة ، حيث يقول : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، وقوله : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ تأكيد عظيم .

والله نسأل أن يلهمنا وإياكم فعل الخيرات ، ويجعلنا من الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويبعدنا عن الأنانية والبخل ، فإن البخل بالنعمة على ذوي الرحم أشد إثماً وأعظم جرماً من البخل على غيرهم ، والبخل كله مذموم .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنهم ويذمم

احتمال هفوات الإخوان :

ومن آداب الإسلام : احتمال هفوات الإخوان ، فإن العفو عن السيئات ، والتجاوز عن العثرات ، وفعل الخير من مكارم الأخلاق ، ومن أعظم القربات عند الله ، ومن أخلاق النبي ﷺ ، فقد جاء القرآن الكريم مثنياً على النبي ﷺ لأناته وحلمه وسعة أخلاقه وعفوه ، بقوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّيْتُمْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

فالعلم مطلوب ، ومداراة الإخوان واللين لهم والبشر عند لقائهم ، والعفو عن أخطائهم والتجاوز عن سيئاتهم كل هذا مما جاءت به الشريعة الإسلامية ، وعلمنا إياه الرسول الكريم بقوله وعمله .

روي عن أبي هريرة : «أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ في مجلس ، فجاء رجل فوقع في أبي بكر الصديق وهو ساكت ، والنبي ﷺ يبتسم ، فقام أبو بكر ورد عليه ، فغضب النبي ﷺ ثم ترك المجلس ، فلحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله ! شتمني الرجل ، وأنت تبتسم ، ثم رددت عليه بعض الذي قال فغضبت وقمت ؟! فقال ﷺ : «يا أبا بكر ! حين كنت ساكناً كان ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان ، ولم أكن

لأقعد في مقعد فيه الشيطان . يا أبا بكر! ثلاث حق : إنه ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعزه الله ونصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة^(١) . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال : «أفضل العبادة : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك»^(٢) .

ورحم الله الحريري حيث يقول :

سامح أخاك إذا غلط منه الإساءة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه إن جار يوماً أو قسط
من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

فالواجب على المسلم الحق العاقل أن يأخذ نفسه بالعفو عن الناس ومجازاة الإساءة بالإحسان ، إذ لا سبيل أسلم لتسكين الإساءة من الإحسان : ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت : ٣٤] ، وقد قال الفضيل بن

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٣٦ / ٢) ، والطبراني في «الأوسط» (٧٢٣٩) ، والفضاعي

في «مسند الشهاب» (٨٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .

قال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٩٠) : «رجال أحمد رجال الصحيح» . واختلف في وصله وإرساله ، ورجح الدارقطني في «العلل» (١٤٧٢) الإرسال .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٠٩) ، وابن عدي في «الكامل» (٣ / ٢٧٦) ،

والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٥١٨) ، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ٢٣٥) من طريق سليمان بن داود اليمامي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .

وفي الباب عن عبادة بن الصامت ، وأنس بن مالك ، وعقبة بن عامر رضي الله عنه .

عياض رحمه الله ، وهو شيخ الحرم المكي ، ومن أكابر العباد والصلحاء والعلماء المحدثين . قال : احتمل لأخيك إلى سبعين زلة . فقل له : وكيف ذلك يا أبا علي ؟ قال : لأن الأخ الذي آخيته في الله لا يزل سبعين زلة . وكان من كلامه رحمه الله : من عرف الناس استراح .

ومن وصايا لقمان الحكيم لابنه : «يا بني إن من قال : إن الشر يطفئ الشر فقد كذب . فإن كان صادقاً فليوقد ناراً إلى جنب نار مشتعلة ، ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى ، يا بني إن الخير يطفئ الشر كما يطفئ الماء النار» .

ومن روائع الأمثلة في مقابلة الإساءة بالإحسان ، لما فعل المشركون يوم أحد بالنبي ﷺ ما فعلوا ، طلب منه أن يدعو عليهم فقال : «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» ، وكذلك يوم دخل مكة فاتحاً وجاءه مشركو قريش الذين آذوه وأخرجوه وصحبه من ديارهم ، ثم قاتلوه وحرصوا عليه غيرهم من العرب ، فإنه لم يزد على أن عفا عنهم وصفح وقال : «ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

فمعاملة الإخوان بالحسنى أولى ، وإن مكارم الأخلاق تقضي بأن يلين المرء إذا استعطف ، وأن يؤثر إخوانه على نفسه ، ويتحمل هفواتهم ، ولا يقطع صلته بهم ، لما يبدو منهم من أخطاء ولا يجفو في الوداد ولا يؤدي إخوانه ، بل يعفو عمن أذنب منهم ، ويصل من يقطع : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وبذلك تستبقي ودهم ، وتعيش مسروراً بينهم محترماً في أعينهم ، ولا تفقد أحداً منهم .

أغمض عن صديقي كل عين خافة أن أعيش بلا صديق

مداراة أهل الشر:

ومن أدب الإسلام مداراة أهل الشر ، والتودد إلى الناس ، وقبولهم على حالهم ، وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال : «مداراة الناس صدقة» يعني أن الذي يداري الناس بالكلام الطيب واللين ، يكتب له أجر كأنه تصدق من ماله ، والكلمة الطيبة صدقة ، وقال بعض الحكماء : من الكياسة التزام المداراة من غير مقاربة المداهنة ؛ لأن المداراة كمال ، والمداهنة نقص ، وهي ضرب من النفاق والرياء ، وقال صالح بن عبد القدوس :

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجد عنه مخلصاً فداره

وقال محمد بن الحنفية رحمته الله وكان أحد العلماء الأبطال الأشداء : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد في معاشرته بدءاً حتى يأتيه الله بالفرج .

وهذا كلام عليه مسحة النبوة والحكمة ، فإن الشخص إذا اضطرت حالته ومعيشتته أن يعاشر أناساً امتزجت نفوسهم بالشر وحب الأذى ، فعليه أن يغيض الطرف عما يبدر منهم من سقطات ، وأن يداريهم بحزم ولين ، حتى يقلل ذلك من شرهم ، ولعل الله يهديهم على يديه ، فيحيدون عن خطتهم ويكون له بذلك أجر عظيم ، أو يأذن الله له بالبعد عنهم سالماً من أذاهم بعيداً عن شرهم ، ولا يقدر على ذلك إلا اللبq الأريب ، له جلد على تحمل المكاره ، وبطولة على تعود الصبر .

وقال بعض الحكماء : من أراد أن يكره الناس في المعاشرة على نهجه ومذاهبه ، كدر على نفسه عيشه ، ولم تصف مودته ، وأتعب نفسه ومن

يعاشره من الناس ؛ لأن مودة الناس لا تستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه والناس معادن قد ركبت فيهم أهواء مختلفة وطبائع متباينة فكما يشق على الإنسان ترك ما جبل عليه يشق على الآخرين مجانبه مثله ، فليس إلى صفو ودادهم من سبيل إلا بمعاشرتهم على حالهم ، وفي الأثر : رضا الناس غاية لا تدرك ، ومن التمس رضا جميع الناس التمس المستحيل ، وكثيرون ممن يدارون لا يسلمون ، فكيف تتم السلامة لمن لا يداري .

وقد روى البيهقي والعسكري والقضاعي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس» .

والذي لا يصبر على معاشرة الناس يعيش وحيداً ولا يجد من يعاشره : إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه وفي الحديث المسلسل عن الحسن رضي الله عنه : «إن أحسن الحسن الخلق الحسن»^(١) .

وأما الذي يؤذي الناس ، ويخافونه ويتقونه لغلظته وسوء طباعه فإنه لا يجري على سنن الإسلام ، ولا يتحلّى بآداب الشريعة الطاهرة ، وهؤلاء الذين قال عنهم النبي ﷺ : «إن شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»^(٢) ، ففي الحديث بين الرسول الكريم أن شر الناس من تركه الناس لا لأنه لا خير فيه ، ولا منفعة ترجى من ورائه ، بل اتقاء

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٨٦) ، وأبو موسى المديني في «نزهة الحفاظ» (ص : ٦٤) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣ / ١١٦) عن الحسن بن علي رضي الله عنه مرفوعاً ، به . وانظر «كشف الخفا» (٦٩١) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٢) ، ومسلم (٢٥٩١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مطولاً .

لشره ، وحذرًا من ضرره وأذاه ، فهم لا يأمنونه إذا جالسوه ، أو نصحوه أن يعرضهم للمكروه ، فالسلامة منه في مجانبته ما أمكن وتركه ، ومن تحلى بهذه الأخلاق فإنه ليس من الإسلام في شيء ؛ لأن المؤمن من أئمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمسلم الحق هو الذي يكون محبًا للمسلمين لا صائدًا لهم ، وسلمًا لا حربًا عليهم ، وخير الناس أنفعهم للناس .

تواد المسلمين وتوثيق الروابط بينهم :

جاء الدين الإسلامي حافلًا بالآداب التي توثق العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وتنظم صلات المسلمين بعضهم ببعض ، وتبين ما لكل من حقوق ، وما عليه من واجبات ، وحثت الشريعة الغراء على الألفة والتعاون لما فيهما من سعادة وقوة للفرد والمجتمع ، ونفرت من الفرقة والتنازع ، فقال جل شأنه : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وقال : ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَيَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجْمُكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقال النبي ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» ، وقال : «لا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا» إلى أحاديث كثيرة ، وآيات عديدة تؤكد على حفظ المجتمع ، وبقائه كتلة واحدة كالجسم الواحد ، وكل فرد منهم كعضو من أعضاء ذلك الجسم يتألم الكل لألم الفرد الواحد ، ويفرح الكل لفرحه ، ومن هنا تتم السعادة ، ويتحقق معنى الاجتماع ، ويكون المجتمع سليمًا سعيدًا ، ولو اشتغل كل فرد بمنفعته الخاصة ، ورأى أن مصلحة غيره ليست منفعة له لجر ذلك إلى قطع المبادلات ، ونبد المعاملات التي لا قوام للحياة إلا بها .

وقد حثنا الإسلام على ما تحاول الأمم تحقيقه الآن بإنشاء هيئة الأمم لنشر السلام في العالم، فحجب إلينا السلام، وأمرنا بإصلاح ذات البين والتآخي، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ولكننا مع الأسف لم نعمل بما أمرنا، ولا تبعنا هذا القول المحكم، بل كاد بعضنا لبعض، وتفككت جامعتنا، وقاتلنا بعضنا حتى أطمعنا العدو فينا.

وقد سلك الإسلام طريقاً عملياً لتوثيق الصلة بين المسلمين، فشرع لهم أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات، وفضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد.

وشرع صلاة الجماعة يوم الجمعة مرة من كل أسبوع ليجتمعوا ويستمعوا إلى الخطبة التي ترشدتهم إلى أمور دينهم ودنياهم، ويتفقد بعضهم بعضاً، ويتعاونوا على البر والتقوى، وشرع صلاة العيدين ليجتمع أكبر عدد من الناس لتقوية الروابط بينهم وتوثيق عرى المحبة.

وقد كان المسجد هو المصلى، ومكان العبادة، والمدرسة التي تغذي العقل والروح معاً، وكان النادي يجتمع فيه الناس يتذكرون أمورهم، ويتشاورون فيما يصلح أحوالهم، ويتعلمون فيه ما ينفعهم ويرشدتهم، فكان مركز الإشعاع والنور، ينبعث منه الهدى والتوجيه الصحيح، فلما فقد المسجد وظيفته الفعالة، وأصبح مكاناً تؤدي فيه مراسم مخصوصة، ضعف مركزه فضعف المستوى الخلقي العام، وأصبح هناك فراغ روحي

حقيقي في المجتمع ، فهبط مستوى الإيمان ، وانحرف التوجيه أو انعدم ، فهبط المستوى الخلقي ، ونام الضمير ، ونحن الآن نعاني أزمة أخلاقية ، وفراغاً روحياً .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد يقول قائل : إن المدارس قد حلت مكان المساجد ، فهي تعلم وتدرس وتغذي العقول ، وهذا صحيح إلى حد محدود ، فإن المدرسة في مجتمعنا تعلم فقط ولا تربي ، وإن التعليم قد بلغ مستوى عالياً في كثير من العالم العربي ، ولكن ليس هناك تربية دينية ووطنية كافية تواكب هذا التعليم ، حتى تحفظ التوازن وتجعل الناشئ في حذر من أن يذهب يميناً أو يساراً .

فالتعليم قد انتشر في مجتمعاتنا أفقيًا بدون تعمق ولا أساس متين ، والبناء إذا لم يكن على أساس متين انهار .

وكذلك التعليم في الجامعات والمعاهد العالية حتى الدينية منها ، فإنها تعلم ولا تربي في وقتنا الحاضر . فإن الطلاب يحضرون الدروس أو المحاضرات ، ويذهبون هائمين على وجوههم لا يجدون ناصحاً أو مرشداً .

فإننا بحاجة ماسة إلى دم جديد للمسجد ينهض به ، ويحبب الناس في دينهم بأسلوب مشوق ، يبشرهم ولا ينفرهم «بشروا ولا تنفروا» ، ويرغبهم في عبادتهم حتى يلمسوا قيمتها الروحية ونفعها ، ويكون الناس مؤمنين حقاً ، فإذا رسخ الوازع الحقيقي في قلوبهم ، نبع منها الإيمان ، وقويت النفوس ، وثبتت بالقول الثابت .

ونحن بحاجة إلى مبادئ الروح تدخل إلى المدرسة ، والمعهد والجامعة ، وبطريقة لطيفة مشوقة جذابة ، حتى يذهب ذلك الجفاف النفسي ، ويقل ذلك الجفاء فتقلل من الجموح العارم ، وتستكن النفوس وتهداً ، ويتنبه الضمير ، وعندما نرتقي بهذين الأصلين ترسخ القواعد الخلقية في البيت والمدرسة والشارع والمتجر والمكتب ، وفي جميع الأمكنة والمجالات .

وعندئذ تصبح الصلاة فعالة تؤتي أكلها بإذن الله ولا تكون مجرد عادة وعبادة فحسب ، بل تكون انبعاثاً خفياً لروح العبادة في الإنسان ، وهي أقوى صورة للطاقة التي يمكن أن يولدها الإنسان ، وإذا ما أعلنت الروح أهدافها في وضوح ، فسيظل أمامنا الأمل في أن يستجاب دعاؤنا ، ونقبل عند الله ونتوصل إلى عالم أفضل ، ونفوس أنقى وأعظم ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وكذلك يصبح الصوم عبادة وممتعة ويعطي ثمرته ، والحج وهو أكبر مؤتمر يقصد في العالم ، ولو أنه استغل استغلالاً حقيقياً لغير معالم الأرض ، وكذلك الزكاة ، فهذه أركان الإسلام جاء بها الدين لي عمر بها الكون وتتنظم بها أمورنا ، وتسير على أساس متين وهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها .

ورحم الله سيدنا الحسن بن علي عليه السلام إذ يتحدث عن المسجد بزمانه كيف كان فيقول : «من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال : آية محكمة ، وأخاً مستفاداً ، وعلماً مستظرفاً ، ورحمة منتظرة ، وكلمة تدله على هدى ، أو تردعه عن ردى ، وترك الذنوب حياء أو خشية» .

التفريع عن ذوي الكروب:

من أعظم تعاليم الدين الإسلامي وآدابه : إغاثة المسلم لأخيه المسلم ، وإغاثة الملهوف بأن يؤازره ويعينه في أوقات الشدائد ، ويأخذ بيده في حالات الضيق ، وينصره ويواسيه ، ويحاول أن يجلب له كل خير ، ويدفع عنه الأذى والضرير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وذلك بمقتضى الأخوة الدينية التي تدعو إلى توثيق العلاقة توثيقاً ينمي المحبة ويزيد المودة ، ويوجب التعاون والتكافل ، وهذا ما أشار إليه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وأرسى قواعده ، وأكد هذه المعاني السامية بقوله : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربة يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(١) .

هذا الحديث العظيم يعتبر دستوراً في الأخلاق ومعاونة الناس بعضهم لبعض ، فقد بين أوصاف المسلم الحق ، وهي أنه لا يظلم المؤمن أخاه ، ولا ينتقصه حقه ، ولا يخذله وقت الشدة ، ولا يتركه لعدو ينكل به أو يقضي عليه ، فإذا كان الإنسان يحافظ كل المحافظة على أعضائه ليبقى جسمه سليماً ، ويصونها عن كل ما يؤذيها ، ويحميها من كل ما يضرها ، فكذلك يجب على المسلم أن يحمي أخاه المسلم الذي يعد كالعضو في مجتمعه ، ولينصره ويساعده ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وإذا اعتدي على جزء من بلاد الإسلام فقد أصبح الجهاد فرضاً واجباً على كل مسلم في جميع أقطار الأرض ، والجهاد بالنفس والمال والجاه ، وكل ما يستطيع الإنسان ، حتى

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، به .

يتم إنقاذ تلك البلاد، وتعود إلى حظيرة الإسلام، فكيف وقد اعتدي على أهم جزء من أجزاء الوطن الإسلامي، وهو بيت المقدس، أولى القبلتين، وثالث الحرمين، مسرى النبي ﷺ، وموطن الأنبياء، ومهد الإسلام، فالجهاد واجب وفرض عين على كل مسلم ومسلمة، ولا يقولن إنسان: لم أتمكن. فإنه يستطيع أن يساهم بماله، فإن لم يكن مالا فبجاهه، يحث جيرانه وإخوانه بأن يتبرعوا بما يستطيعون ولو ريالاً، حتى يساهم به في مساعدة إخوانه وأهله، ويكون قد أرضى ربه وأراح ضميره وعد من المجاهدين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ تَوَٰمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۝﴾ [الصف: ١٠-١٣].

فالله سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان المؤمن المستحيل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وإنما يطلب من المرء ما يستطيع وبكل هدوء وتنظيم يتم العمل الصالح، ولا سيما إن كان يقصد به وجه الله حقاً.

وعلى المسلم أن يضحي بشيء من راحته ووقته في سبيل منفعة الناس وخدمتهم، وقضاء مصالحهم المالية والعلمية والأدبية، فإن ما يبذله المرء من الجهد والوقت، وما ينفقه من المال في قضاء مصالح غيره، لا يضيع سدى، بل يثاب عليه من الله العلي القدير الذي يقضي له حاجاته، وأنه

يبدل في ذلك قليلاً لينال من الله خيراً كثيراً (ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) .

والمسلم الحق هو من يسعى لدفع البلياء التي تحل بالمسلمين ، فمن أصابته مسغبة بذل له من ماله ، أو حث الأغنياء على معونته وسعى بجأه لمن عنده المال .

وإذا امرؤ أهدي إليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله

ومن بلي بالمطالبة بحث له عن عمل يرتزق منه ، ومن حاق به ظلم حاول رفعه عنه بقدر ما يستطيع ، ومن انتابه مرض عاونه على اتخاذ وسائل الشفاء منه ، وبالإجمال يسعى جهده لإخوانه في إزالة النوائب أو تخفيفها .

وقد ضمن الله تعالى لفاعل هذه الخيرات أو بعضها في إغاثة الناس ، رفع الكرب عنه يوم القيامة ، وكرب يوم القيامة شديدة قاسية لا تماثل كرب الدنيا ، وليس هناك من سبيل إلى درئها عن النفس إلا ما يقدمه المرء في هذه الحياة الدنيا من عمل صالح ليكون ذخراً ينفعه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

وقال النبي ﷺ : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»^(١) ، فالساعي على الضعفاء من الأراامل والمساكين والمحتاجين ، وقضاء مصالحهم ، وجلب ما يحتاجون إليه من الأمور التي حث عليها الشرع الشريف ، عدها كالجهد في سبيل الله ، ولما كان للمجاهد المكانة العالية في النفوس ، والذكر الحسن في الحياة الدنيا ، ثم يدخله الله يوم القيامة في

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٣) ، ومسلم (٢٩٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

جنات الخلد، كذلك جزاء الساعي على الأرملة والمسكين والمحتاجين يرعاهم ويحوظهم بما يخفف عنهم، ويصون وجوههم عن المسألة، ويسد جوعهم فهو لذلك خالق برتبة المجاهدين ومنزلة المقربين: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني»، والعاني الأسير والذليل، وكل من كان في مشكلة، فالطعام للجائع وإغاثة الملهوف من الأمور المطلوبة شرعاً، نوه بها الرسول في أحاديث كثيرة، والله سبحانه يقول: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ❶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ❷ فَكُ رَقَبَةً ❸ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❹ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ❺ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ❻ [البلد: ١١-١٦]، والمسغبة الجوع، والمقربة القرابة، والمتربة شدة الفقر، واقتحام العقبة هو عمل الخير؛ لأن في عمل الخير مشقة وجهداً كبيراً، لذلك شبهه سبحانه وتعالى بالعقبة لصعوبته على النفوس.

وقد أثنى الله على الذين يفرجون الكروب بالإطعام والبذل السخي في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، ومعنى على حبه عل حاجتهم إليه وحبهم له ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] (أي حاجة) ويبدلون الفقراء والمساكين والأيتام والأسرى.

ومن الأمثلة العالية في السخاء، وتفريج الكروب ما روى ابن عباس رضي الله عنه قال: قحط الناس في زمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما اشتد الأمر

عليهم قال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان في الغد جاء البشير إليه بأن عيراً لعثمان بن عفان رضي الله عنه قدمت وفيها ألف راحلة برّاً وطعاماً ، فغدا التجار على عثمان ، فخرج إليهم ، وقال لهم : ما تريدون؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برّاً وطعاماً ، وإننا لنرجو أن تبيعنا حتى نوسع على فقراء المدينة ، فقال لهم : ادخلوا فدخلوا ، فقال لهم : كم تعطوني ربحاً علي شرائي من الشام؟ قالوا العشرة اثنا عشر . قال لهم : قد زادني من هو خير منكم أكثر ، قالوا : العشرة أربعة عشر ، قال لهم : قد زادني من هو خير منكم أكثر ، قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادني أكثر ، قالوا : من الذي زادك ونحن تجار المدينة ، ولا نعلم أحداً غيرنا يشتري ويبيع؟ قال : قد زادني ربي لكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة؟ قالوا : لا . قال : وإني أشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة .

هذا هو الجهاد الأكبر ، وهذا هو المجد العظيم ، وبهذه الأعمال العظيمة والنفوس القوية الطاهرة ، خلد الصحابة الكرام رضي الله عنهم ونشروا الإسلام ، وبقي ذكرهم عاطراً على مر الزمان .

ورحم الله أمير الشعراء شوقي حيث يقول :

ولم أر مثل جمع المال داء	ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها	كما تزن الطعام أو الشرابا
وخذ لبنيك والأيام ذخراً	وأعط الله حصته احتسابا
عجبت لمعشر صلوا وصاموا	ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المال صمّاً	إذا داعي الزكاة بهم أهابا
ومن يعدل بحب الله شيئاً	كحب المال ضل هوى وخابا

فالتحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة هو من شيمة الإسلام ومبادئه ،
والله سبحانه عندما مدح النبي الكريم لم يقل له إنك غني كبير أو عالم
قدير ، أو ذكي عبقرى ، وإنما قال وهو أحكم القائلين : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ
عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

لذلك كان النبي ﷺ مثال الخلق العالى العظيم وينبوع الكمال المطلق .
فإن هذه المكارم والأخلاق والآداب نحن مدعوون أيها المستمعون
الكرم ، فليس لنا نجاة إلا باتباع نبينا الكريم ، ولا نجاح لنا إلا بالافتداء
به ، وإقامة شعائر دينه ، والله من وراء القصد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .
اللهم جملنا بخلق الإسلام ، واكتبنا مع أتباع هدى سيدنا محمد ﷺ ،
واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

اللهم ساعدنا على قول الحق ، وجنبنا قول الباطل ، وأعطنا القوة لنقول
النصيحة خالصة لوجهك الكريم ، وأعطنا العقل لنعرف متى نقولها ،
وأعطنا الكفاية لنعرف كيف نقولها .

اللهم إذا أعطيتنا مالا فلا تأخذ سعادتنا ، وإذا أعطيتنا قوة فلا تأخذ
عقولنا ، وإذا أعطيتنا نجاحا فلا تأخذ تواضعنا .

اللهم لا تدعنا نتهم خصومنا بالخيانة لأنهم اختلفوا معنا في الرأي ،
اللهم علمنا أن نحب الناس كما نحب أنفسنا ، وأن نحاسب نفوسنا كما
نحاسب الناس .

اللهم علمنا أن التسامح هو أكبر مراتب القوة ، وأن حب الانتقام هو
أول مظاهر الضعف .

اللهم إذا جردتنا من المال فاترك لنا الأمل ، وإذا جردتنا من النجاح فاترك لنا قوة العناد حتى نتغلب على الفشل ، وإذا أسأنا إلى الناس فأعطنا شجاعة الاعتذار ، وإذا أساء إلينا الناس فأعطنا شجاعة العفو .

اللهم إذا ضعفت ذاكرتنا فدعنا ننسى إساءات الناس ، ولا ننسى إحسانهم .

اللهم إذا فقدنا صديقًا من أصدقائنا فارزقنا قوة الخلق حتى نسترده من جديد .

اللهم إذا مرضنا فلا تجعلنا عبئًا على من نحب . آمين .



المحاضرة الثامنة والثلاثون:

ذكرى نزول القرآن

قوله تبارك وتعالى في سورة الجمعة : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] .

تمهيد:

إنها آية جامعة ومستوعبة ، ذلك لأن هذه الآية على قصرها وإجمالها تشير إلى باعث محمد ﷺ ، وإلى المبعوث محمد ﷺ ، وإلى المبعوث فيهم ذلك النبي الأمي ، وإلى أسلوب الدعوة بالتعليم بالحكمة والموعظة بتلاوة الآيات المتعبد بها ، وإلى الفائدة من هذه الدعوة التي هي تطهير البشر من أدرانها والسمو بالمجتمع الإنساني إلى أعلى الدرجات والطبقات ، والمقارنة بين ما كان عليه ذلك العالم قبل هذه البعثة وما صار عليه من تقدم بعد أن كان في ضلال مبين .

هذه الآية جمعت كل هذا في عبارة منسجمة ، وفي تناسق كريم ، لا يتوفر عليه إلا القرآن الحكيم ، ونقول : إنها كانت جامعة ؛ لأن الآيات التي وردت في التنزيل كثيرة في القرآن ، قد عنيت كل آية ببعض هذه التفاصيل ، وهذه الإشارات ، فالقاعدة العامة التي جرت عليها سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه أنهم كلما زاغوا عن الطريق ، وكلما انحرفوا عن الهدى بعث لهم رسولا ، وأنزل فيهم كتابا ، هذه الآية هي التي يشير إليها القرآن الكريم في سورة الرعد : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] .

وهذه الكتب السماوية على اختلافها وعلى اختلاف المرسلين بها والمرسلة إليهم ، كلها حق وصدق ، فالقرآن الكريم لا ريب فيه ، والكتب الأخرى على جميع المسلمين والمؤمنين أن يؤمنوا بها : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة : ٤] .

في سورة البقرة ذكر لنزول القرآن في هذا الشهر المبارك : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وتأتي آية أخرى لتحدد موعد نزول القرآن بالليلة التي لن تكون إلا في شهر رمضان ، وذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر : ١-٣] .

وتتردد في القرآن الكريم آيات تفيد أن هذا الكتاب المنزل منه سبحانه وتعالى بلا واسطة : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ، ﴿مَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه : ٢] ، وفي سورة الشعراء : ﴿وَإِنَّمَا لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٢] ، ثم تأتي آية أخرى لتبين أن الوسطة إنما كانت بحكم أن المرسل إليهم بشر ، وأن الوحي الذي ينزل من الله تبارك وتعالى لابد أن يكون فيه روح القدس أو روح أمين ، وتلكم هي الآيات التي وردت في سورة النحل : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل : ١٠٢] ، ثم تأتي آية أخرى لتبين اللغة التي نزل بها كتابنا هذا المعجز الذي كان وسيبقى خالدا والذي سيبقى معجزة للعالمين ، تلك اللغة التي نزل بها ، هي اللغة العربية ، وذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف : ٢] ، ﴿كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت : ٣] ، وتذكر آيات أخرى ما يؤثر القرآن به في النفوس ، وما يفعل في القلوب من أثر ، فنجد هذا مذكورا في عدة

آيات ، هو قوله تبارك وتعالى في سورة الزمر : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ، بل إن القرآن ليذهب في ضرب الأمثال على عظمة هذا القرآن وما أحدثه من أثر حتى في الجملادات لو أنزل عليها ، فيقول في آية أخرى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١] ، وهكذا نجد القرآن يتجاوز تأثيره ليس فقط مجموع البشرية ، ولكنه يتحدث عن صنف من أصناف المخلوقات هي صنف الجن ، فيقول تبارك وتعالى في آية أخرى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ، وفي سورة الحشر وهي : ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ، ويذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه كان من الضرورة أن ينزل هذا القرآن على عربي ليفهم العرب بلسانهم ، فيشير إلى ذلك في هذه الآية : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ ، ١٩٩] ، ثم يذكر كذلك أن هذا القرآن ليس من فعل شاعر ولا فعل كاهن ، ولا يمكن أن يتكهن به أو يفترى به على الله بشر ، ويقول أيضا في آية أخرى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩٩﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٢٠١﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣] ، ويتوعد من تسول له نفسه أن يفترى على الله الكذب فيقول في آية أخرى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٢٠٢﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢٠٣﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٠٤﴾ عُرُوقَ

القلب أو مجاري الدم ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤] - [٤٧] ، فهذا توعّد للبشر لأن يأتوا بآية من مثله ، أو يتقولوا على الله ما لم يقل ، وهذا القرآن - كما ذكرناه - سيظل محفوظا أبد الدهر ، تعهد الله بذلك في آية أخرى إذ قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ، وزاد الله تعالى يبين لنا أسباب حفظه وأسباب خلوده بأنه جمع فأوعى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، هاته الآيات أشرنا إليها على سبيل المثال لنذكر ما استوعبته آياتنا التي سنشرحها من معاني ومغازي تتضمنها آيات أخرى تكفلت بذكر التنزيل ، وبإنزال القرآن على النبي ﷺ .

سورة الجمعة :

فلنرجع إذن إلى هذه الآية الواقعة في سورة الجمعة التي هي إحدى عشرة آية من القرآن ، والتي اتفق المحدثون والمفسرون على أنها سورة مدنية . وكثيرا ما يقع الاختلاف بينهم في مكية السورة ومدنيتهما ، وأما لماذا لم يثر حول مدنية السورة خلاف ، فذلك هو أن راوي سبب نزول هذه الآية هو أبو هريرة حين قال : «كنا جلوسا عند النبي ﷺ ذات يوم فنزلت سورة الجمعة : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]» .

ومن المعروف عند المحدثين والمفسرين وأرضى الصحابة أن أبا هريرة إنما أسلم بعد الهجرة ، فلا يمكن أن تكون السورة إلا مدنية ، وثانيها لأنه ورد في سبب نزول هذه السورة هذا المقطع الأخير ، منها هو قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَوْأَ أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١] ، ذلك أن سبب نزولها هو أن النبي ﷺ كان يصلي بالناس يوم

الجمعة ، وقد التحمت الصفوف وراءه فإذا بقافلة تأتي إلى المدينة تحمل طعامًا ومواد تموين ، وإذا بالصحابة وقد كانت حاجتهم إلى ذلك الطعام كثيرة ، وخاصة أن بعضهم انصرف عن الصلاة وترك النبي ﷺ قائما ليس وراءه إلا اثنا عشر صحابيا فيهم أبو بكر وعمر ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجْرَةِ ﴾ [الجمعة: ١١] .

﴿ مِّنَ اللَّهْوِ ﴾ : ذلك الطرب الذي كانت تزف القافلة به أخبارها إلى الناس ليقبلوا عليها .

﴿ وَمِنَ التِّجْرَةِ ﴾ : حيث كان الصحابة يريدون أن يبتاعوا منها لحاجتهم إلى الطعام والمواد ، فهذه الآية نزلت إذن في المدينة بالإجماع للأسباب التي ذكرناها .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ﴾ [الجمعة: ٢] يرجع إلى قوله قبل : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١] ، وكأنها هذه الآية الأولى مدخل للسورة ، وكأن كل عبارة تشير إلى ما في السورة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١] ، كلمة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، أي أن الله يخضع ويسجد له ويطلب عفوه وكرمه كل المخلوقات ، فما بال كل الأقوام ينفضون عن الصلاة ، ويتركون النبي قائما ويسيرون إلى القافلة ليبتاعوا منها ويرتاعوا منها ومن خيراتها .

﴿ الْمَلِكِ ﴾ : المالك لكل شيء ، ومن ذلك أرزاقهم إذ لو قاموا بالعبادة خير قيام لرزقهم الله من حيث لا يحتسبون .

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المنزه بصفاته وأفعاله عن كل نقيصة، ومن ذلك يعرف من يبعث من الرسل وإلى من يبعثهم وفي أي مناسبة يبعثهم .

﴿الْعَزِيزِ﴾ يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقد أراد أن يذل بني إسرائيل بأن جردهم من تحمل الرسالة عندما كانوا يستفتحون على العرب وعلى المؤمنين بأن النبي الأمي سيكون في المستقبل منهم، فإذا به يأتي من العرب وإذا بهم يندهشون بظنهم أنهم شعب الله المختار، وأنه لا يمكن أن يكون الرسول إلا منهم، فإذا الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وهذه حكمته أرادها لأنهم وصلوا إلى درجة من النقص ومن الانحلال بحيث لم يبق لهم أن يتحملوا الرسالة، وأصبحوا كمثل الحمار يحمل أسفارا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وذلك في صميم الآية، وهذا المدخل توطئة للآية التي بعدها .

علاقة سورة الجمعة بسورة الصف:

لا بأس أن نشير هنا إلى سر من الأسرار الإلهية في القرآن الكريم، ذلك هو ترتيب السور، فنشير إلى علاقة هذه السورة: سورة «الجمعة» بسورة «الصف» التي قبلها، وهي قد وردت بعدها أو نزلت بعدها، أو رتبت بعدها لأجل ما رأى فيها الصحابة من مناسبة ومن اتصال، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ذكر في سورة الصف حال موسى مع قومه، وكيف أنهم كفروا به وجحدوا به، وأنه أراد أن يذكر في سورة الجمعة أن هذا الحال ليس هو حال العرب، لأنه بعثه فيهم، وأنه سيزكيهم بالإسلام، وسيقبلون على الدعوة الإسلامية، وسيظهر مجتمعهم، وسيصبحون خير

أمة أخرجت للناس ، فهناك ارتباط في هذا المعنى بين ما ذكر في «سورة الصف» عن أحوال بني إسرائيل وموسى ، وما ذكر في «سورة الجمعة» عن أحوال العرب مع النبي ﷺ ، ورابطة أخرى فيما ذكر في «سورة الصف» عن أحوال عيسى وعن تبشيره بمحمد ﷺ : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ، ذلك الرسول الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، فإذا كان الله في «سورة الصف» قد ذكر على لسان عيسى تبشيره بهذا النبي الأمي بوصفه واسمه ، فإن «سورة الجمعة» قد أشارت إلى بعثة هذا النبي : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] ، وإذا كانت «سورة الصف» قد أشادت بالتجارة ، وأحسن التجارة الجهاد في سبيل الله ، إذ قال فيها سبحانه وتعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ، وكان هذا هو السؤال ، وكان الجواب : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] ، هذا الجهاد اعتبره خير تجارة ، فما بال أقوام ينصرفون عن الصلاة التي هي جزء من الجهاد ، جهاد النفس ، جهاد لأجل تثبيت العقيدة ، ينصرفون عنها إلى تجارة حقيرة لا تسمن ولا تغني من جوع ، في حين أن الجهاد الأكبر هو جهاد التعبد بالصلاة والتعبد بالجهاد ، ولذلك فهذه الآية بين «سورة الصف» و«سورة الجمعة» ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى في «سورة الجمعة» قد أشاد بالتحام الصفوف في

الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصِينَ﴾ [الصف: ٤]، فهو قد ذكر الذين ينفضون من حضور الصلاة ويتركونها لينصرفوا إلى تجارة حقيرة في «سورة الجمعة»، وهكذا يبدو الترابط واضحاً بين «سورة الصف» وبين «سورة الجمعة»، وتلك هي إحدى أسرار التنزيل الحقيقية، وذلك سبب من أسباب ترتيب القرآن.

حاجة الناس إلى الدين:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ [الجمعة: ٢]، الضمير يعود على الله المذكور في مدخل سورة الجمعة في: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١، ٢]، بعث هذه البعثة وذلك لحاجة الناس إليها، فلقد بلغت الإنسانية في ذلك الحين مبلغاً من الانحطاط ومن الانحلال مما كان لابد منه أن تكون سنة الله على ما قد قدر، وهي أن يبعث لكل أمة رسولا، وأن يكون لكل أجل كتاب، فقد دقت بالنسبة للبشرية ساعة بعث نبي جديد، وإنزال كتاب جديد.

﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ هذا البعث ضروري، ذلك أن حاجة البشرية إلى الدين حاجة ضرورية، فالدين قوة محرّكة للهمة، والدين في الوقت نفسه حصار يوقف جماح النفس، وذلك هو السر في بعثة الأنبياء.

إقامة الحجة ببعث الأنبياء:

وسر آخر في بعثهم هو إقامة الحجة على الناس، وذلك فيه إشارة بقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّآ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

فإن الله تبارك وتعالى عندما يبين يوضح ، وعندما يوضح الحلال والحرام ، وعندما يبين الطريق السوي من الطريق الضال لا يكون لأي عبد من عباده عليه حجة ، بأن يقول : يا رب ما عرفت أو ما علمت وما أدركت سر تعاليمك بهذه البعثة .

وظيفة الأنبياء هي التبليغ:

بعثة الأنبياء ووظيفتهم فيها هي التبليغ لا يزدون على أنهم مبلغون عن الله لعباده ؛ لأنهم مرحلة وسطى بين مرحلة الألوهية ومرحلة البشرية المطلقة ، ولكنهم مع ذلك يظلون بشرا ، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويتحدثون كما يتحدث الناس ، بلغة الناس ، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى حينما ينعم عليهم بهذه النعمة ويجعلهم الواسطة بينه وبين خلقه ، يذكرهم دائما بأنهم بشر وفي وصف البشر ، ويطلب منهم أن يقولوا ذلك ، ويكرره ويستعمل في هذا المعنى جميع أدوات الحصر في القرآن : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

يطلب من هذا النبي نفسه أن يقول ذلك ويكرره حتى لا يختلط عليه الأمر ، فيظن أنه ببعثة الله له أصبح بشرا غير البشر ، بل هو واسطة ليس إلا ، ثم إن هذه الواسطة إنما هي للتبليغ ، إذ لا واسطة بين العبد وربّه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ ﴾ [الكهف: ١١٠] ، ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨] ، ﴿ إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى: ٤٨] ، ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ ﴾ [الغاشية: ٢٢] ، فهو دائما يكرر

هذا المعنى ويطلب من النبي أن يكرره ويعيده على نفسه ليسمعه الناس وتسمعه نفسه الكريمة أيضا ، بل إنه ليطلب منه أن يكرر خضوعه لله ، ويطلب منه أنه يعيد ويكرر أنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

التبليغ والتحرر الفكري:

وهذا الدور المحصور في دور التبليغ إذا قارناه بما كانت عليه الديانات الأخرى نلاحظ ما حصل في المجتمع الإسلامي من تحرر فكري ، تحرر من الاسترقاق والاستعباد ، واستعباد الكهنوت ، ذلك أن الإسلام لا يؤمن بالكهنوت والرهبانية ، ويقول عن الرهبانية : ﴿أَبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] ، فالنبي ﷺ والأنبياء جميعا مبلغون عن الله لا أقل ولا أكثر ، والتشريع حق من حقوق الله ، فالله تبارك وتعالى هو الذي يشرع والنبي ﷺ يوضح ويفسر ويعلق ويشرح ، ولكنه لا يزيد في التشريع ولا ينقص ، وهذا خلاف ما كانت عليه الكاثوليكية المسيحية ، وكانت عليه الوثنية ، إذ كان الوثنيون يعتقدون في أصنامهم أنها الآلهة المعبودة ، وكانت المسيحية تعطي حق الغفران لرهبانها ، بل إن المسيحية تفعل أكثر من ذلك ، فتجعل من قسيسيها ومن رهبانها ، واليهودية من أحبارهم ، أربابا من دون الله ، ولايزالون يسمونهم هكذا رب فلان ورب فلان في لغتهم إلى الآن ، بل إن طاعة الأنبياء في الواقع لا تخل بالعبودية ، وإنما هي في الواقع طاعة الله ، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ، أي أنه ما أطاع النبي بقدر ما أطاع الله ، لأن النبي مبلغ ،

فالطاعة لله سبحانه وتعالى ، وهكذا فقد رد الإسلام أو قضى الإسلام على مفهوم الشفاعة كما كان يتصورها الوثنيون ، الشفاعة الوثنية حق الغفران ، والشفاعة بالمعنى الذي أعطي لبعض الأنبياء وللنبي ﷺ هي التماس من حبيب الله محمد ﷺ من ربه أن يشفع في أمته أو يشفع في بعض البشر ، وهذا مفاد قوله تبارك وتعالى أيضا : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٣] ، كل شيء يعود إلى الله سبحانه وتعالى .

وكان لابد إذن من هذه البعثة لأجل أن تستقيم الأحوال ، ولأجل أن يعود التوازن في المجتمع إذا اختل هذا التوازن ، وذلك بالرجوع إلى تشريعات روحية سماوية ، والاستمداد من هذه التشريعات لحفظ ذلك التوازن فتلك الأسباب التي أشرنا إليها مجملتها هي سر بعثة الأنبياء وبعثة محمد ﷺ :

الأمية والاميون :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] ، الأميون هذه اللغة بالعربية نسبة إلى الأم ، فالأمي هو من لا يقرأ ولا يكتب ، أي من لا يزال كما خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل: ٧٨] ، إذ القراءة والكتابة إنما تكون بالتعليم ، فما لم يحصل هذا فغير القارئ وغير الكاتب أمي ، أي لا يزال كما ولدته أمه ، وقد قال بعض المفسرين : إن نسبة الأميين أي نسبة إلى المكين أي إلى مكة ، وهذا تغريب في التفسير ، فالنبي ﷺ بعث في الأميين أي بعث في المكين ، أي كان من بني مكة ، ولكنه بعث من وسط الأميين عامة عربهم وعجمهم ، في وقت كانت الأمية طاغية على العالم ، وربما كانت

كلمة الأميين في القرآن تقترب مع من كان يقال عن بني إسرائيل من أنهم يصفون أنفسهم بأنهم شعب الله المختار، وأن ما عداهم هم الأميون، ويقولون باللسان العبري في هذا «كسيم»، وذلك أنها مشتقة من أختها في اللغة العربية من كلمة «قوم»، وكثيرا ما تكمم القاف في بعض اللهجات العربية، وكانوا يقولون بأنهم شعب الله المختار والباقي أقوام وأجناس مختلفة لا حد لها ولا تعريف لها.

فالله يقول بعثنا في أولئك الأقوام في غيركم يا بني إسرائيل رسولا منهم: ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الشهر هكذا وهكذا، إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب»^(١).

هذا حديث صحيح وصف فيه النبي ﷺ حالة العرب في ذلك الوقت حينما كانوا لا يحسبون ولا يكتبون، وأن بعثة النبي ﷺ ذكرت في القرآن الكريم في هذه الآية بالذات:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، ذكرت باللفظ والمعنى كما لفظ بها إبراهيم الخليل وهو يرفع القواعد في ظل البيت إذا قال في القرآن الكريم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا محل الشاهد: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ

(١) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، بنحوه.

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٨﴾ هذا الدعاء دعاه إبراهيم دعا ربه وهو يرفع القواعد في ظل البيت أن يخلق الله من أمة العرب نبيا يزكيهم ويطهرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فجاء القرآن يحكي ما وقع بالنص واللفظ ، وكأنها دعوة إبراهيم قد جاءت بعد مئات من السنين استجابة لدعاء هذا النبي الكريم أبي المسلمين : ﴿مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] ، جاءت بعد مدة تأكيداً لكون الله تبارك وتعالى لا بد أن يستجيب لعباده من المتقين ، قال علماؤنا واستجابة الدعوة تكون ولو بعد مضي مدد وأجيال : ﴿مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] ، فالإسلام إذن هو دين الحنيفية هو دين الإبراهيمية ، وإنما اختلف الفقهاء والمفسرون هنا في كلمة «الأميين» هل تقتصر على العرب أو تقتصر على جميع الأميين في الدنيا عربيهم وعجميهم ، أو هي تعني كلمة المكين ؛ لأنها نسبة لأم القرى ، ويظهر لي أن السبب في هذا تحل ، وهذا التفسير يرجع إلى أنهم لم يفرقوا بين كلمة «في» وبين كلمة «إلى» ، فالنبي ﷺ لم يقل القرآن عنه إنه بعث إلى الأميين وإنما بعث في الأميين أي في وسطهم ، أما حينما يذكر الله من بعث إليهم فإنه يذكره بحرف إلى وبصيغة العموم والشمول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، فالأميون قد بعث منهم النبي ﷺ ، أي بعث من جنس الأميين كما كانوا يوجدون في العالم بأسره ، وقد بعث منهم النبي ﷺ ، أي بعث من جنس الأميين في العرب ، ولا يختلف المعنى في ذلك ما دام النبي ﷺ مبعوثاً للعالمين ولكافة الناس أجمعين ، ولا مجال في ذلك للتقدير والتمحل والتأويل .

وإذا كان العرب أميين فذلك هو الأغلب فيهم ، فيحدثنا تاريخهم أنهم لم يكونوا أميين كلهم ، وإنما كانت هناك نخبة تعرف العلوم المتداولة في ذلك العصر ، هذه النخبة كانت تعرف علم النجوم وعلم الأنواء ، وكانت تحسن قليلا من تجارب الطب ، وكانت لهم معرفة بعلوم الأنساب ، وكانت تقرض الشعر ، وكانت تؤلف الأمثال ، وكانت تنشئ الخطب ، وهذا أدهم يدل على ذلك ، ولكنهم كانوا نخبة قلة والغالبية كانت أمية ، كما في الحديث : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» أي بحكم الغالبية والأغلبية .

الأمية والفطرة:

قد يبدو لنا أن نذكر أن كلمة الأمي تشير إلى معنى آخر وهي كلمة الفطري ، فقد قيل إن الإسلام دين الفطرة أي الدين الذي تنسجم تعاليمه مع الطبيعة البشرية ، والذي لا يحتاج معتقده بأن يتكلف كثيرا من الجهد لمعرفة تعاليمه وأحكامه فهو يكفي فطرتهم ويناسب خلقتهم الأولى ، «كل مولود يولد على الفطرة» ، كما في الحديث ، فمعنى ذلك أن النبي ﷺ قد بعث في الأميين بدين الأمية أي بدين الفطرة بدين اليسر والسهولة ، كما في الحديث : «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» .

وكما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ، ذلك أن دعوة الإسلام قد قامت دائما على الفطرة المجردة ، وقامت دائما على تفكير بسيط يتبدى دائما بمقدمات مسلمة لينتهي إلى نتائج مسلمة ، فهو دين الفطرة ، ومن هذا المعنى يستخدم الحواس كما جاء في القرآن الكريم : ﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ [يونس: ١٠١] ، فكروا ، تدبروا ، اعتبروا .

يحطم الأصنام كما كان يفعل إبراهيم ، وهو أبونا المسلم الأول :
﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآهَتِنَا يَتْلُوْنَاهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٢، ٦٣] ، فإذا كان كبيرهم لا يستطيع أن يفعل ذلك ،
وقد استغربوا هذا فكيف يعبدون ما لا يستطيع لنفسه نفعا ولا ضرا ،
فالدين الإسلامي دين الفطرة أي دين اليسر دين الطبيعة البشرية ، بدون
تعنت ولا عناء ولا إعنات .

الرسول والنبي :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] ، يذكر العلماء
أن الرسول والنبي كلمتان مختلفتان ، فالرسول من أوحى إليه بشرع وأمر
بتبليغه ، والنبي من أوحى إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لا ، فالرسول
يتضمن إذن النبي وزيادة ، ولذلك كان عدد الأنبياء أكثر من عدد الرسل
عليهم السلام .

نسب النبي ﷺ :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] ، أي من جنس
الأميين ، كما أشرنا إليه ، إذا كان المراد بالأميين المعنى العام أو من جنس
الأميين ، إذا كان المراد بالعرب وحدهم وهذا يلتقي مع قوله تبارك وتعالى
في سورة أخرى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ، أي أنه من فصيلتهم ومن جنسهم فهو كما
قال النسابون العرب في كل قبيلة مولد ، قال أبو إسحاق : إلا بني تغلب
فإن الله قد طهره منهم . أو منهم : أي من أشرفهم حسبا وبينا ونسبا ، فهو
الكريم ابن الكريم ، ولذلك قرئت الآية : (من أنفُسِهِم) بفتح الفاء :
(لقد جاءكم رسول من أنفُسكم) .

حكمة أمية النبي ﷺ :

وهكذا فإن الله تبارك وتعالى قد اختار أن يكون المبعوث أمياً ، لأجل ألا يقال إن كل ما يذكره عن القرآن وما يأتيه من التنزيل ، إنه كلام قد تعلمه وقرأه ، وإنه إنما يصدر في ذلك عن غير الله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤، ٥] ، والغريب أن تكون الآية التي ابتدئ بها الوحي الذي أنزل على الأمي ، آية التعليم ، وقد استغرب النبي ﷺ هو نفسه في أول الأمر في أن يكون قد اختير وهو الأمي لأداء هذه الرسالة عندما نزل عليه الوحي ، وحديث الوحي معروف عن عائشة وهو : أن النبي ﷺ أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وأنه حُبب إليه الخلاء فكان يذهب إلى غار حراء يبيت فيه الليالي ذوات العدد ، ثم نزل عليه الوحي .

ولا نريد أن نطيل لأن الموضوع طويل جداً ، وإنما نشير إلى أنه بعد أن غطه الملك الغطة الأولى والثانية والثالثة كان يقول له اقرأ ، وكان النبي يرد في صورة المستغرب وفي صورة القاطع البات ما أنا بقارئ ، ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [١] ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢] ، ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يقول له في المرة الثالثة بعد أن هياه لتلقي الرسالة : ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [٢] ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [٣] ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣، ٥] .

وهنا نجد من أسرار القرآن أن الله يستعمل كلمة الربوبية ، وكلمة الكرم في هذه اللحظة الرهيبة التي هي لحظة تبتدئ فيها سعادة البشر بتكليف محمد ﷺ بأعظم رسالة .

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ إن الله تعالى سيربك ويهذبك وينورك ويعدك إعدادا لتحمل هذه الرسالة فلا تتهيبها .

﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ولم يكن القلم إذ ذاك له هاته الأهمية التي له اليوم بعد أن انتشرت القراءة وعمت الكتابة ، ومع ذلك فإن القرآن يشيد بفضل القلم في ذلك الوقت إشادة تدل على أن الرسالة قائمة على العلم وقائمة على التعليم وقائمة على الهداية بدل الرسائل الأخرى التي انحرف عنها أصحابها ، فأصبحت تلك الديانات ديانة ضلال وتضليل : ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿العلق: ٣، ٥﴾ .

تدرج الوحي:

وقد تدرج الوحي على النبي ﷺ ، ففي هذه السورة الأولى التي هي أول سورة من القرآن .

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ طلب منه أن يقرأ وأن يستعد ، وفي سورة أخرى طلب منه أن يقوم وأن يبدأ مزاوله العمل : ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدر: ١، ٢] ، بداية مزاوله الدعوة .

أما في الآية الثالثة وهي المرحلة الثالثة من الدعوة فقد طلب منه الجهر بالدعوة : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] ، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ، وهكذا تدرجت الدعوة الإسلامية النبوية على هذه المراحل الثلاث من الاستعداد لتلقيها في أول الأمر ، وقد كان ذلك موضع دهشة النبي ﷺ واستغراب أن يكون هو المؤهل لهذه الرسالة ، ثم الدعوة إلى القيام بها ومزاولتها والنهوض

بأعبائها، ثم الجهر بها بدون خوف وبدون وجل، ويتحدث كل القوات التي يمكن أن تعارض هذه الدعوة الإسلامية.

تلاوة القرآن:

﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢]، وهنا تشرح الآية بعد أن ذكرت الله باعثة النبي ﷺ، والمبعوث محمد ﷺ، والمبعوث فيهم للعرب ولأمة البشر من الأميين، ذكرت طريقة الدعوة وأسلوبها، فقال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ والبداية بتلاوة الآيات أي بقراءتها، ولا حظ له فيها إلا التلاوة المحضة، يقرأ القرآن كما أنزل عليه: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ الآيات في الأصل القطعة من السورة، ولكن المعنى ممزوج بكلمة الإبداع والإعجاز، فلا تكون القطعة آية ولا تكون آية إلا إذا كان فيها سر من أسرار الإعجاز، ولذلك فالقرآن كله معجز، وكل سورة منه آية.

تزكية النبي ﷺ للمؤمنين:

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم وينميهم أو يرفع مستواهم أو يخلص شعورهم الفكري والخلقي والروحي، ويزيد فيه غنى على غنى كلما نزل القرآن، وتكرار نزوله يزكيهم، يزكيهم من الجهل بالتعليم ويزكيهم من الأخلاق الفاسدة بإتمام مكارم الأخلاق، وقد بعث ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، يزكيهم من الجهل بالعلم ويزكيهم من الاسترقاق، وقد كانت فيهم طائفة تسترق وتستعبد، وجاء الإسلام ليضع حدا للاسترقاق واستغلال الإنسان للإنسان، ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وهذه الطفرة التي وقعت ولم يقل في هذه الآية: وزكاهم؛

لأنه هو يتلو والتلاوة تتكرر منه ، والتعليم يتجدد ، ومنه تقع التزكية شيئاً فشيئاً والسمو شيئاً فشيئاً وترتفع أقدار المجتمع الإسلامي والإنساني ليصبح في أعلى مستوى ، وخير أمة أخرجت للناس ، وتستمر هذه التزكية لا تنقطع ، كما تلي القرآن في عهد النبي ﷺ وفي غير عهد النبي علي مر السنين والأحقاب ، ذلك هو ما يفهم من كلمة المضارع الذي يتجدد شيئاً فشيئاً ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب يعلمهم وهو الوحي ، يفقههم ذلك ؛ لأنه معلم من عند الله ، وتلك هي معجزة كما يقول البوصيري :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة

الكتاب : القرآن الكريم الذي به كانت التزكية وبسببه كان تطهير المجتمع وارتفاع قدره ، هذا الكتاب يعرفه الفقهاء والعلماء تعريفات شتى ، وما دمنا نحن في ذكرى نزول القرآن فستتوسع قليلاً إذا سمح لنا الوقت في كلمة القرآن ومعجزة الكتاب وأسرار الكتاب وتنزيل الكتاب .

القرآن:

الكتاب - كما يقول ابن السبكي - : هو اللفظ المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه ، المتعبد بتلاوته ، ويقول آخرون : كلام الله غير المخلوق المكتوب في المصاحف ، المحفوظ في الصدور ، المتلو بالألسن ، المسموع بالأذان ، ولكنه في جميع هذه المراتب حقيقة شرعية معلومة من الدين بالضرورة ، فكل شيء مقدس في الكتاب لفظه وتلاوته ، وكل ما يحتف به من ملابسات وقرائن .

وعرفه الخضري في أصول الفقه باللفظ العربي المنزل على محمد ﷺ للتدبر والتذكر الموجود أو المجموع بين دفتي المصحف ، المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس ، ولكن هذه التعريفات وإن كان يستنتج منها

التعبد بتلاوة القرآن وبإعجاز القرآن وبقدسية القرآن ، نجد القرآن يعرف نفسه أحسن تعريف ، وأحسن من كل هذه التعريفات في نظري ، ما قاله القرآن عن نفسه : ﴿ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] .

وذلك أحسن التعاريف وهو تعريف أشمل ؛ لأنهم حينما يذكرون المتعبد بتلاوته والمعجز لا ينظرون فيما هو أكثر من ذلك في أن القرآن في الواقع هو شريعة إنسانية خالدة قد ألت بكل شيء وبتشريع جامع مانع ، وهو دعوة إلى الهدى والإرشاد ، وهو كذلك بالنسبة للعرب ، ويمكن أن نقول كذلك قاموس لغتهم ، ودائرة معارف علومهم ، فالقرآن يحتوي على ما في تلك التعريفات من معاني وأزید ، وكيفما كان الحال ، فإن التعريفات كلها لا يمكن أن تكون حدا للقرآن الذي لا تحصى عجائبه ولا تنقضي غرائب ، وتذكر له أسماء كثيرة ، منها القرآن أو الفرقان ، وقد قال العلماء : اشتقاق القرآن من قرأ أي جمع ؛ لأن سوره مجمع بعضها إلى بعض ، أو من قرأ بمعنى طرح ؛ لأن من تلا القرآن يكون اللفظ خارجا من فمه ومطروحا ، وهذه كلها فقط تعبيرات وتفسيرات يراد بها استخراج الاشتقاق العربي لكلمة القرآن .

كما أنه الفرقان يفرق بين الحق والباطل ، وكما أنه الكتاب ؛ لأنه مسجل مكتوب . . . إلخ .

ومن غريب ما يذكر أن الذين اشتغلوا بهذه الدراسة للقرآن أوصلوا أسماء القرآن إلى ألف وتسعين اسما ، وذكروا منها الحكمة والموعظة والهدى والشفاء والرحمة . . . إلخ .

وفي نظري أن هذه كلها أوصاف للقرآن ، وأن القرآن هذا الفرقان وهو الكتاب ، وأنه فيه الشفاء وفيه الهدى وفيه الموعظة وفيه الرحمة ، ولا فائدة في أن نأخذ الأوصاف ونسميها بأسماء القرآن .

القرآن نزل منجماً :

وقد نزل القرآن منجماً أي مقسماً مدة ثلاث وعشرين سنة ، أو بضع وعشرين سنة ، وعلى كل حال في أقل من ربع قرن ، وكان أول من نزل منه : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ، وآخر ما نزل منه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣] .

ونجد الخلاف يستخدم كثيراً في آخر ما نزل ، ولكن الواقع أن هذا أمر كما قال ابن حزم : « لا فائدة في الاشتغال به ، ومن الأحسن تركه » ، غير أن المنطق يفرض علينا أن نتعرض إلى بعض الآيات لبيان ترتيبها ، إذ لا يمكن أن تكون أول آية من القرآن غير آية : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ، ولا يعتقد أن تكون آخر آية من القرآن غير ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣] ؛ لأن الأولى كما يقال تفتح الهلال والثانية تغلق الهلال ، وقد نزل القرآن منجماً مقسماً لأسباب :

أولها : الوضعية العربية التي كان عليها العرب في ذلك الوقت ، وقد كانوا من ناحية التقبل الفكري غير مستعدين أن يتقبلوا كتاباً كاملاً مجموعاً دفعة واحدة ، كان لابد أن يتدرجوا لأجل أن ينزل عليهم الكتاب مقسماً تقسيطاً ومنجماً ، ولذلك فهم من الناحية العقلية ومن الناحية الروحية وناحية التكليف بالديانات التي هم عليها من صابئة ومجوس وأهل كتاب ووثنيين لا يتقبلون القرآن ولو نزل عليهم دفعة واحدة فكان لابد من التدرج والارتقاء .

وناحية ثانية : هو أن القرآن كان ينزل منجما على حسب الوقائع والملابسات ، فكان الناس يعيشون الجو وتنزل عليهم الآية ويقبلونها ويتفهمونها ويعونها ؛ لأنهم يعيشون الحدث في جوه وبيئته ، فكان لابد أن ينزل القرآن منجما مقسما ليكون أبلغ في العظة والذكرى والتدبر .

ثالثا : ونزل القرآن منجما تحفظا على النبي ﷺ فقد كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد استغرب أن يكون هذا نزل عليه ، فقال : « ما أنا بقارئ » ، وكأنما يقول : ابحثوا عن غيري ، فإذا به ينزل عليه هذا القرآن لا جملة واحدة ، ولكن متدرجا لأجل أن يتدرب عليه ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم نفسه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ ﴾ أي : جملة واحدة ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢] ، على أن حاجة المكلفين وتقبلهم ليس فقط من الناحية العقلية والروحية ، بل من ناحية التكليف الشرعي ، ولم تكن تسمح بأن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة لجميع أحكامه ، ويتقبلون في الحين ما كانوا عليه من وضع إلى وضع ، جديد كل الجدة ، غريب كل الغرابة ، فكان لابد من أن ينزل القرآن مقسما تخفيفا على المكلفين وتدريجا لهم ، ونزل القرآن مقسما لا جملة واحدة لئلا يضيع ، فقد كان الذين يحفظونه في غير إبطاء ولا سرعة ، والذين يكتبونه كانوا يكتبونه في غير إبطاء ولا سرعة فتزل الآية ثم الآية وتكتب على مهل وتحفظ على مهل ، فتستقر في الصدور وتبقى مرسومة في صدور الناس والجريد ، كما ستتكم عن ذلك في كتابة القرآن ، حتى جمع القرآن كله قبيل وفاة النبي ﷺ .

لغة القرآن الكريم:

أما لغة النزول فلغة نزول القرآن هي اللغة العربية ، ذلك لأن الانطلاقة الأولى كانت من عرب الجزيرة العربية ، مهد الدعوة ، ولكنها ليست مكان الدعوة وحدها ، ولكنها المنطلق إلى عالم أكبر إلى أرجاء العالم كله ، ولذلك كان لابد أن تنزل بلغتهم ؛ لأنهم هم الذين سيستميئون أولا في سبيل الدفاع عن هذه العقيدة الجديدة ، فلا بد أن يتفهموها بلغتهم ، ولا بد أن يحسوا بها إحساسا ويتعمقوها تعمقا لتنفذ إلى أعماقهم ، فيمكنهم بعد ذلك أن يتجندوا لخدمتها ويستعدوا للجهد في سبيلها ، ونزل القرآن بلغة العرب ، وقد نزل واللغة العربية في ذلك العصر كما يقول تاريخ الأدب العربي لم تتم بعد وحدتها ، فكانت لا تزال فيها لهجات آتية من كون الجزيرة العربية ذات مناخ متعدد ومتشعب ، وجو مختلف وعدم اتصال ، فكانت لبعض القبائل لهجاتهم ، ونزل القرآن كما قال النبي ﷺ : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(١) ، وأحسن ما تفسر به على سبع لهجات ؛ لأن القرآن نزل بها ولأن إلقاء النبي ﷺ للقبائل كان بلهجتهم ، «وقد ورد على النبي ﷺ أعرابي فسأله : امبر امصيام في امسفر؟ -وهي لهجة- فأجابه النبي ﷺ : ليس من امبر امصيام في امسفر»^(٢) باللهجة العربية .

(١) أخرجه البخاري (٢٤١٩) ، ومسلم (٨١٨) عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً ، به مطولاً .
(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥ / ٤٣٤) ، والشافعي في «المسند» (ص : ١٥٧) ، والحميدي في «المسند» (٨٦٤) ، والخطيب في «الكفاية» (ص : ١٨٣) عن كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه به .

قال الخطيب : «وهذه لغة الأشعريين يقبلون اللام ميماً ، فيقولون : رأينا أولئك امرجال ، يريدون : الرجال ، و : مررنا بامقوم ، أي : بالقوم ، وهي لغة مستفيضة الى الآن» .

ولكن هذا القرآن استكمل وحدته عندما جمع في أيام عثمان في مصحف واحد مرتب مدون ، استكمل وحدته اللغوية ، ولهجته .
ونزل إلينا ولا يزال يقرأ في جميع أنحاء العالم إلا بفرق بسيط ناتج عن القراءات المعروفة التي تعدى بها البعض العشرة والتي ثبتت منها القراءات السبع كما هو معروف .

المكي والمدني :

وفي القرآن آيات وسور يقول عنها المفسرون إنها مدنية وأخرى إنها مكية لم تنزل إلا بالمدينة وحدها وبمكة وحدها ، ذلك لأنهم يعرفون المدني والمكي بأن المكي ما نزل قبل الهجرة ، وأن المدني ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بمكة ، فالمراد إذن تبويب هذه الآيات وهذه السور على مرحلتين تاريخيتين : مرحلة انتشار الدعوة وبدئها ، والمرحلة الحاسمة يوم أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فتقوى الإسلام ، أو المراد بها الخطاب أي الآيات التي خوطب بها المكيون والآيات التي خوطب بها المدنيون ، فمن ثم يقال : الخطاب المكي والخطاب المدني ، ويزيدون أن القرآن يحتوي على تفسيرات ، فكل آيات فيها : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهي مكية ؛ لأن المؤمنين لم يتمحصوا إلا عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وكل آية تتحدث عن قصة إبليس وآدم فهي مكية ، وذلك لأنها تمس بالاعتقاد أي بدء الخليقة .

ونجد أن القرآن فيه مكي ومدني ، هذا المكي والمدني يختلف في الأسلوب ، ويختلف في الموضوع ، يختلف في الموضوع بحكم أن الموجه إليهم الخطاب في المرحلة الأولى التي هي المرحلة المكية كان يراد منهم -أولا- أن يصححوا عقيدتهم وأن ينأوا بالعقائد التي كانت موجودة هناك ، ولذلك كان القرآن

المكي يعنى أكثر ما يعنى بالجدل حول الشك والتوحيد ، وتثبيت العقيدة من الأساس ، أما القرآن المدني فكان يعنى بالتشريعات والتفصيلات ، ولذلك كان القرآن المكي موجزا مختصرا وكان القرآن المدني مطولا .

أسباب النزول:

وقد عني العلماء من بين ما عنوا به من تعلم القرآن أو تعليم الكتاب ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، فن قائم بذاته سموه علم أسباب النزول ، وكأنهم يعنون به ما يعنى اليوم أهل الأدب من كلمة النص وما حول النص ، فعلم أسباب النزول ما حول النص أي القراءة المحتفة بالنص القرآني الذي تفسره وتوضحه وتسلط الأضواء عليه حتى يعرف ما المراد به ، وقد أفرد له بعض المؤلفين كتبا خاصة ، ومنهم السيوطي الذي ألف كتابا خاصا «لباب المنقول في أسباب النزول» .

كتابة القرآن:

وقد حدثنا التاريخ الإسلامي أن القرآن كتب في عهد النبي ﷺ وأن النبي ﷺ قد اهتم بهذا الجانب اهتماما كبيرا ، ذلك أننا نجد في قصة عمر رضي الله عنه أنه عندما بلغه إسلام أخته وزوجها ذهب يتعقبهما فدخل عليهما فوجدهما يقرآن صحيفة ، وهذا هو المراد قطعا من القرآن ، وآيات من القرآن ما إن سمعها عمر بن الخطاب ووعاها حتى خرج وهو يصدق بالنبي ﷺ ، ويسلم ، فأعز الله الإسلام بعمر ، فهذا ما يدل على أن كتابة القرآن ابتدأت في عصر باكر من عهد النبي ﷺ بل في العهد المكي نفسه ، وقد تدرج هذا القرآن مكتوبا في عهد النبي فكان النبي ﷺ يحفظه الناس وبعض الصحابة ، وكان يطلب منهم أن يقرءوه عليه فيسلمه ويزكيه ، ثم يأذن لهم بالكتابة .

ويحدث التاريخ عن أسماء كاتبات وكتاب للوحي ، فحفصة بنت عمر ، التي أشرنا إليها كانت إحدى كاتبات الوحي ، كانت تكتب القرآن .

كما يحدث التاريخ عن الكتاب فيذكر في طليعتهم زيد بن ثابت وعثمان ابن عفان ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ويعد طائفة من الحفاظ يزيد فيهم هؤلاء وغير هؤلاء .

وقد اتخذ النبي ﷺ كتابا وطلب منهم أن يتقنوا الكتابة حق إتقانها ، بل ورد أن النبي ﷺ أمرهم أن يتقنوا اللغات التي كانت متداولة في عصرهم يقرءوها ، فكانوا يقرءون كتب الملوك التي ترد عليه ، ويشرحونها للنبي ﷺ في لفظها الأصلي وفي لغتها الأصلية .

فهم كتاب مزدوجو اللغة يقرءون باللغات ، هذا ما ورد في أيام النبي ﷺ عن هؤلاء الكتاب ، وقد كان الاحتياط شديدا من النبي ﷺ ألا يكتب في القرآن إلا ما هو من القرآن ، فكان ينهى رسول الله ﷺ أن يكتب هؤلاء أحاديثه في السنة ويوصيهم بأن لا يكتب من القرآن غير ما هو في القرآن ، ولو الأحاديث القدسية .

ثم كتب هذا المصحف مرة أخرى في عهد أبي بكر عندما استحر القتل بأهل اليمامة ، وجاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق ، وقال : «يا خليفة رسول الله ﷺ إن القتل قد استحر بقراء اليمامة فهلا أذنت بكتابة القرآن؟» .

وتلكم نظرة شاملة ونافذة من عمر بن الخطاب صاحب النظرات البعيدة ، حيث إنه لم يكن يعنى فقط بأن يكتب القرآن ، ولكن يريد أن يظل محفوظا تتناقله الناس ، وبما أنه هو صاحب الفتوحات فقد كان ولا بد أن يكتب القرآن في عهده وفي عصره لينقل إلى الناس في مختلف أنحاء المعمورة فيؤمنون به ويصدقون .

وقد جمع القرآن للمرة الثالثة ، أو دون في هذه المرة الثالثة على عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما نقل على مصحف زيد بن ثابت الذي كلفه أبو بكر بكتابه عندما أشار به عليه عمر ، ودون هذا المصحف في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان زيد بن ثابت حينما يكتب آية وهو الحافظ لها يطلب أن يزكي كل من جاء بآية شاهدين ، شهود الإثبات ويستمع إليهم ، فإذا تطابقوا في اللفظ واتفقوا عليه يسجله كما ورد ، وربما يقال إن هذه الكتابة قد تكون موضع شك أو يتطرق إليها الريب ، والواقع أنه ليس هناك ما يدعو إلى الشك ، فالمجتمع المكي مجتمع إسلامي في هذه الفترة ، فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كتب القرآن في مجتمع ضيق صغير ، والكتاب معروفون ، والصحابة معروفون ، والنبي صلى الله عليه وسلم حاضر بين أيديهم ، وكتابة القرآن في عهد أبي بكر تمت في السنة الأولى من بيعته ، وكتابة عثمان بن عفان لم تختلف عن ذلك إلا بضع سنوات ، فإذا كتب القرآن في عهده الطري في وقت نزوله مقسطا شيئا فشيئا .

القرآن المعجزة:

ولا بأس هنا أن نذكر ما لهذا القرآن الذي قال عنه ابن السبكي :
«المتعبد بتلاوته ، المعجز بسورة منه ، الذي تحدث الله العرب أن يأتوا بسورة منه» أن نشير بإيجاز إلى القرآن معه .

أخرج الشيخان والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما من نبي إلا وأعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» .

ومعنى هذا الحديث أنه ما من نبي إلا وجاء بمعجزة تناسب الوضع الذي كان عليه عصره ، وإذا كان عصر موسى قد تغلب فيه فعل السحرة ، فقد جاء موسى بعصا تتلقف ما يأفكون ، وإذا كان عصر عيسى قد نما فيه الطب فقد جاء بمعجزة إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإذا كان عصر محمد ﷺ قد طغت فيه البلاغة والبيان فقد جاء محمد ﷺ بأعظم البيان وأقوى حجة في البيان .

وهذا القرآن قد لا نفهمه أو لا يفهمه الذين لا يملكون أساليب اللغة العربية فيظنون أنه شيء عادي وبسيط ، ولكننا نسمع الذين يهمهم الأمر وهم العرب الفصحاء أرباب البلاغة في اللغة العربية يندهشون عندما كانوا يسمعون القرآن ، لقد كان البعض منهم يأتي متحديا للنبي ﷺ ومستهزئا ، فما إن يصل إلى مجلسه ويسمع القرآن ، إلا ويهرع ليسلم ويقدم بيعته للنبي ﷺ على الرضوان والتقوى ، وقد قال القرآن عن القرآن ، وما أحسن ما يفسر القرآن بالقرآن : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود: ١] ، معنى ذلك أن الآيات القرآنية آيات تنتهي إلى مقاطع تشئ وتعاد حتى إذا ظن الذوق العربي السليم أنه انتهى إذا بها تفاجئه بمقاطع أخرى مثناة متكررة وتسد عليه المنفذ وإذا به يدرك إعجاز القرآن .

قال هؤلاء العرب عندما سمعوا القرآن : إنه ليس بالشعر وليس بالنثر وليس بالسجع ؛ لأنه غير ذلك كله ، والذين يتذوقون العربية عندما يقرءون القرآن يؤمنون بهذا ، فهو ليس من النثر وليس هو من الشعر ، وليس هو من النثر المسجع ، إنه يزخر بالتنوع اللفظي يعجز بألفاظه كما أنه يعجز بمعانيه ، فمن التنوعات اللفظية المذكورة في القرآن هذا التكرار

وهذه التثنية للمقاطع والفواصل وهذه التقفية وتعقيبها بأخرى نجد ذلك في عدة آيات ، لنسمع هذه السورة الكريمة : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮ ﴾ [الشمس: ١-١٥] .

قد يبدو لمن لا يتذوق العريية أن في إمكانه محاكاة هذه الآيات لأنها سهلة المحاكاة ولكنه عندما يحاول ذلك لا يستطيع ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة بالأدب السهل الممتنع ، وقد تصل التقفية في القرآن إلى التزام ما لا يلزم وهو ضرب من ضروب البديع أي بتكرار حرفين للمحافظة على القافية ، وذلك كقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ، (لام قاف) ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٢] ، (لام قاف) ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١] ، (قاف وتاء) ، ﴿ وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٢] ، (قاف وتاء) ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفطرتْ ﴾ [الانفطار: ١] ، (راء وتاء) ، ﴿ وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انتثرتْ ﴾ [الانفطار: ٢] ، (راء وتاء) ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجرتْ ﴾ [الانفطار: ٣] ، (راء وتاء) ، ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ [الانفطار: ٤] ، (راء وتاء) كل ذلك بكلمة إذا المفاجئة . والنفس تتقبل ما سيقع ، والتي ليست هي موضوعا ، وهذا التنوع يختلف لإراحة السمع ولإحداث الجرس في السمع جرسا ينفذ إلى القلب ، ففي سورة الرحمن يذكر الله سبحانه وتعالى في كل آية يقفيها :

﴿فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، ويمضي على هذا النحو في انسجام حتى إذا وصل إلى الأخير أتى بتقفية تريح السامع وكأنها الفاصلة النهائية التي تعلن عن انتهاء السورة : ﴿تَبَرَّكَ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] .

وفي سورة الضحى : ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴿٣﴾ وَمَا قَلَىٰ ﴿٤﴾ [الضحى: ١-٣] ، وحذف الكاف للتقفية أي ما قلاك ، ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ ﴿٤﴾ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٥﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٦﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴿٧﴾ فَآوَىٰ ﴿٨﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٩﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿١٠﴾ [الضحى: ١-١٠] ، تنزل نزولا متقطعا على السمع والقلب وبغير إراحة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ ﴿٨﴾ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ [الضحى: ٩] ، ويلتزم (الهاء والراء) ، ﴿وَأَمَّا السَّابِلَ ﴿١٠﴾ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾ [الضحى: ١٠] ، (الهاء والراء) ويختتم بمقطع أخير ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴿١٢﴾ فَحَدِّثْ ﴿١٣﴾ [الضحى: ١١] ، ونجد القرآن يصور تصويرات متعددة ويكون الأساليب ، ولكننا لا نشعر بالملل فهو يطيل في غير إملال ويوجز في غير إخلال ، ونجده يحسن التطويل حين يجب التطويل ، والاختصار حين يجب الاختصار ، فهو في المكي موجز لأنه يتجه إلى قریش وهي تعرف مقاصد الكلام ، والبلاغة مطابقة الكلام -أي كلام المتكلم- لحال السامع ، ولذلك نلاحظ أنه في يوم القيامة لا يفصل فيه ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا ﴿١٤﴾ عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٥﴾ [الحج: ٤٧] ، يحمل ذلك في كلمة جامعة ، لأن هذه الأمور الغيبية ليست طبق مقاييس البشر الفكرية ولذلك يجملها إجمالاً ، وذكر علماء البلاغة أن القرآن لا يوجد فيه المترادف ، وهذا

مذهب ابن خالويه من أئمة علماء اللغة العربية وكان ينكر وجود المترادف ،
والقرآن يؤيد مذهبه ، فالرحمن غير الرحيم ، والعزيز غير الحكيم ، والفظ
غير الغليظ : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، كل ذلك له
معان مدققة ، فالكلمة مسبوكة سبكا مدققا ، وكل لفظة في مكانها ،
وإعجاز القرآن يأتي في تشبيهاته البديعة ، لنستمع إلى هاتين الآيتين
الكريمتين : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥] ، ولو اتسع المقام
لأشرنا إلى بعض أسرار هذه التشبيهات ، وقول الله تبارك وتعالى :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩] ، ويقول أيضا : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا ﴾ [النور: ٤٠] .

إعجاز القرآن الظاهر والباطن :

وقد تعرض لإعجاز القرآن بتفسيره من حيث الظاهر ومن حيث
الباطن عدة علماء فكانت لهم في هذا المجال جولات معروفة ، ومن إعجاز
القرآن ما أشار إليه من علوم ومن اكتشافات ، ولنتوقف عند ما فيه من
قواعد علم الاجتماع وفلسفة التاريخ والسياسة ، ولنذكر مثال بعض
الآيات على سبيل الأمثلة ؛ لأن القرآن يعج بها .

من إعجاز القرآن: الظلم يدمر العمران:

فهناك إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن الظلم يقوض العمران ويؤذن بالخراب ، وأن هذه السنة التي خلق البشرية عليها وساسها بها ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤] .

ويقر القرآن سنة النشوء والارتقاء ، وفي الفلسفة الاجتماعية في التاريخ مذهب معروف ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١] .

البقاء للأصلح:

ويقر القرآن مبدأ البقاء للأصلح ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، لسياستها وعمارتها والتصرف فيها ، ويشير القرآن أن العصبيات والقبليات والوحدات التي لا تقوم على أساس تنهار ، وذلك قوله : ﴿ وَلَا تَنْزِعُوا فَأْتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجْزُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

الاختلاف في الرأي:

ونجد القرآن لا يقر الاختلاف في الرأي والتفكير فقط ، بل يقول إن الاختلاف في الرأي والتفكير ضرورة بشرية ، بل إن من أجله خلق البشر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٩ ، ١١٨] ، أي لأجل ذلك رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿ [هود: ١١٨ ، ١١٩] ، أي لأجل ذلك الاختلاف خلقهم .

الترف من أسباب ذهاب الأمم:

وينص القرآن على أن الأمم والحضارات حينما يطغى عليها الترف والنعيم ، فتنسى ما من أجله أقيمت الدول وما من أجله شيد العمران يحق عليها القول والسنة الطبيعية فتتدمر : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] .

الشعوب تصنع مصائرهما:

وأشار القرآن إلى أن مصائر الأمم والشعوب تصنعها الشعوب نفسها : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ، فنحن نصنع مصيرنا بإرادة خالقنا ، ولكننا نحن المسئولون .

المراحل التي تمر بها الأمم:

وأشار القرآن إلى حقيقة تاريخية وهي أن الأمم قد تصل إلى حدود الانحطاط بعد أن تمر بعصور الازدهار وتتقلب بين عمر الشباب والشيخوخة والهرم والفناء ، فتصبح تلك الأيام متداولة بين الناس : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ، وعند ذلك يسلط عليها الله من يستعمرها ويطغى عليها بحكم فعلها ، كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] .

لكن بعد الاستعمار ، الاستقلال والسيادة : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٥﴾ وَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَنَجْعَلَنَّهُمْ خُلَافَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَنَجْعَلَنَّ فِي الْأَرْضِ خِزْفًا لَهُمْ فَرَعَوْنَ وَهَمَانَنَ﴾ -المستعمرين- ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] .

إعجاز القرآن والاكتشافات العلمية:

ومن إعجازه ما تتضمنه من اكتشافاته في العلوم ، ونشير إلى بعض الآيات على سبيل التدبر فقط ، مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ، وقوله سبحانه وتعالى إشارة إلى الحياة في المياه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ، وإلى ازدواج الخلق بين ذكورة وأنوثة ، وموجب وسالب : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ، وإلى تكوين النطفة في القرآن بترتيبها الذي ما يزال العلم يبحث في موضوعها ، والإشارة إلى كروية الأرض من خلال قوله تبارك وتعالى : ﴿يُكْوَرُ أَلَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى أَلَيْلٍ﴾ [الزمر: ٥] ، وإلى أن الأرض إنما تبدو مسطحة بحسب النظر : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] .

وإلى عملية تجزئة المطر عن السحاب ، وعملية تلقيح الأشجار ، وعملية تأبير النخل ، زيادة على ما يعقب به أريج القرآن من عدد من هذه الإشارات ، ونريد أن نقول إنها إشارات تطلب من المؤمنين أن يأخذوا بمجال الاكتشاف ، والقرآن لم يتعرض إلا لبعض الأصول وبعض الإشارات ، فليس هو الذي يعني بتدقيق هذه الاكتشافات العلمية حتى نضطر أن نحمله عليها فإذا بنا نعود عندما يتغير العلم لغير تأويلاتنا للقرآن وتفهمنا للقرآن . . .

الحكمة:

أما تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، أي يؤهلهم بالكتاب لبلوغ الحكمة التي هي حسن الإدراك والتقدير للأمر أو المراد بالكتاب القرآن.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي السنة لأنها تحكم القرآن بتفصيلاتها وبتشريعاتها، وبأقوال النبي ﷺ وسكوته عند الاقتضاء، فبذلك يحكم القرآن أي بالسنة والحكمة هي المعقول من العلم.

﴿الْكِتَابَ﴾ هو المنقول الشرعي أو الحكمة يراد بها أن القرآن والإسلام دين الحكمة، يعلم الحكمة التي هي الاعتدال في كل شيء، والأمة الإسلامية أمة الوسط، أي أمة التوازن البشري بين المادية الملحدة، وبين الإشراف والوثنية والمسيحية والكانتوليكية، فهي تقف في خط الوسط: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أمة حكيمة معتدلة، في شعورها وفي تفكيرها، معتدلة في تصرفاتها، والأخلاق التي جاء بها ﷺ كلها تقف موقف الاعتدال.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، هذه الحكمة التي يعلمها ﷺ، وهو النبي الأمي يأمر المسلمين بنهج مدرسته في تعلمها، فقد قال الرسول ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها التقطها»^(١)، و«اطلبوا العلم ولو في

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٠٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٤) من طريق إبراهيم بن الفضل، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، به.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

الصين» ، والحكمة ولو في الصين ، وذكر الصين ليس فقط للبعد ، ولكن ولو بلغة الصين إن اقتضى الحال ، وقد تخرج من مدرسته عليه السلام من مدرسة تعليم الكتاب والحكمة ، معلمون وناشرو علم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفيما بعد العهد النبوي ، ففي عهد النبي صلى الله عليه وسلم يثبت في تاريخ السيرة أسماء معلمين كمصعب بن عمير ، ومعاذ بن جبل ، ومعلمات كأُم سلمان .

وثبت في «الصحيحين» أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم أسس أول معهد للدراسات والعلوم في المدينة سماه : «دار القراء» .

وكان هؤلاء القراء يجتمعون ليقروا القرآن ويتعلموه ويفسروه ويكتبوه ، فكانت بذلك هي أول مدرسة تأسست في العهد الإسلامي ، وهذه العلوم النقلية هي المراد من قول الله تبارك وتعالى : ﴿الْكِتَابَ﴾ ، أما العلوم العقلية فهي مفهومة من قوله تعالى : ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ .

ولقد أوصل أبو بكر بن العربي علوم القرآن إلى سبعة وسبعين ألفا وخمسة وأربعين علما ، قال إنها على عدد كلمات القرآن مضروبة في أربعة ، إذ لكل آية في القرآن ظاهر وباطن ومطلع واحد .

تفسير القرآن ومدارسه :

ونذكر هنا لنبين شغف المسلمين بالقرآن حيث اعتبروه المادة الأساسية للدراسات ، وحيث انصرفوا إليه حتى وصل بهم هذا الشغف من حب القرآن والتعمق في دراسته أن نسبوا إليه سبعة وسبعين ألف علم .

أما علم القرآن فهو لا يعد بهذا العدد ، بل أن يترك إلى الاكتشاف والتطلع فيه والتطلع في فهمه ، ولقد أخذت مادة تفسير القرآن دورا كبيرا في تاريخ الإسلام حيث إن دور النبي صلى الله عليه وسلم في المدرسة الأولى هو دور تعليم

الكتاب والحكمة وتفسير القرآن بعلوم الحكمة والكتاب .
أخذت مدارس التفسير دورا كبيرا ، ويمكن أن نشير إليها على سبيل
الاختصار ، فنقول : إنها تنقسم إلى عدة مدارس نذكر منها في الطليعة :

مدرسة الطبري :

مدرسة الطبري الذي كان يعرف عنه أنه صاحب مدرسة التفسير
المأثور ، فكان لا يفسر القرآن إلا بالكتاب والسنة ، أي بآية أخرى أو
بالسنة أو ما عرف عن الصحابة والتابعين .

مدرسة الزمخشري :

ثم مدرسة أخرى وهي مدرسة الزمخشري صاحب «الكشاف في تفسير
القرآن» ، وكان يريد أن يخضع الآيات القرآنية لمذهبه في الاعتزال .

مدرسة البضاوي :

مدرسة ثالثة هي مدرسة البضاوي الذي كان ينتصر لمذهب أهل السنة
ويفسر القرآن بالسنة ، وذلك كأنه يرد على من أرادوا أن ينزلقوا به نحو
تفسيره بمذاهب مضادة لأهل السنة .

مدرسة القرطبي :

مدرسة القرطبي الذي كان يجمع الأحكام القرآنية ، ومدرسة البضاوي
هو الذي كان يفسر الآيات بمذهب أهل السنة وبانتصاره لمذهب أهل
السنة .

مدرسة أهل الباطن:

وهناك مدرسة أهل الباطن وتزعم هؤلاء الألويسي صاحب «روح المعاني» فهو يفسر القرآن تفسيراً باطنياً بإجلاء أسرارهِ التي لا تعرف لعلماء أهل الظاهر .

مدرسة الطنطاوي:

حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث نجد مدرسة الطنطاوي جوهري ، وهي المدرسة التي تريد أن تخضع القرآن لجميع الاكتشافات العلمية ، وتدعي أن كل ما اكتشف من علم دقيق هو جلي موجود في القرآن وهو نوع من التحمل ، وإذا قال الله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، فقد عني بالأصول ، ولا يجوز أن نخضعه لكل جزئية في العلم ، لأن العلم يتجدد ويتغير .

المدرسة السلفية:

وهناك المدرسة السلفية التي تزعمها في مصر الإمام محمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، وتبعهم علي ذلك رشيد رضا ، وسيد قطب رحمه الله ، وشلتوت ، وهذ المدرسة يمكن أن يكون آخر زعمائها في هذا الميدان المرحوم محمد بن العربي العلوي رحمه الله عليه .

علوم القرآن:

ولقد عني كثير من المؤرخين بالكلام عن علوم القرآن ، فنجد بحثاً مستطيلاً في «مقدمة ابن خلدون» لعلوم القرآن المعقولة والمنقولة ، يسميها العلوم الحكمية أو العلوم النقلية أخذاً لها من ملكة الكتاب والحكمة ،

ويذكر في العلوم النقلية علم التفسير ، وعلوم الحديث ، وأصول الدين ، والفقه ، والفلك ، والرياضيات ، والطب ، الإلهيات ، وعلوم الفلاحة ، والموسيقى ، والرسم .

وأذكر ابن خلدون في «مقدمته» أن يكون الطب مصدره القرآن ، والواقع أن الطب النبوي والطب القرآني يتفق مع العلم ومع علم الطب الحديث ، ولكن لا يعني أن أصلهما هو القرآن ، وابن خلدون مصيب - في نظري - .

ونجد عند ابن حزم كتابًا مهما جدا يتكلم عن العلوم والحكمة سماه «مراتب العلوم» ، وفي هذا الكتاب الجليل تخطيط للتعليم في جميع مستوياته ، من الابتدائي والثانوي والعالي ، ويجعل لكل مادة كتابا لمؤلفها ، ويشير إلى عدد الحصص التي يجب أن تنصرف إليها الدراسة في كل مادة ، وهو من التأليف الشيقة التي تبين سبق علمائنا إلى نظام الدرس وحصص الدراسة .

والواقع أن علوم الحكمة وعلوم القرآن كثيرة جدا .

الإسلام والعقل :

إن القرآن زاخر بنداء العقل ، بل إن النبي ﷺ قال : «الدين العقل ولا دين لمن لا عقل له» .

وهذه لغة جديدة لم تكن تعرف في ذلك العصر في المسيحية الكاثوليكية التي كانت تخضع الدين للعقل بل تطرق آخرون في العصر اليوناني فقالوا : إن الدين يجب أن يفهم على أساس لا عقلي ، وذلك ما يسمى بعصر الإلهية وبنظام الإلهية في العهد اليوناني ، والواقع أن التقاط الحكمة

والتقاط العلوم وإقراء العلوم والحكمة كما كان يفعل النبي ﷺ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، هو السلوك الذي سلكه المسلمون حتى يزكى مجتمعهم .

الإسلام ونشر العلم:

إننا لنجد هنا أن المسلمين قد ساهموا كثيرا في نشر العلوم وفي نشر الحكمة وفي نشر العلوم العقلية مساهمة فعالة لا بأس أن نذكر هنا لأجل التذكير فقط ، فعلم الحساب والرياضيات قد سبق إليه العرب المسلمون .

ولا بأس أن نشير إلى علم من أعلام الإسلام هو موسى بن محمد الخوارزمي الذي كان أول من كتب كتابا في الحساب مفصلا ، وهو الذي اخترع الخوارزمية التي تسمى باللوغاريتم ، بل إن الحساب في الحقيقة عربي في الأصل ، فالأرقام الحسابية أرقام عربية ، إنها قد انطلقت مبدأ الصفر الذي هو شفر أي رقم ، فهذه الأرقام العربية والحساب والرياضيات كلها مشاركة من المسلمين بسهم وافر .

وما زال التاريخ يذكر أسماء ابن سينا ، والكندي ، والفارابي وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والبيروني والرازي ، وابن رشد ، والغزالي ، وابن العربي ، والطوسي ، وابن القفطي كما يذكر ابن البناء المراكشي ، وابن غازي المكناسي ، وأحمد بن القاضي الفاسي ، ومحمد بن سليمان الروداني ، وكلهم تضلعوا في علم الكيمياء وفي علم الطب .

بل إن محمد بن جابر أحد هؤلاء الأعلام كان عالما مكتشفا لامعا ، وابن الهيثم هو الذي اكتشف نظريات النور والضوء وحللها حتى قالت دائرة المعارف بأن بفضلها توصل العالم إلى اكتشاف واختراع النظارات ، وهناك

علماء جمعوا بين الرياضيات وبين الشعر وعلوم الشعر ، فابن سينا كان طبيا وشاعرا وفيلسوبا في آن واحد ، وقد نظموا هذه العلوم ، بالنظم العربي .

ولا نجد لغة اتسعت لهذه المواد تنظم بالشعر كاللغة العربية ، فإن ابن طفيل قد نظم الطب في أرجوزة ، وإن الحساب منظوم نظما ، والمنطق والتوحيد والفقه كل ذلك منظوم ، واتسعت له مادة اللغة العربية ، فهؤلاء الذين ذكرناهم وما أكثرهم وكلهم متخرجون من مدرسة تعليم الحكمة التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] .

هذا التطور الحاصل للمسلمين الذين اكتشفوا العلوم واخترعوا ، وقع لهم ذلك بعد أن كانوا في ضلال مبين ، وقد وصف مبعوث النبي ﷺ هذا الضلال إلى النجاشي في كلمة جامعة أرسله ﷺ ليبشره بالدين ، فقال ما جاء به محمد؟ فقال : أيها الملك العظيم كنا أهل جاهلية . . . فإن ما جاء به محمد ﷺ غير حالتنا فتقبلنا دينه وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين .

وبعد فإن القرآن الذي علمه محمد ﷺ وتلاه للتعبد به وعرف به ، واستخرج منه المسلمون والصحابة فيما بعدهم علوم العقل وعلوم النقل وعلوم الكتاب وعلوم الحكمة ما يزال بين ظهرانينا غضا طريا على مر السنين والأحقاب ، وما نزال نقرؤه على صورة واحدة في بلاد العالم الإسلامي التي اتسعت رقعتها شيئا فشيئا ، وما تزال والله الحمد تمتد من أندونيسيا والصين إلى شاطئ بحر المحيط في هذا البلد الأمين ، لا نكاد نجد أصلا من السياسة والاجتماع والإفادة من المواد التي تهمننا في معاشنا وأخرانا إلا وجدناه فيه ، وبذلك اهتم بالأصول وكانت تلك هي معجزته

الكبرى ، ومعجزته الكبرى أيضا اهتمامه بالأصول الثابتة وأنه ظل على مر السنين ولغاية الآن وسيظل على مر السنين المقبلة محفوظا بحكم قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ، وجعل الرسول ﷺ خاتم الأنبياء ، ذلك لأن الله تبارك وتعالى علم بعلمه الأزلي القديم أن البشرية ستصل ابتداء من عهد محمد عليه الصلاة والسلام إلى درجة من الرشد والنضج ما يجعلها ليست في حاجة إلى أن يبعث لها كتابا بعد أن بعث لها ذلك الكتاب الشامل المستوعب ، فكتاب الله تبارك وتعالى قائم فينا يتجدد كلما أردنا أن نجدده في نفوسنا لا نحتاج إلى كتاب جديد ولا نحتاج إلى مبعوث جديد ، فإن الله تبارك وتعالى علم بعلمه القديم أن البشر سيلتقي بحكم اتصال المواصلات والقضاء على الأبعاد والمسافات حتى يصبح متصلا بعضه ببعض ، فلا حاجة إذن لبعث كتاب مؤقت محدد في الزمان والمكان ، وإنما بعث الله كتابا شاملا واعيا محيطا بالعالم بأسره يبتدئ من دعوة العرب وينتهي حتى يعم المسلمين أجمعين ، وتلك هي رسالة القرآن ، وتلك هي ذكرى نزول هذا القرآن الكريم .



المحاضرة التاسعة والثلاثون:**الفقه في الدين**

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام ، أمير المؤمنين في الحديث ، وشيخ مشايخه في القديم والحديث ، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري : ورضي عنه ، ونفعنا به وبعلومه آمين .

قال -باب- «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، وبه إليه قال : حدثنا سعيد بن عفير ، قال حدثنا ابن وهب ، عن يونس ، عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيبا يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» ، صدق رسول الله ﷺ .

قبل أن أتناول هذا الحديث بالتحليل أشير -باختصار- إلى رواته وإلى لطائف إسناده ، ثم إلى الصحابة الذين روي عنهم هذا الحديث الشريف ، ثم بعد ذلك أشير إلى المحدثين الذين أخرجوا هذا الحديث ، فأقول بالله أستعين .

رواة الحديث:

هذا الحديث يرويه الإمام البخاري هنا عن شيخه سعيد بن عفير ، وهو منسوب إلى جده لاشتهاره به ، فهو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلم بن يزيد بن حبيب بن الأسود أبو عثمان المصري ، سمع مالكا والليث وابن وهب وآخرين .

قال فيه ابن أبي حاتم في كتاب «الجرح والتعديل»: إنه صدوق .
وقال فيه المقدسي: كان سعيد بن عفير من أعلم الناس بالأنساب
والتواريخ والأخبار الماضية والمناقب، أديبا فصيحاً حاضر الحجة مليح
الشعر .

وقال الكرمانى: كان ابن عفير لا تمل مجالسته، وكان ابن عفير المالكي
هذا يتولى نقابة الأنصار، والقسم عليهم بمصر المالكي وتوفي رحمه الله
سنة ٢٢٦هـ .

وأما الراوي الثاني: فهو الفقيه المالكي المشهور عبد الله بن وهب بن
مسلم القرشي مولاهم المصري، ترجم له غير واحد من الأئمة الأعلام،
ومن ترجم له ابن فرحون في كتابه «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء
المذهب»، كما ترجم له القاضي عياض في «المدارك»، وترجمته في الأجزاء
التي ما تزال مخطوطة قد ذكر فيهما ابن وهب غير ما مرة، ذكر بآرائه
ونقله عن الإمام مالك رحمته الله .

ابن وهب عرف بكثرة الشيوخ، وبكثرة ملازمة الشيوخ، روى عن
أربعمئة عالم، ولقد لازم الإمام مالكا رحمته الله عشرين سنة .

قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: «وإن ابن وهب اتصل بالإمام
مالك عام ١٤٨هـ، وبقي ملازماً له إلى أن انتقل مالك رحمته الله إلى الرفيق
الأعلى، ومن المعلوم أن الإمام مالكا توفي عام ١٧٩هـ» .

والإمام مالك كان يلقب ابن وهب بالفقيه ويكتب له بلقب فقيه ولم
يكتب لغيره بذلك كما يذكر الحفاظ، وكان يلقب بديوان العلم، وكان
أعلم من ابن القاسم، إلا أن ورعه منعه من الإكثار من الفتيا .

لقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة الأعلام ، قال فيه الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله : «ابن وهب عالم كثير العلم ، صحيح الحديث ، صدوق ثقة» .

وقال فيه ابن عدي : «رأيت الناس فقيها غير محدث ، ومحدثا غير فقيه ، خلا عبد الله بن وهب فإني رأيته فقيها محدثا ، صاحب سنة وآثار» .

وقال فيه ابن أبي حاتم : «نظرت في نحو ثمانين ألف حديث من أحاديث ابن وهب بمصر وغير مصر ، فلا أعلم أني رأيت حديثا لا أصل له» .

وقال ابن وهب في نفسه : «لولا أن الله سبحانه وتعالى أنقذني بمالك والليث لضللت» .

ذلكم أنه أكثر من رواية الحديث فتحير في الأمر ، وأخذ يعرض الحديث على مالك والليث ، فيقولان له خذ هذا الحديث ودع هذا .

قال العيني في «عمدة القاري» : «روى له الجماعة ، وليس في الصحيحين عبد الله بن وهب غيره فهو من أفرادهما» .

ولقد عرف بكثرة مؤلفاته ، ولقد ألف الموطأ الكبير والصغير ، وتفسير الموطأ ، وكتاب الردة ، وكتاب المغازي ، وكتاب المناسك إلى غير ذلك ، ولقد توفي : سنة ١٧٩ هـ .

أما الراوي الثالث في هذا الحديث فهو : يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي ، منسوب إلى أيلة ، وهي قرية بالشام ، قال حنبل بن إسحاق عن أحمد : «ما أعلم أحدا أحفظ بحديث الزهري من معمر ، إلا ما كان من يونس ، فإنه كتب كل شيء هناك» .

وابن يونس هذا من الطبقة الأولى من أصحاب الزهري ، يذكر الحافظ ابن حجر : في مقدمة «فتح الباري» : أن أصحاب الزهري خمس طبقات ، وكل طبقة تمتاز عن التي تليها ، والطبقة الأولى هي : الغاية في الصحة ، وذكر من جملة أفرادها ، يونس بن يزيد الأيلي .

كان الإمام الزهري رحمته الله إذا قدم أيلة نزل على يونس ، وإذا سافر إلى المدينة المنورة رافقه يونس ، وتوفي : سنة ١٥٩ هـ .

أما الراوي الرابع : فهو إمام جليل وشهير ، وهو ابن شهاب الزهري : أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب ، تابعي جليل ، وهو مدني زهري ، لقد اعتنى قبل كل شيء بحفظ كتاب الله تعالى .

قال الإمام البخاري رحمته الله في «التاريخ» : إنه أخذ القرآن في ثمانين ليلة ، ثم توجهت عنايته بعد ذلك إلى حفظ الأنساب ، ثم إلى معرفة الحلال والحرام ، ثم إلى رواية الحديث النبوي الشريف ، ولقد سمع عشرة من الصحابة منهم أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر ، وسهل ابن سعد الساعدي ، ولقد لازم كبار التابعين وأخذ عنهم ومن بينهم عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

لازم ابن المسيب أو المسيب - فيه وجهان الفتح والكسر - ثمان سنين ، وكان يبالغ في خدمة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، في نظير أخذ العلم لدرجة أنه كان يسقي له الماء .

أثنى عليه الحفاظ كثيرا ، وسأقتصر هنا على ما قاله فيه الإمام الليث بن سعد ، إمام المصريين المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، قال في ابن شهاب : «ما رأيت عالما قط أجمع من الزهري ، ولا أكثر علما منه ، يحدث في الترغيب فتقول

إنه لا يحسن إلا هذا، وإذا حدث عن القرآن والسنة كان حديثه جامعاً،
لقد اتفق العلماء على إمامته وجلالته وحفظه وضبطه وإتقانه» .

وقال في نفسه : «ما استودعت قلبي علماً فنسيته» .

وله مآثر جليلة في تاريخ تدوين السنة النبوية ، ذلك أن الإمام عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عامله بالمدينة ، كما كتب إلى بقية عماله يطلب منهم جمع الحديث ؛ لأنه خاف دروس العلم ، وذهاب العلماء ، ومن جملة من لبى هذه الرغبة : الإمام الزهري رحمه الله ، ومعنى هذا أن الحديث دون تدويناً رسمياً في هذا الوقت ، وإلا فقد كان الحديث مدوناً قبل ذلك ، ولكن دون تدويناً فردياً .

لقد نقل عن رسول الله ﷺ أحاديث تمنع من كتابة غير القرآن ، كما نقل عنه أحاديث تبيح ذلك -أي كتابة الحديث- ولقد ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله في كتاب «تقييد العلم أن العمل على الإباحة ، وبالفعل فقد كانت هناك صحف مدونة في عهد رسول الله ﷺ ، من هذه الصحف صحيفة سعد بن عباد ، وصحيفة سمرة بن جندب ، تلکم الصحيفة التي قال عنها محمد بن سيرين في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير ، كما كانت هناك صحيفة جابر بن عبد الله التي قال فيها قتادة بن دعامة السدوسي وهو تابعي جليل : «لأنا بصحيفة جابر أحفظ مني من سورة البقرة» ، وكانت هناك الصحيفة الصادقة التي دونها سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص ، دونها بعد أن استشار رسول الله ﷺ ، «هل يدون الحديث؟ فقال : أكتب كل ما أسمع؟ قال : نعم ، قال في الرضا والغضب؟ قال : نعم ، فإني لا أقول في ذلك إلا حقاً» ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهناك ألواح ابن عباس ، وهناك صحيفة همام بن منبه ، وهكذا .

ولقد انفرد الإمام الزهري : برواية أشياء لولاه لضاعت ، كما يوجد في صحيح الإمام مسلم رحمته الله في كتاب الإيمان والنذور .
والإمام الزهري رحمه الله تعالى توفي عام ١٢٤ هـ .

أما الراوي الخامس فهو : حميد بن عبد الرحمن بن عوف التابعي الجليل المدني الزهري ، وثقه العجلي وأبو زرعة وغيرهما ، كما ذكر الإمام السيوطي رحمه الله ، ولقد اختلف في تاريخ وفاته ، ف قيل إنه توفي سنة ٩٥ هـ وقيل : إنه توفي سنة خمس ومائة للهجرة ، وأبوه صحابي جليل ، هو عبد الرحمن ابن عوف : أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر رحمته الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الذين هاجروا الهجرتين ، وأحد المهاجرين الأولين ، وأحد الستة أصحاب الشورى كما لا يخفى .

ولعبد الرحمن بن عوف فضيلة مهمة ، وذلك أن رسول الله ﷺ صلى وراءه في غزوة تبوك ، والحديث مذكور في «موطأ الإمام مالك» ، وفي «صحيح الإمام مسلم» ، وفي غيرهما : «لقد ذهب النبي ﷺ في غزوة تبوك لحاجته ، وذهب معه المغيرة بن شعبة أخذ الماء بيده ، ولكن النبي ﷺ تأخر قليلا ، فخاف المسلمون خروج الوقت ، فقدم الصحابة عليهم عبد الرحمن بن عوف ، فجاء النبي ﷺ بعد أن توضأ فوجد عبد الرحمن بن عوف يؤمهم وقد صلى بهم ركعة ، ففزع الناس ، فأشار إليهم النبي ﷺ أن امكثوا ، فدخل رسول الله ﷺ معهم في الصلاة ، وصلى الركعة التي بقيت عليهم ، ثم قام رسول الله ﷺ وقضى الركعة التي فاتوه بها ، ثم قال لهم بعد ذلك : أحستم» أي حيث جمعت الصلاة لوقتها .

هذا مضمون الحديث لا لفظه ، ولقد روى البزار عن أبي بكر مرفوعا :
«ما قبض نبي حتى يؤمه رجل من أمته» .

صحابي الحديث:

أما الصحابي الذي روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ فهو سيدنا معاوية بن أبي سفيان ، الصحابي ابن الصحابي ، لقد اختلفت الآراء في معاوية بن أبي سفيان ، فهناك من أثنى عليه وبالع في الثناء ، وهناك من ذمه وبالع في الذم ، ولكننا هنا لا نخرج على روايات المؤرخين ، وإنما سنقتصر على بعض ما ذكره جهابذة المحدثين ، لأن الوقت ضيق .

لقد ذكره الإمام البخاري رحمه الله في «فضائل الصحابة» ، حيث قال :
باب ذكر معاوية رحمه الله ، وذكره الإمام الترمذي في «جامعه» حيث قال :
مناقب لمعاوية بن أبي سفيان رحمه الله ، وذكره غيرهما ، وذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» ، والحافظ ابن حجر في «الإصابة» ، والإمام النووي في «التهذيب» ، وهكذا ، وجملة ما قال فيه هؤلاء المحدثون : لقد اختلف في تاريخ ولادته ، فقليل إنه ولد قبل البعثة المحمدية بخمس سنين ، وقيل ولد قبلها بسبع سنين ، وقيل بثلاث عشرة سنة ، ورجح الحافظ ابن حجر في «الإصابة» أنه ولد قبلها بخمس سنين .

قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» : وحكى الواقدي أن معاوية بن أبي سفيان أسلم بعد الحديبية ، لأن إسلامه كان في عمرة القضاء ، وكنم إسلامه ولم يظهر إسلامه إلا في غزوة الفتح ، هكذا ذكر .

لكن ذكر الحافظ نفسه هنا أن ما قاله سعد بن أبي وقاص يعارض هذا الكلام ، ذلكم أن سعد بن أبي وقاص قال : «العمرة في أشهر الحج

فعلناها ، وهذا يومئذ كافر» ، يشير إلى معاوية بن أبي سفيان ، لكن يمكن أن يقال : إن معاوية بن أبي سفيان كتم إسلامه ، وسعد بن أبي وقاص لا يمكن أن يطلع على ما في قلبه ، ولكن المحققين ومنهم الحافظ ابن حجر ، والإمام النووي ، وابن عبد البر ، ذكروا أنه من مسلمة الفتح ، فلقد أسلم هو وأبوه أبو سفيان ، وأمه هند ، وأخوه يزيد في فتح مكة ، ولقد حضر مع النبي ﷺ غزوة حنين .

ذكر الإمام البخاري في فضائل الصحابة أن معاوية بن أبي سفيان أوتر بعد العشاء بركعة ، وكان معه مولى لابن عباس فاستغرب هذا الأمر ؛ لأنه أوتر بركعة ، فذهب إلى ابن عباس وحكى له القصة ، فقال له دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ - وفي رواية - إنه فقيه .

ولقد ذكر الإمام الترمذي في «جامعه» أن النبي ﷺ قال في معاوية : «اللهم اجعله هاديا مهديا واهدا به» .

لكن ذكر الإمام الترمذي أن هذا الحديث حسن غريب . وبالجمل فمعاوية بن أبي سفيان ظهر ظهورا بارزا على المسرح السياسي في السنة التاسعة عشرة من الهجرة ، أي بعد وفاة أخيه ، وكان ذلك في عهد عمر ابن الخطاب ، واستمر عاملا على الشام مدة خلافة عمر ، ثم مدة خلافة عثمان ، وبعد مقتل عثمان وقع النزاع بينه وبين سيدنا علي كرم الله وجهه ، وانتهى النزاع باغتيال سيدنا علي كرم الله وجهه ، وتسليم سيدنا الحسن الأمر لمعاوية ، وفي ذلك مصداق قول النبي ﷺ في سيدنا الحسن ، فالنبي ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى ، بل كان ينطق عن الوحي : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم : ٤] ، قال النبي ﷺ في سيدنا الحسن : «إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» .

وبالفعل وقع الصلح ، وسمي العام عام الجماعة ، وتم الأمر لمعاوية وبقي خليفة إلى أن توفي سنة ستين من الهجرة ، ولما حضرته الوفاة كان عنده قميص كساه رسول الله ﷺ إياه ، وكانت عنده قلامة أظفار رسول الله ﷺ ، وكان عنده شعر رسول الله ﷺ ، فأمر بالقلامة أن تسحق ، وقال اجعلوها في عيني وفي فمي ، ثم أمر أن يكفن في قميص رسول الله ﷺ ، أي أن يكون القميص مما يلي جسده ، ثم قال افعلوا ذلك بي وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين .

ذكر الإمام النووي في التهذيب أن معاوية بن أبي سفيان روي له عن النبي ﷺ مائة وثلاثة وستون حديثا اتفق الشيخان : البخاري ومسلم على أربعة منها ، وانفرد البخاري بأربعة وانفرد مسلم بخمسة ، فعلى هذا يكون الإمام البخاري : روى لمعاوية ثمانية أحاديث ، وبالفعل هذا ما يوجد في مقدمة فتح الباري .

لطائف الإسناد :

أما لطائف إسناد هذا الحديث : ففيه عننة ، وتحديث ، وسماع .

أما التحديث والسماع : فهما من قبيل المتصل كما لا يخفى ، وأما العننة فهي من قبيل المتصل عند الإمام البخاري ؛ لأنه يشترط ثبوت لقاء الراوي بمن عنعن عنه ، فالكل من قبيل المتصل .

وفي السند رواية تابعي عن تابعي : رواية ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن ، وكلاهما تابعي .

ورواته ما بين مصري ومدني ، وأيلي ، ففي السند مصريان : عبد الله بن وهب ، وسعيد بن عفير ، وفيه مدنيان : ابن شهاب وحميد بن عبد الرحمن ، وفيه أيلي : وهو يونس بن يزيد .

تخريج الحديث:

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في مواضع من «صحيحه»، كما سأحدث عن ذلك بعد، ورواه غير واحد من المحدثين، وروي - بالجملة - عن خمسة من الصحابة، عن عمر، ومعاوية، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، هؤلاء الصحابة روى هذا الحديث عن النبي ﷺ وهو قوله: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».

أما الإمام البخاري فقد أخرجه في مواضع من «صحيحه»: أخرجه في هذا الموضع الذي نتناوله الآن بالتحليل، وأخرجه قبيل هذا الباب في باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ذكره هناك تعليقا حيث قال: وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم».

قال الحافظ ابن حجر: أورده ابن أبي عاصم والطبراني مرفوعا عن معاوية، ولفظه: «يا أيها الناس تعلموا إنما العلم بالتعلم، والفقه بالفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».

وذكره الإمام البخاري أيضا في كتاب «فرض الخمس» في باب قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال رسول الله ﷺ: «إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي...»، ثم أورده عن شيخه حبان بن موسى.

وحبان بن موسى وثقه ابن حبان، وقال ابن معين: لا بأس به، وروى الإمام البخاري عنه عدة أحاديث، وروى له الإمام مسلم فردا، كما يوجد في «الخلاصة»، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وأورده الإمام البخاري أيضا في كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» من «صحيحه» في باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»؛ وهم أهل العلم.

فقوله : وهم أهل العلم إنما هو من قول أبي عبد الله البخاري رحمه الله ، ثم أورده عن شيخه إسماعيل بن أبي أويس ، وإسماعيل هذا اختلف في تاريخ وفاته ، قيل : إنه توفي سنة ٢٢٦ هـ وقيل : إنه توفي سنة ٢٢٧ هـ .

أما جزؤه الأخير وهو : « لا تزال طائفة من أمتي ... إلخ » : فأورده الإمام البخاري في مواضع أخرى من « صحيحه » . إذن فهذا الحديث هو من الأحاديث المكررة في « صحيح الإمام البخاري » ، فما الفائدة من تكرار الحديث في « صحيح البخاري » .

فائدة تكرار الحديث في « صحيح البخاري » :

لقد أجاب الحافظ ابن حجر عن هذا السؤال في مقدمة « فتح الباري » ، نقلا عن محمد بن طاهر المقدسي ، وملخص الجواب أن الإمام البخاري رحمه الله يذكر الحديث في موضعين أو مواضع من « صحيحه » ليستخرج منه أحكاما بغزارة فقهه وفهمه ، ثم يذكر كل حكم في الباب الذي يناسبه ، ويذكر الحديث بسند آخر ، وقلما يورد حديثا واحدا بلفظ واحد وسند واحد في موضعين ، ولقد أحصيت هذه المواضع فوجدت أنها نحو العشرين ، كما ذكر الحافظ ابن حجر عند شرحه لحديث : « إنما الأعمال بالنيات » .

وهناك فوائد في التكرار ترجع إلى السند ، ذلكم أنه يورد الحديث عن صحابي ، ثم يورده عن صحابي آخر ليزيل الغرابة عنه ، وقد يكون الحديث قد تعارض فيه الوقف والرفع ، ويكون الرفع قد رجح عند الإمام البخاري فيورده تارة موقوفا ، وتارة مرفوعا ليبين أن الوقف لا تأثير له ، وهناك أحاديث وردت مرسلّة وأخرى وردت موصولة ، فيوردها تارة موصولة ، وتارة مرسلّة ؛ ليبين أن الإرسال لا تأثير له وهكذا ، فللتكرار إذن فوائد كثيرة .

لكن المهم هو أن نطبق القواعد التحديثية على الحديث الموجود بين أيدينا .

ففيما يرجع للسند نرى الإمام البخاري :

أولا : قد أخرجه عن ثلاثة من شيوخه : أخرجه عن سعيد بن عفير ، وحبان بن موسى ، وإسماعيل بن أبي أويس ، إذن استفدنا من هذا الحديث أن الإمام البخاري أخرجه عن ثلاثة من الشيوخ .

ثانيا : هنا في الحديث قال في السند : عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن ، وفي كتاب الاعتصام قال : عن ابن شهاب ، قال أخبرني حميد ابن عبد الرحمن ، فأوضح لنا أن القول هنا كالإخبار في الاتصال من باب لا فرق .

الأحكام التي اشتمل عليها الحديث :

أما فيما يرجع للمتن فالحديث قد اشتمل على أحكام ثلاثة ، كما يذكر الحافظ ابن حجر :

الحكم الأول : فضيلة التفقه في الدين ، وهذا الحكم يناسب هذا الكتاب : كتاب العلم ، ولذلك أورده هنا في باب : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» .

الحكم الثاني : أن المعطي في الحقيقة هو الله تعالى : «إنما أنا قاسم والله يعطي» ، هذا الحكم يناسبه كتاب الصدقات ، ولذلك أورده الإمام البخاري في كتاب فرض الخمس ، وأورده الإمام مسلم في كتاب الزكاة .

الحكم الثالث : الاستفادة من هذا الحديث هو أن بعض هذه الأمة المحمدية سيبقى قائما بالدين ومتمسكا بالدين ، قائما بأمر الله إلى أن

يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا الحكم يناسبه أشراف الساعة ؛ ولذلك أورده البخاري في كتاب الاعتصام من «صحيحه» وقد أشار بذلك إلى عدم خلو العصر من مجتهد .

وستكلم عن هذه النقطة بالذات إذا ما وصلنا إلى قول النبي ﷺ «ولن تزال هذه الأمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

أما الإمام مسلم فلقد أخرج في كتاب الزكاة عن شيخه أبي بكر بن أبي شيبه إلى أن يصل به إلى عبد الله بن عامر اليحصبي الذي يرويه عن معاوية ، يقول معاوية رضي الله عنه : إياكم والأحاديث إلا حديثا كان في عهد عمر ، فإنه كان يخيف الناس في الله ﷻ سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما أنا خازن فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه ، ومن أعطيته عن مسألة وشره ، كان كالذي يأكل ولا يشبع» أو كما قال ﷺ .

وأخرجه الإمام ابن ماجه عن معاوية وغيره ولفظ معاوية : «الخير عادة والشر لجاجة ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» .

وذكره الإمام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ، عن عمر وعن أبي هريرة وعن معاوية ، وسأقتصر هنا على رواية معاوية التي يرويها عنه محمد بن كعب القرظي ، فمحمد بن كعب القرظي يذكر لنا أن معاوية رضي الله عنه كان يخطب ذات يوم بالمدينة يقول : «أيها الناس إنه لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطي لما منع الله ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» .

سمعت هذه الكلمات من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد يشير إلى منبر رسول الله ﷺ ، ورواه البزار والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود ولفظه : «إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين ، وألهمه رشده» ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» : ورجاله موثقون ، أما الباقر فرووه بلفظ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، ورواه الترمذي وابن حبان وأبو نعيم في «الحلية» وهكذا .

إلا أن الترمذي : على عادته يذكر درجة الحديث ولهذا قال في آخره : هذا حديث حسن صحيح .

وصفه بوصفين بالصحة والحسن ؛ لأن طرقه متعددة ، فبعضها حسن وبعضها صحيح ، ولذلك وصفه بالوصفين معا ، فوصفه بالوصفين معا هو أهم من الاقتصار على صحيح كما لا يخفى ، لأن الطرق التي ورد بها هذا الحديث متنوعة ومتعددة .

تحليل الحديث :

وهنا نتقل إلى تحليل هذا الحديث ، فنقول :

الإرادة :

معنى الإرادة في قول النبي ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، الإرادة صفة مخصصة لأحد طرفي المقدور بالوقوع ، أي ترجيح وقوع أحد الممكنات المتقابلات ، ولا نتعرض للممكنات المتقابلات ، فالبحت عنها يتعرض له علماء التوحيد بتفصيل ، وتطلق الإرادة أيضا على اعتقاد النفع والضرر ، كما تطلق على ميل يتبعه الاعتقاد ، لكن المعنى الثالث لا يناسب الإرادة القديمة .

والإرادة والأمر متغايران خلافا لمن جعلهما متحدتين ومتلازمين ، كما لا يخفى ولا نطيل بذلك

الخير:

«من يرد الله به خيرا» ، الخير : النفع والثواب ، ويطلق الخير -أيضا- على المال الكثير ، قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٨٠] ، وقيل يطلق على المال كثيرا كان أم قليلا ، قال في «لسان العرب» : والخير ضد الشر وجمعه خيور ، قال النمر بن تولب :

ولاقيت الخيور وأخطأتني خطوب جمعة وعلوت قرني

«من يرد الله به خيرا» وكلمة خير وردت كثيرا في القرآن الكريم ووردت في السنة النبوية ، ومما ورد في السنة ما ذكر ابن كثير في «النهاية» : «خيركم خيركم لأهله» . «ورأيت الجنة والنار ، فلم أر مثل الخير والشر» . وما رواه الإمام الترمذي في «جامعه» عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره» . حديث حسن .

الفقه:

«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، الفقه هو الفهم والعلم بالشيء ، قال الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ : ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨] .

ولقد دعا النبي ﷺ لحبر الأمة وترجمان القرآن ، سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، فقال : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » ، فاستجاب الله دعاء النبي ﷺ فكان عبد الله بن عباس رضي الله عنه من أعلم أهل زمانه بكتاب الله ﷻ ، فكان يعلم تأويل كتاب الله .

ومسائل ابن الأزرق تدل على عظمة معرفته للتأويل كما لا يخفى ، يقال فقه بالكسر إذا فهم ، وفقه بالضم إذا صار الفقه له سجية ، أي أصبحت له ملكة يستطيع بها الإدراك ، ويقال فقه بالفتح إذا سبق غيره إلى الفهم ، فهو مثلث الماضي كما لا يخفى ، هذا هو المعنى اللغوي .

أما المعنى الاصطلاحي : «فهو العلم بالحكم الشرعي العملي الذي استنبط من الدليل التفصيلي» ، قال ابن السبكي في جمع الجوامع : الفقه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية ، ولكن هل نحمل كلمة الفقه هنا على المعنى اللغوي أم على المعنى الاصطلاحي ؟ إذا حملنا كلمة الفقه على المعنى الاصطلاحي ؟ تكون دالة على ما يرجع للأحكام العملية ، فيخرج عن ذلك ما يرجع للاعتقاد وللأخلاق والمثل العليا وهكذا ، ولذلك يجب أن نحملها هنا على المعنى اللغوي لتشمل كلمة فقه كل ما يندرج تحت كلمة الدين ، من توحيد وعبادات ومعاملات وأخلاق وهكذا .

الدين :

«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، الدين هنا المراد به الدين الإسلامي ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، يطلق الدين على الطاعة والخضوع كما يطلق على المكافأة والجزاء والحساب ، ومنه قول الله ﷻ : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاحة : ٤] ، ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا

كما يطلق الدين على العادة والشأن ، ومنه قول الشاعر يذكر ناقته :
تقول إذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبدا وديني
والدين والملة والشريعة ، ألفاظ مترادفة وإنما تختلف بالاعتبار كما ذكر
ابن دقيق العيد وغيره .

والدين من الضروريات الخمس التي جاءت كل الشرائع وكل الملل
بالمحافظة عليها ، وهي حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والعقل ، والمال ،
وهي المجموعة في قول القائل :

قد أجمعت بحفظ خمس الملل عقل ودين نسب نفس ومال

مقاصد الشريعة :

الإمام الشاطبي : في كتابه الموافقات خصص جزءا للكلام على مقاصد
الشريعة ، وهو الجزء الثاني ، وسماه كتاب المقاصد ، وقسم هنا مقاصد
الشريعة إلى ثلاثة أقسام ، إلى ضروريات ، وحاجيات ، وتحسينات ، ثم إن
الضروريات لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا ، فلولا المحافظة على
الضروريات لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، وإنما تقوم على تهارج
وتنازع وخصام ، وذلك يؤدي إلى فوت النجاة في الدنيا ، كما يؤدي إلى
الخسران في الآخرة ، وحفظ الضروريات الخمس يكون بأمرين :

- ١ - ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها ، وذلك مراعاة لها من جانب الوجود .
- ٢ - ما يدفع الاختلال الواقع أو المتوقع فيها ، وذلك مراعاة لها من جانب
العدم ، فأصول العبادات مثلا ، من إيمان بالله ونطق بالشهادتين
وصلاة وزكاة وصيام وحج ، ترجع إلى المحافظة على الدين من جانب
الوجود ، أما أصول العادات من مأكولات ومشروبات وملبوسات

ومسكونات ، فإنها ترجع إلى المحافظة على العقل والنفس ، فلا يمكن أن نتصور إنسانا جائعا عاريا لا يجد مسكنا يعيش مدة طويلة .
إذن فأصول العادات ترجع إلى المحافظة على النسل وعلى المال .

الأمر بالمعروف :

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قطب الرحى في المحافظة على الضروريات الخمس فلولا القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما قامت مصالح الدين ولا الدنيا ولذلك يحتل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القمة في المحافظة على الضروريات الخمس .

والله سبحانه وتعالى لما وصف أمة سيدنا محمد ﷺ بأنها خير أمة أخرجت للناس ، ما وصفها بذلك إلا لأنها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، وتؤمن بالله ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

الخيرية :

في هذا الحديث لفظان يدلان على العموم ، هما كلمة : «من» وكلمة : «خيرا» ، «من» شرطية تدل على العموم ، و«خيرا» نكرة في سياق الشرط تدل على العموم ، والعام يستغرق الصالح له من غير حصر كما لا يخفى ، فنحن إن أبقينا الحديث على ظاهره على العموم يكون المعنى أن من أراد الله به جميع الخيرات فقهه في الدين ، وينتج عن هذا أن من لم يتفقه في الدين يكون ما أريد به الخير .

ويؤيد هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري حيث يقول ما مضمونه : روى أبو يعلى حديث معاوية وزاد فيه بسند ضعيف : «ومن لم

يتفقه في الدين لم يبال الله به» ، قال الحافظ ابن حجر : والمعنى صحيح لأن من لم يتفقه في الدين يكون غير طالب للفقهِ ، ويكون غير فقيه ، وبالتالي يكون لم يرد الله به الخير ، ويمكن أن نبقي الحديث على عمومته ونقول : إنه خرج مخرج المبالغة ، أي فكأن غير المتفقه في الدين ما أريد به الخير .

ويمكن أن نقول : إن الحديث من قبيل العام المخصوص والعام المخصوص ، عمومته مراد تناولا لا حكما كما لا يخفى ، فيخص منه من مات قبل البلوغ ، ومن مات إثر إسلامه وهكذا ، والأحسن أن نقول إن التنوين في «خيرا» إنما هو للتعظيم ، على حد قول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

فحاجب الأول قصد به التعظيم كما لا يخفى ، وحاجب الثاني قصد به التحقير ، ويكون المعنى من أراد الله به خيرا عظيما ففقهه في الدين ، ويتج عن ذلك أن من لم يتفقه في الدين يكون قد أريد به خيرا ولكنه غير عظيم ، ولكن بشرط أن يحافظ على القواعد الخمس ، وخاصة الصلاة التي تعتبر عماد الدين .

الفقه في الدين :

وننتقل بعد ذلك إلى بحث آخر وهو ما المراد بالفقه في الدين ، قيل المراد بالفقه في الدين : هو العلم الذي يورث الخشية في القلب ، ويظهر أثره على الجوارح ، ويترتب عليه الإنذار المشار إليه بقول الله ﷻ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] ، وقيل المراد بالفقه في الدين معرفة القواعد الخمس ، وما يتصل بها من الأحكام ، تلکم القواعد

التي يجمعها حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، الذي روي عن النبي ﷺ أنه قال :
 «بني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ،
 وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان» -هكذا
 الرواية- رواه الإمام البخاري والإمام مسلم رضي الله عنهما .

وقيل المراد بالفقه في الدين معرفة ما يندرج تحت كلمة الدين من توحيد
 وعبادات ومعاملات وأخلاق ومثل عليا وهكذا ، وفي نظري أن التفقه في
 الدين له مراتب ، وكل مرتبة يستحق من قام بها أجرا يناسبه ، ويكون قد
 أريد به خيرا يناسبه ، وقبل أن أشير إلى هذه المراتب -والمراتب كثيرة
 وسأحصرها في ثلاثة ، تضييقا لنطاق التقسيم- قبل أن أشير إليها أمهد لها
 بما يلي : ذلكم أننا إذا طلبنا من كل الناس أن يتخصصوا في شئون الدين
 ويتركوا شئون الدنيا جانبا فسيأتي غيرنا ويستغل الأرض ، وربما يفتتنا في
 ديننا ؛ لأننا لا نجد مكانا نعبد الله فيه ، والله سبحانه وتعالى خلقنا وأمرنا
 بالعبادة ، وجعل الغاية من خلقنا أن نعبده ، حيث قال ﷻ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ
 الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، ولكن أين سنعبد الله؟

بدون شك سنعبد في هذه الأرض التي نوجد عليها ، وكيف نعبد في
 أرض إذا لم نقم بإصلاحها وعمارتها وإقامة العدل فيها هكذا ، على هذا
 فلا بد من وجود متخصصين في ميادين العلم والمعرفة .

ذكر الإمام الغزالي : في كتابه الإحياء ، في أبواب العلم أن العلماء
 اختلفوا في العلم الذي يطلب تحصيله ، كل طائفة تقول بوجوب العلم
 الذي يؤدي للمحافظة على الدين وعلى الدنيا .

وعلى هذا أقول : إن الذي يجب تحصيله هو : الفقه ، والفلاسفة يقولون
 إن العلم الذي يجب تحصيله هو الفلسفة وهكذا لكن ذكر أخيرا أن العلم

الذي يجب تحصيله هو العلم الذي يؤدي للمحافظة على الدين وعلى الدنيا ، وعلى هذا أقول إن مراتب التفقه في الدين هي :

مراتب الفقه في الدين :

المرتبة الأولى : التي تعتبر قاسما مشتركا بين سائر الأفراد ، ترجع إلى معرفة القواعد الخمس ، وإلى معرفة أحكام الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج إجمالا ، ثم إلى معرفة الحلال والحرام إجمالا ، ثم إلى معرفة بعض الآداب الإسلامية والأخلاق النبوية الكريمة ، بعد هذا يقع التخصص ، فالدولة محتاجة إلى الطبيب وإلى المهندس والمحامي وإلى القاضي وإلى المعلم وإلى الأستاذ وإلى المرشد وإلى المفتي والمحدث وإلى المفسر وهكذا هؤلاء إن تفقهوا في دينهم فبدون شك سينجزون أعمالهم بإخلاص .

فالإنسان وإن أخذ أجره على عمله في الدنيا لكن إن أنجزه بإخلاص وعلم أن هنالك يوما سيحاسب فيه سيعمل بإخلاص وسيعطيه الله أجرا عظيما على ذلك العمل الذي أنجزه بإخلاص .

والإخلاص هو عبادة ، فالمخلص في عمله أي المتفقه في دينه ؛ لأن التفقه في الدين يبعث الإنسان على العمل ، فالتفقه في دينه المخلص في عمله يكون قد أرضى الناس وأرضى نفسه وأرضى ملكه وأرضى ربه الذي يعلم سره وعلايته ، والذي سيجازيه يوم القيامة ، وسيكون الجزاء بالسيئات والحسنات ، لا بالمال ولا بغير ذلك .

روى عبد الله بن أنيس عن النبي ﷺ قال : «يحشر الله الناس يوم القيامة عراة غرلا بهما ، قلنا : وما بهما يا رسول الله؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، أنا الديان أنا المالك لا

ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصها منه -أو كما قال عليه السلام- ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقصها منه ، حتى اللطمة قلنا: كيف وإنما نأتي الله عراة غرلا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات .

أي فالجزء يكون بهما ، فالمسلم المتفقه في دينه يعلم أنه لا بد له من يوم يحاسب فيه ، ولذلك ينجز أعماله بإخلاص ، ففرق بين موظف ينجز عمله خوفا من رئيسه ، فإن حضر رئيسه أنجز العمل وإلا نام ، وفرق بين أستاذ يعمل في الفصل بإخلاص وبين أستاذ يتربص بزيارة المفتش فإن ذهب المفتش ، بقي التلاميذ في الضياع .

فالمسلم الحق لا بد أن يعتقد أن هناك يوم القيامة ، ولا بد من أن يحاسب ، فهو على عكس أولئك الذين يقولون : ليست هناك إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكهم إلا الدهر ، وليس كأولئك الذين يقولون لا حساب ولا عقاب ، فالله سبحانه لم يخلقنا عبثا : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ١١٥ فتعالى الله الملك الحق ﴿ ١١٦ ﴾ .

أما المرتبة الثانية : من مراتب التفقه في الدين فهي : مرتبة التخصص ، فكما ندفع فلانا ليتخصص في الطب أو الهندسة ندفع الآخر ليتخصص في الفقه وهكذا . . . وهذه المرتبة الثانية وهي مرتبة التخصص في الفقه هي ذات مراتب وأعلاها هي أن تكون للإنسان ملكة يستطيع بها فهم النصوص ولو على مذهب معين ؛ لأن مشاكل الحياة تتجدد وتتطور وتحتاج إلى حلول شرعية .

والاجتهاد هو العنصر الحيوي الذي يدل على حيوية الشريعة الإسلامية ، والذي يدل على صلاحيتها لكل زمان ومكان .

أما المرتبة الثالثة : فهي مرتبة الاجتهاد المطلق ، وهذه المرتبة ثار فيها النزاع بين العلماء : هل يمكن أن يخلو العصر من مجتهد أم لا يمكن؟ وسأتحدث عنها عندما أصل إلى شرح قول النبي ﷺ : «لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

طريقة التفقه في الدين:

لكن ما هي طريقة التفقه في الدين لمن أراد أن يتخصص؟

١- دراسة القرآن الكريم:

من أراد أن يتعمق في دين الله ويتخصص فيه يجب عليه أن يدرس كتاب الله ﷻ دراسة تمحيص ذلكم الكتاب الذي قال الله ﷻ فيه : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] ، ذلكم الكتاب الذي يعتبر المصدر الأول من مصادر الشريعة الإسلامية ، ذلكم الكتاب الذي يعتبر كتاب توجيه وإرشاد لمصالح الدين والدنيا ، ذلكم الكتاب الذي لا يستغني عنه الباحثون ، فالمسلمون الأولون إنما كانوا متقدمين لكونهم كانوا متمسكين بكتاب الله ، فنحن إن تمسكنا بكتاب الله لا بد أن تعود لنا مكانتنا ، ويعود لنا مجدنا ، وإن تنكبنا عنه خسرنا والعياذ بالله ، ولا يمكن للعالم الإسلامي أن يخرج مما هو فيه إلا بالرجوع إلى كتاب الله ﷻ .

روى الإمام الترمذي في جامعه في فضائل القرآن عن علي كرم الله وجهه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال : كتاب الله تبارك

وتعالى ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا» إلى آخر الحديث .

هذا الحديث رواه الإمام الترمذي في «جامعه» عن علي كرم الله وجهه ، ثم قال في إسناده مقال أحد رواته وهو الحارث ، تكلم فيه الشعبي ، قال الإمام القرطبي في أوائل تفسيره ، الإمام الشعبي إنما تكلم في الحارث أحد رواة هذا الحديث ، لكونه كان متشيعا لعلي كرم الله وجهه مع أنه ثبت ، إذا كان ثبتا فلا معنى أن نقول إن في إسناده هذا الحديث مقالا ، وعليه فالحديث مقبول كما لا يخفى ، فالراوي عدل ثبت فيما يروي .

٢- دراسة السنة النبوية :

ثم بعد هذا يتوجه الإنسان إلى دراسة السنة النبوية ، تلکم السنة التي تعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع ، تلکم السنة التي قطع السلف الصالح في إدراكها الفيا في والقفار ، وتركوها لنا مدونة ، فما علينا إلا أن نعتكف على ما تركوه لنا ، جزاهم الله خيرا .

يروي الإمام القاضي عياض في كتابه «الإلماع» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «أيها الناس إني تركت فيكم الثقلين ، كتاب الله وستي فلا تفسدوه ، وأنه لن تعمى أبصاركم ، ولن تزل أقدامكم ، ولن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما» .

٣- دراسة أقوال الصحابة والتابعين:

ثم ينتقل الإنسان بعد هذا إلى دراسة أقوال الصحابة وآراء التابعين ، وأقوال كبار الأئمة المعتمدين في هذا الموضوع .

٤- الاجتهاد:

ويمكن للإنسان أن يتعمق في البحث أن يدرس دراسة متقنة ، أن يجتهد ولو جزئياً ، والاجتهاد كان معمولاً به حتى في عهد النبي ﷺ ، والاجتهاد لا بد منه ، فالنبي ﷺ عمل بالاجتهاد كما لا يخفى ، خلافاً للأصوليين الذين يأتون بالخلاف هنا ، هل يجوز له أن يجتهد أو لا يجتهد؟ وهل يجتهد في المسائل الحربية أو يجتهد في غيرها؟ وهكذا . . .

فلقد اجتهد وأقر على الاجتهاد ، ذلكم «أن النبي ﷺ أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه قاضياً إلى اليمن فقال : بم تقضي يا معاذ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيي ولا آلو ، فضرب النبي ﷺ على صدر معاذ ، وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» .

فهذا استحسان من النبي ﷺ لعمل معاذ ، حيث إنه إذا لم يجد الحكم في الكتاب ولا في السنة ، فسيجتهد ولا يألو ، والرأي ليس مذموماً لذاته ، وإنما الرأي الذي يذم هو الرأي الذي يتبع فيه صاحبه الهوى .

شرف العلم:

ولقد وردت آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة في شرف العلم ، سأقتصر على بعضها نظراً لضيق الوقت ، يقول الله ﷻ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِأَلْسِنَةٍ ﴾ [آل عمران ١٨] ، فلقد

ابتدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بملائكته ، وثالث بأهل العلم ، وفي ذلك فضل وشرف لهم ، وقال الله ﷻ : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، وقال تعالى أيضا : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ، وقال الله ﷻ : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] ، وقال الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفصص: ٨٠] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

أما الأحاديث النبوية الشريفة فمنها ما رواه أبو داود في «سننه» أن النبي ﷺ قال : «من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة» ، وفي رواية للإمام مسلم : «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء» . . . إلخ .

وفي «جامع الترمذي» أن النبي ﷺ قال : «خصلتان لا تجتمعان في منافق : حسن سمت وفقه في الدين» ، قال الإمام ابن العربي في العارضة : حسن السميت عبارة عن شخص متناسب عقله وقوله وعمله ، وفي «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البر : أحاديث كثيرة سأقتصر على بعضها ، بالروايات التي ذكرها ابن عبد البر قال : قال النبي ﷺ : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء -هكذا رواه ابن عبد البر- : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به بعده ، أو ولد صالح يدعو له» .

وقال ﷺ: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبل أن يرفع» ، وما قصد رسول الله ﷺ بذلك إلا العلم الشرعي ، أما العلوم الأخرى فإننا نراها الآن والله الحمد في تقدم مستمر وازدهار عظيم ، أما العلوم الشرعية فهي التي أصبحت تقل ، ولكن بفضل الله سيعود لها مجدها ، وستعود لها مكانتها بحول الله وقوته .

وقال النبي ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء» ، فجعل درجة العلماء مقدمة على درجة الشهداء ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحياؤها» ، وقال عمر ابن عبد العزيز : «من عمل في غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» ، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة .

من هم العلماء؟

لكن نريد هنا أن نتساءل؟ من هم العلماء الممدوحون في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسول الله ﷺ؟ هم العلماء العاملون بعلمهم ، الناصحون لأمتهم ، الناشرون لعلمهم بين الناس ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله .

هم العلماء الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿ إِنَّمَا تَحَشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، أسلوب الحصر معناه أن خشية الله منحصرة في العلماء ، بمعنى أن الذين يخشون الله حق خشيته ، وأن الذين يتقون الله حق تقواه هم العلماء ، ولقد قال الإمام الشاطبي في كتابه «الموافقات» في الجزء الأول : «العلم ليس مقصودا لذاته ، بل للعمل به» ، وذكر بحثا آخر مضمونه أن العالم المتحقق بعلمه هو الذي يعمل بعلمه ، وقد كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من علم لا ينفع ، فكان ﷺ يقول : «اللهم إني أعوذ بك من علم

لا ينفع ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع» .

العلماء وإن قالوا : إن العالم يجب عليه أمران : يجب عليه أن يأمر نفسه ، وأن يأمر غيره ، وأن ينهى نفسه ، وأن ينهى غيره ، لكن إذا كان يأمر غيره وينهى غيره ، ولا ينتفع هو بعلمه في حد ذاته يكون كطبيب مثلاً ، يحسن الطب ولكن يعالج الناس ولا يعالج نفسه ، فماذا استفاد من هذا العلم؟ وويل للعالم الذي يأمر الناس ولا يأتمر ، وينهاهم ولا ينتهي .

ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه -أي تخرج أمعاؤه- فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع عليه أهل النار ، فيقولون له : يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بلى ، قد كنت آمر بالمعروف ولا أتبه ، وأنهى عن المنكر وآتبه» ، والعياذ بالله .

القسمة والعطاء:

يقول النبي ﷺ : «وإنما أنا قاسم والله يعطي» ، هذا الجزء من الحديث يحتمل معنيين ، يمكن أن يراد منه القسم في تبليغ الوحي ، ويمكن أن يراد به القسمة المالية ، فإن أريد به تبليغ الوحي تكون هذه الجملة منسجمة مع قوله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، ويكون الحديث كله مندرجا في كتاب العلم .

وعلى الاحتمال الأول ، أي الذي يكون المراد به تبليغ العلم يكون المعنى أن النبي ﷺ أخبر أصحابه أنه سوى بينهم في البلاغ ، وعدل بينهم في التقسيم ، وأنه لم يفضل أحداً من أمتة على أحد في التبليغ : ﴿يَتَأْتِيهَا

الرَّسُولُ بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿ [المائدة: ٦٧] ، ولكن هناك تفاوت موجود بينهم وهو التفاوت في الفهم ، وهذا التفاوت في الفهم ليس ناشئاً من طريق القسمة وإنما هو ناشئ من طريق العطاء ، والعطاء ناشئ من الله ﷻ ، ولقد كان بعض أصحاب النبي ﷺ يسمع الحديث فلا يفهم منه إلا المعنى الظاهر الجلي ، ويسمعه آخر فيستنبط منه المعاني الكثيرة ، بمعنى أنه يستنبط المعاني الكثيرة من اللفظ القليل .

وعلى هذا أقول : إن التفاوت في الفهم ليس خاصاً بطائفة دون أخرى ، ولا بعصر دون آخر ، ولا بشخص دون شخص ، فلقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحضر كبار الصحابة في مجالسه ، وكانوا يحضرون «شباناً وكهولاً» ، ثم يقول رضي الله عنه : «لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه ، فإن العلم ليس على حداثة السن وقدمه ، ولكن الله يضعه حيث يشاء» ، ولقد قال الإمام ابن مالك النحوي رضي الله عنه في مقدمة كتابه «التسهيل» : وإذا كانت العلوم منحة إلهية ، ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر للمتأخرين ما عسر فهمه على كثير من المتقدمين .

أما على المعنى الثاني : وهو القسمة المالية فيكون المعنى أن النبي ﷺ يقسم الأموال بين الصحابة والتفاضل الموجود بينهم في العطاء ، إنما هو بوحى من الله ، كما قال النبي ﷺ : «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس وهو مردود عليكم» ، فالنبي ﷺ لم يستأثر بشيء من مال الله ، فالمال مال الله ، والعباد عباد الله ، والنبي ﷺ قاسم مال الله بإذن الله بين عباده ، لكن يمكننا أن نتساءل ما هي المناسبة بين هذا الجزء من الحديث وبين قوله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» مع أن الكلام هنا يكون في القسمة المالية ؟ .

الجواب هو: أن الحديث ورد وقت قسمة المال ، ففاضل النبي ﷺ في العطاء ، بمعنى أعطى لبعض الناس أكثر من الآخرين لحكمة اقتضت ذلك ، فاعترض البعض فقال النبي ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، أي إذا أراد الله بعبد خيرا وفقه وأرشده وألهمه ووفقه في دينه ، وإذ ذاك يعلم أن النبي ﷺ إنما هو قاسم وليس بمعط ، فالمعطي هو الله ، فهو يعطي للناس بوحى من الله .

«إنما أنا قاسم والله يعطي» ، الأسلوب هنا أسلوب الحصر ، من قصر الموصوف على صفة ، فهل النبي ﷺ مقصور في القسم؟ فتكون له صفة واحدة هي صفة القسم .

الجواب: لا ، فالنبي ﷺ له صفات كثيرة : التبليغ ، والتبشير ، وكونه نبيا ، وكونه رسولا ، وهكذا . . .

فالقصر هنا قصر إضافي ، أي بالنسبة لاعتقاد السامع ، وإن كان السامع يعتقد أن النبي ﷺ قاسم ومعط يكن القصر قصر أفراد ، أي لا شركة في الوصفين بل أنا قاسم فقط ، وإن كان يعتقد أن النبي ﷺ معط لا قاسم ، يكن القصر قصر قلب كما لا يخفى عند علماء البلاغة .

الأمة والطائفة:

ثم قال النبي ﷺ : «ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

الأمة: أمة كل نبي من أرسل إليهم ، وتطلق الأمة على الدين ، وعلى الطريقة ، وتطلق على الجماعة ، وعلى معلم الخير . . . إلخ .

والقائم بالدين : هو المتمسك به والقائم عليه ، وأمير المؤمنين قائم بالدين متمسك به محافظ عليه ، ولذلك يعتبر حامي الملة والدين .
«ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

هنا اختصر ، في رواية أخرى : **«لا تزال طائفة من أمتي»** . . . إلخ ، من هي هذه الطائفة؟ قيل هم أهل الحديث ، قال الإمام البخاري : «هم أهل العلم بالآثار» ، وقال الإمام أحمد : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ، وقال القاضي عياض : إنما أراد الإمام أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث ، لكن الذي ينبغي هنا اعتناؤه هو ما ذكره الإمام النووي رحمه الله : هذه الطائفة ليست محصورة في طائفة معينة من المؤمنين بل هي مكونة من أنواع المؤمنين ، ففيهم المهاجرون في سبيل الله ، وفيهم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وفيهم المحدثون وفيهم الجيوش المرابطة للدفاع عن الإسلام ، إلى غير ذلك

وهذا الجزء من الحديث يخبر فيه النبي ﷺ أن أمته آخر الأمم ، وأن عليها تقوم الساعة ، وإن ظهرت أشراطها ، وضعف الدين ، فإنه لا بد أن يبقى من يقوم بأمر الله ، قال العيني والكرماني ، فإن قيل : إن النبي ﷺ قال : **«لا تقوم الساعة حتى لا يقول أحد الله»** ، وفي رواية أخرى : **«لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»** ، فالجواب أن تلك الأحاديث هي عامة والمقصود بها الخصوص ، أي لا تقوم الساعة على أحد يقول الله إلا بمكان كذا ، وأحسن جمع هنا ما رأيته للإمام النووي أيضا حيث قال : إن أمر الله هنا عبارة عن الريح اللينة التي تهب قرب قيام الساعة ، وتقبض أرواح المؤمنين ، وإذا ذاك لا يبقى إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة ، وتكون الساعة المقصودة في الحديث هي الساعة الحقيقية .

وبالجملة فإن هذا الحديث استنبطت منه عدة أشياء أهمها :

أن فيه دلالة على حجية الإجماع ؛ لأن مفهومه أن الحق لا يعدو الأمة ، فهذه الطائفة ستبقى على الحق ، ولا يمكن أن تجتمع على ضلالة ، وهذا الجزء من الحديث استدل به بعضهم على عدم خلو العصر من مجتهد ، وهناك خلاف في المسألة ، فهناك من يقول : يجوز خلو العصر من مجتهد ، بل هناك من أغلقوا باب الاجتهاد ، وكأنه أسير أدخل السجن فأغلق عليه الباب ! ، وهناك من أوجبوا عدم خلو العصر من مجتهد ، وهم الحنابلة الذين استدلوا بقول النبي ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ، واستدلوا كذلك بقول علي كرم الله وجهه : «لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته» ، ولذلك أوجبوا عدم خلو العصر من مجتهد ، وفي هذا الحديث فضيلة العلماء كيفما كانوا ، وفيه فضيلة أهل الفقه على غيرهم ، وفي هذا الحديث إخباره ﷺ بالمغيبات : «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله» ، وهذه الطائفة ما تزال وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .



المحاضرة الأربعون:**مسئولية الدولة المسلمة****تمهيد:**

بزغت شمس الإسلام وانبعث نورها على الإنسان من أفق الحياة العليا، فأيقظ روحه، وأحيا ضميره، وأرشده إلى الخير والهدى، وقد أدرك للإنسانية حقاً يجب أن تمكن منه، وتنعم به، لتصل عن طريقه إلى الغاية التي طلبت منها.

بزغت شمس الإسلام، وأذابت حرارتها عفونة الجبروت التي انعقدت على الروح الإنسانية، فأفقدت الإنسان الوعي وسلبته مواهبه التي بها كون، والتي كان بها هو المسئول عن فساد الحياة وصلاحها وتقدمها وتأخرها.

بزغت شمس الإسلام، وصاح في الناس بوحدتهم في المربوبية لرب واحد، وبوحدتهم في النبوة لرجل واحد، وبوحدتهم في الإنسانية لهدف واحد، صاح فيهم بالوحدة في كل ذلك، وقضى على مظاهر التفرقة التي اخترعها الإنسان، وجعل بها من نفسه طبقات.

الدولة والحكم في الإسلام:

إن من خصائص الشريعة الإسلامية الشمول، فما من شيء في الحياة إلا وللشريعة حكم فيه، وما دامت الشريعة بهذا الشمول فمن البديهي أن نجد في أحكامها وقواعدها ما يتعلق بالدولة ونظام الحكم فيها.

إن بناء المجتمع على النمط الإسلامي، لا يمكن أن يتم بالوعظ والإرشاد فقط، وإنما بقيام الدولة التي تصوغ المجتمع الصياغة المطلوبة،

ذلك أن الدين له نظرتة الخاصة للحياة فالعبادة في الإسلام هي طاعة الله ، وميدان طاعة الله أفسح من أن يحد بمكان هو المسجد ، أو زمان هو وقت الصلاة والذكر ، فإن هذه الطاعة تستوعب كل حياة المرء منذ بلغ التكليف حتى يلقي الله .

ولأجل ذلك فالإسلام ليس ديناً فقط له عقائده المعروفة بل هو دين ودولة معا ، أنه يمثل أيضا نظريات قانونية وسياسية أنه نظام كامل في الثقافة يشمل الدين والدولة معا ، أنه منهاج شامل ، ونظام كامل .

وليس بد من الإقرار من أنه كان للأمة العربية والإسلامية حتى في عهدها الأول ، دولة تقوم بأمرها ، وترعى شئونها ، وتدبر أمورها ، حسب ما تأمر به شريعة الله وسنة رسوله ، ولم يكن بد أيضا من أن نجد في القرآن والسنة الصحيحة الأصول العامة التي يقوم عليها نظام الدولة .

إن الدين في الإسلام ضروري للدولة ، والدولة ضرورة من ضرورات الدين ، فلا يقام الدين بغير دولة ، ولا تصلح الدولة بغير دين .

لقد أرسى الإسلام الدولة على مقومات ودعائم أساسية يمكن حصر أهمها فيما يلي :

١ - الدعامات الأولى الالتزام بالقانون الأساسي أو الدستور .

٢ - الدعامات الثانية الخلافة .

٣ - العدل والشورى .

٤ - الشرعية والمشروعية .

٥ - الفرد .

٦ - الأخوة الدينية والتكافل الاجتماعي .

٧- السيادة .

٨- الشخصية المعنوية أو الاعتبارية .

ومتى انتهينا من استعراض هذه المقومات والدعائم أمكننا أن نخصص فقرتين أساسيتين :

الأولى : لاستعراض واستخلاص خصائص ومميزات الدولة في الإسلام .

والثانية : لاستعراض القواعد الفقهية الأساسية التي تحكم نظام الدولة .

وبما أن هذه المقومات متعددة الجوانب لا تمكن الإحاطة بها في الوقت المحدد، فإننا سوف نضطر للاقتصار على عرض البعض منها، مكتفين بالإشارة للبعض الآخر الذي لم نتمكن من استعراضه .

على أننا سوف نضطر للوقوف بعض الشيء لتحليل الدعامة الثانية الخاصة بالخلافة باعتبارها المحور الأساسي لهذا الدرس .

الدعامة الأولى: القانون الأساسي أو الدستور

لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الدين الإسلامي صالحا ومصلحا للإنسانية، ملائما للطبائع البشرية، صالحا لكل زمان ومكان، وافيا بالمقاصد الضرورية والحاجية والتحسينية، يقوم بحفظ الدين والنفس والمال والنسل والعقل، ويرفع عن الناس الحرج، ويدفع عنهم المشقة، ويفتح لهم باب الأخذ من محاسن العادات، ويجول بينهم وبين المندسات التي تأنفها العقول الراجحات.

ولم يهتم الإسلام بوضع قالب معين، وشكل خاص يبرز فيه الحكم، ولأمر ما شاء الله أن يموت رسوله ﷺ دون أن يعرض علينا صورة معينة ووضعاً خاصاً نلتزمه ونحرص عليه، وكأنه أراد أن يعطي للمسلمين الحرية في أن يختاروا النظام الذي يتفق مع ظروفهم، ويتناسب مع حالهم، ويتمشى مع بيئتهم ولا يمانع الإسلام في أن نصطلح على نظام للحكم، ما دام ذلك لا يصطدم بأصل من أصوله، وما دام ذلك يؤدي إلى أن تنعم الدولة الإسلامية ورعاياها بالرضا والهناء والسلام والأمان. لكنه مع ذلك يحرص على أن يضع لهم الأسس التي تكفل للدولة سلامتها وسيادتها.

ومن أهم الدعائم التي ترسو عليها الدولة الإسلامية الالتزام بدستور من وحي السماء، ذلك الدستور هو القرآن ومذكرته التفسيرية والإيضاحية هي السنة النبوية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : فاتحة دستورنا، فباسم الله صدر هذا الدستور، نعم، صدر باسم الله الذي تنزه عن الهوى والعبث والسفه والضلال والنسيان.

صدر باسم الله، ليكون له وقع في النفوس، وأثر في الصدور، وهيبة في

القلوب ، تحمل على الخضوع له ، والابتعاد عن التلاعب به ؛ لأنه صادر من بيده الملك وهو على كل شيء قدير ممن تخر له الجباه ، وتخضع له الأعناق ، وتدعن لقضائه طوعا واختيارا . . . أو جبرا وإلزاما .

صدر هذا الدستور «باسم الله الرحمن الرحيم» ومن حكمة الله البالغة أن يستقبلنا ونحن نقبل على دستوره باسمين «الرحمن ، الرحيم» ليزكنا برحمته الواسعة وليطمئننا على أن ما فيه من مبادئ وتعاليم لا عنت فيها ولا مشقة ولا كلفة فيها ولا حرج ؛ لأنها صادرة من الرحمن الرحيم .

ثم يشي بقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وبهذا المطلع يلقي في قلوب الناس جميعا الرضا والاطمئنان إلى حكمه ومبادئه .

ومن لطف الله سبحانه أن يعود بعد ذلك مباشرة فيقول : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة : ٣] ، فيضع العالمين بين رحمتين : رحمة سابقة ، ورحمة لاحقة .

هذا هو مطلع القرآن وما يوحى به ، أما ختامه فهو إرشاد من الله لنا لنستعيز به من كل ما يعكر النفوس ، ويهدد السلام ويثير الخصام ، ويفسد العلاقات ، وفي هذا الختام يعلمنا المولى كيف نستعيز به من كل ما يوحى بالشر إنسيا كان أم جنيا .

هذا هو بدء القرآن ، الدعامة الأساسية التي ترسي عليها الدولة في الإسلام ، وهذا هو ختامه ، رحمة من الله تبعد عن الشر ، وتجلب لنا الخير ، وتهدينا إلى الصراط المستقيم فما عسى يكون الظن بما يتخلله من أحكام ومبادئ ، هل يمكن أن تشذ عن هذا المطلع وهذا المقطع .

لقد بين القرآن كل ما يلزم الأمة في حياتها ، ففي هذا الدستور يتحدد

واجب الحاكم والمحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر وعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض فكان بذلك منهاجا كاملا ودستورا شاملا ، يهدي الناس إلى سبيل سعادتهم ، في دنياهم وأخراهم ، يوضح لهم العقيدة الصافية ، والعبادة الهادية ، ويرشدهم إلى المعاملات الكريمة والأخلاق القويمة ، ويدلهم على أسس الحكم السليمة ، وأصول السياسة الرحيمة ، ويبين لهم ما فيه صلاح الفرد ، وهناءة المجتمع ، ورفعة الدولة ، ويتكفل بكل مطالب الخلائق في كل نواحي الحياة .

ولا عجب فقد جاء من لدن حكيم خبير ، عليم قدير ، سميع بصير ، جاء من عند الإله الذي برأ العالم ، ووضع نظامه وسن سننه ، وأحاط بأسراره .



الدعامة الثانية: الخلافة

إذا كانت الخلافة وما رافقها من نظم الإسلام السياسية قد قامت على الإجماع، الذي هو المصدر الثالث من مصادر التشريع، ولاسيما في عصر الصحابة والخلفاء الراشدين، فإنه يتضح من خلال العرض التاريخي لأطوار الخلافة أن ألقابا ثلاثة أطلقت على رئيس الدولة في الإسلام: الخليفة، والإمام، وأمير المؤمنين.

ولقب الخليفة مصدره القرآن، ولما كان الاستعمال اللغوي للفظ «الخليفة» يفيد من يقوم مقام الأصل الذي ذهب؛ لأجل ذلك منع الجمهور إضافته إلى الله، لأن الاستخلاف إنما هو في حق الذاهب الغائب، وليس في حق الحاضر الحي القيوم.

أما الإمام فهو في الاستعمال اللغوي - كل من أتم به قوم، وهو من أمته إذا قصده، وورد في القرآن الكريم مفردا ومجموعا.

وقد كثر اقتران كلمة «إمام» في أبحاث الفقهاء بموضوع «الصلاة»؛ لأن الناس يقتدون بالإمام في حركاته وأقواله وأفعاله حتى شاع هذا المعنى ودار على الألسنة، ولاسيما بين العامة في مختلف الأجيال، لكن الفقهاء اصطلاحوا على تسمية هذا الضرب من الإمامة بالإمامة الصغرى تمييزا لها عن الإمامة العظمى أو الكبرى التي لا تكون إلا لرئيس المسلمين الأعلى.

أما لقب «أمير المؤمنين» فقد كان من سمات الخلافة حقا؛ إذ كانوا يسمون قادة البعث باسم «الأمير»، وعرف الصحابة من رسول الله ﷺ نفسه إطلاق كلمة «الأمير» على من يقود جماعة من المسلمين في الغزو أو الحج.

ولعل لقب «أمير المؤمنين» أكثر تعبيراً عن طبيعة المنصب من كلمة «ال خليفة» وذلك لعدم إمكانية أحد أن يخلف رسول الله فيما كان له من دور في الرسالة والوحي كما أن لقب «أمير المؤمنين» أدل على حقيقة الحال ، ولأجل هذا استحسنه سيدنا عمر وآثره حينما دعاه به بعض الصحابة .

وإذا كانت الخلافة إحدى المقومات الأساسية للدولة الإسلامية ، فإن أول مسألة يعنى العلماء بتقريرها ممن يبحثون هذا العلم هي مسألة وجوب قيام هذا الحكم .

ونستعرض بإيجاز الأدلة التي استند إليها الفقهاء في هذا المجال .

١ - لقد ثبت أن الصحابة بمجرد أن بلغهم نبأ وفاة رسول الله ﷺ بادروا إلى عقد اجتماع في «سقيفة بني ساعدة» اشترك فيه كبار المهاجرين ، وتداولوا في أمر خلافة الرسول ﷺ ، ولم يقل أحد أبداً أن لا حاجة لنا إلى ذلك .

وقد وافق بقية الصحابة الذين لم يكونوا حاضرين على ما أقره المجتمعون من قبل ، عندما جرت البيعة في المسجد في اليوم التالي ، ولم يوجد من يقول : إن الدين يصلح من غير قائم به .

والحقيقة أن أية جماعة من الناس توافرت لها أركان الدولة ، من الواجب إقامة حاكم لها يرعى أمورها ويتولى إدارة شئونها ، وهذا الواجب قد يكون من وجه العقل أو الشرع أو العقل والشرع معاً ، وهذا الرأي الأخير في نظرنا ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون ، فما كان العقل ليتعارض مع الشرع بحال ؛ لأن الشريعة الإسلامية معقولة الأحكام والغايات .

وكما قال الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والنصوص تدل دلالة قاطعة بوجوب إقامة الخليفة ، وضرورة طباعته شرعا ، وإن هذا هو ما أجمعت عليه الأمة في عصورها وعهودها المختلفة ، وسند هذا الإجماع هو القرآن والسنة معا .

وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .

وقد ذكر كثير من رجال التفسير الأعلام أن المراد بأولي الأمر هنا هم الخلفاء والأمراء .

وقد ثبت عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة في هذه المسألة من نواحيها المختلفة :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته» .

«من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» .

«من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني» .

٢- الدليل الثاني على وجوب الخلافة هو دليل عقلي شرعي يتمثل في دفع أضرار الفوضى ، ذلك أن ترك الناس لأموالهم بدون وازع يؤدي إلى وقوع الضرر لهم ، وبما أن دفع الضرر المظنون واجب على العباد إذا قدروا عليه إجماعا أي شرعا وبما أن هذا الضرر لا يندفع إلا بوجود إمام ، من أجل كل هذا كانت إقامة الإمامة واجبة .

٣- على الإمامة يتوقف القيام بالواجبات الدينية وتحقيق الغايات التي يقصدها الدين ، ذلك أن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا ، ونظام الدنيا لا يحصل إلا بإمام مطاع ، فوجود التلازم بين الدين والدنيا يستتبع وجوب وجود الخليفة .

قال عبدالله بن المعتز :

الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى

٤- والدليل الرابع على وجوب الخلافة يتلخص في أنه لا يتحقق العدل الكامل ، ولا تكفل للناس سعادتهم في دنياهم وأخراهم ، ولا تتم وحدتهم ، ولا تنتظم الأمور إلا بوجود هذا النوع من نظم الحكم وهو الخلافة .

والحق أن وجوب الخلافة عند المسلمين جميعاً ثبت بالإجماع فما نقل من نظريات تخالف هذه النظرية ، لم يعرف إلا بعد اعتناء الناس بعلم الكلام وآراء الفرق وأصحابها ، وفي ذلك برهان لا دفع له على وجوب الخلافة شرعاً وعقلاً ، وعلى استناد الأمة إلى نصوص صريحة يستنبط منها بوضوح مدلول ذلك الوجوب .

من كل هذا يتضح لنا مجموع الأدلة التي استند إليها الفقهاء لتبرير وجوب الخلافة ، ولما كان أساس الخلافة هو البيعة ، فإننا سنتناولها انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

هذه الآية من سورة الفتح المدنية .

ووجه المناسبة لما قبلها من الآيات من نفس السورة أن الله سبحانه لما ذكر أنه أرسل رسوله بشيرا ونذيرا بين أن متابعته متابعة له ، وطاعته طاعة له ، وذلك يشعر بعظيم منزلته وقدره عند ربه ، مثل قوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

وسورة الفتح التي منها هذه الآية مدنية ، ومن خصائص القرآن المدني تفصيله للأحكام واهتمامه بشئون المعاملات .

ومما اشتملت عليه هذه السورة من تلك الأحكام والشئون أمر البيعة . وموضوع البيعة مناسب لسورة الفتح ، إذ هي الفتح عينه ، كما فسر به بذلك الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

وقد اشتملت هذه السورة على مقاصد منها :

- المغفرة الشاملة للرسول صلوات الله عليه .

- تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها .

- الهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرئاسة .

- المنعة والعزة ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب .

- وجاء موضوع البيعة في السورة وهو أمر تنظيمي موافقا لخصائص القرآن المدني ؛ لأن من نتائجها إرساء قواعد الدولة والحكم في الإسلام ، وتنظيم مجالات الحياة بها .

وكان سبب نزول هذه الآية :

إن رسول الله صلوات الله عليه أرسل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الحديبية إلى أهل مكة في شأن الاعتمار بالبيت فأشيع بأن سيدنا عثمان قتل ، فعزم النبي صلوات الله عليه على قتالهم وتمت البيعة من أجل ذلك .

والبيعة المذكورة في السورة هي الغرض الأصلي من إنزالها مما ارتضاه الله وأكده وباركه ، ويدل على ذلك حرف التأكيد للاهتمام ، وصيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستحضار حالة المبايعة الجليلة إفادة لاستمرارها رغم وقوعها من قبل .

وأفادت «إنما» حصر الفعل في مفعوله أي : «لا يبايعون إلا الله» ، وهو قصر ادعائي بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله ، فنزل الغرض منزلة الوسيلة .

والآية وإن كان سبب نزولها بيعة الرضوان ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيدخل في مفهومها كل بيعة للإمام الشرعي الذي توفرت فيه شروطها .

وقوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] .

فيه نوع من الاستعارة لأن المتعاهدين إذا كان هناك ثالث يضع يده فوق يديهما ليحفظهما ، فشبه اطلاع الله ومجازاته على فعلهم ، بملك وضع يده على يد أميره ورعيته ، وطوى ذكر المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد وإن كان سبحانه منزها عن الجوارح وصفات الأجسام وإنما يستفاد أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله ويسري نفس المعنى على كل بيعة بين الإمام والرعية .

ومن أجل المحافظة على فعالية البيعة التي هي عقد بين طرفين يجب الوفاء به ، نهى سبحانه عن نقضها بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح : ١٠] .

تأكيدا لشأنها ورفعاً لمنزلتها .

والنكث النقض للجل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ [النحل: ٩٢] .

وغلب النكث في معنى النقض المعنوي لإبطال العهد .

وجاء لفظ «إنما» في الآية ليفيد القصر وهو قصر النكث على مدلول
«على نفسه» ليراد أنه لا يضر بنكثه إلا نفسه ولا يضر الله شيئا .

كما يعتبر الوفاء بالبيعة سببا للجزاء الحسن من الله في قوله تعالى :
﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] .

* * *

طبيعة عقد البيعة

والبيعة عقد حقيقي ، مستوف للشرائط من وجهة النظر القانونية ، وهو مبني على الرضاء ، والغاية منه أن يكون هو المصدر الذي يستمد منه الإمام سلطته ، وهو تعاقد بين الإمام والأمة .

إن الفقهاء المسلمين قد أدركوا جوهر «نظرية روسو» وهي التي تقضي بأن الحاكم أو رئيس الدولة يتولى سلطاته من الأمة نائباً عنها ، نتيجة لتعاقد حر بينهما ، وأنهم عرفوا نظرية «السيادة» كما عبر عنها «روسو» فيما بعد ، وإن كانت نظريتهم احتوت على عنصر زائد خاص بها كما سنرى ، وهذه الملاحظات ذات مغزى تاريخي هام ، فإننا إذا تذكرنا أن هذا المفكر السياسي يعتبر في نظر أهل أوربا «أبا الديمقراطية الحديثة» وإن كتابه «العقد الاجتماعي» كان يعد بمثابة الإنجيل لدى زعماء الثورة الفرنسية ، التي ولد منها العالم الغربي الحديث أدركنا إلى أي حد من الدقة والسمو والأصالة الفكرية ، وصل الفكر الإسلامي في أبحاثه القانونية ، هكذا قبل مجيء «روسو» وأتباعه بقرون عديدة ، وذلك أيضاً مع فارق أساسي وجوهري ، ذلك أن العقد الذي تكلم عنه «روسو» كان مجرد افتراض ؛ لأنه بني على حالة تخيلها في عصور ماضية سحيقة ، ولا يوجد عليها برهان تاريخي ، بينما نظرية العقد الإسلامية تستند إلى ماض تاريخي ثابت هو تجربة الأمة في خلال العصر الذهبي للإسلام ، وهو عصر الخلفاء الراشدين ، يوم كان الأمر كما وصف أمير الشعراء «شوقي» في هذا البيت الخالد :

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

وقد سميت الصورة التي يتم بها التعاقد «بالبیعة» قياساً على ما يتم في العقد الأول النموذجي وهو «البيع» .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : «بايعت رسول الله ﷺ بيدي اليمنى هذه على السمع والطاعة فيما استطعت» .

وللتدليل على هذه الحقائق التي ذكرنا سوف أقوم بمحاولة صياغة القواعد الفقهية الشرعية الخاصة بالبیعة وإفراجها وصبها في قالب قانوني ، وسوف أقتصر فقط على إفراج هذه القواعد الفقهية في صياغة قانونية دون المس بالقواعد الفقهية أو تعديلها وذلك حتى يسهل فهمها واستيعابها مكوناً من كل ذلك النظرية العامة للبیعة في إطار النظرية العامة للعقد في القانون الوضعي طبقاً لما تقضي به القاعدة الفقهية من أن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني .

والأصل في الإنسان حسن النية حتى يثبت العكس ، كما أن الأصل فيه البراءة حتى تثبت إدانته .

والأصل في المسلم أن حاله محمول على السلامة والصلاح حتى يثبت النقيض ، وعليه ألا يقصد الإضرار بالغير لأنه لا ضرر ولا ضرار .

فكل تصرف وكل فعل صادر من الإنسان في ظل الفقه الإسلامي يجب أن يكون مصدر خير ونفع للعباد ، كما أن كل عقد يجب تنفيذه بحسن نية ، فلا يخرج ذلك العقد عن أهدافه ومقاصده التي شرع من أجلها ، فإذا تعلق بالعقد أثناء تنفيذه غش أو تدليس أو أي عنصر من شأنه أن يخرج ذلك العقد عن نوايا الطرفين الحقيقية أو أن يتناقض مع مبدأ حسن النية اعتبر عملاً غير مشروع وضرراً وجبت إزالته .

ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] .

كما يدل على هذا الأصل قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» .

وقوله ﷺ : «من غشنا فليس منا» .

وتؤكد ذلك القاعدة الفقهية : «الأمر بمقاصدها» .



المحاضرة الحادية والأربعون:**الميثاق الإلهي**

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصِرُكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ أَنْصَرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

هذه فقرة خاتمة للآية الثانية والسبعين من سورة الأنفال .

والكلام عليها من ثلاثة أوجه :

أولا : مكان هذه الفقرة ضمن الآية الشريفة التي تشتمل عليها .

ثانيا : وضع الآية الثانية والسبعين من السورة التي تضمنتها وهي سورة الأنفال .

ثالثا : موضوع سورة الأنفال والسورة التي تليها من بين سائر سور القرآن الكريم .

وسأبدأ إذا أذن الله بهذا القسم الثالث قبل أن أخلص للثاني حتى أصل إلى موضوعنا .

تعد سورة الأنفال من السور التي نزلت على النبي ﷺ وهو بالمدينة . وقد نزلت بإجماع المفسرين في معركة بدر وهي تسمى أيضا سورة بدر .

يعتبر حدث الهجرة معلمة من المعالم الكبرى في تاريخ الإسلام . . . وإن الذين اختاروا أن يجعلوا من ذلك الحدث تاريخا لملة الإسلام كانوا -رحمهم الله- يعرفون جيدا ماذا أفادته الهجرة على المجموعة الإسلامية من عطاءات متنوعة .

ميثاق المدينة:

ولابد أن نذكر في صدر أعماله ﷺ بالمدينة، ذلك الميثاق الذي عقده هناك في أعقاب وصوله، وهو ميثاق تعايش وحسن جوار يجمع بين المسلمين واليهود والمشركين والوثنيين كذلك . . .

ويعتبر هذا الميثاق من أنفس العقود الدولية وأمتعتها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة، وأولاها بأن تكون نبراسا للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفهم من أهل الأديان الأخرى .

لقد كان من نصوص تلك المعاهدة :

- ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر .
- ولا ينصر كافرا على مؤمن . . .
- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أديانهم .
- وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .
- وأنه لا يحل للمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة أن ينصر مُخَدِّثًا أي مجرما أو يؤويه . . .
- وأنكم مهما اختلفتم في شيء فمرده إلى الله وإلى محمد .
- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين .
- لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم . . .
- وأن لليهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف .

- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين . . .
- وأن بينهم النصر على من داهم يثرب .

رد فعل قريش:

- كان رد فعل قريش عنيفاً . . .
- كتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول يطلبون إليه إخراج النبي ﷺ من المدينة : «إنكم آويتم صاحبنا وإنا لنقسم بالله لنسيرن إليكم بأجمعنا» .
- يقول التهديد .
- وهنا يمكن أن نتصور تربص كل طرف بالآخر وتعقب كل فريق لأخبار الفريق الآخر .
- وهنا جاء حدث قافلة قريش التي كانت عائدة من رحلة تجارية حيث تقرر اعتراض سبيلها رداً على أعمال مشابهة قامت بها قريش ضد صحابة رسول الله!
- وحدث أن صحابة رسول الله لم يظفروا بالقافلة وأرادوا العودة إلى المدينة ، لكن قريشا دعت إلى النفير العام - كما نقول اليوم - وخرجت مكة بقضها وقضيضها تقصد إلى مواجهة المسلمين .
- «والله -يقول أبو جهل- لا نرجع حتى نرد بدرا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع العرب بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا» .

وهنا كانت معركة بدر في مثل هذا الشهر : رمضان أعطانا الله خيره ، في السنة الثانية للهجرة ، حيث نزلت سورة الأنفال .

سوف لا نتطرق لهذه المعركة الخالدة في تاريخ الإسلام والتي كانت المفتاح الأساسي لظهور الأمة المحمدية ، فإن ما كتب حولها وعنهما كثير ، ليس فقط باللغة العربية ، ولكن بسائر لغات الدنيا ، هناك من تحدث عنها من وجهة النظر العسكرية ، وهناك من درسها من وجهة النظر التربوية ... إلخ .

كل ذلك يغنينا عن تتبع أحداثها ، لكنه من المهم أن لا يفوتنا هنا أن نذكر أن المؤرخين المغاربة شبهوا بها معركة وادي المخازن التي وقعت شمال المغرب والتي لقي فيها مصرعه ملك البرتغال دون سباستيان ... فعلا كانت كهي في حجمها وفي بعدها ...

سورة الأنفال :

فلنتقل إذن إلى سورة الأنفال التي نزلت حول هذه المعركة لتبرك باستعراض آياتها الشريفة :

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال : ١] .
- ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال : ٥] .
- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٧] .
- ﴿سَأُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال : ١٢] .

- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال : ١٥] .
- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] .
- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾
[الأنفال : ٣٠] .
- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال : ٤١] .
- ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٢] .
- ﴿وَلَا تَنْزِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجَاكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٦] .
- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْقٍ وَهُمْ لَا
يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٥٥] .
- ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال : ٥٨] .
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال :
٦٠] .
- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال : ٦١] .
- ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال : ٦٥] .
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَنِكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال : ٦٦] .
- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾
[الأنفال : ٦٧] .

- الآية : (٧٢) ، آية التصنيف : المهاجرون والأنصار والمتخلفون في المدينة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

الصلة القوية بين الأنفال وبراءة : «القرينتان» .

روي عن سيدنا عثمان بن عفان : أن معاني سورة براءة أشبهت معاني سورة الأنفال ، فلذلك قرنت بينهما ولم أكتب بالحروف .
من المقارنات أن هذه نزلت في غزوة تبوك وتلك نزلت في غزوة بدر .

سورة (براءة) :

فلنتبرك بتدبر هذه الآيات :

- ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ١] .
- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة : ٤] .
- ﴿ فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٥] .
- ﴿ وَإِنِ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة : ٦] .
- ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧] .

- ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢].
- ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ١٣].
- ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].
- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].
- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦].
- ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٧].
- من أهم ما فصل فيه النبي ﷺ وهو على أبواب الرحيل : ضبط التاريخ الهجري القمري ^(١) ، كان النسيء منهم أحيانا تحريا للسنة الشمسية ^(٢) .
- ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠].
- ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠].
- ﴿الْمُرْيَأِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [التوبة: ٧٠].

(١) جعل الله تعيين الشهور خاضعا للساء بعد أن كان القلامسة «ج قَلَمَس» يتصرفون في ذلك حسب الحاجة!! .

(٢) من أنواع النسيء عندهم «تزويم» الشهور القمرية على الشمسية ، حتى تسير الأولى مع الثانية على نسق واحد ، وهكذا يجعلون في المحرم وصفر وربيع الثاني والجماديين وشعبان وشوال ، يجعلونها دائما من ٣٠ ، ويجعلون ربيع الأول دائما من ٢٨ ، كما يجعلون رجب ورمضان وذو القعدة من ٣١ ، ويبقى ذو الحجة الذي يجعلونها دائما من ٣٤!! .

- ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].
- ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١].
- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ [التوبة: ١٠٧].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].
- ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].
- ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب
- «هؤلاء متخلفو المدينة بعد أن عرفنا عن متخلفي مكة».
- السورتان كما نرى تحددان في عدد من آياتها العلاقات بين المجتمع الإسلامي وبين المجتمعات الأخرى في آخر عهد الرسول ﷺ.
- ففيهما ما ليس في غيرهما من الأحكام.
- وهما معا تكوينان مادة ثرية في باب التعامل الدولي ما أحرى كليات الحقوق أن تجعلهما في صدر ما تتناوله وهي تعالج القانون الدولي العام.
- والآن مع الآية الثانية والسبعين من سورة الأنفال، قال تعالى:
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢].
- ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].
- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

أسباب النزول:

لقد اقترنت معركة بدر بعدد من النوازل الهامة في التشريع الإسلامي .
نحن نعلم أن قريشا عبأت سائر قواها للمعركة . . . ومن هنا نتصور أن
معظم أشرف قريش ، إما سقطوا صرعى أو وقعوا في الأسر . . .
وفي هؤلاء الأسرى وجدنا شخصيات ممن كانت تجمعهم برسول الله
أصرة قرابة : عمه العباس بن عبد المطلب . . . عبد العزى بن أبي بكر
الصديق «قبل أن يسمى عبد الرحمن» .
كانت قضية افتداء الأسرى من القضايا الدقيقة التي واجهت
الرسول ﷺ .

لقد وردت الإشارة إلى أن حكم هذه الآيات نشأ عن المناقشة التي
وقعت بين العباس بن عبد المطلب حيث أسر ببدر عندما قال : إنه مسلم
وإن المشركين أكرهوه على الخروج إلى بدر!!
ولعل بعض الأسرى غير العباس قد قال ذلك حيث لاحظنا أن بعض
المسلمين أخذوا يعطفون على هؤلاء الذين وقعوا تحت الضغط!!
وفي إفادة أخرى أنه لما أسر العباس بن عبد المطلب يوم بدر أقبل عليه
المسلمون يعيرونه بكفره ووقوفه في صف المشركين!
وقد أغلظ له الإمام علي في القول ، فقال العباس : ما لكم لا تذكرون
إلا مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟
فقال له علي : ألكم محاسن؟ قال العباس : نعم ، إنا نسقي الحاج ونعمر
المسجد الحرام . . !

«فعلا إن مناخ مكة -كما نعلم- يصح أن تعتبر معه وظيفة سقي الحجاج ووظيفة صيانة المسجد من أكد الواجبات . . .» .

لكن النقد اشتد على العباس فإن المؤمنين كانوا يرون -ومعهم الحق- أن الجهاد لا تعدله أية منقبة حتى ولو كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وهذا مصداق الآية الكريمة : ﴿أَجْعَلُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] .

وتحضرني بهذه المناسبة الرسالة الشعرية التي بعث بها عبد الله بن المبارك (ت ١٦١) الذي كان يقاتل الروم في ثغور الشام .

وبعث بها إلى صديق له هو فضيل بن عياض الذي كان متفتيًا بظلال الكعبة ، كتب إليه يقول في هذه الأبيات الجميلة^(١) :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا علمت أنك بالعبادة تلعب!
من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
ريح العبير لكم ونحن عيرنا وهج السنايك والغبار الأطيب!!
﴿أَجْعَلُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ؟ [التوبة: ١٩] .

وملخص كل هذا أن الآية الثانية والسبعين نزلت لتصنف المؤمنين حسب تضحياتهم ، وهي بذلك تُقصي إلى حدٍّ أولئك الذين تخلفوا في مكة عن الهجرة وضبطوا وهم في معركة بدر يقاتلون إلى جنب الآخرين ، وعلى رأس هؤلاء العباس بن عبد المطلب كما سمعنا .

(١) «طبقات الشافعية» : (١ / ٢٨٦) .

وهكذا فهناك :

أولا : المهاجرون الذين ضحوا بأوطانهم .

ثانيا : الأنصار الذين فتحوا صدورهم لأولئك الغرباء .

ثالثا : المؤمنون الذين تخلفوا في مكة .

فالفريق الأول يكون مع الفريق الثاني لحمة واحدة : بعضهم أولياء بعض ، بعضهم يناصر البعض الآخر . . . نوع مما نسميه اليوم بالتكافل الاجتماعي ، فهم على نحو ما آخاهم عليه رسول الله ﷺ ، أما الفريق الثالث فليس في هذه المرتبة ، أي أنه لا ولاية له ولا نصره له من قبل الجماعة الإسلامية حتى يرجع إلى رشده ويهاجر أرض الشرك .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَةٍ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾

[الأنفال: ٧٢] ، فلا يمكن أن يسوي بين المتخلفين وبين المهاجرين .

ويعجبني -هنا- تعبير واضح لابن عطية : عندما قال : إن القصد من الآية ذكر نسب المؤمنين بعضهم من بعض ، إن التعبير بلفظ النسب لا يدع مجالا لفهم شيء غير تصنيف المؤمنين : هذا أول وهذا ثان وهذا ثالث !

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ

وغيرُ صِنَوَانٍ﴾ [الرعد: ٤] .

ومعنى كل هذا أن المهاجرين يأتون في المرتبة الأولى ، وبعدهم الأنصار ثم المؤمنون المتخلفون وهذا ما تجمع عليه الآثار .

وبالرغم من أن حرف الواو في اللغة العربية لا يفيد الترتيب :

واعطف بواو سابقا أو لاحقا في الحكم أو مصاحبا موافقا

بالرغم من ذلك فقد فهم بعضهم من ذكر هؤلاء الفرق مرتبة هكذا أن الواو قد تفيد الترتيب في بعض الأحيان .

وتحضرني هنا نكتة رويت عن الأصمعي تشم ولا تفرك ، فقد وقف على سائل بباب مسجد يحمل على كتفيه رضيعا وهو يقول : «يا من يعامل من قدم ما أخر الله»؟

فواساه الأصمعي ببعض المال وسأله : أي شيء يا ولدي قدمته وقد أخره الله؟! فأجابه السائل : لقد قال الله سبحانه : المال والبنون أي إن التفكير في الحصول على المال يسبق التفكير في الحصول على البنين ... ولكنني عكست فبحثت عن الزوجة قبل أن يكون لي مال وها أنت ترى ما حالي ما ترى!!

والآن إلى خاتمة الآية : ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

تحليل:

السين والتاء ترد للطلب : استغفره ...

﴿أَسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ : وللعذ استطفه ...

وللتأكيد استجاب له ...

﴿فِي الدِّينِ﴾ : أي للدين ... فيه التضمين اللغوي ، إشراب اللفظ معنى لفظ آخر .

وهناك التضمين العروضي :

تضمينهم أن يكون البيت مفتقرا إلى الذي بعده كأنه وصلا

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً
بقيت وفرئاً وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافاً بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوماً من نهاب نفوس!
على أن هناك التضمين البلاغي :

أي أن يُضمن الشاعر كلامه شعراً مشهوراً : مثلاً حازم القرطاجني
الذي عاش في بلاط الناصر الموحدي بمراكش :

لعينك قل إن زرت أفضل مرسل قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل!
وفي طيبة فانزل ولا تغش منزلاً بسقط اللوى بين الدخول فحومل!
نبي هدئ قد قال للشرك نوره ألا أيها الليل الطويل ألا انجل!

الميثاق مفعال من الوثاق وأصله موثق على نحو ما يقال في ميزان ،
وهو أصلاً الحبل الذي يعقل به نحو الحصان ثم استعمل فيما يربط بين
الناس من عهود .

روي أنه بعد نزول صدر الآية «الثانية والسبعين» سأل الزبير رضي الله عنه :
فهل لا ننصرهم إذا طلبوا منا نجدة . . ؟

فكان الجواب في هذه الخاتمة للآية الكريمة .

﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

اللهم إلا في حالة واحدة يمكنكم فيها أن لا تستجيبوا لهم ولا تنصروهم .
وهذه الحالة هي أن تكونوا مرتبطين بمعاهدة سابقة مع الذين اعتدوا
عليهم ، أي على إخوانكم المسلمين ، فهنا ينبغي بل يجب أن تعطوا
الأولوية للاتفاقيات المبرمة ، للمعاهدات المعقودة ، للميثاق وهذا قوله

تعالى : وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ [الأنفال: ٧٢] .

وهكذا تُظهر هذه الآية الجليلة عظمة الميثاق وقداسته في الإسلام . . .
ويظل احترام الميثاق ظاهرة حضارية في الأمم المتقدمة . . .

لنلاحظ أن القرآن الكريم في آية أخرى ينعت الناكثين للعهود بأنهم شر الدواب ، ليسوا فقط دابة من مطلق الدواب ، ولكن شر الدواب :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦] .
عَهَدَتْ مِنْهُمْ لَمَّا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْقَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ

إن تلك الآية بما تحمله من معان كبار جسام جعلت رجال القانون الدولي اليوم يقفون عندها طويلا وطويلا ؛ لأنها فعلا تعتبر القاعدة الأساس لكل الذين يهتمون بمصداقية الالتزامات الدولية .

وقد ختمت هذه الآية بهذا الإنذار الإلهي : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

أي إنه رقيب عليكم في أن لا يحملكم العطف على المسلمين على أن تقاتلوا قوما بينكم وبينهم ميثاق!

وفي هذا التحذير تنويه أي تنويه بشأن الوفاء بالعهد الذي كان وما يزال قمة تتطلع إليها البشرية .

ومن جهة أخرى ينبغي أن نتصور وقع هذا الأمر على بعض العرب وهم في حداثة عهدهم بالإسلام لا يؤمنون إلا بال عشيرة والقبيلة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا!

هؤلاء يسمعون عن أن «الميثاق» في استطاعته أن يكسر شوكة العشيرة والقبيلة ، بل في استطاعته أن يقف في طريق نصرتنا لإخواننا .

هذا مبدأ حضاري نادى به القرآن لأول مرة في تاريخ العرب .

ولقد أجمع المفسرون سواء منهم المتقدمون أو المتأخرون ، وكذلك الذين قاموا بترجمة القرآن إلى مختلف اللغات ، وهؤلاء يعتبرون في نظري مفسرين .

أقول : أجمع الكل على المعنى البين لهذه الآية الكريمة .

لكن الظاهرة الجديرة بالانتباه هي تأثير بعض المفسرين بمحيطهم وبيئتهم الاجتماعية وبمناخهم .

هذا ما كان يطرب الباحث في تلك التفاسير إن كلامهم في بلاد فارس غيره في بلاد الأندلس ، مدارك الطبري غير مستجدات قطب .

الإمام ابن العربي : أبو بكر دفين فاس هذا الرجل العالم السياسي المجاهد تفسيره لهذا المقطع من الآية الشريفة يزيد بعناصر هامة على الآخرين في المشرق ؛ لأنه كان يعيش في الأندلس على حدود قشتالة أو إسبانيا ، كما نسميها اليوم .

القرطبي : نفس الإحساس على ما سنرى .

وعن طريق ابن العربي والقرطبي ، وكلاهما مالكيان ، تمكنا من الوقوف على تعليق الإمام مالك : على تفسير هذه الجملة من الآية الكريمة .

شخصيًا أدركت جيدًا عما كان وراء ملوك المغرب منذ العهد القديم ، وهم يخصصون من ميزانية الدولة مبالغ سخية من المال لافتداء أسرى المسلمين وتخليصهم من ربقة الكفر في كل مكان ، ومن غير تفريق بين أن يكونوا مغاربة أو أتراكا !

إن الإمام مالكا رحمه الله وهو يقول بما يقتضيه منطوق الآية المذكورة من إعطاء الأولوية للميثاق وتفضيله على مناصرة المؤمنين المستنجدين .

أقول : إنه وهو يقر بذلك لم ينس أولئك الذين سماهم «المستضعفين» ممن جعلتهم الظروف تحت قبضة الآخرين الذين يستغلون تشبثنا بالميثاق لينزلوا النقمة بإخواننا!

هنا نرى مالكا يهيب بالحاكم أن لا ينسى أولئك «المستضعفين» وحتى يجمع بين الأمر باحترام الميثاق وبين النظر إلى أولئك المعذبين يطلب إلى أولي الأمر والناس كافة أن يعملوا على افتداء الأسرى بالمال ، وأن لا يتهربوا من مسئوليتهم .

والخلاصة : أن هذه «المستجدات» خفيت على المفسرين من أهل المشرق على ما يظهر من كتاباتهم .

إن الباحثين اليوم في القوانين الدولية شعروا بأهمية المبادئ التي استشعرها الإسلام مما أشرنا إليه .

ومن المهم أن نسمع أن عددًا من كبار العلماء أنشؤا جماعة دولية أطلقوا عليها جماعة الشيبانية (Les chaybanistes) غرضها بحث القوانين الدولية على ضوء الشريعة الإسلامية .

وهذه الجماعة الشيبانية بمن فيها من مسلمين وغير مسلمين قد رفعت شعارات دولية أطلقها الإمام محمد بن الحسن الشيباني في المجال الدولي .

وهم يبحثون الآن في المؤلفات المشابهة ليقفوا على ما جاء به القرآن الكريم من مبادئ خالدة حول الموضوع .

وقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي أمثلة حية تظل القدوة في باب حفظ العهود والمواثيق حتى ولو كانت مجرد «اتفاقيات شفوية» .

ولابد أننا نذكر جيداً ما ورد في معاهدة صلح الحديبية عندما حصل الاتفاق المبدئي على عدد من البنود كان فيها هذا الشرط القاسي :
أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه!

١- التشريفات:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [المتحنة: ٨] ؛ استدل به إسماعيل الهضمي قاضي المالكية في بغداد على قيامه للسفراء المسيحيين ، وقف للسفير ابن صاعو النصراني ، الذي ورد عليه ، وعليها اعتمد أبو الحسن بن القطان في فتواه للخليفة الموحي الناصر عندما وضعت زيارة الفونسو صاحب ليون .

٢- المسؤولية الشخصية:

في باب احترام المسؤولية الشخصية أي لا يؤخذ البريء بما ارتكبه المجرم تجد عدداً من الآيات الشريفة : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] علاوة على الأنعام ، سورة العنكبوت ، سبأ ، الزمر ، المائدة ، الإسراء ، النمل .

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤] .

وهذا ما اعتمدته معاهداتنا في تعاملها مع الدول المتوسطة في «معاهدات الموحدين» مع بيزة وجنوة والبندقية وصقلية وجنوب فرنسا ، كانوا ينصون نصاً على هذا المبدأ بمناسبة أحداث القرصنة في العصور الوسطى .

٣- المعاملة بالمثل:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] ، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] .

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا﴾ [الحجرات: ١٣] .

٤- اختيار السفراء:

والحديث عن السفير المحظوظ والسفير المحروم .

لقد استدل ابن الفراء في كتابه «رسل الملوك» بهذه الآية الكريمة :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] .



المحاضرة الثانية والأربعون:**الذين يظلمهم الله يوم القيامة في ظله**

بالسند الواصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه قال : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا يحيى بن سعيد عن عبد الله قال : حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شأله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» . انتهى من كتاب الصلاة .

تمهيد :

هذا الحديث الشريف الذي يستند إلى ستة من خير رواة الرجال ، والذي يتضمن سبعا من الخصال وفضائل الأعمال والذي تحتفظ بسياقه أكثر الأمهات وأغلب الروايات .

هذا الحديث الشريف حقيق وخليق أن ينعت بأنه من معالم الهداية ومكارم الحضارة ، الحضارة التي تؤمن بسيادة الله ، وتحسن عبادة الله ، وتحسن برقابة الله ، الحضارة التي تعالج شئون الحياة الظاهرة ، وتعترف بسنن الله في أحكامه وشرائعه ، وتنصف الإنسان في مجتمع حياته وتؤمنه على وجوده وحقوقه وعقائده .

فهو حديث حسبك من حديث جمع بين حياة التوحيد والإيمان ، وحياة العدل والإحسان ، وحياة المحبة الصادقة ، محبة الإنسان للإنسان .

وبعد فليس هناك من يجهل أو يحدد من المسلمين أن الشريعة المعصومة تستمد وجودها من وحي الله النازل بالحق والناطق بالحق ، ووحى الله النازل والناطق بالحق هو ما يتلى من كتاب الله العزيز ، وما يملأ من سنة الرسول ﷺ .

فأما كتاب الله العزيز فهو الأصل الأصل والركن الركن ، والإيمان واليقين ، وحجة الله البالغة ، ومعجزة الإسلام الكبرى .

وأما السنة النبوية فهي الأصل الثاني والركن اليماني ، وشريعة الحياة ، وسفينة النجاة ، من أمرها على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، وهي أيضاً بيان للتنزيل ، وتفسير للكتاب كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

والبيان والتفسير في المرتبة الثانية بالإضافة إلى المبين والمفسر فهي أي السنة بمثابة البناء ، وإنما يقوم البناء على أساس قوي صحيح .

ومن أجل هذا قال علماءنا : إن كل ما ورد في السنة المطهرة من معاني الحياة ، وأحكام التكليف ، فله أصل في كتاب الله ﷻ إلا أنه يأتي في الكتاب على وجه الإجمال والتأصيل ، وفي السنة برسم البيان والتفصيل .

واعتباراً بهذا الحكم فإن أصل ما ورد في حديث أبي هريرة هذا من قول الله ﷻ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿١١﴾ وَفَوْكَةٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ [المرسلات : ٤١، ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي

شُغِلَ فَنِكَهُون ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرْبَابِك مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾
[يس: ٥٥، ٥٦]، فأهل التقوى وأصحاب الجنة في ظلال بحكم القرآن .

والسنة الكريمة فصلت ذلك تفصيلاً ، ووضحته توضيحاً ، ولعل هذا الحديث يعتبر من أبرز الأحاديث التي تستورد عناصر الفضل في الأعمال ، وتستعرض جوانب السمو في الكمال ، وتسترعي الانتباه إلى حياة الفضل والعدل ، وترسم الحقائق والمزايا التي تجعل الإنسان إنساناً كاملاً له قيمته المعنوية ومكانته المادية ، كما تجعله قميئاً بالخلافة عن الله في أرضه ، والقيام بأمره وحكمه ، فيصلح الأرض بإيمانه وإحسانه ، ولا يفسدها بظلمه وطغيانه ، ويعمرها بعدله وسداده ولا يقتلها بجهله وعناده .

فالإيمان بقوة الله والنشوء في عبادة الله ، والإخلاص في معاملة الله ، والبكاء من خشية الله ، هي قوام كل حياة طيبة سامية ، والحب في الله والبغض في الله ، وإقامة العدل بين عباد الله ، وعفة النفس وأمانة الضمير هي أساس كل سياسة محكمة ناهضة ، ومن ثم كان العنصر البارز في حياة النهوض والتماسك والتسامح هو التعرف على آفاق العلم والدين ، والتصرف طبق وحي الله ووفق أمره ونهيه ؛ ليوفر الإنسان مكارم الأخلاق ، ومنابع الأرزاق ، وليوجه الأفكار والأنظار إلى حياة العزة والسعادة في عالم الدنيا وفي عالم الآخرة .

وما زالت نشأة الإنسان الأول تذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قد استخلص الإنسان للخلافة ، ثم خلصه من معارضة الملائكة بما علمه من الأسماء كلها وبما أنبأه من دلالات وضعها ، فكان ذلك علة سمو آدم وحكمة الأمر بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، فسجد الملائكة طاعة

وامتثالاً ، وأبى إبليس إعجاباً واستكباراً ، فألبسه الله بلعنته وأياسه من رحمته وكان في حكم الله من الكافرين .

وما فتئت عناية الله تحرس هذا الإنسان الناطق وتقيم وجهه للدين الحنيف ، وتندبه إلى مركز الدعوة والقيادة ، وتحمله أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحثه على العمل والجهاد ، والتأخي والاتحاد ؛ لرد هجمات العدو العنيد ، وتحديات الشيطان المريد .

وكان السر كامن في استكمال عناصر الإنسانية ، والتمسك بحبل العقيدة الإسلامية ، والشعور بحمل التبعة والمسئولية كما تجل ذلك بوضوح في خطاب الله لعبده ورسوله بقوله : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] ، وبقوله : ﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢] ، وبقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .

فهذه المعاني السامية ، أعني الصدع بالحقيقة والاستقامة على الطريقة والتخلق بالأخلاق العظيمة ، هي التي جعلت دعوة النبي محمد ﷺ تنفذ القلوب ، وتسرع إلى الآفاق ، وتحول مجرى التاريخ في أجل غير بعيد ، حتى حار علماء الاجتماع في مغزاها الحقيقي ، وفي معناها التطبيقي .

فكان الإسلام داعياً وهادياً إلى صراط الله الحميد في كل جانب من جوانب الحياة البشرية ، وكان الإسلام نوراً وضياء يهتدي به الناس في الخروج من ظلمات الجهل والضلال ، ومن أزمات الخيرة والإشكال .

وكان الإسلام قادراً على الصعود بالإنسان إلى مقام السمو والكمال ، ومتمكناً من ربط حياته بأسباب القوة والعزة والنصر .

وكان الإسلام قاصداً وهادفاً بأحكامه وتعاليمه إلى شيء واحد ، وإلى غاية واحدة ، هي المحافظة على عزة الإنسان وكرامته ، وعلى أمنه وسلامته .

ولا يتأتى ذلك إلا بتربية النفس الأمانة وتربية الضمير والإرادة؛ لأن سعادة الإنسان تتوقف على فضله وإرادته أكثر مما تتوقف على عقله ومعرفته، ذلك أن العقل، والعقل هو العلم كما يقول إمام الحرمين، إنما يكشف عن وسائل الحياة المادية، وأما استعمال هذه الوسائل في الخير أو الشر، في السلم أو في الحرب، في التعمير أو في التخريب، بالصدق أو الكذب، بالجد أو اللعب، فهذا شيء يتوقف على وجود الإرادة المميزة، التي تكون نتيجة لتربية دينية وتجربة زمنية.

والفضيلة التي مصدرها القلب ومركزها الوحي هي التي يمكن أن تنقذ البشرية مما تتخبط فيه من شقاء وعناء؛ ولذلك كانت رسل الله تترى لإسناد الحق ولإرشاد الخلق كيف يتغلبون على أهواء النفس، وكيف يتخلقون بأخلاق الله، فيجدون القوة في قلوبهم، والمتعة في حياتهم.

وآخر من أعلن عن هذا أبو القاسم رحمه الله حيث قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١).

وأما العقل المادي الذي أفسح الله له المجال في ميدان الاكتشاف والاختراع، وفي محاولة الاطلاع على أحوال الفضاء وأطباق السماء فغير قادر بتاتا أن يوطد حياة العدل والسلام، ولا أن يطهر النفوس من

(١) أخرجه وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٦١٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٩٧٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، به.

وأخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٠٤) بلاغا عن النبي ﷺ. قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٣): «وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وغيره».

الأرجاس والآثام، فهو في أمس الحاجة إلى مساندة الأديان ومساعدة الشرائع؛ حتى لا يزيغ عن الحق ويطنغي، فينسف العالم نسفاً ويدمر الحضارة تدميرًا.

كما نرى الآن أن العالم يأخذه الرعب مما يجري من التسلح النووي المؤدي إلى حرب منكرة، نعوذ باسم الله من فعلها وويلها، ومن شرها وشررها.

وما أحوج الإنسان أن تتساند قواه الثقافية، وقواه الحضارية لخير المجموعة الإنسانية، ولتحقيق الأغراض السلمية، ولسد الثغرات والنوافذ بتلقيح الأفكار والعقول، وباستثمار المناجم والحقول، وذلك ما ينشده الإنسان من أقدم العصور في حياته بصرف النظر عن مميزاته ونزعاته، وعن وجود الارتباط بمختلف عناصره.

وتلك هي الرسالة المفروضة والأمانة المعروضة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

والآن وقد بلغت بنا المسافة إلى هذا الحد من الإحساس والإبساس، فلنعد على بركة الله إلى روض الحديث المتعطر، ولنأخذ بعون الله في دراسة جوانبه على قدر ما نملك من المادة والبضاعة، وما نحمل من القدرة والاستطاعة.

قال شيخ الحديث باتفاق الأمصار أبو عبد الله الذي كتب الحديث باليمين واليسار:

حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله قال :
حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي الله عنه
عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» .

تخريج الحديث :

حديث السبعة ، هذا رواه إمام الأئمة أبو عبد الله مالك بن أنس بن
مالك بن أبي عامر الأصبحي في كتابه «الموطأ» ، ورواه أبو عبد الله
البخاري في كتاب الصلاة ، وفي كتاب الزكاة ، وفي كتاب الرقاق ، وفي
كتاب الحدود ، ورواه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
في كتاب الزكاة بما له من الطرق والوجوه ، ورواه ابن ماجه ، وأبو عيسى
الترمذي ، وأبو عبد الرحمن النسائي في كتاب القضاء ، ورواه الإمام أحمد ،
وأبو يعلى في «مسنديهما» ، ورواه أبو بكر البيهقي في «شعب الإيمان» ،
ورواه سعيد بن منصور من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه بإسناد حسن .

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر رحمه الله تعالى : لم نجد هذا الحديث في
وجه من الوجوه إلا عن أبي هريرة .

ورواه الإمام مالك في «الموطأ» بالتردد عن أبي سعيد أو عن أبي هريرة .

مخالفة النفس :

ومن هنا ندع بحث السند ونتوجه إلى حديث السبعة فتروح بروحه
ونتملى بوحيه ، وهناك نرى أن المحور الذي يدور عليه هو مخالفة النفس ،
ومقاومة الهوى ؛ ذلك أن الشريعة ما جاءت إلا لتقوم الطبيعة ، وتوضح
الطريقة ، كما قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] ، وكما قال تعالى : ﴿وَأَلَّوْ

أَسْتَقِمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴿١٧﴾
[الجن: ١٦، ١٧].

ورتب الاستقاء بالماء على الاستقامة ؛ لأن الماء هو مادة الحياة ، وأداة الحركة كما قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

والسبعة الذين انتظمهم الحديث الشريف ما نالوا ذلك الامتياز إلا بمناصرتهم للحق ، ومعاداتهم للباطل ، والشاب الذي نشأ في عبادة الله لولا كفه لمغريات شبابه ، ورفضه لأمر شيطانه ، ما استطاع أن يفضل العبادة على العادة .

والرجل المعلق قلبه بالمساجد لولا محاربته للنفس الداعية إلى أماكن اللذات ، ومواطن الشهوات ، ما تأتى له أن يعمر مساجد الله ، ولا أن يتعلق قلبه ببيوت الله .

والرجلان المتحابان في الله لولا مقاطعتهما لولائج الشر ، وبطائن السوء ، ما تمت صحبتتهما ولا دامت محبتهما .

والرجل الذي دعتة امرأة ذات منصب وجمال لولا أنه خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى لسقط في هاوية الهوى .

والرجل الذي أخفى صدقته لولا قهره لباطل الهوى لشهر وسمع بما أعطى .

والرجل الذي ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية ربه الأعلى ، إنما أداه إلى ذلك صدق إيمانه ومراقبة ضميره ، وفي ذلك جهاد نفسه وشيطانه .

وإمام الطاعة لولا ارتفاع مستواه - والمعصوم من عصمه الله - لما تمكن من إقامة العدل بين عباد الله لاختلاف الأهواء وتزاحم الآراء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] .

ذكر بعض المؤرخين أن أبا جعفر المنصور العباسي بعث الخشابين إلى مكة وقال لهم : إن رأيتم سفيان بن سعيد الثوري فاصلبوه ؛ لما بلغه عنه من الوشاية والسعاية فجاءوا مكة ونصبوا الخشب وطلبوا سفيان ، وكان سفيان وقت الطلب ممتدًا بين الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة رحم الله الجميع ، فقال له أصحابه : اتق الله يا سفيان ولا تشمت بنا الأعداء فقام وتقدم إلى أستار الكعبة وأخذها بيده ، وقال : والله لا يدخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخل مكة .

وإن لله رجالاً لو أقسموا على الله لأبرهم ، ولو سألوا الله ما سألوا لأعطاهم ، وما ذلك إلا لأنهم جاهدوا نفوسهم وقاوموا أهواءهم . ومخالفة النفس هي التي أقامت هذا المقام ، وأكسبته ذلك المقام ، وهي التي جعلت هؤلاء السبعة في مأمن من شدة الحر يوم القيامة ، بينما الجهنميون وعبيد الأهواء يبلغ منهم الحر كل مبلغ ، وهم من وراء ذلك ينتظرون الدخول إلى سجن الهوى والهوان .

فالله المسئول أن يحول بيننا وبين أهواء نفوسنا ، وأعداء نهوضنا .

سبعة يظلهم الله :

قال ﷺ : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» ليس لهذا العدد مفهوم ، ولا له دلالة على الحصر والتخصيص ، فقد ورد غير ذلك من الخصال التي توجب الظلال مثل التجارة بالصدق ، وإنظار المعسر وإبرائه ، ومثل إعانة الغريم والمجاهد وإظلاله .

وقد جمع بعض الحفاظ الخصال التي توجب الإظلال في مؤلف خاص ، وأضاف إلى هذه السبعة سبعات أخرى ، إلا أنها تختلف في الكيف والقيمة ، وصحة الرواية ، وكان المبرر لذكر عدد السبعة أنها سمعت في حديث واحد ، وجمعت في رواية واحدة ، وكانت من أصح ما أسند في الإظلال بظل الله ؛ فلذلك كان لها هذا الواقع المستحب المستطاب .

وقوله ﷺ : «في ظله» الإضافة للتمييز والتشريف ، ومن قواعد العربية أن المضاف بحسب المضاف إليه في الرفع والضعة .

والظل هو الفيء من فاء يفيء إذا تحول ، ولذلك لا يقال لظل الجنة فيء لأنه دائم لا يتغير ولا يتحول ، كما قال تعالى : ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥] .

وهو نقيض الضح ؛ أي ما تصيبه الشمس ، والظل ظل العرش ، أو ظل الجنة ، أو هو كناية عن كون الإنسان في حفظ الله وكنفه ، كما يقال : فلان في ظل الملك أي في داره وفي حماه .

والذي يظهر أن الظل ظل العرش ؛ اعتمادًا على حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» ، وخير ما يفسر به الحديث ما ورد في بعض روايات الحديث ، واستنادًا إلى أن الكون في ظل

العرش ؛ فإنما يحصل بعد الاستقرار فيها ، وهو إذ ذاك مشترك بين جميع من يدخل إليها ، فلم يبق موضع لنعمة الامتياز ، والسياق قائم على الامتياز والإنعام الخاص .

وأياً ما يكون فالقصد أن هؤلاء السبعة عند زلزلة الساعة وشدة الهول يوم القيامة يكونون في ظل الله آمنين ، فما أسعدهم بذلك ، وما أكرمهم هنالك .

الإمام العادل :

إنما كان أول المظللين بظل الله الإمام العادل ، أي الإمام الأعظم خليفة الرسول ﷺ لمزيد فضله ، ولعموم نفعه ، ولإقامة حكم الله ودينه .

ولأنه كما ورد ظل الله في أرضه ، ففي «جامع الترمذي» : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل»^(١) ، ولعل السر في ذلك أن الخلق عيال الله ، وأن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، وأن أول نفع يقدم لهم إقامة العدل بينهم فلا راحة ولا استقرار ولا عمران ولا ازدهار إلا بإقرار نعمة العدل وتيسير أسبابها وتحقيق معانيها .

فالعدل هو أساس الوجود والنهوض ، وما لا أساس له مهذوم ومنقوض .

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٩) ، وأحمد في «المسند» (٣/ ٢٢ ، ٥٥) ، والبغوي في «مسند ابن الجعد» (٢٠٠٤ ، ٢٠٣٥) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٠٥) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٦٦) من طريق فضيل بن مرزوق ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، مرفوعاً ، بنحوه .

قال الترمذي : «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» .

ويلتحق بالإمام الأعظم كل من ولي أمرًا من أمور المسلمين فعدل فيه ؛
 لحديث الإمام مسلم : «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين
 الرحمن ﷻ وكلنا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما
 ولوا» ، وكل من تولى شأنًا من شئون الأمة فهو بمثابة القطب من
 الرحى ، والقلب من الجسم ، فإذا صلحوا صلح الأمر ، وإذا فسدوا فسد
 الأمر ، ومن ثم حذر الإسلام من تولية السفهاء والضعفاء الذين يحسبون
 في القول ويسيتون في العمل ، بمعنى أنه لا ينبغي أن توكل أمانة الولاية
 إلى غير أهل العلم والدين والرأي فهؤلاء هم الذين يمكن لهم أن يقيموا
 عدلًا اجتماعيًا ، وسلوكًا أخلاقيًا ، بحسن سيرتهم ، ورشد سياستهم ، إذا
 تغلبوا على أهوائهم وشهواتهم ، والخير في طبيعته لا يكون سببًا للشر ، ولا
 طريقًا للفساد .

والعدل في حقيقته لا يعدو أن يكون هو التحري والإخلاص في القول
 والفعل ، وفي تقدير القيم المادية والمعنوية وفي تنفيذ الأحكام القضائية ،
 والتصرفات العمومية داخل نطاق المبدأ والعقيدة الإسلامية .

والعدل حق مشاع فلا فضل فيه لواحد على آخر من الناس ، ولا فرق
 فيه بين الألوان والأديان والأجناس ، ومن ثم وضع الله ميزان العدل في
 الحياة الدنيا كما وضعه في الحياة الأخرى .

قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٨﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٩﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧-٩] ، وطغيان الميزان زيادته ، وإخسار الميزان نقصانه ، والعدل بينهما وهو الوسط : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، أي عدولًا خيارًا ، لا تجورون ولا تحنونون ولا تظلمون .

وكل شيء في الحياة يجري على هذا الميزان الوسط ، ميزان العدل الذي وضعه الله لسياسة عباده ، ولإصلاح حالهم وحياتهم ، فالعيش والإنفاق وسط بين الإسراف والإقتار ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] ، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] ، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] .

والسعي والعمل كذلك وسط بين الإرخاء والإرهاق ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وكما قال ﷺ : «عليكم من العمل ما تطيعون» .

جاءت امرأة إلى بيت عائشة رضي الله عنها فباتت تصلي من الليل ، فأصبحت عائشة رضي الله عنها وهي تشني على المرأة أمام النبي ﷺ فقال لها ﷺ : «مه عليكم من العمل ما تطيعون ، ولن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه» .

والحكم والقضاء كذلك وسط بين الإيغال والإهمال ، فلا يحكم القاضي بفراسته وفطنته من دون أن يستند إلى حجة ظاهرة أو سبب قائم ، ولا يهمل بالمرء الملابس والقرائن العقلية ، بل يعمل وسطاً بين ذلك جاهداً فيما يثبت الحق أولاً ، وفيما يوصله إلى صاحبه ثانياً ، وهكذا يحرص الإسلام في سائر مجالات الحياة على تنفيذ هذا المنهج الحكيم والصراط المستقيم .

وأما الظلم فكلمة تملأ الفم ؛ لأنها تعبر عن فساد الدين وخراب الدنيا ، كما أوحى الله بذلك في قوله : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢] .

وكما حرم الله الظلم على نفسه وعلى عباده ، ففي الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا »^(١) ، ومن جراء ذلك كان الناس يبادرون بفطرتهم إلى مقاومة الظلم وتحطيم أسبابه في نطاق فردي وفي نطاق جماعي .

ولعل أول من سعى إلى ذلك الشعب العربي في الجاهلية قبل الإسلام ، وذلك أن وجوه قريش تعاقدوا على دفع الظلم كيفما كان نوعه وعلى أخذ الحق من الظالم كيفما كان شأنه ، وسمي هذا العقد بحلف الفضول ؛ لأنهم تعاقدوا على أن لا يتركوا فضلاً عند أحد يظلم به أحد إلا أخذوه منه .

وهذا الحلف مشهور في التاريخ ، ولما جاء الإسلام وسئل عنه النبي ﷺ قال : « لو دعيت إليه لأجبت » ، وإنما كان ذلك لأن كراهة الظلم وشناعته مركوزة في طباع الناس جميعاً ، حتى إنهم ليتفوضون من حين لآخر ضد عوامل الظلم مهما تبلغ من القوة ، وتستخدم من الوسائل ، وما ذلك إلا لأن الظلم شيء يعوق عن النهوض والإصلاح والسياسة المدنية تقتضي طرد كل من يعوق عن المصلحة والنهوض .

وأمر الله بالعدل ونهيه عن الظلم أكبر عظة تذكر وحي الفطرة ، وتدفع إلى المقاومة باسم العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] ، صدق الله العظيم .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً ، به مطولاً .

شاب نشأ في عبادة الله :

والخصلة الثانية قوله ﷺ : «شاب نشأ في عبادة الله» ، وفي رواية : «في عبادة ربه» ، ومعنى قوله ﷺ : «نشأ في عبادة الله» أنه ربي وشب على ممارسة الاتصال بروح الله ، وأفنى شبابه ونشاطه في عبادة الله .

والعبادة هي التوجه إلى الله بأي عمل من الأعمال كانت ، من النوع الخاص أو من النوع العام ، أي كانت من العمل القاصر أو من العمل المتعدي ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ؛ أي إلا ليحبوني ويطيعوني فيمتثلوا أمري ويجتنبوا نهبي ، ويتقربوا إلي بأعمالهم الصالحة ، وأفكارهم النافعة .

فالعبادة أعم مما يتوهمه المتوهمون ويتقوله المتقولون ، والعبادة الصحيحة هي التي تتضمن الاتصال بالله في كل لحظة من اللحظات ، وهي التي تثير الإحساس بحق التأخي والتآسي في سبيل الدفاع ، وهي التي تترك وراءها أثراً ظاهراً في تصحيح الأخلاق والأوضاع ، وفي توحيد الغايات والأهداف .

ولقد وقع الناس في خطأ كبير حينما ظنوا أن الدين والعبادة لا صلة لهما بتنظيم شئون الاجتماع ولا أثر لهما في إصلاح الاجتماع ، ومنشأ هذا الخطأ هو بعدهم عن مدرسة القرآن وتلقيهم للعلم عن غير أهله وذويه من الملبسين والمدلسين .

والواقع أن العبادات بمفهومها المتعارف ليست إلا صورة حية ناطقة بما ينبغي أن يكون عليه حال المسلمين من سلوك حميد وعمل سديد ونظام مفيد .

ثم إن وجه الاختصار على ذكر الشباب في الحديث أنه معلم الفتنة والحيرة ومظنة النزوة والشهوة لما معه من قوة الدواعي لمتابعة حياة اللهو واللعب .

فنشأته في العبادة وملازمته للطاعة مما يثير الاندهاش في النفوس ، ومما يدل على تمكن تقوى الإيمان من قلبه .

ولذلك جاء عن عقبة بن عامر الجهني رحمته الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «عجب ربك من شاب ليست له صبوة»^(١) .

والصبوة : هي جهالة الفتوة وسفاهتها ، والتعجب هنا من حسن التعجب منه ، والمراد من ذلك هو رفع قدره ومقامه ومضاعفة أجره وثوابه .

والشباب -كما تعلمون- تناط به في كل عصر من العصور آمال احتمال الرسالة ، وابتداء الحضارة لما يتميز به من الحيوية والنشاط ، ولما يحده من حب التجدد والنهوض ؛ ولذلك تراه يستجيب للدعوات ويقتحم المغامرات .

فهذا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما تلقى دعوته ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس : ٨٣] .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤ / ١٥١) ، والحاثر بن أبي أسامة في «المسند» (١٠٩٩) ، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٣٠٩) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧١) ، وأبو يعلى في «المسند» (١٧٤٩) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٧٦) من طريق ابن لهيعة ، عن أبي عشانة ، عن عقبة بن عامر رحمته الله مرفوعاً ، بنحوه . وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٢٧٠ / ١٠) .

وفي إسناده ابن لهيعة ، وقد خالفه عمرو بن الحارث عند ابن المبارك (٣٤٩) فوقفه على عقبة بن عامر . ورجح وقفه أبو حاتم كما في «علل الرازي» (١٨٤٣) .

وهذا سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه كان أصحابه شبابًا ، ولكنهم قد اكتهلوا في أوقات شبابهم وأغمضوا عن الشر جفون أبصارهم ، وتقبلوا بين أنحاء الحق وأنحاء الصدق ، ورتبوا رتب الكعب في المقام الصعب .

نظر الله إليهم في سواد الليل وصدورهم مثنية على مصاحف القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من آيات الجنة بكى شوقاً إلى نعيمها ، وكلما مر بآية من آيات النار شهق خوفاً من نيرانها .

ونظر الله إليهم في بياض النهار وهم يختلفون إلى ميادين الشهادة ومظان السعادة ، لا يشغلهم جهاد عن جهاد ولا ميعاد عن ميعاد ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

فلا يفوت شباب الإسلام اليوم وهم سند الملهمات والمهمات أن يتمسكوا بوحدة المواقف ، وأن يتسلحوا بقوة المعارف ، وأن يهتدوا بروح اللطائف ؛ ليستطيعوا أن يأتوا بالنتائج المنتظرة ، والمعجزات المبتكرة في فلسطين ومقدساتها المضطهدة .

وفلسطين المنكوبة المغصوبة والمسلوبة والمنهوبة هي مأساة الإسلام اليوم ، فعلى المسلمين أن لا يستمرئوا الطعام وأن لا يستحلوا المنام ، والمسجد الأقصى في أيدي اللئام .

عليهم أن يسيروا في خط واحد ، وأن يجاهدوا في صف واحد ، وأن يعتصموا بكتاب واحد ؛ لنصر الحق بإيمانهم وأيمانهم ، ولرفع راية الجهاد في بلادهم حتى ينصرهم الله : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] .

رجل قلبه معلق بالمساجد:

والخصلة الثالثة في الحديث : قوله ﷺ : «ورجل قلبه معلق بالمساجد» ذكر الرجل هنا لا يخصص ؛ لأنه لقب ولا مفهوم للقب عند جمهرة العلماء .

فالحديث يجري مجرى النصوص العامة التي ترد بلفظ التذكير ، ويراد بها ما يعم الرجال والنساء ، باعتبار أن التكليف يسوي بينهما ، كما في حديث : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» .

أي ذكر أو أنثى ، ولا حاجة بنا إلى زيادة ومسلمة ، ومن ثم قال علماء الأصول : إن جمع الذكور يدخل فيه جمع الإناث ظاهراً ؛ لأن النساء شقائق الرجال ، كما في حديث أبي داود ، ولأن القرآن خاطب الجنسين معاً بقوله : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْذَّاكِرِينَ وَالْذَّاكِرَاتِ أَلَا اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

ولا يفرق بينهما إلا فيما خصته طبيعة التكوين ، وإلا فيما خصه الدليل بالنص كحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن»^(١) .

وتؤكد هذه الخيرية بتغير العادة وتطور المرأة التي أصبح ديدنها التبرج ، وواقعها التغنج .

(١) أخرجه أبو داود (٥٦٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، به . وصححه ابن خزيمة (١٦٨٤) .

والحديث عند البخاري (٩٠٠) ، ومسلم (٤٤٢) عن ابن عمر بدون «وبيوتهن خير لهن» .

وقد أشارت إلى ذلك العربية الصميمة والمسلمة الكريمة أم عبد الله عائشة رضي الله عنها حيث قالت : لو أدرك النبي ﷺ ما أحدثت النساء لمنعهن كما منعت نساء بني إسرائيل .

مع ذلك فلا سبيل إلى منع المرأة من المسجد ، وإنما ترشد إلى ذلك على سبيل الأولوية ، وطريق الأفضلية ؛ لأن القضية الشرطية لا تقتضي الوقوع ولا تستلزم الحصول .

ومعنى قوله ﷺ : «ورجل قلبه معلق بالمساجد» إنه ملازم للمسجد ملازمة القنديل المعلق فيه ، فهو حاضر فيه دوماً بباطنه ، وإن غاب عنه يوماً بظاهره ؛ إذ كلما خرج منه حاول أن يعود إليه ، لما له من الولع بعمارته والعكوف بساحته ، والتلذذ بمناجاته .

فملازمة أداء الصلوات الخمس في المسجد شعيرة من شعائر الله ، وخصلة من الخصال التي تؤهل لمرضاة الله ، والمصلي عاكف في بيت الله ، وقائم بين يدي الله في دعاء الثناء والعبادة ، وفي دعاء المعونة والهداية ، وفي كل الحالين هو داع وذافر .

فما خرجت الصلاة في وقت من الأوقات عن العبودية والدعاء ، سواء قلنا : إن الصلاة حقيقة شرعية منقولة عن المسمى اللغوي ، أو قلنا : إنها مستعملة مجازاً في العبادة الخاصة للعلاقة القائمة بينها وبين المسمى اللغوي ، أو قلنا : إنها باقية على وضعها الأصلي وضم إليها أركان وشرائع من الأقوال والأفعال .

والصلاة كما تعلمون من أهم عوامل التربية النفسية ، والتهذيب الخلقي والإصلاح الاجتماعي ؛ لما تعرب عنه من سلامة الصدر وطهارة

القلب ، ونقاوة الثوب ونظافة الجسم ، ومن أكبر ما يحقق النظام في حياة الاجتماع ؛ لأنها نظام الوقت ، ونظام في الصف ، ونظام في العمل ، ونظام في كيفية الأداء ، فإذا خالف المصلي هذا النظام بطل عمله أو قل ثوابه .

والمسجد مركز دائم للترغيب والترهيب وللتوجيه والتبشير على لسان الخلفاء والخطباء الذين تتزين ببيانهم المنابر ، وتتفتح بمعانيهم الخواطر أذن الله لعباده المؤمنين أن يتوجهوا إليه بالسكينة والوقار ، وأن يعمره بالذكر آناء الليل وأطراف النهار : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

والمسجد روضة من رياض الجنة كما أوضح ذلك قول صاحب السنة رحمته الله : «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل : وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال : حلق الذكر» ، وفي رواية : قال : «هي المساجد» ، فمن دخل جنة الدنيا بإيمان دخل جنة الآخرة بالإحسان ، والإيمان إحسان ، و﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

ومن هذا القبيل قول النبي صلى الله عليه وسلم : «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(١) .

والروضة الشريفة لها أهمية كبيرة في حياة المسلمين ، ولا سيما في موسم الحج ، إلا أنهم يتضايقون في شأنها ، ويتدافعون من أجلها ، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

(١) أخرجه البخاري (١١٩٥) ، ومسلم (١٣٩٠) عن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

رجلان تحابا في الله :

والخصلة الرابعة في الحديث : قوله ﷺ : «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» ، ومعنى قوله ﷺ : «تحابا في الله» أن كلاً منهما أحب الآخر من قلبه ، وأعرب له عن المحبة بلفظه ، ففي حديث : معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : «يا معاذ : إني أحبك فقل : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١) .

وحديث معاذ هذا مسلسل بقول كل راو من رواه : أنا أحبك فقل . ومن شأن التحاب في الله أن يوجب محبة الله للمتحابين فيه ، كما رواه الإمام مالك في «الموطأ» من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتزاورين في ، والمتبازلين في» ، ومحبة الله للعبد هي سعادته في الأولى والآخرة ، وذخيرته التي لا تذهب ولا تنفنى .

ومعنى قوله ﷺ : «اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه» أن كلاً منهما دام على محبة صاحبه ، بحيث لم يطرأ عليها أي طارئ ، ولم يؤثر فيها أي مؤثر حتى فرق الله بينهما بالموت .

فلا بد أن يكون مبدأ المحبة في الله ، ولا بد أن تدوم إلى غاية لقاء الله ، وخير العمل عند الله ما كان دائماً ومستمراً ، ومحبة الله تدوم وتتصل .

(١) أخرجه أبوداود (١٥٢٢) ، والنسائي في «الكبرى» (١٢٢٦) ، وأحمد في «المسند» (٥/

٢٤٤ ، ٢٤٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

وصححه ابن خزيمة (٧٥١) ، وابن حبان في «الصحيح» (٢٠٢٠ ، ٢٠٢١) ، والحاكم في «المستدرک» (١/٢٧٣) .

وعلى العكس من ذلك محبة الأغراض والأعراض ، فإنها لا تلبث أن تنقلب عداوة وبغضاء ؛ ولذلك ينبغي أن تكون المحبة والبغضة وسطاً لا إفراط فيها ؛ إذ ربما ينقلب الحب بغضاً ، والبغض حباً .

والقلوب تتقلب والظروف تتغير ، ولذلك كان ﷺ يدعو بقوله : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١) .

ثم إن المحبة أنواع ؛ محبة الله ، ومحبة ما يحبه الله ، وهاتان المحبتان هما أساس الإيمان والإسلام : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

ولقد أقسم النبي ﷺ : أنه لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين .

فكيف بمحبة الله رب العالمين ، والمحبة في الله والله ، وهاتان من لوازم محبة ما يحبه الله .

فالمحبة لا تستقيم إلا إذا كانت مركزة على محبة الله ، ومن هذا النمط محبة المسلمين بعضهم لبعض ؛ ليتم اجتماعهم ، ويزول انقسامهم ، وقد قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» يعني ويكره له ما يكره لنفسه .

ويمكن أن يراد بالأخوة هنا الأخوة الإسلامية ؛ يعني الأخوة الخاصة .

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣) ، وأحمد في «المسند» (٣ / ١١٢) ، وأبو يعلى في «المسند» (٣٦٨٧) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، به . قال الترمذي : «هذا حديث حسن» . وصححه الحاكم في «المستدرک» (١ / ٥٢٦) ، والضياء في «المختارة» (٦ / ٢٢١) .

ويمكن أن يراد بالأخوة الأخوة الإنسانية ، أي الأخوة العامة ، حتى إن الكافر تحب له أن يؤمن وأن يسلم ، وتكره له البقاء في ضلال الشك والكفر .

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية ، فكل من أحب شيئاً مع الله لا في الله ولا لله ، فقد اتخذ ندّاً من دون الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

وأما المحبة الطبيعية كمحبة الولد والزوج والمال ، فلا يلام صاحبها ولا يعاب ، إلا إذا ألهت عن ذكر الله ، وصرفت عن أداء الواجب بحكم الله ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] .

رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال :

والخصلة الخامسة في الحديث : قوله ﷺ : «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» ، وكذلك امرأة دعاها ذو منصب وجمال ، فقالت : إني أخاف الله .

والمنصب الأصل والشرف والجاه والمال والجمال ، واقتصر الحديث على ذكر الجمال لأنه هو نصيب المرأة الأكبر ، وقد وصفت هذه المرأة بكل عناصر الفتنة ، وبجميع دواعي الشهوة ، وقل من يملك ذلك من النساء ، وقل من يصبر على ذلك من الرجال ، لاسيما وقد أغنت بدعوتها عن مشاق الوصول إليها ؛ سواء كانت هذه الدعوة بقصد النكاح أو بقصد السفاح ؛ إذ لا يأمن الإنسان من فتنها وعدم القدرة على نفقتها .

وأياً ما يكون فالتخلي عن مثل ذلك من أسمى المراتب وأعلى المناصب ، ومن ثم كان الجزاء عظيماً ؛ لأن البلاء كان جسيماً .

وقول الرجل أو المرأة في هذا المقام إني أخاف الله جواب يخلقه الإيمان ويصنعه الإحسان ؛ أي ملاحظة الله ومراقبته ؛ إذ لا يصدر ذلك إلا عن متانة التقوى ، وشدة الحياء من الله ﷻ ، وكذلك يفعل الإيمان بأصحابه إذا خالطت بشاشته القلوب ، وانشرت من بشائره الصدور .

وسواء علينا أكان هذا الجواب بالقلب أم باللسان ، على سبيل العذر أو على سبيل النكر ، فهو جواب حاسم ينبئ عن سمو المرتبة وكمال الإنسانية . وإنما كان هذا الموقف سامياً ورائعاً ؛ لأن شهوة المعصية من طينة الإنسان ، وطبيعة تكوينه ، و«الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» .

ولو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس وما أنظره إلى يوم القيامة ؛ ولذلك قال ﷺ : «لو لم تذنبا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم»^(١) .

ومن سر العبودية أن يعلم الإنسان أن له إلهاً يرجع إليه عندما تشتد أزمته ، وتعظم زلته فيقبله ويرحمه ، كما قال الله تعالى : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وكما قال الله تعالى في الحديث القدسي : «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(٢) .

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

وهذا لا ينافي أن حكمة الله اقتضت أن يجاهد الإنسان نفسه ، وأن يكافح هواه ، وأن يضع الحدود والزواجر للتقليل من مادة الزيف والفساد في الأرض لا للقضاء الكلي على ما هو من صميم الطبيعة .

والقلة في اللغة والشرع لها حكم العدم ، والطبيعة تقوم بالوحي ولا تقاوم ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا من معصية الله ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه .

رجل تصدق بصدقة فأخفاها :

والخصلة السادسة في الحديث : قوله ﷺ : «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» .

أصل هذه القطعة في الحديث قوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

ووقع في «صحيح مسلم» هذا الحديث : «لا تعلم يمينه ما تنفق شماله» ، وهو حديث مقلوب ؛ لأن المعهود في العطايا أن تكون باليمين لا بالشمال ، وقد ترجم على ذلك الإمام البخاري في كتاب الزكاة بقوله : باب الصدقة باليمين .

والحديث المقلوب سنده أو متنه نوع من أنواع علوم الحديث ولا تعرف هنا جهة القلب بالضبط من الراوي ، إلا أنه جاء على المعهود في أكثر الروايات .

والحديث إما من مجاز التشبيه بمعنى أن شماله القريبة من يمينه لو كانت تعلم لما علمت ما فعلت صاحبته ، وإما من مجاز الحذف بمعنى أن من كان على شماله لا يعلم ما تنفق يمينه .

وأياً ما يكون فالحديث مبالغة في طلب إخفاء الصدقة ، وعدم التسميع بها إلا لمقتدى به كالإمام فله أن يظهرها لمصلحة يراها ويتحررها ، و«الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» .

والصدقة في الحديث تشمل القليل والكثير ، والمفروضة وغير المفروضة ، إلا أن هناك ما يدل على إظهار الفريضة خير من إخفائها ؛ لأنها شعيرة عامة ، والشعائر العامة ينبغي إعلانها ليعلمها من لا يعلم ، وليعمل بها من لا يعمل ، وما سوى ذلك من نوافل الخير يطلب فيه الستر والإخفاء ؛ لأنه من باب الأرباح ، ومن عادة الناس كتم أرباحهم حتى لا يحسدوا عليها ، وحتى لا يتعرضوا لداء السمعة من أجلها .

والصدقة حق الضعيف على القوي ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] ، فلا ينبغي للغني أن يظهر بمظهر التفضل والامتنان على أخيه الفقير ، ومن ثم كانت الصدقة الممنونة باطلة لا ثواب لها ؛ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

وقد ألم أبو الطيب بهذه الشعيرة في قوله :

إذا المرء لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

ومن حكم الرسول ﷺ في هذا الباب قوله : «داووا مرضاكم بالصدقة»^(١) أي ضعفاءكم ، وقوله ﷺ : «الصدقة تطفئ الخطيئة كما

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠١٩٦) ، وفي «الأوسط» (١٩٦٣) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٤ / ٢) ، (٢٣٧ / ٤) ، والبيهقي في «الكبرى» (٣ / ٣٨٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، بنحوه .

يطفئ الماء النار»^(١)، وقوله ﷺ: «من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة»^(٢)، وقوله ﷺ: «المكثرون هم المقلون يوم القيامة إلا من آتاه مالا فنفع فيه يمينه وشماله وعمل به خيرا»^(٣)، وقوله ﷺ: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار»^(٤) وما يغنيه هو ما يغديه ويعشيه، وليس المتعلق كالمثائق، كما يقول المثل العربي.

رجل ذكر الله خالياً:

والخصلة السابعة في الحديث: قوله ﷺ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». أي فاضت الدموع من عينه، وإسناد الفيض إلى العين مبالغة، والمبالغة من البلاغة، والمراد بذلك كثرة البكاء من خشية الله تعالى.

وأخرجه أبو داود في «المراسيل» (١٠٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨١٦) عن الحسن مرسلاً. ورجحه المنذري في «الترغيب والترهيب» (١١١٢). وانظر «كشف الخفا» (١١٤٨).

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في «المسند» (٢ / ٢٤٨) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً، به مطولاً. قال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه ابن حبان (٢١٤)، والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٤١٢، ٤١٣). وانظر «علل الدارقطني» (٦ / ٧٨).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (٢٥٧٣) «عزاه بعضهم لأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً لكن قال السخاوي: هو مختلق على الإمام أحمد، وأقول: المشهور على الألسنة «استرجاه» بدل: «ارتجاه». وانظر «المستطرف» (٢ / ٢٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٣)، ومسلم (٩٤) عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً، به مطولاً.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩)، وأحمد في «المسند» (٤ / ١٨٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٧ / ٢٧) عن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه مرفوعاً، به مطولاً. وصححه ابن خزيمة (٢٣٩١)، وابن حبان (٣٣٩٤).

وقوله ﷺ: «ذكر الله» أي بقلبه ولسانه ، وقوله ﷺ: «خالياً» أي بعيداً من خلطاء السوء ، وبعيداً من حب الدنيا وإيثارها على الأخرى .

وهذه القطعة من الحديث تجمع عناصر العبودية الأساسية لتربية النفس وإصلاح القلب ، وهي ذكر الله ومراقبة الله والزهد فيما يشغل عن ذكر الله .

أما ذكر الله فرياضة روحية وعبادة قدسية ، ونهضة أدبية وسعادة أبدية .

وأفضل الذكر : لا إله إلا الله ، وتلاوة كتاب الله ، وأكبر الذكر إقامة

الصلاة وملازمة الطاعة : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] .

وفي «الصحيح» : «سبق المفردون ، قيل : يا رسول الله وما المفردون؟

قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» .

و«المفردون» من أفردوا أنفسهم عن الناس حتى لا يشغلهم شاغل ، فإذا ذكرت فاذكر الله ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم علم اليقين أن لا إله إلا الله ، وإذا ذكرت الله في نفسك ذكرك الله في نفسه ، وإذا ذكرت الله في ملاء ذكرك الله في ملاء خير من ملئك ، وإذا شكرت الله شكرك ، وتقبل عملك ، كما قال الله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] .

وفي «الموطأ» : «أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كان يقول :

لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، والقلب القاسي بعيد من الله ، ولا تنظروا إلى عيوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا إلى عيوبكم كأنكم عبيد» .

وقد كان ﷺ يذكر الله في سائر أحيانه ، وعلى جميع أحواله ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويهاجرون إلى مجالس العلم والذكر بقلوبهم .
والهجرة إلى ذلك هجرة إلى الله ورسوله .

وأما مراقبة الله فقد عبر عنها الحديث الشريف بنتيجتها : «ففاضت عيناه» ؛ أي كثر بكاءه من خشية الله ، ومن أجل مراقبة الله ، فكثرة البكاء هي نتيجة خشية الله ، ونتيجة مراقبة الله تعالى .

والبكاء إما خوف وخشية ، وإما بكاء عطف ورحمة ، وإما بكاء إجلال ومحبة ، وقد بكى ﷺ رحمة عند موت بعض أبنائه ، وموت بعض أصحابه ، وبكى ﷺ محبة في صلاته ونسكه ، فقد كان يسمع لصدره أزيز كالزير القدر وبكى ﷺ شفقته على أمته من هول مشاهد يوم القيامة ، وذلك عندما قرأ عليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سورة «النساء» وانتهى إلى قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٤١] ، عند ذلك بكى ﷺ .

وأما الزهد فالمراد به عدم محبة الدنيا وعدم إثثار حياتها على الأخرى ، لا كراهة الدنيا والهروب منها ، وهو بهذا المعنى لا يتنافى مع وجود المال ولا مع العمل لإيجاد المال .

والناس ما خلقوا في هذه الحياة الدنيا إلا ليعيشوا فيها فقد جاء الإسلام بعمارة الدنيا لا بخرابها .

نعم جاء بعدم تعمير القلب بها تعميرًا يشغل المسلم عن ذكر خالقه ويصرفه عن وضع المال في مواضعه .

ولقد أمر الإسلام أن تَجِدَ وتجتهد حتى تملأ يدك من الدنيا ، ولكن تترك قلبك خالصاً لله وتنفق من مالك في سبيل الله ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتاجرون في الأسواق ، ويعملون في الحقول ، وهم من الزهد والاستقامة بمكان .

وأما العزلة والخلوة فأصلها أن النبي ﷺ كان يخلو بغار حراء فيتحنث أي يتعبد الليالي ذوات العدد ، ورسول الله ﷺ أعرف بمعنى العزلة وما يدفع إليها ، وما ينبغي أصحابها من استجماع واستجمام عندما تموج المجتمعات البشرية بالفتنة والضجيج والوثنية .

وفي «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها سعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن» .

ولذلك لجأ النبي ﷺ إلى غار حراء مولياً وجهه عن الجاهلية التي غمرت الدنيا بالشرك والإثم حتى إذا ما طلع فجر الوحي عاد إلى الحياة يحمل رسالة النور .

ومن قبل قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لقومه المشغوفين بعبادة الأصنام : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] ، فالعزلة قد تكون انسحاباً من الميدان وقد تكون استعداداً لمنازلة الطغيان .

ولذلك اختلفت السنن في تقديرها والحكم على أمرها ، إلا أن اتجاه الإسلام في شرح مراتب الكمال ، لا يوافق ما عرف عن أصحاب الأديان الأولى من الترهيب في الصوامع والانقطاع في الأديرة إلى غاية الموت .

بل يرسم طريقًا يكلف السير في الرمضاء ، ويوجب الجهاد في سبيل
الفداء ، فالناس أي المسلمون في نظر الإسلام فرسان لا رهبان ، ولا
رهبانية في الإسلام ، ورهبانية الإسلام الجهاد : «لِمَقَامِ أَحَدِكُمْ فِي الصَّفِّ
خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ سِتِينَ سَنَةً» ، والله تعالى يقول : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ
هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠] ، وأهل الشر والفساد لا يتضايقون من الذين
يتقربون إلى الله بالفرار من الدنيا ، وإنما يتضايقون من الذين يتقربون إلى
الله بالهجوم على الدنيا لمقاومة من يفسد في جنباتها ، ولإعلاء كلمة الله في
أرجائها : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] .

المحاضرة الثالثة والأربعون:

حماية الحقوق في الشريعة الإسلامية

قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

إن من أهم جوانب الرسالة الخالدة للشريعة الإسلامية التكفل بحماية الحقوق لأصحابها، وتقرير الحق بصورة واضحة بحيث لا يكون وجوده محل شك أو جدل يذهب باستقراره، ثم حمايته واحترامه من الناس أجمعين، وتقرير الجزاء الملائم لمن يعتدي عليه أو ينتقص منه.

والحق في الفقه الإسلامي ذو معنى شامل يدخل فيه معنى الحرية، فتكون الحرية العامة نوعاً من الحقوق، فإذا ما ورد في الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي كلمة الحق، فقد تعني حقاً مالياً، أو حقاً للدولة، أو حقاً شخصياً، أو حرية من الحريات بحسب ما يدل عليها معناها في كل مقام.

والحق في اللغة يدل على الملك والمال، والأمر الموجود الثابت، ولم يعرف الفقهاء المسلمون الحق بمعناه الاصطلاحي، ومن عرفه منهم لم يخرج عن المعنى اللغوي.

وقد تناول علماء الأصول تقسيم الحق في باب المحكوم فيه حين تعرضوا لفعل المكلف الذي يتعلق به خطاب الشارع، وقسموه إلى قسمين رئيسيين:

أولاً: حق الله تعالى أو الحق العام الخالص، ويدخل تحته العقوبات والكفارات وسائر العبادات، وإضافة هذا الحق له سبحانه لعظيم خطره وشمول نفعه.

ثانيا : حق العبد وهو ما له مصلحة خاصة ، ويشمل حقوق الأفراد المالية أو المتعلقة بالمال .

ويلاحظ أن دائرة حقوق الله تعالى في الفقه الإسلامي واسعة تتلاقى مع دائرة القانون العام ، بينما يدخل حق العبد في دائرة القانون الخاص .

وتقرير الحقوق والواجبات في الإسلام مصدره الله ﷻ الذي هو الحق المبين ، وتشريعه هو العدل المطلق الذي لا يجابى ولا يتحامل ، والإيمان بالله خير ضمان لحقوق الإنسان من حيث تقريرها ، ومن حيث إنفاذها وتدعيمها ، والنضال من أجلها ، ويقسم فقهاء القانون الحقوق إلى قسمين رئيسيين :

حقوق مالية : وهي الحقوق التي يبدو عليها التعامل بالمال بين الناس ، فتباع وتشرى وتقدر بالمال ، وتقدر الحقوق الشخصية والحقوق العينية .

وحقوق غير مالية : وهي الحقوق التي لا يبدو عليها التعامل بالمال ، وهي حقوق لا تباع ولا تشرى ، هي حقوق لا تقدر ولا تقوّم بمال ، لا شيء إلا لأنها أسمى وأعلى وأعز من أن تقدر بالمال أو الثمن .

وتشمل الحقوق السياسية والحريات العامة وحقوق الأسرة .

لقد خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض ؛ ينفذ أحكامه ويطبق شرائعه ، وكلفه بالسعي فيها وعمارتها ، ومنحه العقل الذي يدرك به بعض أسرارهِ في كونه إذا أطال النظر وأمعن التفكير وسخر له كثيراً من مخلوقاته .

ومن استقاء الأحكام الشرعية في المجالات المتعددة يتضح أن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في تنظيم الخلق .

وهذه المقاصد كما فصلها الإمام «الشاطبي» لا تعدو ثلاثة أقسام :
ضرورية ، وحاجية ، وتحسينية .

وفي دائرة هذه المقاصد تروج حقوق الإنسان ، وقد لاح لواؤها وبزغت معالمها .

وبالرغم مما تضمنه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية اللاحقة له ، فإن دين الإسلام كان الأسبق في إعلان تلك الحقوق بمفاهيمها الكاملة وضماناتها الشاملة في أحسن صورة وأتم بيان .

وكان الأسبق في ربط الحقوق والحريات العامة بوظيفتها الاجتماعية ؛ إذ أناط بهذه الحريات تحقيق المصلحة العامة ، وابتغاء وجه الباري سبحانه .

ومهما سمّا العقل البشري في هذا المجال فهو عاجز وقاصر عما أرشد إليه القرآن من أصول ومبادئ خالدة على مر الزمن .

ويعتبر النهج الإسلامي في حد ذاته ثورة شاملة على جميع الأوضاع الفاسدة المزرية التي بلغتها الإنسانية في عهود مظلمة سابقة ، حيث أهدرت فيها حقوق الفرد وامتهنت كرامته ، وكان الإسلام حامياً شخصية الإنسان بشقيها المادي والروحي ؛ ضماناً لعدم التفكك الاجتماعي والانحلال الخلقي ؛ موازناً بين مصلحة الفرد في صيانة حقوقه الأساسية ، ومصلحة الجماعة في التجريم والعقاب .

فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية موجهة للناس كافة ، وتقوم على الكرامة والحرية والعدل والمساواة .

وفي إطار من هذه الشمولية كفل الإسلام للإنسان الحق في الحياة والكرامة والعدل والمساواة وحق العمل والأمان وحق الهجرة ، كما كفل

للإنسان حرية العقيدة والتفكير ، والضمير والرأي والمسكن والتنقل وغير ذلك من الحقوق الأساسية .

وكان كتاب الله الميزان الأعلى والمعيار الأسمى والمعين الذي لا ينضب ، والسلسيل الذي لا يغور ولا يذهب ، والنبراس المنير الوهاج حين يعم الظلام وتلتطم الأمواج .

تكريم الله للإنسان :

وإن أول سورة نزلت من سوره كانت تحمل من معاني التكريم الإنساني والاهتمام بشأنه وتلمح إلى آثار تكريم الله سبحانه لهذا الإنسان ؛ إذ بمحض الكرم وجد ، وبخالص الجود والعطاء اهتدى ورشد .

كما تشير هذه السورة التي بدأت بها الرسالة المحمدية إلى سبق العناية الإلهية بهذا الإنسان على سائر المخلوقات فجعله مهذباً ، له قابلية للعلم والفهم ؛ قال تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

وصرح الخالق العظيم سبحانه بهذا التكريم فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وهذه الآية من سورة الإسراء المكية ، والقرآن المكي يتعلق في أغلبيته بتقرير العقيدة الإسلامية في النفوس ، والدفاع عن الرسالة المحمدية والعناية بأمور البعث والآخرة ، وله تعلق آخر وهو المبادئ الأخلاقية والإنسانية .

ومحل هذه الآية بين ما سبق وما لحق من آيات في نفس الموضع يدل على أن تسخير هذا الكون من الله سبحانه للإنسان من بحر وبر مع تكريم الله له ، يجب أن يقترن بطاعته والاعتراف بوحدانيته ليكون مهتدياً في الدنيا والآخرة ، كما تحمل الآية نوعاً من التقريب في تقدير النعمة وشكرها ، وجاء هذا الترغيب بين ترهييبين .

وهذا ما قرره الإمام أبو إسحاق الشاطبي في «الموافقات» بقوله : إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه ، وبالعكس ، وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله .
ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار ، وبالعكس ؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية ، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً ، فهو راجع إلى الترجية والتخويف .

ومن الآيات القرآنية الدالة في نفس المعنى على تكريم الله تعالى للإنسان وما أكثرها ، قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] . ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ١٠٠ ﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ ١٠١ ﴾ قَالَ يَتَقَادُمُ أَنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿ ١٠٢ ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿ ١٠٣ ﴾ وَءَاتٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤] ،

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣] ، ﴿وَالَّتَيْنِ
وَالزَّيْتُونَ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ [التين: ١-٤] ، ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ
مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢] .

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا
تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع
بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله
ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات ،
بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم
حرام : دمه وماله وعرضه » .

وقال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم : « سباب المسلم فسوق وقتاله
كفر » ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ .
قال القرطبي : ﴿كَرَّمْنَا﴾ تضعيف كَرَّمَ أي جعلنا لهم كرماً ، أي شرفاً
وفضلاً ، وهذا كرم نفى النقصان لا كرم المال ، والمراد ببني آدم جميع
النوع ، فليس هناك تخصيص ولا تقييد .

بما يكون تكريم الإنسان؟

وقال عبد الرحمن بن الجوزي في «زاد المسير» : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾
أي فضلناهم .

قال أبو عبيدة : وللمفسرين فيما فضلوا به أحد عشر قولاً :
أحدها : أنهم فُضِّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة : جبريل ،
وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وأشباههم . قاله أبو صالح عن ابن
عباس ، فعلى هذا يكون المراد المؤمن منهم ، ويكون تفضيلهم بالإيمان .

الثاني : أن سائر الحيوان يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس .

وقال بعض المفسرين : المراد بهذا التفضيل أكلهم بأيديهم ونظافة ما يقتاتونه ؛ إذ الجن يقتاتون العظم والروث .

والثالث : فضلوا بالعقل ؛ روي عن ابن عباس .

والرابع : بالنطق والتمييز ، قاله الضحاك .

والخامس : بتعديل القامة وامتدادها ، قاله عطاء .

والسادس : بأن جعل سيدنا محمدًا ﷺ منهم ، قاله محمد بن كعب .

والسابع : فضلوا بالمطاعم واللذات في الدنيا ، قاله زيد بن أسلم .

والثامن : بحسن الصورة ، قاله يمان .

والتاسع : بتسليطهم على غيرهم من الخلق وتسخير سائر الخلق لهم ، قاله محمد بن جرير .

والعاشر : بالأمر والنهي ، ذكره الماوردي .

والحادي عشر : بأن جعلت اللحي للرجال ، والذوائب للنساء ، ذكره الثعلبي .

وهذا ما لخصه عبد الله بن أحمد النسفي في «تفسيره» حيث ذكر أن متعلق التكريم بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والاستيلاء وتسخير الأشياء ، وتناول الطعام بالأيدي .

ورجح أكثر المفسرين القدامى والمحدثين ، منهم الفخر الرازي ، والقرطبي والألوسي ، والشيخ الطاهر بن عاشور : أن مناط التكريم هو العقل .

قال القرطبي : والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب .

فمثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء ، وما ذكره المفسرون متعلقات التفضيل ، فهو على سبيل المثال لا الحصر ، وهذا ما أكدته الألويسي في تفسيره عند هذه الآية ، وإنما يعتبر العقل في أعلى مزية للتفضيل .

قال سيد قطب في «الظلال» : وقد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه ، كرمه بخلقته على تلك الهيئة بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان ، وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل وينتج فيها وينشئ ويركب فيها ويحلل ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوة الكامنة في الأرض وإمداده بعون القوة في الكوكب والأفلاك ، وكرّمه بذلك الاستقرار الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ، ويعيد فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان ، وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض ، القرآن .

وإن أكبر تكريم للإنسان هو تمتعه بنعمة العلم دون سائر المخلوقات ، وقد كانت هذه الآية ، وبخاصة عبارة : ﴿مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مثار جدل بين علماء المسلمين .

إذ استدل المعتزلة بجانب أدلة أخرى على مذهبهم في تفضيل الملائكة على البشر ؛ لأن الآية تصرح بأن التفضيل على كثير ولم يكن على كل من خلق الله .

وقد رد أهل السنة برودود تؤيد مذهبهم من تفضيل البشر على الملائكة ، وللфخر الرازي هنا لفظة لطيفة ذكرها في قوله : قال في أول الآية : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ، وقال في آخرها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ .

ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل ، وإلا لزم التكرار ، والأقرب أن يقال : إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمرور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة .

ثم إنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحية والأخلاق الفاضلة ، فالأول هو التكريم ، والثاني هو التفضيل .

هذا الإنسان بخلقته وفطرته وطاقاته وقدراته كرمه الله في السماء بذكره في الملأ الأعلى والنفخ فيه من روحه وإسجاد الملائكة المقربين له ، فلا عجب أن يكرم الله الإنسان في الأرض بما وهبه من عقل وإرادة ونطق وما سخر له في هذا الكون من طاقات وما أنزل إليه بهدايته وكتبه وإرسال رسله .

وبعد فتلک لمحات وإشارات مستوحاة من أشرف خطاب وأعظم كتاب لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفذ معانيه ، فإن من أشق التبعات على الباحث أن يتعرف على مراد الله تعالى من محكم كلامه ، وأن يقول الكلمة الفاصلة أو القريب منها أو الشبيهة بها في معنى من معانيه .

مظاهر حماية حقوق الإنسان في الإسلام:

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة نتناول مظاهر حماية حقوق الإنسان في الإسلام وهي على سبيل المثال لا الحصر ، موردين ذلك في شكل ملاحظات ، متبعين الحقوق المتعلقة به عبر مختلف أطوار حياته منذ ولادته وخير حياته إلى مرحلة وفاته ، وذلك على وجه الإجمال .

١ - لكي يوجد الحق لابد أن تتوفر له مقومات وجوده ، وهي الدعائم الأساسية التي يرسى عليها ، وهذه الدعائم والأسس هي :

أولاً : الشخص الذي ثبت له تلك السلطة وهذا هو صاحب الحق .

ثانياً : العمل أو الشيء الذي تتمثل فيه تلك السلطة وهذا هو محل الموضوع الحق .

ثالثاً : الحماية القانونية التي ترفع هذه القدرة على العمل إلى مرتبة الحق ، والإنسان يتميز بأن الشخصية تضافي عليها بطبيعة الأمور ذاتها ، فهي تثبت له لمجرد كونه إنساناً .

حقوق الإنسان من قبل الولادة وبعد الوفاة:

ويبدأ وجود الإنسان بولادته حيًا ، وتبدأ بالميلاد أيضًا شخصيته القولية ، ويزول هذا الوجود بالوفاة ، ولذلك تنقضي أيضًا حيثُ هذه الشخصية .

وإذا كانت القوانين الغربية تشترط لبدء شخصية الإنسان أن يولد حيًا ، وأن يكون قابلاً للحياة ، فإن الشريعة الإسلامية تكتفي بأن ينفصل الشخص حيًا ليكون طرفًا في الحق ، أي أنها لا تفرض الشرط الثاني الذي يقضي بأنه يجب أن يكون قابلاً للحياة ، ومن هذا يتضح أنه يشترط لكي تبدأ شخصية الإنسان شرطان :

الأول : أن تتم ولادته حقيقة .

والثاني : أن تتحقق حياته بالولادة ، ولو بلحظة قصيرة بما يدل عليها
من علامات ظاهرة كالبكاء والصراخ والشهيق والحركة والرضاع .

فموت المولود بعد لحظة قصيرة من الحياة لا يؤدي إلى حرمانه من
اكتساب هذه الشخصية ، بل يؤدي إلى انقضائها بعد أن ثبتت له ولأجل
ذلك .

والشخصية تثبت للإنسان بمجرد ولادته حيًا ، ولو كان بطبيعته غير
قابل للحياة ، ويترتب على هذا أن الشخصية لا تثبت للجنين أو الحمل
المستكين في بطن أمه ، وهذه النتيجة لا تثبت له الشخصية الكاملة .

وقد لوحظ أن للجنين مصلحة في أن تثبت له شخصية من نوع معين ،
ولهذا اعترفت له الشريعة بشخصية ناقصة ومحدودة ، فأجازت للأب مثلاً
أن يقيم وصيًا على الحمل ، وأجازت للقاضي تعيين مقدم إذا لم يكن
للحمل وصي ، كما قضت بصحة الوصية لمن كان موجودًا وقتها ، أو كان
منتظر الوجود .

وهكذا نجد أن الشريعة تعترف للحمل المستكين ببعض الحقوق وهي
تعترف بشخصية ناقصة ، وتكون للجنين أهلية وجوب قاصرة على
صلاحيته لكسب التصرفات والحقوق النافعة نفعًا محضًا ، إنما لا يتأكد
وجود هذه الشخصية إلا من وقت تمام ولادته حيًا .

وإذا كانت القاعدة أن شخصية الإنسان تنتهي بموته إلا أن عادة أكثر
الفقهاء جرت على القول بأن الإنسان بعد موته يعتبر حيًا حكمًا أي
بحكم القانون لا حقيقة حتى تسدد ديونه وتوزع تركته .

فالقاعدة في الشريعة الإسلامية هي أن لا تركة إلا بعد سداد الدين ، وبذلك نجد أن الشريعة تتميز بإقرارها للحياة الحكيمة بجانب الحياة الحقيقية لتضمن لأصحاب الحقوق استيفاء حقوقهم .

وإذا كان الأصل أن شخصية الإنسان لا تنتهي إلا بالموت الحقيقي ، إلا أنه إذا طالت غيبة المفقود ، فليس من المصلحة أن يترك أمره معلقاً دون أن يعرف مصير أمواله ومركز زوجته ، ولا سيما إذا غلب احتمال وفاته ؛ لهذا يقضى بموت المفقود حكماً لا حقيقة على خلاف الأصل ، وبذلك تنتهي شخصيته ، وكل هذا أيضاً لضمان من له حقوق بأموال المفقود وتحديد مركز زوجته .

وحرصاً من الشريعة الإسلامية على ضمان حقوق الغير ، فإن المسؤولية المدنية تتعلق بذمة المولود لحظة ولادته إذا حصل منه ما يضر بهال هذا الغير ، وهكذا ورد في «مرشد الحيران لمعرفة أحوال الإنسان» أنه لو أن مولوداً ساعة ولادته انقلب على مال إنسان فأتلفه يلزمه الضمان ، ويقابل هذا المعنى عندنا في المالكية قاعدة : (الخطأ والعمد في أموال الناس سواء) .

حق الحياة:

تعتبر الحياة حقاً أساسياً من حقوق الإنسان الذي كرمه الله بالخلافة في الأرض ليعمرها .

ومن هنا حذر الإسلام من إقرار جريمة قتل الإنسان بغير حق شرعي ، وأحاط حرمة هذه الحياة بأسوار من الزجر والتنفير والوعيد .

وجريمة القتل جعلت الملائكة تخشى من وقوعها في الأرض ، ومن أجل ذلك حدث تساؤلهم : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] .

ومن ثم لا يجوز الاعتداء على حياة الإنسان إلا بسلطان الشريعة ، ولا تقتل النفس إلا بالحق ، قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] .

وقد نهى الله سبحانه عن قتل الإنسان نفسه قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] .

ولذلك يكون الانتحار ممنوعاً وحراماً في شرع الإسلام ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحصى سمّاً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً» .

وأما الإضراب عن الطعام من أجل المطالبة بحق فليس جائزاً في الشريعة الإسلامية ؛ لأنه تعذيب للنفس بدون مبرر شرعي حيث نهى النبي ﷺ عن الوصال ؛ وهو مواصلة الصيام بدون انقطاع ؛ بناء على ما رواه البخاري عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم ، فقالوا : إنك تواصل ، قال : إني لست كهيتكم إني يطعمني ربي ويسقيني» .

ومن تأمل القرآن في وصفه للحياة الدنيا يجد أن المقصود الأكبر هو توجيه هذه الحياة الدنيا للحياة الأخرى .

تكريم القرآن للإنسان:

إذا كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يبدأ بمقدمة تؤكد الاعتراف بكرامة الإنسان ، فالقرآن الكريم كرم الإنسان بنعم لا تحصى ، وفضله على كثير من المخلوقات التي خلقها وكان تكريم الله لهذا الإنسان بأنه أحسن صورته ، قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣] ، ثم كان تكريم الله لهذا الإنسان في عدم إهانته أو تحقيره أو السخرية منه أو تنازله بألقاب ممقوتة .

المساواة:

من أقوى الضمانات التي تكفل التوازن مبدأ المساواة الذي اعتبره الكثيرون حجر الزاوية في الحقوق والحريات العامة ، وأساسها الذي لا قيام له بدونه ، ومن هنا كان بديهيًا أن تحرص الدساتير الحديثة على أن تضمن نصوصها تقرير مبدأ المساواة بين جميع المواطنين ، فلا تميز بينهم بسبب الجنس أو الأصل ، أو اللون أو العقيدة الدينية أو السياسية .

ولقد كان لمبدأ المساواة أهمية بالغة ودور جليل في ازدهار الحرية الفردية ، حيث إنه قد عمل على إقرار هذه الحريات وقادها إلى عالم النور بعد ظلام حالك ، عاشته ردة من الزمن .

ومن ثم يمكن القول أن الحريات الفردية تعد أثرًا من آثار مبدأ المساواة ، وترتبط فكرة الحرية بفكرة المساواة ارتباطًا وثيقًا ؛ حيث إن تعريف الحرية مشتق من المساواة ، وقد أكد القرآن الكريم على مبدأ

المساواة وعدم التمييز، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم، قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ [الحجرات: ١٣] .

لقد أعطى الإسلام للمرأة شخصية بجانب الرجل ، وحافظ على حقوقها كما يجب ، فيه مطالبة بما على الرجل من واجبات ، ولها ما له من حقوق ، قال تعالى : ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] .

وهكذا فإن شخصيتها المدنية مصانة ابتداء من اسمها الشخصي ولقبها العائلي ، فليس هناك إدماج ولا محو لانتسابها ، وكذلك فإن ذمتها المالية مستقلة عن ذمة زوجها ، وهي حرة في التصرف في مالها ، فإذا كانت القوانين الغربية تطبق نظام الأموال المشتركة ، فإن الشريعة الإسلامية تقرر نظام الأموال المنفصلة ، وبذلك تعتبر أموال الزوجة منفصلة عن أموال الزوج ، ولا يمكن أن تشكل أموالها ضمناً عاماً لدائن زوجها .

والشريعة الإسلامية مع تقريرها لقاعدة المساواة بين الرجل والمرأة ، فقد ميزت الرجل عن المرأة في مجموعة من الأمور ، وذلك نابع من وظيفة كل منهما في المجتمع الإسلامي ، كالإشراف على الأسرة والميراث والشهادة والطلاق والطاعة الزوجية ، كما قررت الشريعة الإسلامية مبدأ المساواة أمام القضاء وفاقاً لما انتهت إليه القوانين الوضعية ، ولم تكتف الشريعة بمظهر المساواة هذا بل نفذت إلى عمق تحقيق العدالة المطلقة مفرقة في ذلك بين الحقيقة القضائية والحقيقة الواقعية .

الحرية:

حرية الإنسان الشخصية هي أعز ما يملك وقوام حياته ووجوده ، وهي الأساس في بناء المجتمع السليم ، وكلما كانت هذه الحرية مصانة ومكفولة لها ضمانات وجودها كلما ازدهر المجتمع وتقدم في مدارج الرقي ، وإذا مست تلك الحرية اهتزت ثقة الفرد في مجتمعه ، ونهى بنفسه عن كل ما قد يؤدي إلى ذلك المساس صوناً لذاته وإبقاء لكيانه ، والشريعة الإسلامية تعتبر أن حرية الإنسان المقدسة كحياته سواء بسواء .

وهي الصفة الطبيعية الأولى التي بها يولد الإنسان تأكيداً لحديث رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » .

ومن طبيعة الأمور في أي مجتمع منظم ألا تكون حرية الفرد مطلقة دون ضوابط لها تنظمها ، وإلا لو تصرف الفرد حسب هواه لدبت الفوضى في المجتمع ؛ ولهذا كان من أُلزم الأمور أن تنظم تلك الحرية بما يؤمن المجتمع ويطمئن أفرادها حياة هادئة مستقرة .

ومن القواعد الأصولية في هذا المجال : (الأصل في الأشياء الإباحة) ، (الأصل في الإنسان البراءة) ، وذلك في العقوبات .

(الأصل براءة الذمة) وذلك في المداينات ، (الضرورة تقدر بقدرها) ، (الاستثناء لا يقاس عليه) ، (الذمة عامرة بيقين فلا تبرأ إلا بيقين) ، (الشك يفسر لمصلحة المتهم) في العقوبات ، (الشك يفسر لمصلحة المدين) في المداينات .

وقد حد الإسلام حدوداً بأوامره ونواهيه ، وشرع لمجاوزتها عقوبات ، بعضها مقدرة ، وهي الحدود ، وبعضها موكل إلى ولاية الأمر وهي التعازير .

وهذه القواعد مقررة أن يعرفها القانون الوضعي ؛ تطبيقاً لقاعدة (لا جريمة ولا عقوبة إلا بالنص) .

وقد اتفق علماء الإسلام على عقوبات لا تثبت بالرأي والقياس ، وأنها لا تثبت إلا بالنص ، وقد انتهى فقهاء القانون الجنائي الحديث إلى اعتبار التأهيل ، وهو إعادة المحكوم عليه مواطناً صالحاً حقاً للمحكوم عليه .
فالمجرم الذي عانى من ظروف اجتماعية ، قررت له الجريمة الحق في أن يعود للمجتمع يوماً مواطناً صالحاً .



المحاضرة الرابعة والأربعون:

رعاية الله لرسوله ﷺ

تمهيد:

من المناسب التمهيد للموضوع بما يبين -إجمالاً- عن سر تفضيل الله تعالى لرسوله وحببيه سيدنا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين، هذا مع العلم بأنهم جميعاً صفوة الله من خلقه، وأمناءه على وحيه، اجتباهم واختارهم على علم على العالمين، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فجعلهم كلهم هداة مهتدين، ومن المصطفين الأخيار، وأوجب جميعهم التَّجَلُّة والتعظيم والاحترام، والتنزيه عن النقائص والمعاصي والآثام، وجعلهم كلهم محل اقتداء واهتداء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إلا أن الله جل علاه مع ذلك، فضل بعضهم على بعض، ورفع بعضهم على بعض درجات، بنص كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وباتفاق الأمة أن الذي فضله الله عليهم جميعاً، ورفعهم عليهم درجات هو خاتمهم، نبينا سيدنا محمد ﷺ؛ ولذلك أخذ العهد عليهم إن جاءهم أن يؤمنوا به وينصروه، وأقرهم وأشهدهم على ذلك: ﴿قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

وهذا الوعيد موجه إلى كل من تولى عن هذا العهد من أتباع ، وجحد بنو محمد ﷺ فيشمل كل من كفر به من اليهود والنصارى وغيرهم .
قال علي كرم الله وجهه ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية ، كما في تفسير كثير من غيره : ما بعث الله من نبي من الأنبياء ، إلا أخذ عليه العهد والميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ العهد على أمته بذلك .

وبهذه الآية استدل الشيخ الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى على أن رسول الله ﷺ نبي الأنبياء ، ورسول الله إليهم ورسوله إلى الخلق كافة ، السابق منهم واللاحق ، ابتداء من آدم إلى يوم القيامة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم ، وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم لما حل له إلا أن يتبعني » ، وفي رواية : « لما وسعه إلا اتباعي » .

فهذه الآية وحدها كافية للدلالة على أفضلية نبينا ﷺ ، وأنه إمامهم ، الذي لو ظهر في عصر أي واحد منهم لكان الواجب عليه اتباعه .

ولذلك كان ﷺ إمامهم ليلة الإسراء حين جمعهم الله به في بيت المقدس ، ولذلك أيضًا ينزل عيسى بن مريم حاكمًا بشريعته في آخر الزمان ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من النصارى وغيرهم إلا الإسلام والإيمان بنبينا ﷺ ، كما تواترت الأحاديث بذلك .

التبشير برسول الله ﷺ في الكتب السابقة :

ومن أجل ذلك أيضاً وقع التبشير به في الكتب السابقة ، فذكره الله تعالى بأسمائه ونعوته وصفاته في التوراة والإنجيل : ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] .

بل وصف حتى أمته ، فقال جل من قائل : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَثَرُ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أُخْرِجَ شَطَئُهُ ۚ... ﴾ [الفتح: ٢٩] ، إلى آخر السورة .

وهكذا تكفل الله تعالى بالتبشير به في الكتب السابقة ، وأخذ العهد على جميع أنبيائه ورسله أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه ؛ تنويهاً برسالته ، وإعلاناً عن عظيم مكانته لديه ، وأنه أفضل أنبياء الله ورسله ؛ الذين هم أفضل الخلق أجمعين .

ومن ثم بشرت به الأنبياء أقوامهم فبكوا ، فجرى ذكره على لسان الأحبار والرهبان ، حتى اشتهر ذكره بين أهل الكتاب عامة ، وصاروا يعرفونه ، كما يعرفون أبناءهم : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا

يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ^ط وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٤٦﴾ ، ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ^ع فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٨٩﴾ .

هذا عدا ما خصه الله به تعالى في الدار الآخرة من الحوض والكوثر والمقام المحمود ، والشفاعة الكبرى لإراحة أهل الموقف من ذلك الكرب العظيم ، وهو المقام المحمود الذي يحمد عليه الأولون والآخرون .

وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام متحدثاً بنعمة ربه عليه : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع»^(١) .

وفي حديث آخر : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»^(٢) .

أفضلية محمد ﷺ :

وهذه الوجوه كلها تدل على أفضلية نبينا ﷺ ، وهي من الكثرة ، بحيث لا تقبل الاحتمال ولا التأويل ، وعلى هذا انعقد إجماع الأمة ، واتفقوا على أن أفضل الخلق هو سيدنا محمد ﷺ ، كما يشير إلى ذلك اللقاني في «جوهرة التوحيد» بقوله :

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمِلْ عن الشقاق

- (١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به مطولاً .
- (٢) أخرجه الترمذي (٣٦١٥) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) من طريق علي بن زيد ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، به . قال الترمذي : «حسن صحيح» . وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣٠ / ١) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وكما لمح إلى ذلك الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في مطلع همزيته :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وقوله في بردة المديح :

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عُزب ومن عجم
فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم
دع ما ادعته النصراني في نبهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفهم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

هذا ، ولا يرد علينا في هذا المقام ، ورود أحاديث في النهي عن التفضيل بين أنبياء الله ورسله ، كما في «الصحيحين» وغيرهما أن النبي ﷺ قال : «لا تفضلوا بين أنبياء الله» ، وقوله عليه الصلاة والسلام : «لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» ؛ وذلك أن العلماء أجابوا عن هذه الأحاديث بأجوبة :

منها : أنه قال ذلك تواضعا ﷺ .

ومنها : أن النهي وارد في حق تفضيل يؤدي إلى الخصومة أو إلى التنقيص من بعضهم كما بين ذلك سبب الحديث نفسه .

ففي الحديث وهو في «صحيح البخاري» أن يهوديًا ، «عرض سلعة للبيع ، فأعطي فيها شيئًا كرهه ، فقال : والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه أنصاري فقام فطمه ، فاشتكاها اليهودي إلى رسول الله ﷺ فغضب غضبًا ، حتى رئي الغضب في وجهه وقال : لا تفضلوا بين أنبياء الله» .

أو أن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يعلمه الله بأفضيلته على سائر أنبيائه ورسله ؛ لأنه ﷺ كان دائم الترقى في معارج الفضل والكمال ، وفي كل يوم يزيده ربه فضلاً وعلماً .

أما عن النهي عن خصوص يونس بن متى ، فقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» : إنه أراد بذلك سد الذريعة حتى لا يعتقد بعض الناس إذا سمع صفة يونس أنه خرج مغاضباً لقومه من غير إذن ، وأنه وقع في السفينة ، فوقعت القرعة عليه ، وابتلعه الحوت إلى آخره ، فربما يقع في بعض من سمع قصته شيء من التنقيص له ، فنهى الله تعالى عن تفضيله على يونس ابن متى سداً للذريعة .

وأدلى غيره وجهاً آخر لطيفاً ، قال : إن السر في هذا النهي بالنسبة إلى يونس بن متى ، هو الإشارة إلى تنزيه الله تعالى عن الزمان والمكان ، حتى لا يعتقد معتقد أن نبينا ﷺ حين ناجى ربه من فوق سبع سموات ليلة الإسراء كان أقرب إلى ربه من يونس بن متى حين ناداه في ظلمات ثلاث ، في بطن الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر ؛ لتنزهه تعالى عن الزمان والمكان ؛ فيستوي عنده من هو فوق سبع سموات ، ومن هو في قعر البحر .

ولابد من حمل هذه الأحاديث على بعض هذه المحامل أو كلها ؛ إذ لا منافاة بينها ؛ حتى لا تتعارض مع الأدلة الكثيرة التي تقضي بأفضلية نبينا ﷺ ، وهي كثيرة جداً لا تقبل الاحتمال ولا التأويل ، وناهيك منها ما ورد في كتاب الله ﷻ ، وما خصصت له موضوع درس اليوم إن شاء الله تعالى .

عناية الله لرسوله ﷺ :

وبالرجوع إلى كتاب الله ﷻ وتتبع الآيات التي تحدث فيها الله عن رسوله وحببيه وخليله محمد ﷺ أو تشير إليه من قريب أو بعيد ، نجد أنها من الكثرة والشمول والتنوع ، بحيث تناولت مختلف جوانب حياته ومراحلها ﷺ ، ابتداء من طفولته وهو يتيم في كفالة عمه أبي طالب ، ثم إلى ما بعد ذلك من مراحل قبل النبوة وبعدها ، إلى أن اختاره الله لجواره بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وأقام الله به على عباده الحجة ، ترك في الناس ما إن تمسكوا به لن يضلوا أبداً ؛ كتاب الله وسنته صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وكان في كل هذه المراحل محل تكريم وعناية وتعظيم من لدن خالقه وحببيه جل علاه ، وذلك برواً بقسمه العظيم أنه ما تخلى عنه في لحظة من حياته ووفاء بوعده الكريم أن يوالي إنعامه وإفضاله على حببيه محمد ﷺ ، حتى تكون أخراه خيراً له من أولاه ، وأن يعطيه عطاء بلا حساب حتى يرضى ، وذلك ما خصص الله له في سورة الضحى فقال جل من قائل بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالضُّحَى ۝ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝ ٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝ ٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝ ٥ ﴾ [الضحى : ١-٥] إلى آخر السورة .

هذه السورة مكية باتفاق ، بل هي من أوائل ما نزل بمكة ، إذ عدها بعضهم السورة الحادية عشرة في ترتيب نزول السور .

ويذكر المفسرون في سبب نزولها روايات مختلفة أصحها كما في «الصحيحين» : «أن النبي ﷺ اشتكى فلم يقيم ليلتين أو ثلاثة» ، وفي رواية

للمزمدي أن ذلك كان بسبب حجر أصاب أصبعه الشريف فدميت فقال :

مَا أَنْتِ إِلَّا إَصْبَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

فجاءت امرأة قيل : إنها أم جميل بنت حرب ، أو كما يسميها ابن العربي أم قبيح بنت حرب ؛ امرأة أبي لهب حمالة الخطب ، فقالت : ما أرى شيطانك إلا قد تركك .

وقال المشركون : ودّع محمدًا ربّه ، فأنزل الله السورة للرد عليهم ، وتكذيب دعواهم .

وهذه الروايات تذكر أن الانقطاع عن رسول الله ﷺ في هذه المرة لم يزد على ثلاثة أيام .

ولكن في رواية عن ابن عباس أن الوحي انقطع عنه هذه المرة خمسة عشر يومًا .

ويظهر أن هذه الرواية هي أنسب لسبب النزول إذا كان الأمر يتعلق بمقالة المشركين ؛ لأن الخمسة عشر يومًا كافية في أن يشعر المشركون ويتنبهوا إلى عدم قيامه بالليل فيقولون عنه ما قالوا ، بخلاف اليوم واليومين ، إذا كان الأمر يتعلق بالمشركين .

وأيًا كان فهذه الفترة التي تتفق أقوال المفسرين على أنها كانت سبب نزول السورة ، هي غير الفترة الأولى التي عاقبت ابتداء الوحي مباشرة ؛ فخشي رسول الله ﷺ من أن يكون ربه قد قطع عنه وحيه بعد أن أكرمه به ، واختاره لتبليغ رسالته ، فحزن لذلك حزناً شديداً وشق الأمر عليه حتى كان كلما أتى ذروة جبل همّ أن يلقي بنفسه منها ؛ فيتبدى له الملك قائلاً : أنت رسول الله حقاً ؛ فيطمئن ويرجع عما كان قد عزم عليه ، إلى أن

عاد إليه الوحي ، ورأى جبريل جالساً على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق ، فرعب منه ﷺ ، وتذكر ما فعل به المرة السابقة ، فرجع إلى بيته ، وقال : «دثروني دثروني» ، فأنزل الله عليه : ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيَنَ قَوْمٌ فَأَنْذِرُوا﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] .

وذلك أن تلك الفترة كانت عقب ابتداء الوحي مباشرة ، وقبل أن يؤمر ﷺ بالتبليغ والإنذار ، وقبل أن يدعو قومه إلى الإيمان به ، وقبل أن يشيع فيهم حديث نبوته ، بل وقبل أن يؤمر بصلاة الليل ، التي كان يجهر فيها بالقرآن ، وكان يسمع إليه المشركون من بيوتهم القريبة من بيته أو من البيت الحرام فقالوا عنه ما قالوا .

ويعجبني هنا ما قاله الشيخ أحمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في «التحرير والتنوير» عن مناسبة هذه الفترة ، قال : الذي نظن أن الفترة هذه المرة كانت نحو اثني عشر يوماً ، وكانت الأولى نحو أربعين يوماً .

قال : وكانت هذه الفترة إشفافاً على النبي ﷺ ، حتى تستجم نفسه وتعتاد قوة تحمله أعباء الوحي .

قال : فكان نزول سورة الضحى هو النزول الثالث للقرآن ، أي بعد سرد سورة العلق ، ثم بعد سورة المدثر والسور التي بعدها ، ثم نزلت سورة الضحى .

قال : وفي المرة الثالثة يحصل الارتياح على الأمور الشاقة .

قال : ولذلك يكثر في الشرع الأمر بتكرير أعماله الثلاثة وهو توجيه حسن على أي حال .

وبنزول هذه السورة ، استمر الوحي على رسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه أبداً ، فكان نزولها إيذاناً من الله تعالى بمواصلة حبيبه للأبد ، وتبشيراً له بأنه سيكون معه فيما يستقبل ، حتى يكون مستقبله خيراً من حاضره ، وأن يعطيه من خيراته حتى يرضى ، ولذلك لما نزلت هذه السورة ، كبر النبي ﷺ في آخرها ، واستحب بعض القراء التكبير في آخرها وفي آخر كل سورة بعدها إلى سورة الناس ، ومنهم قراء مكة .

ويروون في ذلك حديثاً مسلسلاً إلى النبي ﷺ بالأمر بالتكبير عقب سورة الضحى ، وما بعدها من السور ، من طريق البزي عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ .

قال ابن كثير : ولكن البزي - وإن كان إماماً في القراءات - إلا أنه ضعيف في الحديث ، كأنه يضعف هذا الحديث .

قال : ولكن حكى أبو شامة في شرح «الشاطبية» أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى رأى إنساناً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال : أحسنت وأصبت السنة ، قال : فهذا يقتضي صحة الحديث .

وفي «تفسير الجلالين» : ولما نزلت سورة الضحى كبر رسول الله ﷺ آخرها ، فسن التكبير آخرها .

وروي التكبير آخرها وآخر السور التي بعدها ، ولفظه : الله أكبر أو لا إله إلا الله .

وهكذا أرسل الله تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ : ﴿ وَالْضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ عَلَىٰ أَنَّهُ مَا وَعَدَهُ وَلَا قَلِيلُ ۝ ﴾ : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ .

تفسير سورة الضحى:

﴿الضُّحَى﴾ معروف ، هو وسط النهار وأوله ، حين ترتفع الشمس ، وتلقي بأشعتها على هذا الكون ، وتبدأ الكائنات في السعي والحركة والنشاط ، ابتغاء للرزق ، وسعيًا للمعاش ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١] .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ سجى ، سكن وأظلم وستر الكون بظلامه ، والمراد بسكون الليل ، سكون الناس فيه ، وإخلادهم فيه للنوم والراحة على عادة العرب من أنهم يُسِنِدُونَ الحَدَث أحيانًا إلى زمانه ، فيقولون مثلاً : «ليل نائم ونهار صائم» .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ إذا سجى سكن وأظلم ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] .

ولا تحفى يا مولاي مناسبة قسم الله بالضحى في هذا المقام ، والمقام يتعلق بالوحي وباستمراريته ونزوله ؛ لما في ذلك من الإيحاء إلى تمثيل نور الوحي في الاهتداء وعموم النفع بنور الشمس .

كما أن بعضهم ذكر المناسبة سرًّا في كون الله تعالى قيد الليل بالسجود ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي حين يظلم ، قال : كأن السر في ذلك الإشارة إلى وقت تهجدته ﷺ بالليل وقيامه لصلاة الليل ، ومنها سمع المشركون قراءته ، فقالوا عنه ما قالوا .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿ ودعك تركك وأهملك ، وقرئ شاذًّا (ما وَدَّعَكَ) بالتخفيف ؛ ما ودعك (وما قلاك) ما أبغضك ولا كرهك منذ اجتبائك واصطفاك ؛ لتكون رسوله إلى العالمين ، ولتحمل أعظم رسالات الله تعالى إلى أهل الأرض جميعًا .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ۝ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ ثم أردف الله تعالى هذا القسم بوعده كريم فقال : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ ﴾ فسرنا الآخرة والأولى في الآية بتفسيرين :

التفسير الأول : تفسير الآخرة والأولى بالدنيا والآخرة ، جرياً على اصطلاح القرآن في مقابلة الدنيا بالآخرة في آيات كثيرة ويكون المراد على هذا التفسير .

المراد بقوله تعالى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ ﴾ الإشارة إلى أن التشريف الذي حصل له ﷺ بقسم ربه له ، أنه ما ودعه ولا قلاه ، وهو إن كان تشريعاً عظيماً في حد ذاته ، إلا أنه لا يقاس إلى جانب ما أعدّه الله له في الآخرة ؛ إذ في الآخرة يظهر تمام الظهور ما أعد الله لرسوله وحبيبه ﷺ من كرامة ورفعة وثناء وسيادة ، بها يكون سيد الموقف بلا منازع .

والتفسير الثاني : فسر الآخرة والأولى بالمعنى الأعم باعتبارهما وصفين حذف موصوفهما ليعم ؛ فيكون المراد بذلك جميع حالاته وأوقاته حتى تكون حالاته الأخيرة خيراً له عند الله من الأولى .

وكان الله تعالى يطمئنه بذلك ، ويؤكد ما سبق ، كيف أتخلى عنك كما توهمه المتوهمون ، بل أنا فضلت أن تكون الآخرة خيراً لك من الأولى ، فأنت اليوم عندي أشد تمكياً وأكثر محبوبة ؛ لأن الآخرة خير لك من الأولى ، فغداً خير من يومك ، ومستقبلك خير من ماضيك ، وعاقبتك خير من بدايتك ، حتى تكون الآخرة خيراً لك من الدنيا : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ٣٠] .

وهكذا تكون هذه الآية فيها إشارة في نفس الوقت إلى تطمين النبي ﷺ ، وهو في بداية طريق الدعوة الشاق الطويل المحفوف بالمخاطر والمآسي أن يكون الله دائماً معه في عونه وتأييده ، وأن يكون العاقبة له على قومه ، وأن يظهر الله دينه وينصره عليهم نصرًا مؤزرًا ، وكذلك كان .

فقد صدق الله رسوله وعده ، فما زال يسمو به من كمال إلى أكمل ، ومن حسن إلى أحسن ومن فاضل إلى أفضل ، ويرفع من درجاته يومًا بعد يوم ، وأنا بعد آن ، حتى بلغ به من الكمال منتهى الكمال الذي يطيقه بشر ويتحملة إنسان ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] ، هذا عدا ما ادخر له في الآخرة ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعلم تفاصيله إلا الله جل في علاه .

﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ثم أردف هذا الوعد وأكدته بوعد آخر من جنسه في عمومته وشموله ، قال : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ، يعطيك : حذف مفعوله الثاني ليعم ؛ سوف يعطيك ربك من فضائل وخيرات ومن خزائن رزقه وفضله عطاء واسعاً بدون حدود ، وبدون قيد .

عطاء تقر به عينك ، وترضى به بمجرد حصوله حتى يعطيك عطاء يعقبه الرضا في الحال ، دون تربص أو انتظار ، وذلك السر في الإتيان بفاء التعقيب .

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ والآية باعتبار أنها كانت من أوائل ما نزل بمكة - كما قلنا - تعتبر من أعلام نبوته ﷺ ، ومن دلائل صدق القرآن ، وأنه من عند الله علام الغيوب ، فقد تحقق مدلول هذه الآية على امتداد ثلاث وعشرين سنة .

وصار ربه يعطيه في كل مرة ما يرضيه حتى أجرى على لسانه في حجة الوداع على جبل عرفات ومعه نحو مائة ألف من أصحابه ، أجرى على لسانه آخر آية من كتابه : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

وهكذا أعطاه وأعطاه ، حتى ما انتقل رسول الله ﷺ إلى الدار الآخرة ، إلا وهو راض عن ربه تمام الرضا ، ثم يعطيه في الآخرة كما قلنا ، ما لا حد له ولا حصر .

ومن ذلك أنه ﷺ ذكر يوماً أمته ، ورفع يديه وبكى وقال : «أمتي أمتي» ، فأرسل الله إليه جبريل وهو أعلم : اذهب إلى محمد وقل له : ما يبكيك ؟ فجاءه جبريل فأخبره ، فأرجعه الله إليه ، وقال له : قل لمحمد إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

ويقول ﷺ في حديث آخر : «سأشفع لأمتي حتى يناديني ربي : أقدر رضيت يا محمد ، فأقول : إيه قدر رضيت»^(١) .

ويقول ﷺ : «لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، فهي نائلة إن شاء الله من كان لا يشرك بالله شيئاً»^(٢) .

ولهذه البشارة اعتبر بعض أئمة البيت أن أرجى آية في كتاب الله ﷻ هي قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ .

(١) أخرجه البزار في «المسند» (٦٣٨) عن علي رضي الله عنه . وحسنه المنذري في «الترغيب

والترهيب» (٥٥١٦) . وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٣٧٧) : «وفيه محمد بن أحمد

بن يزيد المداري ولم أعرفه ، وبقيّة رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم» .

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

وإلى ذلك أشار القائل :

ألم يرضك الرحمن في سورة الضحى وحاشاك أن ترضى وفينا معذب
إذن فهو يشفع لجميع أمته ، ولا يبقى أحد من أمته مخلدا في النار ، إلا
من حقت عليه كلمة العذاب ، والعياذ بالله ، بكفره وارتداده ، أو موته على
سوء الخاتمة ، والعياذ بالله تعالى ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ .

ثم ذكر الله تعالى رسوله ﷺ ببعض نعمه السابقة عليه ، وقبل أن يكرمه
بالوحي والرسالة ليعلمنا بطريق الأولى أن الله إذا كان لم يتخل عنه في تلك
الأوقات السابقة ، ولم يكن فيها يومئذ نبياً ولا رسولا ، فكيف يتخلى عنه
بعد أن أصبح نبياً ورسولا ، وكلفه بمهام الرسالة وتبليغ دينه إلى عباده؟!
هذا مما لا يعقل ؛ لذلك قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَحْجَدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوِي ۖ وَوَجَدَكَ
ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨] .

إذن الذي فعل بك هذا سابقا ، كيف يتخلى عنك الآن؟ وقد أصبحت
رسوله إلى الناس أجمعين .

﴿أَلَمْ تَحْجَدْكَ يَتِيمًا﴾ ؛ وهكذا ذكر الله رسوله وحببيه محمدا ﷺ بها هيا
له من يكفله في حالة صباه ويتمه ؛ لأن أباه مات وهو حمل في بطن أمه ،
فكفله جده عبد المطلب ، إلى أن بلغ ثماني سنوات ، ثم كفله بعده عمه أبو
طالب ، وكان عليه عطوفاً رءوفاً حنوناً ، وما زال يخدمه ويرعاه ، ويدافع
عنه حتى بعد النبوة ، وإن لم يكرمه الله بالإيمان به إلى أن فارقه في الحياة
بمكة ، وقبل الهجرة بستتين .

فهو بذلك صان الله رسوله وحببيه في الصغر عن ذل اليتيم ومهانته ،
ولا سيما في أيام الجاهلية ، كما أشار إلى ذلك البوصيري بقوله :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

ثم ذكره نعمة أخرى فقال له : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ، المراد بالضلال هنا ما كان غافلاً عنه من أمور شرائع دينه وشعائره ، التي أنزلها الله عليه في كتابه .

فإنه ﷺ وإن كان مفطوراً على التوحيد ، ونشأ على التوحيد وعصمه الله تعالى من الشرك ، ومن كل أعمال الجاهلية ، إلا أنه مع ذلك كان لا يعرف بالتفصيل ما ينبغي أن يعبد الله به ويتقرب به إليه ، حتى أكرمه الله بالوحي وبالرسالة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿لَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] .

إذن فالمراد بالضلال هنا الغفلة ، أو يكون المراد وجدك بين قوم ضلال ، وكنت عرضة لأن تنغمس معهم في ضلالتهم ، بحكم المساكنة والمعاشرة وتأثير المحيط والبيئة ، ولكن الله عصمك عن ذلك ، وسلمك ونجاك فلم تسجد لصنم ولم تشارك قومك في حرام أو مآثم ، بل صانك حتى عن حضور مجالس لهوهم وأعراسهم وأفراحهم .

ثم حجب إليك الخلاء ، فكنت تختلي بنفسك ، وتبتعد عن قومك ، وتذهب إلى غار حراء ، وتتعبد الليالي ذوات العدد ، وتتفكر في آيات الله ومصنوعاته الدالة على وحدانيته وربوبيته ، إلى أن فاجأه الوحي وهو بغار حراء ، وأكرمه الله برسالته : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾ .

وهذه نعمة أخرى ؛ وجده عائلاً فقيراً ؛ لأن أباه لم يترك له من المال شيئاً ، بل ترك له جارية وناقة ؛ شيء قليل جداً لا يقوم بحاجياته ، فهيأ الله له من يصونه ، ويصون كرامته بكفالة عمه أبي طالب ، كما قلنا .

ثم لما شب وترعرع واستقل بنفسه حبب الله إليه التجارة ، فكان يتجر ، ثم اتصلت به خديجة وأعطته مالها ، فازداد به ربحاً وازداد به فضلاً ، هذا قبل النبوة .

ثم أكرمه الله بعد النبوة بما فتح عليه من الغنائم حتى يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، كما قال بعضهم : أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، ومع ذلك كان يؤثر على نفسه ﷺ ويؤثر على أهل بيته ، فبييت طاوياً جائعاً الليالي ، ويبقى الشهر والشهرين لا يوقد في بيته نار ، ومات وما شبع هو وأهله ﷺ من خبز الشعير ، وهذا معنى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

أو يكون المعنى أغناك الله تعالى بما رزقك من القناعة والرضا بما كتب لك ، كما يقول ﷺ في الحديث : « ليس الغنى عن كثرة العرض - عن المال - إنما الغنى غنى النفس »^(١) . ﴿ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

ثم أمره الله سبحانه في مقابل هذه النعم ، أن يحسن إلى من كان في مثل حالته سابقاً ، شكراً لنعمة الله من جنس العمل فقال له : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : ٩] ، في مقابل : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَفَؤَى ﴾ .

فاشكر الله على هذه النعمة وأحسن إلى اليتامى ؛ ولذلك كان ﷺ عطوفاً على اليتيم وأوصى باليتيم كثيراً حتى قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة »^(٢) ، و : « أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم »^(٣) .

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٠٤) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه مرفوعاً ، به .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٣٤٣٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٤٩) ، وأبو

نعيم في « الحلية » (٦ / ٣٣٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٠٣٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وانظر « الضعفاء الكبير » للعقيلي (١ / ٩٧) ، وابن عدي في « الكامل » (١ / ٥٥٤) .

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠] ؛
اختلف في المراد بالسائل في الآية ، فإذا كان المراد بالسائل الفقير طالب
المال ، فتكون في مقابل ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ؛ لذلك أحسن إلى
الفقراء والمساكين وأعطهم أو رد ردًا جميلاً .

أما إذا كان المراد بالسائل طالب العلم والهداية والمعرفة ، فتكون في
مقابل ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ فأرشد من جاء يسترشدك ، ولا تنهره
إذا أساء الأدب ، أو لم يفهم الحقيقة .

ثم أمره بالتحدث بنعمة الله عموماً فقال : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾
[الضحى: ١١] .

و ما أكثر نعم الله على حبيبه المصطفى ﷺ ، وما أعظمها نعمة القرآن ،
ونعمة الوحي ، ونعمة الرسالة ، ونعمة التبليغ ، ونعمة الختمية ونعمة
ونعمة إلخ .

وهكذا أمره تعالى أن يحدث بنعمة الله عليه ، ويخبر أمته بقدره عند ربه ،
حتى يعرفوا قدره العظيم ، ويزدادوا فيه محبة ، ويزدادوا تعلقاً بسنته ،
وتمسكاً بهديه وشريعته ﷺ .

إلا أن هذا الأمر وإن كان خاصاً به ﷺ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ،
فإنه ينسحب على أمته بحكم التبعية له ، ولأننا مأمورون بالاهتداء به
والاقتداء به : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ،
ولأن التحدث بنعمة في حد ذاته شكر ، والشكر طلبه الله من الناس
أجمعين : ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ، ﴿وَإِذْ
تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ، وفي الحديث :

«التحدث بالنعمة شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب»^(١)، وفي حديث آخر: «إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه»^(٢)، لا بالمقال فقط بل بالمقال وبالحال، بمعنى أن الإنسان إذا وسع الله عليه الرزق، فينبغي أن يتظاهر بما يتناسب وما أكرمه الله به، ولا يتظاهر بالبؤس والخصاصة والاحتياج.

إلا أن هذا الأمر محفوف بالأخطار بالنسبة لغيره ﷺ؛ لأن الشيطان كثيرًا ما يلبس على الناس ويقلب لهم الحقائق، فيدفعهم إلى أن يتحدثوا بنعم الله عليهم، ولكن في باطنهم، لا يقصدون التحدث بنعم الله، وإنما يقصدون بذلك الفخر والتعالي والرياء والسمعة.

وبذلك يأتون مصائب عظيمة منها أنهم يتلبسون بالعجب الذي يكرهه الله ويمقت عليه، ويمدحون أنفسهم ويزكونها، والله تعالى نهى عن تزكية النفس: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥)، والبخاري في «المسند» (٣٢٨٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٩) من طريق أبي عبد الرحمن، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا، بنحوه.

قال البخاري: «هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، ولم أسمع أحدًا سمى أبا عبد الرحمن الذي روى هذا الحديث عن الشعبي».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٧١) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعًا، بنحوه. قال الترمذي: «هذا حديث حسن» وصححه الحاكم في «المستدرک» (٤/ ١٣٥).

وأخرجه أبو داود (٤٠٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٥٥٧) من طريق أبي الأحوص، عن أبيه مرفوعًا بنحوه. وصححه ابن حبان (٥٤١٦، ٥٤١٧)، والحاكم في «المستدرک» (٤/ ١٨١).

لذلك ينبغي للإنسان أن لا يغتر وأن يحاسب نفسه ، وأن يعلم أن الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

هذه مضامين سورة الضحى ، وما تضمنته من بشائر العناية والتقريب ، ودلائل التعظيم والتكريم إجمالاً ليبقى تفاصيل ذلك منبثة في ثنایا كتاب الله لمن تتبعه وتأمله ، وهي كثيرة جداً .



من مظاهر رعاية الله لرسوله ﷺ في القرآن الكريم

النهي عن ندائه باسمه :

سأشير مجرد إشارة ومجرد سرد لبعض الآيات التي نستدل منها على مبلغ رعاية الله وعنايته برسوله ﷺ .

من ذلك أن الله تعالى نهى أمته أن ينادوه باسمه المجرد، فإن الله تعالى هو الذي خلقه وفضله وعظمه و... و... ، ما خاطبه باسمه المجرد، وما ناداه بيا محمد، يا أحمد، بل ما ناداه إلا بلقب الرسالة أو ما يدل على التعظيم : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَزْمِلُ﴾ [المزمل: ١] .

في حين نادى أنبياءه السابقين بأسمائهم : ﴿يَتَقَادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣] ، ﴿يَنُوحُ﴾ [هود: ٣٢] ، ﴿يَتَابَرَّهِيمُ﴾ [هود: ٧٦] ، ﴿يَمُوسَى﴾ [الأعراف: ١٤٤] ، ﴿يَعِيسَى﴾ [آل عمران: ٥٥] ، ﴿يَنذَاوُدُ﴾ [ص: ٢٦] ، ﴿يَزَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٧] ، ﴿يَنحَى﴾ [مريم: ١٢] .

بل وحتى لما ذكره مقروناً مع إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ذكر إبراهيم باسمه، وذكر النبي بلقب النبوة : ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] .

كما نهانا أن ندعوه باسمه المجرد، فقال تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] .

قال ابن عباس في تفسير الآية : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم ،
فنهاهم الله أن يقولوا ذلك ، وإنما يقولون : يا نبي الله يا رسول الله ،
وروي مثل ذلك عن مقاتل وقتادة .

وهذا التفسير هو الراجح في تفسير الآية ؛ لأنه تفسير صحابي ، مقرون
بسبب النزول ، وتفسير الصحابي إذا اقترن بسبب النزول ، يكون في حكم
المرفوع عند المحدثين والأصوليين ، ولذلك يقول ابن العراقي في
«ألفيته» :

وعد ما فسرہ الصحابي رفعاً فمحمل على الأسباب

لذلك كان الراجح في الآية ، أن الله تعالى نهى أمته أن يقولوا له : يا
محمد أو يا أحمد .

القسم بحياته :

ومنها أن الله أقسم بحياته ، وما أقسم بحياة أحد غيره ، فقال :
﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] .

قال ابن عباس : ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت
أن الله أقسم بحياة أحد غيره .

وقال القاضي عياض في «الشفاء» : اتفق المفسرون على أن هذا قسم من
الله جل جلاله بمحمد ﷺ ، قال : وهذه نهاية التشريف وغاية التعظيم .

ومثل ذلك يقوله ابن القيم ، قال : فهذه من أعظم فضائله ﷺ أن يقسم
الله بحياته ، وما أقسم بحياة أحد غيره .

أدب الله أمته في مخاطبته :

ومن ذلك أنه علم أمته الأدب معه في المخاطبة ، فقال تعالى بعد أن نهاهم أن يتقدموا على رسول الله باقتراح أو رأي أو إشارة ، بل يتركوه حتى يكون هو البادئ والأمر والناهي ، فقال : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ١ يتأتيها الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات : ١-٥] .

قال العلماء : وهذا الأدب لازم في حقه حيًا وميتًا .

وذكر القاضي عياض في «الشفاء» بسنده أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي ناظر الإمام مالكا في مسجد رسول الله ﷺ ، فرفع صوته ، قال له الإمام مالك : مهلاً مهلاً ، اخفض من صوتك ، إن الله قال : ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ، ومدح أقواماً فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ، وذم أقواماً قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ، قال : فاستكان لها أبو جعفر فاستكنا .

ولما نزلت الآية قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : والذي نزل عليك الكتاب يا رسول الله ، لا أكلمك إلا كأخ السرار ؛ كما يكلم الإنسان أخاه سرّاً في أمر يهيمه .

وكان عمر رضي الله عنه بعدما نزلت الآية لا يكاد يسمع النبي ﷺ صوته حتى يستفهمه ﷺ ويقول له : «ماذا تقول؟» لأنه لا يسمع ما يقول من شدة ما يخفض صوته .

بل أكثر من ذلك أن ثابت بن قيس - وكان جمهوري الصوت ، وكان به صمم ، وكان أحياناً يرفع صوته على رسول الله ﷺ - فلما رأى الأمر بهذه الخطورة بمكان ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ قال : هو من أهل النار ، ودخل بيته وأغلق عليه بابه ، وما خرج ، حتى أخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه وبشره بأنه من أهل الجنة ، فمات شهيداً رضي الله عنه في مقاتلة مسيلمة الكذاب .

وكذلك نرى أن الله تعالى علم الصحابة كيف يتأدبون مع رسول الله عندما يدعوهم إلى بيته فقال لهم : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

وسبب ورود القصة أنه ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش ، صنع طعاماً ودعا له أصحابه فدخلوا ، فلما طعموا أظهر أنه يريد القيام ليفهموا ويقوموا ، فلم يقوموا ، فقام رسول الله ﷺ وخرج من خرج ، وبقي ثلاثة نفر ، ثم رجع فوجدهم لا زالوا جالسين ، ثم خرج ثم عاد ثم أخبره أنس أنهم قاموا ، فنزلت الآية .

قال المفسرون : هذا أدب ، أدب الله به الثقلاء .

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها : حسبك من الثقلاء أن الله تعالى يحتملهم .

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى من بالغ عنايته ورعايته بحبيبه ﷺ ، أنه تولى بنفسه تعليم أمته الأدب ، حتى إنه لم يرض له أقل القليل من الإساءة والإذابة .

بل أكثر من ذلك أنه لم يرض ما تحمله رسول الله ﷺ بنفسه ؛ ولذلك لم يسامح هؤلاء أن يدخلوا إلى بيته بغير إذنه ، بل عليهم أن لا يدخلوا إلا إذا دعوا ، ثم عليهم أن يدخلوا بعد نضج الطعام وطبخه وإناءه ، ولا يدخلوا قبل ذلك ؛ لئلا يشغلوا أهل البيت أو يضيقوا عليهم .

وهذا يدل وبأبلغ دلالة على أن نبينا ﷺ بلغ رتبة ما بلغها أحد ، والله ما قالته عائشة ، وما أحسن ما قالت عائشة حين نزل عليه قوله تعالى : ﴿ تَرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب: ٥١] ، قالت : أرى ربك يسارع في هواك ، وهو كذلك ، صلوات الله وسلامه عليه .

المحاضرة الخامسة والأربعون:**الإخاء والحلف**

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري إلى أن قال في كتاب الأدب من «جامعه الصحيح» .
وبه قال : حدثنا محمد بن صباح ، حدثنا إسماعيل بن زكرياء ، حدثنا عاصم ، قال : «قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه : أبلغك أن النبي ﷺ قال : لا حلف في الإسلام ، فقال : قد حالف النبي ﷺ بين قريش في الأنصار في داري» .

الروح الاجتماعية في الإسلام:

من الحقائق المتعلقة بهذا الدين الإسلامي الحنيف ، حقيقة لا تخفى ولا سبيل إلى إنكارها يقر بها جميع العارفين بالإسلام والدارسين له ، بين السطحيين منهم والمتعمقين ، وبين الموالين منهم لهذه الملة والمنائين ، ألا وهي أن هذا الدين دين تبدو فيه الروح الاجتماعية بصورة خاصة وبكيفية واضحة .

ومعنى ذلك أن شأن الإنسان فيما يرجع إلى علاقته مع الإنسان يحتل مكاناً أصلياً رئيسياً من بين التعاليم الإنسانية الأولى التي أقيمت عليها شريعة الإسلام ، وذلك الذي جعل الدين الإسلامي يبدو من هذه الناحية غير منسوج على منوال غيره من الأديان ، ولا ناسجاً غيره من الأديان على منواله ، فكان في هذا المعنى نسيج وحده .

نعم إنه من المسلم أنه لما كان معنى المدنية في الإنسان معنى مركزاً في طبيعته الإنسانية ، وكان وضعه في الحياة الطبيعية الأرضية يقتضي له

الشعور بالحاجة إلى التعاون مع غيره ، والتناصر بينه وبين غيره ، والتعاقد مع الآدميين الذين يعيشون عيشته ، ويتأثرون في مقاومتهم للطبيعة الأرضية بنفس العوامل والدواعي التي يتأثر بها هو ، فمن هنالك كان هذا أمراً طبيعياً في الإنسان ، ومنه قيل : إن الإنسان مدني بالطبع .

وإذا كان هذا المعنى المدني الاجتماعي أمراً ثابتاً في الطبيعة الإنسانية اقتضاه وضع الإنسان من الأرض فإن التشريعات الدينية بصورة عامة وجميع التعاليم الروحية التي جاءت بها الأديان ما كان واحد منها بمعزل تام عن هذا المعنى ، وهو المعنى الاجتماعي أو معنى المدنية الإنسانية ، ولذلك فإن الإسلام إذا كان يمتاز بقوة بدو هذه الروح الاجتماعية فيه ، وبكونها سائدة سيادة مطلقة على تعاليمه وأحكامه ، فإن ذلك إنما يكون مزيداً له بعد الاشتراك فيما بينه وبين غيره في أصل المعنى الذي يجمعه وغيره فيما يرجع إلى تقرير الحقيقة المدنية .

والروح الاجتماعية الإنسانية في الإسلام ، من الأمر الذي انفرد به هو زيادته على الأديان ، وعموم العناية بهذه الناحية وشمولها ، مع اشتراكه في جميع الأديان : في أصل وجودها وأصل الارتباط فيما بين المعنى الإنساني الاجتماعي وبين المعاني الدينية الروحية التي أقيمت عليها تعاليم الأديان .

وإذا تأمل الإنسان في تشاريح الإسلام وتدبر في أن من التكاليف الإسلامية ما يجعل الفرد خاضعاً لتكليف إلهي ، مخاطباً بطلب أو بنهي لمصلحة لا ترجع إلى ذاته ولا تتحقق في شخصه ، ولكنها ترجع إلى عناصر تأتلف معه في وحدة اجتماعية ، ولأجل ذلك الائتلاف كان مطلوباً بتلك المعاني التي ورد الخطاب الإلهي بها إليه ، فتدبر مثلاً في قوله تعالى : ﴿ وَمَا

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾
[التوبة: ١٢٢] .

لتبين له أن تكليف طائفة من المؤمنين بأن تهاجر ، وإعفاء طائفة أخرى من ذلك الواجب ، إنما كان لأجل أن يكون المهاجرون في طلب العلم والدين ، عائدين إلى غيرهم بالإرشاد والتعليم الذي من أجله وفي سبيله ولطلبه هاجروا .

وما فروض الكفايات التي وردت في أحكام الشريعة الإسلامية إلا راجعة إلى هذا المعنى ، ومبنية على أن من المقاصد الشرعية التكليفية مقاصد يتحقق المقصود منها بصورة تجعل قيام بعض الجماعة بها محققا للمقصد الشرعي منها ، ومسقطاً للخطاب الإلهي المتعلق باقتضائها من الأفراد الآخرين في مقابلة قيام بعضهم بها ؛ وما ذلك إلا لاعتبار الفرد واعتبار الأمة اعتبار الشيء الواحد .

وكثيراً ما وردت في الخطابات القرآنية ، وفي التعاليم النبوية التعابير التي تقتضي خطاب الأمة بخطاب الجماعة الواحدة ، أو اعتبار الأمة اعتبار الموجود بالنفس الواحدة ، وكذلك ورد في الأحاديث ما يشهد لهذا المعنى باستفاضة ، ففي حديث عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه قال : «بايعت النبي ﷺ على الإسلام فقال لي : والنصح لكل مسلم» .

فجعل النبي ﷺ باشتراط النصح لكل مسلم عليه ، الإخلاص في النصيحة للجماعة وتوليهم ومراقبة أحوالهم ، والحرص على جريها على طريقة الاستقامة ، متمماً للبيعة بحيث إنه لم يقبل بيعة جرير رضي الله عنه على الإسلام إلا بشرط أن يبايعه على النصح لكل مسلم .

منزلة الشريعة الإسلامية من الشرائع الأخرى:

وإذا نحن رجعنا إلى منزلة الشريعة الإسلامية من الشرائع الأخرى بالاعتبار الديني الذي هو مقرر عندنا فيما بين بعض هذه الشرائع وبعض، من حيث إننا نؤمن بها جميعًا، ولا نفرق بين شريعة وشريعة، على معنى أنها كلها من الله، وأنها كلها مشتملة على الحق، وأنها كلها آتية بالهدى والنور، ثم نظرنا إلى نسبة الإسلام من الشرائع الأخرى على حسب اعتبارنا نحن معاصر المسلمين لشريعة الإسلام من الشرائع الأخرى - يتبين لنا الوجه في أن تكون الروح الاجتماعية في الإسلام أقوى منها في بقية الأديان الأخرى وأكثر شيوعًا وشمولًا لعموم التعاليم الإسلامية والأحكام الشرعية التي جاءت بها ديانة الإسلام، فإن نسبة الإسلام من الشرائع إنما تعتبر عندنا نسبة النتيجة من المقدمات، أو نسبة الغاية من السبل التي هي مؤدية إليها.

عصمة الإسلام:

فشريعة الإسلام شريعة محكمة، هي الخاتمة الدائمة التي لا تتعرض إلى نسخ، وذلك هو معنى العصمة الذي عبر به الإمام أبو إسحاق الشاطبي حيث صرح بأن هذه الشريعة معصومة، وأن الشرائع الأخرى وإن تكن مشتملة على الحق وعلى الهدى والنور بحسب ما جاء في أصلها قبل أن يدخل عليها ما دخل عليها من التحريف والتبديل؛ فإنه كان منظورًا فيها إلى شيء آخر يختلف عن هذا المعنى من العصمة التي هي ثابتة للدين الإسلامي، وهو معنى أنها شرائع جزئية مخصوصة ومؤقتة.

فمعنى كونها جزئية أن الخطاب بها والتكليف بأحكامها ليس متوجهًا إلى الخلق أجمعين.

ومعنى كونها محدودة مؤقتة أنها قابلة للنسخ ، وأن بعضها يأتي مغيراً لبعض ما تقدمت به الشرائع الأخرى من الأحكام بصورة تجعل لكل حكم من الأحكام مبتدأ زمنيًا ومنتهى زمنيًا ، بصورة تجعل الأحكام فيها منسوخة غير قارة ولا محكمة ولا معصومة .

وعلى ذلك تعتبر هذه الشرائع في جزئيتها وخصوصها وانحصارها وتوقيتها ممهدة للشريعة الإسلامية ومتقدمة بين يديها لأجل أن تعد الجماعات البشرية جماعة جماعة ، على ما بين بعضها وبعض من الافتراق ومن التباين ؛ لتكون تلك الجماعات كلها مهيئة لليوم الذي تعلن فيه الدعوة العامة للجماعة ، التي تأتي بالشريعة الناسخة المحكمة المعصومة .

الدين الإسلامي غاية الطريق :

فالدين الإسلامي بالنسبة للأديان الأخرى هو غاية الطريق ، وهو الذي جاء - كما قال الله تعالى - مصدقاً لها ومهيماً عليها ، بحيث إنه مصدق لما اقتضته تلك الشرائع من الأحكام والمطالب إيجاباً وسلباً ، ولكنه مقرر أن من ذلك ما يبقى ومنه ما ينسخ ، فمقامه بالنسبة إلى تلك الشرائع مقام الرقيب المعقب الذي يعتبر مهيماً عليها ليقر منها ما هو قابل للإقرار ، وليزيل منها ما هو محتاج إلى الإزالة .

وإذا كان الإسلام يعتبر غاية من بين الشرائع الأخرى ، ونقطة تنتهي إليها الطرق الممهدة التي تتجه نحو تلك النقطة ؛ فإنه لذلك قدم الشرائع بين يديه لتكون تهيئة وتمهيداً ، وأتى هذا الدين السمع في النهاية متأخراً متأخراً يجعله متأخراً في الظاهر ، متقدماً في الحقيقة ؛ لأن تقدم غيره بين يديه إنما كان تقدم الحاجب والممهد .

وذلك هو المعنى الذي قرره الإسلام في وصفه نفسه بأنه الدين الخاتم المتقدم أو المتأخر المتقدم ، وهو الذي أشار إليه قول النبي في حديث الجمعة : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(١) ، وهو المعنى الذي تفنن الشعراء فيما بعد في اقتباسه من هذا المعنى الإسلامي ، فجعلوا من الأشياء ما يأتي مؤخرًا تأخرًا يقتضي له الأفضلية والتقدم على الأشياء التي تقدمت في الزمن بين يديه .

وفي ذلك يقول أبو الطيب في خطابه للأستاذ أبي الفضل بن العميد مادحًا ومعتزًا بصحبته ومجالسته ، ومفتخرًا بذلك على الذين خلفهم من ورائه حين قصد إليه فيقول :

من مبلغ الأعراب أني بعدهم جالست رسطاليس والإسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كتبه متبديًا متحضرًا متعصرًا
ولقيت كل الفاضلين كأنما نسقت نفوسهم لنا والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدمًا وأتوا فذلك إذ أتيت مؤخرًا

وهو المعنى الذي أعجب به أبو العلاء المعري فقال :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
فهو لم يأت بما لم تستطعه الأوائل حتى في هذا البيت ؛ لأنه بيت مأخوذ من المعنى المتقرر في نسبة الإسلام من الشرائع الأخرى المتقدمة بين يديه .

التبشير بالإسلام:

وعلى هذا كانت الشرائع مشتملة على إشعار بمقدم النبي ﷺ وتبشير بمجيء الشريعة الخاتمة المعصومة ، التي يكون بها المنتهى كما ورد في الإنجيل .

(١) أخرجه البخاري (٨٩٨) ، ومسلم (٨٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، به .

وإذا نحن تجاوزنا البشارات التي ذكرت لنا بلسان الصدق في القرآن العظيم ، والبشارات التي نقل علماءنا النصوص المشتملة عليها من الأصول الأولى التي حرفت وصحفت ، وأخفي بعضها وأظهر بعض من العهدين القديم والجديد ، واقتصرنا على ما هو موجود الآن بين يدي اليهود والنصارى ومتعبداً به عندهم في كتب العهد القديم والعهد الجديد ، وجدنا بشارات كثيرة تكاد تكون صريحة في الإخبار بمقدم النبي والتهيئة لشريعته الخاتمة ، لا يمكن العدول بها عن هذه المحامل التي تقتضيها من معاني البشارات إلا بطريقة من التأويل البعيد السخيف ، أو بطريقة من التكلف والتعسف هي التي سلكها أهل الكتابين في تأويلهم تلك البشارات التي تكاد تكون بشارات صريحة غير قابلة للتأويل .

المعنى الاجتماعي والمدني في الإسلام:

وهذا المعنى من العصمة أو القصد إلى الدوام والخلود الذي امتازت به الديانة الإسلامية ، هو الذي اقتضى أن يكون المعنى الاجتماعي فيها معنى قوياً ، وأن يكون المعنى المدني الذي هو موجود في الشرائع الأخرى موجوداً فيها بصورة أصلية أساسية ، وذلك لأن الصبغة الدينية التي هي صبغة مشتركة بين الأديان جميعاً ، لا خلاف في ذلك ، هي صبغة وردت في الجماعات الدينية الأخرى مشوبة بأمور أخرى ، ومختلطة مع عوامل ومقومات غير دينية ، هي التي تقوم بها تلك المجتمعات ، وانعقدت بها أواصر الروابط بين العناصر المؤلفة للمجتمع .

فكان المجتمع مؤلفاً بعوامل دينية وعوامل غير دينية ومصطبغاً بصبغة دينية مشوبة غير خالصة ؛ لأن آثار العامل الديني مختلطة في مظاهرها بالعوامل غير الدينية .

فكان من ذلك ما حصل هذا المعنى من الاختلاط الذي وصل المعاني الدينية بالمعاني غير الدينية بصورة جعلت تلك المجتمعات معرضة إلى نوع من الصراع الداخلي بين مقتضيات العوامل والمعاني التي هي خارجة عن المعنى الديني ومنفصلة عن صبغته ، وبين العوامل والمعاني التي هي راجعة إلى المعنى الديني وغير منفصلة عنه .

أما في الدين الإسلامي فإن المعنيين الديني والاجتماعي قد التحما التحامًا مطلقًا ، وتمازجا تمازجًا تامًا بصورة جعلت المجتمع الديني غير راجع في مقوماته إلا إلى عوامل على تعددها لا تخرج عن الصبغة الدينية ، ولا تنفصل عن العوامل والدوافع الدينية ، فكان من ذلك أن المعنى الديني أصبح خالصًا قويًا في المجتمع الإسلامي ، وهو مشوب غير خالص ، وغير قوي في المجتمعات الدينية الأخرى .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا المعنى باعتبار الأصول التي قررها علماء النفس ، وعلماء الاجتماع فيما يرجع إلى معنى المجتمعات الدينية يتبين لنا أن المجتمعات الدينية مصنفة إلى صنفين : صنف هو المجتمع الديني الأضعف ، أو المجتمع الديني بالمعنى العام غير الأخص ، وهو المجتمع الذي يكون مؤسسًا على أصول ومتكوّنًا بعوامل وآلية روح الترابط الاجتماعي فيه عن دواع ترجع إلى معان غير المعنى الديني من العوامل النسبية ، أو الإقليمية أو السياسية أو الاقتصادية أو غيرها مما يكون أصناف المجتمعات .

وهذا المجتمع الذي يكون مكونًا على هذه الصورة بعامل واحد غير ديني أو بعوامل متعددة غير دينية ، يدخل عليه بعد تكونه الدين فيكون الدين عاملاً جديدًا من عوامل التوحد الاجتماعي ، وداعية أخرى من

دواعي الترابط ، قد تكون أقوى من غيرها ، وقد تكون مساوية غيرها ، وقد تكون أضعف من غيرها بحسب الظروف التي تكونت فيها وبحسب المعاني النفسية والاجتماعية التي استمدت منها ، فينشأ من ذلك أن المجتمع يصبح مجتمعاً مكوّناً بغير العامل الديني .

ولكنه يتأثر بالعامل الديني ويتقوى به ويأتي العامل الديني متظاهراً مع العوامل الأخرى متعاوناً معها في تكوين الوحدة وتقوية اللحمة . ولكن المجتمع لا يكون راجعاً إلى العامل الديني بأسباب تكوينه وعوامل التوحد الاجتماعي التي هي متكونة تحققت فيه .

وأما المجتمع الديني الآخر وهو المجتمع الديني الأقوى أو المجتمع الديني بالمعنى الأخص ، فهو المجتمع الذي لا يكون متكوّناً بأي عامل من عوامل التكون الاجتماعي قبل دخول العامل الديني ، وأن العامل الديني يكون هو المكون الرئيسي والأساسي لدواعي الترابط الاجتماعي التي تؤلف بين الأفراد ، بحيث إنه يدفع الأفراد مباشرة بتأثيره هو وحده إلى أن يأتلف بعضهم مع بعض ، وأن يتعاونوا ويتعاضدوا ويتناصروا ، فيتكون منهم مجتمع على ذلك الأساس الديني يكون الدين وحده هو الذي يسيره ويكون بقاء العقيدة الدينية وحده هو الذي يضمن بقاءه ، بخلاف ما يكون في المجتمعات الأخرى ، فإنه مع بقاء العقيدة الدينية تأتي عوامل أخرى من دواعي الانفصال ، تتخفى على ذلك المجتمع بالتفتت والإخلال .

بعثة كل رسول إلى قومه فقط :

وإذا نحن رجعنا إلى المجتمعات الدينية على هذا الأساس فإنه يتبين لنا أن المجتمعات الدينية غير الإسلامية في خصوصها ، وفي توقيت التعاليم

التي تكونت بها ، إنما ترجع إلى الصنف الأول في الذكر من هذين الصنفين ، وهو صنف المجتمع الديني الأضعف ، فقد كان الرسل موجهين إلى أقوامهم .

وقد ذكر الله تعالى -كلما ذكر نبيًا من الأنبياء تقريبًا- أنه بعث لقومه أو قال لقومه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [نوح : ١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف : ٦٥] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [الأعراف : ٧٣] ، وقال جل ذكره : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف : ٨٥] ، وقال في إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ [العنكبوت : ١٦] .

إلى غير ذلك مما يدل على أن خطاب كل رسول من الرسل الآخرين ، إنما كان موجهًا إلى قومه وعلى أن إتيان كل واحد منهم بعد الآخرين لم يكن إلا على معنى أنه يصدق الرسول فيما جاء به ، ولكنه ينهي قيام الشريعة التي جاء بها فيحل بعض ما حرمه الرسول السابق ويحرم بعض ما أحله ، كما وقع من المسيحية بالنسبة إلى اليهودية .

وإذا اقتصرنا من بين الأديان على الدينين الكتابيين الشهيدين : وهما دين اليهودية المبني على شرائع العهد القديم ، ودين النصرانية المبني على تعاليم العهد الجديد ، فإنه يبين لنا أن الوحدة القومية النسبية وهي وحدة الرابطة التي تؤلف بين الأسرة ، التي تولدت منها عشيرة ثم تولدت منها قبائل ، ثم تكونت منها أمة ذات شعب ، وهم بنو إسرائيل ، إنما كانت هي وحدها المنظور إليها بالخصوص في جميع التعاليم والخطابات الإلهية ، والشرائع التي جاء بها موسى وجاء بها أنبياء العهد القديم من بعده ، ثم جاء بها المسيح عليهم السلام ، فموسى جاء نبيًا لبني إسرائيل ، والله تعالى

يقول : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ آذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٢٠] .

والمسيح ﷺ إنما جاء أيضًا لبني إسرائيل كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦] ، وعلى ذلك فإن هذا الخطاب الإلهي الذي جاء به موسى في العهد القديم ، وأعقبه المسيح في العهد الجديد ، إنما كان خطابًا موجهًا إلى أمة مؤتلفة بعامل نسبي ضيق ، لا يسمح لغيرها بأن يكون مشمولًا في هذا الخطاب ، ثم إن ما عرض للمسيحية من المعنى العالي الانتشاري ، لم يكن معنًا أصليًا فيها ولا واردًا في خطابات المسيح ﷺ ، وإنما كان أمرًا راجعًا إلى ما قام به أصحاب المسيح ﷺ ، وهم رسله وحواريوه لما تفرقوا في الأمم ونشروا دعوة المسيح ، وعمموا في الدنيا البشارة التي جاء بها .

ثم ما وقع بعد ذلك من إيمان القيصر الروماني قسطنطين في القرن الرابع من التاريخ المسيحي ، بصورة جعلت المسيحية دين السلطنة الرومانية ، فدخلت بذلك على مجتمع سياسي له مقوماته الاقتصادية والاجتماعية ، فجاء الدين المسيحي عاملاً أضيف إلى العوامل الأولى التي كونت ذلك المجتمع ، متظاهراً معها في إقامة الوحدة على معان مختلفة ، وعوامل متعددة ، يرجع بعضها إلى العقيدة الدينية ويرجع بعضها الآخر إلى عوامل منفصلة عن العقيدة الدينية .

الإسلام دين للناس كافة :

أما المجتمع الآخر وهو المجتمع الديني بالمعنى الأقوى أو المجتمع الديني بالمعنى الأخص ، الذي ائتلف من أول مرة على أساس الدين ، ولم تكن العناصر التي ألف بها الدين مسبوقة بعامل من عوامل التوحد مسها

أو تعلق بها من قبل ، فإنه قد توجه إلى الناس باعتبار كونهم آدميين ، معتمداً أشخاصهم لا جماعتهم فكانت دعوتهم بذلك دعوة إنسانية ؛ لأنه توجه إلى الإنسان من حيث كونه إنساناً ولم يتوجه إليه من حيث كونه راجعاً إلى رابطة من الروابط ، أو كتلة من الكتل أو متأثراً بداع من دواعي الترابط الاجتماعي سابق للداعي الديني ، الذي جاءت به تلك الدعوة .

فكانت دعوة الإسلام بذلك دعوة إنسانية ، لم يتوجه فيها الخطاب الإلهي إلى أمة من الأمم ، ولا إلى عنصر من العناصر ، وإنما توجه إلى الناس جميعاً لقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] ، ثم جاء يقرر العلاقات الإنسانية على أساس الاتصال بين الفرد والفرد بصورة لا تحددها ولا تفصلها ولا تفصلها العلاقات التي تربط بين بعض الأفراد وبعض في روابط أخرى ، وتجعلهم منتمين إلى شعوب وقبائل ، هي التي تفرقت بها الوحدة الإنسانية ، فبعد أن توجه الإسلام إلى الناس من حيث كونهم ناساً فقط ، لا باعتبار عصبيتهم وكتلهم ، وبعد أن قرر لمعنى الإنسانية ما يشترك فيه البشر جميعاً من الحقوق ، التي منها حفظ النفس ، ومنها حرمة المعتقد ، ومنها حرمة الأعراض ، ومنها حماية الناس من الأذى ، ومنها الرحمة العامة لجميع الآدميين ، غير مخصصة برابطة ولا متأثرة بداع من دواعي الترابط الاجتماعي دون غيره .

فإن هذه الدعوة الإنسانية قد انبنى عليها أن الذين خاطبوا بها ، منهم من استجاب إليها ، ومنهم من لم يستجب ، فالذي لم يستجب إليها بقي على الحقوق الإنسانية الأصلية التي هي حقوق الإبقاء على النفس والإبقاء على الكرامة ، والإبقاء على الحريات ، فجعل السلام أساساً لجميع العلاقات التي تربط البشر بعضهم ببعض .

وأما الذين استجابوا فإنه قد تكون من استجابتهم الصادرة من مختلف الأفراد وعديدهم بصورة متحدة متلاقية ما كون إرادات متعددة متلاقية ، وذلك هو أساس معنى التعاقد فتكون بتلك الاستجابة الفردية عقد فيما بين الأفراد المستجيبين ، ربط بين جميع الأفراد الذين استجابوا لتلك الدعوة الإنسانية بالإرادات المتوافقة المتلاقية المتجاوبة بما كون مجتمعاً ناشئاً بالاختيار كما تنشأ العقود .

وجعل أساس الروابط في ذلك المجتمع راجعاً إلى التعاليم الإلهية التي استجاب لها العناصر المؤلفون لهذا المجتمع استجابة اختيارية بعد أن تلقوا الدعوة الإنسانية العامة ، التي آمنوا بها وكفروا بها آخرون .

المجتمع الديني أقوى المجتمعات :

وعلى ذلك فإننا إذا صنفنا المجتمعات كما صنفها علماء الاجتماع المحدثون إلى مجتمعات تتمايز وتتباين بحسب عوامل التوحيد الاجتماعي بين مجتمعات نسبية ومجتمعات جغرافية ومجتمعات سياسية ومجتمعات اقتصادية وغيرها ، ثم وضعنا أمامها المجتمع الديني فإنه يتبين لنا أن المجتمع الديني على اختلاف صنفه : أعني الديني الأقوى والديني الأضعف يعتبر أقوى المجتمعات .

بل إن كثيراً من علماء الاجتماع يرون أن جميع العوامل من سياسية واقتصادية وغيرها إذا لم يصحبها عامل اعتقادي تطمئن به النفس اطمئناناً باطنياً إلى لزوم الارتباط مع غيرها من حيث الجهة التي ترتبط معها ، وذلك ما يكون معنى العقيدة ، فإن المجتمع لا يتكون ومن هنالك قيل : إن جميع المجتمعات إنما ترجع من قريب أو من بعيد إلى أساس اعتقادي ديني ، بحيث إننا إذا وجدنا العوامل الظاهرية ترجع إلى علل أخرى مختلفة ، فما تلك العلل

إلا ظروف ومناسبات وليس الداعي الحقيقي إلا اعتقاد الفرد أن من ضرورته أن يتعاقد، وأن يتآخى مع الأفراد الآخرين في الرابطة التي تؤلف بينه وبينهم في ذلك المعنى الذي أساسه دائماً معنى اعتقادي .

عوامل التوحد في المجتمع الديني :

وكذلك يبدو لنا أن المجتمع الديني يمتاز بأنه إذا كان غيره من المجتمعات يحصل فيه التوحد الاجتماعي بعامل واحد مفرد، فإن المجتمع الديني لا يحصل فيه معنى التوحد الاجتماعي إلا بعوامل متعددة لا يمكن أن تكون أقل من ثلاثة عوامل، وهي عامل الاعتقاد وعامل العبادة وعامل تحديد العلاقات الاجتماعية .

عامل الاعتقاد :

أما عامل الاعتقاد فهو الأساسي والأصلي ؛ لأنه الذي يرجع إلى معنى الدين ؛ لأن الدين إنما هو عبارة عن مجموعة من القضايا التصديقية ترجع إلى عالم الغيب، مما لا يستقل بالحكم فيه العقل ولا الحس ولا الغريزة، فيكون حصول الاعتقاد عند فرد وشعوره بأن ذلك الاعتقاد بنفسه موجود عند فرد آخر داعياً من دواعي الترابط الاجتماعي فيما بين هذين الفردين، بناء على أن ذلك الإدراك الثاني الذي يرجع إلى العالم الغيبي، والذي يعتبره كل واحد أشرف ما تنطوي عليه نفسه من المدارك، يعتبر مؤلفاً فيما بين الفرد والفرد باعتبار أن اتحاد المعنى الأشرف في مدارك كل منهما يجعل اتحادهما وترابطهما تابعاً لذلك الاتحاد، وهذا العامل وهو العامل الاعتقادي، هو عامل مطرد في جميع الديانات، وهو الذي تنبعث منه جميع الوحدات الاجتماعية التي تكونها العوامل الدينية وتصير مجتمعات دينية بالمعنى الأقوى والأوضح .

عامل العبادة والتوحد الاجتماعي :

وأما العامل الثاني، وهو عامل العبادة، فإنه يتصنف إلى صنفين، ويتفرع إلى فرعين : وهما العبادة الفردية والعبادة الجماعية وهو أيضًا مطرد في جميع الأديان وكثيرًا ما يكون هذا المعنى الثاني، وهو عامل الشعور بوحدة العبادة فردًا وجماعة، ممهدًا للمعنى الثالث أو العامل الثالث من عوامل التوحد الاجتماعي، وهو تحديد العلاقات الاجتماعية؛ لأن تلاقي الأفراد في عبادتهم لأجل إقامة العبادة الجماعية من شأنه أن يكون لهم حاجة مشتركة من الحاجات المادية ولو في تعيين الأرض التي يجتمعون فيها للعبادة، وفي تمهيد الطريق الذي يؤدي بهم إلى تلك الأرض، وفي ضبط الساعة التي يتلاقون فيها مما يكون تحديد علاقات اجتماعية مادية تكون متفاوتة بين الأديان، ويكون منها الشامل، ومنها المقصور على بعض النواحي من العلاقات الاجتماعية فقط.

شمولية التوحد الاجتماعي في الإسلام :

وفي هذا المعنى وهو العامل الثالث من عوامل التوحد الاجتماعي الذي هو تحديد العلاقات بين أفراد المجتمع يمتاز الدين الإسلامي على غيره من الأديان بذلك المعنى الذي ابتدأنا بتقريره آنفًا، وهو أن تحديد العلاقات الاجتماعية غير شامل في الأديان الأخرى وهو متفاوت بين بعضها وبعض، قد يكون في بعضها أكثر اطرادًا منه في البعض الآخر، ولكن لا يشمل جميع نواحي الحياة الاجتماعية، بل يكون متناولا لبعض، مما يعتبر قريبًا من المعنى العبادي وغير متناول للبعض الآخر مما يعتبر بعيدًا عن المعنى العبادي ومنفصلاً عنه.

وأما في الإسلام فإن هذا المعنى يعتبر مطردًا اطرادًا شاملًا بحيث إن كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية للفرد هي متعلقة بأحكام دينية تجعلها راجعة إلى العامل الثالث من عوامل التوحد الاجتماعي ، وهو عامل تحديد العلاقات الاجتماعية .

ففي الإسلام لا ينفك المعنى الاجتماعي عن المعنى العبادي أبدًا ، فالمعاني التي تبدو اجتماعية ، أو تبدو راجعة إلى أمور فيما بين الإنسان والإنسان ، هي منظور إليها في الإسلام على غير هذا المعنى .

وإنما هي منظور إليها على معنى أنها أفعال من المكلف يتعلق بها الخطاب الإلهي الذي يقتضي الفعل أو الترك ، أو الإباحة بصورة تجعل المجتمع الإنساني متعلقًا ، ولا تجعله موضوعًا .

أما الموضوع الذي منه ترجع تلك الأعمال إلى الامتثال لمعنى التكليف الإلهي ، والاستجابة للخطاب الإلهي المتعلق بفعل المكلف فهو الذي يجعل الدين موضوعًا لها وحده ، ويجعل غير الدين من المعاني الإنسانية متعلقًا بذلك الموضوع وراجعًا إليه ، وهذا المعنى هو الذي من أجله لم تكن الشرائع المنسوخة غير المحكمة ، وغير المعصومة شاملة لتحديد العلاقات الاجتماعية لأن عدم شمولها لتحديد العلاقات الاجتماعية يجعل من بعض النواحي التي لم تشملها ما قد يكون طاغيًا على المعنى الاجتماعي الذي أتى به الدين ، ويكون قاضيًا بانحلال المجتمع الديني أو تفتته .

ولما كانت هي زائلة ومنظورًا فيها إلى أمد معين ؛ فإن وجود العنصر الذي من شأنه أن ينهي قيام الحكم الديني ، لا يكون متنافيًا مع حقيقتها الذاتية التي هي حقيقة مؤقتة .

وأما الشريعة الدائمة التي هي محكمة ومعصومة غير منسوخة ، فإنها ضرورية البقاء ، وإذا كانت ضرورية البقاء فإنها تكون غير قابلة لأن تتعرض إلى ما من شأنه أن يأتي على المعنى الاجتماعي الذي أسسه الدين ، فيكون قاضياً عليه بالافتراق أو بالانحلال ، ولذلك لزم أن تزول جميع الشوائب عن هذا المجتمع الديني بالمعنى الأكمل ، وأن يعتبر بقاؤه منوطاً ببقاء جامعة لا تكون متعرضة إلى معاني الافتراق التي قد تأتي على الوحدة الدينية فتهدمها وتعصف بها .

فالإسلام اقتضى بالضرورة أن يكون تعلقه بتحديد الروابط الاجتماعية تعلقاً شاملاً حتى لا تكون الوحدة التي أسسها الدين معرضة إلى الانحلال بما يعرض بين الشوائب غير الدينية وبين داعية الترابط الاجتماعي التي هي آتية من الدين من تناف ، يجعل تلك المعاني متمالية على المعنى الديني وقاضية عليه بالاضمحلال .

وفي هذا المعنى من الاتجاه المباشر إلى تحديد العلاقات الاجتماعية وشمولها شمولاً مطرداً ، فإن الديانة الإسلامية لم تهدم المجتمعات القائمة ، ولم تقض على عوامل الترابط الاجتماعي التي هي موجودة بين البشر ، ولكنها تجاوزتها فوسعت معناها ، وأحكمت الربط فيما بين بعضها وبعض ، ولم تجعل منها غاية تنتهي إليها الارتباطات بين البشر ، ولكنها جعلتها منسقة في رباط أعلى هو رباط الجامعة الكبرى ، التي تقوم على اعتبار تلك المجتمعات الجزئية ، ولكنها لا تقنع بها ولا تجعلها غاية .

فوحدة العائلة ووحدة القبيلة ووحدة الوطن ووحدة القوم قد اعتبرها الإسلام كلها وجاءت تشاريعه وتعاليمه مبنية على الإقرار بها واعتبارها ، وعلى التوسع في معناها والسير بها إلى معنى يلائم بين بعضها وبعض ،

ولا يجعل من بعضها منافياً للآخر ولا محارباً له ، وجاءت أحكام الدين الإسلامي مهمة بالأسرة وبأحكام نظامها وبتقرير الحقوق والواجبات فيما بين أفراد الأسر ، مما بين الزوج والزوجة ، وبين الوالد والأولاد وبين الأولاد والوالد إلى غير ذلك من المعاني الرابطة لوحدة الأسرة ، والأحكام التي هي مقررّة لبقائها وحافطة لكيانها .

وتكرر في تعاليم الدين الإسلامي الوصاية بالرحم وتأكيد صلة الرحم بمعنى جعل الرابطة العائلية التي هي مبنية على الرحم رابطة معتبرة ، ومنظوراً إليها في أحكام الإسلام ، ولكنها غير مقتصرة عليها ، ولا واقف الأمر دونها ، ثم جعل القبيلة معتبرة كذلك في معان كثيرة من معاني العائلة ، ومعاني القسامة ومعاني الميراث بالتعصيب ، إلى غير ذلك من الأحكام التي اعتبر فيها كيان القبيلة .

وجعل الرابطة الوطنية معتبرة اعتباراً أكيداً ، فجاءت الوصية بمحبة الأوطان ، وجاءت الوصية برعاية حقوق الجار .

وورد عن النبي ﷺ شيء كثير فيما يتعلق بحبه لمكة ، وحنينه إليها وإلى معالمها ، وحنينه إلى ماء زمزم ، وورد شيء كثير من ذلك أيضاً يقتضي محبة النبي ﷺ للمدينة التي هي وطنه الثاني ، ودعاؤه لها ولأهلها إلى غير ذلك مما هو مستفيض معروف ، مما اعتبر فيه المعنى الذي يجعل الوطن محبوباً ، لكنه لا يجعله غاية من المحبة ، ولا فاصلاً بين المعنى الاجتماعي الأعلى ، وهذا المعنى من التلاقي في حب الوطن وإيثاره وفدائه .

وفي القوميات جاءت تعاليم الإسلام أيضاً تقتضي اعتبار القومية ، فقد اعتبر النبي ﷺ وحدة العرب ، واعتبرها وحدة نسبية للجامعة الكبرى ، وأوصى بمحبة العرب وتوليهم ، ففي حديث سلمان خذله عنه أن النبي ﷺ

قال له : « لا تبغضني فتفارق دينك ، فقال له سلمان رحمه الله : كيف أبغضك يا رسول الله ، بك هداني الله ، فقال : تبغض العرب فتبغضني ببغضهم » ، وهو حديث أخرجه الإمام الترمذي في « جامع » .

وفي حديث عثمان بن عفان رحمه الله وهو أيضاً في « جامع الترمذي » : « من غش العرب لم يدخل شفاعتي ، ولم تنله مودتي » ، وكما اعتبر وحدة العرب وقوميتهم فإنه اعتبر وحدة غيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام ، فقد ورد : « لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله قوم من فارس » أخرجه الترمذي أيضاً .

وعلى هذا يمكن الجمع بين المعاني التي اقتضت عدم الاعتراف بهذه الروابط ، وبين المعاني التي اقتضت تأكيدها ، فإن عدم الاعتراف بها يرجع إلى معنى أنه لا يعترف بأنها غاية ، وأنها ليست مفرقة ولا فاصلة ، ولا مشتتة للجماعة .

والوصاية بها ترجع إلى معنى أنها مرحلة في سبيل الوحدة الكبرى ، وليست غاية في ذاتها ، ولكنها طريق إلى غيرها .

فالمعنى حينئذ يدور على معنيي القطع والوصل ، فكل ما كان قاطعاً عن الجامعة الكبرى كان مذموماً ، وكل ما كان متصلاً بالجامعة الكبرى كان محموداً .

وأصل هذا يرجع إلى قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] ، فكذلك كانت هذه الروابط إذا كانت راجعة إلى معنى البر والتقوى اللذين جاء بهما الدين ، فهي روابط معتبرة على معنى أنها تعيش في نطاق الوحدة الكبرى .

وإذا كان على معنى أنها مفرقة وفاصلة ومشتتة فهي مذمومة ومردودة ؛ لأن الوحدة الكبرى يجب أن تتقوم منها لا أن تكون متنافرة معها ، وهذا المعنى هو الذي خرج عليه حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه وهو الذي أخرجه مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حلف في الإسلام ، وأيما حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » .

فهذا المعنى يقتضي هدم الأحلاف باعتبار وإثباتها باعتبار آخر ، فالأحلاف التي تكون مفرقة لوحدة المسلمين ، ومبينة على معنى عصبيات بغیضة هي التي نفيت ، والأحلاف التي تكون راجعة إلى معنى التعاون على البر والتقوى وخدمة مبادئ الدعوة الإسلامية ودعم كيانها هي التي تكون محمودة ، ولو كانت حاصلة قبل الإسلام وسابقة له ، مثل الأحلاف في الجاهلية : حلف الفضول ، وحلف المطييين وغيرهما من الأحلاف التي كانت مبنية على التعاون على الخير والحق ، وإغاثة الملهوف ومقاومة الحرب ، وإشاعة السلام إلى غير ذلك من المعاني التي جاءت بها الدعوة الإسلامية واعتبرت أسسًا لها ، وهذا يرجع إلى معنى العصبيات .

فإن العصبيات بذاتها قد تكون عصبيات مذمومة ، وقد تكون عصبيات محمودة ، فإذا كانت العصبية متجهة إلى حيث تتلاقى مع المعاني الكبرى التي جاءت بها الدعوة الإسلامية ، وأقيمت عليها جامعتها ، فهي عصبية ممدوحة ، وهو ما ورد في حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما العصبية ؟ يعني التي نهي عنها ، فقال : أن تعين قومك على الظلم » ^(١) .

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٩) ، وابن ماجه (٣٩٤٩) ، وأحمد في «المسند» (٤ / ١٠٧ ، ١٦٠) ، والطبراني في «الكبير» (٩٨ / ٢٢) عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعًا ، به .

وورد في حديث سراقه بن مالك الذي أخرجه أبو داود: «خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم»^(١)؛ وبهذا يتبين أن المقياس في جميع هذه الروابط من الأحلاف والعصبيات وغيرها لا يرجع إلى صورها وأشكالها، ولكن يرجع إلى معانيها وأرواحها.

فكل ما كانت روحه روح الدين الإسلامي، وكان مقرباً لطائفة من المسلمين، أو من البشر عموماً، بعضهم على بعض على أساس أعمال يمدحها الإسلام ويدعو إليها - كان محموداً، وكل ما كان مبيناً على معان من شأنها أن تفرق أو أن تدعو إلى البغضاء، أو أن تشيع الفواحش - كان مذموماً، وعلى ذلك يمكن الجمع بين متعارض الأحاديث.

فالحلف الذي كان في الجاهلية، والذي أشار النبي ﷺ إلى أن الإسلام لم يزد إلا شدة، هو في الغالب من الأحلاف التي عقدها قبائل من العرب بدعوة من حكمائهم وعقلائهم، كانت نتيجة لما لاقوا من أهوال الحروب، وما أصاب مجتمعاتهم من ويلات كانت الحرب متسببة فيها، فجاء الإسلام يؤيدها ويقرها.

وتلك من أمثال الأحلاف التي ذكرها زهير في معلقته، والتي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته أيضاً وغيرها.

والأحلاف الأخرى التي هي عبارة عن عقود عدوانية أو عن دعاوى باطلة، من شأنها أن تجعل الفرد متحالفاً مع الجماعة على معنى أنه صار

(١) أخرجه أبو داود (٦٩٩٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦٩٩٣)، وفي «الصغير» (١٠٢٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٩٧٤) من طريق أيوب بن سويد، عن أسامة بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن سراقه بن مالك رحمته الله مرفوعاً، به. وضعف أبو حاتم الرازي. انظر «علل الرازي» (٢١١٧، ٢١٨٠).

منهم ، وأنهم ينصرونه ظالماً أو مظلوماً ، وأنهم يورثونه وإن لم يكن من قرابتهم ، فهذا من الباطل الذي جاء الإسلام بإبطاله ؛ لأنه لا يقر ظلماً ولا يقر باطلاً ولا زيفاً ، فكما أبطل الإسلام أحكام التبني أبطل أحكام هذا الولاء الذي يجعل الواحد منوطاً بقبيلة غير قبيلته كما قال الشاعر الجاهلي :

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطيئنا يسألون التساويا

الشخص ونسبته من المجتمع :

وفي هذا الاعتبار الذي يعتمد في التفرقة بين العصبيات ، أو الأحلاف التي يذم منها ما يذم ، ويمدح منها ما يمدح ، ينبغي أن يرجع إلى ملاحظة معنى الشخص أو الذات ، ونسبته من المجتمع وذلك هو موضوع البحث الذي يتعلق به الحديث ، الذي جعلناه موضوع تعليقنا في كلامنا هذا ؛ فإن الشخصية تعتبر زائلة متلاشية في بعض الاجتماعات ، بحيث إن الوحدة تعتبر أساساً ، ويعتبر شعور الشخص بحقيقته الذاتية منشقاً من روح الوحدة ، وقد تعتبر أساساً لتلك العلاقات ، بحيث إن شعور الجماعة بوحدتها يكون مستمداً من شعور الشخص بذاته ، وراجعاً إلى شعور الشخص بذاته ، فجاءت الدعوة الإسلامية تؤكد الشخصية الفردية للإنسان وتجعلها مدد الشعور بالذات شعوراً فردياً أولاً ، ثم شعوراً اجتماعياً مرتباً عليه .

وعلى ذلك جاء هدم الحواجز التي تحول بين الشخصية وبين البروز في مجال الشعور الاجتماعي من التعلق بالسيادات الوطنية والقومية ، أو التعلق بالأقاليم ، أو التعلق بالإنسان على معنى يجعل كل حقيقة من هذه الحقائق مباينة للحقائق الأخرى ومنفصلة عنها ، ففي اتحاد المسلمين نرى المثل الأول ،

أو المثل الأكمل ، هو الذي جرى في مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، فإن المهاجرين الذين هم من قريش قد هجروا وقطعوا أقوامهم وأصبحوا أعداء لقريش الذين هم منهم ، محاربين لمكة التي هي وطنهم .

والأنصار الذين هم من الأوس والخزرج ، وموحدون مع إخوانهم المهاجرين ، ومتخلين عن معاني الخصوصية والإيثار التي تربط بينهم وبين وطنهم أو مدينتهم ، وعلى ذلك تكون الوطن الإسلامي الأول تكوناً حقيقياً ، على أساس أن الوطن يستمد حقيقته من كيان الأمة ، لا أن الأمة تستمد حقيقته من كيان الوطن وحدوده الترابية .

وعلى ذلك سميت المدينة المنورة التي ألفت هذا المجتمع المثالي الأول «المدينة» كانه إلهام إلهي ، أو وحي صريح ساق النبي ﷺ إلى أن يسميها باسم يشير إلى معنى المدينة الفاضلة التي لم تزل حلم الفلاسفة والحكماء منذ زمان ، فتكون على هذا الأساس الشخصي الإنساني المجتمع الإسلامي الأول ، وبدت فيه الشخصية الفردية للمسلم متوجهة إلى الرباط الاجتماعي ، الذي يصل بين الشخص والشخص في محيط العلاقات الاجتماعية ، التي هي مستمدة من روح الوحدة الدينية الجامعة .

وقد جاءت آيات القرآن العظيم وأحاديث النبي ﷺ تقضي بدعم هذا المعنى وتقويته فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، وقال النبي ﷺ في حديث ابن عمر المخرج في «الصحيحين» : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» ، أو حديث أبي موسى الأشعري الذي في «الصحيحين» أيضاً : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» .

وعلى ذلك مضى المثل الواقعي للتاريخ الإسلامي ، فطالما عرض هذا المجتمع إلى زلازل وأزمات وعواصف ، ولكنه بقي ثابتاً نظراً إلى أن روحه التي قام بها والتي عاش بها هي روح رابطة موحدة ، ترجع إلى التناسق بين المعنى الحيوي الاجتماعي ، وبين المعنى الديني ، نظراً إلى أن الحقيقة الاجتماعية فيه ليست إلا متولدة من الحقيقة الدينية .

هل « لا حلف في الإسلام »؟

وبهذا الاعتبار من التفرقة بين الأحلاف والعصبيات والروابط المحمودية وغير المحمودية ، توجه عاصم بن سليمان الأحول من التابعين إلى أنس بن مالك رضي الله عنه يسأله أبلغه أن النبي ﷺ قال : « لا حلف في الإسلام »^(١) .

وهذا التوجه إنما يدل على أن الشعور باستشكال هذا المعنى ، وبخفاء وجه التفرقة بين ما هو مقبول محمود ، وبين ما هو مردود مذموم من الروابط والأحلاف والعصبيات ، إنما كان مشعوراً به ضرورة أنه توجه بالسؤال عنه إلى أنس رضي الله عنه ، وإنما كان توجهه بهذا السؤال الذي ظاهره سؤال عن بلاغ هذا لأنس أبلغه قصداً إلى السؤال عن حقيقة مضمون ما بلغه : هل هو أمر وارد حقيقة في الإسلام أو غير وارد؟ .

فكما أن الجملة الخبرية تستعمل في فائدة الخبر وهي المضمون الحكمي وتستعمل في لازم الفائدة وهي علم المتكلم بها ، فإن الجملة الإنشائية هنا ، وهي الجملة الاستفهامية ، إنما وردت على معنى أن السؤال في ظاهره متعلق بمعرفة المخاطب بالحكم ، وهو في باطنه راجع إلى تصحيح الحكم

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٤) ، ومسلم (٢٥٢٩) من طريق عاصم الأحول ، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ، به .

في ذاته ، وإنما كان التوجه في ذلك إلى أنس نظراً إلى أنه مظنة المعرفة ، لما هو معروف مشهور من ملازمته للنبي ﷺ وفوزه بخدمته ورضاه ، وأنه الذي يرجع إلى البيت الذي كان النبي ﷺ يرقاه ويحبه ويتولاه ، وهو بيت أمه أم سليم ، وزوج أمه أبي طلحة الأنصاري .

وإلى ذلك المعنى يشير أنس بقوله في جواب السؤال : حالف النبي ﷺ بين قریش والأنصار في داري ، فقوله : «في داري» ورد في بعض الروايات وهي التي أخرجها الإمام البخاري هنا هكذا بالافراد ، ورد في بعضها بالجمع : «في دارنا» ، وهي دار أبي طلحة وأم سليم .

وإنما جاء ذكر الدار هنا لنكتتين لا تتزاحمان : الأولى التأكيد والتثبيت ؛ كأن يقول الإنسان : شهدت هذا بعيني ، وسمعت به بأذني ، والثانية : أن هذا البيت الذي أشار إليه أنس بقوله : «داري» أو «دارنا» إنما هو بيت مبارك ، بارك النبي ﷺ فيه ، وصلى فيه ، ودعا لأهله بالخير والبركة ، فكان ذكر وقوع الحلف فيه إشارة إلى أنه وقع في مكان فاضل ، ليس من شأنه أن تقع فيه إلا الأمور الفاضلة ، كما وقع من بعض التابعين لما سئل : أيجب على الشارب أن يجلس ، فقال : شرب النبي ﷺ من زمزم واقفاً ، فأجاب ضمناً بأن الشرب غير جالس قد وقع من أكرم الشاربين لأكرم مشروب .

وكما ورد اختلاف في الرواية ، بين الإطلاق الذي ورد في رواية المصنف هنا وهو : داري أو : دارنا ، وبين التقييد بقوله : مرتين أو ثلاثة ، وهذا يقتضي التكرار الحقيقي على احتمال ، ويكون ذلك التكرار راجعاً إلى تعدد الأشخاص الذين آخى النبي ﷺ بينهم ، وحالف فيما بين واحد منهم والآخر مما أخرج به البخاري تحت الترجمة ، قبل هذا الحديث تعليقاً أو إسناداً من مؤاخاة النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، ومؤاخاته بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما جميعاً .

وإما أن يكون التعدد مرتين أو ثلاثاً راجعاً إلى معنى الكناية بالثنية وبالجمع على معنى التكرار بدون نظر إلى خصوصية العدد .

وعلى ذلك يكون ذكر العدد غير مقصود ولا مفهوم له ، وإنما تكون للتريد على معنى أنه يكتفى عن ذلك بالمرتين أو الثلاثة ، ويجعل ذكر الثلاثة بعد المرتين قرينة على أن المراد بالمرتين مطلق الكثرة والتعدد كما نقول غير مرة ، وذلك وإن كان من لوازم التعدد فإنه أخذ شيئاً من لوازم المشبه به وجعله قرينة على التشبيه على طريقة الاستعارة المكنية .

وهذا المعنى وهو استعمال اسم العدد تمثيلاً للكثرة ، ولا سيما في الثنية ، قد ورد في مواطن كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك : ٤] .

ومنها حديث البخاري في الكلمات التي حث عليها النبي ﷺ على التعلق بها ، وعبر عنها بالكلمتين ، وإن كانت كلمات ، وذلك في حديث : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» .

اللهم كما شرفت هذه الملة فجمعت جامعتها بكلمتك ، وجعلت أخواتها من نعمتك ، وطهرتها من حمية الجاهلية ، وسموت بها فوق روابط العصبية ، فأدم عليها بفضلك رابطة الإخاء ، ولا ترحزها عن منزلة السيادة القعساء .

اللهم إنك قلت -وقولك الحق- : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فها نحن أولاء نستحضر النبي ﷺ في هديه وسنته ، ونجار إليك بالتوبة والاستغفار من كل ذنب وحوبة ، فاغفر لنا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

اللهم لا تجعل من خطايانا حائلاً بيننا وبين أبواب رحمتك ، واجمع
قلوبنا على طاعتك ، ووفقنا لإقامة وحدة ملتك ، وأعنا على تخلص الحرم
القدسي بعظيم قدرتك .



المحاضرة السادسة والأربعون:

وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله

قال الله تبارك وتعالى من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (TV) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (TA) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴿[الفتح: ٢٧-٢٩].

رؤيا الرسول ﷺ:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...﴾ الآية . ما هذه الرؤيا؟

الرسول ﷺ رأى في المنام ورؤيا الأنبياء وحي ، رأى في المنام أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين ، غير خائفين ، محلقين رؤوسهم ومقصرين ، رأى هذه الرؤيا ﷺ فأخبر أصحابه بهذه الرؤيا وكانوا في الحديبية ، كما روى السيوطي عن عبد بن حميد عن مجاهد أن هذه الرؤيا كانت في الحديبية بعد أن وصلوا إلى الحديبية ، وأخبر أصحابه بهذه الرؤيا ، فسر الصحابة لأنهم تعودوا أن رؤيا الأنبياء حق ، ورؤيا رسول الله ﷺ صدق ، واستبشر الصحابة بهذه الرؤيا ، ولكن ماذا بعد هذه الرؤيا التي بشر بها الرسول أصحابه؟ هل جاءت البشائر تترى وراء بعضها لتصدق الرؤيا؟ أبداً والله ما جاء إلا كل عقبة كأداء ، فوقع الصحابة بين نارين ، الرسول صادق ، والظروف التي بعد الرؤيا ظروف لا تطمئن النفس ولا تبشر بخير .

هاهم أولاء قربوا من الحديبية فإذا ببشر بن سفيان الكعبي يتلقاهم ويقول : يا رسول الله ، يا محمد إلى أين؟ قال ﷺ : «أريد أن أزور البيت» . قال : إن قريشًا علموا بمقدمك ، وقد خرجوا من البلد ، وخرجوا ينتظرون قدومك ، ولبسوا جلود النمر ، وحلفوا وتعاهدوا ألا تدخل مكة أنت وأصحابك ، وقدموا الخيل بقيادة خالد بن الوليد إلى كراع الغميم ، وهاهم أولاء على أهبة الاستعداد للقتال والمحاربة ، فارجع يا محمد ، فقال رسول الله ﷺ : «إني أريد أن أزور البيت ، ونحن في الأشهر الحرم ، وفي الأشهر الحرم يزور كل الناس بيت الله ، وأصحاب الثارات يغمدون سيوفهم ، ولا يأخذ أحد بثأره من أحد ، يتقابلون حول الكعبة بدون ثأر وبدون سفك دماء ، فليجعلوني مثل أحدهم» ، فقال له بشر بن سفيان الكعبي : لن ترى ذلك ، لن تدخل مكة بالأحسن أن ترجع ، ولكن رسول الله ﷺ تقدم هو وأصحابه وقال لأحد الصحابة : «مل بنا إلى الطريق الذي هم فيه» ، فمال بهم جهة البحر وعدل بهم إلى واد جاف ، ليس فيه ماء ، وبركت ناقة رسول الله ﷺ .

وهذه عقبة أخرى ، بشر بن سفيان أخبرهم بأن القوم في انتظارهم للحرب ، وقد لبسوا جلود النمر ، وأخرجوا العوذ والمطافيل من النوق للحرب ، وهاهم أولاء يعودون إلى مكان قاحل جاف ليس فيه ماء ، وهاهي ناقة رسول الله ﷺ بركت في الأرض .

عقبات وراء بعضها ، وأمور تتشاءم النفوس الضعيفة منها ، فأما عند بروك الناقة فتشاءم الصحابة ، وقال الرسول ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما خلأ لها بعادة ، وما كانت عاداتها ولكن حبسها حابس الفيل» .

قالوا: اشتد بنا العطش يا رسول الله! وهذه ثالثة: استعداد القوم للحرب، ووجودهم في مكان قاحل، واشتداد العطش، وتشاؤمهم من بروك الناقة، فلما اشتد بهم العطش في هذا الوادي القاحل الجاف، أخرج الرسول ﷺ سهمًا من كنانته وقال لهم: «هناك في هذا القلب في هذا الوادي مكان بئر، ارموا بالسهم في هذا المكان الجاف والله يأتي بالفرج»، فأخذوا النبل ورموا بسهم رسول الله ﷺ في هذا المكان المنخفض، فغار الماء وظهر على وجه الأرض، معجزة لسيدنا رسول الله ﷺ فشربوا واطمأنوا قليلاً.

ثم واصلوا السير إلى الحديبية مكان البئر هناك، وجلسوا ينتظرون الفرج وتحقيق الرؤيا، ورؤيا الأنبياء صدق ووحى وحق من الأيام الأولى للنبوّة، ورؤيا النبي ﷺ صدق ما تخلفت قط، وهامي اليوم رؤيا واضحة، والجيش ألف وأربعمائة (١٤٠٠)، وكلهم يتلهفون على دخول مكة، والطواف حول البيت، والسعي حول الصفا والمروة، وتحقيق وعد الله لرسوله.

وبينما هم جالسون حيارى ماذا يفعلون وإذا ببديل بن ورقاء الخزاعي من بني خزاعة يأتي، سمع بمقدم رسول الله ﷺ وقد انفجأ: من الذي جاء بك يا رسول الله؟ - وكان حليفاً حبيباً لرسول الله ﷺ - قال ﷺ: «جئت أزور البيت وأطوف حول الكعبة، وأسعى بين الصفا والمروة، ونحن هؤلاء معتمرون ومعنا الهدى»، فقال له: ولكن القوم لن يمكنوك من الدخول يا رسول الله، فقال ﷺ: «ويح قريش لو تركوني للعرب إن غلبوني كان الذي أرادوا، وإن غلبتهم دخلوا في الإسلام، ويح قريش أكلتهم الحرب».

وانتظر رسول الله ﷺ فرج الله ، وبينما هو جالس إذا بمكرز بن حفص من المشركين قد جاء : ما الذي جاء بك يا محمد؟ العقبة الخامسة وفي عينيه شرر . من الذي جاء بك يا محمد؟ قال ﷺ : «جئت معتمرًا ، سقت الهدى وجئت مع أصحابي لنزور البيت ، ولنطوف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، كأحد العرب ، كأحد الناس الذين يحيئون في الأشهر الحرم» ، قال : لا ، إن قريشًا لن يمكنوك من الدخول ، ولن تدخلها عليهم عنوة أبدًا ، إنهم مستعدون للحرب والقتال ، فارجع من هنا إلى المدينة مرة أخرى . ولكن الرسول ﷺ حاوره وداوره فلم يجد عنده أي لين ، ورجع كما رجع صاحبه من قبل بديل بن ورقاء قبل ذلك ، وأخبر قريشًا فاتهموه بالتحيز لمحمد ﷺ ، ورجع هذا الرجل أيضًا مكرز بن حفص وأخبر قريشًا فاتهموه .

ماذا يفعل رسول الله ﷺ ، والصحابة عيونهم لرسول الله ﷺ ، وقلوبهم تتطلع إلى تحقيق الأمل ، وآمالهم متطلعة إلى تحقيق رؤيا رسول الله ﷺ وتسبح في الفضاء والأفق ، ولكن الظروف عصبية ، والجو مكفهر ، ولا يجدون شيئًا يبشر بخير .

فبينما هم كذلك وإذا بقادم آخر من قريش اسمه : الحليس ، هذا الحليس سيد الأحاليس جاء : ما الذي جاء بك يا محمد؟ قال ﷺ : «جئت معتمرًا ، وسقت الهدى ، وجئت لأطوف بالبيت» ، فقال : لن تدخلها ولن يتحدث الناس أنك دخلت علينا عنوة ، إن بيننا وبينك حربًا ارجع من هنا . حاوره رسول الله ﷺ وداوره فلم يجد فيه لينًا ، ولكن الرجل حليس أشفق على رسول الله ﷺ ، وعاد إلى قريش يقول لها : خلوا بينه وبين الطواف . قالوا : لا ، لن يكون هذا .

وجلس الصحابة في ورطة - وهذه هي العقبة السابعة - ينتظرون الأمل وتحقيق وعد رسول الله ﷺ وأمل رسول الله ﷺ ، وإذا بعروة بن مسعود الثقفي جاء من قريش : ما الذي جاء بك يا محمد؟ قال ﷺ : «جئت معتمرًا ، وسقت الهدى ونريد أن نطوف بالبيت كما يطوف غيرنا» ، قال : لا ، لن يكون هذا . جئت بأوباش الناس ، وسيتفرقون عنك وقت الحرب ، فتدخل الصحابة فمنعهم رسول الله ﷺ ، ثم عاد عروة بن مسعود يخبر قريشًا ، ولكن قريشًا لم تسمع كلامه فاتهمته أيضًا .

فأراد الرسول ﷺ أن يختبر رسله ، فأرسل واحدًا من بني خزاعة ليخبر قريشًا بحسن نيته ، وأنه جاء معتمرًا ولا يريد حربًا ، فذهب ابن أمية الخزاعي القرشي وأخبر قريشًا بذلك ، فاتهموه وعقروا الجمل الذي كان يركبه ، وكان جمل رسول الله ﷺ ، وكادوا يقتلونه لولا أن الأحاليس منعه ، فعاد الرجل ليخبر رسول الله ﷺ ألا فائدة ، فليرجع .

وأخيرًا وقع الرسول ﷺ في حيرة ، ماذا يفعل؟ ووقع الصحابة في حيص بيص ماذا يفعلون؟ حاول الرسول ﷺ أن يرسل من عنده رسولًا آخر ، فنادى ﷺ عمر : «تعال يا عمر! اذهب إلى قريش سفيرًا بيني وبينهم ، وقل لهم : إننا نريد العمرة ، ولا نريد حربًا» ، فقال عمر : لم يبق أحد من بني عدي بن كعب في مكة يحميني ، أدلك على رجل آخر ، أدلك على عثمان ، له أهل هناك يحمونه ، فدعا الرسول ﷺ عثمان بن عفان ، وأخبره بأن يذهب سفيرًا إلى قريش ، ويقول لهم : إننا جئنا معتمرين ، سقنا الهدى لنطوف بالبيت ، لا نريد حربًا ، وهذه الأشهر الحرم ليس فيها حرب .

فذهب عثمان واستقبله ابن عمه وأجاره ، وأخذ ابن أبي العاص ، وذهب به إلى أبي سفيان ، ولكن قريشًا أبت وأخذت عثمان عندها ،

واستمكثته عندها حتى شاع بين الناس أن عثمان قد قتل ، فوقع الصحابة في ضيق أشد و حرج أكبر .

هاهي العقبات تأتي ، والتي تأتي شر منها ، وما بقي إلا أن يشاع أن عثمان قد قتل ، وهو سفير بين المسلمين وقريش ، وإذا كان عثمان قد قتل فلم يبق إلا القتال ، فقال الرسول ﷺ : «لابد أن نناجز القوم ، من يبايعني؟» ومد الرسول ﷺ يده هناك تحت الشجرة ، شجرة سمراء ، فتقدم الصحابة للبيعة ، وبايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، بايعوه على ألا يفروا ، بايعوه على الصمود إلى آخر قطرة من دمائهم ، بايعوه على الحرب وعلى القتال وعلى الفناء ، وهذه فرقة الفناء ، وهذه هي التي يسمونها في العرف الحديث : الفرقة الانتحارية .

بايعوا رسول الله ﷺ ، وضرب رسول الله ﷺ بيده وقال : «هذه بيعة عثمان» ، واستعدوا للقتال ، خرجوا من المدينة غير مستعدين للحرب فإذا بهم يقعون في ورطة للحرب ، خرجوا من المدينة في الأشهر الحرم على أن يطوفوا بالبيت ، فإذا بهم يقعون في ورطة الحرب ، خرجوا بعدد قليل ألف وأربعمائة (١٤٠٠) فإذا بهم يلقون قريشًا في دارها ، والأعراب من ورائهم ، وقريش أمامهم ، في عدد قليل وعدة قليلة ، بغير استعداد للحرب ، وفوجئوا بهذا ، ماذا يصنعون؟ إنها الحيرة ، ولكنه الأمر الذي لابد منه ، فوجبت التضحية فليبايعوا على الحرب وألا يغدروا ، بايعوا رسول الله ﷺ ، فعلم الله ما في قلوبهم من الإخلاص ، بايعوا واستعدوا ، وإذا بعثمان قد أقبل وظهر أنه لم يمت .

وبينما هم كذلك وقد جاء سهيل بن عمرو جاء من قبل قريش ، فتفاءل رسول الله ﷺ باسم سهيل ، وقال : «قد سهل لكم الأمر ، أترون هذا؟»

ورسول الله ﷺ في منتهى الحرج بين إخوانه وهو موقن بوعد الله ، ولكن الصحابة والقلق والشروء والخيرة والهيام والتضحية والمبايعة على الموت ، وعثمان قد أشيع أنه قتل ، ويعدون هذه فضيحة بين العرب .

والرسول ﷺ تمنى شيئاً يعتمد عليه قليلاً ، فتمنى اسم سهيل بن عمرو ، وقال : « قد سهل عليكم الأمر » ، وتفاءل بالاسم .

صلح الحديبية :

وكلم رسول الله ﷺ في أن يعقدا صلحاً ، فرضي رسول الله ﷺ بالصلح ، وجلسوا للصلح ، والكاتب موجود : سيدنا علي كرم الله وجهه والشهود ، وجاءوا بالورقة يكتبون ، وتنفس الصحابة الصعداء « صلح » ، وبدأت بوارق الأمل وبواعث الرضا تدخل في النفوس ، صلح لعلنا ندخل وننتهي بصلح ، وبدأت النفوس تطمئن والدموية تدخل في الوجوه بحمرة إشراق وبهجة على الوجوه ، وعاد الاطمئنان إلى النفوس ، وبدأت القلوب تطمئن في نبضها ، وتهدأ في خفقاتها ، وتطلعوا إلى الأمل القريب - صلح .

اكتب ، فأراد الرسول ﷺ أن يملي عقد الصلح : « اكتب يا علي : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فأشار سهيل : (لا) من أول كلمة ، عقبة مباشرة ؟ لا . لا تكتب ﷺ ، الرحمن هذه لا أعرفها ، اكتب كما نكتب : باسمك اللهم ، فقال الصحابة : لا بد أن نكتب ﷺ ، وتشدد الصحابة ، وبدأ الصلح يفشل من أول خطوة ، من أول حرف بدأ الصلح يفشل ، فضغط الرسول ﷺ على أصحابه وقال لهم : « اسكتوا ، اكتب باسمك اللهم » ، فكتب سيدنا علي : باسمك اللهم .

أَملى الرسول ﷺ لعلّي: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فأشار سهيل: لا - ياللعجب من الخطوة الثانية عقبة أخرى؟ لأي شيء؟ - لا نعرف أنك رسول الله، ولو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك ولا صددناك عن البيت. ماذا تريد؟ اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، اسمك واسم أبيك، لا نعرف أنك رسول الله، فقال الصحابة: لا بد أن تكتب محمدًا رسول الله، والله يعلم أنه رسول الله، والله يعلم أني رسوله ولكنكم تكذبوني، اكتب محمد بن عبد الله، فقال الصحابة: لا والله، فقال الرسول ﷺ: «لا. لا. اسكتوا» فضغط الرسول ﷺ مرتين على أصحابه: مرة عند كتابة **بسم الله الرحمن الرحيم**، ومرة عند كتابة محمد رسول الله.

فبدأ الصحابة تهرب الدموية من وجوههم وتبديل ألوانهم، وجاءت القطرة، وكزت الأسنان على بعضها، واحمرت شرايين العيون، وتطلعت العيون من الخدق، وقلق الصحابة في مجلسهم، والواقف يرفع رجلًا ويضعها، والجالس يتململ، هكذا يكزون على أسنانهم، ما هذا الحرج المتوالي بعضه وراء بعض، وأين الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ؟ أين هي؟ لا نجد أي علامة تبشر بتلك الرؤيا أبدًا، كلما سرنا وجدنا عقبة، وأخيرًا كز الصحابة على أسنانهم، وكظموا غيظهم، وسكتوا قليلًا، اكتب هذا ما قضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

بنود صلح الحديبية:**البند الأول:**

بيننا وبينكم هدنة لمدة عشر سنوات تهدأ فيها الحرب ، ولا حرب .
هذا هو البند الأول جميل ، بند يريح النفوس ، ويتطلع إليه كل من الطرفين .

البند الثاني:

في المعاهدة : أن من أسلم من قريش وذهب إلى المدينة وجب على المسلمين أن يردوه إلى قريش ، ومن كفر من المدينة وعاد إلى قريش لا يجب على قريش أن تردده إلى المدينة .

عجباً ما هذا التشبث كأنه إملاء المتصر يملئ على الضعيف المهزوم ، أين العدالة؟ الذي يكفر من المدينة ويعود إلى قريش لا يجب على قريش أن تردده ، ولا ينبغي لقريش أن تردده ، والذي يسلم من مكة ويخرج إلى المدينة وجب على المسلمين أن يردوه ، ما هذا؟

فتحركت نفوس المسلمين ، وبدأ المسلمون يتحركون وبدءوا يتنفسون الصعداء ، ويقولون : ما هذا؟ رضينا بالأولى وسكتنا ، ورضينا بالثانية فسكتنا ، أما هذه الثالثة فلا ، إن من أسلم من قريش وجاء عندنا لا بد أن يبقى عندنا لتتعادل الأمور ، كما أن من كفر من عندنا وجاء إلى قريش لا يردونه ، الند للند ولكن سهيل تشبث وقال هو ذاك ، ونظر الرسول ﷺ إلى سهيل مرة ، وإلى الصحابة مرة ، فوجد الصحابة قلقين غير مطمئنين ، فقال الرسول ﷺ لعلي : « اكتب نعم » فكتبها علي .

وبينما هم كذلك ولا يزال القلم والورق بيد الكاتب علي ، وإذا بابن طرف المعاهدة من قريش : ابن سهيل أبو جندل يرسف في قيوده ، ويثب وثبات ، وقد هرب من البيت وجاء ينضم لفريق المسلمين وهو مسلم ، كان أبوه قد قيده بالحبال وربطه بالقيود ، وجاء يقفز قفزات صغيرة حتى أراد أن يرمي نفسه في أحضان المسلمين ، والورق لا يزال في يد الكاتب ، والخبر لم يحف ، والقلم في يد علي ، والعقد لم يوقع ، فقال سهيل بن عمرو : ردوه علي ، ردوه علي ، فقال الرسول ﷺ : «دعه لي ، دعه لي» ، فقال سهيل : لا والله لا أصالحك على شيء أبدًا إلا إذا رددته علي ، فقال الرسول ﷺ : «فهبه لي ، اتركه لي ، سامحني ودعه لي!» قال : لا ، لا أفعل والله إن لم تردوه علي لن يتم الصلح أبدًا ، لن يتم صلح ونعود إلى الشر ، وقد بدأ الموت يفتح فاه ، وظهرت أنياب الشر ، وظهرت هوة الفناء ، وظهرت الشرارة الأولى للفناء بين الفريقين ، فأطفأ رسول الله ﷺ هذه الشرارة وكمم فم أنياب الموت ، وخلع أنيابه التي برزت ، وضغط على نفسه ، وأرجع أبا جندل إلى فريق المشركين بقيوده يرسف فيها ، وأبو جندل يبكي ويقول : يا معشر المسلمين أتركوني للمشركين يعذبونني ، أما ترون ما أنا فيه ، صعب على المسلمين ألف وأربعمائة رجل في أيديهم السيوف ولا يقدر أن يحموا مسلمًا واحدًا ، صعب عليهم ، وعز عليهم هذا ، فنزلت الدموع عند قدمهم ، واحتبست عند آخرين ، وغلي الشر ، وفار الدم ، وهرب واحد منهم بعينه إلى الأفق ليسرح عما هو فيه ، ونظر واحد منهم إلى الأرض ليهرب من نفسه فلا يجد في الأرض مهربًا ، ولا في السماء مفرًا ، ووقفوا حيارى ، وجذب سهيل بن عمرو ولده إلى ناحية ، ف قرب منه عمر والسيف بيده يلوح له ويقول له : صبرًا يا أبا جندل ،

وكانه يقول له : خذ هذا السيف من غمده ، واخطفه واضرب به رأس أبيك ، ولكن أبا جندل احتفظ بعهد رسول الله ﷺ وصان العهد الذي بين المشركين والمسلمين الذي بدءوا فيه ، ورضي بالذل والعود إلى الأسر وإلى القيد والحبس الذي هو فيه ل يتم الصلح بين المسلمين والمشركين ورضي وقنع وسكت ل يتم عقد الصلح .

البند الثالث:

لا سلاسل ولا أغلال لا سرقة خفية ولا خيانة .

البند الرابع:

نحن بيننا عبية مكفوفة ، يعني بيننا أمر محكم كإناء مقفل ، لا سر يفضح ، ولا نار تنبش من تحت التراب ، اكتب .

البند الخامس:

وإن تعودوا إلى المدينة نعد ، نعم خلوا بيننا وبين الطبيعة ، لا ، لا بد أن تعودوا إلى المدينة ، ولن تدخلوا مكة إلا في العام القابل ، ثلاثة أيام مغمدي السيوف ، نتركها لكم ثلاثة أيام تعملون فيها عمرة وتخرجون .

فكانت هذه الضغطة التي تولد الانفجار ، سكت الصحابة .

وتم عقد الصلح ، فوق سهيل بن عمرو عن المشركين ، ووقع ابنه عبد الله بن سهيل بن عمرو عن المسلمين ، وكان مسلماً ، ووقع رسول الله ﷺ بخاتمته ، ووقع أبو بكر بإمضائه ، وعمر بإمضائه ، وابن عوف بإمضائه ، وعلي وهو الكاتب ووقع ، وكتبه علي ، وانتهى الشرط ، ومن صورتين ، وأخذ كل واحد صورة وأخذ سهيل ولده وعاد إلى قريش يطمئنئها .

ماذا فعل المسلمون بعد الصلح؟

نعود بعد هذه الشروط القاسية ، وبعد هذا الإملاء القاسي ، بعد هذا التحكم من جانب الضالين الظالمين ، فرضي رسول الله ﷺ بهذا الشرط وقال : «نعم اكتب» ، ووقع أبو بكر وهو مطمئن ، ووقع عمر وهو شارد ، ووقع ابن عوف وهو شارد ، ووقع علي وكتب وهو شارد ، وذهب سهيل بولده وبفريق من المشركين .

وجلس رسول الله ﷺ لا تلتقي عين بعينه ، ولا يلتقي معه وجه بوجهه ، ولا يتكلم معه لسان مع لسان ، وهرب كل شخص من نفسه ، ومن رسول الله ﷺ والهدي معكوفاً .

وأراد رسول الله ﷺ أن ينهي المسألة فأمرهم أن يذبحوا الهدي في هذا المكان فسكتوا ، أمرهم مرة ثانية فسكتوا ، وثالثة فسكتوا ، الصحابة الذين كانوا يتهافتون على سرعة امتثال أمر رسول الله ﷺ لم يجبه أحد . عجباً لأول مرة يأمر رسول الله ﷺ أمراً ثم لا يجد مطيعاً ولا سميعاً ، ثلاث مرات يأمرهم أن يذبحوا الهدي ويتحللوا ويقصوا شعورهم أو يخلقوه ولكن لم يطعه أحد ولم يجبه أحد ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا ابن عوف ولا علي ولا أحد .

فاغتم رسول الله ﷺ أي اغتنام ، ودخل على السيدة أم سلمة وقال لها : «أترين ماذا فعل أصحابي أمرتهم ثلاث مرات أن يتحللوا فلم يجبني أحد» ، فكانت الحصيفة العاقلة أم سلمة أن قالت له : اخرج أنت وابدأ واذبح وانحر وتحلل وأنت صامت لا تتكلم فإن البدء بالعمل يحملهم على الامتثال ، فخرج رسول الله ﷺ فتحلل وذبح وقصر وحلق ، فما كان من الصحابة إلا أن قاموا وامتثلوا تبعاً ، نحروا هديهم وصاروا يخلقون

لبعضهم من شدة الحزن حتى كاد أن يقتل بعضهم بعضا بالموسى ؛ لأنهم يخلقون ولا يرون ماذا يفعلون ، شردت عقولهم ، وتاه تفكيرهم ، واختلط عليهم الأمر ، العرب الضلال والأعراب الضلال يأتون إلى مكة ويطوفون على ضلالهم بين أصنامهم ، والمسلمون الذين هم على حق يمنعون ، أهلهم وبنو عمهم يمنعونهم وفي الأشهر الحرم ، ثم تكتب الشروط بهذا الإملاء وبهذه القسوة ، ليس فيها إلى جانب المسلمين أي بصيص من النور ، كلها لصالح العدو ولقريش ، إن البنود الخمسة كلها لصالح قريش ، فتاهت عقولهم عن صوابها ، وشردت ألبابهم عن حقائقها وهم يخلقون لبعضهم حتى كادوا أن يقتلوا بعضهم بالموسى من شدة الذهول .

وأخيرًا تم الأمر وقال الرسول ﷺ : «ها نعود» ركبوا بغير عقول ، وشردت نفوسهم ليعودوا وجاء أبو بكر وامتلأ الأمر ، وجاء عمر قبل أن يركبوا وقال : يا رسول الله ! أأنت رسول الله حقًا؟ قال : «بلى أنا رسول الله حقًا» ، قال : ألسنا على حق؟ قال الرسول ﷺ : «بلى على حق» ، قال : أليس عدونا على باطل؟ قال الرسول ﷺ : «بلى على باطل» ، فقال عمر : فلماذا نعطي الدنيا في ديننا؟ لماذا نرضى وهذه الهزيمة وهذه الدنيا في ديننا؟ فقال الرسول ﷺ : «إني عبد الله ولن يضيعني ، ولن أعصي ربي وهو ناصري» ، فلم يجد عمر جوابًا يشفي قلبه ويطمئن صدره ، وذهب إلى أبي بكر الصديق ، وقال : يا أبا بكر ! قال : نعم ، قال : أليس رسول الله حقًا؟ قال : بلى إنه رسول الله حقًا ، قال : ألسنا على حق؟ قال : بلى نحن على حق ، وعدونا أليس على باطل؟ قال : بلى إنه على باطل ، قال : فلماذا نعطي الدنيا في ديننا؟ فقال : إنه رسول الله ﷺ ولن يعصي ربه ، والله ناصره . كان ما كان ، أبو بكر يستملي الجواب طبق الأصل من رسول الله ﷺ ، وقال أبو بكر لعمر :

يا عمر الزم غرز رسول الله ﷺ وسر على طريقه ، فسكت عمر على مضض وهو يركز على أسنانه ، ويكظم غيظه .

والصحابة ركبوا وعادوا إلى الشمال إلى جهة المدينة شاردون تائهون ، وبينما هم عند كراع الغميم (مكان بين مكة والمدينة) ، قرب عمر بعلمه من رسول الله ﷺ مرة أخرى ولا يزال في نفس عمر شيء : يا رسول الله لماذا قبلت هذه الشروط المجحفة في حقنا؟ فسكت الرسول ﷺ ولم يجبه ، وأعاد السؤال : لماذا قبلت هذه الشروط يا رسول الله المجحفة في حقنا؟ فسكت الرسول ﷺ ولم يجبه ، وعمر يسأله للمرة الثالثة : يا رسول الله لماذا قبلنا هذه الشروط المجحفة؟ فسكت الرسول ولم يجبه ، فلما سكت الرسول ﷺ عن عمر ثلاث مرات عند (كراع الغميم) تقدم عمر بعلمه وقال : واثكل أماء ، يا ثكل أمياه ، يا ليت أمك ثكلت بك يا عمر ، تسأل رسول الله ﷺ ولا يجيبك ، وخاف عمر أن ينزل فيه قرآن ، وشرد بعلمه .

نزول سورة الفتح:

وبينما عمر يسبق ليشرد بأفكاره وآلامه وإذا بالمنادي ينادي عليه : يا عمر بن الخطاب تعال : إن رسول الله ﷺ يوحى إليه ، فعاد عمر بعلمه ورسول الله ﷺ على بعيره ، ووقف الركب ، ونزلت السورة ، سورة الفتح ، وتلاها رسول الله ﷺ على أصحابه ، وتطلع إليه عمر بعد قراءة السورة فقال له : «يا عمر! لقد أنزلت علي سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح : ١] » .

فتحنا ما هذا الفتح؟ شروط خمسة ، وبنود خمسة ، كلها تضيق على المسلمين ، أين الفتح؟ إنه فتح وأي فتح ، إن قريشاً اعترفت بالمسلمين

اعتراف الند للند ، وهناك معاهدة بين الطرفين ، وتوقيع من الطرفين ، إنه فتح لأن الهدنة طمأنت المسلمين من جهة قريش ، وسينتبه المسلمون إلى جهة الشمال ، وسيفتحون خيبر ، إنه فتح لأن المنافقين كانوا يعتقدون أن الرسول ﷺ لن يعود هو وأصحابه أبداً ، ستأكلهم قريش أكلاً : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح : ١٢] . إنه فتح لأن المنافقين ستخرس ألسنتهم ، وتحمد نارهم ، وينطوون على أنفسهم ، إنه فتح لأن المسلمين العقلاء سيدخلون في الدين باختيارهم ، وفعلاً في مدة الهدنة دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، ومثلهما من العقلاء .

إنه فتح لأن المسلمين كثر عددهم في هاتين السنتين أكثر ممن دخل الإسلام من أول الإسلام إلى الآن ، ويكفي أن تقارن أن عدد الجيش كان في غزوة الحديبية كان ١٤٠٠ ، وبعد سنتين كان عدد الجيش لفتح مكة كان عشرة آلاف ، فالنسبة زادت جدًّا ٥ مرات وأكثر ، ٧ مرات زادت النسبة سبع مرات ، لماذا؟ لأنه فتح لأن المسلمين هدأت نفوسهم من جهة قريش ، إنه فتح لأن المسلمين بدءوا يعطون الحجج ، وبدءوا يزورون مكة ، وبدءوا يحادثون العقلاء ، وبدءت التجارات والمودات ، وبدأ الدخول في الإسلام على عقيدة واطمئنان ودراسة وتمحيص واقتناع ، ولا عناد ولا سفسطة ولا مكابرة ، إنه فتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح : ١] واضحة ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ١] ، ما هذا الفتح؟

ما معنى : ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ ﴾ [الفتح : ٣] ، وما موضوعها هنا؟ هذا تبيان لشخصية رسول الله ﷺ المرضي عنها من الله ، كأن الله يقول للصحابه

الذين قلقت نفوسهم بعد الرؤيا- وأين الرؤيا؟ وقلقت نفوسهم ، أين تصديق الرؤيا؟ - كأن الله يقول لهم : هذه شخصية ممتازة غفرت لها ما تقدم من ذنبها وما تأخر ، فليس عليها ذنب فيما مضى ، ولن يكون عليها ذنب في المستقبل ، فهي شخصية ممتازة ، ومن المحال أن تكون هذه شخصية ممتازة ، ويخطئها التوفيق ، أو أتخلى عنها ، وقد ظن بعض الناس أن الله تخلى عن رسوله ، وكذبت الرؤيا ، لا ، إنه شخصية ممتازة ، ولا أتخلى عنه أبداً ما ودعته وما قلولته ، إنه شخصية ممتازة .

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح : ٢] ، أحسنت البدء لك وسأحسن الختام لك وأتمم عليك .

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح : ٣ ، ٤] لأن المواطن التي كان فيها ضغط على المسلمين عددها هنا ، عددها ٣٠ موطنًا ، وكل موطن يسفر الحريم ، وينطق الأخرس ، ويبكي العروس ، كل موطن فيه يستنزف الدمع دماً ، ويحرك الصحابة ليصول ويجول ويضغط ضغطاً .

والصحابة كلما كزوا على أسنانهم هداهم رسول الله ﷺ ، فبين الله سبحانه وتعالى أن سكوت الصحابة عند إملاء الشروط وعند العقبات المحرجة ما كان ضعفاً ولا جبناً ، وإنما أنزل عليهم السكينة لأن الله يعلم أن السكينة في هذا الموطن تكسب الإسلام عددًا كبيرًا ونصرًا عظيمًا .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح : ٤] ، كأن الله يقول : ما تركتكم يا مسلمون لضعف ، فعندي جنود السماوات والأرض ، عندي ملائكة ، عندي الجن ، عندي مكروبات وحشرات ، وعندي جنود كثيرة ،

وكنت قادرًا على أن أرسل بعض جنودي يسحقون قريشًا، ويطبقون عليهم الجبلين، ولكنني أريد الخير لتتم النعمة على أمان ووفاق، وليدخل الناس الإسلام باختيارهم لا ضغطًا ولا إرهابًا ولا إكراهًا.

ثم بعد ذلك بين الله رسالة الرسول ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٨، ٩].

ثم بين الله شأن البيعة، والذين بايعوا رسول الله ﷺ، وأن يد الله كانت معهم ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وفي الحقيقة يبايعون الله ﷻ، فهذا شرف عظيم لأولئك الجند أهل الحديبية.

ثم بين الله شأن المنافقين والمتخلفين من الأعراب.

ثم مدح الله شأن البيعة تحت الشجرة.

ثم بين الله تعالى أنه كان قادرًا أن ينصرهم لو دخلوا في الحرب، وأن الكفار كانوا يولون الأدبار ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ﴾ [الفتح: ٢٢]، ولكن الله ﷻ يعامل خلقه معاملة الرحمة، إن في مكة مسلمين مستخفين أخفوا إسلامهم، وفيها ضعفاء مسلمون ونساء وأولاد لو تزيلوا- لو كان المسلمون الذين أخفوا إسلامهم في مكة، ولو بقي المسلمون في مكة وحدهم- لأمر الله رسوله أن يزحف على مكة فيقتل من فيها، ولكن المسلمين يختلطون بضعفاء القوة، المسلمون المتخلفون في مكة يختلطون بإخوانهم من أهل مكة، فلو دخل المسلمون مكة وحاربوهم لقتلوا إخوانهم المسلمين وغير المسلمين.

وبهذا كانت حكمة الله ﷻ في أنه كف أيدي المسلمين عن القتال، وكف أيدي المشركين عن القتال بعد أن أمكن الله المسلمين في خمسين منهم

وقبضوا عليهم أسرى ، ولكن الرسول ﷺ سامح وهذا علاج الله ﷻ في ترقية النفوس وفي تكوين الأمة ، لو أراد الله تعالى للمسلمين أن يهجموا على مكة ويقتلوا أهلها لقضى على الدين ، وكان بداية الدين بداية دم أحمر ، بداية دماء لا علاج ولا طب ، ولكن الله تعالى أراد أن تبدأ ثورة الدين ثورة بيضاء بدون دماء حمراء ، وبدون تهتيك وتقتيل ، فكان هذا العلاج الكريم .

ونزلت سورة الفتح كلها وفي آخرها يقول الله ﷻ : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [الفتح : ٢٧] ، ﴿لَقَدْ﴾ اللام تأكيد (وقد) حرف تحقيق ، ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ ، فالرؤيا من الله لأنها وحي ، والرأي هو رسول الله ، والله هو الذي صور له هذه الصورة في الرؤيا ، فالله صدقه وحقق له ، أين هي ؟ قريباً بعد عام سيدخل المسلمون مكة في عمرة القضاء ، وبعد عامين سيدخلون مكة فاتحين منصورين . وليس من الضروري يا سيدي أن تتحقق رؤياك في نفس اليوم ، أو يتحقق وعد الله في نفس اليوم ، يستجاب لأحدكم ما لم يستعجل ، يقول : قد دعوت قد دعوت فلم يستجب لي ، يا ليت قومي يعلمون أن الله تعالى يبغي من عباده الاطمئنان لوعده الله ، إن المطمئنين لوعده الله لا يستعجلون ، فلو اطمأننا لوعده الله لجاء الفرج في وقته الذي حدده الله ﷻ ، فإن الله لا يحرك عقرب الشمس بسرعة حتى يأتي الوعد ، ولا يؤخر عقرب الشمس حتى يطول الوعد ، وإنما الشمس تدور في فلكها مأمورة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت : ٥٣] ، ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [سورة الحج آية : ٤٧]

فإن الله حدد الأمور بأوقاتها ، ورهن الأمور بأسبابها ، ولكننا نستعجل .

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، نزلت هذه السورة عند كراع الغميم في الطريق بين مكة والمدينة ما صدق أين هي؟ نحن عائدون إلى المدينة وما دخلنا البيت محلين رءوسنا ولا مقصرين ولما سمع عمر رضي الله عنه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] لا زال في نفس عمر شيء يقول: أين هو الفتح يا رسول الله؟ أو فتح هو عودتنا إلى المدينة فتح؟ فقال رسول الله ﷺ: «إي والله إنه فتح مبين». ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ اللام لام التوكيد و(تدخلن) فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد، ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ لماذا ذكرت هنا كلمة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني ماذا؟ ربما كان الله ﷻ يقول للمسلمين: أنا الذي أحقق الوعد لكم ومع علمي بأن الوعد محقق، أقول: إن شاء الله، فأنا أستثني فيما أعلم، فيجب عليكم أن تستثنوا فيما لا تعلمون، فإذا كان الله الذي رسم الخطة وضمن تنفيذها ويقول: إن شاء الله، فأنت حين تضع الخطة ولا تضمن تنفيذها، فينبغي لك أن تقول إن شاء الله، فالله الذي رسم الخطة ويعلم تمام تنفيذها حتميًا، يقول: إن شاء الله، فتذكر إن شاء الله حتى في الأمور التي ضمن الله تنفيذها، فينبغي حين وضع خططنا أن نقول: إن شاء الله، فالله الذي يعلم يقول: إن شاء الله، ونحن في الشيء الذي لا نعلم ينبغي أن نقول: إن شاء الله.

﴿مُخَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، التحليق للرجال، والتقصير للرجال والنساء. فالله ﷻ يقول: ﴿مُخَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، التحلل من الإحرام، وكان الرسول ﷺ لما أمر الصحابة بالتحلل في الحديبية تكاسل الصحابة وكانوا يقصرون فقط، ولم يأت أحد منهم بموسى ويحلق الشعر

وإنما كانوا يقصرون فقط ، فقال ﷺ : «رحم الله المحلقين» ، وفي الرابعة قال : «والمقصرين» ، فقالوا : لماذا عدلت عن المقصرين لرابع مرة؟ قال : لأنهم شكوا ، فأما المحلقون فإنهم لم يشكوا ، كان هذا في غزوة الحديبية ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧] .

علم الله أن المصلحة في ألا تكون حرب في الحديبية ، علم الله أن يعودوا إلى المدينة والشروط قاسية ، علم الله أن يخضعوا للبنود الخمسة ، وهي إملاء من المتحكم والمصلحة في هذا ، علم الله أن جنود الباطل كثيرون وأن جنود الحق قليلون ، وأن الظروف مع أهل الباطل ، وأن قسوة الظروف مع أهل الحق ، وعلم الله أن بعد ذلك الفرج ، وأن بعد العسر يسرا ، وأن المصلحة فيها .

كانت عودة المسلمين إلى المدينة عشرة فتوح ، عشرة :

فتح في القلوب ؛ لأنهم اطمأنوا .

وفتح في الأرض ؛ لأنهم حاربوا خبير بعدها وغلبوا ، فتح في الأرض ؛ لأن أصوات المنافقين خفتت ، فتح في الأرض ؛ لأن المشركين كانوا يتربصون الدوائر لمحمد ﷺ ، فتح في الأرض لأن قريشاً أمامهم والمشركين وراءهم والأعراب يتربصون ويقولون : لن يعود محمد .

فتح في قوة الشخصية ؛ لأن المسلمين أصبحوا أمام قريش موقف الند للند .

فتح في القرابة ؛ لأن كل قريب من المسلمين زار قريبه بعد ذلك من المشركين وتفاهم معه .

فتح في صلة الأرحام .

فتح في التفاهم والمودة .

فتح في أخذ الحجج الدينية وبحثها . كل هذه فتوح .

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ، كيف يتخلى الله عنكم أيها الصحابة في أحد ، كيف يتخلى الله عن نبيكم مع قسوة الشروط ، وقسوة التحكم وإملاء المتحكم في هذه البنود الخمسة ، ومع ذلك لن يتخلى الله عن نبيه أبداً ، كيف يتخلى عنه؟

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح : ٢٨] . . .
الآية ، هو إعلاء لشأن ذي الجلالة ﷻ ، وهو وحده الذي أرسل رسوله ، فالصلة تامة بين رسول الله ﷺ وبين ذات الله وقدرته ﷻ ، أرسله بالهدى مصحوباً بالهدى ، مرتبطاً بالهدى ودين الحق ، والغاية أن يظهر الدين الإسلامي على الدين كله ، فالحكمة والغاية والهدف هو أن يظهر الله الدين الإسلامي على الدين كله ، فالله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية : أنه لا يتخلى عن محمد ؛ لأنه أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهر هذا الدين على الدين كله .

وفعلًا تم ذلك وتحقق وعد الله ، وظهر الإسلام على جميع الأديان الموجودة في القرن السادس الميلادي إلى الآن ، وإن كانت النسبة العددية للمسلمين ١٣ في المائة وغيرنا أكثر ، ولكن تعالوا ننظر إلى الموضوع والناحية الإنتاجية وقوة التمسك بالدين والعمل بالدين ، نجد التمسك بديننا أقوى ولن يعرف هذا إلا من سافر إلى البلدان الأخرى التي فيها أديان أخرى ليعرف أخلاقهم ومعاملاتهم ، وليعرف اضطرابهم وقلقهم في حياتهم ومع أنفسهم وفي آخرتهم .

يا قوم إن ديننا عام، وإن دين غيرنا محلي، لا يستعمل إلا محليًا، أما ديننا فيستعمل عامًا، مثلًا: الأمانة، أنا مسلم أحب الأمانة لي ولغيري من الناس على أي دين كانوا، أما هؤلاء فهم أمناء مع أنفسهم، فالفضائل عندهم محلية لا تخرج إلى الخارج، وهم في بلادهم أمناء، ولكنهم في خارج البلاد استعمار وسرقة وضلال ونهب وغصب، فالأمانة عندهم محلية، هم في بلادهم عادلون ولكن مع غيرهم غاصبون، هم في بلادهم يؤدون الواجب، ولكن في خارج البلاد يتركون الأمانة في بلدهم، فمعاملاتنا عامة، ولكن معاملاتهم محلية، إذا وصلت إلى مكان من أصحاب الأديان الأخرى وجدت فيهم الاستهتار وعدم الرقابة.

ولكن المسلم في الكوخ، وفي القصر، وفي الأرض، وفي ناطحات السحاب، المسلم هو المسلم يراقب ربه، وفي ظلمة الليل يصلي، وعند الأمر المؤلم يتذكر الله، فلو درست طبيعة الناس في الأديان الأخرى، وطبائع المسلمين، وجدت أننا لا زلنا على حق، وديننا دين موضوعي، يؤخذ بعمله، وينفع للقيادة في الدين والدنيا.

أما الأديان الأخرى فهي توهيمات ورهبانيات وتمتمات، واحتفال في الكنائس أو المعابد فقط، وخارج الكنائس لا يعرفون من الدين شيئًا، دينهم هناك يتلى في يوم من الأسبوع.

أما ديننا ففي كل خطوة وفي كل عمل، في المصنع تذكر الله، وإتقانك العمل ذكر لله، وفي العمل تراقب الله، وفي رقابة العمل شكر الله، وهكذا ديننا في كل خطوة، وفي كل نفس، وإن كان ظلنا تقلص عن الأرض التي فتحناها سياسيًا، وإن كانت تقلصت رقعتنا وانتقصت سياسيًا، كمثل التي فتحناها سياسيًا كالأندلس، ولكن البقية الباقية من ديننا على حق وموضوعية.

المسلمون يحتاجون قائداً :

والأمر يحتاج إلى قائد فقط ، والله يا قوم إن ديننا لا يحتاج إلى كل هذه المصاريف التي تصرف من التكليف عند غيرنا ، إنما أمرنا يحتاج إلى قائد ، أجد رجل الطريق ، تيجاني أو شاذلي أو غيره بهيكله وملبسه ، وبمشيته وبتمسكه وبسلوكه يجتمع الناس حوله ، وأنا أقول الوعظ وآتي بالأحاديث من البخاري والنسائي ومسلم والترمذي والكتب الستة وكلامي يسمع وي طرح ، إنما غيري بالقدوة بمشيته ، بعفته ، بأمانته ، بصلاته ، باستقامته ، يجمع الناس ، فديننا دين عملي ، دين موضوعي يصلح للقيادة ولكنه يحتاج إلى قائد ، قائد موحد ، غير متحيز لا شرقي ولا غربي ، قائد يقود الإسلام ويفتح للناس طرق الخير ، ويمشي أمامهم ، فالمسلمون يحتاجون إلى قيادة موحدة ، وإلى ترك العنصرية والعصبية القبلية أو الأرضية ، وبذلك ينتصر ديننا ويقوى عملنا ويظهر على الدين كله ، إن ظهوروا علينا سياسيًا فما ظهر دينهم سياسيًا علينا ، وإنما ظهرت غلبتهم ، ولا ينبت الشوك في الأرض إلا إذا غفلت الفأس والمحراث ، إذا نامت الفأس وغفل المحراث نبت الشوك ، أما ما دامت الفأس حية قوية في يد قوية ، وما دام المحراث نشيطاً في أكتاف قوية فإن الشوك لا ينبت ، لا ينتصر الباطل إلا في غفلة الحق ، ولا يعلو الباطل إلا إذا نام الحق ، فإذا كان حقنا قويًا صلبًا لا تنبت الأشواك في أرضنا يا قوم ، إن ديننا قوي وفيه المحبة .

من ضمن فرحي بهذه الظروف الطيبة وبهذا أني ألتفت فأجد أخا شرفيًا وأخا من غرب إفريقيا وآخر من الأردن والعراق ، فأطلع كأن بني وبينهم رحمًا وقربة ودمًا ، وأعتز حين أذهب إلى مصر وأقول لهم : رأيت أخا شرفيًا وأخا أردنيًا وعراقيًا ، رأيت تركيًا ، السفير التركي ، هذه الصلة

وهذا الدم وهذه القرابة التي تجمع بيننا ، هي قرابة الإسلام ، قرابة الجنان ، قرابة الدين الذي جمع الشمل في إخوة ، فأراد الله ، ووعد لا يتخلف ، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح : ٢٨] .

الشدة تصنع الرجال :

ضغطت الظروف على المسلمين في غزوة الحديبية ، وأخيرًا بعد هذا الضغط صاروا رجالًا ؛ لأن الضغط عادة لبعض الأشياء يكون أعلى الأشياء ، عرفت كيف تتربى اللؤلؤة ، إن اللؤلؤة في قاع المحيط تتربى في جوف صدفة ، أصلها حيوان أمين ، خلية أولى دخلتها رملة ، فخلق الله لها صدفة ، فانطبقت عليها ، ثم كانت هناك في قاع المحيط في ظلمات قاع المحيط ، وفوقها ضغط من آلاف الأمتار المكعبة من الماء ، لا ترى الهواء ، ولا الضوء ، تحت هذا الضغط مئات الآلاف من السنين ، تحت هذا الضغط وفي هذه الظلمة تتكون لؤلؤة ، الزبد من فوق ، والرغوة ترى الهواء ، وفقايع الزبد تتناثر فوق الماء ، واللؤلؤة هناك في العمق السحيق ، في الظلمة ﴿ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور : ٤٠] ، هناك تحت الضغط تتربى اللؤلؤة ، سنة ، وسنة ، وعشرة ، وآلاف ، تحت الظلمة ، فلولا الظلمة ما تربت اللؤلؤة ، ولولا ضغط الماء ما تربت لؤلؤة ، ولولا قاع المحيط ما تربت لؤلؤة ، ولولا بعد الهواء عنها ما تربت لؤلؤة ، خرج الزبد بالهواء فوق ، فطردته الرياح يمينًا ويسارًا ، ولعبت الرغوة على سطح الماء ، فجاءت الرياح وبددت الرغوة في ساعات ، ونامت اللؤلؤة في قاع المحيط آلاف السنين ، وملايين السنين وأخيرًا تعب الغواص بكظم أنفاسه ، وتحمل ثقل رصاصة ، ونزل في قاع المحيط ومعه التنفس الصناعي

حتى لمس اللؤلؤة في صدقتها، وأخرجها إلى سطح الماء، وكشف عنها، وانتقلت بذلك من قاع المحيط إلى تيجان الملوك، وإلى عنق الحسنة ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، مدداً ومدداً حتى يتعب الغواص بكتف أنفاسه، وحمل أثقاله ورصاصة ويخرجها، هكذا ضغط على المسلمين في إملاء هذه الشروط، فنفع وكون رجالاً ولائاً واضحة، ضغط الظروف على المسلمين في هذه الشروط نفع فكون محمداً ﷺ والذين معه، ضغط الظروف ربى رجالاً :

وقع النوائب شيب والدهر بالناس قلب
إن دان لـ شخص ففي غد يتقلب
فلا تشق بوميض من برقه فهو خلب
واصبر إذا هو أغرئ بك الخطوب وألب
فما على التبر عار في النار حين يقلب

حين عدتدت المواقف الصعبة هنا، والصحابة يضغطون على أنفسهم فكنت أتذكر التبر حين يوضع في البوتقة، والتبر حين يوضع على النار، كفى يا موقد النار، والتبر الغالي يغلي في البوتقة، لؤلؤة في قاع المحيط يا للعجب، وزبد على سطح الماء كفى يا أيتها الموجات كفى، لا تلعب يا موج فوق سطح الماء، وأخرج اللؤلؤة من القاع، فيقول الموج: لا إن المصلحة في بقاء اللؤلؤة في قاع المحيط في الظلمات، تحت ضغط مئات وآلاف الأمطار المكعبة من الماء.

هذا الضغط يولد الرجال أو يولد الأبطال ، ضبط المسلمون أنفسهم وصبروا ، وأنزل الله السكينة عليهم ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، بهذه السكينة صبروا ، الذي يسلم من عندنا لا بد أن تردوه - حاضر - الذي يكفر من عندكم لا نرده ، والرسول يقول : حاضر ، سبحان الله ، لا بد أن تعودوا ، والرسول يقول : حاضر ، لا داعي لبسم الله الرحمن الرحيم ، حاضر ، لا نعرف أنك رسول الله ، حاضر ، ياللعجب .

هذا الضغط ولد رجالاً وأبطالاً كالضغط ، ضغط الماء ولد في صدفة جوهرة غالية ، فانتقلت من ظلمة المحيط إلى عنق الحساء ، إلى تيجان الملوك .

فكل هذا الضغط الذي ذكرته ثلاثون موضعاً من أنواع الضغط الذي لقيه المسلمون في هذه الغزوة ، بعد هذا الضغط خرجت جواهر غالية لآلئ فختم الله السورة بهذه اللآلئ .

اسمع ختام هذه السورة ، واسمع تفسير هذه اللآلئ وثمرتها الغالي : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ﴾ [الفتح : ٢٩] واسطة العقد ، وأعلى اللآلئ ، فكأن الله بدأ باللؤلؤة الأولى واسطة العقد ، وتوضع اللؤلؤة الكبيرة في وسط تاج الملك ، فاللؤلؤة الكبيرة تشع إشعاعات كثيرة وحوها اللآلئ ، وتتم هيكلها وزينتها ، وتتم رتوش الصورة كالشمس ، وحوها النجوم فبدأ الله باللؤلؤة الكبيرة التي تحملت الضغوط .

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ﴿أَشِدَّاءُ﴾ يعجبني في هذا الموضوع الجمع بين القوة والرحمة - عجباً - في آن واحد ، كيف يجمع بين الشدة والرحمة إلا نادراً ،

وأن رجل الشدة الذي يصنع الجراح لا يعرف الرحمة إلا نادراً، وأن رجل الرحمة الذي يمسح الجراح لا يعرف الضرب ولا الشدة، وهكذا وجدنا الشدة في ناحية، والرحمة في ناحية، ولكن المعجزة الإسلامية أن تجمع الشدة والرحمة في شخصية واحدة .

﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^ط تَرْلَهُمْ زُرْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴿[الفتح: ٢٩]، هذا موضع عجب في وصف هذه اللآلئ الغالية، تراهم - حال كونهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً- كأن الله ﷻ يقول في وصف هذه اللآلئ الغالية : محمد ومن معه لهم وصف ظاهري، أولاً الوصف الباطني يجمعون بين الشدة والرحمة، يرحمون بعضهم، وأشداء على الكفار، فيهم شدة، ولكن على الأعداء فيهم قوة، ولكنهم يدخرونها ليوم النضال، فيهم غلظة ولكن على الكافر الجاحد لدينه، العاق لوطنه، فيهم رحمة ولكن بعضنا سريع إلى ابن العم يلطم وجهه، وليس داع إلى الندم، السريع طويل اليد في الضرب قصير اليد في العطاء، طويل اللسان على الأذى، قصير اللسان على قول الحق، شديد على ابن العم وعلى المواطن، ويهرب من الحق وقت الحق، ويهرب وقت الشدة من كلمة الحق، فإنه لم يجمع بين الشدة والرحمة، إنما كان شديداً على أهله جباناً مع الأعداء، فلم يحقق وصف اللؤلؤة، فإن أردت أن تكون لؤلؤة غالية توضع في عنق حسناء، أو في تاج ملك، أو تقدم مهراً لخور العين في الجنة، أو تقدم دليلاً إلى الله ﷻ - إنك تربيت تربية إسلامية- فكن شديداً على أعداء دينك ووطنك، وكن رحيماً على أهل دينك .

المسلم يجمع بين الصلاة والمال الحلال :

وهكذا تراهم ، ترى لهم مظاهر مالية . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ الآية ... متجر من هذا؟ متجر مسلم ، مصنع من هذا؟ مصنع مسلم ... وهكذا تراهم ، ترى لهم مظاهر مالية مع الصلاة ، ترى لهم صلاة مالية ، الآية لا تقول هذا ، الآية تقول : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ما هي كلمة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ ﴾؟ هي جمع المال من حلال ، اقرأ معي الآيات التي فيها يبتغون فضلاً من الله ١٣ آية كلها جمع المال من حلال ، فكأن الله ﷻ يقول : يصلون ويجمعون المال ، لا تلهيهم التجارة ولا المال عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فمن أين يأتون بالزكاة إذا لم تكن لهم أموال؟ بعض الزهاد الجهلة الذين يفهمون الزهد جهلاً يقولون : لا تلهينا تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ويقول : وإيتاء الزكاة وليس معه شيء ، والزهد هو أداء الصلاة وإيتاء الزكاة .

فالله ﷻ يقول : إن هذه اللآلئ الغالية التي تحملت الضغوط لها وصف ، تراهم ركعاً سجداً ، يجمعون المال من حلال ، ولكن آه ، وما أقصى على قلبي كلمة آه ، الذين يصلون زهدوا في الدنيا وتركوها أو غفلوا عنها وكسلوا ، اكتفوا بالصلاة ، عمرووا المساجد بفقرهم ، والذين يجمعون المال خاصموا المساجد بضلالهم ، أين الجمع يا قوم؟ الله جمع الدنيا والدين في مفعول واحد : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ، فالمسلمون الآن فريقان : فريق للصلاة وهو فقير ، وفريق للمال ، وهو مخاصم للمساجد ، والفعل واحد ، والفاعل واحد ، والمفعول والحال ملازمة للفعل ، فالمسلمون الذين تربوا وهم أغلى اللآلئ يا أغلى المعادن ، أم من حجارة صيغ هذا اللؤلؤ ، أم من عناية الرحمن وخلية أولى ربت من

حيوان ، لؤلؤة غالية أغلى من الذهب ، وأجمل من الجمال ، وأحلى من المال ، تقدم هدية ثمينة ، أو توضع في أعناق الحسناوات ، أو رمز العز في تيجان الملوك ، من أين جئت يا لؤلؤ؟ يا غالي من الضغط ، من تحمل الضغط حتى يربى ، لا يتحمل الضغط طويلاً ولكن ليتربى فقط ، حتى تربى وصار لؤلؤة غالية ، متى نصير لآلى غالية؟ علينا أن نجتمع بين الصلاة وجمع المال من حلال ﴿تَرْتَهُمْ زُكَّاءً سُجَّدًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وكلمة ﴿يُبْتَغُونَ﴾ في ١٣ موضعاً من القرآن :

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠] .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٨] ،
يعني التجارة ، وهكذا يا قوم لو شئتم لعددتها .

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتَغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم : ٢٣] ، ومن العجب يا قوم إذا أردت أن أكلم إخواني المسلمين أخذني عجب ، ومن العجب أنني حين استتبع هذه الآيات وجدت فيها ست آيات فيها السفن التجارية في البحر ، ذكر الله فيها فضله ﴿يُبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ ، ومن العجب أن السفن كثيرة عند غيرنا ، ونحن نتلو آيات السفن وهي ابتغاء من فضل الله ، ألا تحقق هذه الآيات عملاً بقول الله ﷻ في سورة النحل : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٤] ، ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء : ٦٦] ، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم : ٤٦] ، وفي سورة فاطر : ﴿وَمَا يَسْتَوِي

الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ [فاطر : ١٢] ، وفي سورة الجاثية : ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية : ١٢] .

كلما ذكرت السفن البحرية ذكرت كلمة يبتغون من فضل الله ، ومعناها جمع المال من حلال ، وشرط الله وظيفه الجمع يا سادة هي وظيفة الفنان ، إذا أردنا أن نكون هذا اللون الأزرق لا نضع لوناً أزرق بل نضع لوناً أسود وأبيض فيتج لون أزرق ، وإذا أردنا أن نكون لوناً أحمر غامقاً وضعنا لوناً أزرق وأبيض وهكذا ، هذا فن الألوان ، إذا جمعت بين الصلاة وبين جمع المال كان هذا الجمع فناً ، إذا جمعت بين شدة ورحمة كان هذا الجمع فناً : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، والحكمة هي وضع الشيء في محله ، وضع الرحمة في موضعها والشدة في موضعها ، تجعل للصلاة وقتاً وللدنيا وقتاً وتجمع بينهما .

فلترية هذه اللؤلؤة الغالية فلتكونوا يا مسلمون لؤلؤة غالية من جنس لؤلؤة محمد ﷺ الغالي : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح : ٢٩] ، لا بد أن تكونوا ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ، الآية .

يا لؤلؤة يا غالية يا جميلة الظاهر والباطن ، يا نفيسة المعدن إن اختبرناها فهي من الداخل لا زيف ولا زيف ولا غش ولا تضليل لؤلؤ طبيعي غير صناعي ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح : ٢٩] ، السجود في الصلاة ، وأي الصلاة علمتهم الصلاة يعني الأدب ، والوجه يقصد به الإنسان مثل قوله تعالى : ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ﴿لَسَعِيًا رَاضِيَةً﴾ [الغاشية : ٨ ، ٩] . ﴿وُجُوهُ

يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، والحسود يظهر في وجهه ، والحيب يظهر في بريق وجهه ، ويراد منها الوجه ؛ لأن الوجه هو المعبر .

الصلاة والبر والنظام:

وهكذا يذكر الله الوجه ويقصد به الإنسان ، ففي الصلاة قيادة ، يختار إمام باختيارنا ، فإذا ركع ركعنا ، وإذا سجد سجدنا ، مختارين ، الصلاة تعلمنا النظام ومعرفة الوقت وحب الخير ، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، الصلاة تعلمنا أن نعمل عمل الأبرار ، والطاعة والنظافة والنظام والديمقراطية ، كيف الديمقراطية؟ الرأي فيها للشعب إن أخطأ الإمام رددناه ، إن عاند شددناه وقدمنا غيره ، إن قرأ الفاتحة نقول : آمين ، الصلاة فيها كلمة للشعب حتى ولو كان رسول الله ﷺ ، قال : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟

وهكذا نجد في الصلاة دروساً اجتماعية هي مثل الصيدلية ، فنأخذ من المسجد النظام لنستعمل النظام في السير ، ونأخذ من الصلاة الحمد لله ، لنحمد الله في المتجر ، لنأخذ من الصلاة السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لنخرج إلى الشارع فنستعملها ونقول : ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣] ، فنعمل عمل الأبرار خارج الصلاة ﴿لَنَتَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، ننتظم صفوفاً في الصلاة لننظم صفوفاً على التذاكر ، نمشي في الصلاة بتؤدة واحترام ، حتى نمشي في الشارع باحترام ، ما أدركناه في الصلاة صليناه وما تركنا قضيناه ، حتى نطبق ذلك في أعمالنا لا حرق أعصاب ، ولا إتلاف دم ولا شرايين ، بل هدوء نفس .

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩] هذا حديث ربيعة بن كعب يقول له الرسول ﷺ فيه: «عليك بكثرة السجود» أي بكثرة الصلاة، وفي حديث ثوبان في مسلم قال له ﷺ: «عليك بكثرة السجود»، فليس أن تسجد كثيرًا كثيرًا بل معناها الصلاة؛ لأن العربي كان يأنف أن ينحني قليلاً، جاءت الصلاة وفيها انحناء ركوع، ثم زيادة انحناء بالسجود، وأهل ثقيف كانوا يقولون للرسول ﷺ: اترك لنا هذه الصلاة، كل شيء نعمله إلا هذه الصلاة، ففيها انحناء ولكنهم صبروا على نفوسهم فقبلوها كاللؤلؤة قبلت الضغط في الظلمات بعيدة عن الهواء، قبل المسلمون هذا الضغط وصلوا.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ في الصلاة نظافة، تجد التاجر نظيفاً، نظيف البضاعة، وفيها حفظ المواعيد، وفيها اجتماع، و﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وصف الله المسلمين في التوراة بهذا الوصف الجميل بهذه الالاءى ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ﴾ [الفتح: ٢٩]، ما هذا؟ ما هو الزرع؟

أولاً يا علماء النبات إن الشجرة مكونة من أجزاء الجذير والجذر والساق والأغصان والأوراق والزهرة والثمرة، وكل جزء منها يؤدي عمله، الجذير يأخذ الغذاء المذوب في الماء، ويحوله في شعيرات إلى الجذر إلى الساق ليطبخه، والورق يعمل التمثيل الضوئي «كروفيلى» في ضوء الشمس، وهكذا نجد في الشجرة كل جزء يعمل، والجزء المعطل في الشجرة يقطع وتيس، وكذلك جسم الأمة الإسلامية كلنا شجرة، فكل جزء في الشجرة يعمل لنفسه ولغيره وللصالح العام، فالجذير في الطين يعمل لنفسه ولغيره، والجذر في الشجرة يعمل لنفسه ولغيره، والساق

يحمل الشجرة كلها لنفسه وللشجرة والزهرة، وكل جزء يعمل لكل، تتاجر لتفنع نفسك وتنفع الأمة.

أيها الرجل نتقي الفرد في الأمة، ولا نتقي الأمة في الفرد، فإن في الشيوعية ضاع الفرد في الأمة، وفي الرأسمالية ضاعت الأمة في الفرد، ولكننا يا قوم لا شرقية ولا غربية، لسنا شيوعيين نضيع الفرد وجهده، ولسنا رأسماليين نضيع الأمة في الفرد، ويصلح الفرد ولو ضاعت الأمة، ولكننا شجرة كل جزء يعمل لنفسه وللصالح العام.

﴿أَخْرَجَ شَطْطَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] الورق، والورق كما علمتم هو الذي يغذي الشجرة وينميها، وكلما كثر الورق في شجرة كلما كثر الثمر في الشجرة ﴿أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَأَزَارَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى﴾ [الفتح: ٢٩] الثمر على سيقانه.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فإذا أردنا أن نغيظ أعداء ديننا ووطننا الجاحدين لحقوقنا فلنؤد أعمالنا كم تؤدي الشجرة أعمالها، كل فرد يؤدي واجبه، الفرد للمجموع، والمجموع للفرد، بحيث لا يطغى جانب على آخر، لا يفتنى الفرد في المجموع.

وهكذا يا قوم، هذه هي اللؤلؤة، وعلى هذه الضغوط جميعها جمعتها في هذه الورقة وقبلها الصحابة في الحديبية، فوضعهم الله في إطار جميل، وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وتكون الجماعة الإسلامية هذا التكون، أشداء، رحماء، يصلون، ويجمعون المال من حلال، وعلمتهم الصلاة الأدب، نوه الله بنا في التوراة والإنجيل.

هكذا فإذا أردنا أن نكون لآلئ غالية، وأفرادًا صالحين وتابعين لخير متبوع.

يا أتباع خير نبي ، وخير قائد ، وأمة خير نبي ، يا أمة خير الأنام ، رسولكم تربي تربية غالية وكذا صحبه ، سيروا على نهجهم تظفروا بما ظفروا ، وتسعدوا بما سعدوا ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آلُؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح : ٢٧] ، وتحقق وعد الله ودخل المسلمون مكة فاتحين ، وأظهر الله الدين على الدين كله ، وشهد الله بذلك ، وكون الله أمة .

اللهم ارزقنا تبعة نبيك ﷺ على حق ، اللهم ارزقنا خير الدارين ، اللهم فقهننا في ديننا ، اللهم علمنا الحق حقًا فتبعه يا خير الناصرين ، يا مستجيب المضطرين ، مضطرون نسألك ، تعلم ما نحن فيه يا رب خذ بيدنا وانصر حقنا على أعدائنا يا رب العالمين ، اللهم إنك تعلم موقف الدول الإسلامية مما أصيبت به ، فخذ بيدنا وأنت وعدتنا وأنت خير من يوفي الوعد ، فقلت : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] ، فحقق وعدك يا رب ، وقلت : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج : ٣٨] ، فدافع عنا يا رب العالمين ، يا أكرم الأكرمين ، اللهم ألف بالإخاء والمحبة والصفاء بين رؤساء المسلمين ، اللهم انصر الإسلام والمسلمين .

اللهم خذ بيد كل مسلم ، وخذ بيد كل من ينصر العرب والمسلمين يا رب العالمين .



المحاضرة السابعة والأربعون:**عبر من قصة يوسف**

قصة يوسف لا يمكن للمرء أن يعيشها في وقت يتقاصر المرء بالنسبة له ، وحسبنا أن نقف عند بعض المحاور :

وأول هذه المحاور : المجال الذي ربي فيه سيدنا يوسف عليه السلام التربية الأولى .

والمحور الثاني : مؤامرة إخوته عليه وسبب هذه المؤامرة .

والمحور الثالث : هو التحدي الحضاري الذي واجه يوسف عليه السلام ؛ تحدد مادي وحضاري .

والمحور الرابع : منذ بوأه الله الملك على أساس من العلم الشمولي بحقائق الدين ، وبما أراد الله أن يتخصص فيه من علوم الدنيا .

والمحور الخامس : موقفه وقد ملكه الله رقاب إخوته الذين حقدوا عليه وتآمروا وغيبوه عن أبيه حتى يخلو لهم وجهه ، وكيف أن الله تبارك وتعالى أَرَانَا الآية الكبرى حيث جعل رؤياه التي بدأت بها السورة حقيقة واقعة سجد له إخوته وأبواه بعد ربح من الزمن .

رؤيا يوسف عليه السلام :

هذه السورة أو هذه القصة تبدأ بهذه العقدة : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] .

القرآن الكريم يقص علينا أن يعقوب عليه السلام وجه ابنه يوسف أن لا يقص هذه الرؤيا على إخوته ، بينما تحكي صحف العهد القديم أن يوسف قص الرؤيا من بادئ الأمر على أبيه وإخوته .

وقد أعجبني ما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا: أن ما ذكر في العهد القديم ما هو إلا تاريخ تنقصه القوة فيما يتعلق بالثقة بالنسبة لأي خبر ينبغي أن يصلنا عن طريق السند المتصل والسند المتواتر .

هذا الذي قصه القرآن الكريم كاف وحده ، فقد حقد إخوة يوسف عليه أن يتجه أبوه له بالحب الأكبر ، وأن يؤثره بعطف أكبر وهم جميعاً إخوة ، وفكر هؤلاء الإخوة أن يكونوا حائلين بين يوسف وأبيه يعقوب ، خاصة بعد أن كان ليوسف مع أبيه يعقوب هذه المكانة التي تأكدت بهذه الرؤيا .

ونحن نعلم أن يعقوب هو سليل الأنبياء ، إسحاق لإبراهيم ، وحينما قص يوسف عليه هذه الرؤيا عرف يعقوب أنه إذن نبي ، وأن امتداد النبوة في هذا البيت بيوسف ، فكان أشد ما يكون عليه حرصاً .
ومن هنا نصحه بأن لا يحكي قصته أو رؤياه على إخوته ، لم يحك يوسف هذه الرؤيا .

مؤامرة إخوة يوسف:

ولكن إخوة يوسف حقدوا عليه هذه القربى من أبيه أو هذا التقريب من أبيه له فتآمروا واحتالوا بحيلة يأخذون بها يوسف : ﴿ قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴾ [يوسف: ١١، ١٢] ، وَيَلْعَبُ (أي في المراعي الخصبية) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿ [يوسف: ١١، ١٢] ، وساورت يعقوب شكوك : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ [يوسف: ١٣] لا أحب مطلقاً أن يبعد عني يوماً ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣] .

بيد أن هؤلاء الإخوة كانوا قد دبروا أمرًا هو أن يباعدوا بين يوسف وأبيهم يعقوب حتى يظل يعقوب لهم لا له .

ودبروا الأمر : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] ،
﴿ قَالُوا يَتَابَنَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ (نفساً) وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ
مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف : ١٧] ، ووجدوا يعقوب فرصة أن
يتعجب من هذا الذي صنعه الذئب ، وقال قوله مشهورة : ما رأيت
كالיום أحلم من هذا الذئب ، يأكل ابني ويترك قميصه ، كيف يمكن
أن يتم هذا؟ وأراه الله بشفافيته وببصيرته أن هذا ما هو إلا تزيين منهم
وحيلة يدخلون بها على أبيهم ، ومن هنا قال يعقوب في ثبات : ﴿ بَلْ
سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۚ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] .

دروس من هذه المقدمة :

هنا نأخذ درسين :

١- عدم تفضيل أحد الأبناء :

الدرس الأول : أن الأب مهما كانت عاطفته نحو بعض أبنائه فلا
يسوغ له أن يميز هؤلاء أو هذا بحب أكبر ، وبعبارة أخرى : إذا كانت
العاطفة أقوى من السلوك ، فعليه أن يعوض هذا التمييز بشيء لإخوته ،
بحيث لا يحسون من هذا التقريب أنه مؤثر أخاهم عليهم .

وهذا بيت من بيوت النبوة ، ومع ذلك حدث فيه ما لا يمكن للنفس
البشرية أن تدفعه ، ومن هنا كان ما كان ، هذا أول درس .

٢- قوة الصلة بالله :

أما الدرس الثاني : فهو أن يعقوب عليه السلام قد رأى من أبنائه أنهم يتحايلون عليه أو يكذبون عليه لم يكن منه إلا أن يقول : ﴿فَصَبِّرْ حَمِيلٌ﴾ ولم يفقد صلته بربه ، وإنما قال : ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ .

إنقاذ يوسف :

هذا الذي حدث في هذا المشهد يتلوه مشهد آخر ، أن إخوة يوسف أرادوا أن يباعوا بينه وبين أبيه ، فماذا حدث؟
أرادوا أن يدعوه مع الهلاك في البرية فماذا حدث؟

تولى الله يوسف : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف : ١٩] ، قافلة يقوى سيرها كالكشفافة والجوالة ، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف : ١٩] ، وهو الذي يستقي لهم الماء ، فإذا بهذا الوارد يدلي هذا الدلو ، وإذا به يتعلق به سيدنا يوسف عليه السلام فيقول الرجل مستدعيًا للبشرى : ﴿يَبْشُرِي﴾ [يوسف : ١٩] أقبلي : فهذا أوانك ﴿هَذَا غُلْمٌ﴾ [يوسف : ١٩] ، ولقد كانوا مع قافلة سائرة إلى مصر ، وإذا بهم يقولون : هذا الغلام نخفيه بضاعة ، ونتاجر به علنا نأخذ فيه ثمنًا ، وأخفوه عن باقي أفراد القافلة حتى لا يشاركوا .

ثم حدث ما حدث وباعوه بثمان زهيد أو بثمان ناقص ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف : ٢٠] ، لم يكن لهم غرض في أن يربحوا فيه لأمر أراده الله لماذا؟ لأن الله هو الذي تولى يوسف .

يوسف في مصر :

ثم أصبح يوسف بعد أن اشتراه عزيز مصر في مكان يقول الله عنه : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف : ٥٦] .

كان هذا بداية التمكن ليوسف ، أو التمكين ليوسف لماذا؟

مراحل تكوين يوسف :

مرحلة يعقوب عليه السلام :

المرحلة الأولى التي بدأها يوسف كانت مرحلة التربية الأساسية هذه المرحلة الأساسية : علّمه فيها يعقوب ورباه التربية الدينية على ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْتَبِلكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : ٦] ؛ والأحاديث هي إما أنها أحاديث الرؤيا والأحلام ، وإما أنها أحاديث الوحي الإلهي ؛ لأن الله تبارك وتعالى يعبر عن كتابه العزيز فيقول : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] .

جمع يعقوب لابنه بين علم الوحي وبين علم الرؤيا ، ثم كان هذا بداية تعليم الرسل .

لما كبر يوسف في مصر تعلم علماً جديداً ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف : ٢٢] ، ويختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ حُكْمًا ﴾ ، وفي قوله : ﴿ عِلْمًا ﴾ هل المقصود بالحكم هو الإدارة أو فن الحكم؟ والعلم هو العلم بالحكم وبما يقتضيه هذا الحكم من سياسة ، ومن تدبير ، ومن تخطيط ، ومن علم بشئون الإدارة بكل أبعادها؟ أم أن الحكم مأخوذ من حكمة الفرس ، وحكمة الفرس هي لجامه الذي يحكم مقاده أو مسيره .

وكان يوسف عليه السلام آتاه الله ملكة يحكم بها أمره ، أو يحكم بها على هواه ، أو يحكم بها على تصرفاته وسلوكه ، ثم كان هذا تأسيساً لما آتاه الله من علم أو لما زاده من علم .

أعتقد أن هذا العلم الذي أوتي في هذه الفترة كان علماً خاصاً مع علم إلهي لماذا؟

مرحلة عزيز مصر :

لأن عزيز مصر حين اشتراه قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] معنى هذا أنه سوف يحاط ببلون معين من ألوان الرعاية ، بلون معين من ألوان التربية ، لن يكون شأنه شأن المملوك ، وإنما سوف يُتَّخَذُ وَلَدًا أو هو في رجاء أن يتخذ ولداً ، أن يُتَبَنَّى . معنى هذا أن يُتعهد بالألوان خاصة من التربية ، ومن التعليم لا تتاح لها الإمكانيات إلا في مثل هذا المجال .

وهذا بداية تعليم يوسف فن الحكمة ، أو فن الإدارة مضافاً إليه ماذا؟ مضافاً إليه ما كان الله تبارك وتعالى يعلمه إياه من علم لدني كان يفيضه عليه آنأ بعد آن ، وكان يحكم مسيرته ، وكان يقوي حصافته ، وكان يزيد من حكمته حتى يستطيع أن يواجه ما سوف يواجهه من أحداث ومن مواقف .

التحدي الحضاري الذيواجه يوسف :

وأول هذه المواقف تحد حضاري ؛ انتقل يوسف من البادية إلى الحاضرة ، من الصحراء إلى المدينة ؛ من عيشة بسيطة إلى عيشة مترفة أو عيشة مرفهة ، فيها كل ملابسات المادة وإمكانيات المادة .

شبابنا يواجه بهذا التحدي الحضاري ، حينما يخرج مثلاً من أسرته إلى شوارع المدينة ، أو حين يخرج من مدينته إلى مدينة أخرى بأوروبا أو بأمريكا أو بالعالم الغربي أو الشرقي .

تحد حضاري كيف يمكن أن يوازن الشباب بين تراثه ، وبين قيمه ، وبين أخلاقه ، وبين ما يواجهه من مادة ومن حضارة .

هذا الذي تحدى يوسف عليه السلام واجهه يوسف بثبات ، بقلب موقن مؤمن متق لله تعالى تجلت في هذه المواجهة خصائص يوسف عليه السلام هي التي تكون شخصية يوسف ، من العلم ، ومن الإحسان ، ومن العبودية ، ومن الإخلاص ، ومن التقوى ؛ لأن هذه خصائص ربي عليها يوسف وعاشت معه ، كما يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦ ، ٥٧] .

فأثبت له الإحسان وأثبت له التقوى وأثبت له من قبل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] ، والعباد هم الذين أخلصوا العبودية لله ، خصوصاً حينما تضاف إلى ضمير العظمة ، والمخلص مستوى أعلى من المخلص ، إن المخلص هو من يتقن عبادته لمولاه ، أما المخلص فهو من جعل نفسه وحسه وفكره كله لمولاه ليس فيه شيء آخر سوى مولاه .

إذن كان يوسف بهذه الخصائص مع التأسيس التربوي والتعليمي الذي أسسه به أبوه يعقوب .

هذا كله استطاع أن يواجه التحدي الحضاري ، واستطاع أن ينجح في هذا الموقف ، واستطاع أن يرى برهان ربه ، واستطاع أن لا يزل مع الزالين ، ثم كان هذا تأسيساً أو تمهيداً لما سوف يراه يوسف من بعد .

وعبر يوسف هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى أعتقد أن هذه المرحلة أوتي أو مكّن له من علم تخصصي لماذا؟

لأنه بعد أن نجح في هذه المحنة : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي ﴾ [يوسف : ٥٤] ، أجعله مستشارًا ، أجعله ذا منصب أثير قريب مني ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] ، يعني ذو مكانة وذو أمانة نشهد لك بها .

وانظر نحن مقبلون على محنة بعد أن عبرت لنا الرؤيا ، لقد قلت بما آتاك الله من علم بالتخطيط وبشئون الاقتصاد وبشئون الاستثمار .

قلت : في تعبير رؤياي -والملك يتحدث- ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ٤٧ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ ٤٨ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧-٤٩] .

يوسف يفسر رؤيا الملك :

لأول مرة تفسر رؤيا بعدد مخالف للعدد ، أو للرموز التي جاءت بها ، لقد رأى الملك ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٌ وَأُخْرَى بَاسِتٌ ﴾ [يوسف : ٤٦] .

واحتار علماء المملكة في أن يفسروا هذا ، وقالوا لعلهم ينجون من التفسير : ﴿ أَضْغَنْتُ أَحْلِمَ ﴾ [يوسف : ٤٤] ؛ يعني أخلاط أحلام ، ثم ترقوا وقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [يوسف : ٤٤] ؛ سواء كانت حقيقية أم غير حقيقية ، وأفلتوا من أن يفسروا ، أو يعبروا هذه الرؤيا .

بيد أن يوسف -وقد كان ساقى الملك قد عرف بأنه على قدر كبير من العلم بتعبير الرؤيا- هو الذي عبر هذه الرؤيا بهذا التفسير ؛ عبرها بخمسة عشر ، بينما هي أربعة عشر فقط لماذا؟

لأن يوسف إنما كان يعبر الرؤيا عما أوتيته من علم إلهي ، ومن هنا قال : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾ [يوسف : ٤٧] ؛ ينزل المطر فتزرعونها بصفة مستمرة ، ثم ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧] يعني تذرون هذا الحصاد في سنبله كوسيلة من وسائل التخزين ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧] ، في هذه الفترة .

وكان هذا بداية سياسة تقشفية ، لماذا؟ لأن هناك سبع سنوات لن ينزل المطر فيهن ، حتى هذه السنوات السبع التي لن ينزل المطر فيهن أشار يوسف بما آتاه الله من قدرة علمية تخطيطية أن لا تأتي هذه السنوات العجاف على كل مدخراتهم من السنوات السبع السابقة ، وإنما عليهم أن يعيدوا استثمار جزء من هذا المدخر ، عليهم أن يحصنوا شيئاً من هذا الذي سوف يكون عندهم في السنوات السبع العجاف لماذا؟

لأن هناك عامًا خامس عشر سوف ينزل فيه الماء ، فما لم يجد البذر فكيف يمكن أن تستعيد الدورة النباتية تطوراتها ، أو حياتها أو استمراريتها ، كيف يمكن؟

ومن هنا أشار عليهم بهذه الخمسة عشر ، عندما أشار بهذه الخمسة عشر كان لا يزال ، يعني كان في السنوات السبع ، ثم لما جاء الملك كانت السنوات السبع العجاف لم تكن أتت بعد ، إذن المجتمع مقبل على أزمة اقتصادية خانقة .

يوسف يتولى الوزارة:

الملك يقول : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] ، ولعله قال له : اختر لك موقعًا تشارك فيه في المهام الرسمية أو الرئيسية علنا ننقذ من هذه المجاعة الموشكة .

وهنا لم يك قول يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]؛ تزكية ليوسف أو مباهاة بما آتاه الله، أو مسارعة إلى تولي مسئولية وزارية، وقد عرف أن الإسلام لا يجب من المرء ما دام يجد غيره من الأكفأ العلماء شاغلين لمناصب معينة.

لا يستحسن الإسلام أن يأتي الرجل فيطلب موقعاً من هذه المواقع، وقد جاء عن عبد الرحمن بن سمرة كما يروي مسلم في «صحيحه» إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأل الإمارة، فنهاه صلى الله عليه وسلم عن سؤال الإمارة، وقال: «إِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا دُونَ أَنْ تَسْأَلَهَا أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا بَعْدَ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا» يعني وكلت إلى اجتهادك دون أن يعينك الله تعالى.

إذن لم يكن يوسف عليه السلام يأخذ حق غيره، بل لعل يوسف أراد أن يكون فدائياً في هذه الفترة الحرجة حينما قدم مواهبه وكفاءته، وقال للملك: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، أي: أنا مستعد أن أنهض بمسئولية وزارتي الخزانة والتموين، بل والتنمية الزراعية؛ لأن بعض المفسرين ومنهم الإمام البقاعي يقول: قوله: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ﴿حَفِيظٌ﴾ يعني أمين أحفظ ما تستودعني إياه، وما تجعلني مكلفاً به، ﴿عَلِيمٌ﴾ باستنماء الأرض، وباستنماء الزراعة، وعليم بكل ما يلزم الخزانة من تدبير سياسي، أو من تخطيط، أو من سياسة تنموية إلى آخره.

إذن كان يوسف في هذه الفترة —أو في هذا الحديث عن نفسه— كان يريد أن يتولى مسئولية؛ يريد أن يكون فدائياً بالنسبة لها مضحياً بماذا؟

لأنه لو لم ينجح لكان أمام عقاب أو أمام مسئولية خطيرة قد لا يستطيع أن يواجهها.

ومن هنا لا نستطيع أن نقول: إن يوسف كان يزكي نفسه، ولا نستطيع أن نقول: إن يوسف كان يريد أن يأخذ مقعد غيره، أو لا نستطيع أن نقول: إن يوسف كان يطلب الولاية دون أن تكون مفروضة، أو دون أن تكون محتمة، ولعل يوسف في هذا الوقت كان هو الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ المجتمع من هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة. إذا عبرنا هذا ونحن بين يدي الدروس والعبر، والدروس تتعلق بالسلوك البشري.

وقد مثلت بالدرسين الأولين: أما العبرة فهي الآية هي الأمر العجَبُ؛ هي الأمر الذي يكون بيد القدرة الإلهية، أو ناشئًا عن العلم والحكمة الإلهية. مثلاً عندما أراد إخوة يوسف أن يقطعوا صلة يوسف بأبيه، ماذا حدث؟

لقد خاب فآلهم وطاش سهمهم، وكان يوسف فيما بعد أقرب الناس إلى أبيه يعقوب عليه السلام، أرادوا أن يكون مملوكًا، فكان من آية الله أن أصبح ملكًا. لكن عندما كان ملكًا كان ملكه يعتمد على الأمرين: الأمر الديني، ويتمثل في التقوى، والأمر العلمي، ويتمثل فيما تخصص فيه يوسف عليه السلام مع الفيض الإلهي.

وربنا تبارك وتعالى حينما قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

ما معنى هذا؟ معنى هذا أن الله تبارك وتعالى يريد أن يعلمنا أنه يفيض على المحسن المتقي الذي يعبد الله كأنه يراه في سائر خلواته وجلواته، في سائر حركاته وسكناته؛ يعني يفيض عليه من علمه ما لا يخطر له على بال.

لأن هذا الحديث عن إيتاء علم جديد وإيتاء حكم أو حكمة جديدة آتاه الله علماً وحكماً، كأن المحسن حينما يكون قلبه مع الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وكما قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، المحسن كلما أحسن كلما كان الله معه .

يوسف وإخوته:

لو غادرنا هذا إلى الموقف الذي كان فيه إخوة يوسف والذي جمعهم الله به بعد أن أرادوا به قتلاً، إذا به يعرفهم وهم له منكرون، وإذا ببعض المواقف يقول: يسأل يوسف إخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]؟

هنا ومع ملابسات الآيات التي قد لا يتسع المقام لسردها: ﴿قَالُوا أَيْنَ نَبِّكَ لِأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، هنا يقول المولى عز شأنه ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]. بعد أن بُرئ يوسف من الأرض حيث يشاء، وبعد أن مكن له في الأرض يقول الله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

الله تبارك وتعالى يجمع للعالم أو للمسلم العالم حيث يجمع بين علمي: الدين والدنيا، يجمع له أيضاً بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وعطاء الله واسع، وكلما كان المرء مدركاً بالعلم مُتَّشِحاً بالتقوى كلما أفاض الله له

آفاقاً لا تخطر له على بال ، وكلما ملكه ، لكن كلما ملكه ، كلما كان أدنى إلى ما صدر من يوسف ، وما صدر من يعقوب .

لقد صدر من يوسف عفو عن إخوته ، ولمّ لشمل هؤلاء الإخوة ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١] ؛ أي في حقك ، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢] ؛ أي لا لوم ولا تأنيب ولا توبيخ ولا تعيير ﴿ لَا تَثْرِيبَ ﴾ عليكم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ وإذا كان لا تثريب عليكم اليوم ، وهو يوم الجزاء أو المقابلة ، فمن باب أولى أي يوم آخر : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] .

يوسف لا ينسى أباه :

ماذا حدث من يوسف ؟ لم ينس أباه ، وقال لهم : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا ﴾ [يوسف: ٩٣] .

وللقميص مع يوسف عدة آيات أو عدة عبر ، لقد كان قميص يوسف دليل كذب إخوته ، حينما جاءوا عليه بدم كذب .

وقد كان القميص دليل صدق يوسف حين شهد شاهد : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ .

وكان قميص يوسف سبباً لبراء يعقوب عليه السلام مما أصابه الله به من حزنه الكبير على يوسف ، وقال عندما حدث هذا اللقاء : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي ﴾ [يوسف: ٩٣] ، اليوم يوم الرحمة : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣] .

أما هؤلاء بين يدي أبيه كيف يمكن أن يكون الموقف بعد أن فعلوا بأخيهم ما فعلوا ، وبعد أن فوجئوا بهذه الآية الكبرى أن يوسف على قيد الحياة ، وأنه ليس مملوكًا بل هو مَلِك ، وأنه هو الذي جاءهم بما جاءهم به من طعام ومن ميرة ومن زاد ، وأنه هو الذي أنقذهم من مجاعة خانقة .

كيف يمكن أن يواجه هؤلاء الأبناء أباهم بعد أن فعلوا ما فعلوا ، وبعد أن قالوا : قد أكله الذئب ، كيف يمكن أن يواجهوا أباهم ، ومع هذا كله فقد ﴿ قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ١٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ [يوسف : ٩٨] .

إذن في جو الأسرة مهما حدث بين الإخوة وبين الآباء والأبناء المقام مقام الرباط الأسري ، حافظ يوسف على الرباط الأخوي ، وحافظ يعقوب على الرباط بين الأب وبنيه وطلب لهم أن يغفر الله لهم : ﴿ قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ١٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ .

عائلة يوسف في مصر :

ثم ماذا حدث ؟ لقد وفدت الأسرة كلها على يوسف عليه السلام ، وجمع الله ليوسف أبويه وإخوته وخرُّوا له سُجَّدًا .

وهذا السجود إما أن نقول : إنه كان سجودًا لله جهة يوسف عليه السلام ، أو أنه كان سجودًا مثل سجود الملائكة الذين أُمروا أن يسجدوا لآدم .

ومن الطبيعي أن لا يأمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تعظيم ؛ لأن سجود التعظيم إنما هو لله عز وجل ، كان سجود تحية ، وكانت هذه التحية في شرع من قبلنا ، لكن عندما جاء الإسلام أبطل هذه التحية وأصبح السلام هو التحية .

أو نقول كما قال بعض المفسرين : سجدوا للقبلة وكان يوسف جهة القبلة ، أو سجدوا لله على ما من به على يوسف عليه السلام .

سواء كان هذا أم كان ذاك ، فالأقوال مبثوثة في كتب التفسير ، لكن الذي نرجحه ما هو ظاهر الآية ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠] السجود الحقيقي ؛ لكن السجود لم يكن تعظيمًا ليوسف ، حاشا ليعقوب أن يعظم يوسف ، وهو نبي الله ، وحاشا ليوسف أن يقبل هذا التعظيم ، وهو نبي الله أيضًا ، وإنما كان السجود سجود تحية .

تواضع يوسف عليه السلام :

لكن بعد أن حدث هذا كله ، وشيد الملك على العلم ، وأصبح يوسف مالكا ملكية مطلقة : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦] .

كيف كان يوسف ؟ لقد جلس متطامنا متواضعا في دعاء أخاذه ، يقول مواجهها ربه : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّـ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] .

لم يأخذ الكبر أو العجب يوسف عليه السلام ، ولم ينس أن يجمع الأساس الذي به كان ملكا وهو العلم : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

لم ينس أيضا الجانب الديني ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّـ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

لم يك هذا من يوسف عليه السلام تمنياً للموت ، والمسلم منهى عن أن يتمنى الموت ، وإنما كان هذا من يوسف معناه : أدمني يا ربي على الإسلام حتى لا ألقاك إلا عليه ، ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ لأنني نسبه ، أو لأنني سليل الدوحة الصالحة ، سليل الأنبياء ؛ يعقوب ، وإسحاق ، وإبراهيم ، وسائر الأنبياء ، هذا هو المؤمن العالم .

ونحن حينما نتحدث عن يوسف في درس من هذه الدروس إنما نتحدث بوحى هذه الدروس لنضرب بيوسف عليه السلام المثل لشبابنا ، وكل شبابنا يمكن أن يتخذ من يوسف عليه السلام مثلاً ، عندما يواجه محنة أو أزمة أو إغراء ، أو تحدياً مادياً .

وقد قالها يوسف المربى تربية إيمانية : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وكان الله مع يوسف ، إن الله سوف يكون مع كل شاب يواجه التحدي الحضاري بقيمه الراسخة بإيمانه العميق ، وسوف يكون مع كل دولة ، وكل مملكة تقيم بناءها على أساس من العلم ، وعلى أساس من التقوى .



المحاضرة الثامنة والأربعون:

البيان والشعر والحكمة

انطلاقاً من الحديث الشريف: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة»^(١).

أزمة الأدب العربي المعاصر:

وبعد، فإن الموضوع وهو قول سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة» هو موضوع من مواضيع الساعة، ذلك أن الأدب العربي الحديث يجتاز حالياً أزمة أسلوب، فالأساليب البيانية كادت أن تضمحل لم نعد نستمتع بالأدب العربي ونتشي بفقراته المبدعة ونظراته الجميلة وفواصله الذكية منذ وفاة ثلاثة أدباء من كبار أدباء العربية في هذا العصر: الأمير شبيب أرسلان ومصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات رحمهم الله جميعاً.

والآن نجيل الطرف في طول البلاد العربية وعرضها فلا نكاد نعثر على كاتب بياني واحد، فقد انتشرت أساليب العجمة والإسفاف والابتذال والعامية، نعم أحياناً نجد كتاباً مخلصين للمادة التي يشتغلون عليها، عندهم الفكرة الذكية والمعنى العميق والعلم الغزير، ولكن ليس عندهم أسلوب بياني فالأساليب البيانية قد اختفت فعلاً أو أوشكت على

(١) صححه ابن حبان (٥٧٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً، به. والشطر الأول أخرجه البخاري (٥١٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً، به. وأخرجه مسلم (٨٦٩) عن عمار ابن ياسر رضي الله عنه مرفوعاً.

والشطر الثاني أخرجه البخاري (٦١٤٥) عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً، به.

الاختفاء ، ولست أرد ذلك إلى فقر في الملكات وإلى جذب في القرائح والاستعدادات لأن هذه الأمة المترامية الأطراف والتي تسكن هذا الوطن العربي الكبير لا يمكن أن تخلو من الاستعدادات الطيبة العالية .

المسئول عن هذه الأزمة :

ولكن المسئول عن ذلك في نظري هو شيوع بعض نظريات النقد الأدبي التي تستخف بالبيان وتهزأ بروعة التعبير وجمال التصوير ، فإذا وجدت أديبًا يكتب على هذه الطريقة اهتمته بالرجعية وبأنه ليس في مستوى العصر بحجة أنه يتأنق في اختيار اللفظ ، وفي اصطفاء العبارة وفي مراعاة ما بين السطور .

لذلك فإن هذه النظريات مسئولة عن هذه الوضعية ، وغير خاف على أحد من المتأدبين أو من الأدباء أو من عشاق الكلمة الجميلة على الإطلاق أن أول شرط في الأدب الصحيح أننا نستمتع به ، ولكننا نقرأ اليوم ونحصل على الفائدة ولكن لا نحصل على المتعة ، وهذه الفائدة يمكن أن نجدها أوفر في العلم ؛ لأن العلم يملك من أسلحة التدقيق والتمحيص والتسليم والتقييم ، ما لا يملك الأدب ، ولكن الشيء الذي لا يستطيع العلم أن يقدمه إلينا هو هذه المتعة الروحية التي تهتز لها جوانحنا وتحيش لها صدورنا وترقص لها خواطرنا .

أصبحنا اليوم في البلاد العربية أمام كثير مما يكتب وينشر على الناس ، ولكن ومع كامل الأسف يغلب عليه الكم ولا يراعى فيه الكيف .

لذلك فإنني أعتقد أن طرح هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات شيء جميل بل هو واجب ، وأعتقد أن من واجب كبار كتاب العربية ، والذين لهم غيرة على آدابها أن يحركوا أقلامهم لإثارة هذا الموضوع ، وأن القديم لا

ينبغي أن يهجر لأنه قديم كما أن الجديد لا ينبغي أن يؤتى لأنه جديد ولكن ينظر إلى القديم وإلى الجديد بمقاييس تقدر جمال الفن وتراعي حسن التصوير والتعبير والتمثيل والتخييل والتشبيه .

قصة الحديث:

الموضوع الذي سنتناوله هو قوله ﷺ : «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة» .

والسبب في قول هذا الحديث وصدوره عن نبينا عليه الصلاة والسلام هو أن ثلاثة أشخاص وفدوا عليه ذات يوم، أحدهم قيس بن عاصم، وثانيهم الزبرقان بن بدر، وثالثهم عمرو بن الأهتم، وفدوا عليه ﷺ فسأل النبي ﷺ عمروا عن الزبرقان فأثنى عليه، ولكن الزبرقان لم يرض بهذا الثناء وقال : والله يا رسول الله ، إنه ليعلم أنني أفضل من ذلك ولكنه حسدني لمكانتي منك . في ذلك الحين قال عمرو كلاماً آخر حيث أثنى عليه شراً - في العربية يقال : أثنى عليه خيراً ، وأثنى عليه شراً - وعقب على ذلك بقوله : والله لم أكذب في الحالة الأولى ولا في الآخرة ، ولكنه أرضاني فقلت رضاء ، وأسخطني فقلت سخطاً ، إذ ذاك قال نبينا عليه الصلاة والسلام معقبا على هذا الكلام : «إن من البيان لسحراً» .

ما البيان؟

والبيان لا نريد أن نقف عند مدلوله البلاغي ؛ لأن هذا الكلام شعبنا منه ونحن محتاجون إلى أن نبحث عن منحى طريف نسلكه في تحليل كلمة «بيان» ، البيان هو خطاب أدبي ، والمفروض في كل خطاب أن يكون هناك من يصدر عنه الخطاب ومن يوجه إليه الخطاب وأن تكون هناك وسيلة عبرها ينقل هذا الخطاب .

بالنسبة إلى الخطاب الأدبي الذي يصدر عنه الخطاب هو الأديب المبدع ، والأديب المبدع يصدر في خطابه الأدبي عن عدة ملكات ، عن ملكة العقل وملكة التذوق وملكة الخيال ، وكذلك الوجدان الفني ، وعندما يسعى كلامه وقد صدر عن هذه الملكات نحو الطرف المتلقي ، فإن هذا الطرف يتلقى الخطاب بنفس الملكات يعني إذا لم يكن هناك من يخاطب بالخطاب الأدبي أصبح هذا الخطاب بدون معنى ، فلا بد من وجود استعداد عند الطرف المتلقي لكي يؤدي الخطاب الأدبي مهمته ، ولكي يكون له مغزى ومدلول ، وكل من الطرف الذي يصدر عنه الخطاب والطرف الذي يوجه له الخطاب كل منهما يعتبر متممًا ومكملاً للآخر ، كل منهما يتراءى من خلال الطرف الآخر .

الوسيط بين الأديب والمتلقي :

وأما الوسيط في هذه العملية الشائكة المعقدة فهو اللغة ، واللغة لم نضعها نحن ولكننا ورثناها عن العصور الماضية ، أجيال من البشر هي التي ساهمت في وضع هذه اللغة ووصلتنا هذه اللغة جاهزة تحمل حمولة ضخمة ورصيدًا عاليًا مما ورثته من جميع الأجيال والعصور الغابرة .

فعندما خرجت اللغة العربية من الصحراء ونفضت عنها الرمال ، ومرت تحت أقباف الحضارة والمدنية ودخلت إلى العواصم ، إلى بغداد ودمشق والقاهرة وفاس وقرطبة ، تحضرت اللغة العربية ومستها الشرائل المدنية ، فرق منها الحديث ، ورَهِف منه الإحساس وأصبحت لغة مستعدة لأن تنقل عن الناس وتؤدي عنهم أدق المشاعر والعواطف والخلجات .

وهذه اللغة في رحلتها الطويلة وعبر عصور كثيرة متطاولة أديرت على معاني الخير ومعاني الشر ، على معاني القبح وعلى معاني الجمال ، فغنى بها

المنشدون واستخدموها النساك والفتاك ، ونوجي بها الله ﷻ كما نوجي بها الشيطان ، وحملت هذه اللغة الكثير من المضاعفات ومن التناقضات .

هذه اللغة وصلتنا على هذه الحالة ، فعندما يتناولها الكاتب البياني بفكر دقيق وإحساس مرهف ، إحساس كأنه يقف على حد السيف لشدة رهافته ، عندما يتناولها تفرغ هذه اللغة محتوياتها بين يديه وقد تسبقه إلى قلمه وقد تزيد أن تعبر عما يريد أن يقول بالنيابة عنه لأنها تحمل طاقماً جاهزاً من الأفكار والانطباعات والخواطر والتأملات .

وها هنا تبدأ متاعب الكاتب البياني لأن الكاتب البياني الكبير يريد أن يكون له صوت متفرد لا يريد للآخرين أن يسرقوا منه وسيلة الأداء ، وأن يفرضوا عليه ما عنده من أفكار وملابسات ولكن الكاتب البياني يريد اللغة بكرّاً عذراء ، يباشرها وكأنها خلقت لتوها وساعتها ، ولكن هذا الذي نطمح إليه مستحيل ، فاللغة كائن عام ، مفروض على كل واحد تكلم بها أن يتقبلها كما هي .

وليس في وسع الكاتب البياني أن يخلق لغته المستقلة ، ولذلك فإنه يعتمد إلى تلك اللغة العامة المشتركة فيشقق فيها القول ويقلبها على مختلف الوجوه ويزينها بالصور والتشبيهات والاستعارات والمجازات لعله يتمكن من أن يخلق لغة داخل اللغة ، وخلق لغة داخل اللغة أمر باهظ التكاليف ، يعرفه كل من زاول الحرف في حالة الإبداع والخلق والإنشاء .

الأدب الخالد :

هذا البيان من المفروض فيه ألا يكون بأسلوب تقريرى مباشر ؛ لأن الأسلوب التقريرى المباشر يقتل روح البيان ، فالبيان ثراء فيما بين السطور ، ثراء بين الكلمات ، ظلال وإيحاء ، عطاء لا ينقطع على مر الأجيال والعصور .

لذلك فإن الأدب التقريري المباشر ينتهي أمره بانتهاء زمانه ، أما الأدب البياني فهو الأدب الخالد الذي يقرأ دائماً ، ودائماً يجد الناس فيه أشياء جديدة تمتع أذواقهم وترهف حسهم .

لذلك فإنني آسف كل الأسف لاختفاء هذا البيان ، فكأن الناس أصبحوا اليوم يكتبون قصد الاستهلاك المحلي ، ولا يعيرون أي اهتمام لفكرة الخلود .

وغير خافٍ أن من حق الأجيال القادمة علينا أن نعرفها بأنفسنا ، وأن نترك لها آثاراً أدبية قادرة على أن تصل إليها ، أما أن نكتب أدباً يموت في الحين وترهق روحه فور الانتهاء من قراءته فهذا خيانة للأجيال القادمة ، فالذين سبقونا تركوا لنا ثروات طائلة من الأدب والبيان ما زلنا نعيش على نعيمها وعلى ثرائها إلى يومنا هذا ، وسيعيش الناس عليها إلى آخر الدهر ، فكيف أدّى أجدادنا هذه الأمانة نحونا ولا نؤديها نحن نحو الأجيال القادمة .

وكل بيان رفيع زيادة على الخصائص المتقدمة لابد أن تكون شيات الجمال فيه ليست شيئاً مضافاً من الخارج وإنما تكون فيه هذه الشيات جزءاً من طبيعته ، جزءاً من كيانه ، تكون الصور والتشبيهات والمجازات والكنائيات بالنسبة للأدب البياني كالحمرة على خدود التفاح والإشعاع الصادر من قلب الأحجار الكريمة .

أما أن نضيف هذه الطبقة من الزخرف إلى خارج النص الأدبي وظاهره فهذا مجرد تلفيق ليس من شأنه أن يجعل الزينة اللفظية وسيلة من وسائل التعبير ، ولعل الكثيرين ينظرون إلى الزينة اللفظية والزخرف الأسلوبي على أنه ضرب من الحرف والصناعات اليدوية ولكن هذا غير صحيح ، فهذه وسائل تعبيرية لا تقل في قيمتها عن النغم والإيقاع ، وعن أنواع الصرف

بالنسبة للمفردات وعن الإيحاءات والتداعيات التي نستفيدها من دلالات الألفاظ سواء على المستوى النفسي أو المستوى الاجتماعي أو المستوى الأدبي ، هذا هو البيان ، والبيان مراتب ودرجات لا تكاد تقف عند حد .

اللغة العربية لغة بيان :

واللغة العربية ليست لغة بيان ؛ لأن الله قيض لها جماعة من المبدعين الذين أثروها وأغنوها وجعلوها تتيه فخراً بما فيها من روائع خالدها فقط ، ولكن اللغة العربية لغة بيان بطبيعتها ولو لم نجد لها في أقلام الكتاب وفي لهوات الشعراء الفحول .

فالعربية بمخارج حروفها مركبة تركيباً موسيقياً ، فالمعجم العربي غني الدلالة من هذه الناحية ، فالصوت منذ يبدأ من أقصى الحلق ومن فتحة المزمار من الشفتين يتنوع أنواعاً مختلفة ويتشكل أشكالاً متباينة وتوجد فيه جميع سلاسل الموسيقى اللفظية والأسلوبية فما على العازف على هذه الأنغام إلا أن يكون ماهراً ليستخرج من الحرف العربي أعظم ما يستطيع وأوسع ما يستطيع أن يؤديه من أنواع الدلالات بتنظيمه وإيقاعه الصوتيين .

والعربية غنية بألوان صرفها ، فأنواع الاشتقاق كثيرة ، وجميع صيغ الأفعال والأسماء موجودة ، فعندما يتقدم الأديب المبدع نحو هذه الكلمات ليتخذها أداة للتعبير ، فإنه يجد صنوفاً عديدة من أنواع الصرف ، ومن البناء اللفظي الذي يستجيب لمكانته ولمعانيه ولخواطره .

أما تراكيب العربية فهي في باب إعجاز ، وغير خاف على أحد أن الأدباء المبدعين في جميع البيئات والعصور يحتاجون لكي يقوموا بمهمتهم البيانية أحسن قيام أن يجدوا بين يديهم لغة حية رائعة عبقرية من شأنها أن تستجيب لما عندهم من متطلبات الذوق والوجدان .

وها لغتنا العربية بحمد الله متوفرة على جميع هذه الخصائص والمميزات ، فهي لغة بيان في طبيعتها الأساسية وهي لغة بيان ؛ لأن الذين أبدعوا البيان فيها يعدون بالألوف ولكن الزمن وقف بهم عند مشارف العصر الحديث .

سحر البيان :

نعود إلى الحديث الشريف قال ﷺ : «إن من البيان لسحراً» ، والسحر كما هو معروف انتشر بين الأمم البدائية وكان قريب الخرافة والأسطورة قبل صحوة العقل ، وكان في وقت من الأوقات عقيدة شعبية يؤمن بها الجميع .

وقد تخصص فيه الكثيرون لأن الوظيفة تخلق العضو ، فهم جماعة من الناس عندما رأوا كلف الجميع بالسحر وأنهم يؤمنون به تخصصوا فيه واتخذوه مهنة وحرفة لهم ، فظهر هؤلاء السحرة سواء عند العرب في الجاهلية أو عند الفراعنة أو عند بني إسرائيل .

والسحر يدخل بين المرء ونفسه فيجعل له العين التي ينظر بها ، والأذن التي يسمع بها ، ويجعله يقف حائراً بين الحق والباطل تلبس عليه السبل وتختفي أمامه المعالم فيقع في عدة متاهات .

هذا هو السحر الذي حرمه الذكر الحكيم ولكن نبينا ﷺ وصف به البيان من باب التشبيه لا غير ، وسحر البيان قيل فيه الكثير .

حقيقة إن البيان ساحر والذين يعرفون البيان ويعيشون في ظلاله لحظة أو لحظات يدركون هذا جيداً ، أما الذين لا يعرفونه إلا عن طريق السماع فليس في وسعهم أن يشعروا بالإحساسات الدقيقة التي في هذا الموقف وفي هذا السياق ، كما أن شراب البرتقال لا يمكن تذوقه إلا إذا باشر الإنسان شربه ، أما أن نصف له نكهته فهيهات أن يشعر بها ، كذلك شأن البيان .

نعود إلى منطلق الحديث : «إن من البيان لسحراً» ، البيان ساحر وسحر البيان يتمثل في أنه يأخذنا من جميع أقطارنا ، ويلهينا عما حولنا ويشينا عما كنا بصده ، فُتْسِلُ له القياد ، ونلقي له بالزمام ، وما أمتع أن نقرأ لشاعر كبير أو كاتب مبدع ، فتتخلل عن جميع أسلحتك من فكر ثاقب ومن ذهن حصيف ومن قدرة على النقد وتهبه نفسك وجوارحك ليفعل بك ما يشاء ، حتى إذا اندمجت فيه وعرفت موضع السر في أدبه ، وتكشفت لك الأسرار تلو الأسرار عن النص الذي بين يديك وفعل بك النص الأفاعيل تعود في إمكانك أن تعود إليه لتقرأه مرة ثانية قراءة نقد وموازنة وتحقيق ، ولكن القراءة الثانية تكون عديمة الجدوى إذا لم تسبق بالقراءة الأولى .

وطالما سحرنا عشاق الكلمة ومبدعوها من أدباء العربية ، إنا جرحنا من أنات ابن زيدون ، وثرنا لغضبة سيف المتنبى ، وصلينا مع ابن الفارض ، وغفرنا الذنوب الجميلة لبعض الشعراء الخاطئين لا شيء إلا لأنهم عرفوا كيف يتسللون إلى قلوبنا ويخاطبون وجداننا .

هذا السحر كل من وقع تحته يشعر بخطورته ، ولكنه مع كامل الأسف أو ربما كان في ذلك حكمة يشاؤها الله ، ولكنه أي هذا السحر لا يبقى إلا برهة وجيزة ثم يزول كشأن كل الأشياء الجميلة واللحظات الممتعة عمرها قصير في هذا الزمان .

فالأديب الكبير والكاتب البياني عندما يأخذنا بروعة كلمه وحسن إيقاعه وجمال تصويره وعميق تأملاته وبديع خياله يخلقنا خلقاً جديداً يضيف عمراً إلى عمرنا ، يجعلنا نذكر الأشياء في شكل جديد ، يجعل الكثير من مظاهر الحياة تترك ما أصابها من ركود وخمول ، ويكون لها بعث جديد .

أنا شخصيًا أقرأ الأدب العربي بغزارة ولكنني مع الأسف الشديد لا أكاد اليوم أعر على هذا البيان، لذلك فإنني أعود أدراجي إلى أدبنا القديم فأنتشي بفقرات الجاحظ وجُمِّل أبي حيان التوحيدي وغيرهما من كبار كتاب العربية فأجد عندهم من غنى النفس ومن عمق الخاطر ومن رهافة الحس ومن تعشق للحرف ولجمال الكلمة ما لا أجد عند كتاب اليوم، كتاب اليوم أكثرهم أساتذة لي، تعلمت عنهم الشيء الكثير، ولكن هؤلاء الأساتذة هم أساتذة فقط والأساتذ مهمل بذل من جهد، لا بد أن تبقى مسافة بينه وبين التلميذ... أما الكاتب البياني فهو يتقرب إلينا، يخطو نحونا، يعانقنا فنندمج فيه ونتقمصه ونصبح وكأننا شخص واحد.

هؤلاء الكتاب البيانيون يأبون إلا أن يحتلوا من الناس قلوبهم ووجدانهم وخواطرهم، ولكن هذا الاحتلال لا يتركهم بمنجاة من أن يتأثروا هم أيضًا بنا لأننا وقعنا تحت تأثيرهم مباشرة، فكان لا بد أن يقع التأثير المتبادل بيننا وبينهم، هذا هو سحر البيان ولذلك قال ﷺ وهو أفصح القائلين: «إن من البيان لسحرا»، وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «وإن من الشعر لحكمة».

الشعر والنثر:

والشعر هو ذلك الكلام الجميل الموزون الذي يمتاز فيما يمتاز به بالنغم والإيقاع، والنغم والإيقاع فيه إنما هو وسيلة حية من وسائل التعبير، وعندما لا يكون هكذا يتحول إلى مجرد نظم هيكل عظمي لا يكسوه اللحم ولا يجري فيه الدم.

الشعر موزون وهذه الخاصية التي فيه توجد كذلك حتى في النثر، فإذا كان للنظم الشعري وزنه فللنثر وزنه أيضًا، فتوافق الفقرات وتقابل

الفواصل وتلاؤم الأسجاع هو في الواقع ضرب من الوزن النثري ولكن مع ذلك يبقى فارق بين الوزنين ، فالوزن الشعري رتيب ومطرّد ولا يكاد يتخلف ، أما وزن النثر فليس هكذا ، فهو كثير التنوع ، ودائمًا يفاجئنا بأنغام لم تكن في الحسبان ، فالأطراد النغمي والإيقاعي في الشعر يقابله حرية في التنغيم والإيقاع في النثر ، ولكن الإيقاع موجود في الفنين ، هذه باختصار هي حقيقة الشعر .

الحكمة :

وأما الحكمة فهي تجارب أجيال من البشر تجمعت في ألفاظ قليلة في جوهرة لامعة ، فالحكمة هي خلاصة تجارب السنين أبدعها أناس أوتوا من صفاء الذهن وقوة القريحة والقدرة على التركيز ما جعلهم يجمعون الكثير من تجارب الحياة ومواقفها ومبادئها في هذه الجوهرة الساطعة ، التي نطلق عليه حكمة ، فكما أن الجوهرة إذا صرفتها تقدر بالملايين وقد تقدر بالملايير مع صغر حجمها فإن الحكمة هي الأخرى ربما إذا حللناها نجدها تنحل إلى الكثير من العلوم والكثير من الفنون إلى ثروات طائلة .

وقول الحكمة ليس بالشيء الهين ولا باليسير ، ذلك لأن ما تحتاجه من قدرة على التركيز وعلى عمق التأمل وعلى تقييد أوابد الأفكار هذا يحتاج إلى مهارة كبيرة جدًّا ، ولا نحتاج إلى القول بأن الإيجاز أصعب جدًّا من الاختصار .

وهنا تحضرني كلمة كتبها أحد الكتاب في ذيل رسالة وجهها إلى بعض أصدقائه يقول له فيها : «وقد جاءت الرسالة طويلة الذيل : أعذرني على هذه الإطالة لأنني ليس عندي وقت للاختصار» فالاختصار - لا كما يتبادر إلى الذهن - أصعب كثيرًا من التطويل ؛ لأن الاختصار والإيجاز فيه تجميع

للكثير من المعاني في ألفاظ قليلة ، بينما الإطناب والتطويل والحشو من شأنها أن تجعل صاحبها يرسل نفسه على سجيته غير مقيد بأي قيد ، يمرح على مهله في صنوف التعبير وفي ألوان البيان دون أن يتقيد بأي قيد مما يتقيد به من يعمد للإيجاز .

والحكمة إيجاز بل هي إيجاز شديد ، وقد أولع العرب بها كثيرًا لأنهم كانوا في أغليتهم الساحقة أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، فكان يشق على ذاكرتهم أن تحفظ الكلام المسهب الطويل ولذلك آثروا الإيجاز وفضلوه على الإطناب فراجت الحكمة بينهم لخفتها وسهولة مؤونتها وسهولة حفظها ، والحكمة كما يقول عليه الصلاة والسلام : «هي ضالة المؤمن» ، الحكمة يمكن أن نقول عنها إنها نوع من الآداب الشعبية ؛ لأن الشعوب فتنت بها وحفظها المثقفون وحفظها البسطاء من الناس ، وكل واحد يستمد منها على قدر ما أوتي من فهم وذكاء .

هذه الحكمة كانت في مرحلة مضت هي البساط الذي قدم للفلسفة وهياً لها الظهور ، فالفلسفة جاءت بعد ظهور الحكمة ، ولكن الحكمة لم تختف بظهور الفلسفة وإنما استمرت في كثير من الشعوب ومن الأجيال .

وعندما يقول ﷺ : «وإن من الشعر لحكمة» نفهم من هذا أنه عليه الصلاة والسلام لا يميل إلى الخيال الشعري الجامح ولا إلى العواطف الهوجاء وإنما يفضل الشعر الذي اعتدل فيه الخيال واطمأنت العاطفة واستقر الإحساس ، والحكمة إذا دخلت الشعر تقيم فيه هذا النوع من التعادل لأن الحكمة عقل ، فإذا احتلت من الشعرة جوهره الصميم فإنها تضطر العاطفة إلى الاعتدال وتضطر الخيال إلى ترك الجموح ، ولعل هذه العقلانية مما يتفق مع جدية الرسالة ومع واقعية الإسلام .

موقف الإسلام من الشعر:

«إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة»، هذا الحديث الشريف في مجمله يوقفنا وجهاً لوجه أمام قضية طالما كثر فيها الأخذ والرد وهي موقف الإسلام من الشعر، فقد تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري، وكان مع كل واحد غواته من السفهاء وهذا هو السبب في نزول قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ١ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٣ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٤ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]، الاستثناء مهم في الآية.

القرآن الكريم عندما نعى على الشعراء لم يكن ضد الشعر على الإطلاق، فالاستثناء الذي في الآية يثبت هذا، لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت رضي الله عنه وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مسرعين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهم يبكون، ذلك لأنهم شعراء والقرآن قال كلمة في الشعراء، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «اقرأوا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾» فاطمأنت قلوبهم وهدأت خواطرهم واستقرت بلابلهم.

فالنبي عليه الصلاة والسلام عندما كان ضد الشعر، لم يكن ضد الشعر كله، وإلا فكيف نفسر أنه كان عليه الصلاة والسلام معجباً أيما إعجاب بشعر أمية بن أبي الصلت في رحلة من رحلاته عليه الصلاة والسلام: «طلب رفيقه في السفر أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت، فأنشده بيتاً فقال: هيه. فزاده بيتاً ثانياً، وهكذا إلى أن أنشده مائة بيت»^(١)، وهو الذي قال عليه الصلاة والسلام: «أشعر بيت قالته العرب قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٥) عن الشريد بن سويد رضي الله عنه مرفوعاً، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، به.

فهذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن إنسان ضد الشعر وإنما هو كان ضد الشعر القبلي والشعر الذي فيه إقذاع وفحش ، وفيه مساس مباشر بقيم الإسلام ومبادئه العليا ومثله الرفيعة ، أما ما عدا ذلك فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يهتز له ويضطرب .

من أنواع الشعر التي كان النبي ﷺ يمتقتها أن يمدح الرجل بما ليس فيه ، وأن يذم بما ليس فيه .

سمع ذات يوم شاعراً يذم قومًا ويمدح آخرين ، فيمدح بغير قصد ولا اعتدال ويهجو من غير اعتدال أيضًا ، وإنما في فحش وإقذاع فقال عليه الصلاة والسلام : «أمسكوا هذا الشيطان» ، وقال أيضًا : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحًا أحسن له من أن يمتلئ شعرًا»^(١) ، أو كما قال .

هذه النصوص المتعارضة في الظاهر ليس بينها تعارض في الباطن ما دام موقف النبي ﷺ من الشعر واضحًا محددًا .

ونعود إلى الآية الكريمة : ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ : أي الغواة : أي المنحرفون عن طريق الحق ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي يعني أنهم ضالون حائرون تائهون . لا يستقرون على مبدأ ولا على حق ثابت ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون : يعني أنهم يكذبون وكلامهم غير مطابق للواقع .

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا ، به . وأخرجه مسلم (٢٢٥٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعًا ، بنحوه .

الكذب والكذب في الشعر:

وهنا يجب أن نعيد إلى الذاكرة أن علماءنا رحمهم الله من القدماء كان لهم مقياس دقيق للصدق والكذب، فالصدق هو ما طابق الواقع، والكذب هو ما خالفه، وعند آخرين أن الصدق هو ما طابق الاعتقاد، وأن الكذب هو ما خالفه، وعند فريق ثالث أن الصدق هو ما طابق الواقع فنقيس صدق الكلام بمطابقته للواقع، هذا رأي القرآن.

وأما رأي الأدباء وربما نجد لهم منحنى آخر. نتذكر العبارة المشهورة: أعذب الشعر أكذبه، ونتذكر العبارة التي تماثلها وتختلف عنها قليلاً وهي: أعذب الشعر أصدقه، وقال البحري صاحب الجرس والإيقاع الرفيع:

كلفتمونا حدود منطقتكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

هل كان هؤلاء الأدباء يذهبون إلى أن الشاعر لكي يكون شاعراً لا بد له أن يكذب، إن الوقوف عند المدلول المعجمي لكلمة الكذب هنا قد توقعنا في ضلال فلا بد أن نتوسع قليلاً في شرح مفهوم الكذب في عرف هؤلاء الأدباء، الكذب عندهم له مدلول خاص وليس المدلول المتعارف عند الناس.

فالكذب في الشعر هو روعة الأخيصة، هو التغني بالمثل العليا الرفيعة، هو أن نصف الشيء الجميل في الواقع، ولكننا نصل به إلى أقصى غايات الجمال، فنحن مثلاً عندما نقرأ ما وصفه الشعراء من ورود وأزهار ومن رياحين ربما نجد أوصافهم تتفوق على عمل الطبيعة لأن هؤلاء الأدباء ينشدون الكمال، الكمال الفني، لذلك فالكذب بالنسبة إليهم هو تصاوير

الأشياء في مستواها الرفيع ، والكذب عندهم أيضًا يعني فيما يعني أننا نمدح مثلاً شخصاً نعره ونبجله فإننا نصفه بصفاته الذاتية إلى أقصى ما يمكن للمدح أن يقدر لها من أصناف الكمال والسمو كي ندفع أولئك الممدوحين إلى أن يتمسكوا بما مدحناهم به فعلاً .

من هنا كان المديح معواناً للفضيلة ، ولست أقع في شرك أولئك النقاد الذين يتجنون على شعر المديح ويكيلون له صنوف الاتهامات فهو فن رفيع ، هذا هو مدلول الكذب في عرف هؤلاء الأدباء وأما البحري في بيته الذي قال فيه :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

فإنما يقصد إلى أن منحى المنطق غير منحى الشعر ، وأن أسلوب المنطقة يختلف كلية عن أسلوب الشعراء والأدباء ، لأن المنطقة يسير وفق مقاييسهم ، والشعر يسير وفق قواعده وطبيعته الخاصة المستقلة ، ولذلك قال : كلفتمونا حدود منطقكم ؛ لأن جماعة من نقاد العربية في عصره اقتبسوا المنطق اليوناني وطبقوه على النقد الأدبي وأخذوا يطالبون الأدباء بأن يخضعوا في إبداعاتهم لهذا المنطق فاحتج عليهم شاعرنا المبدع أبو عبادة البحري ، هذا هو مدلول أعذب الشعر أكذبه ، أو أكذب الشعر أصدقه .

عذوبة الشعر :

نتنقل بعد ذلك إلى قضية أخرى وهي أن هذه العذوبة الكاذبة التي نجدها في الشعر ربما كانت أصدق ما فيه ، فحتى باعتبار أولئك الذين يذهبون إلى أن الصدق هو ما طابق الواقع فإننا نجدهم يضيقون من مجال الرؤيا عندما يحصرون الواقع في ذلك الواقع الخارجي .

فهناك واقعان : واقع النفس في أعماق النفس والضمير والوجدان ، وواقع خارجي يقع في عالم الحس والمشاهدة .

والشعر إذا طابق أحد الواقعين فهو شعر واقعي . فأنا مثلاً إذا كنت شاعراً ، وأدرت شعري على معان وخواطر وتأملات لا تمت إلى الواقع بصلة ولكنها تضطرب في جوانحي وبين جنبي فأنا واقعي بهذا المعنى ، وإذا فأنا صادق ولست بكاذب ، وإن كان شعري لا مطابقة بينه وبين الواقع الخارجي .

هل توقف الشعر بعد ظهور الإسلام؟

وبعد ذلك ننتقل إلى إيضاح أنه لم يثبت قط أن الشعر قد توقف بالرغم مما يقوله علامتنا ابن خلدون من أنه بمجرد ظهور الإسلام توقف الشعر عن الظهور .

ولكن هذا الكلام الذي قاله شيخ المؤرخين يمكن أن يوضع موضع النقاش ، فالعرب لم يمسكوا كلهم دفعة واحدة فإذا كان هذا قد يصدق على الذين أسلموا فإن جماهير القبائل العربية استمرت على كفرها وضلالها إلى القرن الثامن للهجرة ، طيلة هذه المدة إلى القرن الثامن للهجرة وهي متمسكة بعاداتها وتقاليدها الجاهلية رغم ظهور الإسلام ، فكيف تخلص هؤلاء المشركون والجاحدون من شعرهم نزولاً عند رغبتهم في الإسلام؟ إذا اتبعنا قول ابن خلدون مع أنهم لم يسلموا .

الشعر لم يتوقف عن العطاء أبداً بل إنه واكب جميع الحركات التاريخية فقد واكب ظهور الإسلام ، وواكب حروب الردة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وواكب الحرب التي نشبت بين علي رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير رضي الله عنهم من جهة ، وبين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه من جهة أخرى .

كما أن الشعر واكب الفتوح وامتشاق العرب للحسام وخروجهم إلى عرض الدنيا وطولها لينشروا دين الله في الأرض وليعلوا كلمة الإسلام في الخافقين ، إن هذا لم يمنعهم أبدًا من نظم الشعر .

ولعل العرب هم الجنس الوحيد القادر على أن يترنم بالشعر وهو يقاتل ويناضل ، فرهافة حد السيف لا تنسيه جمال الحرف وروعة إيقاع الكلمة .

وإن شعر الفتوح ليعد ثروة من أكبر ثروات الأدب العربي ، خصصت لها مؤلفات ومجلدات .

هذه الأجيال من المسلمين لو أنها فهمت أن الإسلام كان ضد الشعر لما تمسكت به هذا التمسك الشديد ، ولما حرصت عليه هذا الحرص البالغ .

وما لنا نذهب بعيدًا والصحابة رضي الله عنهم والإسلام ما زال غصًا طريًا كانوا جميعًا إما ينظمون الشعر أو ينشدونه أو يروونه ، ويسمعونه من الناس فيهتزون له ، ولكنهم اقتدوا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فكانوا ضد الشعر الماجن ، ضد الشعر الذي يختلف كلية عن قيم الإسلام ويصطدم بها .

وتحضرني هنا قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الشاعر الهجاء الحطيئة ، فالحطيئة هجا الزُّبُرْقَان بن بدر فألقى عليه عمر رضي الله عنه القبض وأودعه السجن ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق على ألا يعود إلى هجاء الناس مرة أخرى ، وعمر كما تعلمون كان قاضيًا .

وهنا كان يصدر عن موقف القاضي كما أنه يصدر عن موقف الناقد ، وعمر كان ناقدًا للشعر وهو القائل في شعر زهير بن أبي سلمى ، إنه كان لا يعاضل في الكلام وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يكن يمدح الرجل إلا

بما فيه ، فاجتمعت في شخصية عمر رضي الله عنه عدة شخصيات في الحكم الذي أصدره على الخطيئة . شخصية رئيس الدولة القيم على الإسلام وعلى مثله العليا وشخصية القاضي وشخصية الناقد ، كل هذه الشخصيات اجتمعت في عمر رضي الله عنه .

معنى ذلك أن الدولة الإسلامية نفسها كانت تتدخل للضرب على أيدي الذين يفسدون أخلاق الناس ولم تكن تتركهم للنقاد وجمهور المتأدين .

ذلك أن الدولة في نشأتها الأولى ورءوس الوثنية ما زالت مدفونة في الرمال وما عهد الردة ببعيد ، وهذه الرءوس ربما تنتظر فتنة من الفتن أو فرصة من الفرص كي تعلو هاماتها من جديد ، لذلك كان لابد من القبض بيد من حديد على الأمور ولا بد من إحاطة القيم الإسلامية بسياج منيع من اليقظة والحرص .

لذلك فإن الدولة الإسلامية نفسها كانت تتدخل ضد الشعراء الذين في شعرهم فحش واستهتار وإقذاع .

ونحمد الله على ما رزقنا من نعم ، وما أولانا من إفضال ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .



نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الخامس

المحاضرة التاسعة والأربعون

القرآن روح الكون ومعراج التعرف إلى الله

وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّكَذِّبٍ﴾ ﴿١٥٠﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٥١﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥١-٥٣].

خطاب القرآن:

إن هذا الكتاب - الموسوم بالقرآن - كتاب غير عادي تماماً! إنه كلام من طبيعة أخرى، وخطاب من عالم آخر! ولكن العادة تضعف الحس البشري؛ فيفيد القدرة على إبصار حقائقه الوجودية وأبعاده الكونية، وامتداده اللانهائي، الضارب في عمق الغيب، بما لا قدرة للإنسان - مهما كان - على السباحة في محيطاته؛ بله أن يحيط الإحاطة الكاملة بحدوده! فليس لنا معشر البشر إلا الوقوف على ضفافه الفسيحة، وتلقي أمواجه بصدورنا، نتذوق من خلالها مواجيد الإيمان، ونشاهد سُبُحات الجلال والجمال.

إن هذا القرآن الكريم ينبئ عن نفسه ويعرف بطبيعته وماهيته، إنه يتكلم إلى الإنسان من خلال بعده الكوني، ومصدره الرباني الروحي؛ ومن هنا فإنه أعمق من أن يحيط به الإدراك المادي المجرد: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، ولذلك فإن آياته ترتبط

أسرارها جميعا بحقائق الكون فهو فهرست الوجود، والكشاف الجامع لكل موجود، إذ هو ينتمي إلى عالم الأمر ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ إنه يمثل في حقيقته وفي وجدان المتبصر لبصائره روح الحقائق كلها، فلا حياة لها إلا به .

القرآن كلام الله :

إن عظمة القرآن تتمثل أساسا في أنه (كلام الله رب العالمين) .

إن ما يبهر الإنسان من ذلك ، ويفيض مشاعره أن القضية هي من العظمة والرهبة ؛ بحيث يستحيل على القلب البشري تحمل مواجهتها ، بدءا بالتفكر في هذا الكون الشاسع الممتد من فضاءات لا يحدها بصر ، ولا تصور ، ولا خيال ، وما يسبح فيه من نجوم ، وكواكب ، ومجرات ، وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية ، وما يحيطها من سموات بعضها فوق بعض ، وما يعمرها من خلائق نورانية ، مما لا يُدرك له شكل ، ولا صورة ، إلى ما بين هذا وذاك من طبقات الزمان المختلفة ؛ عدًّا وتقديرا من الأيام والسنوات ، قد يختزل اليوم الواحد منها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة : ٥] إلى ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] .

ورب هذه العوالم جميعا ، الخالق لها ، والمحيط بأزممنتها وأمكنتها كلها ، المدبر شئون حياتها ومماتها وأرزاقها ، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد ، المالك زمام أحوالها بأنوار أسماائه الحسنی وصفاته العلی ، سبحانه وتعالى ، هذا الرب الرحمن الرحيم ، والملك العظيم ، المنتزه في مطلق علوه ، وسموه ، وجلاله ، وكبريائه ، يقدر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان ، هذا المخلوق الضعيف القابع في الأرض ، هذا الكوكب الضئيل السابح في

بحر عظيم زاخر بأمواج السدم والمجرات ، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم : القرآن الكريم .

فكيف للنسبي الفاني إذن أن تتحمل مواجيد كلام المطلق الباقي؟! كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان أن تستوعب خفقاته المحدودة ، وأنفاسه المحدودة وقع الكلام الخارق للزمان والمكان؟

وإن الله سبحانه إذا تكلم تكلم من علو ، أي : من فوق ؛ لأنه العلي العظيم سبحانه وتعالى ، فهو فوق كل شيء ، محيط بكل شيء علما وقدرة ، إنه رب الكون : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت : ٥٤] .

ومن هنا جاء القرآن محيطا بالكون كله ، متحدثا عن كثير من عجائبه ؛ قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٦٦) **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** (٦٧) **فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ** (٦٨) **لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** (٦٩) **تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿ [الواقعة : ٧٥ - ٨٠] .

ومن هنا ؛ فإن البحث يرمي - كما هو واضح من عنوانه - إلى إبراز قضيتين اثنتين :

الأولى : كون القرآن خطابا كونيا بما هو روح من أمر الله .

والثانية : بيان أنه بذلك معراج للتعرف إلى الله جل علاه .

القضية الأولى : كونية القرآن الكريم :

إن معنى (كونية القرآن) لازم من لوازم كونه (كلام الله رب العالمين) . فالربوبية قاضية بكل معاني الشمول والامتلاك والسلطنة ؛ ذلك أن (القرآن)

من حيث هو كلام رب العالمين ، متضمن لمعنى الربوبية ، الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهرا ، كما أن الكائنات من خلاله تدور جميعها حول هذا المعنى ، سالكة إلى الله خالقها ، منجذبة إلى نوره تعالى . ولذلك كان القرآن - وهو خطاب الله إلى الإنسان - خطابا كونيا أيضا .

ويمكن بيان كونية القرآن من خلال الخصائص الثلاثة الآتية :

الخاصية الأولى : القرآن قراءة لكتاب الكون ، وكشف لأسراره ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة . فهو يقدم الصعب المعقد تقديما سهلا ميسرا ؛ فسهل على العامة والخاصة قراءة مقاصده من خلال أبعاده الكونية ؛ إذ يلفت انتباه الإنسان إلى مظاهر الكون وحقائقه ؛ ليتفكر في خلق السموات والأرض ، كل على حسب طاقته ، وسعة إدراكه ، فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطابا لجميع الناس ، بجميع مستوياتهم الثقافية ، واختلافاتهم اللغوية والعرقية . وهو ضرب من ضروب الإعجاز ؛ ومن هنا كان القرآن بحق مفسرا كتاب العالم .

ب- الخاصية الثانية : القرآن روح الكون ، ومعنى ذلك أنه ما دام المتكلم به هو الله رب العالمين - بالاعتبار الذي ذكرنا - أي خالق كل شيء سبحانه ؛ فإنه لا شيء إلا وهو راجع - في حقيقة وجوده - إلى حقائق القرآن الكونية . وإنما القرآن نور صادر من الرب العظيم الذي ﴿الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] وإذن ؛ فلا شيء بعد نوره إلا الظلام ، ولا شيء بعد وجوده إلا العدم ، وإنما حقيقة المخلوقات أنها موجودة باسمه تعالى أي : بسم الله الرحمن الرحيم فوجودها رهين بوجوده سبحانه ، وتجليها رهين بتجلي نوره جل علاه . فكان الكون بذاته دالا على وجوب وجود رب الكون العظيم .

وما علمنا ذلك كله إلا من خلال القرآن الكريم ، الذي هو كلام رب العالمين الخالق لكل شيء ؛ فالقرآن يمثل -من حيث حقائقه- حقائق الكون كله ، بدءا بقصة الخلق إلى غاية الإعادة من يوم القيامة : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ثم البعث والنشور ، فالمصير . فلو تصور عدم حقائق القرآن -وهو فرض محال- لاستحال تصور وجود العالم الكوني كله ، ثم إن حقائق القرآن التي هي التفسير السليم لنظام الكون ، هي وحدها القادرة على الحفاظ على ذلك النظام الكوني في العقل . ولو افترضنا تفسيراً غيرها ؛ لعمت الفوضى تصورات العقول ، ولاختل التوازن في الفكر ، بتصورات لا يمكن إلا أن تؤدي في النهاية إلى افتراضات تفضي في المنطق العقلي إلى اختلال الكون كله في التصور . وبهذا المعنى كان القرآن هو روح الكون .

ج- الخاصية الثالثة : القرآن محيط بمفهوم الزمان الكوني :

إذا كان القرآن كلام الله رب العالمين ، فإنه صفة له سبحانه ؛ لأن الكلام صفة للمتكلم . وقد علم أن الله جل جلاله محيط بالزمان والمكان ، تعالى الله أن يحكمه زمان أو مكان ، بل هو الحاكم على الزمان والمكان . فهو فوق كل شيء ، ومحيط بكل شيء ، لأنه تعالى خالق كل شيء .

من هنا إذن كان القرآن محيطا بالزمان الكوني : الماضي والحاضر والمستقبل جميعا ، ثم بالزمان الأرضي ، وهو الزمان بالتقدير البشري الدنيوي مما نعد به التاريخ والأعمار ، وكذلك بالزمان المعراجي بنوعيه : الأمري والملائكي .

فالزمان الأمري : هو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة : ٥] ، والزمان الملائكي هو المشار إليه في قوله

سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] . وكذلك الزمان العندي : وهو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] ثم الزمان الآخروي : وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدا! مما يكون بعد إعادة الخلق ، حيث قيام يوم الدين ، من بعث ، وحشر ، وحساب ، وجنة ونار . فحديث القرآن عن ذلك كله حديث جامع مانع ، ومن هنا كان محيطا بكل الزمان ، مما يتسبب إلى عالم الغيب أو إلى عالم الشهادة .

ذلك هو القرآن ، كلام من أحاط بمواقع النجوم ؛ خلقا ، وأمرا ، وعِلما ، وقدرة ، وإبداعا . فجاء كتابه بثقل ذلك كله ، أنزله على سيدنا محمد ﷺ من بعدما هياه لذلك ، وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا ، فقال له : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : ٥] .

ومن هنا لما كذب المنكرون بالقرآن للقرآن ، نعى الله عليهم ضالة تفكيرهم وضالته ، وقصور إدراكهم ، وضعف بصرهم ، عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦] وإنه لرد عميق جدا ، ومن هنا جاء متحدثا عن كثير من السر في السموات والأرض .

قال ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] وقال جل وعلا : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ [فصلت : ٥٣ - ٥٤] .

القضية الثانية : القرآن الكريم معراج التعرف إلى الله جلّ وعلا :

إن أول مقاصد القرآن الكريم إنما هو تعريف الناس بالله ، المتكلم بالقرآن ؛ ولذلك جاء تعريف الله لذاته سبحانه ؛ بأسمائه الحسنی مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن - كما جاء في سورة الحشر - كأنه قال : اعرف القرآن أولا تعرف الله ، أو ليس هو تعالى المتكلم بالقرآن؟ قال جل جلاله : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فقال بعدها مباشرة ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ إلى آخر الآيات [الحشر : ٢٢ - ٢٣] .

إن الذي ينصت إلى خطاب الفطرة في نفسه يسمع نداء عميقا ، يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود . ذلك الإنسان مفطور على شكر من وصله بمعروف . ومن هنا نخلص إلى نتيجة وهي :

حق الخالقية هو مفتاح التعرف إلى الله .

وهذه حقيقة قرآنية كبرى ، تترتب عليها أمور كبيرة في حياة الإنسان ؛ ذلك أنه كلما نادى الله الناس في القرآن بالاستجابة لأمره التعبدی ، ناداهم من حيث هو خالقهم ، هكذا بهذه الصفة دائما ، وهو أمر مهم فيما نحن فيه

من طريق المعرفة بالله . أي أنه تعالى يسألهم أداء حق الخالقة ، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى ، التي بها كنا نحن الناس هنا في الأرض نتنفس الحياة . قال تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١ - ٢٢] .

وقال سبحانه ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء : ١] .

هاتان آيتان كليتان من القرآن العظيم ، تعلق الأمر فيهما بالعبادة والتقوى ، وما في معنهما من الانتظام في سلك العابدين ، وفلك السائرين إلى الله رب العالمين ، إثباتا لحق الله من حيث هو خالق للبشر ، ولا يفتأ القرآن يذكر بهذه الحقيقة ، باعتبارها مبدأ كلياً من مبادئ الدين والتدين ، وأنها العلة الأولى منه ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] إنها آية كونية عظمى ، إنها مفتاح من مفاتيح فهم القرآن العظيم ، وباب من أبواب معرفة الربوبية العليا . قال تعالى في سياق الحجاج : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح : ١٣ - ١٤] . إنه تعالى ربط حقه سبحانه على عباده بمبدأ خلقهم أطواراً ، فكلما ازداد المنكرون تعتياً ازداد القرآن إفحاماً في بيان تفاصيل الخلق . فتلك حجة الله البالغة إجمالاً وتفصيلاً .

ومن هنا قال ﷻ في حق الذي أنكر البعث على سيدنا محمد ﷺ فجاء

بطحين عظام ميتة نخرة، ونفخ فيها فتطاير غبارها من يده، فاستهزأ متسائلاً بها حكاة عنه القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]. وهو بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿

ولنا أن نتأمل أيضا كيف أن تلك كانت هي حجة موسى الذي صنعه الله على عينه في رده على فرعون؛ إذ تعنت في إنكاره. قال ﷻ حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۚ﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. إنه تعريف للربوبية ولحقوقها في عبارة من أوجز العبارات الربانية الرحمانية المسطورة في القرآن الكريم: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وكما كانت تلك هي حجة القرآن في الدعوة إلى العبادة، وإثبات حق الخالقية لله الواحد القهار؛ كانت هي عينها حجته في الدعوة إلى التوحيد ونفي الحق الوهمي للشركاء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠] ومن هنا كان الشرك ظلماً عظيماً؛ لأن الله هو وحده الذي خلق، وبهذا المنطق وجب أن يكون هو وحده الذي يعبد، وأي إخلال بهذا الميزان يكون ظلماً كبيراً، وهو قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وبهذا المنطق أيضاً رد الله على المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]. وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. فما كان هذا البيان والتفصيل لقضية الخلق ليكون؛ أولاً أنها قضية كونية كبرى ينبني عليها ما ينبني من مصير وجودي في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها

ابتداء .

الخلق:

إن قضية الخلق تمثل مفتاح فهم الربوبية ، والمعنى الوجودي والوظيفي للإنسان ، إنها المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر ونهي ، بل إنها تمثل البنية الأساس لخطابه ، الذي عليه يتفرع كل شيء ، مما قرره في العقيدة والشريعة على السواء .

إن جماع الأمر في هذه النصوص كلها أنه تعالى : خلقنا وخلق لنا . وهذا مبدأ قرآني كوني عظيم ، وهو ما سميناه بـ «حق الخالقية» .

القرآن الكريم شبكة التعرف الإنساني إلى الله :

وعليه فإن هذا الإنسان بما هو مخاطب بهذا القرآن أساسا ، بأبعاده (الأمرية) المذكورة ، هو إنسان (كوني) بامتياز ، فهو لا يسكن الأرض إلا بقدر ما يسكن الكون كله حقيقة . فعلاقاته - لو تبصر - تمتد إلى أعلى انطلاقا من هذا القرآن ؛ لأنه - وحده دون سواه - الكفيل بإيصاله إلى مصدره الأول وربطه بحقيقته الوجودية كما جاء في الآية منطلق الدرس :

﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وبما أن البشر شتى خلقا وتقديرا ، وسعيا وتدبيرا ؛ فقد كان هذا القرآن على نفس تلك السعة والشمول ، من الإمكانيات المتصورة للنشاط الإنساني في الأرض على الإطلاق ، ولذلك جاء جامعا لكل معارج الكتب السماوية السابقة بدون استثناء ، ففيه معارج إبراهيم ، ومعارج موسى ، ومعارج داود ، ومعارج عيسى ، ثم فيه معارج أخرى فُضِّلَ تفرد بها

القرآن الكريم ، لم تفتح قبله قط في التاريخ ، وكل ذلك جميعه كان معارج لنبي هذه الأمة ، الرسول الجامع المانع سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ . وهذا إنما هو صريح حديثه الصحيح المليح الذي رواه الطبراني والبيهقي قال عليه أزكى الصلاة والتسليم : «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال» ، والسبع الطوال إنما هي السور السبع الطويلة التي في أوائل المصحف ، «وأعطيت مكان الزبور المئين» والمئون هي السور التي تبلغ أو تكاد أو تفوق قليلا مائة آية ، «وأعطيت مكان الإنجيل المثاني» والمثاني على خلاف في القول قيل : هي التي تسمى المئين وقيل : سميت المثاني لأنه يثنى فيها الوعد والوعد قال عليه الصلاة والسلام في تنمة الحديث «وَفُضِّلَتْ بِالْمَفْصَلِ»^(١) والمفصل هو القسم الأخير من القرآن يبتدئ على خلاف بسورة الحجرات أو بسورة (ق) وقد رجح العلامة عبد الله كنون رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِسُورَةِ الْحَجَرَاتِ كما فصله في تفسيره ، فجعل لكل كتاب من الكتب السماوية السابقة ما يقابله من فصول القرآن وأقسامه .

إن هذا القرآن بعمقه الكوني هذا المطلق عن الزمان والمكان ؛ يحقق أخوة إنسانية كبرى ، لا يمكن أن تتحقق على هذا الوزن بسواه ؛ لأنه شبكة اتصال وجودية ، ذات أنسجة أفقية وعمودية ، فيها مداخل لا حصر لها للإمكانات البشرية ، ولذلك فهو يتيح لكل إنسان مهما كانت ميوله وإمكاناته الطبيعية والفطرية والاجتماعية والثقافية ؛ أن يتصل بحقائق

(١) أخرجه أحمد (١٠٧/٤) ، والطيالسي (١٨٦) في «مسنديهما» ، والطبراني في «الكبير» (٧٥/٢٢) وغيرهم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً به . وقال الهيثمي في «المجمع» (٤٦/٧) : «رواه أحمد ، وفيه عمران القطان ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقيّة رجاله ثقات» .

الوجود الحق ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢، ٥٣].

وبما أن شبكته موئلها في نهاية المطاف واحد؛ فهي تصل في الختم إلى الحق الواحد ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ وهناك يجد المؤمن لذة التعرف إلى الله جل وعلا.

بناء على ما تقرر من أن غاية الخلق الإلهي للإنسان إنما هي التعرف إلى الله جل علاه؛ فقد جعل له سبحانه وتعالى وسيلة من أعظم الوسائل التعبدية، ألا وهي التعارف، فالإنسان بما هو مفطور خلقة على سنة الاجتماع البشري؛ إذ خلق من ذكر وأنثى، وجعل شعوبا وقبائل؛ فقد خلقت أرواح الناس لتلك الغاية على ائتلاف واختلاف؛ يقصد إنتاج التكامل المعرفي في طريق السير إلى الله تعالى. وهذا من أعجب السنن الإلهية في الخلق البشري وألطفها.

وهو مفهوم من آية قرآنية وحديث نبوي شريف، فأما الآية فقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأما الحديث فهو قوله ﷺ في المتفق عليه بين البخاري ومسلم: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

إن التعارف العمراني ضروري للإنسان ليس فقط لأنه لا يمكن أن يعيش بصورة انفرادية اعتزالية فهذا أمر بديهي، ولكن ليكون ذلك مقدمة لإنتاج حوار في المجال الروحي، والتداول المعرفي بحقيقة المعرفة بالله في طريق السير إلى الله.

إن التعارف لا شك مفض بالضرورة إلى معرفة ما لدى الآخر من قوة

ومن ضعف وإلى معرفة ما لديه من خبرات أو حاجات في المجال الإنساني والعمراني والروحي سواء ، ورب معلومة دقيقة قد تكون عند شخص أو لدى شعب من الشعوب ذات أوجه متعددة في مجال البناء العمراني للإنسان في الأرض على المستوى المادي أو الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أو الخلقي ، لكنه لم يستطع هو توظيفها من كل أوجهها لأحادية التجربة الحضارية عنده ، واقتصارها على جانب دون جانب ، فيحتاج بذلك إلى تكميل . ومن هنا فإن انتقال المعرفة من شعب إلى شعب ، ومن أمة إلى أخرى ، لو توفرت الظروف الحوارية الهادئة لها ، كفيل لتطوير المعارف الإنسانية في اتجاه الخير صعودا إلى غاية الكمال الإنساني ، وذلك لا يكون إلا إذا صار التعارف بمعناه القرآني هذا أساس الحوار العالمي ، ومن هنا كان ختم السياق التعريفي لحقيقة القرآن الربانية وطبيعته الكونية في الآيات موضوع الدرس بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] ، هكذا بهذا الجمع الكلي لما في السموات والأرض لغاية السير الإنساني في طريق التعارف والتعرف إلى الله إلى خاتمة السياق الحاكمة ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝ ﴾ .

إن العلاقات الأفقية على المستوى البشري العمراني في شبكة الاتصال المعرفية إذا أتاحت لها ظروف الحوار الهادئ الصادق ، والتعارف البناء الواثق ، تفضي في النهاية إلى علاقات عمودية متوازنة ترتفع بالإنسان إلى السماء في طريق معرفة الله بل في طريق التكامل في تلك المعرفة . وما كان لحضارة المسلمين ولا لتاريخهم ليكون على ما كان عليه من تلاحق وتثاقف وتكامل الشعوب ، لولا هذه الحقيقة القرآنية العظمى القاضية لهذه السنن

الإلهية الراقية .

ذلك هو القرآن شبكة التعارف العمراني بمدخله الأفقية المتعددة المحققة للتكامل الروحي في الأرض في اتجاه السماء لغاية واحدة هي التعرف إلى الله ، وما أدق وألطف وصية رسول الله ﷺ للصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، حينما قال له في الحديث الذي رواه أحمد وأبو يعلى بسند صحيح : «وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن الكريم ؛ فإنه روحك في السماء ، وذكرك في الأرض»^(١) نعم ، تلاوة وذكر تنطلق الروح بهما من الأرض لتحلق سابحة في ملكوت السماء ، إنها إذن صلة متصلة برب العالمين جل ثناؤه ، وتمجد سلطانه .

خاتمة الكلام أن هذا القرآن محفوظ بحفظ الله ، محروس بقدرته جل علاه ، كما نص عليه القرآن بآيه المحكم ، وكما رسخته حقائق التاريخ الطويل ، ومن هنا فإن كل من تعلق بمحفوظ فهو محفوظ بالضرورة ، وإن البلد الذي يتولى القرآن بالعناية والذي يولي الاهتمام للقرآن ، ولأهل القرآن - لا شك - داخل في حمى آية الحفظ والسلام ، من قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] . ولاشك هو محروس بأنوارها ، منصور بولائها وأسرارها .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٢/٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً به . وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٢١٥/٤) : لأحمد وأبي يعلى ، وقال : «رجال أحمد ثقات ، وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس» . وللحديث عن أبي سعيد طريق أخرى ولفظه : «فإنه نور لك في الأرض ، وذكر في السماء» . أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٣٩٢/٧) .

المحاضرة الخمسون

شهر رمضان وأمة الإسلام

انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

نتناول هذا المحاضرة من زوايا ثلاث:

الزاوية الأولى: ميلاد هذه الأمة، وارتباط هذا الميلاد بشهر رمضان، وبنزول القرآن الكريم فيه.

الزاوية الثانية: خصائص هذه الأمة وميزاتها.

الزاوية الثالثة: واقع هذه الأمة بين الماضي والمستقبل.

كل ذلك انطلاقاً من قول ربنا سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

معنى الشهر:

أما الشهر فهو من الشهرة والإشهار، كما قال علماؤنا رحمته الله عليهم: الشهر ما شهره الناس، وقد وضع لنا رسول الله ﷺ قاعدة ميسرة في إشهار الشهر، فقال عليه الصلاة والسلام: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن

غم عليكم فاقدروا له». وفي رواية أخرى: «فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»^(١)، وكان للناس في تطبيق هذه القاعدة اتجاهان: اتجاه يعتد برؤيته هو، ولا يأخذ برؤية من سبقه إن كانت بعيدة عنه في الإقليم.

والاتجاه الآخر، هو أن يأخذ برؤيته أو برؤية غيره ممن سبقه. ومن لطف الله تعالى أن رسول الله ﷺ أخذ بالاتجاهين، فقد كان يصوم إذا رئي الهلال بالمدينة أو ما حولها، مصداقا لقول ابن عمر رضي الله عنهما: تراءى الناس الهلال - أي هلال رمضان - فأخبرت رسول الله ﷺ أني رأيته، فأمر الناس أن يصوموا.

وفي رواية أخرى: «جاء إلى رسول الله ﷺ رجل من البادية، أعرابي، فقال يا رسول الله: إني رأيت الهلال، فاستوثق ﷺ من دينه، فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: قم يا بلال فأذن في الناس أن يصوموا غدا»^(٢).

من هنا فإن الاتجاهين وقد طبقهما رسول الله ﷺ نرى أن الأخذ برؤية السابق في زماننا أولى، لأنها تحقق وحدة المسلمين، في مشاعرهم وفي

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٨١) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الترمذي (٦٩١)، وأبو داود (٢٣٤٠)، والنسائي في «المجتبى» (٢١١٢)، وابن ماجه (١٦٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث ابن عباس فيه اختلاف، وروى سفیان الثوري وغيره عن سهاك عن عكرمة عن النبي ﷺ مرسلاً، وأكثر أصحاب سهاك رووا عن سهاك عن عكرمة عن النبي ﷺ مرسلاً، والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم.

شعائهم ، لاسيما وقد أصبحت وسائل الاتصال فورية مقروءة ومسموعة ومرئية ، ونرى أن تنشأ لذلك هيئة علمية مختصة ، تتخذ من مكة مقرا لها حيث بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، التي يتجه إليها المسلمون ويلتفون حولها ، ثم إن وضع مكة كقابلة للمسلمين ، ومبعث لرؤيائهم ، ووجود هذه الهيئة فيها بحيث تتوكل برؤية الأشهر القمرية يجعل المسلمين دائما على وحدة ، لاسيما وهم يأخذون برؤية أهل مكة في تحديد أول ذي الحجة وتحديد يوم عرفة ركن الحج الأكبر ، فلم يلتزم المسلمون جميعا برؤية أهل مكة في ركن الحج ولا يلتزمون برؤيتهم في رمضان وعيد الفطر؟! أمل أن يكون لهذا الاقتراح اعتبار .

شهر القرآن:

شهر رمضان ، رمضان هو الشهر التاسع في سلسلة الأشهر القمرية التي عناها ربنا بقوله : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ .

وفي إنزال القرآن في شهر رمضان ، تجمع الروايات على أن القرآن الكريم منذ صدوره من لدن الحق تبارك وتعالى إلى وصوله إلى قلب نبينا محمد ﷺ مر بثلاثة تنزلات :

التنزل الأول : صدوره من ذات الحق جل وعلا إلى اللوح المحفوظ ، وهو كيفية غيبية أزلية لا يعلمها إلا الله ، عناها ربنا بقوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢٠﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] .

التنزل الثاني : كان من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وكان أيضا جملة بلا تفريق ، وكان في ليلة مباركة ، عنها ربنا بقوله : ﴿ حَمِّمٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ ﴾ [الدخان : ١-٤] ، هذه الليلة المباركة بينها الحق في آية أخرى بأنها ليلة القدر ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ ﴾ [القدر : ١] ، وليلة القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان ، مصداقا لقول الله ﷻ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۝ ﴾ .

التنزل الثالث والآخر : وكان من بيت العزة في السماء الدنيا إلى قلب نبينا محمد ﷺ ، وكان ذلك التنزل مفردا ومنجما حسب حكمة الله تعالى في المناسبات والأحوال والأسباب ، واستمر مدة ثلاثة وعشرين عاما ، هي مدة رسالته ﷺ ، مبتدئا بقول ربنا ﷻ : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ الْإِنْسَانَ عَلَّمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق : ١-٥] ، وكان ذلك في السنة الأربعين من عمره المبارك ﷺ ، واستمر إلى أن ختم بقول الله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٨١] ، وبعدها قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو في الثالثة والستين .

هذا التنزل الأخير هو المعني بقول ربنا سبحانه : ﴿ وَإِنَّمَا لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥] .

بنزول القرآن الكريم على قلب نبينا محمد ﷺ ولدت هذه الأمة في شهر رمضان، وأول ولادة لها كانت في شخصية النواة الكريمة المباركة في رسول الله ﷺ فقبله لم يكن لهذه الأمة وجود، ولم يكن هناك إلا قبائل متفرقة، وعصبيات متنازعة، أما أمة الإسلام وأخوة الإيمان، فولدت بقول الله ﷻ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وانحاز إليه المسلمون أفرادا وجماعات حتى وجدت هذه الأمة، فكان رمضان بذلك ميلادا لهذه الأمة المسلمة.

الزاوية الثانية: خصائص هذه الأمة، وقد امتازت هذه الأمة في تكوينها وفي وجودها وفي سلوكها على صعيد البشرية بخصائص لم تتوفر لغيرها.

الخصيصة الأولى: في وجودها، فما من أمة إلا وجدت نفسها، أما هذه الأمة فهي التي أوجدت نفسها، لم يختَر أحد أبويه، أما المسلم فكان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

كان المسلم ينفصل من أرومته التي نشأ فيها، ومن شجرته التي تفرع عنها، هذا الانفصال قد يؤدي إلى العداء وإلى المحاربة، لينحاز إلى قوم جدد، وإلى أخوة جديدة، هي أخوة الإيمان، يأتلف بهم، وينتصر بهم، وينفصل عن الآخرين، ومن هنا كان تكوين هذه الأمة تكوينا إراديا فرديا عازما، كل امرئ فيها اختار ذلك بنفسه وبإرادته دون أن يوجد ذلك تلقائيا.

الخصيصة الثانية: أنها أمة أمرت منذ بدء تكوينها بالعلم، في قول الله ﷻ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وبالأخذ بوسائله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، أمر يستوقف العقول، أن يتوجه الأمر بالقراءة إلى نبي أمي لا يعرفها، وإلى أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، ومن هنا كان جوابه ﷺ بدهيا حينما خاطبه جبريل باقراً، قال: ما أنا بقارئ، وكررها عليه، لكنه أمر إلهي قدرني لا بد أن يحدث، وهنا أكمل جبريل: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، واستجابت الأمة لأمر ربها، منذ الشهور الأولى في مدينة رسول الله ﷺ بدأ دوي كدوي النحل في شوارع المدينة وسككها؛ لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وتعليم القرآن.

ولا يقولن أحد: كيف يحتج علينا بهذه الصورة الساذجة البسيطة، إنها في عصرها لم تكن ساذجة ولم تكن بسيطة، ولكن كانت فتحة مبينا، أن تتحول أمة جاهلية جهلاء إلى أمة قارئة كاتبة، ولولا هذه النواة الأولى والمفاتيح الأولى والخطوات الأولى في أمة الإسلام، درجة بعد درجة، ورقيا بعد رقمي، ما وجدت التقنية الحديثة، فمن شأن البشرية أن تبني اللاحق على ما ترك السابق.

الخصيصة الثالثة: أنها أمة كاملة الإيمان، آمنت بجميع كتب الله وملائكته وجميع رسله، ولم تؤمن بالبعض وتكفر بالبعض، فتميزت بذلك على جميع الأمم السابقة، كانت كاملة الإيمان، ولا يكمل إيمان المسلم حتى يؤمن بجميع رسل الله وجميع كتبه وبمن سبق، بل إنه لما يشرح الصدر، ويستوقف الباحث أن الصورة الناصعة للرسالات السابقة وللأنبياء السابقين لم تتوفر ولم تتضح إلا في كتاب الله الخاتم القرآن، وعلى لسان نبيه الخاتم محمد ﷺ فمن أراد أن يعرف عن موسى بصورته الجليلة،

وعن عيسى بصورته الطاهرة ، وعن إبراهيم عليه السلام في صورته النقية ، فهو واحد ذلك لا شك في كتاب الله القرآن .

أمة الإسلام غير منغلقة :

هي أمة منفتحة غير منغلقة ، ترى أن ما عندها من دين الله ﷻ إنما هو للناس جميعا ولل بشرية جميعا ، لم تستأثر به لنفسها ، ولم تغلبها الأنانية والأثرة ، ولم تدع أنها وحدها شعب الله المختار ، بل إنها تفرح بكل وافد إليها ، وتدعو غيرها للدخول فيما عندها وتفرح به ، وتجعل له ما لها ، وعليه ما عليها ، بل أكثر من ذلك لو أراد الخصم أن يستضيفها ليعرف ما عندها فإن عليها أن تستضيفه ، وتبذل له كل المعرفة وكل العون ، عله يهتدي ، مصداقا لقوله الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] .

أمة الإسلام ليست بأمة عزلة ولا رهبانية :

هذه الأمة لم تكن أمة عزلة ، ولا أمة رهبنة ، بل إن من خصائصها أنها تحب الدنيا وطياتها ، وتكره الخبائث وعفونتها ، وحبها للدنيا لم يكن إلا حب المالك للملكه ، والسيد لعبده ، والمسيطر على ما تحت يده ، ورسولنا ﷺ وصفه ربنا بأنه : ﴿ وَمَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَمُحَرَّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

فرفضت هذه الأمة الرهبنة ، حين جاء ثلاثة نفر إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادته فتقالوها ، أي : عدوها قليلة ، وقال بعضهم : أنا أصوم ولا أفطر ، والآخر قال : أنا أعتزل النساء ولا أتزوج ، وقال الثالث : أنا أقوم الليل ولا أرقد ، وهنا بادر رسول الله ﷺ لإيقاف هذه البادرة من

العزلة عن الدنيا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنني أصوم وأفطر ، وأقوم من الليل وأرقد ، وأتزوج النساء ، وتلك سستي ، ومن رغب عن سستي فليس مني»^(١) .

أمة الإسلام أمة غنى :

من خصائص هذه الأمة أنها تحب الغنى وتكره الفقر ، ورسولها ﷺ جمع بين الفقر والكفر في استعاذة واحدة ، فكان يقول : «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(٢) ، وحث على طلب المال الحلال ، فكان يقول : «نعم المال الطيب للرجل الطيب»^(٣) ، نعم إنها أمة تحب الغنى ، وبشرها ﷺ به حين قال : «ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»^(٤) . أو كما قال ﷺ .

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/٥) ، وأبو داود (٥٠٩٠) ، والنسائي في «المجتبى» (١٣٤٧) من حديث أبي بكرة نفع بن الحارث . وأخرجه الترمذي (٣٥٠٣) بعبءه ، وقال : «حديث حسن غريب» ، وصححه ابن خزيمة (٧٤٧) ، والحاكم (٩٠/١) ، وابن حبان (١٠٢٨) .

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧/٤) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩) ، وأبو يعلى (٧٣٣٦) ، وغيرهم عن عمرو بن العاص . وفيه : «الصالح» مكان «الطيب» . وصححه الحاكم (٣/٢) ، وابن حبان (٣٢١١) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٠١٥) ، ومسلم (٢٩٦١) عن عمرو بن عوف .

الإسلام يدعو للنظافة :

هي أمة تحافظ على البيئة وعلى نظافتها ، فيكره قطع الشجر بلا قصد وبلا منفعة ، ويكره جعل الحيوان غرضاً للتسلية بلا حاجة من طعام أو شراب ، ويكره تلويث الماء الجاري أو الراكد ، ويكره تلويث المكان وتلويث الزمان ، ويكره تلويث الظل وأماكن جلوس الناس ، وجعل رسولها ﷺ إزاحة الأذى عن الطريق صدقة ، بل وجعلها شعبة من شعب الإيمان ، وجعلها سبباً لدخول الجنة ، فهي أمة تحافظ على البيئة وعلى نقائها ، تحب النظافة وتحب الجمال : «إن الله نظيف يحب النظافة ، جميل يحب الجمال»^(١) ، كما جاء في الحديث .

تكريم المرأة في الإسلام :

هي أمة كرمت المرأة ، ورفعت عنها الإصر والأغلال التي كانت عليها ، ورفعتها إلى مكانة مساوية للرجل حين قال ﷺ : «النساء شقائق الرجال»^(٢) .
و حين كلفها ربنا بالمسئولية والثواب ، فقال سبحانه : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] .

وكرمها الإسلام أما فجعل الجنة عند أقدامها ، وكرمها بنتاً فجعلها ریحانة نشمها ، وكرمها زوجة يكرمها الكريم ، ولا يهينها إلا اللئيم ، وجعل لها من المسئولية ومن الشخصية ما يساوي الرجل ، فبعد أن كانت

(١) أخرج الشطر الأول الترمذي (٢٧٩٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث غريب . وأخرج الشطر الثاني مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أحمد (٥٦/٦) ، وأبو داود (٢٣٦) ، والترمذي (١١٣) من حديث عائشة .
وأخرجه الدارمي (٧٦٤) من وجه آخر عن أنس بسند رجاله ثقات .

مملوكة تباع أو تشتري أو تقتل جعلها تستطيع أن تملك وأن تباع وأن تشتري وأن تتصرف في حر مالها كما تشاء .

من هنا كانت هذه الأمة بهذه الخصائص ميزانا بين الأمم ، حين وصفها ربها بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ، فهي أمة التعادل ، الوسطية التي لا إفراط فيها ولا تفريط ، ولذلك جعلها الله ميزانا بين الناس : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] . وبهذه الوسطية استحققت أيضا أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وهذه الخيرية ليست امتيازاً على البشرية ، ولا تسلطاً عليهم بالحكم ، ولكنه خير للناس جميعاً ، مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أبرزت وأظهرت لتكون نموذجاً ، ولتكون مثالا يحتذىه الناس ، أخرجت لصالح الناس ، فهي في خدمة البشرية .

وبهذه الخصائص دخلت هذه الأمة إلى التاريخ من أوسع أبوابه ، واحتلت أكبر ميادينها ، وفي جميع الاتجاهات قامت لها الحضارة بكل أوجهها ، وسعت البشرية دون تمييز من عنصر أو من دين أو من ثقافة ، سعدت البشرية بها ، واستظلت بظلها ، فكانت خير أمة أخرجت للناس ، لأنها صاحبة رسالة كلفها ربها بها في قوله تعالى : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] انطلاقاً من الإيمان بالله : ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

بهذه الخصائص التي أجملناها برزت هذه الأمة إلى الوجود ، وبهذه الخصائص كان شهر رمضان كميلاد لهذه الأمة ، وعلى ما جرت عليه عادة الأمم من أن تتخذ من تواريخ قيامها مهرجانات لها ، تظهر فيها خصائصها ،

وتتباهي فيه بمفاخرها ، كان شهر رمضان على زمان هذه الأمة مرآة تتبين فيه أمجادها ، وتتضح فيه أخلاقها ، وتبرز فيها صفاتها ، ورسولنا ﷺ يصف ذلك في حديث من أحاديثه يقول : «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يفسق وإن سابه أحد أو شاتمه فليقل : إني صائم»^(١) ، فالمسلم في شهر رمضان لا يعرف عيب اللسان ، ولا يعرف عيب السلوك ، وإن تطرق إليه من آخر عيب فهو كالنخلة الباسقة ، إذا رمي بحجر تساقط بالتمر ، إذا تصورنا مجتمعاً أفراداً هكذا ، فإنه لا شك مجتمع يساوي الملائكة في السمو ، يباهي الله بهم ملائكته في رمضان حين يتسابقون في عبادة الله ﷻ .

الزاوية الثالثة : واقع هذه الأمة ، ويعوذ بالله العبد الفقير من أن يقع في حفرة جلد الذات أو حفرة الإحباط ، حينما يتهم الأمة بالنقص كما يحلو للبعض ، لكن ذلك لا يمنعنا من نقد الذات ، النقد الموضوعي الذي يدعو إلى معرفة الداء ووصف الدواء ، فلا شك أن أمتنا في واقعها إذا قيست على ما مر من خصائص نجد أن بينها وبين هذه الخصائص فجوة ، وبينها وبين هذه الخصائص فجوة ، فجوة تدل على البعد ، وجفوة تدل على عدم السلوك ، أمتنا أصبحت في منأى عن هذه الخصائص ، ولذلك بعد أن كانت هي التاريخ وتعيش في بؤرته ، أصبحت على هامش التاريخ ، واحتلت ساحات التاريخ بغيرها ، وأصبح لزاماً عليها أن تستفيق من غفوتها ، وأن تعود إلى هذه الخصائص ، وهذه الأمة في عودتها إلى هذه الخصائص ليست في حاجة إلى أن تنقب في التراب ، ولا أن تحفر أنفاقاً في الأرض ، لأن رصيدها لم يغب ، ولأن رصيدها لم يختف ، بل هو ماثل

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة مرفوعاً .

شاهد في التاريخ في الماضي وفي الحاضر ، يشهد به العدو والصديق ، وما عليها إلا أن تعود إلى هذا الرصيد .

ولذا فنحن نرى أن الخطاب الديني يحتاج إلى تحديث وتطوير ، ومعاذ الله أن يكون القصد بالخطاب الديني النصوص ، فالنصوص ثوابت لا تتغير ، إنما الذي يحتاج إلى تغيير هو كيفية تناول ، كيفية المعالجة ، كيفية الامتثال لما أمر الله وأمر رسوله .

ولأضرب على ذلك مثالا بسيطا يتكرر في يومنا مرات ومرات ، نسمع حديث رسول الله ﷺ : «جاءكم رمضان شهر بركة»^(١) ، ما هي البركة؟ البركة في اللغة : الزيادة ، الوفرة ، الكثرة ، الغنى ، فهل رمضان في حياتنا اليوم هو شهر الزيادة؟ هو شهر الكثرة؟ هو شهر الوفرة؟ أم أننا نصارح أنفسنا فنقول : نحن المسلمين في رمضاننا في هذه الأيام لا نرى أكثر استهلاكنا منا في رمضان ، ولا أقل إنتاجنا منا في رمضان ، ولا أكثر نومنا منا في رمضان ، ذلك لأننا جعلنا منه شهر كسل ، شهر خمول ، بينما هو في شرع الله وفي قصد الله ، شهر عمل ، وصفه ربنا بأنه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، كما تتعرض الجيوش في فترات التدريب ، وفترات الاضطرابات ، كما تتعرض للتدريب الشاق ، يجب أن يكون المسلمون في رمضان كذلك ، لقد شاركت الإدارات للأسف في هذا ، فمنحت الناس ساعات قليلة من العمل ، بينما المسلم حين يصوم إنما فرغ من الطعام والشراب والشهوة ، وانحاز إلى جانب الله ﷻ ، فإذا كان مشغولا بالله فأى حاجة له في أن يستريح؟!

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠) ، والنسائي في «الكبرى» (٢٤١٥) ، وفي «المجتبى» (٢١٠٦) عن أبي هريرة . ورمز له السيوطي بالحسن كما في «فيض القدير» للمناوي (٣٩/ ٤) .

يرى الفقير إلى الله تعالى أن يكون رمضان شهر زيادة في العمل ، لتكون هناك زيادة في الإنتاج ، ولتكون هناك بركة فيه ، ساعات العمل تزيد لأن المسلم غير محتاج -ولا مشغول- إلى الطعام ، فليبدأ دوام الموظفين بعد صلاة الفجر ، ولينته أول النهار مع الظهر ، وليبدأ بعد ذلك مع العصر ، ولينته قبيل الغروب ، فذلك توقيت رباني أَرَادَهُ اللهُ ﷻ لهذه الأمة ، ليستقيم أمرها وليسعد حالها ، حيثئذ ينتفي من حياة الناس الكسل والخمول .

هذه معالجة بسيطة للنص ، بينما إذا سمعنا الخطاب الوعظي نجده مسطح المعنى ، ونجد المسلم يجد في المسجد فيسمع تكرار الحديث ، فيظن أن تلك البركة شيء معمى غيبي سيسقط من السماء ، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، نحن شيوخ العلم الشرعي والمشتغلين به ، مطالبون شرعاً بأن يكون الخطاب الشرعي في زماننا خطاب معالجة وتحليل ، خطاب تفهيم وتقعيد ، أما المعميات الخطابية والتي استغلها الآخرون للتعميم والتسطيح ، فذلك أمر يضر ويبعد الناس عن دين الله .

إن الناس في شرق وفي غرب ما فتئوا يذكرون الإسلام على أنه دين تخلف ، وأنه دين إرهاب ، وما ذلك إلا من سوء قصد أو من سوء فهم ، أو من كليهما معاً ، كما لا أعفي المسلمين من المشاركة في هذا ، بتقصيرهم في بيان دينهم ، وفي الدعوة إليه من الله على بصيرة ، ومن هنا يلتمس الفقير إلى الله تعالى أن ينشأ لذلك مؤتمر على مستوى القمم السياسية ، والقمم الدينية ، والقمم الفكرية ، يتناول كافة الأديان والمذاهب .

حيثئذ تتضح للناس أمور العقيدة ، وأمور المبادئ والأفكار ، فيكون ذلك بركة على الاقتصاد وعلى سلوك الناس جميعاً .

يرى الفقير إلى الله تعالى أن مثل هذا المؤتمر ، يكون سنويا أو يكون دوريا ، لأنه بذلك يكون من أنجح الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى ، وأمتنا وإن كانت مطالبة بالتقنية وبأن تلحق فيها ، لكن من نافلة القول أن نقول : إنها مطالبة أن تقدم للإنسانية صواريخ وقنابل ، فذلك أمر شبت منه الإنسانية ، إنما هي مطالبة أن تقدم للإنسانية في زماننا الهداية والخير ، وذلك شيء تمتلكه هي ويفتقده الآخرون ، فلو أنها قدمته للناس في هذا الزمان الذي تعبت فيه الأعصاب وتوترت فيه الهمم ، لو أنها قدمته للبشرية لقدمت للناس خيرا كثيرا .

محمل ذلك كله يلخصه رسول الله ﷺ في قوله : «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وستي»^(١) ، فإذا عاد المسلمون إلى كتاب الله على بصيرة ، وعادوا إلى سنة رسول الله على بصيرة ، عاد إليهم سالف مجدهم ، وكانوا بذلك هداة للبشرية من جديد .

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١/١٧٢) ، والدارقطني (١٤٩) ، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١١٤) وغيرهم من حديث أبي هريرة . وصححه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/٣٣١) بقوله : «وهذا محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد» . وأخرجه الترمذي (٣٧٨٦) ، وأبوداود (١٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٠٧٤) وغيرهم من وجه آخر عن جابر نحوه .

المحاضرة الحادية والخمسون

واقع المسلمين اليوم

روى الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني رَحِمَهُ اللهُ : قال حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي ، قال : حدثنا بشر بن بكر ، قال : حدثنا عبد الله بن يزيد بن جابر ، قال : حدثني أبو عبد السلام ، عن ثوبان رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قال قائل : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن يا رسول الله؟ قال : الوهن : حب الدنيا وكراهية الموت»^(١) .

انطلاقاً من هذا الحديث الشريف تكون محاضرتنا تحت عنوان : «واقع المسلمين اليوم» ، وهو عنوان كبير ، وبحر لجي ، ولكن أكتفي ، وحسبي أن أكتفي بالإشارات دون الدخول في التفاصيل .

هذه هي مجالس العلم ، وهذه هي مجالس العلماء ، والتي نوه الله بشأنها ، وذكرها في أكثر من آية ، وأمر الله ﷻ رسوله بأن يقول : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] ، وعن طريقها يزداد المؤمن إيماناً ، ويزداد يقيناً ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) ، والرويانى فى «مسنده» (٦٥٤) وغيرهما من هذا الوجه عن ثوبان به . وتابع أبا عبد السلام أساءه الرحبى عن ثوبان به ، وأخرجه أحمد (٢٧٨/٥) وغيره .

رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٥﴾ [الأنفال: ٢-٤] .

ولنبداً بألفاظ الحديث حتى تتبين لنا مفرداته .

حول معاني ألفاظ الحديث:

فقوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك الأمم» أي يقرب فرق الكفر وأمم الضلال، أن تداعي عليكم، أي تتداعى عليكم بأن يدعو بعضها بعضاً لمقاتلتكم وكسر شوكتكم، وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال .

«كما تداعى الأكلة» كما يجتمع الأكلة على الطعام، أو كما يجتمع الأكلة على الطعام .

«إلى قصعتها» الضمير يعود إلى الأكلة التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفواً صفواً دون كدر، بحيث يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم، أو ضرر يلحقهم، أو بأس يمنعهم .

«أمن قلة نحن يومئذ؟» أي هل ذلك التداعي لأجل قلة نحن عليها يومئذ .
«بل أنتم يومئذ كثير» أي عددكم كثير ولكنكم غناء كغناء السيل . والغناء ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبههم به لقلة شجاعتهم وقلة قدرتهم .

«ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة» أي ليخرجن الله الخوف والرعب من قلوب عدوكم .

«وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» أي يرمي الله الضعف في قلوبكم، وفسر عليه الصلاة والسلام الوهن بحب الدنيا وكرهية الموت؛ إذ أمة الإسلام أمة مجاهدة، أمة دعوة، فإما حياة بعزة وكرامة، وإما أن تنال الشهادة في سبيلها دون اعتداء على أحد، أو إكراه لأحد، ولكنه تهيئة للحق، ودحض للباطل، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

ما يهدف إليه الحديث :

أما الدلالة المعنوية لهذا الحديث ، فهو علم من أعلام النبوة سيق مساق الإخبار المتضمن للتحذير والتنبية إلى ما سوف تتول إليه الأمة إن لم تعرف قدر نفسها ، ولم تعرف مكانتها التي بوأها الله إياها ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

فإذا ما جهلت الأمة المسلمة حقيقتها ، وضيعت واجباتها واستسلمت للراحة والدعة ، تراجعت عن منزلتها ، وتركت أسباب خيريتها ، وفرطت في عوامل قوتها ، فعندها تلين وتضعف ، ويسلط عليها عدوها فيستحل أرضها ، ويستبيح كرامتها ، ويتتهك حرمتها ، ويدنس مقدساتها ، ويخرب ديارها ، وينهب ثرواتها ، ويذل أبناءها ، وهذا كائن لا محالة إذا ظهرت عوامل وقوعها ، نوجزها وباختصار في الآتي :

ظهور عوامل ضعف الأمة :

أول هذه العوامل :

الاختلاف :

والاختلاف سبب من أسباب تدمير الأمم وفناء الشعوب ، وقد حذرنا الله منه حيث يقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿ [الروم : ٣١ ، ٣٢] ، وسبب من أسباب الفرقة والشتات .

والمؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والله تعالى يقول : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ويقول عليه الصلاة والسلام : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١) .

ويترتب على العامل الأول .

العامل الثاني : وهو التنازع والتناحر والفتن :

فإذا ما وقع الخلاف ، وإذا ما احتدم النزاع ، فإنه يؤدي إلى فتن وإلى محن ، وإلى كوارث لا تحمد عقباها ، وذلك متى حكمت الأهواء ، وتباينت الآراء ، وتعددت التوجهات دون ضابط من شرع ، ودون قيد من عقل ، وعندها تنشب الفتن ، وتحل الخصومات محل المودة والمحبة ، وتتوسع دائرة التباين ، وتعمق الهوة بين أخوة العقيدة الواحدة والمصير الواحد ، والغاية الواحدة ، ولو أن الأمة حكمت شرع ربها ، ومنهج نبيها ﷺ لحلت كثيرا من مشاكلها ، فالله تعالى يقول : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] . ويقول ﷺ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] ، ويقول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير .

أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحَيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿[الأحزاب: ٣٦]﴾ .

وعندما تعود الأمة إلى شريعة ربها ، وإلى منهج نبيها ، فإن المحبة تحل محل الخصومة ، والمودة تحل محل النزاع ، ويكون رائد الجميع ابتغاء الحق والاهتداء إليه . يقول الرسول ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن أبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى »^(١) .

وما يلاحظ اليوم في عالمنا الإسلامي من نزاعات وخصومات داخل كيانه ، وبين شعوبه وحكوماته ، يجعلنا نتساءل : ألم يكن لهذه الأمة مرجع ترجع إليه ؟ وشرعة تحتكم إليها ؟ فنزاع هنا ونزاع هناك ، دماء تسفك ، وديار تدمر ، ومقدرات تهدر ، وقطيعه بين الأخ وأخيه ، والجار وجاره ، مما يجعل الأمة مهددة من داخلها ، ويجعل خطرها على نفسها أكبر من خطر عدوها عليها .

عدم الثقة بين الأمة الواحدة :

العامل الثالث وهو يترتب على العاملين السابقين ، وهو عدم الثقة بين الأمة الواحدة .

وهذا العامل جرّها إلى عدم التكامل فيما بينها ، رغم المقومات التي تؤهلها لأن تكون في مقدمة الأمم ، فلديها مقومات معنوية ، فهي تدين بالدين الحق الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده ، وتحمل العقيدة الصافية النقية التي تتمشى مع الفطرة السليمة ولا تعارض المعقول ولا تعارض الواقع ،

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) عن أبي هريرة .

وتكاليفها مراعية لقدرة الإنسان واستطاعته ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

مقومات الأمة المادية:

أما مقوماتها المادية فهي كثيرة وظاهرة، كثرة عددية تتجاوز المليار، وقوة مادية: زراعة وبترو، ومواد أولية، أرض خصبة واسعة، ومناخات جغرافية متعددة، هذه المقومات لو أحسن توظيفها واستغلت الاستغلال الأكمل لتغيرت أحوال الأمة شريطة أن يحصل التكامل وتبادل المنافع وعندها لا تحتاج الأمة إلى غيرها، ولا تذلل نفسها وراء السعي بتوفير لقمة العيش من عدوها، وبهذا يكون لها وزن بين الأمم، ويحسب لها ألف حساب، فلا يقطع أمر دونها، ناهيك من أن ينتقص حقها.

وقوة الأمم اليوم منظومة متكاملة العدد والعدة، القيم والمبادئ، التنسيق والتكامل، أما كثرة الأسماء والمسميات فتلكم هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر ولكنها حالقة الدين.

أعداء الأمة:

أما ما تواجهه الأمة من عدوها فهو أمر ظاهر للعيان، فمؤامرات على الإسلام، وكيد بالمسلمين آناء الليل وأطراف النهار، دماء تسفك، وجراحات تنزف، وأرض تتقطع.

وفي الجملة فجسم العالم الإسلامي مثقل بالجراح، فهو بحاجة إلى من يضمض له جراحه، ويعيد له حقوقه، ويصون له كرامته، وأبنائه هم المعنيون بذلك، وعلى رأس الأمة قادتها.

والجميع : قادة ومقودون ، مدعوون إلى السعي الجاد ، من أجل تخفيف المعاناة عن المحرومين ورفع الظلم عن المظلومين ، وإعادة الحقوق إلى المستضعفين المقهورين ، والرسول ﷺ يقول : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قالوا : يا رسول الله ، ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما؟ قال : تحجزه وتمنعه ، فذلك نصره»^(١) .

وعندما نستعرض واقع المسلمين اليوم -ولا نستطيع الإحاطة به- نجده واقعا مؤلما تهتز له المشاعر ، وتنجرح له النفوس ، وواقعا لا يشرف أمة منهجها كتاب الله ﷻ ، وقدوتها محمد ﷺ بدءا بفلسطين أرض الأنبياء ومسرى رسول الله ﷺ ، وفيها أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، وانتهاء بأرض البوسنة والشيخان والعراق وأفغانستان والصومال والسودان وبينهما شعوب وأقليات تعاني الأمرين من أعداء الإسلام دون نصرة من أخ أو رحمة من عدو ، وعدونا - كما يلاحظ - لا يكتفي بما تحت يده من أرضنا ومقدساتنا ، بل يريد أرضا وأمنا وسلاما وتجارة ومياها ، دون أن يعطينا شيئا مما أخذوه منا ، وهذا هو منطق القوي دائما ، وأصبح من يدافع عن أرضه وعرضه وعن حقوقه ومقدساته في المصطلح العالمي إرهابيا ، ومتطرفا ، وعنيفا ، ومن يقتل ويشرد ويدمر ويغتصب متحضرا ومسالما ، وهذا ما ينطبق على اليهود في فلسطين .

واجب المسلمين نحو أمتهم حتى تصبح أمة قوية :

والمخرج من هذا كله -وحتى لا تتحقق فينا الغثائية التي أصيبت بها الأمة- أن نستعيد تضامننا ، وأن نكون إخوة فيما بيننا ، الأخوة الإيمانية

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس واللفظ له ، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر .

التي لا تقدم عليها قرابة ولا جوار ، ولا عشيرة ولا قبيلة ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، أن نستعيد تضامننا ، وأن نكون كالجسد الواحد الذي وصفه الرسول ﷺ ، أو كالبنيان الواحد ، ينصر بعضنا بعضا ، ينصر قويننا ضعيفنا ، ويرحم غنيا فقيرنا ، وأن نعتصم بحبل الله ﷻ جميعا ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

فالإيمان هو الذي جمع القلوب المتباينة ، هو الذي جمع الألوان المتعددة ، هو الذي جمع بين أمة متناحرة متباينة .

عندما بعث الرسول ﷺ وناداهم باسم الإيمان ، ناداهم باسم الإسلام : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، فما أن دخلوا في دين الله أفواجا حتى كانت أمورهم مستقيمة ، قائمة على اتباع منهج الله ﷻ ، وامثال أمر رسول الله ﷺ .

وأن نحقق فينا ما يريد الله منا وما يريده منا رسول الله ﷺ ، من القوة والعزة والمنعة ، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، والقوة التي نص عليها الحديث قوة إيمانية ، وقوة أخلاقية ، وقوة اقتصادية ، وقوة في الرأي ، وسداد في القول ، وحكمة في التصرف ، هذه القوة هي التي يريدها منا الإسلام ، وهي التي دعا إليها الرسول ﷺ ، حتى أوجد أمة قوية في أخلاقها وفي قيمها ، وفي مثلها ، وفي عاداتها وتقاليدها .

المحاضرة الثانية والخمسون

شرف العبودية

إن من خصائص المصطفى عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الصلاة وأزكى التسليم أن الله سبحانه نادى الأنبياء بأسمائهم فقال : ﴿يَتَقَادِمُ أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ، ﴿يَتَابَرَّاهِيمُ﴾ ① قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَا ﴿[الصفات: ١٠٤-١٠٥] ، ﴿يَنْنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] ، ﴿يَنْحِيْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ، ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] ، لكنه تبارك وتعالى ينادي المصطفى بصفة الرسالة والنبوة فيقول : ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا تَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١] ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم أطلق على رسول الله وصف العبدية كلما كان رسول الله في الموقع الأقرب من ربه ، وذلك في ثلاثة مقامات :

المقام الأول : مقام تشريفه بالتنزيل : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] .

المقام الثاني : مقام تشريفه بالكفاية والعناية المباشرة : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦] .

المقام الثالث : مقام اللقاء في الإسراء والمعراج : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] .

معنى العبودية في القرآن:

ووصف العبدية في القرآن الكريم له معنيان : معنى عام وهو الذي يُطلق على كل البشر من حيث إن الله سبحانه ربهم وخالقهم . وقد دأب القرآن الكريم على جمع الكلمة بهذا المعنى على صيغة عبيد . فقال ﷻ : ﴿ ذَلِكِ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران : ١٨٢] ، ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] ، ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩] .

وللكلمة معنى خاص وهو الذي يُطلق على طائفة مخصوصة من البشر ، وقفوا على معنى تشريف الله لهم بوصف العبودية فتجاوبوا مع هذا التشريف ، فحاولوا بالتدرج في درجات العبادة أن يقوموا بواجبات العبودية لله ، وقد دأب القرآن الكريم على جمع الكلمة بهذا المعنى الخاص على صيغة عباد ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : ٦٥] ﴿ بَتَىَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩] ، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

وهذا يُنبئ عن أنَّ العبد بهذا الوصف الخاص يكون في أقرب المواقع لله ﷻ ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] وبيان دلالة الكلمة على شدة القُرب في هذه الآية أن الله سبحانه ذكر السؤال في كتابه في عدة مواضع ، وكان الجواب يبدأ بقوله لرسوله : قُلْ ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ﴿ تَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ﴾ [البقرة : ٢١٩] ،

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤] ، إلا في هذه الآية : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] حيث لم يقل لرسوله وعبداه : قل إني قريب فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : عبدي أنت إنما تحتاج إلى الوساطة في غير وقت الدعاء ، أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك ، لأنني قريب منك ما دمت من عبادي ، ولكي تكون من عبادي فلا يجب أن يكون خاطرك مشغولاً بغيري ؛ لأنك بذلك لا تكون داعياً لي ، وحينئذ تكون من عبيدي لا من عبادي ، فإذا فنيت عن الكل صرّت مستغرقاً في معرفتي ، ويمتنع في هذا المقام أن يبقى العبد ملاحظاً لحقه وطالباً لنصيبه ، إذ بهذا يصبح مع غرض نفسه فيكون من العبيد ولم يكن قريباً من الله ﷻ ؛ لأن ذلك الغرض يحجبُه عن الله تعالى ، فلما ارتفعت الوسائط بالكلية فقد حصل القرب فإذا استغرق في الله فإنه بذلك قد أصبح من العباد القريبين من ربهم وكان أهلاً لأن يُعنى بقول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۖ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] أي انضمي إلى عبادي المقربين ، وهذه حالة شريفة ، ذلك لأن الأرواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا اللطيفة المصقولة ، فإذا انضم بعضها إلى بعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بتقابل المرايا من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض ، فيظهر في كل واحد منها كل ما ظهر في الأخرى . وبالجمله فيكون الانضمام سبباً لتكامل الرضا وتعاضل الدرجات ، وهذا هو المقصود من قول الله تعالى : ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمْ لَهُمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠ ، ٩١] ، وتلك هي السعادة

الروحانية التي يجدها العبد عندما يبلغ أعلى الدرجات وهي درجة العبودية بمعناها الخاص . فكيف يتدرج العبد بالمعنى العام في العبادات حتى يكون من العباد بالمعنى الخاص؟

هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال بعض آيات الذكر الحكيم في هذه المحاضرة ، حيث جاءت آية القرب بعد آية الصوم مباشرة . فبعد أن ذكر الله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان أراد الرحمن أن يخلق العبد من صيامه وعبادته في هذا الشهر الكريم إلى أن يكون من عباد الله القريبين من حضرته وجلاله فقال بعدها مباشرة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

العبودية أعلى درجات العبد إلى الله :

وإذا كان من المقرر أن أعلى درجة ينالها المخلوق هي درجة العبودية للخالق بالمعنى الخاص فلا بد من التعرض لتسلسل الدرجات قبل هذه الدرجة العالية .

فنقول وبالله التوفيق : «اقتضت حكمة الله في خلقه أن يجعلهم درجاتٍ في الدنيا كما يجعلهم درجاتٍ في الآخرة . ففي الدنيا يقول الله ﷻ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ، فكانت هذه مشيئة الله في أنظمة الحياة الدنيا . فنظام المال والاقتصاد والحكم والوظائف والجيش وغيرها يقوم على التدرج في الدرجات .

وكل إنسان يحاول أن يرقى من درجته التي هو فيها إلى درجة أعلى بعد أن يقوم بما تتطلبه الدرجة الأعلى من أعباء وواجبات ، فنظام التعليم مثلاً يقوم على أساس التدرج والتفاوت في الدرجات من المرحلة الابتدائية إلى درجة الثانوية والعالية والعالمية وهكذا ، ولكل درجة متطلباتها ومناهجها ، وكلما رقت الدرجة رقت معها مناهجها صعوبة ودقة ، عمقاً وشمولاً ، حتى ينتهي الطالب منها إلى أن يكون إماماً في نوع من أنواع المعرفة ، ونلاحظ أيضاً أنه كلما رقت الدرجة العلمية رقت معها نسبة التكريم والعطاء ، ورفعة المكان وعزة المكانة ، كما نلاحظ أن طول المكث في الدرجة الأدنى يؤدي إلى الخمول وقتل الطموح ، ثم يؤدي هذا إلى التذني والتراجع حتى عن درجته التي هو فيها . فلو أن تلميذاً أمضى في الابتدائية اثني عشر عاماً فإن هذا يجعله أقل مستوى وأدنى محتوى من تلميذ يقطع فيها المدة المقررة . وهذا على خلاف المتوقع ، لأن المتوقع أن طول المدة يفترض فيه أن يكون أكثر جودةً من قطع مدة أقل .

إلا أن الثابت على صعيد الواقع هو أن الطالب الذي يبقى في الابتدائية كل هذه المدة الطويلة يكون مثار النقد والسخرية ، ويصاب بالتبدل والخمول ، والإهمال ، والنكوص حتى عن مستوى هذه المرحلة الأولية ؛ لذا فإنه يَجَنُّحُ من ذلك إلى العناد والمكابرة ، فيصاب بروح الشقاق والجدل ، ويمسي عضواً مشاكساً متسكعاً لا فائدة منه ولا خير فيه .

فإذا كان الخلق درجات في عمل الدنيا برغم تواضعها وقصر عمر الإقامة فيها فإنهم درجات كذلك في عمل الآخرة . وفي ذلك الربط المحكم بين العمل والدرجة يقول الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بَغْفِلٌ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] ، ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ [طه: ٧٥] ، ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] .

وعلى هذا التسق المتسلسل يأتي عمل الآخرة في القرآن الكريم متفاوتًا متدرجًا بالشكل الذي ينتج عنه تفاوت الدرجات وتدرجها في الجنة ، فإذا كانت الجنة سَكَنًا عامًا لكل من يدخلها فإنهم فيها ليسوا سواء في الدرجات ، لأن الجنة نفسها ليست واحدة وإنما هي جنات متفاوتة من الفضل والنعيم ، فهناك جنة الفردوس ، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١] .
وهناك العُرْفَاتُ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُم جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] .

وإن بين كل جنة وأخرى ودرجة وأخرى كما بين السماء والأرض كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم»^(١) رواه الشيخان .

وفي حديث أبي هريرة من رواية الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : «إن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين مائة عام»^(٢) ، ولفظ البخاري : «ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(٣) .

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) عن أبي سعيد .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٢٨) ، وقال : «حديث حسن غريب» .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) . وأخرجه كذلك مسلم (١٨٨٤) لكن من حديث أبي سعيد .

الانتماء للدين :

ويُشترط للصعود في سُلَّم الدرجات من عمل الآخرة أن تسبقه مرحلة الانتماء ليكون العبد مسلماً بالشكل الذي يُخْرِجه من مرحلة الكفر إلى مرحلة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالشكل الذي يجعله مُلَزَّماً بأداء أركان الإسلام من غير النظر إلى تفحص ذلك الأداء تماماً ونقصاً أو جودة ورداءة ، ومن غير النظر إلى مدى ما للتطورات الاعتقادية من ردود أفعال في نفس المسلم ، من حيث سلامة تلك التصورات من العوارض المشوِّشة على حسن الأداء والتي تُصُدُّها عن النفوذ إلى النفس فتشلُّها عن الحركة والتأثير ، فتغدو تصورات اعتقادية ميتة في قلوب أصحابها بالشلل الذي أصابها ، فيقتصر الأداء حيثئذ على مجرد الإبداء ظاهراً ، الذي يجعل من المؤدِّي مسلماً فقط وليس كافراً ، فهؤلاء هم المسلمون بالمعنى العام الذين يدخلون في هذه المرحلة الأولية من عمل الآخرة ، فإسلام هؤلاء المسلمين إذن مرحلة وليس درجة ، وهذه المرحلة لا توفر لهم من الفضل في سلم الدرجات إلا أنهم ليسوا من الكافرين ، كما أن المرحلة الأولية من مراحل الدراسة لا توفر لأصحابها من فضل في درجات العلم إلا أن يكونوا غير أُميين .

وإذا كان المكث الطويل في مرحلة الدراسة الأولية يُصيب التلميذ بالكسل والخمول والتردي والطرْد أحياناً فإن طول مكث المسلم في مرحلة الإسلام الأولى يصيبه هو الآخر بالخمول والتردي والشك والاستغراق في الجدل والمشاحنات ، فهو في هذه المرحلة على خطر شديد ، لأن أي خلل أو تراجع يعيده مرة أخرى إلى الكفر لقربه منه ووقوفه على حافته كما الواقف على حافة البئر مباشرة لا يأمن على نفسه السقوط عند أدنى حركة غير

محسوبة ، كما جاء الوصف في قوله الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

وهذه المرحلة الأولية من عمل الآخرة هي التي عليها جل المسلمين اليوم حتى طال مكثهم فيها ووقوفهم عندها حيث كان يجب عليهم محاولة الصعود إلى أول السلم في الدرجات . ولعل هذا هو الذي يفسر ما أصاب المسلمين اليوم ويصيبهم من سداجة التفكير وغموض الرؤية ، وارتقاء الشخصية وقهر الإرادة ، وعبوس الطريق إلى الله .

إذن فلا بد من تجاوز هذه المرحلة مروراً بها إلى أول درجة في سلم الدرجات من عمل الآخرة لتأثير رد الفعل الحي للتصديقات الاعتقادية من حيث إن لكل إدراك اعتقادي صحيح رد فعل نفسي ملائم له ومساو في مقداره أو زائد عليه من شحنة ذاتية تنطلق من نفس الإنسان ، فمن أدرك واقع الإنعام والإكرام الذي يتوارد عليه من منعم مكرم متفضل فإنه لابد أن تتوجه نفسه إليه بالمحبة وتندفع إلى مدحه والثناء عليه ثم تندفع إلى رد جميله والفناء فيه .

هذا هو رد الفعل الطبيعي الفطري في النفس الإنسانية لدى كل إنسان سويٍّ بالنسبة إلى هذا الإدراك الاعتقادي الذي لم تصادفهُ المعوقات التي تصيبه بالشلل ، تلك المعوقات التي أطلق عليها القرآن الكريم لفظ «الرَّان» ، في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، فإذا جاء الإدراك الاعتقادي عند المسلم على هذا النحو السليم فإنه يصل من ذلك إلى أولى الدرجات في عمل الآخرة ، وهي درجة المؤمنين ، فمن هم المؤمنون؟

معنى الإيمان :

الإيمانُ له معنيان معنًى عام وهو المراد في الإسلام من حيث الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ومعنى خاص هو المقصود هنا ، وهو الذي يدل على حسن الأداء ، كما سأل رجل الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : هل أنت من المؤمنين؟ فقال : إن كنت تقصد : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، فأنا مؤمن ، وإن كنت تقصد : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا أدري .

وهذان المعنيان من معاني الإيمان يقومان على التفريق بين الشريعة ظاهراً وحقيقة ، فالمقصود بظاهر الشريعة هو أن يُعْمَلَ الأمر الذي يسقط الحرج والحكم من المُساوي ، فإذا ما قامَ المسلم وتوضاً وصلّى فإن كل من رآه يفعل ذلك لا يستطيع أن يقول غير ما رأى . ولكن هل أدّى هذا المسلم الصلاة كما يريد الله منه؟ وبنيت أداء الفرض الذي أمره الله به ، أم أنه فعل ذلك رياء واعتياداً ، فالشريعة ظاهراً هي أن تؤدّي الفرائض شكلاً وهذا هو الإيمان بالمعنى العام لكن الحقيقة هي أن تؤدي موضوعاً بالمقصد المطلوب من العمل الذي شرع وهذا هو الإيمان بالمعنى الخاص .

علامات وسمات المؤمنين :

والمؤمنون بهذا المعنى الخاص جعل الله لهم علامات أساسية يعرف المؤمن نفسه بها ، وهي طائفتان من أنواع العبادة ، جاءت كل طائفة في سورة من القرآن الكريم .

الطائفة الأولى : جاءت في سورة «المؤمنون» بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ

أَلْغَوْاِ مُعْرَضَاتٍ ۖ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٥﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٨﴾ [المؤمنون: ١-٩] ، هذه علامات المؤمنين وخصائص الإيمان بالمعنى الخاص ، وقد جمعت في برنامج المؤمن ومنهاج عمله مشقة الفعل ومشقة الترك وهما قاعدتا التكليف .

الطائفة الأخرى : من صفات المؤمنين هي التي جاءت في سورة الأنفال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ [الأنفال: ٢، ٣] . هذه هي العلامات المكملة للمؤمنين بالوصف الخاص ، وهي تدور على أمرين : الوجل والتوكل .

الوجل وهو الخوف ، وهو نوعان :

خوف العقاب والعذاب ، وهذا للمؤمنين بالمعنى العام على ظاهر الشريعة وهو خوف العُصاة .

وخوف المهابة والجلال وهذا للمؤمنين بالمعنى الخاص على الحقيقة ، لأن العبد كلما كان بعيدا عن سيده الملك كان خوفه منه مقصورا على عقابه وعذابه ، وكلما كان قريبا منه كان خوفه مقصورا على مهابته وجلاله بشكل لا يخطر معه عقابه وعذابه .

ثم إن الوجل من ذكر الله مهابة وجلالاً يورث بعد ذلك أنسا واطمئنانا في القلب بالقرب من حضرة الرحمن ، والتنعم بنعيم ذلك القرب والمكاشفة ، فهما مرحلتان توصل الأولى إلى الثانية كما حكاها القرآن الكريم : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿[الزمر: ٢٣]، الأمر الثاني: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي واثقين بالصدق في وعده وووعيده ، وهذه الجملة تفيد الحُضْر وهي مرتبة عالية ودرجة شريفة ، إذ يصير المؤمن بالمعنى الخاص لا يتوكل حيث يتوكل إلا على الله في أمره كله ، وحقيقة التوكل أن يتعب البدن ويرتاح القلب ، أي إن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، وتلك هي خصيصة المؤمن ومحور منهاجه وسلوكه ، والفَيْصَل في هذا ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام : «اعقلها وتوكل»^(١).

إذا أنجز المؤمن بالمعنى العام هذه الطائفة من الصفات أصبح مؤمناً بالمعنى الخاص وكان جزاؤه ما جاء في وعد الله له : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] وبهذه الأوصاف والعلامات مجتمعة يصل العباد إلى شهادة الله تعالى بحقهم عندما قال : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] ، وعندما يترقى المؤمن في درجة الإيمان الخاص فإنه يصعد إلى درجة أعلى من درجات العبادة الموصلة إلى شرف العبدية وهي درجة المتقين .

معنى التقوى:

والتقوى هي الأخرى لها معنيان : عام بمعنى توقي عذاب الله وغضبه مما هو متوفر عند كل مسلم ومما يجب أن يتوفر لكل عبد من عبید الله على نحو قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث غريب من حديث أنس .

شَيْءٌ عَظِيمٌ» [الحج : ١] ، ومعنى خاص وهي الدرجة العالية من درجات العبادة التي يصل إليها المؤمنون حقا بعد إنجازهم لمرحلة الإيمان بالمعنى الخاص . ولهذا دأب القرآن الكريم على الإهابة بالمؤمنين حقا أن يكونوا من المتقين : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ٧٠] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] ، فهي درجة عالية من درجات العبادة تقتضي عقلاً متأملاً ولُبّاً متعلقاً بالله ، مستغرقاً في طاعته .

وقد جعل الله سبحانه للمتقين علامة يُعَرَفُونَ بها ، وهي في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، إلا أنها جميعاً رغم اختلافها وتنوعها تشترك في أنها تقتضي صبراً شديداً ، فالصبر على هذا أساس التقوى وشرط علاماتها .
وأثر عن الإمام علي كرم الله وجهه قوله : الصبر ثلاثة أنواع : صبر على البلى ، وصبر عن المعصية ، وصبر على الطاعات .

لقد قامت علامات المتقين وعباداتهم على الصبر ، كما كانت عبادات المؤمنين تقوم على المشقة ، وبالتالي فإن المتقي يجمع في عبادته المشقة والصبر ﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر : ١٠] وهذا الأجر أبان الله ما هيته فقال : ﴿لَيْكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ اللَّهُ ءَلْمِيعَادَ﴾ [الزمر : ٢٠] .

وهكذا تتسلسل الدرجات إلى أن يصل العبد إلى تمام المعرفة بما عند الله ،
والعندية هنا ليست بمعنى الجهة والمكان وإنما هي نفاذ البصيرة إلى حضرة
المنعم وَعَلَيْكُمْ ، والاستغراق في عبوديته ، وهذا هو شأن الأرواح القدسية ، إذا
تطهرت من دنس الأوساخ والحواجز أشرقت بأنوار الجلالة ، وتجلت فيها
أضواء عالم الكمال ، وترقت من البعد إلى العُند فيحدثُ الاستغراق في الله
والانشغال به ، ثم بعد أن يشاهد حقيقة العندية فيتحقق له كمال العندية وهو
أشرف المواقع وأقربها من رب العالمين .



نور من القرآن والسنة

٥٦

المحاضرة الثالثة والخمسون

اللغة العربية هي لغتنا الإسلامية ولغتنا القومية

بسم الله الرحمن الرحيم والمحمود الله جل جلاله ، والمصلى والمسلم عليه هو النبي الرسول محمد ، وآله ، والمدعوون إلى الاعتصام بحبل الله وإلى الصلاح والإصلاح وإخلاص الدين لله ووحدة الهدف الإسلامي ووحدة الصف كأنهم بنيان مرصوص هم الأمة الإسلامية والوطن العربي ، نساؤه ورجاله ، قدمت النساء على الرجال ، والنقطة عندي هو الحرص على الموسيقى اللفظية ، وهو ما نسميه السجع .

تعهد الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم :

وهناك نقطة أخرى لا يتسع لها المقام ، أما قبل ، فهذا شهر القرآن الكريم ، والنبأ العظيم ، شهر الكتاب المبين ، الكتاب الذي لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الكتاب الذي اشتمل علي شريعة العدل والحق ، والخير العام والخاص ، فكانت هذه الشريعة دليلا علي إعجاز القرآن ، وأنه من عند الله الحكيم العليم ، نوه بذلك المسفر القرطبي ، والفقيه ابن القيم حيث يقول : الشرعية عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ، هذا شهر القرآن ، ذلك الكتب الذي تولى الله حفظه مصداقا لوعده : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

فبقي قرآنا مقروءا ، محفوظا في الصدور ، متواترا جيلا بعد جيل ، وكتابا مكتوبا في المصاحف والسطور ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ومع ما أصاب الأمة العربية الإسلامية من ضعف وضياع لبعض تراثها ، بسبب من أعدائها ، وسبب منها ، فقد بقي القرآن محفوظا بحفظ الله ، مما لم يتحقق لأي كتاب في الوجود ، حتى الكتب الدينية السابقة على القرآن ، ورغم المحاولات لم يتحقق لأي كتاب سماوي آخر أتباعه وأنصاره الأقوياء ما تحقق للقرآن المجيد ، فكان هذا كما يرى العلماء وجها جديدا من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ودلالة على أنه من عند القادر العزيز الحميد ، ومن ألطف ما قرأت إجابة عن سؤال وجهه عالم لعالم ، وأظنهما من علماء المغرب ، قال السائل : لماذا بقي القرآن محفوظا في الصدر؟ ومكتوبا في السطور؟ يتلى ليلاً ونهاراً ، بحيث لا تمر دقيقة في الكون إلا وهو مقروء أو مسموع هنا أو هناك ، بينما لم يتحقق هذا للكتب السماوية السابقة عليه فقد حصل فيها التبديل والتحريف مع أنها أيضا كتب سماوية .

أجابه العالم الجليل بقوله : إن القرآن الكريم تولى الله بنفسه حفظه وصيانته ، فكان لابد أن يصاب : ﴿ إِنَّا لَحَنُّ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] أما الكتب السماوية السابقة عليه فلم يتول الله حفظها ، وإنما طلب إلى أتباعها حفظها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ [المائدة : ٤٤] وكل إليهم حفظه فجاز التبديل عليه .

وأضيف إلى ذلك أن الكتب السماوية السابقة كانت كتباً وقتية ، لديانات وقتية ، فلم يكن من الحكمة الإلهية صيانتها بعد نسخها ، بينما كان القرآن العظيم كتاباً لدين خالد إلى يوم الدين ، فاقضت الحكمة صيانتها الأبدية ، وتولى الله ذلك بنفسه جل علاه .

نزول القرآن بلغة العرب تشریف لهم:

رمضان شهر تشریف الأمة العربية وتكريمها واختيارها دون غيرها لتبليغ رسالة الله الخاتمة، واختيار لغتها لغة للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، شرف الله العرب فجعل لسان كتابه الخالد لسانها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ورفع به ذكر ابن من أبنائها، ورفع به ذكرها وقوميتها ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وأنار بنوره طريقها وجمع لها بين نورين: نور العقل، ونور الشرع، وقرر ذلك في قوله سبحانه: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] ويعبر عن هذا المعنى المضيء الإمام الغزالي فيقول:

«إن العقل لا يهتدي إلا بالشرع، وإن الشرع لا يفهم إلا بالعقل فالعقل أساس، والشرع بناء عليه، ولن يغني أساس ما لم يكن البناء، ولن يثبت البناء ما لم يكن الأساس، العقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن ينفع بصر ما لم يكن شعاع من الخارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن البصر، العقل كالسراج، والشرع كالزيت الذي يمدده، فما لم يكن الزيت لم ينر السراج، وما لم يكن السراج لن يضيء الزيت، الشرع كالعقل من الخارج والعقل شرع من الداخل، وهما متعاضان بل متحدان.

ولكون العقل شرعا من الداخل قال تعالى في صفة العقل: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [النور: ٣٥] فسمى العقل دينا، ولكونهما متحدين قال سبحانه: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي نور العقل ونور الشرع». هذا كلام الإمام الغزالي، وله كلام أطول وأكثر تفصيلا.

دعوة الأمة إلى تبليغ رسالته للبشرية :

سبحانه حمل الأمة العربية أمانة تبليغ رسالته إلى سائر البشرية ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] سبحانه أعطاهما قيادة العالم الإنساني للقرآن وحكمه وأحكامه حين تأخذ بها ويراهها الناس في حياتهم دعوة إلى الأخوة الإنسانية المشتركة ، وإلى التعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، دعوة إلى السباحة الدينية وإلى أن يكون لغير المسلمين ما للمسلمين في ظل الإسلام ، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، دعوة إلى العدل والمساواة وتكافؤ الفرص ، دعوة إلى الشورى والديمقراطية وإلى تكريم الإنسان ، أي إنسان ، مهما اختلف دينه أو مذهبه أو أصله أو فصله أو جنسه أو نوعه أو لونه أو وطنه أو مكانه الاجتماعي أو مركزه المالي ، دعوة إلى التصديق والعمل بالميثاق الإلهي العالمي الإسلامي الموجود قبل أن توجد المواثيق البشرية التي صنعها البشر ناقصة وغير وافية ، لأنها شريعة الله ، شريعة الإسلام . دعوة إلى العمل بالميثاق العالمي الإسلامي الخالد الذي ينادي بأن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح المصلح لخير البشرية ، والذي ينادي بنذ الأنانية وعبادة الذات ، وترك الاستسلام للغرائز والشهوات المريضة ، من المطلوب إسلامياً أن تنتهي هذه الطريقة من أزمان .

إن بعض فقهاءنا اشتراطوا في عقد الزواج أن يتم باللغة العربية لمن يعرفها دون غيرها من اللغات ، وبلغف الزواج العربي وما في معناه من ألفاظ العربية ، ثم قرر المحققون - وعلى رأسهم الفقيه الإسلامي الأكبر ابن تيمية الذي أحبي في عصره فريضتا الجهاد والاجتهاد - كراهة التخاطب بين المسلمين بغير اللغة العربية إلا لضرورة أو حاجة تدعو إلى ذلك ، وقد سبقتنا إلى ما نرجوه

أفغانستان في عصر مضى ، أيام المجلس الإسلامي القوي القادر على حماية نفسه من خصومه وأعدائه ، فكانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، إلى أن حكمها شعوبي يتنصر لقوميته على حساب الدين .

ولقد استجابت باكستان من قديم لدعوة إقبال لأن تصبح اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، كما قررت الجامعات والمعاهد العلمية هناك التوسع في تدريس المناهج العلمية باللغة العربية .

رفض الاستعمار قلباً وقالباً :

إن الاستعمار اللغوي والثقافي والقانوني هو أخطر أنواع الاستعمار لأنه يستعمر العقل واللسان ، وبه يتحول المستعمر بإرادته ورضاه ، إلى متابعة مولاه ، فعلياً أن نطارده في كل مكان وزمان ، وإذا كانت الدول الكبرى نفسها تبلغ بها حساسيتها إلى رفض دخول بعض الكلمات الأجنبية في لغتها إلى درجة أن الدولة الفرنسية قررت في السبعينيات معاقبة كل موظف يستخدم في مكاتبه رسمية كلمة من الإنجليزية أو الإيطالية ، مع ما بين هذه الدول من صداقة وجوار وسوق مشتركة ، ومع ما بينهم من تعاون الأجداد ، وإلى درجة أن من قادة هذه الدول الأوربية من يمتنع في إصرار عن التحدث بغير لغته ، ولو كان على علم بها ، فأولى بنا نحن أن نتخذ هذه المواقف ! أولى لنا فأولى ، ثم أولى لنا فأولى .

أمثلة على ضرورة التمسك القوي باللغة العربية في كل زمان ومكان :

مع ظروف الاستعمار العسكري المباشر من الدولة التي كانت لا تغيب الشمس عن إمبراطوريتها ، والتي استطاعت أن تجند أبناء الدول المستعمرة للدفاع عن استعمارها ، يسرني أن أقول : إن وزارة الخارجية البريطانية

كتبت عن وفد مصر المدني الذي لم يكن وراءه جيش ولا شعب مسلح ليسانده، والذي ذهب يطلب الاستقلال من مثلها، وهم: سعد زغلول، وعبد العزيز فهمي، وعلي شعراوي، كتبت تقول: إن الشعراوي هذا كان لا يتكلم إلا بالعربية مع قدرته في الإنجليزية، واعتبرت مذكرة الخارجية البريطانية هذا مظهرا من مظاهر التعصب العربي الممقوت، أما هم إذا تكلموا بلغتهم، ولم يتكلموا بغيرها، وإذا فرضوها علينا فرضا، فإن هذا يكون مظهرا من مظاهر التحضر الأوربي.

ونأتي إلى عبد العزيز فهمي، وله مع اللغة العربية قصة تاريخية، عندما كان أحد قضاة محكمة النقد والإبرام وكانت تسمى بذلك في وقته، فقد استمع إلى محام شرعي أزهرى يترافع في إحدى القضايا مستندا إلى قواعد الدلالات الأصولية اللغوية والعربية، كدلالة العبارة، ودلالة الإشارة، ودلالة الفحوى، ودلالة الاقتضاء، ودلالة مفهوم المخالفة، ودلالة مفهوم الموافقة، وإلى الترجيح بينها عند التعارض، بكلام قوي أقنعه ولفت نظره، فسأله: وأين أجد ذلك لأتعلمه؟ فقال له: في كتب أصول الفقه، في الأزهر، وأرشده إلى بعض المراجع الميسرة، فتعلمها وضمناها أحكامه، فكان بسبب ذلك أقوى قضاة مصر وأشهرهم، وكانت شهرته القضائية أكثر من شهرته السياسية، وكانت أحكامه مدرسة لغيره من القضاة بينما كانت آراؤه السياسية محل خلاف، وكان هذا سببا مباشرا لإدخال مادة أصول الفقه في مناهج كليات الحقوق، وعن طريق هذه المادة نقل الحقوقيون قواعدها إلى دراساتهم وتطبيقاتهم في النصوص القانونية الوضعية.

وأما زعيم مصر سعد زغلول ابن الأزهر شقيق القرويين والزيتونة، فقد كان سلاحه الأوحده، في تعبئة الشعب المصري من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، هو ما درسه في الأزهر: اللغة العربية التي كان بها وفيها

أخطب الخطباء ، وعلم المنطق ، وعلم الجدل ، وأدب البحث والمناظرة ، الذي جعل كلماته أقوى من أسلحة العدو وجبروته ، والتي فرضت على إنجلترا أن تنفيه عن وطنه .

وكان هذا ضريبة الاستقلال ، فرضها الاستعمار ظلما وعدوانا ، ولهذا لم يكن عجيبا أن يمسك سعد وهو رئيس للوزراء وفي وجود الاستعمار وجيوشه وطواغيه أن يمسك بأطباق قدم له فيها الطعام في مأدبة أقامها له أحد وزرائه ، فيرمي بها في النيل المبارك ، لأنه وجد عليها اسم وزارة الأشغال باللغة الإنجليزية ، وأمره أن يستبدل بها فورا الذي هو خير بالذي هو أدنى ، وأن يكتب الاسم باللغة العربية بدل الإنجليزية ، والباء في اللغة العربية تدخل على المتروك .

وإذا ذكرت سعدا العظيم فإني لا بد أن أذكر ابنه وطنية وسياسة وعروبة : مكرم عبيد الذي كان يقول : إنني مسيحي ديانة ومسلم وطنا ! فكان يحفظ القرآن العظيم ، وكان صاحب قلم عربي سيال ، وسحر حلال .

الحج إحدى وسائل انتشار اللغة العربية :

مما يدعو ويلح في ضرورة انتشار اللغة العربية بين المسلمين أنهم حين يتجمعون في موسم الحج استجابة للأمر الإلهي الحكيم ، وأذان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بعقد مؤتمر سنوي جامع لا يتغير زمانه ولا مكانه في التاسع من ذي الحجة وفي عرفة «والحج عرفة»^(١) وفي جوار البيت الحرام ، ليعالجوا فيه قضاياهم ، ويشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله ،

(١) أخرجه الترمذي (٨٨٩) ، والنسائي في «المجتبى» (٣٠١٦) ، وابن ماجه (٣٠١٥) من حديث عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه ، وقال الترمذي : قال ابن أبي عمر : قال سفيان بن عيينة : وهذا أجود حديث رواه سفيان الثوري .

ثم يتابعون هذه المؤتمرات عاما بعد عام بخطى رشيدة ، وخطة متتابعة ومنهج علمي إسلامي ، ليتشاوروا ثم يصدرُوا التوصيات والقرارات من الأمة الإسلامية الملزمة لأفرادها ، حكاما ومحكومين ، فالشورى في شريعة الإسلام لازمة وملزمة ، وفي كل عام جديد يبحثون فيما جدَّ ، ويتابعون ما صدر من توصيات سابقة ، ما الذي نفَّذ منها؟ وما هي العقوبات الطبيعية أو المصطنعة التي منعت تنفيذ أي توصية أو قرار ، فيدللونها ، وهكذا عاما بعد عام ، يدعوهم هذا المؤتمر ، ويستلزم ويؤكد أن تكون لغة مؤتمراتهم هي لغتهم الأولى ، لغة الإسلام بدل هذه الصورة الحالية التي يلتقون فيها هناك ، فلا يستطيعون التفاهم بلغة واحدة في المؤتمر ، أو فيما حوله ، وفيما بعده وفيما قبله ، حين التزاحم في الطواف أو في السعي أو في الصلاة أو في الطريق العام ، وحين يريد أحدهم أن يأمر بمعروف واجب ، أو أن ينهى عن منكر حرام ، أو يريد أن يشكو أحدهم إلى نفسه أو يحول بين حاج وآخر يعتدي عليه ، والعلاج الأوحده هو الالتقاء عند لغة الدين ، لغة الإسلام ، اللغة العربية ، لغة الأدعية الماثورة التي يرددها بعضهم وراء المطوف من غير إدراك لمعانيه .

وقد بذلت وتبذل الحكومة السعودية أقصى طاقتها في تيسير أمر الحج حتى يحقق حكمته ، وعلى سائر الدول أن تعينها في ذلك ، ولعله فيما ينبغي عمله أن تنبه الحجيج إلى معرفة اللسان العربي ولو في حده الأدنى ، وأن تجعل لمن يستجيب أولية على غيره في أداء فريضة الحج .

اللغة العربية محفوظة بحفظ القرآن الكريم:

إن للغة العربية خصوما في داخل البلاد العربية والبلاد الإسلامية

وخارجها ، تعرفهم بسيماهم حين يسألون الناس إلحافا ، يدعون إلى هجر اللغة العربية وبصفة خاصة اللغة الفصحى الجامعة للعرب وتعويضها باللهجات المحلية المفرقة بدعاوى كاذبة ، وفاضحة ومفضوحة ، ومن هؤلاء كاتب في لبنان العربي الشجاع ممن لا يرجون للإسلام وقارا ، ولا للغته انتشارا وانتصارا ، حيث توقع من سنين طويلة أن اللغة العربية ستزول من الوجود بعد ثلاث سنوات ، لتحل محلها لغة لبنانية جديدة ، تكتب بحروف لاتينية! فهلك هو ، وبقيت اللغة العربية بحروفها العربية ، وشكلها العربي الذي يضبط إعرابها ، والنطق بها أسهل وأدق من ضبط الحروف اللاتينية ، ذلك أن الله بقدرته وحكمته هو الذي يصونها بصيانة القرآن الكريم ، المكتوب بالحروف العربية ، وبالشكل والضبط العربي ، والذي لا نملك تبديله ولا تعديله ولا تعويضه لاختلاف الأفكار والأمزجة ، وهذا يذكرني بندوة عقدت في القاهرة قبل أن أجيء إلى المغرب ، في منظمة حقوق الإنسان العربي واتحاد المحامين العرب ، وعبئت فيها قوى الإلحاد والانحلال في العالم العربي كله ، وهم قليلو العدد إلى حد كبير ، ولكنهم منظمون يحاولون أن يظهروا بمظهر الكثرة ؛ وقد استجبت لدعوتها بحسن نية ، وألقيت أول أبحاثي فيها ، وتنالت الأبحاث والمناقشات ، فوجدت الملحد الذي يدعو صراحة إلى البدء - كنقطة نظام عنده - من الميثاق البشري الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة ، وهجر كل ما عداه وما سبقه من موثيق ، ولو كان القرآن الكريم ، أو السنة النبوية ، ووجدت واحدة تدعو إلى سيادة المرأة على الرجل في الأسرة الإسلامية ، ووجدت من يدعو إلى فتح الباب أمام المرأة المسلمة لتتزوج بغير مسلم ، ومن يدعو إلى إلغاء تعدد الزوجات إلى أربع ، ولو وجدت الدواعي وكان

في دائرة الحلال الطيب الذي أشار إليه القرآن الكريم في تعبيره المعجز ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء : ٣] مفضلاً تعدد الخليلات إلى ما لا نهاية على تعدد الخليلات في ظل الرحمن ، مع أن القضاء في أوروبا استقر على الاعتراف بالخليلة وأعطى لها حقوق الخليلة ، وسوى بين ابن الحرام وبين ابن الحلال ، وأعطاه جميع حقوقه وسماه الابن الطبيعي ، وحكم للخليلة بتعويض إذا هجرها خليلها وتضررت من ذلك ، فماذا بقي؟ ولماذا لم تمكني المنصة الملحة من الرد على كل ما يصاغ؟ ومع استمرار هذا الهراء تذكرت قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام : ٦٨] وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٤٠] .

وانصرفت من الاجتماع لألتقي مع الأستاذ الكبير فتحي رضوان رئيس المؤتمر ورئيس المنظمة ، ولأسلمه خطاباً بما حدث فوجدت أنه عند حسن ظني به وأن الأمر تم بعيداً عنه .

أيها الأخ الأشرف والمشرف ، إن معاداة الإسلام والعربية حتى في أوطانها قديمة وليست مستحدثة ، فمن قديم نادى أفراد من هيئات المتفعين بالغزو الثقافي ومن لا غيرة لهم على أوطانهم وخصائصها ، ومن ربط الاستعمار مصالحهم الوقتية به ، فاستجابوا لذلك ، وربطوا به مصالحهم ، وجعلوا هذه المصالح أبدية ، نادى هؤلاء الأفراد بأن اللغة العربية هي المسؤولة عن تخلفنا ،

وأنها ستموت! وماتوا، وأصبحوا ترابا، وما ماتت وصح فيهم قول القائل :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

ومن أكثر من ثمانين سنة ، وفي أشد عهود الاستعمار ، قررت وزارة المعارف في مصر إلغاء تدريس اللغة العربية من كلية الهندسة ، ونشرت الأهرام القاهرية هذا الخبر وعقبت عليه بأن وزارة المعارف لو عملت برأيها كله لألغت اللغة العربية من سائر أقطار الدنيا ، لا من مصر وحدها ، ما دامت لم تشرف أن تكون لغة سعادة وزيرها ، وكان وزيرا مفروضا على مصر بقوة الاستعمار وجبروته ، ولن أستطيع أن أواصل فإن المقام مقام يقتضي الإيجاز ومنتهى الإيجاز .

الاتجاه لتعلم اللغات الأجنبية بقدر الحاجة والضرورة :

إن الأمر قد وصل في بعض البلاد العربية والإسلامية إلى أنها توفد أبناءها وبناتها إلى الدول الأوروبية للحصول على العالمية - الدكتوراه - من الجامعات الأجنبية في اللغة العربية ، وفي القراءات القرآنية ، وفي العقيدة ، وفي الفلسفة الإسلامية ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، وفي أصول الفقه وفي . . . ليعودوا بعد ذلك وليلقنوا أبناءنا وبناتنا فهم للإسلام وشبهات ما أنزل الله بها من سلطان! نحن كعرب ومسلمين نصر على ألا تتجاوز اللغات الأجنبية حاجتنا إليها ، بحيث يتعلمها بعد اللغة العربية والتمكن منها من يكون في حاجة إليها ، أو من يكون الوطن في حاجة إلى دراسته لها ، وبقدر الحاجة فقط ، والضرورات والحاجات تقدر بقدرها ، ولست عدوا لهذه اللغات .

وتعلم اللغات الأوروبية والآسيوية والإفريقية كلها من الواجبات

الدينية الكفائية التي لا يسقط الإثم عن المجتمع الإسلامي إلا إذا تعلم هذه اللغة وتلك من يسد حاجة الدولة والشعب في هذا المجال .

* * *

المحاضرة الرابعة والخمسون

منهج الدعوة إلى الله

قال الله العظيم وهو أصدق القائلين : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بَالِيًّا هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

كانت مهمة الدعوة إلى الله منوطة بالأنبياء ، مخصوصة بالرسول
الأصفياء ، وحق لهم ذلك ، إذ لم يكن يقدر على خرق حجب الماديات التي
غمرت العقيدة فأفسدتها ، وفعلت فعلها في حياة الإنسان فأضررتها وأشقتها
سوى المختارين من قبله سبحانه ، المبعوثين لإقامة دين الله ، كانت
مشيئة الله تعالى تقتضي أنه سبحانه يرسل لعباده رسولا ، كلما عم فيه
الفساد ، وشملهم الغي والضلال ، ليردهم إلى الهدى والرشاد ، ويدعوهم
إلى صراط الله المستقيم ، ولم يكن يرسل ذلك الرسول لغير أمته ، أو يبعثه
لغير من يتكلم بغير لغته ، فلما أراد سبحانه أن يكمل دينه ، ويتم على
الناس حجته ، ويظهر الإنسانية في أكمل أفرادها ، والفضيلة في أسمى
مثلها ، بعث سيدنا محمدا ﷺ وجعل رسالته إلى الناس عامة ، وهدايته
للخلق كافة .

رسالة الإسلام هي رسالة الإنسانية :

فرسالة الإنسانية الخالدة ، وعدة الأنظمة الشاملة ، هي بحق رسالة
الإسلام ، لقد تضافرت الظواهر ، وأكدت أحداث الماضي والحاضر ، أن
عقيدة الإسلام هي وحدها التي تكفل سعادة الأنام ، وخلاص البشر من
الشُرور والآثام ، وهي وحدها التي تصلح لكل عصر وزمان ، وتسائر
تطورات الإنسان ، وهي مع هذا وذاك خلاصة الأديان السهاوية ، وصفوة

الرسالات الإلهية ، بتبليغها وضع رسول الله ﷺ حدا لمجال التفكير ، وفساد المنطق والتدبير ، فلم يعد مبرر لتقديس الأشياء المادية ، ولا لعبادة المظاهر الكونية ، بل ارتفع مقياس التفكير الإنساني ، وتوفرت العقلية على النضج الضروري ، أدركت العقلية الإنسانية أن مجال الحادث المخلوق واسع ، في استطاعتها أن تكتنه كنهه ، وتكتشف سره ، وأن المجال الإلهي الخالق فوق درجات العقل ، وأعلى من مقياس الفهم ، لا يعرف إلا بوصفه ، ولا يدرك إلا بآثاره ، وأدركت كذلك أن الإنسان هو المخلوق الذي انطوت فيه العوالم ، وتركز فيه ما قام عليه الوجود من الدعائم ، وأن له مع ذلك صلة وثيقة بالملكوتيات ، وعلاقة أكيدة بالقدسيات ، فقضى سبحانه ببعثة رسوله ﷺ ألا تعود النبوة إلى الظهور ، وألا تتعاقب الرسالات السماوية عبر الأزمان والدهور ، فهو ﷺ خاتم النبيين ، ومبعوث إلى العالمين ، ورسالته التي هي دين الإسلام مهيمنة على الرسالات السابقة ، وصالحة لكل ما يتلاحق من الأمم عبر الأزمنة المتعاقبة .

الدعوة إلى الله تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة :

فدين الإسلام عقيدته وشريعته باعث للإنسان على التطور ، حافز له على التحضر ، مساير لكل عصر مهما تقدم العمران ، وصالح لكل سمو يمكن أن يحققه مدارك العقل البشري ، فالدعوة إليه دعوة إلى الحق ، يعززها البرهان ، ويساندها الدليل ، إنها دعوة مادية وروحية ، راعت في الإنسان غريزته ، كما راعت فطرته الطبيعية ، خاطبت العقل والضمير ، وربطت بين الخفاء والظهور ، إنها قائمة على الحكمة أولاً ، وعلى الموعظة الحسنة ثانياً .

قال الله العظيم : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[النحل : ١٢٥] .

هذه الآية الكريمة تكشف مسئولية الرسول التي هي في الجملة مسئولية أمته في نشر الدعوة، وتجعل الدعوة لا تتم إلا إذا قامت على دعامة الحكمة، وعلى دعامة الموعظة الحسنة.

فأما بيان مسئوليته ﷺ في نشر الدعوة فيؤكد قوله سبحانه: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، وأما توقف الدعوة على دعامتي الحكمة والموعظة الحسنة فأكدته قوله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، قال سبحانه: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾. دعا معناه في التقريب نادى، لأن مدخول أداة النداء في النداء غالبا ما يكون علما، ومدخول أداة النداء في الدعاء غالبا يكون علما، وقد ينوب أحدهما عن الآخر، قال تبارك وتعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ [البقرة: ١٧١] ودعاه إلى الأمر ساقه إليه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ودعاه فلانا بفلان سباه قال تبارك وتعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] ودعاه استغاث به وسأله، ومصدره الدعاء والجمع أدعية، ونجد أن للدعاء في القرآن جوانب كثيرة، تتجلى منها رحمة الله لعباده، وذلك حيث يعدهم أن دعوة المضطرين منهم مستجابة؛ قال تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

ويتجلى منها كذلك كيف أن الناس في دعوتهم له سبحانه فريقان، فريق يستغيث به في السراء والضراء والمثل الكامل لهذا الفريق هو دعوة الأنبياء. قال تبارك وتعالى في حق سيدنا زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

وقال سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٨] وقال في حق سيدنا إبراهيم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

ودعاء النبي ﷺ إنما هو تعليم من الله لنبیه ولأُمته أن يكون دعاؤهم مبنيًا على الإقرار بالوحدة المطلقة لله تبارك وتعالى ، والاعتراف بالألوهية الكاملة له سبحانه ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٠] .

وفريق يلتجئ إليه في الضراء ويأمن مكره في السراء ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ [يونس : ١٢] ، والدعوة : الدعاء إلى أمر يطلب تحقيقه ، والأصل فيه أن يكون اسم الهيئة .

والداعي من يدعو الناس لدينه أو مبدئه ، قال تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿ ١٠٤ ﴾ وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴿ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣١] ، وفعل الأمر هنا هو من قبيل هذا المعنى وهو موجه إلى رسول الله ﷺ مباشرة ، وإلى أُمته بالتبع ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، والمفعول بالنسبة للفعلين محذوف لإفادة التعميم ، وتقديره بالنسبة لهذه الآية : ادع من بعثت إليه من الخلائق قاطبة .

وبالنسبة للآية الأخرى ولتكن منكم أمة يدعون من أمكنهم أن يدعوهم بقدر الإمكان ، فإن كل من أقام حجة ، أو دفع شبهة ، فقد دعا إلى الله ويحتمل أن يكون الفعل منزلا منزلة اللازم في كلا الفعلين ، المنزل منزلة اللازم هو الذي يلغى فيه اعتبار المتعلق ، ويقصد إيجاد الفعل ، كقولهم يعطي ويمنع : أي يفعلوا العطاء والمنع ، فيكون المعنى على هذا المطلوب منك أن تفعل شيئا منوطا بك لا بد أن تحققه ، وهو الدعوة على شكلها المخصوص ، المعتمدة على الحكمة والموعظة الحسنة ، وفي هذا إشارة إلى أن عموم الدعوة أمر غني عن البيان ، لأنه واضح إلى حد أنه لا يحتاج إلى البرهان وإلى البيان ، وهي دعوة ليست كالدعوة السابقة ، لأن هذه عامة ، وتلك خاصة ، وهذه في متناول الأمة ، وتلك خاصة بالنبوة ، وهذه دعوة صالحة لكل عصر ولكل زمان ، ولذلك تكفل الله بحفظها ، وضمن وجودها ، لأنه يبعث على رأس المائة من يجدد هذا الدين ، ويصلح شئون البشر المنحرفين .

ماذا حققت الدعوة؟

ثم إن هذه الدعوة حققت لنا مزية عظمتي ، يعني لأمة نبينا ﷺ وهي أن العذاب الدنيوي ، والاستئصال البشري قد رفع تماما ، فلا قذف ولا خسف ، ولا أخذ بالصيحة ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] فلو لم يرفع ذلك العذاب لما ضمن لهذه الدعوة استمرارها ، ولما كانت صادقة آيات الله التي تكفل الله بحفظها .

معنى كلمة السبيل :

ثم إن دعوة أمته ﷺ المنوطة به ، هي إلى سبيل الله ، السبيل : الطريق السهل والجمع سبل ، ثم إنه قد يطلق في القرآن معرfa باللام ، وغالبا ما تكون اللام

لام الجنس ، فإذا كان كذلك فقد ذكر الراغب أن اسم الجنس إذا أطلق يختص بما هو حق ، قال تعالى : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٤٧] ، ويطلق السبيل في القرآن إطلاقين اثنين كلاهما مجاز بالاستعارة : إطلاق عام ، وإطلاق خاص . فالإطلاق العام هو كل ما يصل إلى شيء خيرا كان أو شرا ، ومن هذا قوله تعالى في حق النحل : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل : ٦٩] ومنه أيضا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] .

إطلاق كلمة السبيل في القرآن :

وإطلاق الخاص أن يراد به الدين الإسلامي ، وعبر في القرآن عن الدين الإسلامي بعدة تعابير ، فقد سماه الله تعالى سبيل الله كما في الآية التي نقرها : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وأطلق عليه أيضا اسم الصراط المستقيم ، كما في قوله سبحانه ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وكذلك اسم ملة أبيكم إبراهيم كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] ، وسماه ﷺ محجة بيضاء كما في قوله ﷺ : «تركتمكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١) .

والآية التي نحن بصددتها يمكن أن تتناول الإطلاق العام ، لأنه ﷺ دائما يدعو إلى كل خير ، ويمكن أن تتناول الإطلاق الخاص بأن يراد بها خصوص دين الإسلام ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

(١) أخرجه أحمد (١٢٦/٤) ، وابن ماجه (٤٣) وغيرهما من حديث العرياض بن سارية . وصححه الحاكم (٩٦/١) ، وابن حبان (١٠٢) . وقال أبو نعيم في «المستخرج على صحيح مسلم» (٣٦/١) : «حديث جيد من صحيح حديث الشاميين» .

إضافة السبيل إلى الله ﷻ :

فقله سبحانه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ فتحققت إضافة السبيل إلى المبلغ المأمور وهو رسول الله ﷺ ، والآية التي نحن بصددھا أضيف فيها السبيل إلى الأمر الذي هو الرب ، وفي هذا من علو المنزلة والمقام لرسول الله ﷺ ما لا يستحقه إلا هو ﷺ ، فهو الذي أنقذ البشرية وخلص الإنسانية ، وبعثها من مقام كانت فيه مساوية للحيوانات وجعلها تسمو مع الملائكة ، وتقرب إلى رب العزة .

فالإضافة إلى الرب تؤكد الملكية لله تبارك وتعالى ، فكأنه سبحانه يقول : ادع إلى سبيل المالك الذي لا يقهر ، والذي بيده ملكوت كل شيء ، والذي هو وحده الذي يعصمك ، ويحقق لك النجاة ويسر لك طريق الخلاص .

معنى كلمة الرب :

والرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، يقال رب ورباه ورببه بمعنى واحد ، وذكر عن بعض العرب قال : لأن يربيني رجل من قريش أحب إلي من أن يربيني رجل من هوازن .

والمعنى المصدري عرفه الراغب فقال : إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد الكمال ، وفي هذا التعريف تأكيد لما حققه الباحثون أخيرا من أن الثقافة غير التعليم ، ومن أنها أعم منه ، والمعنى المصدري هو بمعنى الفاعل أي مربى ، والمصدر كما يراد به الفاعل يراد به المفعول ، كقوله سبحانه ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ١١] أي مخلوقه ، ثم إن الرب إذا أطلق لا يمكن أن يطلق إلا على الله تبارك وتعالى ، قال سبحانه : ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] ، فإذا جمع فليس المراد بالجمع حقيقة الأمر ؛ لأنه قامت البراهين القاطعة على أنه واحد سبحانه لا شريك له ، وإنما يجمع على ما يراعى من

الاعتقادات الفاسدة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [سبأ: ١٥]، ثم إذا أضيف فيمكن أن يراد به الله، ويمكن أن يراد به غيره، فمن الأول قوله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، ومن الثاني قوله سبحانه: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله سبحانه: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقد حمل عليه ما في قوله تبارك وتعالى في قول يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فإنه يحتمل أن يكون المراد به سبحانه وتعالى وهو الأليق، ويحتمل أن يراد به العزيز الذي حقق تربيته.

ثم إن الله تبارك وتعالى حقق في هذه الإضافة معنى عظيما، فكأنه يقول لرسوله: ادع إلى دين الله الذي يأخذ بيدك حتى يحقق تربية الأمة شيئا فشيئا، حتى تبلغ بها بسبب هذا الدين درجة الكمال، والأمر هو كذلك، فإنها الأمة المختارة، والنخبة الممتازة، قال تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إضافة كلمة رب إلى الضمير العائد على النبي ﷺ تشريف له :

ومن السر العظيم أن يتحقق إضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ بكاف الخطاب، وفي هذا من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى، فالرب هو الخالق لكل شيء، هو الذي انتدب رسوله ليحقق هذه الدعوة العامة الشاملة لسائر البشرية، فهي رفعة له ومقام رفيع، فحق له ذلك، فأخلاقه كاملة، وشخصيته تامة، وهو القدوة الصالحة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ثم إن دعوته هي مكملة لكل خير، ومنقذة للإنسان، معرفة إياه حقيقة أمره وسر وجوده.

الإنسان مكون من مادة وروح:

فالإنسان هو المخلوق الذي امتزج في كل من المادة والروح ، وليس لماديته ولا لروحيته حد ينتهيان عنده ، ولا فاصل يصلان إليه ، فلا يمكن أن يوجد عارض يفصله عن طبعه المادي ، ويعزله عن ميله الدنيوي ، ولا يمكن أن تكون أية عرقلة تعوقه عن سموه الروحي ، تصده عن نبلة الأصلي ، فغريزة المادة والروح هما عنصرا وجوده ، وسر قوته وتفوقه ، تتنازعانه على الدوام وتتجاذبان ليطفر بالحلال ، أو ليستقط في هوة الحرام ، فلن ينصاع إلا لدعوة تراعي فيه كلا من الغريزتين ، وتعلي فيه شأن جميع الملويين ، وقد أجمعت كلمة المنصفين ، وأكدت نتائج أبحاث الخبراء المخلصين أن الدعوة الإسلامية راعت في الإنسان كلتا الغريزتين ، وجعلته يسمو إلى كل كمال ، فإن عظمة الإسلام تكمن في أنه لطف من جموح الغريزة ، وحدد من اندفاع الشهوة ، مع جعلها تستفيد على الدوام بشكل شريف ، وتسلك المسلك السالم النظيف .

فالدعوة الإسلامية هي التي طهرت العلاقات الجنسية من جميع الأدناس ، فبنيت الأسر في ظلها على أقوى قاعدة وأمتن أساس ، وهي التي ركزت الحريتين الفردية والجماعية ، وهي التي حافظت بشروط الانتفاع على الملكية الشخصية ، وهي التي أصلحت نظام الاقتصاد ، ودعت إلى العمل سائر العباد ، وهي التي أباحت استعمال الحرية لتعزيز الحق ، وصيانة كرامة الخلق ، وتلك عناصر مادية لم يكن الإنسان بسببها قبل الإسلام إلا في ضلال شامل ، وشقاء كامل .

وتكمن عظمة الإسلام في كونه خرج بالروحانيات من وحدتها .

وأدجمها في الماديات من أجل إعلاء شأنها ، والتخفيف من الغلو فيها ،
فنبذ الرهينة والانعزال ، وقضى على تعطيل الجسم أو جعله في طي الإهمال .

فضائل قوى الإنسان ثلاثة :

فمبادئ الإسلام هي مبادئ وسط بين طرفي الكمال والنقصان ، ومراعاة
الوسط رأس الفضائل ، تندمج في نطاقه جميع الخيرات ، ومن بينها فضائل
قوى الإنسان الثلاثة ، وهي قوته العقلية الملكية ، وهذه صادرة عن جانبه
الروحي ، وفضيلتها هي الحكمة وطرفاها هو الانحطاط في الفكر إلى درجة
البلاهة ، أو السمو فيه إلى درجة الخروج عن نطاق البشرية ، والقوة الثانية هي
قوته الشهوانية البهيمية ، وفضيلتها هي العفة ، وهي وسط بين الخلاعة وبين
الخمول . والقوة الثالثة هي القوة الفضية السبعية ، وفضيلتها هي الشجاعة
وهي سوط بين التهور وبين الجبن ، ويطول المقال ولا يسعنا المجال ، لو
أخذنا نستعرض الفضائل التي تحقق هذه القوى الثلاث .

فعقيدة التوحيد وسط بين الشرك والتعطيل . والتعبد بأداء الواجبات
هو وسط بين البطالة والرهينة على أن القوتين الماديتين تصدر عنهما قوة
شيطانية رابعة ، بل تصدر عن جانبي القبح فيهما ، وهذه القوة إن لم تجد
رادعا فإنها تحقق للإنسان كبرا وأنانية وشرها في فرض السيطرة ، ولذلك
كانت تعاليم الإسلام هي التي نظمت كل العلاقات ، فجميع الشرور التي
يمكن أن تصدر عن الإنسان ، هي ناشئة عن قوته المادية ، وجميع الخيرات
التي يفعلها البشر هي ناشئة عن قوته الروحية ، وقد نظم الإسلام كل
ذلك ، واستطاع رسول الله ﷺ أن يسويها وألا يبقى مشاكلها قائمة ،
استطاع في أقل من ربع قرن أن يخرج العالم من دياجير الجهل إلى نور

العرفان ، ويسمو بالبشرية من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة ، فحين بعثه الله كانت العقول مغلوطة بتقاليد الآباء ، وقوى الفكر معطلة بالجمود على تراث الأسلاف ، وكانت أبواب التفكير موصدة ، وسحائب الجهل قد طبقت أرجاء العالم من أقصاه إلى أقصاه ، فهو ﷺ الذي كسر الأغلال ، وفسح للعقل المجال ، وفتح لطلاب الحقائق الكونية باب التفكير على مصراعيه ، مؤيدا كل دعوى بالبرهان ، وعاضدا كل قول بالحجة والبيان .

دعا البشر إلى نبذ التقليد والرجوع إلى الفطرة ، وأنازلهم بالحكمة التي عمي عنها فلاسفة الشرق والغرب سبيل الإبداع والاختراع ، والخلود في ميادين الحياة كلها ، قال تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

فالإسلام دين الحكمة والفطرة ، دين العلم والبرهان ، ثم إن الله تبارك وتعالى بين الدعامة الأولى التي قام عليها سبيل الله فقال : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] بهذه الحكمة استطاع أسلافنا رحمهم الله أن يكونوا قادة الفكر وعقله المدبر ، وبتمسكهم بالقرآن الكريم تبوءوا أوج العز والسؤدد ، ونشروا بكل عزم وإيمان فضائله العليا ، ومثله السامية بين سكان البسيطة ، فعاشوا في ظله سعداء آمنين .

ماذا يُراد بالحكمة عند الماتريدة والأشاعرة؟

يطول بي المقام لو أخذت أستقصي ما يتعلق بالحكمة ، ولكنني أكتفي بالمأخذ الذي أخذ منه المراد من الحكمة المتكلمون ، والمأخذ مستند على

نظريتين اثنتين ؛ النظرية الأولى هي نظرية الماتريدية فهم يعرفون الحكمة كما يعرفها كذلك أصحاب النظرية الثانية وهم الأشاعرة ، جميعهم يعرفون الحكمة بأنها : الإتيان الكامل ، والضبط الشامل ، إلا أن المراد من الإتيان يختلف باختلاف النظريتين .

فالإتيان في نظر الماتريدية صفة أزلية لله سبحانه وتعالى ، لأن المراد به عندهم خلق كل شيء على ما هو الأولى به ، ووضعه في محله اللائق به ، وعلى هذا سائر التشريعات لا تخلو من حكمة ، بمعنى أن لها عاقبة حميدة ، ولعل مأخذ الفقهاء الذين يعللون الأحكام هو من هذا الاتجاه .

وأما مذهب الأشاعرة فهي أن المراد من الإتيان هو تحقيق ما أراده الفاعل المالك المطلق ، فهي عندهم ترجع إلى صفة الأفعال ، وصفة الأفعال عندهم حادثة ، وعلى هذا الاختلاف ينبنى الخلاف في المراد من قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، عند الماتريدية لأنه حكيم ، بمعنى أنه سبحانه يفعل ما له عاقبة حميدة ، وإن كنا نجهل حد عاقبة بعض الأفعال ، وعند الأشاعرة : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ، لأنه المالك المطلق ، والمالك المطلق يفعل كيف يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، ولكل من المذهبين مستند من القرآن الكريم .

فمستند الماتريدية متصيد من قوله سبحانه في حق سيدنا عيسى : ﴿ إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، فحين ذكر تعذيب أولئك لم يذكر شيئا بجانب التعذيب ﴿ إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ، وحين ذكر المغفرة نبه بطريق مدح الله إلى العلة والحكمة ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وقد بين الإمام الفخر الرازي في الأساس وجه كون سيدنا عيسى لم يطلع على حكمة تعذيب هؤلاء في الدار الآخرة، قال: لأن التعذيب على الذنب إنما هو لردع صاحبه حتى لا يعودوا إليه أو لردع غيره حتى لا يرتكب غيره مثله، والذين هم في الآخرة لا يتأتى عودتهم إلى الدنيا حتى يعود إلى الذنب، ولا يتأتى أن يردعوا بتعذيبهم غيرهم ولذلك فأمر تعذيبهم هو مفوض إلى الله تبارك وتعالى، والحكمة تظهر في أنه يغفر لهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ومأخذ الأشاعرة هو متصيد من قوله سبحانه في حق سيدنا موسى حين قال: إن الإثم أمره يرجع إليك، فالآية التي تدل على هذا أكدت أن الله تبارك وتعالى فاعل مطلق ما يريد، والآية هي قوله سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فما دام الأمر أمرك، فسواء حققت لهم فتنة وإضللا، أو حققت لهم هداية وإرشادا، فالأمر أمرك، وأنت تفعل سبحانه ما تشاء.

نقد نظريتي الماتريدية والأشاعرة:

هذا المأخذ بالنسبة للحكمة سواء من جانب نظرية الماتريدية أو من جانب نظرية الأشاعرة عكسته أنا بالنسبة للإنسان، فلو أننا رعيينا نظرية الماتريدية لوجدنا أن الحكمة لا يتأتى جانب منها في حق الإنسان وهو الخلق، لأنه لا يمكن أن يتأتى بالنسبة للمخلوقين، ويمكن أن يتأتى جانبها الثاني، وهو وضع الشيء في محله اللائق، ومقامه الموافق، فالخلق قادرون على هذا إن هم استعملوا الفكر وضاعفوا المجهود، وطلبوا المعونة من الخالق الموجود.

وإنما تحقيق هذا بالنسبة لمذهب الأشاعرة ، فإن الإنسان قادر أن يفعل كل شيء حسب مراده ، ولكن في شكل سطحي فما دمنا نعلم أن الإنسان له كسبه الظاهري ، وحرية السطحية فحينئذ نعلم أنه قادر بمقتضى هذا التحرر النسبي أن يضع الأمور في موضعها ، ولكن بشرط الكد والاجتهاد كذلك ، وبشرط زوال المانع وربط الأسباب بالمسببات ، وإذن فالدعوة المنشورة يعني دعوة منشورة للإنسان لا تجعل الإنسان أبدا يندفع إلى الغرور ولا يرتكب أي ضرر ، فالإنسان مندفع إلى شهوانية ، ونزاع بالوازع إلى الملذات ، يهم دائما بها ، ويستعمل القوى والجوارح في أثرها ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف : ٥٣] بل تجعل هذه الحكمة الإنسان يتطلع إلى الكمال ، وينشد التوفيق في كل مجال ، يفتح باب التفكير ، ويعطي للعقل ما يستحقه من التقدير ، ويزيل سيطرة النفس الأمارة ، ويحد من اندفاع الشهوة الفتانة ، وإن كل ذلك إلا نتيجة لتفاعل المادة والروح ، وتجاوب الحس والمعنى ، وتلك نتيجة تجعل الإنسان في حياته لا يحقق إلا ما يوصله إلى العلم والإتقان ، وتجعل الإنسان في دينه لا يحقق دينه إلا على أساس الحجة والبرهان ، فما أعظم إذن حكمة الله ! وما أعظم الحكمة التي بثها رسول الله ﷺ بدعوته ، ومجال البحث فيمن تكون عليه المسؤولية إذا ترك الأخذ بالدعوة أو لم تبلغ هل العقل أو الشرع ؟ فالمجال واسع ، والبحث طريف ، والمذاهب فيه مذهب أهل السنة ، ومذهب المعتزلة .

ذلك أنه وقع خلاف هل الدعوة متوقفة والأحكام كلها محتاجة إلى العقل فقط ، فلا حكم إلا بالعقل ، أو كلها متوقفة على الشرع ، فلا حكم إلا بالشرع ؟ فمذهب أهل السنة ، أنه لا حكم قبل الشرع وإذا كان لا حكم قبل الشرع فأهل الفطرة وخاصة منهم العرب أولئك الذين عاشوا قبل بعثة النبي ﷺ وبعد انقطاع رسالة سيدنا إسماعيل ، لأن الفترة هي البرهة

الكائنة بين النبيين كالفترة الواقعة بين سيدنا محمد ﷺ وسيدنا عيسى قبله ، وقد قدرت بنحو ستة قرون قال :

إحدى وسبعون وخمسمائة بين المسيح والرسول الأمة

أي بين المولدين ، وعلى كل حال أهل الفترة إن قلنا لا يتوقف إلا على الشرع ، فهل هم ناجون؟ يأتي أيضا نظريتان على أساس أن الدعوة متوقفة على الشرع .

النظرية الأولى : هي أنهم معذبون ، لأن المراد ببلوغ الدعوة هو بلوغ دعوة أي رسول كان ، ولو لم يكن خاصا بالأمة ، وقد ارتضى هذا المذهب الإمام النووي ، فقد قال في شرح حديث مسلم : إن من مات على ما كان عليه أهل الفترة من عبادة الأوثان فهو في النار قال أو ليس في هذا مؤاخذه قبل الدعوة؟ لأن العرب قد بلغت دعوة سيدنا إبراهيم وغيره من الأنبياء .

والمذهب الثاني : هو مذهب جمهور الأشاعرة من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ، قالوا إنهم غير مؤاخذين ، لأن المراد بمجيء الشرع هو مجيء الرسول المخصوص ، والعرب لم يكن لهم رسول مخصوص بعد انقطاع رسالة سيدنا إسماعيل ، وقبل بعثة محمد ﷺ وأجابوا على ما ورد من الأحاديث التي فيها تعذيب الكثير الكثير بأحد جوابين :

الأول : أن ذلك التعذيب أمر خاص ، وقد اقتضى أمر ذلك علم الله ورسوله .

والجواب الثاني : هو أن هذا خبر آحاد ، وخبر الآحاد إذا تعارض مع القاطع فإنه لا ينهض ، وكون الخبر الواحد هو مفيد للظن هو أحد الأقوال الأربعة .

القول الثاني: أنه يفيد القطع إلا بقريئة ، ويفيد الظن إلا بقريئة حيثئذ يفيد القطع .

والقول الثالث: للإمام أحمد أنه يفيد القطع مطلقا .

والقول الرابع: أن المستفيض يفيد علما نظريا ، وقد جمع الأقوال الأربعة الإمام ابن السبكي فقال : مسألة خبر الواحد لا يفيد القطع إلا لقريئة ، وقال الأكثر لا مطلقا ، وأحمد يفيد مطلقا ، وقال ابن فورك والأستاذ : يفيد المستفيض علما نظريا .

ومستند أهل السنة في أنه لا حكم قبل الشرع آيات كثيرة أظهرها في المراد قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وهذه الآية أكدت أنه لا عذاب إلا بعد مجيء الرسول ، وفي فهمها مذهبان نقلهما الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ .

المذهب الأول: أنها متعلقة بالدنيا فقط ، والمعنى : وما كنا معذبين عذاب الاستئصال أحدا حتى يبعث الله الرسول ، وحيثئذ تقوم عليهم الحجة ، أما في الآخرة فيمكن التعذيب ولو لم تكن بعثة .

والقول الثاني: هو أنها عامة في حق الدنيا والآخرة واستدل لهذا القول بقوله تبارك وتعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٨] .

ثم إن الإمام النسفي اقتصر في تفسيره على القول الأول ، وهذا القول هو الذي ارتضاه الدباغ ، فقد سأل صاحب الإبريز شيخه - هل الآية - هل المراد بالعذاب عذاب الدنيا والآخرة كما تفيده الآية ، أو هو مخصوص

بالدنيا كما تدل عليه الأحاديث المتعلقة بمن لا يفهمون الخطاب ، فقد ورد أنهم يمتحنون في الآخرة بنار ، فإن امتثلوا دخلوا الجنة ، وإلا دخلوا النار ، وهذا الحديث مذكور عند شراح الحديث الشريف وهو قوله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة»^(١) وهو أيضا عند أبي بالأولى .

على كل حال هذا القول ارتضاه الشيخ الدباغ فأجاب بأن هذا الأمر متعلق بالدنيا أما مذهب المعتزلة فإنه لا حكم قبل العقل ، ومأخذ أهل السنة هو الآية الكريمة : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ، ووجه الأخذ هو أن الواجب لا يتحقق مفهومه إلا إذا ترتب العقاب على تركه ، فهو أيضا حكم ، وكلما ترتب العقاب على تركه فهو متوقف على الشرع بمقتضى الآية الكريمة ، وهي قوله سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ، وإذن فالآية تؤكد هذا ، لكن الدلالة إنما هي ظنية ، كما أكد الأصفهاني في شرح المحصول ، والحقيقة هي ما ذكره الإمام الرازي وقد أكد -وقد يطول بنا المقال لو سقنا ما أكده- أن الأمر يرجع إلى العقل ، وشرح الآية بأن المراد من الرسول هو العقل فعني قوله سبحانه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي رسول العقل على أحد التفسيرين ، وهذا التفسير يؤكد ما للعقل من القيمة عند الإسلام وعلماء الإسلام ، وكثير من الآيات حمل الأئمة فيها التفسير مما يؤكد تنويه العقل ، فالغزالي يفسر الميزان بالعقل ، والأستاذ محمد عبده يفسر الفرقان بالعقل ، وهكذا أكد رسول الله ﷺ أيضا قيمة العقل .

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة .

ففي حديث رواه البيهقي عن سيدنا جابر أنه ﷺ قال : «قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له» ، وجاء عند أبي الشيخ بلفظ : «دين المرء عقله ، ومن لا عقل له لا دين له» .

وينبغي أن ندرك أن العقل إن لم يصحبه الأثر الصحيح كتاباً أو سنة من أحاديث المصطفى فإنه يزل ويضل وما ضل علماء الكلام وأصحاب الآراء والأهواء إلا بتركهم نصوص الكتاب والسنة .

الموعظة الحسنة :

بقي أن نتكلم على الموعظة الحسنة ، وهي تأكيد للتطبيق العملي . أثر التطبيق النظري ، ومجالها أيضاً واسع ، إلا أنني إنما أكدت ما أكدته للتنويه بالعقل ولقيام الدعوة على الحكمة والموعظة الحسنة لأبين من وراء ذلك أن الإسلام هو دين الخير والنهوض والتقدم والتفوق ، ومع الأسف الشديد ، فقد أصبحت تطالعنا أسئلة غريبة ، واستفهامات عريضة ، تبعث على الخوف والرهب ، وتثير الدهشة والعجب ، تستفسر عن جدوى العقيدة ، وتدعي عدم فعالية الديانة ، لسنا ممن يلتمس لوضعها عذرا ، أو يتخذ لمن يقولها مبررا ، ولسنا كذلك نسلم ولو جدلا وجود دواعي الحيرة ، وقيام داعي الفتنة ، الأمر هو أمر التقصير في إتقان الدعوة الإسلامية ، الأمر هو أمر بعث نتوقف عليه ، من أجل تحقيق الدعوة الإسلامية .

المحاضرة الخامسة والخمسون

مع معجزة المعجزات

معنى المعجزة:

المعجزة تأتي على معان عدة ، تدور دلالتها العامة على أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة .

والإعجاز بهذه الصيغة الرباعية ، من فعل أعجز ، إنما يعني ببساطة نسبة العجز إلى المشركين مثلاً ، الذين كفروا أو جحدوا ، وأصروا على معارضة رسول الله ﷺ ، وإنكار نبوته ، واتهامه بأنه هو شخصياً مصدر قرآنه الذي يكابرون بزعمهم أنه قول البشر ، فإذا تحداهم الله تعالى بالقرآن أن ينشئوا هم الآخرون قرآنهم ، ما داموا عرباً ، ما داموا فصحاء ، ما دامت سوق البلاغة رائجة ، وبشكل خاص في عصرهم ، فلم يقبلوا التحدي ، أو حاولوا فعجزوا فأصبحوا أضحوكة ، هناك تثبت المعجزة ، ويتضح إعجاز القرآن إياهم يقيناً .

والإنسان المعاصر بات نفوراً من كل حديث عن الإعجاز ، لأنه اغتر بالعلم وبمنجزاته ، ولكن حديث الإعجاز عندنا ، معشر المسلمين ، مربوط بكتاب حق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء : ١٠٥] ، لا مجال فيه لأي تقول أو لأي ضعف أو باطل ، فلهذا نتشبت به كإعجاز وكمعجزة ، ونتحدى بهذه المعجزة سائر الناس ، من يوم تحدث وتحدى بالقرآن جميع العرب الفصحاء في جانبه البياني ، وثبتت المعجزة ، ولم يزل الإنسان المكابر إلى الآن في وضع حرج ، لأنه لا ، ولن يستطيع أن يأتي بشيء يشاكل القرآن الكريم ، وتلك نعمة جلى ، يجب أن تستدعي منا المواقف ،

وسنرى أن هذا العجز هزيمة لمعسكر الكفر والجحود ، وبرهان مبين على أن سيدنا محمداً نبي مرسل من عند الله ، وتلك نتيجة يهون في سبيلها كل غال وثمين .

إذ معجزاتهم كقوله وبَرَّ صدق هذا العبد في كل خبر

آيات التحدي:

ولنستعرض قبل كل شيء آيات التحدي التي أوأنا إليها ، وهي في خمس سور من الكتاب العزيز .

في سورة يونس مثلاً : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ ﴾ [يونس : ٣٨] ، وذلك كان زعمهم ، مكابرة أو تضليلاً أو عجزاً ، ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] ، فالفيصل بين دعوكم وبين الحق ، هذا الصدق ، إن كنتم صادقين فاستعينوا بمن تشاءون لتتجوا أنتم أيضاً قرأنا .

وفي سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] .

وفي سورة البقرة وهناك الضربة القاضية : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] . دائماً إن كنتم صادقين ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ واستمعوا إلى الجملة الاعتراضية الدامغة : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤] . وأعظم نار تأكل البشر المعذبين ، حتى تأكل الحجارة على ضخامتها ، وهي صورة فيها ما فيها .

وفي سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]
 وفي سورة الإسراء: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ
 هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]
 ولو تظاهروا وتضامنوا وكونوا لجأنا وكتلاً وتجمعات، كي ينتجوا فلن
 يستطيعوا، وهذا في رأي جميع العلماء خير برهان لمن يتأمل على أن الله خص
 الأمة بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويتحدثون أن بعض
 المحاولات اليائسة جدا جرت لكي يقبلوا التحدي.

من ذلك أن عبد الله بن المقفع، وكان ممن أوتوا مقدرة على الإنتاج في
 اللغة العربية وآدابها، ناهيك كتاباه: الأدب الصغير، والأدب الكبير،
 يعني أخذه الغرور، فتصدى وترشح لكي ينتج ويرد التحدي، شرط أن
 يؤتى يعني أن يعطى الوقت الكافي، والأدوات اللازمة، دواة وقلما،
 ومكاناً مناسباً، فوفر له ما طلب، وبقي في مكانه حسب رغبته وشروطه
 مدة طويلة، ثم فتح الباب ودخلت عليه من أقطارها، فإذا بالرجل واضع
 كف حيرة على ذقن، وبين يديه ركام من الأوراق الممزقة، والكواغد
 الضائعة، دليل أنه جرب كثيرا، فلم يستقم له، وأنه لم يعد يجد سبيلا،
 وأن الحق هو ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، وهكذا مسيلمة
 وتلفيقاته التي أصبحت أضحوة.

إعجاز القرآن شامل كل العصور:

ويرى الإمام الباقلاني أن إعجاز القرآن الذي نتحدث عنه شامل كل
 العصور، وأنه متعدد الجوانب.

ويقول العلامة ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «إن معجزة القرآن مستمرة إلى يوم
 القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وفي بلاغته، وإخباره بالمغيبات، فلا يمر

عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون ، يدل على صحة دعواه ، فعم نفعه من حضر ومن غاب ، ونحن منهم ، ومن وجد ومن سيوجد» .

لا جرم أن لكل أنبياء الله ورسله معجزات أيد الله بها دعوتهم ، وأن لسيد الأنبياء معجزات باهرات ، أفاضت كتب المغازي والسير في الحديث عنها ، ولكن معجزة تلك المعجزات كلها ، إنما هي كما قلت : الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والقرآن العظيم ، فهو أبقاها أثرا ، وأصدقها قيلا ، وأبلغها حجة ، وأنداها صوتا ، وأقومها منهجا ، ولو طالبت منتسبا إلى ملة مضت خوارقها ، ومعجزاتها فيما مضى مادية ، أن يثبت لك معجزة من تلك المعجزات ، للقيت اضطرابا ، لأن عصا موسى غابت ، ولن نراها ، ولأن إحياء المسيح عيسى بن مريم للأموات بقدرة الله وإذنه أيضا حدث لم نشهده ، ولو أنه حق ثابت ، ولكن هاهو الكتاب المبين ترى ، عدا حقائقه ، وعدا مستواه العالي ، حتى مظاهر حركة العالم في نطقه ، شيء يشبه المعجزات .

لقد صحبت أناسا من العارفين ، العلماء الكاملين ، يقرءون الكتاب ويبكون ، فقلت : هم من أهل المعرفة والعلم واليقين ، ولكنني وجدت طفلا في «كوبنهاجن» يرتله متقنا مجودا ثم يبكي ، ولقيت طفلا في نيجيريا (سكتو) تبعد عن دكار بما يقارب ثلاثمائة كيلومترا فإذا به يقرأ ويجود ويبكي ، وهو لم يفهم لا هو ولا الطفل الهندي أية كلمة من معاني هذا الكتاب الحكيم ، ولكنهم يتأثرون ويبكون ، بل لاحظت أن هذا الطفل الذي في (سكوتو) بين استعراض واستعراض اثني عشر شهرا قد استكمل حفظ خمسة وأربعين حزبا من القرآن الكريم .

ألا ترون أن هذا التسخير الذي سخره الله للناس كي يعنوا بالكتاب ، أغنياء وفقراء ، وبدوا ، ومتحضرين ، دليل على أنه فعلا ، وفيما تعهد به في فجر دعوته ، يوم أعلن وما كان في الوجود ولا في شيء من أنحائه من يستطيع غير الله ، أن يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، لأن القوى لم تكن متكافئة ، ولأن الشر كشر عن أنيابه ، ولأن الفئة المؤمنة كانت قليلة عددا ، ضعيفة عدة ، ولكن سلاحها كان في إيمانها ويقينها ، فكان ما علمتم وعلمنا من انتصار وانتشار القرآن ، وما نتج عنه من علوم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد روى الإمام البخاري بسنده ، والإمام مسلم في كتاب الإيمان ، أن رسول الله ﷺ قال ما يؤيد منحانا هذا بوضوح . قال عليه الصلاة والسلام : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من المعجزات ما على مثله آمن البشر ، وإنما الذي أوتيته وحى أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » ، ليتبين أن حديث المعجزات ، ونسبة الرسالة ، ثمرة كل ذلك أن يكثر عدد المسلمين ، وأن يستفيدوا وأن ينجوا بفضل الله ورحمته .

إن الخوارق المادية والمعجزات الكونية لها تأثيرها وجدواها ولا شك ، غير أن العناد واللجاج يذهب بالكافرين كل مذهب ، وقلم يخضعون لها ، وينسجمون مع المنطق . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ (أو قبلا في قراءة) ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ [الأنعام : ١١١] ، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] ، ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وتأتي آية الانطلاق هذا الدرس ، وهي قوله تعالى في الآية (٣١) من سورة الرعد : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] ، ويحضرني أن أتذكر قصتي مع هذه الآية وأنا في مدارج تعلم النحو العربي وبعض أحكامه ، لأن الأستاذ رَحِمَهُ اللهُ ، كان يدرّبني بطريقة بيداغوجية خاصة ، لأفهم لا لأقرأ بلا فهم ، يقول : إن المبتدأ يا ولدي في اللسان العربي ، هو كل عبارة يصح أن تقول بعدها ، نعم ، تقول مثلاً : زيد تقول : نعم ، الذي جاءك أمس ، نعم ، لقد عاد اليوم ، فالجملة الفعلية هذه في محل رفع يكون خبراً ، قلت إذن : رأيت آية حيرتني : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ ولم أر جواباً ، فإذا بالجواب الشرطي محذوف ، تقديره عند المفسرين لكان هذا القرآن ، وذهب آخرون ، إلى أن التقدير : لما آمنوا ، أي ولو أن قرآنا سيرت به الجبال عن مقرها ، أو قطعت به الأرض حتى تتصدع ، وتترايل قطعاً ، أو كلم به الموتى ، فتسمع وتجب ، لكان هذا القرآن .

ويقول العلامة ابن كثير في تفسيرها (أي هذه الآيات) أي : لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله .

ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون جاحدون له ، والأمر يستغرب له حقاً ، العجب كل العجب ، كما قال صاحب روح البيان ، أن يخبث الإنسان والطيب حاضر ، أو أن يغفل عن أمرٍ ناهٍ زاجرٍ .

الحذف من أساليب العرب:

قلنا: إن الحذف من أساليب العرب، وهو في الواقع باب دقيق المسلك، حذف الشرط لأن الحذف من أساليب العرب، وهو في الواقع باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، كما يقول العلامة الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ، فإنك ترى به - أي بالحذف - ترك الذكر أفصح من الذكر أحيانا، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وقد يتمثل بما يُقَدَّرُ عند البسملة، فالإنسان إذا قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، عملا بالحكم المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لا يُبْدَأُ فيه بسم الله، فهو أبتَر»^(١)، يعني الإنسان منا يبدأ كل ما يعمل به بسم الله الرحمن الرحيم، لكن المقدر حسب ما يمارس، بسم الله أقرأ، بسم الله ألقى درسا متواضعا، بسم الله أكل، بسم الله أشرب، بسم الله أسير، إذن هذا الحذف أتاح فرصة لسعة الميدان، لكل هذه التقديرات التي تتعدد، ولا يمكن أن تحشر في العبارة.

الحذف من أساليب العرب، ولا غرو، فإن القرآن الكريم هو كتاب العربية الأمثل، ومنه فاضت علوم الآلات وقواعدها، وله - أي القرآن - بذلك فضل على الضاد لا ينكر، وآثار إيجابية في الحد من اختلاف لهجات العرب، خصوصا بين العدنانية في الحجاز، والقحطانية في اليمن، فإن

(١) أخرجه أحمد (٣٥٩/٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤) وغيرهم عن أبي هريرة. إلا أن عند ابن ماجه: «لا يبدأ فيه بالحمد أقطع». وأخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٣٣١)، وفي «المجتبى» (٤٩٧) عن الزهري مرسلا، ورمز له السيوطي بالحسن تبعا لابن الصلاح كما في «فيض القدير» للمناوي (١٣/٥)، وفي موضع آخر (٢٨/٥) رمز لصحته.

اختلاف المفردات والتراكيب بينهم كان قد بلغ مبلغا عظيما ، جعل أبا عمرو ابن العلاء يصرح بما يلي : ما لسان حمير ، وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا .

وبما أننا عشنا مع إخواننا من اليمن ، واستمعنا إلى خطبهم البليغة ، علمنا أن لغتهم بفضل القرآن توحدت ، حتى إن الناطق بها من غرب إفريقيا يستأنس ويستأنس به من طرف القادمين من بلاد حمير قديما .

فضل القرآن على لغة العرب :

وها هو الدكتور علام الدين الجندي يحصي أسماء اللهجات التي وردت في تفسير «البحر المحيط» لأبي حيان بأجزائه الثمانية ، ليجد أنه ذكر أربعاً وستين قبيلة ، بيد أن اللهجات المتعددة ما لبثت أن اتجهت إلى الانضواء في كنف القرآن الكريم ، وهبت كل قبيلة بصدق لاصطناع لغة القرآن الكريم ، ومحاولة تمثلها في خطابها .

ولقد صدق العلامة مصطفى صادق الرافعي الذي أشار إلى فضل القرآن على لغة العرب . فهؤلاء أي العرب كانوا وقت نزول القرآن قد بلغوا مبلغاً من الفصاحة لم يبلغوا مثله يوماً في تاريخهم ، كانت أسواق عكاظ وما يشابهها ، ملتقى أدبيا وثقافيا لفرسان الكلام ، وللمصاقع اللُّسن الفصحاء الذين كانت القصيدة عندهم تحدث طربا يكاد يشبه الجنون ، لأنهم يذوقون ويتعمقون في ذوقه ، ومع ذلك مُتَّعوا بقدرة على الاستيعاب والحفظ ، جعل ابن عباس رضي الله عنه يستمع إلى قصيدة ماجنة للشاعر المعروف عمر بن أبي ربيعة .

أمن آل نَعْم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

فإذا بالقصيدة الطويلة يسمعها ويحفظها ، ويقول لعمر : لو شئت لأعديتها عليك ، ولما استكثروا هذا ، قال : أومنكم من يسمع شيئاً ولا يحفظه؟! مما يذكر بأن هذه الطاقة التي خزنها الله في الذين استقبلوا القرآن الكريم في وقت ليس فيه من وسائل التوثيق والكتابة شيء يذكر ، كان أيضاً طرفاً أو مظهراً من مظاهر هذا الإعجاز ، لأن الله : «إذا أراد أمراً هياً له أسبابه» كما يقولون في كل بلد .

ولقد صدق إذن العلامة الرافعي الذي أشار إلى فضل القرآن على لغة العرب ، فهو لاء كانوا وقت نزول القرآن قد بلغوا مبلغاً من الفصاحة لم يبلغوه يوماً في تاريخهم ، وأنهم قد تفتنوا يومئذ في أساليب اللغة وتراكيبها ، واجتمعوا على نمط من القرشية يرونه مثلاً لكمال الفطرة ، فقامت فيهم بذلك دولة ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن الكريم ، هو تعبير في غاية الجمال ، ذلك أثر إيجابي مبارك .

وكم لهذا الكتاب من أوجه إعجاز يضيق عنها المقال إنه إعجاز في ميدان البيان ، وأفانين الكلام ، وقد ثبت عجز فرسان الكلمة عن مقابلة التحدي عجزاً تاماً . فمن الذي كان يمنع أبا جهل ، وهو الحريص على أن يعاكس مسيرة الإسلام والحق ، أن ينشئ ولو سورة على حجم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر : ١] ، ليفضح به ، إن كان هناك ما يفضح ، ولكن ظلوا صامتين ناكسي رءوسهم مخذولين ، لأن الشمس لا يمكن أن نقبض على نورها بالكف ، وإعجاز في مجال التشريع ، دعه لمناسبة أخرى تتسع له على سعته ، وإعجاز بالإخبار عن المغيبات حاضراً أيامهم ، أو ماضياً ، أو في الاستقبال ، وما من خبر من تلك الأخبار وإن أوغل في القدم ، وأغوار الماضي ، أو خفي عن إدراك

الحاضرين المخاطبين ، أو انطوى عليه غيب الاستقبال إلا وصدقه الصادق ضربة لازب ، ستسفر عنه أيام مثل فلق الصبح .

وفي هذا الباب يسجل الباحثون ما يسمى اليوم بالإعجاز العلمي ، ولعل إشارتنا إليه بعد قليل تكون مسك الختام عندما أختتم هذا الإخبار بالنسبة لبني آدم في كل الأرض يثير ويدعو إلى الاهتمام ، حدث حدث في غيبة من يخبر عنه ، فإذا به يخبر عنه وتأتي البيئات بصدق ما أخبر به ، ما من إنسان إلا ويثيره هذا ، خصوصا وأن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام عُرِفَ بين العرب بأنه كان أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، وليس خريج مدرسة ولا معهد ولا جامعة ، وما تعاطي شيئا من هذه الأساليب المثقفة ، حتى صرح به القرآن الكريم ليوثق هذه الحقيقة ، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ، لست مثقفا ولا كاتباً ، أي لو كنت متعلما مثقفا خريجا ، لأزتاب المبتلون ، لأنك تأتي بأعجوبة أو تخبر عن غيب ، أو تدلي بحقيقة علمية ، فيقولون : إن هذه حصيلة دراسته وتكوينه المتفوق ، ولكنك أنت أمي ، لا تقرأ ولا تكتب ، في أمة أمية ، لم يكتب من أهلها يومئذ إلا قلائل . هذا أيضا دليل أن الأمر في عناية رب العالمين .

ومن هذه الأخبار التي أثارت العرب وأيدت المسلمين ، قصة المعركة التي دارت بين الفُرس ، عبّاد النار والأوثان ، وبين البيزنطيين ، وكانوا ينتسبون إلى الدين ، ويعتقدون بوجود الله ، بينما الوثنيون عباد النار وبحيرة ساوة إذا انتصروا ، هذه فتنة تجعل الشيطان يتناول على عباد الله ، لأن الباطل غلب الحق في الظاهر ، فإذا بالقرآن يأتي ﴿الْم ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم : ١-٣] وتلك قصة أخرى من الإعجاز ، بأدنى

الأرض ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٤﴾ [الروم: ٣-٥] طبعاً، هذه بشارة لمن تكدر من المسلمين أن أصحابكم سوف يكرون على أعدائهم وينتصرون، ولكن متى ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ .

والخليفة سيدنا أبو بكر الصديق قبل خلافته طبعاً، قد صدق بإخبار الحق، وهو الصديق، وراهن أحد المشركين بأن هذا سيتحقق، ورصد كل منهما مبلغاً من المال، أو عددًا من الجمال من الأعراس، فإذا به يخبر الرسول ﷺ بأنني راهنت فلانا بأن الروم سوف يعيدون الكرة وينتصرون على أعدائهم في خلال كذا سنة، فقال له عليه الصلاة والسلام: انطلاقاً من خبرته بلغة قريش قال له: زد الجعالة، زد عدد الجائزة، وزد السنوات، لأن كلمة بضع من ثلاثة إلى عشرة، على كل حال، وفقاً لهذا المنطوق لن تتم عشر سنين إلا وقد كرت الروم على أولئك الوثنيين وقد كان، والقصة طويلة وفيها عجائب .

وكم من خبر أدلى به القرآن الكريم أيامئذ وتبين في هذا العصر، وكم من خبر أخبر به يومئذ والمسلمون لا يرونه ثم تحقق، مما يدل على أن الذي يخبر هو الذي وصف نفسه في آية سأتلوها قريباً إن شاء الله، لأنه الشهيد .

كان المرحوم الرئيس أحمد سكتوري يقول إن معطيات القرآن الكريم، وله تنظيرات، لا تشكو ولا تخاف من انتقاد وذلك لأن الله الذي أدلى بالمعلومات، محيط وشهيد، قال: ولا يتعرض -حاشاه تعالى- لمشكلة أمس وغدا، لأن أمس وغدا في حقنا نحن ليس له وجود واقعي إلا لأن الشمس ظهرت وغابت .

ولما كان الله تعالى فوق الزمان والمكان، كان بوسعه أن يحكم على الأشياء، لأن الحاضر والماضي والغائب في حقه تعالى سواء، ولهذا لا نخشى أن يأتي زمان تنتقض فيه حقائق القرآن الكريم، بقي أن نعزم عزمة الإيمان، لندرّب المسلمين على فهم الكتاب على وجه حق . رَحِمَهُ اللهُ .

ولنعُدْ إلى آية الدرس لنلاحظ أن مفهومها يكاد يكون صريحاً لتنبيه المخاطبين وغيرهم على امتداد التاريخ، إلا أن رسالة القرآن الكريم أهم من إحداث الخوارق الكونية، وأنه لو وجهت الآية الكريمة، وهي من كلمات الله، لفعلت في الوجود ما هو أغرب مما يطالب به المشركون رسول الله ﷺ، إنه كتاب الهداية للبشرية كافة، وللجن أيضاً، يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، ديناً ودنيا، ولكن ذلك لا ينافي ما فيه من تأثير روحي عميق، وشفاء لما في الصدور والأبدان، وما منا من أحد إلا وقد عاش هذه الحقائق، ويستحيي بعضنا أن يخوض فيها حتى لا يتهمة المتمدنون بالخرافات .

والحق أنه كم من فقيه طاهر القلب واليد واللسان يتناول آية من كتاب الله، يستعين بها ليفعل الله تعالى في خلقه ما يشاء فيكون، وتلك حقائق ملموسة، وليس الخبر كالمعاينة .

ولقد علق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله : ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقتَه وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال، وأكثر من تقطيع الأرض، وإحياء الموتى، لقد صنع في هذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثاراً في أقدار الحياة، بل أبعد آثاراً في الشكل الأرضي ذاته، فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ، إن طبيعة القرآن ذاته، طبيعته في دعوته وفي تعبيره، طبيعته في موضوعه وفي أدائه، طبيعته في حقيقته وفي تأثيره .

إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة ، قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد بالتربية لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به . والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ، وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار ، وجمود التقاليد ، وأحيوا ما هو أجمل من الموتى ، وهو الشعوب التي قتلها الطغيان والأوهام .

والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم ، فنقلهم تلك النقلة الضخمة ، دون أسباب ظاهرة ، إلا فعل هذا الكتاب ، ومنهجه في النفوس ، والحياة أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها ، وتحول الموتى عن الموات .

تحول العالم بعد نزول القرآن :

ليحاول كل مستمع وكل مشاهد أن يتذكر أين كانت العرب والعالم من حولهم يوم نزل قوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ ﴾ [العلق : ١] ، وأين صاروا بعد أن سار فيهم نور الإسلام مسير النور في الظلم ؟

لقد تمت النقلة من جاهلية إلى إيمان ، ومن عداوة إلى محبة ، ومن تجاهل وابتعاد بعض عن بعض ، إلى أخوة وصفاء ، ومن أمية إلى أستاذية كونية ، ومن خرافات بلغت بهم إلى حد أن الشخص يخضع لكعك يصنعه ويعتقد فيه القدسية ، ويعكف يعبده حتى إذا عضه الجوع والتفت لا يرى شيئاً ، انكب على الكعك الإله المزعوم ، فيقطمه ويأكله ويزدريه ، أو ينصب نحنًا يسميه إلهًا . وحتى النحت ليس له جمال آلهة الإغريق واليونان على الأقل ، وإنما إله منحوت ذميم الشكل والمظهر ، حتى إذا مر ثعلب واحتاج إلى

أن يبول ، بال عليه ، حتى يقول العربي الساخر :
أرَبُّ يبول الثعلبان برأسه؟! لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

كل هذا يتحول منه إلى أستاذية وإلى ربانية ، وإلى بركة على الأرض ،
وإلى أناس قرءوا القرآن وفقهوه وعملوا به وتفاعلوا معه ، حتى أصبح
كثير منهم قرأنا يمشي على الأرض ، يقولون فيصدقهم الله ، وهيهات أن
يجود الزمان بمثلهم .

الإعجاز العلمي في القرآن :

ومن أهم أبواب الدراسات القرآنية اليوم ، باب ما يسمى بالإعجاز
العلمي ، أي الإعجاز القرآني في ميدان العلوم ، لا إعجاز العلوم ، ونحن لا
نعرف للعلم التجريبي صفة الإعجاز والمعجزة ، ولكن المعجزة معجزة قرآنية ،
معجزة نبوية في ميدان العلوم التجريبية ، والنقطة في غاية الأهمية لا يتسع لها
المجال ، ولكن ما لم يُدرَك كله لا يترك كله ، وإنما يحاول قدر الوقت المتاح ،
والإعجاز القرآني في ميدان العلوم التجريبية ، يعني عند المتخصصين في المادة ،
إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي ، وثبت عدم
إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ .

إذا ثبت أن الرسول ﷺ أخبر بشيء وأحاط به ، وأدلى به ، وعلمه الناس ،
وعند التجربة تبين أن هذه المعلومة لا يمكن أن يصل إليها إنسان في ذلك
الوقت بالوسائل البشرية ، وجاء العلم ليؤكد ، فذلك إعجاز علمي أكيد .

وفي السور والآيات فيض غدق من هذه الحقائق ، لا بد أن يستقي منها
على مدى الأيام ، لدعم الإيمان وسقاية رياضته وذلك مما يظهر صدق
الرسول محمد ﷺ فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى .

وأهمية الاهتمام بهذا الإعجاز العلمي ، لا التفسير العلمي ، في القرآن والسنة ، تكمن بوجه خاص في أن تسليط الأضواء عليه بما فيه الكفاية ، بكل الضمانات التي أحيطت به حتى الآن والإقناع ، قمين بأن يكون فتحاً ثقافياً ودينيّاً وروحياً في حق جميع المهتمين بالدين والثقافة والفكر ، ممن لا يحسنون تعاطي لغة القرآن الكريم على مستوى يمكنهم من إدراك أوجه الإعجاز البياني ، لأن الإعجاز البياني وحده يكفي لإقناع المتردد ، والشاك ، ومن يريد الهداية .

ولكن من لك بإنسان يفقه العربية وأسرار بلاغتها ، ويعرف التراكيب ، إلى حد أن يسمع كما سمع عربي من الكفار ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر : ٩٤] فيسجد ، فيُظَنُّ أنه صباً أي آمن كما كانوا يقولون ، فإذا به يقول : لم أصبأ ولم أومن ، وإنما سجدت لفصاحته أو لبلاغته . ومن لم يذق العربية قد يسمع ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ولكنه لن يذوق مثل هذا الذوق ، ولن يطرب مثل هذا الطرب .

إذن بما أن تكوين الناس تكويناً لغوياً أدبياً بلاغياً ، يمكن من أن يذوقوا جمال القرآن ، ويدركوا أن هذا الكلام ليس بقول بشر أبداً ، بما أن هذا صعب حتى الآن ، ولو تحقق لكثير من عباد الله ، يعني أماننا فرصة ، لأن القرآن تعاطى موضوعات علمية بالتأكيد ، ذكر الجبال ، ذكر الأنهار ، ذكر البحار ، ذكر أشياء كثيرة ، كلها لها علاقة بالعلم .

صَلَةُ الدِّينِ بِالْعِلْمِ :

ويأتي السؤال من بعض من يتشبعون بما لم يُعطوا ، يتساءلون : هل للدين والإسلام بالذات صلة بالعلم ؟ لأننا نحن نعتقد -يقولون- أن

الدين غيبات ، والعلم ملموس وتجريبي ، قلت : هذا يتوقف على الدين الذي تشير إليه .

يقولون : إن الدين غيب ، والوحي غيب ، والعلم تجريبي ، فما صلة دين الإسلام بالعلم؟ هذا بحث ، وقتل بحثا ، فالإسلام دين لا كسائر الأديان ، فإذا كان في التاريخ ديانا صارعت العلم والعلماء ، واضطهدتهم ، فإن الإسلام دين يكفي أن نتذكر أن أول آية تنزلت في بدايته ، قوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] - وتصوروا سعة «ما» هذه - ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : ١١٣] .

هذا الدين الذي يبدأ مخاطبة أُمِّي يقول : ما أنا بقارئ ، يخاطبه بعد كلمة يتحدث عن علم الأجنة .

قال البروفسور - الأستاذ - كتمور من كندا ، وناهيك به ، ومارسل جنصون من أمريكا ، وآخرين ، إنني بدأت أنا وفريقي نبحت في القرآن وفي الحديث ، لتصيد مصطلحات لعلم الأجنة نرجو أن تكون أدق وأصدق من مصطلحاتنا ، وهو الذي ألف كتبا كثيرة لكليات الطب في العالم ، وترجم بعضها ، مثل كتابه «أطوار خلق الإنسان» ، ترجم إلى ست أو سبع لغات ، هذا الرجل يقول : إنه يبحث في القرآن مع فريقه لیتصيد مصطلحات علم الأجنة عسى أن تكون أدق وأصدق قال : إننا نحن نصف أطوار خلق الإنسان بالأرقام : الطور الأول ، الطور الثاني ، الطور الثالث ، وهلم جرا ، قال : بينما فوجئت أن كتابكم يذكر النطفة ، ويذكر العلقة ، ويذكر المضغة ويذكر العظام وكسوة العظام ، وخلقاً آخر ، قال :

فأعود لأكبر المناظر آلاف المرات لأرى أن ما يسمى بالعلقة أشبه بالعلقة في عالم الطبيعة ، وأن في آن واحد النطفة في هذه اللحظة متعلقة بالرحم بشكل خاص ، وأيضا أن المضغة مرحلة ، ولكن مرحلة موصوفة في القرآن الكريم ، بحيث أنك إذا صورت ما عندنا في كتب الطب ، رأيت كأنك أخذت عجينا وقضمتها ، فإن رسم ما يكون عدا العمود الفقري كأسنان إنسان مضغ شيئا ، سبحان العليم الخبير ، وهكذا بدأ يبحث عن مصطلحات تجمع بين الدقة والصحة ، ووصف المرحلة ، وهذا أدل دليل على أن الذي أوحى هذا الكتاب كما قال : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٦٦] .

ومن هذا الباب أذكر أن بعض هؤلاء الأساتذة مثلاً مثل مارسل جنصون ، عندما دخل لجنة للبحث في الإعجاز القرآني في باب العلوم ، سأل عن مهمة هذه اللجنة ، وهذا في الرياض ، قيل له : إن اللجنة تبحث في معطيات علمية في الطب مثلاً وما ورد في القرآن ، فنهض مستغرباً ، ونفى ثلاث مرات أن يكون للقرآن صلة بما تعلم هو ، فقيل له : هدوءاً ، واستمع ، واستمع إلى الآيات عن خلق الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، فإذا به يسأل ، ولكن من أين هذا الكلام ، قيل له : هذا الكلام من عند الله ، ولكن أين الله؟ فنحن لا نتساءل عن الله فنقول : أين ، فهو منزّه عن الأينية ، طيب ، قل لي أين هذا المصدر؟ هو القرآن ، ولكن هذه عربية ، فأعطي نسخة من ترجمة محمد علي البليغة بالإنجليزية ، فقرأ وقال : ولكن من يقول هذا الكلام؟ منذ متى؟ قيل له : منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، قال : إنه لم يكن في العالم يومئذ من يعرف هذه الحقائق العلمية ، لأن العالم الحديث لم يعرفه إلا قريباً .

كانوا يظنون أن الإنسان يخلق فقط بما يخرج من الزوج ، ولهم صور خاطئة في مجامعهم ، والآن تبين أن الأمر ليس كذلك ، وأن النطفة تكون أمشاجا من الطرفين ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام فيما قرأ هو قال : يقول : «ما من كَلِّ الماء يُخْلَقُ الإنسان»^(١) ، من هنا أو من هنا إذن أسلم مارسل جنصون قبل انتهاء هذه الندوة .

والتيلندي أستاذ مبرز يعني ناهيك به ، في اليوم الثالث وقف على المنبر ، وقد استمع إلى الآيات في الإعجاز العلمي ، فإذا به يقول نزاھتي العلمية تجبرني على أن أقبل ما قبلتم ، وأن الذي أتى بهذا الكلام لم يتعلم من عند نفسه ولا من أحد من البشر ، لأن الزمن خال ممن يعرف هذا ، إذن لا بد أنه تعلم من كائن يحيط بكل شيء ، قلنا : نسميه الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

هذه هي ثمرة الإعجاز العلمي إذا سيق البحث بكل الضوابط دون التجديف ، دون التعجل ، بالتعاون مع علماء الإسلام ، وعلماء التفسير ، والخبراء بالسياق العربي ، وبالمتقين ، وبمن لا يطلبون مجداً بالإغراء ، حينئذ ومع الزمان الممتد ، سنصل إن شاء الله تعالى إلى شيء يقوي الله به الإسلام ، ولقد جاءت الآيات لتؤيد هذا التوجه بما يشرح الصدور ، ويدعم اليقين ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] قل الله شهيد ، لكن الله يشهد بما أنزله بعلمه ، والعلم علمه ﴿ وَرَبِّىَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦] . ولا غرو إذا شهد مارسل جنصون ، والبروفيسور التيلندي بأن الحق هو ما

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٨) من حديث أبي سعيد . وفيه : «ما من كل الماء يكون الولد» .

سيقا إليه ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] كان وعدا فتحقق ، لأن العالم الآن يشهد في هذا الباب ثورة علمية نرجو أن يهدي الله بها من يشاء .
وأخيراً ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] .

وعلى الباحث أن يتقيد ببعض القواعد ، علم الله ، وهو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه الخطأ ولا يشوبه نقص ، وعلم الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرض للخطأ ، قلنا : هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة ، وفي العلم كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية ، وفي الوحي نصوص ظنية في دلالتها ، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها ، ولا يمكن أن يقع اصطدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم ، إلى آخر تلكم القواعد التي سنجد فرصة أخرى إن شاء الله للإدلاء بها .

وفي الختام ، أسأل الله العلي القدير ، وهو البر الرءوف الرحيم ، أن يشملنا بتوفيقه لفهم كتابه العزيز والعمل به حتى نستعيد ما مضى من مجد الآباء والأجداد إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



نور من القرآن والسنة

١٠٦

المحاضرة السادسة والخمسون

من وصايا الآباء للأبناء

انطلاقاً من قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٣، ١٤]، إلى قوله عز من قائل: ﴿وَاعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

وموضوع درسنا اليوم عن تلك الوصايا الحكيمة التي أوصى بها لقمان ابنه، ولا شك أن العلاقة التي بين الآباء والأبناء هي أقوى العلاقات وأثبتها وأصفها.

كما أن وصايا الآباء للأبناء هي أنفع الوصايا وأحكمها وأنقاها؛ لأنها صادرة من الأصل إلى فرعه، ومن الكل إلى بعضه، ولقد قص علينا القرآن الكريم وصايا متعددة، ساقها على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم يوصون أبناءهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم، ومن تلك قوله ﷻ حكاية عن سيدنا إبراهيم، وعن حفيده يعقوب عليهما السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

الوصية بإخلاص العبادة لله ﷻ:

في هاتين الآيتين نجد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأن سيدنا يعقوب عليه السلام كل واحد منهما قد أوصى أولاده بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ووصى بها -أي بكلمة التوحيد- سيدنا إبراهيم وصى أبناءه من بعده بإخلاص العبادة لله ، كذلك سيدنا يعقوب وصى أولاده عندما حضرته الوفاة بأن يخلصوا العبادة لله الواحد القهار ، والوصايا التي اشتملت عليها الآيات التي معنا ، هي وصايا من رجل حكيم هو لقمان بن باعوراء الذي كان يعيش على الراجح في عهد سيدنا داود عليه السلام ، أو في الفترة التي بين سيدنا عيسى ، وبين سيدنا رسول الله ﷺ .

أكثر العلماء على أن لقمان ليس نبياً وإنما هو حكيم:

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات الكريمة ما ملخصه : والأكثر من العلماء على أن لقمان لم يكن نبيا ، وإنما كان رجلا آتاه الله الحكمة ، قال له مولاه يوما : يا لقمان اذبح لنا شاة وجئنا بأحسن ما فيها ، فذبحها وآتاه بقلبها ولسانها ، فقال له للمرة الثانية : اذبح لنا شاة وأتنا بأخبت ما فيها ، فذبحها وآتاه أيضا بقلبها ولسانها فقال له مولاه : ما هذا لقد جئتني بقلبها ولسانها في الحالتين؟! فرد عليه لقمان بقوله : إنه ليس من شيء أحسن منهما إذا حسنا ، وليس من شيء أخبت منهما إذا خبثا : القلب واللسان . وقال له قائل : «يا لقمان أأست عبد فلان؟ فما الذي بلغ بك ما نراه من الحكمة؟ فقال له : قدر الله وأداء الأمانة ، وصدق الحديث وتركى لما لا يعنيني ، هذا هو الذي بلغ بي ما ترى» .

ومن وصاياه لابنه كما يقول الإمام ابن كثير رحمته الله : «يا بني اتخذ تقوى الله لك تجارة ، يأتك الرزق من غير بضاعة ، يا بني عليك بمجالسة

العقلاء ، والاستماع إلى الحكماء ، فإن الله تعالى يحيى القلوب بنور الحكمة» .
ولقد افتتح سبحانه هذه الوصايا بقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ
أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] .

معنى كلمتي الحكمة والشكر:

والحكمة هي اكتساب العلم النافع مع العمل به ، أو هي الإصابة في
القول وفي العمل ، والشكر معناه أن نستعمل نعم الله ﷻ فيها خلقت له ،
فالبصر نعمة ، وشكر هذه النعمة أن ننظر بهذا البصر إلى ما أحله الله لا إلى
ما حرمه ، والعقل نعمة ، وشكر هذه النعمة أن نتفكر بها فيما يعود علينا
وعلى أوطاننا بالخير ، والصحة نعمة ، وشكر هذه النعمة أن نستعملها في
الطاعة لا في المعصية ، وفي الخير لا في الشر ، فإذا ما فعلنا ذلك زادنا الله ﷻ
من نعمه كما قال سبحانه : ﴿ لِّنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

والآية الكريمة تبين سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه ، وهي أن
شكر النعمة يؤدي إلى زيادتها ودوامها ، وأن جحودها يؤدي إلى محققها وزوالها
ولقد مدح الله سبحانه وتعالى أنبياءه لأنهم كانوا شاكرين لخالقهم ﷻ ، ومن
ذلك قوله تعالى في شأن سيدنا نوح : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ
عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] ، ومن ذلك قوله ﷻ في شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ
أَجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ
لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠-١٢٢] .

أولى وصايا لقمان لابنه وجوب إخلاص العبادة لله وحده:

وكان من الطبيعي بالنسبة للقمان ، وهو الذي آتاه الله الحكمة أن يفتح وصاياه لابنه بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ، افتتحت هذه الوصايا بالأمر بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ والوعظ معناه الزجر المقترن بالتخويف من سوء عاقبة الوقوع في المعاصي ، أو هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب ، وما أوصى به لقمان ابنه من وجوب إخلاص العبادة لله . هذه الوصية كانت أيضا هي الكلمة الأولى التي وجهها كل نبي إلى قومه ، كل نبي أرسله الله ﷺ .

كانت الكلمة الأولى التي يوجهها إلى قومه أن يقول لهم : ﴿يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] ، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] ، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، ويحمل القرآن الكريم هذا المعنى في قوله ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

التحذير من الشرك بالله:

وقد حذر القرآن الكريم من سوء عاقبة الإشراك بالله ﷻ في عشرات الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦] ، وفي آية ثالثة ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] .

والقرآن الكريم عندما يأمر الناس جميعا بإخلاص العبادة له ، يسوق ذلك بأساليب تقنع العقول وترضي العواطف ، يسوق الأدلة على وحدانية الله ﷻ في عشرات الآيات القرآنية : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ [النمل: ٥٩-٦٤] .

الوصية الثانية: الأمر بالإحسان إلى الوالدين :

وبما أن الوالدين هما السبب المباشر في وجود الإنسان في هذه الحياة ، رأينا القرآن الكريم في كثير من آياته يجعل الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ، وفي سورة

النساء : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء : ٣٦] ، وفي سورة الأنعام : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الأنعام : ١٥١] ، وفي سورة الإسراء : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وفي السورة التي معنا نجد بعد قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَنْبُئِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان : ١٣] ، نجد الوصية بالإحسان إلى الوالدين : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان : ١٤] ، وما أجمل وما أبلغ وما أحسن أن نجد القرآن الكريم يعبر عن هذه الوصية بقوله ﷺ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ ، لم يقل القرآن الكريم وصينا المؤمن بوالديه ، أو ووصينا المسلم بوالديه ، وإنما قال : ووصينا الإنسان ، فجعل الإحسان إلى الوالدين جعلها قضية إنسانية عامة .

جاءت جميع الشرائع السماوية بهذه الوصية الكريمة : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم خص سبحانه بالبيان ما بذلته الأم من جهد ومن تعب خلال حملها لوليدها ، فقال تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان : ١٤] أي حملته أمه ، وهي في كل يوم تزداد تعباً على تعب ، ثم بين سبحانه المدة المفضلة للرضاعة فقال : ﴿وَفَصْلُهُ فِي غَامِينَ﴾ [لقمان : ١٤] ، أي وفطامه في عامين ، ثم إن الله سبحانه في الآية يأمر كل إنسان بالمداومة على شكر خالقه : ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان : ١٤] ، ثم ارتفع القرآن الكريم بقضية الإحسان إلى الوالدين إلى قمة الساحة وإلى قمة السمو ، وأمر بالإحسان إليهما حتى مع مخالفتها في العقيدة فقال : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٥] ، أي مع مخالفتها لك في العقيدة ، عاملهما في حياتك

معاملة كريمة ، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥] ، وجاء سيدنا رسول الله ﷺ بالأحاديث الشريفة الحكيمة التي لم تجعل أو لم تقصر الإحسان إلى الوالدين على حياتهما فقط ، بل يمتد هذا الإحسان إلى ما بعد وفاتهما .

فقد أخرج الإمام أبو داود في سننه عن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما نحن عند النبي ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله كنت بارا بأبوي في حياتهما وقد ماتا ، فهل بقي علي من برّ أبوي شيء بعد وفاتهما؟ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : «نعم بقي عليك الصلاة عليهما ، والدعاء لهما ، والوفاء بعهدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما»^(١) .

الوصية الثالثة: مراقبة الله في القول والفعل :

ثم جاءت الوصية الثالثة من وصايا لقمان لابنه : ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] ، والضمير في قوله : ﴿إِنَّهَا﴾ يعود إلى الكلمة التي ينطق بها أو إلى الأعمال التي يعملها من خير أو شر ، والمثقال أقل ما يوزن به الشيء ، والخردل شيء في غاية الصغر والقلّة .

والمعنى أن لقمان يغرس في ابنه المراقبة لله ﷻ ، والمحاسبة للنفس ، إن لقمان قد قال لابنه يا بني إن ما تقوله أو تفعله من خير أو شر مهما حاولت أن تخفيه ، ومهما كان هذا الشيء صغيرا أو كبيرا ، سواء كان ملقى في

(١) أبو داود (٥١٤٢) ، وأخرجه أحمد (٤٩٧/٣) ، وابن ماجه (٣٦٦٤) وغيرهم .
وصححه الحاكم (١٧١/٤) ، وابن حبان (٤١٨) .

الأرض أو السماء ، فإن الله سبحانه وتعالى يعلمه ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فالمقصود من هذه الآية الكريمة غرس الهبة والحشية والمراقبة لله ﷻ في كل الأقوال وفي كل الأعمال ، لأن الإنسان إذا ما راقب خالقه ﷻ في كل أقواله وفي كل أعماله جاءت هذه الأقوال وتلك الأعمال في أسمى درجات الإتقان والإحسان ، والخير والبر ، والنفع لصاحبها ولغيره من الناس ، وشبيه بهذه الآية قوله ﷻ : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدٍ لَّآتَيْنَاهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

الوصية الرابعة : المحافظة على الصلاة :

ثم جاءت الوصية الرابعة من وصايا لقمان لابنه ، وتتمثل في أمره بالمحافظة على الصلاة : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ ، أي داوم وحافظ على أدائها بخشوع وبإخلاص ، ومن هذه الوصية نعلم أن العبادات التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها ، ومن بينها الصلاة ، ليست على الأمة الإسلامية وحدها ، وإنما هذه العبادات على الأمم السابقة أيضا لأنها تطهر القلوب وتنقي النفوس ، وتنقي المشاعر ، وتجعل الإنسان يعيش حياته ، يجب لغيره ما يحبه لنفسه ، وتجعل الإنسان يعيش سليم القلب ، متفتح النفس .

فعن الصلاة يقول القرآن الكريم حكاية عن سيدنا إبراهيم ﷺ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿١٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وسيدنا موسى يقول الله تعالى له : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] .

وعن الزكاة يقول القرآن في شأنها على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٣٠] .

وعن الصيام: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

وعن الحج أمر الله سيدنا إبراهيم: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧] .

إذن هذه العبادات ليست على الأمة الإسلامية وحدها، وإنما هي أيضا كانت على الأمم السابقة، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ﷻ، وحديث القرآن الكريم عن الصلاة ورد في عشرات الآيات، وأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ عن هذه الفريضة، هذه الأحاديث متعددة: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، أترون ذلك يبقي من درنه شيئا؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا كما يمحو الماء أثر الوسخ»^(١) .

الوصية الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ثم جاءت الوصية الخامسة من وصايا لقمان، وتتمثل في قوله ﷻ: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، ﴿ يَبْنِي أَقْصِرَ الصَّلَاةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [لقمان: ١٧] والمعروف ما حسنه الشرع من الأقوال والأفعال، وتعارف الناس على حسنه وفضله، والمنكر ما قبحه الشرع من

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) عن أبي هريرة .

الأقوال والأفعال ، وتعارف العقلاء على قبحه وسوئه ، وفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رأس الفضائل التي حضت عليها الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ويكفي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقوله ﷺ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

إذا ما اتجهنا إلى السنة النبوية الكريمة ، رأينا كثيرا من الأحاديث الصحيحة والحسنة تحض على نشر هذه الفضيلة ، وقد ساق الإمام النووي في كتابه القيم : رياض الصالحين ، ساق أربعة عشر حديثا في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نكتفي بذكر واحد منها ، أخرجه الإمام البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم في أعلاها ، وبعضهم في أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء - أي : إذا أرادوا الحصول على الماء - مروا على من فوقهم ، قالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، يقول ﷺ : فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» .

فهذا الحديث الشريف يدل دلالة واضحة على أن الأمة بجميع أفرادها كل في حدود ولايته ، وكل في حدود استطاعته وقدرته ومسئوليته ، هذه الأمة مسئولة مسئولية مشتركة عن جلب الخير لها ، ودفع الأذى عنها حتى لا تمتد أيدي الجاهلين والمخربين ، والمفسدين ، والمعتدين إليها ، أو إلى ما يكدر أمنها واستقرارها ، لأنهم جميعا أصحاب أهداف مشتركة ، وأصحاب مصير واحد ، ويجب على أفراد الأمة جميعا أن يعملوا بكل قوة وبكل

إخلاص من أجل منفعتها ومن أجل سعادتها، وفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها شروط ولها آداب، من أهمها: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب أن يكون عالما ومدركا بأن هذا الشيء معروف، وبأن هذا الشيء منكر، فإن الجاهل قد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، ومنها أن يكون قدوة طيبة لغيره، ومنها أن يكون متأدبا بقول الله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

الوصية السادسة: الصبر بجميع أنواعه:

أما الوصية السادسة فتتمثل في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

والصبر معناه حبس النفس على ما يقتضيه الشرع القويم والعقل السليم، والصبر فضيلة تتعدد مجالاتها، هناك صبر على طاعته، وهناك صبر عن معصية الله، وفي الحديث الشريف: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»^(١)، وهناك صبر على المصائب والآلام، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

والصبر ليس معناه السلبية، والرضا بالذل والهوان، وإنما معناه كما قال بعض الحكماء: تعويد النفس الهجوم على المكاره حتى تتدلل، ومعالجتها بأناة وحكمة، وتدريبها على الاحتمال للخروج من الشدائد، وانتظار

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣) عن أبي هريرة.

النتائج الطيبة مهما بعدت ، ومواجهة الأعداء مهما ثقلت ، بقلب لا ترزعزعه الأهوال ، وبعزيمة تتغلب على المتاعب والآلام ، وتجعل صاحبها عندما ينظر إلى الأحداث يقول :

عرفنا الليالي قبل ما نزلت بنا فلما دعتنا لم تزدنا بها علما

ولقد قال بعض الصالحين : بالصبر واليقين ينال العقلاء الإمامة في الدنيا والدين ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

الوصية السابعة : التواضع ولين الجانب :

ثم جاءت الوصية السابعة وهي ختام الوصايا ، وفيها يأمر لقمان ابنه بالتواضع ، ولين الجانب ، وينهاه عن التكبر والغرور والتعالي على الناس ، فقال كما حكى القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [١٨] وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٨ ، ١٩] ، والصعر في الأصل مرض يصيب الإبل في أعناقها فيجعلها عندما تسير تسير وهي معوجة العنق ، فيشبه القرآن الكريم الإنسان المغرور ، بهذا الحيوان الذي أصيب بهذا المرض العضال ، لأن لقمان يوصي ابنه -يوصيه بأن يكون متواضعا- يا بني كن متواضعا ، ولا تكن متكبرا ، ولا تمش في الأرض مشية المغرورين ، بل عليك أن تكون من المتوسطين المعتدلين ، ولقد مدح الله ﷻ سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

هذه سبع وصايا ساقها القرآن الكريم على لسان رجل آتاه الله الحكمة ،
وهذه الوصايا الجليلة :

- ومنها ما يتعلق بحقوق الله ﷻ : ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ .
- ومنها ما يتعلق بحقوق الوالدين : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان : ١٤] .

- ومنها ما يتعلق بمراقبة الله ﷻ في القول وفي العمل وبمحاسبة النفس ﴿يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦] .

- ومنها ما يتعلق بالعبادات التي تطهر النفوس ، وتنقي العقول ،
وتصفي الأفتدة ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان : ١٧] .

- ومنها ما يتعلق بحق المجتمع الذي نعيش فيه ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [لقمان : ١٧] .

- ومنها ما يتعلق بأحداث الحياة وبهمومها وبمتاعبها ، ومن سره زمن
سأته أزمان ، والقرآن الكريم يحكي عن سيدنا لقمان أنه قال لابنه :
﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] .

- ومنها ما يتعلق بالسلوك الإنساني الرفيع الذي يجعل صاحبه متواضعا لا
متكبرا ومعتدلا وليس منحرفا .

وهذه الوصايا الحكيمة ما أحوجنا كدعاة ، وحكام ، وكأباء وكمدربين ،
ما أحوجنا إلى أن نغرسها في نفوس أبنائنا وفي نفوس طلابنا ، وفي نفوس
الذكور والإناث ، فإن هذه الفضائل متى شب عليها الإنسان نشأ جيل ، هذا

الجيل يبني ولا يهدم ، يعمر ولا يخرب ، يصلح ولا يفسد ، يجمع ولا يفرق ،
يغبط ولا يحقد ، يعدل ولا يظلم ، ينشأ جيل من الرجال ، كما قال الشاعر :
من الرجال المصابيح الذين هم كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

* * *

المحاضرة السابعة والخمسون

ولكل وجهة هو موليها

التنافس في الخيرات محمود :

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [البقرة: ١٤٨] ، التنافس في الخيرات سباق شريف ؛ لأن شأن الأخيار أن يبحثوا عن الخير ، وما سُمُوا أخيارًا إلا لأنهم سبقوا إلى الخيرات ، والتنافس في الخير تنافس محمود ، حيث لا أنانية ولا حب الذات ، ولا خصومة ولا شجار ، والباب مفتوح ، والطريق واسعة ، والغرض شريف ، والمقصد نبيل ، والمتنافسون أحباب ، والكل يريد الخير والسباق إلى رضوان الله ﷻ ، إلى سعادة الدنيا والآخرة .

أصل فكرة وجود الكون السباق إلى الخيرات ، وأصل فكرة امتلاء الأرض بالزينة والرفاهية والنعيم السباق إلى الخيرات ، وأصل فكرة الحياة والموت السباق إلى الخيرات .

الله خالق كل شيء :

قال الله تعالى في سورة هود : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ ﴾ [هود: ٧] ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ۝ ﴾ ، لا كأيامنا هذه ، إنما هي أيام التكوين : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ۝ ﴾ .

لا تظن أنه كالسفينة على الماء ، لا ، وكان عرشه أي هيمنته وسيطرته على الماء ، يقول العلم : إن الكون قبل وجود السموات والأرض كان مملوءا

بالفراغ ، مملوء بالسديم ، مملوء بالبخر ، مملوء بالأتير ، هي كلمات قالوها ، وإنما هي الماء في إحدى حالاته ، فالماء إذا تجمد سمي ثلجا ، وهو ماء ، وإذا وصل إلى درجة حرارة أربعة فوق حرارة أربعة فوق الصفر سمي ماء سائلا ، وإذا تكثف سمي بخارا ، سمي سديما ، سمي أثيرا ، فقول الله ﷻ : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ، أي كانت هيمنة الله وسيطرته على البخار الموجود على السديم الموجود ، على الأثير الموجود على الهباء ، الغمام الموجود .

يلاحظ أن الله ﷻ حين يتكلم عن فناء الكون ونهاية الدنيا يتكلم بأسلوب فيه العود إلى البدء ، فبدأ الله الدنيا من الغمام ، من ماء ، من بخار ، من سديم ، يعيدها الله إلى غمام ، إلى بخار ، إلى سديم .

يتحدث الله عن يوم القيامة فيقول :

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان : ٢٥] ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ﴿فَإِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن : ٣٧] ، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير : ١-٦] .

معنى سجرت البحار أي اشتعلت ، واشتعلها لا يكون إلا بانفصالها إلى غازات ، غاز الأكسجين ، وغاز الأيدروجين ، وهذا يشتعل أحمر ، وهذا يشتعل بلهب أزرق : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ، أي عادت المياه إلى غازات .

إذن حين يبدأ الله الدنيا يبدأها من بخار وسديم ، وهو الماء ، وحين يفنيها يعيدها إلى أصلها : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود : ٧] ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان ، لماذا كل هذا ؟

البلاء في الخير والشر:

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، البلاء الاختبار في الخير والشر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوكُنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال سيدنا معاذ رضي الله عنه: ابتليتكم بفتنة الضراء فصبرتم، وأخشى عليكم فتنة السراء.

إذن البلاء والاختبار هو الاختبار في الخير وفي الشر: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] للاختبار، وفي الاختبار نتيجة تظهر، ولوحة الشرف، وقائمة الأوائل، وأسماء الفائزين الأوائل، ولذلك قال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

الابتلاء للاختيار الأحسن في العمل:

فالله يبحث عن الأحسن، والله خلق السموات والأرض ليظهر الأحسن، ولتوضع قائمة الشرف، ولائحة الفائزين، وأسماء الأوائل، وهذا سباق، ويقول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فكل ما على الأرض من ماء، وهواء، ونعم، ورفاهية، وكل ما في جوف الأرض القريب من معادن وكنوز، كل ذلك للامتحان، ليظهر الأحسن، ليملكنا الله هذه الأشياء، ونكون خلفاء، فينظر كيف نعمل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، للسباق لبيان الأوائل، حين يمتلكون هذه الأشياء بالكسب المشروع والملك الشرعي، ثم يعملون فيها بإنتاج وبرقابة الله تعالى، فيظهر الأوائل، ويظهر الأولون والفائزون: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

فكرة الموت والحياة ، للامتحان وللسبق إلى الخيرات ، قال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ ﴾ [الملك : ١ ، ٢] ، ففكرة الموت والحياة ، إذا عرف الإنسان أن له عمرا محدودا ، وأن تحديد الأجل في يد خالقه ، فإنه يجتهد ويعمل ليظهر من الأوائل ، لتظهر لائحة الشرف ، قائمة الفائزين ، ليعرف نفسه أين هو .

وعلى هذا الأسلوب سار القرآن الكريم في نهجه التوجيهي المنهجي ، القرآن الكريم يأتي بأفعال التفضيل : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ ﴾ ، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ۝ ﴾ [الإسراء : ٩] ؛ لينهض بالناس إلى السمو ، ويعلو بهم إلى الرفعة ، ويرتفع بهم إلى العلو ، ليكون المسلمون شواهد صدق ، ونماذج خير ، وليكونوا مثلا عليا ، أعمالهم تدل على دينهم ، يدعون بأعمالهم الطيبة إلى دينهم ، فتكون آمالهم دليلا على سمو دينهم .

وهكذا نجد القرآن يرتفع بالناس إلى أعلى ، ولن يضيع إلا من أخذ إلى الأرض واتبع هواه : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا ۝ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، استبقوا ، الفعل المجرد الثلاثي : سبق ، والأمر منه : اسبقوا ، فلماذا قال الله : ﴿ فَاسْتَبِقُوا ۝ ﴾ ؟ وزاد للفعل التاء ، والتاء تدل على المحاولة والمعاناة ، التاء تدل على المغالبة ، التاء تدل على السعي ، والكد ، والكدح ، فالتاء زادت في الفعل ليبين الله أن طريق السباق إلى الخيرات ليس مفروشا بالورد ، ولا فيه نوم ، ولا فيه راحة ، إنما هو سباق بمحاولة ومعاناة ، فزادت التاء : ﴿ فَاسْتَبِقُوا ۝ ﴾ .

حاول جسيمات الأمور ، ولا تقل إن المحامد والعلا أرزاق

وارغب بنفسك أن تكون مقصرا عن غاية فيها الطلاب سباق
إذا غامرت في شرف مـروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في شيء حقير كطعم الموت في شيء عظيم
زادت التاء للمحاولة وللمعاناة .

وإن سيادة الأقسام فاعلم لها صعداء مطلعها طويل
أترجو أن تسود ولا تعن وكيف يسود ذو الدعة البخيل

إن السباق إلى الخيرات محاولة ومعاناة ، ومع ذلك فهو سباق شريف ،
أرأيت فريقى الكرة ، لاعبو الكرة في الملعب يتنافسون ويتزاحمون ، ولكنهم في
النهاية يتصافحون ، ويستعدون لدورة أخرى ، فالسباق إلى الخيرات سباق
شريف ، ولهذا نضم الشرف وحسن العاقبة إلى المحاولة .

المسلم يعمل ليصل إلى السمو والرفعة :

والإنسان المسلم لا يرضى لنفسه أن يكون في آخر القائمة ، ولا يرضى
لنفسه بمجرد النجاح ، وإنما يطلب التفوق في النجاح ، الإنسان المسلم
لا يرضى بالدرجة الدونية ، ولا يرضى لنفسه أن يكون في الآخر ، وإنما
يطلب الرفعة والعلو والسمو ، يصعد إلى المجد بعمله ، ويرتفع إلى قمة المجد
بكفاحه ، وجهاده ومغالبته ، ولذلك يقول الله ﷻ في سورة الفرقان ، في
وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] ، إماما للمتقين ،
فالمسلم يعمل ليكون إماما ، يعمل ليكون رئيسا ، يعمل لمكان الصدارة ،
واجعلنا ، ولم يقل : واجعلني ، وإنما يطلب لنفسه ولأمته ، وهذا سباق

الأمم، سباق الدول، ينتج أفراد وثابين إلى المجد، فالله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، فبأمر من الله تطلب أن تكون أنت إمام المتقين .

الآخذ بالأحسن مبدأ إسلامي:

وعلى هذا النهج سار القرآن في الآخذ بالأحسن، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، وأحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو القرآن، والقرآن كله أحسن، ولكن فيه الرخص وفيه العزائم، فإذا عمدنا إلى ما هو أكثر صوابا كنا آخذنا بالأحسن، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، حتى في الكلام نختار الأحسن: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، والآخذ بالأحسن فن في السباق، فالذي يريد أن يسبق إخوانه يأخذ ما غلا ثمنه وخف حمله، فبذلك يمكنه أن يقطع الشوط البعيد، لأنه آخذ بالأحسن، والرسول ﷺ وهو الكامل كان يطلب من الله الأحسن، ففي الحديث الصحيح، كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اهدي لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت»^(١).

من أنواع السباق: العلم والمال والدنيا والآخرة:

السباق إلى الخيرات سباق شريف، إذا تتبعنا أحاديث البخاري ومسلم وجدت أكثر أسئلة الصحابة، أي الصدقة أفضل؟ أي العمل أحب إلى الله، أي الجهاد أفضل؟ أي الإسلام خير؟ فالصحابه يسألون عن

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب .

الأفضل دائما ؛ لأنهم في سباق ، والسباق في العلم مطلوب ، قال الله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] ، والسباق للدنيا والمال مطلوب ، فإن المال لا يوصف بخير ولا بشر ، إنما الخيرية والشرية تأتي إليه من التصرف ، فبحسن التصرف يكون المال خيرا ، وبسوء التصرف يكون المال شرا ، والخيرية والشرية مسندة إلى الشخص المتصرف ، وسنعود إلى هذه النقطة إن شاء الله قريبا .

السباق في العلم ، السباق في المال شأن الأختيار ، فإنك إذا أردت السباق فحاول أن تمنع العوائق ، والمتسابق يتخفف من أثقاله ويمنع عوائقه ، إذا جاء شخص يعوقك فقل له : دعني فأني في سباق ، والزمن لا ينتظر ، والقطار يسير ، أنا في سباق ، ولا تعود نفسك أن تتدخل فيما لا يعنيك .

إن كثيرا من الناس يعوقهم التدخل فيما لا يعني ، يعوقهم عن السبق إلى الخيرات ، فهم دائما يتطلعون إلى الناس ، ويتدخلون فيما لا يحسنون وما لا يتقنون ، لا يحسن شيئا فيتدخل فيه فيعطل نفسه .

أيها المتسابق إلى الخير والسباق شريف لا تتدخل فيما لا يعنيك ، لأن هذا يعوقك عن السباق إلى الخيرات ، وإذا عوقك شخص فقل له : دعني فأني في سباق ، المتسابق إلى الخير يقول لنفسه وينشطها إذا فترت ، وينهض بها إذا كسلت ، ويقول لها : سيري يا نفس إلى الخير .

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعند اللقاء الكد يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنجلي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

التحذير من التخلف عن السباق وعندنا الإمكانيات والعقل:

نحن لا تنقصنا الإمكانيات ولا ينقصنا الذكاء والعقل ، عندنا إمكانياتنا ،
وعندنا عقولنا ، أرقى من غيرنا ، فكيف نتخلف عن السباق؟ كيف؟

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

كيف نستعير من غيرنا وعندنا كتاب الله ﷻ في أيدينا؟ وكتاب الله يهدي
لتي هي أقوم كل شيء قيم جميل ، ولكن القرآن يهدي لما هو أقوم في المثل
العليا ، يرتفع إلى أعلى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ،
فكتاب الله بين أيدينا ، ويهدي للتي هي أقوم ، ونتخلف ، عجباً! .

كالعيس في اليباء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

كن ذا عزيمة وجد:

إن الله ﷻ سمى من الرسل أولي العزم ، وسمى في القرآن أعمالا هي
عزم الأمور ، تحتاج إلى تشمير ، والعزم هو الاستعداد ، وشد العضلات ،
وشد الحزام ، والاستعداد والوقوف بوقفة رياضية ليحمل الحمل الثقيل ،
هذا معنى العزم ، فالله ﷻ سمى من الأعمال الصالحة عزم الأمور : ﴿يَبْنِي
أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] ، ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ
عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى : ٤٣] ، أين العزم والقوة في المسلمين؟

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

كما قال المتنبي ، فكن من أولي العزم ، ولا يصح أن نكون متفرجين وكفى ،
نقعد نظارة ، إن المتسابقين في الكرة لهم نظارة يشجعون ويصفقون ، فلا يصح
أن نرى المسلمين كلهم نظارة ، كلهم مشجعون ومصفقون ، نريد أن يكون لنا
دلو في الدلاء ، وقدم في السباق ، ونهضة في العمل ، ووصول إلى الخيرات ؛ لأن
أجدادنا وصلوا بالقرآن ، وهو الذي يهدي للتي هي أقوم .

السباق السباق قولاً وفعلاً حذر النفس حسرة المسبوق

السباق يكون بالقول والفعل :

نريد من السباق القول والعمل كما كان رسول الله ﷺ يتكلم عن
السباق بكلامه ويعمل بعمله ، وقد سمى الله يوم القيامة يوم التغابن ،
لأنه فيه الحسرة ، حذر النفس حسرة المسبوق .

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن البذر

وهنا يأتي السؤال الذي يلقي إلي كثيرا ، يقولون لي أنت تحب الدنيا
لأصحابها ، ولكن الحقيقة يا قوم إن الوحي هو الذي حكم الحكم
الفاصل ، والفيصل السديد في هذه المسألة ، نريد أن نستلهم الوحي .

الخير لا يأتي إلا بخير :

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وأرضاه قال : قام فينا
رسول الله ﷺ فخطب فقال : «ألا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم
من زهرة الدنيا» ، هذا كلام من الرسول قيل باسترسال ، «والله ما أخشى
عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، فقال رجل من الصحابة
يا رسول الله ، أيأتي الخير بالشر؟ فسكت الرسول قليلا وردد الكلمة وقال :
وإن الخير لا يأتي إلا بخير» .

إن الرسول ﷺ يريد أن يقول للناس : إن الدنيا ستضر ، فقال رجل مستفسراً : يأتي الخير بالشر؟ فرجع الرسول إلى الحقيقة وقال : «الخير لا يأتي إلا بخير» ، لأن الله سمي المال خيراً ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة : ٢١٥] ، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلَفُهُ﴾ [سبا : ٣٩] ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة : ١٨٠] ، فالله سمي المال خيراً ، وهنا احتاج الرسول إلى مدد ، فنزل عليه جبريل بالجواب السديد ، قال أبو سعيد الخدري ، ورئنا أنه ينزل عليه ، حين ألقى عليه هذا السؤال ، يأتي الخير بالشر؟ فقال الرسول في كلمة هادئة «إن الخير لا يأتي إلا بخير» ، قال أبو سعيد : ورئنا أنه ينزل عليه ، علامات الوحي ظهرت عليه وهو على المنبر ، تفصد جبينه عرقاً ، وطأطأ رأسه ؛ وزادت أنفاسه وسكت ، وأغمض عينيه ، وزاد وجهه نورا ، علامات الوحي ، اتصل به جبريل ، أدركه ربه بالجواب السديد ، قال أبو سعيد : فأفاق يمسح الرحضاء عن وجهه ثم قال ، اسمعوا الجواب الذي جاء به جبريل من فوق سبع سموات ، بعد السؤال مباشرة ، فما هي إلا أقل من غمضة العين ، وجبريل كان بجواره يلقي إليه الجواب السديد ، فأفاق الرسول يمسح الرحضاء عنه ثم قال : «إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بحقه ، ووضع في حقه ، يبارك الله له ، فمن أخذه بحقه ووضع في حقه ، فنعم المعونة هو ، فمن أخذه بحقه ، ووضع في حقه ، فنعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين» ، ثم ضرب الرسول ﷺ مثلاً من البيئة ، وقال لهم : إن الأنعام ترعى النبات من الأرض ، فهي قد تأكله كثيراً ، فتحبط وتتفخ ثم تموت ، وقد تأكل على قدرها أكلاً يتمثل مع ضوء الشمس ، وتمتد في الشمس حتى تهضم ثم تعود فتأكل ، ف ضرب الرسول ﷺ مثلاً من البيئة يبين أن من الحيوانات ما

يأكل من مرعى ، فقال ﷺ نص الحديث : «وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم ، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأ خاصرتها استقبلت الشمس فثلثت أو بالت ثم اجترت ثم عادت فأكلت»^(١) .

وهكذا نجد الفيصل السديد والحكم الفاصل في المسألة أن جمع الدنيا من موضعها ، ووضعها في موضعها شرف ، نجمع الدنيا لنغيظ بها أعداءنا ونسر بها أحبائنا :

لمن تجمع الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساءة مجرم
نجمع الدنيا لأنها قوام حياتنا ، نجمعها في أيدي من يحسن القيام بها ،
وهكذا نجد الفيصل ينزل من السماء وحياً على رسول الله ﷺ .

مع السابقين إلى الخيرات :

إن الله ﷻ مدح السابقين إلى الخيرات في القرآن الكريم ، قال الله تعالى :
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران : ١١٤] ، في سورة
الأنبياء ، ﴿إِنَّهُمْ﴾ الأنبياء السابقون ، ذكر الله الأنبياء السابقين ستة عشر
نبيا في هذه السورة : موسى وهارون ، وإبراهيم ، ولوطا ، وإسحاق ،
ويعقوب ، ونوحا ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذا
الكفل ، وذا النون : يونس ، وسيدنا زكرياء ، وسيدنا يحيى ، بعد أن سرد الله
هؤلاء الأنبياء وبين أنه نجاهم وأكرمهم ، قال كان عندهم استعداد لهذه
النجاة وهذا الكرم ، فالله لا يلقي النجاة والكرم على من لا يستحقها ،
وإنما يبين الله أن الأنبياء كان عندهم استعداد لهذه النجاة ولهذا الكرم :

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٢) ، ومسلم (١٠٥٢) عن أبي سعيد الخدري .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ويمدح الله أمة محمد بأن فيهم سباقين ، بأسلوب جميل ، فيقول : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] ، انظروا إلى أسلوب الدعاية في القرآن ، لم يقل الله : فمنهم أهل جهنم ، لا ، إنما قال : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ، الحد الأدنى ، ما ظلم الناس ، وإنما ظلم نفسه فقط ، فهذا ناجح ، ظالم لنفسه : ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ ، متوسط ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

ويمدح الله المؤمنين يوم القيامة بأنهم السابقون ، ومنهم أهل الميمنة ، قال تعالى في سورة الواقعة : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ الْشُّعْمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٧-١٤] .

يعني أن الأماكن شغلت بالسابقين ، وما بقي لكم من أماكن السبق إلا القليل ، وإليك صورة هادئة من السباق في القرآن ، ظن بعض الكفار أن وجود المال والبنين علامة على مسارعة الله لهم في الخيرات ، فرد الله عليهم ردا جميلا هادئا ، لم يصدم المخطئ ولم يصدده ، ولم يسكته ، ولم يسبه ، وإنما هداه ، وبين له ، فقال الله تعالى : ﴿أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٦١] ،
﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ، الخشية ، قال الراغب
الأصفهاني : الخشية هي الخوف يشوبه تعظيم ، ولذلك أسندت إلى العلماء ،
فقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وقال الشيخ رشيد رضا : الخشية هي الخوف في محل الأمل ، كان ينتظر منه
الخير ، فإذا به يخطئ غلطة ، هذا العارف بالله ، هذا الواصل إلى الخيرات ،
ولكنه زل زلة ، فهو يخشى الله ، يقال في اللغة : خشت النخلة تخشو إذا أتى
ثمرها رديئا ، وكان المنتظر منها أن يكون جيدا ، وقال رجل للإمام الشعبي
أنتم يامعشر العلماء ، فقال له الشعبي : لسنا بعلماء ولا بفقهاء ، إنما نحن
سمعنا حديثا فنحن نحدثكم بما سمعنا ، إنما العالم من يخشى الله ، وإنما الفقيه
من ورع عن محارم الله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾
وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا ﴿٦٠﴾ (يعطون ما أعطوا) ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ ، عجا
يعطي ويخاف ، المؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يسيء ويضحك .

مقارن بين المؤمن والمنافق :

روى الترمذي عن السيدة عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه
الآية : ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ ، أهم الذين يسرقون ويشربون
الخمير؟ قال : لا يابنت الصديق ، ولكنهم يصومون ويتصدقون ويصلون
ويخافون ألا يقبل منهم : ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ،
فالمؤمن يحسن ويبكي ، يصلي وبعد السلام يقول : أستغفر الله العظيم ،
أستغفر الله العظيم ، لماذا؟ أنت ما أذنبت ، ولكنه يقدم ، ويرجو الله القبول :

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩]، يقدم ويخاف، يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، يلعب الورق طول الليل، ويتعطل عن عمله، والضحكة عالية من ملء فمه، يسرق ويضحك، يأخذ الرشوة ويضحك، يعصي الله ويترك الصلاة ويضحك، المؤمن يحسن ويبكي، المنافق يسيء ويضحك، وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «المؤمن يرى ذنوبه كجبل يكاد أن يقع عليه، فهو يخاف، والمنافق يرى ذنوبه كذباب مر بأنفه فهو يقول به هكذا». يطرده بيده عينة وبينة، أسلوب من أساليب الدعاية في القرآن، سبق القرآن به، إن التاجر الماهر يأتي بأحسن سلعة عنده ويضعها في الواجهة، ويجعلها بجملها تنادي على نفسها، ولكن القرآن جاءنا بعينة وبينة.

أمثلة لأسلوب الدعاية في القرآن الكريم:

أسلوب في الدعاية من أربعة عشر قرنا وهو في القرآن، إننا نحتاج إلى دعاية، إن بلادنا تحتاج إلى دعاية، وإمكانياتنا تحتاج إلى دعاية، اسمعوا أسلوب الدعاية في القرآن، صديقان، كانا صديقين في الدنيا أحدهما ملحد شاك، لم يجد من ينقذه، والآخر مؤمن مطمئن، وعاشا صديقين في الدنيا، وكان الملحد هذا يقول للمؤمن، أتظن أننا سنقوم بعد الموت؟ ما هي إلا مorte واحدة، أتظن أننا نُسأل وهناك حساب؟ لا تصدق هذا، وهذا الشاك قرأ (لساتر) وللوجودية، وقرأ، وقرأ، وما قرأ المقابل لها من حقائق الإسلام، ومات، وجاء يوم القيامة، فدخل المؤمن الثابت على إيمانه الجنة، ثم سأل عن صديقه أين هو؟ أين صديقي فلان؟ وتحير في الجنة، فأراد الله أن يهدي حيرته، فناده ربه، هل أنت مطلع؟ تريد أن ترى صديقك تعال، وأخذه ربه إلى شرفة من شرفات الجنة، وقال: هل تتطلع؟ اطلع، فرآه في سواء الجحيم، فقال المؤمن للملحد: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصفات: ٥٧]،

لولا أن الله ثبتني بالإيمان لكنت معك الآن : ﴿أَفَمَا حُنَّ بِمَيِّتِينَ﴾ [٥٩، ٥٨] ، كنت تقول هذا ، كنت تشك الأولَى وَمَا حُنَّ بِمُعْذِبِينَ ﴿ [الصفات : ٥٩، ٥٨] ، كنت تقول هذا ، كنت تشك في الدين والحساب ، ما هذا؟

فيقول ربنا ﷻ : ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦١، ٦٠] ، لمثل هذا الموقف أيها الإخوة ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات : ٦١، ٦٠] ، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [٥٩، ٥٨] ، يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَمْدِينُونَ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، أَفَمَا حُنَّ بِمَيِّتِينَ ﴿ [٥٩، ٥٨] ، إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا حُنَّ بِمُعْذِبِينَ ﴿ [الصفات : ٥٩ - ٥١] ،
 يأتي النداء من الله : ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦١، ٦٠] ، لمثل هذا الموقف ، وجاء هذا المنظر بأسلوب آخر في القرآن ، في سورة المدثر ، في أول ما أنزل من القرآن : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [٦١، ٦٠] ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿ [٦١، ٦٠] ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ [٦١، ٦٠] ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ [المدثر : ٣٨ - ٤١] ، فيقول ربنا للمؤمنين هل أنتم مطلعون؟ فنطلع من شرفات الجنة : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [المدثر : ٤٢] ،
 ويصل النداء : ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصْلِينَ﴾ [٦١، ٦٠] ، وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿ [٦١، ٦٠] ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿ [المدثر : ٤٣ - ٤٥] ، قال سارتر يتبع سارتر ، قالت الوجودية ، يتبع الوجودية : ﴿نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [٦١، ٦٠] ، وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿ [المدثر : ٤٥، ٤٦] ، عينة وبينة ، ذكر الله الأبرار في القرآن ، والأبرار هم الذين ينفقون مما يحبون ، وهم الذين نذروا أنفسهم لخدمة الصالح العام ، إذا سمعت كلمة الأبرار ، فاعلم أن الأبرار صنف من الناس جمع

خصلتين : ينفقون مما يحبون ، ونذروا أنفسهم لخدمة الصالح العام في وظائفهم ، يوفون بالنذر ، حين يعطي الله الأبرار نعيمهم ، يبين الله إعلانا ويقول : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ (٢٥) خَتَمَهُ مِسْكًَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿ [المطففين : ٢٢-٢٦] ، وهكذا يا قوم ، نجد أسلوب الدعاية للسباق إلى الخيرات في القرآن ، والرسول ﷺ كان يتكلم في السباق إلى الخيرات وهو سابق .

روى السيوطي أن السيدة عائشة بالليل مدت يدها تدلك أعضاء الرسول ﷺ ، وتدلك له أعضاءه حتى يهدأ ، فوجدت الجلد والعظم ، فقالت يارسول الله : ألا تتبلغ من الزاد حتى تسمن؟ فقال لها : يا عائشة أخشى أن يسبقني إخواني الأنبياء السابقون ؛ هذا أسلوب عملي من الرسول كأنه يضم نفسه ، يوزع لحمه في أجسام كثيرة ، أوزع لحمي في لحوم كثيرة ، عنده ما ينبت اللحم على العظم ، ولكنه يعطيه للمساكين ، يوزع لحمه في أجسام كثيرة ، فهو يضم نفسه ، لأنه في سباق ، يقول الرسول ﷺ في الحديث : «ألا هل من مشمر للجنة؟ فقالوا : نحن مشمرون لها يارسول الله ، قال : قولوا : إن شاء الله»^(١) ، يقول الرسول ﷺ : «اليوم الرهان ، وغدا السباق ، والغاية الجنة ، والهالك من دخل النار»^(٢) ، فالرسول يعلن عن سباق ، يقول الرسول ﷺ : «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ،

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢) عن أسامة بن زيد . وصححه ابن حبان (٣٨٩/١٦) ، وحسنه الضياء في «المختارة» (١٣٢/٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٨/١٢) ، و«الأوسط» (٢١٤/٤) ، والخطيب في «التاريخ» (٣١/٧) وغيرهم من حديث ابن عباس .

ألا إن سلعة الله الجنة»^(١)، ويقول الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلُّوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة، ترزقوا، وتنصروا وتجبروا»^(٢).

حث الرسول ﷺ على السباق إلى الخيرات:

الرسول ﷺ يحث الصحابة على السباق إلى الخيرات، حتى في الصلاة في الصف الأول، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء (الأذان) والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»، يتزاحم الناس على الأذان، ويتزاحم الناس على الصف الأول في الصلاة، ومن كثرة التزاحم يعملون القرعة، ويضربون السهام، لأن الرسول ﷺ قال: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنهي»^(٣)، فالصف الأول لأعقل الناس، لأفقه الناس، لأحسن الناس، يعمرّون مساجد الله، أفقه الناس في الصف الأول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

والرسول يبين أن السباق على الصف الأول ولو احتاج إلى قرعة لاقترع، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إلى التهجير، تأخير صلاة الظهر حتى تهدأ وطأة الحر في البلاد الحارة عند خط الاستواء تقريبا، إلى خط خمسة عشر درجة شمالا في خطوط العرض، فهذا يحتاج إلى سباق؟

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٧٧/٨) من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم (٣٤٣/٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٨١)، والبيهقي في «الكبرى» (٩٠/٢) وغيرهما عن جابر بن عبد الله.

(٣) أخرجه مسلم (٤٣٢) عن أبي مسعود.

نعم ، ويقول الرسول : «ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا»^(١) لو يعلم الناس ما في صلاة العشاء وصلاة الصبح في المسجد في الجماعة ، لأتوهما ولو حبوا ، هذا السباق .

والرسول ﷺ يقول : «اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك»^(٢) ، سباق إلى الخيرات ، والرسول ﷺ كما روى مسلم عن أبي هريرة يقول : «بادروا بالأعمال الصالحة ستا ، وذكر منها : أو خاصة أحدكم أو أمر العامة» .

اعمل الخير قبل أن تشغل بخاصة نفسك أو قبل أن تشغل بأمر العامة ، حين تتولى وظيفة عامة ، والرسول ﷺ يحدث الناس عن السباق عمليا ، فهو يسبق إلى الخيرات ، يده الأول ، إذا سافر مع إخوانه يده تخدم أولا ، يده تحفر في الخندق أولا ، يده تحمل المقطف والمختل أولا ، وأنا أول المسلمين ، فهو سباق بالعمل قبل أن يكون سباقا بالكلام .

والرسول ﷺ سأل رجل كما روى الشيخان عن أبي هريرة ، يا رسول الله ، أي الصدقة أفضل؟ قال سباقا : «أن تصدق وأنت صحيح حريص ، تأمل الغني وتخشى الفقر» ، في أيام شبابك ، في أيام غناك ، في أيام حرصك ، وهنا تتصدق ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان .

(١) أخرجه البخاري (٦١٥) ، ومسلم (٤٣٧) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الحاكم (٣٤١/٤) ، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٣/٧) وغيرهما من حديث ابن عباس . وصححه الحاكم على شرط الشيخين . وحسن إسناده الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١٩٨/٤) .

تسابق أبي بكر وعمر إلى فعل الخيرات :

والشيخان عمر وأبو بكر يتسابقان ؛ روى الخطيب البغدادي عن أبي صالح الغفاري قال : «كان عمر يتعاهد عجوزا في حواشي المدينة من الليل ، فيقوم بأمرها ، فذهب مرة فوجد غيره قد سبقه إليها ، فرصد له عمر في الليلة الثالثة ، فوجده أبا بكر ، وهو خليفة ، أمير المؤمنين ، خليفة رسول الله ، فأمسك به عمر وقال : أنت لعمرى» .

وهكذا نجد الأخيار في سباق إلى الخيرات ، وكل متسابق له لباس خاص ، سأكسو المتسابقين لباسا خاصا ، فإن هذه العبادة وهذا السلهاام وهذه الجلابة ، هذه الأشياء لا تنفع في سباق ، إنما نريد أن نكسو المتسابق زيا خاصا ، ونمنع عنه العوائق ، ونزيل عنه العقبات ، ونعطيه صك الأمان للطريق المستقيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] .

لا تتعب نفسك ، لكل شخص رأي يتشبث به ، سر أنت في طريق الخيرات ، فاستبق في الخيرات ، الفاء للترتيب ، والوجه والوجهة ، والجهة ، اسم الجهة ، والمراد القبلة ، ولكل أمة من الأمم أو دين من الأديان السابقة ، وجهة تولتها في صلاتها .

فإبراهيم وإسماعيل توليا إلى الكعبة في الصلاة ، وجاء اليهود فولوا وجوههم إلى صخرة بيت المقدس ، وجاء النصارى فخالفوا ذلك وولوا وجوههم شطر مشرق الشمس ، فالله ﷻ يطمئن الرسول ويقول له : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا ۖ ﴾ ، وقراءة ابن عامر بفتح اللام ، فلا تلتفت إلى جدالهم ولا تعطل نفسك بترهاتهم ، ولا تصنع إلى ما يقولون .

لقد قال السفهاء : ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، حين أمر الله بالتوجه إلى الكعبة ، وقالت اليهود : إن محمدا حن إلى دين آبائه ، - فعاد إلى قبلتهم ، وقال المنافقون : لقد ضاعت صلاة من صلى ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس ، وقالت اليهود : إن محمدا متخبط في دينه ، ليس على بينة من ربه ، فهو يصلي هنا ثم يصلي هنا ، كثر الكلام ، إنهم يقولون ، ماذا يقولون؟ دعهم يقولون ، لا تلتفت إلى ما يقولون .

لا يضر البحر أمسى زائرا أن رمى فيه الغلام بحجر

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ ، فإذا كثر الكلام حولك ، وأرادوا بلبلة الأفكار ، وشغل الناس ، وأرادوا تشييط الهمم ، وأرادوا إسكات الناطق بالخير ، وأرادوا تشييط همم الساعين في الخير ، لا يريدون أن يعملوا ولا يريدون أن يسكتوا عمن يعمل ، لا يمكنهم أن يصعدوا ، ويريدون أن ينزلوا الصاعدين ، لا يمكنهم أن ينووا بناء ويؤسسوا ، ولكنهم يعطلون البنائين .

لا تلتفت إلى جدال المشبطين وسابق إلى الخيرات :

فإن الله ﷻ يقول للرسول ﷺ : لا تلتفت إلى جدالهم ، فالجدال تعطيل ، والجدال شأن أهل الفراغ ، روى ابن ماجه والترمذي ، والإمام أحمد والحاكم عن أبي أمامة ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ، ثم قرأ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ [الزخرف: ٥٨] ، فالجدل طويل ، وحبل الجدال طويل ، ولسان لا يغلب لسانا ، وصحيفة لا تغلب صحيفة ، وخبر لا يغلب خبرا ، ومقالة لا تغلب مقالة ، فإن النبي ﷺ ينهى النبي ﷺ ويقول له : لا تلتفت إلى جدالهم ، فإن الجدال حبله طويل ، واسبق إلى الخيرات ، وقال الشاعر :

وإذا بليت بجاهل متحكم يجد المحال من الأمور صوابا

أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جواباً

ففي هذه الآية يبين الله للمتسابق إلى الخيرات ويقول له: لا تصغ سمعك إلى الترهات، ولا تلق بالك إلى المعوقين، ولا تلتفت إلى بلبلة الأفكار والإشاعات والبس لباساً خفيفاً، واجر فأنت في سباق: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

يا ليتهم يجادلون للوصول إلى الحقيقة، ياليت... وكنا جادلناهم بالتي هي أحسن، وإنما يجادلون بمغالطة وسفسطة، ولو جادلوا حبا للوصول إلى الحقيقة لجادلناهم بالتي هي أحسن، والله قطع هذا الأمل، وقال للرسول ﷺ: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥]، والتاريخ الآن يعيد نفسه، يأتي المستشرقون ويوجهون لنا اتهامات لا أساس لها، ويقولون الإسلام انتشر بالسيف، يجب فصل الدين عن السياسة، الإسلام دين الرق، فمننا من شغل نفسه بالرد عليهم، ومننا من تشتت وتزعزع في دينه، فالله يقول لنا لا تلتفتوا إلى جدال المجادلين، ولا عناد المعاندين، ولا ترهات المبطلين، وسيروا في طريقكم: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، يماثل هذا المعنى بالضبط آية أخرى في سورة المائدة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

نزلت هذه الآية في السنة الثانية من الهجرة، عقب تحويل القبلة، لظروف هي كهذه الظروف بالضبط، حين وصل الرسول ﷺ إلى المدينة وبدأ يمهد للدعوة الإسلامية، ويقر أقدام المسلمين في المدينة، جاءت مناقشات.

محاولة اليهود لفتنة النبي ﷺ :

هذه قريش تناوشه على حدود المدينة ، وتسلمت القبائل على حدود المدينة ، وجاء المرض الحمى ، ومرض المهاجرون ، والرسول مشغول بالمرضى ، ومرضت السيدة رقية بنت رسول الله ، وذهبت سرية عبد الله بن جحش إلى وادي نخلة .

والرسول قال لعبد الله بن جحش : لا تقتل ولا تبدأ بحرب ، ولكنه قتل رجلين من قريش ، وأخذ غنائمهما ، وشنع اليهود وقالوا : إن محمدا يستحل الأشهر الحرم ، وينتهك حرمة الأشهر الحرم ، والرسول مشغول بقريش تستعد ، وللمخالفة بالقتال في الأشهر الحرم ، وإذا بمكيدة يهودية صغيرة ، جاء جماعة من بني النضير ، وقالوا لبعضهم تعالوا نفتن محمدا عن دينه ، واتفقوا فيما بينهم ، كما روى ابن جرير وابن إسحاق عن ابن عباس ، وكما رواه البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ، قال ابن عباس : «جاءت جماعة من بني النضير وقالوا فيما بينهم : تعالوا بنا نفتن محمدا عن دينه ، وذهبوا إلى الرسول وقالوا له : إنك تعلم أننا أحبار يهود ، وأنت تعلم لو اتبعناك اتبعك غيرنا ، وبيننا وبين قومنا خصومة فاحكم لنا ، لقد تعودنا أن تكون دية النضير دية كاملة ، ودية القرظي نصف الدية ، فاحكم لنا ، فقال لهم الرسول ﷺ كيف أحكم بغير ما أنزل الله؟» .

إنها جاهلية ، شريعة الغاب ، الحق للقوي فقط ، فنزل عليه قوله تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١١﴾﴾ أَفَحُكَمَ

الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ [المائدة: ٤٩، ٥٠] وقالوا لبعضهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

فتولوا، لم يعجبهم هذا، ورأوا رجلا من اليهود يبدي بعض الميل للنبي وللصحابة، فكادوا له، صادف أن هذا اليهودي الذي يبدي بعض الميل للنبي وللصحابة، صادف أن كانت له بنت اسمها بسرئ، وكانت جميلة، وعشقها رجل من قومها كشأن اليهود في أعراضهم، فترصد كبراء اليهود للعاشقين حتى ضبطا، وبتشنيعة وجمهرة كبيرة، ذهبوا بالعاشقين إلى الرسول وقالوا له: احكم بيننا، فيم الحكم، ولأي شيء في هذه المسألة، لأنها بنت رجل يميل إلى الرسول وإلى الصحابة.

فقال لهم الرسول: عندكم التوراة فيها حكم الله، قالوا: في التوراة نسخم وجوههما ونفضحهما، قال عندكم التوراة، فأنزل الله الآية للنبي محمد، ووضع الله علامات استفهام، قبل الآية: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، ٤٣]، لماذا في هذه القضية بالذات.

إن حكمت بالرجم قالوا: يجب الدماء، وإن حكمت بالتخفيف قالوا ينكر حكم الله ﴿وَكَيْفَ تَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، ولو كانوا حكموك لرضوا بحكمك واستقروا إلى النهاية، ولكنهم تولوا: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]، ونزلت الآية الواضحة بعد هذه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ^{عد} فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴿[المائدة: ٤٨]، فالله يقول للرسول ﷺ: لا تلتفت إلى ترهات المبطلين، وسر في طريقك فأنت سباق إلى الخيرات، أنت والصحابة: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، لا تلتفتوا إلى ترهات المبطلين، ولا إلى كلام المعاندين، لا تلتفتوا إلى هؤلاء، وسيروا في طريقكم فاستبقوا الخيرات، وفعلا سار الرسول في طريقه، فكأن المتسابق يصم أذنه عن الترهات، كأن المتسابق يتخفف من ثيابه، ولا يلتفت إلى الأباطيل وإلى الأكاذيب من المعاندين، هذه واحدة.

المسارعة إلى العمل الذي يصل بك إلى مغفرة الله:

وفي سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفي قراءة: (سَارِعُوا) بغير واو، جاءت هذه الآية في أثناء الكلام عن غزوة أحد، حين بدأ القرآن يطبب الجراح، ويداوي القروح، وينهض بالناس بعد الكوبة، ويقيهم بعد العثرة ويقول لهم افتحوا صفحة جديدة، ولا تقولوا كلام الندم، ولا تعضوا أصابع الندم، وقوموا من كبوتكم، وانهمضوا من رقدتكم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، نجد في القرآن: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى﴾، ﴿وُسِّرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤]، يتعدى الفعل مرة إلى، ومرة بفي، جميل القرآن في توضيحه وبلاغته: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾، كأنك تجري إلى هدف، ولكنه بعيد والشوط طويل، والمسارعة إلى المغفرة مسارعة إلى العمل الذي يؤهلك إلى مغفرة الله، والآية الثانية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، إنهم كانوا يسارعون في أثناء وصولهم إلى الخير، كنا نسارع إلى الاستقلال، سارعوا إلى، فلما دخلنا في الاستقلال، وسعدت البلاد، سارعوا في أثناء العمل بعد الاستقلال، تلميذ يعمل آخر جهده ليصل

إلى شهادة كلية الطب ، ليكون طبيباً ، فهو يسارع إلى شهادة كلية الطب ، وفي أثناء مزاولة لمهنة الطب يسارع في العمل الذي ينقذ به الإنسانية ، فالله ﷻ حين يقول : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾ ، يبين لنا أن الهدف بعيد ، والشوط طويل ، فشمروا عن ساعد الجد ، وحين يقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، ﴿ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَٰذَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦١] ، المسارعة في أثناء العمل بعد الاستقلال ، المسارعة بعد النجاح الاطلاع والقراءة والثقافة ، بعد أن وصلت إلى هدفك لا تنس أنك في مسارعة وفي سباق ، بعض الناس يعمل حتى يصل إلى المال ثم يتلفه ويضيعه ، فهو نسي ، سارعوا إلى ، ويسارعون في ، فلو راعينا إلى ، وفي ، لكان الذي وصل في تجارته إلى قمة المكسب يحافظ على هذا المكسب .

وآية رابعة في سورة الحديد : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [الحديد : ٢١] ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾ ، أي إلى عمل يؤدي إلى المغفرة ، جاءت هذه الآية عقب آية نسمعها كثيرا ولا نلتفت إليها : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، الدنيا مدمومة ، ما قال الله إن اللعب مدموم ، ولا قال ممدوح ، إنما قال : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، ما قال العذاب للعب ، ولا قال المغفرة لمن ترك اللعب ، وإنما قال : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ ، كأن النفوس اتجهت وقالت : لا ، حرام ، كيف ! اللعب حرام ،

وكيف؟ التكاثر في الأموال ، كيف نعيش ، إن الله لم يحرم هذا ، فكأن الله يقول بعد هذه الآية : ﴿سَابِقُوا﴾ ، كأن الله يقول للمتسابق : احمل ما لا يعطلك عن سباق ، إن كنت تقدر أن تحمل مائة كيلو حديد وتجري ، احمل واجر ، عشرة كيلو حديد وتجري ، احمل واجر : ﴿سَابِقُوا﴾ أنت في سباق ، خذ من الله ما لا يعطلك عن السباق ، وخذ من اللعب ما لا يعطلك عن السباق ، وخذ من الزينة ما لا يعطلك عن السباق ، وأنت على حسب قوتك : ﴿سَابِقُوا﴾ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴿﴾ ، هذا الكلام يذكرنا بقانون السرعة ، وقانون السرعة هو المسافة على الزمن تساوي السرعة ، المسافة مائة ، والزمن عشرون ، فالسرعة خمسة ، غير ، المسافة مائة ، الزمن خمسة ، السرعة عشرون ، فكلما زادت السرعة قل الزمن ، كلما زاد سباقك وسرعتك في الخيرات لا تحتاج إلى عمر طويل ، ولا تقل يارب زد عمري ، ولا تقل يارب بارك في عمري ، يارب طول عمري ، يارب أعيش ، لا ، لا ! إذا زدت في السرعة لا تحتاج إلى زمن ، المسافة على الزمن تساوي السرعة ، المسافة من هنا إلى الجنة ، هذه مسافة السباق من هنا إلى جنة ربنا ، لنسعد هنا وهناك ، هذه المسافة ، وأنت وسرعتك ، من الناس من يمشي بطيئاً .

أأبيت سهران الدجى وتبته نوما وتبغي بعد ذلك لحاقي

إننا لم نحفظ من الهمزية إلا كلمة ، وفي العود تسبق العرجاء ، فقط هي عرجاء ، وما سبقت إلا لأنها عائدة ، لو مشيت في الطريق المستقيم ما سبقت ، ولكننا حفظنا من الهمزية وفي العود تسبق العرجاء ، ولكنهم يعودون أدراجهم .

دببت للمجد والساعون قد بلغوا حد النفوس وألقوا دونه الأزرا

وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من وافى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

المسافة على الزمن تساوي السرعة ، مسافتك من هنا إلى الجنة ، وزمنك غير محدود ، ليس في يدك علمه ، الآجال في يد الله ﷻ ، ومحدود عند الله ، وغير محدود عندك أنت ، فأنت لا تعلم أجلك متى ينتهي ؟ لا تعلم هذا ، لا تعلم الأجل متى ينتهي ، فزد في السرعة لتستغني عن الزمن وتقلله ، إذا زدت السرعة استغنيت عن الرقم الكبير في الزمن .

اغتنم شهر رمضان شهر السباق إلى الخيرات :

وإن رمضان شهر سباق إلى الخيرات ، في رمضان ينادي مناد من قبل الله ﷻ : يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، في رمضان تضاعف الحسنات ، فالفضيلة تساوي الفريضة ، من تقرب فيه بخصلة كان كمن أدّى فريضة فيما سواه ، ومن أدّى فيه فريضة كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه ، في رمضان يسلسل شيطانك أنت ، حيث يطلب منك الشيطان مطاوعته فتقول له : لا ، لا . . . ! فيقف الشيطان مكتوف الأيدي ، عجباً ، وبذلك يمكنك أن تغلب شيطانك شهراً ، طاوعت شيطانك دهرًا ، فخالف شيطانك شهراً ، وكتفه وسلسله ، وثبطه ، كان رسول الله ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، كان يجد ويجتهد ويشمر عن ساعد الجد ، ويشد المثزر ، وكان رمضان شهر سباق عند الصحابة ، سباق إلى الخيرات ، يقول ابن حزم رحمه الله : لو سلمنا أن الإنسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، فإنه يحتاج من يزيل له عقبات الطريق .

أنا مسافر ، سائق القطار يحتاج إلى ورقة تضمن له أن الطريق خال (أوتوماتك) هنا الكهرباء أوتوماتك ، يبين له أن الطريق خال إلى

القنيطرة ، وهكذا نحتاج إلى إزالة العقبات ، وإلى حفظ الطريق ، فلو سلمنا أن الإنسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، من الذي يزيل له عقبات الطريق ؟ جاء القرآن يأمر الرسول ﷺ ويقول له : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝۱ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝۲ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝۱ مَلِكِ النَّاسِ ۝۲ ﴾ إِلَهِ النَّاسِ ۝۳ ﴾ [الناس : ١-٣] ، والرسول ﷺ كان يستعيذ دائما بالله من الفقر والجوع ، ويستعيذ بالله من ضلع الدين وغلبة الرجال ، والقرآن الكريم يبين هذا كله فيقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] ، هذا سيدنا سليمان ، يقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ ، نريد أن نبحث في كلمة أوزعني : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ ﴾ ، فسليمان متسابق إلى الخيرات ، ولكنه يحتاج إلى مدد من الله ، يحتاج إلى حفظ الطريق وإزالة العقبات ، وزع ، كف ، قال ابن عباس : أوزعني : ألهمني ، وزع الثلاثي معناه ، كف ، أوزع معناه أغراه به ، وكف عنه كل شيء آخر يعطله ، وألهمه : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ ، ألهمني واجعلني مغرئ بشكرك ، وكف عني ما يعطلني ، إذن وزع الثلاثي معناه الكف ، وأوزع الرباعي معناه الإلهام والإغراء ومنع العوائق ، هكذا في الصحاح وكتب اللغة ، فسليمان يطلب من ربه ، ويقول له : كف عني ما يعطلني لأني في سباق ، رب أوزعني ، ألهمني يارب لأني في سباق ، رب ألهمني ، وفقني لشكر نعمتك يا أرحم الرحمين .

* * *

المحاضرة الثامنة والخمسون

من مظاهر رفع الحرج عن الأمة

في كتاب العتق في «صحيح البخاري» حدثنا الحُمَيْدي ، حدثنا سفيان حدثنا مسعر عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورُها ما لم تعمل أو تكلم» هكذا ، وأخرجه البخاري رحمته الله ضمن كتاب الطلاق عن شيخه مُسلم بن إبراهيم الأزدي الفراهيدي عن هشام الدستوائي عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة بلفظ : «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل وتتكلم» .

وأخرجه أيضا في كتاب الأيمان والنذور عن شيخه خلاد بن يحيى بن صفوان السلمي عن مسعر عن قتادة عن زرارة ، الكل بلفظ التحديث عن أبي هريرة يرفعه ، قال : «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم» . هكذا تردد مسعر في هذه الرواية بين «وسوست» و«حدثت» ، بينما في رواية هشام : «حدثت» ، وفي رواية سفيان : «وسوست» بدون تردد .

أما الإمام مسلم فقد أخرجه في «صحيحه» ضمن كتاب الإيمان من طريق أبي عوانة عن قتادة ، ومن طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظين مُتحدٍي المعنى متقاربي اللفظ ، حيث جاء في الطريق الأولي «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها (أو أنفسها) ما لم يتكلموا أو يعملوا به ، وفي اللفظ الثاني (إن الله ﷻ تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به .

كما أخرج هذا الحديث أصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه الطبراني في مُعْجَمه الكبير عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنه . ويلاحظ أنه لا يوجد فرق يُذكرُ بين ألفاظ الحديث عند البخاري ومسلم ، إلا ما جاء في اللفظ الأول عند البخاري موضوع حديثنا حيث جاءت هناك كلمة شبه الظرف وهي قوله : لي ، بعد قوله : تجاوز ، إن الله تجاوز لي ، هذه الزيادة من الثقة مقبولة ، أفادتنا فائدة وهي أن هذا التجاوز كان من أجل رسول الله ﷺ وكرامة له ، وعليه فهذا التجاوز من خصوصيات هذه الأمة المحمدية .

وقد نقل أبو عبد الله محمد بن خليفة الأبي المالكي عن ابن رشد وغيره القول بالتخصيص ، وأن هذا من خصوصيات هذه الأمة .

ويُحَسِّنُ بنا قبل التعرض لشرح الحديث أن نترجم لرجال سنده عند البخاري في كتاب «العتق وفضله» ، ابتداء من شيخ البخاري الحميدي .

الحميدي هذا اسمه عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبد الله أو عبيد الله الأسدي المكي ، صحب ابن عُيَيْنَةَ تسع عشرة سنة ، وتفقه بالشافعي وقال فيه أبو حاتم : ثِقَّةٌ إمامٌ ، أثبتُ الناسِ في ابن عيينة ، مات رحمته الله سنة تسع عشرة ومائتين (٢١٩هـ) .

أما سفيان : فهو ابن عُيَيْنَةَ بن أبي عمران الهلالي أحد أئمة الإسلام ، قال ابن وهب في حقه : ما رأيت أعلم بكتاب الله من ابن عيينة ، وقال الشافعي : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز ، مات رحمته الله سنة ثمان وتسعين ومائة (١٩٨هـ) .

أما مسعر فهو ابن كلداس بن ظهير بن عبيدة الهلالي الرُّؤَاسِي ، كُنِيته أبو سلمة الكوفي ، أخذُ الأعلام ، قال القَطَّان : ما رأيت مثله . كان من

أثبت الناس ، وقال وكيع ، شكُّه كيقين غيره . مات رَحِمَهُ اللهُ سنة ثلاث وخمسين ومائة (١٥٣هـ) .

أما قتادة فهو ابن دعامة السدوسي ، كنيته أبو الخطاب البصري ، أحد الحفاظ والأئمة الأعلام ، قال ابن المسيب : ما أتانا عراقي أحفظ من قتادة ، مات رَحِمَهُ اللهُ سنة سبع عشرة ومائة (١١٧هـ) وقد احتج به أرباب الصحاح .
أما زرارة بن أوفي الحرشي فكنيته أبو حاجب البصري ، كان قاضيا بالبصرة ، وثقه النسائي وابن سعد ، مات رَحِمَهُ اللهُ سنة ثلاث وتسعين (٩٣هـ) .

أما أبو هريرة فصحابي مشهور ، وحافظ مجبور ، دعا له رَحِمَهُ اللهُ ، ومما قيل في اسمه : إنه عبد الرحمن بن صخر الدوسي روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثا (٥٣٧٤) ، ذكر له البخاري ومسلم منها في الصحيحين أربعة وتسعين وأربعمائة (٤٩٤) ، اتفقا على ثلاثمائة وخمسة وعشرين (٣٢٥) وانفرد البخاري بتسعة وسبعين (٧٩) ، ومسلم بثلاثة وتسعين (٩٣) ، مات رَحِمَهُ اللهُ سنة تسع وخمسين هجرية (٥٩هـ) عن ثمان وسبعين سنة (٧٨هـ) .

وبعد ، سأتناول شرح هذا الحديث في النقاط التالية تباعا : شرح مفرداته - معناه الإجمالي - شواهد لمعناه ، مناقشة بعض حجج من يقول بالمؤاخذه على العزم المصمم ، الأحكام المستفادة من الحديث .

شرح مفردات الحديث:

أقول وبالله التوفيق :

لفظ التجاوز في الحديث معناه العفو والغفران ، من جازه يجوزه إذا عبر عليه ، استعير للسماح والعفو ، وقوله : أمتي : المراد به أمة الإجابة لا أمة

الدعوة فلا يدخل فيه الكفار ، ويدخل أيضا من استجاب له ﷺ ومن يستجيب له فيما بعد إلى يوم الدين . الوسوسة أو حديث النفس ، المراد بها الخطرات السيئة التي تَرُدُّ على نفس الإنسان ، أو يوردها على نفسه ، وهي مراتب خمسة ، نظمها بعضهم فقال :

مراتب القصد خمسٌ : هاجِسٌ ذكروا فخاطِرٌ فحديث النفس فاستمعا
يليه همٌّ فعزمٌ كُلُّها رَفَعَتْ سوى الأخير ففيه الأخذُ قد وقعا

واختصرها الأبي رحمه الله في ثلاث خَطَرَاتٍ : خطرات لا تقصد ولا تندفع ولا تستقر ، وهمٌّ ، وعزمٌ ، وهكذا نسمي المراتب الثلاث الأولى بالخطرات القهرية ، وما بعدها بالخطرات الاختيارية .

وقوله : صُدُوْرُها ، أو نفوسُها زوي بالنصب وبالرفع ، النصبُ على أنه مفعول به والفاعل هو صاحب الصدر ، فهو الذي يوسوس لنفسه ويُحدثها فله في ذلك اكتسابٌ واختيار . وعليه فالتجاوز انصب على الخطرات الاختيارية أي الهم والعزم ، فأولى الخطرات : القهرية ، وزوي بالرفع على أن الصدور والأنفس هي الفاعلة ، ولا دخل لأصحابها فيما يرد عليها ، وعليه فالتجاوز وقع على الخطرات القهرية التي لا يستطيع الإنسان منعها قبل ورودها على نفسه ولا دفعها ولا تستقر . قال القاضي عياض رحمه الله : الرواية بالنصب ، وأهل اللغة هم الذين يضمونها يريدون بغير اختيارها على حد قوله تعالى : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : ١٦] . ونقل الأبي عن ابن رشد أن الرواية بالوجهين : معنى الرفع ما وقع من الخطرات دون قصد ، ومعنى النصب ما حَدَّثَتْ به أنفسها أن تفعله ولم تفعله . قال : ويؤيد هذا - يعني النصب - لفظُ التجاوز ؛ لأنه إنما يكون عما اكتسب ، يعني لا عما يرد

على نفس الإنسان قهراً، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وقوله : ما لم تعمل أو تكلم ، إما أن يراد بهما ما يشمل العمل القلبي والكلام النفسي على حد قول القائل :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ومن الأعمال القلبية همُّ والعزم ، وعليه فالخطرات القهرية متجاوز عنها ، والاختيارية غير متجاوز عنها . نعم مرتبة الهم متجاوز عنها بدليل آخر ، ومرتبة العزم مؤاخذه علي حسب الخلاف الآتي ذكره ، وإما أن يراد بهما خصوص عمل الجوارح من بينها اللسان ، وعليه فالتجاوز منصب على الخطرات الاختيارية ولو بلغت إلى درجة العزم والتصميم .

قال ابن حجر العسقلاني رحمته الله : وظاهر الحديث أن المراد بالعمل عمل الجوارح ؛ لأن المفهوم من لفظ ما لم تعمل يُشعر بأن كل شيء في الصدر لا يؤخذ به سواءً توطن به صاحبه أو لم يتوطن ، وأقول : هذا فيما له صورة في الخارج كالزنا وشرب الخمر ، وأما ما لا صورة له في الخارج كالحسد والرياء وظن السوء بالمسلم ومحبة شيوع الفاحشة مما منتهاه العزم والتصميم فإنه معاقب ؛ لأن منتهاه هو العزم والتصميم .

إن الإسلام جاء لإصلاح أحوال الناس وتصحيح عقائدهم وبيان مناهج الخير والصلاح لهم ، سالكا بأمة سيدنا محمد صلوات الله وسلاماته عليه مسالك التيسير وعدم الحرج في التكاليف التي فرضها الله عليهم مع تخفيفها بقلتها ، ومع التدرج في شريعتها ، رافةً ورحمةً بالأمة المحمدية ، مصداقاً لقول الله تعالى يصف نبيه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وهكذا كانت أسس التشريع الإسلامي قائمة على ثلاثة مبادئ :

أولا : على عدم الحرج .

ثانيا : على قلة التكليف .

ثالثا : على التدرج في التشريع .

المعنى العام للحديث :

ومن مظاهر عدم الحرج ما تضمنه هذا الحديث الشريف ، فقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تعالى تجاوز وتسامح وغفر لأمة سيدنا محمد ﷺ عن الخطرات السيئة التي تختلج في نفوسهم ولو بلغت إلى درجة العزم والتصميم عليها ما لم تُعْمَلْ أو تُقْلَ ، سواء كانت تلك الخطرات قهرية أو اختيارية على حسب ظاهر هذا الحديث الشريف ، كل ذلك كان كرامة لرسول الله ﷺ فجزاه الله عنا خيرا .

شواهد لمعنى الحديث :

ويشهد لتجاوز الله سبحانه وتعالى لأمة سيدنا محمد ﷺ عن الخطرات القهرية حديث أبي هريرة وحديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، واللفظ لأبي هريرة عند الإمام مسلم قال : لما نَزَلَتْ على رسول الله ﷺ : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٨٤] قال : فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الرُكْبِ فقالوا : أي رسول الله ، كُلُّنَا من الأعمال ما نطيق ، من الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أُنْزِلَتْ عليك هذه الآية ولا نطيعها ، فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابي قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا : سمعنا

وأطعنا غُفرانك ربنا وإليك المصير فقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، فلما اقترأها القومُ وذلت بها ألسنتهم - أي لانتت ورطبَّت بكثرة ذكرها - أنزل الله ﷻ في إثرها : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، مدحهم الله سبحانه في هذه الآية .

ولما فعلوا ذلك نسخها الله ﷻ - هكذا يقول أبوهريرة - فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال : نعم ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال : نعم ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال : نعم ، ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال : نعم .

أقوال العلماء في آية ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ :
وفي رواية ابن عباس قال : قد فعلت . فقله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] إما أن يحمل على خصوص الخطرات القهرية وهي التي ظن الصحابة التكليف بها فلذلك ضجوا ، فلما امتثلوا أمر الرسول ﷺ نسخها الله بقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وهذا ما أكده القاضي عياض رحمه الله مستبعدا إنكار النسخ ، ومحتجا بكون الصحابي نص عليه ، والنسخ يُعرف بالنص عليه وبالتاريخ وهما معا هنا ، وإما أن يُحمل قوله تعالى : ﴿ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ على ما يعلم الخطرات القهرية والاختيارية ويكون الصحابة توهموا التكليف بالتحرج من الخطرات

القهرية ، فجاءت آية : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ لرفع هذا التوهم ، فكانت مخصصة لعموم الآية الأولى ، ولذلك تبقى الآية الأولى مُحْكَمَةٌ تتضمن التكليف بالتحرج من الخطرات الاختيارية .

قال المازري رَحِمَهُ اللَّهُ : النسخ إنما يكون عند التعارض وعدم إمكان الجمع ، والجمع هنا ممكن بأن تكون الآية الثانية مُخَصَّصَةٌ لعموم الأولى ، إلا أن يكونوا فهموا التكليف بالخطرات بقرينة الحال ، فحينئذ يكون نسخاً ؛ لأنه رفعُ ثابِتٍ مُسْتَقَرٍّ ، يعني كما تقدم في الاحتمال الأول .

وقد استصوب ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ القول بالتخصيص وبقاء الآية الأولى عامةً مُحْكَمَةٌ ، وذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ خمسة أقوال في الموضوع :

الأول : في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ قال : إنها منسوخة وهو القول الأول ، وهو قول جماعة من الصحابة .

والقول الثاني : أنها مُحْكَمَةٌ خاصة بمن يكتُم الشهادة المذكورة في الآية قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رِءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

القول الثالث : أنها مُحْكَمَةٌ خاصة بما يطرأ على النفوس من الشك واليقين يعني في الإيمان بالله وما جاء عن الله .

الرابع : أنَّها مُحْكَمَةٌ عامة في كل ما يطرأ على النفوس ، والله سبحانه وتعالى محاسب عباده ولكنه يغفر للمؤمنين ويعاقب الكافرين .

الخامس : أنها محكمة خاصة بما في وسع الإنسان التحرُّس منه وهو القول الذي سبق أن ذكرناه عن المازري رَحِمَهُ اللَّهُ واستصوبه ابن عطية .

بينما شرح العلامة الألوسي هذه الآية : ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ﴾ على أنها محكمة ، وعُنِي بها العَزْمُ على خبائث النفس من الحسد والرياء وظن السوء بالمسلم ، وكتمان الشهادة والكفر وما سوى ذلك فإنها مؤاخذٌ بها ، أظهرها صاحبها أو أخفاها ، وحمل حديث التجاوز على أعمال الجوارح .

وعليه فلا منافاة بين الحديث والآية . وعلى القول بالنسخ لا يحتاج أيضا إلى التوفيق بين الآية وحديث التجارة ، ويكون الحديث ورد إخباراً عما ورد بعد النسخ . ويجاب عن قال إن النسخ لا يدخل الأخبار بأن النسخ هنا توجه إلى النهي المفهوم من الخبر كما يدل عليه قول الصحابة : كلفنا ما نُطِيق وأنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . والحكم الشرعي المفهوم من الخبر يجوز نسخه بالاتفاق كما يدل عليه كلام العَصْد وغيره .

وعلى أي حال فهذا الحديث الشريف الوارد في سبب نزول قول الله تعالى : ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ٢٨٥] إلى آخر السورة شاهد على تجاوز الله تعالى عن الخطرات ووساوس الصدر القهرية .

ويشهد لتجاوز الله تعالى عن تحديث النفس الاختياري - أي مرحلة الهم والعزم - أحاديث رواها أبوهريرة وابن عباس وغيرهما ، منها حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه ﷻ : «قال الله ﷻ : إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها ، وإذا تحدّث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها ، فإذا عملها فأنا أكتبها عليه بمثلها» .

وفي حديث لأبي هريرة يقول الله لملائكته : «إن تركها -يعني السيئة- فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جراي» (أي من أجلي) .

ومنها حديث ابن عباس عند الإمام مسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه ﷻ : «إن الله كتب الحسنات والسيئات» ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده .

وهذا التشریف : حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة .

التحدث باللسان فيما هو من الأفعال يترتب عليه الثواب والعقاب :

فلفظ التحدث في حديث أبي هريرة : «إذا تحدث عبدي» إما أن يحمل على لفظ الهم الوارد في حديث ابن عباس «فمن هم بحسنة» إلى آخره ، ويكون موضوع الحديثين معاً محصوراً في حديث النفس ولو بلغ إلى درجة العزم والتصميم إذا لم يُعْمَل ولم يُقَلْ ، وإما أن يبقى على ظاهره فيشمل حديث النفس ويشمل التحدث بالكلام فيما هو من الأفعال كقوله في الحسنات : سأصلُ رحي ، سأحج ، وفي السيئات سأؤذي فلانا ولم يفعل شيئاً من ذلك . ففي الحسنات يُكْتَب حسنة ، وفي السيئات يغفر الله ذلك . ولكن الذي يظهر أن التحدث باللسان فيما هو من الأفعال يترتب عليه الثواب والعقاب ؛ بدليل ما أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه قال : «قال رسول الله ﷺ : إنما الدنيا لأربعة نفر : رجل أعطاه الله مالا وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيها رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤت به مالا فهو صادق

النية يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم الله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل ، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، فقلوه ﷺ في الرجل الثاني والرابع يقول : لو أن لي مالا...» إلى آخر الحديث ، يُشعر بأن كلا منهما يتحدث بلسانه عما ينويه قلبه .

كتابة السيئة المتروكة حسنة :

هذا وقد تكتب السيئة المتروكة حسنة ولو تركها لغير خوف الله كما هو ظاهر حديث ابن عباس رضي الله عنهما إذ لم يُقيد فيه الترك بشيء ، ويؤيده أيضا حديث أبي ذر الغفاري عند الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال : الكفُّ عن السيئة صدقة ، ولم يقيد الكف بسبب .

وجوز بعضهم حمل المطلق على المقيد أي إنما تكتب السيئة حسنة إذا تُركت لخوف الله ، وقيد بعضهم كتابة السيئة المتروكة حسنة بما إذا تركها وهو قادر على فعلها ، فإن تركها عجزا أو حياء فلا تكتب له حسنة ؛ لأن الإنسان لا يسمى تاركا إلا إذا قدر على الفعل ولم يفعل ، ونقل المازري رحمته الله عن أبي بكر الباقلاني رحمته الله أن بعض المتكلمين سئل عن ترك السيئة حياء من الناس فقال : لا تُكتب حسنة ؛ لأنه إنما حملة على تركها الحياء فقط .

قال القاضي أبوبكر : وهذا ضعيف لا وجه له ، وعليه فالقاضي الباقلاني رحمته الله يرى أن ترك السيئة يكتب حسنة ولو تركها لغير خوف الله . وهكذا تستوي المراتب المتقدمة لحديث النفس في عدم المؤاخذه بها حتى تقال أو

تعمل ، سواء كانت قهرية أو اختيارية على حسب ظاهر هذا الحديث الشريف : «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم» .

قال المازري رَحِمَهُ اللهُ : وهذا قول كثير من الناس لظاهر هذه الأحاديث . وذهب القاضي أبوبكر بن الطيب الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ إلى أن العزم على السوء أي توطين النفس عليه يؤاخذ به صاحبه ولو لم يفعله ، واستدل بحديث أبي بكرة نُصِّحَ بن الحارث الثقفي عند البخاري في كتاب الإيمان وكتاب الفتن : «أن رسول الله ﷺ قال : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، فقلت : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه» . قال القاضي : فإثمُه بالحِرْص .

ومعلوم أن موضوع هذا الحديث في القتال غير المشروع كالقتال مفاخرة وإظهارا للشجاعة ، ونحو ذلك ، أما في القتال المشروع كدفع الصائل وقاتل الفئة الباغية في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات : ٩] وقاتل قطاع الطرق والخارجين على الطاعة والجماعة وغيرهم فله نصوص تخصه .

وقول القاضي الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ : فإثمُه بالحرص ، أُجِيبَ عنه بأن اللقاء وإشهار السلاح فعلٌ ، وهو المراد بالحرص في قوله ﷺ : «إنه كان حريصا على قتل صاحبه» ، وفي رواية أخرى : «إنه أراد قتل صاحبه» . وعليه فلا حجة له قوية في هذا الدليل .

مناقشة بعض حجج من يقول بالمواخظة على العزم المصمم:

وما قيل من أن النبي ﷺ: علق الوعيد على الحرص وألغى إظهار السلاح فغير ظاهر، فلم لا يُحمَلُ الحرص في هذا الحديث على مجموع العزم والشروع في العمل؟ أي المحاولة، والمحاولة معاقبة شرعا وقانونا، غير أن القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ أيد ما ذهب إليه القاضي الباقلاني فقال بقول القاضي عامة السلف من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين، لكثرة الأحاديث الدالة على المواخظة بعمل القلب، ولكنهم قالوا: إنما يؤخذ بسيئة العزم لأنها معصية لا لسيئة المعزوم عليه لأنها لم تُفْعَلْ، فإن فُعِلَتْ كتبت سيئة ثانية، وإن كف عنها كُتِبَتْ حسنة لحديث إنما تركها من جرّاي، وهكذا يجعلون السيئة سيئتين، سيئة العزم وسيئة العمل، والله تعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠].

وأيد القاضي عياضا العلامة محيي الدين النووي وزاد قائلا: وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمواخظة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال: والآيات في هذا كثيرة.

وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها، والله أعلم.

ولكن العلامة الأبي رَحِمَهُ اللهُ لاحظ على النووي سوقه بعض الأمثلة السابقة في معرض الخلاف مع أنها ليست من الخلاف قائلا: العزم المختلف فيه ما له صورة في الخارج كالزنا وشرب الخمر، أما ما لا صورة له في الخارج

كالاعتقادات وخبائث النفس من الحسد ونحوه فليس من محل الخلاف ، فلا يحتج بالإجماع الذي فيه ؛ لأن النهي عنه في نفسه وقع التكليف به لأن غايته هو العزم والتصميم . وقد احتج من يعارض الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ بقول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] حيث انصبت المؤاخذة على كسب القلب بحسب ظاهر الآية . ولكن هذه الآية معطوفة على الآية قبلها ومرتبطة بها ، وهي قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] والأيمان اللاغية هي التي لا يقصد الحالف عقد اليمين بها ، بل ربما لا يقصد النطق بها وقد فسرتها مولانا عائشة رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهَا : هي قول الرجل : لا والله ، بلى والله ، كلا والله ، أي في أثناء كلامه في حال استعجاله ، وقد اعتمد هذا التفسير الشافعي رَحِمَهُ اللهُ قائلا : إنها التي شاهدت الوحي ، وفي رواية أنها ترفع هذا التفسير إلى النبي ﷺ . إِذَنْ فَعَطَفُ قول الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] على قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ يقتضي أن يكون معناه ولكن يؤاخذكم على الأيمان التي قصدتم عقد اليمين بها وواطأت فيها قلوبكم أُلْسَتَكُمْ ، هكذا فسرها الألوسي رَحِمَهُ اللهُ .

وعليه فالمؤاخذة انصبت على كسب القلب المقرون باللفظ كما قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ الآية [المائدة : ٨٩] . وأعيدت الآية في المائدة لِيُرْتَّبَ عليها بيان الكفارة ، وهكذا لا تقوم هذه الآية حجة على المؤاخذة بعزم القلب وحده على ما له صورة في الخارج ولم يفعل ولم يشرع في تنفيذه ، ومن انتصر لقول الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ العلامة القرطبي

ومحمد بن أحمد الأنصاري قال عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران : ١٣٥] قال : هذه حجة واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السُّنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب : إن الإنسان يؤاخذ بما وطن عليه بضميره وعزم عليه بقلبه من المعصية ، وأكد ذلك بقول الله تعالى في سورة الحج ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] وبقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم : ٢٠] وبحديث : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما»^(١) ، وبحديث «إنما الدنيا لأربعة نفر»^(٢) ، والجواب عن هذه الحجج ممكن ، فأقول وبالله التوفيق :

قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران : ١٣٥] موضوعة في العزم على العودة على الفعل أي على فعل الذنب -العزم على العودة إلى فعل الذنب بعد أن فعله وقبل التوبة منه- وهو المراد بالإصرار في هذه الآية : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ ... والإصرار على الذنب معاقب باتفاق ؛ لأنه كبيرة .

أخرج البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً : «كل ذنب أصر عليه العبد كبير ، وليس بكبير ما تاب منه العبد» .

وأخرج الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ارحموا ثرَحَمَوا ، واغفروا يُغْفَرْ لَكُمْ ، ويلٌ لأقْبَاعِ القول ، ويل للمصرين» وأخرج أبو داود والترمذي وأبو يعلى الموصلي

(١) أخرجه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) عن أبي بكرة .

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ٢٣١) ، والترمذي (٢٣٢٥) وغيرهما عن أبي كبشة الأنباري . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

بسنده إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة» ، والمراد بالاستغفار التوبة النصوح ، وأما أن يستغفر الإنسان بلسانه وقلبه مصرّاً على العصيان فكالمستهزئ بربه ، ويل له من عذابه .

وعلى أي حال فموضوع الخلاف في العزم على السوء الذي لم يفعله بعد أو فعله وتاب منه ثم عزم عليه مرة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] هذا خاص بالحرّم المكي تعظيماً لشأنه ، أخبر الله تعالى أنه يعاقب فيه على نية السوء فلا يحتج به للمعاقبة على العزم على السوء في غير الحرم المكي ، وإلا لما كان لاختصاص الحرم المكي بهذا التعظيم مزية .

وقوله : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم : ٢٠] إشارة إلى قصة أبناء الرجل الصالح الذين حلفوا وتعاهدوا على أن يذهبوا إلى الجنة التي تركها لهم والدهم لقطف ثمارها في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الفقراء والمساكين حتى لا يؤدوا فيها حق الله ولم يقولوا : إن شاء الله ، فعاقبهم الله على ذلك قبل أن يصبح الصباح ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم : ١٧ - ٢٠] أي كالليل الأسود وكالرماد الأسود .

قال القرطبي : في هذه الآية دليل على أن العزم يؤاخذ به الإنسان ؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم . والجواب عن هذه الآية من وجهين :

الوجه الأول : أنهم عزموا وحلفوا على ما بيتوه ، وفي هذا عزم وقول ، وقد تقدم أنه مؤاخذ .

الوجه الثاني : أن هذه المؤاخذة بالعزم المصمم وإن لم نلاحظ فيها اليمين فإنها من الإصر الذي كان على من قبلنا ، والتجاوز عن حديث النفس من خصوصيات هذه الأمة المحمدية . وأما حديث «إذا التقى المسلمان بسيفيهما» فقد سبق أن نقلنا الجواب عن ذلك وأن المراد به مجموع العزم مع إشهار السلاح .

ما يستفاد من الحديث :

وأما حديث «إنما الدنيا لأربعة» فقد تقدم أن التحدث باللسان فيما يتوقف حصوله على فعل الجوارح يدخله الثواب والعقاب أي يثاب عليه في الحسنات مع الهم فأحرى مع العزم ، ويعاقب عليه في السيئات مع العزم عقاب القول .

فيترجح بذلك عموم عفو الله وتجاوزه لأمة محمد ﷺ عن جميع مراتب الخطرات ، تيسيراً عليها ورحمة بها .



نور من القرآن والسنة

١٦٦

المحاضرة التاسعة والخمسون

الله لا إله إلا هو الحي القيوم

قال الله جلت عظمتة ، وتعالى كلمته : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

من العلوم المذكورة في القرآن :

من سنة الله العلي العظيم في هذا الكتاب المهيمن الحكيم أنه سبحانه يأتي بأنواع ثلاثة من العلوم ، وهي علم التوحيد وعلم الفقه والأحكام ، وعلم القصص والأنباء ، فيجمع سبحانه بين هذه الثلاثة ويضيف بعضها إلى بعض ، لربط العلاقة بين الحياة والعقيدة ، ولعقد الصلة بين الروح والمادة ، وذلك ما يكيف الطبيعة البشرية ويجعلها تتصل بالله الذي خلقها وخلق ما سواها من طبائع الأكوان ، كما يجعلها تتصل بقانون العدل والمساواة في عالم الإنسان .

وبالإضافة إلى ذلك فهذا المأخذ هو السنن الأبين ، وهذا المنهج هو الطريق الأحسن ؛ لأن التنقل في موضوع واحد يكاد يشبه الكلام المكرر المعاد ، وهو ما يوجب السآمة والملل ، ويسبب الإعياء والكلل ، فأما إذا تنقل الإنسان من مكان إلى مكان ، ومن مقام إلى مقام ، ومن معرفة إلى معرفة ، فإنه ينشرح صدره ، ويستريح قلبه ، كالذي سافر من أفق إلى أفق ، ومن عالم إلى عالم ، فإنه يمتع طرفه بما يرى من معالم الزينة ومحاسن الطبيعة ، ويلقح فكره بما يستفيد من المواهب العلمية والحقائق التاريخية .

وأما القصص القرآني فإنه يعود في النظر الصحيح إلى مادة الترغيب والترهيب ، ويكون خادما للتكليف بقسميه ، بمعنى أنه إما أن يكون مقررا لشواهد الإيمان والتوحيد ، وإما أن يكون مؤكدا لقواعد الفقه والأحكام ، ولما ذكر الله سبحانه من علم القصص ، وبين علم الأحكام ما فيه العظة والعبرة ، وما فيه الحكمة والمصلحة ، ولما حكم الله سبحانه أن الكافرين هم الظالمون ، ظلموا الحق فأنكروه وشتموه ، وظلموا أنفسهم فأوردوها موارد السوء ، وظلموا غيرهم فصدوهم عن الحق ، وفتنهم عن الإيمان ، لما ذكر الله ذلك ، ولما حكم الله بذلك ؛ ناسب أن ينبه العباد في سياق جديد ، على وحي الإيمان الصحيح الذي هو أفراد الحق بصفات الحق ، وكلمات الصدق ، كما درج عليه المرسلون من أول الخلق إلى آخر الخلق ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

وبعد ، فإن الله جل وعلا خلق الإنسان في أحسن قامة وأجل صورة ، وميزه بالمنطق والبيان ، وكلفه بإقامة العدل والميزان ، وأودع فطرته الأولى التي لم تتعود فتنة التقليد ، ولا بدعة التعطيل ، والتي لم تتبدل بداء الجمود ، ولا بداء الجحود ، أودعها سبحانه الشعور بمعرفته ، والإيمان بحقيقته ، وأنه سبحانه مستحق لكل عز وكمال ، وبعيد من كل نقص ومحال ، وأن الكمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء ، كل ذلك قائم بذاته ، يستحيل أن يكون سبحانه على غير ذلك ، وأن الحياة والوجود ، والعلم والاطلاع ، والإرادة والمشية ، والقدرة والقوة ، والسمع والبصر ، والرحمة والرأفة ، والفضل والامتنان ، والجود والإحسان ، كل ذلك قائم بذاته ، ولازم لحقيقته .

وهكذا أخبر النبي الأكرم ﷺ أن كل مولود من المواليد البشرية يولد على هذه

الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي فطرة الإيمان والتوحيد . فقال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١) ، فإذا تعهد الناس هذه الفطرة في أنفسهم وفي ذرياتهم بعد وجودهم وتكليفهم بما جاءهم من العلم ، تمت نعمة الله عليهم ، وأصلحوا الأرض بإيمانهم ومعرفتهم ، وإن تناسوها واتبعوا الأهواء ، أو ما وجدوا عليه آباءهم من الأخطاء ، تغيروا عن حالتهم ، وتبدلوا عن فطرتهم ، وأصبحوا يحيون حياة البدعة لا حياة الفطرة : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة : ٤١] ، والبشرية بدون إيمان بالله الواحد لا يعرف لها قصد مستقيم ، ولا غاية محددة ، ولا يوقف لها على قرار ترتكز عليه وتتجمع حوله : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِدُنْيَاكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَزِيُّ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

معرفة الله :

معرفة الله هي التصديق بوجوده ووحدانيته ، والاعتراف بقدرته وقيوميته ، والالتزام بطاعته وعبوديته ، ولكن على وجه لا يقبل الشك ولا التشكيك والتوهم ، والإيمان بالله كذلك هو نقطة التحول من عبوديات شتى إلى عبودية واحدة يتحرر بها الإنسان من كل عبودية لغير الله ، ويتساوى بها في الحقوق والواجبات مع غير الله ، فالعبودية لله وحده ، والمساواة مع غير الله بإطلاق هي ركن الحضارة وحصن الكرامة ، كما أن ذلك يعتبر انطلاقا من حياة الفوضى والاضطراب إلى حياة النظام والاستقرار ، ومن حياة التفكك والوحشة إلى حياة الجمع والألفة .

(١) سبق تخريجه .

وقد رأيت أن أذكر كلاما مفيدا ومختصرا لحجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في معرفة الله ، قال : الحق كما قال أبو القاسم الجنيد رَحِمَهُ اللهُ ، أنه لا يعرف الله إلا الله ، ولذلك لم يعط سبحانه أجل خلقه إلا أسماء حجبها ، فقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] ، فوالله لا يعرف الله غير الله .

قيل لذي النون المصري رَحِمَهُ اللهُ ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهي ؟ فقال : أشتهي أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة ، ومثل هذه العبارة تشوش قلوب الضعفاء لعجزهم عن فهم مثل هذا الكلام .

ثم قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ : وأنا أقول : لو قال قائل أعرف الله كان صادقا ، ولو قال : لا أعرف الله كان صادقا ، ومعلوم أن النفي والإثبات لا يصدقان معا ، بل يتقاسمان الصدق والكذب ، فإذا صدق أحدهما كذب الآخر . ولكن إذا اختلف وجه الكلام تصورت الصدق في القسمين معا ، فمن قال يعرف الله ، معناه أنه يعرفه بأسمائه وصفاته ، ومن قال لا يعرف الله ، معناه أنه لا يعرفه المعرفة الحقيقية المحيطة بكنهه صفات الربوبية ، ثم قال : ولو قال قائل : ما السبيل إلى معرفة الله ؟ كان الجواب لو قال صبي : ما السبيل إلى معرفة لذة الوقاع وكيفية إدراكها ؟

قلنا هاهنا سبيلان أحدهما أن نصف له ذلك حتى يعرفه ، والآخر أن يصبر حتى تظهر فيه غريزة الشهوة ، ثم يباشر الوقاع فيعرف ذلك ، وهذا السبيل الثاني هو المفضي إلى حقيقة المعرفة ، وأما السبيل الأول فإنما هو إيهام وتشبيه ، إيهام أن ذلك الأمر طيب على الجملة ، وتشبيه لذة الوقاع بحلاوة السكر مثلا ، ومهما ظهرت فيه الشهوة وباشر الوقاع علم قطعا أن ذلك خلاف ما كان قد توهمه ، فكذلك لمعرفة الله سبيلان أحدهما قاصر ، والآخر مسدود ، أما القاصر فهو معرفة الأسماء والصفات ، وطريقة

التشبيه بما عرفناه من أنفسنا ، فإننا عرفنا أنفسنا قادرين أحياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله تعالى فعرفناه بالدليل ، وفهمناه فهما قاصرا كفهم الصبي للذة الوقاع لما وصف له من حلاوة السكر .

والسبيل الآخر هو أن يصبر العبد حتى تحصل له صفات الربوبية كلها ، ويصير ربانيا كما صبر الصبي أن يبلغ فيدرك لذة الوقاع ، وهذا السبيل ممتنع ومسدود ؛ لأن صفات الربوبية لا تحصل لغير الله ، وإذن فيستحيل أن يعرف الله على الحقيقة غير الله ، كما يصدق قولنا : لم يحصل أهل السماء والأرض من معرفة الله إلا على الأسماء والصفات ، كما يصدق قولنا : إن غاية معرفة العارفين بالله هي العجز عن الوصول إلى المعرفة الحقيقية ، وهذا القدر هو الذي أشار إليه الصديق الأكبر رحمته الله بقوله : العجز عن الإدراك إدراك ، بل هو الذي عناه سيد البشر صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »^(١) ، ومعناه ، لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك ، وإنما أنت المحيط بها وحدك .

على أن معرفة الأسماء والصفات يتفاوت فيها الناس على حسب ما لهم من مقامات ودرجات ، وعلى قدر ما ينكشف لهم من حقائق المعلومات وعجائب المقدورات ، وبدائع الآيات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أعلمكم بالله وأتقاكم »^(٢) ، روى الإمام الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة »^(٣) ، ولا مفهوم

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٩٢٦) ، والحاكم في «المستدرک» (٦٤٧/١) وغيرهم عن جابر بن عبد الله . وأخرجه النسائي (٢٨٠٥) بلفظ : «إني لأبركم وأتقاكم» . وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . وهو بنحوه في «الصحيحين» من حديث عائشة .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة .

للعدد، ولا دلالة للعدد على حصرها، كما أنه لا يدعي المولى سبحانه بغيرها: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، هذه الآية الكريمة تعرف بآية الكرسي، لما فيها من وجود ذكره، وذلك من تسمية الشيء باسم بعضه، وهي أفضل آيات الذكر الحكيم، لاشتغالها على ما لم تشتمل عليه آية من الآيات الإلهية، وقبل الدخول في صلبها وصميمها، وقبل الاستسقاء من ينابيعها والاستشفاء بوحي معانيها، نشير ولو بنزر من القول إلى بعض ما ورد في فضلها، وما جعلها تفوز بوحي التنبيه والتنويه، وتحول بين الإنسان وبين عدوه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وآية عداوة الشيطان هذه توحى بتأكيد أنه ينبغي أن نعلم أن الشيطان عدو، وأن نعمل بمقتضى هذا العلم فتتخذ عدواً، فهي آية علمية وعملية، والشيطان كل عات و متمرد، يصد الناس عن الحق والإيمان، ويدفعهم إلى ساحة الفسوق والعصيان.

أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أوى إلى فراشه وقرأ آية الكرسي، لن يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح»، وأخرج الإمام مسلم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ آية الكرسي في بيته، لا يقربه شيطان ولا غيره»، وأخرج الإمام النسائي والحاكم من حديث أبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ آية الكرسي حين يمسي، حفظ من الشياطين

حتى يصبح ، ومن قرأها حين يصبح حفظ منهم حتى يمسي» ، وهذه الأحاديث الثلاثة تبين بوضوح أن آية الكرسي هي الحصن الحصين من شرور ومكايد الشياطين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١ ، ٢] ، وشر ما خلق ، هو إبليس وذرية إبليس ، كما قال : ﴿ افْتَحِذْهُنَّ وَذُرِّيَّتَهُنَّ أَوَّلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وأخرج الإمام البخاري في «تاريخه» من حديث ابن الأسقع البكري رحمته الله أن النبي ﷺ قال : «أعظم آية في القرآن : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾» ، وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال : «آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله» . ولعل الأعظمية والأفضلية ترجع إلى عظم الأجر وكثرة الثواب لا إلى أن القرآن بعضه أفضل من بعض .

وهناك أحاديث غير هذه وردت في فضلها ونفعها ، وفي قراءتها وتلاوتها دبر كل صلاة ، من ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب رحمته الله ، أنه قال : قال النبي ﷺ : «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ومن ظن بالله خيرا وهو لا يشرك به شيئا وجده ، ومن أراد الله به خيرا هيأ له ، وتقبل عمله ، والله ذو الفضل العظيم»^(١) .

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٩٢٨) ، والطبراني في «الكبير» (٧٥٣٢) ، وابن حبان في «صحيحه» كما في «الترغيب» (٢٦١ / ٢) وقال المنذري : «رواه النسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح ، وقال شيخنا أبو الحسن : هو على شرط البخاري وابن حبان في كتاب الصلاة وصححه» . وقال الهيثمي : (١٠٢ / ١٠) : «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» بأسانيد وأحدها جيد» . فالحديث قوي بكلا طريقيه .

سبب فضل آية الكرسي:

هذا وقد قال صاحب الانتصاف في حاشية الكشف: ثبت لآية الكرسي هذا الفضل العظيم لاشتغالها على سبعة عشر موضعاً فيها اسم الله تعالى، إلا أنه لا يتبين للعادين إلا ستة عشر، وهي ما بين ظاهر ومضمّر، وأما السابع عشر فإنه لا يظهر إلا للحذاق لدقة استخراجِه:

الأول: الله، الثاني هو، الثالث: الحي، الرابع: القيوم، الخامس: ضمير لا تأخذه، السادس: ضمير له، السابع: ضمير عنده، الثامن: ضمير إلا بإذنه، التاسع: ضمير يعلم، العاشر: ضمير من علمه، الحادي عشر: ضمير شاء، الثاني عشر: ضمير كرسيه، الثالث عشر: ضمير ولا يئوده، الرابع عشر: وهو، الخامس عشر: العالي، السادس عشر: العظيم.

فهذه جملة الأسماء البينة التي تضمنتها آية الكرسي، وأما ما خفي منها، وهو السابع عشر فهو الضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بد للمصدر من فاعل يظهر عند الفك، بأن يصير: ولا يئوده أن يحفظهما هو، أي الله، قال: وقال بعض الشيوخ: يمكن أن يعد في الآية كل واحد من الأسماء المشتقة باثنين؛ لأن كل واحد منها يتحمل ضميراً ضرورة كونه مشتقاً، وإنما يعود الضمير إلى الله تعالى، وهي باعتبار ظهورها أسماء، فيكون جملة العدد واحداً وعشرين اسماً من الأسماء، ولا يقال إن شدة الارتباط بين الوصف والضمير يجعل الكلمتين كلمة واحدة بل هما كلمتان، إحداها لفظية والأخرى مطوية، إحداها معربة والأخرى مبنية، وبهذا يظهر إن شاء الله وجه تفضيل آية الكرسي على ما عداها، وأنها اشتملت على ما لم تشتمل عليه أي آية سواها.

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، الله : اسم يدل على باري هذا الكون الموجود ، وعلم على الإله الواحد المعبود ، ولا إله إلا الله : كلمة الإيمان والأمانة ، وكلمة الإسلام والسلامة ، وكلمة العزة والكرامة ، وكلمة التقوى والاستقامة ، وكلمة البراءة من الشريك والنديد ، وكلمة الصدق والصفاء والتوحيد .

أنواع التوحيد:

التوحيد نوعان : توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية يستلزم صفات الكمال ، وتوحيد الربوبية يستلزم صفات الأفعال ، وتحقيق توحيد الألوهية ، قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة : ٥] ، كما يحقق توحيد الربوبية ، قوله تعالى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ولقد اشتملت سورتا الإخلاص ، وهما : سورة الكافرون ، وسورة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، على التوحيد بجملته ، اشتملت : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، على توحيد العلم والاعتقاد ، الذي يتضمن إثبات صفات الكمال ، ونفي ما لا يليق به سبحانه وتعالى من كفر وشرك ، ومن ولد ووالد ، ومن شبيه ونظير ، واشتملت سورة الكافرون ، على توحيد القصد والإرادة ، أو توحيد الدعاء والعبادة ، وبذلك أخلصت السورتان التوحيد لله تعالى ، ولذلك كان ﷺ يفتح النهار بهما في سنة الفجر ، ويختم النهار بهما في سنة المغرب .

والله سبحانه هو الموجود بذاته ، والغني بذاته ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٧] ، ﴿يَسْأَلُ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٨] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر : ١٥-١٧] ، والله سبحانه وتعالى هو الإله الواحد ، المعبود بحق في الأرض وفي

السماء، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، والله سبحانه هو رب السموات والأرض، وقيوم السموات والأرض، ونور السموات والأرض، وبديع السموات والأرض: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، والله سبحانه أعظم وأكبر من أن يحيط به الفكر، أو يرقى إليه الإدراك، والعجز عن الإدراك إدراك، والخوض في ذات الله إشراك: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ومن ثم كان أول صفات المؤمنين بالله، والمتقين لله: الإيمان بالغيب، أي الإيمان بما وراء الحس، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

والله سبحانه هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، أسماؤه سبحانه وتعالى كلها حسنى، وصفاته كلها علا، وأقواله كلها صدق، وأفعاله كلها خير، وأحكامه كلها عدل، والله سبحانه أعلم عباده بألوهيته وربوبيته ورحمته، وعرفه المؤمنون بأسمائه وصفاته، إلا أنهم تفاوتوا في هذه المعرفة، على حسب عنايته بهم، ورعايته لهم سبحانه، وعبدوه لألوهيته، واستعانوا به لربوبيته، وسألوه لرحمته، إلا أنه على الرغم من براهين الوجود، وآيات الشهود، وما بذل من الجهود، فقد أساء الناس الأدب إلى خالقهم، وتقربوا إليه بأصنامهم وأوثانهم، فتعدوا بذلك حدود أحكامه، وأعرضوا عن الحق، واستجابوا للشيطان، وما قدره الله حق قدره، وما عبدوا الله حق عبادته، وأولئك هم الكافرون، والكافرون هم الظالمون.

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، هذا الدين الخالص ، والتوحيد القائم الذي قررته آية الكرسي ، وآية الإخلاص ، يجب أن يستقر في الصدر ، وأن يظهر أثره في الحياة ، وشريعته في المجتمع ، والذين يحاربون حقيقة الإيمان ، ويعارضون منهج الإيمان ، ويعادون شريعة الإيمان إنما هم أعداء البشرية ، وأظلم الظالمين للإنسانية ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدَىٰ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] .

فالإيمان بالله ، والتوحيد لله ، وقبول أمر الله ، وطاعة حكم الله ، هي أساس إصلاح الأرض وما عليها ، ولا سبيل لصلاح الأرض ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة لرسوله لا لغيره ، فإن الله تعالى أصلح الأرض بتوحيده وشرائعه ، ونهي عن إفسادها بالشرك ومخالفة سفرائه ، كما قال : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، وكل ميسر لما خلق له : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ ﴿١﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٢﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٤﴾ وَأَمَّا مَنْ خَلَجَ وَأَسْتَفْنَىٰ ﴿٥﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿٧﴾ [الليل: ٤-١٠] .

ومن تدبر أحوال هذا العالم ودقق النظر فيها ، وجد أن كل نجاح وفلاح في الأرض سببه التوحيد والطاعة ، وأن كل شر وفساد ، وكل فتنة وبدعة ، سبب ذلك هو فقدان التوحيد والطاعة : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، كل صفة من الصفات التي تضمنتها آية الكرسي ، تمثل قاعدة من قواعد الإسلام ، ويقوم عليها صرح الإسلام ، ومنهج تصور الإسلام ، فالوحدانية التي لا مجال فيها لأي

انحراف مما طرأ على الديانات السابقة كعقيدة التثليث التي ابتدعتها
المجامع الكنسية ، وكالأساطير التي ألصقتها بالتوحيد العقائد الوثنية ،
هذه الوجدانية القائمة المستقيمة ينشأ عنها الاتجاه إلى الله وحده ، في
القصد ، وفي العبادة ، وفي المعاملة ، فلا يكون الإنسان عبداً إلا لله : ﴿إِنْ
كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٦﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٧﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم : ٩٣ - ٩٥] .

فلا يكون الإنسان عبداً إلا لله ، ولا يتجه بالعمل إلا لله ، ولا يلتزم
بالطاعة إلا لله ، وما يأمره الله به من الطاعات ، كما ينشأ عن ذلك قاعدة
السيادة لله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام : ١٨] ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١] .

وقاعدة الحكم لله : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾
[الأنعام : ٥٧] فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ، ويكون تشريع العباد مأخوذاً
ومستفاداً من تشريع الله .

كما ينشأ عن ذلك قاعدة استمداد القيم والموازين من شريعة الله ، فلا
اعتداد بقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان شريعة الله ، ولا اعتداد
بوضع أو إصلاح أو تنظيم أو تشريع يخالف منهج شريعة الله .

كما أنه لا سيادة ولا حاكمية إلا لله ، وشعوب الأرض كلها مستخلفة من
الله ، وهكذا كل ما يترتب على معنى الوجدانية من مشاعر النفس والضمير ،
ومآخذ الحياة والمصير : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَهُوَ الْكَبِيرُ بَاءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية :
٣٦ ، ٣٧] .

معنى الحي :

قال الله جل ذكره : ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، الحي اسم من أسماء الله الحسني ، يقال حيا يحيى ، ضد مات ، ويقال أحياه الله ، جعله حيا ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَيُّهُمْ أَلْأَرْضُ أَلْمَيَّةٌ أَحْيَيْنَهَا﴾ [يس : ٣٣] .

ومن ذلك إحياء الموات عند الفقهاء ، ويقال استحياه ، تركه حيا ، ومن ذلك قوله تعالى عن فرعون : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٤] .

ويقال استحياء منه ، احتشم ، والحياء شعبة من شعب الإيمان ، والحياء التي يوصف بها الإله الواحد هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر ، كحياة الخلق الموهوبة لهم من الخالق ، وهي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبتدئ من شيء ، ولا تنتهي إلى شيء ، فهي مجردة عن الزمان الذي يصاحب الحياة المحدودة بالبداية والنهاية ، فالحي من لا أول لحياته ولا آخر لبقائه .

وبذلك يتفرد المولى سبحانه بالحياة المطلقة ، المجردة من خصائص الحياة التي تعودها الناس : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

معنى القيوم :

والقيوم اسم من أسماء الله تعالى ، وهو فيعول مبالغة في القيام ، بمعنى أن الله تعالى قائم بنفسه ، ومقوم لغيره ، وكونه قائما بنفسه يقتضي الوحدة أي نفي الكثرة المتصلة ونفي الكثرة المنفصلة ، كما يقتضي نفي التحيز الذي يستتبع نفي الجهة والمكان .

وكونه تعالى مقوما لغيره يقتضي حدوث كل ما سواه من الأجسام والعقول والأرواح والنفوس ، كما يقتضي استناد الكل إلى قدرته ، وانتهاء الأسباب والمسببات إلى حكمه ، وذلك ما يوجب عقيدة القضاء والقدر ، والإيمان بالخير والشر .

ومن هذا البيان المتواضع يتبين لنا أيضا شرف هذه الآية الكريمة التي تكاد تحيط بمباحث العلم الإلهي ، فيترجح القول أن الحي القوم أعظم أسماء الله تعالى ، ولقد كان عبدالله بن عباس رضي الله عنه يقول : إن أعظم أسماء الله تعالى : الحي القيوم .

وروى أبو داود والترمذي من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم ، ثم قرأ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران : ٢ ، ٣] ، وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اسم الله الأعظم في ثلاث سور ، في البقرة ، وفي آل عمران ، وفي طه » .

قال العلماء : هو الحي القيوم ؛ لأنه في البقرة يوجد في آية الكرسي ، وفي آل عمران يوجد في أولها ، وفي طه ، يوجد في قوله تعالى : ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه : ١١١] ، وروى ابن حبان في « صحيحه » والإمام أحمد في مسنده ، والترمذي في « جامع » ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع رجلا يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا لآله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال ﷺ : « لقد دعا الله باسمه الأعظم » .

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : لما كان يوم بدر قاتلت ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظر ماذا يصنع ، فوجدته ساجدا يقول : يا حي يا قيوم ، ولا يزيد على ذلك ، ثم رجعت إلى القتال ، ثم جئت ، فوجدته يقول ذلك ، فلا أزال أذهب وأرجع وهو يقول ذلك ولا يزيد عليه ، إلى أن فتح الله له ، وروي عن يونس بن عبد الأعلى أحد شيوخ الإمام مسلم أنه قال : رأيت في المنام قائلا يقول : إن اسم الله الأكبر ، لا إله إلا الله . وسواء علينا أكان الحي القيوم أو لا إله إلا الله ، فقد اشتملت عليه آية الكرسي .

وخلاصة القول أن الله سبحانه وتعالى حي قائم على كل شيء ، وأن كل شيء قائم بقدرته وإرادته ، وبتدبيره وقيوميته ، ولذلك ينبغي للمسلم أن تكون حياته - وأن تظل - متصلة ومرتبطة بالحي القيوم الذي يصرف أمره ، وأمر كل شيء حوله ، وفق ما قضاه وقدره ، فيلتزم بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والمصلحة ، يستمد منه القيم والمعاني ، ويسترشد به في كل ما يأتي ويذر ، وهو سبحانه وتعالى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٣ ، ٤] .

معنى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ :

قال الله جل ذكره : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، بعد أن أعلم سبحانه أنه حي قائم ، قرر ذلك بقوله : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، أي لا يغفل عن تدبير شئون هذا الكون ساعة من الساعات ، ولا لحظة من اللحظات ،

ألا ترى أن القيم بأمر الطفل إذا غفل عنه ساعة اختل أمره وساء نظامه ، والله سبحانه وتعالى قيم جميع المخلوقات في الأرض وفي السموات ، فلا يعقل أن يغفل عن تدبيرهم ، وحفظ وجودهم : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٧] ، وفي الصحيح : «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» ، ولقد جاء النفي في النظم الكريم على مقتضى الترتيب الطبيعي ، فإن السَّنة تتقدم النوم في الوجود ، فنفي سبحانه ما يعرض أولا وهو السَّنة ، ثم ما يعرض ثانيا وهو النوم ، والسَّنة من الوسن ، هي الغفلة والنعاس ، وذلك عبارة عن فتور الأعضاء وانقباض الأجفان .

وسنان أقصده النعاس فرثَّثَ في عينه سنة وليس بنائم

وفي الحديث : «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»^(١) .

ومن المفهوم أنه لا يلزم من نفي السَّنة نفي النوم ، فإن الإنسان قد يأخذه النوم ، ولا تأخذه السَّنة ، بمعنى أنه قد يهجم عليه النوم دفعة واحدة ، لا بد من نفي السَّنة ونفي النوم ، ولذلك تكرر النفي في الآية الكريمة ، وبكلمة أخرى ، ذكر النوم بعد السَّنة ترق في نفي النقص عن الحي القيوم ، فإن من لا تأخذه السَّنة قد يأخذه النوم ؛ لأن له سلطانا أشد وأقوى ، فالحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، إذ ذاك نقص ومحال ، والله يتنزه على النقص والمحال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [طه : ١١٤] .

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧) ، ومسلم (٧٣٨) عن عائشة .

قال الله جل ذكره : ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، هذا التعبير الكريم يقرب للإدراك البشري صورة الحياة الدائمة ، وصورة القيام الدائم ، ويقضي بمخالفة الله خلقه ، كما جاء في كتابه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] .

وحقيقة إن القيام على هذا الكون بكلياته وجزئياته في كل لحظة وفي كل حالة لشيء هائل ، عندما يريد الإنسان أن يتصور ذلك ، وعندما يسبح خياله المنتهي في ما لا يحصى من الذرات والكائنات والأشياء والأحداث ، وفيما نعلم وفيما لا نعلم من هذا الكون الذي يحدث عن الله ، ويشهد بوجود الله ، ويسبح بحمد الله : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس : ٣٦] .

وكان هذه الآية المبتدئة بكلمة التنزيه تشير إلى حقيقة ضخمة من حقائق الكون ، وهي وحدة الخلق ووحدة التكوين ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الأشياء والأحياء كلها أزواجا ، النبات كالإنسان .

والإنسان كغيره ، مما خلق الله ومما يخلق ، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٨] ووحدة الخلق من وحدة الخالق ، ومن يدري فلعل هذه الحقيقة هي قاعدة الكون بأسره حتى الجمادات ، ولقد أصبح معلوما أن الذرة هي أصغر ما عرف من أجزاء المادة مؤلفة من زوجين مختلفين ، من قوة إيجابية وقوة سلبية ، وصدق قول الله العظيم : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

حقا إن القيام على هذا الكون الواسع الفضاء ، الفسيح الأرجاء ، لشيء فوق ما يتصوره الإنسان ، وما يتصوره الإنسان وهو شيء يسير بالنسبة إلى ما يملكه من أدوات الإدراك ، ووسائل المعرفة ، لشيء تحار فيه الرءوس

والعقول ، وتطمئن إليه الصدور والقلوب : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : ٦٨]
﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ :

قال الله جل ذكره : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، هذه الآية الكريمة تحدثنا عن الشفاعة عند الله يوم القيامة ، وتوضح لنا مقام الألوهية ومقام العبودية حتى لا يقع اشتباه ولا التباس ، فالألوهية والعبودية لا يلتقيان في مفهومهما ، ولا يجتمعان في حقيقتهما ، أي لا مجال لهما في الاشتراك ، فالرب رب وإن تنازل ، والعبد عبد وإن تطاول ، وكل تصور ينحرف عن هذه الحقيقة البيضاء فهو مستنكر ومستبعد .

إن الله سبحانه وتعالى يتفرد بالعظمة والكبرياء ، ولا يوجد في ملكه وملكوته إلا ما يشاء ، فموقف العبد من الله موقف العبودية لا يتعداه ولا يتخطاه ، فهو عبد خاضع لله ، خائف من الله ، لا يتقدم ولا يتأخر إلا بأمره ، ولا يجزئ على الشفاعة عنده إلا بإذنه ، وصيغة الاستفهام الإنكارية توحى إichاء عميقا أن الشفاعة تتوقف على الإذن من الله تعالى ، وإذنه تعالى لا يعلم إلا من طريق الوحي ، فمن بين الوحي أنه مستحق للعقاب فلا يهجم أحد على الدعاء له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق للثواب على ما ألم به من الهفوات لا تحول وجهه إلى الباطل والفساد ، فكما وعد الله به في كتابه ، وكما تفضل الله به على عباده .

ولقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله ، ويقولون : ﴿ هَتُؤَلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس : ١٨] ، فيقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، والآية الكريمة ترد عليهم وعلى أمثالهم

ردا قويا وشديدا ، وتدل على أن ذلك لا يمكن إلا بإذنه ، وإذنه غير معروف خلقة ، وفي ذلك قطع لأمل الشفعاء والتابعين للشفعاء ، فشفاعة العبد للعبد عند الله ، وشهادة العبد للعبد للجنة أو النار موقوفة على الإذن من الله تعالى ، كما أن مشيئة العبد منوطة بمشيئة الله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

ولقد تظاهرت النصوص على ما أفادته الآية الكريمة من نفي الشفاعة إلا بإذنه ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وكقوله تعالى : ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : ٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : ١٠٥] ، وكقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا : ٣٨] وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [طه : ١٠٩] ، فهذه نصوص إلهية تسد الطريق على كل من يزعم أن أحدا من عباد الله يستطيع أن ينفع أحدا بشفاعة أو غيرها ، لا من الأحياء ولا من الأموات ، ولقد بينت الأحاديث الصحيحة صفة الشفاعة يوم القيامة ، ولمن تكون ، ومن يقوم بها ، وهي محمولة على الدعاء الذي يفعل الله عقبه ما سبق به علمه الأزلي أنه سيفعله ، مع القطع بأن الشفيع لا يغير مما سبق به علم الله تعالى شيئا ، وبذلك تظهر عناية الله بعبدته حيث أوقع الفعل عقب دعائه : ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلْعَلُّ الْعَظِيمُ﴾:

ونظرا لضيق الوقت نتسلل إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلْعَلُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ختمت آية الكرسي بصفات جامعة، وهي صفة العلو والعظمة، ولكن على وجه يقتضي التفرد والتخصص بهما، كما دلت على ذلك بلاغة التنزيل، وبراعة التعبير، فلم يقل سبحانه وتعالى، وهو على عظيم، ليثبت بذلك مجرد الصفة لنفسه ولكنه قال ﴿وَهُوَ أَلْعَلُّ الْعَظِيمُ﴾ لينفي بذلك الصفة عن غيره، والمراد بالعلو، علو القدر والمنزلة، وعلو المكان والمكانة وهو سبحانه وتعالى متعال عن الأنداد والأضداد، وعن الجواهر والأعراض وعظيم على كل ما سواه، وفوق كل ذي قوة وجاه، وما تطاول أحد إلى هذا المقام، مقام العلو والعظمة إلا ورده الله إلى الحضيض السافل، ثم أقصاه وأخساه، فإنه يقول في معرض هلاك فرعون: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١] هذا وإن فضائل آية الكرسي لا تدع مجالا ولا مكانا للغرور بالشفعاء والزعماء الذين اتكل عليهم المغرورون، فخربت قلوبهم، وخويت جيوبهم من ذكر الله وعبادته، ومن الشعور بعظمته وكبريائه، إلا أنها تملأ القلوب نورا وإيمانا، وتكسب العقول حكمة وعرفانا، وتوحي بعزة الله وقوته، وتوصي بمحبة الله وخشيته، وتعقد القلوب على وحي الإيمان الصحيح، وممارسة العمل الصالح: ﴿مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

المحاضرة الستون

العلماء الربانيون

جاء في الحديث النبوي الشريف عن ابن هانئ الخولاني محمد بن هانئ ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق . فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم» . أخرجه الحاكم والطبراني والسيوطي .

في محاضرة سابقة جعلت حديثي عن بلاغ من بلاغات رسول الله ﷺ التي أوردها الإمام مالك في موطئه ، وهو قوله ﷺ : «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه» . واليوم أريد أن أتحدث على صلة بهذا الحديث تتمثل في حديثين آخرين ، فيكون من تمام القول أن نتعرض إلى دعائم الإسلام ، وإلى الأوضاع التي حالت بين المسلمين وبين تحقيق أمانيتهم وبلوغهم مقاصدهم ، لأسباب كثيرة اجتماعية ودينية وأخلاقية ، وما ينبغي على المسلمين أن يبذلوا من جهود للخروج من هذا الوضع المشين ، وذلك بتجديد أمر الدين .

وتجديد أمر الدين يرجع إلى توصية من النبي ﷺ وتوجيه كريم منه ؛ لأن الناس لا يستطيعون كلهم الاضطلاع بهذه الأمانة ، فذكر رسول الله ﷺ أن من بينهم من يأتي على رأس كل مائة سنة ، فيجدد أمر هذه الأمة أو أمر دينها .

الاعتصام بالكتاب والسنة :

والحديث الأول الذي أشرت إليه يقتضي بدون شك المعرفة بالمصدرين الأساسيين للشريعة الإسلامية ، وهما : كتاب الله وسنة نبيه . كما يقتضي الأمر القدرة على الاستنباط منهما ، والمعرفة بما يتضمنانه من هدي ، ومن توجيه ، ومن أحكام وقوانين ، وما إلى ذلك من حكم وقيم ، ومبادئ على المسلمين أن يتحلوا بها .

ونحن عندما ننظر إلى الأجيال التي كونها نبينا ﷺ حين كان بين ظهراي قومه ، ينشئ الفرد كما ينشئ الجماعة ، ويبني هذه القيم ، ويجعلها مطابقة لما هو في القرآن ، ولما هو في سنته ، فذلك البناء الرشيد الذي انتهى بنا إلى التعرف على أمجاد كثيرة في العصر الأول من عصور الإسلام ، هو الذي ينبغي أن نزهو به ، وأن نحاول السير على طريقه وأن نحقق لأنفسنا في هذا العصر بعدما مر من الأزمان شيئا من الرجوع إلى الحق ، ومن التكوين الجليل المجيد ، الذي جاء به القرآن وجاءت به السنة .

وقولنا : إن النبي ﷺ بهذا الحديث أوصى المسلمين عامة بالاعتصام بالكتاب والسنة ، ليس الاعتصام بالكتاب والسنة أن نقرأهما قراءة مجردة ، ولكن القصد من ذلك أن نأخذ بما فيهما ، وأن نجعل من قيمنا وتصوراتنا ومفاهيمنا شيئا من هذه المعاني التي كانت تصدر عن هذين المشعلين .

ونلاحظ أن النبي ﷺ حين أرادت عائشة أم المؤمنين ﷺ أن تصفه ، قالت : كان خلقه القرآن .

فإذا كان القرآن الذي هو خلق رسول الله ﷺ ، وإذا كان هذا الخلق هو الذي كونه في الأمة ، وبني الأفراد والجماعات عليه ، وألزمهم سبيل الحق ،

ووضع لهم الموازين ، وأقام بهم الحجة على غيرهم من العالمين . فإن ذلك لم يتحقق إلا بمراعاة دعائم الإسلام .

القرآن والسنة تضمنا دعائم الإسلام:

فالقرآن والسنة تضمنا دعائم الإسلام . فما هي هذه الدعائم؟

أولاً : ما يرجع إلى العقيدة ، والرجوع إلى العقيدة الإسلامية يثبت فارقاً وحقائق مخالفة تمام المخالفة لما هي عليه الأديان السابقة لما وقع فيها من تحريف وتبديل ، ولما هو في العقائد الأخرى المنتشرة بين الناس ، فإن العقيدة الإسلامية هي عقيدة توحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية تنقطع الروابط بين المرء وبين ما سوى الله فيصبح مرتبطاً بربه مخلصاً له ، مستمداً منه الحول والقوة .

والتوحيد الخالص الذي على المسلمين أن يتمسكوا به يدعوهم - بدون شك - إلى النظر في سفرين ، في كتابين : الكتاب الأول هو : الموحى به إلى رسول الله ﷺ وهو القرآن الكريم ، والكتاب الثاني هو هذا الكون الفسيح وما فيه من آيات بينات على المؤمن أن يتدبرها ، وأن يستمد منها ليجد القوة والعزة والمكانة الرفيعة بما يربط في ذلك بينه وبين خالقه وخالق هذه الأكوان جميعاً .

وأما العنصر الثاني لدعائم الإسلام فهو الشريعة ، والشريعة عبارة عن معرفة الأحكام الإلهية التي تضمنها الكتاب ، وفضلتها السنة ، والتي تشمل كل ما يحتاج إليه الإنسان سواء في حياته الاجتماعية أو في حياته الخاصة ، سواء في المعاملات الأسرية أو في المعاملات بصفة عامة ، أو في الجنايات والجرائم ، فكل ما يلابس الحياة من أحوال نجد حكمه في

كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ .

لكن هذه الأحكام مهما كانت دقيقة، ومهما كانت مستوفية لجميع الأغراض التي نعيشها في مجتمعاتنا تبقى بعض الأحوال، وبعض القضايا التي لم يذكرها نص، ولا أتى عليها بيان بحكم أنها من الأشياء التي حدثت في عصر بعد الوحي، وفيما بعد نزول الكتاب، والاستماع إلى هذه السنة .

وهنا نرجع إلى وجوب النظر والاجتهاد في النصوص التي جمعها القرآن، وجمعتها السنة، ونقوم بعد ذلك بالبحث في القرآن وفي السنة، وبالنظر في القواعد العامة الشرعية، وبالنظر أيضا في المقاصد الشرعية التي يستند إليها النظر الفقهي، والتي بها نحسن سياسة المجتمعات ونرفع هذه المجتمعات إلى الدرجات العلية .

فإن كل الأحوال والأحكام قد ارتبطت بهذه المقاصد الشرعية . ويكفيها لتدبرها والرجوع إليها ومعرفة حقائقها وخصائصها الوقوف على كتاب «الموافقات» للإمام الشاطبي، والوقوف على كتاب: «المقاصد الشرعية» لشيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور، ثم الوقوف على كتاب «مقاصد الشريعة» للمرحوم الأستاذ علال الفاسي، وما كتبه أعلام العصر مثل: الشيخ الخضري والشيخ أبو زهرة وغيرهما .

فنحن عندما نتبين من قريب هذه الحقائق، حقائق المقاصد الشرعية، ونربطها بهذه الأصول التي بينها من عقيدة وشريعة، ننتقل إلى دعامة أخرى، دعامة لها أثرها ولا يمكن أن يتخلى عنها المسلمون، وهم إن تركوها اضطروا إليها بسبب ما يحدث لهم، وما ينتشر حولهم من ظروف وأحوال وملابسات تقتضي الاتصاف بها .

هذه الناحية الأخرى هي : حماية البيضة ، والدود عن الحمى ، والجهاد بكل معانيه ، الجهاد هو بذل أقصى ما يمكن من مال وأرواح في سبيل عرض هذه الدعوة ؛ لأن الله أخذ علينا أن نبلغ هذه الدعوة ، ورسول الله ﷺ في يوم الحج الأكبر قال : «اللهم إني قد بلغت ، اللهم فاشهد ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب»^(١) .

فهناك إذن دعوة ، وهناك فتح عندما يعارض الناس هذه الدعوة ويمنعون من انتشارها ، وهناك شيء آخر حدث في هذا العصر بالخصوص ، وهو تصحيح مفاهيم الإسلام ، بيان الوجه الحقيقي للإسلام ، بعد هذه التحديات الكثيرة ، والمهاجمات العنيفة للأمة الإسلامية وللإسلام في ذاته .

ثم بعد هذا الدفاع عن هذا الدين وعن الملة بشيء من التوعية والتعريف بحقائق الإسلام وبوضع المسلمين ، لا الذين يكون الكتاب والسنة حجة عليهم ، ولكن المسلمين الذين كانوا مثالا يحتذى به ، وسلوكا أو مسلكا يمكن اعتماده للسير في الطريق الرشيد .

ونحن -بدون شك- نعلم أن المجتمعات ، وحتى الأفراد تختلف ، فالأفراد ينتقلون من طور إلى طور ، من طور الولادة إلى حالة العلاج والالتحاق بالله سبحانه وتعالى ، فيمر الإنسان بالمراحل الأربعة ، وهي : مرحلة الرضيع ، والناقع ، والكاهل ، والقاحل . والفرق بين هذه المراحل الأربعة فرق كبير ؛ لأن كل مرحلة من هذه المراحل تتميز بخصائص وبأوضاع معينة .

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) ، ومسلم (١٦٧٩) ، وهو مروي عن غير واحد من الصحابة كابن عباس وأبي بكر .

وكذلك الشعوب فيما ذهب إليه ابن خلدون في «مقدمته» حين قال :
بأن الشعب الواحد يوجد ويتكون ، وهو أثر لبناء أو لبناءين ، لكن إذا
انتقل من طور البناء إلى طور المباشرة ، ومن طور المباشرة إلى طور
التقليد ينتهي به الأمر إلى حالة التهذيب . ولذلك فإن كل كائن ماديا
أو غير مادي يحتاج إلى تجديد ، يحتاج إلى بعث آخر ، يحتاج إلى البحث
عن الأصول الثابتة التي تمكنه في مجتمعنا الحاضر وفي حياتنا من
الوصول إلى الغايات النبيلة .

الدين الإسلامي متجدد :

وقد شهد كثير من المؤرخين ومن المستشرقين بأن هذا الدين باق ، وأن
هذا الدين متجدد . وقال روني جروسي في كتابه «تاريخ آسيا» إنا لنعلم
بأنني تتبعت تاريخ المجتمعات الإسلامية فوجدت لها صفتين : الصفة
الأولى هي صفة الخلود ، والصفة الثانية هي صفة التجدد أو التجديد .

أدلة تجديد الدين :

أما صفة الخلود فينطق بها قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وما دام الذكر بيننا ، وما دمنا نرجع
إلى هذا الكتاب ، فإن الأمة باقية ومستمرة على وجودها .

وأما الدليل الآخر بالنسبة للتجدد فهو الذي نعينه من هذين الحديثين
اللذين هما موضوع الدرس : «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد
أمر أو دين هذه الأمة» .

الحديث الأول : هو مروي في الواقع عن إمامين : مروي من طريق
عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب .

والحديث الثاني : مروي عن أبي هريرة .

فالحديث الأول : وهو قول رسول الله ﷺ : «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق ، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم» . هذه الجذوة النورانية التي تسكن القلب ، وتعيش في كيان المسلم ويتحرك بها ، وتكون جميع أعماله مسخرة لها ، ومتأثرة بها هي التي متى استمرت استمر الخير ، واستمر الدين ، واستمرت هذه الروح الطيبة التي من شأنها أن تأخذ الناس إلى الخيرات .

وهذا الحديث الذي ذكرناه لم يخرج في «الصحيحين» ، ولكن رواه ثقات ، وهم مصريون ، ذكره الحاكم في «المستدرک» ، وأقره الذهبي في «التلخيص» ، وأخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» في باب تجديد الإيمان . وقال : رجاله كلهم رجال مسلم ، وابن ميسرة البصري لم يوثقه أحد . ولكن هذه الكلمة المتعلقة بهذا الراوي قد عدل عنها المحققون ، لقول ابن حجر في «التقريب» : هو مقبول .

وهناك بالنسبة للرواية الثانية من نفس الحديث ما أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر بن الخطاب بإسناد حسن ، قال العراقي في «أمالیه» حديث حسن من طريقين ، أي من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وذكره أيضا المناوي في «فيض القدير» ، وفي نفس الغرض ، الحديث الذي رواه أبو هريرة ، وهو : إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، وهو حديث صححه الحاكم ، وأخرجه من حديث ابن وهب وذكره في الملاحم من «سننه» ، وذكره الطبراني في «المعجم الكبير» والبيهقي في «المدخل» بإسناده إلى الإمام أحمد .

وأريد هنا أن أنبه إلى أن هذا الحديث الأخير الذي روي عن أبي هريرة

ﷺ ، ذكرناه تنمة للحديث الآخر الذي روي من طريقين : طريق عبد الله ابن عمرو بن العاص ، وطريق عبد الله بن عمر بن الخطاب . لماذا؟ لما بينهما من الاختلاف من جهة ، ولما بينهما من الاتفاق من جهة ثانية .

أما الاختلاف فذلك أن الحديث - موضوع درسنا - يشير إلى وجوب التجديد للإيمان من غير أن يذكر من هم المجددون ، والحديث الثاني الذي ذكره أبو هريرة يشير إلى أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر دينها .

وهذا الموضوع الثاني أو الحديث الثاني وقع طرحه بين العلماء وكتبوا فيه ، وأشبعوه تأملاً ودرساً ، ورأينا شيوْحاً لنا تعرضوا له وبحثوا فيه ، ودلونا على خير سبيل نستطيع أن نفهم به الحديث ، ونفسر الغرض منه . لكن وجود حديثين يجعلنا بخيار ، هل الذين يصلحون لتجديد الأمة ، ويقومون بالدعوة إلى الحق يوجدون في كل عصر أم يوجدون على رأس كل مائة سنة فقط؟ الذي نستطيع أن نجعله هو أن الأئمة والعلماء والمجاهدون وجدوا في أوائل العصور وفي أواخرها ، ما دام الإنسان يولد في أول القرن ، وينتهي عمره في آخر القرن أو في أواسط القرن ، فيكون حكمه حكم من وجد في أول القرن .

الأسباب الداعية للتجديد :

وهنا أريد أن أشير إلى أن الدعوة إلى التجديد ينبغي أن تكون ناشئة عن أسباب . ما هي أسباب التجديد؟ هو هذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال : «إن الإيمان - لينقص - أو إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم» . فهذا البلى الذي يلحق الإيمان هو الذي يحتاج منا إلى تجديد .

وما هي أسباب هذا البلى؟ ما هي أسباب هذا الضعف في الإيمان؟ هي العوارض، عوارض التغيير التي تلحق الأفراد في تكوينهم عندما يعدمون الدرس، ويعدمون التوجيه، ولا يجدون من يقوم بتربيتهم التربوية الحسنة، وكذلك الجماعة الإسلامية حين تحكها الأهواء، ويستولي عليها الخمول، وتبتعد عن منهج الحق، وتصبح في تصورهما أنها ينبغي أن تنقطع إلى الدين، أو تنقطع إلى الدنيا، في حين أنه لا انقطاع لأحدهما لأن كل واحد لا يقوم إلا بالآخر، فهناك صلة وثيقة بين الدين والدنيا على الوجهين والدعاة والمجاهدين أن يتبينوها وأن يعملوا بها.

ماهية التجديد:

ومن ثم نقول ما هو التجديد؟ التجديد هو ضرب من العلاج، هو إرجاع الشيء بعدما رث إلى حالة الجدة، أو حالته الأولى التي كان عليها في استقامته وقوة أمره، هو رتق ما فتق من حقائق الإيمان وظواهره في مختلف المجالات، في مختلف مجالات الحياة، وتجديد الدين لا يكفي وحده، كما أن تجديد الدنيا لا يكفي وحدها، فلا بد من الجمع بين التجديدين: تجديد الدين، وتجديد الدنيا، والدعوة للعزة فيهما، وإصلاح ما أفسدته الغفلة، والرم لما تشعث من بنائهما.

والدليل على ذلك أن الأمة الإسلامية كانت قوية عزيزة منيعة في العصور الأولى في عصر الرسالة، وفي عهد الخلفاء الراشدين. وكان المسلمون يجمعون بين عز الدنيا وعز الآخرة، فقد عملوا لدنياهم كما عملوا لآخرتهم.

طرق العلاج:

وسبل العلاج حصرها الإسلام في أمرين: علاج هذه الروح، علاج هذا الإيمان الذي يعيش في القلوب، ونجده مركزا في عقولنا وأفئدتنا يوجهنا أينما يريد. هذا الإيمان، هذه السبل في العلاج هي كما قلنا الإيمان والجهاد. وقد أشار إليها تعالى في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي الحديث النبوي الشريف عن قتادة عن رسول الله ﷺ: «الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال»^(١).

المجددون:

وهنا ننتهي لا إلى التجديد، ولكن إلى المجددين. من هم المجددون؟ المجددون هم العلماء الربانيون والمجاهدون الصادقون، العلماء الربانيون والمجاهدون الصادقون هم ثلثة من الناس، يبعثهم الله سبحانه وتعالى من حين إلى آخر، ويكون من بينهم جماعة أقوياء، ذوو نباهة وقدرة، وشعور بالمسئولية وتحمل لها، فهؤلاء الحكماء وهم قلة القلة، لا تجد القرون منهم إلا الواحد بعد الواحد.

ولذلك أشار الحديث الثاني حديث أبي هريرة إلى أن الله يبعث على رأس كل قرن، أو كل مائة سنة من يجدد أمر هذه الأمة. فهناك فترة بين المجدد الأول والمجدد الثاني.

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٥) عن أبي قتادة. وأخرجه البخاري (١٥١٩) عن أبي هريرة.

مجالات التجديد:

ومجالات التجديد هي :

أولاً : تزكية العقيدة ما دام التجديد هو للإيمان ، وجعل الحب والبغض في الله ، حتى يكون الإنسان عن بينة في أمره ، وعن إدراك لما يتصرف به ويقع فيه ، ثم الخوف من الله ، والرجاء في رحمته ، ثم الإنابة إلى الحق سبحانه ، والنظر والاستدلال بما حوله على القدرة الإلهية ، وعلى الرحمة الربانية ، فيدعو إلى الأخذ بأسباب الرحمة ، والخضوع إلى القوة الإلهية حتى يكون متدبراً لحاله في كل أمر ، ومفكراً في ظروفه التي يعيش فيها في كل حالة .

وبهذا نستطيع أن نقول : إن الحركة العلمية التي تتناول القرآن بالدرس والفهم والتفسير والشرح ، وبذكر المعاني اللغوية والمعاني البيانية ، وبذكر الأحكام الشرعية استنباطاً من الكتاب ، وما يشبه هذا ويمثله بالنسبة للسنة النبوية هما الأساس في تكوين هذا المجدد الذي يستطيع أن يتحمل هذه الرسالة ، رسالة التجديد بين قومه .

فالمسلم أو العالم الذي يصل إلى هذه الدرجة أول ما يبدأ به هو : النقد الذاتي للسلوك الفردي والاجتماعي ، ويقوم هذا على ثلاثة أسس :

أولاً : المراقبة لله ، فهو لا يفعل شيئاً إلا وهو ذاك له سبحانه ، فيكون ذلك سبباً في تراجعته وبعده عن الوقوع في السوء والإضرار بالغير .

ثم المحاسبة : لا ينام ليلته حتى يحاسب نفسه على ما فرط منه في ذلك اليوم .

ثم بعد ذلك المشاهدة ، وهي التي سماها رسول الله ﷺ بالإحسان ، فقال : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) .

هذه المعاني هي التي دفعت بالعلماء الربانيين إلى بذل أقصى الجهد لهداية الناس ، ومحاربة البدع والشر والفساد .

من هم العلماء الربانيون :

العلماء الربانيون هم الذين يغشون مجامع الشر لتفريقها ، هم المنتسكون بالمصدرين الأساسيين للتشريع الإسلامي ، هم الواقفون على كتاب الله يجلبون به سبل الإصلاح ، سبل إصلاح النفوس إذا انحرفت ، وهم المجتثون للنقائص البشرية من أصولها ، المعتمدون في حل المشاكل على القرآن يبتغون فيه ما وضعه الله من قوانين وتشريعات لتحقيق العدل ، وإقامة أكمل وجوه التعاون ، فهم يحكمون به ويحكمون إليه .

وأما المجاهدون الصادقون ، وهي الفئة الثانية ، المجاهد معروف وهو الذي يبذل جهداً كثيراً ويفنى ليعيش غيره ، هو الذي يضحي بذاته من أجل تحقيق الخير والعزة لمن وراءه ، هذا المجاهد إذا كان صادقاً ، بمعنى إذا كان لا يبتغي وراء ذلك إلا القيام بالواجب وتحقيق هذه الغايات ، يكون صادقاً مع نفسه ، ويكون صادقاً مع ربه . وما هو الصدق في هذا المجال ؟

الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه ، ولا واجه باطلاً إلا أزاحه وصرعه ، والصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه ، أو فضل يعمل فيه . والمجاهدون الصادقون هم المطمئنون الثابتون المتيقظون الذين ينطلقون

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة . وانفرد به مسلم (٨) من حديث عمر .

إلى الجهاد بأمورهم وأنفسهم في سبيل الله ، وتنفع قلوبهم بما أدركوا من الحق ، ويحرصون على تحقيق المواءمة بين الحس والواقع ، ويصدقون في العقيدة وفي القول بكونهم مؤمنين ؛ لأن كثيراً من الناس يصفون أنفسهم بكونهم مؤمنين ، وليسوا من الإيمان في شيء .

هنا وقف العلماء ينظرون إلى هؤلاء الأئمة وهم بحمد الله كثر في كل عصر . من هم الذين اختارهم الأئمة ليعينوا بهم عصر ما ، وفترة معينة؟ هنا نجد ابن كثير يقول : إن لكل إمام بعد دراسته للأوضاع الاجتماعية ، والأوضاع الفكرية ، والأوضاع السياسية ، والنظر في أحوال القائمين بالأمر ، والناهين عن المنكر والمضطلعين بالكتاب والسنة كثر ، لكن الاختلاف بين المؤرخين أو بين العلماء في تعيين هؤلاء الناس يخضع لتصوراتهم كما يخضع لأحكامهم ، ويخضع في بعض الأحيان لأهوائهم ، فإن الرجل إذا وجد جماعة من أهل الفكر الإسلامي الذين يرضاهم ويريد التشبه بهم والسير على غرارهم فإنه يختار هؤلاء ليكونوا الأئمة المجددين .

نجد السبكي مثلاً رَحِمَهُ اللهُ جعل اختياره للمجددين قائماً على أساس العلوم والمعارف الدينية ، ولذلك اختار جماعة متلاحقة متتابعة واحداً عن كل عصر ، أو واحداً عن كل مائة سنة .

وكانت أول القائمة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ ، لأنه دعا إلى جمع السنة والاستفادة منها والافتداء برسول الله ﷺ ، مع ما أظهره من خلق رشيد ، وإقامة للعدل في مجتمعه الذي عاشه .

ثم نجد عند السبكي ذكر الإمام الشافعي والإمام الإسفراييني والغزالي والرازي وابن دقيق العيد والقرافي ، وعد الناس بعد هؤلاء : السيوطي ليكون مجدد القرن التاسع .

لكن بعض العلماء الآخرين لم يذكروا على رأس كل قرن من يجدد هذا الأمر، بل أخذ القضية بوجه عام، ومن هؤلاء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فهو لا يرجع إلى أوائل القرون، ولكنه يمثل للمجددين بأحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية والأفعاني، ومحمد عبده.

وأنتهي إلى الشيخ ابن عاشور رحمته الله لأنني وجدت في رسالته التي نشرها في هذا الموضوع تفصيلاً للعلماء الربانيين، والمجاهدين الصادقين، فجعل من العلماء الربانيين ثلثة من الناس، كما اختار للمجاهدين الصادقين عناوين تنطق بهذه الحكمة.

أما بالنسبة للصنف الأول: وهم العلماء.

والصنف الثاني: المجاهدون، فإنه في اختياره يعرض كما قال الاختيار والرأي فيهما على شواهد التاريخ وأحوال الدهر؛ لأن هذا يدرك بالآثار التي يحققها الداعي إلى الله والمجدد لدينه.

فجعل من العلماء: الإمام مالك، والإمام البخاري، والإمام الأشعري.

وجعل من الصنف الثاني: أبا بكر رحمته الله، ومحمود بن سبكتكين والسلطان أحمد خان الأول، ووزيره مراد بكليرباي، والسلطان إسماعيل ابن فرج من بني الأحمر.

النصف الأول: العلماء

عندما نعود إلى الشيخ ابن عاشور لننظر في هذه الحقيقة التي صورها لنا نجده يقول: الإمام مالك أول من وضع قواعد تحمل الحديث والسنة النبوية الشريفة، التي ينبغي أن نمسك عليها بنواجذنا، وهو الذي قام بنقد الحديث، اعتماداً على معايير ثلاثة.

المعيار الأول هو : عمل أهل المدينة .

والمعيار الثاني هو : القواعد العامة للشريعة .

والمعيار الثالث هو : صفات الرواة .

وبذلك كان الإمام مالك رحمته الله جامعاً بين الحديث والفقه ، وكان إماماً فيهما حتى بلغ من رفعة القدر ، وجيل الذكر أن علماء من أهل عصره مثل سفيان بن عيينة ، وابن مهدي ، ويحيى بن معين وابن المديني قالوا : «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة» وهذا كلام قد أثر عن السابقين ولا أدري أيكون من الأحاديث أو ليس من الأحاديث وإنما هو من الآثار؟!!

أما الإمام البخاري فنحن نعلم جهده وبلاءه العظيم في جمع الروايات للسنن النبوية وفي نقدها وتفصيل القول فيها رجالاً أو سنداً ومتناً ، وهو قد نظر في الجزئيات وجعل كتابه ، أو أجمع الناس على أن كتابه «الجامع الصحيح» هو من أجود وأجل وأعظم كتب الحديث المعتمدة .

وبحمد الله نجد في هذا البلد مدرسة كاملة للإمام البخاري ، قد ذكر ابن رشيد رحمته الله في كتابه : «السنن الأبين والمورد الأمعن» سلسلة هذه الأنساب ، وكذلك في كتابه الآخر الذي وضعه في التعريف برواية الإمام البخاري في بلاد المغرب .

أما الأشعري فهو رجل له أثره العجيب ، له أثره في دعم العقيدة السنية ، ولكنه لم يدعمها بالنقول والنصوص فقط ، بل أضاف إلى ذلك التفكير الفلسفي ، والقواعد النظرية ، فاستطاع رحمته الله أن يقضي على الفتن العقدية : فتنة القدر ، وفتنة خلق القرآن ، وفتنة الاستثناء في الإيمان ، وفتنة صحة إيمان المقلد ، وفتنة خلق الأفعال ، ومواجهته لأهل الأهواء ، وكشفه

سقم الآراء في كثير من أصول الاعتقاد لديهم ، ثم قاوم تلك النحل ، وانبرى لتأمين العقيدة الإسلامية السنية ، ودل على العقائد بالأدلة الفكرية الفلسفية معضداً بذلك الأدلة السمعية .

الصنف الثاني: المجاهدون

أما المجاهدون المعاصرون أو الصادقون الذين ذكرهم الشيخ ابن عاشور : أبو بكر رحمته الله ، صاحب رسول الله ﷺ وأول خليفة بعده ، وهو الذي قام بتجديد الرسالة بتنبيه الناس إلى حقائق هذه الرسالة العظيمة التي جاء بها محمد ﷺ ، وفي تجديده لهذا المعنى وقف موقفاً دفاعياً عن الإسلام وعن العقيدة الإسلامية ، حروب الردة . فقد قال : والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم ، كيف لا أقاتل من فرق بين الصلاة فإن الزكاة حق المال .

وأما السلطان محمود بن سبكتكين ، فقد ظهر بدور خطير لما تفككت وحدة الجامعة الإسلامية بعد انقراض الدولة العباسية أو في آخر أيامها فقام بجهد كبير ، وفتح بلاد الهند مروراً ببلاد أفغانستان ، واستطاع أن يمد للمسلمين بلداً واسعاً ويفتح عليهم خيراً كثيراً بما حققه من الدعوة إلى الله ، ومن الدعوة إلى الإسلام ، ومن الذود عن حياض هذه الملة . ونذكر بعد ذلك عدداً كبيراً من المجاهدين الصادقين . أكتفي بذكر بعض هذه الأسماء فقد ظهر الملك الكامل صاحب مصر ، وأخواه الملك الأشرف ، والملك الأعظم ، وظهر من مجددي القرن الثامن خربندز تترى في الشرق ، والسلطان إسماعيل ابن فرج ببلاد الأندلس ، بدفاعه عن المسلمين ، ومواجهته للجلالة .

المحاضرة الحادية والستون

الإسلام والأمة بقاءها وزوالها رقيها وانحطاطها

قال الله تعالى : ﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿ [المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] ، هذه الآية الكريمة لم أقصد تفسيرها وتحليلها تحليلًا علميًا .

وإنما قصدت - تعميماً للفائدة - أن أتجه وجهة أخرى إلى ما نستوحيه من هذه الآيات البينات ، من قواعد اجتماعية وأسس تربوية ، وتوجيهات إسلامية لتكوين أمة حية .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي : أمد مضروب لحياتها مقدر فيما قرر الخالق سبحانه من السنن لبقائها وفنائها . وآجال الأمم نوعان :

النوع الأول : الذين يبعث الله فيهم رسولا فيحرجونه بطلب المعجزات رغبة في تعجيزه ، لا طلبا للإيمان به ، وبما جاء به ، والله يعلم أنهم لا يؤمنون مع إتيانها كفلق الصبح ، فتعطى لهم مع الإنذار بالهلاك إن لم يؤمنوا ، فيكذبون بها فيهلكون ويستأصلون ، كما وقع في التاريخ القديم لقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم . قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

فهذا النوع من الهلاك خاص بأقوام الرسل أصحاب الدعوة الخاصة ، أي الذين بعثهم الله إلى قومهم لا غير ، وقد انتهى هذا ببعثه سيدنا محمد ﷺ نبي

الرحمة ، وصاحب الدعوة العامة . قال جل من قائل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

والنوع الثاني : الأجل المقدر لحياة أمة سعيدة بأخوتها عزيزة بالاستقلال والوحدة ، ذات أخلاق كريمة لم يدب فيها المرض ثم يدب فيها المرض الاجتماعي والتحلل الأخلاقي ، والتنازع المشتت ، فينتهي حالها بالاستعباد والاستذلال ، فتذوب في أمة قوية تهيأت لها أسباب الحياة من وحدة وأخوة وعلم وعدل وإحسان وجد واجتهاد . فأسباب الزوال والاضمحلال محصورة فيما ذكره الله من مخالفة للسنن العمرانية كالزنا ، والترف ، واقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والظلم ، والانحراف عن الهدى الذي جاءت به الأنبياء ، فما من أمة ارتكبت هذه الضلالات إلا سلط الله عليها من يذلها ولا يرحمها ، طال الزمان أم قصر . حسب الانغماس في الرذائل ببطء أو بسرعة . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

إن هذا الأجل معروفة أسبابه ، مجهول تحديده وساعته ، فالأمة قد تملك طلب ترك الهلاك قبل مجيئه بترك الفواحش والبغي والترف المفسد للأخلاق ، والبدع المفسدة للعقول والماسخة للإنسانية . أما إذا استرسلت في غيها ، وبلغ الفساد فيها الدرجة القصوى ، واستعصى على أطباء الاجتماع علاجه ، فيصبح استقلال هذه الأمة وعزها في خبر كان .

المصلحون :

وأما إذا قىض الله لهذه الأمة مصلحين صالحين ، يقولون ما يفعلون ، ضحوا براحتهم ، وعاهدوا الله على الذب عن أمتهم بإرشادهم ، ودعوتهم إلى تغيير ما بأنفسهم قبل انتشار الفساد واستفحاله ، وتوجيههم التوجيه

الصحيح ، فإن تلك الأمة تسترجع مجدها ، ويعود لها شبابها ، كما وقع ذلك مرارا في تاريخ الأمة الإسلامية عبر القرون .

لنستمع إلى قوله ﷺ : «بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء ، قيل من هم الغرباء يا رسول الله؟ قال الذين يصلحون ما أفسد الناس» ، وفي رواية : «الذين يصلحون عند فساد الناس»^(١) .

إن للأمم أعمارا تطول وتقصّر حسب مؤهلاتها وسيرتها ، وأسسها التي بنيت عليها ، ويقظة وإخلاص وعدل قيادتها ، وتلاحمها أو تفككها ، وحسب تكوين أفرادها . كما للأفراد أعمار تطول وتقصّر حسب تكوين أجسامهم وغذائهم وعنايتهم بأنفسهم ومراعاتهم لقواعد الصحة وغير ذلك .

فالأمم تتكون من الأفراد والأسر والمجتمع الكبير . فلتكلم الآن على الفرد ، فالفرد هو اللبنة الأولى ، ومنه يتكون المجتمع الصالح أو المجتمع الفاسد ، ويقدم عليه . لهذا عني الإسلام عناية كبيرة بتربية الفرد من ولادته إلى آخر نفس من حياته ، فسد عن الفرد منابع الفساد والتفسخ الخلقي والفوضى الفكرية ، وأهاب به أن يظهر دائما معنى الإنسانية الحقة من مروءة وشهامة ونجدة وعفة وإباء وشجاعة وحياء ، وغير ذلك من الأخلاق الكريمة .

فالإنسان مكون من جسم ونفس ، وفيه غرائز الطبيعة ، وله عقل يفرق بينه وبين الحيوان ، فأعطى الإسلام لكل واحد حقه . لم يأمر بإرهاق الجسد ، وكبت

(١) أخرجه الترمذي (١٢٣٠) بنحوه من حديث عمرو بن عوف . وقال : حديث حسن صحيح . وهذا الحديث مروي من طرق عن غير واحد من الصحابة ، وقد جمعها كلها أو أكثرها الهيثمي في «المجمع» (٢٧٧ / ٧) فراجعها إن شئت . وقد أخرج مسلم شطره الأول (١٤٥) من حديث أبي هريرة .

الغرائز، ومحاربة الطبيعة التي خلق الله عليها البشر. كما لم يأمر بإطلاق العنان للشهوات، والاندفاع وراء المغريات، والانطلاق بدون شرط أو قيد كالعجاوات. فلقد اعتنى الإسلام بصحة الأجسام ووقايتها من الأمراض والأسباب التي تجيء بها. وأمر بالعلاج عند وقوعها. فحفظ الصحة والحياة والمال فرض مقدس في الشريعة الإسلامية كحفظ الدين والعقل. قال صاحب الجوهرة، جوهرة التوحيد:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

وورد أن المعصوم محمدا ﷺ قال: «إِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١)، فلقد بالغ في المحافظة على النفس حتى أجاز المحرمات في حال الضرورة كالهيئة للجائع، والخمر للغصة، والإفطار في الصوم للمريض والعاجز والحامل وغير ذلك. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إباحة الطيبات:

لقد أباحت الشريعة الإسلامية كل الطيبات الحلال، كما أباحت تزيين الجسد في غير إسراف. قال تعالى: ﴿يَسْبِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله أمر

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو.

المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] . وقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ اِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

ولقد امتن الله على عباده في عدة آيات فقال : ﴿ وَاللّٰهُ نَعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيْهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُوْنَ ﴾ [النحل : ٥ - ٧] . قال تعالى أيضا : ﴿ وَهِيَ الَّتِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَآكُلُوْا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوْا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُوْنَهَا ﴾ [النحل : ١٤] ، ولما كانت المرأة من طبيعتها حب الزينة لتظهر دائما جميلة أمام الرجل للإغراء ولحكمة بقاء النسل ، كما قال تعالى : ﴿ اَوْ مِنْ يُنْشِئُوْا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : ١٨] ، أباح الله لها جميع ما حرمه على الرجال .

تكريم الله للإنسان :

فالإنسان جسم حي وعقل ووعي ، شرفه الله وكرمه ، كما يشهد لذلك كتاب الله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] . فالإنسان الذي لا يفكر إلا في البطن المتخم الملاّن ، والجسم المحلى المزدان حيوان . فللإنسان جانب آخر به ارتقى على سائر المخلوقات ، واستحق الاستخلاف فوق هذا الكوكب الأرضي ، فعناية الإسلام بهذه الناحية الخلقية عظيمة ، كي يكون الفرد المسلم جديرا بوصف الإنسانية ، مترفعا عن الدنيا ، متحليا بالمزايا التي تميزه عن الحيوانات . قال تعالى ذكره :

﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ذلك لأن الله تبارك وتعالى خلق نفس الإنسان سوية وجسمه في أحسن تقويم، فلاجل هذا أمر الإسلام بأن يجاهد المرء نفسه حتى لا تميل مع الزيف والهوى، وتنحرف مع المنحرفين، لنستمع إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿١٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فإذا نجح الإنسان في جهاد نفسه نشأت الفضائل. ذلك لأن الأخلاق قابلة للتغيير كما يؤخذ من قوله ﷺ: «حسنوا أخلاقكم»^(١).

ما فرضه الله وشرعه لا يعوق تقدم ازدهار الحياة بل ينميها:

يجب أن يكون مفهوم أن الفضائل والعبادات التي قررها الدين الحنيف الذي طبقه السلف الصالح بحذايره، لا تعوق ازدهار الحياة وتقدمها المادي. فالإسلام عقل وقلب، والظن بأن يقظة القلب لا تتم إلا مع الخمول والجمود ولبس المرقعات، والبعد تماما عن بهجة الحياة خطأ فاحش، وغلو في الدين. قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرِ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]. لتتدبر قوله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا

(١) أخرجه أبو بكر بن لال في «مكارم الأخلاق» - كما في «تخريج الإحياء» للعراقي (٧٤/٤). وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (٣٠١/٢٤): «روي من وجوه عن معاذ». ونقل الزرقاني في «شرحه» (٢٩٢/٢) عن السيوطي قوله: «لهذا الحديث شواهد من حيث المعنى مرسلة».

فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى»^(١) . كما أن الظن بأن ثمرة العقل لا تتم إلا بهجر الإيمان ، وترك تعاليم الديان ، كما يروجه اليوم المتفرنجون الذين أخذوا تعاليمهم عن الغربيين خطأ فاحش أيضا . الإسلام الصحيح لا إفراط ولا تفريط .

فالتدين الحقيقي إيمان بالله ووحدانته وقدرته والالتجاء إليه في الملمات ، بعد الأخذ بالأسباب . التدين الحقيقي شعور بخلافة بني آدم فوق هذه البسيطة ، تطلع إلى السيادة على عناصر الكون فوق الأرض وتحتها ، برا وبحرا وجوا ، قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، التدين الحقيقي لا يكون بالعبادات الشكلية والرسوم الظاهرية فحسب ، جوع وسهر ، خمول وأوساخ ، ونبد للحقائق العلمية ، والاكتشافات التي تسعد بها البشرية ، كلا .

التدين الحقيقي تشع أنواره في خضم الدنيا ومدلهماتنا ، فيستطيع الانغماس فيها دون أن تغويه مفاتنها ، مالك لزمام نفسه باسم الله وقرآنه وضميره ووجدانه يعرض دائما أعماله على كتاب الله وسنة رسوله ، ويستفتي ضميره فيما التبس عليه . فمتى كان للإنسان ضمير هادئ حي ابتعد عن الشر ، كما أن النبي ﷺ «ضرب مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة عليها ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجوا ، وفوق ذلك داع

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٨/٣) ، والقضاعي في «مسند الشهاب»

(١١٤٧) وغيرهما من حديث جابر . وقال الحافظ في «الفتح» (٢٩٧/١١) : «له

شاهد في الزهد لابن المبارك من حديث عبد الله بن عمر موقوف» . وله شواهد آخر

ذكرها العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٣٣٩) فراجعها إن شئت .

يدعو كلما هم عبد أن يفتح باب من تلك الأبواب قال : إياك أن تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه»^(١) .

الإيمان الحقيقي إدراك لكنهيات الكون وإدراك لأسرار إبداع الحكيم العليم ، وشعور بما يستحقه العلي الكبير ، وخضوع جميع المشاعر للعزیز المقتدر . فالأرض موصولة بالسماء ، والجسم ممزوج بالروح ، والدنيا مطية للآخرة . لنعتبر قوله ﷺ : «إن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة»^(٢) ، وقول الله جل جلاله : ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ^ط وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملک : ١٥] .

فالإيمان والصدق مجمع الكمالات ، نشاط عقلي لاستثمار ما أودع الله في هذه النجمة الأرضية لبني آدم ، مصحوب بنشاط روحي لرد كل شيء إلى مبدع ذلك وخالقه .

الإيمان الحقيقي إدراك لأسرار تلك العبادات التي هي ركن من أركانه ، والوقوف لتأدية أشكالها ومراسمها حسب ما جاء به رسول الله ، دون زيادة أو نقص . قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، وقال ﷺ في حديث طويل : «إياكم

(١) أخرجه أحمد (١٨٢/٤) ، والترمذي (٢٨٥٩) ، والحاكم (١٤٤/١) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٨) وغيرهم عن النواس بن سميان . وحسنه الترمذي . وصححه الحاكم على شرط مسلم . وله شاهد من حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً كما في «الترغيب» للمنذري (١٧١/٣) وحسنه .

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٦٠/٧) من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وذكره ابن المبارك في «الزهد» بلاغاً كما في «تخريج الإحياء» للعراقي (٣٦٦/٨) .

ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة»^(١) .

الإسلام يطرد الخرافة من الفكر والرذيلة من القلب ، والشكوك في العمل ، والزيغ في الاتجاه ، والاعوجاج في السير ، والبعد عن الحقيقة والفطرة ، والذبذبة في العقيدة ، والميوعة في السلوك والأخلاق . قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] . وقال ﷺ : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً»^(٢) ، فرض الله علينا الصلاة ، وهو غني عن العالمين ليؤدب بها نفوسنا ، فالمصلي أجدر بالقيام بحقوق عباد الله .

الأمة الإسلامية الحية التي يريد الله تحيا بمشاعرها وعقولها وقلوبها وأفكارها في حظيرة خالقها ، مستثمرة ما استخلفها الله عليه ، خاضعة لسنن الله الكونية التي لا تتبدل ، ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم بنحوه (٨٦٧) عن جابر بن عبد الله . وهو عند أبي داود (٤٦٠٧) ، وأحمد (٣/٣٧١) ، والدارمي (٩٥) وغيرهم عن العرياض . وصححه الحاكم (١٧٦/١) ، وابن حبان (٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٤/١١) عن ابن عباس مرفوعاً . وأخرجه أيضاً (١٠٣/٩) عن ابن مسعود موقوفاً . وأعل الهيثمي المرفوع بليث بن أبي سليم ، وقال في الموقوف : «رجاله رجال الصحيح» ، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣٩٨/١) : أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح . ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في «تفسيره» من حديث ابن عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد من الله إلا بعداً» وإسناده صحيح .

الأمة الحقّة تحيا بدينها ظاهراً وباطناً:

الأمة الإسلامية هي التي تحيا به ظاهراً وباطناً بسلوك حسن ، وتطبيق صحيح لأوامره ، وإخلاص لله في كل ما تعمل أو تذر ، فالإسلام لا يعارض طبائع البشر التي طبعها عليها ، وإنما يضع لها الحدود والقيود المعقولة ، والسبل المنظمة دون تفريط أو إفراط ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فالأمة الحية كما جاء بها رسول الإسلام هي التي تتخلى عن التراث القديم الخرافي المنافي للعقل السليم ، والعصر الحاضر ، والدين الصحيح ، وتتجنب من جهة أخرى المجتمع الغربي الغريب عنها . بل تأخذ بالأصلح من ههنا وههنا ، أي القديم الصالح ، والجديد النافع .

ومعنى ذلك : العز بالنواجد على الأصول التي جاء بها القرآن الكريم ، والسعي الحثيث للغايات الشريفة ، والتوسع في البحث والمرونة في العلوم والفروع والآلات .

فمن الواجب الحيطة والتنافس ، فلتتجنب الجانب المظلم بقشوره وشروبه ، ولتعتن بالجانب المشرق بتقدمه ورقيه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٩] .

فالدنيا ركن في الدين ، وتمام للمروءة ، وقيام للحياة ، ولا مفر للإنسان من السنن التي سنّها العليم الحكيم ، لا ينبغي لمسلم يدين بدين سيد المرسلين استيراد النظام الغربي بخصائصه وطبيعته ، ومع الحضارة التي تكتنفه ناسيا طبيعة ذلك الوسط الذي لا يناسبه ولم يخلق له ، فالأخذ بمدنية الغرب اليوم دون حذر وتحري في صالحها وفسادها انتحار وأي

انتحار . لا ينبغي للمسلم أن يكون إمعة ، فالتقليد الأعمى وثنية جديدة .
وإن الوثنية لفنون ، كما أن الجنون فنون .

الأمة الإسلامية الآن بين تيارين ، فثم قوم غرثهم مظاهر المدنية الغربية
الخلافة ، وبهارج الحضارة المادية ، وأغرثهم المتعة واللذة الحيوانية ، والقوة
الآلية ، غير عابئين بما وراء تلك المظاهر من أرواح ميتة ، وقلوب قاسية ،
وأخلاق رديئة ، وحيوانية متجسمة ، وفواحش بذئية : ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤٤] ، وصدق فيهم قول الشاعر :

دع الأناسي وانسبني لغيرهم فانسبني للشاء أو فانسبني للبقر
فإنما البشر الراقي بخلقته من قد أنفت به أي من البشر

وثم قوم آخرون اتجهوا بالإسلام اتجاها لا يرضى به الدين الحنيف ،
حسبوه صلاة وصياما ، وحجا وذكر فقط ، ناسين الناحية المهمة التي فيها
أوصاف المسلم وغير المسلم ، فلقد ورد عن المعصوم عليه السلام قوله : «الدين
المعاملة» . بصيغة الحصر .

فالإسلام يأمر أتباعه أن يسيروا على ضوئه لا في العبادات فحسب ، بل في
العلاقات ما بين الناس ، جماعات وأفرادا على الحب والاحترام . فالمعاملة روح
الدين وأساسه ، وهل الصلاة إلا مراقبة الله في السر والعلن؟! وهل الصوم إلا
تكوين الشفقة والرحمة على البؤساء والمساكين؟! وهل الزكاة إلا عدالة اجتماعية
صادقة؟! وهل الحج إلا رمز لمؤتمر عالمي للبت في شئون المسلمين؟! وهل الذكر
إلا حضور لله وسطوته في القلب وفي كل حركة وسكون .

فلقد ورد أن سيدنا عمر جاءه رجل ليزكي آخر في قضية ، فسأله عمر
ببصيرته النافذة ، وإدراكه للب الإسلام وروحه قائلا : كيف عرفته؟ لعلك

رأيته يضرب رأسه على الأرض . هل عاشرته أو سافرت معه؟ إذ ثم تظهر ثمرة الصلاة كما ورد أن رجلاً قال للنبي ﷺ : «إن فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ، ولكنها توذي جيرانها بلسانها . فقال ﷺ هي في النار»^(١) . أي أنها لم تتفجع بعبادتها الشكلية .

سر الإسلام ومعاله :

إذن فأين يظهر سر الإسلام ومعاله؟ إنه يظهر في المعاملات بين الأب وابنه ، بين الزوج وزوجه ، بين الجار وجاره ، في دكاكين التجار وأمانتهم ، في مكاتب الموظفين ، في صدقهم ، وتفانيهم في مصالح مواطنهم ، في الحقول والمزارع والعناية باستثمار أرضهم واستخراج كنوزهم في محاكم القضاة وعدلهم . في المدارس وحرص المعلمين والأساتذة على تربية وثقافة أبناء ملتهم ، في الوزارات وحرصهم على مصالح وطنهم ، في مخابر العلماء والمخترعين في مراصدهم في التفكير والاعتبار بصنع الله وإبداعه في كل حالة لنستمع إلى صفات المسلمين في كتاب ربنا : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ وهنا السر ﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

فالإسلام ليس دين طقوس فحسب بل هو يدخل في كل شيء ، ويحلو لي أن أكرر هنا قول نبي الإسلام ﷺ : «إن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتُم للآخرة»^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤٠) ، والحاكم في «المستدرک» (٤/ ١٨٣) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) سبق تخريجه .

ورد أن وابصة بن معبد رحمته الله قال : «أتيت رسول الله ﷺ فقال : جئت تسأل عن البر؟ فقلت نعم ، قال : البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(١) .

تكوين الفرد :

فأول حلقة في سلسلة الأمة والمجتمع الكبير هي تكوين الفرد تكويننا سليماً كما قدمنا . ويحدونا الحديث الآن إلى الكلام على المجتمع الصغير وهو الأسرة .

فالأسرة هي الأساس الثاني ، والعدة والمدد للمجتمع المتماusk السعيد ، فلتكوين أمة سليمة البنيان ، متينة الدعائم ، ثابتة الأركان ، لا تنقسم عراها عند الملهمات ، ولا تتفكك وحدتها عند المدلهمات ، لذلك تجب العناية الكاملة بتربية الأسرة .

فالإسلام شرع الزواج فلم يبح أية صلة بين الذكر والأنثى بغير هذا السبيل الشريف ، فالزواج صلة نفس بنفس ، وفرد بفرد ، رباط روحاني ، وعشرة ربانية ، وبقاء لهذا النوع الإنساني حتى يرث الله الأرض ومن عليها . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] . فلكي تتكون المحبة ويسود الاحترام وتدوم العشرة في وئام بينهما ، فرض على كل واحد

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨/٤) ، والدارمي (٢٥٣٣) ، وأبو يعلى (١٦١/٣) وغيرهم .

وحسن إسناده ابن رجب في «جامع العلوم» (٢٤٩/١) ، وكذا المنذري في «الترغيب»

(٣٥١/٢) .

منهما حقوقا وواجبات ، فصل القرآن الأصول منها ، وشرح رسول الإسلام ما أجمل منها ، ودون علماء السلف الصالحون قوانين ، وسطروا دستوراً مستنبطاً من وحي الله يضمن لكل واحد منهما حقه غير منقوص ، ليس هذا محل شرحه .

فإذا ما اتسعت الأسرة فرض الله على الوالدين العناية بالأولاد في مأكلمهم وملبسهم وعلاجهم وتعليمهم وتربيتهم ، وتكوين المحبة بينهم ، وعدم التفريق حتى في القبلة ، وعلى الأولاد طاعة الوالدين والعناية بهما عند الكبر ، والضعف ، والحاجة ، واحترامهما في حياتهما بالقول والعمل ، وعند مماتهما بالدعاء الصالح والذكر الحسن ، جعل الإسلام لسعادة الأسرة قوانين وأحكاماً إذا ما حدث الشقاق بين الزوجين ، إذ هم بشر ، وليسوا بملائكة ، ولا بد من نزغ الشيطان ، وهو الذي قال لرب العزة : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] ، عند ذلك يجب أن يسعى أولو الأمر للصلح بينهما ، كما قال رب العزة : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء : ٣٥] .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾ ، وإذا لم تفد هذه المحاولة للتوفيق ، كان الطلاق هو الخاتمة ، وإن كان أبغض الحلال إلى الله ، كما ورد في الحديث الشريف ، فإذا ما التأمت الأسرة ، وعرف كل واحد واجباته وحقوقه ، وأصبحوا كالجسد الواحد حبا ورحمة وتعاطفاً ، ووزعوا أعمالهم حسب ما أودع الله من الاستعداد والقدرة في كل فرد منهم ، كخلايا النحل ، كل صنف يقوم بعمل لا يقوم به الآخر ، تكونت الأسرة السليمة على هذا التوجيه السليم الإسلامي الصحيح .

تكوين المجتمع:

فإذا تكون الوعي الاجتماعي في هذا المجتمع الصغير ، وأخذ طريقه في الازدهار نتجت عن ذلك مرحلة أكبر منها وأقوى ، فتجاوبت أسرة مع أخرى في العلاقات وحسن الجوار ، فعند ذلك تبدو التبشير بولادة المجتمع الكبير ، فتقوى الروابط التي لا تنفصل ، وتتولد المحبة وتحصل الأخوة ، ويوجد التعاون والتعاطف والرحمة ، فتلك هي السعادة الكبرى ، إذ تزدهر الأمة في هذه الحياة الدنيا الزائلة ، وتسعد في تلك الدار الأخرى الباقية . وهذا ما دعا إليه رسول الإنسانية ، محمد ﷺ ، وما طبقه أصحابه والتابعون والسلف الصالح من بعدهم ، ففتحوا البلدان للرحمة والقلوب للإيمان ، فعمروا وشيدوا ، ونشروا لواء العدل ونور العرفان ، فكونوا المجتمع المثالي السليم عن جدارة ، وحق رضوان الله عليهم أجمعين ، فهم الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فما هي التعاليم التي يسعد بها الإنسان ؟

العز والسعادة في اتباع شرع الله وتعاليمه :

لا عز ولا سعادة ولا رقي حقيقي للمجتمع إلا بتعاليم الله الذي خلق كل شيء وقدره تقديرا : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] ، الإسلام يبنى مجتمع الأمة على الأخوة ، كما ورد في القرآن الكريم بصيغة الحصر : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ولا يمكن لهذه الأخوة أن تتكون إلا على أساس تربية الفرد والأسرة كما سبق ، فلا تباغض ولا تحاسد ولا كبر ، بل التراحم والتواد .

لنستمع إلى نبي الإسلام ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١). ولنصغ إلى وصية رسول الله: «ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٢)، فالرحمة التي يريد بها ﷺ لأمة الإسلام تتشعب وتتفرع حتى تشمل سائر الأحياء من بني الإنسان ولو مخالفنا لنا في الدين والمعتقد. بل تتعدى حتى إلى الحيوانات. «فلقد مرت جنازة يهودي على رسول الله، فقام رسول الله احتراماً لجلال الموت. فقال له بعض أصحابه: إنه يهودي يا رسول الله، فقال: «أوليس بإنسان؟»^(٣) كما ورد في الحديث الشريف: «أن امرأة دخلت النار بسبب هرة»^(٤)، وفي حديث آخر: «أن امرأة أخرى دخلت الجنة بسبب كلب سقته وهو يلهث، وكاد أن يموت من العطش»^(٥).

الشورى:

العمدة الثانية بعد الأخوة لبناء مجتمع سليم، هي: الشورى. فلقد سبق القرآن كل دستور وضعي لهذه المنقبة، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وأمر رسوله فيما لم ينزل عليه وحي أن يستشير ذوي الكفاءات، فقال جل من قائل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فمع شهادة القرآن لخاتم أنبيائه بأنه لا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (١٣١٣)، ومسلم (٩٦١) عن سهل بن حنيف وسهل بن سعد.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) عن ابن عمر.

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة.

ينطق عن الهوى أمره أن يستشير أولي الرأي ، وأصحاب الكفاءات ، لا كل الناس ، في كل ما يعرض له من الأمور العامة .

فمثل هذه الدعامة إذا أقيمت تولد منها عدم الاستبداد ، وطاعة الولاية ، والتجاوب بين أفراد الأمة . يقول عليه السلام : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١) .

ففي المجتمع المثالي يوضع كل شيء في نصابه ، «لا ضرر ولا ضرار»^(٢) كما قال عليه السلام . والله خلق الخلق متفاوتين في التفكير والإدراك ، متباينين في الذكاء والاجتهاد ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَبَائِكُمْ﴾ [الروم : ٢٢] ، فكما اختلفت الألسنة في التعبير ، واختلفت الألوان في المظهر ، اختلفت وتباينت في التفكير حسب الذكاء والبلادة والاجتهاد والكسل والنشاط والغفلة وغير ذلك . فكل ميسر لما خلق له .

لذلك أمر نبي الإسلام - في المجتمع السليم - أن لا يتقدم أحد حتى يحس من نفسه أنه كفاء له ، قادر على تحمل أمانته ومسئوليته ، ذو كفاءة

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة .

(٢) أخرجه أحمد (٣١٣/١) ، وابن ماجه (٢٣٤١) وغيرهما عن ابن عباس . وابن ماجه (٢٣٤٠) عن عبادة . وأخرجه مالك في «الموطأ» (١٤٦١) عن يحيى المازني . وقد روي هذا الحديث من طرق عن غير واحد من الصحابة منهم غير الذي ذكرنا : أبو سعيد الخدري وأبو هريرة وجابر بن عبد الله وعائشة بنت أبي بكر الصديق وثعلبة بن أبي مالك القرظي وأبو لبابة رضي الله عنه . ولذا صححه الحاكم (٦٦/٢) ، وحسنه ابن رجب في «جامع العلوم» (٣٠٢/١) .

وقدرة وإخلاص ، وإلا أعطى القوس باريها ، كما قال المثل العربي ، حرصا على نفسه وعلى مصالح الأمة أن تعبت بها أيدي المفسدين .

إسناد الأمور إلى أهلها :

ولأجل هذا المعنى حث الرسول أن لا تسند الأمور إلا لذوي الكفاءات ، فقال عليه السلام : «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(١) ، أي ساعة ذلك الأمر الذي كلف به غير أهله ، وهل تقديم المسلمين لأبي بكر بعد وفاة الرسول اعتباط وعصبية كلا وألف كلا . إنها الكفاءة النادرة ، إنها التربية المحمدية ، إنها المقدرة الكاملة ، والنظرة البعيدة ، والشجاعة الأدبية التي أظهرها في حروب الردة . حتى لقد قال لعمر وهو من هو لما أشار عليه بعدم محاربة مانعي الزكاة : أشجاع في الجاهلية خوار في الإسلام يا ابن الخطاب؟ والله لو منعوني عناقا ، وفي رواية : عقال بغير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

أليس هو الذي وقف ذلك الموقف الخطير الصلب لما قال بعض الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . أليس هو الذي وقف الموقف الصعب الدقيق بينه وبين نفسه بين إرضاء فاطمة بنت حبيب محمد في قضية الإرث ، وبين الوقوف عند ما قال رسول الله : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة»^(٢) .

هذا سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وهو من هو صلاحا وتقوى ، وأسبقية في الإسلام . فلقد أودى في سبيله بما تلين له الجبال الصم ، طلب من النبي أن يعينه في وظيفة من الوظائف ، فقال له الرسول البصير بطبائع أصحابه ، إنك

(١) أخرجه البخاري (٥٩) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٩٤) ، ومسلم (١٧٥٧) من حديث مالك بن أوس رضي الله عنه .

ضعيف يا أباذر . أي : الوظيفة يصلح لها القوي ، ومن كان ذا عصبية قوية كقريش ، فبين النبي أن الوظيفة لا يصلح لها إلا القوي من غير ظلم ، العادل من غير ضعف ، المعتمد على عصبية تسانده عند الشدائد .

هذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا روي له حديث سأل الراوي عمن رواه ، فإذا عرفه وعرف أن قيمته في الحديث ضعيفة ، قال للراوي : فلان اطلبوه في الدعاء الصالح ، ولا ترووا عنه الحديث ، مشيراً إلى أن المروي عنه رجل صالح صادق في إسلامه ، ذو كفاءات كثيرة ، ولكنها في غير ميدان الحديث .

الكفاءة هي المعول الرئيسي في اختيار القيادات :

المجتمع المثالي لا يراعي في الأشخاص إلا الكفاءة لا غير . فالمهندس لا يمكن أن يعالج المرضى ، كما أن الطبيب لا يشيد العمارات ، وسائق السيارة لا يستطيع قيادة الطائرة ، فكل ميسر لما خلق له . فإذا صلح الفرد واستقامت الأسرة ، تكون المجتمع المثالي . فعلى هذا الهدي سار الأوائل ، فملكوا زمام العالم ، وفتحوا قلوباً غلغفاً ، وآذانا صماً ، وعيوناً عمياً . دانت لهم الدنيا ، وضربوا بسهم وافر في المدنية والعمران ، قائدتهم القرآن ، وحاديهم سنة ولد عدنان ، رهبان في الليل ، وفرسان في النهار ، لا يقدمون على أمر حتى يعلموا حكم الله فيه ، ولا يسندون أمراً إلا لذوي الكفاءة فيه ، حتى إذا ما انحرفوا عن الصراط السوي ، ونبذوا التعاليم المحمدية ، واستكنوا للراحة ، وأخلدوا إلى الأرض ، وبرزت قرون العصبية ، وانغمسوا في الشهوات والترف ، انسدت الأبواب في وجوههم ، وانتزعت السلطة من أيديهم . وسقطت دولهم الواحدة تلو الأخرى تساقط أوراق الخريف ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ [النحل: ٣٣] ، وصدق الله العظيم إذ يقول :
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَدَّ مَرْتَهَا
تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] . قال الشاعر الحكيم :

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

فالمجتمع المتهاون في أسسه وبنائه وأهدافه واستمراره قويا عزيزا ، هو
غاية ما يدعو إليه الإسلام . ذلك أن الإسلام لأجل تقوية الترابط بين
الأفراد دعا إلى الإحسان في المعاملة ، والسلوك بين جميع الناس لزرع
الالتحام بين أبناء الأمة الواحدة .

لنستمع إلى أمر كتاب الله : ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾
[القصص: ٧٧] ولحديث رسول الله : «إن الله كتب الإحسان على كل
شيء»^(١) ، الإسلام يدعو إلى العلم المصحوب بالعمل والإخلاص الذي
هو روح العلم ، وذروة سنامه ، فالعلم بدون عمل وإيمان صادق ، خطر
وأى خطر على الإنسانية ، فبقدر ما يكون الفرد متقدما في العلم بغير
وازع من ضميره ، وخوف من خالقه ، يكون ضرره عظيما . فسقوط
المستوى الأخلاقي ، وارتفاع المستوى العلمي ، بلاء وأي بلاء على الأمة !

فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : «بعثني رسول الله ﷺ إلى حي من قيس
أعلمهم شرائع الإسلام ، فإذا قوم كأنهم الإبل الوحشية طامحة أبصارهم ،
ليس لهم هم إلا في شاة أو بعير ، فانصرفت إلى رسول الله ، فقال : يا عمار
ما عملت؟ فقصص عليه قصة القوم ، وأخبرته بما هم فيه من السهو .
فقال رسول الله : يا عمار ألا أخبرك بأعجب منهم ، قوم علموا ما جهل

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس .

أولئك ، ثم سهوا كسهوهم أي غفلوا كغفلتهم»^(١).

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه ذكر فتنا تقع في آخر الزمان فقال عمر : متى ذلك يا علي؟ فقال : إذا تفقه لغير الدين ، وتعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة^(٢). فعن جابر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «العلم علمان : علم في القلب ، فذاك العلم النافع ، وعلم في اللسان ، فذاك حجة الله على ابن آدم»^(٣). فالعلوم النافعة لا بد أن يصحبها قصد شريف .

لا يعتبر العلم إذا لم يهذب صاحبه وينير السبيل لغيره ، كما أن المال لا قيمة له في ذاته إذا لم يرفع من قيمة صاحبه بإفاضة ما أنعم الله به عليه ، فلقد كان أسلافنا يقرءون العلم للعلم ، وللعلم وحده ، ويتبحرون فيه من المهد إلى اللحد وذلك غناهم . أما الآن فيقرأ العلم للوظيفة . فإذا ما حصل طالبه على ورقة الشهادة نبذه ظهرياً كأن الغاية قد حصل عليها . وهنا أدعو إلى إحياء الدروس المسجدية كالقيروان والزيتونة وغيرهما من المعاهد العلمية التي أخرجت لنا فطاحل العلماء الذين لولاهم لاندثر الإسلام في هذه الديار .

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٢٥٨/٤ - ٢٥٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/١٨٥) :

«رواه البزار والطبراني في الكبير ، وفيه عباد بن أحمد العزرمي قال الدارقطني : متروك» .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٧٤٣) عن سليم بن قيس الحنظلي .

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٣٤٦/٤) من طريق الحسن عن جابر مرفوعاً به . وابن

أبي شيبة (٨٢/٧) عن الحسن مرفوعاً . والدارمي (٣٦٤) عن الحسن قوله . وقال

المنذري (٥٨/١) : رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في «تاريخه» بإسناد حسن ، ورواه

ابن عبد البر النمري في كتاب «العلم» عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح . وقال المناوي

(٣٩١/٤) قال المنذري : إسناده صحيح . قال الحافظ العراقي : سنده جيد وإعلال

ابن الجوزي له وهم . وقال السمهودي : إسناده حسن .

نبذ الإسلام للفردية:

فالإسلام يدعو إلى نبذ الأنانية الفردية ، لأنها حجاب يحول بينه وبين رؤية مصالح غيره ، إذ يرى نفسه كل شيء ، وأن الحياة له وحده ، وأنه خلق من نور ، وغيره خلق من طين . فهذه النزعة هي التي أهلكت إبليس اللعين في قصة آدم . فإذا تمكن في النفس هذا الداء الفتاك الويل ، فإنه يبذل الأثم . وأصبح صاحبه لا يرى حرمة لمال غيره ، ولا لدمه وعرضه ، فتتولد العداوة بين الأفراد ، وتتفكك أوصال الأمة ، ويعم الخوف ، وتزول الطمأنينة ، وتنزع الثقة ، ويتحين كل فرد الفرص للإيقاع بأخيه ، وسلب ما يملك تارة علانية بالقوة والغضب ، وأخرى بالحيل والخديعة ، فلا أمن ولا راحة ، فترجع البشرية إلى الجاهلية الأولى ، إلى حياة الغاب ، كل يكسر أنيابه لاغتيال أخيه وافتراسه .

الإسلام منيع الحضارة الإنسانية ، فعندما كان المسلمون مطبقين للمبادئ الإسلامية بنوا حضارة أعلى من كل حضارة عرفها التاريخ القديم والحديث ، ولما ابتعدوا رويدا رويدا عن تعاليمه الصحيحة ، وقيمه السامية في عبادتهم ومعاملاتهم ، واقتنعوا بالانتساب إليه اسميا وجغرافيا فقط ، بل بالاعتراف به نزلوا من عليائهم ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين .

الإسلام يدفع الإنسان إلى الخروج من الطفولة البشرية إلى الرشد الإنساني ، يحرض على التعاون والبر ، وينفر من الإثم والعدوان .

لنستمع إلى أمر الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

الإسلام ضد ركود الفكر ، وجمود الذهن ، وإيقاف عجلة التاريخ ،
وصدق الشاعر إذ يقول :

وما يرتجى من حياة امرئ كماء على سبخة راكد
فليس له في غضون الحياة سوى نفس نازل صاعد

فالجُمود من أمراض الأمة الاجتماعية ، ذلك أن الزمن يسير بخطئ
سريعة ، والأمة الجامدة الراكدة الراضية بما هي عليه تبقى في مؤخرة
القافلة . كما قال الحكيم ابن الوردي :

فمكث الماء يبقى أسنا وسير البدر به البدر اكتمل

فالفرد المسلم الصالح يتحرر من السيطرة الحيوانية من الغرائز المتطرفة ،
من الإيحاءات الشيطانية من ضراوة الوحوش ، من العتو في الأرض
فسادا ، من احتقار أخيه الإنسان ، بلغ ما بلغت درجته في الضعف . لا بل
يجب أن يمد له يد المعونة لرفعه من كبوته ، وإنقاذه من ضعفه حتى يكون
له عوناً وعضداً . إذ المواطن ضعيف بنفسه قوي بأخيه ، فيكون هذا
العضو صالحاً في المجتمع المتناسك الكبير .

الإسلام يدعو أن لا تقل رعاية الفرد للفرد عن رعايته لنفسه . فالإسلام
مجموعة من الفضائل والأخلاق العالية ، وليس برسوم وصور وأشكال
أجسام بدون أرواح . قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤْاُ وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ...﴾ [البقرة : ١٧٧] .

كيف نعود لمجدنا؟

وبعد ، فما هو الدواء لاسترجاع مجدنا الزاهر؟ الدواء الحقيقي هو تلك
الكلمة الخالدة التي قالها إمام دار الهجرة مالك بن أنس : لا يصلح آخر

هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . الدواء الحقيقي : الاعتصام بحبل الله جميعاً ، وعدم التنازع ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله .

فهذه الأمة أمة واحدة وإن اختلفت أوطانها وتعددت أجناسها : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ، فالأمة تكون أمة بدينها بلغتها وعاداتها ، وحفظ خلفها عن سلفها مقومات وجودها . فالتاريخ هو المرشد للأمم ، والروابط الاجتماعية بين أفراد الأمم وجماعاتها كالروابط بين أعضاء الشخص ، يعتبر كل فرد منها سعادته سعادة سائر أفراد أمته .

سبب هلاك الأمم :

فما من أمة انحرفت عن الصراط المستقيم ، ولم تراع سنة الله في خلقه إلا وأحل بها العدل الإلهي ما تستحقه من جزاء ، كال فقر والذل ، وفقد العزة والسلطة .

فكل أمة ضلت سبيل الحق ، ولعب الباطل بأهوائها فسدت أخلاقها ، وضمير إنتاجها ، واعتلت أعمالها ، وسلط الله عليها من لا يرحمها . لنعتبر بما قاله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا معشر المهاجرين : خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركنهن ، ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا . وما نقصوا المكيال والميزان إلا أصيبوا بالسنين وشدة المثونة وجور السلطان عليهم ، وما منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم

بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١) فسنة الله في خلقه لا تتبدل .

فالأمة التي تستوجب البقاء هي التي تنفي الظلم والعصيان والجهل وفساد الأخلاق ، فعدم الشعور بالمسئولية الملقاة على كل واحد نذير لزوال تلك الأمة . ورسول الإسلام يقول : «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته...»^(٢) الحديث المشهور ، فإهلاك الله الأمم بظلمها تارة يكون بالإبادة ، وتارة يكون بالانحطاط ، قال تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف : ٤ ، ٥] .

أما الإبادة والاستئصال ، فقد أكرم الله نبيه محمدا ﷺ أن لا يبید هذه الأمة ، وأن لا يسلط عليها الصواعق المحرقة المتلفة للأمم . كما وقع فيما مضى . فحدثنا ثوبان رحمته الله قال في حديث عن رسول الله ﷺ : «إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم - أي سلطتهم وملكهم»^(٣) .

فإذا أراد الله تعالى إحياء أمة نفخ روح الشجاعة في خيارها الأقلين ، فيعملون ما لا يعمل الآكثرون ، ذلك لأن الأمم ليست كالأفراد . فالفرد إذا مات لا يحيا ، أما الأمم فإنها تحيا : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٣٣/٨-٣٣٤) وغيرهما من

حديث ابن عمر . وصححه الحاكم (٥٤٠/٤) ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) .

إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] ،
إذا أعطاهم الله تبارك وتعالى أفرادا كما وصفهم : ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

لا تقوم قائمة للدولة إلا إذا كان لهم جامعة تضمهم ووحدة تربطهم ،
فوحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة ، ولا لغة تجمع المسلمين وترأب
صدعهم إلا لغة القرآن الذي جعلهم بنعمة الله إخوانا . فهو الحياة .

فالقرآن العظيم هو الحياة لمن أراد دوام نعمة الله عليه . وصدق الله إذ
يقول : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
مُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

فالله تبارك وتعالى قد يصيب الأمم ، وقد ينعم عليها ، فإذا اعتبرت
بالنعمة كما اعتبرت بالنقمة فإنها ستحيا . هذا نبي الله سليمان لما أكمل الله
له النعمة بالإتيان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ، خاف أن يكون
ذلك استدراجا وإملاء وفتنة ، فشكر نعمة الله ، كما تدل الآية الكريمة على
هذا المعنى : ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ
فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] .

ولكنه لما تفقد الطير ووجد الهدهد قد غاب ، وتخلّى عن وظيفته ، ظن
نبي الله أن عدم طاعة واحد من رعيته لذنوب ارتكبه ، فرجع إلى نفسه ،
وقال متعجبا دهشا متسائلا : ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذِّبْتُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْخَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَنٍ
مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ [النمل: ٢٠، ٢١] .

فكيف يريد الإسلام هذه الأمة؟ إنه يريد لها متحابّة متآخية متعاونة على البر والتقوى، جادة عاملة، تأخذ من كل شيء أحسنه. تسلط أشعة نور إيمانها على ما جادت به قرائح المفكرين والمخترعين، وما جد من علوم وفنون فتزنه بالقسطاس المستقيم، آخذة منه ما لا يصادم أصل حضارتها، نابذة كل ما لا يوافق أصل بنيانها.



نور من القرآن والسنة

٢٣٠

المحاضرة الثانية والستون

الخصائص المميزة لنظام القضاء في الإسلام

الحمد لله يحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره الكافرون . أحمده سبحانه ، أكمل دين الإسلام ، بوجوب متابعتة وهدايتة ، ولا يؤمن أحد حتى يكون هواه تبعا لما جاء به رسول الإسلام .

وأشكره سبحانه ، أقسم برب محمد ﷺ أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّم المبعوث رحمة للأمة فيما يقع بينهم من الشجار والخلاف .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وأشهد أن لا إله معبودا بحق سواه ، الذي أنزل الكتاب بيانا وهدى للناس ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد ﷺ ، سلك بنا طريق الحق ، وهدانا إلى الطريق المستقيم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نهجوا منهج الشريعة وحكموا به ، واتخذوه نبراسا لحياتهم ، وسلم تسليما كثيرا .

الإنسان كائن اجتماعي ، فهو بدافع غريزته ، وبداعي طبيعته ، لا يستطيع أن يعيش منعزلا ، وما عاش على هذا النحو قط ومن ذلك كانت الجماعة أمرا لازما لعيش الإنسان ، لا يمكنه الحياة بدونها .

والإنسان عاجز بمفرده ، مستطيع بغيره ، ذلك أنه يعجز عن أن يشبع بمفرده جميع حاجاته ، فلا بد له من أن يفيد من مجهودات غيره في هذا السبيل .

وطبيعته تدعوه إلى أن يختلط بغيره ، فيشاركه في المعيشة ، ويساهم معه في النشاط ، ويتبادل معه النفع ، ومن ثم فحياة الإنسان في المجتمع عبارة عن أخذ وعطاء . وهو في أخذه وعطاءه قد تدفعه أثره جامحة ، أو تغريه قوة

طائشة إلى الاستزادة مما له ، والتخلص مما عليه ، ولو بدون حق أحيانا ، فكان ذلك مثار المنازعات بين الأفراد .

ولو ترك الإنسان حرا يسير على هدي غريزته ووحى فطرته ، لجرى فض هذه المنازعات عن طريق القوة الفردية ولالتهم القوي الضعيف ، ثم أتى دور القوي في أن يلتهمه من يفوقه قوة وعنفا وبطشا ، وحال كهذه تؤدي بطبيعة الحال إلى فناء المجتمع ودماره .

سيادة القانون :

ولكن الجماعة وصلت إلى إيجاد نظام يسودها ، ويضمن بقاءها ويمهد لتقدمها وازدهارها وارتقائها ، وكان هذا النظام هو القانون الذي نشأ بنشوتها ، والذي وجد لكي يبين لكل فرد ما له وما عليه . وهكذا كان تنظيم الحياة في الجماعة يقوم على أساس تقرير الحقوق والواجبات للأشخاص .

لذلك امتنع على صاحب الحق عند المنازعة فيه أن يقضي به لنفسه ، وأصبح لزاما عليه أن يلجأ في شأنه إلى القضاء يلتمس منه فض النزاع وفقا للقانون .

ذلك أن الدولة ، لا تبيح للأفراد اقتضاء حقوقهم بأيديهم بالقوة بعضهم من بعض . وإنما يجب على من يدعي حقا قبل آخر أن يلجأ إلى الدولة لتمكينه من حقه أو حمايته له . فنظام العدالة الخاصة قد انتهى ، والعدالة في العصر الحاضر أصبحت عملا عاما تستأثر الدولة بتنظيمه وممارسته فالقضاء حق للدولة وواجب عليها ، ولذلك يعتبر سلطة من سلطاتها الأساسية .

لأجل ذلك أصبح من وظائف الدولة الرئيسية ومن أخصها ، أن تقوم بحل الخلافات التي تنشأ بين الأفراد والجماعات ، وأن تتولى حماية حقوقهم عندما تكون تلك الحقوق عرضة للنزاع .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف الأسمى الذي يضمن طمأنينة الأفراد على أموالهم وأرواحهم وحرياتهم ، أنشأت الدولة المحاكم على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، وأصدرت قوانين ترتب بها هذه المحاكم ، وتبين وظائفها ، وتحدد اختصاصاتها وسلطاتها ، وتنظم سير العمل بها . كما سنت قوانين تبين الطرق التي يجب على المحاكم أن تلتزمها عند قيامها بوظيفتها ، وذلك عند النظر في الخصومة وتحضيرها وسماع أقوال الأطراف فيها ، والحكم فيها ، وتنفيذ ما يصدر فيها من أحكام .

ضرورة القضاء :

إن ضرورة القضاء في المجتمع متممة لضرورة القانون فيه ، أو هي من هذه الضرورة ، لأن القضاء يحقق معنى القانون على كماله ، إذ يحقق أبرز خصائص القاعدة القانونية وهي صفة الإلزام .

ولكن إذا سلمنا بضرورة القضاء لأعمال القانون الذي يحكم العلاقات الاجتماعية ، فما ضرورة وجود قانون آخر يحكم القضاة؟ ألا يكفي تنصيب القضاة ، وتركهم يفضون المنازعات بين الناس بالقانون ، دون أن نقيدهم أو نقيّد الالتجاء إليهم بقيود قد تعوق أداء العدالة أو التماسها؟

وإذا كان القاضي موضع ثقة الدولة لتطبيق القانون فكيف لا تطلق هذه الثقة فيه ، فلا تجعل الالتجاء إليه محدودا بأحوال معينة؟ والطريق إليه محوطا بأشكال خاصة بل وتصرفاته نفسها في سبيل كشف الحقيقة وأداء العدالة مقيدة بقيود متنوعة .

هذه الاعتراضات على ضرورة وجود قانون للقضاء ، تكشف عن فهم خاطئ لوظيفة القانون ، وثقة مهمة في القضاء ، فالقانون يستهدف التنظيم والحماية ، وقد تكون القيود بعض وسائله ، ولكنها لا تشوه جوهر غايته .

تنظيم حدود اختصاصات القضاة:

ولا يكفي تنصيب القضاة دون تنظيم حدود اختصاصهم ولا تقرير حرية الالتجاء إلى القضاء دون حماية هذه الحرية من إساءة استعمالها، أما القضاة فهم من عمال الدولة والدولة لا تثق ثقة عمياء في أحد، وهم بشر، وفي البشر من نواحي الضعف ما ينبغي أن يعالج دائماً، والقاضي باعتباره بشراً، فقد يتحيز لأحد الخصوم وقد يولي لبعض القضايا من الرعاية والعناية ما لا يوليها لقضايا أخرى.

ومن هذا يتضح أنه إذا كان لابد للمجتمع من قانون ينظم الحياة الاجتماعية، فلا بد أيضاً لهذا القانون لكي يؤدي وظيفته الأساسية التي وجد من أجلها من قضاء.

ولا بد لهذا القضاء بدوره من قانون ينظم أصوله وأوضاعه، هذا القانون هو ما يعبر عنه بنظام القضاء.

بعد هذا المدخل الذي بينا وبررنا فيه ضرورة وجود نظام للقضاء بصفة عامة، فعلينا أن نستعرض الخصائص المميزة لنظام القضاء في الإسلام.

وسوف يكون استعراض هذه الخصائص على سبيل المثال لا الحصر، وذلك لأن الخصائص المميزة لنظام القضاء في الإسلام هي خصائص الشريعة الإسلامية بأكملها.

الميزة الأولى:

إن شريعة الإسلام بحكم محاسن أحكامها، هي ملائمة لكل عصر وأوان، مهما امتدت الدنيا، وتجدد تقدمها ورقبها لأن شريعة مادتها القرآن الكريم الذي فيه خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، وفيه حكم ما بيننا، وهو

الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تبليه كثرة التردد ، وفيه علم الأولين والآخرين ، لا يمكن أن تكون قاصرة وخاصة بزمان دون زمان .

فشريعة مادتها القرآن الكريم ، الذي يحب العدل ويعد عليه مثوبة وأجرا ، ويكره الظلم ويوعد بالعقاب عليه دنيا وأخرى ، ويبين للحاكم منهج العدل الحقيقي ، ومسلك الحكم الصائب ، ويوجب مراعاة المساواة بين الخليقة من غير التفات إلى فارق ديني أو جنسي ، حتى يكون الناس بين يديه في العدل سواء ، لا فرق بين موافق في الدين أو مخالف ، ولا بين معاد أو مجانف ، ولا بين قريب أو بعيد شريعة بعيدة عن التقصير والقصور ، ومحفوظة عن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها على مر الأزمان والعصور .

إن الشريعة الإسلامية تعتمد قبل كل شيء على وجدان الإنسان ، لا على قوات السلطان ، إنها ذات مهمة هي إسعاد الناس وتدبير مصالحهم ، لا مراقبتهم والتدخل في شئونهم الخاصة ، والعقوبات التي شرعها الإسلام هي قليلة العدد بالنسبة لعموم الجرائم ، ثم هي في نظر الكثير من العلماء كفارات لما ارتكب الإنسان من إثم ، فيرجع إليه إذن واجب التقدم لتنفيذها عليه ، حتى يطهر نفسه مما اقترفه ، أو هي زواجر لإصلاح حالة المجتمع ، وحمائيته من ضعف الوجدان الإنساني فيه .

فسلطة القانون إذن وجدانية قبل أن تكون حكومية ، وتدخل الدولة في أعمال الإنسان الشخصية ضرورة لا ينبغي أن تتجاوز محلها .

إن غاية الشريعة هي مصلحة الإنسان ، كخليفة في المجتمع الذي هو منه ، وكمسئول أمام الله الذي استخلفه على إقامة العدل والإنصاف ،

و ضمان السعادة الفكرية والاجتماعية والطمأنينة النفسية لكل أفراد الأمة .
فاتباع الطاعة في الأعمال الإنسانية ، يجعلها أعمالاً شرعية ، والخروج عنها يجعل العمل الإنساني في إطار خارج عن الشريعة ، ومن ثم فهو خارج عن الفطرة . وهذا السلوك الموجه ، لا ينال به الفرد رضا الله فقط ولكنه حينما ينظر إليه إخوانه في الدين ، ويرون فيه القدوة الصالحة يحترمونه ويرون فيه الدليل العملي لنفاذ الخطابات الإلهية فيتبعونه وبذلك يصبح مرضياً عند الناس ، وذا أثر فعال في خلق المجتمع الإسلامي المتمتع بالحقوق المؤدي للواجبات .

وليكون الإنسان نفسه الحارس على ضمان العدالة ، ونشر الحق ، لم يكتف الشارع بالتكليف بظاهر القانون والقضاء ، بل كلف الإنسان أن ينصف غيره من نفسه ولو كان القانون أو القضاء في جانبه .

وإذا كان القانون الوضعي يهتم بالمساواة ، فإن الشريعة الإسلامية تهتم بتحقيق العدالة ، فالمساواة تعني فقط تطبيق القانون القائم على الجميع ، كيفما كان القانون ، وكيفما كان الوضع أو النظام المستقر في البلد . بينما الشريعة الإسلامية تقصد إلى تحقيق العدالة ، ولا تعترف بأي قانون مناف لمقاصدها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) أي مردود على صاحبه ، فأسباب الدولة نفسها لا تكفي لفرض القانون ، إلا إذا كانت تبررها الغاية المقصودة من بناء الدولة ، وهي ضمان العدالة ، وتعميم الحرية لجميع المواطنين .

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة .

التفريق بين الجانب القضائي والجانب الديني :

ولهذا الاعتبار فرق الفقهاء بين الجانب القضائي والجانب الديني ، فقد يصدر الحكم من القاضي ، فيصبح بذلك عدليا نافذ المفعول ، ليسمح للمحكوم له أن يتصرف بمقتضاه فيما حكم له به ، ولكنه من الجهة الديانية (وهي ما يرجع للديانة) لا يكون شرعيا ، إلا إذا كان مطابقا لواقع الأمر والمحكوم له مطالب بأن ينظر لنفسه ، فإذا كان الواقع متفقا مع القضاء ساغ له أن يستفيد من الحكم ، وإلا حرم عليه ذلك ووجب عليه أن ينصف خصمه من نفسه معترفا بالحقيقة على وجهها . والأصل في ذلك الحديث الشريف الذي ورد عن النبي ﷺ أنه قال عندما جاء إليه شخصان يحتكمان : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، وعسى أن يكون بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، فليأخذها أو يتركها»^(١) . فهذا الحديث يؤكد ويثبت الميزة الأساسية الجوهرية التي تمتاز بها الشريعة الإسلامية وهي التفريق بين الجانب القضائي والجانب الدياني واعتماد الشريعة على وجدان الإنسان لا على قوة السلطان .

وما ورد في مستهل الحديث من قول الرسول ﷺ : «إنما أنا بشر» البشر الخلق ، ويطلق على الجماعة والواحد ، بمعنى أنه منهم ، والمراد أنه مشارك للبشر في أصل الخلق ، ولوزاد عليهم بالمزايا التي اختص بها في ذاته وصفاته .

«وعسى أن يكون بعضكم ألحن بحجته من الآخر» أي عسى أن يتوفر أحدهم على دليل له من الحجية ما ليس للدليل الآخر ، أي دليل قاطع ،

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧) ، (١٧١٣) عن أم سلمة .

ومعلوم أن الحجة أو الدليل أو البينة هي سلاح الخصوم في معركة الخصومة القضائية حيث تتصارع المصالح ، وتتقارع المزاعم .

البينة:

والبينة هي الدليل أو الحجة ، وهي مشتقة من البيان وهو الظهور والوضوح ، ومعناها البرهان الخاص الحاسم الذي يدعم دعوى المدعي ، ولذلك يقول الفقهاء : البينة كاسمها مبينة ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»^(١) .

ومن هذا يتجلى أنه في الخصومة أو المنازعة قد يتوفر أحد الأطراف على دليل أو حجة تثبت ادعاءه ، وقد يفتقد الطرف الآخر هذه البينة أو الحجة ، أو قد يتوفر على دليل أقل حجية من الدليل الآخر ، رغم أحقيته في الشيء المنازع فيه .

والقاضي كما ورد في الحديث الشريف مطالب بالقضاء على نحو ما يسمع ، وهذا ما يثبت أن الحاكم لا يمكنه الحكم بعلمه الشخصي ، وذلك بدليل الحصر الوارد في الصياغة . وإذا قضى الحاكم للمحكوم له بشيء بحسب الظاهر ، إذا كان في الباطن لا يستحقه ، فهو عليه حرام يؤول به إلى النار . ذلك أن قضاء الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا .

ويتضح من كل هذا أنه إذا كانت القوانين الوضعية تعرف حقيقة واحدة وهي الحقيقة التي يصل إليها القاضي في المنازعة المرفوعة أمامه ،

(١) أخرجه الترمذي (١٣٤١) ، والبيهقي (١٢٣/٨) واللفظ له ، والدارقطني (١١١/٣) وغيرهم عن ابن عمرو . ونقل ابن رجب في «جامع العلوم» (٣١١/١) عن ابن الصلاح أنه قال : «رواه البيهقي بإسناد حسن» . وأخرج الشيخان عن ابن عباس لفظ : «اليمين على المدعى عليه» .

وهذه الحقيقة هي الحقيقة القضائية ، ويجوز للمحكوم له تنفيذ ما حكم له به ، بل إن الحق المنازع فيه يصبح مشتملا بعد الحكم به على عنصر آخر لم يكن يشتمل عليه قبل الحكم وهو قابليته للتنفيذ الجبري ، فإن الشريعة الإسلامية تعرف بجانب هذه الحقيقة القضائية حقيقة أخرى وهي الحقيقة الواقعية ، فالحقيقة القضائية قد تكون متفقة مع حقيقة الأمر والواقع ، وقد تكون مختلفة متباينة ، والمحكوم له - طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية - مطالب بالنظر والتأمل ، هل ما حكم له به ، متفق مع حقيقة الأمر والواقع أم غير متفق ، ولا يجوز له شرعا الاستفادة مما حكم له به ، إلا إذا كان مطابقا للواقع ، وإلا فإنه يقطع له قطعة من النار أي يبوأ له مقعد في النار ، فليجلس في هذا المقعد أو ليتجنب الجلوس فيه ، فالشارع لم يكتف بالتكليف بظاهر القانون والقضاء ، بل كلف الإنسان أن ينصف غيره من نفسه ولو كان القانون أو القضاء في جانبه .

الميزة الثانية:

لم يظهر في صدر الإسلام منصب القاضي المتخصص الذي يتفرغ لما وكل إليه ، والذي يتقلد ولاية القضاء على وجه التحديد .

ويرجع ذلك إلى أنه في حياته عليه السلام ، كانت الدعوة غضة ، تغمر بنورها القلوب ، فتحيي الضمائر ، وتضاعف الشعور بالإثم ، فكان المسلم الأول يعرف حقه ، كما يعرف حق غيره ، ويدرك واجبه وواجب غيره ، وندر التشاحن والتشاجر ، فإذا وقع المحذور لجأ إلى صاحب الدعوة ، ليستوضحه الغامض من الأمر ، ويستجليه ما خفي عليه . وكان قوله عليه السلام عندئذ محترما لذاته ، فينفذه الخصم تنفيذا تلقائيا دون حاجة إلى قوة جبرية .

وهكذا جمع الرسول عليه الصلاة والسلام بين التنفيذ والقضاء ، فلم يكن للمسلمين قاض سواه .

وإذا كان الرسول ﷺ قد عهد بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية إلى ولايته بالقضاء بين المسلمين ، فلأن القضاء كان إحدى وظائف الوالي .

ولما اتسع سلطان الإسلام في الدنيا ، وتبوأ في هذه البسيطة المرتبة العليا ، وأصبحت رايات الدين المحمدي تحف على الحجاز ، كما تحف على العراق ، وأعلامه تترنح على مصر ، كما تلوح على الشام ، وسرت سراياه وبعوثه في المعمورة ، وانبت جيوشه وجنوده في الأمصار والشعور ، وكان القائد الأعلى لهذه الجيوش ، والمدير العام لهذه الأعمال هو الخليفة ، أضحى من المتعسر الاضطلاع لفرد واحد بتلك الأعمال الحربية والإدارية مع مباشرة أعمال القضاء والحكم في المنازعات والخصومات .

فرائى سيدنا عمر فصل القضاء عن الولاية العامة وجعله مستقلاً بنفسه ، وهكذا كان عمر هو أول من وضع أساس السلطة القضائية المتميزة .

ولم يكتف سيدنا عمر بأن جعل القضاء وظيفة مستقلة وخصص لها عاملاً متفرغاً للقيام بها ، بل إنه حدد لعماله على القضاء أسلوب التقاضي وآدابه ، ووسائل الفصل بين المتقاضين مما يطلق عليه الفقهاء (دستور القضاء) .

وإذا كان هذا الدستور قد جاء آية في الكمال والإبداع ، فلأنه جاء وليد التجربة والعلم معا .

وثيقة عمر رضي الله عنه في القضاء :

وأهم وثيقة يشير إليها الفقهاء في هذا الصدد ، هي خطاب أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعري ، هذه الوثيقة التي حددت الأسس التي يصح

للمحكمة أن تبني عليها قواعد العدل ، وبينت المبادئ والدعائم الأساسية التي يركز عليها نظام القضاء في الإسلام ، فكل ما أتى بعد هذه الوثيقة من ترتيب ونظام ، فمن أصولها استمد ، وعلی فصولها اعتمد .

ومن العجيب أن هذه الرسالة يرويها المحدث في جامعہ ، ويعتمد عليها الفقيه في أحكامه ومسائله ، ويستدل بها الأصولي لتأسيس حججه ودلائله ، ويجعلها الأديب أنموذجا لنسج خطبه ورسائله .

والحقيقة أن هذه الرسالة ، رغم قدم زمانها ، لم تنزل طرية غضة في معانيها ، صالحة لأن تصدق على القضاء في كل عصر وأوان وقد جاء فيها :

«أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في مجلسك ، وفي وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على المدعي واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ومن ادعى حقا غائبا أو بينة فاضرب له أمدا ينتهي إليه ، فإن بينه أعطيته بحقه ، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية ، فإن ذلك هو أبلغ في العذر وأجل للعناء .

ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك ، فهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التماهي في الباطل .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجربا عليه شهادة زور ، أو مجلودا في حد ، أو ظنينا في ولاء أو قرابة ، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان .

ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك ، مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ،
ثم قاييس الأمور عند ذلك ، واعرِف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها
إلى الله وأشبهها بالحق .

وإياك والغضب والقلق والضجر ، والتأذي بالناس والتنكر عند
الخصومة أو الخصوم ، فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ،
ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه ، كفاه الله ما
بينه وبين الناس ، ومن تزين بما ليس فيه شأنه الله ، فإن الله تعالى لا يقبل
من العباد إلا ما كان خالصا ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه
وخزائن رحمته والسلام عليك ورحمة الله» .

ومن استعراض هذه الرسالة يتضح أنها حددت الأسس والدعائم التي
يرسو عليها نظام القضاء في الإسلام هذه الأسس والدعائم الصالحة للتطبيق
في كل عصر وأوان ، والتي لم يصل إلى بعضها التطور القانوني في الأنظمة
القضائية الحديثة .

الميزة الثالثة:

حتى يتسنى بسط سلطان القانون على كبار الولاة ورجال الدولة ، ممن
قد يعجز القضاء عن إخضاعهم لحكم القانون ، فقد أنشئت ولاية المظالم ،
وفيها من خصائص القضاء والتنفيذ معا .

فوالى المظالم قد يعرض لحسم المنازعات التي يعجز عن نظرها القضاء ،
وقد ينظر في الأحكام التي لا يقتنع الخصوم بعدالتها .

وولاية المظالم كما يعرفها الفقهاء هي قود المتظالمين إلى التناصف
بالرغبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة .

من كل هذا يتجلى أن نظام المظالم في الدولة الإسلامية قريب الشبه إلى حد كبير من نظام القضاء الإداري بمدلوله الحديث .

كما أنه يعتبر طريقاً من طرق الطعن في الأحكام ولهذا فإن الشريعة الإسلامية تقر مبدأ تعدد درجات التقاضي ، وبالتالي فهي تميز للطرف المتضرر من الحكم الطعن فيه لدى هيئة أعلى من الهيئة التي أصدرت الحكم المطعون فيه .

الميزة الرابعة:

لقد كان الخلفاء يدركون أن مهمة القاضي عسيرة ، فإنه جرى على ألا يولى القضاء إلا من كان ذا فراسة وحسن نظر في الأمور .

وإذا كانت مهمة القاضي في جميع العصور ، هي تطبيق القانون على ما يطرح أمامه من منازعات ، وكان القاضي بالتالي يطبق القاعدة القانونية ولا يخلقها ، فإن القضاء الإسلامي له وضع متميز ، لأن القواعد التي يطبقها القاضي محدودة ، وهو مضطر بالتالي إلى أن يجتهد ، فيستمد القواعد الجديدة من الكتاب والسنة .

ولهذا انعقد إجماع الأصوليين على اشتراط مرتبة الاجتهاد فيمن يشغل منصب القضاء .

فالقواعد القانونية اليوم مفصلة غاية التفصيل وضعها المشرع في مجموعات مرتبة بحسب الموضوعات ، ويقوم القاضي اليوم باختيار النص الذي يطبقه على المنازعة من بين مواد المجموعة الخاصة بالنزاع المطروح .

أما القاضي الإسلامي فليس أمامه إلا المبادئ العامة المقررة في الكتاب والسنة ، وعليه هو أن يكتشف النص الذي يطبقه ، فهو يقوم بعمليتين متكاملتين في الوقت ذاته :

- اكتشاف القاعدة .
- ثم تطبيقها على النزاع .

الميزة الخامسة :

يتردد القضاء في الوقت الحاضر بين مبدئين :

الأول : أن يلتزم القاضي بالسوابق القضائية ، فلا يستطيع الخروج عليها ، وهذا هو مسلك المحاكم الأنجلوسكسونية بصفة عامة .

الثاني : ألا يتقيد القاضي بالسوابق القضائية .

ولقد كان مسلك سيدنا عمر في القضاء هو الأسلوب الثاني ، وقد عبر عنه في دستور القضاء الذي عرضناه قبل قليل عندما قال :

«ولا يمنعك قضاء قضيتيه في اليوم ، فراجعت فيه رأيك ، وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التماهي في الباطل» .

وأثر عنه أنه قضى في حالتين متشابهتين بحكمين مختلفين فلما سئل في ذلك قال : «تلك على ما قضينا ، وهذه على ما نقضي» .

واتباع هذا المسلك يعتبر نتيجة حتمية لمبدأ عدم إلزام الاجتهاد الفردي ، فما دام لا يوجد حكم صريح في كتاب الله وسنة رسوله ، فإن لكل مجتهد أن يستمد من المبادئ العامة في المصدرين الأساسيين الحكم الذي يلتزم به في القضية المطروحة ، وهذا الاجتهاد لا يقيد غير المجتهد ، بل ولا يقيد صاحبه فيما بعد ، لو هداه اجتهاده إلى حكم آخر .

الميزة السادسة:

تجعل معظم الدول الديمقراطية الحديثة مبدأ فصل السلطات الأساس الذي تقيم عليه نظمها الدستورية .

ويرجع أساس الفصل في الدولة الحديثة ، إلى كفالة الحرية الفردية وضمان شرعية الدولة .

وهذه الاعتبارات يكفلها النظام السياسي الإسلامي لا على أساس الفصل بين السلطات ، ولكن استنادا إلى «الوازع الديني» .

ولهذا يجب أن ينظر إلى النظام الإسلامي في ضوء هذه الحقيقة ، فالأساس الديني للدولة الإسلامية ، هو طابع جوهري لها .

ولكن الانفصال بين السلطة التشريعية الإسلامية وبين السلطة التنفيذية ومعها السلطة القضائية ، قد جاء نتيجة لطبيعة التشريع في الإسلام .

فالتشريع بمعناه الدقيق في «الإسلام» إنما هو لله تعالى ، وعلى هذا الأساس لا تملك أية سلطة في الدولة الإسلامية سلطة التشريع ، أي ابتداء أحكام مبتدأة في الدولة .

أما مواجهة الضرورات الجديدة ، فإنما يكون عن طريق استمداد ما يناسبها من أحكام التشريع الإلهي ، وهذه الوظيفة يقوم بها فئة خاصة من المسلمين هم المجتهدون .

وبناء على هذا يكون ثمة انفصال تام بين التشريع من ناحية ، وبين التنفيذ والقضاء من ناحية أخرى ، فالخليفة كرئيس للسلطة التنفيذية لا يملك التشريع ، وإن كان يملك الاجتهاد كسائر المجتهدين -متى استوفى شروطه- وهو إذا اجتهد ، فإنه إنما يفعل ذلك باعتباره مجتهدا لا بوصفه خليفة .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى القاضي ، فإنه حينما يستنبط حكماً ليطبقه في نزاع معروض عليه ، فإنه يقوم بهذا النشاط باعتباره مجتهداً . ولهذا فإن القاضي الإسلامي مستقل في عمله نظراً لأن القواعد التي يطبقها ليست من عمل السلطة التنفيذية بل هي مبادئ إلهية ، أو مستمدة من الأصول الإلهية .

الميزة السابعة :

يسود الدولة المعاصرة مبدأ ذو أهمية خاصة ، من مقتضاه أن أعمال الهيئات العامة وقراراتها النهائية لا تكون صحيحة ولا منتجة لآثارها القانونية ، كما لا تكون ملزمة للأفراد المخاطبين بها إلا بمقدار مطابقتها لقواعد القانون العليا التي تحكمها . بحيث متى صدرت مخالفة لهذه القواعد ، فإنها تكون غير مشروعة ، ويكون من حق الأفراد ذوي المصلحة طلب إلغائها والتعويض عنها أمام المحكمة المختصة .

وما من شك في أن تقرير هذا المبدأ ، وهو ما يعرف بمبدأ المشروعية أو الشرعية إنما يكفل حماية جديّة للأفراد في مواجهة السلطة العامة .

فقد أصبح من المسلمات في الوقت الحاضر ، أنه لا يكفي للقول بحماية حقوق الأفراد وحرّياتهم العامة ، أن تتأكد سيادة القانون في شأن علاقاتهم بعضهم ببعض ، بل أصبح يلزم لتوكيد هذه الحماية ، أن يسود القانون علاقاتهم مع الدولة وما يتفرع عنها من هيئات عامة .

ولقد فصل الإسلام من قبل في أمر علاقة السلطة العامة بالأفراد على أساس «نظام الشرعية» فقيد الحاكم فيما يتخذه من قرارات أو إجراءات ، أو فيما يصدره من أوامر بأحكام الشريعة الإسلامية وبذلك يكون قد سود القانون على السلطة العامة ، واعتبر الأول مصدر الثانية .

إن على السلطة العامة أن تراعي فيما يصدر عنها من تصرفات أو أوامر ، كتاب الله وسنة رسوله .

قال تعالى :

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥] .

وفي آية ثانية :

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧] .

وفي آية ثالثة :

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال رسول الله ﷺ : «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : «إنما الطاعة في المعروف»^(٢) أي في حدود الشرع .

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٤) ، ومسلم (١٨٣٩) عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٥) ، ومسلم (١٨٤٠) عن علي .

نور من القرآن والسنة

٢٤٨

المحاضرة الثالثة والستون

فضائل الصلاة على رسول الله ﷺ ودلائلها

على عظيم مكانة نبينا عند ربه ﷻ

انطلاقاً من الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

محبة الرسول من فروض الدين وواجباته :

إنه من المعلوم أن محبة رسول الله ﷺ تعد في مقدمة فروض الدين وواجباته الأساسية ، التي لا يتحقق إيمان ولا دين بدونها ، وكما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وانعقد عليه إجماع الأمة ، في مقابل إحسانه العظيم إلينا ، وأن هدانا الله به إلى دينه القويم وصراطه المستقيم ، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور ، وكان ﷺ هو الواسطة والسبب في كل خير عرفناه ، وفي كل عمل صالح أتينا به ، نرجو به ثواب الله ورضاه ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، فكنا ببركة اتباع دينه والتزام العمل بشريعته خير أمة أخرجت للناس ، وأمة التوحيد الخالص ، والمنفردين على وجه الأرض بدين الله الحق الذي ارتضاه لعباده ، ولن يقبل منهم ديناً سواه ، فكنا به حجة الله على عباده والشهداء على الناس أجمعين ، فضلاً عن شفاعته الكبرى فينا يوم الدين ، حتى لا يبقى في النار من أمته من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولولا أن من الله علينا ببعثته وهدانا برسالته ، لبقينا في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، ولكنا من الخاسرين ، وإذا كانت القلوب قد جبلت على حب من أحسن إليها ، وكما أحسن التعبير عن ذلك من قال :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

فالإحسان مجلبة للحب بطبعه حتى ولو كان إحسانا جزئيا ومحدودا ، فكيف إذا كان إحسانا عاما وشاملا وخالدا ، كإحسان رسول الله ﷺ إلينا ، وهو الإحسان الذي شمل بعباءاته الإنسان في جميع أطواره ومختلف أحواله ، في حياته وبعد مماته ، في حياته الدنيا وفي حياته الآخرة ، خيرا وأبقى ، فلا إحسان بعد إحسان الله تعالى يعادل إحسانه ، ولا فضل يقارب فضله وإنعامه ، وكان بمقتضى ذلك يجب أن يكون نصيبه من حبا له أعظم نصيب ، فنحبه أكثر مما نحب أنفسنا وأولادنا وآباءنا وأمهاتنا والناس أجمعين وكما كان ذلك بالفعل شأن أصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان وأخباره في ذلك معروفة ومشهورة يقضى منها العجب مصداقا لقوله ﷺ كما في «الصحيحين» وغيرهما : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» وسئل علي كرم الله وجهه كيف كان حبهكم لرسول الله ﷺ فقال : «كان والله أحب إلينا من أموالنا ومن أولادنا ومن آبائنا ومن أمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ» .

وحيث كانت محبة رسول الله ﷺ بهذه المنزلة من الدين ، ويقتضيها الشرع والطبع ، ولا يكاد يخلو منها قلب مؤمن ، وكان مما تقضي به العادة ويشهد به الواقع ، أن من أحب شيئا أكثر من ذكره ، وأولع بالشأن عليه ومدحه ، كان خير ما يذكر به رسول الله ﷺ ويشنئ به عليه ، الصلاة عليه امتثالا لأمر الله تعالى ، وشكرا له على النعمة العظمى به ، واعترافا بجميله وحسن صنيعه ، وأداء لأقل القليل من حقه ، لما أسداه إلينا من خير وما وصلنا على يديه من نعم جليلة وخيرات وبركات كثيرة ، وشكر الواسطة ومن أجرى الله الخير على يديه ، هو من شكر الله ﷻ ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ﷻ .

وكل هذه المقاصد شريفة يحبها الله تعالى ويتقرب بها إليه ، ومن ثم كانت الصلاة قربة وطاعة وعبادة لله ﷻ ، بل من أجل العبادات وأفضل القربات والطاعات التي رتب الله عليها ثوابا كثيرا وأجرا عظيما ، ويكفي في عظيم أجرها إجمالا أن الله تعالى أمر بها عباده في محكم كتابه ، أمرا بدأ فيه بنفسه ، وثنى بملائكة قدسه ، فقال تشريفا وتكريما ، وتنوينا بقدر نبهه العظيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، وهذه الآية هي السادسة والخمسون من سورة الأحزاب المدنية ، وكان نزولها في السنة الثانية من الهجرة ، على ما نقله الحافظ ابن حجر عن أبي ذر الهروي ، ونقل تلميذه الحافظ السخاوي عن ابن أبي الصلت اليماني ، ما يفيد أن نزولها كان في شهر شعبان حيث قال : إن شهر شعبان هو شهر الصلاة على رسول الله ﷺ ، لأن آية الصلاة نزلت فيه .

ووجه ارتباط الآية بما قبلها من الآيات ، أنها سيقّت في معرض وجوب تعظيم النبي ﷺ ، وتعظيم حرّماته ، وسلوك الأدب معه في حياته وبعد مماته ، وتجنب كل ما يؤذيه سواء في حق نفسه ، أو في حق أزواجه أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ، بدءا من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] الآية وما بعدها إلى أن قال ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] الآية ، ثم أتبعها بوعيد من يؤذي رسول الله ﷺ بقول أو عمل ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

وهكذا جاءت الآية الكريمة ضمن هذا السياق لتؤكد مضمون الآيات قبلها في وجوب تعظيم النبي ﷺ، وتعظيم حرماته، لعظيم حرمة عند الله تعالى، وأنه أهل لكل توقير وإجلال وتشريف وتكريم وتعظيم، فهو مكرم ومعظم من قبل ربه، إلهه وخالقه والمنعم عليه، ومن قبل ملائكته وأهل الملأ الأعلى المكرمين، فالله جل جلاله وعز سلطانه، وهو الغني الحميد يصلي عليه بنفسه وكذلك ملائكته المكرمون، الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهم الموكلون بتدبير أمر ملكوت الله في سمواته وأرضه، وكما تشير إليه آية: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] هم كذلك يصلون على النبي ﷺ، أفلا نكون نحن المؤمنين المكلفين باتباعه والمتتبعين برسالته دنيا وآخرة، والراجين لشفاعته الكبرى، والفوز بالكون معه ومرافقته في الجنة، أفلا نكون نحن أولى بالصلاة عليه، اللهم بلى ثم بلى .

وكان في تصدير الآية الكريمة بإخبار الله تعالى بصلاته وصلاة ملائكته عليه، والتمهيد بذلك لأمر المؤمنين بالصلاة عليه، حث لهم وترغيب في الصلاة عليه، اقتداء بصلاة الله وملائكته من جهة، وحتى يقدرُوا قدر هذا النبي الكريم الذي وصفه ربه بأنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومن عليهم ببعثته: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ولتأكيد هذا الترغيب جاءت الآية جملة اسمية، لتفيد الدوام والاستمرار باعتبار اسميتها، وتجدد صلاة الله وملائكته عليه كل وقت وحين، باعتبار خبرها لوقوعها فعلا مضارعاً، كما يدل بصيغته على تجدد الحدث ووقوعه .

وأكدت الآية بـ «إن» إما للاعتناء بشأن الخبر : ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ وأنه من الأهمية بمكان ، وإما لوقوعها موقع العلة وموقع جواب عن سؤال مقدر ، عن سر هذا التشريف والتعظيم المستفاد من الآيات السابقة ، وكما ألمحت إلى ذلك آنفا ، فجاءت الآية تبين سر ذلك ؛ سر ذلك هو أن الله وملائكته يصلون عليه ، ومن كان الله وملائكته يصلون عليه ، فقد حاز من كل أسباب التكريم والتمجيد والتعظيم ، ومن كل نعمة وكل مكان ، وكان جديرا بكل توقير وتكريم وخصوصية ، وغير ذلك من الكرامات ، لذلك فكان في هذه الآية لتعظيم رسول الله ﷺ ، والدلالة على عظيم قدره عند الله تعالى ، ما لا يستطيع بيان أن يبلغ حقيقته وكنهه .

قال القاضي عياض في الشفا : «الإجماع منعقد على أن في هذه الآية من التعظيم ما ليس في غيرها من الآيات الأخرى» ، ويؤيد ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم ، وكما رواه ابن المنذر عن ابن جريج ، هتئوا رسول الله ﷺ بنزول هذه الآية عليه ، ولم يعرف أنهم هتئوه في آية أخرى ، وذلك إدراكا منهم رضوان الله عليهم لمغزى هذه الآية ، وما تحمله في طياتها من دلائل التشريف والتكريم والتعظيم . وقال الفاكهاني : أفادت الآية الكريمة أن الله وملائكته يصلون على النبي دائما ، قال : ومطلوب الأولين والآخرين صلاة واحدة من الله عليهم ، وأننى لهم بذلك ، بل لو قيل للعاقل : أيهما أحب إليك ، أن تكون أعمال جميع الخلائق في صحيفتك ، أم صلاة واحدة من الله عليك ؟ لما اختار غير صلاة الله عليه ، فما ظنك بمن يصلي عليه ربنا وتصلي عليه ملائكته على الدوام والاستمرار .

وقال سهل بن محمد بن سليمان ، ولعله الفقيه الشافعي المعروف بالإمام ، قال : هذا التشريف الذي شرف الله به عبده محمدا ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ

وَمَلَكَيْكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ هو أتم وأجمع من تشریف آدم ﷺ بأمر الملائكة بالسجود له ، لأن ذلك التشریف لا يجوز أن يكون الله معهم فيه ، وأخبر عن نفسه أنه يصلي هو وملائكته على نبيه ورسوله ، ويزاد على ما قاله سهل ، أن سجود الملائكة لآدم ﷺ إنما وقع مرة واحدة ، أما صلاة الملائكة على رسوله ﷺ فهي مستمرة إلى يوم القيامة .

وأضاف الله تعالى الملائكة إلى نفسه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَكَيْكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴾ ، لما في هذه الإضافة من تشریف للملائكة أولا ، ثم من تشریف لمن يصلي عليه الملائكة ثانيا ، لأن العظيم لا يصلي إلا على عظيم ، ولإفادة العموم والاستغراق في الملائكة حتى تشملهم جميعا ، فهم جميعا وبدون استثناء كلهم يصلون عليه ﷺ على كثرتهم التي لا حد لها ولا حصر ، ولا يحصيها إلا الذي أحصى كل شيء عددا ، حتى إن السموات على رحبها وسعتها لتتط وتصور لثقلهم عليها ، إذ ليس فيها موضع قدم ولا شبر إلا وفيه ملك قائم لله أو راکع أو ساجد ، وحتى إن البيت المعمور فيها يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا ، كما صح في حديث الإسراء والمعراج ، هذا فضلا عما عداهم من الحفظة الكرام ، والكتب لأعمال بني آدم خيرها وشرها ، وحملة العرش ، والحافين من حوله ، وخزنة الجنة والنار ، والموكلين بالسحاب والأمطار ، والموكلين بالنظف في الأرحام ، ونفخ الروح فيها وقبضها ، إلى غير ذلك من وظائفهم الكثيرة ، وأعمالهم المختلفة التي جاءت بها الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، ومنها توكيل جماعة من الملائكة بالصلاة على من صلى على رسول الله ﷺ ، وبإبلاغه وهو في قبره الشریف بصلاة كل من صلى عليه من أمته أو سلم عليه .

فاقدر إذن بهذا قدر هذا النبي العظيم وما حباه من التشريف ومن التكريم ، حتى إنه جعله في مكان لم يصل إليه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ﷺ .

ثم إن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ فلم يعبر عنه باسمه محمد ، وإنما عبر عنه بلقب النبي ، جريا على عادة الله تعالى في مخاطبة حبيبه ﷺ ، بلقب النبوة أو الرسالة ، وعلى خلاف ما يخاطب به غيره من الأنبياء حيث ناداهم بأسمائهم الأعلام مثل : يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا داود ، يا زكرياء ، يا يحيى ، ولم يخاطب حبيبه قط إلا يأياها النبي ، يأياها الرسول ، خصوصية خصه بها ربه جل وعلا ، وحتى لما قرن ذكره بذكر خليفه إبراهيم عبر عن خليفه باسمه ، وعبر عن الحبيب بلقبه فقال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، وما ذكره باسمه العلم محمد إلا حين يقتضي المقام التصريح باسمه للشهادة له بالرسالة ، وختم النبوة ، وصدقه للذي جاء به ، ومن ثم علم أمته سلوك الأدب مع رسول الله ﷺ ، ونهاهم أن يدعوه كما يدعو بعضهم بعضا ، فقال ﷺ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣] على أحد التفسيرين ، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وهو الذي درج عليه الصحابة بالفعل ، فكانوا لا ينادونه إلا بـ (يا رسول الله) ، و (يا نبي الله) ، ولا يذكرونه في غيبته إلا مقرونا بالصلاة والتسليم عليه ، قال ابن عباس : كانوا يقولون يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عن ذلك إعظاما لنبيه ﷺ ، فقال : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ .

ثم إنه زيادة في التعظيم أتى بلفظ النبي معرفاً بآل ، فقال : «على النبي» إشارة إلى شهرة أمر نبوته وإلى حضوره في الأذهان ، حتى إذا أطلق النبي لا ينصرف إلا إليه ، وكأنه صار علماً بالغلبة عليه .

والنبي في اصطلاح أهل الشرع : إنسان أوحى الله تعالى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، بل أمر ليعمل به في خاصة نفسه ، فإن أمر بتبليغه لغيره فهو رسول ، وعليه فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً ، فالتقابل بينهما إذن من باب تقابل العام والخاص بإطلاق ، وهذا على حسب التعريف المشهور للنبي وللرسول ، وهناك تعاريف أخرى لا داعي للإطالة بذكرها .

وقرئ النبي في الآية مهموزاً وغير مهموز : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أو (على النبيء) وكلتا القراءتين متواترة ، وإن اختلف في الأرجح والأعلى من القراءتين ، لا بخصوص كلمة نبي وإنما بالنسبة إلى تحقيق الهمز وتسهيله في القراءات ، لاعتبارات لغوية وبلاغية ، وإن كانت كلها متواترة ، ومن اختار التسهيل على الهمز الإمام مالك رحمته الله ، لأن لغة قريش ولغة النبي صلى الله عليه وسلم كانت ترك الهمز ، ولهذا اختار الأندلسيون قراءة ورش ، جاء في كتاب الصلاة الثاني من العتبية : سئل مالك عن النبر في القرآن : فقال : إني لأكرهه ولا يعجبني ، قال ابن رشد في البيان والتحصيل تعليقا على قوله : سئل عن النبر أي عن تحقيق الهمزة في كل موضع على الأصل ، فكرهه مالك ؛ لأن تحقيق الهمز لم تكن لغة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك استحب رواية ورش ، إلا أن قراءة ورش على تحقيق الهمز في كلمة نبي ، سواء كان مفرداً أو جمعا ، وهو أيضا مطابق للغة قريش ، فإنهم كانوا لا يهمزون إلا في أربع كلمات ، عدها الجوهري في صحاحه ، وهي : النبي ، والبرية ، والذرية ، والخيرية ، قال وفيما عدا ذلك لا يهمزون ، يخالفون بذلك سائر العرب .

وهكذا بعد أن أخبر الله جل علاه بصلاته وصلاة ملائكته على نبيه ، أمر المؤمنين بالصلاة عليه ، قال : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] ليجمع له بذلك ثناء العالمين : العالم العلوي ، والسفلي ، وليشتهر بذلك فضله بين أهل الأرض كما اشتهر بين أهل السموات .

وقوله تعالى : ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ صيغة أمر ، أي قولوا : اللهم صل وسلم عليه ، كما علمنا رسول الله ﷺ أن نصلي عليه ، وذلك أن الصحابة كانوا قد أمروا بالسلام عليه في التشهد ، وكان النبي قد علمهم التشهد في الصلاة ، وفيه : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فلما نزلت الآية تأمر بالصلاة عليه ، توقف الصحابة ورجعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن كيفية الصلاة عليه ، فعلمهم أن يصلوا عليه بالصلاة الإبراهيمية المعروفة ، على اختلاف في روايتها ، بزيادة كلمة ، أو تأخير كلمة وهكذا .

فأفاد قوله تعالى : ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ الأمر ، وهو أمر ، والأمر للوجوب ، أفاد ذلك وجوب الصلاة عليه ، كوجوب التسليم عليه ، لاقتراحهما معا في الآية ، ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ خلافا لمن توقف في وجوب السلام عليه ، كما حكاه الفقيه الرصاع عن بعض المغاربة ، ثم تعقبه ورد عليه ، قال تعالى : ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ معنى صلوا عليه ، فأفادت الآية وجوب الصلاة عليه ، ولكن وجوبا إجماليا دون تقييد لا بعدد ولا بزمان ولا بمكان ، وهذا الأمر الجملي الذي اتفقت عليه الأمة ، وانعقد عليه الإجماع ، خلافا لابن جرير الطبري الذي حمل الأمر في الآية على الاستحباب ، ولكن العلماء تعقبوه وردوا عليه ، وادعى الإجماع على

ذلك ، فقابلوه بالإجماع بقولهم : من حكى الإجماع على وجوبها؟ ولذلك أول القاضي عياض كلام ابن جرير بكونه ربما كان فيما زاد على المرة ؛ لأن الأمر الجملي يتحقق بالمرة الواحدة .

وجوب الصلاة على النبي ﷺ :

إذن فالإجماع منعقد على الأمر الجملي في الآية ، ثم اختلفوا فيما زاد على هذا الأمر الذي يتحقق بالمرة الواحدة ، فمشهور مذهب مالك ، ومشهور مذهب أبي حنيفة أن الصلاة بعد المرة الواحدة تبقى محمولة على الاستحباب المؤكد ، وخالف مشهور مذهب مالك فقيهان من المالكية ، وهما : ابن بكير ، حيث قال بوجوب الإكثار من الصلاة عليه ، وكأنه لم يكتف بالمرة ، وربما كان ممن يرى أن الأمر يقتضي التكرار ، أو لقيام أدلة خاصة حول الصلاة عليه ﷺ ، جعلته يقول بوجوبها على الكثرة ، وأن المرة الواحدة لا تكفي ، كما أن ابن عطية ، وهو أيضا فقيه مالكي ، كما حكى عنه الشيخ ميارة في الشرح المرشد ، قال : إن الصلاة عليه واجبة وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع المسلم تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه .

كما خالف مالك وأبا حنيفة الإمام الشافعي رحمه الله ، فرأى أن الصلاة تجب على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير من الصلاة الذي يعقبه السلام ، فهي عنده من جملة فرائض الصلاة ، حتى إذا تركها المصلي بطلت صلاته ، وكان عليه أن يعيدها ، وقال بقول الشافعي الإمام أحمد في آخر قوله ، وقال به من الفقهاء المالكية محمد بن المواز ، وهو الذي اختاره القاضي أبو بكر بن العربي .

وقال بهذا القول أيضا خارج الأربعة ، إسحاق بن راهويه ، والشعبي ، والإمام الباقر من آل البيت ، كما قال جماعة من فقهاء المذاهب الأربعة

وغيرهم بوجوب الصلاة على رسول الله ﷺ عند ذكر اسمه الشريف ، أو عند سماعه للوعيد الوارد في ترك الصلاة عليه عند سماع اسمه ، قالوا : والوعيد على الترك من علامات الوجوب ، لأن ترك المستحب لا يترتب عليه وعيد ، وهذا الوعيد ورد في عدة أحاديث ، منها قوله ﷺ : « من ذكرت عنده فلم يصل علي ، فقد شقي »^(١) ، ومنها : « من ذكرت عنده فلم يصل علي ، فقد خطئ طريق الجنة »^(٢) أي ضل عنها ، ومنها : « رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علي »^(٣) ورغم الأنف هنا معناه الدعاء بالذلة والهوان ، لجعل أنفه يلصق بالرغم وهو التراب ، وفي حديث آخر : « من ذكرت عنده فلم يصل علي فأبعده الله » ، فقال : آمين ، وإنما قال آمين ، لأن أصل الدعاء كان من جبريل عليه السلام كما في حديث المنبر المعروف : « جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وهو يرقى إلى المنبر فقال له : من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله »^(٤) أي أبعده من رحمته ومغفرته ، فقل : آمين .

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٦٢/٤) عن جابر مرفوعاً . وإليه عزاه الهيثمي في «المجمع» (١٤٠/٣) وقال : «فيه الفضل بن مبشر ، وفيه كلام وقد وثقه ابن حبان وغيره» . ورمز له السيوطي بالحسن كما في «الفيض» للمناوي (١٢٩/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٠٨) ، والطبراني في «الكبير» (١٨٠/١٢) وغيرهما عن ابن عباس . بإسناد حسن . وقال ابن عدي في «الكامل» (١٨١/٢) : «هذا الحديث محفوظ بهذا الإسناد» .

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٤/٢) ، والترمذي (٣٥٤٥) ، والبيهقي في «الكبرى» (٣٠٤/٤) وغيرهم عن أبي هريرة . وقال الترمذي : حديث حسن غريب . وصححه ابن خزيمة (١٨٨٨) ، والحاكم (٥٤٩/١) ، وابن حبان (٩٠٧) . وله شواهد ذكرها المنذري في «الترغيب» (٢٨٣/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم (١٧٠/٤) عن كعب بن عجرة وصححه . والطبراني في «الكبير» (٢٩١/١٩) عن مالك بن الحويرث . وصححه ابن حبان (٤٠٩) ، وقال الهيثمي في

وفي رواية: «فدخل النار فأبعده الله، فقلت آمين» وهذا وعيد شديد ينبغي للمسلم أن يحتاط له، وألا يتهاون به، وقال في حديث آخر: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»، وفي رواية: «البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»^(١).

وصدق رسول الله ﷺ فمن بخل على رسول الله ﷺ بثلاث كلمات أو أربع كلمات، لا تكلفه مالا ولا عملا ولا كلاما كثيرا، إنه والله لأبخل البخلاء، وألأم اللؤماء، ولذا قال ابن العربي: الأحوط القول بوجوب الصلاة عند ذكر اسمه الشريف، كما أوجبها جماعة عند كل اجتماع أو مجلس، لقوله ﷺ: «ما اجتمع قوم في مجلس ثم لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا فيه على نبيه، إلا كان عليهم ترة - أي نقصا وتبعة - إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم»^(٢)، وفي حديث آخر: «إلا كان عليهم حسرة، وإن دخلوا الجنة، لأجل الثواب الذي فاتهم»^(٣)، وفي حديث آخر: «إلا

«المجمع» (١٣٩/٨): «رواه الطبراني في «الكبير» بأسانيد، وأحدها حسن». وهذا الحديث مروي من طرق عن غير واحد من الصحابة، وله شواهد ذكرها المنذري في «الترغيب» (٢٨٣/٢).

(١) أخرجه أحمد (٢٠١/١)، والترمذي (٣٥٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٨٣) وغيرهم عن علي. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصححه كذلك الحاكم (٧٣٤/١)، وابن حبان (٩٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٣/٢)، والترمذي (٣٣٨٠) وغيرهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة. وصححه كذلك الحاكم (٧٣٥/١).

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢١٥/٢) عن أبي سعيد. وأخرجه ابن حبان (٥٩٢) عن أبي هريرة. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧٩/١٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال المنذري في «الترغيب» (٢٦٣/٢): رواه أحمد بإسناد صحيح، وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري.

قاموا عن أنتن من جيفة»^(١)، وفي حديث آخر: «إلا قاموا عن مثل جيفة حمار»^(٢)، ولذلك رأى بعض العلماء أنه يجب على كل مجلس أن يذكره ولو مرة واحدة، فإذا ذكره مرة سقط الوجوب، وفيما عدا هذا يبقى حكم الصلاة هو الاستحباب المؤكد، وخاصة في المواطن التي ورد الترغيب في الصلاة فيها بخصوصها، وهي تزيد على أربعين موطنا.

هذا من حيث الوجوب والاستحباب، أما الكراهة، فقد كره المالكية الصلاة عليه ﷺ في سبعة مواضع، لأن المقام لا يليق بالصلاة عليه فيها، وقد أشار الفقيه المقرئ إلى هذه السبع في بيت فقال:

على عاتقي حملت ذنوب جوارحي تعبت بها والله للذنوب غافر

فأشار بأول كل كلمة إلى موضع من المواضع التي تكره الصلاة فيها، فأشار بالعين الأولى إلى التصريح عندما ينزلق الإنسان أو يعثر، وبالثاني عند العطاس، كره الصلاة عند العطاس، وبالحاء (حملت) وأشار بالحاء إلى الحمام أي المغتسل عندما يكون الإنسان يغتسل في داخل الحمام، حملت ذنوب، وبالدال إلى الذكاة، فالذكاة ينبغي أن يقتصر فيها على اسم الله وحده، قال: حملت ذنوب جوارحي، والجيم لمباشرة الرجل أهله، تعبت، والتاء قال: للتعجب، والباء للبيع أي لاتخاذ الصلاة وسيلة لإشهار البيع.

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (١٧٥٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٢١٤) وغيرهما عن جابر. وقال المناوي في «الفيض» (٥/٤٠٩): ورواه النسائي في «يوم وليلة» وتما في «فوائده». قال القسطلاني: رجاله رجال الصحيح على شرط مسلم. ونقل المناوي أن السيوطي رمز لصحته. انتهى

(٢) أخرجه أحمد (٥١٥/٢)، وأبو داود (٤٨٥٥)، والحاكم (١/٦٦٨)، وأبو نعيم (٧/٢٠٧) وغيرهم عن أبي هريرة. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وإن خالف المالكية بعضهم في بعض هذه المواضع ، وقالوا : تحرم الصلاة إذا كان المكان غير لائق بحرمة ذكر الله والصلاة على رسول الله ، كالصلاة عليه في أماكن اللهو والرقص والفجور ، وما إلى ذلك وعليه ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] كان مقتضى الأمر بالصلاة أن تأتي بالصلاة عليه من عندتنا ومسندة إلى أنفسنا ، فنقول : اللهم إنا صلينا أو نصلي على نبينا ، ولكننا لا نقول ذلك ، وإنما نقول : اللهم صل على سيدنا محمد ، لماذا؟ قالوا : لأن الصلاة عليه معناها الشاء على رسول الله بما يليق بمقامه ، وبما يليق بما أعطاه الله من الفضائل والكرامات ، وذلك أمر نجهله ولا ندركه ، ولذلك أحلنا الصلاة على ربه الأعلم بحاله الأظهر وما حباه به من الشرف الأكبر ، فقلنا : اللهم صل عليه ، فيكون المصلي عليه في الحقيقة هو ربه تعالى ، وأما نحن فليس لنا من الصلاة عليه إلا الدعاء له بذلك .

ثم عطف على الأمر بالصلاة ﷺ ، فقال : ﴿ تَسْلِيمًا ﴾ ، والعطف بالواو لا يقتضي المعية ولا المصاحبة ، بل غاية ما يفيد مطلق الجمع ، والجمع كما يتحقق بالإتيان بالصلاة والسلام عليه بهما معا ، وهو الأفضل ، يتحقق بأن يصلي عليه العبد مرة ، بأن يقتصر العبد على الصلاة عليه مرة ، ويأتي بالسalam عليه مرة أخرى ، خلافا لمن كره إفراد الصلاة عن السلام ، أو السلام على العكس ، كبعض فقهاء الشافعية ، ومنهم النووي رحمه الله تعالى ، نعم الأفضل الجمع بينهما ، إلا في المواضع التي وردت فيها صيغ عن النبي ﷺ وليس فيها ذكر السلام ، ففي مثل هذا الحال ينبغي الاختصار على الوارد .

والسلام اختلف في معناه، فقليل: السلام مصدر كالسلامة، والملام والملامة، وقيل السلام المقصود به اسم الله، السلام أي أحد أسمائه الحسنی، وهو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام، والدعاء بالسلام على هذا المعنى أن يكون اسم الله تعالى على المسلم عليه، يحفظه ويكلؤه ويرعاه، وقيل السلام هو مصدر من سلم تسليماً، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَتُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] والسلام عليه بهذا المعنى الدعاء بأن يخضع الله له الرقاب، ويجعلهم يتبعون شرعه ودينه، وقالوا: ولأن السلام يحتمل هذه المعاني الثلاث.

والمعنى الأخير يستحيل في حق الله ولا يكون مقصوداً من الملائكة، لذلك لم يسند الله السلام إلى نفسه كما فعل في الصلاة، فقال: وسلموا عليه، لثلا يفهم من السلام هذا المعنى الذي لا يليق به سبحانه وتعالى، ويبقى حكم السلام عليه، كحكم الصلاة عليه فيما مر سابقاً.

وهكذا تضمنت هذه الآية فضل الصلاة على رسول الله إجمالاً، ثم جاءت الأحاديث الكثيرة تحت عليها وترغب في الإكثار منها، وتبين ما أجمل في الآي من فضلها، وهي أحاديث كثيرة، فضلاً عما يترتب على صلاته ﷺ من ثمرات وفوائد وعوائد، ومن ثم اهتم العلماء كثيراً بالصلاة على رسول الله ﷺ، وأفردوها بالتأليف العديدة، وبينوا فوائدها، وقد عدها بعضهم إلى أكثر من أربعين، وحكى الشيخ المهدي الفاسي في مطالع المسرات عن ابن سبأ أنها تصل إلى ثلاثمائة فائدة، كما أن أحاديثها تفضل بعضهم بجمعها، فجمع منها ابن قيم الجوزية في جلاء الأفهام، نحو مائة وخمسة وثلاثين حديثاً، رويت عن اثنين وأربعين صحابياً، عدا ما روي من أحاديثها موقوفاً أو مرسلًا.

ما ورد من السنة في فضل الصلاة على الرسول :

ونكتفي بهذا الحديث وهو أشهرها ، وهو ما رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا» وروي عن غير أبي هريرة ، رواه البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي عن أنس بزيادة : «وكتب له عشر حسنات ، وحط عنه عشر خطيئات ، ورفع له بها عشر درجات» ، وروي من طريق البراء بن عازب «وكن له كعدل عشر رقاب» ، وروي من رواية عبد الله بن عمر «وصلى عليه الله وملائكته سبعين صلاة» .

فلو لم يكن في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث الجامع لكان كافياً .

وتمتاز الصلاة عليه ﷺ عن سائر الحسنات التي يشملها قوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالِهَا﴾ [الأنعام : ١٦٠] بهذه الزيادات التي أضيفت إلى الحديث ، صلاة الله عشرا ، وعشر حسنات ، ورفع عشر درجات ، وتكفير عشر خطيئات ، وما إلى ذلك ، وأكبرها وأعظمها وأعظم على كل الحسنات ، هو ذكر الله تعالى لمن صلى على حبيبه ، فذكر الله لمن صلى على حبيبه لا نظير له ، وهو أفضل وأعظم من كل حسنة ، إضافة إلى أن صلاتنا تعرض عليه ﷺ وهو في قبره ، فيعرض اسمنا عليه ﷺ بواسطة الملك المكلف بإبلاغها ، فيقول له : فلان يصلي عليك أو يسلم عليك ، وأي شرف أكبر وأي جزاء أكرم وأعظم من أن يحظى العبد الحقير المذنب بأن يذكر اسمه في الملأ الأعلى ، ويذكره ربه ، ويذكره رسوله وحبيبه ﷺ ، فلو لم يكن من الصلاة إلا هذه الفائدة ، وهذه المزية ، لكانت حادثة لكل مسلم على الإكثار منها ، فكيف والنبى ﷺ أمرنا بالإكثار منها ، وقال :

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة، فمن كان أكثرهم صلاة علي، كان أقربهم مني منزلة، وأحقهم بشفاعتي يوم القيامة» إلى غير ذلك من الأحايث .

فضل الصلاة على الرسول في يوم الجمعة :

وخاصة الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة ، فقد حُصِّ ﷺ كثيرا على الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة ، وقال : «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا من الصلاة علي ، فإن صلاتكم علي معروضة ، قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك يا رسول الله ، وقد أُرمت ، -أي بليت وصرت عظما رميما- قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١) فنبى الله حي يرزق ويقول ﷺ في حديث آخر : «إن الله تعالى وكل ملائكته يبلغونني الصلاة والسلام عن أمتي»^(٢) وقال : «حيثما كنتم فصلوا علي ، فإن صلاتكم معروضة علي وتبلغني»^(٣) .

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧ و ١٥٣١) ، والنسائي (١٣٧٤) ، والدارمي (١٥٧٢) ، وابن ماجه (١٠٨٥ و ١٦٣٦) ، والحاكم (٢٧٨/١) ، وأحمد (٨/٤) وغيرهم عن أوس بن أوس . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . وهو كما قالا .

(٢) أخرجه النسائي (١٢٨٢) ، وابن حبان (١٣٩٢) ، والحاكم (٤٢١/٢) ، والدارمي (٢٧٧٤) ، وأحمد (٤٤١/١ و ٤٥٢) وغيرهم عن عبد الله بن مسعود مرفوعا . وقال الحاكم : «صحيح الإسناد» . ووافقه الذهبي ، وصححه أيضا ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص ٢٧) .

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١١٧/١) ، وفي «الكبير» (٨٢/٣) عن الحسن بن علي . وقال في «المجمع» (١٦٢/١٠) : رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وفيه حميد بن أبي زينب ولم أعرفه وبقيّة رجاله رجال الصحيح . وقال السخاوي : له شواهد . كما في «الفيض» للمناوي (٤٠٠/٣) .

نور من القرآن والسنة

٢٦٦

المحاضرة الرابعة والستون

المحافظة على البيئة الطبيعية قانوناً وعملاً

من خلال قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر : ١٩] .

لا يمكن الحديث عن البيئة الطبيعية في هذا الجزء من العالم دون وضعه داخل الإطار الشمولي للكون ، ذلك أن العبث بالبيئة الطبيعية هو تكسير لموازن ومقاييس وضعت لتحكم هذا الكون ، ومن ثم كان ضروريا تبيان حكمة الله في كونه القائم على سنن هي التي تكون البيئة بمعناها العام والشمولي .

والقرآن الكريم دستور الأمة الإسلامية يثبت وجود هذه القوانين والسنن التي تكون البيئة بمعناها الشامل ويطالب بالمحافظة عليها باعتبارها سننا وقوانين إلهية وضعت بإحكام عجيب لتثبت في ذات الوقت وجود خالق مدبر قدير .

١- تأملات في الكون إدراك لبنيته :

عندما نرفع رأسنا إلى قبة السماء وقد زينت بمصابيح لامعة براقعة نتساءل من نحن؟ أين نحن من هذا؟ ما علاقتنا بالكرة المتواجدين عليها؟ ما علاقة هذه الأخيرة بباقي الكون؟ ماذا يجب أن نفعل أو لا نفعل للحفاظ على توازن هذه العلاقات؟

لقد قدم لنا القرآن الكريم ولا زال يقدم أكثر من جواب على ذلك ، فكأن الكون المبسوط المنظور وسائل إيضاح تعزز آياته وكأننا أمام قرآنيين

أحدهما مكتوب والآخر ملموس منظور لبرهنا معا على وجود قوانين إلهية لا يمكن تصورها دون مشرع ومقنن ، فكانت هذه القوانين البيئية الموزونة والدقيقة إثباتا لوجود خالق قدير ذي عقل جبار يحيط بالأزل وبالحقائق في صورها البدائية والنهائية .

التأمل في هذه القوانين تجعل بحق ﴿ إِنَّمَا نَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] والإنسان هذا المخلوق الضعيف لا زال يكتشف الأسرار تلو الأخرى عن مكنونات الطبيعة وقوانينها ، فبالأمس القريب كان يعتقد أن لا حد لعطاءات الطبيعة وكرمها ، فكان الغلو في استغلالها والجشع العلمي في تغيير دوراتها مصدر اكتشافاته لوجود قوانين وسنن محكمة لا يمكن العبث بها ، تلك القوانين والسنن التي تعتبر بمثابة دلائل إثبات على وجود مدبر عظيم لهذا الكون ، لذلك يقول للبشر في كتابه الكريم ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكأنه بذلك يريد أن يبين للغافلين أن آياته تفسر حاضرا ومستقبلا حقائق الوجود بدقة علمية لا مثيل لها ، ومن ثم فإن كل تقدم علمي لا يمكن إلا أن يكون إعجازا آخر للقرآن عن أسرار الكون وبيئته يضاف إلى إعجازه البلاغي .

كَيْفَ اللَّهُ الطَّبِيعَةَ لَتَلَائِمَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ :

إن الطبيعة قد كيفها الله بشكل دقيق لتلائم حياة الإنسان في النبات والحيوان وهي صنوف وأجناس لا حصر لها ، وربط بقوانين محكمة دقيقة بين هذه الأرض وما عليها من أحياء ، وهذه الشمس وما حولها من كواكب ، وما بين هذه المجموعات والمجموعات الأخرى ، وهذا في سلسلة متصلة لتشمل الكون بأسره ، وما كان للإنسان أن يعبث بهذه القوانين دون تعريض بيئته للخطر الجسيم .

فالسّموات والأرض كانتا منضمّتي الأجزاء على شكل غاز ساخن متماسك - حسب ما يؤكده العلماء - وبسبب انفجار شديد في المادة منذ خمسة ملايين من السنين تمددت هذه الأخيرة وتباعدت أطرافها، واستمرت بذلك النجوم والمجرات في التباعد تدريجياً دونما نهاية، وأصبح ذلك يشكل قانوناً طبيعياً لا يمكن توقيفه... وكل محاولة في هذا الشأن تهدد توازن الكون، وتكون انعكاساتها خطيرة على تلك العلاقة الرابطة بين الإنسان وبيئته بمعناها الشامل الكوني، هذه الحقائق العلمية أشارت إليها الآية القرآنية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وكل من هذه النجوم والمجرات مرتبط بالآخر، والكرة التي نعيش فوقها مرتبطة بدورها بمجموعتها الشمسية وهذه الأخيرة بباقي الكون، هذا الارتباط من الدقة بحيث لا يمكن العبث به أو تغييره، فالقمر مثلاً الابن الذي انشق عن الأرض حسب الرأي العلمي الراجح - ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ - ابتدأ في التباعد من الأرض تدريجياً إلى أن وصل إلى بعده الحالي (٢٤٠٠٠٠ ميلاً) ليخلق قانون توازن طبيعي يتمثل في عدة مظاهر، منها المد والجزر لمياه البحر مرتين في اليوم، واستقرار سرعة دوران الأرض في أربعة وعشرين ساعة.

ولو حاولنا المساس بهذه القوانين، وجر القمر وتقريبه من الأرض ليصل مسافة خمسين ألف ميل مثلاً، لأصبح المد من القوة بحيث يغرق مرتين في اليوم كل الأراضي الواطئة الموجودة تحت منسوب البحر، ويتسبب في خلق أعاصير شديدة تزيح الجبال من أماكنها وتخلق الدمار والخراب في الأماكن السكنية والنباتات وغيرها.

إن هذه الحالة التي كانت موجودة من قبل أن تستقر البيئة لتصبح ملائمة لعيش الإنسان لا يصح لهذا الأخير أن يعمل على الرجوع إليها دون شعور وهو يعبث بتفوقه العلمي .

إن المسافات بين النجوم والمجرات محددة بقانون هو قانون الجاذبية ، إذ إن هذه الأخيرة هي التي تعمل على بقاء كل الأجرام في أماكنها ، ولا نستطيع بالعين المجردة مشاهدة الجاذبية لنفس كيف يبقى الكل «في فلك يسبحون» ، لذلك جاء القرآن الكريم قبل أن يكتشف العلم هذا القانون لينبئنا بذلك وهو يقول : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] ، نعم إن الإنسان عاجز عن رؤية الجاذبية بصريا مهما حاول ، كما أنه عاجز عن اختراق المسافات الشاسعة التي تفصل بين هذه الأجرام ، لأنها تصل حد الخيال ، فأقرب مجرات السماء إلينا تبعد بمسافة ٧٠٠ ألف سنة ضوئية ، هذا البعد الخارق بين مواقع النجوم جدير بأن يقسم به الخالق العظيم الذي يقول في كتابه المقدس ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] ، تلك المواقع التي يرى العلم الحديث أن لا حد لها ، إذ إنها تتسع وتتمدد ، وكأن العلم بذلك يريد أن يفسر قول الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] .

على ماذا نعيش؟

وإذا ما تركنا الكون وقوانينه وسننه واقتصرنا على الكرة المائية التي نعيش فوقها ، أقول الكرة المائية ؛ لأن مساحة البحار والمحيطات تمثل (٧١٪) من المساحة الإجمالية (أي ٣٦٠ مليون كم من بين ٥٠٠ مليون كم تقريبا) ونحن نعيش على اليابسة التي تمثل (٢٩٪) من المساحة الإجمالية

أي نعيش على الاستثناء ، لوجدنا هذه الذرة الصغيرة من الكون ، هذه الأرض محكومة بقوانين إلهية دقيقة لا يمكن الحياذ عنها وإلا تغير وجه الحياة عليها .

فبالنسبة للحجم لو كانت في حجم القمر لما أمكن تماسك الماء والهواء حولها لضالة الجاذبية التي تصل سدس الجاذبية الحالية ، ولاشتدت البرودة ليلا والحرارة نهارا حتى يتجمد ويحترق كل من عليها ، ولما كانت هناك حياة .

أما إذا كبر حجمها الحالي وصار مثالا في حجم الشمس لارتفعت الجاذبية إلى (١٥٠) مرة عما هي عليه ، ولأصبح الضغط الجوي يمثل طنا واحدا لكل بوصة مربعة ، وما ينتج عن ذلك من انعدام الحياة أو حتى لو تصورنا نظريا مع ذلك وجود الإنسان فإن حجمه في هذه الظروف لن يزيد عن حجم قط صغير دون عقل إنساني لاستحالة وجود الأنسجة العصبية المتعددة التي لا يمكن تصورها إلا مع وجود الإنسان في حجمه الحالي أو ما يقاربه .

وهكذا بالنسبة لباقي مكونات كوكبنا هذا ، فدوران الأرض حول نفسها بسرعة (١٠٠٠) ميل في اليوم لا يمكن تخفيضه وإلا أدى ذلك إلى إطالة ليالينا وأنهرنا ، وتجمد ليلا واحترق نهارا كل ما يوجد فوق الأرض ، والقشرة الأرضية لو زاد سمكها لامتصت الأكسجين جزئيا أو كليا من الأرض وما يترتب على ذلك من انعدام أو ضرر للحياة ، وعمق البحار والمحيطات لو زاد عما هو عليه - خندق ماريان بالفلبين يصل عمقه (١١٣٠٠) مترا ، وكوريل باليابان (٩٦٠٠) مترا- لعمل هذا العمق على جذب ثاني أكسيد الكربون والأكسجين إلى الماء وعلى امتصاصهما كليا أو

جزئيا ولتضررت الحياة ، والغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية (المكون من ست غازات (٧٨٪) نيتروجين و(٢١٪) أكسجين الباقي غازات أخرى) ، لو زادت كمية الأكسجين به لزادت قابلية الأشياء للاحتراق ، ولو نقصت لاستحال وجود الأنسجة الدقيقة في جسم الإنسان إذا افترضنا مع ذلك وجوده .

إن ضرورة وجود نفس الكمية من الأكسجين بهذا الغلاف الجوي من مكتشفات العلم الحديث لكن القرآن الكريم بين ذلك منذ أربعة عشر قرنا عندما قال : ﴿تَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] أي أن التحليق في السماء والارتفاع في الطبقات العليا يصحبهما ضيق الصدر لحد الاختناق أحيانا نظرا لقلة كمية الأكسجين بسبب هذا الارتفاع .

إن هذا التكوين لعناصر الحياة في الأرض لا يمكن العبث بها بسبب الغرور الإنساني بدعوى التطور العلمي .

إن حجم الكرة الأرضية ، وسرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس وسمك قشرة الأرض وكمية الماء وثاني أكسيد الكربون وحجم النيتروجين وغيرها من عناصر الحياة كلها تعني أن هناك قوانين دقيقة وصارمة في المقاييس والكميات والمقادير استقرت بعد خروج الكون من حالة الفوضى إلى النظام وأن العبث بهذه البيئة الطبيعية هو رجوع جزئي أو كلي إلى هذه الحالة .

٢-التوازن في الأرض يكون بينتها الطبيعية :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر : ١٩] وفي

نفس المعنى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣]، يقول الزمخشري: إن المد يعني به البسط طولا وعرضا، والأرض المهاد تعني الأرض ذات السطح المستوي، لكن ذلك لا يعني أنها ليست كروية الشكل فذلك ثابت من خلال قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ولا يمكن تصور هذا إلا إذا كانت كروية.

هذه الأرض المهاد المكورة، المشتملة على اليابسة والبحار، تخضع لتوازن دقيق بين جميع عناصرها، وقد تناثرت أجزاؤها اليابسة في شكل قارات بعد أن كانت مكونة من قارة واحدة طبق نظرية «تباعد القارات أو انتشارها»، ذلك أن عالم النباتات البروفسور رولاند كود يؤكد في كتبه «جغرافية نباتات الزهور» أنه لا يمكن تفسير وجود نباتات من نفس النوع في جميع القارات إلا بالقول بأنها كانت متصلة.

هذه الآراء العلمية الحديثة تتجاوب مع الآية الكريمة ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا﴾ [الأنعام: ٣٠، ٣١] يقال: دحى الحجر بيده رماه ونثره، ودحى المطر أو الحصى على وجه الأرض أي رماه عليها، وبذلك يكون معنى دحا الأرض سواها ونثرها، مما يتطابق ونظرية وحدة القارات وتباعدها.

إن هذا الانتشار وانشقاق اليابسة عن بعضها أدت إلى خلق خنادق وجزر في البحار والمحيطات وإلى خلق جبال في اليابسة كل منها ضروري لتوازن الكرة الأرضية، ذلك أن الخنادق الهاوية في أعماق البحار المكونة من المادة الثقيلة، والجبال المرتفعة في اليابسة المكونة من المادة الخفيفة، تحافظ مع بعضها على توازن الكرة الأرضية، وهو ما عرف حديثا في

الجغرافية بـ«قانون التوازن» الذي يحفظ هذه الكرة من كل اضطراب واهتزاز، وإذا ظل العالم جاهلاً بهذا القانون قروناً طويلة فإن القرآن الكريم كان سباقاً إلى كشفه عندما قال في الآية: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: ١٩]، إن بعض المفسرين يعطي لكلمة رواسي معنيين، الأول الأجزاء المنقوصة من مرتفعات السطح، والثاني الشواطئ التي هبطت ببطء نحو الأغوار، وتعني الرواسي أو الأوتاد لدى آخرين الجبال وكل ما من شأنه أن يعمل على رسو الأشياء، ومنها راسي السفينة الأنجر (كلمة عربية نقلت إلى الفرنسية).

ويقول المفسرون المسلمون ومنهم الشيخ محمد عبده: إن الله سبحانه وتعالى يلقي الجبال في الأرض ليمنعها من الاهتزاز والاضطراب وحتى لا تفقد توازنها وتميل بالإنسان، فيكون الارتفاع والعمق إذن مصدر توازنها، ولذلك نجد كثيراً من الخنادق البحرية قريبة من الجزر والبراكين المرتفعة.

قيام الإنسان بتسوية أراضي الجبال وبطمس الأغوار، وبالتجارب النووية في أعماق البحار وأجواف الأرض، يضر دون شك بهذا التوزيع الطبيعي على سطح الأرض بين مرتفع ومنخفض، ويؤدي إلى المساس بالبيئة الطبيعية لخرقه مقتضيات قانون التوازن المذكور، وإذا فعلت الطبيعة ذلك أحيانا كخلق جبال بواسطة الرواسب المستقرة في الخنادق البحرية فإنها في ذات الوقت تقوم بخلق وديان وأغوار بحرية أخرى تحافظ على التوازن المطلوب؛ لذلك يؤكد عز من قائل في آيات أخرى على هذه الرواسي عندما يقول ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٦، ٧]، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴿الرعد: ٣﴾ .

ويظهر هذا التوازن أيضا في الماء أصل الحياة وفي المرعى «أخرج منها ماءها ومرعاها» فاحتياطي المياه الصالحة للشرب (٣٧ مليون كلم) يكفي للماء البحر الأبيض المتوسط عشر مرات لكن أغلبيته (٣ على ٤ منه) محصورة على شكل ثلوج في القطبين الشمالي والجنوبي، هذه الكثافات الثلجية تحافظ بدورها على توازن الأرض، وكل محاولة يقوم بها الإنسان حاليا لإذابة جزء منها، أو نقله، بها مساس بهذا التوازن.

دورة هذه المياه لزراع الحياة على سطح الأرض تخضع هي أيضا لتوازن مدروس، فالتبخر الناتج عن حرارة الشمس (٥٠٠,٠٠٠ كلم في السنة ٤٣٠,٠٠٠ من المحيطات و٧٠,٠٠٠ من اليابسة) يتحول إلى سحب وهذه الأخيرة تثيرها الرياح فتجمعها وتدفعها للمناطق العليا وتسقط أمطارا وثلوجا، إثارة السحب بالرياح كما اكتشف حديثا علم الأرصاد ليس بالأمر الجديد على المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]. هذه الدورة تتطلب نقاء المحيط من أجواء وتربة، تلوث الأولى ينزل أمطارا حاملة للمواد الملوثة وتلوث الثانية يحمل المياه الجوفية والسطحية نفس المواد.

إن مثلا واحدا يبين الدقة المدهشة في تنظيم المياه وتركيبها، تلك الدقة التي لم تكتشف إلا حديثا، في حين أن القرآن الكريم وضحها بشكل بارز ومفهوم منذ أربعة عشر قرنا عندما يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا

مَحْجُورًا [الفرقان: ٥٣] ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٥٣﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]. والثابت علميا واستقراء أن الماء العذب لا يذوب في الماء الأجاج، وأن التقاء نهر عند المد مع ماء البحر لا يؤدي إلى اختلاط الماء إذ يظل الماء العذب تحت الماء الأجاج، ولذلك طلعت علينا الاكتشافات الحديثة بـ «قانون التمدد السطحي» فتجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر ومن ثم يحتفظ كل سائل باستقلاله، فيكون البرزخ هو التمدد السطحي الذي يفصل المياه عن بعضها.

هذا البرزخ يظهر واضحا عند عدم اختلاط الزيت بالماء، كما يظهر عند ملء كأس بسائل حيث لا يفيض هذا الأخير إلا بعد تجاوز السطح النهائي بقدر معين، ويلاحظ بالعين المجردة أن السائل الزائد عن السطح يكون خطا محدبا، إذ أن جزيئات السائل وهي لا تجد في نهاية الكأس ما تتصل به تميل إلى ما تحتها مكونة مع باقي الجزيئات غشاوة مرنة محدبة على السطح قوية لدرجة أنه لو وضع عليها أي شيء خفيف الوزن كإبرة مثلا فإنها تظل فوقها ولا تغوص في السائل، ظاهرة التمدد السطحي هذه هي البرزخ الفاصل بين السوائل.

في النباتات وبيئتها الطبيعية يبرز التوازن أكثر إحكاما ودقة، وهو ما ترمز إليه الآية الكريمة ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، هذا التوازن لم يكتشف إلا حديثا ليكون ما يسمى بـ «قانون الضبط والتوازن».

إن التربة تحتوي على عدد كبير من الكائنات الحية يصل أحيانا البلايين في الجرام الواحد، تعمل في توازن دقيق، وكل عامل خارجي يؤثر على

التربة يشمل أيضا بتأثيره هذه الكائنات ومنتجاتها، إن هناك تفاعلات معقدة تنطلق في وقت محدد داخل البذرة لتكون خليتين مجهريتين لها منها ينتج فرد جديد من النبات يشابه ذلك الذي أنتجه في السابق .

إن كل النباتات تشترك في نوااميس محددة متكاملة تتعلق بأكثر من ميدان، وتظهر مثلا في عملية التمثيل الضوئي وفي الحصول على الأكسجين وفي وظائف البذور والسيقان والأوراق والأزهار وغيرها .

إن أية محاولة للمساس بهذه القوانين البيئية للنبات تؤدي إلى نتائج مضرّة بالبيئة الطبيعية ككل ، فبيئة التربة تحتضن النبات ، وبيئة هذا الأخير تحتضن الإنسان ، وكل مساس بالأولى هو تحطيم للثانية ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر : ١٩] ، بعض الأمثلة فقط تبين إلى أي حد يصح هذا القول ، قام المزارعون في استراليا بنقل نوع خاص من النبات «الصبار» وذلك بقصد استخدامه لحماية المزارع ، إلا أنه لم ترع في نقله البيئة التي كان يتواجد فيها ، وبصفة خاصة «الدودة المعادية» التي كانت تمنع انتشار هذا النبات الشوكي ، الأمر الذي أدّى إلى هجوم الأخير على المزارع التي كان يحميها واكتساحه بشكل مهول و رهيب مناطق شاسعة تعادل جزر بريطانيا بأسرها ، وتخريبه لحقولها ومزارعها وقراها ، وتجند العلماء لمقاومته ، فإذا بهم يكتشفون أنه يحتاج إلى الدودة المعادية التي ترافق بيئته ، وقاموا باستيرادها للمناطق المنكوبة ، وتمكنت أن تقوم بإعادة الحياة الزراعية لها ، وهو الأمر الذي لم تتمكن القيام به القوى البشرية التي جندت لذلك ، دودة صغيرة تغلبت على جيش رهيب من النبات الشوكي .

إن نقل شجرة السدر الأحمر دون دودة خرطوم الأرض يحرم الأولى من القيام بأحد وظائفها المتمثلة في زيادة نسبة الكالسيوم في التربة ، ذلك أن

أوراقها المتساقطة تعتبر غذاء رئيسيا للدودة المذكورة التي بعد هضمها لها تتركها نفايات من الكالسيوم في التربة المحيطة ، ذلك الكالسيوم الذي يسهل على النبات امتصاصه ، كما أنه إذا وجدت إلى جانب أشجار القان أشجار أخرى للصنوبر أعطت الأولى من كمية البوتاسيوم الضرورية لتجديد خصوبة التربة ثلاث مرات أكثر من حالة وجودها بمفردها .

إن الأمثلة متعددة لسنن البيئة الطبيعية ، ولا يجوز للإنسان ذي الأفق المحدود ، مهما تقدم العلم ، أن يحيط بكل هذه القوانين ، ولذلك كان يفاجأ كلما حاول العبث بالطبيعة ، بمظاهر سلبية لم يضع لها حسابا من قبل ، ويتجلى ذلك واضحا في النتائج السلبية لسعيه الحثيث نحو مضاعفة إنتاج التربة حيث عمل على إرهاقها والحصول على منتج يحمل كثيرا من المواد الكيماوية المضرة ، لقد حملت الطبيعة كل هبة من الرياح ٦٨٪ من النتروجين الذي يتحلل من التربة بالعملية الجرثومية وذلك عندما تأخذه جراثيم جذور النبات تحت الأرض وتحوله إلى نتروجين مركب حيث يبقى بهذه الجذور رغم عمليات الحصاد ، وبالرعد عند احتكاكه بالفضاء حيث يمزجه مع الأكسجين ويتساقط مع المطر ، كل هذا ليكون إنتاج التربة من الغذاء حاملا للنتروجين ، لكن الإنسان عمد إلى طرق متعددة لخلق نتروجين مركب فاستخدم الرعد الصناعي أول الأمر ثم السماد ، وحارب كل ما من شأنه انقاص الإنتاج ، وهكذا أدخل مواد الفتك كالمبيدات لقتل الحشرات والكائنات الحية الأخرى التي تعمل كما رأينا على توازن العضويات المكونة للطبيعة .

٣- استنزاف الإنسان لموارد الطبيعة استبدال لصادقتها بالعداء

إن الماء أصل الحياة والتربة أمها ، ومن ثم توحد أصل الإنسان والنبات ، فتصادقا وتعاشرا منذ مئات الملايين من السنين ، وإذا لم تثر مناقشة ما حول ما سلف بالنسبة للنبات ، فإنه بالعكس من ذلك بالنسبة للإنسان حيث كثرت الروايات وتشعبت بالرغم من أن قول الله تعالى واضح في ذلك ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨] ولقد جاءت اكتشافات مركز أبحاث أميسى للكيمياء الحيوية التابع لوكالة ناسا الأمريكية في بداية سنة (١٩٨٥) لتؤكد أن أصل الإنسان من طين ، ولتدعم بذلك ما قاله الله تعالى قبل أربعة عشر قرنا من ذلك ، ولنسير في خط بعض العلماء الذين أكدوا أن الطين أو الصلصال هو المادة العضوية الوحيدة التي يمكن أن تشكل إطارا لكل نظام حي .

إذن محيط الإنسان والنبات واحد وتشابههما واحد أيضا ، فالبذرة أو النطفة تكون المنطلق الرئيسي للحياة وتبتدئ صغيرة لتكبر بمشيئة الله ، فبداية وزن الإنسان بالرحم لا يتعدى الواحد والنصف على المليون من الجرام الواحد لكن بعد تسعة أشهر فقط يزيد الوزن مليارين مرة ، وعندما يكتمل ليصبح رجلا يكون الوزن قد زاد خمسين مليار مرة ، هذا الذي يقول فيه الحق وهو خير القائلين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤] ليثبت بذلك أنه لا يخرج عن أنماط الحياة الطبيعية الأخرى ، يبدأ في حجم بذرة كتلك التي توضع في الحقول ويتحول رويدا رويدا إلى مخلوق مكتمل ، وإنه لما يدهش العلم الحديث في هذه الآية هو ما ثبت مؤخرا أن العظام تتكون أولا ثم تكسى

لحما في حين كان المعتقد في السابق أن كلا من العظام واللحم تتكون معا في وقت واحد .

إن البذرة النباتية تغذي النطفة وهذه الأخيرة عندما تكبر يجب أن تزرع البذرة وتحافظ عليها ، وبذلك تعتبرها مخلوقا طبيعيا مثلها يجب أن تصادقها عن طريق المعاملة المتزنة ، لكن الإنسان اعتقادا منه أن موارد البيئة لا تنفنى لم يعامل هذه الأخيرة برفق فقدمت له فاتورة الحساب ، وانقطع واصل الولاء بين الإنسان والطبيعة .

إن غرور الإنسان بتسخير الآلة لخدمة طموحاته دون مراعاة لحدود وإمكانات الطبيعة أو تدخله في تطويرها لزيادة مردودها وإنتاجها قد سعى عن قصد أو بدونه إلى كسب عدااء الطبيعة لإساءته إليها والعمل على تدهورها ، وكان من نتيجة ذلك انتكاسة على الإنسان وصحته وصحة الأجيال المقبلة .

فالشجرة مثلا صديقة الإنسان منذ الأزل ، التي تعمل على خدمته وتوفير المتعة له ، إذ هي التي تلتف له الجو صيفا وتحافظ على التربة من التعرية والانجراف وتوصل المياه نحو ينباعها ، هذه الشجرة التي تحتل مع مثيلاتها ما يقارب ٢٨٪ من اليابسة ، تقلع بشكل عشوائي لتحل مكانها أظنان من الأسمت والحديد تعمل على تغيير المناخ وزيادة الحرارة واستبدال الدورة العادية للحياة ، غياب الشجرة هو السبب الرئيسي في تعرية الأراضي الزراعية وزحف الصحراء الذي أصبح يهدد ٢٦٪ من اليابسة (المراعي تفقد سنويا ٣٥ مليون هكتار ، والأراضي المسقية بالأمطار ٢٥ مليون هكتار ، والمسقية صناعيا ١٢٥ ألف هكتار) ، وأصبح سوء الاستغلال هذا ينتج عنه عدااء الطبيعة لتجعل ثمانين مليوناً

من البشر يسكنون مناطق غير صالحة للزراعة و٧٠٠ مليون آخرين يسكنون مناطق جافة تعود لمائة دولة مهددة كلها بالتصحّر .

إن الرعي العشوائي ساهم بدوره في تعرية الأرض ، خصوصا أيام الجفاف والأمطار الشحيحة لتبسّط طبقات الرمال نفسها تدريجيا على الأرض وليبدأ التصحر ، كما أن الزراعة الغير الملائمة التي تباشر في أراضي صالحة للرعي دون الزراعة ، في تربة رخوة وذات تركيب حساس وبوسائل ميكانيكية مكثفة ، تكون شكلا من الهجوم على النظام الأيكولوجي الطبيعي ، مما يؤدي إلى تعرية الأرض من غطاءها النباتي وتهيئتها لكل أعمال الأهوية الضارة ، ومنها التعرية والتهديد بالتصحّر ، بالإضافة إلى إرهاب هذه التربة الهشة بكثير من المواد الكيماوية والأسمدة والمبيدات ، مما كان له أكبر الأثر على توازنها وبالتالي فقدانها مع الزمن كل خصوبة وإنتاج .

وما قلناه في الشجرة والتربة يصدق على باقي موارد الطبيعة ، إذ ليس صحيحا أن الأخيرة كريمة دون حد ، فالماء يقل باستعماله ، والأكسجين يقل باستغلاله ، والاحتياطي من المعادن يستنزف فتعجز الطبيعة عن تجديده (إذ سينفذ مثلا من اليابسة الكوبالط والرصاص بعد ٤٠ سنة والنيكل والمنغنيز بعد مائة سنة ولذلك تتجه أنظار البشرية لاستغلاله من البحار والمحيطات التي يتواجد بها احتياطي مئات الآلاف من السنين) .

والمحيطات والبحار والأنهار تتلوّث ، وحيوانات وأسماك تندثر ، أو تحمل مواد كيماوية بل إشعاعية أحيانا ، وزلازل وهزات بسبب العبث بتوازن الكرة الأرضية ، وكائنات حية كانت تعمل على توازن مقومات التربة تندثر بسبب استعمال أسمدة ومواد كيماوية في الزراعة ، وخضر

وفواكه تحمل مواد إشعاعية وسرطانية بسبب ذلك ، وآلاف الأطنان من المواد المضرة فوق سماء المدن ، وأمطار حمضية تقضي على الغابات وغيرها من أشكال النبات ، كل ذلك يحملنا على طرح التساؤل هل سيعيش الإنسان في دور مغلقة ويأكل مواد مصنوعة دون طعم ودون رائحة؟ هل ستصبح الكرة الأرضية كوكبا ميتا؟ .

إن هذا الخطر سبق أن تضمنته رسالة موجهة في ١١ مايو ١٩٧١ من طرف ٢٢٠٠ عالما بيئيا يمثلون ٢٣ دولة إلى ما يقارب الأربع مليارات من سكان الكرة الأرضية يوضحون لهم فيها نتائج تصرفاتهم العدائية للطبيعة ، والمستقبل المظلم الذي أصبح يهدد الإنسانية بالفناء بسبب التلاعب بقوانين ونواميس الطبيعة والاستغلال المفرط لكرمها .

كما تنبعت لهذا الخطر المحدق هيئة الأمم المتحدة لتناشد في شكل تصريح بالمبادئ في شهر يوليو من سنة ١٩٧٢ سكان العالم بالعمل على المحافظة على البيئة التي أصبحت الإساءة إليها تهدد الإنسانية جمعاء .

إن الانفجار السكاني الذي نقل العالم في سرعة خارقة من مليار واحد سنة ١٨٥٠ إلى خمس مليارات تقريبا سنة ١٩٨٥ كان السبب وراء كثير من أنواع الاستغلال العشوائي لموارد الطبيعة ، بل وكان السبب في تغيير بيئة الإنسان ككل ، ما دامت الاستجابة لحاجيات هؤلاء السكان وتصارعهم على موارد الطبيعة تتطلب إنفاذ هذه الأخيرة بالإنتاج مهما كان اصطناعيا كيمياويا ومضرا والتضحية بسمو بعض العلاقات الإنسانية ما دامت الحاجة تتطلب ذلك ، فالمعروض من الحاجيات لا يفي بكل الطلبات الضخمة لعالم حشر بهذا العدد الضخم من السكان ، ووسط هذا التحطيم لبيئة الإنسان بدأت تعلو صرخات بعض رجال القانون لتطالب بأن

يكون للإنسان حق طبيعي يحميه الدستور في أن يعيش في بيئة سليمة ، خلق مثل هذه الحقوق ليس غريبا عن عالمنا الإسلامي وشريعته الغراء .

٤- الشريعة الإسلامية نظرة شاملة للبيئة الطبيعية :

إن لكل كائن حي في هذا العالم وظيفتين : وظيفة اجتماعية وهي تلك المتمثلة في خدمة الإنسان ، ووظيفة دينية وهي المتمثلة في كون هذا الكائن آية ودليلاً على وجود الصانع .

والإنسان الذي يعتبر جزءاً متميزاً من هذا الكون الفسيح الأرجاء يتنفع بوظائف الكائنات الأخرى الاجتماعية ويتأمل فيها ليدرك بواسطتها وجود الله ، فالسكن والتعمير والاستثمار وتذوق الجمال ، كلها أشكال من الانتفاع ، فموقف الشريعة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية موقف إيجابي ، ولذلك تشجع الإنسان على القيام بكل أنواع العمارة للأرض بالبناء والغراس والزراعة ، بل «إن من أحيا أرضاً مواتاً فهي له»^(١) ، استثمار الإنسان للأرض كما يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوه﴾ [هود:٦١] جاء عن طريق الاستخلاف ، الإنسان المستخلف هو مستثمر وأمين على موارد الطبيعة لا مالك ومتصرف فيها ، إذ يجب عليه أن يفوت الأرض وما عليها إلى الأجيال اللاحقة بكل ما تطلبه مقتضيات الأمانة من معنى .

ولذلك تقضي القواعد الفقهية بأنه «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» والمحافظة على البيئة الطبيعية هو الطريق الأسلم لدفع الجفاف

(١) أخرجه الترمذي (١٣٧٨) ، وأبو داود (٣٠٧٣) من حديث جابر رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

والمجاعة مثلاً ، وهو الطريق لضمان الأمن الغذائي ، ونقل حق الانتفاع إلى الأجيال اللاحقة دون ضرر بحقها هو واجب ، ولا يتم ذلك إلا بالمحافظة على البيئة ، ومن ثم كانت هذه المحافظة واجبا .

تخطيط البيئة حرام وما أدى إليه من جميع أشكال التلوث والإضرار بالطبيعة حرام لأن القاعدة الفقهية تقول : «ما أدى إلى الحرام فهو حرام» و«لا ضرر ولا ضرار» و«الضرر يزال» .

إن استخلاف الإنسان في الأرض يجعل من البيئة الطبيعية والانتفاع بموارد هذه الأخيرة حقا مشتركا لجميع البشر ، وكأن الشريعة الغراء بذلك تجاوزت ما وصلت الإنسانية إليه بالنسبة لأعمق البحار الدولية خارج مناطق الولاية حيث اعتبرتها تراث الإنسانية المشترك بمقتضى قرار الأمم المتحدة لسنة (١٩٧٠) الذي جددته اتفاقية (١٩٨٢) حول قانون البحار ، إذ تنقل الشريعة هذا المبدأ إلى اليابسة لتطبقه على حق الانتفاع بمواردها الطبيعية . ومن شأن هذا أن يعطي لحق الملكية الفردية وظيفتها الاجتماعية وهذا مقصد من مقاصد الشريعة .

وكل تلويث وإضرار بالبيئة هو إبطال لهذه الوظيفة وبالتالي إبطال لوظيفة الإنسان في أداء مهمته المتمثلة في عمارة الأرض لا في تخریبها .

وهذا لا يعني أن للشريعة موقفا صلبا للمحافظة على البيئة قد يوقف التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، إن موقفها من عمارة الأرض إيجابي لكنه متزن ، إذا كانت التنمية وهي مصلحة ستؤدي إلى المفاصد فدرء المفسدة أولى «درء المفاصد مقدم على جلب المصالح» إذ أنها لا تنادي بالتنمية بكل ثمن ، إنها تقبل ببعض الأضرار إذا كانت ستدفع أضرارا أكبر منها ، «الضرر لا يزال بمثله أو بضرر أكبر منه» كما تقول القاعدة الفقهية .

إن ضرورة تحقيق الأمن الغذائي وزيادة الإنتاج لمواجهة الزيادة الموهولة في السكان قد تؤدي أحيانا إلى إلحاق بعض الأضرار بالبيئة ، لكن ذلك يدخل في عملية موازنة حتى إذا رجحت كفة إحداها على الأخرى كان ذلك شرع الله ، فالقواعد الفقهية صريحة «يختار أهون الشرين» «الضرورات تبيح المحظورات» «الضرر الخاص يجري تحمله لمنع الضرر العام» .

إن الشريعة تميز بين المحافظة على البيئة التي لا تؤدي إلى إلحاق أي ضرر بالإنسان وتلك التي تحرمه من سد حاجياته ، فالمقصود هو منع الفساد ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] ولقد علمنا الرسول الأكرم ﷺ حب الطبيعة والمحافظة عليها وتذوق جمالها ، فلقد قال : «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة (أي نبت النخل) فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر»^(١) ، وفي رواية أخرى : «إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها»^(٢) ، و«شكر الله لعبد سقي كلبا فأنقذه من شدة العطش»^(٣) ، ونهى من اتخذوا طائرا هدفا لهم يصوبون إليه ضرباتهم .

هذه أمثلة لبعض حالات المحافظة على الطبيعة التي لا تحرم الإنسان من منافع أخرى ، أما إذا كانت كذلك فإن الشريعة تقف موقفا وسطا متزنا بين واجب الإنسان في تعمير الأرض وضرورة المحافظة على بيئة هذه الأخيرة ، ولذلك تقضي بأنه أينما كانت المصلحة فثمة شرع الله .

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٧) ، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٢١٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠٨ / ٤) : رواه البزار ورجاله أثبات ثقات .

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤) ، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وإذا كان هذا هو الموقف الشمولي المتوازن للشريعة من المحافظة على البيئة الطبيعية ، فإن مجمل القواعد القانونية دولية كانت أو وطنية المتعلقة بموضوع المحافظة على البيئة لا تتوفر على نفس الشمولية ذلك أن الكثير منها ظرفي أملت له الوقائع البيئية المتدهورة لا غير .

٥- القوانين البيئية وسيكولوجية الكوارث :

وبقدر ما نجد مواقف الشريعة الإسلامية مؤسسة على النظرة الشمولية للكون ودور الإنسان في إدارة موارده وخيراته ، واستنباط القواعد الشرعية من هذه النظرة ، بقدر ما نجد القوانين الحالية دولية كانت أو وطنية نابعة من ظروف محدودة بل ووقائع معينة .

وهكذا صدرت مثلاً اتفاقية (٢٨) نوفمبر (١٩٦٩) المتعلقة بالتدخل في أعالي البحار في حالة التلوث أو التهديد به ، بعد كارثة الباخرة طورى كانيون سنة (١٩٦٧) التي لوّث الشواطئ الفرنسية والإنجليزية ، لتغطي النقص الحاصل في القانون الدولي والقاضي بعدم اختصاص أي دولة للتدخل في أعالي البحار إلا دولة العلم ، ولتلبس المشروعية لعمل إنجلترا التي قامت بقبلة الباخرة المذكورة في أعالي البحار بالرغم من أنها لا تحمل علمها وإنما علم دولة ليبيريا .

اتفاقية (١٩٨٢) حول قانون البحار جاءت في مقتضياتها المتعلقة بحماية البيئة متأثرة ببعض الأفكار التي نوقشت طويلاً بعد حادثة الباخرة أموكو كاديس سنة (١٩٧٨) التي لوّث الشواطئ الفرنسية ، واتفاقية (٢٨) نوفمبر (١٩٦٩) المتعلقة بالمسؤولية الناتجة عن ضرر التلوث بمادة الهيدروكربون جاءت بقواعد قانونية محددة لتطبق على واقعة «طورى كانيون» لسنة ١٩٦٧

وعلى مثيلاتها مستقبلا، وهكذا بالنسبة لاتفاقيات أخرى، سواء تلك المتعلقة بالأضرار النووية كاتفاقيات (١٩٦٠ و ١٩٦٢ و ١٩٦٣ و ١٩٧١) أو تلك المتعلقة بالأضرار النفطية كاتفاقيات (١٩٥٤ و ١٩٦٩ و ١٩٧٢ و ١٩٧٧).

إن ما سلف يعطي لهذه القواعد القانونية مظهرا ظرفيا بحيث لا يتحرك المجتمع الدولي لتقنين هذه القواعد إلا عندما تقع الكوارث، ولذلك تنقصها النظرة الشمولية لأنها تعالج أجزاء معينة وبقواعد محددة، ولا يمكن سرد كل القواعد القانونية الناتجة عن الاتفاقيات الدولية عالمية كانت أو إقليمية، إذ لا يتسع المجال لذلك، لكن يمكن القول أنه نظرا لمساس هذه النصوص البيئية بمصالح اقتصادية ومالية مهمة، ولارتباطها بالوضع الاقتصادي والاجتماعي في كثير من الدول، فإن هذه الأخيرة اتخذت منها مواقف غير واضحة، سواء أكانت دولاً متقدمة ذات الوسائل الضخمة المهددة للبيئة الطبيعية، أو دولاً نامية ذات الطموحات لتحقيق النمو. ما بين ما تقوم به الأولى من تلويث، وبين ما تطالب به الثانية من تنمية صناعية على الخصوص، ومن حق في التلويث، فكان القانون الدولي الاتفاقي تبعا لذلك تعبيراً عن هذا الوضع، قواعد عامة تعبر عن رغبة الإنسان في المحافظة على البيئة الطبيعية من جهة، وقواعد خاصة تتعلق بحالات معينة ومحددة تستجيب بصفة أساسية لكوارث حدثت أو يتصور حدوثها.

القوانين الوطنية الحديثة في ميدان المحافظة على البيئة الطبيعية حاولت كرد فعل كسر هذا الطوق، وظهرت علينا بعض الدول بتشريعات تتضمن مبادئ قانونية جديدة تتلاءم والخطر الجسيم الذي أصبح يهدد البيئة، بل وتتضمن أحيانا خروجاً حتى على المبادئ المستقرة في القانون

الدولي ، أغلب هذه القوانين تستقر في دول صناعية دون دول العالم النامي ، مما يعني أن الأولى تحمي نفسها قانونا ضد كل ضرر يهدد بيئتها ، لكنها تطلق يديها في بيئة الآخرين لعدم وجود مثل هذه الحماية القانونية على المستوى الدولي والوطني .

* * *

المحاضرة الخامسة والستون

الاجتهاد ودوره في مستجدات العصور بتحكيم شرع الله

إنه من المسلمات اليقينية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية ، التسليم بختم الرسالة المحمدية لسائر الأديان السماوية ، وأن محمدا عبدا لله ورسوله ، وخاتم أنبيائه ورسله ، صلوات الله عليهم أجمعين ، فلا نبي بعده ولا رسول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ثم التسليم تبعا لذلك بعموم رسالته لأهل الأرض كافة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] ، ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وذلك يستلزم استمرار شريعة الله على أرض الله ما دام للناس وجود على الأرض ، حتى تبقى بها حجة الله قائمة على عباده دون توقف أو انقطاع ، وإلا لزم الخلف في خبر الله تعالى بأن لا يترك الناس سدى : ﴿ ائْتَحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة : ٣٦] ، أي مهملا ، لا يكلف ولا يؤمر ، ولا ينهى ولا يسأل ولا يحاسب .

وذلك محال عقلا ، ومخالف لما دل عليه العقل والنقل ، ولما ورد فيه من نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله عن مسئولية العبد المكلف عن جميع أعماله الاختيارية ، خيرا كانت أو شرا ، وكما تشير إلى ذلك هذه الآيات الكريمة : ﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِنَّمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣] ، ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٧] .

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم في «صحيحه» يقول الله ﷻ :
«يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة التي دلت على مسئولية العبد عن جميع أعماله ، وأنه مسئول عنها ومحاسب ، ومثاب عليها ومجاز عليها من قبل ربه الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا يظلم أحدا ، بعد أن أعذر إلى الناس بإرسال رسل قامت بهم حجته على عباده ، ومن أنذر فقد أعذر :
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] .

لا حكم إلا لله :

ومن ثم كان لا حكم إلا لله ، ولا تكليف إلا بشرع ، وخاصة على مذهب أهل السنة الذين يخالفون المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقلين ، ويرون -أي أهل السنة- أن لا ثواب ولا عقاب إلا بشرع لكي تكون حجة الله قائمة على عباده بورود شرعه ، وإرسال رسله ، وإنزال كتبه ، وليس بالعقل وحده .

وفي هذا المعنى واستمرار حجة الله على عباده ، روي عن علي كرم الله وجهه ورضي عنه أنه قال : «لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة ، كي لا تبطل حجج الله وبياناته» ، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» .

ويشهد له حديث الصحيحين : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» . أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وقال الإمام الشافعي رحمه الله في الأم : كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم

يجب اتباعه إذا كان منصوباً عليه بالتعيين، وإلا طلب بالاجتهاد، وأقوال العلماء في هذا المعنى كثيرة.

ومن ثم قرر الفقهاء أنه لا يحل الإقدام على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وكما أشار إلى ذلك صاحب المرشد المعين بقوله:

ويوقف الأمور حتى يعلمها والله فيهن به قد حكما

وحكى بعض العلماء الإجماع عليه، وبه فسر بعضهم حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).

وإذا كان الأمر كذلك، وكانت أفعال الناس لا تخلو من حكم لله فيها، وكانت الأحكام الشرعية إنما تؤخذ من نصوص الكتاب والسنة التي لها علاقة بالتشريع خاصة، وهي المعروفة بآيات الأحكام، وأحاديث الأحكام، تميزا لهما عن بقية الآيات والأحاديث التي تناولت موضوعات أخرى غير موضوع الأحكام والحلال والحرام.

ونحن جميعاً نعلم أن نصوص الكتاب والسنة محصورة العدد وتنتهي إلى حد، سواء ما تعلق منها بالقرآن أو بالحديث النبوي الشريف، بينما أفعال الناس لا حصر لها ولا حد، وهي دائمة في تكاثر وتجدد مستمرين، وما كان كذلك يستحيل أن تستوعبه نصوص محدودة العدد.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) عن أنس. وصححه السيوطي كما في «تدريب الراوي» (١٧٤/٢) وقال: «جمعت له خمسين طريقاً وحكمت بصحته لغيره ولم أصحح حديثاً لم أسبق لتصحيحه سواه». ونقل عن المزي قوله: «إن له طرقاً يرتقي بها إلى درجة الحسن». والحديث روي عن جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك وعبد الله بن عمرو وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وعلي.

دور الاجتهاد في قضايا الدين :

وهنا يأتي دور الاجتهاد في حل المشكل ، وتشدد الحاجة إليه ، وتبرز الحكمة من مشروعيته ، لطفا من الله بعباده ، وتحقيقا لوعده ، باستمرار دينه وشرعه إلى قيام الساعة .

ومن هنا كان دور الاجتهاد ضرورة حتمية لا محيد عنها ، وفرضا من فروض الدين الكفائية التي لا غنى للناس عنها ، ما دامت تحدث للناس قضايا وأحداث ، وتتجدد بينهم وباستمرار عادات وتقاليد وأعراف ، يجب أن يعرفوا حكم الله فيها ، ويتبينوا موقف الشرع منها ، ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا عن طريق الاجتهاد وهو ما أفاده حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حينما أراد النبي ﷺ أن يبعثه إلى اليمن فقال له : «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال : أجتهد رأيي ولا ألو . أي : ولا أقصر في الاجتهاد . قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري . ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»^(١) .

وفي رواية : «فضرب رسول الله ﷺ صدره» ، والمراد به صدر معاذ من باب الالتفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، وكأنه تصرف من بعض الرواة .

ومعاذ بن جبل راوي الحديث صحابي جليل ، أنصاري خزرجي ، أسلم قبل الهجرة وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وكان من بين السبعين من

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٧) ، وأبو داود (٣٥٩٢) ، والدارمي (١٦٨) وغيرهم عن معاذ .

قومه الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية بمنى ، والتي أعقبتها الهجرة مباشرة ، وبشهور قليلة .

ويعد من فقهاء الصحابة ، ومن جمعوا القرآن كله على عهده ﷺ ، وقال رسول الله ﷺ في حقه مخاطبا الصحابة : «أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»^(١) . وقال : «معاذ بن جبل يبعث يوم القيامة أمام العلماء برتوة»^(٢) أي بمقدار رمية سهم أو حجر ، وأخذ بيده يوما ﷺ وقال له : «يا معاذ ، والله إني لأحبك ؛ فلا تدعن أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٣) .

بعثه رسول الله ﷺ في أوائل سنة تسع قاضيا ومعلما للناس شرائع الإسلام إلى اليمن ، وظل بها رحمته إلى أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي خلافة عمر ، وبعد فتح الشام انتقل إلى سكنى الشام ، ونزل بأرض حمص ، وبقي بها إلى أن عينه عمر رحمته واليا على الشام بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح متأثرا بطاعون عمواس ، سنة ثمان عشرة من الهجرة ، ثم لم يلبث معاذ بعده إلا قليلا حتى التحق بأبي عبيدة بن الجراح متأثرا بنفس الطاعون ، وعمره ثمان وثلاثون سنة رحمته وأرضاه .

(١) أخرجه أحمد (٢٨١/٣) ، والترمذي (٣٧٩١) ، وابن ماجه (١٥٥) وغيرهم عن أنس . وصححه الحاكم (٤٧٧/٣) ، وابن حبان (٧١٣١) ، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤٧٤/٤) .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣٤٨/٢ و ٥٩٠/٣) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٢٨/١) وغيرهم . وهو صحيح ، وقد روي من حديث عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب مرسلًا وأبي عون مرسلًا أيضًا والحسن البصري .

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٤/٥) ، وأبو داود (١٥٢٢) ، والنسائي (١٣٠٣) وغيرهم عن معاذ . وصححه ابن خزيمة (٧٥١) ، والحاكم (٤٠٧/١) ، وابن حبان (٢٠٢٠) .

وهذا الحديث رواه جماعة من الحفاظ منهم: الإمام أحمد، وأبوداود، والترمذي، والدارمي، والطبراني في الكبير، وأبوداود الطيالسي، والبيهقي، والخطيب البغدادي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وآخرون.

ولشهرة الحديث وتلقي الأمة له بالقبول احتج به الفقهاء والأصوليون، وعدوه من أدلة مشروعية الاجتهاد والقياس والعمل بهما، وأيد صحته كل من ابن القيم الجوزية في: أعلام الموقعين، والخطيب البغدادي في: الفقيه والمتفقه، وأبو العباس بن القاص فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير، بينما اقتصر الآخرون على الحكم عليه بالحسن، ومنهم الشوكاني في إرشاد الفحول، خلافا لمن ضعف الحديث لسنده، على أن من ضعف الحديث سنداً سلم بصحة معناه، لشواهد الكثرة التي تدل على مشروعية الاجتهاد؛ بل وعلى فرضيته فرضاً كفاً وكما سيأتي ويكفي منها حديث الصحيحين: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»؛ ولذلك قبله الفقهاء كما سبق، وجعلوه من أدلة وجوب الاجتهاد الكفائي الذي يتوجه الخطاب به أولاً إلى مجموع الأمة، فإذا قام به بعض أفراد الأمة سقط الطلب عن الباقي، وإلا عصوا بتركه وأثموا جميعاً.

وعلى هذا درج الفقهاء قاطبة، وحكى غير واحد الإجماع عليه، وكما يدل عليه من حيث النظر ما أسلفناه من أنه من لوازم عموم الشريعة وشمولها لأفعال الناس كلهم، وكما يشهد له واقع المسلمين ومنذ كانوا، ومنذ عصر الصحابة والتابعين وهلم جرا، وعبر مختلف عصورهم حتى في عصورهم المتأخرة التي يزعم بعض الناس أن الاجتهاد قد انقطع فيها ولم يبق له وجود.

فحتى هذه العصور لم تخل من أفراد بلغوا رتبة الاجتهاد ، إن لم يكن اجتهادا مطلقا فاجتهادا مقيدا ، وكما تدل على ذلك فتاواهم الكثيرة في قضايا الناس التي نزلت بهم في عصورهم ، ولم يجدوا لها نصوصا في نصوص فقهاءهم المتقدمين فاجتهدوا في استخراج حكمها ، إما على أساس المذهب وأصوله ، وإما استنادا إلى أدلة الشرع ومقاصده العامة ، وعلى ما تطلب ذلك منهم من جهد لا محالة ، وهو نفس القياس الذي يزعم هؤلاء أنه انقطع ولم يبق له وجود وأن بابه أغلق وأقفل ، أو وضعت عليه أقفال محكمة ثم لا يدرى بعد أين هذه المفاتيح وعند من وضعت .

فحكموا بذلك على سائر علماء الأمة بجمود القرينة وعقم التفكير ، وحكموا على علماء المسلمين كلهم عامتهم وخاصتهم بالعجز عن استنباط حكم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، على أن دعوى انقطاع الاجتهاد هذه هي نفسها دليل على عدم انقطاع الاجتهاد ؛ لأنها دعوى تحتاج إلى دليل ليشهد لصحتها فإذا لم تكن منصوصا عليها من أئمة الاجتهاد المسلم باجتهادهم ، وهي غير منصوص عليها منهم قطعا ، فاحتاجت إلى اجتهاد أدنى إلى القول بانقطاعه المفيد لعدم جواز ادعائه وعدم العمل به ، مهما كانت الظروف والأحوال والدواعي والأسباب .

وربما كان من وراء هذه الدعوة ومن أسباب التسليم بها على علتها استرواح الفقهاء إلى التقليد الذي كفاهم عناء البحث عن الدليل وتطلبه من مظانه ، مع استعظامهم لرتبة الاجتهاد ، وتهويلهم في تصور معناه ، حتى جعلوا منه مطلبا عسير المنال ، كأنه أصبح فوق طاقة البشر ، ولكن المتأخرين منهم خاصة دون المتقدمين ، أو بالأحرى معظم الأمة المحمدية ، وبدءا من القرن الرابع للهجرة ، القرن الذي بدأ فيه فشو التقليد ، والتمذهب بمذاهب الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم .

فحجروا بذلك واسعا، وضيقوا فضل الله العظيم، وعطاءه العميم، وقصروه على المتقدمين دون المتأخرين، مع أن رسول الله ﷺ يقول في حديث له: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، بل قال ابن حجر: إن له طرقا يرتقي بها إلى درجة الصحيح لغيره.

فأفاد الحديث أن فضل الله تعالى لا ينقطع عن هذه الأمة المحمدية وإن قل، وأنه لا يختص بالأولين دون الآخرين، وبالسابقين دون اللاحقين، كما لا يدرى في أي دفعات المطر يكون الخير والري والبركة والنماء أفي أولها أم في آخرها.

وكما يشهد لذلك أيضا حديث: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها». رواه أبوداود وغيره، والتجديد من لوازم الاجتهاد، وكما نصوا عليه.

وكان من ثمرة هذا التهويل في تصور معنى الاجتهاد أن اشتراطوا في المجتهد ما لم يشترطه علماء الأصول فيه، وهم المعنيون بالشأن وعنهم يؤخذ، مع أنهم يدرسون علم الأصول الذي ما وضع ولا أنشئ إلا خدمة للاجتهاد وتيسير مطالبه، وتيسير أسبابه ووسائله على طلابه، وبيان كل ما يتعلق بالاجتهاد، ومنها شروط المجتهد، وبيان العلوم التي يحتاج إليها المجتهد.

وسأكتفي هنا بنقل نص من كلام أحد علماء هذا الفن المشهورين، وهو الشيخ تاج الدين السبكي رَحِمَهُ اللهُ، المتوفى سنة سبعمائة وإحدى وسبعين في كتابه المشهور، جمع الجوامع، وهذا الكتاب به كانت تنتهي دراسة هذا العلم في المعاهد الأصلية، وإلى عهد قريب حيث كان يدرس في أقسام

النهائي في كل من جامعة القرويين ، وجامع الزيتونة ، وجامع الأزهر ، وقال عنه مؤلفه : إنه استقاه من زهاء مائة مصنف .

يقول ابن السبكي في كتابه هذا في تعريف المجتهد وبيان العلوم التي يتوقف عليها المجتهد ، ما لفظه : والمجتهد : البالغ العاقل فقيه النفس بالطبع ، ذو الدرجة الوسطى لغة وعربية وأصولا وبلاغة ومتعلق الأحكام من الكتاب والسنة وإن لم يحفظ المتون ، انتهى منه بالحرف .

ومراده بفقيه النفس بالطبع : أن يكون سديد الفهم حسن الإدراك لمعاني الكلام وفحواه ، ومدركا ذلك منه بسجيته وطبعه ، احترازا من البليد الذي لا يفهم معاني الكلام ومقاصده ، فإنه بذلك لا يكون مؤهلا للاجتهد .

وأفاد التعريف ما يأتي :

أولا : بيان العلوم التي يحتاج إليها الاجتهاد ، وهذه العلوم كلها متداولة بين السلف والخلف على حد سواء ، ولا تزال متداولة إلى اليوم .

وثانيا : أنه حتى بالنسبة لهذه العلوم بالذات لا يشترط في المجتهد أن يبلغ فيها رتبة الإمامة أو الدرجة العليا الممتازة ، بل يكفي أن يكون ذا الدرجة الوسطي فيها فقط ، على أن بعض محشيه تعقبه في ذكر بعض هذه العلوم ، وكما يعلم من حاشية العطار على المحلي .

وثالثا : أنه بالنسبة لآيات الأحكام وأحاديث الأحكام ، وهي مراده من متعلق الأحكام من الكتاب والسنة ، لا يشترط في المجتهد أن يحفظ متونها .

مع قلة هذه النصوص بالنسبة إلى مجموع آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ .

فآيات الأحكام في القرآن ، المقل من العلماء جعلها مائة آية وخمسين آية فقط ، والمكثّر أوصلها إلى ألف وخمسمائة آية ، بينما آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية ومائتي آية وقليل فتكون نسبة آيات الأحكام من القرآن هي نسبة واحد من اثني عشر أو أقل ١٢ / ١ أو نسبة نصف السدس .

أما بالنسبة للحديث فالنسبة أقل من ذلك بكثير ، قال ابن القيم : أصول أحاديث الأحكام خمسمائة حديث ، وتفصيلها نحو أربعة آلاف حديث ، وأين أربعة آلاف حديث من مجموع أحاديث رسول الله ﷺ ؟ وهي تعد بمئات الآلاف ، ويكفي أن مسند الإمام أحمد وحده ضم من أحاديث رسول الله ﷺ ثلاثين ألف حديث ، ما عدا المكرر ، وقيل في ترجمة الإمام أحمد : إنه كان يحفظ ألف ألف حديث ، وأنه انتقى مسنده هذا من سبعمائة ألف وخمسين ألف حديث .

ما يجب توافره في المجتهد :

ومع ذلك قال الأصوليون لا يشترط في المجتهد أن يحفظ آيات الأحكام عن ظهر قلب ، أو أحاديث الأحكام عن ظهر قلب ، بل يكفي أن يكون عارفاً بمكان الآية من المصحف ، وعارفاً بموضع الحديث من الكتب المتداولة مثل الكتب الست والموطأ وغيرها .

قالوا : وفيما يتعلق بالمباحث التي تتعلق بهذه النصوص قالوا : يكفي الرجوع فيها إلى أهل العلم بهذا الشأن والكتب التي ألفوها يعني المراجع التي تناولت هذه الموضوعات ، وهذه المراجع كانت بالنسبة للمتأخرين أكثر منها بالنسبة للمتقدمين ، في الوقت الذي كان الرجل يطوف ويمشي مسافة شهر كامل لسماع حديث واحد ، إذن بينما المتأخرون وجدوا أن هذه

الكتب قد دونت وجمعت ، سواء في علم التفسير ، أو الحديث أو اللغة أو الرجال أو الطبقات وهكذا .

وأما بالنسبة إلى وقتنا هذا فأصبح الاجتهاد ميسرا وسهلا أكثر من أي عصر مضى ، وبمراحل عديدة ، ولا سيما بعد اختراع المطابع التي أخرجت للناس أمهات هذه الكتب من تفسير وحديث وفقه خاص وعام ، أي الفقه المقارن ، فضلا عن الموسوعات الحديثية الكبرى ، فضلا عن كتب الرجال والطبقات ، وما إلى ذلك فضلا عن الكتب التي اختصت ببيان الأحاديث الموضوعية والضعيفة والصحيحة ، وغير ذلك من المراجع ، كلها أصبحت الآن متيسرة وموفرة أكثر من ذي قبل .

إضافة إلى ما أضيف إلى هذه الكتب من وضع الفهارس لها ، والتي تسهل على الباحث العثور على مطلوبه منها ، وإضافة كذلك إلى وجود مختلف آلات التصوير والتسجيل الآلي ، وعلى رأسها الحاسوب الحافظ أو الخازن كما يسميه بعضهم ، والذي يمكن أن يقوم بدور مهم في تخزين المعلومات التي تسهل الاجتهاد على طلابه ومريديه .

وفضلا كذلك عن وجود وانتشار المكتبات والخزائن الخاصة والعامة ، وما تقدمه للباحث من نواذر المخطوطات ونفائس المطبوعات التي كان يعز وجودها من قبل ، كل هذا يدل على أن وسائل الاجتهاد أصبحت في عصرنا متيسرة أكثر من ذي قبل لمن قويت عزيمته ، وشمر عن ساعد الجد لنيل رتبة الاجتهاد لولا ضعف الهمم ، وكثرة مشاغل الوقت وملاهيها ، وانصراف الناس عن العلوم الدينية بالخصوص التي لا يرجى من ورائها نفع مادي ، ولا الحصول على وظائف مهمة .

وهذا هو نفس السبب الذي علل به بعض المتقدمين سبب اقتصار الفقهاء الكبار الذين كانوا قد لغوا رتبة الاجتهاد، ومع ذلك لم يدعوا الاجتهاد، قالوا لم يدعوه من أجل الوظائف التي أصبحت مقصورة على المتسبين إلى المذاهب، أو على جراية الأوقاف التي أصبحت كذلك مقصورة على بعض المذاهب.

حكاية:

ومن لطائف الحكايات التي وقفت عليها في هذا الموضوع، ما ذكره الشيخ محمد بن علي السنوسي قال نقلا عن أبي زرعة في شرحه على جمع الجوامع قال: قلت لشيخنا البلقيني ما الذي قصر بالشيخ تقي الدين السبكي عن دعوى الاجتهاد وقد استكمل آلة الاجتهاد، وكيف يصح أن يقلد مثله، قال: واستحييت أن أسميه أي شيخه البلقيني؛ لأنه نفسه كان في مرتبة الشيخ تقي الدين السبكي ومؤهل للاجتهاد، حتى إن السيوطي رَحِمَهُ اللهُ لما حج وشرب ماء زمزم شربه على أن يعطى مرتبة البلقيني في الفقه ومرتبة الحافظ ابن حجر في الحديث، قال فسكت عني الشيخ، فقلت له: ما أرى إلا أن المانع من ذلك الوظائف التي أصبحت مقصورة على المتسبين للمذهب، وأن من لم يكن منتسبا لمذهب حرم وظيفة القضاء، ولم يستفت من الناس، بل ونسب مع ذلك إلى البدعة، قال: فتبسم ووافق على ذلك.

ومثل ذلك ما نقله السيوطي عن أبي شامة في كتابه: «المؤمل في الرد إلى الأمر الأول» أن من أسباب الإقبال على التقليد، والانصراف عن الاجتهاد، الانتفاع بجراية الأوقاف أو بعض الوظائف التي أصبح يشترط فيها الانتساب إلى مذهب معين، وهكذا شأن الناس في كل زمان ومكان، تغلب عليهم الماديات بحكم بشريتهم النزاعة للشهوات وحب المراتب العليا.

تجزؤ الاجتهاد :

إذا أضفنا إلى كل هذا إمكان تجزؤ الاجتهاد على القول الصحيح والراجح من أقوال علماء الأصول ومعنى تجزؤ الاجتهاد : أنه يمكن للمجتهد أن يكون مجتهدا في موضوع فقهي دون آخر ، أو في باب دون آخر ، بحسب ما يتوفر له من مؤهلات الاجتهاد في هذا الموضوع أو ذاك ، ويبقى مقلدا في غيرها من المواضيع ، كأن يكون مجتهدا في أحكام البيوع ، أو في الأحوال الشخصية خاصة ، أو في الفرائض خاصة ، ويكون مقلدا في غيرها من الأحكام .

ومن كل ما تقدم يبدو جليا أن الاجتهاد ليس من الصعوبة بالقدر الذي يتصور به هؤلاء الممنعون منه اليوم ، ولقد أحسن الإمام الشوكاني رحمته الله وهو من علماء اليمن المتأخرين ، وقد توفي سنة ألف ومائتين وخمسين (١٢٥٠هـ) ، حين ألف كتابه الحافل «البدر الطالع فيمن وصف بالاجتهاد بعد القرن السابع» ، وقصد كما ذكر في مقدمته تنفيذ دعوى انقطاع الاجتهاد في العصور المتأخرة ، وهو نفسه ادعى الاجتهاد ، وألف في الانتصار له كتابه : «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد» ، كما ألف في المعنى نفسه علماء كثيرون قبله ، ومنهم : الحافظ السيوطي ، المتوفى سنة تسعمائة وإحدى عشرة هجرية (٩١١هـ) فإنه نفسه ادعى الاجتهاد في عصره ، فانتقده عليه معاصروه ، و«المعاصرة حجاب» كما يقولون ، رغم أنه كان متبحرا في علوم كثيرة ، وأنه كتب مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة ، أبلغها بعضهم إلى ستمائة كتاب ، ومع ذلك انتقد عليه معاصروه دعوى الاجتهاد ، وبسبب ذلك ألف كتابه المفيد ، وسماه : «الرد على من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» ، وأكثر فيه من جلب الأدلة والنقول والحجج عن فقهاء المذاهب

الأربعة وبين فيه الاجتهاد أن فرض كفاي ، وأنه لا يجوز أن يخلو العصر من مجتهد ، وإلا لحق الأمة كلها إثم وحر ج .

كما ألف كتابا آخر من بعده سماه : «تقرير الاستناد في تيسير الاجتهاد» ، ومن طريف ما حكى فيه أنه قال : إن الاجتهاد لم يبق مقصورا على الرجال بل حتى النساء ، وربات الخدور - حسب تعبيره - بلغن رتبة الاجتهاد ، وإن كن لم يشعر بهن أحد .

وقد أرجع هو رَحِمَهُ اللهُ سب اعتراض المعاصرين على من يدعي الاجتهاد إلى خطئه في عدم التفرقة بين الاجتهاد المستقل والاجتهاد المطلق المنتسب ، قال : والفرق بينهما أن المجتهد المستقل يستقل بأدلته الأصولية ، ويجتهد في الفروع والأصول على حد سواء ، حيث يؤسس لنفسه أصولا وقواعد يبني عليها مذهبه .

قال : وهذا الاجتهاد هو الذي انقطع منذ قرون عديدة ، ولو ادعاه الإنسان اليوم لم يصح له ولم يجز له ، لماذا؟ قال : لأن هؤلاء المتقدمين قد استوعبوا كل ما يمكن أن يكون قاعدة شرعية ، كما استوعب النحاة مثلا قواعد اللغة العربية ، فلا يمكن أن يأتي إنسان بقاعدة نحوية لم يذكرها علماء النحو من قبل ، قال : بخلاف الاجتهاد المطلق ، فإنه يقتصر على الاجتهاد في الفروع دون الأصول .

أما في الأصول فيكون المجتهد المطلق مقلدا فيها إماما من أئمة الاجتهاد ، كمالك والشافعي ومن في طبقتهم وفي رتبته ، يعني من الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم .

قال والاجتهاد الذي ادعاه هو الاجتهاد المطلق المنتسب ، فهو مطلق باعتبار الفروع ، ومنتسب باعتبار الأصول ؛ لأنه يقلد فيها إمامه الشافعي رَحِمَهُ اللهُ .

قال : وبين الاجتهادين عموم وخصوص بإطلاق ، فكل مستقل مطلق ، وليس العكس ، وبهذا نكون قد عرضنا معنى المجتهد المطلق ، وبقي من أنواع الاجتهاد التي تحدث عنها الأصوليون : الاجتهاد المقيد في مقابلة الاجتهاد المطلق ، ويعنون بالمقيد مجتهد المذهب ، مجتهد الفتوى أو الفتيا .

وقد قال الشيخ حلولو في التعريف بهذه المراتب من الاجتهاد : قال : أما المجتهد المطلق فهو الذي إذا نزلت به حادثة نظر في أدلة الشرع مباشرة ؛ أي بمجرد أن ينزل به حادث يستدعي الاجتهاد ، رجع إلى كتاب الله وسنة رسوله حتى يمكن أن يجد فيها ما يدل على مطلوبه مثلا ، قال : وفي هذا المجتهد المطلق تشترط الشروط التي اشترطها الأصوليون في المجتهد .

قال : ودونه مجتهد المذهب وهو الذي يقلد إماما من الأئمة قد عرف أصوله وأحاط بها ، فإذا سئل عن حادثة نظر في نصوص إمامه ، كما ينظر المجتهد المطلق في أدلة الشرع ، فإن لم يجد لإمامه نصا في المسألة خرج على أصوله وقواعده .

ودونه مجتهد الفتيا ، وهو المتبحر في المذهب ، والمتمكن من ترجيح قول على آخر في داخل المذهب ، وهذه هي أنواع الاجتهاد التي تناولها علماء الأصول ، وكلها من قبيل الاجتهاد الفردي كما رأينا .

غير أنه في الآونة الأخيرة أو في العصور المتأخرة أصبح هناك نوع من الاجتهاد ، أطلقوا عليه : الاجتهاد الجماعي ، والاجتهاد الجماعي ليس مقابلا ومغايرا للاجتهاد الفردي ؛ لأن الاجتهاد لا يتم إلا عن طريق الفرد ، ولكن أرادوا به أن يتوافر عدد من الفقهاء ذوي المكانة والرسوخ في العلم ، وفي اجتهاد المسائل الشائكة والصعبة ، كمسائل الوقت التي أصبح الفرد الواحد أو

الفردان عاجزين عن إبداء النظر فيها ، فيطالبون من أجل ذلك أن يكون الاجتهاد جماعيا ، بمعنى أن يجتمع عدد من الفقهاء الذين يشار إليهم بالمعرفة والرسوخ في العلم ، ومن أهل النزاهة والاستقامة ليتداولوا الرأي فيها جماعيا حتى يكونوا أقرب إلى الواقع مما لو بقي الأمر مقصورا على فرد أو فردين ، وهي المجامع الفقهية التي تضم الفقهاء المتخصصين للنظر جماعيا في القضايا المستجدة وأخذ القرارات بها .

وهذا الاجتماع الذي يدعونه هو الاجتماع الذي كان عليه الخلفاء الراشدون ، وهو الاجتماع المبني على الشورى ، وهذا من بركة الشورى في الإسلام ، ويد الله مع الجماعة ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَبْنِيهِمْ﴾ [الشورى : ٣٨] حيث كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم إذا نزل بالمسلمين حادث أو قضية ولم يجدوا فيها نصّا من كتاب الله ولا من رسول الله ﷺ ، جمعوا لها ذوي الرأي ، جمعوا لها فقهاء الصحابة ، وتداولوا الرأي فيها ، ثم مشوا على ما اتفقوا عليه فيها ، واعتبروا حكم الله في النازلة التي نزلت بهم .

وهذا هو أيضا نفس الاجتهاد الذي تقوم عليه أو تسير على خطته المجامع الفقهية الموجودة حاليا في البلاد العربية ، في السعودية وفي مصر ، والمجلس الأعلى للبحوث الإسلامية حيث تعرض المسائل الطارئة على مجموعة من أعضاء هذه المجالس ثم يعقدون عليها اجتماعا دوريا ليتداولوا الرأي فيما بينهم ، حتى إذا استقر رأيهم أو رأي الأكثرية على حكم ما ، دونوه وأذاعوه .

غير أنها مع ذلك تبقى هذه الأحكام في نطاق الفردية ، ولا تشتهر ، ولا تكون في نفس الوقت قابلة للاجتهاد ، أو ملزمة أحدا ، أو يمكن للمحاكم أن تنفذها وتعمل بمقتضاها ؛ لأنها لا تجد سنداً من الدولة يعترف بهذه المجامع

ويعتبر إصداراتها حجة ، وتدخل في باب القانون ، مع أن هناك مسائل كثيرة لا يزال الناس في حاجة إلى معرفة الحكم الشرعي فيها ، وقد عمت بها البلوى وأصبحت من مبتكرات العصر الحديث ومما دعت إليه الحياة المعاصرة ، والناس في حيرة من أمرها ، بين محلل ومحرم بين مانع ومجوز .

ومن قبيل هذه المسائل على سبيل التمثيل فقط :

مسألة- زرع الأعضاء :

وما حكم الشرع فيها؟ وهل يجوز للإنسان أن ينقل عضوا من إنسان إلى إنسان أو من حيوان إنسي حتى ولو كان هذا الحيوان خنزيرا كما يقال الآن؟ وهل الإنسان يملك حق التصرف في أعضائه ، فيمكنه أن يبيعها أو يتبرع بها ، أو لا يملك ذلك؟ لأن أعضائه ليست ملكا له ، وإنما هي ملك لله تعالى ، وهل يستوى في ذلك المسلم والكافر؛ بمعنى : يجوز أن ينقل الإنسان عضوا من كافر إلى مسلم ومن مسلم إلى كافر أو لا؟ إذن هذه مسألة تحتاج إلى القول الفصل فيها .

ومسألة- التأمينات :

مسألة التأمينات رغم وجودها منذ عصور ، لا يزال الناس يختلفون فيها بين محلل ومحرم ، محلل بإطلاق ، ومحرم بإطلاق ، ومفصل بين تأمين وتأمين ، مجوزا التأمين إذا كان يتعلق بالأموال والأمتعة ، ومانعا منه إذا كان يتعلق بأمر غيبي لا يعلمه إلا الله ، كالتأمين على الحياة أو على الشيخوخة ، أو الهرم .

وكمسألة- الجينات : التي ظهرت أخيرا .

رؤية الهلال:

وكذلك ما يتعلق ببداية الشهور القمرية ، واختلاف الناس فيها وما أدنى إليه هذا الاختلاف من اختلاف المسلمين في بداية صوم رمضان وفي نهايته ، حتى ليصل الفرق أحيانا فيها إلى يومين ، وحتى بين الدول المتجاورة ، مع تقدم علم الحساب الذي أصبح في إمكانه أن يحدد مطلع الشهر بالساعة والدقيقة والثانية ولعشرات السنين ، ويعين متى تمكن رؤية الهلال ، ومتى لا تمكن .

رؤية الهلال بم تصح؟

وهنا يطرح سؤال : هل الرؤية رؤية الشهر بالبصر أمر مقصود لذاته وتعبدى؟ أم إنها هي وسيلة للتأكد من ثبوت الشهر ودخوله؟ فإذا وجدت وسيلة أقوى من الرؤية ، فلماذا لا يعمل بها مثلاً؟ وهل حديث : «إنا أمة أمية» وهو في صحيح البخاري «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب ، الشهر هكذا وهكذا» أي تسعة وعشرون أو ثلاثون ، هو إخبار بواقع لا يتغير ، أو إخبار بواقع ظرفي مراعاة للحالة الغالبة آنذاك ، والتي هي أيسر على الناس ، فإذا تغير الحال ، وأصبح في الأمة حسبة وكتبة ، وأصبحوا في الأمة يكتبون ويحسبون هل يبقى الحكم بهذا الحديث أو لا؟ مع أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا .

مسألة رمي الجمرات:

وكذلك مسألة تحديد رمي الجمرات أيام منى في الحجاز بين الزوال والغروب مع كثرة عدد الحجاج الذين أصبحوا يتجاوزون الثلاثة ملايين ،

والعدد قابل للزيادة والمساحة ضيقة ، سواء باعتبار الزمان أو المكان ، مما أدى إلى حوادث مؤلمة أثناء رمي الجمرات أدت إلى إزهاق الأرواح تحت أقدام الحجاج مثلاً .

رائد الفضاء وأحكامه :

وكمسألة ما لو اختير مسلم ليكون رائد فضاء ، ماذا يكون حكمه بالنسبة للصلاة وللصيام ، مع اختلاف مقاييس الزمان ، ومع تعذر الشروط أحيانا إلى غير ذلك من المسائل الكثيرة التي أصبحت تفرض نفسها على العالم الحاضر أحب أم كره ، ومما عمت به البلوى ، وتحتاج في نفس الوقت إلى قول موحد إلى قول يجمع كلمة المسلمين ، ويقضي على هذا الخلاف الموجود فيها .

ولن يتم ذلك إلا تحت سقف مجمع فقهي تعترف به سائر الدول الإسلامية وتعترف بإصداراته ، حتى يكون له سند قانوني ، وتدخل أحكامه في نطاق القانون التي يمكن للمحاكم أن تعتمد عليها وتفتي بها .



نور من القرآن والسنة

٣٠٨

المحاضرة السادسة والستون

الإسلام دين الوحدة والتيسير لا دين الفرقة والتعسير

انطلاقاً من قول البخاري : باب قول النبي ﷺ : «يسروا ولا تعسروا» ، وكان يجب التخفيف واليسر على الناس . حدثني إسحاق ، حدثنا النضر ، أخبرنا شعبة عن سعيد بن أبي بردة ، عن أبيه ، عن جده قال : لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما : «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ...» (الحديث) .

سأتناول هذا الدرس تحت عنوان : «الإسلام دين الوحدة والتيسير لا دين الفرقة والتعسير» ، انطلاقاً من كتاب البخاري الجامع ، ذلك الجامع الذي له الأسبقية وسط كتب الحديث في القديم والحديث ، وما أجدد كتابه بقول القائل :

جميع الكتب يعتري من قرأها ملل أو فتور أو سآمة
سوى هذا الكتاب فإن فيه بدائع لا تعد إلى القيامة

وبعد هذا أقول : قال الإمام البخاري رحمه الله من كتاب الأدب : باب قول النبي ﷺ : «يسروا ولا تعسروا» ، وكان يجب التخفيف ويجب اليسر على الناس . وبه إليه قال : حدثنا إسحاق ، حدثني النضر قال : حدثني شعبة عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده ، لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما : «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا ...» .

الحديث أتناوله بإيجاز سنداً وامتناً :

السند قال : حدثني إسحاق ، إسحاق هو ابن راهويه أبو يعقوب التميمي الحنظلي المروزي ، عالم نيسابور ، ولد سنة (١٦٦هـ) قال فيه أبو زرعة : ليس فيما أرى في الأرض أحفظ من إسحاق ، وقال فيه أبو حاتم : العجب لإتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من كثرة الحفظ .

وقد أخذ عن كثير من الصحابة ومن أتباع التابعين في خراسان والحجاز والعراق والشام . ثم إن إسحاق بن راهويه هذا لقيه عبد الله بن طاهر الأمير فقال له : يا إسحاق : لم يقال لك ابن راهويه ؟ وهل تكره ذلك أم لا ؟ فقال : اعلم أيها الأمير أن أبي ولد في طريق مكة فقالت المتزاور : راه راه ، راهويه ، فالتصق هذا الاسم ، أنا لا أكره ذلك ، وأبي كان يكرهه ، قال البخاري : مات إسحاق سنة (٢٣٨هـ) ، وله من العمر (٧٧) سنة ، ومات في ليلة النصف من شعبان ، قال الطوسي لما مات : ما رأيت أحدا أخشى لله من إسحاق : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وكان أعلم الناس ، فلو كان سفيان الثوري في الحياة لاحتاج إلى إسحاق ، وجاء رجل وأنشد على قبره :

كيف احتمالي للسحاب صنيعة بإسقائه قبراً وفي لحده بحر

قال إسحاق بن راهويه : حدثنا النضر ، والنضر هو النضر بن شميل العلامة المازني النحوي البصري ، عالم مروة وشيخها . ولد سنة (١٢١هـ) . وثقه يحيى بن معين والمديني ، ووثقه النسائي كذلك ، وقال فيه أبو حاتم : ثقة وصاحب سنة ، وقال فيه بعضهم : إنه أول من أظهر السنة في خراسان وفي مروة .

النضر هذا كتب عن عدد كثير ، وألف كتباً كثيرة لم يسبق إليها ، وهو من فصحاء الناس وعلمائهم بالأدب وبالأيام ، قال النضر : أخبرنا شعبة ،

وشعبة هذا هو - عالم أهل البصرة : شعبة بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث قد أخذ عنه عالم عظيم ، وانتشر حديثه في سائر الآفاق . وقال فيه الشافعي : لولا شعبة لما عرف الحديث العراق ، وقال فيه الإمام أحمد بن حنبل : شعبة كان أمة وحده في هذا الشأن ، وأثبت من الأعمش ، وأحسن حديثا من الثوري ، وكان شعبة ثبنا حجة زاهدا صالحا جهبذا رأسا في العلم والعمل ، وهو أول من جرح وعدل .

شعبة هذا مات سنة (١٦٠هـ) ، وولد في أيام عبد الملك بن مروان سنة ٨٠ هـ ، وشعبة هذا أمير المؤمنين في الحديث ، حدث عن سعيد بن أبي بردة ، واسمه عامر بن عبد الله بن قيس الأشعري ، أخذ عن أبيه ، وعن أنس بن مالك ، وأخذ عنه قتادة ، وأخذ عنه ابن المسيب وجماعة ممن لا يحصون ، هذا سعيد بن أبي بردة عنه الدارمي من الثقات ، قال : لما بعثه ، الضمير يعود إلى جده أبي موسى الأشعري ، وأبو موسى الأشعري هو عبد الله بن قيس بن سليم من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو الفقيه المقرئ ، كان معدودا فيمن قرأ على النبي ﷺ ، وقد تقلب في عدة وظائف ، وهو أول قضاة المسلمين . وقال أبو هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : «لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود عليه السلام»^(١) ، ولما أخبر بذلك أصبح يقول لرسول الله : لو علمت أنك تسمع لحبرت تحبيرا ولشوقت تشويقا . ودعا له رسول الله ﷺ بقوله : «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما»^(٢) . ولما نزلت آية المائدة : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري : «هم قومك

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٣) ، ومسلم (٢٤٩٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

يا **أبا موسى**»^(١)، ولا تجده في يوم حار إلا صائما، وكان في سمته وهديه أشبه برسول الله ﷺ. هذا أبو موسى الأشعري.

والثاني الذي بعثه معه رسول الله ﷺ سيدنا معاذ بن جبل، ومعاذ بن جبل هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري المدني. أسلم وعمره ثمان عشرة سنة، وهو من السابقين الأولين، وبايع رسول الله ﷺ في العقبة الثانية. وما تخلف عن رسول الله ﷺ في مشهد من المشاهد أو في غزوة من الغزوات شهد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر وغيرها من غزوات الرسول، وهو شاب مشرق الوجه، رائع النظرة، براق الشايب، وقد بلغ في الفقه المدى الذي جعله أهلا لقول رسول الله ﷺ فيه: **«أعلم أمتي بالحلal والحرام معاذ بن جبل»**^(٢)، وقال فيه حوشب: إن معاذ بن جبل إذا تحدث الصحابة ووقع الامتراء بينهم في شيء يتوجهون إليه ويسألونه، وقد فاق بثرائه الفقهي أقرانه وإخوانه. ولما وجهه الرسول إلى اليمن قال له سائلا: **«بم تقضي يا معاذ؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو جهدا، فتهلل وجه رسول الله ﷺ وقال: الحمد الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»**^(٣).

وذكر أبو حاتم الخولاني قال: دخلت المسجد في مصر فإذا بجماعة من

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٤٢ / ٢) من حديث عياض الأشعري رحمه الله، وقال

الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٥) من حديث أنس بن مالك رحمه الله،

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سبق تخريجه.

الكهول يتوسطهم شاب براق الثنايا ، فإذا امترى القوم في شيء توجهوا إليه وسألوه ، فقلت لجليس لي : من هذا؟ ، فقال لي : معاذبن جبل ، فوق في نفسي حبه من ذلك الوقت ، إلى غير ذلك من مآثره .

لما بعث الرسول أبا موسى الأشعري ومعاذبن جبل كان من عادة الرسول ﷺ إذا بعث عماله إلى الأقاليم يزودهم بنصائح ليكونوا في مهمتهم قدوة حسنة للناس ، والقدوة الحسنة لا يزال لها التأثير في النفوس والقلوب ؛ وذلك لأن دلالة الأفعال أقوى من دلالة الأقوال ، فلذلك انتدبها معا لمهمة الدعوة إلى الله في اليمن ، وفي اليمن إذ ذاك بقية من الأحبار والرهبان يلزمون أتباعهم بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، فانتدبها لما عرفا به من اتساع في الفقه ودماثة في الأخلاق وسمت في السلوك ، فولى أبا موسى اليمن الأعلى ، وولى معاذبن جبل اليمن الأسفل ، مركزه الجند ، وفيه مسجد الآن يعزى له ، يقال له : مسجد معاذبن جبل ، لما بعثها رسول الله ﷺ إلى اليمن لمهمة الدعوة إلى الله .

الدعوة إلى الله هي خير ما في الدنيا . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] ، ولكن مسئوليتها مسئولية عظمى ليس طريقها مفروشا بالورود والرياحين ، لا بد في أدائها وإيصالها من الصبر .

والشعور بالمسئولية من أوجب الواجبات في شتى المجالات على مختلف المستويات ، فلذلك رسول الله ﷺ انتدب لمهمة الدعوة هذين الصحابين الجليلين : أبا موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، ومعاذبن جبل رحمهما الله ، أمرهما الرسول بثلاثة ونهاهما عن ثلاثة ، أمرهما بالتيسير ونهاهما عن التعسير ، أمرهما بالتبشير ونهاهما عن التنفير ، أمرهما بالتوافق ونهاهما عن

التخالف . وإنها نصائح غالية .

الأمر بالتيسير:

الأمر الأول أمرهما بالتيسير . والتيسير هو التسهيل ، والتسهيل هو وصف ذاتي لشريعة الإسلام . وقد ندب إلى التيسير القرآن الكريم في عدة آيات ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ومنها قوله سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] وهذه الآية قاعدة كبرى لتطبيق جميع أوامر ونواهي الإسلام ، لأن هذه الآية توحى للقلب الذي يتذوقها بالسهولة والتيسير واليسر ، وتوحى إليه بالسماحة ، سماحة تؤدى معها كل الفرائض وكل الواجبات وكل الأمور الجادة في حياة الإنسان ، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ، وقرأ جماعة من القراء : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ، والضم هاهنا لاتباع حركة ما قبل السين ، أما الإسكان فهو الأصل ، كذلك ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] قرئ (سيجعل الله بعد عسر يسرا) .

والله سبحانه وتعالى أنزل في كتابه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخَفَّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] التخفيف . ﴿ أَلَيْسَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال : ٦٦] ، وعلى كل ، الآيات تعلن عن إرادة الله سبحانه وتعالى التخفيف واليسر لعباده المؤمنين من هذه الأمة المحمدية ، وفي الإعلان عن هذا التخفيف إعلان بمزية هذا الدين ، وهذا الدين هو من أليق الأديان بالناس في كل زمان ومكان ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] ؛ لأن هذا الدين رحمة للمؤمنين ، والرسول بعث رحمة للعالمين ، وقال

رسول الله ﷺ : «لم أبعث بالرهبانية إنما الدين الحنيفية السمحة ، وإن أهل الكتاب هلكوا بسبب التشديد ، شددوا فشد الله عليهم»^(١) نعم أديان من قبلنا كانت فيها الأغلال ، وكانت فيها الأثقال ، وكانت فيها أمور شرعها الأحبار والرهبان من دون أن يأذن الله لهم في شرع ذلك ، ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة : ٣٤] الآية ، مثلاً : يجرمون مجالسة الحائض ويقولون : لا تؤاكل ولا تجالس ولا تحدث ، وهذا ما أنزل الله به من سلطان ، لأن الرسول ﷺ يقول في حديثه الشريف في البخاري : «اصنعوا كل شيء بالحائض والنفساء إلا الوقاع» ، فمنع النبي ﷺ عما فيه أذى فقط .

وكذلك يعتقدون الوحداية في ثلاثة أقاليم ، وهذا زور وبهتان بما لا تطيل بجلبه ورده ، وكذلك يجرمون على أنفسهم شحوم الإبل إلا ما حملت الظهور ، إلى غير ذلك من أشياء ، يعني تثقل كواهل أتباعهم وأشياءهم ، فأنزل الله تعالى أن دين الإسلام يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، بمعنى أن الشريعة الإسلامية نسخت ذلك كله ونزعت العوائد المردولة ، وجعلت في محلها الخصال المحموده ؛ لأنها شريعة فريدة في نوعها ، جاءت إلى الكون بنظام بديع ، نظامها يفوق سائر الأنظمة التي عرفت الإنسانية منذ تاريخها الطويل ؛ لأنها شريعة

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٤) ، وأبو يعلى (٣٦٩٤) وغيرهم بنحوه عن أنس . والأنصاري في «طبقات المحدثين» (٤٦٩) عن أبي هريرة . والحديث ساقه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٦/٦) من رواية أبي يعلى ، ثم قال : «ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء ، وهو ثقة» . وله طرق يحتمل بها التحسين .

منطقية وفطرية في آن واحد : شريعة منطقية ، لا تناقض في أحكامها ولا تردد في مبادئها .

وشريعة فطرية ؛ لأنها تلبي رغبات الفطرة التي خلق الله تعالى عليها الناس : ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] ولذلك أعلن القرآن الكريم عن اختلاف في المعتقدات ؛ لأن ذلك من سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ① إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴿ [هود : ١١٨ ، ١١٩] .

ودين الإسلام لا يكلف الناس صعباً ولا يحملهم عسراً يتأذون به وتمل منه نفوسهم . لا ، فالله لا يأمرهم إلا بما فيه اليسر والتيسير ، مثلاً : الصلاة التي هي عماد الدين ، الإسلام وضع فيها أنواعاً من التيسير : إذا عجز المصلي عن القيام فليصل قاعداً ، إذا عجز قاعداً فليصل مستلقياً ، وهكذا .

وإذا لم يتمكن من الوضوء لسبب من الأسباب يستبدله بالتيمم الذي هو من خواص هذه الأمة المحمدية : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . فالتيسير هو وصف ذاتي في شرائع الإسلام لا يلزم الإنسان أنواعاً من الطاعات التي تشق عليه حتى يسأمها ويملها ؛ لأن ذلك ربما يؤدي إلى ترك بعضها أو الانقطاع عنها بالمرّة ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ . وقد ورد في الحديث : «إن الله لا يمل حتى تملوا»^(١) فدين الإسلام دين اليسر لا دين العسر ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ . وناهيك بحديث

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٠) ، ومسلم (٧٨٢) عن عائشة .

الأعرابي الذي دخل مسجد الرسول ثم أطلق الماء على الأرض ، فقام إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم الرسول : «دعوه وأهرقوا على ذلك المحل سجلا - دلوا - من الماء الطاهر ، - ثم قال لهم الرسول - : إنما بعثتم ميسرين لا معسرين»^(١) .

وكذلك معاذ بن جبل شكاه بعض الصحابة لتطويله الصلاة ، فقال له رسول الله ﷺ : «أفتان أنت يا معاذ، من أم بالناس فليخفف فإن فيهم السقيم والضعيف وذا الحاجة»^(٢) . وهذا الحديث يعطينا ضوءا على أن الإمام الذي يطيل بالناس مخالف لشريعة الرسول ؛ لأن الإمام ينبغي أن يراعي مشاعر المأمومين ؛ لأن العلة التي ذكرها الرسول موجودة على الدوام ، «فإن فيهم السقيم والضعيف وذا الحاجة» . من هنا قال عمر بن الخطاب : لا تبغضوا دينكم بإطالة الصلاة .

رب إمام عديم ذوق يؤم بالناس ثم يحجف

خالف قول طه المصطفى من أم بالناس فليخفف

ولذلك يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . قال لهما الرسول الأمر الأول : يسرا ولا تعسرا . ومن التيسير السباحة ؛ لأن من تيسير دين الإسلام السباحة ، سباحة تؤدى معها جميع الواجبات ، وكل الفرائض وكل الشئون يعني في المسيرات الجادة والحركات البناءة .

وقد ورد في حديث آخر من طريق أنس وفي بعض الروايات في هذا

(١) أخرجه البخاري (٢٢٠) عن أبي هريرة . وأخرجه هو (٦٠٢٥) ، ومسلم (٢٨٥) عن أنس .

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥) ، ومسلم (٤٦٥) عن جابر .

الحديث: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا. «يسرا ولا تعسرا» ومن يسر الدين أنه جعل للمسافر صلاة القصر يصلي فيه ركعتين، ويبيح الإفطار في الصيام لمرض أو سفر أو كبر سن، إلى غير ذلك مما يفيد قول الرسول ﷺ: يسرا.

ثم قال: ولا تعسرا، مع أن النهي عن التعسير يستلزم الأمر باليسير؛ لأن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، ولكن الرسول نهى بعد أن أمر باليسير نهى عن التعسير، لماذا؟ ليبين لنا النبي ﷺ أن النهي عن التعسير للتأكيد لا للتأسيس، إذ هناك من الأمور ما يفعل وما يصنع تأكيداً لا تأسيساً، لئلا يبقى للمتنتع علة يعتل بها؛ لأن التيسير وصف ذاتي، والتعسير يطرأ إذا لم يكن التيسير.

ومن هنا قال النبي ﷺ: «هلك المتنتعون، هلك المتنتعون، هلك المتنتعون»^(١). ومعنى المتنتعين: المتعمقون المتشددون في الدين.

ولما وصله خبر الصحابة الثلاثة الذين قال أحدهم: «إني أصوم ولا أفطر أبداً، وقال الثاني: أنا أقوم الليل لا أنام أبداً، وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء، فأخبر بهم النبي ﷺ فأرسل إليهم، فلما مثلوا بين يديه قال: أخبرت أنكم قلتم كذا وكذا، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: أما أنا فأنا أخشاكم لله وأتقاكم له، أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

لماذا؟ لأن دين الإسلام يبين لنا حفظ المصالح ودرء المفاسد، ولكن في أبسط كيفية وفي أحسن كيفية من دون تفريط ولا إفراط، فخير الأمور

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) عن ابن مسعود.

(٢) سبق تخريجه.

الوسط . وقد فسر ابن عباس العدل في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] ، قال : أي بالتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، وحقا إذا أجلنا النظر فيما يحتوي عليه الإنسان نجد ملاك الأمر في شرف ذلك هو التوسط بين طرفي التفريط والإفراط ، نبداً بعقيدة التوحيد فنجد أمرها أمراً متوسطاً بين الإفراط والتفريط .

ليس من التوحيد أن يلعب الشيطان بالإنسان ويسير به في مهاوي الضلال ويقول له : أين الله؟ كيف الله؟ وما أشبه ذلك .

وليس من التوحيد أن يكون الإنسان بليداً حتى يجعل مع الله إلهاً آخر ، إذ التوسط هو الممدوح في العقيدة ، ملاك الأمر فيها التوسط ، وكذلك الملاك والقوة النفسية هي الشجاعة ، والشجاعة مرتبة متوسطة بين الإقدام وبين الإحجام ، فليس من الشجاعة التهور ، وليس من الشجاعة الجبن ، بل :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

إلى آخره . . .

فلذلك الإسلام يخطط الأشياء على النهج القويم .

ثم إن السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم ساروا على هذا النهج القويم ، وسلكوا هذا الطريق المستقيم ، إذا فتحوا بلداً من البلدان يقرون كل واحد من أهل ذلك البلد على دينه ، ويحترمون طقوسهم الدينية ، ويممونهم ضد كل اعتداء مقابل الجزية المأخوذة منهم .

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح القدس أعطى لهم الأمان في أنفسهم وفي أموالهم وفي صلبانهم وكنائسهم ، كنائسهم لا تسكن ولا تهدم ،

وصلبانهم لا تحطم .

وهكذا يأمر القرآن باستعمال اليسر والتيسير في سائر الأمور ، وهكذا صدر هذا الأمر النبوي الشريف ، وهو أمر من نور الله ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : ٤٠] : «يسرا ولا تعسرا» .

ثم قال : «وبشرا ولا تنفرا» ، هذا هو الأمر الثاني ، هو الخبر السار ، فينبغي للمؤمن أن يأتي بالأخبار السارة المريحة للقلوب ، المريحة للهموم ، وأن يتفائل أكثر مما يتشاءم ، أو لا ينبغي له أن يتشاءم بالمرّة ؛ لأن النبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن .

كان النبي المؤتمن يعجبه الفأل الحسن

ولذلك قال لهما النبي ﷺ : «بشرا ولا تنفرا» .

الابتعاد عن التنفير :

وينبغي للمؤمن أن يبتعد عن ساحة التنفير ، وأن يبشر من يدعوه إلى الدين بأسلوب بيان ما أعد الله للمؤمنين ، بأن يقول له : إن المؤمنين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

وكذلك إذا أراد أن ينهي الأشرار ليرعوا عن غيهم ويعودوا من ضلالهم فإنه ينبغي له أن ينهائهم بأسلوب الترغيب في التوبة والرجوع لا أن ينفر بأن يقول للعاصي : هو لابد أن يعاقب ، ولا توبة له ، ولا .. ولا ، فيؤيسه ، لا ، بل ينبغي له أن يدعوه إلى التوبة ويعرفه بأن التوبة تجب السيئات وتمحوها ،

وأنها تجب ما كان قبل الإسلام من مسائل الكفر . ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] .

فينبغي له أن يعود به إلى التوبة ويقول له : تب إلى الله فإن مغفرة الله أوسع من ذنوبك . ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

ويذكر له أحاديث كمثله الحديث القدسي الوارد في هذا الموضوع . قال الله تعالى : «ما غضبت غضبي على من أتى ذنبا فاستعظمه في جانب عفوي ، وعزتي وجلالي لو كنت معجلا العقوبة لعجلتها على من يؤس من رحمتي»^(١) ، ويذكر له أن رحمة الله سبقت غضبه ، «إن رحمتي سبقت غضبي» ، كما ورد به الحديث .

ورحمة الله في الدنيا تشمل المؤمنين والكافرين ، ولكنها في الآخرة مختصة بالمؤمنين ؛ لأن الكفار إذ ذاك يقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ [الأحقاف: ٢٠] إلى آخر الآية ، فحياة الإسلام هي حياة طيبة وسعادة وقداسة وطيبات من الرزق . ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢] . ونافع وحده هو الذي قرأ : (خالصة) بالضم ، أما الباقيون من القراء فقد قرءوا ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ ومال القراءتين شيء واحد . ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ هنا تذكرت قول ابن العربي : قال الله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٨٠٧٨) عن المنتجع النجدي .

أَسْتَوَى ﴿طه: ٥﴾، ولو قال الله: القهار على العرش استوى لذاب الكون، ولكنه قال: الرحمن، والرحمن هو الله، هو من أسماء الله، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقد ذكر الرحمن في القرآن سبعا وخمسين مرة، أولها في سورة الفاتحة بعد البسملة ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، وآخرها في سورة النبأ سورة عم: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ١٠٩]، فلذلك رحمة الله سبقت غضبه، إذا أراد الإنسان أن ينهى العاصي فليرشده إلى التوبة؛ لأن الله تعالى يقول في آية أخرى مبينا فيها سهم العبودية على الإنسان ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وهذه جملة تفيد الحصر، وترد على الذين يغفرون، وعلى صكوك المغفرة، وغير ذلك عند الآخرين.

فالقرآن مهيمن على ما في التوراة والإنجيل، ما صححه القرآن فهو صحيح، وما لم يصححه القرآن فهو مفتعل: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وعلى ما قيل لي: إن صكوك المغفرة عندهم يعتمدون على فقرات ينسبونها لبعض الأنجيل، لما رفع عيسى تعلق به القسس فقالوا له: ما عقدناه في الأرض يعقد في السماء، وما حللناه في الأرض يحل في السماء، وفي رواية بعض الأنجيل: ما نعقده يعقد وما نحله يحل.

وهذا كلام لا أساس له من الصحة؛ لأنه يخالف القرآن، لأن القرآن يقول: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

«بشرا ولا تنفرا» والتنفير ينبغي للمؤمن أن يبتعد عن ساحته ، والتنفير هو الإثارة والإزعاج .

ثم إن النبي ﷺ لم يقل في الحديث : بشرا ولا تنذرا ، مع أن التبشير يقابله الإنذار ، لماذا؟ لأن الإنذار غير منهي عنه . فقد جاء ﷺ بشيرا ونذيرا ، ﴿ قِيمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [١] مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿ [الكهف : ٢ ، ٣] ، ولذلك عبر بالتنفير دون الإنذار .

نعم للإنذار مقام وللتبشير مقام ، الذي لا يقيمه على الصراط المستقيم إلا التخويف والإرعاب والزجر يناسبه الإنذار ، والذي يتحرك بالعمل إذا اعتراه بارق الأمل ، ويعلم أن ما عمل من الخير لا بد أن يجازي عليه ، فإنه يبشر ؛ لأنه من المعلوم أن الأعمال لا بد أن تلقى جزاءها ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [٢] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] . ولذلك قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري : «بشرا ولا تنفرا» .

ثم قال لهما : «وتطوعا» .

معنى التطوع :

التطوع هو أن يطيع كل واحد منهما صاحبه ، التطوع فيه وحدة ووافق ، والتخالف فيه فرقة ونفرة ، فلذلك أمرهما ﷺ بأن يطيع كل واحد منهما صاحبه في المهمة ، فكانا يتزاوران كل يوم ، وجعل بينهما بيتا من الشعر ، ودخل معاذ على أبي موسى الأشعري فوجد أمامه رجلا

موثقاً ، فقال له معاذ : يا أبا موسى ما هذا؟ قال : يهودي أسلم ثم ارتد ، قال معاذ بن جبل : لأضربن عنقه لأنه ارتد .

«وتطاوعا ولا تتخالفا» ، وهذه هي نصيحة الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، وجدير بكل من يكون مولى على عمل من أعمال البلاد ومصالح الإسلام والمسلمين أن يستحضر النصائح التي تبذل له عند توليته .

المحاضرة السابعة والستون

شؤم الخلاف

بالسند المتصل إلى صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه قال: حدثنا إسماعيل، حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سَوَالُهُمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». وأخرج الإمام مسلم هذا الحديث من عدة طرق عن أبي هريرة رحمته الله ببعض المغايرة في اللفظ.

لهذا الحديث الشريف شأن متميز بين أحاديث الأحكام الشرعية، حيث اعتُبر أصلاً من أصولها الكلية، وبين أحاديث الصحيحين بصفة خاصة حيث لا بُدَّ من إسنادِه قواعد شريفة من أصول الصناعة الحديثية. وإذا كان الغرض من استخدام تلك القواعد هو تمييز ما يُقبل مما يُردُّ من الحديث الوارد عن النبي ﷺ بطريق الآحاد، أو الترجيح بين ما يبدو متعارضاً من الحديث المقبول عند التعارض وعدم إمكان الجمع، فإن أحاديث الصحيحين المُسنَّدة وقع الإجماع من نُقَّاد الأُمَّة على قبولها، وعدَّ ما اتفقا عليه أعلى مراتب الصحيح، فلا مجال للبحث فيها من هذه الناحية، ولا من ناحية ترجيح ما اتفقا عليه على غيره.

غير أن مجال البحث فيها يبقى واسعاً من جهة أخرى، وهي سَبْرُ مقاييس الشيخين في الأسانيد والرجال، والاستفادة من صنيعهما في انتقاء ما أخرجاه

من الحديث للاهتمام به في التعامل مع ما لم يخرجاه ، حيث لم يستوعبا الحديث الصحيح كله كما صرحا بذلك ، فضلا عن بقية المقبول الذي يُعمَل به إلى جانب الصحيح في الأحكام وهو الحديث الحسن .

على أن «الصحيحين» يُعتَبَران مدرسة تطبيقية فيما يرجع إلى استخدام قواعد علوم الحديث ، منها تخرج أعلام هذا الشأن من وقتها إلى الآن .

ويلاحظ بادئ ذي بدء بالنسبة إلى حديثنا هذا أن الإمام البخاري أورده في موضع واحد من «صحيحه» ولم يكرره في موضع آخر ، أورده في آخر باب الاقتداء بسُنَن رسول الله ﷺ من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ولم يكرره في موضع آخر ، وهذا يدل على أن ما عُرِفَ من تكرير البخاري للأحاديث في أكثر من موضع إنما هو لما ينشده فيه من فائدة وليس لمجرد التكرار ، كأن يستنبط من متن الحديث حكما يناسب الباب الذي كره فيه ، فإن كان ذلك المكرر بسند مغاير للسند الأول - وهو غالب عمله فيما يكرره كان ذلك الحديث حديثا آخر غير الأول ؛ لأن الحديث الواحد بسندين مختلفين يعد عندهم حديثين لا حديثا واحدا ، وتعدد الأسانيد لحديثٍ ما هو هدف في حد ذاته ، كأن يأتي في المكرر بزيادة تفيد حكما ليس في الحديث الأول ، والزيادة بهذا القيد تعتبر حديثا مستقلا ، ويحكمون عليها بحكم المنفرد من حيث القبول أو الرد ، فقد يقبلون الحديث ويردون الزيادة ويقبلونها إن كانت من ثقة ، والقاعدة عندهم أن زيادة الثقة مقبولة بشروطها .

وبمقتضى هذه القاعدة قبلوا زيادة الإمام مالك لفظة (من المسلمين) في حديث نافع عن ابن عمر : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعا

من تمر أو صاعاً من شعير على الحر والعبد والذكر والأنثى من المسلمين^(١)؛ إذ لم يَزَو هذه الزيادة عن نافع من أصحابه من هو في درجة الإمام مالك، وفرع العلماء على هذه الزيادة عدة أحكام لا تُستَفَادُ من الحديث بدونها، وبمقتضاها ناقش الجمهور من أوجب زكاة الفطر على غير المسلم في بعض الصور، وخصصوا بها عموم هذا الحديث بدونها، وعموم حديث مسلم: «ليس على المسلم في عبده صدقة إلا صدقة الفطر».

ويكرّر الحديث أيضاً لفائدة ليست في إسناده من حيث تقويته ورفع ما يتوهم في الإسناد الأول من علة أو عدم سماع مدلس إلى غير ذلك من الفوائد التي يكرر لأجلها الحديث، فقول القائل في المفاضلة بين «الصحيحين»:

قالوا المسلم فضل قلت البخاري أعلى
قالوا المكرر فيه قلت المكرر أحلى

لا يعدو أن يكون حجة شرعية لا تستند على واقع علمي، لأن ما لا يرى فائدة في تكراره لا يذكره إلا مرة واحدة كحديثنا هذا، وأحاديث كثيرة غيره.

وقد روى البخاري هذا الحديث عن الإمام مالك بواسطة إسماعيل بن أبي أُويس المتوفى سنة ست وعشرين ومائتين هجرية (٢٢٦هـ)، وهو ابن عم الإمام مالك؛ إذ والده أبو أُويس هو عبدالله بن عبدالله بن أُويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، والإمام مالك هو ابن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، ثم هو ابن أخته وزوج ابنته فاطمة، وقد أكثر

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٦٢٧).

إسماعيل من رواية الحديث والمسائل الفقهية عن خاله الإمام مالك ، إلا أن الفقهاء كعادتهم رجحوا رواية ابن القاسم على روايته ؛ لأن لابن القاسم مكانة خاصة عند الفقهاء ، حتى إنهم رجحوا روايته على سائر أصحاب مالك الثقات كابن وهب وغيره .

وأما الحديث فقد اختلف النقاد في إسماعيل فوثقه الكثير وضعفه البعض ، وتحاماه النسائي فلم يخرج عنه ، وأخرج له مسلم على قلة ، إلا أن الإمام البخاري احتج به فيما رواه عن الإمام مالك من أحاديث الموطأ ومن غيرها .

ويمكن أن يقال بالنسبة إلى أحاديث الموطأ : إن ما في كتب السنة منها لا إشكال في ثبوته عن الإمام ثبوتاً قطعياً ، لأن الموطأ تواتر نسبته إلى الإمام مالك حيث رواه عنه أكثر من ألف شخص في مختلف الجهات والأصقاع ، وما تحقق فيه شروط التواتر لا يُبحث في نَقْلَتِهِ ، وإنما اختار أصحاب الأصول المسندة الرواة الذين يسندون من طريقهم حديث الموطأ لاعتبارات خاصة أو لاعتبارات فنية بأصح تعبير ، كعلو الإسناد أو طول ملازمة للإمام أو سماع من لفظه ، لأن الإمام كان لا يُسمع من لفظه كما سيأتي قريباً ، وليس لأجل الثبوت .

وهكذا اختار الإمام أحمد بن حنبل ، أكثر من رواية الموطأ عن عبد الرحمن بن مهدي ، وأكثر الإمام البخاري عن عبد الله بن يوسف التنيسي ، وعبد الله بن مسلمة القعنبي ، وإسماعيل بن أبي أويس ، وأكثر الإمام مسلم من رواية الموطأ عن يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري ، وأبو داود عن القعنبي وهكذا .

وأما أحاديث الإمام خارج «الموطأ» وهي المعروفة بغرائب مالك ، ففيها الصحيح والحسن والضعيف بحسب الرواة عن الإمام ، ولذلك أوجب العلماء إعمال النظر فيها للكشف عن أولئك الرواة ، وقد جمع الدارقطني تلك الأحاديث في كتاب غرائب مالك ، وجمع الخطيب أكثر تلك الأحاديث في كتاب الرواة عن مالك ، واشتغل به عدد من الحفاظ في المشرق والمغرب ، ومن تلك الأحاديث حديثنا هذا ، فلا يوجد في «الموطأ» غير أن البخاري أخذ بعين الاعتبار كلام بعض النقاد في إسماعيل فسلك إزاء حديثه مسلكين :

المسلك الأول:

أنه لم يخرج من حديثه إلا ما توفرت فيه شرائط معينة ، اشتهر البخاري بتلخيصها في أحاديث شيوخه ، حيث نص الحفاظ على أنه إن كان في بعض رجال البخاري من لم يسلم من غوائل الجرح فأغلب أولئك من شيوخه المباشرين ، وهو بحاسته النقدية يعرف دخائل شيوخه حيث لازمهم وعرف أحوالهم ، كإسماعيل بن أبي أويس ، فإنه كانت بينه وبين البخاري مداخلة وألفة ، وصح أن البخاري طلب منه أن يطلع على أصول أسمعيته ، وأن يعلم له على ما يختار منها ، فاختار البخاري منها ما يوافق شرطه وأعرض عن غيره .

ومن ثم قيل : إن ما في الصحيح من حديث إسماعيل هو أصححه على الإطلاق ، واختيار البخاري من أصول إسماعيل ما وضعه في صحيحه هو الذي يحدد لنا السبب في التزامه صيغة حدثني فيما يؤديه عن مالك ، بينما أغلب تلامذة الإمام يؤدون حديثه بصيغ أخرى ، كأخبرنا مالك ، أو قرأت على مالك ، أو عن مالك .

وذلك لأن المعروف من دأب الإمام مالك أنه كان لا يُحدِّث من لفظه ، بل كان تلامذته يتناسخون حديثه ثم يعرضونه عليه ، قال مُطَرِّف : صَحِبْتُ مَالِكًا سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَمَا رَأَيْتُهُ قَرَأَ الْمَوْطَأَ عَلَى أَحَدٍ بَلْ كَانُوا يَقْرَءُونَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَذْهَبُهُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ صَنِيعِ الْأَدَاءِ فِي التَّحْمَلِ ، فَيَجِيزُ مِثْلًا كَغَالِبِيَةِ الْأُئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ يَحْزِنُونَ الْأَدَاءَ بِحَدَّثِنَا وَأَخْبَرْنَا عَنْ كُلِّ مَنْ السَّمَاعِ وَالْقِرَاءَةِ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَمَذْهَبُ الْبَخَارِيِّ أَيْضًا ، إِلَّا أَنَّ مَذْهَبَ الْبَخَارِيِّ هَذَا كَانَ هُوَ رَأْيُهُ وَلَيْسَ صَنِيعُهُ ، صَنِيعُ الْبَخَارِيِّ مَغَايِرُ لِهَذَا ، أَمَّا الْإِمَامُ مَالِكٌ فَكَانَ مَذْهَبُهُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْعَرْضِ وَالسَّمَاعِ ، إِلَّا أَنَّ الْأَصْطِلَاحَ اسْتَقَرَّ بَعْدَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّنِيعِ ، وَبَيْنَ تَلَامُذَتِهِ وَأَقْرَانِهِ ، كَانُوا يَمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّنِيعِ ، فَيُؤَدُّونَ بِسَمْعَتِ وَحَدَّثِنَا ، وَقَالَ لَنَا ، وَذَكَرَ لَنَا عَنْ السَّمَاعِ مِنْ لَفْظِ الشَّيْخِ ، وَيُؤَدُّونَ بِقِرَأتِ عَلَى فُلَانٍ وَقُرِئَ عَلَى فُلَانٍ وَأَخْبَرْنَا فُلَانًا عَنْ الْعَرْضِ عَلَى الشَّيْخِ .

قال ابن الصلاح : التفريق بينهما أي بين العرض والسماع صار هو الغالب الشائع على أهل الحديث ، يعني أنه ليس شيئاً واجباً ولكنه شيء تواضعوا عليه ، وكان معن بن عيسى من ثقات أصحاب مالك وهو الذي قرأ الموطأ عليه للرَّشِيدِ وابنه المأمون يقول في بعض الأحيان : حدثني مالك ، فقليل له : كيف تقول هذا وإنما كان يقرأ عليه ، وحدثني لا تقال إلا فيما سُمِعَ عليه ، فأجاب بالحيلة التي كان يسمع بها من الإمام مالك ، قال : كُنْتُ أَسْتَخْرِجُ الْحَدِيثَ فِي رِقَاعٍ مِنْهُ ثُمَّ أَعْرِضُهُ عَلَيْهِ وَأَقُولُ لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ : اقْرَأْ لِي هَذَا الْحَدِيثَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَقْرَءُوهُ فَيَقْرَءُوهُ ، قَالَ : ثُمَّ أَتْرَكَهُ أَيَّامًا وَأَجِئْتُهُ بِأُخْرَى ، وَهَكَذَا سَمِعْتُ مِنَ الْإِمَامِ مَالِكٍ مَا كَانَ يُؤَدِّيهِ بِحَدَّثِنِي كَمَا لَاحَظْتُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ عِنْدَ مُسْلِمٍ حَتَّى قِيلَ : إِنَّهُ سَمِعَ مِنْهُ نَصْفَ الْمَوْطَأِ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ .

والتفريق بين الصيغ هو الذي كان سائدا بالمغرب أيضا ، فقول الحافظ ابن حجر : إن المغاربة استمروا على عدم التفريق . غير ظاهر ، لأدلة كثيرة يُمكن الاكتفاء منها الآن بأن هذا أقدمُ كتاب حديث مغربي موجود الآن ، وهو رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي البربري الأصل للموطأ ، يقول فيه ويؤديه عنه ولده عبيدالله بقوله : حدثني يحيى عن مالك فما سمعه من أبيه يقول فيه حدثني وما قرئ على مالك وأبوه يسمع يقول فيه : عن ، وعن تحتمل أنواع التحمل كلها ويخصصها بالعرض هنا عادة الإمام الغالبة على مجالسه الحديثية وهي العرض عليه دون القراءة من لفظه .

ومهما قيل في المفاضلة بين العرض والسمع فقد قال القاضي عياض عن السماع من لفظ الشيخ : إنه أرفع درجات الرواية عند الأكثرين ، ومقولة أن الإمام مالك كان لا يُحدِّث من لفظه لا ينبغي أن تؤخذ على إطلاقها ، فقد سمع منه ابن وهب الكثير كما سمع منه غيره ، وما يقال عن مجالس الإملاء العامة لا ينطبق عندهم على المجالس الخاصة ، فهذا البخاري كان يُفَرِّق بين ما سمعه في مجلس الإملاء العام فيقول فيه : حدثنا ، وما سمعه من شيوخه مذاكرة فيقول فيه : قال لنا وذكر لنا ، ولا شك أن البخاري اختار من أصول إسماعيل ما هو أرفع درجات الرواية وهو ما سمعه من لفظ خاله ومثيله ، وليكن ذلك في مجلس خاص ، ولذلك كان يؤديه بحدثني المفيدة بحسب المتعارف عندهم أنه سمعه منه وحده .

المسلك الثاني :

أن البخاري رغم كل هذا الاحتياط لم يخرج لإسماعيل مما انفرد به ولم يشاركه فيه غيره سوى حديثين ، والباقي مما توبع عليه ، وقد تابعه في رواية هذا الحديث عن الإمام مالك سبعة من الرواة ، فيهم من شيوخ

البخاري عبدالعزيز بن عبدالله الأويسي ، وإسحاق بن محمد الفروي وفيهم محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ، وتابع أبا الزناد عبدالله ابن ذكوان عن الأعرج في رواية هذا الحديث تابع الإمام مالكا عن أبي الزناد عبدالله بن ذكوان المدني الفقيه الثبت المتوفى سنة ثلاثين ومائة (١٣٠هـ) أربعة من الرواة ، قال الإمام مسلم في صحيحه : حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد ، حدثنا الْمُغِيرَةُ يعني الحزامي ، وحدثنا ابن أبي عُمر ، حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ؛ يزيد هو ابن هارون أحد الأئمة .

وخالف الجمهور جماعة من العلماء في مقدمتهم ابن حزم ، والحافظ المغربي الكبير أبو الحسن بن القطان فقالوا بإفادة الحديث الصحيح للعلم ، إلا أن قسما كبيرا من الجمهور فصلوا فقالوا : إن خبر الواحد وإن كان في أصله لا يفيد إلا الظن إلا أنه تَحْتَفُّ به قرائن فتجعله يفيد العلم النظري ، ومن تلك القرائن اتفاق الشيخين على الحديث ، والمسلسل بالأئمة الحفاظ مع متابع الثقة وإن لم يكن في الصحيحين ، والمشهور إذا تعددت طرقه وبانت مخارجه ، وسلم من ضعف الرواة والعلل ، وقد فرع عليه الحنفية ما فرعوا على المتواتر من أحكام .

وحدثنا هذا قد اجتمع فيه هذه العوامل الثلاثة مجتمعة ، أما العامل الأول وهو اتفاق الشيخين عليه فهذا واضح ، والعامل الثاني المسلسل بالأئمة الحفاظ هو الذي قيل في إسناده : إنه أصح إسناد والذي روي بإسناد قيل فيه : إنه أصح الأسانيد ، إما مطلقا كمالك عن نافع عن ابن عمر وهي المعبر عنها بسلسلة الذهب ، قال أحد الحفاظ لأبي زرعة

الرازي : يا أبا زرعة ، ليس ذا زعزعة عن زوبعة إنما ترى ؛ ترفع الشُّر فتنظر إلى رسول الله ﷺ والصحابة : مالك عن نافع عن ابن عمر . وإمّا بالنسبة إلى بلد ، كأصح أسانيد المكيين وأصح أسانيد أبي هريرة وأصح أسانيد ابن عمر ، وأصح أسانيد أبي بكر إلى آخره .

وحديثنا هذا قد روي بثلاثة من هذه الأسانيد : مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، وقال البخاري : إنه أصح أسانيد أبي هريرة وتقدم لنا رواية هَمَّاب بن مَثَبه حديثاً رواه عنه معمر عن همام بن منبه عند مسلم ، وعند الإمام أحمد ، وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة عند مسلم ، فترون هذا الحديث روي بثلاثة أسانيد من الأسانيد التي قيل فيها : إنها أصح الأسانيد ولا توجد متابعه أفضل من هذه .

وأما العامل الثالث فالمشهور هو الذي رواه عن النبي ﷺ أكثر من ثلاثة من الصحابة فاتصل إسناده إليهم ، وقد تقدم أن أصل هذا الحديث رواه بالإضافة إلى لفظ أبي هريرة علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما .

سبب ورود الحديث :

ثم إن لورود هذا الحديث عن النبي ﷺ سبباً بيته رواية الإمام مسلم من طريق محمد بن زياد قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجُّوا» . فقام رجل فقال : أكلَّ عام يارسول الله . فسكت حتى قالها ثلاثاً ، ثم قال رسول الله ﷺ : «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» . في رواية مسلم : «ذروني» ، وفي رواية البخاري : «دعوني» وقد قال النحاة : إن دُعْ وذُرْ بمعنى أتركُ أُميت منهما الفعل الماضي ، والمصدر واسم الفاعل ، ولذلك غير

النبي ﷺ فقال: «دعوني» أو «ذروني ما تركتكم» ولم يقل ما ودعيتكم ولا وذرتكم لأنه أميت منهما، لكن قال الحفاظ والعلماء كالقاضي عياض والثوري وغيرهما: لا يجوز القول باستعماله بل بقلة الاستعمال؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ شرَّ الناس منزلة عند الله تعالى يوم القيامة من ودَّعه الناس اتِّقاءً فُحْشه». وهذا في الماضي وفي صحيح مسلم «ليتهين أقوام عند ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»، وهذا في المصدر، وورد في قراءة صحيحة وإن لم يكن سبعة عن النبي ﷺ (ما ودعك ربك وما قلى) بالتخفيف.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر، وعزا إلى الدارقطني زيادة في هذا الحديث وهو قول أبي هريرة: ثم نزل قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وهذه الزيادة موجودة في صحيح ابن حبان فالعزو إليه كان أولى.

وقد عقب البخاري هذا الحديث باب يناسبه وهو باب ما يُكره من تكلف ما لا يعنيه ومن كثرة السؤال وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾، وأتى فيه بأحاديث تفيد مع حديثنا هذا ومع الآية نهي النبي ﷺ للصحابة عن الإكثار من الأسئلة خوفاً أن يقع في جوابها ما يشق على المسلمين فيصعب عليهم الامتثال ويقعوا في المحذور.

وقد كان سبب هلاك الأمم السابقة كثرة الأسئلة وطلب الشروح والتفاصيل لما أنزل عليهم، فصعب عليهم الامتثال وجرَّهم ذلك إلى الاختلاف على أنبيائهم، فساءت عاقبتهم كاملاً من بني إسرائيل الذين سألوا ملكا يقاتلون معه، ثم خالفوا أمره، والذين ذكر الله تعالى قصتهم في القرآن بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ

قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ أَبْعَثَ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴿البقرة: ٢٤٦﴾ ، وكما وقع لهم من قبل ، إذ أمروا أن يذبحوا بقرة ، فلو ذبحوا أي بقرة لكفتهم وحصل الامتثال ، ولكنهم أمعنوا في الاستفصال عن شكلها ولونها ونوعها فتعددت الأجوبة الواصفة وقل الموصوف فعظم الامتحان ، ولذلك قال تعالى : ﴿فَذَحِّكُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿البقرة: ٧١﴾ مع أن مُقْتَضَى الطلب هو حصول الامتثال ، وصيغته أَفْعَلُ المعبرة عن الطلب لا تقتضي بوضعها تقييداً ولا تكراراً فيحصل الامتثال بالمرة كما في الحج ، ويحصل بأقل ما يصدق عليه المطلوب كما في الأمر بذبح البقرة والتكرار في الصلاة والزكاة لم يستفد من صيغة الأمر بهما ، بل استفيد من دليل خارج ، فخاف ﷺ على أمته الإعانات من كثرة الأسئلة شفقة عليها ، وهو الذي وصفه الله بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

لأنه إن سئل باعتباره مشرعاً كان جوابه الحظر والإيجاب حكماً شرعياً ملزماً لأن كلامه من هذه الحثية ليس ككلام غيره ، ولذلك قال : «إن كذباً علي ليس ككذب علي أحد ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ، وهو حديث متواتر . وكثرة أسئلته تستدعي إجاباته ، وإجاباته تكون تشريعاً ، وكثرة التشريعات مدعاة لعدم الامتثال وذلك ما لا يريده ﷺ لأمره ، هذا من جهة .

ظاهرة حب الاستفسار والسؤال :

ومن جهة أخرى فإن ظاهرة السؤال وحب الاستطلاع واستكشاف المغيب هي غريزة متأصلة في طباع البشر ، وقد أوشكت تلك الغريزة أن تنطلق من عقالها بالنسبة للنبي ﷺ فسئل عما ليس له شاهد في عالم الحس ، وسئل عن مدة هذه الأمة ، وعن الساعة ، وسئل عن الروح ، وسئل عن أشياء لا علاقة لها بالدين والتشريع وإقامة التوحيد ، حتى سئل ! تسأله رجل ضلت ناقته أين ناقتي ؟ وسأله رجل يشك في نسبه من أبي ؟ وفي صحيح مسلم سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة أي ألحوا عليه ، وفي صحيح البخاري : أكثروا عليه المسألة حتى غضب ، فبرك عمر رضي الله عنه على ركبته وقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ، فسكت ﷺ حين قال ذلك .

ومعلوم أن الاستجابة الكاملة لهذه الغريزة تفضي إلى الانسياق وراء الحقيقة على حساب الوقوف مع حدود الشريعة ، فتختل بذلك موازين الشرع ، وتصبح ظواهره رسوما لا حقيقة لها ، كما حدث لبعض الفرق التي أغرقت في البحث عن الحقيقة ، فضلت عن العمل بالشريعة ، مع أن العمل بالشريعة والوقوف مع حدودها هو مفتاح باب كل شيء ، وما وصل من وصل إلا به ومنه كما قرر كبار العارفين . وقد عالج ﷺ هذه الظاهرة بحكم وتوجيهات نبوية ، منها :

أولاً : حمل الصحابة المقيمين معه بالمدينة على ألا يسألوا إلا على ما تدعو إليه ضرورة العمل من فهم النصوص ، أو فهم ما لم يفهموه من النصوص من أجل العمل ، كسؤال من سأل عن معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] فبين له ﷺ سواد الليل

من بياض النهار ، وكقولهم : إنا ملاقو العدو غدا وليس معنا مدى أفذبح بالقصب؟ قال : ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر ، ومنع ما عدا ذلك من الأسئلة التي لا تفيد في دين ولا دنيا ، وقال ﷺ : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١) . وهذا هو مراد أنس بن مالك بقوله رحمه الله كما في البخاري : كنا نهينا أن نسأل النبي ﷺ وكان يعجبنا أن يجيء الرجل الغافل ، وفي رواية ، العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع ، وعلى هذا حملت الأحاديث في هذا الموضوع .

ومع أن السؤال كان ممنوعا في زمن النبوة ونزول الوحي ، لأنه الذي تقع المساءة في جوابه كما قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُوا وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة : ١٠١] فإن العلماء استمروا على كراهة الاستفسار عن الأشياء المباحة ، والبحث عن أصلها ومادتها ومصدرها ، والتفريق بين المتماثلات بفروق ليس لها أساس من الشرع حتى يدعو ذلك إلى الوسوسة والخرج وعدوا ذلك تنطعا في الدين ، وقد قال ﷺ : «هلك المتنطعون» . وسئل ابن عمر رحمهما الله عن أشياء من هذا القبيل وقال : ما وجدته في سوق المسلمين اشتريته ولا أسأل عنه .

ثانياً : بالنسبة إلى السؤال المستثنى من المنع وهو السؤال عن ضرورة الدين ، الذي هو قد يكون واجبا ؛ لأنه من مشمول قوله تعالى : ﴿فَسْأَلُوا

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، والبيهقي في «شعب الإيمان»

(٢٥٥/٤) وغيرهم عن أبي هريرة . وصححه ابن حبان (٢٢٩) ، وأخرجه أحمد

(٢٠١/١) ، والطبراني (٢٨٨٦) عن علي بن الحسين .

وقال الهيثمي (١٨/٨) : رجالها ثقات . وحسنه النووي في «الأربعين» (١٢/١) .

أَهْلَ الذِّكْرِ ﴿[الأنبياء: ٧] وقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١)، وكل ﷺ إلى ضمير السائل وإحساسه بالمسئولية العامة صياغة نوع السؤال وكيفيته، وبين أن أعظم جريمة ترتكب في حق المسلمين أن يحرم عليهم مباح نتيجة سؤال شخصي، فقال في الحديث الذي صدر به الباب الذي بعد هذا الحديث عن سعد بن أبي وقاص: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسأله»، وهذا مظهر من مظاهر تربيته ﷺ لأصحابه وإشعارهم بأنهم بضحتهم إياه يمتازون بأن أحكام الشرع تنزل حسب تصرفاتهم ووفق ما يحدث لهم وفي ذلك إشارة إلى فضلهم.

ثالثاً: فقرة هذا الحديث الأخيرة وهي قوله ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» ويمكن اغتنام ما بقي من الوقت في اقتطاف بعض فقراتها أو مقتضياتها الكثيرة جداً في المسائل التالية:

المسألة الأولى:

قال العلماء في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] إنه يجب على الرسول ﷺ أن يبين للمسلمين ما يحتاجون إليه من أمور دينهم فوراً، ابتداءً أي بدون سؤال منهم، وعن هذا أخذ الأصوليون قاعدة: لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإذا كان كذلك فالسؤال عما سكت عنه الشارع هو تقدم بين يدي الله ورسوله.

وقد يظن أن في المسكوت عنه تقصيراً أو نسياناً مع أن القاعدة أن المسكوت عنه من الشارع هو إبقاء له على استصحاب البراءة الأصلية؛

(١) سبق تخريجه.

لأن الأصل في الأشياء هو الإباحة ، وإذا كان لا حُكْم قبل ورود الشرع فكل مسكوت عنه هو داخل في دائرة المباح .

ومن مقاصد الشارع توسيع تلك الدائرة وعدم التضيق بتكليفها ، قال ﷺ كما في الحديث المشهور : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسئ شيئا » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] ^(١) وفي حديث آخر : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ^(٢) ولم يحرم على الأمة إلا ما هو خبيث ضار مستقذر ، وأباح لها سائر الطيبات بدون استثناء .

ولئن كان العقاب بتحريم شيء جائزا في الشرائع السابقة كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٦٠] فقد أكرم الله هذه الأمة بأن أباح لها جميع الطيبات بدون استثناء ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) أخرجه الترمذي (١٧٢٦) ، وابن ماجه (٣٣٦٧) عن سلمان بنحوه . وأخرجه الدارقطني (١٢) ، والحاكم (٤٠٦/٢) وقال : صحيح الإسناد . والبيهقي في «الكبرى» (١٢/١٠) عن أبي الدرداء . وكذا البزار ، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٧١/١) وقال الهيثمي : إسناده حسن ورجاله موثقون . ونقل ابن رجب في «جامع العلوم» (٢٧٦/١) عن البزار أنه قال : إسناده صالح .

(٢) أخرجه الدارقطني (١٨٤/٤) ، والطبراني في «الكبير» (٢٢٢/٢٢) ، والبيهقي في «الكبرى» (١٢/١٠) وغيرهم عن أبي ثعلبة الخشني . وحسنه النووي في «الرياض» (١٨٤١) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٧١/١) : «رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح» ، وذكر له الحافظ في «الفتح» (٢٦٦/١٣) شواهد .

ذُلُولًا فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» [الملك: ١٥] وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ولهذا لم يأخذ العلماء في هذه المسألة الدقيقة الحرجة إلا بالنصوص الصريحة الثابتة .

وهذا معنى قول أئمة الحديث : إذا روينا في الحلال والحرام تشددنا ، وإذا روينا في فضائل الأعمال تساهلنا ، وكان كبار الأئمة كمالك وغيره لا يقولون فيما أدى إليه اجتهادهم : هذا حلال وهذا حرام ، بل يقولون : يُعْجِبُنِي وَلَا يُعْجِبُنِي ، وأكره كذا ولا أكرهه ، تورعا عن أن يشملهم قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] فإن النبي ﷺ فسر الآية لعدي بن حاتم بأنهم يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال ، وقوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٢٧] وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِء مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨] وعلى هذا فليس لأحد الحكم بتحليل أو تحريم إلا من جهة تطبيق الكليات على الجزئيات وإلحاق الفروع بالأصول حسب قواعد الاجتهاد المقررة ، فذلك أيضا من البيان لأن الله تعالى أمر به بقوله : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] ، ولإقرار الرسول ﷺ من اجتهد من الصحابة .

المسألة الثانية :

أنه بدل السؤال عما لم يقع وتوليد الفروع البعيدة ، والاشتغال بالأغلوطات وهي شدة المسائل كما فسرها به النبي ﷺ وتعقيد أمور

الدين المبسطة والملائمة لكل الفطر البشرية يجب فقط الامتثال لما هو موجود بالفعل ، وذلك باجتنب المنهي عنه اجتناباً كلياً ، حتماً في الحرام ، وندباً في المكروه ، وإتيان المأمور به على قدر الاستطاعة ، فذاك مراد الشارع ليس غير ، وفيه وحدة سعادة المكلف الدنيوية والأخروية .

أما اجتناب المنهي عنه اجتناباً كلياً فإن النهي - إذا لم تصحبه قرينة تصرفه عن حقيقته وهي التحريم - هو الأمر بالكف عن الفعل ، فإذا أمر الشارع بالكف عن فعل ما وجب الكف فوراً عن سائر أجزائه ، واعتبار المناهي كلها على درجة واحدة في التحريم ، وذلك معنى قولهم : النهي عام في المناهي الشرعية ، وليس في ذلك تكليف بما لا يطاق ولا فيه حرج على المكلف لأن الكف عن الفعل وعدم الإقدام عليه هو استصحاب لحال عدمه ، وفي مقدور كل واحد ألا يفعل ما نهى عنه ، ولذلك لم يعلق الشارع النهي على الاستطاعة كما علق عليها فعل المأمور ، إلا ويستثنى من النهي حالتا الإكراه والضرورة المعبرتان شرعاً ، فإن المكلف في حال الإقدام على ما أكرهه على فعله أو اضطر إليه لا يكون مخاطباً بالنهي لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، قال ﷺ : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١) ، وأما إتيان المأمور على قدر الاستطاعة فإن فعل المأمور هو إخراجهم من العدم إلى الوجود ، وذلك يتوقف على شرائط وأسباب كالقدرة على الفعل وإمكان فعله ، ولذلك فقد يستطيع المكلف أن يفعل وقد لا يستطيع أن يفعل ، ولا

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) ، والحاكم (٢١٦/٢) وصححه ، وكذا ابن حبان (٧٢١٩) وغيرهم عن ابن عباس . وقال السخاوي في «المقاصد» (١/١٢٤) : قال النووي في «الروضة» وفي «الأربعين» إنه حسن . وكذا حسنه ابن رجب في «جامع العلوم» (١/٣٧١) .

يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فما لا يستطيعه لا يكلفه الله به وفي هذا قالوا :
الميسور لا يسقط بالمعسور ، وفي هذه القاعدة تدخل كثير من الأحكام
كالصلاة لمن عجز عن ركن منها أو شرط والوضوء وستر العورة وإخراج
بعض زكاة الفطر ، إلا إن قيد المأمور بقيد أو وصف فلا يسقط الامتثال إلا
بالإتيان به بجميع قيوده وأوصافه ، وأن ذاك يسقط التكليف به في حال
العجز وعدم القدرة ، هذا بالنسبة إلى الواجب .

وأما المندوب فقد قال الإمام النووي في الأذكار : ينبغي لمن بلغه شيء
في فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرة واحدة ليكون من أهله ، ولا ينبغي
أن يتركه مطلقاً ، بل يأتي بما تيسر منه لقوله ﷺ في الحديث المتفق على
صحته : «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» .

على كل حال ما زال هناك في الحديث فوائد كثيرة ، وما زال هناك ما
يستخرج منه ، ويمكن الاكتفاء بهذا القدر ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن
يوفقنا .

المحاضرة الثامنة والستون

الوقف والتنمية

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن ماجه في «سننه» بلفظ : حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن وهب بن عطية ، حدثنا الوليد ابن مسلم ، حدثنا مرزوق بن أبي الهذيل حدثني الزهري ، حدثني أبو عبد الله الأغر ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته ، يلحقه من بعد موته» رواه ابن ماجه في «سننه» .

كل درس من هذه الدروس ومحاضرة من تلك المحاضرات انطلاقاً من آية من كتاب الله الكريم ، أو من حديث نبوي شريف التفاتاً إلى ما في هذين المصدرين الشريفين : الكتاب والسنة من توجيه ودعوة إلى الخير ، وحكمة وتشريع وطريق ببناء الفرد المسلم وبناء الأمة الإسلامية .

ولم يكن ﷺ حين جاء بالرسالة وبلغ عن ربه هذه الأمانة إلا داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً يجلس إلى الناس ، أو يجلس الناس إليه فيعظهم ويوجههم ، ويركز في قلوبهم الإيمان ، ويدفعهم إلى عمل الخير ، ويحضرهم على الطاعة .

فما أحرانا فرادئ وجماعات أن نعود إلى كتاب الله وسنة رسوله نستلهم منهما الخير ، ونحاول قدر الطاقة الامتثال لما فيهما من توجيه وحكمة ، ونهي وأمر ، ودعوة إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

ذلك أن الكتاب والسنة تناولا كل مجالات الحياة بالنسبة للفرد المسلم وللجماعة المسلمة، كل مجالات الحياة سواء كان ذلك اقتصاديا أو اجتماعيا، أو عقديا أو منهجيا أو سلوكيا ولذلك فإن الباحث المسلم والمفكر إذا أراد أن يتناول قضية من القضايا لابد عليه أن يعود إلى هذين المصدرين .

قضية الوقف والتنمية، كان من الضروري أن نعود إلى كتاب الله سبحانه وتعالى لتدبره، وإلى سنة رسوله ﷺ لتتبع التوجيه النبوي الشريف الذي جاء به .

ولا أريد أن أعدد الآيات، أو أذكر الأحاديث الكثيرة في هذا الغرض؛ ولكنني أكتفي ببعضها؛ لأنها علامات على الطريق؛ ولأنها تكشف عن الوجوه التي نريد التوصل إليها والتي عن طريقها ومن خلالها تحققت التنمية في الماضي وتحقق بإذن الله في الحاضر وفي المستقبل .

وهذا الموضوع الذي ينبغي أن تتجه الأنظار إليه هو المال، فالمال قبل كل شيء مال الله، وهو الذي يرزق عباده به، ثم هذا المال عندما نبذله، وعندما نصرفه في وجوه الخير يكون برا، وهذا البر فيه تزكية للنفوس وتطهير لها، وانتزاع لمعاني الشح والبخل التي قد تلاصق وتخالط نفوس البشر .

وليصبح المال خيرا وليس شرا، وليكون منفعة ولا يكون فتنة، ينبغي أن نقدمه للناس، معينين بذلك الفقراء والمساكين والمحتاجين ومن يريد القيام بشيء يحقق به الخير للأمة عامة، وذلك هو الذي من أجله دعانا الله سبحانه وتعالى وهو الملك القدير الغني إلى أن نقرضه قرضا حسنا فيضاعف لما أقرضه هذا القرض، ويغفر له ذنبه .

الدعوة للإتقان من القرآن :

هنا أجد آيات كثيرة من بينها قوله ﷺ : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤] . وقوله سبحانه : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] . وهذه الآية عندما سمعها بعض الصحابة فهم منها المقصود الأساسي من هذه الدعوة وجاء إلى رسول الله ﷺ وقال له : أريد أن أتصدق بهالي .

والآية الأخرى هي قوله ﷺ : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، ثم قال ﷺ مشيراً إلى الجانب الآخر الذي ألمعنا إليه من قبل ، وذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فاتقوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٥-١٨] .

الدعوة للإتقان من السنة :

وجاء في السنة النبوية الشريفة كما سنرى أحاديث كثيرة توضح هذا المعنى ، وتبرزه في صور مختلفة متعددة للإنفاق ولوجوه البر ؛ فمن ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وهو قوله : «إذا مات ابن آدم انقطع علمه إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» وعندما تعرض النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه لهذا الحديث ، عرف الصدقة الجارية فقال : هي الوقف .

فإذا امتثل المؤمنون لهذه الوصايا وهذه التوجيهات ، والتزموا بما في كتاب الله وسنة رسوله من الدعوة إلى الخير ، فإنهم بذلك ينقلون المجتمع الذي يعيشونه من حالة إلى حالة ، ومن وضع إلى وضع ، وما أحرانا أن نكون من هؤلاء .

فإن المجتمع لا يمكن أن ينهض أو يتقدم أو يرتقي أو يبلغ الآفاق العالية الواسعة التي يطمح إليها إلا إذا تمسك بكتاب الله ، واتبع منهج رسول الله ﷺ وهو بذلك بهذا الامتثال يحقق إيجاد وتكوين مجتمع المتقين وهو مجتمع التقدم ، ومجتمع التعاون ، ومجتمع الرفاة ، ولعل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان يعني هذا لمجتمع في قوله : «أباح الله لهم من الدنيا ما كفاهم به وأغناهم ، ثم انقلبوا عنها بالمزاد المبلغ ، والمتجر الرابع ، وتيقنوا أنهم جيران الله في آخرتهم لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذة» .

ونحن عندما نجد الحديث عن الوقف مختلطا بالحديث عن التبرعات كلها ، ابتداء بالزكاة التي هي فرض وواجب إلى غيرها من التبرعات والإعلانات التي يقدمها الإنسان لذويه وأقاربه ، أو لمن هو بعيد عنه أو للمشاريع الجليلة التي تنهض بالأمة وتحقق لها المستقبل العزيز الذي وعدنا الله به إذا نحن تمسكنا بكتابه ، واتبعنا سنة رسوله ، وهو الذي يشهد له قول الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] هذه العزة لا تكتسب إلا بالالتزام بالكتاب والسنة ، ولذلك قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ فِي كتاب «المقاصد» عندما تعرض إلى باب التبرعات : «ما أحرانا بأن نتأمل هذه المقاصد المختلفة العالية التي يمكن أن تحقق الخير للمجتمع الإنساني ، وتخرج به من الأوضاع التي تردى فيها» .

وإذا أردنا أن نقارب بين هذه التبرعات كلها بين فروضها وسننها بين ما تعودنا عليه وهو لازم في أعناقنا ، وهو : الزكاة ، وبين ما نبخل به أحيانا كثيرة ، وفي أموالنا حق للسائل والمحروم .

هذا النوع من التبرع وهو الوقف ، هو الذي عناه زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : لم نر خيرا للميت ولا للحي من هذه الحبس الموقوفة .

أما الميت فيجري أجرها عليه ، وأما الحي فتحبس عليه ، فلا توهب ولا تورث ، ولا يقدر على استهلاكها .

وبما أن هذا اللون من التبرع ، وهو الوقف يخالط وجوها كثيرا من البر ، اخترنا هذا الحديث النبوي الشريف الذي رواه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه ، وهو الذي يقول فيه : «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علما علمه ونشره ، وولدا صالحا تركه ، ومصحفا ورثه ومسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته» . هذا الحديث أخرجه ابن ماجه في مقدمته ، وأخرجه بلفظه وبسنده أيضا ابن خزيمة في «صحيحه» ، وذلك في باب : فضائل بناء السوق لأبناء السابلة ، وحفر الأنهار للمشارب .

الكلام على رجال الحديث :

وإذا كنا قد تعرفنا على نص الحديث ، وما ورد فيه من وجوه البر ، فلا بد لنا من كلمة عن رجاله : فما بين راوي الحديث وهو ابن ماجه في الحديث الأول ، وهو ابن خزيمة في الطريق الثاني إلى أبي هريرة رضي الله عنه ، خمسة رجال .

هؤلاء الرجال هم الذين يكونون سند الحديث ، هم : محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد الذهلي ، ومحمد بن وهب بن عطية ، ومرزوق بن أبي الهذيل الثقفي ، والزهري ، وأبو عبد الله الأغر .

وهذا السند قال فيه ابن المنذر : سند حسن ، وجاء في كتاب الزوائد : أنه سند غريب ، وذكروا أن مرزوق بن أبي الهذيل الثقفي ، مختلف فيه . وأنا أريد أن أشير إلى درجات هؤلاء الرواة .

ففي هذا السند عالمان شهيران ، لا نتردد في صحة آثارهما وما رواه في كتابيهما .

أما الأول فهو : محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد الذهلي ، الإمام الحافظ أبو عبد الله النيسابوري ؛ وهو يروي عن عبد الرحمن بن مهدي ، وعن بشر الزهراني ، وعن محمد بن بكر البرساني ، وعن محمد بن وهب بن عطية وعن خلق كثير ويروي عنه الجماعة كلها سوى مسلم ، وكذلك أبو صالح المصري ، وعبد الله النفيلى وسعيد بن أبي مريم وغيرهم . وقد ذكر النقاد عن هذا الإمام أقوالا كثيرة متعاضدة ، يؤكد بعضها بعضا .

فقال بعضهم : « ما أخرجت خراسان مثله ، فهو إمام ثقة ، كتب ودون الكثير » .

وقال الرازي : « هو إمام زمانه ، ثقة صدوق ، ثقة مأمون » .

وقال الخطيب : « هو أحد الأئمة العارفين والحفاظ المتقنين والثقات المأمونين . صنف حديث الزهري وجوده » .

وقال ابن خزيمة : « هو إمام أهل عصره بلا مدافع » .

والرجل الثاني الذي يليه في الرتبة ، ويتميز مثله بعلمه الواسع ، هو الزهري محمد بن مسلم بن شهاب الفقيه الحافظ المدني ، أحد الأئمة الأعلام ، وعالم الحجاز والشام .

ويلى هذين الرجلين في الدرجة والمكانة والرواية : محمد بن وهب بن عطية ، يروي عن الوليد بن مسلم وبقية ، وعن ضمرة بن ربيعة وغيرهم . وعنه يروي إبراهيم بن يعقوب ومحمد بن يحيى بن خالد الذهلي .

قال فيه أبو حاتم : « صالح الحديث » .

وقال الدارقطني : ثقة .

وقال ابن عدي : ليس به بأس .

وقال الوليد بن مسلم : « صالح الحديث » .

وذكره أحمد فنوه به وقال : « هو أحد الثلاثة » (في الحديث) من أصحاب الحديث : مروان ابن محمد ، والوليد بن مسلم ، وأبو مسهر .

وقال يعقوب بن سفيان : مضى الوليد على سنته محمودا عند أهل العلم متقنا صحيحا ، صحيح العلم .

وأما الثاني الذي يتصل به أو يوافقه في الدرجة ، ولا يختلف عنه من حيث الأمانة والثقة ، فهو : أبو عبد الله الأغر المدني ، مولى جهينة ، وأصله من أصبهان ، روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عن جميعهم ، وروى عنه بنوه ، والزهري ، وسعيد بن الأشج .

وقال النقاد : هو ثقة قليل الحديث .

وعده ابن حبان في « الثقات » .

وقال ابن عبد البر : وثقه الذهلي .

أما المختلف فيه ، والذي يكاد يعيب هذا السند ، فهو مرزوق بن أبي الهذيل الثقفي ، لكن هذا روى عن الزهري ، وروى عنه الوليد بن مسلم ، وذكره الرازي بكل فخر حين قال سمعت دحيما يقول : « هو صحيح الحديث » .

وقال ابن أبي حاتم : « صالح الحديث » .

وقال ابن أبي خيثمة : « ثقة » .

لكن ابن حبان قال : « ينفرد عن الزهري بالمناكير » .

وهنا يأتي الشك أو احتمال عدم الأخذ بمثل هذه الأحاديث لكن وجود محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد الذهلي الذي خرج أحاديث الزهري ، وصنف فيها كتابا وجود هذا الكتاب بما أنه تلقى هذا الحديث دل ذلك على صحته ؛ وأن هذا ليس من المناكير الذي تقدح في روايته .

وهذا الحديث الذي ذكرناه وهو موضوع البحث تتصل به أحاديث أخرى كثيرة ؛ لأن قتادة بن أنس رحمته الله روى حديثا عن رسول الله ﷺ أخرجه البزار وسمويه ، وهذا الحديث هو قول رسول الله ﷺ : « سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره : من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا ، أو غرس نخلا ، أو بنى مسجدا ، أو ورث مصحفا ، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته » .

وقوله : « يجري أجرهن للعبد بعد موته » ، يشير إلى أن من كان من هذا الصنف يجزئ بذلك عند وزن عمله ، ويبشر بذلك في قبره بعد موته ، ومن هذه الأحاديث أخذ ابن تيمية رحمته الله الأغراض التي يكون فيها الوقف ، وإن

كانت القائمة التي ذكرها ليست كاملة ؛ أي لم يستقص الجوانب كلها ، فذكر المدرسة والمسجد والخوانق والجوامع ، والمارستانات والأربطة ، والصدقة وعتق الأسرى من المسلمين الذين يقعون في أيدي الكفار .

تعريف الوقف :

لكن ما هو هذا الوقف الذي أصبحنا نجد آثاره قائمة في مجتمعاتنا من أقدم يوم إلى الآن ، والذي كان أو جاء عليه وقت بدأ فيه ينخلد ، ويبعد ويكاد يفقد؟

ما هو هذا الوقف؟ للوقف تعاريف كثيرة اخترت من بينها تعريف الإمام ابن عبد البر ، الذي جمع بين التعريف وذكر الشروط ، فقال :
هو أن يتصدق الإنسان المالك لأمره بما شاء من ريعه ونخله وكرمه وسائر عقاره لتجري غلات ذلك وخراجه ومنافعه في السبيل التي سبلها فيه ، مما يقرب إلى الله ﷻ ويكون الأصل موقوفا ، لا يباع ولا يوهب ولا يورث عنه أبدا ما بقي منه شيء .

وهذا التعريف بتصويره للحقيقة المرادة من الوقف ، وبذكره للشروط التي عهدتها الناس فيما وقفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وغيره على المسلمين ، هي التي أصبحت معتمدة عند أكثر الفقهاء .

ولا التفات إلى قول من قال بأن الوقف لا يصح ، وذلك هو الكلام الذي نسب إلى شريح القاضي ، والذي قال : « لا حبس عن فرائض الله » ، وهو حديث ، وقال : وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه أذن ببيع الحبس .

وتناول الفقهاء هذين الخبرين ، وتأول الكلام الذي جاء فيهما ، وليس هذا المكان الذي يتسع فيه المجال للحديث ، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى

جواب الإمام مالك رحمته الله عندما بلغه هذا الخبر، فقد جاءوا إلى الإمام مالك رحمته الله، وقالوا له: إن شريحا أنكر الحبس أو أنكر الوقف فقال: تكلم شريح ببلاده، ولم يرد المدينة فيرى آثار الأكابر من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم إلى اليوم، وما حبسوا من أموالهم لا يطعن فيه طاعن، وهذه صدقات النبي صلى الله عليه وسلم سبعة حوائط.

وينبغي للمرء أن لا يتكلم إلا فيما أحاط به خبرا، واعتقادي أن هذا الكلام من الإمام مالك هو فصل القول، ولا يحتاج إلى تعليق ولا إلى بيان.

أما عمل السابقين الأولين، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما أشار إليه الإمام مالك من تلك الأحباس أو الوقوف أو الوقافات التي وقعت في ذلك الزمن، فمنها ما تركه مخيريق اليهودي الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بكونه خير أحبار اليهود؛ لأنه لما تبين صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت غزة أحد، جاء إلى قومه من يهود المدينة، وقال لهم: هلم نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا أن يمتثلوا، فقال لهم: أنتم تعرفون صدق هذا الرسول وتعرفون أن الله قد بعثه، فأنا لست منكم، وذهب إلى الجبهة ليقاتل، ومات شهيدا، وقال قبل أن يدخل المعركة: إني أوصي بمالي لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء، فكانت هي تلك الحوائط السبعة التي سماها المؤرخون؛ وهي: الأعواف، والصفافية، والدلال، والميثب، وبرقة، وحسنى، ومشربة أم إبراهيم. ثم أضاف النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أوقافا كثيرة، فوقف الأرض التي أفاء الله عليه من أموال بني النضير، وكذلك الكتيبة، والوطيح، والسلام، والنصف من فذك، والثلث من وادي القرى.

وجاء الخلفاء الراشدون ، وتتابعوا على الخير ، وعلى سنن رسول الله ﷺ ، فكان لكل واحد منهم ما وقف على المسلمين في البقاع القريبة من المدينة ، وخارج المدينة في طريق الشام وغيرها .

وكان من الصحابة الذين عرفوا بالأوقاف الكثيرة : أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه ، وسعد بن عباد ، وخالد بن الوليد ، والزبير بن العوام ، ومعاذ بن جبل ، وسعد بن أبي وقاص .

وأسهمت الصحابيات رضي الله عنهن بأوقاف كثيرة منهن : عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكذا حفصة ، وأم سلمة ، وأم حبيبة ، وصفية ، والزهراء فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ ، وأسما بنت أبي بكر رضي الله عنها ، كل هؤلاء وكثير من الصحابة غيرهم وقف من ماله على المسلمين وعلى المحتاجين ، وفي وجوه البر المختلفة ، وكتب التاريخ شاهدة بذلك .

والفقهاء عندما نظروا في هذه الحركة العجيبة التي تكونت في المجتمع الإسلامي ، ولم تكن معروفة في الجاهلية ، قالوا ومن بين هؤلاء الفقهاء الإمام الشافعي : لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمته دارا ولا أرضا تبررا بتحسيسها .

وهنا ينبغي أن نقف عند كلمة «تبررا» أي قاصدا وجه البر ، وقاصدا كذلك الثواب من الله ، فإذا وقع شيء قبل ذلك في الجاهلية أو في غير البلاد الإسلامية ، وفي غير العهد الإسلامي فهو لا من أجل التبرر ، ولا من أجل ابتغاء ما عند الله ، ولكن من أجل المفاخرة ، وترك الأعمال التي تنطق بالشهامة والنجدة . . . إلى آخره .

وقال ابن رشد : وإنما فعلت الجاهلية ، أي من الصدقات أو الأعباس : البحرية ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، وهي التي أنكرها القرآن عليهم

وردها، فهي التي أذن رسول الله ﷺ بيعها، فالأحباس إذن سنة قائمة عمل بها الرسول ﷺ والمسلمون من بعده، ووقع عليها الإجماع.

في أي شيء يكون الوقف؟

والوقف يجري في أشياء كثيرة، يجري في: الرباع والدور والخانات والأراضي الزراعية والبساتين، كما يجري في المنقول المخصص لخدمة العقار، وفي الأسلحة، والكراع، والكتب والمصاحف، وكذلك المستغلات، والمؤسسات الإنتاجية، والأموال النقدية المستغلة في المضاربات.

ونحن عندما نتأمل هذا نشعر بأن الواقفين كانوا يبتغون من وراء ذلك وجه الله سبحانه وتعالى، وأنهم يطمحون في الثواب، وتلبي نفوسهم شوقها إلى الانتفاع بأعمالها في الدنيا والآخرة.

ولابد أن نذكر بأن الحضارة الإسلامية في القرون الأولى لم تقم إلا على أموال الوقف.

فالدولة لم تكن تبني المساجد كثيرا مثل ما بناها الأفراد، ولم تكن تبني المدارس، ولم تكن تنهض بالحياة الثقافية والعقلية، ولم تكن تفعل شيئا من ذلك؛ لأن النفقات قصرت بها عن ذلك، فكان المسلمون يتعاونون على تحقيق هذا الأثر الذي قامت به الحضارة الإسلامية.

ولذلك ذكروا من الأشياء التي تعتبر من الأحباس أو من الأوقاف: المسجد والكتاب والمدرسة، والمشافي أو البيمارستانات وكذل المكتبات.

وهنا في عجالة أقول: إن المسجد الذي وقفه المسلمون من عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم توارث عن المسجد الأول الذي بناه رسول الله ﷺ خير عمل بجانب العبادة.

أولاً : العبادة في المساجد .

ثانياً : الدعوة إلى الله ، فمقر الدعوة - المكان الذي كانت تنطلق فيه الدعوة - إنما هو المسجد ، وهؤلاء الدعاة هم الذين ميزهم الله بالفضل ، ورفع درجتهم وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

وبذلك فإن الدعوة الإسلامية انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها عن طريق هؤلاء الدعاة .

ثم الكتاب حيث يحفظ الأطفال القرآن ، ويتلقون التعليم الابتدائي ، أو ما يشبه التعليم الابتدائي .

ثم المسجد الجامع الذي توفر على الفكر الإسلامي ، وتحقيق الحضارة الإسلامية بتلقين علوم المقاصد ، وعلوم الوسائل ، وكان له دور كبير في تخريج الأجيال المتميزة من العلماء ، ومن الفقهاء ، ومن اللغويين ومن غيرهم ، كان ذلك في مسجد المدينة . أين جاء الناس بعد وفاة رسول الله فسمعوا بأن القوم اجتمعوا في محراب المسجد النبوي ؟ قالوا : ماذا يفعلون ؟ قالوا يتقاسمون ميراث رسول الله ، ظنوا أن هناك مالا يريدون الحصول عليه ، فتسارع الناس إلى المسجد ، وقالوا : أين هو ؟ قالوا : هو هذا الحديث الذي يرويه أصحاب رسول الله ﷺ عنه .

ثم مسجد البصرة ، مسجد الكوفة ، المسجد الأموي في الشام ، الفسطاط في مصر ، الأزهر في مصر ، الزيتونة في تونس ، القرويين في فاس ؛ كل هذه المساجد كانت الدعامة الأساسية لانطلاق العلوم الإسلامية وتركيزها ، وبنائها في مختلف الأجيال .

فكانت العناية من وراء الوقف إذن بالتنمية العقلية أو بالتنمية الفكرية ،
وبجانب هذا ، المدارس ؛ المدارس التي قال عنها سلطان بن علي : حين زار في
عصره الشام ، فوجد فيها عددا كبيرا من المدارس ، قال :

ومدارس لم تأت في مشكل إلا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمها أحد يكابد حيرة وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مغلها يستنقذ الأسرى ويغني العيلا
وأئمة تلقي الدروس وسادة تشفي النفوس وداءها قد أعضلا

ثم البيمارستانات التي كانت مقرا للعلاج ، وكذلك لتخريج الأطباء
وتعليمهم ، وإجراء التجارب والمخابر فيها .

وكذلك الناحية الاجتماعية فإن الفن المعماري بالنسبة للمساجد ،
وصناعة كسوة البيت الحرام ، والسجاد الذي انتشر في العالم باعتبار كونه
شيئا يتصل بالمسجد ، والقناديل والبخور وأنواع العطور ، والورق
والخطوط والتجليد والترجمة كل تلك الصناعات إنما كانت من العناية
بهذه المؤسسات العلمية والتي كانت بعد ذلك من الأوقاف .

وأثر الوقف أيضا في المجال العسكري ، وهنا نذكر الأربطة ، والتجهيزات
العسكرية ، وأدوات الجهاد .

وفي الحقل الاجتماعي حفر الآبار في الفلوات وإقامة المسالك والطرق ،
 وإنشاء السقايات ، وإقامة الجسور والقناطر ، ورعاية الأمهات ، والعناية بالبنين
والبنات ، والعناية بالعجزة ، إلى غير ذلك من أسباب الخير ووجوهه .

لكن الحركة العكسية التي جاءت تقاوم هذا الاتجاه ، وقد وجدت - بحمد الله - من يصرف هذه الأنظار الكثيرة التي كانت تريد أو تطمع في الحصول على تلك الأوقاف ، منهم : الناصر قلاوون والولاة وبرقوق أتابك ومحمد علي ، فإن هؤلاء وجدوا من العلماء من رد أقوالهم ، وابتعد بهم عن هذا المسلك .

هناك تنمية أخرى في هذا العصر والعالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه في نظر بقية الناس وفي نظر العالم كله هو من العالم الثالث ، وعندما نقول من العالم الثالث أي : من العالم المتخلف ؛ هذا التخلف سببه وجود ظواهر عشرة ، وقد ذكرها العلماء ونبهوا إليها ؛ فمقاومة أسباب التخلف والسعي إلى الخروج من هذه الأوضاع للانطلاق نحو التنمية والتقدم يكون بجهود الحكومات ، كما يكون بجهود أفراد الشعب ، مما يوقفون على هذه الأشياء حتى يتحقق من وراء ذلك الخير كله .

فالغاية من وراء البذل في هذه الأوقاف المطلوبة والصناديق المعدودة المشروعة هو محاربة الفقر والبطالة وتحقيق التنمية ، وإقامة المجتمع الذي يملك عناصر القوة الحضارية والاقتصادية والعسكرية اللازمة لتأمينه وحمايته ، ثم تحقيق التوازن النفسي لأفراد المجتمع وتوفير الإحساس بالسعادة والرضا وله سبيلان التمويل أولا ، والاستثمار ثانيا .

وأخاف أن يطول بي الحديث فلا أستطيع أن أنهي هذا الموضوع لأنه طويل جدا ؛ ولكنني أقول بأننا في هذا العصر ، قد وجدنا طرقا أخرى للتنمية غير كراء العمارات والأراضي ، وغير زراعة الحقول والبساتين ،

فهناك إجارة الأوقاف والاستبدال ، وهناك الحكر ، والإجارتان ، والإجارة الطويلة ، والاستصناع ، والمشاركة بين الوقف وبين الباني على أرضه ؛ هذه كلها من أسباب التنمية لأموال الوقف وتعميم الخير على الجهات المختلفة التي يحتاجها الناس .

* * *

المحاضرة التاسعة والستون

من التدبر في الآيات الكونية

أتحدث عن الآيات الكونية ، لأننا تعودنا النظر إلى هذه الآيات الكونية كما تعودنا قراءة القرآن مرات كثيرة ، لكن من غير أن ننفع بهذا أو نتأثر به أو يثير في نفوسنا شيئا من اليقين والثبات على الدين والإخلاص فيه لله ، ولذلك عندما يمر الإنسان بالآيات الكونية يجد نفسه مضطرا إلى الوقوف وقفات كثيرة عند كل ظاهرة من الظواهر ، وعند كل حقيقة من هذه الحقائق .

والموضوع واسع ودقيق ولكنها على كل حال إيماءات وإلماعات لهذه الأغراض :

وإذا المخاطب كان مثلك واعيا أغنى اختصار القول عن تطويله

الآيات كما ورد في كتب اللغة وفي الدراسات القرآنية هي جمع آية ، والآية في القرآن الكريم وفي المصطلح القرآني هي جزء من سورة أو لها وآخرها توقيفي ، توقيفا من رسول الله ﷺ بأن الآية تبدأ بكذا وتنتهي بكذا .

ولكن أطلق لفظ الآية على أشياء كثيرة في اللغة العربية ، فقد أطلق بإزاء العلامة ، والدليل ، والعبرة ، والصنع الجميل ، وفي ذلك ما نسمعه ونتداوله كل يوم من الشواهد التي تصحح هذه الاستعمالات وتؤكددها ، ولكن الآيات التي نريد الحديث فيها ليست الآيات المقروءة وحدها ، فالآيات المقروءة هي الوحي المنزل على نبينا ﷺ ، والذي تضمنه المصحف الشريف ، أما الآيات الأخرى فهي الآيات المنظورة لا المقروءة ، والآيات

المنظورة هي في الأصل كلمات التكوين ، أي قول الله تعالى للشيء : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧] ، هي كلمات الله التكوينية التي تلمس آثارها في الإبداعات الإلهية في هذا الكون .

وكم من إنسان يمر على الآيات القرآنية يتلوها ولا ينتفع بها ، وكم من إنسان يمر على الآيات الكونية ويقف أمامها ولا يستخلص من ذلك شيئاً ، وذلك للرتابة التي تكونت في النفوس ، ولأن الناس كأنهم صرفوا عن التأمل والتدبر في حين أن الله يأمر بذلك ويحث عليه ، فإن التدبر والتأمل يقتضيان النظر في الدلائل الوجودية المشاهدة كما يقتضيان النظر في الدلائل النظرية الفكرية .

وقد علمنا الإسلام في المنهج الاستدلالي الذي يكشف لنا به عن طريق المعرفة بأن المدركات الحسية التي تقع تحت الحس هي التي تنتقل بنا وتسمو إلى المدركات الذهنية والغيبية .

وبذلك ينتقل الباحث أو الناظر أو المتدبر أو المتأمل من الشيء المحسوس إلى الشيء المعقول ، ويكون له بعد ذلك الوصول إلى المعاني الغيبية وإلى الإقرار بالألوهية والوحدانية ، وماذا يراد من وراء هذه الدلالات إلا ترسيخ الإيمان في النفوس ، والاعتراف بهذا الإله القوي القادر القاهر العزيز الحكيم ، الذي أبدع صنعه في هذا العالم وجعلنا مع مشاهدتنا لهذه المعاني الكاملة الجمالية نفيد من تلك المخلوقات التي خلقها لنا .

فيضم سبحانه وتعالى إلى الاستدلال على عظمته جانباً من الامتنان بما أفاء علينا من خير ونعمة ، ولذلك مما يدل على الحرص ، حرص الله سبحانه وتعالى على هدايتنا ، وتوجيهنا أفضل توجيه ، أنه يقرن الآيات

القرآنية المتلوة التي تصف الآيات الكونية المشاهدة بقوله مرة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]، وثانية: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وأخرى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، إلى غير ذلك من الاستعمالات التي تدل على وجوب التدبر والنظر في هذا الكون تدبرا ونظرا يفضيان بصاحبهما إلى الإيمان الخالص، وإلى عبادة الله رب العالمين.

والآيات الكونية تطفح بها سور الذكر الحكيم، وهي كثيرة وكثيرة جدا، تستطيع أن تقف عندها في كل سورة، ولكنها أحيانا تأتي بهذا اللفظ: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ [الروم: ٢٠] وأخرى ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ [يس: ٣٣]، وأخرى يأتي عدد كبير من هذه الآيات الكونية في آية قرآنية واحدة، وذلك كقوله جل وعلا من سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهذا المعنى يتجدد في سور أخرى، فيقترن النظر المطلوب من المسلم في ذاته وفي نفسه، وفيما حوله من أرض وسماء، ليكون في كل بادرة تدبر منه منقادا لله سبحانه وتعالى بمراعاة جلاله وقدرته وعظمته في خلقه، ولذلك نجد قول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٢].

أما الآية التي تشير إلى هذه العلامات، وإلى هذا الخير العميم التي تقترب فيها الدلالة على القدرة الإلهية مع الدلالة على تسخير الكائنات لهذا الإنسان، لهذا

المخلوق، لهذا البشر الذي لا يقدر على شيء، فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وهذا امتنان عظيم يستوجب الشكر العميم، والحمد الكثير لله سبحانه وتعالى.

فجملة هذه المعاني التي قدمناها تتلخص إذن في خلق السموات والأرض، وفي خلق الشمس والقمر، وفي إيجاد هذا الكوكب الذي نعيش فوقه وعليه، والذي أعد للحياة إعدادا عجيبا، وكان مجهزا لاستقبال الحياة وحضانتها، ثم هذه الأرض بما فيها من نجاد، ووهاد، وأنهار، وبحار، وكل ذلك يشهد بعظمة الله وقدرته، ثم هذا الرزق المذخور في الأرض بكل أنواعه المختلفة لمن يعمر هذه الأرض من النبات ومن الحيوان ومن الإنسان، هذا يصلنا بحقيقة علمية أصبح الناس يلمسونها اليوم ويدركونها على وجهها.

ذلك أن علم الأحياء تولى النظر في كل المجالات التي تتصل بحياة الكون، وحياة المخلوقات التي تعيش في هذا الكون، وتعددت علوم الأحياء فبلغت أكثر من عشرين علما، وظهر فيها المتخصصون، وبظهورهم وإمعانهم في الدرس وإقبالهم على البحث، استطاعوا أن يكشفوا بعض أسرار الخالقية والقدرة الإلهية، والإشارة إلى النواميس التي تحكم هذا العالم وتسييره وتتصرف فيه.

ونحن إذا كنا قد أشرنا بهذه الكلمة المختصرة إلى قضية الآيات الكونية فإن من الآيات الكونية النظر في النفس، النظر في ذات الإنسان، ولذلك فإن قوله تعالى الذي انطلقنا منه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] يشير إلى النظر في ذات الإنسان.

فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي تجد به صنعا بديع الحكم

هذا النظر إلى الذات ، ذهب المفسرون القدماء إلى تقديم صور له هي على كل حال ، وإن كانت جيدة وصادقة وصحيحة إلا أنها تتماشى مع ذلك العصر ، وتفسر هذه الحقيقة بمقتضى المعارف المنتشرة في ذلك الوقت ، فنجد الباحثين والناظرين في النفس أي في الإنسان وذاته ، ينطلقون من قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ويدعوهم إلى المضي قدما في هذا البحث .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] وأين التراب من البشر؟! وأين هذا الخلق البديع من الطين؟ ذلك لأن القدرة الإلهية صنعت هذا الإنسان من طين أو من تراب ، ثم نفخت فيه الروح فكان بعد ذلك خلقا آخر ، وكان قادرا على الإتيان بأشياء عجيبة لا يستطيعها غيره من المخلوقات ، ونحن عندما نعود إلى كلام المفسرين نجدهم ينظرون إلى الإنسان نظرتين :

النظرة الأولى : إلى الجسم الإنساني والهيكل الإنساني .

والنظرة الثانية : إلى العقل والمواهب الذهنية التي رزقها الإنسان .

أما الجسم فقد كانوا يشيرون إلى ما يعتوره من أحوال وأعراض ، من صحة ومرض ، من شباب وشيخوخة ، من قوة وضعف ، من حياة وموت .

فالإنسان تعتوره هذه الأشياء كلها ، ولذلك إذا ظهرت القوة بين يديه أو أحس بنموها وقدرته على الاستفادة منها حمد الله ، وإن وجد الآخر استغفر لذنبه وآب إلى ربه .

فإذا مضينا مع المفسرين القدماء وجدنا بعضهم يقول : «النظر في ذات الإنسان يكفي فيه أن يدرك المسالك التي خصه الله بها للطعام والشراب دخولا وخروجاً»، ويذهب آخرون إلى أن التركيب الجسماني للإنسان يدعو إلى الاعتبار، ويستوقف الناظر لاستخلاص الحكمة، والاعتراف بالعجز أمام الإله القوي القادر، هذا التركيب الجسماني يحتوي أولاً على الأجهزة، الأجهزة الموجودة في أجسادنا، جهاز التنفس، الجهاز الهضمي، الأجهزة الكثيرة الأخرى، ثم بجانبها الأعضاء المختلفة التي تقوم حياة الجسم عليها، لأن تلك الأعضاء تتولى وظائف معينة محددة لها لا تتخطاها، وهي تقوم بذلك على أساس تعاملي تقتضيه الحكمة في تصريف هذه الأمور بين الأعضاء كلها وقيامها بوظائفها، ونجد في آخر الأمر وقفة من علمائنا المتقدمين - رحمهم الله - عندما يقرءون قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون : ١٢-١٤] .

هذه الآية الشريفة تنتقل بنا من طور إلى طور في تكوين الإنسان ومروره بمراحل الخلق من لدن كونه نطفة توضع في رحم المرأة في قرار مكين، إلى أن يولد ويصبح إنساناً له مواهب وقدرات، وله معرفة وإدراك، وهو الذي لا يوجد عند غيره من المخلوقات .

هذا المعنى هو الذي كتب فيه بالأخص الأطباء، لأنهم عرفوا هذه الحقائق عن تجربة واختبار، ثم عرفه العلماء، لأن الدين القويم جاء ببيان ذلك في قرآنه، أي في قرآن ربنا سبحانه وتعالى وفي سنة نبينا ﷺ إذ صورت لنا هذه المراحل كلها، ولكننا نجد بجانب هذه الآية آية أخرى

في سورة التين ، هي التي يقول فيها سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ليس هو المراحل أو الأطوار التي تمر بها الخالقية للفرد الإنساني ، بل هي وصف لما ينتج عن تلك الخالقية ، خلقه في أحسن تقويم ، بمعنى خلقه معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ، متزن الجسم ، وضع رأسه إلى فوق ، ووضع في هذا الرأس أو أودع هذا الرأس الدماغ أو المخ الذي يستطيع الإنسان أن يسيطر به على حركات الجسم ، وعلى شبكة الأعصاب المنتشرة في جميع أجزاء الجسم .

هذه المعاني المدهشة المذهلة التي عندما نتأملها نقدر الله سبحانه وتعالى حق قدره ، ونخضع له ساجدين ، معترفين بوحدانيته وبقدرته ، تزيدنا رسوخا عندما تنتقل إلى الجزء الأخير من الآية المتعلقة بأطوار الخلق ، وذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

ما هو هذا الجانب الثاني؟ هو الجانب النفساني أو الجانب المتعلق بالمراكز ذات القوة في الإنسان التي يتولى بها النظر والتدبر والفصل بين الخبيث والطيب ، والمصلحة والمفسدة ، ذلك هو العقل ، فإن العقل نور من نور الله قذفه في الإنسان ليتمكن به من الوصول إلى غاياته ، وليكون مستخلفا في الأرض بحق ، لأنه لا يمكن أن يكون مستخلفا وقائما بوظيفة العمارة في الأرض إلا إذا كان عقله سديدا ومداركه صحيحة ، وليس هذا فقط ، فإن الله وهب الإنسان فطرة ، وتلك الفطرة هي السر المكنون الذي جبل عليه الإنسان ، وهي ما صدع به قول الله تعالى : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم : ٣٠] .

الروح:

ثم تأتي الروح ، ونحن لا نريد أن نعرف بالروح ولا أن نحددها ، فقد سئل النبي ﷺ فقال : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ولكن العلماء حاولوا تصويرها بالوصف ، ما هي هذه الروح ؟ يقول ابن قيم الجوزية : الروح هي الجسم النوراني الخفيف المتحرك في جوهر الأعضاء ، يسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون .

ونحن عندما نتأمل هذه العناصر الثلاثة :

أولا : العقل .

ثانيا : الفطرة .

ثالثا : الروح .

ندرك أن نفخ الروح في ابن آدم ، أو النفخة الإلهية التي طورت الإنسان وجعلته لا يشابهه ، وليس هو كسائر المخلوقات ، بل هو متميز عليها ومتصرف فيها ، وقادر على إيجاد ما لا تستطيع تلك المخلوقات الأخرى الوصول إليه ، ذلك كله من تلك النفخة ، نفخة الروح في الذات الإنسانية .

وهنا نقف عند أمرين اثنين نعتبرهما أدوات للتدبر ، ووسائل للتفكير والإمعان ، وطريقا للمعرفة ، ذلك أن الله أكرمنا بآلات نستغلها للوصول إلى الحق ، وذلك بما يكون عليه العقل من صفاء ، وبما تكون عليه حالة الإنسان من معرفة وعلم ولذلك كان علماءنا في صدر الإسلام يتسارعون إلى النظر في الحكمة ودراستها ، وفي العلم الطبيعي وفي وظائف الأعضاء ، وفي التشريح ، وفي الجراحة ، وفي الطب ، يشهد لذلك ما قام به العلماء المتقدمون في هذه الفنون مثل الرازي ، وابن سينا ، وابن النفيس ، والزهرائي ، وابن زهر ، وابن الهيثم .

فكل واحد من هؤلاء جعل من ميدانه حقل تجارب ، ومضى في اختبارات كثيرة ، وأفاد العالم كله شرقيه وغربيه بما أنتجته عقولهم ، ولا أقول : إنهم لم يأخذوا عن المتقدمين كاليونان ، ولكني أقول أضافوا إلى ذلك تجاربهم الشخصية واختباراتهم العلمية ، ووضعوا أشياء لم تكن معروفة ، فالدورة الدموية لم تكن معروفة بالوجه الذي تعرف به الآن ، وكذلك وظائف تشريح الأعضاء ما كان لأحد أن يقدم على عمل الجراحة إلا إذا كان ملماً بوظائف الأعضاء وبعلم التشريح ، هذه الأشياء تضعنا أمام تقدير متجدد ، ونظر متواصل في عجب خلق الله وصنعه البديع ، ولعل التغلغل في فهم هذه الظواهر وهذه الحقائق العلمية ، وتفسير أسرار الخالقية ، واستكناه الحقائق العلمية - هو الذي وعد الله به الناس ، وعد العباد من يوم خلقهم إلى الآن وعدا لم ينقطع ، يتجدد كل يوم ويتواصل ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] سنريهم ، لم يقل : أريهم ، قال : سنريهم أي مستقبلا ، ونحن نرى أو ندرك بأن هذه الحقائق العلمية التي توصل إليها العلماء ، هي التي أفادت أو كشفت أو رفعت شيئا من الحجب عن الحقائق الذاتية للوجود وللأكوان وهي تقع بقدر مرة بعد مرة ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

فنحن إذا تأملنا ذلك وجدنا العلم في تقدمه ، والمضي في البحث فيه قد كشف عن شيء من خفايا الكون لم يكن معروفا عند السابقين ، وكشف عن آيات وحقائق وظواهر ذاتية للإنسان لم تكن في متناول العلماء المتقدمين ، ونجد بعد ذلك التصرف البديع الإلهي ، ولا ينبغي أن نقول لم كان هذا عند غير المسلمين؟ أو كان عند غير المسلمين أكثر منه عند المسلمين؟

لأن الله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء ، ولأنه سبحانه وتعالى يلهم الناس أو عباده المعرفة ويسوقهم إليها بإجراء التجارب والاختبارات ، ويمنحهم سبحانه وتعالى جل ذكره من علمه بقدر ، على حسب ما يحتاجون إليه ، ولذلك تجد الحركة العلمية متواصلة والأطوار متوالية ، كلما نظر الإنسان في العلم بين ماضيه وحاضره أو مستقبله ، وجد تفاوتاً كبيراً وتطوراً عجبياً .

فنحن إذن نرى ونعتقد أن التسليح بالعقل والعلم هو من كرم الله سبحانه وتعالى علينا ، وهو يكشف هذه الأشياء للإنسان مسلماً أو غير مسلم ، فإن كان مؤمناً انشرح صدره وقوي إيمانه وازداد يقيناً مع يقينه ، وإن كان ضالاً قد ران الله على قلبه ، فإن ذلك لا ينفعه ، ولكنه لو تأمل وتدبر هذه الحقائق وترك المادية جانباً ، ونظر إلى خالقه لاستطاع أن يكون مؤمناً قوياً وحكيماً صادقاً ، والدليل على هذا التطور العلمي الذي هو من القدرات الإلهية ، وما أمد الله به الإنسان من معرفة ومن طرق يستطيع بها أن يحقق ما شاء وما يشاء .

هذه الثورة الكبيرة التي نشاهدها اليوم ، الثورة العلمية المذهلة ، وهذه الخدمات الجليلة لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات ، وتدارك هذه الأحوال أو هذه الأجساد أو هذه المخلوقات بشيء من الرعاية والعناية للأخذ بها إلى سبيل الخير وإبعادها عن الشر ، وحجبها عن كل المضار .

نجد كذلك نتائج باهرة تطلع بها علينا الدراسات والبحوث ، ونعيش بها ونحيا معها ، وأصبح ذكرنا يتردد دائماً مقترناً بهذه المسائل التي نتدبرها على طريقة العلم ، فنكون بذلك أقرب إلى تصور معنى الذات الإنسانية والنظر فيها نظراً عميقاً .

هذه الثورة العلمية أكسبت أو أمدت الإنسان بطاقات عجيبة ، فامتدت يد الإنسان إلى التقنية الحيوية ، وكذلك إلى التصرف التقني في الجينات ، وإلى إدخال سلاسل من المادة الوراثية في الخلايا ، وإلى اكتساب الإنسان إمكانية التغيير والتصرف التقني في الموروثات ، وهذا أمر عجيب لم نكن نسمع به ولا نعلمه من قبل ، وإنما هي إرهاصات العلم ومقدماته التي تبشر بالوصول إلى هذه الحقائق ، ثم إلى القيام بتجارب عديدة في هذا السياق ، والدليل على ذلك أن الناس اليوم لا يوجد من بينهم من لا يعرف أن الدم ينقل من إنسان إلى إنسان ، فنقل الدم كان خرافة ، كان وهما ، لكنه أصبح حقيقة يحتاج إليها كل إنسان ، والمصحات والمستشفيات كلها مجهزة بأقسام لنقل الدم ورعايته بالشروط المطلوبة علميا .

ثم طلع علينا هذا العصر ، وفي هذه السنين الأخيرة من عشرين عاما تقريبا علم زراعة الأعضاء ، وزراعة الأعضاء لفائدة الإنسان ، ولا يستطيعها إلا من كان عليما خبيرا بتشريح الجسد الإنساني ، وعلم التشريح هو من النظر العميق في ذات الإنسان ، لأنه يتصور بذلك الجراحة أو اليد أو الرجل أو العين التي يريد أن يزرعها ، فيتخذ لذلك كل الاحتياطات التي تقيه الوقوع في المخاطر ، وتحقق له النجاح الباهر فيما هو مقبل عليه ، وكذلك أطفال الأنابيب التي شغلت الناس دهرا طويلا مقاومة للعقم واختيارا للولد ، وكذلك أنواع الاستئصال والاستنساخ في النبات والحيوان ، ثم كما ظهر في صحيفة اليوم ، محاولة القيام بالاستنساخ البشري ، هذه حقائق علمية ، لكن نحن عندما نقول حقائق علمية ، لانسلم بها تسليما مطلقا ، لماذا؟ لأنها قد تكون هذه الحقائق مفضية إلى حالات تتناقض مع ميزان الشرع ، فالله سبحانه وتعالى قد هدانا السبيل

وأرانا الطريق القويم ، وعلمنا ما لم نكن نعلم ، لنضع الأشياء في أمكتها ، ولا نبتعد بها عن تلك الأماكن أو المواقع ، فالشرع الكريم يدفع كل ضار عن الإنسان ويجلب إليه كل نافع ، فإذا كانت العملية التي يريد الطبيب أو يريد المطبب القيام بها والحصول عليها تضر بالإنسان وتختلف مع الدين وأصول الشريعة ، أو تختلف مع القيم والمبادئ الإنسانية ، فهي مرفوضة ، ولذلك وجدنا المجامع الفقهية تقف إزاء كل قضية من هذه القضايا لتفتي الناس ، لا أقول لتفتي الناس ولكن أقول : لتحرر الجانب الصحيح المعقول المقبول شرعا ، وتدرأ عنها بقية الجوانب محذرة من الوقوع في أشياء كثيرة يأبهاها الشرع كاختلاط الأنساب .

ونحن نعلم أن الكليات الخمس من بينها حفظ الأنساب ، وكذلك قضية حفظ الأموال ، وحفظ العقل ، هذه كلها داخلة في الكليات الخمس التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بالالتفات إليها وتقديرها .

ونحن عندما نمضي في هذا قد نستحضر من بعض السامعين أو من بعض القراء ، من أين أتيت بهذا التفسير للنظر في الذات الإنسانية؟ أليس هذا بعدا عن الحقائق التي وردت كما ذكرنا عند المفسرين القدامى؟ لا أقول هي بعيدة ، ولكن أقول إن الناس يفسرون القرآن في كل عصر بما تصل إليه عقولهم ، ويتبادر إلى أذهانهم على شرط أن تكون تلك التفسيرات يقبلها اللفظ أو يقتضيها اللفظ عند حملها عليه ، فإن كانت محمولة على اللفظ لا تتجافى عنه ، فتلك الأشياء قد أَرادها الله كما قال أئمة التفسير ، والمفسرون يختلفون درجات ، والمستفيدون من التفسير يختلفون درجات ، فليست النصوص القرآنية في فهمها على سواء بين جميع الناس ، فالنصوص القرآنية في تصوير الآيات الكونية تتسع لأشياء كثيرة ، فهي قادرة على

إعطاء رصيد معين لكل نفس ، ولكل عقل ، ولكل إدراك بقدر ما يتقبله الدارس منها وما يطيق ، وبقدر ارتقاء معارفه واتساع مداركه ، وكثرة تجاربه ، وبذلك تختلف التفسير ويتوصل إلى إدراك خفايا المعاني ، ولذلك قال تعالى في كتابه : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فإن هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ، والذي نستطيع أن نستمد منه كل ما يعيننا ويهمننا ونريده لحياتنا وآخرانا ، ويكون طريقا إلى زيادة الوثوق بالإيمان والاتصال بالله اتصالا غير مقطوع ، والاعتقاد الكامل في ألوهيته ووحدانيته ، إنما قامت هذه النظرة للذات الإنسانية والنظرة في الأكوان من حولنا من أجل تحقيق هذه الأغراض .



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المحاضرة التاسعة والأربعون	٧
القرآن روح الكون ومعراج التعرف إلى الله	٧
خطاب القرآن	٧
القرآن كلام الله	٨
القضية الأولى : كونية القرآن الكريم	٩
القضية الثانية : القرآن الكريم معراج التعرف إلى الله جلّ وعلا	١٣
الخلق	١٦
القرآن الكريم شبكة التعرف الإنساني إلى الله	١٦
المحاضرة الخمسون	٢١
شهر رمضان وأمة الإسلام	٢١
نتناول هذا المحاضرة من زوايا ثلاث	٢١
معنى الشهر	٢١
شهر القرآن	٢٣
أمة الإسلام غير منغلقة	٢٧

٢٧.....	أمة الإسلام ليست بأمة عزلة ولا رهبانية
٢٨.....	أمة الإسلام أمة غنى
٢٩.....	الإسلام يدعو للنظافة
٢٩.....	تكریم المرأة في الإسلام
٣٥.....	المحاضرة الحادية والخمسون
٣٥.....	واقع المسلمين اليوم
٣٦.....	حول معاني ألفاظ الحديث
٣٧.....	ما يهدف إليه الحديث
٣٧.....	ظهور عوامل ضعف الأمة
٣٧.....	الاختلاف
٣٨.....	العامل الثاني : وهو التنازع والتناحر والفتن
٣٩.....	عدم الثقة بين الأمة الواحدة
٤٠.....	مقومات الأمة المادية
٤٠.....	أعداء الأمة
٤١.....	واجب المسلمين نحو أمتهن حتى تصبح أمة قوية
٤٣.....	المحاضرة الثانية والخمسون
٤٣.....	شرف العبودية
٤٤.....	معنى العبودية في القرآن

- العبودية أعلى درجات العبد إلى الله ٤٦
- الانتماء للدين ٤٩
- معنى الإيمان ٥١
- علامات وسمات المؤمنين ٥١
- معنى التقوى ٥٣
- المحاضرة الثالثة والخمسون ٥٧
- اللغة العربية هي لغتنا الإسلامية ولغتنا القومية ٥٧
- تعهد الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم ٥٧
- نزول القرآن بلغة العرب تشریف لهم ٥٩
- دعوة الأمة إلى تبليغ رسالته للبشرية ٦٠
- رفض الاستعمار قلباً وقالاً ٦١
- أمثلة على ضرورة التمسك باللغة العربية في كل زمان ومكان ٦١
- الحج إحدئ وسائل انتشار اللغة العربية ٦٣
- اللغة العربية محفوظة بحفظ القرآن الكريم ٦٤
- الاتجاه لتعلم اللغات الأجنبية بقدر الحاجة والضرورة ٦٧
- المحاضرة الرابعة والخمسون ٦٩
- منهج الدعوة إلى الله ٦٩
- رسالة الإسلام هي رسالة الإنسانية ٦٩

٧٠.....	الدعوة إلى الله تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة
٧٣.....	ماذا حققت الدعوة؟
٧٣.....	معنى كلمة السبيل
٧٤.....	إطلاق كلمة السبيل في القرآن
٧٥.....	إضافة السبيل إلى الله ﷻ
٧٥.....	معنى كلمة الرب
٧٦.....	إضافة كلمة رب إلى الضمير العائد على النبي ﷺ تشريف له
٧٧.....	الإنسان مكون من مادة وروح
٧٨.....	فضائل قوى الإنسان ثلاثة
٨٠.....	ماذا يُراد بالحكمة عند الماتريدة والأشاعرة؟
٨١.....	نقد نظريتي الماتدية والأشاعرة
٨٦.....	الموعظة الحسنة
٨٧.....	المحاضرة الخامسة والخمسون
٨٧.....	مع معجزة المعجزات
٨٧.....	معنى المعجزة
٨٨.....	آيات التحدي
٨٩.....	إعجاز القرآن شامل كل العصور
٩٣.....	الحذف من أساليب العرب

- ٩٤..... فضل القرآن على لغة العرب
- ٩٩..... تحول العالم بعد نزول القرآن
- ١٠٠..... الإعجاز العلمي في القرآن
- ١٠١..... صلّة الدين بالعلم
- ١٠٧..... المحاضرة السادسة والخمسون
- ١٠٧..... من وصايا الآباء للأبناء
- ١٠٨..... الوصية بإخلاص العبادة لله ﷻ
- ١٠٨..... أكثر العلماء على أن لقمان ليس نبياً وإنما هو حكيم
- ١٠٩..... معنى كلمتي الحكمة والشكر
- ١١٠..... أولى وصايا لقمان لابنه وجوب إخلاص العبادة لله وحده
- ١١٠..... التحذير من الشرك بالله
- ١١١..... الوصية الثانية : الأمر بالإحسان إلى الوالدين
- ١١٣..... الوصية الثالثة : مراقبة الله في القول والفعل
- ١١٤..... الوصية الرابعة : المحافظة على الصلاة
- ١١٥..... الوصية الخامسة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١١٧..... الوصية السادسة : الصبر بجميع أنواعه
- ١١٨..... الوصية السابعة : التواضع ولين الجانب
- ١٢١..... المحاضرة السابعة والخمسون

- ولكل وجهة هو موليها ١٢١
- التنافس في الخيرات محمود ١٢١
- الله خالق كل شيء ١٢١
- البلاء في الخير والشر ١٢٣
- الابتلاء للاختيار الأحسن في العمل ١٢٣
- المسلم يعمل ليصل إلى السمو والرفعة ١٢٥
- الأخذ بالأحسن مبدأ إسلامي ١٢٦
- من أنواع السباق : العلم والمال والدنيا والآخرة ١٢٦
- التحذير من التخلف عن السباق وعندنا الإمكانيات والعقل ١٢٨
- كن ذا عزيمة وجد ١٢٨
- السباق يكون بالقول والفعل ١٢٩
- الخير لا يأتي إلا بخير ١٢٩
- مع السباقين إلى الخيرات ١٣١
- مقارن بين المؤمن والمنافق ١٣٣
- أمثلة لأسلوب الدعاية في القرآن الكريم ١٣٤
- حث الرسول ﷺ على السباق إلى الخيرات ١٣٧
- تسابق أبي بكر وعمر إلى فعل الخيرات ١٣٩
- لا تلتفت إلى جدال المشطين وسابق إلى الخيرات ١٤٠

- ١٤٢..... محاولة اليهود لفتنة النبي ﷺ
- ١٤٤..... المسارعة إلى العمل الذي يصل بك إلى مغفرة الله
- ١٤٧..... اغتنم شهر رمضان شهر السباق إلى الخيرات
- ١٤٩..... المحاضرة الثامنة والخمسون
- ١٤٩..... من مظاهر رفع الحرج عن الأمة
- ١٥١..... شرح مفردات الحديث
- ١٥٤..... المعنى العام للحديث
- ١٥٤..... شواهد لمعنى الحديث
- ١٥٥... أقوال العلماء في آية ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ...﴾
- ١٥٨.. التحدث باللسان فيما هو من الأفعال يترتب عليه الثواب والعقاب
- ١٥٩..... كتابة السيئة المتروكة حسنة
- ١٦١..... مناقشة بعض حجج من يقول بالمؤاخذه على العزم المصمم
- ١٦٥..... ما يستفاد من الحديث
- ١٦٧..... المحاضرة التاسعة والخمسون
- ١٦٧..... الله لا إله إلا هو الحي القيوم
- ١٦٧..... من العلوم المذكورة في القرآن
- ١٦٩..... معرفة الله
- ١٧٤..... سبب فضل آية الكرسي

- أنواع التوحيد ١٧٥
- معنى الحي ١٧٩
- معنى القيوم ١٧٩
- معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ١٨١
- معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ١٨٤
- معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ١٨٦
- المحاضرة الستون ١٨٧
- العلماء الربانيون ١٨٧
- الاعتصام بالكتاب والسنة ١٨٨
- القرآن والسنة تضمنا دعائم الإسلام ١٨٩
- الدين الإسلامي متجدد ١٩٢
- أدلة تجديد الدين : ١٩٢
- الأسباب الداعية للتجديد ١٩٤
- ماهية التجديد ١٩٥
- طرق العلاج ١٩٦
- المجددون : ١٩٦
- مجالات التجديد ١٩٧
- من هم العلماء الربانيون ١٩٨

- النصف الأول : العلماء ٢٠٠
- الصنف الثاني : المجاهدون ٢٠٢
- المحاضرة الحادية والستون ٢٠٣
- الإسلام والأمم بقاؤها وزوالها رقيها وانحطاطها ٢٠٣
- المصلحون ٢٠٤
- إباحة الطيبات ٢٠٦
- تكريم الله للإنسان ٢٠٧
- ما فرضه الله وشرعه لا يعوق تقدم وازدهار الحياة بل ينميها ٢٠٨
- الأمة الحققة تحيا بدينها ظاهراً وباطناً ٢١٢
- سر الإسلام ومعالمه ٢١٤
- تكوين الفرد ٢١٥
- تكوين المجتمع ٢١٧
- العز والسعادة في اتباع شرع الله وتعاليمه ٢١٧
- الشورى ٢١٨
- إسناد الأمور إلى أهلها ٢٢٠
- الكفاءة هي المعول الرئيسي في اختيار القيادات ٢٢١
- نبذ الإسلام للفردية ٢٢٤
- كيف نعود لمجدنا؟ ٢٢٥

٢٢٦.....	سبب هلاك الأمم
٢٣١.....	المحاضرة الثانية والستون
٢٣١.....	الخصائص المميزة لنظام القضاء في الإسلام
٢٣٢.....	سيادة القانون
٢٣٣.....	ضرورة القضاء
٢٣٤.....	تنظيم حدود اختصاصات القضاة
٢٣٤.....	الميزة الأولى
٢٣٧.....	التفريق بين الجانب القضائي والجانب الديني
٢٣٨.....	البيئة
٢٣٩.....	الميزة الثانية
٢٤٠.....	وثيقة عمر رحمته الله في القضاء
٢٤٢.....	الميزة الثالثة
٢٤٣.....	الميزة الرابعة
٢٤٤.....	الميزة الخامسة
٢٤٥.....	الميزة السادسة
٢٤٦.....	الميزة السابعة
٢٤٩.....	المحاضرة الثالثة والستون
٢٤٩.....	فضائل الصلاة على رسول الله ﷺ ودلالاتها على عظيم مكانة نبينا

- ٢٤٩..... محبة الرسول من فروض الدين وواجباته
- ٢٥٨..... وجوب الصلاة على النبي ﷺ
- ٢٦٤..... ما ورد من السنة في فضل الصلاة على الرسول
- ٢٦٥..... فضل الصلاة على الرسول في يوم الجمعة
- ٢٦٧..... المحاضرة الرابعة والستون
- ٢٦٧..... المحافظة على البيئة الطبيعية قانونا وعملا
- ٢٦٧..... ١- تأملات في الكون إدراك لبنيته
- ٢٦٨..... كَيْفَ الله الطبيعة لتلائم حياة الإنسان
- ٢٧٠..... على ماذا نعيش؟
- ٢٧٣..... ٢- التوازن في الأرض يكون بيئتها الطبيعية
- ٢٧٩..... ٣- استنزاف الإنسان لموارد الطبيعة استبدال لصدقتها بالعداء
- ٢٨٣..... ٤- الشريعة الإسلامية نظرة شاملة للبيئة الطبيعية
- ٢٨٦..... ٥- القوانين البيئية وسيكولوجية الكوارث
- ٢٨٩..... المحاضرة الخامسة والستون
- ٢٨٩..... الاجتهاد ودوره في مستجدات العصور بتحكيم شرع الله
- ٢٩٠..... لا حكم إلا لله
- ٢٩٢..... دور الاجتهاد في قضايا الدين
- ٢٩٨..... ما يجب توافره في المجتهد

٣٠٠.....	حكاية
٣٠١.....	تجزؤ الاجتهاد
٣٠٥.....	مسألة- زرع الأعضاء
٣٠٥.....	ومسألة- التأمينات
٣٠٦.....	رؤية الهلال
٣٠٦.....	رؤية الهلال بم تصح؟
٣٠٦.....	مسألة رمي الجمرات :
٣٠٧.....	رائد الفضاء وأحكامه
٣٠٩.....	المحاضرة السادسة والستون
٣٠٩.....	الإسلام دين الوحدة والتيسير لا دين الفرقة والتعسير
٣١٤.....	الأمر بالتيسير
٣٢٠.....	الابتعاد عن التنفير
٣٢٣.....	معنى التطاوع
٣٢٥.....	المحاضرة السابعة والستون
٣٢٥.....	شؤم الخلاف
٣٢٩.....	المسلك الأول
٣٣١.....	المسلك الثاني
٣٣٣.....	سبب ورود الحديث
٣٣٦.....	ظاهرة حب الاستفسار والسؤال

- ٣٤٣..... المحاضرة الثامنة والستون
- ٣٤٣..... الوقف والتنمية
- ٣٤٥..... الدعوة للإتقان من القرآن
- ٣٤٥..... الدعوة للإتقان من السنة
- ٣٤٧..... الكلام على رجال الحديث
- ٣٥١..... تعريف الوقف
- ٣٥٤..... في أي شيء يكون الوقف؟
- ٣٥٩..... المحاضرة التاسعة والستون
- ٣٥٩..... من التدبر في الآيات الكونية
- ٣٦٦..... الروح
- ٣٧٢..... فهرس الموضوعات

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء السادس

المحاضرة السبعون

مقومات العبادة وفوائد العبودية في الشريعة الإسلامية

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وبعد، يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا مما يدل على أن الإنسان من أرقى الكائنات وأكرمها على الله - إن لم يكن أرقاها وأكرمها على الإطلاق - وذلك لما خصه الله به من جليل المواهب وفائق القدرات. ومن ثم فإنه ليس من المعقول في شيء أن يكون الله تعالى قد أوجده في هذه الحياة لمجرد الإيجاد والإفناء... بل لابد وأن يكون قد أوجده لأداء مهمة سامية، عليه أن يحرص على أدائها خلال حياته بكل جد وشعور بالمسؤولية، إذ بمقدار حرصه على أدائها تكون تزكيتة لنفسه، ومساهمة في إنماء الحياة من حولها، وتحقيقه لإنسانيته، ثم استحقاقه لما يناله من جزاء في دنياه وآخرته... وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وإن المهمة التي أوجد من أجلها الإنسان في هذه الحياة من الوجهة الدينية هي تخصيص الله تعالى وحده بالعبودية، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وجاء في حديث قدسي: «عبادي ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة. ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة، ولا لدفع مضرة، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلا، وتذكروني كثيرا، وتسبحوني بكرة وأصيلا»^(١).

ولما كانت العبادة والعبودية بتلك المثابة من الأهمية أذكر مقوماتها الأساسية وفوائدها الجليلة في الشريعة الإسلامية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

ويدور الكلام حول محاور ثلاثة:

أولاً: تفسير الآيات منطلق الموضوع.

ثانياً: مقومات العبادة في الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: فوائد العبودية في الشريعة الإسلامية.

المحور الأول:

أقول فيه: إن الآيات القرآنية التي جعلتها منطلقاً لهذا الموضوع تمثل الآيات السادسة والسابعة والثامنة بعد الخمسين من سورة الذاريات، التي تحتل الرتبة الواحدة والخمسين من ترتيب المصحف الشريف، والتي تتكون من ستين آية، كلها مكية عند جميع المفسرين.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/٤٦٩) بنحوه عن الربيع بن أنس قوله.

ولما كانت السورة مكية فإنها تقوم كمثيلاتها على تشييد دعائم الإيمان والعقيدة .

ومن ثم نجدها تبتدئ بالحديث عن الرياح الذاريات للغبار ، والمسيرة للمراكب في البحار ، وعن السحب الحاملة لمياه الأمطار ، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد القهار ، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون المخلوقات وفق إرادة مقدر الأقدار ، حيث يقسم الله سبحانه بهذه الأمور الأربعة على حتمية يوم المعاد ، ما يجري فيه من حساب وجزاء ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۖ فَالْحُمُلُتِ وِقْرًا ۖ فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا ۖ فَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا ۖ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الْدِّينَ لَوَاقِعٌ ۖ ﴾ [الذاريات : ١-٦] .

وبعد الحديث عن جزاء كل من كفار مكة المكذبين بنبوة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، الجاحدين بيوم الدين ، وعن جزاء المؤمنين المتقين ، وعن دلائل وجود الله سبحانه وقدرته الفائقة ، ووحدانيته الصمدانية ، وعن أخبار بعض الأنبياء مع أممهم السابقين الذين اتخذهم كفار قريش أسوة لهم في العناد والتكذيب .

الحديث عن خواتيم سورة الذاريات :

بعد كل ذلك نجد السورة تتوجه في الختام إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بالخطاب ، فتأمره بالإعراض عنهم والاشتغال بتذكير الجن والإنس بمهمتهم في الحياة ، والتي سيجازون على مدى التزامهم بأدائها بعد الممات ، مع تهديد الكفرة بسوء العاقبة والمآل . . . وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۖ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ وَمَا خَلَقْتُ

الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا
﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ
أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾
[الذاريات : ٥٤ - ٦٠] .

ولقد تضمنت هذه الخاتمة الرائعة الآيات الثلاث التي جعلتها لهذا
الموضوع منطلقاً ؛ ولذلك فإني أشرحها بشرح بعض مفرداتها ، والوقوف
عند بعض الملاحظ الأسلوبية التي تضمنتها ، ثم أجمل معناها العام .

معاني كلمة الخلق :

فالخلق في الآية مستعمل في معانيه الثلاثة على وجه الحقيقة .
وأولها : التقدير ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] أي لا تبديل لما قدره الله وقضاه .
وثاني معاني الخلق هو : الإبداع من غير أصل ولا احتذاء . . . كما في
قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾
[الأنعام : ٧٣] ، إذ معناه هو ما نص عليه في قوله سبحانه : ﴿ بَدِيعُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] .

وثالث معاني الخلق هو : إيجاد الشيء من الشيء - كما في قوله تعالى :
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] فهو من استعمال
المشترك في معانيه ، جاء في جمع الجوامع : (مسألة) المشترك يصح إطلاقه
على معنييه مجازاً ، وعن الشافعي والقاضي والمعتزلة حقيقة ، زاد الشافعي :
وظاهر فيهما عند التجرد عن القرائن فيحمل عليهما . . . إلخ .

والخلق بجميع معانيه المذكورة ، ليس إلا لله سبحانه على وجه الحقيقة ،
بدليل قوله تعالى قاصرا الخلق على نفسه : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وبدليل قوله فاصلا بينه وبين غيره ، ﴿أَفَمَنْ
يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] .

معنى كلمة الجن :

وأصل الجن في الآية هو كل ما استتر عن الرؤية ، يقال : جنه وأجنه
وجن عليه الليل بمعنى ستره وغيبه . . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَى الْكُتُبَا﴾ [الأنعام: ٧٦] .

وعليه فإن المراد بالجن في الآية : كل الكائنات الروحية المستترة عن
حواس الإنسان من ملائكة وشياطين وجان . . . وكلها مغيبات نؤمن
بوجودها بمقتضى إيماننا بمصداقية الوحي وبكل ما أخبرنا به من غيب ،
قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْوَحْيِ أَتَسْتَسْمِعُونَ بِلُغْمِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِمِثْلِ مَا يُكْفِرُونَ بِهِمْ سَوَاءٌ مِمَّا كُفِّرُوا بِهِمْ لَا تَتْلُو آيَهُنَّ لِئَلَّا يَكْفُرَ الْغَافِلُونَ﴾ [البقرة: ١-٣] .

معنى كلمة الإنس :

والإنس الذي ذكر في الآية -عطفًا على الجن- أصله من الأنس الذي
هو خلاف النفور والابتعاد والانزواء ، وسمي به الإنسان لأنه خلق ذو
طبيعة اجتماعية لا قوام له معها إلا بالأنس مع غيره ، يسخره لقضاء مآربه
وسد حاجياته . . . ولذلك قيل : الإنسان مدني بطبعه ، وصدق الله العظيم
إذ قال في محكم كتابه : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] .

معنى العبادة:

وأما العبادة المذكورة في الآية فهي غاية التذلل والخضوع والانقياد، وهي بهذا المعنى لا تطلق على وجه الحقيقة الشرعية إلا على عبادة الله سبحانه، ومن ثم فقد كانت على ضربين :

١ - عبادة تسخير، بالانقياد والخضوع لما بثه الله في الكون من نواميس وقوانين وأسباب عادية، وهذه عبادة قهرية تخضع لها وتقوم بها سائر المخلوقات من غير استثناء على الإطلاق، مصداقا لقول الحق سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل : ٤٩] .

وهناك عبادة لله بالاختيار، وهي خاصة بالمكلفين إذ إنها تكون بامتنال أوامر الديان، واجتناب نواهيه بغاية المستطاع، وعلى أساس مدى الالتزام بها يستحق المكلف الجزاء من ثواب أو عقاب، ومن ثم فقد كانت هذه هي العبادة المقصودة من خلق الجن والإنس، والمأمور بها في كثير من الآيات، كقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعِبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ٢١] .

وأخيرا فإن اللام في (ليعبدون) إنما هي لام الغاية والعاقبة، وليست لام العلة الباعثة، وذلك لما هو مقرر في علم الكلام وأصول الدين من أن الله سبحانه منزّه عن كل من العلة الباعثة والعلة التركيبية، إذ ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٨٣] .

ما اشتملت عليه الآيات من أساليب:

ومن الملاحظ الأسلوبية التي تضمنتها تلكم الآيات البينات أنها قد اشتملت على أسلوبين من أساليب الحصر :

الأول : بالنفي والاستثناء في قوله سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

والثاني : بتعريف كل من المسند والمسند إليه ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

وكل من الحصرين حصر حقيقي إذ ما خلق الله الإنس والجن إلا مهيين للعبادة بمعناها العام ، وما من رازق إلا الله سبحانه على وجه الحقيقة .

كما أن في تلكم الآيات حذفاً للمتعلق في مواطن عديدة ، ولكن لأغراض مختلفة ، ففي قوله تعالى : ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، حذف المتعلق وهو ضمير المتكلم العائد على اسم الجلالة - وذلك للعلم به بما ذكر قبل من كونه الخالق - فلا يعقل أن يستحق العبادة سواه ، ولذلك قال سبحانه : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

أما حذف المتعلق في ﴿مِنْ رِّزْقٍ﴾ وفي ﴿يُطْعَمُونَ﴾ وفي ﴿الرِّزَّاقِ﴾ فليؤذن ذلك بالعموم ، إذ إن الله سبحانه لا يريد من الجن ولا من الإنس أن يرزقوه أو أن يرزقوا أنفسهم أو غيرهم ، ولا أن يطعموه ولا أن يطعموا أنفسهم أو غيرهم ، بل الله سبحانه هو الرزاق للخلق أجمعين ، وهو سبحانه ذو القوة المتين .

ثم إن في الآيات البيّنات صيغتين من صيغ العموم :

الأولى : في ﴿الْإِنْسِ﴾ و﴿الْجِنَّ﴾ حيث عرفت الكلمتان بأل الجنسية الاستغراقية ، فتعمان جنس الجن وجنس الإنس ، ولكن ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا من العام الذي أريد به الخصوص ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ومن

خلق لجهنم لا يكون مخلوقاً للعبادة ، ويعضده قراءة من قرأ «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون» ، بزيادة : «من المؤمنين» ولكنها قراءة شاذة .

أما الصيغة الثانية للعموم فهي في قوله سبحانه : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ ﴾ حيث وردت النكرة في سياق النفي فتعم ، بمعنى أنها تفيد استغناء الله سبحانه عن سائر أنواع الرزق التي قد تخطر بالبال ، خاصة بعد جرها بـ : [من] المفيدة لتأكيد استغراق العموم .

وأخيراً فإن في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ثلاثة مؤكدات لفظية هي : «إن» والضمير «هو» وكون الجملة اسمية ؛ كما أن في الإتيان باسم الجلالة ظاهراً من التعظيم والتفخيم ، ثم وصفه سبحانه بأنه ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ في كل ذلك ما يقطع أوهام الخلق في أمور الرزق ، فيقوى اعتمادهم على الله سبحانه ، ويقوى اعتقادهم في أن ما قدره الله لهم من رزق سيصلهم لا محالة فيطلبونه بالوسائل المشروعة ؛ وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ فيما رواه الحاكم «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته» .

وبما سبق يتبين لنا المعنى الإجمالي لتلك الآيات السينات وهو : أن الله تعالى لم يخلق المكلفين - من الجن والإنس - ابتغاء أن يرزقوه ، أو أن يرزقوا غيره ، أو لأجل أن يطعموه ، أو يطعموا غيره من المخلوقين ، بل الله تعالى هو الذي يرزقهم ويغدق عليهم من خزائنه بقدرته الباهرة ، وقوته المتينة ، وإنما خلق الله أولئك المكلفين مهيتين ومستعدين ليعرفوه

حق المعرفة ، ويخلصوا له في الطاعة والعبودية ، بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، وذلك بأن خلق فيهم العقل والحواس والقدرة التي تحصل بها المعرفة والعبادة بمعناها العام .

قال الإمام الألوسي : «فإنهم -أي الجن والإنس- خلقوا بحيث تتأتى منهم العبادة وهدوا إليها وجعلت تلك غاية كمالية لخلقهم ، وتعوق بعضهم عن الوصول إليه لا يمنع كون الغاية غاية» .

المحور الثاني :

المقومات الأساسية للعبادة في الشريعة الإسلامية :

ولئن كانت العبادة -لغة هي أقصى الطاعة والخضوع والانقياد فإنها لا تتحقق -شرعا- إلا إذا التزم الإنسان فيها بتنفيذ شرع الله سبحانه ، وقرنها ببالغ محبته ، وأخلص فيها بالاتجاه بها إليه سبحانه وحده ، مما يجعل العبادة الشرعية تتضمن بالضرورة المقومات التالية .

أولا : الالتزام التام بتنفيذ شرع الله سبحانه :

ومعنى هذا أنه لا بد في العبادة من تنفيذ ما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ : كتابا وسنة ، أمرا ونهيا ، تحليلا وتحريما ، عقيدة وعبادة وتشريعا وسلوكا ، وفي سائر مجالات الحياة ، ولذلك فإن من يرفض الاستسلام لأوامر الله ، واتباع منهجه ، والانقياد لشرعه ، فإنه لا يعتبر عابدا لله سبحانه ، إذ إن الخضوع لله والتفاني في طاعته نابع من الإيمان الصادق بأن الكون كله مملكته ، والناس جميعا عبيده ، فله سبحانه حق الحكم والتشريع ، وعلى الناس واجب الطاعة والامثال والتنفيذ ، قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الروم: ٣٠]﴾ ولما كان الإسلام قد جاء ليرسم للإنسان منهج حياته كلها الظاهرة والباطنة، ويحكم سلوكه ومختلف علاقاته بالله سبحانه وبنفسه وبالآخرين من حوله، سواء على المستوى الفردي، أو على المستوى الأسري، أو على مستوى المجتمع الإسلامي، أو على مستوى المجتمع الدولي، فقد اتسع مجال العبادة في الإسلام حتى إنها تشمل الحياة الإنسانية كلها، وتنظم أمورها قاطبة: من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة ونظام الحكم وسياسة المال، وشئون المعاملات، وأصول العلاقات الدولية، بل إن العبادة تشمل حتى الأعمال الاجتماعية والدينية التي يقوم بها الإنسان كسبا لمعيشته، وللسعي على نفسه وعياله، ما دام العمل نافعا مشروعا ومصحوبا بنية صالحة، ملتزمة فيه حدود الله من غير أن يطغى على أداء الواجبات الدينية الأخرى.

مجال العبادة في الإسلام:

وهكذا يتبين لنا أن مجال العبادة في الإسلام لا يقتصر على الصلاة والزكاة والصوم والحج، وإنما يتسع حتى يشمل حياة الإنسان كلها طولا وعرضا وعمقا، ويشمل كيانه كله فكرا وقولا وعملا، ويشمل الدين كله أمرا ونهيا وتوجيها، مصداقا لقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، كما أن من مقومات العبادة في الشريعة الإسلامية، استشعار القلب بتمام محبة الله سبحانه، بمعنى أن يصدر ذلكم الالتزام والخضوع عن قلب يطفح بمحبة الله، شاعرا بأنه ليس في الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يحب.

وإن أساس محبة الله تعالى هو الشعور بفضله وإحسانه ورحمته ، والإحساس بجماله وكماله ، وبقدر معرفة الإنسان بربه ونعمه عليه تكون درجته في محبته ، ثم في طاعته وعبادته .

والحقيقة التي لا يرتاب فيها أي عاقل حق هي أن النعم التي تحيط بالإنسان في كل أطوار حياته ، وتغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، إنما هي من عند الله وحده ، والذي يجريها وفق ما بثه في الكون من أسباب عادية ، وعلى يد من يشاء من عباده ، وفق حكمته البالغة ، مع أنه هو المنعم بها على الحقيقة ، مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارְهَبُونِ ۝ وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصْبَا۟ أَفْغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئُرُونَ ﴾ [النحل : ٥١ - ٥٣] .

فمن أولى من الله سبحانه بأن يجب؟! ومن يجب الإنسان إذا لم تحتل محبة الله مكان الذروة في سويداء قلبه؟! وصدق الله العظيم إذ قال في محكم كتابه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

من مقومات العبادة: الإخلاص:

كما أن من مقومات العبادة : الإخلاص في التوجه بها إلى الله سبحانه ؛ وذلك بالتوجه بالعبادة لله وحده ، ونبذ عبادة كل ما سواه ، ومن سواه من الآلهة المزعومين والأرباب المزيفين ، سواء أكانوا من البشر أم من الجن ، أو

من أي عالم من عوالم المخلوقات العلوية أو السفلية الحسية أو المعنوية الظاهرة أو الباطنة .

وكيف يليق بالإنسان وقد كرمه الله تعالى في ذاته بما خصه به من فائق القدرات وجليل المواهب -أن يتجه بعبادته إلى أي مخلوق كيفما كان ، ما دام ذلكم المخلوق لا قيام له بذاته ، وهو في سائر أحواله محتاج إلى غيره ، ضعيف لا يقوى على حماية غيره ، بل إلى حماية نفسه ، قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ تَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] .

وإذن فكل عبادة يتجه بها الإنسان لغير الله ، أو تكون بغير ما شرعه ، أو تكون نابعة من غير إخلاص في محبته ، فهي عبادة زائفة ومزيفة ، بل إنها ليست عبادة على الحقيقة ، قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

فوائد العبودية في الشريعة الإسلامية :

لقد تضافرت النصوص الشرعية والأدلة العقلية على أن الله تعالى في غنى مطلق عن العالمين ، وعن كل أعمالهم أجمعين ومجموعين ، فلا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] .

وقال سبحانه -في حديث قدسي- : «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري

فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا» إلى آخر الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه .

وما دام الأمر كذلك فإن الاستفادة الأول من العبودية هو المكلف العابد نفسه ، وذلك بما تحققه له من فوائد جليلة ومكاسب جد عظيمة ، ومنها : أنها تذكر الإنسان بصلة الربوبية .

وذلك أن الإنسان قد يغرق في بحار أنعم الله عليه ، فيشتغل بها وينسى خالقه والمنعم بها عليه ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَاءً ﴾ [العلق: ٦، ٧] فتأتي العبادة لتأخذ بيد الإنسان فتذكره بما يربطه بربه من صلة الربوبية حتى لا تغرقه أعمال الدنيا ومادياتها في لجة النسيان ، فينسى الله فينسيه نفسه ، مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] .

ولا أضل ولا أخسر ممن أنساه الله نفسه وصفاتها وما تكمل به وتركوا به ، وتسعد به في معاشها ومعادها ، حيث يصبح أمره فرطا ، فيتبع هواه ، وينسى ذكر مولاه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] .

ثم إن العبودية وسيلة لصقل ما للإنسان من بصيرة ؛ وذلك أن للإنسان من وراء الحواس والعقل طورا أجدى منهما في المعرفة اليقينية هو طور انقذاح نور الله في الصدر ، فإذا هو ذو بصيرة نيرة يتمكن معها وبها من إدراك الحقيقة في مختلف مجالات المعرفة ، بل لقد تأكد للإمام الغزالي أن

المنهج الحق للكشف عن الحقائق الإلهية والغيبية إنما هو منهج البصيرة دون غيره من المناهج العقلية والتجريبية .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

وإذ قال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] أي نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الإشكالات والشبهات ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال فيما رواه أبو نعيم في الحلية - «من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما علم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار» .

العبودية سبيل إلى السعادة الروحية :

ثم إن العبودية سبيل إلى السعادة الروحية ؛ وذلك أنها توفر لروح الإنسان الغذاء والنماء ، وتمده بمدد لا ينفد ولا يغيض ، كما أن قلب الإنسان دائم الشعور بالحاجة إلى الله سبحانه ، وهو شعور صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود ، وهذا ما تقوم به العبادة إذا ما أدت على وجهها الصحيح ، ولذلك فإن الذي يذوق طعم العبودية لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو تنفيذ لأوامر واجتناب لنواه فقط ، وإنما يجد فيها لذة وأي لذة في مناجاة الحق سبحانه وطاعته ، والسعي في مرضاته ، ويجد فيها سعادة روحية لا تقدر بأية قيمة مادية .

ومن ثم فقد كان رسول الله ﷺ ينتظر وقت أداء الصلاة انتظار الظمآن للهاء الزلال ، فإذا حان وقتها قال لسيدنا بلال : «أرحنا بها يا بلال»^(١) كما أنه عليه الصلاة والسلام قال -فيما رواه النسائي- : «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» .

والعبودية تؤهل الإنسان إلى السعادة الأبدية :

وأخيرًا فإن العبودية مؤهلة للإنسان إلى السعادة الأبدية ؛ وذلك أن النفس الإنسانية في أمس الحاجة إلى التزكية لتسعد السعادة الحقيقية .

وليس هناك من مذك للنفوس مثل العبودية ، بها تستصلح وتصلح في الدار الفانية ، استعدادًا وتأهلاً للخلود في النعيم المقيم غدًا يوم القيامة ، حيث تسعد بدخول الجنة ، ثم بالتمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، مصداقًا لقوله سبحانه : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس : ٢٦] .

روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه : «أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ، وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟! ألم يبيض وجوهنا؟! ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟! قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم» .

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٦) ، والطبراني في «الكبير» (٦ / ٢٧٧) من حديث علي بن

أبي طالب رضي الله عنه .

فَاللَّهُمَّ اجْعَلْنَا جَمِيعًا مِنَ الْعَابِدِينَ الْمُحْسِنِينَ حَتَّى نَكُونَ مِمَّنْ لَهُمْ فِي الدَّارِ
الْآخِرَةِ ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

المحاضرة الحادية والسبعون

الفطرة أساس التربية الصحيحة في الإسلام

روى مسلم في «صحيحه» قال : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ وذكر أحاديث منها وقال رسول الله ﷺ : «من يولد يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ، كما تتجون الإبل ، فهل تجدون فيها جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدونها ، قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيرا ، قال : الله أعلم بما كانوا عاملين» .

تخريج الحديث ، والكلام على رجال إسناده :

والكلام عن هذا الحديث يتطلب التعرض لسنده ، والكلام على متنه ، واستخلاص بعض الفوائد منه .

فهذا الحديث ، أخرجه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة . وأبو هريرة هو من الصحابة الكثيرين ، ومن أهل الصفة ، قدم المدينة واستقر بها ، ليأخذ عن رسول الله ﷺ ، الدين والعلم ، وهو أحد السبعة الكثيرين من الصحابة ، من الذين قال فيهم القائل :

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا من الحديث عن المختار خير مضر

أبو هريرة سعد جابر أنس صديقة وابن عباس كذا ابن عمر

وأخرج له بقي بن مخلد ، نحو من أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف حديثاً ، كان في أول عهده بصحبة رسول الله ﷺ ينسى ، ولكنه تقدم إلى

رسول الله ﷺ. كما ذكر ذلك الشيخان في «صحيحهما»، وقال له: «يا رسول الله أسمع منك أشياء فلا أحفظها، فقال له النبي ﷺ: أبسط رداءك، فبسطه. قال: فسمعت منه حديثا كثيرا فما نسيت شيئا حدثني به».

وهمام بن منبه الذي روى عنه صحيفته كما يذكر ذلك الإمام مسلم، هو همام بن منبه بن كامل الأنباري، روى عن أبي هريرة، وابن عباس وطائفة، وروى عنه أخوه ومعممر، وثقه ابن معين، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة. وذكر هذه الصحيفة في هذا السند له أهميته، وذلك لأن الشائع، أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا لا يكتبون وأن الكتابة، كتابة الحديث تأخرت إلى أواخر القرن الثاني الهجري؛ كما ذكر ذلك بعض المستشرقين، لكن وجود الروايات تدل على أن الحديث كتب في عهد الصحابة رضي الله عنهم كهذا الحديث، مما يدل على أن الحديث كتب في وقت متقدم، ومما يدعو إلى الاطمئنان أكثر للروايات التي نقلها المؤلفون في الحديث، فهذه الصحيفة هي من هذه الصحف التي كتبت في منتصف القرن الأول الهجري، فهي من أوائل الصحف المدونة في الحديث.

ومعممر بن راشد، هو أبو عروة الأزدي مولا هم، عالم اليمن، قال فيه الإمام أحمد: «لا تضم معمرا إلى أحد، إلا وجدته يتقدمه، وهو من الثقات». توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة للهجرة.

وعبد الرزاق، هو عبد الرزاق بن همام الصنعاني، كان راوية مكثرا، حافظا للحديث، وصنف فيه كما صنف في التاريخ، قال ابن عدي: ولعبد الرزاق حديث كثير في الفضائل، لم يتابع عليها، وكانوا ينسبونه إلى التشيع، ولكن روى عنه الثقات. توفي عبد الرزاق سنة إحدى عشرة ومائتين للهجرة.

ومحمد بن رافع، هو محمد بن رافع القشيري النيسابوري، الزاهد، الحافظ، مولا هم أبو عبد الله. قال فيه البخاري: الزاهد، الحافظ، مولا هم أبو عبد الله. وقال فيه البخاري أيضاً: «كان من خير عباد الله. توفي سنة خمس وأربعين ومائتين للهجرة».

والحديث أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» كما تقدم، في كتاب القدر، باللفظ والسند. وأخرجه كذلك في كتاب القدر، بسنده عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة بلفظ: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون فيها من جدعاء. قال أبو هريرة واقرأوا إن شئتم ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَىٰ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]».

وأخرجه كذلك الإمام مسلم في صحيحه في كتب أخرى بروايات عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة، وعن أبي صالح عن أبي هريرة، وعن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة وأخرجه الإمام مالك في موطئه، بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رحمته الله، أن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء، هل تحس فيها من جدعاء، قالوا يا رسول الله: رأيت من يموت وهو صغير، قال الله أعلم بما كانوا عاملين» وأخرجه الإمام البخاري في كتاب القدر والجنائز وتفسير القرآن. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ضمن روايته لصحيفة همام بن منبه في مسند أبي هريرة. وعدد الأحاديث التي تضمنتها هذه الصحيفة يصل كما في مسند الإمام أحمد، إلى مائة وثلاثين حديثاً.

وأخرجه أبو يعلى في مسنده، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الأسود بن سريع.

الكلام على متن الحديث :

وأما متن الحديث فإن النبي ﷺ يقول : «من يولد يولد على الفطرة» ، فـ «من» اسم موصول موضوع للعموم ، والعام هو اللفظ الذي يدخل فيه عدد غير محصور ، وقد ذكر الباحثون في أصول الفقه أن العام له ألفاظ تخصه . وله صيغ محددة ؛ منها أسماء الشرط ، والاستفهام ، الموصولات ، والنكرة في سياق النفي ، وكل وجميع ، والمعرف بالألف واللام ، وغيرها من الصيغ التي تدل على إرادة العموم والشمول .

فقول النبي ﷺ ، «يولد على الفطرة» معناه ، أن جميع من يولد يولد على الفطرة ويؤيد هذا المعنى ، وهذا الاستنتاج من لفظ «مَنْ» الموصولة الروايات الأخرى التي وردت بألفاظ تدل على العموم ، منها رواية الإمام أحمد ومالك ومسلم ، «كل مولود يولد على الفطرة» ، فإن لفظ كل موضوع لإرادة استغراق أفراد المضاف إليه المنكر ، ومدلوله ، الكلية ، بما أنه يدل على جميع الأفراد ، مطابقة لإثبات أو سلبا .

«من يولد يولد على الفطرة» ، كذلك يدل على هذا المعنى ، رواية أخرى واردة في الصحاح ، وهي التي تقدمت بعض ألفاظها وذلك قوله ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» ، فإن هذه الصيغة ، تفيد العموم ، نظرا لأنها نكرة في سياق النفي ، والنكرة في سياق النفي تعم . وها هنا دقيقة تتعلق بنقاش جرى بين المبرد وسيبويه . فإن سيبويه يرى أن العموم يستفاد من النكرة المنفية أو النكرة في سياق النفي ، بينما المبرد يقول إن العموم ، إنما يستفاد من لفظة (من) الداخلة على النكرة ، وقد صوب علماء النحو ، كما صوب علماء الأصول مذهب الإمام سيبويه إمام النحاة في عصره .

«من يولد يولد على الفطرة فأبواه» الفاء في قوله فأبواه واقعة في جواب شرط مقدر أو هي للسببية ، أو هي للتعقيب بمعنى أنه إذا كان من يولد يولد على الفطرة ، فإن التغير الذي يقع في هذه الفترة ، إنما هو بسبب الأبوين ، بسبب تأديبهما أو بتعليمهما أو بما يكونان عليه من الانحراف ، فلا يوصلان الخير إلى ابنهما . فتتغير فطرته ، وتحول وتصير خلقا آخر .

قوله ﷺ : «كما تنتجون الإبل من بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء» هذا من قبيل التمثيل والتشبيه ، بما أن النبي ﷺ يصور لنا حالة الولد في نشأته على الفطرة ، ثم ما ينشأ على تلك الفطرة من التغير والتبديل . وهذا أمر غير محسوس ، إنما هو أمر معنوي ، فيحتاج الذي يتتبع الموضوع إلى أن يعرف ذلك بطريق المحسوس ، فجاء النبي ﷺ بهذا المثل ، لندركه محسوسا ، ملموسا ، مصورا . فلماذا قال : «كالبهيمة كما تنتجون الإبل ، هل تجدون فيها جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدونها» بمعنى أن هذا الولد في هذه الحالة هو بمثابة البهيمة التي تنتج الولد كامل الخلقة ، ولكن يتصرفون فيه بقطع أذنه وبتر بعض أعضائه فيتغير ويحول . وهذا التشبيه هو الذي يسمى عند البلاغيين بتشبيه التمثيل ، ويعرفونه بأنه ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد . فإنه ليس تشبيه فرد بفرد ، وجزء بجزء ، ولكنه تشبيه مجموعة من الصور أو مجموعة من الحالات بحالات أخرى ، وهذا من أبلغ التشبيه وأبدعه عند البلاغيين .

وأبو هريرة بعد هذا يقول في الحديث : «اقرأوا إن شئتم ﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ يستدل على هذا بآية وردت في سورة الروم ، وهي قوله سبحانه وتعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَاسِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]. فقله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ اللفظ مأخوذ من قولهم، أقام العود، يقيمه إذا سواه، وقومه إذا عدله، ومعنى هذا الزم الإسلام ولا تنحرف عنه، ولينصرف وجهك إليه، ولتقم بأسبابه ولتعمل به، ولا يصرفك عنه شيء.

قوله سبحانه: ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف هو المائل، المعتدل، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١] وحنيفا، هو حال من الدين، فهو يبين الدين ويبين الحالة التي يكون عليها الإنسان إزاء الدين بمعنى أنه يكون معتدلا، ويكون مستمرا ويكون مستقيما.

وقوله سبحانه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ الفطرة، هذا بدل الاشتغال من حنيفا، فيكون بمعنى الحال من الدين أو هو حال ثانية. وقد جوز النحاة أن يتعدد الحال بدون توسط حرف للعطف، وإلى هذا يشير ابن مالك بقوله:

الحال قد يجيء ذا تعدد لمفرد فاعلم وغير مفرد

الحال قد يكون متعددا، وصاحب الحال مفرد، أو صاحب الحال متعددا. مثلا يقول القائل: «جاء زيد راكبا ضاحكا»، فراكبا ضاحكا، حال من زيد، وزيد مفرد، وقد يتعدد الحال، ويتعدد صاحبه كأن يقول القائل: لقيت هندا مصعدا منحدره. فإن مصعدا، هو حال من التاء، ومنحدره هو حال من هند.

وقد ذكر النحاة أن الحال يجب تعدده في بعض الحالات؛ منها أن يكون

بعد (إما) .. كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] وكأن يجيء بعد لا النافية كقول القائل ، «لقيت بكراً لا جذلان ولا مستبشراً» ففي هاتين الحالتين يجب تعدد الحال .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، ليس معناه أن الفطرة لا تبدل ولا تتغير ، وإنما معناه أنه لا ينبغي تغييرها ، أو هو حال بمعنى النهي . بمعنى فلا تغيروا هذه الفطرة ولا تبدلوها .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُبِينٌ ﴾ هو حال كذلك من ﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ . والمنيب هو المائل المطيع .
وقد قرأ الجمهور ﴿ فَرَّقُوا ﴾ وقرأ حمزة والكسائي (فَارَّقُوا) .

معنى الآية :

من معنى هذه الآية ، يتبين أن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه ﷺ ، ويأمر المؤمنين بإقامة الوجه للدين ، والإخلاص لله سبحانه وتعالى والعمل بما يرضيه ، وعدم الانحراف عن الملة والتزامها ، وعدم الوقوع في الشرك ، وأن يكون ذلك على حال من الإنابة لله سبحانه وتعالى ، والإقبال على دينه بكامل العناية .

الإنسان مخلوق على فطرة هي الحق :

من هنا ، يتبين أن الإنسان مخلوق على فطرة ، هي جوهر كيانه ، ولب إنسانيته ، وأنه ينبغي العناية بهذه الفطرة ، وعدم التفريط فيها ، وأن هذه الفطرة ما دامت فإن الإنسان يبقى على الحق . وهذا هو مذهب جمهور العلماء والفقهاء ، واستدلوا له بقول أبي هريرة رضي الله عنه تفسيراً للحديث ، ﴿ فَأَقَمَ

وَجَهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿١﴾ واستدلوا كذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي أن النبي ﷺ قال في الحديث القدسي : «خلقت عبادي حنفاء كلهم ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»^(١) ، وفي رواية «حنفاء مسلمين» فدل هذا على أن الخلق يخلقون حنفاء مسلمين مستقيمين على الدين ثم يقع التغيير بسبب من الأسباب ، واستدل لهذا حماد بن زيد بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

فقولهم ﴿بَلَىٰ﴾ يدل على أن فطرته كانت مفطورة على الإيمان والإسلام ، ولهذا قال القرطبي في المفهم : «المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق قلوب بني آدم ، مؤهلة لقبول الحق ، وهي تبقى قادرة على ذلك ، كما أن أعينهم وأبصارهم قابلة للمرئيات والمسموعات ما دام لم تتغير ولم تتبدل . فهم يصلون إلى الحق بفطرتهم» .

الناس مفطورون على حسب الدين :

وقد ذهب ابن قيم الجوزية ، إلى أنه لا ينبغي أن نفهم من أن الناس مفطورون على فطرة الإسلام ، أنهم يعلمون الدين بدون تعليم ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل : ٧٨] وإنما المعنى في هذا أنهم مفطورون على الدين ، يحبونه ويقبلون عليه ، ويرغبون فيه ، ويجدون فيه لذتهم ، وسعادتهم ، وراحة قلوبهم ، ويبقون على هذه الحالة ، إلا إذا تغيرت فطرتهم بسبب من الأسباب .

(١) سبق تخريجه .

معاني النطفة :

وإن الكلام عن الدين وعن الفطرة ، يؤدي إلى الكلام عن النطفة ، التي منها يتولد الإنسان والحيوان ، فهذه النطفة تكلم عنها علماء العصر الحديث وبينوا أمر الجينات والصبغيات أو الكروموسومات كما تكلم عنه القرآن الكريم ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : ٢] حيث إن النطفة لها معان ثلاثة :

المعنى الأول : النطفة المذكرة ، وهي عبارة عن الحيوان المنوي الدافق ، الذي يلتبس البويضة .

المعنى الثاني : النطفة المؤنثة ، هي عبارة عن البويضة التي تتعلق في الرحم ، والتي لا ينشأ الولد منها وحدها ، وإنما لابد من تلقيحها بالحيوان المنوي المذكر .

المعنى الثالث : النطفة الأمشاج : وهي عبارة عن الحيوان المنوي المذكر والحيوان المنوي المؤنث . فإذا قدر الله سبحانه وتعالى أن يلتقي الحيوان المنوي المذكر من الصبغية أو من الخلية الذي يوجد فيه الكروموسوم الذي يعين الذكورة ، فإن الولد يكون ذكراً بإذن الله ، ولكن إذا كان هذا الحيوان المنوي من الذكر لا يشتمل إلا على السالب ، المعبر عنه بسين . فإن الولد يكون أنثى ، نظراً لأن المرأة لا تحتوي جيناتها وصبغياتها على ما من شأنه أن يكون الولد ذكراً .

ويذكر العلماء الذين يبحثون في هذا الميدان ، أنه نتيجة لهذا تكون الخلقة ، فتكون الخلقة الآدمية من حيث لون الشعر وطول القامة ، وشكل الأعضاء وغير ذلك . ويكون هناك الخلق المعنوي من حيث سماحة الإنسان ،

وميله إلى الخير واعتداله ، وكونه سعيدا مطمئنا . كل ذلك في نطفته هذه التي خلقها الله سبحانه وتعالى . ثم إن الله سبحانه وتعالى نبه رسوله ﷺ إلى أن يتكلم بهذا الحديث ، ليدلنا على أن الإنسان مفطور على شيء آخر ، وهو أنه مفطور على الدين ، الدين الإسلامي .

اليهودية والمسيحية انحرفتتا عن دين الفطرة:

والنبي ﷺ يقول في الحديث : «فأبواه يهودانه وينصرانه» بمعنى أنهم يجعلونه يهوديا أو يجعلونه نصرانيا أو يجعلونه مجوسيا . ومن المعلوم أن اليهودية قد نسخت بالإسلام ، وأن المسيحية كذلك منسوخة بالإسلام ، وكذلك سائر الأديان .

فهذه الأديان قد انحرفت عن الفطرة ، فالمسيحية مثلا يؤمنون بالثالوث ، وهذه المسيحية لا يوجد فيها كتاب مقدس مروي عن رسولها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام . وقد دخلتها فلسفات ، وتغيرت وتبدلت . وصارت بذلك منحرفة عن الدين الحقيقي الذي هو دين الفطرة . واليهودية ذكر الله سبحانه وتعالى عن أصلها ما هو مذكور في القرآن لا حاجة إلى إعادته في هذا المقام .

أدلة محافظة الإسلام على الفطرة:

أما الإسلام فهو الدين الذي حافظ على الفطرة ، لأنه قائم على هذا الكتاب المنزل من عند الله سبحانه وتعالى المروي عن النبي ﷺ الذي وصل إلينا بطريق التواتر . ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بإقامة وجهه للدين حنيفا وأنه فطرة الله ، فكان رسول الله ﷺ يحرص على هذه الفطرة ، ولهذا

يروى أنه كان ﷺ إذا قام للصلاة يقول : «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا»^(١) ، في إشارة إلى الفطرة .

كما أن أئمة الحديث ومنهم الدارمي في سننه ، يروي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه ، أن النبي ﷺ كان يقول إذا أصبح : «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة إبراهيم حنيفا مسلما» .

كذلك يروي الشيخان أنه قال للبراء بن عازب رضي الله عنه : «إذا أويت إلى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن . وقل اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنيك الذي أرسلت» . يقول له في نهاية الحديث : «فإنك إن مت ، مت على الفطرة» ، وفي رواية : «إنك إن مت في ليلتك هذه ، مت على الفطرة» هذا مما يدل على أن الإسلام ، وأن نبي الإسلام كان يحرص على الفطرة وعلى تزكية النفس بها ، وأن يجعلها الإنسان نصب عينيه ولا ينساها أبدا .

الفطرة مرتبطة بالنفس والعقل والعلم للإنسان :

ثم إننا حينما نتكلم عن الفطرة ، لا نعني فقط هذا الأمر الساذج البسيط الموجود في نفس الإنسان وإن كان هو كلية الإنسان وحقيقته ، ولكن الفطرة لها ارتباط بالمكونات النفسية والعقلية والعلمية للإنسان .

فأما ارتباطها بالمعنى النفسي ، فهذا هو ما يطلق عليه اسم البديهة ،

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي .

والبدية في حقيقتها من العقل ، ولكن الإنسان بالنسبة للبدية لا يحتاج إلى الأدلة المنطقية وترتيبها وتقويتها بالنظر والتفكير ، وترتيب النتائج على المقدمات .

ولكن هذه البدية هي عبارة عن أمر يدركه الإنسان بطريق الحدس ، ويستقر هذا في نفسه ، وعند ذلك يشعر بأنه مرتبط بمعنى من المعاني . وهذا هو ما استعمله القرآن الكريم عندما قال سبحانه وتعالى مثلاً : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم : ١٠] فلا يتطرق الشك إلى مؤمن أو مسلم أو الذي له فطرة نقية صافية في هذا الأمر ، وهو أن الله سبحانه وتعالى موجود وأنه حي وأنه يدبر العالم ، كذلك استعمل هذا الدليل ابن عطاء الله السكندري عندما قال : «إلهي كيف يشك فيك وأنت موجود» . وقال أبو الحسن : «كيف يعرف بالعارف من به عرفت المعارف . أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء» .

وأما دليل العقل ، فإن العقل هو كذلك قوة غريزية فطرية في الإنسان ، والقرآن الكريم عني كذلك بهذه الفطرة ، وساق أدلة من واسطتها يدرك المؤمن حقيقة العالم وكنه الوجود .

فالقرآن الكريم دائماً يأمر بالنظر والتفكير والتأمل في خلق السموات والأرض ، كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

وأما الدليل العلمي ، فالمراد به ما توصل به العلماء في العصر الحديث .

ومن الأدلة الكونية المتعلقة بالكون والمتعلقة بالشمس والقمر، والمتعلقة بنهاية العالم إلى غير هذا من الأمور التي يبحث فيها العلم، وثبت بالنظر وبدراسة القرآن أنها تتوافق معه .

من هذا قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدًا عَلَيْنَا ۗ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] الذي يشير إلى نهاية العالم .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر : ٥] الذي يدل على كروية الأرض . وقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧] الذي يدل على اتساع الكون ، وأنه في اتساع متزايد ، كما يدل على ذلك العصر الحديث .

الفطرة تقتضي الأمانة :

إن فطرة الإنسان ، فطرة خيرة ، كما يذهب إلى ذلك الدين الإسلامي ، والدين لما كان هو الفطرة فإنه واحد ، ولكنه تعدد لأسباب تاريخية ، وآخر الأمر جاء الإسلام الذي هو الدين الذي لم يتغير ولم يتبدل . والذي هو دين الفطرة .

والفطرة تقتضي الأمانة ، ولهذا قال النبي ﷺ : «إن الأمانة مازالت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»^(١) . بمعنى أن الله سبحانه وتعالى وهب الإنسان فطرة الأمانة ، ثم جاء بعد ذلك القرآن فقرأه النبي ﷺ وفسره بالسنة التي توضحه وتظهر معانيه .

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) عن حذيفة .

ثم إن الأمانة تشمل أمور التكوين النفسي والعقلي والعلمي ، ثم إن الأمانة تنشُد فاطرها ، فالإنسان قد يغفل الأمانة ويغفل عن الدين ، ولكنه في وقت الشدة يتذكر هذه الحقيقة ويلتجئ إلى فطره الذي فطره وخلقه ؛ يلتمس منه النجاة من الهلاك والعذاب .

الفطرة تتغير بالتربية والتعليم :

ثم إن الفطرة تتغير بالتربية والتعليم . وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «فأبواه يهودانه وينصرانه» وفي رواية : «ويمجسانه» ، وإسناد ذلك للأبوين من باب التغليب ، والمراد أن الفطرة تتأثر بأوضاع المجتمع ، وأحوال البيئة ، حيث ينشأ الأولاد على مقتضى التربية السائدة التي تحرص الأمم والشعوب على تلقينها أبناءها .

ومن هنا أهمية التربية في الإسلام التي يلزم أن تكون على وفاق مع هذا الدين ، من حيث كونه دون دين الفطرة .

فتنمي في النفوس عناصر الإيمان والإسلام والإحسان . وتتعهد الفرد والمجتمع في مجالات السلوك الفردي والجماعي . وتغرس في النفوس فضائل التقوى . وتنهاها عن الفحشاء والمنكر ، وتحبب إليها الإصلاح ، وتعلم الناس مراقبة النفس ومحاسبتها .

وتكون مع ذلك تربية واقعية ، تراعي أحوال الناس وأوضاعهم ، وأعرافهم ، وفوارقهم الفردية والاجتماعية ، وتجعل من المدرسة مؤسسة تهتم بالدرس وتعنى بالسلوك .



المحاضرة الثانية والسبعون

سماحة الإسلام مع غير المسلمين

قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المتحنة : ٧] .

موضوع درسنا مع هذه الآيات الكريمة من سورة تسمى في القرآن الكريم بسورة المتحنة ، وتسمى أيضا بسورة الامتحان ، وتسمى أيضا بسورة المودة ، وهي السورة الستون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان نزولها بعد سورة الأحزاب وقبل سورة النساء ، وهي من السور المدنية الخالصة .

وهذه الآيات قد بشر الله ﷻ فيها عباده المؤمنين بأنه بفضلته وبرحمته عليهم قد يهدي إلى الحق أقواما من الأعداء الذين تربطهم بالمؤمنين رابطة الدم والقربة ، كما حدد سبحانه في هذه الآيات الكريمة الطريق والمنهج الذي يجب أن يسير عليه المؤمنون في مودتهم وفي عداوتهم لمن يخالفهم في عقيدتهم .

ولقد صدرت هذه الآيات الكريمة بلفظ «عسى» وهو لفظ يدل على الرجاء ، وإذا صدر هذا اللفظ عن الخالق ﷻ كان متحقق الوقوع لصدوره من أكرم الأكرمين ﷻ . وقد نزلت هذه الآيات الكريمة بعدما يقرب من عشرين سنة من بعثة سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ .

وبعد أن حدث ما حدث من فراق بين الآباء والأبناء وبين الإخوة والأخوات ، وبعد أن حدث قتال من القريب لقريبه جاء قوله ﷻ : ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ﴾ [المتحنة : ٧] فهذه الآية الكريمة تسوق النسمة الندية ، والبشارة السنية ، والسكينة

النقية إلى قلوب المؤمنين بعد أن طالت العداوة والجفوة بينهم وبين أقاربهم من المشركين .

شرح الآية الكريمة :

جاءت هذه الآية لتقول للمؤمنين : عسى الله أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين الذين طالت بينكم وبينهم العداوة من أقاربكم المشركين ؛ أن يجعل بينكم وبينهم في المستقبل القريب المودة مكان العداوة ، والمحبة مكان الجفوة ، واعلموا أنه سبحانه قدير على كل شيء ، وأنه واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب إليه وأتاب كما قال ﷻ : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُدًى لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَنُحْرِمُ عَنْهُمْ الظَّنَّ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] . وقد أنجز الخالق ﷻ وعده .

أنجز وعده . فبعد وقت ليس بالطويل جاء الفتح الأعظم لمكة في رمضان من السنة الثامنة بعد الهجرة والتقلى كل قريب بقريبه بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا ، وحلت المحبة محل العداوة بسبب إخلاصهم جميعا للعبادة لله رب العالمين .

منهج يسير عليه المؤمنون في كل زمان ومكان يتلخص في آيتين :

ثم ساق سبحانه آيتين كريمتين بين فيهما بكل صراحة ووضوح المنهج الذي يجب أن يسير عليه المؤمنون في كل زمان وفي كل مكان ، في سلمهم وفي حربهم ، في عداوتهم وفي صلتهم ، في مقاطعتهم لكل من يخالفهم في دينهم .

وهذا المنهج يتلخص في أن من يخالفنا كمسلمين في عقيدتنا . ولكنه لا يسيء إلينا ويمد يده إلينا بالسلام فعلينا أن نقابل سلامه بسلام ، وأمانه بأمان ، وأن نتعاون معه على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . أما من يسيء في عقيدتنا وفي مصلحتنا العامة ، وفي اقتصادنا ، وفي أي أمر من أمورنا التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها ، أو بأي لون من ألوان الإساءة فقد أذن الله ﷻ لنا أن ندافع عن أنفسنا وأن ندافع عن كل حق من حقوقنا .

الآية الأولى:

والآية الأولى وهي قوله سبحانه : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة : ٨] .

معناها بإيجاز : أباح الله لكم أيها المؤمنون وأحب لكم أن تقدموا الخير والبر والعون إلى من ليس على دينكم ما دام لم يقاتلكم من أجل أنكم مسلمون ولم يحاول إلحاق أي ضرر بكم ؛ يتعلق بدينكم أو بدنياكم ، وعليكم أن تسيروا معه بالعدل ، لأنه بالعدل قامت السموات والأرض .

والله ﷻ قد أمرنا بالعدل في الأقوال : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

وأمرنا بالعدل في الأحكام : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨] .

وأمرنا بالعدل في الشهادة : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق : ٢] .

وأمرنا بالعدل عند الإصلاح بين الناس : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ٩، ١٠] .

والعدل عند الكتابة فيما يتعلق بالمعاملات : ﴿ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

والعدل مع العدو ومع الصديق ، مع الغني ومع الفقير ، مع القريب ومع البعيد ، كما قال ﷺ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ؕ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨]

وإذا كان العدل يؤدي إلى رقي الأمم ، وإلى سعادتها ، وإلى نشر الأمن والسلام والاطمئنان فيها ، إذا كان العدل كذلك فإن الظلم يؤدي إلى خراب الأمم ، فإن الظلم يهدم الأمم ويأتي على بنيانها من القواعد وصدق الله إذ يقول ﴿ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٣﴾ فتلک بیوتہم خاویۃ بما ظلمواؕ اِنَّ فی ذلک لآیۃ لِّقَوْمٍ یَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥٢] والله سبحانه وتعالى يقول في حديثه القدسي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر .

الآية الأخرى:

أما الآية الثانية فقد بين سبحانه فيها من هم الذين يجب علينا أن نقاطعهم ، وأن نقاومهم ، وأن ندفع عدوانهم بما يردهم على أعقابهم خاسرين ، بين الخالق ﷻ ذلك في الآية الثانية فقال : ﴿ إِنَّمَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩] .

والمعنى : ينهاكم الله ﷻ أيها المؤمنون نهيا قاطعا أن تقدموا المودة أو المحبة أو التعاون إلى أولئك الذين يحاربونكم لأنكم مسلمون ، إلى أولئك الذين أخرجوكم من دياركم التي تسكنونها إلى الذين عاونوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم ، واعلموا أن كل من يتعاون مع هؤلاء وأشباههم فإنه يكون من الظالمين لدينه ، من الظالمين لنفسه ، من الظالمين لأمته ، وستكون عاقبته الخسران في الدنيا والآخرة لأنه قد خان الله ﷻ وخان رسوله ﷺ ، وخان الشريعة التي جاء بها سيدنا رسول الله ﷺ من عند الله ﷻ .

ما نتعلمه من الآيات :

الآيتان الكريمتان ترسمان للمسلمين في كل زمان ومكان القانون الذي يجب أن يسيروا عليه في معاملاتهم مع كل من ليس على دينهم ، سواء أكان من أهل الشرق أم من أهل الغرب ، أم من أهل الشمال أم من أهل الجنوب ، هذا هو الميزان الذي وضعه الله سبحانه وتعالى للمسلمين .

وهذه الآيات الكريمة من الأحكام السامية ومن الآداب العالية التي يجب أن نتعلمها .

من هذه الآيات الكريمة- أن الناس جميعا قد أوجدتهم الله تعالى من أب واحد ومن أم واحدة كما قال سبحانه في أول آية من سورة النساء : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء : ١] .

نأخذ من هذه الآيات أن الله تعالى بفضلله وبإحسانه قد حقق رجاء المؤمنين ، لقد تضرعوا إليه بعد أن فارقوا آباءهم ، وفارقوا أمهاتهم ، وفارقوا أقاربهم ما يقرب من عشرين سنة وبعد أن حدث ما حدث بينهم وبين ذوي أرحامهم من قتال ، بفضل الله ﷻ جمع بعضهم .

جمع أصحاب الفطر النقية وحو لهم من مشركين إلى مؤمنين ، وألف سبحانه بين الجميع كما قال سبحانه : ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

نتعلم من هذه الآيات أن شريعة الإسلام تأمر أتباعها أن يمدوا يدهم بالسلام إلى كل من يمد يده إليهم بالسلام بغض النظر عن عقيدته لأن العقائد لا إكراه عليها .

والإكراه على العقائد لا يأتي بمؤمنين صادقين وإنما يأتي بمنافقين كذابين وصدق الله إذ يقول : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

نأخذ منها أن القول بصراع الحضارات أو بصدام الحضارات والمذاهب والأفكار ، هذا القول نحن كمسلمين لا نقره ، إنما الذي نقره هو أن الحضارات عند العقلاء تتعاون وتتكاتف وتتآزر من أجل خدمة الإنسانية جمعاء .

لا مانع شرعاً أن يتعلم غير المسلمين من علم المسلمين ، وأن يتعلم المسلمون من خبرة غيرهم من غير المسلمين في حدود ما أحله الله .

لا مانع من أن يتعلم الغرب من حضارة الشرق ، وأن يتعلم الشمال من حضارة الجنوب أو العكس مادامت هذه الحضارة تقدم للناس الخير والبر والرخاء والرفقي الإنساني الذي تقره مكارم الأخلاق .

نتعلم منها أن شريعة الإسلام قد صانت النفس الإنسانية سواء أكانت لمسلم أم لغير مسلم وسلكت لتثبيت هذه الصيانة وسائل متعددة ، بعضها عن طريق الترغيب والتحبيب وأخرى عن طريق الترغيب والتأنيب .

ويكفي في هذا المجال أن شريعة الإسلام قد أكدت أن الذي يقتل نفساً واحدة ظلماً وعدواناً يكون كأنه قد قتل الناس جميعاً كما قال سبحانه : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي : ومن تسبب في إحيائها بأن شهد شهادة الحق ، أو منع الظالم من الظلم ، أو منع القاتل من القتل ، أو حذر المظلوم ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

الفرق بين الجهاد والإرهاب :

نأخذ منها أن الذين يخلطون بين الجهاد في الإسلام وبين الإرهاب والعدوان هم جاهلون وضالون ، لأن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل مقاصد سامية ، من أهمها مقصداً :

أولهما : الدفاع عن الدين ، وعن النفس ، وعن الأوطان ، وعن العرض ، وعن الكرامة الإنسانية ، وعن كل ما أمرنا الله سبحانه وتعالى أن ندافع عنه .

وثانيهما : نصرة المظلوم وتأديب الظالم .

ومن الأدلة على ذلك أن جميع الغزوات التي حدثت في العهد النبوي الشريف كانت من أجل تحقيق هذين المقصدين .

فغزوة بدر : كانت للدفاع عن الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

وغزوة أحد : كانت للدفاع عن المدينة بعد أن اقترب المشركون منها في جبل أحد .

وغزوة الأحزاب : كانت للدفاع عن المدينة المنورة بعد أن أحاط المشركون بها من جوانب متعددة .

وفتح مكة : كان لنصرة المظلوم ، لنصرة بني خزاعة وهم حلفاء المسلمين وغدر بهم أعداؤهم من المشركين .

هذا هو الجهاد في الإسلام ، من أجل الدفاع عن كل ما يجب الدفاع عنه ومن أجل نصرة المظلوم .

أما الإرهاب ، أما العدوان فهو نقيض الجهاد والفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء ، هما نقيضان لا يجتمعان .

وإذا كان الجهاد في الإسلام من أجل الدفاع عن الحق ومن أجل نصرة المظلوم فإن الإرهاب والعدوان هو من أجل الدفاع عن الباطل ومن أجل نصرة الظالم ، تارة عن طريق القتل ، تارة عن طريق اغتصاب الأرض ، تارة عن طريق هدم المساكن ، تارة عن طريق مصادرة الأرزاق ، تارة عن طريق أكل الحقوق المشروعة .

نأخذ منها أن شريعة الإسلام تحرص كل الحرص على نشر الأمان ، على نشر السلام ، على نشر الاطمئنان ، على نشر الرخاء بين الإنسانية جمعاء ، بين جميع أفراد الأمة وبينهم وبين غيرهم ممن يخالفونهم في شريعتهم بل إن شريعة الإسلام تأمر أتباعها في شخص سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ بأن يحيروا من يستجير بهم وأن يعطوا الأمان لمن هو أهل لهذا الأمان ممن هو على غير دينهم .

ويكفي في هذا المعنى قول الله ﷻ مخاطبا كل عاقل في شخص سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿التوبة : ٦﴾ أي عليك أيها الرسول إذا ما استجار بك أحد من المشركين فأجره وحافظ على حياته حتى يسمع كلام الله وحتى يتدبر هذا القرآن ، فإن آمن بعد سماع كلام الله فهو من أتباعك وإن أبى ذلك وأراد الرجوع إلى بلده فأرسل معه أيها الرسول الكريم من يحميه حتى يصل إلى بلده ، وقد أمرناك بذلك لأن المشركين قوم لا يعلمون الحق وهم في حاجة إلى فترة من الوقت لكي يسمعوه وهم آمنون مطمئنون في أوطانهم .

وقد أمر ﷺ أتباعه أن ينفذوا ذلك بكل دقة فقال ﷺ في حديثه الصحيح : «من أمن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً»^(١) .

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣/٥ ، ٢٢٤) ، وابن ماجه (٢٦٨٨) ، والطبراني في «الكبير» (٤١/٢٠) واللفظ له وغيرهم . وصححه ابن حبان (٥٩٨٩) ، وقال الهيثمي (٢٨٥/٦) : رواه الطبراني بأسانيد كثيرة ، وأحدها رجاله ثقات . وللحديث طرق وشواهد عن غير واحد من الصحابة تشهد بصحته .

إن شريعة الإسلام هي شريعة السلام والأمان والاطمئنان ، ونعمة الأمن إذا ما انتشرت في أمة انتشر معها الخير والرفي والتقدم والرخاء ، وإن المسلم الحق - هو الذي يبني ولا يهدم ، هو الذي يعمر ولا يخرب ، هو الذي يصلح ولا يفسد ، هو الذي يتعاون مع غيره على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

المحاضرة الثالثة والسبعون

الوسطية من خصائص الأمة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين بنعمته تتم الصالحات ، وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير ، وهادي البشرية على الرشد ، وداعي الخلق إلى الحق ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ، نبي الرحمة وإمام الهدى البشير النذير والسراج المنير ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

الوسطية هي ركيزة خصائص الأمة الإسلامية :

حديثنا حول الوسطية التي تشكل مرتكز خصائص الأمة الإسلامية ، والوسطية مأخذاً من الوسط ، ووسط الشيء خياره وعدله وأفضله .

يقال للرجل أوسط القوم حسبا إذا كان ذا مكانة وشرف ورفعة قال تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [القلم : ٢٨] أي أعدلهم .

ومنه قوله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] أي خياراً عدولاً ، قال الشاعر العربي :

كانت هي الوسط المحمية انصرفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً

الدلالة الاصطلاحية :

والدلالة الاصطلاحية للدلول الوسطية أنها تعني التوازن والاعتدال بين طرفي الغلو والتقصير ، والإفراط والتفريط والإسراف والتقتير ، فكل أمر له طرفان منهومان بينهما إما إلى إفراط أو إلى تفريط والوسط هو التوازن بينهما ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧-٩] .

حدثنا القرآن الكريم عن وسطية المكان فقال تعالى: ﴿فَوَسَّطْنَ بِهِءَ جَمْعًا﴾ [العدايات: ٥] أي أن الخيل توسطت جمعًا فبعثته ، وحدثنا عن وسطية الزمان ، قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وحدثنا عن الوسطية في العبادة ، فقال ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] .

وحدثنا عن الوسطية في الإنفاق قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] .

وحدثنا عن الوسطية في القيم والسلوك: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] .

وحدثنا عن الوسطية في المعاملة: ﴿وَأَقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] .

وحدثنا عن الوسطية في الصلح: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: ٩] .

الوسطية منهج شامل:

إذن فالوسطية تمثل منهجا شاملاً في العقيدة والعبادة والقيم والسلوك والمعاملة والتفاعل الحضاري ، وأول مدخل لهذه الوسطية ووسطية العقيدة الموافقة للفطرة ، فإن الله تعالى فطر الخلق على الحنيفية السمحة كما جاء في الحديث الصحيح القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين فاجتالهم الشياطين فحرمت عليهم ما أحللت لهم ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء - أي سليمة من العيوب - هل تحسون فيها من جدعاء» . أي أنه يحصل بعد ذلك النقص ويطرأ عليها الضعف .

وهذه الفطرة التي فطر الخلق عليها لا تستقيم وحدها بمعرفة الخير والشر ،
فلذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع لتستقيم الفطرة على
قانون الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور : ٣٥] أي نور
الوحي على نور الفطرة .

وجعل من المعالم التي تتأسس بها وسطية الفطرة أن أنزل الله تعالى كتابين :
كتاباً مسطوراً وهو القرآن ، وكتاباً منشوراً وهو هذا الكون ؛ ولذلك نقرأ في
قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾
[الأنفال : ٢] .

فالآيات هنا نوعان آيات تنزيلية في كتاب الله المقروء ، وآيات كونية في
صفحة الكون المنظور ، فهذا الكون هو موضع لمصدر المعرفة والعلم ؛
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ثم إن الكون أيضاً هو مصدر من مصادر تجلي بديع حكمة الله
وعجائب قدرته وجميل صنعه ، نقرأ في جمال السماء ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ
الْدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات : ٦] ، نقرأ في جمال الأرض ﴿حَدَّاقٍ
ذَاتِ بَهْجَةٍ﴾ [النمل : ٦٠] ، نقرأ في جمال الإنسان ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمُ﴾ [غافر : ٦٤] .

قال الشاعر :

تأمل في رياض الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وقال آخر :

قل للطبيب تخطفته يد الردى يا شافي الأمراض من أرداك
قل للصحيح يموت لا من علة من بالمنايا يا صحيح دهاك
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهداً وقل للشهد من حلاك
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله من يا نخل شق نواك
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى عن عيون الناس من أخفاك
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
فهذا أيضاً اعتبار آخر في العلاقة مع الكون ، وهناك علاقة أخرى
علاقة تسخير ، تسخير للقطرة سخرت سائر الكائنات ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية : ١٣] .

العلاقة الروحية بين المسلم وبين الكون :

وهناك علاقة روحية بين المسلم العابد وبين هذا الكون المسبح
الخاضع لله تبارك وتعالى كما قال الله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا
يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ﴾ [سبأ : ١٠] ، أي رجعي تسبيحك ليكون منسجماً مع
تسبيح داود ولهذا لما كان النبي ﷺ يخطب الجمعة على جذع نخلة فصنع له
منبر من خشب فانتقل إليه سمع للجذع أنين كأنين الناقة التي فقدت
ولدها وكما قال الشاعر البضعي :

والجذعُ حَنَّ لَذا وَأَنَّ

ومن تكن برسول الله قدوته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

ولهذا يقول الإمام علي كرم الله وجهه : إذا مات المسلم العابد بكى له
موضعان موضع في السماء وموضع في الأرض .

أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله الطيب وأما موضعه في الأرض فهو موضع سجوده وصلاته لأنه يكون فقد الذاكر والمسيح لله .
 فإذاً هناك علاقة معرفية مع الكون وعلاقة تسخيرية وعلاقة روحية :
 «أحد جبل نجه ويحبنا»^(١) .

وعلاقة جمالية ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾
 [النحل : ٦] .

فبالكتاب المسطور وبالكون المنشور تستقيم الفطرة على قانون الوسطية .

الوسطية في الشعائر التعبدية :

وهي تقوم على مبدأ التلازم بين الظاهر والباطن ، فالعبادة فيها حركات من ركوع وسجود وفيها أعمال قلبية من خشوع واستشعار لعظمة الله تعالى والوسطية إنما تمثل تلازم الظاهر والباطن .

كما عبر عن ذلك الإمام حاتم الأصم حين قال : أتوضأ فأسبغ الوضوء ثم آتي موضع الصلاة بسكينة ووقار ، فأكبر تكبيرا بالتوقير ، وأقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعاً بخشوع ، وأسجد سجوداً بتدلل هذا حق الظاهر .

ثم أشار إلى حق الباطن ، فقال : وأتمثل الجنة عن يميني والنار عن شمالي والكعبة بين حاجبي وملك الموت فوق رأسي ، وعين الله ناظرة إلى ذنوبي محيط بي ثم أتبعها الإخلاص ما استطعت وأسلم وأنا لا أدري أتقبل صلاتي أم ترد علي .

(١) أخرجه البخاري (١٤٨٢) ، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه .

الوسطية في السلوك الإنساني بين حظ الدين وحظ الدنيا :

هذا عبر عنه الحديث النبوي : «إن لربك عليك حقًا ، إن لبدنك عليك حقًا ، إن لأهلك عليك حقًا ، فأعط كل ذي حق حقه»^(١) الإنسان عقل وجسد وروح مطلوب أن يغذي العقل بالعلم والمعرفة والثقافة ، وأن يغذي الروح بالتركية ، وأن يغذي البدن بالعافية والنشاط ، وأن يغذي الوجدان بالفن الراقي ، فإذا الوسطية تنظر لتلبية كل هذه الأشواق .

فنبينا ﷺ جسد هذه الوسطية في هذا السلوك عبد ربه حتى تورمت قدماءه ، ومع ذلك كان يمزح ويمزح سابق عائشة فسبقته مرة وسبقها مرة قال : «هذه بتلك» .

واليوم لو أن أحدًا من ذوي اللحى الطويلة سابق امرأته لعد ذلك من خوارم المروءة مع أن المنهج النبوي أنه جامع بين هذا وهذا ، كان يحمل الصبيان ، يحمل الحسن والحسين على ظهره ويحبو بهما ويقول : «نعم الجممل جملكما ونعم العدلان أنتما»^(٢) .

ثم تأتيه المرأة عجوز يمازحها ولا يقول إلا حقًا يقول : «لا يدخل الجنة عجوز ، فتولي وهي تبكي يريد أنها تدخل شابة ، قال : اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً ﴾ ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَجْبَارًا ﴾ ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة : ٣٥-٣٨]»^(٣) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦٦١) من حديث جابر رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٩١/٩) : وفيه مسروح أبو شهاب وهو ضعيف .

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٤٥) من حديث عائشة ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧٧٦/١٠) : وفيه مسعدة بن اليسع وهو ضعيف ، وأخرجه الترمذي في «الشائل» =

ويأتي إلى الصحابي الجليل أزهري فيضع يديه من خلفه ، يقول : «أيها الناس من يشتري هذا العبد؟ يقول إذا تجديني كاسدا يا رسول الله يقول : أنت عند الله يقول ليس بكاسد ، هكذا»^(١) . .

ويمكن عائشة من أن تنظر إلى الحبشة وهم يعرضون فتهم بين يدي رسول الله ﷺ في المسجد ، فهذا كله موازنة بين حق النفس وحق الوجدان ، وحق الروح وحق العقل «ولما جاءه حنظلة ، قال : يا رسول الله نكون معك فتذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا نراها رأي عين فإذا ذهبنا وعافسنا الزوجات والضيعات نسينا ذلك ، قال : لو أنكم تدومون على الحال التي تكونون فيها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات ، ولكن ساعة وساعة»^(٢) .

ولذلك لما كان للأنصار عرس وزواج وفرح ، قال : «هلا بعثتم معها من يغني فإن الأنصار قوم يعجبهم اللهو ، قولوا :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم
ولولا الحنطة السمراء ما سمت عذارىكم»^(٣)

(٢٤١) عن الحسن مرسلاً ، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٨٩ / ٣) :

وأسنده ابن الجوزي في «الوفاء» من حديث أنس بسند ضعيف .

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦١ / ٣) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٩٠) ، وأبو يعلى

(٣٤٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦١٥ / ٩) : رجال أحمد

رجال الصحيح .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) من حديث حنظلة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٠٠) ، وأحمد في «المسند» (٣٩١ / ٣) ، والبخاري (١٤٣٢- كشف) ، وفي

على هذا السنن سار الخلفاء الراشدون ، ولذلك كان عمر بن الخطاب إذا جاء من دار الخلافة دخل إلى بيته وترنم بالشعر فيقول له أحدهم : أو مثلك يا أمير المؤمنين يقول هذا؟ يقول : إنا إذا خلونا فعلنا ما يفعل الناس ، وكان يقول : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائق الحكمة .

وكان أبو الدرداء يقول : إني لأستجم بشيء من اللهو حتى يقوى قلبي على الحق .

إذن فالدائرة الثالثة هي الوسطية التي تجمع بين حق الله وحق البدن وحق النفس وحق الزوج وحق الوجدان .

الوسطية في الدعوة:

وهي تقوم على مبدئين : التيسير في الفتوى ، والتبشير في الدعوة ، وهذا أصله من قوله عليه الصلاة والسلام حين بعث معاذ بن جبل وأبا موسى إلى اليمن قال : «يسرا ولا تعسرا بشرا ولا تنفرا»^(١) ، وقال : «إن الله لم يبعثني معتنا أو متعتنا ، وإنما بعثني معلماً ميسراً»^(٢) أن ييسر في الفتوى ولهذا قال إمام الفقه والحديث والورع سفيان الثوري : إنما الفقه الرخصة من ثقة ، أما التشدد فيحسنه كل أحد .

«زوائد ابن ماجه» : إسناده مختلف فيه من أجل الأجلح وأبي الزبير يقولون : إنه لم يسمع من ابن عباس ، وأثبت أبو حاتم أنه رأى ابن عباس . وقال الهيثمي في «المجمع» (٥٣١/٤) : وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات .

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨) ، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

ولذلك كان دور النبي عليه الصلاة والسلام أنه جاء يضع عن هذه الأمة الإصر والأغلال التي كانت عليها، جاء ليسروا في الفتوى ليبقى الإنسان في إطار المشروعية الدينية، ولذلك لما عرف تراثنا شذائد ابن عمر عرف كذلك رخص ابن عباس، كان ابن عمر رضي الله عنهما يزاحم على الحجر الأسود حتى تدمى قدماه، وكان ابن عباس يقف بعيدا ويقول: لا يؤذي ولا يؤذي، كان ابن عمر لا يجب أن يحمل الصبيان على صدره خشية أن تسيل بعض نجاساتهم عليه، وكان ابن عباس يضمهم إلى حنايا صدره ويقول: إنما هي رياحين نشمها.

التبشير والتيسير:

التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة أن نبشر لأن التبشير جزء من مدلول الرحمة التي وسعت كل الخلق مؤمناً تابعاً ومسالماً مهادناً ومداجناً مخالفاً، وحيواناً أعجم، ونباتاً أخضر، وجامداً أصم، وسعتهم هذه الرحمة ولذلك عليه الصلاة والسلام من صور يسره وتيسيره كان يحمل الصبيان إلى المسجد فإذا سمع بكاء الصبي خفف في الصلاة والقراءة، ويقول: «إني لأدخل في الصلاة أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز -أي أتخفف في القراءة- خشية وجد أمه عليه»^(١). ولما كان في سجوده علا ظهره أحد أحفاده، فأطال في سجوده إطالة ظن بعض الصحابة أنه قد حدث له شيء، فلما فرغ من صلاته التفت إلى أصحابه وقال: «إن ابني قد ارتحلني -أي جعلني كالراحلة- وإني كرهت أن أعجله»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧، ٧٠٨)، ومسلم (٤٧٠) من حديث أنس وأبي قتادة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١١٤١)، وأحمد (٤٩٤/٣)، (٤٦٧/٦) من حديث

شداد بن الهاد رضي الله عنه. والحديث صححه الحاكم في «المستدرک» (٦٢٦، ٦٢٧).

ولذلك لما جاءه الأقرع بن حابس ووجده يقبل أحد أحفاده ، قال :
يا رسول الله أَوَتَقْبَلُونَ صبيانكم؟ إن لي عشرا من الأولاد ما قبلت واحدا
منهم ، قال : «أوأملك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لا يرحم لا
يرحم»^(١) وقوله ﷺ : «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٢) .

إذن فوسطية الدعوة : التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة .

الوسطية في التجديد والاجتهاد :

وهي تقوم على ركنين : ارتباط بالأصل واتصال بالعصر ، أما الارتباط
بالأصل فنحن نخرج من هذه المرجعية الشرعية التي تقوم على الثوابت
في المقاصد الكبرى : الحفاظ على الدين والنفوس والعقل والمال والعرض
والمحافظة على قطعيات الشريعة وأحكامها وعلى الفرائض الركنية وعلى
القيم الخلقية ، ولكن الشريعة وسعت الأزمان والعصور عبر آلة الاجتهاد
والتجديد ، فالثبات إنما يكون في المقاصد والأحكام القطعية ، والمرونة في
الوسائل والآليات .

ولذلك فقهاؤنا اذكروا هذه الحقيقة وقالوا في باب الوسطية إن الفتوى
تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والعوائد والنيات .

فهذا محمد ابن الحسن وأبو يوسف من تلاميذ أبي حنيفة خالفا أبا حنيفة في
ثلاث المذهب ، وقالوا : لو رأى إمامنا ما رأينا لغير رأيه بناء على ما طرأ من
تغير وتطور في مسيرة الحياة .

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧) ، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٢٣) ، وأبوداود (٤٩٤٢) ، وأحمد (٤٦١/٢) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

وهذا الشافعي كان له مذهبان : مذهب في العراق ومذهب في مصر ، مذهب في العراق هو المذهب القديم ومذهبه في مصر هو المذهب الجديد بناء على اجتهاد طراً له على ما طراً من أقضية الحياة من تطور وتعقيد وتشابك وتقاطع ، ذكر أن محمد بن أبي زيد القيرواني كان من أعيان مذهب الإمام مالك في الأندلس وكان يعيش في مدينة القيروان فاتخذ كلباً للحراسة ، ف قيل له : إن إمام دار الهجرة مالك بن أنس ينهى عن اتخاذ الكلب أخذاً من الحديث النبوي : «من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية أو زرع نقص من أجر عمله كل يوم قيراط»^(١) . قال : والله لو عاش مالك إلى زماننا لاتخذ أسداً ضارياً ، مالك عاش في المدينة حيث كان الأمن مستتباً ، وهو عاش في مدينة كان فيها قطاع الطرق واللصوص فاختلقت الفتوى باختلاف الزمان والمكان .

إذن إعمال الاجتهاد والتجديد ضرورة ملحة لاستيعاب قضايا العصر من خلال الثبات على المقاصد الكلية والمرونة في الوسائل والآليات .

الوسطية في الأحكام :

ووسطية الأحكام تعظيم الأصول وتيسير الفروع ، أن نعظم الأصول وأن نيسر في الفروع ؛ لأن تعظيم الأصول يدخل في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢] .

وهذا يقتضي أن من يتصدى للفتوى في قضية الأحكام ينبغي أن يكون متأهلاً لها وللأسف نعيش اليوم في عصرنا شبابا حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، لم يأخذوا العلم من مصادره ومن الراسخين في العلم ، قرءوا

(١) أخرجه البخاري (٥٤٨٠) ، ومسلم (١٥٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

الآية والآيتين والحديث والحديثين ، ثم نصبوا أنفسهم يكفرون الأمة ويضلّلونها ويفسّقونها ويدعون من خالفهم ويفتون بما يؤدي إلى الفتنة والبلبة والاضطراب في قضايا الأمة الكبرى ومصالحها العليا ، وهذا من الفتن العظيمة التي يجب على أولي العلم وأولي الأمر أن يتصدوا حتى يمنعوا هذا الهراء ويتصدى للفتوى من كان راسخا بها كما قال الله تعالى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء : ٨٣] .

هناك أهل استنباط ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل : ٤٣] ، ﴿فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٩] ، ولهذا كان الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع جلالته قدره وإمامته وفضله إذا ذكر المسألة قال فيها : إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ، هذا من تمام الأدب مع الله في الفتيا .

وكان الإمام عامر بن شراحيل الشعبي وهو من أوعية العلم في العراق يسأله أهل العراق فيقول : لا أدري ، يقولون : ألا تستحيي من قول لا أدري ، وأنت فقيه أهل العراق وإمامهم؟ يقول ولكن الملائكة لم تستحي حين قالت : ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة : ٣٢] ، ولهذا كان ابن مسعود يقول : إن أحدكم ليفتي الفتوى لو سئل عنها عمر لجمع لها أهل بدر ، أجرأ الناس على الفتوى أجرؤهم على النار .

ونحن نرى أن الصيغة المثلى لقضايا الأمة المعاصرة هي الاجتهاد الجماعي الذي يجمع بين فقهاء الشرع وخبراء العصر ؛ لأن الفقهاء يعلمون النصوص ومقاصدها ، والخبراء يعرفون الواقع ومآلاته وتحدياته ، والحكم الشرعي مركب من العلم بالنصوص والعلم بالواقع ، فالاجتهاد الجماعي أقرب إلى السداد في مثل هذه القضايا .

الوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف هو من خيرية هذه الأمة ، ولكن ينبغي أن ننظر إلى المآل وإلى الآثار التي تترتب عليه ، ليس كل منكر نراه نحمل عليه سيف الإشهار إلا بعد أن ننظر فيما يترتب عليه من أثر .

فإذا كانت المفسد أكبر لا يجوز الإنكار ، وإذا كانت المصالح أرجح يجوز الإنكار وهذا يعلمه أهل النظر وأهل الحكمة وأولو الأمر الذين يقدرّون المفسد والمصالح كما ذكر عن الإمام ابن تيمية رحمته الله وكان هذا من فقهه : أن مر ومعه بعض أصحابه أثناء غزو التتار لديار الإسلام فوجدوا قوما يشربون الخمر فأراد بعض أصحابه نهى هؤلاء قال لهم شيخ الإسلام دعوهم أي اتركوهم مغفولين يعني إنما نهى الله عن الخمر لأنها تصد عن الصلاة وعن ذكر الله وهؤلاء إنما تصدهم الخمر عن قتال المسلمين .

كان لابد من وقوع إحدى المفسدتين إما شرب الخمر وهي مفسدة ذاتية غير متعدية ، وإما ترك الخمر وقتل المسلمين وانتهاك الأعراض وسفك الدماء وهي مفسدة متعدية ، ولزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم .

ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يقيم بناء الكعبة على قواعد إبراهيم وجد الناس على حداثة عهد بالشرك والجاهلية وأن نفوسهم لا تطيق ذلك ، فترك هذا الأمر وقال لعائشة : «لولا أن قومك كانوا حديثي عهد بالجاهلية لنقضت الكعبة وأقمته على أساس إبراهيم»^(١) .

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٥) ، ومسلم (١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

والدليل على اعتبار فقه الموازنات ما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].
إذ كان سب الأصنام مباحاً لكنه ينهى عن ذلك إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه وهو سب الله تعالى.

إذن في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نتذكر ما قاله الإمام سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال أن يكون عالماً بما يأمر، عالماً بما ينهى، عدلاً فيما يأمر، عدلاً فيما ينهى، رفيقاً بما يأمر، رفيقاً بما ينهى.
بقيت نقطتان أخيرتان، النقطة قبل الأخيرة:

الوسطية في التفاعل الحضاري:

نحن أمة نعيش ضمن قرية كونية سقطت فيها حواجز الزمان والمكان، وليس لنا من سبيل أن ننكفئ على أنفسنا أو نتقوقع على ذاتنا نحن، تبادل المنافع ورعاية المصالح تقتضي من أمة الإسلام أن تمد الجسور، والوسطية في هذا تقوم على كلمتين:

تفاعل إيجابي من غير ذوبان، وخصوصية حضارية من غير انكفاء، أي أن الحكمة ضالة المؤمن نلتمسها من أي وعاء خرجت.

والحضارات تتقاسم أقدارا من القيم فنلتمس الحكمة النافعة، كما التمس المسلمون في أول عهد الإسلام أخذوا من حضارات فارس والروم نظام البريد ونظام السجون، وتدوين الدواوين وتمصير الأمصار.

وقدم المسلمون للحضارة الأوروبية من علوم الأندلس وتراثه فحدث

هذا التفاعل الإيجابي بين الأخذ والعطاء ، فأمتنا وهي تعيش هذا المنتدى البشري نبحث فيه عن شراكة إنسانية صحيحة ، تقوم أولاً على الأخوة الإنسانية وعلى الكرامة الآدمية ، وعلى التبادل العادل للمصالح ، وعلى العدل والحق .

وكما قال الإمام علي حين ولي مالك بن الأشتر ولاية مصر ، قال : الناس صنفان : إما أخ لك في الإسلام ، وإما نظيرك في الخلق - أخوك في الإنسانية - يفرط منهم الزلل ، وتغلب عليهم العلل ، ويؤتى على أيديهم من العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك ، مثل ما تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، وولي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك .

إذن فهذه قاعدة التفاعل الحضاري نرعى المنافع ونتبادل المصالح لتحقيق السلم والأمن الدوليين في ظل موازين لا تحتل فيها قيم العدالة كما قال الله تعالى .

الوسطية في رعاية فقه الاختلاف :

والنقطة الأخيرة التي أختتم بها حديثي إننا نحتاج إلى الوسطية في رعاية فقه الاختلاف ، نحن نؤمن أن الله ﷻ وحد الأمة على مصدر الكتاب ، وعلى قدوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى وحدة القبلة ، وعلى وحدة المصير والجزء المشترك ، ولكن جعل من رحمته أن يقع الاختلاف في فروع الشريعة .

فالقرآن إنما نزل بلسان عربي مبين ، واللغة التي نزل بها الكتاب فيها

الخاص والعام، فيها الحقيقة والمجاز، فيها المطلق والمقيد، والكتاب الكريم لم تنزل آياته كلها محكمة، وإنما فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات.

المتشابهات هي التي تحمل أكثر من وجه في التفسير وهذا يعني أن الوحدة التي ندعو أمتنا إليها وحدة في الأصول، وحدة في المقاصد، وحدة في الكليات، وحدة في المصالح، وحدة في العمق الاستراتيجي، وإن وقع اختلاف في الفروع فهذا لا يؤدي إلى تهاجر أو تقاطع أو تدابر أو تشاحن، وإنما يؤدي إلى أن يكون رحمة.

فهذا الضرب من الاختلاف في الفروع رحمة وسعة وثروة ولذلك قال الإمام القاسم بن محمد وهو أحد فقهاء المدينة السبعة: ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا، لأنهم لو اتفقوا لكان الأمر عسرة ولكان مشقة، ولكن اختلفوا فكان اختلافهم رحمة.

إن الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ تَتَلَمَّذَ عليه الشافعي، والشافعي اختلف مع شيخه مالك وألف كتابا سماه اختلاف مالك والشافعي، لكنه كان يحمل المودة والتقدير والإنصاف لشيخه، ويقول: إذا ذكر العلماء فهالك النجم، مالك حجة الله على خلقه، ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مالك.

وكان مالك يرعى تلميذه ويقول له: يا شافعي أرى أن الله قد ألقى عليك نورا من العلم فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولما ذهب الشافعي إلى بغداد تتلمذ عليه أحمد بن حنبل، وأحمد خالف شيخه الشافعي في مسائل.

ولكن انظروا إلى أدب الاختلاف الذي نحتاج إليه بين أهل العلم، قال

الإمام أحمد رغم اختلافه مع الشافعي ، قال لولده عبدالله : والله يا ولدي ما بت ليلة ثلاثين سنة إلا ودعوت فيها للشافعي ، قال : من هذا الشافعي يا أبت ؟ لقد سمعتك تكثر الدعاء له ، قال : يا بني كان الشافعي كالشمس للدينيا وكالعافية للناس فانظر هل لهذين من خلف أو منهما عوض .

ومن يك علم الشافعي إمامه فمرتعه في باحة العلم واسع
وبالمقابل كان أدب الشيخ مع التلميذ أن الشافعي لما غادر بغداد إلى مصر ، قال : لقد تركت بغداد وما خلفت فيها أورع ولا أعلم ولا أهدي من أحمد بن حنبل ، ثم قال :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت المكارم لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله أو زرتـه فلفضله فالفضل في الحالين له

جماع أمر الوسطية ، وسطية العقيدة الموافقة للفطرة ، وسطية الشعائر الدافعة للعمارة ، وسطية الاجتهاد والتجديد والتي ترتبط بالأصل وتتصل بالعصر ، وسطية الأحكام التي تعظم الأصول وتيسر الفروع ، وسطية الدعوة التي تقوم على التيسير في الفروع والتبشير في الدعوة هذه الوسطية التي جسدها بكما لها وتماها وشموها وعظمتها نبينا ﷺ الذي جمع الله له درر الكمال البشري الذي لم يتح لأحد من الخلق ، وما حملت ناقة فوق ظهرها أبر وأوفى ذمة من محمد حين قال الشاعر :

المصحلون أصابع جمعت يدا هي أنت بل أنت اليد البيضاء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل يغري بهن ويولع الكرماء
وإذا سخوت بلغت بالجود وفعلت ما لا تفعل الأنواء

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هم الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة للحق لا ضغن ولا شحناء
وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرفو الندي وللقلوب بكاء
يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه ماله شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاء

* * *

المحاضرة الرابعة والسبعون

مقاصد البعثة المحمدية

انطلاقاً من قول الله سبحانه : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُدًى لَهُمُ الْطَّبِيبُ وَحَرِّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فإن مقاصد البعثة المحمدية من خلال الآيتين المذكورتين من سورة الأعراف، وإن معرفة مقاصد البعثة النبوية عموماً مقاصد الأنبياء، معرفتها تؤسس لمعرفة الدين كله، لمعرفة توجيهاته وأولوياته وأغراضه ومراميها، فمن خلال هذه المقاصد، مقاصد البعثة، نفهم كل ما انبنى عليها، وما تفرع عنها.

وإن مقاصد البعثة النبوية ومقاصد بعثة الرسل جميعاً، هي الأساس الذي تنبنى عليه شرائعهم. فلمعرفة مقاصد الشريعة وأحكامها لا بد من معرفة المقاصد التي تأسست عليها، ولا بد لكل اجتهاد في الشريعة، وباسم الشريعة أن يتأسس على مقاصد هذه البعثة، كما حددها المرسل سبحانه وتعالى.

وإن المقاصد التي بعث بها رسولنا ﷺ منها ما نص عليه القرآن مشتركة مع بعثة غيره من الرسل والأنبياء، ومنها مقاصد وردت عند ذكر خاتم الأنبياء بصفة خاصة.

ومن المقاصد المشتركة بين الرسل معرفة الله وعبادته وخلع ما سواه .
قال الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

عبادة الله وحده :

فإذن عبادة الله واجتناب عبادة كل ما سواه هي غاية مقصد مشترك
بعث له كل الرسل وإلى كل الأمم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا
أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

ومن المقاصد المشتركة التي ذكرها القرآن الكريم ، وهي مشتركة
وموحدة ، وبعث لأجلها الرسل جميعاً ، ما جاء في قوله تعالى في سورة
الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] فالقسط هو غرض آخر مشترك بين
الرسل والرسالات جميعاً .

والقسط ليس خاصاً بالقضاة والولاة والإدارات والشركات ، وإنما هو
قسط يمارسه المسلم ، ويمارسه المكلف في كل جزئية من جزئيات حياته ،
وفي كل مجال من مجالات حياته .

ففي الإنسان مع نفسه قسط ، ومع أهله وفي بيته قسط ، وفي معاملاته
قسط . هذا القسط العام الشامل هو الذي أرسل الله رسله بالبينات ،
وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس به ، وليحققوه وليتحلوا به ،
وليجعلوه منهج حياتهم .

وهذان المقصدان العامان المشتركان بين الأنبياء الواردان في الآيتين
السابقتين هما ما ذكره رباعي بن عامر المسلم قائد جيش المسلمين حين

التقى قائد جيش الفرس رستم ، فسأله : لماذا جئتم؟ وماذا تريدون؟ فقال : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .

فهو يفهم ويفهم المسلمون أنهم بعثوا بما بعث به رسول الله ﷺ .

هذه بعض المقاصد المشتركة التي ذكرت في القرآن الكريم عامة لجميع الأنبياء .

وهناك آيات خاصة تحدثت عن البعثة المحمدية فبينت مقاصدها وأغراضها ومراميها .

من ذلك ما نجده في قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

فحددت هذه الآية ثلاثة مقاصد :

أولاً : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ .

ثانياً : ﴿ يُزَكِّيهِمْ ﴾ .

ثالثاً : ﴿ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، فهي وظائف ثلاث ، أو لعلها مستويات ثلاثة لوظيفة واحدة ، هي وظيفة الرسالة .

أولها : مستوى التبليغ ، وهو مذكور ، وهو المشار إليه أو المنصوص عليه في قوله : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ . التلاوة والتبليغ تبليغ الناس ما أرسل إلى رسول الله ، وما حمله ، وما كلف بتبليغه .

المستوى الثاني هو : التزكية ، حيث يقوم بتربية الناس ، والأخذ بهم نحو التحلي والتحقيق ، والتخلق بما جاء به الوحي من معتقدات وقيم وآداب ، مع تعهدهم والتدرج بهم في هذا الطريق .

المستوى الثالث : ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ، ويظهر أنه مستوى أعلى وأوسع من سابقه ، فهو يقوم على عنصر العلم والتعليم ، تعليم الكتاب والحكمة ، والكتاب واضح معروف .

وأما الحكمة فقليل في تفسيرها هي السنة ، أخذًا من قوله تعالى في آية أخرى خطابًا لأمهات المؤمنين : ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب : ٣٤] . وهذا تفسير الإمام الشافعي للحكمة ، وفسرها غيره بما هو أعم وأوسع ، بحيث يشمل السنة وغيرها من فقه الدين وعلوم الشريعة .

فقد سئل الإمام مالك عن معنى الحكمة ، فقال : المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له ، وعلى كل الأحوال والأقوال فإن المقاصد النبوية في هذه الآية تبقى أساسًا مقاصد تربوية علمية تعليمية . ولذلك أعقبها الله تعالى بقوله : ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة : ٢] ، أي أنها تخرج الناس مما يعرض لهم من ضلال فكري أو سلوكي .

وقبل أن أنتقل من هذه الآية وما تضمنته من مقاصد للبعثة المحمدية ، فإن هناك ما يستوقفنا ويدعونا إلى الانتباه والتأمل ، وهو أن مضمونها قد تكرر بتمامه وألفاظه ثلاث مرات أخرى في القرآن الكريم ، مع اختلافات طفيفة في التركيب والترتيب . ففي سورة البقرة نقرأ : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وفي سورة آل عمران : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وفي دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لهذه الأمة من سورة البقرة أيضاً : ﴿رَبَّنَا وَأَنْتَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وواضح مما ذكر أن هذه المعاني التي تتكرر في القرآن الكريم أربع مرات ، واضح أنها ذات شأن كبير ووزن ثقيل في مقاصد البعثة المحمدية .

التزكية :

والتزكية هي الانتقال بالإنسان من الانحطاط والانحدار والتخلف إلى درجات الرقي والسمو الفكري والقلبي والروحي والخلقي ، فهذه هي رسالة الإسلام ورسالة نبي الإسلام ، تزكية شاملة ، وإيدان ببداية عهد جديد للبشرية ، وهو ما يتجلى في الجانب الثاني من هذه المقاصد ، وهو العلم والتعليم . رسالة الإسلام كما علمت الناس وزكّتهم وتليت عليهم ، فإنها شقت لهم الطريق كيف يتعلمون بأنفسهم ، وكيف يرتقون بأنفسهم ، وذلك هو تعليم الحكمة وتعليم الكتاب .

وقد لخصت الأحاديث النبوية أيضاً هذا المعنى وأكدت هذا المغزى ، كما في قوله ﷺ : «إِنَّمَا بَعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١) .

«إِنَّمَا بَعِثْتُ» بصيغة الحصر ، «لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» . وفي رواية الإمام مالك في «موطأه» : «بَعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حَسْنَ الْأَخْلَاقِ» .

(١) سبق تخريجه .

هذا في جانب التزكية عموماً ، وفي جانب الوظيفة العلمية التعليمية .
أخرج الدارمي في «سننه» ، وابن ماجه في «سننه» أن رسول الله ﷺ
مر بمجلسين في مسجده ، فقال : «كلاهما على خير ، وأحدهما أفضل من
صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء
منعهم . وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه أو العلم ، ويعلمون الجاهل فهم
أفضل . وإنما بعثت معلماً» . ثم جلس معهم . جلس مع مجلس العلم
والتعليم .

وبعد هذه النظرة السريعة على بعض الآيات المتعلقة بمقاصد البعثة ،
بعثة الرسل عموماً ، وبعثة خاتم الأنبياء خصوصاً ، أنتقل إلى الآيتين
الكريمتين المعتمدتين أساساً ومنطلقاً لهذا الدرس ، وهما الآيتان السادسة
والخمسون ، والسابعة والخمسون بعد المائة من سورة الأعراف . وقد
جاءتا جواباً على دعاء سيدنا موسى عليه السلام حين قال : ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

فجاءه الجواب والبيان من الله تعالى : ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ
أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُوْمُنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَهُمْ
عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] .

رحمة الله الواسعة :

وقد تضمنت هاتان الآيتان قضيتين محورتين أساسيتين :

القضية الأولى : هي رحمة الله الواسعة ، ومن يستحقها وكيف يستحقها ، فرحمة الله التي وسعت كل شيء ، قد تكرر ذكرها في موضعين آخرين من الذكر الحكيم ، ففي سورة الأنعام يقول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

وفي سورة غافر على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧] .

هذه الرحمة التي وسعت كل شيء ، منها ما أعطي ابتداء ، ويشمل هذه الدنيا بكل من فيها وكل ما فيها ، فهي تشمل المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وتشمل الكون كله والكائنات كلها ، فبرحمة الله يعيشون ، وبرحمة الله يتعايشون ، وبرحمة الله يرزقون ، وبرحمة الله يستمتعون ، وبرحمة الله يحيون ، وبرحمة الله يموتون ، إلى غير ذلك من مظاهر الرحمة والالطف في هذا الكون وفي هذه الحياة .

غير أن تمام الرحمة ودوامها وشمولها الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بما بينته الآيتان من شروط ومقتضيات ، تتلخص وتتركز في اتباع الرسول النبي الأمي ، وما جاء به من هدى ونور : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف :

فهذه الرحمة الواسعة التامة الدائمة تمر حتمًا عبر طريق تقوى الله ، والإنفاق في سبيل الله ، والإيمان والتمسك بآيات الله .

وبما أن الموضوع جاء في سياق مخاطبة موسى عليه الصلاة والسلام ، وقومه بني إسرائيل ، فقد استدعى الأمر تذكيرهم بأن طريق الله وطريق رحمة الله ستصبح منوطة باتباع نبي الرحمة الرسول النبي الأمي المبشر به وبصفاته عندهم في التوراة والإنجيل .

فهذا الرسول الذي ختم الله به الرسالة والنبوة وجعل رسالته خاتمة الرسالات ، قد أصبح بشخصه وبرسالته وشريعته مفتاح الرحمة والسييل الموصلة إليها ، وإلى تمامها ودوامها ، فهو أولًا ما بعث إلا بالرحمة ولأجل الرحمة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وهو القائل عن نفسه : «إنما بعثت رحمة»^(١) ، وقال : «إنما أنا رحمة مهداة»^(٢) ، وقال عنه ربه الذي أدبه وبعثه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وصفه بما وصف به نفسه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وهذا الرسول يوصف بأنه : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٩٨١) ، والحاكم في «المستدرک» (٩١ / ١) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرطهما . وقال الذهبي في «التلخيص» : على شرطهما ، وتفرد الثقة مقبول . وقال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ٤٦١) : رواه البزار والطبراني في «الصغير» و«الأوسط» ، ورجال البزار رجال الصحيح .

وخاطبه بقوله : ﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمة بقلبه وقالبه ، بقوله وفعله ، بشريعته وبعثته ، قال العلامة ابن عاشور عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

قال : وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين :

الأول : تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة .

والثاني : إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته .

ونقل القاضي عياض في «الشفاء» عن أبي بكر بن طاهر القيسي الإشبيلي قوله : زين الله سيدنا محمدا ﷺ بزينة الرحمة ، فكان كونه رحمة ، أي وجوده رحمة ، وجميع شمائله رحمة ، وصفاته رحمة على الخلق ، وهو القائل ﷺ في أكثر المواقف حاجة إلى الشدة حينما كان يؤذيه قومه ، ويتنكرون له كان يقول : «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١) .

هذه أعظم مظاهر الرحمة أن يكون الإنسان مع أعدائه وفي مواقف الشدة والمواجهة لا يدعو عليهم ، ولا ينتقم منهم ، وإنما يقول : «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ، وعندما فتح الله عليه مكة ، وجاء أهلها خائفين ، طائعين مضطربين ، قال لهم وهم يتوقعون كل شر وبأس ، قال لهم : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وفي الحديث قال ﷺ : «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجاوز في صلاتي ، مما أعلم من وجد أمه على بكائه»^(١) .

والأمثلة من رحمته في جميع المواطن والمواقف لا تعد ولا تحصى ، ولهذا لم يكن بد لمن أراد تمام الرحمة في الدنيا ودوام الرحمة في الآخرة ، من أن يتبع هذا الرسول النبي ، وأن يستمسك بهذه الرحمة المهداة : ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

المقاصد التشريعية للبعثة المحمدية :

القضية الثانية : في هاتين الآيتين المقاصد التشريعية للبعثة المحمدية ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَهُمْ لَهَا الْطَّيِّبَاتِ ۚ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ ۚ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

فهذه المبادئ الخمسة : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وإبطال الآصار والأغلال ، هي مبادئ ومقاصد للبعثة في حد ذاتها .

ولكنها في الوقت نفسه تكون الأسس والأصول التي قامت عليها الشريعة الإسلامية ، ويقوم عليها التشريع الإسلامي ، ويجب أن يرجع إليها وينبني عليها كل اجتهاد إسلامي .

(١) سبق تخريجه .

وفيما يلي وقفات سريعة مع هذه المقاصد أو هذه الأصول الخمسة :

الأمر بالمعروف:

أولاً : الأمر بالمعروف : والمعروف : اسم جامع لكل خير ، ولكل مصلحة من مصالح الدنيا وخيراتها ، ومن مصالح الآخرة ولوازمها .

فالمعروف يشمل أولاً كل ما أمر الله به ، كل ما أمر الشرع به أو حث عليه ، أو رغب فيه أو أرشد إليه .

والمعروف يشمل كل ما يستحسنه العلماء والعقلاء من خلال علمهم وتجربتهم وخبرتهم .

قال القاضي عبد الحق بن عطية الأندلسي : المعروف ما عرف بالشرع ، وكل معروف من جهة المروءة ، فهو المعروف بالشرع .

وقال ابن عاشور : فالمعروف شامل لكل ما تقبله العقول والفطر السليمة .

والمعروف بهذا المعنى الواسع الشامل تشهد له وتؤيده وتقويه نصوص شرعية كثيرة منها : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠] ، ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧] ، ﴿ وَأُحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

إلى غير ذلك من هذه النصوص المشرقة التي لم تبق شيئاً من أعمال الخير والإصلاح ، ومن مبادرات البر والإحسان إلا شملته وانطوت عليه .

ولذلك ذهب عدد من العلماء والدارسين قديمًا وحديثًا إلى أن كل ما عرفته البشرية من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، ومن أعمال الخير والبر ، كل ذلك راجع إلى الدين وإلى دعوات الأنبياء ورسالاتهم .

ولو ذهبنا اليوم نبحث عن الأصول الثقافية ، والجذور التاريخية لما يسمى بالعمل الإنساني والمنظمات الإنسانية لوجدناها نبنت أو نبعت من الدين وتراثه ، ونبنت في تربته وفي أحضانه ، وبهديه وإيجائه .

النهى عن المنكر:

ثانيًا : إزالة المنكر : والمنكر ضد المعروف ، ودون أن أطيل فهذا الأصل الملازم للأصل السابق هو متممه ، والوجه الآخر له ، وقد تلازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النصوص القرآنية والحديثية ، حتى أصبحا في أذهاننا يمثلان شيئًا واحدًا ، وقضية واحدة ، فلا يذكر الأمر بالمعروف إلا ومعه جزءه الثاني : النهي عن المنكر .

والحقيقة أن الشريعة كلها عند التأمل والتحقيق هي إما معروف تأمر به وتقيمه ، وإما منكر تنهى عنه وتزيله ، ولذلك دأب العلماء وعلماء المقاصد خاصة على اختصار الشريعة في كلمتين جامعتين هما : جلب المصالح ودفع المفاسد ، أو كما عبر الجويني إمام الحرمين : الشريعة نفع ودفع .

ولم تقف الشريعة الإسلامية عند حد اعتبار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الأصلين الأكبرين من أصولها ، والمقصدان الأولين لبعثة رسولها ، بل جعلتهما رسالة ووظيفة للأمة الإسلامية كلها ، والنصوص في هذا كثيرة وفيرة مشهورة .

وها نحن اليوم نسمع ونشهد الحديث المتزايد عن المجتمع المدني وهيئات المجتمع المدني، وتفعيل دور المجتمع المدني، فمرحبًا بهذه الصحوه التي لا تكون سوى إحياء وتفعيل واستعادة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي هي وظيفة المجتمع الإسلامي.

ثالثًا: تحليل الطيبات.

رابعًا: تحريم الخبائث.

وسأتحدث عن هذين الأصلين مجتمعين، ربحًا للوقت أولاً، ولصعوبة الفصل بينهما ثانيًا.

ولعل أول ما يحتاج إلى توضيح هو التمييز بين الأصلين السابقين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذين الأصلين: تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث.

وملخص هذا التفريق هو: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شاملان لكل الأفعال ولكل التصرفات والمجالات، والتعبير بالطيبات والخبائث عادة ما يتوجه إلى المآكل والمشارب والمكتسبات من الأموال.

وقد وصف الله تعالى أهل العفة والحصانة من النساء والرجال بالطيبين والطيبات، ووصف أهل الزنا بالخبائث والخبائث في قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وهذا لا يخرج وصف الأشياء بالطيبات عما ذكرته من خصوصية وغلبة في الاستعمال.

وأما تعريف الطيبات والخبائث، والتفريق بين الوصفين، فأبدأه بتعريف الخبائث؛ لأنها محدودة ومنضبطة، وأما الطيبات فلا حد لها والحمد لله.

فإذا عرفنا الخبائث كان ما سواها كله من الطيبات ، والخبث الذي توصف به المواد المأكولة والمشروبة أو الأموال المكتسبة ، فتسمى لأجله خبائث ، نوعان : خبث ذاتي ، وخبث حكمي .

الخبث الذاتي :

فالخبث الذاتي : هو ما يكون صفة ذاتية حسية في الشيء ، كالمواد النجسة والقذرة والمتعفنة ، وكذلك الأشياء الضارة ضررًا بيئًا غالبًا في الحال أو في المآل .

ويدخل في هذا جميع الأطعمة والأشربة والمواد الفاسدة أو المفسدة للجسم أو العقل أو المزاج ، كالمتة ولحم الخنزير والخمر والمخدرات والتدخين .

الخبث الحكمي :

وأما الخبث الحكمي : فهو ما لم يكن خبيثًا ولا ضارًا في ذاته ، ولكنه خبيث من حيث الطريقة المحرمة التي اكتسب بها ، كالمال المكتسب بالرشوة أو السرقة أو الربا أو الغش ، فسواء كان نقدًا أو مأكولات ، أو تحول إلى ملابس أو عقارات ، فهو خبيث في حكم الشرع ، ولو كان في ذاته طيبًا وجيدًا ورفيعًا .

وليس من الممكن في حكم الشرع ، تبييض المكاسب السوداء أو تطيب الخبائث ؛ لأن الخبث هنا حكم لا ذاتي ، ولا سبيل إلى الخروج من ذلك إلا بالتوبة ، والتخلص من المكسب المحرم ، ورد الحقوق إلى أهلها .

فإذا عرفت الخبائث فكل ما ليس منها وما لم يدخل فيها فهو من الطيبات .

وهذه القاعدة :

﴿مُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَمُحَرِّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، هي مظهر آخر من مظاهر رحمة الله .

ومن مظاهر الرحمة في شريعته ، أن تطلق يد الإنسان في كل ما ينفعه ولا يضره ، مما في هذا الكون من خيرات ومنافع ، ونعم لا تعد ولا تحصى ، وفي هذا من الرحمة أيضاً ما فيه ، تحمى الإنسان من أن يوقعه جهله أو جهالته أو جشعه في شيء مما يضره أو يهلكه وهو لا يدري أو لا يقدر ، كما أنها تحمي الناس بعضهم من بعض ، فحقوق الغير إذا أخذت بغير رضاهم هي خبائث لمن أخذها .

ومن هذه الآية استخرج العلماء القاعدة التشريعية : «الأصل في المنافع الحل ، والأصل في المضار الحرمة» .

إزالة الأصار والأغلال :

خامساً : إزالة الأصار والأغلال : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

والإصر : معناه في الأصل الثقل الذي يعوق صاحبه عن الحركة .

والأغلال : جمع غل : وهو ما يكبل به الأسير والمحبوس .

والآية تشير إلى بعض الأحكام المشددة الثقيلة التي عرفتها الشرائع والأمم السابقة ، وخاصة بني إسرائيل ، وهو المذكورون في سياق الآية .

ومن الأحكام الثقيلة التي فرضت على بني إسرائيل : تحريم العمل يوم السبت ، وتحريم الغنائم ، ووجوب القصاص في العمد والخطأ معاً ، وأن

لا تقبل توبة أحدهم إلا بأن يقتل نفسه ، وإذا أصابت النجاسة الثوب لزم قطع موضعها .

وبغض النظر عن هذه الأمثلة أو غيرها ، فإن الأهم هو أن نعرف الأسباب والحكم التي استدعت بعض التشديدات عليهم ، وهي أسباب مصرح بها أو مشار إليها في القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٠ ، ١٦١] .

وهذا يذكرنا بالقولة الشهيرة للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور . أي من انحرافات ومشاكل ، فبنو إسرائيل لكثرة ظلمهم وصددهم عن سبيل الله ، ولشدة طمعهم وجشعهم وانغماسهم في الربا ، وفي أكل الأموال بالباطل ، وأيضًا لشدة قسوة قلوبهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] .

لهذه الأسباب وأمثالها كان الله تعالى يشدد عليهم عقوبة وردعًا ، ومن أسباب التشديد أيضًا عليهم ، ما نجده في قصة البقرة ، وهي معروفة حيث ركبوا كعادتهم مركب الالتواء والتعقيد والمماطلة ، تهربًا من تنفيذ ما أمروا به ، فلم يزد الأمر عليهم إلا تشديدًا وضيقًا : ﴿ فَذَنُّوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] .

ومن أسباب التشديد عليهم أيضًا لجوئهم إلى التحايل على أحكام الله لنقضها ومخالفتها مع المحافظة الشكلية عليها كما في قصتهم مع صيد السمك في يوم السبت ، وهي مفصلة في القرآن .

وقبل أن تأتي الرسالة الخاتمة ، نجد أن رسالة سيدنا عيسى عليه السلام ، قد جاءت ببعض التخفيفات على بني إسرائيل ، لعلهم يتعظون ويرجعون ، فقد جاء على لسان عيسى بن مريم وهو يخاطبهم برسالته : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

فلما جاءت خاتمة الرسالات ، وهي موجهة للعالمين ، ومستمرة إلى يوم الدين ، أبطلت كل تلك التشديدات الاستثنائية ، ونهجت منهج اليسر والمرونة والرحمة من غير تفريط ولا انحلال ، فألغت الأغلال والآصار ، وأبطلت الرهبانية والغلو ، وأقامت شريعتها على الاعتدال والتوازن والتخفيف : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وفي كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» باب : الدين يسر ، وقول النبي ﷺ : «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» ، وفيه ، أي في هذا الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» .

وفي البخاري أيضاً من كتاب «الجهاد والسير» أن النبي ﷺ لما بعث معاذ ابن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن قال لهما : «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا» .

وفي «الصحيح» أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها» .

وواضح ما في هذه الأحاديث الشريفة ، ما كان عليه رسول الله ﷺ من تمسك باليسر والتيسير ، ومن حرص على السماحة والتسامح ، ولكن من الواضح أيضاً في هذا الحديث الأخير أن ما فيه إثم وتحريم ، وما فيه انتهاك لحرمة الله ولحدوده ، لا يمكن تركه وإهداره باسم التسامح والتيسير .

وإذا كان الإسلام قد جاء يضع ويلغي ما عرفته الأمم السابقة في دينها وتدينها وحياتها من آصار وأغلال ، فإنه أحرى أن يكون مانعاً ومتنافياً مع ما قد يحدث في المسلمين من ذلك ، ولذلك شدد الإسلام النكير والتحذير من البدع والمحدثات في الدين والتدين ، وللأسف فقد تراكم في عقول المسلمين وتدينهم وحياتهم الشيء الكثير من الآصار والأغلال التي لا يمكن تجديد الدين وإطلاق حيويته وفاعليته إلا بنقضها وتخفيف الناس منها .

المحاضرة الخامسة والسبعون

أسس الاستقامة في منهج الفكر الإسلامي

جاء من حديث مسلم في كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، كلهم عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن سفيان بن عبد الله الثقفي ، قال : « قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، وفي حديث أسامة : غيرك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم » .

هذا الحديث الذي رواه إمام أهل الحديث أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري في باب ترجم له : « جامع أوصاف الإسلام » وفي كتاب : « الإيمان » ، والذي يقول فيه رسول الله ﷺ حين سئل عن الأمر الذي ينبغي أن يأخذ به المؤمن فقال : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

هذا الحديث انفرد به مسلم عن البخاري ، ورواه من طريق هشام ابن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي ، ولم يرو لسفيان بن عبد الله الثقفي حديثاً آخر في « صحيحه » .

وهو حديث قد عني به كثير من أئمة المسلمين ، ومن أصحاب السنن ، فوجدناه عند الترمذي وابن ماجه ، والإمام أحمد والنسائي ، فهو عند الترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل من رواية الزهري عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان ، ومن طريق أخرى عند الترمذي من رواية عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان .

ويرويه النسائي وأحمد بن حنبل من طريق أخرى ، هي رواية عبد الله ابن سفيان عن أبيه ، وعندما تتعدد الطرق في الحديث الواحد تختلف

أحيانا كثيرة الألفاظ أو الصيغ التي ورد بها ذلك الحديث ، كما أن الحديث يختلف من رواية إلى أخرى بما يضم إليه من زيادات ، ولذلك عندما نعود إلى رواية الإمام الترمذي نجده بهذا اللفظ ، «قلت : يا رسول الله ، حدثني بأمر أعصم به ، قال : قل ربي الله ثم استقم ، قال يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال : هذا» .

وقد عقب الإمام الترمذي على هذا الحديث بوصفه بكونه حديثاً حسناً صحيحاً .

وأما النسائي والإمام أحمد فقد روايا هذا الحديث بصيغة أخرى تختلف عن الصيغ الأولى ، وهي : «أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل : آمنت بالله ثم استقم . قلت : فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه» .

وهذان الحديثان يتفقان اتفاقاً كاملاً مع الحديث الأول الذي رويناه للإمام مسلم .

ولكن حديثاً آخر قريباً من هذا ، ورد عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، حيث قال : «يا رسول الله أوصني . فقال رسول الله ﷺ : قل : ربي الله ثم استقم ، قال : قلت : ربي الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، فقال رسول الله ﷺ مخاطباً لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ليهنك العلم أبا الحسن»^(١) .

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٥) ، وفيه زيادة في آخره : «لقد شربت العلم شرباً ، ونهلته نهلاً» ، وعزاه صاحب «الكنز» (١٣/ ١٩٤) لأبي نعيم وقال : وفيه الكديمي .

وإنما أتينا بهذه الصيغ المختلفة لتتصور مدى اهتمام المسلمين بأمر دينهم ، فهم أقرب الناس من رسول الله ﷺ يعايشونه ويتجهون بتوجيهه ، ويعملون بقوله ويقتدون به في فعله ، وتبقى في نفوسهم وساوس ومخاوف ، ويريدون اتقاء الشر من أي طريق كان ، ولذلك يلجئون إلى رسول الله ﷺ مستوضحين السبيل وطالبيين منه إما التوجيه أو النصيحة ، فقال : قل لي في الإسلام أمرا لا أسأل عنه أحداً بعدك ، وقال الثاني : حدثني بأمر أعتصم به ، وقال الثالث : أوصني يا رسول الله ، فهذا يدل على إلحاح المسلمين الأولين والرعييل الصالح المتقدم الذين كانوا عماد هذا الدين وناشريه في العالم في أطراف المعمورة ، كانوا يحرصون على هذا الهدى الديني الإسلامي ، ونحن لا نستطيع في عجالة أن نأتي بكل ما قيل عن هؤلاء الرواة الذين ورد عن طريقهم هذا الحديث عند ابن ماجه والترمذي والنسائي والإمام أحمد ، ولكننا نكتفي بالرجال الذين ذكرهم في إسناده الإمام مسلم .

ففي حديث الإمام مسلم نجد الراوية الأول هو هشام بن عروة ، الذي يروي عن أبيه ، عن سفيان بن عبدالله ، وهشام هذا هو أبو المنذر ولد سنة (٦١) وتوفي سنة (١٤٦هـ) شهد له النقاد بكونه ثقة مأمونا ، غير أن الإمام مالكا رحمته الله لا يرضاه ، ووقع التساؤل عن سبب عدم رضا الإمام مالك عنه فقليل : لكونه كان يتساهل في الرواية بالعراق فيرسل عن أبيه ما كان سمعه من غير أبيه .

وأما عروة بن الزبير والده الذي روى عنه هذا الحديث وهو عروة ابن الزبير بن العوام ، فقد كان تابعيًا ولد سنة (٢٣) وتوفي سنة (٩٤هـ) ، وهو ثقة مأمون ، حافظ لحديث عائشة رضي الله عنها ، فقيه ، عده أبو الزناد في

الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، ووصفه ابن سعد في طبقاته بكونه كان بحرًا لا ينزف لسعة روايته وكثرة علمه ، وإفادته العامة للناس .

وأما سفيان راوي الحديث عن رسول الله ﷺ ، سفيان بن عبد الله الثقفي فهو أبو عمر ، وقيل أبو عميرة ، وهو عامل عمر بن الخطاب على الطائف ، سمع النبي ﷺ ، وكانت له صحبة كما روى عن عمر بن الخطاب أحاديث كثيرة .

وهذا الحديث الذي بين أيدينا تتلخص الرواية أو موضع البحث فيه في الجملة الأولى مقارنة بما يساويها ويوازيها في الرواية الثانية ، لأنه في رواية مسلم بلفظ : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

وفي الرواية الثانية عند الترمذي « قل ربي الله ثم استقم » وكلتا الصيغتين تدل دلالة واضحة على أن عماد الدين هما هذان الأمران : الأمر الأول هو الإيمان بالله ، والأمر الثاني هو الاستقامة ، غير أن تفصيل هذا الأمر وبيانه يحتاج إلى تأمل لاختلاف الأئمة العلماء في ذلك ، في العصر الأول ، عصر الخلفاء الراشدين وما بعده ، فإن هذا اللفظ الصغير الذي جمع معانٍ كثيرة يشهد له مسلم بكونه من جوامع الكلم ، حين ترجم له بقوله : « باب جامع في أوصاف الإسلام » . كما يشهد له عياض رحمه الله بتصريحه بقوله : هذا من جوامع الكلم . وجوامع الكلم هي عبارة عن الألفاظ الدقيقة القليلة التي جاءت لتأدية معانٍ كثيرة ، وكانت بذلك تفتح للناس الأبواب مشرعة ليجدوا فيها الحكمة ويتدبروا أحكام هذا الدين .

والحديث : « قل آمنت بالله ثم استقم » أو « قل ربي الله ثم استقم » يقوم أولاً على أساس التوحيد وبيانه ، وعلى الطاعة لله سبحانه وتعالى فيما أمر به ، فإذا جمعنا الطاعة إلى التوحيد ، وجدنا أمرين متلازمين متكاملين ؛ لأن

المؤمن الكامل الموحد لا يكون إلا طائعا لله ، مؤديا لما طلب منه ، قائما بالواجبات ، منتهيا عما نهى عنه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، وبذلك فإن أطراف الحديث تلتئم ، فتكون الرجل الصالح ، والرجل المؤمن ، والرجل الكامل .

وهذا المعنى الذي يشير إليه الحديث هو في الواقع مقتبس من القرآن الكريم ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] . وهذا في سورة فصلت .

ووردت آية أخرى ثانية هي قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٣-١٤] ، والآية الثانية هذه من سورة الأحقاف .

فإذا نظرنا إلى الأصل الذي هو مشكاة الإيمان ومشعل الديانة والنور الرباني الذي يقود الناس إلى الصالحات في القرآن ، ووجدنا تفسير ذلك في السنة النبوية التي تقرر الحكمة وتبرزها للناس ليعرفوا الطريق الواضحة التي عليهم سلوكها ، انتهينا إلى تقرير معنى الاستقامة ؛ لأن الإيمان بالله - وهو الجزء الأول - مفهوم من كل الناس ، وكذلك « قل ربي الله » .

فهذه الحقيقة وهي حقيقة الإيمان وحقيقة التوحيد لا تحتاج إلى تحليل ، ولكن الذي يحتاج إلى بيان هو الاستقامة ، الاستقامة في قوله ﷺ : « ثم استقم » ، وهي أيضا صيغة وردت في القرآن كثيرا كما سيأتي ، فهذه الاستقامة عرفها الفيروزابادي في « بصائر ذوي التمييز » ، بكونها الاعتدال ،

الاستقامة هي الاعتدال ، هي عدم الانحراف والاعوجاج ، وهي تطلق وصفاً على الأمور الحسية ، فيقال : طريق مستقيم ، وصراط مستقيم ، وسبل مستقيمة ، وتطلق وصفاً على الأشياء العقلية أو المعقولة أو المعنوية ، فيقال : هذا تفكير مستقيم ، وهذا رأي مستقيم .

المقصود بالاستقامة أمران :

ولذلك فإن الاستقامة يوصف بها الأمران ، الأمر الحسي والأمر المعنوي أو المعقول .

والاستقامة بهذا المعنى أطلقها العلماء قديماً ، والسلف منهم بخاصة على أمرين اثنين ، وصفوا بها أعمال القلب ، ووصفوا بها أعمال الجوارح ، والمقصود من أعمال القلب الذي هو محل الإيقان والإذعان والاعتراف بالخالق والإيمان ، وصف القلب بالاستقامة ، أي قيامه على التوحيد .

وأما وصف الجوارح التي هي عبارة عن المصدر لكل أنواع السلوك الإنساني والتعامل البشري فإن الجوارح التي يمكن أن تكون أعمالها خيرة ، ويمكن أن تكون غير خيرة ، طلب منها أن تكون مستقيمة ، فيوصف القلب بالاستقامة ، وتوصف الجوارح بالاستقامة ، دعوة إلى تحقيق هذا المعنى فيها .

لكن بعض الأئمة من الخلفاء الراشدين ، كالإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ جعل الاستقامة بمعنى التوحيد ، لأن التوحيد هو الأصل ، والذي يوحد ربه ، ويخلص له دينه وينقاد إلى أمره ونهيه ، ويلزم طاعته يكون قد وحد ربه توحيداً كاملاً ، أما الذي يكون توحيداً ضعيفاً أو منقوصاً أو غير كامل فإن الجوارح لا تستجيب ، ولا يكون هناك طاعة ولا

انقياد على الإطلاق أو في كل الصور والأحوال ، ولذلك جعل الاستقامة بمعنى التوحيد الكامل .

وفي هذا المعنى تطابق بين صدر الحديث وآخره ، لأن قوله ﷺ : « قل آمنتم بالله » أو « قل ربي الله » مع الجزء الثاني منه : « ثم استقم » يكونان عند أبي بكر الصديق بمعنى واحد أو بمعنى متقارب ومتكامل .

أما الفاروق رضي الله عنه عمر بن الخطاب فقد كان يجعل الاستقامة بمعنى الطاعة والانقياد الكامل لله والإذعان له والامتثال لأوامره والانتهاز عما نهى عنه ، ويسمى البعد عن هذا المنهج ليس استقامة ، ولكنه يصفه بقوله : يروغ كما يروغ الثعلب ، لأنه يبحث لنفسه عن مخرج للوقوع في تلك الموبقات أو البعد عن الاستقامة على أمر الله ، فيكون ذلك سببا في بعده عن المعنى الأصلي الذي أشار إليه رسول الله ﷺ .

فإذا أخذنا هذين المعنيين على التوالي ، وجدنا أن التوحيد الذي هو أمر من المطالب العالية لم يهتد إليه الناس بفطرتهم ، ولم يكلفهم الله سبحانه وتعالى بالوصول إلى هذه الغاية بعقولهم وحدها ، وإنما أنقذهم وأمدهم بأشياء كثيرة أعانتهم على الوصول إلى حقيقة التوحيد ، وذلك بعدما كانوا في جهالة عمياء ، وبعدها كانوا يعبدون الأصنام ، ويعبدون الطبيعة ويعبدون النار ، ويعبدون الأفلاك ، ويقول بعضهم بالاتحادية ، والبعض الآخر بالحلول .

هذه المذاهب البعيدة عن الملة ، والتي نبه الرسل والأنبياء جميعهم على كونها لا تسير على المنهج الإسلامي ولا تتفق معه تحتاج إلى من يردّها ويبطلها ، ويقيم الحجة على الضلال الموجود فيها ، وعلى الشرك والكفر

والنفاق الذي يلابسها ، فكان سبيل ذلك الوحي وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين وإنزال الكتب من الله سبحانه وتعالى .

فلو أن واحدًا منا أخذ القرآن يتدبره ويتتبع الأدلة الكونية التي أشار إليها الله سبحانه وتعالى في كتابه ، ويتتبع الآيات المختلفة التي وردت في غير ما آية في السور الطوال وفي قصار المفصل ، في كل القرآن جميعا نجد شواهد على التوحيد وبراهين على الوحدانية ، ودعوة صريحة إلى الأخذ بالسبيل الرابحة ، ولذلك لم يبق الله سبحانه وتعالى لأحد عذرًا عندما أرسل الرسل ، وعندما بين لهم هذه الحقيقة ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ؛ لأن ما دون ذلك يجوز التسامح فيه .

التوحيد :

أما الوحدانية والإيمان بالله والانقياد له والإخلاص في الدين فذلك أمر حتمي لا سبيل إلى التأخر عنه ، ونحن نعلم بأن التوحيد نوعان : هناك توحيد الألوهية وهو مقاومة التعطيل أو نفي التعطيل ؛ لأن من الناس من يقول : لا وجود للإله ، لا خالق ، ينكرون واجب الوجود .

وهناك من يشبه الله سبحانه وتعالى بالأنداد ويمثله بما دونه ، فجاء النهي عن التعطيل وعن التمثيل وعن التشبيه ، وذلك هو معنى توحيد الألوهية .

وأما توحيد الربوبية وهو المعنى الثاني فهو الحرص على توجيه الوجه للذي فطر السموات والأرض ، لا للأنداد الذين يزعم أحيانًا بعض الناس أنهم يحققون لهم ما لا يحققه الله ، أو الأشخاص الذين لهم من السلطان والقوة والرهبة ما يخيفون به أتباعهم فلا يستطيعون الخروج

عليهم ، ولا الهوى الذي من النفس منتزع منها يضلها ولا يهديها ، ويجعلها في حرج من الأمر في كل ما تأخذ به من العمل .

وكذلك المال ، حب المال والتعلق به ، وحب المصالح ، والفناء في تحقيقها ، كل ذلك كان يسبب مشاكل اجتماعية وفردية واقتصادية ونفسية للمجتمعات البشرية ، أو الإنسانية التي حادت عن الصراط السوي ومن اهتدى .

ولذلك نجد أقرب السور إلينا التي نقرأها دائماً ونردها وهما : سورتا الإخلاص ، أو إن شئتم سورة الكافرون وسورة الإخلاص ، فهما عنوانان على التوحيد الذي أمر به الله ، والفرار من عكسه ومن الإشراك ومن النفاق ومن الضلال وما يتبع ذلك من أسوار ، أساسها الضعف الفكري ، والجهالة التي تسطو على العقل والقلب .

فالإقرار بوجود الله البارئ الخالق المصور الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القاهر فوق عباده ، الذي بيده كل شيء ، والتعرف على أسمائه التي كملت حقيقتها في ذاته أتم كمال ، والمعرفة بصفاته القدسية المميزة له عن غيره أو عمن دونه هي التي تجعل المؤمنين الصادقين والموحدين المخلصين في راحة من أمرهم وفي اعتناء في تصوراتهم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] .

التوحيد حرر الإنسان من هواه ومن عبودية الناس :

والتوحيد إلى ذلك حرر الإنسان من نفسه أي من هواه ، وحرر الإنسان من غيره ، فمكن له العقل والملكات والقوى ، وكلفه وجعله يقبل المسؤولية ، ولولا ذلك لكان عبداً منقاداً ذليلاً لا شعور له بأي كرامة .

ثم نجد أن هذا الإيمان الذي طولبنا به ، وهذا التوحيد الذي أقرنا عليه رسول الله ﷺ ، ينبغي أن يكون صادقاً ، ومعنى كونه صادقاً أن الاعتداد بالإيمان لا يكون ثابتاً إلا بشرط ألا يكون نظرياً ، صاحبه مقطوع الصلة بالله ، لأن انقطاع الصلة بين العبد وربّه - وإن كان يدعي الإيمان - إذا كان إيمانه نظرياً لم يمس قلبه ولا يحرك جوارحه ولا يدفعه إلى خير فهو ليس من الإيمان .

ثم نجد أن تنكب الناس هذه الحقيقة وبعدهم أفراداً وجماعات عن هذا المنهج قد أورثهم أدواء كثيرة ، أدواء فردية ، وأمراضاً اجتماعية .

ونجد هذا حتى في تاريخ الحضارة الإنسانية حين نقرأ لبعض الغربيين اليوم ما كتبوه عن الثغرات التي تركها الإلحاد والمادية والبعد عن الله في سلوكهم وحياتهم ، وجعل هذه الحضارة غير معتد بها ، ولا يمكن أن تدوم ، لأنها تقود أصحابها إلى الهاوية ، ومن هذه الكتب التي ألفت في هذا الغرض ودعت إلى بيان هذه الحقيقة ، «الحضارة الغربية» أو «سقوط الحضارة الغربية» «الإنسان ذلك المجهول» «العلم يدعو إلى الإيمان» «البديل» .

فهذه الكتب تتساق مع بعضها لبيان هذه الحقيقة والتنبيه على أ ، فراغ الحضارة المادية يشبع الروح ويملؤها إيقاناً وراحة ولطفاً وأماناً ، فكل ذلك لا يمكن أن يكتسب من الأشياء المحسوسة المادية وإنما يطلب من الله سبحانه وتعالى الذي يفرغ في قلوب المؤمنين ما يحتاجون إليه من راحة ويملاً صدورهم من طمأنينة ويجعلهم متلاقين في هذه الحياة على الخير .

الطاعة:

وأما المعنى الثاني الخاص الذي هو الطاعة والذي أشار إليه عمر بن الخطاب بأن يكون المسلم أو المؤمن ملتزماً بدينه لا يروغ في تطبيق ما طلب منه روغان الثعلب ، هذا المعنى يقود إلى الالتزام بالأحكام الشرعية والاستقامة على منهج الله ، لأن معنى الربوبية يكون أبرز ما يمكن أن يمكن به المرء بينه وبين خالقه ، وذلك عندما يذكر خشية ربه وإجلاله له ومهابته ومحبته ورجاءه فيه وتوكله عليه والالتجاء إليه . . . ونحوه بالدعاء .

ولذلك لتحقيق هذه المعاني ورد في القرآن الكريم دعوة الرسول ﷺ ، ودعوة أصحابه من حوله إلى الأخذ بأسباب الاستقامة ، حتى وردت في سورة هود الآية الكريمة : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢] .

وسئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية وعن آيات القرآن كلها ، فقال : شيبني هود وأخواتها ، وإنما جاء هذا الشيب وجاء هذا الإرهاق الذي يحصل للإنسان لورود أوامر متكاملة متتابعة ، الأول هو الأمر بالاستقامة ، والاستقامة على دين الله كما أمرت أنت ومن معك ومن تاب معك ، ثم الأمر بعدم التجاوز ، عدم تجاوز الحدود التي رسمها الله ، لأن تجاوز هذه الحدود سباه الله سبحانه وتعالى طغياناً ، ونحن ينبغي أن نحذر من الطغيان .

ثم حذر الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله محمداً ﷺ وحذر المؤمنين كافة بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢] ، أي لا يقع منكم شيء في هذه الحياة الدنيا إلا على بصر ومرأى من الله سبحانه وتعالى ، وهذه

الاستقامة أمرها صعب لتعدد متعلقاتها بالنسبة للاستقامة ، هي العقائد حيث ينبغي أن يجاهد الإنسان نفسه مجاهدة طويلة حتى لا يقع في التعطيل والتشبيه ، وعلاقتها بالأعمال حتى لا يغير ولا يبدل ما أمر به الله ، ولا ما ارتضاه لعباده ، وعلاقتها بالأخلاق حتى يلتزم الحد الوسط الذي وصف به المؤمنين حين جعلهم أمة وسطاً ، وذلك ليتعدوا عن الإفراط والتفريط .

هذه المعاني هي التي دعت الرازي في تفسيره إلى القول بأن الاستقامة أمرها صعب ، ولا يستطيعها كثير من الناس ، ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما أورده أحمد في مسنده : «سددوا وقاربوا» .

ينبغي أن نحرص على التسديد أي تسديد أعمالنا ومقاربة ما أمر به الله حتى لا نكون بعيدين عنه في حالة من الحالات ، وقال الحسن رحمته الله سبط رسول الله ﷺ ، وقد وعى هذه المعاني وتصورها «اللهم أنت ربنا ارزقنا الاستقامة» .

مزايا الاستقامة :

ومزايا الاستقامة كثيرة ، قال القشيري : «هي درجة فيها كمال الأمور وتماها ، وبها أصول الخيرات وانتظامها ، وبدونها يكون السعي خائباً والجهد ضائعاً» ، ومرة أخرى يصفها أهل المعرفة بقولهم : هي صفة للرجال أو للكمال من الرجال ، صفة لأهل الكمال ، معناها أو حقيقتها تتمثل في الخروج من المعهودات ومفارقة العادات ، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق .

وما لنا والناس يطلبون الرفعة ، وينشدون المعالي ، ويريدون الكرامة ، فإذا أعطوا هذه الكرامة رضوا ، وإذا ما طلب منهم أن يسعوا إلى تحقيق الكرامة بأنفسهم تقاعسوا ولذلك فرق الناس بين أمرين بين الكرامة التي

هي منحة تعطى للإنسان فيرتفع بها قدره وتعلو بها منزلته ، وبين الاستقامة التي هي طلب من الله سبحانه وتعالى لعباده بأن يكونوا على الحق ، فهذه ينبغي أن يسعى لها الإنسان .

وإذا جمعنا بين الكرامة والاستقامة أدركنا أن الاستقامة أفضل ، وعلمنا أنها هي السبيل الوحيد للوصول إلى تحقيق القيادة والريادة .

وهنا أختصر القول لأن الموضوع يحتاج إلى إطناب وشرح طويل ، ولكني أقول : «إن عنوان الدرس هو أسس الاستقامة في منهج الفكر الإسلامي» ، انطلاقاً من هذا الحديث ، وكان علينا التزاماً أن نتعرض للحديث ، فما هي هذه الأسس التي دعا إليها الحديث النبوي الشريف بالنسبة لعملنا ، بالنسبة لتفكيرنا ، ولم التفكير؟

نحن قلنا أو أشرنا إلى أن الاستقامة توصف بها المتعلقات الكثيرة ، وهي الأعمال والأقوال والنيات والفكر وما إلى ذلك ، فما علاقتها بالفكر؟ الفكر يحمل الإنسان على أن يأخذ بالأسباب التي تهديه الصراط السوي ، وبالبعد عن ذلك لا يمكنه أن يكون أبداً فكرياً إسلامياً .

اصطبغ الفكر بالملة التي ندين بها :

وهنا لابد من ملاحظة ، وهي أن الفكر يصطبغ باصطبغ الملة والجماعة التي تدين به ، فهناك فكر نصراني ، وهناك فكر علماني ، وهناك فكر إسلامي ، والمسلمون مطالبون بالتزام الفكر الإسلامي ، هذا الذي وضعت قواعده على أسس ملتزمة وقائمة وثابتة لا يجوز أبداً الحياد عنها .

هي أولاً - كما ذكرنا - : التوحيد .

ثانياً : استلهام السنن الكونية ونواميس هذا الوجود العريض الذي

نجد الآيات القرآنية تدل على معانيها وتصور لنا حقائقها ، وتجعل مبدأ هذه الكائنات هو التكامل والتناسق والتوافق لا التناقض كما ذهب إلى ذلك الملحدون والمعطلة .

هذان المعنيان أو القاعدتان الأساسيتان للفكر الإسلامي يثبتان الهوية بالنسبة للمسلم ، ويركزان في نفسه المقومات الأساسية التي هي المثل والمبادئ والأصول التي ينبغي أن يكون عليها في حياته ، وبينه وبين الناس .

وأما بقية الجوانب الثلاثة الأخرى فهي العلم ، وذلك بالابتعاد عن الظن وبطلب الأسباب للمسببات ، وبالإقناع والاقتناع ، وإقامة الدليل ، وبالانتقال من المدركات الحسية إلى المدركات الذاتية ، وهو أصل الحضارة الإسلامية ، الذي تعلمه الناس في أوروبا في أول عصر الانبعاث في فرنسا وغيرها .

ثم إلى ذلك لا ينبغي أن ننسى وجوب الالتزام في العلم بدقة الملاحظة ، وبالقيام بالمشاهدة ، فالمشاهدة الدقيقة والتركيز والملاحظات المركزة هي التي أعانت على تطور العلم ، وهذا نعرفه من ابن النفيس وغيره من علماء الأمة الإسلامية .

كيف إذا أضفنا إلى ذلك بعد هذا ، الحقيقتين الأخرين اللتين هما من أصول هذا الفكر الإسلامي وجدنا الدعوة صريحة إلى النظر الشمولي ، لأن الإنسان ليس مفصلاً عن الكون ، والحقائق فيه متعددة ، فله جوانب هي غرائزه ، وجوانب هي المسالك التي يهدى إليها عقله .

وهناك نوازع تبعده عن الجادة ، فدراسة الإنسان وتطوراته وأحواله

وتاريخه لا تكون إلا بالنظرة الشاملة الكاملة التي نستطيع بها أن نعالج أمراضه من غير أن نكتب بعض غرائزه أو نقوم بإلغائها كما فعلت الحضارات القديمة .

التطور:

وأما المسألة الأخيرة أو القاعدة الأساسية الأخيرة للفكر الإسلامي ، فهي التطور أو القبول بمبدأ التطور ، لكن مبدأ التطور ليس في الجواهر ولكنه في الأعراض والتطور يكون بتوجيه الغرائز إلى الأنفع والأصلح ، وذلك هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] .

فيكون الاستمداد من الهدي الديني من الشريعة الإسلامية قائما على محاولة إصلاح أوضاع المجتمعات ، وذلك بالاهتداء إلى الطرق النافعة التي لا تتعارض مع الأصول المعتمدة الثابتة القارة للدين الإسلامي والفكر الإسلامي .

وهذه المعاني هي التي عنها سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وقد ورد : «أن النبي ﷺ حين أوحى إليه بهذه الآية التفت إلى الصحابة من حوله وخط أمامهم خطأ ، ثم وضع خطين عن اليمين ، وخطين عن الشمال ، فقال : هذا سبيل الله . ثم تلا هذه الآية : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ﴿١﴾ هذا هو الصراط السوي ، هذا هو الصراط الذي أمرنا الله باتباعه وهو الصراط المستقيم ، وما عدا ذلك فهي منحرجات في الطريق وثنيات في الطريق التي يبتعد بها الإنسان عن المسلك الناجح الرابع .

ولذلك أنا أعتقد أن المسلمين كافة مطالبون بمراجعة هذا الفكر الإسلامي وتحقيق قواعده وأصوله وأسسهِ ، وأن على المربين ورجال الجامعات ورجال الاقتصاد وكل العاملين في جميع الحقول أن ينتبهوا إلى هذا الأمر حتى يكون التفكير عندهم تفكيرًا إسلاميًا ، وحتى يرتقي بهم إلى المعالي من غير أن تكون هناك ثغرات تستهويهم وترهبهم أو تفسد عليهم خططهم .

(١) أخرجه ابن ماجه (١١) ، وأحمد (٣/٣٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٢/٢٦١) .

المحاضرة السادسة والسبعون

أعظم الفتوح

يقرأ الناس في القرآن الكريم بعض آيات الجهاد والقتل والقتال فيعتبرون الإسلام دين حرب وغلبة وتسلط، ينتشر بحد السيف، ويمارس الإكراه لحمل الناس على الدخول فيه والخضوع لحكمه .

ومع الأسف الشديد فإن بعض المفسرين والدارسين أولوا عناية لأحكام الجهاد والقتل والقتال والمغازي وتقسيم الغنائم ومعاملة أسرى الحروب، وأحكام نساء السبي، تفوق في بعض الأحيان العناية التي أولوها لتأصيل مبادئ الإسلام والأمن والتسامح والتعايش والتعاون الإنساني مع غير المسلمين، حتى إن بعض المفسرين قرر أن آية السيف، وهي قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] .

نسخت جميع آيات المسألة والمهادنة والصفح والعفو الموجودة في القرآن .

وإننا لتساءل: هل يعقل دينًا وفكرًا وذوقًا أن تلغي آية واحدة تلك الآيات الجميلة الحبيبة إلى القلوب والتي تحض على السلام والصفح والأمن والوئام؟

كيف يقبل الفكر أن نقول: إن الله تعالى ألغى بآية السيف هذه الآية الجميلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] .

أو قوله تعالى :

﴿وَأِنْ جَنَّحُوا لِلْإِسْلَامِ فَأَجْنَحْ هَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال : ٦١] .

أو قوله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، أو قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

أعتقد أن هذا النوع من التفسير له سببان :

الأول : هو الصراع الرهيب الذي كان مفروضاً على المسلمين من طرف خصومهم من المشركين واليهود والمسيحيين والمنافقين ، وما عاشه المجتمع الإسلامي من فتن وحروب وقلقل واضطرابات ، أدت إلى انعدام الأمن والاستقرار ، وظهور المارقين من أهل الحراة والبعي ورعوس الفتنة ، فكان المفسرون يهتمون بما يقوي شوكة المسلمين ، ويشحذ الهمم للدفاع والمقاومة والغلبة والمواجهة حفاظاً على الوجود .

والثاني : هو تفسير القرآن الكريم بمعزل في بعض الأحيان عن مآثور السيرة النبوية ، مع أن القرآن الكريم مهيمن على السيرة النبوية وهي مفسرة لآياته ، مبينة لأسباب نزوله ، شارحة لألفاظه ، كاشفة لأسراره .

لقد كان سيدنا محمد ﷺ رحمة مهداة ، كان رءوفاً رحيماً ، وكان على خلق كريم ، وكان خلقه القرآن ، فلا يمكن تفسير القرآن إلا من خلال خلقه ﷺ وسيرته ، بواسطة الأخبار الصحيحة عن أفعاله وأقواله والواقع والظروف والملابسات التي صاحبت نزول الآيات القرآنية من بعثته ﷺ إلى موته .

وإني أقدم اليوم سورة الفتح دليلاً على أن القرآن الكريم كلما قرئ مرتبطاً بالسيرة النبوية العطرة، كلما ظهرت حقيقته، واتضح أنه قرآن سلام، وأمن ووئام، واطمئنان وأمان.

سورة الفتح: سورة مدنية، على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها.
وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة، في ترتيب نزول السور، في قول جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الصف، وقبل سورة التوبة، وعدد آياتها تسع وعشرون آية، نزلت على رسول الله ﷺ في طريق رجوعه من الحديبية ليلاً سنة ست بعد الهجرة، في موضع يقال له: كراع الغميم، بين مكة والمدينة.

فهي من القرآن الليلي، وسميت سورة الفتح لافتتاحها ببشرى الفتح المبين، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].
والفتح لغة: إزالة الأغلاق والأقفال.

واصطلاحاً: هو النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده.
ولمراعاة هذا المعنى، قال جمع من المفسرين: المراد بالفتح هنا فتح مكة، فإن قيل لهم: إن السورة نزلت قبل ذلك الفتح؟ قالوا: إنها محمولة على الوعد بالفتح، ومعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، أي سنفتح، وإنما جيء بالإخبار بلفظ الماضي لتحقيقه وتيقنه.

أو يقولون: استعمل: ﴿فَتَحْنَا﴾ بمعنى: قدرنا لك فتح مكة.

وعلى هذا التفسير تبعث سورة الفتح في النفوس والأذهان صورة الإسلام الغالب المنتصر الفاتح القاهر ، الداخِل إلى مكة بجيوشه وأسلحته ومعها صورة غير المسلمين مغلوبين مهزومين مقهورين .

إن هذا التفسير لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، يضع سورة الفتح في سياق الصراع بين الإسلام وأعدائه ، وسياق الحرب والجهاد والسيف والدم ، ويعزز تلك الصورة الدموية التي ينشرها عنه خصومه .

إنها صورة سلبية لا علاقة لها بالحقيقة .

صلح الحديبية :

إن الفتح الذي سماه الله فتحًا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، ليس هو فتح مكة ، وهذا ما تدل عليه الوقائع المصاحبة لنزول هذه السورة .

تحدثنا كتب السيرة النبوية أنه في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، خرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة قاصدًا مكة المكرمة لأداء العمرة ، لا يريد حربًا ولا يسعى إليها .

وكان عدد من خرج معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من الأعراب ألفًا وأربعمائة شخص .

وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا للبيت الحرام ومعظمًا له ، فلما وصل الرسول الكريم ﷺ إلى مكان يسمى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فقال يا رسول الله : هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل

قد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الآلهة لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .
فسلك رسول الله ﷺ بأصحابه طريقاً غير طريق المشركين تخرجهم إلى الحديبية وهي أرض سميت ببئر فيها تحمل هذا الاسم ، وذلك ليتجنب قتال المشركين .

ثم إن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش ليلغها أنه إنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة ، فرفضوا وعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله .

ثم بعث إليهم عثمان بن عفان للتأكيد ومزيد من البيان فاحتبسته قريش عندها وأشاعوا أنه قتل ؛ ليكف رسول الله عن إرسال المبعوثين إليهم من جهة ، وليدفعوه إلى مبادأتهم بالحرب من جهة أخرى .
فلما بلغه ﷺ أن قريشاً قتلت عثمان بن عفان دعا أصحابه إلى البيعة على الموت وعدم الفرار .

وكانه يريد تخويف المشركين وإظهار قوته حتى لا يضطر إلى استعمالها .

فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهي المذكورة في القرآن الكريم في سورة الفتح التي نحن بصدد تفسيرها ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُولُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١٨ ، ١٩] .

ثم تبين أن خبر مقتل عثمان بن عفان لا أساس له من الصحة ، إلا أن قريشًا لما سمعت ببيعة الرضوان ، وأن الصحابة بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ، وأن لا يفروا في وجه العدو ، وهي تعلم شدتهم واستماتتهم ، رضخت إلى التفاوض ، وبعثت سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ من أجل ذلك ، فأتاه سهيل بن عمرو وجرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا كتب الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر وكلمه بما يفيد أنه غير راض عن الصلح ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال له منكرًا : علام نعطي الدنية في ديننا؟

فأجاب ﷺ : «أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني» ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : «اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم» قال : فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : «اكتب باسمك اللهم» فكتبها ، ثم قال ﷺ : «اكتب! هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو» قال : فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «اكتب! هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» .

اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة (أي صدور منظوية على ما فيها لا تبدي عداوة وضرب العيبة مثلاً) ، وأنه لا إسلال ولا إغلال (الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال الخيانة) ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن

أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأنت ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها غيرها . فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين .

ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه راجعاً إلى المدينة المنورة ، حتى إذا كان بين مكة والمدينة ، نزلت عليه سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ ﴾ [الفتح : ١-٣] .

ثم جاءت في السورة إشارات إلى السكينة التي أنزلها الله على المؤمنين وأنه ألزمهم كلمة التقوى ، كما جاء الوعد بدخول مكة دخولاً آمناً مطمئناً في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مَخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

الفتح المذكور في الآيات هو الصلح :

فالفتح المذكور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ [الفتح : ١] ، هو الصلح وليس الحرب ، هو صلح الحديبية وليس فتح مكة .

تروي كتب السيرة والتفسير أن رجلاً قال عند منصرفهم من الحديبية : ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال النبي ﷺ : « بل هو أعظم الفتوح »^(١) .

(١) انظر : «عيون الأثر» (٢/ ١٦٠) ، و «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٧١) .

ولقد شرح العلماء ذلك وبينوه أحسن بيان وأوفاه .

قال ابن كثير في «التفسير» : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، أي بيئًا ظاهرًا ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

وإننا لنقرأ هذه الكلمات الذهبية في «تفسير» ابن كثير فندرك القيمة العظيمة التي كان المسلمون يعطونها للصلح والسلم والتعايش والتسامح ، وما كانوا ينتظرون من وراء ذلك من ثمار طيبة ، ومن أجلها وأعظمها وأطيبها أن يجتمع الناس بعضهم ببعض ، كما قال ابن كثير ، وأن يتكلم المؤمن مع الكافر ، وأن ينتشر العلم النافع والإيمان .

قال الزهري : لقد كانت الحديبية أعظم الفتوح ، وذلك أن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربعمائة رجل ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض ، وعلموا وسمعوا عن الله ، وما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ، فما مضت الستتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف .

ولذلك فلا عجب أن يفرح رسول الله ﷺ بنزول سورة الفتح عليه ؛ لأنها تضمنت بشارة من الله ﷻ بأن الصلح الذي أبرمه الرسول ﷺ مع المشركين بالحديبية هو فتح مبین ، سيأتي بعده النصر والتمكين .

ففي «الموطأ» عن عمر بن الخطاب : «جئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال : لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ اللام في قوله ﴿لَكَ﴾ لام العلة، أي فتحنا لأجلك، مثل التي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ فَتَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وقال قتادة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، قال: قضينا لك قضاء مبينًا، وحكمنا لك حكمًا ظاهرًا مبينًا، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي: احكم واقض.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وينصرك الله نصراً عزيزاً [الفتح: ٢، ٣]، أي إنا فتحنا لك هذا الفتح المبين، وقضينا لك بهذا النصر الظاهر المكين؛ لتشكر ربك وتحمده، وتستغفره فيغفر لك، ويتم نعمته عليك ويهديك وينصرك.

ولقد كان ﷺ يقوم حتى تتورم قدماه، فقليل له: يا رسول الله! تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

وبعد هذا نطرح سؤالاً من وحي صلح الحديبية نربط به الماضي بالحاضر:

هل انتهى الصراع والمواجهة بين الإسلام وغيره؟

هل يستطيع المسلم أن يعيش إسلامه في هذا العصر دون أن يصطدم
بغيره؟

الإسلام والصراعات:

وهل يستطيع الإسلام أن يحافظ على وجوده وبقائه دون مواجهة وصراع؟

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

المشكل المطروح هو أن الإسلام دين وحضارة وثقافة يحتل أهم وأخطر المواقع الاستراتيجية في العالم ، وينتمي إليه أكثر من مليار نسمة ، ويريد أن يبعث أمجاداً ويحقق وحدته ، ويقيم دولته ويصدر إلى غيره قيمه ومبادئه ، بوصفه أمة رسالة عالمية وخاتمة ودائمة ، في مواجهة مجتمع عالمي ، حضارته مادية وثقافته علمانية ، ويشكل قوة هائلة ، وكتلة بشرية متقدمة بتكنولوجيتها العالية ، وعلومها المتطورة ، وآلياتها وأنظمتها الراقية ، ويسعى لتحقيق الهيمنة على غيره وتذويبه في بوتقة واحدة ومنظومة موحدة تتمتع بديمقراطية التكنولوجيا والإعلام ورأس المال ، وتخدم سلام المصالح واحترام حقوق الإنسان المتقدم بعيداً عن الدين .

أليس من شأن هذا التمايز أن يؤدي إلى المواجهة؟

لقد أخذت تطفو على السطح في العقود الأخيرة بوادر المواجهة بين هاتين الكتلتين ، وكأننا نرجع شيئاً فشيئاً إلى ذلك الماضي الأسود ، ماضي العداوة المستحكمة والمعارك الدائمة .

ولقد برز تيار داخل المجتمع الإسلامي ، يطالب بتطبيق الشريعة لإثبات الوجود وإعلان التحدي ، ويسعى إلى تنصيب الحكومة الإسلامية ، وبعث دولة الخلافة رفضاً للقوانين الوضعية المستوحاة من قوانين الغرب ، وكرهاً في الأنظمة السياسية المستمدة من دساتير الغرب ، ويدعو إلى مجتمع إسلامي قوي يسوده الوعي بالذات ، ويقوم على نفس المبادئ والأسس التي كان يقوم عليها مجتمع الإسلام في الصدر الأول .

وأصبح منظرو هذا التيار يركزون على الفروق الجوهرية بين نظام الإسلام والنظام الذي يقوم عليه المجتمع العالمي ، سواء في مجال بناء الدولة أو في المجال الاجتماعي والاقتصادي ، أو في المجال الروحي والثقافي .

إن هذا التيار بإيجابياته وسلبياته يعتبر مظهرًا من مظاهر المواجهة القائمة والمحتملة ، لاسيما وأن له تأثيرًا كبيرًا على أجيال الشباب ، وعلى المناخ الفكري الثقافي العام في بلاد الإسلام .

ولما كان النموذج الغربي قد تسرب إلينا بشكل واسع بسبب عوامل ومؤثرات كثيرة ، فقد نشأت داخل مجتمعاتنا طائفة من الناس ترى في هذا النموذج الغربي طوق النجاة من التخلف والجهل والاستبداد ، وأدلى ذلك أيضًا إلى نشوء تيار فكري وفلسفي وثقافي داخل المجتمع الإسلامي يناهض التيار الأول ويخالفه .

كما برز في العقود الأخيرة داخل مجتمعاتنا دعاة متطرفون يخاطبون المجتمع وكأنهم أنبياء يحملون الدين إلى الناس لأول مرة ، ويحتكرون الخطاب الديني ويعتبرون المجتمع المدني جاهلية وضلالًا ، والمجتمع العالمي عدوًا وطاغوتًا واستكبارًا ، وينصبون أنفسهم زعماء لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ولو بالعنف والإرهاب إن اقتضى الحال .

ولن نبحت هنا في أسباب ظهور هذا التيار ولا في مكوناته ولا في مناهج عمله ، ولكننا نسجل أنه تيار أثار سخط ما يسمى بالمجتمع المدني ، وسخط العلماء والدعاة الملتزمين بمنهج الوسطية والاعتدال والحكمة والاتزان ، كما أثار تخوف الأنظمة والحكومات ، وأدلى إلى تقهقر الاقتصاد والتأثير على الاستثمار ، وتسبب في مواجهات دامية وأعمال إرهابية مأساوية ، أساءت إلى الإسلام قبل أن تسيء إلى غيره .

فالصراع والمواجهة إذن قائمان بين الإسلام وغيره ، ليس فقط خارج الحدود ، ولكن في قلب المجتمعات الإسلامية نفسها .

والمشكل -كما أعتقد- فكري وتربوي ، فمن جهة : المسلمون في حاجة إلى استيعاب كثير من المفاهيم التي جاء بها الإسلام ضمن منظور كوني يخلق الألفة بينها وبين المفاهيم التي ينبنى عليها المجتمع العالمي الحديث .

ومن جهة أخرى : غير المسلمين ومن تثقف بثقافتهم وتشبع بمدنيتهم في حاجة إلى استيعاب طبيعة الدين الإسلامي بوصفه دينًا ينظم الدنيا ويتوفر على نواة صلبة غير قابلة للتغيير .

أما الإشكال التربوي فيتمثل في أن عملية بناء الإنسان عندنا وعندهم لم تهتم بتزويده بملكة قبول الاختلاف وقبول الآخر ، وفضيلة التسامح والتعايش والانفتاح على الغير ، كما أنها لم تهتم بتخفيف الأنانية الفردية والجماعية ، ولم تخطط لبناء المجتمع الإنساني الذي يحافظ لكل عنصر على شخصيته وكيانه ويهتم بالتكامل بين الجميع .

ولا يستطيع الدارس بطبيعة الحال أن يغفل الأسباب الاقتصادية للمشكل وهي أساسية وجوهرية .

وأريد أن أرجع إلى صلح الحديبية وأنا أرى فيه إشارات بليغة إلى ثلاثة مبادئ أساسية من شأنها أن تعين إن شاء الله على تخفيف حدة هذه المواجهة التي نشعر بتصاعدها بين الإسلام وغيره .

المبدأ الأول : مبدأ العيبة المكفوفة .

المبدأ الثاني : مبدأ الحرية الدينية .

المبدأ الثالث : مبدأ التنازل المؤقت من أجل التفاهم الدائم .

أما المبدأ الأول : فقد عبر عنه صلح الحديبية بقوله : «وأن بيننا عيبة مكفوفة» ، أي صدور منطوية على ما فيها .

والأخذ بمبدأ العيبة المكفوفة في حاضرنا يقتضي أن نقبل التفاهم في الجملة ، وأن يتعامل كل طرف منا مع الآخر كما هو ، فالنفوس والصدور منطقية على ما فيها ، والتعامل قائم ، وتبادل المنافع ، وتحقيق المصالح المشتركة مستمر .

أما الاختلاف الذي بيننا فمطوي لا نشيره ولا نستحضره ، ولا نجعل إنهاء شرطاً في التعامل والتعاون .

على المجتمع العالمي أن يقبل المسلمين كما هم ، وعلى المسلمين أن يقبلوا العالم كما هو .

وأما المبدأ الثاني : وهو مبدأ الحرية الدينية ، فقد عبر عنه صلح الحديبية بقوله : « وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

ذلك أن احترام حرية الآخرين في اعتناق الدين الذي يرضونه لأنفسهم ، وحرية ممارسة الدين في الحياة الخاصة للفرد والحياة العامة للجماعة من شأنه تخفيف حدة التوتر ، وخدمة التفاهم والتقارب .

ولقد رأينا ما خلقه طرد التلميذات المحجبات من المدارس والجامعات في أوروبا من توتر ، كما أننا نرى الضغط الذي يمارس على بعض الدول والحكومات لاتخاذ مواقف استفزازية ضد مواطنيها المسلمين .

وأما المبدأ الثالث : فهو مبدأ التنازل المؤقت من أجل التفاهم الدائم ، فقد رأينا في صلح الحديبية كيف أن رسول الله ﷺ قدم تنازلات أساسية وجوهرية من أجل الصلح .

تنازل عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ليكتب بدلها باسمك اللهم .

وتنازل عن كتابة محمد رسول الله ليكتب بدلها اسمه و اسم أبيه فقط .

وتنازل فقبل أن يرد إلى المشركين من جاءه منهم ، وأن لا يردوا إليه من جاءهم من المسلمين .

إن ما قام به رسول الله ﷺ هو مجهود كبير للتغلب على النفس وضبطها والتضحية من أجل السلم والتفاهم والتعايش والمصالحة كما أنه دليل قاطع على أن التوسع في فهم الدين واستغلال ما فيه من رحابة ومرونة وقدرة على الملاءمة أمر ممكن ومطلوب ، بل أمر مشروع للتغلب على الصعاب وإيجاد الحلول للمشاكل والأزمات .

إن هذه المبادئ الثلاثة إذا كانت ترسم المنهج الذي يمكن للأمة أن تعتمد في خلق التفاهم الدولي وحسن المعاشرة مع المجتمع العالمي ، فإن صلح الحديبية تضمن من جهة أخرى إشارات بليغة إلى المنهج الذي يمكن أن يعالج المواجهة مع الإسلام داخل المجتمع الإسلامي نفسه نقتصر من بينها على إشارة واحدة .

ذلك أن رسول الله ﷺ عندما أبرم الصلح طلب من أصحابه أن يتحللوا من العمرة فينحروا هديهم ويحللوا رءوسهم . فلم يقم منهم أحد .

فكرر الأمر ثلاث مرات ولم يقم أحد .

لأن المسلمين كان قد دخلهم غم عظيم من هذا الصلح ولم يرضوا به ، وتحمل الرسول الكريم على نفسه في ذلك مشقة عظيمة ، ولقد رأينا سيدنا عمر بن الخطاب ومقاتله لأبي بكر ثم لرسول الله ﷺ في إنكاره للصلح .

فلما لم يقم أحد من الصحابة بفعل ما أمرهم به رسول الله ﷺ لم يعاقب أحدًا ولم يسجن أحدًا ولم يعذب أحدًا ، وإنما دخل على زوجته أم سلمة رضي الله عنها ،

وحكى لها ما حدث فأشارت عليه بأن يبدأ هو بما يريد منهم ، فقام ﷺ فنحر هديه وحلق رأسه ، فقاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يخلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من الغم .

ونستفيد من ذلك أن العمل أقوى وأمعن من القول في حمل الناس على الاقتداء والاهتداء .

وأن الاعوجاج لا يعالج بالعنف الكاسر .

وإننا لن ننجح في معالجة الأمور بالأقوال التي لا تزكيها الأفعال .



نور من القرآن والسنة

١١٤

المحاضرة السابعة والسبعون

الوقف في القراءات وعلاقته بمعاني القرآن

انطلاقاً من حديث أبي داود: عن أم سلمة رضي الله عنها «أنها ذكرت قراءة رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾  الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  [الفاتحة: ١-٣] يقطع قراءته آية» .

جزئ الله بالخيرات عنا أئمة لنا نقلوا القرآن عذباً وسلسلاً

القرآن كلام الله:

والحق أن القرآن لا يليق به إلا أن ينقل عذباً صافياً كما أنزل ، من جيل إلى جيل ، لا يدخله تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لماذا؟

لأنه كتاب رسالة شاملة عامة مستمرة ، فهو ليس ظرفياً ، وليس خاصاً بزمن دون آخر ، ولا بمكان دون آخر ، ولا بأمة دون أخرى ، فلم يقع هذا الحفظ ، وهذه الصيانة بكل جانب لكتاب من الكتب طوال هذه المدة كلها إلا للقرآن الكريم .

والقرآن الكريم حفظ في جهتين : في جهة الصدور وفي جهة السطور ، فتظافرت الجهتان على صيانتته وحفظه ، وثمة شيء آخر يذكر في هذا الباب ، وهو أن صيانة نص القرآن ، وخدمته خدمة للغة العربية ؛ إذ القرآن أكثر من ستة آلاف آية ، تضم كلمات عربية ، والكلمات تضم الحروف العربية ، والقرآن حين حفظ فإنه من جهة أخرى حفظ كذلك اللغة العربية وخدمها ، أو بالأحرى أئمة القرآن الكريم ، حين خدموا نص القرآن الكريم ، خدموا كذلك اللغة العربية .

القرآن معجز لفظاً :

ثم إلى جانب هذا أيضًا هناك معنى آخر يذكر في الجانب اللفظي ؛ ففي الجانب اللفظي نجد أنه من أحسن المراجع وأفضلها وأعظمها عبر تاريخ المسلمين هؤلاء الأئمة ، أئمة القراءات ؛ ذلك أنهم إذا كانوا قد اشتركوا مع أهل اللغة في صيانة اللغة وفي حفظها ، فإن القراء يمتازون عن أهل اللغة بشيء زائد ، وهو أنهم نقلوا هذه الأصوات العربية ، وهذه اللحن العربية من جيل إلى جيل عن طريق التواتر .

فيستطيع الإنسان أن يرجع إلى القارئ الضابط المتقن الذي نقل ذلك عن مثله ؛ فيجد نطق الحرف العربي كما هو لأنه نقل بالتواتر ؛ لأن الأداء الذي يعتمد القراء في نقلهم القراءات يتميز عن غيرهم من النقلة ومن العلماء والمفكرين الذين ينقلون اللغة رواية ودراية ، ولكنهم قد لا ينقلونها من حيث الأداء كما نقلها القراء .

فالقراء هم الذين يعرفون كيف ينطق حرف الباء إذا كان ساكناً ، وإذا كان غير ساكن ، إذا كان في الوسط ، وإذا كان في الأخير ، وهم الذين يحافظون على نطق الثاء المثلثة التي اختفت من نطق بعض المثقفين الذين حولوها إلى تاء مثناة .

وهم الذين يحافظون على نطق بقية الحروف كالضاد التي قد تستعصي على بعضنا في النطق ، فهم يعرفون حيزها ويعرفون مخرجها ، ويحافظون على ذلك ، وقد نقلوا هذا جيلاً عن جيل .

فإذن الأئمة : أئمة القراءة ، الضابطون المتقنون ، لاشك أنهم يتميزون من هذه الناحية ، فإذا كانوا يقرءون القراءة كما نقلوها داخل إطار الأصوات العربية فإن قراءتهم تخدم القرآن وتخدم اللغة العربية .

صحيح أن هذه القراءة إذا خرجت عن اللحن العربي وعن الصوت العربي فإنها لا تكون قراءة؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، كما أن البياض إذا تجاوز حده تحول إلى شيء آخر. والشعر الجعد إذا تجاوز حده تحول إلى ققط.

إذن فأئمة القرآن لا يقدر عملهم حق قدره إلا من كان له إدراك بما قدموه من خدمات في جانب اللفظ وفي جانب الخط، في جانب الصدور وفي جانب السطور.

القراءات وانتقادات المنحرفين:

ومن حين لآخر نسمع بعض الانتقادات التي توجه إلى أئمة القرآن، ولكن هذه الانتقادات عندما يتأملها الإنسان يجد أنها في الغالب ناتجة عن جهل، فقد وصل ببعضهم إلى حد أن ألف كتاباً في العصر الحديث سماه (الفرقان) ينتقد فيه القراءات، وينتقد فيه القراء، ويصف ما يسميه بالتعسف في المجال اللفظي، وفي المجال الخطي.

والحقيقة أن هذا المؤلف - مؤلف الكتاب الذي سماه «الفرقان» - إما أنه جاهل، وإما أنه تجهل بأن هذا التشدد على مستوى التخصص، وهذه الدقة، هي حرية بأن تكون من قبل هؤلاء الأئمة، لماذا؟

لأن المجال مجال تخصص ومجال دقة ومحافظة على الواو، ومحافظة على الألف، ومحافظة على كل ما يتصل بالخط، وما يتصل كذلك باللفظ من ترقيق وإمالة وتفخيم وتغليظ وما إلى ذلك كله يتعلق بمجال التخصص.

وأما من أراد من المسلمين أن يقرأ القرآن فله أن يقتدي بهؤلاء الأئمة؛ لأن القرآن ينقل بهيئاته اللفظية من جيل إلى جيل.

وهكذا خدم الأئمة رحمهم الله القرآن من كل جوانبه ، ولم يتركوا موضوعاً من الموضوعات التي تستحق الدراسة التي تتعلق بصيانة القرآن إلا ودرسوه .

الوقف القرآني:

الوقف القرآني : هو غير الوقف المعروف عند الفقهاء والذي هو عبارة عن تحبيس أصل من أجل أن تصرف منفعته لجهة معينة أو لشخص معين تقرباً إلى الله عز وجل على أن لا يباع الأصل ولا يوهب ولا يشتري ولا يورث .

هذا الوقف إذن ليس هو ذلك الوقف ، وإنما هو وقف يتعلق بالقراءات ، ومسائل الوقف وفروعه كثيرة ، والحصّة لا تكفي للإحاطة بكل الجزئيات ، وحسبي أن أذكر أهم المسائل التي تقدم صورة تقريبية لمن أراد أن يعتمد عليها ، ويجنب الخطأ في الحكم على الوقف أثناء تلاوة القرآن ، أو أثناء الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم .

والوقف حين يذكر يذكر كذلك القطع ، ويذكر السكت ، وهي كلمات ثلاث كان القدماء في الغالب يقصدون بها شيئاً واحداً ، وهو الوقف .

ولكن المتأخرين وبعض المحققين ميزوا بين هذه الكلمات ، فقالوا : إن القطع هو ترك القراءة رأساً والانتقال من حال القراءة إلى حال أخرى .

والوقف : هو قطع الصوت على الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة .

والسكت : هو قطع الصوت على الكلمة زمناً لا يتنفس فيه عادة .

وحتى مع القول بالتمييز بين هذه الكلمات الثلاث .

فإننا نلاحظ أن هناك قاسمًا مشتركًا بين هذه الكلمات يجمعه ، وهو قطع القراءة أو قطع الصوت زمنًا قد يكون طويلاً وقد يكون متوسطًا وقد يكون قصيرًا .

والوقف أو القطع أو الاستراحة بصفة عامة في الكلام هي مطلوبة إذا كان الإنسان يريد أن يستريح ، يريد أن يقف ، ذلك أن الكلام الذي يستريح صاحبه أو يريد أن يفصل بعضه عن بعض بطريقة عشوائية ، وعلى غير بصيرة فإنه يقول كلامًا ينبهم على المستمعين ، قد لا يفهم هذا الكلام ، قد لا يفصح صاحبه عما يريد .

ومن ثم فإن الاستراحة ومواضعها ينبغي أن تختار بكيفية مناسبة حتى لا يكون الكلام فيه هذا الخلط وفيه هذا الالتباس .

إذا كان هذا الأمر مطلوبًا بالنسبة للكلام البشري فهو مطلوب من باب أولى وأحرى بالنسبة لكلام الله ﷻ .

ذلك أن القرآن الكريم كما هو معروف معجز بمبناه ومعجز بمعناه ، وإذا عمد القارئ للقرآن الكريم إلى الاستراحة في أي موضع ، وبأي شكل فإنه لا يبعد أن يقع في الخلط ، وأن يقع في الالتباس ، وبالتالي يسيء إلى الإعجاز ويلبس الحق بالباطل ، ويفسد المعاني ، ويسيء كذلك إلى التصوير الفني في أسلوب القرآن الكريم ، وإلى نظمه المحكم الذي جاء به رسول الله ﷺ ، أو بالأحرى جاء على لسان رسول الله ﷺ .

ولمزيد بيان هذه المسائل وتوضيحها أعود إلى الحديث الذي رواه أبو داود .

قال أبو داود رحمه الله في «سننه» : حدثنا سعيد بن يحيى الأموي ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن جريج ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن أم سلمة : «أنها ذكرت أو

كلمة غيرها - هكذا ورد في النص والشك من الراوي- ، أنها ذكرت قراءة رسول الله ﷺ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿[الفاتحة : ١-٣] يقطع قراءته آية آية .

قال أبو داود : سمعت أحمد يقول : القراءة القديمة : (مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ) .

هذا الحديث جاء في كتاب (الحروف والقراءات) في «سنن أبي داود» ، وأورده الترمذي في «سننه» في «أبواب القراءات» بنصه : عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : «كان النبي ﷺ يقطع قراءته ، يقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف ، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف ، وكان يقرأها ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾» .

والحديث كذلك رواه الإمام أحمد في «مسنده» ، ورواه الحاكم في «مستدركه» في كتاب (التفسير) ، ورواه ابن خزيمة ، وكلهم روهه بألفاظ ، بعضها فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعضها ليس فيه البسملة ، وبعضها فيه : ﴿مَلِكٌ﴾ ، وبعضها ليس فيه : ﴿مَلِكٌ﴾ .

وهذا الحديث هنا رواه أبو داود ، رواه ساكتاً عنه ، والحديث حينما يسكت عنه أبو داود ولا يقول فيه شيئاً فهو صالح ، ولكن هذا الصالح عند العلماء يتردد بين الحسن والصحة ، فهل هذا الحديث حسن أم صحيح ؟
ننظر فيما إذا كان أحد «الصحيحين» قد أخرجه ، فإذا كان الأمر كذلك فهو صحيح ، وإذا لم يكن كذلك فلننظر في جهات أخرى .

والحق أن أحد «الصحيحين» لم يخرج ، ولذلك فإذا لم يخرج هذا الحديث الصالح الذي يرويه أبو داود أحد «الصحيحين» فهل يحمل على الصحة إذا لم يصححه أحد من العلماء ؟ أو يحمل على الحسن ؟

ابن الصلاح والنووي يريان أنه لا يحمل إلا على الحسن ، في حين يرى غيرهما أنه يحمل على الصحة ، وأن الحديث عند الذين نقلوه ورووه علقوا عليه ووصفوه إما بالحسن وإما بالصحة ، كلهم رحمهم الله .

لكن الترمذي حين رواه في «سننه» علق عليه وقال : حديث غريب ، وعلق أيضًا وقال : ليس إسناده بالمتصل ؛ لأن الليث بن سعد روى هذا الحديث عن عبد الله بن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة : «أنها وصفت قراءة رسول الله ﷺ حرفًا حرفًا» ، وحديث الليث أصح . يقول الترمذي .

ولكن هذا الكلام -أي كلام الترمذي- يمكن أن يرد عليه ؛ لأنه لا مانع من أن يكون ابن أبي مليكة ، روى الحديث بالفعل عن يعلى بن مملك ، فحدثه أو فحدث به الليث بن سعد ، وحدث كما سمع ، وسمعه مباشرة من أم سلمة ، وحدث به ابن جريج كما سمعه ، لماذا؟

لأن ابن أبي مليكة تابعي ، روى عن أم سلمة نفسها ، وروى عن عائشة ، وروى عن ابن عباس وعن غيرهم .

إذن فعلى أية حال ، فالحديث ثابت ، ومتى سلمنا بأن الوساطة سقطت ، فإن هذه الوساطة وهي يعلى بن مملك ، شهد لها ابن حبان بالثقة ، فحينئذ فالوساطة ثقة ، فلا ضير ، فيكون الحديث ثابتًا على كل حال .

وحين رواه الحاكم علق عليه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وقال الدارقطني : صحيح الإسناد ، ثم وجدنا بعد ذلك علماء آخرين يذكرونه ويصفونه إما بالحسن ، وإما يصفون سنده بصحيح الإسناد إلى غير ذلك .

انطلاقاً من هذا كله فيمكن الاعتماد على تصحيح الحاكم ، وعلى كون الحديث صالحاً للقول بأنه صحيح .

ومع ذلك فحتي مع القول بأنه صحيح فإننا نرى أنه لا يرقى إلى أعلى درجات الصحيح ، ولا يصنف في الدرجات العليا منه .

ذلك أن بعض الرجال الواردين في سنده انتقدوا من قبل أهل الجرح والتعديل ، ووصفوا بأوصاف لا تليق بأصحاب الدرجات العليا من الحديث ، كما يتضح ذلك في الترجمة الموجزة التي أقدمها فيما يلي :

فسعيد بن يحيى الأموي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٩هـ وصف بأنه صدوق ، ووصف بأنه ثقة ، ولكنه وصف أيضاً بأنه كان يغلط ووصف بأنه ربما أخطأ .

ووالده يحيى بن سعيد الأموي الكوفي المتوفى سنة ١٩٤هـ وصف كذلك بالثقة ، ولكن بعضهم أوردته في الضعفاء .

وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المتوفى سنة ١٠٥هـ وصف كذلك بأنه ثقة ، وبأنه مجمع على ثقته ، ولكن بعضهم قال فيه : إنه كان حاطب ليل .

وأما عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة فهو تابعي ثقة ، توفي سنة ١١٧هـ .
وأما أم سلمة فهي زوج النبي ﷺ كما هو معروف ، أم المؤمنين ، توفيت رحمته الله عليها سنة ٥٩هـ ، وقيل : بعد ذلك .

هذا ما يتعلق بدرجة الحديث .

وأما ما يتعلق بالألفاظ الأخرى التي وردت في سنده أو متنه فالوقت لا يتسع للحديث عنها بالتفصيل ؛ ذلك أن في سنده مصطلح التحديث

ومصطلح العننة ، وفي متنه البسملة ، وهي قضية قرائية لا يمكن علاجها في وقت قصير ، ومن ثم فإنني أكتفي بوقفه قصيرة جدًا عن بعض الألفاظ الواردة فيه .

فقوله ﷻ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

فمعنى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ أي أبتدىء باسم الله ، أو بدأت باسم الله ، أو ابتدائي باسم الله .

والله سبحانه وتعالى ، اسم الجلالة كما هو معلوم ، يطلق على الخالق سبحانه وتعالى ، ويوصف بجميع أوصاف الكمال ، فهو : ﴿ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣] إلى آخره من الأوصاف التي تليق بجلاله سبحانه وتعالى .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الرحمن الرحيم : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة .

وقال أبو علي الفارسي : الرحمن أعم في الرحمة ، وهو خاص بالله سبحانه وتعالى .

وأما الرحيم فليس خاصا به سبحانه وتعالى ، ثم قال الله ﷻ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

الحمد : هو الشكر الذي لا يليق إلا بالله ﷻ ، وهو أعم من الشكر ، وأعم من الثناء ، الثناء على الله ﷻ الذي أولانا هذه النعم التي نتمتع بها .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ورب العالمين ؛ تعني رب المخلوقات كلها في السموات وفي الأرض مما نعلم ومما لا نعلم ، ثم الرحمن الرحيم ، ثم بعد ذلك ملك يوم الدين .

والترتيب هنا يشير إلى أن هناك ملكية تامة لله ﷻ في الدنيا والآخرة ، فهو رب العالمين ، رب المخلوقات كلها ، وهو ملك يوم الدين كذلك . ولكنه بين هذا وذاك رحمن رحيم ، كثير الرحمة .

هذه إشارة قصيرة ووقف مختصرة عند كلمات الحديث ؛ لنطلق بعد ذلك إلى ما يتعلق بخدمة الموضوع الذي هو عنوان الدرس .

الحديث ودلالته على الوقف :

هذا الحديث يدل على مشروعية الوقف ، كما يدل على أن الوقف على رءوس الآي مشروع ، هو حديث لم يدل على ذلك بمفرده ، وإنما هناك غيره .

ففي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « قال لي النبي ﷺ : اقرأ علي ، قلت : أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : نعم ، فقرأت عليه سورة النساء ، حتى إذا أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُّوَلَاءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قال : حسبك الآن ، فالتفت ، فإذا عيناه تذرفان » .

فالرسول ﷺ أمر الصحابي عبد الله بن مسعود بأن يقف عند نهاية الآية ، ويقطع الكلام عند ذلك ، مع أن تمام القصة يأتي بعد ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] .

إذن فدل هذا من ناحية على أن الوقف مشروع ، ودل كذلك على أن الوقف على رءوس الآية أيضاً مشروع .

فidel كذلك على أن الأولين عملوا بالوقف على رءوس الآي ، ما قاله ابن عباس رضي الله عنه ، وهو أنه قال حين يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر : ٦] من سورة المؤمن : يوقف مقدار ما يشرب الشربة من الماء .

وعن عبد الله بن أبي الهذيل - وهو من كبار التابعين - أنه قال : كانوا يكرهون أن يقرءوا بعض الآية ويتركوا بعضها ، وفي هذا الإشارة إلى أنه من كبار التابعين ، إشارة إلى الصحابة والتابعين الذين شاهدتهم يفعلون ذلك .

كل هذا إذن يدل على أن الوقف مشروع ، على أن الاستراحة أثناء تلاوة القرآن الكريم مشروعة من ناحية أخرى ، كذلك يدل على أن الوقف على رءوس الآي مسموح به لمن أراد أن يلتزم به .

لكن إلى جانب هذا نتساءل : هل عمل القراء الأولون أنفسهم الذين نعمل على أساس مذاهبهم اليوم بهذا والتزموا بالوقف على رءوس الآي فقط ؟ أو نظروا كذلك إلى الأغراض والمقاصد ؟

لندرك ذلك أستعرض أولاً بعض الأقوال :

فالداني رحمته الله في كتابه : «المكتفى في الوقف والابتداء» ذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتجنبون أن يقطعوا الكلام ويفصلوا بعضه عن بعض إذا كان يتعلق آخره بأوله ، فهذا يشير إلى أنهم كانوا يراعون أغراضاً ما .

كذلك ورد عن ميمون بن مهران - وهو من كبار التابعين أيضاً - أنه

قال : إني لأقشعر لقراءة أقوام اليوم يرى أحدهم عليه حتمًا أن لا يقصر عن العشر ، إنما كان القراء يقرءون القصص طالت أم قصرت ، يقرأ اليوم أحدهم في الركعة : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١١] ، ويقوم فيقرأ في الركعة الثانية : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة : ١٢] .

وورد كذلك عن الشعبي أنه قال -وهو أيضًا من التابعين- : إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن : ٢٦] فلا تسكت حتى تقرأ : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

مع أن ﴿فَانٍ﴾ هي نهاية الآية ، فدل هذا وغيره من الآثار التي يضيق الوقت عن ذكرها ، دل على أن القراء الأولين لم يلتزموا بهذا المعيار ، معيار الوقف على رءوس الآي فقط ، وإنما أضافوا إلى ذلك وقفات أخرى اجتهدوا فيها ، وأدلى كل واحد إلى ما أداه إليه اجتهاده ، أو سلك كل واحد إلى ما أداه إليه اجتهاده ، ومن ثم نجد أن القراء العشرة الذين لا زالت مذاهبهم تعتمد إلى اليوم وهم القراء المعتمدون في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، القراء العشرة ، مذاهبهم تعددت .

فوجد مثلًا نافعًا إمام المدينة في القراءة ، والذي انتشرت قراءته منذ حوالي عشرة قرون في شمال إفريقيا .

إذن قد وجدت في هذه البلدان إلا أنها انتشرت بكيفية عامة وواسعة منذ نحو عشرة قرون .

الإمام نافع الذي كان معاصرًا للإمام مالك -وهو من أقرانه- هذا

الإمام كان يراعي في وقفه في قراءته محاسن الوقف والابتداء، هكذا وردت الرواية عنه .

والإمام ابن كثير عبد الله ، إمام مكة في القراءات ، كان يقول : إذا وقفت على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] ، ووقفت على : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٩] ، وعلى : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] لم أبال بعد ذلك وقفت أم لم أقف .

فهذا يدل على أنه فيما عدا هذه المواضع الثلاثة كان يترك الحرية لنفسه في الوقف ويقف حيث ينتهي نفسه .

ووردت الرواية عنه كذلك أنه كان يقف على رءوس الآي مطلقاً .

وأما أبو عمرو بن العلاء البصري إمام البصرة في القراءات ، الإمام اللغوي المعروف ، أحد القراء السبعة فقد ورد عنه أنه كان يقف على رءوس الآي ، ويقول : هو أحب إلي ، وهذا المذهب اختاره البيهقي كذلك في «شعب الإيمان» ، واختاره كثير من العلماء ، نظراً للحديث الذي أوردناه سابقاً ، ولاحظوا ورأوا أن في هذا اتباعاً لهدي الرسول ﷺ .

وقد ذكر لنا المهدي الوزاني في كتابه «المعيار الجديد» أنه رأى أهل الزاوية الناصرية يسلكون هذه الطريقة في الوقف في قراءتهم لحزب الغداة والعشي ، أي يقفون على رءوس الآي ، وهو المذهب الذي قال به أبو عمرو ابن العلاء البصري .

ولكن أبا عمرو وردت عنه الرواية كذلك بغير هذا .

ووردت الرواية أيضاً بأن عاصماً والكسائي كانا يراعيان حسن

الابتداء أو حسن الوقف والابتداء أو تمام المعنى .

ووردت الرواية عن حمزة بأنه كان يقف حيث ينقطع نفسه .

ووردت الرواية عن يعقوب وأبي جعفر وخلف بأنهم كانوا يراعون حسن الوقف والابتداء .

فدل هذا كله على أن الأئمة رضوان الله عليهم لم يلتزموا فقط بالوقف على رءوس الآي ، وإنما تعددت مذاهبهم ونظروا إلى الأغراض .

والحق أن تمام المعنى لا يلزم دائماً رأس الآية ، فرأس الآية قد يكون فيه التمام ويكون فيه الكمال ، وقد لا يكون كذلك .

فعلى سبيل المثال : الوقف على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٧] ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ نهاية الآية ، ولكن مع ذلك التمام لم يحصل في هذا الوقف .

فالتمام لا يحصل إلا بقولنا : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ ﴿ وَيَالَيْلِ ﴾ والآن من هذا : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ ﴿ وَيَالَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

ثم إن التمام قد يكون وقد يحصل على أساس قراءة دون أخرى ، فإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿ الرَّكَّاتِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] ، ووقفنا على ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ ، ورفعنا لفظ الجلالة : ﴿ إِلَهَ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ٢] يكون الوقف على ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ تاماً على هذه القراءة ، على قراءة رفع لفظ

الجلالة ، فهي قراءة نافع مثلاً .

ولكننا إذا وقفنا على ﴿ الْحَمِيد ﴾ وخفضنا لفظ الجلالة : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ كان الوقف دون التمام .

وكذلك قد يكون الوقف تاماً على تأويل دون آخر ، فمذهب الجمهور أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ؛ ولذلك فالتمام عندهم الوقف على الجلالة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] مع أنه وسط الآية .

ولكن الفريق الذي لم يأخذ بهذا وقال : إن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه لا يكون التمام عنده في هذا الموضع ؛ فبان من هذا أن طبيعة القراء وطبيعة الأصوات تختلف ، وأن في هذا الأمر تيسيراً وتهويناً .

فتعدد المذاهب ينسجم مع تعدد الأنفاس ، ومع تعدد الأصوات ؛ لأن الأصوات قوية وضعيفة ، وإلزام الناس بنمط واحد في الاستراحة مما قد يدخل عليهم العسر ، ويدخل عليهم الشدة ؛ ولذلك كان في هذا التعدد توسعة ورفق ورحمة .

مراتب التلاوة :

ثم إن مراتب التلاوة ليست واحدة ، فالذي يقرأ مثلاً بالترتيل ويبطئ في قراءته ليس كالذي يقرأ بالتدوير ، أو ليس كالذي يقرأ بالحدرد .

فالذي يقرأ بالحدرد مثلاً يسرع أكثر في قراءته ، وقد يحتاج إلى مواضع لا يحتاج إليها الذي يقرأ بالترتيل .

ثم إن التالين مثلاً إذا كانا يتلوان القرآن الكريم على مرتبة واحدة ويشتركان في عدد من القضايا القرائية ، ولكنها مثلاً يختلفان في المد

المنفصل ، هذا يشبعه : ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء : ٦٠] ، وهذا لا يشبعه .

نحن نشبع مثلاً . . . في رواية ورش يشبع المنفصل ، هذا يشبعه ، وهذا لا يشبعه ، هذا يقول بمد البدل ، ويشبعه : ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وهذا لا يشبعه .

فالذي يشبع يحتاج إلى مدة زمنية أطول ، فإذا قرأ معاً نصّاً واحداً في ظروف واحدة وبمرتبة واحدة ، واشتركا في جملة من القضايا واختلفا فقط في هذين الأمرين ، فإن هذا قد يحتاج إلى ثوان زائدة ، وقد يحتاج إذا طالت القراءة إلى دقائق أكثر .

ومن ثم فهو يحتاج إلى مواضع الاستراحة التي قد لا يحتاج إليها غيره . كذلك هناك من يقرأ آيات متوسطة الطول أو آيات قصيرة ، وهذا قد يحتاج إلى مواضع لا يحتاج إليها الذي يقرأ آيات طويلة ، فإذا أراد الإنسان مثلاً أن يستريح ويرتل في آن واحد وفي نفس واحد ، يرتل آية الدين فإن ذلك يتعذر عليه ؛ لأن آية الدين طويلة ، وإذا رتلها أبطأ ، والنفس ينقطع ، فإذا انقطع اضطراراً فلا بأس بذلك ، ولكن إذا أراد أن يختار الاستراحة فله أن يختارها على موضع مناسب .

إذن فبان من هذا أن تعدد المذاهب لا يخلو من تيسير ، وهو كذلك ينسحب عليه هذا المبدأ ، أي مبدأ التيسير الذي هو من مبادئ الإسلام .

ومن ثم نظر القراء إلى معالجة هذا الموضوع ووضع تقسيمات ، حتى يجنبوا التالي للقرآن ، يجنبوا القارئ للقرآن الوقوف في القبيح ، بحيث يجنب القبيح ، وله بعد ذلك أن يقف على أي شيء صالح .

ومن ثم جاءت تقسيماتهم المتعددة والتي أذكر منها على سبيل المثال أن الوقف تام وقبيح ، أو أن الوقف تام وكاف ، وحسن وقبيح .

وعلى كل حال فالذي يحذرنا منه هو تعمد الوقف على القبيح ، والقبح قد تتفاوت مستوياته إلى أن يصل والعياذ بالله إلى درجة الافتراء على الله .

بل قد يخرج صاحبه من الدين إذا كان في ذلك قصد لإفساد المعنى وإذهاب الإعجاز وخلق الحق بالباطل ، كما في هذه الأمثلة التي أسوقها على عجل .

فالذي يقف على قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلَا بُوَيْهَ ﴾ [النساء : ١١] يوهم المستمع بأن الأبوين يشتركان في النصف مع البنت ، مع أن الحقيقة ليست كذلك ؛ لأن حال الأبوين حال تأتي بعد .

والذي يقف على : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون : ٤] يوهم المستمع أن هذا الاسم مذموم والحقيقة ليست كذلك ، إنما هذا الاسم ممدوح ، والذي أخرجه من المدح إلى الذم هي الصفة التي تأتي بعده .

والذي يقف على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ [التوبة : ٣٠] ويتعمد الابتداء بما بعده فيقول : ﴿ عَزِيزُ بْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] أو : ﴿ وَقَالَتِ النَّصْرَى ﴾ [التوبة : ٣٠] ثم يتعمد الابتداء بعد ، ويقول : ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

أو يقول : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ [آل عمران : ١٨١] يقف

ثم يتعمد الابتداء بعد ذلك فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١].

مثل هذا كله إذا تعمد صاحبه الوقف عليه فهو مفتر على الله ﷻ، وهو كذاب، وقد يكون -إذا كان قصده ذلك- خارجاً عن ملة الإسلام.

وحتى يسهل أئمتنا رحمهم الله هذا الوقف في الخط، عمدوا مع تطور الضبط، ومع تطور الرسم والضبط في المصحف -إلى تصوير الوقف بعلامة من العلامات، واختار بعض الأئمة علامة واحدة، في حين نجد أن هناك من اختار أكثر من علامة.

فالمصاحف المغربية المطبوعة الآن اختارت علامة واحدة للوقف، سواء كان هذا الوقف تاماً أو كافياً أو حسناً إلى آخره.

فعلاية واحدة وهي علامة وقفت على أول مصحف موجودة فيه، مؤرخ في رمضان عام ٩٦٨هـ، وهو مصحف موجود بالخزانة العامة بقسم الوثائق، ويحمل رقم (٦٠٦ ج)، وأقرأها مرة أخرى من اليمين إلى اليسار يحمل رقم ست وستمئة (٦٠٦ ج) وهذا هو المصحف الذي علمت أنه وضع هذه العلامة.

وهذا الوضع تأخر عن موت صاحب هذا الوقف، وهو الهبطي حوالي (٣٨) سنة.

وقبل ذلك وقفت على بعض المصاحف خالية من هذه العلامة.

فإذن المصاحف القديمة في المغرب كانت لا تعمل بهذه العلامة التي هي علامة (صه) حتى جاء الهبطي ونبه على الكلمات التي يوقف عليها من أول القرآن إلى آخره.

وجاء بعض تلاميذه فقيد هذه الكلمات فقال : (لا ريب ينفقون) ، إلى آخره .

ثم وضعت هذه العلامة علامة (صه) ، وعلى ذلك نحن إلى الآن . وكذلك بعض المصاحف التي طبعت في شمال إفريقيا في دول المغرب والتي اطلعت عليها ، فالمصحف المطبوع في الجزائر سنة ١٩٨٩ هو أيضاً التزم بالوقف الهبطي ، والمصحف الذي طبعته الدار التونسية للنشر سنة (١٣٩٩هـ) ، والمصحف الذي طبعته جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا سنة (١٩٨٣م) .

هذه المصاحف التي ذكرت التزمت هي أيضاً بالوقف الهبطي ، وهذه العلامة لاشك هي من التراث الذي تشترك فيه دول المغرب .

وأما المصاحف التي طبعت في مصر والمدينة المنورة عام (١٤٠٥هـ) و١٤٠٨هـ فهذه اختارت للوقف أكثر من علامة ، فهي مثلاً وضعت للوقف الممنوع أي القبيح علامة (لا) ، ووضعت للوقف الجائز المستوي الطرفين ، جواز المستوي الطرفين وضعت له علامة (ج) .

ووضعت للوقف الجائز مع كون الوصل أولى علامة أخرى ، ووضعت للوقف الجائز مع كون الوقف أولى علامة أخرى . ووضعت للوقف الذي يسمى الوقف المتعائق - أي إذا وقفت على موضع فلا يوقف على الموضع المجاور ، علامة أخرى .

وإذا قارنا بين علامة المغاربة وعلامة المشاركة نجد أن لكل منهما محاسن ، كما ربما نجد أنه يمكن إعادة النظر في بعض العلامات .

فالعلامة المغربية تلزم التالي القارئ بالوقف من أول القرآن إلى آخره ، هي حقيقة لم تلتزم برءوس الآي ، وليس بينها تباعد ، بحيث أي قارئ يمكن له أن يستريح ولو رتل القرآن من أوله إلى آخره ، هي من هذه الناحية لا إشكال فيها ، وهي كذلك تفيد وتناسب القراءة الجماعية .

والقراءة الجماعية لا تصلح ولا تكون مفيدة ولا تكون خالية من الاضطراب والإساءة إلى القرآن إلا إذا كان هناك توحيد الخطّة في المد وفي غير ذلك ، ويكون كذلك توحيد في الوقف .

ومن هنا كان الوقف الهبطي مناسبًا جدًا لهذه القراءة الجماعية .

وهل يمكن إعادة النظر في وضع هذه العلامة المغربية بحيث يمكن إضافة علامة أخرى أو ما أشبه ذلك؟ فهذا أمر إذا كان ولا بد منه فليكن من أهل الاختصاص الضابطون المتقنين للغة العربية ، زيادة على إتقانهم لعلم القراءات .

وأما العلامات المشرقية فهي علامات تناسب أكثر - فيما أرى والله أعلم - القراءة الفردية ؛ ذلك أنها تنبه على الوقف القبيح ، على الوقف الممنوع ، وتترك بعد ذلك المجال واسعًا فإذا أراد القارئ أن يقف على الوقف الجائز المستوي الطرفين في الجواز فله ذلك .

وإذا أراد أن يقف على أي وقف صالح آخر فله ذلك ، لكن بالنسبة للقراءة الجماعية لا يناسبها كثيرًا إلا إذا كانت هناك علامة تصحب القراءة الجماعية من الشيخ أو من أحد التالين ، فينبه إلى أنهم سيقفون في الموضع المعين عن طريق الإشارة .

هذه بعض المسائل الأساسية التي أردت توضيحها في هذا الدرس ،
ولأزعم أنني أتيت على جزئيات الوقف وعلى فروعه ، وإنما قصدت
بكيفية أساسية أن أذكر بهذا الموضوع القراء أن الذي يقبل على قراءة
القرآن الكريم فالله سبحانه وتعالى قد وسع عليه وهون عليه .

وكل ما ينبغي أن يراعى في هذا الباب هو أن القارئ للقرآن لا يعتمد
الاستراحة على ما يفسد المعنى ، وبعد ذلك يمكن له أن يقف حيث شاء
إذا كان الوقف صالحاً .



نور من القرآن والسنة

١٣٦

المحاضرة الثامنة والسبعون

المشكلة الاقتصادية

أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» .

راوي الحديث هو الصحابي المقدم بن معدي كرب ، وهو من صغار الصحابة ومن المقلين في الحديث ، لم يخرج له البخاري إلا حديثين : هذا الحديث الذي رأينا -على مستوى الاقتصاد الإسلامي- أن يكون محوراً لهذا الموضوع ، وآخر في كتاب الأطعمة . مات رحمة الله عليه بعد بضع وثمانين للهجرة .

إذا كان المشرع لا يشرع بدون قصد ، والقوانين لا تصدر إلى عن ظروف تقتضيها ، والقرآن في أسباب نزوله نزل حسب الوقائع والأحداث ، والحديث ورد على مستوى المشاكل الدينية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية .

والدراسات الإسلامية تعتمد الاستنباط واستخراج القوانين من النصوص النبوية التي قد وضعت منهجاً عملياً لا محيد عنه لمن وقفت المشكلة الاقتصادية في وجهه اليوم .

أسباب المشاكل الاقتصادية :

والمشكلة الاقتصادية أو ما اصطلحوا عليه عالمياً بالمشكلة الاقتصادية لها أسباب بشرية وطبيعية ، أهمها ندرة الموارد وكثرة الحاجات وقلة المداخل وتكاثر النفقات أو ما سماه (مالتوس) بالاختلال بين عدد السكان وكمية الموارد الكافية لتأمين حياتهم .

والمشكلة بهذا المعنى مشكلة الفرد والأسرة والدولة وبالتالي مشكلة العالم، فالموارد العالمية لا تغطي حاجات أكثر من ثلاثة ملايين من البشر، خاصة أن بعض مداخلها يصرف في الحروب والأسلحة المتطورة وفي بناء سفن الفضاء ومصانع البطش والدمار وفيما يضر كالمخدرات بدل أن يصرف في ما يسعد الإنسانية ولا يشقيها؛ يشقيها العبث بثروة الأمم والانحراف بقوة المال وسلطان العلم عن سنن المهتمين.

وقد استهجن القرآن مثل هذا التصرف في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿٣٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٤٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٤١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٢].

وإنه لو غطت موارد العالم كل حاجاته لما كانت البطالة والمجاعة والديون الخارجية، وحتى الدول المصنعة مواردها لا تغطي نسبتًا كل حاجاتها، الأمر الذي دفعها إلى التعاون والتكتل ومجابهة الملايين من أصحاب البطالة الموجودة في شعوبها.

والبطالة صورة من صور ندرة الموارد وكثرة الحاجات. وقد رأى الخبراء أن أكبر مشكل يواجهه رئيس أعظم دولة في الغرب يتمثل في اثنين وثلاثين مليوناً أي ثلاثة عشر في المائة (١٣٪) من السكان الذين تحولوا إلى فقراء بالنسبة لمفهوم الفقر المحدد على مستوى الدخل القومي لبلاده، وصرح سلفه أنه تأسف على أنه ترك عجزاً كبيراً في الميزانية، نفس العجز تشتكي منه أعظم دولة في الشرق.

وقد صرح المستشار الاقتصادي لرئيسها أنه قد يصل هذه السنة إلى مائة وستين ملياراً (١٦٠ مليار دولار) وهو ما يقارب مقدار العجز لدى مثيلتها

في الغرب . والعجز تعبير عن ندرة الموارد وكثرة الحاجات وعين المشكلة الاقتصادية ، إذن المشكلة الاقتصادية مشكلة عالمية .

طرق حل المشاكل الاقتصادية :

وقد حاول كل اتجاه أن يدخل إلى حلها من زاويته ؛ فرأى الغرب أن يحلها بما يعرف بالسلوك العقلاني وهو أن تؤمن للفرد حريته كي يقضي مصلحته الخاصة على اعتبار أن المصلحة العامة تتكون من مجموع المصالح الخاصة فينحل المشكل ، وعلى العكس يرى الشرق أن السلوك العقلاني والحرية الفردية من أسباب المشاكل فرأى الحل في السلوك الجماعي على حساب الفرد وطمس شخصيته .

والاقتصاد الإسلامي لا يرى الحل في الفصل بين الجاهدين فاعتمد السلوك العقلاني والحرية الفردية في دائرة قوانين شرعية محددة ومنظمة للنشاط الفردي والسلوك الجماعي في شخص الدولة ، كي تشرف وتراقب وتوجه الاقتصاد نحو الحل .

والمشكلة نزلت بثقلها على الاقتصاد الإسلامي قبل الاقتصاد المعاصر بقرون ؛ إذ الاقتصاد الإسلامي كان هو الاقتصاد الوحيد النشط في القرون الوسطى حين تجمد العالم لحوالي ألف سنة ، حيث بدأ في القرن السابع للميلاد والمعاصر كمذهب ، وعلم بدأ في القرن السادس عشر ، وكان أول مشكل اقتصادي واجه الرسول .

فالمعلوم أن أهل يثرب -المدينة المنورة- بعد الهجرة لم يعرفوا التجارة كما عرفت بها قريش في مواسمها وفي رحلتي الشتاء والصيف : إحداهما إلى اليمن ، وأخرى إلى الشام ، وإنما يعتمدون على مورد هم المحدود المتمثل في

بساتين المدينة إلى جانب بعض الصناعات والتجارات المحلية الخفيفة ، وكان في الإمكان أن يغطي هذا المورد المحدود حاجة أهل يثرب .

والمشكل بدأ زحفه بعد هجرة الرسول وأصحابه بأسرهم تاركين ما ملكوا بمكة ، فاحتظت المدينة بالسكان وطراً النقص على السكن والمؤن ووقع ما يعرف بالاختلال بين الموارد والسكان ، فالتجأ العدد الزائد إلى صفة بالمسجد حيث كان الرسول ينفق عليهم مما أفاء الله عليه فنشأت المشكلة الاقتصادية بنفس السبب الذي نشأت به اليوم مع اختلاف في الكيف والكم .

وقد عالجها الرسول بمنهج أساسي قوامه تطوير الإنتاج ليرتفع إلى مستوى الحاجات وتطوير الإنتاج متوقف على تطوير العمل ، وتطوير العمل متوقف على تحريك رءوس الأموال الاجتماعية .

ثلاثة عوامل في المنهج الإسلامي تفرد وجودها على الاقتصاد المعاصر : رأس المال ، والعمل ، والموضوع الذي يمارس عنه الجهد والعمل .

والمعلوم أن الرسول كما روي في «الصحيحين» دعا إلى إنفاق الكنوز وفضول الأموال ، وأمر باستثمار الثروة النقدية لليتامى كي لا تأكلها الصدقة ، وهو ما يعني تحريك رءوس الأموال الاجتماعية ، ودعا إلى العمل المباشر المعبر عنه بعمل اليد كما تجلّى في قوله : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده»^(١) .

واختار الماوردي لهذا الحديث كموضوع يمارس عليه الجهد والعمل :

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه .

التجارة والصناعة والفلاحة، وهي القطاعات الاقتصادية الكبرى التي تمثل العمود الفقري في اقتصاد الدولة، والباقي روافد لهذه أو تلك، فكانت عوامل رأس المال والعمل والموضوع متكاملة، على أن الرسول لم يقترح مشروعاً نظرياً كما يقع اليوم، وإنما قدم منهجاً عملياً وأسس رابطة اقتصادية وعملية بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين، وتعرف في كتب الحديث والسيرة بالأخوة الإسلامية كان يأخذ بيد أنصاري وبيد مهاجري ويقول: «تأخيا أخوين أخوين».

فكان الأنصاري إذا كان له فضل أرض منح استغلالها وتنازل عن منفعتها - لا عن أصلها - لأخيه المهاجري، وتعرف في كتب الحديث بمنحة الفضل، وإذا لم يكن له فضل أرض عملاً فيما تحت يده أو تكون الأرض من الأنصاري والعمل من المهاجري ويشتركان في الإنتاج.

فكان الرسول أول من أشرك العامل ورب المال في الإنتاج. وفيه يروي البخاري عن أنس بن مالك قال: لما قدم المهاجرون وليس بأيديهم شيء، وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، قاسمهم الأنصار على أن يعطوهم من ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمثونة، فكانت المشاركة في الإنتاج على أساس المساهمة بالعمل.

فتماسك المجتمع وانحلت أكثر مشاكله، والباقي قد انحل بتقسيم أراضي يهود بني النضير على الفقراء دون الأغنياء، وأكثر من تنازل الأنصار ومشاركتهم لإخوانهم فيما تنتج أراضيهم وفاء لاتفاقية العقبة بمكة المتضمنة مساعدتهم للمهاجرين.

يروى البخاري «أنهم قالوا للنبي: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل أي

الأصل . فقال : لا . فقالوا : تكفونا المئونة ونشرككم في الثمرة ، قالوا : سمعنا وأطعنا .

فكان من الرسول أن رفض تأميم الملكية الخاصة وتوزيعها على الرغم من اقتراح أصحابها وقرر المشاركة في الإنتاج على أساس المساهمة بالعمل ، تاركًا التسيير بيد الأنصار ، معللاً كما روى الدوري في «الأموال» أن المهاجرين لا علم لهم بالأساليب الفلاحية ، مما يدل على أن الاقتصاد الإسلامي يرفض العمل بدون خبرة كما يرفض التأميم ، وقد رفضه الرسول .

والمعلوم اقتصاديًا أن التأميم يقتل روح المنافسة المحرك الأساسي في تطوير الإنتاج كما تجلّى في انخفاضه مكان الثورة الشرقية (١٩١٧م) وهو العنصر المعتمد في الاقتصاد الليبرالي والإسلامي بإثبات الملكية الخاصة والمختفي في الاقتصاد الشرقي بعد تأميمها .

الإصلاح الزراعي :

ومن الأساليب الناجحة خطة الإصلاح الزراعي ، ذلك أن الإصلاح الزراعي يستهدف تطوير الإنتاج ، والتأميم يسبب في انخفاضه نتيجة الفرق بين من يعمل لنفسه ومن يعمل لغيره .

والفضل في نجاح الرابطة الاقتصادية النبوية يعود إلى استعداد الأنصار ، وتقبلهم لمفهوم العدالة الاقتصادية والاجتماعية ، والمبادئ كالبذور ، كل أرض وما يزرع فيها .

ولذلك فالمبادئ المستوردة والآراء المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ، لا تنبت في مجتمع إسلامي ، ومن دواعي نجاح المشاريع أن يكون الحاكم محبوبًا مطاعًا لدئ المحكومين كما كان الرسول محبوبًا مطاعًا لدئ الأنصار .

قل لمعاوية أيام خلافته : أي الناس أحب إليك؟ فقال : أشدهم لي تحيياً

إلى الناس .

مسئولية الإمام مسئولية عامة فيها قال عمر : لو أن جملاً مات على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه ، وفي رواية تشير إلى مسئولية المحافظة على النظام : لو أن جملاً سلك ضيغاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه ، وروى مالك أنه مر بحمار مثقل باللبن فخفف عنه بإزالة طوبتين ، فقالت ربة الحمار : ما لك يا عمر ولحماري ألك عليه سلطان؟! فقال : وما يقعدني في هذا الموضوع يعني مركز الخلافة؟

مشاريع القمة تعتمد على مساندة القاعدة .

فيها خاطب عمر مجلسه الاستشاري في وقف أراضي سواد العراق بعد فتحها فقال : إني لمزعجكم ، ألا لتشاركوا معي في أمانة فيما حملت من أموركم ، فإني واحد كأحدكم فقالوا : الرأي لك ، فنعمنا قلت وما رأيت فنجحت مشاريعه .

ومن دلائل تشبع الأنصار بروح العدالة الاقتصادية والاجتماعية ؛ أن روى يحيى بن آدم حول تقسيم أراضي بني النضير أن الرسول قال : «إن إخوانكم المهاجرين ليست لهم أموال فإن شئتم أمسكتهم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة فقالوا : لا بل تقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئتم»^(١) ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

كما روي عن أنس أن الرسول دعاهم ليكتب إليهم بشيء في البحرين

(١) أخرجه يحيى بن آدم في «الخراج» (٨٣) .

فقالوا: لا حتى تكتب لإخواننا المهاجرين بمثله، وبعد استشارتهم قسمها في فقراء المهاجرين مع ثلاثة من الأنصار. قال الداودي في «الأموال»: لفاقة كانت بهم، مما يدل على أن الأمر يتعلق بالفقر لا لكون هذا أنصارياً وهذا مهاجرياً.

وبسياسة القسم للفقير دون الغني انحل المشكل وساد التوازن الاجتماعي على أساس المساواة في التملك لا على أساس المساواة في الحرمان المطبق في المذاهب المادية، وقد أمر الرسول المهاجرين أن يردوا المنائح التي تسلموها من أموال الأنصار كي لا تجتمع مع الأموال الجديدة فيختل التوازن مرة أخرى، وبذلك يكون الرسول أول من راعى التوازن بكل جوانبه، وتلك كانت المشكلة الاقتصادية والأساليب الإسلامية الناجحة في حلها وعلى منهجها قام التطور الاقتصادي، والتطور الاقتصادي ليس بنظرية ماركسية مقتبسة من نظرية «داروين» في النشوء والارتقاء، وإنما هي نظرية الاقتصاد الإسلامي.

فالأوضاع الاقتصادية تطورت من عهد الرسول إلى عهد أبي بكر، ومن عهد أبي بكر إلى عهد عمر، ومن عهد عمر إلى عهد عثمان، حيث بلغ التطور الاقتصادي أوجهه، وبيعت أمة بوزنها مع التحفظ في هذا التصرف الحاطب للفتنة الكبرى.

وإنما أريد البرهنة على أن منهج الاقتصاد الإسلامي في تطوير الإنتاج عن طريق تطوير العمل بواسطة تحريك رءوس الأموال الاجتماعية قد تجاوز حل المشكلة الاقتصادية إلى التطور الاقتصادي.

وعلى مستوى عوامل رأس المال والعمل والأرض كعوامل ضرورية

يطرح الاقتصاد الإسلامي نظرية إنتاج قيمة السلعة وفائضها وعوامل تكوينها علماً بأن القيمة تؤمن الحياة الضرورية ، والفائض ينشئ التطور الاقتصادي . ومن ثم فلا سبيل إلى إنتاج سلعة ذات قيمة استعمالية وتبادلية إلا بثلاثة عوامل : رأس المال ، والعمل ، والأرض التي تنتج منها أو تصنع ، على عكس تمحل «ماركس» حيث قصر تكوينها على العمل الإنساني المجرد وحده وقوله - كشيوعي لا يعترف بالملكية الخاصة للأرض ولا برأس المال - بأن رأس المال بدون عمل لا ينتج ، يطرح بجانبه أن العمل هو الآخر لا ينتج بدون رأس المال .

وحتى لو سلمنا بنظرية «ريكاردو» القائلة بأن رأس المال عبارة عن قيم أعمال متجمعة إذا تكون بها فعالمل الأرض يفرض وجوده فيها . قال الرسول ﷺ - من رواية البخاري ومسلم - : «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه» ، وبدونها لا إنتاج قيمة غذائية بالعمل الإنساني المجرد وحده .

على أن النظرية متداولة بين علماء الإسلام والاقتصاديين قبل أن يتبناها ماركس فقد قال بها ابن خلدون وابن الأزرقي ، وحلل ابن خلدون قول الإمام علي بن أبي طالب : قيمة كل امرئ ما يحسن .

وقال بها «أرسطو» ، وفرق بين القيمة الاستعمالية والتبادلية . وقال بها الطبيعيون وقصروا فائضها على الناتج الصافي للأرض ، وقال بها : «وليام بوتي» و«توماس أكيناس» وأخضعوا تكوينها للعوامل الضرورية بما فيها الأرض ورأس المال ، وبنائها «نيكولاس باركو» على المنفعة و «جلو» على العرض والطلب و «آدم سميث» على الندرة والكثرة ، وضرب المثل بالماء والماس ، ورد «كوندياك» اعتبارها للتقديرات النفسية ، وبنائها «لوك» على

العمل الإنساني المجرد ، كما انتحل «ماركس» وهو نفس ما رآه «ريكاردو» وحاوله «آدم سميث» في البداية وانتقد عليه كما انتقد علي «ماركس» في هذا العصر .

ونريد من وراء هذه الجولة الخاطفة في قيمة السلعة وفائضها وعوامل تكوينها أن ننبه إلى أن النظريات الواردة في المذاهب عند ظهورها سواء في المذهب الطبيعي أو التجاري أو الكلاسيكي أو الحر أو الرأسمالي القديم أو السنسمونيات أو اشتراكية «برودن» أو الماركسية عند ظهورها قد دخل أغلبها في غمار التاريخ وعوضت في أوروبا بالتكنولوجيا الحديثة ، والتكنولوجيا تعني التطور التقني داخل التصنيع ولا تعني ما سموه بنظريات أصحاب الكراسي . ومن يلتفت في أوروبا اليوم إلى نظرية «مالتوس» في الاختلال بين الموارد والسكان؟ إذ يرى الحل في أن تقع المجاعات والكوارث والأوبئة والحروب ليموت العدد الزائد ، وخبايا الأرض والبحر لم تستنفد بعد ، وثروة العالم تصرف في غير ما خلقت من أجله .

وحتى نواجه الواقع المعقد ينبغي أن تركز الدراسات والأبحاث سواء في الاقتصاد الإسلامي أو الاقتصاد المعاصر على المناهج العملية وعلى الواقع الاقتصادي ، إذ من شأن المناهج أن تنظم العمليات ، والعملية إذا بوشرت بمنهج بدائي صارت بدائية ، خاصة عند الانتقال إلى منهج جديد .

وقد أوضحت عند دراسة أول مشروع أسس عليه البنك الإسلامي سنة (١٩٧٢) أن المبدأ محترم والمنهج في حاجة إلى الإصلاح ، وإنما أريد أول مشروع ، ومحاولة إصلاح التصميم بعد البناء والمنهج بعد التنفيذ من دلائل الارتباك والنقص في الكفاءات ، فكم مدينة بنيت وتهدم قصد إصلاحها أو قصد إصلاح تصميمها . وتصميم الخليفة عمر في بناء البصرة والكوفة

إذا ما رأى أن تخط الشوارع على عرض عشرين ذراعاً ، والأزقة على تسع ، والقطائع على ست ما يزال مضرب الأمثال ، وكم قنطرة بناها الاستعمار وتهدمت ، والتي بناها الموحدون للبهائم قرب مراكش منذ قرون تتحدى كل أنواع الحديث . فالتروي عند دراسة المشاريع وتمحيص المناهج وعدم البدء قبل الاستعداد ولو بتأخير التنفيذ قليلاً أسلم وأدعى للنجاح ، وهو ما تجلّى في موقف عمر لما استولى على دولتي الروم والفرس ومصر ولم يعرب الدواوين المنظمة لبيت المال ، على الرغم من أن اللغة من سيادة الدولة ، وسار الخلفاء على نهجه ، وبقيت بالرومية والفارسية والقبطية إلى عهد الوليد بن عبد الملك كي لا يختل نظام الدولة ، وسياسته تقول بأن النكسات التي تنشأ عن الارتجال تؤثر على مصالح الإسلام وسمعته .

الاستفادة من الماضي :

ويبدو من الخطوات الحالية الوئيدة أن العالم العربي قد استخلص العبرة من ماضيه لحاضره ، والخطأ الملهم للصواب صواب وتلك من مبادئ الاقتصاد الإسلامي ، والاقتصاد الإسلامي ليس بأدبيات ، أو مذهب شخصي أو قضايا منفصلة أو كما ينطبع في أذهان غير المتخصصين ، وإنما هو منهج اقتصادي إسلامي متكامل له ذاتيته وكيانه ومقوماته واستقلاله ؛ أصوله من الشرع ، ومناهج عمله من العصر ، استوعبت مبادئه ما استوعبته مبادئ الاقتصاد المعاصر مع اختلاف الأنظمة والقوانين ، وقد طبق في صدر الإسلام وأعطى نتائجه على مسرح الحياة حيث عجل بتطوير الاقتصاد العربي على الشكل الذي رأيناه ، وهو اقتصاد أمة لها تاريخها ومجدها وحضارتها ، وصفها الله بأنها أمة وسط ، واقتصادها اقتصاد وسط ، والوسط يعني العدل والاعتدال والاتزان بين الإجحاف والتطرف ، به

زكى الله عمل المعتدلين في اقتصادهم فقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧] . وقول النبي ﷺ : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» .

قد وقعت المسؤولية على عاتق الدولة الإسلامية لتجمع أمرها وتعتمد على نفسها وتراثها ، وتكون فيما بينها رابطة أو روابط اقتصادية متكاملة تستهلك ما تنتج في وقت اعتمدت فيه الكتل والمذاهب والدول المتقدمة على قدراتها المادية والفنية وفرضت مصالحها على مصالح الآخرين ، على الرغم من أن العمل من أجل الإنسانية ككل ، خاصة تأمين الأمن الغذائي ، من مسؤولية الإنسان كجنس وأمانته حيال استخلاف الله له ، فقد خلق الله الأرض وأرادها مكاناً للحياة ومنشأ للعمارة ، واختاره أداة لبناء هذه العمارة والعمل على تأمين هذه الحياة . وقد اقتضت حكمته تعالى أن تكون حركة الأكوان دائبة .

خص الله الإنسان بالعقل والقدرة:

والإنسان كائن حي خص بالعقل والقدرة على تنظيم دواليب الحياة ما كان له أن يقف وحركة الأكوان دائبة من حوله ، والحركة أيًا كان نوعها ومصدرها ما كان لها أن تقع دون دافع أو محرك أو سبب ، وعلى الرغم من اختلافها في الكيف فإنها لا تختلف في الاستجابة لعواملها المادية والمعنوية ، فالطيور التي قال النبي ﷺ في شأنها وشأنها : «لو توكلتم على الله حق توكله

لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(١) لم تعتكف في أوكارها وتشتكي من ندرة الموارد وكثرة الحاجات ، وإنما في حركة دائبة فبارك الله مسعاها استحققت أن تغدو جائعة وتروح شبعانة ، معبرة بحالها عن معنى التوكل في إنجاح الأسباب لا في تركها ، والإحساس الذي دفعها إلى البحث عن موارد قوتها هو نفسه الذي أرغم الإنسان على أن يعمل ويتصارع مع الطبيعة كي ينتزع منها قوته وملبسه ؛ ذلك أن الطبيعة مع إرادة الله لا تتحف الإنسان بكل ما يشبع حاجاته ، وأغلب ما تتحف به لا يكون صالحًا للاستعمال في صورته الأولى ، فتبدأ المجابهة مجابهة من أجل الاقتطاع من الطبيعة ما يتناسب ومستوى الحاجات ومجابهة من أجل تحويله إلى سلع أو خيرات .

وقد عرفوا الاقتصاد بأنه علم يدرس تيسير الموارد النادرة وإشكال تحويلها وهو ما يعني محاولة التغلب على المشكل القائم بين ندرة الموارد وكثرة الحاجات والبحث عن أفضل السبل الكفيلة بتحويل الندرة إلى مستوى الكثرة ، وهذا التعريف من بين التعاريف الكثيرة أشد اتصالًا بالدافع للعمل ، إذ كلما ارتفع مستوى الحاجات على مستوى الموارد كلما اضطر الإنسان إلى مقاومة ما يعاني من الاختلال بين الدخل والمصروف ، على أن الحاجات غير قابلة للتحديد لا من ناحية الكيف ولا من ناحية الكم ، إذ هناك حاجات مادية ومعنوية ، ضرورية وكمالية ، اجتماعية ودولية ، مدنية وعسكرية ، تعليمية وصحية ... إلخ ، إذا وقعت الاستجابة لبعضها وقع العجز في البعض الآخر . والاكتشاف العلمي

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

والنمو الديموغرافي ما كان إلا أن يمدد لائحتها ، إذ كلما اكتشف شيء أو خلق مولود خلقت حاجاته ، خاصة أن الموارد على ندرتها بعضها كالمعادن والبترول يتول إلى الزوال ، والأرض المعتمدة في التغذية تنقص بالتصحر ، وامتداد العمران وعجلة الاستهلاك تدور بتصاعد واستمرار ، وتلك من مشاكل المستقبل ، واتخاذ التدابير لا يتعارض وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] . فالرسول الذي نزلت عليه الآية كان يدخر نفقة سنة لعياله - كما روى البخاري ومسلم - ليتفرغ لما هو أعظم .

أما ما يطرح عالميًا من البحث عن موارد جديدة وتطوير ما هو كائن طلبًا للحل فيعترضه أن البحث لا يضمن النتائج ، وأن تطوير الإنتاج إن أمكن محدد على مستوى التوازن بين المقادير المنتجة والمستهلكة كي لا يقع الفائض ، وقد يكون الحل في تطبيق هذه النظرية نسبيًا إلى جانب ما جاء به الاقتصاد الإسلامي من حسن التدبير ونهج سياسة وطنية تخضع النفقات للدخل ، ويوزع على أي حالة كان ، كما دأب عليه عمر في سياسته المالية ، حيث جعل النفقات تتحرك على مستوى الدخل ، فيزيد أو ينقص حسب مداخيل الدولة ، وإذا لوحظ عليه في حالة النقص قال قولته المشهورة : إذا جاد الكريم جاد عمر ، يعني أنه ليس بأكثر من قاسم لما يجود الله به ، خاصة إن وقعت مجاعة عام الرمادة في عهده ، وأبو بكر لم يترك في بيت المال إلا درهماً أو ديناراً سقط في غرارة فعاد عمر إلى منهج الرسول وحرك الإنتاج والعمل بصرف النقود . فقال ، والنقود تكومت أمامه : والله لا يظلها سقف تحت السماء حتى أقسمها بين الناس ، وكتب إلى عامله أبي موسى الأشعري : أما بعد ، إن القوة في العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم

لغد... إلخ، وخاطب أصحاب الرسول بقوله: أصلحوا أموالكم التي رزق الله لكم، ولقليل في رفق خير من كثير في عنف، وقرر أن يدخل على كل أهل بيت عدته من المساكين، وفرض ما سوى الزكاة، كما فرض على القاعدين ما لا يستعين به على نفقات المقاتلين فتماسك المجتمع حتى ارتفعت الشدة ودرت الخيرات، وقد وقف الأراضي المفتوحة لينهض خراجها بنفقات الدولة والمجتمع، فسعد الناس في عهده، إلا أن عهد عمر ليس هو القرن العشرين لا من ناحية البساطة وعدد السكان وتقبلهم للواقع ولا من ناحية الموارد ما بين الجزيرة والشام والعراق ومصر كما أن عهده لم يعرف ميزانية التسيير والحقوق المكتسبة، لكن ما لا يمكن كله لا يترك بعضه. فالمجال مفتوح أما ميزانية التجهيز وما لا يفرض وجوده.

تلك كانت نتائج العمل وحسن تدبيرها. والعمل المعني في الاقتصاد الإسلامي هو العمل المنظم الهادف في نظامه. يقول الرسول من رواية البخاري: «لن ينجي أحدًا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمديني الله برحمته سددوا -في رواية: لكن سددوا- وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئًا من الدلجة والقصد القصد تبلغوا».

يساق هذا الحديث جملة في عمل الآخرة، على الرغم من أن الإسلام جاء بعمل الحياتين. وابن عمر يقول: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمِلْ لآخرتك كأنك تموت غدًا.

ولاشك أن قول الرسول: «لن ينجي أحدًا منكم عمله» من عمل الآخرة.

وقوله: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئًا من الدلجة والقصد القصد تبلغوا» يحتمل عمل الدنيا، خاصة أن الغدو والروح لا يكون من أجل عبادة؛ وإنما يكون من أجل التجارة والفلاحة والصناعة والوظيف،

ويشير إلى نظام العمل على فترتين : فترة الصباح وفترة المساء .

والدلة التي فسروها بالسير ليلاً تكون صيفاً بالتجارة .

ثم ماذا يعني قول الرسول : «سددوا وقاربوا» ؟ لتحليل هذا المبدأ العام أقول : السداد في كل شيء وعلى جميع المستويات هو الصواب وعدم الخطأ ، والمقاربة ما يقارب الصواب ويجانب الخطأ ، والسداد في الاقتصاد والعمل هو التوسط والاعتدال وهو ما يمتاز به الاقتصاد الإسلامي عن غيره ، ويعنيه قول الرسول : «القصد القصد تبلغوا» أي الاقتصاد الاقتصاد في العمل تبلغوا الهدف الذي ترومون كما قال الحافظ ابن حجر .

وقد رفض الرسول المجازفة وضرب المثل بالمسافر الذي يحمل دابته ما لا تطيق فتهلك وينقطع عن السير كما جاء في رواية البخاري ، وسئلت عائشة أي الأعمال أحب إلى النبي؟ فقالت : الدائم دنيوي وأخروي ، فكانت الديمومة وبرمجة العمل والتوسط في مقاديره من دواعي نجاح المشاريع كما كانت المجازفة والارتجال وتراكم الأعمال -المعلل في قول عمر : لا تؤخروا عمل اليوم لغد فإنكم إذا فعلتم تداركت عليكم الأعمال ولا تدرون أيها تأخذون فأضعتم - من دواعي فشلها .

والسداد في الإنتاج يعني التؤدة والتدرج من مرحلة إلى مرحلة ، فيه يروي الترمذي أن النبي ﷺ قال : «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزءاً من النبوة» ، والسداد في الإنفاق يعني حسن التدبير الاقتصادي ، فيه يروي الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : «ما عال من اقتصد» أي ما افتقر من أحسن التصرف عند الإنفاق فيكون المقتصد في المعنى اللغوي والأصلي وفي الاقتصاد الإسلامي هو الشخص المعروف بحسن التدبير والموازنة بين الدخل والمصروف ، ثم السداد على

مستوى الاستراتيجيات الاقتصادية أو التوازنات الاقتصادية والعملية :

أولاً : التوازن بين قوة العمل وبرأجه ، وليس المراد أن تحل الوحدات العملية محل الوحدات النقدية كما يقع في الأنظمة التي لا تعتمد النظام النقدي ، وإنما المراد أن يقع التوازن بينها وبين مقادير الزمان كثمان ساعات مثلاً ، والأجر على العمل سواء مع الدولة أو مسلم أو أجنبي مشروع ، فيه قال البخاري : باب رزق الحكام والعاملين عليها ، وكان شريح القاضي يأخذ على القضاء أجراً ، وقالت عائشة : يأكل الواصي أي العامل بقدر عمله ، وأكل أبو بكر وعمر تعني من مالية الدولة ، مرتب عمر كان أربعة آلاف درهم في السنة ، إلا أن العامل في الاقتصاد الإسلامي ليس هو العامل في الاقتصاد المعاصر ، العامل في الاقتصاد المعاصر أجير يخضع لقانون الأجر من جهة وقانون العرض والطلب من جهة أخرى ، وفي الاقتصاد الإسلامي له حالات تختلف باختلاف نوعية عمله ، إذا ارتبط عمله بالزمن كالיום والشهر فإجارة ، وقد أمر الرسول أن يعطى أجره قبل أن يجف عرقه ، وإذا ارتبط بالإنجاز كالوكالة على البيع فجعل وهو نوع من الإجارة .

والفرق أنه في الإجارة يستحق أجر ما أنجز وإن لم يتم ، وفي الجعل لا يستحق أي شيء إلا بالتمام ، وإذا أعطي نقوداً ليعمل فيها بقسط من ربحها أو أرضاً ليعمل فيها بقسط من إنتاجها فشريك ، والفرق بين الأجير والشريك أن حق الأجير ثابت ولو مع الخسارة ، والشريك حقه أو حظه في الربح أو الإنتاج إذا ظهر .

ثانياً : التوازن بين الإنتاج والاستهلاك كي لا يقع الفائض على حساب

المنتج والنقص على حساب المستهلك . وقد لاحظ عمر كما جاء في «الموطأ» أن الصحابي حاطب بن أبي بلتعة قد خفض من ثمن زبيب له يبيعه فأمره أن يرفع من الثمن أو يخرج من السوق كي لا يضر بالمتجين .

ثالثاً : التوازن بين المداخل والنفقات فالزيادة بدون رصيد تخلق العجز والنقص مع وجوده يضر بالمصالح .

رابعاً : التوازن بين التصدير والاستيراد إذا لم يكن التصدير أكثر ، إذ كلما كانت كفة التصدير راجحة وكفة الاستيراد مرجوحة كلما تحسنت الظروف وتحكمت الدولة في اقتصادها ، لكن نوعية الإنتاج وقيمتها تعطي الفرصة للدول المصنعة اليوم . وبما أن هذه التوازنات لا تخضع للضبط بالأرقام فبلاغة النص تقول : «سددوا وقاربوا» فتكون المقاربة بين قوة العمل وبرامجه وبين الإنتاج والاستهلاك وبين المداخل والنفقات وبين التصدير والاستيراد وإن كان تمام السداد في تمام التوازن .

ثم السداد على مستوى السياسة الاقتصادية ، وسدادها يعرف على مستوى الفعالية الاقتصادية قبل المعرفة الاقتصادية ، وتعتمد أساساً على الاقتصاد الوطني كقاعدة أساسية .

فإذا أريد بالاقتصاد النظري دراسة المشاريع ووضع التصاميم وبالاقتصاد التطبيقي وضعها موضع التنفيذ ، وأريد بالاقتصاد الاجتماعي السير بالاقتصاد نحو الانطباع بطابع العدالة ، وبالاقتصاد الدولي تبلور العلاقات الاقتصادية القائمة بين الدول ومدى توقف كل دولة في معالجة مشاكلها على التعاون مع دولة أخرى ، فالإقتصاد الوطني يراد به استجلاء الطابع الذي يطبع اقتصاد كل دولة في وطنها وما يمكن أن يمتاز به عن

اقتصاد دولة أخرى نتيجة اختلاف الإمكانيات والموارد ومذاهب الحياة ، فكانت السياسة الاقتصادية تعني المبادئ والأسس والتوجيهات والاختيارات التي على اعتبارها يقوم التوجيه الاقتصادي للدولة ، وبذلك يتضح أن الاقتصاد السياسي الذي يشرحه البعض بالماركسية لا يعني أيديولوجية خاصة بقدر ما يعني أن يكون تابعاً لسياسة دولة شرقية أو غربية أو لسياسة رابطة دولية كسياسة دول السوق الأوروبية المشتركة ، وتكون موضوعية وواضحة إذا حصلت دولة ما على الاكتفاء الذاتي واستطاعت أن تتحكم في اقتصادها بمعزل عن تخطيط المؤسسات الدولية ، وتوجهه الوجهة الملائمة لظروف حياتها الاقتصادية والاجتماعية ابتغاء استقلالية اقتصادها وتنمية ثرواتها وتطوير اقتصادها وخلق توازن بين ما تنتج وتستهلك من جهة وما تصدر وتستورد من جهة أخرى .

أما ما يطرأ من المشاكل والأزمات فيبدو أن عوامله عامة ، وأي دولة في العالم الثالث ما كان لها إلا أن تخضع للتقلبات العالمية كما تجل في استغلال أغلب دول العالم بمظلة الديون الخارجية . والدين الخارجي لا يعتبر مشكلة عويصة حتى يتجاوز مستوى موارد الدولة وقوة اقتصادها ، وإذا تجاوز مستوى مواردها وقوة اقتصادها بالنسبة لدخلها القومي ، كما هو الشأن بالنسبة لأربع دول ترددت أسماؤها فيما ينشره الخبراء وفي مجلة التمويل والتنمية لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير : إحداها بلغت ديونها (١١٨ مليار دولار) - عندئذ تخرج القضية من إطار مشكلة اقتصادية إلى أزمة يصعب حلها .

إذن المشاكل والأزمات لا تختلف من ناحية المادة وإمكانية الوقوع وإنما

تختلف في الحدة وفيمن تكون له القدرة على مواجهة خطرهما. وأشد الأزمات تعقيداً هي التي تتولد عن الحروب. خاصة الحروب العالمية، كما تجلت في الأزمات التي وقعت أثناءها.

الآمن والاستقرار من عوامل التطور:

وغير خاف أن الآمن والاستقرار عامل من عوامل التطور الاقتصادي. والحروب والاضطراب والفتن معول من معاول الهدم والتخلف كما تجلّى في أوروبا، حيث الآمن والاستقرار مع التقدم الاقتصادي أو التقدم الاقتصادي مع الآمن والاستقرار، والآمن والاستقرار في المجتمعات يأتي سماحة من الصالحين ويفرض على المجرمين، فقد قال النبي ﷺ من رواية مسلم: «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان».

وقال في رواية أبي داود حول البواعث والأسباب: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

وقال في رواية البخاري حول ما قد يعني الدول الإسلامية: «لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وحمل عمر المسؤولية لعلي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وهم الستة الذين رشحهم للخلافة فقال: «إني نظرت في الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً فإن كان فهو منكم».

وقال حول السطو على الحكم: فمن تأمر منكم من غير مشورة المسلمين فاضربوا عنقه. وقال لأبي طلحة رئيس الهيئة المشرفة على الانتخاب: إن اجتمع خمسة على رجل وأبى واحد فاشدخ رأسه واضربه بالسيف. فكانت

نتائج الانتخاب إلزامية تستوجب عقاب المخالفين . فمصلحة الأمة وأمنها واستقرارها وإرادتها فوق كل اعتبار .

الحروب وأثرها على الموارد :

بقي أن أقول : إن من خلفية الحروب أنها تحول دون استخدام الموارد واستثمارها ، وسوء استخدام الموارد يؤدي إلى الركود في الإنتاج ، والركود في الإنتاج يؤدي إلى الاختلال بين الدخل والنفقات ، والاختلال بين الدخل والنفقات يخلق العجز ، والعجز يخلق مشكلة اقتصادية ، إذا طال الأمد ولم تحل صارت أزمة يصعب حلها كما أكده الخبير الاقتصادي «موريس» الذي يعتبر أول فرنسي حصل على جائزة «نوبل» في الاقتصاد لسنة (١٩٨٧م) ، وضرب المثل بأزمة (١٩٢٩م) وقبلها وقعت أزمة (١٩٢٢م) .

إلا أن «موريس» لم ينتبه إلى أن أزمات (١٩٢٩م) أو (١٩٢٢م) أو غيرهما لم تنشأ عن سوء استخدام الموارد فحسب ، وإنما نشأت أيضاً عن الاكتناز والتباطؤ في تداول النقد نتيجة سحب رءوس الأموال من مواقع الحرب فكما يقول الاقتصاديون : رأس المال جبان يهرب من الخطر ويأوي إلى مواقع الأمن والاستقرار ضمناً لوجوده ، والوسيلة الكفيلة باستخراج رءوس الأموال الاجتماعية من مخابئها وتداولها واستجلاب الخارجية واستثمارها هي حالة الأمن والاستقرار ، خاصة أن تداول النقد واستثماره من نظريات الاقتصاد الإسلامي ، فقبل : «كينز» و «هيسل» و «دافيد هيوم» و «جوزيا جيوليد» و «برودون» وغيرهم من دعاة تداول النقد نجد صرفه واتخاذ المال من غيره في عمل الرسول وأبي بكر وعمر وعلي وأبي ذر الغفاري هو الذي ملك الإبل والغنم وعبيدين واستغل الأرض ، وكان إذا أخذ عطاءه أربعة آلاف مساعدة من بيت المال كما يأخذها عمر مقابل

عمله مع الدولة قلبها فوراً إلى المواد والفلوس النحاسية التي لا تصلح إلا للإنفاق، وقال فيما رواه الإمام أحمد حول رأيه في النقود الذهبية والفضية: «ما أصبح لا أمسى وما أمسى لا أصبح».

ومن ذلك يقول المتطفلون على الدراسات الإسلامية ومن سموهم باليسار المتطرف بأنه يحرم الملكية الخاصة الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع متوهمين أن رأيه في النقد هو رأيه في الملكية الخاصة، جاهلين أنه حين يقول: لا يبيت عند أحدكم دينار ولا درهم اجتهداً في عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]. كان يبيت من الإبل والغنم والأرض ما يساوي مئات من الدنانير والدرهم. وتلك نتيجة الفراغ الواقع في الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام، ومن خلاله تسربت المبادئ المستوردة والآراء المخالفة الهدامة.

ومهما يكن فتجربة الاقتصاد الإسلامي في تطوير الإنتاج عن طريق تطوير العمل بتداول النقد تجربة تفرض وجودها، وقد تجلّى ذلك في تجربة قام بها اقتصادي معاصر هو «ميكائيل» عميد بلدية «فورج» بالنمسا حين بلغت أزمة (١٩٢٢م) ذروتها واعتمد نظام «جسل» في تداول النقد فحرك الإنتاج والعمل باستصدار نقود محلية تصلح للإنفاق ولا تصلح للادخار، فأنقذ مدينته من العوز والبطالة، إلا أن تلك النقود المحلية لم تعش طويلاً لقيام البنك المركزي صاحب الامتياز القانوني في إصدار العملة ضدها. نفس الشيء وقع في بنك فرنسا.

وقد أوضح المقريري أن الناس يكتزون النقود الجيدة دون الرديئة، ورأى أن النظام النقدي الذي طلب من السلطان أن يصلحه يخلق أزمة،

وقد خلقها اليوم وانعكست سلبيتها على أغلب دول العالم ، والعالم اليوم في حاجة إلى نظام اقتصادي ونقدي عادلين .

* * *

نور من القرآن والسنة

١٦٠

المحاضرة التاسعة والسبعون

حفظ الأنفس في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

حديثنا مع آيتين كريمتين من كتاب الله ﷻ وهما قول الله ﷻ : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨ ، ١٧٩] .

المقصود الأساسي من هاتين الآيتين الكريمتين بيان أن صيانة أنفس الناس وأن صيانة أموالهم وأن صيانة أعراضهم وأن صيانة كراماتهم الإنسانية على رأس الحقوق التي كفلتها شريعة الإسلام للإنسان ، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم .

ولفظ ﴿الْقِصَاصُ﴾ معناه العقوبة بالمثل ، فهذه المادة تدل على التساوي والتماثل والتتبع .

ولفظ ﴿الْقَتْلُ﴾ جمع قتيل ، والمقصود به هنا من قتله غيره ظلماً وعدواناً على سبيل البغي والظلم عن سبق إصرار وتعمد .

ومعنى الآية الكريمة على سبيل الإجمال : يا من آمنتم بالله حق الإيمان لقد فرض الله عليكم أن تنفذوا عقوبة القصاص على من قتل غيره ظلماً

وعدوانًا ، إذا طالب ولي الدم بذلك ، وعليكم أن تلتزموا العدل والمساواة فلا تمتد أيديكم إلى غير القاتل ، ولا يصح لكم أن تسرفوا في القتل .

وصُدّرت الآية الكريمة بخطاب المؤمنين ، صدرت بذلك تقوية لداعية تنفيذ حكم الخالق ﷻ ؛ لأن في تنفيذ حكم الله منعا للفتن التي تمزق الألفة والمودة والرحمة بين أفراد الأمة ، وتحول أمانهم واطمئنانهم ورخاؤهم إلى اضطراب وخراب وفساد .

وقوله ﷻ : ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ تأكيد لمعنى المساواة المشار إليها بلفظ القصاص ؛ لأن لفظ القصاص كما قلنا معناه المساواة والتماثل بالعدل .

القصاص حفظ للنفس :

المقصود الأساسي الذي سبقت من أجله هذه الآية الكريمة ، إنما هو تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة ، وإبطال ما كان شائعًا في الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصًا لا ترضى حتى تقتل في مقابلته من القبيلة الضعيفة أشخاصًا ، فيترتب على ذلك أن يتشر القتل ، وأن يشيع الفساد ، وأن يعم الخوف والاضطراب بين الناس .

ولذا فقد قال الإمام البيضاوي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طَوْلٌ على الآخر ، أي زيادة على الآخر ، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والرجل بالمرأة ، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية الكريمة .

فالمقصود منها المساواة في القصاص ، والابتعاد عن معاقبة سوى الإنسان الباغي الظالم الذي اعتدى على غيره عن تعمد وإصرار .

ثم ساق سبحانه بعد فرضه للقصاص العادل ، ساق حكمًا حكيمًا يفتح باب التراضي بين القاتل وأولياء المقتول ، فقال تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي أن القاتل عمدًا إذا صفح عنه أولياء دم القاتل فضلًا منهم وكرمًا ورضوا بالدية بدل القصاص ، فعليه أن يدفع لهم الدية بالطريق الحسنى ، وعليهم أن يتبعوا طريق العدالة في طلبها .

فقوله ﷻ : ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وصية من الخالق ﷻ لأولياء دم القاتل أن يكونوا عادلين في مطالبتهم القاتل بدفع الدية .

وقوله تعالى : ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ وصية من الله ﷻ للقاتل أن يدفع الدية لأولياء القاتل دون تسويق ودون مماطلة ، وفي هذه الوصايا تحقيق لصفاء القلوب ، ولشفاء الصدور ، ولتقوية الروابط الإنسانية .

ومن بلاغة القرآن الكريم أنه سمى القاتل أخًا لولي الدم تذكيرًا بالأخوة الإنسانية حتى يزداد كل واحد منهما قربًا من الآخر وتسامحًا معه ، ونسيانًا لما حدث قبل ذلك ، وفتحًا لصفحة جديدة من صفحات التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

ثم بين سبحانه لعباده أنه يريد بهذه التشريعات ، يريد اليسر لا العسر ، فقال تعالى : ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ذلك الذي شرعناه لكم أيها المؤمنون من تيسير أمر القصاص بأداء الدية أردنا منه التخفيف عليكم ، إذ في قبول الدية إنقاذ لحياة القاتل ، ومنفعة لأولياء دم القاتل .

وبهذا جمع الإسلام في تشريعه بين العدل والرحمة ، إذ جعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به دون أن ينازعهم في ذلك منازع ، وهذا عين الإنصاف والعدل ، ولذا جاء ذلك بصورة أوضح في قوله تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] .

والمقصود بالسلطان في قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ المقصود بالسلطان الذي جعله الله لولي القتل القوة العظيمة التي منحها شريعة الإسلام له ، والتي تتمثل أولاً في المطالبة بالقصاص من القاتل لغيره ظلماً وعدواناً ، وتتمثل ثانياً في أخذ الدية إذا قبلوا ذلك ، وتتمثل ثالثاً في العفو والصفح عن القاتل كرماً منهم عن مقدرة وعن مروءة ، وهذه الحقوق الثلاثة لولي الدم لا يستطيع أحد أن ينازعهم فيها ، وفي جعل قبول الدية عوضاً عن القصاص من القاتل . يكون اليسر وتكون الرحمة ، وبالعادلة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن حياتها ، إذ العدل هو الذي يكسر شره النفوس ، ويردع المجرمين ، والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام النفوس لكي تلتئم بعد التصدع ، ولكي تتلاقى بعد التفرق ، ولكي تتصالح بعد التخاصم ، ولكي تتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو والصفح ، فلهذا هذا التشريع الحكيم الذي ما أحوج الإنسانية إلى الأخذ به وإلى التمسك بتوجيهاته .

ثم ختمت الآية الكريمة بالوعيد الشديد لمن خالف ذلك ، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن تجاوز وتعدى ما شرعه الله بأن نقض عهده ، وبأن ظلم غيره بأي نوع من أنواع الظلم ، وأصر على ارتكاب هذا الظلم ، فله من الله ﷻ العذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

ثم نجد الآية الثانية تبين الحكمة الحكيمة في مشروعية القصاص فيقول الله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي ولكم أيها المؤمنون في تنفيذ القصاص بالطريقة التي حددتها شريعة الإسلام والتي تتمثل فيها

العدالة والرحمة ، لكم في كل ذلك حياة عظيمة فيها الأمان وفيها الاطمئنان وفيها الرخاء وفيها الحياة الطيبة الكريمة .

الحكمة من القصاص :

وقد نقل عن الحكماء القدامى أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص ، ومن أقوالهم : «قتل البعض إحياء للجميع» ، ومن أقوالهم أيضًا : «أكثروا القتل ليقل القتل» ، ومن أبلغ أقوالهم قولهم : «القتل أنفى للقتل» .

وقد أجمع العقلاء في كل زمان وفي كل مكان على أن قول الله ﷻ : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أبلغ من كلام هؤلاء الحكماء بمقدار ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، وذكروا أن ما جاء به القرآن الكريم أبلغ من الحكماء ، من وجوه متعددة فصلها المفسرون .

من هذه الوجوه أن الآية الكريمة ، جعلت القصاص هو السبب للحياة الكريمة ، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ ، أي حياة آمنة مطمئنة ، بينما الحكمة جعلت سبب الحياة القتل ، القتل أنفى للقتل وقد يكون القتل ظلمًا فشتان بين كلام الله ﷻ وبين كلام هؤلاء الحكماء .

ثانيًا : أن الآية الكريمة جاءت خالية من التكرار اللفظي ، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أما الحكمة فقد تكرر فيها لفظ القتل فأصابها الثقل الذي سلمت منه الآية الكريمة .

ثالثًا : أن الآية الكريمة جعلت القصاص سببًا للحياة التي تتوجه إليها الرغبة الإنسانية السليمة ، والحكمة جعلت القتل سببًا لنفي القتل .

رابعًا : أن الآية الكريمة مبنية على الإثبات في لفظها وفي معناها ،

والحكمة مبنية على النفي ، ومما لاشك فيه أن الإثبات أشرف من النفي .
وهكذا نجد أن الآية الكريمة مع بلاغتها ومع حكمتها عندما ننظر إليها
نرى أنها قد اشتملت على حروف أقل مما اشتملت عليه تلك الحكمة ، وفي
النداء بقوله ﷻ : ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى
الْأَلْبَبِ﴾ أي يا أصحاب العقول السليمة لأن الألباب جمع لبّ واللب من
كل شيء هو الخالص .

في هذا النداء تنبيه على أن الذين ينفذون أحكام شريعة الإسلام هم
أصحاب العقول السليمة دون غيرهم ، أي شرعنا لكم أيها المؤمنون عقوبة
القصاص بالعدل والرحمة ، لتبتعدوا عن كل ما لا يليق ، ولتزدادوا صلاحًا
وأمانًا واطمئنانًا وخشية من خالقكم ﷻ .

وبهذا البيان الحكيم تكون الآيتان الكريمتان قد أرشدتا كل عاقل في كل
زمان وفي كل مكان إلى ما يحمي النفوس ويحقق الدماء ، ويردع المعتدين عن
الاعتداء ، ويغرس بين الناس معاني التسامح والإخاء ، ويقيم حياتهم على
أساس من الرحمة والعدالة وحسن القضاء .

حق الحياة للإنسان حق مقدس :

إن شريعة الإسلام قد جعلت حق الحياة للإنسان حقًا مقدسًا ، وصانت
له حياته صيانة عظمت بصرف النظر عن عقيدته ، أو عن جنسه ، أو عن
لونه ، أو عن مركزه الاجتماعي ، ومن الأدلة على ذلك أن شريعة الإسلام
اعتبرت قتل نفس واحدة ظلمًا وعدوانًا كأنه قتل للناس جميعًا ، قال تعالى :
﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ
فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا

النَّاسَ جَمِيعًا ﴿[المائدة: ٣٢]، من أجل ذلك قبل هذه الآية الكريمة قصة ما حدث بين ابني آدم، وقتل أحدهما الآخر، فتقدير الكلام من أجل ما حدث بين ابني آدم من قتل أحدهما للآخر فرضنا على بني إسرائيل الذين اشتد بينهم القتل وسفك الدماء، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. من أجل ذلك فرضنا على بني إسرائيل وعلى غيرهم أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض، أي قتل نفسًا دون أن تفعل تلك النفس ما يوجب قتلها، فكأنما قتل الإنسانية كلها.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ومعنى من أحياها أي ومن تسبب في إحيائها بأن شهد شهادة العدل، وبأن منع الظالم عن ظلمه، بأن أرشد الشخص إلى أن فلائًا يريد أن يعتدي عليك، بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ من وقف إلى جانب المظلوم فكأنما أحيا الناس جميعًا.

ثانيًا: أن شريعة الإسلام قد توعدت بأشد ألوان العذاب من يقتل غيره ظلمًا وعدوانًا وعامدًا متعمدًا، ويكفي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، ثانيًا: ﴿خُلِدًا فِيهَا﴾، ثالثًا: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، رابعًا: ﴿وَلَعَنَهُ﴾، خامسًا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

توفير الحماية لمن استجار بالمسلمين:

ثالثًا: شريعة الإسلام أمرت أتباعها بحماية وصيانة نفس من استجار بهم حتى ولو كان هذا المستجير من أعدائهم الذين هم في حالة حرب معهم، ويكفي لذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

أَسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ^١ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿التوبة: ٦﴾ .

ومعنى هذه الآية الكريمة على سبيل الإجمال : وإذا طلب منك أيها الرسول الكريم أحد من أعدائك الأمان فأمنه ، واستجب له فأمنه حتى يسمع كلام الله ، فإذا ما سمع منك كلام الله وأراد أن يعود إلى بلده وهو عدو لك ، وطبعًا كل خطاب لسيدنا محمد ﷺ هو خطاب لأُمته ، إلا في الخصوصيات ، فإذا ما أراد أن يعود إلى بلده فاحرسه مع أنه عدوك ، فاحرسه وأمن طريقه حتى يعود إلى حدود موطنه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ^٢ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتلك هي قمة القمم في الوفاء بالعهود ، وفي صيانة أنفس الناس وأعراضهم وأموالهم .

ولقد جاءت أحاديث رسول الله ﷺ تفصل وتؤكد ذلك ومنها ما جاء في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : ما أطيبك وما أطيب ريحك وما أعظمك وما أعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك ، ماله ودمه»^(١) .

وعن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : «لزوال الدنيا جميعاً أهون

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) ، وفي «الزوائد» : في إسناده مقال ، ونصر بن محمد شيخ ابن ماجه ضعفه أبو حاتم ، وذكره ابن حبان في «الثقات» .

عند الله من دم سفك بغير حق»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
«من قتل معاهدًا» أي من قتل إنسانًا بينه وبين المسلم عهد أمان «لم يرح
رائحة الجنة»^(٢) أي لم يجد رائحتها .

وهكذا نجد أن كثيرًا من الآيات القرآنية ومن الأحاديث النبوية توجب
احترام حقوق الإنسان في الحياة الآمنة الكريمة وتصون كرامته الإنسانية من
أي إساءة إليه .

تشريع العقوبات لحماية أرواح الناس :

إن شريعة الإسلام وهي شريعة الرحمة والعدل قد أوجبت العقوبات
على المعتدين لماذا؟ لحماية أرواح الناس ، فالعقوبات في الإسلام لم تشرع
لظلم الناس أو لإذلالهم ، وإنما شرعت العقوبات في الإسلام لحماية أرواح
الناس ولحماية أموالهم ولصيانة أعراضهم ولصيانة كرامتهم ، وشريعة
الإسلام ، هي التي جعلت على رأس حقوق الإنسان ، جعلت حقه في أن
يعيش آمنًا مطمئنًا ، لا يعتدي على غيره ولا يعتدي عليه غيره ، وإن عقوبة
القصاص التي شرعها الله تعالى لردع الباغين ، ولنصرة المظلومين ، هذه
العقوبة ثابتة في الكتب السماوية السابقة ، ومن الأدلة على ذلك قول الله
تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة : ٤٥] .

(١) أخرجه الترمذي (١٣٩٥) ، والنسائي في «المجتبى» (٣٩٨٧) من حديث عبد الله

ابن عمرو رضي الله عنه ، وابن ماجه (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ : الضمير هنا يعود إلى التوراة ، أي كتبنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ إلى آخر الآية الكريمة .

ومن نصوص التوراة الثابتة : من أخذ غيره بالسيف فبالسيف يؤخذ ، ونصوص الإنجيل لم تخالف ذلك . وشريعة الإسلام عندما أوجبت القصاص من المعتدي ، إنما أوجبه بعد ثبوت الجريمة عليه ثبوتاً لا مجال معه للتردد أو الشك ، وبعد مطالبة أولياء دم القتل بذلك وجاءت أحاديث النبي ﷺ فحببت ولي الدم في العفو وفي الصفح ، وفي قبول الدية ، وأمرت بدرء الحدود بالشبهات .

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»^(١) .

وإن الذين يتنادون فيما بينهم بإلغاء عقوبة القصاص عن الذين يرتكبون أقبح وأبشع ألوان القتل والبغي هم أبعد الناس عن حقوق الإنسان ، وإلا فأين حق الإنسان الذي قتل ظلماً وعدواناً؟ أين حق أولاده الصغار؟ أين حق زوجته التي ترملت عنه؟ أين حق أبويه اللذين أصابهما ما أصابهما من الحزن والكرب بسبب فقد ابنيهما؟ وما دامت عقوبة القصاص من المعتدي الأثيم قد شرعها الله فعلينا جميعاً أن نقول : «سمعنا وأطعنا» .

(١) أخرجه الترمذي (١٤٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث محمد بن ربيعة ، عن يزيد بن زياد الدمشقي ، عن الزهري ، عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ ، ورواه وكيع ، عن يزيد بن زياد نحوه ولم يرفعه ، ورواية وكيع أصح .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

نور من القرآن والسنة

١٧٢

المحاضرة الثمانون

المذاهب الإسلامية بين حقائق الدين ومواقف التاريخ وتحديات المصير

انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] .

وسأقسم المحاضرة إلى ثلاثة أقسام :

- في الأول : أتحدث عن الآية وبعض متعلقاتها .
- وفي الثاني : أثير الخلاف بين المسلمين وأسباب هذا الخلاف ، وتحليلاته السياسية والفكرية .
- أما الثالث : فآثير إمكان تجاوز هذا الخلاف .

هذه الآية هي التاسعة والخمسون من سورة النساء ، وهي سورة طويلة ، تصل إلى خمس وسبعين ومائة آية (١٧٥) ، وتأتي بعد البقرة وآل عمران .

وهي تتضمن كثيراً من الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة والأسرة ، وبالروابط الزوجية ، وبالمواريث ، وبالدولة الإسلامية في علاقاتها مع غيرها ، وتتحدث كذلك عن أهل الكتاب ، وعن المنافقين ، وعن الجهاد .

وقد أجمع العلماء أو كادوا على أنها مدنية ، باستثناء قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] .

وهي آية نزلت متعلقة بمفتاح الكعبة . ذلكم «أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة استرجع مفتاحها ، مفتاح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة ومن

ابن عمه شيبه ، ثم دخل الكعبة ، وما كاد يخرج حتى نزلت هذه الآية ، فاسترده من عمه العباس ، وأعادته إلى صاحبيه ، وقال لهما : خذاها تالدة خالدة ، لا ينزعها منكما إلا ظالم^(١) .

يدل على مدنية هذه السورة قول سيدتنا عائشة رضي الله عنها : ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ تقصد أنه تزوجها ، وكان ذلك بالمدينة المنورة .

ذهب النقاش إلى أنها نزلت عند الهجرة ، وظن البعض كالتخاس أنها سورة مكية ، لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء : ١] ، على أساس أن ما خوطب به الناس فهو مكي ، ولكن هذا ليس مطردًا ، بدليل أننا نقرأ في سورة البقرة -وهي مدنية- آيتين تبدآن بمخاطبة الناس : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة : ٢١] ، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة : ١٦٨] ، وعند آخرين كعلقمة أن صدر السورة مكي ، ولكن الراجح أنها مدنية .

سبب نزول الآية :

عن أسباب نزولها ، ما نقرأ في كتاب التفسير من «صحيح البخاري» عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله بن حذافة ، وكان قد بعثه رسول الله ﷺ في سرية ، فجمع أصحابه وطلب منهم أن يجمعوا الخطب وأن يوقدوا النار وأن يتقحموا فيها فرفضوا وقالوا : ما آمننا بالله ورسوله إلا لئلا لننجو من النار ، ورفعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ فأقرهم على ذلك .

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٠/١١) ، وفي «الأوسط» (٤٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٨٥/٣) : وفيه عبد الله بن المؤمل ، وثقه ابن حبان وقال : يخطئ ، وثقه ابن معين في رواية ، وضعفه جماعة .

وروى الطبري عن السدي أنها نزلت في قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد ، وكان خالد أميراً على الجيش ، فاستجار رجل عمار بن ياسر فأجاره ، فضاق خالد بن الوليد بذلك ، ورفع الأمر إلى رسول الله ﷺ فأقر ابن ياسر على ما فعله ، ولكنه نهاه أن يكرر مثل هذا الأمر من غير أن يرجع إلى أميره .

ماذا يمكن أن نقول عن مضمون هذه الآية؟

إنها تتضمن أمرين اثنين :

الأمر الأول : وهو الأمر بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر جاء بعد الأمر بأداء الأمانة ، وهذا يدل على أن الربط بين الطاعة والعدل ناتج عن كون الطاعة دالة على أن العدل قد تحقق ، والمقصود بأولي الأمر هم الأمراء ، والقائمون على مصالح الأمة ، من علماء وولاة ، ومن إليهم .
وللعلماء في شرح مصطلح أولي الأمر آراء مختلفة ، لا أطيل بها .

الأمر الثاني في هذه الآية : هو رد كل تنازع يتعلق بأصول الدين وفروعه وما يتعلق بها إلى الله ورسوله ، أي إلى الكتاب وإلى السنة ، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الشورى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] .

وقد ربطت الآية الاحتكام إلى الكتاب والسنة بالإيمان : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] في هذه الآية إشارات لغوية وأسلوبية أتحدث عن بعضها :

الإشارة الأولى : إعادة فعل ﴿ أَطِيعُوا ﴾ في غير اكتفاء بالعطف ، ما هي الغاية من ذلك ؟ لتأكيد وجوب طاعته ﷺ ، لإبراز مدى أهمية هذه

الطاعة ، لجعلها أعلى مكانة من طاعة أولي الأمر ، ثم حتى لا يظن أن طاعة الرسول إنما هي راجعة إلى طاعة الله فيما أمره بتبليغه ، وليس في امتثال أمره كله ، مما يتعلق بأمور الدنيا وأمور الدين . يمكن أن نضيف غاية أخرى وهي أن رسول الله ﷺ يقوم بدور التبليغ والتنفيذ ، أما أولو الأمر فمقصود دورهم على التنفيذ .

يلاحظ أنه حين لم يعطف أولي الأمر في آيات أخرى لم يكرر الفعل ، نقرأ في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] ، ونقرأ كذلك في سورة الأنفال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال : ١] .

الإشارة الثانية : تتعلق بقول الله تعالى : ﴿ تَنَزَّعْتُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، وهو فعل ماضٍ من التنازع ، ومعناه في الأصل : التجاذب ، ومن المعاني المنبثقة عن هذا المعنى الأصلي ، المعاني الآتية : المعاطاة والمبادلة ، وتكون في الشرب ونحوه ، نقرأ في سورة الطور : ﴿ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوْفِهَا وَلَا تَأْتِيُمُ ﴾ [الطور : ٢٣] .

وقال الأعشى -أعشى قيس- الملقب بـ «صناجة العرب» ، وقد أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم ، نقرأ هذا البيت :

نازعتهم قضب الريحان متكئا وقهوة مزرة راووقها خضل

هو يتبادل معهم طاقات الورود والأزهار ، ويتبادل معهم كذلك - ومعدرة- هذه الخمرة المزيج طعمها من الحموضة والحلاوة ، وإن مصفاة هذا الإناء الذي يصب به هذه القهوة هو ندي خضل ، وهذا دليل على أن الشرب لم يتوقف .

من معاني التنازع كذلك المصافحة ، يقال : نازعت فلاناً بنانه ، إذا صافحته ، هنا يقول أحد شعراء العصر الأموي ، وهو الراعي النميري :
 ينازعنا رخص البنان كأنما ينازعنا هداًب ريط معضد
 رخص البنان ، أي : أصابع رقيقة .

والريط هو : الثوب الخفيف .

والهداب ، جمع هذب هو : أطراف هذا الثوب ، أما المعضد ، فهو المخطط .

من معاني التنازع كذلك تجاذب الخصومة ، يقول تميم بن مقبل ، وهو شاعر مخضرم :

نازعت ألباهلبي بمقتصر من الأحاديث حتى زدنا لينا

أي نازع لبي لبهن أو ألباهن ، أي نازع عقلي وفكري عقلهن وفكرهن .

من هذا المعنى يستعمل التنازع بمعنى الاختلاف ، أو هو شدته من تجاذب القرآن والحجج ، وما ينتج عن ذلك . يقول تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُشْلُوا مِنْكُمْ وَتَذْهَبَ رِجُوكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

فقد استعير التجاذب للتعبير عن الاختلاف .

الإشارة الثالثة : تتعلق بقوله تعالى : ﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ ، اسم جنس ، وهنا نكرة موقلة في الإبهام ، تعني في أي شيء .

الإشارة الرابعة : تتصل بقوله تعالى : ﴿ فَرْدُوهُ ﴾ ، هذا استعمال مجازي ؛ لأن الاستعمال الحقيقي هو إرجاع الشيء إلى صاحبه .

الإشارة الخامسة والأخيرة: تنطلق من قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ هنا شرط يفيد التحريض والتحذير، وذكر الإيمان في هذا الشرط مكرراً بعد ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: إن كنتم تؤمنون حقاً.

الإسلام جاء للناس كافة:

وأنقل إلى القسم الثاني من هذا الدرس، فأقول: إن الإسلام جاء إلى العرب وإلى البشرية كافة، ديناً يدعو إلى التوحيد وإلى العلم، وإلى العقل، بكل ما في هذه المقومات من انعكاسات على السمو بالنفس وتطوير الفكر، وتهذيب السلوك، والنهوض بالفرد والمجتمع، في نطاق أمة واحدة تحتضن الإنسانية عامة في إيمان وتسامح.

لقد تجلّى الإسلام في عهد الرسول ﷺ واضحاً صافياً، سواء فيما يتعلق بالعقيدة أو شئون التشريع والتنظيم، فلم يكن يتعرض في هذه الشئون المتعلقة بالأحكام الشرعية، وما تفرض من واجبات، وما تعطي كذلك من حقوق.

ولم يكن يتحدث في قضايا العقيدة وما قد يثير الاضطراب من مسائل الصفات وما إليها مما يتصل بالذات الإلهية، التي أثبتت في إطار التنزيه، وفق ما جاء في القرآن والسنة.

لكن ما الذي حدث؟ لقد حدث أن تعرض المسلمون في سياستهم وفكرهم لما حاد بهم قليلاً أو كثيراً عن الخط الذي عرفوه في عهد النبوة. ويمكن أن نجمل ذلك في ظاهرتين:

الأولى: ترتبط بالسياسة، انطلاقاً من المشكل الذي طرأ بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهو مشكل خلافته، إذ ترك للمسلمين أن يجتهدوا

ليختاروا النظام الذي يلائمهم ، ولكن على أساس جملة من المبادئ ، هي ثلاثة مبادئ : التوحيد - والعدل - والشورى .

وسأقدم بعض المعطيات الأساسية في هذا المجال السياسي .

بعد وفاته ﷺ اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة ، واختاروا أبا بكر رضي الله عنه ، وأبو بكر سوف يكتب العهد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أما عمر فسيكون مجلساً للشورى ، يتكون من ستة من الصحابة هم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جميعاً ، ويضيف ولده عبد الله بن عمر ، على أن لا يكون له من الأمر شيء ، ولكن فقط لمجرد ترجيح الكفة إن وقعت مساواة في الأصوات .

إلا أن أمراً خطيراً وقع ، قاد المسيرة السياسية إلى ما لم تحمد عقباه ، ذلكم هو مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطعنة من أبي لؤلؤة ، ويولي عثمان رضي الله عنه ، ولكنه سوف يواجه مشكلة كبيرة ، هي اقتصاص عبيد الله بن عمر .

ذلكم أن عبيد الله ضرب الهرمزان ، وهو أمير فارسي ، وضرب جفينة وهو نصراني ، وزاد فدخل دار أبي لؤلؤة وقتل ابنته .

عثمان رضي الله عنه حل المشكل بالعفو عن ابن عمر ، لأنه قال : قتل بالأمس عمر ، ويقتل اليوم ولده؟ هذا لا ينبغي أن يكون ، حل المشكلة إذن بالعفو عن عبيد الله ، والتزم بدفع دية القتلى من ماله الخاص ، ولكن هذا الحل لم يعجب بعض المسلمين ، لا سيما أولئك الذين لم يكونوا راضين تمام الرضا عن سياسة عثمان رضي الله عنه ، فقامت الثورة وطالبت بالتنازل ، ولكنه تمسك بالحق الإلهي ، وبالحكم الإلهي ، وهذه أول مرة يسمع هذا القول ، ودخل الثوار عليه داره وقتلوه رحمهم الله . فتتم البيعة لعلي كرم الله وجهه ، ولكن علياً سوف تواجهه مشكلتان اثنتان :

الأولى : إعادة الأمن .

الثانية : مقتل عثمان .

وبذلك سيواجه معارضتين اثنتين ، تجلت هاتان المعارضتان في السيدة عائشة رضي الله عنها ، ومعها طلحة والزبير ، وإن كان الزبير انسحب في آخر الأمر ، فكانت وقعة الجمل سنة ست وثلاثين (٣٦هـ) .

ثم المعارضة الثانية قادها معاوية وكانت معركة صفين ، سنة سبع وثلاثين (٣٧هـ) ، وهذه هي المعركة التي انتهت إلى التحكيم . أي تحكيم كتاب الله فيما وقع بين المسلمين من خلاف ، من خلال اختيار حكيمين كل يمثل طرفاً . فعلي يمثله أبو موسى الأشعري ، ومعاوية يمثله عمرو بن العاص ، واتفقا على حل وهو عزل الطرفين معاً . ولكن سبق أبو موسى الأشعري إلى إعلان رأيه ، وحين جاء دور عمرو بن العاص قال : هذا عزل صاحبه ، وأنا أعزله معه ولكنني أثبت صاحبي .

انقسام الخلافة :

فكانت النتيجة أن انقسمت الخلافة شطرين : العراق والحجاز لعلي كرم الله وجهه ، والشام ومصر لمعاوية ، وزاد الأمر اضطراباً ، مما حدا ببعض المسلمين يقال : إنهم من الخوارج ، إلى التفكير في حسم الموقف بالتخلص من الأطراف الثلاثة بقتل علي ، ومعاوية وعمرو بن العاص ، في ليلة سابع عشر من رمضان سنة أربعين .

ولكن الذي أصابه القتل هو علي رضي الله عنه فحسب ، بعد مقتل علي التفت أصحابه ، والشيعة حول الحسن رضي الله عنه ، ولكن الحسن كان ليناً فاستطاع معاوية أن يستميله ، وأن يعده وعوداً ، وسوف يموت سنة خمسين ، ويقال : إنه قتل مسموماً .

ثم يأتي بعده الحسين عليه السلام ، وكان شديدًا ، وكان أشبه الناس بوالده ، فيجمع حوله شيعة والده ، ويحاول أن يتحرك ، ولكن تكون حادثة كربلاء ، سنة إحدى وستين (٦١ هـ) .

بعد هذا اتخذت الخلافة أبعادًا جديدة تمثلت في الدولة الأموية التي استتب لها الأمر ، ثم الدولة العباسية بعد ذلك ، ولكن سوف تظهر معارضة قوية لهاتين الدولتين ، متمثلة في الخوارج من جهة ، وفي الشيعة من جهة أخرى .

الظاهرة الثانية : تتصل بتطور الفكر الإسلامي متأثرًا ببعض القضايا التي كان يعرضها أصحاب الملل والديانات الأخرى ، كتجسيم اليهود ، وما قاله بعض من أسلم منهم ، إن صدقا وإن كذبا ، كعبد الله بن سبأ في حق الذات الإلهية ، وما يتعلق بتقديس الإمام إلى حد تأليهه .

ومن ذلك ما كان يثيره بعض النصارى ، كيوحنا الدمشقي ، فيما يتصل بحرية الإنسان .

ولعل أبرز رد فعل فكري هو ظهور علم الكلام للدفاع عن العقيدة الإسلامية بالحجج العقلية ، مع التركيز على مسألتين اثنتين هما : مسألة الصفات ، ومسألة القضاء والقدر .

اتخذ المسلمون من هذا العلم موقفين اثنين :

الموقف الأول : هو موقف قبول ، ووجدوا في القرآن الكريم ما يؤيده : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [البقرة: ١١١] في سورة البقرة ﴿ وَجَدِلْهُمْ بِلَايِ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] في سورة النحل .

الذين رفضوا أيضًا كانوا يجدون في القرآن وفي الحديث النبوي ما يؤيد رفضهم . تذرعوا بقول الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران : ٧] .

ومن الأحاديث قوله ﷺ : «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»^(١) .

انطلاقاً من هذين الموقفين ، انقسم المسلمون فئتين :

الأولى : يمثلها القَدْرِيُّون وهم الذين كانوا يؤمنون بحرية الإنسان المطلقة ، على اعتبار أن هذا الذي حدث للمسلمين هو من فعل المسلمين ، ولا تدخل فيه للإرادة الإلهية ، ومن هؤلاء معبد الجهني ، وتلميذه غيلان الدمشقي .

الجبرية :

أما الجبريون فكانوا يؤمنون بأن الإنسان غير حر ، وعلى رأسهم جهم ابن صفوان ، وكان يرى أن الإيمان هو المعرفة بالله ، وأن الكفر هو الجهل بالله ﷻ ، وكان يرى أن الفعل لله وحده ، وأن الإنسان إنما ينسب إليه الفعل على سبيل المجاز ، وكان يرى بعد هذا نفي الصفات ، ويقول : بأن علم الله محدث ، مما دفعه إلى القول بخلق القرآن .

تحت تأثير هذين العاملين السياسي من جهة ، والفكري من جهة أخرى ، كان توجه المسيرة الإسلامية في خط الخلاف ، بدأ سياسيًا ، ولكنه

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

لم يلبث أن تحول عقديًا، يعتمد أساليب الجدل، التي أفضت إلى التأويل المبالغ فيه، حتى يطابق حالة معينة، أو واقعًا مفروضًا، فتشعبت طرائق التفكير، وتفرقت سبل الاحتجاج.

ومن خلال ذلك كان ينظر إلى قضية الإيمان والكفر، انطلاقًا من تصور مفهوم الإيمان، هل هو مجرد تصديق بالقلب، وإقرار باللسان؟ أم أنه لابد فيه من العمل؟

من هذه الزاوية كان كل طرف سياسي ينظر إلى الطرف الآخر.

الخوارج ربطوا الإيمان بالعمل، واعتبروا كل من لم يجمع بينهما مرتكب كبيرة، واعتبروا أن مرتكبها كافر مخلص في النار، والخوارج أقروا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لأول عهده، وكذلك خلافة علي قبل التحكيم، ونظروا إلى من قبل التحكيم، وإلى أصحاب الجمل، وإلى معاوية والأمويين والعباسيين على اعتبار أنهم مرتكبوا كبيرة.

الشبهة:

أما الشيعة - عدا الزيدية لأنهم كانوا معتدلين - فقد اتخذوا موقف التخطيء ثم التكفير من جميع الذين اعتبروهم مغتصبين للخلافة، وهم يرون أن إمامة علي بعد النبي ﷺ منصوص عليها نصًا صريحًا، ويعتمدون في ذلك على بعض الأحاديث كحديث غدير الخم، بعد عودة رسول الله ﷺ من الحج: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه (١١٦)، وأحمد (٢٨١/٤) من طريق حماد بن سلمة، عن علي ابن زيد، عن عدي بن ثابت، عن البراء. قال في «الزوائد»: «وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان».

وهذا الحديث لا يرى فيه أهل السنة إلا الإعلاء من شأن علي كرم الله وجهه ، وإظهار مكانته التي لا يجادل فيها أحد ، وهم أي الشيعة ، يرون أن الإمامة ركن من أركان الدين ، ما كان للرسول ﷺ أن يهمله ، أو أن يفوضه للعامة ، ثم هم يرون أن خروج الخلافة عن علي كان ظلماً من غيره ، أو تقية من عنده .

المرجئة :

ثم كان هناك آخرون : كان هناك المرجئة ، كانوا مسلمين محايدين ، مما دفعهم إلى القول بأن مرتكب الكبيرة مؤمن ، ولكن أمره متروك لله ﷻ ؛ لأنهم أرجئوا قضية العمل في الإيمان ، أو أرجئوا العمل في مسألة الإيمان الذي اعتبروه تصديقاً فحسب ، لا حاجة فيه إلى العمل .

المعتزلة :

ثم هناك المعتزلة ، هؤلاء اختاروا الحياد كذلك ، وقالوا بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ولكنه فاسق ، ومن ثم فهو في منزلة بين المنزلتين ، واعتبروا أحد الطرفين مخطئ ، ولكن من غير أن يعينوا من هو هذا الطرف .

وكانوا في المسائل الكلامية يؤيدون القدرين في القول بحرية الإنسان ، ويؤيدون الجبريين في قضية الصفات ، ومعروف أنهم بعد هذا كانوا يتعملون في أمور الدين ، أي يعملون فيها العقل .

أهل السنة والجماعة :

في وسط هذه الخلافات ظهر تيار معتدل ، ينسب إلى أهل السنة والجماعة . هذه التسمية تعني في مدلولها العام مقابل الشيعة . وتطلق في

مدلولها الخاص على الذين اهتمدوا بسنة رسول الله ﷺ ، وسلوكوا طريق الصحابة والتابعين .

وفي نظر الشيعة أن أهل السنة هم الذين أيدوا قيام أو تولية الخلفاء الراشدين ، ثم تبلور هذا الاتجاه السني على يد الإمام أحمد بن حنبل الذي حاول أن يصوغ العقيدة صياغة نصية (أي من الكتاب والسنة) .

في جو هذه الخلافات السياسية ، ولائساع الأقطار الإسلامية ، وتشعب القضايا والنوازل ، ظهرت اتجاهات تنظر في الأحكام الفقهية وتقعدها ، وتدرس ما يطرأ من وقائع ، لإعطائها الأحكام المناسبة لها ، مما يمكن أن يعتبر مرحلة في الاجتهاد تفرعت عنها المذاهب المعروفة : مذهب أبي حنيفة ، مذهب الإمام مالك ، مذهب الشافعي ، مذهب ابن حنبل ، مذهب جعفر الصادق ، سادس الأئمة الاثنا عشرية ، مذهب زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، مذهب عبد الله بن أباض الخارجي .

وقد أتيح لهذه المذاهب الفقهية بشيء من التفاوت ، أن تجد صداها في الرأي العام الإسلامي ، مما لم يتح لعلم الكلام ، على الرغم من أن الأشعري كان يحاول كثيراً أن يتقرب من الناس ، ولم يلبث الأمر أن استتب بذلك لهذه المذاهب الفقهية ، فكان أن دخل الاجتهاد في نطاق مرتبط بمذهب معين ، وانتهى الأمر إلى التقيد بالآراء المحددة فيه ، إلى أن آل الأمر إلى الجمود الذي استمر طوال القرون المتأخرة وما زال .

من القسم الثالث في الدرس ، تبين أنه على أساس المواقف السياسية ، تشكلت الفرق الإسلامية من سنة وشيعة وخوارج وغيرها .

ثم على أساس من الاجتهاد داخل كل فرقة أو مجموعة فرق ، تكونت مذاهب فرقية ، بعضها ذو طابع عقدي ، وبعضها ذو صبغة فقهية ، وهي مجموعات كانت تنظر إلى الشريعة من رؤياها الخاصة ، في مزج بين ما هو ديني ، وما هو سياسي ، بتوفيق تلقائي تارة ، وبتأويل متحل تارات كثيرة .

ولعل أحدًا لا يحتاج إلى دليل ، لإثبات أن تلك المواقف كانت بنت وقتها . وكانت متولدة عن أوضاع معينة ، اتسمت بالتناقض وبالصرع ، مما لم يعد له مجال في عالم المسلمين المعاصر ، إلا من خلال رواسته وبقيائه التي لم يعد لوجودها مبرر ، إلى حد التحكم في العلاقات بين المسلمين ، وإن بقيت مدونة في صحائف التاريخ .

وما أحوجننا إلى أن نفرق بين ما هو مجرد تاريخ ، كان خاضعًا لظروفه ، وشروطه وعوامله ، وبين ما هو من حقائق الدين ، هذه واحدة .

وأخرى هي : أن علينا اليوم أن نفرق بين ما يتصل بالعقيدة وما يتعلق بالأحكام الفقهية .

أما أمر العقيدة فلا مجال فيه للاختلاف ، إذ هو غير خاضع للاجتهاد . وأما أمر الأحكام الفقهية ، ففيه ما يعتبر من الثوابت التي لا نختلف فيها ، ولكن فيه ما يكون معرّضًا للأحوال ، وللنوازل الطارئة ، وحتى بالنسبة لهذا الجانب ، فإن إمكان تجاوز الخلاف فيه وارد .

على سبيل المثال عندنا في المذاهب ، قاعدة ذات أهمية قصوى في التقريب بين المذاهب ، تدعو إلى مراعاة الخلاف ، وإلى تجاوزه عن طريق تبادل الأحكام ، لاسيما ما كان قوي الدليل في المذهب المخالف .

التقريب بين المذاهب:

ولعلنا إن نحن أمعنا النظر في هذه القاعدة وفي مثيلاتها، وراعيًا المقاصد، واعتبرناها في توجيه الأحكام، بدأ لنا إمكان التقريب بين المذاهب، ولربما حدوث الإجماع بعد حصول الخلاف، كما يقول معظم أو كما يرى معظم الأصوليين، وإن علينا قبل هذا وبعد، أن نتأمل الإسلام في أصوله وحقائقه، وأن ننظر إلى مستقبل المسلمين، والمصير الذي ينتظرهم، وما هم في حاجة إليه.

إن المسلمين اليوم يواجهون واقعًا مليئًا بالتناقضات والصراعات، ومن أبرز مظاهر هذا الواقع، أنهم متخلفون عن ركب التقدم، وإن المسلمين اليوم كذلك حائرون أمام هذا الواقع، يتخبطون في خلافاتهم السياسية والمذهبية، وفي مواقفهم المتضاربة، بشأن التمسك بالدين، واللغة، والتراث والهوية عامة.

ثم هم يعانون نزاعًا حضاريًا يظهر تمزق شخصيتهم. ومن مظاهر هذا النزاع أنهم يشكّون من الاضطراب الحادث في العقيدة، بسبب انتشار عدد من الضلالات والانحرافات.

ويشكون كذلك من الجمود الناتج عن توقف الاجتهاد والاستنباط، وتوقف الفقه عن إدراك كنه الأحكام وعللها ومقاصدها وبالتالي الاستجابة لكثير من نوازل الواقع المعتمد، ثم هو يشكون الجمود العقلي الذي حال دون الإبداع في مجال مختلف العلوم.

لذا، فإن الحاجة ملحة إلى فهم صحيح للإسلام، وإدراك واع لحقائقه وأسراره، أي للوصول إلى مبادئه وخصائصه، وحكمه ومقاصده، وقيمه،

ومقوماته ، وكذا إلى فهم صحيح للواقع لمعالجة أدوائه في ضوء تلك الحقائق ، وفي ضوء تصور سليم لحركية التاريخ ، وما يعتمل فيه من تحولات وتغيرات .

ومتى تسنى ذلك ، أمكن وضع اليد على الجوانب المشرقة الناصعة في الإسلام ، وما فيه من مؤثرات إيجابية ومعالم مشتركة ، من شأنها أن تشكل الهوية الأصلية ، وأمکن كذلك جعل السلوك مطابقاً لهذه الهوية في حياة المسلم ونظام المجتمع ، في اعتزاز للشخصية الإسلامية دون أي تناقض ، وكذا في انسجام بين القول والفعل ، وفق منطق نابع من منظور الإسلام ، القائم على الوسطية واليسر ، والتسامح ، والرافض للغلو والتطرف ، والمسائر كذلك للفطرة ، وفي توازن يمنح المسلم قدرة على التكيف ، والامتصاص واحتواء كل ظرف ، واستيعاب كل جديد ، وفق ما تقتضيه المصالح التي تُعتَبر مراعاتها إحدى دعائم التشريع .

إنه لا حل ، إن كان المسلمون مؤمنين حقاً ، إلا في رد الأمر إلى الله ورسوله ، على حد ما في الآية الكريمة التي انطلقنا منها في هذا الدرس ، أي بالرجوع إلى مصادر الوحي : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

والرجوع إلى هذه المصادر يعني فهمها على النحو البين الواضح ، الذي جاءت به في غير اجترار لما هو غير نافع ، من العلم الكثير المتداول ، وبدون أي تحمل في التأويل قد يقود إلى التحريف ، وإلى التعصب وإلى الغلو .

وهذا الرجوع إلى المصادر لا يتأتى إلا إذا تم تجاوز مرحلة التفقه الخامل ، المرتبط بالتقليد ، إلى مرحلة الاجتهاد والتجديد ، على النحو الذي فعل الفقهاء الأئمة الذين استخلصوا هذه المذاهب التي نلتزم بها ، ونحن معترفون

بها، ولكن على أن لا نجمد عندها، وعلى تطويرها بالتوسيع وبالتجديد، أي إذا فتحنا الأبواب مشرعة للتقريب بين مواطن الخلاف.

وفي هذا السياق لا ينبغي لعلماء الأمة وفقهائها أن ينكمشوا، ظناً بأن قضايا الفقه والعقيدة معزولة عن الواقع العام الذي يعيشه المسلمون، وعن طموحهم بتغيير هذا الواقع.

ذلكم أن المسلمين اليوم يبحثون عن مكانهم المتميز الذي فقدوه، ويبحثون عن كرامتهم التي تدهاس، ويبحثون في النهاية عن العزة التي أخطئوا إليها الطريق، ناسين أن الله سبحانه وتعالى هو صاحبها ومصدرها ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولا عزة للمسلمين إلا بهذا الإسلام الصافي. وصدق عمر رضي الله عنه حين قال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمتى أردنا العزة بغير الله أذلنا الله». إن المسلمين اليوم في نطاق بحثهم عن العزة، يعانون مشاكل سياسية واقتصادية، واجتماعية وثقافية، وإن في الإسلام قيماً كبرى وخالدة، توصل إلى حل هذه المشاكل، الإيمان بالله، التقوى، العدل، الإحسان، التسامح، السلام، التعارف، وما إلى هذه وتلك، من القيم التي نقرأ عنها آيات كثيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالآيات في هذا كثيرة ومعروفة ولكن من يعمل بها؟ بل من يقوى على العمل بها؟ أو يقدر على التصدي انطلاقاً منها، لتنبيه المسلمين من غفلتهم؟ وانتزاعهم من خلافاتهم، وتوحيد مسيرتهم في الخط الصحيح الكفيل بتغيير واقعهم، والوصول بهم إلى حال أفضل؟

وإنه لأمر صعب ومتشعب، يحتاج إلى أن تراعى فيه ثلاث جهات أو ثلاثة محاور:

هناك أولاً المجتمع الإسلامي، وهو مستعد، أي: مستعد لمحو هذه الخلافات.

ثم هناك المعرفة التي أصبحت اليوم متاحة، بسبب التواصل الفكري. ثم هناك الدولة، الدولة غير مستبعدة، في إطار نظام توفيقى من حيث المذهب، على أن تحدد صيغته السياسية أو التنظيمية، حسب ما تقتضيه الأوضاع الراهنة على المدى القريب أو على المدى البعيد.

ولعل هذا الأمر أن يتحقق في مرحلته الأولى إذا أقيمت مؤسسة فكرية روحية تجمع في رحابها الشتات المتفرق، ويكون من مهمتها أن تصل إلى مفاهيم واستنباطات مشتركة بين جميع المسلمين، تؤلف بينهم وتوحد موقفهم، في محاولة للتوفيق بين حقائق الدين النابعة من القرآن، ومختلف النظم الاجتماعية، مما يفرض وجود آليات للانطلاق، على أساس من مرتكزات إسلامية متينة، ويفرض كذلك إبداع نماذج لذلك، ثم هو يفرض قبل هذا وبعد، وجود الرائد القائد.

المحاضرة الحادية و الثمانون

تذوق حلاوة الإيمان

انطلاقاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» .

أخرجه الإمام البخاري في «جامعه» ، وفي «الأدب المفرد» ، وأخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» ، وأخرجه الترمذي والنسائي ، وألفاظهم مختلفة .

ونص البخاري في «جامعه الصحيح» -الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله عند أهل الحديث في القديم والحديث- من كتاب (الإيمان) قال : باب حلاوة الإيمان : حدثنا محمد بن المشني ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي ، حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان . . .» الحديث .

أتناول الكلام عليه في مواضع خمسة :

الموضع الأول : الكلام على تراجم رجال هذا السند بإيجاز ، وكلهم بصريون ، وكلهم علماء أجلاء .

ثانياً : أتناول الكلام على تفسير الإيمان المطلوب تذوق حلاوته .

ثالثاً : ما معنى حلاوة الإيمان ، وهل هي محسوسة أو معنوية؟

رابعاً : تفسير ألفاظ الحديث .

خامساً : الكلام على ما هو الغرض من الحب الذي هو السر في كل اجتماع إنساني ، ثم أسباب محبة الشيء ، وهو الختام إن شاء الله .

هذه مواضع على سبيل الإجمال .

الموضع الأول : قال : حدثنا محمد بن المثني .

محمد بن المثني : هذا هو أبو موسى العنزي الإمام الحافظ الثبت الذي توفي سنة مائتين واثنين وخمسين هجرية (٢٥٢هـ) .

حدث عن عدد كثير يربو على خمسة عشر رجلاً ، وصنف وألف وكتب الكثير ، وحدث عنه عدد كثير .

وقال فيه الخطيب : كان صدوقاً ورعاً ، احتج به سائر الأئمة .

قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفي :

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت الثقفي البصري : الذي حدث عن عدد يربو على أربعة عشر رجلاً ؛ منهم مالك بن دينار ، ومنهم الجريري .

وحدث عنه العدد الكثير ، منهم الإمام أحمد بن حنبل ، ومنهم قتادة ، ومنهم الشافعي ، ومنهم ابن المديني وغيرهم .

وعبد الوهاب هذا قال النظام في وصفه كلاماً جميلاً وهو ما نصه قال :

لعمرك الله إن عبد الوهاب لأحلى عندي من أمن بعد خوف ، ومن غنى بعد فقر ، ومن خصب بعد جذب ، ومن وصل المحبوب وطاعته ، ومن فرج المكروب ، ومن الوصال الدائم مع الشباب الناعم .

هذا هو عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت الثقفي البصري المتوفى سنة مائة وأربع وتسعين هجرية بالبصرة (١٩٤هـ) .

قال : حدثنا أيوب السختياني .

وأيوب السختياني : هذا هو سيد العلماء ، أبو بكر بن أبي تيممة السختياني .

ولد يوم وفاة ابن عباس سنة ثمان وستين هجرية (٦٨هـ) .

وأيوب السخيتاني هذا سمع من سعيد بن جبير ومن الحسن البصري ، وعن محمد بن سيرين ، وروى عنه مالك والسفيانان والحمدان وابن المديني وغيرهم .

وقال فيه الحسن البصري رحمته الله : أيوب السخيتاني سيد شباب البصرة .
وقال فيه الإمام مالك : إذا دخلنا على أيوب السخيتاني وذكرنا له حديث الرسول ﷺ بكى حتى نرحمه .

وكان يقوم الليل كله ويخفي ذلك كما يخفي أيضًا زهده .
وقال فيه حماد بن سلمة : أيوب السخيتاني ثقة ، وقد ورى له جماعة من المحدثين .

وقال فيه ابن المديني : له نحو ثمانمائة حديث .
وتوفي سنة مائة وواحد وثلاثين بالبصرة (١٣١هـ) ، وولد يوم وفاة ابن عباس .

عن أبي قلابة : وهو عبد الله بن زيد بن عمرو العنزي البصري .
أبو قلابة ، حدث عن الكثير ، وحدث عنه الكثير .
عن سيدنا أنس بن مالك رحمته الله .

أنس بن مالك : هو المفتي والمقرئ ، وراوي الحديث في الإسلام ، وهو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي رحمته الله .

روى الأحاديث عن عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان ومعاذ بن جبل وأسيد بن حضير ، وعن والدته أم سليم ، وعن خالته أم حرام ، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ .

وروي له عن رسول الله ﷺ ألفان ومائتان وستة وثمانون حديثاً، فعد بذلك من المكثرين للحديث عن الرسول .

والمكثرون هم الذين نقلوا فوق ألف حديث عن رسول الله ﷺ وهم سبعة ، وقد أشار إليهم السيوطي في «ألفيته» الأثرية حيث قال :

والمكثرون لرواية الأثر أبوهريرة يليه ابن عمر
وأنس والحبر كالحدي وجابر وزوجة النبي

وقال أبوهريرة رضي الله عنه : ما رأيت رجلاً أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سليم .

أنس بن مالك كناه رسول الله ﷺ بأبي حمزة ، بسبب بقله فيها حموزة كان يجتنيها ، وهو خادم الرسول ﷺ ، وشرف الخادم على قدر شرف المخدم ، كما قال ابن زكري في «همزيته» :

وإذا ما الجنب كان عظيماً مدمنه لخادميه لواء

لما صح عنه أن النبي ﷺ لما قدم المدينة جاءت به أم سليم فقالت : يا رسول الله ، خذه غلاماً يخدمك ، فقبله ﷺ ، وخدمه عشر سنوات .

وقال محدثاً عن أخلاقه النبوية وعن سجايه الجذابة : ما قال لي إذا فعلت شيئاً : لم فعلته؟ ولا إذا تركته : لم تركته؟ بل كان يقول : «ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن»^(١) .

وكان رسول الله ﷺ يخصه ببعض العلم ، فقد روي عنه أنه قال : ذات يوم أصب الماء على يديه ﷺ فرفع النبي إليه رأسه وقال : «ألا أعلمك

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٢٣١) من حديث أنس رضي الله عنه ، وصححه ابن حبان . (٧١٧٩) .

ثلاث خصال تتفجع بها فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال : إذا لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين^(١) .

ودعا له رسول الله ﷺ لما قالت له أم سليم : ادع مع خويدمك ، فقال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته^(٢) .

دعا له بكثرة المال ؛ لأن النبي ﷺ ذكر حديثاً قدسياً في مسألة الغنى والفقر فقال : «إن من عبادي من لو أغنيته لفسد حاله ، وإن من عبادي من لو أفقرته لفسد حاله»^(٣) ، والله عليم حكيم في صنعه .

وكانت أشجاره تثمر وتحمل في العام مرتين بدعاء الرسول ، وكان له بستان تأتي منه رائحة كرائحة المسك .

«اللهم أكثر ماله وأولاده» : رزق من صلبه نحو مائة ولد ، ومات سبعون منهم في بعض الأوبئة ، ولم يرزق من النساء إلا بنتين .

وكان إذا ختم القرآن يجمع أهله وأولاده ويقول : الدعاء يستجاب عند ختم القرآن العظيم .

وخرج به ﷺ إلى غزوة بدر ، ولكنه لم يعد من البدرين ؛ لأنه لم يبلغ سن من يقاتل .

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٨١٩) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٨٣) ، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٤) ، ومسلم (٦٦٠) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣١٩/٨) ، وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١) ، وقال أبو نعيم : غريب من حديث أنس .

نعم غزا مع رسول الله بعد ذلك ثمان غزوات ، واستمر في المدينة في خدمة الرسول حتى توفي وهو عنه راض .

وحضر الفتوح كلها في المدينة المنورة ، ثم انتقل إلى البصرة وقطن بها حتى أتاه الأجل المحتوم ، فكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة .

أما آخر الصحابة موتاً على الإطلاق فهو أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي .

وكان يقول : حصلت لي الثلاث وأنا أرجو الرابعة : كثرة المال ، وكثرة الأولاد ، وطول العمر .

كان يقول : عشت حتى سئمت من الحياة ؛ إذ عاش تسعاً وتسعين سنة ، وكان في آخر أمره لا يقدر على الصيام ؛ لأنه يدخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، وقرئ : ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، فكان يجمع الناس على قصعة من ثريد ؛ يجمع ثلاثين واحداً فيأكلون ، فدية عن ثلاثين يوماً .

هذا هو الراوي لهذا الحديث ، سيدنا أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي رحمته الله .

الإيمان وحلاوته :

فقه ترجمة البخاري يوحى إلينا أن نتكلم ثانياً على الإيمان المطلوب تذوق حلاوته فنقول : إن الإيمان الصادق الذي له حلاوة ليس كلاماً يلوكة اللسان ، وليس جملاً تتحرك بها الشفتان ، إنما هو نور من نور الله يستقر في قلب المؤمن ، ويصدقه صالح العمل ، وكل نور لم يكن مأخوذاً

من نور الله فهو : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ مَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] ، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور : ٣٥] ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

وأصدق التعاريف في الإيمان هو التصديق بما علم مجيء النبي ﷺ به ضرورة ، تفصيلاً فيما علم تفصيلاً ، وإجمالاً فيما علم إجمالاً ؛ لقول علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه : الإيمان معرفة والمعرفة تسليم والتسليم تصديق .

وعرفه أهل الأثر بأن الإيمان المعرفة في الجنان ، والعمل بالأركان ، والإقرار باللسان .

وعلى كل الإيمان الصادق إذا أشرقت شمسهُ على جوانب نفس المؤمن ، فإن نفسه تسير على الهدى القويم والصراط المستقيم .

والإيمان الصادق يتجلى في المؤمن الذي جمع خمس صفات ، وهي صفات جليلة ونعوت جميلة جاء بها القرآن في سورة الأنفال فقال تعالى بصيغة الحصر : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢-٤] .

فالإيمان بهذا المعنى يتجلى في كثير من المرويات عن الرسول ، فقد روي

أنه دخل على بعض أصحابه عليه السلام فقال لهم : «ما أنتم؟ قالوا : مؤمنون ، قال لهم الرسول : وما علامة إيمانكم؟ فقالوا : نصبر عند البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء ، فقال لهم الرسول : مؤمنون ورب الكعبة»^(١) .

الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية :

ومن المرجح أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو مسطور في محله ، نعم هناك إيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والمرسلين لأنهم معصومون وإن كان إيمانهم كاملاً ، فالكامل يقبل الازدياد في الكمال .

وهناك إيمان لا يزيد ولا ينقص ؛ إيمان الملائكة لأنه جِلِّيٌّ ، أي فطري ، عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وهناك إيمان ينقص ولا يزيد وهو إيمان المنهمكين في المعاصي .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سألت رسول الله فقلت له : «يا رسول الله : الإيمان يزيد وينقص؟ فقال له الرسول : نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار»^(٢) .

ومن هنا روي حديث عن الرسول قال : «الإيمان إيمانان : إيمان لا يدخل صاحبه النار أبداً ، وإيمان لا يخلد صاحبه في النار» لأن الخلود في النار ليس إلا للمنافقين والكفار ، كما هو معروف .

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

أما حلاوة الإيمان فهي ثمرة الإيمان وهي شيء زائد عنه وتعني :
 الميل إلى الطاعات والاستلذاذ بها ولو مع حصول بعض المشاق كالصوم
 والحج عند شدة الحر والجهاد في سبيل الله في مواقف النضال ؛ فإن المؤمن
 لا بد أن يعتصم بالصبر في هذه المواقف الجليلة ؛ لأن التعب إذا كان من
 وراءه أرب فهو مطلوب ومرغوب فيه .

فلولا الأتعاب لتساوى التبر والتراب ، ولولا ركوب الأخطار لتساوت
 الجواهر والأحجار ، فلا بد من التعب في طريق الخير .

وفي الكلام استعارة بالكناية حيث شبه الرسول في هذا الحديث رغبة
 المؤمن في الإيمان بنحو العسل ، وطوى لفظ المستعار منه ، وهو العسل
 ورمز إليه بلازم من لوازمه ، كما هو الشأن في الاستعارة المكنية ؛ إذ
 الاستعارة المكنية يستعار الشيء للشيء ويطوى ذلك الشيء المستعار منه
 ويرمز إليه برمز من لوازمه كما هو معلوم في البيان .

إذ البيان كاسمه بيان دل على ما قلته العيان

على أن الحلاوة هنا اختلفوا هل هي محسوسة أو هي معنوية ؟
 ذهب أهل الصفة وغيرهم إلى أن الحلاوة محسوسة ، واستدلوا على ذلك
 بما وقع لبلال لما صنع به ما صنع من أنواع التعذيب في الرمضاء ، وهو
 يقول : أحد أحد ؛ حيث مزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان .

ولما علقت بجسمه أظفار المنية صار أهله يقولون : واكرباه ، وهو
 يقول : واطرباه وافرناه .

غدا ألقى الأحبة محمداً وحزبه

فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء ، وحلاوة اللقاء هي حلاوة الإيمان .
ولماذا وقع التعبير عن تناهي الإيمان بالحلاوة للإشارة إلى ما ذكره الله
في كتابه ، من تشبيه الدين بالشجرة الطيبة : مثل ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [٢٥] تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ
رَبِّهَا ﴿ [إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥] .

فيكون أصل شجرة الإيمان هنا كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ،
ويكون المقصود من أغصان الشجرة الأوامر والنواهي ، ويكون زهر
الشجرة فيما يخطر في قلب المؤمن حيث ينوي أن يفعل الخير ؛ إذ هناك
حديث روي عن النبي ﷺ : « إذا هم أحدكم بحسنة خرجت من فيه رائحة
عطرة ، فيشمها الملك فيكتب له حسنة » ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [٢٥] تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿ [إبراهيم : ٢٤ ،
٢٥] (حلاوة الإيمان) .

ثم نعود إلى ألفاظ الحديث ؛ لنستخرج منها ما تدل عليه من المعاني ،
جواهر ألفاظه .

قال العلامة : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » ثلاث نكرة ، ما هو
المسوغ للابتداء بالنكرة ؟ هو كونه وصفاً لموصوف محذوف كقولهم : مؤمن
خير من مشرك ؛ أي إنسان مؤمن خير من مشرك ، وكقولهم : ضعيف عاد
بقرملة ؛ أي رجل ضعيف عاد بقرملة ، والقرملة : الشجرة الضعيفة ،
يضرِب مثلاً لضعف الطالب والمطلوب .

فيكون الموصوف المحذوف هو خصال : خصال ثلاث ، المسوغ للابتداء
كونه وصفاً لموصوف محذوف ، ثم جاء الخبر : « من كن فيه » ، و« كن » من

كان التامة ، بمعنى وجدن وحصلن ، والمراد من كونها هو غلبتها على الإنسان .

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» وجد بمعنى أصاب ، ولذلك عدي إلى مفعول واحد ؛ بمعنى أن من اتصف بهذه الخصال أصاب حلاوة الإيمان ، فيكون ميله إلى الطاعات ويستلذها ويصبر عليها ، وتكون أحلى شيء لديه .

وقد روي عن عتبة أنه قال : «كابدت الصلاة عشرين سنة ، ثم صرت أتلذذ بها في بقية عمري» .

ومعنى كابدت أنه كان يعمل الصلاة بتعب ومشقة ، لكن لما جاوز العشرين وجد فيها لذة خاصة .

والنبي ﷺ يقول : «وجعلت قره عيني في الصلاة» ، من حديثه المشهور : «حب إلي من دنياكم : الطيب والنساء ، وجعلت قره عيني في الصلاة»^(١) .

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» أي وجد الالتذاد بطاعة الله ، والابتعاد عن معصية الله .

الأولى من هذه الخصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار .

وخصت هذه الثلاث بالذكر ، لماذا؟

لأنها من أعمال القلوب ، لا يعرض لها الرياء ؛ إذ ما في القلوب لا يعلمه إلا

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٣٩٣٩) ، وأحمد في «المسند» (٣/١٢٨ ، ١٩٩) ، وأبو يعلى في «المسند» (٣٤٨٢ ، ٣٥٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

علام الغيوب ؛ لأن الله لا ينظر إلى الصور والأشباح ، ولكن ينظر إلى القلوب ، وما ينشأ عنها من إصلاح ، فلذلك خصت هذه الثلاث بالذكر .

ثم إن هذه الثلاث هي متلازمة ، لا ينفك بعضها عن البعض الآخر ؛ لأن المطلوب الحب المكون من هذه الأمور الثلاث ، ولا يقال هذا على من كانت فيه واحدة منهن ، فإن من كانت فيه واحدة من هذه الثلاث لا ينفعه ذلك شيئاً ؛ لأن حب الله ﷻ ، من أحبه يلزمه حتماً أن يحب رسوله وأن يحب أهل بيته ؛ حب الرسول لهم : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

أما من يدعي أنه يحب الله ولا يحب الرسول ، أو يحب الرسول ولا يحب الله فمحبه لاغية «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» ، وجيء بأفعل التفضيل مفرداً لأنه مقرون بمن .

وأفعل التفضيل إذا قرن بمن لا يستعمل مفرداً .

«أحب إليه مما سواهما» هذه العبارة تعم سائر المخلوقات ، بحيث أن يكون حب الله ﷻ وحب رسوله عليه الصلاة والسلام عند الإنسان أحب إليه من الدنيا كلها ، من والده وولده والناس أجمعين ؛ لأن القرآن جعل كفة محبة الرسول في جهة ، وجعل كفة محبة الأولاد والأزواج والأموال في جهة أخرى .

فاشترط أن تكون كفة محبة الرسول راجحة على الجميع في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٢٤] وورد صريحاً في قول الرسول : «لا يؤمن أحدكم

حتى أكون أحب إليه من ماله ووالده وولده والناس أجمعين»^(١) .

حب الله والرسول :

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» ثم إن التعبير في الحديث بما دون من ليعم العالم وغير العالم ، وإنما عبرت بالعالم ؛ لأن تعبير النحاة : ومن للعاقل وما لغيره ، ليس بتعريف أشمل ؛ إذ نجد من يطلق على الله في كثير من آيات القرآن : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

وهل يطلق العاقل على الله؟ فلذلك الصواب ما ذكره ابن هشام في «التوضيح» حيث عبر بالعلم فقال : ومن لعالم ؛ فلهذا وقع التعبير بما لإفادة العموم ، ولم يقل الحديث ممن ، بل قال : «مما سواهما» ليشمل العالم وغير العالم .

«مما سواهما» ثم إنه وقع التثنية ها هنا «سواهما» بالضمير للإعلان بأن الحب المطلوب من المؤمن هو المكون من المحبتين ، لا من محبة الله وحدها ، ولا من محبة الرسول وأهل بيته وحدها ، لا بد منهما معًا .

ولا يتنافى هذا مع ما ورد في قصة الخطيب ، الخطيب الذي سمعه الرسول قال : «ومن يعصهما فقد غوي واعتدى ، فقال له الرسول : بئس الخطيب هو»^(٢) لأن المقصود من بيان الرسول ﷺ أن يشعر الخطيب بأن كل عصيان عصيان مستقل .

(١) أخرجه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

«من عصى الله فقد غوى ومن عصى رسول الله فقد غوى»، وهذا لا يفيد إلا التفكيك أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

الحب في الله :

وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، من عطف الخاص على العام ، هو وما بعده .
«أن يحب المرء لا يحبه إلا الله» المرء يشمل الكافر والمؤمن ، لكن محبة الكافر من حيث إنه إنسان ومخلوق لا من حيث إنه كافر .
وأما الميل إليه من حيث إنه كافر فهو حرام .

نعم ، من ناحية المحبة التي تعود إلى الإنسانية والمخلوقية ، فالحديث يتناوله وكذلك المرأة ، لا مفهوم للرجل ؛ إذ النساء شقائق الرجال في غالب الأحكام .

«وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله» وحب الله ورسوله وطاعتهما شيء واحد ، لا ينفك أحدهما عن الآخر .

والحب إذا لم تكن له طاعة ولم يكن له أثر محدد فهو وهم وخيال ؛ فلذلك قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] فجعل الله تعالى طاعة رسوله طاعته ، ومحبة محبته ، ومبايعته مبايعته ، وإرضاءه إرضاءه ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقرئ : (يُحِبُّكُمُ اللَّهُ) ، وقال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : ٦٢] (أي الرسول) .

الآية فيها الله والرسول ، ولكن الضمير عاد على الرسول دون الله ،

لماذا؟ لأن إرضاء الرسول هو عين إرضاء الله فيكون هذا في الآية من باب الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز لأن من لم يرض الرسول لم يرض الله ﷻ .
 «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله» .

كراهية العودة للمعاصي :

الثالثة : «أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» .

هذه الثالثة نتيجة دخول نور الإيمان في قلب المؤمن ؛ لأن الإيمان إذا خالط قلب المؤمن ولحمه وجسده ، فإنه يكره الكفر كراهة نهائية .

ويكره أن يعود في الكفر ، والعود والرجوع بمعنى الصيرورة وارد في كثير من الكلام ، فيكون المعنى : وأن يكره أن يصير إلى الكفر .

«وفي» هاهنا بمعنى إلى ؛ لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض كما هو مذهب الكوفيين ، أن يعود في الكفر ، أن يصير إلى الكفر .

«كما يكره أن يقذف ويطرح في النار» فأفاد الحديث الشريف أنواع التحلي وأنواع التخلي كما هو ظاهر من ألفاظ الحديث .

ثم إن المراد بالحب هاهنا هو الحب العقلي لا العاطفي ، الحب العقلي هو إثارة ما يرى العقل رجحانه ، وما يستدعي اختياره ، وإن كان على خلاف هوئ الإنسان ، كالمريض الذي يرى الدواء ويعافه ويفر منه طبعه ، ولكن يميل إليه ويتناوله بمقتضى عقله لما يرى فيه من مصلحته ، كذلك الحب هاهنا هو عقلي أكثر مما هو عاطفي .

والخصلة الثانية والثالثة ناتجتان عن الخصلة الأولى : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وأصل المحبة الميل إلى ما يرضي من تحبه ؛ ولذلك نذكر أسباب محبة الشيء .
هاهنا ذكرنا حلاوة الإيمان ، هي ثمرة الإيمان مسببة عن وجود الإيمان ؛
لأن وجود المسبب يدل على وجود السبب .

وسبب محبة الإنسان للشيء كونه حسناً : إما في الحس كالصورة الجميلة
أو في الصوت الحسن أو الطعام اللذيذ ، وإما أن يكون حسناً في العقل
كمحبة الصالحين ومحبة أهل الخير ؛ لأن من أحب قومًا حشر معهم ، ومن
أحب شيئًا حشر معه ؛ لقول رسول الله ﷺ : «المرء مع من أحب» في
الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من طريق أنس في سند ، ومن طريق
عبد الله بن مسعود في سند آخر قال : «المرء مع من أحب» .

وللحديث الذي رواه الستة عن أنس بن مالك : «سئل رسول الله ﷺ
عن الرجل يحب القوم ، ولما يعمل بعملهم ، فقال له الرسول : المرء مع من
أحب» .

قال الراوي أنس هذا : أشهدكم أنني أحب أبا بكر وعمر وعثمان .
وكذلك الرجل الذي جاء يسأل الرسول : «متى الساعة؟ فسأله أولاً
وثانياً وثالثاً ، وبعد المرة الثالثة قال له الرسول : ماذا أعددت لها؟ قال :
يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير صيام ولا كثير صلاة ، إنما أعددت لها
حب الله ورسوله ، فقال : المرء مع من أحب» .

سبب المحبة الحُسن الحسي أو الحسن المعنوي .
والإحسان : كون الإنسان محسناً إليك بجلب نفع أو دفع ضرر ، و«من لم

يشكر الناس لم يشكر الله»^(١).

وهذه الخصال الثلاث : جمال الظاهر ، وجمال الباطن ، والإحسان ، كلها مجموعة في سيدنا محمد ﷺ ؛ إذ رسول الله تناهت فيه آيات الكمال ، كما تناهت فيه آيات الجمال ، والإنسان كيفما كان نوعه مجبول على حب الأمرين : الحسن والإحسان ، ولا حسن ولا إحسان يمثلان حسن الرسول ﷺ وإحسانه .

ومحبة الرسول أصل في الإيمان ، وكمالها شرط في كمال الإيمان ، كما قال بعض أهل الإيمان :

ألزم العالمون حبك طرًا فهو فرض في سائر الأديان

وحب الرسول ﷺ يكون سببًا من النجاة من النار كما وردت بذلك الأحاديث والآثار : من ذلك ما رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» : «أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن : وددت أني رأيت رسول الله ، قال : تصنع به ماذا إذا رأيته؟ قال : أومن به وأقبله بين عينيه ، قلت : ألا أبشرك؟ قال : بلى يا أبا عبد الرحمن ، فقال : سمعته ﷺ يقول : ما اختلط حبي بقلب رجل إلا حرم الله جسده على النار»^(٢).

فاجتمع في الرسول الجمال والإحسان : الجمال الحسي جمال الظاهر ، وجمال الباطن .

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٤ ، ١٩٥٥) ، وأبوداود (٤٨١١) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٥٥ / ٧) ، وقال : غريب من حديث مسعر تفرد به إسماعيل وعنه السري .

نور من القرآن والسنة

٢٠٨

* * *

المحاضرة الثانية والثمانون

سمات المتقين

والحديث الذي نقدمه بهذه الآيات الكريمة ، التي ترسم سمات المتقين ، نرى أن الناظر إلى آيات القرآن ، وأن المتصفح لسوره ، يرى أن أوصاف المتقين ذكرت في مواطن كثيرة : في أول سورة البقرة ، وفي سورة آل عمران ، وفي سورة الذاريات ، وفي غير ذلك من السور ذكرت أوصاف وسمات للمتقين ، ترسم مبادئ إسلامية مثالية ، ومبادئ لقيام المجتمع الإسلامي الفاضل ، بيد أن هذه السمات ليست كما يبدو لأول وهلة أن فيها تكرارا ، بل إنها تتواصل ، فبينما نرى بعضها يصوغ شخصية المجتمع المسلم من خلال الدعوة إلى الإيمان والعقيدة ، نرى بعض الآيات تركز على الجانب الذي يتعلق بالتشريع والعبادات ، وأن البعض الآخر يوثق علاقة الخلق بعضهم مع بعض عن طريق المعاملات والعلاقات الإنسانية ، إلى غير ذلك من الصفات المبثوثة في العديد من الآيات القرآنية .

والآيات التي اخترناها موضوعا لهذا الحديث تأخذ ثمرة ذلك ، تأخذ شكل السمات المثالية ، التي تأتي ثمرة عقيدة صحيحة ، وعبادة صادقة ، ومعاملات وعلاقات طيبة ، تأتي هذه السمات المثالية لنقدمها لمجتمعنا العالمي ، والإسلامي ، وللمجتمع الدولي .

ولنقول : هذا هو ديننا في دعوته إلى المثالية ، هذا هو ديننا في دعوته إلى صياغة شخصية خير أمة أخرجت للناس ، لا لنرد على شبهات من يثرون حول ديننا بعض الشبه ، محاولين أن يحاصروا الأمة كالمتهمة في بعض فروع دينها ، ندافع عن الدين ، ونرد شبهات المستشرقين ومن لف لفهم ، يريدون

أن يحاصروا هذه الأمة في شكل المتهم الذي يدافع عن قضايا وشبهات ، لا ؛ نتجاوز ذلك لأن عقيدتنا وأمتنا فوق ذلك ، ونقدم تلك المثاليات فهي إلى جانب ما تبرزه من عظمة هذا الدين فهي تفحم كل المعارضين .

والذين يقولون : إن الإسلام متشدد أو فيه عنف أو دموي ، أو يقولون : إن الإسلام تأخر ، وتأخرت أمته عن قافلة الحضارة والعصر ، لا ، وألف لا ، ها هي ذي مثله وقيمه ومبادئه التي أرساها لقيام خير أمة أخرجت للناس ، وإذا حدث تأخر فترة من الفترات ، فليس ذلك عيبا في الإسلام ، وإنما هو قصور من بعض المسلمين في بعض حقب التاريخ .

هذه المثاليات التي قدمتها الآيات الكريمة قبل أن تخاطبنا اكتنفتها آيات سابقة ، أدارت حوارًا مع أهل الكتاب ، ومع المشركين ومع الذين يتربصون بالأمة حتى أفحمتهم ، وجاءت آيات لاحقة لها في ثنايا الحديث عن يوم أحد ، وما كان للمسلمين فيه من دروس حين تجاوزوا بعض توجيهات سيدنا المصطفى ﷺ ، فتكون الضراعة في وقت البأس ، ويكون الدرس الرائع الذي يأتي للدعوة والأمر إلى المبادرة ، وإلى المسارعة ، إلى المغفرة وإلى الجنة .

لكن القرآن الكريم قبل أن يأتي بهذه السمات المثالية ، يقدم التخلية على التحلية ، فيريد أن ينقي المجتمع الإسلامي من المعاملات السيئة ، من الرذائل المرفوضة ، وفي طليعتها مشكلة الربا التي تسيء إلى الجوانب الأخلاقية ، والتي تسيء إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ، فينادي الله المؤمنين : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم مِّنْ بَيْنِكُمْ أَعْصَبًا مِّثْلَ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُؤْتُونَ الْفَرِيقَ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝ ١١٤٦ ۝ ١١٤٧ ۝ ١١٤٨ ۝ ١١٤٩ ۝ ١١٥٠ ۝ ١١٥١ ۝ ١١٥٢ ۝ ١١٥٣ ۝ ١١٥٤ ۝ ١١٥٥ ۝ ١١٥٦ ۝ ١١٥٧ ۝ ١١٥٨ ۝ ١١٥٩ ۝ ١١٦٠ ۝ ١١٦١ ۝ ١١٦٢ ۝ ١١٦٣ ۝ ١١٦٤ ۝ ١١٦٥ ۝ ١١٦٦ ۝ ١١٦٧ ۝ ١١٦٨ ۝ ١١٦٩ ۝ ١١٧٠ ۝ ١١٧١ ۝ ١١٧٢ ۝ ١١٧٣ ۝ ١١٧٤ ۝ ١١٧٥ ۝ ١١٧٦ ۝ ١١٧٧ ۝ ١١٧٨ ۝ ١١٧٩ ۝ ١١٨٠ ۝ ١١٨١ ۝ ١١٨٢ ۝ ١١٨٣ ۝ ١١٨٤ ۝ ١١٨٥ ۝ ١١٨٦ ۝ ١١٨٧ ۝ ١١٨٨ ۝ ١١٨٩ ۝ ١١٩٠ ۝ ١١٩١ ۝ ١١٩٢ ۝ ١١٩٣ ۝ ١١٩٤ ۝ ١١٩٥ ۝ ١١٩٦ ۝ ١١٩٧ ۝ ١١٩٨ ۝ ١١٩٩ ۝ ١٢٠٠ ۝ ١٢٠١ ۝ ١٢٠٢ ۝ ١٢٠٣ ۝ ١٢٠٤ ۝ ١٢٠٥ ۝ ١٢٠٦ ۝ ١٢٠٧ ۝ ١٢٠٨ ۝ ١٢٠٩ ۝ ١٢١٠ ۝ ١٢١١ ۝ ١٢١٢ ۝ ١٢١٣ ۝ ١٢١٤ ۝ ١٢١٥ ۝ ١٢١٦ ۝ ١٢١٧ ۝ ١٢١٨ ۝ ١٢١٩ ۝ ١٢٢٠ ۝ ١٢٢١ ۝ ١٢٢٢ ۝ ١٢٢٣ ۝ ١٢٢٤ ۝ ١٢٢٥ ۝ ١٢٢٦ ۝ ١٢٢٧ ۝ ١٢٢٨ ۝ ١٢٢٩ ۝ ١٢٣٠ ۝ ١٢٣١ ۝ ١٢٣٢ ۝ ١٢٣٣ ۝ ١٢٣٤ ۝ ١٢٣٥ ۝ ١٢٣٦ ۝ ١٢٣٧ ۝ ١٢٣٨ ۝ ١٢٣٩ ۝ ١٢٤

ينقي المجتمع لأن أكل الحرام وما فيه شبهة يسيء إلى القلب ، والقلب هو المؤثر ، إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ثم يأمر بطاعة الله وطاعة رسوله لأن فيهما الأمان من الفتن ، كما قال سيدنا المصطفى ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي »^(١) .

المسارعة للخيرات :

ثم تبدأ الآيات بالأمر بالمبادرة والمسارعة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] وفي هذا التصوير لحركة تكاد تكون حسية للمبادرة للمغفرة وللجنة ، إن في ذلك تحقيقا وبيانا لتحقيق وقوع ما تدعو إليه الآيات الكريمة ، أعدت للمتقين ، وتأخذ الآيات لتصف هنا المتقين غير ما وصفت به في مواطن أخرى لأنها كما قلنا هنا تبين الثمرة ، والصورة المثالية .

أولى هذه السمات : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] إنهم يبرهنون على صدق إيمانهم ، فينفقون في حالة اليسر ، وفي حالة العسر ، وفي حالة الشدة ، وفي حالة الرخاء ، فلا السراء تجعلهم في بطر ، ولا الضراء تجعلهم في قنوط أو ضجر ، بل هم في الحالين سواء ، والإنفاق علامة على صدق الإيمان وكماله ، كما قال ﷺ : « والصدقة برهان »^(٢) .

وعندما سئل سيدنا رسول الله ﷺ : أي الصدقة خير؟ قال : أن تتصدق وأنت صحيح صحيح تحشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان ، كما يوجه لما أعده الله من مثوبة وأجر كبير للمنفقين ، ما من يوم إلا وينادي ملكان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا .

والإنفاق حين يكون في حالة اليسر أو في حالة السراء يكون أمرا طبيعيا ، لكن حين يكون في حالة العسر أو في حالة الضراء ، يحمل دلالة مثالية على مصداقية الإيمان والتكافل الاجتماعي بين المجتمع الإسلامي ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

كظم الغيظ :

تنتقل الآيات الكريمة من مبدأ التكافل الاجتماعي في حالة السراء وفي حالة الضراء إلى الجانب النفسي ، لتدخل أعماق النفس الإنسانية ، وكظم الغيظ حين لا يخرج تعبيره .

أما الغضب فيظهر تعبيره على الوجه وعلى حركات الإنسان ، فهو حين يكظم غيظه ، ويغالب النفس الأمارة بالسوء ، يعالج الضعف الذي يعتري النفس البشرية حين تستثار ، أو حين يستفزها موقف ، وهو حين يفعل ذلك يكون معه من الله ظهير كما وضح ذلك سيدنا رسول الله ﷺ حين نال رجل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مجلسه ، فكظم غيظه فأعاد ثانية فكظم أبوبكر غيظه ، فأعاد الرجل النيل مرة ثالثة فلم ير أبوبكر بداً من أن يرد على الرجل ليسكت شره ، فلما رد نظر فوجد النبي ﷺ قد انتفض خارجا من المجلس ، فلحق به أبوبكر وقال يا رسول الله أغضبت أوجدت علي؟ أي أغضبت علي من مرة أردت أن أسكت شر الرجل بعد

أن نال مني ثلاث مرات ، فقال له معلماً ، موجهًا : يا أبا بكر إنك حين كنت تكظم الغيظ في صدرك ، كان الله قد سخر ملكا يرد عنك ، أما حين أردت أن تقابل السيئة بمثلها خرج الملك ، ونزل الشيطان ، وما كنت لأجلس في مجلس فيه شيطان .

فمجالس السيئة ومقابلتها بمثلها مراتع للشيطان ، ومجالس كظم الغيظ والعفو مواطن لملائكة الرحمن ، وقد يكظم الإنسان غيظه في صدره ، ولكن يظل متحاملا على أخيه فتأتي المبادئ آخذة بالسمو بالنفس الإنسانية ، فلا يكتفي بأن يكظم غيظه ، ولا يكتفي بأن لا يقابل السيئة بمثلها ، بل يعفو عن أخيه ، والعفو من شيم الكرام ، العفو الذي قال عنه النبي ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين أجروهم على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا » .

ولطالما طبق الرسول ﷺ هذا المبدأ الرائع في حياته ، ومع أعدائه ، ومع الذين كانوا يحاربونه ، وقدموا للمسلمين ما قدموا ، فحين وقع أحدهم كثمامة بن أثال حين وقع أسيرًا وعرض عليه الإسلام ، ورفض ، وقال : إن تقتل تقتل ذا دم ، أو تنعم تنعم على شاكرك ، أو تسأل ما لم تعطه ، تركه وعاد في اليوم الثاني وعرض الرسول ﷺ عليه الإسلام ، وكانت الإجابة هي الإجابة فتركه ، فلما كان في اليوم الثالث ، وأصر الرجل على عدم الدخول في الإسلام ، ماذا قال النبي ﷺ عفا عن الرجل ، وقال لهم : أطلقوا سراحه ، فانطلق الرجل يسائل نفسه ويحاورها ، ويقول : ما هذا الرسول ؟ ما هذا الدين ؟ كنت عدوهم بالأمس أحاربهم ، وأصبحت أسيرًا في قبضة يدهم ، وعرضوا علي دينهم ، ورفضته لهم ، فما أكرهوني على الدخول فيه ، ولا قتلوني ، بل عفوا عني وتسامحوا وأطلقوا سراحني ، والله ما هي أخلاق بشر ، إنها أخلاق نبوة ، فتطهر الرجل وعاد تقطر المياه من

أعضائه ، ويعلمها صريحة مدوية ، ويقول : اعلم يا محمد ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك ، لقد أصبح أحب البلاد إلي ، وما كان من دين أبغض إلي من دينك ، ولقد أصبح أحب الأديان إلي ، وما كان من وجه أبغض إلي من وجهك ، وقد أصبح أحب الوجوه إلي ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

ودخل الرجل في الإسلام بفضل هذه المعاملة ، بفضل هذا العفو ، نقول ذلك ونحن نتابع هذه السمات المثالية ، لنعرضها على أولئك المتشجنين المزايدين ، ومن يدعون زورًا وبهتانًا أن في ديننا تشددًا ، أو أن فيه عنفًا ، كلا ، وألف كلا ، إن التشريع السماوي خلاصته كلمة واحدة هي الرحمة ، قصر الله رسالة رسوله ﷺ فيها حين قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وقد يكظم الإنسان غيظه في صدره وذلك حسن ، وقد يعفو عمن ظلمه وذلك أحسن ، لكن فوق هذا وذاك أن نحسن إلى من أساء إلينا .

فلذا تأتي الآية لتقول بعد قوله : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، وبعض المفسرين يرى أن الإحسان راجع إلى الصفات السالفة ، بيد أن جمهرة منهم ونؤيد ما ذهبوا إليه أن الإحسان صفة أخرى تبين فضيلة الإحسان إلى من أساء إلينا ، إنها صورة مثالية رائعة للعلاقات الإنسانية ، زكاها القرآن الكريم حين قال رب العزة : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۚ ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤-٣٥] .

الإحسان للمسيء:

والإحسان إلى المسيء قيمة نبيلة، ومبدأ إسلامي يعالج النفوس الأمارة بالسوء، ويحولها من معادية إلى صديقة محبة، وكم بهذه المعاملة التي طبقها رسول الله ﷺ من آثار دعت الناس أن يدخلوا في دين الله أفواجًا، وأن يتعرفوا عن قرب وعن عمل واقعي، ومعاملة فعلية، أن يتطلعوا إلى عظمة هذا الدين، وإلى مثاليته، فإن سيدنا رسول الله ﷺ أحسن إلى الذين أساءوا إليه، وإلى أصحابه وإلى دعوته وإلى الذين عاملوه بهذه المعاملة السيئة.

ألم تروا إلى زيد بن سحنة وهو من أحبار اليهود، حين كان له حق وجاء يطالبه في حدة وشدة، ويقول: «إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل، تسوفون الحقوق، فقال الرسول ﷺ لعمر -وحاول عمر أن يناهض الرجل- فمنعه وقال: لا يا عمر، أنا وهو أولى منك بغير ذلك، تأمره بحسن التقاضي، وتأمرني بحسن الأداء، قم وأعط الرجل حقه، وإن لم يكن الموعد الذي بيننا وبينه قد حان، فقام عمر وأعطاه حقه قبل مواعده، فقال له: عد وزد الرجل شيئًا، قال: لماذا يا رسول الله؟ قال لأنك روعته وأفزعته، فراح عمر ليعطيه، قال: أأست تعرفني؟ قال من، قال: زيد بن سحنة، قال: الخبر؟ ما الذي دفعك على أن فعلت وقلت لرسول الله ﷺ ما قلت أمام ملاء من أصحابه؟ قال: أصدقك يا عمر، أنا أقرأ الكتب السالفة، وعرفت سمات النبوة الخاتمة فيه سوى خصلتين، كنت أبحث عنهما فلم أجدهما: أن يسبق حلمه جهله، وأن لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلمًا، وإلا إحسانًا إلى المسيء، فأردت بما رأيت أن أختبره أهو نبي آخر الزمان أم

لا؟ أما وقد وجدته حقا فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله»^(١) .

لقد كان الإحسان إلى المسيء مبدأ قعدته هذه التشريعات ، وتلك المعاملات التي طبقها سيدنا رسول الله ﷺ فكان لها أثرها في المجتمع الإسلامي .

التوبة وعدم الإصرار على المعاصي :

ثم تنتقل بنا الآيات من جانب التكافل الاجتماعي في السراء والضراء إلى الجانب النفسي علاجا لضعف النفس الأمانة بالسوء حين يستفزها موقف أو تستثيرها بعض الأسباب إلى توثيق الصلة بالله تعالى : ﴿وَاللَّهُ مُجِيبُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٧٤] وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٤-١٣٥] .

إنها هنا توثق صلة الخلق بخالقهم ، إن الفاحشة ما يفحش من الذنوب ، ويكثر استعمالها على جريمة الزنا : ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يقول بعض المفسرين إن «أو» هنا بمعنى الواو ، أي : وظلموا أنفسهم ، لكن جمهرة ترى بأنها سمة أخرى فالفاحشة : الكبيرة ، وظلم النفس : الصغيرة .

على أية حال فإن الآية تصور كيف يقبل الله من عبده التوبة ، بل كيف جعلت الآيات الكريمة مرتكب الفاحشة في عداد المتقين وهي تصف صفات المتقين ، فتذكر من بينهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ لماذا؟

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٨٨) ، والحاكم في «المستدرک» (٧٠٠/٣) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

لأنهم ذكروا ربهم ، وتابوا إلى خالقهم ، وأنابوا إليه سبحانه وتعالى ولم يصروا على ما فعلوا ، ندموا على ما فات ، أقلعوا عن ذنوبهم ، حققوا أركان التوبة النصوح ، فكان جزاؤهم أن غفر الله لهم ، وأن جعل لهم الجنة التي وعدهم بها وناداهم إليها ، في مستهل الآيات حين قال : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، قال : ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٦] .

هؤلاء الذين يتوبون إلى ربهم ويكثرون التوبة مقتدين برسولهم ﷺ الذي كان يتوب إلى ربه ويستغفره في اليوم أكثر من سبعين مرة ، وفي رواية مائة مرة ، والذي حثنا على التوبة النصوح ، وبين أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ، كل ذلك من أجل فتح باب الأمل أمام المفرطين ، من أجل علاج الذين زلت بهم الأقدام ، من أجل ندائهم إلى حظيرة الإيمان والتقوى والتوبة والرجوع إلى الله ، وتكاد مخلوقات الله تعالى على ظهر الأرض تضج من معصية ابن آدم ، يسوق الله له الرزق ، ويصعد إلى ربه المعاصي ، فتكاد تعلن المخلوقات ثورة عارمة على هذا الإنسان الجحود ، تكاد السماء أن تمطره عذابا وتكاد تطبق الجبال عليه ، لكن رحمة الله ، ولكن قبول توبته يحول كل ذلك دون ذلك ، كما روى الإمام أحمد من حديث رسول الله ﷺ : « ما من يوم تطلع شمسُه إلا وتنادي السماء ، تقول : يا رب ائذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وتقول الأرض : يا رب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وتقول الجبال : يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم ، فقد

طعم خيرك ومنع شركك ، فيقول رب العزة لمخلوقاته : دعوهم ، دعوهم ،
لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنهم عبادي فإن تابوا إلي فأنا حبيبهم ، وإن لم
يتوبوا فأنا طيبهم .

إن رب العزة حين يفتح باب التوبة يجب من عباده أن يثوبوا إليه لأنه
يجب التوابين ، ويجب المتطهرين .

هذا الشريع الرباني الذي يؤسس لمجتمع فاضل مثالي ، ولأمة وصفها
بأنها خير أمة أخرجت للناس ، هذه السمات التي تزكي لنا قدر هذه الأمة ،
نقول : إن واجبنا نحن الدعاة وجميع المفكرين ، وجميع المسؤولين ، أن نقدم
الإسلام في هذا العصر الذي نهضت فيه ثورة المعلومات ، وكان عصر
السموات المفتوحة ، والتحدي الحضاري ، والانفجار المعرفي الذي جرف
الناس بعيداً عن دين ربهم ، فما أحوجنا إلى هذه المجالس الروحية التي
تقدم الإسلام من خلال هذه الدروس ، تنافح عن دينها وعقيدتها ، عن
أمتها ورسالتها ، وتقول لكل المشاغبين والمزايدين ، ومن يقولون إن
الإسلام دين عنف بسبب ممارسات قلة لا تمثل الإسلام ، هؤلاء الذين
يقولون إن سقطت الشيوعية فلا عدو لنا إلا الإسلام ، كذبوا فيما قالوا ،
وضلوا ضلالاً مبيناً ، بل بالعكس ، حين تكون الدولة للإسلام ، وحين
تكون الصولة للإسلام ، وحين تعتلي وتسمو راية الله في الأرض ، فلا
خوف على البشرية جمعاء ، لا خوف على أتباع كل الأديان في كل الأرض ؛
لأن هذا الدين ، هو دين الرحمة ، وهو الذي قصر الله رسالة رسوله ﷺ
على الرحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .



المحاضرة الثالثة والثمانون

حوار الحضارات

قال الإمام مسلم رحمته الله في «صحيحه»: حدثني يوسف بن حماد المعني ، ثنا عبد الأعلى ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : «أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشي ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم» .

وقوله : «حدثني يوسف بن حماد المعني» ، هو أبو يعقوب البصري . قال السمعاني : هو من ولد معن بن زائدة . وثقه النسائي ، وذكره ابن حبان في «الثقات» ، ومات سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥ هـ) .

«ثنا عبد الأعلى» ، أي حدثنا . وهو عبد الأعلى بن عبد الأعلى أبو محمد القرشي البصري . روى عنه خلق كثير ، وحديثه في الكتب الستة ، ووثقه غير واحد ، مات في شعبان سنة تسع وثمانين ومائة (١٨٩ هـ) .

«عن قتادة» ، وهنا انتقل من صيغة التحديث إلى صيغة العنعنة .

وقتادة : هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري . قال ابن سيرين : قتادة هو أحفظ الناس ، وقالوا عنه : ثقة مأمون حجة في الحديث ، ومن علماء الناس في القرآن والفقه ، وقال الحاكم في «معرفه علوم الحديث» : لم يسمع قتادة من صحابي غير أنس . مات سنة سبع عشرة ومائة (١١٧ هـ) .

«عن أنس» ، هو الصحابي الكبير أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم ، أبو حمزة الأنصاري ، التجاري المدني ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . له صحبة طويلة ، وحديث كثير ، وملازمة للنبي صلى الله عليه وسلم منذ هاجر إلى أن مات ،

ثم أخذ عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي، وطائفة، وعمر دهرًا، وكان آخر الصحابة موتًا، مات سنة ثلاث وتسعين (٩٣ هـ).
«أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى».

أخرج البخاري في «صحيحه»: أن ابن شهاب قال: أخبرني عبيد الله ابن عبد الله بن عباس، أن ابن عباس أخبره أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى، مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه». قال الزهري: فحسبت ابن المسيب قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ: أن يمزقوا كل ممزق.

وإلى قيصر، ونورد هنا كتابه ﷺ إلى قيصر، نموذجًا ومثالًا لهذه الرسائل النبوية. ولفظه من «صحيح مسلم»:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].»

وقوله: «إلى هرقل عظيم الروم»، لم يقل إلى هرقل فقط، بل أتى بنوع من الملاطفة، فقال: عظيم الروم، أي الذي يعظمونه ويقدمونه. وقد أمر الله تعالى بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَحْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقوله : «أسلم تسلم» في غاية من البلاغة والإيجاز ، وجمع المعاني ، مع ما فيه من بديع التجنيس ، وشموله لسلامة الدنيا والآخرة .

«يؤتك الله أجرك مرتين» : بسبب إسلامك ، وإسلام قومك .

«وإن توليت فإن عليك إثم الأريسين» ، وهم الأكارون أي : الفلاحون والزارعون ، ومعناه : أن عليه إثم رعاياه الذين يتبعونه وينقادون بانقياده .

قال في الحديث : «وإلى النجاشي» وهو ملك الحبشة ، «وإلى كل جبار» ، تذكر كتب السيرة في الحديث : أن النبي ﷺ أرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر ، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان ، وبعث سليط ابن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال وهوذة ابن علي الحنفين ملكي اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوة العبدي ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب الأزدي إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام ، وبعث المهاجر بن أمية المخزومي إلى الحارث ابن عبد كلال الحميري ملك اليمن .

«وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ» ، والنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ هو النجاشي الذي كان المسلمون هاجروا إلى الحبشة في عهده ، ومات في شهر رجب من سنة تسع للهجرة ، ونعاه رسول الله ﷺ إلى الناس في اليوم الذي مات فيه ، وصلى عليه بالقبيع .

الرسائل النبوية لملوك وعظماء الأرض:

وخبر الرسائل النبوية أجمعت عليه كتب الحديث والسيرة والتاريخ ، واعتنت بعض المصادر الأولى بجمع نصوص هذه الرسائل ، من ذلك ما فعله أبو عبيدة في «الأموال» ، وعمر بن حزم في مجموعة أوردها ابن طولون في كتابه : «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» .

كما اعتنت بهذا الجانب دراسات حديثة قيمة ، منها : بحث لفضيلة الأستاذ عز الدين إبراهيم بعنوان : «الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى ملوك عصره» ، وكتاب : «الوثائق السياسية للعهد النبوي في الخلافة الراشدة» لفضيلة الأستاذ محمد حميد الله ، والذي جمع فيه نصوص الرسائل النبوية ، وكتاب : «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي ، الذي عرض لأخبار الوفادات ، وتناول بالمناقشة النقدية المستنيرة بعض التفاصيل التي تحفل بها كتب التاريخ والسير بهذا الشأن .

وقد اكتشفت بعض الرقوق الجلدية المتضمنة لأصول هذه الرسائل النبوية ، وهي محفوظة في متاحف بعض الدول الإسلامية .

وإذا كان الحوار كما عرفه بعض علماء المسيحية : هو التعبير عن نمط من الوجود والعمل ، يأبى كل اعتزال ويعني بالآخر ، فإن هذه الرسائل النبوية ، بما تمثله من مجهود للتعبير عن الوجود ، ورفض العزلة ، والعناية بالطرف الآخر ، تعتبر بحق ، أساس الحوار المخلص البناء بين الديانات السماوية .

ولقد كان القرآن الكريم يرسم للحوار منهاجه ، ويضع أسسه وقواعده .

من ذلك تشجيعه على التعارف بين الناس : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ومنها فتح الباب للضيافة والمؤاكلة والاجتماع على مائدة واحدة والمصاهرة : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة : ٥] .

ومنها : التشجيع على البر بغير المسلمين والقسط إليهم : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

ومنها : النهي عن الإكراه في الدين : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ومنها : التنبيه على وجوب إجراء الحوار بالرفق واللين والحكمة : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] .

اهتمام الإسلام بأهل الذمة :

وخص الإسلام المسيحيين من أهل الكتاب بمزيد عناية ، ومهد الطريق للحوار معهم تمهيداً عجيباً ، فاعتبرهم أقرب الناس إلى المؤمنين : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنْ مِنْهُمْ قِسْيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة : ٨٢] .

وأثنى عليهم وعلى رهبانهم : ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران : ١١٣ ، ١١٤] .

وأثنى سبحانه على سيدنا عيسى عليه السلام ثناء خاصاً فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي تُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وما زال المسيحيون منبهرين بهذا الثناء والتكريم حتى إن بعضهم ألف كتاباً عن ولادة المسيح في القرآن، وتعجب لماذا لا يحتفل المسلمون بميلاد المسيح، وفي كتابهم هذا الثناء العظيم.

دعوة القرآن إلى كلمة سواء:

هذا، ومن أعظم المبادئ التي أرسى الإسلام عليها صرح الحوار بين الأديان، دعوته إلى كلمة سواء، يقتنع بها الجميع، وتتفق الأديان على القول بها والدعوة إليها، وهي توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، والإيمان بجميع ما جاء به الأنبياء، وعدم التفريق بينهم.

وسوف نرى كيف اعترفت الدراسات المسيحية للقرآن بصفاء التوحيد، وهو الكلمة سواء، التي جعلها القرآن أساس الحوار بينه وبين غيره، وأراد تحقيقها عن طريق الرجوع إلى كلام الأنبياء، الذي هو وحي من الله في التوراة والإنجيل والقرآن: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ

أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ^ط إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ^ط مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة : ٧٢] .

وسأحاول في هذا الدرس أن ألقى شيئاً من الضوء على الجهود التي يبذلها الطرف المسيحي على المستوى الفكري البحثي ، وعلى مستوى الكنيسة ، للوصول بدوره إلى موقف واضح لا بد منه ، لانطلاق حوار حقيقي بين المسيحية والإسلام .

لقد ركزت الكنيسة على الحوار ، وخصوصاً في العشرين سنة الأخيرة . وكان من الطبيعي أن ينبه هذا التركيز الغافلين ، لاسيما وأنه جاء في أعقاب المجمع المسكوني الفاتكاني الثاني ، الذي أفضى إلى توجه جديد ، حين دعا المؤمنين إلى الاعتراف بالقيم الإيجابية التي تتجلى في الديانات غير المسيحية وفي أتباعها المخلصين ، وإلى اغتنام كل الفرص التي من شأنها أن تجسد هذا التوجه عبر هيئات تهدف إلى تقريب المؤمنين من مختلف الأديان والمذاهب بعضهم إلى بعض .

ولم تكتف الكنيسة بالمناداة بالحوار ، بل أسست لهذا الغرض هيئتين رسميتين : الأولى : أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين . ومقرها روما . وهي تضم بين أعضائها عدداً من أساقفة الكنائس من شتى أنحاء العالم ، وعدداً من الخبراء من مختلف الديانات ، ولها نشرة فصلية باللغتين الإنجليزية والفرنسية تنشر دراسات لاهوتية على الحوار الديني .

والهيئة الثانية : هي لجنة الحوار في مجلس الكنائس العالمي ، ومقرها الدائم في جنيف .

وبإشراف هاتين الهيئتين عقدت عدة مؤتمرات ولقاءات للحوار المسيحي الإسلامي ، وأنشأت الكنيسة المعهد البابوي للدراسات العربية الإسلامية ، الذي له نشاط مهم في هذا الميدان ، ويصدر مجلة حافلة بالدراسات هي مجلة : «دراسات إسلامية» دراسات إسلامية مسيحية ، كما أنشأت معاهد ومؤسسات أخرى ، ورصدت أموالاً طائلة برسم الحوار .

ولكن هذه الجهود لم تعط النتيجة المرجوة ، وقد اعترفت الكنيسة نفسها كما جاء في الكتاب الذي أصدرته تحت عنوان : «توجيهات في سبيل الحوار» بأن حصيلة الحوار إلى الآن ضئيلة وجزئية ، وأن الحوار المسيحي الإسلامي ، ما زال في مرحلة البحث على اللغة المشتركة ، وطروحات واضحة ، وأسلوب جديد .

وإذا كانت دواعي الحوار بين المسلمين والمسيحيين كثيرة ومتنوعة ، فإن معوقاته أيضاً متعددة ومتشعبة . ولعلها هي التي قضت على تلك الجهود التي أشرنا إليها . ويمكن تلخيصها في أمرين : الأول تاريخي ، والثاني سيكولوجي .

أما العائق التاريخي فيتمثل - كما يقول بعض الدارسين الفرنسيين - في تلك النظرة التي ينظرها الغرب إلى الإسلام منذ أكثر من ألف عام . وأما العائق السيكولوجي ، فيتمثل في الإصرار على إجراء الحوار بلغة التبشير .

الحروب الصليبية والاستشراق :

إن الحروب الصليبية ، خلقت الحاجة إلى إعطاء صورة كريمة عن الإسلام للجمهور المسيحي .

وكان المبشرون لا يألون جهدًا في نقل هذه الصورة الكريهة . وبعد فشل هذه الحروب ، واصل المبشرون السير في نفس الطريق ، وكانوا هم رواد الاستشراق . ولم يكن الاستشراق عملاً علميًا بدون أهداف ، بل كان يهدف إلى إنجاح الحملة التبشيرية ، فسقط الاستشراق بدوره في ظلامية الصليبية .

لقد لعب الاستشراق دورًا غامضًا في خدمة الكنيسة والسياسة والاستعمار ، وأسهم في توفير المبررات العلمية التي كان الغرب يحتاج إليها لتبرير نواياه التوسعية ، واستعمار العالم الثالث ، وكان له تأثير عميق على الفكر الغربي ، وعلى نظرة هذا الفكر إلى الإسلام .

واستمر هذا التأثير - كما سنرى - قرونًا عديدة ، قبل أن ينطلق في أواخر هذا القرن نحو التحرر والتخلص من روااسب الماضي ، والانتقال إلى تلمس منهج موضوعي يؤدي إلى إنصاف الإسلام وأتباعه .

لقد مر الفكر المسيحي في موقفه من الإسلام بمراحل شتى ، اعتنى بدراستها عدد من الباحثين ، أخص بالذكر منهم الأستاذ «روبير كاسيار» في كتابه : «تاريخ الفكر الديني الإسلامي» الذي طبعته الكنيسة بروما سنة ١٩٨٧ باللغة الفرنسية . فقد بين فيه أن تفاعل الفكر المسيحي مع القيم الدينية الإسلامية ، بدأ في دولة الإسلام نفسها منذ عصر النبوة ، وفي عصر الفتوحات ، حين استولى المسلمون على بلدان كانت مسيحية بالكامل ، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يستخدمون بعض العلماء المسيحيين ، كأطباء وتراجم وخبراء في الإدارة ، فتم نسج علاقات حميمة بين المسلمين والمسيحيين ، سواء على المستوى الرسمي ، أو على المستوى الشعبي .

وأدى هذا التفاعل الفكري إلى ظهور مؤلفات لعلماء مسيحيين في دار الإسلام، تتحدث عن الإسلام، وبعضها اختص في الحديث عن الحوار الفكري بين الديانتين منذ تلك العهود.

أما خارج دار الإسلام، وفي المرحلة الأولى. فكان هناك العلماء البيزنطيون، وهم وإن كانت معلوماتهم دقيقة، ولكن موقفهم كان سلبياً على الدوام، وكانت عداوتهم للإسلام كبيرة، ولم يكن موقف المسيحيين في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى يختلف عن موقف العلماء البيزنطيين. ويمكن تلخيصه في ثلاثة تيارات:

التيار الأول: تيار ثقافي يهدف إلى الاستفادة من العلوم والفنون التي نقلها المسلمون وطوروها؛ لأن التفوق العلمي هو السر في قوة المسلمين، وبفضل هذا التيار اطلع المسيحيون على كثير من معارف المسلمين، وهذا الجانب سيكون له أثر إيجابي في تشكيل موقف الفكر المسيحي من الإسلام بعد قرون.

والثاني: تيار شعبي، يترجم عداة الشعوب المسيحية للإسلام في القرون الوسطى بواسطة حكايات خرافية على غرار «لاشسون دورولون».

والثالث: تيار عقدي دفاعي: «آركولوجيتيك». أدى إلى دراسة معمقة للإسلام من طرف علماء المسيحية من أجل تسفيهه وتكذيبه.

وفي هذا الإطار تمت أول ترجمة لاتينية (لمعاني) القرآن على يد «روبير دو كلتون، ويير، دودالهارت». تلتها حملات عدائية من طرف علماء المسيحية لا نستثنى منهم سوى العلماء «فرانسيسكان دومنيكان» الذين زاروا العالم الإسلامي، وأعجبوا بالتغيير الذي أحدثه الإسلام على مستوى الفرد والجماعة.

وإذن فخلال القرون الوسطى ، لم تكن هناك إمكانية للحوار ، بل كان العداء على أشده ، والتنافر في أوجه .

أما في عصر النهضة فقد واصل علماء المسيحية حملات التشهير والتكذيب ، ولكننا بدأنا نرصد تحولاً مهماً في الفكر المسيحي ، لعله نتج عن شعور رجال الدين المسيحيين بالحاجة إلى الدفاع عن الدين بصفة عامة في وجه التحديات التي جاء بها عصر النهضة ، فوجدوا أنفسهم في خندق دفاعي واحد مع الديانات الأخرى .

وفي القرنين الثامن والتاسع عشر ، اشتدت الحملة على الديانات المسيحية نفسها ، وعلى الدين بصفة عامة ، ولكن ظهر في الفكر الغربي بعض الكتاب الذين وجدوا في الإسلام نموذجاً صالحاً ، أشادوا به وبما فيه من فكر حر ، وما يمثله كدين طبيعي منطقي .

نذكر من هؤلاء الكتاب : «لوكونت دو بولافيلد» الذي ألف كتاباً عن حياة «محمد» ﷺ ، سنة ثلاثين وسبعمائة وألف ، ونذكر منهم كتباً أخرى ، وقد أدى هذا العرض الموضوعي للإسلام في مؤلفات هذا الفترة إلى تغيير كثير من المواقف ، حتى أصبح «نابليون» نفسه لا يخفي إعجابه بالإسلام ، وكتب في رسائله إلى «كليب» يقول عن سيدنا محمد نبينا : «محمد» ﷺ .

هذا الفكر المتحرر نما وازدهر خارج أسوار الكنيسة التي بقيت إلى القرن التاسع عشر محتفظة بنظرتها القديمة إلى الدين الإسلامي ، مواصلة حملات التبشير من أثر الحملات العسكرية لجيوش الاستعمار .

والمفارقة العجيبة الجديرة بالتسجيل هنا ، هي أن الفكر الإنساني ، كلما

أشرقت عليه شمس النهضة ، وهبت عليه أنسام الترقى ، كلما أنصف الإسلام . بينما يقظة الفكر تكون بالنسبة لديانات أخرى مؤذنة بنفور الناس منها ، وإعراضهم عنها .

وننتقل إلى القرن العشرين ، لنشهد تقدم البحوث المتخصصة في الإسلاميات ، وهي بحوث علمية ونقدية ، تعتبر امتدادًا للتطور الحاصل في القرن التاسع عشر . فقد جاءت بعض هذه البحوث في شكل نقد لاذع ، مثل كتابات «لامونص» . وكانت أحيانًا لا تخلو من موضوعية ، مثل كتابات «رودنسون ، وبلاشير» ، ثم أخذت تتحول إلى كتابات فيها حظ كبير من التفهم والتقدير الإيجابي على يد عدد كبير من العلماء أمثال «لويس ماسينيون» .

ورغم هذا النشاط الفكري الإسلامولوجي ، فإنه لم يحصل تقدم يذكر على مستوى الكنيسة في موقفها من الإسلام والقرآن والرسول ﷺ . فهي لا زالت في القرن العشرين تعتبر الإسلام واحدًا من المبادرات الدينية التي يقصد بها الناس إلى الله بأساليب متعددة ، والتي يمكن أن تعد في بعض الحالات تدريبيًا على التماس الإله الحق ، أو تهية إنجيلية فقط .

لكن يبدو أن الكنيسة ستجد نفسها في المستقبل القريب مضطرة إلى تغيير موقفها ، والذي يدفعنا إلى اعتقاد ذلك هو ما نرصده في الملتقيات والمؤتمرات والأيام الدراسية التي تشرف عليها الكنيسة نفسها من ظهور تيار علمي متفتح شجاع لا يخفي اعترافه بنبوة سيدنا محمد ﷺ ، ويطالب بأن تتجاوز الكنيسة هذه العقبة ، لتفتح الباب أمام حوار وتعاون حقيقيين بين الديانتين السماويتين المسيحية والإسلام .

من ذلك مثلاً ، ما حدث في المؤتمر الإسلامي المسيحي ، الذي انعقد

بقرطبة عام سبعة وسبعين وتسعمائة ، وألف حول نبوة محمد ﷺ في نظر المسيحيين ، ونبوة عيسى عليه السلام في نظر المسلمين .

حيث برز تيار يدعو إلى الاعتراف بنبوة سيدنا محمد عليه السلام . ومنها اللقاء الإسلامي المسيحي بتونس قرطاج سنة ١٩٧٩ م .

ومما يسير في نفس الاتجاه وبوضوح أكثر ، الدراسة التي نشرها فريق الأبحاث الإسلامية المسيحية سنة سبع وثمانين وتسعمائة وألف ١٩٨٧ م ، وخصوصاً القسم الثالث منها .

والمتعلق بالقرآن في نظر المسيحيين ، وفيه نجد الاعتراف بالقيم الدينية للقرآن الكريم ، وأنه رسالة سماوية حقيقية على اختلاف بين من لا يريد أن يؤمن من القرآن إلا بما يوافق الإنجيل ، ومن عجز عن التوفيق بين القرآن والإنجيل .

والذي يظهر من خلال التتبع الدقيق لحركة الفكر المسيحي في تحليله للإسلام ، هو أن هذا الفكر يتجه نحو الحقيقة ، وأنه متأثر إلى حد بعيد بأمرين اثنين ، يملكان عليه أقطاره :

الأمر الأول : هو ما في القرآن من صفاء التوحيد .

والأمر الثاني : هو انسجام صورة المسيح عليه السلام في القرآن مع هذا التوحيد .

ويحق لنا أن نتساءل : لماذا اختارت الكنيسة أن تتمسك بموقفها ، وهي ترى الفكر المسيحي خارج أسوارها يبتعد عنها؟!

إن رجال الكنيسة من كبار العلماء ، ولهم من سعة الأفق ، ورجاحة العقل ، وعمق المعرفة بالدين ، ما يجعلهم قادرين على التمييز بين الحق والباطل ، ولكن معرفة الحق شيء ، والتصريح به يحتاج إلى أشياء لعلها لا

تتوفر في الوقت الراهن .

ولعل استمرار الحوار بين الديانتين أن يعين عليها بما ينسجه مع الأيام من ألفة ومودة بين المسلمين والمسيحيين ، وما يغرسه مع الزمن في نفوس أتباع الكنيسة من استعداد لقبول التغيير ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

ويبقى الثقل الأكبر والحظ الأوفر من المسؤولية واقعا علينا نحن المسلمين ، في تأنيس الرأي العام المسيحي بالإسلام ، وتحبيبه إليه ، ومحو النفرة الواقعة له منه .

وإن هذه المسؤولية ليتضاعف ثقلها ، ويزداد عبئها بعد سقوط النظام الشيوعي وزوال الحجب بيننا وبين شعوب المسيحية الأخرى في أوروبا الشرقية ، ليس لها حزازات ولا رواسب من الماضي ، مثل ما لإخوانها في أوروبا الغربية ، بل ليس لها تعلق كبير بالمسيحية نفسها بسبب الظروف التي مرت بها .

ومن منطلق الشعور بهذه المسؤولية التاريخية ، نرى واجبا أن نعترف بأن المسلمين اليوم يقدمون للناس أسوأ صورة عن الإسلام .

بعضنا له حب في الهيمنة يريد تحقيقها عن طريق الإسلام ، وينفق الأموال الطائلة لخلق جماعات إسلامية تابعة له في كل أنحاء العالم ، وبعضنا له مذهب معين بمثابة أيديولوجية ينشرها باسم الدين ، ويؤسس بدوره جماعات إسلامية دائرة في فلكه في أنحاء الدنيا .

وأفراد من الناس ساخطون على حكوماتهم ، ويؤسسون جماعات تعبر عن السخط باسم الدين . وحكومات رأت في هذه الجماعات سلاحاً لضرب خصومها ، وخصوم لهذه الحكومات يجرضون الجماعات عليها ، وأصبح الأمر لعباً بالدين ، واستغلالاً لإيمان المؤمنين .

وكنا جماعة واحدة فأصبحنا جماعات متفرقة ، والله تعالى يقول : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

والدعاة غرتهم النجومية والشهرة إلا من رحم ربك ، فأصبحوا يتنافسون في فن الكلام بدل أن يتنافسوا في صحيح العمل ، وخاض الناس في الدين بدون علم ، وأصبحت الدعوة نضالاً ، وأصبح كل مناضل يفتي ، ويفسر القرآن ، ويشرح الحديث .

وتمرد الناس على العلماء ، وتمردوا على أئمة المذاهب السنية التي التزمت بها الأمة ، ورفضوا تقليدهم ، وقالوا : هم رجال ونحن رجال ، وحسبنا كتاب الله وسنة رسوله ، كلمة حق أريد بها باطل .

وهل بوسع الجاهل أن يستنبط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة؟ وهو لا يعرف النسخ من المنسوخ ، ولا العام من الخاص ، ولا المطلق من المقيد! ولا يتقن العلوم العربية ، ولا يدرك أسرار البيان ، ولا يملك قواعد مصطلح الحديث ولا يفقه في أصول الفقه!

وزاد الطين بلة أن بعض الأنظمة في بعض البلاد العربية والإسلامية عطلت المعاهد التي كانت تخرج العلماء الأفذاذ ، فخلا الجو لأنصاف المتعلمين ، وبقيت الشعوب المؤمنة بدون علماء ، وهم ورثة الأنبياء ، الذين اعتبرهم رسول الله ﷺ مثل النجوم في السماء .

وكان من عواقب ذلك ، أن ضلت بعض الجماعات وأضلت فأظهرت الإسلام أحياناً دين تطرف وعدوان ، وأحياناً دين همجية وعصيان ، وأحياناً دين تخلف وجهل ، وعمَل من هذا القبيل إنما يهدم صرح الإسلام وينقض عُرَاه ، ويعين عدوه عليه ، ويحقق له رغبته ومناه . فإذا قلنا : إن المسلمين اليوم يقدمون للعالم أسوأ صورة عن الإسلام ، فإننا لا نعدو الصواب في ذلك .

المحاضرة الرابعة والثمانون

العلم والسلم والجماعة

أسس الشريعة الإسلامية ودعامتها

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» . رواه البخاري وغيره .

بسم الله الرحمن الرحيم ، رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ به من شر كل ذي شر هو آخذ بناصيته ، هو الأول فليس قبله شيء ، وهو الآخر فليس بعده شيء ، وهو الظاهر فليس فوقه شيء ، وهو الباطن فليس دونه شيء ، أحمده تعالى وأستغفره ، وأبوء له بنعمته علي وأشكره ، وأصلي وأسلم أفضل صلاة وأعظم تسليم على سيدنا محمد بن عبد الله نبي الرحمة ، المرسل إلى الإنسانية جمعاء ، معلماً ومرشداً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وبه أستعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

إن نص الحديث قد أورده البخاري في كتاب العلم من صحيحه ، وأورده في كتاب الاعتصام باختلاف يسير في الرواية فقال : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله» .

كما أخرجه مسلم في «صحيحه» من طريقين رواه في كتاب الإمارة فقال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة».

كما رواه باختلاف يسير في كتاب الزكاة، وبقريب من رواية مسلم أورده أحمد بن حنبل في مسنده من طرق عدة.

فهذه ثلاثة من أصح كتب الحديث تذكره، وتلك أحاديث أخرى تؤيده من جهة المعنى، من أشهرها قول المصطفى ﷺ في الدعاء لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

وإن في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد الحديث وتعضده، ولعل أخصها قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، لذلك كان الوجدان الإسلامي مستسيغاً لهذا الحديث الشريف، خاشعاً لسماعه، وكان الشراح والمقدمون في المعرفة أمثال ابن حجر العسقلاني، والبدر العيني والنووي، يستخرجون منه إفادات عظيمة الشأن، عميقة المعنى.

والحق أن المسلمين في عالمنا اليوم، والمنصفون من أهل الحق، يجدون في هذا الحديث ما يشيد بساحة الإسلام وتقديره للعلم والعقل ودعوته إلى السلم مع لزوم الجماعة، وهذه المعاني هي ما أحاول توضيحها من خلال الإجابة عن أسئلة ثلاثة أجد أنها تستوقفنا بالضرورة عند التمعن في منطوق الحديث:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٦/١)، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٦١٥/٣)، والضياء في «المختارة» (١٠٩/١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند البخاري (١٤٣) بلفظ: «اللهم فقهه في الدين»، وعنده أيضاً (٧٥) بلفظ: «علمه الكتاب».

السؤال الأول:

من المقصود بالخطاب في قوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً»، هل المقصودون هم المؤمنون جميعاً على اختلاف مراتبهم ومداركهم؟ فيكون الخطاب خطاب عموم كما يقول علماء أصول الفقه؟ أم أن المراد به خاصة المسلمين، فالخطاب خطاب خصوص؟

أما السؤال الثاني:

فما المراد بالفقه في الدين في قول خير الأنام هل هو محض المعرفة بأحكام الحلال والحرام والقدرة على التمييز بينهما على النحو الذي يفيد علم الفقه؟ أم أن المراد به هو مجمل العلوم التي ترتبط بالدين وتفيد في معرفته معرفة شاملة، فيكون الفقه في الدين بالتالي هو المنظومة الشاملة من العلوم الشرعية ومن المعارف العقلية التي تعتبر واجبة لحسن فهم تلك المنظومة.

السؤال الثالث:

يتحدث المصطفى صلوات الله عليه وسلامه عن الأمة من جانب أول، وعن استقامة أمرها من جانب ثان، فعلى أي نحو نحمل القول؟ هل نقول مع بدر الدين العيني في كتابه «عمدة القاري»: إن معناه هو إخبار المصطفى بالمغيبات، فرسول الله يحدثنا عن المستقبل وأمة الإسلام لا تزال بحمد الله قائمة، أم نذهب مع ابن حجر العسقلاني في قوله إن المراد به هو بقاء الأمة على الحق. أم يكون الأنسب بالأحرى تلمس معنى ثالث لا يذكره الشارحان الكبيران أو لا يقعان عليه؟

تتناول السؤال الأول :

ونذكر اجتهادنا في فهمه وفي محاولة الإجابة عنه على النحو التالي : إن في خطاب الحديث ما يفيد العموم فهو يشمل المكلفين جميعاً ، مثلما أن فيه ما يفيد الخصوص فهو مقصور على فئة منهم ، ولا نرى في هذا القول تناقضا ولا التباسا .

أما مفتاح الفهم عندنا فهو قوله ﷺ في الشطر الثاني من الحديث :
«وإنما أنا قاسم ويعطي الله» .

يقول صاحب «عمدة القاري» : اعلم أن النبي ﷺ أعلم أصحابه أنه لم يفضل في قسمة ما أوحى الله إليه أحداً من أمته على أحد ، بل سوى في البلاغ وعدل في القسمة وإنما التفاوت في الفهم .

وهذا صحيح فهناك عدل ومساواة من جهة أولى ، هي جهة تبليغ الوحي لجميع الناس دون تفضيل أحد على أحد ، وهناك تفاوت من جهة ثانية هي جهة التفاوت في قدرات البشر في الفهم والذكاء والإدراك .

ونبين صلوات الله عليه كان شديد التنبيه على هذه المسألة ، لذلك نجده يحذر المتقاضيين عنده من مغبة الوقوع في الإثم نتيجة للتفاوت المحتمل وجوده بينهما في الاحتجاج والذكاء ، فهو يقول : «لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر ، فأنا أقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء فإنا هو قطعة من نار أقتطعها له ، فليأخذ أو فليدع»^(١) .

ولكن هذا التفاوت في الفهم والإدراك والذكاء لا ينال في شيء من المساواة الطبيعية في الإنسانية ، ومن الحق في الكرامة والوجود والحرية ،

(١) سبق تخريجه .

وبالتالي من المساواة في التمتع بحقوق الإنسان . ذلك أننا أمام مستويين متميزين فهما لا يتداخلان ، ولا يكون لغياب أحدهما أن يلغي وجود الآخر .

ولسنا نعلم من الفلاسفة والمفكرين من أغفل هذا التفاوت في نظرياته وتشريعه لأمر الاجتماع وشئون السياسة ، وهذا التفاوت الطبيعي في الفهم والإدراك قاعدة يأخذ بها المربون ومبدأ يعمل به المعلمون .

التمييز في الناس بين عامة وخاصة :

وعلى أساس هذا التفاوت الطبيعي في الفهم والإدراكات مع المساواة بين الناس في تبليغ الدعوة المحمدية ، شرع علماء الإسلام القاعدة التي تقضي بوجوب التمييز في الناس بين عامة وخاصة ، وعملاً بموجب تلك القاعدة أقرروا لكل من الفئتين أحكاماً مناسبة لها ، فالعامة غير مطالبين في الدين بمعرفة تعلو على إدراكها ، والخاصة لا يقبل منها أن تقف في معرفة الدين عند مستوى معرفة العامة .

فأما إذا تعلقَت العامة بالمعارف التي تفوق طاقتها الإدراكية ، مثل : الاشتغال بأمور التوحيد ، والقول عن كل أمر إنه حلال أو حرام ، فإنها تقترب إثماً كبيراً ؛ لأنها تقول في الدين عن جهل .

وأما إذا قصرت الخاصة في طلب المعرفة الدينية العليا ، وتخلفت عن الرتبة التي تكون قادرة بها على إرشاد العامة ، فإنها تقع في الإثم بدورها ، وإثمها تخليها عن المسؤولية التي أناطها الشرع بها .

وبالجملة فإن لكل من الخاصة والعامة حقوقاً وواجبات ، والإمام الشافعي أفاض ودقق في تحديد الفروق بين الخاصة والعامة في كتابه

الرسالة، والغزالي وغيره أفردوا مؤلفات عديدة للقول في المسألة مما لا نريد أن نخوض فيه .

المراد بالفقه في الدين:

نخلص إلى السؤال الثاني من أسئلتنا الثلاثة فنقول : ما المراد إذن بالفقه في الدين في قول خير الأنام؟ وفي الجواب نقول بناء على ما تقدم : إن الفقه في الدين فقهان لكل منهما درجاته ومراتبه ، ولكل منهما أحكامه وضوابطه فأما الأول فهو الفقه في الدين بالنسبة للمكلف من عامة المسلمين ، والمقصود منه أن يجد المسلم -ذكرًا أو أنثى- من يعلمه دينه ويشرحه له على قدر فهمه وإدراكه .

يروى البخاري في «صحيحه» في باب : كيف يقبض العلم؟ أن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» .

وما دام العلماء القادرون على الإفتاء في الدين بعلم صحيح موجودين فإن الوظيفة الأولى للفقه تكون متوافرة ، وشرط المعنى الأولي للفقه يكون متحققاً في المدينة الإسلامية ، وتلك من العلامات الدالة على إرادة الله تعالى الخير بالمسلمين ، وما دامت الدولة قوية بنظامها ، عزيزة بمؤسساتها ، مهابة الجانب بما تتوافر عليه من الهيئات الإدارية القادرة على القيام بأداء مهمة الحسبة المطلوبة شرعاً ، فهي تمنع الجهالة من القول في الدين ، وتعصم المؤمنين من شرورهم ، فإن ذلك من علامات الخير المراد بالدولة وبالمواطنين فيها ،

وما دامت السلطات العلمية - مثل المجالس العلمية والجمعيات والمعاهد والكليات والجامعات - تقوم بواجباتها في نصرة الدين ، كل من موقعه ومسئوليته ، وتحرص على التصدي لكل الذين يقصدون الإساءة للدين الحنيف أو يتحاملون عليه جهلاً به ، عقيدة وشريعة وحضارة . . . فإن الخير يكون ولا شك عميمًا غزيرًا ، وإن الشكر لله يكون واجبًا مطلوبًا .

الاجتهاد :

وأما الفقه في الدين في معناه الثاني أي طلب الفقه في الدين من حيث إنه يلزم الخاصة ، فهو طلب المعرفة التي يقدر بها صاحبها على التعمق في أمور الشريعة وأحكامها تعمقًا يمكنه من الوصول إلى الحلول الشرعية في الطوارئ أو النوازل التي تعرض للوجود الإسلامي داخل المجتمع الإنساني الكبير .

وفي عبارة جامعة نقول : إن المقصود به هو القدرة على ممارسة الاجتهاد الحق الذي به يكون بلوغ مطلوب الشارع ، وهو توخي مصلحة الخلق ، والبحث عن سبل إسعادهم في توافق مع أمر الشارع ونهيه .

وبالتالي فهو الاجتهاد الذي يكون به التجديد في أمور الدين ، تجديدًا تكون الشريعة به مواكبة لقوانين التطور البشري ، ومسايرة لسنة التغير المتصل في أنماط العيش اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا .

ولا يخفى أن هذه الرتبة من الاجتهاد لا يبلغها من العلماء سوى الصفوة القليلة الذين جمعوا بين العلم بالدين وبين أطراف من العلوم الإنسانية المعاصرة ، مع امتلاك ما يكون التوسل به ضروريًا من إجادة لغة أجنبية واحدة على الأقل .

وقد لا نغالي إذا قلنا إن الراجح أن اجتماع كل هذه الشروط في شخص واحد يعتبر اليوم أمرًا متعذرًا بالنظر إلى تشعب المعارف في حياتنا المعاصرة ، وإلى تعدد مناحيها .

أضف إلى ذلك ما بلغته المعاملات الاقتصادية والمالية من تعقد وتطور هائلين ، والحق أن كمال الاجتهاد على الشروط التي ذكرنا يستوجب اجتماع نخب من العلماء وتضافر عملها ، فيكون منهم العارفون بأمور الدين وأحكامه ، والخبراء في العلوم الدقيقة مثل الهندسة والبيولوجيا والطب وعلوم الطبيعة ، والخبراء في مجال التكنولوجيا ، فضلاً عن العلماء المشتغلين بالعلوم الإنسانية مثل الاقتصاد والسياسة والسوسيولوجيا .

والحق -أيضاً- أنه ليس في الجمع بين كل هذه الأصناف من العلماء خروج عما ألفه المسلمون أيام تمكن حضارتهم ، وليس فيه ابتعاد عما تقتضيه الشريعة الإسلامية .

ذلك أن من المعلوم أن القاضي في المدينة الإسلامية لا يقضي في أمور المعاملات المهنية والعقارية والتجارية إلا بعد طلب رأي الخبراء في مختلف هذه المجالات .

ومن البين بذاته أن الارتقاء إلى هذه الرتبة من الاجتهاد يقتضي امتلاك ناصية الفقه ، فقه الفروع أولاً فيكون المجتهد على معرفة تامة بأحكام الحلال والحرام ، وأحكام الوجوب والندب والحظر ، وبالتالي يكون قادراً على معرفة كيف العبادة من جهة ، وكيف المعاملة من جهة أخرى ، ويستدعي التوافر على معرفة عالية من فقه الأصول ، وأصول الفقه أربعة هي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

ولكل أصل من هذه الأصول ضوابطه وقواعده مما لا يتسع المجال

للخوض فيه ، ولكننا نقول إجمالاً : إن لأصول الفقه ثمرة يسعى إلى اقتطافها - كما يقول الأصوليون - والثمرة هي استخلاص الحكم الشرعي فيما لم يكن فيه نص من الكتاب والسنة ، ولم يعرف عليه إجماع .

وبالتالي فإن السبيل فيه أعمال العقل الفقهي الذي هو الاجتهاد ، وممارسة الآلية المنطقية التي هي القياس ، وقد يحدث أن نظر العالم المجتهد يوصله عند النظر في النازلة إلى التردد بين حكمين يتساويان ، إذ يكون لكل منهما دعامة ومبرراته ، وعند ذلك يتعين عليه ترجيح حكم شرعي على آخر .

ومرتبة الترجيح تستدعي سلوك مسالك جديدة ، والأصوليون يلتجئون إلى مجموعة من القواعد تختلف بحسب الاقتضاء .

من تلك القواعد نذكر القاعدة التي تقضي بأن المشقة تجلب التيسير ، وقاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وقاعدة الأخذ بأخف حكم الوقت ، فلكل وقت وزمان أحكامه الخاصة به . والقول في القواعد يتسع ويتشعب .

ثم إن المحققين من علماء الأصول يذهبون إلى أن درجة الاجتهاد الكامل تعني الارتفاع إلى فهم مقاصد الشريعة على كمالها ، والتمكن من الاستنباط منها بناء على ذلك الفهم كما يقول الشاطبي .

ومقاصد الشرع مدارها استجلاب المصلحة ، مصلحة الخلق ، ودفع المفسدة ، وذلك بمراعاة أصول أو كليات خمس هي : حفظ الدين ، وحفظ النسل ، وحفظ العقل ، وحفظ المال ، وحفظ النفس .

ولا غرو أن الحاجة إلى التدبر في هذه الكليات في ضوء مستلزمات الحياة

المعاصرة حاجة أكيدة للمسلمين ، فالإسلام موضع هجوم ، وتهم الغلو في الدين وضيق الأفق تلحق بأهله ، والجامدون على التقليد من أبنائه - أولئك الذين يجعلون من عصر الانحطاط مثالا يحتذى ، ومن عهود انقباض العلم الصحيح منوالا ينسجون عليه - ليسوا بأقل سوءا من الأعداء في الصورة المظلمة التي يرسمونها للإسلام ، والحال أن الإسلام نقيض تلك الصورة والضد المخالف لها .

وعندي ملاحظات ثلاث في شأن هذه الكليات ، تمهيدا للانتقال إلى الشق الثالث والأخير من هذا الموضوع .

فأقول في الملاحظة الأولى مختصرا :

تكشف الكليات الخمس عن جوهر الشريعة الإسلامية من حيث إنها تتوخى حفظ مصالح الخلق على نحو تعلي فيه من مقام العقل ، وتعتبره نعمة تعادل نعمة الحياة ، وتماثل نعم الحق في حرية الاعتقاد ، واحترام الممتلكات الشخصية .

والكليات الخمس تستمد روحها من القرآن الكريم ، وما كان فيه من الآيات دالا على تكريم الإنسان ، والخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] هو من العموم بحيث إنه يشمل الإنسانية جمعاء ، سواء كان المرء من ملة الإسلام أو من غيرها .

كما تستمدها من الحض الصريح في السنة النبوية على المساواة في الإنسانية : «كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

الملاحظة الثانية :

هي أن الكليات الخمس هذه تترابط فيما بينها ، ويدعم بعضها البعض الآخر ، فهي كل واحد متراص لا يستقيم جزء منه إلا متى استقامت باقي أجزائه ، وبلغه الرياضيين والمناطق ، نقول : إن العلاقة التي تقوم بين الكليات الخمس هي علاقة استلزام فكل منها يقتضي الآخر ويستلزمه .

وهكذا فلا سبيل إلى حفظ الدين إلا بحفظ العقل وانتفاء الخوف على النفس وعلى النسل وعلى المال ، والمال في اللغة العربية وفي عرف الفقهاء هو كل ما يمتلكه المرء ، وأخص ما يمتلكه المرء هو جسمه ، كما يقول الفيلسوف الإنجليزي جون لوك .

الملاحظة الثالثة والأخيرة :

هي أن حفظ الكليات الخمس يتطلب من المجتهد مجاوزة الفهم الحسي والمباشر لمعنى الحفظ والتماس الدلالة البعيدة ، والبحث عن المصلحة الحق التي جعل الشارع من توخيها مطلباً أقصى .

وهكذا فإن من قصور النظر أن يقرر المجتهد أن حفظ النسل يتحقق مثلاً في محض اختيار الزوجة الصالحة واجتناب مواطن الشبهات حفظاً للنسب ، ثم يغفل عن المعنى البعيد ، وهو أن حفظ النسل يستوجب الانشغال بما يكون وراء النسل والإنجاب ، وهو تأمين ضروريات العيش الكريم ، ورعاية الأولاد بالتعليم والدرس ، وإعدادهم ليكونوا مواطنين نافعين في عالم الغد .

وإذن فإن مراعاة قصد الشرع من حفظ النسل تعني النظر إلى المستقبل ، والانشغال بأحوال الأولاد فيه ، وبالتخطيط له .

كذلك لا يعني حفظ العقل صيانة العقل بمنعه من تناول المخدرات وكفى ، فذلك أمر وإن كان ضروريًا إلا أنه يكشف عن نظر ضيق ، ذلك أن حفظ العقل يقوم فيما هو أبعد مدًى من ذلك ، فمن أسباب حفظ العقل صونه من العبث ، وإضاعة الوقت والجهد في الانشغال بالثانوي من المشكلات ، والانصراف عن الاهتمام بالقضايا الكبرى التي تتصل بالوجود الاجتماعي الفعلي وبالقضايا الاقتصادية ، وما كان من الأمور متصلا بالإسهام العملي في بناء الدولة الحديثة ، وتشيد المجتمع الإسلامي المعاصر .

حفظ الدين وصيانيته :

وأما حفظ الدين فإن تقدير معناه وتبيين وجوه المصلحة في كفيته مسألة اجتهادية على درجة عالية من الدقة والخطورة .

وعلماء الإسلام لا يزالون بين رجلين : رجل يشتط في فهم معنى صيانة الدين ، فكل تجديد في زعمه بدعة ، فهو يضيق على الأمة في تقرير المصلحة ، بل هو يتعد كل البعد عن الاجتهاد الصحيح ، ولا يدرك مغزى مقاصد الشريعة .

ورجل يتسع نظره فهو يتأمل العالم من حوله في حركيته وتطوره وموقع المسلمين فيه ، وهو ينظر إلى الواقع السياسي لأمته ، والوجود الاقتصادي والاجتماعي لإخوته في الدين ، وهو يربط ذلك كله بالوجود الإنساني العالمي في صراعه وتحوله ، فإذا اجتهداه يتسم بصفات الرصانة وبعد النظر ، وإذا هو أقرب ما يكون من استكناه مقاصد الشريعة ومن الوقوع على المصلحة الدينية ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله كما يقول علماء الأصول .

أخلص الآن إلى الشق الأخير من قول خير الوري في الحديث : «ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

وفي ذلك أتوسل بطرح ثالث الأسئلة التي طرحتها في البداية فأقول : على أي نحو يجمل بنا أن نحمل قول نبينا عليه صلوات الله وسلامه؟ وخشية فوت الوقت أجمل إجابتي وأختصرها في الملاحظات الثلاث التالية :

الملاحظة الأولى : هي التنبيه على أن في الشق الأخير حثًا على لزوم الجماعة في الوقت نفسه الذي يكون فيه قوله ﷺ إخبارًا ببقاء الجماعة واتصالها مثل ما رأينا في الشق الأول من الحديث حثًا على طلب العلم وإقران ذلك الطلب بالخير ، مطلق الخير .

ولزوم الجماعة من أوليات الشريعة السمحاء ، ورسول الله ﷺ يرغب في لزومها في غير ما حديث ، من ذلك قوله في الحديث الذي أخرجه كل من البخاري ومسلم وابن حنبل : «من أراد منكم بحبوة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد» .

ومنه الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه عن أبي هريرة ، قال : «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية . . .» إلى آخر الحديث .

الملاحظة الثانية : هي أن لزوم الجماعة في الشريعة الإسلامية يقترن دوماً بوجوب طاعة من توليه الجماعة أمرها ، وتكون ولايته ولاية تجتمع لها شروط الصحة الشرعية المعتمدة عند علماء الدين ، وهذا من جهة أولى ، مثلما أن لزوم الجماعة صنو التمسك بالدين الصحيح والابتعاد عن الفتنة والضلالة وكل ما يؤدي إليهما ، وهذا من جهة ثانية .

والأحاديث في هذا المعنى غزيرة، ولكنني أختار منها حديثاً أخرجه ابن عبد البر القرطبي في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»، فيروي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «صلى بنا رسول الله صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقبل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: عليكم بالسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

أما الملاحظة الثالثة:

فهي أن الحديث النبوي يفيد أن أحوال الاجتماع البشري في تغير وتحول، كما يفيد اقتضاء انتظام المسلمين داخل المجموعة البشرية الكبرى بتنوع نحلها ومذاهبها، ومخالفة تلك النحل والمذاهب لدين الإسلام، غير أن ما يتعين الانتباه إليه هو أن تنظيم شؤون الجماعة الإسلامية، يعني ما كان متصلاً منها بأمور الاجتماع والسياسة يظل مسألة اجتهادية، وبالتالي فهو مسألة متطورة بتطور أحوال تلك الجماعة، والاجتهاد فيها موكول إلى أهلها، ولذلك كان التوافر على صفة الفقه في الدين مطلوباً شرعاً في الإمامة العظمى.

وفقهاء الإسلام ومفكروه، أمثال الماوردي والغزالي وابن خلدون، قد استفاضوا في هذه المسألة، وأحوال الاجتماع البشري تؤيد ذلك، وأجد أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أوجز القول في ذلك في عبارة بليغة جامعة إذ قال: لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة، ألا فمن سوده قومه على فقه كان ذلك خيراً له، ومن سؤده قومه على غير فقه كان ذلك هلاكاً له ولقومه.

والاجتهاد في تنظيم شئون الجماعة الإسلامية يفيد -من جهة أخرى- وجوب الانتباه إلى أن أهل الإسلام يعيشون داخل المجموعة الإنسانية بتعدد شعوبها ، واختلاف أممها ، وتباين نحلها وحضاراتها ، وأن المسلمين مدعوون إلى التساكن مع كل الجماعات المتعددة والكثيرة .

الكثرة والتعدد في الشريعة :

والناظر في الشريعة الإسلامية يرى أن الدين الإسلامي لم يغفل واقع الكثرة والتعدد ولم يسكت عنه ، ففي تلك الشريعة نصوص تشريعية تحدد قواعد التعامل حيناً ، وتوجيهات عامة حيناً أخرى .

وأخص ما يلاحظه الناظر هو أن الكثرة المذكورة هذه أمر أراد الله تعالى لحكمة لا يعلمها إلا هو .

نقرأ في سورة هود : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٨-١١٩] . وفي شرح هذه الآية يقول الزمخشري : يعني : لا اضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة ، وهي ملة الإسلام .

ففي التعدد والاختلاف في الملل والنحل حكمة خفية يجليها قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ومن البديهي أن التعارف يستوجب قيام الرغبة المتبادلة في معرفة مكونات المجموعة البشرية العظمى لبعضها البعض ، مع ما هي عليه من الاختلاف والتباين .

ولما قرر الإسلام ذلك فقد كان من الطبيعي أن يجعل من السلم لا من الحرب قاعدة سامية يأمر المسلمين باتباعها ومبدأ يعملون به ، ما لم يكونوا في حال اعتداء عليهم : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُوهُمْ مِّنْ دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرُوهُمْ وَتُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وقد لا يجد المرء أبلغ في الدلالة على الارتباط الذي يريده المولى ﷺ بين السلام والإسلام من اختياره تعالى السلام اسماً من أسمائه الحسنی فهو يتمجد به .

يروى البخاري : «أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : أي الإسلام خير؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» .
كما يروى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١) .

وقد ذهب المرحوم علال الفاسي مذهباً عجيباً أرى أنه قد انفرد به في توضيح دلالة هذا الحديث فكتب في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها قائلاً : وذهب معظم الشارحين على أن المقصود بالأخوة هنا الأخوة الإنسانية ، لا محض الأخوة في الدين ، فلا يكمل إيماننا إلا إذا تفتحت قلوبنا لمحبة المخالفين لنا ، وللرغبة في أن ينالوا من خير الدنيا والآخرة ما نلنا ، وما نحب لأنفسنا أن تناله .

والحق أن العالم قد كان موفقاً كل التوفيق في فهم مغزى الحديث النبوي الكريم ، فهو قد وقع على لب الشريعة الإسلامية وأدرك جوهرها ،

(١) سبق تخريجه .

فالشريعة الإسلامية ماهيتها تكريم الإنسان ، والله تعالى قد كرم الإنسان
بنعمة العقل ، وسخر العقل للمعرفة والعمل معًا .

والشريعة الإسلامية جوهرها القول بالمساواة بين الناس من جهة
الحقوق الإنسانية الأولى ، ولذلك كانت دعوة الإسلام دعوة شمولية إلى
السلام العالمي بين الأمم والشعوب والأديان عامة ، وكان مبدؤها الأخذ
بالتعارف والحوار أساسًا للوجود الإنساني .

وأحق الناس بالحوار هم أولئك الذين يجتمعون عند الإيمان بالله
الواحد ، أهل الديانات السابوية الثلاث : ﴿ قُلْ يَتَأَهَّلَ آلِكُتَبِ تَعَالَوْا
إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾
[آل عمران : ٦٤] .



نور من القرآن والسنة

٢٥٢

المحاضرة الخامسة والثمانون

صفات المؤمنين

يقول الله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ تَحْتَابُونَ كَثِيرًا لَا تُمْ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ [الشورى : ٣٧-٤٣] .

هذه سبع آيات من سورة تسمى في القرآن الكريم بسورة الشورى .
وسورة الشورى من السور المكية الخالصة ؛ أي من السور التي كان نزولها على سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وهي سورة زاخرة بالحديث عن الأدلة على وحدانية الله ﷻ ، وزاخرة بالحديث وبالأدلة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وزاخرة بالحديث وبالأدلة عن أن هذا القرآن من عند الله : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ [النساء : ٨٢] .

وزاخرة بالأدلة على أن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب وحساب إنه يوم حق ، وزاخرة أيضًا بالرد على الشبهات الباطلة التي تذرع بها المشركون لمناوئة الدعوة الإسلامية ، وزاخرة كذلك بالحديث عن نعم الله التي لا تحصى على عباده .

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وزاخرة كذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين، وسوء عاقبة الضالين المكذبين.

وقد اشتملت هذه الآيات على مجموعة من الصفات الطيبة، ومن المناقب الحميدة التي وفق الله تعالى عباده المؤمنين الصادقين للتخلي بها.

اجتناب الكبائر:

وأول هذه الصفات نراها في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [الشورى: ٣٧].

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

وكبائر الإثم تطلق على الذنوب الكبيرة، وعلى الجرائم الشديدة، التي يترتب على اقترافها الإفساد في الأرض، كقتل النفس ظلماً وعدواناً، وكنقض العهود والمواثيق، وكأكل أموال الناس بالباطل، وكالتعدي على أعراضهم وحرمانهم وأموالهم بصورة تأبأها الشرائع السماوية، وتنفر منها العقول الإنسانية السليمة.

والفواحش: جمع فاحشة، والفاحشة تطلق على كل قول قبيح، وعلى كل فعل ذميم، وعلى كل سلوك أثيم، وهذه الفواحش هي من جملة كبائر الإثم، إلا أن الله سبحانه وتعالى خصها بالذكر من باب عطف الخاص على العام؛ لزيادة التنفير منها.

والمعنى : المدح الجزيل ، والثواب العظيم لأولئك الذين يبتعدون عن ارتكاب كبائر الآثام ، وعن كل ما فحش عظم قبحه من الأقوال والأعمال .

وليس المراد من هذه الجملة الكريمة فتح الباب لارتكاب صغائر الذنوب ؛ فإن ارتكاب صغائر الذنوب قد يؤدي إلى الوقوع في كبائرهما ، وإنما المراد بيان فضل الله تعالى على عباده ورحمته بهم ، وأيضاً بيان أن اجتناب الكبائر يؤدي بفضل الله تعالى إلى غفران صغائر الذنوب متى اقترن ذلك بالتوبة الصادقة كما قال الله ﷻ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] .

العفو والصفح :

والصفة الثانية : من صفات هؤلاء الأخيار نراها في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٧] .

والغضب استجابة لانفعال نفسي يحمل الإنسان على الخروج عن حدود الاعتدال .

والمعنى : والمدح كذلك للذين من صفاتهم أنهم يغفرون للشخص الذي أغضبهم ، ويغفرون له زلته ، وخص سبحانه حالة غضبهم بالغفران ؛ لأن هذه الحالة لا يقدر عليها إلا أصحاب العزائم القوية ؛ لأنه من المعروف أن الإنسان في حالة غضبه كثيراً ما يفقد الصواب ، ويغلب عليه عدم السيطرة على نفسه ، فإذا ما استطاع أن يكظم غيظه كان ذلك دليلاً على قوة إيمانه ، وعلى تملكه لنوازع نفسه .

وفي «الصحيحين» : أن سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الذي يملك نفسه عند الغضب » أي ليس الشديد

هو الذي يتغلب على الناس ويصرعهم وإنما الشديد هو الذي يستطيع أن يتحكم في نفسه في حالة غضبه .

والذي يقرأ السيرة النبوية الشريفة يرى أن الرسول ﷺ كان لا يغضب لنفسه ، ولكنه كان يغضب غضباً شديداً إذا ما انتهكت حرمت الله .

لم يغضب ﷺ عندما كان يقسم الغنائم وجاءه الأعرابي وقال له : «يا محمد أعطني من هذا المال فهو ليس مالك ولا مالك أبيك! فأعطاه ﷺ فقال له : هل أرضيتك يا أعرابي؟ فقال : لا ، زدني ، فهذا المال ليس مالك ولا مال أبيك ، وما زال رسول الله ﷺ يعطيه ويقول له في كل مرة : هل أرضيتك يا أعرابي؟ فما كان من الرجل إلا أن قال : أشهد أن هذه أخلاق الأنبياء»^(١) .

ولكنه ﷺ غضب غضباً أشد الغضب عندما جاءه سيدنا أسامة ابن زيد رضي الله عنه ليشفع في امرأة سرق ؛ وكانت من أسرة مرموقة في قريش ، وخطب ﷺ في أصحابه خطبة طويلة كان مما جاء فيها : «... أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرق لقطع محمد يدها»^(٢) .

الامتثال لأوامر الله :

والصفة الثالثة : من صفات هؤلاء الأخيار نراها في قوله ﷺ : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى : ٣٨] أي امتثلوا أمر الله ﷻ وامتثلوا نهيهِ ،

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٤٧٧٦) ، وأبو داود (٤٧٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) ، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

والتعبير بالاستجابة يشعر بأنهم لبوا ما كلفهم به خالقهم بكل إخلاص وبكل نشاط ، وبكل قوة ، وبكل مسارعة لما يرضيه ، وهذا ما علمنا إياه سيدنا رسول الله ﷺ .

فمن أخلاقه كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها أنه كان يجلس مع أهل بيته ، تقول : كان ﷺ يحدثنا ونحدثه ، ويؤانسنا ونؤانسه ، فإذا حضر وقت الصلاة انصرف عنا حتى لكانه لا يعرفنا ولا نعرفه .

إقامة الصلاة:

والصفة الرابعة : وضوحها الخالق ﷻ في قوله تعالى : ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي حافظوا على الصلاة محافظة تامة ؛ لأنها هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وهي آخر وصية وصى بها سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ أمته ، فقد كان يقول -وهو يجود بأنفاسه الأخيرة- : «أوصيكم بالصلاة ، أوصيكم بالصلاة ، أوصيكم بالصلاة»^(١) .

المشورة:

وأما الصفة الخامسة : من صفات هؤلاء الأخيار فتتجلى في قوله ﷻ : ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] أي أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين أنهم إذا ما حدث بينهم أمر مهم يحتاج إلى المراجعة ، ويحتاج إلى المناقشة ، تجمعوا وتشاوروا فيما هو أنفع وأصلح لهم ولأمتهم .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ما ملخصه : والشورى والتشاور استخراج الرأي من الغير .

(١) أخرجه أبو داود (٥١٥٦) ، وابن ماجه (٢٦٩٨) ، وأحمد في «المسند» (٧٨/١) من حديث علي رضي الله عنه .

قال أحد الحكماء : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم .

وقال الشاعر الحكيم :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي لبيب أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم

ثم قال ﷺ : وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في الأمور التي تتعلق بالحروب وما يشبهها من الأمور الدنيوية ، ولم يكن يستشيرهم في الأحكام الدينية ؛ لأنها وحي من عند الله ﷻ .

وقد مدح الله ﷻ رسوله بقوله : ﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

والخلاصة :

إن الشورى من قواعد الإسلام ، ومن عزائم الأحكام ، ومن مظاهر التعاون بين العقلاء ، ولقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى الولاة يأمرهم بالتشاور مع أهل العلم والخبرة في الشؤون المتنوعة ، التي تخص الأمة ، ويتمثل لهم فيما كتبه بقول الشاعر :

خليلي ليس الرأي في صدر واحد أشيراعلي بالذي تريان

وفي الحكم : المستشار مؤتمن ، وما ندم من استشار ، ولا خاب من استخار ، وما شقي إنسان بمشورة ، وما سعد من استبد برأيه .

وهذه الجملة الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ مدح عظيم لكل أمة وجماعة يكثر فيها عدد العقلاء الراشدين المخلصين ،

الذين يستشير بعضهم بعضًا بإخلاص وصدق وأمانة فيما يعرض لهم من مشكلات الأمور .

الإنفاق والصدقة :

والصفة السادسة : من صفات هؤلاء المتقين ، يقول الله تعالى في شأن أصحابها : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٨] أي أنهم مما أعطاهم الله سبحانه وتعالى ومنحهم من رزق وفير ، يتصدقون على غيرهم من المحتاجين ، ويمدون يدهم بالإحسان والمعاونة إلى الفقراء واليتامى والمساكين .

الانتصار للدين :

والصفة السابعة : من صفات هؤلاء الأخيار نراها في قول الله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٩] .

والبغي : معناه تجاوز الحدود في الظلم وفي العدوان وفي الإفساد وفي انتهاك الحرمات ، يقال : بغى الجرح إذا تجاوز الحد في الإفساد والبغي .

ومن صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين أنهم إذا بغى عليهم باغ أو ظلمهم ظالم ، أو اعتدى على دينهم أو على كرامتهم معتد ، فإنهم لا يخضعون له ولا يطأطئون رءوسهم أمامه جبناً وذلاً ، وإنما هم ينتصرون لدينهم ، ينتصرون لكرامتهم لشرفهم ، بأن يقابلوا بغيه وعدوانه بما يردعه ويخيفه ، ويجعله يرتد على أعقابهِ خاسراً محسوراً ، فإن الناس لو تركوا الظالم يعيث في الأرض فساداً لا بد أن تفسد الأمور ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

أي : لولا الله ﷻ يسلط على الظالم وعلى الباغي ، وعلى المعتدي ، وعلى الناقض لعهوده ، وعلى الغادر - لولا أن الله تعالى يسلط عليه - من

يؤدبه ، ومن يردعه ، ومن يوقفه عند حدوده لعم الفساد في الأرض ، وكما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدَّيْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

لقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له : «يا رسول الله! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال له : لا تعطيه مالك ، قال : يا رسول الله أرأيت إن قاتلني؟ قال : قاتله ، قال : يا رسول الله أرأيت إن قتلني؟ قال له : فأنت شهيد ، فقال له الرجل : يا رسول الله أرأيت إن قتلته أنا؟ قال : فهو في النار»^(١) .

الرسول عليه الصلاة والسلام يغرس في أتباعه مقاومة الظلم ، ومقاومة البغي .

ومن أقوال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يعجبني في الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه : لا ، وذلك لأن العزة قد جعلها الله تعالى لذاته ولرسوله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، ومن عزة المؤمن أن يقاوم الطغاة البغاة وأن يستमित في الدفاع عن عقيدته ، وعن ماله ، وعن كرامته ، وعن عرضه ، وعن حقوق أمته .

المعاقبة بالمثل وعدم تجاوز الحد :

الصفة الثامنة : من صفات هؤلاء الأخيار نراها في قوله ﷺ : ﴿ وَجَزَأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] .

(١) أخرجه مسلم (١٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذه الآية الكريمة تهدف إلى وجوب المساواة في العقوبة ، وعدم تجاوز الحد عن دفع الظلم والبغي كما قال سبحانه : ﴿ وَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] ، ثم يبين سبحانه ما هو أسمى من مقابلة السيئة بمثلها فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] .

دفع الباغي والانتصار عليه أمر محمود يحبه الله ورسوله :

والصفة التاسعة : من صفات هؤلاء الأخيار نراها في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴾ [١] إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢] .

وهاتان الآيتان المقصود منهما تأكيد ما سبق بيانه من أن دفع الباغي والانتصار عليه أمر محمود يحبه الله ﷻ ، ويحبه رسوله ﷺ .

والمقصود بالسبيل هنا العقوبة والمؤاخظة ، والمعنى : الذين ينتصرون لدينهم ولكرامتهم ولحقوقهم التي كفلها الله تعالى لهم لا عقوبة ولا مؤاخظة عليهم ؛ لأنهم باشروا حقهم الذي شرعه خالقهم لهم ، وإنما العقوبة والمؤاخظة على الذين يظلمون الناس ويعتدون عليهم ويفسدون في الأرض .

العفو عند المقدرة له الثواب الجزيل :

ثم تحتتم هذه الصفات بالصفة العاشرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣] .

أي وللإنسان الصابر على الأذى الصافح عمن أساء إليه مع قدرته على معاقبته لهذا الإنسان الثواب الجزيل من الله ﷻ ؛ لأن صبره وصفحه مع

قدرته على تأديب من أساء إليه دليل على علو همته ، ودليل على قوة عزيمته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

إن المتأمل في هذه الآيات الجليلة يراها قد مدحت المؤمنين الصادقين بجملة من المناقب الحميدة ، التي تعد على رأس الصفات الأساسية لكل أمة تريد أن تسودها الفضائل ، وأن تزهو فيها الحضارة الرشيدة التي تبني ولا تهدم ، التي تعمر ولا تخرب ، التي تصلح ولا تفسد ، التي تجمع ولا تفرق .

والحضارة التي جاءت بها شريعة الإسلام تقدم للإنسانية ما يسعدها ، وينشر فيها السلام ، والأمان والعدل والرحمة والرخاء .

الحضارة التي جاء بها الإسلام تجعل أصحابها يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان ، بل يتعاونون مع غيرهم ممن يخالفهم في العقيدة ما دام هؤلاء الذين يخالفوننا في عقيدتنا لا يعتدون علينا ولا يسيئون إلينا ، ويمدون يد السلام إلينا ، كما قال الله ﷻ : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [٨] إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المتحنة : ٨ ، ٩] .

الحضارة التي جاء بها الإسلام ، هي حضارة يعتنق أصحابها الفضائل ويجتنبون الرذائل ، ونحن ضد الذين يقولون بأن الحضارات تتصادم كلا .

نقول لهم : إن الحضارات عند العقلاء تتعاون وتتآزر ، ولا تتصادم ولا تتصادم إلا عند السفهاء الجاهلاء .

إن هذه الآيات الكريمة قد رسمت للناس طريق الفضائل التي متى اتبعوها ظفروا بالسعادة وبالخير الوفير في دينهم وفي دنياهم .

هذا جانب من صفات المؤمنين الصادقين ، كما جاء في هذه الآيات الكريمة ،
نرد بها على الذين يتهمون الإسلام جهلاً وظلماً بأنه دين عنف وإرهاب .
والحق أنه دين رحمة ودين عدل ودين سلام ؛ لأنه يدعو إلى اعتناق
الفضائل ، وينهى عن اقتراف الرذائل ؛ إنه دين يعطي كل ذي حق حقه ،
إنه دين يأمرنا أن ننطق بكلمة الحق ، وألا نكتم هذه الكلمة ، إنه دين
يأمرنا أن نقف إلى جانب المظلوم حتى ينتصر ، وأن نقف في وجه الباغي
الظالم حتى يندحر .

لقد حدثت في اليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر عام (٢٠٠١م) أحداث
في أمريكا اهتز العالم لها ، فماذا قلنا : باسم الإسلام ؟ قلنا كلمات محددة :
أولاً : ما حدث هو جريمة منكرة بكل المقاييس ؛ لأنها عدوان على
أبرياء ، والإسلام ضد العدوان على الأبرياء .

ثانياً : من حق الدولة التي وقع على أرضها العدوان أن تتعقب المجرمين وأن
تحولهم إلى الهيئات القضائية لتقول كلمتها العادلة والراعية في هؤلاء المجرمين .

ثالثاً : إنه ليس من حق الدولة التي وقع العدوان عليها أن تعاقب شعباً بأكمله ،
فيه الشيوخ ، وفيه الضعفاء ، وفيه المرضى ، وفيه العجزة ، وفيه الصبيان ، وفيه
النساء ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَقَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَرَوْا زُرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النجم : ٣٦-٣٨] .

هذا ما قلناه حتى لا يلتبس الحق بالباطل والخير بالشر والفضائل بالرذائل .



نور من القرآن والسنة

٢٦٤

المحاضرة السادسة والثمانون

ذلك الدين القيم

انطلاقاً من قول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، ربنا آتانا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشدا ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران : ٨] .

وهذه الآية الكريمة أمرت المؤمنين في شخص نبينا وشفيعنا محمد ﷺ - أمرتهم - أن يشبثوا على الحق الذي هداهم خالقهم ﷻ إليه ، يقول الله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ ولفظ «أقم» ، معناه : اثبت على ما أنت عليه من الدين الحق ، وأمر أتباعك أن يكونوا ثابتين على هذا الدين الحق ، تتزلزل الجبال ولا يتزلزل إيمانهم .

معنى : « حنيفاً » :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ ولفظ ﴿حَنِيفاً﴾ معناه : الميل من الباطل إلى الحق ، الميل من الشر إلى الخير ، وعكس هذا اللفظ لفظ ﴿جَنَفًا﴾ فهو الميل من الحق إلى الباطل ومن العدل إلى الظلم ، كما قال ﷻ : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢] أي ظلماً ، يجعل الإنسان لا يضع الحق في مواضعه . والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك أيها الرسول الكريم ، من

أن هذا الدين هو الدين الحق ، فاثبت عليه ، وداوم على أداء التكاليف التي كلفك الخالق ﷻ بها .

ثم نجد من أساليب القرآن الكريم الحكيمة ، أنه عندما يأمر بأمر أو ينهاى عن نهي ، يبين سبب هذا الأمر ، ويبين سبب هذا النهي ، حتى تزداد القلوب اقتناعاً ، إنه يأتي بالأحكام ويأتي معها بالأدلة على أن هذه الأحكام هي لمصلحة الإنسان ، ولمنفعة الإنسان ، وأن القرآن الكريم لم يأت بها عبثاً ، وإنما أتى بها لسعادة الناس في دينهم وفي دنياهم وفي آخرتهم .

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ كأن سائلاً قد سأل وقال : ولم هذا الأمر؟ فكان الجواب : ﴿ فِطَرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، أي : هذا الدين الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى باتباعه وهو دين الإسلام ، هو فطرة الله ﷻ التي فطر الناس عليها .

معنى الفطرة:

وكلمة الفطرة ، الأصل فيها أنها بمعنى الخلقة ، والمراد بها في الآية الكريمة التقبل للدين الحق ، والتهيؤ النفسي والقلبي والوجداني لإدراكه ، الإقبال على هذا الدين ، وعلى أحكامه وعلى فرائضه وعلى تكاليفه ، باقتناع عقلي كامل ، وذلك لأن الدين كعقيدة هو حاجة نفسية مهيمنة على كيان الإنسان ، تسري في عروقه مسرى الدم .

ويعجبني في هذا المجال قول بعض الحكماء : في الطبع الإنساني «جوع إلى الدين كجوع المعدة إلى الطعام» ، إن الروح تجوع كما يجوع الجسد ، وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه ، حق لا يقبل الجدل ، إن الحاسة الدينية في الإنسان بعيدة الغور في طبعه ، حق لا يقبل الجدل . إن

الإنسان العاقل لا يستطيع أن يعيش بدون عقيدة ، والذين يزعمون غير ذلك هم واهمون .

فيكون المعنى : اثبت أيها الرسول الكريم ، على هذا الدين الحق ، ومر أصحابك ومر أتباعك أن يكونوا كذلك ؛ لأن هذا الدين الحق وهو دين الإسلام ، هو الفطرة التي فطر الخالق ﷻ الناس عليها .

وفي الحديث القدسي يقول الله ﷻ : «إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءت الشياطين فاجتالهم عن دينهم»^(١) .

أي : إني خلقت عبادي على الفطرة السوية ، على الفطرة النقية ، إني خلقت عبادي على الفطرة النقية من الشرك فجاءت الشياطين فحولتهم من الطاعة إلى المعصية ، ومن الإيمان إلى الكفر ، ومن الحق إلى الباطل . ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر : ٦] .

وفي «الصحاحين» عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء - مكتملة الخلقة - هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾» .

السنن الكونية :

ثم بعد هاتين الجملتين الكريمتين تأتي الجملة الثالثة لكي تزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، لكي تزيدهم ثباتاً على ثباتهم ، يأتي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير ولا تحويل لسنن الله سبحانه

(١) سبق تخريجه .

وتعالى في خلقه ، الله سبحانه وتعالى وضع في هذا الكون سنناً ، هذه السنن لا تتغير ولا تتبدل ، هذه السنن نراها في عشرات الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [النحل: ٧، ٨] .

هذه السنن الكونية نراها في قول الله ﷻ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

هذه السنن نراها في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] .

هذه السنن نراها في قوله ﷻ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

سنن الله سبحانه في هذا الكون ، لا تتغير ولا تتبدل ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠] . ما دام الإنسان يؤدي واجبه نحو خالقه ﷻ ، ويؤدي واجبه نحو نفسه ، ويؤدي واجبه نحو أبويه ، ويؤدي واجبه نحو أسرته ، ويؤدي واجبه نحو أمته التي هو فرد من أفرادها ، ويشعر بالمسئولية ، ويتحمل هذه المسئولية بشرف وأمانة ، ويبد نظيفة وبعقل سليم ، وبإرادة قوية ، وبعزيمة صادقة ، وقبل ذلك وبعد ذلك بإخلاص لله رب العالمين ، محال ، ثم محال ، ثم محال أن يخلذه الله ؛ لأنه ﷻ هو القائل : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾

وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ [الطلاق : ٢، ٣] ، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ .

الإسلام هو الدين القيم :

ثم تأتي الجملة الرابعة ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ذلك الذي أمرناك به ، أيها الرسول الكريم ، وهو دين الإسلام ، هو الدين القيم ، أي الدين القويم المستقيم ، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ هذا الدين الذي ارتضاه لنا خالقنا ﷻ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

أي ذلك الدين القويم المستقيم ، وهو دين الإسلام ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة .

ولقد وصف الله ﷻ هذا الدين بهذا الوصف الجليل ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ، أي القويم المستقيم ، لم ؟ لأنه الدين الذي ساقته شريعته ، وساق كتابه الكريم البراهين المتعددة ، على وجوب إخلاص العبادة لله ﷻ ، عن طريق ضرب الأمثال ، وعن طريق التحدي وبيان أن المستحق للعبادة هو الله ، وعن طريق المشاهدة وإقناع العقول .

عشرات الآيات القرآنية ، يسوقها الخالق ﷻ لتزيد الناس إقناعاً على قناعتهم بأن المستحق للعبادة إنما هو الخالق ﷻ : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ

عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ ۖ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتِ بَهْجَةٍ ﴿٥٩﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

ثم يبين لنا القرآن في النهاية : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ
جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ
الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ تَعْلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤] ، يسوق القرآن
الكريم ألواناً من الأدلة على وحدانية الله وعلى قدرته ، لكي يزداد المؤمنون
إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على ثباتهم ، و يقيناً على يقينهم ، بأنهم على الحق .

وصف الله ﷻ دين الإسلام بأنه الدين القيم ؛ لأن هذا الدين ، ولأن هذه
الشريعة التي جاءنا بها سيدنا رسول الله ﷺ ، قد بينت لهم أن هذا الكون قد
سخره الله سبحانه وتعالى لمنفعتهم ولمصلحتهم ، ﴿إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٦٥﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٦٦﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا
سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴿٦٧﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤] .

خمس مرات ، لكم ، لكم ، لكم ، الكون مسخر لخدمة الإنسان فعلى الإنسان أن يستغل هذه النعم في طاعته وفي شكره لله ، وفي التعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان ، سخر الله لنا هذا الكون لكي نعمله ، بالقول الطيب وبالعمل الصالح ، وبالسلك القويم ، وبالمنهج المستقيم ، ومتى فعلنا ذلك فتح الله علينا بركات من السماء والأرض .

وصف الله ﷻ هذا الدين بهذا الوصف الجليل : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ لأن الإنسان منا عندما يسأل : ما مميزات هذا الدين؟ المميزات كثيرة ، لكني أقول من أبرز مميزات دين الإسلام الوضوح ، الإشراق ، المكاشفة ، كل أحكامه وتشريعاته واضحة ، ليس فيها خرافات وليس فيها طلاس ، وليس فيها ألغاز ، وإنما هي واضحة .

شرع الله سبحانه وتعالى لنا العبادات وأمرنا بأدائها . ولكن عندما أمرنا بهذه العبادات ، بين لنا الثمار التي تترتب على أداء هذه العبادات لكي نفتنح أو لكي نزداد اقتناعاً ، انظر إلى الصلاة ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وفي الحديث الصحيح : «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم ، خمس مرات ، أترون ذلك يبغي من درنه شيئاً ، قالوا : لا ، يا رسول الله ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا ، كما يمحو الماء أثر الوسخ»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

الصيام : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، أي لعلكم بسبب أدائكم لهذه الفريضة تصلون إلى درجة التقوى .

الحج : لمن استطاع إليه سبيلاً ، يبين لنا القرآن الكريم الشار الطيبة ، التي تترتب على أداء هذه الفريضة ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧ ، ٢٨] .

منافع مادية عن طريق البيع والشراء ، ومنافع روحية عن طريق المواظبة على أداء فرائض الله في أول بيت وضعه الله في الأرض لعبادته ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ءَايَةٌ فِيهِ بَيِّنَاتٌ لِّمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] .

الوضوح عندما يأمرنا القرآن بأمر ، أو ينهانا عن نهي ، يبين لنا السبب لهذا الأمر أو السبب لهذا النهي توضيحاً للأمر ، حتى يزداد الإنسان اقتناعاً ، ويزداد إيماناً على إيمانه ، الوضوح في كل ما يأمر به هذا الدين ، وفي كل ما نهى عنه .

إنه يأمر أتباعه بالعدل ، لم ؟ لأنه بالعدل قامت السموات والأرض كما جاء في الحديث الشريف .

يأمرنا بالعدل في الأقوال ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

يَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ فِي الْأَحْكَامِ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] .

يَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ فِي الشَّهَادَةِ ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢] . أَخْلَصُوهَا لِلَّهِ .

يَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ حَتَّىٰ حِينَ نَصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ ، حَتَّىٰ حِينَ نَصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَيْنَا أَنْ نَلْتَزِمَ الْعَدْلَ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ﴾ رَجَعْتَ إِلَى الْحَقِّ ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] .

العدل مع العدو ومع الصديق ؛ لأن الفضائل لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، منذ أن أوجد الله هذا الكون . العدل فضيلة والظلم رذيلة ، العدل مع العدو ومع الصديق ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] .

إذن نجد أن هذا الدين يأمرنا بالفضائل ، ولقد قال بعض الحكماء : «لا ملك إلا بالرجال ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالتعمير ، ولا تعمير إلا بالعدل ، فالعدل أساس الملك» ، قضية لها مبدأ ولها نهاية .

«لا ملك إلا بالرجال ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالتعمير» لا يأتي المال إلا بعد أن نعمر أرضنا ، ونعمر بحرنا ونعمر كل ما نستطيع أن نعمره ؛ لأن الله أوجدنا في هذه الحياة لكي نعمرها . لا ملك إلا بالرجال

ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالتعمير ، ولا تعمير إلا بالعدل فالعدل أساس الملك .

الوضوح في دعوته لأتباعه إلى الأخذ بأسباب العلم ، العلم بشتى ألوانه وبشتى صوره ، العلم في أحكام الشريعة ، العلم في الزراعة ، العلم في التجارة ، العلم في الاقتصاد ، العلم في البر ، العلم في البحر ، العلم في الطب ، العلم في الهندسة ، فتح القرآن الكريم وفتحت الشريعة الإسلامية أبواب العلم لأتباعها ، لكي يتسلحوا بسلاح العلم ، العلم النافع ، ويكفي أن الله سبحانه وتعالى ما فضل أبانا آدم على الملائكة ، إلا بفضيلة العلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة : ٣١ - ٣٣] .

عشرات الآيات القرآنية تأمر المسلمين أن يتسلحوا بسلاح العلم ، في كل مجالات الحياة ، العلم النافع ، العلم الذي يجمع ولا يفرق ، العلم الذي يصلح ولا يفسد ، العلم الذي يبني ولا يهدم ، العلم الذي يجمع ولا يفرق ، هذا ما أمرتنا به شريعة الإسلام .

يكفي أن الله سبحانه وتعالى قد قصر خشيته والخوف منه على العلماء ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] .

يكفي أن الله ﷻ لم يأمر نبيه ﷺ بأن يطلب منه المزيد من المال أو من كذا ، أو من كذا ، وإنما طلب منه أن يسأل خالقه المزيد من العلم ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] .

هذا الدين القيم ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أمرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه ، وأمرنا سيدنا رسول الله ﷺ بقوله وعمله - أمر بجانب التسليح بسلاح العلم - أن نتسلح - أيضًا - بسلاح القوة ، القوة بكل ألوانها وبكل أشكالها ، وبكل صورها .

معنى القوة في الإسلام:

عندما أتحدث عن القوة ، لا أقصد القوة الباغية ، ولا أقصد القوة الظالمة ، ولا أقصد القوة المغرورة ، ولا أقصد القوة التي تنقض عهودها ، تأكل معك بالليل وتعتدي عليك في الصباح ، لا أقصد هذه القوة الغاشمة ، الفاجرة ، فالضعف خير منها .

ولكنني أقصد القوة العاقلة ، الرشيدة ، التي تقف إلى جانب الحق حتى ينتصر ، وتقف في وجه الباطل حتى يندحر ، تلك هي القوة التي نتحدث عنها ، والتي دعا الخالق ﷻ عباده أن يتسلحوا بها ؛ لأن القوة هي الحياة ، والضعف هو الموت ، هذا ما قاله التاريخ في جميع أدواره الماضية ، وهذا ما سيقوله في جميع أطواره الآتية ، الضعفاء ليس لهم في دنيا الأقوياء نصيب :
 متى تجمع القلب الزكي وصارما وأنفاحيما تجتنبك المظالم
 إذا كنت بين العالمين أخا قوة رعتك عيون الناس حين تنام
 حمى الغاب بأس الليث من كل طارق ولم ينج من فتك البزاة حمام
 يقولون إن الحق من فوق قوة وما الحق إلا مدفع وحسام
 وكما قلت لا أعني بالقوة ، القوة الظالمة ، أو الغادرة ، وإنما أعني القوة التي تدافع عن الحق ، وتدافع عن العرض ، وتدافع عن الشرف ، وتقف بجانب المظلوم حتى ينتصر ، وتقف في وجه الظالم حتى يندحر .

القوة بهذا المعنى ، هي صفة من صفات الله ﷻ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] ، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] .

القوة صفة من صفات ملائكة الله ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُ غِلَاطٍ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] .

القوة صفة من صفات سيدنا جبريل ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١-٥] ، أي علم القرآن للنبي ﷺ ملك ، هذا الملك من صفاته أنه شديد القوة .

فتحت شريعة الإسلام لأتباعها الباب لكي يعيشوا هذه الحياة ، يعيشوها أعزة ، لكي يعمرُوا هذا الكون ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أوجدنا في هذه الحياة لكي نعملها .

الوضوح في دعوة الإسلام أتباعه إلى التعاون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .

والأنبياء والمصلحون نراهم مع قوتهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى أن يرزقهم من يعينهم على أداء رسالتهم ، هذا سيدنا موسى يأمره الله أن يذهب إلى فرعون ، فنجد سيدنا موسى كما حكى القرآن عنه يتضرع إلى ربه ﷻ ويقول : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ وَاجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ هَرُونَ أَخِي ۖ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ۖ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۖ كَيْ نُسَبِّحَكَ

كَثِيرًا ﴿٣٦﴾ وَنَذَرُكَ كَثِيرًا ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٨﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٩﴾ [طه : ٢٥ - ٣٦] .

إننا نستقبل شهر رمضان في هذا العام ، وإخواننا وأبنائنا في فلسطين يعتدئ عليهم ، يعتدي عليهم الظالمون الغادرون ، الواجب علينا أن نقدم لهم العون والمساعدة ، لم؟ لأننا ننصر الحق ونخذل الباطل «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

نور من القرآن والسنة

٢٧٨

المحاضرة السابعة والثمانون

ضرورة التفقه في الدين لمواكبة سنة التجديد

جاء في الحديث الصحيح : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» . أخرجه الشيخان .

تطوير التفقه في الدين موضوع قديم جديد :

إن التفقه في الدين بقصد إحيائه أو تجديده ، كما يعبر عنه البعض موضوع قديم وجديد .

فهو موضوع قديم ؛ لأن علماء السلف قد ساروا في اتجاه تجديد الدين بمعنى تنقيته من تحريف المحرفين وتضليل الضالين ، كلما دعت الحاجة إلى ذلك ؛ تصديقاً للحديث الشريف المتفق على صحته .

كما أخرجه أبو داود في «سننه» وهو قوله ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها - أو - أمر دينها» ، أو كما قال .

وهذا التجديد كما نلاحظه في تراث علمائنا القدماء كانت قد دعت إليه دواع من داخل المجتمعات الإسلامية ، وما كان يتسرب إليها من حركات الزنادقة والمضللين لتفتيت عرى الإسلام من الداخل .

وأما أنه موضوع جديد ؛ فذلك بالنظر إلى هذا العصر ، وإلى متطلبات نهضة الإسلام والمسلمين فيه ، فقد أصبح التفقه للدين بعمق وشمولية ومنهج واضح ، ضرورة من ضرورات هذا العصر ؛ لأننا نعيش في سياق حضاري مغاير لكل سياقات العصور السالفة .

دواعي تطوير التفقه في الدين :

ولأن الدواعي إلى هذا التفقه والتجديد دواع متعددة ، منها ما هو ذاتي نابع من مجتمعاتنا ، ومنها ما هو خارجي وارد علينا من دول أخرى ، وهي دواع أدركها المفكرون المصلحون من المسلمين منذ أواخر القرن الماضي في المشرق والمغرب على حد سواء ، فقاموا بمحاولات التجديد من زوايا متعددة ، وبمناهج مختلفة ، وكان في مقدمة تلك الدواعي اثنان على الأقل :

أولهما : الضعف الذي ظهر به المسلمون تجاه الغزو الاستعماري في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، غزو الاستعمار لديارهم وأوطانهم ، وعجزهم عن صده ، وتحاذهم في مواجهته .

والعامل الثاني : عجز المؤسسات الحضارية والثقافية الإسلامية عن مواجهة ما فرضته علينا حضارة الغرب من تحديث وتغريب ، ف وقعت مجتمعاتنا نتيجة تأثرها بهذا الغزو الغربي في انشطار ذاتي .

فهي مسلمة بوجدانها ، ولكنها منقادة لحضارة الغرب بعقلها ، منقسمة بين أصالة تجاذبها ومعاصرة تغالبها ، وكانت الحركة السلفية التي عرفت كل مجتمعاتنا غب الاستعمار ، وهي بمثابة حركة تجديد أولي ، خيارًا لا محيد عنه لمواجهة صدمة الاستعمار بهوية إسلامية متماسكة وهوية وطنية صامدة .

غير أن ضرورة التجديد الديني ظلت تطرح نفسها على مدى هذا القرن ، وكأن الحركة السلفية قد استنفدت لمكانتها .

فالمجتمعات الإسلامية تواجهها تحديات من نوع جديد ، فإما أن يكون لها مكان في هذا العالم أو لا يكون .

والتجديد الديني المنشود لا يمكن أن يتم بمعزل عن فقه الواقع أيضًا ، فقه الواقع الحضاري ، واستيعاب التقدم العلمي والمعرفي بكل تداخلاته وآفاقه ، وذلك لتنزيل الإسلام عقيدة وشريعة وقيمًا أخلاقية على هذا الواقع في ملامسة لمكوناته البنيوية في الاقتصاد والسياسة والعلم والثقافة ، لاسيما والإسلام يحمل في نظامه وعقيدته إمكانيات هائلة لمعالجة مشكلات هذا العصر وتقويم انحرافه ، وتلك هي رسالة الإسلام للبشرية وهي بالتالي رسالة الأمة الإسلامية .

لكن قد كشفت تجربة قرن كامل من تاريخ المسلمين في هذا العصر أنه بالرغم مما عرفه هذا القرن من حركات سلفية أو أصولية أو تجديدية أو تحديثية ، أو علمانية أو مادية إلحادية ، ثبت أنه لا يمكن البتة إقصاء الدين من حياتنا نحن المسلمين ، ولا يمكن توهين جذوره في نفوسنا ، كما حاولت ذلك تيارات معروفة .

كما لا يمكن بالمقابل إقصاء الحضارة الغربية بإمكانياتها الهائلة ، وعلومها المتطورة من حياتنا أيضًا ، ولاسيما في الجانب المؤسسي والتكنولوجي منها .

فالتاريخ إذن يؤكد هذا الأمر ، هو أن الإسلام خيار وجودي للمسلمين ، بمعنى أن الأمة الإسلامية تتناهى مع دينها تناهيًا تستمسك منه بالعروة

الوثقى التي لا انفصام لها ، وإننا نحن المسلمين لا نرى كرامة للإنسان في هذه الدنيا إلا من خلال منظور الإسلام للإنسان وإلى الكرامة ، باعتباره كائناً مستخلفاً في الأرض ، متحملاً للأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض .

وإذا كانت الأمة الإسلامية قد وهنت اليوم أو ضعفت أو تفرقت كلمتها ، فإن لها من عقيدتها ورسالتها الكونية ما سيكشف عنها كل بلاء إن شاء الله ، ويعيد لها السير سوياً على صراط مستقيم ، إذا ما تحقق لها التجديد الديني المنشود .

ما هذا التجديد؟ وما شروطه؟ وما ضوابطه؟

إن تفصيل الحديث عن ذلك لا يتسع له هذا المقام بكل ما يقتضيه من تفريعات ، وإنما سأكتفي بالإلماع إلى بعض جوانبه الأساسية في هذا الموضوع الذي تناوله قضيتان متقابلتان في الظاهر : ضرورة الدين ، وضرورة التجديد .

والدين وضع إلهي ثابت ، والتجديد تطور وانتقال من حال إلى حال ، فما الجامع بينهما؟

الجمع بين ضرورة الدين وضروة التجديد :

إن الجامع بينهما هو فقه الدين ، فقه يمكننا من تكييف ذاتنا مع ثوابت الدين في كل مرحلة من مراحل التاريخ التي ندخلها ، لابد من الوقوف قليلاً مع مفاهيم الدين والفقه والتجديد من منظور الإسلام ؛ لتجلية ما يكتنفهما لدى البعض من ضبابية أو تعميم .

أما مفهوم الدين فهو متعدد التعريفات مختلف التصورات بحسب زوايا النظر إليه .

ومهما يقال عن الدين ، فإنه يظل إحساسًا وجدانيًا فطرت عليه طبيعة الإنسان .

أما الفكر الوضعي الأوربي فيرى أن نشأة الدين غامضة كنشأة اللغة .

وأنه إذا كان علماء اللغات قد وضعوا تاريخًا تقريبيًا لنشوء اللغات وتشعبها ، ثم حصروها في أسر كبرى ، من حامية وسامية وآرية ، يتميز كل منها بمنطق في النحو والصرف ، فإن علماء الأديان لم يهتدوا حتى اليوم لوضع التاريخ للأديان ينفذ بهم إلى حقيقة نشأة الدين .

ولذلك اكتفى علماءهم بالقول كما ذهب إلى ذلك (ماكس ملير) بأن اللغة والدين تضربان في جذور التاريخ الإنساني ، ولا يمكن الإحاطة بنشأتهما ، ذلك رأي الفكر الوضعي .

أما نحن المسلمين فقد أغنانا الوحي الإلهي عن التخمين والفرضيات في هذا الشأن ، إذ قال تعالى : ﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فمنذ خلق الله آدم علمه الأسماء كلها ، أي أوقفه على مدركات وجوده وغايته من خلقه ، وأوقفه على آليات البيان : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿ [الرحمن : ٣ ، ٤] .

معنى الدين في اللغة:

والدين في اللغة العربية لا يخلو في جميع تصاريفه من معنى الانقياد والطاعة، سواء جعلنا الفعل المشتق منه متعدياً بنفسه، في مثل قولنا: دانه يدينه، بمعنى حكمه وملكه، وقضى في أمره، أو جعلنا الفعل متعدياً بالباء، في مثل قولنا: دان به، أي اتخذته ديناً واعتقاداً أو التزم به، أو قلنا: إنه متعد باللام، بمعنى دان له، أي خضع وأطاع، فإن جميع دلالات هذه الصيغ تعني انقياد الشخص لغيره، ووقوعه تحت حكمه وطاعته.

معنى الدين في القرآن:

ونص الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات القرآن» على أن الدين في القرآن أو لفظ الدين في القرآن لا يخلو من أحد معان ثلاثة: فإما أن يرد بمعنى الطاعة، أو أنه يرد بمعنى الجزاء، أو أنه يرد بمعنى الملة، والسياق هو الذي يحدد كل معنى من هذه المعاني.

لكن المعنى المحوري والغالب في القرآن للفظ الدين، هو التعبير عن العقيدة الموحى بها من عند الله إلى أحد رسله؛ لتبليغها لقومه أو للعالمين كافة، فبالنظر إلى كون هذه العقيدة تقتضي الطاعة أو الجزاء، تسمى ديناً، وبالنظر إلى كونها تقتضي جمع الناس حولها للانقياد إلى شريعتها فتعتبر حينئذ ملة.

وبما أن الدين الإلهي كما حدده القرآن يقوم على عقيدة إلهية ثابتة، فإنه لا يتصور فيه التعدد؛ لأن الحق لا يتعدد في حد ذاته، وإنما تتعدد الشرائع التي أتت مناسبة للمجتمعات التي خلت، فقال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

لكن من الطبيعي أن تتطور الإنسانية فترتقي عقليًا واجتماعيًا ، فتأهل بذلك للأخذ بالشرعية الواحدة كما تأخذ بالعقيدة الواحدة ؛ ولذلك كان الإسلام هو هذا الدين الإلهي الخاتم الذي تنتظم عقيدته جميع الأديان السماوية السابقة .

وترتقي شريعته لتوافق حاجات الإنسانية كلها في النظام الاجتماعي الأمثل ، وبذلك كان القرآن مهيمًا على سائر الكتب السماوية ، قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ولذلك كان الإسلام أيضًا دينًا كاملاً ، وكان المبعوث به ﷺ نبياً خاتماً ، وعموم الدين الإسلامي وشموليته وكماله ليست مجرد دعوة ، بل هي حقيقة تتمثل في كونه يقوم على ركائز أربعة ، نوردها على سبيل الإلماع لا التفصيل ، وهي :

الركيزة الأولى : أنه دين يخاطب العقل ويفسح أمامه المجال للاجتهد ، ويعرض عليه الأكوان للنظر والاستدلال ، فالإسلام من هذه الناحية دين مبني على العلم .

الركيزة الثانية : كونه يجمع بين إصلاح الفرد وإصلاح المجتمع ، ويضع أسس الأحكام الكلية ، تاركا كل التفرعات والاستنباطات للمجتهدين ، فهو من هذه الناحية دين اجتماعي شامل .

الركيزة الثالثة : كونه يراعي الفطرة ، الفطرة الإنسانية مراعاة كاملة ، فيراعي كل مكونات الإنسان من جسد وروح بدون إفراط ولا تفريط ، ومن هذه الناحية فهو دين وسطي لا يقبل بحال من الأحوال التطرف إلى هذه الناحية أو إلى تلك .

الركيزة الرابعة والأخيرة: كونه يقتضي قيام السلطة السياسية التي تشخص سيادته ، وتمثل إنفاذ أحكامه ، وحماية سيادته أو بيضة الأمة التي تأخذ به ، فهو إذن دين ودولة .

ومن هذا المنظور الواسع للدين كما مثله الإسلام ، استتج علماءنا المسلمون من أصوليين ومتكلمين تعريفهم للدين على غير التعريف الذي جاء به الأوروبيون ، وهو أن الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المال ، وهو يشمل العقائد والأعمال .

وتميز العلماء بين العقائد وبين الأعمال أو بين الأصول والفروع في الدين الإسلامي مبني عندهم على اعتبارات وضوابط معلومة لا يتسع المجال للإشارة إليها ، ولذلك نركب بدورنا على هذا التمييز أن الفقه في الدين أو التفقه في الدين إما أن يكون خاصًا بالعقائد وحدها ، وإما أن يكون خاصًا بالشرعية والأحكام وحدها ، وإما أن يكون خاصًا بالأخلاق والانقياد لله باطنياً من هذا الجانب وحده ، وإما أن يشمل التفقه للدين ، كل الدين من حيث إنه لا يقبل الفصل بين العقيدة والشرعية والسلوك وهنا نصل إلى مفهوم الفقه .

معنى كلمة الفقه في اللغة :

إن لفظ الفقه هو بوزن لفظ العلم ، صيغة ومعنى ، فيقال : فقه يفقه ، كعلم يعلم من باب فهم يفهم ، ويقال أيضاً : فقه يفقه من باب كرم يكرم للدلالة على كون الفقه صار سجية نفسية للشخص فيقال حينئذ : فقيه بمعنى أنه متمكن نفسياً من معرفة أحكام الله تعالى ، غير أن اللغويين خصوا لفظ الفقه بالدلالة على الفهم العميق ، ونفاذ الإدراك إلى باطن الشيء للوقوف على كنهه . والملاحظ أن القرآن استعمل من مادة الفقه اللغوية عدة صيغ للفعل ،

واستعمل هذه الصيغ للدلالة على معان متفاوتة ، ولكنها تنبع من أصل واحد .

فاستعمل الفقه للدلالة على مجرد الفهم والإدراك للمعنى كقوله تعالى : ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه : ٢٧ ، ٢٨] .

واستعمل الفقه للدلالة على معنى النفاذ إلى حقائق الأشياء وإدراك كنهها في الطبيعة والنفس والعقيدة كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام : ٩٨] ، وقوله سبحانه : ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

واستعمل القرآن الفقه أو صيغة «تفقه» للدلالة على طلب العلم بأحكام الله تعالى ، بالتلقي عن رسوله ﷺ حين قال : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

أما بالنسبة للسنة النبوية فقد ورد استعمال مادة الفقه ومشتقاتها في أكثر من موضع ، فمن ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الترمذي وأبو داود : «نضر الله امرأ سمع حديثاً فحفظه حتى يبلغه ، قرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه»^(١) .

وقوله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٦) ، وأبو داود (٣٦٦٠) ، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن .

ومن ذلك أيضاً الحديث الذي جعلناه منطلقاً لهذا الدرس .

والخلاصة :

إن مفهوم الفقه والتفقه انطلاقاً من القرآن ومن السنة ، وكما جرى على ذلك السلف حتى نهاية القرن الثاني يعم العلم بالدين أصولاً وفروعاً ، عقيدة وشريعة ، حتى إن الإمام أبا حنيفة ألف رسالة بعنوان : «الفقه الأكبر» ، وعنى بها علم العقيدة .

غير أن تفريع العلوم الإسلامية بعد ذلك واختصاص كل طائفة من العلماء بعمل أو بأكثر من علم ، أدى إلى تخصيص علم الفقه بالأحكام المستنبطة من الأدلة الشرعية .

فإذا استخرجت تلك الأحكام التفصيلية من أدلتها طبقاً لمنهجية معينة ، قيل لها : فقه ، كما نص على ذلك العلماء .

وهنا نصل إلى فقه الحديث النبوي الذي اتخذناه منطلقاً للدرس ؛ لأنه سيحدد لنا أنماطاً ثلاثة من المخاطبين بالهدي النبوي والوحي الإلهي ، وهو قوله ﷺ كما أخرج ذلك الشيخان : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة (أي الغيث ، أصاب منها طائفة) أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ؛ (والكلأ : هو كل نبات رطب أو يابس ، والعشب هو الرطب فقط ، قلنا : ومنها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً) فذلك مثل من فقه -أو فقه- في دين الله (حسب الروايات) ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» .

وقد أخرج هذا الحديث الشيخان : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في «صحيحه» المعنون أصلاً بـ «الجامع المسند الصحيح» ، كما أخرجه الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في «صحيحه» أيضاً ، كما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» رحمته الله أجمعين .

وأول ما يسترعي النظر في الحديث المذكور من حيث فقهه ، ودلالته الغنية هو أن أسلوبه النبوي هو من جوامع كلم رسول الله ﷺ .

أقول : يسترعي النظر في هذا الحديث أن تمثيله للانتفاع بالعلم ، وتفاوت هذا الانتفاع بين شخص وآخر ، قد جرى على أسلوب القرآن الكريم نفسه في التمثيل شكلاً ومضموناً .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم استخدم التمثيل في أسلوبه تقريباً للمعقول ، وصوغه في قالب المحسوس أو تقريب أحد المحسوسين من الآخر ، أو قياس المماثل والشبيه ، فقد ورد في القرآن الكريم التمثيل لتفاوت العقول والمدارك والقلوب في استيعاب العلوم والانتفاع بهداية الوحي التي جاء بها القرآن ، فقال تعالى في سورة الرعد : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝ ﴾ [الرعد : ١٦ ، ١٧] .

وهكذا مثل القرآن لما نزل من وحي السماء ، وهو القرآن ، ولما اشتمل عليه من علم وهدى بما ينزل من الغيث فذاك يحيي النفوس والقلوب ، وهذا يحيي الأرض الموات ، ومثل القلوب بالأودية ، فقلب كبير يتسع

للعلم الكثير مثل الوادي العريض الذي يتسع للتدفق الغزير، وقلب صغير إنما يتسع لأقل من ذلك أو بحسبه في الضيق .

وكما تسيل الأودية بقدرها سعة وضيقًا ، فكذلك تمتلئ القلوب وهي أوعية العلم بقدرها سعة وضيقًا .

وكما أن السيل إذا خالط التربة احتمل ما فيها من غثاء وهشيم ، فيتكون من ذلك زبد راب ، أي : عال ، يعلو السيل ويذهب به ليظهر الأودية منه ، فكذلك العلم والهدي القرآني عندما ينساب في القلوب فإنه يقتلع ما كان يخالطها من الأهواء والشهوات ، ويذهب بها .

ويضيف القرآن مثلاً آخر في نفس الآية للتطهير من الشوائب ، فيمثل لذلك بسبك المعادن المستعملة للمتاع والحلية حين توضع معادنها في النار ، فتخلصها النار من شوائبها التي تجتمع في رغوتها أو في زبدتها .

ولذلك عبّر ابن القيم رحمته الله عن التمثيل الأول في هذه الآية العظيمة بالمثل المائي ، وعن التمثيل الثاني بالمثل الناري .

فالمثل المائي يمثل لتفاوت القلوب في استيعاب العلم ، والمثل الناري يمثل لتطهير القلب من نزواته عندما تصهره أنوار الحق .

أما الحديث النبوي فيمثل للانتفاع بالعلم ، ولعدم الانتفاع به ، وإن كان الإمام البخاري رحمته الله إنما اقتصر على جانب الانتفاع في فقه الحديث بالنسبة للباب الذي أورده فيه ؛ لأن الحديث كما نرى مثل لثلاثة أنواع من المخاطبين بالعلم والهدي الإسلامي ، وإن طوئ الرسول ذكراً عن المثل الوسطي مكتفياً بالمثل الأعلى والمثل الأدنى .

فالنوع الأول : وهو شبيه بالأرض أي المتلقي الأول للدعوة الإسلامية أو للوحي الإلهي أو للهدي القرآني ، هو شبيه بالأرض النقية الطيبة

الطاهرة التي تنتفع بالغيث في نفسها وتنفع به الغير ، فكذلك النوع الأول من الناس حين يتلقى الهدى والعلم فيفقههما ويعمل بهما ويعلمهما للغير ، فينتفع وينفع ، وهكذا تمتد حلقات النفع والانتفاع إلى ما شاء الله .

والنوع الثاني : شبيه بالأرض التي تمسك الماء فقط ، فهي لا تنتفع به ، وإنما تحتفظ به على الأقل لمن سينتفع به في الشرب والسقي والزراعة .

وهو نوع من المخاطبين بالعلم أو من المتلقين للعلم ممن لهم عقول واعية ، وقلوب حافظة تحسن الاستظهار والرواية ، لكن ليس لها قدرة على الفقه والاستنباط ، فهذا النوع قصاراه أن ينقل العلم لغيره ، مصداقاً للحديث : «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه» .

والنوع الثالث : من المتلقين مثل الأرض السبخة التي عبر عنها بالقيعان وهي الملساء التي لا تشرب ماء ولا تحفظه نقياً ، فهي لا ترتوي بالماء لتنتفع به .

والماء الذي تتلقاه لا تمسكه للحفاظ عليه ؛ فكذلك طائفة من الناس لا تنتفع بهذا الدين أو بهذا العلم وبهذه الهداية بأي شكل من الأشكال ، ونعوذ بالله من الخذلان .

ومما يسترعي النظر أيضاً في نص الحديث استعماله للفظي : الهدى والعلم معطوفين ، ومعنى ذلك أن العطف يقتضي المغايرة .

معنى الهدى :

أما لفظ الهدى ؛ فمعناه الدلالة الموصلة إلى المطلوب ، أو إلى الغاية المرجوة ، ويقابلها الضلال ، قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تَجَرَّتُهُمْ﴾ [البقرة : ١٦] .

والهدى مصدر : هدى يهدي ، بمعنى أرشد إلى الحق في القول والعمل والاعتقاد .

معنى العلم :

وأما العلم فمعناه لغة : إدراك المعلوم على ما هو عليه .

واصطلاحاً : له تعريفات متعددة ، عند الأصوليين والمتكلمين .

والمناسب لسياق درسنا أن نختار من تلك التعريفات ، بأن العلم هنا هو : معرفة ما جاء به الدين من حقائق على سبيل اليقين ، والتصور المطابق لتلك الحقائق في الخارج ، أو لأعيانها في الخارج ، فحقائق الدين هي علم وليست تصورات ذاتية ولا تفلسفات قائمة على التخمين ولا فرضيات يتطابق فيها العقل مع ذاته كما تقول الفلسفة المثالية .

وإنما حقائق الدين ، هي حقائق تضمنها الوحي من لدن خالق الكون إلى هذا الإنسان .

وقد اختار العلامة ابن حجر والقسطلاني -وهما من شراح «صحيح البخاري»- اختاراً أن معنى العلم هنا بالنسبة للحديث هو معرفة الأدلة الشرعية .

والذي أراه والله أعلم : أن تحديد العلم والهدى في هذا الحديث الشريف يتعين فيهما في هذا المقام ، أن يتطابقا مع مفهوميهما في القرآن الكريم ؛ لأن الحديث النبوي إنما يأتي بيئاً للقرآن ؛ ولأن النبي ﷺ إنما يتكلم بوحي ربه .

وفي هذا السياق نستحضر قوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۚ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَلَئِنَّ

اَتَّبَعْتَ اَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠].

فالهدى في سياق الآية الكريمة هو الإسلام بوصفه منهجاً إلهياً هادياً إلى الحق في الاعتقاد الصحيح ، وإلى الحق في السلوك الأمثل ، وإلى تحقيق السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة .

وأما العلم في سياق الآية نفسها ، فهو الوحي الذي حصل به العلم الكلي والتفصيلي للرسول ثم لسائر المؤمنين المكلفين .

فمضمون الوحي هو علم من حيث تقريره للحقائق التي يعجز العقل عن إدراكها في الحقيقة الإلهية ، وحقيقة البعث والجزاء ، وما يترتب على تلك الحقائق من أصول الاعتقاد والعمل بمقتضاه ، وهو هدى من حيث دلالة على هذا العلم .

وهكذا يظهر لنا أن الفرق بين الهدى وبين العلم هو كالفرق بين المنهج الدال على الحق وبين الحق في حد ذاته ، وهما متلازمان متكاملان ، لكن أحدهما سابق عن الثاني في الرتبة والسببية .

وبهذا التحليل نلاحظ أن الحديث الشريف مثل لنا منهجين أساسيين في فقه الدين .

أولهما : منهج الفقه الشمولي للدين من عقيدة وشريعة وقياس ، فقهاً جامعاً بين العلم وبين العمل ، وهو المنهج الذي يجمع بين فقه الهدى وفقه العلم ، أو بعبارة أخرى هو الفقه الذي يحقق منهج الدال والمدلول ، وهذه أعلى مراتب التفقه وهي ما مثله الصدر الأول من صحابة رسول الله وتابعيهم .

والمنهج الثاني: منهج التفقه الجزئي ، الذي يقتصر على فقه المنهج ، وهو الهدى ، أو يقتصر على فقه المطلوب من المنهج وهو العلم ، أو يقتصر على فقه القيم .

وهذا الفهم أو الفقه الجزئي يفصل في الحقيقة بين أجهزة متكاملة في تحقيق الفقه الشامل للدين مثلما فعل المتكلمون عندما صنعوا علم الكلام أو وضعوا علم الكلام ، أو صنع الفقهاء عندما اهتموا بالفروع ، أو صنع المتنسكون عندما اهتموا بالأخلاقيات ، فاعتقد كل منهم في عصور التأخر أنه وحده يملك الحقيقة ، وأنه المتحقق من فهم الدين ومن فقه الإسلام ، وأنه مرجع العلم وحده .

وبهذا تمزقت وحدة التفقه في الدين على هذا النحو الشمولي الذي عرفه الصدر الأعظم أو الصدر الأول من صحابة رسول الله .

أما المثال الثالث: فهو مثال للذي لا يرفع بالإسلام رأساً؛ لأنه لا ينتمي إلى الإسلام إلا على أساس التقليد وانعدام النظر أو لا يؤمن بالإسلام أصلاً .

ونخلص من هذا كله إلى تقرير الحقيقة التي تفرض نفسها بنفسها ، من خلال التمثيل الوارد في هذا الحديث الشريف ، وهي أنه لا ينتفع بهذا الدين إلا من يقبل عليه بالتفقه فيه ، وتحقيق الوعي والاستيعاب لحقائقه ، وإنتاج العلوم الفرعية من أصوله ، والعمل بعد ذلك بشريعته .

ولقد سبق للإمام الشاطبي رحمته الله أن قرر أن العلم المعتبر شرعاً هو العلم الباعث على العمل ، أو العلم الذي لا يترك صاحبه جاريًا مع هواه كيفما دار به في مسالك الحياة .

درجات أهل العلم من حيث تحصيله وتحقيقه :

ولذلك ذكر أن أهل العلم من حيث طلبه وتحصيله وتحقيقه هم على ثلاث درجات :

دنيا ، ووسطى ، وعليا .

فالدرجة الدنيا : تتمثل في المتفقه التقليدي ، الذي لا يربط الفروع بالأصول ، بل يكتفي بالفروع ، ولا يشعر بما بينها من تفاعل عميق ؛ فهذا إنما يكون مسلماً أو مؤمناً بمقتضى منطق الترغيب والترهيب .

والدرجة الوسطى : هي التي يمثلها الفقيه ، الواقف على وجوه الاستدلال ، بالعقل والنقل ، القادر على إفادة غيره تعليماً وتفقيها ؛ لكنه لم يبلغ درجة الاتصاف بالحقائق التي يدركها بالنظر وبالقلب ، فهو برغم فقهه يقع في المحاذير ، ويجري مع الشهوات ويعجز عن دفعها ، وإن كان يجد نشاطاً أقوى من سابقه في التحقق بالدين .

أما الرتبة الثالثة والعليا : فيمثلها الفقيه الذي صار العلم وصفاً ثابتاً في سلوكه ، وقويت لديه أسباب اليقين بحقائق هذا الدين ، يقيناً يجتث من نفسه كل شهوة أو نزعة مخالفة للمنهج الإسلامي .

ومن أعجب ما انطوى عليه هذا الحديث الشريف أيضاً من أسرار - ما يبدو لي - أنه يمثل في الوقت نفسه للأطوار الثلاث التي مر بها فقه الإسلام ، وفقه القرآن والسنة ، عبر العصور .

الأطوار التي مر بها فقه الإسلام عبر العصور :

أولاً : طور التفقه والتحقق والتخلق ، الذي مثله الصحابة كما قلنا وتابعيهم .

وفي هذا الطور انتفع المسلمون بالدين على أكمل الوجوه في الصدر الأول من عهد الصحابة ، توفيقًا وهداية من رسول الله وبركته ﷺ .

ثم جاء طور ثان : وهو طور التقليد والسكوت عما سكنت عنه السلف ؛ إحجامًا عن إعمال العقل ، وترك الحياة السياسية والاجتماعية في الدول الإسلامية تخرج عن مراقبة الفكر الإسلامي ، وعن فقه الفقيه ، وسادت هذا الطور مدارس المتون ، والتوسع في الفروع ، وتهميش الأصول ، وهذا هو طور التفقه التقليدي .

ثم جاء الطور الثالث : وهو طور استسلم فيه المسلمون لعقيدة الجبر القاتلة ، ولعوامل التشرذم والاختلاف وسيادة الحكم الاستبدادي الذي كان لا يمنح حق التفكير والاجتهاد ، ولا حق القرار إلا لذاته ، وهو العصر الذي انتهى بخضوع سائر المجتمعات الإسلامية للأمية وللجهل وللشعوذة ؛ وهو الطور الذي مهد للاستعمار الأوربي ، وأوجد لدى المسلمين ما سماه بعضهم بقبالية الاستعمار ، فانساقوا إليه مغلوبين منبهرين .

والطور الأول من بركته ومن توفيقه هو أنه الطور الذي أثمر كل العلوم الإسلامية التي ما نزال نعيش على موائدها وتراثها العظيم إلى اليوم ؛ كتأصيل المذاهب الفقهية الكبرى ، وتأصيل علم الأصول ، وبناء العقيدة على البراهين والاستدلالات العقلية ووضع جوامع السنة وتحرير أسانيدها وتوثيق متونها وضبط القراءات القرآنية ، ووضع علوم اللغة العربية والبلاغة وأدوات الفهم والخطاب التي هي أساس فقه النصوص ، وما إلى ذلك من علوم عقلية ونقلية .

ونستنتج من هذا كله ضرورة إحياء المنهج الأقوم للتفقه في الدين تفقهاً شموليًا على طريقة السلف الصالح ، يعود بنا إلى الجمع بين كل المناهج

وارتياد الفكر الإسلامي لكل المسالك والدروب المعرفية المعاصرة ، وخوض غمار مشروع أسلمة المعرفة الإنسانية بجعلها منظومات معرفية مؤسسة على النظرة الإسلامية للكون والحياة ، كما جاء بذلك القرآن .

وبذلك يتحقق تجديد الدين ، التجديد الذي يقوم على المنابع والأصول ، ويستمد منها الروح الوثابة لارتياد آفاق الكون والطبيعة والنفس .

ومما لاشك فيه أننا لن نستطيع أن نمارس هذا التفقه في خواء أو فراغ ، أو أن نبدأه من نقطة الصفر ، وإنما نستطيع أن نمارس هذا التفقه بناء على ضوابط من المنهج المطلوب وبناء أيضاً على الانتفاع من تراثنا الإسلامي كله انتفاعاً يقوم على تمثله أولاً ، واستيعاب مناهجه ، إلى جانب الانتفاع بالعلوم العصرية انتفاعاً يقوم أيضاً على استيعابها ؛ إذ من غير المعقول أن نمارس التفقه للإسلام من أجل تطابقه مع واقعنا من غير أن نفقه هذا الواقع أولاً ، بكل مكوناته وتياراته وبنياته الحضارية .

إننا نتعرض لغزو حضاري مدعوم بالتطور التكنولوجي والعلوم المتطورة ، وإذن فما علينا لكي نجابه هذا التطور إلا أن نعيد رفع القطيعة بين الدين والعلم ، وأن نصل بينهما صلة ملتحمة وذلك بأن يستوعب المتفقه في الدين اليوم كل معطيات المعرفة البشرية ليجد الأواصر الرابطة فيما بين العلم والدين على أساس متين .

إنني لا أعني بالتجديد هنا -دفعاً لكل التباس- أننا نقصد بذلك تطويراً لثوابت الدين أو تحويلاً لتلك الثوابت عن حقائقها المنصوص عليها في القرآن والسنة ، فهذا ما لا يمكن أن نقبله ، ولا يقبله منطق الإسلام نفسه .

وإنما التجديد معناه : إحداث التغير المطلوب في أخلاقنا وذواتنا ، حتى
ننفع بالعقيدة وبقيم الإسلام على نحو يخلق فينا توترًا عميقًا والتزامًا
موصولًا ، كما انفعّل الصدر الأول من تاريخ الإسلام فحقّقوا التفوق
والسيادة على أمم كانت أرقى منهم حضاريًا وثقافيًا وأقوى منهم
عسكريًا .

وهذا الانفعال بالإسلام وجدانيًا وعقليًا لا ينشئه فينا إلا فقه للدين
عميق ، وإبداع خطاب مؤسس على المعرفة ، ومنهج جامع ينكب على
القرآن والسنة ؛ ليستخرج ما فيهما من قيم خالدة ، ونصوغها بعد ذلك
صياغة مناسبة لإنسان عصرنا ولأجيالنا الصاعدة .

المحاضرة الثامنة والثمانون

رعاية الأمانة والعهد

موضوعنا هو رعاية الأمانة والعهد، انطلاقاً من قوله عز من قائل : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون : ٨] ، وهذه الآية الكريمة هي المتضمنة لرعاية الأمانة والعهد ، هي من ضمن الصفات السبع التي افتتح الله بها سبحانه وتعالى سورة المؤمنون : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١-١١] .

هذه الآيات الكريمات هي من خلق النبي ﷺ ، كما جاء في الحديث الذي أخرجه النسائي في «التفسير» لا في «المجتبى» لأن له تفسيراً خاصاً بالقرآن أخرج هذا الحديث فيه عن يزيد بن بابانوس قال : «قلنا لعائشة ؓ : كيف كان خلق النبي ﷺ؟ قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى أن انتهت ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ، فهذه الصفات السبع هي من خلق النبي ﷺ ، وخلقه ﷺ القرآن .

ونتعرض إجمالاً لما يتعلق بخلق النبي ﷺ .

قال الراغب في «المفردات» : الخلق والخلق بمعنى واحد ، ولكن اختص الخلق بالهيئات والصفات المبصرة والخلق بالسجاياء المدركة بالبصيرة .

الأخلاق القرآنية أخلاق عملية:

ثم إن المبادئ القرآنية والأخلاق القرآنية نريد أن نتعرض إلى كونها أخلاقاً عملية وليست بأخلاق نظرية كما يدعيه المدعون المتخرسون ، الذين حين رأوا الأخلاق والمبادئ القرآنية - حين رأوها- من أعلى طراز ذهبوا إلى ناحية أخرى وهي أنها لا يمكن التخلق بها ولا يمكن العمل بها ، محتجين على ذلك بما عليه المسلمون في عصورهم المتأخرة .

وما قالوه هو من التخرص فإن المسلمين لما صاروا على الأخلاق القرآنية والمبادئ القرآنية كانت عصورهم عصوراً ذهبية ، وإنما أصابهم ما أصابهم حين لم يلتزموا ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى ولا في سنة رسوله ﷺ .

وفي قول عائشة : «كان خلقه القرآن» وتلت هذه الآيات نستروح منه لا نقول الرد لأنها لم تطلع على ما قاله القائلون وإنما هذا يفيدنا أن هذه الأخلاق عملية فقد تمثلت في النبي ﷺ ثم في أصحابه ثم في الذين من بعدهم ، فما ادّعوه ادّعاءات كاذبة .

ثم إن هذه الصفات السبع من خلق النبي ﷺ هي من مظاهر الخلق القرآني . ولذلك خصتها عائشة بتلاوة أوائل هذه السورة ؛ لأن أخلاق النبي ﷺ كما سنذكر بعد ذلك متعددة .

وأخلاقه كلها كمالات ، هي من مظاهر الخلق القرآني ، ويدل على هذا الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب قال : «كنا إذا نزل عليه الوحي حتى انتهى فرفع يديه قائلاً : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا . ثم قال : أنزلت علي

عشر آيات من أقامها دخل الجنة ، ثم تلا الآيات العشر^(١) ، فهذا يدلنا على مكانة هذه الصفات التي جاءت في هذه الآيات ، والقرآن فيه إشارة إلى أن أخلاقه ﷺ لا تنتهي ، كما أن معاني الآيات القرآنية لا تنتهي كما يقول البوصيري في برده :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحافيه واحتكم

ثم إن أخلاقه ﷺ هي أخلاق ليست بالرياضة وإنما هي من المنح الإلهية ، ثم بعد هذا ننتقل إلى الكلام على الآية الكريمة .

هذه الآية الكريمة اشتملت على صفتين : على صفة رعاية الأمانة ، وعلى صفة رعاية العهد . وإنما اقتصرنا على هذه الآية واخترناها - وإن كان كلام الله سبحانه وتعالى كله مختار - لأنها (أي رعاية الأمانة) أول ما يفقد كما ذكره الحكيم الترمذي حيث ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «أول ما يرفع من الناس الأمانة ، وآخر ما يبقى من دينهم العهد ، ورب مصبل لا خلاق له» ، إنما كانت الأمانة من أول ما يفقد لعدم الثقة في الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الأمانة أصلها الطمأنينة ، والطمأنينة لا تحصل في النفوس إلا بالثقة بالله سبحانه وتعالى والتوكل عليه جل وعلا ، وإلا فإن الإنسان يصاب بما يصاب به الآن في عصرنا الحاضر من الأمراض النفسية التي تنوعوا في أدويتها ولكنها لم تجد شيئاً ، ولو أنهم رجعوا إلى الدواء الحقيقي الذي جاءنا به النبي ﷺ لرأيناه الدواء الشافي الكافي من كل داء ؛ لأن الإنسان إذا فقد الطمأنينة هو الميت الحي كما جاء في بيتي عدي بن الرعاء :

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٣) ، وأحمد في «المسند» (٣٤ / ١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

فهو إنسان حي كميت ، والدواء هو ما جاء في الحديث الصحيح وغيره ،
وإنما نقتصر على حديث واحد رواه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي قال :
« قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في ملأ
ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي
ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »^(١) .

الثقة بالله :

إن الثقة بالله سبحانه وتعالى تدع الإنسان معتمداً على القادر الذي بيده
كل شيء ، فمهما أراد الإنسان شيئاً واستوثق بالله وحسن ظنه بالله سبحانه
وتعالى فإنه سيجد مبتغاه ، جعلنا الله من الذين يحسنون الظن بالله سبحانه
وتعالى فإنه لا يخيب من رجاء وحسن ظنه به .

وسنذكر شيئاً من تاريخنا كيف كان المسلمون يثقون بالله سبحانه وتعالى
ويتوكلون عليه جل وعلا ، وهو ما وقع في غزو الفرس فإن غزو الفرس كان
يتولاه سعد بن أبي وقاص ، فإنه حين أراد فتح المدائن كان هناك دجلة فاصلاً
بين جيشه وبين المدائن ، وكان دجلة في أشد هيجانه فانتدب عاصم ابن عمرو
ومعه ستون من الشجعان وكلفه بأن يخوض ثبج هذا الوادي فحين وقف
الناس أمام هذا الوادي أحجموا وهو يحمل كل شيء ، فتقدم أحدهم وتلا :
﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتِهَا [آل عمران : ١٤٥]
فحين ذلك تقدم هؤلاء وجعلوا هنالك مركزاً ، فعند ذلك أمر سعد بن أبي

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

وقاص المسلمين بأن يركبوا ثبج الوادي ، وكان شعار المسلمين نتوكل على الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
ثم بعد ذلك اقتحم المسلمون الوادي وفتحوا المدائن وصلى المسلمون أول صلاة جمعة في العراق في إيوان كسرى .

فالأتكال ليس كما يقولون ، الأتكال إنما هو لعظام الأمور ، فهو الذي يعطي الإنسان شجاعة ؛ فالأتكال إنما هو للإقدام لا للإحجام ، فما يدعيه المدعون إنما هو من التخرصات .

وهذه الواقعة أردت أن أثبتها تاريخيًا وذكرها صاحب «البداية والنهاية» ، لكن رأيت شيئًا ذكره المنبجي في كتابه «العنوان» حين تكلم على خلافة عمر بن الخطاب .

وذكر في «فتح المدائن» هذه الحادثة متعجبًا ، وكيف أنهم استطاعوا ذلك حتى أنه ذكر أنهم قطعوا الوادي بخيولهم ، وحين لم يذكرها المنبجي وهو من قساوسة الشام ، وهو من رجال آخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري ، وهو من معاصري المسعودي صاحب «الأشرف» وغيره من الكتب ، وإنما اعتمد على روايات مسيحية ، وفيه في الحقيقة ذكر الأشياء على وجهها ولم أتمكن من مطالعته كله سهل الله في ذلك .

فهذه الواقعة من الغرائب حتى إن الفرس لما رأوا المسلمين بصدد قطعهم الوادي قالوا: مجانين ، فقال بعضهم: ليسوا بمجانين ، إنما تقاتلون جنًا ولا تقاتلون إنسًا .

الأمانة:

ثم إن الأمانة هي عامة في كل الأشياء ، وباختصار هي المسئولية العظمى وسنوضح هذا لكن الوقت لا يسعنا لأن نتبسط فيها حسب ذلك لأنها تتعلق بالإنسان من حيث الإلهيات ؛ لأن الدين أمانة تقلدها الإنسان في عنقه من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلى غير ذلك مما يجب الإيمان به .

وكذلك الأركان التي كلفنا الله بها سبحانه وتعالى وكذلك في المعاملات ؛ فالأمانة هي دم الإنسان ، فإذا وجدها الإنسان كان حيًا كاملاً ، وإذا فقدتها فقد كل شيء .

فالأمانة تدخل في حياة الإنسان كلها ، سواء كما قلنا : الحقوق الإلهية أو الحقوق البشرية ، ولذا عبر عنها القرآن بلفظ الجمع ، وإن كانت هذه الآية في الأمانات قرئت جمعاً وإفراداً ، وإنما لا نتحكم في القراءات .

ثم من مشمولات الأمانة قلنا هي تشمل كل شيء ، وسنذكر إن شاء الله عن الرازي حيث عممها في كل شيء دون بعض المفسرين الذي خصها بشيء خاص .

النصيحة:

من مشمولات الأمانة النصيحة لأن النصيحة من الدين والأمانة من الدين ، وكيف تكون الأمانة ولا نصيحة كما جاء في حديث أبي رقية تميم الداري أن النبي ﷺ قال : «الدين النصيحة ثلاثاً ، قلنا : لمن يا رسول الله؟ قال : لله ﷻ ، ولكتابه ولرسوله ﷺ ، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١) ،

(١) أخرجه مسلم (٥٥) .

فمعنى النصح لله وهو الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، وبكتاب الله وهو بإقامة حدوده ونشر مبادئه والتمسك بها .

وأما للنبي ﷺ ففي طاعته فيما أمر به في الامتثال له ، والانتفاء عما نهى عنه ﷺ .

وأما لأئمة المسلمين ، وهذا ما يجب أن يتحققه الناس ، معنى النصح لأئمة المسلمين هو حب رشادهم وحب هدايتهم وكرهية افتراق الأمة عنهم ، فما يفعله الكثير من السعي في الافتراق بين أئمة المسلمين والأمة فإن ذلك هو عكس النصح .

فالنصح لأئمة المسلمين - ونعيد ذلك - هو حب رشدهم وهدايتهم وكرهية افتراق الأمة عنهم ، وأما النصح لعامة المسلمين فبإرشادهم والتواصي بالحق ، وهذا ما أغفله المسلمون ، ولذلك وقع ما وقع .

ولمّا للنصح من مكانة كما قال جرير بن عبد الله : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ، قلنا : إن الأمانة هي عامة ، وهذا ما ذكره الفخر الرازي ، وذكر بعض المفسرين أن الأمانة هي ما يؤتمن عليه الإنسان .

وهذا ذهاب إلى الوديعة مع أنها ليست كذلك ، وقد حقق الفرق بينهما صاحب «دستور العلماء» فبين ووضح أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص بإطلاق فالأمانة عامة بإطلاق ، والوديعة خاصة .

ثم إن الأمانة هي إحدى صفات النبوة ، لا نتعرض لهذا ، نقرأ في «المبادئ» :

يجب للرسول الكرام الصدق أمانة تبليغهم يحق

لكن الأمانة في علم الكلام يقصد بها التخلي للتخلي ؛ لأن الأمانة قلنا : أن يتصف بصفات الكمال ويتهي عن صفات النقص ، لكن الذي يذكره المتكلمون هو أن الأنبياء عصمهم الله سبحانه وتعالى عن المحرمات ، وكذا المكروهات ولكن هذا الموضوع تكلم فيه الإمام المازري في «المعلم» بما زاد أيضاً ببسطة يحتاج المرء إلى اطلاعها .

ثم أمانته ﷺ وكذلك إن شاء الله سنوجز فيها ؛ لأن النبي ﷺ كان مضرب الأمثال في الأمانة .

ويكفيه أنه منذ صغره ﷺ وهو يتصف بذلك ، وهذا ما دعا خديجة عليها السلام أن ترسله أولاً في تجارة لها مع غلامها ميسرة ، ثم إنها لما رأت صدقه ﷺ وأن تجارتها ربحت أضعاف ما كانت تربح تزوجت به ، وقد تزوجها النبي ﷺ وعمره خمس وعشرون سنة ، ومن اللطائف أنه بقي معها خمساً وعشرين سنة ، ثلاث عشرة سنة قبل البعثة وبقي معها اثنتي عشرة سنة بعد البعثة .

ثم كذلك أيضاً هذا ما دعا أهل مكة وكان عمره خمساً وثلاثين سنة حين بنوا الكعبة ، اختلفوا ولا نطيل بهذا ، وحكموا أول داخل وكان الداخل هو النبي ﷺ وقالوا : هذا الأمين رضيناك حكاماً ، ثم إنه أمرهم بالإتيان بثوب ووضع فيه الحجر الأسود ، وأمر القبائل كلها حين اختلفت أن يضعوا الحجر فيه .

ثم أيضاً هذا ما دعا هرقل كما ذكره البخاري في حديث هرقل حتى إنه هم حين سألهم هل كذا هل كذا مما لا نطيل به .
ثم أمين هذه الأمة وهو أبو عبيدة بن الجراح .

ثم إن الأمانة من شعب الإيمان ، وشعب الإيمان هي بضع وسبعون شعبة في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم ، لكن تعدادها كان محل اجتهاد ، وأحسن كتاب هو كتاب «شعب الإيمان» للبيهقي ، وجعل هذه الصفة وهي رعاية الأمانة في الخامسة والثلاثين من شعب الإيمان .

ثم كذلك أيضاً لا نطيل ، فقدان الأمانة يؤدي إلى النفاق كما جاء في الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان»^(١) .

ثم أثر عدم الأمانة وما جر إلينا من المصائب والاستعمار ، وأقول كلمة واحدة وهي أن الواقع شاهد عدل على أن فقدان الأمانة له تأثير على الأفراد وعلى المجتمعات ، ولو نظرنا مثلاً إلى أن الجيوش إنما القصد منها هو حفظ البلاد ورعاية الأمة إلى غير ذلك رأيناها في بعض الجهات ما أدت إليه مما لا نحتاج إلى بسطه ولا إلى الحكاية عنه .

رعاية العهد :

ثم بعد هذا نتقل إلى الأمر الثاني من الآية وهو رعاية العهد ، والأمر الثاني الذي تشتمل عليه الآية الكريمة وهو رعاية العهد يدخل في الأمانة وإنما وقع النص على ذلك للتأكيد والأمانة .

والعهد له معان كثيرة ، لكنها تدور حول شيء وهو الاحتفاظ بالشيء ورعايته حالاً بعد حال ، وكما امتدح الله سبحانه العهد أمر بالوفاء به كما قال عز من قائل : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء : ٣٤] .

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ويكفي تذكيرًا بذلك أن الله سبحانه وتعالى حين ذكر إسماعيل وصفه بكونه كان صادق الوعد مع أنه صَلَّى له صفات كثيرة جمّة، وإنما خص ذلك حيث قال عز من قائل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

ثم إن مراعاة النبي صَلَّى للعهد مراعاة كثيرة لو أردنا استقصاء ذلك لأعجزنا الأمر، وإنما نكتفي بشيء قليل وهو من حسن عهده صَلَّى مع زوجته خديجة رَضِيَ فإنه ورد عن عائشة رَضِيَ قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعها يذكرها.

وهذا الحديث رواه الإمام البخاري في باب حسن العهد من الإيمان، وكذلك الحديث الآخر الذي أخرجه الحاكم والبيهقي وهو أن عائشة قالت: «جاءت عجوز إلى النبي صَلَّى فسألها النبي صَلَّى كيف كنتم كيف حالكم، كيف كذا؟ تقول بخير، فلما خرجت قالت للنبي صَلَّى: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال، قال: إنها كانت تأتينا في حياة خديجة وحسن العهد من الإيمان»، هذا الحديث الثاني رواه الحاكم في «مستدركه» ورواه البيهقي.

ثم الحفاظ على العهد له آثار جمّة؛ لأن المراعاة هي الحفاظ على العهد ومنه الراعي والرعية، وهذا ما دعا الكثير إلى إقامة الذكريات؛ لأن الإنسان القائم بالأعمال سواء كانت خيرية أو غيرها فيه شيء، وهذا لا عيب فيه ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وهو لسان صدق في الإنسان يطلبه، فلذلك الذكريات هي من أحسن الأشياء، حتى إن الإنسان يقوم بالأعمال وهو مطمئن البال أنها لا تنسى.

فإنه لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ، فحسن العهد والمحافظة على العهد هي من الدين ، ومن مراعاة العهد ملازمة من أجرى الله على يديه الخير ؛ لأن ملازمة ذلك من رعاية العهد ، وهذا كما ورد في الحديث : «من رزق من شيء فليلزمه» رواه ابن ماجه ، وقال العراقي : سنده حسن ، لأن الإنسان إذا رأى الانتفاع من جهة ، سواء بالرزق أو بغير ذلك فإنه يلزمها ويخلص لها .



نور من القرآن والسنة

٣١٠

المحاضرة التاسعة والثمانون

التسامح

إن موضوع التسامح هو موضوع الساعة واللحظة ، وهو الموضوع الذي يليق بنا باعتبارنا أمة مسلمة ، لها وجوب وفرضية القوامة ، أن نستقبل به أيماننا المقبلة ، وقروننا المقبلة ، خصوصًا وأن هذا التسامح ليس غريبًا عن ديننا ، بل هو مركز في حياتنا وهو مؤصل بالنصوص الموثقة .

وبما أن هذا التسامح لن يكون ولن يتم أبدًا بمجرد لقاءات عابرة ، أو بإزجاء نصائح ومواعظ ، وإنما يحتاج إلى أن يؤصل له المنطق الذي يدفع في اتجاه التسامح ، والذي يؤصل هذا التسامح ويجعله بالنسبة إلينا نحن المسلمين ، عبادة لا يجوز أن نعدوها ، وفريضة يجب أن نقيم عليها .

وهذا التسامح إن كان مطلوبًا داخل البيت الإسلامي ، وداخل أفراد الأسرة الإسلامية ، فهو أيضًا متطلب مع شركائنا الحضاريين الذين نعيش معهم وعشنا معهم أزمنة من الرخاء ومن التوتر وكذلك .

فوجب أن نعينهم أيضًا على أن يصلوا إلى مفهوم التسامح ، كما يؤصله الإسلام .

إن التسامح له شواهد من القرآن والسنة كثيرة ، وقد اخترت أن أدير هذا الموضوع على هذه الآية ، التي فيها ميسم واضح من مياسيم التسامح ، وهو قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] .

والمنهج يقتضي أن أمر على ألفاظ الآية ؛ لأن الألفاظ هي قوالب المعاني ، وبما أن ذلك لا يتيسر ، فإني سأقف عند لفظة واحدة ، أرى أنها مركز الثقل

في هذه الآية ، وهي أداة «أو» قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوْ يَأْكُم لَعَلْ هُدَى أَوْ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ العرب تعرف من منطق لغتها ، أن هذه الأداة تستعمل على الأقل إما ناصبة لما بعدها ، وإما أنها تستعمل عاطفة ، وكونها ناصبة ، كقول القائل : «لألزمك أو تقضيني حقي» ، وكقول امرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

فالفعل منصوب بأو ، وهو قول الكوفيين قولاً واحداً ، لكن فئة منهم استثنت بعد ذلك وقالت إن الفعل ليس منصوباً بأو ، وإنما هو منصوب بخلاف ، والخلاف عامل من العوامل المعنوية عرفناه ، وتبناه علماء الأندلس والمغرب من النحاة وقالوا به ، ولأبي الحسين ابن الطراوة مقال في هذا ، ولأبي عبدالرحمن السهيلي كذلك مقال في هذا سجله في نتائج الفكر ، هذا تصور الكوفيين .

أما البصريون فإنهم إنما يرون أن «أو» ليست ناصبة بنفسها ، وإنما تنصب بواسطة «أن» المقدرة وهذا باب من استعمالات «أو» ثم إن «أو» تستعمل استعمالات أخرى إذا كانت عاطفة ، فهي تعطف مفرداً على مفرد ، وتعطف جملة على جملة ، وقال عامة النجاة إنها تعطف ، وتفيد التشريك في الإعراب لا في المعنى .

وخالف ذلك ابن مالك ، والكلام في هذا يطول لا أحب أن أستغرق فيه بعد هذا اختلفوا ، أو تحدثوا عن المعاني التي ترد عليها «أو» وقالوا إن من معاني «أو» التخيير والإباحة ، والفرق بين التخيير والإباحة أن الإنسان إذا توجه إلى المخاطب بـ «أو» على جهة التخيير ، فإنما يضع أمامه فرصة أن

يأخذ بأحد المخيرين ، كأن يقول الرجل للآخر تزوج فاطمة أو أختها ، فهو مخير وليس له فرصة الجمع بينهما .

لكن في حالة الإباحة ، يقول الرجل للآخر جالس الحسن أو ابن سيرين ، ومعنى ذلك أن بإمكانه أن يجالسها معاً ، وإنما يخالف إن لم يجالس أي واحد منهما ، فهذا استعمال .

ولها استعمال آخر مشابه ، وهو أن تكون مترددة بين الشك والإيهام ، والشك يكون في نفس المتكلم من نفسه حينما يقول القائل ؛ أزيد قام أو عمرو؟ فإنه في ذاته متشكك ، لكن المعلم الذي يعلم الحقيقة قد يقول للمتلقي أزيد قائم أو عمرو وهو يعلم الحقيقة وإنما قصده الإيهام ليفسح له فرصة الوصول إلى الحقيقة .

وقالوا : إنها تفيد كذلك التفصيل ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة : ١٣٥] لاشك أن «أو» للتفصيل ، لأنه ليس هناك من قال القولين معاً ، بل إن اليهود قالوا كونوا هودًا ، والنصارى قالوا : كونوا نصارى تهتدوا .

وأضاف علماء آخرون وجوهاً أخرى لا سبيل إلى تقصيصها ، بل الذي يفيدنا الآن من هذا ونقف عنده هو أن «أو» تستعمل للإيهام .

وفي الآية هي مستعملة للإيهام : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] ورسول الله ﷺ الذي كلف بأن يخاطب بهذه الآية المشركين ، كان على يقين بأنه على الهدى ، ولكنه أمر بأن يقول هذا القول لإطماع الآخر في أن يصل معه إلى الحقيقة ، فلذلك أبهم كتاب الله تعالى الأمر ، وجعل القضية قضية مترددة بين أن يكون أحد القبيلين على

هدئ وأن يكون الآخر على ضلال .

والمعروف أن النبي ﷺ ، وأهل الإيمان كانوا على حق ، وأن أهل الكفر كانوا على ضلال ، ولكن الآية قدمت هذا التقديم ، هو تقديم فيه سر وفيه حكمة ، إنه تقديم يريد ألا يقضي المخاطب ، يريد أن يبقى المخاطب طامعاً في أن يكون هو من المهتدين ، فيفتح بذلك سبيلاً للنقاش ، ويفتح بذلك سبيلاً للحوار ، إن هذه الآية تضع قضية الإيمان والكفر وضعا طبيعياً ، وضعا منطقياً ، ولا أعني بذلك المنطق الأرسطي الذي عرفه المسلمون فيما بعد في أزمنة متأخرة حينما ترجموا لأرسطو وترجموا أركنون ، وعرفوا الأقيسة وعرفوا الصور ، ولست أعني كذلك بها المنطق المادي الذي جاء بعد ذلك ليصلح المنطق الأرسطي ، وإنما أقول إن الآية تشير إلى المنطق الطبيعي ، وهذا المنطق هو الذي ثبت ، وهو الذي لم يستطع أي فريق من المدارس المنطقية أن ينتقده ، لأن المنطق من فطرة الإنسان ، ونحن نعرف أن علماء المنطق يقولون إن للمنطق قواعد صارمة لا تتبدل ولا تتغير ، ومنها قانون الهوية ، وقانون التناقض ، ثم يليه قانون الثالث المرفوع ، فإذا وجد قانون التناقض كان الشيء شيئاً ، وكان ما بعده أو ما سواه لا شيئاً ، فتكون هناك مناقضة بين الشيء ولا شيء ، فإما أن يكون هذا الشيء هذا الشيء أو يكون ذلك لا شيئاً . وحينئذ فلا ثالث ، وهو الذي يعبرون عنه في علم المنطق ، بالثالث المرفوع .

معنى أن الأمر لا يحتمل وساطة ، ولا يحتمل منزلة أخرى ، فهناك إيمان وهناك كفر ، ولكن هذا الأمر أعطي للناس ؛ ليتفحصوا وليتدبروا .

وهذا الأسلوب في كتاب الله يكثر ويتردد ، وكان يجب أن نقف معهم

طويلاً في كتاب الله ، ومنه القول بالموجب ، ومنه المذهب الكلامي ، ومنه التسليم الجدلي ، وهي أساليب ترددت في كتاب الله ، نعرف منها أن كتاب الله كان حريصاً على أن يشيع هذا الفكر ، فكر الحوار المتسامح ، الذي لا يجزم في الأصل ، وإن كان صاحب القول جازماً ، ولكنه يفتح المجال للحوار والمناقشة ، هذه الآية إذن هي منطلق ولها نظيراتها كما قلت كثيرة .

هذه الآيات كانت سبباً إلى أن يبحث المسلمون في الأصول العلمية التي نؤصل بها للتسامح حتى لا يكون التسامح نصيحة تزجى ، بل يكون فريضة ، وحتى نعلم أن من صلب ديننا أننا متسامحون فعلاً فيما بيننا وبين الآخرين ، ولا يعني التسامح التنازل عن الحق ، إن التسامح هو للتعايش وللتساكن وللتلاؤم ولتواصل الحضارات .

مشروعية الاختلاف :

إن لنا أصولاً عديدة وشيقة فعلاً ، وغائبة فعلاً ، قلما نقف عندها ، أذكر منها على سبيل الإيجاز من هذه الأصول ، أصل مشروعية الاختلاف ، إن الله سبحانه وتعالى خلق العباد وخلقهم مختلفين وأرادهم أن يمارسوا التفكير ويحيلوا العقول ، فكان ذلك لابد أن يؤدي إلى الاختلاف ، والاختلاف يعطي للحياة معنى التجدد والتنوع ويدراً عنها صفة الرتبة والروتينية .

فهذا الاختلاف جائز بين المسلمين في حدود ما يمكن أن يكون مجالاً للاختلاف ، ونحن نعلم أن الاختلاف محكوم بالأحكام الشرعية ، ففي ديننا اختلاف لا يجوز أبداً ممارسته ، وهو الاختلاف الذي يقع في أصول العقيدة ، وهو الذي يفتت الأمة ، ولأن الأمة هذه إنما تكونت بالإسلام ، فتفتيتها هو هدر لها وهدر لوجودها تماماً ، فلذلك لم يكن هذا من باب ما

يجوز فيه الاختلاف ، وهناك اختلاف واجب ، كمخالفة الإنسان لذوي الضلال المنحرفين الذين تأكد لهم أنهم ليسوا على هدى ، يخالفهم في نفسه والاختلاف معهم لا يعني العدوان عليهم طبعاً .

الاختلاف في المجال الفقهي :

ثم إن هنالك باباً ثالثاً ، وهو الاختلاف في المجال الفقهي وفي المجال الاجتهادي ، وهذا الاختلاف باب واسع ، وكتاب الله لما أراد للمؤمنين أن يعلموا أن ذلك مأذون به ، ضرب المثال بقيمة الأشخاص الذين يمكن أن يتم بينهم الاختلاف ، وهما نبيان ، داود وسليمان عليهما السلام ، حكما في نازلة واحدة ، في نازلة الغنم التي نفشت ليلاً ورعت في زرع قوم ، فهمها داود فهما ، وحكم على المتضرر -صاحب الزرع- أن يأخذ من الغنم بقدر ما ضاع من زرعه ، لكن سليمان وكان ابنه ، وكان أصغر ، حكم حكماً آخر ورأى أن يرد الزرع إلى صاحب الأغنام حتى يصلحه ، وينتفع صاحب الزرع بالأغنام مدة سنة ، ثم لا يدخل على أحد منهما ضرر ، فهما حكمان كلاهما يطلب الحق ، والله تعالى قال : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [٧٨ ، ٧٩] ، فالاختلاف جائز ، والاختلاف وقع في زمن رسول الله ﷺ في قصة الروح مع بني قريظة وما إلى ذلك . هذا أصل .

مشروعية الحوار والجدال :

ثم إن لدينا أصلاً مهماً في شريعتنا ، وهو أصل الحوار الذاتي ، إننا حينما نمارس عملية الاجتهاد نطالب -وجوباً- بأن نقوم بعملية حوار ،

وعملية نقاش ، هذا الحوار كان في صدر الإسلام شيئاً مأذونا به ، إن حادثة تقع في زمن رسول الله ﷺ ، تقع بين امرأة وزوجها . يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، يظهر منها ، ويكون ذلك الظهار هو أقصى صور الفراق ، بالنسبة لحكم الجاهلية فيما سبق ، لأنه كان يقع بائناً بينونة كبرى ، فتأتي المرأة تجادل عن نفسها ، لم تدع الأمر للزوج على العادة ، بل جاءت إلى رسول الله ﷺ وشكت إليه ، ولم يقل الله إنها شكت بل قال : ﴿ وَتَشْتَكِي ﴾ ، تشتكي أبلغ في الدلالة من شكا لأن دلالة التاء فيها معنى أن هناك معاناة في تلك الشكوى ، وترديداً في تلك الشكوى ، وقبل الله قولها ، وأنزل فيها قرآناً ، ولم يزل المؤمنون من يومها ، يحترمون هذه المرأة ويحلمونها ، وهي امرأة وصفها الله بأنها تجادل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة: ١] ، إن العلماء قالوا : إن المجتهد حينما يصل إلى حكم وينتهي إليه ، لا يجوز له أن يعتبر ذلك الحكم نهائياً ، بل عليه أن يتوهم أن هنالك من يخالفه في ذلك الحكم ومن يناقضه .

فيتوهم هو وعليه أن يستدعي جميع حجج الخصم ، ويحجب عنها ، فإن استطاع أن يحجب عنها سلم له حكمه الأول ، بمعنى أن ما يصل إليه الفقيه ، ليس هو بادئ الرأي ليس هو الفكرة الأولى التي يطمئن إليها ، بل لابد أن يتصور أن الغير يعارض ، ويحتج بجميع حجج المعارض ، ويرد عليها ، وحينذاك إذا استطاع أن يرد يكون قوله سليماً .

وهذا ما يسميه الفقهاء بتجريد المعارض ، أي علماء الأصول وعلماء المقاصد يفترضون - وجوباً - أن يتم هذا ، ولذلك لا نعجب حينما نجد أن كتبنا الإسلامية لم تكن - أبداً - كتباً تقريرية ، كانت كتباً حوارية ،

ولعل كتبنا الإسلامية هي التي نجد فيها هذا الأسلوب الراقى ، الذي فيه إن قال ... أقول كذا وكذا ... فإن قال المخالف كذا وكذا . قلنا له : كذا وكذا .

حتى سميت هذه الطريقة عند علماء المسلمين بطريقة الفنقلة : إن قال ، فنقول .

فالحوار جزء من كينونتنا ومن طبيعة البحث عندنا ، وهذه الجدلية التي نشأت - لاشك - في المناخ الإسلامي كانت - ولاشك - متقدمة على جدلية هيكل ، وجدلية الأفكار التي قال بها ، والتي تحولت فيما بعد على يد فيورباخ إلى منحنى آخر ، وتحولت بعد ذلك على يد ماركس إلى جدلية الطبقات .

إن الجدلية عندنا شيء لا بد منه ، والنقاش الداخلي لا بد منه .

ثم إن لدينا أصلاً ثالثاً هو أصل التصويب الفقهي ، وهذا الأصل مهم في إشاعة التسامح والتفاهم بين الناس ، ومعنى ذلك أن الناس حينما يجتهدون ، فإن كان الحكم الذي يجتهدون فيه أو ما يتوجهون إلى البحث عقلياً عنه ، فإنهم يجتهدون ، وحينذاك لا يكون هناك إلا مصيب واحد ، ومقابله مخطئ ، لأن الحقائق الفكرية لا تقبل هذا النوع من النسبية ، ونحن نعلم أن الفكر القديم الفكر اليوناني عانى الكثير على يد السفسطائيين ، حينما كانوا يقولون بنسبية المعرفة ، فلذلك قال الفقهاء : إن المجتهد في الحق مجتهد واحد ، والمخالف غير مصيب ، لكن في المجال الفقهي فإن هنالك متسعاً ، إن المجال الفقهي فيه ثلاثة أشياء :

- فيه أحكام قارة معلومة من الدين بالضرورة ، وليست موضوعاً لأن يختلف فيها المسلمون .

- وإن هناك أمورًا ليست معلومة من الدين بالضرورة ، ولكنها مؤيدة بإجماع الصحابة ، وإجماع علماء الأمة جيلا بعد جيل ، هذه تلحق بالقسم الأول .

- وهناك مجال للاجتهاد في أحكام أخرى ، هي قابلة لأن يجتهد فيها ، ولأن يختلف الناس فيها ، فإن اجتهدوا واختلفوا ، فأى المجتهدين مصيب .

قالت جمهرة من العلماء ، ومنها أبو الحسن الأشعري ، وأبو بكر الباقلاني ومحمد بن يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي يوسف ، قالوا : إن الكل مصيب .

وهم لا يقصدون بذلك الإصابة من حيث المعنى أو الدلالة ، بل يقصدون إنهم مصيبون ، أي يصيب الحكم الذي يجتزئ به ويعمل به ويرفع به عنه التكليف .

ولهم في هذا كلام آخر لا أحب أن أفيض فيه .

وجاءت طائفة من العلماء فيما بعد ، فعدلت قضية التصويب بنظرية أخرى ، كثيرا ما لا نذكرها ولا نتحدث عنها ، وهي نظرية القول بالأنشبه ، وهؤلاء يقولون إن الأقوال وإن كانت مقبولة ، لكن بعضها يكون أقوى ويكون أشد ، وأكثر قيمة لصدوره عن أثبات العلماء ، وهذا لاشك أنه الأولى بالتقديم ، فيقولون إنه الأنشبه بالصواب ، في حين أن المقابل له هو أيضًا مصيب ، ولكنه ليس بالأنشبه .

ثم لدى علماء المسلمين قاعدة أخرى مهمة ، وهي قاعدة تكافؤ الأدلة ، وقد كان يقع للعلماء الكبار من أمثال الشافعي الذي ذكر عنه المروزي أنه قال في سبع عشرة مسألة بقولين ، لا أعني ، بالفرق أن الشافعي معروف

أن له مذهبين ، القديم والحديث لا ، في المذهب الواحد ، مذهب واحد ، له سبع عشرة مسألة قال فيها بقولين ، نظرا لتكافؤ الدليلين .

وطبعا الدليلان اللذان يتكافآن ، لا يمكن أن يكونا قطعيين فلا يمكن أن يكون هناك تكافؤ بين دليل نقلي قطعي ودليل عقلي قطعي ، بل يقع ذلك بين الدليلين الظنيين ، ويكون للإمام الواحد أكثر من قول .

وقد يكون له قولان في المذهب الواحد ، وهذا يدل على السهاحة ويدل على الرحابة ويدل على التوسع وعلى أن الفكر كان يعمل في هذه الحالات .

مراعاة الخلاف:

ثم إن لدينا أصلا آخر ، وهو أصل جميل جدًا ، وأصل مهم ينفع الناس وهم يحاولون أن يؤسسوا هذا التسامح ، إن هذا الأصل هو أصل مراعاة الخلاف ، ولو لم يكن في المذهب المالكي إلا أنه اعتنى بهذا الأصل - وهو أصل من الأصول التي انبنى عليها المذهب المالكي - لكان شيئاً عظيماً ، إن مالكا رَحِمَهُ اللهُ كان يقول في بعض الأحكام بخلاف القول الأساس الذي كان له .

مثلاً : كان يقول : إن نكاح الشغار نكاح لا يجوز ، والشغار نكاح يقع فيه التبادل بين الأولياء ، رجل يزوج الآخر بنته ، وهذا يبادله ، فلا يكون للمرأة صداق .

وهو الذي قال فيه ابن عاصم :

والبضع بالبضع هو الشغار وعقده ليس له قرار

فهو عقد في مذهب مالك باطل ، لكن مالكا ، قال : إذا وقع ووقع الزواج على هذا الأساس ، وهو فاسد أصلا ، ووقعت الوفاة ، فإن التوارث يحصل . وهو خلاف أصله ، الأصل لو اطرده أصله لقال : إن التوارث لا يحصل . ولكن مالكا حينذاك يرجع إلى لازم دليل الخصم ، لا يأخذ بدليل الخصم ، ويعمل لازم دليل الخصم ، ويقول : إن التوارث يكون في النكاح الذي هو نكاح الشغار ، وللفقهاء المالكية في هذا أشياء كثيرة .

الخروج من الخلاف :

ثم إن لنا أصلا أخيرا أذكره وهو أصل سنه وبينه رسول الله ﷺ ، وهو أصل الخروج من الخلاف ، وهو يعبر عنه بأن الخروج من الخلاف خير من الوقوع فيه .

إن رسول الله ﷺ كان يرى أن الكعبة حينما بنيت لم تبني على قواعد إبراهيم ، كان يرجو ويتمنى أن يعيد بناءها مجددا ، ويدخل فيها الحجر ، لكنه قال لعائشة : «لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لبنيت البيت على قواعد إبراهيم»^(١) .

فهو ترك ما كان يرجوه ، رعاية لأن كثيرا من الناس لم يكونوا ليفهموا قصده ، فتركه لما ينتج عنه من خلاف .

ثم إن ابن مسعود كان ينتقد على عثمان بن عفان أنه يتم في صلاة السفر ، لكنه لما أقيمت الصلاة ، صلى ابن مسعود وأتم وراء عثمان ، فقيل له لم تتم وأنت تخالفه في ذلك ؟ قال : الخلاف شر ، بمعنى أن هذا يجعل

(١) سبق تخريجه .

المسلمين دائماً يبتعدون عن مواطن الخلاف ، ومواطن التوتر ، ومواطن النزاع ، حتى يسلم لهم الجو ، الذي هو جو التسامح .

ثم إننا بعد أن نؤسس هذا التسامح فيما بيننا ، إننا نعيش في عالم هو الآن أصبح يقال عنه أنه قرية متواصلة ، ولنا شركاء في هذا العالم ، لنا شركاء حضريون منذ القدم ، فنحن أيضاً لابد أن نعمل على أن نؤسس معهم ثقافة وفقه التسامح ، ومنطق التسامح ، انطلاقاً مما نعيه نحن من ديننا .

لاشك أن الغرب في وضع ليس فيه الآن متحمسا كل التحمس كما يتحمس الآن المستضعفون من أجل إنجاز هذا المشروع الحضاري ، لكن نحن لابد أن نستوطن هذا الغرب ، ونحن حينما نتحدث عن الغرب ، نتحدث عنه بشقيه الأوربي والأمريكي ، فليست أمريكا في الحقيقة إلا امتدادا للفكر الغربي المعروف قديماً .

هذا الفكر كان قد تأسست لديه ونشأت لديه معارف ، هذه المعارف يمكن أن نعتبر أنها تقف من حيث ندري نحن أو لا ندري ، من حيث يدري الغرب أو لا يدري أنها يمكن أن تشكل الآن حواجز ثقافية وتشكل بعد ذلك حواجز نفسية دون الوصول إلى هذا المبتغى ، هذه الثقافات أو هذه المعارف التي تكونت منذ القديم ، منها ثقافات ترجع إلى عهد أرسطو حينما كان يتكلم عن نظرية الكيوف التي قسمت الشعوب إلى شعوب باردة وشعوب حارة ، وأعطت لكل شعب خاصيته ، وحصرت الميزة الكبرى في الإغريق .

هذه النظرية وإن ماتت أو سكنت حينًا من الزمن ، فقد تجلت فيما بعد ، في تجليات أخرى فلسفية عبر تاريخ الفكر الأوربي ، هذه المفاهيم التي عبر عنها بعض الأدباء يول فارلي ، عندما يريد أن يتحدث عن أوروبا ، يقول إن أوروبا هي في الحقيقة نتاج تقاليد في مجال الأخلاق نتاج المسيحية وبالضبط الكاثوليكية ، وهي فيما يتعلق بالقانون والدولة ، هي نتاج الفقه أو القانون الروماني ، وهي تنطلق من هذه المنطلقات التي ترى أنها هي التي كونت حقيقة الحضارة أو المدنية الأوربية .

وهذا الفهم يحتاج في الحقيقة إلى أن نساعد نحن على توجيهه ؛ لأننا شركاء فعلا في هذا الكون ومن مشاركتنا في توجيهه أن نقول ما يقول به بعض الباحثين المعاصرين من الأوربيين ، إن الذي يريد أن يعرف الوشيجة بين أوروبا وواقع أوروبا يجب أن يطلبه في بلاد الرافدين ، وأن يطلبه في إفريقيا .

فقد كان لأوروبا قديما تواصل ثقافي ، وأفلاطون كان معجبا بمصر ، وكثير من الفلاسفة عرفوا مصر وعرفوا الشرق وعاشوا فيه وتعلموا فيه ، فنشأ هذا الامتزاج الذي أعطى فيما بعد هذه الشخصية .

نحن فيما بعد لاشك أننا نعلم أننا كنا حاضرين حضورًا قويًا فاعلاً ، على المستوى الثقافي ونحن نعرف أن أوروبا عرفت طريقها عن طريق رجال كثر ، ولكن من أهمهم رجلان : رجل مشرقى ورجل مغربي .

فأما الرجل المشرقي فهو أحمد بن ماجد الملاح ، الذي قاد سفينة فاسكودي كاما ، وكان هو السبيل لمعرفة الأوربيين لرأس الرجاء الصالح ابتداء من ١٤٩٥ م .

وأما الرجل المغربي فهو الحسن بن محمد الوزان المعروف بـ«ليون» الإفريقي الذي ظل في بلاط البابا ليون، والذي استفاد منه الأوروبيون حينما كتب لهم معجمًا لاتينيًا عربيًا عبريًا، وكتب لهم ترجمة ثلاثين من علماء الإسلام، ودلهم على كثير من خبايا الثروة الفكرية التي عند المسلمين، فوقع حينئذ توجه نحو ثقافة جديدة ونحو علم جديد.

إذاً فالثقافة ثقافة مشتركة نحن متأثرون بالغرب ما في ذلك من شك، والغرب كذلك متأثر بنا، مجرد وصولنا إلى هذه الحقيقة يساعد كثيرا في أن نصل إلى هذه الفكرة، إلى التسامح.

ثم إننا ونحن نلاحظ هذا الاتجاه ونرعاه، لابد أن نقف مع الأفكار التي تزرع منطق أو فكرة الأزمة، حينما نتحدث عن فكرة هي فكرة صراع الحضارات التي قال بها صموئيل هنتكتون.

فإننا نقول إن هذه الفكرة لا يمكن أن تخدم التسامح؛ لأننا يجب أن نبشر بلقاء الحضارات وبتواصل الحضارات لا بصراعها، ونرد الأمر إلى نصابه.

حينما نقف مع فوكوياما وهو يتحدث عن فلسفة نهاية التاريخ يقول: إن فلسفة نهاية التاريخ، إن هي إلا توجيه للتاريخ والتاريخ سيظل كذلك متحرّكًا، متقدمًا بجميع مقوماته الحضارية، بمن فيهم الأمة الإسلامية التي لها حضور لا يمكن أن ينكر.

إن هنالك عوامل متعددة، ساهمت في هذه الثقافة التي تمنع أو تعوق التسامح، لابد أن نضع عليها الأيدي ولا بد أن نبين أن مستقبل البشرية إنما هو مستقبل مع التسامح، وأن هذا التسامح يجب أن يبدأ منا، وأن يبدأ

مع جميع المكونات ، لابد أننا في مجتمعنا في حياتنا الفكرية لابد أن نضبط المفاهيم ، نضبط الآراء ، ونعلم أننا لن نكون بدعاً من الشعوب الأوروبية التي الآن أصبحت تتحدث عن شيء اسمه الاستثناء الثقافي ، إن أوروبا وإن مفكري فرنسا يتحدثون عن الاستثناء الثقافي وهم يواجهون العولمة الثقافية ، فمن حقنا نحن كذلك أن يكون لنا هذا التصور وأن يكون لنا هذا التوجه .



نور من القرآن والسنة

٣٢٦

المحاضرة التسعون

محبة الله هي العلاج لمشكلاتنا

قال الله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : ٥٤] .

في بادئ الأمر قد يستشكل الإنسان هذه الآية ، إذ يخيل إليه أن الإنسان الذي يرتد عن الإسلام إنما يرتد بسائق شبهة تسربت إلى مكنن العقيدة في عقله ، أو بسبب ريب داخل يقينه بالله سبحانه وتعالى ، ومن ثم فإن تصحيح هذا الوضع ، وإن البديل الذي ينبغي أن يحل محله ، هو ذاك الإنسان الذي حصن عقله ضد الشبهات ، وحصن عقله ضد الريب ، وضد الشكوك ، فما للحب في هذا المجال وما شأنه في تصحيح أمر يتعلق بالعقل؟

كان الشأن بحسب الظاهر ينبغي أن يقال هكذا : يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم أرسخ منكم يقيناً ، وأرسخ منكم عقيدة .

ولكن ها هو ذا يقول : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وكأن المشكلة ليست كامنة في هزة سرت إلى العقل ، وإنما هي كامنة في فراغ القلب من الحب ، فكيف ذلك؟!

نحن إذا تأملنا عرفنا أن الإنسان إذا أسقطنا منه هذا القفص الجسدي عبارة عن عقل يدرك ، وعن قلب هو مكنن للعواطف الدافعة والراعدة

والممجة ، هذا هو الإنسان ، وعندما خاطب الله الإنسان ككل ، وأمره أن يصطبغ بصبغة العبودية لله والإيمان به ، فمعنى ذلك أنه طلب منه أن يخضع كلا من عقله المدرك ، وعواطفه القلبية لهذا الإيمان ، وهذه العقيدة .

فلو أن إنساناً فاض عقله يقيناً بالله ﷻ ولكن قلبه كان فارغاً من حبه لله وتعظيمه له ومهابته ، أو لو أن إنساناً كان شديد العاطفة والحب لله سبحانه وتعالى ، ولكن عقله فقير فيما يتعلق بالبراهين العلمية على وجود الله وعلى وحدانيته وصفاته ، كان كالعربة العرجاء التي تدفع لتسير على عجلة جانبية واحدة ، وهذا مما لا يتأتى .

العبودية ينبغي أن تنبع من القلب والعقل :

الإنسان ينبغي أن يصطبغ بصبغة العبودية لله ﷻ من حيث العقل الذي يدرك ، ومن حيث القلب الذي يجب .

وقد علمنا فيما ذكره علماء الاجتماع ، وعلماء النفس والنفس التربوي أن الإنسان إنما يندفع إلى ما يندفع إليه من أعمال بسائق من رغباته العاطفية أكثر من سائق من قناعاته العقلية ، فالحب هو الحادي وهو السائق ، وهو الذي يقرب البعيد ، وهو الذي يلين الحديد ، وهو الذي يبعث صاحبه على الصبر عند المكاره ، فإذا فرغ الفؤاد من هذا الحب فإن العقل وحده لا يستطيع أن يقود ، يشير العقل ولكنه ليس فعالاً ، يدل ولكنه لا يقود صاحبه .

ومن هنا ندرك عمق بيان الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ، إنه يقول : إن الذين يرتدون عن دين الله ﷻ لا يرتدون بسبب شك بعد يقين ساورهم ، ولا بسبب ريبة بعد يقين طاف بعقولهم وهيمن على أفكارهم ، لا ؛ لا يرتد

من يرتد بعد أن ذاق طعم الإيمان بالله ﷻ إلا لسائق هوئى هيمن على قلبه ، إلا لأن حب الأغيار فاض في قلبه ، فاهتاجت محبة الأغيار من العصبية والأنانيات والشهوات والأهواء ، والمصالح الشخصية المتنوعة المختلفة ، فحجب بذلك عن رؤيته العقلية ، تغلب الحب إذ هيمن على مكنم العاطفة في كيان الإنسان فكان هو السائق .

وما أن يقوم تقاطع أو تناقض بين أوامر الله سبحانه وتعالى ومقتضيات الإيمان به وبين حبه الأرضي الذي هيمن على قلبه حب الشهوات والأهواء والأنا والعصبية ، حتى يؤثر الحب على العقل ، حتى يؤثر محبته لشهواته وأهوائه على قناعاته العقلية وإيمانه بالله سبحانه وتعالى .

فمن ارتد لم يرتد بسبب شك ساوره ، وإنما يرتد لأنه أمام الصراع المهتاج بين عقله المؤمن ، وبين رغباته وشهواته التي هيمنت بالحب على قلبه ، لابد أن تكون الغلبة للحب .

وفي هذه الحالة يعد الله سبحانه وتعالى ويتوعد ، يعد من جانب ، ويتوعد من جانب آخر قائلاً : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ أي المرض الذي جعل بعضاً منكم يشرد ويقع في تيه من الردة وظلامها ، لابد أن يأتي من ورائهم أناس أصحاء ، لم يبتلوا بمثل هذا المرض جعلوا قلوبهم أوعية لمحبة الله سبحانه وتعالى .

كيف نحب الله؟

والآن كأني ببعض الذين يصغون إلى هذا الكلام يتساءلون ، كيف السبيل إلى أن نجعل من أفئدتنا مغرساً لمحبة الله سبحانه وتعالى؟

كيف السبيل لأن نظهر قلوبنا من حب الأغيار ، ونجعلها أوعية لحب الواحد القهار؟ وقبل أن أجيب عن هذا السؤال ، أحب أن أقول : كان المفروض أن يكون السؤال مقلوبًا ، كان المفروض أن يقال : كيف السبيل أن لا يكون الإنسان محبًا لمولاه وخالقه؟ كيف السبيل إلى أن لا يكون العبد عاشقًا لمولاه وخالقه؟!

يا عجبًا عندما ينقلب السؤال فيأتي هكذا : كيف السبيل إلى أن نغرس في أفئدتنا محبة الله ﷻ؟

والجواب : الذي أعرفه أن عوامل الحب في حياة الإنسان لا تزيد على ثلاثة عوامل :

أولها : جمال يأسر القلب .

ثانيها : إحسان يهيمن على مجامع النفس .

ثالثها : عظمة تبهر البصائر والألباب .

لا أعلم أن هنالك دافعًا رابعًا للحب .

فإذا كان الإنسان ممن ينساق وراء الجمال ويتأثر به ، ويجعل منه نافذة لمحبة قلبه ، فليعلم أن مصدر الجمال في الكون كله واحد لا ثاني له ألا وهو الله سبحانه وتعالى .

أجل ، كل ما في الأمر أن علينا ونحن ننظر إلى صور الجمال التي تفيض بها المكونات أن نخترق الصور إلى المصور . هذا كل ما في الأمر .

إن رأيت الجمال في مظهر أشخاص أو إن رأيت في مظهر نباتات أو إن رأيت في مظهر زهورات وورود ورياحين أو في مظاهر طبيعية أيا كانت ، فاخترق هذه الصور وتجاوزها إلى مصورها .

قف أمام هذه الزهرة التي تفوح بعبقها تأمل في ألوانها المتناسقة العجيبة ، في الريشة الإلهية -إن جاز التعبير- التي لونت وصبغت ، ثم اخترق ذلك إلى المصور المبدع ، وهو الله سبحانه وتعالى .

إذا شممت فوح رائحة هذه الزهرة فلا تقف ، لا تحبس نفسك أمام ذلك تجاوزها إلى من بث في هذه الزهرة هذا العبق .

إذا وقفت أمام أنواع الفاكهة عند بائع مثلاً ، وقد رصفها متنوعها جنباً إلى جنب ، فتأمل جمال المنظر الذي أبدعه الله لعينيك ، وجمال الرائحة التي أبدعها الله لأنفك ، وجمال الطعم الذي أبدعه الله سبحانه وتعالى لفمك .

دعوني أضرب الأمثلة ، دعوني أضرب الأمثلة حتى ندرك أن الإنسان ليس بينه وبين أن يتفجر الحب الصافي في أعماق قلبه لله إلا أن يتجاوز هذه الصور إلى مصورها .

أَقَسَمْتُ يوماً الرمانة إلى أجزاء ، وهل تأملت في تراصف ورص حباتها ذات اللون الأحمر القاني؟ تأملت في مغارسها؟ تأملت في الحواجز الرقيقة التي تفصل ما بين الكتلة والكتلة منها؟ تأملت في هذا الجمال؟ اخترق ذلك ، وتذكر المبدع الذي أبدع هذا الجمال ووضعه أمام بصرك .

أجل ، إن كنت ممن يهوى الجمال ، ومن تدخل المحبة إلى قلبه عن طريق نوافذ الجمال ، فاعلم أن مبدع الجمال هو الله سبحانه وتعالى .

ويا عجباً لإنسان يدخل معرض فنان فيرى طائفة من اللوحات الفنية الجميلة ، ما أن يتأملها حتى يسري ذهنه إلى الفنان الذي أبدعها ، لا يخرج من المعرض إلا وقد أحب ذلك الفنان على الرغم من أنه لم يره ؛ نحن ندخل معرض هذا الكون كله ، وننظر إلى أفانين الجمال التي تتعشقها

العين آنا، والتي تتعشقها الأذن آنا، والتي يتعشقها الأنف آنا، أفلا نحب هذا الإله كما أحب هذا الإنسان الفنان الذي رسم؟
أما إن كنت ممن يتأثر بالإحسان وينقاد بفؤاده إلى حب المحسنين، فتعال أحدثك من هو المحسن في حياة الإنسان .

الإحسان أشبه ما يكون بشجرة كثيرة الأغصان، إن نظرنا إلى الأعلى ننتبه في أغصانها، ولكن هذه الأغصان كلها تنتمي إلى جذع واحد .

الإحسان من حيث النظر السطحي يأتي من جهات كثيرة شتى، ولكن والله ما هذه الجهات إلا بعث ساعي البريد، يأتيك ساعي البريد بهذا الإحسان من عند الله سبحانه وتعالى؛ ويحك، لا تعشق ساعي البريد، اعشق الله سبحانه وتعالى الذي سخر هذا الساعي لك .

فتعالوا ننظر إلى الإحسان الذي لا يعد ولا يحصى، بدءاً مما نراه داخل كياناتنا وأجسامنا ونفوسنا، ثم انتهاء بالإحسان وأنواعه التي تطوف من حولنا، عندما أنظر إلى نفسي في المرأة، وأجد العافية تجلج كياني ينبغي أن أتذكر من ذا الذي يحميني بهذه العافية لحظة فلحظة؟ من ذا الذي يحصنني ضد الأمراض، والجو كله مليء بالجراثيم، ما من شهقة أشهقها إلا ويمكن أن يفيض أو يمتلئ كياني من الجراثيم التي من حولي؟ ولكن الله يحميني من ذلك بما يسميه الأطباء : المناعة .

وليت شعري، ما المناعة؟ وهل لها من ترجمة إلا حماية الله؟ هل لها من ترجمة إلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ - من بين يدي الإنسان ومن خلفه - ﴿تَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي حفظاً آتياً من أمر الله سبحانه وتعالى .

إذا نظرت إلى وسامتك ، إذا نظرت إلى مظهرك تذكر قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٤] تذكر هذا .

عندما أجلس على مائدة الطعام ، وأنظر إلى ما رصف فوق هذه المائدة ، ينبغي أن أتذكر أن هذا الطعام إنما هو عصارة سماء أمطرت ، وأرض أنبت وأنعام سخرها الله لحومًا وألبانًا ، كل أنواع الأطعمة إنما هي عصارة هذا الإحسان الإلهي الكبير .

عندما أدخل اللقمة في فمي وأمضغها ينبغي أن أتساءل ، كيف أزدردها؟ كيف أستسيغ اللقمة؟ أنا أدخل مضغة اللحم في فمي ، وتختلط مضغة اللحم هذه مع لساني فتطحن الأضراس مضغة اللحم ، ويبقى اللسان في نجوة من هذا الخطر الكبير ، ترى أنا الذي أسوس رعاية لساني؟ لو أنني لاحظت ذلك لقضمت لساني .

أجل ، عندما أنظر إلى أنواع الإحسان التي من حولي لا أستطيع أن أحصيها ، عندما أجد السماء التي سخرها الله سبحانه وتعالى لي ، كما قال في محكم تبيان ، الأرض التي سخرها لي : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [المالك : ١٥] .

عندما أرى هذا كله ينبغي أن أتذكر شيئًا واحدًا ، ينبغي أن لا أقف أمام ساعي البريد وأجعل قلبي وقفًا لمحبتة ، ينبغي أن أخترق ساعي البريد هذا وأصل إلى ذلك الإله المنعم المحسن المتفضل الذي سخر ساعي البريد هذالي .

فأنا إذا كنت ممن يهيمن على فؤاده الإحسان إحسان المحسن ، فالمحسن الأوحد في العالم والكون إنما هو الله سبحانه وتعالى ، وأما إن كنت ممن يؤخذ بالعظمة ومظاهرها ، فهل من عظيم إلا وهو من ضُئِع الله؟ هل من

عظيم إلا وهو من إبداع ذلك العظيم الذي أوجده : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر : ٦٧] .

إذن لو أن الإنسان كان يؤخذ بالجمال فينبغي أن يكون معشوقه الجميل الأول وهو الله ، وإن كان ممن يؤخذ بالإحسان فينبغي أن يكون معشوقه المحسن الأول وهو الله ، وإن كان ممن يؤخذ بالعظمة ومظاهرها فينبغي أن يقف أمام عظمة الله ، ثلاثة عوامل كلها مجتمعة في ذات الله سبحانه وتعالى .

وأقول هنا شيئاً آخر من الأهمية بمكان : أنا عندما أرى إحسان الله سبحانه وتعالى لي ، وأرى كيف سخر لي سماءه ، وكيف يكرمني بالرعاية والحماية إن أنا رقدت ، وإن أنا استيقظت في كل تقلباتي وأحوالي إذن أعلم أن الله يحبني ، فإذا علمت أن الله يحبني كيف لا ينقدح بين جوانحي عوامل مبادلته حباً بحب؟!

الإنسان الذي يستبين حب الله ﷻ له لا بد أن يستغرق في حالة من الحياء من الله أيّاً كان ، يقول : يا رب يفد إلي منك كل هذه الآلاء ، وكل مظاهر هذا الإحسان ، فما الذي يعلو إليك مني وأنا المقصر وأنا المعرض وأنا التائه عن سبيلك؟!

ولعله يقول كما قال ذلك الإنسان الذي كان حديث عهد بالتوبة :

تعست ليلة عصيتك فيها كيف لا أستحي وأنت الرقيب

أجل ، ثم إنه لا بد أن يبادل مولاه وخالقه حباً بحب ، ومن هنا ندرك سر تقديم بيان الله سبحانه وتعالى لمحبه لعباده على محبتهم له ، إذ قال : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] .

إنه لغزل ، لغزل عجيب ، يشع حبًا وتكريمًا ودلالًا لهذا الإنسان ، الإنسان الكريم على الله سبحانه وتعالى .

روى القشيري في رسالته : أن امرأة كانت تخدم في أسرة في منزل ، أفاق صاحب المنزل في جنح الليل على صوتها ، وهي تناجي الله في سجودها قائلة : اللهم إني أسألك بحبك لي أن تغفر لي أن ترحمني . . . إلى آخر ما هنالك ؛ استعظم الرجل نجواها هذه ، وانتظر حتى إذا انتهت من صلاتها ، قال لها : يا هذه ما هذا الدلال على الله؟ قولي اللهم إني أسألك بحبي لك ، قالت يا سيدي لولا حبه لي ما أيقظني هذه الساعة ، لولا حبه لي ما أوقفني بين يديه ، لولا حبه لي ما أنطقني بهذه النجوى بالذات .

حب الله هو الحل لجميع المشكلات :

والآن كأن سائلًا يقول : فما علاقة هذا الحب بعد أن يكرمنا الله به ، وبعد أن نظهر قلوبنا من حب الأغيار ، ونجعله وعاء لحبه ، ما علاقة هذا الحب بمشكلاتنا التي نعاني منها؟ وهي مشكلات معقدة وكثيرة؟

أقول في الجواب ولا بد أن أختصر ، وأرجو أن لا يأتي الاختصار مغلًا : مشكلاتنا كثيرة ومتنوعة ولكنها تعود جميعًا إلى مشكلة هي المشكلة الأم ، عنها تفرعت سائر المشكلات ، المشكلة الأم في حياتنا هي تدابر المسلمين ، هي تفرق المسلمين ، نتج عن هذا التدابر وهذا التفرق مشكلات فرعية كثيرة ، نتجت عن هذه المشكلة : مشكلة الفقر بعد الغنى ، مشكلة الضعف بعد القوة ، مشكلة الهوان بعد العز ، مشكلة التخلف بأنواعه المختلفة بعد التقدم ؛ كل ذلك نتج عن مشكلة واحدة ، ألا وهي التفرق والتدابر .

فيم كان هذا التدابر ونحن مسلمون؟! فيم كان هذا التفرق؟! كثيرون هم الذين يفلسفون هذا الأمر ، ويضعون النظريات ، ونظرت وتأملت فلم أجد نتيجة إيجابية لشيء من ذلك كله .

سبب هذا التفرق أن أفئدتنا فرغت من محبة الله سبحانه وتعالى ، وحشيت بمحبة الأنا بمحبة الشهوات والأهواء ، بمحبة الرغبات المليئة بالعصية ، بكل ما تعرفون من هذه الأشياء التي تنتظر فراغ القلب من حب الله لتهيمن فتحتل هي محل محبة الله سبحانه وتعالى .

لما أصبحت أفئدتنا ساحة لهذه الأشياء كان لابد أن نتنافس ، وكان لابد أن نتصارع ، وكان لابد أن تحتل الأثرة في مجتمعاتنا بدلاً من الإيثار ، وأن تحتل الأنانية بدلاً من التضحية ، ونجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام ما قاله المتنبي :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

ومراد النفوس أهون من أن نتعادي فيها وأن نتفانا

أجل ، بسبب فراغ أفئدة مجتمعاتنا -إلا من رحم ربك- من محبة الله سبحانه وتعالى ، وحلول الأغيار بكلمة عامة محل محبة الله سبحانه وتعالى ، جاءت عوامل التدابر ، ذلك لأنني لابد أن أنافس أخي على ما يسيل عليه لعابي ، ولابد أن ينافسني ، وإذا أكرمني الله سبحانه وتعالى بشيء لابد أن يبذل كل ما يملك ليتغلب علي ويستلب مني ما يستطيع استيلا به هذا هو سبب التفرق .

وعندما رأى العدو نقطة الضعف هذه أمعن في العمل على تضخيم نقطة الضعف هذه ، من نقطة الضعف هذه تسلل إلينا ، إذا عرفنا ذلك ، فما العلاج؟

تطهر القلب عن محبة غير الله :

العلاج أن نعود إلى هذه القلوب فنطهرها من محبة الأغيار ، والله لا علاج إلا ذلك ، وهذا هو العلاج الذي أخذ الرعيل الأول من المسلمين أنفسهم به ، كانوا متدابرين أكثر من تدابرنا ، كانوا متفرقين ، كانوا متحاربين ، ذلك لأن أفئدتهم لم تكن تعي إلا محبة الذات والأنا والأهواء والعصبيات ونحو ذلك .

فلما تألق الإيمان في عقولهم ، ثم سرى من العقول إلى القلوب حبًا وعاطفة طردت محبة الله سبحانه وتعالى محبة تلك الأغيار ، لما طردت محبة الله في قلوبهم محبة الأغيار ، وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه أمام قول رسول الله ﷺ : «كونوا عباد الله إخوانا»^(١) ، وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه أمام تنفيذ قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] هذا هو العلاج لا علاج غيره . ولعل في مجتمعاتنا أو في أطراف مجتمعاتنا من قد يستهين بهذا العلاج ولعل من الناس من يقول : لا تمتزج عواطف الدين بأمور العلم بالأمور التي تتعلق بعلم الاجتماع .

وأنا كنت ولا أزال ممن يصغي السمع جيدًا إلى ما عند الآخرين من العلاجات المختلفة ، وأنا أرحب بكل علاج من دون هذا العلاج ، يعيد الأمة التي انشئت في يوم من الأيام بوحدتها التي كانت صدئ لقول الله ﷻ : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

(١) سبق تخريجه .

أنا لا أقول أتمنى ، ولكن أرغب أن أبحث عن أي علاج آخر ، لا علاج إلا هذا ، وآية ذلك ، آية ذلك أنني عندما أنظر إلى مجموعة صغيرة من المسلمين في مجتمعاتنا الإسلامية ، وقد ازدهرت محبة الله بين جوانحهم يغشون مجالس مثل هذه المجالس ، ذاقوا طعم الإيمان كما قال رسول الله ﷺ ، أجد المحبة التي تشيع فيما بينهم لا تكاد توصف ، أجد كلا منهم يؤثر صاحبه على نفسه .

ما يصدق على الجماعة الصغيرة يصدق على الجماعة الكبيرة ، وما يصدق على الجماعة الكبيرة التي تعد بالآلاف يصدق على الجماعات التي تعد بالملايين ، الإنسان هو الإنسان ، وقلب الإنسان هو قلبه ، والإنسان مفطور على هذه الحقيقة شاء أم كره ، اعترف أم لم يعترف .

إذا العلاج هو أن نرعى في مجتمعاتنا هذه القلوب بعد أن رعى العقول ، العقول مؤمنة ، ولسنا بحاجة إلى مزيد حشو لدلائل الإيمان بالله ﷻ ، لا ، المستشرقون فيهم الكثر ممن يؤمنون كإيماننا ؛ لكن لأن قلوبهم فارغة من محبة الله ﷻ ، صدق عليهم قول الله ﷻ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

ليت شعري هل يمكن أن ينهض المجتمع الإسلامي ككل برعاية هذه القلوب عن طريق تربية فعالة ، تطرد من هذه النفوس ما ران عليها ، وتكنس منها محبة الأغيار ، وتجعلها مهياة لمحبة الله الذي فطرها؟ هل يمكن أن يتحقق هذا الأمر؟

أعتقد أن المشكلة إذا أطبقت ثم أطبقت فلا بد أن ينفجر الحل من شدة إطباق المشكلة ، وأنا أعلم أن الله سبحانه وتعالى لن يتركنا وما نحن فيه ،

فالصالحون كثر ، والذين يبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى كثر ، والعلاج سهل أخذه ، والفطرة خير عون لذلك .

أنا عندما أعود فأقرأ هذه الآية الربانية ، أشعر أن كل مؤمن عندما يقرأها تهتاج بين جوانحه هذه المشاعر التي تهتاج بين جوانحي ، عندما أسمع قول الله ﷻ يقول : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ مُّحِبِّهِمْ وَُحُبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] هذا المعنى أسأل الله أن نكون نحن أبطاله ، وأن لا يحل محلنا أناس آخرون .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يتركنا ليستبدل بنا غيرنا كما يقول ، فنحن لا نزال على العهد بحمد الله سبحانه وتعالى .

وأنا أحب أن أقول أخيراً ما منا من إنسان لو نبش أعماق قلبه إلا وجد حرارة محبة الله كامنة ، ربما تكون راقدة ، و لكن الأمر يحتاج إلى تحريك ، كل ما في الأمر أن الأمر يحتاج إلى تحريك ، وإلى نوع من التربية ، نأخذ أنفسنا بهذا الحب .

لعل فينا من يقول : ولكني مقصر كيف أستطيع أن أزعم أنني محب لله ﷻ ، يأمرني لا أنفذ ، يلاحقني بأحكامه أقصر ، إذا أنا لست محباً ، لا ، هذا ليس دليلاً قط .

هنالك ظاهرة عجيبة هي مظهر من مظاهر عظمة الله ، جعل الله سبحانه وتعالى القلب الإنساني من القوة بحيث يستطيع أن يكون وعاء لأعظم حب قدسي في الكون ألا وهو محبة الله .

هذا القلب مهياً لذلك ، ثم إن الله استودع هذا القلب ضمن كيان كله ضعف ، كله ضعف قال : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] لاحظوا هذا التناقض ، القلب مهياً لأعظم حب في الكون ألا وهو محبة الله ، وإذا

استشعر الإنسان هذا الحب حاول جاهداً أن يحمل نفسه آصاراً وآصاراً وأثقالاً من حقوق هذا الحب ، ولكنه عندما يحاول أن ينفذ يجد أنه ضعيف ، لماذا؟ لماذا يارب وهبتي قلباً كبيراً كبيراً ينبض بأقدس حب ألا وهو حبك ثم إنك لم تقدرني على أن أنهض بحقوق هذا الحب؟ السبب هو أنني عندما أجد هذا التناقض بين حبي الكبير وضعفي الشديد ، ينقدح شعور العبودية بين جوانحي لله ، أدرك أنني لا أستطيع فأقول : يارب أنا ضعيف ، أنا لا أستطيع أن أجحد شعوري ، قلبي ينطق بحبك ، لكنني والله ضعيف ، فلا تحملني ما لا طاقة لي به .

هذا منطق العبودية لله .

المحاضرة الحادية والتسعون

مناهج تصحيح صورة الإسلام

انطلاقاً من قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] .

الآية الكريمة التي ننطلق منها في هذا الدرس الذي نخصصه بحول الله وقوته للحديث عن «مناهج تصحيح صورة الإسلام» الآية مأخوذة من سورة الحجرات ، وهي قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ .

سنحدث عن هذه الآية الواردة في سورة الحجرات ولن نخوض إن شاء الله في أسباب نزولها ولا فيما ذكره المفسرون لها ولكننا نتعلق بمعانيها وبمضامينها فقط . أما فيما يتعلق بأسباب نزولها ، وبالأحاديث عنها فهي في كتب التفسير يرجع إليها .

تتضمن سورة الحجرات تلقين المسلمين وتعليمهم كثيراً من الآداب الاجتماعية ، وأنواعاً من السلوك مصحوبة بحقائق دينية كبرى ، ففيها دعوة إلى الامتثال والتزام التقوى ، وفيها آداب التعامل مع الرسول ﷺ ، ودعوة إلى المؤمنين للتثبت في تلقي الأخبار قصد قطع الطريق على مروجي الإشاعات والأكاذيب ، وأمر بإصلاح ذات البين بين المسلمين في نزاعاتهم الداخلية ، وأمر بترك مفاسد اجتماعية من شأنها أن تحدث الشغب في صفوف المسلمين وتفرقهم ، وتزرع الضغينة والكراهية بينهم ؛ قال رسول الله ﷺ : «إن ربكم

واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»^(١).

كما جاء في هذه السورة أيضًا التنصيص الواضح على معيار التفاضل بين الناس، وهو الميزان الذي تتحدد فيه قيمهم، ثم في الأخير جاء فيها التعريف بمفهوم الإيمان الحقيقي: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُوْا وَلٰكِنْ قُوْلُوْا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وكل هذا على شكل نداءات، وجه خمسة منها للمؤمنين والسادس لهم ولل بشرية جمعاء: حيث قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثٰى وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوْبًا وَقَبَاۓِلَ لِتَعَارَفُوْا...﴾ [الحجرات: ١٣] فهذا النداء موجه لجميع الناس، ولجميع أبناء الإنسانية وللشعوب كلها.

ورغم كل هذا وجد من يقول إن الإسلام دين عنف، وتواكل، وتقاعس، وهذا جهل وافتراء وتقول عليه ممن لا يفهم حقيقته أو يتجاهلها، فلا يريد أن يعرفها.

عرف الإسلام حضارات وثقافات قديمة وتعامل معها وأقام أسسه على العلم والعقل والمعرفة والأخوة الإنسانية.

والحضارة الإسلامية الأولى بنت نفسها على أسس منهجية مكنتها من فتح ذراعيها للجديد المفيد إيمانًا من المسلمين بأن الحوار والتعامل هما السبيل القويم إلى إخصاب الفكر وإغناء الذات وإعادة الحياة لها.

(١) سبق تخريجه.

مواجهة التحديات القائمة:

وهذا التمسك بالتفتح والحوار كان سبباً في بروز ظاهرة التراكم المعرفي في الثقافة الإسلامية، وهو ما ضمن لها التنوع والتطور والازدهار.

ومصاعب الخطاب اليوم تكمن في كون المسلم، وهو يبحث عن أنجع الأساليب لتحقيق الصحة، مضطراً في نفس الوقت إلى مواجهة التحديات القائمة وإلى البحث عن كيفية التعامل معها، فضلاً عن مواجهة التغيرات الطبيعية التي تفرضها المعاصرة والمحاورة الحضارية والثقافية والدينية، فالعمل إذن مزدوج على واجهتين: واجهة للرد على ما يتهم به الإسلام، والإسلام منه براء. وواجهة للبحث عن مناهج وعن كيفية للتعامل مع الحضارة الجديدة القائمة على التغيير والتجاوز.

وإذا كان تجاوز هذه المصاعب يتطلب مجهوداً كبيراً بالقياس إلى كثرتها فإنه يستلزم أيضاً عزيمة صادقة، وثقة كاملة، وهدوءاً في النفوس، وطمأنينة في القلوب، لجعل حد لحالة القلق والتردد والحيرة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم وهو يخطط لمستقبله بجد واجتهاد.

بينما نجد الإسلام يدعو الناس ويوجههم إلى الجمع بين الإيمان والعمل والسلوك الطيب، والممارسات العقلية المتبصرة الحكيمة.

فقد أراد الله تعالى الإنسان عاقلاً منطقياً واعياً، وجعله مكلفاً بالمسؤوليات المجتمعية والشرعية في حياة مؤسسة على التقوى، التي تعني الوقاية والامتناع عن كل ما يضر ويسيء. والتقوى - كما نعلم - هي دعامة العمل وهي التصرف والتدبير بضبط الموازين واحترامها، وهي الاعتدال، وهي الوسطية. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الفصص: ٧٧] الذين يتسببون في الضرر لأنفسهم، ولإخوانهم، ولمجتمعهم.

المشاركة الفعالة في المسيرة الفكرية العالمية الجديدة:

فكيف تكون لنا مشاركة فعالة في المسيرة الفكرية العالمية الجديدة؟ وكيف نعمل لنطبعها بطابعنا الإسلامي؟ لأن الإسلام حينما نفهمه حق فهمه، وحينما نقدره حق قدره، وحينما نطبقه حق تطبيقه، يكون أداة مفيدة ليست للمسلمين فقط بل نقول للإنسانية جمعاء. كيف نعمل لتستفيد منا هذه الإنسانية اليوم بدورها في مسيرتها القوية نحو الربح والتقنية العارية عن كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية؟

إن باستطاعتنا أن ننتمي إلى هذه الثقافة الحديثة التي ليست كلها شرًا مهما كان ومهما قيل؛ فالثقافة الحديثة والعالم الحديث والحضارة الحديثة ليسوا شرًا، وإنما الحضارة الحديثة لها وجهان: القبيح الذي يمكن أن ينالنا منه شر ولاشك، والجميل الذي يمكننا الاستفادة منه، بل توجيهه لجعله في صالح الإنسانية كلها، لا لطائفة دون طائفة.

هذا الموقف الغريب من الإسلام في الغرب يعتبر ظاهرة عجيبة يجب الوقوف عندها والبحث عن أصولها وعللها الظاهرة والباطنة. وعند إمعان النظر فيها نجد لها أسبابًا عديدة أهمها:

١- مسألة الاعتراف غير المتبادل، فالنبي ﷺ كان آخر النبيين فجاء الإسلام معترفًا بأنبياء بني إسرائيل، ومعتترفًا بالمسيح، وذكرهم أحسن ذكر في كتابنا المقدس وتوسع في الكلام عنهم، وجعلهم قدوة للناس، ولكنهم هم لا يذكرون النبي محمدًا ﷺ وينكرونه، ومن هنا بدأت القضية.

٢- ثم كانت التراكمات التاريخية والمواقف القديمة -الحروب الصليبية- التي ترسبت في النفوس واستقرت فيها لمدة طويلة ثم صارت تطفو على السطح شيئًا فشيئًا وتعود إلى الظهور اليوم بسهولة.

٣- وكذلك -وهذا شيء لا يفهمه المسلمون جميعًا- موقف الغربيين من الدين عامة ، فقد أبعدوه عن حياتهم وأزاحوه عن اهتماماتهم اليومية ، ولذلك فهم لا يفهمون لماذا يبقى المسلمون متشبثين بالإسلام مسكونين به ، يتعصبون له بقوة وحماس .

٤- وهناك أيضًا -في مسألة التعاون وتبادل الخطاب- عدم معرفة المسلمين على العموم ، وعدم إتقانهم لاستعمال مناهج البحث العلمي الحديث وضوابط وقواعد خطاب الآخرين .

خطاب غير المسلمين:

لا يمكن أن نخاطب الأوربي الغربي كما نتخاطب فيما بيننا ؛ لأننا نحن نتخاطب داخل الإسلام ، أما أولئك فهم خارجه ، فلذلك يجب أن نغير الخطاب أولاً ، ثم قواعد هذا الخطاب ، وضوابطه ، وأصوله ، يجب أن تكون على وفق ما وصلت إليه العلوم الحديثة اليوم . فنخاطب الآخرين حسب فكرهم وعلمهم ومنطقهم الذي يقتنعون به ، وأساليبهم في العمل وذلك للتأثير عليهم فهم لا يمكن أن يتأثروا ولا أن ينصتوا ولا أن يستمعوا لأي خطاب يأتي على غير ما اعتادوه وعلى غير ما درجوا عليه ؛ لأنه لا يكفي أن تكون على حق ليعطيك الناس الحق ، بل يجب أن تكون على حق وأن تعرف كيف تخاطب الآخرين ليفهموك وليتأثروا بما تقول وليصدقوك ، وهنا أيضًا يغلط المسلمون حينما يخاطبون أوربا بمثل الخطاب الذي يتخاطبون به فيما بينهم ؛ خطابهم لا يسمع ويبقى خطابًا خارجيًا . وهذه قواعد الخطاب معروفة مدروسة وهي قريبة من قواعد الإشهار والإعلام الحديثة التي تستغل فيها كل الأساليب النفسية والاجتماعية واللغوية لحمل الناس على تصديقها والاستجابة لها ، ولما

تدعو إليه وتقرحه على الناس حسب تقنيات للعرض نراها في التلفاز ونسمعها في المذيع ونقرأها في الصحف ولذلك يجب عدم إهمالها .

٥- ثم هناك أيضًا من هذه الأساليب أن الغربيين -كما قلنا- لا يعترفون بالإسلام كفكر مؤسس للحضارة الحديثة ، مدعين أن الإسلام يرفض العالمية ويتجراً على أن يدعي أن له نظاماً بديلاً للنظام العالمي ؛ فهو يقف -حسب زعمهم- في وجه نظامهم العام السائد ويريد تغييره لصالحه ، ويرفض حقوق الإنسان والأنظمة الديمقراطية وحقوق المرأة وكل الحريات الحديثة بحيث لا تناله ولا تؤثر فيه ، كيف يرفض الإنسان حقوق الإنسان والقرآن مليء بالدعوة إليها؟ قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ جعله الله خليفة فكرمه هذا التكريم الكبير ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] . الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان خليفة وكرمه وسخر له ما في السموات وما في الأرض ، وهذه آية واضحة يمكن للإنسان أن يلتجئ لها في الموضوع .

وبذلك يصبح الإسلام -في نظرهم- النظام الوحيد المخيف ، العنيد ، المتطرف ، والإسلام ليس متطرفاً ، ولا مغالياً ؛ الإسلام دين الوسطية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] وقال ﷺ : «إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه» (من حديث رواه البخاري) ، وهذه كلها نصوص لا يصلها الشك ، ومع ذلك يهملها الذين يتحدثون عن الإسلام .

مسألة الغلو -هذه- أنكرها النبي ﷺ ؛ أنكر على الذين أسلموا من الشباب وأرادوا في رمضان أن لا يفطروا في المغرب بل يصومون إلى

العشاء لكي يزيد ثوابهم فأنكر عليهم ذلك ، وأراد بعضهم أن لا يتزوج فأنكر عليهم ذلك .

فدين الإسلام ليس دين الغلو ، والعلماء خلال تاريخ الإسلام الطويل كانوا دائماً ضد هذه الفكرة وألفوا فيها الكثير من المقالات ومن الكتب التي هي موجودة ؛ الغزالي ألف كتابين في هذا المعنى : كتاب «إلجام العوام عن علم الكلام» إلجامهم باللجام : أي منعهم ؛ لأن علم العوام هو علم ذو بعد واحد كما يقال ، فلذلك فهم لا يتصرفون ، فحينما يتذكرون فيما بينهم تقوم القيامة ، وقد كانت هناك فتن كبيرة في هذا المعنى .

وعلم العلماء هو العلم الصحيح ؛ لأنهم يعرفون كيف ينظرون في النصوص ، وكيف يؤولونها ، وكيف يشرحونها ، وكيف يقدمونها ، لذلك المسائل الكلامية ، والمسائل الاعتقادية ، والمسائل الشرعية ، يجب أن لا يتكلم فيها إلا العلماء ، والعلماء وحدهم ولا تترك لأي كان ، فهم ذووا الثقافة المتعددة الأبعاد .

والكتاب الثاني : «الاقتصاد في الاعتقاد» في معتقداتنا يجب أن نقتصد ، وأن نبقي عند الذي جاء به القرآن الكريم ، وأن لا ندخل في المتاهات ، المتاهات لا يجوز لأحد أن يتكلم فيها ، يجب أن نكتفي بنصوص القرآن فيما بيننا وفيما عدا المسلمين هناك طرق ونماذج للحديث معهم في شأنها ، فهذا هو الموضوع .

٦- وكذلك هناك الاستشراق ، الاستشراق لا يشك أحد في أنه قدم خدمات كبرى للغة العربية ولل فكر العربي والإسلامي ، ولكن المستشرقين لم يكونوا كلهم في مستوى واحد .

الاستشراق خطاب كتبه الغربيون عن الإسلام للغربيين وقد جاءت فيه أشياء كثيرة جدًا يشكرون عليها، ولكنهم في مقابل ذلك كان مرتبطًا بالسياسة يلجأ إليه لتقديم الفتاوى والنصح والتوجيه باعتبار أن شئون العالم الإسلامي لها علاقة وطيدة بمصالح الغرب، فكان هناك مفتون يدرس القرآن، ويدرسون الحديث، ويدرسون التاريخ ولكنهم عموا عن كل ما هو جميل، ويسبحون في هذا ليتصيدوا بعض الهنات التي لا يخلو منها شعب، ولا تخلو منها حضارة فيأخذونها ويجعلون منها الكثير.

وبهذه المناسبة نتساءل ونحن نعرف أن الاستشراق أنتج كعلم يدرس به الأوروبيون المجتمعات الأخرى، وبه فهموا هذه المجتمعات، وبه استطاعوا احتلالها والبقاء فيها، والانتصار عليها.

وهنا نذكر أن المسألة تقع بين الدارس والمدرّس، الدارس هو القوي الذي يأخذ الموضوع أي يدرسه ويقبله على جميع جهاته ويقول فيه رأيه ويتخذ المناهج التي يريد، ويستعملها ضد المدرّس، فالعلاقة بين الدارس والمدرّس كالعلاقة بين الغالب والمغلوب.

ولذلك نتساءل في هذه المناسبة لماذا لا يكون عندنا علم «استغراب» بالغين أو «استثراب» بالهمزة للغرب أو لأوربا. كثير من الأجيال ذهبوا إلى أوربا ودرسوا فيها ولكن لا يراها إلا من زاويته الخاصة، فتبقى غير مفهومة في شموليتها وغير معروفة في جلها، لماذا لا يكون عندنا نحن علماء «استغراب» يدرسون الغرب ويتعمقون فيه، ويستطيعون أن يجدوا الفتاوى حينما لا تبقى العلاقة بيننا وبينهم على أحسن ما يكون، وحينما نراهم مثلاً فيما يخص الإسلام يأتون بتلك الترهات والأغلوطنات والأكاذيب؟ لماذا لا يكون عندنا مجموعة من المستغربين، تتسع دراستهم

ولا تقف عند الجغرافية ولا التاريخ ولا الفلسفة ولا أي من هذه العلوم الإنسانية بل نوجد لهم مقاييس لننشئ علمًا يكون في مقابل الآخر، ويجعل نظرنا إلى الآخرين تمشي بعيدًا في آفاقهم الحالية وفي أعماق تاريخهم، فلعل هذا العلم تكون له إفادة - بحول الله وقوته - وهذا يجب أن يفكر فيه الجامعيون .

مشاكل الإسلام - إذن - وقضاياها تفهم في إطار الوعي الغربي عند هؤلاء لا كما هي في حقيقتها .

والمفتون الموجهون محكومون في رؤاهم ونظرتهم إلى العالم بقواعد فكرية خاضعة لعقليتهم، ومنطقهم، ورؤاهم وأساليبهم في التحليل والتفسير .

والآن وقد عرفنا الكثير من الأسباب التي تجر إلى الجهل بالإسلام ومعاداته عن غير حق، نكون قد وصلنا إلى نتيجة حتمية، وهي أن تكون لنا منهجية علمية جديدة في الدفاع والإقناع؛ لعرض حقائق الإسلام وتاريخنا، وآدابنا، وفلسفتنا، ولغتنا عرضًا علميًا عصريًا واضحًا، ولتقديم خطاب الإسلام في حلة قشبية يفهمها ويركن إليها، ويقبل عليها المخاطب الغربي، ولذلك نقترح بعض المناهج، وهي :

١- الحرص رغم الواقع المتردي على إقامة حوار فاعل متفهم بناء مع الطرف الآخر، الحوار المتفهم هو وحده الذي يجعلنا نتفاهم مع هؤلاء، وإن كانت هناك ظروف لا تلائم، ولكننا يجب أن نكون أقوياء لنعرف كيف نتجاوز هذه الظروف .

٢- هناك تقديم الدين - كما قلنا - في خطاب خاص منظم وفي ثوب حضاري، وثقافي جديد؛ لأن الخطاب المباشر المجرد يعتبر دعوة وتبشيرًا فيقاوم ويرفض، ولما كان الرفض والتشويه لا ينال الإسلام

وحده بل يتعداه إلى كل المجالات ، فقد صار من اللازم إشراك كل
الفعاليات العلمية ، والفكرية ، والثقافية ، والأدبية ، والسياسية ، والفنية
- حتى الفنية - في هذا العمل ، فهو عمل جماعي يجب أن تجتمع عليه
كلمة المسلمين لتقدم الإسلام من جديد إلى الذين صار همهم الوحيد
هو الطعن فيه .

٣- هناك أيضًا تشجيع البحث العلمي لإنتاج مجتمع المعرفة ، فلا حياة في
المجتمعات الحديثة بدون علم ، والعلم يتقدم ويتطور ، ويجب أن نشجع
علماءنا ، لكي يتجوا ولكي يشاركوا حتى لا نبقى مستوردين مستهلكين
للعلم فقط ، يجب أن نصبح مصدرين له ، وهذا يكون بتشجيع البحث
العلمي في الجامعة مثلاً ، وقد رأينا في السنوات الأخيرة تشجيعاً كبيراً
بالنسبة لما كان عليه الأمر ، ولكن ذلك لا يكفي بل يجب أن يقوى أو
يعطى ما يلزم من الإمكانيات ليقوم علماءنا بعملهم .

وفيما يخص البحث العلمي لعلمائنا ، نقول إنهم كانوا يجتهدون والبحث
العلمي هو اجتهاد علمائه ، والاجتهاد هو المصطلح الإسلامي القديم ،
والباحثون اليوم هم الذين يجتهدون فيه ، وهؤلاء تعجب بهم الجامعات ، والكثير
منهم ينتظرون أن يشجعوا ليقوموا هم أيضًا بعملهم ، وليصبح العلم ملكاً في
بعض أجزائه لنا ، ولنؤثر نحن أيضًا وليذكر من بين العلماء أسماء إسلامية ،
عربية ، شرقية ، كما كانت تذكر من قبل وكما هي قليلة اليوم .

٤- بعد هذا يأتي العمل الديني ، وهو التعريف بالقرآن الكريم ، والحديث
النبوي الشريف ، والتاريخ الإسلامي بطرق مختلفة ذات مستويات
عدة بحسب المتلقين ودرجاتهم في الثقافة والفكر . فلا يكفي أن نقوم
بترجمة للقرآن ونتركها في السوق ، بل يجب أن نسهر على أن تكون أولاً

صحيحة على شكل نرضاه نحن المسلمون ، وعلى أن تقدم في لغة حسنة لكل من يقرأ تلك اللغات . وكذلك يجب أن تضاف لها ملاحق تشرح الموضوعات والاهتمامات الواردة في القرآن . هذا الذي يقرأ القرآن مترجماً قد لا يعرف - إذا كانت له أسئلة - كيف يجد الأجوبة عنها في القرآن ، نحن نتوقع تلك الأسئلة لأننا نعرفها فنخصص له ملحقات فيما يتعلق بشئون المرأة ، انظر الآيات كذا وكذا ، فيما يتعلق بشئون الطفل ، فيما يتعلق بتكريم الإنسان وحقوقه ، وهكذا نرشده إليها . فهذه الملحقات هي التي تكمل العمل وإلا فإنه يبقى بدونها عملاً ناقصاً .

الموسوعات:

كل الشعوب لها موسوعات ، ونحن ليست عندنا موسوعة إسلامية . الموسوعة الإسلامية الوحيدة هي التي ألفها المستشرقون وبذلوا فيها من الجهود ما لا يحصى ، ويرجع إليها العالم أجمع فيما يحتاج إليه ، ونحن أيضاً نراجعها ونلتجئ إليها ولكن يجب أن تكون هناك موسوعة إسلامية يؤلفها العلماء المسلمون - وما أكثرهم تبارك الله اليوم - فالجامعات صارت أعدادها بالمئين وتكاد تصل الآلاف ولا أحد فكر في موسوعة إسلامية حقيقية .

هناك موسوعات بالعربية ولكنها في ٩٥٪ إلى ١٠٠٪ منقولة مترجمة عن اللغات الأخرى ، فقد آن الأوان .

وبهذه المناسبة لتصحيح صورة الإسلام أن نكتب نحن موسوعتنا ، يشارك فيها المغربي ، والجزائري ، والتونسي ، والمصري ، والسعودي ، و كل علماء

الإسلام والمسلمين، ويشارك فيها أصحاب الخطاب، وأصحاب الإشارات والإعلام لكي تأتي على حسب الطرق التي تقبلها المجتمعات التي نخاطبها.

وهذه الترجمة القرآنية التي نريدها تكون ناجحة إن اتخذت لها كل الإجراءات اللازمة بأن يضاف إليها -كما قلنا مثلاً- التعريف بالمقاصد الشرعية الإسلامية التي تمكن القارئ من الوقوف على الإطار العام للشرعية الإسلامية، والتصور الكامل لها تصورًا تحصل به للدارس النظرة الكلية عن الأحكام في أصولها، وفروعها، وفلسفتها، وبواعثها، وأسرارها.

وتكمن أهمية معرفة مقاصد الشريعة في أنها يلجأ إليها حينما تحدث وقائع جديدة، ويحتاج إلى استنباط الأحكام المتفقعة مع روح الشريعة وأهدافها العامة، ومراميها البعيدة لتعطي الإنسان المسلم القناعة الكاملة في دينه وشريعته التي يسعى للالتزام بها، والوقوف عندها، وتحريره لعدم تجاوزها، وهو ما أجمله ابن قيم الجوزية في كتابه «إعلام الموقعين» أو «إعلام الموقعين» - بحسب كيف يقرأ.

قال ابن القيم: «إن الشريعة مبناه وأساسها على مصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل».

ما أبلغ هذا الفقيه وما أروع كلامه بحيث إنه عرف حقيقة الإسلام ولب الإسلام ومقاصد الإسلام في كلمات أستسمحكم أن أعيد قراءتها «إن الشريعة مبناه وأساسها على مصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة

كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسول الله ﷺ أتم دلالة وأصدقها» .

أهمية الإعلام:

٥- هناك أيضًا قضية الإعلام وأهميته، وعند هذا المستوى يظهر السر في ربطنا بين الموضوع وهو «مناهج تصحيح صورة الإسلام» وبين الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ...﴾ في هذه الآية حديث الإعلام والإخبار، وعن دوره الكبير الذي يمكن أن يكون السبب في كثير من الشر، وفي كثير من الحروب، وفي كثير من الأذى إن ارتكز على الكذب ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ﴾ إن ارتكز على الكذب وتشويه الحقيقة، وهذا ما يصيب الإسلام اليوم .

الإعلام؛ أصبحت المعلومات وصنعها -هي اليوم صناعة؛ صناعة الإعلام والمعلومات- وصنعها وتبليغها وتوزيعها السلاح الأكثر فاعلية ومضاء، سلاح بتار يكاد يتجاوز قوة أية قبلة كيفما كانت، وهذا الإعلام وهو -كما نعرف- ثمرة العلوم جميعها، من إنسانية، واجتماعية، وتقنية، وتجريبية تستمد من كل العلوم ومن كل أنواع المعرفة، والتاريخ، وهذه كلها أنشأت علمًا هو علم الإعلام المؤثر الفاعل الذي يخترل الزمان والمكان والمسافات، ويخترق النصوص، والقلوب، وكل أنواع الحصانة التي يمكن أن تكون لأي إنسان ولأي مجتمع، فالإعلام له هذه القدرة

يجب أن ننتبه إليه .

والواجب يقتضي أن يكون حضورنا في مستوى العصر ، وأن تكون دعوتنا بالأدوات المناسبة وأساليبها المطلوبة للخروج بالإسلام من المغلق إلى المفتوح ، ولجعله مشروعًا عالميًا له دوره الكبير في السلام العالمي .

الإسلام جذور وأجنحة :

يجب أن نحيا عصرنا ، ونقول بهذه المناسبة : إن الإسلام جذور وأجنحة .
جذور : لأنه متمكن في نفوسنا ، متغلغل في أحشائنا ، مستقر في ذاتنا ، يكون كينونتنا التي كنا بها والتي سنبقى بها إن شاء الله ، هذا هو الجزء الأول ، مع اتخاذ العلم وسيلة للاتصال بالآخرين ، ولنحيا حياتنا .

وهو أيضًا أجنحة إن نحن عرفناه حق معرفته ، وإن نحن طبقناه حق تطبيقه ، وإن نحن تفهمناه حق تفهمه . فإنه سيكون الأجنحة مع العلم - مع العلم دائمًا - ومع تكوين مجتمع العلم ومجتمع المعرفة ، سيكون الأجنحة التي سنحلق بها في سماء المستقبل إن شاء الله .

إن الذي يهمننا ونحن نواجه التحديات ونعمل لتحسين صورتنا وتبرئتها من الشبهات والتشويه هو أن يفهمنا الآخر حق الفهم ، وأن نكون معه في وئام ، نحن دعاة سلام ، لا دعاة حرب ، ولا دعاة شر ، ولا دعاة أذى ، نحن دعاة السلام والوئام ، أن نعيش وإياه في جو يسوده التسامح وينعم بالتصالح والتقدير المتبادل والحوار الهادئ البناء .

وإذا ما نجحنا في ذلك ، فإن الله سبحانه وتعالى ﴿مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ﴾ [الصف : ٨] هذا النور الإلهي الذي يهز المشاعر والجوارح ،
ويسير في الحنايا والجوانح ، فتتزاح الحجب ، ويغمر الكون من كل جانب ،
وتتمتع الإنسانية بنور الإسلام ، ونور القرآن ، اللذين هما من نور الله .

نور من القرآن والسنة

٣٥٦

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المحاضرة السبعون	٧
مقومات العبادة وفوائد العبودية في الشريعة الإسلامية	٧
ويدور الكلام حول محاور ثلاثة	٨
المحور الأول	٨
الحديث عن خواتيم سورة الذاريات	٨
معاني كلمة الخلق	٨
معنى كلمة الجن	٨
معنى كلمة الإنس	٨
معنى العبادة	٨
ما اشتملت عليه الآيات من أساليب	٨
المحور الثاني	٨
المقومات الأساسية للعبادة في الشريعة الإسلامية	٨
أولا : الالتزام التام بتنفيذ شرع الله سبحانه	٨
مجال العبادة في الإسلام	٨
من مقومات العبادة : الإخلاص	٨
فوائد العبودية في الشريعة الإسلامية	٨

- العبودية سبيل إلى السعادة الروحية ٨
- والعبودية تؤهل الإنسان إلى السعادة الأبدية ٨
- المحاضرة الحادية والسبعون ٨
- الفطرة أساس التربية الصحيحة في الإسلام ٨
- تخريج الحديث ، والكلام على رجال إسناده ٨
- الكلام على متن الحديث ٨
- معنى الآية ٨
- الإنسان مخلوق على فطرة هي الحق ٨
- الناس مفطورون على حسب الدين ٨
- معاني النطفة ٨
- اليهودية والمسيحية انحرفتا عن دين الفطرة ٨
- أدلة محافظة الإسلام على الفطرة ٨
- الفطرة مرتبطة بالنفس والعقل والعلم للإنسان ٨
- الفطرة تقتضي الأمانة ٨
- الفطرة تتغير بالتربية والتعليم ٨
- المحاضرة الثانية والسبعون ٨
- سماحة الإسلام مع غير المسلمين ٨
- شرح الآية الكريمة ٨
- منهج يسير عليه المؤمنون في كل زمان ومكان يتلخص في آيتين ٨

٨	الآية الأولى :
٨	الآية الأخرى
٨	ما نتعلمه من الآيات
٨	الفرق بين الجهاد والإرهاب
٨	المحاضرة الثالثة والسبعون
٨	الوسطية من خصائص الأمة الإسلامية
٨	الوسطية هي ركيزة خصائص الأمة الإسلامية
٨	الدلالة الاصطلاحية
٨	الوسطية منهج شامل
٨	العلاقة الروحية بين المسلم وبين الكون
٨	الوسطية في الشعائر التعبدية
٨	الوسطية في السلوك الإنساني بين حظ الدين وحظ الدنيا
٨	الوسطية في الدعوة
٨	التبشير والتيسير
٨	الوسطية في التجديد والاجتهاد
٨	الوسطية في الأحكام
٨	الوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٨	الوسطية في التفاعل الحضاري
٨	الوسطية في رعاية فقه الاختلاف

- ٨ المحاضرة الرابعة والسبعون
- ٨ مقاصد البعثة المحمدية
- ٨ عبادة الله وحده
- ٨ التزكية
- ٨ رحمة الله الواسعة
- ٨ المقاصد التشريعية للبعثة المحمدية
- ٨ الأمر بالمعروف
- ٨ النهي عن المنكر
- ٨ الخبث الذاتي
- ٨ الخبث الحكمي
- ٨ إزالة الآصار والأغلال
- ٨ المحاضرة الخامسة والسبعون
- ٨ أسس الاستقامة في منهج الفكر الإسلامي
- ٨ المقصود بالاستقامة أمران
- ٨ التوحيد
- ٨ التوحيد حرر الإنسان من هواه ومن عبودية الناس
- ٨ الطاعة
- ٨ مزايا الاستقامة
- ٨ اصطباع الفكر بالملة التي ندين بها

٨	التطور
٨	المحاضرة السادسة والسبعون
٨	أعظم الفتوح
٨	صلح الحديبية
٨	الفتح المذكور في الآيات هو الصلح
٨	الإسلام والصراعات
٨	المحاضرة السابعة والسبعون
٨	الوقف في القراءات وعلاقته بمعاني القرآن
٨	القرآن كلام الله
٨	القرآن معجز لفظاً
٨	القراءات وانتقادات المنحرفين
٨	الوقف القرآني
٨	الحديث ودلالته على الوقف
٨	مراتب التلاوة
٨	المحاضرة الثامنة والسبعون
٨	المشكلة الاقتصادية
٨	أسباب المشاكل الاقتصادية
٨	طرق حل المشاكل الاقتصادية
٨	الإصلاح الزراعي
٨	الاستفادة من الماضي

- ٨ خص الله الإنسان بالعقل والقدرة
- ٨ الأمن والاستقرار من عوامل التطور
- ٨ الحروب وأثرها على الموارد
- ٨ المحاضرة التاسعة والسبعون
- ٨ حفظ الأنفس في الإسلام
- ٨ القصاص حفظ للنفوس
- ٨ الحكمة من القصاص
- ٨ حق الحياة للإنسان حق مقدس
- ٨ توفير الحماية لمن استجار بالمسلمين
- ٨ تشريع العقوبات لحماية أرواح الناس
- ٨ المحاضرة الثمانون
- المذاهب الإسلامية بين حقائق الدين ومواقف التاريخ
- ٨ وتحديات المصير
- ٨ سبب نزول الآية
- ٨ الإسلام جاء للناس كافة
- ٨ انقسام الخلافة
- ٨ الجبرية
- ٨ الشيعة
- ٨ المرجئة

المعتزلة	٨
أهل السنة والجماعة	٨
التقريب بين المذاهب	٨
المحاضرة الحادية والثمانون	٨
تذوق حلاوة الإيمان	٨
الإيمان وحلاوته	٨
الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية	٨
حب الله والرسول	٨
الحب في الله	٨
كراهية العودة للمعاصي	٨
المحاضرة الثانية والثمانون	٨
سمات المتقين	٨
المسارعة للخيرات	٨
كظم الغيظ :	٨
الإحسان للمسيء	٨
التوبة وعدم الإصرار على المعاصي	٨
المحاضرة الثالثة والثمانون	٨
حوار الحضارات	٨
الرسائل النبوية للملوك وعظماء الأرض	٨
اهتمام الإسلام بأهل الذمة	٨

- ٨ دعوة القرآن إلى كلمة سواء
- ٨ الحروب الصليبية والاستشراق
- ٨ المحاضرة الرابعة والثمانون
- ٨ العلم والسلم والجماعة أسس الشريعة الإسلامية ودعامتها
- ٨ السؤال الأول
- ٨ أما السؤال الثاني
- ٨ السؤال الثالث
- ٨ نتناول السؤال الأول
- ٨ التمييز في الناس بين عامة وخاصة
- ٨ المراد بالفقه في الدين
- ٨ الاجتهاد
- ٨ فأقول في الملاحظة الأولى مختصراً
- ٨ الملاحظة الثانية
- ٨ الملاحظة الثالثة والأخيرة
- ٨ حفظ الدين وصيانه
- ٨ أما الملاحظة الثالثة
- ٨ الكثرة والتعدد في الشريعة
- ٨ المحاضرة الخامسة والثمانون
- ٨ صفات المؤمنين

اجتناب الكبائر	٨
العفو والصفح	٨
الامثال لأوامر الله	٨
إقامة الصلاة	٨
المشورة	٨
الإنفاق والصدقة	٨
الانتصار للدين	٨
المعاقبة بالمثل وعدم تجاوز الحد	٨
دفع الباغي والانتصار عليه أمر محمود يحبه الله ورسوله	٨
العفو عند المقدرة له الثواب الجزيل	٨
المحاضرة السادسة والثمانون	٨
ذلك الدين القيم	٨
معنى: «حنيفاً»	٨
معنى الفطرة	٨
السنن الكونية	٨
الإسلام هو الدين القيم	٨
معنى القوة في الإسلام	٨
المحاضرة السابعة والثمانون	٨
ضرورة التفقه في الدين لمواكبة سنة التجديد	٨

- ٨ تطوير التفقه في الدين موضوع قديم جديد
- ٨ دواعي تطوير التفقه في الدين
- ٨ الجمع بين ضرورة الدين وضرورة التجديد
- ٨ معنى الدين في اللغة
- ٨ معنى الدين في القرآن
- ٨ معنى كلمة الفقه في اللغة
- ٨ والخلاصة
- ٨ معنى الهدى
- ٨ معنى العلم
- ٨ درجات أهل العلم من حيث تحصيله وتحقيقه
- ٨ الأطوار التي مر بها فقه الإسلام عبر العصور
- ٨ المحاضرة الثامنة والثمانون
- ٨ رعاية الأمانة والعهد
- ٨ الأخلاق القرآنية أخلاق عملية
- ٨ الثقة بالله
- ٨ الأمانة
- ٨ النصيحة
- ٨ رعاية العهد
- ٨ المحاضرة التاسعة والثمانون

٨	التسامح
٨	مشروعية الاختلاف
٨	الاختلاف في المجال الفقهي
٨	مشروعية الحوار والجدال
٨	مراعاة الخلاف
٨	الخروج من الخلاف
٨	المحاضرة التسعون
٨	محبة الله هي العلاج لمشكلاتنا
٨	العبودية ينبغي أن تنبع من القلب والعقل
٨	كيف نحب الله؟
٨	حب الله هو الحل لجميع المشكلات
٨	تطهر القلب عن محبة غير الله
٨	المحاضرة الحادية والتسعون
٨	مناهج تصحيح صورة الإسلام
٨	مواجهة التحديات القائمة
٨	المشاركة الفعالة في المسيرة الفكرية العالمية الجديدة
٨	خطاب غير المسلمين
٨	الموسوعات
٨	أهمية الإعلام

نور من القرآن والسنة

٣٦٨

الإسلام جذور وأجنحة ٨

فهرس الموضوعات ٣٥٧

نور هج القراءة والسنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام بجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء السابع

المحاضرة الثانية والتسعون

القرآن أحسن الحديث

محاضرنا بعنوان : «أحسن الحديث» ، وأحسن الحديث القرآن .

وانطلاقي من الآية : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۖ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ﴾ [الزمر : ٢٣] .

هذه الآية من سورة الزمر ، وهي السورة التاسعة والثلاثون في القرآن ، وفيها خمس وسبعون آية بالعد الكوفي ، واثنان وسبعون آية بالعد البصري .

والآية التي ذكرتها هي الثالثة والعشرون في العد الكوفي ، والثانية والعشرون في العد البصري .

هذا والسورة مكية ، نزلت بحسب ما في «هداية الرحمن إلى ألفاظ وآيات القرآن» بعد سورة سبأ .

ولكن الفقيه محمد بن عبد الله المدني قال : إن الاختلاف كثير في سور ، منها سورة يونس والحجر والنحل والكهف ، ولذلك هو أضرب عن ميعاد نزولها ، ولكنها مكية ، واستثنت منها آيات .

منها : ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۚ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] ، ولكن فيها اختلاف .

لكنهم اتفقوا على أن الآية الثالثة والخمسين : ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] تقنطوا ، بفتح النون وكسرها على حسب القراءتين .

هذه الآية والآيات التي بعدها قالوا : إنها مدنية وبعضهم قال : آخر السورة ، ويعضد ذلك ما في الآيات من تناسب ، وهذه الآية : ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ .

هذه الآية نزلت بالمدينة ؛ لأن وحشيًا قاتل حمزة خاف على نفسه من الذنوب ، وتوسل إلى النبي ﷺ فقرئت عليه هذه الآية .

وهذه الآية أرجى آية في القرآن ، ولكنها لا تغفر الذنب لمن أشرك ، بدليل أنه قال : ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠] ، ثم جاءت هذه الآية من بعد : ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] .

فالذين آمنوا حذف ؛ لأن المخاطب هاهنا هو المؤمنون ، وإذا هم آمنوا فهم غير المشركين ، هذا ما لزم قوله في التقديم ، ثم بعد ذلك نصير إلى شيء من التفسير :

بدأ بقوله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الجملة اسمية ، ابتدأت الجملة اسمية ؛ لأن المراد التنبيه على أن هذا القرآن من الله لو قال : نَزَّلَ اللَّهُ ، تكون الإشارة إلى أن التنزيل حصل من الله والمعنيان متقاربان ، ولكن البدء باسم الله يؤكد معنى أن الكلام من الله ، وهذا هو المقصود في هذا الموضع : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ .

واستعمل كلمة : نَزَّلَ ؛ لأن فيها الشدة ؛ لأن الوحي شديد ، في حديث

الحارث بن هشام أنه : «سأل النبي ﷺ عن كيفية نزول الوحي ، فقال له : أحياناً كصلصلة الجرس ، وهو أشده علي»^(١) ، وعلق ابن حجر وهو الشارح على هذا قال : عن ابن عباس : الوحي كله شديد ، وهو الظاهر . ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ، ولذلك كلمة نزل جاءت مضعفة .

الحارث بن هشام هو أخو أبي جهل بن هشام فر منه في يوم بدر ، ولذلك عابه حسان بن ثابت ، وقال :

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فرد عليه الحارث وقال :

والله إني ما تركت قتالهم حتى علوا فرسي بأشقر مزبد

وشممت ريح الموت من تلقائهم وعلمت أني إن أقاتل أجهد

وعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

فصدت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

هذا ذكرناه ليتم الخبر عن الحارث بن هشام ، فهذا ما كان من خبر الحارث بن هشام ، ومن شدة الوحي ونزوله .

سيويه في كتابه زعم أن أبا عمرو - وأبو عمرو هذا من كبار اللغويين - يفرق بين نزل وأنزل .

الحقيقة أننا نظرنا في كتاب سيويه ، فوجدنا باباً له يقول : افتراق فعلت وأفعلت ، وذكر في باب هذا الافتراق قول الله تعالى : ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف : ٢٣] .

(١) أخرجه البخاري (٢) ، ومسلم (٢٣٣٣) .

قال : لو قال عربي : وأغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ؛ لم يقل ،
وقالت : هيت لك ، ولكن قال : لو قال عربي : وأغلقت الأبواب كان
عربيًا جيدًا ، ثم استشهد بقول الفرزدق يمدح أبا عمرو بن العلاء :
ما زلت أغلق أبوابًا وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار
الفرزدق شاعر ذكي للغاية .

أبو عمرو له رأي في هذا ، وهو أننا إذا نظرنا في القرآن ، وجدنا أنه
يقول : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بَعَايَتَنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] ، بقراءة : (تفتح) بالتخفيف ، ولكن في حفص :
بالتشديد .

في سورة الزمر : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا
جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] ، ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ
زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧١] ، وكذلك قراءة ورش .
ولكن حفص يقرأ : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] (بتخفيف التاء
الأولى) .

فالحقيقة هما بابان : باب فعل ، وفعل ، فكل فعل يمكن أن يكون فعل
(بالتشديد) للتكثير ، أقول : مات الناس ، وموتوا ، ولكن فعل وأفعل
بينهما فرق .

وسيبيوه استشهد ببني الفرزدق في المحليين .

والفرزدق كأنه يريد أن يقول لأبي عمرو : الرأي ليس برأيك :

ما زلت أغلق أبوابًا وأفتحها حتى

لأن الوجه على رأي عمرو أن يقول : أغلق (بتشديد وكسر اللام)
أبوابًا وأفتحها (كذلك) ، ولكنه قال :

ما زلت أغلق أبوابًا وأفتحها

والراجح أن أبا عمرو يفرق بين : أنزل ونزل فقط ، لا بين الأشياء
الأخرى ، ولذلك في كل القرآن يقرأ بالتخفيف في المضارع إلا في
موضعين : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ [الأنعام: ٣٧] ، ﴿وَمَا
نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] .

﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ في سورة الأنعام .

﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ في سورة الحجر .

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أحسن الحديث أي : الحديث الحسن ؛ لأن
كلام الناس لا يوازن بكلام الله ، لا نقول : هذا كلام حسن وكلام الله أحسن
منه ؛ فأحسن هاهنا بمعنى حسن جدًا ، وهذا الاستعمال كثير في العربية .

قال الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة ، والمؤذن في الصلاة يقول : الله أكبر ، ليس معناها :
أن الله أكبر من الناس ، أو من مخلوقاته ، ولكن معناها : أن الله كبير جدًا .

فأحسن هاهنا معناها : حسن جدًا ، وفي : ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ
الَّذِي عَمِلُوا وَبِجَزَائِهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥] .

في نفس السورة ما معناها؟

يجزون بالأحسن ، أما الحسن لا يجزون عليه ، ويجازى الأسوأ ، أما السيئ
لا يجازى عليه .

هو في الواقع أسوأ معناها: سيئ هاهنا، سيئ جدًا، و﴿الْحَسَنَتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ولذلك جاز أن التكفير يكون لكل شيء لكل السيئ، ما يكون سيئًا جدًا، وما يكون دون ذلك في السوء.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] متشابهًا، أي يشبه بعضه بعضًا، ويقوي بعضه بعضًا.

وفي سورة آل عمران التشابه مذكور بمعنى أن يكون في الأمر التباس وغموض: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

المتشابه:

أبو عبيدة في كتاب «المجاز» ذكر هذا الموضع، وأشار إلى أن المتشابه هو الذي يقوي بعضه بعضًا، ويدخل في المتشابه أوائل السور؛ أمثال: ﴿حَم﴾ [غافر: ١]، وأمثال: ﴿الر﴾ [يونس: ١]، وأمثال: ﴿حَم﴾ [عسق] [الشورى: ١، ٢] وأمثال: ﴿وَالَّذِينَ دَرَرُوا﴾ [الذاريات: ١]، ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، وهلم جرا.

هذا كان يسأل عنه، كان بعض المسلمين في أوائل الأمر ممن قد تداخلهم الريبة، أو يريدون أن يمتحنوا الصحابة يسألون عن هذا.

يذكر أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب ما: ﴿وَالَّذِينَ دَرَرُوا﴾؟ وكأنه أراد أن يعجزه بهذا، ويسألون عن أشياء كثيرة من هذا النوع.

من هذا الباب: نافع بن الأزرق -وهو من شيوخ الخوارج- كان يأتي عبد الله بن عباس ويسأله، وربما انتقده، فقال له مرة: لماذا طلب سليمان

الهدهد؟ فقال : لأن الهدهد قناء ؛ أي يرى تحت الماء ، فقال له : قف يا وقاف ، الولد يضع الشرك ، ويقبض الهدهد ، فقال له سيدنا عبد الله ابن عباس : إذا وقع القدر عمي البصر .

وسأله نافع بن الأزرق مرة أخرى ، وذكره البخاري في سورة فصلت ، وأشار إليه بأنه رجل : أن رجلاً سأل ابن عباس قال له : إن الله ﷻ يقول : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥] ، ويقول في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] أو فتنتهم ؛ بفتح التاء الثانية .

فقد نطقوا كيف نتجاوز هذا التناقض ؟ فقال له ابن عباس : إنهم منعوا الكلام ونطقت جلودهم ، وبعد أن نطقت جلودهم : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْكُمْ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : ٢١] فانصرف ابن الأزرق .

وأنا ذكرت هذا ؛ لأن في هذه الآية : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

فالجلد حساس ، وقد يحس قبل أن يلج الأمر في العقل ، والجلد مقتل ؛ إذا احترق جزء كبير من الجلد ؛ فإن صاحبه يموت ؛ ولذلك ابن عباس نبه ابن الأزرق إلى أن الجلد يتكلم يوم القيامة عندما يصيب الخرس سائر الأعضاء .

وهنا : ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ معناه : تتقبض ، مكونة من كلمتين ؛ من قشع ؛ أي زال ، وشعر أي عرف ، فتقبض الجلد ؛ لأنه أحس بشيء يخيفه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] أي خافت ، وإذا القلب خاف فالجلد ينفع بانفعال القلب : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ ﴾

وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿[الزمر: ٢٣].

لين الجلد جاء قبل القلوب ؛ لأن الإنسان شعر بارتياح ، فلان الجلد وانشرح القلب للإيمان .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ أي لين الجلد ، واقتشعرار الجلد من مخافة الله :
﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ هذا هو سبيل الهداية ، أو : ﴿ذَلِكَ﴾ ترجع للقرآن ،
الكتاب الذي فيه هذا ، هو : ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ يهدي به الله من يشاء : ﴿وَمَنْ
يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .

ولا نريد أن نتحدث عن الهداية والضلال والرشاد ؛ لأن هذا باب واسع ، وكل ما نستطيع أن نختصره فيه ، هو قول اللقاني :

وليس مجبوراً ولا اختياراً وليس كلاً يفعل اختياراً

الإنسان مخير في بعض الأمور ، وواع يدرك ما يفعل في بعض الأمور ،
وفي بعض الأمور : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

الآن نتقل إلى : ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ القرآن أحسن الحديث ؛ لأسباب
كثيرة ؛ منها ما قاله البوصيري ؛ حيث قال :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

البوصيري قال :

آيات حق من الرحمن محدثة

محدثة ؛ أي جاءت حديثه ؛ جاءت جديدة ؛ لأن النبي ﷺ هو آخر النبيين ، وهو خاتم النبيين ، ولكن لأنها كلام الله ، فهي من علم الله ، وعلم الله قديم ، وعلم الله من صفات الذات ، لا يغيرها ولا يلبسها ، وهذا باب من التوحيد ؛ لا نريد أن نخوض فيه الآن .

وإنما قال اللقاني مرة أخرى :

متكلم ثم صفات الذات ليست بغير أوبعين الذات

والبوصيري جمع هذه الأشياء في قوله هاهنا :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تجربنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

لم تقترن بزمان ؛ لأنها متصلة بالله ، والله لا يوصف بالزمان .

وللغزالي رحمة الله عليه في هذا الباب كلام واف شاف ؛ لأنه أنكر الزمان ، وقال : إن الزمان نسبي ، هذه الكلمة لم يقترحها «أينشتين» هي موجودة في «تهافت الفلاسفة» للغزالي ، قال : الزمان نسبي ، وتكلم عن نسبية الزمان ، وأظن كلتا الكلمتين وردتا في كلامه : نسبي ونسبية .

هنا نريد أن نقف وقفة عند : ﴿ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣] ، المشركون الذين لم يؤمنوا - ومنهم من عادى النبي ﷺ - اعترفوا بأن القرآن أحسن الحديث ، وبأنه جميل غاية الجمال .

الأخنس بن شريق وأبوسفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام كانوا يلتمسون أماكن في الليل يختبئون فيها يسمعون تلاوة النبي ﷺ ، ولما فطن بعضهم لبعض تلاوموا ، أما أبو جهل فكان صريحاً في كلامه ، قال : أنفقنا

وفعلنا نحن وبنو عبد مناف ، والآن يقولون : منا نبي يكلم السماء ، لن نؤمن به أبداً .

خبر آخر : عتبة بن ربيعة ، وكان من كبار قريش ، وكان من سادة ملتهم ، ذهب إلى النبي ﷺ ، وسمع منه سورة فصلت ، فلما رجع إلى ملأ قريش قالوا : إنه جاءكم بغير الوجه الذي خرج به ، ثم سألوه فطلب منهم أن يخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فلم يقبلوا منه ذلك .

النضر بن الحارث من صناديد قريش قال : إن القرآن ليس بكهانة وليس بسحر ، ولكنه كلام جميل ، ثم جلس ناحية من الكعبة ، يقص على الناس قصص الإسفنديار ورستم وأخبار أساطير الفرس ، وقال : إنما القرآن أساطير الأولين ، فأنا أخبركم بأساطير الأولين ، وهو كان من أشد الكفار كفراً ، ولقي مصرعه بعد بدر الكبرى .

ولكن من المهم في الأمر أنه قص قصصاً يعدها من أساطير الأولين ، ولذلك قال الله في كتابه العزيز : ﴿لَخُنْ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف : ٣] أي سبب حسن القرآن أنه وحي ، وأنه لا ينطق عن الهوى ، وأنه صحيح وصدق ، أما الذي جاء به النضر بن الحارث فهو تلفيق وأساطير .

الوليد بن المغيرة عم أبي جهل ، كان داهية من دهاة قريش ، قال لقريش : إن هذا الموسم أظلكم ، والناس سائلوكم عن صاحبكم هذا ، فما أنتم قائلون فيه ؟ لا تقولوا أقوالاً يكذب فيها بعضكم بعضاً أو يخالف بعضكم بعضاً .

قالوا له : يا أبا عبد شمس ، قل أنت ونحن نأخذ بما تقول ، فقال لهم :

لا بل قولوا أنتم ، وأنا أعلق على ما تقولون ، فقالوا له : نقول ساحر ، فقال لهم : نحن عرفنا السحرة وهذا ليس بنفثهم ولا عقدهم ، ولا بطريقتهم ، فقالوا له : نقول : كاهن ، فقال لهم : هذا ليس بسجع الكهان ولا بحركاتهم ، فقالوا له : نقول : شاعر ، فقال لهم : قد عرفنا الشعر مقبوضه ومبسوطه وأوزانه ، فهذا ليس بشعر ، فقالوا له : ماذا نقول؟ فقال لهم : إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لعذق (العذق : هو جذع النخلة ، كأن جذع النخلة في الماء ، ولذلك تكون مخضرة وطيبة) أو لعذق (وإن أسفله لماء غدق يروي الشجر) ، وإن أعلاه لجنا له عروق داخله في الماء ، وله جنا ، وإن أقرب ما تقولونه فيه ، تقولون : هذا رجل جاء بقول هو السحر ، يفرق به بين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، هلم جرا ، فخرجوا بقوله هذا .

هذا الرجل موصوف في كتاب الله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدر: ١١] الآية في سورة المدر ، قال : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقُتِلَ ۖ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدر: ١٨ ، ٢٥] .

لاحظ : الوصف في القرآن ، وصف لرجل داهية باقعة ، يعرف كيف ينتقد ، ومعاصرون الآن يتكلمون عن العرب أنهم كانوا بسطاء وكانوا سذجاً ، وكانوا لا يعرفون النقد ، وهذه الآية تكذبهم ؛ لأنها تصف لنا شخصاً فكر وقدر ، ثم خلص إلى أن ينفي عن القرآن أنه كلام الله ، وأن يقول : إنه سحر لفظي .

بهذه المناسبة أنا مدرس أدب ، وأستغرب جدًّا من النقاد المعاصرين ينكرون مقدرة الأوائل ، مع أنه لا توجد كلمة من اصطلاحات النقد في اللغة العربية إلا أصلها جاهلي ، يقولون : شاعر فحل ، خبرتنا السيرة أن مطروذاً الخزاعي رثى أحد رجال قريش فقال :

يا ليلة هيجت ليلاقي إحدئ ليالي الشجيات

فقالوا له : لو جئت بأفحل من هذا كان أحسن ، فقال لهم : أمهلوني ، ثم جاءهم بعد أيام بقصيدة فخمة فيها :

يا عين فكى أبا الشعث يندبنه حسراً مثل البليات

وهي قصيدة طويلة فقالوا له : الآن ، قال الشاعر :

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبرا

يقولون : هذا وشي كلام ، هذا كلام محبر ، هذا كلام سلس ، هذا يغرف من بحر ، هذا ينحت من صخر ، هذا طيلسان طبري ، هذا متكلف ، هذا مطبوع .

كل هذه العبارات من صناعة القدماء ، لم يزد المحدثون عليها شيئاً ، فهؤلاء الذين كانوا يضربون القباب للنقاد ، ويكرمونهم ، لم يكونوا سدجاً ، وإنما السدج نحن ؛ لأننا ننسب إليهم ما لم يكونوا عليه .

القرآن يتحدى الكفار:

هذا ينتقل بي إلى أمر يتصل بأحسن الحديث ، وهو أن القرآن تحدى الكافرين ، طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفريات ، فعجزوا .

ولكنهم لم يقروا بالعجز ، فاستنفروا الشعراء ، جاءوا بهم ليتحدوا بهم

النبي ﷺ، تخبرنا السيرة : أن لبيد بن ربيعة ، جلس في الكعبة ، وأنشد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال له عثمان بن مظعون رضي الله عنه : صدقت ، ثم قال :

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال له عثمان بن مظعون : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، فغضب لبيد ، وقال : يا قريش متى حدث فيكم مثل هذا؟

وتنمر الناس على عثمان بن مظعون .

هذا الخبر أهميته أنه يرينا أن شعراء العرب جعلوا يقلدون القرآن .

الأعشى حدثنا عن مأرب ، وعن عاد ، وعن ثمود .

أمية بن أبي الصلت نظم عن الملائكة الذين يحملون العرش ، وعن أشياء كثيرة ، ولكن كلامهم ، كان متكلفاً معسولاً ، ليست فيه الحرارة ، وليس فيه روح الوحي .

الأعشى لأنه شاعر مطبوع شعر بهذا ، وأراد أن يذهب إلى النبي ﷺ ويسلم ، فتعرضت له قريش ، وقالت له : بيننا وبين هذا الرجل هدنة ، وهو يحرم الخمر ، وأنت تحبها ، فإلى عام قابل ، وأعطوه مائة من الإبل ، فأخذها ومات ، لم يكتب الله له أن يلقي النبي ﷺ وأن يسلم على يديه .

والمعري في رسالة الغفران أدخله الجنة بنيته ، الجنة التي صنعها المعري في رسالة الغفران .

هذا ينبغي أن ينبهنا إلى أن العرب في الجاهلية قبل أن يسلموا قلدوا القرآن وحاكوه .

وكثير من علماء أدبنا الآن، ينكرون هذه القصيدة؛ لأنهم يرون فيها ذكر الجنة والنار، وينسون أن الشعراء عاصروا النبي ﷺ، وأرادوا أن يصنعوا أشياء مثل القرآن وعجزوا، ثم بعد ذلك حاول المتنبئون أن يصنعوا قرآنًا، ولكنه لم يوح إليهم فصنعوا أشياء غثة مثل :

والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، ومثل : يا ضفدعة بنت ضفدعين علام تنقّين، لا الماء تكدرين...، واليامة اليامة، دفوا دفيف الحمامة.

وقيل لهم : هذا كلام غث، فقال أحد دهاتهم : كذاب ربيعة خير عندنا من صادق مضر؛ أي هم لم يكن غائبًا عنهم أن هذا التقليد للقرآن غث.

ثم ثبت الناس على الإيمان، وعلى قراءة القرآن، وتعلموا منه النحو، وجوده وعدوا آياته، وعدوا حروفه، وأقبلوا عليه كل الإقبال.

حتى مما يذكر من باب المؤانسة في هذا الباب : أن الحجاج بن يوسف كانت له زوجة فصيحة يقال لها : هند بنت أسماء بن خارجة، من سادات العرب، فقالت له مرة وغاضبته : نزعك الله كما نزع كلا من نصف القرآن، فقال لها : كيف عرفت ذلك؟ فقالت له : من تلاوتك، فقالوا : إن الحجاج كان يقرأ ربع القرآن في كل ليلة، فلا ندرى صحة هذا الخبر.

هذا بعد الفترة الأولى في الإسلام تعلم العرب وافتنوا، ومما تعلموه جعلوا يتفلسفون، فتفلسف بعضهم، وقال : إن العرب كانوا قادرين على أن يصنعوا مثل القرآن، ولكنهم صرفوا عنه.

هؤلاء هم المعتزلة، جاءوا بمبدأ اسمه مبدأ : الصرفة، أي صرف الناس عن تقليد القرآن.

هذا المبدأ لم يقنع حتى أحد رجال المعتزلة ، وهو الجاحظ ، فخرج منه إلى القول بأن القرآن معجز بنظمه .

كلمة النظم غير موجودة في القرآن ، والنظم هو معناه : الترتيب ، والنظم يوجد في العقود .

قال الشاعر يتغزل :

إذا هن ساقطن الحديث كأنه سقاط جنا المرجان من كف

والحبل أو الخيط الذي تنظم به الخرزات ، تسمى نظامًا ، فأقبل البلاغيون يفكرون في النظام ، والترتيب الذي جاء به القرآن .

هذا العمل من عملهم جيد للغاية ؛ لأنه أرانا أصنافًا من البديع ، وأصنافًا من البلاغة ، ولكنه لا يوصلنا إلى معرفة بلاغة القرآن ؛ لأن بلاغة القرآن ليست بشيء آلي ، إنما هي شيء يصل إلى القلب .

قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥] .

فالكلام يخرج من قلب رسول الله ﷺ إلى قلوب المؤمنين ؛ لذلك القرآن شفاء ؛ لذلك القرآن دواء ؛ لذلك القرآن علاج ؛ لذلك وجد فيه الناس أشياء كثيرة جدًا .

مثلاً : إذا ضاع منك شيء ، وقرأت : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، ربما تجد ذلك الشيء .

وإذا قرأت : ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَّا لَفِهُمُ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ [قريش : ١ ، ٢] ، وأنت مسافر ، يدخل في قلبك نوع من الأمان ، على هذه

الدار التي خلفتها .

وإذا قرأت : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ
كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ [الرعد: ٣١] في آيات ، وحدث لشخص إغماء ، وقرأتها
عليه ، فإنه مجرب أن ذلك الشخص سيفيق من الإغماء .

فالقرآن فيه روح من الله لأنه كلام الله ، هذا هو سر إعجازه ، ليس
الترتيب والنظام للكلمات هو سر الإعجاز ، من هذه الناحية ، مع الاحترام
الشديد له .

أخطأ ابن الباقلاني وأخطأ عبد القاهر الجرجاني كلاهما ، حتى عبد القاهر
يستشهد من القرآن بأشياء جيدة جداً ، فإذا جاء للشعر استشهد بأشياء غثة
للغاية .

مثل :

وجداول مثل السيوف لها سواق كالمداد

الصورة حسية ، ولكن ليست جميلة ، فهذا لا أستطيع أن ألج فيه الآن .

المحاضرة الثالثة والتسعون

الخيرية والإخراج للناس مقارنة معرفية لعلاقة الإسلام بالعالم

لا يخفى أن واحدة من أكثر الإشكاليات التي شغلت العقل المسلم على مر التاريخ خصوصاً في القرون الثلاثة الأخيرة هي : كيف نتعامل مع الآخر؟ وقد قدمت كثير من الإجابات تتناول كيف ننظم علاقتنا مع الآخر؟ كيف نتفاعل مع الحضارات الأخرى؟ كيف نأخذ وكيف نعطي؟ وما هي علاقة الإسلام بالآخر؟ هذا السؤال تم تناوله في كثير من الإسهامات والكتب والأفكار والآراء، ولكننا في هذا الموضوع سوف نركز بصورة أساسية على البعد المعرفي أكثر من البعد السياسي أو الثقافي لعلاقة الإسلام بالآخر؛ لأن معظم الإجابات التي قدمت كانت إجابات ذات طبيعة وقتية أو مرحلية أو لمواجهة أزمات حالة وقضايا تواجه مجتمعات معينة استؤنس بالوحي وتم الرجوع إليه لمحاولة إيجاد طريقة معينة للتفكير أو لإيجاد منهج للتعامل مع هذا الآخر.

أبدأ الحديث بتقديم مقدمتين :

المقدمة الأولى: أن القرآن الكريم انتشرت فيه مبادئ ثلاثة، هذه المبادئ تحدد طريقة التعامل معه وتحدد منهج المتعاملين معه.

فأول هذه المبادئ أن رسالة الإسلام رسالة عالمية، بمعنى أنها تجاوزت الرسائل التي أرسلت أو الرسل الذين أرسلوا سابقاً وكانوا يرسلون إلى أقوام محددين رسائل ذات طبيعة حصرية أو قومية.

المبدأ الثاني أن رسالة الإسلام هي رسالة خاتمة ، فهي آخر رسالات السماء للأرض بعد أن نضج العقل الإنساني أنزل الله سبحانه وتعالى كتاباً هادياً .

المبدأ الثالث أن الله سبحانه وتعالى وضع سنة في الكون وهي سنة إرسال الرسل ﴿وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ٢٤] .

هذه المبادئ الثلاثة إذا ما وضعناها معاً سنجد أنها تقودنا إلى خلاصة محددة وهي أن القرآن الكريم رسول دائم لا يحده زمان ولا يحتويه مكان ولا تهيمن عليه فهوم البشر مهما بلغت عبقرياتهم ومهما تمكنوا ومهما تعمقت درجات إخلاصهم وإيمانهم ، بمعنى أن القرآن الكريم قد أوجد نسقاً معرفياً مفتوحاً يستوعب الحادثات والمتغيرات ولا يُستوعب فيها ، فيستطيع أن يشمل كل حادثة وكل ظاهرة دون أن ينقص من معانيه شيء .

وصدق فيلسوف الإسلام محمد إقبال حين قال : «كان أبي يوصيني دائماً ويقول : يا بني اقرأ القرآن وكأنما عليك أنزل» .

كذلك نستطيع أن نستمد أن هذا القرآن الكريم هو كتاب خالد دائم يعطينا من المعرفة والحكمة ما نحتاج إليه لكفاية زمان بشرط أن نلتزم بما قاله الإمام الشاطبي في التعامل معه أن يكون تعاملنا مع القرآن تعامل افتقار لا تعامل استظهار ، أي أن نعود إليه مفتقرين إلى حكمته وهدايته ورشده لا أن نعود إليه لنثبت أفكارنا ونستظهر به على الآخرين نستمد منه ما يرجح أقوالنا وما يؤيد رؤانا المسبقة .

المقدمة الثانية : أن القرآن الكريم خطابٌ للبشرية جميعاً ولكنه خطابٌ على مستويات ثلاثة ، هذه المستويات تحكم تعامل الدارسين والباحثين

معه ، بحيث إنهم يجب أن يكونوا يقظين لاستخدام المنهج المناسب لكل خطاب .

مستويات الخطاب القرآني للبشرية:

المستوى الأول من الخطاب القرآني للبشرية هو مستوى الخطاب التفصيلي الذي يورد الحديث عن موضوعات بصورة تفصيلية أحياناً تكون كمية أو رقمية أو عددية يتكلم عن الربع والخمس والسدس ، يتكلم عن قضايا تفصيلية في الموضوعات الثابتة في حياة البشرية التي لا تتغير كثيراً مثل العبادات ، والأحوال الشخصية ، القيم والأخلاق ، قوانين الأسرة ، الحدود ، آيات الأحكام .

المستوى الثاني من الخطاب هو مستوى الخطاب الذي يتناول القيم والمقاصد وهو خطاب متعلق بكل النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية ، فالقرآن الكريم لم يقدم تفاصيل في هذه الموضوعات ، وإنما أرشد البشر إلى مجموعة من القيم والمقاصد عليهم أن يمثلوها ويعملوا طبقاً لها ويسعوا لتحقيقها ، ولكن عليهم أيضاً أن يحتدوا بفقهم واقعهم وبمتغيرات عصرهم ، فلا يتكلم القرآن عن الكيفيات وإنما يتكلم عن الغائيات والمقاصد انطلاقاً من مجموعة من القيم .

والمستوى الثالث هو مستوى المنهج ؛ لأن القرآن الكريم عندما تعامل مع الطبيعة وعلومها أرشد البشرية إلى منهج ولم يقدم تفاصيل وإنما أمرهم بالسير والتدبر والتفكير والملاحظة والعمل .

أقوال العلماء في تفسير الخيرية:

انطلاقاً من هاتين المقدمتين سوف أحاول أن أعرض هذه الفكرة عبر خمسة تساؤلات أو إشارات :

أولها : كيف فهم سلف هذه الأمة هذه الآية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ؟

إذا نظرنا في التفاسير سنجد أنها في معظمها تتعامل مع هذه الآية كلمة كلمة ، فتبدأ من بداية تعريف ﴿كُنْتُمْ﴾ فتقول : إنها أصبحتم أو صرتم أي أنها حقيقة ثابتة والبعض القليل يقول : إنها فعل ماض ينطبق على بداية هذه الأمة ، عندما جاءوا لتحديد ماذا يعني بالخيرية خير أمة ، تعددت الأفهام لكنها جميعها تصب على معنى جميل أن الخيرية هي خيرية للناس ، فأنتم خير الناس للناس كما يقول الطبري ، وهي خيرية على شروطها كما يقول القرطبي أو كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنها خيرية للناس أو خير الناس للناس .

يقول أبو السعود في «تفسيره» : إنها تعني النفع للناس .

أما الشاطبي فيقول في «الموافقات» : إنها تأتي من الاستقامة في كل حال وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة معتمداً في قوله هذا - أي الشاطبي - على ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شروط الله فيها» .

والشوكاني يقول : إنها خيرية مبنية أو متوقفة على الشرائط ، فإذا تركوا الشرائط زالت عنهم الخيرية .

كذلك تعددت الأفهام أيضًا في تحديد من هم خير أمة أو ما هو المقصود بخير أمة؟

فقال الطبري في «تفسيره»: إن المقصود بها المهاجرون أو الجيل الأول من المسلمين .

أما ابن عبد البر الأندلسي فيقول: إنهم الغرباء في أول الإسلام وفي آخر الإسلام .

الشوكاني والطاهر بن عاشور رحمة الله عليهما يتفقان على أنها خيرية في جميع الأمة ، ولكن الشوكاني يقول: إنها تمتد من أول الأمة إلى آخرها على أنها متفاضلة فيما بينهم ، أما ابن عاشور فيقول: إنها مرتبطة بجميع المسلمين .

ولكن هناك من انشغل بالتعامل مع الخيرية كصفة للمسلمين فأخذ يقارب بينها وبين التفضيل الوارد في حق بني إسرائيل فقال: إن التفضيل إنما ورد قبل ظهور أمة محمد ، أما بعد ظهور أمة محمد ﷺ فليسوا مفضلين عليها كما أورد الطبري وصاحب «أضواء البيان» .

المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

نأتي إلى موضوع أو إلى قضية الإخراج فنجد أن الرازي يقول: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ أي أظهرت وتميزت وعرفت ، ويقول أبو السعود: إنها أخرجت لأجل الناس ولمصلحتهم أي أنه إخراج دائم ، ثم يأتون بعد ذلك لتحديد ما المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجمعون على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تعليل للخيرية أو هو شرط

للخيرية ، أن هذه الخيرية إنما عللت بتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل إن الرازي في «تفسيره» يقول : إن الله سبحانه وتعالى قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان ، قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص بهذه الأمة ، أما الإيمان فهو مشترك مع الأمم السابقة .

هل الخيرية تكليف أم تشريف :

السؤال الثالث : هل الخيرية تكليف أم تشريف؟ هنا نستطيع أن نتحرك طبقاً لمناهج التعامل مع القرآن التي أشرنا إليها في المقدمتين من الدلالة إلى الإشارة ، فبدل أن نقف عند دلالة الألفاظ سوف نتحول إلى ما تشير إليه الألفاظ دون أن نتجاوز دلالته ، إذا نظرنا إلى هذه الآية سنجد أنها تضع للقاعدة الإبيستمولوجيا الأولى لعلاقة المسلمين مع العالم أي أنها تؤسس معرفياً لكيف تبني علاقة الإسلام مع العالم والأحكام الأخرى الواردة في نفس الموضوع ينبغي أن تكون منطلقة من هذه القاعدة أو على الأقل غير متعارضة مع هذه القاعدة .

الخيرية منزلة رفيعة :

الخيرية : ﴿ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ إنما هي مرتبة أو مقام أو منزلة وليست صفة لأنها تحصل ، وليست لصيقة بأمة من الأمم لأن في لفظة ﴿ خَيْرٌ ﴾ فيها تفضيل والتفضيل يقتضي المشاركة مع الآخرين ، هذه الخيرية تستوجب من هذه الأمة الخروج الدائم أو الهجرة الدائمة من ذاتها

إلى الآخر من الأرض إلى السماء ، ومن الماديات إلى الروحيات ، من العصبيات والقوميات إلى الإنسانية عامة هجرة معزولة أو مجدولة مع الرجعة لأنها هجرة من الإنسان وفي ذات الوقت رجعية إلى الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْرُجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨] فهي حالة للخروج الدائم للناس من أجل الناس في سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان أو في سبيل الله ، حال الخيرية هذه تكليف غايته التشريف ، أو تشريف مرتبط بتكاليف ، خروج دائم ولكنه خروج قاصد له غاية وليس خروجاً قومياً أو عنصرياً لانتصار عنصر على آخر أو قومية على الأخرى .

الخيرية مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذه الخيرية ترتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا نظرنا إليه معرفياً سنجد أنه يبني نسقاً مفتوحاً ، نسقاً لا نهائياً ينقل قضية الأمر والنهي من إطار القانون والأحكام إلى إطار الثقافة والمجتمع ، فيؤسس أفقاً واسعاً لا متناهيًا يرتبط بتحديد المعروف والمنكر في علاقة جدلية بين القرآن أو الوحي وبين المجتمع والثقافة ، لذلك قال الإمام علي عليه السلام : «إن أعمال العبادات قطرة من بحر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» .

ويقول أيضاً السيوطي في كتابه «الأشباه والنظائر في فقه الشافعية» : إن للقائم بفرض الكفاية - ليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مزية على القائم بفرض العين ، وعندما عدد فروض الكفايات التي تدخل في هذا الباب شمل كل المهن الإنسانية التي يحتاجها المجتمع ، وتأسيساً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنشأت الحضارة الإسلامية في تاريخها

الزاهر مؤسسة الحسبة كمؤسسة ترعى الشأن العام تتناول كل ما يتعلق بترقية حياة الناس بالمحافظة على أعلى درجات الرقي والنظافة والإتقان في الصنائع والبضائع ، للمحافظة على قيم العدل والشفافية والنزاهة في التجارة ، للمحافظة على الأخلاق العامة في الطرقات والأسواق .

نموذج على الخيرية :

هذه الخيرية أو هذه الأمة التي أخرجت للناس لو عدنا إلى التاريخ وإلى التجربة البشرية سنجد أن خير من عبر عنها رباعي بن عامر في حوار مع كسرى عندما سأله «لماذا جئتم؟ قال : جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة» ، وإذا أردنا أن نترجم هذه الألفاظ أو هذه العبارة إلى لغة حديثة لقلنا : إنهم خرجوا لتحقيق الحرية والعدالة والتنمية الشاملة .

موقع الخيرية :

التساؤل الثالث : عن موقع الخيرية أو موقع هذه الحالة من خيرية الأمة من القانون الدولي الإسلامي؟

على مر التاريخ الإسلامي ظهرت نظريات متعددة تحدد علاقة المسلمين بالآخر ، ابتدأها محمد بن حسن الشيباني فقسم الكون إلى دارين : دار للإسلام ودار للحرب ، وقد جاء الفقهاء بعدها فعرفوا دار الحرب بأنها الدار التي لا تغلب عليها أحكام الإسلام وبعضهم قال : الدار التي يكون غالب أهلها من غير المسلمين ، و بعضهم قال : هي الدار التي يحال فيها بين المرء وبين التعبد الصحيح ، وبعضهم قال : إنها الدار التي تشن حرباً على المسلمين .

ثم جاء الإمام الشافعي رحمته الله وأضاف لها تقسيماً ثالثاً سمي بدار العهد، وقد طبقها في أول ما طبق على أرمينيا والنوبة كمنطقة للتبادل التجاري والإنساني بين المسلمين وغيرهم .

إلى أن جاء الفخر الرازي رحمته الله فتجاوز كل هذه التقسيمات التي هي في جوهرها تقسيمات تقوم على حالة الحرب أو السلم، وقال: إن التقسيم يكون بين دارين: أمة دعوة وأمة إجابة، إن البشرية جميعاً مخاطبة بالقرآن العظيم، وهناك مجموعة منها استجابت فأصبحت أمة استجابة أو أمة إجابة، وباقي البشرية أمة دعوة هم موضوع للدعوة لا تحكم العلاقة معهم حرب ولا سلام، مجال إنساني مفتوح ومن ثم أصبح الأساس في العلاقة مع البشر جميعاً هو السلم وأصبحت الحرب هي الحالة الاستثنائية كأى مجتمع آخر، أما الإسلام فيتعامل مع باقي الإنسانية بأساس السلم وليس أساس الحرب .

المسلمون حاربوا دولاً وليس مجتمعات:

مبدأ آخر انبثق من رؤية الفخر الرازي وهو أن التاريخ الإسلامي يثبت ما لا يدعو مجالاً للشك أن المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى فترة قريبة كانت لديهم تفرقة واضحة بين الدولة والمجتمع، فعندما يحاربون لا يحاربون مجتمعات إنما يحاربون دولاً، العلاقات العسكرية هي بين الحكومات وليست بين المجتمعات، البشر جميعاً إخوة كما قال الإمام علي: البشر إما أخ في العقيدة أو نظير في الخلق .

إلى الحد أن بعض كتب التاريخ تقول: إن المسلمين اكتشفوا البارود إلا أنهم لم يستخدموه لأنه لا يفرق في القتل بين محارب وغير محارب، لا يفرق بين جندي وغير جندي .

وإلى حد أيضًا أنه في أواخر حكم الأيوبيين وأوائل حكم المماليك في عهد العز بن عبدالسلام في مصر عندما غزا لويس التاسع مصر ودخل المنصورة نصح العز بن عبد السلام رحمته الله الحاكم أن يعين حراسة على تجار الفرنجة في الموسكي في أحد أحياء القاهرة حتى لا يتعرض لهم العامة بالأذى والضرر ، إدراكًا منه أن حالة العداء لا تنصرف إلى المجتمعات إنما تقتصر فقط على علاقة الحكومات أو علاقة الجيوش .

كذلك أوجد المسلمون في تاريخهم أوقافا لفداء أسرى المحاربين أو فداء أسرى الأعداء إذا ما أسر هناك وقف يفديه ؛ لأنه حتى في حالة الحروب هناك درجة عالية من التبادل التجاري والثقافي والحضاري .

وقد أورد فتح عثمان ثلاث مجلدات على كيفية التفاعل الحضاري بين المسلمين والبيزنطيين في الفترة التي نقل فيها المسلمون الحضارة اليونانية وهي فترة الحروب .

ثم جاء هانزر برونز في أواخر القرن التاسع عشر وكتب كتابًا من خمس مجلدات عن كيفية انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب أثناء الحروب الصليبية .

السؤال الرابع يقول : هل من المعقول دعوة أمة مثقلة بالمشاكل والهموم مثل حال أمتنا في الوقت الحالي لأن تتبنى هموم الناس ؟ هل هذه الأمة وهي في حال من التراجع الذي نعيشه قادرة على أن تقوم بهذا الدور ؟

أبادر بتقديم بعض الإجابة أنه قد يكون أو قد لا يكون ، آسف !!

ومن قبيل المبالغة القول أن عكس هذا السؤال هو الصحيح ؛ لأن الأمم كما علمنا التاريخ لا تنهض إلا إذا تجاوزت طموحاتها إمكانياتها ولو أثير

هذا السؤال إلى الجيل الأول من المسلمين في بلاد الإسلام لما خرج الإسلام من مكة ولا خرج من الحجاز؛ لأنهم بموازين القدرات بموازين المشاكل لم يكونوا قادرين على حمل هذه الرسالة أو حمل هموم الناس أو الانطلاق لهداية الناس وإلا لتحولوا إلى جماعة عرقية وإلى دين قومي، لكن الإسلام العظيم استطاع أن ينتشلهم، وأن ينسيهم مشاكلهم الخاصة، وأن يعلقهم بآمال كبار، وأن يفتح معهم أفقًا واسعًا؛ لأنهم فهموا أن الإسلام جاء بأجندة جديدة للبشرية، جاء ليغير هموم الناس.

قضايا غير الإسلام بها هموم الناس:

وسأشير إلى ثلاث قضايا أساسية:

القضية الأولى: قضية الرق:

الإسلام جاء ليحرم الرق كما قال العقاد رحمته الله: «إن الإسلام أغلق باب الرق وفتح باب العتق» والرق في ذلك الزمن كان جزءًا من الاقتصاد الكوني، فمجرد التفكير في إلغاء الرق أو القضاء عليه لم يخطر على ذهن أي إنسان في ذلك الزمان بل إنه سيحدث ثورة اقتصادية في العالم.

القضية الثانية: الزكاة وعلاج الفقر:

أيضًا الإسلام جاء في ذلك الوقت وعلمهم أنه جاء للقضاء على الفقر من خلال الزكاة والكفارات والصدقات والنفوس والأوقاف وكل وسائل العطاء في سبيل الله.

وأيضًا كانت هذه الثورة لأنه كان مجتمعًا طبقيًا يقوم على علاقة صارمة بين الغني والفقير.

القضية الثالثة : ميراث المرأة :

أيضاً جاء الإسلام لتحرير المرأة ، فمجرد إدخال المرأة في الميراث في ذلك الزمان كان يعتبر ثورة غير مسبوقه لأنها كانت تورث أو تقتل بعد زوجها ، فالقرآن تعامل مع البشر من خلال وضع أفق واسع لهم أو فضاء واسع لهم ورفع السقف ورفع مقدار الطموحات وفرق بصورة واضحة بين الإمكان الذي يمثل المثال الذي يسعى إلى تحقيقه وبين الممكن أو المتيسر أو المتاح ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ثم يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] وأيضاً في سياق آخر يقول : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ خَرَضٍ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَلْقَتَالٍ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٥] ثم ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : ٦٦] هذا هو السقف الأعلى وهذا هو المتحقق الذي يجب على المسلم ألا يلوم نفسه إذا ما وقف عنده .

الإسلام بهذه الطريقة والقرآن بهذه المنهجية أوجد متوالية للتقدم إذا ما تعلقت النفوس بطموحات عالية ، وإذا ما انشغلت بقضايا كبرى ستجز أكثر وتنخرط في متوالية مستمرة متواصلة من الإنجاز تحقق لها مقام الشهود الذي هو ضرب المثال للإنسانية ببناء مجتمع نموذجي ينظر إليه الجميع ويقولون هذا هو الذي يحقق السعادة للبشرية .

عكس متوالية الإنجاز والشهود ؛ هناك متوالية الانحصار والتراجع ، إذا ما ضعفت الهمم وأصبحت الطموحات قليلة ، وغرقت المجتمعات في مشاكلها لن تحقق حلاً لمشاكلها بل ستراجع وتظهر فيها مشاكل أخرى .

السؤال الخامس والأخير : كيف نكون خير أمة أخرجت للناس ؟

احترام الإنسان أهم قيمة جاء بها الإسلام:

هذا السؤال عسير في هذا الزمن بالتحديد ، حتى نفكر في هذا السؤال علينا أن نبحث في البداية عن أهم قيمة جاء بها الإسلام ، سنجد أن القيمة الأساس الذي جاء بها الإسلام هي احترام الإنسان ، فالقرآن الكريم يبدأ بالحمد لله رب العالمين ويتهي بالناس ملك الناس إله الناس وآخر كلمة فيه هي الناس .

النبي ﷺ آخر ما وصى به في حجة الوداع وصي بالناس ، الاهتمام بالناس ، ليعلم الأمة أن تكون جزءاً من الحلول للناس أو جزءاً من حلول مشاكل الناس وليس جزءاً من أزمت الناس أن تكون جزءاً من الحل لا جزءاً من المشكلة .

نصائح لتقدم الأفراد المسلمين والأمة الإسلامية:

فإذا أرضنا في زماننا هذا للمسلمين في مختلف بقاع الأرض ، إذا نظرنا إلى أقلياتهم سنجد أنهم لو تمثلوا هذه القيم ما سعوا للانفصال عن المجتمعات التي يعيشون فيها انفصلاً سياسياً أو انفصلاً ثقافياً واجتماعياً ، ولسعوا إلى الانخراط في هذه المجتمعات ولكانت لديهم ثقة بالنفس أكثر وحمل هموم مجتمعاتهم وريادة وقيادة لها أكثر .

إذا جئنا إلى مجتمعاتنا الإسلامية بأفرادها ومؤسساتها ومنظماتها المدنية وحكوماتها ، لو حملوا هذه الرسائل أن يكون المسلم أول الصفوف في محاربة الفقر في العالم ، ويكون أول الصفوف في القضاء على التفرقة العنصرية والتمييز ، ويكون أول الصفوف في مناصرة المضطهدين

والمظلومين في الأرض ، ويكون في أول الصفوف في مقاومة انتشار أسلحة الدمار الشامل .

إذا قاموا بهذا واستطاعوا أن يجدوا من المؤسسات ما يعينهم على ذلك حققوا مفهوم الخيرية ، إذا انغلقوا وانحصروا في مشاكلهم فقد تردوا عن هذا المفهوم وتنازلوا عنه إلى أن يستطيعوا أن يحققوا شروطهم .

* * *

المحاضرة الرابعة والتسعون

منهج الوصول إلى الله

وستحدث عن منهج الوصول إلى الله سبحانه وتعالى انطلاقاً من حديث جبريل عن عمر رضي الله عنه : «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءنا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبته إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام ، قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال : صدقت ، فعجبنا له : يسأله ويصدقه ، قال : أخبرني عن الإيمان ، قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن باليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق ثم لبث ملياً ، فقال رسول الله ﷺ ، يا عمر : أتدري من السائل ، قال : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» .

هذا الحديث أخرجه مسلم والراوي هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لقب بأمر المؤمنين وهو أول من حاز شرف هذه التسمية من الخلفاء ، أما أول من لقب بأمر المؤمنين من الصحابة مطلقاً فعبد الله بن جحش ، وقد كنى

رسول الله ﷺ عمر بأبي حفص ، إشارة إلى الأسد ، لكمال شجاعته ومزيد صلابته ، وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي رحمته الله .

روي لعمر رحمته الله عن رسول الله ﷺ خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً ، اتفق الشيخان منها على ست وعشرين ، وانفرد البخاري بأربع وثلاثين ، ومسلم بواحد وعشرين .

مقامات الإسلام :

وهذا الحديث يبين كما هو معلوم مقامات الدين الثلاث : الإسلام والإيمان والإحسان ، فلكل مقام من هذه المقامات منازل معلومة للسائر إلى الله تبارك وتعالى ، لمن يريد الوصول للفوز برضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة ، ولا بد للعبد إذا وفقه الله من مجاهدة النفس مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وسوف نتناول بحول الله في هذا الدرس بعض المدلولات التي تمكن المسلم المؤمن المحسن المقبل على الله من فهم مراد الله سبحانه وتعالى من هذا المنهج .

الوقفه الأولى بعد الإشارة إلى منازل مقامات الإسلام ، فستكون مع المسلم الصحيح العقيدة .

أما الوقفة الثانية بعد الإشارة إلى منازل مقام الإيمان ، فستكون مع حقيقة التوحيد .

والوقفه الثالثة بحول الله ، بعد الإشارة إلى منازل مقام الإحسان .

وقد تحدث علماء السلوك عن المنازل وأعدادها ومصطلحاتها كالإمام القشيري، وشيخ الإسلام الهروي، وشارحه ابن القيم، شيخ السلفية المعاصرة.

منازل الإسلام والمفهوم الصحيح للعقيدة الإسلامية :

الإسلام كما هو معلوم عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملات، وسلوك المسلم في مقام الإسلام بعد الأخذ بالثواب الشرعية، يقتضي التحلي بأخلاقيات ثابتة ومعرفة النفس واكتشافها على حقيقتها وقصورها وحاجتها إلى الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى في كل حين واستحضارها لمدلولات الخطاب الشرعي، وامتحان الحياة أمام كل شخص، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وبما أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

التوبة:

فالمنزلة الأولى: في مقام الإسلام هي التوبة، التوبة النصوح، التوبة بكل معانيها قلبا وقالباً، التوبة كما حددها العلماء، وهي الإقلاع عن المعصية، والنية على عدم العودة إليها، والندم على ما فات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، وقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»^(١).

فرسول الله ﷺ وهو سيد الأولين والآخرين، وقد قال الحق في حقه:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رحمته الله، وأخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رحمته الله بلفظ: «سبعين مرة».

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ومع ذلك كان يواظب على التوبة والاستغفار، ويكثر من العبادة والإنابة حتى تتورم قدماه، فلما سأله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : «لم تفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

عنوان الاستقامة :

وما بعد التوبة إلا المواظبة عليها وكان صادقاً مع الله بسلوكه .

إلا الاستقامة فالاستقامة هي المنزلة الثانية من منازل مقام الإسلام ، وهي مطلوبة في كل شيء ، ويكفي أن الحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله ﷺ أمراً جازماً قائلاً : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] ويكفي أن المستقيمين أنشأ الله عليهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] .

التقوى :

أما المنزلة الثالثة : في مقام الإسلام ، فهي التقوى ، والتقوى ثمرة للتوبة ، وثمره للاستقامة ، والتقوى باب لكل خير ، ووسيلة لبلوغ جميع المقاصد الدنيوية والأخروية ، وضامن لسعادة المرء إن وفقه الله سبحانه وتعالى للتقوى ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ

(١) سبق تخريجه .

وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣٠﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وعندما يتحلى المسلم بمسلكيات التوبة والاستقامة والتقوى، فله أن يدخل في منازل مقام الإيمان، مؤسساً صرح مسيرته الإيمانية على قواعد الشريعة الغراء، واصلاً إلى ترسيخ الركن الأول من أركان الإسلام، وهو العقيدة.

فالعقيدة الإسلامية الصحيحة هي نعمة النعم، وأعظم ما جاد به الخالق الأعظم، فهي المعيار والميزان لكل المثل والقيم في شتى الشرائع والنظم، والأساس الذي يكفل الرقي الديني والديني لكافة المجتمعات الإنسانية، ومن خلالها يدرك الإنسان معاني الوجود ومبانيه، ويكتشف خلفياته ومكوناته، وبدونها يفقد الإنسان كل قيمته، ليصير جهاز هضم متنقل، لا فرق بينه وبين الحيوان، وكلمة العقيدة بالمفهوم اللغوي مشتقة من الاعتقاد الذي هو التصديق بالشيء تصديقاً يقينياً جازماً، ويقال عقد الشيء إذا ربطه وأحكمه واعتقد الشيء إذا اتخذ عقيدة له، عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به.

المفهوم الشرعي للعقيدة:

أما المفهوم الشرعي للعقيدة، فهي عبارة عن مجموعة قضايا الحق البديهة المسلمة عقلاً وسمعاً وفطرة، وقد جاء القرآن الكريم صريحاً في تعزيزها وجعلها القاسم المشترك والقاعدة الخالدة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وليس هناك مجال للكثير من الشروح في هذا المجال ولعدم اتساع الوقت له، ولكلام العلماء المتشعب في مختلف جوانب وفنون العقيدة.

لكن المهم من ذلك أن ندرك أن العقيدة ليست مجرد وجدان داخل الضمير فحسب ، وإنما أيضًا واقع يعاش ومنهج حياة متكامل ، يضيفي على الآدمي من القداسة والنزاهة ما يجعل منه النموذج الحي ، والصورة المثلى للكمال الإنساني الذي حددت معالمه سورة العصر في قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾﴾ وهذا ما جعل القرآن المكي بعمومه يدور في تثبيت أسس العقيدة ، ونلاحظ أن المرء وأيا كان ذلك المرء ، بحاجة تلقائية إلى ما يبرز انتماؤه وهويته وعقيدته على صفائها ونقاها .

ومن هنا نكتشف أن الدين ضرورة من ضرورات الحياة ، ملازم للحياة ، وقد شهد بذلك غير المسلمين ، فالمؤرخ الإغريقي باس مارك يقول : قد وجدت في التاريخ مدنا بلا حصون ولا قصور ، وبلا سدود ولا قناطر ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد .

فهذه المسلمات تلفت انتباهنا إلى أن العقيدة هي باب سلوك المسلم ، وهي أهم ما يتمسك به ، وظلت مركز الدائرة في تاريخ الأديان السماوية ، والقاعدة الأصلية التي لم تتغير بتغير الأنبياء ، ولم تتبدل بتبدل الأزمان ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء : ١٦٣] فوفقت في العقيدة بين كافة الأديان ، ووحدت بين جميع الرسل وبناء على ذلك عدها الفقهاء من الإجماعيات الخمس ونظمها أحدهم قائلا :

ويجمع طرا على التوحيد للخالق المهيمن المعبود
والحفظ للنفس ومال ونسب عقل كذا فصونه وجد

وهكذا فإن العقيدة الإسلامية هي وسيلة الفلاح والنجاح بالنسبة للمسلم ، قال الأئمة : «رب أقوام تنجيهم عقائدهم مع قلة عملهم ، ورب أقوام تهلكهم عقائدهم مع كثرة عملهم» ولهذا لا يرجع في العقيدة إلى اجتهاد المجتهد ، مجتهدين أيا كانوا ، إذ لا يقبل فيها من طريق الاستدلال إلا ما هو الأظهر البين القطعي الورود .

وبقدر ما يتمسك المؤمن المحق بالعقيدة الإسلامية الصحيحة يتسنى له الوصول إلى زيادة الإيمان ، فالإيمان يزيد وينقص ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ ولا تتأتى زيادة الإيمان إلا بثلاث :

- بالإخلاص . - وبالطمأنينة .

- وبالصدق .

وهذه الثلاث هي منازل مقام الإيمان ، فالإخلاص مطلوب ومرغوب في سائر الحركات والسكنات قال جل من قائل : ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥] .

وثمره الإخلاص في القلب هي الطمأنينة ، الطمأنينة بمجاري الأقدار ، الطمأنينة بما يصدر عن الله تبارك وتعالى ، الطمأنينة بكل ما ينوب العبد من أطوار في حياته ، وثمره الطمأنينة والإخلاص هي الصدق ، والصدق مع الضمير ، والصدق في سائر الحركات والسكنات .

قال تعالى :

﴿يَتْلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وإذا اجتمعت هذه المنازل ، واستقرت مميزاتها في قلب العبد المؤمن
تاقت سريرته إلى حقيقة التوحيد .

التوحيد:

والتوحيد لغة الحكم بأن الشيء واحد ، وهو مصدر وحد الشيء يوحد
توحيداً ، إذا أفردته ونفى عنه التعدد .

واصطلاحاً : اعتقاد وحدانية الله تبارك وتعالى ، والإقرار بالكمال
المطلق من كل الوجوه ، ومدرك التوحيد هو قول الله تبارك وتعالى في الآية
التي جمعت بين النفي والإثبات : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] وقوله في السورة الأخرى ، سورة الإخلاص ،
سورة التجريد والتفريد : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١-٤] .

وهذه الآيات على إيجازها تبين مقاصد التوحيد وتبين أن من عمل بها
وتحلى بمضمونها سيكون من أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله ، من نطق
بها اعتقاداً وجزماً ، وعمل بها فيها حالاً ومقالاً وفعلاً ، وافق الفلاح
والنجاح ، وأسس بنيانه على التقوى والهدى .

علم التوحيد:

وعلم التوحيد هو أشرف العلوم ، لأن شرف الشيء بشرف موضوعه ،
وموضوعه الذات العلية ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ
الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ
قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال العلم بالله»^(١) وهو رأس الدين وأساس الملة وفي الأيضاح:

الحمد لله الذي توحيده أجل ما اعتنى به عبيده

قال الجنيد السالك: «أول ما يحتاج إليه المصنوع، معرفة صانعه» والتوحيد قد يكون وهبياً، وقد يكون كسبياً لأن التوحيد الوهبي، هو ذلك الشعور المغروس في النفوس بوجود الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وهو أمر لم تخل ذرة من الاتصاف به، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

أما التوحيد الكسبي فهو العمل بمقتضى الفطرة على أساس قانون الشرع.

وهناك ثلاثة أنواع من التوحيد.

١- التوحيد التقليدي: وهو التوحيد الجلي المجمل المأخوذ من تقليد الوالدين، والمعلمين، والبيئة، نتيجه نفي الشرك الأكبر لا غير، لاعتماد صاحبه على مجرد الإحساس الفطري وتواتر الأخبار، دون معرفة الدليل والبرهان، وهو توحيد عوام المسلمين، وإيمان أهله صحيح على المعتمد إذا أقبلوا على وظائف الشرع.

٢- التوحيد النظري: وهو ما يحصل من اليقين بواسطة الحجج العقلية، والأقيسة المنطقية، كالاستدلال مثلاً بال مخلوقات على الخالق وبالمحدثات على القديم، كما يستدل بالصنعة على الصانع، وبالفعل على الفاعل،

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (١٠١/٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال المناوي في «الفيض» (٢٧/٢): الحديث له شواهد ترقيه إلى درجة الصحة.

وهذا لا يعني أن العقل يبرر العقيدة، لأن العقل محدث، والمحدث لا يهدي إلا إلى محدث، وكم من آيات الله الباهرات التي تصرح بوجود الله سبحانه وتعالى، ولكن سبحانه الله العظيم، سبحانه من أخفى الشئون حكمة، لكي يبين الحظوظ في الجنة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فتدبر ساعة - كما قيل - خير من عبادة سنة .

ومن هنا علينا أن ندرك أن هذا الإبداع البديع الذي يعبر عنه الكون بما فيه الإنسان وهو أهم كتلة في هذا الكون يقود تلقائيًا إلى التعرف والوصول إلى الله تعالى الآن ذلك يحتاج إلى علو الهمة، وقد قال جل من قائل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال أحد الصالحين:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملاء الأعلى إليك رسائل
فقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما سوى الله باطل

وأعود هنا إلى ثالث أنواع التوحيد أشير إليه إشارة عابرة:

٣- توحيد أهل الحديث: الذين يأخذون بمقتضيات العقيدة كما جاءت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وهو معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم، كما جاء عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٢).

وقال أحدهم ناظماً لهذا المعنى :

كان ربنا ولا مكان والآن ربنا على ما كان

وقد حبا الله هذه الأمة بمراتب من اليقين ، لتدرك أهمية التوحيد . ولترسخ الإيمان في نفوسهم ، منها علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين .

وقد ذكرت هذه المراتب في القرآن بآيات تشير إليها لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٥] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا غِيَبَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٧] ، وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الواقعة : ٩٥] ، فعلم اليقين كما ورد في حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، هو إدراك الشيء من غير مشاهدة ، وعين اليقين التي هي العلم به مع المشاهدة ، أما حق اليقين ، فهو المشاهدة .

وقد قال النبي ﷺ : « ما أعطيت أمة من اليقين أفضل مما أعطيت أمتي »^(١) .

وكل هذا يقتضي إثبات اليقين وتلازمه في قلب العبد المؤمن ، ولا يحتاج أهل التوحيد الخاص إلى ذلك لما حباهم الله به ، لأنهم لا يفتقرون إلى الدلائل المسطورة على الأوراق ، لأنهم يدركون بنور الشهود ، الذي يقذفه الله في قلوبهم ، حقائق الإيمان التي أخبر عنها القرآن بقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، وقوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٧ ، ١٨] والله در سيد الشيخين ابن طلبة حيث يقول :

وإذا ما اليقين لازم قلبا جانبته الشكوك والأوهام

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٤٧ / ١) .

ويقول آخر :

الريب لا يزول إلا بالغنى عن الدليل وهو دين الأمناء
إذ ليس باعثاً على أخذ الدليل سوى ارتياباً يعتري القلب العليل
فهذه المراتب التي تحدثنا عنها يشار إليها كذلك في كتاب الله في عدة آيات .

مراتب النظر والتدبر :

فهناك مرتبة عامة ، تخاطب الناس للنظر بالعين المحسوسة ، فترى الصورة العفوية لكون الله سبحانه وتعالى ، ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ٢٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَبَبْنَا وَقَضَبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ [عبس : ٢٤-٢٩] .

ويقول في ذلك : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ٢٩ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ٣٠ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧-١٩] .

وهناك مرتبة أخرى من النظر الأخص ، يخاطب المؤمنين فيها بالنظر إلى ما هو أخفى وأخص كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

وهناك مرتبة أخص من ذلك ، وهي التي يخاطبنا الحق سبحانه وتعالى قائلا : ﴿ سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وخلاصة القول ، أن حقيقة التوحيد لا يصل إليها إلا من حباه الله بالغور في مقام الإحسان ، الذي عرفه رسول الله ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه » .

وهذا المقام - الإحسان - وهو المراقبة والمشاهدة والمعرفة ، ومراقبة الله مع سائر الأنفاس ، من شيم أهل الله الخالص مستحضرين قول الله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد : ٤] ، والمراقبة هي حضور القلب مع الله في سائر الأوقات حيث لا يتصرف العبد تصرفاً لا يتناسب مع الأدب مع الله .

ووسيلة تطبيق هذا المنهج ، المنهج الإحساني ، المنهج الرباني ، في تتبع هذه المنازل ، لا بد أن نعود فيه إلى مدرسة المخلصين أصحاب النهج السني ، والمشيّد بالكتاب والسنة ، الذي حده امثال الأوامر واجتناب النواهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى الرب ، لا من حيث يرضى العبد ، وموضوعه الذات العلية .

الإخلاص الذي وضعه النبي ﷺ من خلال حديثه عن مقام الإحسان ، ومن خلال أحاديث أخرى ، لا يتسع المجال لسردها هنا .



نور من القرآن والسنة

٥٠

المحاضرة الخامسة والتسعون

مفهوم الحرية في الإسلام الأسس والمنطلقات والضوابط

الحرية في الإسلام ، وقد جعلته في مقاطع ثلاثة :

الأول : عرضت فيه الحديث النبوي الذي جعلته منطلق التناول لهذا الموضوع ، وقد ذكرت بعض معانيه وشيئاً من أقوال أهل العلم فيه ، وبعض أهم دلالاته ، وأنه مقدمة متميزة للمبادئ الأساسية القرآنية في هذا الموضوع .

الثاني : تناولت فيه المبادئ الأساسية التي بنى القرآن عليها قضية الحرية ، وقد اقتصر على ذكر أهمها في حدود معرفتي وهي أربعة مبادئ .

المقطع الثالث : جعلته ختاماً .

وقد ألهمت الانطلاق فيه من الحديث الشريف ابتداء ليكون مقدمة لأسس ومبادئ الحرية التي أرساها وشادها القرآن المجيد ، والحديث الذي انطلقت منه هو ما رواه البخاري والترمذي وأحمد وغيرهم عن النعمان ابن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهما وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» .

تخريج الحديث:

وهذا اللفظ هو ما أخرجه البخاري في كتاب: «الشركة» باب: «هل يقرع في القسمة والاستهام فيها» .

وأخرج البخاري من طريق آخر عن النعمان بن بشير أيضًا نحوه بلفظ آخر في كتاب: «الشهادات» باب: «القرعة في المشكلات» ، واللفظ الذي عرضناه من كتاب: «الشركة» صوبه الشعبي واختاره ورجحه الحافظ ابن حجر قال: لأنه يشمل الفرق الثلاث وهي:

- الناهي عن المعصية .

- والواقع فيها .

- والمرائي بذلك أو المدهن كما في الرواية الأخرى .

فالذين أرادوا خرق السفينة بمنزل الواقع على حدود الله ، ثم من عداهم إما منكر وهو القائم على حدود الله ، وإما ساكت وهو المداهن .

وقوله: «استهموا على سفينة» أي: اقترعوها فأخذ كل واحد منهم سهمًا أي موقعًا منها إجارة أو ملكًا .

قال الحافظ ابن حجر: وهكذا إقامة الحدود تحصل بها النجاة لمن أقامها ولمن أقيمت عليه ، وإلا هلك العاصي بالمعصية ، وهلك الساكت بالرضا بها .

من معاني الحديث:

إن هذا الحديث قد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً ، ومن شأن الأمثال أن تنفتح على معان كثيرة ، ويمكن أن تضرب لصور عديدة مما تحتمله ألفاظها وسياقاتها ، على أن لا تغير في حال مضربها عن حال موردها ، وقد استنبط

العلماء من هذا الحديث فوائد جمة ومعاني وفيرة ، ومع ذلك فهذا الحديث - المثل - ما يزال قادرًا على مدنا بالمزيد ، فيمكن أن نضربه مثلاً للأرض ووحدها ، ولسكانها من البشر ، ووحدة مصيرهم ، فالأرض مثل السفينة ، والأسرة البشرية الممتدة مثل ركاب تلك السفينة ، وهذه الأسهم من الأرض التي نطلق عليها أوطانًا وديارًا ، هي أسهم المجموعات البشرية التي جعلت شعوبًا وقبائل لتتعارف وتتآلف وتتعاون على تحقيق العمران في الأرض الذي يعد جوهر مهمة الاستخلاف فيها .

وهذا لا يعطي الحق لأية مجموعة بشرية أن تتعسف في استعمال حقها هذا في الانتفاع ، فتفسد في نصيبها من الأرض بحجة كونه نصيبها أو وطنها ، فذلك لا يعطي الحق في الإفساد وتدمير البيئة أو تلويثها أو تعريضها للخطر ؛ لأن الضرر لن يكون قاصرًا على ذلك الجزء بل سيكون شاملًا في بعض الأحيان للبيت الإنساني الكبير ، ألا وهو المعمورة كلها ، وسيكون ضارًا بالأسرة البشرية بمجموعها .

الحديث يقدم صورة للتضامن البشري :

من هنا يجب على الأسرة البشرية الممتدة أن تتضافر بكل شعوبها وتتكاتف لحماية سفينة الأرض ومن عليها وما عليها من أية أعمال قد تؤدي إلى الإفساد في الأرض ، أو العيث فيها فسادًا ؛ ﴿وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] وهذا الواجب يتناول المجموعات الإنسانية الصغرى في المدن والقرى والأقاليم ، ويتناول كذلك الأسرة باعتبارها الوحدة الصغرى في المجتمع .

فالكل شركاء في المسؤولية عن حماية السفينة كلها ، وركابها أجمعين ولا يغني عنهم أو يرفع المسؤولية عن كواهلهم أمام الله تعالى أنهم لم يشاركوا بإحداث التخریب ؛ لأن الهلاك سيعم الجميع ، فلو أن البشر أدركوا مسئولياتهم نحو سفيتهم الأرض ، والأسرة البشرية الممتدة التي تسكن عليها وتضامنوا للقيام بواجب منع الإفساد في الأرض ، والأخذ على أيدي المفسدين لما كانت أسلحة الدمار الشامل ستظهر أو تنتشر بهذا الشكل المريع الذي جعل مخزونها كافيًا لتدمير الأرض ومن عليها ، وما عليها ولعدة مرات ، وإنهاء الحياة عليها تمامًا ، ولما ظهر الفساد والتلوث في البر والبحر والجو بهذا الشكل الخطير ، ولما كانت ثلث البشرية يعيشون اليوم تحت خط الفقر تفتك بهم الأمراض المختلفة والجهل والأمية والتسلط والحروب .

والحديث يقدم بعد ذلك أساسًا متينًا للتضامن البشري ، والتكامل لمواجهة الأخطار المشتركة صغًا واحدًا ، وإرساء دعائم ما نسميه بالمجتمع المدني ، وتقوية ما هو متوافر من مؤسسات وما ليس بموجود منها لتحمل كل مجموعة بشرية مسئوليتها في تقوية الثغرة التي تقوم عليها ، وحماية السفينة .

قضية الحرية في القرآن :

إن هذا الحديث غزير المعاني ، غني بالدلالات ، قدم به رسول الله ﷺ للأسس القرآنية التي أقام القرآن المجيد عليها بناء أفهمة الحرية ، باعتبارها من أعلى القيم الحاكمة بعد التوحيد ، عليها تتوقف التزكية ، وبها يقوم العمران ، وبها يكون الإنسان إنسانًا .

أما الأسس القرآنية لقضية الحرية فإن الآيات الكريمة التي تناولت هذه القضية تجاوزت مائتي آية ، ذات دلالة مباشرة عليها .

ومع ذلك فإن البعض وهم فادعى أن القرآن لم يتعرض لقضية الحرية ولم يولها اهتماماً ؛ لأنه لم يجد لفظ الحرية وارداً فيه ورود الألفاظ والمفاهيم الشرعية التي عني القرآن الكريم بها ، وأنها حين ورد ما يشير إليها في بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿الْحُرِّ بِالنَّحْرِ﴾ [البقرة : ١٧٨] يأتي في أحكام القصاص أراد بذلك ما يقابل الرق والعبودية بمعناها السائد المتداول آنذاك .

فالحر في الآية قد فسر بأنه خلاف العبد المسترق ، أو أنه من لم يجر عليه استرقاق ، وقد التفت علماءنا قديماً إلى هذه الشبهة وناقشوها ، ومن بين الذين أجادوا في مناقشتها وتفنيدها الراغب الأصبهاني من علماء القرن الرابع الهجري فقال : «إن معنى الحرية غير قاصر على ما يقابل الرق ؛ لأن الحر أيضاً من تملكته الصفات الذميمة من الحرص والشره والطمع في حيازة المقتنيات الدنيوية ، وقبول الدنية من أجل ذلك» .

وأوضح أن العبودية ما يقابل ذلك ، واستشهد بقول رسول الله ﷺ : «تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة»^(١) ، كما استأنس بقول الشاعر :

ورق ذوي الأطماع رق مخلد

وبقول العرب : «عبد الشهوة أذل من عبد الرق» .

كما أن التحرير في القرآن المجيد جاء بمعنى جعل الإنسان حرّاً كما في قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢] ، وقوله تعالى حكاية عن أم مريم : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران : ٣٥] أي :

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

جعلته خالصاً لك ولعبادتك ، فلن يلزم بشيء من أمور الدنيا قد يعيقه عن ذلك .

ومنه تحرير الأسرى وتحرير السجناء بمعنى إطلاقهم من قيود الأسر والحبس ، فالمادة اللغوية موجودة في القرآن والفاظه ، وليست غريبة عنه ، فلا يليق بباحث أن يزعم أنها لم ترد في القرآن إلا في مقابلة الرق بمفهومه الذي كان سائداً عالمياً ، في مرحلة نزول القرآن المجيد .

المبادئ الأساسية القرآنية التي بنى القرآن عليها معالجته لقضية الحرية :
أهمها أربع :

الأول : أن القرآن الكريم بين أن الله تبارك وتعالى قد استشهد الإنسان على نفسه ، والشهادة ولاية ، ليقر بربوبية الله تعالى له وألوهيته ، وليقر بأنه خلق الله تعالى وعبدته ؛ لأن هذا الإقرار هو حجر الزاوية في تأسيس العلاقة بين الله سبحانه وبين الإنسان .

كما أنه شديد الأهمية في تأسيس العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والطبيعة ، وهذا الاستشهاد من الله تعالى والإقرار من الإنسان هو ما دلت عليه آيات العهد .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف : ١٧٢-١٧٤] .

القاعدة الثانية : بعد أن تم تأسيس العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان تولى جل شأنه أمر تخيير الإنسان بين أن يكون مطبوعاً على التحرك التلقائي وفق النظام الكوني وبين أن تكون له حريته الذاتية .

وقد أوضح الخالق سبحانه أن صفة هذه الحرية أن تكون أمانة بين يديه ، عليه أن يحفظها ويصونها ، فهي أمانة الاختيار ، وجعل الإنسان مختاراً أو أمانة الحرية أعطي بمقتضاها أن يختار ما يريد من حالات نشاطه الفردي والإرادي إيجاباً أو سلباً ، وأنه سوف يكون مسئولاً عن نتائج استعماله هذه الأمانة بين يدي الله تعالى في يوم الدين يناله ثواب الطاعة ويصيبه عقاب المعصية .

وهذا ما دلت عليه آية الأمانة وفصلته آيات الوعد والوعيد : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

وقد اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في معنى الأمانة فذكر الطبري أقوالاً كثيرة في ذلك ، وعقب عليها بقوله : «إن أولى الأقوال بالصواب ما قاله الذين قالوا إنه عني بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس كذلك» .

أما ابن العربي فقد قال في «أحكام القرآن» : «إن الأمانة فيها اختلاط كثير في القول لبابه في عشرة أقوال» سردها جعل التاسع منها الطاعة وعاشرها التوحيد .

وقد استعرضنا أقوال مفسرين آخرين منهم النيسابوري بهامش الطبري والبيضاوي والرازي والطوسي والطبرسي والكشاف والقرطبي وابن كثير

والألوسي والشوكاني ، فلم نجدهم يخرجون عما ذكر الطبري وابن العربي ، أما ابن عاشور فقد أبرز معنى ورد ضمناً لدى ابن العربي والطبري وهو أن المراد بالأمانة العقل وربط بين هذا وبين الاستخلاف ، ونبه إلى أن المتبادر من سائر المحامل أن يكون المراد بالأمانة حقيقتها المعلومة وهي الحفاظ على ما عهد به ورعيه ، وعدم التفريط فيه أو إضاعته .

وعزز بهذا اختياره أن يكون المراد بها أي بالأمانة العقل وقال بأن بقية التفسيرات للأمانة تعتبر من قبيل ذكر الأمثلة الجزئية للمعاني الكلية ، وأهم لوازم العقل الاختيار والمسئولية .

فالحرية إذن فطرة فطر الله الناس عليها ، والأمانة على هذا هي التوحيد الذي اختاره الإنسان وأقر به ، والتزم بالمحافظة عليه ، والعمل بمقتضاه ، وذلك ما تضمنه عهد الاستخلاف في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] فالتحديد الأدق والكلي الذي نخرج به من كل هذا أن يكون المراد بالأمانة حرية الاختيار القائمة على تأسيس العلاقة بين الله والإنسان ، وقد منح الله الإنسان العقل ليكون أداة ووسيلة لا غنى عنها لممارسة حرية الاختيار والحيلولة دون إساءة استعمالها .

ونستأنس لهذا بقول ابن رشد الأندلسي : «إن جميع الموجودات تطلب غايتها بالحركة نحو المبدأ الأول ، وهي الحركة التي تطلب بها غاياتها التي من أجلها خلقت وذلك أما لجميع الموجودات فبالطبع ، وأما الإنسان فبالإرادة ، ولذلك كان مكلفاً من بين سائر الموجودات ومؤتمناً بينها» ، قال : وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ .

هذا وقد جاءت أقوال كثيرة في المراد من السماوات والأرض والجبال هل المراد أعيانها أو أهلوها ، هل هي على الحقيقة في أي منها ، أو أنها استعارة أريد بها تعظيم أمر الأمانة وبيان خطورتها ، لا نطيل بذكرها ، وكذلك اختلافهم في وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول ؛ لأن الذي يهمننا في الأصل تحديد مفهوم الأمانة لعلاقته ببيان هذا المبدأ الذي ذكرنا .

المبدأ الثالث : أن قبول أمانة الاختيار هي مناط المسؤولية الإنسانية ، فالمكره أو المجهور لا يحتمل مسؤولية ما أكره عليه ، أو ألجئ إلى فعله ، ولذلك فإن مسؤولية الإنسان لا تتجاوز مجال حريته ولا حدودها ، ومن أروع ما جاء في القرآن الكريم ، تلك المقارنة المعجزة بين الإنسان الذي تسلب منه حرية الاختيار ، وبين عباد الله الذين شاء الله تعالى لهم أن يكونوا أحراراً ، هذه الآيات الكريمة من سورة النحل :

يقول جل شأنه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٧٦] ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٧٧] وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [النحل : ٧٤-٧٦] .

ثم يأتي بعد ذلك قوله جل شأنه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] لتؤكد أن الإنسان قد زود بقوى الوعي ليكون قادراً مسؤولاً حرّاً ذا إرادة ومشية له عقل ، وهو ما أطلق الإمام الغزالي

عليه قوله : «إنه رسول من داخل ، وإن الرسل رسل من خارج ، فإذا انتقصت حرية الإنسان انتقصت مسؤولياته بقدر ما نقص من حرите» .

الرابع : وهو يؤكد ما سبق ويزيده وضوحاً أن القرآن المجيد قد ربط مسؤولية الإنسان وبنائها على حرية الاختيار ، لكنه لم يترك الإنسان منفرداً وحرية الاختيار وحدها ، بل ليعطي لحرية مداها الكامل ، ولتكون حرية مسئولة ، بنى تلك المسؤولية على إرسال الرسل فقال : ﴿لَعَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] ، وقال : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء : ١٥] .

وجعل العقاب شخصياً فلا يعاقب امرؤ بجريمة إنسان آخر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ [النجم : ٣٩-٤١] ، وربط سبحانه الجزاء بالإحسان أو الإساءة : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم : ٣١] ، وحرّم سبحانه على نفسه الظلم ، ونفاه عن ذاته العلية نفياً مطلقاً ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وربط كل ما أمر الإنسان به أو نهى عنه بوسع الإنسان وطاقته لتحقيق العدل الإلهي المطلق معه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا﴾ [الطلاق : ٧] أي من الطاقة والقدرة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] . فلا يكلف الله أحداً إلا ما يقدر عليه ويطيعه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] .

وترك جل شأنه الإنسان فيما يسأل عنه ومشيتته ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ^ط
فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ^ط إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وأعمل
إرادة الإنسان وأعطاهما الفاعلية في مجال الاختيار ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ
عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مَذْهُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وفرق سبحانه في المسئولية بين جزاء الخطأ وجزاء العمد، كما فرق بين
خطأ الإهمال والخطأ المقصود، وبين الإصرار على الخطأ والاستمرار فيه
وبين التراجع عنه والتوبة منه.

ورفع سبحانه الإثم والمسئولية في حالة الإكراه الذي يسلب الإنسان
حرية الاختيار، وكما أشرنا بقدر ما ينقص من الحرية تنتقص المسئولية،
وفي جريمة الزنا فرق القرآن بين المالك لحرية ومنقوصها، فجعل على
الأمة نصف ما على الحرة المسئولة من العقاب، لانتقاص حريتها قال:
﴿فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَقَلَيْتَ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ
مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

وتدخل في إطار هذه المبادئ: الحريات كلها: حرية العقيدة، وحرية
العبادة، وحرية التصرف، وحرية التملك والارتحال والإقامة وسواها.

فهذه أربع دعائم أرساها القرآن المجيد ليني عليها المفهوم الدقيق
للحرية الإنسانية المنضبطة فلا تفريط ولا إفراط، وقد بدت الحرية بعد

ملاحظة هذه الدعائم ، واحدة من أهم القيم القرآنية الحاكمة التي تقوم عليها المنظومة الإسلامية كلها .

وهذه الدعائم الأربع من الممكن أن يتسع البحث فيها ويستفيض ، ليقود إلى بناء نظرية إسلامية في الحرية ، تنقذ الحرية من كل ما يتهدها ؛ بل تنقذ البشرية من كم هائل من الانحرافات ، وللبناء عليها والتفريع والتفصيل فيها .

تفريعات على المبادئ الأساسية التي بنى عليها القرآن معالجته لقضية الحرية :

فأولها : استشهاد الإنسان على نفسه في أعظم أمر في الوجود ، ألا وهو الشهادة بالتوحيد .

وثانيها : عرض الأمانة عليه وتخييره فيها لممارسة دوره في الاستخلاف بطوع واختيار ، لا بالتسيير والتسخير ، ولأنه قد اختار التخيير على التسيير والتسخير لئلا يكون كبقية المخلوقات فقد أمر أن يتصرف في هذه الأمانة بحققها .

وفي القرآن المجيد البيان التفصيلي لمفهوم حمل الأمانة بحققها ، وفي سنن رسول الله ﷺ التطبيق العملي الواقعي لمفهوم حمل الأمانة بحققها ، لا يتسع المقام لبيان ذلك كله .

ويكفي أن نذكر بإرساء رسول الله ﷺ في مجتمع المدينة دعائم الشورى والمساواة والعدل والتكافل الاجتماعي والانفتاح على الإنسانية كلها .

وثالثها : أن قبول الإنسان الأمانة قد جعل الإنسان مكرماً يحمل المسؤولية التامة عن سائر المسخرات من حوله ، ليستخدمها في أحسن ما خلقت له ، مع

منحه الحرية في التصرف المسئول ، ومنع الآخرين من تقييد هذه الحرية إلا بحقها ، الذي نبه إليه المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ ، فالتعالى على الإنسان أو سلبه حريته بدون مسوغ شرعي تدمير للإنسانيته ، وإلغاء لدوره في الوجود ، ولذلك قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص فاتح مصر وواليتها حين اعتدى ولده على قبطي وتعالى عليه : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» كما بدا لنا الترابط التام بين الحرية والمسئولية ، فالمسئولية توجد وتنعدم ، وتزيد وتنقص ، وفقاً للحرية وتبعاً لها .

وفي الرابع من هذه الدعائم لاحظنا كيف أوضح القرآن الكريم للناس مجموعة كبيرة من الأسس التي تمكن الإنسان لو تمسك بها من ممارسة الحرية بدون أعراض جانبية ، فهي لا تشكل قيوداً على الحرية بقدر ما تشكل ضوابط تحمي الحرية من سوء الاستعمال أو التعسف في استعمالها .

خاتمة:

إن إشكالية الحرية تعد من أهم الإشكاليات الفلسفية التي شغلت الفلاسفة والمفكرين وما زالت تشغلهم حتى يومنا هذا ، من غير أن يتمكنوا من الوصول فيها إلى التوازن الدقيق ، وهذا هو القرآن الكريم يقدمها للبشرية بيضاء نقية ، بشكل يستوعب هذه الإشكالية ، ويتجاوز سائر الأعراض الجانبية التي صاحبت - ولا تزال - ممارسات الإنسان للحرية .

إن المسلمين لن يستطيعوا وهم في وضعهم هذا أن ينافسوا الغرب في صناعة أو تقنية أو زراعة أو قوة ، لكنهم يستطيعون أن يكونوا شركاء له بما يستنبطونه من حلول لمشكلات العالم المعاصر من هذا الكتاب الكوني

المجيد ، فلا كتاب كونيا على وجه الأرض سواه ، يستطيع أن يقدم الحلول
الناجعة لمشكلات عالمنا المعاصر ، ولكن القرآن يحيا بين جهل أبنائه وعجز
علمائه ، وتجاهل البعيد له ، وسوء فهمه .

* * *

المحاضرة السادسة والتسعون

كونية نظام الأسرة في عالم متعدد الخصوصيات

أستهل الحديث بالتعريف بالتناول المعتمد في العلوم الاجتماعية في موضوع الأسرة، وفي هذا الخصوص اسمحوالي أن أقول بين يديكم إن الأبحاث نبهتني إلى استجلاء عدد من الاختلالات التي طالت منهجية مقارنة الأسرة، وأختزلها كالتالي :

فلعل أخطر خلل اعتور منهجية العلوم الاجتماعية الحديثة هو فلقها أي تكسيرها لنواة الأسرة، وذلك بسبب معالجة مشاكل كل عضو فيها على حدة، بمعزل عن باقي أعضائها وبعيداً عن انتماؤه الأسري بحيث سحبت المرأة والطفل مثلاً من الأسرة وجعلت الأسرة خصماً لهما وبالنتيجة عولجت كل مشاكلهما من خارج الأسرة لا من داخلها وعولجت بشكل مجزأ، وهذا أخطر ما في الأمر، وبذلك تفرق أعضاء الأسرة شيئاً لا جامع بينهم سوى الإحساس بالظلم والمنافسة والتوجس وتبادل الاتهامات .

وأما الخلل الثاني في المنهاج الحديث فتمثل في تجزيئه لقضايا ومشاكل الأسرة وافتقاده لنظرة شمولية في موضوع الأسرة، وأوجه الاختلال متعددة، اسمحوالي أن أختزلها في بضع منها :

من بين هذه الاختلالات : غياب التنسيق بين مختلف مشارب العلوم، ومنها : معالجة القضايا بشكل تجزيئي ودون تحديد أوجه التفاعل المفترض بينها ودون تصور التداعيات الناتجة عن الحلول التجزيئية المقترحة .
ومنها أيضاً : عدم استجلاء الأسباب الحقيقية لتمزق الأسرة .

ومنها أخيراً وليس آخراً : عدم رصد المقاصد البعيدة المبتغاة وأهمها تماسك الأسرة .

وثالث خلل في المنهاج الحديث تمثل في : اعتياده العقلانية المتطرفة واللادين ، فكما لا يخفى عليكم فالإيديولوجيات الغربية في رحلتها الاندفاعية للتمرد على الكنيسة وجبروتها تمردت في واقع الأمر على القيم الدينية دون أن تميز بين ما يعتبر دينياً وخادماً للأسرة وبين ما يعتبر مجرد تعسف من الكنيسة .

ورابع خلل تمثل في : نبذ الأخلاق والقيم والآداب ، إذ من تداعيات الحداثة المادية تبرؤ الفكر من الثوابت التي كانت تنظم التزاوج والمعايشة .

وبما أن الأسرة مكان لغرس القيم والأخلاق ، ونقل هذه القيم والأخلاق من جيل لآخر فإنها كانت المستهدف الأول بمعول الحداثة المادية .

وخامس خلل هو : إدماج الأسرة في القانون المدني ، وكما تعلمون فالقانون المدني يهتم بالمعاملات وبالمراكز والحقوق المالية ، لذلك فقواعده من النظام الخاص وليس العام .

هذه بعض من الاختلالات اختزلتها فيما ذكرت .

وإن الاختلالات التي طبعت المقاربة التجزئية لم تكن بدون آفة وتداعيات ، وسأتوقف عند أهم هذه التداعيات ، وهي :

أولاً : إخراج ثوابت الأسرة من النظام العام :

من تداعيات المسار الذي انتهجته التشريعات الغربية ، متأثرة بطريقة تناول المتبعة في العلوم الاجتماعية ، أن أخرج من منظومة القيم المجتمعية

- وبتعبير القانونيين من دائرة النظام العام - كل من :

العلاقة الزوجية : وذلك لفائدة حرية المعاشرات والممارسات الجنسية غير المقيدة ، باعتبارها حرية فردية لا محدودة ، وضمنت النصوص التشريعية تساوي الجنسين في ممارسة هذه الحرية .

اختلاف جنسي الزوجين : إن الميولات الجنسية التي ظلت عبر قرون طويلة قارة وما خرج عنها ظل يعتبر نشازاً ومنافياً للقيم والنظام العام ، أصيبت بدورها بارتجاج كبير ، فلم تعد القيم تمج تنوع هذه الميولات ولا ميل الشخص لشخص من نفس جنسه . . . والقوانين التي لا تفعل أكثر من تكريس الواقع ، لم تتأخر في إباحة المعاشرات المثلية .

النسب : هوية الشخص وانتماءه الأسري أيضاً كانا من النظام العام ، إلا أن التشريعات الداخلية والأوقاف الدولية أقرت لكل أب أو بالأحرى للأم بالحق في اختيار اسم الطفل دون تقييد بضوابط النسب ، ورخصت لها بحق إلحاقه بنسب أي شخص يقع عليه الاختيار وتغيير نسبه عدد المرات التي تريد .

الإنجاب : استتبع الحرية الجنسية ، وحرية ترتيب آثارها ، تكريس حرية الإنجاب وأنواعه وطرقه ، فأبيح إنجاب الاستبضاع ، والتلقيح النطف من مانح أجنبي ، والإنجاب من رجل آخر حتى والزواج مازال قائماً . . . وتكاثرت بنوك النطف والخلايا التناسلية ، وفسحت حرية التعامل معها بدون قيود ، وموازة مع ذلك ، منحت الأم البيولوجية أو المتأبىة الحق في إلحاق ابنها بمن تريد ورفع نسبه عن من لم تعد تريده حتى لو كان الأب الحقيقي أو الشرعي .

وعلى الجملة ، أفسح المجال واسعًا لتحكم الشهوات والهوى والفردانية والأنانية في العلاقات «الأسرية» أو بالأحرى في المعاشرات بين شخصين أو أكثر ، فترتب عن ذلك تعدد في أشكال «الأسرة» .

ثانياً : إذكاء التنافسية داخل الأسرة :

فكما جعل الصراع والتنافسية أساس العلاقات التي «تجمع» بين أفراد المجتمع ، أكان في مجال الشغل أو العلاقات المجتمعية أو السياسية ... فكذلك تحولت الأسرة بدورها إلى ميدان للتصارع .
وأوجه الصراع متعددة ، نقتصر منها على اثنين جوهرين :

الوجه الأول للصراع : التصارع بين الجنسين :

مع مطلع القرن الفائت ظهرت أيديولوجيا حاملة لخطاب ماركسي يرى في الزواج استلاباً للمرأة واسترقاقاً لها من قبل الرجل .
هذا الخطاب لم يفعل في واقع الأمر أكثر من نقل علاقة التصارع من مستوى الطبقات الاجتماعية إلى مستوى الأفراد «أعضاء الأسرة» .
وذهب المنتصرون له بعيداً في أطروحاتهم ، فزعموا مثلاً أن أول صراع حصل في تاريخ البشرية كان بين المرأة والرجل ، وبأن الاختلاف بين الجنسين ليس طبعياً وإنما هو اختلاف ثقافي وتاريخي مصطنع ، فيه من التحكم بقدر ما فيه من الاستيلاء ، ولا سبيل للخروج من الصراع إلا بإزالة الطبقات الجنسية .

وعلى الطبقة المسحوقة ، أي النساء ، أن يقدن انقلاباً جذرياً للتخلص من استعباد الرجال لهن ... هكذا أذكي الصراع بين الجنسين ، وظلت

ذات الأيديولوجيا مهيمنة على الفكر إلى الآن، وهي لا تتوقف عن اكتساح مزيد من الثقافات، وعن تدويل التصارع.

الوجه الثاني للصراع : السلطة الأبوية :

أما في العلاقة التي تجمع الأب بأبنائه، فقد اختزلتها هذه الأيديولوجيات فيما اصطلح عليه بالسلطة الوالدية، وبكثير من المبالغة جعلت كل سلوكيات الأب ووصايته على أبنائه مرادفًا للتسلط والاستبداد.

الوجه الثالث للصراع : حشر أجسام غريبة في الأسرة :

إن الحكومات تحت ضغط التيارات الفكرية المستحكمة وتحت تأثير العمل الأهلي، أوجدت قوانين ومؤسسات وبنى تحتية تستجيب لذات المطالب، فأنشأت مؤسسات تضم مساعدات اجتماعية، علماء وأطباء نفس علماء الاجتماع، إضافة للنيابة العامة، والشرطة، والقضاء، والجيران والمجتمع المدني... وكل مواطن حيث اكتسب كل هؤلاء حق التدخل في البيت الأسري وأضحوا جميعًا أوصياء على أطفاله، وقبل ذلك كانت وصاية حمائية مماثلة أقرت لجهات عدة على نسائه.

هكذا تحولت مهمة الأجهزة المنشأة للمساعدة على حل مشاكل الأسرة إلى وسائط لتأليب الأبناء على آبائهم والزوجات على أزواجهن، وإلى معامل لهدم استقرار الأسرة.

ثالثًا: الاستخفاف بالالتزامات والتكاليف الأسرية :

إن ارتجافًا كبيرًا عصف بالتوزيع التقليدي للأدوار؛ فمن جهة أدلى الانتصار المندفع لحظوظ وامتيازات المرأة وإعفاؤها من الالتزامات الأسرية

إلى تسلطها ، ومن جهة أخرى أدت الزيادة في تكاليف والتزامات الرجل ، وسحب كل سلطة منه وتطويقه بالجزاءات إلى تجريده من كل صلاحياته داخل البيت الأسري .

وعلى الجملة ، فالإكثار من حظوظ المرأة قادها إلى الانقلاب والاستخفاف بالحياة الزوجية كاملة ، وفي المقابل أفضى تطويق الرجل بالقيود والالتزامات والجزاءات إلى النفور من الزواج مطلقاً .

على أن آثار المنهاج الحديث لم تقف عند هذا الحد بل أفضت إلى تداعي الأسرة النووية بنفسها ، وهذا أخطر ما في الأسر .
وأكتفي بإعطاء بعض المؤشرات :

أولاً : مؤشرات ديمغرافية تبرز مقدار تفكك الأسرة النووية :

يطول بنا الحديث إن حاولنا رصد كافة الانعكاسات التي أفرزتها المقاربة المذكورة ، لذلك سنقتصر على إبراز أخطر الظواهر المؤشرة لتداعي الأسرة النووية نفسها :

- انهيار خطير في الإقبال على الزواج لفائدة المخادنة .
- تراجع ليس أقل خطورة سجل في معدل الخصوبة الذي ينزل في عدد من الدول إلى أقل من (١,٤٪) علماً أن عددًا هامًا من المواليد يزدادون خارج إطار الزواج .

هذا رغم الجهود الحثيثة التي تنهجها الدول المتقدمة لتشجيع الإنجاب ، مستثمرة كافة الوسائل المادية واللوجستية والإعلامية . . .

إذ لما قل الزواج وقل بالتالي الإنجاب في إطاره، لم تتوان السياسات المتوالية عن تشجيع الإنجاب خارجه، برصد ميزانيات لدعم الأمهات العازبات، وعمومًا الأسرة الأمومية.

- كثرة الطلاق في عدد من الدول الغربية، يتجاوز معدل الطلاق (٦٠٪) مقارنة إلى عدد الزيجات المبرمة، بما يفيد أنه من كل زواجين ينتهي واحد منهما على الأقل بالطلاق.

- تنامي العزوبة: وهذا يعتبر في نفس الوقت سببًا ونتيجة داء وعرضًا، فالعزوف عن الزواج وعن الإنجاب وكثرة الطلاق والانفصال الجسدي وكثرة تغيير الشركاء والأخذان وانفصال الشباب عن آبائهم منذ سن مبكرة... كل ذلك رفع من نسبة من يعيشون عزابًا.

- شيخوخة الساكنة، لعل عدم الإقبال على الزواج وعدم الاستجابة لدعوات الحكومة المتلهفة لرفع نسبة الإنجاب، انقلب الهرم الديموغرافي باتساع قمته (عكس الدول النامية)، بما يؤثر لارتفاع أعداد المسنين وانكماش نسبة الشباب، ولم تجد السياسات الحكومية بدءًا من تشجيع الإنجاب ولو خارج إطار الزواج ما دام الحل الوحيد لتفادي انقراض المجتمعات، وتشجيع استقطاب الكفاءات العالية من الدول النامية، لتطويق النقص الحاصل على مستوى الأطر الشابة المؤهلة.

- اضطرابات خطيرة في سلوكيات الأطفال والشباب.

أثبتت دراسات عدة ظهور أعراض على الأطفال والشبان، ظلت حتى البارحة خاصة بالبالغين، من بينها قرحة المعدة، القلق، الانهيار العصبي،

والاضطرابات العقلية، الانتحار... عدا انحراف الأحداث، وجنوحهم إلى الإجرام الخطير (كالقتل الجماعي)... ويستخلص الباحثون الغربيون أن الأطفال فقدوا كل معاني الطفولة وأن أصول التنشئة اختلت اختلالاً لا مزيد على خطورته.

وفي عجالة أعرج على آثار المقاربة الحديثة على الأسرة المسلمة :

إن طريقة تناول قضايا الأسرة وأسلوب الطرح يتوحدان في العلوم الاجتماعية الحديثة بين مختلف البلدان، بما يسمح بالحديث عن عوامة المناهج، إذ كلما أثرت قضية للأسرة إلا وتحتزل في قضية المرأة ومقدار استغلالها من قبل الرجل، مما يدخل النقاش في متاهات لا تفيد منها الأسرة، ولا في الأدنى المرأة.

والنتيجة الحتمية لهذا النهج في تناول هي استعارة ذات التصارع والتنافس، وإهمال مقابل الواجبات والمسؤوليات والالتزامات المتبادلة، وإهمال ليس أقل خطورة للمصالح العليا للأسرة وثوابتها.

كان طبعياً إذن أن تتشابه إلى حد ما الأعراض بين الأسرة الغربية والمسلمة، وأبرز الأعراض بالنسبة للأسرة المسلمة :

- ارتفاع ثوابت التعايش والتساكن .
- ارتفاع مذهل في وثيرة الطلاق بنسبة تلامس (٣٠٪) .
- بدء انتشار سلوكيات الفردانية والحريات غير المنضبطة .
- ارتفاع سن الزواج والعزوف عنه ، تنامي نسب العزوبة .
- استمرار الظلم والجور في حق عدد من أعضاء الأسرة وتحديدًا الأطفال .

- فقد المسنين للمكانة والوظيفة اللتين طالما حظوا بها .

- ارتفاع في وثيرة الأطفال غير الشرعيين .

زاد من تعقيد المشاكل في الدول الإسلامية إحجام الدراسات الوطنية عن إيلاء الأسرة الأهمية التي تستحقها ، وعدم توظيف ما ورد بشأنها من قيم وضوابط تحفظ العشرة ، وعدم إبداء الحلول الملائمة لخصوصيات مجتمعاتنا ، كما ترتب عن ذلك حالة الارتجال أو الانفصام بين الموروث والمستورد فانقلب العمل الفكري إلى حلبة تضاد وصراع ؛ مما أفرز أزمة هوية تتأرجح فيها المجتمعات ومعها النخب بين الالتصاق المتصلب بالموروث وبين التهجيم على القيم والثوابت ومعادة الأسرة الأصلية ولقيمتها .

والحاصل أن ما أنتجته الحداثة المادية ليس نظاماً للأسرة ؛ بل فوضى في المعاشرة وتنويع لأشكال المساكنة بما لا ضابط له ولا انتهاء ولولون .

وأن ما تسعى الحداثة المادية إلى إشاعته وضمان كونيته ليس نظاماً بل فوضى وعشبية .

من هنا كان استعمالنا «في عنوان الدرس» لعبارة نظام الأسرة في صيغة المفرد ، وهذا يؤكد أنه لا يوجد سوى نموذج واحد للأسرة قابل لأن ينعت بالنظام ، هو نظام الأسرة الزوجية ، وهو النظام الذي وضعته الشرائع السماوية مجتمعة منذ وجدت البشرية ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء : ١] ، ثم جاءت الشريعة الإسلامية لإتمام بنائه وإحكام ضوابطه وقيمه ، أما ما عداه من أشكال عشبية لا لون لها ولا نظام ، فمجرد فوضى يتعالى عنها نعت «نظام» .

تحليل المنهج الشمولي الإسلامي وتطبيقاته على الأسرة:

وأنقل إلى تحليل المنهج الشمولي الإسلامي وتطبيقاته على الأسرة ، وسوف أستهل الكلام فيه بإبراز المعاني التي تتضمنها الآية الأولى من سورة النساء التي جعلتها منطلقاً للدراسة ، وبعد ذلك أستعرض الأصول الكبرى المؤطرة للأسرة .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

سورة النساء ثاني أكبر سورة ، وأكثر السور من حيث حجم الأحكام المنظمة للحياة الأسرية والاجتماعية ، بدأ نزولها مباشرة بعد الهجرة إلى المدينة لغاية التأسيس للأسرة المسلمة المتينة وتجديد لبنات النظام الداعم لها ، بحيث ظلت «مفتوحة» لسنوات تحتضن الأحكام لبنة لبنة وبالترتيب الذي يتناسب والمقام ومستوى استيعاب المخاطبين .

والسورة جاءت على شكل زمر من الأحكام المترابطة المتكاملة فيما بينها ، كل حكم يشكل قاعدة لا غنى عنها لتأسيس الأسرة والجماعة المسلمة على أسس صلبة ، ولا ندعي أنها شملت كافة الأحكام المؤسسة والضابطة للأسرة ، بل كملتها سورة أخرى ؛ أهمها : سورة الطلاق والتي يسميها المفسرون بـ«النساء الصغرى» لكثرة ما تضمنته من أحكام الأسرة ، سورة البقرة ، سورة المائدة ، وسورة النور ، وسورة الأحزاب ، وسورة المجادلة ، وسورة الممتحنة ، وسورة التحريم ، وسورة التوبة .

ولتأمل في الآية المذكورة جزء جزء، وهي تحمل قواعد وأحكاماً أخلاقية وتشريعية لا مزيد على ضبطها :

- ففي قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ : الخطاب هنا كوني موجه للناس كافة ، وليس للمسلمين وحدهم ، وبذلك سيبين الخصائص الأزلية للأسرة في الجزء الثاني من الآية وآيات أخرى من نفس السورة إلى جانب آيات عدة وردت في السور المشار لبعضها أعلاه .

- وفي قوله تعالى ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ : الملاحظ هنا ربط بناء الأسرة بالتقوى واحترام حدود الله كما سنهنا في الشرائع السابقة والشرعية الخاتمة ، وتفتح السورة بالدعوة لتقوى الله ، ثم يتكرر ذات الأمر باتقاء الله في نفس الآية بما يدل على أن أحكام الأسرة حقوق لله ، أي من النظام العام .

- وفي قوله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ : توقف المفسرون ملياً عند تأنيث لفظ النفس ، وذهبوا إلى أنه يؤنث لو عني به ذكر ، وإن كان يجوز فيه الكلام «من نفس واحد» ، وهذا على مراعاة المعنى كما جاء في «تفسير القرطبي» ، والتأنيث هنا له دلالة غير خافية تؤكد آيات عدة كلها تكريم للأنثى .

- وفي قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ : أي خلق زوجها منها ، من نفس جنسها وإن كان مختلفاً من حيث الذكورة والأنوثة ، من ذات كرامتها وعزتها ، أي بما يضمن التسوية المطلقة في الخلق التي لا تكلف فيها وبما يتجاوز المساواة التي تنشدها التشريعات المعاصرة .

من جهة أخرى فاستعمال لفظ «زوجها» يحمل دلالة التزاوج الشرعي القائم على أسس شرعية أهمها اختلاف جنسي المتزوجين ، إلى جانب المودة ، لعل اتحاد النفس ووحدتها وعدم أي تفاضل بين الجنسين .

- وفي قوله ﴿وَبَثَّ مِنْهَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: إقرار لإحدى غايات الزواج والحكمة من اختلاف الجنسين، وهي ضمان استمرار الجنس البشري.

والزواج بهذا المقتضى، لباس حيث يلبس كلا الزوجين الآخر ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨].

- وقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فيه مزيد تأكيد على ربط بناء الأسرة وأسسها بالتقوى، تقوى الله في كل السلوكيات والحركات والسكنات، في السر والعلن، وليس أكثر ضماناً لاستقرار الأسرة من أن تؤسس العشرة على خشية الله في الآخر، وإن آيات أخرى تربط المعاملة بين الزوجين ليس بالواجب وحسب، بل بالإحسان، فالتقوى لا تكتمل بمجرد رعاية الحدود والقيام بالواجبات والالتزامات على أحسن وجه، وإنما بالإحسان والكرم في أدائها.

- وفي قوله ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: أدغمت في تساءلون التاءان، والإدغام ليس لمجرد تخفيف النطق، بل يوحي الإدغام هنا بالتشديد على المسؤولية لخطورتها كما في سورة عبس ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ٦-١٠]،

ومن سورة مريم: ﴿تُسْقِطُ﴾ [مريم: ٢٥]. فبعد الأمر السابق بالتقوى، جاء إدغام التاءين وتشديد السين لتأكيد المسؤولية أمام الله وأمام الشرع وأمام السلطة القيمة على الأسرة، أي أولي الأمر، يؤكد هذا التأويل كون عدد من الآيات أردفت أحكام الأسرة بالدعوة إلى رعاية حدود الله،

وحدود الله قواعد شرعية في النظام العام ، بحيث تجب رعايتها ويلزم أفراد الأسرة جميعهم بتقديرها حق قدرها ، ويجب على أجهزة الدولة الحرص على حسن تطبيقها ومرافقتها بالإلزام وبالجزاء في حال خرقها ، وعبرة حدود الله اقترنت أكثر ما اقترنت بموضوع الأسرة .

- وفي قوله ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ : عطف المسؤولية عن الأرحام على المسؤولية عن تقوى الله ، وأيًّا ما كان إعراب «والأرحام» : أي «والأرحام» أو «والأرحام» ، فالحكم المستخلص من السياق هو : «اتقوا الله أن تعصوه واتقوا الأرحام أن تقطعوها» .

يؤكد ذلك أن الأمر برعاية ذوي الأرحام تكرر في عدة مواضع ، قرنت بين العقوق وترك صلة الرحم وبين الشرك بالله .

ويجدر التنويه إلى أن الآية تركز على قرابة الرحم بوصفها سبباً موجباً للمسئولية ، وفي هذا زيادة تكريم للمرأة ، باعتبارها سبب القرابة الرحمة .

- وفي قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ : تتكرر للمرة الثالثة الإشارة إلى كون العلاقات الأسرية من حقوق الله التي يتولى الله الرقابة على حسن رعايتها .

- وأنعطف الآن على بيان الأصول الكبرى المؤطرة للأسرة المسلمة ، وقد أجملتها في خمسة :

الأصل الأول : تناول الشمولي للأسرة :

أختزل أوجه هذه الشمولية في اثنين أساسيين :

الوجه الأول للتناول الشمولي: تحديد حقوق الأفراد من منطلق اندماجهم في الأسرة وليس من خارج الأسرة:

فقد مر معنا أن سورة النساء هي ثاني أكبر سورة، وأكثر السور من حيث حجم الأحكام المنظمة للحياة الأسرية والاجتماعية، وهي تحمل عنوان: النساء «إلى جانب سورة الطلاق التي تسمى أيضاً النساء الصغرى» وفي هذا أكثر من دلالة:

فمجرد تسمية سورة أحكام الأسرة ونظام المجتمع الإسلامي باسم النساء فيه ما يكفي من التشريف للمرأة بوصفها عمادها الأساس.

وسوف نرى أن جعل المرأة عماد الأسرة ليس المراد منه مجرد تحميلها مزيداً من المشقة والمسئولية، بل له معان أسمى من ذلك بكثير.

أما ثاني ميزة فهي شكل التعامل الإسلامي لقضايا المرأة، ذلك أن القرآن أدمج المرأة في الأسرة رفعاً لشأنها وليس إذلالاً لها أو استغلالاً لأنوثتها أو استصغاراً لقيمتها... كما يريد البعض، تماماً كما أدمج باقي أفرادها فيها، وغاية الشرع الوصول إلى معالجة شمولية تحدد مركز المرأة ومركز باقي الأفراد داخل الأسرة.

وشكل التعامل هذا مخالف تماماً لمنهاج التقارب الحديث الذي انتزع المرأة انتزاعاً من الأسرة وجردها من كل انتماء أسري، بل جعلها في موقع تصارع وتضاد مع باقي أفرادها المتزعين بدورهم من الأسرة، وقد أوضحنا بالأدلة كيف أن طريقة التعامل التجزيئية كانت أخطر عامل فلق نواة الأسرة وزج بكافة أفرادها في تنافسية وتوجس لم ينتهيا إلى الآن.

خلافًا لذلك فالشرع الإسلامي حرص على ألا يتناول مركز أي فرد من أفراد الأسرة إلا من داخل الأسرة نفسها ومن منطلق علاقة التساكن والسكينة والوفاق التي يجب أن تسود، ثم أوجد المؤسسات والآليات الكفيلة بتحقيق المودة والرحمة والتكامل والتكافل والرفاه، وقد أوردنا آيات تبين مقدار الالتحام بين الزوجين لدرجة يعتبر أحدهما لباسًا وسترة ورحمة وحصنًا للآخر .

الوجه الثاني للتناول الشمولي : وضع سياسية عامة تعالج كافة جوانب الحياة وتوظف كل الآليات الممكنة لذلك :

من أهم ما يميز السياسة الأسرية في الإسلام، ويدرجها في خانة السياسات الشمولية، كونها تجمع بين الجوانب الأخلاقية، والدينية، والسيكولوجية، والتربوية... والتشريعية، وكونها توظف كل القيم والقواعد والأدوات الممكنة لتحقيق تماسك واستقرار الأسرة، وهي بذلك تستجيب لشروط التشريع المتطلع للشمولية .

وفي موضوع الأسرة بالذات، فالحاجة ماسة؛ لأن ينهل المشرع قواعده من الأخلاق، علمًا بأن التشريع المثالي هو الذي يرتقي بالقاعدة الخلقية إلى مصاف القواعد القانونية الملزمة ولا يجاري أهواء الناس .

الأصل الثاني: اعتبار أحكام الأسرة من النظام العام:

ومما يرمز لإدراج مؤسسة الأسرة ضمن النظام العام أمران هما :

١- حرص النصوص على تحديد الأسس الشرعية لبناء الأسرة، وحصرها في شكل وحيد هو الزواج، وتقنين العلاقات الأسرية القائمة بين مختلف الأطراف، ووضع قواعد تشريعية لتدبير كل أمور البيت الأسري .

٢- اعتبار الزواج ميثاقاً غليظاً ، ونفس النعت يلحق بالآثار المترتبة عنه وأهمها الإنجاب والبنوة والنسب التي تعتبر بدورها من النظام العام بحيث تنتج آثارها تلقائياً ، انطلاقاً من أحكام الشرع لا من إرادة وحريات الأفراد وأهوائهم ، كما تريد المنظمة الحديثة للحقوق والحريات .

والميثاق التزام وارتباط يتم بملاء اختيار الإنسان وحرية ، إنه التزام أمام الله والشرع وأمام الزوج الآخر وأمام المجتمع ، برعاية بنود هذا الميثاق في السر وفي العلن .

الأصل الثالث: ضبط السلوكيات لغاية ضمان السلم الاجتماعي :

ونجمل بنود السياسة الأسرية الإسلامية في تركيزها على الواجب ، وفي دعوتها المخاطبين للتخلق بالإحسان في تنفيذ التكاليف ؛ وفي كونها راهنت على تماسك الأسرة كأساس للسلم الاجتماعي :

١- التركيز على التكاليف كمقابل لإقرار الحقوق :

سبق القول أن منهاج العلوم الاجتماعية الحديثة المنتصر للحريات والحقوق الفردية والمهمل للواجبات ، أفضى لنبد الناس للتكاليف الأسرية ، ولعل أهم ما يميز السياسة الأسرية الإسلامية تركيزها على الواجب والالتزامات والتكاليف والمسؤوليات بقدر ما فعلت مع الحقوق والحريات ؛ بل وبقدر أكبر .

٢- الدعوة للتخلق بالإحسان في تنفيذ التكاليف :

لا يكفي في السياسة الشرعية أن يقوم الفرد بالواجبات الملقاة على كاهله تجاه باقي أفراد الأسرة ، بل عليه أن يطلب الإحسان في تطبيقها ، أي

أن يزيد على ما كلف به ، لكن ليس على وجه الإكراه ، وإنما بمبادرة واختيار منه .

وفي هذا الخصوص نهج القرآن الكريم نهجاً علمياً دقيقاً ، حرص على أن يجب للفرد ما يقوم به من أعباء أكان في القيام على الزوج الآخر أو على الأبناء أو تربية هؤلاء أو تحقيق رغباتهم بالمعروف وبحسب المقدرة .

فلفظنا «الإحسان» و«المعروف» تكررنا في القرآن عشرات المرات ، و«الإحسان والمعروف» يحملان معنى السماحة ، والتسامح ، والشهامة ، والكرم ، والنبل ، والرحمة ، والوفاء بالعهد ، وتنفيذ الالتزام على أحسن وجه وعدم المغالاة في استعمال الحق ، والعفو عند المقدرة ، والتنازل عن الحق لصالح الطرف الضعيف ، وعدم استغلال ضعف الآخرين . . . إلى جانب ما تحمله عبارة «المعروف» من معاني العرف أي ما تعارف الناس عليه ولم تنكره الفطرة والعقل السليم .

وأحكام الأسرة أكثر ما اقترن بلفظه المعروف والإحسان . إذ بعد أن تقيم الآية حكماً شرعياً ملزماً تتبعه بالحث على رعاية الحكم بكرم وشهامة وتسامح : ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء : ١٩] ، ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . . . وهكذا .

ويستخلص من السياق الذي تستعمل فيه لفظنا «الإحسان» و«المعروف» أن كل فرد في الأسرة مطالب بأن يراقب الله في كل مسلكياته وقراراته وحتى في ما يضمره في نفسه ، أي «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

٣- تماسك الأسرة أساس السلم الاجتماعي :

من أبرز وظائف الأسرة المتناسكة دعم وتأسيس السلم الاجتماعي ، وهذا وحده كاف لإدراج العلاقات الأسرية ضمن النظام العام واعتبار الزواج ميثاقاً غليظاً ، والتركيز على التكاليف وعلى تقييد حريات كل طرف بحريات وحقوق الآخر ، والانتصار للمصالح العليا المشتركة .

يستخلص من كل ذلك أن تماسك الأسرة أساس السلم الاجتماعي ، ولا يجادل اثنان في أن اختلال الأسرة يؤدي حتماً إلى إنتاج عوامل تهديد السلم والأمن الاجتماعيين .

الأصل الرابع : إقامة العشرة على أساس العدل لا المساواة فقط :

نبحث بداية في الأساس المعتمد لتوزيع الأعباء بين أفراد الأسرة ، لنفسر ما إذا كان توزيع التكاليف تحرياً للمساواة أم لا .

أ- الأساس المعتمد في توزيع الأعباء والتكاليف :

إن الأدوار التي يتكفلها أفراد الأسرة توزع انطلاقاً مما يتقنه كل منهم وليس انطلاقاً من المحاسبة ، انطلاقاً من العدل لا من المساواة «في معناه التنافسي» ، ومن المودة والتسامح والتوحد لا من التفاضل والتباغض والمنافسة ، ومن الإحسان لا من الظلم والعدل .

بمعنى أنه يراعى في توزيع التكاليف التكامل وليس التوزيع العيني للأدوار والمسؤوليات ، ولا أداء كل زوج لجزء أو لنصف من عين ما يؤديه الطرف الآخر ومن نفس المهام المسندة إليه ، بل الغاية من التسوية في الأحكام أن تقتسم المسؤوليات بحسب ما يتقنه كل منهما ، بتكافؤ وتعاون وتكامل

وعدالة ، وخدمة لصالح الأسرة وثباتها وحرصًا على التوازن وعلى رفاه كل فرد وتوفيرًا للأمان بالنسبة للأطفال .

ب- المدلول المتسامي للمساواة :

مساواة في التكاليف والمسئوليات لا في الحقوق وحسب ، يلزم التنويه بأن المساواة المرادة في الشرع هي غير المساواة التي تعج بها الخطابات الأيديولوجية والكتب والمقالات المهتمة بحقوق المرأة وعمومًا بحقوق الإنسان .

فالمساواة بحسب الشرع تعني التسوية في الحقوق الأساسية وأيضًا وأساسًا في الأحكام والواجبات والتكاليف الشرعية ، وهي تفيد التوحد في خطاب الشرع الموجه إلى الرجل والمرأة على حد سواء ، بلا فرق ولا تمييز .

ويستدل على التوحد في الخطاب والتسوية في الالتزامات والامتيازات بعدم تحديد جنس المخاطب ، فعندما يستعمل النص الشرعي عبارات مثل : المؤمنون ، الناس ، الإنسان . . . فالمعنى التلقائي والحتمي أنه موجه للجنسين معًا ، لا فرق ولا تمييز في الأحكام إلا إذا اقتضت ذلك الطبيعة الفسيولوجية أو وضع اجتماعي خاص ودقيق جدًا .

فالعبارات المستعملة ودلالة السياق يفيدان أن القرآن لم يقدم الرجل على المرأة ؛ بل استعمل عبارات عامة لا تمييز جنسي فيها ، والمسألة محسومة فـ «النساء شقائق الرجال»^(١) في الأحكام كما في الحديث الشريف .

(١) سبق تخريجه .

ثم ، وتأكيذاً للتسوية التامة في الأحكام ، جاءت آيات عدة وأحاديث تبين بما لا مزيد على وضوحه أن الأحكام الواردة في الشرع تخص المرأة والرجل سواء ، نكتفي بذكر بعضها :

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٢٦] .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة : ٧١] .

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ...﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

وقد يقال فما بال النساء لا ينلن هذه الخطوة في الواقع؟ قلنا : إن ما تعرضت له الأمة الإسلامية بعد تراجع إشعاعها ، وطفو الأعراف والتقاليد التي تنزل بمرتبة المرأة ، وارتداد المجتمعات في كثير من الاعتقادات والسلوكيات إلى ما كان سائداً قبل مجيء الإسلام . . . كل ذلك جعل عدالة النص تضيق في التطبيق ، وتتحول إلى مثالية غير مدركة ، وجعل المرأة تنزل في الثقافات الاجتماعية إلى أدنى درك .

وأما إذا قيل إن في القرآن وفي الشرع عمومًا ما يناقض التسوية التي حاولنا إثباتها ، كما في القوامة وواجب الطاعة ، قلنا : يجب أولاً تحديد المدلول بالقوام وبالطاعة وبأحكام الشرع فيهما .

٤ - هل من توفيق بين التسوية والقوامة؟

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنَاتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ...﴾ [النساء : ٣٤] .

من اللافت للنظر أن الآية توظف توظيفاً غير سليم في كثير من الحالات ، إما لاستغلال المرأة ، وإما لضرب الشريعة واتهامها بإذلال المرأة ، وأنها أعطيت تأويلات غير التأويل المنسجم مع مقاصد وروح الشريعة ، وأنها استمدت من الأعراف معاني الاستبداد والتحكم والتعسف . . . بينما مفهوم القوامه المستفاد من روح الشريعة القائمة على العدل والتسوية التامة ، كما أسلفنا ، هو غير المفهوم المتداول ، ولننظر أولاً في المعاني اللغوية ثم الشرعية .

«قوامون» من فعل قام : نهض وانتصب واعتدل .

والقوام : العدل والاعتدال .

والقوام : ما يكفي الإنسان من القوت . قوام الأمر وقيامه : اعتداله .

وقوام الأمر وقيامه : نظامه وعماده وما يقوم به .

وقام على الأمر : حرص عليه وتولاه وراقبه . . . ولم نعثر في المعاجم على معان غير هذه للفظ .

يفهم إذن أن القوامه لا يمكن أن تحمل تماماً أي معنى آخر غير القيام على شئون الأسرة المالية وغيرها وتدبير أمورها ، وتقديم ما يلزم من خدمات لكل فرد فيها ، وحفظ حقوق أفراد الأسرة جميعهم ، وأولهم الزوجة .

وإن آيات كثيرة تؤكد ذات المعنى من مثل :

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ﴾ [النساء: ١٠٣] .

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلَّيْتَمَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧] .

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] .

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] .

وعلى الجملة ، ففي كل المواضع التي يذكر فيها فعل «قام» واشتقاقاته في كتاب الله ، يشير إلى معنى الامتثال للتعاليم الإلهية بإحسان ، وهو يقترن في كل مرة بالقسط والعدل ومراقبة الله في كل تصرف أو سلوك ، والقيام لله من منطلق أن القيام على شئون الأسرة عبادة .

ومقابل القوامة التي هي واجب وتكليف على الزوج ، وضعت تكاليف مقابلة على الزوجة لا تخلو من قيام ، فالآية (٣٤) من سورة النساء ، بعد أن فرضت القيام على الأزواج ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] ، أردفت لتوها : ﴿فَالصَّالِحَتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] وقانتات تعني عابدات ، أي قائمات لله متواضعات له في قيامهن على أمور أسرهن ، وحافظات «للغيب» أي حافظات لأسرار بيوتهن .

والقنوت قيام أيضاً ، كما تؤكد ذلك آية : ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] .

وأما الطاعة فتفيد عدم العصيان ورعاية حدود الله واحترام النظام والقواعد التشريعية الملزمة ، يؤكد هذا أحكام تحسم بإطلاق أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، حتى لو كان المخلوق أحد الوالدين لا الزوج فقط : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥] .

أما القول بخلاف ذلك فيفقد عددًا من الأحكام دلالتها ومقاصدها، فأمر الزوجة بطاعة عمياء لزوجها حتى لو حاد عن الحدود، أي عن النظام العام، فيه تناقض مع الأمر بعدم طاعة المخالف للحدود، وتناقض آخر مع الأمر بالتشاور والتراضي في تدبير شئون البيت، ومع الدعوة للتوادد والتشاور في الأمور جميعها حتى عند استحكام الخلاف ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

على هذا المقتضى، فأحكام الأسرة التي تجب رعايتها هي «حدود الله» وليس أوامر الزوج ونواهيه الناهية من هواه والمنحرفة عن مقاصد الشرع.

الأصل الخامس: ابتغاء الحكمة في فض النزاعات الأسرية:

بحسب السياسة الأسرية الإسلامية فالدعوة لصون الود والتشاور والتراضي لا تنتهي حتى بعد أن تستعصي العشرة؛ بل حتى في اللحظات الصعبة يبقى الحل الأنجع لفض كل المشاكل العالقة وتقسيم الأمور المشتركة هو التوافق مع الحفاظ على الهدوء والحكمة ورعاية المصالح المشتركة، والدعوة لطلب الصلح تتكرر في القرآن والسنة بإلحاح كما سلف.

وإذا تعذر على الزوجين الوصول للتوافق بمفردهما، فالتحكيم أصل من الأصول الإسلامية التي تستحق الإكبار.

وإذا فشلت كل الطرق في إنقاذ الأسرة، فسياسة الإسلام ارتقت بحلولاً تحد من التداعيات وتمنع أن يضر أحد الزوجين بالآخر أو يستغل نقط ضعفه أو تعلقه بابنه.

والدعوة للإحسان والمعروف لها مكانها هنا أيضًا ؛ بل لعل الحاجة إليهما أكبر ، لغاية تقليص التداعيات والأضرار ، والآيات والأحاديث في الموضوع كثيرة .

هذه باختصار شديد بعض بنود السياسة الأسرية الإسلامية ، وهي تدل بما لا نحتاج معه لمزيد إثبات على أنها شمولية تحيط بكافة الأوضاع ، وتوظف كافة الآليات من قواعد تربوية وأخرى أخلاقية قيمة وثالثة تشريعية مشفوعة بالإلزام والجزاء .

واسمحوا أن أستجمع ما جاء بصدد السؤالين الذين استهللت بهما ، وهما :

هل توجد نظم متعددة للأسرة؟

وأية سياسة أسرية أكثر تحقيقًا لنظام الأسرية؟

فأقول بصدد السؤال الأول : أي هل توجد نظم متعددة للأسرة؟ إنه لا يوجد إلا نظام وحيد للأسرة وهو الأسرة الزوجية ، وهو النظام الذي يستحق الكونية والاستمرارية ؛ لأنه الوحيد الذي يناسب الطبيعة الإنسانية ويضمن التوازن النفسي ويحقق السلم الاجتماعي ، وكونيته نابعة من شموله كافة الشرائع والملل والنحل ، كما توثق لذلك الشرائع السماوية جميعها .

وعلى هذا ، فإن الخروج عن هذا النظام هو خروج من حالة النظام إلى حالة الفوضى ، والفوضى تتناسل عنها أعراض اجتماعية لا حدود لها ، كما تبرز ذلك الأرقام والإحصائيات الرسمية التي تصدرها الحكومات في الدول الغربية بكثير من الحسرة والقلق ، ولعل أخطر المظاهر هو تفكك الأسرة النووية نفسها وتعرض مجتمعات بالجملة للانقراض .

وأقول بصدد السؤال الثاني : أي ما هي السياسة الأسرية الأكثر تحقيقاً لنظام الأسرة المتفق عليه؟ إن وصف السياسة الأسرية لا ينطبق إلا على تلك التي تستوفي شرطين على الأقل :

أولهما : اعتمادها منهاجاً شمولياً ، يعالج في عمومية جميع المشاكل التي تهز كيان الأسرة في أفق الوصول إلى إيجاد حلول تنقذ الأسرة من التداعي ، وتوظف كافة الآليات والقواعد للوصول إلى ذات الغاية .

وثانيهما : أن تتطلع - أي السياسة - إلى حماية الأسرة من الانحلال ، وتتحصن ضد الأيديولوجيات التي تروج لفكر لا يخدم هذا التماسك ، وتتحرى الموزانة بين حقوق الفرد الخاصة وبين مصالح الأسرة العليا وتصون الثوابت والقيم .

وبتعبير آخر فهي سياسة تقرر الحقوق الفردية وتحميها وتتفادى الانزلاق إلى نفس الوضع الذي آلت إليه الأسرة المحدثه ، وتتقي الأضرار الجانبية ، سياسة تعضد مركز كل فرد في الأسرة دون تفضيل أحدهما على الآخر أو الإكثار من حظيته ، دون إذكاء الصراع والتنافسية والتضاد ، أي دون فلق نواة الأسرة .

إن المنهاج الأسلم هو الذي يثمر حقوقاً وفي نفس الآن يؤلف بين أفراد الأسرة ويشيع المودة والتراحم والتعاطف .

وإذا كان الأمر كذلك فما وصلت إليه العلوم الاجتماعية الحديثة لا يمكن نعته بسياسة أسرية ، في حين تبين أن السياسة الشرعية الإسلامية هي الوحيدة التي تستأهل هذا النعت .

وقد أضحي مطلوباً من الفاعلين أن يضعوا نصب أعينهم ما يأتي :

- ابتغاء مقاصد الشرع انطلاقاً من الأصول النقية العادلة .
- استنقاذ قيم المعاشرة والتساكن وتوظيف كافة الوسائل لذلك .
- تدارس قضايا الأسرة بحكمة وشمولية ، وإشراك الأكاديميين والممارسين بما يحقق تكامل العلوم والمعارف .
- تصحيح الشكل الذي يطرح به موضوع الأسرة .
- تبيان أحكام الشرع ، بسبب جهل جل الناس لها .
- التركيز على حسن تطبيق النصوص وإيجاد الآليات الضرورية القادرة على منع تداعي الأسر .
- وضع مساطر خاصة بتطبيق قانون الأسرة .
- إحياء مؤسسات التحكيم .
- إنشاء مؤسسات للأسرة تعوض الأدوار التي كانت تتقلدها الأسرة الممتدة ، وإقامتها على أسس علمية لتشتغل إلى جانب المحاكم ومؤسسات التحكيم .

* * *

المحاضرة السابعة والتسعون

أسس التضامن الاجتماعي في الإسلام

أحاديث تحت على التضامن الاجتماعي :

انطلاقاً من حديث سيدنا محمد ﷺ : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» .

وهذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» ، في باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، من كتاب المظالم ، قال : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب أن سألماً أخبره ، أن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم أخو المسلم . . .» الحديث .

وأخرجه الإمام مسلم في باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، من كتاب الذكر والدعاء من «صحيحه» بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحففتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

كما أخرجه أبو داود في باب المعونة للمسلم من كتاب الأدب من «سننه» عن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر على المسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» .

وأخرجه الترمذي في الحدود ، والنسائي ، والطبراني ، والإمام أحمد .
قال الإمام النووي : وهو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب ، وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة ، أو إشارة بمصلحة ، أو نصيحة أو غير ذلك .

وقوله ﷺ : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» هو خبر بمعنى الأمر ، فإن ظلم المسلم للمسلم حرام .

«ولا يسلمه» أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه بل ينصره ويدفع عنه ، ولا يتركه في مصيبة نزلت به .

والكربة الغمة ، والكرب هو الغم والهم .

وقوله : «ومن ستر مسلماً» أي رآه على قبيح فلم يفضحه ، لكن من الواجب عليه أن ينصحه .

وفيه إشارة إلى ترك الغيبة ؛ لأن من أظهر مساوئ أخيه لم يستره .

ومما يرتبط بهذا الموضوع أن الإمام البخاري لما أخرج هذا الحديث في «صحيحه» أعقبه بحديث آخر وهو قول النبي ﷺ : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قالوا : يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال : تأخذ فوق يديه» .

قال الإمام ابن حجر في «شرح» :

قوله : «تأخذ فوق يديه» كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكتف بالقول .

ومعلوم أن حماية المستضعفين من ظلم الظالمين بالأخذ فوق أيديهم هو نوع من التضامن ؛ لأن الظلم يهدد أرزاقهم وحقوقهم ، كما أن منع الظالم من الظلم فيه نصر له على نفسه الأمانة بالسوء .

وأنطلق من الحديث المبارك الشريف موضوع الدرس هذا مستهدياً بأنواره ، مستمداً من فوائده وأسراره ، للكلام عن أسس التضامن الاجتماعي في الإسلام ، وهو الموضوع البارز فيه .

وسأحاول بعون الله وتوفيقه أن أختصر الكلام في مقدمة وأسس أربعة يقوم عليها التضامن في الإسلام .

وهي الأساس التربوي ، وسأتحدث عنه بشيء من التفصيل ، والأساس الاقتصادي والمالي ، والأساس التشريعي ، والأساس السلطاني ، وسأتحدث عن هذه الأسس الثلاثة بالإجمال .

التضامن الاجتماعي في الإسلام بناء تشريعي محكم :

عندما نتحدث عن التضامن الاجتماعي في الإسلام ، يحسب بعض الناس أن الإسلام لم يأت في هذا الباب إلا بمجموعة من المواعظ وقدر من الإرشاد والنصائح ، يستثير به شفقة من المحسنين الكرماء ، وأريحية الموسرين الفضلاء ولا يظنون أن التضامن الاجتماعي في الإسلامي بناء تشريعي محكم ، ونظام دقيق مستحكم ، منوط بالدولة فرض احترامه ، وحماية قواعده وأحكامه .

فالإسلام في هذه الميادين التي تمس حياة الإنسان حدد مقاصد ضرورية أساسية لا بد من حفظها، ومقاصد حاجية وأخرى تحسينية تحيط بالضرورة وتحميها، ولم يكتف في حفظ ذلك بالوعظ والإرشاد؛ بل جاء بأحكام إلزامية تكليفية مفصلة ودقيقة، كما جاء بالأجهزة التي تسهر على تنفيذ تلك الأحكام، ذلك أن الإسلام دين ينظم الدنيا، وهو دين وفكر وثقافة وحضارة ونمط حياة، وهو يقدم بديلاً للمجتمع المادي في صيغة المجتمع الرباني الذي جاء ببناء جديد لشخصية الفرد ومؤسسة الدولة ونظام المجتمع.

على أننا إذا كان في مجال التضامن، ندعو الناس إلى التأمل فيما جاء به الإسلام من قواعد وأحكام، وبذل الجهد الفكري اللازم لإدراك مضامينها وأسرارها، فإننا لا ننسى أن المجتمع الإنساني الحديث قد هدته تجربته الطويلة، وأبحاثه في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، إلى استحداث نظام دقيق وفعال، يضمن التضامن والتكافل والتآزر بين بني البشر على نحو يدعو إلى التقدير والإكبار، الشيء الذي يفرض علينا نحن المسلمين أن نستفيد من مزاياه، ونأخذ بأحسن ما فيه.

إن التضامن الاجتماعي في الإسلام هو بناء تشريعي كامل، ونظام اجتماعي شامل، هدفه الأسمى هو ضمان العيش الكريم لكل فرد في المجتمع بضمان حقه في المأكل والملبس والمشرَب والمسكن وحقه في الشغل، وحقه في التعليم والصحة، وفي كل ما هو ضروري في الحياة الكريمة، بل إن هناك من الصور الجميلة المشرقة في هذا التضامن ما يجعله نموذجاً حضارياً فريداً، فهو لا يكتفي بضمان الحاجيات المادية للإنسان

فقط ، بل يسمو فوق ذلك ويطمح إلى خلق التضامن في طلب العلم ومحو الجهل ، ومحاربة الأمية فيوجب على الجار تعليم جاره .

ومما روي عن النبي ﷺ في هذا الشأن أنه قال : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ، ويأمرونهم وينهونهم ، ولتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة »^(١) .

وقد وردت الإشارة في كلام النووي في شرح حديث الدرس إلى أن المسلم يجب عليه أن ينفع أخاه بما تيسر من علم ، أو مال أو غير ذلك ، وهذا وجه رائع من وجوه التضامن .

الأسس التي بني عليها التضامن الاجتماعي في الإسلام :

على الترتيب الذي ذكرناه أول الدرس ، ونبدأ ببيان :

الأساس الأول وهو الأساس التربوي للتضامن :

ويتمثل هذا الأساس في منظومة تربوية قائمة على تربية ممنهجة ، هادفة إلى إعادة صياغة الفرد والمجتمع صياغة جديدة ، مشبعة بروح التضامن ، ذلك أنه لا يمكن لأي نظام اجتماعي أن ينجح دون تربية ، ينشأ عليها الفرد من صغره في الأسرة والمدرسة ، وتكون سائدة في المجتمع ، منتشرة قيمًا وأخلاقًا تؤمن بها الجماعة وتحميها ، وتتألف المنظومة التربوية التي

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٤٠٢/١) : رواه الطبراني في «الكبير» ، وفيه بكير ابن معروف ، قال البخاري : ارم به . ووثقه أحمد في رواية ، وضعفه في أخرى . وقال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به .

اعتمدها الإسلام في هذا الباب من الأهداف التربوية التالية :

أهداف تربوية للتضامن :

الهدف الأول : تصحيح العقيدة :

ونروي مثلاً على ذلك حديث سيدنا معاذ بن جبل عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وأمره بأخذ الصدقة من الأغنياء وردّها على الفقراء ، أمره قبل ذلك بتصحيح عقيدتهم ، فقال في أول الحديث : «إِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . . .»^(١) كما أن الحديث موضوع الدرس يركز على العبد المؤمن وعن يوم القيامة وأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

ومعنى هذا أننا إذا أردنا مجتمعاً متضامناً على الطريقة الإسلامية فلا بد من التفكير قبل كل شيء في بناء العقيدة ، وترسيخ الإيمان ، وأنه لا يمكن تركيب الإحسان بمفهومه الإسلامي في مجتمع مادي إيمانه بالله مهزوز ، ولا يخاف الله ، ولا يترقب عقابه ، لاسيما وأننا قلنا إن التضامن الاجتماعي في الإسلام جاء في شكل أحكام تكليفية إلزامية ، فكيف يخضع لها ويلتزم بها من لا إيمان له؟

وتصحيح العقيدة أول ما يركز عليه الأنبياء ، ويحرصون عليه ، وهذا أول فارق بين التضامن الاجتماعي في الإسلام ونظيره في الأنظمة الوضعية ، فالتضامن في الإسلام إيماني رباني ، والمسئولية فيه مزدوجة دنيوية وأخروية ، بينما التضامن في النظام الوضعي مادي بدون روح ،

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٧) ، ومسلم (١٩) .

اللهم إلا ما فيه من عاطفة إنسانية تحضر وتغيب ، ولا يترتب عنها شيء ،
لقد أراد الإسلام أن تسري العقيدة الصحيحة والروح الإيمانية في جميع
شعب التضامن ، حتى يرتبط العمل بوجه الله إيماناً واحتساباً ، ويكون
وراءه ذلك الباعث الديني المؤدي إلى المداومة على التضحية والسرور بها .

ونضرب مثلاً على ذلك لمعاملة الوالدين عند الكبر والعجز ، ففي النظام
الوضعي نضمن لهما الإيواء في دار العجزة ، وننفق عليهما من مالهما أو من
مال صناديق التقاعد أو الضمان الاجتماعي التي قد شاركا في رأس مالها أيام
قوتها ، بينما في النظام الإسلامي هناك واجبات أخرى نحوهما ، لها خلفية
إيمانية يلخصها قول الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَنًا ۚ إِنَّمَا يَنْتُظَنُّ عِنْدَكَ الْأَكْبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا
تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

وعقوق الوالدين في الإسلام من أكبر الكبائر التي تؤدي إلى الخلود في
النار ، ونفقة الوالدين تجب في مال الولد ، ويحكم بها القاضي إن اقتضى
الحال ، والجدّة أمّ ، والخالة أمّ ، وإذا لم يكن للوالدين ولد وجبت نفقتهما
في بيت المال ، دون أن يكونا قد شاركا في أي صندوق .

الهدف الثاني : ترسخ انتهاء الفرد للأسرة الإسلامية :

أما الهدف الثاني في هذه المنظومة التربوية التي توصل بها الإسلام إلى
تحقيق التضامن فهو ترسيخ البعد الإنساني والشعور بانتهاء الفرد إلى
الأسرة الإنسانية ، فالإنسان من حيث هو إنسان هو الخليفة في الأرض

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وهو حامل الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهو المخصوص بالتكريم والتفضيل ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالإنسان في عقيدة الإسلام مكرم من حيث هو إنسان، ولذلك جاء الإحسان في الإسلام إنسانيًا، يشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وجاء التضامن الاجتماعي أيضًا إنسانيًا، يستوعب المجتمع البشري دون تمييز، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥] فالولدان والأقربون قد يكونون مسلمين، وقد يكونون كفارًا، وكذلك اليتامى والمساكين وابن السبيل، والآية لا تميز بينهما، روي أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: «قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَاسْتَفَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمْتُ إِلَى أُمِّي رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ»^(١).

ويروى أن عمر بن الخطاب مر على شيخ يهودي يسأل فأعطاه، ثم أمر خازن المال أن يجري عليه من الصدقة ووضع عنه الجزية.

ومر عمر وهو في طريقه إلى الشام براهب نصراني مجذوم فأمر بإعطائه

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

من بيت المال راتباً يكفيه ويكفل له حاجته مدى الحياة .

ومما تعهد به خالد بن الوليد لأهل الخيرة وهم نصارى قوله : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام .

وحديث الدرس وإن كان خاصاً في الأخوة بين المسلمين ، والتضامن فيما بينهم فإن هناك أدلة شرعية أخرى عامة في الأخوة الإنسانية .

الهدف الثالث : تهذيب النفس :

أما الهدف الثالث : الذي استهدفت المنظومة التربوية تحقيقه خدمة للتضامن الاجتماعي ، فهو تهذيب نفس الإنسان بما يجعلها سمحة بالعطاء ، سخية بالإحسان ، فياضة بالرحمة والشفقة والحنان ، وتوسل الإسلام إلى ذلك بوسائل تربية ناجعة ، من شأنها معالجة التضامن في عمقه النفسي ، بما يخلق الاستعداد القلبي ويشحذ العزائم لعمل الخير ، ويسمو به إلى قمم العمل الإنساني النقي ويعمق الشعور بالرحمة « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ، الراحون يرحمهم الله »^(١) ، « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »^(٢) .

وقد تولى القرآن الكريم خدمة هذه الأغراض والمقاصد النفيسة في

(١) أخرجه الترمذي (١٩٢٤) ، وأبوداود (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ،

وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) سبق تخريجه .

آيات كثيرة ، لا تكاد تخلو منه سورة من سوره .

حرص القرآن على تعليم الناس الزهد :

من ذلك حرصه على تخفيف حب الدنيا في القلوب بتزهد الناس فيها ، وتهوين قيمتها في نفوسهم ، حتى لا يكون التعلق بها مانعاً من الإحسان ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

ومنها حرصه في آيات كثيرة على التذكير بالموت إيقاظاً لضمير الإنسان حتى يقوم بواجبه نحو الآخرين قبل فوات الأوان ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون : ١٠ ، ١١] .

حرص القرآن على ترسيخ الإيثار ونبذ البخل :

كما حرص القرآن الكريم على ترسيخ خلق الإيثار واقتلاع جذور البخل والشح من النفوس ، وحملها على الإنفاق من أطيب ما تحب ، فقال تعالى في سورة الحشر : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

حرص القرآن على التطهير من الرياء :

كما حرص القرآن الكريم على تطهير النفس من الرياء ، وتطهير الإحسان من المن والأذى ، وأمر بأن يكون العمل الخيري خالصاً لوجه الله تعالى لا سمعة فيه ولا رياء ولا مصالح ذاتية ، فقال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ [الإنسان : ٨ ، ٩] ، وقال في سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۚ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَلِيمٌ ۝ [البقرة : ٢٦٢ ، ٢٦٣] .

فعل الخيرات يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء :

ثم إن الإسلام جاء بمفهوم واسع للتضامن الاجتماعي حتى يتساوى الأغنياء والفقراء في العملية التضامنية ، وينشأ شعور عام بأن أبواب الخير كثيرة ، وأن خطاب التضامن لا يقتصر على الأغنياء ، بل إن الفقراء أيضاً أمامهم مجال واسع لفعل الخير ، وطلب الأجر ، والإسهام في التضامن .

وهكذا صرح الرسول الكريم ﷺ بأن كل معروف صدقة ، وعمل الإنسان بيده صدقة ، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة ، والأمر بالمعروف والخير صدقة ، والإمساك عن الشر صدقة ، وأن تعدل بين الاثنين صدقة ، وأن تعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة .

وهذا أيضاً من التضامن الاجتماعي ؛ لأن الإنسان إذا صلح سلوكه ،

ومشى إلى الصلاة فقد خفف عبئه عن المجتمع ، إذ أصبح إنساناً صالحاً لا يفسد في الأرض ، ولا يكلف المجتمع ما يكلفه الإنسان الفاسد من خسائر مادية .

الهدف الرابع : الشعور بالمسئولية :

أما الهدف الرابع : من أهداف هذه المنظومة التربوية التضامنية فهو غرس الشعور بالمسئولية الفردية والجماعية ، فالفرد مسئول عن ذاته ﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ثُمَّ تَجْزِيهِ الْجَزَاءُ الْآوْفَى ﴿[النجم : ٤٠ ، ٤١] ، والجماعة مسئولة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣] .

وتجسيذاً لهذه المسئولية فإنه لا يحل لمؤمن أن يبيت ليلته شبعا وجاره جائع ، ومن هلك في الغلاء فعلى من قدر إثمه ، وقد جعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة أي عام المجاعة على كل شخص مثله ، وقال : لن يهلك أحد على نصف شعبه ، يقتسم الإنسان طعامه مع أخيه المسلم .

الهدف الخامس : الأخوة بين المؤمنين :

وأما الهدف الخامس : فهو غرس الشعور بالأخوة بالمؤمنين قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وفي حديث الدرس «المسلم أخو المسلم . . .» وقال النبي ﷺ : «والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١) ، وشبه الرسول ﷺ مجتمع المؤمنين في توادهم وتراحهم بالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

(١) سبق تخريجه .

الهدف السادس : الاقتصاد وعدم التبذير :

وأما الهدف السادس : فهو تربية الفرد والمجتمع على الاقتصاد ، والتوسط في النفقات ، وترك التبذير حتى يتم توفير ما يكفي لسد الحاجات ، سئل رجل في عصر الصحابة : كيف نفقتك في أهلك؟ قال : حسنة بين سيئتين ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ط وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٧] .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الهدي الصالح ، والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»^(١) ، فالمجتمع الإسلامي مبني على البساطة والتوسط والاقتصاد ، وهذا من شأنه التقريب بين الطبقات ، وتوفير ما يفضل عن حاجيات الإنسان لإنفاقه في أوجه البر والإحسان ، ولا يقوم التضامن مع التبذير والإسراف ، ولا يستقيم ، لاسيما إذا كان البلد فقيراً وأهل الحاجة كثرة .

الهدف السابع : القناعة بالحلال :

وأما الهدف السابع فهو تربية الناس على القناعة بالحلال والاستغناء بالطيب من الرزق ، والابتعاد عن المال الحرام ، الذي يأتي من طريق الرشوة والاختلاس واستغلال النفوذ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٦) ، وأحمد في «المسند» (٢٩٦/١) من حديث عبد الله

ابن عباس رضي الله عنهما .

أَمْوَالُكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ [البقرة: ١٨٨].

ولعن رسول الله ﷺ الراشي والمرثي، ولما كان جزء من الأموال المرصودة لسد حاجات المستضعفين يذهب إلى بطون الطامعين، وكانت الرشاوى ترهق أصحاب الحقوق من الأرامل واليتامى والمساكين، وكان أكل المال الحرام يؤدي إلى احتكار الثروة من طرف طبقة من المتسلطين، فإن حقوق الضعفاء والفقراء والمساكين تضع بضياع الذمم وفساد الأخلاق، ولذلك حرص الإسلام على تقويم الأخلاق من هذه الناحية خدمة للتضامن الاجتماعي.

الهدف الثامن: حث الإسلام على العمل ونبذ الكسل:

وأما الهدف الثامن: فهو تفجير طاقة العمل في الأمة، والاحتياط في باب الإحسان حتى لا يصبح مدعاة إلى الخمول، وقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز دفع الزكاة لمن تفرغ للعبادة في المساجد إذا كان قادراً على العمل، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ الْمُحْتَرِفَ وَيَكْرَهُ الْعَبْدَ الْبَطْلَانَ»^(١). وقال: «إِنْ أَشْرَفَ الْكَسْبُ كَسْبَ الرَّجُلِ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٢).

وفي الحديث: «إِنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُهُ عَنِ الْمَالِ وَهُوَ قَوِيٌّ مَعَانِي، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى حِلْسٌ (أي غطاء)

(١) أخرج الشطر الأول من الحديث الطبراني في «الأوسط» (٨٩٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، والشطر الثاني قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٩١/١): قال الزركشي: لم أجده، ومثله في «اللآلئ».

(٢) سبق تخريجه.

نلبس بعضه ونسبط بعضه ، وقَعَبَ (أي إناء) نشرب فيه الماء ، حَلَسَ وقَعَبَ . فقال له رسول الله ﷺ : ائمني بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : من يشتري هذين؟ فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال ﷺ : من يزيد على الدرهم مرة أو مرتين؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري ، وقال : اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلي أهلك ، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به ، فأتاه ، فشد رسول الله ﷺ عودًا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يومًا ، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم من بيع الخطب ، فاشترى ببعضها ثوبًا وبعضها طعامًا ، فقال له رسول الله ﷺ : هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة» ، رواه أبو داود والبيهقي والترمذي .

فالإسلام لا يرضى التسول لمسلم وهو لا يعطي للقادر على العمل ، وهو يقدر العمل ويحضر عليه ، وإن أحسن وسيلة للتضامن مع الفقراء هو فتح باب العمل أمامهم ، والانكباب على إصلاح الاقتصاد ، والسهر على معالجة المشاكل التي تؤدي إلى غلق المعامل وتسريح العمال ، والاجتهاد في إيجاد الحلول التي تضمن للناس سبل العيش الكريم ، مع حفظ كرامتهم وإغنائهم عن مديدهم للصدقة .

الهدف التاسع : تحريم الظلم :

وأما الهدف التاسع : فهو تحريم الظلم خدمة للتضامن الاجتماعي ، ذلك أن النظام مناقض للتضامن ، والمجتمع الذي يسود فيه الظلم تنتفي فيه الرحمة ، وتفشو فيه الكراهية والحقد والنقمة ، ولذلك قال الله تعالى في

الحديث القدسي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١).

وأكد القرآن الكريم على الأمر بالعدل، والنهي عن الظلم، وربط العدل بالإحسان تنبيهاً على تلازمهما فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠].

الأساس الثاني: الاقتصادي والمالي:

وبعد هذا البيان للأساس التربوي ننتقل إلى الأساس الاقتصادي والمالي وهو الأساس الثاني من أسس التضامن الاجتماعي في الإسلام، وذلك على وجه الإجمال، ويحتوي هذا الأساس على مجموعة من التوجيهات الأساسية التي من شأنها خلق المجتمع القوي اقتصادياً ومالياً، والقضاء على الفقر، وخلق الثروة التي تساعد على الإنفاق في المجال الاجتماعي، ومن هذه التوجيهات التمسك بحق الملكية الفكرية والجماعية، وحرية التجارة في حدود الطيبات، والدعوة إلى تنمية المال واستثماره، والأخذ بأسباب المنافسة المؤدية إلى تقوية الإنتاج وترشيد الاستهلاك، واتخاذ التدابير الشرعية المؤدية إلى إعادة توزيع الثروة ومنع الاحتكار واعتماد الوسائل المؤدية إلى رواج رأس المال، وتشجيع الإنفاق، واعتماد القرض الحسن، بدل القروض الربوية، واعتبار الشغل قيمة اقتصادية.

(١) سبق تخريجه .

اهتمام الفقهاء وكتب الفقهاء بالجانب الاقتصادي والمالي :

وقد اهتمت كتب الفقه بالجانب الاقتصادي والمالي فتضمنت أبوابًا في أحكام البيوع ، وأنواع المكاسب والشركات ، والعقود المشاكلة للبيوع ، مثل الإيجارات والجُعل والكراء والمساقاة والمزارعة والمغارسة والقراض والقروض وغير ذلك من الأبواب ، كما ألف كبار العلماء كتبًا في الأموال وحفلت كتب النوازل باجتهادات في مجال التدبير الاقتصادي والمالي ، وهذا في حد ذاته من أعظم الوسائل التي توصل بها الإسلام إلى خدمة التضامن الاجتماعي ، ذلك أنه مهما عظم حجم الصدقات والإعانات فإنها لن تقضي على الفقر ، ولن تغني عن معالجة الفقر في جذوره .

الأساس الثالث : هو الأساس التشريعي :

وهو عبارة عن تقنين عملية التضامن الاجتماعي بواسطة ترسانة من الأحكام الشرعية ترقى إلى مقام التشريع ، وتقدمه عبادة مالية وفريضة دينية وركنًا من أركان الإسلام ، وليس مجرد أدبيات وأخلاقيات متروكة للعواطف والظروف .

الأساس الرابع : الأساس السلطاني :

أما الأساس الأخير : فهو الأساس السلطاني وهو الأساس الرابع ، ذلك أنه لما كان بعض أنواع الإحسان إلزاميًا كما رأينا ، فإن الشرع أناط بالإمام الأعظم الذي له الإمامة الكبرى والولاية العامة العظمى ، وهو أمير المؤمنين مسئولية استيفاء حقوق الله ﷻ ، وأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء ، ويأتي في قمة المال الذي يأخذه الإمام قهرًا إن اقتضى الحال

مال الزكاة ، وهي عبادة مالية وركن من أركان الإسلام ، وهي في حد ذاتها إذا استوفاهها الإمام عن جميع الأموال الظاهرة بشروطها ونسبها ، وصرفها في أصنافها الثمانية المرصودة لها ، قامت مقام التضامن الاجتماعي بشكل عام ، وغطت حاجة الفقراء والمساكين وبقية المحتاجين .

المحاضرة الثامنة والتسعون

أحاديث الجمعة

قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي» .

أما بعد، فبسندنا المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى ورضي عنه، عن شيخه محمد بن المثنى، عن أستاذه كذلك عبد الوهاب بن عبد المجيد، قال حدثني جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله الأنصاري رحمته الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم»، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، يقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» .

ثم يقول ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي» .

هذا الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم هنا فيه فوائد جلية، وفيه قواعد كذلك مهمة جداً، وقد أجمل الشراح في شرح هذا الحديث مع أنه يشتمل على فوائد كثيرة مهمة .

آداب خطبة الجمعة:

فأول ما يشتمل عليه هذا الحديث هو آداب الخطبة، خطبة الجمعة، ومن المعلوم أن خطبة الجمعة فرض وشرط عند الإمام مالك رحمته الله في

صحة صلاة الجمعة ، بحيث لا تصح صلاة الجمعة إلا إذا وقع في الخطبة الأولى والثانية على ما هو المذهب الصحيح عند الإمام مالك رحمته الله ، وعند جماعة من الأئمة ، ولا بد من وقوعها كلها في وقت الصلاة ، بمعنى أنه لا يصح أن تقع الخطبة قبل دخول وقت الصلاة ، وإلى ذلك يشير الشيخ خليل بقوله : «وشرط الجمعة أداؤها ، والخطبة كلها في وقتها» .

بمعنى أنه لا بد من أن تقع الخطبة في الوقت برمتها ، ومن هنا نفهم أن بعض ما جرى به العمل في بعض المساجد في البلاد الإسلامية من أنهم يقدمون الأذان ويبتدئون في الخطبة قبل دخول الوقت هو مناف للفقهاء الإسلامي وهو على مذهب الإمام مالك يبطل الصلاة ، ولكن الإمام أحمد ابن حنبل يقول بصحتها ، فالشرط الأول فيها أن تكون الخطبة في وقت الصلاة ، كما أن الصلاة لا تصح إلا في وقتها ، لأن الخطبة على مذهب الإمام مالك تعتبر جزءاً من يوم الجمعة ، من صلاة الجمعة .

وشذ الحسن فقال : إنها سنة فقط ، وأنه إذا صلى الإمام الجمعة من غير خطبة فإن ذلك يصح ، ورواه ابن الماجشون كذلك عن الإمام مالك ، ولكن الرواية الصحيحة المعمول بها هي التي سبق أن ذكرناها ، وهي أنها شرط في صحة الصلاة ، وكذلك لا بد أن تكون الخطبة خطبتين ، الخطبة الأولى والاستراحة ، والخطبة الثانية ، والاستراحة بين الخطبتين عند الإمام مالك على ما رواه المازري هي الحقيقة شرط لا تصح الصلاة بدونها .

وقال القاضي عياض : إنه يمكن أن يقال : إن الصلاة تصح ، ولكن الذي صلى قد أساء ، ولكن الصلاة تجزئه لو فعل خطبة واحدة من غير خطبة ثانية والاستراحة بينهما .

أما الشافعي فيقول : بطلان الصلاة قطعاً ، صلاة الجمعة إذا لم تقع الخطبة الأولى والاستراحة بينهما ، والصلاة .

ومن آداب الخطبة التي كان يفعلها الرسول ﷺ أنه كان يخطب قائماً وهذه هي السنة ، ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه خطب جالساً قط ، وقد جعلوا ذلك شرطاً في الخطبة ، وقال بعضهم : إنها سنة فقط ، وأول من خطب جالساً ، معاوية رضي الله عنه حين ثقل سنه فبدأ يخطب جالساً ولكن السنة الصحيحة أن خطبة الجمعة يجب أن تكون قياماً ، وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ استنكر بعض الخطباء الذين خطبوا جلوساً ، هذه آداب الخطبة .

كيفية الخطبة :

أما طريقة إلقائها ، أولاً يجب أن تكون غير طويلة ، فإن النبي يأمر الخطيب أن يقصر الخطبة ويطيل الصلاة ، وقال : «إطالة الصلاة وتقصير الخطبة مثنة فقه الرجل» ، وهذا الحديث في «صحيح مسلم» يأتي بعد الأحاديث التي روينها ، فالنبي ﷺ يقول : «وتقصير الخطبة وتطويل الصلاة مثنة» أي : مظنة فقه الرجل ، دليل على أن الرجل الخطيب فقيه ؛ لأنه يعرف المعروف في الشريعة .

وليس المقصود من تقصير الخطبة الاقتصار فيها على بعض الجمل ، بل لا بد فيها مما يشمله لفظ الخطبة عند العرب ، ما يطلق عليه الخطبة عند العرب ، ولذلك يشترطون أن تكون فيه الحمدة ، وشيء من الصلاة على النبي ﷺ ثم الوعظ والإرشاد ، المكلف به الخطيب ، ولا بد من أن يذكر آية من كتاب الله ، وحديثاً من سنن النبي ﷺ .

وبعض الخطباء اليوم يهملون هذا الشرط فيخطبون وقد يأتون بالحديث دون الآية ، ولا يأتون بالآية والحديث معاً ، وهذا مضر بصحة الخطبة عند جماعة من الأئمة ، ثم بعد ذلك لابد أن يقول : أما بعد أو ما إليها من الكلمات المتفقة معها ؛ لأنها هي فصل الخطاب الذي يفصل بين بدء الخطبة ، وبين ما يعقب ذلك ، أي بين الخطبة الافتتاحية المشتملة على الحمد وعلى التسبيح والصلاة على النبي ﷺ ، وبين الخطبة المقصودة بالذات ، وذلك ما كان يفعله النبي ﷺ كما سنبينه في شرح الحديث ، فقد كان يقول أما بعد .

ضرورة اشتمال الخطبة على المؤثرات :

ثم بعد ذلك يلزم أن تكون الخطبة مشتملة في طريقة إلقائها على الصفة التي تؤثر في السامعين ، وينبغي له أن يبحث عن الموضوعات التي يتوقف عليها العصر أو التي يتوقف عليها الوقت ، ولا ينبغي أن تكون الخطبة دائماً مشتملة على أشياء وكلمات واحدة بحيث تصبح معروفة في الأسبوع الأول من الشهر الفلاني والأسبوع الثاني من الشهر الفلاني إلى آخر ما جرت العادة به ، بل ينبغي أن يبحث الخطيب عن الحوادث الاجتماعية ، وأن ينقل وعظه وإرشاده إلى بعض المخالفات الشرعية الواقعة في البلاد ليحث الناس عليها ، وينذرهم بوقوعها .

ثم إنه ﷺ كان في إلقائه للخطبة على هذه الصفة التي رواها جابر بن عبد الله ، إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش ، واشتداد الغضب المقصود به هنا أنه يكون في ساعة إلقائه في حالة الغضب ، لا المقصود أنه يكون غضباً بالفعل ، أو يكون المقصود

أنه في هذه الساعة كان يغير منكراً رآه عليه الصلاة والسلام ، فلذلك كان يلقيه بصفة الغضب ، لأنه رآه مخالفة لشريعته .

أو يكون المعنى كما قال الإمام النووي رحمته الله : إن المقصود كونه ﷺ كان يتكيف بحسب الموضوع الذي يلقي فيه الخطبة ، فإذا كان ينذر الناس مثلاً من عذاب الله أو من مخالفة الشريعة أو ما إلى ذلك ، فإنه ﷺ يتكيف بحالة الغضب التي يقع الإنذار بها ، فهو ﷺ كان إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه ﷺ منذر جيش ، أي يتكلم بصفة المخوف المهول من المسائل التي يحس بها الناس .

والدليل على ذلك أنه يذكر بقرب الساعة وقيامها حتى كأنه منذر جيش ، يقول ذلك المنذر صبحكم جيش الأعداء ، ومساكم ، يعني كأن منذراً ينادي قومه ويقول لهم : إن الأعداء قد صبحوكم ، إن الأعداء قد مسوكم ، فهلموا إلى الكفاح والنضال ، فذلك يكون ﷺ يخاطبهم هذا الخطاب الذي ينذرهم بعذاب الله ، ويحذرهم من الوقوع في المعاصي ، ويخوفهم من الساعة .

ثم كان ﷺ يقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ، بعثت أنا والساعة هكذا منصوب على المفعول وهذا هو الصواب ، ويصح أن تقرأ بالضم ويقال بعثت أنا والساعة كهاتين .

ويقرن بالضم وهو الصحيح ، وفي رواية بكسر الراء ، ومن جهة اللغة تجوز اللغتان معاً ، يقرن ويقرن بين إصبعيه ، والسبابة ، هذه سميت سبابة لأن العرب كانوا يسبون بها ، فسميت سبابة ، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ، وهذا القرن الذي يقع بين الإصبعين معنى أنه عليه الصلاة

والسلام يلاقي إصبعيه ويقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، هل مقصوده عليه الصلاة والسلام التشبيه في الفرق الموجود في طول الوسطى ، وطول السبابة ، أو المقصود الاقتران والاتصال ما بين السبابة والوسطى ، الصحيح الذي نختاره هو أنه ﷺ كان يريد أن يقول : إنه بعث في آخر الزمان الذي تقع فيه الساعة ، ليس هنالك نبي آخر يفصل بين الساعة وبينه ﷺ ، بمعنى أنه خاتم النبيين ، فهو عليه الصلاة والسلام قد بعث قبل قيام الساعة ، وبعثه هو علامة من علامات الساعة سنينه ، فالنبي ﷺ قد انتهت به النبوة والرسالة ، فهو ملاق للساعة ومقترن معها كما تقترن الوسطى بالسبابة إذا نظرنا إليهما عرضاً .

وأما بعض العلماء ، وبعض الشراح ، فقد أرادوا أن يفهموا أن الاقتران في الطول ، بمعنى أن ما مضى من الدنيا طويل جداً ، وما بقي شيء يسير لقيام الساعة ، وقد بنوا على هذا اعتبارات ، وروايات في عمر الدنيا ، وتلك الروايات كلها من الإسرائيلية ، لم يرد عن النبي ﷺ في حديث صحيح ولا في حديث حسن تحديدا لعمر الدنيا .

وأما هؤلاء الذين رووا الإسرائيلية فقد حددوها بأن الإصبع مثلاً فيه سبعة أجزاء ، الجزء السابع منها هو الذي بقي لفناء الدنيا ، وهذا الرأي مشى عليه جماعة من العلماء المتأخرين ، ومن بينهم الإمام السيوطي رحمه الله الذي ألف تأليفاً سماه : «الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف» .

ومعنى ذلك أن الأمة تتجاوز الألف بقليل ، وأن الدنيا ستفنى بعد ألف وخمسمائة سنة ، ولكن هذا كله لا أصل له ، وإنما هو من قبيل الخرافات الإسرائيلية ، لأن الله تعالى قد بين لنا أن الساعة لا يعلمها إلا الله

سبحانه وتعالى ، وقد جاء في القرآن الكريم ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّتْهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

فهذا يبين بكثرة أن وقت قيام الساعة لا يعرفه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وأنه مما استأثر الله بعلمه ، وكذلك لا يمكننا أن نعرف الزمن الذي مضى من الدنيا ، وإن ثبتت فيه أقوال وروايات فإنها كلها ليس لها إلا فروض وتخمينات .

تقدير زمن الدنيا عند العلماء المعاصرين :

والعلماء اليوم المعاصرون يريدون أن يحددوا زمناً ماضياً للدنيا ولوقت وجودها ، فيقدرونه بثلاث مليارات ونصف من السنين ، أو بأربع مليارات ، بناء على بعض الحفريات ، وبعض آثار الجحاجم وغير ذلك ، ولكن هذا أيضاً لا يفيد يقيناً ، وقد قال تعالى : ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف : ٥١] ، فمعرفة ماضي السنين ومستقبلها شيء بعيد جداً ، ولا يمكن إلا عن طريق الوحي ، وقد سد الوحي ذلك ، وقال إن هذه المسألة لا يعلمها إلا الله .

ثم إن كلمة الساعة في اللغة هي عبارة عن جزء من الزمن غير محدد ، جزء قليل من الزمان غير محدد ، وأما الساعة الفلكية فهي عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً مقدوراً في اليوم واللييلة ، متساو في اليوم واللييلة ، وينقسم إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية .

وقد جرت عادة المتحضرين في جميع الدنيا أن يطلقوا على هذا القدر من الزمان الذي فيه ستون دقيقة بالساعة ، وأحدثوا لها آلة سموها ساعة ، هذه الساعة الزمنية ، وهنالك الساعة الشرعية ، وهي عبارة عن خراب العالم ، إذا أطلقت الساعة في القرآن فالمقصود بها خراب العالم ، وقد جرت العادة في القرآن أن يقول الساعة ليوم القيامة ، وساعة من زمان للوقت المحدود المعروف ، لأنه إذا قامت الساعة فإنها تقوم فجأة في ساعة ، وقد سميت الساعة ساعة لأجل الفجأة ، ولأجل السرعة التي تقع فيها ، حيث تقوم في ساعة ، ولذلك لا تأتاكم إلا بغتة ، هذا ما يتعلق بلفظ الساعة .

وقد ثبت في الحديث الشريف أن للساعة أشراطاً كما ورد في حديث البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب «أن جبريل سأل النبي ﷺ عن قيام الساعة ، فقال : الله أعلم بها : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال أخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» .

أشراط الساعة :

وقد نص العلماء على أن أشراط الساعة قد قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام ، الأشراط الصغرى ، والأشراط الوسطى ، والأشراط الكبرى ، أما الأشراط الكبرى فهي التي تقع في آخر لحظة حينما يقترب قيام الساعة ، ومنها طلوع الشمس من مغربها كما في الحديث ، وأما الأشراط الوسطى فهي الفساد الذي يقع في كل زمان ومكان ، والذي تخرج به الأمة الإسلامية عن أخلاقها ، وعن تعاليم دينها ، وأما الأشراط الصغرى فهي التي تقع لكل إنسان ، وقد ثبت كما روى الديلمي أن النبي ﷺ قال :

«إذا مات أحدكم قامت قيامته»، فالقيامة الأولى الصغرى هي قيامة كل واحد منا بمجرد أن يموت ، لأن هذه هي علامة نهايته ؟ .

وهناك قيامة وسطى ، بحسب الجيل وبحسب القرن ، وقد ثبت في الحديث الشريف «أن جماعة من الأعراب جاءوا وسألوا النبي ﷺ عن الساعة ، فقال لهم- وكان معهم طفل صغير- إذا كبر هذا الطفل ولم يمت فستدرككم ساعتكم»^(١) ، فالمقصود به ساعة زمانهم ، أي ساعة القرن الذي هم فيه ، وقد أراد ﷺ أن يلفت نظرهم عن البحث عن الساعة الحقيقية إلى ساعة قرنهم وجيلهم ، لكي يجدوا ويبتهدوا ، وليعلموا أنهم إذا فرطوا في أحكام الشريعة وخرجوا عن الدين فإن ذلك يؤدي بهم إلى فنائهم وإلى نهاية عمرهم بدون فائدة .

ومما يدخل في هذا المعنى ساعة الدول كما نص على ذلك جمع من العلماء ، وهي التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله : «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٢) ، فتوسيد الأحكام مثلاً والوظائف إلى غير أهلها من علامة ساعة الدول الخاصة كما بين ذلك الشيخ محمد عبده رحمه الله .

وهذا معنى قوله ﷺ من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، أنه ﷺ بعث مقارناً بالساعة ، فليس بينه وبين قيام الساعة شيء .

(١) أخرجه البخاري (٦٥١١) ، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) سبق تخريجه .

الإسراع بالتوبة قبل قيام الساعة :

والمطلوب من هذا كله هو تذكير المؤمنين الذين يؤمنون بالحرش والنشر بأن الساعة ستقوم ، وبأنه لا بد للإنسان أن يبدل قبل موته ما يستطيع أن يدخره لذلك اليوم المشهود .

ولا شك أن الإيمان بقيام الساعة وبالحرش ، والنشر ، والحساب ، والعقاب ، هو مما يدفع المؤمنين إلى العمل ، والإنسان الذي يفرط في الذنوب ، ويكثر من المعاصي ، يدل ذلك على أنه لا يؤمن بيوم البعث ولا بيوم النشور ، لأن الإنسان الذي يؤمن ولو بطريق الظن بالبعث والنشور فإنه لا يرتكب المصائب ولا المعاصي ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : ١-٦] .

لو كانوا يظنون أن الساعة موجودة قائمة وأنهم سيعثون إلى يوم القيامة ، لما طففوا في الكيل ولا في الميزان ، فإذا كان مجرد الظن يمنع الإنسان من ارتكاب هذه المصائب والمعاصي ، فكيف بالعقيدة الصحيحة الثابتة التي يعتقد فيها المؤمنون أن الدار الآخرة موجودة ، وأن الإنسان ما خلق سدى ، وأنه سيعث ، وسيحشر ، وينشر ، ويعرض على الصراط ، والميزان ، والحوض ، ثم بعد ذلك يبت في أمره إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإذا تصور ذلك الإنسان تصوراً حقيقياً ، وآمن به وصدقه ، فإنه سيكون رادعاً له دائماً على ارتكاب المعاصي ، واتباع الشهوات ، ومراعاة الآخذ بالنواصي سبحانه وتعالى .

وهذا الذي كان يقصده نبينا ﷺ حينما يخطب ويذكر بالدار الآخرة ، ولا شك أن نبينا عليه الصلاة والسلام ، والصحابة من بعده كانوا يؤمنون إيماناً قوياً بقيام الساعة ، حتى إنهم كانوا يعتقدون قربها ، بل كان منهم من يعتقد أنه ربما لا ينتهي مائة عام حتى تقوم الساعة ، وهذا هو الذي أنشأ في نفوس الزهاد الأولين الخوف من رب العالمين ، حتى إنهم كانوا يبكون ، وكانوا يتخشعون ، وكانوا يعبدون لاعتقادهم بأن الساعة قريبة بحيث لو وقعت لما ازدادوا يقيناً على ما عندهم من الإيمان واليقين ، فلما ضعف إيمان المسلمين ، وضعف يقينهم بأحكام الدين ، ولم يعد لهم تحقق بما سيقع يوم القيامة من حشر ونشر ، وجنة ونار ، صاروا لا يبالون بما يرتكبون من المعاصي ولا ما يرتكبون من الذنوب .

تجديد الإيمان :

فمن أوجب الواجبات على المسلم أن يجدد إيمانه ، ويؤكد عقيدته ، ويثبت قلبه ، ويعتقد أن هنالك رباً مطلعاً عليه ، وأن هنالك ملائكة تحصي أعماله الخيرية والشرية ، وأن هنالك يوماً يحشر فيه ، ويبعث أمام الله تبارك وتعالى ، وتحديثه نفسه ويده ورجله وقلبه وفكره وكل شيء عن عمله ، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون ، فذلك كله يقع لا محالة ، فينبغي لنا أن نجدد إيماننا ، ونؤكد عقيدتنا بذلك لتتقي الله ولنخافه ، ولنبتعد عن ارتكاب المعاصي ، ذلك المقصود من فعله ﷺ حينما كان يخطب ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» .

ثم يقول أما بعد ، هذه كلمة تفصل مقدمة الخطبة عن بقية الخطبة ، وقد قال بعض العلماء : إنها فصل الخطاب المذكور في القرآن الكريم ، والصواب أن فصل الخطاب هو غير هذا ، وأما هذه الكلمة فهي من أساليب العرب ، قيل : إن أول من نطق بها داود عليه السلام ، وقيل : إن أول من استعملها هو قس بن ساعدة ، وقيل : إن أول من استعملها هو يعرب بن قحطان ، على كل حال كانت معروفة منذ عهد داود عليه السلام .

وبعض العلماء يستعملون مكان أما بعد ، هذا ، ولما كان ، وهذا يصح ، ويستعملون كذلك ، وإلى ما تقدم ، فإنه كذا وكذا ، وهذه أيضاً تصح .

وكما ينبغي أن تستعمل هذه البعدية أو هذا ، أو ما إلى ذلك ، في الخطب الجمعية ، ينبغي أن تستعمل في غيرها من الخطب ، والكتب ، والرسائل ، وتلك سنة العرب في خطاباتها ورسائلها وكتبها ، فإنهم يستعملون : أما بعد ، الكتابات الأولى التي يحمدون الله تعالى ويمجدونه فيها ، وما كان المسلمون يكتبون شيئاً لا يبتدئون فيه بالبسملة أو الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ ، لأنه ﷺ كان يقول : «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم ، فهو أوتر»^(١) .

قال في الحديث : «أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد» .

«خير الحديث» : الحديث يطلق على الكلام ، وعلى الخبر وعلى الروايات ، وقد كان العرب يتحدثون عن الحديث قبل مجيء النبي ﷺ وهي أخبارهم ، ولكن الحديث أطلق بعد ذلك على الكلام المروي عن رسول

(١) سبق تخريجه .

الله ﷻ ، أي عن سنته المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته ، ولكنه في هذا الحديث استعمل الحديث كذلك في كلام الله سبحانه وتعالى ، فلا شك أن القرآن من الحديث الإلهي لأنه خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين .

قال : «فإن خير الحديث كتاب الله» ، ولا شك أن القرآن هو خير الحديث ، وهو المصدر الأول للشرعية الإسلامية ، وهو أفضل كلام على الإطلاق ، وهو إذا قرأه الإنسان في الحقيقة يكون تالياً لكلام الله ، ومردداً لكلام الله ، ومردداً لخطابات الله سبحانه وتعالى .

«وخير الهدى هدى محمد» : هذه هي رواية الإمام مسلم ، هُدى بضم الهاء وفتح الدال ، وفيه بعض الروايات : «وخير الهدي هدي محمد» ، وقال الإمام النووي ، إننا روينا الروایتين في صحيح مسلم ، ولكن القاضي عياض قال : إن صحيح مسلم اختص برواية هدى هدى الله ، وأما غيره من الرواة فقد اختص برواية الهدي .

قال الهروي : والهدى يدل على معنى الإرشاد ، وعلى معنى دلالة الإنسان على الصراط المستقيم ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : «اهتدوا بهدي عمار فإن الاهتداء بهديه»^(١) أي السلوك بسلوكه وبالعامل الذي يسلكه .

معنى الهدى :

وأما «الهدى» فإنها تطلق بمعنيين ، تطلق بمعنى الدلالة والإرشاد ، وهذا مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٩) ، وأحمد في «المسند» (٣٨٥ / ٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

أَقَوْمٌ ﴿[الإسراء: ٩]، أي يدل على الطريق الأقوم المستقيم، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا أَلْعَمَىٰ عَلَىٰ أَلْهَدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هذه الهدى هنا بمعنى الدلالة والإرشاد .

ويطلق الهدى ويراد به أثر الدلالة والإرشاد في نفس الإنسان، أي الإيمان، وهذا خاص بالباري سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] .

فهذه الهداية من الله سبحانه وتعالى خاصة به سبحانه وتعالى، ولذلك لا تستعمل في الإنسان، وهذا هو المذهب الصحيح، وأما بعض القدرين ممن يقولون: إن الأمر أنف، فإنهم يقولون: إن الهدى دائماً بمعنى البيان، ومقصودهم بذلك تأييد مذهبهم الذي يقول: إن العبد يخلق أفعاله، وأن ليس هنالك قدر، وأن الأمر أنف، هؤلاء القدرية كلامهم مردود عليهم، لأن الله سبحانه وتعالى قد فصل بين الدعاء وبين الهداية، ولكل معنى خاص به في كتاب الله ﷻ .

«إن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»، وفي بعض الروايات: «الضلالة وصاحبها في النار»، في غير مسلم، «الضلالة وصاحبها في النار» .

السنة والبدعة:

هذا الموضوع نتكلم فيه باختصار على البدعة والسنة وحقيقتهما عند السلفيين وعند الفقهاء .

فالسنة كما بينها أنفاً تطلق على الحديث، وهذا عند المحدثين في اصطلاح الحديث تطلق السنة بمعنى الحديث، وهي أقوال النبي ﷺ،

وأفعاله ، وتقريراته ، وتطلق السنة عند الفقهاء وتكون بمعنى الأمر الذي إذا فعله الإنسان أثيب عليه ، وإذا تركه لم يعاقب عليه ، وهو غير الفرض ، لأن الفرض يثاب الإنسان على فعله ، ويعاقب على تركه ، فهذه السنة عند الفقهاء ، وهذا ليس مقصودًا هنا ، وإنما المقصود هنا السنة بمعنى الطريقة ، وهي المنهج الذي يسلكه النبي ﷺ ، والمستفاد من أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته ، وهذه الاستفادات التي نستفيدها من أقواله وأفعاله وتقريراته لا يخلو إما أن تكون بطريق الدلالة الشرعية ، وإما أن تكون بطريقة القواعد الشرعية ، وإما أن تكون بطريق عمل الخلفاء الراشدين ، عملاً بقوله ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ»^(١) . فهناك إذن ثلاثة أقسام :

فأما القسم الأول : وهو الذي يؤخذ بالدلالات الشرعية ، كقوله ﷺ : «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢) . هذا في الحقيقة واضح أنه يعمل به ، ويؤخذ الكلام فيه إما مأخذ الوجوب أو مأخذ التحريم في الترك إذا نهى ، أو مأخذ الحرمة أو غير ذلك من المسائل ، فهذه معروفة بحيث لا تحتاج إلى خلاف بين العلماء ، لأن أفعال النبي ﷺ وأقواله وتقريراته إذا ثبتت بالأدلة الشرعية فإنها كلام مقبول ، وهو من الأشياء المحمولة على الأحكام الشرعية بحسب ما يدل على ذلك الدليل ، إما واجب ، وإما سنة ، وإما فرض ، وإما محرم ، وإما مكروه ، وهي الأحكام الخمسة المعروفة .

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) من حديث

العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

القسم الثاني : وهو الذي يستفاد من غير الدلالة الشرعية ، وإنما من جهة القواعد الشرعية ، وهذا هو مناط البحث ويحتاج إلى تدقيق ، لأنه لا تخلو أفعال النبي ﷺ إما أن تكون من الأفعال العادية أو الجبلية أو من قبيل الأفعال التي اختص بها النبي ﷺ ، أو من قبيل الأفعال أو الأقوال التي بين بها ﷺ حكم الله في كتابه المذكور في الكتاب ، فهناك ثلاثة أشياء .

أولاً : أن تكون من قبيل الجبلية ، فكونه ﷺ يجب بعض الطعام ، أو بعض الشراب ، أو لا يحبه ، كما كان ﷺ لا يأكل الضب لأنه يعافه ، هذه المسائل جبلية طبيعية ، فمسألة المأكّل والمشارب وغيرها لا تدخل في التشريع إلا من جهة إباحته ، والنبي ﷺ استعملها دليل الإباحة اللهم إلا من غلبت عليه المحبة ، وأراد أن يقتفي فعل النبي ﷺ بكل معنى الكلمة .

ثانياً : وأما المسائل غير الجبلية ، ولكنها من بعض المسائل الاختيارية التي اختارها ﷺ ، فهذه أيضاً لا يمكننا أن نقول : إنها تستفاد منها الأحكام الشرعية .

ما اختص النبي ﷺ بفعله :

ثالثاً : وهنالك أعمال تكون خاصة بالنبي ﷺ ، فكونه عليه الصلاة والسلام تجب عليه صلاة الضحى مثلاً ، هذا معروف أنه خاص به ﷺ ، ويحرم عليه أكل الثوم ، هذا كان خاصاً بالنبي ﷺ ، فنحن يصح لنا أن نصلي الضحى ، ويصح لنا أن لا نصليها من جهة الاختصاص ، نعم ثبت من جهة أخرى استحباب صلاة الضحى لغير النبي ﷺ وهذه مسألة ثانية ، المقصود أن المسائل الخاصة به ﷺ ، والوصال مثلاً كان النبي ﷺ يجوز له

الوصال في الصيام ، وهذا مكروه بالنسبة لبقية المسلمين ، لغير النبي ﷺ ، هذه اختصاصات لا تدخل في السنة .

أفعال النبي ﷺ :

كذلك أيضاً المسائل التي ذكرها النبي ﷺ بياناً ، أو فعلها بياناً كقطع يد السارق من الكوع ، فإن الله قال : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] ، فأبان ﷺ كيفية القطع فقطع من الكوع .

فنستفيد من هذه السنة من هذا الفعل الذي فعله ﷺ بياناً للقرآن ، هذه المسائل معروفة إما جبلية أو اختيارية أو طبيعية ، وإما من قبيل الاختصاصات ، وإما من قبيل البيانات ، ولكن يأتي بعد ذلك بعض أقوال النبي أو أفعاله وتقريراته التي لا تدخل لا في الجبلية ولا في الاختصاص ، ولا في البيان ، هذا الفعل الذي فعله ﷺ بهذه الصفة ، إذا نحن رأينا أنه يمكن أن يندرج تحت قاعدة من القواعد الشرعية فيكون مطلوباً وأقل الطلب الاستحباب ، كمثل بدايته ﷺ الرسائل بالبسملة ، وإن كانت البسملة ثبتت من جهة أخرى بالحديث الذي رويت لكم آنفاً ، وهو قول النبي ﷺ : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو أبت^(١) » . فالبداية بالبسملة ، أو بقولهم من فلان الفلاني إلى فلان ، أو يؤخر الإيماء ، هذه المسألة من فعله ﷺ .

فمن رأى أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب بالاعتداء لرسول الله ﷺ ، وأن كل أفعاله موطن قدوة ، يستحب اتباع ذلك في هذه الأشياء ، ومن كان

(١) سبق تخريجه .

يرى أن هذه الأشياء طبيعية ولا ينبغي للإنسان أن يستكثر من الاتباع فيها فإنه يقول لا حاجة إلى الاتباع فيها .

ومناطق الأمر في هذه القضية على معرفة ما إذا كان الشيء من قبيل الاقتداء أو من قبيل الفعل الطبيعي في الإنسان ، فعلة النبي ﷺ بصفة عادية طبيعية ، هذا الاختلاف هو الذي يكون الاختلاف بين العلماء أحياناً ، ولذلك من جملة الأمور إعفاء اللحى ، وقص الشارب مثلاً ، إعفاء اللحى ، وقص الشارب ، وتدلعية العذبة ، سدل العذبة ، عذبة العمامة ، هذا كان يفعله ﷺ ، فمن اعتبر هذا من باب الاقتداء قال ينبغي لنا أن نسدل اللحية ، ونقص الشارب ، وأن نسدل العذبة في العمامة مثلاً ، ومن قال إن هذه المسائل عادية اعتبر أن ترك اللحية ، أو حلقها أو غير ذلك شيء عادي .

مع أن أهل التحقيق من الفقهاء قالوا : بغير هذا الرأي فهناك حديث يقول : «خالفوا المجوس أعفوا اللحى وقصوا الشوارب»^(١) ، يوضح هذا ويبين على أنه يُقتدى بالنبي ﷺ وأن لا تترك للأمر بذلك وهكذا في جميع المسائل التي من قبيل العاديات .

ما تركه النبي ﷺ :

ومثل هذا يقال في التروك المسائل التي تركها ﷺ إن تركها جبلية كقوله ﷺ في الضب : «إنه لم يكن بأرض قومي فتجدني أعافه»^(٢) ، وأباح

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩١) ، ومسلم (١٩٤٥) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه .

لهم أكله ، وكعدم أكله للثوم ﷺ كما بينا ، وكذلك التروك الأخرى من أراد أن يعتبر الاقتداء صار يتبع النبي ﷺ في كل شيء ، وهو الأول .

من ذلك مثلاً لبس السراويل ، روي في خبر الإمام القصار رحمه الله كان بعض تلامذته يتباحثون بعد موته ، هل لبس النبي ﷺ السراويل أو لم يلبسها؟ قالوا إن القصار كان يقتفي أثر النبي ﷺ في كل شيء ، فذهبوا فسألوا زوجته ، فقالت لهم : لقد اشترى السراويل ولم يلبسها لأنه ثبت في الحديث أن النبي ﷺ اشترى السراويل ولم يلبسها ، لأنها لم تكن عادة عند العرب فلما رآها اشتراها ليلبسها ﷺ ولكن لم يلبسها ، ولكن شدة المحبة التي كانت في الإمام القصار رحمه الله جعلته يقتفي أثر النبي ﷺ إلى هذه الدرجة .

الأمور الكائنة بعد عصر النبي ﷺ :

بعد هذا الذي قلناه تبقى هنالك أشياء لم يفعلها ﷺ لأنها لم تكن في زمنه ، ولأن التطور الإنساني والعلمي والحضاري قد أدى إلى تكوينها وإيجادها ، فهذه الأشياء التي تكونت بعد ذلك لا يمكن أن يقال فيها إلا أنها سنة ، يعني سنة مقبولة كما سنين ، لا يمكن أن يقال فيها إنها بدعة ، البدعة اللغوية نعم ، لأن البدعة اللغوية هي كل شيء لم يكن من قبل وابتدع ، قد اخترع وأوجد ، وأما من وجهة البدعة الدينية فإنه لا يمكن للأشياء التي تبتكر وتخترع من جديد أن يقال فيها إنها بدعة دينية ، وإنما تعرض على الأحكام الشرعية ، فإن وافقت الشريعة اعتبرت من السنة ، وإن لم توافق اعتبرت من البدعة ، كتعلم العلوم وكالتوسع في العلوم الطبيعية ، والعلوم النظرية ، والنحو والصرف ، وغير ذلك من الأشياء التي أحدثت بعده ﷺ .

هذه كلها من السنة، وتدخل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فكذلك هذه الاختراعات والتقنيات الجديدة والتطورات في المباحث الفلكية، والصعود إلى الأقمار، وغير ذلك من الأشياء كلها مما تدخل في السنة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، لأننا مطالبون بالبحث والتنقيب والمزيد من العلم.

وقد كان ﷺ يقول: «كل يوم تطلع فيه الشمس لا أزداد فيه علماً لا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»^(١)، فكل يوم ينبغي لنا أن نتعلم، وأن نزداد تعلمًا ومعرفة، وهذا من قبيل السنة وليس من قبيل البدعة المستحسنة كما يقول الفقهاء، فليست بدعة مطلقًا، كما سنبين.

أما تقريراته ﷺ للأشياء التي رآها فهذه أيضًا تعتبر بحسب التقرير، لأنه ﷺ لا يقر إنسانًا على منكر ولا على حرام، ولا بد أن يبين له ذلك، فإذا فعل إنسان أمام النبي ﷺ أو قال شيئًا أقره عليه الصلاة والسلام بسكوته، فإن ذلك دليل على صحة ذلك القول، أو ذلك الفعل من ذلك الصحابي.

وكذلك لا يدخل في البدعة وهو من قبيل السنة، الاجتهادات التي يجتهد بها العلماء، استنباطات الأحكام الشرعية التي يستنبطها العلماء بأدلتها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، إذا كانت تندرج تحت أصل من الأصول العامة في الإسلام فإنها تعتبر من قبيل السنة، وليست من قبيل البدعة، هذه السنة تقابلها البدعة.

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في «المسند» (١١٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٦)،

من حديث عائشة رضي الله عنها.

البدعة لغة :

والبدعة في اللغة هي من البدع ، كل شيء جديد لم يكن موجودًا ، قال سبحانه وتعالى في حق الرسول : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] لم أكن شيئًا جديدًا في الرسالة ، فهناك رسل من قبلي : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ .

البدعة اصطلاحًا :

وأما البدعة الشرعية فقد حددها الإمام الشاطبي بأنها هي ابتكار السلوك على طريقة جديدة يقصد بها نفس السلوك الذي يعمل على الطريقة الشرعية ، هذه هي البدعة الدينية ، وهذه البدعة الدينية عند الإمام الشاطبي وعند السلفيين لا يمكن أن تكون إلا محرمة أو مكروهة ، لأن هذا ابتداع في الدين ، كل بدعة في الدين هي إما من قبيل المحرم وإما من قبيل المكروه ، وهي هذه التي يريد بها الإنسان أن يبتكر طريقة وسلوكًا في الدين لم يأذن به الله سبحانه وتعالى ، كمن يخترع مثلاً نوعًا من العبادات ، أو نوعًا من الأذكار الخاصة المعينة في وقت معين ، أو غير ذلك من هذه الأشياء أو تأسيسًا لبعض الطرق ، أو إقامة بعض المواسم أو ما إلى ذلك ، هذه البدع التي هي قطعًا ، هي إما محرمة أو إما مكروهة ، أو الذبائح على الصالحين فهي البدع المحرمة بل ومن الشرك ، وما إلى ذلك من هذه الأشياء كما بين ذلك الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام ، وهذه هي البدعة التي قال فيها النبي ﷺ «كل بدعة ضلالة» .

وعلى هذا الأساس ، فالكل هنا حقيقي وليس كما قال الشراح إنه كل يستثنى منه البدعة المستحسنة ، لأن البدعة المستحسنة في الدين غير

موجودة ، وإنما يوجد في الدين البدعة المحرمة ، أو المكروهة ، أما البدعة اللغوية هي التي يمكن أن نقول عنها بأنها بدعة مستحسنة كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التراويح التي رأى المسلمين يصلونها ، «نعمت البدعة هذه» ، يعني نعمت الشيء الجديد الذي قمت به وإلا فهو في حد ذاته مشروع لأنه عبادة تجمع للعباد ، هذا مشروع في الأصل ، فالبدعة لا يمكن أن تعتبر مباحة أو مستحبة أو واجبة كما بين الآخرون ، وكما سنوضحه من بعد ، وإنما تكون محرمة أو مكروهة ، ومعنى بيان أن البدعة ضلالة وأن صاحبها في النار ، أنه يجب على العلماء ويجب على المسلمين أن يحذروا من أنواع البدع المنكرة المحرمة في خطبهم ، وفي دروسهم ، وفي مواعظهم ، ويجب على من ولاه الله الأمر أن يعمل جهده لإزالة البدع وقمع أصحابها ، فهذه الطريقة التي يجب أن تسلك في مقاومة البدع والمنكرات كيفما كانت لتطهير العقول ، وإزالة الفساد ، وإصلاح المجتمع ، وإصلاح الأسرة ، وما إلى ذلك من أنواع الضلال الذي ينتشر بسهولة ، والفساد الذي يعم بكثرة .

المقصود بالسنة الحسنة والسنة السيئة :

وأما قوله ﷺ : «من سن سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١) ، الاستدلال بهذا الحديث على أن هناك سنة حسنة وسنة سيئة غير صحيح ، لأن المقصود بالسنة هنا المؤسسات ، من أسس مؤسسة حسنة

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

فله أجرها وأجر من عمل بها ، من حبس أو أوقف شيئاً من هذه الأشياء ، فمن حبس مسجداً ، أو بنى مدرسة ، أو مستشفى ، أو حبس مالا يتصدق به على الضعفاء والمساكين ، أو ما إلى ذلك من هذه الأشياء ، فله أجرها وأجر من اقتدى به إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة ، من حبس ماخورا ، أسس ماخورا ، أو وضع شركة لبيع الخمر وأبقاها من بعده لورثته ، أو سن سنة من السيئات مثلاً ، كمن حبس على من يسافر للحضور في المواسم أو ما إلى ذلك ، فهذه كلها سنة سيئة ، وقد أفتى العلماء بأن مثل هذه التحبيسات لا تصح ، وأنها تؤخذ ويصرف مالها في الصدقات ، وفي حال الضعفاء والمساكين ، لأن المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً ، «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» ، هذا ما يتعلق بالبدعة والسنة على مذهب السلفيين ، وقد وضحه وأطنب في بيانه الإمام الشاطبي رحمه الله في كتابه الاعتصام ، فعلى من شاء أن يتوسع في الموضوع أن يرجع لكتاب الاعتصام .

تقسيم البدعة عند بعض الفقهاء :

أما مذهب غير السلفيين وهو مذهب جماعة من الفقهاء ، مثل الإمام سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، والإمام ابن غازي فقد قالوا إن البدعة تنقسم إلى أقسام ، البدعة المحرمة ، والبدعة المباحة ، والبدعة المستحبة ، والبدعة المكروهة ، قالوا إن البدعة المستحبة مثلاً كالأدلة في المنطق التي وضعت بعد النبي ﷺ ، دراسة المنطق والعلوم وما إلى ذلك ، هذه من البدع المستحسنة ، فنقول لهم : هذه ليست بدعة ، ولكنها تدخل في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، هذا من قبيل العلم ،

لأنه لو كان النبي ﷺ موجودًا لسمح بتعلم تلك العلوم بشرط أن يبتعد عما فيها من الفلسفات الملحدة، وكل سنة في التعليم أو في طريقة معرفة الأشياء فهي من قبيل السنة التي شرعها ﷺ، لأن طلب العلم فريضة، وقال ﷺ: «اطلبوا العلم»^(١)، وقد بين الإمام الغزالي أن المقصود بالعلم ما يشمل العلوم بأسرها، العلوم التي يتعلمها الإنسان لأداء الفريضة العينية، والعلوم التي يتعلمها الإنسان لأداء الفريضة الكفائية.

قالوا إن البدعة تنقسم إلى أقسام: إلى واجب، ومحرم، ومستحب، ومكروه، وأن ذلك باعتبار اندراجها تحت أصل من الأصول العامة، فإذا اندرجت البدعة تحت قاعدة من القواعد الشرعية فإنه يجوز لهم ذلك، وتصبح بدعة مستحسنة، وهذا هو الذي جرننا إلى إباحة كثير من البدع، كبناء القبر على المقابر مثلاً وكزيارة القبور، وكالذبائح عليها، وكوصل النذر إليها، وكإقامة المساجد في المقابر وكغير ذلك من الأمور، دائماً يقولون هذه الأمور هذه بدعة مستحسنة لأن فيها الصلاة وفيها العبادة، وفيها تكريم العلماء أو الأولياء أو ما إلى ذلك، فهذا الفقه الذي صار عليه ابن غازي والذي صار عليه بعض الفقهاء خلاف ما أوضح الإمام الشاطبي وجماعة السلفيين الذين اتبعوه، والمدرسة الشاطبية مدرسة مهمة عظيمة في الأندلس، وقد كانت تقابلها مدرسة محافظة معارضة لها هي التي كانت تقول بغير ما قاله الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

فنهج سيبي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت

(١) سبق تخرجه .

فالتيجة إذن أن المسلمين والعلماء والمفكرين ينبغي لهم أن يقاوموا البدع والمنكرات بكل ما يستطيعون، وعليهم أن يقبلوا السنن، وأن يقبلوا العلم، وأن يطلبوا العلم، وأن يبدلوا كل ما يستطيعونه في هذا السبيل، «وكل بدعة ضلالة»، وفي رواية أخرى «والضلالة وصاحبها في النار».

الضمان الاجتماعي في الإسلام:

ثم يقول ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي»، هذه الفقرة من الحديث الشريف فقرة عظيمة الأهمية، ومن عجيب الدنيا أن الشراح لم ينتبهوا لما فيها من الأحكام الشرعية العظيمة مع أنها تدلنا على عمل جليل كبير طالما نفذه ﷺ، ونفذه سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر، ونفذه سيدنا علي وسيدنا عثمان وكذلك سيدنا عمر بن عبدالعزيز، وطالما نفذه كثير من خلفاء المسلمين من بعد، وهو ما يتعلق بالضمان الجماعي، في الإسلام؛ لأن هذه الفقرة من الحديث الشريف ترشدنا إلى الضمان الجماعي.

فالنبي ﷺ قال: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه»، هذه كما ثبتت في حديث آخر في صحيح الإمام البخاري: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه»، اقرءوا إذا شئتم: ﴿الْنَبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، «فمن ترك مالا أو عقارا فلاهله أيا كانوا» الحديث في صحيح البخاري: «ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني أود عنه فإلي وعلي».

وقد بين الشراح حقيقة أن النبي ﷺ كان يجب عليه أن يؤدي دين من

مات ولم يترك ما يؤدي به الدين ، وكذلك نفقة عياله وأولاده من بعده ، ولكننا إذا درسنا الموضوع دراسة حقيقية يجب أن ننظر للظروف التي مر فيها الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ، فكلكم تعرفون أن سيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام عندما هاجر وهاجر معه أصحابه كان المهاجرون في حالة من البؤس والشقاء ، لأنهم تخلوا عن جميع أموالهم ونفوسهم ولم يدفعهم إلى الهجرة إلا إيمانهم ، فلم يكن يربط بين المهاجرين ، وبين رسول الله ﷺ فيما بينهم إلا رباط الدين والعقيدة ، فلم يكن هنالك رباط أسرة لأنها انفكت ، هنالك أناس أسلموا ولم تسلم نساؤهم ، وهناك مسلمات أسلمن وهاجرن ولم يهاجر رجالهن ، وهكذا فقد وقع تخلخل وتفكك في الأسرة ، وضع المهاجرون أموالهم ، وجاءوا إلى المدينة المنورة .

ولكن النبي ﷺ عالج ذلك بأن آخى بين المهاجرين والأنصار فلم ينزل مهاجري إلا في بيت أنصاري ، ولم ينزل إلا بالقرعة ، لأن عدد الذين كانوا يطلبون النزول أكثر من عدد الذين جاءوا مع النبي ﷺ ، مع ذلك كان الأنصار يلحون في النزول عندهم ، فكانوا يقترعون على نزول المهاجري عندهم .

فهذه الصفة خلقت بين المهاجرين والأنصار مدًا استثنائيًا وليس عاديًا ، وهو فورة الإيمان في تلك البداية ، وذلك المد الاستثنائي الذي لا يمكن أن يكون في كل الأوقات بصفة طبيعية استفاد منه ﷺ وآخى بين الأفراد ، آخى بين فلان وفلان ، وكانت هذه المؤاخاة تؤدي إلى التوارث بين المتأخين ، بحيث يرث بعضهم الآخر ، وكانوا يقسمون معهم أموالهم وكل ما

يطلبونه منهم .

ثم بعد ذلك وقع في المدينة المنورة نفس الشيء الذي وقع للمهاجرين الذين هاجروا ، لأنه ليس كل السكان المدنيين أسلموا ، بل أسلم بعضهم وبقي بعضهم ، فوق انقسام في العائلات وتخلخل فيها ، ووقع هنالك نوع من الاضطراب الاجتماعي ، حيث أصبح المجتمع المدني قائماً على نوع من الخلخلة ، وليس متبثاً مستقراً كما هي العادة .

ثم إن النبي ﷺ حينما علمهم هذه المؤاخاة أعطاهم رباطاً يترابطون به ، ولكن هذا الرباط لا يزال في ذلك الوقت رباطاً عاطفياً عقدياً ، ولم يصل بعد إلى أن يصير نظاماً مستقراً ، فلما أفاء على المؤمنين بعد غزوة بدر بتلك السرايا المتعددة التي أرسلها النبي ﷺ ، ولاسيما بعد الاستيلاء على بني قينقاع وما كان عندهم من المال ، تبدل الوضع الاجتماعي ، وتبدل الوضع الاقتصادي للدولة ، وللأمة التي شيدها سيدنا محمد ﷺ .

تنظيم الأسرة والمجتمع المسلم :

أولاً : حينذاك نزل القرآن بإلغاء أشياء كثيرة ، وأراد ﷺ أن ينظم الأسرة والمجتمع الإسلامي على أسس جديدة ، وهذا ما ترشد إليه سورة الأحزاب ، وخصوصاً الآية الأولى منها ، قال سبحانه وتعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتِّقِ اللَّهَ وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْسِنَةً تَبْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمُهِتَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا
ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢﴾
الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ
تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٣﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٤﴾ لَيْسَ لَكَ الصَّدَقَاتِ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥﴾ [الأحزاب : ١-٨] .

الظهار ليس طلاقاً :

وسارت السورة في أشواط متعددة من هذا المعنى ، واختتمت بتلك
الآية الشهيرة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴾ ، فهذه السورة الكريمة بينت لنا أن النبي ﷺ أمر بتنفيذ نظام
معين محكم في الأسرة وفي المجتمع ، فأولاً ألغى الظهار ، وقال سبحانه
وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ
أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا النَّبِيُّ وَلَدَنَّهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢] .

على كل حال هذا الشيء الذي كان معروفاً في الجاهلية ألغاه الإسلام ،
وبين طريق الكفارة إذا وقع اليمين بالظهار ، وحرر المرأة من التطليق
بذلك الظهار هذه الوحدة الأولى .

منع التبني:

ثانيًا: ألغى التبني: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فوطد بذلك دعائم الأسرة زيادة على الأحكام الشرعية الأخرى، فقرر استمرار الأسرة وثباتها إلا في الأوقات التي أباح الشارع فيها الطلاق بصفة مشروعة، ومنع التبني لتثبيت النسب، وليبين للمسلمين أن الأولاد - كل واحد - يجب أن ينتسبوا إلى آبائهم: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

فصار نظام الأسرة مبنياً على هذه الطريقة، وهذا الأساس، ولا بد من التأكيد على قيمة الأسرة في الإسلام، لأن الأسرة جزء من الضمان الجماعي لا بد منها، على طريق الأسرة في الإسلام وأن تبقى على هذه الصفة المنتظمة، وأن يكون الأبناء متسبين إلى آبائهم، وأن تكون الصلة غير متخلخلة كما كانت من قبل.

ثم بعد ذلك عمد إلى المؤاخاة التي أسسها ﷺ من أجل المصلحة؛ لأنها ليست في الجاهلية بل وقعت في الإسلام، مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وألغى تلك المؤاخاة التي تؤدي إلى التوارث بين المتأخيين، وجعل التوارث بين القرابة النسبية ليس إلا، وليس هنالك تقارب، وليس هنالك توارث بطريق المؤاخاة، وبذلك رتب النظام الإسلامي - على هذا الأساس - الأسرة المحكمة التي لأبنائها صلة بأبيها وأُمها، علاقة توارث، وعلاقة نفقة، وعلاقة استقرار وتضامن فيما بينها.

ثم جعل الأمة كلها متكافلة فيما بينها ، وجعل النبي ﷺ نفسه هو الولي العام لجميع المسلمين ، فكل عائلة يقوم بها أهلها وتضامن فيما بينهم ، ولكن الولاية العامة هي للنبي ﷺ لا بصفته نبياً فقط بل بصفته رئيساً للدولة ؛ لأنه ﷺ في ذلك الوقت رئيساً للمسلمين ، فقد أسس الدولة في المدينة المنورة بعد الفتح فصار هو رئيساً للمسلمين ، فقال : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه» ، وهذه الولاية تشمل ولاية رسم المنهج ، لأنه الأولى بأن يرسم لنا المناهج التي ينبغي أن نسير عليها في حياتنا ، وأن نسلکها ونتبعها في أعمالنا في اليوم والليل ، فهو الذي يضع لنا التشريع ، وإذا وضع ذلك ﷺ أو أوحى إليه به فعلينا أن نتبعه ، وليس لنا أن نخالف في ذلك ، كما قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١) .

الولاية :

فمسألة الولاية تشمل وضع المنهج في السلوك وفي الطريقة ، وتشمل كذلك مسألة الاتصال العاطفي ، فلا بد من محبة النبي ﷺ محبة أكثر من محبة النفس ، وقد قال النبي ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين»^(٢) .

«وجاءه عمر بن الخطاب مرة فقال له : يا رسول الله لآنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، قال : لا يا عمر لا تؤمن حتى أكون أحب إليك

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١ / ١٠٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقال النووي في «الأربعين» بعد الحديث الحادي والأربعين : حديث صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح .

(٢) سبق تخريجه .

من نفسك ، فقال له عمر : الآن يا رسول الله أنت أحب إلي من نفسي ، فقال : الآن يا عمر^(١) .

وهذه ليست كلمة يقولها عمر فقط ، ولكنها في الحقيقة مراقبة من مراقبي السمو والارتفاع الروحي بفضل مواجهته النبي ﷺ ، فقد حوله ﷺ بهذا الأمر الذي قال له إلى أن يصبح الرسول عليه الصلاة والسلام أحب إليه من نفسه وماله وأهله ووالده وولده والناس أجمعين .

السلطان ولي من لا ولي له :

ثم بعد ذلك يأتي فيما يتعلق بالولاية أمر النظر في شئون المسلمين ، فولاية الرسول ﷺ عامة لكل مسلم ، بحيث إذا اختص مسلم في نفسه أو ماله أو أصابته شيخوخة أو عيلة ، أو المرأة التي تلد ولم تجد من يقوم بها أو غير ذلك من الأمور ، فسيدنا رسول الله ﷺ وليها .

وكذلك إذا لم تجد من يعقد عليها في النكاح فالنبي ﷺ وليها ، وفي الحديث : «السلطان ولي من لا ولي له»^(٢) ، ففي عقد الزواج إذا لم تجد المرأة أولياءها المقربين عندها ، فالسلطان ولي من لا ولي له ، أو من يقوم مقامه وهو القاضي ، فالولاية العامة هي ولاية النبي ﷺ .

التكافل العام بين المسلمين :

ثم بعد ذلك التكافل العام بين المسلمين ، قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (١١٠٢) ، وأبو داود (٢٠٨٣) ، وابن ماجه (١٨٧٩) من حديث

عائشة رضي الله عنها ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

الْمُنْكَرَ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴿٧١﴾ [التوبة : ٧١] .

المؤمنون المتكافلون بهذه الصفة فيما بينهم ، وكذلك الكفار يوالون بعضهم بعضًا ، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بأن نوالي نحن المؤمنين بعضنا ، والكفار يوالون الكفار ، قال تعالى : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] ، إلا تتضامنوا مع إخوانكم المسلمين فيما بينكم ، ويتضامن الكفار فيما بينهم ، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، وذلك ما وقع بالفعل ، فإن المسلمين لما تحاذلوا فشل أمرهم ، واحتلت بلدانهم ، ودخل اليهود إلى بلادهم المقدسة ، ولن يزول ذلك إلا بتضامنهم وتكافلهم وتعاونهم : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ، هذا الشرط الأول من فقرة النبي ﷺ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ، وزاد ذلك أيضًا بقوله : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ .

فأزواج النبي ﷺ أيضًا لهن صلة مودة فيما بيننا وبينهن ، وهكذا يستقر نظام الأسرة النبوية كما يستقر نظام الأسر الأخرى في عهده عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال : ٧٥] ، فذوو الرحم فيما بينهم يتراحمون ، ويجب على الوالد أن ينفق على ولده والولد على أبيه ، إذا كان يكتسب ويقدر على ذلك ، فإن لم يكن شيء من ذلك ولم يقع هذا التراحم للعجز عنه بين أولي الأرحام ، وكذلك التوارث فيما بينهم إذا لم يكف ذلك فإن الدولة تقوم به ، كما قال ﷺ : «من ترك دينًا أو ضياعًا فلإي وعلي» .

الضمان الاجتماعي :

وهنا تأتي مسألة الضمان الجماعي ، ومن المعروف أن هذه القضية أصبحت الآن معروفة في العصر الحاضر منذ بداية القرن العشرين ، وأن ميثاق حقوق الإنسان نص في المادة الخامسة والعشرين على ضرورة الضمان الجماعي ، وأن كل واحد من العمال أو العاجزين ، أو المرضى ، أو الأيامي ، أو المترملين ، لهم الحق في الضمان الجماعي .

ووقعت بمقتضى ذلك تشريعات في بلدان كثيرة فإن عندنا نظاماً للضمان الجماعي ، ولكن هذه الأنظمة كانوا يسمونها كذلك في شكل من التأمين الاجتماعي ، وهذا التأمين في الغالب يقوم أساساً على أن طائفة من الناس من العمال مثلاً أو من الموظفين يدفعون قسطاً من المال وتدفع الدولة قسطاً من المال ، وتقوم لهم بحاجات التمريض ، أو بحاجات عند العجز ، يدفعون لهم مبلغاً تقاعدياً ، أو ما إلى ذلك ، كل البلاد تقوم فيه بحسب أنظمتها الخاصة بها .

وهنالك أيضاً نوع آخر من هذا التأمين الذي يقع بطريق التعاونية فيما بين الناس ، بحيث يجتمع جماعة من الناس ، يدفعون مبلغاً من المال ، يتكاثفون فيما بينهم لأداء حاجاتهم التي يتوقفون عليها عند الحاجة ، وكذلك هنالك بعض أصحاب المعامل يضعون ضماناً اجتماعياً لعمالهم ، بحيث يضع صاحب المعمل قدرًا من المال ، ويضع العامل قدرًا من المال .

هكذا اختلفت الأنظمة اليوم في العصر الحاضر ، وسارت على هذا المنهج ، ولكن الاتجاه الفلسفي -الآن- الاجتماعي الموجود في كثير من البلدان يسير إلى النهج الذي قاله النبي ﷺ ، وقد بدأ في هذه الخمسينيات

الأخيرة ما يسمى بالمساعدة الاجتماعية، ولم يعد يسمى بالتأمين ولا بالضمان وهو يسمى بالمساعدة الاجتماعية، وهذه المساعدة الاجتماعية تقوم بها الدولة نفسها، بحيث هي التي تتولى أمرها، وهي التي تنفق عليها من بيت مال الدولة وميزانيتها، هذا سبق إليه الإسلام في قول النبي ﷺ: «من ترك مالا فله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي».

الأسس التي بني عليها الضمان الاجتماعي في الإسلام:

إذا أردنا أن نفصل الضمان الاجتماعي في الإسلام ينبغي لنا أن ننظر إلى أسسه المبني عليها في الإسلام.

أولاً: الأساس الأول هو وجوب العمل، أوجب الشارع العمل على كل مسلم، وكره البطالة وحرمها، ولم يبيح السؤال لأحد إلا للعاجز الذي لا يقدر على الكسب، ولم يجد من يقوم به، هذا القسط الأول.

فإذا قام كل واحد بعمله وأدّى واجبه على الشكل المطلوب، فإن كل واحد سيقوم بنفسه، ولا يتوقف على الدولة ولا على غيرها، وتأتي العائلة فيقوم كل واحد بسد حاجة عائلته من طريق الكسب الذي يكتسب به، أو طريق العلاوات التي تقع على وظيفته، أو على شغله الذي يشتغل به.

ثم يأتي بعد ذلك الضمان الجماعي الإسلامي فيسد ما بقي من الحاجات، وذلك كالمسائل التي يتوقف عليها كما قال ﷺ «لما جاءته امرأة جعفر بن أبي طالب جئته قالت له: يا رسول الله إن لي يتامى، فقال لها عليه الصلاة والسلام: أكلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»^(١).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٤ / ١) من حديث عبد الله بن جعفر جئته، والنسائي في «المجتبى» (٥٢٢٧)، وأبو داود (٤١٩٢) مختصراً.

آلعيلة تخافين عليهم أي الفقر تخافين عليهم ، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة ، قال ﷺ ذلك لا بصفته قريبًا لجعفر بن أبي طالب المتوفى ولكن قالها بصفته رئيسًا للدولة ، فهذا «آلعيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة» ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرناها .

ومما يدل على هذا أن سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام كتب إلى عامله في مصر «أن اهتم بالطبقة السفلى من الجائعين ، والأيامى ، والأرامل ، والزمنى ، اكتب لهم من بيت مالك ، وأعطهم من صوافي مال المسلمين» ، هذا الشيء الذي كتبه سيدنا علي بن أبي طالب لم يكن كلامًا ، أو فصاحة تبجح بها ، ولكنه أمر أمر به واليه في مصر ، ونفذه واليه في مصر في الوقت الذي كان وليًا عليه ، فسيدنا علي بن أبي طالب كان يستن بسنة رسول الله ﷺ .

وكان أبو بكر الصديق عليه السلام يقوم بهذا العمل ، فكان يفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، وما كان يفرق بين من قاتل مع النبي ﷺ أو قاتله ، بحيث كان يعطي لمن قاتله وأسلم ، والذي قاتل مع النبي ﷺ ، فلما جاء عمر قال : «والله لا أعطي من قاتل النبي ﷺ نفس المبلغ الذي أعطيه لمن قاتل مع النبي» ، ومع ذلك فقد فرض العطاء لكل واحد من المسلمين المحتاجين .

وكذلك زمن سيدنا عثمان بن عفان عليه السلام ، وكذلك زمن سيدنا علي ، ولكن القضية تبلورت تمامًا وظهرت في شكلها ونفذت على وجهها تمامًا في زمن سيدنا عمر بن عبدالعزيز عليه السلام ، فقد قال يحيى بن سعد بعثني عمر بن عبدالعزيز لأجمع زكوات إفريقية ، فجمعتها ، ثم بحثت على من أتصدق عليه بها فما وجدت أحدًا يقبل الصدقة ، لأن عمر أغنى الناس في إفريقية في بلاد تونس ، بحيث لم يجد أحدًا يقبل الصدقة ، لأن الإسلام

أغناهم بهذه الأحكام وبهذا الكسب الشرعي ، وبالطريقة الشرعية التي سنّها ﷺ .

قال فاشتريت بذلك مجموعة من الأرقاء فحررتهم ، فلما لم يجد ما يعمل به اشترى به مجموعة من الأرقاء فحررهم .

وهذا مذكور في التاريخ زمن عبدالمؤمن بن علي فقد كانوا يبحثون عمن يعطى الزكاة فلا يجدون من يقبلها ؛ لأن الحالة الاقتصادية كانت قد ازدهرت في زمن عبدالمؤمن بن علي حينما كانت تؤخذ الزكوات ، وهي التي تسمى النائبة اليوم ، ولم تكن فعلاً النائبة ، بل السعديون هم الذين يسمونها النائبة . إنما كانت زكوات وأعشارا تجمع وتصرف في هذا السبيل .

وإذا أردنا أن نذكر أمثله من العطاء الاجتماعي الذي اشتغل به الصحابة رضوان الله عليهم ، فناهيك بسيدنا عمر بن الخطاب ، لأن أنواع العطاء إما أن تكون للخاصة الجسمانية ، وإما أن تكون العيلية يعني الفقر بازدياد العائلة ، وإما أن تكون هنالك حادثة من حوادث العمل ، وهذه الأشياء الثلاثة كلها ثبتت في «تاريخ الإسلام» أن خلفاء المسلمين ، اعتمدوها واعتبروها .

فأما المسألة الجسمانية فقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهوديًا يسعى وهو عجوز ولم تبق عنده قدرة على الكسب ، فقال ما حملك على السعاية وعلى الطلب ، فقال له إنني عجزت وأطالب بالجزية والكسب وما أكتفي به في شئون عائلتي ، فأخذ سيدنا عمر رضي الله عنه إلى بيته ، وأعطاه من النفقة ، وقال لبعض خدامه : انظر في هذا وأضرابه وأعطهم ما يتوقفون عليه ، ولا يمكن أن نأخذ جزيتهم صغارًا أقوياء ثم بعد

ذلك نخذلهم وهم كبار، الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وهذا من مساكين أهل الكتاب فأعطه .

سيدنا عمر لما سافر إلى الشام مر بقرية من المجذومين النصارى، فأمر
بأن يعطوا من الزكوات، وينفق عليهم منها من بين مال المسلمين فأحرى
بالمسلمين .

سيدنا عمر رضي الله عنه -فيما يرجع لليلة- مشهور أنه رضي الله عنه ذهب في
وقت فاستمع أنيئاً لامرأة تلد، فنادى زوجته أم كلثوم وصار بها ودخل
عندها وحمل طعاماً إليها، ودخلت أم كلثوم عند المرأة، وقابلتها حتى
ولدت، فقالت لعمر قل لصاحبك يعني زوج المرأة بشره بغلام ازداد
عنده يا أمير المؤمنين، فسمع الرجل لقب أمير المؤمنين، فعرف أن الذي
يخدمه هو عمر بن الخطاب، فجاء وأكمل الطعام، وأعطاه للزوجة حتى
شبع، وأعطاه للرجل، فقال له جئ عندنا في الصباح فجاء فأعطاه ما
يسد حاجته هو وعائلته .

وكذلك سيدنا عمر رضي الله عنه حينما مر بامرأة وولدها يبكي فقال لها : لماذا
يبكي أعطه الرضاع أرضعيه، قالت له لقد فطمته، قال لها لماذا وهو لا
يزال صغيراً، فقالت لأن عمر لا يفرض لمن لم يفطم، فأنا أفطمه ليقبض
العطاء الذي يفرضه أمير المؤمنين، فقال لها لا، أعطه . ثم في الصباح خرج
وخطب وقال، ثكلت عمر أمه، كم قتلت من أبناء المسلمين، أما الآن فلا
تعجلوا أولادكم عن الرضاع، فإنني سأفرض لكل مولود في الإسلام،
فلا يحتاج إلى انتظار الفطام .

هذا من أعماله رضي الله عنه، وله أعمال كثيرة فعلها، وقد ذكر بعض الصحابة

طلحة أنه ذهب مرة ورأى عمر يخرج ليلاً ، فتبعه ، فرآه يدخل إلى بيت امرأة عجوز ، فانتظره حتى ذهب ، ودخل عند تلك المرأة العجوز ، فقال لها : ما يفعل عندك هذا الرجل ، فقالت : يأتيني كل يوم بما يكفيني ، ويحمل عني أذاي ، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل أذى تلك المرأة العجوز رضي الله عنها .

وهكذا في كل الأوقات كان الصحابة رضوان الله عليهم يقومون بهذه الواجبات ، ولو سلك المسلمون هذا المسلك في أوقاتهم وفي تاريخهم واستمروا عليه ، لكان المسلمون على حالة غير هذه الحالة ، ولكن نطلب من الله تعالى أن يوفقنا إلى اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، وأن يرزقنا من أنواع الطاعة ، والمثوبة ، والعمل الكبير ما ينفعنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا ، وأن يسلك بنا مسالك النجاة ، ويقينا من جميع العثرات ، ويصلحنا ويصلح بنا .

المحاضرة التاسعة والتسعون

نحو منهج تربوي قرآني متفرد

انطلاقاً من قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

المنهج الذي رسمه الله في القرآن لبناء الإنسان:

هو: المنهجية التي رسمها لنا الله ﷻ في كتابه الكريم لبناء الإنسان الأمثل، الذي يريد الله ﷻ أن تنبثق منه أمة، خير أمة أخرجت للناس، بصفاتها المميزة التي حملتها إلى الدنيا آية الله البينة من سورة آل عمران: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، غير أن هذا الترتيب تحدث فيه بعض علماء التفسير، فقالوا: إن الذي كان يتبادر إلى الذهن أن يكون الترتيب: تؤمنون بالله، وتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، فلماذا كان الترتيب بصفة أخرى؟ قالوا - وعندي أن هذا الرأي له وجاهته: إن الأمر بالمعروف لكي يكون حقيقياً وأميناً وصادقاً، وأن النهي عن المنكر لكي يكون حقيقياً وأميناً وصادقاً يجب أن ينبعث من الإيمان، أي إن ضمانه أن يكون الأمر بالمعروف حقيقة، وضمانه أن يكون النهي عن المنكر حقيقة، هو أن ينبع من الإيمان، وإن الإيمان هو القاعدة الكبرى أو النبع الذي تتفجر منه كل الخيرات، وكل الرحمات، وكل البركات.

إن هذه الآية التي اخترتها تأتي بعد سبع آيات قبلها هي مستهل سورة الإسراء، وسورة الإسراء لها دلالة خاصة، إنها تذكرنا بالمعجزة الكبرى التي

أجراها الله لسيدنا رسول الله ﷺ حين أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، قال الله : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : ١] ، ولم يقل : باركنا فيه ، ليستقر في أذهاننا أن كل ما يحيط بهذا المسجد من أرض وبشر وكائنات إنما هو مبارك وإنما هو مقدس ، إنما على الأمة الإسلامية أن تعرف مسئوليتها نحو هذا المسجد المبارك .

وإن الإسراء هو الذي ذكر في هذه السورة ، أما المعراج فجاء في سورة النجم ، الإسراء والمعراج نقلة علوية من الأرض إلى السماء ، ونقلة بشرية من الطفولة إلى الرشد ، ونقلة رسالية من المرحلية إلى الشمولية ، ونقلة توجيهية من القومية إلى العالمية ، إذ كان الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين جاءوا قبل الرسول الخاتم ، كل رسول منهم يبعث إلى قومه خاصة : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

أما هذا الرسول الخاتم محمد ﷺ لم يقل له هذا ، وإنما قال له : إنك رسول الله للناس أجمعين ، ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] ، «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة»^(١) ، وإن ما تواجهه البشرية كلها الآن من مآسٍ ، وإن ما

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

تواجهه أمتنا الإسلامية من كوارث ، إن حلها يكمن في شيء واحد ، وهو القرآن ، يقول ﷻ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

إن الأوضاع المساوية التي تعيشها البشرية أثناء تقلباتها باحثة عن مستقر لها ، متخبطة بين الاتجاهات التي لا يستقر لها قرار ، فكان الشقاء الذي وتر الأعصاب ، ومنع النفوس من الطمأنينة التي لا يجدها الإنسان إلا بذكر الله ، مصداقاً لقوله ﷻ في سورة الرعد : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] ، وشقي الإنسان بعذاب مس الأفراد ومس الجماعات ، وعم الفزع ، وتسابقت القوى الكبرى نحو الدمار الرهيب ، إنه كما قرر القرآن الكريم ، لا نجاة للناس إلا بما قدمه الإسلام من علاج : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وليس للبشرية من علاج غير التوجه إلى الله ، واللجوء إلى حماه ، وإلا فلا أمن ولا عدل ولا سلام : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

والمنهج التربوي الذي قدمه الإسلام هو الكفيل وحده ببناء الأمة الراشدة المتوازنة ، ذات السلوك الأقوم .

مدلولات ألفاظ الآية :

لنحاول أولاً أن نقف مع مدلولات الألفاظ ، ألفاظ الآية ، قبل الانطلاق نحو المحاور التي يمكن أن نستلهمها منها .

إن لفظ «إن» كما يقرر النحاة يفيد التوكيد ، وإن الإشارة بـ«هذا» تفيد أن القرآن معنا ، قريب منا ، وإن اسم الإشارة بـ«هذا» يعني القريب ، وإننا عندما نريد أن نشير إلى البعيد نقول : «ذاك» وعندما نحب أن نشير إلى الأبعد قلنا «ذلك» وإن الإشارة بـ«هذا» تفيد أنه معنا ، القرآن معنا في كل عصر ، معنا في كل جيل شاهداً لنا أو شاهداً علينا ، وإن القرآن هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي يحمل هذا الاسم ، وهو يقرأ في كل عصر وفي كل جيل ، بما يحمل لهذا العصر ولهذا الجيل رشد وهداه ، وكم تشدني هذه الآية الكريمة من كتاب الله ﴿ وَفَرَقْنَا بَيْنَهُ لِيُتَفَرَّقَ عَلَيْهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ، إن الله ﷻ وزعه على فترات ليعالج جميع الحالات ، ومكوث الرسول ﷺ في عهدي مكة والمدينة ليتمكن من البلاغ ، ومن التبیین ، ومن التطبيق ، في ظرف ثلاثة وعشرين عاماً ، إن مهمة رسول الله ﷺ هي كما يلي :

* البلاغ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

* البيان : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

مسئولية الأمة نحو رسول الله :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، ولا بد أن يعيش رسول الله هذه
المراحل التي عاشها ليتمكن من تأدية هذه المهام الثلاث ، حتى إذا اكتمل
البناء وعلا ، حتى إذا أقرت المبادئ ، حتى إذا رسخت القيم ، حتى إذا
أنشئت الجماعة التي تهتدي وتتقدي ، نزلت الآية الخاتمة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ثم إن ربانية القرآن باهرة ؛ لأن الذي أمر بالقراءة هو رجل لا يقرأ ، ولأن الذين نشأ فيهم أميون ، وربما قيل : إنه لم يقرأ ولكنه عاش في بيئة ثقافية وفي بيئة حضارية ، وفي بيئة فيها علم ، فأبطل الله ذلك بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] أمي في الأميين ، أصبح يتلو وهو لم يكن يقرأ وأصبح يعلم وهو لم يتعلم وأصبح يظهر المجتمع ، وأصبح يأتي بالمنهج الأقوم للعالم أجمع ، ﴿ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

وهنا أيضًا ذكر المفسرون أن «أقوم» لا ينبغي أن يفهم منها التفضيل وإن جاءت على صيغة أفعل الذي هو اسم التفضيل ؛ لأن التفضيل لا يكون إلا بين متشابهين ؛ إذ لا تشابه بين ما أنزل الله ﷻ وما صنع الإنسان ؛ لأن القرآن تنزيل من أعلى فلا يمكن أن يقارن بغيره من المناهج ، وإنما المعنى هو قويم لا عوج فيه ، مستقيم لا انحراف فيه ، وفي ذلك قوله تعالى في سورة البينة : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] ، ومثل قوله ﷻ في مستهل سورة الكهف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف : ١-٣] ، وفي قوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] ، أي بأن لهم الجنة ، يقول الطبري : كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ «أَجْرًا كَبِيرًا» أَوْ «أَجْرًا كَرِيمًا» كَانَ مَعْنَى ذَلِكَ الْجَنَّةُ ؛ إِذْ لَا يَوْجَدُ جَزَاءٌ أَعْظَمُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَعِنْدَمَا وَفَدَ وَفْدٌ بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَقَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْتَرِ لِرَبِّكَ ، وَاشْتَرِ لِنَفْسِكَ ، قَالَ : «مَا اشْتَرَطَهُ لِرَبِّي هُوَ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا

به شيئاً ، وما أشرطه لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم وأعراضكم» ، قالوا : رضينا فلا نقيّل ولا نستقيّل ، وما الجزاء يا رسول الله ؟ قال : « الجنة » ، وذلك يرتبط أساساً بالإيمان بالآخرة .

والانشغال عن الآخرة هو الطامة الكبرى التي جعلت الإنسان المعاصر يهتم بالعاجلة ويستعجل في أحكامه فلا يمد بصره إلى الحقيقة الكبرى التي يحسبها بعيدة ، وهي أقرب إليه من جبل الوريد .

وأما ضمانة الفوز في أي مجال إنما هو الإيمان باليوم الآخر حيث يعتقد الإنسان أن له لقاء مع الله ، والآخرة خير وأبقى ، ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] .

إن الله ﷻ يرينا يوم القيامة في كل يوم عندما ننام ، فإننا نجد أنفسنا في عوالم أخرى ، نعيش حياة أخرى ونحن ما نزال في الدنيا ، وفي سورة الزمر قوله ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] ، إن سنة الله اقتضت أن لكل عمل جزاء ، ثواباً أو عقاباً ، ولا تتصور الحياة بدون جزاء ، وهل هناك مجتمع مؤمن أو ملحد يخلو من ترتيب الجزاء على الأفعال ؟

والإسلام وحده هو الذي يعطي المثل الكامل في سياسة العمل والجزاء ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ، والملاحظ هنا أيضاً هو التسوية في العمل والجزاء بين الذكر والأنثى ، الشيء الذي ينكره من يشهر بهذا الدين ، ثم تقرير عدم التفرقة في الأصل الإنساني لكل من الرجل والمرأة ،

تحمله هذه الآية ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ، فليس هناك أفضلية في أصل النوع ، وإنما هو التكامل الذي لا تقوم الحياة بدونه ، تربية النشء على هذه القيم ، لا بد أن ينشئ مجتمعاً صالحاً يؤمن بالله ، ويلتزم بهداه ، وبذلك تستقيم الحياة ، ويسود الخير .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

غير أن هذه المبادئ لم تترك بدون ضبط ، فقط وضع لها نظام يرسخها ويجعلها ممارسة حيوية ، تسير الحياة في كل مراحلها ، فالعبادة بمفهومها القرآني تغطي الحياة كلها في كل مجالاتها ، فليست الشعائر شيئاً غير الحياة العملية ، بل هي الركائز التي تحصن الشخصية من التفكك ، وتحميها من التفسخ والانحلال ، وتضمن للتشريع استمراريته ورسوخه .

فالصلاة ممارسة يومية بالخمسة ، وأسبوعية بالجمعة ، وموسمية بالعيدين ، وحتى لاستدراار الرحمة من الله ، ومواجهة الأزمات ، وتوديع الإنسان إلى مصيره ، أي أن الحياة الإسلامية تظل مع الإنسان المسلم تسدد خطاه ، وتحمي شخصيته منذ إطلالته على دنياه إلى أن يلقي ربه ، فلا يعيش منقطعاً عن مصدر النور ونبع الهدى مدئ الحياة .

فالصلاة اتصال دائم بالله ، والصيام مراجعة للنفس وإعادتها إلى الخط القويم ، والزكاة تعويد للنفس على البذل والعطاء وبناء مجتمع التوازن والتكافل الاجتماعي ، وفي ذلك اتصال وثيق بالله .

الصدقة:

وقد حيرتني كلمة «صدقة» في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] فقلت: لماذا سميت كذلك؟ فبحثت، فاهتديت إلى الإمام القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن»، فقال: سهاها الله صدقة لصدق التعامل مع الله، فالإنسان حين يؤتي زكاته فإنه يتعامل مع ربه ولا يتعامل مع غيره، وفي ذلك يتوثق إيمانه، وتتمتن علاقته بربه.

الحج:

والحج قاعدة راسخة لوحدة الأمة وتضامنها، ووقوفها صفًا صامدًا في وجه كل ما يهدد أمنها ووجودها، وكل المشاعر في الحج تؤكد هذه المعاني وتبرزها، غير أن المسلمين مع الأسف الشديد لم يكونوا في المستوى الذي أراد الإسلام أن يرقوا إليه، فالأمر في الغالب يتمثل في مجرد مظاهر شكلية لا تؤتي ثمارها، ولا تفرز آثارها الإيجابية التي حددها القرآن بما لا يتطرق الشك إليه.

فالصلاة معرّفة ومعللة، وكل الشعائر معللة في كتاب الله، بالنسبة للصلاة: ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، غير أن الناحية التطبيقية هي التي نحتاج إليها، إن أكثر الشعوب إهدارًا للوقت هي الشعوب التي تنتمي إلى الوطن الإسلامي، في حين نجد غيرهم يستغل الثواني، بله الدقائق، بله الشهور، بله السنوات.

الزكاة:

الزكاة رافد اجتماعي وتوازن مالي، وتحطيم لجدار الشح، في حين نرى الأموال تبذل في التبذير والتدمير، ويبخل بها في البناء والتعمير، والتطهير والتحرير.

إن الانفصامية التي يعيشها المسلمون كانت وبألا عليهم ، وكانت مسئولة إلى حد كبير عما يقذف به من لا يعجبهم أن تكون للمسلمين منزلتهم التي أرادها الله لهم في الأرض ، حين جعلهم أمة وسطاً ، شاهدة على الناس .

إن الشاهد يجب أولاً أن يكون حاضراً أو مطلعاً عما يشهد عليه عندما يدلي بشهادته ، فكيف يتأتى لأمتنا في وضعها الحالي المعاصر أن تكون شاهدة وهي غائبة عن كل المنجزات البشرية والحضارية والعلمية التي تجري في العالم ، إن الموقف الذي يوجد فيه المسلمون في عصرنا لا يفسر إسلامياً إلا بالانحراف عن الخط المستقيم الذي شرعه الله بالقرآن ، وسهر عليه رسوله ﷺ بالبلاغ ، والتبيين ، والأسوة الحسنة ، وهذه بعض معالم التربية القرآنية أحاول الإمام بها حسبما يتيسر لي .

هدف التربية في القرآن :

تستهدف التربية في القرآن الوصول إلى بناء الإنسان الصالح ، في حين أن المعارف عند بلدان العالم أن التربية هي تكوين المواطن الصالح ، وهذه الصلاحية تختلف باختلاف الأغراض المستهدفة ، فمنهم من يرى المواطن الصالح رياضياً قوي البنية ، قادراً على الغلب في المصارعة ، متمتعاً بجسم متماسك مكتنز ، يقوى على تحمل المشاق ، ومنهم من يراه ذلك الناسك المتعبد الذي يهجر طبقات الحياة الدنيا ، ويلجأ إلى حياة الزهد والتقشف الشديد .

ومنهم من يراه ذلك الولهان بعنصريته والتباهي بها والتميز على الناس إلى آخر هذه المواصفات ، غير أن الإسلام وحده هو الذي يقدم نموذجاً متفرداً يشمل كل هذه الجوانب في قصد واعتدال ، ويخلو من سلبياتها ،

وينجو من أخطارها التي تهدد إنسانية الإنسان ، وتنأى به عن هدفه الذي خلقه الله له ، وهو أن يكون خليفة الله في الأرض يقوم بأمره ، ويلتزم بشرعه ، ويقتدي بالرسول الذي اختاره الله ، حاملاً منهجه إلى العالمين ، هذه العالمية للرسالة الإسلامية وهي تخطو مراحلها الأولى في مكة أعلنتها آية الله البينة في سورة التكوين : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٤] ، لا لمكة وحدها ، لا للجزيرة وحدها ، لا للعرب وحدهم ، ولكن للخلق كافة ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة»^(١) .

هذه الرسالة حولت البشرية من طفولتها إلى رشدها ، وجعلت من الأرض الجرداء ينبوع خير تفجر بالخيرات والبركات على العالم ، وجعلت من الأميين سادة العالم ، وجعلت من محمد ﷺ معلم العلماء ، ومنشئ الحكماء ، ومؤتي الحكمة للحكماء ، ومخرجا للعالم رجالاً عظماء ، وقادة عظماء .

وأثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية شهد له الواقع التاريخي ، وأقرّ به المنصفون من الغرب نفسه ، وليس في ذلك من ريب أن الله هو الذي جعل من ذلك برهاناً على ربانية الدعوة الإسلامية ، وأن دور البشر إنما يعود فقط إلى ممارسة مسئولية الخلافة التي أعلنها القرآن عندما أنبأ الله ملائكته بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

(١) سبق تخريجه .

ما تتميز به التربية القرآنية :

والذي تتميز به التربية القرآنية هو أولاً الواقعية التي لا تكلف الإنسان إلا بما تطيقه طبيعته وفطرته ، ولذلك جاء القرآن بالوسائل وصولاً إلى الأهداف ، فمن وسائل القرآن في التربية : القدوة ، ومن وسائل القرآن في التربية : الموعظة ، ومن وسائل القرآن في التربية العقاب ، ومن وسائل القرآن في التربية : القصة ، ومن وسائل القرآن في التربية : التعود ، ومن وسائل القرآن في التربية : الأحداث ، الاتعاظ بالأحداث .

ففيما يخص القدوة :

فإن أعظم من يقتدى به هو رسول الله وخلفاؤه الراشدون ، ومن اتبعهم بإحسان ، وليس للمسلم من مرجعية أمينة وسليمة غير الاقتداء برسول الله ، ولعل العالم قد أدرك أخيراً وأدرك بالعلم أن المادة عبارة عن طاقة ، وأن الطاقة تتحول إلى إشعاع ، ولكن هذه الحقيقة لم تدركها البشرية عملياً ، وعلى كماها وعلى تمامها إلا حين رأت محمداً ﷺ ، رأت محمداً طاقة نورانية سطعت لتتبرق للناس منهج الحق : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسيراً جماً مُبِيناً ﴿ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] .

التربية بالموعظة :

وهي غالباً تتجه إلى القلوب لا إلى العقول ، إن القلوب هي التي تتأثر بالموعظة بما تسمع ، غير أن التأثير لا يدوم دائماً ، ولذلك لزم أن تتكرر ، إن الموعظة لا تقال إلا تكررًا ، وهي تفتح الطريق إلى النفس عن طريق الوجدان ، ولذلك وجب أن تكون إلى جانبها القدوة لنحصل - كما يقول التربويون - على الجانبين : العملي والنظري ، يضاف إلى ذلك الوسط الذي

يسمح للقدوة أن تجد لها تربتها الخاصة التي تنمو فيها وفي ذلك موعظة لقمان لابنه : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ، والخلاصة أن القرآن كله موعظة : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] .

التربية بالعقوبة :

وحيث لا تجدي الموعظة ولا تنجح القدوة ، فلا بد من العقوبة ، وإذا ذكرنا العقوبة على الذنب ، فلا بد أن تقابلها المثوبة على الفعل الحسن ، والأداء السليم ، وليست العقوبة أو ما يرد على خاطر ، فالموعظة هي المقدمة ، والدعوة إلى الخير ، والصبر على الانحراف : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٦] .

كان الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ ، يضع على الصفحة الأولى من مجلة الشهاب آيتين ، آية عن اليمين ، هي التي جاءت في سورة يوسف : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، وعلى الجانب الأيسر الآية التي في سورة النحل : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] .

ويستعمل القرآن إلى جانب ذلك التهديد عند اللزوم : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] ، ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩] .

العقوبة في الدنيا والآخرة :

﴿وَأِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٧٤] .

التربية بالقصة :

وفي ذلك قصص الأنبياء ، وقصص المكذبين بالرسالات ، وما أصابهم من جراء التكذيب ، ومن ذلك قصة موسى وفرعون ، عيسى وبني إسرائيل ، صالح وثمود ، هود وعاد ، شعيب ومدين ، لوط وقريته ، نوح وقومه ، إبراهيم وإسماعيل ، يوسف وإخوته .

استشعار المراقبة الإلهية :

في قوله تعالى : ﴿لَوْ لَا أَنْ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] ، في مشهد المواجهة بين يوسف وامرأة العزيز ، وفي كل المجالات نجد هذا التوجيه للحياة المتصلة بالله ، والاستمداد من منهجه للإنسان .

ومجمل القول أن الإسلام يأخذ الإنسان من أول ظهوره بالتقويم والتنظيم إلى أن يلقي ربه ، ويفتح له في الوقت نفسه طريق المراجعة

بالتوبة النصوح ، ويسمي ذلك الانحراف لحظة ضعف ، ولا يقبل أن يجعلها كما تدعي المناهج الوضعية المتمردة على الله ، تسميها : بطولة ، إننا نجد ذلك انطلاقاً من قصة آدم الذي عصى أمر ربه بالأكل من الشجرة ، فلم يسمها الله بطولة ، وإنما سماها فتنة : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] ، ويعرض الفتنة التي وقع فيها سليمان وداود ويوسف باعتبارها لحظة ضعف ، كما هي بلاء ، فهي فتنة ، ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤] ، ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّآهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٢٤] ، ويعجبني ما كتبه كاتب الإسلام العظيم السيد مصطفى صادق الرافعي رحمته الله ، في كتابه : «وحي القلم» ، عن قصة يوسف تحت عنوان : سمو الحب :

وهكذا يعرض القرآن لحظة الضعف البشري كما هي ، ولا يسميها بطولة ولا يعتبرها تمرداً على الله ، ورفضاً للهيمنة الطقوسية والقيود المفروضة ، إنها لحظة يغلب فيها جانب التراب ، فينزل الإنسان عن سموه ، ثم تتحرك فطرته فيعود إلى ربه تائباً عابداً ، راکعاً ساجداً ، فيغفر له ، ويهديه الطريق الأقوم .

وهكذا نرى المنهج القرآني متفرداً يمس أوتار النفس البشرية كلها ، فلا يترك جانباً منها إلا ويحسه حتى تنطلق الحافلة في صراطها السليم نحو الغاية التي هي رضوان الله ، ذلك علاج وارد من الأعلى ، وهو العلاج القويم ، وهي التي هي أقوم .

عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «ليس بخيركم من ترك دنياه لأخرته ، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منها جميعاً ، فإن الدنيا بلاغ إلى

الآخرة ، ولا تكونوا كلاً على الناس»^(١) ، علق العلامة الشيخ مبارك الميلي ، صاحب كتاب : «رسالة الشرك ومظاهره» ، علق على هذا الحديث ، فقال بالنص الواحد : «وانقطاع الإنسان إلى مطالب روحه إضرار بإنسانيته ، يفقدها القوة التي تحفظ لها سيادتها على ما حولها ، ويعدمها النسل الذي به بقاء نوعها ، ومما صح معناه وإن لم تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ قوله : «لا رهبانية في الإسلام»^(٢) ، أما قوله ﷺ : «ولا تكونوا كلاً على الناس» فإنه يوقفنا لتساءل : كيف حدث هذا التخلف؟ أو كيف حدثت هذه المخالفة لنص الحديث ومضمونه؟ كيف جاءت الغفلة عن مفهوم القراءة؟ ومفهوم التربية؟ ومفهوم القلم؟ ومفهوم العلم؟ في أول آية استهلالاً لعالم جديد؟

قامت البشرية بآدم الذي أخرج من الجنة ، وبآدم آخر الذي أعادها إليها .

هذا كلام لمصطفى صادق الرافعي ، إن الغفلة عن مقتضى الرسالة مدعاة للهلاك ، وإن الوضع المزري الذي عليه من ينتمون إلى شعوب العالم الإسلامي ليجعلنا نساءل : هل فهموا قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾؟ [الإسراء : ٧٠] أين نحن من علوم البحر؟ ومن علوم البر؟ ومن الصناعات؟ وأين نحن من طيبات الحياة الدنيا التي أرادها الله للمؤمنين؟ أن يكون للمؤمنين حظ فيها خالصة لهم يوم القيامة ،

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩٧ / ٦٥) من طريق يزيد بن زياد الدمشقي عن حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه به .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٩ / ١١١) : «لم أره بهذا اللفظ ، لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند الطبراني : «إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة» .

إن تأخر المسلمين عن تفهم قرآنهم ، وإن عدم تدبر قرآنهم ، وإن عدم انسجامهم مع التربية القرآنية أفرز نتائج خطيرة ، فهل يقبل الإسلام أن يتخلف المسلمون؟ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧] أين نصيب المسلمين من الصناعة؟ أين نصيب المسلمين من الزراعة؟ أين نصيب المسلمين من التقنية؟ أين نصيب المسلمين من استخراج الثروات؟ أين نصيب المسلمين في علوم الفلك؟ وقد كان أسلافنا قد سبقوا إلى كل هذا ، وأقر المنصفون في الغرب بأن ما نسب إلى (بايكن) من أنه أبو العلم التجريبي إنما هو في الحقيقة زائف ، وأنه ما أخذ ما أخذ إلا من علماء المسلمين .

الحرية:

هناك وجهان متعاكسان ، إن التربية التي تسود في المجتمع الآخر غير مجتمع الإسلام تقر بدعوى حرية الإنسان في اختيار نمط حياته ، إن كل ما يفعله الإنسان رفضاً للتقاليد المعروفة التي تواضع الناس عليها عبر الأجيال هو مبدأ حضاري تقتضيه الحداثة والعصرنة وحقوق الإنسان ، غير أن ذلك إن اعتمد أساساً للتربية خرج بالإنسان عن مهمته في الحياة ، وعاد به إلى الجاهلية الأولى بعيداً عن رسالته الأساسية ، باعتباره خليفة لله في الأرض ، وبذلك يعود إلى تأليه غير الله ، إلى الوثنية ، ولكن بمفهوم يعطيها الشرعية ، ويقدمها كحضارة وتطور تفرضه مسيرة الحياة المتطورة ، غير أن الإسلام يعرف الإنسان بالخليفة ، وأنه أساساً خلق ليقوم بمنهج الله في الأرض التي لا يحق له فيها التصرف إلا بما يدخل في حدود بشريته ، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ، ولا يحق للخليفة أن يعتبر نفسه

مالكًا إلا في حدود الاستخلاف .

أما اختيار الإنسان لنمط عيشه ونظام حياته فإنما يجب ألا يخرج عن إطار الحدود التي شرعها المالك للأرض ومن فيها وما فيها ، وللسموات ومن فيها وما فيها ، وللكون وما فيه ، غير أن فكرة الرفض التي تحقق للإنسان ذاته ، وتقرر مصيره وصلاحيته شأنه في عاجله وآجله فإنما تنطلق في أول لحظة يعلن فيها المسلم إسلامه .

إنه يقول : « لا إله إلا الله » وهو يرفض بهذا كل ألوهية في الأرض وفي السماء ، فمبدأ العقيدة يعلن رفض الألوهيات ، ويعلن تعبيد الإنسان نفسه لربه الواحد الأحد ، ويرفض ذلك لغير الله ، ويعلن في الوقت ذاته أن المنهج الذي يلتزم به في حياته إلى مماته هو ما جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا ما يرفعه المؤذن على أذاننا خمس مرات في اليوم واللييلة حين يؤكد :

أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، غير أن الإنسان لا يملك أن يكون التزامه ذلك لا يعتريه فتور ، ولا يعتريه غرور ، ولا تعتريه غفلة ، ولا يلبسه جهل ، وما إلى ذلك مما يصيب طبيعة البشر ، فتتحرف عن منهج الله ، وتعصي ربه ، وفي ذلك توجيه قرآني يعتمد أولاً على الاعتراف بما في الإنسان من ضعف ، ويعتمد ثانياً على الاستشعار برقابة الله تعالى ، وعند تلاوة هذه الآية من سورة «ق» وتدبرها ، فلا بد أن يرتعش الوجدان ويخفق القلب رجاء وخوفاً من الله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ مَا يَلْفِظُ مِنْ

قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٦﴾ [ق: ١٦-١٨].

وهو أيضاً تحقيق لقاعدة العمل والجزاء ، علماً بأن الأوفى ثواباً أو عقاباً لا ينال إلا عند لقاء الله يوم الدين ، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١] ، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

المحاضرة المائة

قدرة الله ومسئولية الإنسان

انطلاقاً من الحديث الشريف : «إذا تقرب العبد إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإذا أتاني مشيًا أتيتته هرولة» .

فأما درس اليوم : «قدرة الله ومسئولية الإنسان» ، فهو يتناول الحديث القدسي : «إذا تقرب العبد إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإذا أتاني مشيًا أتيتته هرولة» . رواه البخاري .

استجابة الدعاء :

ويؤكد لنا هذا الحديث القدسي أن الله مستجيب لدعوة الداعي إذا دعاه ، وأن الله تعالى إذا تحرك الإنسان نحوه ولو قليلاً ، يرد فعله عليه بسرعة فائقة ، ومن هذا يمكن أن نستنبط أنه واجب على الإنسان ، وضروري أن يبذل قصارى جهده في هذه الدنيا ، طالباً بها إرضاء الله تعالى ، لتقويم معيشته في الدنيا ، ولتخليص نفسه من النار في الآخرة .

فإذا بذل جهداً وفق إلى ما يرام ، وإذا تكاسل وتواكل فشل ، وبوأ لنفسه مقعده من النار .

لذا فإن الحديث يؤكد لنا استطاعة الإنسان التحكم في أفعاله والسيطرة على نفسه ، وتبعاً لذلك يؤكد أيضاً مسؤولية الإنسان أمام الله يوم القيامة ، حيث يحكم الله بالعدل بين أهل التقوى وأهل الذنوب .

ولا نتعجب من أن هذا الحديث بإسناده، وهو صحيح في جامع البخاري، قد روي عن قتادة بن دعامة، صاحب الحسن البصري، وهما وأصحابهما من أهل التقوى، معروفون بتركيزهم على مسئولية الإنسان، وعدل الله في خلقه يوم الدينونة.

قدرة الله ﷻ:

وقد تساءل المسلمون، منذ أيام الحسن البصري، وما زال السؤال قائماً، كيف يستطيع الإنسان أن يفعل أي شيء بنفسه إذا كان غير قادر؟ لأن القدرة كلها لله وحده، وكيف يكون الإنسان مسئولاً إن لم يكن له الخيار في الأمر.

فإذا أردنا أن نعرف قدرة الله ومداها، نجدها تشتمل على عدة معانٍ، تعني قدرة الله أولاً: السيادة الأولى والآخرة على الكون، قال الله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال في آية أخرى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

وتعني قدرة الله ثانياً: قوته تعالى في تعيين مدى كل شيء وتخصيصه، فيعين مبالغ الأشياء ومقاساتها، ومسافاتهما ومساحاتها، فقال في تقديره لقدر الرزق: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]، وفي تزويده الأرض بقدر معين من الأغذية: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] وفي مدة ساعات الضوء والظلام: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وفي سير القمر وتغير شكله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وفي مسافات الأرض ومدة مراحل السير فيها: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبا: ١٨]،

ولا تمنع هذه الآيات كلها أن تكون للإنسان الاستطاعة على التحكم في حاله ، وكذلك المسئولية عنها .

ثم تعني قدرة الله ثالثًا : قدرته على تعيين الأجل لكل شيء وتوقيته ، فقال الله : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة : ٦٠] ، وفي آية أخرى يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر : ٦٧] .

ونلاحظ في هذه الآية تركيزها على المراحل الطبيعية لحياة الإنسان ، والمقصود بالأجل هنا مفهوم عام ، بدليل أن ذكر من يتوفى قبل ، مقدم على ذكر الأجل ، أي إن هناك من يتوفى قبل انقضاء مدة العمر العادي لغالبية الناس ، وقال الله في هذا الباب أيضًا : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : ١١] ، وهنا يفيد ظاهر المعنى أن لكل إنسان أجلا خاصا على حدة ، وقال الله سبحانه أيضًا : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، فالأجل الخاص بكل إنسان بيد الله .

وتعني قدرة الله رابعًا : تعيين حالة الإنسان المادية الدنيوية على تفاوت في المستويات ، قال الله : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ [النحل : ٧١] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

ثم تعني قدرة الله خامسًا : تصيير مصير البشر ، ومسار التاريخ عامة ، فيقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتِ

صَوَّامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿[الحج: ٤٠]﴾ ،
ويقدر الله آجال الشعوب والأمم أيضًا ، حيث قال : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ،
ولا نستطيع أن نأتي بجميع

الآيات في القدرة الإلهية هاهنا ؛ إذ أنها كثيرة جدًا ، ولكنها تفيد بشكل
عام محدودية استطاعة الإنسان في تغيير مسار التاريخ ، وحتى في التحكم
في ظروف حياته ، إذ أن حقائق الحياة ثابتة وبسيطة.

قدرة الإنسان :

ولكن للإنسان استطاعة قد أعطاها الله إياها بلا شك ، ولكنها قلما
تتصف بالقدرة في القرآن ، وما وجدنا إلا استعمالاً واحداً تنسب فيه
القدرة إلى الإنسان في كتاب الله ، وهذا في الآية : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] ، فتعبر هذه الآية عن قدرة المسلمين
على بعض الكفار في حرب من حروب المسلمين بإذن الله ، ولكن قلة ذكر
القرآن لقدرة الإنسان قد جعل المسلمين يفضلون كلمة الاستطاعة للتعبير
عن هذا المعنى .

فتؤكد آيات كثيرة استطاعة الإنسان في حدود معينة ، فمثلاً يستطيع
الإنسان أن يتطوع بالخير ، فيقول الله : ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ
عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم في نفسه ، يقول الله :
﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا
﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] ، أي للإنسان دور أيضاً في
التحكم في النفس وتركية النفس ، وللا أقوام أن يتحكموا في أنفسهم جميعاً

أيضًا ، حيث يقول واصفًا لبعض الأقوام الماضية : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ١٧] .

فانظروا إلى هذا الترتيب ، إن الله عرض عليهم الهدى أولاً فرفضوه ، فاختاروا لأنفسهم العمى على الهدى ، أي كانت لهم الاستطاعة في الاختيار ، كما أن الله تعالى بين حرية الاختيار للنبي ﷺ أيضًا عندما راجعه في بعض الأشياء ، مثلاً في قصة زيد بن حارثة ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، فقد أراد النبي ﷺ أن يخفي شيئاً فأبانه الله بتنزيل هذه الآية ، ولكن النبي ﷺ قد استطاع أن ينفذ إرادته إلى حين ، أي قبل أن تنزل هذه الآية .

فهذا يؤكد استطاعة الإنسان أيضًا حتى استطاعة النبي ﷺ ، ولعل أهم ما خير فيه الإنسان هو الإيمان بالله ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩] ، وتستطيع الشعوب بحالها أن تؤمن جميعاً أيضًا ، يقول الله في هذا ، في إيمان الشعوب : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنُوسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨] ، لأنه كان غير متوقع من النبي يونس عليه السلام أن يؤمن هؤلاء فآمنوا ، فلذلك عفا عنهم الله إلى حين .

كما أن الحديث الذي انطلقنا منه في هذا الدرس أيضًا يؤكد استطاعة الإنسان في جهاد نفسه للوصول إلى الإيمان بالله .

رأي الجبرية في قدرة الإنسان واستطاعته :

ولكن قد ادعى الجبريون أن الإنسان له أية استطاعة في أموره ، أو في التحكم في نفسه ، فهم يعتمدون على بعض الآيات ، نستعرض شيئاً منها الآن لتوضيحها توضيحاً موضوعياً ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٧-٢٩] ، فظاهر الآية أن للإنسان تسييراً تاماً في إيمانه أو عدم إيمانه ، إلا إذا كان الله قد حبس تسييره في موضوع الإيمان لكي يمتحن الناس ، فتكون مشيئة الله هنا إذن ترفض للناس الاختيار ، فلم يشأ أن يهدي الناس جميعاً كما قال في آية أخرى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] .

ويمكننا أن نفهم هذه الآية على أن الله لم يرد أن يسير الناس تسييراً تاماً ، بل أراد لهم الاختيار ، فيكون الهدى والإضلال - إذن - ليس لزاماً بالإجبار ، وإنما إبانة لسبل الرشد والغبي من رب رحيم .

ومن أهم ما استشهد به الجبريون الآية عن غزوة أحد : ﴿وَطَافَتْهُ قَدَّ أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفِّفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .
صدق الله العظيم .

هنا نلاحظ أمرين :

الأول : أن مصيرهم في الآية خاص بالأجل فقط ، لا بتسيير اختيارهم عامة ، والأمر كله لله ، لأنه له الكلمة الأخيرة في كل شيء .

الأمر الثاني : أنهم كانوا على أهبة لظن السوء بالله قبل أن يصابوا ، فأذاق الله العذاب من أراد بعد ذلك ، عقاباً لهم .

ثم من الأحاديث في قضاء الله وقدره وما يطول ذكره ، وليس لدينا الوقت الكافي الآن مع الأسف لإيرادها ، ولكنها تعبر بجملتها عن حقيقة عامة ، وهي محدودية استطاعة الإنسان واختياره لنفسه في الدنيا ، فإن كل إنسان يتخذ طريقه حسب ما هبى له فيها ، ويتصرف حسب تربيته وجنسه وانتمائه القومي ، وطبقته الاجتماعية ، والأوضاع التي يعيشها ، والتجارب التي يمر بها ، ولكن هذه الأشياء الموجهة أو المسيرة لا تمنع أن يغير سيرته ، إذا أراد أن يسعى ويتقرب إلى الله كما جاء في حديث الدرس .

الله قادر والإنسان مخير :

وخلاصة الكلام في هذا الباب ، هي أن الله قادر مقتدر ، يفعل ما يريد ، وقد أراد أن يترك للإنسان مجال الاختيار بين الخير والشر ، ليمتحنه في هذه الدنيا ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] ، فليس الإنسان مخيراً تماماً ، ولا مسيراً كلياً ، لكنه في المتوسط بين هذا وذاك إذ أنه مسير فعلاً في معظم أموره فلا يختار زمانه ولا مكانه ، ولكنه له الخيار بين الخير والشر ، وبين الإيمان والكفر .

ثم من ناحية أخرى لا تراعي الجبرية الكاملة العدل الذي وصف الله نفسه به ، فقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام :

[١١٥]، أي أن الله سبحانه قد وضع مبادئ هذا الوجود، التي يتصرف بحسبها، ومنها العدل، وهذه المبادئ منها قوانين الكون الطبيعية.

فالإنسان مثلاً إذا قطع عضو من جسده ولم يعالج فيموت من انفصال الدم، وكذلك إذا عمل السيئات ولا يتوب التوبة النصوح، يدخل النار بما فعل، وهذه هي سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً.

ثم قد ترك الله الاختيار في الأفعال للإنسان ليمتحنه، فيقول في هذا، في الآية المشهورة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فمن هذه الآية، اشتق بعض الفلاسفة اصطلاح الاكتساب للأعمال، أي أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأعمال، والإنسان يكتسبها، فهذا قريب من نظرية الرياضيات الحالية في الاحتمالات، إن الله يعرف جميع الاحتمالات سابقاً، وهذا في علمه السابق، ولكن لا يفرض على الإنسان اختيار الخير أو الشر.

الإنسان مسئول عن نفسه، ولو كان الله قد أجبر الناس على الأفعال، ثم يعاقبهم بها لكان يوصف بغير العدل، ولكنه أكد في آية أخرى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ونلاحظ هاهنا كيف يختلف هذا القسط والعدل عن سائر الأيديولوجيات البشرية الحالية.

ففي النصرانية التبشيرية مثلاً، يتطلبون من الملتحق بعقيدتهم أن يؤمن بالوهية عيسى عليه السلام وبصلبه، وبأن الله بذلك خلص البشر، أي بأنه تعالى قدم نفسه قرباناً أو ضحية لنفسه، وبهذه التمثيلية العظيمة قد خلص البشر من الهلاك والنار.

أقول ردًا على هذه المسألة : هل أنزل الله للإنسان المنطق أم لا؟ فإذا كان الإنسان يتصف بالمنطق والعقل ، فكيف يؤمن بشيء لا يدخل في العقل؟ أي كيف يكون قد فرض على الإنسان أن يؤمن بأن إله الكون تجسد في صورة رجل معين عاش في زمن معين ، في الماضي السحيق ، ثم أعدم بعد ذلك ، وإن هذا إيمان النصارى بصلب عيسى عليه السلام ، وإن من لم يؤمن بذلك فهو في النار ، فهذا لا يراعي العدل ، مثل قول الجبرية أيضًا : لا يراعون العدل .

وقد عرضنا آنفًا استطاعة الإنسان أن يختار الإيمان اختياريًا يتم بموجب المنطق والعقل ، علاوة على القدر ، فكيف يكون أن الله يدخل الناس النار إذا اتبعوا المنطق الذي ألهمهم به ، ورفضوا الإيمان بألوهية المسيح .

ثم إن الإسلام بعيد عن هذا ، ومتماش مع المنطق ، إذ أنه لا يكون سوى إيمان بالله وحده ، خالق الكون وخالقنا ، وأن نعبد ، وأن نأتي الدينونة بين يديه ، حسبما فعلنا في الدنيا من الخير والشر .

ولا نريد أن نهجم الديانة النصرانية ، فهي ديانة سماوية سامية قريبة من الإسلام في عدة نواح ، ولكن هناك أصناف مختلفة من النصارى المؤمنين بها ، فهناك من يهاجم الإسلام ويطلب اندماج المسلمين في عقيدة النصارى ، فهذا غير وارد .

تربية حرية اختيار الإنسان :

فبالنسبة إلى تربية حرية اختيار الإنسان ، فيدعي بعض المهاجرين للإسلام ، ومنهم بعض النصارى ، وبعض الماديين اليوم ، أن الإسلام يدعو إلى التسليم بالحال وإلى الكسل ، وإلى عدم المحاولة لتغيير وضعه من

العبث، هذا في حين أن الإسلام في الحقيقة يدعو إلى المجاهدة بتغيير الأحوال طاعة لله، إذ أنا نعرف أن الله دعا الإنسان إلى الجهاد في سبيله، كما وصل الادعاء عند بعضهم إلى أن يقارنوا بين سيدنا محمد ﷺ وبين (جون كالفين) الداعية النصراني في القرآن السادس عشر، الذي قال بالجرية التامة والتسيير، تسيير الإنسان في جميع الأمور، فقال: إن هناك أناسًا مولودين ناجين من النار، وناسًا آخرين ذاهبين إلى النار مهما فعلوا، وبذلك يساوون بين الإسلام دين القوم، وبين مجرد طائفة من الطوائف النصرانية، تشبيه غير وارد على الإطلاق.

وهناك من النصاري من يرى على العكس، على عكس المهاجرين للإسلام ومهادنة المسلمين، فهو مستعد ليصرف نظره عن فريضة الإيمان بألوهية المسيح التقليدية عندهم، وهذا عند بعض النصاري، وهم لعلهم كثيرون، يقولون: إنه ليس من الأهمية أن يكون المسيح إلهًا أو الداعي إلى الله رجلًا صالحًا، فهذا قد يوافق كلام المسلمين وكلام القرآن، فلا بد من تشجيع هذا التيار المسالم، وسنحقق ذلك المطلب إن شاء الرحمن إذا أكدنا أهمية المنطق والعقل في الفكر الديني، فلكي يكون منطقنا يتطابق مع دعوتنا إلى هذين المبدئين فعلينا أن نراعي المنطق والعقل في عقيدتنا أيضًا.

وهناك شيء آخر مهم وهو أن المسلمين والنصاري متفقون تمامًا على معارضتهم للأيديولوجيات المادية التي تدعي أنها لديها كل المعقولة والتقدم أو التقدمية، فيسمون هذه التسميات، بينما الديانات فيها ما يسمونه التخلف.

نقول: ماذا وعدنا هؤلاء الماديون سوى الهلاك والموت والانغلاق،

فبدلاً أن يحرروا الإنسان من قيوده بالادعاء أن الكون المادي هو كل الوجود، هم في الحقيقة يجردوننا من كل أمل، ومن كل معنى في الحياة لأن الحياة المادية الدنيوية ليس لها هدف أو مقصد وحدها بمجرد وجودها وحدها، ولا يستطيع الإنسان أن يضع هدفاً من لا شيء، خاصة مع العلم بأن الموت وراءه قريب، وليس هذا ادعاءنا كمسلمين فقط.

انظروا إلى أسمائهم: «ميكيل دي أنو برونو» الوجودي الأسباني اليائس الذي كانت حياته انتظاراً للموت بدون أمل أو إيمان يطمئنه أو يواسيه أو «ألير كامو» الوجودي الفرنسي اليائس، أو «فرانس كاب كاركا» اليهودي التشيكي الذي صور الدنيا بأنها سجن ظالم لأهلها بلا أمل في أي بعث، أو قيامة ولا في أي آخرة.

ومن ناحية أخرى يوافق «كاب كارل» هذا فكرة الجبرية الكاملة مثل غيره من الماديين الدهريين الذين لا يقرون حرية اختيار الإنسان لأي شيء في الغالب حتى نلاحظ أن كلمة الدهريين من الآية: ﴿وَمَا يُمِلُّكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، يرجع إلى محاربة المجوس المقتنعين الذين دخلوا في الإسلام في العهد العباسي مثلاً، فكانوا يقولون: إن هناك الدهر خلق كل شيء، فإذا خلق الدهر كل شيء، فكل شيء محتوم؛ لأن كل الأمور مادية، والمادية لها قواعدها وقوانينها، وكل الأمور محتومة، وليس للإنسان خيار في أي شيء، فلذلك يوافق الماديون كلام الجبرية، ويوافقهم في ذلك الماركسيون أيضاً، ولو أن موضوع الماركسية لعله أصبح زائفاً الآن، ولكن يقولون: إن الحياة البشرية كلها مسيرة بقوانين طبيعية، وإنهم أي الماركسية يفرضون العمل على الإنسان، العمل للدولة من أجل مفهوم المادية التجريدية البشرية من أجل التقدم والإنسانية، فليس للإنسان

شيء في الحساب بعد ذلك .

ففيما نعلم ، وخصوصًا وهم لا يعترفون بالحياة بعد الموت ، فلا يقدمون للإنسان أي ثمار أو جزاء مقابل جهوده في الدنيا ، وبعد ذلك يجترئون على الإسلام وغيره من الديانات ، فيرمونه بالتخلف ، بل هم المتخلفون ، إذا أقررنا هذا الاصطلاح العصري ، المتحيز القائم .

ويوافق الإسلام «كاب كا» في شيء عندما قال : بأن الدنيا سجن بأن النبي ﷺ قال : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١) في الحديث . ولكن الفرق العظيم بين الإسلام وبين الماديين جميعًا هنا هو أن الإسلام يدعو إلى الإيمان بالآخرة بعد الدنيا ، وهذا يفيد الإنسان بالأمل ، فأشار النبي ﷺ بهذا الحديث إلى أفضلية الآخرة للمؤمن الصالح حيث إنه يدخل الجنة ، بينما اعتبر «كاب كا» الدنيا سجنًا ، لأنه يائس من الحياة كلها .

وأكد الله وجود الأمل في الآخرة في آيات عديدة ، منها : ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ، فتفيد هذه الآية الكريمة أن الله عنده رحمة بعد العدل ، ويتوب على من تاب ، فشرط الرحمة التوبة ، ولا تتم التوبة إلا بإرادة العابد المخلص ، فيستطيع الإنسان أن يحسن حاله في الآخرة إذا أراد ، وفي الجملة فيعطي الإسلام المعنى والهدف والمقصد للوجود ، بينما تجرد الأيديولوجيات المادية هذه الدنيا من أي معنى أو هدف أو قيمة ، وهذه المعدودية عند الماديين - لابد - ساهمت في انهيار الماركسية السريع ، الذي شاهده العالم .

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إذا أن الدعوة المادية الصرفة إذا دعت إلى البناء والتفاؤل مثل الماركسية المجردة من أية معقولة قط فإنه ليس هناك فيها ما يدفع الإنسان إلى الاجتهاد في حياته للإنتاج ولتحقيق الإنجازات ، بل هو الإسلام الذي يدعو إلى البناء والتفاؤل من جهة ، والعقل والمنطق من جهة أخرى ، لذا هو من خلال الإسلام وحده يستطيع الإنسان أن يبني وينظم مجتمعا فاضلا .

فالآن يعاني العالم من المزيد المتزايد من الفوضى والأمراض ، فليس فيه أيديولوجيات أخرى ذوات حيوية وانتشار كبير تستطيع أن تقف في مواجهة الموجة من اليأس الداهم الذي يتصف بها هذا العصر ، لأن الإسلام يعطي معنى لحياة الإنسان الفرد في هذا الوجود ، لكل فرد على حدة .

مفهوم المسؤولية :

ونلخص هذا المعنى الذي هو رسالة الإنسان في كلمة واحدة هي : المسؤولية ، فقال الرسول ﷺ في هذا الباب : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(١) ، أي إن المسؤولية هدفها تحقيق المصلحة العامة .

وتتطلب هذه المسؤولية أن نكافح ونحاول ونجاهد في الأرض ، ولا نستطيع أن نصدق بصراحة أن يكون الله قد طلب منا الجهاد وبذل الجهود في سبيله إن كانت المصائر مقررة ومحتومة بالتمام من قبل الزمان ، بل يكافح ويجاهد الإنسان لأمر أن يقبل جهاده وأن يغير حاله به كما قال الله سبحانه

(١) سبق تخريجه .

وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] ،
فيصدق هذا القول على المستويين : الفردي والجماعي .

وقد ظهر جلياً الآن كيف تتعلق مسئولية الإنسان وحرية اختياره
بقدرته الله ، إن الله قادر مسيطر على كل شيء ، ويعلم جميع الاحتمالات من
الأزل بعلمه الكامل ، ولكنه قد ترك للإنسان مجال الاختيار بين الخير
والشر في هذه الدنيا ، ليمتحنه بامتحان عادل ، وهذا الامتحان هو فردي
وجماعي في آن ووقت واحد ، وثمرن الفشل فيه الهلاك والنار للفرد ،
والتدمير الجماعي والنار للأقوام ، ومن المسئولية التفكير في مدى الضرر
الذي ربما يلحق بالآخرين نتيجة فعل الفرد أو الجماعة ، فنضرب مثلاً
مأخوذاً من الأخبار في هذه الأيام .

اختفاء طبقة مادة الأوزون من الغلاف الجوي حول الأرض ، وطبقة
الأوزون هي طبقة من الغاز تمنع وصول أشعة الشمس الضارة إلى سطح
الأرض ، فلولا هذه الطبقة يموت الشجر والنباتات والحيوانات الصغيرة
على سطح البحر التي يعتمد عليها ما يعيش في البحر ، فقد يؤدي اختفاء
هذه الطبقة إذن إلى موت هذه الأشياء .

المحاضرة الواحدة بعد المائة

الابتغال إلى الله بالدعاء تخلق يقتضيه الكسب مع التوكل وليس داعياً بحال إلى التواكل

انطلاقاً من الحديث الذي رواه الإمام البخاري في أول كتاب الدعوات من «صحيحه» قال : باب لكل نبي دعوة مستجابة ، حدثنا إسماعيل ، قال حدثني مالك ، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة» .

يتطلب مني شرح الحديث أن أجعل له أربعة جوانب :

أولها : تمهيد في سر العبادة التي الدعاء من بين أجزائها .

ثانيها : استخلاص لمقاصد سامية في هذا الحديث عند الإمام البخاري .

ثالثها : استجلاء لتركيب الحديث مع بيان كلماته .

رابعها : نظرة عابرة في لطائف وفوائد سندي الحديث اللذين بهما صار حديث الدرس حديثين ، على أنني سأستوفي من الجانبين الثالث والثاني ما يمكن استجلاؤه والله الموفق .

لقد شاء الله ﷻ أن يجعل الإنسان قبل خلقه مقراً له سبحانه بالوحدانية ومعتزاً باستحقاقه للعبادة فالنوع الإنساني الجامع لأفراذه الشامل للذريات المتفجرة من أصلاب أشخاصه هو الذي تحققت به عقيدة التوحيد ورسخت طبيعة العبادة ومن أجل ذلك كانت فطرة كل واحد من النوع الإنساني مهية إياه لتوحيد الإله ، وحاملة له على عبادته دون سواه ، فكل مولود يولد على إياه لتوحيد الإله ، وحاملة له على عبادته دون سواه ، فكل مولود يولد على فطرته وينشأ على وفقها ما لم تحجبه عنها نخلة ، وبمقتضاها كان

الخطاب الإلهي بالاستفهام التقريري عامًّا في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكانت شهادة قبول الخطاب شاملة في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فالعبادة التي هي تطبيق فعلي لهذه الشهادة، وتنفيذ عملي لمقتضاها عبر أجيال الإنسانية هي عين الكمال الإنساني، وأساس وجوده المتوالي؛ بسببها كان الإيجاد، وحصل من خلق الثقلين كل المراد، وبسببها كذلك جعل الله الإنسان خليفته في الأرض يصلح عمارتها، ويحسن العيش عليها، غير أن ما يسره الله للإنسان من الكسب الظاهر وأذن له فيه من الفعل الاختياري بقدرة أحدثها سبحانه فيه، واستطاعة أوجدتها له حين يؤديه، حمل قسمًا من أفرادها إما على الجحود، وإما على انحراف وصدود، وفي كل من الأمرين إما تباعد عن الفطرة وإما تشاغل عن الجبلة.

فالتباعد عن الفطرة يسلك مسالك الكفر بخالق الأكوان، والمتشاغل عن الجبلة يسقط في هوة العصيان، وإن كان من أهل الإيمان، والكفر والعصيان يخلان بتوازن عيش الإنسان، ويفقدان الاستقرار الذي هو أساس العمران. وكلاهما ظلم للنفس، وتعد عليها يستوجب العقاب، ويستلزم المؤاخذه يوم الحساب. وظلم الكفر أشد فلا عذر فيه إن لم يتدارك في دنيا الفناء ولم يتخل عنه قبل مجيء يوم الجزاء؛ فبفضل رسول الله ﷺ لم يعد له في هذه الحياة عذاب الاستئصال، وعقاب الاستعجال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

أما ظلم المعصية، فبدعوة رسول الله ﷺ التي اختبأها شفاعة لأمته في الآخرة تنفرج الكربة، وتنكشف الغمة؛ لأن الله ﷻ يقبل دعوة رسوله فيشفعه في العاصين من أمته. فمن كان منهم في قلبه مثال حبة خردل من

إيمان يشملهم الله بلطفه الكبير ، فينجيهم ويخرجهم سبحانه من السعير .
فكان بذلك رسول الله ﷺ في كل من الدنيا والآخرة رحمة للعالمين ، ولطفًا
بالناس أجمعين .

بالسند المتصل إلى الحافظ الحجة أمير المؤمنين في الحديث ، أبي عبد الله
محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : باب لكل نبي دعوة
مستجابة : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج
عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة
يدعو بها ، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعاة لأمتي في الآخرة » .

للإمام البخاري في هذا الحديث مقاصد سامية ، فقد جعله أول
أحاديث كتاب الدعوات ، ونهج في روايته وفي ترتيب أبواب هذا الكتاب
منهجًا محكمًا ، فكتاب الدعوات مسبوق عنده بكتاب الاستئذان ،
والاستئذان استفتاح للأبواب الحسية ، والدعوات استفتاح للأبواب
المعنوية ، فيكون مرتبًا للاستفتاح المعنوي على الاستفتاح الحسي ، كترتيب
الفرع على أصله أو الصفة بموصوفها والإمام البخاري قلما يعنون الكتاب
من دون أن يعززه بآية أو بأكثر يراها مناسبة ، ومن دون أن يستشهد له
بحدث أو بطرف منه أو بأقوال الصحابة أو التابعين . وقد عزز كتاب
الدعوات بآية كريمة فقال حسب رواية أبي ذر عن شيوخه الثلاثة :
المستملي والسرخسي والكشميهني عن الفربري عن البخاري : بسم الله
الرحمن الرحيم ، كتاب الدعوات ، وقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] الآية ، أي اقرءوا الآية إلى تمامها أو الآية
اقرءوها ، فالآية إما مفعول به لفعل محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف للعلم
به ، قال ابن مالك :

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما

فبتعزيزه كتاب الدعوات بهذه الآية الكريمة أراد - حسب ما تبين لي - أن ينبه على أن الدعاء هو مفتاح كل خير . فإن كل ذوات الحوادث وصفاتها وأفعالها ، وإن كان يشملها عالم الأسباب والمسببات ، وما يرجع من تفاصيلها للمخلوقات ، فإنها بالدعاء قد تتعدى هذا النطاق ، فيحقق الله باستجابة الدعاء ما لا يتحقق بكثير من المساعي ، والعديد من العزائم والمرامي . فالمعزز لمسعاها في دنياه بصدق الدعاء يعطيه الله خيرًا لا يرتبط فيه بسبب ، ويوفر له الفضل من حيث لا يحتسب .

فكم من رجاء تحقق بالدعاء ، وقد كان في الظن بعيد المنال .

ويمكن استشعار هذا من صنيع الإمام البخاري ؛ فقد استفتح كتاب الدعوات بالاستغفار والتوبة ، فعقد للاستغفار بابين ترجم لأحدهما بقوله : «أفضل الاستغفار» ، وللآخر بقوله : «استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة» .

أما التوبة فقد عقد لها بابًا ، فكأنه يقول : الاستغفار والتوبة هما أجل عوامل الإعانة الربانية ، وأعظم أسباب الاستجابة الإلهية . فكلما استغفر المؤمن وتاب ثم دعا ربه ، كان الرجاء في القبول منه سبحانه قويًا . بل كان مبتغاه محققًا .

أما الذين ينصرفون عن الدعاء لجزمهم ألا أثر إلا للعلل والأسباب ، فهم مستكبرون عن الدعاء ، والمستكبرون عنه توعدهم الله بسوء المصير ، لأنه ﷻ قال وقد سمى الدعاء عبادته لمكانته عنده سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وبعد تعزيزه كتاب الدعوات بهذه الآية الكريمة ، خص حديث الدرس

بأول أبواب هذا الكتاب ، وجعل صدر الحديث ترجمة للباب فقال حسب رواية أبي ذر : باب لكل نبي دعوة مستجابة .

المعروف عند المهتمين بالصحيح أن فقه البخاري مستنبط من تراجم أبوابه ؛ وأقول ليس هذا فحسب ، بل مقاصده كذلك تؤخذ من تراجم أبوابه .

والذي أستخلصه من تخصيصه صدر هذا الحديث بالترجمة ، أنه أراد أن ينبه على أمرين : أول الأمرين هو أن دعوة الأنبياء المستجابة سوى خاتمهم هي منحصرة في الدنيا . فالله ﷻ قد حقق وأكرم كل نبي من أنبيائه بدعوة خاصة ، جعل أمر استجابتها متيقنة ، وهي لا تكون بالنسبة لغير خاتمهم لا تتأتى إلا أن تكون موجودة في الدنيا ، ذلك أن الأنبياء وإن كانوا كلهم مشتركين مع رسول الله ﷺ في تلقي الوحي والهداية والعصمة ، فإنهم ما كانوا مشتركين معه في عموم البعثة ولا في استمرار هداية البشر إلى يوم القيامة .

فبعثتهم لم تكن لغير أمهم ، ورسالاتهم لم تكن صالحة إلا لزمانهم ، لذلك كانت مهمتهم منحصرة في الدنيا ، وكانت دعوتهم المستجابة منحصرة فيها كذلك .

ونظرًا لهذا كله لم يكن بد من أن تكون دعوة كل واحد من الأنبياء قبل البعثة المحمدية إما مخصوصة بدنياء ، وإما راجعة لقومه حسب ما تحمله منهم وما عاداه .

فأفرد صدر الحديث بالترجمة للدلالة على هذا ، وليكون في صلب

الحديث إنما هو تمهيد للمهم عنده ، وهو أمر دعوة محمد ﷺ المستجابة ، فهي له ميسورة في كل من الدنيا والآخرة .

فأراد ﷺ لحكمة بالغة أن يجعلها لأمتة مدخرة . فإن رسول الله ﷺ هو الذي أراد الله أن يجعله في كل من الدنيا والآخرة سبباً يوصل إليه ، وهادياً يؤدي إلى رضاه ، لذلك لم يتعجل دعوته ﷺ ، بل اختبأها إلى يوم القيامة لتبقي شفقتة على أمتة متواصلة وعطاءاته في أمنها ونجاتها متتابعة .

فقد أبقى ﷺ لأمتة في هذه الحال مجال الاهتداء ميسراً ، تغنمه بولوج باب التوبة الذي لا يغلق إلا حين تطلع الشمس من مغربها ، وتغنمه كذلك بالالتجاء إلى الله بالدعاء الذي به يقوى العزم ويعظم الرجاء .

وثاني الأمرين : أن البخاري في العنوان العام للكتاب جمع الدعوات لينبه على أنه سيذكر خلال الكتاب الدعوات الماثورة عن رسول الله ﷺ وذلك ما فعله بالنسبة للكثير من الأبواب ، كقوله :

باب ما يقوم إذا نام .

باب دعاء نصف الليل .

باب ما يقول إذا أصبح .

ولكن قبل ذكره لهذه الأبواب ولسواها ، أفرد هذا الحديث بالذكر ، لأن الدعوة فيه مفردة ، وترجم بطرف منه لينبه على أن أجل دعوة على الإطلاق هي الدعوة المتيقنة القبول التي جعلها سبحانه لكل واحد من أنبيائه ، وأثرها ليس راجعاً له فحسب ، بل لها أثرها الكبير على عامة البشر ؛ فبالدعوة المستجابة وبالنبوات عامة صحح الله الأوضاع ، وخلص

البشر من الضياع .

فالدعوة إما لتحقيق خير البشر وسعادتهم ، وإما للقضاء على عناصر الشر والسوء فيهم ، وإما - وهذا خاص بخاتمهم - لإنقاذهم في دنياهم وفي آخرهم .

الحكمة في النبوات :

وقد أبان الإمام ابن القيم الحكمة في النبوات - يعني - وتحقيق خيرها على البشر في كتابه : «مفتاح دار السعادة» . ومما قاله : «لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ، ولا عمل صالح ، ولا صلاح في معيشة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية التي يعدو بعضها على بعض ، وكل خير وقع في العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع أو سيقع في العالم فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها . فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة» .

والواقع أنه ما من رسول إلا بعثه الله رحمة لأمته تنجو به ما دامت لم تنزع عن منهج دعوته . فالعالم في حاجة إلى أن تنقشع عنه الغيوم لتغمره أشعة النبوات الخاصة ، وأشعة نبوته ﷺ العامة ، فيها يتحقق التراحم بين بني البشر . وهذا هو النصر ، وهذه هي الغلبة .

فالنصر نصر السلام ، والغلبة هي الغلبة على النفس الأمارة ، إذ يقول الله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات : ١٧١-١٧٣] .

وبعد أن جعل صدر الحديث ترجمة للباب أسند الحديث بالسند الذي ذكرته ، ثم أسنده سنداً آخر ليصير حديث الدرس حديثين ، ولكن أمهل

الكلام على الفوائد وعلى الروائع التي في السنين لأتباع النموذج الذي ذكرته ، لأنني قلت : إن الجانب الثالث هو استجلاء لتركيب الحديث مع بيان الكلمات.

هذا الحديث الشريف هو من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، معانيه غزيرة ، وعطاءاته وافرة ، تركيبه خبري ، والخبر أصل في الكلام ، لأن الإنشاء يتفرع عنه بالاشتقاق أو بالنقل أو بزيادة الأداة ؛ فالقضايا الخبرية هي أعظم شأنًا من القضايا الإنشائية وأعم فائدة .

قال الإمام سعد الدين التفتازاني في المطول ، شرحه على التخليص :
بالقضايا الخبرية تؤدي صور الكلام الكثيرة ، وفيها تقع صياغاته العجيبة ، وبها تتحقق مزايا الأسلوب الذي به يحصل التفاوت في الدلالة ، والتفاضل في مناهج البلاغة ، والمناطق يركزون على القضايا الخبرية ، لفظية كانت أو عقلية ، وتختلف تسميتها عندهم باختلاف مواقعها ، فإن وقعت موقع الافتقار إلى الدليل سموها دعوى ، وحين الاستدلال عليها يسمونها : مطلوبة . وإن وقعت جزءًا من القياس المنطقي سموها : مقدمة . وإن أنتجها أحد الأقيسة سموها : نتيجة .

والحديث الشريف مؤلف من قضيتين حمليتين .

أولاهما : قوله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها » .

ثانيتهما : قوله ﷺ : « وأريد أن أختبى دعوتي شفاعا لأمتي في الآخرة » .

القضيتان معًا هما من قبيل فائدة الخبر ، لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد أن يخبر سائر أفراد أمته عبر العصور بالحكمين المستفادين من القضيتين .

فالحكم المستفاد من القضية الأولى هو من إسناد الدعوة المستجابة إلى كل نبي من الأنبياء، والحكم المستفاد من القضية الثانية هو من إسناد اختبائه دعوته المستجابة التي هي شفاعة إلى إرادته عليه السلام، والكلام في القضيتين خارج على مقتضى الظاهر، والضرب فيه ابتدائي لخلو ذهن المخبرين وهم الصحابة، أقول: لخلو ذهن المخبرين حين إخباره عليه السلام من الحكمين المذكورين ومن التردد فيهما، لذلك لم يوجد مؤكد في أي من القضيتين.

قال صاحب التلخيص: فإن كان خالي الذهن من الحكم والتردد فيه استغني عن مؤكدات الحكم.

كل قضية أو جملة - التعبير هو بحسب الاصطلاح - لا بد فيها من طرفين أساسين، فالطرفان في الجملة الأولى من جملتي الحديث: مبتدأ وخبر؛ وضعهما في الجملة على خلاف الأصل، لأن لفظ دعوة هي مبتدأ وهي نكرة، والأصل في المبتدأ التعريف؛ لأن مسمى المعرفة معين متميز في كل من معنى اللفظ ومصدوقه. وبمصدوقه المعين يحتاج المبتدأ إلى الخبر. أما الخبر فالأصل فيه التنكير، لذلك لا يكون جزءاً متمماً للفائدة إلا إذا كان المبتدأ معرفة، قال ابن مالك:

والخبر الجزء المتم الفائدة كالله بر والأيادي شاهدة

إذا كان الأمر هكذا فتعين اللفظ في النكرة لا أثر له في التنكير، وإنما العبرة بالمصدوق الذي لم تتميز أفرادها، ولذلك لا يمكن أن يتأتى أن يكون الخبر المنكر جزءاً متمماً للفائدة إذا كان المبتدأ نكرة، فإن وجد في النكرة واحد من المبررات المسماة بالمسوغات جاز الابتداء بها حينئذ، لأنها بالمسوغ تصير قريبة من المعرفة، قال ابن مالك:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نكرة

فالمهم إذن هو أن هذه القضية هي بحسب الوضع المنطقي تسمى مقدمة ، لأنني اعتبرتها هي مقدمة صغرى من القياس المنطقي من الشكل الأول ، أعددته بالنسبة للجملة الأولى هكذا ، بعد أن عرفت المبتدأ ووضعتة أولاً :

الدعوة المستجابة محققة لكل واحد من الأنبياء . هذه هي الصغرى .
كل ما حققه الله لكل واحد من الأنبياء فهو متيقن القبول . هذه هي الكبرى .

فيحذف الحد الوسط الذي هو محمول الصغرى وموضوع الكبرى لقول صاحب السلم :

ووسط يلغى لدى الإنتاج

فتجتمع النتيجة من موضوع الصغرى ومحمول الكبرى فيقال : الدعوة المستجابة متيقنة الوقوع .

هذا فضل الله على الأنبياء الذي انساب منهم على البشر بكاملهم .
يكفي هنا ما يتعلق بالتركيب ، أما الكلمات فلا يمكن أن أتبعها واحدة واحدة ؛ لأن المجال في كل منها واسع .

أخذ الكلمة التي تكررت في الحديث وهي : «دعوة» فهي في القضية الأولى نكرة ، وصفت بصفيتين :

أولاهما : قوله ﷺ : «مستجابة» .

والثانية : جملة فعلية فعلها دال عليها ، وهي : «مستجابة يدعو بها» .
وهي في القضية الثانية معرفة عرفت بالإضافة إلى ياء المتكلم الذي هو شخصه ﷺ في قوله : «أن أختبى دعوتي» .

من القواعد الغالبة أن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت عين الأولى ، كقوله تعالى : ﴿أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴿المزمل : ١٥ ، ١٦﴾ ؛ ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على الكلمتين في الحديث ، لأن شيوع الأفراد في ماهية النكرة لم يجعل الفرد منحصرًا في رسول الله ﷺ ؛ بل شمله وشمل سواه من الأنبياء . أما المعرفة بالإضافة فهي خاصة به ﷺ .

والكلمتان أي «دعوة» أولاً وثانيًا ليستا مصدرين ، بل الدعوة في الحديث هي اسم للمسألة الواحدة ، تجمع على دعوات ، بفتح عين الكلمة لزومًا ؛ قال ابن مالك :

والسالم العين الثلاثي اسمًا أنل إتباع عين فاء بما شكل

على كل حال ، فيه دليل على أنه إذا كانت العين في الثلاثي مسكنة صحيحة فإنها تتبع الفاء .

هذا وأقول إن الدعوة هي أيضًا الدعاء فالدعاء هو السؤال ، ولكنه إذا أطلق ينصرف إلى سؤال العبد ربه ﷻ . ففي القاموس وشرحه : الدعاء : الرغبة إلى الله فيما عنده من الخير ، والابتهاال إليه بالسؤال ، والداعي إما أن يدعو الله بحمده تعالى وبالثناء عليه بما هو أهله ، وبوصفه بصفات الكمال ، ومن هذا القبيل قول المصلي وهو يصلي : ربنا ولك الحمد . وإما أن يدعو الله بمعنى أن يرجو عفوه ومغفرته ، ومن هذا القبيل قول الله تبارك وتعالى : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح : ٢٨] .

وإما أن يدعو الله بمعنى أن يسأله شأنًا من الشؤون الدنيوية على اختلافها ، وهذا يوجد منه كثير في كتاب الله ﷻ ، ويوجد منه كثير على ألسنة الأنبياء ، وكذلك على ألسنة الصحابة والتابعين وغيرهم من مختلف الأئمة ، ومن عامة المؤمنين من السلف والخلف .

ومنه دعاء سيدنا زكريا ، فقد قال الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] . وقال سبحانه في سورة مريم : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ٥، ٦] .

كان عمر بن عبدالعزيز كثيرًا ما يدعو الله بقوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

أجل هذه الأقسام الثلاثة :

وأجل هذه الأقسام هو : دعاء الحمد والثناء على الله بما هو أهله ، ولذلك كان يكثر منه ﷺ كما يكثر منه الأنبياء في دعاء عرفة ، ففي الحديث الشريف أنه ﷺ قال : « أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »^(١) .

والمراد أن من يريد أن يدعو لتحقيق عفو من الله ومغفرة ، أو لتحقيق شأن من شؤون الدنيا ينبغي له أن يصدر دعاءه ، وأن يمزج دعاءه بدعاء فيه الحمد لله والثناء عليه ، ووصف الله بصفات الكمال ، فإذا امتلأ القلب

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) ، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢١٠) من حديث عبد الله بن

عمر وجملة غفرته .

بعظمة الله ينطلق اللسان حينئذ بالدعاء .

وعلى هذا المعنى أحمل الحديث القدسي الذي رواه الشيخ عليه السلام عن ربه ﷻ : «إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» ^(١) أي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين الذي يسألون ويدعون دون أن يمزجوا دعاءه بحمد الله والثناء عليه وتعظيمه بما يستحق من العظمة والكمال سبحانه .

الدعاء عبادة :

فالدعاء عبادة عظيمة وطاعة جلييلة سلك نهجه الصحابة والتابعون . ولذلك فإن القرآن فيه الكثير الكثير منه ، ولذلك لا بد أن نذكر ولو حديثاً أو حديثين لقيمة الدعاء . فقد روى الإمام الترمذي عن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل» ^(٢) . وروى الإمام الطبراني بسند رجاله ثقات عن مولانا عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يحب الملحين في الدعاء» .

فالدعاء توكل على الله يدعم الكد ، ويحمل الإنسان على مواصلة الجد ، وهو أيضاً حافز على الإخلاص في العمل ، وداع إلى مضاعفة المجهود والقضاء على الكسل .

ولذلك فالمؤمن يعتقد أن قوته العقلية وطاقته البشرية وإن بلغت ما بلغت فإنها بدون مدد من الله لا تتكامل عطاءاتها ، ولا تحقق سائر ما يمكن أن ينتجه الإنسان ، فالعقلنة وحدها وإن حقق الإنسان بها ما حقق

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٩٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

نور من القرآن والسنة

١٩٢

فهي قاصرة ، لذلك لابد أن يكون الكسب معه الابتغال إلى الله بالدعوة الصادقة ، فذلك خلق كريم وبه يحقق الله العزائم .

* * *

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الثامن

المحاضرة الثانية بعد المائة

مساواة الرجل والمرأة في القرآن الكريم

انطلاقاً من قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَبِيحِينَ وَالْقَبِيحَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

وقع اختياري على هذه الآية لأنني رأيت فيها ضميراً عاد إلى عشرين جمع سالم ، وأسباب اختياري لهذا الموضوع كثيرة منها ما يروج ضد الإسلام من طرف أعدائنا ومقلديهم المخدوعين ببهارجهم من أبنائنا ، من عدم إنصاف المرأة في الإسلام ، فأردت أن أزيّف تلك الشبهات .

الرجل والمرأة في القرآن :

فأقول : إن الله تعالى سوّى المرأة بالرجل في أصل الخلق فقال تعالى في سورة النجم : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم : ٤٥-٤٦] .

وسواها به في كون الناس خُلِقُوا منها ، قال تعالى في فاتحة السورة التي استظهرت بها النساء فسُميت باسمهن لكثرة ما اشتملت عليه من أحكامهن : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء : ١] ، وقال تعالى في سورة الحُجُرَات : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا

وَقَبَائِلَ لِّتَعَارَفُوا ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وامتنَّ على الرجال بأن جعل أزواجهم من أنفسهم فقال جل شأنه في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وقال في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وسوى بين الجواري والغلمان في كون الجميع من هباته وبدأ بذكر الجواري ليرفع من أذهان الآباء ما كان فيها من كراهيتهنَّ فقال تبارك اسمه في سورة الشورى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿١٤﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَجَعَلَ مِنْ يَشَاءٍ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، وبالغ تعالى في ذم المشركين على تبرمهم بالبنات فقال سبحانه في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] ويعجبني هنا قول الشاعر:

رَأَيْتُ رَجَالًا يَكْرَهُونَ بَنَاتِهِمْ وَفِيهِمْ لَا تُكْذِبُ نِسَاءٌ صَوَالِحُ
وَفِيهِمْ وَالْأَيَّامُ يَعَجِّلُنَ بِالْفَتَى نَوَادِبُ لَا يَمْلَأْنَهُ وَنَوَائِحُ

وبالغ تعالى في التغليظ بجريمة الوأد، فقال في سورة النحل بعد الآية السابقة بلصقتها: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩] وقال في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ومعلوم أن أهل الجاهلية إنما

كانوا يقتلون البنات دون البنين، وقال فيها في الوصايا العشر: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] وفي سورة بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَقِي نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] وفي سورة التكوين: ﴿وَإِذَا أَلْمَوْا رَذَةً سِطَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوين: ٨-٩].

النساء في القصص القرآني:

فرجع الله مكانة المرأة في القصص فزوج آدم تشاركه في تحمل المسؤولية وفي التنصل من الخطيئة وفي الضراعة إلى الله تعالى في المغفرة والرحمة قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وامرأة إبراهيم تخاطبها الملائكة وتحاورها، قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةُ فَضَحِكًا فَلَبِثَتْ نَبْرًا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦١﴾ قَالَتْ يَوَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧١-٧٣]، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَدَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠] والصرة: فسرها المفسرون بالصيحة مرة من الصرير أو بالجماعة، والأصل فيها أن تُستعمل في جماعة الأطباء، وكثيرًا ما تشبه جماعة النساء بجماعة الأطباء، يقول امرؤ القيس بن حُجر:

فَأَلْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهَا جَوَاحِرَهَا فِي صَرَةٍ لَمْ تَزِيدِ

هاجر أم إسماعيل :

وأم إسماعيل تثق بالله تعالى وتستسلم لأمره وترضى بالبقاء حيث تركها إبراهيم فيقول كما قص الله في سوره : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

امراة العزيز :

وامراة العزيز والنسوة اللائي لُمْنَهَا في يوسف ينوه القرآن بصدقهن ووفائهن ليوسف فيقول في سوره : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنِ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] .

أم موسى وأخته :

وأم موسى وأخته وامراة فرعون وابنتا شيخ مَدينَ كُلِّ هؤلاء النسوة الخمس كان لهن الأثر البالغ في قصة موسى ، وقد نوه الله تعالى بهن في سورة القصص من قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : ١١] إلى آخر القصة بقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص : ٢٩] .

ملكة سبأ :

وملكة سبأ تنوه سورة الهدد في قصتها مع سليمان بحنكتها وحكمتها وتأنيتها ومشورتها وقبولها الحق عند ظهوره ، يقول تعالى عن الهدد :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَلٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] إلى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ويعجبني قولها مع سليمان، فهي قد استقلت برأيها واتخذت قرارها بانفرادها ولم تقل: أسلمت تبعيةً لسليمان أو تقليدًا لسليمان، وامرأة عمران ينوه الله سبحانه وتعالى بقصة حملها ونذرها ووضعها ودعائها ويستجيب لها ويخص ذلك في سورة آل عمران فيما يتلو فيها على محمد ﷺ في الآيات والذكر الحكيم.

مريم عليها السلام:

أما قصة مريم وحملها ووضعها وقصة ابنها فأشهر في القرآن من أن تُشير إليها. كذلك تنوه سورة الأنبياء بإصلاح الله تعالى لزكريا وزوجه، زيادة على استجابة دعائه في الولد، المذكورة فيها وفي غيرها، يقول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [٨٩] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]، ومعلوم أن الضمير يعود على زكريا وزوجه وولده.

المجادلة:

وينوه القرآن في سورة المجادلة بالتي تجادل محمدًا ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

عائشة رضي الله عنها :

أما قصة عائشة وما نزل في براءتها من سورة النور فنور على نوره كذلك في دار الحرب ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] ، ويقول في سورة الفتح : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّعُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح : ٢٥] ، وسوى بينهم في قبول العذر في التخلف عن الهجرة فقال في سورة النساء : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ ﴿٦١﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٨-٩٩] ، وسوى بين المشركين والمشركات في تحريم إنكاحهم ونكاحهن وتفضيل المؤمن على المشرك ولو أعجبنا ، وتفضيل الأمة المؤمنة على الكافرة ولو أعجبنا ، فقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢١] وسوى في سورة الامتحان بين حرمة المهاجرات المؤمنات على المشركين وبين حرمتهم عليهن ، فقال : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [المتحنة : ١٠] .

ومعلوم أن المرأة إذا حرمت على الرجل فقد حرّم الرجل عليها ، ولكنه تنويه بمسئولية المرأة وتحملها تبعتها وعدم تبعيتها ، ولا استقلال المرأة بتبعيتها وعدم تبعيتها لزوجها ومحيطها في الخير والشر ضرب الله تعالى في سورة التحريم مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، وللذين آمنوا امرأة فرعون

ومريم ابنة عمران . قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمَّ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا الْوَقُوفُ ۝ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ۝ ﴾ [التحریم : ١٠-١٢] .

وسوّى الله تعالى بين الوالدة وبين المولود له في المضارة بالولد، وفي التراضع والتشاور عند إرادة فصّاله عند تمام الحولين، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ۝ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . ﴾ فإن أرادوا فصّالاً عن تراضٍ متهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما ﴿ [البقرة : ٢٣٣] ، ويعجبني هنا القطع بوالدية الأم والاقتصار على أن الأب مولود له، لبُنى الأحكام في الدنيا على الاحتمال ويكون الولد للفراس حتى إذا كان يوم تُبلى السرائر سمي الأب الطبيعي والدًا، قال تعالى في سورة لقمان : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُورًا رَكُومًا وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ۝ ﴾ [لقمان : ٣٣] .

التسوية بين الرجل والمرأة في البيعة :

وسوّى بين بيعة الرجال قبل أن يُفرضَ عليهم القتال وبين بيعة النساء الواردة في سورة الامتحان، وسوّى بين الزوجين في الحقوق بقوله في البقرة : ﴿ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، ولم يسكت عن الدرجة التي للرجال عليهن لما عليهم من مسؤوليات جسام هن معفيات منها، وأكد

ذلك بقوله في سورة النساء: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

التسوية في استحقاق الميراث:

وسوى بين الرجال والنساء في استحقاق نصيب مما ترك الوالدان والأقربون فقال تعالى في سورة النساء: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، كما سوى بين الجنسين في المثوبة على العمل الصالح، فقال في سورة آل عمران: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وفي سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وفي المؤمن: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

التسوية بينهما في المسؤولية والجزاء:

كما قرن تعالى ذكر المصّدقات بذكر المصدّقين، وذكر المؤمنات بذكر المؤمنين وذكر المنافقات بذكر المنافقين مسويًا بين الجنسين في المسؤولية والجزاء، إذ قال في سورة الحديد: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدَّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَعْفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨] بعد قوله فيها: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١١] يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَنَفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

أَنْظُرُونَا نَقْتَسِسَ مِنْ نُورِكُمْ ﴿ [الحديد : ١٢-١٣] إلى آخر الآية ، كما قرَنَ تعالى ذكر المنافقات بذكر المنافقين في الذَّمِّ على أخلاقهم والوعيد على أعمالهم بقوله في سورة براءة : ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿ [التوبة : ٦٧-٦٨] .

كما زَاجَ بين المؤمنين والمؤمنات من النساء على الأخلاق والجزاء على الأعمال بقوله بعد آيات : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [التوبة : ٧١-٧٢] .

كما جعل القسمة ثلاثية : مؤمنين ، ومنافقين ، ومشركين ، فضم إلى كل صنف زوجه بقوله في سورة الفتح ، مقدماً للمؤمنين رعاية لبراءة الاستهلال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥٠﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٢٥١﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمٌ أَلْسُوهُ ﴿ [الفتح : ٤-٦] .

وبقوله في خاتمة الأحزاب مؤخرًا ذكر المؤمنين رعاية لحسن المَحْتَم :
 لبراعة الاختتام : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [٧٢] لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [الأحزاب : ٧٢-٧٣] ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة في يس : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : ٥٦] ، وفي سورة الزخرف : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٠] ، كما تضمنت سورة أبي لهب مساواة امرأته في الوعيد وسوء المُتَقَلِّب كما قال في شأن أهل النار في سورة اليقطين : ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : ٢٢-٢٣] .

أمثلة أخرى على المساواة بين الرجل والمرأة:

كما حكى سبحانه عن نوح في سورتته استغفاره للمؤمنين والمؤمنات ، ونرى محمدًا ﷺ في سورتته داعيًا بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، كما حكى عن الذين يحملون العرش ومن حوله في استغفارهم ودعائهم للذين تابوا واتبوا سبيل الله وعطفهم عليهم من صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وذلك في سورة المؤمن ، إذ قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [٧] رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [غافر : ٧-٨] ، كما سَوَّى بين المؤمن والمؤمنة في وجوب التسليم إذا قضى الله ورسوله أمرًا وأن لا

تكون لهم الخيرة من أمرهم بقوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، كما سوى فيها بين المؤمنين والمؤمنات في تغليظ إثم الذين يؤذونهم بغير ما اكتسبوا ، كما سوى في سورة البروج بين الجنسين في تغليظ عقوبة الذين فتنوهم ثم لم يتوبوا ، كما سوى بين حقوق الوالدين في كل آية تعرضت لذلك ، حتى جاءت السنة فبينت ما أجملته الآيات من حقوق الأمهات في الحقوق على الآباء في البر وحسن المعاملة ، كما سوى في التعبير بالنشوز بين ترفع الرجل على ما يجب عليه قبل زوجه وبين ترفع زوجه على ما يجب عليها قبله ، فقال في سورة النساء : ﴿وَإِنْ أَمْرُهَا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨] ، كما سوى بين الجنسين في تحريم السفاح واتخاذ الأخدان بقوله في سورة النساء : ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] ، كما سوى بين القوم والنساء في تحريم السخرية بقوله في سورة الحجرات : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] كما سوى بين الزاني والزانية وبين المشرك والمشركة في عدم كفاءتهما إلا لهما بقوله في سورة النور : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣] كما سوى بين الجنسين في حدي الزنا والسرقة ، مقدماً ذكر كل جنس فيما هو أمكن فيه بقوله في سورة العقود : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] وفي سورة النور : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] ، كما سوى في هذين المتلاعنين إلا في التخليص فأوجب على المرأة الدعاء بالغضب تنبيهاً على أن جريمة الزنا أخطر وأدهى من جريمة

القذف ، واقتصر في هذه السورة على تعظيم حرمة قذف المحصنات رعيًا لجانب عرض المرأة ، لأن العار الذي يلحقها في نفسها ويلحق أهلها وقومها بالقذف أعظم .

كما سوى في هذه السورة بين الجنسين في التكافل في الخُبث والطيب مبالغة منه سبحانه وتعالى في تبرئة ساحة أم المؤمنين وتنزيه حرمة رسول رب العالمين .

فقال تعالى : ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] وفي آية المباهلة قرن بين الرجال والنساء بقوله في آل عمران : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ [آل عمران: ٦١] .

هذه نماذج لمساواة المرأة للرجل في القرآن ، بالإضافة إلى آية اللعان ، ولو استقصينا ما في القرآن من هذا القليل وأضفنا إليه ما في السنة لاحتجنا إلى مجلدات ، يبقى السؤال عن الأمور الآتية :

- ١- لماذا لا تكون للمرأة ولاية النكاح؟
- ٢- لماذا لا تستقل بالطلاق أو تشارك فيه؟
- ٣- لماذا يجب عليها من الستر أكثر مما يجب على الرجل؟
- ٤- لماذا لا تسافر إلا مع زوج أو ذي حرمة منها؟
- ٥- لماذا لا تقاتل؟
- ٦- لماذا لا تلي الولايات؟

٧- لماذا كان في الإرث للذكر مثل حظ الأنثيين؟

ونحن نجيب عن هذه الأسئلة :

ولاية المرأة في النكاح:

الجواب عن السؤال الأول : المرأة قد تكون لها الولاية في النكاح ، كالمالكة والمعتقة والموصاة ، ويقول خليل بن إسحاق : (وَوَكَلْتُ مالكة ووصية ومعتقة) أما ولايتها على نفسها فلم تكن لها استقلالاً ، لا احتضاناً لها ولكن لئلا تضع نفسها في موضع لا يليق بها استجابة لنداء غريزة أو جراح عاطفة ، فليست ولاية الرجل عليها حقاً له ، وإنما هي حق عليه لها ، ولذلك حرم الله أن تُورَث النساء كزها وأن يُعْضَلْنَ ، وكان على والد المرأة أن يجيب إذا دعت لكفء ، وكان كفؤها أولى من الكفء الذي يدعو له الوليُّ ، وكان القاضي دائماً يتدخل لصالحها في الموضوع .

استقلال الرجل بالطلاق:

وأما الجواب عن السؤال الثاني : فإن الطلاق مِعْوَلٌ هدم لا يمكن أن يُجْعَلَ بيد من يتأثر بالعاطفة أو يتسرع في التصرف ، لذلك لم يُمَكَّنْ منه الرجل ، إلا في حالتين : تمنعه منه في إحداها غريزة الزوجية وفي الأخرى غريزة الأبوة ، أما في الأولى ففي الطُّهْر الذي لم يَمَسَّ فيه ، وأما الثانية ففي الحمل الظاهر ، وقبل الطلاق يأتي علاج الشَّقَاق بِبَعْثِ الْحَكَمَيْنِ اللذين أحدهما من أهلها ل يتم التوازن بينهما ، وقد عُوْضَت المرأة عما فاتها من أهلية الطلاق بأن أكثر أسباب التطليق في الخيار لصالحها كالإعسار في الصداق ، أو في النفقة وكالغيبه وكالفقد وكالعيب الطارئ بعد العقد وكعتق الأمة تحت العبد .

حجاب المرأة:

أما الجواب عن السؤال الثالث : فإن خَلَقَ المرأةَ مهياً للإغراء أكثر من خلق الرجل ، فوجب عليها من السِتْرِ ما يناسب ذلك ، ولو فرض العكس لانعكس الحكم ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠] .

السفر بدون محرم:

أما الجواب عن السؤال الرابع : فإن الأحكام تُبنى على الأعم الأغلب ، لذلك يُفْتَحُ الباب للمصلحة ولو في جزئية لا تحققها كنيكاح الآيسة وإن كان أصل النكاح إنما يكون بقصد النسل ، ويُسَدُّ الباب أمام المفسدة ، ولو في جزئية لا تؤدي إليها ، كمنع الزنا للآيسة ، وإن كانت يتحقق منها عدم الولد ، وحكمة تحريم الزنا إنما هي منعُ اختلاط النسب . إذا تمحض ذلك فالأغلب أن المرأة الخالية لا تتمكن من منع نفسها ممن يحاول الاعتداء على شرفها ، فشرع هذا الحكم لكرامتها لا للمساس من حريتها .

اشتراك المرأة في القتال:

أما الجواب عن السؤال الخامس : فإن خروج المرأة للقتال يُعَرِّضُهَا للكشف إن قُتِلَتْ وللهتك إن أُسِرَتْ ، ويعجبني هنا قول الحنساء ، ثَمَاضِر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلامة العسوية .

ومن ظن ممن يلاقي الحروب ألا يصاب فقد ظن عجزاً

هذا ، وإن تعين القتال بِقُجَاءِ العدو وجب على المرأة منه ما يجب على

الرجل ، كما يُخَرَّجُ بالنساء في الجيش الآمِنِ يُعْثَنُ ويداوين كما كان عليه الحال في غزوات النبي ﷺ وغزوات أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، فلم يُغْفَل أصحاب المغازي والسَّيَرِ ما قامت به فاطمة عليها السلام وعائشة أم المؤمنين والسيدة أم عمارة يوم أُحُدٍ ، وما قامت به صفية بنت عبدالمطلب في حصار الأحزاب ، وما قامت به أم سُليَم بنت ملحان يوم حُتَيْن ، ولم يُغفلوا قصة أختها أُمِّ حِرَامٍ ووفاتها بقبرص غازية مع زوجها عبادة بن الصامت ، استجابة من الله تعالى لدعوة النبي ﷺ لها .

ولاية المرأة:

١- الإفتاء :

أما الجواب عن السؤال السادس : فإن أكثر الولايات في الإسلام تليها المرأة ، تكون مثيرة موفقة كما كانت أم سلمة رضي الله تعالى عنها ، فَرُبَّ مَوْقِفٍ أَنْقَذَتْه بحسن نظرها ، وتُعَلِّمُ كما كانت أمهات المؤمنين وغيرهن من نساء الصحابة والتابعين معلمات وثَّقَتِي كما كن مفتيات ، وتروي كما كن راويات .

ومعلوم أن عائشة تُعد بالبِصَرِ إن لم نقل بالخنصر بين الأكثرين من الصحابة من الحديث ، ويعجبني قول الذهبي لما فرغ من الرجال في ميزان الاعتدال ، وترجم لذكر المجهولات والمبهمات ، قال - : ولا أعلم فيهن من اتَّهَمَتْ ولا من تركوها ، فمعنى هذا أنه لم يدخل ضعف على حديث من رواية امرأة إلا من جهة إبهام اسمها أو جهالة عينها أما من جهة العدالة أو الضبط فلا ، لم يدخل ضعف على حديث روته امرأة من جهة عدم عدالتها أو عدم ضبطها ، قال هذا بعد أن ذكر زهاء خمسة عشر ألف ترجمة من الرجال المجروحين ، كما يعجبني كثرة ما يقول ابن الجزري في النشر : حدثني الشيخة العالمة المُسَنِّدة سِتُّ العرب

في منزل أبيها .

٢- الإمامة :

أما الإمامة العظمى : فتتطلب من الخصال الجسمية والنفسية ما لا يتوفر في الأعم الأغلب للمرأة بالإضافة إلى فترات الحيض والحمل والإرضاع وإلى الشغل بالحقوق الخاصة عن رعاية الحقوق العامة .

٣- القضاء :

أما القضاء فقد أجاز محمد بن جرير الطبري قضاءها مطلقاً ، وأبو حنيفة فيما تشهد فيه ، أما الشهادة فتستقل فيها بما لا يطلع عليه غالباً إلا النساء ، وتشارك الرجل في الشهادة في الحقوق المادية ، وينفرد عنها بما لا تحضره غالباً أو ما لا يستحسن حضورها له خُلُقياً كما كان من أمور الدماء والحدود والنكاح والطلاق .

٤- الإمامة في الصلاة :

أما الإمامة في الصلاة للرجال فتنافي سد باب الفتنة ، وأما للنساء : فقط قيل بجوازها ، وقد رُوِيَ أن بعض الصحابيات كانت تؤم النساء .

لماذا جعل للرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث؟

أما الجواب عن السؤال السابع : وهو رفع عجز ، وهو أشد إلحاحاً في الدرس ، وهو أكثر دوراً على الألسنة فإن الأصل في الإرث أن يكون للرحم ، والرحم دائماً في جهة المرأة ، لذلك كانت جهة المرأة مؤثرة في الاستحقاق ، فالشقيق من الإخوة وبنينهم ومن الأعمام وبنينهم مُقَدَّم على غيره ممن يساويه في الدرجة ، والأخ للأُم يرث في الحالات التي لا يرث

فيها الأخ للأب ، والشقيقة مع البنت أو البنات تُسَقِطُ الآخرين ، والأم تُحجب الجدة للأب ، والأب لا يحجب الجدة للأم ، والجدة القربى من جهة الأم تحجب البُعْدَى من جهة الأب ولا عكس .

والحقيقة المجهولة من قِبَلِ المعارضين والتي يغفل عنها المجرمون أن حظ المرأة في الإرث في الإسلام أوفر من حظ الرجل ، وأن الفرص المتاحة لهذه أكثر من تلك المتاحة له كما سنبينه بلغة الأرقام .

ذلك أن الإرث إما بالفرض وإما بالتعصيب ، ومعلوم أن الوارث بالتعصيب لا يستحق شيئاً حتى يُصَدَّرَ رِءَاءُ الفروض ، فإن لم يتركوا شيئاً لم يرث أصلاً ، سنرى الدينارية الصغرى ، التي صُورَتْها كما هو معلوم لديكم : ثلاث زوجات وجدتان وثمان أخوات لأب وأربع لأم ، والمال سبعة عشر ديناراً ، وتصح الفريضة بالعُول من سبعة عشر ، تأخذ كل امرأة من النساء السبع عشرة واحداً من الدنانير السبعة عشر ، ويبقى العصبة يبحثون عن دم القتل بعد أن يَنْفُضُوا أيديهم من غبار الإرث .

والفروض كما هو معلوم ستة : النصف وهو فرض خمسة أنواع : للمرأة منه ثمانون بالمائة ٨٠٪ ، والربع وهو فرض نوعين للمرأة منه خمسون بالمائة ٥٠٪ ، والثُمْنُ للمرأة منه مائة في المائة ١٠٠٪ ، والثلاثان فرض أربعة أنواع وللمرأة منه مائة بالمائة ١٠٠٪ ، والثُلث للمرأة منه خمس وسبعون بالمائة ٧٥٪ ، والسدس للمرأة منه اثنان وستون ونصف بالمائة ٦٢,٥٪ فمجموع حظوظ المرأة من الفروض على ستائة أربعمائة وسبع وستون ونصف ، ومجموع حظوظ الرجل من الفروض على ستائة (٦٠٠) مائة واثنان وثلاثون وخمسة ، بإضافة خمسمائة واثنان وثلاثون ونصف في المائة .

وقد أسلفنا مائة على ستائة ٦٠٠ : للمرأة من ستائة (٦٠٠) أربعمائة

وسبعة وستون ونصف، وللرجل مائة واثنان وثلاثون، ونصف ٥. ١٣٢. وقد أسلفنا أن العاصب لا يرث إلا ما يفضل عن أصحاب الفروض، فإن قيل: فما بال بنت الأخ والعمة لا ترثان أصالة، وأحترز بقولي أصالة من الرد على ذوي السهام (من توريث ذوي الأرحام، أقول: فإن قيل: فما بال بنت الأخ والعمة لا ترثان أصالة، وابن الأخ والعم وارثان، قيل: كذلك ابن البنت والجد للأم لا يرثان، وبنت الابن والجددة للأم وارثتان، والسر في الجميع مراعاة الجهة التي يُدلي بها الحي للميت مع مراعاة عنصر الأنوثة في الأولوية كما في مراجع الأحداث المنقطعة.

فإن كانت جهة الإدلاء في جانب المرأة أقوى اختصت بالإرث كالشقيقة مع البنت فإنها تسقط الإخوة لأب كما تقدم، وكبنت الابن فإنها تسقط الإخوة للأم كذلك، وإن كانت في جانب الرجل أقوى لم يسقطها، ولكن يُضاعف له عليها، وحينئذ فقط يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، كالابن مع البنت، والأخ من جهة الأب مع الأخت من جهته في العصبية، وكالزوجين في أهل الفروض.

ووجه قوة الإدلاء في الحالتين الأوليين أن الرجل العاصب هو المسؤول عن تكاليف الأسرة، فيعقد الأخ عن أخته إذا دنت، ولا تعقد هي عنه ولا عن نفسها، ويختار لها إذا خُطبت ويُرعى فيها إذا تزوجت، وبذلك تتحقق خلافته للمتوفى في الأسرة، فيكون أولى بها.

وفي الحالة الثالثة أن الزوجة الموروثة إنما تترك من المال ما جاء به الزوج صداقاً أو نَحْلَةً، أو ما تركه نفقة أو تشهيراً، والمرأة في الغالب لا تُسهم في تحصيل مال الزوج ولا في تثميره، ولو فرضنا أنها أسهمت في تكوين ثروة

زوجها فإنها تأخذ حظها من رأس المال وموَردها من الصافي في نصيب زوجها .

ولا يوجد في الموارث كلها تفضيل الذكر على الأنثى إلا في هذه الحالات الثلاث الاستثنائية التي يجعل منها الطاعنون قاعدة الإرث في الإسلام جهلاً أو تجاهلاً .

أما إذا استوى الرجل والمرأة في جهة الإدلاء فإما أن تساويه وإما أن ترث حيث لا يرث ، فالمساواة كالمُعْتَقِ والمُعْتَقَةِ في العَصْبَةِ ، وكالأبوين عند وجود الولد ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا أَلْسُدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء : ١١] ، وكالجد للأب مع الجدة له ، وكالأخ للأم والأخت للأم في أصحاب الفروض ، وانفراد المرأة بالإرث دون الرجل مع تساويهما في جهة الإدلاء مراعاة لعنصر الأنوثة ، منه ما هو دائم كالجد للأم فإنه لا يرث بحال ، والجدة للأم خارجة على كل حال ، ومنه ما هو في حال دون حال كالأخت والأخ ، فالأخت في المالكية وشبه المالكية ترث حيث لا يرث الأخ ، وفي هذا المعنى يقول خليل بن إسحاق : (وإن كان مَحَلُّهَا أخ لأب ومعه إخوة لأم سقط) .

هذه هي (المسألة) المالكية ، وشبه المالكية هي أن يكون محلها شقيق ومعه إخوة للأم فإنه يسقط في هذه الحالة ؛ لأن الإخوة للأم لو كانوا دون الجد لما ورث الأخ شيئاً ، وأما مع وجود الجد فإن الجد هو الذي يحجبهم وهو الذي يأخذ سلبهم .

وهذه كما يقول الفقهاء المالكيون ، شبه المالكية لأن مالكا لم يتكلم فيها ،

وإنما تكلم في التي فيها الأخ غير الشقيق وخالف فيها زيد بن ثابت فنسبت الفريضة إليه ، وهذه الأخرى التي فيها الشقيق شبهت بتلك فسميت شبه المالكية فهي كما يقولون : الشين للشين أي شبه المالكية هي التي يكون فيها الشقيق ، كما يقولون في باب الصلاة : الباء للباء والقاف للقف يعنون أن ما يفوت المصلي من صلاة الإمام قبل الدخول معه يأتي به قضاء ، وما يفوته بعد الدخول يأتي به بناء ، فالباء للباء والقاف للقف ، باء البناء لما فات بعد الدخول ، وقاف القضاء لما فات قبل الدخول .

ولا أحتاج إلى أن أبسط هذه الفرائض على التفصيل وأذكر ما فيها من عؤول وتصحيح .

بذلك تتحطم أسطورة ظلم المرأة في الإسلام على مرداة الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١] ، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ : ٤٩] .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، اللهم صلّ على محمد وعلى آله وسلم تسليماً . اللهم صلّ على محمد وعلى آله وسلم تسليماً .

المحاضرة الثالثة بعد المائة

هيمنة القرآن الكريم على السيرة النبوية

أروي بالسند المتصل عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن بردزبه البخاري الجعفي رحمته الله ، قال في كتابه الجامع الصحيح في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ : حدثنا عبدان قال : أخبرنا عبد الله ، قال : أخبرنا يونس عن الزهري ، قال : (أي البخاري) رحمته الله : وحدثنا بشر ابن محمد قال : أخبرنا عبد الله ، قال : أخبرنا يونس ومعمر معاً عن الزهري نحوه ، قال (أي الزهري) : أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : «كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن ولرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» .

هذا الحديث رواه الإمام البخاري في باب بدء الوحي ، ورواه في كتاب الصوم ، كما رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب «الفضائل» ، ورواه النسائي في سننه ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وهو حديث صحيح ، بل من أول درجات الحديث الصحيح ، ومعلوم أن أول درجات الحديث الصحيح هو ما اجتمع عليه البخاري ومسلم ، ثم يليه في الدرجة ما انفرد به البخاري ، ثم انفرد به مسلم ، ثم ما كان على شرطيهما ، ثم ما كان على شرط البخاري ، ثم ما كان على شرط مسلم ، ثم ما رواه غيرهما .

قوله : حدثنا عبدان : هو عبد الله بن عثمان المروزي الحافظ روى عن شعبة ، وعن الإمام مالك ، وروى عنه خلق كثير ، وتوفي سنة إحدى وعشرين ومائتين هجرية (٢٢١هـ) ، قال : حدثنا عبد الله ، وهو عبد الله

ابن المبارك، الحافظ الحجة شيخ الإسلام، المعداد في الأئمة الأربعة : حماد، والثوري، ومالك، وعبدالله بن المبارك .

قال : أخبرنا يونس : وهو يونس بن يزيد الأيلي، وهو من أثبت الناس في الحديث عن الزهري، قال الإمام أحمد : «ليس في الناس من هو أثبت حديثاً عن الزهري من يونس إلا ما كان من معمر» . وضعفه بعضهم، وقالوا : ليس بحجة . وقال ابن سعد في حقه : كان حلو الحديث كثيرة وليس بحجة وربما جاء بشيء من المنكر، أي ربما جاء بحديث من الأحاديث المنكرة، وليس المقصود هنا المنكر الذي هو ضد المعروف .

قال : أخبرنا الزهري، وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله ابن شهاب الزهري، الحافظ الحجة، وهو أول من جمع حديث رسول الله ﷺ بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمته الله .

قال : حدثنا عبيد الله، هو عبيد الله بن عبد الله، هذا كان عالماً محدثاً وكان شاعراً، وكان ممن روى عن ابن عباس رحمته الله .

قال : عن ابن عباس : وابن عباس هو الصحابي ابن الصحابي، المكي، ابن عم رسول الله ﷺ، ترجمان القرآن، وحبر الأمة، والبحر الزاخر في علوم الشريعة رحمته الله .

قال : «كان رسول الله ﷺ أجود الناس» أي على الدوام، وهذه المقدمة لهذا الحديث تخبر بأن رسول الله ﷺ كان جواداً في سائر أيامه وفي جميع أحواله وظروفه» وقد أخرج الترمذي في سننه عن الرسول ﷺ : «إن الله جواد يحب الجود»، وروي مرفوعاً : «أنا أجود بني آدم، وأجود مني رجل علم علماً فنشره بين الناس، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله» وفعلاً كان رسول الله ﷺ

أجودَ خلقَ الله ، فكما جاء في الحديث الشريف ما سئل الرسول ﷺ شيئاً فقال : «لا»^(١) ، وجاء في الحديث أيضاً أنه ﷺ كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر . وقد حدث يوماً ، وهذا مروي في هذا الحديث الذي أذكره - أنه ﷺ أعطى لرجل ما بين جبلين غنماً ، فذهب الرجل وقال لقومه : أسلموا فإن هذا النبي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

وقوله : وكان أجودُ ما يكون في رمضان ، كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان . أجودُ مرفوع على أنه اسم كان مضافاً إلى مصدر وهو ما يكون ، وما مصدرية ، وخبره محذوف ، أو على أنه بدل . أي مرفوع على أنه بدل من ضمير في كان فيكون بدل اشتمال ، كما تقول : كان زيد عملاً حسناً .

ويُقْبَل بالرفع أيضاً على أنه اسم كان وخبره في رمضان ، كان أجودُ ما يكون في رمضان هو خبر هذا المبتدأ ، والجملة خبر كان . ورؤي هذا الحديث كان أجودُ ما يكون بالنصب على أنه خبر كان منصوب . ولكن أكثر الروايات على الرفع كما قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم : الرفع مشهور والنصب جائز .

جود النبي ﷺ :

كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس ، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل . وجودُ النفس في رمضان بالخصوص شيء طبعي يتناسب مع طبيعة الأمور والأشياء ، وذلك أن شهر رمضان هو شهر التعب ، تصفو فيه النفوس وتزكو فيه الأرواح ، ويتعلق العبد فيه بربه ويتخلص من

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٤) ، ومسلم (٢٣١١) من حديث جابر رضي الله عنه .

التعلق بالدنيا فيكثر جُودُه ويكثرُ كَرَمُه ، لاسيما أن لقاء الأَجَبَةِ أيضًا من دواعي الكَرَم والجود ، وكان جبريل محبوبًا عند رسول الله ﷺ .

وكان ذلك كله مدعاة إلى مزيد من الجود ، حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن وفي رواية أخرى : كان يلقاه في كل ليلة من رمضان حتى ينسلخ ، فيعرض عليه الرسول ﷺ القرآن ، فهذه الرواية تفسر المدارس الواردة في الرواية الأولى ، بمعنى أن الرسول ﷺ يدارسه القرآن أي إنَّ الرسول كان يَعرِضُ على جبريل القرآن في كل ليلة من ليالي رمضان . فيدارسه القرآن ، فَلَرسولُ الله أجودُ بالخير من الريح المرسلة .

فلرسول الله . اللام هنا للابتداء ، والفاء للسببية ، الفاء للسببية ، أي إن مجيء جبريل ومدارسته للقرآن سبب فيما يَحْدُثُ للرسول ﷺ من جود ، فهنا الفاء للسببية واللام للابتداء ، وزيدت على المبتدأ تأكيدًا ، وهنا هذا جواب قسم أي أن الرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة في هذا الشهر .

والراوي هنا وهو ابن عباس كأنه يُضْمِرُ قَسَمًا ، أي بالله إن رسول الله ﷺ لأجودُ بالخير من الريح المرسلة .

فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، والريح المرسلة هي الريح التي تُثْرِكُ على طَبْعِها وتسير على هواها (سجيتها) وعلى طبيعتها فتكون أشد هبوبًا وأقوى حركة . وَوَجْهُ التشبيه بين أجوديته ﷺ وأجودية الريح المرسلة ، أن هذه الريح المرسلة تثير السحاب فيسقي الأراضي والبلدان بحسب حاجتها وحتى إذا لم تكن هناك لها حاجة ، ويسقي بلد البر والفاجر ، ويسقي بلد المؤمنين والكافرين .

فهذه الريح طيبة تعم الجميع ، تعم البرّ والفاجر ، وتعم الطائع والعاصي ، كذلك جود النبي ﷺ كان يعم كل إنسان .

وحيثُ إن هذا الحديث الشريف ينقلنا إلى جانب مُشرقٍ من جوانب سيرة الرسول ﷺ ، ويُشرفُ بنا على رحابها الواسعة ، وعلى رياضها الزاهرة ، فإنه ناسب أن نتخذهُ وسيلة للحديث عن سيرة رسول الله ﷺ في هذا الشهر المبارك .

هيمنة القرآن على السيرة النبوية :

وسأتناول موضوعًا من الموضوعات المهمة في السيرة النبوية ، وهو موضوع هيمنة القرآن الكريم على السيرة النبوية .

فقد شاء الله تعالى أن تكون سيرة نبينا محمد ﷺ هي السيرة الوحيدة المكتوبة بين سائر جميع أنبياء الله ورسله . فسيرة سيدنا محمد ﷺ هي السيرة الوحيدة التي تؤرخ حياة نبي رسول من يوم ميلاده إلى يوم وفاته من بين سائر جميع أنبياء الله تعالى ورسله ، ولعل السر في ذلك أن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل ، وأن رسالته هي خاتمة الرسالات .

ومن حيث كان رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والرسل وجب أن تتوفر لدى البشرية سيرة تختصر سائر الأنبياء والرسل وتجمع ما فيها من مكارم وشمائل وشيم وخصائص ومزايا ، وتلخصها وتبرزها مثلاً أعلى لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الذي تولى الله تعالى بنفسه تربيته وتولى الله تعالى بنفسه توجيهه ، وجعله كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] كما أن الرسالة المحمدية بما أنها خاتمة الرسالات ، وبما أن محمدًا ﷺ هو خاتم الرسل كان لابد أن يتوفر للبشرية نص ثابت

لسيرة هذا الرسول الكريم الذي يجمع في شخصه خصائص ومميزات ومزايا تفرقت في غيره من الرسل ، لابد أن يتوفر للبشرية نص ثابت يحتوي ذلك كله ويبقى بين يدي البشرية في كل زمان ومكان ومع اختلاف الأزمان ومع اختلاف الظروف والأحوال .

حاجة البشرية إلى السيرة:

فإذن البشرية كانت في حاجة إلى سيرة تُجمع خصائص الرسل ومكارمهم ، وكانت في حاجة إلى نص ثابت تتداوله بينها وترجع إليه ، فكان هذا هو السر فيما حدث من تدوين سيرة الرسول ﷺ ومن أخصيته بهذه الميزة . وحيث كانت السيرة النبوية تحفظ هذه الأغراض النبيلة وهذه المقاصد الجليلة كان لابد أن تحفظ بشكل يجعلها بعيدة كل البعد عن كل تحريف ، وسليمة كل السلامة من كل زيادة أو من كل تغليظ .

وهكذا فقد جاءت سيرة الرسول ﷺ في كتب الحديث أولاً ، فتوفر لها جميع ما توفر لحديث النبي ﷺ من ضمانات الصحة وشروطها ، فسيرة النبي ﷺ ماثلة في كتب الحديث على اختلاف درجاته من صحيح وحسن وغيرهما ورويت الأحاديث التي تناولت سيرة رسول الله ﷺ بجميع الشروط التي روي بها الحديث الصحيح ، فكانت بذلك سيرة الرسول ﷺ محفوظة .

كما أن سيرة الرسول ﷺ جاءت في كتب الشئال وفي كتب المغازي وجاءت في كتب التفسير وجاءت أخيراً في كتب التاريخ . وإذ نذكر هذا فلندلّ على أن سيرة رسول الله ﷺ كانت في مستوى أسمى وأعلى من مستوى الأخبار التي تداولتها كتب التاريخ والتي لم يكن لها مصدر إلا

كتبُ التاريخ ، وكانت سيرة رسول الله ﷺ مَوْثَقَةٌ بجميع طرق التوثيق التي ذكرها المُحَدِّثُونَ في توثيق حديث رسول الله ﷺ .

وكما حَدَّثَ للحديث الشريف فُؤِدَتْ منه صحائفُ مكتوبة منذ عهد النبي ﷺ كصحيفة عروة وكصحيفة أبي هريرة ، وغيرهما من الصحف التي كانت مكتوبة في عهد الرسول ﷺ وتضمنت حديثه ، كذلك وقع للسيرة النبوية فكان سيدنا عبدالله بن عباس أول من قام بعمل يكاد يُشبهُ عمل الصحف ، إذ كان يخصص يوماً في الأسبوع لتدريس سيرة رسول الله ﷺ في المسجد النبوي .

وكانت هناك محاولات أخرى ، ولم يأت عصر صغار التابعين حتى طلع علينا ابن شهاب الزهري بأول كتاب مخصَّص لسيرة رسول الله ﷺ ، ويحمل عنواناً صريحاً هو السيرة ، وكانوا يُعَنُونون كتبهم قبل ذلك بالمغازي ، فجاء ابن شهاب الزهري وألَّفَ كتاباً وخصَّصه للسيرة ، وعنوانه بعنوان صريح هو : السيرة النبوية ، ولذلك قالوا : أولُ سيرة كتبت في الإسلام سيرةُ ابن شهاب الزُّهري ، وهكذا توالى التأليف في مادة السيرة النبوية حتى توفرت لنا خزانة كاملة . فإذن السيرة النبوية محفوظة هذا النوع من الحفظ ولكن أكثر من ذلك وهو موضوعنا - محفوظة بالقرآن الكريم ، وسأتناول هذا الموضوع في ست نقاط :

سيرة الرسول محفوظة بالقرآن :

١ - النقطة الأولى هي أن سيرة الرسول ﷺ محفوظة بالقرآن ومُهيَّمنٌ عليها لأنه قام بحفظها وقام بالهيمنة عليها بما قام به من توجيه لأحداثها ووقائعها .

- ٢- النقطة الثانية في أن القرآن الكريم حافظ للسيرة النبوية بما كان مَصْدَرًا لكثير من وقائعها التي ليس لها مصدر غيره .
- ٣- النقطة الثالثة هي أن القرآن الكريم مهيمن على السيرة النبوية وحافظ لها بما كان يذكر من وقائع وأحداث يسدّد فيها الرسول ﷺ ويرده إلى الصواب في عدد من الجزئيات .
- ٤- النقطة الرابعة التي تشهد على أن السيرة النبوية محفوظة بالقرآن هي أن القرآن ربطها بسير باقي أنبياء الله تعالى ورسله .
- ٥- النقطة الخامسة هي أن القرآن الكريم ذكر الوقائع والأحداث وذكر ما وراء الوقائع والأحداث في السيرة النبوية .
- ٦- النقطة السادسة هي أن القرآن الكريم يوثق السيرة النبوية ويرويها بأسلوبه المِعْجَز .



- ١- أبدأ بالنقطة الأولى وهي أن القرآن الكريم مهيمن على السيرة النبوية وحافظ لها وشاهد عليها بما كان مَوْجَّهًا لوقائعها وأحداثها .

زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جَحْش:

وأبدأ بالواقعة الأولى وهي واقعة زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جَحْش . فقد تزوج الرسول ﷺ مولاتنا زَيْنَب بنت جَحْش ، زَوْجَه إياها أخوها بأربعمائة درهم ، وكانت قبل ذلك عند زَيْد الذي كان يُدْعَى زيد ابن محمد ، وذلك لأن النبي ﷺ كان قد تبناه قبل أن ينزل تحريم التبني ، فكان زيد من النبي ﷺ بمنزلة الابن من أبيه ، وكانت زَيْنَب هذه رحمها الله عند زيد وطلّقها

فتزوجها الرسول ﷺ ، وكانت عظيمة الجمال ، وكانت ورعةً تقيةً تعمل بعمل يدها ، وتكثر الصدقة ، فجاء القرآن الكريم يوجه هذه الوقائع كلها ويعطيها المعنى القرآني في سموه وعلوه ونقائه وصفائه فقال الله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فبين الله تعالى أن سبب تزويج سيدنا محمد ﷺ من زينب بنت جحش هو التشريع للأمة ، وهو بيان أن الرجل يحل له أن يتزوج من كانت حليلة متبناه الذي كان بمنزلة ابنه ، ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ولولا هذه الآية لما حُسم هذا الأمر ، ولما تبين سر هذه الوقائع المذكورة في السيرة النبوية .

تحويل القبلة :

والواقعة الثانية التي تشهد على أن القرآن يوجه أحداث السيرة النبوية هي حادثة تحويل القبلة ، وقد كانت القبلة الأولى هي بيت المقدس وأمر الله تعالى رسوله الكريم في الشهر السابع عشر من الهجرة بأن يتحول إلى استقبال الكعبة ، فأحدث هذا رجّة عنيفة في نفوس الناس ، واغتنامها المشركون فرصة وقالوا : لقد تحيّر محمد في دينه ، واهتبلها المنافقون فرصة أيضاً فأظهروا نفاقهم وقالوا : لقد حنَّ محمد إلى مولده ، لقد هزه الحنين إلى مولده ، وقالوا أيضاً : إن محمداً ﷺ كان يصلي أول الأمر ناحية بيت المقدس ، تألفاً لقلوب اليهود وعسى أن يستميلهم ، فلما يئس منهم تحول إلى الكعبة ، وقالوا غير هذا ، وفسروا هذا الحديث تفسيرات مختلفة ، فجاء القرآن الكريم يُبين جلية هذا الأمر ، ويوجه

هذه الواقعة توجيهها يسمو بها فوق كل هذه المقولات ، فقال الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٣-١٤٢] ، فبين الله تعالى في هذه الآيات سبب تحويل القبلة وذكر أقوال هؤلاء السفهاء الذين تكلموا في هذا الموضوع وبين أسرار توجيه القبلة توجيه الجديد وقال : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، فهكذا القرآن الكريم يتابع أحداث السيرة النبوية ويوجهها توجيه السليم .

ومن هذه الوقائع التي تدل على أن القرآن الكريم حافظ للسيرة النبوية في توجيهه لأحداثها وتأويله لوقائعها ما كان يدعيه المشركون من أن محمداً ﷺ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، وذلك أنهم قالوا بأن سيدنا محمداً ﷺ كان يجلس في المروة عند مبيعة عبد رومي نصراني ، اسمه جبر وهو عبد لابن الحضرمي ، وكان روميا وكان له علم من الكتاب ، وكانت عنده كتب ، وكان الرسول ﷺ ربما مر به وجلس عنده ، فكانوا يقولون : إن هذا العبد هو الذي يعلم الرسول ﷺ ما يقوله في القرآن .

وجاء القرآن الكريم ووجه هذا الحدث توجيهًا واضحًا وأعطى الحجة والدليل الذي لا يترك مجالاً للشك في كذب هذا الادعاء ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] ، والغريب أن

هذه الآية مذكورة في سورة النحل . وسورة النحل مكية ، وفي هذا ردُّ على هذا الادعاء ، لأنه على فرض تصديق هؤلاء ، فهل انقطع الوحي بمكة ، لقد استمر الوحي بالمدينة ، وكان بنفس الإعجاز وبنفس القوة ، ومن نفس النبع الذي هو الوحي الإلهي . كما أن ما ذكره القرآن هنا : ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣] ، فيه حجة ، لأن هذا الأعجمي على فرض أنه يعلم فإنه سيعلم وقائع ، أما القرآن الكريم فقد تحدى به الله المشركين بلفظه وبيانه وبإعجازه ، وليس بما فيه من وقائع فقط . ولذلك جاء الرد القرآني حاسماً وواضحاً . ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ .

٢- أما النقطة الثانية فهي أن القرآن الكريم حافظ للسيرة النبوية ومهيمن عليها وشاهد عليها لأنه مصدر وحيد لكثير من وقائعها وأحداثها ، القرآن الكريم كان المصدر الوحيد لعدد من وقائع السيرة ، ومن ذلك واقعة الإسراء والمعراج .

الإسراء والمعراج :

فالإسراء والمعراج أمر من أمر الله عظيم ، عندما أخبر به النبي ﷺ أصحابه وشاع الخبر في الناس أحدث ذلك في النفوس زلزالاً عظيماً ، وأرجف المرجفون ، وأكثر المشركون في الاستهزاء بالرسول ﷺ . وبعض كتب السيرة ذكرت الخلاف الواقع بين المسلمين في قضية الإسراء . وأنه إنما أُسْرِيَ بروح النبي ﷺ وليس بجسده ، ويذكرون في ذلك حديث عائشة رضي الله عنها : ما فارق جسد الرسول ﷺ موضعه ليلة الإسراء وإنما أُسْرِيَ الله تعالى بروحه . وذكروا أيضاً ما روي عن معاوية بن أبي سفيان ، الذي قال في الإسراء : إنما كان الإسراء والمعراج رؤيا صادقة أراها الله

لرسوله ﷺ . وجاء القرآن الكريم ليتحدث عن هذه الواقعة بوصفه المصدر الوحيد لأنه ليس هناك مصدر آخر ، لأن النبي ﷺ هو طرف في القضية وقد رُفِعَ إلى عوالم أخرى ولا يمكن أن يكون هو المصدر الوحيد ، ولا يمكن لغيره أن يكون مصدرًا لهذا الواقع حتى زوجته التي معه وهي عائشة ؓ ، فقال الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ [الإسراء : ١] .

ولولا أن الإسراء وقع بالجسد لما كانت هناك داعية تدعو لبدء الخبر عنه بالتسبيح ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ وهذا لا يكون إلا في الإخبار عن شيء له شأن ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ .

ولولا أن الإسراء والمعراج كان بالجسد لما اعتبر من آيات الله في هذه الآية ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ ، ولو كان الإسراء والمعراج مجرد منامة ورؤيا رآها النبي ﷺ أو مجرد إسراء بالروح لما أحدث هذه الهزة العنيفة التي أحدثها خبر الإسراء والمعراج في النفوس ، إنما أحدث هذه الهزة وهذا الرُّوعَ في النفوس لأنه كان إخبارًا عن إسراء تم بالجسد ، فكان القرآن الكريم مصدرًا وحيدًا لهذه الواقعة المهمة من واقع السيرة النبوية .

حادثة الإفك :

واقعة أخرى من الوقائع التي يظهر فيها القرآن الكريم مصدرًا وحيدًا للسيرة النبوية وليس هناك مصدر غيره هو حادثة الإفك . وحادث الإفك من الأمور العظيمة الشديدة الخطورة التي وقعت للنبي ﷺ ولزوجته أم المؤمنين عائشة ؓ .

ولا نريد أن نخوض في هذا الحديث ، ولكن نريد أن نبين فقط أن حديث الإفك ما كنا لناخذ فيه لا بكلام عائشة ولا بكلام غيرها ، لأن عائشة والشخص الذي ذكر معها في هذا الحديث وهو صفوان بن مُعَطَّل ، كلاهما موجهة إليه التهمة فلا يمكن أن يؤخذ بقوله ، ولا يمكن أن يؤخذ بقول أي بشر من البشر ، لأنه لم يكن هناك أحد غيرهما ، فبقي أن المصدر الوحيد في هذه النازلة هو القرآن الكريم . فقال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ ١٢﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ فجاءت هذه الآية فيها التبرئة التامة لعائشة عليها السلام ، وفيها القول الفصل في هذه النازلة ، وفيها تأديب للمؤمنين ، وهذا ينسحب على جميع الأخبار التي تروج وسط الأمة من حين إلى حين .

وقد أدبنا القرآن الكريم أننا إذا سمعنا خبراً أو شائعة أن نظن بإخواننا أي من المسلمين خيراً ، وألاً نبدأ بالتصديق بالأخبار قبل الدليل والحجة ، فكان القرآن الكريم في واقعة الإفك هو المصدر الوحيد .

كما أن القرآن الكريم تابع السيرة النبوية وكان مهيمناً عليها وحافظاً لها وشاهداً عليها ومصدراً وحيداً من مصادرها حين كان يتحدث عن بعض الوقائع من السيرة التي لا يمكن لأحد أن يطلع عليها ولا أن يعلمها وهي الوقائع المتعلقة بالحياة الخاصة للرسول ﷺ مع أزواجه .

فهناك وقائع وقعت للرسول ﷺ مع أزواجه ففوجئ هو بنفسه كما فوجئ أزواجه بالوحي يتحدث عن هذه الوقائع حيث كان لا يمكن أن

يتحدث عنها أحد من الناس . فمن ذلك أن الرسول ﷺ كان قد أَسَرَّ لإحدى زوجاته سراً وطلب منها ألا تخبر به غيرها من زوجاته فأخبرت بذلك السر ، وذلك تواطؤاً منها مع الزوجة الأخرى ، وكان بعض أزواجه ﷺ يَحْدُثُ لهن ما يحدث للأزواج عادة من الغيرة ، فدفعهن ذلك إلى مواقف ذكرها القرآن الكريم مع أنها من أخصّ خصوصيات الرسول ﷺ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) [التحریم : ١-٤] . فأشار القرآن الكريم إلى هذه الواقعة وبين ما وقع من حوار بين الرسول ﷺ وبين أزواجه ، وهذه أمور القرآن الكريم هو المصدر الوحيد فيها .

صلاة الرسول على المنافقين :

٣- النقطة الثالثة وهي أن القرآن الكريم مهيمن على السيرة النبوية وحافظ لها بأنه يُسَدِّدُ الرسول ﷺ ويوجهه . ومن ذلك صلاة النبي ﷺ على المنافقين . فمما روي في كتب السيرة عن عمر بن الخطاب قال : إن النبي ﷺ دُعِيَ إلى الصلاة على عبدالله بن أبي فتقدم للصلاة عليه ، وكان عبدالله بن أبي من كبار المنافقين فوقف سيدنا عمر في صدر الرسول ﷺ وقال له : يا رسول الله كيف تصلي عليه وهو قال كذا وكذا يوم كذا ، يعدد

عليه آثامه ويعدد عليه ما كان يقوم به من أمور شنيعة في حق الرسول ﷺ ، فقال له الرسول ﷺ : لقد استأذنتُ فأذن لي ، يعني بذلك أنه طلب من الله تعالى أن يأذن له في الصلاة على المنافقين فأذن له ، وذلك بقول الله تعالى : ﴿ اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] قال رسول الله ﷺ : « وسأزيد على السبعين وأصلي عليهم »^(١) ، قال عمر ابن الخطاب : فتعجبت لِحِجْرَاتِي على رسول الله ﷺ ، وتقدم الرسول ﷺ وصَلَّى على عبدالله بن أبي وقام على قبره ، وما هي إلا ثوانٍ حتى نزل قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] . فالقرآن الكريم يسدد الرسول ويوجهه الوجهة الصالحة فيما وقع من أحداث السيرة ، وكانت هذه الآية درسًا للرسول ﷺ فلم يُصَلِّ قط على منافق بعد ذلك .

حادثة ابن أم مكتوم :

ومن الأمثلة على ما يقوم به القرآن الكريم من تسديد للرسول ﷺ حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى ، وذلك أن الرسول ﷺ تقدم إليه الوليد بن المغيرة وكان رسول الله ﷺ يريد أن يجذبه إلى الإسلام وأن يقرأ عليه كتاب الله تعالى لعله يدخل إلى الإسلام . وفي هذا الوقت الذي كان الرسول ﷺ مشغولاً مع الوليد بن المغيرة جاء ابن أم مكتوم الأعمى وأخذ يستقرئ الرسول ﷺ القرآن فشغل عنه الرسول ﷺ فأدبه ربُّه وسدده وقال له : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿ [عبس : ١-٢] ذلك أننا لا ندري الخير أين يكون هل في إرشاد ابن مكتوم هذا أو في دخول الوليد

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

ابن المغيرة إلى الإسلام؟ الله تعالى هو الذي يعلم . ولذلك فقد تدخل الوحي في هذه الواقعة ووجه الرسول ﷺ التوجيه الذي يرضي الله تعالى .

فداء الأسرى يوم بدر:

كذلك وقعت وقائع أخرى تدل على تسديد الرسول ﷺ ، وأذكر منها فداء الأسرى يوم بدر . «ذلك أن الرسول ﷺ عندما نصره الله ببدر ذلك النصر العزيز المؤزر جاء بالأسرى وفرقهم في أصحابه ، وقال : استوصوا بالأسرى خيراً ، وأخذ يفاديهم فكان المشركون يأتون بالمال العظيم يفدونه به أسراهم ، وكان النبي ﷺ قد استشار صحابته في أمرهم فقال له أبو بكر رضي الله عنه : قومك وأهلك فاستبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر بن الخطاب : لقد فعلوا بالمسلمين كذا وكذا فاضرب أعناقهم ، وقال له عبدالله بن رواحة : خذهم إلى وادٍ كثير الحطب وألقهم فيه وأضرم عليهم النار ، فسكت رسول الله ﷺ ودخل إلى بيته ، فأخذ الناس يقولون : سيأخذ بقول أبي بكر الصديق ، وبعضهم قال : سيأخذ بقول عمر ، وبعضهم قال : سيأخذ بقول عبدالله بن رواحة . فخرج وقال لهم : إنكم اليوم عالة ، فافدوا من جاؤوكم بفديته ، وإلا فاضربوا عنقه»^(١) . فأباح رضي الله عنه الفداء ورضي بالفداء ، فنزل القرآن الكريم يسده : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧] فهذا تسديد رباني وتوجيه إلهي لوقائع السيرة النبوية .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وهو عند الترمذي (١٧١٤) مختصراً ، وقال : هذا حديث حسن .

كذلك جاء هذا التسديد والتوجيه عندما أذنَ رسول الله ﷺ لبعض الناس بالتخلف عن غزوة تبوك ، وذلك أن الرسول ﷺ دعا الناس للخروج إلى غزوة تبوك ، وكان ذلك في وقت حر وتعب ، وفي وقت كان الناس يريدون أن يَبْقُوا في ديارهم ووسط غلاهم وثمارهم ، والشُّقَّةُ بعيدة لأنهم سيقومون بغزو الروم ، فاستأذنه بعضهم في التخلف والبقاء وعدم الخروج معه فأذن لهم ، فعاتبه الله تعالى وسدده ووجه التوجيه الصحيح فقال له : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٣] فهكذا القرآن الكريم يتابع سيرة الرسول ﷺ ، ويوجهها التوجيه الرباني السليم الذي يشهد بأن القرآن الكريم حافظ للسيرة النبوية ومهيمن عليها في أدق تفاصيلها وأبسط جزئياتها .

٤ - وأنتقل إلى نقطة أخرى وهي أن القرآن الكريم يذكر السيرة النبوية مرتبطة بسيرة الأنبياء والرسل ، ويضعها في سياق سير الأنبياء والرسل ، ويُذَكِّرُ بسير الأنبياء والرسل ، وهذا التذكير من الله بِسِيرِ الأنبياء والرسل وقصصهم كأنه مرآة يظهر فيها وجه السيرة النبوية ، فتُعَرِّضُ السيرة النبوية على قصص الأنبياء والرُّسُلِ ، فتوجد أنها مسيرة واحدة لأنبياء الله ورسله .

وقد اعتنى القرآن الكريم بِسِيرِ الأنبياء والرسل ، وجاءت سور كاملة بأسمائهم كسورة نوح ، وسورة إبراهيم ، وسورة هود ، وسورة يوسف ، وسورة يونس ، وغيرها من الشُّور التي تحكي سِيرِ الأنبياء والرسل وقصص حياتهم . وكان القرآن الكريم يربط الربط المحكم بين حياة الرسول ﷺ وبين إخوانه الأنبياء الرسل ربطاً تاماً مُحْكَمًا ، فكانت السيرة النبوية في القرآن الكريم تأتي مثلاً حياً لما يمكن أن يكون عليه ربط

سيرة نبوية موثقة وصحيحة بسير لأنبياء الله ورسله ، هي أيضًا ليس لنا وبين أيدينا كشرية وكإنسانية مصدر موثوق به وصحيح وثابت إلا كتاب الله تعالى .

٥ - النقطة الأخيرة التي سأذكرها في هذا الباب هي أن القرآن الكريم يذكر السيرة النبوية بأسلوبه المعجز ، فيعطيها جمالًا وجلالًا ، ويعرض وقائعها ببلاغته وبجمال أسلوبه وبسحر ألفاظه ، وبكل ما يتوفر عليه الوحي من أسرار ربانية ومن فتوحات إلهية ، كما أن القرآن الكريم إذ يزوي السيرة النبوية فإنه يوثقها على شكل يجعلها ناجية من كل تحريف ، سليمة من كل زيادة أو نقص ، وهذا من التوثيق الذي يحظى به القرآن الكريم الذي هو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فمصادقية القرآن الكريم انعكست على السيرة النبوية ، وإعجاز القرآن الكريم قد فاض بأنواره على السيرة النبوية ، فجاءت السيرة النبوية في القرآن الكريم على أجمل شكل وبأبلغ أسلوب وبأدق عبارة وأحلاها وأجملها ، كما جاءت تتمتع بمصادقية كاملة عند كل مسلم يؤمن بربه ويؤمن برسول الله ﷺ .

المحاضرة الرابعة بعد المائة

حجية أفعال الرسول ﷺ وموقعها من الأدلة الشرعية

قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

إنه مما لا يحتاج إلى دليل ، أن الله تعالى إذ أرسل رسله إلى عباده مبشرين ومنذرين ، أوجب عليهم طاعتهم فيما جاءوهم به من عند ربهم ، حتى تتحقق الحكمة من بعثتهم ، وتقوم بهم الحجة على عباده في هدايتهم إلى صراطه المستقيم ، وإرشادهم إلى العمل بما يؤهلهم لمرضاة الله وثوابه ، وينجيهم من غضبه وعقابه ، ويحقق لهم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ، فكانت طاعة الرسول من مقتضى الإيمان به ، ومن مستلزمات الاهتداء بهديه ، والانتفاع برسالته ، ولذا قال ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٦٤] .

فإذا عصت أمة رسولها ، ولم يستجيبوا له ولم يسمعوا ، قامت حجة الله عليهم ، واستوجبوا عقابه ، ولم يبق لهم عذر يعتذرون به ، وكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، ومن أنذر فقد أعذر ، ولذلك قال تعالى ، مبيِّناً الحكمة من بعثة رسله : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وحيث كانت طاعة الرسول بهذه المثابة ، وكانت تمثل حجر الأساس في بنیان الدين كله ، جاءت عدة آيات وأحاديث تحث عليها وتبين فضلها ، وما يترتب عليها من رشد واهتداء ونجاح ، وعلى نقيضها من ضلال وهلاك وخسران .

ولذا انعقد إجماع الأمة على فرضيتها، وأنها في مقدمة فروض الدين وواجباته الأساسية التي لا يكون دين الإسلام إلا بالرضوخ لطاعة الله ورسوله، والرضا بأمره وحكمه دون اعتراض أو توقف أو تردد، بل أصبحت هذه الفرضية من المسلمات الأولية التي لا يصح أن يختلف فيها اثنان، ما دام كل منهما يرضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، بل ربما كان الاستدلال على فرضية طاعة رسول الله ﷺ من نافلة القول، ومن باب الإخبار بمعلوم، بالنسبة للمسلم الذي لا يجهل ضروريات دينه لولا أن دعا إلى التعرض لها هنا التمهيد لهذا الموضوع الذي له علاقة وثيقة وارتباط بطاعة رسول الله ﷺ، واتباع سنته في أقواله وأفعاله.

معنى طاعة الرسول:

وطاعة الرسول تعني في الدرجة الأولى تصديقه في كل ما أخبر به عن ربه، وجاء به دينه وشرعه، من عقائد وشرائع وأحكام، ثم طاعته فيما أمر به أو نهى عنه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وذلك لأن طاعة الرسول في الواقع طاعة لله الذي أرسله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسٌ وَأَلَّا يَعْلَمُ مَا تَبْذُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وعلى هذا انعقد إجماع الأمة، وعلى أساسه قام بنیان الفقه الإسلامي برمته في أصوله وفروعه.

واتفق الأئمة الأربعة وغيرهم على وجوب طاعة رسول الله ﷺ، واتباع سنته، وأن سنته حجة في دين الله وشرعه، وأوصوا كلهم - رضوان الله عليهم - بترك آرائهم الاجتهادية إذا تبين أنها مخالفة لسنة رسول الله ﷺ، ولما صح به الحديث عنه.

قال الإمام الشافعي : أجمعت الأمة على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، كائناً من كان . ومن أقوال الإمام مالك المشهورة : كل كلام يؤخذ منه ويرد ، أو يقبل ويرد ، إلا كلام صاحب هذا القبر ، وأشار إلى الحجرة الشريفة ، وذلك لأن سنته ﷺ هي من قبيل الوحي الإلهي ، كما أخبر عنه ربه بقوله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤ ، ٣] .

وكما يقول ﷺ عن نفسه : «ألا إني أوتيت القرآن ، ومثله معه»^(١) ، يعني سنته ، ولأن الله تعالى وكل إليه بيان كتابه . ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، فكان لذلك هو أعلم الناس بمقاصد كتاب الله ، وأدراهم بمراد الله منه ، فكان لذلك يجب اتباعه حتماً ، والعمل ببيانه .

مكانة السنة في التشريع :

ومن ثم كانت السنة هي المصدر الثاني للتشريع في الإسلام بعد القرآن ، بل أكثر الأحكام التفصيلية إنما أخذت من السنة ، حتى في أمهات العبادات ، وفي قواعد الإسلام وأركانه ، فهذه العبادات أمر بها القرآن أمراً مجملاً ، مثل : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] ، ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، مثل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، دون التعرض للأحكام المتعلقة بهذه العبادات من شروط ، وأركان ، وفروض ،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤ / ١٣٠) ، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٠٦١) من حديث المقدم بن معدي كرب رحمته الله .

وسنن ، ومستحبات ، ومكروهات ، ومبطلات ، إلى غير ذلك من الأحكام المعروفة ، وإنما السنة هي التي بينت ذلك وفصلته تفصيلاً .

وسنته ﷺ وحسب الاصطلاح الأصولي هي : أقواله ، وأفعاله ، وتقريراته ، فكل ما صح وثبت عنه من قول ، أو فعل أو تقرير لعمل وقع بحضرته ، أو علم بوقوعه فأقر عليه ولم ينكره ، كان من سنته وصح الاحتجاج به في ثبوت حكم شرعي على تفاوت في مراتب الدلالات ، دلالة كل من القول والفعل والتقرير ، على أن من العلماء من أدرج التقرير في حكم الأفعال كما سيأتي .

السنن القولية :

إذن ، وإنما كانت الأقوال في المرتبة الأولى من سنته لأن مهمة الرسول ﷺ الأولى هي التبليغ عن الله ، ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة : ٦٧] ، تبليغ كتاب الله تعالى ، وتلاوته على الناس ، وبيان شرائعه وأحكامه ، وكل ذلك لا يتأتى إلا عن طريق البيان بالقول الذي به يتأتى الإسماع والاحتجاج والإقناع ، وبه يتم توجيه الخطاب إلى عامة الناس ، وبالقول أيضاً تستفاد الأحكام الشرعية بحسب صيغها ، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً إلى عموم دلالة الأقوال ، حيث إن القول دلالاته تشمل المحسوس والمعقول ، والموجود والمعدوم ، والحاضر والغائب ، بخلاف الأفعال في كل ذلك ، إضافة لاحتمال ادعاء الخصوصية في الأفعال دون الأقوال ، فكانت الأقوال لذلك في المرتبة الأولى من سنته ﷺ ، وكانت هي العمدة في أكثر السنن التي نقلت إلينا .

السنن الفعلية :

ثم يأتي بعدها مباشرة أفعاله ، فالتقرير الذي غاية ما يستفاد منه حلية ذلك الأمر الذي أقر ﷺ على فعله ولم ينكره ، إذ لو كان منكراً وحراماً لما جاز له السكوت عنه ، لأنه لا يجوز عليه ﷺ السكوت على منكر . والذي يهمننا من هذا الموضوع هو أفعاله ﷺ .

وإنما كانت أفعاله ﷺ سنة تتبع وحجة في دين الله وشرعه لأدلة كثيرة تقتصر على البعض منها .

فمنها - وكما سبقت الإشارة إليه - أن الله وكل إليه بيان كتابه والبيان كما يكون بالقول يكون بالفعل ، بل أحياناً يكون البيان بالفعل أقوى ، لأنه بالفعل يتضح المقصود من الكلام ، ويتعين المراد منه دون لبس أو غموض ، ويغني عن كثير من الشرح والبيان ، فهو يقوم بما تقوم به وسائل الإيضاح في التعليم ، لتقريب المعاني الغامضة إلى الأذهان ، فهو إلى ذلك يكون أدعى إلى الإذعان والقبول ، وتقطع التردد في الفعل ، كما وقع للصحابه رضوان الله عليهم في غزوة الحديبية حين أمرهم رسول الله ﷺ بالخلق ونحر الهدي والتحلل من العمرة ، عندما صدهم المشركون عن الدخول إلى مكة وتم الاتفاق بينه وبينهم على أن يرجع عنهم ذلك العام ، ويعود إلى عمرته في العام القابل ، بشروط أخرى تضمنتها وثيقة الهدنة والصلح ، فصعب ذلك على الصحابة ، ودخلهم منه هم وغم ، دعاهم إلى التوقف في امثال أمره ﷺ ، فدخل على زوجه أم سلمة رضى الله عنها ، وقال لها : «هلك المسلمون ، أمرتهم بأمر فلم يمتثلوا ، فقالت له رضى الله عنها : اعذرهم يا رسول الله ، فقد حملت نفسك في هذا الصلح أمراً عظيماً ، ورجع المسلمون من غير فتح ، فهم لذلك مكروبون ، ولكن إن أردت أن يفعلوا ،

فاخرج إليهم وابدأهم بما تريد، فإذا رأوك فعلت اتبعوك»^(١)، وكان كذلك.

فخرج ﷺ، فنحر هديه بنفسه، ودعا الحلاق فحلق رأسه، فما إن رآه الصحابة فعل ذلك حتى قاموا سراعًا، فنحروا هديهم، وحلق بعضهم بعضًا، حتى كادوا يقتتلون من الغم أو من الازدحام، وهكذا أفاد الفعل في حل هذا الإشكال ما لم يفده الأمر والقول، وكان في هذه الإشارة منقبة جليلة لأم سلمة رضي الله عنها، ودليل على ما كان للمرأة في صدر الإسلام من حصافة رأي، وبعد نظر، وتقدير واعتبار.

فعل النبي ﷺ طريق من طرق تعليم الصحابة:

لذلك اعتمد ﷺ فعله طريقًا من طرق تعليم أصحابه أمور دينهم في قضايا وجزئيات كثيرة. وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢)، وقال لهم في حجة الوداع، وهي الحجة الوحيدة التي حجها في الإسلام: «خذوا عني مناسككم»^(٣)، فكانت غالبية أحكام الحج التفصيلية مأخوذة عن فعله ﷺ في حجة الوداع حتى خصت بالتأليف.

ومنها أيضًا «أن امرأة جاءت إلى أم سلمة تسألها نيابة عن زوجها عن حكم من قبل وهو صائم، فسألت رسول الله عن ذلك، فقال لها: ألا أخبرتها أني أصنع ذلك»^(٤)، وهكذا أحال على فعله، اكتفاء بفعله عن بيان حكم المسألة بقوله.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ١٦٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

ومنها أن الله سبحانه وتعالى أمره بالتزوج من مطلقة مولاه زيد ابن حارثة الذي كان تبناه قبل الإسلام حتى كان يدعى زيد بن محمد، فلما أراد الله تعالى إبطال التبني وما يترتب عليه، أمر رسوله ﷺ أن يبدأ بذلك بنفسه، ويعطي القدوة من نفسه حتى لا يبقى في النفوس حرج ولا استعظام للمسألة بحكم الإلف والعادة، إذا رآوه فعل ذلك بنفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولهذا كان الصحابة يحتجون بأفعاله كما يحتجون بأقواله، ويرجعون إليها عند الاختلاف أو اشتباه أمر عليهم.

ومنها أن الله سبحانه وتعالى أثنى عليه في كتابه، ونوه بأخلاقه، مما يجعل كل أفعاله مثالا يقتدى في مكارم الأخلاق، وسمو القدر والحكمة.

أفعال النبي ﷺ محمولة على السداد والرشاد:

ومنها أن أفعاله ﷺ محمولة كلها على السداد والرشاد، وعلى وفق ما جاءت به شريعته، ومعصومة عن الزلل والخطأ في دين الله وشرعه بحكم أنه معصوم، فيستحيل أن يفعل فعلاً يتنافى مع مقتضى العصمة الواجبة له ولجميع أنبيائه ورسله شرعاً وعقلاً، كما بين ذلك علماء الكلام والأصول بأدلته وبراهينه، فإذا فعل فعلاً كان دليلاً على أنه لا حرج في ذلك الفعل، وأنه داخل في دائرة الحل والمشروعية، وأنه مما لا معصية فيه بل ولا كراهة.

ومنها أن الله سبحانه وتعالى أمر باتباعه، ورتب على اتباعه محبة الله لمن اتبعه ومغفرته لذنوبه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وأي جزاء أعظم وأكرم،

وأحب إلى نفس المؤمن ، وأشهى من أن يحظى في مقابل اتباعه لسنة رسول الله ﷺ بمحبة الله له ، ومغفرته لذنوبه ، وهي أعز وأعلى ما يتمناه المسلم على ربه ، وأكثر ما يمكن أن يجتهد المجتهد فيه ، ويسعى إليه جهده وطاقته .

ولذلك قال بعض العارفين : ليس الشأن أن تحب الله ، لأن الله غني عن العالمين ، وإنما الشأن أن يحبك الله ، فإذا حصل العبد على مقام المحبوبة ، سعد السعادة الكبرى ، وكُفِيَ أمر الدنيا والآخرة ، وكان الله له وليًا ونصيرًا ، وأحاطه بعنايته وألطافه ، كما يشهد لذلك الحديث القدسي : «حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه» ، كما رتب في آية أخرى الاهتداء على اتباعه ، فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

اتباع النبي ﷺ في الأقوال والأفعال :

والاتباع كما يكون في الأقوال يكون في الأفعال ، بل ذهب القاضي عبد الجبار إلى أن الاتباع إذا أطلق انصرف إلى الأفعال خاصة دون الأقوال ، كاتباع الإمام ، فإن المأموم إنما يتبع الإمام في أفعاله ، في ركوعه ، في سجوده في قعوده ، في قيامه ، ولا يتبعه في أقواله ، من قراءة وأدعية وأذكار ، قال أما اتباع الأقوال فيسمى امتثالاً ، وهكذا .

إذن ، فدل ذلك على فضل اتباع رسول الله ﷺ في أفعاله . وأن اتباعه في أفعاله سبب في الفوز بمحبة الله ومغفرته ، سواء خصصنا الاتباع بالأفعال أو عممناه ليشمل الأقوال والأفعال معًا .

ثم بعد هذا كله تأتي آية الموضوع وهي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

هذه الآية هي الآية الواحدة والعشرون من سورة الأحزاب المدنية ، وقد نزلت في قصة غزوة الأحزاب ، أو غزوة الخندق ، لتحزب قريش وبعض حلفائهم من قبائل العرب على محاربة الرسول ﷺ ، وغزوه في المدينة ، بتحريض من يهود المدينة ، يهود بني النضير وبني قريظة ، ناقضين بذلك العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى اجتمع من الأحزاب ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، جاءوا وهم في أتم عدة وسلاح ، وفي تدبيرهم وفي نفوسهم أن تكون المعركة القاضية على محمد ودعوته ، لولا أن خيب الله سعيهم ، وردهم خائبين ، ولما علم ﷺ بخبرهم أمر بحفر الخندق حتى يحول دون هجومهم على المدينة ، وكانت مكيدة لم تعرفها العرب من قبل .

ولقي المسلمون في هذه الغزوة بلاء شديداً ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، خاصة وقد كانت في أيام الشتاء الباردة ، وأرجف فيها المنافقون ، وأظهروا ما في نفوسهم من الكفر والنفاق حتى قالوا : ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] إلى آخر ما كان من شأن هذه القصة ، ابتداء من قول الله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ٩-١١] ، إلى أن يقول

اللَّهُ ﷻ: ﴿تَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠].

ثم عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

واختلف المفسرون فيمن وجه إليهم الخطاب في هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ فقيل: إنه خطاب للمنافقين، تبيكتا لهم وتوبيخا على ما كان منهم من هلع وخوف وجزع، وعدم اقتدائهم برسول الله ﷺ، وودهم الفرار إلى البادية، وقد كانوا عاهدوا الله من قبل ألا يولوا الأدبار، إلى آخر ما كان منهم.

وقيل: الخطاب فيها للمؤمنين الذين صبروا وصابروا وثبتوا مع رسول الله ﷺ، وصدقوا ما عاهدوا الله، وما بدلوا تبديلاً، إلى أن أتاها الله بنصره المبين، لا عن طريق الحرب والقتال، ولكن عن طريق المعجزة الربانية، إذ أرسل الله عليهم ريحاً عاتية، خلعت الخيام، وقوضت البنيان، وأكفأت القدور، وملأت الأتربة وجوههم، وخذلتهم كل الخذلان، حتى لم يقر لهم معها قرار.

والغريب في الأمر أن أثرها هذا كان لا يعدو معسكر المشركين، ولا يصل إلى معسكر المسلمين، حتى كان المسلمون لم يحسوا بها ولم يدركوا لها أثراً، والحالة أنه لم يكن بين المعسكرين إلا عرض الخندق وحده، فكانت معجزة ثانية، كما أيدهم أيضاً بجنود من الملائكة، وقيل: إن عددهم كان ألفاً، يكبرون الله في جنبات معسكرهم، ويلقون الرعب في قلوبهم حتى ولوا مدبرين، وانصرفوا منهزمين.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] فنزلت الآية تنويهاً بشأنهم ، وتثبيتاً لهم على الائتساء برسول الله ﷺ ، الذي لا يكون إلا عن باعث الإيمان بالله واليوم الآخر ومن يذكر الله كثيراً ، وفي ذلك كله تعريض بالمنافقين الذين لم يكونوا كذلك .

وأرى - والله أعلم - أنه لا مانع من جعل الخطاب يشمل الفريقين ، فريق المؤمنين بطريق التصريح ، وفريق المنافقين بطريق التعريض والتلويح ، ولذا صدرت الآية بحرفي التوكيد ، اللام الواقعة في جواب القسم المحذوف ، و«قد» الدالة على تحقق الخبر ووقوعه ، والتوكيد إنما يحسن بلاغياً عند وجود داعيه ومقتضيه .

والمقتضي هنا - والله أعلم - هو التعريض بحال المنافقين ، وما كان منهم من تخاذل وعدم اقتدائهم برسول الله ﷺ ، وجاء الضمير في الآية أولاً مجملاً ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ ثم بينه الله تعالى بعد قوله : ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ . فأبدل من ضمير «لكم» ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر : إما بدل كل من كل ، على القول بأن الآية خاصة بالمؤمنين ، وإما بدل اشتمال أو بدل بعض من كل ، على القول بأن الخطاب يشمل الفريقين ، وعلى كل فالعائد محذوف ، تقديره «منكم» لمن كان يرجو الله واليوم الآخر منكم .

معنى الأسوة:

والإسوة بكسر الهمزة وضمها إسوة وأسوة ، قرأ جمهور القراء إسوة بكسر الهمزة ، وانفرد عاصم وحده بقراءتها بالضم . ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وجمعها إسي وأسي ، وهي في الأصل

اسم مصدر من فعل اتئسى بمعنى اقتدى ، وتطلق على كل ما يصح أن يقتدى به بجميل الفعال وحسن الخصال ، كما تطلق على محل القدوة والافتداء ، وكما هو الشأن بالنسبة لرسول الله ﷺ ، فهو محل القدوة والافتداء ، وأهل لأن يقتدى به ، ولكن الآية جاءت على أسلوب : ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾ إما على أن «في» في الآية بمعنى الباء : أي لقد كان لكم برسول الله إسوة حسنة ، وإما أن الآية جاءت على أسلوب التجريد ، والتجريد من محسنات الكلام عند علماء البلاغة ، وعرفوه بأن يؤخذ من موصوف بصفة موصوف آخر ، بما في تلك الصفة ليدلا معاً على أنها اشتركا في تثبيت تلك الصفة ، وتأيدها على سبيل المبالغة ، ويكون بحرف «في» كما في الآية ، وكما في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾ [يوسف : ٧] ، كما يكون بحرف «من» ، ومنه قول القائل : لقيت من فلان أسداً ، يعني نفسه ، أي لقيته شجاعاً على وجه التشبيه البليغ ، فكان في أسلوب الآية ما لا يخفى من البلاغة .

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ «يرجو» : إذا فسرناه على ظاهر معناه ، معناه يؤمل رضا الله وثواب اليوم الآخر ، وأطلق اليوم الآخر وأراد به يوم القيامة بالذات ، لأنه يوم الجزاء عن العمل خيره وشره ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية : ٢٨] .

وعليه ، فيكون في الكلام حذف مضافين ، لأن الرجاء لا يتعلق بالذوات ، وإنما يتعلق بالمعاني القائمة بالذات . ومثله الخوف في ذلك . وكما فسرنا به الآية أيضاً ، فقد فسر : ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي يخاف الله ويخاف عذاب اليوم الآخر ، وفسر بأن من كان يؤمل فضل الله ويرجو فضل الله وثوابه ، ويخاف عذاب اليوم الآخر .

وأياً كان فالتفسيران ليسا بمتنافيين بل هما متقاربان ، أو متلازمان بالنسبة للمؤمن ، لأن شأن المؤمن أن يكون دائماً بين خوف ورجاء ، فهو إذا خاف الله في موطن لا بد أن يرجوه في موطن آخر ، وهكذا حتى قيل : الخوف والرجاء بالنسبة للمؤمن كالجنحين بالنسبة للطائر لا يستغني عنهما بحال حتى يسير باعتدال ، لا قنوط من رحمة الله ، ولا يأس من روح الله ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وفي نفس الوقت لا استهتار بمعاصي الله ولا أمن من مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ومن ثم كان كل من القنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله من المعاصي الكبائر .

ثم قرن سبحانه وتعالى رجاءهم لله واليوم الآخر بذكرهم لله كثيراً ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ فدل ذلك على فضل ذكر الله تعالى ، وأنه من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وأزكاها عنده ، كما ورد ذلك في الحديث ، ومن ثم نرى أن الله تعالى كلما أمر بذكره قرنه بالإكثار منه في آيات كثيرة ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، وأمر به إطلاقاً دون تحديد ولا تقييد بزمان ولا بمكان وأمر به في جميع الحالات وخصوصاً في موطن البأس والقتال كما في الآية موضوع الدرس ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، فدل ذلك على أن ذكر الله في موطن البأس والشدة من أسباب الفرج ، ومن أسباب النصر والظفر ، ومن أسباب تقوية القلوب وتثبيتها والربط عليها ، والشد من

عزائمها ، ودفعها إلى الاطمئنان إلى وعد الله وثوابه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ .

وهكذا دلت هذه الآية على الاتئساء بأفعاله ﷺ لا في خصوص مواطن البأس والقتال كما هو سبب النزول ، وإنما في كافة أحواله ؛ وذلك لأن جميع أعماله ﷺ على نسق واحد من طاعة الله ومرضاته .

ونخصك بالهدى في كل أمر فلست تشاء إلا ما يشاء

فكانت أفعاله كلها ﷺ على سَنَنٍ واحد من الهدى والرشاد والسداد والجدية والاستقامة ؛ ولذلك احتج بها الصحابة ، أي احتج الصحابة بهذه الآية ، ولم يفرقوا بين موطن وموطن ، بل احتجوا بأفعاله في أمور دينهم ودنياهم على السواء ، والأمثلة على ذلك كثيرة من أعمال الصحابة رضي الله عنهم .

مثال على اتباع فعل النبي ﷺ :

ولا بأس أن نذكر مثالا واحدا لضيق الوقت ، وهو ما أخرجه ابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، عن حفص بن عمر ، أنه قال لعبدالله بن عمر : رأيتك ، يعني : في السفر ، لا تصلى قبل الصلاة ولا بعدها ، يعني : السنن الرواتب ، فقال له : يا ابن أخي ، لقد صحبت رسول الله ﷺ كذا وكذا فما رأيته يصلي قبل الصلاة ولا بعدها ، يعني : في السفر ، وقد قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وهكذا في قضايا كثيرة ، فكان ذلك حجة على أن الآية عامة وليست بخاصة ، خلافا لمن زعم أنها مخصوصة في مواطن الحرب والقتال ؛ لأنها سبب النزول لا لقاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» لأن الآية في الواقع غير عامة بحسب لفظها ؛ لأن ﴿أُسْوَةٌ﴾ وقعت في صيغة إثبات لا في صيغة النفي ، والنكرة إنما تعم إذا

وقعت في سياق النفي ، وإنما لأجل أن الاستعمال اللغوي والعرفي يقتضيان ذلك ؛ لأنه لا يحسن لغة ولا عرفاً أن يقال عن شخص ما : إنه أسوة حسنة بالإطلاق ، إلا إذا كان أهلاً لأن يقتدى به في جميع أحواله وأفعاله ، أما إذا كان يقتدى به في فعل دون آخر ، قيدوه بذلك الفعل ، فقالوا : هو قدوة في الحرب أو في الشجاعة أو في الكرم ، وما إلى ذلك .

وعلى ما فهمه الصحابة من الآية سار جمهور الأمة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين ، كلهم أجمعوا وأطبقوا على الاحتجاج بأفعاله واعتبارها قسماً من سنته ، واحتجوا بها كاحتجاجهم بأقواله ولا فرق ، ومن ثم لما دونوا كتب السنة والأحكام لم يميزوا أقواله عن أفعاله .

وهناك قول في المقابل ، مقابل لقول الجمهور أنه يستحب التأسي برسول الله ﷺ حتى في نفس هذه الأفعال ، قالوا لعموم الأمر بالالتساء به أولاً ، ولفعل بعض الصحابة لذلك ، ومنهم عبدالله بن عمر ، فكان شديد التحري لأنه كان يتبع آثار رسول الله ﷺ حتى في الأعمال العادية والتي لا علاقة لها بالتشريع ، فقد روي مرة سالكاً من طريق فعديل عنه وذهب إلى طريق آخر ، ف قيل له : لم عدلت؟ قال : لأني رأيت رسول الله ﷺ فعل ذلك ففعلت ، وكان يتحرى أن يجلس في نفس المكان الذي رأى رسول الله ﷺ جالساً فيه ، وإن كان جلوس رسول الله ﷺ في ذلك المكان اتفاقاً ، حتى قالت عائشة : ما كان أحد يتبع أثر رسول الله ﷺ مثل عبدالله بن عمر ، وكما روي عن أنس أيضاً قال : ما زلت أحب الدباء أي القرع ، منذ رأيت رسول الله ﷺ يتبعها من جوانب القصعة .

وعلى كل ، فهذا مقام خاص ، ومن وجد داعيه في نفسه بتأثير المحبة إلى رسول الله ﷺ كما هو شأن المحبين ، وأخبارهم في ذلك كثيرة معروفة ، فيثبته

الله على حسب قصده ونيته ، ولا اعتراض عليه ، وإنما الأعمال بالنيات ، كما أنه لا اعتراض على من لم يفعل .

وفي مقابل هذه الأعمال الغريزية أو الطبيعية ، أعماله التي أتاهم ﷺ باعتبارها رسولاً وهي الأعمال التعبدية ، وهي المقصود بالاتباع ، وهي المقصود بالقدوة ، لأنها قسم من سنته ، وقسموها باختصار إلى نوعين :

نوع أتى به رسول الله ﷺ على وجه القربة والطاعة وعلمنا حكم ذلك العمل ، وجوباً أو ندباً أو إباحة ، فتبعه في ذلك وفي صفته كذلك .

ونوع نتبعه فيه ، لكن لم نعلم حكمه هل هو على الوجوب أو الندب أو الإباحة ، هذا هو الذي اختلف فيه ، فحمله أكثر المالكية على الوجوب من باب الاحتياط ، وحمله الشافعية وغيرهم على الاستحباب ، وحمله بعضهم على الإباحة ، وقال الآخرون بالتوقف حتى يتبين دليل ذلك الحكم ليتبع فيه ، وهذا هو الراجح حسب ما يتبين من المقابلة بين الأدلة .

والراجح أنه يُتَّبَع على وجه الاستحباب لا على سبيل الوجوب ، لأن بالاستحباب يتحقق الامتثال ، وأما الوجوب فيحتاج إلى دليل ، ولا دليل عليه كما أنه يرتفع عنه الإباحة بقصد القربة والائتساء ، وأعتقد أن هذا ما يمكن أن يقال في هذا المقام .

المحاضرة الخامسة بعد المائة

الأمن والسلام في الإسلام

قال الإمام الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية وو كيع . حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

أحبتني الكرام : لئن كان إنسان عالم اليوم قد خطا بالعلم التجريبي وبالمعارف التكنولوجية خطوات عملاقة ، سخرها لخدمة أغراضه الدنيوية والجسدية ، وتحكم بها في استخراج كنوز الأرض واستغلالها واستثمارها ، فإنه لم يخط نفس الخطى بالنسبة للعلوم الإنسانية ، ولا سيما بالنسبة للنفس البشرية التي لفتنا كتاب ربنا ﷻ بأن نهتم بها وندرسها ، ونتعرف على أسرارها حينما قال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] إذ من عرف نفسه فقد عرف ربه .

بقي على هذا الإنسان أن يقف وقفة تأملية ليعيد فيها اعتبارات هذه النفس ، ويرشد خطاه في مسيرته العلمية ؛ إذ العلم عندما ينفصل عن الإيمان وعن الضمير ، فإنه يصبح نقمة بدلاً من أن يكون نعمة .
والإسلام مستودع كبير يستطيع أن يفيد الإنسانية ، ويمدها بالزاد والممدد عندما تمد أيديها إليه .

والحديث الذي أتناوله ما هو إلا واحد من مئات الدروس التربوية والتوجيهية التي ترشد الإنسان وتصوغه صياغة جديدة يستطيع بها أن

يتحمل رسالته الإنسانية فوق هذه الأرض ، تلك الرسالة التي عجزت عن حملها السموات والأرض ، وحملها هذا الإنسان ، يصوغ إنساناً يبني ولا يهدم ، يصلح ولا يفسد ، يحب ولا يبغض وسأتناول الكلام عن هذا الحديث في النقاط الآتية .

أولاً : أقف وقفة سريعة أمام سند هذا الحديث وتوثيقه ، وأمام بعض الكلمات والإشكالات الواردة فيه ، ثم أقف أمام بعض المحاور التي يشتمل عليها ، وأخيراً أشير إلى بعض القضايا التي واجهت المصطفى الكريم ﷺ وهو يقيم أمن الدولة الإسلامية الفتية .

الكلام على رواية الحديث :

سند الحديث ، وأبدؤه من راوي هذا الحديث والذي أخرجه في صحيحه الإمام مسلم .

ومسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أحد الرموز الكبيرة في الحديث النبوي الشريف ، وثاني اثنين ممن تصدروا قافلة المحدثين هو والإمام البخاري ؛ فإذا ذكر الشيخان عند علماء الحديث ، فإنه لا ينصرف إلا إلى الإمام البخاري والإمام مسلم ، وكتاباهما أصبح الكتب بعد كتاب الله ﷻ . وإذا أخرج الإمام مسلم والإمام البخاري حديثاً فإنه يكون في قمة الصحة .

إن العلماء رتبوا مراتب الحديث على سبعة مراتب أعلاها على الإطلاق : ما اتفق عليه الإمامان : البخاري ومسلم ، ولذلك يشير العراقي : «وأرفع الصحيح مرويهما» . توفي الإمام مسلم بن الحجاج سنة ٢٦١ هـ إحدى وستين ومائتين للهجرة ؛ قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة .

ابن أبي شيبة هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان .
أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي مؤلف المصنف ، وأحد الشيوخ الحفاظ
الكبار ، توفي سنة ٢٣٥هـ ؛ قال حدثنا أبو معاوية .

أبو معاوية هو : محمد بن خازم التميمي ؛ أبو معاوية الكوفي الحافظ ،
سئل يحيى بن معين عن أبي معاوية ووكيع أيهما أحب إليه في الأعمش .
لأنهما معاً راويان للأعمش وتلميذان له ، فقال : أبو معاوية أعرف
بالأعمش من غيره ، فهو رجل الأعمش ؛ توفي أبو معاوية سنة ١٩٥هـ .

وكيع : هو : وكيع بن الجراح بن مريح أبو سفيان الكوفي أحد الكبار ،
وأحد الحفاظ ، وأحد أعلام الحديث ؛ قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ما
رأيت مثله في العلم والحفظ والإتقان ، مع الورع والتقوى ؛ توفي سنة
١٩٦هـ ؛ قال : عن الأعمش .

الأعمش هو : سليمان بن مهران الكاهلي أبو محمد الكوفي ، أحد
الأعلام الكبار في الحديث ، وأحد القراء المشهورين الكبار ، توفي سنة
١٤٨هـ ؛ عن أبي صالح .

أبو صالح هو : ذكوان المدني ، روى مباشرة عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه
وعن سعد بن أبي وقاص ، وعن أمنا عائشة رضي الله عنها . وروى عنه أبناؤه
الثلاثة سهيل بن أبي صالح ، وعبد الله بن أبي صالح ، وصالح بن أبي
صالح ، كما روى عنه الأعمش أكثر من ألف حديث توفي أبو صالح سنة
١٠١هـ . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أبو هريرة هو : الصحابي الراوي عن رسول الله ﷺ ، أبو هريرة هو
عميد الحديث بين الصحابة رضوان الله عليهم ، وهو مرجعهم في حديث

رسول الله ﷺ وأحد المكثرين عن الرسول الأكرم ﷺ ، الذين رواوا أكثر من ألف حديث .

وهم : أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وعائشة الصديقة رضي الله عنها ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، هؤلاء هم السبعة الذين رواوا عن رسول الله ﷺ أكثر من ألف حديث . وقد جمعهم البعض في بيتين :

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا من الحديث عن المختار خير مضر
أبو هريرة سعد جابر أنس صديقة وابن عباس كذا ابن عمر
أبو هريرة روى عن رسول الله ﷺ خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وأربع
وسبعين حديثاً (٥٣٧٤)؛ اتفق الشيخان على إخراج ثلاثمائة وخمسة
وعشرين حديثاً (٣٢٥) منها . وانفرد الإمام البخاري بتسعة وسبعين
(٧٩) حديثاً ، وانفرد الإمام مسلم بثلاثة وتسعين حديثاً (٩٣) .

سيدنا أبو هريرة هو من الذين نوه بهم رسول الله ﷺ مع جمع من الصحابة الكرام ، لافتاً الأنظار إلى أنهم مراجع ، لفت النظر إليهم حتى يكونوا مراجع في المعارف التي ذكرها المصطفى ﷺ : «أرأف أمتي بأمتي ، أبو بكر ، وأشدّهم في الله عمر ، وأكثرهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأفرضهم زيد ، وأعلمهم بالحلّال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرؤهم أبي ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^(١) . وعند أبي هريرة علم كثير . وإذا أطلق العلم في هذا العصر فإنه لا ينصرف إلا إلى علم الحديث ، ثم ختمهم بسيدنا أبي ذر الغفاري حين قال : «وما أقلت

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١) ، وابن ماجه (١٥٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

الغبراء ، ولا أظلت الخضراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» ، توفي سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه سنة تسع وخمسين للهجرة (٥٩هـ) .

تخريج الحديث :

هذا الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» أخرجه جمع من المحدثين نذكر منهم الإمام البخاري في «الأدب المفرد» ، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» ، وأخرجه الإمام مالك في «الموطأ» ، وأخرجه أبو داود في سننه ، والترمذي في سننه ، وابن ماجه في سننه ، بصيغ تختلف بعض الشيء عن الصيغة التي اعتمدها عنواناً لهذا الموضوع .

والحديث أيضاً مروي عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم ، فلم ينفرد به سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه ، بل رواه عن رسول الله ﷺ عبد الله ابن سلام ، وقد سمعه من رسول الله ﷺ - وإن كان بصيغة زاد فيها بعض الشيء - عندما قدم المصطفى الأكرم ﷺ إلى المدينة ، فخرج عبد الله ابن سلام وكان ما يزال على يهوديته ، فخرج لرؤية الرسول ﷺ ، فلما رآه قال : فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب ، فأول ما سمعته يقول : «أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام» . ورواه بصيغ أخرى الزبير ابن العوام رضي الله عنه ، وعبد الله بن عمر ، وأبو أمامة ، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم .

شرح الألفاظ الحديث :

وننتقل إلى الوقوف أمام بعض الكلمات وبعض الإشكالات الواردة في هذا الحديث ، فأول ما نقف أمامه هو أن الحديث يجعل دخول الجنة

موقوفاً على الإيمان، والإيمان موقوف على التحابب بين المسلمين .
ومفتاح هذا التحابب ، أو هذا الحب هو : إفشاء السلام .

الصيغة التي أثبتها الإمام مسلم : « لا تدخلون الجنة » في حين أن لأصحاب السنن ، روايات أخرى كلهم أثبتوه وأوردوه بصيغة : « لا تدخلوا الجنة » بحذف النون ؛ ووجه ذلك أن النهي هنا تضمن معنى النفي ؛ كما أن النفي قد يتضمن معنى النهي ، وهذا شيء معروف عند العلماء . « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا » ولا تؤمنوا أيضاً بحذف النون ، بحذف آخره في جميع الروايات ، وفي جميع الأصول حتى عند مسلم ، وهي لغة صحيحة معروفة أيضاً عند علماء هذا الشأن .

«ولا تؤمنوا حتى تحابوا» تحابوا أصله : تتحابوا . والقاعدة أنه إذا اجتمع تاءان في أول المضارع فإنه يجوز حذف إحداهما للتخفيف ، حتى تحابوا ، «أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم» ألا هنا أداة تنبيه مركبة من همزة الاستفهام ، ومن لا النافية وهي إذا دخلت على الفعل أو على الاسم فإنها تدل على إثبات الجملة التي بعدها .

الإشكال الوارد هنا هو : وقف الإيمان على التحابب ؛ التحابب هنا يقتضي التفاعل أي المشاركة بين اثنين ، فإن كانت هذه المشاركة على بابها كما يقتضي ذلك صيغة المفاعلة ، لأنها تقتضي الحب من الجانبين ، إذا كانت هذه المشاركة على بابها ، فإن التكليف بها فيه تكليف بفعل الغيب ، وهو تكليف بما لا يطاق ، ولا يجوز ، وإن كانت هذه المفاعلة من جانب واحد أي المشاركة من الجانبين ، ولكن من جانب واحد ، فإن فيها أيضاً تكليفاً بفعل جبلي طبيعي ، هذا هو الإشكال الوارد .

وأجيب عن هذا الإشكال بأن فعل المكلف إذا كان سببه فعل الغير ، إذا كان سببه من المكلف فإنه يصح التكليف به ، والسبب هنا هو إفشاء السلام ليس الحب ، وإذا كان إفشاء السلام هو السبب ، فإنه يصح التكليف به وينصرف التكليف إلى هذا السبب ، لا إلى ما ينشأ عنه . وبذلك يزول الإشكال ويرتفع .

عندنا هنا في هذا الحديث ثلاث كلمات : الجنة ، والإيمان ، والتحاب ، مرتبطة ببعضها ؛ فدخل الجنة موقوف على الإيمان ، والإيمان متوقف على التحاب ، ومفتاح هذا التحاب هو إفشاء السلام بين الناس ، يبقى أن السلام هو الأول ، إفشاء السلام هو الأول ، لندخل إلى باب المحبة ، ونتقل من المحبة إلى الإيمان ويكون ذلك هو الجسر الذي نمر به إلى الجنة .

إفشاء السلام :

إذن نأخذ إفشاء السلام هو الأول لأنه إن أفشيتم السلام تحاببتم فآمتتم فدخلتم الجنة ، إفشاء السلام معنى إفشاء السلام أفشى الشيء يفشيه إذا أظهره وكشفه وأعلنه وشهره وإفشاء السلام معناه : إظهاره للناس جميعاً . ومعنى إفشاء السلام أن يقول كل واحد للآخر «السلام عليكم» بلفظ مرتفع ، بصوت مرتفع ، أفشوا السلام بينكم . ومعنى السلام عليكم معناه : سلمت مني من أن ألحق بك أي ضرر أو أي سوء ، لا بيدي ولا بلساني لا في ظاهري ولا في باطني لا في الغيبة ولا في الحضور ، وهذا هو السلام ، فإذا سلم كل واحد من صاحبه ، فإن المجتمع يصبح سالماً آمناً إن شاء الله .

قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمته الله : من فوائد إفشاء السلام : حصول الألفة ، فتألف الكلمة ، وتعم المصلحة ، ويقع التعاون بين الناس على

أداء شرائع وشعائر الإسلام . وهذا من الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي فهم جيد لمعنى السلام ، لأنه أعطاه بعده الأمني .

قبل أن أنتقل إلى المعنى الذي أريد أن أركز عليه في قضية إفشاء السلام ، أشير إلى أن العموم الوارد في الإفشاء يدخل فيه ما إذا دخل شخص بيت ليس فيه أحد . الله سبحانه وتعالى أمرنا بأننا إذا دخلنا إلى بيت ليس فيه أحد فلنسلم على أنفسنا : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ [النور : ٦١] .

والمفروض أن المسلم يرفع صوته بالتحية بالسلام ، إلا إذا دخل إلى مكان فيه نيام . والسنة في ذلك أن الرسول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم كان إذا جاء من الليل سلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ويسمع اليقظان ، هذا من آداب الإسلام وآداب التعامل .

ثم إذا اعتقد أو علم من يريد أن يسلم أن الشخص الذي سيسلم عليه لن يرد السلام عليه ، هل يسلم عليه أو لا يسلم عليه؟ بعض العلماء يقول : بأنه لا يسلم عليه لئلا يوقعه في المحذور والمعصية ، لأن البدء بالسلام هو سنة ، ولكن الجواب عليه هو واجب كفائي ، فإذا كان واحدًا فإنه يكون واجبًا عينيًا عليه فقالوا : لا يسلم عليه إذا تيقن بأنه لن يرد السلام عليه .

لكن هذا الفهم اعترض عليه الإمام النووي رحمه الله وقال : إن أحكام الشرع لا يمكن أن تلغى ، أو يوقف العمل بها ، بناء على هذه الاحتمالات ، ولو فعلنا ذلك لتعطل كثير من إنكار المنكرات ، ولتعطلت كثير من السنن ؛ ففي نظر الإمام النووي أن المسلم لا بد أن يسلم حتى عندما يعلم أن الذي سيسلم عليه لن يرد السلام . ثم هذا العموم الوارد في : «أفشوا السلام» مخصوص بحديث سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه .

سيدنا كعب بن مالك ومعه زميلان له من الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، ثم تاب الله عليهم ؛ فهؤلاء الرسول ﷺ أمر بمقاطعتهم وبهجرانهم . فهجروهم المسلمون فلا يسلمون عليهم لمدة طويلة ، إلى أن نزلت توبتهم . وورد ذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ [التوبة : ١١٧ ، ١١٨] .

الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية الواقفي ، ومرارة بن الربيع . فالإمام الحافظ أبو عمر ابن عبد البر يقول : إن هذا مخصوص بحديث سيدنا كعب بن مالك وبرفيقيه . لكن المقاطعة ينبغي أن تكون لفئة من الناس ؛ وهم الذين يجاهرون بالمعاصي ، ويعكفون على المعاصي ويلازمونها ؛ فهؤلاء أمر الشرع بمقاطعتهم وعدم السلام عليهم ، وعدم مكالمتهم إلى أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا ويقلعوا عما يفعلون ؛ وهذه مقاطعة مشروعة .

يبقى أن نشير إلى معنى إفشاء السلام ، إفشاء السلام فيما يراه العلماء أنه لا يقتصر فقط على هذه الصيغة من : السلام عليكم ؛ ولكن إفشاء السلام يحتاج إلى أشياء أخرى حتى يكون أداة فاعلة في خلق جو الحب والتحابب بين الناس . وصيغ الحديث الواردة في روايات أخرى ، ومنها صيغة عبدالله بن سلام رحمته الله التي تقول : «أفشوا السلام وأطعموا الطعام» .

فأن يُفَرَّغَ إفشاء السلام بإطعام الطعام في هذه الفترة التي قدم فيها رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهي فترة متميزة ، لأن معه عددًا من الصحابة

رضوان الله عليهم وهم المهاجرون الذين جاءوا من مكة ولا زالوا في المدينة هؤلاء يحتاجون إلى إسعاف ، ويحتاجون إلى ضيافة ، ويحتاجون إلى نفقة ؛ فلا بد إذن من أن يكون هناك خطاب للآخرين حتى يقوموا بواجب الضيافة ؛ والآخرين هنا هم الأنصار رضوان الله عليهم الذين استضافوا إخوانهم من المهاجرين .

والأنصار في هذا الميدان في ميدان التحية ، في ميدان إفشاء السلام ، وهذا هو المعنى الحقيقي لإفشاء السلام في هذا الموضوع ، هو : أن يكونوا على مستوى عال من السخاء والأريحية والكرم . وقد أعطى الأنصار للمسلمين ولكل الأجيال درسًا بليغًا في هذا الميدان ، استحقوا عليه ثناء الله ﷻ عليهم عندما نوه بسخائهم ، وبإيثارهم للآخرين على أنفسهم ، فهناك الإيثار وهو أن يفضل المرء غيره على نفسه ، ويقدمه على نفسه . وهناك الأثرة .

الأنصار كانوا في قمة الإيثار في قمة السخاء ، كما قلنا . فاستحقوا هذا التوسيم الرباني الكريم كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] هنا أقول : هذا نوع من إفشاء السلام ، السلام المصحوب بحركة أخرى تساعد على ترسيخ المحبة .

وهذا هو المعنى الذي يجب أن نبحث عليه في معنى إفشاء السلام . إفشاء السلام هو دعوة وخطاب للمسلمين إلى أن يحققوا ويؤسسوا ما يمكن أن نسميه بالسلام الاجتماعي ، أو السلام التكافلي في المجتمع الإسلامي .

ففي وسط فقير ، في وسط فقير يطحنه الفقر والفاقة والحاجة ، لا يكفي أن نقول لهم السلام عليكم ، ولكن ينبغي أن يكون مع هذه التحية ما يفك عن رقبتهم قبضة الفقر ، فالفقر حرب لهؤلاء الفقراء ، لهؤلاء المحتاجين ، وفك الفقر عن رقبة هؤلاء ، هذا فيه إفشاء للسلام ؛ كذلك أيضًا بالنسبة لكل فئة ، كل طبقة ، كل واحد له خطاب خاص ، وهو يفشي السلام بطريقته الخاصة ؛ في الأغنياء ، الأغنياء إفشاؤهم للسلام في المجتمع هو أن يجودوا ، هو أن يكونوا على مستوى من الأريحية وعلى مستوى من السخاء ، ومن مصلحتهم أن يفعلوا ذلك في مجتمعهم حتى يؤسسوا قاعدة للسلام .

وفي البلدان التي تثقلها البطالة لا يمكن أن يكون ذلك العبء كله على كاهل الدولة ، على كاهل القطاع العام .

بل ينبغي للقطاع الخاص أيضًا أن يساهم ، وعندما يساهم القطاع الخاص في حمل نصيب من المسؤولية يكون قد أفشى السلام لأنه حارب البطالة ، ودخل في مواجهة مع آفة تهدد المجتمع ، فهذا إفشاء للسلام .

إذن أشكال إفشاء السلام أشكال كثيرة ، وهذه هي التي تخلق الحب والتحابب بين الناس ، والسلام الذي هو سبيلنا إلى هذه المحبة ، ثم إلى الإيمان بالله ﷻ ، ثم إلى الجنة في نهاية المطاف . هذا السلام هو مستعار من الجنة ، لأن الجنة هي : ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] كما أخبر الله سبحانه وتعالى بها .

ففي بداية الإسلام وفي نهايته كله سلام ، في البداية إفشاء السلام لترسخ العلاقة بين الناس في هذا المجتمع حتى يتجاوز كل الآفات التي من شأنها أن

تخلق البلبلة ، ليمر بسلام إلى دار السلام التي لا يسمع فيها الإنسان لغوا ولا تأثيما ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] وأهل الجنة هم الذين يرحب بهم عندما يدخلون : ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [الحجر: ٤٦] إذن السلام في البداية والنهاية .

معنى التحاب:

التحاب هو من الحب ، ومادة الحب لها صيغتان : صيغة ثلاثية ، وصيغة رباعية ، فيقال : حب . وأحب . والكل وارد ، ولكن «حب» لغة قليلة ، قد أخذتها صيغة «أحب» .

ومع ذلك فإنها واردة أيضا في كلام العرب فقد قال الشاعر :

فوالله لولا ثمره ما حبيته ولا كان أدنى من عويف

وقال الآخر :

لعمرك إنني وطلاب يسر لكالمزاد محاب بعدا

وبقي من آثار حب الثلاثي محبوب ، فمحبوب اسم مفعول من «حب» الثلاثي . ولم يرد اسم الفاعل من حب ، فلم يسمع إطلاقا ، فلا يقال : حاب . أما الرباعي فإنه وارد كثيرا ، ففي القرآن الكريم : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] .

المحبة أو الحب في لسان العرب هو : إرادة الشيء مع القصد إليه ، والمحبة يمكن أن نصنفها على ثلاث مراتب : محبة عامة ، ومحبة خاصة ، ومحبة خاصة الخاصة .

أما محبة خاصة الخاصة ، فهي خاصة بحب الله تعالى ، وحب رسوله المصطفى ﷺ . وحب الله وحب رسوله معناه : طاعتها ، وامتنال أمرهما .

وفي المقابل فإن الله سبحانه وتعالى أيضًا يحب عبده . ومحبة الله لعبده هو تجاوزه عن هفواته وعن أخطائه .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] . أي لا يتجاوز عنهم ولا يغفر لهم خطاياهم .

ثم إذا أحب الله عبدًا فإنه يخصه ويميزه ويفرده بكثير من المزايا وكثير من الامتيازات ، فإذا أحب الله العبد فإن الكريم سبحانه وتعالى يدعو جبريل عليه السلام ، ويقول له : يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله قد أحب فلانًا فأحبه ، فيحبه أهل السماء .

ثم يكتب له القبول في الأرض . فذلك هو معنى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

وكذلك إذا أبغض الله عبدًا نفس الشيء ، نفس المسطرة تجري ، يبعث إلى جبريل ، ويخبر جبريل ، ويخبر جبريل أهل السماء والأرض ، ثم تكتب له البغضاء في الأرض .

لكن كيف نصل إلى حب الله تعالى؟ كيف نصل إلى حب الله تعالى؟ إن الوصول إلى حب الله تعالى يأتي عن طريق امتثال أوامره ، واتباع رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وهناك أيضًا سبيل آخر يصل به الإنسان إلى حب الله تعالى ، وهو : الإكثار من الطاعات ، والإكثار من النوافل ، وفي الحديث القدسي الشريف : «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي

مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن هو يكره الموت ، وأنا أكره مساءته ، ولا بد له منه»^(١) .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المحاضرة السادسة بعد المائة

منشأ الاختلاف ومرجع الائتلاف بين المسلمين

إن منشأ الاختلاف بين المسلمين الذي جعلته موضوعاً لهذا الدرس ، هو الظاهرة الكبرى في التاريخ الإسلامي ، بالنظر إلى كون هذا الاختلاف جاء على خلاف دعوى الإسلام الكبرى إلى الوحدة والتوحيد ، فكأن التاريخ الإسلامي قد جاء الواقع فيه على خلاف المثال ، وهذه الظاهرة لا تتعلق بتاريخ مضى وانتهى كما قد يظن ، بل هي ظاهرة مستمرة ، لأنها قائمة على تراث فكري ، ومذهبي ممتد الجذور في حاضرننا بكل سماته وسلبياته .

ذلكم أن حاضرننا الإسلامي ما يزال متأثراً لدى الغالبية بالمذهبية الكلامية والفقهية ، وبالمذاهب الخلفية الكبرى ، وليس الانقسام إلى سنة وشيعة وخوارج سوى إطار عام لتشكيل عقلي وثقافي معقد ، متعدد المشارب والنزعات .

وما زال كل تراثنا الخلفي فقهاً وكلاماً وعقائد ونظريات في الإمامة والسياسة ، يدرس في معاهدنا أو بعض معاهدنا وكرلياتنا الإسلامية من وجهة نظر أحادية الفكر أحياناً ، بمعنى أن كل مذهب يعتبر نفسه أنه صاحب الحق الذي لا يقبل الجدل .

وهكذا ما تزال كثير من المؤسسات التعليمية في عالمنا الإسلامي تنشئ أجيالاً من المسلمين على هذا التصور المذهبي أو ذاك .

فإذا أضفنا إلى عوامل التفرقة الموروثة عن تاريخنا الإسلامي ، عوامل التفرقة الأيديولوجية الوافدة علينا من الغرب مع ثقافات ، أمكننا القول بأن التفرقة والصراع الفكري المذهبي في عالمنا الإسلامي هما النتيجة

الطبيعية والحتمية للمكونات الأساسية المتواجدة في المجتمعات الإسلامية . وأكبر دليل على هذا ، هذا الواقع المطبوع بالتشردم والخلاف والصراعات وحركات التطرف ، وهو أيضاً تعدد لغات الجدل والحوار بين المسلمين تعددًا لا ينطلق من أية قواسم مشتركة ، ويستغل الفكر المناوئ للإسلام في مجتمعاتنا ، هذه الأوضاع من الانقسام والتفرق ، كما يستغلها الفكر العميل فيدعي هذا الفكر أو ذاك أن العجز عن إيجاد مجتمع متوازن ، هو عجز الإسلام نفسه ، فالإسلام نفسه في نظر هؤلاء لم يحقق الوفاق بين فئات وطبقات مجتمعاته منذ القرون الأولى ، التي انقسم فيها المسلمون إلى فرق وطوائف يضرب بعضها وجه البعض ، ويدعي هذا الفكر أيضاً أن الإسلام لا يتصور غير جماعة ملتزمة بفكر واحد ومنهج واحد ، وأن كل اجتهاد فيه أو تطور هو خروج ومروق عن الدين وعن ثوابته ، ومن ثم فليس للإسلام من موقف - في نظر هؤلاء المتطرفين - تجاه الحضارة الحديثة وأنظمتها سوى الرفض .

من أجل هذه الدعوة الهدامة والمناوئة لروح الإسلام ومنهجه في بناء المجتمع الإنساني .

فقه الحديث :

لابد أن نقف على فقه الحديث النبوي ونذكر مراميهِ البعيدة يتعين علينا أن نفهمه في سياق منطق القرآن أولاً ، نفهم الحديث في سياق منطق التاريخ ثانياً ، لأن فهم التاريخ والتفاعل معه أحد ركائز المنهج القرآني في فهم طبيعة الاجتماع البشري ، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢] .

ونص الحديث حسب الصيغة التي اخترناها من جميع رواياته، هي الصيغة التي أخرجها الحاكم الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه. ثم دعم إسناده السابق بأسانيد أخرى لكن مع زيادة في نص الحديث، نذكر منها على سبيل الخصوص:

أولاً: الإسناد المتصل بأبي عامر عبدالله بن لُحَيٍّ عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال معاوية في خطبة له، قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الكتاب تفرقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، ويخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

الإسناد الثاني: الإسناد المتصل بالصحابي الجليل عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحلون الحرام ويمرمون الحلال».

وأخرج الإمام الترمذي هذا الحديث عن طريق الصحابي عبدالله ابن عمرو بن العاص، وهو قوله ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل» إلى أن قال: «وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا

واحدة قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي»، وأخرج هذا الحديث أيضًا جامعو السنن كلهم إلا النسائي، وأخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده، وأخرجه غير هؤلاء الأئمة، كابن حبان وأبي يعلى والآجري وابن بطة، واعتمده طائفة من علماء السلف في الاستدلال به، كالإمام ابن تيمية، وعبدالقاهر البغدادي في الفرق بين الفرق، وابن كثير في تفسيره، والإمام الشاطبي في الاعتصام، لكن طائفة من العلماء استشكلت زيادة قوله ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة» وقد ضعف هذه الزيادة بعضهم، ومن هؤلاء العلامة ابن الوزير اليميني في كتابه العواصم والقواصم، وقد كان ابن حزم إمام الأندلس قبل ذلك قد قال: إن هذا الحديث لا يصح، لأنه استشكل قضية أن يكون معظم المسلمين أو فرقهم في النار، ووقف أحد علماء الحديث المحدثين، وهو الشيخ ناصر الدين الألباني وقفة طويلة عند هذا الحديث، ورد على ابن الوزير بعد عرض كل الأسانيد ومقارنتها في كتب الحديث والسنن، واستدل على ابن الوزير نفسه بما أورده في كتابه الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، إذ جاء بهذا الحديث وصححه بكامله، ومن تكلم في هذا الحديث وصححه ورفع الإشكال الوارد في معنى «كلها في النار إلا واحدة»، الشيخ صالح المقبلي اليميني في كتابه: «العلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايع».

ومما جاء فيه قوله: حديث افتراق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، حديث رواياته كثيرة يشد بعضها بعضًا، بحيث لا تبقى ريبة في حاصل معناه، ثم يضيف ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة

الناجية ألا يقع فيها أدنى اختلاف فإن ذلك كان في فضلاء الصحابة ، إنما الكلام في مخالفة تصوير صاحبها فرقة مستقلة تبتدعها .

وإذا حققت ذلك ، فهذه البدع الواقعة في أمهات المسائل ، فيها ما يترتب عليه عظام المفاسد . انتهى كلامه .

وهذا في نظرنا هو الفهم السليم للحديث ، فالحديث يذكر التفرق ولا يذكر الاختلاف ، وهذه نقطة أساسية أولى ، ثم يذكر الفرقة الناجية وهي الجماعة وهذه نقطة أساسية ثانية ، ونستطيع أن نستخلص من نتائج النقطتين بعد النظر فيهما ما يمكن ترتيبه عليهما من نتائج وأفكار .

إن الحديث النبوي كما أشرت يسير في سياق التصور القرآني نفسه ، ونكتفي هنا بإيراد الآيتين الكريمتين :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] .

الآية الثانية قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

وفي ضوء الآيتين السابقتين يكون الشق الأول من الحديث متفقاً مع مضمون هذه الآيات من حيث حتمية الاختلاف ، أما الشق الثاني من الحديث وهو الحض على الوحدة ولزوم الجماعة ، فيتفق أيضاً مع آيات قرآنية عديدة ، وأحاديث صحيحة ، منها على سبيل المثال قول الحق تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا

يَجْبِلِ اللَّهُ جَمِيعًا وَلَا تَفْرَقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴿١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِثْلِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

الحث على لزوم الجماعة:

وأما الأحاديث فكثيرة في الحض على لزوم الجماعة، والحفاظ على وحدة الصف، منها على سبيل المثال، قوله ﷺ فيما أخرجه أبو داود: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»، وقوله ﷺ فيما أخرجه الإمام مسلم: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، أو عمية يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية، فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»، فالقرآن والسنة واضحان إذن في الحض على الوحدة والتضامن ولزوم بيعة الأمير، وإدانة الخارجين على الطاعة الناكثين للعهود، تلكم هي النصوص التي تحدد المثال المنشود للأمة الإسلامية، لكن هذا المثال المنشود لم يتحقق إلا في فترة وجيزة.

تتابع الفتن:

وسرعان ما بدأت الأحداث كقطع الليل ترهق المجتمع الإسلامي في الشقاق والصراع، فمذ الفتنة الكبرى في عهد الخليفة سيدنا عثمان

ابن عفان رحمته الله ومقتله ، ومعركة الجمل ومعركة صفين ، وخروج الخوارج وثورات الشيعة بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب ، منذ ذلك الحين أخذت المذاهب الكلامية تتعدد في مناخ التعددية السياسية والفكرية ، ولكن لا على أساس التعايش والحوار وإنما على أساس التكفير والنصب وإباحة الدماء والأموال والأعراض ، ولا مجال هنا لاستعراض هذا التاريخ المشحون بالخلافات ، وحسبنا أن نشير إلى أن المذهبية أخذت منذ العصر العباسي تحالف السلطة ، أو قل : إن السلطة أصبحت تحالف المذهبية ، وكلما حالفت السلطة مذهباً رفعت السيف على أعناق خصومه ، أو رفعت السوط على أقل تقدير ، وذلكم هو عين الاستبداد ، وتحرك الفكر الإسلامي الكلامي الأصولي في اتجاه تقويم الوضع المتردي ، والرد على المخالفين وعلى الفرق الضالة ، وبيان مسائل الخلاف ، وتفنيد دعاوى أصحاب المقالات والأهواء ودعاة التطرف والتشردم ، من غير أن ينظر هؤلاء وأولئك إلى أن تلك الفرق والأهواء كانت بمثابة أحزاب للمعارضة ، ولكن الكتب التي ألفها أئمة الفكر كانت دليلاً على أن الفكر السني قاوم مقاومة الأبطال كل مد تحريفي وانتحالي وانشقاقي عن الأمة الإسلامية الوسط ممثلة في الجماعة ، فألف الإمام الأشعري كتاباً عظيمة مثل : «الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل» ، وكتاب «الإبانة عن أصول الديانة» ، وكتاب «مقالات الإسلاميين» ، وألف الإمام عبد القاهر البغدادي كتاباً قيمة ، مثل «أصول الدين» ، و«فضائح القدرية» ، و«الملل والنحل» ، و«الفرق بين الفرق» ، وألف الإمام الشهرستاني كتاباً قيمة ، مثل : «الملل والنحل» ، و«نهاية الإقدام في علم الكلام» ، وألف ابن حزم كتاباً ورسائل ، أهمها «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، وألف

ابن العربي الإشبيلي مثل : «العواصم من القواصم» ، و«الوصول إلى معرفة الأصول» ، وألف الإمام الغزالي كتباً قيمة مثل : «فضائح الباطنية» ، كما ألف الإمام الشاطبي كتابه القيم : «الاعتصام» ، كما ألف الإمام الرازي كتباً هامة ، من أهمها : «اعتقادات فرق المسلمين والمشركون» ، كما صنف الإمام ابن تيمية المصنفات والرسائل العديدة في الرد على الفرق والمذاهب الضالة بقوة جنان وطلاقة بيان .

لمحات عن كتاب العواصم من القواصم :

ونأخذ من بين هذه المصنفات واحداً على الأقل لنحلل نظرتة إلى الاختلاف والتفرق ، وهو كتاب يجمع في نظرنا بين وضوح الرؤية وعمق الفهم والالتزام بالموقف السني . وهذا الكتاب هو كتاب : «العواصم من القواصم» لأبي بكر بن العربي .

لقد لاحظ ابن العربي بادئ ذي بدء أن حتمية الخلاف والتفرق بين البشر ظاهرة قائمة على أساس طبيعي ، فهي سنة من سنن الاجتماع البشري ، ولكن البشر بحكم التوجيه الإلهي لهم عن طريق الوحي والشرائع المنزلة ، مطالبون بالتعايش والاتلاف ، فهناك سنة الاختلاف ، وهناك دعوة الله إلى الاتلاف ، ويلخص الإمام ابن العربي تفكيره في هذه العبارة الشاملة : إن الاختلاف بين البشر راجع إلى حكمة أزلية ، فإن الله خلق الخلق نوعين ، وأبدع من كل شيء زوجين اثنين ، لأن الوحدة له خالصة حقيقة وبيانا فتكون الإثنينية عليه دليلاً وبرهاناً . وقد فطر الآدمي فركب فيه الأزواج ابتلاء ليرفعه إلى عليين أو يقذفه في سجين ، ثم شرح له النجدين استدراجاً ليرد ، وشرع له الدين منهاجاً ليقارب ويسدد ،

وجعل على كل واحد من الطريقتين علماً ، ثم قال : ثم إن الله تعالى أحسن العاقبة بحكمته ، وهياً أسباب الهداية لأمته ، إن أشقت عليهم القواصم ألاح لهم سفن العواصم ، فالقواصم عند ابن العربي هي أزمات التطرف ، والخلاف ودواعي الصراع والمنابذة بالعداء ، التي حلت بالساحة الإسلامية منذ عصورها الأولى ، والعواصم هي المواقف المضادة ، هي المواقف التي تصدت لتيار التفرق ، فطوقت حزبه وهزمت جنده ، وعلى هذا الأساس ألف ابن العربي كتابه : «العواصم من القواصم» فجمع فيه بين التحليل السياسي والمذهبي والعقائدي .

وخلاصة ما يستفاد من تحليل ابن العربي لمنشأ الاختلاف بين المسلمين في العصور الأولى ، ابتداء من العهد الراشدي إلى ما تلاه من القرون الأربعة الأولى ، أن هناك أسباباً خارجية دهمت الأمة الإسلامية من خارج جماعتها وثقافتها ، فأثرت في المسلمين بحكم التمازج الحضاري والثقافي والاجتماعي بينهم وبين الأمم التي كانت لها من قبل عقائدها وحضاراتها وفلسفاتها ، فتسرب إلى المجتمع الإسلامي ولو في حدود ضيقة نزعات فلسفية تشكيكية ، ونزعات حلولية غنوصية باطنية ، ظهر تأثيرها في كثير من الفرق الكلامية ولاسيما في نطاق التشيع والتصوف الإشراقي والحلوي ، ولدى جماعات من المتفلسفة كإخوان الصفاء ومن ذهب مذهبهم .

وهناك أسباب داخلية نشأت من ذات المجتمع الإسلامي ، تمثلت أساساً في العصبية القبلية والأسرية التي تجاذبت الرهانات على السلطة والخلافة والاستئثار بالحكم ، وخلق معارضة متمردة ، كما تمثلت تلك الأسباب الذاتية فيما نشأ داخل الفكر الكلامي الذي انتصب للدفاع في البداية عن العقيدة الإسلامية حين عجز هذا الفكر عن التوفيق بين النص وبين العقل

لدى طوائف من المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، ثم أصبح الخلاف بين أصحاب النص وأصحاب الرأي أو أصحاب العقل لاجحة ماضية في طريقها ، فطائفة من المحدثين والفقهاء وقفوا مع النصوص ، وغلا بعضهم في الأخذ بالظاهر حتى سموا حشوية وظاهرية أنكروا أن يكون للعقل حق النظر والتأويل والاجتهاد ، ولو أدنى بهم ذلك إلى التجسيم والتشبيه للذات الإلهية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وطائفة قامت برد الفعل ، وبالغت في أعمال الرأي وتحكيم العقل ، وقالت بالتحسين والتقبيح العقليين ، وأنكرت الصفات بالمرّة ، وقامت على التعطيل ، واستعرت الحرب بين الطائفتين كما يحدثنا عن ذلك علماء السنة الذين حللوا وشرحوا تلك المواقف كابن قتيبة وابن تيمية وابن العربي ، وقامت على أساس الخلاف السياسي بين الشيعة والخوارج ، والمرجئة ، وأهل السنة والجماعة مواقف اعتقادية ، لأن كل مذهب سياسي منها كان لرأيه في الخلافة وشروطها وسلوك الحاكمين تجاه المحكومين ، وكان لابد لكل فريق من أن يقيم نظريته على أساس اعتقادي ، فوقع الخلاف حول مرتكبي الكبيرة ، وحول اقتران الإيمان بالعمل ، وحول المسؤولية والجزاء ، وحول العدل الإلهي ، وحول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحول تدوين النصوص القرآنية المتجهة في هذا المذهب أو ذاك ، ونشأت داخل كل فرقة كبرى فرق صغرى ، تسمت أحياناً باسم إمامها ، مما لا مجال لتعداده والوقوف عليه لأن كتب الفرق والملل والنحل قد بسطت الموضوع وحللت موقف كل فرقة بمذاهبها ، وقد تجاوزت هذه الفرق كلها السبعين فرقة .

لكن علينا أن نميز هنا بين أمرين لا سبيل إلى الخلط بينهما ، فهناك التفرق في الدين على أساس الاختلاف في التصور لعقائده ووكلياته وأصوله ، كما هو

حاصل في المذاهب الكلامية ، والاعتقادية والسياسية ، كالاختلاف بين أهل السنة وبين الشيعة في عدد من الأصول ، أو كالاختلاف بين الخوارج وبين من عداهم في عدد من الأصول والكلية ، أو كالاختلاف بين المعتزلة والقدرية من ناحية ، وبين أهل السنة وجماعاتهم من أشاعرة وماتريدية من ناحية أخرى ، وهناك الاختلاف في المسائل الفروعية العملية وهو الاختلاف في استنباط الأحكام من أدلتها ، والترجيح بين الأدلة عند التعارض ، والقول بالاستحسان أو القياس وعدمه ، وهذا الاختلاف هو الذي أدى إلى نشوء المذاهب الفقهية ، والحديث النبوي الشريف يستعمل التفرق ولا يستعمل لفظ الاختلاف .

ولفظ التفرق هو الذي استعمله القرآن في سياق الذم والإدانة في كل آياته . وعندما استعمل القرآن بالمقابل لفظ الاختلاف اعتبره ظاهرة حتمية ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ^(١٣٨) **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** ، فكل تفرق هو اختلاف ، ولكن ليس كل اختلاف تفرقاً ، لذلك يتعين أن نميز في تاريخنا الإسلامي بين هذين الأمرين : التفرق في الدين على مذاهب يكفر بعضها بعضاً ، والاختلاف في التشريع على مذاهب فقهية ، لكل منها منهج يعتمده في استنباط الأحكام مع اتفاقها كلها على أولوية النص القرآني ، وأولوية النص الحديثي بلا خلاف بينها جميعاً حول هذين الأصلين .

قال الإمام البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» : وقد علم كل ذي عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي ﷺ لم يرد بالفرق أو بالفرق المذمومة التي هي من أهل النار فرق الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه

من فروع الحلال والحرام على قولين :

القول الأول : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه ، وعلى هذا الرأي تكون جميع المذاهب الفقهية على صواب فيما اجتهدت فيه وتحرت فيه مقاصد الشريعة .

القول الثاني : قول من يرى أنه كل فرع ينبغي تصويب أحد المختلفين وتخطئة الباقي من غير تضليل منه للمخطئ فيه .

ونستخلص مما تقدم أن هناك فرقاً واضحاً بين التفرق في الدين وبين الاختلاف في الأحكام التشريعية والآراء الاجتهادية المتعلقة بالحياة العملية ، فالتفرق الأول متعلق بالأصول الاعتقادية والمبادئ الكلية ، والثاني متعلق بالفروع والأحكام الفقهية ، والحديث النبوي إنما ذم التفرق الذي يؤدي إلى الخروج عن الجماعة ، لأنه يصبح معارضة في الأصول تقوم على المنابذة للجماعة لغيرها ثم تنشق عنها وتدعو إلى سلطة جديدة ، وربما اعتبر الرسول ﷺ الخروج من الخارجين ضرباً من الكفر ، فقال فيما رواه ابن عباس قال النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » أي كفاراً بما أحل الله ، أو كفاراً بما حرم الله ، كما شرح ذلك الإمام ابن العربي في عارضة الأحوذى .

الاختلاف في الفروع :

أما الاختلاف في الفروع فقد عده علماء السلف من باب الرحمة بهذه الأمة ، ودليل ذلك ما رواه الإمام الشاطبي عن القاسم بن محمد ، وهو أحد سادات التابعين ومن فقهاء المدينة وهو قوله لقد أعجبني قول عمر ابن عبدالعزيز : « ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يختلفون ، لأنه

لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق» ، ويفسر الإمام الشاطبي ذلك بكون أصحاب رسول الله ﷺ هم الذين فتحوا باب الاجتهاد وباب الاختلاف في الاجتهاد ، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون بعدهم في ضيق ، لأن مجالات النظر لا تتفق عادة ، فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على نظرهم مكلفين باتباع خلافه ، وهذا نوع من التكليف بما لا يطاق ، فوسع الله على هذه الأمة بوجود الخلاف الفروعى فيها .

وإذا كانت دواعي الاختلاف الفقهي أو التشريعي بين المذاهب الفقهية من مالكية وشافعية وأحناف وحنابلة معروفة ومبسوطة في كتب العلماء كمقدمة ابن خلدون وإعلام الموقعين لابن القيم ، فإن بنا حاجة إلى معرفة دواعي الاختلاف في الأصول ، المؤدى إلى التفرق في الدين .

إن الخوض في تحليل تلك الدواعي والأسباب يتطلب تحليل تاريخ أمة بكامله ، بكل محركاته الاجتماعية والسياسية ، وما دام ذلك غير ممكن ، فلنقتصر على الإمام بعاملين رئيسيين في نظرنا ، هما خلاصة ذلك التاريخ المعقد الشائك .

العامل السياسي :

العامل الأول : من عوامل التفرق والاختلاف في الدين ، هو العامل السياسى المصلحي الذى فرق المسلمين الأوائل إلى شيعة وخوارج وعثمانية ومرجئة بعد الفتنة الكبرى كما هو معلوم ، فوقع تفسيق وتكفير كل من هذه الطوائف للآخرين ، إلا المرجئة التى قبلت إسلام الفريقين المتحاربين في معركة الجمل وصفين ، وأرجئوا الحكم عليهما إلى يوم القيامة ، ثم نشأ التنظير الفكرى والعقدي لتلك المواقف السياسية ، فنشأ علم الكلام حول مشكلة علاقة الإيمان

بالعمل ، ومشكلة الجبر والاختيار ، والعدل والتوحيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لأن الأئمة والعلماء الذين تكلموا في هذه القضايا انطلقوا من الخلاف بين الصحابة ، وأرادوا أن يحملوا طائفة من الصحابة على مسؤولية ما وقع ، بينما ذهبت طائفة أخرى إلى عدم السير في نفس هذا الاتجاه .

العامل العقلي :

العامل الثاني : من عوامل الخلاف كان عاملاً عقلياً معرفياً نشأ من صميم الرغبة في الدفاع عن العقائد الإسلامية الأساسية في التوحيد أول الأمر ، لكن هذا الدفاع اقتضى استعمال المنطق ، واقتضى الاستماع إلى صوت الفلسفة والتأثر بها ، فظهر تأثير المنطق والفلسفة في علم الكلام ، واقتضى ذلك استعمال العقل ، ثم اقتضى استعمال العقل تحكيمه في النص ، وهكذا دواليك ، ومن المعلوم أن كل أصول الإسلام الاعتقادية منصوص عليها في القرآن ، لكن القرآن استعمل في أسلوبه في النص على تلك العقائد طرائق العرب في أساليبها في استعمال الحقيقة والمجاز والاشتراك اللفظي ، وغيره من أساليب العرب ، وكان من بين آياته من أجل ذلك ، المحكم والمتشابه .

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] .

وحول التأويل تعددت الفرق والمذاهب ، وأصبح النص القرآني لدى

بعض الفرق الضالة مجردًا من محتواه ، محمولًا على أنه مجرد رموز ظاهرة دالة على حقائق باطنية ، كما ادعت ذلك فرق الشيعة ، وأصبح كل فريق يكيف تلك المضامين لهواه ، ولعب الجهل باللغة العربية لدى الأعاجم وبتراث اللغة الأدبي وبآليات اللغة وضوابطها في النحو والبلاغة ، ولعب الجهل في ذلك الدور الأساسي في التخبط أحيانًا على غير هدى .

وعندما تعددت نزعات المفكرين والعلماء في التأويل للآيات القرآنية ، ظهرت موجة كبيرة حملت الناس على الخوض في علم التأويل ، فاضطر العلماء الأئمة إلى التأليف في قوانين التأويل ، وهكذا ألفت كتب متعددة ابتداءً من القرن الرابع إلى القرن السابع في قانون التأويل ، نذكر من بينها قوانين التأويل للإمام الغزالي ، والإمام ابن تيمية ، وابن العربي ، وابن رشد ، والفخر الرازي ، والقاضي عبد الجبار ، كلهم تكلموا على قوانين التأويل ، وكلهم حاولوا أن يضعوا أسسًا لفهم القرآن ، وتميزت الأنظار في هذا الموضوع بين الفلاسفة والمتكلمين ، فتعددت العقائد والنزعات ، وظهرت التفاسير القرآنية التي تسير إما في الاتجاه الشيعي أو في الاتجاه السني أو الاتجاه الكلامي .

والتقى العامل السياسي بالعامل العقلي في هذا المجال ، فتحالف الاستبداد في بعض الظروف في تاريخنا الإسلامي مع المذهبية على المخالفين ، فاتجهت المعارضة التي لم يكن منها بد إلى الجمعيات السرية وتأسيس الجمعيات المتضاربة .

الفرقة الناجية :

بعد ذلك نعود إلى الحديث النبوي الذي انطلقنا منه ، فنجده يضع في

مقابل التفرق الجماعة التي هي الفرقة الناجية ، فنفهم من الجماعة في السياق أنها هي الكثرة ، لأنها أصل وأنها هي المرجع ، لأنها مرجع الاختلاف ، وأنها تمثل الشرعية القائمة ، ومعنى ذلك أن الفرق الاثنتين والسبعين كلها مجرد فرق منشقة ، وأن العدد هنا ليس دليلاً على الكثرة ، وإنما هو دليل على التشعب والاختلاف ، وربما كان المتشعبون أقلية ، فالمعتزلة مثلاً تفرقوا إلى أكثر من عشرين فرقة ، والشيعة كذلك ، لأن الاختلاف لا ينحصر ولا يزال ينقسم ، وأن الجماعة تمثل الاعتدال وتمثل الوسطية ، وهذا ما لم يتنبه له القدماء الذين استشكلوا الحديث ، واستفظعوا كون الأكثرية الكاثرة من الفرق ستكون كلها في النار ، مع أن الواقع بخلاف ذلك ، هو أن أهل السنة والجماعة كانوا أكثر بكثير كما ينص على ذلك الإمام ابن حزم .

لكن ما معنى الجماعة؟ للعلماء تصور في هذا المفهوم كما ذكر الإمام الشاطبي أربعة أقوال :

أولها : أن الجماعة هم السواد الأعظم من أهل الإسلام بمذهبهم وإمامهم .

ثانيها : أن الجماعة هم الصحابة على الخصوص .

ثالثها : أن الجماعة هم العلماء المجتهدون .

رابعها : أن الجماعة هم مطلق جماعة المسلمين حيثما كانوا حينما يجتمعون على أمير من الأمراء ، وهذه الأقوال تتردد في اتجاهين كما نرى في التحليل .

اتجاه سياسي يرى أن الجماعة هي كل جماعة إسلامية ذات كيان سياسي ، لها أمير انعقدت له البيعة ، وقام بالأمر بمقتضى تلك البيعة ، أو جرى له الانقياد من جماعته على تنفيذ شريعة الله والقيام بحماية الأرض .

اتجاه ثان اتجاه فقهي يرى أن الجماعة هي التي لها حق القدوة والاتباع

للسحابة والسلف والمجهدين من أئمة المسلمين ، والاتجاه الأول أقوى وأغلب ، لأنه يتطابق مع استمرار الأمة الإسلامية ويتطابق مع حقائق التاريخ الإسلامي الذي مثل لنا استمرار الجماعات الإسلامية في كل زمان ومكان .

لكن علينا أن ندرك أن الجماعة في التصور السياسي الإسلامي هي ضرورة ملّية أي دينية ، لأن النظام السياسي هو الكفيل وحده بحماية الدين ، وإنفاذ شريعته ، والدفاع عن أهله ، وما لا يتم حفظ الدين إلا به فيعتبر داخلًا في حدوده .

ونورد في هذا السياق رأيًا للإمام الماوردي فيما يتعلق بضرورة قيام الدولة والجماعة .

يرى الإمام الماوردي أن العلاقة بين الفرد والجماعة علاقة حيوية ، لأنه لا يتصور صلاح الفرد وانتظام حياته بغير وجوده داخل جماعة وصلاحية تلك الجماعة ، ولكي تكون هناك جماعة توفر لأفرادها صلاح أحوالهم لابد أن تكون صالحة في حد ذاتها .

وهكذا ينتهي الماوردي بعد تحليله إلى أن قيام الجماعة كدولة في أي زمان هو أمر واجب ، ولا بد منه لصلاح أمر الدين .

قيام الجماعة ذات البعد السياسي والاقتصادي ، هو الدولة في مفهومنا اليوم ، والمعبر عنه في الفقه السياسي الإسلامي بوجوب الخلافة ، لأن الخلافة هي المنصب الذي يرمز إلى حمل الكافة على مقتضى الشرع في تحقيق مصالح الناس في العاجل والآجل ، وهي خلافة عن النبي ﷺ في حراسة

الدين وسياسة الدنيا كما يقول ابن خلدون .

لكن هل يعني وجود الجماعة قيامها على إخضاع كل الأفراد لفكر واحد ومذهب واحد؟ الواقع أنه لا التاريخ ولا المنطق العقلي يقبل ذلك .

لقد ذهب بعض المفكرين المعاصرين إلى التشكيك في صحة الحديث النبوي الآنف الذكر ، الذي انطلقنا منه ، لأنهم فهموا منه أنه يقتضي معنى الحكومة الدينية التي تمارس سلطاتها باسم التفويض الإلهي ، وترفض التعددية في الفكر السياسي ، وترفض الاختلاف من حيث المبدأ .

ومن ثم فإنه في نظرهم حديث يحتج به كل حكم إسلامي مطلق حين يدعي أنه يمثل الجماعة وحده ، وأن الخروج عنه أو معارضته بمثابة الخروج عن الدين ، هذا التصور يقوم على استنتاج خاطئ من نص الحديث ، لأن الحديث يذم التفرق في الدين ، ولكنه يتوقع الاختلاف ويتوقع التفرق حول الأصول الكلية ، كما وقع لليهود والنصارى ، ولكنه يتوقع الاختلاف إلا أنه لا يذمه ، إن الاختلاف هو أساس الاجتهاد في تطبيق الأصلح والأنفع لخير الجماعة الإسلامية نفسها ، والدليل على ذلك أن الإسلام فرض في سياسة الجماعة أي جماعة إسلامية شرطين ملزمين .

الشورى:

أولهما : يلزم الحاكم بالشورى ، وثانيهما : يلزم المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى يخاطب نبيه الأعظم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي

الْأَمْرَ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

إذن، الشورى أساس في الإسلام، هذا يعني بلغة عصرنا ضرورة إفساح المجال للتعددية السياسية داخل الأمة والجماعة، ويعني قيام جماعة على احترام الحريات العامة واحترام الرأي الآخر ما لم يعارض أصلاً في الأصول الكلية للدين .

ولهذا فالإسلام يحض على لزوم الجماعة كما في هذا الحديث وغيره من الأحاديث المتواردة في هذا المعنى، إذ علينا أن نأخذ بمفهوم الجماعة في تصوره الشامل، ولذلك يضع الإسلام أساس نظام الجماعة في الإسلام على أساس المحافظة على ما للأفراد من حريات في الاختلاف والاجتهاد، والحفاظ على ما للجماعة من ضرورة الوحدة والقوة، كافلاً لهؤلاء وأولئك نظام التعايش والحوار المتمثلين في نطاق الشورى، وإمكان المعارضة فيما يبدو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هنا مرجع الائتلاف وهو الانتظام في الجماعة، أو في المجتمع القائم على حفظ الدين وتطبيق شريعته، وتحقيق مقاصده في حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات .

إننا عندما نستطيع أن نميز في التراث الإسلامي بين النافع والضار، والثابت والمتغير، والموضوعي والذاتي، فإننا سنميز حينئذ بين الأصول الثابتة التي تقبل التفرق وبين الفروع التي لا يمكن أن يتم بها الاجتهاد، وهذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه الأمة الإسلامية، ولن نرفع هذا التحدي إلا بمنافسة الأمم المتمدنة والقوية في إقرار الأنظمة الديمقراطية، الكفيلة بتحقيق إسهام المسلمين في بناء مجتمعاتهم في ضوء العدالة

الاجتماعية في الإسلام ، وفي تنهيج المناهج التربوية الكفيلة ببناء الإنسان المسلم ودعم شخصيته واستثمار طاقاته ، وفصل الخطاب هو قول الله تبارك وتعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] صدق الله العظيم .

المحاضرة السابعة بعد المائة

الاعتصام بالدين

المسلمون يعيشون حالة من الانقسام تهدد وجودهم ومقدساتهم ، وهي حالة تستدعي المواجهة العميقة والحاسمة ، وليس هناك مواجهة أكثر حسماً من الاعتصام بالدين باعتباره منهجاً للحياة الكريمة .

إن الاعتصام حسب معناه اللغوي هو الامتناع أو التمسك بشيء يتحقق به ذلك الامتناع ، وهو مشتق من العصم أو من العصمة ، فالعصم هو الإمساك والعصمة هي الحفظ مما ينافي الفضيلة والسلامة والإصابة والسداد ، فكأنها بمثابة تمسك بهذه الفضائل وامتناع عما ينافيها ، فالاعتصام هو التعلق بالسبب الذي يقينا من الوقوع فيما نكره ، ويحقق لنا الوضع الذي نرتضيه .

معنى الاعتصام :

إلا أن الاعتصام الذي يبدو لنا هكذا بسيطاً في حدود معناه اللغوي ، يبدو من الناحية العملية حالة نفسية معقدة ، ذلك أنه لا يمكن أن يتم الاعتصام في مجال النفس إلا بمقدمات ضاربة الجذور في الفكر والوجدان لدى الإنسان ، وذلك لأن الاعتصام هو تشبث بأسباب تمكننا من تحقيق وضع ونفي نقيضه ، فهو إذن اختيار بين حالتين مختلفتين ، حالة نرضاها ، وحالة نأبأها ، وينطوي في نفس الوقت على إدراك واضح لحقيقة السبب المعتصم به ، وكونه سبباً حقيقياً للنجاة مما نتوقاه أو نخشاه ، وهكذا يستوجب الاعتصام حصول العلم بما نعتصم به ، ولا نعتصم بشيء إلا على أساس الاختيار بين أحوال متناقضة يجب أن ندرك ما يترتب على كل

منها من واقع وتبعات ونتائج ، ثم ننتقل من العلم بتلك الأحوال إلى الاختيار ، ومن الاختيار إلى الالتزام بسلوك يتطابق مع ما أثبتته العلم ووقع عليه الاختيار ، وكل اختيار لابد أن تهوي إليه عقيدة -أي يقين- يكون ما نعتصم به هو أفضل الأسباب لتحقيق ما نتوخاه .

لكن قد يكون اختيارنا -ولاسيما فيما يتصل بمنهج الحياة التي نحياها- اختياراً مبنياً على ضلال ، وقد يكون مبنياً على علم ، وقد يكون مبنياً على تقليد ، وفي كل الأحوال يجب أن ننطلق في هذا الاختيار من قصد معين ، قصد واضح نضعه نصب أعيننا ، ونحن لا نريد أن نثير في هذا المقام الذي لا يتسع للإفاضة قضية الغاية التي يجب أن تستهدفها حياتنا ، أو الغاية التي يجب أن يحددها الإنسان لحياته ، وحسبنا أن نقول بإيجاز يشمل كل أهداف الأسوياء من الناس : إن الغاية القصوى للإنسان هي أن يحقق سعادة نفسه في الحال ، وأن يضمن حسن مصيره في المآل ، وهكذا يضطر كل إنسان إلى اختيار الأسباب التي تقوده إلى هذه الغاية ، وتجنبه التعثر والفشل في طريقه إليها .

كل إنسان أمام ثلاثة اختيارات من حيث تحقيق هذه الغاية :

- فهو إما أن يستنبط المنهج الذي يقوده إلى هذه الغاية استنباطاً شخصياً ، يتحرى فيه الحقيقة بنفسه ، فيقوم بدراسة الحياة الإنسانية عبر تاريخها الطويل ، في جهادها نحو غاياتها ، وطبيعة هذه الغايات وما كتبه المفكرون فيها وفي فلسفاتهما ، ثم يقوم بدراسة النفس الإنسانية ليعرف ما يلائمها وما لا يلائمها من المناهج التي تحقق لها السعادة في الحالتين ، وهو هنا أمام دراسة العقائد والأديان والتواريخ والحضارات والتراث الإنساني كله ، وهذا مطلب عسير ، لا تنهض به أعمار مجتمعة ، فكيف بعمر شخص محدود ، ويغلب

الاعتقاد على أنه ليس هناك من يستطيع تحقيق هذا المطلب قبل أن يخوض غمار الحياة في ضوء منهج شخصي .

- وإما أن الإنسان أمام عجزه عن تحقيق ذلك يقلد مناهج الآخرين الذين وقعوا فيها بالتقليد لهم أيضًا ، فيضطر المرء إلى حكاية مذاهب وآراء ومذاهب يتكيف معها ويدين بها من غير تمحيص ، وهذا معظم ما يقع لغالبية الناس ، غير أنه من الاستخفاف بوجودنا الإنساني المحدود ومن الاستهانة بكرامتنا الشخصية أن نضع حياتنا موضع التبعية لغيرنا والتقليد لسوانا من غير علم ولا تمحيص ، وقد نعى الله سبحانه على الذين أبوا الهداية وانساقوا في عهد الدعوة الإسلامية فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا ءَابَاؤَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

- أما الاختيار الثالث ، فهو ترك الاختيار ، وذلك بالارتقاء في أحضان الهوى واتباع كل شيطان يلوح باتباع الشهوة والمنفعة القريبة والغرض الوضيع ، وهذا ما لا يليق بالكرامة الإنسانية ويتنافى مع المثل العليا التي يؤمن بها الإنسان بفطرته ، وقد نهى الله سبحانه أيضًا نهيًا قاطعًا عن هذا السبيل ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَطِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] .

وإذا كان المنهج السليم القويم هو المنهج القائم على العلم المحيط بمعاني حياة الإنسانية وأسرارها ، دوافعها وقوانينها ، حاضرها ومآلها ، وكان هذا العلم متعذرًا على الإنسان من كل وجه واعتبار ، وكان كل ما يحصل الإنسان من علم في هذا المجال إن هو إلا خبرة نسبية محددة ، فإن الله تبارك وتعالى خالق الإنسان ومدبر حياته قد مدّ إليه سببًا يهديه به إلى سواء

السبيل ، فالمنهج الإلهي هو الشرائع المنزلة والمعارف المضيئة من مشكاة النبوة وقوة هذا المنهج الإلهي وصلاحه موفوران بحكم أن مصدره ومصدر الإنسان واحد ، ألا وهو الله العليم الخبير ، فهو الذي وضع المنهج الذي يلائم خلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك : ١٤] .

العلم ودم التقليد :

إن مزية الإسلام الأولى هي أنه يلح علينا أن نقيم اختيارنا وعقائنا على علم ، وينهانا عن التقليد ، كما سلفت الإشارة ، فيقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

إذن فحين يطالبنا الله سبحانه بالاعتصام بدينه فهو يدعونا في نفس الوقت إلى العلم بدينه ، وذلك ليجعل عقيدتنا راسخة ، ويجعل اختيارنا ماضيًا ، ويجعل سلوكنا التزاميًا ، وعندما نحاول أن نطبق هذا المنهج على الموضوع المعروض علينا وهو أمر الله أن نعتصم بحبله أي بكتابه المبين فسنكون مطالبين لا محالة بأن ندرك حقيقة الاعتصام ، وحقيقة المعتصم به إدراكًا مبنيًا على علم ، بمعنى أنه يجب أن يتوافر لدينا العلم بكون ما ندعي الاعتصام به - وهو كتاب الله تعالى - هو وحده السبب المنجي من الهلاك ومن الضلال ومن الفتنة ومن الانحلال ، فعندما يأمرنا الله سبحانه بقوله : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، علينا أن ندرك ما مصدر هذا الحبل وما معنى كونه حبلًا موصلًا للغاية ، وأية غاية ننشدها ، وما هو الهلاك المتوقع أو المحتوم لمن لا يعتصم بحبل الله الممدود؟ هذه تساؤلات ينبغي أن يجيب عنها كل مسلم ؛ لأنه لن يكون مسلمًا إلا على أساس قاعدة من العلم والهدى والتمييز ، وإن انعدام التصور أو العلم بهذه الحقائق العليا هو الذي يجعل كثيرًا من المسلمين اليوم فاقدين لذلك النور

الباطني الذي يؤجج فيهم الإيمان بالله ، وهو الذي يفسر لنا أننا نتلو على مدى الأيام هذه الآية الكريمة ، فلا نستجيب لها تلك الاستجابة غير المشروطة .

إن من ثوابت النفس وطبيعة العقل أنه متى لاحت له الحقيقة وغمره نورها فإنه ينقاد إليها بغير مقاومة ، ولا يخضع لأيّ عائق ، وقد ضرب الله سبحانه لذلك مثلاً منتزعا من صميم الواقع .

فهؤلاء السحرة ، سحرة فرعون ، عندما عاينوا معجزة موسى عليه السلام ، وبان لهم أنها شيء غير السحر الذي يعرفون ، وأنها حقيقة النبوة وحقيقة الألوهية خروا سجداً لله قبل أن يلتفتوا إلى فرعون ، فقال تعالى حاكياً ذلك : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلُ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [طه : ٧٠ ، ٧١] .

فماذا قال السحرة؟ قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَاسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ [طه : ٧٢] . هكذا يكون الاعتصام بالله مبيتاً على الحقيقة ، مسبوقاً بعلم ، أي بعلم يقيني يجعل الإنسان يختار ما يعتصم به منهجاً له من غير تردد ومن غير التواء ، ولا إبطاء ، ولا خشية سلطة جائرة .

هذا هو المنهج الذي يتطلبه فكرنا اليوم ، فهو منهج حكمي لا خطابي والإقناع فيه قائم على الحجة التي عودنا أسلافنا من العلماء الأئمة انتهاجها في إقناع المسلمين بدينهم ، إلا إذا كان الخطاب يتعلق بفئة لا تقوى على هذا الأسلوب ، فحينئذ يتعين اتباع الترتيب الشرعي في مخاطبة كل فئة بقدر

مستواهم ، وذلك ما يحدده قوله سبحانه : ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمِ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

الاعتصام في القرآن :

لقد ورد الاعتصام المطلوب منا نحن المسلمين بالله ، وبكتابه وبدينه في
سياقين من سورة آل عمران ، على هذا النحو ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن
تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٦٠﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم
بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١] .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ
﴿١٦١﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣] .

وهكذا جاء الاعتصام في صيغتين :

أولاهما : (من يعتصم بالله) .

وثانيهما : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ وقد قدرت - والله أعلم - أن هناك
فارقاً بين الداليتين ، فهناك الاعتصام بالله ، وهو العقيدة مباشرة ، ومعناه
هنا تحرك الباطن ، للتعليق بالله وحده ، في عبودية مطلقة واستجابة كاملة ،
وهذا هو تأويل ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ ﴾ . ومما يؤيد هذا التأويل ما نقله
الطبري عن ابن جريج ، وهو تفسيره بأن الإيثار بالله في قوله سبحانه :
﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ ﴾ بأنه الإيثار بالله .

أما الصيغة الثانية ، وهي الاعتصام بحبل الله فهي تعني انتهاج منهج ،
أي أن هناك حبلاً ممدوداً نتمسك به جميعاً ، فالاعتصام بحبل الله هو حركة
مكملة لحركة الباطن ، إنه المنهج الذي يطبق العقيدة ؛ لأن الاعتصام

بحبل الله - وحبل الله هو القرآن - كما سنرى مطالبة صريحة بالسلوك وفق الشريعة والالتزام بالقرآن ، والتقييد بأحكامه ، وهذه حركة شاملة من القلب والجوارح ، بين الفرد والجماعة ، بين الحاكمين والمحكومين .

العقيدة والمنهج :

لذلك اشتمل الدين الإسلامي ككل دين سماوي سابق على عنصرين متكاملين : العقيدة والمنهج ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨] إلا أن العقيدة والمنهج في الإسلام بلغا من الكمال بمقدار ما أراد الله لدينه من الكمال والاستمرار والعموم ، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

والخلاصة أن الاعتصام بالدين هو حركة متكاملة بين الباطن والظاهر ، بين العقيدة والسلوك ، بين القلب والعقل ، بين الفرد والجماعة ، وإذن فلهذا الاعتصام بعدان أساسيان متمايزان ، وإن كانا متكاملين .

البعد الأول : روحي وعقلي مصدره العقيدة ، ومصدره التفكير بالمنهج الإسلامي .

والبعد الثاني : بعد سياسي واجتماعي ، ولا يبلغ كماله إلا في تحقيق الأمة الإسلامية .

منهج الاعتصام بالدين :

إن منهج الاعتصام بالدين كما لخصته هو حركة تستهدف إنشاء أمة وإنشاء ثقافة ، ليجد الإنسان المسلم في ظل الحضارة والثقافة والدولة الإسلامية المجال الحيوي الذي يتحرك فيه .

وهذا المنهج المتكامل من العقيدة والسلوك والثقافة والمجتمع يلزمنا بأن نعود إلى التاريخ الإسلامي لتأمل حقيقة ذلك الاعتصام بالإسلام، وكيف أنشأ تلك الأمة، وأنشأ مع الأمة ثقافتها وحضارتها، وإذن فيجب أن نقرأ هذا الأمر الإلهي: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يجب أن نقرأ هذا الأمر الإلهي من خلال سياقه التاريخي وفي هذا السياق ما هو خاص وما هو عام، فالسياق التاريخي الخاص هو عصر النبوة، عصر سيدنا محمد ﷺ عصر إنشاء الأمة الإسلامية حين واجه المجتمع الإسلامي الأول بقيادة الرسول الأعظم ضرورة إقامة مجتمع إسلامي، مجتمع المدينة المنورة، هذا المجتمع الذي كان نواة الدولة الإسلامية، وركيزة الأمة الإسلامية، وقد كانت دوافع إنشاء هذه الأمة من غير شك قائمة على أبعاد شخصية الأمة الوسط في هيكلها السياسي والاجتماعي والحضاري، فالإسلام ليس عقيدة وحسب، ولكنه نظام يجب أن يقيم شريعة الله في الأرض، فأسباب قيام هذه الأمة هي أسباب فوق التاريخ (ميتاريخية) كما أريد أن أصطلح عليها، فهي لم تأت نتيجة تحرك اقتصادي أو تجمع قومي أو دوافع اجتماعية معينة، بحيث يقال إنها نشأت من أسباب وستزول بأسباب، وإنما نشأت هذه الأمة من خارج التاريخ بأمر الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

بدون إدراك هذه الحقيقة واعتبار أمر الله تعالى مطلقاً غير مقيد لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالشعوب ولا بالسلالات، ولا بالعوامل الاجتماعية قد ينظر المرء إلى قيام الدولة الإسلامية أو الأمة الإسلامية ويعتبرها واحدة من تلك الدول

المتعاقبة التي جاءت مع التاريخ وتذهب مع التاريخ ، مثلما حصل لتلك الأمم الغابرة كلها ، أو ما يحصل لهذه الأمم الحاضرة .

ودفع هذا الفهم ضروري في هذه المرحلة من تاريخنا ؛ لأنه هو الفهم الذي يحاول المنهج المادي الماركسي أن يبرهن عليه بالنسبة للأمة الإسلامية ، أو بالنسبة لظهور الإسلام . فهذا المنهج في زعمه يعزو حركات نشأة الأمة الإسلامية إلى أسباب طبقية ، وأسباب اقتصادية ، وأسباب اجتماعية ، وأتباع هذا المنهج يحصرون تاريخ الإسلام في هذا المجال الضيق ، وينكرون تبعاً لذلك كل سبب غيبي ، وينكرون مع ذلك النبوة وإرادة الله ، وهم لا يكتفون بإنكار حقائق الغيب وإنكار النبوة ، وإنما يجعلون الإسلام ظاهرة تاريخية انتهت بانتهاا ظروفها ومرحلتها ، ويعتبرون التعلق بها بمثابة الالتفات إلى الوراء أو رجعة إلى الماضي ، ومحاولة لتطبيق شروط الماضي التي انتهت .

الرجعية :

ومن هنا ظهرت كلمة خبيثة أو لعينة في المصطلحات المعاصرة ، وهي كلمة (الرجعية) ، إنها مصطلح يختصر في نظري الموقف من الماضي ، وينظر إلى الماضي كيفما كان باعتباره مرحلة متجاوزة ، فالالتفات إليه بمثابة الالتفات إلى الوراء ، ونحن نتحرك نحو الأمام .

وهناك كلمة رديفة ، ولكنها أكثر تأدباً من الرجعية ، وهي كلمة (التراث) التي تروج اليوم في مقابل (المعاصرة) ، إن كلمة (التراث) هذه على المستوى الأيديولوجي - وهذا ما أقصد بالذات - شبيهة بكلمة (الرجعية) ، إنها تنظر إلى كل تراث الماضي وكأنه بمثابة تلك الأبنية العتيقة والآثار القديمة التي لا يليق بأحدنا أن يسكنها ، ولكننا نحافظ

عليها إظهارًا للماضي ، فكذلك وقياسًا على هذا المثال ، لا يليق بعقولنا ولا بأرواحنا أن تسكن تراث القديم ولو كان هذا التراث هو القرآن ، أو كان هو السنة ، أو كان هو علم الفقه ، أو كان هو علم التوحيد أو الأدب ، بكل عبقرياته المرموقة ، إن كل ذلك تراث فينبغي أن ننظر إليه بتبجيل ، ولكن لا يليق بنا أن نسكنه .

هذه هي الأطروحة العجيبة التي يفتتن بها اليوم الكثير من شبابنا وتحتل الصدارة في كل ما ينشر ويكتب وينتدى له من ندوات ، أو يعقد له من لقاءات .

لقد انبهر الباحثون الأوروبيون المعاصرون ومن قبلهم من المستشرقين أمام ظهور الإسلام وانتشاره وفتوحاته ، بتلك السرعة العجيبة ، وقد عللوا - وفي مقدمتهم (مونتكمري) الإنجليزي - بأن الإسلام إنما نجح بسرعة لأنه ابتدع فكرة (الأمة) وأنشأ بالفعل تلك الأمة الإسلامية ، وهو في هذا المفهوم لم يسبقه شعب من الشعوب ، ولا تاريخ من التواريخ ، وقد ظل هذا المفهوم العجيب في نظر هذا الباحث ينبوعًا لكل دفعات الإيمان بوجود الأمة الإسلامية ، حتى في التاريخ المعاصر ، رغم وجود حواجز اللغات وحواجز السلالات ، وقد غاب عن ذهن هذا المؤرخ وأمثاله أن إنشاء أمة إسلامية كان طبيعيًا مع رسالة الإسلام نفسه ، حين أعلن القرآن أن إيجاد أمة وسط ضروري ، هذه الأمة التي ستؤمن على تحقيق التوازن بين التيارات المادية والتيارات الروحية .

الإسلام نقل الناس من ماضٍ إلى حاضر جديد :

لقد كان ظهور الإسلام نقلة للإنسانية من ماضٍ إلى حاضر جديد ، مغاير كل المغايرة لذلك الماضي ، فنحن إذا ألقينا نظرة على كل الروابط والجوامع

والأواصر التي كانت تربط الأمم القديمة والمجتمعات القديمة ، ألفيناها متسمة بنقصين أساسيين :

أولهما : أنها كانت مجتمعات تركز على الروابط النسبية القائمة على علاقة الدم أو الرحم ، ومرجعها إلى تسلسل الأبناء من الآباء ، فهي علاقة سلالية .

وثانيهما : أنها كانت بمثابة تجمع أو تعصب عرقي أو قبلي يهدد غير المتتمين إلى أصولها ، فهي من هذه الناحية عدوانية ، فجاء الإسلام برابطة العقيدة ، وأنشأ أمة إسلامية على عقيدة الدين ، وجعلها رابطة مقدمة ومقدسة تتراجع أمامها كل الروابط الأخرى من غير أن يفرض الإسلام طبعاً زوال تلك الروابط إذا ما تكاملت مع النظام الإسلامي ، كالروابط القومية التي لا تتعارض مع الإسلام ، إذا انسجمت مع مبادئه ، وكانت في خدمته ، والله سبحانه يقول : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] . فالله خلق الخلق على هذه الصفة من التنوع السلالي ، واللغوي والعرقي ، ولكنه خلقهم كذلك ليتعارفوا لا ليتناكروا ، وليكون مقياس التقوى والعمل بشريعة الله المقياس الذي يحدد المزية والفضيلة ، ثم إن الإسلام جاء بالعقيدة التي تقتضي تجاهل تلك الروابط العرقية والقبلية ، وجاء بالعقيدة التي ترتفع بالإنسان إلى أفق جديد وهذه العقيدة تنطلق من ثلاثة مبادئ :

أولها : أن الدين كونيا وليس قوميا ولا خصوصيا .

ثانيها : أن الدين عمومي لسائر البشر .

ثالثها : أن الدين فطري للإنسان .

١- فكونية الدين معناها أن الإسلام- والإسلام هنا هو الخضوع لإرادة الله- هو حركة الكون. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. إلا أن الله تبارك وتعالى خص الإنسان بمزية عظيمة وهي أنه طالبه بأن يسلم له اختيارًا كما هو مسلم له اضطرارًا، وذلك ليوفق بين حركة كسبه وحركة اضطراره، أو بين قوانين الطبيعة وبين الإرادة الإنسانية المبدعة.

٢- أما عمومية الدين فمعناها أن الله تبارك وتعالى خاطب برسالته العالمين: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٣- أما فطرية الدين فمعناها أنه مبني على السماحة واليسر ووضوح الحق وتحرير الإنسان وتكريمه وتقدير حقوق غرائزه وحقوق روحه، فلا إجحاف بجانب من هذه الجوانب، قال تعالى يصف الرسول الأكرم الذي بلغنا هذه الرسالة ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ يُجْلَى لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَنُحْرِمُ عَنْهُمْ الظَّنَّ وَيُخَبِّئُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إذن، ليس في هذه المبادئ العامة الشاملة- كما نلاحظ- إلا ما يوحد الإنسان بأخيه الإنسان، ويدعم تلك الوحدة ويحدد لها المنهج القويم.

نعم، لم يكن من السهل قبول الإسلام لدى الأمم والأقوام الذين ظهر فيهم، فقد كان بالنسبة لهم ثورة على كل شيء، ثورة على كل ما اعتادوه وألفوه، وأقاموا على أساسه مصالحهم ومكاسبهم ونفوذهم واستغلاهم وعنصريتهم وتسلطهم على الناس بغير حق، وذلك كأهم اليهود والمجوس والوثنيين.

فكان من الطبيعي أن يعمل الإسلام على إنشاء أمة العقيدة التي تجعل الإسلام قوة متحركة قائمة على ركائز ثابتة .

وكان من الطبيعي أيضًا أن يخوض المسلمون الأولون بقيادة رسول الله ﷺ أشد المعارك التي عرفها التاريخ في اللقاء بين العقائد والأديان .

وكان من الضروري أن يتسلح المسلمون في هذه المعركة الضارية بقوة العقيدة وبالإحساس بعظمة وجسامة الرسالة التي ينهضون بها بالاعتصام بالأصل الذي بايعوا الله عليه دون الانجذاب أو التأثر بأي مؤثر خارجي .

هذه المبادئ الخاصة نجد القرآن قد ركز عليها وأوضحها في عموم سوره ولاسيما سورة البقرة وسورة آل عمران :

أولاً : فقد عمق القرآن لدى المسلمين الأولين الإحساس بأنهم أمة ذات رسالة ، وهذا ما يمكننا أن نسميه اليوم بالتعبئة الروحية .

ثانياً : شخص القرآن للمسلمين معنى الجماعة الإسلامية ومعنى الرابطة الاعتقادية في صورة محسوسة لدى الناس ، هي صورة الأخوة الإسلامية ، وبذلك أبرز العلاقة الروحية في شكل مادي ، وأقامها مقام المحسوس المدرك بالطبع ، واختار لها وصف الأخوة لا وصف البنوة ولا وصف الأبوة ؛ لأن الأخوة هي رمز للتماثل بدون استعلاء ولا تدن .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وقال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) .

وقال أيضًا : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب

(١) سبق تخريجه .

المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

ثالثًا: شدد القرآن على الاعتصام بالعقيدة في صورة مادية ملموسة ، فجعلها حبلاً ممدوداً من الله إلى الإنسان ليتعلق بها وينجو بها من معاطب الهلاك ، وهناك تأتي الآية التي نتناولها : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

رابعًا: شدد على الوحدة في هذا الاعتصام ، أي شدد على الاعتصام والوحدة معاً في الدين ، باعتبار أن التفرق في الدين إنما هو اعتصام بشيء آخر ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

خامسًا: شدد على نبذ كل ولاء بين المسلمين وبين خصومهم في العقيدة ، وعلى نبذ كل ولاء غير الولاء للعقيدة داخل الأمة الإسلامية ، وهكذا يظهر دور الأمر بالاعتصام بحبل الله ، ضمن إطار عام وشامل من المبادئ المتكاملة التي لا قيام للأمة الإسلامية بدونها ، ولا انتصار لها بدونها .

ونعود إلى السياق الخاص أو سبب النزول لنعزز المعنى الإسلامي بالواقع التاريخي ، فنذكر أن المفسرين ذكروا للآية سبباً للنزول وهو الذي رواه الطبري بطريقتين : طريق مجاهد ، وطريق السدي ، وهو أن يهوديًا سعى بين فريقين من المسلمين هما الأوس والخزرج ليعيد الفتنة جذعة ، كما كانت مشبوبة في العصر الجاهلي بين الأوس والخزرج ، فقد دس هذا اليهودي وهو شأس بن قيس - كما ذكر ذلك ابن عباس - اليهودي العجوز يومئذ بين الفريقين من يورث العداوة بينهما ، ويشعل النيران التي

(١) سبق تخريجه .

أطفالها الله بالإسلام، وذلك أنه مر في المدينة فرأى طائفة من الأوس والخزرج يتناجون كأنهم إخوة، فغاضه الأمر، وقال: «لقد اجتمع بنو قبيلة بالمدينة، والله إن اجتمعوا فما بقي لنا فيها من قرار»، هذا رأي اليهودي القديم أمام الأخوة الإسلامية العربية، وما كان إلا أن دس يهوديًا آخر بين المسلمين، وأخذ يذكرهم بأيام الجاهلية ويتناشد لهم الأشعار المليئة بالمثالب والأهاجي، ليستفزهم ويحرك ضغائنهم، فاستفزوا وتواثبوا، وأخذ كل منهم بسلاحه، لولا أن حضر رسول الله ﷺ، ووقف يعظهم ويذكرهم بالأخوة الإسلامية التي هي إيمان، وبدعوى الجاهلية التي هي كفر، فما فرغ من موعظته ﷺ بين الفريقين حتى أقبلوا يتباكون ويتعانقون، ثم نزلت الآية الكريمة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِرِيعَةً إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٣].

الأمر بالاعتصام:

إن التنصيص على التمسك الجماعي بحبل الله واضح في الآية، فقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ دال على حالة الاعتصام أو حال المعتصمين التي هي الالتفاف الجماعي، ودال على أن المراد بالاعتصام ليس هو مجرد اعتصام كل فرد منا بالدين على طريقته، وإنما المراد أن يقع الاعتصام من الجماعة

المخاطبة بالقرآن اعتصامًا موحد المنهج ، موحد العقيدة ، فاعتصام الأفراد كأفراد بدينهم هو أمر ضمني إذا ما التفوا حول كلمة الله جميعًا ، وقد علمنا الله بقوله سبحانه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أن الاعتصام بحبل الله لا يتم على الوجه الصحيح ، إلا إذا كان عصمة للمسلمين من الفرقة والاختلاف في الدين ؛ وذلك لأن التوجه الذي كان يتمخض عنه الحركة الإسلامية يومئذ كان هو إنشاء أمة تنهض بتطبيق شريعة الله ، ويتأكد هذا المعنى فيما جاء من آيات بعد الآية المذكورة .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . صحيح أن (من) هنا للتبعية ، وتعني العلماء الذين ينفرون لتبليغ رسالة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن ، من المفسرين من اعتبرها جنسية واعتبر أن الأمة كلها مطالبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شكل جماعي أي في شكل أمة ذات كيان سياسي ، وإن تشخيص الأصرة أو العهد بين الله وبين عباده المؤمنين في صورة حبل ، والدعوة إلى التمسك به غاية في البلاغة ، فالحبل كما نعلم لفظ مشترك دال على الرسن ، وهو الحبل المعروف ، وعلى مستطيل الرمل الواقع بين كتيبين ، وعلى ما يصل بين الكتف والعنق ، وعلى كل سبب أو صلة تجمع بين المتقاطعين ، فقد قال امرؤ القيس مثلاً :

إني بحبلك واصل حبلي وبريش نبلك رائش نبلي

وقال صاحب المفضلية :

بسّطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما انقطع

إن الحبل في الآية الكريمة ، صورة مجسمة للعلاقة .

أما تأويل الحبل فهو على الأرجح كتاب الله تعالى ، وهو القرآن ، وذلك للأحاديث المروية في هذا الشأن ، ومن هذه الأحاديث ، حديث عبدالله ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن هذا القرآن هو حبل الله» ، ومنها حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله تعالى ، حبل ممدود بين السماء والأرض ، وعترتي أهل بيتي» ، ومنها حديث علي بن أبي طالب ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أما إنها ستكون فتنة ، قيل : كيف المخرج منها أو ما المخرج يا رسول الله؟) ، قال : كتاب الله . فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين» .

وهناك تأويل أخرى ذكرها الإمام الطبري تفسر الحبل بالجماعة ، أو تفسر الحبل بالإسلام ، أو تفسر الحبل بالعهد ، وكلها في نظري آيلة إلى معنى الاعتصام بالدين كتاباً ومنهجاً وميثاقاً .

إن الصورة التي قدمها القرآن عن التمسك بكتاب الله على هيئة التمسك بحبل ، تعني أن القرآن هو الجامع بين المسلمين ، وهو السبب الموصل إلى غايتهم ، وهو المحقق لوحدتهم ، فإن ارتخت قبضتهم عليه أو تفرقوا في اجتماعهم حوله ، ذهبت جامعتهم وانفرط عقدهم ، فالنظام والانتظام إنما يكونان حول الالتفاف ، أي الالتفاف حول أصل واحد ، أما إذا تعددت الأصول ، فقد تعددت الأنظمة ، وإذا تعددت الأنظمة تعددت المحاور .

لقد كانت هذه الآية الكريمة مناسبة وقف عندها بعض المفسرين لينظروا في ظاهرة التمزق واختلاف المسلمين فيما بينهم بعد برهة وجيزة

من التاريخ ، من قيام الدولة الإسلامية ، وهم يذكرون في ذلك افتراق الأمة في صدر الدولة الأموية ، أو على أواخر الدولة الراشدية على أحزاب أو فرق ، أخذ يكفر بعضها البعض ، وأخذ يريق بعضها دم البعض .

وقف أمام هذه المشكلة عدد من المفسرين ، وحاولوا أن يبسطوا الكلام فيها . والمجال لا يتسع لبسطها على الطريقة التي بسطها المفسرون ، وإنما قصارانا منها أن نثير هذا الإشكال ، فنحن من ناحية أمام دعوة القرآن إلى الوحدة حول التوحيد ، ونحن من ناحية أخرى أمام تاريخ إسلامي حافل بالتمزق والاختلاف . ونحن من ناحية ثالثة أمام آية كريمة تقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٨، ١١٩] .

لقد تناول هذه الإشكالية عدد من علمائنا القدماء وعلمائنا المحدثين ، أما الإمام الشاطبي رحمه الله فقد تعرض في كتابه « الاعتصام » إلى هذه الإشكالية ، وحاول أن يقننها بما يشبه القانون الطبيعي ، واستدل عليها بالأدلة النقلية ، ومنها هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ . ولكن الإمام الشاطبي اعتبر في سياق تحليله أن الاختلاف نوعان :

- اختلاف اضطراري : وهو المعبر عنه في الآية الكريمة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ . وهو اختلاف مقدر في علم الله الأزلي لا مندوحة عنه ولا مجال للخوض فيه .

- واختلاف كسبي : وهو الذي جاء النهي عنه في الآيات المحكمات الأخرى ، وقد تناول هذه الإشكالية أيضاً الإمام محمد عبده في « تفسير المنار » ، ولكنه ذهب فيها مذهباً مغايراً .

المهم بالنسبة إلينا أن المسلمين اختلفوا سواء في الفروع أو في الأصول ،

وبلغت فرقهم حوالي السبعين أو تكاد ، كما في الحديث النبوي «افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» ، والحديث رواه الترمذي وصححه ، ورواه غيره ، وهناك من جرح بعض رجاله ، وعلى أي فقد أخذت كل طائفة من المسلمين تحدد الفرقة الإسلامية الناجية لإثبات أنها هي تلك الفرقة ، وأنها هي الناجية ، وأن ما عداها في النار ، كما ورد في الحديث .

قد يتساءل أحدنا قائلاً : هل يتصل هذا الاختلاف المنهي عنه بالاختلاف المذهبي أم هو خاص بالاختلاف الأصولي؟

والحقيقة أن العلماء هنا أجمعوا على أن الاختلاف المنهي عنه في الآية ، إنما هو الاختلاف في الأصول لا في المذاهب الفقهية ، فمن ناحية أولى نلاحظ أن الاختلاف في الفروع ، وهي الأحكام المستنبطة من نصوص القرآن والسنة ، ليس في الحقيقة اختلافاً ما دام لا يمنع من قيام الوحدة بين المسلمين .

ومن ناحية ثانية : نلاحظ أن الاختلاف في الفروع قد عرفه الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم مع ذلك متواصلون متآلفون ؛ لأن النبي ﷺ قال فيما روي عنه : «اختلاف أمتي رحمة»^(١) ، وهكذا تحدث الإمام الشاطبي والإمام القرطبي فأوضحا أن الخلاف في الأصول هو الخلاف المنهي عنه ، أما الخلاف في المذاهب الفقهية أو الخلاف في الفروع ، فهو من طبيعة الحياة

(١) عزاه صاحب «الكنز» (١٠ / ٢٣٨) لنصر المقدسي في «الحجة» ، والبيهقي في «رسالة الأشعرية» بغير سند . وقال المناوي في «الفيض» (١ / ٢٠٩) : لم أقف له على سند صحيح . وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١ / ٢٠) : سنده ضعيف .

وسنن المجتمعات .

نتهي بعد هذا السياق العام الذي ذكرناه أو الخاص إلى نقطة أخيرة ، وهي النظر في تاريخنا الإسلامي من حيث تفرق المسلمين إلى مذاهب وتفرع كل مذهب إلى فروع ، وتحول هذه المذهبية إلى مطية للتكفير والاستعداد على المسلمين وإلى الحروب الطاحنة بينهم مع انصراف المسلمين عن مقاومة أعدائهم الحقيقيين وما قام به مقلدو المذاهب الكلامية ، من تجميد القرائح والعقول والحجر عليها .

إن الناظر في هذا كله ، لا يعجب من شيء مثلاً يعجب لبقاء الأمة الإسلامية إلى اليوم ، محتفظة بوجودها ، وبمشاعرها في الوحدة ، وفي الإخاء .

ولا شك أن الفضل الأول والأخير في ذلك يرجع إلى كتاب الله العظيم ، ولسنة نبيه الكريم ، وجهود الأئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة الذين لم تتوقف حركة تجديدهم وملكات تعليمهم وتوجيههم عبر البلاد الإسلامية مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»^(١) ، لكن العصور المتقدمة - برغم ذلك - أورثت للعصور المتأخرة ولا سيما العصور الحديثة ، ميراثاً ثقيلاً من المذهبيات الكلامية والخلافات السياسية ، الشيء الذي حجب عن الأواخر الرجوع إلى ينباع والاتصال بالمصادر الأساسية ، والتلقي عن الإسلام في مناهله الأولى قبل ظهور الخلاف ، وهذه هي القاسمة الأولى على حد تعبير الإمام ابن العربي .

فالإمام ابن العربي تكلم عن (القواصم وعن العواصم) من منظور

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

التاريخ القديم ، ونحن يجوز لنا أن نتكلم على (قواصم) أخرى في عصرنا الحديث ، وهذه هي القاصمة الأولى .

ثم وقعت البلاد الإسلامية منذ بداية العصور الحديثة ، تحت الاحتلال الأوربي والاستعمار .

وهذا الاستعمار كما نعلم جميعاً لم يدخر جهداً في تمزيق وحدة المسلمين فيما بينهم أولاً ، وداخل كل بلد إسلامي على حدة في المرحلة التالية ، ثم لم يدخر جهداً في توسيع القطيعة بين أجيال المسلمين وبين تراثهم ، وهذه هي القاصمة الثانية .

يضاف إلى ذلك ، أن الاستعمار الغربي الذي حل ببلادنا ثم رحل عنها مرغماً بعد حركات التحرير ، تركنا متحركين جميعاً في فلك حضارته ، وإذا كانت الحضارات الإنسانية تتلاقى وتتلاقح وتستفيد منها الإنسانية جمعاء .

وإذا كنا أمام هذا القانون الاجتماعي ملزمين بالاستفادة من حضارة الغرب ، والاقتراس من علومه وتقنياته ونظمه ، فإننا مع الأسف ونحن أمة عقيدة وأمة حضارة ، لم نكن في سعة في أن نأخذ ونترك ، ولم نفسح المجال أمام ثمرات العقول دون أن نعصمه من الوقوع في الأهواء والانحرافات ، فداهمتنا هذه الحضارة بما فيها من نافع وضار ، ومقبول ومتلئم مع حضارتنا ، ومرفوض ودخيل عليها ، فكنا مضطرين أن نقع في التبعية الحضارية بأوسع ما للتبعية من معنى ، وهذه هي القاصمة الثالثة .

لقد اتجهت حركات التحديث والتجديد في البلاد الإسلامية إلى بعث الروح القومية الإقليمية الضيقة ، داخل البلاد الإسلامية على غرار الحركات القومية الأوربية ، وعندما تعارضت هذه القوميات مع الجامعة

الإسلامية ، اتجه العمل نحو هدم الجامعة الإسلامية ، باعتبارها وهما من الأوهام ، ثم ظهرت حركات أخرى قلدنا فيها الحضارة الغربية ، وهي حركة العلمانية وحركة الدعوة إلى العاميات تكريماً لتلك السلاطات والعريقات القومية .

وعندما جاء التطور الرأسمالي وأفرز الثورة المادية الاشتراكية ، وقعنا مرة أخرى تحت تأثير أيديولوجيات هذه الاتجاهات والحركات الاجتماعية وتأثرنا بها ، ونشأت التنظيمات السياسية التي تستقطب جماهيرنا المسلمة على أساسها ، وهكذا ظللنا نبتعد عن الرابطة الإسلامية عبر محاور يتلو بعضها بعضاً ، فمن القومية العربية الإسلامية إلى القومية العرقية ، إلى الطبقية .

من هنا اشتدت الحاجة إلى ضرورة الالتفاف حول كلمة الله والاعتصام بالقرآن والعمل على جمع الأمة الإسلامية ، ولا يتحقق ذلك إلا في إطار ثقافة إسلامية ، وفي إطار أمة إسلامية ، وهذا هو التوجه السليم الذي ينبغي أن نتجه إليه ، أي اتجاه استثمار الثقافة الإسلامية ونشرها وتنميتها وجعلها قادرة على التصدي ، وكذلك تقمص روح الأمة الإسلامية التي هي الإطار الجامع لكل الشعوب الإسلامية ، ولا سيما بعد (القمم) التي انعقدت ووفقها الله إلى تأسيس المؤسسات التي يتوقف عليها الأمل العريض في تحقيق ما يتطلع إليه المسلمون .

المحاضرة الثامنة بعد المائة

صيانة العهد

بالسند المتصل ، إلى الحافظ الحجة ، أمير المؤمنين في الحديث سيدي محمد بن إسماعيل البخاري الجُعْفِي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : باب عهد الله ﷻ : حدثني محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبي عَدِيٍّ عن شُعْبَةَ ، عن سليمان ومنصور ، عن أبي وائل ، عن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ ، عن النبي ﷺ قَالَ : «من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال رجل مسلم - أو أخيه - لقي الله وهو عليه غضبان» ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَهُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران : ٧٧] آخر الآية الكريمة .

الاتجاهات للكلام على هذا الحديث الشريف ثلاثة .

الأول : «عهد الله» سأتكلم على شموله ، ودلالاته .

الثاني : «سند الحديث» سأتكلم على التحديث والعنونة مكثفياً فيها بما رجحه علماء الحديث والأصول ، ومطبقاً إياهما على السند حسب ما تبين لي من صحيح البخاري فيه .

الثالث : «شرح فقرات الحديث» .

روى الإمام البخاري هذا الحديث في اثني عشر موضعاً من صحيحه مما يدل على سعة دلالاته ، ووفرة ما فيه من الاستنتاجات ، وهو في مختلف رواياته ، مرتبط ارتباط التالى بالمقدّم بحديث آخر ذُكرت فيه خصومة في بئر ، من أجلها قال رسول الله ﷺ هذا الحديث ، وهي سبب من أسباب نزول الآية التي قال فيها الراوي : فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَهُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية الكريمة ، فهو قد رواه مرة

واحدة في كل من كتاب المساقاة ، وكتاب الخصومات ، وكتاب الرهن ، وكتاب التفسير ، وكتاب الأحكام ، وكتاب التوحيد ، ومرتين في كتاب الأيمان والتُّدُور وأربع مرات في كتاب الشهادات . وهو في كل مرة يرويه ، يذكره وحده أو مع غيره في نطاق ترجمة لِيَابٍ ، وأؤكد ما قيل : «فقه البخاري مستمَدُّ من تراجمه» . ومختلف الأسانيد ، الشيوخ مختلفون بالنسبة لبداياتها ، وهي كُلُّها منتهية إلى التابعي الكبير أبي وائل ، وإلى الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال الإمام البخاري في كتاب «الأيمان والتُّدُور» : باب عهد الله ﷻ .

إضافة العهد إلى الله يبلغ به أسمى مقاماته :

يبلغ العهد أسمى مقاماته ، حين يشرف بإضافته إلى الله . فمع هذه الإضافة ، لا يستطيع العقل أن يستوفي ما للعهد من الأنواع . ولا يُقدَّرُ بالتالي ، أن يضبط لكل نوع ما تحته من الأفراد . ففي ذلكم النطاق ، تدخل عهود تتوالى بحسب الأوصاف أو الإضافات ، وليستحضر الذهن ما شاء منها فلن يستقصيها . فعهد الله شامل لعهود انكشفت للإنسان بفضل الدين ، أو برزت له بحسب مقتضياته الحضارية ، أو استقرت في الناس لصيانة أنظمتهم ، سياسية كانت أو اجتماعية ، أو اقتصادية ومالية . وهو كذلك شامل للعهود التي للشخص مع نفسه في سيرته الذاتية وفي المنهج المختار لتكوين الأسرة وتربية الأبناء . وهو أيضًا شامل للعهود التي تجعل البشر يحافظون على الطبيعة ، ويحفظون البيئة ، إن عهد الله هو مُهيِّم على هذه العهود كلها . وعلى ما سواها من كل نوع موجود أو سيوجد لصيانة التعامل البشري ، وصيانة تناسب البشر وتماسكهم مع الكون ، والشمول

الذي ذكرته للعهد المضاف إلى الله ، جاء من ارتباطه أيّما ارتباط بالإسلام الذي هو دين الله ، وغير خاف أن الإسلام واسع الأرجاء متعدد الأنحاء أصلح الباطن والظاهر ، وطهر الروح والمادة ، وهذب في الناس السّر مع العلانية ، بل هو دين الوجود وما بعد الوجود وما قبله . وعلى هذا فعهد الله المرتبط بالإسلام ارتباطاً شمولياً ، وهو غير خاص بالأفراد ، بل هو شامل لهم وللمجتمعات والدول وللحياة المرتبطة بالوجود الكوني على أوسع معانيها ، فيصيّاتّه على هذا الإطلاق من قبل الجميع أو المجموع ، تنفسح أمام الناس مجالات التطور ، وتيسر لهم أسباب الازدهار ، وأترك المضاف إليه لأقتصر على تتبع معنى المضاف قال الإمام الزنجشري في الأساس : عَهْدَ إِلَيْهِ واستعهد منه إذا أوصاه وشرط عليه ، ومن شواهد في فعل المزيد قول جريرة

وما استعهد الأقوام من زوج من الناس إلا منه أو من مُحَارِبٍ

والبيت بكاف الخطاب . وفيه في الديوان بعض التحريف عن ما هو فيه في الأساس والعهد هو الحافظ على العهود ، والمحِب لها وفي هذا المعنى أنشد :

أعظم بكم ملكي فالعهد وليس من عَجَبٍ إذ أنتم العهد

معنى كلمة العهد :

وقد بين الإمام أبو البقاء أصل الوضع في العهد فقال : « ووضعه لهما من شأنه أن يُراعى ويتعهد » وبمقتضى هذا الوضع ، عرفه الإمام الراغب بقوله : « هو حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال » . وحفظ الشيء على قسمين : حفظ بحسب ما شرعه الله ، كتشريع الله في الأيمان والتدور ،

وحفظ بحسب مصالح الناس ، وقد ذكر الإمام أبو البقاء معاني للعهد ، تدخل في نطاق ما يُراعى ويُتَّهَد فقال : (كالقول ، والإقرار ، والوصية واليمين ، والضمان ، والحفظ ، والزمان ، والأمر) فالكاف تمثيلية ، فليس في الكلام استقصاء ، لذلك ساق الحافظ ابن حجر بعض المعاني كذلك ، كالأمان ، والفهم والذمة ، إلى غير ذلك . وبعض هذه المعاني تتداخل . وأمثلة لإحداها وهي الوصية ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ ﴾ [طه : ١١٥] أي ألقينا إليه العهد وأوصيناه بحفظه . ومن هذا القبيل ، قول الله تبارك وتعالى في حق سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ، إذ أوصاهما الله بتطهير بيته : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

وإطلاق العهد على الإلزام ، أي جعل الشيء مقرراً ، مؤكداً ، لازماً لا يمكن الخروج عنه ، هو إما إطلاق خاص ، فيكون للعهد معنيان ، معنى عام ومعنى خاص . وإما أن يكون هذا المعنى الخاص داخلياً في نطاق العام ، فيقال : كل إلزام عهد وليس إلزاماً ، فبينهما عموم وخصوص بإطلاق . والعقد أخص من الإلزام ، لأنه كما قال أبو البقاء : إلزام على سبيل الأحكام . وعقد اليمين توثيقه بالقول مع العزم عليه . لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة : ٨٩] فإذا أضيف العهد إلى الله ، فحينئذ تكون له دلالات ثلاث :

العهد الفطري :

الأولى : عهد الله أي ميثاقه . وهذا هو العهد الفطري ، أكرم الله به كافة الأدميين في نشأتهم الأولى .

قال فيه الحافظ ابن حجر : «ويطلق عهد الله على ما فطر عليه عباده من الإيمان به عند أخذ الميثاق». وعنه قال الإمام الراغب : «وعهد الله ، تارة يكون لما ركّزه في عقولنا ، ذلكم الله ﷻ عهد إلى كافة الآدميين ألاّ يعبدوا غيره أي ألا يكون خضوعهم التام إلا له . قال سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» [يس : ٦٠-٦١] .

ساق الإمام الألوسي في تفسير الآية وجوها ، ومن بينها قوله في تفسير العهد المفهوم من قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ، وقيل : هو الميثاق المأخوذ على أنفس الآدميين في عالم الدّر إذ قال الله لهم : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ . وعلى هذا تكون آية الأعراف مُفَصِّحة عن العهد في آية «يس» قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنَى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٢-١٧٣] هذا تمثيل ، به يسّر الله الإدراك للناس في تحقيق هذا العهد ، وهو أيضا مروي عن مولانا رسول الله ﷺ في حديث طويل ، رواه كل من الأئمة : أحمد بن حنبل في مسنده ، والنسائي في سنّنه ، والحاكم في مُسْتَدْرَكه . وقد ساق الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية كلاما نفيسا من بين ما ذكر فيه أن الإِشهاد على أنفس الآدميين ، هو إِشهاد بالحال ، وليس إِشهادا بالمقال .

والشهادة والسؤال كما يكونان بالمقال يكونان بالحال . فمن الشهادة بالحال ، قول الله تبارك وتعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة : ١٧] . ومن السؤال بالحال .

قوله الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَتَنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

ولزيادة توسع في معنى العهد ، أذكر أمرين :

أولهما أن الأخذ المفهوم من قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف : ١٧٢] هو أخذ للنفس بعد صبغها بآدميتها لتقطع العهد على ربوبية الله تبارك وتعالى ، وما أخذها إلا إخراجها من هيكلها ، وتجريدها من مادتها لتكون في أعلى مقامات الإدراك . ذلكم أن للنفس الإنسانية حالات وأسرارًا ، تتبلور في الإدراك والعلوم التي تتدفق منها باستمرار ، وفي الإيرادات فدائرة تصرفاتها واسعة ، ومجالات عملها متوافرة .

فهي لا تقف عند حدود الحس ، ولا تكتفي بعالم الماديات ، إن لها إمكانية الاستمداد من عالمي الملك والملكوت ، ومقدرة الجمع بين طاقتي الإفادة والاستفادة . غير أن استمدادها من العالمين وقدرتها للاستمداد من الطاقتين ، انحصرتا أو انحصرت النفس فيها حين انحصرت في هيكلها الجسمي ، لأنها حينئذ تفاعلت مع ظلمة المادة ونور الروح ، وتجاذبت بين عالمي الخلق والأمر ، فقل اقتباسها من الأنوار الملكات الروحية ، وضعفت عن خدمتها لمصالح الإنسانية السامية ، وضعفت قدرتها بالتالي عن استغراقها في شئون الحق الصرفة ، وعن حصر النفس في الهيكل عبر الفيلسوف الحكيم ابن سينا بالهبوط ، كما عبر عن النفس بالورقاء ، فقال في قصيدته المشهورة .

هبطت إليك من المحل الأرفع وزقاء ذات تعزّز وتمنّع
محبوبة عن كل مُقلّة ناظر وهي التي صُفرت ولم تبرقع
وصلت على كُزه إليه ورُبّما كرهت فراقك وهي ذات توجّع

أما الأمر الثاني ، فهو أن العهد الذي أخذه الله على نفوس الآدميين قد وفى الآدميون به في نشأتهم الأولى في تَحْضُرِ آدَمِيَّتِهِمْ ، أخبر الله بذلكم ، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله ﷻ إني خلقت عبادي حُنَفَاءً ... » إلى آخر الحديث ، ولكن البشر حين عاشوا فيما لا يزال ، واختلطت طهارتهم بالماديات ، لم يبقُوا أوفياءً لذلك العهد . فهم إما أهملوه ، أو تركوه بالمرة .

لذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف : ١٠٢] وقد أرسل الله الرسل لتجديد عهد التوحيد ، قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] قال أبو العالية : وصاهم بالإخلاص في عبادة الله وحده . فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هو دعوة كافة المرسلين منذ سيدنا نوح ، إلى خاتمتهم سيدنا محمد ﷺ .

فالكفر بها ضلال بعيد ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] فبرسوخ ذلكم الإيمان ، وانعكاس نوره على الجنان ، يتحقق الوفاء بعهد الله في عالم التكاليف ، كما تحقق الوفاء به في عالم الإشهاد النظيف .

الدلالة الثانية لعهد الله : هي ما في الكتاب والسنة من أوامر ، فهو اسم لكل واحد منها ، وهو أيضًا اسم لها جميعها . فأى حكم يتضمنه أمر ، إن أنيط بكل مكلف بالقضية فيه من قبيل الكل الجمعي . وإن كان المطلوب حصوله من غير نظر بالذات إلى فاعله ، فالقضية فيه هي من قبيل الكل المجموعي . وهذا مجال واسع يشمل أوامر العبادات والمعاملات ، ويشمل

الأوامر المتعلقة بالأفعال الخاصة، والمتعلقة بالقواعد لا فرق بين كون الجزئيات الصالحة لكل قاعدة قد وُجِدَتْ، أو يمكن إيجادها حسب مناهج الاستنباط المعروفة في علم أصول الفقه.

الالتزام:

الدلالة الثالثة: هي أن عهد الله هو ما يلتزمه المكلف. فالالتزامات البشرية، سواء كانت على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجماعات التي تحمل اسم الدولة، أو البرلمان، أو النظام، أو اسم أي شيء كان يتحقق فيه الاجتماع. وسواء أيضاً كان ذلك مرتبطاً بأي شأن من شؤون الحياة، هو كل ذلكم داخل في نطاق عهد الله بهذه الدلالة. فليهنأ أصحاب المشاريع، والمخططات الذين يحفزهم لها الصالح العام، وليهنأ الساعون في خير البشرية وهنأئها، إنهم ولا شك يوفون بعهد الله. وليحذر القاصرون والمقصررون والمتهاونون. إنهم بموقفهم السلبي ينبذون العهد.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَوْكَلَمَا عَنْهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبْرَ﴾ [الأحزاب: ١٥].

فمن يوفي بالعهد على أي شكل من أشكال التطبيق، قولاً كان أو فعلاً، هو في حياته، وجميع من يسعى هذا المسعى، هم في حياتهم سعداء، ويلقاهم ربهم بالرضوان يوم الجزاء، والذين لا يوفون بالعهد يشملهم نطاق قول رسول الله ﷺ «يلقاه ربه وهو عليه غضبان».

بعد الترجمة ساق الإمام البخاري سند الحديث، شيوخته إلى سيدنا عبد الله بن مسعود ستة.

وسأتكلم على ما اشتمل عليه هذا السند من التحديث والعننة.

أما التحديث فهو دال على أن الشيخ يُملي على الراوي ما يُحدّثه به . والتلقي بهذا الوجه هو أعلى مراتب التحمل^(١) وأدناها الوجادة . وقد ذكر الإمام ابن السبكي مراتب التحمل فقال في جمع الجوامع في كتاب السنة في خاتمته : خاتمة : مُستندٌ غير الصحابي قراءة الشيخ إملاء أو تحديثًا . فقراءته عليه ، فسماعه ، فالمناولَة مع الإجازة لخاصّ في خاص ، فخاصّ في عام ، فعام في خاص ، فعامّ في عام ، فلفلان ومن يُوجد من نسله ، فالمناولَة ، فالإعلام ، فالوصية فالوجادة ، وفعل التحديث في السند هو إما مسندٌ إلى ضمير المتكلم الواحد ، وذلكم بالنسبة إلى الشيخ البخاري لأنه قال : حدثني محمد بن بشار . وإما مسندٌ إلى ضمير متكلمٍ وذلكم بالنسبة إلى شيخ شيخه ، لأنه جاء فيه حدثنا ابن عدي ، والفرق بينهما وبين أخبرني وأخبرنا ، ذكره ابن الصلاح في مقدمته نقلًا عن الحافظ أبي عبد الله الحاكم قال : الذي اختاره في الرواية وعهدت عليه أكثر مشايخي وأئمة عصري ، أن يقول في الذي يأخذه من المُحدّث لفظًا ، وليس معه أحد : حدثني فلان . وما يأخذه من المحدث ومعه غيره : حدثنا فلان . وما قرأ عليه بنفسه : أخبرني فلان . وما قرأ عليه ومعه غيره : أخبرنا فلان : قال ابن الصلاح : «وقد روينا نحو ما ذكره الحاكم عن عبد الله بن وهب صاحب مالك رحمته الله . ثم قال : «وهو حسنٌ رائعٌ» . وملاحظتي هو أن هذا الاصطلاح لم يكن متأخرًا إلى عهد مشايخ الحاكم وأئمة عصره ، بل كان سابقًا . لأن ابن الصلاح ، رواه عن عبد الله بن وهب صاحب مالك . ومعنى هذا أنه يمكننا تطبيقه على السند عند البخاري ، فهو قد قال بالنسبة لروايته عن شيخه : «حدثني محمد بن بشار» فكأنه يقول : إنني أخذت هذا الحديث عن شيخي وقد انفردت به . وفي الانفراد مزيد

(١) التحمل يقصد به : برواية الراوي وأخذه للحديث عن شيخه ، بصورة من سورته المتعددة .

التثبت والاحتياط . والداعي إلى هذا هو أن الكثير من الثُّقَادِ وَآخِذُوا ابن بشار على كثرة روايته للحديث ، فأراد البخاري أن يظهر لنا أن روايته عنه داخلَةٌ في نطاق التثبت ، وأما بالنسبة لحدثنا التي ذكرها ابن بشار عن شيخه ابن أبي عدي ، فلها داعٍ كذلك ، لأن بين وفاة ابن بشار ووفاة شيخه ابن أبي عدي ثمانٍ وخمسين سنة ، وهذا يدل على أن ابن بشار كان في بداية الطلب ، لأنه كان في عنفوان الشباب ، وبداية الطلب تقتضي أن يحضر الطالب المبتدئ مع عامة الناس في مجلس الشيخ وهو يملي على الجالسين الحاضرين ما يُحدثهم به ، لذلك قال ابن بشار : «حدثنا ابن أبي عدي» .

وأما العنونة ، فهي مصدر جَعَلِيٌّ ، عنعن الحديث ، إذا قال المحدث في روايته عن فلان . وهي لا تُقَوَّى قوة الحديث والسماع ، والاعتبار فيها يختلف بين الشيخين البخاري ومسلم ، لأن لفظة «عن» ليس فيها بيان من الراوي للسماع أو التحديث ، فقبول الرواية بها لا يتم إلا بشروط ، وهي ثلاثة : اثنان متفقٌ عليهما ، وواحد يختلف فيه الاعتبار كما ذكرت بين الشيخين ، فالمتفق عليهما هما : عدالة المعنعن ، وسلامته من التدليس . والاعتبار يختلف في الشرط الثالث . فالبخاري وشيخه علي بن المديني وغيرهما يقولون : إن الشرط الثالث هو لقاء الراوي بمن روى عنه مجالسةً ومُشاهدةً ، والإمام مسلم يقول : الشرط الثالث هو معاصرة الراوي لمن روى عنه بِعَن ، وإن لم يثبت العلم باللقاء ، لأن المعاصرة تقتضي مظنة اللقاء ، ومن الإمعان فيما قاله الإمام مسلم في مقدمة صحيحه يتبين أنه يعزز مذهبه بحجج ثلاث :

الحجة الأولى : هو أنه ما دام الاتفاق حاصلاً على عدالة المعنعن وسلامته من التدليس ، فالشأن فيمن يتوفر فيه الشرطان ألا يروى عن

غيره بعن إلا وقد لاقاه وسمع منه ، فلا يكون لِرَد الرواية موجب إذا لم يثبت العلم باللقاء .

الحجة الثانية : هي أن هناك الكثير من الأحاديث اتفق الأئمة على صحتها ، ومع ذلك لم تُروَ إلاّ معنعنةً ، فهذا دليل على أنهم اكتفوا فيها بالمعاصرة .

والحجة الثالثة : هي أن شرط البخاري قد لا يطّرد ، لأنه يكفي بحصول شرطه الذي هو اللقاء ولو مرة . وقد ثبت أنه وجد من المحدثين من التقى بشيخه مرة واحدة وروى عنه أحاديث كثيرة لا يتسع الزمان لاستيعابها في ذلك اللقاء الواحد . فكان ذلك دالاً على أن ما لا يتسع له اللقاء هو مروى بالاختصار على المعاصرة .

وقد ذكر الكثير من المحققين أن مذهب مسلم هو قوي لاسيما في التطبيق . قال العلامة محمد بن إسماعيل الأمير : «ومذهب مسلم هو قوي لمن أنصف» . وقال ابن حزم الأندلسي : «رواية العدل عمن أدركه من العدول هي على السماع والاتصال ، سواء قال : أخبرنا ، أو عن فلان ، أو قال فلان ، فكل ذلك محمول على السماع منه» .

عنعات البخاري في هذا السند بالنسبة للشيوخ هي أربعة :

الأولى : رواية ابن أبي عدي عن شعبة . وروى الإمام البخاري هذا الحديث من طريق شعبة في كتاب الشهادات بسند هو فيه شيخ لمحمد ابن جعفر رواه عنه بعن .

الثانية : هي رواية شعبة عن سليمان ومنصور ، وروى البخاري هذا الحديث من طريق سليمان ومنصور معاً في كتاب «الأحكام» بسند ، هُما فيه

شيخان لسفيان الثوري رواه عنهما بعن وروى البخاري كذلك هذا الحديث من طريق سليمان الذي هو الأعمش منفردًا في كتاب «المساقاة» بسندين متحدين هو فيهما شيخ لأبي معاوية ، وفي كتاب «الشهادات» هو فيه شيخ لعبدالواحد ، أو بسند هو فيه شيخ لشعبة ، ورواه في كتاب «الأيمن والتذور» وفي كتاب «التفسير» ، بسندين هو فيهما شيخ لأبي عوانة . كل هؤلاء الرواة عن الأعمش الذي هو سليمان بعن . وروى البخاري أيضًا هذا الحديث منفردًا من طريق منصور بن المعتمر بسند هو في كتاب «الرهن» ، وفي كتاب «الشهادات» ، ومنصور شيخ لجرير رواه عنه بعن .

الثالثة : هي رواية سليمان ومنصور عن أبي وائل هذه كنيته واسمه شقيق ابن سلمة ، ولا يتسع زمان سيدنا الهمام لتتبع التراجم . على كل حال ، هذه هي العنونة الثالثة . وروى الإمام البخاري من طريق أبي وائل حديثًا في كتاب التوحيد هو فيه شيخ لكل من عبد الملك بن أعين وجامع ابن أبي راشد من غير أن يكون من طريق الأعمش .

والرابعة هي رواية أبي وائل عن سيدنا عبدالله رحمته الله . هذا الاستقصاء في تتبع عنعنات البخاري في هذا الحديث لا تعطينا ولو مرة ما يفيدنا تحقيق الاتصال بالسماع أو التحديث . ومع ذلكم نعتقد أن الاتصال حاصل ، لأن الإمام البخاري ملتزم بشرطه . وكل الأئمة عدول .

أما بالنسبة للسلامة من التدليس ، فيجدر أن أشير إلى واحد من الرواة وهو سليمان بن مهران المعروف بالأعمش . الواقع أن الأئمة متفقون أنه عدل ، صادق ، ثبت ، صاحب سنة . ولكن رُبما يذهب إلى جواز ترك ذكر الراوي . فقد روى عن سيدنا أنس بواسطة لم يذكره . وروى عن سيدنا عبدالله بن أبي أوفى بواسطة لم يذكره .

قال ابن عُيَيْنَةَ : «كل ما رواه الأعمش عن أنس مُرْسَلٌ» . وقال أبو حاتم : «لم يسمع الأعمش من عبدالله بن أبي أوفى» ، وترك ذكر الراوي حتى عن غير الصحابي ، وهذا تدليس الحذف . قال صاحب البيقونية^(١) «وما أتى مدلساً قسماً» :

**الأول : الإسقاط للشيخ وأن ينقل ممن فوقه بعن وأن
والثاني : لا يسقطه لكن يصف أوصافه بما به لا يتعرف**

وقد صرح الحافظ الذهبي بهذا التدليس فقال : «ربما دلس عن مجهول فلا يُدرى» ، فمتى قال : حدثنا فلا كلام ، ومتى قال : عن ، تطرق إليه احتمال التدليس ، إلا إذا روى ممن أكثر عنهم كأبي وائل وإبراهيم النخعي وأبي صالح السمان ، فروايته عنهم متصلة .

الإمام البخاري حين روى عن الأعمش نلاحظ أشياء ثلاثة :
أولاً : أكثر من الرواة عن الأعمش .

ثانياً : في بعض الأسانيد ، قرئه بمنصور الذي أجمع الرواة على سلامته من التدليس حتى قال ابن مهدي : إنه أحد شيوخ الكوفة الأربعة الذين من اختلف على حديثهم فهو مخطئ ، فهو يُعزّز رواية سليمان بمنصور .

وثالثاً : «رواه من غير طريق الأعمش بنفس الاتصال إلى أبي وائل لأنه رواه في كتاب «التوحيد» من طريق عبد الملك بن أعين ، ومعه جامع بن أبي راشد . ولذلك قال الحافظ ابن حجر : فيستفاد منه أنه مما لم يدلس فيه الأعمش ، فلا يضر مجيئه عنه بالعننة . وقد سمعنا في مجلس سيدنا ما قيل في التدليس المقبول نقلاً عن ابن أبي راشد . أما الإمام مسلم ، فقد روى

(١) منظومة مشهورة ومتداولة في مبادئ مصطلحات الحديث وألقابه .

هذا الحديث بثلاثة أسانيد : أولها من طريق الأعمش . وثانيها من طريق منصور . وثالثها من طريق جامع بن أبي راشد ، وعبد الملك بن أعين .

سمع شقيق بن سلمة ، وشقيق بن سلمة هو أبو وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : فهو قد عزز السندين المُعْتَمَدَيْنِ بسند متصل بواسطة السماع .

وأقف عند هذا وإن كان المقال لا يزال واسعاً .

قال رسول الله ﷺ : «من حلف على يمينٍ كاذبةٍ ليقطع بها مال رجلٍ مسلم - أو قال أخيه - لقي الله وهو عليه غضبان» ، هذا كلامٌ خبري ، قضيتُهُ ليست حَمَلِيَّة بل هي شرطية متصلة^(١) ، رابط التالي بالمقْدَم فيها ، أداة يمين المفيدة للعموم . وقوله ﷺ : «على يمين» أي على محلوف عليه ، وسُمِّيَ يمينًا جل الملا بَسَة ، وقوله ﷺ : «ليقطع» افتعال من الاقتطاع والتمزيق ، لأن من يحلف يمينَ الغموسِ كمن يُمزق ثوبه حتى يبقى مكشوفًا . ولذلك يكون في الكلام استعارة هي أصلية في المصدر وتبعيَّة في الفعل^(٢) . وقوله ﷺ : «غضبان» .

وهذا الوعيد جاء لليمين الغموس فمن يحلف بالله كاذبًا يقع في مخالفة لعهد ثلاثة :

- أولاً : عهد الميثاق .
- ثانيًا : عهد الأوامر والنواهي .
- ثالثًا : عهد الالتزام .

(١) كلمات لها دلالتها ومفهومها واصطلاحها في علم المنطق .

(٢) كلمات وعبارات لها دلالتها ومفهومها في علم البلاغة .

المحاضرة التاسعة بعد المائة

شواهد من حفظ الله للقرآن

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .
 سأتناول - إن شاء الله - بقدر الوسع ، معاني قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ
 نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ إحساساً مني بضرورة التناول في هذا
 الظرف ، وقد توجهت الأنظار إلى أن تعقد هذا الحوار الحضاري الذي
 نحن مقبلون عليه .

وإن من مقتضيات الحوار أن يعرف كل ذي شيء ، كل ذي ثروة ثقافية ،
 بما لديه . ونحن الآن نجد أن من واجبنا أن نتحدث عن القرآن في هذه
 الظرفية بالذات ، فنقف عند قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَافِظُونَ ﴾ .

والمقام لا يتسع لاستعراض جميع الألفاظ الواردة مع الآية ، مع أن هذه
 الألفاظ هي قوالب المعنى وهي التي تؤدي المعنى . ولكن أقف فقط عند قول
 الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . واسم الفاعل هو يقوم في أصله مقام الفعل
 المضارع ، وهو دال على التجدد وعلى البقاء ، وإما أن يكون هذا التجدد
 منقطعاً أو مستمرًا دائماً . فاسم الفاعل غالباً بمثابة الفعل المضارع الذي يدل
 على التجدد والبقاء . فإذا كان اسم الفاعل بهذه المثابة ، فإن علماء النحو
 يعملونه ويقولون إن له عملاً كعمل فعله يقول ابن مالك :

كفعله اسم فاعل في العمل إن كان عن مضيئه بمعزل

إذا لم يدل على الماضي ، فإذا كان دالاً على الحال أو دالاً على الاستقبال
 فإنه يعمل عمل فعله وينصب مفعوله .

وهذه الآية لا شك أن اسم الفاعل فيها دال على الحال ، ودال على الاستقبال .

لا أقول هذا من الجانب النحوي فقط ، ولكن أقوله من الجانب الدلالي كذلك ، فهو ناصب لما بعده للهاء ، والهاء معمودة ومسنودة بلام التقوية .

حفظ القرآن واقع في الحاضر ومتجدد في المستقبل :

المهم أن الآية دالة على أن هذا الحفظ واقع في الحاضر ، وهو متجدد في المستقبل ، وأن هذا الحفظ هو مراد الله تعالى وقدره بالنسبة لهذا الكتاب .

فلن يضيع هذا الكتاب ، وقد ارتفع الأداء القرآني بحيث اشتملت الآية على كثير من تعابير التوكيد : إن ، والضمير بعدها نحن ، ونزلنا ، وله ، واللام المقوية ، وتقديم الجار والمجرور ، وإيراد اللام في الخبر ، كل ذلك دل على أن هذه الجملة ليس في كتاب الله جملة أكثر تأكيداً منها .

وما ذلك إلا ليحصل للناس الاطمئنان أن هذا القرآن باق ، وأنه مستمر إلى أن تقوم الساعة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

شواهد حفظ الله القرآن :

إن هذا القرآن لما كان مراد الله فيه أن يبقى وأن يستمر ، فإن الله تعالى إذا أراد شيئاً هياً له أسبابه ، وإن شواهد كثيرة تدل على أن مراد الله تعالى هو بقاء هذا القرآن .

وهذه الشواهد كثيرة أحاول أن ألم ببعضها بحسب ما يتسع له المقام ، فأقول :

أولاً : نزوله منجماً :

إن تنزيل الله للقرآن بهذه الطريقة التي تنزل بها ، حيث نزل منجماً مقسماً على ثلاث وعشرين سنة ، هذه الثلاث والعشرين سنة كانت وعاء

زمنيًا للتنزيل ، قد انحبس فيها التنزيل في بعض الفترات ، لكنها في عمومها كانت وعاء للتنزيل ، كان التنزيل ينزل ، كان القرآن ينزل نجومًا ، وكانت النفوس تتشربه وتتشبعه وتلم به ، ثم تنزل آيات آخر ، فتستقبلها النفوس وتتشرّبها وتعبد الله بها ، ثم تنزل الآيات ، إلى أن نشأ لدى المسلمين شغف وولع واستطلاع لما ينزل .

فكان الصحابة يبعث بعضهم بعضًا ليسأل ماذا نزل .

ثم إن بعض الناس كان يلح في النزول ، وقصة المرأة التي جاءت تجادل رسول الله ﷺ مثال صادق على النفس التي كانت تتوقع الوحي وتنتظره .

ثانيًا : بقاءه معجزًا حتى بعد موت الرسول ﷺ :

فأمة تتوقع الوحي وتنتظره وتتشبعه على هذا المهل وعلى هذا المكث لاشك أنها تكون في نهاية المطاف محتفظة به .

ثم إن من الشواهد على ذلك أن الله تعالى أراد بهذا الكتاب أن يكون في نفس الوقت دعوة الإسلام ومعجزة النبي ﷺ ، في نفس الآن .

بمعنى أن معجزات الأنبياء السابقين لم تكن ملتحمة مع دعواهم ، فقد كانت دعاوي الأنبياء جميعهم دعوة إلى التوحيد ، وإلى إفراد الله بالعبادة ، لكن المعجزات كانت شيئًا آخر .

فقد أوتي موسى معجزات مناسبة لعصره ، وأوتي العصا وانفلاق البحر في تسع آيات كما هو مذكور في كتاب الله .

وأوتي عيسى من المعجزات ما كان به يحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص ، وأوتي النبيون معجزات من مثل ذلك ، لكن هذه المعجزات كلها مرهونة بحياة الأنبياء ، هي وقف على وجود الأنبياء .

إنها كما شبهها بعض العلماء بعود الثقاب الذي إذا اشتعل مرة لا يشتعل مرة أخرى ، فتبقى إذن في ذمة التاريخ .

لكن دعوة رسول الله ﷺ ملتزمة كل الالتحام ، هي دعوة إلى التوحيد ، وحامل ذلك التوحيد هو كتاب الله ، فلا فرق بين الدعوة وبين المعجزة ، فتبقى معجزة القرآن هي المعجزة الوحيدة الحاضرة التي يمكن أن تقدم للناس لينظروا فيها على كل وقت ، وليست على كل حال معجزة تاريخية ، بل هي معجزة موضوعية ، وتنشأ عبر جهات الأرض مؤسسات لدراسة الإعجاز القرآني ، وأخرى لدراسة البيان القرآني ، فلا زال القرآن معطاء يعطي ويغدق ، ولا زالت أسرارته تنفتح للناس .

إذن فهذا ولا شك مما يجعل التشبث بهذا الكتاب تشبثاً قاراً بمعنى أن الأمة لا يمكن أن تضع كتاباً هو معجزتها ، بمعنى أن الأمة ستتشبث بهذا الكتاب لأن هذا الكتاب هو دينها ، هو حقيقتها ، وليس معجزة على هامش الدعوة .

ثالثاً : بلاغته التي أعجزت أهل البيان والفصاحة :

ثم إن الله تعالى شاء أن يجعل هذا الكتاب الذي هو الدعوة والذي هو المعجزة في قمة الأداء البياني ، في قمة البلاغة . وحينذاك فإن الكلمة لا يمكن أن تفقد منه ، لأن كل كلمة في كتاب الله تحتل مكانها ولا يمكن تعويضها بأي لفظة أخرى .

لو حاول الناس وحاول المفسرون أن يعوضوا قول الله تعالى : ﴿ أَتَهْنِكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ [التكاثر : ١] ، لن يجدوا كلمة أهاكم .

ولو فسروها بشغلكم لما أدى ، لأن اللهو غير الشغل . وقد يكون الشغل عبثاً .

أما اللهو فهو شيء آخر . وقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ، لا يمكن أن يوضع محلها : حللتهم المقابر ، لأن الزيارة مؤذنة بالرحيل ، فكتاب الله وكلماته كلها تحتل مكانها ، وليس هناك كلام استطاع أن يصل إلى هذه الجزالة وإلى هذه القوة .

إن الفصحاء استسلموا . إن امرأة قال لها الأصمعي : إنك امرأة فصيحة ، فقالت : أين أنا من فصاحة القرآن . ألم تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص : ٧] .

إن في هذه الآية على وجازتها أمرين ونهيين وبشارتين .

إن هذا لا يمكن أن يسمو إليه البشر ، فمن هنا سكت بعض الشعراء ، ومن هنا اتهم لبيد بن ربيعة وبعض الشعراء بيانهم أمام بيان القرآن .
إن القرآن على هذا المستوى من الجمال .

إن الكلام الجميل تحتفظ به النفوس ، وإن الآثار الجميلة كلها في العالم ترنو إليها النفوس وتهتم بها ، فكلام القرآن في نفسه مدعاة لأن يحفظ ، مدعاة لأن يتمسك به ولأن يتشبث به .

رابعاً : كونه كلام الله القديم :

ثم إن هذا القرآن في جوه حينما نقرأه ، وفي عطائه ، يوحى بأن هذا الكلام كلام رباني .

إن كتاب الله هو الذي تقرأ فيه أن الله تعالى يخاطبك ، ويخاطب نبيه إنك حينما تقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح : ١] ،

حينما تقرأ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، حينما تقرأ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨].. يا أيها النبي... يا أيها الرسول... تجد دائماً موقف المخاطب وموقع المخاطب، وتجد أن رسول الله ﷺ ليس له من هذا، في هذه المرحلة، من هذا الكتاب إلا التلقي، وليس له أن ينقص منه أو أن يزيد.

إن كلمة واحدة، وهي قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، هي بحسب ما يتبادر إلى الذهن قابلة لأن تكون موضوع اجتهاد، لأنك إذا بعثت إنساناً إلى آخر تقول له: يا فلان قل للآخر كذا وكذا، فحينما يذهب الذي ترسله تقول له قل فإنه يحتفظ بقل لأنها وجهت إليه، ولم توجه إلى الآخر.

لو كان لرسول الله اجتهاد في أداء القرآن، لكان احتفظ بكلمة قل، لكن هذا النبي الذي يؤدي هذه الكلمة: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾... فيؤديها ليفيد ذلك أن هذا القرآن أدي للأمة كما تُلقى من الله سبحانه وتعالى، وأقول هنا: إن هذا النفس، إن هذا الجو القرآني، أمر ضروري ولازم من الوجهة الموضوعية لفهم كتاب الله. إن الذي يفهم كتاب الله، ويريد أن يتعامل مع كتاب الله، لابد أن ينطلق من مسلمة وهي أنه كلام الله، وإلا فإنه يستعجمه.

فالنصوص كلها، دعنا من هذا القرآن، من كتاب الله، فلنتحدث عن النصوص كلها: إنها تحتاج إلى معرفة القائل وإلى ظرف القائل، إن شيئاً كثيراً من الشعر ومن الأدب إنما فهم بالإحاطة بصاحب النص، وبثقافته وبيئته وظروفه. نحن حينما نقرأ مثلاً في الشعر، في غير مجال القرآن

طبعًا ، شعراً ينشده قائد جيش ، ويتحدث عن صوابته ، ولكن من موقع قائد الجيش ، فيقول :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر
بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر

ثم يقول :

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذلت دمعًا من خلائقه الكبير

فإن قوله : «ولكن مثلي لا يذاع له سر» لا يمكن أن يفهمها فاهم إلا بمعرفة وضع هذا الرجل ، وأنه كان في موضع القيادة التي لا تسمح له بالتنازل وبإظهار الضعف .

على كل ، فإن معرفة أن هذا القرآن هو من كلام الله يفرض على جميع المتعاملين سواء كانوا مؤمنين به أو غير مؤمنين أن يأخذوه في هذا الجو .

أما أخذه بالطبيعة البشرية وإجراء دراسات على أنه كلام أو أدب عادي فهذا طبعًا يستعجم فيه القرآن على هؤلاء .

خامسًا : كتابته فور نزوله :

وإن من هذه الشواهد ومن هذه التوفيقات الإلهية أن الله تعالى ألهم نبيه أن يقوم بكل الخطوات التي من شأنها أن تؤدي إلى حفظ هذا القرآن . فكان من تلك الخطوات استدعاء النبي ﷺ للكتاب ، لمن يكتب القرآن الكريم .

وحينما نتحدث عن الكتابة يلم بالذهن أن العرب كانوا أمة أمية وأنهم كانوا لا يكتبون .

وهذا نوع من المبالغة لا بد من رده ، فالعرب كانوا أمة أمية في أغلبهم ، لكن هذا لا يعني أنهم كانوا جهالًا بالكتابة ، فقد كتبوا نصوص الشعر

وكتبوا المعلقات بماء الذهب ، وكتبوا المعاهدات على ظهر الكعبة ، ليقرأها من كان يقرأ ، ولا شك في ذلك ، فرسول الله ﷺ جاء في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب لكنه نقلها من ذلك ، من أمة أمية ، انتقلت الأمة من آية : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] إلى آية أخيرة نزلت وهي : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بَدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . فتكرر كلمة الكتابة لأن الأمة أصبحت أمة كاتبة .

ورسول الله ﷺ قد اتخذ له كتابًا للوحي ، وقد بلغ به بعضهم ثلاثًا وأربعين كتابًا ، كانوا كتابًا مجيدين وكانوا يحضرون وكان منهم متخصصون ، وكان زيد بن ثابت وكان أبي بن كعب من أشد الناس تخصصًا ، وكان الخلفاء الأربعة كتابًا . كل هؤلاء كانوا يكتبون .

كان النبي ﷺ يكتب رسائله ، وقد ذكر ابن سعد مائة وعشرة من الرسائل ، وكانت تأتيه الوفود ، وقد زاره سبعون وفدًا وكتب لهم . أحصى بعض الباحثين مائتين وستًا وأربعين رسالة ووثيقة ، هي الآن موجودة في كتاب «الوثائق السياسية في العهد النبوي» .

بمعنى أن الكتابة أبدًا لم تكن عائقًا أو مانعًا من أن يكتب كتاب الله ، فقد كتب القرآن الكريم ، وكان رسول الله ﷺ يستقرئ الذي يكتب ، ويروي زيد بن ثابت أن النبي ﷺ كان يدعوه إلى أن يكتب ، فإذا كتب قال اقرأه علي ، فيقرأه فيقيمه النبي ﷺ .

فالكتابة كانت إعدادًا لهذه الأمة ، وكيف لا ، والنبي ﷺ يقرأ في هذا القرآن أن من وظائفه أنه ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ ،

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ
 ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة : ١-٣] .
 فالإشارات إلى هذا ، والإشارات إلى الكتاب وتسمية هذا القرآن كتابًا يساعد
 طبعاً على الذهاب في هذا الاتجاه .

ثم إن النبي ﷺ كان حريصاً على أن الناس يظنون مدركين أو متصلين
 بالقرآن .

ويكفي أن أقول : إن الناس بعد اهتمامهم بالقرآن قد استوعبوا هذا
 القرآن وحفظه عدد كبير منهم . فقد بعث النبي ﷺ في السنة الرابعة إلى
 بعض المشركين نحوًا من سبعين صحابيًا من القراء ، ليعلموهم القرآن ،
 ثم غدروا بهم ، فحينما يبعث النبي ﷺ سبعين من القراء ، فمعنى ذلك أن
 القراء كانوا متوافرين وكانوا كثيرين ، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يبعث
 بكل من عنده .

يكفي أيضًا أن نقول إنه حينما وقعت واقعة اليمامة ، وقيل إن القتل قد
 استحر واشتد بالقراء ، قالوا إن القراء الذين قتلوا باليمامة كانوا ما بين
 سبعمائة وتسعمائة قارئ .

إذن هذه الإجراءات النبوية التي تضافرت كلها أو مأت وأرشدت إلى
 ضرورة الاهتمام بهذا القرآن .

خامسًا : جمع القرآن وكتابة المصحف :

ثم إن هذا القرآن حظي بأمر مهم جدًا ، وهو أن هذه الأمة بعد وفاة
 نبيها سارعت إلى جمع القرآن وإلى جمع كل المكتوبات التي كانت على عهد
 الرسول ﷺ .

فزيد بن ثابت في حديث طويل يرويه الإمام البخاري - في كتاب «فضائل القرآن» باب جمع القرآن - يقول : إنه - في مضمون الأحاديث - إن أبا بكر دعاه بعد أن كان عمر قد اتصل بأبي بكر ، وقال له إن القتل قد استحر واشتد بالقراء يوم اليمامة ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فإني رأيت أن تجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ . قال عمر : إنه خير . أقنعه بأن هذا خير للأمة .

فاستدعيا زيد بن ثابت فأقنعه بعد تردد بهذه العملية . ثم قام بجمع القرآن .

قال له أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . ولذلك دعاه إلى جمع القرآن ، بمعنى أن أبا بكر وأن الصحابة لاحظوا فيه الصفات أنه شاب له عزمات الشباب ، وأنه عاقل وله ذاكرة واعية ، وأنه ليس متهماً ، أي أن له أخلاقاً وأمانة علمية .

ففوض إليه هذا الأمر الذي قال فيه زيد بن ثابت : فوالله لو كلفاني حمل الجبال - نقل الجبال - ما كان ذلك أشد علي مما كلفت به .

ثم قال زيد : تتبع القرآن ، أجمعه في العصب واللخاف ومن صدور الرجال ، وفي رواية أنه جمعه من القصب ومن الكرانيف ومن كل ما كان القرآن مكتوباً فيه .

فبدأت هذه العملية في وقت مبكر جداً ، وكتب القرآن بهذه المبادرة من أبي بكر ومن عمر رضي الله عنهما . وكانت المبادرة تقوم على أساس أنه لا يدون في كتاب الله إلا شيء يشهد له من خلال ما هو مكتوب ، كان الناس يأتون بمكتوباتهم ، وهذه المكتوبات يشهد عليها الصحابة فتدون ، والزمن

يومئذ مبكر ، والصحابة متوافرون ، فتمت هذه العملية المباركة الأولى .
ثم جمعت الصحف ، كانت عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم صارت إلى حفصة ، ثم كان بعد ذلك كتب عثمان بن عفان للمصحف الإمام .
هذه العملية التي قام بها المسلمون قامت بها الأمة في هذا الفجر من تاريخها هي عملية في الحقيقة متميزة ، ذلك بأن الله تعالى إذ خص هذا الكتاب بأنه سيكون محفوظاً ، فقد ألهم هذه الأمة هذا العمل ، ونحن حينما نبحث عن وجود الكتب في مقابل وجود الأديان ، إننا نعلم أن الأديان كثيرة جداً ، وأن الأديان منتشرة .

لقد كان يتوافر في البلد الواحد أو في الجهة الواحدة ، نحو من مائتي ديانة في مصر القديمة في لحظة واحدة . كانت تتكاثر الديانات في بعض المناطق . لكن هذه الديانات التي مرت عبر تاريخها ليس لها مقابل مماثل من الكتب التي كانت معتمدة لدى هذه الديانات ، بمعنى ، أن كثيراً من الديانات أضاعت كتبها وأنها لم تبقى .

إن الظروف التاريخية التي مرت بها هذه الديانات ، هي ظروف - حقيقة - خاصة ، وظروف تدعو إلى تمييز كتاب الله عما سواه . إن الظروف التي مر بها موسى عليه السلام حينما خرج من أرض مصر ، وحينما أقام في التيه وحينما اختلطت من حوله أمور وحينما منع وحرم من أن يدخل الأرض المقدسة ، ومات وهو ينظر إلى الأرض المقدسة ولم يدخلها . بعد ذلك وقعت أشياء وأشياء . في كتب بني إسرائيل في سفر الملوك الثاني ، أن هذه التوراة إنما عثر عليها في زمن يتجاوز السبع مائة سنة . على كل ، فالكتب الكبرى في التوراة ، التي هي الكتب الخمسة : سفر التكوين ، وسفر

الخروج ، وسفر العدد ، وسفر التثنية ، وسفر اللاويين ، بحسب ما يذكره علماء التاريخ كتبت في فترات متغيرة .

فالسفران الأولان- التكوين والخروج- كتبا في القرن التاسع قبل الميلاد ، وسفر العدد كتب في القرن السابع قبل الميلاد ، أي بعد قرنين ، والسفران الأخيران- سفر التثنية والعدد- كتبا في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد . وهكذا ، يتحدث علماء الأديان من غير المسلمين ، من الألمان ، أمثال : إيفالد وتوخ وفيلهاوزن الذين تحدثوا بعمق عن هذه المرحلة ، وقالوا : إن هذه العبرية طبعًا مرت عبر مراحل ، وإن اللغة تغيرت . لاشك وأنها- على الأقل- مرت بأربع مراحل من اللغة : من صفائها ، من ضعفها . . . إلى غير ذلك .

فلهذا السبب لاشك أن اللغة تغيرت ، وأن هذا الكتاب أصبحت له هذه الخصوصية وأصبحت له هذه الميزة بسبب أنه جمع في هذه الظروف .

ليس أمر الكتب الأخرى ، كتب المسيحية ، بعيدًا عن هذا . فقد كتبت- أيضًا- في أزمنة متأخرة ، ليست متأخرة تمامًا ، ولكن يكفي أن يكون من الكتب الأربعة التي لدى المسيحيين كتابان جمعتهما رجلان ليسا من الحواريين ، وهما مرقص ولوقا ، وأن الكتابين الآخرين ألفهما وجمعهما حواريان ، من أصحاب عيسى عليه السلام .

على كل ، هذه الكتب جمعت ، وأهلها- طبعًا- يعتمدونها ويخدمونها ، لكن الذي يعيننا نحن من أمرها أن هنالك وقائع تاريخية . والواقع الذي مر به كتاب الإسلام واقع خاص وقد جمع في ظروف والصحابة متضافرون واللغة حية والشهود حاضرون ، ثم انطلقت هذه الأمة بهذا الكتاب تعمل

به وتنفعه وتطبقه في حياتها .

سادسًا : محافظة الأمة على الرسم العثماني :

إن من الشواهد الأخيرة التي أذكرها على اهتمام أو عناية أو حفظ أو أمانة المسلمين في حفظ القرآن شاهدًا أخيرًا ، وهو الكتابة القرآنية . إننا فعلاً حينما نقرأ في كتاب الله ، حينما نفتح المصحف ، تطالعنا ظاهرة معروفة .

وهي الكتابة القرآنية الخاصة . سئل كبار الأئمة في زمن مبكر ، سئل الإمام مالك ، عن الرجل يريد أن يكتب القرآن ، أيكتبه على الكتبة الأولى أم يكتبه كتبه جديدة فقال لا إنما يكتبه كما كتب مصحف عثمان ابن عفان .

أي إن الناس عرفوا أن هناك تطورات في الكتابة وقعت ، لكن العلماء - في مجملهم - ظلوا داعين إلى المحافظة على الرسم العثماني .

هذا الرسم العثماني حافظوا عليه ويكتب على نحو ما تلقى ، وهو - في كتابته - يعود إلى أسرار ، وإلى أسباب عظيمة جدًا .

ولكن على كل حال ، لابد أن يبقى على المكتوب كما هو .

فمثلاً التاء في بعض الكلمات - تاء التأنيث - تكتب مربوطة كما هو شائع لدينا ، لكن لدينا في كتاب الله كلمات معينة هي ثلاث عشرة كلمة ، تكتب مربوطة مرة وتكتب مبسوطة أخرى ، وهي كلمة امرأة ، وابنة ، ونعمة ، ورحمة ، وسنة ، وبقية ، وفطرة ، وجنة ، وشجرة ، وقرة ، ومعصية . . ثلاث عشرة كلمة بالتحديد . هذه الكلمات وردت في بعض الأماكن مكتوبة بتاء مربوطة ككلمة نعمة ، أو رحمة ، وردت تسعاً وسبعين مرة ، كتبت في معظمها

بالتاء المربوطة ، ولكنها كتبت سبع مرات مبسوطة .
لا أحد من العلماء استطاع أن يتدخل وأن يجري ذلك فيقول إنها تكتب
مربوطة في جميع تلك الحالات .
ونفس الأمر يقال عن كلمة نعمة ، فقد وردت أربع وثلاثين مرة ،
وكتبت في إحدى عشرة مرة مبسوطة .
بمعنى أن المسلمين لم يستطيعوا رغم تطور الكتابة ، رغم أن بعض
علمائهم أمثال ابن قتيبة كان يقول - لما كان يقف أمام كلمات الأصول التي
تكتب الألف فيها بالواو ، وهي الصلاة والزكاة والحياة والربا - كان
يقول : لولا إجماع الناس على هذا كان أحب إلي أن أكتبها بالألف .
ولكنه لم يستطع أن يغير ذلك . بمعنى أن أمتنا هذه حافظت على هذا
الكتاب ما وسعها الأمر ، وأنها لم تتدخل فيه بشيء . ولو كان لها أن تتدخل
لتدخلت على الأقل في كتابته ، والكتابة أمر خارجي .
كل ذلك يفيد أن هذه الآيات التي نتلوها ، أن القرآن الذي يرتله
المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لم ينله ولم يصب بزيادة ولا بنقص ،
ولم يعتد عليه معتد ، ولم يضع يده فيه آثم .
فحينما يقرأ الإنسان الآية القرآنية فليعلم أنه يقرؤها كما أنزلها الله
سبحانه وتعالى ، وكما تلاها رسول الله ﷺ . وقد بذلت الأمة الإسلامية
جهوداً عظيمة في السير في هذا الطريق .

المحاضرة العاشرة بعد المائة

جهاد النفس طريق الصلاح والإصلاح

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إن هذه الآية الكريمة هي من سورة العنكبوت ، وسورة العنكبوت من السور المكية التي نزلت قبل الهجرة . ولنفهم هذه الآية لابد أن نحاول أن نرجع بها إلى أول السورة ، فهي من رد العَجَزِ على الصَّدْر : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

معاني لكلمة الجهاد في القرآن :

هذه الكلمة الجهاد ، مادتها وردت كثيرًا في القرآن الكريم . وأكثر ما وردت ، تعني استفراغ الجهد والطاقة في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ، وتأمين طريقها والدفاع عن معتنقيها وأوطانهم ومقدساتهم . ولكنها في هذه السورة المكية لا تعني هذا المعنى معنى الجهاد بالسلح ، وإنما تعني جهاد النفس ، لأن هذه السورة نزلت قبل فرض الجهاد ، قبل فرض قتال الأعداء والمحاربين .

ونوهت أول السورة بما يجب أن نعرفه ، لماذا هذا التوجيه الرباني قبل أن يفرض الجهاد وقبل أن يدعى المسلمين لجهاد أعدائهم .

السورة بدأت هكذا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِمَّا مَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦١﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ [العنكبوت: ١-٦].

فالقرآن يريد أن يقول للمسلمين: الإيمان بالله، وتكاليفه ليست كلمة تقال، وإنما هو عقيدة راسخة، وعمل جاد في الدين والحياة، ورسالة مكلفة، يجب أن تستعدوا للدفاع عنها، ويجب أن تجاهدوا أنفسكم وتعدوها للجهاد قبل أن تجاهدوا أعداءكم وتقاتلوهم، فإن من حكمة الله وسنته في الكون أن يبتلى الناس، وأن يتعرضوا لمن يخالفهم، أو لمن يوقعهم في الفتنة، أو يحاول أن يدفعهم إلى الفتنة. ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢].

أظن الناس أن يقولوا آمنا فيكفي منهم هذا القول. هذا استفهام إنكاري، معناه: يجب أن لا يظنوا ذلك، وأن لا يحسبوا ذلك، فإن حسابنا ذلك على هذا النحو خطأ في العقيدة وفي التصور.

ولقد ابتلى الله الناس من قبلنا ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ [العنكبوت: ٣] ابتلينا الذين من قبلكم بالحن والشدائد، فصبر المؤمنون، وانتكس غير المؤمنين، ولذلك يجب أيها المسلمون، أن تعدوا أنفسكم، أن تجاهدوها، وأن تقيموها على الصراط المستقيم. ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦].

جهاد النفس:

فالجهاد للنفس، للدفاع عن النفس، لصالح النفس، لاستقامة النفس. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. فهو غني عن عبادتنا وعن إيماننا، وعن جهادنا، فما نعد له أنفسنا إنما نفعله لصالحنا ولضمان حياتنا حياة كريمة في هذا الوجود.

ولذلك جاءت آخر السورة لتتوه بالذين جاهدوا أنفسهم ، بالذين استطاعوا أن يلزموا أنفسهم بطاعة الله ، لأن جهاد النفس ، وهي النفس الأمارة بالسوء التي أشار إليها القرآن الكريم ، حكاية عن نبي الله يوسف عليه السلام ، أو حكاية عن المرأة التي دعت له لنفسها ، اعترافاً منها بجريرتها : ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف : ٥٣] ، هذه النفس التي تأمر كثيراً ، وتدفع الإنسان إلى السوء والقبح ، وإلى الباطل ، ينبغي أن نعمل على إصلاحها لتصلح لنا نفوسنا ، وتنتهج سبيل المتقين ، وهذا من أهداف القرآن الكبرى وغايته العظمى .

السلوك غير السوي ، هو الذي دعانا الإسلام والقرآن أن نجاهده وأن نحاول أن نلزم أنفسنا بطاعة الله .

فجهاد النفس ، مجمله هو إخضاع هذه النفس لأوامر الله تعالى ، وإلزامها بطاعة الله ، والسعي لمرضاة الله ، وتحمل المشقة في عبادته . وكفها عن الآثام والموبقات والأخلاق السيئة في الصلة بالله والناس ، وإبعادها عن كل ما حرم الله ونهى عنه ، وحملها على تعلم أوامر الدين ، والعمل بهذه الأوامر ، وتعليمها لمن لا يعلمها ومحاولة نشرها ونشر هذه التعاليم الإسلامية بكل ما أوتي الإنسان من قوة .

فجهاد النفس يعني أن يحاسب المسلم نفسه ، وأن تكون تحت مراقبته ، وأن يجاهدها ويقيمها على الطريق المستقيم في كل الأحيان وكل الأوقات .

وهذا ما يعنيه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، جاهدوا في طاعتنا ، جاهدوا في مرضاتنا ، جاهدوا في معرفتنا والوصول إلى الأسرار والدلائل التي تظهر قدرتنا ودلائلها في الكون وجاهدوا في نصره

الدين الذي اخترناه لهم . فجهاد النفس هو إلزام لها بطاعة الله ، وكلمة الجهاد نفسها تعني است فراغ الطاقة والقدرة ، وبذل كل ما في الإمكان لإقامة الحق ورفع شأنه .

ولذلك ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا﴾ بذلوا كل ما في وسعهم ليكونوا مطيعين لله ، ملتزمين بمبادئ الإسلام ، رافعين الراية للدفاع عنها وعمن ينتسب إليها .

وهذا التفسير يؤيده ويوضحه قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿٧٧﴾ وءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٧٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٨٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٨١﴾ [النازعات: ٣٧ ، ٤١] .

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ هذا الأسلوب عندما يكون في القرآن ويبدأ بهذه الأداة : «أما» أداة التفصيل والشرط ، فإنما يعني بذلك تأكيد الكلام وتثبيته في النفوس ، لأنها أداة تفصل الكلام وتجعله وحدات تركز في الذهن والعقل . فهي تفيد التأكيد لهذه المعاني : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ، تجاوز الحد في العصيان إلى الكفر ، وآثر الحياة الدنيا ، اختارها وفضلها بالانغماس في الشهوات المحرمة ، أو الشهوات المباحة التي تشغل عن طاعة الله ، وتجعل المسلم ينسى الله وما له عليه من الحقوق .

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿٧٧﴾ وءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٧٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ﴾ ، دار الشقاء هي المقر الذي يستقر فيه يوم القيامة . لأن المأوى هو المنزل والمكان الذي يأوي إليه . ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقام ربه قيامه بين يدي ربه . فمقام مصدر ميمي بمعنى القيام ، وإنما أضيف إلى الله ﷻ لأنه قيام بين

يديه ، لأنه قيام في رحابه .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ قيامه بين يدي ربه يوم القيامة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ ومقام ربه هو منزلته في الربوبية وسيطرته على جميع المخلوقات ، وعظمته ، وجلاله .

أما من خاف عظمة ربه ، جلال ربه ، أو قيامه بين يدي ربه . ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ كف النفس وزجرها عن الهوى ، عن الميل إلى الباطل ، عن الشهوات المحرمة ، عن الإفراط في الشهوات المباحة التي تجعل المؤمن لا يفكر إلا في ملذات الحياة . ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ دار السعادة والنعيم ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ هي المكان الذي ينزل فيه ، هي المستقر الذي ينتهي إليه ، سعيدًا كريمًا في رضوان الله ونعيمه .

هذا التفسير لجهاد النفس تدل عليه آيات كثيرة ، وأحاديث كثيرة ، منها هذا الحديث الذي أخرجه الإمام أبو عيسى الترمذي في صحيحه ، عن الصحابي الجليل فضالة بن عبيد العمري الأوسي الأنصاري ، المتوفى بمكة سنة ثلاث وخمسين هجرية على الأصح . قال رحمته الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المجاهد من جاهد نفسه» ، وهو ثاني حديثين رواهما الإمام الترمذي بسند واحد ، وعقب عليهما بقوله : حديث فضالة حسن صحيح . وكذلك هو في الجامع الصغير للإمام السيوطي بإضافة كلمة في الله ، «المجاهد من جاهد نفسه في الله» وبإضافة ابن حبان إلى الإمام الترمذي فهو حديث صحيح ، وهو واضح المعنى ، يقصر الجهاد أو الوصف بالجهاد على من جاهد نفسه ، وهو قصر ادعائي ، كأن غيره من الجهاد ليس من الجهاد في شيء ، أو كأنه لا يوجد غيره شيء من أنواع الجهاد . مع أن هناك جهاد الأعداء ، وجهاد

الشيطان الذي يزين لنا الفحشاء .

فجهد النفس سلوك جليل وعمل يدعو إليه الإسلام ، وتوضحه هذه الآثار ، هذه الآية الكريمة وهذا الحديث الصحيح ، ويؤيده ويدل عليه أيضاً ما جاء في سورة الشمس ، هذه السورة القصيرة التي نتلوها كثيراً ، وترون أسلوبها في تأكيد هذا المعنى يختلف بعضاً أو كثيراً من الاختلاف عن الأساليب الأخرى .

عندما نقرأها نجد فيها قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ۝ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ١-١٠] .

سبع آيات جاءت لتؤكد آيتين لتدلنا على آيتين عظيمتين ، الآيات السبع الأولى من هذه السورة لو تأملناها لوجدنا فيها أحد عشر قسمًا . ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ، أقسم بالشمس ، وأقسم بضحاها ، بضوئها اللامع ، ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ . هذه خمسة أقسام . ﴿ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، والسماء وبنائها ، لأنه من فعل الله يقسم به ، لأن «ما» لغير العاقل وقد وضعت هذا الموضع فيمكن أن تكون مصدرية ، ويكون البناء مقسمًا به ، والسماء وبنائها ، والأرض وطحواها ، ونفس وما سواها ، لو عددنا لوجدنا أحد عشر قسمًا في سبع آيات .

هذه السبع الآيات تظهر جلال الله ومظاهر قدرته في هذه الكواكب التي أقسم بها القرآن ، وهذه الظواهر الكونية وهذه الأفعال العظيمة

المسندة إلى الله ﷻ لتؤكد لنا وتقول لنا : إن الفلاح والفوز في تطهير النفس وتزكيتها ، لأن قد أفلح من زكاها هو جواب هذه الأقسام كلها . هي أقسام متعددة ولكنها تعتبر قسمًا واحدًا ، لأن علماء اللغة يقولون : إذا تعدد القسم يجب أن يتعدد جواب القسم ، وهنا جواب القسم واحد ، فكل هذه الأقسام هي قسم واحد ، والجواب واحد .

الجواب ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

قد خاب : خسر وهلك ، قد أفلح : فاز بالنعيم المقيم بالسعادة .

قد أفلح من زكى هذه النفس التي أقسم الله بها وبتسويتها .

سواها : جعلها كاملة الأعضاء معتدلة الأعضاء في صورة هي أكمل الصور .

حتى أن القرآن أقسم عليها : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ١-٤] ، في أجمل صورة في أجمل تسوية .

هذه النفس التي خلقها الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ، ونفس وتسويتها . ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ﴿١﴾ قد أفلح من طهرها وزكاها . من طهرها من الذنوب من جاهد لتطهيرها وإقامتها على الطريق المستقيم . وقد خاب : خسر وهلك من دساها ، من خبأها بالمعاصي ، فالتدسية هي التحقير ، هي الإذلال بالمعاصي . والذي يحقر نفسه أو يطمس نفسه بالمعاصي يكون حقيرًا ذليلاً ، قد خاب من دساها . ودساها أصلها دسساها على نظام اللغة العربية ، عندما تجتمع ثلاثة حروف من جنس واحد يجوز أن يقلب الثالث ياء فيقال : دساها بدل أن يقال دسساها ، يعني خبأها وحرقتها بالمعاصي . . . جهاد النفس

هو مراقبة النفس ووضعها تحت المحاسبة باستمرار .

الله يعين الإنسان على جهاد نفسه إذا علم صدق ذلك منه :

وهذا الجهاد ، هذه المجاهدة المستمرة ، الله يعين عليها إذا ما أقبل المسلم على تطهير نفسه على جهادها والاستمرار في مراقبتها ، فإن الله يعين على ذلك ويقود المسلم إلى الطريق المستقيم ، بدليل آيتنا هذه التي هي موضوعنا .

خبر المبتدأ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩]
﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ الله تبارك وتعالى جعل نتيجة المجاهدة هي من فعله سبحانه وتعالى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ لنوفقهم ولنوصلنهم إلى المطلوب ، ولنعرفنهم سبلنا ، جمع سبيل وهي الطريق الواضحة السهلة ، لنعرفنهم سبلنا ، طرق الوصول إلينا ، طرق معرفتنا ، سبيل معرفتنا ، سبيل مرضاتنا ، سبيل ما يقربه إلينا ما داموا قد أخلصوا القصد وأخلصوا النية واتجهوا لله وجاهدوا أنفسهم وألزموها بطاعة الله ، فإن الله تبارك وتعالى يأخذ بأيديهم ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنذلنهم على طريق الحق ، طريق الوصول إلى رحمتنا وإلى مرضاتنا .

والهداية بهذا المعنى - وهي بمعنى : التوفيق ، بمعنى التوصليل إلى المطلوب ، بمعنى إيجاد الهداية في النفوس ، وتثبيت الهداية في النفوس - هي خاصة بالله تبارك وتعالى لا يملكها غيره ، ولا يقدر عليها غيره ، بدليل قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] . إنك يا رسول الله لا تقدر ولا تستطيع أن تخلق الهداية في النفوس ، ولا أن توجد الهداية في النفوس ، إنما أنت تقدر ما كلفناك إياه وهو أن تبلغ ، أن تبين ، أن ترشد الناس إلى الخير ، لأن الهداية

تكون بمعنى البيان والإرشاد ، وهذا المعنى يملكه الإنسان ، أن يبين وأن يرشد وأن يوضح الحق ، وتكون بمعنى الإيجاد والتوفيق ، وإيصال وخلق الهداية في النفوس وقيادة النفوس إلى الهدى وتثبيتها على هذا الهدى ، وهذا لا يكون إلا لله تبارك وتعالى ، ولأن الله ﷻ يقطع الوعد على نفسه ، أن يهدي الجادين في جهاد أنفسهم ، ساق لنا هذه الجملة مؤكدة الفعل ﴿لَهْدِيْهِمْ﴾ وجعل خبر المبتدأ فعلاً مضارعاً مؤكداً باللام والنون ﴿لَهْدِيْهِمْ سُبُلَنَا﴾ وهو إذن ، جواب قسم . كلما وجدنا فعلاً بهذا التركيب في القرآن الكريم نعلم أنه جواب قسم ، والقسم يؤتى به للتأكيد والتثبيت . وكأن الله ﷻ يقول لنا : وعزتنا وجلالنا لنهدينهم سبلنا ، لنوصلهم إلى الطريق الموصلة إلينا ، وهذه بشرى عظيمة وشيء كريم ، يجب أن نحرص عليه . ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيْهِمْ سُبُلَنَا﴾ .

وبذلك تظهر وترتبط الآية بالآية السادسة من جملة الآيات التي تلونها في أول السورة . ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ . هنا يظهر أن الجهاد هو لمصلحة المجاهد ، هو لمنفعة نفسه ، فهو يجاهد لنفسه ، وأولى ثمرات هذه المنفعة ، أن الله يعينه ، أن الله يقوده إلى الهدى ويدفعه إلى الصراط المستقيم .

ثم بعد ذلك إذا ما أخلص المسلم وجد في هذه المجاهدة راحة النفس ، ونحن نعلم أن شهر رمضان المبارك هو خير المواسم للحديث عن الجهاد عن جهاد النفس . فهو الوسيلة العملية لتدريب نفس المسلم على جهادها ومراقبتها والإخلاص لله ﷻ ، حتى إن الأحاديث الكثيرة تأمرنا أن نتحلى بالصبر ، وأن نتحلى بالحلم في شهر رمضان ، وأن لا نقابل السفهاء بما يدفعوننا إليه من سيئ القول وقبيحه ، وجاءت في ذلك أحاديث كثيرة .

والآية الكريمة التي فرض بمقتضاها الصوم تنتهي بقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . فما الصوم إلا جهاد للوصول إلى التقوى ، للوصول إلى طهارة النفس . وما التقوى إلا فعل الواجبات ، والتزام للطريق المستقيم ، والابتعاد عن السيئات والمنكرات ، هي فعل الواجبات ، وترك المنهيات . وبذلك يخطو المسلم الخطوة الأولى للثانية ، وهي أن يكون الله معه . ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنقودهم إلى الطريق المستقيم . ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

معية الله مع المحسنين :

وإن الله لمع المحسنين ، وهذه هي الثمرة الجليلة الثانية لجهاد النفس : أن يكون الله مع المحسنين ، والمحسنون هم الذين أحسنوا العمل ، هم الذين أتقنوا القيام بواجباتهم الدينية ، هم الذين استطاعوا أن يفعلوا ما يفعلونه من أمور الدين أن يفعلوه فعلاً جيداً ، مستقيماً ، لا عوج فيه . فهم محسنون ، موصوفون بالإحسان ، بالإتقان في أفعالهم وأقوالهم .

وقد نقل الإمام أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط ، نقل أن المحسنين في هذه الآية هم الموحدون في تفسير ابن عباس . المحسنون هم الموحدون . وغير ابن عباس يقول : إن المحسنين هم المجاهدون ، ونحن نرى أن غير قول ابن عباس أولى بهذه الآية ، لأنه هو الذي يدل عليه السياق . وعليه يكون المعنى وإن الله لمع المجاهدين ، الذين يجاهدون أنفسهم ويكون فيه إقامة الظاهر مقام المضمحل . فكأن سياق الآية أن يقال : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإنا لمعهم . لأنهم تقدموا في الآية ، فمقتضى اللغة العربية أن يعبر عنهم بالضمير ، ولكنه عبر عنهم بالمحسنين بيانا لشرفهم

وبيانا ووصفا لهم بالإحسان وهذا شيء جميل أن يصلوا إلى درجة الإحسان والإتقان ، والسلوك الفاضل القويم ، فيوصفون بكونهم محسنين . فأراد الله ﷻ ، أو القرآن الكريم أن يصفهم بذلك ، إظهاراً لشرفهم ومكانتهم . ولذلك يقول : إن المحسنين هم المجاهدون ، وإن الله لمعهم ، وهي معية خاصة ، معية مجازية خاصة والخاصة معناها أنه معهم بعونه بنصره بحفظه بتوفيقه بإحسانه ، وكل أنواع رحماته . فهو معهم أينما كانوا ، وحيثما كانوا ، وهي المعية الخاصة ، كما في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] . فهي تلك المعية التي يتولى فيها الله ﷻ عبده بالتوفيق والرعاية والحفظ .

أما المعية العامة ، وهي معية العلم والقدرة ، فهي مع كل إنسان ، بل مع كل مخلوق ، فالله محيط بالجميع ، وقادر على الجميع في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧] . فالمعية العامة مع الناس جميعاً . أما المعية الخاصة فهي : معية التوفيق والحب ، معية الرحمة والرضوان ، فهي مع الصابرين مع الصالحين ، مع كل من يجد في طاعة الله وجهاد نفسه .

وهذا المعنى ، هذه المعية الخاصة ، فسرهما أكثر ما فسرهما الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري بسنده إلى الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » .

وفي الأحاديث القدسية، وفي الأربعين النووية: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

هذا حديث قدسي، يصور لنا معية الله مع المؤمنين، ويرسم لنا طريق جهاد النفس، وثمرة جهاد النفس، وميادين جهاد النفس. وهو حديث طويل، ويتصل بآيات كثيرة.

ونحاول أن نفسره بعض التفسير فمن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، هذا يعني ميدانًا من ميادين جهاد النفس، وهي الصلوات الاجتماعية، والعلاقات بين الناس، الصلة بين المؤمنين.

هذه العلاقات فيها احتكاكات كثيرة، وتحتاج من المؤمن أن يجاهد نفسه فيها.

الولي:

والقرآن الكريم تحدث كثيرًا، وأمرنا بأخلاق كريمة نعامل بها إخواننا المؤمنين. من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب.

والولي إما أن يكون فعليًا بمعنى مفعول، وإذا كان كذلك فمعناه من يتولى الله أمره برعايته وحفظه وتوقيفه، ولا يكله إلى نفسه طرفه عين. وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

لا يترك الصالحين وإنما يتولاهم بالحفظ والرعاية ، لأنه معهم ، فهو فعيل بمعنى مفعول .

وإما أن يكون فعيلًا بمعنى الفاعل ، ومبالغة في المعنى . ويكون معناه : الولي من يتولى طاعة الله ويحرص على طاعة الله ، ويواظب على طاعة الله ، فهو يتولى أمر الله . ولا يهمل شيئًا من أوامر الدين . ولذلك فهو ولي ، فهو موال وعبادته تتوالى لا ينقص منها شيء ، وتكون في أوقاتها متوالية ، فهي بمعنى الفاء .

ويلاحظ بعض الأئمة أن الوصفين واجبان في الولي ، فلا بد أن يكون الولي مطيعًا لله ، متوليًا أمر الله ، لا ينقص منه شيئًا ، ولا ينقص من عبادته شيئًا ، ويحافظ على أوامر الله وآداب الإسلام ، وأن يكون مرعيًا من الله ، متوليًا أمره . فكلاهما كما نفسر .

فإذن ، الولي هو من يتولى طاعة الله ويواظب عليها كما يقول الإمام ابن حجر في فتح الباري : «الولي هو العالم بالله ، المواظب على طاعة الله ، المخلص في عبادته» . وهذا التفسير ، وهذا المعنى يشير إليه قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هو تعريف الولي ، الولي هو من يتقي الله ويعبده ويواظب على هذه العبادة ويجاهد نفسه ، ولذلك قال ابن جزي في تفسيره : اختلف الناس في تفسير الولي . ولكن الحق فيه هو ما قاله الله ﷻ : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ .

فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو الولي ، ولذلك فجميع المسلمين يجب أن يكونوا أولياء ، أولياء الله يعبدونه حق عبادته ، ويؤمنون به خالص الإيمان .

وبذلك يحصلون على هذا الوصف الجليل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ .

فمن اتقى الله بعد الإيمان فهو من أولياء الله ، والمسلمون إذا أرادوا جميعاً أن يكون الله معهم ، أن يكون ناصرهم ، أن يخرجهم مما يقعون فيه من الفتن يجب أن يكونوا أولياء الله ، لأن الله مع المحسنين مع أوليائه لا يتركهم .

فإيذاء أولياء الله خاصة والمؤمنين عامة هو عائق ، هو إعلام بأن الله قد عادى من عادى وليه . فقد آذنته بالحرب ، فقد أعلمته بالحرب - يعني - علامة إيدان الله الإنسان بالحرب ، أن يكون عدواً لولي من أولياء الله .

من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، فقد أعلمته بالعداء ، بالإبعاد عن رحمتي ورضواني ، لأن الله تبارك وتعالى إذ عادى إنساناً أهلكه ، إذا عادى شيئاً أهلكه .

فليست عداوته كالعداوات الأخرى يكون فيها ما يكون بين الناس ، وإنما هي إعلام بإبعاده من رحمة الله ، وبالقضاء عليه وإهلاكه ، لأنه يعادي أولياء الله . من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، فقد أعلمته بالحرب .

فإذا هذا الميدان ، ميدان العلاقات بين الناس ميدان واسع والحديث فيه أيضاً واسع ، والقرآن الكريم يأمرنا أن نكون في تعاملنا مع الناس كرماء حلماء ، لا نسخر قدراتنا في الإيذاء ، ولا نقابل الناس بما يكرهون . ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٤) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠١] .

خذ العفو، خذ السهل الميسور من أخلاق الناس ومعاشرتهم ولا تكلفهم ما لا يطيقون. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بالمعروف المتقبل المقبول.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ عن السفهاء، لا تقابلهم بما يفعلونه من السفه، كما في قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفي شهر رمضان المبارك في الأحاديث: «وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنني صائم»^(١) مرتين.

فإذن هذا الميدان الواسع، ميدان العلاقات بين الناس، جهاد النفس في (ازدواج)، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢).

«خالق الناس»، عاشر الناس، عامل الناس بخلق حسن.

والخلق الحسن يجمعه شيان: الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم. فهذا الميدان ميدان واسع لجهاد النفس.

وسيدنا رسول الله ﷺ يرسم لنا الطريق المستقيم بروايته عن الله ﷻ هذا الحديث الشريف «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب - فقد أعلمته بالحرب - وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه».

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»، يعني : أن أفضل ما يفعله المؤمن ويتقرب به إلى الله هو أن يؤدي الواجبات والفرائض . «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» .
ويبدو أن الوقت قد انتهى ، فما لي إلا أن أدعو الله ﷻ أن يغفر لنا ، وأن يرحمنا .

اللهم اغفر لنا وارحمنا ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

المحاضرة الحادية عشرة بعد المائة

أثر التربية النفسية في السيطرة على الغرائز الفطرية

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» رواه البخاري في «صحيحه» .

الموضوع : أثر التربية النفسية في السيطرة على الغرائز الفطرية ، في ضوء الحديث النبوي الشريف : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» .

سوف أكتب أولاً عن سند الحديث ، ثم سوف أتناول المصطلحات الثلاثة : القوة النفسية ، القوة العقلية ، القوة القلبية .

سند الحديث :

أخرج البخاري في «صحيحه» ، في كتاب الأدب ، في باب الحذر من الغضب ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» .

أخرج الإمام مسلم في «صحيحه» في باب الأدب ، حدثنا يحيى ابن يحيى ، وعبد الأعلى بن حماد ، قال كلاهما : قرأت على مالك عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» .

روى الإمام النسائي في كتابه «عمل اليوم والليلة»، عن الحارث ابن مسكين عن محمد بن القاسم قال: أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة . الحديث .

وروى مسلم في رواية عن أبي هريرة من طريق آخر: «ليس الشديد بالصرعة قالوا: فالشديد أي ما هو يا رسول الله؟ قال: الذي يملك نفسه عند الغضب» .

رجال الإسناد:

عبد الله بن يوسف:

الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف الترميسي الدمشقي ، الذي كان تلميذا موثقاً بروايته عند الإمام مالك ، وكان شيخاً للبخاري ، وكان من أبرز علماء الشام في رواية الحديث ، ومن أكثرهم مكانة عند الإمام مالك .

ابن شهاب:

عن ابن شهاب أخبرنا مالك . عن ابن شهاب : عالم المدينة الذي يعتبر من أبرز من ساق متون الحديث الصحيحة .

سعيد بن المسيب:

عن سعيد بن المسيب عالم المدينة الذي يعتبر أحد المؤسسين لمدرسة الحديث ومدرسة التفسير في المدينة ، وكان معروفاً بالرواية الصحيحة .

أبو هريرة:

عن أبي هريرة الصحابي الجليل الذي كان معروفاً برواية الحديث .

معنى الصرعة :

«ليس الشديد بالصرعة» وكلمة الصرعة من أبنية المبالغة في اللغة العربية ، يقال فلان ضحكة ، ويقال فلان لمزة ، وهمزة ، وصرعة ، وهو الذي يملك القدرة على مصارعة الآخرين ، فالنبي ﷺ أراد أن يضع معيارا للقوة ، فقال : «ليس الشديد» أي ليس القوي المتين هو القادر على مصارعة الناس ، ليس هو القوي في عضلاته ، ليس هذا هو القوي ، وليس هذا هو المتين ، وليس هذا هو الشديد ، القوي الذي يملك نفسه عند الغضب .

وهنا ، الذي يملك نفسه ، ولم يقل الذي يملك عقله ولا قلبه ، لماذا؟ لأن النفس هي موطن الغريزة ، والغضب غريزة ، فهو الذي يملك نفسه ، ولم يقل هو الذي لا يغضب ؛ لأن الغضب كمال ، وهو غريزة فطرية في الإنسان ، فالذي لا يغضب يفقد القدرة على حماية نفسه ، ولا بد من الغضب ، فالغضب كمال ؛ لأنه يعتبر من الغرائز الفطرية الكامنة في النفس البشرية .

«هو الذي يملك نفسه» أي يسيطر على نفسه ، لماذا يسيطر على نفسه؟ هذا هو الموضوع الذي نتحدث عنه ، ما هو دور التربية في السيطرة على الغرائز الفطرية؟ .

الغضب غريزة ، والغريزة قضية فطرية ، قوة فطرية عمياء لا تملك القدرة على التأمل ، والإنسان يملك غرائز ، ويملك ميولاً ، ولا بد من أن تكون هذه الغرائز العمياء الثابتة التي تمشي بطريقة ثابتة لا تتغير ، لا بد من أن نمسكها بمقود لكي لا تنطلق فتحطم الإنسان .

الدراسات النفسية تعتبر من أهم الدراسات التربوية ، ولا يمكن

للمربي أن يقوم بدور التربية إلا أن يبحث عن مفهوم النفس وعن دراسات النفس، فالمربي الذي يجهل طبائع النفس يفشل في مهمته التربوية، لا يمكن للمربي أن يتجاهل الغرائز الفطرية، ودور التربية هو السيطرة، هو التوجيه، هو إيجاد نظام جديد للغرائز بحيث تؤدي دورها في حماية الإنسان.

وقد اهتم علماء الإسلام بالدراسات التربوية والدراسات النفسية، ويعتبر الفكر الإسلامي في هذا المجال متميزاً عن الفكر المعاصر بأخلاقية نظريته لمفهوم النفس، وبدقته في مجال الدراسات، والتحليل النفسي.

أبرز الكتب في علم النفس والأخلاق:

ومن أبرز الكتب التي تحدثت عن موضوع النفس والأخلاق:

الكتب الأول:

كتاب: «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه في القرن الرابع الهجري، هذا الكتاب يعتبر من أمهات الكتب التي تحدثت عن النظرية الأخلاقية، ومن أقدمها، وقد طبعته الجامعة الأمريكية في بيروت، وحققه الدكتور قسطنطين زريق.

وهو يشتمل على ست مقالات، كل مقالة تتحدث عن جانب من جوانب النظرية الأخلاقية والتربوية.

أولاً: تحدث عن موضوع، هل تقبل الأخلاق التغيير أم لا؟

ثانياً: تحدث عن مفهوم العدل.

ثالثاً: تحدث عن مفهوم السعادة.

رابعاً : تحدث عن موضوع الصداقة .

خامساً : تحدث عن موضوع المحبة .

سادساً : وهو المقال الأخير ، تحدث عن الصحة النفسية .

هذا الكتاب يعتبر من أبرز الكتب التي تحدثت عن النفس البشرية .

الكتاب الثاني :

هناك كتاب آخر للراغب الأصفهاني : «الذريعة إلى مقاصد الشريعة» ، وهذا الكتاب من أمهات الكتب التي لم تشتهر في مجال الدراسات التربوية والنفسية .

والراغب الأصفهاني معروف بدراسته القرآنية ، وهو صاحب كتاب «المفردات في تفسير الألفاظ القرآنية» ، وقد تأثر في دراسته النفسية بالاستشهاد القرآني في كثير من المجالات ، وكان الإمام الغزالي يعتمد على هذا الكتاب كثيرا فيما كتبه في موضوع نظرياته التربوية والنفسية .

الكتاب الثالث :

كتاب «الإحياء» ، وهو الكتاب المشهور ، «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي ، وقد تأثر في مواطن كثيرة بكتاب «الذريعة إلى مقاصد الشريعة» ، وهناك كتب أخرى تعرضت لموضوع التربية ولموضوع الفكر المتعلق بالدراسات النفسية .

أبدأ حديثي بكلمة لابن مسكويه ، كان يتحدث عن الحركة الإنسانية ، الحركة المرتبطة بالحياة ، قال : الإنسان يتحرك إلى أين تتجه حركته؟ قال : يبحث الإنسان عن شيئين ، يبحث عن تمامه ، ويبحث عن كماله ، ففي حركته مع الآخر يبحث عن التمام ، وفي حركته الذاتية يبحث عن الكمال ،

في حركته مع الآخر يبحث عن تمامه ، وهنا تنعقد الصداقة مع شخص آخر إذا وجد الأول في الثاني أنه يمثل تمامه ، تنعقد الصداقة سريعاً ، وإذا لم يجد في الآخر تمامه ، فلا تنعقد الصداقة ولو دامت الصلة أعواماً طويلاً ، فإذا اكتشف الإنسان أن ذلك الآخر لا يمثل تمامه ، توقفت الصداقة ، هذا في حركة الإنسان مع الآخر .

وعندما يأتي البناء لبني الجدار لابد إلا أن تكون اللبنة الثانية تماماً للأولى في لونها وفي هندستها وفي شكلها ، فإذا لم تكن تمثل التمام رماها وأتى بلبنة تمثل التمام لكي يستقيم الجدار .

الحركة الذاتية للإنسان:

أما الحركة الذاتية بالنسبة للإنسان ، الإنسان يتحرك ، يبحث عن كماله ، يبحث عن كماله البدني ، ويبحث عن كماله المعرفي ، ويبحث عن كماله الأخلاقي ، فإذا بلغ كماله أعطى الثمرة المرجوة منه ثم يموت ، هذه هي الحياة ، بحث الإنسان عن الكمال ، كمال بدني وكمال معرفي ، وكمال أخلاقي .

والحياة مرتبطة بالنقص وليست مرتبطة بالكمال ، فالكمال يولد ميتاً ، لماذا؟ لأن الحياة نمو والكمال لا يقبل النمو ، لابد أن يكون ناقصاً وفيه قوة لقبول الكمال ، وعندئذ تأتي الحياة لكي تؤدي به إلى النمو ، حتى إذا بلغ كماله أعطى الثمرة المرجوة منه ثم انتهت مهمته في هذه الحياة ، هذا ينطبق على جميع الأحياء .

لو نظرنا في النبتة الصغيرة نضعها في رحم الأرض ، فهي خلقت نواة ، وفيها قوة لقبول الكمال تشتاق إلى أسباب كمالها هو الماء ، وهو شوق

غريزي وفطري ، الأرض تشاق إلى أسباب الكمال وهو الماء ، فإذا جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت حتى إذا بلغت كمالها توقفت وأعطت الثمرة المرجوة منها ثم انتهت مهمتها ، وماتت لتترك المجال لنبتة جديدة تعطي ثمرة جديدة ، هذا بالنسبة للنبتة ، وهذا بالنسبة للإنسان .

فالبحث عن الكمال شعور فطري وغريزي ، فالطفل عندما يولد يبحث عن كماله ، فلهذا يبحث في اللحظات الأولى عن ثدي أمه ؛ لأنه يشعر أن ذلك الغذاء هو كماله ، وهو لا يدري بطريقة عقلية ولكن بطريقة غريزية يبحث عن أسباب كماله وهو الغذاء ، وهو بحث فطري ولا يحتاج إلى قدرة عقلية ولا إلى تفكير ، فإذا اعترضه أحد في بحثه عن كماله يبرز الغضب هنا ، فالغضب غريزة طارئة تعترض الإنسان .

عندما أبحث عن كماله فيعترض أحد من الناس على بحثي ، عن كماله أغضب دفاعاً عن كماله ، دفاعاً عن حقي ، وهذا تجده في الطفل الصغير ، تجده في الحيوان ، تجده في كل شيء ، حالة الغضب هي قضية اعتراضية لحماية حق الإنسان في الحياة ، هناك غريزتان أساسيتان يملكهما الإنسان ، والغرائز الأخرى غرائز تبعية .

الغريزتان الأساسيتان في الإنسان :

الغريزة الأولى : غريزة يطلب بها الإنسان أسباب كماله .

والغريزة الثانية : غريزة يدفع بها الأخطار التي تهدده الغريزة الأولى هي غريزة الشهوة الإنسان يطلب الطعام لشهوته إلى الطعام ، ويطلب الشراب لشهوته إلى الشراب ، فإذا لم يشعر بالرغبة إلى الطعام ، يشعر بأنه محكوم عليه بالموت .

فهذا الإنسان مزود بقدره غريزية وهي غريزة الشهوة لتحقيق له كماله البدني، فإذا خلق الإنسان بغير رغبة إلى الطعام بغير شهوة إلى الطعام فسرعان ما يموت، فإذا اعترضه أحد، هنا تبرز الغريزة الحامية للإنسان، وهي غريزة الغضب، وغريزة الغضب غريزة فطرية، فالذي لا يغضب لا يستطيع أن يدافع عن وجوده ولا عن كماله، والأمم الغضوبة تبقى على مدار التاريخ تحافظ على وجودها، فإذا فقدت الأمة خصائص الغضب فسرعان ما تفنى.

ولهذا ثغورنا الإسلامية عندما كانت بيد شعوب غضوبة، استطاعت أن تحافظ على وجودها واستمرارها.

وهنا نطل إطلالة يسيرة على ابن خلدون عندما يتحدث عن البداوة والحضارة، عندما يقول: البداوة يؤس يؤدي إلى بأس يؤدي إلى قوة دافعة وقوة مغالبة، فتنشأ الدول، فعندما تبتدئ قوة الشهوانية وهي عوائد الترف والعمران، تضعف الدولة عن المقاومة والأمة عن المقاومة.

هنا نجد أن ابن خلدون لم يتحدث عن الجانب النفسي، تحدث عن ظاهرة طبيعية فطرية، البداوة والحضارة، خصائص البأس، خصائص الغضب ضرورية للإنسان لكي يحمي وجوده وحياته، ولكن الغضب قوة طاغية لا بد لها من مقود وهي غريزة.

ومن خصائص الغرائز أنها عمياء، لا بد لها من بصيرة ولا بد لها من أن تكون منقادة لأمرين: لسلطة عقلية، ولحكم الشرع الذي يضبط حركتها.

دور التربية في ضبط الغرائز:

عندما نتحدث عن الغرائز الفطرية نجد أن التربية هنا تؤدي دورًا أساسيًا في ضبط حركة الغرائز ، فالتربية تقول : التأديب بالنسبة للإنسان ، والترويض بالنسبة للحيوان ، والتشذيب بالنسبة للنبات ، لو دخلنا إلى حقل من الحقول فسوف نجد الأشجار موزعة بطريقة هندسية جميلة ، لكل شجرة فضاءها الخاص بها ، لا تعتدي شجرة على فضاء شجرة أخرى ، فإذا تطاول غصن من الأغصان معتديا على فضاء غصن آخر ، أو على فضاء شجرة أخرى ، فعندئذ يأتي المشذب لكي يقطع ذلك الغصن المتطاول المعتدي ، وإذا وجد غصنا متقلصا ضعيفا حاول أن يوجد فيه قوة الاندفاع لكي يأخذ حظه في فضاءه المحدد له .

وهذا أيضا بالنسبة للإنسان ، مهمة المربي قطع الزائد من الطباع وتنمية الضعيف منها .

فالمربي عندما يقوم بدور التربية فإنما يقوم بقطع الزائد ، فإذا وجد طفلا كثير الغضب عندئذ يحاول أن يضبط حركته لكي يعود إلى اعتداله ، وإذا وجد طفلا قليل الغضب لا يغضب أبدا لضعف في تكوينه ، يعلمه كيف يمكن أن يكون شجاعا ، هذا في مهمة التربية .

أمهات الفضائل:

ولهذا يتحدث العلماء عن أمهات الفضائل ، الغزالي يتحدث عن أمهات الفضائل ، فقال : أمهات الفضائل أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل .

الفضائل الثلاثة تمثل القوى الرئيسة في الإنسان ، وهي القوة العقلية ، والقوة الشهوانية ، والقوة الغضبية .

فضيلة الحكمة :

فالقوة العقلية قوة يملكها الإنسان ففي حال إفراطها تؤدي إلى :
الدهاء ، والمكر إلى أن يستخدم الإنسان قوته العقلية بطريقة تضر
بالآخرين ، فنقول : فلان داهية لا يقيم وزنا للأخلاق ولا للفضائل ،
يستخدم قوته العقلية وذكاءه للاعتداء على الآخرين ، هذه القوة العقلية
في حال إفراطها تؤدي إلى التجاوز .

وفي حال تفريطها تؤدي إلى : البله ، فالإنسان يملك قدرة عقلية
متواضعة ، تأتي هنا التربية لكي تجعل من تلك القوة الحكمة ، فالحكمة هو
استخدام القوة العقلية بطريقة تتناسب مع الفضيلة ، فهو يملك قوة
الذكاء ، ولكن يستخدم ذكاءه فيما هو مفيد .

فضيلة الشجاعة :

لو انتقلنا إلى الفضيلة الثانية ، وهي فضيلة الشجاعة ، فالشجاعة هي
القوة الغضبية ، الإفراط فيها يؤدي إلى التهور ، والتفريط فيها يؤدي إلى
الجن ، والاعتدال فيها يؤدي إلى الشجاعة ، فالشجاع ليس متهورا ، المتهور
هو إنسان يستخدم شجاعته بطريقة غير عاقلة ، وإذا لم يستخدم تلك
الشجاعة فيكون جبانا ، فالإفراط يؤدي إلى التهور ، والتفريط يؤدي إلى
الجن ، والشجاعة فضيلة .

فضيلة العفة :

والقوة الثالثة : قوة العفة وهي فضيلة القوة الشهوانية ، فالعفة الإفراط فيها يؤدي إلى المجون ، والتفريط فيها يؤدي إلى الذل ، والاعتدال يؤدي إلى العفة والقناعة والحسن التدبير .

فضيلة العدل :

وهناك الفضيلة الرابعة وهي فضيلة العدل ، والعدل له بعد واحد فنقول عدل وجور ، وليس هناك بعد ثالث إفراط أو تفريط ، فالإفراط في العدل عدل .

وهناك درجة أعلى من درجة العدل وهو التفضل والإحسان ، فنقول : عدل وهي درجة قانونية وفضيلة ، ويقابلها جور ، ولكن المزيد من العدل درجة أخلاقية أخرى ، نقول لها التفضل والإحسان ، وهو أن يتخلى القوي عن جزء من حقه لصالح الطرف الضعيف ، فهذا نقول له إحسان ، إن الله يأمر بالعدل أولاً والإحسان ثانياً ، والإحسان درجة تعبر عن معنى الفضيلة .

والفضيلة في جميع الأحوال وسط بين رذيلتين ، الإفراط فيها رذيلة ، والإفراط بالجانب الآخر رذيلة ، تكون الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وهكذا تكون الفضائل .

ومهمة المربي أن يقلص الزوائد والنواقص ، ينمي الفضائل ، فالمربي لا يوجد نظاماً جديداً للغرائز ، وإنما يوجد نظاماً يتحكم الإنسان فيه بغرائزه بطريقة سليمة بحيث ترتقي بمستوى الإنسان إلى مستوى الإنسانية وإلى مستوى التكليف وإلى مستوى التكريم ، هذا فيما يتعلق بالقوة النفسية .

وعندما نتحدث عن المجاهدة، وعلماءنا يتحدثون عن المجاهدة، مجاهدة النفس، وهو الجهاد الأكبر، المجاهدة تتم بتسليط إحدى القوتين على الأخرى، فالإنسان يملك قوتين: القوة الشهوانية، والقوة الغضبية، المجاهدة تتحقق من خلال تسليط إحدى القوتين على الأخرى.

فالإنسان المعروف بالغضب يتاح له فرصة الإحساس بالجمال، فيضعف الغضب لديه، والإنسان الشهواني الذي تغلب عليه شهواته عندما يصاب بمصيبة، يغضب فيمسك عن شهواته، وهذه هي العوائد، عوائد الغضب وعوائد الشهوات، فالترف يضعف الجانب الغضبي، والبؤس يقوي الجانب الغضبي.

فالمجاهدة مهمتها إيجاد نظام يحقق التوازن في السلوك الإنساني لكي تكون سلوكيات الإنسان منسجمة مع الفضيلة، فالاعتدال فضيلة، والخروج عن الاعتدال رذيلة.

الفضيلة وسط بين تطرفين، والتطرف خلل، ولا يزول التطرف إلا بزوال أسبابه.

وهنا يأتي دور المربي الذي يعرف طبائع النفس البشرية، فيحاول أن يضعف من أسباب الخلل في النفس الإنسانية لكي يقع الاعتدال في السلوك وتتحقق الغاية المرجوة، والنفس لها أقسام كثيرة، هناك النفس التي تقبل الأخلاق، وتقبل التربية، وهذه قضية أخرى تحدث عنها علماء الأخلاق، هل الأخلاق تقبل التعديل أم لا تقبل التعديل؟

النظريات القديمة في تقسيم الناس :

النظريات اليونانية القديمة (جالينوس) كان يقول : الناس ينقسمون إلى أقسام ثلاثة : أبرار أو أخيار ، وأشرار ، ومترددون بين الخير والشر ، فالأخيار لا يحتاجون إلى تربية ، والأشرار لا تنفع معهم التربية ، والمترددون بين الخير والشر ، هم الذين تنفع معهم التربية ؛ لأن التربية تنمي جانب الخير على حساب جانب الشر .

هذه النظرية لا يقبل بها العلماء المسلمون ، يفرقون بين الخلق والخلق ، وبين الأجسام والنفوس ، النفس ليست هي الجسم ، والخلق ليس هو الخلق ، والفرق بينهما أن الخلق لا يقبل الأشكال المتغيرة ، والخلق يقبل الأشكال المتغيرة .

فالخلق لا يقبل شيئاً مغايراً لشكله إلا بعد زوال الصورة الأولى ، فصورة التربع أو صورة التثليث أو التخمس صور ثابتة ، لا يمكن أن ندخل صورة التربع على صورة التثليث إلا بعد زوال الصورة الأولى ، هذا بالنسبة للأشياء الخلقية المرتبطة بالجسد ، فالجسد لا يقبل التربية ، لا يقبل التغيير .

أما النفس فتقبل التغيير ، وهذه هي مهمة التأديب ، إذا قلنا الخلق لا يقبل التغيير ، إذن لماذا نؤدب؟ لماذا نقيم نظريات تربوية؟ لا بد إلا أن نقول : النفس البشرية في جميع أشكالها تقبل التغيير عن طريق التأديب وعن طريق التربية ، فالخلق يقبل التغيير .

وهنا يتدخل المربي لكي يحقق ذلك التوازن في السلوك الإنساني ، هنا تنتقل إلى القوة الثانية ، وهي القوة العقلية ، القوة العقلية قوة غريزية وقوة

كسبية ، فقابلية العقل قوة غريزية ، ثم تأتي القوة الكسبية التي تستفاد من خلال المعارف .

وتحدث الراغب الأصفهاني في هذا المجال عن العقل ، فقال : الجسد شبهه بمملكة ، والعقل هو الملك ، وهذا الملك يملك جندا ، هذا الجند ينقسم إلى قسمين : جند استعلام ، وجند تنفيذ .

جند الاستعلام هي الحواس الخمسة ، مهمتها أن تبلغ ما ترى ، الحواس الخمسة تبلغ العقل بما ترى .

وهناك جند التنفيذ وهي ثلاثة : اليد ، واللسان ، والرجل ، تعطى لها الأوامر ، عليها هنا أن تكون في قبضة العقل ، فيقول لها العقل : افعلي ، تفعل ، ابطشي ، تبطش ، تكلمي ، تتكلم ، وإذا لم يقل لها العقل ذلك فلا ينبغي لها أن تفعل ذلك .

هنا قوة الغريزة تنافس العقل في سلطاته ، فإن استجاب الإنسان لقوته الغريزية حطم نفسه .

لابد من أن يكون العقل هو صاحب القوة وصاحب السيطرة ، وهنا يتدخل العقل بقوته التأملية بإصدار القرار الحكيم الذي يلائم هذا الموقف .

القوة القلبية :

وننتقل هنا إلى القوة الثالثة ، وهي القوة القلبية ، القلب هنا ليس هو القلب الذي نتحدث عنه الآن ، القلب الصنوبري الموجود في الجانب الأيسر من الصدر ، القلب هو الذي استخدمه القرآن واستعمله ، وقد جاء استعمال القلب في أكثر من مائة وأربعين مرة في القرآن ، وجاء في موطن الفهم ، فالنفس موطن الغريزة ، والعقل موطن التمييز ، والقلب موطن

الفهم ، ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠] القلب التواب ، والقلب الأواب ، والقلب الذي فيه زيغ ، دائما القرآن يستعمل لفظة القلب ؛ لأن القلب هو موطن الفهم ، والأذن خلقت للسمع فإذا لم تسمع فهي مريضة ، والقلب خلق للمعرفة فإذا لم يعرف لم يكن مهيبا للمعرفة ، ولم تنطبع الحقيقة فيه ، فهو مريض ، وهنا نتحدث ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي لا يدركون حقيقتهم الإنسانية ، وهناك أسباب تحول ، الحقيقة تنطبع في القلب انطباع الصورة في المرأة ، فإذا وقفت أمام امرأة لا بد وأن تنطبع صورتها في المرأة .

الحقيقة موجودة والإنسان موجود ، ولكن الذي لا يوجد هو انطباع الحقيقة في القلب ، وهي المعرفة ، وهذه المعرفة لها طريقتان :

الطريق الأول : طريق الجود الإلهي ، والعطاء الإلهي ، وهذه درجة أهل الرعاية وأهل العناية .

والطريق الثاني : هو طريق المجاهدة والرياضة النفسية ، وهنا يقول ابن عطاء الله السكندري في موضوع الرعاية : إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها وإن قل عملك ، فإنه ما فتحها لك إلا لكي يتعرف إليك ، ألم تعلم أن التعريف هو مورده عليك ، وأن الأعمال أنت مهديها إليه ، وشتان شتان بين ما هو مورده عليك وبين ما أنت مهديه إليه ، يقول بعد ذلك : أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك .

وهنا الحجب التي تمنع انطباع الحقيقة في القلب ثلاثة :

أولاً : أن يكون القلب محجوبا ، والحجاب هو التعلق بالأشياء ، فلهذا التربية الإسلامية ذمت - لم تدم الدنيا كما يظن الناس ذمت - التعلق

بالدنيا، وهناك فرق بين التعلق وبين الدنيا، التعلق بالدنيا، التعلق بالولد، التعلق بالمال، التعلق بالمنصب، هو الحجاب الحاجز، فإذا كان الإنسان متحررا من ذلك التعلق تنطبع الصورة فيه، فهذا الحجاب لو وقفنا أمام مرآة وأوجدنا حجابا فلا تنطبع الصورة بين الإنسان والمرآة، وأيضا القلب لا تنطبع صورة الحقيقة فيه إذا وجد ذلك الحجاب الحاجز، وهو التعلق بالأشياء .

ثانياً: وهو أن يكون القلب وسخا بالمعاصي، ولهذا يتحدث عن التحلية وعن التخلية، ويقول :

شكوت إلن وكيع سوء حفطي فأرشدني إلن ترك المعاصي

وقال لي : بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

لابد من تنقية القلب أولاً .

وثالثاً : الذي يمنع من انطباع الحقيقة في القلب انصراف الهمة عن هذا الجانب، ولا بد من وجود الهمة، ويقول ابن عطاء الله : سوابق الهمم لا تحرق أسوار الأقدار، ولكنه كأنه يقول : سوابق الهمم كادت أن تحرق أسوار الأقدار، فالهمة العلية هي الأساس في هذا المجال، ولا بد في هذه الحالة من تصفية القلب وتصفية النفس، وكلمة لابن عطاء الله يقول : إذا تأخر أمد العطاء لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك، فالله قد ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المحاضرة الثانية والتسعون	٧
القرآن أحسن الحديث	٧
المتشابه	١٢
القرآن يتحدى الكفار	١٨
المحاضرة الثالثة والتسعون	٢٣
الخيرية والإخراج للناس مقارنة معرفية لعلاقة الإسلام بالعالم	٢٣
مستويات الخطاب القرآني للبشرية	٢٥
أقوال العلماء في تفسير الخيرية	٢٦
المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٢٧
هل الخيرية تكليف أم تشريف	٢٨
الخيرية منزلة رفيعة	٢٨
الخيرية مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٢٩
نموذج على الخيرية	٣٠
موقع الخيرية	٣٠
المسلمون حاربوا دولا وليس مجتمعات	٣١
قضايا غَيَّر الإسلام بها هموم الناس	٣٣

- ٣٣ القضية الأولى : قضية الرق
- ٣٣ القضية الثانية : الزكاة وعلاج الفقر
- ٣٤ القضية الثالثة : ميراث المرأة
- ٣٥ احترام الإنسان أهم قيمة جاء بها الإسلام
- ٣٥ نصائح لتقدم الأفراد المسلمين والأمة الإسلامية
- ٣٥ المحاضرة الرابعة والتسعون
- ٣٥ منهج الوصول إلى الله
- ٣٥ مقامات الإسلام
- ٣٥ التوبة
- ٣٥ عنوان الاستقامة
- ٣٥ التقوى
- ٣٥ المفهوم الشرعي للعقيدة
- ٣٥ التوحيد
- ٣٥ علم التوحيد
- ٣٥ وهنالك ثلاثة أنواع من التوحيد
- ٣٥ مراتب النظر والتدبر
- ٣٥ المحاضرة الخامسة والتسعون
- ٣٥ مفهوم الحرية في الإسلام الأسس والمنطلقات والضوابط
- ٣٥ تخريج الحديث
- ٣٥ من معاني الحديث

٣٥	الحديث يقدم صورة للتضامن البشري
٣٥	قضية الحرية في القرآن
	المبادئ الأساسية القرآنية التي بنى القرآن عليها معالجته
٣٥	لقضية الحرية
	تفريعات على المبادئ الأساسية التي بنى عليها القرآن
٣٥	معالجته لقضية الحرية
٣٥	خاتمة
٣٥	المحاضرة السادسة والتسعون
٣٥	كونية نظام الأسرة في عالم متعدد الخصوصيات
٣٥	أولاً : إخراج ثوابت الأسرة من النظام العام
٣٥	ثانياً : إذكاء التنافسية داخل الأسرة
٣٥	الوجه الأول للصراع : التصارع بين الجنسين
٣٥	الوجه الثاني للصراع : السلطة الأبوية
٣٥	الوجه الثالث للصراع : حشر أجسام غريبة في الأسرة
٣٥	ثالثاً : الاستخفاف بالالتزامات والتكاليف الأسرية
٣٥	أولاً : مؤشرات ديمغرافية تبرز مقدار تفكك الأسرة النووية
٣٥	تحليل المنهج الشمولي الإسلامي وتطبيقاته على الأسرة
٣٥	الأصل الأول : تناول الشمولي للأسرة
٣٥	الأصل الثاني : اعتبار أحكام الأسرة من النظام العام
٣٥	الأصل الثالث : ضبط السلوكيات لغاية ضمان السلم الاجتماعي

- ١- التركيز على التكاليف كمقابل لإقرار الحقوق ٣٥
- ٢- الدعوة للتخلق بالإحسان في تنفيذ التكاليف ٣٥
- ٣- تماسك الأسرة أساس السلم الاجتماعي ٣٥
- الأصل الرابع : إقامة العشرة على أساس العدل لا المساواة فقط ٣٥
- أ- الأساس المعتمد في توزيع الأعباء والتكاليف ٣٥
- ب- المدلول المتسامي للمساواة ٣٥
- ٤- هل من توفيق بين التسوية والقوامة؟ ٣٥
- الأصل الخامس : ابتغاء الحكمة في فض النزاعات الأسرية ٣٥
- المحاضرة السابعة والتسعون ٣٥
- أسس التضامن الاجتماعي في الإسلام ٣٥
- أحاديث تحت على التضامن الاجتماعي ٣٥
- التضامن الاجتماعي في الإسلام بناء تشريعي محكم ٣٥
- الأسس التي بني عليها التضامن الاجتماعي في الإسلام ٣٥
- الأساس الأول وهو الأساس التربوي للتضامن ٣٥
- أهداف تربوية للتضامن ٣٥
- الهدف الأول : تصحيح العقيدة ٣٥
- الهدف الثاني : ترسخ انتماء الفرد للأسرة الإسلامية ٣٥
- الهدف الثالث : تهذيب النفس ٣٥
- حرص القرآن على تعليم الناس الزهد ٣٥
- حرص القرآن على ترسيخ الإيثار ونبذ البخل ٣٥

٣٥	حرص القرآن على التطهير من الرياء
٣٥	فعل الخيرات يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء
٣٥	الهدف الرابع : الشعور بالمسئولية
٣٥	الهدف الخامس : الأخوة بين المؤمنين
٣٥	الهدف السادس : الاقتصاد وعدم التبذير
٣٥	الهدف السابع : القناعة بالحلال
٣٥	الهدف الثامن : حث الإسلام على العمل ونبذ الكسل
٣٥	الهدف التاسع : تحريم الظلم
٣٥	الأساس الثاني : الاقتصادي والمالي
٣٥	اهتمام الفقهاء وكتب الفقهاء بالجانب الاقتصادي والمالي
٣٥	الأساس الثالث : هو الأساس التشريعي
٣٥	الأساس الرابع : الأساس السلطاني
٣٥	المحاضرة الثامنة والتسعون
٣٥	أحاديث الجمعة
٣٥	آداب خطبة الجمعة
٣٥	كيفية الخطبة
٣٥	ضرورة اشتغال الخطبة على المؤثرات
٣٥	تقدير زمن الدنيا عند العلماء المعاصرين
٣٥	أشراط الساعة
٣٥	الإسراع بالتوبة قبل قيام الساعة

- ٣٥ تجديد الإيمان
- ٣٥ معنى الهدى
- ٣٥ السنة والبدعة
- ٣٥ ما اختص النبي ﷺ بفعله
- ٣٥ أفعال النبي ﷺ
- ٣٥ ما تركه النبي ﷺ
- ٣٥ الأمور الكائنة بعد عصر النبي ﷺ
- ٣٥ البدعة لغة
- ٣٥ البدعة اصطلاحاً
- ٣٥ المقصود بالسنة الحسنة والسنة السيئة
- ٣٥ تقسم البدعة عند بعض الفقهاء
- ٣٥ الضمان الاجتماعي في الإسلام
- ٣٥ تنظيم الأسرة والمجتمع المسلم
- ٣٥ الظهار ليس طلاقاً
- ٣٥ منع التبني
- ٣٥ الولاية
- ٣٥ السلطان ولي من لا ولي له
- ٣٥ التكافل العام بين المسلمين
- ٣٥ الضمان الاجتماعي
- ٣٥ الأسس التي بني عليها الضمان الاجتماعي في الإسلام

٣٥	المحاضرة التاسعة والتسعون
٣٥	نحو منهج تربوي قرآني متفرد
٣٥	المنهج الذي رسمه الله في القرآن لبناء الإنسان
٣٥	مدلولات ألفاظ الآية
٣٥	الصدقة
٣٥	الحج
٣٥	الزكاة
٣٥	هدف التربية في القرآن
٣٥	ما تتميز به التربية القرآنية
٣٥	الحرية
٣٥	المحاضرة المائة
٣٥	قدرة الله ومسئولية الإنسان
٣٥	استجابة الدعاء
٣٥	قدرة الله ﷻ
٣٥	قدرة الإنسان
٣٥	رأي الجبرية في قدرة الإنسان واستطاعته
٣٥	هنا نلاحظ أمرين
٣٥	الله قادر والإنسان خير
٣٥	تربية حرية اختيار الإنسان
٣٥	مفهوم المسؤولية

المحاضرة الواحدة بعد المائة ٣٥

الابتغال إلى الله بالدعاء تخلق يقتضيه الكسب مع التوكل

وليس داعيًا بحال إلى التوكل ٣٥

الحكمة في النبوات ٣٥

الدعاء عبادة ٣٥

المحاضرة الثانية بعد المائة ٣٥

مساواة الرجل والمرأة في القرآن الكريم ٣٥

الرجل والمرأة في القرآن ٣٥

النساء في القصص القرآني ٣٥

هاجر أم إسماعيل ٣٥

امرأة العزيز ٣٥

أم موسى وأخته ٣٥

ملكة سبأ ٣٥

مريم عليها السلام ٣٥

المجادلة ٣٥

عائشة رضي الله عنها ٣٥

التسوية بين الرجل والمرأة في البيعة ٣٥

التسوية في استحقاق الميراث ٣٥

التسوية بينهما في المسئولية والجزاء ٣٥

أمثلة أخرى على المساواة بين الرجل والمرأة ٣٥

٣٥	ولاية المرأة في النكاح
٣٥	استقلال الرجل بالطلاق
٣٥	حجاب المرأة
٣٥	السفر بدون محرم
٣٥	اشترك المرأة في القتال
٣٥	ولاية المرأة
٣٥	١- الإفتاء
٣٥	٢- الإمامة
٣٥	٣- القضاء
٣٥	٤- الإمامة في الصلاة
٣٥	لماذا جعل للرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث؟
٣٥	المحاضرة الثالثة بعد المائة
٣٥	هيمنة القرآن الكريم على السيرة النبوية
٣٥	جود النبي ﷺ
٣٥	هيمنة القرآن على السيرة النبوية
٣٥	حاجة البشرية إلى السيرة
٣٥	سيرة الرسول محفوظة بالقرآن
٣٥	زواج النبي ﷺ بزینب بنت جحش
٣٥	تحويل القبلة
٣٥	الإسراء والمعراج

- ٣٥ حادثة الإفك
- ٣٥ صلاة الرسول على المنافقين
- ٣٥ حادثة ابن أم مكتوم
- ٣٥ فداء الأسرى يوم بدر
- ٣٥ المحاضرة الرابعة بعد المائة
- ٣٥ حجية أفعال الرسول ﷺ وموقعها من الأدلة الشرعية
- ٣٥ معنى طاعة الرسول
- ٣٥ مكانة السنة في التشريع
- ٣٥ السنن القولية
- ٣٥ السنن الفعلية
- ٣٥ فعل النبي ﷺ طريق من طرق تعليم الصحابة
- ٣٥ أفعال النبي ﷺ محمولة على السداد والرشاد
- ٣٥ اتباع النبي ﷺ في الأقوال والأفعال
- ٣٥ معنى الأسوة
- ٣٥ مثال على اتباع فعل النبي ﷺ
- ٣٥ المحاضرة الخامسة بعد المائة
- ٣٥ الأمن والسلام في الإسلام
- ٣٥ الكلام على رواية الحديث
- ٣٥ تخريج الحديث
- ٣٥ شرح الألفاظ الحديث

٣٥	إفشاء السلام
٣٥	معنى التحابب
٣٥	المحاضرة السادسة بعد المائة
٣٥	منشأ الاختلاف ومرجع الائتلاف بين المسلمين
٣٥	فقه الحديث
٣٥	الحث على لزوم الجماعة
٣٥	تتابع الفتن
٣٥	لمحات عن كتاب العواصم من القواصم
٣٥	الاختلاف في الفروع
٣٥	العامل السياسي
٣٥	العامل العقلي
٣٥	الفرقة الناجية
٣٥	الشورى
٣٥	المحاضرة السابعة بعد المائة
٣٥	الاعتصام بالدين
٣٥	معنى الاعتصام
٣٥	العلم وذم التقليد
٣٥	الاعتصام في القرآن
٣٥	العقيدة والمنهج
٣٥	منهج الاعتصام بالدين

- الرجعية ٣٥
- الإسلام نقل الناس من ماضٍ إلى حاضر جديد ٣٥
- الأمر بالاعتصام ٣٥
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٥
- المحاضرة الثامنة بعد المائة ٣٥
- صيانة العهد ٣٥
- إضافة العهد إلى الله يبلغ به أسمى مقاماته ٣٥
- معنى كلمة العهد ٣٥
- العهد الفطري ٣٥
- الالتزام ٣٥
- المحاضرة التاسعة بعد المائة ٣٥
- شواهد من حفظ الله للقرآن ٣٥
- أولاً : نزوله منجماً ٣٥
- ثانياً : بقاءه معجزاً حتى بعد موت الرسول ﷺ ٣٥
- ثالثاً : بلاغته التي أعجزت أهل البيان والفصاحة ٣٥
- رابعاً : كونه كلام الله القديم ٣٥
- خامساً : كتابته فور نزوله ٣٥
- خامساً : جمع القرآن وكتابة المصحف ٣٥
- سادساً : محافظة الأمة على الرسم العثماني ٣٥
- المحاضرة العاشرة بعد المائة ٣٥

٣٥	جهاد النفس طريق الصلاح والإصلاح
٣٥	معاني لكلمة الجهاد في القرآن
٣٥	جهاد النفس
٣٥	الله يعين الإنسان على جهاد نفسه إذا علم صدق ذلك منه
٣٥	معية الله مع المحسنين
٣٥	الولي
٣٥	المحاضرة الحادية عشرة بعد المائة
٣٥	أثر التربية النفسية في السيطرة على الغرائز الفطرية
٣٥	سند الحديث
٣٥	رجال الإسناد
٣٥	عبد الله بن يوسف
٣٥	ابن شهاب
٣٥	سعيد بن المسيب
٣٥	أبو هريرة
٣٥	معنى الصرعة
٣٥	أبرز الكتب في علم النفس والأخلاق
٣٥	الكتب الأول
٣٥	الكتاب الثاني
٣٥	الكتاب الثالث
٣٥	الحركة الذاتية للإنسان

- الغريزتان الأساسيتان في الإنسان ٣٥
- دور التربية في ضبط الغرائز ٣٥
- أمهات الفضائل ٣٥
- فضيلة الحكمة ٣٥
- فضيلة الشجاعة ٣٥
- فضيلة العفة ٣٥
- فضيلة العدل ٣٥
- النظريات القديمة في تقسيم الناس ٣٥
- القوة القلبية ٣٥
- فهرس الموضوعات ٣٥



المحاضرة الثانية عشرة بعد المائة

كف الأذى وبذل الندى

روى الإمام البخاري قال : حدثنا أبو نعيم ، الفضل بن دُكَيْن الكوفي ، حدثنا زكريا بن أبي زائدة ، قال : سمعت عامرا الشعبي يقول : سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَغْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا . فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرَوْا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرَقًا ، وَلَمْ نُوْذَ مِنْ فَوْقِنَا . فَإِنْ هُمْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» .

الحديث يشتمل أولا على التمثيل ، كما يشتمل على التفصيل لأنواع العناصر الاجتماعية التي تكون موجودة في أمة ما أو في مجتمع ما ، ثم بيان الواجب على أفراد هذا المجتمع ، الواجب الذي يتمثل في السلوك مع الذين يعيشون في أعلى السفينة وعلى الذين يعيشون في أسفلها ، حتى يستطيع كل الناس أن ينجوا من الأهوال والمخاطر التي تحف بتلك السفينة ، وما هذه السفينة إلا المجتمع الإسلامي في هذا الحديث ، وما البحر أو العُباب الذي تشقه هذه السفينة غير الحياة الدنيا التي نعيش فيها .

وهذا الحديث النبوي الشريف الذي استمعنا إلى نصه هو من رواية الإمام البخاري رحمه الله ، وهو بهذا اللفظ الذي استمعنا إليه قد أخرجه في كتاب الشركة ، في باب : هل يُفْرَعُ عَلَى الْقِسْمَةِ؟ وأخرجه مرة أخرى رحمه الله في كتاب الشهادات في باب القرعة في المُشْكَلَات .

وورد الحديث نفسه بغير اللفظ الذي ورد به عند البخاري ولكن بألفاظ قريبة منه عند الترمذي في كتاب الفتن في باب : ما جاء في تغيير المنكر .

وورد عند الإمام أحمد في «مسنده» مرتين : في مسند النعمان ابن بشير رحمته الله حيث ذكره في المرة الأولى بإسناد ، والمرة الثانية بإسناد آخر .

والذي أريد أن أشير إليه بادئ ذي بدء ، هو أن الأسانيد التي ورد بها هذا الحديث مرتين في كتاب «الجامع الصحيح» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ومرة عند الترمذي في سننه ، ومرتين أخرين عند الإمام أحمد في مسنده ، كان الطريق مختلفا وراوي الحديث من التابعين واحداً .

والمحدث الراوي عن رسول الله ﷺ ، والمتلقي منه وهو الصحابي واحداً أيضاً . فالحديث الأول أو رواية الحديث الأول كما جاء في كتاب الشركة عند الإمام البخاري يقول : قال البخاري : حدثنا أبو نعيم عن زكريا عن الشعبي عن النعمان بن بشير .

وفي الحديث الثاني الذي رواه ، وهو نفس الحديث ولكنه بلفظ آخر ، قال حدثني عمر بن حفص عن أبيه حفص ، عن الأعمش ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير .

وجاء في «سنن الترمذي» أنه حدثه أحمد بن منيع ، قال : حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا الأعمش ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير .

وجاء في «مسند الإمام أحمد» برواية ابنه الإمام عبد الله ، قال حدثني أحمد يعني أباه ، قال : حدثني أبو معاوية ، قال : حدثنا الأعمش ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير .

والرواية الخامسة هي لعبد الله أيضاً عن أبيه أحمد قال : حدثنا إسحاق

ابن يوسف ، عن زكريا ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير .
فهذه الطرق الخمسة أو هذه الروايات الخمسة على أصح تعبير تتفق في
طريقين .

الطريقان اللذان يُروى بهما هذا الحديث ، هما : زكريا بن أبي زائدة ،
والأعمش سليمان بن مهران .

وزكريا بن أبي زائدة ورد ذكره في الحديث الأول أو في السند الأول ،
وفي السند الأخير أي في الرواية الخامسة المثبتة في «مسند الإمام أحمد» .

وأما الثاني : وهو الطريق الثاني للأعمش سليمان بن مهران فإنه ورد في
الرواية الثانية للبخاري ، وفي الرواية المفردة للترمذي وفي الرواية الأولى
من روايتي الإمام أحمد في «مسنده» .

وكلاهما - أعني زكريا بن أبي زائدة ، والأعمش سليمان بن مهران -
طريق لرواية هذا الحديث عن الشعبي وهو التابعي المشهور بين علماء
الأمة وفقهائها ، عن النعمان بن بشير رحمته الله ، لكونه هو الصحابي المتلقي
لهذا الحديث من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وحرريّ بنا - وقد ذكرنا الطريقين ، وذكرنا الوسطة بينهما وبين راوي
الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن نشير بكلمة موجزة إلى الطريقين : زكريا
والأعمش ، ونشير بكلمة أخرى موجزة أيضا إلى التابعي الإمام وهو
الشعبي ، ثم نشير بكلمة أخيرة إلى الصحابي الجليل الذي روى هذا
الحديث عن النبي صلوات الله وسلامه عليه .

رواة الحديث:**التعريف بذكرى بن أبي زائدة:**

فذكرى بن أبي زائدة الذي هو أحد الطريقين في رواية الحديث ، هو قاضي الكوفة وكان يعيش في نهاية القرن الأول إلى منتصف القرن الثاني حيث كانت وفاته بين سنة (١٤٧) وسنة (١٤٩) .

وقد ذكره النقاد- نقاد الحديث- وصوروا لنا زنته بين المحدثين وقالوا مرة: ليس به بأس ، وأخرى: حُلُو الحديث ، وثالثة: صالح . وهذه استعمالات تختلف باختلاف رجال التجريح والتعديل . وقال بعضهم: ثقة غير أنه يدلّس .

وأريد أن أقف قليلا عند قوله: (ثقة غير أنه يدلّس) ؛ لأن التدليس عيب دائما ، لا أريد أن يقع اللمز بهذه الكلمة في مقام هذا الرجل العظيم الذي كان صلة من السلسلة أو حلقة من السلسلة التي تربطنا برسول الله ﷺ ، فإن ابن رُشيد رحمه الله في رحلته «ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين الشريفين مكة وطيبة» ذكر في الجزء الثالث المتعلق بمصر والإسكندرية عند الورود .

وفي ترجمة ابن دقيق العيد، ذكر شيئا عن هذا التدليس ووافق عليه واعتبره تزيينا في الحديث ، وإنما كان يستعمل من أجل اختبار ملكات الطلبة واختبار الشيوخ الذين يدعون معرفة الحديث .

فكان التدليس إذن بهذا الوجه مقبولا ، وأورد بذلك كلام ابن دقيق العيد في هذا الغرض ، وكلام شيخ الجماعة ابن الصلاح رحمه الله ، الذي كان

مؤلفا في مقدمة علم الحديث الكتاب المعروف الذي أصبح كل الناس عالة عليه حتى اليوم .

التعريف بالأعمش :

وأما الأعمش سليمان بن مهران ، وهو الطريق الثاني في رواية هذا الحديث فإن أصله من طبرستان ، وهو كوفي أيضا وكانت ولادته في منتصف القرن الأول بين سنة (٥٩) وسنة (٦٣) وكانت وفاته سنة (١٤٥) وسنة (١٤٧) ؛ لأن وفاته وولادته لم تكن محددة بالضبط ، فإن المؤرخين قد اختلفوا في ضبطها ولكن هذا الرجل وهو الطريق الثاني في حديثنا كان قد لقي من الصحابة أنسا رضي الله عنه ولكنه لم يرو عنه .

وذكره ابن المديني شيخ الإمام البخاري ، فقال في التنويه به : حفظ العلم على أئمة ستة ، هم : عمرو بن دينار بمكة ، والزهري بالمدينة ، والسيبي والأعمش بالكوفة ، -وبذلك فقد عده من كبار العلماء الذين حفظوا على الملة علمهم- وقتادة ويحيى بن كثير بالبصرة ، وكان لمكانته العالية وأمانته وصدقه في رواية الحديث يُلقَّب بالمُصحف ؛ لأنه لا يمكن أن يُخطئ ولا أن يَسْتَحِف برواية الحديث ، يأتي به على الوجه الذي ترضيه القواعد .

ثم رأينا بعض المترجمين له يذكر أنه مع ذلك كان من أقرأ الناس لكتاب الله وأحسنهم أداءا وصوتا في قراءاته ، ولذلك كانوا يقولون : إن الأعمش أقرأ الناس لكتاب الله فكأنه الديباج الحُسْرُواني ، رفعا من مكانته وتشريفا لمنزلته .

وأما الوساطة بين الطريقين وبين الصحابي فهو عامر بن شُرحبيل الشعبي .

التعريف بالشعبي :

وعامر بن شرحبيل الشعبي الذي نجد ذكره في كل الروايات التي أشرنا إليها هو : أبو عمرو الكوفي من كبار التابعين وفقهائهم ، وكانت ولادته بين سنة (٢٠) وسنة (٣١) من الهجرة ، وكانت وفاته بين سنة (١٠٤) وسنة (١٠٨) .

وقد قالوا : إنه أدرك من الصحابة نحو خمسمائة ، لكنه سمع من ثمانية وأربعين منهم .

وقد رفع منزلته أيضا علماء الحديث ورجال التجريح والتعديل ، فكانوا يُسَوِّونَه بـابن عباس رضي الله عنه وبالثوري ، إذ قالوا في التمثيل لذلك : مثل ابن عباس في زمانه ؛ ومثل الثوري في زمانه ، ويقال أيضا مثل الشعبي في زمانه ، لأنه كان فردا في محاسنه ولا يشاركه في كمالاته كلها أحد من الناس .

التعريف بالراوي الأعلی :

وأما النعمان بن بشير الذي هو صاحب الحديث وراويهِ عن رسول الله ﷺ فقد كان من الرجال الذين لقوا رسول الله ﷺ مع أبيه إذ كانت الصحبة ثابتة له ولأبيه .

وهو حين ولد تقدمت به أمه إلى رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام حين رآه -وهو أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة يخاطبه أو يتحدث عنه لأمه- : «يعيش حميدا، ويُقْتَل شهيدا ويدخل الجنة»^(١) .

(١) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٢٤٤) .

فهذا الرجل الذي توفي سنة (٦٥) من الهجرة، والذي كان قاضي دمشق، والذي كان معروفا ببراعة الخطابة وجودة التعبير والفصاحة والبيان، كان قد وقف إلى جانب عبد الله بن الزبير مخالفاً للأُمويين، ثم عندما ذهب أمر عبد الله بن الزبير وتوفي معاوية نادى بالخلافة لنفسه، فكان ذلك هو سبب الواقعة أو الحرب التي قامت بينه وبين مروان ابن الحكم الذي أمر بقتله.

وهكذا فإنه كما قال رسول الله ﷺ: «يعيش حميدا - بما جمع من خصال - ويموت شهيدا، ويدخل الجنة إن شاء الله».

هذه الأحاديث أو هذه الروايات التي ذكرناها قلنا بأنها متفاوتة مختلفة، متفاوتة من حيث اللفظ ولكن أبرز ما يظهر في الاختلاف فيها هو المحور الأساسي للتمثيل الذي جاء في هذا الحديث، إذ قال رسول الله ﷺ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها»، هذا اللفظ جاءت به الرواية الأولى. الرواية الثانية عند البخاري تقول: «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها». رواية الترمذي: «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها». رواية أحمد في الحديث الأول: «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها». والرواية الأخيرة عنده: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها». وهكذا نرى أنه وقع التداول بين ألفاظ أربعة هي: القائم، والمدهن، والواقع والراتع.

معنى القائم على حدود الله والواقع فيها:

أما القائم على حدود الله: فهو الذي يتمسك بها ويلتزمها ويحافظ عليها، ويعمل على ترسيخها.

والواقع فيها : هو الذي يخالفها ويتحدى الله بمخالفتها وبتجاوزها ، وبذلك فإنه قد وقعت المقابلة في الحديث الأول بين القائم والواقع .

ولكن بعض المعاصرين عندما أراد أن يفسر هذا الحديث أو أن يتعرض له ذكر القائم فتكلف له تكلفا غير حميد فقال : المراد بالقائم هنا هو المنكر للحدود ، قائم في دفعها ، العامل على إزالتها .

وهذا لم يُقَلْ به أحد ، وقد رأينا ابن حجر رحمته الله في شرحه لهذا الحديث ينبه إلى هذا الاختلاف ويقابل بين القائم والواقع كما يقابل بين القائم والمدهن .

معنى المدهن :

وإذا كنا قد عرفنا القائم والواقع في هذا الحديث ومعناها فإن اللفظ الثالث وهو المدهن إنما يراد به المرائي الذي يجامل في الله ، يجامل من يتحدى حدود الله فلا يقول له : لقد تجاوزت الحد ولا ينهاه ولكنه يسكت عنه طلبا لرضاه ومجارة له ، فهذا المدهن في حدود الله المرائي هو كالواقع فيها ؛ لأنه يعين على تجاوز هذه الحدود وتعدّيها .

معنى الراتع :

والكلمة الرابعة هي الراتع وهي لا تحتاج إلى بيان ؛ لأن الراتع هو أكثر من الواقع الذي يتجاوز الحدود ويبتعد عنها ابتعادا شديدا .

ففي الرواية الأولى التي ذكرها البخاري : نجد مقابلة إذن بين الذائد والمعتدي أي بين القائم والواقع .

وفي الرواية الثانية : نجد أن الحديث قد خلا من هذه المقارنة ولكنه جمع بين وصفين : بين المدهن والمعتدي .

وفي رواية الترمذي ، وكذلك في الرواية الأولى لأحمد بن حنبل وقع الجمع بين الذائد والمرائي بدل الذائد والواقع .
وفي الرواية الأخيرة وقعت المقابلة بين الذائد وما سواه ، ووقع الجمع بين الصنفين المذمومين اللذين هما الواقع والراتع .
هذا باختصار شديد بيان الفروق التي وردت في الروايات المختلفة لهذا الحديث .

مفهوم الحديث :

وإذا انتقلنا من ذلك إلى المراد منه ، من هذا النص الكريم المروي عن رسول الله ﷺ والذي يمكن أن يضيء للناس جميعا الطريق ليهديهم سبيلهم فإننا نجد قوله ﷺ : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة » . فالقائم والواقع في مقابلة القوم الذين استهموا على سفينة هم جماعة ، والجماعة التي يعنيها هي جماعة المسلمين .
ونحن نعلم بأن جماعة المسلمين قوامها صحة العقيدة : الإيمان بالله والإيمان بالرسول والإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره إلى آخره .
ثم هؤلاء أي المؤمنون مع إيمانهم وتمسكهم بدينهم والتزامهم بهدي رسولهم ﷺ ، وأخذهم بالكتاب وبالسنة ، والوقوف عند الحدود وعدم تعدّيها ، هؤلاء ليسوا فقط جماعة ولكنها جماعة متكونة من أفراد قد يند الفرد عنها وقد لا يند ، قد يبتعد الفرد عن الجماعة وقد يلتزمها ويدخل فيها ممتزجا بها .

ولذلك فإن المعنى العام الذي يشير إليه الحديث هو أن هذه الجماعة الإسلامية المتماسكة ينبغي ألا ترعى مصالح الأفراد وتتخلى عن المصلحة

العامة ، ولا عن مصلحة الجماعة ، بل لابد أن ترعى الصالح العام ، وأن يكون للرأي العام فيها سلطان .

ولذلك فإن الصفات المطلوبة في الراكب حتى لا يأتي الذي ينقض السفينة ويأخذ بنصيبه فيها فيتصرف فيه كما يشاء وكما يريد ، ينبغي أن تتوفر في ركاب السفينة أي في المسلمين الذين اجتمعوا تحت لواء العقيدة الصحيحة والشريعة السمحة أن يكون كل فرد منهم حذرا مما يفعل ، أي يقرأ حساب ما يجري أمامه في كل أمر حتى يتدبر الموقف الصحيح الذي عليه أن يقفه ، وأن يكون بصيرا بما يريده هو ، وأن يكون يقظا لكل ما يحدث في السفينة من أسباب الضرر بها .

ولذلك فإن بيان رسول الله ﷺ ، وتشخيصه لراكبي السفينة من كونهم إما أن يكونوا في الأعلى أو يكونوا في الأسفل ، فإن المراد بالأعلى هم ولاة الأمور ، والقادة والعلماء ، والهداة المهديون الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . والذين يعيشون في القعر أي في قعر السفينة فهم العامة والغوغاء الذين لا رأي لهم إلا بالاستناد إلى ما يقوله شيوخهم وعلمائهم وقاداتهم والهداة منهم ، ولذلك فإن هؤلاء إذا تخلوا عن الطريق السليمة التي جاء بها الإسلام وأرادوا أن يستجيبوا لأغراض نفوسهم فقد يقعون جميعهم أو أفراد منهم في كثير من الأخطاء التي تكون سببا في ذهاب تلك الجماعة والقضاء عليها ، فإن أخذوا على أيديهم نجوا أي القادة والعلماء ونجوا أي الأتباع ، وإن تركوهم هلكوا وهلكوا جميعا أي هلك أصحاب المكان العالي في هذه السفينة والذين يعيشون في أسفلها .

وإذا كان رُكَّاب السفينة كما بيَّنا يختلفون ويفترقون هذا الافتراق بين الذي يعيش في أعلاها والذي يعيش في أسفلها ، فإن دور الذين يعيشون في أعلاها الالتزام بالمنهج الإسلامي ، والدعوة إلى الله ، والتذكير بآيات الله ، والنصيحة لكل إنسان حولهم ، كما قال رسول الله ﷺ حين سئل عن النصيحة فقال : النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأولي الأمر ولعامة المسلمين . فإذا كانت النصيحة يُقصد بها هؤلاء جميعا فإن الهادي المهتدي هو الذي يقوم بواجب النصيحة .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مفهوم الحديث :

ثم نجد بعد ذلك أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة أساسية من صفات المؤمنين الذين اختارهم الله ليكونوا رؤّادا في هذا المجتمع الكبير الإنساني ، وذلك هو الذي يمنع بقية الناس ، بقية المسلمين من الوقوع في الخطايا والآثام ، وأن يكونوا سببا في إيذاء بقية المسلمين وخراب بيوتهم وخروجهم من ديارهم ووقوعهم في الفتن ، فيكون - هؤلاء الدعاة - هم القادرون على أن يقولوا للحريات المطلقة التي لا تعرف حدا ولا تعرف حُلُقًا ، ولا تعرف أدبا تقفُ عنده : لا ، ويقولون للإلحاد في الدين : لا ، ويقولون للفساد في الأرض : لا ، ويقولون لكل نوع من أنواع التسيّب ، ولكل نوع من أنواع التفسخ : لا ، لأن هذه الأشياء معاكسة للمنهج الإسلامي ، مخالفة له ، مفارقة للأدب النبوي الذي نحن بصدد تلقيه ، والاستعانة بفهمه بما فعله رسول الله ﷺ .

وقد نقول : كيف يطلب منا مثل هذا والإنسان بشر وهو مُعَرَّض للخطأ ومُعَرَّض للعبث ولوقوع الذنوب منه ، ومعرض لأن يكون عاصيًا لربه ؛ فإنه ليس ملكا ولا معصومًا .

نعم إن الإنسان ليس ملكًا ولا معصومًا ، ولكن الفرد من المسلمين الذي يعيش في مجتمع متماسك . يحرس الفضيلة يستطيع أن يرتد إلى المنهج الإسلامي وأن يعود إليه . بدعوة إخوته المسلمين القادرين على تحمل الرسالة .

بذل النصيحة :

فالإسلام يشدد في الوفاء بأمانة النصيحة . وهو سبب من أسباب الخلود ، واستمرار الكلمة العليا التي جاءت من الله سبحانه وتعالى عن طريق أنبيائه ، ورسله ، وختم بها رسول الله ﷺ الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الابتعاد عن القيام بهذا الواجب وهو واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الابتعاد عن النصيحة ، الابتعاد عن الدعوة إلى الخير ، هذا هو سبب الهلاك والدمار ، إذا سكت الناس عن القيام بواجب النصيحة وعن الأمر بالمعروف وعن النهي عن المنكر ولم يواجهوا الفساد ، ولم يدفعوا الأذى عن المجتمع الإسلامي ، حل بهم مكر الله ، وتغيرت أوضاعهم ، وأصبحوا بعد ذلك في حالة ييأسون فيها من كل خير . ومن كل نصر ، ومن كل رُقي ومن كل تقدم . لماذا؟ لأنهم غيروا المنهج الصحيح الذي اختاره الله لهم .

ولا نقول : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن يقام تارة ويمكن أن يُعرض عنه أخرى ، وأن من الوسائل العصرية ما يغني عن القيام بذلك لأن القرآن الكريم في آيات كثيرة تترى تعرض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأول آية من هذه الآيات هي الآية التي تجعل هذه الأمة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر خير أمة أخرجت للناس ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وفي قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ إيماء إلى أن هذا لا يُكتسب اكتسابا بالنسبة لبقية البشر ، ولا يمكن أن يكونوا خير أمة ، وإنما إرادة الله هي التي قضت بأن تكون هذه الأمة خير أمة ، هو الذي أوجدها على المنهج الذي اختاره لتكون رائدة وقائدة ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، ووصف القائمين بهذا الأمر ، والداعين إليه ، الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بكونهم من المفلحين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ثم نجد مقارنة بين الذين لا يقومون بهذا الواجب ، وبين الذين يضطلعون بهذه الأمانة ، ويقومون بهذه الرسالة ، متمثلا في الآية الأخرى من سورة آل عمران حين يقول تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٣-١١٤] .

ففي المرة الأولى وصف هذه الجماعة بكونها خيرة ، وفي المرة الثانية وصفها بكونها من المفلحين ، والمرة الثالثة وصفها بالصلاح فهي من الصالحين ، وفي المرة الرابعة يقول تعالى مشيرا إلى هذه الجماعة ، لكونها جماعة مرحومة قال ﷺ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ .

وفي قوله ﷺ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إيماء إلى التماسك الذي ينبغي أن يكون قائماً بين أفراد الأمة الإسلامية جمعاء ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وكما تحدث عن هذه الصفوة من المؤمنين ، وعن هذه الجماعة المضطلعة بالأمانة الداعية إلى الله الهادية إلى الخير تعرض للذين نكثوا عن هذه السبيل وخرجوا عنها ولم يلتزموها ، فسأهم بالمنحرفين والمعطلين .

وذلك في قوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِمَ أَغْنَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥] وجاء ذكرهم مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

الأمر والنهي على قدر الاستطاعة:

فإذا صح وثبت وتأكد بالآيات الكثيرة القرآنية الكريمة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير ، وهداية الناس أمر ضروري لكل فرد في المجتمع الإسلامي ، ينبغي أن يقوم به على قدر استطاعته وإمكانياته ، فإنه لا يبقى بعد ذلك مجال للشك في هذه الهداية ، في هذا الأمر الذي قال به ﷺ «فإن أخذوا على أيديهم» أخذوا على أيديهم بماذا؟ أخذوا على أيديهم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، الأخذ على أيديهم بما يُنبهون إليه من مخاطر ستحقيق بهم وتحقيق بالأمة الإسلامية جمعاء .

ولذلك فإنه لا يرد الاعتراض على ما قدمنا بما وقع تفسير قول الله تعالى به : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

ذهب كثير من أدعياء المعرفة ، الذين يتصبون إلى تفسير كتاب الله بغير علم . فقالوا : إن الله لم يطلب منا أن نأمر بالمعروف ولا أن ننهي عن المنكر ، ولم يطلب منا أن ندعو إلى الخير ولا إلى هداية . قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ ، وهؤلاء لم يفهموا الآية ، لأن الآية تضمنت أغراضا ثلاثة ، ومعاني متعددة : المعنى الأول : هو الحرص بملازمة الاهتداء بقوله تعالى : ﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ . فالحرص على ملازمة الاهتداء يقتضي القيام بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلا فإن الإنسان لا يكون مهتديا .

وأما الأمر الثاني ، فهو دفع ما اعتراه من الغم لعدم استجابة الكافرين ، لأن كانوا حريصين على أن يستجيب الناس جميعا لأمر الله ولدعوته ، فلما لم يستجيبوا ، ألمهم ذلك ، وأرادوا أن يحرصوا كل الحرص ، فقال لهم تعالى تخفيفا عليهم : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ .

الإعراض عن المخالفين بعد بذل النصيحة :

ثم القضية الأخرى ، هي الإعراض عن الغير بعد بذل النصيحة ؛ لأن الإنسان الداعي إلى الله ليس وكيلا ، وقد خطب رسول الله ﷺ بهذا فإنه لم يكن وكيلا عليهم . ولكنه يدعوهم ، يأمرهم فإن انتهوا وامثلوا فذلك ، وإلا فإنه غير مأمور بما وراء ذلك . فالآية إذن تدعو إلى الأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر .

ولذلك ورد في «سنن الترمذي» أن أبا ثعلبة الخشني سئل عنها أو سأله عنها أبو أمية الشعباني فقال: «بل ائْتَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَاوا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مَطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثِّرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَ».

وورد في «السنن» أيضًا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قال: قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ الآية. فقال: إنكم تضعونها غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله أن يعمهم بعذاب».

وقال أيضا: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه امتثالا لقول رسول الله ﷺ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده، ولذلك وجدت الحسبة في الإسلام، أخذًا من هذا الأصل، كما أن الأحكام القوانين التي وجدت في كل النظم قديمها وحديثها، والتراتب التي وضعها القضاة والحكام كانت تريد أن تحمل الناس على الخير وأن تبتعد بهم عن الشر. ولكنهم جعلوا لذلك مرة عقوبات ومرة حوافز؛ العقوبات للانتقام من الضالين المضلين الذين يلحقون الأذى بغيرهم على سبيل التربية والتأديب، والحوافز بالنسبة للذين يريدون أن يسعوا في الخير ولكنهم لا يقدرّون على ذلك فيأتي دفعهم ودعمهم بمثل هذه الحوافز والجوائز وقد رأينا هذا عند رسول الله ﷺ مع صحابته. ولا أدل على ذلك من سيرته بينهم ومع أقرب الناس إليه منهم، فقد كان يأمر وينهى ويربي ويهدي ويدعو إلى الله ويدعو إلى الخير ويحنبهم كل المعاصي، فهذا هو كف الأذى. وماذا بعد كف الأذى إلا بذل الندى.

بذل الندى:

بذل الندى هو الدعوة إلى الله ، هو بيان الخير ، بيان المنهج الإسلامي من هداية ومن توفيق ، ومن أمر يسمو بالإنسانية جمعاء ، ويخرج بها من الظلمات إلى النور كما ذكر ذلك القرآن الكريم . وقد تقولون : بذل الندى يتمثل بصورة عملية ودقيقة في أي شيء وهل يمكن أن نحقق بذل الندى؟ أنا لا أقول : إن بذل الندى هو إعطاء الأموال والجوائز فقط بالنسبة لما أشير إليه من أنه لا بد من الحوافز التي تدفع ، ولكني أقول : هناك مذاهب ثلاثة تربوية :

المذهب الأول: هو مذهب النزعة الأخلاقية ، الذي يربي في الفرد الضمير الذي يجعله في كل عمل يُقدّم عليه مسئولاً أمام نفسه ، وهذا ما يسمى بتربية الضمير الفردي .

والمذهب الثاني: يمثلها مذهب النزعة الاجتماعية ، وهي التي يكون بها الفرد شاعراً بمسئوليته أمام الأمة ، ويسمى هذا أو يحقق هذا تربية الوجدان الاجتماعي .

والمذهب الثالث: هو مذهب النزعة الروحية التي تجعل الفرد المسلم شاعراً بمسئوليته فيما يترك ويدع ، وفيما يأتي به ويقوم ، مسئولاً أمام الله ، وهي تربية الشعور الديني .

ولعلكم تذكرون بأن شعار المسلم هو قول رسول الله ﷺ حين سئل عن المسلم الحقيقي فقال : «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

والمواطن الصالح هو من يأمن الوطن والمواطنون شره ، ويرجون خيره وبره ، ومن يحترم حقوق غيره فلا ينتهكها ، وينهض بواجباته فلا يتهاون فيها ولا ينقصها .

وإذا كنا قد أشرنا إلى هذه المعاني الثلاثة التي هي : مذهب النزعة الأخلاقية ومذهب النزعة الاجتماعية ، ومذهب النزعة الروحية فإني أريد أن أذكر بأن مرد هذه الأنواع من التربية إلى الإسلام نفسه . أليست التربية الفردية للضمير في الإنسان راجعة أو يدل عليها قول النبي ﷺ : «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»^(١) ، ويدل عليها أيضاً قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله فقالت : كان خلقه القرآن .

وأما التربية تربية الوجدان الاجتماعي أن يكون الإنسان شاعراً بمسئوليته أمام الأمة ، أو تربية الوجدان الروحي أن يكون شاعراً بمسئوليته أمام الله ، فذلك هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة ونهت عليه وحثت على اعتماده في سلوكنا ومنهجنا العام وهي قوله تعالى : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٧٤] . فإذا أصبح الإنسان شاعراً بأنه معرض إلى مراقبة من الله ومن الرسول ومن المؤمنين أصبح منكفئاً عن كثير من الضلالات سائراً إلى تحقيق الخيرات .

(١) عزاه صاحب «الكنز» (١١ / ٥٣٤) لابن السمعاني في «أدب الإملاء» من حديث ابن

مسعود رحمه الله .

المحاضرة الثالثة عشرة بعد المائة

أولادنا على ضوء شريعتنا

أخرج الإمام مسلم رحمته الله في «صحيحه» قال : حدثنا يحيى بن أيوب وقُتَيْبَةُ يَعْنِي ابْنَ سَعِيدٍ ، وابن حجر قالوا : حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» .

ومعنى الحديث أن فائدة عمل الإنسان وتجديد ثوابه إذا مات انقطع كالصلاة والحج لا تصل إليه بعد موته ، إلا من ثلاثة أشياء ، فإن ثوابها لا ينقطع لكونها فعلاً دائماً الخير ، متصل النفع ، وهذه الثلاثة هي :

أولاً : الصدقة الجارية :

أي الدائمة المتصلة كالوقوف والأحباس المرصدة لفعل الخير فيدوم ثوابها مدة دوامها .

ثانياً : العلم النافع :

وهو يشمل التعليم والتصنيف . قال السبكي رحمته الله : والتصنيف أقوى ، لطول بقائه على مر الزمان . وشرط بعض شراح صحيح مسلم أن يشتمل التصنيف على فوائد زائدة على ما في الكتب المتقدمة ، فإن لم يشتمل إلا على نقل ما فيها فهو تحبير - كما يقولون - للكاغد (الورق) فلا يدخل في ذلك .

قال المُنْذَرِي : وناسخ العلم النافع ، له أجره وأجر من قرأه أو كتبه أو عمل به ما بقي خطه ، وناسخ ما فيه إثم عليه وزُرُّه ووِزْر من عمل به ما بقي خطه .

ثالثاً: الولد الصالح :

أي الولد المسلم لأن أباه هو السبب لوجوده ، وراثته ، وإرشاده إلى الهدى وتعليمه وتهذيبه . وفائدة تقييد الدعاء بالولد مع أن دعاء غيره ينفعه ، تحريض الولد على الدعاء للوالد ، وقيده بالصالح لأن الأجر لا يحصل من غيره .

الولد الصالح امتداد لعمل والده :

انطلاقاً من هذا الحديث الشريف المتقدم . فقد نص الحديث على أن من ضمن أعمال الإنسان التي يتجدد ثوابها ولا ينقطع بعد موته لكونه سبباً لها ، الولد الصالح الذي يدعو لوالده بعد مماته ، ويكون باراً بوالديه أثناء حياتهما ، ومن ممثلاً لا يجب أن يكون له ولد صالح يسعده به في حياته ، ويكون سبباً في تجديد ثوابه بعد مماته ، إن شريعتنا الغراء اهتمت بأولادنا ذكورا وإناثا اهتماما كبيرا في جميع مراحل أعمارهم إلى أن يصبحوا مكلفين ، ورجالا ونساء نافعين صالحين لوالديهم ولأسرهم ولأوطانهم ولأمتهم ، وقد بين الله سبحانه أن الأولاد زينة الحياة الدنيا تسرُّ الفؤاد مشاهدتهم ، وتسعد العين رؤيتهم ، وتبهج النفس محادثتهم وملاطفتهم فقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤] ويقول تعالى في سورة الكهف : ﴿ أَمْ أَلُمُّوا وَلَدَهُمْ فَيَنْبَغِي عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْلِمُونَ ﴾ [الكهف: ٤٦] .

سعي الشيطان لإغواء الأبناء:

وقد حكى القرآن الكريم أن الشيطان لعنه الله أكد سعيه لإغواء الأولاد وإفساد الذرية وإبعادهم عن منهج الله وطاعته بعد أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له فقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ أَنْ أُخْرَجَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ فَأَحْتَنِكُ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢] أي لأستولين عليهم بالإغواء والإفساد، ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُخِيلُكَ وَرَجَلُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

صلاح الآباء يساعد في تنشئة جيل صالح:

ولاشك أن لصلاح الوالدين وهما القدوة الحسنة للأولاد أثراً كبيراً في تنشئتهم على طاعة الله واتباع منهجه. وقد نفع صلاح الآباء الذرية والأولاد، وقد قص علينا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام حينما سأل عبد الله واسمه الخضرُ على الراجح عن سبب إقامة الجدار دون أخذ الأجر عليه فقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف: ٨٢] وهذا يدل على أن صلاح

الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء في الدنيا ولا يضيعون ، ويكون سببا في إلحاق الذرية المؤمنة بهم في جنات الخلد يقول تعالى في سورة الطور : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور : ٢١] .

عناية الشريعة بالأولاد :

إن عناية الشريعة بالأولاد تبدأ باختيار الزوجة الصالحة ذات الدين لقول الرسول ﷺ : «تُنكح المرأة لأربع : لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاطفر بذات الدين تربت يداك»^(١) . ولكل مرحلة من مراحل عمر الولد أحكام شرعية خاصة به ، منذ أن يكون جنينا في بطن أمه إلى بلوغه مبلغ الرجال المكلفين . وجميع هذه الأحكام تبني شخصية الولد الصالح ضمن منهج تربوي رباني يبني عقيدته وعبادته وأخلاقه ، وعاطفته وعلمه ، وفكره وجسمه وصحته ، ويهذب غريزته ، ويجعله إيجابيا في مجتمعه ، وإصلاح الولد ليس مسئولية فردية بقدر ما هو مسئولية جماعية ، يضطلع بعبئها كل فرد من أفراد الأمة وفق هذا المنهج الرباني الكريم .

وبناء العقيدة للولد يقوم على أربعة أسس :

الأساس الأول : تلقين الولد كلمة التوحيد .

الأساس الثاني : حبُّ الله تعالى والاستعانة به .

الأساس الثالث : ترسيخ حب النبي ﷺ .

الأساس الرابع : تعليم الولد القرآن الكريم .

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أولاً : تلقين الولد كلمة التوحيد .

من سنة النبي ﷺ إذا وُلِدَ المولود الأذانُ في أذنه اليمنى ، والإقامة في أذنه اليسرى ، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن بن علي عليه السلام حين ولدته فاطمة عليها السلام ، ذلك لأن الأذان من شعائر الإسلام ، لأن فيه إعلاما بدين الإسلام ، وأن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان ، يدل على كبرياء الرب وعظمته سبحانه وتعالى ، وكذلك الشهادة التي هي أول ما يدخل بها في الإسلام ، فكأنه يلقن شعار الإسلام عند دخوله الدنيا كما يلقن التوحيد عند خروجه منها .

ولأن الشيطان الرجيم نعوذ بالله منه يهرب من كلمة الأذان ويتعوذ منه ، يقول تعالى في سورة آل عمران ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ۚ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ ﴾ [سورة آل عمران : ٣٧] .

وحين يفصح الولد ويتعلم الكلام يلقن كلمة التوحيد ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الكريم أبي أمية قال : (كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات قول الله تعالى في آخر سورة الإسراء : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا ۖ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ۖ ﴾ [الإسراء : ١١١] وهذا الأساس العقدي هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي إفراط الله بالعبودية وتنزيهه عن الشريك . دليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ولذلك نجد في آيات القرآن الكريم حرص الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه على العناية بعقيدة أبنائهم، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

ولقمان الحكيم يوصي ابنه بتوحيد الله، يقول الله تعالى في سورة لقمان: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

ونلاحظ أن سورة الإخلاص التي تمثل الاعتقاد النظري، وسورة الكافرون التي تمثل الاعتقاد العملي هما من قصار السور القرآنية التي تحث أو تبحر في هذا الأساس من البنيان العقدي، وما ذلك إلا إشارة لسهولة حفظ الأطفال لها وإمكانية ترديدهما، وهذه قسمة من الله سبحانه وتعالى عظيمة.

مناهج التعليم وأثرها في تنشئة الأبناء:

وأقف قبل الانتهاء من هذا الأساس وقفة تتعلق بمناهج التعليم التي يجب أن تعمق هذا الأساس المتين في نفوس الأولاد، بدءاً من المراحل الأولى للتعليم، ويستطيع كل مدرس ومعلم ومُربٍّ مهما كان اختصاصه مهما كانت المادة التي يعطيها للأولاد في مدارسهم أن يركز هذا الأساس في

قلوب ونفوس الأولاد ، ويربطهم ربطاً محكماً متيناً بالإيمان بالله وتوحيده بطرق مشوقة وبوسائل شتى ، ولا يقتصر ترسيخ هذا الأساس على مادة التربية الدينية الإسلامية ثم يأتي مدرس العلوم مثلاً فينقض ما قاله مدرس التربية الدينية أو يأتي مدرس التاريخ والجغرافية فلا ينسجم درسه ومادته مع ما يعطى للأولاد من تعميق هذا الأساس المتين .

وأذكر مثلاً يدل على ما يستطيع أي مدرس أو معلم أن يقدمه للطلاب ، ترسيخاً لقدرة الله في نفوسهم ، وتثبيتاً للعقيدة في قلوبهم . يحدثني مدرس للتربية الإسلامية في مدرسة ابتدائية فيقول : غاب مدرس الرسم في المدرسة فكلفني ناظر المدرسة - مدير المدرسة - بالدخول على الطلاب في هذا الدرس فلما رأوني فرحوا فرحاً شديداً ، لأنني حسب تصورهم لا أفهم في فن الرسم ، وسأترك لهم فرصة للراحة واللعب ، ولكنني قمت فرسمت لهم على اللوحة صورة نخلة ولونتها بالألوان الزاهية الجميلة ووضعت الثمر عليها ، وأخذت أشرح لهم قدرة الله تعالى على خلق هذه النخلة ومدى فوائدها ، وأستشهد لهم بآيات من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٥] وبأحاديث عن رسول الله ﷺ في النخلة وعن تشبيه المسلم القوي بالنخلة ، يقول : فتعجب الطلاب واستجابوا معي أيما استجابة وقالوا : إن مدرس الرسم لا يعطينا مثل ما أعطيتنا ورغبوا أن أدرس لهم الرسم بدل مدرسهم .

الأساس الثاني : حب الله تعالى والاستعانة به ومراقبته :

وهذا الأساس يعين الولد على مواجهة ما يعترضه من أمور في مستقبل حياته ، فتعميق حب الله والاستعانة به وتأسيس مراقبة الله في نفس الولد

هو منهج رسول الله ﷺ في وصيته لعبد الله بن عباس رضي الله عنه ، فقد أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : (كنت خلف النبي ﷺ فقال : يا غلام ، إني أعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

وفي رواية غير الترمذي ، أخرجها الإمام أحمد والحاكم والطبراني زيادة وهي : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

إن لهذا الحديث تأثيرا روحانيا عميقا ، وله وقع بالغ إيجابي على مواجهة هذه الحياة بكل مشاكلها ومعوقاتا . وحذا لو كتب هذا الحديث وعلق في جميع مراحل الدراسة حتى يتملاه الأولاد في صباحهم وفي مساءهم ، يأخذون منه القوة والاستعانة بالله ، فإذا نقش هذا الحديث وغيره مما يعمق حب الله تعالى والاستعانة به أصبح الولد قالبا يحمل قلب رجل يواجه المصاعب مستعينا بالله سبحانه وتعالى ، وإذا كان أصحاب المناهج النفسية يثقفون الأولاد بشتى الاختبارات النفسية التحليلية طبقا لنظريات وأسس ليست قائمة على منهج الله تعالى فإن التطبيق العملي الإسلامي للاستعانة بالله ومراقبته تنتج رجولة مبكرة وفهما عميقا لواقع الحياة .

وكم نحتاج إلى مثل هذا المنهج الرباني ، وأولادنا على مقاعد دراستهم يمرون بمختلف التطبيقات العملية للاستعانة بالله ومراقبته . يروى أن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسير في الطريق فرآه مجموعة من الأولاد يلعبون ، فلما رأوه هربوا منه إلا واحدا هو عبد الله بن الزبير فتعجب عمر منه وسأله عن سبب عدم هربه ، فأجابه : لم أكن مذنباً فأهرب منك ، ولم أكن لأخافك فأوسع لك الطريق .

ويُروى أن ابن عمر رأى في سفره غلاماً يرعى غنماً ، فقال له : تبع من هذه الغنم واحدة؟ فقال الغلام : إنها ليست لي ، فقال : قل لصاحبها : إن الذئب أخذ منها واحدة ، وهذا من ابن عمر اختبار لهذا الغلام ، فقال الغلام : فأين الله؟ يستشعر الله سبحانه وتعالى ويراقب الله جل وعلا ، فكان ابن عمر يقول دائماً مقالة هذا الغلام : فأين الله؟ .

وكان لبعض المشايخ تلاميذ ، فكان يخص واحدا منهم بالإقبال عليه أكثر مما يُقبل على غيره ، فقالوا له في ذلك ، فقال : أُبَيِّن لكم ، فدفع إلى كل واحد من تلامذته طائراً ، وقال له : اذبحه بحيث لا يراك أحد ، ودفع إلى هذا التلميذ طائراً ، فمضوا ورجع كل منهم وقد ذبح طائره ، وجاء هذا التلميذ بالطائر حيّاً ، فقال : لِمَ لَمْ تذبحه؟ فقال : لقد أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراني أحد ، وكل موضع أذهب إليه أجد الله مطلعاً علي .

الأساس الثالث : ترسيخ حب النبي ﷺ :

وهذا الأساس يتناول القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذي ينبغي أن يعطى للأولاد ، إن أولادنا في أمس الحاجة إلى القدوة الحسنة ، والسيرة الطيبة التي تلازم تصوراتهم وأعمالهم حتى يتشبعوا منذ صغرهم بحب رسول الله ﷺ .

تدريس السيرة للنشء:

وتدريس سيرة سيدنا رسول الله ﷺ في مدارسنا بأساليب تناسب جميع مراحل دراسة الأولاد، والتركيز على بعض المعاني التي من الممكن أن يحفظها الولد وأن يتمسك بها، ويستطيع أن يطبقها على نفسه، تجعل أولادنا شغوفين بحب رسول الله ﷺ، وسيرة الرسول ﷺ كتاب مفتوح لجوانب الحياة المتعددة، والولد الصالح يجد في السيرة ما يُشبعه ويُغنيه ويعطيه الأسوة الحسنة. ومن الملاحظ أن النفس البشرية عامة في مرحلة بنائها تحاول أن تتشبه بأقوى شخصية حولها، وذلك لتقتدي بها وتسير على هداها وتقلدها في كل حركاتها وسكناتها، وهل هناك أفضل من الاقتداء برسول الله ﷺ للولد الصالح يتأسى به ويقتدي بأعماله، وعندما يستشعر الولد أن حب رسول الله ﷺ والاقتداء به إنما هو محقق للشرط الثاني من الشهادة، والشهادة أول ركن من أركان الإسلام، يقبل إقبال المحب الوهّان لسيرة الرسول ﷺ.

روى الشيخان والإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال له الرسول ﷺ: وما أعددت لها؟ فقال: لا شيء إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: أنت مع من أحببت»، قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم. ومعلوم أن أنسا رضي الله عنه خدم النبي ﷺ وهو ولد صغير، عمره عشر سنين.

وقد رسخت محبة رسول الله ﷺ في قلوب أولاد الصحابة، فقد جاء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه مدفوعاً من أبيه وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبيع رسول الله ﷺ كما أخرج مسلم في صحيحه فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً عليه ثم بايعه. قال الإمام النووي في شرحه على صحيح الإمام

مسلم : هذه بيعة تبريك وتشريف وليست بيعة تكليف ، فإنه دون سن التكليف . وهذا يدل على تنشئة الأولاد على حب رسول الله ﷺ ، يدفعهم إلى ذلك آبائهم وأمهاتهم .

الأساس الرابع : تعليم الولد القرآن الكريم :

وهذا الأساس المتين في البنيان العقدي للولد الصالح له تأثير كبير وعميق على النفس البشرية عامة ، يهزها ويجذبها ، وكلما كانت النفس صافية كلما ازدادت تأثرا ، والولد أقوى الناس صفاء ، وفطرته ما زالت نقية ، والشيطان ما زال في صبوته تجاهها ، فتتعامل نفسه مع كتاب الله سبحانه وتعالى حفظا وتثبيتا . وقد نص علماءنا رحمهم الله على ذلك ، فقال الفقيه ، العالم التقي أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمته الله وأرضاه في مقدمة كتابه العَلَم : الرسالة زبدة مذهب الإمام مالك رحمته الله : (واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير ، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه ، وأولى ما عني به الناصحون ، ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليَرْضُوا عليها ، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم ، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يُطْفِئ غضب الله ، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر) .



نور من القرآن والسنة

٣٦

المحاضرة الرابعة عشرة بعد المائة

مفهوم الاتباع والابتداع

تعريف الاتباع والابتداع من السنة:

قد روى الإمام محمد بن مثنى ، حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه ، وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه مُنذر جيش يقول صَبَحَكُمْ وَمَسَّكُمْ ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك ما لا فلاهله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ » .

هذا الحديث له أهمية خاصة من حيث إنه يحدد مفهوماً إسلامياً تضطرع حوله الآراء ، وتتنازع أفكار متعددة فتزيده غَبْشاً ، وتعجز كثير من الأنظار عن الوصول إلى حقيقته ، إنه مفهوم الابتداع ، وهو قيمة من القيم الإسلامية التي تحدّث عنها الشرع الشريف على وجه التنفير منها .

وقد وردت بشأنه أحاديث كثيرة ، منها هذا الحديث الذي رويته والذي أخرجه الإمام مسلم . وقد أخرجه أيضاً بسندَيْن آخرين . فقد أخرجه متحدثاً فقال : حدثنا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، ثم ساق الحديث مع إضافة ، ثم ساقه مرة ثانية فقال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع عن سفيان ، عن جعفر بن محمد عن أبيه

عن جابر . وفي غير «صحيح الإمام مسلم» ، للحديث وجودٌ عند محمد بن يزيد بن ماجه رَحِمَهُ اللهُ .

وقد رواه أيضا بسند له خاص ، فقال حدثنا سُؤَيْدُ بن سعيد ، وأحمد ابن ثابت الجحدري قالا : حدثنا عبد الوهاب الثقفي عن جعفر بن محمد بن أبيه عن جابر أن رسول الله ﷺ ، وساق الحديث . ثم إن الإمام أحمد بن حنبل ساق الحديث مرتين في مسند جابر وفي المسند : حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا مُصْعَبُ بن سَلَّام عن جعفر بن محمد ثم ساق الحديث .

وساقه مرة ثانية فيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا وكيع عن سفيان ثم ساق الحديث بتمامه ، مع اختلافات في الألفاظ .

وللنَّسائي لفظ آخر فيه إضافة أخرى . سأعرض لها إن شاء الله .

هذا الحديث مروي من طرق ثَقَات معروفين بصحة الأخذ عنهم ، وأوَّلُهم هو محمد بن مُثَنَّى بن عبيد بن قيس بن دينار . وهذا رجل صح الأخذ عنه لتزكية العلماء تزكية الأثبات له . فقد قال عنه الإمام النسائي . إنه لا بأس به . وذكره ابن حِبَّان في الثَّقَات وقال : إنه كان صاحب كتاب يروي من كتابه . وكَوْنُهُ صاحب كتاب يروي من كتابه لا يُعْض من قيمته شيئا ، ذلك أن الضبط المعتمد عند العلماء ، هو ضبط صدر أو ضبط كتاب . ولكل شروطه ومواصفاته ، وضبط الصدر هو مثل ضبط الكتاب متى كان ضبط الكتاب متحققا على الشروط الشرعية مأخوذا بطريق المقابلة والعرض على ما وصفه العلماء الأثبات في هذا الباب ، على أنني أشير إلى أن أكثر من حَدَّث في الإسلام ، وإن كان يروي من حفظه ، فإنه في الحقيقة كان يستند إلى كتاب يروي منه ، وهذا ما كان عليه جَلَّة العلماء ،

ولهذا شواهد متعددة ، فقد ذكروا أن مالك بن أنس لما توفي أخرج الناس تَرْكَّتَهُ ، فوجدوا فيها سبع فنادق ، جمع فُنداق أي صناديق ، فوجدوا فيها أوراقا مكتوبة فصاروا يقرءون فيها ويقولون : يرحمك الله يا أبا عبد الله ، لقد عاصرناك الدهر الطويل فما كنا نسمعك تروي منها شيئا . وهذا يدل على أن مالكا وإن كان حافظا حفظ صدر ، فهو كان يستند إلى كتاب . ولعل طريقة المُحَدِّثِينَ من الأوربيين ممن يتباهونَ بِكُتُبِ الجُذَازَاتِ ويقف الواحد منهم ليفاخر بأن له خمسا وسبعين ألف جذازة ، كما فَعَلَ بعضهم جون بيير جفي في حفل تكريمه ، فإن هذا قد سُبِقَ إليه بفعل المسلمين .

فقد كان للإمام مالك جذازات وقد قالوا كذلك في باب المفاضلة بين البخاري ومسلم : إن البخاري يُعَدَّرُ بأنه كتب كتابه بعيدا عن أصوله ، بمعنى أنه لم يكن بإمكانه أن يرجع إلى مكتوبه ، ويظل مع ذلك ضبط الصدر ظهيرا ونصيرا لضبط الكتاب ، وإلا فإن الكتابة عندنا ، في تاريخ علوم الحديث قديمة ، ابتداء من الصحابة رضوان الله عليهم . أقول هذا دفعا لكل التباس ، وأقول هذا ، دفعا لما يشاع من أن الحديث ظل دائما مرويا رواية شفوية ، مما يُعَرِّضُه للتزيد والانتقاص والإضافة فيه ، فهذا الراوي ذكر فيه أنه كان يروي من كتابه ولكنه كان كتابه الخاص . وكان محافظا عليه .

ثم يأتي بعده عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصَّلْتِ بن عبيد الله ابن الحكم بن العاص ، وهذا أيضا ممن كان له ضبط كتاب وإن كان يقال عنه إنه يروي من كتب الناس ، وقد وُثِّقَ هو أيضا واعْتُمِدَ ، وبعده كذلك يأتي الصحابي الجليل .

يأتي التابعي جعفر بن محمد هو جعفر الصادق الذي روى عنه الأئمة ووثقوه ، خصوصا الإمام مالكاً وأبا حنيفة . فقد روى عنه الإمام مالك بعدما أنس به وعلم من أحواله ، وإن كان هو معدودا في رجال الشيعة أو كانت الشيعة تجعله الإمام الخامس في سلسلة الأئمة الإثني عشر . لكنه كان سليم العقيدة . وقد ذكّر له كما ورد أن محمد بن معاوية ، قال لجعفر إن لي جارا يدعي أنك تَبْرأ من أبي بكر ، فقال جعفر الصادق : برئ الله من جارك ، إنني أرجو أن ينفعني الله بقرابتي منه ، وقد كان فعلا قريبا من أبي بكر وقال : لقد ولدني أبو بكر مرتين في حديث ليس هذا مجال استيعابه .

ثم إن في السلسلة صحابيا هو الذي تلقى الحديث عن رسول الله ﷺ وهو جابر بن عبد الله ، وهو الصحابي ابن الصحابي ، جابر بن عبد الله ابن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن سلمة بن سعد ابن علي إلى آخر نسبه . وهذا الصحابي من الصحابة الأخداث الصغار ، شهد العقبة مع أبيه وكان أبوه عبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا من النقباء ، شهد بيعة العقبة الثانية ، ثم إنه صحب النبي ﷺ في شبابه ، وقد منعه والده من دخول الحروب مُنيبا له على أخواته وكُنَّ تسعا فكان يقوم بشأنهن ، وروى عنه أنه حضر بدرا ، ولذلك يعده في البدرين ولا يجعله بعضهم في البدرين ، لأنه . يروي أنه قال : كنت أمتح أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ، وفي رواية كنت أُمِيحُ أصحاب محمد يوم بدر . والماتِح والماتح هما اسمان للرجل الذي يتولى سَقْي الماء . فإن كان في أسفل البئر ، يتناول الماء من أسفل البئر فهو الماتِح وهو الذي عبر الشاعر بقوله :

أَلَا أَيُّهَا الْمَاتِحُ دَلَوِي دُونَكَ إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ

في الشاهد المشهور الذي أورده صاحب الإنصاف . وقيل : إنه كان ماتحا أي أنه كان أعلى البئر وكان يسقي أصحاب رسول الله ﷺ فهو إذن معدود في البدرين بهذه المثابة ، حتى إذا كانت غزوة أُحُد ، دخل والده عبد الله بن عمرو بن حرام المعركة فكان أول قتيل فيها ، وبعد ذلك صار يدخل المعارك مع رسول الله ﷺ لا يتخلف عن واحدة منها . ثم تيسر له من صحبته للنبي ﷺ علم كثير ، إضافة إلى شدة ولعه بطلب الحديث حتى يقال : إنه رحل في طلب حديث واحد إلى الشام وسافر فيه مدة شهر ، فكان ممن سئوا الرحلة في طلب الحديث .

وقد كان رَحِمَهُ اللهُ فِي الْخِثَمِ أحد أعمدة الرواية أحد أولئك الصحابة الجُلَّة ، الذين حفظوا للأمة الحديث ، وهو أحد المُكثِرِينَ الذين يروي الواحد منهم أكثر من ألف حديث ، فهو السادس في سلسلة المكثرين يسبقه أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، وقد روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعا وسبعين حديثا ، ثم يسبقه كذلك ابن عمر برواية ألفين وستمائة وثلاثين حديثا . ثم يسبقه كذلك أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وقد روى ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثا ، وتسبقه عائشة وقد روت ألفين ومائة وعشرة من الأحاديث ، ثم ابن عباس بألف وستمائة وستين حديثا ، ثم جابر بن عبد الله بألف وخمسمائة وأربعين حديثا .

ثم أبو سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ وَقَدْ رَوَى أَلْفًا وَمِائَةً وَسَبْعِينَ حَدِيثًا . فهو في الطبقة السادسة من هؤلاء المكثرين ، وحديثه استفيد منه وشاع في كتب الناس ، وحمل للناس علم رسول الله ﷺ . هذا باقتضاب ما يتعلق بجانب السند وأحببت أن أقتضب فيه ، لأخلص بعدد إلى دراسة الحديث واستفادة ما ينبغي استفادته منه .

إن هذا الحديث هو من رواية الإمام مسلم ، ويكفيه أن يكون من رواية الإمام مسلم ليكون صحيحًا ، وهو أحد الكتب الثلاثة التي التزمت الصحة وسَلَّم لها العلماء ، وهي «موطأ الإمام مالك» ، و«صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري» ، و«صحيح الإمام مسلم» رَحِمَهُمُ اللَّهُ . لكن الذي يَسْتَلْفِت النَّظْرَ في هذا الحديث هو تصريح الإمام مسلم بلفظة التحديث فقال حدثني محمد ابن المثنى بالإفراد ، ثم قال حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد ، ثم انصرف بعد ذلك إلى العننة فقال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر .

فالعننة في هذا الحديث تثير إشكالا حديثيا ، أذكره أيضا إذ أَلِمُّ به إن شاء الله اقتضابا ، ذلك أن المعوّل عليه في الصناعة الحديثية أن يكون الحديث متصلا ، والاتصال أحد الشروط الخمسة التي يصح بها الحديث ، وأَوْضَحُ أَوْجُهَ الاتصال أن يروي المحدث أنه لقي من حَدَّث عنه وشافهه وباشره ، ليكون الحديث متصلا .

وكل نوع من أنواع الانقطاع سواء كان إرسالا أو كان انقطاعا مما يلي الصحابي أو كان إعضالا برواية راويين أو كان تعليقا فهو يؤدي إلى ألا يكون الحديث مقبولا صحيحا ، لانعدام هذا الشرط ، لكن لفظ العننة يُوهِم من جهة بالاتصال ويوهم من جهة أخرى بالانفصال ، فلذلك تشعبت فيه الأقوال وكان هناك قول متشدد هو الذي حكاه ابن رشيد في (السَّنَنِ الْأَبْيَنَ) فقال : إن القول الأول يرى أصحابه أن الحديث المعنعن في حكم المنقطع . وهو قول متشدد لا شك ولم تشايعه جماهير الأمة .

شروط قبول الحديث المعنعن :

أما جمهور الأمة الإسلامية ، فإنهم على اعتبار أن الحديث المعنعن يمكن أن يكون متصلا بشرائط ، فقد اشترط الإمام البخاري اللقاء ، واكتفى

الإمام مسلم بالمعاصرة، مستعيضا عن اللقاء بكون المحدث المروي عنه غير مُدْلَس .

وتنازع الناس هذا الأمر، ولكلٍ وجهته ولكلٍ حُجَّتَه . فالإمام مسلم، انصرف إلى اعتبار الحديث المعنعن حديثا صحيحا، لأنه يرى أن المعاصرة، وإن كانت هي فقط لا تفيد اللقاء، وإنما هي مظنة اللقاء، لكنها تُعَزِّزُ بأن الذي يروي رَآوٍ لا يدلس . فإن كان رَآوٍ غير مدلس فاشتراطُ اللقي هو من باب تحصيل الحاصل، وهو من باب الزيادة . وقد قال عن البخاري بأنه لما دافع عن رأيه في مبتدأ صحيحه، قال : إن شرط البخاري شرط لم يُسَبِّقْ إليه، على أن الإمام البخاري، وإن كان يقول باللقاء، لكنه لم يكن يجعله شرطاً في تصحيح الحديث، ولكنه مع ذلك التزمه في صحيحه . المهم أن هذا أحد الأسباب التي جعلت «صحيح الإمام مسلم» يقعد عن درجة «صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري» .

ومع ذلك فحينما كان الناس بين هذين الصحيحين فقد اختارت فئة منهم تفضيل «صحيح الإمام مسلم»، وكان أبو علي النيسابوري من هؤلاء، وقد عبر الحافظ العراقي عن هذا فقال :

أول من صَنَّفَ في الصحيح محمد وخص بالترجيح
ومُسْلِمٌ بعدُ وبعض الغرب مع أبي علي فَضَّلَ هذا لو نَفَع

فأبو علي الفارسي، وبعض علماء المغرب، ومعهم أبو حاتم الرازي، وأبوزرعة الرازي، فضلوا «صحيح مسلم» لاعتبارات منهجية، لأنه يجمع الحديث في باب واحد، ولأنه لا يُقَطَّعُ، ولا اعتبارات أخرى، ولأن الحديث عند مسلم هو حديث صِرْفٌ، فليس فيه شيء من الاستنتاج الفقهي .

ولعل المغاربة حينما انحازوا إلى صحيح مسلم كانوا يقصدون أن يتوحد توجههم المذهبي حول مذهب الإمام مالك ويعتبرون صحيح الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج كتاباً في الحديث فقط ، أما المذهب الفقهي فقد استقام له من خلال قراءتهم ومدارستهم للموطأ ، فكانوا يريدون الابتعاد عن الاضطراب واختلاف الأقوال إن هم قدموا صحيح الإمام البخاري مع علمهم بأنه أصح وأن مرويه لا شك مُقَدَّمٌ على مرويه غيره .

هذا الحديث يقول فيه جابر بن عبد الله واصفا حال رسول الله ﷺ فيقول :
كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ» ، فهذا ما سبق مع رواية أخرى وفيها تقييدُ كان رسول الله ﷺ يقع منه هذا إذا ذكر الساعة ، وفي حديث آخر :
كان إذا خطب احمرت وجنتاه ، وفي حديثنا هذا احمرت عيناه .

انفعال الرسول في بعض المواقف :

فهذا يفيد أن رسول الله ﷺ كان في بعض المواقف ، خصوصا المواقف التي تتناول الساعة وأهوالها يقع له انفعال ، فيظهر ذلك الانفعال على جسده الشريف فتحمر وجنتاه ويرتفع صوته ، ويشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش .
وبالتأكيد إن هذا لم يكن واقعه ولا حاله في كل الخطب التي كان يخطبها ، بل هو كان أمراً وارداً في الخطب التي كان يخطب فيها فيتناول الساعة ، أو في تلك الخطب التي كان يخطب ليعالج إشكالا يطرأ على المجتمع الإسلامي كما وقع لحالة ابن اللثبية .

وقد قام النبي ﷺ في الناس خطيباً ناهياً عن هذا المسلك الذي أراد ابن

اللتبية أن يفعله حينما قبل أن يُهْدَى إليه شيء من المال ، وهو كان مُستخدماً للدولة . فهذا الذي فعله النبي ﷺ وهذا المظهر منه سَيَدُل كما ذكرت على تجاوبه ﷺ مع الخطبة .

والخطبة في حد ذاتها ليست درساً يُلجأ فيه إلى التفريع والتقسيم ، وإنما هي موقف حاسم يقف فيه الخطيب أمام الناس ، ليحدثهم بألفاظ مُقتضبة مختصرة في أمر يتعلق بهم ، وقد حَفَها الشرع بكل المواصفات التي تجعلها مفيدة في هذا الغرض . فالخطيب يؤدي خطبته واقفاً ، بارزاً على رءوس الأشهاد ، وكل ذلك يفيد أنه في حالة من الجِد فوق أن يفرع أو يقسم أو يستطرد في الحديث فيذكر ما يتعلق بأمر الناس يؤديه إليهم ، وكون النبي ﷺ يرفع صوته ليس من باب الافتعال ، ولا من باب التزيد ، ولا من باب تشخيص مواقف غير صحيحة ، وإنما هو تجاوب وحرص منه ﷺ أن يؤدي هذه الأمانة وأن يؤدي هذه الرسالة . ذلك أن الإِبلَاغ إذا كان يتم بإيراد الكلمة المناسبة في الوقت المناسب فالإِبلَاغ كذلك يتم عن طريق الصوت وعن طريق الحركة . وقد ذكروا أن النغمة هي إحدى وسائل الإيضاح والتبليغ ، وأن الأسلوب يختلف باختلاف النغمة وطريقة أداء القول . ويستشهدون على هذا بقول الشاعر :

قالوا : تُحِبُّهَا؟ قلت : بَهْرًا عدد النجم والحصى والتراب

فلو أنه قرأها ، قالوا تحبها قلت بَهْرًا ، لكان هذا الأسلوب غير مؤثر ، لكنه حينما يُوقَف عند تحبها برفع النغمة فيقال : قالوا تحبها؟ فكأنه استفهام فتعوض النغمة أداة الاستفهام المحذوفة ، فالنبي ﷺ كان أوتي من البيان والفصاحة أعلى منزلة ، فكان يفصح للصحافة ، ويرفع صوته ، وربما اقتضى رفع الصوت ، لأن الجماهير التي كانت تحضر مجلساً تستدعي

ذلك ، وقد حضر خطبته في بعض المرات أكثر من مائة ألف وأربعة عشر ألف صحابي خصوصا في حجة الوداع ، فهذا وصفه ، ثم يقول النبي ﷺ : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَيُقَرَّنُ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ السَّبَابَةُ وَالْوَسْطَى ، وَالرَّوَايَةُ فِي السَّاعَةِ بِالنَّصَبِ وَبِالرَّفْعِ . بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَبُعِثْتُ وَأَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، عَلَى أَنَّ رَوَايَةَ النَّصَبِ مَرْتَجِحَةٌ . ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْمَوْقِعَ يَتَنَازَعُهُ الْعُطْفُ وَالْقَوْلُ بِالْمَعْيَةِ ، وَالْعُطْفُ مُقَدِّمٌ عَلَى الْقَوْلِ بِالْمَعْيَةِ ، إِلَّا إِذَا حَالَ دُونَهُ حَائِلٌ ، إِمَّا مِنَ اللَّفْظِ وَإِمَّا مِنَ الْمَعْنَى . فَإِنْ قُلْتَ جِئْتُ وَزَيْدًا كَانَ الْأَفْضَلُ النَّصَبُ لَا الرَّفْعُ . لِأَنَّكَ إِنْ رَفَعْتَ أَدَّى بِكَ ذَلِكَ أَنَّ تَعْطِفَ عَلَى ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُتَّصِلِ ، وَإِنْ قُلْتَ : جِئْتُ أَنَا وَزَيْدٌ ، جَازَ الرَّفْعُ لِأَنَّ الْعُطْفَ عَلَى الضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ جَائِزٌ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَانِعُ مَعَ الْعُطْفِ كَذَلِكَ مَانِعًا مَعْنَوِيًا كَمَا فِي قَوْلِهِمْ ، مَاتَ زَيْدٌ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ فَلَوْ رَفَعَ لَأَوْهَمَ ذَلِكَ بِمَوْتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ ، فَحِينَئِذَا لَا يُمْكِنُ الْمَصِيرُ إِلَى الْعُطْفِ لَا بُدَّ مِنَ الْمَصِيرِ حِينَئِذَا إِلَى النَّصَبِ ، وَهَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي أَلْفَيْتِهِ .

وَالْعُطْفُ إِنْ يُمَكِّنُ بَلَا ضَعْفٍ أَحَقُّ وَالنَّصَبُ مَخْتَارٌ لَدَى ضَعْفِ النَّسَقِ

والنصب في هذا مختار لدافع معنوي وهو أن البعثة للنبي ﷺ وليست بعثة للساعة إلا إذا أخذنا البعثة بالمعنى المجازي ، فاستخدمناه استخدامين فقلنا : إِنْ النَّبِيُّ ﷺ بَعِثَ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ كَذَلِكَ بُعِثَتْ ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَيُقَرَّنُ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ السَّبَابَةُ وَالْوَسْطَى ، مُشِيرًا إِلَى اتِّصَالِهِمَا ، وَأَنَّهَا مُتَقَارِبَانِ . فَهَذَا التَّشْبِيهُ يَفِيدُ الْإِتِّصَالَ مِنْ جِهَةٍ فَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى ، فَهِيَ مُتَلَاصِقَتَانِ . وَلَا نُبُوَّةَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالسَّاعَةِ ، ثُمَّ لَا تَفَاوُتَ إِلَّا يَسِيرًا ، بَيْنَ زَمَنِ الْبَعْثَةِ وَزَمَنِ قِيَامِ السَّاعَةِ .

وقد يقال إن الحديث قد قيل منذ خمسة عشر قرناً ، والساعة لم تُقَمْ بعدُ . والساعة إذا نُظِرَ إليها بأعمار الأمم فإن الأمة الإسلامية في الترتيب الحضري تعتبر حديثة الميلاد . وليس عُمرُها عمراً كبيراً إذا ما قيسَت بالحضارة التي صار عمرها آلاف السنين .

المهم أن النبي ﷺ يُشْعِرُ بهذا إلى قرب الساعة . ويباشر كل إنسان مصيره حينما يَلْقَى ربه ، وحينما ينتهي أجله . ثم يقول النبي ﷺ : «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهُدى هدى محمد» .

في هذا الجزء الذي هو الطَّلَبَةُ والمراد ، يقول النبي ﷺ : «فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد» وشر الأمور ، وخير هنا بمعنى أفعَل تفضيل . كأنها بمعنى أُخَيْرٌ ولكنه كما قال ابن مالك في تسهيل الفوائد : وغلبَ حذفُ همزة أخير وأُشِرَ في التفضيل ونَدَرَ في التعجب . فغالبا ما يقولون : خير وهم يقصدون به أخير ، على أنه يمكن أن يستشهد على ورود أخير» .

بلا لخير الناس وابنُ الأخير

ويقال كذلك : الأَشْرُ ، كما في قراءة أبي قلابة (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ) ، وقراءة ورش : ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ﴾ [القمر : ٢٦] ، وهناك من الكذاب الأشر ، فأفعل تفضيل يفيد أن خير حديث يُتَحَدَّث ، وخير حديث يُتَلَقَّى . هو قول الله ﷻ .

إن خير الحديث كتاب الله ، وهو كذلك خير حديث إن على مستوى البناء والتركيب ، أو على مستوى المحتوى والمضمون .

فعلى مستوى المحتوى التركيبي أفاض علماءنا وبيّنوا إعجاز القرآن ونصاعته وفصاحته وبلاغته بما لا يدع مجالاً للإعادة . وحينما يعيد الإنسان القول في هذا فإنما يكون معيدا ومكررا لما سبق .

ويكفي فقط في هذا الموقف أن أُلِمَّ وأن أُشير إشارة سريعة إلى فكرة أسس عليها الباقلاني كتابه في إعجاز القرآن . وقد انتبه انتباها ذكيا إلى أن البيان غير القرآن طبعا كيفما كان فإنه متأرجح بين صعود وهبوط وأن الفصيح المصنّع إنما يستطيع أن يمشي في خط مُنكسر ، لا يستطيع أن يذهب في خط أفقي ، فهو في بعض المرات يعلو وفي بعض المرات يَكْبُو . ولذلك كان الشعراء شبه مختصين فقالوا : أشعر الشعراء امرؤ القيس إذا ركب ، والنابعة إذا رهب .

وامرؤ القيس في ركوبه ليس في كل ركوبه مُجيدا ، ففي الركوب الذي تخصص فيه قد يهفو وقد يكبو ، على أن البيان القرآني متساوٍ من أوله إلى آخره ليس فيه لحظة ضعف ولا موقف هبوط ، فلذلك تحدى الله سبحانه وتعالى بالقرآن كله ولم يحدد سورة واحدة ليتحدى بها على أساس أنها تمثل قمة البيان القرآني ، فهذا لم يقع لأي كلام غير كلام الله تعالى ، الذي هو وحده أحسن الحديث من حيث البناء ، وهو كذلك أحسن الحديث من حيث المضمون .

ولا مضمون يفوق كلام الله سبحانه وتعالى أو يُساميه أو يدانيه . ذلك أن هذا المضمون هو الذي أوجد هذه الأمة الإسلامية وأنشأ هذه الحضارة الرائعة التي استمتعت البشرية بها ، وأصل كل معاني الخير التي سَمَتْ بها هذه الأمة الإسلامية ، وقد كانت هذه الأمة تهبط وتنزل وترتفع وتكبو ، بقدر التزامها وتمسكها بهذا الهدى القرآني ، وبقدر احتكامها إليه ، وبقدر

تشبثها به ، وكانت كذلك تتسبب وكانت تذلل بقدر ما كانت تنقص عن هذا البيان وتفر وتند عنه ، فخير الحديث كتاب الله لفظا وبناء ، لفظا ومعنى . وخير الهدي هدي محمد ﷺ . وقد نص القاضي عياض ، أنه مروي بالضم وفتح الهدى . ورواه في باقي الأسانيد ، وقال رويناه في مسلم بالهدى ، وروي كذلك بالهدى ، وعلى ذلك فسر الهروي . ويمكن النظر إلى التعبيرين معا .

فإن قلنا إن خير الهدي هدي محمد ﷺ كان ذلك أن خير طريقة وخير سميت هي طريقة رسول الله ﷺ وسنته العملية التي عاشها ، وإن قلنا إن خير الهدى هدى محمد ، أحالنا ذلك على النظر في معاني الهدى في الكتاب العزيز وفي السنة .

كلمة (الهدى) في القرآن :

وكلمة الهدى تتردد في القرآن كثيرا بإزاء معان متعددة مما سبب عسرا في الإلمام بها والإحاطة بها . فقد ورد الهدى مرادًا به القرآن الكريم ، وقد أطلق الهدى مرادًا به الإيمان ، وقد أطلق الهدى مرادًا به السنة ، وقد أطلق الهدى كذلك مرادًا به سنن الأنبياء السابقين ، وأطلق وأريد به التوراة ، وأطلق وأريد به الدعوة ، في شواهد كثيرة لا داعي لاستعراضها .

إلا أن هذه الأقوال يمكن ، أو هذه المعاني يمكن تكثيفها في أربعة معاني عليها يدور معنى الهدى في القرآن الكريم وفي سنة رسول الله ﷺ . فمن معاني الهدى في القرآن الكريم وفي سنة رسول الله ﷺ .

فمن معاني الهدى في القرآن الكريم ، النعمة الشاملة التي خص بها الله سبحانه وتعالى النوع البشري ، من فطنة ، وعقل ، ووسائل إدراك . وهذا

الهدى هو هدى متاح للجميع : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه : ٥٠] ، فقد هدى الله سبحانه وتعالى الخلائق إلى ما ييسر لها من الإدراك والإحاطة بجواهر الأشياء . ثم إن هناك معنى آخر من معاني الهدى وهو الدعوة : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] وهذا المعنى مضاف إلى رسول الله ﷺ فهو هادي هذه الأمة وداعيها .

ثم إن له معنى ثالثا وهو التوفيق الإلهي ، واللفظ الإلهي بأن يجعل الإنسان مهتديا . وهذا الذي أراده الله سبحانه وتعالى ، في قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] . فالله هو الهادي ، أي الموفق إلى سبل الرشاد .

ثم إن هناك معنى أخيرا للهداية وللهدى وهو ما يتوّل إليه أمر أهل الجنة فيهديهم الله سبحانه وتعالى إلى الجنة ، وينادون حينئذ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] . فهذه معان للهداية .

وقد أصرت المعتزلة على رفض جميع هذه المعاني ، إلا معنى واحدا هو معنى البيان ، تمشيا مع أصلها ومذهبها . فقالت : إن كل هدى وارد في القرآن إنما يقتصد به البيان ، وهذه دعوى لا يُسندها القرآن الكريم ، ولا تسندها الحجة .

بل لو كان الأمر مجرد بيان لما صح قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، فلو كان الأمر بمعنى البيان لما استقام القول ، لأن النبي ﷺ هدى بمعنى البيان ، بين لمن أحب ولمن لا يحب ، ولكن الله تعالى لم يوفق إلا من أحبه الله ﷻ .

فأفضل الهدى بالمعنيين بمعنى أفضل البيان ، والإيضاح هو إيضاح محمد ﷺ . إذا نحن اعتمدنا رواية الهدى ، وأفضل الهدى بمعنى الطريقة والسنة هي طريقة محمد ﷺ . فلا بيان يعلو بيانه ﷺ . ولا طريقة تُسامي طريقة رسول الله ﷺ وإرشاده وبيانه .

وبهذا الجزء يتلخص أن النبي ﷺ حدد أفضل القول وأحسن القول في قول الله . وأفضل السمت وأفضل المسالك في سلوك رسول الله ﷺ . فيكون قد بين قناتين من قنوات التلقي لدى المسلم وهما الكتاب ، والسنة ، فأما الكتاب فهو الأصل . وأما السنة . فإنها تابعة له ومسامية له ومسامته له وتُبينُ مُشْكَلَهُ وتُقيّدُ مُطْلَقَهُ ، إلى غير ذلك من الوظائف التي تؤديها السنة .

ثم متى عَرَفَ المسلم أن له هديًا يهتدي به وأنه له أفضل حديث يستنير به ، فإن البيان يأتي عن أمر آخر ، وهو شر الأمور . فإذا كان الرسول ﷺ بين خير الأمور ، فقد بين أيضا شر الأمور في هذه المقابلة بين الخير والشر . فقال : «وشر الأمور محدثاتها» ، ثم قال «وكل محدثة بدعة ، وكل ضلالة في النار» كما في رواية الإمام مسلم .

كل محدثة بدعة :

هذا حكم نبوي على المحدثات وعلى البدع ، بهذا الحكم الشامل يقول فيه النبي ﷺ «كل محدثة بدعة» ، وإن كلمة كل بوضعها العربي ، مفيدة للاستغراق ، فهي إما مفيدة لاستغراق أفراد المنكر كما في قوله ﷺ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، وإما مفيدة لاستغراق أفراد المُعَرَّف كما في قوله : ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم : ٩٥] ، وإما في استغراق أجزاء المفرد الواحد ، كأن تقول : كل زيد حسن .

ففي كل الأحوال هي مشيرة ومشعرة بالاستغراق والشمول . فتكون للجملة التي لها هذا الوضع التي هي كُليّة بهذا المعنى ، تكون لها قيمة علمية خاصة . والمناطقه حينما يتحدثون عن أنواع القضايا التي يمكن أن تؤلف يُقسّمونها إلى قضايا شخصية ، وقضايا طبيعية ، وقضايا مُهمّلة ، وقضايا محصورة .

المحصورة إما أن تكون محصورة بسور كلي وإما أن تكون محصورة بسور جزئي ، لكنهم حينما يريدون البحث العلمي ، يُقْصُونَ كل القضايا الأخرى . ذلك أن القضية الشخصية إن قلنا : حكمنا على زيد بكذا ، هي قضية شخصية لا صلة لها بالعلم لأنها لا تهم إلا زيدا وحده .

وكذلك إذا نحن تحدثنا عن القضية المهملة ، فهي في قوة الشخصية ، وكذلك التي يُخْتَفَى بها والتي تكون دائما القاعدة العلمية هي القضية التي تأتي مسوّرة إما بسور كلي ، وإما بسور جزئي كأن يقال : كل شيء كذا ، أو بعض كذا في حالتي الإيجاب والسلب ، فالنبي ﷺ قال : كل محدثة بدعة بهذا السور الكلي .

من هنا كانت القضية ذات اعتبار وذات إفادة لأنها تصوغ قاعدة الكلية ، وتكون هذه العبارة من النبي ﷺ هي إحدى تلك العبارات الجوامع التي ساقها النبي ﷺ قاصدا بها إلى أحكام كثيرة كقوله : «كل محدثة بدعة» وكقوله : «كل ما أسكر كثيره فقليله حرام» ، «وكل قرص جرّ نفعا فهو ربّا» .

وما أشبه ذلك من الكليات التي لها دور خاص وأهمية خاصة في الفقه الإسلامي ، لأنها لا تتناول فرعا بعينه وإنما يمكن أن تسري في أبواب

فقهية كثيرة . فقال النبي ﷺ : «كل محدثة بدعة» ، قاصداً -والله أعلم- إلى أن يُنشئ حكماً جميعاً لا حكماً مجموعياً ، لأن الكل كما هو معروف يمكن أن يؤدي إلى حكم مجموعي ، ويمكن أن يؤدي إلى حكم جمعي ، فقد نقول : كُلُّ ، نقصد به كل فرد فرد ، وقد نقول كُلُّ ، قاصدين به الهيئة والمجموع ، فنقول : كُلُّ ، كما عبر عن ذلك صاحب السُّلَم إذ قال :

والكُلُّ حُكْمٌ عَلَى الْمَجْمُوعِ كَكُلِّ ذَاكَ لَيْسَ ذَا وَقُوعِ

فهذا الحكم المراد حُكْمٌ جمعي ليس حكماً مجموعياً ، ليشمل كل فرد من أفراد البدعة . فيقول : كل محدثة بدعة . ومع ذلك أُشيرُ إلى أهل اللغة رغم أن هذه الجملة محكمة بِسُورِهَا الْكَلِيِّ ، فإن أهل اللغة لا يمانعون في أن يروا أنها يمكن أن يعترىها التخصيص ، وأن تتحول ، وأن تفقد كليتها وصورتها .

وقد قال أبو البقاء العُكْبَرِيُّ في كلياته : إن كلمة كُلُّ قد تفيد الأغلب والأعم ولا تفيد الشمول والاستغراق . وله على هذا شواهد من القرآن الكريم في العَامِّ الذي أريد به الخصوص في مثل قول الله تعالى : ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] . فهي لم تُؤْتِ كل شيء على الإطلاق ، وإنما أُوتِيت من كل شيء مما يصلح لأمثالها من الملوك .

المهم أن هذا الحكم مُحْكَمٌ وهو قول النبي ﷺ : «كل محدثة بدعة» ، شامل لا يمكن تخصيصه إلا بدليل ثابت .

التصور الموضوعي قبل إصدار الحكم ببدعية الأشياء :

وقبل الانصراف إلى هذا الحكم ، لابد من التصور الموضوعي ، قبل إصدار الحكم عليه ، إن حكم الشيء فزُعُ تَصَوُّرِهِ .

فما هي هاته البدعة التي حَكَمَ النبي ﷺ عليها هذا الحكم المستغرق الذي يجب تركه على استغراقه وهو المَطْلَب .

فالبدعة في دلالتها اللغوية قد تفيد معنى الطُرُوءِ والحدوث ، وإنشاء شيء على غير مثال سابق . ولها معنى أرقى من هذا له صلة بأوسمة فلسفية .

حينما قال الجرجاني في التعريفات : إن الإبداع هو خَلْقٌ وإيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا بزمان . إيجاد الشيء غير مسبوق بمادة ولا بزمان . وبهذا يكون الإبداع خاصا بالله تعالى ، لأنه هو الذي ينشئ الأشياء من غير زمان من غير تقيّد بمادة ولا بزمان .

أما الإنسان فإنه دائما محكوم بالإننتاج من خلال المادة المعروضة لديه ، وهو دائما محتاج إلى العلة المادية ، والعلة الفاعلة ، والعلة الصورية ، والعلة الغائية ، لا يستطيع أن يتجاوز ذلك .

فالإبداع إذن له هذه الصفة أو هذه السّمة التي ذكرها الجرجاني ولا يعيننا هذا كثيرا ، إنما أُشيرُ إلى أن الإبداع أو الابتداع ، تحول من مفهومه اللغوي إلى مفهوم شرعي ، ونتجت له مفاهيم متعددة ، وأشير فقط إلى اتجاهات في فهم البدعة ، عادلا عن ذكر التعريفات لألّم على الأقل بما أريد الوصول إليه .

فالبدعة في اتجاه أول تعني كل ما أُنتِج ، وكل ما أُحدث بعد عهده ﷺ ، كل ما وُجِدَ وأُحدث بعد عهده ﷺ ، قال بهذا القول الإمام الشافعي ، وقال به ابن الأثير . وقال به ابن حزم ، وقال به العزّ بن عبد السلام . وقال به القرافي .

تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة :

لكن هؤلاء الذين يقولون إن كل ما أحدث بعده ﷺ وبعد عهده ، كلهم اتفقوا على أساس تقسيم المبتدع إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة ، بل إن بعضهم وهو ابن الأثير ، يقسمها إلى بدعة هداية وبدعة ضلالة ، لأنه لما عمم في المفهوم كان ضروريا ألا يبقى ذلك المفهوم عاما ، حتى يشمل كل ما ابتدعه الصحابة بعد رسول الله ﷺ من كتابة المصحف ، وما أحدثوه من الأمور .

فلذلك كل الذين عمموا مفهوم البدع وجعلوه دالا على ما أحدث بعده ﷺ ، اضطروا إلى تقسيم البدعة إلى حسنة وقيحة ، واضطر القرافي خاصة إلى تقسيم البدعة الحسنة إلى خمسة أقسام ، منها : بدعة واجبة ، وهو كتابة المصحف الشريف ، ما ألحق بذلك من استحداث العلوم التي خدمت الشريعة الإسلامية . وألحق بها كذلك البدعة المندوبة ، ومثل لها بالتراويح ، وإقامة صور الأئمة كما ذكر أي الهيئات التي صارت لذوي المناصب من القضاة والعلماء والولاة وما أشبه ذلك . ثم ذكر البدعة المباحة ، وذكر البدعة المحرمة والمكروهة . فهو اضطُر إلى التقسيم ، لأنه سلفا كان قد عمم مفهوم البدعة فكان لابد ألا يشق على الأمة فيجعل كل شيء طرا بعد عهده ﷺ بدعة .

وهناك في المقابل توجهٌ ثان يقول به ابن حجر العسقلاني والهيثمي ، ويقول به الزركشي . ويقول به ثلة من العلماء . فيجعلون البدعة قسيمة للسنة . وفي تعريف ابن حجر أن البدعة خلاف السنة ، لا يتقيدون بزمان وإنما كلما أُحدث شيء نُقيض السنة ومخالف لها فهو بدعة ، لا يستند إلى أساس صحيح . معيار الزمان عند هؤلاء ، وعند أصحاب هذا المذهب غير

وارد، بل إن الشاطبي وهو من أصحاب هذا المُنْزَع يُعَرِّف البدعة فيقول :
البدعة طريقة في الدين مختَرعة تضاهي الطريقة الشرعية، يُقصد بها
بالسلوك عليها المبالغة في التبعّد لله، وساق تعريفاً آخر فقال : البدعة
طريقة في الدين مختَرعة تضاهي الطريقة الشرعية، يقصد بها ما يقصد
بالشرعية . فيكون بهذا قد وسع حينما قَصَرَ مفهوم البدعة على ما هو مخالف
لأدلة الشرع .

مفهوم جديد للبدعة :

وأخيراً إن هناك مفهوماً جديداً في البدعة ، هو نفسه بدعة في البدعة . أي
مفهوم البدعة في فهم البدعة ، ذلك أن بعض الناس تَوَهَّم أن كل ما اسْتُحْدِثَ
في استحداث ، لا يكون إلا بدعة بعد عهده ﷺ ، وأدّى هذا القول طبعاً من
غير تقييده بحسنة ولا قبيحة إلى تعميم مفهوم البدعة ، حتى حدا الأمر ببعض
الناس إلى أن يتهم بالابتداع جلة الصحابة ، فيقال إن التراويح بدعة من
عمر . وهذه قَالَةٌ لا يُثَقَّالُهَا . لأن هذا المفهوم لا وجود له في جميع ما قال علماء
الإسلام وما ذكروه من التعاريف في مفهوم البدعة .

والمقام لا يُشْعِفُ ، لذكر بعض أنواع البدعة ، خصوصاً تلك البدع
الفكرية التي تعيشها الأمة الإسلامية ، وهي البدع الكلية ، أو البدع
الشاملة ، البدع المنهجية التي عاشتها الأمة الإسلامية .

المحاضرة الخامسة عشرة بعد المائة

عصمة الأنبياء

الفرق بين الرسول والنبي:

حينما يتحدث العلماء عن النبوة والرسالة . يفرقون بين الرسول والنبي .
 فيقول بعضهم : إن النبي هو ما أُوحي إليه بشرع سواء أُمر بتبليغه أو لم
 يؤمر بتبليغه . والرسول هو الذي أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه .

وهذا التعريف لا يستقيم ؛ لأن الله سبحانه لم يرسل الأنبياء ثم لا
 يكونون مأمورين بالتبليغ لما أنزل عليهم ؛ لأن العلم الذي أنزل إليهم
 أمانة ، وكتمان العلم نقص ورذيلة . وإذن لا يُعقل أن يبعث الله نبيا ثم لا
 يأمره بالتبليغ .

ويقول بعض العلماء : إن النبي ما أُوحي إليه بشرع ولم ينزل عليه
 كتاب ، أما الرسول فهو من أُوحي إليه بشرع وأنزل عليه كتاب .

التعريف أيضا لا يستقيم ، لأننا نرى من الآيات القرآنية أن الله تحدث
 عن بعض الأنبياء وسماهم رسلا ، مع أنه لم ينزل عليهم كتابا ، وذلك
 كإسماعيل عليه السلام ، حيث يقول سبحانه : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ
 كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم : ٥٤] وكيونس عليه السلام حيث
 يقول الله عنه : ﴿وَإِنْ يُؤْنَسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٣٩] .

والنتيجة التي نرجحها - والعلم عند الله وحده - أن كل نبي رسول وأن
 كل رسول نبي ويساعدنا على هذا الترجيح أن الله حينما يتحدث عن
 الأنبياء أو عن كل نبي على حدة يقول : وأرسلنا ، ويقول : ﴿وَالِي عَادٍ
 أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف : ٦٥] أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف : ٦]
فكأن الأنبياء جميعاً مرسلون ، ويقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ
رُسُلًا﴾ [النحل : ٣٦] .

إذن كل أمة جاء فيها أنبياء ، هم رسل ، ثم حينما يتحدث الله سبحانه عن
الأنبياء ويذكرهم جميعاً في كتابه يُعَقِّب على ذلك بقوله : ﴿وَرُسُلًا قَدْ
قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤]
ومعنى ذلك أن الله سمى جميع الأنبياء الذين ذكرهم في كتابه سماهم رسلاً .

معنى العصمة :

ثم نتقل بعد ذلك إلى معنى العصمة ، والعصمة عصمة الله لأنبيائه هي
الحصانة التي يمنحها الله لعبده من عباده يهيئه لتحمل الرسالة وتبليغ الأمانة
والعصمة للأنبياء واجبة ، لأنهم القدوة الحسنة ، ولأنهم المثل العليا الكاملة
أمام الأمم والشعوب والله سبحانه وتعالى من أجل ذلك يؤدبهم فيحسن
تأديبهم ولأن الله سبحانه وتعالى قد صنعهم على عينه ، وهياهم لهذا العمل
الجليل وتبليغ هذه الرسالة وتحمل هذه الأمانة ، فهو يعدهم للقيادة والزعامة
والإمامة ، وتحمل القيادة والزعامة والإمامة تقتضي أن يكونوا صادقين أمّاء
مُبرِّئين من النقائص والعيوب ، معصومين من الذنوب والآثام ، وإلا فقدوا ثقة
الناس بهم ، وكان هناك مجال للشك في أنبائهم وأخبارهم .

وحينما نستعرض الآيات القرآنية في كتاب الله ﷻ نرى أن الله قد
وصف أنبياءه بأوصاف التكريم ، والإعزاز والإجلال .

وأن الله قد صوّرهم بأحسن ما يُصوّر به إنسان في النقاء والصفاء
والإيمان الكامل .

وصف القرآن للأنبياء:

ولنذكر بعض الآيات القرآنية حيث يقول الله سبحانه عن إبراهيم **العليه السلام**: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

ثم يقول سبحانه وتعالى عن إسماعيل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

ويقول عن إدريس: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

ويقول عن سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد **ﷺ**: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَذَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] ثم يقول في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

هذه الآيات وهي بعض ما جاء عن بعض الأنبياء تبين لنا مدى ما اختص الله به رسله من كرامة، ومدى ما جعلهم به من صفات الحُسن والجمال والجلال.

بيد أن هناك بعض الآيات التي وردت في القرآن الكريم يُشعرُ ظاهرها بغير ما يمكن أن يُفهم من معنى العصمة حينما يقرأها القارئ لأول وهلة يظن أنها تتنافى وتتجافى مع العصمة الواجبة للأنبياء فنقرأ مثلا قول الله تعالى عن آدم **العليه السلام**: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] فكيف يكون العصيان من آدم والعَيُّ وهو نبي؟ ثم نقرأ قول الله تعالى

عن آدم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا ﴿[الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، أي ولدا صالحا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴿[الأعراف: ١٩٠] أي جعل الله شركاء ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[الأعراف: ١٩٠] فكيف يُعقل أن يجعل آدم وحواء لله سبحانه وتعالى شركاء ؟ .

وهكذا إذا مضينا مع آيات القرآن الكريم فإننا نجد آيات عن يوسف عليه السلام حيث يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٢٤] وعن داود عليه السلام : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] .

وعن سليمان فقال : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢] . والظاهر من معنى هذه الآية ما يفهم من ظاهر الكلام أنه أحب الخيل التي هي الخير أكثر من ذكر ربِّه ، هذا ما يُشعر أنه الظاهر .

ونقرأ كذلك عن موسى عليه السلام : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ [القصاص: ١٥] كيف يُعقل أن يكون نبيُّ ثم يقتل إنسانا؟

ونقرأ عن خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ بعض آيات ، وكأنَّ ما فيها توجيه اللوم للرسول ﷺ على خطأ وتقصير كان منه ، كما يقول سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا

النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴿التَّحْرِيمُ: ١﴾ فهل يُعَقَّلُ أن يكون النبي قد حرَّم أمراً حلالاً؟ وكذا يقول الله موجَّهاً للرسول فيما يبدو من ظاهر الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَبَّرَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] كذلك: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١، ٢] إلى آخر ما جاء من تلك الآيات الكريمة .

مشكل آيات العصمة والجواب عنها :

والواجب علينا أن نبين وجه الحق فيما أشكَل من هذه الآيات حتى لا يستطيع بعض السفهاء من الناس والفقراء في الإدراك أن يُشوِّهوا سير الأنبياء والمرسلين وأن يُلصِّقوا بهم ما ليس فيهم ، وأن يدَّعُوا أن هذا هو ما يفهم من كتاب الله الكريم .

١ - معصية آدم عليه السلام :

فأما قوله تعالى عن آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فذلك يرجع إلى ما نعلمه جميعاً حينما أمر الله آدم وحواء ، حينما أمر الله آدم بالآلا يقربا الشجرة ، وهي شجرة بعينها فأزَلَّهما الشيطان ، ووسوس الشيطان إليهما فأكَلَا من تلك الشجرة ، وهذه مخالفة لأمر الله وأمر الله واجب النفاذ .

والجواب على ذلك كما ذكر العلماء والمفسرون أن آدم حينما أكل من الشجرة أكل منها ناسياً ، والله سبحانه وتعالى قد رفع عن عباده الخطأ والنسيان ، ولماذا إذن سَمَّاها الله معصية مع أن الخطيئة إذا وقعت بنسيان لا تسمى معصية؟ لأن الله سبحانه وتعالى نظراً لِعُلُو مركز آدم ولأنه نبي فالصغيرة تُعتبر منه كبيرة .

وكما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

أو يقال : إن آدم تأوّل فظن أن الله يأمره بعدم الأكل من شجرة بعينها لا من جنسها ، فترك الشجرة التي توجهت إليها الإشارة وأكل من نفس النوع من شجرة مماثلة في مكان آخر .

وعلى كل حال فهذا الذي وقع من آدم إنما وقع قبل النبوة ، وحينئذ يتبين لنا أنه ليس هناك ما يحدّش تلك العصمة التي هي واضحة وثابتة لجميع الأنبياء .

٢- قول إبراهيم : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ :

وأما قول إبراهيم لله سبحانه : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] فكيف يمكن ألا يكون قلب إبراهيم مطمئناً بالإيمان ، ما ذلك الاطمئنان الذي يريده خليل الله إبراهيم؟ لا شك أن مُحَاجَّة إبراهيم للملك الذي كان في عهده ، لا شك أن الآية القرآنية التي تشير إلى هذا المعنى حينما قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، يقول الله سبحانه وتعالى له : ﴿ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] يعني آمنت .

وهذا هو المطلوب والمعروف من كل نبي ، ولكن ليطمئن قلبي .

إذن إبراهيم يريد مزيداً من الاطمئنان . ولا شك أن للاطمئنان درجات يسمو بعضها فوق بعض . فإبراهيم يعلم أن الله يُحْيِي ويميت كما هو واضح في الآية القرآنية ولكنه يريد مزيداً من الاطمئنان .

ويريد أن يشهد بنفسه قضية الإحياء للموتى وليس الخبر كالعيان ، فهو يريد أن يشهد ذلك مشاهدة مَحْسُوسَة ، وبهذا ينتفي الحرج .

ويتبين أن العصمة لإبراهيم ثابتة وليس فيها ما يحدّثها أو ما يسيء إليها .

٣- هم يوسف عليه السلام :

وقصة يوسف عليه السلام واضحة لا شك فيها وهمه حينما قال الله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف : ٢٤] كان همُّهُ هما واضحاً ، وهو أنه يريد أن يتخلص منها ، وكان همُّها به أيضاً واضحاً ، كانت تريد أن تنتقم منه لأنه عصى أمرها ، فهو هم بها ليفر من أمامها ، وهمت به لتنتقم منه ، وهذا هو الذي يقتضيه سياق الآية الكريمة ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف : ٢٣] . وأيضاً هي اعترفت بذلك فقالت : ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف : ٣٢] . وبهذا يتبين لنا أن يوسف عليه السلام كان معصوماً بفضل الله سبحانه وتعالى .

٤- قتل موسى للقبطي :

وبينما نتقل بعد ذلك إلى موسى عليه السلام نجد قول الله سبحانه وتعالى يشير أو يُظهِر أن موسى قد قتل رجلاً من أهل مصر ، وهذا القتل كان خطأ وهو عبارة عن معركة بين إسرائيلي ومصري ، واختل فيها الميزان ، لأن الإسرائيلي قد استغاث بموسى ، فجاء موسى عليه السلام لكي يُغيثه ويُخلصه ، فوقعته منه ضربة خطأ لا يريد بها قتلاً وإنما يريد بها أن يخلص الإسرائيلي من المصري ، وكان ذلك كله قبل أن يبعث موسى نبياً .

وهذه مسألة هامة ، أي أن هذا القتل وإن كان خطأ ، والخطأ لا يُعتبر معصية ، ومع ذلك فإن ذلك كان قبل أن يصير موسى عليه السلام نبياً .

ولقد صرح بذلك القرآن الكريم حينما توجه فرعون بكلامه إلى موسى حينما جاء ليرشده وليهديه حيث قال له فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ آلَتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨ - ٢١] .

إذن موسى لم يكن حينما حصل هذا القتل الخطأ قد بعثه الله نبيًا .

٥- تحريم الرسول العسل على نفسه :

وإذا ما انتقلنا إلى بعض الآيات التي تُشعر بأن هناك لوما موجَّها إلى رسول الله واللولم لا يكون إلا على خطأ أو خطيئة ، وكيف يمكن أن يقترب الرسول خطأ أو خطيئة؟ هذا أمر قد عصمه الله منه .

فنقرأ مثلا قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١] هذه الآية في ظاهرها تشعر بأن الرسول قد حرم شيئا أحله الله ، ومعاذ الله أن يكون ذلك من محمد ﷺ .

الآية يجب أن يُعرف سببها وأن يُعرف المقصود منها ، وقد ذكر المفسرون في ذلك ، وذكرت أيضا كتب السنة في ذلك المعنى أن رسول الله ﷺ كان بعد صلاة العصر يمر على نسائه ليذهب عنهن الوحشة ولمزيد من الإيناس فتصادف أن مرَّ على زينب بنت جحش وكان عندها عسل جاء إليها من أهلها فطلبت من الرسول ﷺ أن يأكل من هذا العسل فشرب منه

الرسول ﷺ ، وغاب بعض الوقت ليشرب من هذا العسل ، يعني لم يخرج مباشرة بعد دقائق يسيرة ، نظرا لأنها أرادت منه أن يشرب من هذا العسل ، وعلمت زوجات الرسول فتكرر ذلك عدة مرات ، فعلمت بذلك بعض زوجات الرسول ، فقالت : يجب أن نقول للرسول ما يكرهه ويُبغضه في هذا العسل ، فكان إذا جاء الرسول ﷺ ، وسلم على إحداهن قالت له : إني أجد منك يا رسول الله ريح المغاير ، والمغاير نبات حُلُو الطَّعم ولكنه كريه الرائحة ، والرسول كان يكره الرائحة الخبيثة ولكنه لم يصدق أولا ، فلما ذهب إلى زوجة ثانية قالت له نفس الكلام ، فحرَّم الرسول ﷺ العسل على نفسه .

وهذا التحريم ليس في الدائرة الكبرى من الحلال والحرام ، وإنما هو في دائرة خاصة أراد الرسول بها أن ينفي عن نفسه وأن يبعد عن نفسه أن يتناول أطعمة تؤدي إلى رائحة كريهة ، فنزل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ .

وبهذا يتبين لنا أن الرسول لم يحرم حلالا ولكنه امتنع بعض الوقت عن أكل أو شرب شيء حلال حتى يستقيم الأمر بالنسبة للجو الذي يحيط به في ذلك الحين .

٦- إخفاء الرسول أمر الله بالزواج من زينب بنت جحش رحمها الله :

وأیضا يقول الله سبحانه وتعالى عن الرسول ﷺ : ﴿وَتَحْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب : ٣٧] وهذه الآية إنما نزلت بسبب تلك القصة المشهورة التي وردت عن زيد بن حارثة حينما كان متزوجا بزينب بنت جحش .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يطلقها زيد لأن العشرة لم تكن مستقيمة بينهما، ولأن الله يريد حكمة تشريعية جليلة أخرى، ويريد أن يظهر للناس قاعدة شرعية واضحة في عمل كان يفعله أهل الجاهلية، حيث كانوا لا يتزوجون بنت الابن المتبنى إذا طلقها زوجها المتبنى.

أراد الله أن يبطل هذه القاعدة أو هذه العادة، فلما ساءت العشرة بين زيد وزوجه واشتكى إلى الرسول كان الرسول ﷺ يقول له: اتق الله، «أمسك عليك زوجك واتق الله»^(١).

ويقول الله بعد ذلك: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] تخفي في نفسك ما الله مبديه، هذه الجملة اتخذها أعداء الإسلام وسيلة للتشهير، ووسيلة للإساءة إلى سيرة الرسول ﷺ جهلاً وسفهاً بغير علم.

والمعروف أن الرسول كان يخفي في نفسه ما أمره الله به سبحانه وتعالى من زواجه بزینب بعد طلاق زيد بن حارثة منه.

وكان الرسول يخشى الناس أي يخشى كلام الناس، وليس معنى يخشى الناس أي يخاف من الناس أو يرى أنهم يقدمون أو يؤخرون في مجرى الأمور.

يخشى الناس، أي يخشى أن يقولوا: طلق محمد زوجة ابنه المتبنى ليتزوجها من بعده، وهذا بلا شك ينفي الحرج عن الرسول ﷺ، ويبين لنا أن أولئك الذين فهموا في الآية مثل هذا الفهم هم بلا شك جاهلون بقواعد اللغة العربية، وجاهلون بأسباب النزول، وجاهلون بأحاديث

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

الرسول ، وبسيرة النبي ﷺ .

٧- نزول النبي على أبي بكر في أسرى بدر :

أما قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَرَّبَ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا لوم واضح في الآية الكريمة : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَرَّبَ فِي الْأَرْضِ ﴾ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

فهذه الآية هي بلا شك أساسها هو مجرد الاجتهاد من رسول الله ﷺ فيما لم ينزل به وحي .

وقد اجتهد الرسول وسأل أصحابه ، واختص أبا بكر وعمر بالسؤال ، فأشار أبو بكر بأخذ الفداء من الأسرى وأشار عمر بعدم أخذ الفداء ، وأخذ الرسول برأي أبي بكر ، وكان ذلك فيما يريده الله سبحانه وتعالى يعتبر أخذًا بغير الأولي ، ولذلك عاتب الله الرسول ﷺ .

أما أن يُقال : إن ذلك معصية أو إن ذلك يجافي أو يخالف العصمة هذا خطأ ، لأن الاجتهاد مشروع ووارد ، ولأنه إذا اجتهد الإنسان فأخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران ، وهذا مجرد اجتهد من الرسول ﷺ .

فهذه الآيات الكريمة بلا شك كلها تُشعر تماما وبلا ريب ولا شك ، تشعر أن عصمة الأنبياء لا ريب فيها ، وأن هذا الذي يقول أعداء الإسلام إنما هو جهل وسفَه ، وهو النظرة العدائية ، وعينُ الكراهية دائما ترى الحسنات سيئات .

ومن أجل ذلك يتبين لنا أن عصمة الأنبياء واجبة ، وأن الله سبحانه

وتعالى قد صور هذه العصمة في مُحكم كتابه أعظم تصوير ، صورها حينما ذكر الأنبياء والرسل في معرض التكريم والتعظيم ، وصورها كذلك فيما علمنا من أسباب النزول لهذه الآيات التي أشعرت بعض السفهاء من الناس والفقراء في الإدراك بأن هناك شيئاً يتجافى من العصمة وهو خطأ واضح وفادح .

والعصمة في الأنبياء توحى إلينا بأن نقتدي بهم وأن نسير على نهجهم .

* * *

المحاضرة السادسة عشرة بعد المائة

الحس النقدي والتأصيل المنهجي

قال الشيخ الإمام، الحافظ الحجة الهمام، أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل بن هلال الذهلي الشَّيباني رَحِمَهُ اللهُ تعالى ورضي عنه ونفعنا بعلومه وبتقاه وورعه آمين : حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن هلال عن ربيعة ابن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سُويد عن أبي أُسَيْد وأبي حُمَيْد رَحِمَهُمُ اللهُ أَنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : «إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبِكُمْ، وَتَلِينَ لَهُ أَشْعَارَكُمْ وَأَبْشَارَكُمْ، وَتَرُونَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَنْكَرُهُ قُلُوبِكُمْ وَتَنْفَرُ مِنْهُ أَشْعَارَكُمْ وَأَبْشَارَكُمْ، وَتَرُونَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ» .

سأتناول الكلام عن هذا الحديث من خلال المحاور الآتية :

- ١ - إطلالة على الناحية الفنية تخريجاً وإسناداً للحديث الشريف .
- ٢ - الطرح الإسلامي لقضية المعرفة ومنهج الرسول ﷺ في تعميمها .
- ٣ - تطور المنهج النقدي عند علماء المسلمين .
- ٤ - خاتمة الموضوع إن شاء الله تعالى .

تخريج الحديث :

هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في موضعين من مسنده : أخرجه في مسند أبي أُسَيْد، وأخرجه في مسند أبي حُمَيْد، وأخرجه كذلك أبو نُعَيْم في مقدمة كتابه الدلائل وقال : إن هذا الإسناد الذي سُقْنَا به هذا الحديث هو أمثلُ إسناد .

وأخرجه نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي في مَجْمَع الزوائد وقال : إن رجاله رجال الصحيح .

وأخرجه الإمام أحمد والإمام البيهقي .

وأخرجه الحافظ جلال الدين السيوطي في «الجامع الصغير» ، وقال : أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» وأبو يعلى في «مسنده» .

كما أخرجه محمد بن سعد في «طبقاته» .

وأخرجه كذلك الطحاوي في «مشكل الحديث» ، وخرجه تخریجاً لطيفاً ، ونقل الحديث عن الطحاوي الإمام التَّطَّار الأُصُولي أبو إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الموافقات» .

شواهد الحديث :

ولهذا الحديث شواهد تؤيده ، فمن شواهده :

ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (إِذَا حَدَّثْتُمْ بِحَدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُتُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَتَقَى وَالَّذِي هُوَ أَهْدَى وَالَّذِي هُوَ أَهْنَأُ) .

وشاهد آخر : وهو ما ساقه الحافظ جلال الدين السيوطي في رسالة خاصة سماها مفتاح الجنة في الاستدلال بالسنة عن محمد بن جُبَيْر ابن مُطْعِم ونصه : (ما أتاكم عن رسول الله ﷺ تعرفونه فصدِّقوه ، وما أتاكم عن رسول الله ﷺ تُنكرونها فلا تُصدقوه) وأخرج كذلك حديثاً في معنى هذا الحديث محمد بن سعد في طبقاته قال : إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه ، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تنكره .

وللحديث أصل في القرآن الكريم ، وهو قول الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] .

هذا ما يتعلق بتخريج هذا الحديث .

سند الحديث :

أما سنده فقد رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله في مسنده عن شيخه أبي عامر عن سليمان بن هلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد ابن سويد عن أبي أسيد وأبي حميد رحمتهما الله ، وأبدأ بالتعريف بالصحابيين .

رواة الحديث :

الصحابي الأول : أبو أسيد هو مالك بن ربيعة بن البَدَن حسب كلام الإمام أبي عُمَر النُمَري القرطبي في كتاب «الاستيعاب» ، وعند خليفة ابن خياط : مالك بن ربيعة بن النَّدَى الأنصاري الساعدي .

اختلف في أسيد هل يُقرأ بالضم على أنه تصغير أو تقرأ الهمزة بالفتح ، فحُكي فيها الضم والفتح ، قال أحمد بن مَعِين : الصواب هو ضم الهمزة على أنه مصغر . وحكى المَلَوِي قولاً عن الحافظ أبي عمر بن عبد البر بالفتح .

أبو أسيد الساعدي من الذين بكَرُوا بالإسلام ، شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحُدًا وما بعدهما من المشاهد . وكان حامل راية بني ساعدة حين دخول رسول الله ﷺ إلى مكة .

روى عن رسول الله ﷺ ثمانية وعشرين حديثاً حسب كلام الحافظ أبي محمد بن حزم في رسالته عن الصحابة الزُّوارة ، أخرج الشيخان منها أربعة أحاديث ، اتفقا على حديث واحد منها ، وانفرد الإمام البخاري بحديثين ، ومسلم بحديث واحد .

روى عنه عدد من الصحابة ، منهم أنس بن مالك رضي الله عنه ، روى عنه حديثاً في شرف بيوت الأنصار .

وهذا الحديث أخرجه محمد بن إسحاق رواية عن شيخه عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم الأنصاري عن رجل من بني ساعدة عن أبي أسيد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال : «خيرُ دُورِ الأنصارِ بنو النجارِ ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة» .

كما روى عنه عدد من التابعين رضوان الله عليهم ، ومنهم عبد الملك ابن سعيد بن شويد الأنصاري .

توفي سيدنا أبو أسيد رضي الله عنه سنة ستين من الهجرة ، وقيل : إنه آخر البدرين موتاً .

الصحابي الثاني : الذي روى هذا الحديث هو أبو حُمَيد ، اختُلف في اسمه لأنه عُرف بكنيته . واسمه على قولٍ : عبد الرحمن بن عمرو بن سعد الأنصاري الساعدي .

أدرك مع رسول الله ﷺ من المشاهد غزوة أُحُد وما بعدها .

روى عنه عدد من الصحابة ، له من الرواية عن رسول الله ﷺ ستة وعشرون حديثاً حسبما ذكر الحافظ أبو محمد بن حزم في رسالته : (الصحابة الرواة عن رسول الله ﷺ) .

أخرج الشيخان من أحاديثه خمسة أحاديث ، اتفقا على ثلاثة منها ،
وانفرد الإمام البخاري بواحد ، وانفرد الإمام مسلم بحديث واحد .

بقية رجال السند :

عبد الملك بن سعيد :

أمّا الراوي عنهما فهو عبد الملك بن سعيد بن سُويد ، وهو من كبار
التابعين .

روى عن أبي حُميد وأبي أُسيد وعن جابر بن عبد الله .
من الذين أخذوا عنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن وغيره .
لم يذكروا له وفاة ، وثقوه ، حديثه مُخرَج في مُسلم وفي كتب الأربعة .

ربيعه بن أبي عبد الرحمن :

الراوي عن عبد الملك بن سعيد بن سويد هو :
ربيعه بن أبي عبد الرحمن فَرْوخ التيمي ، أبو عثمان المدني المعروف
بربيعة الرّأي .
أَخَذَ عن أنس بن مالك ، وعن سعد بن سعد ، وعن جماعة من كبار
التابعين رضوان الله عليهم .
ربيعه بن أبي عبد الرحمن مشهور بين الفقهاء وبين المُحدّثين ، أجمعوا
على ثقته وصحة نُقوله .

روى عنه من الرواة سليمان بنُ بلال التيمي .
توفي ربيعة سنة ست وثلاثين ومائة (١٣٦ هـ) .
وقال عنه الإمام مالك بن أنس رحمته الله : ذهب حلاوة الفقه بموت
ربيعه بن أبي عبد الرحمن .

سليمان بن بلال :

الراوي عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن هو سليمان بن بلال التيمي أبو محمد المدني .

روى عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن وعن موسى بن عقبة ، وعن يحيى ابن سعيد الأنصاري ، وعن غيرهم من طبقته .

قال عنه الإمام محمد بن سعد في طبقاته الكبرى : كان سليمان بن إبراهيم التيمي ثقةً مُحَدَّثًا بربريًا جميلاً حسن الهيئة ، وكان ثقة كثير الحديث .

أبو عامر شيخ الإمام أحمد :

الراوي عن سليمان بن بلال هذا هو أبو عامر وهو شيخ الإمام أحمد ابن حنبل رحمته الله ، وأبو عامر اسمه عبد الرحمن بن عمرو القيسي العَقْدِي أبو عامر البصري من الثقات الحُفَاطُ الْمُكْثَرِينَ ، ومن محدثي البصرة المشهورين . كان معروفًا برواية حديث رسول الله ﷺ ، وإليه كانت الرحلة في عصره .

أجمعوا على عدالته وتوثيقه . وقد سئل الإمام أحمد عنه فقال : إنه شيخي أخذت عنه كثيرا ، وعن بعضهم أنه عندما أراد أن يدخل البصرة سأل الإمام أحمد بن حنبل عمن يكتب الحديث فقال : أَكْتُبُ عن أبي عامر العَقْدِي ، توفي أبو عامر العقدي سنة مائتين وأربعة هجرية (٢٠٤هـ) .

الإمام أحمد بن حنبل :

أما الذي أخذ عن أبي عامر العقدي فهو الإمام أحمد بن حنبل صاحب «المسند» ، والإمام أحمد بن حنبل هو أحمد بن محمد بن هلال الذهلي الشيباني ، الإمام الحجة الحافظ القدوة ، الإمام أحمد هو أحد الأئمة

الأربعة ، وهو جامع المُسند الذي يعتبر من أكبر دواوين الإسلام ، الذي حفظ سنة رسول الله ﷺ .

أخذ عنه كثير من الرواة .

ومن أهم من روى «مسنده» : ولده عبد الله بن أحمد ، وعن عبد الله بن أحمد أخذ المسند القطيعي أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك ، وعن القطيعي انتشر «مسند الإمام أحمد» .

ومن الرواة عن الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام الحافظ الحجة بقيّ ابن مخلد المغربي الأندلسي ، وله في الرواية عن الإمام أحمد قصة طريفة ، تدل على حرص الطلاب على أخذ العلم عن شيوخهم الكبار الذين يلتقون بهم . فقد خرج الإمام بقيّ بن مخلد من المغرب إلى المشرق بقصد الرواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، ولكنه وجد الإمام في ميّته ، فلما طلب منه أن يُسمع الحديث اعتذر له الإمام أحمد عن ذلك وقال له : كان بودي أن أساعدك ولكنني مُمتحن وممنوع من رواية الحديث ، فسقط في يد بقيّ ابن مخلد ، ولكنه طلب من الإمام أحمد أن يسمح له باستعمال الحيلة ، فقال له الإمام : وما هي حيلتك في الأمر؟ فقال له : يا سيدي أنا رجل مجهول في هذا البلد لا يعرفني أحد ، فإذا سمحت لي فإني آتيك في كل يوم في زيّ متسول ، وعندما أف ببابك وأنادي على الصدقة تخرج إليّ وتُسمعني ما شاء الله من الأحاديث ثم أرجع ، فقال له الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله : نفعل إن شاء الله .

فكان بقيّ بن مخلد يأتي إلى بيت الإمام أحمد بن حنبل ويده قصبة طويلة وعلى رأسه خِزقة ، ثم يأتي إلى الباب وينادي : الأجر ، بارك الله

فيكم ، أو كلاماً هذا معناه ، فيخرج إليه الإمام أحمد فيملي عليه حديثين أو ثلاثة ثم ينصرف بقي بن مخلد ، ودام على هذه الحالة حتى روى عن الإمام أحمد بن حنبل نحو ثلاثمائة حديث .

هذه القصة تدل على حرص طالب العلم على أخذ العلم عن الشيوخ الكبار ، وما كان يلاقه طلاب العلم من الأهوال والمخن في سبيل الوصول إلى أغراضهم ، ومن عَرَف ما قَصَد هان عليه ما وجد .

والإمام بقي بن مخلد رحمته الله هو صاحب التفسير الكبير المشهور الذي قال عنه الإمام أبو محمد بن حزم : إنه التفسير الذي لم يُؤْلَف مثله في الإسلام ، ولا تفسير ابن جرير الطبري ولا تفسير غير ابن جرير الطبري .

وهو صاحب المُسْنَد المصنَّف الذي لم يُؤْلَف مثله أيضاً لأنه وضعه على أسماء الصحابة رضوان الله عليهم ، ولكنه رتب أحاديث كل صحابي على أبواب الفقه ، فكان مسنداً ومصنفاً في آن واحد ، وهو شيء يَمْتَّازُ به عن غيره من المصنَّفات .

بقيُّ بن مخلد هذا توفي سنة ست وسبعين ومائتين هجرية (٢٧٦هـ) ، وهو الذي حول الأندلس والغرب الإسلامي إلى مدرسة حديثة ، ومن هنا بدأت النهضة الحديثة في الغرب الإسلامي .

عدد أحاديث «المسند» :

الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله أخرج مُسْنَدَه كما يقول الباحثون من نحو سبعمائة وخمسين ألف حديث ، وَصَمَّنَ هذا المسند نحو ثلاثين ألف حديث . ولكن في هذه الأحاديث ما هو من قبيل الحديث اللين لكنه ذكر معه عِلَّتَه ، ونبه على الأحاديث التي كان له توقُّفٌ فيها .

طريق دخول «المسند» بلاد الغرب الإسلامي :

أريد أن أقول كلمة عن دخول مسند الإمام أحمد إلى الغرب الإسلامي .
فيما نعلم ، مسند الإمام أحمد دخل إلى الغرب الإسلامي عن طريق ثلاثة
من الرواة ، وذلك في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة :

الراوي الأول :

الذي أدخل المسند هو أبو محمد عبد الله بن محمد ابن القاسم القلعي من
قَلْعَة أيوب . كان قد رحل إلى المشرق سنة ثلاثمائة وثلاثين هجرية
(٣٣٠هـ) . ولَقِيَ القطيعي راوي المسند عن عبد الله ابن أحمد بن حنبل ،
وسَمِعَ منه المسند كما سمع منه كتاب «العلل» للإمام أحمد ابن حنبل ، وتوفي
أبو محمد عبد الله بن محمد القلعي هذا سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين هجرية
(٣٨٣هـ) بعدما رجع إلى المغرب ومعه مسند الإمام أحمد بن حنبل .

الراوي الثاني :

أما الراوي الثاني لِمُسْنَد الإمام أحمد بن حنبل فهو أبو محمد عبد الله
ابن عبد المؤمن القرطبي ، شيخ الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر ، توفي
سنة ثلاثمائة وتسعين هجرية ٣٩٠هـ ، ولَقِيَ القطيعي وروى عنه المسند
وأدخله إلى المغرب أيضًا .

أما الراوي الثالث :

الذي روى «المسند» فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن خالد
الوهراني البجاني الأندلسي ، توفي سنة أربعمائة وأربع عشرة هجرية
(٤١٤هـ) . وكان قد رحل إلى المشرق ودخل العراق وبغداد وزار مدينة

مرو، وروى المسند عن القطيعي أيضًا. ووقعت له هناك حكاية لطيفة أُحِبُّ أن أذكرها وهي تتعلق بالقرآن الكريم.

فقد روى الحافظ ابنُ بشكوال في كتاب «الصلة» بسنده إلى أبي القاسم هذا عن طريق أبي محمد بن عَتَّاب عن أبي القاسم الطرابلسي عن أبي القاسم الوهراني البجاني هذا أنه حَدَّثَهُ عندما دخل إلى مدينة مَرو، وهي مدينة من مدن خراسان، فسمعوا بشيخ مُحدِّث هناك فقرروا أن يذهبوا لزيارته والرواية عنه، وكان اسمه علي بن محمد الترابي، قال: فذهبنا إليه بقصد الرواية عنه فوجدناه يقرأ القرآن في المصحف، وعند المحدثين أن الذي لا يحفظ القرآن عن ظهر قلب ناقص، لكن هذا كان محدثًا كبيرًا فقالوا له: مثلك يقرأ القرآن في المصحف؟ فقال لهم: ليس في المُحدِّثين أحفظ للقرآن مني، وذلك لأنني كنت أقرأ به وأصلي التراويح وأنا إمام قومي، لكن عندما كبرْتُ وَصُعِفَ بصري تركت القراءة في المصحف الكريم حتى ذهب بصري بالمرّة وكنت إمام قومي. وكان ابن أخي يقودني إلى المسجد لأصلي بالناس الفريضة.

في ليلة من الليالي نِمْتُ فرأيت الرسول ﷺ فقال لي: يا علي لِمَ تركت القراءة في المصحف؟ فقلت له: يا رسول الله، لقد ذهب بصري، فقال لي إن عدت إلى قراءة القرآن في المصحف رد الله عليك بصرك. فقامت فتوضأت وصليت ما شاء الله، وكانت الليلة من ليالي الشتاء الطويلة فغلبتني عيني فرأيت رسول الله ﷺ مرة ثانية، فقال لي: يا علي عُدْ إلى قراءة المصحف يَرِدْ الله عليك بصرك، قال: فتذكرت قول الرسول ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال : فلما أصبحت غدوت يقودني ابن أخي إلى المسجد وأنا لا أرى شيئاً فصليتُ بالناس الفريضة ، ثم عدت إلى منزلي فقلت لهم : أَعْطُونِي المُصْحَفَ : قال لي أهلي : وماذا تفعل بالمصحف ؟ قلت لهم : أقرأ فيه ، فأخذت المصحف وفتحته وصرت أقرأ ظاهراً وأنا أقلبُ الأوراق ، فما طلع النهار حتى كنت أقرأ في المصحف وأنا أرى حروفه أجمع ، وتماذيت على القراءة ، فلما كان الزوال كنت أرى وأقرأ في المصحف كما كنت أقرأ سابقاً وأنا أحدثُ فهذا شأني .

في القرآن الكريم ما يقوي مضمون هذه القصة وهو قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وقوله عز من قائل : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [الشورى : ٤٤] صدق الله العظيم .

الجمع بين التحديث والعننة :

بقيت قضية في سند هذا الحديث وهي أنه جمع بين صيغة التحديث والعننة ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد عن أبي أسيد وأبي حميد .

وإذا كان المحدثون متفقين على أن صيغة التحديث تفيد الاتصال باعتبارها أرفع صيغ الأداء ، فإنهم اختلفوا في مسألة العننة هل تفيد الاتصال أو لا تفيده ؟

والمشهور عندهم أن عن تفيد الاتصال وهو مذهب جمهور المحدثين والفقهاء والأصوليين .

قال الإمام النووي رحمته الله في التقريب : اختلفوا في عَنْ ، هل تفيد الاتصال أو لا تفيد الاتصال؟ ، والمشهور أنها تفيد الاتصال بشرط ألا يكون المعنعن مُدْلِسا ، وبشرط أن يكون معاصراً للمنعن عنه ويمكن أن يتم اللقاء بينهما .

وقد اختلفوا في طول الصحبة وفي معرفته بالرواية ، وفي ثبوت الرواية عن الشيخ .

كذلك أيضاً قال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني عندما ذكر مسألة العنعنة : وأما الحديث المعنعن هو الذي يقول فيه الراوي : عن فلان عن فلان ، فإنه من قبيل المسند المتصل بشرط ألا يكون المعنعن مدلساً ، وبشرط إمكان اللقي بين المعنعن والمعنن عنه .

وحكى الإجماع على ذلك الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر .

وقد استوفى الكلام على موضوع الحديث المعنعن الحافظ الناقد المحدث السبتي أبو عبد الله محمد بن عمر بن رُشيد في كتابه : «السَّنُّ الأَبْيَنُ والمُورِدُ الأَمْعَنُ في المحاكمة بين الإمامين في السَّنَد المعنعن» . وقد نُشر هذا الكتاب بتحقيق وتقديم العلامة الشيخ محمد الحبيب بلخوجة .

أما قصة المسند في المغرب فإنه لم يُكتب له أن يزدهر ويقع الإقبال عليه كما وقع الإقبال على باقي الكتب الأخرى . ولعل انتشار «الصحيحين» وبقية الكتب الأخرى قد أحمَل من شأن «مسند الإمام أحمد» .

على أننا نعرف أنه كان لهذا المسند أصل عند عالم كبير من علماء القرن الرابع الهجري وهو أبو مُطَرِّف قاضي الجماعة بقرطبة ، فقد كان بحوزته أصل أخذه عن شيخه أبي محمد القلعي الذي أشرنا إليه سابقًا . وعلى هذا الأصل اعتمد الحافظ أبو علي الحسين بن سكرة القاضي الشهيد الصدي .

فالمغاربة اهتموا كثيرًا بـ «الصحيحين» وأغفلوا غيرهما من الكتب الأخرى . واهتموا بالخصوص بـ «صحيح الإمام مسلم» ، لا لأنهم كانوا يفضلونه على صحيح الإمام البخاري ، ولكن لأن «صحيح مسلم» امتاز بدقة الصنعة الحديثية فيه ، فهم لم يفضلوه من حيث الصحة ولكن فضلوه من حيث الصناعة الحديثية ، وفي ذلك قال قائلهم :

تنازع قوم في البخاري ومسلم لدي وقالوا : أيّ ذين تُقدّم
فقلت لئن فاق البخاري صحّة لقد فاق في حُسن الصناعة مسلم

معياري إثبات السنة :

الحديث يطرح قضية منهجية هامة ، ذلك أنه وضع أمامنا معيارًا لإثبات سنة رسول الله ﷺ . وهو معيار يعتمد على الحس الوجداني ، وصفاء الباطن ، وصفاء الباطن لا يمكن أن يتوفر لدى كل واحد ، الصفاء الباطني إنما يتوفر لدى المُصْطَفَيْنِ الأخيار الفضلاء الذين عكفوا على تقوى الله وهجروا معاصي الله ﷻ .

بيد أن إثبات السنة النبوية سلك له المحدثون وأهل هذا الشأن طريقًا آخر وهو صحة السند ، ولذلك قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي : إذا لم يصح الحديث سندًا فلا يمكن الاحتجاج به ولا يمكن قبوله .

وإذْ فمرتبة المعيار الذي يطرحه حديثنا إنما تأتي بعد أن يثبت سند الحديث وتتحقق نسبته إلى رسول الله ﷺ ، وبعد ذلك يبقى أن ندخل لنعرف هذا الحديث عن طريق الحس الوجداني والصفاء الباطني ، أهو من الأحاديث التي يمكن أن تصدر من رسول الله ﷺ ؟ ثم نزن الحديث بميزان القرآن الكريم ، لأن السنة راجعة إلى كتاب الله ﷻ في معناها .

قضية المعرفة :

ولكي أضع هذا الحديث في سياقه الموضوعي أنتقل إلى النقطة الثانية من هذا الموضوع وهي الطرح الإسلامي لقضية المعرفة . لو طلب منا أن نسمي شعارًا ثانيًا للإسلام بعد التوحيد فلن يكون سوى العلم . ذلك لأن طالعة القرآن الكريم صدر سورة العلق طرحت قضية المعرفة طرحًا جادًا حاسمًا .

وأول خطوة خطاها الإسلام الذي جاء ختامًا للرسالات السماوية أنه حسم الخصومة بين الدين والعقل ، ثم تتالت آيات الله ﷻ تحض على التأمل والتفكير ، والنظر في الكون والحياة والإنسان . ومجدد العقل وجعله مناط إنسانية الإنسان ، إن أهمل أو تعطل مُسخت هذه الإنسانية ونزلت إلى ما دون مستوى الدواب العجباء ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] ، وندد القرآن الكريم بالذين يُعطلون مداركهم التي تساعدهم على تحصيل المعرفة واكتسابها واستثمارها وقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَئِيمًا فَعَلُوا غَاطِيًا وَهُم بِالْأَفْئِثَةِ كَانُوا مُمِرًا ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، وقصر

الإسلام خشية الله على العلماء فقال: ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
 الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] لأنهم بما يتفكرون في خلق السموات والأرض
 واختلاف الليل والنهار يؤمنون بأن لا شيء من ذلك يمكن أن يكون
 صدفة أو أن يكون عبثًا باطلاً ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا
 وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
 خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿[آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وإذا كانت البيئة الإسلامية بما حملته من رواسب قديمة من عدااء الدين
 للعلم، وبما تلقته من تيارات وافدة حملتها الشعوب الطارئة على
 الإسلام، وإذا كانت البيئة الإسلامية لم تستطع أن تشارف الأفق القرآني
 حرية الفكر والرأي فبقيت آثار من ذلك في اضطهاد الفلسفة ورجالها فإن
 العقل شقَّ طريقه مع ذلك، فظهر تيار التفكير عند الفقهاء، وظهر كذلك
 أيضًا علم الكلام، وهو يفهم الدين عن طريق العقل ويوظف ثقافة
 الفلسفة في تأويل نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وقد تلقى الفكر الإسلامي بساحة صدر وسعة أفق تراث العقل
 الإنساني عن اليونان، وعن طريق الشعوب الإسلامية العريقة في الحضارة
 والتمدن، وعكف عليها حتى تمثلها بمزاج بيئته وبروح عقيدته، فكان
 هم المفكرين المسلمين الأول ينصبُّ على التوفيق بين العقل والدين.
 وطبعًا تفاوتوا في ذلك تفاوتًا كبيرًا.

المدارس الفكرية في العالم الإسلامي:

ظهرت عدة مدارس فكرية في العالم الإسلامي، منها:

المدرسة السنيّة :

بمنهجها المحافظ الذي يعتمد النصوص الشرعية ويفهمها بفهم الأئمة من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ومدرسة الاعتزال :

وهي تفهم الدين عن طريق العقل .

في وهج هذا النشاط الفكري ازدهر علم الكلام نتيجة لتصادم هذه التيارات الفكرية بمناهجها المختلفة ، في هذا الجو نضج منهج المحدثين وهو المنهج النقلي ، نضج هذا المنهج في مدرسة المحدثين فبلغ أعلى درجة يمكن أن يصل إليها العقل البشري .

كما نضجت الفلسفة الإسلامية أيضًا ، وقدمت منهجها الدقيق في التوفيق بين العقل والدين ، حيث وصل الفيلسوف المغربي أبو الوليد ابن رشد بهذا المنهج إلى أبعد مداه ، هذا المدى الذي كان منطلقًا لأوروبا وملاذًا لها في حيرتها المضنية بين الكنيسة والعقل .

وقد أثبت أحد المستشرقين الأسبان هو مكوين أسين بلاسيوس ، وهو صاحب الفكرة التي قال فيها بأنّ دانتّي أخذ عناصر الكوميديا الإلهية من ينابيع إسلامية كالإسراء ورسالة الغفران ، الشيء الذي هز الأدب الأوربي هذا .

أثبت هذا المستشرق أن توماس الأكويني اطّلع على مؤلفات ابن رشد الفلسفية هذه ، ولا سيما فصل المقال ، والتهافت ، ومناهج الأدلة ، عن طريق مؤلفات ابن ميمون اليهودي الأندلسي ، كما وصلته أيضًا عناصر الفكر الفلسفي الإسلامي عن طريق الراهب ريموند مارتان وهو رئيس

القُسُس الدومينكان ، وهم الذين تخصصوا في الفكر الإسلامي عن طريق المصادر العربية ، وقدموا نتائج ثمارهم ناضجة إلى توماس الأكويني الذي استوعبها في كتابه ودخل بها التاريخ الديني بطلاً منقذاً للكنيسة ، لأنه استطاع أن يجيب عن كثير من الإشكاليات التي كانت مطروحة على الفكر الديني المسيحي ، فرفعته الكنيسة إلى مرتبة القداسة وحرمت الجدل في فلسفة أرسطو ، وفي هذا الوقت الذي كانت أوروبا قد استوعبت عطاء الحضارة الإسلامية ، وتهيأت للانطلاق به إلى عصر العلم الحديث .

المنهج النبوي في المعرفة :

نقطة ثانية وهي المنهج النبوي في تعميم المعرفة وإشاعتها بين أفراد المجتمع الإسلامي .

المنهج النبوي في المعرفة ، الرسول ﷺ أُمِّيٌّ بعثه الله في أُمَّة أُمِّيَّة ، «نَحْنُ أُمَّة أُمِّيَّة لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ ، الشَّهْر هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»^(١) ، ولكن عندما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة تحولت العاصمة الأولى للدولة ، الإسلامية إلى خلية للنشاط ، ووقعت تعبئة كاملة على جميع المستويات . فعلى مستوى التعبئة العلمية نلاحظ أنه انطلاقاً من الآية القرآنية الكريمة التي تدعو إلى العلم والتَّعْلُم انطلق الصحابة رضوان الله عليهم يبحثون عن علمهم ، وبدأت المراكز تفتح أبوابها في مدينة الرسول ﷺ ، وأيَّد الرسول ﷺ هذا العمل بأن أعلن أن كُلَّ أسير يعرف القراءة والكتابة ولا يجد ما يفدي به نفسه يكون فداؤه تعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

كانت هذه هي الانطلاقة الأولى .

(١) سبق تخريجه .

وبفضل هذه العملية تعلم عدد كبير من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم القراءة والكتابة ومنهم سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه ، فقد تعلم بهذه المناسبة وهو الذي كان كاتباً أو بمثابة الكاتب الخاص لسيدنا رسول الله ﷺ . ولما لاحظته ﷺ في هذا الشاب من نجابة ونبوغ أمره أن يتعلم لغات أجنبية ، فتعلم سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه من جملة ما تعلم من اللغات العبرية قراءة وكتابة ، فالسريانية قراءة وكتابة ، فكان يكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب ويقرأ له ما يرد عليه من كتب هذه اللغات .

كما تعلم كذلك لغات أخرى مثل اللغة الفارسية واللغة الحبشية ، واللغة القبطية ، واللغة الرومية وغيرها من اللغات ، فكان مثلاً للإنسان المسلم الذي يعرف أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يبلغ رسالة الله إلى الناس كافة ، ولا يمكنه أن يبلغ رسالة الله إلى الناس كافة إلا إذا كان يعرف ألسنتهم ولغاتهم .

وقد عرف المسلمون بتوجيه من الرسول ﷺ ما في تعلم اللغات من فوائد هامة فكانوا يقولون : (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم) وأحياناً يكون مصير الإنسان مرهوناً بمعرفته اللغة الأجنبية .

والذي يقرأ رحلة ابن فضلان يعرف قيمة ما لتعلم اللغة من أهمية . وفي هذا المعنى قال بعض الأدباء :

يَقْدُرُ لُغَاتِ الْمَرْءِ يَعْظُمُ قَدْرُهُ وَتَلِكُ لَهُ عِنْدَ الْمَلِمَاتِ أَعْوَانُ
فَبَادِرْ إِلَى حِفْظِ اللُّغَاتِ مَسَارِعًا فَكُلُّ لِسَانٍ فِي الْحَقِيقَةِ إِنْسَانُ

كانت هذه هي البداية الأولى، ثم أعقبها ﷺ بما يمكن أن نسميه بالتعليم الإجمالي أو بقضية التكافل العلمي بين المسلمين .

فقد روى الحُفَّاظ عن أبزى الخزاعي والد عبد الرحمن بن أبزى أن رسول الله ﷺ «خطب ذات يوم فأتنى على طوائف من المسلمين خيراً، ثم قال: ما بال أقوام لا يُعلِّمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليُعلِّمنَّ قومٌ جيرانهم،... وليتعلِّمنَّ قومٌ من جيرانهم أو لأعاجلنهم العقوبة .

ثم نزل رسول الله ﷺ فتساءل الناس: مَنْ يعني رسول الله ﷺ بهذا الخطاب؟ فقالوا: إنه يعني الأشعريين، إنهم قوم علماء ولهم جيران أميون، فجاء الأشعريون إلى رسول الله ﷺ وسألوه: يا رسول الله، ذكرت قومًا بخير وذكرنا بشرًا، فما بالنا؟ فقال رسول الله ﷺ: ليتعلمن قوم جيرانهم وليفقهونهم وليعظونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا، ثم أعادوا قولهم فأعاد رسول الله ﷺ قوله فقالوا: أنفطنهم يا رسول الله فأعاد ﷺ كلامه، ثم قالوا: يا رسول الله أمهلنا سنة حتى نعلمهم ونفقههم فأمهلهم رسول الله ﷺ سنة، ثم قرأ ﷺ قوله ﷻ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ٧٨ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] (١) .

(١) سبق تخريجه .

ما يؤخذ من الحديث:

هذا النص يمكن أن نستنتج منه ما يلي :

أولاً: أن رسول الله ﷺ لم يُقرَّ قومًا على أميتهم وجهالتهم وهم بجوار قوم متعلمين علماء .

ثانيًا: أن الرسول عليه الصلاة والسلام اعتبر بقاء الأميين على أميتهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصيًّا لأوامر الشرع ، واعتبر ذلك أيضًا عدوانًا على الأمة يوجب اللعنة ، ثم آذن ﷺ الفئتين بحرب من الله ورسوله حتى يبادروا إلى التعلم والتعليم ، وأعطاهم رسول الله ﷺ مهلة سنة حتى يفقهوا جيرانهم ويعلموهم ..

روى قاضينا عياض رحمه الله عن شيخه القاضي الشهيد أبي علي الصدي بسنده إلى سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أنه كان إذا جلس مجلسًا لا يقوم منه حتى يدعوا لجلسائه بهذه الكلمات ، وزعم أن رسول الله ﷺ كان يدعو بها لجلسائه .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ورضوانك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله اللهم الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا . يا أرحم الراحمين يا رب العالمين .

المحاضرة السابعة عشرة بعد المائة

فلسفة الحوار في القرآن

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أقسم هذا الموضوع ثلاثة أقسام .

- في القسم الأول : سأحدث عن الآية في إطار السورة وما تتضمنه من إشارات لغوية ونحوية .

- وفي القسم الثاني : سأحدث عن القضايا التي تنبعث من هذه الآية .

- وأما في القسم الثالث : فسأتعرض إلى الحوار .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

هذه الآية هي الآية الستون بعد المائتين من سورة البقرة .

سورة البقرة:

وسورة البقرة كما لا يخفى هي أطول سورة في القرآن الكريم ، إذ تتضمن خمسًا وثمانين ومائتي آية حسب العد المدني ، وستا وثمانين ومائتين

حسب عد أهل الكوفة ، وسبعا وثمانين ومائتين حسب عد البصريين ، وهي في المصحف تضم خمسة أحزاب إلا نحو ثمن حزب ، جاء في أول سورة آل عمران . وهي سورة مدنية ، إذ نزلت على رسول الله ﷺ وهو في المدينة لا تستثنى منها إلا آية وهي قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٨١] وإن كانت هذه الآية نزلت في منى أثناء حجة الوداع فإنه يمكن اعتبارها آية مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة .

سبب تسميتها :

ثم إن هذه السورة تسمى سورة البقرة ، والسبب في ذلك أن الله تبارك وتعالى وهو يوحى إلى رسوله الكريم جعله يستحضر هذه المعجزة التي حدثت لسيدنا موسى ﷺ مع بني إسرائيل ، إذ قتل أحدهم ولم يعرف قاتله ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن تذبح بقرة وأن يضرب بجزء منها القتيل ، فيبعث ويخبر بقاتله .

فوائدها :

هذه السورة كذلك يمكن أن نضيف إليها أنها تتضمن كثيرا من الأحكام وكثيرا من الأخبار ، وتتحدث عن الكائنات وعن بدء الخليقة وعن آدم ، وتتحدث عن المؤمنين والمشركين والمنافقين ، ولهذا قال ابن العربي : «إن هذه السورة تتضمن ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر» .

ولأهمية هذه السورة فإن الرسول ﷺ كان يحث على قراءتها وعلى تدبرها . وهو القائل عليه الصلاة والسلام : «إن لكل شيء سناما - أي قمة - وسنام القرآن سورة البقرة»^(١) ، وهو القائل ﷺ : «إن أخذها بركة

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧٨) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وتركها حسرة»^(١) من هنا كان الصحابة رضوان الله عليهم يسارعون إلى قراءتها وإلى حفظها وإلى شرحها ويعتزون بذلك .

بل إننا نجد أن بعض المبدعين من شعراء المرحلة من الذين كانوا متميزين في الساحة الشعرية ، بعد أن حفظوا هذه السورة وبعد أن تعلموها أحجموا عن قول الشعر ؛ يشار في ذلك إلى ليبد أحد شعراء المعلقات والذي قال المعلقة المشهورة :

عفت الديار محلها فمقامها . . إلخ .

استنشد مرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيئاً من شعره فقال : «والله ما كنت لأقول شيئاً من الشعر بعد أن علمني الله سورة البقرة» .

هذا بعض ما يمكن أن نقوله عن هذه السورة إلا إذا أردنا أن نضيف أنها هي السورة الثانية في المصحف الشريف بعد الفاتحة وإن كانت في النزول هي السابعة والثمانون في الترتيب أي في ترتيب النزول قبل آل عمران وبعد سورة المطففين .

مفردات الآية :

إذن هذه هي السورة التي وردت فيها هذه الآية ، فماذا عن الآية ؟ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ الواو في عاداتها تكون استئنافية أو تكون للعطف ، هي هنا للعطف معطوفة على آية قبلها ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة : ٢٥٩] . «وَإِذْ» : تكون للفجاءة وتكون للتعليل وتكون ظرفية وهي هنا ظرفية ، وهي مفعول به لفعل محذوف تقديره : واذكر إذ قال إبراهيم ، وبهذا الاعتبار يمكن أن تفهم الآية أو كل الآيات التي تبدأ بـ «وَإِذْ قال» .

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِبْرَاهِيمُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّهُ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ، يَذْكُرُ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِحَ بِالْحَاءِ وَبِالْخَاءِ كَذَلِكَ، وَوُورِدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ ابْنُ آزَرَ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: ﴿آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] وفي الحديث الشريف كذلك أن النبي ﷺ قال: «يَبْعَثُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آزَرَ وَيَلْقَى ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ غُبْرَةٌ وَقْتَرَةٌ»^(١) ولكن المفسرين يذهبون إلى أن آزر إنما هو صفة أو لقب لتارح. وأن آزر في لغة القوم هو المخطئ.

إبراهيم عليه السلام أصله من بابل في أرض العراق، ثم انتقل إلى أور على شاطئ الفرات ومن ثم إلى فلسطين، ثم إلى مصر حيث تزوج بسارة ومعها جاريتهما هاجر، ثم بعد ذلك انتقل إلى الحجاز حيث أقام البيت.

إبراهيم عليه السلام امتحن مرتين، امتحن أولاً حين كان أول من كسر الأصنام وألقى به قومه المشركون في النار؛ ولكن الله تبارك وتعالى نجاه، ومن ثم سمي بخليل الله. ثم امتحن بعد ذلك حين أمر بذبح ابنه وكان ما كان مما هو معروف.

وإبراهيم عليه السلام في المنظور الإسلامي وفي القرآن الكريم أنه كان حنيفاً مسلماً وأن دينه الإسلام، إذن إبراهيم يحاور ربه في هذه الآية، فتقول الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ماذا قال؟ ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ (رب) أصلها يا ربي، ولكن حذف حرف النداء وحذف ياء المتكلم لوضوح الأمر لا حاجة إلى حرف النداء ولا إلى ياء المتكلم لوضوح الأمر، و(رب) منادى منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة ربه.

إِذَنْ ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ إبراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يريه رؤية بصرية ، ومن هنا تبدأ المسألة ؛ الرؤية رؤية بصرية ، هو يريد أن يرى بعينه «أرني» أرني ماذا؟ ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ هو لم يطلب أن يرى إحياء الموتى لا ، هو يريد أن يرى كيفية إحياء الموتى .

وكيف تكون للنفي وللإنكار وللتعجب وللإستفسار ، ولكنها هنا لا تعني إلا الكيفية ، أرني كيفية إحياء الموتى ، وكيف وما بعدها مفعول به ثان لأرني ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِن﴾ الهمزة هنا همزة استفهام تقريرية أي تقرر حالة معينة ، هي التي نصادفها في كثير من الآيات والنصوص ، كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح : ١] همزة استفهام تقريرية ، وقول الشاعر جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندئ العالمين بطون راح

هذه الحال التي تقررها الهمزة ينم عنها حرف الواو الذي هو واو الحال ، وهو يخفي فعلا مقدار ، تقديره : أأريك وأنت لم تؤمن؟ قال المفسرون : أأريك وأنت لم تؤمن ، وقال آخرون : أأريك وأنت آمنت . وقال غيرهم : ألا يكفيك إيمانك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفى عن سيدنا إبراهيم الشك فقال : «نحن أولى بالشك من إبراهيم»^(١) ، معناه أنه لو شك ، إبراهيم لكننا نحن أقرب وأولى إلى الشك . وبما أننا نحن لم نشك فإن إبراهيم لم يشك .

إِذَنْ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم نفى الشك عن إبراهيم ، وبالفعل لأن إبراهيم لم يشك ولم يفقد إيمانه ، ولكنه كان يريد شيئا آخر ﴿قَالَ بَلَى﴾ بلى حرف جواب ،

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يأتي بعد النفي فتحوله إلى إثبات . ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهي على عكس نعم ، لأن نعم تصدق النفي وتصدق الإثبات . ولهذا قال : ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ﴾ سيعلل ﴿لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الاطمئنان هدوء النفس باليقين وبالتصديق هذا ما كان يريده إبراهيم عليه السلام ، أما الإيمان فموجود ، ولكن يريد شيئاً آخر زائداً ، وسنرى بعد قليل هذه الزيادة كيف تكون ﴿وَلَٰكِنَّ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ .

وتلاحظون أن في هذه الآية الكريمة فعل «قال» يتكرر أربع مرات من غير ذكر الفاعل ومن غير عطف ومن غير أي شيء لماذا؟ لأن السياق واضح . قال إبراهيم : قال الله ، قال إبراهيم ، قال الله لا نحتاج إلى ذكر الفاعل لوضوح السياق .

﴿قَالَ فَخُذْ﴾ الله تعالى أمره أن يأخذ . فعل أخذ معناه : الأخذ باليد ، وأن الأمر سيصبح باللمس وبالمحسوس . وهذا الفعل «خذ» يلحق بفعل «أرني» أي الرؤية البصرية ، إذن المسألة ستصبح منظورة وستصبح ملموسة ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ . . . ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ أربعة من الطير ، الطير هذه صيغة مصدرية تكون على الإفراد والجمع ، أو تقال للإفراد والجمع وللمذكر والمؤنث ، ولكنها هنا استعملت على التذكير لماذا؟ لأن أربعة جاءت مؤنثة والقاعدة أن العدد يكون على عكس المعداد «أربعة» لو قال أربعاً من الطير لأولنا بأن الطير مؤنثة ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قرئ «صُرْهُنَّ» وهي قراءة الجمهور وقراءة «صُرْهُنَّ» و«صِرْهُنَّ» و«صَرَّهُنَّ» معنى «صُرْهُنَّ» المفسرون وقفوا أمام هذا الفعل موقفين «صُرْهُنَّ» تعني : مال وعطف ، وتعني كذلك قطع ، وكل من المعنيين ينعكس على بقية الآية كما سنرى .

إذن قال : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ الجبال أو الجهات كانت أربعة ، لماذا أربعة؟ حتى لا يظن بأن الجهة فضلا على الجهة الأخرى شرق وغرب وشمال وجنوب الجهات كلها متساوية .

ولماذا قال الله تعالى : ﴿ مِّنْ ﴾؟ من للتبويض دليل على التنوع والتعدد كأنه قال له : خذ ما شئت من الطير وليس طيرا بعينه خذ ما شئت من الطير ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ .

قرأ الجمهور (جُزْءًا) وقرئ (جُزْءًا) و(جُزْأًا) اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴿ ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ثم ادعهن ؛ أي اطلبهن ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ سعيًا حال ، ولكن حال مم؟ إما أنه حال من الأجزاء التي ستأتي ساعية ، وقال بعض المفسرين : إنها حال لإبراهيم ، هو الذي سيسعى إليها ، ولكن في الحقيقة حتى يكتمل الأمر ، وحتى تؤدي الآية غايتها ، إن الأجزاء مقسمة من طير معين ، وهي أجزاء أي قطع وصرهن هنا بمعنى قطعهن ، وحين سيدعوهن ستأتي مجتمعة ملتئمة ، لأن الحكمة والغاية من هذه الآية هي إحياء الموتى ، إذن ثم ادعهن يأتينك سعيًا .

﴿ وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الله تعالى قوي وقادر على أن يفعل ما يشاء أن يحيي وأن يميت وما إلى ذلك .

من هنا أنتقل إلى القسم الثاني من الموضوع وهو الذي سأتناول فيه بعض القضايا المنبثقة من هذه الآية ، وسأقف عند قضايا ثلاثة :

القضايا الأساسية للسورة:

القضية الأولى: وتتعلق بإحياء الموتى أي بالبعث ، هذه قضية شغلت الإنسان منذ كان وما زال ، القرآن الكريم في آيات كثيرة حسم الأمر ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥] ، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] ؛ بل إن القرآن الكريم سيبرهن على إحياء الله وقدرته الله على إحياء الموتى ، سيبرهن بأسلوب فيه شيء من البدهة ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] يسأل مسألة سهلة ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] ومع ذلك ظلت هذه المسألة تشغل العلماء وتشغل المفكرين والفلاسفة ، المجال لا يتسع للإطالة ، ولكن لا بأس من ذكر بعض الأمثلة : الفارابي مثلاً وهو فيلسوف مسلم نعرف أنه تأثر بأرسطو ، وتأثر بأفلاطون ، وتأثر بالأفلاطونية الجديدة وأرسطو وهؤلاء كانوا يؤمنون بجوهر النفس وبخلود الروح ، وتأثر بهم الفارابي فقال إن البعث لا يكون بالأجسام ولكن يكون بالنفوس ، بل زاد وضيق الخناق فقال : «إن الله تعالى لن يبعث إلا النفوس الخيرة أما النفوس الشريرة فإنه لن يبعثها» .

ما كان لهذا الكلام أن يمر ، رد عليه علماء المسلمين وفلاسفتهم رد عليه ابن طفيل ، رد عليه الغزالي ، والمنظور الإسلامي واضح عند هذين الفيلسوفين ، بل إن ابن رشد -فيلسوف الغرب الإسلامي- عقب عليه وقال : إن المهم هو أن نقر بالبعث أما كيف يكون البعث ، فهذه مسألة تترك للاجتهاد وللتأويل .

ننظر في قضية إبراهيم فإنه في هذه الآلية وبهذا السؤال وبهذا الجواب الإلهي وبهذا البرهان المادي حول المسألة ، مسألة البعث ومسألة الإحياء من مسألة استنباطية موضوعها ومنهجها العقل إلى مسألة استقرائية موضوعها المحسوس والملموس ، ومنهجها التجريب إذن هذه القضية الأولى .

القضية الثانية : هي التي يمكن أن ننطلق فيها من قضية إبراهيم وأنه كان يسعى إلى اليقين ، هو مؤمن ولكنه يسعى إلى اليقين ، أي إلى التصديق الذي يرسخ في أعماقه ، ويزيل منه كل شك وكل قلق ، اليقين عند علماء الكلام هو الذي لا يتغير ولا يستحيل ، ويحتاج إلى الدليل والبرهان . البرهان عادة في المعقولات وفي الإلهيات وفي المجرد لا يكون إلا بالحدس ولكنه هنا أصبح منظورا وملموسا ومحسوسا ، فتحقق لإبراهيم ما يسميه المنطقة الإدراك بالوقوع والثبوت . ماذا ينتج عن الإدراك بالوقوع والثبوت؟

ينتج عنه التصديق ، والتصديق بالمشاهدة كما حدث لإبراهيم عليه السلام يفوق بقية أنواع التصديق ، تصديق المقلد ، تصديق العارف بالدليل ، لا يفوقه إلا تصديق المستغرق ، وتصديق المستغرق هو الذي لا يشاهد إلا الله ﷻ ، بهذا الإدراك وبهذا اليقين حدث لإبراهيم أو تحقق له الوضوح العقلي ، والوضوح العقلي يمثل إحدى قواعد المنهج الذي نجده عند ديكارت في الاستدلال الرياضي بأنه هو السبيل للمعرفة الدقيقة . إذن هذه القضية الثانية .

أما القضية الثالثة : فهي طالما أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا وكان مؤمنا ، ولكنه كان يريد اليقين معناه أنه كان يريد الزيادة .

السؤال هنا هل الإيمان يزيد وينقص؟ هذه مسألة تكلم عنها العلماء وعلماء التوحيد بصفة خاصة هل الإيمان يزيد وينقص؟ نجد في القرآن الكريم ما يفيد أنه يزيد ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إذن في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف سئل رسول الله ﷺ أيزيد الإيمان أو ينقص؟ قال: «نعم، يزيد وينقص»^(١).

زيادة الإيمان ونقصانه:

ومن هنا فإن العلماء نظروا إلى قضية الزيادة والنقصان في الإيمان من خلال أربع فئات:

- الذين لا يزيد إيمانهم ولا ينقص وهم الملائكة .
- الذين يزيد إيمانهم ولا ينقص وهم الأنبياء .
- والذين يزيد إيمانهم وينقص وهم سائر المؤمنين .
- والذين ينقص إيمانهم ولا يزيد وهم الفاسقون .
- هنا إشارة أود ذكرها وتتعلق بموقف أهل السنة من قضية الإيمان ونحن من أهل السنة .

الإيمان أصل وفرع:

ماذا يقولون في الإيمان؟ يقولون إن الإيمان أصل وفرع، أما الأصل فهو الذي يتصل بالمعتقدات، وأما الفرع فهو ما يتصل بالتطبيق، بالعبادات التطبيقية وأداء الطاعات والفروض، يقولون من أنكر شيئاً من الأصول

(١) سبق تخريجه .

أو من الأصل أو الفرع فهو كافر ، ومن تهاون في شيء من الفرع فهو عاص فاسق ، إن تاب عفا الله عنه وإن لم يتب فإن الله تعالى يعذبه ويدخله النار ولكن لا يخلده في النار . ثم يزيدون فيقولون إن هؤلاء العصاة الفاسقين قد يشفع لهم النبي ﷺ ، ومن هنا يقولون بالشفاعة نرجو الله تبارك وتعالى أن تعمنا هذه الشفاعة ستمحو كل هذه الزلات .

وأهل السنة هنا يختلفون عن غيرهم يختلفون عن المرجئة ، فالمرجئة يقولون إن مرتكب الكبيرة مؤمن ، والخوارج يقولون إن مرتكب الكبيرة كافر ، جاء المعتزلة فقالوا إن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين ، هو فاسق ولكنه ليس كافرا ، وإيماننا منهم وحرصنا منهم على العدل الإلهي ، وأن الله تبارك وتعالى لا بد أن ينفذ عدله فإن هذا الفاسق إذا لم يتب فإنه يدخل النار ويخلد في النار ، وإن قالوا بأن عذابه يكون أخف من عذاب الكافر .

إذن هذه قضايا ثلاثة تنبعث من هذه الآية ، ثم نصل إلى القسم الثالث لننظر في القضية الكبرى التي هي محور هذه الآية وهي الحوار ، لاحظنا أن هناك حوارا منظما مسلسلا بأسلوب معين بين الله ﷻ وبين سيدنا إبراهيم عليه السلام .

الحوار ومعناه:

حين نطرح السؤال حول الحوار وحول موقف الإسلام من الحوار ، وحول أسس هذا الحوار في الإسلام فإننا نجد جملة أشياء ، سأستعرضها .

المسألة الأولى : إن هذه الكلمة كلمة الحوار أصلها من : حار ، يحور ، حورا ، بمعنى رجع . ونجد في القرآن الكريم ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: ١٤] بالنسبة للذي يؤتى كتابه من وراء ظهره ، ثم نجد

مجموعة من المصطلحات ومن الكلمات نجد التحوار ، نجد يحاور (قال لصاحبه وهو يحاوره) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف : ٣٧] ، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة : ١] . إذن مادة الحوار موجودة .

مادة الجدال : ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت : ٤٦] فهذه (جدل) موجودة في القرآن الكريم .

وموجود كذلك ما هو أفضع من الجدال السيئ وهو المراء ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ [الزخرف : ٦١] المراء منهى عنه .

إذن هناك مجموعة من المصطلحات ، هناك رصيد لغوي -إذا شئنا- في القرآن الكريم يدل على الحوار .

منطلق الحوار في القرآن :

ثم هناك منطلق للحوار في القرآن الكريم ، ما هو هذا المنطلق؟ وهو أن المتحاورين أو المتحاورين يقفان موقفا متساويا ، قد يكون أحدهما على صواب وقد يكون الثاني على خطأ ، الله تبارك وتعالى يعلم نبيه الكريم يقول له قل : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] الرسول ﷺ يعرف أنه على حق وأنه على هدى ولكنه يحاور الخصم ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني أن أحدهما مخطئ والآخر مصيب ، سنرى بعد الحوار ، هكذا وهناك علم عند العرب علم قديم يسمى علم المناظرة ، ويطلقون على هذا النوع من الأسلوب في المناظرة ، يطلقون عليه إرخاء العنان للمناظر ، يعني أنت ترخي له العنان تتركه على طبيعته وأنه قد ينتصر عليك . إرخاء العنان للمناظر .

ثم إن أسلوب هذه الآية ﴿وَأِنَّا أَوْ إِنَّاكُمْ لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ . هذا الترتيب ترتيب الحالات وترتيب المحاورين هذا يسمى في علم البديع يسمى أسلوب اللف والنشر .

أساليب الحوار:

إذن هناك منطلق ثم هناك الأسلوب ، كيف يكون الحوار ، أو كيف علمنا القرآن الكريم أن يكون الحوار ، الحوار واضح في الآية التي تعلمنا كذلك كيف ندعو للدين ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]
هنا مراحل ثلاث ، أو إذا شئنا أساليب ثلاثة:

أسلوب الحكمة:

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ الحكمة كلمة جامعة لكل خير ، ولكل صلاح ؛ ولكنها تفيد هنا المعرفة الصحيحة والعلم الدقيق الذي لا زيف فيه ولا انحراف ولا تشويه ولا تزيف ، الذي يحاور ينبغي أن ينطلق من هذه المعرفة الصحيحة ، ولهذا رسول الله ﷺ كان يقول ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ كان الله تعالى يعلمه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] لا عن جهل بل عن معرفة صحيحة وثابتة وقوية .

أسلوب الموعظة:

إذن بالحكمة والموعظة ، الموعظة نحن نعرف ونستعمل كثيرا كلمة الوعظ والإرشاد ، الوعظ كما لا يخفى هو الكلام اللين الرفيق ، الذي فيه لين وفيه رفق ، وهو الكلام الذي يذهب مباشرة إلى القلب فيؤثر عليه ، هذا هو الوعظ .

وفي آيات كثيرة يتحدث القرآن الكريم عن اللين ، حين أمر الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه : ٤٣] ومع ذلك ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه : ٤٤] بدون عنف وبدون تهريج وبدون قوة وبدون انفعال ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه : ٤٣ ، ٤٤] ما هو أثر القول اللين ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَىٰ﴾ [طه : ٤٤] أي لابد من الموعظة حين تكون لينة أن يكون لها مفعولها وأن يكون لها مدلولها .

وبعض الصحابة ، ولعله العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون .

هذه هي الموعظة إذن بالحكمة والموعظة ، وزاد فوصفها بالحسنة هذا تأكيد لهذا الوعظ وكيف ينبغي أن يكون ولأسلوب الحوار كيف ينبغي أن يكون .

أسلوب الجدل :

ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثالثة ﴿وَجَدِلْهُمْ﴾ [النحل : ١٢٥] جادلهم أي قارعهم حجة بأخرى ، أنت تقول وأنا أقول ، أنت تدافع وأنا أرد ، أنت تأتي بحجة وأنا آتي بمثلها ، والقرآن مليء بالدعوة إلى الإتيان بحجة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ١١١] إذن بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن .

قال المفسرون : الجدل بالتي هي أحسن هو الجدل الذي ينطلق من حق ، لأن الإنسان قد يجادل بالباطل وهو كثير ولكن الجدل حين يكون بحق فإنه يكون بالتي هي أحسن ، هنا القرآن الكريم يعلمنا أساليب ثلاثة في الحوار .

الأسلوب الأول : هو الأسلوب اليقيني الذي لا نقيض فيه ، وهذه هي الحكمة .

الأسلوب الثاني : الذي هو الموعظة هو أسلوب الخطابة والخطابة ، هي التي تؤثر في النفس وتزيل ما فيها من ظلم .

ثم يأتي الأسلوب الثالث : وهو أسلوب المقارعة والبرهنة والمجادلة . بقيت نقطة أخرى في هذا الحوار الذي علمنا إياه القرآن الكريم ، وهو أن الله تبارك وتعالى تحاور كثيرا في القرآن الكريم ويكفي أن نمثل بنماذج ثلاثة من هذا الحوار .

حوار الله مع الملائكة :

حاور الملائكة وحواره مع الملائكة معروف ، حين أراد أن يستخلف آدم في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً قَالُوْٓا۟ اَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ [البقرة : ٣٠] حقيقة ينبغي أن نتأمل ويتأمل الناس هذا الحوار يصدر من الله ﷻ وهو القادر العارف القاهر .

مع ذلك يخاطب محاوره بأسلوب كما قلنا فيه الإذعان أو إرخاء العنان للمناظر ﴿قَالَ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ اَنْۢبِئُوْنِ بِاَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ [البقرة : ٣١] قدم لهم البرهان المادي ، ولهذا ﴿قَالُوْٓا۟ سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَاۤ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۤ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ﴾ [البقرة : ٣٢] إذن الله تبارك وتعالى حاور الملائكة .

حوار الله مع الأنبياء :

وحاور كذلك الأنبياء ، الآية آية الموضوع هي حوار مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ، كذلك معروف حوار مع موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] يعني طلب شيئاً عظيماً لم ينهره ولم يبعده ، ولكن قال له : ﴿ قَالَ لَنْ تَرْنِيْ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرْنِيْ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] بهذا الأسلوب كيف يحاور الله تبارك وتعالى وكيف يعلمنا أن نحاور .

حوار الله مع إبليس :

كذلك حاور إبليس كذلك ، ومحاورة الله تبارك وتعالى مع إبليس معروفة ، حين رفض أن يسجد لآدم ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢ ، ١٣] آيات كثيرة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر : ٣٦ - ٣٨] .

* * *

المحاضرة الثامنة عشرة بعد المائة

بيعة العقبة الكبرى

- قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] وتتكون معالجتى لهذه المحاضرة على النحو الآتي :
- أولاً - بطاقة تعريف بالسورة التي تنتمي إليها الآية .
- ثانياً - إلمامة بشرح هذه الآية الكريمة ، آية البيعة ، والإشارة إلى ما فيها من نكت بلاغية .
- ثالثاً - بيعة الحديبية هي تطبيق عملي لبيعة العقبة الكبرى أم البيعات .

سورة الفتح :

سورة الفتح التي تنتمي إليها هذه الآية هي التي تبتدئ بقول الله ﷻ :
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ وَبُتِمَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَهَدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح : ١-٣] . وقد عرفت بين الصحابة بسورة الفتح ، ولم يعرف لها اسم غير هذا . وهي من السور المدنية ، بناء على أن المدني من القرآن هو ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أو نزل في غيرها ، حتى ولو كان نزوله بمكة فإنه يعتبر مدنيا بهذا الاعتبار . فقول الله ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، هي آية مدنية ولو أنها نزلت بعرفة من أعمال مكة . كذلك هذه السورة الكريمة هي سورة مدنية ، ولو أنها نزلت بالحديبية ، وهي من أعمال مكة .

مكان نزولها :

نزلت هذه السورة الكريمة في مكان يقال له : كراع الغميم ، وهو بعيد عن مكة بنحو المرحلتين . نزلت في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، وآياتها تسع وعشرون آية . ومن مميزات أنها تعتبر سفرية وليلية ، فهي من القرآن السفري الليلي . لأن من القرآن ما هو سفري ، ومنه ما هو حضري ، ومنه ما هو ليلي ، ومنه ما هو نهارى . ويشهد لكونها سفرية ليلية : ما روي في «الموطأ» عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان يسير في سفره ليلاً وعمر بن الخطاب يسير معه ، فسأله سيدنا عمر رضي الله عنه عن شيء ، فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله المرة الثالثة فلم يجبه . فقال سيدنا عمر : ثكلت أم عمر . نزلت رسول الله ﷺ - أي ألححت عليه - ثلاث مرات ، كل ذلك لم يجبني . قال عمر : ثم حركت ناقتي وتقدمت أمام الناس ، وقد خفت أن ينزل في القرآن . فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي : ألا هلم . فأقبلت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقال لي : «لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» . ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح : ١] (إلخ .

سبب نزولها :

أما سبب نزولها فإنني أكتفي بما رواه الواحدي وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم : أنها نزلت بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنها . فنحن بين حزن وكآبة إذ أنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : «لقد أنزلت علي الليلة آية هي أحب إلي من الدنيا وما فيها» .

آية البيعة ومفرداتها:

أكتفي بهذا فيما يرجع للسورة لأنقل إلى الآية الكريمة آية البيعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] لأرى ما في هذه الآية الكريمة من حيث ألفاظها، ومن حيث بعض المعاني.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾:

ونلاحظ أنها قد صدرت بـ: (إن) المؤكدة، وفيها إشارة إلى أهمية الخطاب الذي يأتي بعدها وهو بيعة الرسول ﷺ، هذه البيعة التي لها طابع خاص. كما نلاحظ أن التعبير هنا بالمضارع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ مع أن البيعة كانت قد حدثت قبل نزول هذه السورة، ومقتضى الحال أن يكون التعبير بالماضي: إن الذين بايعوك، ولكن وقع التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة في الذهن، حتى كأن هذه البيعة الجليلة واقعة وقت نزول القرآن، وقت نزول هذه السورة الكريمة. ونظير ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]. وقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾:

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ هذا حصر، (إنما) هي أداة حصر، هذا حصر للفعل في مفعوله، ومعناه: إنما يبايعونك، أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: لا يبايعون إلا الله ﷻ بمبايعتك. وهذا من باب القصر الادعائي، ادعاء أن الغرض والهدف من هذه البيعة هي نصره دين الله ﷻ، وإعلاء كلمته وإعزاز شريعته، فنزلت

الغاية منزلة الوسيلة . ادعى أنهم إنما بايعوا الله ﷻ ، وليس الرسول عليه الصلاة والسلام . فحقيقة أنهم عندما يبايعون الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنهم يبايعون الله ﷻ لأن الرسول مبلّغ عن الله ﷻ : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ :

وقول الله ﷻ : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا التعبير يسمى عند البلاغيين بالاستعارة التخيلية ، أي أننا نتخيل أن الله سبحانه وتعالى يبايعه المبايعون . فأثبت له اليد ، لأنها من لوازم المبايع ، كما أثبتت الأظفار للمنية في قول الشاعر :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

فالمنية شبهت بالأسد ، ثم حذف المشبه به ، واقتصر على شيء من لوازمه ، وهو أظافر الأسد فكانت استعارة بالكناية ، وقد ساعدت صيغة المبايع على هذا التخيل ، على ذكر اليد بعدها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] لأن المبايع يصحبها عادة وضع كف المبايع في كف المبايع . كما قال كعب بن زهير :

حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي يبرات قيله القيل

وهذا البيت هو من قصيدة له ، وهي قصيدة مشهورة تسمى : بانت سعاد ، مدح بها رسول الله ﷺ عندما جاء تائباً منيباً إلى المدينة ، فمَثَّلَ بين يدي رسول الله ﷺ وبايعه وأنشد أمامه في المسجد النبوي هذه القصيدة الجليلة التي تسمى : بانت سعاد وتسمى البردة ، تسمى البردة لأن الرسول ﷺ أجاز هذا الشاعر إجازة سنية ، وخلع عليه بردته ﷺ عندما

وصل إلى بيت من أروع الأبيات التي وردت بهذه القصيدة . ومما جاء في هذه القصيدة :

أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت في الأقاويل
ثم يقول :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
فاهتز الرسول ﷺ لهذا البيت ، وخلع عليه برده ﷺ إكراما له ، ورضاء عنه . وكان عليه الصلاة والسلام لا يرد من جاء تائبا . وكان كعب ابن زهير قد أساء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحرص على العصيان بشعره . ولكنه لما جاء قبله ﷺ ، لأنه رحيم بأمته ، وقد صدق الله سبحانه وتعالى الذي وصفه بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

منهج السلف في مشكل الآيات :

﴿ يَدُ اللَّهِ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . ومما زاد هذا التخييل الذي ورد في هذه الآية وهو : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما زاده جمالا وحسنا ما فيه من المشاكلة بين ﴿ يَدُ اللَّهِ ﴾ و﴿ أَيْدِيهِمْ ﴾ والمشاكلة من البديع ، ولو أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن وصفه بأن له يدا أو أن له رجلا مثلنا فله يد ورجل ولكنه منزّه عن اليد التي نعرفها والرجل التي نعرفها مع إثبات ما أثبتته لنفسه من غير تأويل ولا تشبيه ولا تمثيل ﴿ لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ١١]، نحن كبشر، فهو منزّه عن أفعال البشر، وعن جوارح البشر.

وقوله ﷻ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هي جملة مؤكدة ومقررة لجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ التي تفيد أن بيعتهم للرسول ﷺ في الظاهر، هي بيعة منهم لله ﷻ في الحقيقة والواقع. فهذا المدلول قرّره وأكدته جملة: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ولذلك لم تعطف بل جردت من العطف. ثم إن الفوقية يد الله فوق أيديهم المذكورة في هذه الآية؛ الفوقية واليد هي تعبير خاص بالله سبحانه وتعالى، وليست وصفاً لشيء مادي خارجي. ولا يمكن أن يكون شيء من هذا من أغراض الآية الكريمة. أو يراد كمقصد من مقاصدها. وقد يقع في الخطأ والوهم من يحمل الآية مالا تحتمله من التأويلات التي تتعارض مع ما حققه السلف الصالح رضوان الله عليهم في تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أعراض البشر.

ومذهب السلف رضوان الله عليهم معروف في هذا الموضوع، وهو أن الآيات المتشابهة لا يخوضون فيها، وإنما يكلون تأويلها إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. وإنما يخوض في ذلك أهل البدع بخلفياتهم التي يرمون من ورائها إلى التشويش. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. وكما قال إمام دار الهجرة: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

معنى المبايعة وأصلها:

والمبايعة أصلها من البيع، فهي مفاعلة لأن كلا المتبايعين بائع، كلا المتعاقدين بائع. ولكنها نقلت من هذا المعنى الذي هو البيع إلى معنى العهد

على الوفاء بالطاعة والنصرة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة : ١٢] .

وهذه البيعة التي نتحدث عنها الآية الكريمة بهذه الصورة الرائعة التي توضح لنا أن البيعة التي تحدث بين المبايع وبين النبي ﷺ يحضرها الحق سبحانه وتعالى بعنايته ورعايته ويرعاها ويراقبها . هذه البيعة التي نتحدث عنها الآية الكريمة هي بيعة الحديبية التي بوع فيها رسول الله ﷺ بايعه الصحابة الذين خرجوا معه معتمرين إلى مكة ، وكان عددهم ، في أكثر الروايات ألفا وأربعمائة صحابي ، وفي رواية جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

أول من بايع في العقبة الكبرى :

وأول من بايع في هذه المبايعة ، هو أبو سنان الأسدي الصحابي الجليل رحمته الله .

سبب البيعة :

وسبب هذه المبايعة هو : أن رسول الله ﷺ أرسل عثمان بن عفان رحمته الله سفيرا عنه إلى أهل مكة ليفاوضهم في شأن التخلية بين المسلمين وبين الاعتماد على بيت الله الحرام بعدما رفضوا السماح للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أن يدخلوا إلى مكة معتمرين . ثم شاع أن عثمان ابن عفان قتل غدرا ، قتل وهو سفير لرسول الله ﷺ ، في حين جاء سفراء

كثيرون من المشركين إلى رسول الله ﷺ وقابلهم وحاورهم وفاوضهم دون أن يتعرضوا لأي أذى ، فلما شاع هذا الخبر كان من الصعب جدا أن يقع الإغضاء عنه ، لأن فيه إذلالا للمسلمين . فلا بد إذن من وقوع الحرب بين الطرفين ، وهي حرب مفروضة على المسلمين لم يكونوا مستعدين لها . فهم لم يخرجوا إلى مكة غزاة فاتحين ، وإنما خرجوا معتمرين ، ليس معهم من السلاح إلا ما تقتضيه حماية الإنسان في سفره من ذرائع الطريق وبوائقه .

فلذلك رأى رسول الله ﷺ أن يطلب من أصحابه أن يبايعوه . وهذه البيعة هي تطبيق فعلي لبنود بيعة العقبة الكبرى لأن من ضمن البنود التي اشتملت عليها بيعة العقبة : بند النصر . أن ينصروا رسول الله ﷺ إذا وصل إليهم . ونصرة الرسول عليه الصلاة والسلام تقتضي نصرة القيم والمثل والأخلاق والدين الذي جاء به رسول الله ﷺ . فهذه البيعة هي في الحقيقة بمثابة استشارة بمثابة استفتاء فرضته ظرفية طارئة لا بد من مواجهتها .

وبيعة العقبة الكبرى التي هي الأساس لانطلاق الدولة الإسلامية تمت بعدد من المبايعين أقل من هذا العدد الذي بايع رسول الله ﷺ في الحديبية ، إذ كان عدد الذين بايعوا المصطفى عليه الصلاة والسلام في العقبة الكبرى لا يزيد على ثلاثة وسبعين رجلا ومعهم امرأتان هما : أم عمارة وأم منيع .

وقد اجتمعوا بالمصطفى ﷺ في شعب العقبة في الهزيع الأخير من الليل ، ولم يكن أحد يدري أن هؤلاء الذين اجتمعوا في هذا الظرف وفي هذا الوقت من الليل يضعون الأساس لدولة عظمى سيتشر فضلها وخيرها ويعم نفعها العلمي والخلقي والحضاري العالم كله .

الآحداث التي سبقتها:

لقد كانت بيعة العقبة الكبرى مسبوقة بأحداث أخرى، إذ الرسول عليه الصلاة والسلام الذي عاش بمكة قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة عاش ظروفًا صعبة، وكان تصعيد الضغط، وتصعيد الإرهاب من طرف الوثنية ضد الرسول عليه الصلاة والسلام وضد أتباعه تتطور من مرحلة إلى أخرى، وبلغت أوجها وقمتها عندما توفي أبو طالب وتوفيت خديجة أم المؤمنين عليها السلام.

ربما أحس المشركون الوثنيون بأن محمدا انتهى، وأن دينه ودعوته التي يدعو إليها لم يعد لها مكان. ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان قد تأثر بموت عمه وموت زوجته فإن ذلك لم يصرفه عن مواصلة البحث عن أنصار يقفون إلى جانبه.

وبالرغم من الخيبة الكبيرة التي تلقاها في رحلته إلى الطائف من طرف بني ثقيف الذين قابلوه أسوأ مقابلة وردوه أقبح رد، فإن ذلك بالرغم من أنه قد أثر فيه تأثيرا كبيرا حيث ضاقت عليه الأرض بما رحبت، في هذا الظرف وهو في الطائف أحس بأنه أصبح فعلا غريبا، فمال عليه السلام إلى ظل شجرة وصلى ركعتين، وتوجه بالدعاء إلى من له الحول والقوة والعزة والسلطان قائلا:

«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إني من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له

الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تحل بي غضبك ، أو تنزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١) .

رحلة الطائف والدعاء المستجاب :

فترى أن هذا الدعاء المستجاب وهو دعاء الطائف ، دعاء من رسول الله ﷺ في حالة الابتلاء ، في حالة الضيق ، كان جوابه سريعاً ، لقد أثمر هذا الدعاء فتحين اثنين :

الفتح الأول :

فتح في الملاء الأعلى ، حيث دعي الرسول عليه الصلاة والسلام من لدن الخالق سبحانه وتعالى في رحلة أرضية ورحلة سماوية ، اختفت فيها وغابت فيها كل المقاييس البشرية ، ورأى ﷺ من آيات ربه ما رأى . ونسي عليه الصلاة والسلام كل المعاناة وكل ما حدث له وواجهه خلال عشر سنوات ، وعاد كأنه نشط من عقال - كما يقولون - استعداداً لمرحلة مقبلة . هذا هو الفتح الأول .

الفتح الثاني :

هو فتح في الدعوة ، فتح في اختراق جدار الحصار الذي ضربته الوثنية على دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى لاتصل إلى الآخرين . فقد شاء الله أن يأتي في ذلك الموسم حجاج من يثرب عددهم ليس كثيراً هم ستة فقط . قابلهم الرسول ﷺ وعرض عليهم الإسلام ، فوجد منهم تقبلاً

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٠٦٣) من حديث عبد الله بن جعفر رحمته الله . وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٧/٦) : رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات .

وفهما لخطابه لم يعهد مثله من باقي القبائل الأخرى طيلة عشر سنوات . هؤلاء لم يبايعوا ولكنهم أسلموا ، وانقلبوا إلى أهلهم دعاة مبشرين . وبدأ الإسلام يتحرك في يثرب .

في الموسم التالي حضر إلى موسم الحج اثنا عشر رجلا ، هؤلاء بايعوا بيعة العقبة الأولى ، لكن بيعة العقبة الأولى لم يكن فيها بند يتعلق بالنصرة ، بند يتعلق بالحماية ، وإنما كانت بيعة الغاية منها هي أن يؤسسوا مجتمعا إسلاميا خاليا من شوائب الجاهلية . لأن الوثيقة التي بين أيدينا ، وبنود هذه الوثيقة هي ما أشرنا إليه سابقا ، لأن هذه البيعة جاءت على صيغة بيعة النساء ، وبيعة النساء تأخرت إلى فتح مكة ولكن الصيغة التي بايع عليها رجال العقبة الأولى كانت على هذا النحو . بايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ، وأن لا يعصوا رسول الله ﷺ في معروف .

طبعا هذه القيم هذه الأخلاق تتنافى مع المجتمع الجاهلي المجتمع الجاهلي تحكمت فيه عادات وتحكمت فيه أخلاق ، وتحكمت فيه أفكار وتصورات ومفاهيم ، منها : وأد البنات ، وقتل الأبناء مخافة الفقر ، وعادات أخرى كثيرة بالإضافة إلى الشرك الذي كان قدرا مشتركا بين جميع القبائل الوثنية . لكن الشيء الذي فتحت هذه البيعة هو فضاء يثرب للدعوة الإسلامية إذ أرسل الرسول ﷺ شابا مؤمنا متحمسا متوثبا يتقد إيماننا هو مصعب بن عمير .

مصعب بن عمير قام بنشاط لاف في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ يسانده المسلمون في المدينة . لم يمر عام واحد حتى كان كل بيت من بيوت المدينة وكل أسرة من أسر

المدينة فيها إسلام . بدليل أن الموسم الثالث الذي كان في السنة الثالثة عشرة من بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام حضر الموسم فيه أكثر من سبعين زعيماً يمثلون جميع أسر المدينة المنورة وهؤلاء هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الكبرى ، أو بيعة العقبة الثانية أو نسميها : أم البيعات ، لأنها هي التي وضعت الأساس الأول لبناء الدولة الإسلامية .

بنود البيعة :

كانت هذه البيعة تشتمل على بنود ، من بنودها :

أولاً : السمع والطاعة .

ثانياً : الإنفاق في العسر واليسر .

ثالثاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

رابعاً : النصيحة وإعلان الرأي .

خامساً : وهذا هو المهم هو : حماية الرسول عليه الصلاة والسلام . والدفاع عن العقيدة وهنا يفتح باب الدفاع المتكافئ .

الرسول والمعاهدة :

ونطرح هنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام طيلة الفترة التي قضاهها بمكة بالرغم مما تعرض له عليه الصلاة والسلام ، وتعرض له أصحابه من الاضطهاد من الإرهاب بجميع أشكاله وألوانه ، لم يفكر عليه الصلاة والسلام في أن يستعمل القوة ضد خصومه . وكلما جاءه أصحابه المضطهدون ، واقترحوا عليه أن يقاتلوا وأن يواجهوا يرفض عليه الصلاة والسلام ويقول لهم : « لم نؤمر بذلك بعد ، لم نؤمر بذلك بعد » .

لأنه ملتزم عليه الصلاة والسلام بالمبدأ الأساسي وهو: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. من غير استعمال القوة- القوة ستأتي عندما تؤسس الدولة . الدولة هي التي من حقها أن تملك حق الدفاع عن الأمة عن الرعية عن الشعب .

أما استعمال أو إعطاء هذا الحق للأفراد أو للمليشيات فإنه يخلق فوضى ويخلق اضطرابا ، وكثير من البلدان الإسلامية تعاني من هذه الظاهرة وتحتفي فيها السلطة الحقيقية في الأمة .

بعد هذه البيعة المباركة بدأ المسلمون يهاجرون إلى المدينة ، وبدأت عناصر تكوين الدولة تتكون ، إذ أصبح لهذه الدولة- أصبح لها- إقليم ولها أرض ، وأصبح لها شعب ، ثم أصبحت لها سلطة عندما هاجر إليها رسول الله ﷺ . إذن تكونت الدولة ، عندما تكونت الدولة جاء الإذن بالقتال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] .

انتخاب النقباء:

وقبل أن أنهي الحديث عنها أشير إلى شيء مهم ، وهو : أن الرسول ﷺ عندما بايعه هؤلاء السبعون طلب منهم أن ينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيباً . وهؤلاء النقباء عندما انتخبوا وجه إليهم رسول الله ﷺ الخطاب ، وقال لهم : «إنكم كفلاء وأمناء ، وممثلين لقومكم ككفالة الحوارين لعيسى ابن مريم»^(١) .

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦٠٢/٣) من حديث محمود بن لبيد، بنحوه . وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧١٠١) من وجه آخر مرسلًا .

أنا أرى أن هؤلاء النقباء يمثلون نواة لحكومة أو لبرلمان ، لاسيما وأن الرسول ﷺ عين على رأسهم نقيب النقباء ، وهو : أسعد بن زرارة أبو أمانة أسعد بن زرارة ، عينه رسول الله ﷺ رئيسا عليهم ، فكان هو أمين الأمناء .

نعتقد أنبيعة العقبة كانت فتحة أخرى ، ينضاف إلى الفتح السماوي الذي رأى فيه رسول الله ﷺ ما رأى من آيات ربه الكبرى . ثم نرجع إلى الحديبية لنرى أن تلك البيعة التي شاهدناها في الحديبية كانت تطبيقا للبند الخامس من بنودبيعة العقبة . وهو بند حماية الرسول ﷺ ، والظرية تقتضي أن يحارب المسلمون وأن يبايعوا رسول الله ﷺ على المواجهة لأنهم تعرضوا للاعتداء . ولم يتخلف عن هذه المبايعة إلا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لأنه كان غائبا في سفارة إلى المشركين عندما جاء لم يبق إلا عثمان بايع بالنيابة عنه رسول الله ﷺ وقال : « اللهم إنك تعلم أن عثمان في حاجتك وفي حاجة رسولك فهذه يد عثمان » . وضرب ﷺ بيده اليمني على يده اليسرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم .

من تخلف عنبيعة الرضوان :

كما لم يتخلف عن البيعة أنا لا أقول لم يتخلف عنها ، ولكن تخلف عن هذه البيعة رجل واحد من بين هؤلاء الألف وأربعمائة تخلف واحد وهو : الجذ بن قيس فقد سجل الملاحظون الذين كانوا يتبعون عملية المبايعة سجلوا تهرب الجذ بن قيس من هذه المبايعة ، واختفى وراء جملة حتى بايع الناس جميعا ، وكان الجذ بن قيس منافقا . ولكنه كان يظهر الإسلام وخرج مع رسول الله ﷺ .

أنا لا أشبه هذا الجذ بن قيس إلا بحالة واحدة هي حالة إبليس عندما

أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا جميعا إلا إبليس لم يسجد . وعندما أمر رسول الله ﷺ أصحاب الحديبية أن يبايعوا بايعوا جميعا إلا الجد بن قيس لكنه حرم من الفضل الكبير الذي حظي به أهل العقبة ، وهو رضا الله عنهم .

ولذلك تسمى بيعة الرضوان لأن الله سبحانه وتعالى يقول فيها : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨] . فهذا الرضا لا يدخل فيه طبعاً الجد بن قيس ، لأنه لم يبايع الرسول ﷺ .

نور من القرآن والسنة

١٢٠

المحاضرة التاسعة عشرة بعد المائة

الحقوق وآدابها

جاء في حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه : «أخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء أن قال : فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبي ﷺ : «صدق سلمان» . أخرجه البخاري في الصحيح .

في هذا الموضوع المبارك سوف أجعل حديثي عن مشروعية الحقوق وآدابها في الإسلام منطلقا من حديث سيدنا سلمان الفارسي الذي رواه الإمام البخاري في الصحيح . قال الإمام الحجة الهمام أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم بن إسماعيل بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ورضي عنه :

باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا جعفر بن عون حدثنا أبو العميس عن جعفر بن أبي جحيفة عن أبيه ، قال : «أخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء . فزار سلمان أبا الدرداء فوجد أم الدرداء متبذلة أي : ليست عليها زينتها . فقال لها : ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء لم تعد له حاجة في الدنيا . فلما جاء أبو الدرداء صنع له طعاما ، وقال له : كل ، فقال إني صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل . ثم قام ليقوم الليل ، فقال له : نم ، فنام ثم قام فقال له : نم ، فنام ، فلما كان آخر الليل قاما وصليا فقال له : سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك

حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال النبي ﷺ: صدق سلمان».

وسلمان هو أبو عبد الله الفارسي. ويقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، أصله من رامهرمز، وقيل: من أصبهان. وقد سمع بمبعث الرسول ﷺ فخرج في هذا الأمر، فأسر وعاش في الرق، وبقي في الرق وشهد عدة مشاهد مع النبي ﷺ ومع الصحابة رضوان الله عليهم.

وأبو الدرداء هو: عويمر، وقيل: عامر الأنصاري الخزرجي، شهد يوم بدر، وشهد أحدا، وأبلى فيها البلاء الحسن، حتى كان الرسول ﷺ يقول: «نعم الفارس أبو عويمر»^(١). وكان الرسول ﷺ يقول عنه: «هو حكيم أمتي»^(٢). وقد ولي قضاء دمشق، ومات في خلافة سيدنا عثمان ابن عفان رضي الله عنه.

فوائد الحديث:

قال ابن حجر في «الفتح»: وفي هذا الحديث من الفوائد: مشروعية المؤاخاة في الله، وزيارة الإخوان، والمبيت عندهم، وجواز مخاطبة الأجنبية، وجواز السؤال عند الحاجة، والنصيحة للمسلم، وتنبيه الغافل، وغير ذلك من الفوائد.

وسطية الإسلام:

وأخرج البخاري أحاديث أخرى في هذا المعنى، منها: حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص، قال له النبي ﷺ: «ألم أخبر أنك تصوم النهار

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٦٧) من حديث شريح بن عبيد مرسلاً.

(٢) انظر التخريج السابق.

وتقوم الليل؟ قال: بل يا رسول الله. قال: فلا تفعل، فإن لجسدك عليك حقاً، ولعينك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً- أي لزائرك عليك حقاً- فأعط كل ذي حق حقه. وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن ذلك بصيام الدهر».

وهكذا يتبين من هذه الأحاديث أن الإسلام وضع منهاجاً للتوازن والتوسط والاعتدال في أداء الحقوق والقيام بها. وإن الإنسان لتشغله أمور الدنيا، وتشغله المسؤوليات عن أهله، وعن ولده، وعن دينه. كما أن الإنسان قد يبالغ في العبادة، ويواصل الصيام والقيام، ويترك تفقد أهله وأبنائه ومسئولياته، وكل هذا إفراط وتفريط، نهى عنه الرسول ﷺ، وأمر بالتوسط والاعتدال في أداء الحقوق والقيام بها، فقال ﷺ: «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً. فأعط كل ذي حق حقه».

بل إن النبي ﷺ نهى حتى على الزوار، فقال: «وإن لزورك عليك حقاً». ليتيح الفرصة للإنسان كي يعطي وقتاً لأصدقائه الذين بهم تتم سعادته، ويتم انشراحه، وليفتح بابه أيضاً في وجه أصحاب الحاجات والسائلين، ولا يغلق بابه فيما يحره ذلك من بر ومعروف، فإن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة»^(١).

مشروعية الحقوق وآدابها:

وانطلاقاً من هذا الهدى النبوي الشريف نتناول مشروعية الحقوق وآدابها بما يبين - إن شاء الله - أحكامها وترتيبها. إن الدارس للحقوق في إطار

(١) سبق تخريجه.

الشريعة الإسلامية، يشعر بوجود فرق هائل بيننا وبين غيرنا، سواء في مصادر هذه الحقوق، أو في أحكامها، أو في أنواعها وفي أقسامها. وهذا شيء من جهة يتيح الفرصة للموازنة والمقارنة بين هذه الحقوق في الإسلام، وبين غيرها في القوانين الوضعية. كما أنه لا يؤثر تأثيرا كبيرا على النتائج، لأن الهدف الأسمى سواء عند الشريعة الإسلامية، أو بالنسبة للقوانين الوضعية هو حماية الحقوق وترسيخها وصونها وحفظها، وكما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبَيِّقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ولقد اعتاد المسلمون أن يسلكوا مسلك التمجيد والاعتزاز والافتخار، وإظهار سبق والتفوق كلما تحدثوا عن الحقوق في الشريعة الإسلامية، وهذا وإن كانت له فوائد وإيجابيات، فإنه في كثير من الأحيان يحجب عنا النظر إلى قيمة الحقوق في القوانين الوضعية، والتمعن في هذا الإبداع الإنساني، وهذا الجهد البشري الذي بنى هذا البناء الحقوقي القانوني، والذي ينبغي أن نستفيد منه كما استفاد أسلافنا من فلسفة الإغريق ومن قوانين الرومان.

وأول ما يواجهنا عند بحث الحقوق في المنظور الإسلامي هو مشروعية الحقوق، أي مصدر هذه الحقوق، وبدون أي التباس نجد أن الأمر واضح في الشريعة الإسلامية: مصدر الحقوق هو الله تعالى.

ومعنى ذلك أن لا وجود لحقوق خارج إطار الشريعة، وهذا مبني على أن السيادة لله، وأن الحاكمية لله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، يقول سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسْبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

مميزات الحقوق في التصور الإسلامي :

ومن مميزات الحقوق في التصور الإسلامي أنها ما دامت ذات مصدر إلهي ، وليس بشري ، فإنها تتمتع بمزايا وخصائص تنسجم مع هذه المصدرية الربانية العلوية ، ومن ذلك أن الحقوق في الإسلام ثابتة ، لا تتغير بتغير الزمان وتبدل الظروف والأحوال .

ولذلك فإن علماء المسلمين عندما يريدون أن يعرفوا الحق فإنهم يقولون : الحق هو الثابت الذي لا يجوز إنكاره . ثم إنها إنسانية عامة وشاملة ، وذلك أنها عطاء الله تبارك وتعالى لخلقه ، يتمتع بها البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فلا فرق فيها بين جنس وجنس ، وبين طبقة وطبقة ، أو بين شخص وآخر ، فهي إنسانية عامة وشاملة .

وقد حدث أن طعمة بن أبيرق سرق درعا لأحد المسلمين ، فلما خشي أن يكشف أمره رمى به في بيت يهودي ، وادعى أن اليهودي هو الذي سرقه ، وشايعه قومه ، وجاءوا إلى النبي ﷺ يغرونه باليهودي ، ويدعون أنه هو صاحب السرقة ، فنزل الوحي لصالح اليهودي وتبرئة له .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ١١٢ ، ١١٣] . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

فالعدل والمساواة حق لجميع البشر . والرسول ﷺ أرسله الله تعالى لكافة الناس .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ثم إن هذه الحقوق بهذا المعنى دائرة مع مصالح العباد، إذ حيثما كان شرع الله فثمت المصلحة، ثم إنها محفوظة الحرمة من جهة كونها لازمة، وذلك أن الشرع كلما أعطى حقا كلما أوجب في الجانب الآخر واجبا لحماية ذلك الحق. فحق الحياة مثلا يترتب عليه واجب احترام الناس جميعا لهذا الحق في نفس الوقت.

وبعد هذه النظرة الوجيزة عن مصادر الحقوق وخصائصها، أرى من المفيد المكمل لما سبق أن نجيب على سؤال يفرض نفسه، وهو ناتج عن التأمل في العلاقة بين الحق والحكم. فهل الحق هو الحكم الشرعي؟ أم هو أثر للحكم؟ أم هو شيء خارج عن الحكم؟ فإذا كان مصدر الحقوق هو الله تبارك وتعالى، فما الفرق بين الحقوق وبين الأحكام الشرعية؟

هذه الأسئلة ربما تظهر أنها ذات طابع يدخل في فلسفة القانون أو فلسفة الحقوق، ولكن سيتبين أن لها أثرا عمليا ملموسا. هل الحق هو نفس الحكم؟ أم أن الحق أثر للحكم؟ أم أنه شيء خارج عن ماهية الحكم؟

أنواع الأحكام في الشريعة الإسلامية:

علماء الشريعة منهم من يعتبر الأحكام والحقوق شيئاً واحداً، وهكذا نجد فخر الإسلام البزدوي عندما أراد ذكر أنواع الأحكام قال: الأحكام أنواع:

الأول: حقوق الله ﷻ خالصة.

والثاني: حقوق العبد خالصة.

والثالث: ما اجتمع فيه الحقان وحق الله تعالى غالب.

والرابع: ما اجتمع فيه الحقان، وحق العبد غالب. فهو لا يميز هنا بين الحقوق والأحكام.

آراء الفقهاء في التمييز بين الحق والحكم:

الرأي الأول:

وبعض الفقهاء ميزوا بين الحق والحكم، وجعلوا الحق أثراً للحكم. قال الجرجاني في تعريفاته: الحكم هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقضاء أو التخيير أو الوضع. والحق أثر للحكم. لأن الحق يثبت بالشرع.

الرأي الثاني:

والبعض الآخر من الفقهاء اعتبروا الحق هو الفعل الذي تعلق به الحكم، وليس هو ذات الحكم. ومثال ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، هذا حكم، ولكن صلة الوالدين والإنفاق عليهما وبرهما هذا فعل وهذه الأفعال هي حقوق الوالدين. فالفرق بين الحكم والحق هو أن الحق هو الفعل المتعلق بالحكم، وليس هو ذات الحكم.

وبعض الفقهاء ميزوا أيضا بين الحقوق والأحكام ، وقالوا بأن الحق هو ما يقبل النقل إلى الغير ، وما يقبل الصلح ، وما يقبل التنازل . والحكم هو ما لا يقبل النقل . الحق هو ما يقبل النقل إلى الغير ، والحكم هو ما لا يقبل النقل . وهذا يردده أن كثيرا من الحقوق لا تقبل النقل ، ومنها حقوق الزوجين ، ومنها : من هذه الحقوق حق الاستمتاع بالزوجة فهو لا يقبل النقل . وكذلك حق الشفعة لا يقبل النقل ، لأن الشفعة أخذ شريك . فلا يمكن لشخص أن يتنازل عن هذا الحق وينقله لغيره . كذلك هناك حقوق أخرى كثيرة لا تقبل النقل ، ولذلك فهذا التمييز بين الحق والحكم بهذا الاعتبار ، لا يقوم أمام النظر والتأمل .

وكيفما كان الحال ، فإن وجود هذه الاتجاهات وهذه الاختلافات بين العلماء في مسألة : هل الحق هو نفسه الحكم ؟ أو هناك فرق بين الحق والحكم ، يدل في حد ذاته على وجود تداخل ، وعلى وجود ازدواجية بين الحقوق والأحكام في منظور الشريعة ، وإلا لما وقع هذا الالتباس عند العلماء في التمييز بين الحقوق والأحكام .

وأسوق أمثلة من بعض الحقوق التي تظهر فيها بجلاء هذه الازدواجية بين الحق وبين الحكم الشرعي ، ومن هذه الحقوق : حق الإنسان في التعليم والتربية . يؤكد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : أن كل شخص له الحق في التعليم ، وأن الآباء لهم الحق قبل غيرهم في اختيار نوع التعليم الذي يريدونه لأبنائهم . وأضاف الميثاق الاقتصادي في الفصل الثالث عشر منه : إن التعليم يجب أن يؤهل الشخص ليؤدي دورا إيجابيا في مجتمع حر . كما ورد في الفصل العاشر من اتفاقية المرأة أن على الدول الأعضاء أن تتخذ جميع الترتيبات الضرورية للقضاء على الميز في حق النساء من أجل أن

تضمن لمن نفس الحقوق التي للرجال بخصوص التعليم . وهذا واضح جدا في أن التعليم حق للإنسان . بينما هو في الشريعة الإسلامية فريضة . يقول النبي ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »^(١) . وهذه الفريضة تشمل الرجال والنساء . وقد أخرج البخاري ومسلم أحاديث للنبي ﷺ ، فيها أن النساء اجتمعن وأتين إلى النبي ﷺ وقلن له : يا رسول الله لقد غلبنا عليك الرجال ، فأعطنا من وقتك شيئا تعلمنا فيه مما علمك الله فهذه مطالبة بالتعليم من طرف الصحابات رضوان الله عليهن . فحدد لمن الرسول ﷺ يوما معلوماً ، ومكاناً مخصوصاً ، وكان يعلمهن مما علمه الله .

وحتى إذا اعتبرنا أن طلب العلم واجب على الكفاية ، استنباطا من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] فإنه مع ذلك يبقى أعلى مرتبة من مجرد الحق .

وبطبيعة الحال فإن هذا الوضع بين هذا الوضع الذي نرى فيه التعليم والتربية متأرجحا بين الحق والحكم ، يؤثر تأثيرا واضحا على ممارسة الإنسان لهذا الحق . فإذا اعتبرنا التعليم حقا . فإن الإنسان يكون متقبلا لهذا الحق ومستقبلا له ، ومنتظرا أن يوفر له جميع الظروف والإمكانيات لممارسة هذا الحق . بينما إذا اعتبرنا التعليم واجبا وفرضا ، فإن الإنسان يكون طالبا للعلم وحريصا عليه وباذلا للجهد في طلبه .

وبهذا المعنى أيضا لا نتصور أن يكون الإضراب عن التعليم مشروعا ، لأن الإضراب لا يصح أن يكون في الفريضة . نعم إن الإضراب حق

(١) سبق تخريجه .

دستوري، ولكن ممارسته مقيدة بأهداف، وهي أن لا يكون ضد الفريضة، وأن لا يلحق ضرراً بالغاً بالأمة.

وها نحن نرى أن الإضرابات تشل التعليم في الجامعات عندنا وعند غيرنا، وأن الجامعات أصبحت ميداناً لممارسة النضال السياسي والنقابي والديني، وأصبح الناس يضربون عن التعليم لأي سبب، وكأنهم لا يدركون قيمة هذا التعليم، وأنه فريضة من الفرائض، ولا يدركون التضحيات التي تتحملها الأمة في سبيله ولا يدركون أن حياة الأمة في التعليم، وقوتها في التعليم، وازدهارها في التعليم، وأنه كيفما كانت الأسباب فإن للإنسان أن يحتج بجميع الوسائل، وأن يطالب بحقه بجميع الوسائل، إلا أن يضرب عن ممارسة فريضة من الفرائض فهذا غير مشروع.

ولقد أحسن الإسلام عندما اعتبر التعليم فريضة، وأحسن أسلافنا عندما جعلوا المساجد مراكز للتعليم، وعندما اعتبروا المدارس مؤسسات دينية فأعطوا للتعليم حرمة الدين، وحموه من أيدي العابثين.

وأنتقل إلى بيان حق آخر، وهو حق الإنسان في الحد الأدنى من العيش الكريم. ينص الفصل الخامس والعشرون من التصريح العالمي لحقوق الإنسان على أن كل شخص له الحق في مستوى من العيش يكفي لحماية صحته، وضمان الحياة المناسبة له ولأسرته، وتوفير التغذية واللباس والسكن، والعلاجات الطبية، وكذلك الخدمات الاجتماعية الضرورية، وله الحق في الضمان في حال البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة، أو في الأحوال التي يفقد فيها وسائل العيش بسبب ظروف خارجة عن إرادته. هذا هو حق الإنسان في الحد الأدنى من العيش الكريم بالنسبة للقوانين الوضعية.

هذا الحق عندنا في الشريعة واجب ، وأستعرض هنا بعض النصوص ،
فعن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : (إن الله فرض على
الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي الفقراء ، فإن جاعوا أو عروا فبمنع
الأغنياء) .

إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي الفقراء ، وما يكفي
الفقراء هنا هو الحد الأدنى للعيش الكريم . وعن سيدنا عمر رضي الله عنه قال :
إني حريص على أن لا أجد حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض . فإذا
عجزنا تأسينا في عيشنا ، حتى نستوي في الكفاف ، أي أن الإسلام يضع في
اعتباره مستوى معيناً وحداً أدنى من العيش الكريم يستوي فيه الجميع .

وجاء في الأحكام السلطانية للماوردي : فيدفع إلى الفقير والمسكين من
الزكاة ما يخرج به من اسم الفقر والمسكنة إلى أدنى مراتب الغنى . وأدنى
مراتب الغنى هو الهدف الأسمى الذي يهدف إليه برنامج الإسلام ، ويريد
أن يضمه لكل إنسان .

وإن ضمان الحق في الحد الأدنى من العيش الكريم ليس وقفاً على
المسلمين وحدهم في دولة الإسلام ، بل إن غير المسلمين أيضاً مضمون لهم
هذا الحق . فمما تعهد به خالد بن الوليد لأهل الحيرة قوله : وجعلت لهم :
أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ،
وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال
المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام .

والإسلام عندما ضمن لجميع الناس المتواجدين في دار الإسلام الحد
الأدنى للعيش الكريم ، وضع الأسس الكفيلة لتمويل ذلك وضمائه ،
ووضع مبادئ وقواعد تخلق وتنسج نظاماً كاملاً يضمن هذا الحد الأدنى

للعيش الكريم للجميع . من ذلك مبدأ الأخوة بين المؤمنين ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] وهذه الأخوة ليست في الإسلام شعاراً أدبياً ، وإنما هي نظام يمتد ليصيب الأموال والأرزاق .

وقد رأينا كيف أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار ، ورأينا في الحديث الذي هو منطلق الموضوع كيف آخى الرسول ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ، وكان الأنصاري يتنازل عن نصف ثروته ويقسمها مع أخيه المهاجر . وهذا تنفيذ عملي لمبدأ الأخوة الإسلامية .

وروي أن بعض الصحابة كانوا إذا قل طعامهم جمعوه في إناء واحد واقتسموه بالسوية فيما بينهم .

ثانياً : مبدأ أن المال مال الله ، وأن الناس إنما هم مجرد مستخلفين فيه .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

وهذا المبدأ يفرض على الإنسان أن ينفق من ماله كأنه ينفق من مال غيره إذا استودعه إياه ، وطلب منه أن ينفق ، فلأن الإنسان إنما هو مجرد مستخلف في هذا المال .

ثم إن الإسلام وضع مبدأ إجبارية الإحسان ، ذلك أن هناك أموالاً يؤديها الإنسان عن طوعية وبدافع الأريحية والكرم ، ولكن هذا لا يكفي ، فجعل الإسلام قدراً من المال يؤخذ من الإنسان قهراً وينفق في أبواب الخير ، وينفق على المحتاجين وعلى الفقراء وعلى المساكين ، وعلى الخدمات الاجتماعية المختلفة من رعاية طبية ، ومن مؤسسات علمية ، ومؤسسات ثقافية وغير ذلك قال الله تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا

وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴿١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقال سيدنا أبو بكر الصديق: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وهذا الحق معلوم ومعروف النسبة ومحدد المقدار. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤]، [٢٥] وليس قدرا متروكا هكذا. وهو داخل في حجم مهم من أموال الناس، هو كل ما زاد عن حاجتهم. فكل ما زاد عن حاجة الإنسان هو مرصود لأعمال الخير، وهو ما يسمى في عرف الإسلام بفضل المال وحواشيه. قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال العلماء: هو فضل المال.

فضل المال للإمام أن يأخذ منه الزكاة، وإذا لم تكف الزكاة أخذ منه حقوقا أخرى، وما زال يأخذ منه وينفق على وجوه الخير حتى يستقصيه. قال النبي ﷺ: «إن في المال حقًا سوى الزكاة»^(١).

قواعد الحقوق في الإسلام:

وأعود إلى الحديث عن الشق الثاني من هذا الموضوع وهو: آداب الحقوق وأختصر الكلام فيه في ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى هي: مراعاة حقوق الغير، وهو التوازن الذي أشار إليه الحديث عند قوله ﷺ: «إن لربك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه».

والقاعدة الثانية هي: مراعاة أن تنطلق هذه الآداب من مقام الإحسان. وهو المقام الذي يعتبر منبعًا لجميع الآداب والأخلاق. وهو المقام الذي

(١) سبق تخريجه.

يكون فيه العبد تحت مخافة الله ﷻ . وهو المقام الذي قال عنه النبي ﷺ :
«الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) .

فهذه الحقوق إذا روعيت فيها حقوق الغير ، وانطلقت من مقام الإحسان تكون قد تمت وفق آدابها وأخلاقها ، وإلا كان الإخلال بها ، وكان ضررها أكثر من نفعها .

والقاعدة الثالثة هي : مراعاة مقاصد الشريعة ، لأن آداب الحقوق هي بالنسبة للحقوق مثل المقاصد التحسينية في الشريعة الإسلامية بالنسبة للمقاصد الضرورية والحاجية ، وكما أن الإخلال بالمقاصد التحسينية يؤدي إلى الإخلال بالمقاصد الحاجية والضرورية فكذلك الإخلال بآداب الحقوق يؤدي إلى الإخلال بالحقوق نفسها ويؤدي إلى هدمها من أساسها .

فآداب الحقوق تختصر في هذه الأمور الثلاثة :

- مراعاة التوازن الذي أشار إليه النبي ﷺ .

- وانطلاقها من مقام الإحسان .

- ومراعاتها لمقاصد الشريعة .

وإن ما يعايناه المجتمع العالمي اليوم ، هو حرص الناس على الحقوق ، وعدم حرصهم على آدابها وأخلاقها ، ولو أن الحقوق تمت في إطار آدابها وأخلاقها ، لكان النفع بها عاما وشاملا ، ولتجنب المجتمع الإنساني ما ينحدر إليه الآن من تفكك أسري ، ومن انحلال خلقي ومن أوبئة اجتماعية خطيرة .

(١) سبق تخريجه .

ولذلك فقد أنصف الإسلام عندما لم يترك الحقوق حقوقا مجردة ، وجعلها في جو الأحكام الشرعية ، وفي إطار الأحكام الشرعية ، وفي منظور المقاصد الشرعية ، وقرنها بأدابها وأخلاقها ، وجعل الإخلال بتلك الآداب إخلالا بهذه الحقوق ، وربطها في النهاية بالدين ، واعتبر مصدرها إلهيًّا : فكان بناء الحقوق في الإسلام بناء كاملا متكامل ، ينسجم مع الطبيعة الربانية لهذا الدين الحنيف .

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨٢﴾ [الصفات : ١٨٠-١٨٢] .

نور من القرآن والسنة

١٣٦

المحاضرة العشرون بعد المائة

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف

روى الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» ، وَهَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ الَّذِي يَعِدُ مِنْ جَوَامِعِ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَدْ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي آخِرِ كِتَابِ «الْقَدْرِ» .

حجية السنة النبوية والفرق بينها وبين القرآن :

وَقَبْلُ أَنْ نَبْدَأَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، نَحْبُ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْعَقِيدَةَ الَّتِي نَحْيَا عَلَيْهَا وَنَمُوتُ عَلَيْهَا هِيَ أَنَّ الْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ الشَّرِيفَةَ الثَّابِتَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ وَحْيٌ كَالْقُرْآنِ ، إِلَّا أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ بِلَفْظِهِ وَبِمَعْنَاهُ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّنَا وَشَفِيعِنَا ﷺ فَحَفَظَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَبَلَّغَهُ كَمَا حَفَظَهُ عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، دُونَ أَنْ يَزِيدَ حَرْفًا أَوْ يَنْقُصَ حَرْفًا وَصَدَّقَ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ٤٤ - ٤٧] .

أَمَّا السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ الثَّابِتَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَهِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ بِمَعْنَاهَا ، أَمَّا أَلْفَظُهَا فَهِيَ بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

هَنَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴿الحشر: ٧﴾، ويقول ﷺ في آية أخرى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول ﷺ في آية ثالثة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال عليه الصلاة والسلام: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم»^(٢).

القوة في القرآن:

ولفظ (القوة) قد تكرر في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين موضعاً ومادة (القوة) تدل على الشدة والصلابة؛ يقال: إنسان قوي إذا كان متمسك الأعضاء سليم الهيئة متكامل البنية عنده القدرة على الدفاع عن كل ما يجب الدفاع عنه.

أنواع القوة:

أولاً: القوة الحسية:

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد تحدث عن القوة الحسية حديثاً مركزاً، وتحدث عن القوة الروحية والمعنوية حديثاً مفصلاً، تحدث عن القوة الحسية كما في قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً تَخَلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وتحدث القرآن الكريم عن القوة المعنوية وعن القوة الروحية حديثا مستفيضا ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَتَحَيَّيْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أي اعمل أيها الرسول الكريم بأحكام هذا الكتاب وبهداياته بنشاط واجتهاد، وحفظ لألفاظه، وفهم لمعانيه، وتنفيذ لأوامره ونواهيه، ومن ذلك أيضا قوله ﷺ ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] أي نفذوا أيها الناس ما أمرناكم به وما نهيناكم عنه بنشاط واجتهاد وإتقان دون كسل أو تهاون.

ثانياً : القوة الروحية :

والقوة الروحية والمعنوية تشمل القوة في الثبات على العقيدة السليمة وعلى الإيمان الصادق الذي عرفه الرسول ﷺ بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره»^(١). كما تشمل القوة في النطق بكلمة الحق، وفي الوقوف إلى جانب من هم على الحق، كما تشمل التزام العدل في الأقوال وفي الأحكام: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

كذلك تشمل القوة الروحية والمعنوية القوة في أداء العمل الذي أحله الله بأن يؤديه المسلم بيد نظيفة، بيد بعيدة عن الغش وعن الخيانة، وعن الخداع، يؤديه بأمانة وإتقان وإحسان.

(١) أخرجه ابن حبان في «الصحيح» (١٦٨)، وأصله عند البخاري ومسلم، وقد تقدم تخريجه.

كذلك تشمل القوة الروحية والمعنوية القوة في تحصيل العلم النافع فنحن في زمن لا تقاس فيه نهضات الأمم بسبب اتساع أراضيها، أو بسبب كثرة سكانها، وإنما يقاس رقي الأمم ونهوض الأمم وقوة الأمم بكثرة علمائها في كل مجال من مجالات العلم النافع؛ كالعلوم الشرعية والطبية والهندسية والزراعية والاقتصادية والسياسية، وفي غير ذلك من ألوان العلوم التي تتجدد بين وقت وآخر.

ثالثاً: القوة صفة من صفات الله ﷻ :

والقوة في أكمل صورها وفي أعظم مظاهرها هي القوة التي هي صفة من صفات الله ﷻ، ولقد وصف الله ﷻ ذاته بهذه الصفة الجليلة في كثير من آياته، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

رابعاً: القوة الأمانة :

هي صفة من صفات جبريل عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿التكوير: ١٩، ٢٠﴾، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] أي علم القرآن للنبي ﷺ ملك من صفاته أنه شديد القوى.

خامساً: القوة صفة الرسل ﷺ :

القوة العادلة الرحيمة هي صفة من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاءُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرَكَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ولقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ أروع الأمثال في القوة بنوعيتها الحسية والمعنوية ، ففي القوة الحسية الجسمية البدنية يقول سيدنا علي ابن أبي طالب عليه السلام : (كنا إذا اشتد البأس اتقيننا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه) .

وفي القوة المعنوية نراه ﷺ كالطود الأشم ثابت على مبدئه مؤد للرسالة التي كلفه الله تعالى بها ، وعندما قال له عمه أبو طالب : (يا ابن أخي أشفق على نفسك وعلي ، دع الناس وما يعبدون) ، غضب ﷺ غضبا شديدا وقال : «يا عماه ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه»^(١) .

سادسا : القوة صفة الأخيار :

القوة السديدة الرشيدة الحكيمة صفة من صفات الأخيار من عباد الله ، ووسيلة من وسائلهم في إحقاق الحق وفي إبطال الباطل .

ومن هؤلاء الأخيار ذو القرنين الذي قال له الخائفون : ﴿يَذَا الْقَرْنَينِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف : ٩٤] بماذا أجابهم ؟ لبي نداءهم وقال لهم كما قص القرآن علينا : ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف : ٩٥] لا أريد منكم أجرا فما أعطاني الله من النعم أكثر مما أعطاكم : ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف : ٩٥] .

(١) أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» (١/ ١٣٥) عن يعقوب بن الأحنس .

القوة لازمة لنصرة الحق

والقوة التي تنصر الحق تمناها الرسل ، والتمسوها من خالقهم هذا سيدنا موسى يأمره الله سبحانه وتعالى بأن يبلغ رسالة الحق إلى فرعون وملئه ، فنراه يقول كما قص القرآن : ﴿ قَالَ رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝ وَاجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَرُونَ أَخِي ۝ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ۝ ﴾ [طه : ٢٥-٣١] أتقوى به : ﴿ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ۝ ﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۝ ﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ۝ ﴾ [طه : ٣١-٣٦] .

وفي موطن آخر نراه عندما يكلفه الله سبحانه وتعالى أن يبلغ دعوة الحق يقول : ﴿ وَأَخِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ۝ ﴾ [القصص : ٣٤] قوة : ﴿ فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝ ﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ۝ ﴾ [القصص : ٣٤، ٣٥] .

أمر الله بالتسلح بالقوة:

ولقد أمر الله عباده أن يتسلحوا بسلاح القوة لا من أجل العدوان على الناس ، ولا من أجل الظلم ولا من أجل البغي ، وإنما أمر الله عباده المؤمنين أن يتسلحوا بسلاح القوة لكي يدافعوا عن الحق ، ولكي يدافعوا عن كرامتهم الإنسانية فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ۝ ﴾ [الأنفال : ٦٠] وجاء لفظ (قوة) بصيغة التعميم ليشمل كل قوة نافعة ؛ سواء أكانت قوة عسكرية أم قوة علمية أم قوة اقتصادية أم قوة زراعية أم قوة صناعية .

القوة المحمودة:

وإذا كانت شريعة الإسلام قد مدحت القوة العادلة السديدة الشريفة فإنها قد ذمت الضعف بكل صوره القبيحة .

ولقد استعاذ النبي ﷺ من كل صور العجز فقال في حديثه الشريف :
«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل،
وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر
الرجال»^(١) .

وعندما نتحدث عن القوة؛ إنما نقصد كما أشرنا؛ القوة العادلة المتواضعة، القوة الحكيمة السديدة، القوة التي تبني ولا تهدم، القوة التي تصلح ولا تفسد، القوة التي تجمع ولا تفرق، القوة التي تتعاون ولا تتصارع، القوة التي لا تتكبر ولا تغتر، القوة التي تقف إلى جانب الحق حتى ينتصر، وتقف في وجه الباطل حتى يندحر، القوة التي تتعاون مع غيرها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، القوة التي تؤيد كل دعوة إلى الرحمة وإلى العفو وإلى مكارم الأخلاق، القوة التي تحول الأرض الجذباء - بعون الله - إلى أرض خضراء .

القوة المذمومة:

أما القوة الباغية الغادرة التي تأكل معك في الصباح وتغدر بك في المساء؛ فهي قوة خبيثة مصيرها إلى الخسران، القوة التي ظاهرها وباطنها الغرور والبطر؛ فمصيرها إلى الهلاك ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٣)، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

مِنْهُمْ قُوَّةٌ وَكَانُوا بِقَايَتِنَا تَجَحُّدُونَ ﴿ [فصلت: ١٥] ، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] ، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ [النمل: ٥٢] .

القوة التي يستعملها أبناء الوطن الواحد في قتل بعضهم لبعض وفي تدمير ممتلكاتهم التي تأتيهم بالخير هي قوة مآلها - دائماً - إلى البوار ، وإلى الهلاك ، وإلى الزوال ، وإلى الخسران .

وخير وسيلة لتحقيق القوة التي يحبها الله تكون بالتزام الفضائل ، تكون بالتحلي بمكارم الأخلاق ، تكون بمباشرة الأسباب التي شرعها الله تعالى للنصر ؛ ولقد نصح سيدنا هود قومه وكانوا معروفين بضخامة أجسامهم وبشدة أبداهم فقال لهم : ﴿وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] وفي الحديث الشريف : «من سره أن يكون أعز الناس فليثق الله ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده»^(١) ، ولقد أراد الرسول ﷺ أن يبين للناس أن القوة الحق إنما تكون بأداء الطاعات والعبادات والتحلي بالطيبات ، فضرب لهم مثلاً في سياق حديث طويل قال فيه : «لما خلق الله الأرض جعلت تميل فأرساها بالجبال فاستقرت . فتعجب الملائكة من شدة الجبال وقالوا : يا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الجبال؟ قال : نعم ، الحديد ، فقالوا : يا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الحديد؟ قال : نعم ،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٢٥٢/١٠) ، والحاكم في «المستدرک» (٣٠١/٤) من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

النار ، قالوا : يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من النار؟ قال : نعم الماء . قالوا : يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الماء؟ قال : نعم ، الريح . قالوا : يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الريح؟ قال : نعم ، ابن آدم ؛ إذا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١) .

ما يؤخذ من الحديث :

إن هذا الحديث الصحيح الذي افتتحه سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ بقوله : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» قد أخذ منه العلماء جملة من الحكم والأحكام :

١ - أخذوا منه أن المراد بالقوة هنا على سبيل الأصالة ؛ القوة في طاعة الله ، القوة في إحقاق الحق ؛ فإذا وجدت تلك القوة ومعها القوة الحسية في البدن وفي المال وفي كل ما يسمى قوة كانت أكمل ، وما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا .

٢ - أخذوا منه إباحة المفاضلة بين المؤمن القوي والمؤمن الضعيف ، وأن المؤمن القوي في طاعة الله ﷻ أحب إلى الله ﷻ من المؤمن الضعيف وفي ذلك حض للضعيف على الأخذ بأسباب القوة في كل ما يحبه الله ﷻ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] .

٣ - أخذوا من قوله ﷺ : «وفي كل خير» أن في كل من المؤمن القوي والمؤمن الضعيف ، خير وبر وفضل ، لم ؟ لاتصافهما بالإيمان . وهذه الجملة جاءت على سبيل الاحتراس عند المفاضلة لئلا يستهان بالمفضول وهو المؤمن الضعيف .

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٩) ، وأحمد في «مسنده» (١٢٤ / ٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

٤- وشبيه بذلك قول الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (ص: ٧٨) ففهمناها سُلَيْمَانَ ﴿[الأنبياء: ٧٨، ٧٩] أي فهمنا القضية أو المسألة لسليمان عليه السلام﴾ ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] ربما يظن البعض أن تفهيم الله لسيدنا سليمان فيه نقص لأبيه سيدنا داود، فجاء الاحتراس: وكلا منهما أعطيناه حكما وعلمًا.

٥- أخذوا من قوله ﷺ: «أحرص على ما ينفعك» أن على كل عاقل أن يبذل نهاية جهده في تحقيق كل أمر أحله الله في تحقيق الخير، في تحقيق العلم النافع، في تحقيق ما يعود عليه بالخير، وما يعود على أمته بالخير.

٦- أخذوا من قوله ﷺ: «استعن بالله ولا تعجز» أن هذه الجملة أمر منه ﷺ لكل مؤمن ولكل مؤمنة أن يجعل الإنسان استعانتة بالله مقدمة على كل شيء؛ لأنه من الخطأ الجسيم الاعتماد على الأسباب وحدها دون طلب العون من الله وهو خالق الأسباب خالق المسببات وصدق الشاعر عندما قال:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهداه

٧- أخذوا من قوله ﷺ: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»، أخذوا من هذه الجملة الكريمة الحكيمة أن على العاقل إذا لم تتحقق آماله بعد مباشرته للأسباب فعليه ألا ييأس من رحمة الله ومن عونه ومن عطائه، وعليه أن يرضى بقضاء الله وقدره (فأنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد)، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

المحاضرة الحادية والعشرون بعد المائة

مشارك الأنوار ودقائق الأسرار

قد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وجعله خليفة في الأرض ، وأولاه هذه الأمانة الثقيلة ، وهو مع ذلك عندما دفع إلى هذا العالم وأخرج إليه كانت تملؤه غرائز وميول وشهوات ، وتحكمه جوانب كثيرة من الضعف الإنساني المعروف ، وهو ما حمل الملائكة على أن قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

ولكن الله جل جلاله أخرج هذا الإنسان من العدم إلى نور الوجود ، ومن ظلمة الحيرة إلى نور الهداية ، ومن ظلمة الاضطراب في السلوك إلى السنن الرشيدة باتباع أنوار الوحي ، واتباع هدي الأنبياء والرسل ، فكان بذلك الإنسان مجهزا خير تجهيز ، وقادرا على أن يتحمل الأمانة التي أولاه الله إياها في هذه الأرض .

وإذا هو يمضي في طريقه في هدى من ربه ، تجلله هذه الأنوار وهذه المعارف وألوان الهداية كلها ، التي تحفه في سلوكه وحياته ، وتقلباته وجميع أطواره .

ومن ثم جاء وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية بكونها نورا بل سمي الله نفسه نورًا .

وجاء الحديث عن النور في هذه الآية الكريمة لبيان ما يمكن أن يحقق الإنسان من خير إذا هو اتبع هذا النور وسار بوحى منه ، فقال ﷺ : ﴿ اللَّهُ

نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿النور: ٣٥﴾

وقفات مع الآية:

وهذه الآية الكريمة تقتضي منا الوقوف عند ثلاث فقر:

الفقرة الأولى: هي التي تتعلق بالإخبار عن ذات الله سبحانه وتعالى بكونه نورا، وهي قوله جل علاه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والفقرة الثانية أو القسم الثاني من الآية: هو الذي يتناول التشبيه، تشبيه التقريب، التقريب من ذهن المخلوق والعبد والمرء والإنسان لنور الله كيف هو، فإذا هو تشبيه بهذه المشكاة وبالمصباح، وبعنصر التشبيه كلها التي ستعرض إليها.

الفقرة الثالثة: ثم يذيل هذه الحقيقة الإخبارية التي تمثلت في الفقرة الأولى والحقيقة الثانية التشبيهية التي تمثلت في أركان التشبيه التي ستعرض إليها بالتذييل الذي يشير فيه سبحانه وتعالى إلى كونه يهدي من يشاء وإلى كونه عليهما بكل الأحوال والتصرفات.

معنى الآية:

ونحن لا نستطيع أن نتبين معنى الآية، وخصوصا الفقرة الأولى منها إلا بعد أن نقف قليلا عند كلمة نور.

الجزء الأول من الآية :

فقول الله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إخبار كما قلنا عن ذات الله بكونها نورا ، لكن ما هو النور؟ . النور لغة هو الإشراق والضياء ، وهو كذلك الأضواء المدركة بالبصر ، وهما في الواقع شيء واحد .

ولكن النور له إطلاقات أخرى كثيرة : منها :

إطلاقات مجازية ، ومنها ما هو من باب الإطلاقات الحقيقية المحضبة التي سنشير إليها بعد حين .

أما الإطلاقات المجازية فإن العلماء أطلقوا على المادة أو الآلة التي بها إدراك النور نورا ، وهذا كالعين الباصرة . فإنها تسمى نورا ، ويقال نور البصر ، وكذلك عين البصيرة ، فيقال نور البصيرة ويقال عين البصيرة ، وقد قارن الإمام الرازي بين نور البصيرة ونور البصر ، وكان في هذا العمل متبعا لطريقة الغزالي ، منتهيا من ذلك إلى تفضيل نور البصيرة على نور البصر ، لأن القلوب هي التي تمتلئ إيمانا ، وهي التي تمتلئ وعيا ، وهي التي تمتلئ علما وإدراكا .

وإذا تمت كل هذه المعارف عن طريق البصيرة فإن الحاجة إلى البصر تكون حاجة محدودة .

وقد فصل ذلك الغزالي في سبع مفارقات بين العين الباصرة وعين البصيرة ، وفصله الرازي في أكثر من ذلك ، إذ بلغ بالمفارقات إلى حد العشرين في كتابه .

وأما الإطلاقات المجازية الأخرى فقد أطلقوا كلمة نور على ما صح من المعاني ولاح من المدركات الذهنية : من الأفكار ، من الأغراض

والتصورات ، أو لاح وبدا إلى القارئ أو إلى المطالع أو إلى المفكر من الآراء ، فإن هذا يجعله يطلق على تلك المدارك والتصورات والمعاني الظاهرة التي لا تخفى كلمة نور ، ومن ثم قالوا : كلام له نور ، وقالوا : كتاب منير . واستعملت الكلمة استعمالات مجازية كما اعتمدت في الاستعارة ، وأطلق النور على ما ليس بنور على طريق التشبيه والاستعارة ، وذلك بقصد الإشارة إلى الرفع إلى الرفع لأن مطالع النور عالية في السماء ، أو لكون النور من شأنه أن يضيء أطراف المملكة وأطراف البلاد . فإذا كان الأمير حسن السياسة فإن آثاره النورانية تكون منتشرة في كامل الأقاليم ، وظاهرة في أطراف الأرض .

ولذلك قالوا : فلان نور ، وقالوا : فلان شمس عصره وقمره ، فهم عندما يتخذون كلمة شمس أو كلمة قمر للتعبير عن النور ، أو يستعملون كلمة نور للدلالة على الرفع أو للدلالة على حسن السلوك والسياسة ، فإن ذلك من قبيل المجاز والاستعارة ، وقد ورد في الشعر العربي كثير من الأبيات في مثل هذا الاستعمال ، منها قول بعضهم :

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا
ومنها قول الآخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد قمر القبائل خالد بن يزيد
ومنها قول الثالث :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

فكلمة شمس الضحى ، وكلمة قمر القبائل ، وكلمة نور وجمال ، هي مستعملة استعمالا مجازيا أو على طريق الاستعارة للإشارة إلى تلك المعاني

الذهنية التي أومأنا إليها ، لكن القضية التي نحن بصددتها والاستعمال الخاص الذي ورد في هذه الآية لا يشبه لا الاستعمال الأول الحقيقي الذي هو بمعنى إدراك الأضواء أو الأضواء ذاتها ، ولا يشبه الاستعمال الثاني الذي هو من باب المجاز والاستعارة ؛ ذلك لأننا حين نقرأ قول الله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نشعر بأن القضية تتعلق بذاته ، وأن الإطلاق يراد منه الإطلاق الحقيقي .

وأن المراد من هذا الإطلاق الحقيقي هو التعبير عن هذا الفيض ، وعن هذا الإشراق الذي منبعه أو ينبوعه الذات العلية التي احتجبت بالنور ، فهي نور ومحتجبة بالنور ، كما وقع في أحاديث كثيرة .

ثم نجد إلى جانب هذه الآية أقوالا وأحاديث للرسول ﷺ تؤكد هذا المعنى وتشير إلى نفس الدلالة . وذلك كقوله ﷺ في تهجده : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن»^(١) .

فإنه لم يشر إلى ما في السموات والأرض من خلائق تكون نورًا بسبب إبداع الله لها ، ولكنه جعل ومن فيهن معطوفًا على النور الأول ، فاقترض ذلك التفريق ، الله نور السموات والأرض ومن فيهن .

ثم نجد قوله ﷺ في دعائه «اللهم إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة»^(٢) .

فهذه الإضافة إضافة النور للوجه للدلالة على أنها ذاته ، وأن المقصود هو هذه الحقيقة التي تتلبس بها ذاته القديمة ، وكذلك يؤيد هذا المعنى

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٠) ، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) سبق تخريجه .

السؤال الذي سألته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لرسول الله ﷺ عندما كان يحدثها عن ليلة الإسراء ، فقالت له : يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال : «رأيت نوراً» .

فهذا النور الذي تنطق به الآية وهذا النور الذي تنطق به الأحاديث الثلاثة ، هل هو اسم لذات الله تعالى وهو حقيقة في ذاته العلية ، أم هو صفة أم هو غير ذلك؟

منهج أهل الاعتقاد في وصف الله بالنور:

الرأي الأول :

ما من شك في أن علماء الإسلام قد اختلفوا طرائق قدا في هذه القضية وذلك بحسب مذاهبهم العقائدية ، فإن من بين من قال بأن الذات العلية نور ، المجسمة ، ولكنهم اختاروا في تأويل هذا النور وبيانه للناس ، فقالوا : إنه جسم لا كالأجسام ونور لا كالأنوار .

وقد ناقش الغزالي والرازي مقالة المجسمة وأبطلها لما فيها من إثبات التشبيه لذات الله تعالى بمخلوقاته وهذا ما لا يجوز ، لأن الله لا يكون جسماً ، ولا يكون عرضاً .

الرأي الثاني :

وأما المنهج الثاني فهو منهج أهل السلف الذين يمرون بالأسماء والصفات ولا يتأولونها .

ورد في القرآن الكريم الإخبار عن الله بكونه نورا ، وورد في الحديث الشريف الإشارة إلى كونه نورا .

فنحن نمر بهذه الأوصاف أو بهذه التسميات نقبلها ، نعتقدها لصدق القرآن ولصدق هذه الأخبار المعروفة بصحتها ، ولكننا لا نتأول .

الرأي الثالث :

أما بقية علماء الملة والمفسرون فإنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل أرادوا أن يبحثوا عن الدلالة التي ترتضيها نفوسهم عندما يمرون بمثل هذه الآية ويقرءونها ويريدون أن يخلصوا إلى شيء تطمئن إليه هذه النفوس .

فذهبت طائفة منهم عند تأويل النور إلى كون الله نورا من جهة المدح أي يمدح الله سبحانه ، فيقال هو النور ، وذلك لكونه قد نور جميع الأشياء ، فمنه ابتداءؤها وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها وقامت مصنوعاتا .

والله سبحانه وتعالى عندما يخلق شيئا أي يخرج من العدم ، من ظلمة العدم إلى نور الوجود فقد اكتسب نورا بهذا الخلق ، اكتسب نورا بهذا الصنع ، اكتسب نورا بهذا الإيجاد ، ولذلك فإن المصنوعات تكتسب هذا النور من خالقها وموجدها .

ومن ثم قال أصحاب هذا الرأي بأن هذا المعنى لا يدفع ، وهو حقيقة محضة بالنسبة للذات العلية لكونه نورا بهذا الاعتبار ، ولا نزاع في ذلك .

وقد أيد هذا المنهج الذي صار إليه عدد من المفسرين الإمام الغزالي في كتابه «مشكاة الأنوار» الذي تحدث فيه عن خصوص هذه الآية فقال : الله هو النور الحقيقي وليس فوقه نور .

فقد أثبت للذات العلية هذا المعنى الذي يتجلى به الله سبحانه وتعالى تجليا كاملا مطلقا فلا يشاركه في حقيقته شيء من الموجودات ولا يمكن أن يرتفع إليه شيء من المخلوقات ، فهو الظاهر الذي به كل ظهور ، وهو الذي تنكشف به وله ومع جميع الأشياء .

فإن الله سبحانه وتعالى تنكشف له خفايا الأشياء ويطلع على السرائر . وهذا من تعمق النور ، وتنكشف به أي بإرادته جميع الأشياء ، وتنكشف معه لأنه هو المجلي لها ، لذلك فإن معنى النور على هذا الاعتبار أو التأويل يكون بمعنى الإخراج من العدم إلى الوجود .

كما يكون بمعنى الإظهار والتبيين والإرشاد والتشريع ، خصوصا إذا نظرنا إلى محور حديثنا وهو الإنسان ، فإن الإنسان من ألطف ربه به أن بين له وهدايه ، ووضع له شريعة يتجه إليها ويعمل بمقتضاها ليكون على بينة من ربه وهدى من أمره .

وقد ذهب إلى نفس هذا المنهج وأيده ابن برجان الإشبيلي وذلك في كتابه الذي أسماه «شرح الأسماء الحسنى» ، حيث انتهى إلى أن اسم النور في الآية «ال» من الدلالة على الذات إلى بيان الصفات وهي صفات الأفعال .

وقال الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ بِأَن الماهية أو اللفظ في دلالة على الماهية أصبح مشاركا في دلالة على المصدر أو مشاركا للمصدر في دلالة على الفعل . فنحن عندما نقول نور ونريد منور .

وعندما نقول نور ونريد المخرج من العدم إلى الوجود ، عندما نقول نور ونريد الهادي إلى سواء السبيل فقد ذكرنا صفات الأفعال ولم نذكر المعنى القائم بذاته تعالى ، والذي يكون اسما له ، بل تحول معنى الاسمية إلى معنى صفات الأفعال ، وآلت بذلك الأسماء في دلالتها وصارت مساوية لما يمكن أن نفيده من المصادر .

وأما التأويل الأخرى فلنا تأويل قول الله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورٌ﴾ بقولهم الله ذو نور أي صاحب النور ، وذلك لأن النور سبب الظهور والهداية ، ومنه قوله تعالى الذي يومئ إلى هذا المعنى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، فإن خروج الناس من الظلمات إلى النور بإرادة ربهم وهدايتهم وتمكينهم من الصراط الحميد السوي إنما كان ذلك بسبب النور الذي خلقه الله لهم وهداهم به .

ومن الإطلاقات أيضا ومن التأويل أن المراد بالنور هو التدبير ليس فقط مجرد الصنعة ولا مجرد الخلق والجعل والإيجاد ولكنه التدبير الحكيم ، فالله عندما خلق هذه الأكوان وعندما أوجد مملكة الحيوان ومملكة النبات وسخر كل شيء للإنسان أحكم صنعه إحكاما بديعا .

ورتب هذه الموجودات على قوانين وأنظمة لا يمكن أن تتخلف ، وهو بحكم هذا التدبير الذي يخدم مصالح الناس ويخدم مصالح البشر ، ويعينهم على تقوى الله ويمكنهم من أداء الأمانة التي حملوها ، قد أصبحوا في نور وفي هداية ، لأن المدبر الحكيم لم يجعل شيئا من هذه المخلوقات بائنا أو منحرفا عن النظام الذي اختاره له لإقامة هذه الدنيا وتكوينها .

ولذلك قالوا : إن معنى النور هنا هو مدبر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة ، واحتجوا لهذا بقول الله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] .

ومن الإطلاقات ، أو التأويل أو المراد من النور في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مزين السموات والأرض : زين السموات بالكواكب ، بالشمس ، بالقمر ، بالنجوم ، وزين الأرض بالعلماء والأنبياء الذين جاءوا لهداية البشر . وقيل أيضا نور السموات والأرض بهذا وذاك .

فقضية إطلاق هذه المعاني كلها أو تأويل النور بها ينتهي بنا في الواقع إلى أحد غرضين :

الغرض الأول : هو معنى الخلق ومعنى الإبداع والتدبير .

والغرض الثاني : هو معنى الهداية والتشريع .

أما المعنى الأول : فقد وردت الإشارة إليه في غير ما آية من الآيات المكية بالخصوص ، التي تلقن الناس التوحيد والإيمان ، والتي تعرفهم بحقيقة ربهم ، والتي تبين لهم المسلك الرشيد في حسن عبادته والانقياد إليه ، فإذا نحن أمام معرض من هذه الآيات الحكيمة التي تقرر صفة الإيمان وصحة العقيدة في نفوس المؤمنين .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٢ ، ٣] .

وإذا كانت الآيات لا تدخل تحت حصر في بيان تدبير السموات والأرض وخلق الإنسان الذي أشار إليه تعالى بقوله سبحانه : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

المعنى الثاني : فنحن بالنسبة للمعنى الثاني متطلعون إلى ما يكشف عن حقيقة الهداية ، وعن تسميتها نورا .

هذا الإطلاق الثاني بدأ به الحكماء ، وأريد بالحكماء الفلاسفة في الزمن البعيد ، ثم تبع هذا المنهج فلاسفة الإشراق من المسلمين ، وكان هؤلاء وأولئك بحكم تطلعهم إلى معرفة الواحد الأحد خالق الأكوان وموجدوها يريدون أن تشف نفوسهم ، وأن ترق عقولهم ، وأن تتنور أذهانهم بألوان من الرياضات حتى يصلوا إلى إدراك حقيقة الله سبحانه وتعالى من غير إعانة لا من شرع ولا من نبي ولا من كتاب ، فكانت هذه الرياضة رياضة عنيفة ومتعبة ، وهي التي خفف الله علينا من متاعبها بإرساله الرسل .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] . فبعث الرسل هداة مهديين ، وأنزل عليهم الكتب بيانا للحكمة والشريعة ، وما ينبغي أن يقوم عليه الإنسان من الحق والعدل في سلوكه ومعرفة ربه . لكن هذا الذي سبق من الفلاسفة جعلوا قضية النور المتحدث عنه متصورا في ثلاثة أشياء .

أولا : البرهان العلمي .

ثانيا : الكمال النفساني .

ثالثا : ما به مشاهدة النورانيات في العالم .

أما الأول : وهو البرهان العلمي : فإن كل واحد منا عندما ينظر في قضية من القضايا وفي مسألة مغلقة من المسائل ، وفي جانب من جوانب النظر العلمي ، إذا هو وجد البرهان طربت نفسه واطمأنت وشاع فيها من الابتهاج ومن الفرح ما يحقق بأن نور العلم كان له أثر في إدخال هذه المسرة إلى النفس .

فإن العلم وهو بعد لم يصل إلى إدراك الحقيقة العلمية ولم يجد البرهان العلمي يكون في شيء من الحيرة ، من القلق ، من الاضطراب ، من الظلمة .
فإذا وجد البرهان العلمي انكشفت له تلك الحقائق وأصبح مستنيرا وفرحا ومبتهجا بما توصل إليه من وراء هذا البحث .

الكمال النفساني:

وكذلك الكمال النفسي ، الكمال النفساني هو نور أيضا لأن الإنسان برياضته لنفسه وصعوده في مجال الكمالات ومحاسبته لنفسه حتى ينقيها من الشوائب ويبلغ بها إلى الذروة في الكمال يكون حريصا على ألا يهبط وعلى ألا يسقط ، وأن يظل محافظا على ذلك المستوى العالي الذي بلغ إليه ، فيكون شاعرا بسموه وشاعرا برقيه ، وفي ذلك السمو وفي ذلك الظهور على ما حوله دليل على كون الكمال النفساني نورا .

الثالث : مشاهدة النورانيات : وأما النور الثالث الذي سماه مشاهدة النورانيات في العالم ، فالمراد بالنورانيات هنا الأشياء الدقيقة ، الأشياء الخفية ، ولكنها من الأسرار ، من اللطائف ، من المعاني الشريفة التي لا يصل إليها كل عقل .

فإذا أصبحت الوسائل الموجودة لدى الإنسان والباحث والمؤمن تصل به إلى إدراك هذه الخصائص فقد أصبح يعيش في النور ، ولا يمكن أن ينقطع عنه ، ولذلك جاء تعقيبا على معاني النور الثلاثة هذه من كلام الجلال الدواني .

يا قيوم أيدنا بالنور . والتأييد بالنور إنما هو تأييد بالبرهان العلمي وذلك هو الكمال النفساني ، لأنه لا يمكن أن يثبت إذا هو أراد الاستمرار

على تلك الدرجة إلا بعون الله وبفضله ، وإلا فإن شهواته وأمراضه النفسية ونوازعه تبتعد به عن الكمال النفسي ولو لحظة . ثم قال : واحشرنا إلى النور . وذلك هو إدراك كل اللطائف وكل الأسرار الموجودة في العالم . لكن معنى النور لا يبقى منحصرًا في هذه القضايا الثلاثة ولا في هذه المعاني الجلية .

بل إن من النور أيضا الإرشاد إلى الأعمال الصالحة هداية الخلق إلى الأعمال الصالحة عندما نهدي بشرا أو إنسانا إلى العمل الصالح نكون قد أخرجناه من الظلمة إلى النور ، وبيننا له المسلك الرشيد الذي ينبغي أن يتبعه . فهذه الهداية هي نور .

فالمراد من كون الله نور السموات والأرض . أي موجد كل ما يعبر عنه بالنور . وهنا ننظر إلى السموات والأرض ، أي ننظر إلى من يعمر السموات ومن يعمر الأرض ، فإذا بعمار السموات الملائكة ، وعمار الأرض البشر .

ونلتفت إلى الملائكة وما معهم من نور فنجد أن الله سبحانه وتعالى خلقهم على فطرة الصلاح والخير ، فهم متميزون عن كل الخلائق بكونهم متمحضين للانقياد الإلهي ، ومتمحضين للخير والعبادة ، لا يصدر عنهم شر إطلاقا ، ولذلك فهم في نور . وهم نور وما هم فيه نور .

وكذلك أمرهم الله تعالى بتسخير كل قواهم لتحقيق الخير ، وهذا التسخير من الله لقواهم نور أيضا ، وكذلك أمرهم بإبلاغ الهدى والرسالات إلى الأنبياء والصالحين والعلماء ، وإلهامهم طرق الرشاد وسبل الخير والسداد ، فإذا هم يقومون بهذا ويتولونه رسلا من عند الله إلى خاصته من خلقه ، فيكون هذا نورا .

وأما بالنسبة للإنسان فإن من النور الذي يمكن أن يغمر الإنسان في ظاهره وباطنه في حقيقته الكلية الشاملة أسباب المعرفة الحقة . إذا توصل الإنسان إلى إدراك المعرفة الحقة بربه ، وتوصل إلى منهج لا تلتبس معه الطرائق ، ويكون بعيدا عن الشك والاضطراب لا انثلام فيه ولا انخرام فإنه يكون قد تمسك بالنور .

والحجة البالغة القائمة على وحدانية الله من عباده الصالحين الذين يعملون لإعلاء كلمته والذين يذيعون أو يرفعون أسباب الخير وكلمة الإسلام ، ويعلمونها بعيدا . هؤلاء هم حجة قائمة وهم نور . وكذلك الدعوة إلى العمل الصالح الذي تحسن به العاقبة في الدنيا والآخرة .

ويتلخص لنا من جملة هذا أن استعمال النور في هذه الإطلاقات المختلفة في الدلالات الخلقية الإبداعية الصادرة عن رب البرية ، وفي الدلالات العلمية الإيمانية المتصورة لدى رجال فلسفة الإشراق ، أو عند الصالحين والعلماء من المسلمين .

هذه الحقائق استعمل فيها لفظ النور استعمال المشترك في كل معانيه بحيث يصح أن يطلق بإزاء هذا المعنى كما يصح أن يطلق بإزاء المعنى الثاني والثالث إلى آخره .

بنورك نورني وهب لي مراتب اليقين ومزق حجب طبعي وظلمتي
بنورك أوقفني على عيب باطني فمعرفتي إياك عرفان رتبتي
فهذا المعنى الذي أشار إليه الشاعر يشمل كل الإطلاقات والمعاني التي
ألمعنا إليها ووقفنا عندها قليلا لنثبت هذا القصد .

الجزء الثاني من الآية :

وأما الجزء الثاني من الآية ، الذي فيه بيان لمعنى النور الوارد في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ فهل نوره الثاني هذا هو نفس النور الذي ذكر أولا في قوله ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أم هو غيره؟ هناك مفسرون ذهبوا إلى أن النور في الجزء الثاني من الآية في قوله (مثل نوره) إنما هو النور الذي منه وبه قوام الموجودات أي نور الله .

لكن كيف يصح أن نشبه نور الله اللامحدود بشيء محدود وأن نشبه الأعلى بالأدنى وأن نشبه الكامل بالناقص ، وهذا لعله يشير إليه قول الشاعر :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والبأس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فنحن عندما ننظر إلى هذا الاتجاه نقول : النور إنما قصد به نور الله ، ونور الله هو كمثل المشكاة في مصباح ، والمصباح في زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، هذا المعنى وهذا التصوير إذا كنا نريده بيانا لنور الله فذلك هو المعنى الذي أشار إليه بعض المفسرين .

وأما بقية المفسرين وأكثرهم فإنهم يقولون بأن مثل نوره إنما معناه مثل نور كتابه ، مثل نور آياته المفصلات ، لأن الآية ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قد سبقها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور : ٣٤] .

فتكون الآيات المبينات أو المبينات للناس هي التي أريد بيان مثل نورها، فمثل الكتاب أي القرآن مثل الدين في إنارة عقول المهتدين هو بهذا الوصف الذي ذكره القرآن . . .

وذهبت طائفة إلى أن المقصود من الضمير في نوره ليس عائداً إلى الكتاب ولا إلى الدين ولا إلى الذات العلية . وإنما هو نور الذي أنزل عليه الكتاب وهو محمد ﷺ ، مثل نور محمد كمثل المشكاة . وذلك أنهم جعلوا المشكاة صدر رسول الله ﷺ ، وجعلوا قلبه محل المصباح الذي يوقد من شجرة مباركة وهي الوحي .

ثم ذهبت طائفة إلى أن المقصود من نوره قد يكون الإيمان بل دلائل الإيمان في قلب المؤمن ، واستشهدوا لهذا في استعمال كلمة النور بقوله جل وعلا : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : ٢٢] . ونجد إلى جانب هذا كله موقفاً للغزالي أيضاً .

وقد تبع الغزالي ابن سينا فحرر معاني النور بالنسبة لهذا الجزء الثاني من الآية ، وقال : إن المراد بالنور ، إنما هو القوى المدركة ، قوى الإدراك فأطلق النور على القوى الحساسة أو منافذ الحس ، منافذ الإدراك مثل السمع والبصر وما إلى ذلك ، ثم القوى الذاكرة التي تحتفظ بكل ما يمكن أن يكتسبه الإنسان من معاني ليفيد منه ثم القوى العاقلة القادرة على التصور ، ثم القوى الفكرية التي تجمع المعاني كلها وتستنتج وتخلص إلى قضايا واضحة يمكن الاستمرار عليها والالتزام بها ، ثم القوى القدسية .

ويقول بالنسبة للقوى القدسية الإمام الغزالي : إن هذا هو أفضل القوى وأعلاها وأشرفها وأسناها ، ألا ترى قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيْمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ﴿٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]. فهذا النور من لدنه ، وهو الذي يهدي به الله من أراد من عباده .

الجزء الثالث من الآية:

لا أطيل بالنسبة لعناصر التشبيه ، فإن عناصر التشبيه بيئة ، فإن التشبيه في الآية قد يكون جملة مشبهة بجملة من غير تعيين ، وقد يكون التشبيه منتزعا من عناصر متعددة لكل عنصر ما يقابله في الحياة .

وذلك هو المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة ، وتوسط الشجرة في قوله تعالى : ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ [النور: ٣٥] ، والإيقاد ثم الزيت الصافي ، ثم مس النار للسراج .

هذه المعاني تومئ إلى أن المراد من المشكاة ما يمكن أن ينطبق على الإرشاد من انضباط اليقين . وعلى إحاطة الدلالات بالمدلولات من غير تردد وانثلام .

وإذا كانت المشكاة وهي القوى غير النافذة تحفظ النور ولا تجعله ضائعا فإن المشكاة هنا هي حفظ الله سبحانه وتعالى لدينه وإبعاده كل تغيير عن كتابه وهو الذي أشار إليه جل علاه بقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] .

وأما المصباح فهو نفس الهداية ، وهو الإرشاد الذي يقوم به الدين الإسلامي في تبصير الناس وتبيين الحقائق لهم ، وتذكيرهم بما هم مطالبون به .

وأما الزجاجة فهي رمز للسلامة من تطرق الشك واللبس بجامع التجلية في الكل ، وهو الذي يشير إليه قوله تعالى الذي ذكرناه قبل حين ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [النور : ٣٤] أو مبینات .

وأما الشجرة فهي الوحي لأن المراد من الشجرة هي ما أوحى الله به إلى عباده من الرسل ومن الأنبياء ، وما خص به رسوله ﷺ من وحي يتلى نحن متعبدون بتلاوته ، ومن وحي هو حكمة يبين لنا ذلك المتعبد بتلاوته وهما القرآن والسنة ، وأما توسط الشجرة ، توسط هذا الوحي ، توسط هو بيان لسماحة الإسلام .

الإسلام بين شدة محرجة ظهرت في بعض الأديان وأغلقت الأبواب دون المعرفة ، وصدت الناس عن الخير ، وكانت في مقاومة كل تقدم ورقي ، وبين لين مفرط يقضي على الإنسان بالانحلال والتفسخ ، فهذان مردودان في الإسلام ، والإسلام هو الحد الوسط .

ولذلك شبهه الله تعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون التي قال عنها لا شرقية ولا غربية بمعنى شرقية وغربية في الوقت نفسه تشرق عليها الشمس من اليمين وتشرق عليها الشمس من الشمال حين الغروب ، فقد نضجت ثمارها وأصبحت قادرة على أن تؤتي أكلها . ثم هذا الزيت الصافي هو تعليم النبي ﷺ لأئمة بيان القرآن وتشريع الأحكام .

وأما مس النار للسراج يوحد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، فهذا إشارة إلى انتصاب النبي ﷺ للتعليم الذي تشير إليه الآية .

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

فقد كان الناس يجلسون إلى رسول الله ليفيدوا من علمه ، ويأخذوا ويقتبسوا من هديه ، وفي هذه الآية وهذا التشبيه كلمة لا يجوز بحال أن أسكت عنها أو أنتقل إلى غيرها منها وهي هذا الإيحاء الموجود في قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ ﴾ [النور: ٣٥] فإن (من) هنا تشير إلى أن الإنسان يستطيع أن يأخذ ما شاء من هذه الشجرة . ويبقى شيء كثير ، فهذا الإيحاء هو إلى أن القرآن والحديث جاءت فيه نصوص قطعية ، وجاءت فيه أحكام هي في مورد النص لا يمكن أن تتجاوز ، ولكن سكت القرآن وسكت السنة عن أشياء لا نسيانا في الوحي ولكن رحمة بالمؤمنين .

وهذه الرحمة هي التي تقتضي من الأئمة ومن العلماء أن يجتهدوا في أمر دينهم فيما لا نص فيه وفيما لا يدرى تأويله ، فيكون ذلك مدعاة لتكوين أو النهوض بأسباب الاجتهاد لبلوغ الغاية من هذا .

فمجالات النور إذن والإشراقات الفائضة عن النور الكلي وعن منبع الأنوار الذي هو الله سبحانه وتعالى تتمثل كما قلنا في الآيات الكونية ، وفي آيات الكتاب ، وفي العقل الذي جعله الله نورا ، وفي العلم الذي جعله هاديا ، وفي الإيمان الذي تطمئن به القلوب ، وفي الهدى والوحي والتشريع والحكمة .

فالإنسان في الواقع من مظاهر رحمة الله به وعنايته أن جعل هذه الأشياء تكتنفه من كل جهة ، فتتصل بقلبه وتتصل بحسه وتتصل بالجهات كلها من يمينه وشماله وأمامه وخلفه .

ولعل هذا المعنى هو الذي يشير إليه رسول الله ﷺ في دعائه عندما قال :
«اللهم اجعل في قلبي نورًا ، وفي بصري نورًا ، وفي سمعي نورًا ، وعن يميني
نورًا ، وعن يساري نورًا ، وفوقي نورًا ، وتحتي نورًا ، وخلفي نورًا ، واجعل
لي نورًا ...»^(١) .

اللهم اشملنا مع الهداة المهديين في مواكب النور بلطائف عنايتك ، وحفنا
يا رب مع الخيرة من خلقك بمظاهر عنايتك .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٣) ، ومسلم (٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

المحاضرة الثانية والعشرون بعد المائة

الاتحاد

موضوعنا اليوم هو الدعوة إلى وحدة أمتنا الإسلامية التي أمرها الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن ما يعيشه عالمنا الإسلامي اليوم يستوجب على المسلمين حكما ومحكومين أما وشعوبا أفرادا وجماعات أن يكونوا على قلب رجل واحد، وأن لا يتبعوا شرقا ولا غربا ولا سياسات أجنبية، ولا دعوات معادية لهذا الدين.

فقبل أن يأمرنا ربنا بأن نعتصم بحبل الله جميعا حذرنا أن نتبع أو أن نطيع أعداء هذه الأمة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١]. قبل أن تأتي الدعوة لبناء هذه الأمة وتوضيح القرآن لأسس قيام هذه الأمة، يحذرنا أن لا نأخذ توجيهاتنا من شرق أو غرب، فتوجيهاتنا والحمد لله في ديننا الحنيف، ثم يرسى هذه المبادئ لقيام هذه الأمة، ويأتي في طليعتها أن نوثق الصلة بالله قيوم السموات والأرض، عن طريق العقيدة الصحيحة، عن طريق الإيمان بالله سبحانه، فننادانا بوصف الإيمان الذي يقتضي سرعة الإجابة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

أسس الوحدة الإسلامية :**الأساس الأول- الإيمان :**

إنه يرسي الأساس الأول وهو الإيمان ، لأنه هو الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية ، وعلى أساسه تتوحد في كل ربوعها ، وفي كل بقاعها .

الأساس الثاني- التقوى :

ثم يأتي المبدأ الثاني لقيام هذه الأمة بتنفيذ المنهج الرباني ، وذلك بأن نتقي الله حق تقاته ، وكما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر .

الأساس الثالث- الاعتصام بحبل الله :

وحين ننفذ هذا المنهج الرباني بأن نتقيه حق تقاته في أقوالنا وأفعالنا ، في مناهجنا وسلوكنا ، وتعليمنا وفي اقتصادنا ، وفي كل حياتنا يأتي المبدأ الثالث ، وهو حين يتحدث عنه وهو الاعتصام بحبل الله جميعا ، يقول في نهاية الآية : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

وهل يستطيع الإنسان أن يعرف ساعة موته؟ هذا غيب ، ولكنه يريدك أن لا ترحل عن دنياك إلا على كلمة التوحيد والإسلام ، يريدك أن تكون مسلما دائما مطبقا لأمر دينك أبدا ، بحيث لا تنفك عنه بحال من الأحوال ، مهما كانت رياح التغيير ، مهما كانت عواصف الفتن .

فقد حذرنا منها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم حين قال : «ستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح

كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا ، القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر»^(١) ، فيعزز هذا الإيذان ويؤكد على استمراره فيقول : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

ثم يأتي المبدأ الثالث :

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

معنى الاعتصام :

والاعتصام معناه : أن نتقوى وأن نتوحد ، وأن نمتنع من أي اختراق أجنبي ، لأن المعتصم هو الممتنع بقوته ، وبما يجمعه من عتاد وتوحيد .
اعتصموا بحبل الله : بدين الله ، بالقرآن الكريم بأمان الله بعهده .
يقول المفسرون كل ذلك ، ويجمع ذلك كله الدين العالمي الذي بعث به سيدنا رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

سبب نزول الآية :

وهنا يحدث في سبب نزول هذه الآية ما أورده بعض المفسرين من أن اليهود لما دسوا عندما رأوا ما صار إليه حال الأوس والخزرج ، بعد أن كانوا في حروب متطاحنة ، وجاء الإسلام فجمعهم على كلمة الحق . غاظهم ذلك ، فبعثوا أحدهم يحرك الشجن ويذكر بما كان من الحروب ، وبموقعة بعاث ، حتى تحرك القوم وحتى كادوا يتقاتلون ، ويمسكون بالسيوف ، فلما علم النبي ﷺ بذلك جاءهم وذكرهم ، وقال : «أبدعوى

(١) أخرجه أحمد (٣٩٠ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وهو عند مسلم (١١٨) بدون ذكر لفظة : «القابض على دينه . . .» .

الجاهلية وأنا بين أظهركم؟»^(١). وذكرهم وأنهم كانوا قبل ذلك في حروب ، وما ذاقوا الأمان إلا بنعمة الإسلام . ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

الدعوة للخير والنهي عن المنكر:

هذه الأسس الثلاثة لبناء الأمة الإسلامية ، يتبعها رسالة لهذه الأمة التي قامت على هذه الأسس المنيعه ، صلة وثيقة بالله ، تنفيذ لمنهج الله ، توحيد للصف الإسلامي ، ولجموع الأمة في كل ربوعها ، بعد ذلك يمكنها أن تؤدي رسالتها . وهذه الرسالة يتحدث القرآن عنها : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

هذه الأمة التي تدعو إلى الخير أهلها القدر لذلك إنها مؤهلة لذلك ، وإنها مؤتمنة على هذه الدعوة . إن أمتنا الإسلامية مؤتمنة على أن تبلغ دعوة الخير إلى كل الناس ، لأن الوحي الإلهي نزل بلغتها وعلى أرضها ، وجاءها رسول من أنفسها . من أجل ذلك كانت مؤهلة لأن تدعو إلى الخير ، ولكي تقوم بالأمر والنهي .

الأمر والنهي لا بد أن يكون ذا قوة ولا بد أن يكون ذا ريادة ، لا بد أن يكون ذا منعة فيدعوهم بهذه الرسالة أن يتبوءوا مكانتهم حتى يستطيعوا أن يدعوا الناس إلى الخير ، وأن يأمروا بالمعروف ، وأن ينهوا عن المنكر .

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٧) ، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه .

وأن يناهضوا الفساد في كل أوكاره ، وأن ينقوا المجتمع من جيوب أولئك
المفسدين والمتحللين ، حتى تنهض هذه الدعوة التي ختم الله بها دعوات
السماء ، وختم بقرآنها الكتب المنزلة ، وختم برسولها سيدنا محمد ﷺ جميع
الأنبياء والمرسلين فكان متمما لصرح الرسالات كما قال ﷺ : « مثلي ومثل
الأنبياء من قبلي كمثلي رجل بنى بيتا فأجمله وأحسنه ، إلا موضع لبنة في زاوية
من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت
هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »^(١) .

إذن هي مؤهلة لذلك بكل هذه الخصائص ، ومن أجل ذلك جاء الوصف
اللائق ، جاءت المكانة التي أبرزها القرآن الكريم ، آيات خالدة أبد الدهر ،
تصف الأمة الإسلامية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران :
١١٠] ، كنتم خير أمة ، هذه الخيرية ليست مجاملة ، ليست محاباة ، ليست
مصادفة ، وإنما خيرية هذه الأمة جاءت جزاء وفاقا لما تؤديه من رسالة .

فالأمم السابقة كانت مكلفة بشيء واحد ، أن تستجيب لرسولها الذي
جاءها ، فتؤمن وتطيع . أما هذه الأمة فهي مكلفة بما كلفت به الأمم
السابقة ، الإيمان والطاعة ولكنها تزيد على الأمم السابقة . ومن هنا جاءت
خيريتها تزيد أنها تقوم بالدعوة ، بعد أن يلحق رسولها ﷺ بالرفيق
الأعلى ، تقوم بمهمته ورسالته .

ولذلك العلماء ورثة الأنبياء ، ولذلك تنهض هذه الأمة بهذه الدعوة
بعد أن يلحق رسولها ﷺ بالرفيق الأعلى تظل تدعو إلى الله ، وتأمُر
بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، من هنا

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥) ، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كانت خيريتها، لأنها زادت على الأمم السالفة بقيامها بمهمة رسولها، لماذا؟ لأن كل نبي كان يبعث إلى قوم معينين، وزمان معين.

لكن دعوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته عامة وخالدة إلى يوم القيامة، ولأجل أن يظل هذا الخلود باقيا إلى يوم القيامة، لا بد بعد أن يلحق بالرفيق الأعلى من أن تنهض الأمة بذلك، فكان هذا الوصف الذي يبين أنها أخرجت، أراد القدر لها أن تخرج آخر الزمان، وأن تكون خاتمة الأمم، وأن تكون رسالتها خاتمة الرسالات.

لكن كيف تتبوأ هذه المكانة التي تبوأها في عهود سلفت، وكانوا قاعدة الأمة وروادها، واقتبس العالم عنهم حضارتهم، لكن حين تركت هذا المنهاج وتقاعست، أخذ آخرون يسحبون البساط من تحت أقدامها، ولا عودة إلى هذا المجد الخالد إلا بما رسمه هذا المنهج الرباني من هذه الأسس، ومن تلك الرسالة، ومن هذه السمات التي وضعها.

لا بد من قيام وحدة، فإننا بدونها نكون ضعفاء، لا نستطيع أن نقوى على مواجهة تلك الفتن، وتلك التحديات التي تحاول أن تغرق أمتنا الإسلامية، وأن تستضعفها.

العقبات التي تواجه الوحدة الإسلامية:

ومن هنا ننظر إلى تلك العقبات التي زرعت ألغاما في طريق وحدة أمتنا ونصرتها.

العقبة الأولى - الفرق والتيارات:

ويواجهنا من بين هذه العقبات: طوائف وفرق، وجماعات وخلافات وتيارات.

وهنا لا بد أن تكون لهذه الأمة وقفة من هذه الشرائع والتيارات والطوائف، التي تعمل على التشرذم والتفريق، لأن ديننا يدعونا أن نكون وحدة واحدة، ولو نظرنا إلى توجيه رسولنا ﷺ في هذا الصدد، لوجدناه يخرج أولئك الذين يحاولون تمزيق الأمة إلى طوائف وجماعات وتيارات.

ويقول ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»^(١).

يتبرأ سيدنا رسول الله ﷺ ممن يحاولون تفريق الأمة وتمزيق وحدة هذه الأمة، يتبرأ منهم، حتى الذين يضربون البر والفاجر؟!

البر الطائع أمره واضح إذا ضرب فإن الإثم يقع على ضاربه، لكن حتى الفاجر يا رسول الله؟ نعم. لأنه ليس لأحد من أفراد الأمة أن يعتدي على أحد كائناً من كان حتى ولو ارتكب ما ارتكب، لأن ذلك بيد ولي الأمر وحده، وليس لأفراد الأمة، وإلا تصبح الحياة فوضى، وتنتقل الحياة إلى أساليب وحوش الغاب، وسياسة الغاب.

أيضاً بين لنا في هديه الشريف وكأنه يأتينا اليوم في موقف سأله فيه حذيفة، ونقل هذا الحوار صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وغيرهما من الكتب المعتمدة، حين قال حذيفة رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت

(١) أخرجه مسلم حديث رقم (١٨٤٨).

يا رسول الله : إنا كنا أهل جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نعم ، قال : وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما دخنه؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : وهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها . قلت : صفهم لي يا رسول الله . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك . قال : الزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ، قال : اعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك» صدق رسول الله ﷺ .

يعني عندما قال له وسأله ماذا نفعل؟ لم يقل له اتبع الفرقة التي تتمسك بالعبادة أكثر ، ولم يقل اتبع الطائفة أو الجماعة التي تفعل كذا وكذا أبدا . قال له : ماذا أفعل؟ قال : «اعتزل تلك الفرق كلها» .

أي أن عليك أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . هذا في أول توجيه له . يتبع أية فرقة؟ قال : اتبع جماعة المسلمين وإمامهم . قال : إن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ حتى في هذه اللحظة . قال : «اعتزل تلك الفرق كلها» .

معنى هذا أن هذا التمزق ، وأن هذا التشرذم وأن هذه الجماعات والطوائف ، تضعف من هذه الأمة ولا تجعلها تتبوأ المكانة التي أولاها الله سبحانه وتعالى إياها .

وبهذا عالج الإسلام هذه العقبة الكئود الأولى ، وهي وجود هذه الجماعات والطوائف والفرق التي فتت وحدة الأمة .

العقبة الثانية- تضخيم الخلاف :

أما العقبة الثانية : في طريق وحدة أمتنا الإسلامية ، فهي بعض خلافات ، هي في الواقع هيئة تحدث بين المفكرين والعلماء والدعاة والفقهاء والمفتين ، وهي موجودة في الفقه الإسلامي .

والاختلاف ووجهات النظر ألف فيها كتب ، ولو نظرنا إليها النظرة الحقيقية لوجدناها من رحمة الله سبحانه وتعالى ، توجد اتساعا في الدين ، وليس فيها تضيق .

لكن بعض الذين ضخموا هذه الخلافات الهيئة والاجتهادات البسيطة ، وبعض الذين تحجروا ورأوا أن كل رأي سوى رأيهم خطأ . هم الذين أحدثوا هذه المشكلة ، وتلك العقبة .

لكن لننظر إلى سلفنا : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب .

الإمام الشافعي صلى الصبح في مسجد الإمام أبي حنيفة ، فلم يقنت في صلاة الصبح ، قيل له : أليس القنوت في مذهبك سنة ، وأنت ترى ذلك ؟ قال : بلى ! ولكن أخالفه وأنا في حضرته ؟ ! الإمام أبو حنيفة ليس عنده القنوت ، فلم يتعصب الإمام الشافعي لرأيه . هكذا كان سلفنا وأئمتنا الشاؤون .

الإمام مالك لما كلفه الخليفة أن يدون كتابا يتحاشى فيه رخص ابن عباس ، وشذائد ابن عمر ، وشواذ ابن مسعود ، وقال له : اقصد إلى أواسط العلم . فشمر عن ساعد الجد ، وصنف الموطأ وواطأه الناس عليه ووافقه أهل عصره وعلماء عصره . ومهد فيه المسائل العلمية ، فأعجب الخليفة به ، ورأى أن يلزم به كل الأمصار الإسلامية .

وأى مؤلف أو مصنف لكتاب إن قيل له ذلك يسر ، خاصة إذا وافقه جميع علماء عصره ، لكن انظروا إلى عظمة الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ حين أراد الخليفة أن يلزم الأمة بكتابه ، قال له : لا يا أمير المؤمنين ، إن أصحاب رسول الله ﷺ انتشروا في الأمصار ، وعند بعضهم ما ليس عند الآخر . فدع الناس وما اختاروا ، حتى يأخذ أهل كل عصر وأهل كل مكان ومصر ما يناسب عصرهم ومكانهم ، ما دام ذلك لا يصادم نصا من كتاب الله ، ولا حديثا من أحاديث رسول الله ﷺ . ثم قال بالحرف الواحد : إن اختلاف العلماء رحمة من الله بهذه الأمة ، كل يرى ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد وجه الله .

هذه هي عظمة الأئمة الذين نظروا إلى أن هذه الاجتهادات رحمة ، لا أن نتحجر ، لا أن نصم غيرنا بالكفر والفسوق ، وأنه على خطأ ، هذا هو المنهج الإسلامي الحقيقي الذي صانه تراثنا الذي هو أشرف تراث في الوجود .

العقبة الثالثة - التكتلات الأجنبية وتفرق المسلمين :

وأما العقبة الثالثة : فتتمثل في تلك التكتلات الأجنبية ، العالم يسعى إلى عصر الكيانات الكبرى ، والمسلمون يتفرقون .

ونسلم بدولة تعادي أخرى ، ودولة تضرب دولة ، ودولة تغتال دولة .

وفي الدولة الواحدة يحدث ما يحدث من انشقاق و... ، هذا أمر ينبغي أن نتنبه له ، وينبغي أن نعيش عصر الكيانات الكبرى ، أن تكون هناك سوق إسلامية مشتركة ، أن يكون هناك ولو توحيد لهذه الأمة ، تضامن إسلامي ، بين هذه الأمة التي أمرها الله تعالى أن تعتصم به ، فحين أمرنا قال : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، بحبل الله بالقرآن

بالدين ، يعني : تعتصموا . قلنا معناه المعتصم هو الممتنع الذي يتقوى ، ويمنع من أن يخترقه غيره ، لا بشرق ولا بغرب ، لا بأجنبي ولا بغيره ، وإنما بحبل الله بدين الله .

والقرآن الكريم حين يفسح له المجال يؤثر في كل شيء ، عظمة هذا الكتاب أدركها أعداؤنا للأسف ، حتى قال (غلاستون) في أحد الاجتماعات : لا قرار لنا ، ما دام هذا المصحف في أيدي المسلمين ، بل أدركها قبل ذلك المشركون أنفسهم حين قال قائلهم : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

والذي أدركها الجن فانطلق مرددا في الآفاق : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ ﴾ [الجن : ١ ، ٢] أدركها أحد المستشرقين وهو غير مسلم فقال : لو وجد هذا الكتاب في فلاة ، يعني في صحراء ، ولم نعرف من جاء به لعلمنا أنه من عند الله .

إنه يؤثر حتى في الحيوان ، فكيف لا يؤثر في الإنسان ، من حديث البخاري حديث أسيد بن حضير « لما كان يتلو القرآن وتجول فرسه ، ويسكت فتسكت ، ويعود فتعود حتى خاف على ولده يحبى ، وكان نائما . وخرج ونظر في السماء ووجد أمثال الظلة ، فيها أمثال المصابيح ، فسأل النبي ﷺ ، وقال : تلوت البارحة القرآن فجالت فرسي ، وسكت فسكت ، حتى خرجت فرأيت أمثال الظلة . فما هذا يا رسول الله . قال ﷺ : تلك ملائكة الله نزلت تتسمع لتلاوة القرآن ، ولو ظللت تقرأ ظللت الملائكة حتى رآها الناس في الصباح » .

عظمة القرآن:

عظمة القرآن الكريم الذي يدعونا ربنا سبحانه وتعالى أن نعتصم به وأن نتمسك به وأن نطبقه ، وأن نقوم الوحدة بين الأمة الإسلامية على أساسه حتى تنهض هذه الوحدة بين الأمة الإسلامية على هذا الأساس ، فإنها عندئذ ستنبوأ المكانة العلية التي أرادها الله .

إن الله تعالى فرض علينا عبادات توحدنا ، في كل صلاة ، في صلاة الجماعة خمس مرات ، وتوحدنا على مستوى أكبر في صلاة الجمعة ، وعلى مستوى أكبر في صلاة العيدين ، وعلى مستوى أكبر وأكبر في الحج إلى بيت الله الحرام . أي أننا نتعلم ، ونتعود ، وديننا روحه الوحدة ، لا التفرق .

من أجل ذلك فنحن ندعو أمتنا الإسلامية أن تتلاقى على كلمة الحق ، وأن توحد صفوفها . فقد آن الأوان ، لمواجهة التحديات التي تفرق عالمنا الإسلامي ، وليس أمامنا إلا أن نوحّد صفوفنا ونعتصم بحبل الله جميعاً .

المحاضرة الثالثة والعشرون بعد المائة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رؤية معاصرة

يقول ربنا ﷻ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

تمهيد:

يستيقظ التاريخ الإسلامي ليفتح أبواب المستقبل الواعد في عصر الإبداعات الإنسانية، والإشراقات الإيمانية، وتحديات الإسلام التي جعل الله لها الكلمة العليا، والباقية في الهداية والتحضير، وفي استنارة المسيرة البشرية والكونية بنور الله، حين يبلغ العلم أقصى مداه، ويرتقي العقل إلى أرفع ذراه، فيتقدم الإسلام بالهدى ودين الحق، ويظهره الله على الدين كله.

ولقد مضت قرون أثقلت كواهلنا بهزائمها النفسية والثقافية، وأورثت واقعنا تحلقاً وضعفاً تحولاً إلى معبر سهل الاختراق، تسللت منه قوى معادية بالحيلة وبالقهر، حاصرتنا وجثمت على صدورنا، وحرمتنا أسباب النهوض، والتقدم، فاجتمعت علينا علل من داخل أنفسنا، وأحقاد من خارج أمتنا، حتى وصل الأمر بنا إلى وضع يتطلب المزيد من التأمل البصير، والتحرك بسرعة ضوئية، بعد أن أصبنا بتخلف مزدوج، تخلف عن الإسلام بقضاياه، وحقائقه الثابتة، وتخلف عن العصر بإنجازاته وإبداعاته المتسارعة.

لكن وعد الله لا يتخلف، وحركة التاريخ المتجدد لا تتوقف، ومؤشرات التحولات العالمية كلها تنحو إلى استفتاء الإسلام في حل أزمة الروح والضمير، والثقافة والمصير، والحضارة والإنسان، وهو استفتاء يبدو إلى اليوم جزئياً ومحدوداً، يعتوره القصور والتعثر، بسبب الواقع الإسلامي

المشوه ، وبسبب التشويه المعادي المتعمد ، وهما غشاوة لا بد من أن تزول ، وغبار لا بد من أن ينجلي ، لأن الإسلام ليس أمة أو مرحلة ، وهو كما كان بالأمس نورا للعالمين ، سيكون في الغد أعظم إشراقا ، وأوفى بهاء ، وأينع ثمارا فيما يقدمه لأمته وللعالم أجمع .

وسأتحدث في موضوع أراه من مكارم الأمة الأولى ، ومن مسئوليتها العظمى ، وهو موضوع الساعة الذي يربك الأمة بما هو مطروح ، إنه موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ترتبط به كل القضايا والمواقف والأبعاد ، والذي به تحيا الأمة على نهج دينها ، وتحيي به العالم على سنن رسالتها ، وقد أفرغ العلماء فيه جهودهم ، ووضعوا له المقاييس والضوابط والأحكام ، وصانوا به وجودهم ومجتمعاتهم وركائز حضارتهم ، وكان ذلك وفق تصوراتهم ، وحاجاتهم ، وظروفهم الخاصة والعامة ، وأساليب تصديهم للمشكلات بما يتفق وأوضاعهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، مع ترك الأبواب مشرعة أمام المستجدات التي تقتضي التجديد في الفهم والمعالجة والممارسات .

تجديد دوائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ونحن قد بلغنا في عصرنا هذا مرحلة جديدة في مناهج التفكير ، وفي معايير الاجتماع ، وفي نظم السياسة ، وفي توزيع المسئوليات ، وفي تنوع المؤسسات ، وفي ترسيخ الحوار ، مما يدعونا لتجديد دوائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتجديد أطرها ووسائلها ، بما يتفق ومستوى الغايات الإسلامية ، والأحكام الشرعية ، ومصلحة الأمة وبما يجنبنا المزالق والوقوع في منكرات هي أخطر من التي يدعى إلى تغييرها .

والمهم في الأمر كله ، أن نصحو على ذاتنا الإسلامية ، ونحمل مسئوليتنا الكبرى التي شرفنا الله بها ، ونواصل السير في الدعوة إلى الله بحكمة ورشاد ، وبما يأتلف مع تطور الزمان في أساليبه ووسائله ومستجداته ، يقول الحق سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . في بيان خصائص الأمة المسلمة تحديد لخيريتها في مضمون قيامها بمسئولية الإشراف على مسيرة الإيمان والخير والطهر ، وإرساء قواعد الترقى الإنساني ، ودفع كل مظاهر الشقاء والتردي عن المسلمين ، وعن البشرية على حد سواء .

وقد سبق هذا التحديد ، حديث قرآني عن أمم جاءها الحق فأمنت به ثم أنكرته ، والتقت عليه ثم تفرقت فيه ، فحل عليها العذاب ، وألغي دورها الذي تخلت عنه ، وانقلبت إلى صف المعادة للرسول والكتب ، واتخذت موقف الصد عن سبيل الله ، ومشايعة الباطل والمنكر ، لأنها حصرت موضوع الوحي الإلهي بمفهوم عنصري يخرج من دائرته حقائق الإيمان ، ورحابة الدعوة ، ويتخذ من الألوهية والنبوة وسيلة لخدمة عنصرية مادية مستكبرة ، على حساب الحق والهدى ، وعلى حساب مصلحة البشر في استنارتهم بنور الله والاعتراف لهم بكرامتهم الإنسانية .

سبب خيرية هذه الأمة :

ومن هنا ، كان التوجيه الإلهي في طريق إعداد الأمة المسلمة لدورها الكبير ، وتأهيلها لاستحقاق الخيرية الأومية وذلك بالاعتصام التام بكل ما أتى به الإسلام مما يطلق عليه حبل الله الذي تكون به النجاة .

فالأمة المسلمة المختارة لتلقي الرسالة بكل مضامينها ، وإذاعة كلمتها بكل أبعادها ، لا بد لها من أن تستوفي أسس تكوينها بمنهج دينها ، ومن

أن تستجمع عوامل قدرتها بوحدة صفها ، مما يستدعي الوعي التام بالإسلام ، وهو موضوع بالغ الاهتمام ، لأن الوعي يطرد السطحية ، والانفعالية ، والتجزئة ، ويبقى من فتن الدعوات التي تقامر بالعقول بسوء فهم الأحكام الإسلامية ، وتطغى على الأفهام ببريق الأيديولوجيات المتنافرة ، واستغواء الشعارات المزورة لمفهوم الحرية والتقدمية والفكرية .

وهذا تكتسب الأمة خصيصتها التي لا تنفك عنها ، وهي الخيرية الأمية المطلقة ، التي لا تقوم على عنصرية استعلائية ، ولا على قوة عسكرية ، وإنما تقوم على رسالة تحضيرية لتحقيق الحكمة العليا من الحياة ، وإعلاء النفوس ببواعثها وأهدافها ، وتطهير المجتمعات من أخطائها وانحرافات ، وتقويم الحضارات بمنطلقاتها وغاياتها ، وإذكاء روح الخير والرحمة والكرامة بين شعوب الأرض كلها .

فحين نقرأ قول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ندرك سمو الشرف الذي عقد لنا لواؤه ، وثقل المسؤولية التي ألقيت علينا . فأمتنا لم تختار بنفسها خيريتها ، ولم تحدد بإرادتها مضمون هذه الخيرية ، فهي قد أخرجت للناس إخراجاً ، باصطفاء إلهي لها ، لتقوم بدور أوسع مدى من دائرة وجودها الذاتي ، فلا يؤذن لها أن تكتفي بصلاحها واستقامتها .

بل لابد من أن تكون رقيبة على ما يتحرك داخل صفوفها وما يجري في ساحات الأمم من انحرافات في الاعتقاد ، أو فساد في الأخلاق ، أو ظلم للإنسان ، أو عدوان على الطبيعة ، لأن الأمة المسلمة تنطلق من رسالة تحمل الهداية الكاملة ، فعليها أن تدور في فلكها ولا تخرج عن مسارها ، فيبقى التزامها بالمبادئ والحقائق والقضايا التي أتى بها الإسلام التزاماً شاملاً لا يقبل التبعيض أو الإخلال بسلم الأولويات ، أو التفريط بموازين

الحكم الدقيق على كل صغيرة وكبيرة ، كما تبقى حركتها متساوقة مع إيقاعات المثل العليا التي تصل بين البواعث والغايات ، ليكون المسلمون في أعلى مقامات الهداية والاستقامة ، والترجمة العملية لكل ما دعا إليه الإسلام .

والأمة المسلمة تحمل رسالة الرحمة إلى العالمين ، عالم الإنسان ، وعالم الحيوان ، وعالم الأشياء ، فالرحمة التي تقوم عليها شريعتها والتي يجري التعامل على أساسها ، ليست خاصة بالمسلمين أو فيما بينهم ، بل هي رحمة عامة مهداة إلى المسلمين وإلى من سواهم ، ولا تقتصر على شأن دون شأن ، فالمسلمون مكلفون بأن يرحموا من في الأرض ليرحمهم من في السماء .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة أنيطت بهذه الأمة :

ثم إن الأمة المسلمة مؤتمنة في رسالتها على موضوع يتجاوز حجمها العددي والمكاني والزمني ، كما يتجاوز ظروف ضعفها أو قوتها ، وهو موضوع الشهادة على الناس في جميع حالاتها وفي جميع أوضاع الناس .

فالشهادة على الناس لا تعفي الأمة من القيام بحقها ساعة تكون الأمة المسلمة متخاذلة أو مخذولة ، أو يوم تكون القوة والهيمنة لأمم ملأها الغرور ، فأحست الأمة المسلمة بهوانها على الناس ، وبضآلتها بين الأقوياء ، فانكفأت على نفسها وظنت أن ضعفها سيكون إضعافاً لدورها ، وتضييعاً لكلمتها ، ذلكم لأن شهادتها في ميدان الزحام ستكون أمضي .

وفي ثوران الباطل ستكون أقوى ، وفي حالات انعدام الوزن الذاتي ستكون سنداً لها في إحياء نفسها ، ومدداً للعالم في دعوته للروية ، وعودته إلى الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو في عمق كل رسالة دينية ، فلماذا ارتبطت به خيرية الأمة المسلمة ؟

من المسلم به ، أن هذا الموضوع كان فيما سبق محدودا بزمن الرسائل التي كانت لقوم معينين ، ولمرحلة تنقضي بانقضاء زمانها وشخصها ، وكان موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محدود الآفاق ضمن الكيان الديني الذي يضيق ويتسع تبعا للمفهوم الديني السائد .

أما في الإسلام فإن الأمر مختلف جدا . وتكفي الإشارة إلى أن دائرة الإسلام تشمل العالم كله ، فالمسلمون أخرجوا لكل الناس ومسئوليتهم تتعدى نطاق وجودهم الزمني الأول ، كما تتعدى نطاق العالم الإسلامي الكبير ، لتبلغ كل إنسان في كل مكان .

وختام الوحي الإلهي بالرسالة الإسلامية يستدعي تكليف الأمة المسلمة بحمل أمانات الوحي الكاملة ، والراسخة ، والشاملة ، التي لن يمسه تعديل أو تبديل ، ولن يطرأ عليها مراجعة مهما تبدلت ثقافات الناس .

اتساع مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ثم إن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام هو موضوع واسع الأرجاء ، لا ينحصر بالمنهيات والمحظورات المنصوص عليها فقط ، بل يمتد ليشمل الغايات الكبرى من الوجود الإنساني ، والمتغيرات المتجددة في المعارف الإنسانية ، والمنجزات المتطورة في ساحات الإبداع العالمي ، والنظم المتعاقبة في مجال العلاقات الدولية ، والممارسات المختلفة على الأصعدة الفردية والجماعية ، مما يكون تعبيرا عن تصورات ومواقف ، أو تأثيرا في اتجاهات وطموحات ، تصيب البشرية بانتكاسات وأزمات ، أو تصب في خانة التراجع في مضمون الإنسانية نفسها .

فإذا كانت الأمة المسلمة مسئولة عن ذاتها بهذا القدر ، ومسئولة عن عالمها بهذا المستوى ، فقد بلغت في خيريتها ما لم تبلغه أمة سبقت ، ولن تبلغه أمة يستحضرها المستقبل في منأى عن الإسلام وعن مسئوليات المسلمين .

ومن أجل تثبيت هذه الحقيقة ، كان الإعلان الإلهي عن وظيفة كبرى من وظائف النبي ، وخصيصة هامة من خصائص المجتمع الإسلامي ، وعن غاية عليا من غايات الحضارة الإسلامية .

كل ذلك يدور حول محور واحد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ففيما يتعلق بوظائف النبوة المحمدية المبشر بها في الكتب الإلهية السابقة : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وفيما يتعلق بوضع المجتمع الإسلامي ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

أما فيما يتعلق بأسس الحضارة الإسلامية التي تزدهر بعد استقرار نظامها وانتصار جهادها ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَنَقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

الغاية العظمى من الأمر والنهي :

ولكون الأمة المسلمة مكلفة بتحقيق صلاحها وإصلاح عالمها ، فإنها رفعت إلى مرحلة التحرر من الهوى والعصية ، ومن كل ما يغض من قدر أمة تتحرك لأشرف الغايات ، فهي حين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

لا تقوم بذلك لمصلحة استعلائها على الناس ، أو قهرها لإرادة الناس ، ولا تسعى من وراء ذلك إلى استغلال موقعها لتحقيق منافع مادية ، أو ابتزاز شعوب مغلوبة على أمرها ، أو الهيمنة على شعوب مفتونة بنظمها وتفوقها ، بل هي أمة الخير المطلق ، لذلك فهي تدعو إليه ، وأمة النزاهة المجردة ، فهي تعتصم بها ، وأمة العدل السوي الذي لا تطيش موازينه بعاطفة مودة ، أو بجريرة حقد ، وهو العدل الذي تصدر عنه كل الأحكام ، وتوزن به كل الأمور ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿ [المائدة : ٨] .

فالقِيَامُ بشئون العدل ، هو من أقوى ركائز المسؤولية في الإشراف على مبادئ الخير ، وفي إرساء معالمها في النفوس والمجتمعات .

هل الأمر والنهي يعني مصادرة الحريات واحتكار الصلاح والإصلاح؟

وهنا قد تنهض مجموعة تساؤلات في وجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبخاصة في هذا العصر الذي يوصف بأنه عصر الحريات ، فكيف تتخذ الأمة لنفسها حق الإشراف على الأخلاق والقيم ، وعلى المقاصد والأهداف ، بما يوهم مصادرة الحريات والتضييق على الناس ، واحتكار الصلاح والإصلاح؟

إن هذا الأمر جدير بالدراسة والتصويب ، بعد أن فتن الناس بشعارات الحرية ، وبعد أن فرغت الحرية من مضمونها وحقائقها ، وبعد أن التوت السبل بمن أخرجوها عن ضوابطها ، وتجاوزوا بها كل دوائرها لخدمة أهوائهم وأغراضهم ، دون التوقف عند حدود المشروعية والمسئولية ، ودون مراعاة لحريات الآخرين ومقاصدهم العليا .

فما هي الحرية؟ وما هي حدودها؟ وما هي ضوابطها؟ ولمن تكون؟ وكيف تصان؟

إن الحرية في الأساس ليست اختراعاً بشرياً، ولا ضرورة حياتية، إنها فريضة شرعية، ومنحة إلهية، ولازمة من لوازم الكرامة الإنسانية، فلا يصح إيمان إلا بفكر حر، ولا تترتب مسؤولية إلا على إرادة حرة، وهي ليست حقاً عارضاً يستطيع الإنسان أن يتنازل عنه وهي ليست موضوعاً مبهماً يستطيع كل إنسان أن يخوض فيه برأيه، أو يفسره بما يخدم نوازه، أو يطوعه لثقافته والظروف المحيطة به.

والحرية ليست وقفاً على أمة دون بقية الأمم، وليست ملكاً لأحد يهبها لمن يشاء ويصرفها عمن يشاء، فالمسلمون يؤمنون على حماية الحرية، وتوفيرها لكل إنسان في مفهومها السليم، وإطارها البناء.

أما ما يتجاوز الحكمة والحق والخير، فليس من الحرية في شيء، بل هو عبث وفوضى، وافتتات على مفهوم الحرية وتدنيس لسمو قدرها، وانجرار إلى البدائية التي خضعت لسلطان الغريزة لا لأحكام العقل، ولضغط الأهواء لا لرشاد الحكمة، ولعشية الفردية لا لشمولية النظام، ولمهابط الغرور، وليس لاستقرار الحقائق وثبات الخير.

وهذا ما نشهده اليوم في المواقع التي تحولت فيها الحرية إلى وثنية جديدة، فتبدلت القيم، واختلت النظم، وتدنت الغايات، واستعلت المنكرات، واستفحلت الفواحش، ولوثت المقدسات.

تَغْيِيرُ مفهوم الحرية الاقتصادية:

لقد تحولت الحرية في جانبها الاقتصادي إلى غاية الربح والثرء ، على حساب الضعفاء والفقراء .

وإلى السيطرة على الشعوب المغلوبة على أمرها ، لنهب خيراتها ، وتعويق نموها ، واستعمارها اقتصاديا وماليا بعد زوال الاستعمار العسكري ، وتقسيم العالم إلى شمال مترف وجنوب جائع .

تَغْيِيرُ مفهوم الحرية الفكرية:

أصبحت الحرية الفكرية ساحة مستباحة تلقي فيها عثرات الأهواء ، لا ثمرات العقول ، ومخلفات المهوسين لا تحقيقات أهل الذكر من العلماء المدركين .

وأصبح لكل مغرور أو موتور أو حامل شهادة أو لقب جامعي حرية مطلقة في أن يطرح ما يشاء من الأوهام والمزاعم ، وأن ينشر ما تسول له نفسه من الأضاليل والزيوف ، وأن يفتعل من المعارك الوهمية لينال شهادة التفكير الحر ، والنقد الشجاع ، دون رادع من عقل أو دين أو خلق ، ففشت بين الناس الشبه ، وسرت بين المثقفين الأباطيل .

وسادت في العالم تيارات عاصفة اجتاحت العقائد ، ونقضت المسلمات ، وطعنت اليقينيات ، ونشأت عنها فلسفات مادية ، وأيديولوجيات ملحدة ، تحت عباءة الحرية الفكرية التي أرهقت البشرية طوال القرن المنصرم ، ولم تورثها إلا الشقاء .

تغير مفهوم حرية الفنون:

أصبحت حرية الفنون هي حرية المجون في الرسم والنحت والتصوير ، وفي الغناء والموسيقى والتعبير ، وفي توظيف الجمال لخدمة التعري ، وفي تحوير وظيفة الجنس الإنسانية بأشواقها الطاهرة ، إلى إباحية مسعورة ، عنوانا للتححر ، ومقياسا للتقدم ، وضرورة للتطور .

فإلى أين انتهت الحرية في الممارسات ، وفي الاعتداء على حقوق الإنسان ، وفي مشايعة الظلم ، وفي استخدام القوة لمطاردة الحق ، وفي إنتاج أسلحة الدمار لتهديد سلامة الأرض ؟

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أليس من الحق إذن ومن موجبات الدفاع عن الحرية ، أن ينهض المسئولون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للوقوف في وجه الباطل ، والعمل على نصره الخير ، وإزالة المفتريات التي ألصقت بالحرية ، لجلاء حقيقتها ، ورفع يد المضللين عنها ، وربط ممارستها بموضوع المسئولية الفردية والجماعية والعالمية ؟

إن الإسلام يبدأ من منطقة التفكير لي طرح القضية ببراينها ولينتهي بها إلى الاقتناع اليقيني ، ثم يخرجها إلى الالتزام العملي ، في مآمن من السلبات والتجاوزات ، وليس بهدف تعطيل الاختيار أو قمع الحريات .

ففي نطاق الإيمان نفسه تأخذ الحرية أبعد آفاقها في البحث والتفكير والاختيار ، إذ الإنسان حر في أن يؤمن أو أن يبقى على كفره ، لكن هذه الحرية تتوقف عند حرية الآخرين ؛ فهي أولا تتوقف عند حرية المؤمنين بكف الأذى عنهم ، ووقايتهم من فتنة الصادين عن دين الله ، فلا حرية

لمن يفتنون المؤمنين في دينهم بالإغراء أو الإغواء أو الإكراه ، ومن حق الدولة أن تتخذ أي إجراء رادع بحق المفسدين لدفع فتنهم والحد من شرورهم .

كذلك فإن الحرية تتوقف عند حق غير المؤمنين في أن يصلهم الهدى كاملا ، وأن تبلغهم كلمة الله في منجاة من المهيمنين على حريات الشعوب ، الذين يجرمون الناس من الاستماع إلى كلمة الحق ، والذين يسدون منافذ بلادهم في وجه الدعوة إلى الله ، والذين يعمدون لتشويه صورة الإسلام حتى ينصرف الناس عنه .

الحرية في الإسلام:

والحرية في الإسلام لا تعتدي على الحرية الشخصية طالما ظلت في نطاق صاحبها ولا تخرج إلى الإضرار بالآخرين أو التحريض على الفساد أو الإخلال بنظام المجتمع .

فلا يأذن الإسلام باقتحام البيوت أو تسورها لمراقبة التصرفات الشخصية التي لا تمس بأمن الدولة ولا بالاستقرار العام ، فليبت حرمة ، ولل فرد حريته ، وهو لا يؤخذ إلا بما يصدر عنه تجاه سلامة المجتمع وحرمة القيم .

وحتى في موضوع الردة ، فإذا بقي الارتداد وقفا على صاحبه لا يجاهر به ولا ينقل عدواه إلى الآخرين ولا يهدد كيان الجماعة ، بقي في دائرة العقوبة الإلهية ، ولا يقع تحت إقامة الحد ، ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧] ، والموت هنا موت طبيعي وليس موتا جراء حد .

أما التارك لدينه المفارق للجماعة الذي يشكل خطرا على من حوله ، وعلى كيان المجتمع الإسلامي ، فهو الذي يعرض عليه الإسلام ويحاور بالحجة والبرهان ، لمعاودة تفكيره وموقفه ، فإذا ثبت إصراره على رده وكان من وراء هذا الإصرار فتنة للمؤمنين ، ومفارقة للجماعة تعني تهديد النظام العام ، أقيم عليه الحد ، لا مصادرة لحرية ، ولكن حماية لحرية سواه ، ودفعاً لشر من فتنة أو حماية لوحدة المجتمع .

فالتفكير حر ، والتعبير حر في نطاق الشرع والأخلاق ومصلحة الأمة ، فليس من الحرية أن يتحول التفكير والتعبير إلى أداة لإثارة الفوضى وتخريب النظام ، ونقض الاستقرار العام ، والمس بمصلحة الدولة والشعب ، باسم الحرية والمعارضة أو بدعوى الإصلاح والتطوير .

فتدخل الدولة والمجتمع لمقاومة الفساد ، والتفلت السياسي والاجتماعي لا يعني الكبت والحجر على الحريات إنما يعني لجم الفوضى والتجاوزات ، وحماية الاستقرار والحريات .

هذا التدخل يصبح في أحيان كثيرة واجبا شرعيا لدفع الأضرار والأخطار ، ولوقف وسائل التخريب والتهديم ، ولحماية الأفراد والأمة من شر الفتنة التي تقضي على مصالح الجميع .

إن المجتمع وحدة متكاملة ، واستخدام الحرية بما يضر أمن المجتمع وسلامته يعتبر استخداما جائرا يعرض الجميع للشر والهلاك ، فلا بد إذن من محاصرة هذه التجاوزات ، والحد من سوء استخدام الحريات ، وعدم الالتفات إلى التذرع بالحرية الذي يتسلح به أصحاب الأغراض الهدامة .

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبدأ بالبيان ، والنصح ، والتنبيه ، والتحذير ، انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

هذه المرحلة تحتاج إلى إعادة النظر في الثقافة العامة ، وفي القيم الذائعة ، وفي الظروف المحيطة ، وفي وسائل التربية ، من أجل تقويم المناهج ، وتعزيز النفوس ، وتصويب الموازين والمقاييس الفكرية والنفسية ، وتوفير المناخ الصالح لرفع المجتمع إلى درجة الصدق في إيمانه ، والوعي بقضاياه ، والالتزام بمسئوليته من قبل اتخاذ الإجراءات العقابية ، واللجوء إلى القوة الغالبة .

ثم تلي هذه المرحلة مرحلة الحسم الذي لا بد منه بعد استنفاد كل وسائل التربية والتوجيه والتثقيف ، وهي مرحلة التغيير الذي يقوم به أولو الأمر وأصحاب الشأن ، لنقل المجتمع من حالة الفلتان إلى حالة الانضباط ، ومن فوضى الممارسات إلى مسئولية الحريات ، ومن انتشار الفساد إلى استقرار الصلاح ، فيزال المنكر لإحلال المعروف .

عدم احتكار فهم الدين :

هذا التغيير لا يترك لتصور الأفراد ولا لإرادة الذين يتخذون من أنفسهم أوصياء على الناس ، ورقباء على قلوبهم ، وقضاة على سلوكهم ، ويجيزون لأنفسهم احتكار فهم الدين ، وصلاحيّة تحديد المعروف والمنكر ، وحرية الإشراف على المجتمع ، وحق تكفير من خالفهم ، وتفسيق من لم يلتزم بآرائهم ، وتبديع من لم يسلك سبيلهم ، فتلك أمور أصبحت من مظاهر العدوان على الحرية وعلى الدين نفسه .

الأسس التي يقوم عليها الأمر والنهي :

مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يقوم على الحقائق الدينية التي لا تترك مستباحة لأنصاف المتعلمين ، ولأدعياء الدين ، وللمتسلقين على جذر الدين لتحقيق أهداف خاصة ، وللطائفين حول رمم التاريخ وأهدافه ومشكلاته ، وللمنغلقين على رؤى مضى زمانها بمضي ظروفها وأشخاصها ، وللناقمين على مستجدات الحياة والمتبرمين بتجدد الفكر ومنجزات العصر ، ولأمثالهم من الذين يضيقون ذرعا بأحكام العقل ، ولا ينقادون إلا للانفعالات الصارخة ، والعواطف المستثارة ، والارتياب بكل شيء .

وتغيير المنكر لا يكون بيد المهوسين ، ولا بتصرف الصاخبين ، فليس من حق أي فرد أو أية مجموعة أن تتولى مسئولية التغيير بنفسها ، وبأسلوب الذي تراه ، وبالحرية التي تنطلق منها ، وبالإجراء الذي تختاره ، وإلا كان التغيير إلى ما هو أسوأ بما يحدث من فوضى وتخريب ، وعدوان على الحقوق والكرامات ، وتجاوز للحدود والحرمات .

المسئولون عن التغيير :

إن التغيير لا يكون إلا بيد السلطة المؤمنة التي تملك زمام الأمور ، وتقدر على الموازنة بين ما ينفع وما يضر ، وتمسك بتحويلات المجتمع ، وتضع مصلحة الأمة فوق كل اعتبار ، وتصون الأمن والاستقرار ، وتنشئ المؤسسات العاملة على رسم خطط التغيير ، وعلى تطهير المجتمع من الفساد والتفكك ، وعلى حماية الشعب من عدوى الانهيار الخلقي .

وهي قضايا تحتاج في كل عصر وفي هذا العصر بالذات إلى تجديد في الرؤية والممارسة لحماية المجتمع من الإرهاب الفكري ، ولصيانة المجتمع من التفلت والتصنع ، ولرفع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من نطاق الجدليات ، ولوضع السلم الواقعي في هرم الأولويات ، ولإعطاء كل جانب من جوانب الحركة الفردية والجماعية حظه من الاهتمام والتقدير ، حتى لا ينحصر الموضوع في الجزئيات ، ولا يهمل المنكر الأكبر لحساب المنكر الأصغر .

فكلما كان المنكر أكثر تأثيرا ، وأفدح خطرا على القضايا الكبرى من الحياة الإسلامية ، كان أحق بالعلاج من أمور ثانوية ، تقلق بال السطحيين ، وتثير خواطرمهم ، وتدعوهم غفلة وجهالة إلى أن يضحوا بأرواحهم عبثا ، أو يستهينوا بأرواح مخالفينهم ظلما .

اشتراك المؤسسات الدينية مع الدولة في مسئولية الأمر والنهي :

ففي عصر القوانين والأنظمة والمؤسسات يصبح التغيير ضمن أطر وإجراءات ومرجعيات محددة ، ترتبط بالدولة ، وتستمد منها صلاحيتها وميادين اختصاصها ، ويستمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دائرة التوجيه والتثقيف والتربية ضمن مسئولية مشتركة بين الدولة وأهل الاختصاص في الشريعة والتربية وشئون الدعوة إلى الله .

لذلك كان في رأس الاهتمامات التي تؤهل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وللقيام بتغيير المنكر المتعدد الأوجه أن تعيد الأمة نظرها في واقعها الإسلامي ، لتبين مدى ارتباطها بحقائق دينها ، ولتصحح على الفهم السليم والمتجدد لمختلف أحكام الدين ولتتمكن من الابتعاد عن

مشكلات التاريخ التي ما زالت تحاصر العقل الإسلامي ، وتفرض عليه مفهوماتها وتصوراتها وحلولها ، وحتى تصبح الأمة قادرة على التمييز بين الثابت والمتغير ، وبين الحكم الشرعي المحكم والسياسة الشرعية المرنة وبين المضمون الملزم والإطار المتغير وبين الحكم الموقوف على علته ، وتغير الأحكام بتغير العلل والأزمان ، وبين الحدث التاريخي المقيد بزمانه والمسيرة الإسلامية الممتدة فوق كل الأزمنة ، وبين التراث الذي يستمد قدسيته من قدمه ، والتجدد الموثق بأصوله ، وبين المثالية التي يعز اللحاق بها ، والواقعية التي تنفي الأسطورية المجنحة ، وبين النص الإلهي النبوي الثابت والفهم البشري الاستدلالي الذي يستدعي الاجتهاد ضمن الأصول الشرعية والمقاصد المشروعة .

بعض المخاطر الناتجة عن الفهم السيئ للأمر والنهي :

أفليست إذن هذه الضرورات تتحول إلى منكرات إذا لم يحسن المسلمون فقهها أو إذا وقفوا أمامها جامدين ومستسلمين ، أفليس من المنكرات الخطيرة أن يترك أمر تقدير المنكر وبخاصة في هذا العصر إلى أشباه العلماء ، وإلى العامة المأخوذين بحماس التدين ، ليفتوا في أمره بما تمليه عليهم علومهم القاصرة ، أو فهومهم الملتوية ، أو منظمتهم المحرضة ، أو التوجيهات الصادرة إليهم من الخارج فيحكموا بكفر المجتمع ، ويستحلوا الدماء البريئة ، ويبيحوا أموال الناس وهدم المؤسسات ، ونحر الأطفال من مسلمين وغير مسلمين؟

مع أن الله يأمر برد الأمور إليه ، وإلى رسوله ، وإلى العلماء الذين هم أعلم بالدين ، وأحكم باستنباط الأحكام الشرعية . فأأي منكر يداني هذا

المنكر الذي يسيء إلى الإسلام ويشوه سمعته ، وأي منكر أحق بالإنكار والتغيير من هذا المنكر الخطير؟

أفليس من المنكر الأثيم ، استغراق الأمة في الجدليات حول عالم الغيب ، والانقطاع المشلول عن عالم الشهادة الذي دعانا الله للتفكير فيه ، واستكناه قوانينه ، وتوظيف معارفه لخدمة الإيمان ، ولرقي الإنسان؟

أليس من المنكر أن يغيب الجانب الإنساني عن الوعي والاهتمام ، بينما تقوم دعوة الإسلام على دعامتين : تحرير العقل من الضلال ، وتحرير الحياة من الشقاء : ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه : ١٢٣] .

أليس من المنكر أن تظل كثير من القضايا محنطة في قوالب الماضي ، محصورة في تفسيرات وتحديدات تدور حول مفهوم التدين ، والحكم ، والجهاد ، والعلاقة بغير المسلمين ، ومفهوم الثروة ، وكثير من مفهومات اعترأها النقص أو الزيادة أو التجميد؟

أليس من المنكر أن ينسى المسلمون أن قضية العلم الكوني تقف بموازاة العلم الديني ، وأن قضية العبادة تشمل توجه المؤمن إلى ربه بالصلاة ، وتوجهه إلى الأرض بالإعمار والتجميل والتسخير؟ أليس من المنكر أن تكون أول آية في القرآن ﴿أَقْرَأْ﴾ ثم تكون أعلى نسبة للأمية في العالم متمركزة في بعض المناطق الإسلامية؟

أليس من المنكر أن تكون شعوب عديدة من شعوب العالم الإسلامي تحت خط الفقر بينما يفيض العالم الإسلامي بالثروات الظاهرة والباطنة دون استثمارها وحسن تنميتها ، ودون قيام مشروع للتكامل الاقتصادي بين دوله ، ومشروع للتكافل الاجتماعي بين شعوبه؟

أليس من المنكر أن تظل أمجاد الأمة أمجاداً ورائية صنعها الأجداد في الفكر والحضارة والعلوم والفتوحات الإيمانية، وتبقى أمتنا في عصر التقدم والتسابق الحضاري عالة على سواها، ولا تعتذر عن تخلفها إلا بأمجاد الغابرين عنها، ثم تنقطع لديها حركة الاجتهاد والتجديد والإبداع والعطاء والسبق الحضاري؟

أليس من المنكر أن تصبح عواصم العالم عواصم ثقافية متألفة، وتتحول عواصمنا إلى أسواق لاستيراد الثقافة من أي مكان، وقد كانت في الأصل مصدراً للعلوم، وموئلاً للعلماء؟

أليست هذه المنكرات وأشباهاها هي المنكرات الكبرى التي يجب إنكارها وتغييرها قبل العكوف على صغائر الأمور، وقبل التطرف في معالجة هذه الأمور، وقبل الصراخ والعويل والمناداة بالويل والشور؟

وإلى جانب هذا الحضور الذاتي الذي يجب أن يصدر عن عمق التدين وسلامة الالتزام، لا بد من الحضور العالمي لتكتمل رسالة الأمة في نهوضها بمسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أطراف الأرض لإنقاذ العالم من ضلاله وشقائه، عن طريق الاعتراف أولاً بإيجابيات الحضارة المعاصرة والاقتراس منها، ثم عن طريق القيام بنشر الرحمة والتراحم لإشعار العالم بأن أمتنا لا تحمل سيف التسلط والقهر، ولا عصا الاستعلاء والاستعداد.

فحقوق الإنسان بحاجة إلى رعاية وحماية، والعدالة الدولية بحاجة إلى تقويم وتسديد، والثورة العلمية بحاجة إلى روح الأخلاق، والقوة العسكرية يجب أن ترتبط بسلام الشعوب، والهيمنة الدولية يجب أن تتواضع لخدمة الضعفاء، والأيديولوجيات المادية يجب أن تتوارى بعد إفلاسها واغتيالها للحريات، وقيم الأخلاق يجب أن تسود الثقافات والممارسات،

ومراكز القوى الاقتصادية يجب أن تفسح صدرها للشعوب الفقيرة .
إن أمة الإسلام وهي خير أمة ، مسئولة عن الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر بتجديد فهمه ، وتحديد دائرته وتنظيم وسائله ، فلا حرية للمنكر ،
ولا شطط في النهي عنه ، ولا تجاوز في تغييره ، وبذلك تحقق الأمة ذاتها ،
وتنقذ عالمها ، وتستقيم موازينها ، وتشرق الأرض بنور ربها .

* * *

المحاضرة الرابعة والعشرون بعد المائة

الإسلام دين الفطرة

انطلاقاً من قول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد ارتأيت أن أقف في البداية وقفة قصيرة مع هذه الآية الكريمة، وأن أتناول بعد ذلك فطرية الإسلام، وإسلامية الفطرة من خلال الأدلة والمظاهر والمقتضيات.

مع الآية الكريمة

أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه سيدنا محمد ﷺ - وفي أمره أمر لأُمته - أن يقبل بكلية على دين الإسلام الحنيف، وأن يثبت عليه، ويتمسك بعروته الوثقى، وعبر الله عن الذات بالوجه لشرفه ولأنه مجمع حواس الإنسان.

وقوله تعالى حنيفاً حال من فاعل أقم، أو من الدين، ومعنى الحنيف المائل عن الشرك.

وانتصاب الفطرة في قوله تعالى ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على الإغراء أي الزموا فطرة الله، أو على المصدر أي فطر الله الناس على ذلك فطرة.

معنى الفطرة:

والفطرة : الخلقة من فطر الله الكون أي خلقه ، والمراد بها هنا حسب ما يقتضيه السياق وترجمته نصوص أخرى ، أحد أمرين أو هما معا .

الأول الإسلام ، وهو الذي رواه ابن جرير الطبري عن ابن زيد ومجاهد وعكرمة^(١) ونسبه القرطبي إلى أبي هريرة وابن شهاب وغيرهما ، وقال وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل^(٢) .

والثاني قابلية الدين الحق ، والتمكن من إدراكه ، والتهيؤ لذلك ، وهو الذي اعتمده ابن عطية في تفسيره ، وصححه ابن عبد البر ، وانتصر له القرطبي^(٣) .

والمراد بلزوم الفطرة الجريان على موجبها ، وعدم الإخلال بها باتباع الهوى^(٤) والمراد بخلق الله في قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ حسب ما رواه ابن جرير الطبري عن مجاهد وعكرمة وقتادة وسعيد بن جبيرة والضحاك وابن زيد وإبراهيم النخعي^(٥) هو الدين ، وفُسر في بعض التفاسير بالفطرة ، ولا تعارض لأن الدين الحنيف هو الفطرة بنص هذه الآية الكريمة .

ووردت في معنى «لا تبدل لخلق الله» أقوال منها :

(١) «جامع البيان في تأويل آي القرآن» لابن جرير الطبري (٢١/٤٠-٤١) .

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/٢٥) .

(٣) نفسه (٧/٢٧-٢٩) .

(٤) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢١/٩٣) .

(٥) «جامع البيان» (٢١/٤٠-٤١) .

- ١- لا يخلق الله الناس على غير الفطرة .
 - ٢- لا ينبغي للناس أن يبدلوا تلك الفطرة .
 - ٣- لا تغيير لتوحيد الله المترسخ في النفوس ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] .
 - ٤- لا يجوز للناس أن يغيروا خلق الله في البهائم ، بقطع آذانها ، وخصاء الفحول منها^(١) .
- وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ إشارة إلى أن إقامة الوجه للدين الحنيف والتزام الفطرة هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ، وفيه تشبيه معقول بمحسوس .
- وختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى أن أغلب الناس لا علم لهم بأن الإسلام دين الفطرة ، وأنه الدين القويم ، فأعرضوا عنه واتبعوا أهواءهم .

فطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة :

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الإسلام منسجم مع طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها في كل إرشاداته وتوجيهاته ، وفي كل أوامره ونهيه ويفهم منها كذلك أن فطرة الإنسان التي سواها الله وعدلها ، لم يودعها الله ما يتناقض مع الإسلام ، ويتعارض مع روحه ومقاصده وتشريعاته ، بل أودعها ما يجعلها تحب الإسلام ، وتنجذب إليه ، وتشعر بارتياح إلى أحكامه

(١) «جامع البيان» (٢١/٤١ - ٤٢) .

وضوابطه .

وقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يختم الأديان السماوية بدين فطري يتجاوب مع الإنسان ويراعي خصوصياته ويستجيب لمطالباته ، ويرتقي به في مدارج الكمال البشري .

والإنسان السوي الفطرة ، لا يشعر أبدا بأن دين الإسلام غريب عنه أو بعيد منه ، بل يشعر بأنه عنصر ضروري لاستقراره النفسي وانتظام حياته على الكوكب الأرضي ، وكيف لا؟ وهو الذي يحكم صلته برب قوي رحيم ، يحرسه ويحميه ، ويشفيه ويغنيه ويؤنس وجدانه ويرضيه ، وهو الذي ينظم حياته وحياة غيره ، فيحل التآلف والوئام ، محل التخالف والخصام ، ويحل التعاون والتكافل محل التنازع والتقاتل ، ويحل الاستقرار والرخاء ، محل الاضطراب والشقاء .

أدلة فطرية الإسلام، وإسلامية الفطرة:

أ- على المستوى النقلي :

هناك نصوص شرعية عديدة دلت بوضوح على فطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة ، لأنها وضحت أن دين الإسلام الذي بعث الله به خاتم الأنبياء والرسل ﷺ منسجم مع فطرة الإنسان ، مجاوب للعقل البشري موافق للنظر الصحيح بحيث لو ترك الإنسان وفطرته وأبعدت عنه أسباب الفتنة والإغواء لما اختار غير الإسلام ، ومن هذه النصوص :

١- آية الموضوع التي انطلقنا منها .

٢- قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ، على

رأي من فسر «أحسن تقويم بالفطرة على الإيمان»^(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، والمراد بهذا الإشهاد: فطر الناس على التوحيد^(٢).

٤- قول النبي ﷺ في حديث قدسي: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا»^(٣).

٥- قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»^(٤) الحديث، ومعنى الفطرة في الحديث على الأصح^(٥) التهيؤ للإسلام.

ب- على المستوى العقلي:

إلى جانب النصوص الشرعية المذكورة، هناك أساس عقلي لفطرية الإسلام وإسلامية الفطرة، وهو أن الإنسان خُلِقَ الله وصنعه، وهو سبحانه أعلم بما يصلحه وما يفسده، وما ينفعه وما يضره، وما يسعده وما يشقيه، وما يشرفه وما يزرى به، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وإذا كان الله ﷻ خالق الإنسان، ومشروع الأديان الصحيحة المختومة

(١) انظر «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزي (ص ٧٩٧).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة من «صحيحه».

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»: «باب ما قيل في أولاد المشركين» (١/ ١٧٠).

وأخرجه «مسلم» في «كتاب القدر من صحيحه».

(٥) «شرح النووي على صحيح مسلم» الهامش القسطلاني (١٠/ ٩٠).

بالإسلام ، فإن ما صدر عنه - وهو الحكيم الخبير من صنع ودين لا يمكن عقلا أن يتعارضاً ويتناقضاً بل يتجاوبان ويتعانقان . وهذا يعني بالتأكيد أن الإسلام لا يمكن أن يكون إلا دين الفطرة ، وأن الفطرة الإنسانية لا يمكن أن تكون إلا ذات نزعة إسلامية ، أي أن كلا منهما يواكب الآخر ، ويتجاوب معه لأنها معا من مصدر واحد هو الله ﷻ .

بعض مظاهر فطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة:

لفطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة ، تجليات بارزة عديدة ، من الصعوبة بمكان تتبعها في محاولة لاستقراءها ، لأن كل ما تضمنه الإسلام من تشريع وتوجيه ، يعكس ذلك بشكل أو بآخر ، ولذلك لن أحاول في هذا المقام أن أتبع تلك المظاهر ، وأستقصي تلك التجليات ، وإنما سأكتفي بإعطاء أمثلة يقياس عليها غيرها ، ومنها :

١ - تلبية الإسلام لرغبات الإنسان وتجاوبه مع تطلعاته وأشواقه .

لقد راعى الإسلام طبيعة الإنسان ، وأخذ بعين الاعتبار مقومات هويته وعناصر شخصيته فلم يصطدم مع رغباته وأشواقه ، بل تعامل معها تعاملًا إيجابيًا بناءً أساسه التهذيب والتشذيب ، وهدفه السمو بالإنسان إلى مستوى يناسبه ويشرفه ، ويتضح ذلك من الأمثلة التالية :

أ- تشريع الزواج واعتباره سنة حميدة وحث الذكور والإناث على الإقبال عليه ، وترغيبهم فيه بأساليب مختلفة لينعموا في ظله بالسكينة والارتياح ، وليتمكنوا عن طريقه من إنجاب ذرية طيبة صالحة ، تقرأ أعينهم وتثلج صدورهم وتحلفهم في إرثهم المعنوي كما تحلفهم في تركتهم المادية .

وتشريع الزواج في الإسلام استجابة نظيفة لما ركب في فطرة الرجل والمرأة معا من ميل كل منهما إلى الآخر، ولو لم يشرعه لاصطدم مع عنصر بارز من عناصر فطرة الإنسان، ولسبب للرجال والنساء كثيرا من الإرهاق والعنت.

ب- الاعتراف بالجمال كقيمة إيجابية محبوبة مرغوب فيها باعتبارها تجمل الحياة والأحياء، وتبث مشاعر الأُنس والسعادة في النفوس، وتحمل الإنسان على التفاؤل والأمل والارتباط بالحياة.

ويكفي لمعرفة موقف الإسلام من الجمال، التذكير بأن الرسول ﷺ لما قال له رجل: يا رسول الله إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسिला، ورأسي دهينا وشراكي نعلي جديداً... أفمن الكبر ذاك يا رسول الله؟ أجابه ﷺ بقوله: «لا ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق وازدري الناس»^(١) وأنه ﷺ مسح بيده على رأس أبي زيد الأنصاري ولحيته، وقال: «اللهم جمه وأدم جماله»^(٢).

ج- إباحة اللهو البريء، والغناء النظيف في أوقات السرور كأيام الأعياد وأيام الأعراس، ترويحاً عن النفس، وإعلاناً للفرح، وفي ذلك أحاديث عديدة، تدل على أن في دين الإسلام فسحة، وأن النبي ﷺ بعث بحنيفية سمحة.

د- إباحة الملذات والطيبات من الرزق، ليستمتع بها الإنسان ويشكر الله على فضله وإحسانه، ويتقوى بها على عبادة الله وطاعته، قال سبحانه:

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/٣٩٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/٧٧).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

[الأعراف : ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة : ٨٧] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا قال له ، إني حرمت الفراش ، فتلا هذه الآية وقال : «نم على فراشك ، وكفر عن يمينك»^(١) .

ودعي الحسن البصري إلى طعام ، ومعه فرقد السنجي وأصحابه ، فقعدوا على المائدة وعليها ألوان من الدجاج المسمن والفالودج وغير ذلك ، فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسن ، أهو صائم؟ قالوا : لا ، ولكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليه ، وقال : يا فريقد ، أترى لعب النحل ، بلباب البر ، بخالص السمن ، يعيبه مسلم^(٢) .

هـ- إباحة التملك واكتساب المال ، واتخاذ أسباب القوة ، لأن النفس البشرية مجبولة على حب ذلك .

قال رحمه الله : «الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله ، وأنفقه في حقه ، أثابه الله عليه وأورده جنته»^(٣) الحديث .

وقال رحمه الله : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ،

(١) «إرشاد الساري» للقسطلاني (١١ / ٨) .

(٢) نفسه .

(٣) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» ، وأحال على البيهقي في «شعب الإيمان» ، ورمز لصحته .

وفي كل خير»^(١).

٢- مراعاة الإسلام لظروف الإنسان وأحواله وتشريعه ما يناسب كل ظرف وكل حالة، حتى لا يكلف الإنسان بما لا طاقة له به، فيقع في الحرج وكل ذلك رحمة به، وتجاوبا مع طبيعته ومقتضيات فطرته.

ومن تجليات ذلك:

- ١- تشريع الرخص في الحالات الاستثنائية التي تستدعيها كالسفر والمرض.
- ٢- رفع الحرج، وتقرير مبدأ «المشقة تجلب التيسير» قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- ٣- تقرير مبدأ «الضرورات تبيح المحظورات»، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].
- ٤- تحكيم العادات ومراعاة الأعراف التي لا تصادم النصوص الشرعية، ولا تناقض روح الإسلام ومقاصده ومثله.
- ٥- مراعاة المصلحة، لدرجة أن قيل: «حيثما شرع الله فثمت المصلحة».

مقتضيات فطرية الإسلام وإسلامية الفطرة:

يقتضي كون الإسلام دين الفطرة، وكون الفطرة الإنسانية مهياة لفهم الإسلام، ومستعدة لقبوله، أمورا عديدة منها:

- ١- أن يكون الإسلام دين الإنسانية جمعاء، لا دين قوم دون قوم، أو

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه».

عصر دون عصر ، لأن تجاوبه مع فطرة الإنسان يجعله صالحا لكل إنسان ، وفي كل زمان ومكان . ولذلك كانت دعوته عامة لا خاصة ، وبعث رسوله ﷺ إلى الناس كافة ، وختمت به النبوة والرسالة .

٢- براءة الإسلام من الحجب والحوائل الثقافية التي تحول بين الناس وبين الاقتناع به والإقبال عليه ، لأن الثقافة منتوج إنساني نسبي يتأثر كثيرا بالقصور المعرفي ومحدودية الفهم والإدراك ، وضيق الأفق ، وحدة المزاج ، والنفور من الحوار وسماع الرأي الآخر ، فلم يكن مقبولا بحال ، أن يخلط بين ثقافة هذا شأنها ، وبين وحي أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لأن مثل هذا الخلط من شأنه أن يلبس الإسلام ثوبا غير ثوبه ويحجب عن الناس جماله وسماحته ورحمته .

وإذا أضفنا إلى هذه الحجب والحوائل ، أحوال كثير من المسلمين التي لا تبعث مع الأسف على الارتياح ، ولا تغري الآخرين بالإسلام ، بل تنفرهم منه ، لأنها لا تعكس صورته الفطرية الجميلة ، التي تمتع النظر وتقنع العقل ، وتبهر الوجدان إذا علمنا ذلك علمنا سر نفور من نفر من الإسلام ، وسر زهد من زهد فيه ، ويكفي أن نتذكر بمرارة قول أحد معتنقي الإسلام وقد رأى من المسلمين من لا يروق : « الحمد لله الذي عرفني بالإسلام قبل أن أعرف المسلمين » .

٣- أن يتجاوز الناس في التعامل مع الإسلام ، مستوى قبوله والاطمئنان إلى أحكامه ، إلى مستوى -الاهتداء أحيانا- إلى تلك الأحكام بفطرتهم السوية ، وقلوبهم السليمة ، ونفوسهم الخيرة .

وهذا المقتضى يزكيه ويرسخه حديث النواس بن سمعان ، إذ قال :

سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ، فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك » وفي رواية : « في نفسك » - « وكرهت أن يطلع عليه الناس »^(١) .

وحديث وابصة بن معبد ، إذ قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت نعم ، قال : استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك »^(٢) .

كما يزيكه ويرسخه ، تسمية الله تعالى لما أمر به معروفا ، نهى عنه منكرا ويسير في هذا الاتجاه ، قول ابن مسعود رضي الله عنه : « ما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحا فهو عند الله قبيح »^(٣) .

٤ - أن تكون الدعوة إلى الإسلام فطرية ، لأنها إذا لم تكن كذلك ، لا تحقق نتائجها المرجوة ، بل قد تؤدي إلى نتائج عكسية ، فيفسد الداعي من حيث يريد الإصلاح ، ويهدم من حيث يريد البناء والمعادلة لا تصح ، ولا تتناسب أطرافها وحدودها ، إلا إذا اشتركت الأطراف كلها في الفطرية ، فننقل فطرة الإسلام إلى فطرة الإنسان ، بفطرة الدعوة ، وبدون ذلك يحدث الخلل ويستعصي حل المعادلة ، وتفشل الدعوة .

(١) أخرجه مسلم في كتاب : البر والصلة والأدب من « صحيحه » .

(٢) أورده الإمام أحمد والدارمي في « مسنديهما » بإسناد حسن ، ورواه غيرهما .

(٣) « جامع العلوم والحكم » لابن رجب الحنبلي (ص ٢٤٠) .

وتتطلب فطرية الدعوة - من جملة ما تتطلب - :

أ- أن يقدم الداعي الإسلام إلى الناس فطريا صافيا نقيًا كما شرعه الله ، بعيدا عن الشوائب والزوائد ، لأن الإسلام أكمله الله ، وأتم به النعمة ، منذ نزل قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ١٢٥] والكمال لا يقبل الزيادة .

والحق أن الزيادات التي يلصقها البعض بالإسلام بحسن نية أو بسوء نية ، هي التي تجعل تكاليفه شاقة ، وتوجيهاته ثقيلة على النفوس ، وهي التي تنفر الناس منه إن نفروا ، لأنهم يشعرون أنها لا تتجاوب مع فطرتهم ، ولا تنسجم مع رؤاهم ومداركهم .

ب- أن يكون أسلوب عرض الإسلام على الناس أسلوبا فطريا مستمدا من الآية القرآنية الكريمة التي يجب أن تكون دوما رائدة الدعاة ، وهي قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وتتحقق فطرية أسلوب الدعوة إذا اتبع الداعي معالم الطريق التالية :

١- التزام اللطف والرفق واللين ، لأن من طبيعة الناس أن ينجذبوا إلى من يرفق بهم ويحترم مشاعرهم ، ولا يجرح عواطفهم ، وأن ينفروا ممن يعنفهم ويقسو عليهم ، ويعاملهم بالغلظة والجفاء ، ولذلك نوه الله ﷻ بلطف النبي ﷺ ولينه ورفقه بأمته ، فقال سبحانه : ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . والرسول

ﷺ هو قدوة الدعاة الفطريين كما أن سيرته الطاهرة مرجع ثمين للإسلام الفطري العملي السليم .

٢- مخاطبة الناس بما يفهمون ، أي مراعاة مستواهم العقلي والثقافي والإيماني في الموضوع وفي الأسلوب ، لأن الناس لا يتجاوبون تجاوبا إيجابيا إلا مع ما يفهمون ، ولا يفهمون إلا ما روعي فيه مستوى فهمهم ، ووضع في متناول إدراكهم ، قال علي عليه السلام «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(١) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة»^(٢) .

٣- التزام أسلوب التيسير والتبشير ، وتحاشي أسلوب التعسير والتنفير ، لأن الناس مفطورون على حب التيسير والميسرين ، والتبشير والمبشرين ، وكره التعسير والمعسرين ، والتنفير والمنفرين .

فالداعي إلى الإسلام إذا يسر وبشر أثر وأقنع وأفاد ، استجيب له ، وإذا عسر ونفر ، يقابل بالإعراض والنفور ، ولذلك نصح الرسول ﷺ المسلمين عامة ، والدعاة منهم خاصة ، فقال : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا»^(٣) ، وقال القسطلاني شارحا : «أي بشروا الناس أو المؤمنين ، بفضل الله وثوابه ، وجزيل عطائه ، وسعة رحمته ، ولا تنفروهم بذكر التخويف وأنواع الوعيد»^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب : العلم من «صحيحه» .

(٢) أورده مسلم في «صحيحه» .

(٣) أخرجه الشيخان .

(٤) «إرشاد الساري» (١/ ١٦٩) .

٤-الاقتصاد في الدعوة لأن الإكثار يرهق المدعوين ، ويلحق بهم السّامة والملل ، وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكر الناس باقتصاد ، فكلم في ذلك فقال : «ما يمنعني إلا كراهية أن أملككم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يتخولنا بالموعظة في الأيام ، كراهية السّامة علينا»^(١) .

إن هذه الفطرية التي يمتاز بها الإسلام ، وتعكس صفاء ونقاءه ، ورحمته وسماحته ، ويسره وسهولته ، ووسطيته واعتداله لتجعل منه ديناً عالمياً بامتياز .

* * *

(١) رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .

المحاضرة الخامسة والعشرون بعد المائة

سعادة الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد :

فإن موضوعنا إن شاء الله : سعادة الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

من عمل صالحا : جاءت على طريق الشرط والجزاء فالعبد يعمل العمل الصالح ، وجزاؤه من الله تعالى سعادة في الدنيا والآخرة . فلنحيينه حياة طيبة هنا ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون في الدنيا والآخرة .

ويوافق هذا المعنى في القرآن آيات كثيرة ، يقول الله ﷻ : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، فالطيبات والسعادة للمؤمنين في الدنيا مع غيرهم ، ولكنها في الآخرة خالصة لهم ، ويقول الله ﷻ : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَعًا حَسَنًا

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٣﴾ [هود: ٣].

ذكر الله سبب سعادة الدنيا والآخرة:

إن الله ﷻ يعطي الصالحين ثوابهم في الدنيا والآخرة: ﴿فَأُتْبِهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة: ٨٥]، هذا للآخرة. ولكن للمجاهدين المكافحين: ﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، لنا الحسنيان، لنا سعادة الدارين.

وإن الله ﷻ وعد المؤمنين بسعادة الدنيا والآخرة: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

والرسول ﷺ كان دائماً أو أكثر ما يدعو بهذا الدعاء: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». رواه الشيخان.

والرسول ﷺ كان يدعو بصلاح الدنيا والآخرة، روى مسلم، عن أبي هريرة، أن الرسول ﷺ كان يدعو كثيراً ويقول:

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، اللهم وأصلح لي آخري التي فيها معادي، اللهم اجعل الحياة لي زيادة في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

إن الرسول ﷺ كان يطلب صلاح الدنيا والآخرة، وهذا سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام رأى عز الدنيا فطلب صلاح الآخرة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾
[يوسف: ١٠١].

روى مسلم عن أنس أن الرسول ﷺ قال : «إن الكافر إذا عمل حسنة أخذ بها طعمة في الدنيا ، وأما المؤمن فإذا عمل حسنة فإن الله يدخر له من حسناته في الآخرة ، ويعقبه بها رزقا في الدنيا» .

وهكذا نجد أصول الإسلام سعادة الدنيا والآخرة ، وهكذا نجد مبدأ الإسلام العمل على السعادة في الدنيا والآخرة ، ليعيش الناس سعداء هنا وهناك ، ليقبل الناس على الخير ، ليضمنوا سعادة الدارين وإن أحلى سعادة الدنيا : البيت السعيد ، قال العلماء : «ومن حسنة الدنيا : المرأة الصالحة» .

وقال العلماء : إن البيت السعيد هو من حسنات الدنيا ، ومن سعادة الدنيا : البيت السعيد ، إنما يكون بالمودة والرحمة ، فإذا وجدت المودة والرحمة بين الطرفين كان البيت سعيداً .

قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] ، إن الآلة التي تدور ، أسطوانتان تدوران تحتاج إلى زيت في الوسط ، لأن الاحتكاك يولد شرارة ، ويولد حرارة ونارا . والزيت يمنع هذه الشرارة . ويمنع هذا الاحتراق ، وما قيمة الزيت بالنسبة للآلة .

إن الزيت ثمنه سهل بالنسبة للآلة ، إنه مهم جداً : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ ، جعل بين الأسطوانتين ، بين المحور والعجلة التي تدور هو المودة والرحمة ، ليسهل الدوران . يسهل الدوران ويمنع الاحتكاك ، ويمنع الشرارة : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ، إذا كان الله قد جعل المودة والرحمة

فلماذا امتلأت المحاكم بالخصومات والشقاق والطلاق ، ما دام الله قد جعل بينهم المودة والرحمة . كلمة «جعل» في القرآن تأتي بمعنيين ، جعل بمعنى شرع . وجعل بمعنى حتم الوجود .

فإذا قلنا في الآية : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، حتم وجود الظلمات والنور . جعل هذه كونية . وإذا قلنا في الآية : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ [النحل : ٨٢] ، كل شيء له ظل ، هذه كونية حتم وجودها .

وإذا قلنا في الآية : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٩٧] ، يقوم بها الناس لأن مادة قام في القرآن ، أكثرها بمعنى النظام : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] ، تقوم تنتظم : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] ، ﴿ وَلَا تَتُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ [النساء : ٥] ، يعني نظامًا .

فالله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا ينتظم بها أمر الناس ، فإذا ما اجتمع الحجاج هناك من كل بلد إسلامي فإن لهم كلمة ومؤتمرًا إسلاميًا عامًا ، لأنه لا يحج إلا أصحاب العقول ، وأصحاب الصواب ، عليه القوم ، هؤلاء لهم كلمة مسموعة ورأي نافذ ، لو اجتمعوا هناك لمؤتمر إسلامي لكانت له كلمة تهز هذه البلاد ، وتجعل من رؤساء البلاد طائعين للخير ، منفذين للخير : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ ، ولكننا نجد الحج الآن نسكا وعبادة فقط بدون القيام لأمر الناس ، ما عملوا مؤتمرًا إسلاميًا ، ولا تكلموا في إنقاذ الدول الضعيفة .

إذا وصلنا إلى أن جعل بمعنى شرع . كالفاكهة التي عند الفاكهي مجعولة وموضوعة لمن يدفع ثمنها ، لمن يحاول أن يأخذها ، فكذلك عندنا في هذه الآية : ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم : ٢١] ، موجودة لمن يدفع ثمنها ، لمن يحاول أن يأخذها .

وهذه المودة والرحمة هي أساس البيت السعيد . وإن كلا من الزوجين يدعي الجمال في نفسه ، ويطلبه في زميله ، فالزوجة تدعي الجمال وتطلبه في زوجها . والزوج يدعي الجمال ويطلبه في زوجته ، ولكن كلمة الجمال تحتاج إلى أن يكون بعدها كامل ، جمال حسن عشرة = كمال .

جمال أدب = كمال . جمال تفاهم = كمال . إذا كلمة جمال تحتاج بعدها إلى زائدة لتكملها فيوجد كمال .

لاحظ هذا المعنى ، أبوطالب عم الرسول ﷺ وهو يمدح محمدًا الصبي . وذكر قصيدة طويلة فيها مدح محمد النبي ، يقول أبوطالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمالى اليتامى عصمة للأرامل

أبيض جميل ولكن أباطالب النبيه العاقل ، جعل مع الجمال زائدًا وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ، ينزل المطر ببركاته ثمالى اليتامى درة اليتامى وبقيتهم ، عصمة للأرامل ، ينفع الأرامل ويعولهم ويقوم بشأنهم ، لاحظ هذا المعنى البوصيري في مدح رسول الله ﷺ حيث يقول :

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم
منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

لاحظ هذا المعنى البراء بن عازب ، روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : كان النبي محمد ﷺ أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً .

لاحظ هذا المعنى محمد ﷺ حيث قال فيما رواه الإمام أحمد : « اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي » .

قدسية الحياة الزوجية :

بهذه الأسس نرى أن الجمال يحتاج إلى شيء بعده ، وهو حسن العشرة . حسن التفاهم ، حسن المودة والرحمة بين الزوجين ، لا من هنا ولا من هنا ، وإنما بينهما ، من الأكمل منهما ، من الأكثر كرمًا ، هو جعل بينكم مودة ، ورحمة .

وإن الله ﷻ قدس الرابطة الزوجية وجعلها رباطاً مقدساً . والتقديس وحده لا يكفي فلا بد من الصيانة مع التقديس .

إذا كانت لديك سيارة غالية ، لابد لها من صيانة ... فالله سبحانه وتعالى عندما قدس الرابطة الزوجية صانها من التلاعب ، وجعل الله التلاعب بالرابطة الزوجية هزواً بكتاب الله : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

﴿ وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣١] ، ويذكر في آية الطلاق في سورة البقرة ، وسورة النساء ، كل آية فيها واتقوا الله . يذكر كلمة واتقوا الله . صيانة لهذه الرابطة الزوجية .

والرسول ﷺ سمع رجلاً يقول : يلزمني طلاق امرأتي . فقام الرسول من المجلس وقال : «أتلعبون بكتاب الله وأنا بين ظهرانكم؟»^(١) فالرسول ﷺ يرى أن كلمة الطلاق ، والحلف بالطلاق ، وجعل المرأة عرضة لتوثيق الكلام ، يرى أن هذا تلاعبا بكتاب الله ﷻ .

ومن تقديس الله ﷻ للرابطة الزوجية أنه يعبر عنها بكلمة خاف :
 ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾
 [النساء : ٣٥] ، ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء : ٣٤] ،
 ﴿وَأِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء : ١٢٨] ، ﴿وَلَا تَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

فكلمة خاف في هذه الآيات معناها الإسراع بالعلاج قبل أن يستفحل الأمر . وقبل أن يثور الزوجان . المبادرة بالعلاج ، والمسألة سهلة يمكن علاجها ، أما أن نسكت حتى تستفحل الأمور . هذا خطأ . من المسؤول؟ أنا ، وأنت ، والجيران ، الأهل ، الأقارب ، لا نقعد متفرجين ولا نقعد نظارة .

بل إذا بلغنا أن هناك بوادر شقاق بين زوجين وجب على الأهل أن يتدخلوا : ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ ، لم يقل وإن علمتم بوجود الشقاق

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٣٤٠١) ، وفي «الكبرى» (٥٥٩٤) عن محمود بن الربيع . وصحح إسناده ابن التركماني في «الجوهر النقي» (٣٣٣/٧) ، وجوده ابن كثير ، كما نقل الشوكاني في «النيل» (١١/٧) .

فعلا ، وإنما عبر بقوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لنبادر بالإعداد .

هذا من تقديس الله ﷻ لهذه الرابطة الكريمة المقدسة ، يد الله على يد المتعاقدين ، والله ﷻ حين قدسها صانها ، وقبل أن أبدأ في موضوع سعادة البيت أضع أمامي نقطا هامة أربعة ؛ وهي :

يقول الرسول ﷺ : «خير النكاح أيسره»^(١) .

ويقول : «أقلهن صداقا أكثرهن بركة»^(٢) . وخطب رجل قرشي امرأة . فبعد تمام الخطبة قال لأهلها : أريد أن أشرط لنفسي آتوني بها فجاءوا بها ، فقال لها : لك عندي ما تشائين من رغد العيش ولكن في غير سوء خلق . فأجابته القرشية النبيهة وقالت له : وإن أسوأ خلقا منك لمن يحوجك إلى سوء الخلق إني إذا اضطررتك إلى سوء الخلق أكون أنا أسوأ خلقا منك ، وهكذا عاشا بالتفاهم ، إذا اشتدت هي لان هو ، فقال لها :

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورة حين أغضب
ولا تنقريني نقرك الدف مرة فإنك لا تدريين كيف المغيب

إن الدف هذا ساكت صامت لا يدوي ولا يهدر إلا إذا ضربناه ، إذا وضعناه سكت ، إذا ضربناه دوى . فكذلك الرجل سيئ الخلق إذا نقرته إذن بدأت تضع على النار حطبا ، إذا بدأت تقول كلمة وهو يقول كلمة يدوي ذلك الدف ، ها هو يقول لها :

- (١) أخرجه أبو داود (٢١١٧) وغيره عن عقبة بن عامر . وصححه ابن حبان (١٢٥٧) .
وإسناده كلهم ثقات على شرط مسلم . وله شواهد كثيرة عن غير واحد من الصحابة .
(٢) أخرجه أحمد (١٤٥/٦) ، والنسائي في «الكبرى» (٩٢٧٤) وغيرهما عن عائشة .
وصححه الحاكم (١٩٤/٢) على شرط مسلم . وجود إسناده العراقي كما في تحريج «الإحياء» (٣٣٢/٢)

ولا تنقريني نقرك الدف مرة فإنك لا تدريين كيف المغيب
عاشا في تفاهم وعاشا على أساس التفاهم .

البيت السعيد مدرسة :

هذا والبيت السعيد مدرسة . وكل مدرسة لها عنوان ، فيقولون مدرسة النهضة ، مدرسة رقي المعارف ، فكل مدرسة لها عنوان تعتر به ، عنوان المدرسة ، البيت السعيد ، قرة العين ، أي راحة البال ، هدوء خاطر ، اطمئنان النفس .

سكن الهدوء ، عبر الله عنه بقرة العين . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ .

فالزوجة تعطي زوجها قرة العين . والزوج يعطي زوجته قرة العين ، لأن كلمة زوج تصلح للذكر والأنثى ، ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ الولد المؤدب يعطي والديه قرة العين . فقرة العين هي عنوان مدرسة البيت السعيد . وهذه المدرسة ندرس فيها خمسة علوم :

الحنان والرعاية :

العلم الأول : الحنان والرعاية ، فإذا وجدا في البيت بدأنا ندخل في سعادة الدنيا ، الدليل على ذلك : روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «خير نساء ركن الإبل ، صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده» .

نساء قريش هذه العلة تكون مع المعلول وجودا وعدما ، فكل امرأة حانية على الصغير ، راعية لزوجها وليته تكون من خير نساء المسلمين ،

ورواه الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله بلفظ: «خير نساء ركنن الإبل، نساء قریش أحناه على ولده في صغره، وأرأفه بزواج على قلة ذات يده» .

فالمرأة التي تساعد زوجها على الزمان، وترأف به فلا تكلفه مالا، ولا تتشبت معه في مسألة النفقة، ولا تقول له هات هات، وإنما تساعد مع مهمات على الزمان، وبحسن تدبيرها تجعل من القليل كثيرا، هذه لها الخيرية والأفضلية، وليست الرعاية والحنان قاصرتين على المرأة فقط، إنما الرجل كذلك يرعاها ويعطيها الحنان .

في «الصحيحين» عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته» .

فالرجل راع ويعطي الحنان أيضا .

التعاون بين الزوجين:

العلم الثاني: الذي يدرس في البيت، في الهممة والتعاون، تعاون بين الزوجين، كان الرسول ﷺ في مهنة أهله، لا يتكبر، فالتعاون بين الزوجين في رفق ودلال، يصور الرسول ﷺ رجلاً جاء متوضئاً وعلى أصابعه بعض قطرات الماء، وفي الليل، وأراد أن يوقظ زوجته . فهو يصرخ فيها ولا يهزها بعنف، وإنما يوقظها برفق فإن أبت نضح بقية قطرات الماء التي على أصابعه في وجهها، وكذلك من حق الزوجة أن تفعل ذلك .

روى أبو داود عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «رحم الله رجلاً قام

وأيقظ زوجته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، (فتقوم مبتسمة في دلال وتعاون ورفق) ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت فأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء .

وهكذا نجد التعاون في الصلاة ، وفي طاعة الله برفق ودلال . لا يصب الماء صبا وإنما هي قطرات الأصابع ، بقية الوضوء إن كان لم يحققه هذا ، دلال في رفق ، وتعاون في رفق . الرفق إذا دخل بيتا كان علامة على رضا الله على أهل ذلك البيت : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] ، ونحن لا نعرف مراد الله فينا ، ولكن الله أعطانا علامات نعرف بها إن كان الله أراد بنا الخير أو غير الخير .

روى الإمام أحمد عن السيدة عائشة أن الرسول ﷺ قال لها : «يا عائشة ارفقي ، فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيرا ، أدخل عليهم الرفق» ، وفي رواية : «إذا أراد بأهل بيت خيرا دلهم على الرفق» .

فعلمة رضا الله ﷻ على أحد أن يكون فيهم رفق . والرفق ما كان في شيء إلا زانه وحسنه ، ومن أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الخير كله . الرفق الهين اللين .

سمعتم في الصناعة أن بعض الدول اخترع نوعا من القماش لا يحترق بالنار ، يلبسه رجال المطافئ ويخوضون به النار ومعهم أوكسجين التنفس هذا النوع من القماش عجبا ، بالصناعة ترقى وتخدم الدين .

إن الرسول ﷺ يقول : «ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه

النار- هناك أجساد ضد الاحتراق ، مصونة من نار جهنم- قالوا : بلى .
قال : كل هين لين^(١) . سهل . الرفيق الهين ، اللين السهل ، القريب
الرضا . هذا يحرم على النار . حتى لو رمي فيها ، النار تبتعد عنه ، وجسمه
غير قابل للاحتراق . هذا من الرفق «بالتي» .

ويعجبني كلمة «بالتي» اصبر . وجاءت كلمة بالتی في القرآن في بيان
السمو وحسن الاختيار لما هو أحسن . فكلمة بالتی هذه ، فيها سمو
وصعود ، لأن الله يقول : ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون : ٩٦] ، واختيار
الأحسن علامة الذكاء والفهم : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
[الإسراء : ٥٣] ، حتى في الكلام تختار الأحسن ، كما أنك تختار من الكلمة
أحسنها ، من الملابس أحلاها .

فكذلك أنت تختار من الكلام أحسنه : ﴿قُلْ لِعِبَادِي﴾ ، أضافهم إليه
تشريعاً ، يختاروا الكلام اختياريًا ، لماذا؟ لأن الشيطان إذا أراد أن يوقع
شخصاً في ورطة سلطه على الذي هو أوحش . على الكلمة التي هي
أوحش . على الكلمة النابية ، ليرجموا بالكلام رجماً ولا يحسنوا اختيار
الكلام ولا انتقاءه .

هذا عمل الشيطان : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء : ٥٣] ،
بتسليطهم على الكلمة السيئة . ينزغ ، لماذا؟ إن الشيطان كان -من أول
آدم- للإنسان عدواً مبيئاً .

﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون : ٩٦] ، ﴿وَلَا تَسْتَوِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨) وغيره عن ابن مسعود . وقال : حسن غريب . وصححه
ابن حبان (٤٦٩) .

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٣٤﴾ [فصلت: ٣٤]، حتى في الوعظ: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهكذا نجد كلمة بالتي تشير إلى الصعود والسمو، تشير إلى حسن الاختيار. وحسن الاختيار دليل الذوق.

فالرفق إذا دخل في بيت دل على أن الله ﷻ يحب أهل هذا البيت، ومن العلوم التي تدرس في البيت.

العتاب الرقيق بين الزوجين:

العلم الثالث: حسن العتاب، العتاب الرقيق يأسدة والعتاب الرقيق فن، بعض الناس يأتي ينصح فيجرح. يعاقب فيقلبها مشكلة، يعاتب فتصير العاقبة عراقًا ومشكلة.

أكثر المشاكل عندنا منشؤها العتاب، لأننا لسنا فنيين في العتاب، يعاتب فيقسو ويجرح.

ولكن الرسول محمدًا ﷺ أعطاه الله أرقى أنواع الفن الراقي حتى في العتاب كان ﷺ في المحراب أكرم عابد وفي الحرب أعظم قائد وفي العتاب أحسن معاتب، أوتي من كل شيء أحسنه.

اسمعوا عتاب الرسول ﷺ في جوف الليل، قالت السيدة عائشة للرسول ﷺ: أنت تكثر الذهاب إلى بيت زينب وتسقيك العسل، فأرضاه الرسول وقال لها: «حرمت علي العسل عند زينب، لن أشرب العسل عند زينب»

بعدها ، ولكن هذا سر بيني وبينك يا عائشة ، قالت : نعم .

وخرج الرسول ﷺ لصلاة الصبح ، بينما هو بالمسجد خرجت السيدة عائشة إلى بيت السيدة حفصة ، وصلت الباب ودقت ، وقالت لها : اقفلي الباب ، الرسول حرم على نفسه غسل زينب .

والرسول بالمسجد نزل عليه جبريل : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١] قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿[التحریم : ١ ، ٢] .

ثم أخبر جبريل رسول الله بأن عائشة أفشت السر ، فعاد الرسول بعد صلاة الصبح إلى البيت وقال لها يا عائشة : «الذي بيني وبينك ذاع» من أخبرت به . قالت من أنباك؟ الله . وسكت لم يستقص منها ، ولم يقل لها : أنا تزوجتك وأحببتك ولم يعد لها على أصابعه ، وإنما أظهر بعضه وأعرض عن بعض .

حكى الله ﷻ هذا الموقف الجميل لين العتاب وقال : ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم : ٣] .

فحلاوة العتاب أن لا تستقصي ، لا تأتي بالكلام ، ألفها إلى يائها . الحر تكفيه المقالة . . . في عتابك كن رقيقا تكسب صديقك وزميلك وعشيرك ، في البيت رقة العتاب ، كما جاء في الخبر : «الاستقصاء شؤم»^(١) فمن استقصى في العتاب وجاء بالمسألة من ألفها إلى يائها ، وسع الهوة ، وضعى الرابطة المقدسة التي قدسها الله ﷻ .

(١) انظر : «فيض القدير» للمناوي (١ / ١٥٦) .

صحيح . ويبقى الود ما بقي العتاب ، ولكن أي عتاب؟ العتاب الرقيق .
وروى البخاري أن النبي ﷺ كان لا يزيد في العتاب على أن يقول : « ما له
ترب جبينه » ، وكان لا يواجه أحدا بالعتاب . بل يقول : « ما بال أقوام
يفعلون كذا » .

إن العتاب الرقيق فن ونرجو أن نكون فنيين في عتابنا ، لا نجرح ولا
نعاند ، إن الرجل إذا عاند في بيته وحلف وجئنا نصلحه يقول حلفت ، نقول
له إن إصرارك على الحلف أشد إثما وأكثر إثما من عودك إلى الخير . روى
مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ يقول : « لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله
أثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي فرضها الله عليه » . رقة العتاب فن هام
وعلم يجب أن يدرس في كل مدرسة بيت . ومما يدرس في البيت .

الصدق :

العلم الرابع : الصدق بين الزوجين : الصدق يا سادة ، شاع بين الناس
أن الرجل يحل له أن يكذب على امرأته ، من أين هذا؟ ومن أين جاءت
هذه الإشاعة . روى الإمام مالك عن صفوان بن سليم الزهري رحمته الله أن
رجلا قال : يا رسول الله ، أكذب على امرأتي؟ قال الرسول : « لا خير في
الكذب » ، فقال الرجل : فأعدها وأقول لها . فقال الرسول « لا جناح عليك
إذا كان وعد المؤمن » .

وعلى هذا الأساس نجد أن الرسول حرم كذب الرجل على المرأة ، من
أين جاءت هذه الإشاعة بين الناس ، واغتصبها الرجل لنفسه؟ إذا كان
يجوز للرجل أن يكذب على المرأة فيجوز للمرأة أن تكذب على الرجل .
ولكن الرجل اغتصبها وقال : الكذب على النساء حلال . من أين هذا؟

هناك حديث في البخاري نريد أن نفهمه ، روى الشيخان عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً أو ينمي خيراً» ، ينمي يعني يذيع ، قال ابن شهاب : وقالت أم كلثوم وما سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يرخص في شيء مما يقول الناس كذباً إلا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها» .

في الحرب : هذه خطة حربية سر مصون .

في الإصلاح بين الناس ينمي خيراً لا يكذب ، لا يخترع كلاماً يقول خيراً أو ينمي خيراً .

وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها . ما هذا الحديث؟ الرسول ﷺ جاء بها كناية ملفوفة في ورقة . والسيدة أم كلثوم بنت عقبة جاءت بها كناية ملفوفة في ورقة . متى يكون حديث الرجل مع امرأته؟ في الحجرة المغلقة وقد أرخيت ستائرهما ، فالرجل يحدث امرأته ويمدح جمالها ويشني عليها ، والغواني يغرنه الثناء .

وهي تمدح عزمه وقوته وغناه ورجولته . والرجل كالحمل الشرود ، ولكنه يقاد بلمسة حنان . هذا هو حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها .

فما بال الرجل اختص بها نفسه ، إن كلمة حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها كناية مستورة وستبقى مستورة ، يجوز أن يكون الرجل تورط في زيجة ، ورزق أولاداً ، وبنى عشاً وبيتاً . ولكنه يعود فيعض أصابع الندم ويقول : ما كانت لي هذه . أو هي أيضاً تعض أصابع الندم وتقول ما كان

لي هذا ، هؤلاء ندلهم على علاج وهو المغالطة ، المدح والثناء بصورة نسبية يكون فيها مغالطة . بدل أن يقعد ودموعه تنهمر مرة ويتجمد أخرى ، يتحسر على ما مضى ويقول ليت ، ولو كان يصارحها أو تصارحه بدل هذا كله ، نوصي كلا منهما بالحديث المطلي من الظاهر ، حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها ، وصف ذلك المتنبي فقال :

الحزن يقلق والتجمل يدرع والدمع بينهما عصى طبع
يتنازعان جفون عين مسهد هذا يجيء فيها وذاك يرجع
تصفوا الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها ويتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلبا للماحل فتطمع

فالذي يغالط نفسه بالرضا بالأمر الواقع : والجمال شيء صناعي ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] ، بهذه المغالطة يمكن أن يعيشا بحب ووثام .

أما أن يكاشفها أو تكاشفه بالكره والكرهية التي في القلب هذا غلط . روي أن رجلا من التابعين اسمه ابن أبي عذرة ، كان كثير الزواج ، كثير الاختلاع والطلاق من نسائه ، فشاعت له شائعة فعاتبه أمير المؤمنين عمر . فأراد ابن أبي عذرة أن يبرئ نفسه ، فأخذ عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ابن وهب ، أخذه معه إلى البيت ، ونادى ابن أبي عذرة امرأته وسأل امرأته وقال لها أنشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت : لا تستحلفني بالله قال : أناشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت له : نعم ، اكتفى بهذا وذهب إلى عمر وأراد أن يبرئ نفسه . فأرسل إليها عمر . فجاءت هي وعمتها . فلما وصلت سألها عمر : أنت التي تحدثين زوجك أنك تبغضينه ، إذا كانت إحداكن

لا تحب أحدنا لا تحدّثه بذلك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنا أول من تاب ، إنه أخرجني وناشدني الله واستحلفني بالله فقلت الحق أكذب يا أمير المؤمنين؟ قال عمر : نعم فاكذبي . عمر يبين لها حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها . المغالطة من الظاهر حتى يعيشا . قال لها عمر : نعم فاكذبي ، إنما يتعاشر الناس بالإسلام والأحساب .

فالرجل والمرأة يتعاشران برابطة الإسلام المقدسة . وبالأحساب وكرم الآباء والجدود . وهكذا نجد أن الصدق ضروري في البيت السعيد ، فإذا ما أردنا أن نعلم البيت السعيد برنامجا خاصا فنبدأ الخطوة الأولى بوجوب تعليم الأولاد ، وثواب تربية الأولاد وتهذيبهم .

تعليم الأبناء وتأديبهم :

يقول الرسول ﷺ : «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»^(١) ، ويقول : «ما نحل والد ولدا من نحل ، أفضل من أدب حسن»^(٢) ، ويقول : «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع»^(٣) ، هذه هي ميزة من يؤدب أولاده ، وتأديب الأولاد طبيعة ، ولنا عليها ثواب في الدنيا والآخرة . نعم الإله على العباد كثيرة وأجلها نجابة الأولاد .

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧١) ، والخطيب في «التاريخ» (٢٨٨ / ٨) وغيرهما عن أنس .
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤ / ١) ، والحاكم (٢٦٣ / ٤) وقال : صحيح الإسناد . والخطيب في «الموضح» (١٦٦ / ٢) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣ / ٢٢٦ / ٢ و ١٧ / ١٩٨ / ٢) من طريق أيوب بن موسى عن أبيه عن جده .
(٣) أخرجه الترمذي (١٩٥١) ، والحاكم (٤٦٢ / ٤) ، وأحمد (٩٦ / ٥ و ١٠٢) وغيرهم عن جابر بن سمرة .

لا أقول الأولاد الصبيان فقط فالبنت من الأولاد . يقول الرسول ﷺ فيها رواه ابن عباس قال : «من كانت له أنثى فلم يتدها ولم يمتها ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله الجنة»^(١) .

ويقول الرسول ﷺ : «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين»^(٢) ، ويقول الرسول ﷺ : «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو بنتين ، أو أختين ، فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن ، فله الجنة»^(٣) .

وإن تربية البنت إحسان للجيل القادم ، نريد أن ينشأ الجيل القادم أحسن منا وأرقى .

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

أعددت جيلا جديدا تصاهر بها الكرام ، وتعلمها الخلق الكريم فتسعد بها أسرة . وترعى بنتك التي ربيتها فترضع من الخلق الكريم جيلا جديداً ، والرسول ﷺ يقول : «الرضاع يغير الطباع ، لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء إن اللبن يعدي»^(٤) ، إذن رضاع الأم ولدها يقوي من

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣/١) ، وأبو داود (٥١٤٦) ، والبيهقي في «الشعب» (٤١٠/٦) عن ابن عباس . وصححه الحاكم (١٩٦/٤) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣١) عن أنس .

(٣) أخرجه الترمذي (١٩١٦) ، وأبو داود (٥١٤٧) ، وأحمد (٣٠٣/٣) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص ١٤) ، والحاكم (١٧٧/٤) وغيرهم من طرق عن غير واحد من الصحابة منهم : جابر وأبو سعيد وأبو هريرة وعقبة بألفاظ مغايرة يصح بمجموعها . ولذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي وأقرهما المنذري في «الترغيب» (٨٥/٣) .

(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٣٤) عن جابر مرفوعاً .

طباعه أحسن من أمه ، فللرضاعة أثر كبيرة . فإذا رببت بنتك على الخلق الكريم . فقد ساعدت على تكوين جيل جديد على الخلق الكريم ، وإن العرب كانوا إذا رأوا شخصاً فارساً مغواراً ، خطيباً ، فصيحاً ، محارباً ، قوياً . وأرادوا أن يمدحوه يقولوا : لله دره ، أي لله اللبن الذي رضع ، فينسبون شجاعته أو فصاحته أو فروسيته للبن الأم الأول ، فإنك إذا رببت بنتك على الخير ستنشئ جيلاً جديداً على الخير . وهكذا نجد تربية الأولاد والبنات لإنشاء الجيل الجديد ، للمساعدة على رقي الإنسانية إلى ما هو أحسن .

الصلاة من أول الدروس العملية للأبناء :

ونعود أولادنا على الصلاة تعويداً . يقولون وزارة التربية والتعليم ، المدرسة وحدها لا تكفي . . . لأن التعليم إلقاء الكلام ، معلومات تلقى فهذا لا يكفي فلا بد للمعلومات من تربية ﴿ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، قال ابن عباس : الرباني هو الذي يبدأ بصغار المسائل قبل كبارها .

الأسلوب التربوي كما يقولون ، فإله سبحانه وتعالى أراد أن يعلم الجيل الجديد والأولاد بصغار المسائل قبل كبارها . لا نقول له العشاء عشر ركعات ، شفع وتر وسنة . لا بل نأخذهم بالسهل الأول ﴿ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ .

فإله ﷻ حينما أراد أن يعلمنا أن نربي أولادنا على الصواب جاء بحرف . حرف من حروف الهجاء ، يقول الله ﷻ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] ، اصطربر صبر ، من أين جاءت الطاء . كل فعل

تزيده التاء يدل على المحاولة، جمع، اجتمع الناس، فالتاء إذا جاءت في الفعل دل على المحاولة وعلى المعاناة.

فالله تعالى أراد أن يجعل من الصبر تربية وتنمية فزاد التاء. فصار اصتبر. ولكن الصاد غليظة والتاء رقيقة ولا يناسب أن تنتقل من غليظ إلى رقيق، فقلبت التاء طاء لتناسب غلظة الصاد الطاء فقال: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَأُمُرْ أَهْلَكَ﴾ هذا إلقاء للمعلومات ومحاولة بالتربية.

فلا يكون الأمر بالصلاة فقط وإنما بالمحاولة، أي توضاً معي، صل معي. نجلس سوياً. محاولات مع الأسرة والأولاد. بالتربية بالأسلوب التربوي وبين ذلك بالتاء قلب طاء. زادها في الفعل. ومدح الله سيدنا إسماعيل فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر»^(١).

إذن مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع، لا تنزعج يا بني فالرسول لم يأمر

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٢٥٩/٢) والدارمي (٣٣٣/١)، والحاكم

(١/٢٠١)، وأحمد (٣/٢٠١) وغيرهم من طرق عن سبرة.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي.

وأخرجه أبو داود (٤٩٥، ٤٩٦)، والحاكم (١/١٩٧) والبيهقي (٧/٩٤)، وأحمد

(٢/١٨٧) وغيرهم عن ابن عمرو.

بضربك أنت . إنما أمر بضرب من يكره النظافة ، نظافة الوضوء ، الطفل الذي يكره النظافة في العينين ، الطفل الذي يكره الوقفة الرياضية ، والنظام ، والنظافة ، ويكره مناجاة الله ، الطفل الكاره للخير هو الذي يضرب ، أما أنت يا بني فأنت تحب النظافة والنظام ، وتحب الوقفة الرياضية ، وتحب أن تناجي مولاك . فالتعويد على الصلاة من الأبوين ، تعويد قبل أن يكون إلقاء للأوامر .

القوامة:

من الخطوات الإيجابية في البيت أننا نعتقد أن البيت شركة ، نجعل في مفهومنا أن البيت شركة أمكننا أن نتفاهم . وكل شركة لها مدير إدارتها من المدير؟ أكثرهما عقلا . أوفرهما جرأة ، أقواهما على الكسب ، فليكن .

تختار المدير بميزاته وأهليته ، ولأعضاء الشركة أسهمهم ، ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ [النساء: ٣٤] .

فإذا كان عضو من أعضاء الشركة قليل العقل ، فعلى المدير أن يتحمله ، لأن قلة عقل هذا جعلت هذا مديرا . ولو كان هذا وهذا في مستوى عقلي واحد لتنازعا الإدارة .

ولكن الله ﷻ جعل المدير راقي العقل ، لأن يتحمل قليل العقل قليلا . وهكذا نرى أن لكل شركة مديرا . شأن الحياة العملية عندنا ، وكل شركة فيها أمانة ، نجد الله ﷻ مراقبا عليها ، تمد الشريكين بالأسهم ، وعند القسمة لا يقسم على الشركاء ، «أنا الله ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما

صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه خرجت من بينهما»^(١)، وروى الدارقطني أن الرسول ﷺ يقول: «يد الله على الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه رفع الله يده عنهما».

فالزوجان شريكان في بيت، يحاولان تسيير السفينة بخير وعلى خير، ويد الله على الشريكين بالنماء والخير، والتوفيق، والتيسير والبركة، ما لم يخن أحدهما صاحبه. إذا خان أحدهما صاحبه رفع الله يده عنهما.

أيها الرجل، وأنت الرجل يامدير الشركة، وكل مدير للشركة مسؤوليته، يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لأهله»^(٢).

أيها الرجل يقول الرسول: «كفى بالرجل إثماً أن يضيع من يقوت، أو كفى بالرجل إثماً أن يحبس عن يملك قوته»^(٣).

أيها الرجل لا تأكل خارج البيت وتترك عيالك جيعاً كلوا سوياً، اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه. أيها الرجل وأنت رجل أرأيت ديك الدجاج حين يتعفف عن الطعام ويطعم دجاجته ثم يرفع جناحيه وكأنه

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨٣)، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢). وأخرج الشطر الأول منه أبو داود (٤٦٨٢)، والحاكم (٣/ ١)، وابن حبان (١٣١١). عن أبي هريرة. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي.

(٣) أخرج اللفظ الأول أبو داود (١٦٩٢)، والثاني مسلم (٩٩٦) من طريقين مختلفين عن ابن عمرو.

يعتز بأنه مدير . أيها الرجل إنك في رجولتك لا بد أن تعطي رمزا جميلا لهذه الإدارة .

روى مسلم عن ابن شريح أنه سأل السيدة عائشة وقال لها : بم كان يبدأ الرسول إذا دخل بيته ، بعضنا يخلع ملابسه ولكن الرسول كان إذا دخل البيت قالت عائشة بدأ بالسواك نظف أسنانه ، نظف فمه ، طيب رائحة فمه ، ويعد هذا كناية مستورة ، لا نكشفها .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ لما زوج أنس بن مالك أوصاه وقال له : «يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم يكن بركة عليك وعلى أهلك»^(١) ، السلام عليكم ، وفي كلمة السلام شروع في ابتسامة ، مبدأ ابتسامة . وهذه أيضًا كناية مستورة لا نكشفها ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه يأخذ من لحيته من هنا ومن هنا قليلا وينظمها فليل له لماذا يا ابن عباس؟ فقال : أتجمل لامرأتي كما أحب أن تتجمل لي .

وهكذا أيها الرجل نريد من الرجل أن يثبت رجولته . أيتها السيدة هذه الدنيا على ما فيها متاع . وخير متاع الدنيا أنت أيتها السيدة الصالحة : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِبَتْنَ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء : ٣٤] . ما معنى قانتات؟ إن القنوت رفع اليدين ، فالمرأة عضو في الشركة ، والشركة لها مدير ، وعضو الشركة يخضع لرأي المدير إذا كان الرأي ناضجا . فالصالحات قانتات خاضعات لرأي المدير العاقل ، أنت أيتها السيدة .

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» .

(١) سبق تخريجه .

أيتها السيدة أنت كنز أغلى من الكنز ، لما نزلت آية الكنز : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٣٤] .

ضاق الصحابة من رأس المال ومن جمع المال ، فأرادوا أن يتركوا الذهب والفضة . فسألوا رسول الله : يا رسول الله لو علمنا أن المال خير لادخرناه ، وقد نزلت آية الكنز . فقال رسول الله : «أفضل المال لسان ذاك ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه»^(١) .

روى ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنه سأل رسول الله عن آية الكنز فقال : يا رسول الله ماذا نفعل بالمال وقد نزلت آية الكنز : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ هذه حيرة كل المسلمين الآن في هذه الحيرة ، الرأسمالية ، الاشتراكية ، الشيوعية ، الرأسمالية المتطرفة وهذا سؤال دار في خلد عمر ، فسأل الرسول ، فقال الرسول لعمر : يا عمر كل ما أدبت زكاته فليس بكنز ، هذه مائة أخرجنا منها ٥٪ فما بقي منها طيبة .

قال الرسول ﷺ لعمر : «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم ، وإنما فرض الله الموارث لتكون الأموال لمن بعدكم»^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٣) ، وابن ماجه (١٨٥٦) ، وأحمد (٢٧٨/٥ و ٢٨٢) ، والحافظ ابن حجر في «الأحاديث العليات» (رقم ١٥) عن ثوبان مرفوعاً . وقال الترمذي : حديث حسن . وقال الحافظ : وله شواهد رواها ابن مردويه وغيره .

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٦٤) ، والحاكم (٤٠٨/١ - ٤٠٩) وغيرهما عن ابن عباس . وقال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين» ! ووافقه الذهبي ! وأقره الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣٥١/٢) . وقال الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء» (٣٦/٢) : «سنده صحيح» .

فقال عمر: الله أكبر، الله أكبر، ورفع عمر بها صوته وجهر بها كالمؤذن ويقول ما لعمر يكبر عن هذا الكلام، لأن الرسول قال الكلمة الناهية «وإنما فرض الله المواريث لتكون لمن بعدكم».

فهذا تفتيت للثروة تفتيتًا منظمًا. فلا هو رأسمالي، ولا المال للولد الأكبر كما هو في بعض الدول. ولا هي شيوعية ولا هي اشتراكية، وإنما هو قانون إسلامي منظم.

وكان عمر كان يرى حالتنا التي نحن عليها الآن. فقال عمر، الله أكبر، الله أكبر، لماذا يكبر عمر؟ لأن هذا هو المخلص من الورطة التي وقع فيها الناس الآن.

بعض الناس يقولون اشتراكية، شيوعية متطرفة، رأسمالية. المال للولد الأكبر... ولكن الرسول وضح وقال: «يا عمر ألا أخبرك بخير ما يكثر، زوجة صالحة، إذا نظر إليها سرته. وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(١).

انظروا أدب الرسول في حرف من حروف الهجاء إلى نظر، لم يقل إذا نظرت إليها، لأنه إذا قال كذلك فكأنها يسلط عمر على كذا وكذا كأنها يوجه نظره، ولكن الرسول جعلها للفعل الماضي. للفاعل الغائبة، إذا نظر أي شخص، ليس من الضروري أن تكون أنت أو غيرك، يا عمر إذا نظر إليها سرته، فهي جميلة الهندام، حسنة السميت.

والسميت معناه توافق العقل والعمل والملبس، كلمة سميت ياسادة معناه توافق العقل والعمل والملبس. أي العلم والعمل والملبس. فإذا كان

(١) انظر تخريج الحديث السابق.

غزير العلم ، كثير العمل الصالح ، حلو الهندام ، فهو حسن السمات . يقول الرسول ﷺ فيما رواه الإمام مالك ، يقول : «حسن السمات ، والتؤدة ، والاقتصاد ، جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة» ، أن تكون عاقلا بغزارة ، كثير العمل الصالح بغزارة ، حلو الهندام بجمال .

فكذلك المرأة إذا نظرت إليها سرتك ، عمل جيد صالح ، وسمت جميل في الشكل ، وعلم وعقل واسع ، وهكذا تجد أن البيت السعيد لا بد أن يكون الأب ، الزوج قدوة لأولاده ، فالزوجان إذا صدقا يعلما الأولاد الصدق من الوالدين ، «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١) ، وأقول : فأبواه يؤثران عليه .

التربية بالقدوة:

فالصغير يحاكي الكبير ، والصغير يقلد الكبير ، هذا رسول الله ﷺ يعلمنا هذا فيقول : «من قال للصبي هاك ثم لم يعطه فهي كذبة»^(٢) . وعبد الله بن عامر يحكي لنا ويقول : دعني أُمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا . فقالت لي تعال هاك ، فقال لها رسول الله : «ماذا أردت أن تعطيه؟ قالت تمرًا . فقال لها : لو لم تعطه لكتبت عليك كذبة»^(٣) .

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٢/٢) ، وابن وهب في «الجامع» (٨٠) عن أبي هريرة مرفوعًا .

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٣/٢) ، وأحمد (٤٤٧/٣) ، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»

(ص ٣٣) عن عبد الله بن عامر .

قال العجلوني في الكشف (١٨٧/٢) : أخرجه البخاري في «تاريخه» وابن سعد والطبراني

والديلمي بسند حسن .

وهكذا تجد الأبوين هما القدوة فإذا أردت أن تنشئ جيلاً سعيداً في بيت سعيد .

فعلى الرجل أن يستقيم على الصراط المستقيم ، وعلى المرأة أن تستقيم على الصراط المستقيم ، ليكون البيت مدرسة ، وينشأ جيل سعيد . ليكون العلم ميراثاً : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل : ١٦] ، ورثه ليكون الأدب ميراثاً . والكمال ميراثاً . والخير ميراثاً .

وليكون البيت المدرسة الأولى ، وتأتي مدرستنا وزارة التربية والتعليم لتزيد الصب كالماء في أصول الشجر .

قال سيدنا علي عليه السلام : «العلم في قلوب الناس كالماء في أصول الشجر» ، فلو زرعت شجرة حنظل وشجرة برتقال ، وسقيتهما بماء واحد ، جاءت شجرة الحنظل وحولت الماء العذب علقماً . وجاءت شجرة البرتقال وحولته إلى سكر من بذرتها . فإذا أسست في البيت جيلاً سعيداً مؤدباً جاءت المدرسة لتزيده هذا الأدب أدباً وكمالاً .

هذا وإذا أردنا أن ننشئ هذا الجيل السعيد نشأة طيبة فلنربيه جسمياً وعقلياً وروحياً ، أما جسمياً فبالرياضة والمحافظة على أكل الحلال كما تعرفون ، وأما عقلياً فنعلم الأولاد نظرية الحق والواجب ، لا يكون له حق إلا إذا أتى بالواجب .

نعلم الأولاد حسن التفاهم ، نعلم الأولاد أنهم يعرفون الأمور بعقولهم لا يغلبون العاطفة على العقل ولا العقل على العاطفة ، فبهذا يمكن أن ننشئ الأولاد على العقل .

وأما روحيا فنعلم الأولاد حب رسول الله ، وحب الله المنعم ، ونعلم الأولاد أنهم يحبون الخير ، ويعطون بأيديهم ، ونعلم الأولاد معنى التوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب .

وأخيراً :

فهذه هي طريقة تربية الأولاد ، وهذه هي الأشياء التي تجلب السعادة في الدنيا لتكون سعيداً في الآخرة .

أرأيتم رسول الله ﷺ وهو النموذج الحي الراقي ، إنه ربى ربياً وهو هندبن أبي هالة في بيته «ابن السيدة خديجة» فهند يصفه رسول الله أكمل وصف . وما ذاك إلا لحسن تربية الرسول له لابن زوجته ، هندبن أبي هالة . أرأيتم الرسول ينزع التمرة من فم الحسن وقد أخذ الحسن ثمرة من تمر الصدقة ونزع الرسول التمرة وقال له لا تأكلها إنها من الصدقة إنه لا يحل لنا ، أما علمت أن الصدقة لا تحل لنا أبداً .

وهكذا ينشئ الرسول الطفل الصغير على الخير ، عنده ربيب في بيته ، عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه فيقول له الرسول بكل لطف وأدب : «سَمَّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك»^(١) ، وهكذا بلطف وأدب .

وأردف الرسول خلفه سيدنا الفضل بن العباس وكان بعد شابا وفي موسم الحج جاءت امرأة تسأل الرسول ، فلاحظ الرسول أن الفضل يلتفت إليها ، وكانت وضيئة وجهية ، فمد الرسول يده من الخلف ولوى عنق الفضل إلى الناحية الأخرى .

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦) ، ومسلم (٢٠٢٢) .

فنادى العباس رسول الله فقال : يا رسول الله لويت عنق ابن عمك . فقال الرسول : «رأيت شابًا وشابة ، خفت أن يدخل الشيطان بينهما»^(١) .

أسمعتهم في القرآن قول لقمان ، يا بني ، يا بني ، يا بني ، إن العباس بن عبد المطلب رحمته الله رأى ولده عبدالله بن العباس وقد قرب به عمر إلى مجلسه فقال لولده : يا بني إني أرى أمير المؤمنين يقربك إلى مجلسه ، فاحفظه في ثلاث خصال : اتق الله ، لا يجربن عليك كذبة ، ولا تفشين له سرًا ، ولا تغتابن عنده أحدًا .

أنس بن مالك رحمته الله يقول فيما رواه الشيخان : قالت لي أُمي : لا تخبر سر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا .

(١) أخرجه الترمذي (٨٨٥) عن علي . وقال : حديث حسن صحيح . وأصله عند البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (١٣٣٤) عن ابن عباس .

المحاضرة السادسة والعشرون بعد المائة

كيف ندعو إلى الإسلام

تتناول الموضوع من زوايا ثلاث:

الزاوية الأولى: المخاطبون بالدعوة. بمعنى: من الذي يحدث منه خطاب الدعوة؟

الزاوية الثانية: واقع الدعوة اليوم.

الزاوية الثالثة: ما نصبو إليه ونرجوه بتوفيق من الله تعالى.

الزاوية الأولى: وهي من الذي يخاطب بالدعوة؟ فأول خطاب صدر بالدعوة صدر من قبل الحق تبارك وتعالى إلى نبيه ﷺ، حين قال الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، ثم تلاه قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]. بشرى بالنبوة، وبشرى بالتبليغ، بالرسالة.

ثم صدر قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلِّغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۝١ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۝٢ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ ۝١ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٢ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٣ وَنَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤ بَأْنِ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

ثم حدد الله تعالى له المنهج ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ثم أشار الحق تبارك وتعالى إلى المرسل إليهم . فقال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقال الله تعالى أيضاً : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

هذا توجيه الخطاب العام من الله ﷻ إلى نبيه ﷺ ، ثم إرسال نبيه إلى الناس كافة ، إلا أن الله تعالى خص أهل الكتاب بمزيد من العناية والرعاية ، باعتبارهم أصحاب سابقة في هذا الأمر ، وباعتبار أن لديهم رصيдаً يجعلهم أقرب إلى الاستجابة .

فقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

بل زاد الحق تبارك وتعالى أهل الكتاب عناية ورعاية ، فوجه إلينا الخطاب من النبي ﷺ إلى الأمة التي تحمل الأمانة من بعده ، فوصف الله تعالى هذه الأمة قائلاً : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وصدر الأمر الإلهي أيضًا: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

بهذا الخطاب التكليفي تحملنا الأمانة عن رسول الله ﷺ للقيام بواجب الدعوة إلى الإسلام على مدار التاريخ ما بقي الزمان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، تحمله أئمة الأمة وأجيالها ، كابرًا عن كابر ، يخاطبون به عباد الله في كل عصر وفي كل حين .

الزاوية الثانية : واقع الدعوة إلى الإسلام ، ويسلك مسلك بعض الدلائل ، إشارات من واقع الدعوة .

أول إشارة فيها الخطاب الدعوي :

الخطاب الدعوي تتنابه اللهجة الخطابية ، بل ربما تزيد أحيانًا إلى الغوغائية ، بحيث لا يكون وراءها إلا إثارة العواطف ، وإثارة العواطف بعد ذلك لا يتحصل عنها مدلول ، ولا يتحصل من ورائها حصيلة علمية ، وهذا الخطاب الدعوي من الناحية اللغوية ، أيضًا فيه جناية على اللغة العربية ، فنحن قد وصمنا اللغة العربية بأنها لغة الخطابة فقط ، وتناسينا جانب الحوار : وتناسينا جانب المحادثة ، وتناسينا الحديث الهادي الذي يمكن أن نتبادل فيه الأدلة والبراهين .

أما الخطاب أو الأسلوب الخطابي وحده ، فإنه يشوبه العموميات غير المنضبطة ، والإخباريات غير الموثقة ، والأدبيات العامة التي لا تؤدي إلى تحصيل ، بل وإطلاق الشعارات مثل : الوضع الإسلامي كذا ، بينما نحن في بلاد الإسلام لا يلزمنا إطلاقًا أن نطلق على أي شيء أنه إسلامي ، لأن

ذلك من واقع الحال . لكننا نجد أحيانا من باب التسويق أن يقال : المدرسة الإسلامية ، أو أن يقال : السوق الإسلامي ، بينما هذا الأمر أمر طبيعي كلما نشأ أي مرفق في بلاد الإسلام فهو إسلامي بطبيعة الحال .

الإشارة الثانية : مصطلح أعداء الإسلام :

كثيراً ما يردد ، بل وفي المساجد وعلى المنابر ، وهو مصطلح منفر ، إن أردنا أن ندعو أحداً إلى الإسلام ثم نعتناه بأعداء الإسلام فقد قطعنا حبل الصلة بيننا وبينه ، لا يكون هذا المنطلق أو هذا الشعار سليماً إلا إذا تقابلت الوجوه بالسيوف .

أما إذا أردنا بذل الدعوة وبذل النصيحة فإن ذلك لا يكون أبداً مناسباً للدعوة ، ومن هنا فبدلاً من أن نطلق كلمة أعداء الإسلام ، نطلق : الخصوم ، نطلق : الفرقاء الآخرون حتى يظل حبل الصلة وحبل المودة قائماً ، وليكن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فمع قول الله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ [المائدة : ٨٢] .

مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعر .

إذن فإبقاء صلة المودة ، وإبقاء التعامل والتواصل يكون أدعى إلى الاستجابة إلى الدعوة ، طالما أننا نهدف إلى دعوة الله ﷻ ، ونهدف إلى هداية الله ﷻ .

واسمحوا لي أن أتساءل : ماذا يريد المسلمون من خصومهم؟ هل المسلمون قوم تسلط وتوسع وسيطرة وجبروت؟ فهم لا يقبلون من خصومهم هداية

ولا صلحًا، ولا يرضون إلا بأن يتسلطوا عليهم ويقتلوهم، أم أن هداية الخصوم أقرب إليهم وأحب إلى نفوسهم؟ لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد أدماه القوم، ورموه بالحجارة، ولجأ إلى الله تعالى بالشكوى، فجاءه ملك الجبال يعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشيين، أي الجبلين، انتقامًا منهم، فأبى ﷺ وهو من وصفه ربه بالرفوف الرحيم، قائلًا: «لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى»^(١).

وحادثة أخرى، حينما وجه عليا عليه السلام لغزو طائفة من اليهود فقال: يا رسول الله إلام أَدْعُو الناس؟ قال: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوك، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن أبوا فقاتلهم، ثم أكد عليه ﷺ قائلًا: «ولأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها»^(٢)، وفي رواية: «خير لك من حُمْر النَّعَم»^(٣).

إذن مصطلح أعداء الإسلام، والذي يطرح كثيرا على المنابر، مصطلح لا يصلح للدعوة إلى الإسلام، ولا يصح أن يتعامل به بين الفرقاء، ويجب أن يدخر إلى ميادين الحرب، حيثئذ تكون العداوة واضحة وبارزة.

مظاهر الدعاة:

إن رسول الله ﷺ كما جاء في سيرته كان أحسن الناس هيئة وهنداما،

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) عن عائشة.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٧٥) وفيه أن هذا القول قاله لمعاذ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد. وقاله لعل.

وكان أطيبهم ريحا ، وكان أليّنهم وأحسنهم حديثا ولفظا ، ومن بعده كان صحابته على نفس الدرب ، لنا في ابن عباس أسوة ، ولنا في إمام المدينة مالك بن أنس أسوة ، حيث قيل : كان عنده خمسمائة ثوب وجبة ، وكان إذا خرج إلى درسه خرج كأنه ذاهب لملاقاة الملك .

هذه المظاهر التي أكدت عليها السنة ، نجد في مظاهر الدعاة اليوم ما ينفر ، فرغم أن رسول الله ﷺ حث على إطلاق اللحية ، ولم يبين ما طولها ولا ما عرضها ، نجد قومًا يتباهون في طولها وشعثها ، بينما رسول الله ﷺ ، نفر من ذلك حين رأى رجلاً أشعث الشعر ، فقال : أما وجد هذا ما يهذب به شعره ، أو يهذب به شعثه؟ إذن الربط بين التدين أو بين التزهّد وبين المظاهر المنفرة ليس من الإسلام في شيء ، ومن حسب ذلك فإنما يسيء إلى الإسلام .

واسمحوا لي في أن أروي فتيا وهي من طرائف الفتيا حدثت ونحن طلاب في الأزهر الشريف أفتى أحد علماء الأزهر بقفل باب القبول على ذوي العاهات ، من أمثال الأكفاء ، ومن أمثال ذوي العاهات من العرج أو غيرهم ، فقل له : إن هذا لا يجوز في الشرع ، قال : إن هؤلاء من باب إرسال أهاليهم إلى الأزهر ، يعتبر من باب التصديق لله بما يكرهون ، فهم يجعلون لله ما يكرهون ، فإن هم تخرجوا بعد ذلك كانوا عنوانًا غير حسن على علماء الإسلام ، لماذا لا يرسلون أحسن أبنائهم ليتعلموا العلم الشرعي ، حتى إذا تخرجوا كانوا عنوانا حسنا لعلماء الإسلام .

من هنا أفتى ذلك الشيخ يرحمه الله بأن يغلق باب القبول على ذوي العاهات ، حتى يكون علماء الإسلام من ذوي المظاهر الطيبة ، وهي

فتوى طبعاً فيها من الطرافة ، لكن معلوم فيها أنه يقصد بها أن يكون دعاة الإسلام على مظهر حسن ، وعلى مسلك طيب بحيث يجب الآخرين فيهم .

مفهوم الجهاد :

إن الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة : ٢٠] . فالجهاد كما هو معروف في الإسلام بالنفس ، وبالمال ، لكن مفهوم النفس ما هو؟ مفهوم النفس مفهوم عام ، يتناول البدن ، يتناول العقل ، يتناول الفكر ، يتناول التدبير وحسن التدبير ، فلم يصّر قوم على أن يكون مفهوم الجهاد بالبدن فحسب؟

واسمحوا لي في ضرب مثال ، أيهما أجدى على دعوة الإسلام ، عالم يجلس في منتدى ثقافي يلقي محاضرة في محاسن الإسلام أو في فرع من فروعه ويتقبل الناس عنه ، أم رجل يضحي بنفسه فينسف نفسه لنسف مبنى أو لنسف جماعة؟ هذا يسمى نفسه مجاهداً بالنفس ، فما بال الآخر ، وأيها أجدى على الإسلام؟ لاشك أن العقل وحسن التدبير وحسن الروية يقول : إن الأول أجدى على الإسلام .

ونحن بحمد الله قد أصبحنا في عصر اختفت فيه هذه المظاهر العسكرية . وأصبح الغزو الفكري والثقافي أفعال من الغزو العسكري ، وحسن التقديم للخصم وحسن التقدير للفرقاء ، يعين على حسن التدبير لملاقاتهم ، ونحن نشهد أن أهل الغرب أحسنوا التدبير في ذلك ، وأحسنوا الحكمة في أن ينشروا أفكارهم ، وينشروا ما عندهم ، واتخذوا لذلك وسائل عدة ، ونحن مطالبون أن نقابل وسائلهم بمثلهما ، وأن نقابل

أفكارهم بمثلها ، أي بأفكار من عندنا ، وحينئذ يكون الأمر أدخل إلى الفهم وأدعى إلى القبول .

ولنا بعد ذلك مزيد ، وهو أن شرع الله تعالى ملائم للفطرة ، فإذا ما أحسن عرضه ، وأحسن سوقه إلى الناس ، فإنه يكون أقرب إلى القبول وأقرب إلى التقبل . إن الرسول ﷺ ، وقد صالح قريشا في بدء الدعوة على وضع الحرب عشر سنين ، أمر أصحابه أن ينساحوا في الجزيرة ، وأرسل الكتب والرسائل إلى الملوك والرؤساء .

فقال أهل التاريخ والسيرة : إن ذلك كان أجدى على الإسلام من كثير من الغزوات ، حيث وجد المشركون في المسلمين أشخاصا آخر ، وأخلاقا أخرى ، ومعاملات طيبة ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، بلا قوة من المسلمين وبما لهم من حسن المعاملة وحسن السيرة ، وذلك أمر يمكن أن يطبق في عصرنا ، حيث لم يعد العصر عصر حرب ولا عصر جيوش ، وإنما هو عصر الحوار ، وعصر التفكير والتدبير .

عندما كان رسول الله ﷺ في مكة ، جاءه نفر من المسلمين المتحمسين يعرضون عليه أن يميلوا على القوم بالسيف ، فقال : « ما بهذا أمرت » ، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة ، وفرض الجهاد كان أول الخائفين والمنسحبين أولئك المتحمسون ، وقال الله تعالى في كتابه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا ت ظَلُمُونَ فَنِيلاً ﴾ [النساء : ٧٧] .

كل تلك الأحداث والشواهد تؤكد أن رسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ، والمتبع إلى سبيل ربه ، كان يرى في الحسنی والكلمة الطيبة أسلوباً أفعّل لتبليغ الدعوة ، ولم يلجأ إلى الحرب إلا حينما ظلم الناس البرهان واعتسفوا ، حينئذ فلا بد من الحرب لمقابلة السيف بالسيف ، أما الدعوة بالحسنی فإنها أفعّل وأدعى إلى القبول .

مصطلح الأصولية :

الأصولية نسبة إلى الأصول ، وعندنا علم أصول الفقه ، وعندنا أصولنا من الكتاب والسنة وسلف الأمة ، وأمتنا أمة الأصول ، ونحن نسمي أهل السنة أهل الأصول وأهل السلف ، فإذا ما جاء الإعلام الغربي وسرق تلك الكلمة أو ذلك التعبير ، ونعت بها قوماً من المتسلقين أو الخارجين عن إجماع الأمة ، فلا يجمل بنا أن نسلم لهم ، لأنه يكون في ذلك تشويه لماضي الأمة ولأصولها .

فنحن أهل السنة ، نحن أهل الأصول ، وعن أصول الكتاب والسنة تفرعت أصول الفقه ، وأخذ بها الشافعي ، وابن حنبل ، وأبو حنيفة ، ومالك رحمهم الله ، ولا يصح أن يطلق على هذه النابتة السيئة التي ظهرت في عصرنا ، لا يصح أن يطلق عليها أصوليون أو أهل أصول ، لأن في ذلك ظلماً للحقيقة ، ويجب أن يكون إعلامنا على وعي من استخدام هذا التعبير ، فيطلق هذه اللفظة على سلف الأمة الصالح ، ولا يطلقه على تلك النابتة السيئة التي تحاول أن تضر بالأمة .

غياب الخطاب الرسمي :

المعلم الأخير من معالم واقع الدعوة غياب الخطاب الرسمي باسم الإسلام ، وتركه للخطاب الشعبي أو الخطاب الأهلي أو الخاص ، وذلك فتح ثغرات لاجتهادات المجتهدين حتى الهواة ، بينما الخطاب الرسمي هو الفيصل ، ونحن بحمد الله أمة مسلمة ، وإذا تقصينا أمور الإسلام في أمنا ودولنا نجدها بحمد الله قائمة .

فالرسول ﷺ فرق بين الإسلام والكفر بإقامة الصلاة وبرفع الأذان ، ولا يزال الأذان والحمد لله وسيظل يرفع في دورنا وأحيائنا ، وبيوتنا وقرانا خمس مرات في اليوم ، والصلوات تقام ، ورمضان يصام ، والحج يذهب إليه ، شعائر الإسلام تقام كلها ، وحكوماتنا بحمد الله راعية لهذا .

أما ما أعنيه من الخطاب الرسمي فهو الخطاب الرسمي الدولي ، بحيث لا يفترق الخطاب الدبلوماسي أو الخطاب السياسي عن الخطاب الإسلامي ، فكله يجب أن يكون في الصيغة الإسلامية ، وليس ذلك من باب التعصب ولا من باب ملاقة العدو أو مخاصمته ، وإنما هو من باب عرض ما عندنا ، كل يوضح صفحته فالأمر الأخرى توضح لنا صفحتها ، فنحن نوضح لهم صفحتنا ، ونريهم بذلك جمال الإسلام وحسنه في المعاملة ، وأمره بالمعروف وأمره بالمودة .

ولنبن لهم أن الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة : ٨] ، ولنبن لهم أن أهل الكتاب لهم بنا قرابة ولهم معنا نسب ، وهو نسب الكتاب ، وإن الحق سبحانه وتعالى حينما

يصفهم في القرآن بأهل الكتاب ، ففي ذلك مدح ، وفي ذلك استشارة لما عندهم من بقية الإيمان ، وبقية الكتاب .

الخلافة :

مَعْلَم آخر من الواقع : الخلفاء الراشدون ، والحديث عن الخلافة الراشدة .
إن الخطاب الوعظي الدعوي يجعل هذا المصطلح الخلفاء الراشدين ، يجعله محصوراً في عهد أبي بكر ، وعمر وعثمان ، وعلي .
ومحصلة ذلك من السنوات ثلاثون عاماً ، وأحياناً يتبسط الخطاب فيلحق بهم عمر بن عبد العزيز رحمته الله ، وعهده ستان .

هذا التبسيط الساذج الذي يحصر الخلافة الراشدة في ثلاثين عاماً ، إنه ينسف التاريخ الإسلامي من أساسه . ثم إلام يحاكم الناس؟ وإلام يدعوهم إلى ثلاثين عاماً قام بها أربعة من حواربي رسول الله ﷺ في قرية نائية منعزلة ، هي مدينة رسول الله ﷺ ما بال تاريخ الأمة ، وما بال تلك الممالك الرشيدة المشيدة ، وما بال ذلك الحكم الذي شيد عبر العصور والقرون .

وهذه الممالك التي نشرت العلم ونشرت الدين؟ ألم تكن كلها خلافة راشدة؟ عندي - وهو الصواب إن شاء الله - أن الخلافة الراشدة عن رسول الله ﷺ ماضية إلى يوم القيامة ، مصداقاً لحديثه ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي وعد الله »^(١) .

(١) سبق تخريجه .

خطأ قصر الخلافة الراشدة على حقبة معينة :

ومن هنا فلا يصح إطلاقاً أن يقصر عهد الخلفاء الراشدين على عهد الأربعة ، ولا أن يعادل عمر بن عبد العزيز رحمته الله بهؤلاء ، فلحظة أو ساعة من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعدل الدنيا وما فيها ، وتعدل التقى والورع .

ولقد كان كل خلفاء الأمة ومن جاء بعدهم ، على درجات متفاوتة من الرشد ، لكن كلهم قام بكتاب الله ، وكلهم قام بسنة رسول الله ، وكلهم قام بالدعوة إلى الله ، ولا نزال نعيش إلى اليوم في ظل دعوة الإسلام ، وفي ظل خلفاء الإسلام ، الذين نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا وإياهم بالهدى ، وأن يأخذ بنواصينا ونواصيهم إلى الحق والخير ، وأن يوفقنا جميعاً إلى ما يحب ويرضى .

علماء بأني مع الذين ينادون بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، أقول : إن ذلك أمر يجب أن يوكل إلى ذوي الأمر ، وإن ذوي الأمر يجب أن يتنبهوا إلى أن تاريخنا الإسلامي دخل فيه خلط كثير ، ودخل فيه خطأ كثير .

وعلينا أن نعود إلى الأصول الثابتة في الرواية ، ونعتمد الروايات الصحيحة في التاريخ كما اعتمدناها في الحديث ، وأن نصوغ تاريخنا من جديد ، لنحق الحق ونبطل الباطل ، ولتحقق لهذه الأمة الخط الواضح المضيء ، لأنه ما من أمة لها خط متصل في السند ، وفي الرواية ، وفي اتصال التاريخ ، مثل هذه الأمة فلم ينقطع تاريخها يوماً ، ولم تنقطع لغتها يوماً ، ولم يختلف كتابها يوماً ، وإنما كل ذلك متصل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، بحفظ الله وكتابه .

واسمحوا لي أن أعود إلى آية الانطلاق ، فإن فيها المنهج لكل ما قلت .

قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ^ط وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ادْعُ﴾ فعل أمر من الدعوة، دعا يدعو دعوة، والدعوة طلب مع ترفق وتجميل، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ و﴿إِلَى﴾ تدل هنا على الدلالة، يعني دالا إلى سبيل ربك، والسبيل معناه الطريق.

لكن فيه مزيد من الدلالة، فيدل على الطريق الموصلة أو على الطريق الخاصة، ولذلك أضافه الحق تبارك وتعالى إليه، فقال: ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، واختيار لفظ الرب، كما تعلمون، يدل على الرعاية، ويدل على التربية، ويدل على الشمول بالعطف، حيث الرب سبحانه هو الخالق، الرازق المحيي، المميت، وهو المربي، وحيث لفظ الجلالة «الله» يدل على المهابة والجلال، ويدل على العظمة والهيبة، فاستخدام لفظ الرب هنا للتحييب والتشويق والتأنيس، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾، أي متلبسا بالحكمة، بهذه الباء.

معنى الحكمة:

الحكمة ما هي؟ حكم، أصلها في اللغة: منع، وسمي الحكم حكماً لأنه يمنع من الخلل ومن الاضطراب، وسمي الحاكم حاكماً لأنه يضع الأمر في نصابه، ولذلك كانت الحكمة هي وضع الأمور في نصابها، وكان من أسماء الله ﷻ وله الأسماء الحسنى: الحكيم، صيغة مبالغة من حاكم، أي الذي تأتي أفعاله سبحانه على مقتضى الحكمة، فلا نجد في خلقه ولا في فعله ولا في قوله أي خلل حاشاه ولا اضطراب، فهو سبحانه الحكيم.

من هنا فإن رسول الله ﷺ حينما أوحى إليه الكتاب ، أوحى إليه الكتاب والحكمة ، والحكمة هي ، كيف يبين للناس ما نزل إليهم ، كيف يوضح للناس ما أوحى إليه ، كيف يأخذ الناس بالحسنى .

ولذلك جاء الأمر في آيات كثيرة ، منها قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] أي بالطريقة التي هي أحسن ، ونبتعد عما ينفر ، وعما يزيد الهوة بين الخصمين ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

معنى الموعظة :

والموعظة هي الحث والحض على فعل الخير ، وسماها الله تعالى أو وصفها بالحسنة ، حتى نترفق في القول ، ونترفق في الأسلوب ، ولا يكون في أسلوبنا مجافة ولا غلظة .

وإن الحق تبارك وتعالى نبه رسوله ﷺ ، وحذره من الغلظة في القول ، فقال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ولذلك كان رسول الله ﷺ أرفأ بالناس من آبائهم ، ووصف نفسه بأنه يأخذ حجز الناس عن الوقوع في النار ، كما يحجز الفراش عن الوقوع في النار : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

معنى المجادلة :

المجادلة هي المحاوره ، وقد جاء حديث عن رسول الله ﷺ يذم المجادلة

حتى وإن كان صاحبها على حق ، لكن المقصود بالمجادلة هنا هي عرض الإسلام على الخصم . ﴿وَجِدْلُهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي محاورة الدليل بالدليل ، والبرهان بالبرهان ، والحجة بالحجة ، فدخل الخصم في ديننا أقرب وأحب إلينا من أن نتصر عليه أو أن نفقده ، ﴿وَجِدْلُهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

هذا المنهج الرباني إنما جاء عن علم الله تعالى بمن يهتدي وبمن لا يهتدي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ، وبقية الآيات التي تأتي بعد ذلك فيها منهج متكامل للدعوة ولما يأتي بعدها ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ١٣٦ ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ١٣٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿ [النحل: ١٢٦، ١٢٨] .

بهذا يكتمل منهج الدعوة إلى الله ، وهو منهج واضح وبين ، عرضه علينا رب العزة ، أمر به رسوله ﷺ ، وعلمه لنا الرسول ﷺ من بعده ، واتبعه سلف الأمة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

الزاوية الثالثة : وهي ختام الحديث :

ما نصبو إليه ونرجوه ، وما نأمله ونتأمله في أولياء أمورنا وأصحاب الشأن فينا ، أن يعود الخطاب الرسمي باسم الإسلام ، متلبساً بالخطاب الدبلوماسي والخطاب السياسي ولا يفرق بينهما .

فدين الله تعالى عام شامل ، ونحن بحمد الله تعالى نقيم الإسلام فيما بيننا ، فيجب أن نصارح الناس به ، ونحن لن نجبر أحدا على الدخول في

ديننا ، حيث قال الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، فإن عودة الخطاب الرسمي يقطع الطريق على المتسلطة ، ويقطع الطريق على هواة المجتهدين والحمقى ، ويجعل الخطاب موكولاً إلى أصحابه ، ويجعله مرتبطاً بأصحاب الأمر فيه .

إعداد الدعاة:

في إعداد الدعاة ، اسمحوالي أن أقول تعبيراً :

يجب إعداد الدعاة إلى الإسلام على نفس المستوى الذي يعد به الدبلوماسيون والسياسيون من حسن الهيئة والمظهر ، ومن كيفية الحديث وطرائقه ، ومن كيفية المجاملات والمقابلات ، لأنهم بذلك سيعرضون كلام الله تعالى وكلام رسوله ، فيجب أن يعرضوا على ما يعرض عليه الدبلوماسيون .

ورسول الله ﷺ حينما حل بالمدينة ، انتدب من يتعلم اللسان العبري واللسان الفارسي ، فتعلمه زيد بن ثابت ، وكان موصوفاً بالذكاء ، تعلمه في مدة وجيزة ، كما انتدب رسول الله ﷺ بعثات ذهبت إلى بلاد الروم ، فتعلمت واقتبست ، وعادت إلى رسول الله ﷺ بالعلم النافع .

نحن مطالبون بأن نوضح لغير المسلمين نماذج المشروع الإسلامي ومحاسنه ، فالأمم والبشرية تعاني الآن من مشاكل كثيرة ، ونحن نقول بحمد الله : إن في ديننا حلاً لهذه المشاكل ، وعلينا أن نوضح ذلك الحل للأمم الإسلام ، أقول : لن نفرض ذلك عليهم .

ولكن كما يقترحون علينا في مؤتمراتهم نقترح عليهم في مؤتمراتنا حلولاً إسلامية للمشاكل الإسلامية ، فسوف يكون في ذلك مساهمة لحل مشاكل البشرية ، ولتخفيف العبء عنها .

أولو الأمر ما قصرُوا فينا، وعليهم أن ينشئوا بذلك قناة فضائية لتحمل أفكار الإسلام، وأفكار الإسلام التي أقصدها هي أفكار الإسلام في السوق، وفي المصنع وفي الشارع.

ولا يقصد بذلك أفكار الإسلام في المسجد فحسب، فذلك هو المعنى الوعظي الذي يقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي الدعوة الداخلية.

أما إذا أردنا أن نوضح ديننا وإسلامنا لغير المسلمين، فيجب أن نعرض عليهم جوانب من شتى جوانب الحياة، ورأي الإسلام فيها، والناس لن يظلوا طول حياتهم في المعبد أو المسجد، وإنما يريدون منا ما يقول الإسلام في السوق، وفي المصنع، بل إنني لا أبالغ إذا قلت لا بد أن نبين رأي الإسلام في التمتع بطيبات الحياة الدنيا، حتى لا يقر في أذهان الناس أن الإسلام دين يخاف من طيبات الحياة الدنيا، أو أن الإسلام دين يأبى أن يتمتع المرء بطيبات الحياة الدنيا.

والله تعالى قد وصف رسوله ﷺ بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فما حرم الإسلام إلا الخبائث، وما أحل إلا الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، وحين نعرض الإسلام، نعرض ديناً لا ينهاى عن طيبات الحياة الدنيا، ولا يضيق منها، وإنما طالما أخذت من حلال وأنفقت في حلال، فنعم المال الطيب للرجل الطيب.

فتح مجالات الحوار المتعددة على نمط ما يحدث في الغرب ، وطرح أفكار الإسلام في هذه المجالات ، سواء في بلادنا بدعوة مفكريهم إلينا ، أو في بلادهم بذهاب مفكرينا إلى ذلك ، حتى يكون هناك تلاقح للأفكار ، وحتى يكون هناك انفتاح على ما عندهم ، وانفتاح على ما عندنا ، وذلك أدعى على التقبل وإلى التفهم .

وختاماً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل دعائي للجميع .

* * *

المحاضرة السابعة والعشرون بعد المائة

مكانة المسجد الأقصى في الإسلام

قال الله تعالى : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] .

إن ربط الدرس بالآية يقتضي أن نقف قليلا عندها بشرح مفرداتها ، وفهم معناها ، ثم نتقل منها إلى موضوع الدرس بعون الله وتوفيقه .

قال الله ﷻ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الآية .

كلمة سبحان ، تعني تنزيه الله جل جلاله عن كل عيب ونقص ، وما لا يليق بكماله وجلاله ، وهي في الأصل مصدر سماعي على غير قياس ، من فعل سبح يسبح تسييحًا وسبحانًا ، بالتنوين . ثم صارت علمًا على التنزيه ، ونصب بفعل محذوف يقدر ، إما من لفظ التسييح أو من معناه ، وهو التنزيه . فيكون معنى سبحان الله تنزيها لله ﷻ وقد تأتي لمجرد التعجب من شيء . أو لحمل السامع على التعجب منه والتعجب ، وقد تأتي لهما معًا .

وافتح الآية بها دون سبق كلام ، متضمن لما يجب تنزيه الله عنه . يؤذن بأن خبرا عجيبا يستقبل السامع لها ، ويدل في نفس الوقت على عظيم قدرة الله تعالى ، وعلى رفعة شأن المتحدث عنه .

معنى الإسراء:

﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء، هو السير بالليل خاصة . يقال : أسرى بالهمزة وسرى ، بدونها ، وهما بمعنى واحد . وكلاهما فعل لازم . وقيل إن أسرى بالهمز ، إذا مشى أول الليل ، وسرى إذا مشى آخره .

أما سار ومصدره السير فلا اختصاص له بليل أو نهار .

وإذا كان الإسراء لا يكون إلا في الليل ، فلماذا ذكرت كلمة الليل في الآية؟ قالوا : ذكرت في الآية لإفادة معنى يستفاد من ذكر كلمة ليل في الآية نكرة ، ولا يستفاد ذلك من كلمة أسرى وحدها ، وهو الدلالة على أن هذا الإسراء إنما كان وتم في جزء قليل من الليل .

مع أن المسافة بين المسجد الحرام بمكة والمسجد الأقصى بالقدس تزيد على أربعين ليلة ذهابا ومثلها إيابا ، ووجه دلالة ليلا على تقليل المسافة ما فيه من التنكير الدال على البعضية . بخلاف ما إذا قلت سرت الليل بالتعريف ، فإنه يدل على استغراق السير في الليل كله .

شرف العبودية لله:

﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ قال ، بعبد ، ولم يقل ببنيه أو برسوله أو باسم العلم محمد . للإشارة إلى أن لفظ العبودية لله ﷻ ، هو أخص الأوصاف وأشرفها وأعلاها مرتبة . وبها يفتخر المحبون العارفون . وكما قيل :

لا تدعوني إلا بعبادها فإنه أشرف أسمائها

ولذا ذكر الله رسوله محمدا ﷺ بوصف العبودية في أشرف المقامات وأعلاها ، كما في هذه الآية ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ . وفي مقام الوحي ﴿فَأَوْحَى

إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿[النجم: ١٠]﴾ . وفي مقام الدعوة إلى الله : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ الآية [الجن: ١٩] .

ولم يعبر الله تعالى عن أحد بالعبد مضافاً إلى ضميره إلا لرسوله محمد ﷺ وهذا ما عبر عنه القاضي عياض بقوله فأجاد وأحسن :

ومما زادني شرفاً وتيها وكدت بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نيبا

﴿أُسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ أي بجسده وروحه لأن كلمة العبد تعني ذلك ، فلا يقال عبد لمجرد الروح وحدها ، خلافاً لمن زعم ذلك وأراد أن الإسرائ كان مناما لا يقظة . ولو كان كذلك لم ينكره المشركون . ولم يؤثر على بعض ضعفاء الإيمان حتى ارتدوا عن الإسلام . إذ عالم الرؤيا عالم واسع ولا يستلزم المحال من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بفلسطين .

والمسجد الأقصى اسم إسلامي ، لم يكن معروفا بهذا في الجاهلية ، والأقصى الأبعد لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام .

ولم يكن في الدنيا آنذاك غير هذين المسجدين . وكان في التعبير عنه بالأقصى معجزة قرآنية للإشارة إلى ما يحدث بعد من مسجد ثالث يكون بينهما . وهو مسجد الرسول ﷺ بالمدينة . وهو أقصى عن المسجد الحرام . ولكن الأقصى أبعد منه .

﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ باركنا حوله بركات كثيرة حسية ومعنوية . حسية لكثرة الأشجار والفواكه والثمار والمياه والأنهار وبركات معنوية ، بجعله مقر الأنبياء والرسل ومنشأ الديانات السماوية ، اليهودية والنصرانية .

وفيها ينزل عيسى عليه السلام آخر الزمان . وهي كذلك أرض المحشر كما في الأحاديث .

الحكمة من الإسراء والمعراج :

﴿لِنُرِّيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ بيان للحكمة من الإسراء والمعراج ، حيث أراه الله من آياته وسلطانه وعجائب ملكوته ، ما لا يعد ولا يحصى . ومنها قطع هذه المسافات الطويلة التي تقدر بآلاف الملايين من السنين . قطعها كلها في جزء قليل من الليل ؛ ومنها أنه أراه الجنة والنار ، وأحواهما . وأراه جبريل على صورته الحقيقية عند سدرة المنتهى ، وله ستمائة جناح . وجمع له الأنبياء والرسل في المسجد الأقصى ، حيث صلى بهم عليه السلام ركعتين . ثم رأى بعضهم في السموات العلا . ورأى من الملائكة ما لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل . ورأى ، ورأى . . . مما لا يسع المقام لذكره .

وقد توسعت كتب السيرة في ذلك ، وكذلك ما كتب حول قصة الإسراء والمعراج . ثم ختم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . جمهور المفسرين على أن معاد الضمير هو الله جل جلاله ؛ أي هو السميع لأقوال عباده ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . واستظهر بعض المفسرين عود الضمير إلى النبي عليه السلام لبيان تثبت النبي في كل ما رأى أو ما سمع .

وتأكيدا لقوله تعالى عنه في سورة النجم : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ١١
أَفْتَمَرُوهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ۚ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ
عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ
وَمَا طَغَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿النجم: ١١، ١٨﴾ .

إنه مما لا يحتاج إلى التنبيه أو التذكير ما يحظى به القدس الشريف والمسجد الأقصى بصفة خاصة من تقدير كبير ، ومكانة عزيزة في نفوس المسلمين قاطبة ، وذلك بما له من اتصال متين بعقيدتهم ومقدساتهم ، وشعائر دينهم الحنيف . فهو أولا : بلد الأنبياء والرسل المكرمين ، ابتداء من أبي الأنبياء إبراهيم الخليل ، إلى عيسى بن مريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم .

فضل بيت المقدس :

وجاء في أثر عن ابن عباس : «بيت المقدس بيت الأنبياء ، وسكنه الأنبياء ، ما فيه موضع شبر إلا وصلّى فيه نبي أو أقام فيه ملك» .

وبحكم أن دين الإسلام يقوم أساسا على الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين دون تفريق بين أحد منهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] فذلك يقتضي بالضرورة احترام الأرض المباركة التي عاش عليها هؤلاء الأنبياء والرسل .

ومنها ظهرت دياناتهم وفيها توجد مشاهدهم وقبورهم . يضاف إلى ذلك تنويه الله جل جلاله بهذه الأرض في كتابه العزيز ووصفها بأنها مباركة في آيات كثيرة في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُ لَوُطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٧١] .

ويقول في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء : ١] ، ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بركات كثيرة حسية ومعنوية .

ثم هي بعد ذلك موطن هذا المسجد الذي بارك الله حوله . وكان ثاني مسجد وضع للعبادة في الأرض بعد المسجد الحرام بمكة ، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» .

ثم توالى عليه المحن والحروب حتى خرب واندثر ، ولم يبق من بنائه الأول أثر ، إلى أن بناه المسلمون على ما هو عليه الآن .

وهذه فضيلة كبرى على أن أكبر فضائل هذا المسجد المبارك وهي التي زادت مكانة وحرمة في نفوس المسلمين ، قصة الإسراء والمعراج ، وحلول النبي ﷺ في ساحته وصلاته فيه إماماً بجميع أنبياء الله ورسله ، ثم عروجه منه إلى السموات السبع وسدرة المنتهى ، ومجاورتها إلى حيث ناجاه ربه وكلمه . وفرض عليه خمس صلوات في اليوم والليلة . ثم عودته إليه في طريق رجوعه إلى مكة بفرضية الصلوات الخمس ، التي هي عماد الدين ، وأعظم أركانه بعد الشهادتين . وفرق ما بين المسلم والكافر ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ .

ومن ثم ارتبطت الصلاة بذكرى قصة الإسراء والمعراج . وبالمسجد الأقصى حيث منه كان عروج النبي ﷺ إلى السموات العلا ، ولعل ذلك هو السر في الأمر بالتوجه إليه في الصلاة ، وجعله أول قبلة للمسلمين ، واستمر المسلمون في كل من مكة والمدينة ، يتوجهون إلى بيت المقدس نحو ستة عشر شهراً . إلى أن أمرهم الله باستقبال الكعبة بدلاً عن بيت المقدس ، وذلك في شعبان من السنة الثانية للهجرة .

ونزل قول الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الآية [البقرة: ١٤٤] . وهذه فضيلة كبرى للمسجد الأقصى أن يكون أولى القبلتين .

ورغم تحول القبلة إلى الكعبة بمكة ظل تعلق المسلمين بهذا المسجد على حاله باعتباره ثالث الحرمين الشريفين الذي لا تشد الرحال إلا إليها لقدر الصلاة فيها لمضاعفة أجر الصلاة في هذه المساجد على غيرها .

ومنها مضاعفة الصلاة في المسجد الأقصى بخمسائة صلاة ، وأن من قصده لا يريد إلا الصلاة فيه ، رجع منه كيوم ولدته أمه . وأن من أهل منه بحجة أو عمرة ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه . ولذلك أحرم منه جماعة من الصحابة والتابعين منهم معاذ بن جبل ، وعبد الله بن عمر ، وكعب الأحمري وغيرهم . فلا عجب بعد هذا كله أن تعلق ذكرياته بقلوب المسلمين في كل مكان ، وتهوى إليه أفئدتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن يحيطوه ببالح الرعاية والاهتمام على مر العصور والأزمان وتعاقب الأجيال ، وأن يتنافس ملوكهم ورؤسائهم على خدمته وصيانة قدسيته ، وتعظيم حرماته ، ابتداء من عصر عمر الذي حضر بنفسه لتسلم مفاتيح المدينة من يد حكامها نصارى الروم . وكتابة عقد الأمان لسكانها . وما أن دخل عمر رضي الله عنه المدينة حتى عمد إلى الصخرة المقدسة . فبسط رداءه ، وأخذ يكنس بيده الزبل الذي كان قد تراكم بها منذ مدة ، حيث كان النصارى جعلوا منها مرمى الأربال والقاذورات وخرق الخيض . وتتابع ملوك المسلمين بعد ذلك على العناية بأمر هذا المسجد وشئون المدينة للقدس عامة .

فبنى عبد الملك بن مروان مسجد الصخرة وأنفق عليه خراج مصر لسبع سنوات . ثم بنى ابنه الوليد المسجد الأقصى في مكانه الحالي وذلك في سنة سبع وتسعين هجرية الموافق لـ ٧١٥ و ٧١٦ م . وقد تهدم مسجد الوليد بزلزال وقع سنة ١٣٥ هـ الموافق ٧٤٧ م . فأعاد بناءه جعفر المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ وحين بنوه لأول مرة لم يجدوا به أي أثر لا لبناء ولا

لهيكل سليمان كما يزعمون . ويعتبر المسجد الأقصى ومسجد الصخرة من أبداع ما خلده المسلمون من ناحية الفن المعماري في الشام . ثم أضافوا إلى هذين المسجدين مساجد كثيرة حتى بلغ عددها أربعة وثلاثين مسجدا . كما أنشئوا بها عددا من المدارس والأروقة لتدريس طلبة العلم . وسكناهم ومؤسسات اجتماعية أخرى .

القدس قبلة لكل الناس :

وصارت القدس تقصد للعبادة وزيارة الأماكن المقدسة بها سواء من المسلمين أو اليهود أو النصارى . كما تقصد لطلب العلم الذي كانت تعقد حلقاته في ساحة المسجد الأقصى . وكثر فيها العمران ، وتجاورت فيها المساجد والكنائس والبيع . وعم فيها الأمن والتسامح بين جميع سكانها ، حيث كان الجميع يعيش في ظل العدالة الإسلامية ، التي ترعى العهود والمواثيق ، وتحفظ حقوق الجوار ، وتؤمن لأهل الذمة حقوقهم ، وحريتهم في القيام بشعائر دينهم ، طبقا لشريعة الإسلام السمحة . وأكثر الموسرون من المسلمين من تحبب العقارات على المساجد والمشاريع الخيرية وخاصة على الحرم القدسي .

وكان للمغاربة مشاركة هامة في تحبب هذه الأوقاف لترددهم كثيرا على زيارة الأقصى ، حتى سمي أحد أبوابه بباب المغاربة . ومما يشرف المغاربة أن يقع هذا الباب عند المحل المعروف بالبراق . إشارة إلى المكان الذي هبط فيه البراق عند دخول النبي ﷺ للمسجد والصلاة فيه ليلة الإسراء والمعراج . ولا تزال رسوم هذه الأوقاف والوثائق المتعلقة بها موجودة في محكمة القدس الشرعية حسب ما هو منصوص عليه في وقفيات المسجد وتاريخه ، ويذكره سكان القدس الأصليون .

عناية المسلمين بالاماكن المقدسة بالقدس :

وتجاوزت عناية المسلمين بالقدس الشريف إلى بقية آثار الأنبياء الموجودة على أرض فلسطين بدءاً من سيدنا إبراهيم الخليل إلى آخر من دفن منهم بفلسطين فأظهروا معالمها ، وبنوا مساجدها ، وحاطوها بالرعاية والصيانة ، وألفوا الكتب في تاريخها ، وأكثر من ذلك أنهم حافظوا على الكنائس الموجودة بها ، اقتداءً بعمر الذي أقر وجود هذه الكنائس بأرض فلسطين ، وامتنع من الصلاة في كنيسة القيامة ، مع إذن بطريقتها له بالصلاة فيها إن شاء فامتنع خوفاً من أن يضايقهم المسلمون بعد في كنائسهم أو يتذرعوا إلى أخذها منهم بحجة أن أمير المؤمنين عمر صلي فيها .

وفي خلافة العباسيين سمح هارون الرشيد «لشارلومان» ملك فرنسا بترميم كنائس القدس ، وتعهد له بحماية كل من أراد أن يزورها من نصارى الغربيين ، وأسس صلاح الدين الأيوبي محرر القدس وأرض فلسطين من احتلال الصليبيين بعد أن بقوا بها قرابة قرن من الزمان ، وحين تم له النصر على الأعداء شغل نفسه بإصلاحات اجتماعية ، فأسس فيما أسس موسماً لسيدنا موسى عليه السلام ، وجعله موسماً رسمياً يؤمه الناس من كل البلاد . وكان يقام أيام احتفال النصارى بعيد الفصل .

وفي هذا دليل واضح على سماحة الإسلام مع أصدقائه وأعدائه على السواء ، وعلى احترامه للشعائر الدينية حتى بالنسبة لليهود والنصارى ، الذين كانوا يشاركون المسلمين في ديارهم ، ويعيشون معهم في أمن وأمان ولقرون طويلة . وفي ظل الإسلام فقط بدأ اليهود يعودون إلى القدس ، بعد أن طردهم البابليون منها في عهد «بختنصر» ثم طردهم منها البيزنطيون الروم حين احتلوا أرض فلسطين ، وبقوا فيها إلى أن غلبهم عليها المسلمون

فسمحوا لهم بالسكنى فيها إن أرادوا؛ وأفسحوا لهم مجال العيش فيها طيلة أربعة عشر قرناً من الزمن، باستثناء المدة التي قضاها الصليبيون بفلسطين. وأسندوا إلى أفراد منهم خدمة مصالح المسجد كصنع القناديل والثريات له، كما سمحوا لهم بإقامة المراكز الدينية في القدس وغيرها. تعترف دائرة المعارف اليهودية نفسها أن اليهود بعد طردهم من إسبانيا سنة (١٤٢٤م) لم يجدوا أمامهم ملجأ لهم إلا في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، وأن عدداً منهم ذهب إلى الشرق العربي، وأن مائة وثلثين أسرة منهم انضمت إلى يهود القدس وبها بلغ عدد أسر اليهود الذين اختاروا سكنى القدس تحت حماية المسلمين (١٣٠٧).

مقابلة الإحسان بالإساءة:

وهنا يحق لنا أن نتساءل ماذا كان جزاء اليهود للمسلمين بعد كل هذا الجميل والإحسان؟ وماذا كان منهم في مقابل هذا الإيواء والتكريم؟ بعد أن أصبحوا دولة، وأصبح لهم فيها مكان.

هذا الجميل والإيواء الذي لاقوه من المسلمين لا في فلسطين فحسب، ولكن في مختلف البلاد الإسلامية التي عاشوا فيها جنباً إلى جنب، آمنين على أموالهم ودينهم والقيام بشعائهم، وحافظوا فيها حتى على عاداتهم وتقاليدهم دون مضايقة من أحد، وامتزجوا بسكانها امتزاجاً جعلهم كأنهم من السكان الأصليين، وأسندوا إليهم وظائف ومهام تقتضي الثقة بهم مما يدل على أنهم كانوا محل ثقة بين المسلمين ولا يشكون في إخلاصهم.



المحاضرة الثامنة والعشرون بعد المائة

الثقافة العلمية ومناهج العلوم عند المسلمين

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

موضوع المحاضرة «الثقافة العلمية ومناهج العلوم عند المسلمين» انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ [٢٧، ٢٨] والموضوع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

ورد في هاتين الآيتين الكريمتين في سياق آيات الله الكونية ، وقدرته تعالى على أن يخرج من الماء «الواحد» الذي ينزله من السماء ﴿ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ ، وقدرته سبحانه على أن يجعل من الجبال جدداً مختلفاً ألوانها ، فمنها البيض والحمر والسود كلون الغراب ، وقدرته تعالى على أن يخلق الناس والدواب والأنعام من ألوان مختلفة كذلك .

وفي كل ذلك عبرة وعظة للعلماء تجعلهم أقرب إلى معرفة الله ﷻ ، وأدنى إلى خشيته . وليس في هذه الأمثلة على قدرته تعالى ما يشير إلى أن معرفتها تكون بالعلم الديني وحده ، بل لابد لمعرفة على وجهها الصحيح من علوم الدنيا كذلك كالفلك والفيزياء وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وعلم الأجناس والوراثة ، وغيرها .

المقصود بالعلم والعلماء في الآية :

والآيتان واضحتا الدلالة ، متسلسلتا السياق ، لا يفهم منها إلا أن هذه الضروب من العلم الدنيوي - شأنها شأن ضروب العلم الديني - هي جميعها ما أمر الله به ، ومما يتعبد بطلبه الخلق وربما كان من الأجدر أن يكون العلم علما واحدا تتداخل أنواعه ، وتتكامل ليس فيه ديني ودنيوي . وقد استوعب سلفنا هذا المعنى وفهموا العلم على هذا النحو ، ومما يروى مثالا على ذلك أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي في الرياضيات والفلك لبطلميوس ويقال بطليموس أيضا على أستاذه عمر الأبهري ، فدخل عليهما أحد الفقهاء ، فسألهما عما يقرانه ، فقال الأبهري : «أفسر آية من القرآن ، وهي قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ق : ٦] ، فأنا أفسر كيفية بنائها» .

وقد عقب فخر الدين الرازي في تفسيره على هذه الرواية - بعد أن أوردها - بقوله : «ولقد صدق الأبهري فيما قال ، فإن كل من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته» .

وكتاب الله ﷻ هو أصلا كتاب هداية ووعظ وتشريع ، ولكنه أمرنا في آيات كثيرة منه أن نتدبره وأن نعيد التدبر ، وأن ننظر فيه وأن نعيد النظر . والمتدبرون والناظرون تتفاوت مداركهم وتختلف ثقافتهم . ومن هنا فهمه الفاهمون بحسب أفهامهم ، فاختلف المفسرون والفقهاء في أمور شرحوها أو استنبطوها . واختلفت شروطهم وأدواتهم وأساليبهم في الاستنباط والاستدلال ، ولكنهم جميعا مؤمنون بالله وبكتابه ، متبعون لسنة رسوله ﷺ واختلافهم اجتهاد يؤجرون عليه ولو أخطئوا .

ولم يكن اجتهداهم في أمور الدين وعلومه وحدها، وإنما تجاوزوها، وجمعوا معها علوم الدنيا بحسب كل عصر. وتكون من هذا الجمع المتألف ما يسمى بالثقافة العربية الإسلامية، وأصبح لها من الأساليب والمناهج والمحتوى ما هو جدير بأن يفهم على وجهه الصحيح.

تدوين العلوم:

وربما كان أول معالم الطريق أمامنا أن القرآن الكريم قد نقل المسلمون - ومنهم العرب - من مرحلة إلى أخرى من مراحل الحضارة: من المرحلة الشفاهية إلى المرحلة الكتابية. والكتابة والتدوين أساس العلم والحضارة لا يكونان إلا بها. وليس معنى ذلك أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون الكتابة، فذاك أمر فرغ البحث الأدبي الحديث الجاد من إثباته وتقريره. ولكن الكتابة لم تكن هي القاعدة التي يقوم عليها الفكر والأدب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام جعلها قاعدة الحياة وأساس تطورها.

وكانت الآيات الأولى التي نزل بها الوحي الأمين على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]، فقوله تعالى ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ صريح في أن هذا التعليم ليس بالنقل الكلامي أو الشفاهي وحده.

ولذلك ما كادت تنزل آيات أخرى بعد ذلك حتى سارع الرسول ﷺ إلى اتخاذ كتاب للوحي يسجلون ما يوحى إليه به.

ثم أخذت الآيات تردد ذكر الكتابة وذكر أدواتها، وتكرر ذكر «الصحف»، و«الكتب» في صيغة المفرد والجمع، بأوصاف ومناسبات مختلفة، وأقسم

سبحانه ببعض حروف الكتابة وبالقلم وبما يكتب ، فقال عز من قائل :
﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] .

وقال : ﴿ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴾ في رَقٍّ مَنشُورٍ [الطور : ٢، ٣] ، وتكرر ذكر الكتاب عشرات المرات بأوصاف مختلفة .

بل إن دينه ﷺ إنما هو دين الكتاب ، فاليهود والنصارى هم أهل الكتاب ، والقرآن الكريم هو ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢] والكتاب : المكتوب المجموع ، أي : المدون .

ولا يدفع المرحلة الكتابية تلك الأقوال المنقولة عن حفظ الصحابة للآيات حين نزولها ، ثم للقرآن كله ، أو بعبده ، فهي أقوال صحيحة ، ولكنها لا تنطبق - فيما يبدو - إلا على عدد محدود من الصحابة . وأكثرهم لا يحفظ إلا السورة والسورتين كما قد تواترت الأخبار عن ذلك ؛ فقد ذكر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو من هو حفظ سورة البقرة في أربع سنين ، وكذلك قالوا : « كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا » أي جد قدره وعظم .

والكتابية « حالة » أو « ظاهرة » لغوية وفكرية ، تستتبع بالضرورة نشر الوعي العقلي . ولذلك تكرر في القرآن الكريم الحث على التأمل والتدبر والتبصر وإعمال العقل والتفكر في النفس الإنسانية ، وفي خلق السموات والأرض ومن فيهما وما فيهما وما بينهما . والآيات الكريمة في ذلك أكثر من أن تحصى وهذا هو الأسلوب الثاني من أساليب تكوين ثقافة المسلم وشخصيته . وذلك أن اعتماد الكتابة واعتماد العقل - حين يصبحان نمط حياة ، وأسلوب تعامل وتفكير - هما أساس الحضارة والعلم .

إطلاق العقل من أغلال الخرافات والأوهام:

ومما يتصل بهذين الأسلوبين أوثق اتصال أسلوب ثالث هو: إطلاق العقل من أغلال الخرافات، وتحريره من الأوهام والأساطير والأباطيل. فالظواهر الإنسانية والطبيعية سنة من سنن الله تعالى، تسير بنواميس ثابتة، وتجري بحساب دقيق، وعلى المسلمين أن يتدبروها، فيغوصوا في أعماقها، وينقبوا، ويبحثوا، ويكشفوا أسرارها وأسبابها ونتائجها.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ﴾ [الرحمن: ٥]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠، ٣٩]، وقصة إبراهيم بن محمد رسول الله ﷺ، حين توفي فكسفت الشمس قصة معروفة. فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته (وعن ابن عمر: ولكنهما آيتان من آيات الله) فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله»^(١). صدق رسول الله ﷺ، فإن الله ﷻ سننا هي أسبابه التي تسير بها الحياة ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

الفهم الصحيح للنصوص:

ورابع هذه الأساليب: الفهم الصحيح للنصوص، وعدم الاكتفاء بحفظها وتردادها، وربط العلم بالعمل، والفهم بالتطبيق.

(١) أخرجه البخاري (١٠٤١)، ومسلم (٩١١) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

وهو الأسلوب الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تعليم صحابته الأبرار وإفهامهم آيات القرآن الكريم ودراستها ، وتطبيق ما ورد فيها على حياتهم اليومية ، بحيث لا ينتقلون إلى آية أو سورة إلا بعد الفراغ من فهم الآية أو السورة السابقة ، وهو أسلوب استفاضت عنه الآثار والأخبار ، فقد قال ابن مسعود : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهم والعمل بهن» . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : «حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بها فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا وعن ابن عمر قال ولقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم المرأ حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن ثم لقد رأيت رجلا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ويشره نشر الدقل .

تمحيص العلوم :

وخامس هذه الأساليب في تكوين العقل وبناء الثقافة عدم الاقتصار على قراءة كتب الأقدمين وعدم التسليم بصحة ما فيها وتكراره بل لابد من النظر فيها بعين الفحص والتمحيص والتثبت من الآراء الواردة فيها حتى يستبين قارئها صوابها أو بطلانها بالحجة والبرهان .

ومن أوضح من فصل هذا الأسلوب الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ) بقوله : «الحق مطلوب لذاته وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ووجود الحق صعب والطريق إليه وعمر والحقائق منغمسة في الشبهات

وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى علمهم من التقصير والخلل ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور والوجود بخلاف ذلك فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم المتوقف فيما يفهمه عنهم المتبع الحجة والبرهان لا قول القائل الذي هو إنسان المخصوص في جبلته بدروب الخلل والنقصان .

والواجب على الناظر في كتب العلوم إذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصماً لكل ما ينظر فيه ويحيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه ويتهم أيضاً نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه ولا يتسامح فيه . فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق ، وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشبه ، انتهى كلام ابن الهيثم .

وما قاله الحسن بن الهيثم طبقه في كتبه وطبقه غيره من العلماء ، والأطباء خاصة ، حين لم يكتفوا بقراءة كتب الأقدمين والتسليم بصحة ما فيها وتكراره ، وإنما نظروا فيها بعين الفحص والتمحيص ، ونقدوها ، وردوا على ما يحتاج منها إلى رد ، وقبلوا منها ما رجحت أو ثبتت عندهم صحته .

عدم الانخداع بالحواس :

وسادس تلك الأساليب : يتمثل في : عدم الانخداع بالحواس بالاعتماد عليها وحدها ، وفي الشك في الأمور إلى أن يقوم عليها الدليل ، وهو منهج منتشر بين المسلمين ، وضحه الجاحظ في قوله : « . . . فلا تذهب إلى ما

تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمر حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة» .

ومن أعجب ما نص عليه الجاحظ ونبهنا إليه قوله -بعد أن أورد خبراً من أخباره الغريبة- : «ولم أكتب هذا لتقر به ، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل ، وبعد هذا فاعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلمًا ، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . . .» انتهى قول الجاحظ .

التجربة والتحليل والاختبار:

ونستطيع أن نمضي في تعداد أساليب أخرى ، ولكننا نريد أن نختم أساليب أرسطو من معالم منهج الثقافة العربية المستمد من روح الإسلام بأسلوب سابع هو : التجربة والتحليل والاختبار . وفيه كلام طويل يحتاج إلى أن تعرض الحجج المختلفة والردود عليها .

فقد ذهب بعضهم إلى أن «الطب اليوناني والعربي يمثلان عصرًا واحدًا ، يتميز بتفكير متشابه جدًا» وأن هذا العصر هو «عصر الخبرة المنظمة عقليا (وليس عصر التجربة العلمية) وهو عصر دام عشرين قرنا ، وضع أبقرات كلياته ومنهجه ، ثم فصله وفرع عليه جالينوس ، ومارسه الرازي ، ونسقه وأوضحه ابن سينا أيضًا ليس بعده مزيد ، إلى أن عرف الناس العلم التجريبي وعلم الكيمياء» ، وذهب آخرون إلى نقيض ذلك ، فقرروا أن مرحلة العلم العربي تمتاز من مرحلة العلم اليوناني -الذي تأثر به العلماء

العرب أعمق التأثير - بأنها كانت مرحلة إرساء الأصول العلمية الأولى للاستقراء والتجربة، وذلك بتدوين المشاهدات وتقريرها واستخلاص القواعد الكلية منها، في حين كانت مرحلة العلم اليوناني قائمة على وضع الكليات أولاً ثم محاولة تطبيق الواقع عليها، وهي الطريقة الاستنتاجية أو الاستنباطية.

وليس من هدفنا هنا مناقشة هذه الآراء بتفاصيلها المتشعبة، وحسبنا أن نشير إلى أن علماء العرب قد عرفوا التحليل والاستقراء والتجربة العلمية في الحدود التي أعانتهم عليها الوسائل المتاحة حينئذ والمعارف والعلوم المستنبطة في زمانهم، والأدلة على ذلك كثيرة مبثوثة في ثنايا تراثنا منها: ما ذكره الطبيب أبوبكر الرازي (ت: نحو ٣١١هـ) من قوله: «إنا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل كثيرة نافعة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الفاعل ولا تحيط به، لم نر أن نطرح كل شيء لا تدركه وتبلغه عقولنا، لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا. . بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به. ولا نحل شيئاً من ذلك عندنا محل الثقة، إلا بعد الامتحان والتجربة له». ومنها ما قاله لبعض تلاميذه: «فعليك بالأشهر مما أجمع عليه، ودع الشاذ، واقتصر على ما جربت».

والنصوص على ذلك من الرازي ومن غيره أكثر من أن نتصدى لحصرها هنا. وحسبنا أن نشير إلى تجربة عملية قام بها إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة في القرن الرابع الهجري، يرد مبدأ أرسطو وعلماء اليونان في الآثار العلوية وفي الفيزياء وتعليل الحوادث الجوية، ومنها سبب سقوط المطر في الصيف في بعض البلاد، قال إبراهيم بن سنان: «ولقد وضعت في كل واحدة من أنيتين متساويتين متشابهتين مقداراً واحداً من الماء الصادق

البرد والسخن الذي لا يؤذي اللامس ، وأبرزتهما في وقت واحد للهواء الجاف ، فجمد سطح البارد وفي الحار بقية من السخونة ، وأعدت ذلك مرة ثانية ، وأعليت الحار جدا فجمد البارد ولما يبلغ الحار رتبة السخن الأول . . . » إلى آخر ما قال مما لا يسمح المجال بتفصيله .

ومن أجل هذا بدأ العلماء ومؤرخو العلم الغربيون يفندون المزاعم التي ثبتت في تاريخ العلم من أن روجر بيكون هو المؤسس للمنهج العلمي الذي يقوم على أن التجربة هي أساس البحث في العلوم الطبيعية ، فقال مؤرخ المنطق العالم برانتل : «إن روجر بيكون أخذ كل النتائج المنسوبة إليه في العلوم الطبيعية من العرب . . . » ووضح هؤلاء العلماء أن علماء المسلمين لم يكونوا يعتمدون على التجربة وحدها ، وإنما كانت التجربة عندهم تسبقها النظرية ، وقال فيديمان «إن العرب كانوا سباقين إلى هذا الموضوع ، بل إن ما توصل إليه روجر بيكون (روجيه باكون) أقل بكثير مما كان موجودا عند العلماء العرب القدماء . . . وقال أيضًا : «تصادفنا نتائج البحث عند الإغريق في صيغتها النهائية الكلاسيكية ، فلا نتمكن إلا في أحوال استثنائية من تتبع نشأتها ، ولكن . . . العرب يوضحون تطور العمل الذي يقومون به خطوة خطوة ، كما يفعل بعض الباحثين في يومنا هذا . . . » .

وإنما أوردنا ما أوردناه لنقول إن أسلافنا من هؤلاء العلماء الكبار وضعوا بذور هذه الأسس ، وأرسوا ملامحها الأولى ، واتبعوها في علمهم واعتمدوا عليها ، ولا يجوز أن نقول إنها اكتملت عندهم في صورتها النهائية ، ولا أن الاستقراء والتجربة العلمية تحدت قواعدهما واتخذتا صورتيهما على النحو الذي نعرفه اليوم ، وإلا لكانا قد حكمنا على العلم بالتوقف عند العرب ، ولحجرنا على نموه ومنعنا تطوره في الأزمان التي

تلت زمن ازدهار العلوم العربية والإسلامية ، وهو ما لا يجوز أن يقول به أحد ، لا عن العرب والمسلمين ولا عن غيرهم ، فالعلم والتقدم الإنساني سلسلة تظل متصلة الحلقات ما دام الناس وما دامت الحياة ، وإنكار ما قدمه العرب والمسلمون للعلم وللحضارة أو التهوين منه ، مخالف للحقيقة وللتاريخ كمخالفة التزويد فيما قدمه غيرهم والتهويل فيه .

وحين يصل الإنسان إلى مثل هذه الحالة من الاستعداد العقلي والعلمي فإنه يصبح مؤهلاً لأن يفتح الله سبحانه أمامه جميع أبواب الحياة ، وجميع ما فوق الأرض وما في باطنها ، وييسر له ما فوق البحار وما في جوفها ، وما في الفضاء والسماء ، لتصبح كلها ميداناً للتفكير والتدبير والتسخير ، بين يدي الإنسان ، يصل إليها بعقله ، ويفتح مغاليقها بعلمه ، بفضل الله ، لم يحظر منها ميداناً واحداً ، ولم يغلق منها باباً دون باب ، بل أشرعها كلها على مصاريعها جميعاً دون قيد .

وفي التسخير آيات كثيرة ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣] ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [النحل: ١٤] ، و﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحج: ٦٥] ، وربما كان في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، إشارة إلى أن الله تعالى لا يترك لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجمعة: ١٣] ، هي الآية الجامعة . فانطلق علماء المسلمين «يتفكرون» و«يتدبرون» لا يحول بينهم وبين ميدان من ميادين العلم حائل ، وهذا هو المعلم الثاني من معالم منهج الثقافة العربية .

القيام بحق الأمانة :

وحتى يستطيع المسلمون أن يقوموا بحق هذا التسخير ، وأن ينهضوا بأعباء الأمانة التي قبل أن يحملها الإنسان على حين أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها ، وحتى يستطيعوا الإقدام على فتح تلك الأبواب والميادين في السموات وفي الأرض جميعا دون خوف ولا تردد -والخوف والتردد يلجمان العقل والعلم ويعطلان القدرة- فقد أسقط الله تعالى محاسبتهم على أخطائهم في التفكير والاجتهاد والبحث ، ما دامت نياتهم سليمة وما دام الحق رائدهم وهدفهم .

يقول تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥] ، وقال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ويقول رسوله الكريم : «إنما الأعمال بالنيات»^(١) ويقول : «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان . . .»^(٢) . فمنح الإسلام العلماء بذلك حقا من أهم حقوق الإنسان هو حق الخطأ غير المتعمد .

ثم زاد الإسلام على كل ذلك فضلا آخر ، فأربى على كل ما يخطر على بال العلماء وفي أمانيتهم ، فلم يقتصر على التجاوز عن خطأ المخطئ وعلى الصفح عنه ، بل نراه يحث العلماء على البحث والاجتهاد حثا فجعل للمخطئ أجرا واحدا وللمصيب أجرين .

(١) أخرجه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

فكيف إذن لا يطمئن العالم على نفسه ومصيره ، وكيف لا يزداد انطلاقا في ميادين البحث المختلفة دون ما خوف ولا تردد .

تلك هي بعض معالم المنهج الإسلامي وأساليبه في تكوين عقل المسلم ، وصياغة ثقافته ، وبناء شخصيته العلمية ، وقد أصبح هذا المنهج بمعامله وأساليبه من خصائص الثقافة العربية التي انطلقت إلى العالم ، وملأت الدنيا ، وكانت من أهم روافد عصر النهضة الأوروبية ، ثم من أهم روافد الثقافة الإنسانية الحديثة لن يدرك ذلك .

أما محتوى هذه الثقافة فيقوم على قاعدة علمية واسعة ، لها ثلاثة أسس تضرب بجذور عميقة في صميم هذه الثقافة فتكتسب منها أصالتها :

علوم أنشأها المسلمون :

الأساس الأول :

ما أنشأه المسلمون لأنفسهم ، من داخل دينهم ، من علوم خاصة بهم ، لم يأخذوها من غيرهم ، ولم يترجموها عن سبقتهم ، فكانت لهم علوم منها : الفقه ، والأصول ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ومصطلحه ورجاله ، وأصول الدين ، والسير والمغازي . وتفرعت عن كل علم علوم ، وانشقت منه فروع ، وقطعوا فيها أشواطاً بعيدة ، وارتفعوا بها إلى مستوى عال من المنهج العقلي : من تحقيق وتدقيق ، ونقد للمتن وللسند ، وحرص على جمع المصادر والإحاطة بها والتثبت مما ورد فيها .

ولم يقبلوا بالتسليم برأي دون مناقشة ، فلا بد من أخذ العلم مع دليله ، ولا بد من إقامة البرهان النقلي والبرهان العقلي ، وتأصلت فيهم - من علومهم هم أنفسهم - روح العلم ومفاهيمه وتقاليده وأخلاقه ، وأقبلوا

على طلبه إقبالاً لا نجد له نظيراً عند الأمم الأخرى حينئذ، فيما روت لنا الأخبار . ولم يكن لهم كهنوت أو «إكليروس» يحتكر فيه الأخبار والرهبان والكهان العلم الديني والدينيوي، ويحظرونه على غيرهم، فكان العلم بكل أنواعه مبدولاً للمسلمين عامة وللعلماء خاصة، من مصادره الأولى وينابيعه الصافية .

علوم خاصة باللغة والأدب:

الأساس الثاني :

وكما شرعوا في بناء قاعدة العلم الإسلامي بناء عملياً من داخل دينهم وحياتهم بإنشاء علوم أصيلة خاصة بدينهم وبهم، فقد دعموا هذا الأساس بأسلوب ثان أصيل من علوم لغتهم وآدابهم، فنشأ عندهم: النحو والصرف والمعاني والبديع والبيان وعلم اللغة والعروض والقوافي، ورواية الشعر والأنساب والأخبار .

وكانت هذه العلوم مع العلوم السابقة وحدة متكاملة، مترابطة، يحرص على تلقيها، أو تلقي أكثرها طالب العلم، حتى تبني قاعدته الفكرية وأصوله الثقافية .

ولا نكاد نجد عالماً في العلوم التطبيقية إلا وقد أخذ بهذه العلوم الإسلامية واللغوية والأدبية «النظرية»، قبل أن ينتقل إلى العلم التطبيقي الذي أصبح به بعد ذلك معروفاً مشهوراً .

كالطب أو الكيمياء أو البصريات، لأن تلك العلوم النظرية الأصيلة هي التي تربي ملكته العقلية، وتزوده بالمعارف الأساسية، وتصلق موهبته في النظر والتفكير .

الاتصال بعلوم الأمم الأخرى:

الأساس الثالث :

وبعد أن انتهى المسلمون من بناء هذه القاعدة الفكرية الثقافية بأصولها ومناهجها من داخل أنفسهم ودينهم وعلومه ، شرعوا في الاتصال بعلوم الأمم الأخرى ، «فالحكمة ضالة المؤمن يَلْتَمِسُهَا أُنَى وَجْدها»^(١) ، واستشعروا القوة والقدرة عليها ، فأخذوا يطلبون من يترجمها لهم ، أو يترجمونها بأنفسهم إلى لغتهم ، عن تمكن من هذه اللغة واعتزاز بها ، واقتدار عليها ، وتصرف فيها . فأطاعتهم اللغة ولانت لهم ، وامتدت أمامهم تجري معهم وتسابقهم ، فازدادت قوة وغنى وقدرة مع الاستعمال ، وتأصلت المعارف والعلوم الأخرى فيهم ، وجرت في عقولهم ونفوسهم وحياتهم مجرى علومهم الأصلية ، يرفد كل منهما الآخر ويغذيه ، فاستبحر الفكر العلمي عندهم واستفاض .

وقد كان ذلك العلم قائما عند بعض الأمم الأخرى منذ زمن طويل ، وكان بين العرب في جاهليتهم من يعرف شيئا من لغاتهم ، وكان فريق منهم يتصل بهم ويطلع على ما عندهم من هذه العلوم والمعارف ، وكان المترجمون حينئذ لا يفتئون يترجمون العلم اليوناني إلى السريانية ، وكانت له مراكزه المزدهرة في بلاد يسكنها العرب أو يحيطون بها ، ومع ذلك كله ظل هذا العلم بعيدا عنهم ، وظلوا بعيدين عنه ، على معرفة أفراد منهم به ، لم يستبحر فيهم ، ولم يشتد عوده بينهم ، لأنه لم يتأصل عندهم بلغتهم .

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١١) ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

ولا يكاد القرن الثالث الهجري يشرف على الانتهاء حتى نجد عددا كبيرا من الكتب في ميادين متعددة قد ترجمت إلى العربية ، ويتوالى التأليف وتتوالى معه الترجمة ، وتزخر المكتبة العربية بالكتب المؤلفة والمترجمة حتى إن فضل الله ابن أبي الفخر الصقاعي (ت : ٧٢٦هـ وعاش مائة سنة) ذكر أن الشريف شرف الدين الناسخ ذكر له في شهور سنة ست وستين وستمئة بدمشق قال : «وقفت في المدرسة النظامية ببغداد . . . على فهرست بما صنف في الدولة الإسلامية في سائر الفنون إلى آخر أيام الإمام المستنصر في سنة تسع وثلاثين وستمئة ، والفهرست ستة وخمسون مجلدا» .

وهذه الكتب العلمية المؤلفة والمترجمة ، مع شروحها والتعليق أو الرد عليها ، من بين هذا التراث الضخم ، هي التي أخذ الأوروبيون يترجمونها إلى اللاتينية من القرن الخامس الهجري (خلال القرون التالية للقرن العاشر الميلادي) ، وهي التي قامت عليها فيما بعد النهضة الأوروبية الحديثة بما أخذه الأوروبيون عن المسلمين من مناهج البحث التي ذكرنا طرفا يسيرا من ملاحظاتها والحديث عن هذا الموضوع طويل ، وإنما يحتاج إلى إعادة النظر ، وإلى الدرس والتنقيب ، في الصفحات السابقة ، وإن المرء ليدهش من كثرة هذه الكتب المترجمة إلى اللاتينية في تلك القرون ، وحسبه أن يتتبع ما ورد منها في الكتب التي تناولت هذا الموضوع .

قاعدة العلم الإسلامي العربي :

وهكذا لم ينتقل العلم بين المسلمين إلى الانتشار في مرحلة تالية ، إلا بعد أن رسخت عندهم أسس قاعدة العلم الإسلامي العربي ، وبذلك لم يقفوا إلى الترجمة إلا على أساس من كيان فكري أصيل ، ووجود ثقافي متميز ، وعلوم مستقلة نهضوا بعبئها فأهلتهم للانتقال إلى مرحلة جديدة ، ولولا

ذلك غزاهم العلم المترجم ، وطغى عليهم ، وطمس شخصيتهم ، وعجزوا عن أن يطوروه ويحققوا فيه جديدا ، وقضي عليهم بأن يكونوا نقلة مترجمين لا يتجاوزون هذه المنزلة إلى ما بعدها .

لقد أنشئوا علومهم الخاصة بهم ، فتدربوا عليها وبرعوا فيها ، وتكون لهم منهج علمي أصيل ، فأصبحوا مستعدين عقليا للحضارة : لتلقيها ، وللمشاركة فيها ، ولإنشائها ، ولحملها ونقلها وتوصيلها .

إن العالم المتحضر يعدو عدوًا سريعًا ، ويقفز قفزات شاسعة ، ويرتفع في معارج الرقي ارتفاعًا شاهقًا ، ونحن ننظر إليه متفرجين متحسرين ، نستورد منه نظرياته الأدبية ومذاهبه النقدية ، ونترجم بعض ذلك ترجمات عجاوية لا ترسي أصولًا ، ولا تنشئ أدبًا ولا فكرًا ، فوصلت حياتنا الثقافية المعاصرة إلى ما وصلت إليه من الانهيار ، ونستورد كذلك نتائج المعرفة العلمية في العالم دون أن ندرك مقدماتها وأصولها ومناهجها ، ومعها نستورد تطبيقاتها العملية وأجهزتها وآلاتها وأدواتها ، ونظن حين نستعملها أننا أصحابها ، وهيهات! فهي لا تسلم قيادها إلا إلى الذين يعرفون أسرارها ووسائل استنباطها واستخراجها من مكائنها ، ويدأبون على تطويرها .

ولابد لنا من أن نتمثل ثقافتنا الحقيقية الأصيلة ، هذه الثقافة هي جذورها الثابتة في أرضنا ومجتمعنا ، نتمثل ثقافتنا المعبرة عن ذاتنا ، المتطورة دائمًا من داخلها تطورًا صحيحًا ، المنفتحة على غيرها من ثقافات العالم تأخذ منها ما تحتاج إليه ، لا ما يفرض عليها ، الجامعة بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، وهي الثقافة التي تتكامل فيها المعارف وتتداخل في العالم الواحد ، والتي تتنور المستقبل ، وتسعى إلى تجميل الحياة والارتقاء بها ، وتخوض معارك الحق والخير والعدل والدفاع عن إنسانية الإنسان حيثما كان .

إن المنهج الذي فصلنا بعض معالنه وأساليبه هو منهج أصيل مستمد من ديننا وثقافتنا الحقيقية ، ولكنه في الوقت نفسه منهج إنساني عالمي . وهو مع أصالته وثباته يحمل بذور التطور والنمو والتفرع والتكاثر ليلائم المتغيرات والمستجدات ، ويلحقها ، ويؤثر فيها ، ويسبقها . وهكذا تتحقق لثقافتنا العربية خصوصيتها التي تهيئ لها المشاركة في العالمية ، فبغير الخصوصية تصبح هذه الثقافة ممسوخة الشخصية وتكون استنساخا وتقليدا لثقافة غيرنا ، فلا يحتاجون حينئذ إليها ولا يستفيدون منها ، وتسقط من تاريخ ثقافات العالم ذات التأثير في غيرها .

المحاضرة التاسعة والعشرون بعد المائة

السفارات النبوية خصائصها وأهدافها

انطلاقاً من قول الحق تبارك وتعالى مخاطباً سيدنا محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويشتمل الدرس على النقاط التالية: التعريف بالسفارة في اللغة والاصطلاح، ثم بعد ذلك أدلة مشروعية السفارة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والإجماع والمعقول، ثم خصائص السفارة وأهدافها في نظام العلاقات الدولية الإسلامية، ونماذج من رسائل سيدنا محمد ﷺ إلى الملوك والرؤساء الذين عاصروا الدولة الإسلامية، ثم بيان أهم نتائج البحث.

التعريف بالسفارة في اللغة والاصطلاح:

توجب المسلمات العلمية أن يبدأ الباحث دراسته بتحديد مفهومها وتأصيل حقيقتها على النحو الذي تتضح به صورتها، وتتحدد فيه سماتها، وبناء على ذلك فإنني أعرض من خلال هذا البحث لمعنى السفارة في اللغة.

فالسفارة: بفتح السين وكسرها، مصدر سفر، وتطلق لغةً على إيقاع الصلح بين القوم، يقال: سفر بين القوم يسفر سفارة أي أصلح بينهم، كما تطلق على الارتحال، يقال: سفر الرجل أي خرج للارتحال، وقد اشتق من لفظ السفارة مصطلح السفير، فقالوا: السفيرى وسفير الأمة وسفير السلاطين والملوك، وعرفوه بأنه الرسول المصلح بين القوم، ويجمع لفظ السفير على سفراء كفقيه وفقهاء.

وأما معناها الاصطلاحي : فيراد بها الرسالة في استعمال الفقهاء في أبواب السير والجهاد ، فهما مشتقان من مصطلحي الرسول والسفير ، اللذين يردان لمدلول واحد ، هو إيفاد شخص معتمد للقيام بمهمة معينة .

وعلى هذا فإنه يمكن تعريف السفارة في النظام الإسلامي اصطلاحاً بأنها : بعث ولي الأمر لشخص معتمد من قبله إلى جهة معينة لمباشرة مهمة معينة ، وهذا التعريف لمعنى السفارة والإطلاق اللغوي يؤيد هذا المعنى للسفارة ، ما حفلت به السنة النبوية الشريفة من وقائع وأحداث تتفق وهذا المعنى وتتضمنه .

وذلك يتمثل فيما أرسله النبي ﷺ من رسل ، وما كان من سفارات في زمنه مع الدول الأخرى .

أدلة مشروعية السفارة:

وقد ثبتت مشروعية السفارة بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول ، أما بالكتاب الكريم ، فقد وردت بها كثير من الآيات الكريمة التي تدل على مشروعية السفارة ، من ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة : ١] .

وقد جاء في تفسير العقود أنها ستة ، منها عقد الحلف ، ويراد بها المحالفات والمعاهدات .

ولاشك في أن عقدها يتم بواسطة السفارات التي تقوم بها الرسل ، ولما أفادت هذه الآية الكريمة جواز المعاهدات ومشروعية عقدها فإن ما يتوصل به إلى عقدها يكون مشروعاً وجائزاً .

ومن الأدلة التي استدل بها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

فقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان الأمر بالوفاء بالعهد ، واحترام ما يكون بين المسلمين وغيرهم من عهود ومواثيق ، وهذا يفيد مشروعية العهود واحترام ما يكون بين المسلمين وغيرهم من عهود ومواثيق ، وهذا يفيد مشروعية العهود وجواز المواثيق في العلاقات الدولية .

ومعلوم أن إبرام العهود وإجازة المواثيق ينتج عما تقوم به الرسل والسفراء من جهد ونشاط ، فإذا شرعت العهود وأجيزت المواثيق لمصلحة الأمة فإنما يلزم لذلك من بعث من يتحملون تبعة الإعداد لها والقيام بأمرها يكون مطلوباً ومشروعاً .

أما السنة النبوية الشريفة فإنها قد تضمنت الكثير من التصرفات النبوية في مجال السفارات ، وذلك ظاهر في الكتب والرسائل التي حملها سفراء النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها .

الدليل من السنة :

فقد أخرج النبي ﷺ إلى الحارث الغساني ، والحارث الحميري ، والمقوقس عظيم القبط ، والنجاشي ملك الحبشة ، وهرقل قيصر الروم ، وكسرى ملك الفرس ، كما استقبل النبي ﷺ الرسل والسفراء .

وورد في السنة القولية الكثير من الأقوال التي تدل على مشروعية السفارة وترشد إلى اهتمام النبي ﷺ بها ، من ذلك قوله ﷺ لرسولي مسيلمة بعد أن سمع منهما ما لم يرضه ، قال لهما : «لو كنت قاتلا أحدا لقتلتكما» .

وعندما بعثت قريش أبارافع إلى رسول الله ﷺ وقع في قلبه الإيمان ، وأراد البقاء مع المسلمين ، فقال له النبي ﷺ : «إني لا أخيس بالعهد ، ولا أحبس البرد ، فارجع إليهم آمنا ، فإن وجدت بعد ذلك في قلبك ما فيه فارجع إلينا» .

يتبين مما تقدم أن النبي ﷺ أول من أوفد السفراء في الإسلام ، وأول من استقبلهم ، وأول من أعطاهم الأمن والأمان ، وأول من احترم المواثيق والعهود ، وذلك كله يفيد مشروعية السفارة بطريق السنة النبوية المشرفة .

الإجماع:

أما الإجماع فإنه لم يرد في المصادر الإسلامية ما يفيد إنكار أحد من العلماء أو الأئمة مشروعية السفارة وعدم التعويل عليها في العلاقات الدولية أثناء السلم والحرب ، وهذا ما يدل على انعقاد الإجماع السكوتي على اعتماد المسلمين للسفارة كنوع من ضروب الاتصال والتعاون في العلاقات الدولية التي تكون بين المسلمين وغيرهم .

المعقول

وأما المعقول فإن الإسلام قد شرع أمورًا كثيرة في مختلف أمور الحياة ، تهدف إلى كفالة ما هو ضروري للناس ورعاية حاجاتهم والتيسير عليهم ، وعلى هذا فقد أباح الإسلام اتخاذ الوسائل التي تحقق النفع لمجموع الأمة وتدفع عنها الضرر والخرج ، واتفاقا مع هذا النهج الشامل .

فإن نظام السفارة في الإسلام يعد وسيلة عملية مهمة لنقل وجهة نظر الإسلام في نشر السلام وحقن الدماء وصيانة الحرمات ، فهي وسيلة إلى تحقيق التفاهم الدولي والتعاون الإنساني والرخاء البشري في ضوء ما عناه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات : ١٣] .

فالسفارة أمر ضروري تحتاج إليها الدول والأمم في كل زمان ، وبخاصة في هذا العصر الذي تقاربت فيه المسافات وتشابكت من خلاله المصالح والغايات ، فهي مما تدعو إليها الفطرة السليمة ، ويستوجبها العقل الرشيد تمكيننا لأولي الأمر من الوفاء بحاجات شعوبهم وتسهيلاً لهم بالاضطلاع بأعباء مسؤولياتهم ، وسعيًا بالمجتمع الإسلامي إلى ما يرجى له من أمن واستقرار ورفعة وتقدم .

اختيار السفراء

كان اختيار السفراء في العهد النبوي ، مهمة خطيرة وتبعة عظيمة ، لهذا فقد كان رسول الله ﷺ يختار الرسل والسفراء من الصحابة رضي الله عنهم ، الذين يتصفون بالفصاحة والذكاء والجرأة والأمانة في أداء أعمالهم ، والدقة في تنفيذ ما يكلفون به ، وقد قعد الفقهاء رحمهم الله قواعد ووضعوا شروطاً لاختيار السفراء ، والمقام لا يتسع لذكرها ، وأجملها فيما يلي :

صفات شخصية ، وصفات جسمانية ، وصفات خلقية ، وصفات علمية ، فذكروا أن الصفات العلمية أن يكون عارفاً مبصراً بالعلوم المتنوعة والمعارف المختلفة ، كالفرائض ، والأحكام ، والسير ، ليكون قوياً في محاوراته ومحدثاته .

خصائص السفارة وأهدافها في نظام العلاقات الدولية الإسلامية:

وانطلاقاً من هذا المفهوم الشامل الكامل للسفارات فإن لها خصائص تميزها عما عداها من النظم الأخرى ولها سماتها التي ترتبط بها ، وتتجلى خصائص السفارات في الأمور الآتية :

أولاً : ارتباطها بالعتيدة الإسلامية :

تشكل العتيدة الإسلامية المحور والإطار الذي تدور في محيطه كل تصرفات المسلم ، والمحور الذي ترتكز عليه كل أفعاله ، وعلى هذا فالسفارة في النظام الإسلامي ترتبط ارتباطاً تاماً بالعتيدة الإسلامية ، فيحتم على من يقوم بها ألا يقبل مادة من يحاربونها ويضعون العراقيل في سبيلها وإن كانوا من ذوي القرابة القريبة ، امثالاً لأمر الشارع الحكيم تبارك وتعالى بقوله ﷺ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

كما تلزم العتيدة الإسلامية القائم بالسفارة ألا يقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ، لا يعتدي على أهلها ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وانطلاقاً من هذه التوجيهات القرآنية ، فليس في الإسلام ما يمنع من قيام علاقات بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى ، فالجميع عباد الله ، وليس من مقتضيات الإيمان بهذا الدين مقاطعة غير المسلمين والانعزال عنهم والمجانبة لهم ، بل إن الإسلام يوجه صراحة إلى تعارف البشرية وإقامة العلاقات بين مجتمعاتها وتبادل الصلات بين شعوبها ، وفي

ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وعلى هذا النهج الواضح المستقيم كان مسلك سيدنا رسول الله ﷺ فيما سطر من كتب وأوفد من سفراء ورسول ، ونظم من بيعات وأقام من معاهدات ومحالفات ، كما ترسم الخلفاء الراشدون وأئمة المسلمين في جميع عصور الدولة الإسلامية هدي الرسول ﷺ في الأخذ بتعاليمه وتطبيق مناهجه التي تدعو إلى الأخذ بحسن الجوار وانتهاز الأساليب الودية في علاقات الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول .

ضرورة وجود سبب مشروع للسفارة:

ومن خصائص السفارة أن يكون للسفارة سبب مشروع ، لا بد أن يكون الباعث على السفارة أمراً تقره الشريعة وتجزئ التعامل به ، فالأمر بمقاصدها ، وكل سبب لا يعتبر مقصوده لا يشرع .

وعلى ذلك فإنه لا يعتد بالسفارة إذا كانت في أمر لا تجزئه الشريعة الإسلامية أو يخالف ما قصدت إليه من مشروعية السفارة ، وذلك مثل قبول ما يشترطه الحربيون على المسلمين مما يمس حرمتهم ، وإعطاء الدنية في الدين ، والتفريط في مقدسات المسلمين ، مصداقاً لقول الصادق المصدوق ﷺ: «المسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً»^(١) .

(١) أخرجه الترمذي (١٣٥٢) من حديث عمرو بن عوف المزني رحمته الله ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله ﷺ: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»^(١).

فالقاعدة العامة التي يصرار إليها في معرفة السبب القصدي لقيام السفارة، أن كل ما أجازه الشرع في أمور العلاقات الدولية تجوز السفارة فيه، وما لم يجزه فلا تجوز السفارة فيه.

وقد أفاضت عبارات الفقهاء رحمهم الله في هذا، فذكروا أنه لا بد من توافر المصلحة المشروعة فيما يترتب على قيام السفارة وينبغي على بعثتها من أمور الصلح والمعاهدات، وقد مثلوا للمصلحة المشروعة بأن يدخل فيها احتمال اعتناق الإسلام وإقرار السلام وتبادل العلاقات الاقتصادية، ودفع الضرر عن المسلمين رجاء تحقيق التعاون مع جيرانهم على غيرهم.

حصانة السفراء:

ومن خصائص السفارة أنها منحت حصانة للسفراء والرسل، فقد أقر الإسلام للرسل والسفراء الذين يدخلون دار الإسلام في حالتها السلم والحرب حق الأمان والحماية، فلهم من الحرمة ما يكفل لهم القيام بمهامهم التي وكلوا بها وبعثوا من أجلها، فلا يعتدى عليهم كما لا تساء معاملاتهم بل تظل هذه الحماية قائمة.

وقد تقرر هذا الأمان منذ عهد المصطفى ﷺ، فقد أتته رسل مسيلمة الكذاب، وقالوا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «لولا أن الرسل لا يقتلون لكنت قتلتما»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢١٦٨)، ومسلم (١٥٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٦١)، وأحمد في «المسند» (٤٨٧/٣) من حديث أبي نعيم الأشجعي رضي الله عنه.

كما ورد أن عامر بن الطفيل أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: خيرت بين ثلاث خصال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بألف أشقر وألف شقراء، فكان رد صاحب الخلق العظيم ﷺ على هذا القول الغليظ والسلوك السيئ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل»^(١) وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعلى ضوء ذلك فقد اهتم الفقهاء بحق الأمان للرسول والسفراء، فتكلموا عنه وذكروا أحكامه وصوره؛ من ذلك ما بينه الإمام الفقيه محمد بن الحسن الشيباني في كتابه «السير الكبير»، والإمام أبو يوسف في الخراج، من ذلك قولهم: إن الولاية إذا ما لقوا رسولا يسألونه عن اسمه فإن قال: أنا رسول الملك بعثني إلى ملك العرب، وهذا كتابه معي، وما من الدواب والمتاع والرقيق فهدية له، فإنه يصدق ولا سبيل عليه، ولا يتعرض له ولما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال.

وكذلك لو أن المسلمين أخذوا مركبا في البحر ومن فيه، فقالوا: نحن رسل بعثنا الملك، فلا يتعرض لهم، كما لا يؤخذ شيء من حربيّ دخل دارنا رسولا، وقد ذكر الفقهاء سبب تقرير حق الأمان للسفراء، والعلة الموجبة له، فقالوا: فإذا لم يكونوا آمنين لا يستطيعون تأدية الرسالة، فالأمان لهم بغير شرط، فإن شرط لهم ذلك وختمت به وثيقة كان أحوط.

فأمان السفراء والمبعوثين ثابت بدون عقد الأمان، قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: مضت السنة ألا تقتل الرسل، وقد حافظت الدول

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ١٢٥).

الإسلامية في مختلف عهودها على هذه القاعدة ، فكانوا يؤمنون الرسل جميعا مسلمين كانوا أو نصارى أو مغولا أو غيرهم ، وهذه خاصية ومزية امتاز بها نظام العلاقات الدولية الإسلامية .

نشر الدعوة الإسلامية هدف من أهداف السفارة:

وللسفارة أيضًا أهداف ، فمن هذه الأهداف نشر الدعوة الإسلامية ، فقد بدأت السفارة الإسلامية أولى مهامها في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بنشر الدعوة الإسلامية وتوسيع نطاقها ، وقد استخدم النبي ﷺ جميع السبل وكافة الأساليب لتحقيق هذه الغاية .

ويعد الصحابي الجليل مصعب بن عمير أول سفراء الإسلام في هذا المجال ، فقد بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة ليعلم المسلمين بها القرآن ويفقههم في الدين ، كما كانت الفترة ما بين صلح الحديبية ووفاة الرسول ﷺ تمثل مرحلة خطيرة ودقيقة في تكوين الدولة الإسلامية ، فقد شهدت تحركات كبيرة ونشاطات عظيمة في مجال نشر الدعوة الإسلامية وكسب الأنصار والمؤيدين .

ولإعلان ما تحقق للمسلمين من رفعة وسيادة ، فقامت بعوث مختلفة إلى مختلف البقاع في شبه الجزيرة العربية وخارج حدودها لهذه الغاية ، وتشرفت صحابة رسول الله ﷺ بحمل كتبه .

نماذج من السفارات في الإسلام:

فقد جاء في كتاب تلك البعوث النبوية كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة ، وقد جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد

رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك»^(١).

وكتب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة كتابا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، وأن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبعني وتوقن بالذي جائي، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجندك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»^(٢).

فلما تسلم الرسالة النبوية النجاشي ملك الحبشة، وضعها على عينيه، ونزل عن سريره، وجلس على الأرض إجلالا وإعظاما وإكراما لصاحب الرسالة ﷺ، ثم أحضر جعفرًا وأصحابه، وأسلم على يدي جعفر لله رب العالمين، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابا يعلمه فيه بإسلامه، وقد نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وصلى عليه صلاة الميت الغائب، وقال: لقد مات اليوم رجل عظيم، تقديرا من النبي ﷺ لمكانة الرجل في الإسلام، ولأنه أوى صحابة رسول الله ﷺ ونصرهم.

(١) ذكره ابن جرير الطبري في «التاريخ» (٢/١٣١)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/٢٦٨).

(٢) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» (١/٢١٠)، ومن طريقه الحاكم في «المستدرک» (٤/٢٢).

كما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابا جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكْتَسِبَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤]»^(١) .

وقد حققت هذه المكاتبات والسفارات النبوية أهدافها فاستجاب للدخول في الإسلام من شرح الله صدره ، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

فداء الأسرى هدف من أهداف السفارات :

ومن أهداف السفارات فداء الأسرى ، فمن الأغراض التشريعية التي قصدت إليها السفارات الإسلامية فداء الأسرى من المسلمين بهال أو غيره أو إطلاق سراحهم مقابل سراح عدد من أسرى الأعداء ، ويستند ذلك النشاط إلى ما فعله الرسول ﷺ في غزوة بدر ، فقد جعل فداء الأسير مقابل مبلغ من المال يتفاوت بحسب يسار الأسير وقدرته ، ومن لم يملك شيئا فقد أمره الرسول ﷺ أن يعلم صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، أو من عليه من غير دفع مال ، وعلى ضوء هذه التصرفات من النبي ﷺ فقد جرى عمل الولاة والحكام في إيفاد البعثات والسفارات للأغراض المشار إليها سابقا .

(١) أخرجه البخاري (٧) ، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان رضي الله عنه .

هذا وإن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يعقدون الآمال ويستبشرون بكل مسعى .

لحل قضايا المسلمين ، مقدرين الجهود العظيمة والمسااعي الحميدة التي تبذل لرأب الصدع وتوحيد صفوف المسلمين ، وإزالة الفرقة والخلاف بين حكامهم ، متخذين من قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^١ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۖ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، متخذين من هذه الآية الكريمة نبراس هدى ونور إصلاح وإرشاد .

الاستنفار للجهاد من أهداف السفارات في الإسلام :

ومن أهداف السفارات الاستنفار للجهاد ، فقد مارست السفارة الإسلامية دورا كبيرا في تيسير صد العدوان الخارجي على البلاد الإسلامية ، فكان الولاة والحكام يلجأ بعضهم إلى بعض في دفع ما تتعرض له شوكتهم من أذى خارجي ، وصد ما يقع على أوطان المسلمين من عدوان أجنبي عملاً بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ويقول الصادق المصدوق عليه السلام : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

ومما يحفظه التاريخ الإسلامي في ذلك ما وقع من سفارة معاوية بن أبي سفيان إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما جاشت الروم لتهاجم الشام، فكتب عثمان بن عفان إلى الوليد بن عقبة لإمداد معاوية بثمانية آلاف أو أكثر من ذلك، فخرج ثمانية آلاف من أهل الكوفة فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، فتحقق للمسلمين نصر الله الذي وعد به عباده ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

التفاوض بعقد الهدنات:

ومن الأهداف التي قصدت إليها السفارة التفاوض بعقد الهدنات، فيعتبر إجراء المفاوضات في مجال عقد الهدن والمصالحات من المهام الرئيسة التي يقوم بها الرسل والسفراء.

وقد سلك النظام الإسلامي هذا المسلك منذ بداية دولته، فما كاد الرسول ﷺ يستقر في المدينة المنورة حتى عقد صلحا مع طوائف المدينة، وفق فيه بين الأوس والخزرج على أساس حسن الجوار، ومع اليهود فأقرهم على دينهم وأموالهم، ولا شك أن هذا الصلح كان ثمرة اتصالات ومفاوضات قامت بها سفارات متعددة تمثل أطرافه.

وقد تتابع مسلك التفاوض بطريق السفارات في عهد النبي ﷺ فقام السفراء والرسل بدور كبير في عقد صلح الحديبية في العام السادس للهجرة، عندما أراد المسلمون بقيادة النبي ﷺ أداء العمرة، فصدهم المشركون عن البيت الحرام.

ثم دارت المفاوضات بين المسلمين والمشركين ، وكانت هذه السفارة تضم رجالا من قبيلة خزاعة على رأسهم بديل بن ورقاء ، ثم أرسلت وفدا ثانيا على رأسهم حليس بن علقمة ، ولما لم تقتنع قريش بحسن وفادة هاتين السفارتين واتهمتهما بمولاة الجانب النبوي والتواطؤ مع المسلمين ، عادت وأرسلت وفدا ثالثا برئاسة عروة بن مسعود الثقفي .

وقد عاد عروة ليقول لقومه : يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد ﷺ في أصحابه ، ما توضع إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشيء أبدا ، فروا رأيكم .

وبعد أن عاد عروة الثقفي إلى قريش رأى رسول الله ﷺ أن يبادر بإرسال سفارة حتى يطمئنوا إلى حسن نواياه ، وأنه ما جاء غازيا ، بل جاء معتمرا ، ولكن المشركين لم يراعوا لهذا الوفد حرمة ولا حقا لما يجب من حصانة واحترام ، مثل ما صنع الرسول ﷺ مع وفودهم .

وقرر الرسول ﷺ السفارة إلى المشركين ثانية وثالثة طالبا المهادنة ، واختار ﷺ في المرة الأخيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولكنه اعتذر قائلاً يا رسول الله : إني أخاف قريشا على نفسي وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني هو عثمان بن عفان ، وذهب عثمان رضي الله عنه إلى قريش .

وطال أمد المفاوضات بينه وبين رجال قريش الذين أحسنوا مقابلته وطلبوا إليه الطواف بالبيت الحرام إن أراد ، ولكنه رفض أن يفعل ذلك قائلاً : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها ،

فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« لا نبرح حتى نناجز القوم »^(١) .

ودعا الناس إلى البيعة على قتال قريش ، فكانت بيعة الرضوان تحت
الشجرة ، والتي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

ولما علمت قريش بأمر هذه البيعة خافت عاقبتها وجنحت للصلح وعادت
لتبعث بسهيل بن عمرو ، وأخيراً تم التراضي بين الطرفين ، ورضي المسلمون
بالصلح إيثارا للسلام على الحرب .

عقد المحالفات :

ومن أهداف السفارات أيضاً عقد المحالفات ، فقد نشأت فكرة المحالفات
في مجال العلاقات الدولية كوسيلة تلجأ إليها الدول للمحافظة على بقائها
وسلامة كيائها من الأخطار التي تتهددها وتتعارض مع مصالحها .

وقد قامت السفارات بدور كبير في عقد المحالفات ليقوم بين الدول
المتحالفة نوع من المعاوضة والمسالمة والدفاع .

وقد حفظ التاريخ الإسلامي للسفارات الإسلامية دورها في عقد المحالفات
لتحقيق توازن القوى ودفع ما يترتب بها من أخطار خارجية وأطماع دولية .

(١) أخرجه ابن جرير في « التاريخ » (١٢١ / ٢) ، وانظر « البداية والنهاية » لابن كثير
(١٦٧ / ٤) .

ومن أبرز المحالفات التي عرفها تاريخ السفارات الإسلامية تحالف العباسيين في عصر الرشيد والإمبراطور شارلمان ، وتحالف الدولة الأموية في الأندلس مع ملوك بيزنطة الشرقية ، وترجع أسباب وظروف هاتين المحالفتين إلى أن ظهور الدولة الأموية في الأندلس بشكل قوي كان مبعث تهديد وخوف للدولة العباسية في شمال إفريقيا ، ولقد حاول الخليفة العباسي المنصور أن ينال منها في عهد الخليفة عبد الرحمن فلم يفلح ، فقال : الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبينه .

ومما تجدر إليه الإشارة أن سفارات المحالفات قد نشطت واتسع نطاقها عندما تمزقت الأمة الإسلامية إلى ولايات وممالك ودويلات ، فظهرت الحاجة الشديدة إلى عقد محالفات من أجل أن يتغلب فريق على فريق ، كما كان من أهدافها توثيق العلاقات بين الأقطار المختلفة من أجل إيجاد تكتلات ، وسعيا وراء أمنها .

نتائج هذا البحث في النقاط الآتية :

أولاً : إن الإسلام نظام كامل وتشريع شامل يتناول شئون الدين والدنيا ، ومن ثم فإنه أقام نظاما للحكم فريدا في منهجه قويا في بنائه ، فسبق بذلك غيره من النظم الوضعية في تقرير الصورة المثلى والمنهج العادل الشامل لما يجب أن تكون عليه العلاقات الدولية الإسلامية من رشد واستقامة وتعاون وتفاهم وتبادل للنفع ورعاية للحرمان .

ثانياً : المفهوم الشامل للسفارة يأتي مرتبطا بهذه الغايات ومنبثقا عما تهدف إليه من سلام البشرية وأمن الوجود الإنساني ، فالسفارة في النظام الإسلامي وسيلة للمسالمة والمهادنة ، كما أن السفارة في النظام الإسلامي تنفرد

بخصائصها الإنسانية وسماتها الفطرية ، فلم تغفل عن مراعاة المتطلبات الإسلامية في رعاية العقيدة وتحري المصلحة ووضع الضوابط التي تمكن للسفارة من قيامها والإقبال على ممارساتها والاضطلاع بمسئولياتها .

ثالثاً : الواقع التاريخي يشهد بنظام الإسلام في العلاقات الدولية بالسبق لكل ما هو هادف ومثمر ، فالمفهوم الحقيقي للدبلوماسية الرائدة هذا في جلاء ووضوح أن سيدنا محمد ﷺ هو مؤسس هذا النظام .

رابعاً : جاء تقرير الإسلام للسفارة مستهدفا لتحقيق أغراض متعددة ومقاصد مختلفة تتجه كلها إلى ابتغاء الصالح العام ، والتطبيق الصادق للتوجيهات الإسلامية في مجالاتها الإقليمية والعالمية ، ومن ثم فقد كان عطاء السفارات الإسلامية متنوعا وشاملا ، فشملت الكثير من المهام المتعددة ، كنشر الإسلام وعقد المعاهدات ، وإرسال الرسل ، وتبادل المعرفة ، وتحقيق المصالح المشتركة .

المحاضرة الثلاثون بعد المائة

نظرية الإسلام في المنازعات والقواعد المنظمة للحرب

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨] صدق الله العظيم .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦) ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥، ٢٨] ، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] أما بعد ، فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (A) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَنَهُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٨، ٩] .

اختياري لهذا الموضوع لعاملين اثنين :

- ١- هو استعراض النظرية الإسلامية في العلاقات الدولية وتقييمها على ضوء التحدي الذي يواجهه العالم عموما والعالم الإسلامي خصوصا ، بسبب تطاول الصهيونية العالمية ، وتمدها على كل مبدأ دولي سليم ، قديم أو حديث .

٢- إقامة الدليل لمن لا يزالون متشككين على أصالة الفكر الإسلامي القانوني، وعلى سبقه في هذا الفرع الرئيس الذي يحتل مكان الصدارة بين جميع فروع القانون الحديث .

وواضح أن القانون الدولي هو عبارة عن مجموعة القواعد التي تنظم العلاقات بين الدول، وتحدد حقوق كل منها وواجباتها، وهو بذلك يحتوي على عدة أقسام رئيسة .

المنازعات الدولية:

أثرت أن أعرض أمس الموضوعات في القانون الدولي بالحالة الحاضرة في العالم ولاسيما بالحالة التي يواجهها العالم الإسلامي . ألا وهو قسم المنازعات الدولية، وقسم الحرب والحياد، والقواعد المنظمة للحرب . ففي هذه الدائرة وحدها سيدور البحث في هذا الحديث وقبل كل شيء أريد أن أؤكد أنه ليس معنى هذا أن ليس للإسلام كلمة في بقية الأقسام والمجالات التي يعالجها القانون الدولي .

بل إن الإسلام قد وضع كثيرا من القواعد وسبق إليها قبل ظهور القانون الدولي في الغرب على يد (كروس يوس) بأكثر من عشرة قرون، والإسلام وضع في هذه المجالات نظريات وقواعد لم يستطع القانون الدولي الحديث أن يستوعبها ويضمها جميعا، لأنه لم يرتفع بعد على المستوى الفاضل المثالي الذي يرتفع إليه الإسلام .

فموضوع البحث إذن يدور حول نظرية الإسلام في المنازعات الدولية والقواعد المنظمة للحرب، حيث إننا نعيش في حالة حرب أمام تحدي الصهيونية العالمية للعالم الإسلامي أجمع .

والآن ، فلنمهد بعد هذه المقدمة تمهيدا موجزا للموضوع ، إنه ليس بغريب على الإسلام أن يعالج موضوعا كهذا الموضوع ، وأن يهتم من أول لحظة بالعلاقات الدولية مع بقية العالم ، ذلك أن طبيعة الإسلام ذاتها هي طبيعة متفتحة على العالم ، وهي شديدة الميل إلى التعايش مع الآخرين في سلام ووثام .

الإسلام دعوة إلهية :

فالإسلام قبل كل شيء دعوة إلهية تستجيب للفطرة ، وتحاول أن تجمع الناس على كلمة سواء ، والإسلام هو الدين الوحيد الذي أبرز عدة معان هي قوام التعاون البشري ؛ الوحدة الإنسانية ، مبدأ وحدة النوع البشري ، مبدأ وحدة الفطرة البشرية ، ومبدأ وحدة الرسل والرسالات جميعا ، ومبدأ وحدة العقيدة الأصلية ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] فالإسلام دين توحيد يتسع أفقه لجمع كافة الأجناس والألوان تحت لواء واحد .

الإسلام دين التعاون :

وهذه الطبيعة التي برز بها الإنسان من الشيء المدهش ، إذ أنها جاءت متطابقة للميل الإنساني الغريزي في كل إنسان ، فالإنسان بطبعه ميال إلى التجمع وإلى التكتل وإلى التعاون . وليس كما يقال : إن الإنسان لا يتعاون ، ولا يجتمع إلا عند الضرورة ، وعند الاضطرار .

فإن في الاجتماع الإنساني لذة ومتعة تدفعك لا عن طريق الضرورة وحدها ، ولكن عن طريق المتعة واللذة التي يحسها الإنسان عندما يجتمع مع أخيه الإنسان ، والتي يحس بها الإنسان عندما يتعاون على الإنتاج والإبداع مع أخيه الإنسان .

أضف إلى ذلك أن طبيعة العرب الذين أذن الله أن يكونوا حملة لهذه الرسالة لم تكن طبيعة حرب ولا صراع .

بل إننا لنجد في تاريخ العرب القديم جميع الدول التي قامت في جزيرة العرب في جنوب الجزيرة وشمالها ، كانت كلها دولاً ذات طابع سلمي واقتصادي ، ولم تحمل السلاح إلا مضطرة عندما وصلت جيوش الغزاة إلى تلك المواطن والمواقع .

بل نجد حتى في العهد الجاهلي الذي سادت فيه الفرقة ، وقامت فيه النزاعات القبلية ، نجد أن العرب لم يكونوا مطمئنين إلى تلك الحالة من النزاع والنفاق ، وأنهم كانوا يبحثون دائماً عن منفذ يطمئنون فيه إلى الأمن والسلام ليعيشوا في وئام .

فنجد قبل البعثة النبوية العرب يجتمعون بعد حرب الفجار ، ويعقدون حلفاً جديداً . وأشرف وأكرم ما سمعت به العرب ، هو حلف الفضول ، لنصرة المظلوم ، ولتقرير دعائم السلام في الأرض العربية .

ونجدهم يعملون كل وسيلة من الوسائل ليجعلوا من مكة بلداً حراماً وموطناً آمناً : ﴿ مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥] وليجعلوا من الأشهر الحرم أربعة أشهر كاملة ، أشهراً لا يكون فيها قتال ، ولا يعتدي فيها أحد على أحد ، كل ذلك إيماناً بالسلام وتعلقاً به ، ومحبة فيه ، ومن أجل ذلك لا نجد أي تناقض بين الاتجاه الإسلامي الأصيل ، ولا بين الاتجاه الفطري للإنسانية عامة وللعرب خاصة .

فالأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو السلام لا الحرب ، دليلاً على ذلك عدة آيات قرآنية ، في طليعتها : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا

فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿البقرة: ٢٠٨﴾ ، فالشيطان هو عدو السلام .

والذين يشعلون الحرب ويثيرونها على الناس هم عبدة الشيطان وجنوده المسلطون في الأرض : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ، ونجد الله تعالى يقول : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال : ٦١] .

ونجد الله تعالى يقول : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء : ٩٤] ، ونجد القرآن يقول : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَلَاقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء : ٩٠] .

العداوة والبغضاء هما أساس اشتعال الحروب :

فالعداوة والبغضاء اللتان هما أساس إشعال الحروب من عمل الشيطان ، ومشعلو الحروب هم خدام الشيطان . والتحريض على القتال في القرآن عندما يأتي في الآيات القرآنية ليس معناه بث روح الحرب في نفوس المسلمين ، ولكن ذلك التحريض إنما هو شيء مؤقت ، لا يلجأ إليه إلا عندما تصبح الحرب ضرورة لا مناص منها ، فيحتاج المؤمنون إلى تجنيد جنودهم ، وإلى إثارة عزائمهم حتى يكونوا على أهبة لمواجهة الأعداء . وهذا هو الذي ينبغي أن نفهم عليه قول الله تعالى : ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء : ٨٤] . فالغرض من التحريض هو إبراز القوة لتفادي استعماها : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء : ٨٤] .

وعندما ندخل في صميم الموضوع في دراسة وتحليل المنطق الإسلامي في الشريعة والعقيدة نجد منطق الشريعة الإسلامية واحدا لا يتبدل . فنظام الإسلام سواء كان داخليا أو دوليا هو صادر ومنبثق عن مبادئ واحدة . فكل تصرف مقبول ومعقول في معاملات آحاد المسلمين بعضهم مع بعض داخل الدولة الإسلامية يعتبر هو بنفسه تصرفا مقبولا ومعقولا في معاملة المسلمين مع بقية الدول ، وإذا نظرنا إلى المبادئ التي قام عليها القانون في الإسلام سواء كان داخليا أو دوليا فإننا سنجد هذه المبادئ بارزة فيما يأتي :

- إقرار وحدة النوع البشري .
- صيانة الكرامة الإنسانية .
- تحقيق التعارف بين البشر كغاية عليا في المجتمع وكوسيلة لتنظيم التعاون الإنساني .
- الدعوة إلى المودة الإنسانية العامة والتسامح الكريم .
- التزام العدالة وممارستها في كل الظروف ، وبالنسبة للجميع .
- الامتناع عن الاعتداء والظلم كيفما كانت صورته ، واعتباره أمرا غير مشروع بالنسبة للجميع .
- الامتناع عن الفساد في الأرض .
- حماية الحريات بالنسبة للجميع ، ولا سيما حرية العقيدة وحرية تقرير المصير .
- إباحة المعاملات ما لم تؤد إلى انتهاك الكرامة الإنسانية .
- التقيد بالعهد والتزام الوفاء به .
- التقيد بالفضيلة ومكارم الأخلاق .

هذه المبادئ العامة لا يقصرها الإسلام على التعامل بين المسلمين ؛ بل هي تعم حتى غير المسلمين ، إن الإسلام لا يكيل بكيلين ولا يزن بميزانين ، وإنما يتجه في عمله وتصرفه وفي علاقاته وجهة واحدة تنبثق عن مصدر واحد . هو كتاب الله والإرادة العليا .

والآن ، فما هو نظر الإسلام في الحرب ؟ أو الحرب في نظر الإسلام ؟ لقد بينا أن الأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو السلم حتى تقوم دواعي الحرب فالحرب في الإسلام أبغض الأشياء إلى نفس المؤمن ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، فالمؤمن يكره القتل والقتال ، ويكره الحرب . والمسلم مأمور بتأخير الحرب كلما وجد سبيلا إلى الصبر وإلى المسالمة وكلما أمكن رد الاعتداء دون قتال .

متى تشرع الحرب في الإسلام ؟

الحرب في الإسلام لا تكون إلا عندما تتعذر وسائل السلم ، وتصبح ضرورة لا تقبل التأخير ولا مناص منها . ولا تعتبر مشروعة إلا إذا دفع إليها ظلم واقع أو ظلم متوقع ، ألم يقل الله تعالى في الآية التي هي عنوان هذا الموضوع : ﴿ لَا يَنْهَنُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨ ، ٩] ، فنكون هنا موضع اعتداء : ﴿ وَأَخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ﴾ [الممتحنة : ٩] ، فنكون هنا موضوع جلاء : ﴿ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ [الممتحنة : ٩] ، فنكون هنا أمام تماثل وتواطؤ على القضاء علينا وإبادتنا . في هذه الأحوال قال الله تعالى : ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩] .

فالحرب في الإسلام إنما هي للدفاع : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج : ٣٩] ، أذن لهم في الدفاع عن أنفسهم . والله تعالى يقول : ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، فهي للقضاء على الفتنة ، ولا سيما الفتنة في العقيدة والضمير . ويقول الله تعالى : ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، فهي ضد الظلم لرفعه وإقامة دعائم العدل ، وإذا كانت العقوبة تصل في جرائم الأفراد إلى حد القتل ، فإنها تصل في جرائم الدول إلى حد القتال ، والمنطق واحد في الإسلام بالنسبة لكلتا الحالتين .

قانون الحرب في الإسلام :

والآن فما هو قانون الحرب في الإسلام؟ هل هناك قانون للحرب؟ ولعل هذا فيه شيء من التناقض ، فالحرب هي عدوان على القانون ، فكيف يجتمع القانون والاعتداء على القانون؟ كلا إنه لا تناقض في ذلك ، فإن قانون الحرب هو الذي يحد من ويلاتها ، وهو الذي يقلل من سوءاتها ، وهو الذي يكون حكماً فاصلاً بين الفريقين المتحاربين ، فلا بد منه مادامت الحرب ضرورية ، اقتصادية أو اجتماعية ، وما دام الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، ويلقي بين الناس العداوة والبغضاء التي هي أساس الحروب .

فالمسلم -في قانون الإسلام الحربي- مأمور بأن يكتفي من الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى ، وملزم بأن يلتزم حدود الفضيلة في ابتداء الحرب وفي أثنائها وفي انتهائها ، والله تعالى يقول : ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٠] ، والله تعالى يقول : ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٤] ،

والله تعالى يقول : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل : ١٢٦] .

فالمرحلة في الإسلام تعيش دائماً وسط المعركة ووسط الملحمة ، يلتقيان ويتعاونان ، لأن الحرب التي يقوم بها المسلم هي حرب في سبيل الدفاع عن القيم العليا للإنسانية ، وفي سبيل الدفاع عن كرامة الإنسان وكيانه الأساسي . وتقديراً للضرورة ، فإن الحرب يسمح بها عندما تدعو إليها الضرورة . فبالنسبة للمقاتلين الذين يقفون في وجه المسلمين لا نسيء التعامل معهم ، ولا نتجاوز حد الضرورة القصوى في معاملتهم ، والضرورة بقدرها ، لا نعاملهم ولا نتعنف عليهم إلا في حدود الضرورة التي لا بد منها لدفع العدوان ورد الأذى .

وبالنسبة لغير المقاتلين بدلاً من التزام الضرورة والتقدير بقدرها ، نلجأ إلى مراعاة الإنسانية ، لأن المدنيين الذين لا يحملون السلاح في وجه المسلمين هم في الحقيقة لا ينبغي أن يكتسبوا بنار الحرب ، وينبغي أن نعاملهم دائماً معاملة كريمة فيها الرحمة والإحسان ، ولا نزعجهم في الآثار السيئة التي تؤدي إليها الحرب .

ما يجب أن يقوم به المسلمون قبل إعلان الحرب :

والآن فما هو العمل الذي يتدبّر به المسلمون قبل الحرب ؟ هل يهجم المسلمون على خصومهم دون إعلان سابق ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً حتى دعاهم إلى الإسلام .

وقال ﷺ في إحدى وصاياه لقواده ، وهي هنا لمعاذ بن جبل عندما أرسله في سرية إلى اليمن : « لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتل وقولوا لهم ، هل من خير إلى هذا سبيل ! فلأن يهدي الله بك وعلى يدك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس »^(١).

هكذا نجد رسول الله ﷺ نبي الرحمة ونبي الملحمة يوجه جنوده الوجهة المثلى الملائمة للفضيلة والأخلاق ، ونجد رسول الله ﷺ إذا قاتل قوما من المشركين دعاهم إلى الإسلام ، وفي انتظار إجابتهم يشتغل بالصلاة مع المؤمنين ليلقنهم درسا في عبادة الله ، وجلاله وعظمته .

ثم يعيد إذا فرغ من الصلاة ، يعيد إليهم الدعوة ويجدها ؛ عسى أن يقتنعوا ، وعسى أن يدخلوا في صفوف المسلمين دون أذى ودون قتال .

وعندما يصبح القتال أمرا لا بد منه ، فإن القائد المسلم لا يأخذ الطرف الآخر على غرة ، بل هو ملزم بأن يعمل ما أمكنه لحقن الدماء ، وعليه أن يخير الطرف الثاني بين ثلاثة أمور :

١ - الدخول في الإسلام ، ومعناه أن يصبح الطرفان المتقابلان إخوة في الله ، لهم نفس الحقوق ، وعليهم نفس الواجبات .

٢ - الدخول في عهد الإسلام أو ذمته ، حتى يكون لكل منهما ما للآخر وعليه ما عليه ، ويأمن الجانبان من الاعتداء .

(١) ذكره ابن حبان في « السيرة » (١٨٤) .

٣- القتال ، وذلك إذا رفض الطرف الثاني كلا من الدخول في الإسلام ، والدخول في ذمته ، والدخول في عهده ، إذ يكون برفضه لذلك قد أبدى تصميمه على مجابهة المسلمين ، وبين النية السيئة للاعتداء عليهم حالاً أو مستقبلاً ، فلا يبقى للمسلمين مبرر للاعتذار ولا للانتظار وإلا فوجئوا بما لا تحمد عقباه .

والأمة التي لا ترد أن ترتبط بالمسلمين لا بد من ولا بعهد ، وترفض الصلح معهم تعتبر في واقع الأمر عدواً يخشى ضرره ولا يؤمن جانبه ، ومادامت لا تقبل الإسلام ولا تقبل الميثاق مع الإسلام ، فإنها تعتبر دار حرب ولا بد إذن من القتال .

الدعوة للإسلام قبل القتال :

والحكمة في دعوتهم إلى الإسلام أولاً ، إن كان المسلمون أمام قوم لم تبلغهم الدعوة حرم على المسلمين قتالهم حتى يدعوهم ، فقد قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] .

لأنهم إذا قاتلوهم دون دعوة سابقة لا يدرون على ماذا يقاتلون ، وربما ظنوا أنهم لصوص قصدوا أموالهم ، بخلاف إذا ما علموا أنهم يقاتلون على الدعوة إلى الدين ، فإنهم ربما أجابوا وانقادوا إلى الحق .

وإن كان المسلمون أمام قوم قد سبقتهم الدعوة ، فالأحسن مع ذلك أن يدعوهم إلى الإسلام من جديد ، إذ المبالغة في الإنذار أنفع وأجدى .

هذا هو عمل المسلمين عندما يضطرون إلى الحرب قبل الشروع في الحرب ، فما هو عملهم أثناء الحرب قبل الشروع في الحرب .

إن رسول الله ﷺ لم يكن لا هو ولا خلفاؤه يتركون المقاتلين المسلمين وهم على ما هم عليه من الحماس والحمية لله ، لم يكونوا يتركونهم يتوجهون إلى الحرب دون وصايا مشددة مدققة ، يحاسبونهم عليها حساباً عسيراً ، وهذه الوصايا هي التي توجههم ، وتقود خطواتهم ، وتحكم تصرفاتهم خلال الحرب .

من وصايا الرسول الكريم في الحرب :

ومن هذه الوصايا ، نذكر على سبيل المثال ، قول رسول الله ﷺ للمسلمين : «سيروا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا -أي لا تسرقوا من الغنيمة- ولا تغدروا ، إذا عاهدتموهم فوفوا ، ولا تنفروا -بالمعاملة السيئة- ولا تمثلوا -إذا سقط بين أيديكم جريح أو قتيل فلا تشوهوه ، ولا تسيئوا إليه- ولا تقتلوا وليدا ، وحافظوا على النسل»^(١) فإنه دخر للبشرية ومتعة لها .

ومن وصايا رسول الله ﷺ مرة أخرى : «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى بركة الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين»^(٢) .

ونجد الإمام أحمد بن حنبل يروي في مسنده عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث الجيوش إلى الشام وبعث يزيد بن أبي سفيان أميرا عليها . فكان في وصيته ما يأتي : «إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع -يشير إلى الرهبان- فدعهم وما زعموا ، إلى أن قال : وإني

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بريدة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦١٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

موصيك بعشرة : لا تقتل امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا هربا ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا نخلا ، ولا تحرقنها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا للمأكلة - عند الاضطرار ولسد الرمق - ولا تجبن ، ولا تغلب .

فهذه هي الوصايا التي يتلقاها جنود المسلمين من رسول الله وخلفائه ليجعلوها دستورهم الدائم خلال الحرب . وتجد أن الإسلام يجتهد في التفرقة بين المقاتلين وغيرهم ، بحيث إذا اضطر المسلمون إلى الاشتباك في حرب فإنهم لا يعتبرون أنفسهم في حرب مع الشعوب ، وإنما يواجهون من حمل في وجههم السلاح ، وبأدهم بالقتال ، ولا يخلطون في حربهم بين المحاربين وغير المحاربين .

بل يتفادون بكل الوسائل الاحتكاك مع من ليس من شأنه أن يحارب ولا مع من لا يحارب بالفعل ، ولا مع من لا رأي له ولا تدبير في إشعال نار الحرب ، إذ القتل إنما هو لدفع القتال ، وإنما يقتل من يقاتل ، قال تعالى : ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، والمقاتلة تكون بين الجانبين ، وقال تعالى : ﴿ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

فالْحَرْبُ في الإسلام إنما تعلن ضد مستغلي الشعوب ، وضد قواتهم المسلحة التي يسخرونها لأغراضهم العدوانية : ﴿ وَقَتِّلُوا ﴾ .

وعلى هذا الأساس يتجنب المسلمون قتل الأطفال والنساء والشيخوخ ، لأن العادة أن هؤلاء جميعا لا يشتركون في القتال ، ولا يقومون بأي اعتداء ، وإذا فرضنا أن أحدا فكر في قتلهم فإنه يكون في نظر الإسلام هو المعتدي .

والإسلام نهى عن الاعتداء وحرمة تحريما باتا، وقد استنكر رسول الله ﷺ ما قام به بعض الجنود في إحدى المعارك ضد بعض الأطفال . فقال ﷺ : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية »^(١) .

ونفس هذا النهي وجهه إلى قائده خالد بن الوليد حتى لا يمس الذرية بسوء . وعندما رأى رسول الله ﷺ في أحد الميادين امرأة مقتولة ، قال ﷺ : « ما كانت هذه لتقاتل » ، وجدد أمره وشدده بعدم قتل النساء .

وبناء على نفس المبدأ يتجنب المسلمون قتال العمال المستأجرين للعمل ما داموا لا يساهمون في الحرب ، من لا يحمل السلاح ولو بالقتال كالعمال الزراعيين ، وأصحاب المهن والأعمال اليدوية ، فلا يمسهم المسلمون بسوء ، لأن الإسلام جاء للبناء لا للهدم ، وهؤلاء في نظره بناء العمران . وما داموا ليسوا من جناة الحرب فلا يجوز في عرف الإسلام أن يكتلوا بنارها ، وهؤلاء هم العسفاء الذين نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم . والواحد منهم عسيف .

وبناء على نفس القاعدة ، يتجنب المسلمون قتل الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع ، والتزموا دور العبادة . ولا يسمح بالتدخل في حريتهم ما داموا لا يشاركون برأيهم في القتال ولا يخرضون عليه .

أما الذين يساهمون في الحرب بالرأي والتدبير فإنهم يعتبرون في حكم المحاربين ، وللمسلمين أن يعاملوهم طبق هذه القصة ولو كانوا شيوخا

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٥) ، والدارمي في «السنن» (٢٤٦٣) من حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه .

عجزة ، ولو كانوا يتزيفون بزي رجال الدين ، وهكذا كانت الحرب في الإسلام قاصرة على حملة السلاح ، الذين يباشرون القتال في الميدان لا تتجاوزهم إلى غيرهم من الفئات والطبقات ، وكانت محصورة في معسكر السلطان .

معاملة المرضى والأسرى :

هذا ، وبمجرد ما يتوقف المحارب عن القتال ، إما لمرض أو جرح أو أسر أو استسلام لا يبقى منظورا إليه كما ينظر إلى بقية المقاتلين ، فيعالج المسلمون مرض المريض ويضمّدون جراح الجريح ، ولا يقتلون الأسير ، وإنما يفادونه أو يمنون عليه امتثالا لقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : ٤] .

وهم بعد ذلك يسقونهم جميعا من عيش ، ويطعمونهم جميعا من جوع . قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ ، ٩] .

وإذا سقط المحارب قتيلا في الميدان ، فإنه يكون في مأمن من المثلة والتشويه ، ويكون على المسلمين أن يقوموا بدفنه حتى لا يبقى عرضة لانقضاض الوحوش والطيور الكاسرة ، وكمثال لذلك نذكر ما أمر به رسول الله ﷺ من وضع جثث القتلى الذين سقطوا في غزوة بدر في القليب ، وهو بئر جاف ، وذلك حتى لا تنتهك كرامة الإنسان ولو بعد موته .

وقد مثل المشركون في غزوة أحد بجثة عم النبي ﷺ، وهو أحب أقربائه إليه حمزة بن عبد المطلب، سيد الشهداء، أشنع تمثيل، ومع ذلك لم يعاملهم بالمثل، بل صدر أمره القاطع بالنهي عن المثلة، فقال ﷺ: «إياكم والمثلة»^(١)، ونهى عن المثلة ولو بالكلب العقور...

منع الإفساد والتخريب أثناء الحروب:

وكذلك درج المسلمون أثناء الحرب على منع الإفساد والتخريب، فقد جاء في وصية الخليفة الأول أبي بكر الصديق قائده على الجيش الموجه إلى الشام، يزيد بن أبي سفيان، جاء فيها النهي الصريح عن قطع الشجر والنخل، وعن عقر الماشية، وعن تخريب العمران، عن تحريق الأمتعة.

وهذا النهي الذي صدر من الخليفة الأول لم يخالفه أي واحد من الصحابة، مما دل على أنه منبثق من الهدي النبوي مباشرة، ويؤيده قوله تعالى مستنكراً عمل المفسدين: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

والعلة في ذلك أن الغرض من الحرب في الإسلام هو الانتصار من الحكام المعادين له، لا لإيذاء رعيته والإساءة إليهم والتنكيل بهم، ولا تقويض العمران وتخريبه، إلا أن هذا النهي العام لا يمنع أن يستثنى منه ما إذا دعت الضرورة الحربية التي لا مناص منها إلى خلافه، كأن يتخذ العدو من الأشجار والنخيل كميناً، أو يتخذ من المباني حصونا، ومن أمثلة ذلك، نخل بني النضير التي أمر رسول الله ﷺ بقطعها، وحصونهم التي

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢/١٥٥)، وابن جرير في «التاريخ» (٣/١٥٨).

اعتصموا بها، فخر بها المؤمنون وأتم اليهود أنفسهم تخریبها: ﴿مُخْرِبُونَ
بُيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: ٢] .

التجارة أثناء الحرب:

وفي أثناء الحرب اختص المسلمون بالسماح بالتجارة مع رعايا العدو
نفسه، فبالرغم من قيام الحرب بين المسلمين وغيرهم، نجد الإسلام
يمكن المسلمين ويبيح لهم مواصلة التجارة مع رعايا الدولة التي هي في
حرب معهم، بحيث لا تنقطع التجارة بين رعايا الطرفين ولو أثناء
الحرب. وقد أجاز أبو حنيفة التجارة مع الدولة المحاربة في كل شيء إلا
السلاح.

وفي ذلك يقول السرخسي في كتابه «المبسوط»: ولا يمنع التجار من
دخول دار الحرب بالتجارة ما خلا الكراع والسلاح. فإنهم يتقون بذلك
على قتال المسلمين، أي بهذا الأخير، فيمنعون بحمله إليهم، وكذلك
الحديد فإنه أصل السلاح، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ
شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] .

قال: وإذا منعنا تجار المسلمين من أن يحملوا إليه الحديد والسلاح،
فإنهم يمنعون ذلك أيضاً، لأن بعض ما يحتاج إليه المسلمون من الأدوية
وغيرها يحمل من دار الحرب، فها نحن نجد أن الإسلام يقف هنا موقفاً
سمحاً كريماً بالنسبة إلى رعايا تلك الشعوب حتى لا يحرمها من المواد
الضرورية لحياتها، وحتى يبقى سيل التجارة متواصلاً والعلاقات التجارية
قائمة.

ونجد الإسلام في أثناء الحرب نفسها يسمح لرعايا الدولة المحاربة

بالبقاء في دار الإسلام رغما عن قيام الحرب . نظرا لأن الإسلام يعتبر الحرب أمرا عرضيا ، قاصرا على الجنود ومعسكر الحكام ، والسلم هو الأصل في العلاقات بين الشعوب ، فإن قيام الحرب لا يمنع وجود رعايا تابعين للدولة المحاربة ، مقيمين مع المسلمين في دار الإسلام ، ولا يحول دون قيامهم بالأعمال التجارية فيها ما دام دخولهم إلى دار الإسلام وإقامتهم بها محدودة قد تمت بعقد أمان ، وهم مستأمنون بفضل هذا العقد لا يمسهم سوء لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، ولهم أن يباشروا شرطهم السلمي في دائرة ما أخذ عليهم من شروط في عقد الأمان السابق ، قال السرخسي في المبسوط : أموالهم صارت مضمونة بحكم الأمان ، فلا يمكن أخذها بحكم الإباحة .

موقف المسلمين بعد الحرب :

هذا هو موقف المسلمين من خصومهم أثناء الحرب . فما هو موقف المسلمين وعملهم بعد الحرب ؟ هنا نجد المسلمين عندما تقف رحي الحرب بينهم وبين محاربيهم يلتزمون الصفح والإنسانية ويرفعون لواء التسامح الجميل ، ولا يطلقون العنان لأنفسهم في الانتقام وأخذ الثأر .

وإذا كان شعار غير المسلمين في مثل هذا الوقت «ويل للمغلوب من الغالب» ، فإن شعار الإسلام يكون : صفح جميل : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف : ٩٢] ، وبذلك يستل الإسلام العداوة من صدر المغلوب ويعالج جرحه بدلا من أن ينكل به .

وسند المسلمين في اتباع هذه السياسة موقف رسول الله نبي الرحمة ونبي

الملحمة ، فهو ﷺ قد وقف من ملأ قريش عندما فتح الله عليه مكة أكرم المواقف ، إذ خاطبهم قائلاً : « ما تظنون أني فاعل بكم » فأجابوه قائلين : أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال لهم الرسول الكريم : أقول لكم ما قاله أخي يوسف لإخوته : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(١) .

وقال ﷺ بعدما خاطبه عمر قائلاً : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر وقد كان هو زعيم الشرك ، وقائد الوثنية الأكبر فقال عليه الصلاة والسلام : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » . وكان أبا سفيان رد على رسول الله ﷺ قائلاً : « وكم تسعكم داري يا رسول الله » .

فأضاف رسول الله ﷺ وقال : « من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق الباب على نفسه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن امتنع عن القتال فهو آمن ، ومن تعلق بأستار الكعبة فهو آمن »^(٢) . ولم يستثن إلا أربعة من مجرمي الحرب هم :

١ - ابن خطل .

٢ - مقيس بن صبابه .

٣ - ٤ - قيتان لابن خطل كانتا تغنيان بشعر فيه هجاء للمقام النبوي الكريم .

(١) أخرجه ابن جرير في «التاريخ» (٢/ ١٦١) ، وابن حبان في «السيرة» (٣١٥) .

(٢) أخرجه بمعناه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

النظر في نتائج وآثار الحرب:

ونجد المسلمين بعدما تنتهي الحرب ينظرون في نتائجها وآثارها ، وهذه النتائج تختلف باختلاف الأحوال تبعا للطريقة التي انتهت بها الحرب ، فإن انتهت الحرب بقبول المحارب الإسلام ودخوله في جماعة المسلمين أصبح أخوا كاملا في الدين ، والإسلام يجب ما قبله ، وإن انتهت باستسلام المحارب وطلبه عقد الأمان دون الالتزام بالإسلام أصبح معصوم الدم والمال ، ورفعت عنه استباحتهما ، وعومل بمقتضى العدل والإحسان تبعا لما أعطي من الأمان .

وإن انتهت الحرب بطلب عقد المهادنة التي تقرب في معناها من إيقاف النار بالمفهوم المتعارف عليه اليوم ، أجيب المحارب إلى طلبه امثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٦١] ، ولا يمنع من إجابته إلى ذلك لأنه طالب بشيء يقره الإسلام . كل ما هنالك أن المسلمين ينبغي لهم أن يلزموا الحذر واليقظة ، امثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٦٢] ، وقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١] .

وإن انتهت الحرب بطلب عقد المهادنة أجيب المحارب إلى طلبه ، ووقعت مسالته مدة من الزمن ، عسى أن يعود إلى رشده وتكون مهادنته إما تمهيدا للصلح بين الطرفين ، وإما نوعا من الاستجمام لاستئناف القتال بمجرد انتهاء مدة الهدنة المتفق عليها ، وإن انتهت الحرب بطلب عقد الصلح أجيب المحارب إلى طلبه ، وأعلن الطرفان انتهاء حالة الحرب بينهما

حقنا للدماء ، وأصبحت دار المصالح دار عهد ، وعقد الصلح يكون غالبا مقيدا بمدة معينة كصلح الحديبية كان محمدا في عشرة أعوام ، كما أنه لا يمنع مانع من أن يكون عقد الصلح مطلقا من غير تحديد مدة ولا نص على الاستمرار والدوام ما دام ليس في كتاب الله مانع يمنع منه ، وما دامت الظروف مساعدة على صلح دائم لا رجعة فيه ، وإن انتهت الحرب لطلب عقد الذمة ، أجيب المحارب إلى طلبه وانضمت داره إلى دار الإسلام دون أن تفقد داره حريتها ولا كيائها الخاص ، وأصبح في ذمة الله ورسوله ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، كما فعل أبو عبيدة مع أهل حمص .

وكذلك الأمر بالنسبة للأقليات الدينية غير المسلمة التي تختار البقاء على دينها مع رضاها بالإقامة الدائمة بين المسلمين والسكنى المستمرة تحت ظل الدولة الإسلامية . وبمقتضى هذا العقد تتمتع هذه الأقليات بالرعاية الإسلامية ، وبعصمة الدم والمال ، واحترام الحرية الشخصية ، وصيانة الكرامة الإنسانية ، امتثالاً لقوله ﷺ : «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن خاصمته خصمته»^(١) .

ومقابل كل هذه الحقوق يلتزم الذميون بدفع صلة مالية سنوية لخزينة الدولة الإسلامية ، هي التي يطلق عليها اسم الجزية مقابل الفريضة المالية التي يطالب بها المسلمون ، والتي تعرف في شرع الإسلام باسم الزكاة ، ولفظ الجزية مأخوذ من الجزاء كأنها جزاء لإسكاننا للذمي في دارنا وفي عصمتنا دمه وماله ، أو مأخوذة من الإجزاء لأنها تكفي من توضع عليه في عصمة دمه وماله .

(١) سبق تخريجه .

الجزية:

وفي الحقيقة الجزية بدل عن ضريبة الدم التي يعفى منها أهل الذمة ، حيث إنهم لا يدعون إلى التعبئة في جيوش المسلمين ، وبدل عن حق الإقامة الدائمة المعترف لهم بها في دار الإسلام ، وبدل عن حماية الدولة الإسلامية لأموالهم وأنفسهم ، وليست بدلا عن إقرارهم على الكفر كما ادعاه بعض المنتطعين ، ولا عقوبة لهم كما ادعى ذلك بعض المغرضين ، وفي شأنها قال تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، والمراد بالإعطاء في الآية كما قرره السرخسي : القبول والالتزام .

أما الصغار هنا فهو مجرد إلزام الجزية والطاعة وعدم الخروج على الدولة الإسلامية ، وليس المراد به الإذلال والإهانة ، إذ حمله على ذلك لا يتفق مع الوصايا النبوية العديدة التي أوصى بها رسول الله ﷺ بأهل الذمة ، وآخرها وصيته في حجة الوداع ، ومن ذلك قوله : «من آذى ذميا - فإذا أذللناه وأهاناه فتلک هي الأذية- فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن خاصمته خصمته» ، فالذين حملوا الصغار على الإذلال والإهانة وتحقير الإنسان خاطئون في فهم الإسلام .

وها هنا من اللطائف التي يحسن ذكرها أن المسلمين يضطرون في بعض الأحيان إلى أن يرفضوا عقد الذمة ولماذا؟ هناك بعض الحالات لا تسوغ فيها الإجابة إلى عقد الذمة ، كما إذا كان موضوع العقد غير مشروع حسب القاعدة الشرعية والقانونية ، فإذا كان الموضوع الذي يدور عليه العقد غير مشروع أصلا فإن العقد باطل .

مثال ذلك ما ذكره السرخسي في كتابه «المبسوط»، ونصه بالحرف الواحد: «وإن كان طلب الذمة على أن يترك طالبه، نفرض رئيسًا لدولة هو ذمي إن كان طلب الذمة على أن يترك طالبه يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره مما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك، لأن التقرير على الظلم مع إنكار المنع منه حرام، ولأن الذمي يلتزم أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات، فشرطه الذي اشترطه بخلاف موجب العقد باطل، كما لو أسلم أحد بشرط أن يرتكب شيئًا من الفواحش، فإن الشرط يكون باطلاً».

فها أنتم ترون كيف أن الإسلام كان حريصًا على التزام مبادئه، ومنطقيًا مع نفسه دائمًا في صيانة المثل الأعلى داخل دولته وخارجها، يحمي الحقوق، ويحمي المستضعفين، ويكره الظلم، ولا يقر الظالمين.

من يريد الحياد في الحروب يعطاه:

والإسلام إذا كان يحدد للحرب حدودها فإنه يعترف بالحياد ويقره بجانب الحرب، لقد توقع كتاب الله أن تنشب حرب بين المسلمين وغيرهم من الأقوام، ولا يريد فريق من هذه الأقوام الدخول في الحرب لا ضد المسلمين ولا معهم، فإنه يفضل أن يبقى على الحياد بالنسبة للطرفين المتنازعين.

فمن مال إلى اتخاذ هذا الموقف المحايد أوجب القرآن احترام حياده، وعدم المساس به.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، أي

ضاقَت ولم يردوا أن يدخلوا في حرب ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء : ٩٠] .

فهذا النص صريح قاطع في أن من يريد الحياد يعطاه ، وهو متفق مع المبدأ الإسلامي في أن الأصل في العلاقات الدولية هو السلم لا الحرب .

وكمثال للوقوف موقف الحياد يورد بعض علماء الحديث ، حديثاً ورد في بعض كتب السنن كأبي داود والنسائي والبيهقي والحاكم ، أن رسول الله ﷺ قال : «دعوا الحبشة ما وادعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم» . قال الإمام مالك : لا يجوز ابتداء الحبشة بالحرب ولا الترك . فهذا ناشئ ومنبثق عن مبدأ الحياد وفكرة الحياد .

والإسلام يدعو إلى التعارف ويشجع على التعاون الدولي ، ولذلك لا مانع من أن تشارك الدول الإسلامية في أي منظمة دولية تقوم على رعاية الحق ونصرة العدل ، وإحقاق الحقوق ، وإقامة دعائم السلام .

على أن الدول الإسلامية بموجب شريعة الإسلام في السلم والحرب تستطيع أن تكون فيما بينها أسرة دولية مثالية هي أحق وأولى بتطبيق مبادئ الإسلام العامة في علاقاته الدولية ؛ وعن هذا الطريق تضرب المثل لغيرها من أعضاء المجموعة الدولية وتؤثر في توجيهها توجيهاً دولياً سليماً .

مقارنة بين الاتجاه الإسلامي في الحرب والسلم وبين غيره من الاتجاهات :

وها هنا أذكر بكل اختصار مقارنة بسيطة بين الاتجاه الإسلامي في الحرب والسلم وغيره من الاتجاهات ، فعندما أصيب ريتشارد قلب الأسد ملك

إنجلترا في المعركة أمام صلاح الدين أسرع إليه صلاح الدين وداواه بنفسه من جروحه ، ولم يزل يعنى به حتى شفى من مرضه ثم أطلق سراحه .

ورأى صلاح الدين ريتشارد قلب الأسد في معركة يافا وهو يحارب على قدميه إذ كان حصانه قد قتل في الميدان ، فأرسل إليه جوادين كريمين قائلا : إنه لا يليق بجندي شجاع باسل أن يحارب راجلا ، وحين مات سنة (١١٦٤م) لم يشأ صلاح الدين أن يستغل وفاته في مهاجمة عسقلان ، وقال : «إنه عمل غير إنساني أن تزعج قوما محزونين على أميرهم ، ولن يشرف مجدي أن أهجم على قوم غير مستعدين للدفاع» .

بينما نجد ريتشارد عندما وجد أمامه في معسكر المسلمين عددا كبيرا منهم وسقطوا في يده أسرى ، بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، سلموا أنفسهم له ، بعد أن أعطاهم عهدا يحقن دماءهم ، نجده أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب ، وبمعاملتهم أقبح معاملة ، وكأن ذلك كان جزاء حسنا على ما قام به صلاح الدين الأيوبي عندما دخل بيت المقدس ، فرحم نصارى القدس ولم يصبهم بأذى ولا بسوء .

ونجد نابليون يقف على أبواب مكاء ويقع في يده كثير من أهل الشام أسارى فلا يسعه إلا أن يعمل فيهم السيف ، بحجة أن لا يجد ما يطعمهم ، وأنهم لا يصح لهم البقاء . بينما صلاح الدين الأيوبي عندما واجهته حادثة مثل هذه من أسرى المسيحيين الصليبيين لم يسعه إلا أن أطلق سراحهم آمنين . وإن كانوا عادوا بعد ذلك إلى الميدان لحربه وقتله .

وهنا أشير بكلمة مختصرة إلى رجل طالما تبجح به كل كتاب القانون الدولي وهو «جروسيوس» القانوني الهولندي والسفير الهولندي الذي يعتبرونه أبا القانون الدولي الحديث ، فهذا الرجل سجل على قومه حقيقة

تاريخية ينجل منها التاريخ ، ولكنه ذكرها في مقدمته وبين فيها انطباعاته عن الحالة المحزنة التي شاهده عليها أوربا في عهده ، فقال ما ترجمته بالحرف الواحد : إنني أرى في العالم المسيحي إفراطا ، إفراطا للاستسلام للعدو المناوئ للإسلام لأن الإسلام دين العزة : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] والمسلم لا يقبل الظلم ولا يرضى بالمهانة ، ولا يتنازل عن حقه في البقاء ولا عن حقه في الحرية .

فنحن نعاهد الله على الاستمسك بحبل الإسلام والكفاح في سبيله وإعزاز جانبه ، والصمود في وجه جميع أعدائه في السلم والحرب ، في السراء والضراء .

قد كان الحافظ أبو الفرج بن الجوزي ذات يوم في مجلس وعظه ببغداد ، وكان حاضرا في ذلك المجلس الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله . فما كان من أبي الفرج بن الجوزي إلا أن أطلقها كلمة طيبة مؤثرة وموعظة حسنة ، قائلاً للخليفة العباسي : «ولو أني مثلت بين يدي السدة الشريفة لقلت يا أمير المؤمنين كن لله سبحانه مع حاجتك إليه كما كان لك مع غناه عنك» .

المحاضرة الحادية والثلاثون بعد المائة

القيم والأخلاق في الإسلام

بُعثَ النبي ﷺ لِيَتِمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ:

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي رواه مالك بن أنس رحمته الله في الموطأ، بلغه أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». قال ابن عبد البر في كتابه «التجريد»: هذا الحديث يتصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ، وقال الزرقاني: رواه أحمد، وقاسم بن أصبغ، الحاكم، والخرائطي، رجال الصحيح عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، وفي «الجامع الصغير» للسيوطي برواية أبي هريرة: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ورمز له بالصحة، وعزاه إلى ابن سعد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان»، أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وفي رواية، بزيادة، إنما في أوله زيادة في المبالغة.

قال ابن عبد البر: يدخل في معنى الحديث: الصلاح والخير كله، والدين والفضل والمروءة، والعدل، والإحسان، فبذلك بعث رسول الله ﷺ لِيَتِمَّ، وما دام موضوعنا انطلاقاً من الحديث المذكور، هو القيم والأخلاق في الإسلام، وأثرها في تحقيق المستوى الحضاري للإنسان، فلا بد لنا أولاً من تعريف كلمة القيم، وكلمة الأخلاق، ثم نذكر أمثلة لهذه القيم والأخلاق في الإسلام، ثم نخلص بالنتيجة إلى بيان أثر هذه القيم، وهذه الأخلاق في تحقيق المستوى الحضاري للإنسان.

المقصود بالأخلاق:

المقصود بالأخلاق هنا، القواعد المحسنة لسلوك الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذه الدنيا، وهي السعادة النفسية، والطمأنينة القلبية، والحياة الآمنة، والعيشة الراضية، في حياته: الدنيا والآخرة، والعاجلة والآجلة.

المقصود بالقيم:

المقصود بالقيم أيضاً، تلك القواعد والمقاييس المحسنة والمنظمة لسلوك الإنسان، ويطلق عليها كلمة، القيم، لما لها من قيمة كبرى في تربية الإنسان على مكارم الأخلاق وتهذيب سلوكه، وهي بهذا المعنى تقترب من الدلالة على نفس كلمة الأخلاق في هذا المجال.

وعند التحقيق نجد أن هناك مقابلة في اللفظ والمعنى بين كلمة الخلق، وكلمة الخلق في الإسلام، فكلمة الخلق تعبر عن صورة الإنسان الظاهرة في شكله وهيئته ودقائق تكوينه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وكلمة الخلق تعبر عن صورة الإنسان الباطنة، وهي هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها أفعال الإنسان، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧].

وهذه الصورة الباطنة للإنسان، وإن كانت في أصلها فطرة وطبيعة وسجية، إلا أنها تتأثر بالتلقين، وبالتربية والتقويم، وهو معنى قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه».

والقرآن الكريم لا ينظر إلى النفس الإنسانية على أنها شريرة في أصلها، ولا على أنها فاسدة، بل على أنها مخلوقة على فطرة نقية صافية، وهو معنى

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

الإنسان مفضوّر على معرفة الخير والشر :

لقد علمنا القرآن الكريم أن النفس الإنسانية قد تلقت في تكوينها الفطري الأول الإحساس بمعنى الخير والشر ، فهي تعرف معنى الإحساس بالخير كما تعرف معنى الإحساس بالشر ، وهي قابلة للتزكية والارتفاع كما هي قابلة للهبوط والفسل . وقد علمنا القرآن أن الإنسان قادر على أن يزكي نفسه ويحكم أهواءه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧-١٠] ، وهو معنى قوله تعالى أيضًا : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿١٠﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿١١﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٢﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ [البلد : ٨ ، ١١] .

وإذا لم يكن كل الناس يمارسون هذا التأثير في نفوسهم وعلى سلوكهم فإن منهم من يفعل ذلك ويعمل على إصلاح سريره وباطنه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿١٣﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

وهذا يدلنا على أن في داخل الإنسان قوة باطنة ، لا تقتصر على نصحه وهدايته فحسب ، بل تحفزه بقناعة وطمأنينة ، ليفعل أو لا يفعل ، وتلك القوة التي في داخله وضميره ، التي تأمره وتنهيه ، هي الجانب الوضيء في داخل النفس ، وهو معنى قوله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له

واعظاً من نفسه ، يأمره وينهاه»^(١) . وهو أيضاً معنى قوله تعالى في الجانب المقابل من السلوك السلبي ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] . وهذا يدلنا على حاجة الإنسان دائماً إلى القيم والقواعد الخلقية ليزكي بها نفسه ، ويصلح بها سريرته .

الإسلام دين ظاهر وباطن :

الإسلام لا يفرض القيم الخلقية على السلوك الظاهري للإنسان فحسب ، بل يفرضها على السلوك الباطني للإنسان أيضاً ، لأن الإنسان في حقيقته ظاهر محسوس ، وباطن غير محسوس ، وأهمية باطن الإنسان في الإسلام لا تقل أهمية عن ظاهره .

بل إن ظاهر الإنسان ما هو إلا ترجمة وانعكاس لباطنه ، ولهذا ركزت القيم والقواعد الخلقية في الإسلام على باطن الإنسان وسريرته ودخائل نفسه ، لأنه إذا صلح باطن الإنسان واستقامت نيته وسريرته صلح ظاهره واستقام سلوكه ، وهو معنى قوله ﷺ : «أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢) .

لقد ربط الإسلام بين الأخلاق والإيمان ونتائج الأعمال ، بل وجعل الكمالات الخلقية من مكملات الإيمان ، وعلامة على حسن الإسلام ، ونيل رفيع الدرجات عند الله في الثواب وفي ميزان الأعمال .

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١٤٩) : أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند

الفردوس» من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ : «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ» .

(٢) سبق تخريجه .

وقد رغب الإسلام في تأسيس الأخلاق في المجتمع ، بداية من الأسرة ، فقال النبي ﷺ : «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لأهله»^(١) .

وفي رواية للبيهقي : «وخياركم خياركم لنسائهم» .

وفي تربية الأولاد على مكارم الأخلاق قال النبي ﷺ : «أكرموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم»^(٢) .

وفي الأخلاق العامة ، قال النبي ﷺ : «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا»^(٣) .

وفي أثر الأخلاق في نيل رفيع الدرجات في الثواب ، وفي ميزان الأعمال ، قال ﷺ : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبيغض الفاحش البذيء»^(٤) .

وقال ﷺ : «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات؟ قالوا : نعم يارسول الله قال : «تحلم على من جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك»^(٥) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٩/٥) ، والطبراني في «الكبير» (٢٥٦/٢) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥٤/٨) : رجاله ثقات .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) ، وأبو داود (٤٧٩٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سبق تخريجه .

وقال أيضًا: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار»^(١)، وقال يومًا لأصحابه: «ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «أحسنكم خلقًا»^(٢).

وكان النبي ﷺ يدعو ربه دائمًا ويقول: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي، وحرّم وجهي على النار»^(٣). ولذلك وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله المبين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

إن علينا في مجال تأسيس الأخلاق في الأسرة والمجتمع أن نسلم بداهة بأن الله الذي خلق النفس الإنسانية، وأودعها في هذا الجسد الأرضي هو أعلم بها وبما يصلحها، وبما يصلح لها في هذه الدنيا، وهو القائل ﷻ في القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

وعلىنا في هذا المجال أيضًا أن لا ننسى العهد والميثاق والعقد الفطري الذي أخذه الله علينا جميعا يوم خلق الله الأرواح كلها، وجمعها في عالم الذر، وهي يومئذ ذرات ونسمات، وخاطبها فأجابت، وأشهدا على أنفسها فشهدت بأنه هو الله ربها، وقد أخذ الله عليها هذا العهد يوم ذلك، كي لا تغفل في هذه الدنيا عن ربها الذي خلقها فأحسن خلقها، ولتعمل على مقتضى أمره ونهيه، وكي لا تعتذر يوم القيامة بتأثير المبتلين عليها في هذه الدنيا.

-
- (١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد في «المسند» (٩٠/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
 (٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٨٥/٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
 (٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٠٣/١)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٥٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد ذكرنا الله في القرآن بهذا العقد الفطري ، وبهذا العهد والميثاق ، فقال ﷺ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣] .

تقسيم النفوس :

وقد علمنا القرآن فوق ذلك أيضًا أن النفس الإنسانية تصير نفسا أمارة ، أو نفسا لوامة ، أو نفسا مطمئنة ، بحسب عملها وسلوكها وتفكيرها ، فتصير أمارة بالسوء عند غفلتها عن أمر ربها ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف : ٥٣] ، وتصير لوامة عند التذكرة والندم والتوبة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [التوبة : ١٠٢] ، وتصير مطمئنة عند التقوى والاستقامة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر : ٢٧ ، ٢٨] .

أصناف الناس ومراتبهم بحسب سلوكهم :

قد بين لنا القرآن أصناف الناس ومنازلهم ومراتبهم بحسب سلوكهم وتفكيرهم ، فقال تعالى في القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

فالظالم لنفسه ، من أهمل فطرته على الخير ، ونمى استعدادها للشر ، والمقتصد من جمع بين الخير والشر ، واستويا عنده في الفعل ، والسابق

بالخيرات من هذب فطرته بالفضائل ونمى استعدادها للخير ، وكان في طاعة الله ﷻ .

وكفى بالأخلاق قيمة ومكانة في الإسلام ، وفي تصويب سلوك الإنسان ، أن النبي ﷺ قال : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» ، وكفى بالأخلاق قيمة ومكانة في الإسلام ، وفي تصويب سلوك الإنسان أن الله ﷻ حين وصف رسوله محمداً ﷺ وأثنى عليه في القرآن ، وصفه وأثنى عليه بالخلق العظيم ، فقال ﷻ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم : ٤] ، ولم يكن خلقه ﷻ إلا تطبيقاً عملياً لما في القرآن من آداب وأخلاق وكمالات ، ولهذا لما سئلت أم المؤمنين ، السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت : «كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنَ»^(١) ، ثم أردفت قائلة لسائلها : أما تقرأ قول الله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

يقول صاحب «العقد الفريد» : إن الله نظم لمحمد ﷺ الأخلاق كلها في ثلاث كلمات ، بقوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . ففي أخذه بالعفو صلة من قطعه ، والصفح عمن ظلمه ، وفي الأمر بالعرف تقوى الله تعالى ، وهي منبع كل خير ، وغض الطرف عن المحارم ، وصون اللسان عن الكذب ، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن ممارسة السفه ، ومنازعة اللجوج .

ثم يقول صاحب «العقد الفريد» بعد ذلك : وقد أخذ النبي ﷺ بهذه الأخلاق من القرآن ، فكان مثلاً أعلى لها ، وعمل على أن تكون هي أخلاق أمته وآدابها في سلوكها ، ولذا كان من حديثه ﷺ أنه قال : «أوصاني ربي

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمي ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرة^(١) .

بعض قيم وقواعد الأخلاق والسلوك في القرآن :

هذه أيضًا بعض قيم وقواعد الأخلاق والسلوك في القرآن ، ومثلها في السنة النبوية أيضًا كثير وكثير ، نسوقها للتذكير بأن غنى الإسلام وثرأه في ميدان القيم والأخلاق كبير .

يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَأَلْعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١ - ١٥٣] .

(١) أخرج الطبراني الثلاث الفقرات الأولى في «الأوسط» (٥٤٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه . وأخرج الثلاث الفقرات الأخيرة القضاعي في «مسند الشهاب» (١١٥٩) . وأخرجه ابن أبي الدنيا بتمامه في «إصلاح المال» (٣٢٦) من كلام داود رضي الله عنه .

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١٢٦﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ١٢٧﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ١٢٨﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ١٢٩﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ١٣٠﴾ وَإِنَّمَا تَعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ١٣١﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ١٣٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ١٣٣﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيرًا ١٣٤﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ١٣٥﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ١٣٦﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ١٣٧﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ١٣٨﴾ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ١٣٩﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ١٤٠﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ١٤١﴾ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ١٤٢﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ١٤٣﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ١٤٤﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ١٤٥﴾ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿ [الإسراء: ٢٣-٣٩].

الأخلاق تكون في شتى مجالات الحياة:

وبعد فإن قيم الأخلاق وقواعدها في الإسلام كثيرة، وهي تتناول بالتأسيس والرعاية كل مجال من حياة الإنسان، الخاصة والعامة، فقيمة الإيمان وهي أصل كل قيمة، وقيمة العقل، وقيمة العلم، وقيمة التفوق بلا استعلاء، وقيمة الصدق، وقيمة الإخلاص، وقيمة الأمانة، وقيمة العهد والوعد والميثاق، وقيمة الوفاء، وقيمة التعاون وقيمة الإيثار، وقيمة العدل، وقيمة الحرية، وقيمة المساواة، وقيمة العفو، وقيمة الإحسان، وقيمة الشورى، وقيمة القوة، وقيمة الصبر، وقيمة الحلم، وقيمة الصفح، وقيمة الرحمة، وقيمة الجود والكرم، وقيمة النظافة والتجمل، وقيمة الحياء، وقيمة إماطة الأذى، وقيمة دفع الضرر، وقيمة بر الوالدين، وقيمة المعاشرة بالمعروف بين الزوجين، وقيمة الأخوة، وقيمة صلة الرحم، وغيرها من قيم الأخلاق في الإسلام كثير كثير - إذا أخذنا بها وتطلعنا إلى المستقبل بعز، وثقة بالله ﷻ، وسرنا قدما إلى الأمام في كل مجال، كنا خير أمة أخرجت للناس، وأفدنا أنفسنا، وأفدنا العالم بما في رسالة الإسلام من قيم وأخلاق.

القيم والأخلاق تحقق المستوى الحضاري للإنسان:

إن القيم والأخلاق التي جاء بها الإسلام، هي التي تحقق المستوى الحضاري الرفيع للإنسان، وهي التي تجعل الإنسان بالأخلاق إنساناً متفوقاً بلا استعلاء، ودون أن يظلم أحداً من الناس، وقد كانت حضارة الإسلام ولا زالت حضارة قائمة على القيم والأخلاق، والرحمة بين الناس فكانت فتحة للقلوب، ونشراً للتراحيم، وكانت بذلك حضارة متميزة في تاريخ البشرية كلها.

مما جعل مؤرخًا فرنسيًا في علوم الحضارة وهو غوستاف لوبون يقول بكل تجرد وإنصاف : «ما عرف العالم فاتحًا أرحم من العرب» ، ويشهد لذلك كله قول جعفر بن أبي طالب عليه السلام في جوابه للنجاشي ، حين سأله النجاشي ملك الحبشة يوم ذاك قائلاً : ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

فأجابه جعفر بن أبي طالب عليه السلام : أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، إلى آخر ما ذكره جعفر بن أبي طالب عليه السلام في هذا الجواب .

وهكذا نرى أن الأمة التي كانت تسودها أخلاق الجاهلية ، يأكل القوي منها الضعيف ، وتتناحر فيما بينها ، قد ارتقت بأخلاق الإسلام إلى مستوى رفيع من الوحدة والتضامن ، والإيثار والتضحية ، والعدل والأخوة والمساواة ، وقد أصبحت في مستوى حضاري يليق بها كخير أمة أخرجت للناس .

اختلال مقاييس القيم لدى الحضارة المادية :

أما الحضارة المادية الحديثة اليوم ، وحضارة القوة في العالم ، فقد اختلت لديها مقاييس القيم ، وموازن الأخلاق في أكثر من مجال ، فكان من نتائج ذلك ما نشاهده اليوم من ظلم وتحلل ، واعتداء على حقوق الإنسان في أكثر من مكان ، وعندما تبتعد الحضارات عن القيم والأخلاق ، وتعتمد على ماديتها وبريقها ، وقوتها وأنانيتها ، سرعان ما تصير إلى ما صارت إليه الحضارات المادية المعاصرة اليوم ، وفيما نرى ونسمع ونشاهد ، شاهد حي على ما نقول ، وما أحسن ما قاله شوقي أمير البيان في هذا المجال .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُم ذهب أخلاقهم ذهبوا



نور من القرآن والسنة

٣٤٦

المحاضرة الثانية والثلاثون بعد المائة

فضل التنافس في العلم والإنفاق

الأدلة من السنة:

قوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها» أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم في هديهم إلى يوم الدين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا في الدارين، إنك سميع مجيب.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري أصلاً الجعفي ولاء، قال: باب الاغتباط في العلم والحكمة، وقال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ في كبر سنهم.

وبه إليه قال: حدثنا الحميدي، قال حدثنا سفيان، قال حدثني إسماعيل بن أبي خالد، على غير ما حدثناه الزهري، قال سمعت قيس بن أبي حازم، قال سمعت عبد الله بن مسعود، قال سمعت النبي ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق،

ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها» .

معنى الاغتياب :

الاجتباب : افتعال من الغبطة وهي أن يتمنى الإنسان مثل ما لغيره من النعمة ليعمل به في وجوه البر والإحسان ، من غير أن يزول ذلك عن المغبوط ، ويقابلها الحسد ، وهو أن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن الغير ، سواء تمنى تلك النعمة لنفسه أو تمنّاها لغيره ، أو تمنى مجرد الزوال ، فهما متباينان لأنهما وإن اتحدا في الجنس الذي هو مطلق التمني ، لكنهما يختلفان بالفصل ، وهو متعلق التمني ، وهو المثل في الغبطة من غير زوال ، وزوال النعمة في الحسد ، وليست الغبطة سببا للحسد خلافا لما ذكره القسطلاني هاهنا إذ لو كانت الغبطة سببا للحسد للزم من وجودها وجود الحسد ، ومن عدمها عدمه ، كما هو الشأن في السبب .

والواقع أن الغبطة توجد بدون حسد ، الحسد يوجد بدون غبطة ، فهما لا يجتمعان ، ولا يترتب بعضهما عن الآخر ، وأيضا لو كانت الغبطة سببا في الحسد للزم منعها ، إذ وسيلة المحرم تكون محرمة ، واللازمان باطلان ، فالملزم إذن مثلهما في البطلان .

قال البخاري رحمه الله : باب الاجتباب في العلم والحكمة ، والعلم والحكمة قيل مترادفان ، والمترادفان هما اللذان يختلفان لفظا ويتحدان ما أصدقا ، فحيث يكون عطف الحكمة على العلم من قبيل عطف التفسير ، وهو غير ظاهر ، إذ عطف التفسير يشترط فيه أن يكون المفسر أوضح من المفسر ، وليس الأمر كذلك هاهنا إذ العلم مطلق الإدراك ، فيصدق بالإدراك الدقيق وغير الدقيق ، والحكمة هي الإدراك المقيد بالدقة ، فيكون العلم قد

ازداد فردًا ، والحكمة قد اختصت بقيد ، وحينئذ يكون عطف الحكمة على العلم من عطف الخاص على العام ، لأن الأعم ما ازداد فردا ، والأخص ما ازداد قيда .

قال البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه : وقال عمر : «تفقهوا قبل أن تسودوا» ، هذا الأثر الوارد عن عمر رواه أبو عمر بن عبد البر ، عن محمد ابن سيرين ، عن الأحنف بن قيس رحمته الله : «تفقهوا قبل أن تسودوا» ، ذلك أن السيادة قد تمنع من أن يجلس الإنسان مجلس المتعلم ، ثم قال البخاري بعد هذا ، وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ في كبر سنهم .

هذا الكلام ربما يوهم شيئًا من المنافاة بين كلام سيدنا عمر ، وبين ما ذكره البخاري ها هنا ، إذ كلام سيدنا عمر يطلب أن يكون التعلم قبل السيادة ، وكلام البخاري يذكر أن التعلم يكون بعد السيادة ، فيكون فيه بحسب الظاهر شيئًا من المنافاة ، وهذه الرواية هي رواية محمد بن يوسف الفربري ، وذكر أبو بكر محمد بن الهيثم الكشميهني في روايته أن البخاري زاد بعد قول سيدنا عمر السابق ما نصه : «وبعد أن تسودوا» ، وعلى هذه الزيادة يرتفع التنافي الذي يكون بحسب الظاهر ، ويكون قول البخاري بعد هذا ، وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ في كبر سنهم ، كالا استدلال على ما هو مذكور في رواية الكشميهني .

قال البخاري حدثنا الحميدي ، هذا الحديث يدور على ثلاثة من الصحابة ، وهم : عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وأبو هريرة ، مع بعض الاختلاف في ألفاظ الأحاديث ، فحديث عبد الله بن مسعود أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه ، وحديث عبد الله بن عمر أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ، وحديث أبي هريرة انفرد به البخاري من

بين أصحاب الكتب الستة ، هذا على سبيل الإجمال ، أما على سبيل التفصيل فإن حديث عبدالله بن مسعود هذا أخرجه البخاري هاهنا في كتاب العلم عن الحميدي ، وفي كتاب الزكاة عن محمد بن المثنى ، وفي كتاب الأحكام وكتاب الاعتصام عن شهاب بن عباد العبدي ، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الصلاة عن أبي بكر بن شيبه ، وأخرجه ابن ماجه في الزهد عن محمد بن عبدالله بن نمير .

وأما حديث عبدالله بن عمر فإن البخاري أخرجه في التوحيد ، عن علي بن عبدالله المديني ، وأخرجه في فضائل القرآن عن أبي اليمان ، الحكم بن نافع القضاعي البهراني ، وأخرجه مسلم في كتاب الصلاة عن أبي بكر بن أبي شيبه وعمرو الناقد وزهير بن حرب ، وأخرجه أيضاً عن حرمله بن يحيى .

وأما حديث أبي هريرة الذي انفرد به البخاري فإنه أخرجه في كتاب التمني عن عثمان بن أبي شيبه ، وفي كتاب التوحيد عن قتيبة بن سعيد ، وفي فضائل القرآن عن علي بن إبراهيم .

وحديث البخاري هذا أولى بالتقديم لاتفاق رواته على ألفاظ متنه ، واخلو بعض طرقه -وهي طريق الحميدي من العنعنة ، وهو من خماسيات البخاري التي هي أكثر أحاديثه ، إلا أنه يمكن إرجاعه إلى الرباعيات لما هو مقرر في الصناعة الحديثية من أنه إذا وجد راويان في مرتبة واحدة بأن كانا صحابين أو تابعين فإنهما ينزلان منزلة الراوي الواحد ، ويرتقي الحديث درجة في العلو ، وهنا يوجد تابعيان وهما : إسماعيل بن أبي خالد ، وقيس بن أبي حازم .

ويعد حديث ابن مسعود هذا من أعلى درجة الصحيح ، ذلك أن علماء

الحديث قسموا الصحيح إلى سبع مراتب ، أعلاها ما رواه البخاري ومسلم ، ثم ما رواه البخاري ، ثم ما رواه مسلم ، ثم ما كان على شرطهما ، ثم ما كان على شرط البخاري ، ثم ما كان على شرط مسلم ، ثم ما كان على شرط غيرهما ، وإلى هذا يشير العراقي بقوله :

وأرفع الصحيح مرويهما ثم البخاري فمسلم فما
شرطهما حوى فشرط الجعفي فمسلم فشرط غير يكفي

قال البخاري رحمه الله حدثنا الحميدي ؛ وهو عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله بن أسد بن عبد العزيز بن قصى ، وهو من أسد طيء التي تقع شرقي غطفان ، لازم الشافعي وتفقه به ، وسافر معه إلى مصر ، وبعد وفاة الإمام الشافعي رجع إلى مكة ، وهو أفقه مكي أخذ عنه البخاري ، ولذا قدمه في أول حديث من صحيحه ، وقد روى عنه هنا البخاري ، وروى أيضاً عنه أحمد بن الأزهري ، وروى عنه سلمة بن شبيب ، وروى عنه أبو حاتم .

قال أبو حاتم : الحميدي ثقة إمام ، وهو أثبت الناس عند ابن عيينة ، وقد أخرج له البخاري في «صحيحه» ، ومسلم في «مقدمته» ، وأخرج له أبو داود والترمذي والنسائي في «سننهم» ، وأخرج له ابن ماجه في «التفسير» ، وقد توفي عام تسعة عشر ومائتين ، ولا يوجد في كتب الحديث من اسمه عبد الله بن الزبير إلا ثلاثة : الحميدي هذا ، وعبد الله بن الزبير ابن العوام أول مولود في الإسلام ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة ، وعبد الله ابن الزبير بن معبد الباهلي ، وقد أخرج له الترمذي في «الشئال» ، وابن ماجه في «السنن» .

قال حدثنا سفيان ؛ إذا روى الحميدي عن سفيان ولم ينسب فالمراد به أينما وجد في كتب الحديث سفيان بن عيينة ، لكون الحميدي لازمه تسعة

عشر عامًا .

وهو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي ، مولى بني ربيعة من بني هلال ،
وبنو هلال من أعظم القبائل العربية ، وهي تقع عند ذات عرق شرقي وادي
القرى ، ونرى أن بعض المحدثين ينسبه إلى مكة ، والبعض الآخر ينسبه إلى
الكوفة ، وكل من النسبتين صحيح ، ذلك أن سفيان ولد عندما كان والده عيينة
عاملاً لأمير العراق ، خالد بن عبدالله القسري ، وبعدما عزل هشام بن
عبد الملك خالداً عن العراق ، وولي مكانه عمر بن يوسف الثقفي ، وتتبع عمر
هذا عمل خالد ، فرعيته إلى مكة ، فنشأ بها سفيان ، وأخذ عن شيوخها ، فروى
عن عمرو بن دينار ، والزهرى ، وزيد ابن أسلم ، وصفوان بن سليم ، وكلهم
تابعون ، وروى عنه شعبة ، ومسعر ، من شيوخه مسعر بن كلفة ، وروى عنه
عبدالله بن المبارك من أقرانه ، وروى عنه الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ،
كذلك روى عنه أيضاً جمع من العلماء .

وقد قال القسطلاني هاهنا في شرحه لأول حديث من البخاري : إن
سفيان بن عيينة تابعي جليل ، وما قاله هاهنا القسطلاني لا يمكن أن
يصدق فيه من الناحية التاريخية ، ذلك أن سفيان بن عيينة ولد عام سبعة
ومائة ، ومن المقرر أن آخر الصحابة موتاً على الإطلاق هو أبو الطفيل
عامر بن واثلة الليثي ، وقد توفي سنة مائة ، فكيف يكون سفيان هذا
تابعياً؟ ، إلا أن كونه غير تابعي لا ينقص من قدره بين أهل العلم .

فقد ذكر الإمام الشافعي أنه لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز ،
وذكر الذهبي في الميزان أنه قال : أجمعت الأمة على الاحتجاج به ، فإنه
وإن كان يدلس إلا أنه إنما يدلس عن ثقة .

وقال ابن وهب : « ما رأيت أعلم بكتاب الله من سفيان بن عيينة » .

وذكر ابن سعد في « الطبقات » أن سفيان بن عيينة حج عام سبعة وتسعين ومائة ، ولما كان بمنى صلى واستلقى على فراشه وقال : لقد أتيت هذا المكان سبعين مرة أقول في كل مرة : اللهم لا تجعل هذا آخر العهد بهذا المكان ، وإني استحييت أن أسأل الله هذه المرة ، فتوفي في رجب من السنة التي بعدها ، وهي سنة ثمان وتسعين ومائة ، وكان عمره إحدى وتسعين سنة .

ثم إن ما ذكرناه هاهنا في سفيان وما ذكره أهل العلم في شأنه مما يؤيد لنا ما كان له من مكانة بين أهل العلم ، حيث إن أمثال سفيان وكذلك مالك ، وكذلك أبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهم من أمثالهم لا يحتاج فيهم إلى التزكية ، لأن شهرتهم بين أهل العلم تغني عن تزكيتهم ، وإلى هذا يشير العراقي بقوله :

وصحوا استغناء ذي الشجرة عن تزكية كمالك نجم السنن

أما من كان دون هؤلاء فإنه لابد من التثبت في أمره ولو بلغ من العلم ما بلغ خلافا لابن عبد البر ، ومحمد بن المواق اللذين ذهبا إلى أن كل مشغل بعلم ، معتن بشئونه يحمل على العدالة في ذلك العلم ، محتجين بما رواه معان بن رفاع الشامي الدمشقي ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال : قال النبي ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »^(١) ، وهذا الذي استمسك به لا مستمسك لهما فيه لأمر .

منها : أنه ضعيف ، لأن الراوي له ، وهو معان بن رفاع قد ضعفه أبو إسحاق

(١) سبق تخريجه .

الجوزجاني وابن معين، ومعان رواه عن إبراهيم بن عبدالرحمن العذري، وإبراهيم هذا قال في شأنه القطان لا نعرفه في شيء من العلم إلا في هذا.

ومنها : أنه مرسل لأن إبراهيم رواه عن النبي ﷺ فرفعه إليه ، وإبراهيم تابعي ، ولم يذكر الصحابي الذي روى عنه ذلك الحديث ، ومرسل أمثال إبراهيم لا يحتج به ، ومنها أننا لو فرضنا سلامته من كل ما ذكر لما صح الاحتجاج به .

ذلك أن الاحتجاج به مبني على حمله على الخبرية ، وحمله على الخبرية لا يصح ، لأنه خبر الرسول ، وخبره ﷺ يجب أن يكون صادقا ، ونحن نشاهد الكثير من الفسقة يحملون العلم ، وهذا يؤدي إلى الكذب في خبر الرسول ، وهو محال ، إذن فما بقي إلا أن يحمل إلا على الطلب ، فيكون المعنى أن النبي ﷺ أمر العدول بتحمل العلم لأنهم الذين يوثق في علمهم ، ويتففع به ، وأبرزه في صورة الخبر كأن المخاطب به قد امتثل ، وهذا ما يشير إليه العراقي بقوله :

ولابن عبد البر كل من عني بحمله العلم ولم يوهن

فإنه عدل بقول المصطفى يحمل هذا العلم لكن خولفا

قال حدثني إسماعيل ؛ إسماعيل هذا هو : إسماعيل بن أبي خالد البجلي الأحمسي نسبة إلى بجيله على وزن حنيفة ، وهي قبيلة يمنية من معد ، تقع بين خزاعة وكنانة ، وجدها الأعلى هو بجيله بن أغارب بن نزار بن معد بن عدنان ، والأحمسي نسبة إلى أحمس ، وهو عند العرب من وهب نفسه أو وهبه والداه لخدمة الآلهة ، وهي عادة كانت تفعلها قريش وكنانة وبجيله

في الجاهلية وإسماعيل هذا من جلة التابعين ، يروي عن عبد الله بن أبي أوفى ، وأبي جحيفة ، وأنس بن مالك ، وروى عنه السفينان وشعبة ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة ، وتوفي عام ستة وأربعين ومائة .

قال سفیان علی غیر ما حدثناه الزهري ، يشير سفیان بهذا إلى أنه روى الحديث عن إسماعيل بن أبي خالد ، ورواه أيضًا عن الزهري من حديث ابن عمر ، ونصه كما في مسلم ، قال :

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعمرو الناقد وزهير بن حرب ، كلهم عن سفیان ، قال زهير حدثنا سفیان بن عيينة ، قال حدثنا الزهري عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر قال قال النبي ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » ، والمخالفة بين الحديثين واضحة ، ثم قال ، سمعت قيس بن أبي حازم ، قيس هو : قيس بن أبي حازم البجلي الأحمسي ، فهو من بلدة إسماعيل المتقدم ، وهو من كبار التابعين يروي عن أبي بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعبد الله بن مسعود ، وقد روى عنه الحكم بن عتيبة ، وروى عنه أيضًا إسماعيل بن أبي خالد ، وروى عنه الأعمش ، وقد توفي سنة ثمان وتسعين .

وقد قال فيه يعقوب بن شيبة : إن قيس بن أبي حازم كان ثقة ثبتًا ، ونقل معاوية بن أبي صالح الشامي أصلًا ، الأندلسي استيطانًا عن ابن معين أنه قال : كان قيس أوثق من الزهري .

وقد نقل الذهبي في «الميزان» أنه قال : كاد قيس يكون صحابيًّا ، وقد أجمعوا على الاحتجاج به ، ومن تكلم فيه فقد آذى نفسه ، ولكن مع هذا كله

فقد نقل علي بن عبد الله المدني عن يحيى القطان معلوم بين المحدثين من أنه من المتعنتين في التجريح ، سيما وأنه لم يبين سبب هذا الطعن ، ولذا رده الذهبي في الميزان ، إذ التجريح لا يمكن أن يقبل إلا مفسرا ، لوقوع الاختلاف في أسبابه إذ ربما جرح الناقد شخصا بشيء لو فسر له لما كان قادحا فيه ، وهذا نفس ما وقع لشعبة حينما جرح شخصا ، فلما سئل عن السبب قال : إنه رآه يركض في الشارع ، وهذا الذي يشير إليه العراقي بقوله :

وصحوا قبول تعديل بلا ذكر لأسباب له أن تثقلا
ولم يروا ذكرا لجرح أبهما للخلف في أسبابه وربما
استفسر الجرح فلم يقبل كما فسر شعبة بالركض فما
هذا الذي عليه حفاظ الأثر كشيخي الصحيح مع أهل النظر

قال : سمعت عبد الله بن مسعود قال : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، نسبة إلى هذيل ، وهو أبوحي من مضر ، وهو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وعبد الله هذا هو صاحب النعلين والمسواك والمطهرة ، وأحد الستة السابقين إلى الإسلام .

وقد روى ابن سعد في الطبقات أن عبد الله بن مسعود تلقن من النبي ﷺ سبعين سورة ، وروينا في البخاري أن عبد الله بن مسعود قال : والله ما أنزلت سورة في كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ، وروينا في البخاري أن عمرو بن العاص ذكر يوما عبد الله بن مسعود فقال : لا أزال أحبه ، سمعت النبي ﷺ يقول : «خذوا القرآن عن أربعة ، عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ ، وأبي بن كعب» .

ورويانا في البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد أنه قال سألنا حذيفة يوما عن رجل يكون قريب السميت والهدي من النبي ﷺ حتى نأخذ عنه ، فقال : « ما أعلم أحدا أقرب هديا وسمتا ودلا بالنبي ﷺ من ابن أم عبد » .

ورويانا في البخاري عن محمد بن العلاء أن أبا موسى الأشعري كان يقول : قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حينما ما نرائي إلا أن عبد الله بن مسعود من أهل بيت النبي ﷺ ، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي عليه الصلاة والسلام .

وقال عامر الشعبي : ما دخل الكوفة أنفع علما ولا أفقه من عبد الله بن مسعود .

وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه بعثه أيام خلافته إلى الكوفة معلما ، فكان النواة الأولى لمدرسة الرأي التي كان يتزعمها أبو حنيفة بالعراق ، ذلك أن أبا حنيفة أخذ عن إبراهيم النخعي ، وإبراهيم هذا أخذ عن علقمة بن قيس النخعي والأسود بن قيس النخعي وهما أخذوا عن عبد الله بن مسعود ، بل كانا من أعلم الناس به .

الحسد الجائر:

قال النبي ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين » ، المراد بالحسد هاهنا ، الغبطة ، فهو من قبيل المجاز ، وهو من استعمال المقيّد بقيد آخر ، وقال القسطلاني وابن حجر ، أن لفظ الحسد هاهنا يحتمل أن يراد به معناه الحقيقي ، وهذا الاحتمال بعيد لمنافاته لترجمة البخاري ، ولما يلزم عليه من الإيرادات .

والحسد هاهنا نكرة وقعت في سياق النفي ، وهي تفيد العموم ، والقضية هاهنا وإن كانت مهمة سلبية ، إلا أن المهمة السالبة في قوة

الكلية السالبة كما هو مقرر في علم المنطق ، والكلية السالبة تفيد نفي مفهوم المحمول عن كل فرد من أفراد الموضوع ، فيكون المعنى لا حسد جائز إلا في اثنتين ، أي لا غبطة جائزة إلا في اثنتين .

هكذا قرره القسطلاني ، وهو تقرير غير صحيح لما يلزم عليه من قصر الغبطة على اثنتين مع أن الغبطة تجوز في غيرهما ، والأولى بالاعتبار هو ما قرر به ابن حجر حيث قال : لا غبطة أعظم من الغبطة في اثنتين ، والفساد إنما جاء للقسطلاني في تقدير المحمول الذي قدره من مادة الجواز ، ولو قدره من مادة التأكيد أو من مادة العظمة كما فعل ابن حجر لما كان تقريره فاسداً .

قال ابن حجر : لا غبطة أعظم من الغبطة في اثنتين ، وهذا التقرير واضح لا يحتاج إلى بيان ، قال : « لا حسد إلا في اثنتين » ، قال النبي ﷺ : « رجل آتاه الله ما لا فسلطه على هلكته في الحق » .

هذا التركيب المتقدم يشتمل على النفي وعلى الاستثناء ، والقاعدة أنه إذا اجتمع النفي والاستثناء ، فإن ما قبل الاستثناء يكون من قبيل المنطوق كما هو مقرر في الأصول ، وما بعده وقع الاختلاف فيه ، هل هو من قبيل المفهوم وهو ما ذهب إليه الجمهور ، بل هو أعلى أنواع مفهوم المخالفة كما أشار إلى ذلك السبكي بقوله : وأعلاه : لا عالم إلا زيد ، وذهب الكمال بن همام في كتابه التحرير إلى أنه من قبيل المنطوق ، ومفهوم المخالفة هو أن يثبت للمسكوت نقيض حكم المنطوق ، والمنطوق هاهنا الذي يوجد قبل الأداة شيئاً : يوجد المحكوم به والحكم ، فما الذي نثبت لما بعد الأداء ؟ هل نثبت لها نقيض المحكوم به ، أو نقيض الحكم ؟

هذه المسألة وقع الاختلاف فيها بين الجمهور وبين أبي حنيفة ، ويوجد محل اتفاق ومحل افتراق بين الفريقين ، فيتفق الفريقان على أن أداة الاستثناء

للإخراج وأن ما قبلها مخرج منه ، وأن ما بعدها مخرج ، من شيء دخل في نقيضه ، ولكنها يختلفان بعد ذلك في المخرج منه ، هل هو المحكوم به؟ أو هو الحكم؟

فذهب الجمهور إلى أن المخرج منه ، هو المحكوم به؟ والمحكوم به عدم عظمة الغبطة في مثالنا ، فيدخل المستثنى في نقيضه وهو عظمة الغبطة في الاثنتين .

وذهب أبو حنيفة إلى أن المخرج منه هو الحكم ، وعليه فيدخل في نقيضه الذي هو لا حكم فيه ، فيكون ما بعد الأداة غير محكوم عليه بنفي ولا بإثبات .

ومذهب الجمهور هو الصحيح لما يلزم على مذهب أبي حنيفة من الإيرادات التي لا محل لذكرها هنا ، وإلى هذه المسألة يشير السبكي بقوله : والاستثناء من النفي إثبات ، وبالعكس ، خلافا لأبي حنيفة .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : «رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق» ، قول النبي عليه الصلاة والسلام : «ورجل آتاه الله مالا» ، هذا التركيب يشعر بأن المال هو ملك لله تبارك وتعالى أولا وبالذات ، وهذا ما تشهد له النصوص ، فقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد : ٧] ، وقال : ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَهُمْ﴾ [النور : ٣٣] ، وإذا كان المال ملكا لله فينبغي للإنسان أن يراعي حدود الله في اكتسابه وفي إنفاقه ، لينال بذلك رضا الله تبارك وتعالى ، والتعبير بالهلاك هاهنا ، قال ابن حجر في الفتح والقسطلاني في الإرشاد ، إنه يشعر بإنفاقه كله ، وهذا الحمل الذي حملا عليه الهلاك لا يصح نقلا ولا عقلا ، فهو مخالف للمنقول ومخالف للمعقول .

أما مخالفته للمنقول فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وروينا في البخاري عن عثمان بن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصدقة ما ترك غنى، وابدأ بمن تعول»، وروينا في البخاري عن سعيد بن عفير أن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول»، وقصة سعد بن أبي وقاص في البخاري مشهورة، حيث عاده ﷺ من مرض ألم به، فأراد أن يوصي بجميع ماله، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «لا، فقال: الشطر، قال: لا، قال: الثلث، قال: الثلث، والثالث كثير، لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس».

وأما مخالفته للمعقول، فإننا لو أمرنا جميع أفراد الأمة بالإنفاق على هذا الوجه، وأن ينفق كل واحد جميع أمواله في سبيل الله، للزم على ذلك من المحذور ما لا تقدر كلفيته، ذلك أنه يلزم أن يبقى الفرد هو وأسرته عالة على المجتمع، ويلزم أن تفتقر جميع أفراد الأمة، وإذا افتقر أفراد الأمة، افتقرت الأمة، والأمة إذا افتقرت ضعفت دنياها، وإذا ضعفت دنياها ضعف دينها، والذي ينبغي أن يحمل عليه الهلاك هاهنا هو المبالغة في الإنفاق، وأنه ينبغي للإنسان أن ينفق قدر المستطاع.

والأولى والذي ينبغي أن يشجع عليه المسلم، وينبغي أن يقوم به هو تأسيس المشاريع الاقتصادية التي يشارك بها في ازدهار بلاده، والتي يمكنه أن يكون إنفاقه مضاعفا ومستمرًا في آن واحد، إذ بإنشائه لتلك المشاريع يشغل اليد العاملة، ويدفع الضرائب للدولة لتنفق في الصالح العام، وينفق على أسرته وعلى نفسه، وينفق في المشاريع الخيرية والاجتماعية، ويؤدي الزكاة لتنفق على مستحقيها، وهذا كله يعد إنفاقاً إن صلحت

النية ، قال : «رجل آتاه الله ما لا فسلطه على هلكته في الحق» .

قال النبي ﷺ : «ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» قال : «ورجل آتاه الله الحكمة» ، هذا التعبير يشعر أيضًا بأن العلم بيد الله ، وأن ما يتطلبه الإنسان ويقوم به من طلب العلم لا يمكن أن تتسبب عليه نتائجه بالقوة وبقدرة العبد ، وإنما ذلك بقدر الله وإرادته ، وهذا ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

والمراد بالحكمة هاهنا ، جميع العلوم ، سواء كانت دينية أو دنيوية ، لأن الإسلام لا يفرق بين الدنيا والدين ، لأن الإسلام كما يبني على الدنيا لأنها مطية للآخرة ، يبني على الآخرة ، ولهذا يراد بالحكمة هاهنا ما يشمل العلوم الدنيوية والعلوم الأخروية .

قال : «ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها» ، المراد بالقضاء هاهنا مطلق الفصل ، فيشمل في ذلك السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، فكل ذلك مما يغتبط به ، وليس المراد بالقضاء هاهنا ، القضاء المصطلح عليه في علم الفقهاء الذي يعرفه ابن عرفة بقوله : صفة حكمية توجب لموصوفها نفوذ حكمه الشرعي ولو بتعديل أو تجريح ، لا في عموم مصالح المسلمين ، هذا قول النبي ﷺ : «ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها يعلمها» .

قول النبي عليه الصلاة والسلام : «ويعلمها» ، يبين لنا مدى الأهمية التي يعلقها الإسلام على التعليم ، لأن الأمة بدون علم وبدون تعليم لا يمكنها أن تزدهر فيها أخلاق ولا حضارة .

لا حسد إلا في اثنتين :

وبعدما مررنا على هذا الحديث ، وبيننا معناه حسبما تقضيه القواعد العلمية ، نعود مرة أخرى لنلقي عليه نظرة عامة ، قال النبي ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » ، هذا الحديث مع وجازته ، حيث إنه يشتمل على جملة واحدة مقيدة بالبديلة ، تتضمن جميع العناصر التي تتوقف عليها الحضارة كيفما كان نوعها ، فقد ذكر علماء التاريخ أن للحضارة عناصر أربعة ، وهذه العناصر لم يتوصل إليها علماء الغرب إلا في أوائل القرن العشرين ، والإسلام يكون قد قررها وسبق إليها بما يتجاوز ثلاثة عشر قرنا ، وهذه العناصر هي :

العنصر الاقتصادي الذي يشير إليه النبي عليه الصلاة والسلام ، بالمال ، ولا يمكن لحضارة أن تقوم إذا لم يكن لها اقتصاد ولم تكن لها أموال .

كما أن الحضارة تتوقف على العنصر الخلقي ، وهذا ما يشير إليه الحديث بقول النبي ﷺ : « فسلطه على هلكته في الحق » ، لأن الإنفاق يهذب النفوس ، ويعين على استكمال الأخلاق ، فيكون من جملة العناصر التي تتوقف عليها الحضارة .

كما أن من جملة العناصر العنصر السياسي ، وهذا ما يشير إليه قول النبي ﷺ : « ليقضي بها » ، وقد قلنا إن المراد بالقضاء هاهنا ما يشمل مطلق الفصل ، ليشمل جميع السلط ، فيكون هذا من قبيل العنصر السياسي .

كما أنه يشمل العنصر العلمي أيضًا ، وهذا ما يشير إليه قول النبي ﷺ : « الحكمة » وبقوله : « يعلمها » .

وهذا من جملة ما اشتمل عليه هذا الحديث ، قلنا : اشتمل على هذه العناصر الاقتصادية ، ولكن الإسلام عندما يقرر هذه العناصر الاقتصادية ، ويقرر هذه المبادئ لا يتعرض إليها بالتفصيل والدقة ، بل يترك الباب مفتوحاً لمجال التطبيق ، ولتطبق كل أمة حسب حاجياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وبذلك يكون الإسلام قد قرر مبدأ تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأحوال ، قبل أن يوجد مونتسكي الذي يقول الغربيون إنه هو الذي اكتشف هذا المبدأ ، بما يزيد على عشرة قرون .

والإسلام إذ يقرر هذه المبادئ لا يكتفي بتقريرها بصورة شكلية ، بل يسدل عليها سياجا من الصبغة الدينية حتى تكسب الحرمة في النفوس ، وحتى يمكن احترامها من قبل المسلم ولو كان مختلها بنفسه ، وكان بعيدا عن أنظار العدالة ، والإسلام إذ يقرر هذه المبادئ لا يكل الحقوق والواجبات إلى المسطرة القضائية فحسب ، ولكنه يكل ذلك إلى بواطن الأمور ، ولهذا يقول النبي ﷺ : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من النار» . زاد في مسلم : «فليأخذها إن شاء أو ليركها» .

كما أن الإسلام في تقريره لهذه المبادئ يفصل القول في بعض النواحي ويتركه في بعض النواحي ، وهذه الصبغة الدينية التي وإن الإسلام لم يكن السبب في تأخره هو تمسك المسلمين بدينهم ، وإنما كان سبب التأخر فيه هو الانحراف عن الدين ، والانحراف عن الدين الصحيح ، حين دخلت إلى الإسلام بعض العقائد التي ليست من الإسلام في شيء ، فصار المسلمون

يتجردون عن الدنيا ويزهدون فيها، حتى صار المسلم يقول: الدنيا للكفار، والآخرة للمسلمين، فخسروا بذلك الدنيا والآخرة، فلا هم بالدين الصحيح، ولا هم بالدنيا الصحيحة، حتى استهانوا بين الأمم، وصارت دول تحتقرهم، مع ما هم عليه من كثرة العدد، حيث إن عددهم يعد بالملايين بل مئات الملايين، وتخطب الدول العظيمة ود عدوهم وإن كان قليل العدد، وإن كان لا يتجاوز مليونين، وتزوده بالمال والسلاح، تزوده بالرجال، وتحارب في صفه، وتمده بالمال والرجال ليقضي على العرب، بينما نجد هذه الأمم تجتمع المرة تلو المرة مدعية أنها تبحث عن السلام، والواقع أنها تبحث عن استسلام العرب لتهمة اليهود.

وإن العالم الإسلامي إذا أراد أن يرجع إليه مجده الذي كان عليه، عليه أن يرجع إلى ما كانت عليه الديانة الإسلامية في صدرها الأول، ولكنه قد خلف خلف بعد الصدر الأول، اتبعوا هذا الطريق الذي هو الانحراف عن الدين، فساءوا إلى الإسلام، لأنهم زهدوا في الدنيا، والإسلام والدين مطلقا لا يمكن أن يزدهر في بيئة فقيرة، ثم إننا إذا أردنا أن ننظر إلى هذه المبادئ التي قررها الإسلام نجدها عامة لا تختص بالديانة الإسلامية وحدها، فنجد في الإسلام بعض القواعد العامة التي تنطبق على جميع القوانين العملية، وإذا ما أردنا أن نتمسك بهذه القوانين، فعلينا أن نرجع إلى ديننا الصحيح، وأن نتمكن من الدنيا والدين حتى يزدهر إيماننا مع إسلامنا في آن واحد.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المحاضرة الثانية عشرة بعد المائة	٧
كف الأذى وبذل الندى	٧
رواة الحديث	١٠
التعريف بزكريا بن أبي زائدة	١٠
التعريف بالأعمش	١١
التعريف بالشعبي	١٢
التعريف بالراوي الأعلى	١٢
معنى القائم على حدود الله والواقع فيها	١٣
معنى المدهن	١٤
معنى الراع	١٤
مفهوم الحديث	١٥
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مفهوم الحديث	١٧
بذل النصيحة	١٨
الأمر والنهي على قدر الاستطاعة	٢٠
الإعراض عن المخالفين بعد بذل النصيحة	٢١
بذل الندى	٢٣
المحاضرة الثالثة عشرة بعد المائة	٢٥

- أولادنا على ضوء شريعتنا ٢٥
- أولاً : الصدقة الجارية ٢٥
- ثانياً : العلم النافع ٢٥
- ثالثاً : الولد الصالح ٢٦
- الولد الصالح امتداد لعمل والده ٢٦
- سعي الشيطان لإغواء الأبناء ٢٧
- صلاح الآباء يساعد في تنشئة جيل صالح ٢٧
- عناية الشريعة بالأولاد ٢٨
- أولاً : تلقين الولد كلمة التوحيد ٢٩
- مناهج التعليم وأثرها في تنشئة الأبناء ٣٠
- الأساس الثاني : حب الله تعالى والاستعانة به ومراقبته ٣١
- الأساس الثالث : ترسيخ حب النبي ﷺ ٣٣
- تدريس السيرة للنشء ٣٤
- الأساس الرابع : تعليم الولد القرآن الكريم ٣٥
- المحاضرة الرابعة عشرة بعد المائة ٣٧
- مفهوم الاتباع والابتداع ٣٧
- تعريف الاتباع والابتداع من السنة ٣٧
- شروط قبول الحديث المعنعن ٤٢
- انفعال الرسول في بعض المواقف ٤٤
- كلمة (الهدى) في القرآن ٤٩
- كل محدثة بدعة ٥١
- التصور الموضوعي قبل إصدار الحكم ببدعية الأشياء ٥٣

٥٥	تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة
٥٦	مفهوم جديد للبدعة
٥٧	المحاضرة الخامسة عشرة بعد المائة
٥٧	عصمة الأنبياء
٥٧	الفرق بين الرسول والنبي
٥٨	معنى العصمة
٥٩	وصف القرآن للأنبياء
٦١	مشكل آيات العصمة والجواب عنها
٦١	١ - معصية آدم عليه السلام
٦٢	٢ - قول إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾
٦٣	٣ - هم يوسف عليه السلام
٦٣	٤ - قتل موسى للقبطي
٦٤	٥ - تحريم الرسول العسل على نفسه
٦٥	٦ - إخفاء الرسول أمر الله بالزواج من زينب بنت جحش رضي الله عنها
٦٧	٧ - نزول النبي على رأي أبي بكر في أسرى بدر
٦٩	المحاضرة السادسة عشرة بعد المائة
٦٩	الحسن النقدي والتأصيل المنهجي
٦٩	تخريج الحديث
٧٣	عبد الملك بن سعيد
٧٣	ربيعه بن أبي عبد الرحمن
٧٤	سليمان بن بلال
٧٤	أبو عامر شيخ الإمام أحمد

٧٤	الإمام أحمد بن حنبل
٧٧	الراوي الثاني
٧٧	أما الراوي الثالث
٨٤	المدرسة السيّية
٨٤	ومدرسة الاعتزال
٨٩	المحاضرة السابعة عشرة بعد المائة
٨٩	فلسفة الحوار في القرآن
١٠٥	المحاضرة الثامنة عشرة بعد المائة
١٠٥	بيعة العقبة الكبرى
١١٤	الفتح الأول
١١٤	الفتح الثاني
١٢١	المحاضرة التاسعة عشرة بعد المائة
١٢١	الحقوق وآدابها
١٢٧	الرأي الأول
١٢٧	الرأي الثاني
١٣٧	المحاضرة العشرون بعد المائة
١٣٧	المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف
١٣٧	حجية السنة النبوية والفرق بينها وبين القرآن
١٣٨	القوة في القرآن
١٣٨	أنواع القوة
١٣٨	أولاً: القوة الحسية
١٣٩	ثانياً: القوة الروحية

١٤٠.....	ثالثًا : القوة صفة من صفات الله ﷻ
١٤٠.....	رابعًا : القوة الأمانة
١٤٠.....	خامسًا : القوة صفة الرسل ﷺ
١٤١.....	سادسًا : القوة صفة الأخيار
١٤٢.....	القوة لازمة لنصرة الحق
١٤٢.....	أمر الله بالتسلح بالقوة
١٤٣.....	القوة المحموده
١٤٣.....	القوة المذمومة
١٤٥.....	ما يؤخذ من الحديث
١٤٧.....	المحاضرة الحادية والعشرون بعد المائة
١٤٧.....	مشارك الأنوار ودقائق الأسرار
١٥٢.....	منهج أهل الاعتقاد في وصف الله بالنور
١٦٧.....	المحاضرة الثانية والعشرون بعد المائة
١٦٧.....	الاتحاد
١٦٨.....	أسس الوحدة الإسلامية
١٦٨.....	الأساس الأول- الإيمان
١٦٨.....	الأساس الثاني- التقوى
١٦٨.....	الأساس الثالث- الاعتصام بحبل الله
١٦٩.....	معنى الاعتصام
١٦٩.....	سبب نزول الآية
١٧٠.....	الدعوة للخير والنهي عن المنكر
١٧٢.....	العقبات التي تواجه الوحدة الإسلامية

- العقبة الأولى - الفرق والتيارات ١٧٢
- العقبة الثانية - تضخيم الخلاف ١٧٥
- العقبة الثالثة - التكتلات الأجنبية وتفرق المسلمين ١٧٦
- عظمة القرآن ١٧٨
- المحاضرة الثالثة والعشرون بعد المائة ١٧٩
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رؤية معاصرة ١٧٩
- تجديد دوائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٨٠
- سبب خيرية هذه الأمة ١٨١
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة أنيطت بهذه الأمة ١٨٣
- اتساع مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٨٤
- الغاية العظمى من الأمر والنهي ١٨٥
- هل الأمر والنهي يعني مصادرة الحريات ١٨٦
- تَغْيِير مفهوم الحرية الاقتصادية ١٨٨
- تَغْيِير مفهوم الحرية الفكرية ١٨٨
- تغير مفهوم حرية الفنون ١٨٩
- وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٨٩
- الحرية في الإسلام ١٩٠
- عدم احتكار فهم الدين ١٩٢
- الأسس التي يقوم عليها الأمر والنهي ١٩٣
- المسؤولون عن التغيير ١٩٣
- اشتراك المؤسسات الدينية مع الدولة في مسئولية الأمر والنهي ١٩٤
- بعض المخاطر الناتجة عن الفهم السيئ للأمر والنهي ١٩٥

المحاضرة الرابعة والعشرون بعد المائة	١٩٩
الإسلام دين الفطرة	١٩٩
معنى الفطرة	٢٠٠
فطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة	٢٠١
أدلة فطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة	٢٠٢
أ- على المستوى النقلي	٢٠٢
ب- على المستوى العقلي	٢٠٣
بعض مظاهر فطرية الإسلام ، وإسلامية الفطرة	٢٠٤
١ - تلبية الإسلام لرغبات الإنسان وتجاوبه	٢٠٤
٢ - مراعاة الإسلام لظروف الإنسان وأحواله	٢٠٧
مقتضيات فطرية الإسلام وإسلامية الفطرة	٢٠٧
المحاضرة الخامسة والعشرون بعد المائة	٢١٣
سعادة الدنيا والآخرة	٢١٣
ذكر الله سبب سعادة الدنيا والآخرة	٢١٤
قدسية الحياة الزوجية	٢١٨
البيت السعيد مدرسة	٢٢١
الحنان والرعاية	٢٢١
التعاون بين الزوجين	٢٢٢
العتاب الرقيق بين الزوجين	٢٢٥
الصدق	٢٢٧
تعليم الأبناء وتأديبهم	٢٣٠
الصلاة من أول الدروس العملية للأبناء	٢٣٢

- ٢٣٤..... القوامة
- ٢٣٩..... التربية بالقدوة
- ٢٤٣..... المحاضرة السادسة والعشرون بعد المائة
- ٢٤٣..... كيف ندعو إلى الإسلام
- ٢٤٧..... مظاهر الدعاة
- ٢٤٩..... مفهوم الجهاد
- ٢٥١..... مصطلح الأصولية
- ٢٥٢..... غياب الخطاب الرسمي
- ٢٥٣..... الخلافة
- ٢٥٤..... خطأ قصر الخلافة الراشدة على حقبة معينة
- ٢٥٥..... معنى الحكمة
- ٢٥٦..... معنى الموعظة
- ٢٥٦..... معنى المجادلة
- ٢٥٧..... الزاوية الثالثة : وهي ختام الحديث
- ٢٥٨..... إعداد الدعاة
- ٢٦١..... المحاضرة السابعة والعشرون بعد المائة
- ٢٦١..... مكانة المسجد الأقصى في الإسلام
- ٢٦٢..... معنى الإسراء
- ٢٦٢..... شرف العبودية لله
- ٢٦٤..... الحكمة من الإسراء والمعراج
- ٢٦٥..... فضل بيت المقدس
- ٢٦٨..... القدس قبله لكل الناس

٢٦٩.....	عناية المسلمين بالأماكن المقدسة بالقدس
٢٧٠.....	مقابلة الإحسان بالإساءة
٢٧١.....	المحاضرة الثامنة والعشرون بعد المائة
٢٧١.....	الثقافة العلمية ومناهج العلوم عند المسلمين
٢٧٢.....	المقصود بالعلم والعلماء في الآية
٢٧٣.....	تدوين العلوم
٢٧٥.....	إطلاق العقل من أغلال الخرافات والأوهام
٢٧٥.....	الفهم الصحيح للنصوص
٢٧٧.....	عدم الانخداع بالحواس
٢٧٨.....	التجربة والتحليل والاختبار
٢٨٢.....	القيام بحق الأمانة
٢٨٣.....	علوم أنشأها المسلمون
٢٨٣.....	الأساس الأول
٢٨٤.....	علوم خاصة باللغة والأدب
٢٨٤.....	الأساس الثاني
٢٨٥.....	الاتصال بعلوم الأمم الأخرى
٢٨٥.....	الأساس الثالث
٢٨٦.....	قاعدة العلم الإسلامي العربي
٢٨٩.....	المحاضرة التاسعة والعشرون بعد المائة
٢٨٩.....	السفارات النبوية خصائصها وأهدافها
٢٨٩.....	التعريف بالسفارة في اللغة والاصطلاح
٢٩٠.....	أدلة مشروعية السفارة

- ٢٩١..... الدليل من السنة
- ٢٩٢..... الإجماع
- ٢٩٢..... المعقول
- ٢٩٣..... اختيار السفراء
- ٢٩٤..... خصائص السفارة وأهدافها
- ٢٩٤..... أولاً : ارتباطها بالعقيدة الإسلامية
- ٢٩٥..... ضرورة وجود سبب مشروع للسفارة
- ٢٩٦..... حصانة السفراء
- ٢٩٨..... نشر الدعوة الإسلامية هدف من أهداف السفارة
- ٢٩٨..... نماذج من السفارات في الإسلام
- ٣٠٠..... فداء الأسرى هدف من أهداف السفارات
- ٣٠١..... الاستنفار للجهاد من أهداف السفارات في الإسلام
- ٣٠٢..... التفاوض بعقد الهدنات
- ٣٠٤..... عقد المحالفات
- ٣٠٧..... المحاضرة الثلاثون بعد المائة
- ٣٠٧..... نظرية الإسلام في المنازعات والقواعد المنظمة للحرب
- ٣٠٨..... المنازعات الدولية
- ٣٠٩..... الإسلام دعوة إلهية
- ٣٠٩..... الإسلام دين التعاون
- ٣١١..... العداوة والبغضاء هما أساس اشتعال الحروب
- ٣١٣..... متى تشرع الحرب في الإسلام؟
- ٣١٤..... قانون الحرب في الإسلام

٣١٥.....	ما يجب أن يقوم به المسلمون قبل إعلان الحرب
٣١٧.....	الدعوة للإسلام قبل القتال
٣١٨.....	من وصايا الرسول الكريم في الحرب
٣٢١.....	معاملة المرضى والأسرى
٣٢٢.....	منع الإفساد والتخريب أثناء الحروب
٣٢٣.....	التجارة أثناء الحرب
٣٢٤.....	موقف المسلمين بعد الحرب
٣٢٦.....	النظر في نتائج وآثار الحرب
٣٢٨.....	الجزية
٣٢٩.....	من يريد الحياد في الحروب يعطاه
٣٣٠.....	مقارنة بين الاتجاه الإسلامي في الحرب والسلام
٣٣٣.....	المحاضرة الحادية والثلاثون بعد المائة
٣٣٣.....	القيم والأخلاق في الإسلام
٣٣٣.....	بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَتِمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
٣٣٤.....	المقصود بالأخلاق
٣٣٤.....	المقصود بالقيم
٣٣٥.....	الإنسان مفطور على معرفة الخير والشر
٣٣٦.....	الإسلام دين ظاهر وباطن
٣٣٩.....	تقسيم النفوس
٣٣٩.....	أصناف الناس ومراتبهم بحسب سلوكهم
٣٤١.....	بعض قيم وقواعد الأخلاق والسلوك في القرآن
٣٤٣.....	الأخلاق تكون في شتى مجالات الحياة

- القيم والأخلاق تحقق المستوى الحضاري للإنسان ٣٤٣
- اختلال مقاييس القيم لدى الحضارة المادية ٣٤٥
- المحاضرة الثانية والثلاثون بعد المائة ٣٤٧
- فضل التنافس في العلم والإنفاق ٣٤٧
- الأدلة من السنة ٣٤٧
- معنى الاغتراب ٣٤٨
- الحسد الجائر ٣٥٧
- لا حسد إلا في اثنتين ٣٦٢
- فهرس الموضوعات ٣٦٥

نور من القراءات والسنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء التاسع

المحاضرة الثالثة والثلاثون بعد المائة

تيسير القرآن

صورة من إعجازه ومنهج لغوي لأتباعه

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقال جل شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال عز من قائل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

القرآن كلمة شاع معناها فاستعملت بكل لسان، وقرئت في كل مكان، لأنها اسم لكلام الله القوي الغالب، أنزله على رسوله وخير خلقه محمد ﷺ معجزاً يتحدى ببلاغته ومعناه البشر كافة على اختلاف ألسنتهم وأوطانهم وأزمانهم، حجة عليهم، وهادياً لهم، ورسالة خاتمة إلى قيام الساعة، وصائناً لقدسيتها وجمال أسلوبه، وعلو بلاغته، وصحة تواتره من عبث العابثين، وإفساد المارقين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وذلك بتيسير حفظه وإتقان قراءاته، ووصل نقله بالسند الثابت المتصل والرواية الصحيحة، وفهم ألفاظه ومعانيه، وتفصيل أحكامه وشرحها للناس، وهدايتهم إليها، وجمعهم عليها، حثهم على العمل بها، محكمة بقواعد اللسان العربي وبلاغة بيانه.

المدلول اللغوي لكلمة (القرآن):

والقرآن أشهر أسماء الكتاب المبين ، سماه مُنْزِلُهُ به فقال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، ولكن العلماء اختلفوا في المدلول اللغوي لهذا الاسم الكريم ، فهو مصدر مثل : الغفران ، والشكران ، يحتمل المعاني التالية :

المعنى الأول أن يكون مصدرًا بمعنى القراءة والتلاوة ، وهو ما أسنده الإمام الطبري إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ورجحه ، وذهب إليه كثير من العلماء ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: ١٧] أي قراءته وتلاوته عليك ، فإذا قرأه جبريل عليه السلام فاتبع يا محمد قُرْآنَه ، أي : قراءته وتلاوته عليك . وقد قال صاحب الكشف في تفسير هذه الآية : والقرآن : القراءة .

الثاني أن يكون بمعنى الجمع والضم ، وهذا التفسير أو المعنى يذهب إليه كثير من العلماء أيضًا . ونجد النص عليه في معاجم اللغة :

ففي اللسان لابن منظور قوله : ومعنى القرآن معنى الجمع ، وسمي قرآنًا لأنه يجمع السور فيضمُّها ، وقد نسبته الإمام الطبري إلى التابعي الكبير ، قتادة بن دعامة السدوسي ، مأخوذاً من قول العرب : قرأت الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض ، وبه فسروا قول عمرو بن كلثوم التغلبي : لم تقرأ جنينا ، أي لم تضم رحماً على ولد ، في قوله :

لفطرة الإنسان ومجاراتها ، والمراعاة لمقتضى حال الأمة التي نزل فيها ، فهي أمة أمية لا تحسب ولا تكتب ، كما جاء في الحديث الصحيح : «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» ، الشهر يكون هكذا وهكذا وهكذا^(١) .

(١) سبق تخريجه .

وأشار إلى هذه الصفة القرآن الكريم في بعض الآيات ، منها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة : ٢] .

فجاء مناسباً لمستواهم ، أو لمستوى هذه الأمة ، وما عهدوا من الأمور والأعراف ، إلا ما كان عرفاً فاسداً ، فقد أبطله أو عدّله ، وربط تحقيق ما كلفهم إياه من العبادات والأحكام بأمور حسية ، لا يتوقف فهمها على التغلغل أو التعمق في العلوم العقلية أو الفلسفات ، أو العلوم الكونية .

فإن هذه العبادات ربطت بأمور حسية ، مثل أوقات الصلاة التي تبدأ كل صباح بطلوع الفجر ، ثم صلاة الظهر تعرف بدلوك الشمس ، ثم صلاة العصر تُعرف بصيرورة ظل كل شيء مثليه ، ثم تصلي المغرب بغروب الشمس ، ثم العشاء بغيوب الشفق .

وكذلك ثبوت شهر رمضان ، إنه يثبت برؤية الهلال ، وهي أمانة وعلامة حسية ، وكل ذلك علامات حسية ، تيسيراً على المكلفين وتمكيناً لهم من أداء الواجبات ، حيث لم يكلفهم ما لا يطيقون ، فأتاح لهم معرفة القدر الضروري من الشريعة بأدنى الوسائل ، وأعمها في الناس أجمعين ، وهو من تيسير القرآن الكريم .

وقد لاحظ هذه الصفة أو هذا الحكم ، الإمام أبو إسحاق الشاطبي في كتابه القيم : «الموافقات» ، فقرر أن الشريعة أمية ، وهو يقصد أن ما كلف به الناس من العبادات والأحكام سهلٌ ميسور ، أدنى ما كلفوا به .

أما التعمق في أسرار الشريعة ، أما التعمق في معرفة ما يدل عليه القرآن ، فإنه متاحٌ لأولئك الذين يتميزون في التفكير ، ويتعمقون في التفسير ، ويستطيعون أن يصلوا إلى درجات أعلى ، وذلك من تيسير القرآن والعمل

به ، حيث إنه ربط أحكامًا كثيرة بأمور سهلة ، فهي من التيسير الذي أراده الله للبشر .

القرآن ميسر:

فإنه تبارك وتعالى يسر العمل بالقرآن ، ويسر فهمه ، لما اشتمل عليه مما ذكرنا ، ولما اشتمل عليه من الأحكام ، والآداب ، والقصص والمواعظ ، وأصول المعاملات ، والترغيب في اتباع الحق ، وترك الباطل ، وحب العدل وكرهية الظلم ، والدعوة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، والوعد بالأجر الجزيل لمن استجاب لذلك ، والوعيد الشديد لمن تنكر له واتبع غير سبيل المؤمنين ، فللقرآن تعلق بالقلوب ، وحلاوة في السمع ، وتأثير في العقول ، وارتباط بالإيمان والإخلاص .

وهذه الجملة ، جملة : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ مؤكدة بالقسم المقدّر الدال عليه جوابه ، فهي جواب قسم لتصديرها بقد ، المقرونة باللام ، فالمعنى : والله لقد يسرنا القرآن للذكر ، وهو ما يدل على الاهتمام بهذا الخبر ، وتأکید مضمونه ، والدلالة على تحقق معنى هذه الجملة وصدق مدلولها ، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ، الفاء للتفريع على ما سبق من تيسير حفظ القرآن ، وفهمه والاعتاظ به ، ﴿مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ : من متعظ مزدجر عن المعاصي ، أو هل من طالب لحفظه ، فيعان عليه ويسر له ؟ وتكون معانيه وعلومه حاضرة في نفسه ، بادية في تفكيره ، وزواجه مراعاة في سلوكه ، ناهية عن المعاصي .

معنى كلمة (مدكر):

وأصل : ﴿مُدَكِّرٍ﴾ كما هو معروف في علم الصرف ، هو : مذتكر ، فأبدلت تاء الافتعال فيه دالا ، لوقوعها بعد الذال التي أبدلت دالا ، ثم أدغمت الذال

في الدال ، وهو مبتدأ مرفوع بضمّة مقدّرة ، والخبر محذوف ، أي : فهل مدّكر موجود؟ أو نائب فاعل لفعل مقدر ، أي : فهل يُوجد مدكر؟

وهي مأخوذة من الذكر بمعنى الحفظ ، أو بمعنى الاستحضار والتفكير في الدليل . و«من» زائدة في الصناعة النحوية لتأكيد المعنى ، واستغراق الأفراد . و«هل» حرف استغراق للتحضيض ، فالمراد : الحض والحث على الادكار والاعتبار ، وحفظ القرآن . وقد جاء في «صحيح البخاري» في تفسير سورة القمر أن رسول الله ﷺ كان يقرأها : «مدكر» بالدال .

ثم إن ورود هذه الجملة في الجملة في سورة القمر لافت للنظر ، وداع للتدبر والتأمل ، إذ وردت هذه الجملة في سورة القمر خاصة ، وكررت فيها أربع مرات ، كما كررت معها جملة أخرى ، هي : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ [القمر : ١٦ ، ٣٠ ، ٢١ ، ١٨] أربع مرات أيضاً ، تفرّيعاً على مختصر ثلاث قصص ، لأمم سابقة ، هي : قصة قوم نوح ، وإهلاكهم بالإغراق والطوفان ، وكانت في أوائل السورة ، وهي الأولى من هذه القصص : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ [القمر : ٩] .

والثانية : قصة عاد قوم نبي الله هود عليه السلام ، وإهلاكهم بالريح الصّرصِر العاتية العقيم .

والثالثة : قصة ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام ، وإهلاكهم بالصيحة .

وهي جملة استفهامية أريد من الاستفهام فيها التعجيب والتهويل من شأن عقاب الله ﷻ لهذه الأقوام ، وما أحلّ بهم من العذاب والنكال ، للاعتبار والاتعاظ .

﴿وَنُذِرُ﴾ أصلها «نذري» بالإضافة إلى ياء المتكلم ، وهو الله ﷻ ، حذفت منها هذه الياء للفواصل ، رءوس الآي ، وهي جمع نذير بمعنى الإنذار ،

أي: فكيف كان عذابي وعاقبة إنذاري، إنها لشديدان أقسى ما تكون الشدة والعذاب، وأسوأ ما تكون العاقبة، إذ قُضِيَ على هؤلاء الأقوام، واستؤصلوا جميعاً، إلا أنبياءهم ومن كان معهم من المؤمنين.

بينما ذكرت جملة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ في نهاية كل قصة من هذه القصص الثلاث، وفي نهاية القصة الرابعة، هي قصة قوم لوط عليه السلام، وإهلاكهم بالخاصب الذي أمطر عليهم، وهو الطين المتحجر المذكور في الآية (٨١) من سورة هود، والآية (٧٤) من سورة الحجر.

وقد ذكرت في هذه القصة جملة أخرى، هي: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ [الفر: ٣٧، ٣٩] مرتين وختمت بجملة التيسير السابقة، وقد كان هذا التكرار، لتكرار المناسبة، واعتبار كل قصة منها مستقلة عن الأخرى، وفيها عظة وعبرة، يجب على القارئ والسامع أن ينتبها إليها، ويعتبرا بها، ويلفتا نظرهما لما فيها من الوعيد والتهديد والتعجيب.

والتعجيب، معناه: أن الله يدعونا إلى التعجب مما نزل بهؤلاء الأقوام وأن نعتبر بذلك، بينما كان في جملة التيسير ملاطفة من الله لعباده، وامتنان عليهم بتيسير القرآن، وحض لهم على التذكر والاتعاظ بمصائر هذه الأمم، وما حل بها بسبب الكفر والعصيان لله تعالى، وهو أمر ميسر بتيسير القرآن.

وهناك قصة خامسة، ذكرت في هذه السورة بعد القصص الأربع السابقة، وهي قصة آل فرعون وأنصاره، وتكذيبهم بآيات الله كلها، وأخذ الله إياهم أخذ عزيز مقتدر، ولكنها لم تختم بما خُتمت به القصص السابقة لإيجازها أكثر من سابقتها.

بذلك يظهر الجانب الأكبر من موضوع هذه السورة وهو مختصر خمس قصص من قصص الأمم السابقة التي أهلكت بطغيانها وكفرها ومعصيتها لرسالتها .

وقد ذكرت هذه القصص ليتعظ بها مشركو العرب ، الذين بُدِّئَتْ السورة بالحديث عنهم ، وعن تكذيبهم لمعجزة انشقاق القمر الذي انشق بمكة المكرمة فلقتين ، تصديقا لرسول الله ﷺ ، كما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه . وقال الله تعالى : ﴿ أَقْرَبْتَ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١، ٢] .

وقد مهد للانتقال من الحديث عنهم إلى الحديث عن الأمم المذكورة بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : ٤] ، وقد فُصِّلَتْ هذه الأنباء في القصص المذكورة . ولذلك جاءت الأربع الأولى منها مفصولة غير معطوفة :

- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [القمر : ٩] .
- ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ١٨] .
- ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ [القمر : ٢٣] .
- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ [القمر : ٣٣] .

كلها مفصولة غير معطوفة ، لأنها تفصيل وبيان لهذه الأنباء ، ورُبطَتْ الأولى منها بالمشركين ، بذكر ضميرهم فيها ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي : قبل مشركي العرب ، ثم رجعت السورة إلى خطاب المشركين بأسلوب الالتفات ، لتذكيرهم وتقريرهم بالحقيقة ، ودعوتهم

للمقارنة بين حالهم وكفرهم ، وحال الأمم السابقة ، إهلاك الله إياها بالكفر والعصيان ، اللذين كان مشركو العرب حينذاك يتصفون بهما ، وفي مقدمتهم قريش عند نزول هذه السورة بمكة ، مما يوجب أن يحلَّ بهم عقاب الله كما حل بتلك الأمم ، وما سيحل بها في الآخرة من العذاب .

قال تعالى : ﴿ أَكْفَارُكُمْ ﴾ - يا عَرَبُ ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ ﴾ أفضل وأقوى من أولئكم الأقوام السابقين ، ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ يا مشركي العرب ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ إعداؤ من الله برفع العذاب عنكم ، وسلامة منه مكتوبة ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٤٣] ؟ في الكتب المنزلة .

والحقيقة التي يجب أن يقرؤا بها أنهم ليسوا خيراً من أولئكم وليس لهم براءة في الزبر ، وأنه لا فرق بين الناس إلا بالإيمان والتقوى . وهذا على حمل الاستفهام للتقرير ليقروا بالحقيقة ، ويمكن أن يحمل على أنه استفهام إنكاري ، يكون فيه معنى النفي ، فيكون معنى ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ ﴾ ليس كفاركم خيراً من أولئكم . ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ :

بل ألكم ﴿ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ : ليس لكم براءة في الزبر ، ف «أم» في هذه الحالة هي أم المنقطعة التي تتضمن الإضراب ، وهمزة الاستفهام المفيدة للنفي وتختتم السورة ببيان جزاء المؤمنين المتقين ، وما ينتظرهم من الإكرام الرضا والنعيم : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤ ، ٥٥] .

فهذا هو ملخص موضوع هذه السورة كله ، ومنه يظهر أنها مكية ، اهتمت بأحد موضوعات السور المكية ، وهو : قصص الأنبياء ، وما فيها من عبرة وعظة ، وما تستلزمه من دعوة للتوحيد ، وأصول الدين ، وبيان أمور الغيب ، والاتعاظ بمصائر الكافرين .

أما الأمر الثاني وهو أن نعتبر منهج القرآن في التيسير المنهج الذي يجب الاقتداء به وتطبيقه في أساليبنا ومناهجنا ومجامعنا اللغوية ، بالالتزام باللغة العربية الفصحى ، ومقاييسها المعتمدة ، في القياس ، الاشتقاق ، والتعريب ، والتجديد . اللغة الفصحى التي يُسرّ بها القرآن - وكانت الأداة في تبليغه وتفسيره ، بما تحمله من مضامين أخلاقية ، وعلمية وثقافية ، وحضارية ، ما تتميز به من سمات الفصاحة ، والشيوع واليسر .

وأستغفر الله العظيم ، وأعتذر إن كنت قد قصرت في بيان ما أردت بيانه .

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات : ١٨٠-١٨٢] .

نور من القرآن والسنة

١٦

المحاضرة الرابعة والثلاثون بعد المائة

الدين في مواجهة التحديات الفكرية

قال تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾
[الأنبياء : ١٨] .

إن الشخص الاجتماعي لواقع الأمة الإسلامية ، وإن المحلل النفسي لشخصية إنسان هذا المجتمع ، وإن المعالج الديني لأدواء الجماعة المسلمة اليوم ، لينتهون كلهم من خلال تشخيصاتهم وتحليلاتهم إلى ما يمكن وصفه بنتيجة هامة واحدة ، وهي تأزم الواقع المجتمعي .

وظاهرة التأزم هذه تطبعها جمل من العوامل ومن الأعراف يمكن من وجهة نظري الخاصة إرجاعها إلى ما نتفق عليه منهجيا بأزمات تتمثل في أزمة المفاهيم ، وأزمة الهوية ، وأزمة الصراع الحضاري ، وأزمة القيم الأخلاقية .

وإن إخضاعنا لهذه الأزمات على تنوعها للتحليل وللدراسة العميقين ستسلمنا ولاشك إلى قضيتين هامتين متقابلتين وهما : قضية الإيمان والإلحاد ، قضية الدين والأيدولوجية ، وقضية الأصالة والحداثة .

كيف يمكننا إذن في ضوء هذا التقديم البدء بمحاولة فك هذه الإشكالية؟ نعتقد أنه بات لزاما علينا أن نقوم بعملية منهج تحليلي يجزئ الموضوع إلى أدواته الاصطلاحية الأساسية ، وبعد ذلك تقديم التعريفات اللازمة لكل مصطلح ولكل أداة ، ونقوم بعد ذلك بعملية تركيبية شاملة عسانا من خلالها نستخلص ما يمكن استخلاصه من نتائج عامة .

إذن فإن أهم قضية تواجهنا في هذه الإشكالية هي قضية الدين ، وتطور مفهوم الدين في مختلف العصور والأزمنة .

مصطلح الدين:

إن مصطلح الدين يتخذ مدلولات عامة وعديدة تختلف باختلاف اللغات والثقافات والمجتمعات ، ويبدأ هذا المدلول بالمدلول البسيط الطوطمي البدائي الساذج الذي يختزل معنى الدين إلى معانى ساذجة بسيطة ، ويحصره في طقوس وسلوكيات سمجة ، ثم يأخذ مدلول الدين بعد ذلك في تطور مفهومه إلى أن يصل إلى معناه الشامل الثاني العام ، وهو معناه العقلي ومعناه الروحي في مدلوله الشمولي الإنساني الشامل ، الذي يهدف إلى توطيد علاقتنا بالله وعلاقتنا بالناس .

لذلك نجد أن الدين من خلال مدلولاته المختلفة لدى المجتمعات الإنسانية ، والثقافات العالمية ، يتلون بألوان شتى من المعاني والمفاهيم وهو ما سنحاول تقديم تحليلات لها .

ففي ثقافتنا العربية الإسلامية مثلاً يتخذ الدين معنى شاملاً لكل أنواع سلوك الإنسان في حياته اليومية ، وهكذا يغدو الدين في مفهوم الإسلام وفي مفهوم الإنسان المسلم ، يغدو الإنسان فيه مسئولاً عن كل عمل يقوم به ، وذلك هو الدين بمعنى التكليف والمسئولية ، حيث يسأل الإنسان عنه يوم القيامة كما يسأل عن باقي عباداته من صوم وصلاة وزكاة وحج ، وإن اختلفت من حيث الأفضلية بعضها ببعض .

فالدين في مفهومه العربي الإسلامي إذن هو الحياة كلها ، وهو الوجود بكل مقوماته ، وهو ما يميز الدين عند المسلمين عنه لدى باقي الملل بلا استثناء .

فإذا عدنا مثلاً إلى التحليل اللغوي لقواميس لغتنا وأخذنا المادة التي يشتق منها الدين ، وهي مادة دان يدين دينا ، فإننا بتحليلنا لمختلف المدلولات نجد أن هذه الكلمة ، هذا اللفظ ، هذا المصطلح في لغتنا يعني مجموعة من المعاني مثل : الحال ، والعهد ، والطاعة ، والمكافأة والجزاء ، والخضوع وهكذا .

وهذه الكلمات التي وجدت في العربية قبل الإسلام هي هاته الكلمات عندما جاء الإسلام أخذ جل مدلولاتها وأعطاها بعدها الإسلامي العميق فتنبأها ، ولكن بعد أن أعطاها مفاهيمها وقيمها الإسلامية .

لذلك نجد في القرآن هذه الكلمات التي كانت موجودة ، نجدها وقد أخذت مدلولاتها الإسلامية ، فنجد ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] ، وهو يوم الحساب والجزاء ، ونجد قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان : ٣٢] في سورة لقمان ، بمعنى الطاعة والخضوع لحكم الله وسلطانته .

كذلك جاء الدين بمعنى الحكم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور : ٢] أي في حكم الله ، كما جاء الدين في الإسلام بالمعنى الشمولي العام وهو الإسلام في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

كذلك نجد هذا المعنى الشمولي في قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

اتساع مدلول الدين :

هذه النماذج إن دلت على شيء فإنما تدل على أن مدلول الدين يتمتع بأوسع ما يمكن أن يتمتع به من معان ومن مدلولات تتخذ كلها في سياق الإسلام وفي سياقه القرآني أبعادها الإسلامية الحقيقية .

ولا نود الدخول في تفصيل معاني الدين في القرآن لأنه واسع وشاسع ، ولكننا نكتفي بالتنبيه إلى أن لفظة الدين قد جاءت على صيغ عديدة .

فقد جاءت معرفة بآل ، وجاءت منكراً ، وجاءت مضافة ، وجاءت والمضاف إليها شيء ثان . وهذه كلها نأخذ بعض الأمثلة عليها من الآيات القرآنية . من ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ [الماعون : ١] ، وقوله : ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ [الانفطار : ٩] وقوله أيضاً : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] ، وأيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

أما في باقي الديانات فيختلف معنى الدين عما هو في الإسلام ، لذلك لم يسم القرآن معنى الدين أو ما كان عليه غير المسلمين لم يسمه بالدين ، ولكنه سماه ملة ، لذلك نجد هذه الآيات : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [٢٧] وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧ ، ٣٨] في سورة يوسف .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبَعَ مِلَّةَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، وكذلك آيات عديدة جاءت كلها تؤكد هذه الحقيقة ، لذلك فإنه يحق لنا في ضوء هذه التعريفات المختلفة في لغة الإسلام وفي الديانات غير الإسلامية أن نستنتج نتيجة تمهيدية أولى وهي : أن الدين في مفهومه الإسلامي الذي كما بينا ، له شمولية وله عموم . هذا المفهوم الإسلامي للدين يقودنا إلى مدلولات متخصصة هي العقيدة ،

وهي الإيمان ، وذلك كخطوة أولى نحو اليقين ونحو الطمأنينة القائمتين على الإقناع وعلى الدليل .

لذلك نلاحظ إذن أن دقة المصطلح الذي يتميز به الخطاب الإسلامي وسمو معناه في وضع سياق كل مصطلح ، هو الذي أدّى إلى تباين الدلالات بين الإسلام وباقي الملل والفلسفات ، بل أدّى إلى ما سميناه بالمواجهات الفكرية أو التحديات بين هذه الملل وبين ما في الإسلام .

الخطاب الإسلامي :

كما نلاحظ أن الخطاب الإسلامي يتميز هو أيضًا بأنه يتجه إلى العقل السليم ، فيمنحه القناعة ، ويمنحه اليقين ، ويخلصه من الحيرة والقلق ، كما يتجه هذا المفهوم الديني الإسلامي إلى النفس الإنسانية فيهبها الطمأنينة ، ويهبها الأمن بدل التمزق والخوف ، وفي ذلك معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قریش : ٣، ٤] . لذلك نستنتج أن الجماعة التي تتخلى عن الإيمان ، تتخلى حتما عن الطمأنينة وتصاب حينئذ بالجوع والخوف ، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] ، من هنا إذن كان الصدام الحضاري ، وكانت المواجهة بين الدين في مفهومه الإسلامي وبين الفكر في مفهومه الفلسفي الأيديولوجي .

ماذا يمكن إذن في ضوء هذه التعريفات وهذه المقارنة بين الدين كمعطى شامل لمعناه الإسلامي ، وبين الدين في مفهومه لدى باقي اللغات؟ كيف

نستطيع إذن أن نفك الإشكالية القائمة على المواجهة بين الدين أو التحدي الذي يواجهه الدين من التيارات الفكرية المختلفة .

لقد قلنا إن الدين في النسق الإسلامي اتخذ - كما بينا - المعنى الشمولي للحياة والوجود ، فاتسم بالسهولة الممتنعة ، واتسم أيضًا بالبساطة العميقة ، حيث يصبح في متناول أي كائن سليم العقل ، سليم التفكير ، أن يعتنق هذا الإسلام وأن يلتزم به ، لكن هذا المفهوم يحدث المواجهة ويصطدم بالتحدي العدمي ، لأن الدين بمعناه الإسلامي هو من وضع الله ، وبذلك يغدو ثابتا تصعب إزالته ، في حين تنتصب المفاهيم الفكرية والأيدولوجية كفلسفات يضعها الإنسان لما يسمي ، أو كما سنبين ، وذلك لإحلالها محل الدين ، وبذلك وقع وكان التحدي .

في ضوء هذا نصل إلى نتيجة ثانية ، هي التي يمكن أن نصوغها على شكل معادلة . فإذا كان الدين بالنسبة للفلسفات الأيدولوجية المختلفة يقوم على مقولة الشك ، ونعرف جميعا أن مقولة الشك : «أنا أشك ، إذن أنا موجود» ، فإن هذه المقولة التي تبتتها بعض الفلسفات الحديثة لا تصلح بالنسبة للمفهوم الإسلامي ، ذلك أن المعادلة المصححة لذلك في عقيدتنا هي الصياغة التالية : «أنا أؤمن ، إذن أنا موجود» .

إذن فالوجود في الإسلام عملية ملء للفراغ ، وقضية يقين لإزالة الشك ، ولذلك أنا أؤمن ، إذن أنا موجود هي أحسن ما يمكن أن نصح به مقولة الشك للوصول إلى اليقين .

القرآن ومعالجة التقابلية بين الحق والباطل :

كيف عالج القرآن هذه التقابلية بين الشك واليقين؟ بين الحق والباطل؟

إن هذا هو الشق الثاني من الموضوع والذي اعتمدنا فيه على آية قوله سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولكننا قبل أن نصل إلى تحليل المعاني التي يمكن أن تستتج منها هذه الآية يهمننا أن نضع هذه الآية أولاً في سياقها القرآني العام ، ويبدو لنا أن القرآن قد عالج ، كعادته دائماً وبأسلوبه النافذ إلى العقل والقلب وفي سياق تسلسله الإعجازي البياني المفحم ، عالج هذه القضية من خلال الآية التي سنسوقها .

ما هو السياق العام إذن لهذه الآية ؟

إن الآية هي الثامنة عشرة من سورة الأنبياء عليهم السلام ، وآيات هذه السورة بلغت مائة واثنتي عشرة أو إحدى عشرة آية ، وهي مكية بإجماع علماء التفسير ما عدا آية . فيها ، هي قوله تعالى : ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء : ٦٦] .

ومنذ البداية في سورة الأنبياء ، نلاحظ هذه البداية القوية التي تمثل في اعتقادنا استجابة لتحديات عديدة : ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء : ١ ، ٣] .

هل هناك أبلغ من هذا التصوير الإعجازي ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وفي ذلك نستتج مجموعة من المعطيات : أولها طبي المسافات الزمنية للإطلالة على يوم الحساب بعد حياة كلها تحديات ، هذه الإطلالة بعد زمن طويل تمثلت كلها تحديات عبر عنها القرآن بالفعل الماضي الذي يدل على الاستقبال المؤكد .

كذلك نجد أن في هذه البداية استبطانا -كما يقول علماء النفس- لعقول الناس ونفوسهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾. عقولهم ونفوسهم معرضة عن الدعوة وسماع ندائها.

أخطر من ذلك وهو المعنى الثالث الذي نستخرجه أنهم يستمعون إلى نداء الدعوة وهم يلعبون، لأن قلوبهم لاهية، ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ [القمر: ٧] في آية ثانية.

هل هناك تحد أعظم من أن تستمع الأذن الإنسانية لكلام الله، وقلبه في لهو ولعب. إن لهو القلوب لهو أخطر أنواع اللهو، ويقول شوقي: «ورب مستمع والقلب في صمم».

ولكن الصمم قد يكون عاهة، أما أن يكون القلب متمتعا بكامل مقوماته وبكامل مكوناته وملكاته، ومع ذلك ينصرف إلى اللهو وإلى اللعب بدل ما ينفعه، فذلك أسوأ أنواع اللهو.

إذن يمكن أن نبني من خلال هذا المطلع من سورة الأنبياء، أن نقول بأنه ينبغي على مقدمات لمواجهة التحدي. ويكفي أن نقول بأن هذه السورة حملت من حيث المضمون اسم الأنبياء كاملهم عليهم السلام، وذلك امتثالا لمعنى تواصل الوحي، وكذلك جمعا للخط الديني الذي هو دليل على تواصل الوحي بين أنبياء الله، وكامتداد للكلمة الطيبة المنزلة من عند الله هداية لعباده. لذلك وصفها أحد الصحابة في قصة يطول الحديث عنها وعن إسنادها، وهو عامر بن ربيعة عندما قدم إليه كسب من مكاسب الدنيا، فأجاب: لقد نزلت اليوم على النبي عليه الصلاة والسلام سورة أذهلتنا عن الدنيا، ولذلك، فأنا لا أطلب ولا أقبل هذا المكسب المادي، لأن ما نزل اليوم قد أذهلني عن أي مكسب.

مضمون سورة الأنبياء :

من خلال هذا ننفذ إلى مضمون سورة الأنبياء ، ويتجلى لنا مضمونها العقدي التوحيدي الذي يتناول موضوع العقيدة في ميادينها الكبيرة العامة : ميدان التوحيد الذي هو القاسم المشترك الأعظم بين مختلف الأنبياء ، وميدان الرسالة النبوية ، والأنبياء بكاملهم ، وهو أيضاً الذي يجمع النبوة بكامل أعضائها ، والبعث الذي هو المآل الذي لا بد أن يتول إليه الإنسان . وكلها مواضيع يطبعها الجد ، فليست لعباً ولا لهواً ولا باطلاً ، لأن هذا الكون لم يخلق لعباً كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لْعِبِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ [الأنبياء : ١٦ ، ١٧] .

كذلك نجد في سورة الأنبياء التذكير أيضاً بقصص الأنبياء ، فهي سورة تذكر أسماء هؤلاء الأنبياء وعدد كثير منهم كموسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان ، وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون ، وزكرياء ويحيى وعيسى ، كلهم موجودون في هذه السورة .

كذلك تعالج السورة في قصصهم جموع قصة القلوب ، هاته القلوب الميتة والقلوب الحية ، القلوب الحية التي أحيها الله بالدعاء ، وأحيها الله بالنداء إلى الدعوة الإسلامية ، والقلوب الميتة الخاملة التي تحاول أن تغطي على خمودها وعلى ميتهها باللهو وباللعب كمحاولة لنسيان ما هي فيه . كما تتحدث أيضاً عن البعث وفي أسلوب شيق كعاداته ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٧] . كما تتحدث عن رسالات الأنبياء :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وتعرض السورة أيضًا وفي تشبيه تمثيلي كما يقول علماء البلاغة ، تصور لنا قوة الحق في مواجهة قوة الباطل ، وهما يتواجهان في معركة دائمة لا تزول ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

واسمعوا معي إلى هذه العظمة في إعطاء التشبيه الحسي لمعركة الحق والباطل حقه في تمثل المفهومين المتقابلين على الدوام ، إنها تقدم لنا الحق كثابت لا يزول ، وهو لقوته كأنما هو قذيفة في يد القدرة الإلهية تلقي به في وجه الباطل . وإذن ، هذا الباطل كما يقول فيلسوفنا الجزائري مالك بن نبي رحمة الله عليه ، يقول بأن هذا الباطل ، فيه قابلية الفناء وقابلية الزوال ، ولذلك فهو لا يثبت ولا يمكنه أن يكون ثابتا ، فهو يتشبه بالحق تشبها كأنه هو ولكنه ليس كذلك .

وهذه القصة كذلك تعيد إلينا تشبه السراب بالماء ، فالماء حق ولكن السراب ليس حقًا ، والله سبحانه وتعالى يقدم لنا أيضًا نموذجًا لأعمال الذين كفروا فيقول : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ تَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور : ٣٩] .

إذن من خلال هذه الأمثلة نجد كيف يضرب الله الأمثال للناس ، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد : ١٧] ، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور : ٢٥] ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان : ٣٠] .

وهكذا نصل من خلال هذا التشبيه التمثيلي ، من خلال هذه المقابلة التقابلية ، المواجهة بين الحق والباطل ، نصل إلى ما يمكن وصفه بالقضية المنطقية بهذا كله ، وتتمثل هذه القضية في أن الحق أصيل في طبيعته . صحيح أن الحق قد يبتلى وقد يمتحن بأسوأ أنواع الابتلاء ، وقد تواجهه صنوف من التحديات ، لكنه يبقى عميقا ثابتا في مكونات وجوده ، بينما الباطل كما قلنا منفي عن خلقة هذا الكون ، وكذلك فهو طارئ لا أصالة فيه ولا سلطان له .

هذه إذن هي المقدمات المنطقية الأولى ، كيف تكون النتيجة لذلك ؟

النتيجة المنطقية أن لا ثبات ولا بقاء ولا حياة ولا وجود لأي شيء يطارده الله وهو الباطل ، مثال لذلك ، وكذلك شأن العقيدة فهي جزء من بناء هذا الكون تسير على نواميسه الكبرى ، وهي تقوم على الحق الذي قامت به السموات والأرض ، وتقوم على الجدل الذي يدبر هذا الكون .

من هذه المقدمات ونتائجها إذن تبرز أهمية العقيدة كدين سماوي في مواجهة التحدي الفكري ، أو الحق في مواجهة ومقاومة الباطل .

هل يعني هذا أن الدين في أساسه معاد للفكر ؟

هذا سؤال أيضًا يواجهنا في ضوء ما قدمناه لكن التسليم بمثل هذا الحكم يعتبر خيانة للمنطق الإسلامي الديني ، ذلك أن الدين الإسلامي على التحديد هو في جوهره قوة فكرية أساسها العقل السليم ، ودعامتها النظرة الكونية القائمة على العلم .

فالتحدي إذن الذي نعنيه عندما نقول بأن التحدي الفكري الذي يجابه الدين لا يخشاه الإسلام . لأن التحدي المقصود هنا ليس التحدي القائم على المنطق السليم ، على العقل السليم ، على الفكر الذي تضعه المقدمات السليمة ، وإنما نقول بأن الذي نقصده هو التحدي الذي يصنعه الإنسان الذي يتميز بذاتيته ويتميز بعدم موضوعيته .

لذلك فإن التوحيد الذي هو أساس المنطق الإسلامي هو الذي يجعلنا نقول بأن الإسلام لا يمكنه أن يعادي الفكر ، بل إنه يحض ويحث عليه ويدعو إليه ، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] وقوله عليه الصلاة والسلام : «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»^(١) ، فالتوحيد إذن هو أساس المنطق الإسلامي .

إن التحدي إذن الذي نعنيه هنا هو التحدي الذي يصنعه الإنسان ، ومن خصائصه النسبية في الحكم والذاتية في الاستنتاج ، وذلك هو ما يطبع التحديات الفكرية اليوم .

ما هي أهم التحديات التي تواجه الإسلام وتواجه الدين بوجه عام ؟

الإسلام والتحديات الفكرية :

لعل من المسلم به منهجياً وعلمياً وتاريخياً أن الدين بوجه عام والإسلام على الخصوص يواجه بتحديات فكرية عنيفة وعنيدة ، فالصراع بين الدين والفلسفات الوضعية المعاصرة على أشده اليوم بالذات .

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢) ، والحاكم في «المستدرک» (٦٦٨/٢) من حديث طارق المحاربي رحمته الله ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

فالمذ الإسلامي المتنامي ضمن ما اصطلح على تسميته بالصحة الإسلامية قد تجسد في شكل ظاهرة باتت تقض مضاجع المنظرين للفكر الوضعي والأيدولوجي ، والتحدي في هذا الخصوص قديم نسبيا . ذلك أن التحدي قد وقع منذ القدم ، فيوم قام الفكر الغربي بثورته على الكنيسة وقع التحدي ، ويوم انتفض العلماء من أمثال «كوكانيك» وغاليليو وغيرهما على المفاهيم الدينية الكنسية كان التحدي أيضا ، ويوم خرج أبو الفيلسفة الحديثة «ديكارت» على المفاهيم والطقوس الكنسية القديمة في شكه في كل شيء كان ذلك أيضا التحدي ، وتوالى التحدي ، فكان التحدي الذي شاهدناه وقرأناه واطلعنا عليه في الوضعية الاجتماعية بقيادة «أوكيست كونت» الذي يدعو إلى إقامة دين وضعي تكون الإنسانية هي الإله فيه .

وجاءت الوضعية المنطقية كامتداد لهذه الوضعية التي نادى بها «أوكيست كونت» وهي الوضعية المنطقية الإنجليزية فقالت هي أيضا بأن المحسوس أو الحس هو الأداة الفعالة الوحيدة لإدراك اليقين .

وتوالى التحديات فجاءت النفعية أو البراجماتية الأمريكية أيضا لتقول بأن المنفعة هي أساس كل شيء ، ويقول زعيمها أو أحد زعمائها وهو «وليم جيمس» ، يقول : بأنه ينبغي على مذهبنا أن يؤجل عملية البت في الدين الصحيح ، لأننا لا نستطيع حتى الآن أن نقول إن الأديان صحيحة مادامت المنفعة العاجلة لم تتحقق بعد ، وذلك أيضا نجده عند الفيلسفة الوجودية التي تقدم نفسها للناس على أنها فلسفة الإنسان وفلسفة الوجود .

لكن ما يطبع هذه الوجودية التي طالما تغنى بها بعض مفكرينا وبعض فلاسفتنا؟

ما يطبعها أنها تتسم بمصطلحات تعتمد عليها كمفاتيح هي العبث ،

القلق ، الغثيان ، اليأس . . . وما إلى ذلك ، وهي تنكر كل دين وتنكر أيضاً كل ما هو ميتافيزيقا .

إن هذا الغثيان وهذا اليأس وهذا القلق وهذا العدم ، التي هي مصطلحات الوجوديين هي التي يدمغها الإسلام بمصطلحات أكثر واقعية وموضوعية ، هي الطمأنينة ، هي الإيمان ، هي القناعة ، هي اليقين ، هي الخلود ، وما إلى ذلك . وهذه القضايا كلها هي التي تجسد لنا مدى ضخامة التحديات التي تواجه الإسلام وتواجه الدين بوجه عام .

واقع الدين في ضوء التحديات :

بقي أن أعود إلى واقع الدين في واقع المجتمع الإسلامي في ضوء هذه التحديات ، وفي ضوء مختلف ما شاهدناه من تحد بين الحق والباطل .

إذا كانت هذه هي التحديات الفكرية التي واجهت وما تزال تواجه الإسلام اليوم فيهمنا أن نطلع -اليوم- على مكانة الدين في واقع المسلمين . وإن المتأمل لواقعنا -المجتمعي الإسلامي- الذي قلت في البداية إنه يطبعه نوع من التأزم ، يلاحظ مدى الهوة القائمة بين حقيقة الدين كقوة دافعة للحياة وللوجود وللعمل ، وبين واقع المسلمين السلبي المنعزل أو المنسحب من فهم الإسلام الحقيقي ، وذلك ما أحدث ما يمكن وصفه بالهوة بالفراغ الذي تعمل المذاهب الفلسفية المختلفة على أن تملأه .

لذلك فقد وجد بعض الفراغ العقلي الذي تحاول هذه المذاهب الفلسفية أن تملأه ، وهذا كله يقودنا إلى منهج مستخدم ، سواء في الديانات كالإسلام ، أو في الفلسفات والمناهج المختلفة ، وهو ما يسمى بمنهج الملء بعد الإخلاء يأتي لإفراغ الناس وعقولهم والتشكيك فيما آمنوا به ، ثم بعد ذلك

يعمد إلى ملء ما لديهم بما يود أن يقدمه .

نجد هذا في أمثلة عديدة : في شهادة التوحيد ، لا إله إلا الله « فلا إله » تدل على عملية الإخلاء كما يقول بعض الفلاسفة و«إلا الله» إثبات لوجود الألوهية .

نجد كذلك هذا في قصص الأنبياء من قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، يقول الله سبحانه وتعالى في حقه : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُم ۖ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ﴾ [الشعراء : ٦٩-٧٣] إلى آخره .

كذلك في خطابه في هذا الحوار الشيق العاطفي المملوء بالإقناع المتأدب بين الابن وأبيه يقول الله تعالى عن ذلك : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْتَنِي أَتَتَّبِعُ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ﴾ [مريم : ٤١، ٤٢] «هذا إخلاء» ، ﴿يَتَّبِعْتَنِي إِنْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ﴾ [مريم : ٤٣] .

إذن ، هذه القضايا كلها تؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام ، عندما أعلن دعوته كان يعمل كما يقول الصحابة على إفراغ أصحابه من عاداتهم الجاهلية القديمة ويملؤهم بالأخلاق والقيم الإسلامية الجديدة الصحيحة .

ولذلك كان كفار مكة يلجئون إلى وسيلة ماذا؟ هي أن يحولوا دون سماعهم لما يتلون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت : ٢٦] .

المنهج الإسلامي يتجه إلى القوة العقلية والفكرية :

إذن فإن المنهج الإسلامي يتجه هكذا كما لاحظنا إلى القوة العقلية وإلى القوة الفكرية في الإنسان ، مع ملاحظة أن الإنسان كما يقرره الإسلام ، فيه القوة النباتية ، فيه القوة الجهادية ، وفيه القوة العقلية ، ولكن الإسلام يتجه إلى هذه القوة العقلية ليملاؤها وليسد الفراغ الذي فيها .

ومن ذلك حث الإسلام على امتلاك ناصية العلم وعلى استغلال الطبيعة وعلى التمكن من التحكم في مختلف العلوم والتكنولوجيات .

وهذا ما يميز الإسلام بكونه ديناً متفتحاً على الناس جميعاً حتى وإن لم يؤمنوا به ، كما يتميز الإسلام أيضاً بالتسامح مع باقي الملل والديانات المختلفة لأنه يعترف بالأنبياء جميعاً . ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

هكذا إذن كانت النظم الفكرية التي تحاول أن تقدم نفسها كبديل لا يمكنها أن تثبت ما تمسكنا بالإسلام كحقيقة هامة .

والأحظ أن الوقت قد داهمنا ، فأود أن أختم بعملية استنتاجية عامة ، على أن تبقى بعض القضايا التي كنت أود أن أتناولها تبقى مجالاً للنقاش .

ماذا يمكن استخلاصه إذن في خاتمة ما قلناه؟

نبدأ بالإجابة على هذا بسؤال نجيب به على سؤال : هل يمكن القول باستعادة الدين لدوره في عالمنا اليوم ، خصوصاً وقد تهاوت أو توشك أن تتهاوى المذاهب والفلسفات المادية الإلحادية؟

إن هذا السؤال موجه إلى علماء الأمة الإسلامية ، وعليهم أن يتأملوه ، وعليهم أن يجددوا -للإجابة عنه- أسلوب الفهم الإسلامي ، وأسلوب الدعوة ، وأسلوب التخاطب ، وأسلوب الإقناع .

كذلك السؤال الذي يواجهنا : هل النظام العالمي الجديد وهو كما نعلم جميعا الأحادي العقيدة الأحادي المذهب هذا النظام الذي يتميز بهذه الأحادية الآن هل سيمكن من سقوط الفكر المادي الإلحادي وبعث الفكر الإيماني حتى ولو كان غير إسلامي ؟

إنه من الصعب إعطاء إجابات دقيقة و يقينية على مثل ذلك ، ولكن مما لا شك فيه أن الفراغ الموجود على الخريطة العقدية لعالمنا اليوم يمكن أو يجب أو ينبغي أن يملأ باللون الديني ، ولكن الديني بخصوصيته الإسلامية البارزة ، وقد غدا هذا اللون الإسلامي اليوم من خلال المد المتنامي الإسلامي ، غدا لونا جذابا ، يحاول أن يفرض لمعانه وجاذبيته على سطح الخريطة العالمية .

والسؤال المنهجي الأخير الذي نختم به هو في ضوء كل ما قلناه : هل كان يصح أن نضع المقارنة بين الحق وبين الباطل ؟ وبين الدين الإسلامي الذي هو قوة إلهية وبين المذاهب والأفكار البشرية الإنسانية ؟ إننا لو فعلنا ذلك لصدق علينا قول الشاعر القديم :

ألم تر أن السيف يزري بحدّه إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

إذن ، فإن ما يمكن أن نقوله : إن الدين هو الحق ، وإن ما سوى الله مما تدعونا إليه باقي المذاهب والملل هو الباطل .

إن هذه الأسئلة كلها تبقى قائمة ، والإجابة الصحيحة عنها إنما تكون على العلماء العاملين بتوجيه ومساعدة وعون القادة المسلمين المخلصين ، وباتباع واقتداء الشباب المؤمن المسلم .

* * *

المحاضرة الخامسة والثلاثون بعد المائة

الحض على لزوم اتباع الجماعة والإمام

انطلاقاً من حديث حذيفة بن اليمان، القائل: «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني». فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. فقلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

في هذه الظروف التي تستقبل فيها الإنسانية نمط حياة جديدة تغيرت فيه كثير من مصادر التوجيه البشري، وهي تغيرات وجدت المسلمين يتطلعون إلى أفق صحوة إسلامية، إذا استمرت منطلقاتها من ينباع الإسلام الصافية فلا شك أنها ستجعل الإسلام ينتشر ويثبت، ويحافظ على سمعته ومكانته بإذن الله، الشيء الذي يحتم على المسلمين تضافر الجهود لمواجهة كل التحركات المشبوهة التي يتستر أصحابها بالإسلام، والحال أنهم لا يعملون إلا بما يسيء إلى سمعة الإسلام وسماحته ومرونته واعتداله.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

ومن الأوصاف البارزة التي أعطتها السنة النبوية لأعمالهم التحذير من عواقب تحركاتهم في كثير من نصوصها، وخصوصا في هذا الحديث الذي ورد في شكل حوار أجراه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان مع النبي ﷺ، والذي يشكل منهجا عاما للسلوك المتزن الواجب أن يسير عليه كل مسلم ينشد الخير لنفسه ولأمته .

لهذه الأسباب أتناول الموضوع من خلال الفقرات الآتية :

- ١- رجال سند الحديث ودرجته من الصحة .
- ٢- معنى الخير والشر الوارد ذكرهما في هذا الحديث .
- ٣- لزوم اتباع جماعة المسلمين وإمامهم، والوعيد الوارد فيمن خرج عليهما .
- ٤- النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا التوجيه النبوي الكريم .

أولا : رجال سند هذا الحديث ومكانته من الصحة :

هذا الحديث رواه الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولا هم البخاري . روى عن أكابر محدثي زمنه . وكتابه الجامع الصحيح لم يؤلف إلى الآن أحسن منه في الحديث ولا أصح منه ، باستثناء الأحاديث التي اتفق عليها هو والإمام مسلم . وإلى ذلك أشار السيوطي في أبياته بقوله :

وليس في الكتب أصح منهما بعد القرآن ولهذا قدما
مروي ذين فالبخاري فما لمسلم فما حوى شرطهما

ولد الإمام البخاري سنة ١٩٤هـ ومات ٢٥٦هـ. روى البخاري هذا الحديث في باب : كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ولا إمام ، عن محمد بن المثني بن عبيد بن قيس البصري .

تلقى الحديث على كبار شيوخ زمنه ، ذكره ابن حبان في الثقات . ولد سنة ١٦٧هـ ، ومات سنة ٢٥٢هـ. ورواه محمد عن الوليد بن مسلم القرشي مولى بني أمية عالم الشام ، مات سنة ١٩٥هـ. وهذا رواه عن ابن جابر عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي الشامي ، مات سنة ١٥٤هـ ، ورواه ابن جابر عن بسر بن عبيد الله الحضرمي ، روى عن جماعة من التابعين ، ثقة لم أعثر على تاريخ وفاته .

وبسر سمعه من عائذ بن عمر ، ويقال : عبد الله بن إدريس الخولاني ، ولد يوم غزوة حُنين ، سمع من كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، وعنه أخذت جماعة من تابعي التابعين .

مات عام (٨٠هـ) وأبو إدريس سمعه من الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان .

أسلم حذيفة ووالده اليمان أيام غزوة بدر ، سمع من النبي ﷺ ومن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، استعمله عمر على المدائن ، مات بعد مقتل سيدنا عثمان بأربعين يوما .

قال حذيفة : «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني . . .» الحديث . وروى الإمام مسلم هذا الحديث مرتين في صحيحه : الأولى بنفس السند واللفظ ، إلا ما كان من عبارته يهدون بغير هديي فإن رواية مسلم الأولى فيها يستنون بغير ستي .

ثم رواه مرة أخرى بسند آخر وبلفظ آخر عن نفس الصحابي ، إلا أن المعنى ليست فيه الزيادة إلا ما كان من سؤال الصحابي عندما قال : كيف أصنع إذا أدركني ذلك؟ قال : قال النبي ﷺ : «تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع» .

وروى أبو داود هذا الحديث بسند آخر عن سبيع بن خالد قال : أتيت الكوفة فدخلت المسجد ، فإذا صدع من الرجال ، والصدع : الربة تعرف إذا رأيته أنه من أهل الحجاز ، فقلت : من هذا؟ فتشفي مني القوم وقالوا : هذا حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله ﷺ ، ثم ساق الحديث بلفظ مغاير للفظ الشيخين إلى أن بلغ محل السؤال الأخير . فقال : قال رسول الله ﷺ : «إن كان الله تعالى خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت عاض بجذر شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» والجذر خشبة تنصب لتحتك عليها الإبل ، وفي رواية أبي داود زيادة تتعلق بالدجال والساعة .

هذا الحديث من أصح الأحاديث ، لم يبق كتاب من كتب السنن إلا ورواه ، كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن نصر بن عاصم الليثي ، ثم ساق رواية أبي داود عن سبيع المتقدمة . والزيادة الوحيدة في رواية أحمد هي أن الصحابي لما سأل عن معنى الدخن ، قال النبي ﷺ : «لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه» .

ثانياً : لمحة عن الخير والشر الوارد ذكرهما في هذا الحديث :
قصد الصحابي بالشر الأول ما كان سائداً من المنكرات أيام الجاهلية .
أما الخير فهو ضد الشر ، ويجمع على خيور ، قال النضر بن تولب الجاهلي :
ولاقيت الخيور وأخطأتني خطوب حمة وعلوت قرني

ويراد بالخير الذي هم فيه : السعادة التي غمرتهم بظهور الإسلام ، بينما الشر الأول الذي تلا ظهور الإسلام قد اتفق شراح الحديث على أنه ابتداءً بمقتل سيدنا عثمان ، واستمر حتى تلك الفتن التي قوبل بها سيدنا علي ، والتي يقول أهل السنة : استحسن أهل السنة الإمساك عما جرى فيها ، تعظيماً لأصحاب محمد ﷺ .

وانتهى باتفاق الأمة وسردهم المسلمين للبناء والتشييد لتثبيت أسس الحضارة الإسلامية ، وهذا هو الخير الذي فيه دخن ، وللدخن في اللغة معان كثيرة ، منها عدم صفاء القلوب - وهو المقصود هنا - قال ابن منظور في «لسان العرب» مستدلاً بهذا الحديث على معنى الدخن لغة قال : رجل دخن العقل والدين والعهد : متغيره . وأنشد لقعب الجاهلي :

وقد علمت على أني أعاشرهم لا نفتأ الدهر إلا بيننا دخن

ونسب إلى القاضي عياض القول بأن الخير الذي فيه دخن كان أيام حكم عمر بن عبدالعزيز ، لكن الراجح أن هذا الحديث بلغ من شمول المعاني ودقة اللفظ ما يجعل أحكامه تسري على أحوال المسلمين في كل زمان .

وقوله ﷺ : «يهدون بغير هديي» تتفشى فيهم المخالفات ، ويكثر الغل والحسد والتنافس . وقوله ﷺ : «تعرف منهم وتنكر» إشارة المقتضى تتم بإضافة المحذوف وهو تعرف من أعمالهم وتنكر مثل قوله تعالى : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف : ٨٢] فإن تفسيرها واسأل أهل القرية التي كنا فيها .

واستنكار أعمال أولئك المخالفين يسير في معنى حديث أم سلمة قالت :
قرأ النبي ﷺ فمن أنكر برئ ومن كره سلم ، رواه مسلم .

أما عن الدعاة فقد وصفهم بأنهم على أبواب جهنم ، تشنعا لأعمالهم
وتحذيرا من مغبة دعاياتهم . فمن اتبعهم خسر الدنيا والآخرة ، وأعطى أمارات
فقال : إنهم من بني جلدتنا ، من نفس سلالتنا ، ويتكلمون بألسنتنا .

يستنتج منه إخباره بالغيب ، وإلى إخباره بالغيب أشار أحد علماء
الصحراء الشيخ محمد عبد القادر محمد سالم .

فكم من المغيات أخبرا فبعضها مضى وبعضها سرى

إشارة إلى أن الإسلام سيتشر في شعوب كثيرة ، لها لغات متعددة ، قال
ابن حجر عن القابسي : هم في الظاهر على ملتنا ، وفي الباطن مخالفون لها .
وقال أيضا : قوله كيف الأمر إذا ظهر أولئك الدعاة ، ما الذي يفعله
المسلم آنذاك؟

فأجاب بأنه ألزم باتباع الجماعة وطاعة أولي الأمر ، وذهب شراح
الحديث إلى أن الأمر هنا أتى على سبيل الوجوب لما يعضده من آيات
وأحاديث تلزم البيعة للإمام والتمسك باتباع الجماعة .

وقد أشار سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي في نظمه مراقي
السعود إلى الحكم الذي ينبنى على صيغة الأمر حسب القرائن التي
تصاحبه فقال :

فافعل لدئ الأكثر للوجوب وقيل للنذب أو للمطلوب
وقيل للوجوب أمر ربي وأمر من أرسله للنذب

قال شارحا لهما بنشر البنود : إن جل المالكية ذهب إلى أن حقيقة الحكم في «افعل» حقيقة في الوجوب فيحمل عليه حتى يصرفه عنه صارف ، فقليل : في النذب لأنه المتيقن ، وقيل : حقيقة في القدر المشترك بين الوجوب والنذب وهو مطلب الطلب ، وأضاف : وقيل : أمر الله تعالى حقيقة في الوجوب ، وأمر من أرسله تعالى حقيقة في النذب إذا كان مبتدأ من جهته ، بخلاف الموافق لأمر الله تعالى في القرآن ، أو المبين لمجمل القرآن وهو حقيقة في الوجوب أيضًا ، وهذا هو قول البيضاوي وابن حجر أن الأمر هنا في هذا الحديث ورد على سبيل الوجوب فيما يرجع لطاعة الإمام ولزوم اتباع الجماعة لكونه مطابقا لأوامر وردت في القرآن الكريم ، منها : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] .

وأمر المسلم بطاعة الإمام واتباع الجماعة فرض عليه بالنص حتى في الوقت الذي يتعرض فيه الإنسان للإيذاء ، حقنا لدماء المسلمين ، وحفاظا على أمن جماعتهم .

ففي رواية أبي داود قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك .

وفي رواية الطبراني : فإن رأيت خليفة فالزمه ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك ، فإن لم يكن خليفة فالهروب أولى من تلك الفرق كلها ولو أن تعض على جذع شجرة خير لك من أن تتبع أحدا منهم .

قال البيضاوي : فإن لم يكن خليفة فاصبر على تحمل شدة الزمان بسبب كثرة الفتن والتنافس على الرئاسة . وعض جذع الشجرة كناية عن شدة المشقة ، كقولهم فلان يعض الحجارة من شدة الألم .

ثالثا : لزوم اتباع جماعة المسلمين وإمامهم :

قال محمد شمس العظیم أبادي في عون المعبود على سنن أبي داود : هذا الحديث اتخذ منه العلماء حجة على وجوب لزوم الجماعة وترك الخروج حتى على أئمة الجور .

والمقصود بالجماعة تلك التي بقيت متمسكة ببيعة الإمام الذي بايعت ، أو الذي ورثت بيعته .

فمانعو الزكاة في عهد أبي بكر ، والخوارج في زمن علي كانوا جماعات ، لكنهم ليسوا على حق . وقد أتى هذا الحديث منحدرًا من أعمالهم ، فكل من خرج على الإمام والجماعة فهو من دعاة جهنم .

قال الشيخ محمد حبيب الله الجكني المتوفى سنة ١٣٦٣هـ في كتابه : « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم » . بعد كلام طويل عن الشر الأول والخير الذي فيه دخن ، والذي قال بأنه هو اتفاق كلمة المسلمين ولو على إمام جائر فالإخلاص لهم طاعة لله ولرسوله ، والخروج عليهم معصية لله ولرسوله .

فاتباع جماعة المسلمين وإمامهم واجب على كل مسلم ، ولا يحل له الخروج عليهما ولا التهاون في أداء الواجب تجاههما تحت أي مبرر مهما كان حتى ولو ضرب ظهره وأخذ ماله ، فعليه واجب الطاعة ما دام لم يؤمر بمعصية الله أو يرى كفرا عنده فيه من الله حجة .

واتباع الجماعة والإمام يتم عن طريق التعاون مع بقية أفراد المجتمع على الخير ، فلا يتأتى ذلك إلا بإصلاح المرء لنفسه باستقامة سلوكه وحبه لإخوانه المسلمين ما يحبه لنفسه .

فإذا تمسك المسلم بالمحجة البيضاء للإسلام حصن نفسه من الانسياق وراء الدعايات الهدامة والأعمال المخربة ؛ لأنه سينتقل من التفكير في المضرة إلى واجب البحث عن الخير والعمل به ، فقد حدد الله في كتابه سبل الخير التي يتعاون فيها المؤمنون فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

قال الفخر الرازي في تفسيرها ما مضمونه : إن هذه الأوصاف التي أشارت إليها هي التي تميز المؤمن عن المنافق ، وهي الصلاة ، والزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وطاعة الله ورسوله .

ومن الثابت أن طاعة الأمير هي طاعة النبي ﷺ بحكم الحديث الشريف الذي رواه مسلم القائل : «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني» .

إن المجتمع الذي يمكن أن يتعاون على الخير على هذه الصفات الحميدة هو المجتمع الذي صهرته التربية الإسلامية على التكافل والتراحم والتعاون ، لا يجتمع أفراد على ضلالة . وأي ضلالة أشد من الاجتماعات واللقاءات والخطب من أجل تهديد أمن دولة إسلامية ملتفة حول من ارتضته لتسيير أمورها .

إن آية جماعة تلتقي على أعمال الهدم والتخريب لا يمكن القول بأنها من أمة محمد ﷺ ؛ لأن النبي ﷺ ورد عنه في الحديث الذي رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ قال : «إن الله أجاركم

من ثلاث : ألا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعا ، وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وألا تجتمعوا على ضلالة» .

وقد حثت السنة على اتباع الجماعة ، إضافة إلى حديث حذيفة هذا في عدة أماكن ورد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ، مات ميتة جاهلية ، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصية أو يقاتل للعصية فليس من أمتي ، ومن خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بذي عهدا فليس مني» . رواه مسلم . أين يضع المخربون أنفسهم من هذا الحديث الذي وصف فيه النبي ﷺ أعمالهم ثم تبرأ من انتمائهم إليه .

إذا كانت في نفوسهم بقية من إيمان فليزنوا أعمالهم بميزان الشرع ليدركوا أين جعلهم الرسول ﷺ .

وأمرت السنة باتباع الجماعة والإخلاص لأولي الأمر في أحاديث كثيرة ، منها ، قال عبادة بن الصامت : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، في المنشط والمكره وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق لا تأخذنا في الله لومة لائم» .

حتمية اتباع الجماعة :

يتجلى من هذا أن النصوص الشرعية حتمت اتباع الجماعة والإخلاص للإمام . روى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه من الخير» . وقد ورد في الحديث أيضاً : «لا يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه» ، وفي رواية بالقسم : «والله لا يؤمن» .

وقرن الله دائماً طاعة أولي الأمر بطاعة الله ، تأكيداً لأهميتها وتحذيراً من الخروج عليها . روى أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية قال : «وعظنا النبي ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله العظيم والسمع والطاعة . . . » الحديث .

قال ابن رجب البغدادي في شرح هذه الأحاديث : إنها تدل على أن المؤمن لا يتم إيمانه حتى يجد نفسه مجندة لمحبة الخير لإخوانه المؤمنين ، يسره ما يسرهم ، يريد لهم ما يريد له نفسه . وهذا كله إنما يتأتى من كمال سلامة الصدر من الغش والغل والحسد ومعاني الدخن الذي أشار إليها حديث حذيفة هذا ، فعن السمع والطاعة قال : من التزم بالتقوى نجا في الآخرة ، ومن أطاع الإمام احتاط لدنياه وأمن سبل السلام لعبادته ولعبادة إخوانه المسلمين ، وأبعد الفتن عن وطنه ، ونسب لعلي بن أبي طالب القول بأن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر لما يكفل لهم اتباعه من أمن النفس وجمع الكلمة .

تولية الإمام واجبة :

وقد اتفق علماء الأمة من مختلف المذاهب على أن تولية الإمام واجبة ، منهم من جعلها واجبة بالشرع ، ومنهم من جعلها واجبة بالعقل ، ولهم أقوال ، بمن تتم؟ وكيف تتم؟ نقتبس منها الإشارات الآتية :

قال أبو بكر الباقلاني في كتابه التذهيب : على أن الإمام يصير إماماً ، بعقد يتم من طرف أفراد المسلمين الذين هم أهل الحل والعقد . وذكر أبو يعلى من الحنابلة في كتابه : «المعتمد في أصول الدين» : أن الخلافة تثبت

باختيار أهل الحل والعقد، واعتبرها الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» عقدًا يتم بين طرفين، هما الإمام والرعية، ومحله الخلافة عن النبي ﷺ. ورأى القلانسي شيخ البغداديين أنها عقد يتم باختيار علماء الأمة الذين يحضرون تولية الإمام وليس لذلك عدد معين.

وعزا ابن تيمية للإمام أحمد أنها تنعقد بموافقة أهل الشوكة وتصير نافذة بمصادقة أهل الحل والعقد.

وقال الغزالي في فضائح أهل الباطنية: والذي نختاره أن يكتفى ولو بشخص واحد إذا كان تتبعه العامة.

وقال محمد بن رشد في كتابه: «البيان والتحصيل» بأن تولية الإمام فريضة، واستدل على ذلك بالحديث الشريف: «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(١).

إن كل من تتبع مواقف الفقهاء من هذا العقد عقد البيعة والواجبات المتبادلة التي تتولد عنه، ولاحظ السابقة الحضارية التي سنتها الأمة الإسلامية في تنظيم علاقات الحاكمين بالمحكومين، إن كل من تتبع تلك الآثار الحضارية يستطيع القول بأن نظرية العقد الاجتماعي التي انتشرت في أوروبا أولاً على يد طوماس هودل سنة ١٦٧٨م وجون لوك سنة ١٧٠١م وجان جاك روسو سنة ١٧٧٨م قد أتت لا محالة من النصوص المتعلقة بالبيعة والإمامة، مع خلافاً جوهرية في إطار العلاقات والممارسات.

(١) أخرجه مسلم (١٨٥١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فالمسلم علاقته بولي الأمر ترتبط بدينه ، ويعلم أن الله سيسأله عنها ، عن الوفاء بها . والملك في الغرب بحكم العقد الاجتماعي مهمته رمزية تمكنه من هالة من التكريم في إطار ممارسات للحكم محدودة ، بينما الملك في الإسلام بحكم خلافته النبي ﷺ يبقى هو المتصرف والموجه ورئيس كل السلطات الدينية والدنيوية ، التنفيذية والتشريعية . اختصاصه يشمل الشاذة والفاذة من أمور رعيته بحكم خلافته عن رسول الله ﷺ ، وكل مرفق من مرافق دولته يمارس فيه المكلفون به أعمالهم نيابة عنه ، ولا يحق لهم إبرام أي أمر إلا بأمره ومشورته . لكن تعتيا متعمدا اتبع في شأن تلقين أحكام البيعة والخلافة حتى أصبح شباب الأمة لا يعرف عنها الكثير .

لذا نرى أنه ينبغي أن تعطي لها كليات الحقوق مزيدا من الاهتمام في العالم الإسلامي حتى تبقى تلقن أحكامها في مواد القانون العام وتبرز أهمية البيعة للإمام من خلال المكانة التي وضعها الله فيها ، حيث جعلها عهدا بين العبد وربّه ، وجعل الله نفسه هو الرقيب عليها ، وذلك من خلال قوله جل من قائل : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل : ٩١] .

قال القرطبي في تفسيرها ما ملخصه : أجمع العلماء على أن المقصود بهذا العهد عقود البيع التي تمت بين النبي ﷺ وصحابته ، أو البيعة التي تتم بين الإمام والرعية بصفته خليفة للنبي ﷺ ، ولذا يجب الوفاء لعقد جعل الله نفسه كفيلا عليه . وسواء تعلق الأمر بالعهود التي ربطها المسلمون مع النبي ﷺ أو تعلق بالعهد الذي يعطى للإمام عند توليته ، أو كان عهدا يتعلق بالاتفاقات الخاصة ، فإن الوفاء به واجب على كل مسلم ، وبهذا قال

الألوسي في تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ولما قال الله عز ومن قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ أَعْظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

عدم مشروعية الخروج على الإمام ومفارقة الجماعة:

قال العلماء: إن الإمام والجماعة لا يخرج عليهما إلا فاسق مكابر أو باغ متعنت أو محارب معتد. فقد أعطت نصوص الكتاب والسنة الوصف الشرطي لعمل كل واحد منهم ما يجب أن يعامل به. ففي الفاسق المعتدي قال سيد الوجود عليه الصلاة والسلام: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا رأس الأخير»^(١) الحديث. وفي صحيح مسلم قال عن شريح، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه».

تبين من هذه الأوامر النبوية الكريمة مدى خطورة أي عمل يمس أمن الدول ووحدتها ووحدة الجماعة تحت لوائها. وقد تعرضت الآيات القرآنية لحالتين من حالات الخروج على الإمام والجماعة هم البغاة والمحاربون وقال الله في كتابه العزيز عن البغاة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ [الحجرات : ٩] .

قال ابن العربي في تفسيرها : إنها تقتضي ما روي لها وما لم يرو ، وإنها أصل عظيم لقتال كل من حاول الخروج على الجماعة والإمام ، سواء كان فردا أو جماعة .

قال خليل بن إسحاق في المختصر : الباغية فرقة خالفت الإمام لمنع حق أو خلعه ، فللعدل قتالهم وإن تأولوا كالكفار إلى آخر الباب ، قال الدردير في الشرح الكبير عن ابن عرفة : البغي هو الامتناع من طاعة من ثبتت إمامته باتفاق الناس عليه ، ثم قال : ونائب الإمام مثله .

إن جميع الذين يدعون إلى التفرقة ويشكلون خلايا داخل المجتمعات الإسلامية تهدف إلى المس بأنظمتهم وتمزيق وحدتهم يشملهم البغي حسب رأي المالكية هذا ، أما أولئك الذين يجتمعون على قطع الطريق ونهب الأموال وإيقاظ الفتنة ونشر الأكاذيب المختلفة ضد الجماعة والإمام ، فقد ورد فيهم قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

قال الفخر الرازي في تفسيرها بعد كلام طويل عن أسباب نزولها ما مضمونه : إن المحاربين الذين نصت عليهم الآية هم الذين يجتمعون بعضهم مع بعض ، ثم يخططون لمحاولة إزهاق أرواح المسلمين ومعاهديهم ونهب أموالهم . فإذا صدر منهم ذلك خارج المدن فهم قطاع الطرق ، وإذا صدر داخل المدن ؛ فقال الشافعي ومالك : فهم سعاة الفساد ، فركز على

أنها إضافة إلى قضية العرنيين المعروفة ، فإن حكمها يعم كل من حارب الإمام والجماعة فهي من باب ما خص سبب نزوله وعم حكمه . وأتت السنة بمبدأ أعم من كل ذلك إذ أخرجت حامل السلاح على الجماعة والإمام من زمرة المسلمين .

ففي الحديث الذي اتفق عليه الشيخان عن النبي ﷺ قال : «من حمل علينا السلاح فليس منا» . وقال عليه الصلاة والسلام : «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب البعض»^(١) .

رابعا : النتائج التي يمكن استخلاصها من حديث حذيفة هذا :

استخلص العلماء من هذا الحديث فوائد جمّة : منها السؤال عن الشر حتى يتجنبه الإنسان ، ومنها رحابة صدر النبي ﷺ لكل سائل ، ومنها جوابه لهم في كل فن ، ومنها أن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة ، ومنها إخباره بالمغيبات ، ومنها أن من تصدّى لدولة من المسلمين في أي مكان وجدها ملتفة حول من ارتضته لتولي أمورها ورام تشيت شملها وإفساد حكمها وزعزعة أمنها ومحاولة إزهاق أرواح أبريائها وتخويف مواطنيها ، فسواء كان فراد أو جماعة فإنه من الدعاة الذين على أبواب جهنم ، والذين ذكرهم حديث حذيفة هذا .

إن الشطر الأخير من هذا الحديث ، فيه توجيه نبوي كريم ، حذر فيه ﷺ أمته من عواقب الدعوات الفاسدة والأعمال المخربة التي يتستر أصحابها بالإسلام ، وأعمالهم كلها مضرّة بالإسلام ، فيحاولون أن تشيع الفتنة والضوضاء في الجماعات الإسلامية .

(١) أخرجه البخاري (١٢١) ، ومسلم (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله رحمته الله .

وقال الله جل من قائل : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة : ١٩١] . إنه يجب على المسلمين أمام الفراغ الفكري المهول الذي تعاني منه الإنسانية أن يقدموا للعالم اليوم الإسلام في صورته الحقيقية : دين السماحة والألفة ، دين التعاون على البر والتقوى .

وليس دين النهب والبر والإرهاب ومصادرة حقوق الناس وانتهاك حرمتهم . ليس في الإسلام نص يبيح القصد الجنائي العام لمن انتسب إليه في أن يضع قبلة في شارع ما في محل ما لتقتل شيخا أو طفلا أو حتى مجرما ، لأن طريقة عقابه من اختصاص أولي الأمر .

هل في الشريعة قول يبيح استغلال العامة حين تواردها على بيوت الله لتحرص على أمتنا وعلى أمن دولها ، على انتهاك الحرمات ورمي المسلمين الأبرياء بالمنكر من القول .

لو احتكم الجميع إلى كتاب الله وسنة نبيه لأخرج الكثير ممن يقومون بمثل هذه الأعمال من الإسلام . فليتعاون المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على إمطة هذا الأذى من طريق الإسلام ، وهذا هو أضعف الإيمان .

قد يقال بأن الانفعال السياسي والاجتماعي الذي تعرفه الساحة الإنسانية وما صاحبه من انحرافات ليس خاصا بالمسلمين وحدهم ، كما يقال أيضا : إن ما يشاهد في الرقعة الإسلامية من تحركات مريبة تقوم بها بعض المنظمات والهيئات الأخرى التي لم تسم نفسها إسلامية .

وأرى أن الجواب على هذه التساؤلات التي قد ترد إلى فكر البعض ، هو أننا نحن أصحاب رسالة نود تبليغها إلى الناس .

نحن محملون بأمانة التبليغ ، نحن نعمل من أجل إسعاد الإنسانية في الدنيا والآخرة ، نريد للجميع الهداية حتى يصبح لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولا نستطيع حمل المشعل في الترقية إلا إذا انسجم سلوكنا مع طرحنا لأفكارنا .

ولو طبقنا الإسلام في نفوسنا قبل أي أحد لما وجد مسلم في سجن بسبب اعتداء على مال أو عرض أو مؤسسة ، ولما سمعت إذاية من شخص يقال إنه مسلم ، وبالتالي سنعرف بالصدق والمحبة والليونة والمودة وبذل النفس والنفيس في إسعاد الآخرين ، لا غل ولا حسد ولا غش إذا استرجعنا هذه الشيم التي هي ميزتنا . فعندي يقين أن كثيرا من أبناء الإنسانية سيتسابقون إلى الإسلام .

المحاضرة السادسة والثلاثون بعد المائة

من خصائص الأمة المحمدية وكرامتها على ربها

انطلاقاً من قول ربنا ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ قَالَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنحَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٢﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٣﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٤﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥].

كنت أنوي أن أتناول جملة من خصائص الأمة المحمدية ، وما حباها به ربها - وهو بعباده خير بصير - من فضائل ومكرمات ، وما ميزها به عن سائر الأمم ببركة انتمائها إلى أفضل أنبياء الله ورسوله ، وأحب خلقه إليه ، وأكرمهم عليه ، وأعظمهم منزلة ومكانة لديه ، سيدنا محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، غير أنني رأيت أن تتبع ذلك يطول ، وأنه يحتاج إلى وقت ، بل وإلى أكثر من درس ؛ لذلك اقتصر على إحدى هذه الفضائل والمكرمات التي اعتبرها أساس بقية كل الفضائل وعنها تفرعت ، وهي أن الله تعالى اختار هذه الأمة بالذات ومنذ الأزل ، لتكون حاملة رسالته الخالدة إلى العالمين ، والوارثة لكتابه العظيم ، انطلاقاً من قوله تعالى في سورة فاطر المكية : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى آخر الآية في الدرس .

وهذه الآيات لها تعلق وارتباط بثلاث آيات قبلها ، ابتداء من قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا

رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿[فاطر: ٢٩] الآية وما بعدها، وتعتبر هذه الآيات كالتمهيد لآيات الدرس وموضوعها من بيان فضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية، حين كرمها ربها وشرفها، وأعلى مقامها باصطفائها من خيرة عباده لتورث كتابه العزيز، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهو الكتاب الذي جعل الله منه مسك الختام لكتبه، وجعله المصدق لها، والمهيمن عليها، وحجته على العالمين، خصوصية خص الله بها هذا الكتاب من بين سائر كتبه، وذلك لأنه آخر رسالة من الله لعباده، ولذا تولى تعالى حفظه بنفسه، وكما أخبر عن ذلك في قوله، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وذلك حتى تستمر حجية هذا الكتاب قائمة على وجه الدهر، وعبر العصور والأزمان والأجيال، في مآمن من أي نسخ أو تحريف أو تبديل، في حين وكَّل حفظ كتبه السابقة إلى علماء الأمة التي أنزلت فيهم، من الربانيين والأحبار والرهبان؛ وكما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فلما وكل ذلك إليهم اعترى هذه الكتب ما اعترى من فساد وتحريف، وأدخل فيها ونسب إليها ما لا يليق بجلال الله وكماله؛ بخلاف القرآن العظيم الذي تولى تعالى حفظه بنفسه، فإنه ظل كما أنزل غضا طريا، وسيظل كذلك إلى يوم الدين.

فمن زعم مع هذا أن في القرآن نقصا وحذفا مما لم ينسخ لفظه، فقد ضل ضلالا بعيدا، وكذب بوعد الله الذي لا يخلف، وذلك كفر بواح وصراح، وبإجماع المسلمين.

ولنرجع إلى آية الدرس ، وهي مرجع هذه الخصيصة والفضيلة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ . فصدرت الآية : «ب ثم» وهي حرف عطف كما نعلم .

واختلف في المعطوف عليه ما هو؟ فقليل : إنها معطوفة على الآية التي قبلها مباشرة ، هي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ ﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿ فاطر : ٣١ ، ٣٢ ﴾ . أي : أورثناهم نفس الكتاب السابق الذكر وهو القرآن العظيم ، على قول جمهور المفسرين . وكما تشهد له قاعدة : المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى ، بخلاف النكرة فإذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى . وكما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ولذلك لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ : «لن يغلب عسر يسرين»^(١) . باعتبار أن العسر كرر في الآية معرفا فكان عسرا واحدا ، بينما ذكر اليسر منكرا فكان يسرين ، فاقترن إذن بكل عسر يسران .

وكان على مقتضى هذا أن يكتفي بالإتيان بضمير الكتاب بدلا عن اسمه الظاهر ، فيقال : ثم أورثناه الذين اصطفينا من عبادنا ، ولكنه عدل عن الضمير إلى اسمه الظاهر ، اهتماما بهذا الكتاب ، وتنوينا بشأنه .

وقيل إن الآية معطوفة على ما قبل الآية الآخرة ، أي على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٥٧٥) عن الحسن مرسلاً ، وأخرجه مالك في «الموطأ» (٩٧٨) موقوفاً على عمر رضي الله عنه .

وَعَلَانِيَةً ﴿ الآية الآنفة الذكر ؛ وعلى احتمال أن يكون المراد بكتاب الله فيها هو القرآن الكريم ، وكما يدل على ذلك سبب نزول الآية ، ويحتمل أن يكون المراد به الجنس ، أي جنس الكتاب ، ليعم ما هو أعم من القرآن ، فيشمل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وصحف موسى وإبراهيم وغيرها من صحف وكتب الله تعالى . وتكون الآية على هذا واردة في فضل المؤمنين بكتب الله عامة ، سواء كانوا من هذه الأمة أو من غيرها في مقابل وعيد المكذبين بهذه الكتب ، والمذكورين في آيات سابقة من نفس السورة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥ ، ٢٦] ، وذلك جريا على سنة القرآن في أنه يقرن في الذكر بين أهل الكفر والإيمان ، وأهل الجنة والنار .

فكلما ذكر فريقا من هؤلاء ذكر في مقابله ضده ؛ وبضدها تتميز الأشياء . وتذكيرا بالوعد والوعيد ، وجعلا بين الترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير . وقيل وهو قول ثالث في الآية : إن آية الدرس معطوفة على هذه الآية ، أي على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

والقول الأول هو القول الأرجح ، لأنه هو الذي تشهد الأحاديث والآثار عن رسول الله وصحابته والتابعين ، وخير التفسير ما كان بالمأثور ، والوارد عن رسول الله وصحبه ؛ ومع ذلك وعلى أي الاحتمالات ، فإن الآية دالة على فضل هذه الأمة المحمدية . سواء فسرنا الكتاب بالقرآن وحده ، أو بما هو أعم . وذلك لأن القرآن وهو آخر كتب الله نزولا ، ضمنه جل وعلا منزله خلاصة مقاصد الكتب السابقة وما دعت إليه .

أمة القرآن ورثت مضمون الكتب السابقة:

فإذا ورثت هذه الأمة القرآن فقد ورثت معه جميع مضامين هذه الكتب ، وما دعت إليه من الدعوة إلى إخلاص العبودية لله وحده لا شريك له : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ومن إقامة أركان العبادات الأساسية التي ما خلا عنها دين ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة بمعناها الواسع ، كالأخذ بمكارم الأخلاق ، والكف عن مساوئها وأضدادها ، فجميع هذه المقاصد وهذه الأصول اتفقت عليها جميع الكتب والأديان السماوية . ولم يختلف فيها كتاب عن كتاب ، ولا دين عن دين ، وإنما وقع الاختلاف بينها في بعض الجزئيات العملية من الشريعة ، أو في بعض فروع العبادة ، وفي كيفية أدائها وتطبيقها . أو في تحريم بعض الأشياء وحليتها . وهذا هو المشار إليه بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة : ٤٨] .

ثم أنزل الله القرآن فنسخ به جميع الشرائع والأديان ، ولم يرتض لعباده ديناً سواه : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٩] . و﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] . وهذا ما يتعلق بالعطف .

ثم قال تعالى : ﴿أَوْرَثْنَا﴾ والمراد بأورثنا في الآية : أعطينا ، على سبيل المجاز للاستعارة التصريحية التبعية ، حيث شبه إعطاء الله تعالى لهذه الأمة هذا الكتاب العظيم دون طلب سابق ، وبدون مقابل ولا عوض ، ولا كد ولا تعب ، شأن الشيء الذي يورث عادة ؛ ثم استعير من الإرث بهذا

المعنى فعل : ﴿أَوْرَثْنَا﴾ على سبيل الاستعارة التبعية بالفعل ، وهذا حسبما يقرره علماء البلاغة في تقرير مثل هذا الاشتباه .

وأورد الزمخشري في فعل ﴿أَوْرَثْنَا﴾ احتمالين : أن يكون الفعل وارداً على حقيقته أي الفعل الماضي يدل على وقوع حدث في الزمن الماضي ، وأن يكون يدل على الاستقبال ، ويكون بمعنى المضارع لتحقيق وقوع خبر الله استقبالا ، كما في قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل : ١] ، أي يأتي أمر الله . والمعنى : ثم نورث الكتاب من بعدك من المؤمنين .

واختير فعل : ﴿أَوْرَثْنَا﴾ ، دون أعطينا ؛ قالوا لما في الإرث من معنى يناسب المقام ، وهو الإشارة إلى استمرارية هذا الدين وهذا الميراث بين جميع أفراد الأمة عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل ، وخلفا عن سلف ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هذا من جهة ، ثم من جهة أخرى لما فيه من الإشارة إلى دور العلماء ومسئوليتهم حول هذا الميراث العظيم ، من حيث العمل به وتبليغه للناس ، باعتبار أنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم . أي العلم بمقاصد كتاب الله وسنة رسوله ، وهما قوام هذا الإرث الثمين ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر . كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي .

ثم قال : ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ والمراد بالذين اصطفاهم الله تعالى لإرثه هذا الكتاب هم أمة الإجابة ، من أمة سيدنا محمد ﷺ فكل من آمن بمحمد ﷺ رسولا ، وصدق برسالته ، واستجاب لدعوته ، واتبع دينه ، كان من جملة أمة الإجابة ، وكان ممن تشملهم الآية ، وتشملهم بشارة الاصطفاء ، لأن الله قال : ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر : ٣٢] .

ومجرد هذا الاصطفاء دليل على فضل هذه الأمة ، لأن الاصطفاء افتعال من صفوة الشيء وخياره ، ثم لم يكتف الله بذلك حتى جعلهم عبدا له ، وسماهم عباده وفي هذا أيضا شرف للإنسان أن يحظى بأن يسميه الله عبده ، ويرضى الله تعالى أن يكون له عبدا . وهذا من أسمى صفات الإنسان ، ثم زادهم شرفا على شرف حين أضافهم إلى نفسه جل وعلا ، فقال : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ . ولن يضيف الحق جل وعلا إلى جنبه الأقدس إلا من كان من أهل السعادة ، وسبقت لهم من الله الحسنى وزيادة . أما من كان من أهل الشقاء والعياذ بالله ، ومن المحكوم عليهم بالخلود في نار جهنم أبدا ، فهؤلاء لا يكونون أهلا لهذا التشريف وهذا التكريم .

ويعجبني هنا ما قاله الونشريسي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «المعيار» ، حين تكلم على هذه الآية قال : وفي لفظ العباد وإضافتهم إلى ضمير الرب ، فيه من التشريف والتعريف ما لا يدركه إلا ذو ذوق ، أي ذو ذوق سليم . وعقل حصيف ، وبصيرة نورانية بها يستشف العبد معاني أسرار كتاب الله وكلماته على وجه يخفى على غيره .

ولعل هذا أيضا ما لحظه القاضي عياض ، ولمح إليه في بيته المشهورين :

ومما زادني شرفا وتيها وكدت بأخصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

وفي هذا بشارة عظيمة لأمة محمد ﷺ لكل من مات منهم على الإيمان ، وتوفاه الله على الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله أن يدخله الله جنته إن لم يكن مع السابقين فمع اللاحقين . غير أنه لن يخلد في النار أبدا مع الكافرين .

وحتى من نفذ فيهم الوعيد من عصاة المؤمنين ، لما ارتكبه من معاص وآثام وماتوا على غير توبة منها بشروطها المعروفة ؛ فإن بركة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ عائدة عليهم يومًا ، ويجدون لها يومئذ نفعا عظيما ، مصداقا لحديث رسول الله ﷺ ؛ وهو : «من قال لا إله إلا الله (أي خلصا من قلبه) نفعته يوما من دهره ، أصاب قبل ذلك ما أصابه»^(١) .

ويشهد لهذا الحديث القدسي الصحيح ، وهو قوله ﷺ : «وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله»^(٢) ، وأحاديث أخرى كثيرة في هذا المعنى في «الصحيحين» وغيرهما .

ثم تلحقه بعد ذلك شفاعة رسول الله ﷺ ، وهي لأهل الكبائر من أمته كما صح عنه ﷺ ، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة ، أنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة ، إلا أن يكون هذا الذنب كفرا وإشراكا بالله ﷻ ، أو جحودا وإنكارا لما علم من الدين بالضرورة ، أو استهزاء بالله ورسله ، وبآياته وحرماته ، وأنه لن يخلد مؤمن في النار ؛ وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ولكن مع هذه البشارة العظيمة يجب على المؤمن أن يحذر ولا يغتر ، وأن يخاف ربه ويتقيه ما استطاع ، فإن الأمر جد خطير .

ثم هو مع ذلك مرجئ لأمر الله ، وموكل إلى إرادته ومشئته ، وهي غيب عنا .

وحتى يكون رجاء المؤمن في عفو الله ومغفرته مقبولا منه وفي محله ، لا بد

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٤٨٦) ، و«الصغير» (٣٩٣) ، والبيهقي في «الشعب» (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/١٦١) : رواه البزار والطبراني في «الأوسط» و«الصغير» رجاله رجال الصحيح .
(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

وأن يكون مقرونا بعمل . كما قال ابن عطاء الله في حكمه : الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية وغرور . ويشهد له الحديث : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز - والمراد بالعاجز هنا الأحمق ، الجاهل ، أو قليل التروي - من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني»^(١) .

ولهذه البشارة العظيمة التي اشتملت عليها هذه الآية عدها بعض المفسرين من الآيات التي قيل فيها : إنها أرجى آية في كتاب الله ، مثل : ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] . ومثل : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] ، إلى آخر الآيات التي قيل إنها أرجى آية في كتاب الله . قال وذلك لأن الله تعالى أخبر عن هذه الأمة بأنه تعالى اصطفاه من جملة عباده الأخيار . وفي هذا الاصطفاء وحده دليل على فضل هذه الأمة .

تقسيم الأمة إلى ثلاثة أصناف:

ثم قسم هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام : إلى ظالم لنفسه ، وإلى مقتصد ، وإلى سابق . ثم أخبر عنهم جميعا بأنهم يدخلون جنته ، فقال جل وعلا : ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] . قال فأتى بواو الجماعة التي تشمل هذه الأقسام الثلاثة وتعمهم جميعا . ولذلك قال بعضهم : حق هذه الواو أن تكتب بماء العينين .

والإتيان بواو الجماعة الخاص بالذكر ، لا يعني الاحتراز ، وإنما هو من باب التغليب فقط . وإلا فالبشارة تشمل الذكر والأنثى على السواء

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ؛ وكما قال ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

وهذا كله على ما ذهب إليه جمهور المفسرين للآية ، وأن هذه الآية خاصة بالمؤمنين من الأمة المحمدية ؛ وأن الثلاثة أي الأقسام الثلاثة المذكورين فيها ، كلهم يدخلون الجنة ، لما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث كثيرة ، أنه أخبر أن جميع هؤلاء يدخلون الجنة . وقد رويت هذه الأحاديث من طريق جماعة من الصحابة عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وأسامة بن زيد ، وعثمان بن عفان ، وعائشة ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقد قرأ هذه الآية وهو على المنبر ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» ^(١) .

وقال عبد الله بن مسعود -وله حكم الرفع- : هذه الأمة يوم القيامة ثلاثة أثلاث : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يأتون بذنوب فيوقفون في المحشر ، فيقول الله تعالى وهو أعلم : ما هؤلاء ؟ فتقول ملائكته : هؤلاء قوم مذنبون إلا أنهم لم يكونوا مشركين . فيقول الحق جل وعلا : ألحقوهم برحمتي ، ألحقوهم برحمتي .

(١) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» (٦١) ، وقال بعده : فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر رضي الله عنه ، وروي من وجه آخر غير قوي عن عمر موقوفاً عليه .

ومثله ما قال كعب الأحبار ، وهو من التابعين ، قال : تحاذت مناكبهم في الجنة ورب العزة ، يعني أن مناكب المؤمنين تتزاحم وتتساوى في الجنة وإن تفاوتوا في المراتب .

وسئل أبو يوسف صاحب أبي حنيفة عن الآية فقال : كلهم من مؤمني هذه الأمة ، أما الكفار فالمذكورون بعد في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ [فاطر : ٣٦] .

وقال ابن عطية : لفظ الآية يحتمل أن يشمل المؤمنين من هذه الأمة وغيرهم . غير أن توريث الكتاب لم يعرف إلا في أمة محمد ﷺ ، فاقترعت الآية عليها .

وقال أبو إسحاق السبيعي : الذي سمعته منذ ستين سنة أن الثلاثة كلهم في الجنة .

وقال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير» بعد أن ذكر جملة من هذه الأحاديث عن ابن كثير وغيره قال : وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضها ، فيتحتم المصير إليها ، وبها يرد على قول من أخرج الظالم من الآية . وكأنه يعني بذلك الزمخشري ومن نحا منحاً الاعتزال ، حيث جعلوا الآية البشارة بالجنة مقصورة على الناجي والسابق دون الظالم .

وقال الألوسي : لا ينبغي أن يلتفت إلى قول من فسر الظالم في الآية بالكافر ، إلا أن يريد بذلك كفر النعمة ، وإرادة المؤمن العاصي .

معنى الأصناف الثلاثة التي وردت بالآية :

تبين من جميع هذه الأقوال أن القول الراجح الذي يجب اعتناؤه في الآية ، ويتحتم المصير إليه ، هو أنها خاصة بمؤمني هذه الأمة ، وأن

الأصناف المذكورين فيها كلهم يدخلون الجنة ؛ غير أنهم اختلفوا في تفسير الظالم ، والمقتصد ، والسابق ، اختلافا كثيرا حتى زادت الأقوال في ذلك على أربعين قولاً ، كما حكاه بعضهم ، ولكن الواقع أنه اختلاف لفظي ، بل بالأحرى اختلاف في التمثيل فقط ، حيث عبر كل واحد منهم عما رآه أقرب إلى المدلول اللغوي من لفظ كل من الظالم ، والمقتصد ، والسابق . ففسره بحسب ما رأى أن اللفظ ينطبق عليه ويشمله .

ومن هذه الأقوال - على سبيل المثال فقط - قول الحسن البصري رحمته الله : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والمقتصد المتوسط من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم لنفسه ، من رجحت سيئاته على حسناته . ومثلها قول من قال : الظالم لنفسه العاصي مطلقاً ، أي يأتي الكبائر والصغائر ولا يبالي . والسابق ، المتقي مطلقاً يجتنب الكبائر والصغائر ، فلم يبق إلا دور المقتصد وهو المتوسط ، فيكون بين هؤلاء ، وهؤلاء فوق الظالم لنفسه ، ودون السابق .

وقيل إن الظالم لنفسه هو المرجأ أمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له . والمقتصد الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليه . وأما السابق فهو السابق .

وقيل إن الظالم لنفسه ، هو الذي لا يتقي الكبائر ولا الصغائر ، والمقتصد يجتنب الكبائر ولا يجتنب الصغائر ، والسابق بالخيرات ، هو الذي يجتنبهما معاً ؛ إلى غير ذلك من الأقوال التي تدور حول هذا المعنى .

ثم أورد هنا سؤال وهو : إذا كان التفاضل بالأعمال ، فلماذا قدم في الآية الظالم لنفسه ، على المقتصد ، وعلى السابق بالخيرات ؟ قيل في ذلك : إن الله تعالى بدأ بالظالم لنفسه حتى لا ييأسه من رحمة الله ، وآخر ذكر

السابق بالخيرات ، حتى لا يعجب بعمله . ويتعرض لمقت الله وغضبه ، فلم يبق إلا دور المقتصد ، وهو المتوسط بين هذين .

وقيل إنه قدم الظالم لنفسه رعيًا للواقع ، لأن أكثر الناس من الظالمين لأنفسهم ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مثلاً . ودونهم في الكثرة «المقتصد» ، فهم قلة بالنسبة للظالمين لأنفسهم ، ثم آخر السابقين لأنهم أقل من القليل .

وقيل مراعاة لأحوال الناس ؛ لأن أحوال الناس ثلاثة : معصية ، وغفلة ، وشهوة ؛ ثم ندم وتوبة ؛ ثم طاعة وقربة لله ﷻ . فإذا عصى المؤمن ربه كان من الظالمين لأنفسهم ، فإذا ندم وتاب ارتقى إلى درجة المقتصدين ، فإذا جاهد نفسه وجاهد هواه وأكثر من فعل الخيرات ، وتكثير الحسنات ارتقى إلى درجة السابقين بالخيرات .

وعلى هذا الترتيب في هذه الآية سار الفقيه الجليل محمد بن يوسف العبدري المعروف بالموافق ، في كتابه : «سنن المهتدين» الذي شرح به هذا الكتاب ، ورتبه على تسع مقامات ، بين ترقق وتدلي ، وهو كتاب نفيس جدا ومملوء علما ، وجدير بأن يعاد طبعه . فإنه لم يعد طبعه منذ طبع ، وربما في آخر المائة الثالثة عشرة إلى الآن ، فرتبه هذا الترتيب العجيب ، وهذا ما يتعلق بالآية .

ثم قال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنَ اللَّهِ﴾ [فاطر : ٣٢] . سابق بالخيرات . الباء في بالخيرات تحتمل أن تكون ظرفية ، ويكون المعنى : ومنهم سابق غيره في فعل الخيرات كما في قوله تعالى : ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران : ١١٤] . ويحتمل أن تكون للسببية ، أي سابق غيره بسبب فعل الخيرات ، والخيرات جمع خير على غير قياس .

قال الشيخ ابن عاشور في «التحرير والتنوير»: وفي ذكر الخيرات في القسم الأخير جليل على أنها ملاحظة في القسمين الأولين، فتؤول الآية إلى: فمنهم ظالم لنفسه في الخيرات، ومنهم مقتصد في الخيرات، ومنهم سابق بالخيرات؛ ثم خص هذا القسم بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. فقرن هذا القسم وقيدته بكونه يقع بإذن الله ومشيتته، مع أن الكل بإذن الله ومشيتته، ولا يقع شيء في ملك الله إلا بإرادته ومشيتته: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال: السر في ذلك عزة هذا المقام، وأنه لن يصل إليه العبد إلا بتأييد من الله وتوفيقه، ولذلك قال: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقرئ قراءة شاذة: (ومنهم سابق بالخير بإذن الله)، كما حكاها أبو حيان في البحر المحيط.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، والإشارة في ذلك إلى كل من الاصطفاء ومن دخول الجنة. وسماه الله تعالى فضلاً كبيراً، لأنه محض عطاء من الله، ولا دخل للعبد فيه بحال. وجاء ضمير الفصل هنا: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ﴾، ليؤكد الحصر المستفاد من تعريف الجزأين، اسم الإشارة والمعرف بأل، وقصرها على المسند إليه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

ثم أبدل الحق جل وعلا من هذا الفضل الكبير بدل اشتغال قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣]، وجنات عدن أضيفت الجنات للعدن، لأن العدن معناه الإقامة من عدن يعدن ويعدُن عدُنًا وعدونا، بالمكان إذا أقام فيه. وذلك لأن من دخل الجنة أقام فيها على الاستمرار، وخلد فيها خلود الأبد: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا

بِمُخْرَجِينَ» [الحجر: ٤٨]، ولذلك تسمى أيضاً: «دار المقامة»، كما في الآية التالية. تسمى: «دار الخلد» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْرَ جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]. وهذه من أسماء الجنة. قال لهم: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾، بالرفع وقرئ قراءة سبعة وهي قراءة أبي عمرو: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، بالبناء للمفعول. وقرأ بعض الأفراد (جنة). وهو زربن حبش، والزهرى: (جنة عدن) بالأفراد. وقرئ في رواية عن عاصم: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ بالنصب على الاشتغال، أي مفعول بفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور وهو: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾. ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾. والواو كما قلنا سابقا تشمل الأقسام الثلاثة. ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

ثم أخبر عن المرتبة الأخرى: ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]. ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، إما أن يكون خبرا ثانيا لقوله تعالى: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾، وإما أن تكون جملة حالية في محل نصب من فاعل ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ وقرئ: ﴿يَحْلُونَهَا﴾ بالتخفيف واللزوم، والمعنى من قولهم حليت المرأة إذا لبست الحلي، وجمعها حلي؛ أي يزين أهل الجنة بهذه الحلي، ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من ماذا؟ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أي ببعض أساور. قال الألوسي: ومن هنا تفيد البعضية، ولعل لهذا البعض إشارة تمييزا عن غيره؛ وهو المراد بالآية. ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾، ومن الثانية للبيان.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ لؤلؤا بتحقيق الهمزتين، والنصب قراءة عاصم ونافع عطا على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، لأنه في محل نصب على المفعولية. ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ والأساور جمع أسورة. وأسورة جمع سوار بكسر

السين ، وسوار بضمها ؛ وهو الحلي الذي يتخذ لليد في مقابل القرط للأذن ، والتاج والإكليل للرأس ، والقلادة للعنق ، والخلخال للرجل . فهذه أسماء الحلي .

﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ ، أي يحلى فيها أهل الجنة بأساور إما مرصعة باللؤلؤ ، أو بأساور من ذهب خالص ، كما في آية أخرى : ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف : ٣١] إلى آخره .

إذن ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ وورد في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ، والبيهقي في الشعب ، والترمذي والحاكم أن النبي ﷺ قال : «إن على أهل الجنة تيجان ، وإن أدنى درة من هذه الدرر لتضيء ما بين المشرق والمغرب» .

وبعد أن ذكر حليهم عاد سبحانه وتعالى فذكر لباسهم أي المادة التي تصنع منها لباس أهل الجنة ، وهو الحرير الخالص ؛ وقال : ﴿وَلِبَاسُهمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر : ٣٣] ، وفي آية أخرى : ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَبِّلِينَ﴾ [الدخان : ٥٣] ، والسندس هو ما رق من الحرير . والإستبرق ما غلظ منه ، وفي آية أخرى : ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْآبِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحُسْنَتَ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف : ٣١] فأضافت آية سورة الكهف لون هذه الثياب ، وأنها ثياب خضر : ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْآبِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحُسْنَتَ مُرْتَفَقًا﴾ .

ثم قال : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ ، ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي : أخبر عن أهل الجنة ، أنهم حين ينجيهم الله تعالى من أهوال يوم القيامة ،

أنهم يبادرون إلى حمد الله وشكره ، فيحمدون الله تعالى على أن رضي عنهم وأدخلهم الجنة ، وأزال عنهم ما كان يساورهم من مخاوف ، وخاصة المخاوف التي تعترى الإنسان عادة في ذلك اليوم الرهيب ، ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ] ﴿ [المزمل : ١٨] ، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢] . ﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [ن] وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴿ وَصَحْبَتُهُ وَبَنِيهِ ﴾ [ن] لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ [عبس : ٣٤-٣٧] .

إذن ما أحق هذا اليوم بأن يخاف الإنسان ويحزن فيه ، حتى إن الأنبياء والرسل يخشون هذا اليوم ، فإذا ذهب الناس إليهم ليطالبوا شفاعتهم يقول كل واحد منهم نفسي نفسي فإن الله غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، اذهبوا إلى نوح ، اذهبوا إلى موسى ، حتى يصلوا إلى سيدنا محمد ﷺ فيقول : أنا لها ، أنا لها ﷺ ، وعظم ومجد وكرم .

إذن ما أحق هذا اليوم بأن يخشى وأن وأن وأن . . . ولهذا حمدوا الله تعالى على أن أذهب عنهم الحزن ، حيث كانوا يخافون أن ترد أعمالهم وأن تحبط أعمالهم ، وأن يكون المصير عذاب جهنم وبئس القرار ، وبئس المصير ، نسأل الله السلامة والعافية .

لهذا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ [الحَزْنُ والحُزْنُ بمعنى واحد ، كالبخل والبخل ، إلا أن صاحب المصباح جعل الحَزْنَ مصدرًا من حَزَنَ يحْزِنُ حَزْنًا . وجعل الحُزْنَ بالضم اسم مصدر .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] (لن عصاه وأناب إليه وتاب) ﴿ شُكُورٍ ﴾ : (لن أطاعه ، حيث يجزي

عن الحسنة الواحدة بعشرات أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء ، وهو واسع عليم) ثم أكدوا الحمد مرة أخرى : الحمد لله ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر : ٣٥] .

﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾ أي : دار الإقامة ، لا يمسنا فيها تعب ، ولا يمسنا لغوب . واللغوب ناشئ عن التعب البدني كالعياء الفكري ، والاسترخاء ، وما إلى ذلك ، فالأمران متتفیان عن أهل الجنة .

والظاهر من الآية أن هذا الحمد يصدر من أهل الجنة عموماً بينما بعض الأحاديث قيدت أن الذين يحمدون هذا الحمد ويقولون : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم الذين أوقفوا وقفة طويلة في المحشر ، ونوقشوا الحساب وعذبوا ، ومنهم من حقت عليه الكلمة ودخل النار ، ثم أخرج بشفاعة الشافعين .

ولكن هذا لا يمنع من أن يعم الحمد جميع المؤمنين حينما يرون أنفسهم أن الله تعالى أدخلهم الجنة وجازاهم هذا الجزاء الأكرم بدون مقابل ، لأن الله تعالى لو أراد أن يجعل جزاء الطائعين في مقابل ما من عليهم من نعم ، لما وفّت عبادتنا لو عبدناه ألف سنة بنعمة واحدة من هذه النعم ، وكان يكفي أن يمجّرنا من النار ، وفي النجاة من النار جزاء وأي جزاء . ولكن الله تعالى زاد على ذلك بأن عفا عن السيئات ، وأدخل الجنة . وهي أعظم وأحب ما يسعى إليه المؤمن .

وختاماً نقول :

هكذا دلت هذه الآيات الكريمات على فضل هذه الأمة المحمدية ، وعلى عظيم مكانتها عند ربها ﷻ ، حيث اصطفاها لتورث كتابه العزيز ،

وتحمل أمانته العظمى ، وجعل جزاء ذلك رضاه عنهم ، ودخلوهم الجنة جزاء كريما .

وإذا كنا إنما نعمل جاهدين ، ونسعى بكل طاقتنا في كل ما نفع من الصالحات ، وفي كل ما نأتي من الطاعات ، نفعل كل ذلك عسى أن نظفر برضوان الله تعالى ، وأن ينعم علينا بالجنة ، وينجيننا من النار . ومن أنعم الله عليه إذن ، فأبي فضل وأي تكريم وأي تنعيم من أن يرى العبد جزاء عمله ؟ وأن الله رضي عنه وأدخله جنته ، وذلك هو الفوز العظيم ، وذلك هو الفضل الكبير .

ولذلك أكثر الله تعالى من ذكر الجنة والنار ومن أوصافهما حتى يرغب العباد في الجنة ؛ ويهربوا من النار ويسألون الله تعالى أن يعيدهم منها ، بل ما أنزل الله كتبه وأرسل رسله إلا للتبشير والتنذير ، التبشير بالجنة ونعيمها ، والإنذار من النار وعذابها ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : ٢٨] .

ولذا رغبنا رسول الله ﷺ كثيرا بأن نكثر من الدعاء لله . وأن نجعل على رأس ما نهتم به في دعائنا أن نسأل الله الجنة ، ونعوذ به من النار ، حتى إنه لما سمع السيدة أم حبيبة زوجته تقول : اللهم بارك لي في زوجي رسول الله ، وبارك لي في أبي أبي سفيان ، وبارك لي في أخي معاوية ، فقال لها رسول الله : «إنك تسألين الله لأجال محدودة ، وأرزاق مقسومة ، لا يقدم منها ولا يؤخر ، ولو سألت الله أن يعيدك من النار لكان أولى وأولى»^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

وقال لمعاذ رضي الله عنه لما جاء يسأله عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار . قال له : «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه»^(١) . وقال لآخر سأله مثل السؤال : «لئن كنت أوجزت ، لقد أعظمت وأطولت»^(٢) لئن كنت أوجزت المسألة : اللهم أدخلني الجنة برحمتك ، وأجرني من النار بعفوك ، لقد أطولت أي طلبت شيئاً طويلاً وعريضاً ، يستحق كل الاهتمام .

وقال لرجل آخر وكان مع معاذ في قصته لما صلى بالمسلمين وأطال بهم الصلاة : كيف تقول إذا صليت؟ قال أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، ولا أحسن دندنتك ودندنة معاذ . يعني كثرة اجتهادهما ودعائهما . فقال له رسول الله ﷺ : «حولها ندندن»^(٣) ، وهل تصل دندنتي ودندنة معاذ إلا أن نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار .

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) ، وأحمد في «المسند» (٢٣١ / ٥) من حديث معاذ رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٧٦ / ٤) .

(٣) أخرجه أبو داود (٧٩٢) ، وابن ماجه (٩١٠) .

المحاضرة السابعة والثلاثون بعد المائة

بوارق الأمل وطريق النصر

انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

القرآن كتاب الله ووحيه إلى نبيه :

القرآن كتاب الله ووحيه إلى نبيه ﷺ ، جاء ليهدي الناس إلى الصراط السوي ويأخذ بأيديهم إلى الصالحات وينقذهم من المهالك ، فكان كتاب عقيدة وكتاب شريعة وكتاب منهج حياة ، وهو إلى ذلك الطريق الذي بنى به ﷺ الفرد المسلم والجماعة المسلمة ، ولذلك كانت آياته مواكبة لحياة هذا المجتمع الإسلامي في عهد رسول الله ﷺ ، وبعد ذلك في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، يهديهم سبلهم ويضع لهم المناهج الواضحة لاتباع المسالك الرشيدة وبلوغ المقاصد العالية .

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تصور لنا نزول الوحي في غزوة من غزوات رسول الله ﷺ وهي غزوة الأحزاب ، وكان الناس قد ألم بهم من الجزع والخوف ومن ألوان الأذى ما جعلهم يضيّقون بحياتهم ولا يدرون مخرجاً ولا سبيلاً لرد عوادي الظالمين والكفرة الذين تألبوا عليهم من مشركين ويهود وهم في غزوة الخندق ، فقالوا ما قالوا وأظهروا من الأحوال ما أظهروا .

ولكن المعاني الأساسية التي تدور حولها هذه الآية الكريمة تسجل لنا ،
حقائق ثابتة تكشف عن سنن كونية سرمدية دائمة . وهذه الحقائق وتلك
السنن تجتمع في كون الأمة الإسلامية أمة واحدة ، وفي كون إيمان الناس في
ذلك الوقت وبعد ذلك الوقت مراتب ودرجات ، وأن الابتلاء من الله
 لعباده صور وألوان ، وأن وعد الله حق ، وأن الثبات طريق النصر . ولذلك
 نجد في هذا الإطار عددا من الآيات الكريمة الأخرى التي تجري مجرى
 هذه الآية التي نحن بصدددها . وهذه الآيات ، منها ما هو خاص ورد في
 بعض السور ونزل في مناسبات معينة محدودة ، ومنها ما هو عام يبين المنهج
 الإسلامي الذي ينبغي أن يأخذه به الناس أنفسهم .

أما الآيات الخاصة فمن ذلك ما نزل في غزوة أحد وأوردته سورة آل
 عمران من قوله ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
 جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] . ومثل هذه الآية ورد
 بمناسبة فتح مكة وتضمنته سورة التوبة فقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
 تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا
 رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦] .

وأما الآية العامة التي تكمل هذه الآيات الأربعة باعتبار كون الثلاثة
 الأولى من الآيات الخاصة المرتبطة بمناسبة معينة ، وهذه الآية هي آية لا
 ترتبط بحالة معينة ولكنها تكشف عما يجب أن يكون عليه المؤمن من
 الصفات فذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ
 أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] وَلَقَدْ فَتَنَّا
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾
 [العنكبوت : ١-٣] .

حث المؤمنين على الصبر والتجمل عند ملاقات الشدائد :

هذه الآيات محاورها - كما ذكرنا - حث المؤمنين الصادقين على الصبر والتجمل به عند ملاقات الشدائد والنوائب ، ثم المضي في الجهاد جهاد الطغيان ومقاومة العدوان ورد أسباب الفتنة التي قد تقضي على الأمة الإسلامية وعلى الدعوة نفسها . وكذلك نهت على ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من صدق مع الله ، فلا يكون له بطانة سوء تكون تلك البطانة سبيلا للهروب من العقاب الذي ينزله الله أو ينزله رسوله أو ينزله المؤمنون به لأنه يريد أن يخاتلهم وأن يأتي بأشياء يبغضها الله ورسوله . ولذلك فإن المؤمن الحق ، المؤمن الثابت ، المؤمن الموقن ، هو الذي يكتمل إيمانه بالصبر ، بالصبر على الابتلاء بأنواعه .

وأنواع الفتن كثيرة ، فإن المؤمن يجد الباطل وأهله ظاهرين في الأرض أحيانا كالذي نعيشه اليوم ، فيظن ضعف النفوس وضعاف الإيمان بأن هذه الظاهرة تدل على أن الإيمان أو التمسك بالدين ليس سبيلا للتفوق ولا للظهور على الأعداء ، ويبحث عن خسران المسلمين فيقول : إن سبب خسرانهم هو تعلقهم بهذا الدين ، وقد حاربها كثير من المصلحين ومن دعاة الله إلى الحق ، وقد يصاب الإنسان بسبب موقفه ودينه وعقيدته وحمايته للمبادئ والقيم الإسلامية في أهله ويصاب في أبنائه ويرى إقبال الدنيا على المبطلين ويشعر هو بالغرابة في مجتمعه .

وربما نفي من الأرض وأخرج من داره ، وربما لابسته الحيرة وأصبح ضائعا لا يدري ما يفعل حتى إذا ضاقت به الأرض بما رحبت وعمت الفتن والبلايا به ، ذكر الله أو ذكر هواه ، فإن كان ممن يذكر هواه وشهوته فإنه يكون من المنافقين الكاذبين الذين عندما رأوا ألوان الفتنة والعذاب

وأوذوا في الله جعلوا فتنتهم كعذاب الله وقالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، بينما كان حال المؤمنين الصادقين وهم يلاقون هذه الألوان من الظلم من العسف، من العدوان، من الحيرة من الابتلاء عندما يصيبهم هذا يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. والرعيل الذي أعيشه أو أعيش بين ظهرانيه اليوم يعرف كيف كان المؤمنون الصادقون أيام الكفاح الوطني وأيام العمل في سبيل تخلص البلاد وأيام الجهاد المتواصل والتضحية بالنفس والبذل والعطاء من أجل تحقيق الغد الأفضل لمجتمعاتهم ولبلائهم، كانوا يزدادون إيماناً بما يلقون من عذاب، ويزدادون حماساً بالرغم مما يقعون فيه من فتن، وكانت هذه الأشياء تؤكد دورهم، وتشعرهم بكمال الرسالة أو التكاليف الملقاة على أعناقهم، فيمضون في سبيل الحق ويدافعون عن مبادئهم ولا يتخلفون بسبب الخوف أو الفتنة.

ونعود إلى آيتنا، هذه الآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة والتي يقول فيها سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وهذه الآية أريد أن أذكر من الآن بأن قراءتين وردتا بها: القراءة الأولى هي ما ذهب إليه الجمهور: ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾، وقراءة نافع رحمته الله هي: ﴿حتى يقول﴾، وسيأتي تفصيل ذلك.

وهذه الآية الكريمة التي بمجرد قراءتها نستطيع أن نتصور المعاني والأغراض التي نتناولها، وردت عقب آية أخرى جليلة هي قوله

تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

ومن ينظر في التساوق أو الارتباط وبناء الآية الثانية على الأولى- وإن كانت بالانتقال من غرض إلى غرض - يجد وصف الحال ، حال الناس قبل أن يأتيهم الرسل ، إذ كانوا أمة واحدة باعتبار كونهم خلقوا على فطرة واحدة ، وأنهم بعدما جاءتهم الرسل آمن بعضهم وكفر بعض فكانوا بذلك مختلفين ، لكن لما جاء الهدي الإسلامي والدين الإسلامي والوحي القرآني وبعث رسول الله ﷺ وجمع الناس من حوله ، وتم بناء الأمة الإسلامية وتكوينها ، كانوا أمة واحدة أيضًا .

وقد ورد ذكر هذا في كثير من النصوص القرآنية والنبوية الشريفة ، وكذلك في مقالات العلماء ، فالأمة الإسلامية أمة واحدة ، ولكن الذي قصم ظهر الأمة السابقة وكان سببا في تقسيمها وتوزيعها وتفكيك هذه الوحدة هو نفسه الذي قسم وفكك هذه الوحدة التي كان عليها المسلمون في الصدر الأول .

الطريق الذي يحمي الأمة من التفكك والتمزق:

ونحن بعد الإشارة إلى هذا نتطلع إلى الطريق الذي نحمي به الأمة الإسلامية من التفكك ومن التمزق . طريق ذلك هو المنهج الرباني الذي أشار إليه الله سبحانه وتعالى في هذه الآية نفسها عندما بين للمؤمنين ما هم عليه وما كان عليه المؤمنون السابقون الذين جاءهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وما أصبحوا عليه من الخوف ومن الجزع حتى أصبحوا وهم يستبطنون نصر الله ، ينادون بهذا النصر ويرجونه قريبا ، ولذلك فإن هذه

الحالة من وصف المجتمع الإسلامي أو المجتمع الواحد في الزمن السابق وفي عهد رسول الله في صدر حياة الإسلام ، وهذه الأمة ، يقترن ببيان المنهج الرباني لحماية تلك الوحدة والحيلولة بينها وبين التصدع .

أما الآية إذا أردنا أن نتبعها ونتأملها فلا بد أن نقول فيها بعض الكلمات ، فإن قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ ، أم منقطعة وليست متصلة ، وهي بمحل بل ، والهمزة للاستفهام ، فكأنه قال سبحانه وتعالى بعد أن ذكر المعنى الأول الذي يشير إلى الأمة الواحدة التي جاءها النبيون مبشرين ومنذرين يقول : بل حسبتم .

وهذا الانتقال من غرض على غرض يقترن به الاستفهام أحسبتم بل أحسبتم أم حسبتم ، هذا الاستفهام استفهام تقرير ، يقرر الواقع الذي عليه المسلمون في ذلك الوقت عندما كان المؤمن يزن إيمانه إيمان الأمة جميعا في هذا العصر ، عندما كان المؤمنون متمسكين بكتابهم وبهدي ربهم ، وملتفين من حول رسولهم يستمعون إليه ويأخذون بتوجيهاته وأوامره ولا يسировن إلا في الخط الذي يرسمه لهم ، ثم نجد إلى جانب هذا الاستفهام التقريري أو المعنى الذي أصبح مؤكدا رائحة العتاب واللوم ، فإن الله يعاتب المؤمنين الذين كانوا حول رسول الله من جزعهم ، ويلومهم على أن يقع منهم مثل ذلك ، لأن الإيمان لا يمكن أن يقضي عليه شيء من الفتن أو من ألوان العذاب ، ينبغي أن يكون الإيمان أقوى وأشد ، وأن يكون الثبات هو الطريق إلى تحقيق الخير ، ثم نجد قوله ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

لما هذه هي نافية ، وهي مثل لم ، لكن الفرق بين لم ولما أن النفي الذي تفيدته لما متصل بزمن الحال ، وبذلك فإن هذا الذي ينبغي أن يأتيهم أو

كان يؤمل أن يأتيهم لم يأتيهم قط ، حتى الآن حتى نزول هذه الآية ثم قال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ، ولم يقل مثل الذي أتى الذين من قبلكم ، لماذا؟ لأن هناك فرقا بين المثل ، والمثل ، فإن المثل : أن يصابوا بما أصيب به المؤمنون السابقون وهم حول رسلهم وأنبيائهم ، وأما مثل فمعناه أن الذي أصاب القوم السابقين هو أكثر من أن يتصور ، ولا يمكن أن يأتيكم شيء منه ، ولذلك لا حق للجزع ، فإن في الأمم السابقة كان يأتي الكفرة والمعاندون للدعوة والمقاومون لها فيشقون رأس الرسول والنبى بالمنشار وهو حي ولم يكن واحد من الناس يجزع من ذلك ، لأنه في سبيل الله وفي إعلاء كلمته وفي تحقيق الرسالة التي بعث بها ذلك النبي أو دعا إليها ذلك الرسول أو دعا إليها ذلك النبي .

ثم نجد كلمات ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٤] مستهم : أصابتهم والبأساء : كل سوء يقع في غير الذات في غير النفس كالذي يصيب الأموال ويصيب المكاسب ويصيب متاع الحياة الدنيا .

وأما الضراء فهو ما يصيب الذات بسبب المرض ، بسبب الجرح أو الجراح ، بسبب الموت في ساحة الجهاد ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا والزلزلة هي أن تميد الأرض بالناس ، وكون الأرض تميد من هول ما أصيبوا به يجعل الناس في هلع لا يقدرّون على شيء من أمرهم . ولذلك عبر القرآن تعبيرا عجيبا عن هذه الحالة التي تتصل بالزلزلة فقال : ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ، فيصبحون غير قادرين على شيء ويفوضون -مكرهين- أمرهم إلى خالقهم .

وقوله تعالى «حتى يقول» النصب هنا الذي هو قراءة الجمهور محمول على معنيين إما أن يكون للغاية حتى يقول إلى أن يقول وإما أنه يكون تعليلاً أي إذا أصابهم ذلك كان علة في قولهم فتكون إما للغاية أو للتعليل . وقد ذهب أبو حيان في كتابه «البحر» إلى تقديم المعنى الأول واختياره على المعنى الثاني .

وأما الإمام نافع رحمته الله فهو يقرأ: يقول (حتى يقول)، ويجعل الجملة بعد ذلك جملة حالية، ويقول وإن كان بلفظ الحاضر والمستقبل أي بلفظ المضارع إلا أنه يحكي حالة قديمة حالة ماضية حالة ماضوية .

وأما الرسول (حتى يقول الرسول) أو (حتى يقول الرسول) اختلف في معنى الرسول، من المراد بالرسول هنا؟ فذهب بعض الأئمة إلى أن المراد بالرسول هو جنس الرسول أي رسول، لأن كل رسول قد قام بواجبه، ولقي العنت من أهله، وتعرض لألوان المكاره، وكان قد مسه البأساء والضراء وقال هذه المقالة أو كان في حكم من قالها، ومنهم أي الأئمة من المفسرين من خصص هذا المعنى وقال هي نزلت في اليسع أو في شعيب عليهما السلام . والطائفة الأخرى من العلماء ذهبت إلى أن المقصود من الرسول هنا كما يدل عليه السياق هو رسولنا صلى الله عليه وسلم .

أغراض الآية:

بعد هذه الوقفات القليلة بجانب الكلم التي تضمنتها الآية واعتبرت من الفرائد التي ينبغي الوقوف عندها ينبغي أن نتطلع إلى فهم أغراض الآية ما هي أغراضها؟ في اعتقادي أن أغراضها ثلاثة :

الغرض الأول : هو بيان أن الإيمان لا يحقق فضيلة الدين للمسلم ولا يدخله الجنة إلا إذا اقترن باحتمال الشدائد في إقامة الحق ، والذين لا يستطيعون أن يثبتوا وأن يصمدوا يذهب إيمانهم ويضيع ويتلاشى .

وأما الغرض الثاني : فهو التنبيه على أحوال السابقين في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهو يريد سبحانه ﷻ من هذا أن يضرب المثل بصبر المتقدمين ، وأن يحمل المسلمين الجدد على أن يكونوا صابرين وصامدين ، ولذلك ورد في الآية الأخرى : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ٣] فإن التواصي بالحق من أجل إعلاء كلمة الله ومن أجل خدمة الإسلام ، ومن أجل تحمل الدعوة ونشرها بين الناس ، والتواصي بالصبر من أجل أن لا يجزع الإنسان مما يلقاه في سبيل ذلك من الهوان والعذاب والأذى ، فإن ذلك كله ينتفي مع الإيمان الثابت الحقيقي والصدق في تحمل الدعوة والقيام بالواجب كمؤمن .

وأما العنصر الثالث : والذي هو غرض سام من أغراض هذه الآية فهو استبطاء النصر عندما ضج المسلمون استبطئوا النصر متى سيأتي هذا الفتح؟ متى نقدر على القضاء على الأعداء؟ متى نخرج من هذه الحيرة؟ متى ينقذنا الله مما نحن فيه؟ فقاها المؤمنون أو أجراها الله على ألسنتهم ليحقق على لسان نبيه ﷺ الوعد الحق بالنصر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ﴾ ، ونصر الله قريب كلما توفرت أسباب ذلك من الثبات ، ومن العزم ومن العمل في سبيل الحق ومن الصبر ومن الدعوة المتمكنة التي تفتح القلوب ومن تحكيم المنهج الرباني .

هذه الأغراض الثلاثة أحسبها مقترنة بآيات أو أجزاء الآية الثلاثة ، هذه الأجزاء بعضها عام وبعضها خاص أي بعضها يخص بعض أجزاء

هذه الآية أي كلمها ، وبعضها يعم الآية كلها ، فالذي يعم الآية كلها ونبدأ به هو موقفنا إزاء هذه الآية باعتبار كونها خطابا إلهيا ، فالآية : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ إلى قوله : ﴿قَرِيبٌ﴾ ، هي خطاب إلهي صدر عن الله سبحانه وتعالى وبلغه الملك الكريم إلى الرسول الكريم إلى الأمة الكريمة ، فإذا بالله سبحانه وتعالى يدعوهم بهذا الخطاب إلى تحقيق السلم لأن الاختلاف الذي أشار إليه في الآية السابقة كان سبب عذابهم وتقسيمهم وتوزعهم وتفككهم ، واشتعال الحرب بينهم ، فدعاهم إلى الخروج من الحرب ومن الاختلاف إلى السلم ، وذلك بقوله : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، ثم بين لهم أن طريق الخروج من هذا الوضع وتحقيق السلم للأمة كافة يكون بتحكيم منهج الله ، فإذا طبق المنهج الإلهي وعرف كل واجبه وحقه وتساوى الناس أمام حكم الله وشريعته انتهت جميع المشاكل ، فالقرآن كما قلنا ليس كتاب تشريع فقط ، ليس كتاب عقيدة فقط ، بل هو يجمع الأصول الدينية والقيم الإسلامية والمبادئ الإيمانية التي على الأمة أن تتحلل بها ، وبذلك فهو قد بلغ القمة في تصوير الخلق الرشيد . ويكفي على ذلك دليلا قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق النبي قالت : «كان خلقه القرآن»^(١) .

ولذلك فإن الجانب الأول في الخطاب الإلهي هو لتقرير هذه الحقيقة ، ثم لتثبيت المسلمين وتسليتهم مما وقعوا فيه أو وقع لهم ، ثم لتذكير الصحابة بما كان عليه المسلمون السابقون مع الرسل والأنبياء ، ثم ليكون هذا الحديث لنا عبرة ، لأن العبرة ليست بخصوص السبب ، ولكن بعموم

(١) سبق تخريجه .

اللفظ ، واللفظ يتناول عصرنا والعصور التي ستأتي من بعد ، لأن القرآن خالد ، وهو يخاطب المسلمين عامة . ولذلك فهو تذكير للصحابة الذين خوطبوا بهذه الآية ، وهو عبرة لنا ، لأننا ننساق وراء هذه العترة الشريفة الكريمة من أصحاب رسول الله ﷺ ونتمسك بهديها .

أما الجانب الثاني بعد أن قلنا بأن الجانب الأول هو الخطاب الإلهي .

بيان مسيرة المؤمنين :

لو بحثنا في التاريخ الإسلامي من أوله إلى الآن لوجدنا أن المؤمنين دعاة عقيدة ورجال كفاح وأئمة صبر ، وحملة سيف ، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ، هذا المعنى مطرد من يوم خلق الله السموات والأرض وبعث الأنبياء والمرسلين إلى الآن ، لأننا وإن كنا لا نجاهد بالسيف نجاهد بأداة أخرى أو لا نجاهد إطلاقاً الجهاد العسكري ، وإنما نقوم بأنواع من الجهاد في الحياة الاجتماعية ، في الحياة الاقتصادية ، في الحياة السياسية ، في كل المجالات ، من أجل تغيير ما بنا لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإن ذلك أيضاً جهاد ، وهذا الجهاد ، في أوسع معانيه تتناوله هذه الآية . ولذلك فإن مسيرة المؤمنين هي جهاد دائم وتحمل للأمانة وتبليغ لها ، ووقوف عند المنهج الرباني ليكون أساس العدل بين الناس .

شعار المؤمن عند وقوع البلاء :

وأما الأمر الآخر وهو الجانب الثالث لا يتمثل في المسيرة والتاريخ وإنما يتمثل في هذه الحقائق التي أصبحت شعار المؤمن ، للمؤمنين شعار هو : التكليف الإلهية بحكم الخطاب الإلهي وهي الابتلاء الذي يصيب المسلمين

وقوة العزم في تحمل ذلك الابتلاء ، وإيثار الحق على الباطل مهما كان الأمر ،
والبذل والعطاء والتضحية ، فتلك شيم المسلمين وذاك شعارهم ، سواء كانوا
أفرادا أو جماعات ، سواء كان المسلم ذاتا معنوية كالدولة ، أو ذاتا حقيقية
كالفرد أو كالأمة ، فإن المسلمين أو الأمة الإسلامية التي عرفت العزة ، وعرفت
الظهور على الأعداء ، وعرفت أيام الخير والسعادة قد ضعف أمرها وتلاشى
سلطانها وتداعت أركانها بسبب تخليها عن المنهج الإلهي . فالأمة إذن - الأمة
الإسلامية - مدعوة للإفادة من تعاليم القرآن وتوجيهات النبي ﷺ ، ولكنا وإن
قلنا إن هذه الآية كانت في الماضي تذكيرا بالنسبة للمتقدمين ، وبالنسبة لنا كانت
اعتبارا ، فنحن نريد أن نفهم معنى هذا الاعتبار .

بيان معنى كلمة (أمة) عند الإطلاق :

الأمة الإسلامية ، كلمة أمة ورد في بيانها إطلاقها على عشرة معان ، فهي
تطلق بإزاء عشرة معان قد ذكرها مفصلة الفيروزابادي في كتاب : « بصائر
ذوي التمييز » ، والمعنى العام للأمة كما نفهمه هو : الجماعة أرسل لهم رسول
فالتفتوا من حوله وآمنوا به ، واعتنقوا العقيدة التي دعا إليها . وبذلك تقول :
الأمة الإسلامية ، الأمة النصرانية ، الأمة اليهودية ، الأمة البوذية . . . إلخ .

فكل أمة من الأمم متميزة عن الأخرى بعقيدتها وبحقيقة الملة التي
تجمعها لكن الأمة الإسلامية التي قلنا بأنها أمة واحدة كما نبهت على ذلك
النصوص ، هي أمة واحدة لكونها موحدة القيم ، القيم التي تعتبرها
وتؤمن بها واحدة ، وعلى رأس هذه القيم الإيمان بالله ، ثم وحدة الرؤية لله
سبحانه وتعالى - الخالق الأحد القدير - فتصور هذه المعاني عند المؤمنين
قاطبة من وحدانية الله وخالقيته وقدرته يجعل الأمة متساوية في هذا القدر
المشترك في تصور حقيقة الذات الإلهية أو حقيقة الخالقية .

ثم هناك وحدة الرؤية بين المسلمين للكون في بنيته ، في تكوينه ، في هذه الآيات التي جاء بها القرآن الكريم مصورا عظمة الكون وأسراره وخصائصه ومميزاته مما لا يمكن أن يكون إلا صنع الله ، لا يمكن لقوة أخرى أن تأتي بمثل هذه الأشياء : السماء بغير عمد ، الجبال ، الأودية ، الأنهار ، البحار ، الخلق ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢١] . فكل هذا الخلق الإلهي للكون وما فيه يدل على أن الكون مملكة هي مملكة الله ، وأن هذه المملكة ممتلئة بالشواهد وبالآيات على وحدانية الله وقدرته ، ووحدة النظرة إلى الإنسان ذلك أيضا مقوم آخر للوحدة الإسلامية ، النظرة إلى قيمة الإنسان ، قيمة الإنسان في استخلاف الله له في الأرض ، فقد مكنه من أسباب الاستخلاف وأعطاه قوى وطاقات ومواهب ، وجعله قادرا على أن يأتي بالشيء العجيب ، وما التقدم الذي ناله كثير من الناس إلا لكونهم فهموا حقيقة الاستخلاف ، ثم وحدة الأمة الإسلامية تتمثل أيضا في حضارتها .

فالحضارة الإسلامية كما قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمته الله : «الحضارة الإسلامية مجهود مشترك لشعوب كثيرة مسلمة ذات نبع حضاري واحد تلتقي فيه أجناس وألوان من أطراف العالم» .

فنحن عندما نستعرض قائمة علمائنا ومفكرينا ورواد البحث عندنا في الأزمنة الغابرة أزمنة الازدهار الفكري عند المسلمين نجد الفارسي والعربي والأفغاني . . . وغير هؤلاء ، فإنك تجد الحضارة الإسلامية أثرا من آثار هؤلاء جميعا الذين تأدبوا بالقرآن وتأثروا به ، فإذا هم يسرون على منهج واحد في تحقيق هذه المعاني .

لكني إلى جانب هذا أرى لزما أن أصور كيف كانت هذه الأمة الإسلامية ، الأمة الإسلامية التي امتد سلطانها وانتشرت أقطارها طولاً ما بين حدود الصين إلى المغرب الأقصى في قارات وأقاليم وأوطان ، وامتدت دار الإسلام عرضاً ما بين «طامير» سقف الدنيا شمالاً و«سرنديب» ولذلك فإننا حين نحصي الأراضي والثروات والإنتاج الفكري والقومي والطاقات وأسباب المنعة ، ونجدها متجمعة أو مجتمعة نؤمن بعزة الإسلام وقوته .

لكن لسوء الحظ ذهب كل ذلك ، كان هذا موجوداً في الزمن المتقدم ، وبعد ذلك تفككت الدول وتقسمت الأمة الإسلامية إلى مجتمعات ، كل جماعة تخرج عن الأخرى أو تفارقها بأشياء مميزة لها .

نعم إن الإرث الحضاري العلمي والقوة المادية في شباب الإسلام وسلطان الدولة الإسلامية وظهوره على غيرها من الدول ، والنجدة التي كان يقوم بها ملوك المسلمين والخلفاء ، والشجاعة التي أبلى بها البلاء الحسن المقاتلون والمجاهدون في سبيل الله ، وتحكيم الشرع من جهة وتحكيم العقل من جهة ، وعدم الاستسلام للخرافات والأوهام ، تلك هي السمات للمجتمع الإسلامي الراقى المتقدم ، لكن لسوء الحظ ، بجانب هذه المعاني وبجانب ما كان يتميز به المجتمع الإسلامي من دعوة للفضائل وإلى عقائد الصفات ، نجد أن أدواء كثيرة مسته ، كتلك الأدواء التي ذكرتها الآية القرآنية : ﴿ مَسَّيَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

بعض الأمثلة مما قابل المسلمين من أنواع الضراء :

ما هي البأساء وأنواع الضراء التي أصابت الأمة الإسلامية؟ أصيبت بفتنة الشعوبية وانقسام المسلمين إلى فئات ، كل فئة تدعو إلى المفاخرة

بحقيقتها وبنسبها والعلو على غيرها ، أصيبت بالنحل المتعددة ، بالفرق المختلفة ، بالأيديولوجيات الكثيرة ، فإذا بالأمة الإسلامية بعد ذلك ضعيفة أصابها الخور ، أصابها التخلف ، لأن الطاقة التي تجمعها أصبحت بعيدة وعاجزة عن أن تمدّها بشيء من العون لتخرجها مما هي فيه ، وأي عون يمكن أن يعيد إليها شبابها وقوتها ، ذلك العون هو الذي وجدناه في القرآن ، وفي القرآن هداية للذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والأمة الإسلامية حينما كانت قوة واحدة ودولة واحدة كانت متمثلة في الخلافة الراشدة ، ثم جاءت الخلافة الأموية ، وجاءت الخلافة العباسية ، وجاءت الخلافة العثمانية ، وكلما تقدمت الأمة الإسلامية مع تقدم الزمان وتطور العهود ازدادت انفككا وانقساماً وبعداً عن بعضها البعض .

هذا الأمر يضع مشكلاً قائماً في زمننا هذا . العلاقات الدولية التي كانت موجودة في عصر الخلافة الراشدة ليست بالأمر المجهول أو غير المعروف ، فهناك تماسك تام ، لكن في الدولة العباسية مثلاً وفي الدولة العثمانية خرج أناس كثيرون عن الدولة الإسلامية ، فاعتبرتهم الخلافة أو الدولة الإسلامية بغاة وحاربتهم ، وفي بعض الأحيان تتكون دويلات فإذا هي تلتزم بأن تقوم بطبع العملة باسم الخليفة وبالخطبة للخليفة على المنبر يوم الجمعة ، إعلاناً بأنها لا تريد مشاققة طاعتها ولا الخروج عن صف الخلافة وإنما هي تريد أن تستقل بمكان مع الارتباط الأساسي بتلك الدولة .

هذا كان في الماضي ، وكانت الأوضاع ، نستطيع أن نقول جازمين بأن العلاقات الدولية بين الدول الإسلامية لم تكن قائمة على الاعتراف المتبادل والتحالف والاتحاد داخل العالم الإسلامي ، وهذه حقيقة مؤلمة ،

وما تعرضت له الأمة تتعرض له الدولة الإسلامية في هذه الصورة .
إذن كيف السبيل إلى الخلاص؟ كيف السبيل إلى طلب النجاة من هذا
الوضع؟ كيف نجمع القوات قوات الأمة الإسلامية ونجمع قوات الدول
الإسلامية كلها لتكون بعد ذلك سبيلا لفرض الإرادة الإسلامية والمنهج
الإسلامي وتحقيق الخير للمجتمع الإسلامي؟ هنا نجد مشكلتين عظيمتين :
المشكلة الأولى هي مشكلة المذهبية ، والمشكلة الثانية هي مشكلة القومية .

المذهبية :

أما المذهبية فنحن نعلم من التاريخ أن المسلمين انقسموا إلى طائفة تعتبر
الخلافة أو الإمامة قضية عقدية ، وأنها في آل البيت ، وأنها تنتقل من واحد
من الأئمة إلى آخر ، وتكونت بذلك مذاهب حتى عند الشيعة مختلفة فيما
بينها ومتحاربة ، ونجد منهجا آخر يقابل هذا المنهج هو اعتبار الخلافة أو
الإمامة ليست قضية عقدية وإنما هي قضية مصلحة اجتماعية ، وبذلك فإن
طريق الوصول إلى الحلول يصبح أيسر ، لكن أعتقد أن الخلاف الذي يكون
بين الدولة المذهبية أو القائمة على المذهب في هذا العصر والتي تقوم على
القومية في هذا العصر ينبغي أن يجد حلا ، ينبغي أن نجد سبيلا للخروج
منه ، إذ لا يفرق بين المسلمين شيء يأتي به قرآن أو حديث ويكون الشيعة
فيه مقدمين على السنة أو السنة مقدمين على الشيعة ، إذا كنا نؤمن بكتاب
واحد وبرب واحد ، ونتجه إلى قبلة واحدة ، ونسلك سبيلا واحدا ، فما
معنى هذا التفرق؟ لابد من القضاء على هذه الفرقة ، لابد من القضاء على
هذا الاختلاف وأسبابه .

القومية:

وكذلك بالنسبة للقومية، فإن القومية كانت تعبير تجمع طبيعي عن الذات، وهذا التعبير كان في شكل دولة لإبراز الهوية وصيانة المصير المشترك، لكن هذا يقضي بتفكك المجتمع الإسلامي، فإن الذين لا ينتسبون إلى هذه القومية يعتبرون خارجين عن الجماعة ولا يلتفت إليهم ولا يعطون الحقوق التي تعطى لأبناء القوم الآخر، فهناك إذن مناهج سار عليها التاريخ، وتلاها منهج آخر في هذا العصر الذي نعيشه هو الذي لا يؤمن بمذهبية ولا قومية، ويرى أن وجود الدول وخفوتها أو انزواءها يرجع إلى عوامل طبيعية واجتماعية واقتصادية وتاريخية، وتلك العوامل هي التي تقيم الدول أو تزيلها في العصور الحديثة، لذلك فإن محاولات رأب الصدع هي التي ينبغي أن نعننى بها.

كيف نخرج من هذا الوضع؟

اقترح بعض العلماء ورجال القانون بأنه لابد من إجراء جدلية بين المذهبية القومية والخطاب الإسلامي، ويقترح أن تكون هذه القومية تقرر الخلاف، وأن ترفض التعالي والتناصر على الباطل، وأن تعتمد الدين قيمة قومية ثمينة.

وأما الجزء الثاني لأن الجدلية بين طرفين، هذا الطرف هو القومية، والطرف الثاني هو الخطاب الإسلامي، فهو يدعو لأن يكون الخطاب الإسلامي مقرا بقوانين التاريخ أي التطور التاريخي وبحقائق تطور الوجود وبالأخوة في الدين، وبجامعة اللغة وبالجامعات الأخرى أو الجوامع كالتقريب والجوار، وهذه الحقائق في الواقع ليست مرفوضة من الدين ولا بعيدة عنه لأن الله أمرنا بالاجتهاد.

وسبيل تحقيق ذلك في اعتقادي هو شعور المسلمين قاطبة ، شعوبا ، أمة أو دولا بالانتماء إلى شيء واحد ، وبوحدة المصير ، وبالتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وهي دين الله . وهذا معناه أنه لا بد من البعد عن كل شيء من شأنه أن يضعف الروح الديني وأن يقتله في النفوس وأن يضعفه ، لأن ذلك فيه مسخ لحقائق المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية .

والأمر الثاني وجوب مواجهة ثقل الماضي الذي ورثناه ورسوباته ، ثم ما كان من التدخل الأجنبي في كثير من قضايانا عبر قرون متطاولة ، وما ذلك إلا بسبب ضعفنا وانقسام جماعتنا وتشتت كلمتنا وتفرق صفنا .

والأمر الآخر هو تأكد الأخذ بمقومات الوحدة الإسلامية بدل التمسك بأسباب الخلاف نترك أسباب الخلاف ونحرص على ما يجمعنا لا على إبراز ما يكون مفرقا بيننا ومحطما لوحدتنا .

المحاضرة الثامنة والثلاثون بعد المائة

حرية الفكر

روى الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في «سننه»، في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب الفتن، قال: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية عن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي البختري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقر أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله ﷻ له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فيأي كنت أحق أن تخشى».

وقد نص العلماء على أن إسناد هذا الحديث صحيح، ورجاله ثقات.

رجال الإسناد:

أبو كريب المذكور في أول الإسناد هو الحافظ الثقة، محمد بن العلاء الهمداني الكوفي، محدث الكوفة، لم يكن في العراق أحد أكثر حديثا منه، ظهر له بالكوفة نحو ثلاثمائة ألف حديث، وكان صدوقا، مات سنة ثمان وأربعين ومائتين (٢٤٨هـ) وله سبع وثمانون سنة.

قال: حدثنا عبد الله بن نمير، وعبد الله بن نمير هو الحافظ الإمام أبو هشام الهمداني الكوفي، - وثقه يحيى بن معين وغيره، وكان من كبار أصحاب الحديث، توفي سنة تسع وتسعين ومائة (١٩٩هـ) وله أربع وثمانون سنة.

عن الأعمش، وهنا انتقلت الصيغة من التحديث إلى العنونة، الأول قال: حدثنا، ثم قال: عن الأعمش، وعن الحديث: إذا رواه بعن من

غير بيان للتحديث أو الإخبار أو السماع ، ورواية الحديث بالعنعنة ثابتة ، والحجة بها لازمة ، ما دام اللُّقْيُ بين الراوي ومن روى عنه ممكناً ، كأن يكونا معاً في عصر واحد أو بلد واحد ، وهذا ما توفر في هذا الحديث ، أما إذا كان المحدث لم يثبت أنه لقي من يحدث عنه فإن حديثه بالعنعنة لا تقع به حجة ولا يُعتمد .

والأعمش : هو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي الكوفي أحد الأئمة الثقات ، معدود في صغار التابعين ، مُحدث الكوفة وعالمها ، له نحو ألف وثلاثمائة حديث ، وكان أقرأ أهل بلده لكتاب الله وأعملهم بالفرائض وأحفظهم للحديث .

عن عمرو بن مرة ، وهو أبو عبد الله المرادي الكوفي الضرير ، كان ثقة ثبناً إماماً ، له نحو مائتي حديث ، توفي سنة ست عشرة ومائة هجرية .

عن أبي البختري وهو سعيد بن فيروز الطائي مولا هم الكوفي ، وصفه المحدثون بأنه صدوق ثقة ثبت ، وكان كثير الحديث يرسل حديثه ، وإرسال الحديث هو أن يروي أحد تابعي التابعين مثلاً عن الصحابي دون أن يذكر التابعي الذي يصله بذلك الصحابي فيذكر الحديث مرسلًا ، أو يروي الحديث عن الرسول ﷺ دون ذكر الصحابي الذي هو وسيلته وطريقته إلى ذلك الحديث . روى عن ابن عباس وطبقته ، ثار على الحجاج مع ابن الأشعث ، فلما كانت وقعة دير الجماجم طعنه أحد رجال الحجاج برمح فقتله ، وكان ذلك سنة ثلاث وثمانين للهجرة .

عن أبي سعيد الخدري ، وهو الصحابي الجليل سعد بن مالك الأنصاري الخزرجي ، كان من علماء الصحابة وممن شهد بيعة الشجرة ، روى أحاديث كثيرة ، وأفتى مدة ، روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن

ثابت ، وروى عنه من الصحابة ابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم ، وأخرج له البخاري ومسلم في «الصحيحين» ثلاثاً وأربعين حديثاً .

تخريج الحديث :

وهذا الحديث كما أخرجه ابن ماجه في سننه أخرجه الإمام أحمد في مسنده بأسانيد مختلفة وألفاظ ، منها المطابق للفظ ابن ماجه ، ومنها ألفاظ أخرى ، منها : لا يمتنع أحدًا منكم مخافة الناس أو بشر أن يتكلم بالحق إذا رآه أو علمه أو رآه أو سمعه ، ومنها : لا يحقرن أحدكم نفسه إذا رأى أمراً لله فيه مقال فلا يقول به ، فيلقى الله وقد أضاع ذلك فيقول : ما منعك؟ فيقول : خشيتُ الناس ، في حديثنا : خشية الناس ، وفي هذا اللفظ : خشيت الناس ، فيقول : أنا كنت أحق أن تخشى ، ومنها : ألا لا يمتنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد ، فإنه لا يُقَرَّب من أجل ولا يُباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم .

تفسير معاني الحديث :

معنى قوله ﷺ : «لا يحقر أحدكم نفسه» أي لا يذلها ، لأن من أخرس لسانه خشية الناس فسكت عن الحق لم يغادره الشعور بالذل والحقارة ، وقوله : «يرى أمراً لله عليه فيه مقال» أي يرى رأياً مما هو من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقوله : «ولا يقول فيه» أي لا يعبر عن رأيه ، والإسلام يدعو الإنسان إلى استعمال فكره في أمور دينه ودنياه كما يدعو إلى التعبير عن رأيه وهي دعوة راسخة في القرآن مسترسلة ، لا تكاد تخلو منها سورة من سورة ، يقول الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى ثَمَنِ وَفُرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦] ، فالدعوة إلى التفكير

في كثير من آيات القرآن الكريم ، ويقول ﷺ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١﴾ ، ويقول تعالى : ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

ويقول سبحانه : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٢٤] ويقول : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] .

هذا إلى جانب ثناء الله ﷻ على أولي الألباب ، والذين يعقلون وأهل العلم وأهل البصيرة تنويها بالفكر وإكبارا لأهله .

الحرص على وجود رأي عام فعال يقظ لمصلحة المسلمين :

كما يحرص الإسلام على أن يكون للناس فكر وبصيرة ، ويجعل العلماء في المجتمع ورثة الأنبياء ومثل النجوم في السماء تقتدي بهم العامة وتسير على هداهم لتكون القيادة في المجتمع لأهل الفكر وأهل العلم ، كذلك يسعى الإسلام لخلق الرأي العام الفعال اليقظ بدعوة الناس إلى التعبير عن آرائهم والإسهام بالرأي في المصالح العامة للمسلمين ، فيضع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويجعله من خصائص الأمة الإسلامية :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وفي الحديث الشريف : مر بالمعروف وانه عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب

كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، لا يضرك من ضل إذا اهتديت .
وقوله في الحديث موضوع الدرس : فيقول الله ﷻ له يوم القيامة : ما منعك أن
تقول في كذا وكذا فيقول : خشية الناس لم يقل خشية السلطان ، لأن السلطان
ظل الله في الأرض يقيم شرع الله في البلاد ، ويبسط شريعته على العباد ، ولا
يصلح أمره ويستتب حكمه إلا بتكريم الفكر في دولته وتعظيم العلم في
سياسته ، والاهتداء بالآراء الصالحة ولو كانت مخالفة لرأيه ، والاستماع إلى
النصيحة ولو كانت ثقيلة على طبعه . وقد كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه
يقول لرعيته : إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني فضرب مثلاً أعلى لما
يكون عليه السلطان مع الرعية ، لذلك لا يخشى على حرية الفكر من السلطان
في الإسلام ، وإنما يخشى عليها من الناس .

وفي تاريخ البشرية أمثلة كثيرة على ما عاناه المصلحون من جهل الناس
وما لقيه رجال الفكر والدين من رفض الشعوب لأفكارهم وآرائهم ،
والسخط الذي أدى في كثير من الأحيان إلى قتلهم وإحراقهم بالنار
وسجنهم وتعذيبهم .

وإن للناس تسلطاً على الفكر وهيمنة على حريته ، حتى إن المفكر لينزل
نفسه بمجاراتهم ومداراتهم ، والعيش غريباً فيهم ، غير قادر على التعبير
عن صريح رأيه في معظم المسائل خشية إغضابهم أو إثارتهم عليه ، وهذا
مصادق الحديث الشريف : ما منعك أن تقول في كذا وكذا فيقول : خشيةُ
الناس ، فيقول : فإياي كنت أحق أن تخشى .

ثقل الرأي العام على حرية الفكر :

وفي عصرنا أصبح لجمهور الناس صحافة وجمعيات وأحزاب وبرلمانات
ونقابات ، فأصبح ثقل الرأي العام على حرية الفكر أكبر من ثقل السلطة ،

وها نحن نجد العلماء يتحدثون عن حقوق المرأة ومظهرها ، وتعدد الزوجات في الإسلام بصوت خافت ، ويتحدثون عن إقامة الحدود من رجم وقطع للسارق بكثير من الحذر ، ويتحدثون عن موقف الإسلام من كثير من القضايا باستحياء كبير ليس خوفا من السلطة ، وإنما مجاملة للناس الذين ذهبوا مع تيارات واتجاهات أخرى لا يستطيع المفكر أن يقاومها . والله تعالى يحذر عباده من خشية الناس فيقول : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِغَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة : ٤٤] .

ويقول : ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٣] ويقول : ﴿ الَّذِينَ يُبْلَغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَخَشَوْنَهُ وَلَا تَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] وهو بالذات قوله في الحديث : فيأي كنت أحق أن تخشى .

اختلاف الآراء وتشعب الأفكار:

وإذا كانت ممارسة حرية الفكر ينتج عنها خلق الرأي العام اليقظ فإنه لا خوف على الأمة إذا نتج عن ذلك اختلاف الآراء وتشعب الأفكار ، وما يصحب ذلك من تجاذب وتدافع ، بل إن ذلك مطلوب لإعطاء الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية قدرا من الحيوية والنشاط ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] . ولقد اختلف المسلمون كثيرا ولكنهم عرفوا كيف يحافظون على قوتهم ومجدهم وعزهم في أوج اختلافهم . اختلفوا منذ عهد الرسول ﷺ في مسائل كثيرة ، فكان يردهم إلى الحق بسماحة كبيرة ، واختلفوا بعد موته في مسألة الخلافة ، واختلفوا في أمر سيدنا عثمان رضي الله عنه لأشياء اعتبروها إخلالا منه بواجبه ، حتى أقدم لأجلها ظالمون على قتله .

واختلفوا في أمر سيدنا علي كرم الله وجهه ، ومسألة التحكيم ، وأصحاب الجمل . ثم اختلفوا في مسائل من العقيدة ، وارتبط هذا الاختلاف بالسياسة ، فظهرت فرق كثيرة وصلت إلى ثلاث وسبعين فرقة في أجل لا يبعد كثيرا عن عصر النبوة . واختلفوا في الفقه فظهرت المذاهب ، واختلفوا في عدد من الأمور .

وهكذا عاش المجتمع الإسلامي في حركة فكرية دائبة ، وإصرار عجيب ، على ممارسة حرية الفكر في جميع الميادين الدينية والسياسية والعلمية ، وكان الإسلام مشجعا لهذه الحركة الفكرية عامدا إلى خلقها في المجتمع الإسلامي ، قاصدا إلى إذكائها لتبقى الأمة حية نشيطة ، فاعلة في الزمان والمكان . ولكنه ليجنب المسلمين أضرارها ويخفف من غلوئها وضع لها آدابا ، ورسم لها حدودا ونفخ فيها روح الإيجابية والبناء والخلق والإبداع ، وطهرها من الفجور في العداوة والفحش في الخصومة ، فحرر الإنسان من التعصب والتقليد ، ودعاه إلى التفتح والتجديد ، وحذره من الخروج على الجماعة ، وأمره بالاحتكام إلى الله ورسوله في كل صغيرة وكبيرة ، وجعل رأس الأمر كله تقوى الله ، وركز على أن المؤمنين إخوة ، وأنه مهما بلغ الخلاف لا يجوز بأي وجه أن يحمل المسلم السلاح على أخيه المسلم كما يقول رسول الله ﷺ : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : هذا القاتل يا رسول الله فما بال المقتول؟ قال : كان حريصا على قتل صاحبه»^(١) .

ففي هذا الإطار وداخل دائرة هذه المبادئ أطلق الإسلام العنان لحرية الفكر ، وسمح بالاختلاف في الرأي ، فألفنا في تفسير كتاب الله العزيز كتبا

(١) سبق تخريجه .

تصل إلى آخر مدى في تأويل كلام الله : منها الصوفي ، ومنها الشيعي ومنها المعتزلي ، ومنها الباطني وغير ذلك . وألفنا في الفلسفة فأنكرها بعضنا ووفق بينها وبين الدين بعضنا ، وأغرق فيها بعضنا الآخر ، وكنا أحرارا في الأدب والشعر ، أحرارا في اللغة ، أحرارا في كتابة التاريخ ، أحرارا في التأليف في أنظمة الحكم ، وبلغنا أقصى مدى في استرسال الفكر وانطلاقه فأسهمنا في الحضارة الإنسانية إسهاما عز نظيره ، وبنينا مجدا يصعب على الناس وصفه وتطويره ، وأدينا ضريبة ذلك كلما هبت علينا رياح التعصب والأنانية ، فحدثت معارك وحروب بين الشيعة والسنة ، وبين هؤلاء جميعا وغيرهم من الفرق ، وسجن عدد من مفكرينا وعذبوا وقتلوا ، وبقينا متمسكين بحرية الفكر مدافعين عنها إلى الآن .

وإننا إذا ربطنا ما تقدم بعصرنا ، ونظرنا نظرة واسعة تشمل الفكر الإنساني في هذا العصر ، فإننا نأسف على ممارسة حرية الفكر فيه ، ذلك أن روح المسؤولية بدأت تتضاءل عند كثير من المؤلفين والكتاب والمتنبيين إلى الفكر ، وأخذ الشعور بثقل أمانة الكلمة يقل ، وأخذت تظهر مؤلفات وغيرها من الدراسات والكتابات هي إلى العبث أقرب منها إلى الفكر ، كما ظهر نوع من الامتهان للفكر فسخرته جهات كثيرة لأغراضها ، وأصبحت الأفكار الهدامة التي تفتك بالدول والشعوب تروج باسم حرية الفكر ، ومن تصدى لها اعتبروه مناهضا لحرية الفكر وعدوا لها .

ذكر بعض المؤلفات التي تدمر عقيدة الأمة وأخلاقها :

وأود هنا أن أعرض لبعض الكتب التي من هذا القبيل ، والتي لا يخلو واحد منها من خطر على عقيدة الأمة وأخلاقها ، ولن أذكر عنوان أي كتاب منها ولا اسم مؤلفه . من ذلك كتاب صدر عن الهيئة العامة للكتاب

بإحدى الدول العربية الإسلامية يخاطب فيه الكاتب امرأة فيقول : «قولي لي كلما ككلام البرتقال ، سيكون العسس الساهر مرتشيا ويكون الله نعبان ، وارقصي رقصة النار ، واحرقيني يا خديجة . والكتاب كله عن خديجة ، وفي خاتمة الكتاب دراسة تشرح رموز الكتاب وفيها أن الشاعر يستدعي خديجته من التراث العربي الإسلامي ، وأن خديجة هذه هي الزوجة الأولى للرسول ﷺ بكل ما تحمله قصة رعايتها له فيما يشبه الأمومة من معاني ودلالات ، وتفرد بشخصية هذه الزوجة .

وفي ظهر هذا الكتاب السخيف نجد مكتوبا : هذه السلسلة لهذا العمل الجديد تثبت أنها ما زالت تؤكد وجودها على الطريق الصحيح في حقل الإبداع الأدبي الوارد ، والذي يمتلئ به وجدان الوطن» .

ومنها كتاب ظهر باللغة الفرنسية يتحدث عن جانب من سيرة الرسول ﷺ يصف القرآن بالغموض والاضطراب ، فقد كان هناك تياران متعارضان حول القضية التي يبحثها الكتاب ، وهي حقوق المرأة : تيار متشدد ضد حرية المرأة ويتزعمه عمر ، وتيار مؤيد للحرية والمساواة وتمثله أم سلمى . والوحي ينزل تارة بتأييد هذا الجانب وتارة بتأييد هذا الجانب ، والكتاب كله تشكيك في القرآن وتشكيك في الحديث ، وطعن في صحابة رسول الله ﷺ .

وهناك كتاب آخر حول الإعجاز العددي في القرآن الكريم وهذا الموضوع تناولته كتب كثيرة ، وحوضرت فيه محاضرات كثيرة في شرق العالم الإسلامي وغربه ، وتبشر كلها بنفس البشارة ، وهي أن القرآن الكريم معجز بالأرقام الرياضية وليس ببيان فقط ، وتفسير ذلك هو أن القرآن مركب تركيبا يجعل جميع آياته ترجع عند حروفها إلى رقم تسعة

عشر ، فالعدد تسعة عشر هو سر القرآن الكريم ، ومما قالوه في ذلك أن الآية الأولى نزل بها سيدنا جبريل عليه السلام على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي من سورة العلق : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] وسورة العلق تتكون من تسع عشرة آية . ويأتي ترتيبها إذا بدأنا بتعديد القرآن من خلف عند الرقم تسعة عشر .

وفي الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] ترد كلمة الله فتكرر في القرآن ألفين وستمائة وثمانية وتسعين مرة ، وهذا العدد من مضاعفات العدد رقم (١٩) ، فهو تسعة عشر مضروبة في مائة واثنين وأربعين ، وإذا عددنا الحروف ألف لام ميم ر (ألمر) لوجدناها ألفا وخمسة وواحدًا ، وهذه الحروف وردت في القرآن بهذا العدد ، وهو حاصل ضرب تسعة وسبعين في تسعة عشر (١٩×٧٩) والقرآن الكريم مفتتح بالبسملة وعدد حروفها تسعة عشر .

ثم إن القرآن الكريم يذكر هذا العدد بصريح اللفظ فيقول في سورة المدثر : ﴿ لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشْرِ عَلَيْهِمَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٢٩ ، ٣٠] فالدليل على أن القرآن حسب هذا الكتاب ليس من قول البشر هو أن آياته عليها تسعة عشر ، وهي البسملة التي عدد حروفها تسعة عشر ، والتي هي مفتاح أسرار القرآن .

وقد نتساءل : وأي خطر في هذا؟ إنه نوع من التفسير ، والقرآن يتسع لجميع الأفكار والمفاهيم . ولكن الخطر سرعان ما يبدو كبيرا حين نرجع بهذا التفسير إلى أصوله ، فنجد وجهها من وجوه الدعوة البهائية ، وامتدادا لأصولها وتعاليمها ، فرقم تسعة عشر عند البهائيين رقم مقدس ، فهو رقم القرن الذي ظهر فيه الباب ، كما أنه القرن الذي تنتهي فيه أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتبدأ أمة بهاء الله الأعظم ، والشهر لدئي البهائيين تسعة عشر يومًا ، والسنة

تسعة عشر شهرا ، ورقم تسعة عشر ناشب في تعاليم البهائية ، فالبهائي يخرج من ماله تسعة عشر في المائة من صافي ربحه لبيت العدل ، ومن الكفارات إنفاق تسعة عشر مثقالا ، وحرمة الزوجة عن زوجها تسعة أشهر . ولهم أذكار يقرءونها على المولود تسعة عشر مرة ، وأذكار على الميت تسعة عشر مرة وهكذا ، فهل من حرية الفكر أن نسمح بهذا التلبس على الأمة وهذا التسلل إلى عقيدتها وقرآنها وسنة نبيها؟

إن من حق كل أمة أن تحمي وجودها وتصون كيائها . وكما نحارب الأمراض الفتاكة ولا نسمح لمن يحملها أن يدخل بها علينا باسم حرية التنقل والسياحة ، كذلك من حقنا أن نحمي الصحة والسلامة الفكرية لأبنائنا من هذه الكتب ولا نسمح بترويجها بيننا باسم حرية الفكر أو غيرها .

وآخر ما ألف في هذا السياق الكتاب الذي شغل الناس أخيرا ، وأحدث ضجة في العالم كله وهبت جهات كثيرة للدفاع عن مؤلفه ، مجندة وسائل الإعلام وجميع الطاقات للدفاع عن حرية الفكر ، مع أن هذا الكتاب لا صلة له بالفكر ، اللهم إلا إذا أصبح الفكر خيالا مريضا وقصصا سخيفا ، وكذبا وتلفيقا ، وسوء أدب وقلة لياقة . والغريب أن البهائيين يسمون الحديث النبوي الشريف بالأحاديث الشيطانية قبل ظهور هذا الكتاب ، فهل هي صدفة؟

ومن المفيد أن أسوق هنا حكم هذه النازلة عند أحد العلماء وهو محمد بن عبد الله ، ربطا للموضوع بمقدمته . قد جاء في رسالة بعث بها هذا الملك العالم إلى علماء المذاهب الأربعة بالأزهر الشريف في موضوع مقام النبوة وتعظيمها ومنزلة الخلفاء الراشدين ما نصه : (كل من صدرت منه كلمة فيها تنقص في جانب النبوة فلا يهمل بل تضرب عنقه لحينه ، أو كلمة

فيها تنقص في جانب الخلفاء الأربعة ، فإن علماء الوقت مجتمعون عليه ويحكمون فيه بحكم أئمة المذاهب الأربعة ، عليهم السلام ، كل بحسب مذهبه ، فإن وجب عليه القتل قتل ، وإن وجب عليه الضرب ضرب ، وإن وجب عليه السجن سجن . وكل حكم حكم به عليه الأئمة الأربعة ينفذ فيه في الحين . وقد أجابه الشيخ محمد بن محمد الأمير رئيس علماء المالكية بمصر بقوله أما بعد فقد تأملت ما ذكره أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن عبد الله نصره الله وأبقاه ورضي عنه وشكر مسعاه في تعظيم مقام النبوة ومنزلة الخلفاء والأئمة ، والنفرة مما يخالف ذلك ، واستقباح التصريح بالمقاتلات البشعة الشنيعة ، وذلك هو الصواب الذي لا شك فيه . وقد ورد في الكتاب والسنة وكلام الأئمة ما يوثقه ويقويه .

كتب تحاول طمس بيان القرآن ومحو إعجازه :

هذا وبين أيدي الناس في هذه الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية كتب تركز على القرآن تركيزا خاصا لطمس بيانه ومحو إعجازه ، وتقديمه للناس خليطا من الرموز والطلاسم ، وربطه بالأساطير القديمة تارة ، والمعادلات الرياضية والأنظمة الإلكترونية تارة أخرى ، حتى صار هذا القرآن عرضة لعبث كل عابث وهذا من أعظم الأخطار التي تستهدف أقدس ما عند هذه الأمة وهو كتاب الله العزيز ، لاسيما وأن أبنائها لا يتوفرون على المناعة الكافية .

ومن هذه الكتب كتاب حول رموز القرآن الكريم ، ومما جاء فيه قوله : ما قصة الملائكة والبراق إلا تسربات ذهنية في ذاكرة البشر لأحداث وقعت فعلا في الماضي . وقد وجد تمثال لإله يرجع تاريخه إلى حوالي الألفين قبل الميلاد زمن كوديا ، ويسمى هذا الإله الله ، أما الرحمن فأصله في البداية إله

المطر والبرق والرعد والصاعقة عند البابليين ، وفي كنعان كان اسمه ريمون ، واقرن اسمه عند الآشوريين والبابليين برامان ، ويرمز إليه بشخص واقف على ثور ويده الحديد والصاعقة وفيه معنى القوة ، فهو قبل كل شيء إله الصاعقة ، ولكن الله جل جلاله - يقول صاحب الكتاب - جمع هذه الصفات كلها في ذاته فأصبح اسم الرحمن من الأسماء الحسنى .

ثم يربط ذلك بالقرآن الكريم فيقول : فالإله الرحمن الذي عبده البشر القديم كان ذا وجهين : قويا يعذب إذا شاء ، ويرحم إذا شاء . ثم أسند الله القوة إلى كلمة الرحمن ، والرحمة إلى كلمة الرحيم . ففي قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٢] إذا وضعنا كلمة الرحيم مكان الرحمن في الآية فما أدت معنى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه : ١٠٨ ، ١٠٩] إلى آخر الآيات التي استدل بها .

والعجب كيف أن المؤلف لم ينتبه إلى أن في القرآن سورة كاملة تسمى سورة الرحمن لا توجد فيها آية واحدة مذكور فيها لا الصاعقة ولا الرعد ، ولا البرق ولا المطر ولا حتى القوة مما له علاقة بالرحمن بتلك الأساطير . ولم ينتبه أيضاً إلى ورود الرحيم في معرض القوة ، وورود الرحمن في معرض الرأفة في القرآن . وأن في الرحمن والرحيم جميعاً معنى الرحمة لا تكاد تتخلف في أية آية ، سواء منها آيات الرحمن أو آيات الرحيم . وماذا يفعل بهذه الآيات مثلاً : ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [الإسراء : ٦٦] ، فهل الرحيم

هنا الذي يزجي الفلك في البحر بقدرته وقوته وتدبيره ولطفه ورحمته ليس هو الرحمن اللطيف بعباده .

ومن هذه الكتب كتب تهتم بالمنهج العلمي الرياضي في دراسة القرآن الكريم ، ونحن لسنا ضد المنهج العلمي ولا المنهج الرياضي ، والقرآن معجزة بإعجازه جميع العقول والمناهج ، وكل من أراد أن يتدبر آياته فأتاه الله حسن الفهم فيها سواء كان فيلسوفا أو طبيا أو فيزيائيا أو رياضيا فله أن يكتب ويتحدث عما آتاه الله من فهم لكتابه العزيز ليس من حقنا أن نمنعه ، وإلا كنا متناقضين مع أنفسنا ومتكررين لحرية الفكر التي ننادي بها . لكن أن يحدثونا عن شيء اسمه ، التصنيف الشجري في القرآن . ويقولون : إنه قوله تعالى : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] هي جذر واحد ، واثنان ، ثلاثة ، تسع وسبعون (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧٩) عزم العطالة ، فاصلة خمسة ثمانية (٨ ، ٥) ، ثقل صفر صفر (٠٠) مائتين وتسع وثمانين (٢٨٩) التواتر ثلاثة (٣) وأن قوله تعالى : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، هو بالحروف اللاتينية (٣٨) وأو E ٤ ، وإس s (٦) فهذا طمس لإعجاز القرآن الكريم وتشويه لبيانه .

المحاضرة التاسعة والثلاثون بعد المائة

الاختلاف وآثاره على المعتقدات

قال الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَصَاقٍ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود: ١٢] و ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧] ، و ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤] .

الآيتان ترجم لهما بالاختلاف وانعكاس آثاره على المعتقدات وغيرها ، وعندما نسمع لفظ الاختلاف ولا سيما في مقام التشريع ، وبالنسبة لأصل الدين وأصل العقيدة يبقى الإنسان مشدوها ، قبل أن يتبين الحقيقة ، وذلك سيأتي عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٩] أي للاختلاف خلقهم .

فهناك يتوسع في هذا إنما لبيان المطابقة بين الآيتين والترجمة يقال إنه سيأتي الكلام على الاختلاف ، وأنه يعم أصل العقيدة وسائر المسائل الاعتقادية والأحكام ، وبعبارة يعم سائر الأمور الدينية والدنيوية ، فيدخل في ذلك اختلاف الآراء بالنسبة لما يحقق للأمة مصلحة .

نرجع للآية الأولى وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ بإضافة لفظ الرب إلى النبي ﷺ تشريفا له : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨] . لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، لكنه لم يشأ فلم يجعلهم أمة واحدة ؛ لأن الله سرا في ذلك الاختلاف كما سيتضح .

﴿ وَلَوْ شَاءَ ﴾ : لو امتناعية تدل على امتناع الجزاء ، وهو جعل الناس أمة واحدة ؛ لامتناع الشرط ، وهو «لو شاء ربك» ، ويقدر صدر هذا

بتقديرين : الأول : لو شاء ربك يا محمد أن يجعل الناس كلهم على الهداية ، أن يجعلهم مسلمين مؤمنين على دين واحد ، طائعين ، ليس فيهم عاص -والله قادر على ما يشاء ، وقدرته صالحة لكل شيء- لوقع ، فيكونون جميعا على الهدى ولا يوجد من بينهم كافر ، ولبقوا على ما كانوا عليه من الاتفاق قبل طروء الاختلاف ، لأنه قبل طروئه وقبل بلوغهم حد النضج ، وقبل استعدادهم للاختلاف كانوا متفقين ، وذاك إيمان الفطرة ، وذاك ما تشير إليه الآية وهي : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .
أي أنت ربنا .

فهذا هو المعبر عنه بانتزاع الإقرار ، فقد انتزعه الرب منا قبل خلق السموات والأرضين ، وفي سابق الأزل حيث اقتضت حكمة الله أن يأخذه وأن يخرج بني آدم كالذر من أصلاب آبائهم ، ويورد عليهم ألسنت بربركم بصيغة النفي ، فيجيبونه بلى أنت ربنا ، ومعلوم أن الإجابة ببلى تقتضي الإثبات ، بمعنى أنها إذا جيء بها بعد النفي صيرته مثبتا دالا على الإثبات .

ولذلك قيل في التقدير : بلى ، أنت ربنا وهي بخلاف نعم ، فإنها لتقرير ما قبلها ، إثباتا كان أو نفيا ومن ثم قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه لو قالوا نعم لكفروا . طبعاً لأن بلى هنا لإثبات المنفي ، وهذا انتزاع الإقرار ، وهو خلاف ما منح الله عبده من الاختيار ، بل من الاختيارين .

أولهما : اختيار في سابق الأزل منحهم إياه لأن علمه -سبحانه- الإحاطي سبق فيه أن الخلق منهم من يختار الإيمان ومنهم من يختار الكفر ، وتعلقت إرادة الله بذلك ، فكان مما تقتضيه الحكمة الإلهية أن يخلقوا

مختلفين ، فيهم من سبق في سابق الأزل أنه اختار أن يكون مؤمناً فأبرزته قدرة الله على ما اختار فيه ، وكذلك الفريق الذي اختار أفراداً أن يكونوا مؤمنين ينعمون بنعمة الإيمان ، فسيبرزون بقدرة الله على ما اختاروه .

فمن ثم يقال : إن حكمة الله اقتضت أن الخلق يكون منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، ولذلك خلقهم على أحد الاحتمالات الثلاثة ، في :

وللاختلاف خلقهم ، نعم خلقهم للاختلاف ، لأنه سبق ما سبق في علم الله أن منهم من يختار الإيمان ، ومنهم من يختار الكفر ، ولو فرضنا - وقدرة الله صالحة لكل شيء - أنه شاء أن يكونوا كلهم مؤمنين ولا يكون هناك كافر ، لتعذر التكليف الذي لأجله يخلقون ، لأنهم خلقوا ليناط بهم التكليف في الدنيا ، فهي دار امتحان ودار تكليف .

وإذا كانوا كلهم مؤمنين فأين التكليف ، على أنه لو فرضنا أنهم خلقوا كلهم مؤمنين لكانوا في حياتهم الاجتماعية كبقية الحيوانات ، ولا تظهر ميزة ذلك النور الذي وهب الله بني آدم وهو العقل ، لأنهم يكونون موجهين فيما يفعلون بالغريزة والفطرة كما يشاهد في خلايا النحل وخلايا غيره من الحيوانات كالنمل مثلاً ، فله نظام ، وله تسيير ولكنه بالغريزة والفطرة ، وبقول الله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧] .

لو كان الإنسان موحد العقيدة واقتضت ذلك حكمة الله ولم يسبق أن من خلقه من يختارون أن يكونوا على الإيمان ، ومنهم من يختارون أن يكونوا على الكفر ، لو فرضنا هذا لكانوا بالنسبة لحياتهم الاجتماعية كالحيوانات ، ولكانوا بالنسبة لحياتهم الروحية كالملائكة ، لأنهم يعبدون الله بالفطرة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦] .

ومن ثم اقتضت حكمة الله اختلاف الأديان ، وذلك تابع لما أسس في سابق الأزل بعد إعطاء الخلق حرية الاختيار ، فاختار ما اختار بالنسبة لأصل العقيدة .

وثانيهما : اختيار يكون له عند الإقدام على أي فعل ، فيكون بحيث يتردد يقدم رجلا ويؤخر أخرى ؛ هل يفعل أو يترك ، ثم يختار الفعل أو الترك ، فيكون قد عمل باختياره ، وهذا اختيار ثان ، يعبرون عنه بالاختيار فيما لا يزال .

وأما الاختيار الأول فهو أزلي ، وهو المرسوم في اللوح المحفوظ ، وعنه يسأل الملك بعد نفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه ، يسأل الرب جل جلاله : أشقي أم سعيد؟ وهذه إحدى كلمات أربع : يسأل عنها الملك ، وهي مبسطة في حديث أخرجه البخاري في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم علقه مثل ذلك ، ثم مضغه مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد» .

فهذا يعبرون عنه بتقدير البطن وهما مسبقان بتقدير سابق على خلق السموات والأرض ، وقد تقدم فهي تقادير ثلاثة ، وهي خلاف الاختيار الذي منحه في الأزل .

ثم نجد آية في معنى أولى آيتي الموضوع ، وهي قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة : ١٣] . لكننا لم نشأ ذلك ، وهذا التقدير لم نشأ ذلك ، هو بمقتضى حكمة الله في خلقه من أنهم يخلقون كاسيين لا ملهمين كبقية الحيوانات التي قد تلهم من الله ، لأن الشارع والرب الحكيم جل جلاله أراد أن يخلق الإنسان كاسبا لا ملهما ، عاملا باختياره فلا جبر

ولا اضطرار ، هذا يجزنا إلى إعطاء نظرة ، بأمر من تجب طاعته ، ولكن لا بأس بإمامة وهي :

تفسير الأشاعرة للكسب :

إن الأشاعرة حددوا الكسب بأنه صرف الإرادة للفعل ، وعند ذلك تتعلق به قدرة حادثة مؤقتة يخلفها الله تعالى ليقدر المكلف على القيام بذلك الفعل ، وهذا الكسب يضاف إلى الاختيار ، الذي شرع ليتنزل عليه الثواب والعقاب ، لكنهم قالوا أي الأشاعرة إنها قدرة غير مؤثرة ، وإنما يترتب الفعل عليها وتتعلق بالفعل من غير أن تؤثر فيه .

وقد جر هذا إلى أن الجبرية قالوا بالاعتراض على الأشاعرة أولاً بالنسبة لكون قدرة العبد الحادثة غير مؤثرة ، فقالوا : أية فائدة لهذه القدرة الغير مؤثرة ، إذن يقول الجبرية : هو مجبور ؛ لأن القدرة التي منح ، هي غير مؤثرة . فإن قال الأشاعرة : إن الفعل يترتب عليها ، قالوا : مجرد ترتبه عليها لا يهدم الإشكال ولا يرفع الجبر ، بل الجبر قائم ما دامت القدرة غير مؤثرة .

أما بالنسبة لما قال الأشاعرة من صرف الإرادة للفعل قالوا : هذا الصرف لا يخلو ، إما أن يكون مخلوقاً لله تعالى ولا مدخل للعبد فيه ، فالجبر لا زال قائماً ، أو أن للعبد مدخلاً فيها ، وحينئذ يلزم الأشاعرة أن يقولوا أن العبد يخلق بعض أفعاله .

لكن الأشاعرة ردوا على الجبرية بأن صرف الإرادة للفعل أمر اعتباري لا وجود له في الخارج ، وإنما هو موجود في الذهن ، فهو غير مخلوق ، فلا سبيل لاعتراض الجبرية والتساؤل وحصر الأمر وحصر الخلق في كونه لله

وحده ، ولا مدخل للعبد فيه ، أو له مدخل ، هذا كله لا سبيل إليه ، ما دمنا نعتبر أن صرف الإرادة للفعل أمر اعتباري لا جود له في الخارج ، فهو غير مخلوق حتى نبحت عن كون العبد له مدخل في الخلق أو لا .

وسطية مذهب أهل السنة :

فالنتيجة أن مذهب أهل السنة هو وسط فاز بالوسطية بين المذهبيين : مذهب القدرية الذين كانوا يرون ويقولون ويتمذهبون بأن العبد يخلق أفعاله استقلالاً ، ومذهب الجبرية الذين هم بالنسبة إليهم على طرفي نقيض ، بلغوا بالنزول بالإنسان إلى حد أنه كالريشة المعلقة في الفضاء ، تسير بها الريح أينما هبت وأينما أتت .

ولهذا كان السني يقتنع عندما يجد مذهب أهل السنة ، ومذهب الأشعري وسطاً بين مذهبي الجبرية والقدرية ، فيكفيه ميزة أنه توسط ، لكن يبقى في نفسه شيء من حيث إن القدرة سلبية التأثير وأنها لا تأثير لها ، ويتساءل عن معنى كون القدرة حادثة ولا تأثير لها .

وهنا عندما نبحت نجد أن بعض الأئمة نقل عن الإمام الأشعري أنه قال : إن لفعل العبد تأثيراً ، لكن عبد الرحمن الجزيري في توضيح الأحكام قال : إن صح هذا عن الإمام الأشعري فإنه رأى من بعض الوجوه ما رآه المعتزلة .

وهنا يمكن أن تكون لنا التفاتة إلى كونه نقل عن بعض الأئمة أن قدرة العبد جعل الله لها تأثيراً عندها لا بها ، فكما جعل عند النار قوة الإحراق كذلك جعل لقدرة الإنسان تأثيراً عندها لا بها .

وباحترازنا عن كونها مؤثرة بنفسها يكون التأثير بقي لله وحده ، وهو منة منه ، وما اقتضته حكمته أن جعل التأثير عند قدرة العبد فتكون القدرة مؤثرة بتأثير عندها لا بها .

وهذا ينسد الطريق عن الجبرية ، وكذلك لا يبقى ملصقا بالإمام الأشعري ما ألصق به بسبب ما نقل عنه من أنه قال : إن قدرة العبد مؤثرة .

بيان المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾  إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] .

ولا يزالون مختلفين على أديان ، ولا يزالون من هم ؟ الضمير في يزالون عائد على اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وحتى على المسلمين بالنظر إلى كونهم مخالفين لأهل تلك الأديان أي لا يزال من عدا المسلمين مختلفين فيما بينهم ، فكل له دين .

ولا يزال المسلمون وإن اتفقوا في أصلها ، مختلفين في بعض مسائل العقيدة إلا من رحم ربك ، فأدركتهم عناية الله ، فأمنوا حق الإيمان وتلاقوا على الدين الحق ، وانسجموا فيما بينهم ، إلا من رحم ربك ، لا يزالون مختلفين ، لأننا قدمنا أنه سبق في الأزل أن من الخلق من يختارون الكفر ، وهم من عدا من شملتهم الرحمة فأمنوا .

إذن أصحاب تلك الأديان كلهم في التسجيل الإلهي أنهم سيقون على الاختلاف إلى أن يلحقوا الله كافرين . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾  إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ .

قبل التعرض لقوله تعالى : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ نبحث في المختلف فيه ، ولا يزالون مختلفين ، في أي شيء ، هل في الأديان ؟ هذا رأي .

هل في الأديان وفي الأحكام؟

أو في فروع الأحكام وغيرها من أمور الدين؟ احتمال ثان .

أو في الأمور الدينية والدنيوية على العموم ، هذا ثالث وهو أجدرها بالاعتبار ، وهو الأولى بالأخذ ، لأن الاختلاف لا يتناول خصوص الاختلاف في الأديان بل كذلك في مسائل العقائد .

ها هم المسلمون وإن توحدوا في أصل العقيدة وفي أصل الدين وفي أصل الإيمان ، ولكن وجدت فيهم فرق ، ووجد اختلاف كبير ، ووجدت طوائف متعددة ، وهي التي نص عليها ﷺ وحصرها في ثلاث وسبعين فرقة ، وأنها كلها في النار إلا واحدة ، وذلك في حديث أخرجه أصحاب المسانيد والسنن بأسانيد يشد بعضها بعضا ، وهو : «افترقت بنو إسرائيل والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة» .

هنا انتهى الحديث في رواية ، وهناك روايتان بزيادة ، إحداهما التي نحن فيها ، وهي : «افترقت بنو إسرائيل والنصارى . . . » إلخ . فيها زيادة وهي أنه لما أعلن ﷺ أن أمته ستفترق ، «وستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قيل : من هم يارسول الله؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي»^(١) ، فهذه زيادة لبيان من استثنوا .

وهناك زيادة وهي أن المراد بالواحدة ما عليه أهل السنة والجماعة ، ولذلك يوجد في بعض المصادر : «والجماعة» ، هكذا بذكر الواو بالتنصيص

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . وقال الترمذي : هذا

حديث حسن غريب .

على الواو وما عطف من غير ذكر للمعطوف عليه ، مع أن المراد أن الفرقة المستثناة هي أهل السنة والجماعة ، أو «ما أنا عليه وأصحابي» كما في الرواية التي بين أيدينا .

وعلى كل حال ، هذا على الاحتمال الأول في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أن المختلف فيه الأديان ، وهذا يؤيده قرينة الواقع ، لأن الآيتين موضوعتان لبيان اختلاف الأديان وإخبار الله تعالى بحكمه فيها ، ورحمة من يرحم ممن تداركتهم عناية الله . فالمقام يقتضي أن يحمل الاختلاف على ما يخص الأديان .

الاحتمال الثاني :

الاختلاف في الأديان وفي فروع الأحكام وفي غيرها من المسائل الدينية ، يعني غير المسائل الدنيوية ، وهذا الاحتمال هو أوسع من سابقة ، فهل من دليل يؤيده؟ الدليل هو أن الاختلاف لفظ عام ، لم يخص بمخصص ، إذن يبقى على عمومته ، ولكن يقال لهؤلاء أصحاب الاحتمال الثاني الذين يرون أن الاختلاف في الأديان وفي فروع الأحكام وغيرها : إن الاستدلال بإبقاء العام على عمومته هو بالنسبة للمذهب الأول الذي قصر أصحابه الاختلاف على الأديان ، وتقدم أنهم استدلوا بكون العموم لم يخص بالأديان حتى نعتبره مقصورا عليها .

أما أصحاب الاحتمال الثالث :

الاختلاف في الأمور الدينية :

فقالوا : إن الاختلاف في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ هو في الأمور الدينية والدنيوية .

الدينية : اختلافهم في أصل الدين ، وهذا ما حمل عليه الاختلاف أصحاب الرأي الأول ، وفي الاجتهاد في الأحكام ، فإن المجتهدين من لازم استفراغهم الوسع -الذي هو معنى الاجتهاد- لأخذهم واستنباطهم الحكم من نص من نصوص الأصوليين الأصيلين : كتاب الله وسنة رسوله ، أنهم يختلفون ، فهذا يجتهد بطريق وهذا بطريق . والنتيجة تختلف ، إلا أن هذا الاختلاف ممدوح ، لأنه يوصل إلى النتيجة ، فيستفيد المجتمع ويستفيد المهتمون بشئون الأحكام من هذا الاجتهاد وهذا الاختلاف .

الاختلاف في الأمور الدنيوية :

أما اختلافهم في الأمور الدنيوية فالمراد ما يهم الأمة في مختلف المجالات الثلاثة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، فعلى الهيئات التي تقوم بتلك المهام -إذا استأنست من نفسها المقدرة- أن تجتهد للوصول إلى ما فيه مصلحة الأمة ، سواء كانت المسألة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . على كل حال تعود المصلحة على الأمة ، فهؤلاء بناء الأمة ، وهؤلاء أبطالها المدافعون عن حقوقها ، الباحثون عما فيه صالحها ، فهم قبل كل شيء تعتبر فيهم الأمانة ، زيادة على الكفاءة ، والحصافة الفكرية ، تشترط فيهم الأمانة حتى يؤدوا الواجب على أحسن وجوهه .

وبهذا نتبين أن الاختلاف ليس بمذموم دائماً وأبداً ، بل هو بحسب الغاية التي يوصل إليها ، إن أوصلنا إلى مصلحة الأمة ومصلحة الفرد والجماعة قلنا إنه ممدوح ومشروع ، وإذا كان ينتج العكس ويسبب الضرر ، وربما تدخل عنصر الهوى فسار الباحث أو المجتهد في شئون أمته وفي أمور أمته هو لا يبحث للوصول إلى مصلحتها العامة ، بل إلى مصلحته هو

الخاصة . ولا شك أن الخاصة تذهب بالعامه ، فتكون النتيجة سلبية ويعتبر هذا الاختلاف من الاختلاف المذموم .

قلنا : الشئون الدنيوية ، نعم اختلاف محمود ، اختلاف مشروع ، فعلى من طوقوا هذه المسئولية أن يكونوا على حذر ، لأنهم مسئولون أمام الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

التفرقة بين الاختلاف المشروع وغير المشروع:

بعد هذا يقال : إن التفرقة بين الاختلاف المشروع وغير المشروع ، أن المشروع والمحمود ما أدّى إلى المصلحة ، وغير المشروع والمذموم ما أدّى إلى مفسدة ، وإلى عكس النتيجة ، وذلك ما إذا كان ممن ليسوا أهلاً لذلك ، أو تدخل عنصر الهوى كما تقدمت الإشارة إليه ، فتأتي العصبية ، ويأتي انتصار الإنسان لنفسه ، ويأتي انتقامه من خصمه ، وتذهب بين الأرجل المصلحة العامة التي جعل الاجتهاد لأجلها ، أو التي هيئت الهيئات لأجلها . أين هي ؟ ذهبت أدراج الأهواء ، إذن نستخلص من هذا أن الاختلاف ليس بمذموم على إطلاقه ، بل قد يكون مشرعاً محموداً ، ﴿وَلِذَلِكَ﴾ **خَلَقَهُمْ** .

فسح الله لنا المجال لنزيد ، وهذه نعمة من الله . ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ . للمفسرين تفاسير عدة واحتمالات عديدة ، ولكن المشهور والمعول عليه ، والذي لا يضيع فيه الوقت ، بل على العكس نستفيد منه هي احتمالات ثلاثة ، وبعبارة تأويلات ثلاثة هي :

للاختلاف خلقهم ، نعم لثمرة الاختلاف خلقهم ، الكلام على حذف مضاف للرحمة خلقهم ، للاختلاف والرحمة خلقهم ، هذه احتمالات ثلاثة

نشأت عنها تأويلات ثلاثة ، هذه الاحتمالات أين مصدرها ومن أين أنت؟ أتت من النظر إلى مدلول اللام ، هل معناه التعليل؟ أو معناه العاقبة والصيرورة؟ على حد قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ، هل التقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا؟ لا ، هذا ما آل إليه الأمر ، فاللام تعتبر للعاقبة والصيرورة ، وإلا فهم التقطوه ليكون عونا لهم لا عليهم ، ولكن الله بكتهم فكانوا في تبنيهم له وفي تربيته باحثين عن حتفهم بظلفهم ، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ .

ذكر الاختلاف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ :

قلنا فيه تأويلات ثلاثة ناشئة عن احتمالات ثلاثة ، منشؤها أو مبناها على معنى اللام ، وأنه للتعليل أو للصيرورة والعاقبة . والمشار إليه بذلك هل هو الاختلاف؟ أو الرحمة؟ أو هما معا؟ وبالنظر إلى الضمير في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ للناس . هذا منشأ الاحتمالات التي تنزلت عليها التأويلات الثلاثة .

أول التأويلات :

وللاختلاف خلق الله الناس ، أي لثمرة الاختلاف ، فالكلام على حذف مضاف فلا يبقى الإنسان مندهشا أمام كون الله - تعالى وتقدس بجلال ربوبيته عن كل ما لا يليق به - خلق الخلق ليختلفوا . والآيات العديدة تدعوهم إلى الوفاق وإلى الاتفاق ، منها الناهية عن الشقاق وعن الخلاف : ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِجْمُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] . هنا نقدر مضافا أي ولثمرة الاختلاف خلقهم .

يقال : وما ثمرة الاختلاف؟ هي أن يكون الخلق على فريقين : فريق في الجنة وفريق في السعير ، فريق مؤمن وفريق كافر ، وأصل هذا يبقى على الخيط الأصلي وهو الاختيار الذي منحه الله للخلق قبل خلق السموات والأرضين ، وجاء انتزاع الإقرار بعده ، وتقدم معنى انتزاع الإقرار ، أن الخلق الذين أخذوا كالذر من أصلاب آبائهم اعترفوا وأقروا بربوبية الله ، إذن يكون التقدير : ولثمرة الاختلاف خلق الناس ، هذا لا شيء فيه .

ونتصل بقضية تقدمت وهي أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يخلق الخلق كاسبين لا ملهمين ، وإلا لم يكن فرق بينهم وبين بقية الحيوانات التي تلهم ، أي خلقهم لتمييز المؤمن من الكفار ، لتمييز فريق من سيصرون إلى تنعم الجنة وفريق من سيصرون إلى عذاب السعير .

أبرزنا في أولى الآيتين ما ركزنا عليه وتطرقنا إليه في غير ما مناسبة ، نظرا لكونه ركيزة ودعامة تنحل بها مشاكل ، وهو الاختيار الممنوح في سابق الأزل للخلق والذي عليه يترتب الثواب والعقاب ، إلا أننا قد نعثر في بعض الآي القرآنية على صريح نفي الاختيار للعبد ، كما في قوله جل علاه : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص : ٦٨] . هذا نفي صريح عن كون الخلق أو المخلوق له اختيار ، بينما عليه ينتزل الثواب والعقاب .

الجواب : أن النفي الوارد في الآية ليس على إطلاقه ، بمعنى أنه يتناول الاختيار من أصله ، وأنه لا اختيار للعبد إطلاقا ، الواقع أننا إذا بحثنا عن السبب وجدنا أن المشركين تناولوا واقترحوا ما لا اتصال لهم به ، وهو أن يكون لهم اختيار في تعيين الرسول قبل بعثه ، اقترحوا هذا فنزلت الآية بأنه لا خلق ولا اختيار إلا لله ، وأنه هو الذي يصطفي ويختبي من عباده

من يتحمل عبء الرسالة الثقيل ، أما هم فلا سبيل إلى تدخلهم في شأن من يبعث .

لأجل هذا السبب نزلت الآية : ﴿وَرَبُّكَ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ يعني بالنسبة لمن وقع عليه الاختيار ، ويعين رسولا يتحمل عبء الرسالة .

وهذا نجده كذلك في آية أخرى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

قضى الله بما قضى ، وقضى رسوله ونفذ ما قضى الله به ، لا سبيل لاختياره فلا اختيار إلا لله على الحقيقة باعتبار أنه قضى بما قضى ولم يبق محل لاختيار أحد من خلقه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ، إذا قضى الله والرسول ، تقييد ، والكلام إذا قيد بقيد فروح الكلام ذلك القيد ، فلما وقع التقييد بإذا قضى الله ، أفهم أن غير ما قضى الله فيه ، له فيه الاختيار ، فنفي الاختيار عن العبد بعد قضاء الله لا ينافي أن له اختيارا في غير ما قضى الله به ، يعني قبل القضاء ، هذا ما يتعلق بالاختيار .

إن العبد ممنوح الاختيار والكسب ، الاختيار ينتزل عليه الثواب والعقاب ، والكسب بواسطته يكون للعبد مدخل في الفعل بمعنى أنه يقدر أن الفعل مقدور للعبد بواسطة الكسب .

نتقل إلى مسألة أخرى ، وهي أنه عندما تعرضنا لأول التقدير في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى : ٨] قلنا إنه وردت بعض الآيات هي على وزنها وفي معناها بالنسبة لأحد التقديرين ،

وهو تقدير أن يخلق الله تعالى جميع الخلق مهديين مؤمنين فلا يوجد فيهم كافر، هذا المعنى كذلك جاء في آيات، منها ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]. أي ولكننا لم نشأ ذلك، لأن الحكمة الإلهية تقتضي غير ذلك.

فهاتان الآيتان فيهما دليلان يرد بأحدهما على المعتزلة، ويرد بالآخر على القدرية. بعدها أستفيد منها تأييد أهل السنة فيما يعتقدون من أنه لا يقع في الكون إلا ما أراد الله، ولا تبرز قدرة الله إلا ما سبق أن تعلقت إرادة الله بإيجاده، فخالفهم القدرية فكانوا لا يرون أن الكفر والمعصية بتقدير الله وإرادته وينازعون في تعميم تدبير الله.

أما المعتزلة فهم الذين كانوا يرون أن إرادة الله لا تتعلق بالكفر ولا بالشر، وأن الله تعالى لا يريد كفرا ولا شرا لأحد عباده فرد على القدرية بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] التقدير إنا خلقنا كل شيء خلقناه، لأن جملة خلقناه هي تفسيرية لا محل لها من الإعراب، تفسر لنا العامل المحذوف، والتقدير إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، فالآية من باب الكلية، فتتناول الأفراد عموما، كل فرد فرد، بهذا يرد على القدرية.

أما المعتزلة فقبل الرد عليهم نبحت في منشأ مذهبهم، كيف فكروا فاستنوا هذين الأمرين، وهما: الكفر والشر فقالوا: لا تتعلق إرادة الله بهما: كيف فكروا؟ فوصلوا إلى ما ذهبوا إليه وما الدافع الذي دفعهم إلى هذا؟ إذ أقوال العقلاء تصان عن العبث، هذا نشأ من شيء كانوا يتمذهبون به ولا أصل له، وهو أنه لا فرق بين الإرادة والأمر، فكانوا يرون أن كل أمر

إرادة وكل إرادة أمر ، مع أنها شيئان متباينان ، ليس هناك تلازم بينهما ، بمعنى أنه كلما وجدت الإرادة وجد الأمر ، فقد يوجد أحدهما ولا يوجد الآخر كما هو معقول ، وتقتضيه القسمة الرباعية العقلية ، فقد يراد الشيء ولا يؤمر به ، لم يكن أمر من الشارع بفعله ، وقد يكون العكس فيؤمر بالشيء ولا يراد .

فمثلاً إيمان الكافر هو مما أمر به ولم يرد ، لأن الكافر داخل في عموم المكلفين وفي عموم الناس الذين يتناولهم التكليف ، فهو مأمور بالإيمان بالله ، وهو الآن كافر ، وما كان على الكفر حتى سبق علم الله بأنه يكون منخرطاً في سلك الكفار ، ثم تعلقت إرادة الله بذلك ، ثم أبرزته القدرة كذلك .

فالكافر يؤمر بالإيمان ولا يراد به ، لأنه لو أراد الله منه الإيمان لكان مؤمناً ، ولكان على خلاف ما هو عليه من الكفر ، إذ لا يمكن أن يقع إلا ما هو مطابق لما تعلق به إرادة الله ، والعكس الكافر هو كافر بإرادة الله ، أما الأمر فالله لا يأمر بالفحشاء ولا بمبادئ الكفر فضلاً عن الكفر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فإذن تعلقت إرادة الله بكفره ، ولم يؤمر بالكفر . فتبين من هذا أنه لا تلازم بين الأمر والإرادة ، وأنه قد يراد الشيء ولا يؤمر به ، وقد يؤمر به ولا يراد ، خلافاً للمعتزلة حيث قالوا بترادفهما على معنى واحد ، وأن كل أمر إرادة ، وكل إرادة أمر هذا ما جعلهم يقولون : إن إرادة الله لا تتعلق بالكفر ولا بالشر ، فلا يريد الله كفراً للشخص ، ولا يريد به شراً .

لا يُسأل عما يفعل :

الأمر الثاني : أنهم نسوا أنه ليس لأحد من عبيد الله ومن خلقه ، عليه تحكم -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهم نسوا أنه لا تحكم عليه جل جلاله ، فهو يفعل في ملكه ما شاء . فهذان الأمران هما اللذان سببا وقوع المعتزلة في نفي كل من الكفر والشر عن إرادة الله .

وكما في الآيتين المتقدمتين تأييد لمذهب أهل السنة ورد على القدرية والمعتزلة كذلك فيهما بيان ما أعطي العبد من الاختيار والكسب المتقدمين .

فيبقى ما يتعلق بالخلق بمعنى الإيجاد بالنظر للفعل ، وأنه لا فعل على الحقيقة إلا لله ، أما العبد فلا مدخل له في الفعل إلا من حيث إنه صانع آلة الفعل ومن حيث إنه يصدر منه الفعل مباشرة ، فصح أن يسند إليه الفعل لذلك .

أما بالنسبة للإيجاد فلا ينسب -كما قلنا- إلا إلى الله ، هو الموجد للأشياء والأفعال .

كنا نتكلم على ثالث الاحتمالات في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ^(١١٨) **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** ﴿١١٩﴾ هل الاختلاف في الدين فقط أو في الدين وفي فروع الأحكام وما إليهما من أمور الدين ، أو هو عام في الأمور الدينية والدنيوية؟

قلنا : هذا ثالث التأويلات ، المبني على ثالث الاحتمالات ، وقلنا : إنه أجدر بالاعتبار وأولى بالأخذ به ، وذلك لتأييد هذا بأدلة ثلاثة وهي :

أولاً : قد يقع من أحكام العام أنه يبقى على عمومته إلا أن يرد دليل خاص يخصصه ولا دليل يخص هذا، فالآية فيها لفظ الاختلاف على عمومته، الاختلاف في ماذا؟ في هذا؟ أو في هذا؟ أو في هذا؟ يبقى ما هو أعم، إذن، هذا فيه حجة لترجيح الاحتمال الثالث الذي ينبنى عليه ثالث التأويلات .

ثانياً : من القواعد المقررة في العام أن المعتبر عموم اللفظ لا خصوص السبب . فإذا كان العام وارداً على سبب خاص، فهل نقصره على ما ورد فيه أو نتركه على عمومته؟

الأكثر من أئمة الأصول على أنه يبقى على عمومته وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما أشار لذلك في جمع الجوامع بقوله : والعام على سبب خاص، معتبر عمومته عند الأكثر فإن كانت قرينة التعميم فأجدر .
الآن اتضح لنا أن هاتين القاعدتين الأصوليتين يرجح بها التأويل الثالث .

الإسلام وتنظيم شئون الخلق :

كذلك هناك ما يؤيده وهو أن الإسلام جاء لتنظيم شئون الخلق عموماً الدينية والدنيوية فهو دين ودولة، ولا رهبانية في الإسلام .

ولا يقال : إن الآية : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦]، تعطي بظاهرها أننا ما خلقنا إلا للعبادة مع أن الآيات الأخرى تحضنا على العمل، وأننا نعمل للدنيا وللآخرة، لأننا لا نتوصل إلى ضبط الوسائل التي تؤهلنا للانتقال إلى دار الحياة الحقيقية إلا بكد وجد وتواصل عمل للوصول إلى ما نتعيش به وما نزردهر به .

ثم إن النفع -إذا علمنا- لا يرجع بالصالح على الفرد في حد ذاته فقط ، بل يرجع على الأسرة وعلى الجماعة التي يعيش فيها بل وعلى مجتمعه ، اللهم إلا إذا كان عضواً أشل ، فقصر الله الخلق على العبادة ليس -كما تقدم- على إطلاقه ، بل هو إضافي بالنسبة إلى التكالب على الدنيا وجمع حطامها والانهماك فيها إلى درجة أنها تشغله عن الآخرة وعن القيام بواجباته نحو نفسه ونحو من طوقه الله القيام به ومن يعول ونحو مجتمعه .

ومن ثم خصنا الله -سبحانه- على العمل فقال : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] . في سائر الميادين ، لنعمل في النشاط العلمي ، لنعمل في سائر الأنشطة لنعمل للحصول على ما نتعيش به من الكسب الحلال ، هذا كله مطلوب منا ، ودائماً نعمل ، وما للآخرة ولللدين فله وقته ، وما هو للدنيا فله وقته ، كما تقول الحكمة : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» .

فالمهم هو بيان أن ما تعنيه الآية السابقة هو من قبيل الحصر الإضافي ، أي بالنسبة إلى الانهماك في الدنيا والانغماس في المادية ، حيث تفوت صاحب ذلك الروحانيات من حيث هي ، ويصبح مادياً محضاً ، هذا هو المراد ، وله وردت الآية السابقة ، فلا تنافي أن على الإنسان أن يشتغل من الدنيا بقدر ما يتوصل به إلى العيش وما تحصل به الكفاية دون أن يشغله ذلك عن الآخرة . هذا ما يتعلق بهذه النقطة .

ثم إن الاختلاف ينقسم إلى مشروع وغير مشروع ، فما كان مؤدياً إلى المصلحة فهو اختلاف مشروع وممدوح ، وما كان غير مفض إلى مصلحة بل إلى مفسدة فهو غير مشروع ، ومذموم .

ونريد أن نؤكد بالنسبة لهذا القسم أنه منهي عنه ، وأن النهي عنه له أصول في السنة .

منها حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال لما بعث معاذاً وأبا موسى الأشعري إلى اليمن ، قال : «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا ، وتطوعا - هذا محل الشاهد وتطوعا - ولا تختلفا»^(١) .

فنهأما عليه الصلاة والسلام ونبههما ضمن جملة توجيهاته التي نبههما إليها ، أن يتطوعا ويتساقا في المصارفة ، ليبقيا مجتدين لخدمة من بعثوا إليهم ، وحذرهما ﷺ من الاختلاف ، لأنه مفض إلى الاختلال ، هذا حديث أول .

وهناك حديث جندب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «اقرأوا القرآن ما اختلفت قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(٢) .

تعلمون أن الغاية من التعبد بكتاب الله ليست هي التلاوة المجردة ، بل مع النظر والتفكر فيما اشتملت عليه الآيات القرآنية ، وهذا أصله من القرآن الكريم ، ﴿يَحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ﴾ [مريم : ١٢] أي خذه واعمل بما فيه .

ولا يطبق الإنسان مدلولات الآيات النورانية القرآنية إلا بعد تدبرها وفهمها على وجهها ، وهذا قد يكون من طرف جماعة ، وقد وعدهم الله - تعالى - على لسان نبيه ﷺ بواسطة هذا الحديث الآتي : وعدهم بأربع

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٠) ، ومسلم (٢٦٦٧) .

مزايًا، وأهمها الرابعة، وهي: المبسوط في حديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

تلك المزايا العظيمة الممنوحة لجماعة اجتمعوا في بيت من بيوت الله لا لمجرد تلاوة القرآن الكريم، بل مع التدبر ومع دراسة آياته الكريمة وإمعان النظر فيها.

ومعلوم أن الشأن أن اثنين إذا اجتمعا فضلا عن أكثر فإن ديب الخلاف يدب إليهم، لذلك حذرهم النبي ﷺ في هذا الحديث على أنهم يستمرون أمام وفي مواجهة كتاب الله، يستقطبون ويستخرجون من درره الغالية ما يسر الله لهم، ما داموا منسجمين وما داموا سائرين في طريق الائتلاف وما دامت قلوبهم مؤتلفة ومجتمعة.

فإذا ما دب ديب الخلاف إليهم فقد أرشدهم ﷺ إلى أن ينفض جمعهم وأن يقوموا عن كتاب الله ليتركوا له قداسته واحترامه.

المقصود من الاختلاف تحقيق المصلحة العامة:

على أن يكون المطلوب المصلحة العامة، وأن الاختلاف إذا كان يفضي إلى تحقيق مصلحة شخصية تذهب معها المصلحة العامة، فإنه منهي عنه.

ومن هنا انجر الحال، إلا أن مما يجز المصالح العامة للأمة، التشاور فيما بينها، ومن ثم شرعت الشورى حيث يستشير شخص فيما يهمه في حد ذاته غيره، مستنصحا إياه لينصحه، هذه استشارة مطلوبة وهي جزئية فردية.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهناك استشارة جماعة مشتركة في شيء أو يهمها أمر مشترك بين أفرادها فيستشيرون من هم أهل للاستشارة عقلاء مجربون أمناء ، لأن الاستشارة كذلك يطلب فيها الأمانة ، فهو وضع مهمته بين يديك يستشيرك مَنْ استشارك إلا ليجتمع له -للحصول على النتيجة- رأيان : رأيه ورأيك .

أما الشورى بالمعنى العام ، فهي للإمام الأعظم أو رئيس دولة يستشير فيما يهم أمته التي طوقه الله بها ، وفي كل مهم نزل ولكن في غير الأحكام ، وهذا ما بلغنا بواسطة السنة ، لأنه ﷺ ما استشار الصحابة في حكم من الأحكام أبداً ، لأن المسألة منوطة بالوحي ينزل عليه ﷺ من فوق سبع سموات بالحكم ، فيعلنه بصفته مبلغاً ﷺ .

أما المهمة التي تنزل وتحتاج إلى تبادل الرأي وليست من الأحكام فإن المطلوب ممن قلده الله شأن الأمة ، أن يستشير وأن يتبادل الرأي ، الراعي مع رعيته مثلاً ، أو مسئول عن شيء داخل في نطاق تكليفه ، واستعصى عليه الأمر فإنه يستشير غيره ليعمل برأيه .

نرجع لأصل الشورى في الإسلام وأنها كانت لفوائدها الجمّة ، لأن النتيجة الحاصلة بواسطة رأي واحد -ما لم يصحبه استبداد وإلا ذهبت النتيجة- ليست كالنتيجة الحاصلة بواسطة رأيين فضلاً عن أكثر لأنه مهما كثر العدد إلا وتمخضت القضية وروعيت من سائر جوانبها ، إذ ربما لاحظ هذا ما غفل عنه هذا ، وربما التفت هذا إلى ما لم يكن للآخر اتصال به .

فالمستشير يسترشد بمن استشار ويسير على ضوء الآراء التي استشار أصحابها ، بل وتقصر المسافة ، ويحصل على النتيجة من أقصر الطرق بسبب الاستشارة .

ثم إن النبي ﷺ كان يستشير الصحابة ولكن في غير الأحكام ، واستشاراته في عديد من الأحاديث وفي كثير من القضايا .

ولنأخذ منها على سبيل التمثيل قضية أسرى بدر ، لما أسر المسلمون العدد الكثير . استشار النبي ﷺ الصحابة في أمرهم ، لأنه لا زال الوحي لم ينزل فيهم .

فقال عمر رضي الله عنه بقتلهم ، وأنهم يقتلون ويستأصلون إظهارا لعظمة المسلمين وقوتهم ، وزاد قائلا مخاطبا النبي ﷺ : أفلا يقتلون وقد كذبوك وأخرجوك من بلدك وقاتلوك؟ هنا انتهى الفاروق من إبداء رأيه .

والتفت الصديق رضي الله عنه وأعلن للنبي ﷺ رأيه وأنه يستبقهم عسى أن يتوب الله عليهم قال : وهم أهلك يا رسول الله ، فخذ الفداء منهم ، هذا رأي أبي بكر ، فخالف رأي عمر .

وعمل رضي الله عنه برأي أبي بكر فما لبث أن نزل الوحي برأي عمر ، فبكى النبي ﷺ ، وبكى أبو بكر وقالوا : كدنا نهلك ونجا عمر .

هذه صورة من صور استشارته رضي الله عنه في القضية قبل نزول الوحي بموافقة رأي عمر رضي الله عنه ، وهو قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَبَّرَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧] أي حتى يسير إلى الأعداء ويوسعهم قتلا .

كذلك كانت الاستشارة في قضية الأذان .

ففي حديث أخرجه الإمامان : الإمام أحمد والبخاري أنهم تكلموا يوما في الأذان ، فقال بعضهم : نتخذ ناقوسا مثل ناقوس النصارى وقال بعضهم : بل نتخذ قرنا مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أولا تبعثون رجلا

ينادي بالصلاة ، فقال ﷺ لبلال : قم يا بلال وناد بالصلاة ، فقام ونادى بالصلاة .

هذه بعض صور الاستشارة في الإسلام .

في قوله تعالى : ﴿لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ،

ولذلك ، قلنا : فيها تأويلات ثلاثة : ولذلك خلقهم أي للاختلاف خلقهم ، ولذلك خلقهم أي وللرحمة خلقهم ، هنا توقفنا .

ولذلك خلقهم ، أي وللرحمة خلقهم ، خلق من ؟ لا الناس كما في التأويل الأول ، بل المراد هنا المرحومون ، وعليهم يعود الضمير ، وتنسجم الآية هكذا ، وللرحمة خلق المرحومين ، ثم كون اللام تعليلية ، فما هي من مسالك العلة عند الأصوليين ، لأن اللام -نساءل أولاً- هل وضع للتعليل ؟ لا ، وضع لمعان .

واللام للملك وشبهه . يقول ابن مالك : للملك بالنسبة للعاقل كالكتاب لفلان .

والاختصاص ، وذلك بالنسبة لغير العاقل ، فيقال السرج للفرس - مثلاً - وهو شبه الملك .

وكما تكون للملك وللاختصاص ، تكون للتعدي ، وقد تكون للتعليل ، فهي في أصل الوضع وضعت لمعان مشتركة بينها ، ولكن قد تقوم قرينة على تعيينها له فتعتبر تعليلية ، وتكون حينئذ بالنظر إلى مسالك العلة من قبيل دلالة النص الذي هو أول المسالك على منهاج البيضاوي ، وثانيهما على منهاج ابن السبكي .

ومعلوم أن دلالة النص تنقسم إلى صريحة وغير صريحة ، ثم غير الصريحة تنقسم إلى قطعية وغير قطعية ، فإن قال متسائل عن دلالة اللام على التعليل من أي قسم هي من هذه الأقسام .

أجيب بأن دلالته على التعليل من قبيل دلالة النص الصريحة غير القطعية ، لأن الصريحة كما تقدم منها قطعية ومنها غير القطعية ، والفرق بينهما أن القطعية ما كانت بأداة وضعت في أصل الوضع للدلالة على التعليل ، كعلة أو سبب ، أو من أجل ، فهي من دلالة النص الصريحة القطعية .

وأن غير القطعية ما لم تكن بأداة وضعت في الأصل للدلالة على التعليل واللام تقدم أنها وضعت لمعان ، فهي مشتركة بينها ، وإنما تعينها القرينة للدلالة على التعليل كما في الآية ، وعليه فدلالته عليه فيها ليست دلالة قطعية ، وإنما هي بحسب الظاهر ، ويكون التقدير باعتبار هذا .

وللرحمة خلقهم ، ولا يرد أن التعبير عن الرحمة وقع بذلك ، وهو لفظ يشار به للمذكر ، والرحمة مؤنث . لأنه يقال : ينبغي أن نغفل لا عن قاعدة نحوية وهي أن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد .

فالرحمة هنا لما أضيفت إلى الاختلاف ، كانت كإضافة لفظ الرحمة إلى اسم الجلالة في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

ومن ثم أخبر عنها فيها بقريب ولم يرد فيها قريبة ، ثم إن الضمير في خلقهم على هذا التأويل هو راجع على المرحومين فينسجم المعنى هكذا ، وللرحمة خلق الله تعالى المرحومين .

ثم ننتقل إلى الثالث : وهو الذي نقدر اللام فيه للمعنى الظاهر في اللام وهو التعليل ، وللعاقبة والصيرورة ، فهو مستعمل استعمالاً مجازياً في معنيين . والإشارة للرحمة وللإختلاف معا ، أي وللإختلاف والرحمة خلقهم ، ونقدر الضمير عائداً على اللفظ العام وهو الناس ، ولذلك وقعت الإشارة على هذا الاحتمال .

وعلى هذا التأويل - كما قدمنا - إلى الإختلاف والرحمة معا ، ويكون التقدير : ولإختلاف الجميع ورحمة البعض خلق الله الناس .

فإن قيل : إنه تقدم ما أجيب به عن كون المؤنث أشير إليه بلفظ المذكر ، فيما يجاب عن الإشارة به إلى المثني : ولذلك أي الإختلاف والرحمة ، يقال : إن هذا معهود من النصوص القرآنية نفسها ، ومنها : «عوان بين ذلك» الإشارة بذلك إلى الفارض الطاعنة في السن ، والبكر ، أي وسط بين ما أشير بذلك إليهما ، وهما : الفارض والبكر .

المحاضرة الأربعون بعد المائة

العربية شعار الإسلام وأهله

إن الله سبحانه إنما اختار العربية لغة للإسلام لحكمة بالغة فأنزل كتابه باللسان العربي المبين ، ودل الكتاب العزيز في غير آية منه على أنه محض بلسان العرب ، لا يخالطه فيه غيره .

تفسير آية: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه : ١١٣] .

وقد فسر العلامة الألوسي رَحِمَهُ اللهُ قوله تعالى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بقوله ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق الآدميين ، نازلاً من رب العالمين .

ونستنتج من هذا التفسير بأن قوله : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يثبت أن الإعجاز في هذه اللغة ثابت لكونها لغة معجزة شاعرة ، فيها من خصائص التعبير ، وأسرار التركيب ، ومراقي البلاغة ما يحتم أن ينزل الله به خاتم كتبه ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

ولاشك أن اللغة العربية داخلية في لفظ (حيث) العام الدال على جزئيات كثيرة مندرجة تحته .

وذكر الطيبي أن معنى ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي فصيحاً ناطقاً بالحق ، ساطعاً ببيانه ، لعله يحدث لهم التأمل والتفكر في آياته الوافية

الشافية ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة الفصيحة هي لغة تستوعب التأمل العميق ، والفكر الدقيق ، من خلال قواعدها المرنة في الاشتقاق والمجاز ، والاشتراك والترادف ، وغير ذلك .

تفسير آية: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] :

وإذا جئنا إلى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ وجدنا أن ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ يعني إنزاله بهذه اللغة الكريمة حتى يحكم بها في القضايا والواقعات بالحق .

والتعرض لكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي مترجماً باللسان العربي للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة ، مع أن ذلك مقتضى الحكمة ، إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه بالنسبة للعرب .

وأما بالنسبة إلى غيرهم ، فإن ذلك يدعوهم لكي يتعلموا هذه اللغة ، ويتعلموا العلوم التي يتوقف عليها الحكم بالقرآن الكريم .

ومن الممكن أن نستنبط من نص الآية وفحواها أن المسلمين لا يسعهم أن يكتبوا العلوم لاسيما الإسلامية منها بغير هذه اللغة المعجزة التي نزل بها كتاب ربهم حتى تتوضح أبد الدهر شخصيتهم الحضارية المستقلة .

على أن الله سبحانه وتعالى نفى عن كتابه العزيز كل لسان غير اللسان العربي في آيتين من كتابه العظيم ، فقال تبارك وتعالى في سورة النحل : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ، وقال جل ثناؤه في سورة فصلت : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] .

مِيزَاتُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ :

ومعلوم أن لسان العرب أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني جمعًا وفرقًا ،
يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل ، إذا شاء المتكلم الجمع جمع ، ثم يميز
بين كل شيئين مشتبهين بلفظ آخر مميز مختصر ، لذلك قال الإمام الشافعي
ﷺ : ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا ، وأكثرها ألفاظًا ، ولا نعلمه
يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها
حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه ولا سبيل إلى فهم الإسلام وضبطه
إلا بالتمكن التام من العربية ، لأن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها
فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة
العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقد كتب عمر بن
الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه «أما بعد ، فتفقهوا في السنة
وتفقهوا في العربية ، وأعربوا القرآن فإنه عربي» ، وساق العلماء حديثًا
آخر لعمر أنه قال : «تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض
فإنها من دينكم» . فهذا الذي أمر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه من فقه العربية
وفقه الشريعة يجمع ما يحتاج إليه المسلم ؛ لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال ،
ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله ، وفقه السنة هو الطريق إلى فقه
أعماله ، ولا يتم إلا بالعربية أيضًا .

وقال ابن تيمية رحمته الله : فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي ، وجعل
رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي ، وجعل السابقين إلى هذا
الدين متكلمين به ، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا
اللسان ، وصارت معرفته من الدين ، وصار اعتياد التكلم به أسهل على
أهل الدين في معرفة دين الله ، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين .

تعلم العربية واجب على كل مسلم

إن العربية شعار الإسلام وأهله ، بها يتميزون عن غيرهم من الأمم ، فتعلم المسلم لها يظهر هذا الشعار ، فقد روى الإمام مالك رحمته الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن رطانة الأعاجم وقال : إنها خب أي خداع وفساد ، ولذلك قرر الإمام مالك رحمته الله أن المسلم لا يجوز له أن يحرم بالعجمية ولا يدعو بها ، ولا يحلف بها مستدلاً بنهي عمر رضي الله عنه عن الرطانة مطلقاً . وقال الإمام الشافعي رحمته الله : على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ، ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعاً .

وقد كره الشافعي أن تسمى المسميات بغير العربية إن كان لها اسم بها ، كما كره أن تخلط العربية بغيرها ، كما يفعل كثير من أهل زماننا ، فقال رحمته الله : سمى الله الطالبين من فضله بالشراء والبيع تجاراً ، ولم تزل العرب تسميهم التجار ، ثم سماهم رسول الله ﷺ بما سمى الله به من التجارة بلسان العرب ، والسماسة اسم من أسماء العجم ، فلا تحب أن يسمى رجل يعرف العربية تاجرًا إلا تاجرًا ولا ينطق بالعربية فيسمي شيئاً بالعجمية ، وذلك أن اللسان الذي اختاره الله ﷻ لسان العرب ، فأنزل به كتابه العزيز ، وجعله لسان خاتم أنبيائه محمد ﷺ ، ولهذا نقول : ينبغي لكل أحد يعتذر على تعلم العربية أن يتعلمها ؛ لأنها اللسان الأولى بأن

يكون مرغوبًا فيه ، من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بالعجمية . انتهى قول الشافعي .

وهذا الذي قدّره الشافعي رَحِمَهُ اللهُ هو المأثور عن الصحابة والتابعين ، وقد تقدم منه قول عمر ومالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في النهي عن رطانة الأعاجم .

كراهية التعامل والتحدث بغير العربية :

من كل ما تقدم فإن اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الإسلام ، ولغة القرآن ، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله ، ولأهل الدار ، وللرجل مع صاحبه ، ولأهل السوق ، وللأمرء ، ولأهل الديوان ، ولأهل الفقه أو للعلماء ، فلا ريب أن هذا مكروه ، فإنه من التشبه بالأعاجم ، وهو مكروه كما تقدم ، وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب فيظهر شعار الإسلام وأهله ، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة ، وكلام السلف ، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى ، فإنه يصعب عليه ، كما هو معروف في تعلم اللغات .

فالعروبة إنما تتحصل بمشابهة صدر هذه الأمة ، وجلهم من العرب ، وأولهم رسول الله ﷺ ، ثم صحابته من المهاجرين والأنصار ، ولزوم عاداتهم ولغتهم وأقوالهم وأعمالهم ، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة إلى ذلك ، ولذلك ، فإن من يحقق مشابهة السابقين ، يصير من أفضل التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، حتى إنه قد يختلف في فضل شخص على شخص ، أو قول على قول ، أو فعل على فعل ، لأجل اعتقاد كل من المختلفين أن هذا أقرب إلى طريق السابقين .

وينص ابن تيمية رحمته الله على أن الأمة مجمعة على قاعدة فضل طريقة العرب السابقين ، وأن الفاضل من تبعهم ، ولذلك فهو يقرر مفهوم العروبة بعيداً عن العرقية والعنصرية حينما يقول : « صار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء ، وصار أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم ، فمن تشبه من العرب بالعجم لحق بهم ، ومن تشبه من العجم بالعرب لحق بهم . وأشار إلى أن اعتياد التكلم باللسان العربي أقرب إلى مشابهة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، في جميع أمورهم وأحوالهم » .

ولما كانت العربية هي اللغة التي فضلها الله سبحانه على سائر اللغات ، فأنزل بها كتابه ، وكان رسوله متكلماً بها ، ولما كانت من لوازم الدين وفيها مشابهة الصدر الأول من المهاجرين والأنصار كما مر بنا ، فإن من عرفها وتكلم بها ، وكانت لسانه من المسلمين ، فهو أفضل من غيره من المسلمين . قال الإمام الشافعي رحمته الله : وأولى الناس بالفضل من لسانه لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وهكذا .

كما ترون قارن الإمام الشافعي رحمته الله تبعية اللغات الأخرى للغة العربية كتبعية أصحاب الديانات الأخرى لدين الإسلام الحنيف ، خاتمة الأديان .

اعتماد لغة واحدة للمسلمين يؤدي إلى توحيدهم :

إن اعتماد لغة واحدة لجميع المسلمين يؤدي إلى توحيد أساليب تفكيرهم ، ويزيد التفاهم بينهم ويسره ، ويعصمهم من الفرقة والتمزق ، فقد أثبتت الدراسات اللغوية والاجتماعية الحديثة أن اللغة لها تأثير عظيم في تكوين

العقل الإنساني وطريقة تفكيره ، وإن وحدة اللغة تؤدي إلى عادات وتقاليد وأخلاقيات مشتركة في كثير من النواحي ، وهو أمر تنبه إليه ابن تيمية رحمته الله قبل سبعمائة عام فقال : «اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بيّنًا ، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق .

وقال في موضع آخر : اللسان تقارنه أمور أخرى من العلوم والأخلاق ، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله .

وقد عزا المفكر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ضعف الدولة العثمانية إلى عدم اتخاذها العربية لغة للدولة الإسلامية فقال : «إن لكل دين لسانًا ، ولسان دين الإسلام العربية ، ولكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصبية ، فالأتراك أهملوا أمرًا عظيمًا ، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح ، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهي قبول اللسان العربي لسان الدولة ، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ، ليفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ، ومحاسن عوائد أهله ، فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم أحكامه ، والعمل بآدابه ، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان ، وهو أهم الأركان» . انتهى قول جمال الدين الأفغاني .

الابتعاد عن العربية ابتعاد عن الإسلام :

إن الابتعاد عن العروبة والعربية هو ابتعاد عن جوهر الإسلام وصفاء عقيدته الذي تمثل في سلوكية الجيل المثالي الأول على عهد رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه

وصحابته الميامين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان من العلماء والفقهاء والأولياء والصالحين ، وإن الجهل بأصول العقيدة الإسلامية يؤدي من غير ريب على انتشار البدع والضلالات الكفرية بسبب اضطرار من يجهل العربية إلى أخذ الإسلام من غير منابعه الصافية ، والاتكال في فهمه على غيرهم ممن قد يكيدون للإسلام وعقيدته ، لأغراض شعوبية أو باطنية أو استعمارية تهدف إلى إفساد العقيدة الإسلامية ، وتعمل في محطتها النهائية على هدم الإسلام بالكلية ، وهذا أمر على غاية من الخطورة .

وقد نبه ملك المغرب في خطبته عند رئاسته للندوة الثانية للمجلس الأعلى للعلماء فقال : «إن الإسلام في المشرق الأقصى وجد نفسه مبنياً على نوعين من الرهبانية ، بينما الإسلام الذي انتشر غرباً لم يحتاج إلى تلك الرهبانية ، وما هو السبب في هذا الفرق بين إسلام الشرق الأقصى ، وإسلام الغرب الأقصى ، الفرق أو السبب سهل ويمكن أن نوجزه في كلمة واحدة ، عدم التعريف بالعربية . فجهل الناس اللغة العربية هو الذي نشر في الشرق الأقصى المولوية وأوجد رجال الدين الذين كانوا يحتكرون اللغة العربية ، تلك اللغة التي نمارس بها معاملاتنا وعباداتنا وحالاتنا الشخصية ، تلك اللغة التي يجب علينا أن ندركها ونكون ملمين بها حتى يمكننا الاستفادة من أولي الفكر ، ومن العلماء ، ومن المدرسين ، ومن المحاضرين ، فأصبح الإسلام في الشرق الأقصى إسلاماً يتعبد به الناس وهم لا يعرفون ولا يحفظون أكثر من الفاتحة ، وهنا تقف معرفتهم بالعربية» .

نماذج متناقضة لبعض البلاد الإسلامية التي تعتني بالعربية وغيرها :

رأيت في رحلاتي إلى البلدان الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام وحافظ على أصالته وصفائه ، فوجدت علماء المسلمين -ولاسيما في السنغال- يعنون بالعربية ولا يتكلمون ولا يؤلفون إلا بها ويعلمونها أبناءهم ويشيعونها بينهم منذ الصغر ، فترى الواحد منهم إذا اعتلى المنبر فتح الله لسانه بفصاحة العرب ، وتدفقت لغة القرآن والسنة من أفواههم تدفق ينبوع الصافي ، وبسبب هذه العناية وتلك ، خلت بلادهم أو كادت من البدع والضلالات . وهنا يجد المسلم نفسه في وحدة تامة معهم في الفكر والفهم والسلوك وإدراك المخاطر التي يتعرض لها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، لأنه قد اغترف وإياهم من ينبوع أصيل رقيق واحد لا ينضب هو الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة ، ولأنه سلك وإياهم طريقاً واحداً هو طريق السلف الصالح من هذه الأمة وتحلق بخلقهم ، وسار على هديهم المستقيم .

وعلى النقيض من ذلك نجد اليوم في بعض البلاد الإسلامية من الفئة الباغية من يغسل أدمغة الناس الجاهلين بلغة القرآن والسنة من كل القيم والمثل الإسلامية العليا ، ويلقنهم مظاهر التحريف للعقيدة الإسلامية الصافية ، ولم يكن مثل هذا التحريف والإفساد المتعمد للعقيدة الإسلامية ليجد له طريقاً لولا جهل أولئك الناس بلغة القرآن والسنة والتراث ، ولما قبلوا الضلالات والدعوى الشعبوية ممن عمل عبر التاريخ في سيلان لا ينقطع على ضرب الأمة وتاريخها وعقيدتها تحقيقاً لأهداف خبيثة لتشيويه الإسلام وهدمه ، ونشر المفتريات عن قاداته ، وحملة رسالته ، الذين يقتدي بهم الخلق كابراً عن كابر .

فالعربية اليوم إذاً هي الحصن الذي يحول دون احتلال عقول أبناء المسلمين بآراء وافدة، أو مبادئ قديمة، تؤدي بهم إلى فقد هويتهم الحضارية، وشخصيتهم العربية الإسلامية، وتجعلهم شيعةً وأحزاباً، متفرقين متمزقين، متباعدين متنافرين، لا ائتلاف بينهم.

اتخاذ اللغة العربية لغة للحضارة:

إذاً إن أعظم واجبات المسلمين اليوم أن يتخذوا اللغة العربية لغة رسمية لبلادهم بجانب لغاتهم المحلية، وأن يخصصوا بعض الساعات في الأسبوع في الأقل لهذه اللغة المهمة تمهيداً لنشرها واتخاذها لغة للحضارة، لا بل إن من الوفاء للإسلام وحضارته، وسلامة عقيدته، ودرء المفساد عنها، والسبيل الصحيح إلى وحدة الفكر والمصير بين المسلمين، أن يتخذوها لغة الحضارة والحياة.

ولنا مثل واضح في ماضينا المشرق الطويل، لقد كانت هذه اللغة الكريمة طيلة عصور ازدهار الإسلام لغة الإنسانية المؤمنة، ووعاء الحضارة، حملت بجدارة أوامر السماء إلى الأرض وعبرت عن جوامع كلم النبي الأكرم ﷺ، واستوعبت تراث الفقه الإسلامي، والفكر العقائدي، والعلوم المتنوعة، من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، ومن أواسط آسيا إلى أواسط أفريقيا، جمعتهم على الهدى ودين الحق، وربطت بين قلوبهم وجعلتهم أمة واحدة، تعبد الله تعالى، وتقرأ كتابه الكريم وعلوم الإسلام بها.

إن من الجهل العميم أن يعتقد المسلم أن اللغة العربية هي لغة عنصر معين، إنما هي لغة القرآن والسنة والتراث، لغة الإسلام المعبر عن جوانب حضارته المتكاملة.

الدين والدولة عربيان وتوءمان:

فحب المسلم اليوم للغته العربية والتزامه بها أو حرصه عليها وتعلمه لها وتلقينها أولاده منذ الصغر وتنشئتهم عليها، إنما يتأتى من حبه لإسلامه وقرآنه وسنة رسوله ﷺ، وباعتبارها اللغة الجامعة للمسلمين في كل مكان. إن عروبة الإسلام بالمعنى الذي أشرنا إليه، وإسلامية العروبة واتحادهما اتحادًا أبدئيًا عضويًا في المعنى والمبنى عبر عنه علماء الأمة وقادتها على اختلاف أزمانهم، وتباعد أماكنهم، وتباين أصولهم العرقية طيلة عصور الإسلام، وتولوا الدفاع عن هذا الترابط والوجود وبذلوا الوسع في ترسيخه وإشاعته، وتمكينه في نفس كل مسلم، لما فيه من المصلحة الأكيدة لجموع المسلمين والحفاظ عليهم وعلى جامعتهم.

ويظهر ذلك واضحًا جليًا في عبارات لأحد أئمة التراث وهو من غير جنس العرب هو العلامة أبو الريحان البيروني المتوفى سنة أربعين وأربعمائة حينما يقول في مقدمة كتابه «الصيدلة»، وهو كتاب ما زال مخطوطاً: «ديننا والدولة عربيان وتوءمان».

فدينكم ودولتكم والدول التي تدعون إليها والوحدة التي تدعون إليها والأمة التي تدعون إليها دينها والدولة عربيان وتوءمان ترفرف على أحدهما القوة الإلهية، وعلى الآخر اليد السماوية.

وكما احتشد طوائف من التوابع، وخاصة منهم الجبل والديلم، في لباس الدولة جلابيب العجمة فلم ينفق لهم في المراتب سوق ما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمس مرات، وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة صفاً صفاً، ويخطب به لهم في الجوامع. فالإصلاح كان لليدين والفم، وحبل الإسلام غير منفصم، وحصنه غير مثلم.

وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفتدة ، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وبسبب سوء فهم عروبة الإسلام وإسلامية العروبة استبدت بدراسات الباحثين المعاصرين في العروبة نزعتان حرفتا جهودهم عن إصابة الحق ، وحولتا سعيهم إلى تيه وشقاق وضياح ، وانتهت كل واحدة منهما باتباعها إلى تفسيرات غريبة للعروبة شكلاً ومضموناً ، بعيدة عن حقيقتها وما تواضع عليه علماء الأمة المؤتمنون على رسالتها السماوية من أحكام وتقديرات .

لقد فهمها جمع من المعاصرين عن وعي مقصود أو غفلة جانحة نسيجاً مركباً شبيهاً بصورة القومية كما عرفت أوروباً في تاريخها الحديث والمعاصر مع ما تميزت بها القومية الأوربية من نزعة علمانية صارمة تقترب في حدودها ودعواها في الفصل بين الدين والقومية من حدود الإلحاد ، ومواقف استعلائية عنصرية تستند في فلسفتها العامة إلى نظريات عرقية وما نتج عن هذا كله من نزع إلى الهيمنة والسيطرة ، ودعوة إلى التفوق والسيادة التي لا ترى وجودها إلا في إفناء غيرها .

محاولة نقل مفهوم القومية الأوربية إلى البلاد الإسلامية :

وتأسيساً على هذه الرؤيا المستمدة من تطور مفهوم القومية في أوروباً ذهب هذا الرهط من الباحثين في العروبة تلميحاً وإشارةً أو نقلاً وتقريراً إلى تحديد لمفهوم القومية يناقض في مدلولاته الإسلام كرسالة وحضارة وتراث ، وكأن الدعوة إلى العروبة في فهمهم لا تستقيم إلا بنقض كل صلة لها مع الإسلام ، وقطع كل ارتباط بينهما .

فإذا كان الانبعاث القومي في أوروبا قد ارتبط أصلاً بالثورة على الدين والسلطة الكنسية ، فليس أمام الانبعاث القومي العربي في وهمهم وقياسهم إلا أن يسلك الطريق ذاته فيبدأ حركته بالثورة على الإسلام ، وقطع كل وشيجة له معه .

وفريق آخر خالف في سعيه واجتهاده أنصار النزعة الأولى ، ففي رأي أتباعه وأنصاره أن الإسلام طرف نقيض ومقابل للعروبة ، فهما في زعمهم ضدان لا يأتلفان ، بينهما تفاوت وتدابير ، وصراع ومخالفة ، لا يمكن إغفالها أو تجاوزها ، وقد صدر هؤلاء في فهمهم هذا لا عن استقراء دقيق لنشأتها وتطورها مشتقاً من قراءة مخلصنة لتاريخها وصلة الرحم الأصلية بينها وبين الإسلام ، ولا هم أقاموا رأيهم على أسس موضوعية مستقاة من الخصائص الذاتية الأصلية للعروبة ، وإنما جاءت أحكامهم في صيغة رد فعل عاطفي سطحي متصل بذلك المفهوم العلماني الخاطئ الذي اتسم في أكثر حالاته بالتوتر والعصبية ونقض آراء الفريق الأول جملةً وتفصيلاً .

وهكذا انتهى هذا البعض الذي ادعى لنفسه التظاهر بالغيرة الإسلامية إلى تقديرات بلغت في سذاجتها وانحرافها حدود الافتراء المقصود على الحق والذي لا تسانده حجة من عقل ، ولا يؤيده دليل وشاهد من التاريخ الإسلامي .

وإذا كانت النزعة الأولى قد أسلمت أصحابها إلى مواقف عدائية صارمة للدين ، تسقط دوره من الاعتبار ، تنكر أثر الإسلام في انبعاث العروبة وتكاملها ، فإن التوجه الآخر المقابل له قد انتهى بأشباعه وأتباعه وأنصاره إلى مواقف فكرية تقترب في محصلتها النهائية مع الشعبوية التي

تنكرت لأهل العربية ، فاستخفت بعاداتهم وتقاليدهم ، وازدرت تراثهم وآدابهم ، ووجهت نصال سيوفها السوداء الحاقدة إلى لغتهم ودينهم ، فجمعت في برامج فلسفتها بين الشعوبية والزندقة .

إن الفهم العلمي الموضوعي للعروبة الذي يشيد بنيانه على استفتاء منطق التاريخ ذاته بعيداً عن التحريف والتأويل والتشويه ينتهي إلى القول بالأصل المشترك الجامع لمفهوم العروبة والإسلام باعتبارهما وجهين لحقيقة واحدة .

المحاضرة الحادية والأربعون بعد المائة

الإنسان في القرآن دعامة التنمية الشاملة

موضوع درسنا يتعلق بآية من هذا القرآن من سورة هود، هي قوله ﷻ: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّحِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وهذه الآية لو نظرنا في الجمل القليلة التي تتكون فيها لاضطررنا إلى أن نقف وقفات تأملية عند كل جملة منها، وهي مع ذلك في واقع الأمر، تدل على أن الدين واحد، وعلى أن الرسل الذين أتوا من عند الله مبشرين ومنذرين يحملون رسالة واحدة، وهذه الرسالة الواحدة هي هداية الناس والخلق جميعاً إلى معرفة الله، معرفة حقيقية، يكونون بها موحدين له غير مشركين، ويعبدونه عبادة خالصة.

ثم نجد إلى جانب هذه الهداية التي تمثل ركناً من أركان التربية الدينية التي اضطلع بها الرسل والأنبياء ركناً ثانياً هو: غرس الفضائل الدينية في النفوس، حتي يكون الإنسان في وقاية من الشرور، وفي استعداد لبذل كثير من الجهد والوصول إلى ما يبتغيه في هذه الحياة.

دعوة الرسل:

أعتقد -وكلنا يعلم هذا- أن هذه الآية فيما تصوره وتشير إليه تمثل ترديداً لدعوة الرسل كلهم الذين ذكروا في سورة هود ﷻ، والتي تشير

إلى الأمر بعبادة الله وحده، وتوحيده بالعبودية والألوهية، والحاكمة والقوامة.

ثم تدعو هؤلاء الناس جميعًا إلى التمسك بهذه العقيدة الصحيحة، والالتزام بها، وذلك ما دعا إليه الأنبياء جميعهم، والرسل الذين ذكروا في هذه السورة، ومن أمثالهم نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام.

ونستطيع أن نجد مثل هذا، أي مثل هذه الدعوة الخالدة السرمدية عند الوقوف على آيات أخرى كثيرة، من بينها الآيات التي تعالج قضية الخلق، وألوان التسخير الإلهي، والشعائر الدينية والتكاليف، والأحكام والتربية. فكل هذه الآيات تعيد علينا نفس هذه الحقيقة، وتؤكد لها بطرق مختلفة، حتى تبرز بالنفوس وتعلق بها، ويكون لها بعد ذلك سلطانها وأثرها.

حقيقة الإنسان:

لكن من هو الله الذي دُعينا إلى عبادته؟

ومن هو هذا الإنسان أو هؤلاء الأقوام الذين خاطبوا بهذه الدعوة؟

من هو هذا الإنسان الذي يقدمه الإسلام في صورة معينة؟

نحتاج إلى التعرف عليها لنطبق على أنفسنا حقيقة الإنسان الكاملة، هذا الإله الواحد الصمد، القوي الغني، هو الذي خلق العالم والأكوان كلها، وهو كما ورد في الآية: ﴿أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾.

وهذا الخلق أو الإنشاء لآدم عليه السلام، ثم لبنيه من بعده، تشير التسمية التي أطلقت على أبينا آدم بأن هذا اللفظ مأخوذ من أدمه الأرض أي وجودها، وأن نسله كان من نطفة، وذلك هو ما يحرره القرآن، ويصوره لنا عند عرض الخلق بهذا الشكل، وبهذه الصورة.

ثم ما احتاجه ويحتاجه الإنسان من وسائل وآلات وتجهيزات تمكنه من أن يقوم بوظيفته على هذه الأرض ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [١] الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ [السجدة : ٦ - ٩] .

تكریم الإنسان من الله ﷻ :

ونحن عندما نصل عند هذا الحد ، لا نتصور الإنسان في هذه الحدود التي أشرنا إليها من المنن الإلهية ، والإنعامات الربانية على هذا المخلوق إلا سبيلاً لتصور أن هذا الإنسان الذي خلقه الله يمثل الكائن الأعلى في هذا الكون .

وهو لذلك أرقى المخلوقات جميعاً ، فاصطفاه سبحانه وتعالى وكرمه ، وعرض عليه الأمانة التي لم تتحملها السموات ولا الأرض ولا الجبال ، وأبين أن يحملنها ، وتحملها الإنسان ، فكان بذلك أهلاً للاستخلاف في هذه الأرض والقيام بما أناطه الله من وظائف .

وما هي هذه النعم التي جعلت من هذا الإنسان أكمل خلق الله ، وأعلاهم في الكون تلك التي تنطق بها آيات كثيرة : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

وعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، وهده النجدين . فهذه كلها سبل وطرق تمكن الإنسان من القيام بدوره في هذه الحياة .

نَعَمْ اللَّهُ لَا تَعْدُ وَلَا تَحْصِي عَلَى الْإِنْسَانِ :

لكن هذه النعم لم تقف عند هذا الحد ، فإن الله ﷻ وهب الإنسان طاقات كثيرة ، كفاء ما في الكون من قوى وكنوز وخامات ، ليتمكن من التفاعل معها والسيطرة عليها .

ثم أعطاه قوى خفية يحقق بها المشيئة الإلهية ، ووهبه عقلاً هو منبع العلم ومطلعه وأساسه ، ورزقه القدرة والسمو والإبداع .

فإذا هذا الإنسان الذي خُلِقَ من تراب ، والذي جاء نسله من ماء مهين يسابق كل الطاقات المخزونة أو المختزنة في هذا الكون ، فإذا هو يبلغ درجة عجيبة في هذا العصر ، حيث قاس سرعة النور ، ووضع كشف الجسم الحي والخلية والنواة ، وضاعف إنتاج الأرض ، ورفع مستوى العمران ، ورفع مستوى العمر ، عمر الإنسان ثلاث مرات ، وقطع المسافات أو اختصرها ، ونشر أسباب الحضارة في العالم كله .

تحذير الله ﷻ للإنسان من الانحراف والظلم والطغيان :

هذا الإنسان العجيب الذي هو خلق الله ، والذي يرجع الفضل والمنة إليه سبحانه في إيجاده على هذا النحو ، قد حذره تعالى من أن تحيق به السيئات ومن أن ينحرف به المسلك ، ومن أن يظلم ، ومن أن يطغى ، ومن أن يحدث في الأرض فساداً ، ذلك لأن هذه الأشياء التي تكون منه تدل على ترديه بعد ارتفاعه ، وعلى ضعفه بعد علوه .

وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله ﷻ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين : ٤ ، ٥] .

وهو المعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة الأخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥﴾.

فكان هذا الأمر مدعاة لعلاج الإنسان عندما تتتابه هذه الأمراض ، وعندما تنحرف به السبل ، وعندما يكون فاقداً لكل المقومات التي تحقق عزته ، وترفع من درجته ، وتجعله مثلاً حياً للعلو والكمال ، وهو ما يصيبه من الانحراف الروحي ، أو من الانحراف المادي ، ولنسم هذا تخلُّفاً روحياً وتخلُّفاً مادياً .

وطريق معالجة هذين المظهرين من التخلُّف : التخلُّف الروحي ، والتخلُّف المادي يكون بالعبادة ، وبالعَمَل الصالح ، ولذلك فإننا نرى التأكيد في هذه الآية علي الجانب الروحي بقوله تعالى: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

أثر عبادة الله على الإنسان :

فعبادة الله وحده ترفع من شأن الإنسان وتعليه ، وتبوءه مكاناً علياً ، ذلك لأنه عندما يعبد الله وحده يتحرر من كل القيود ، إلا قيود الطاعة لخالقه ، والالتزام بدينه ، والعمل بأحكامه ، والعبادة التي دعي أو دعينا جميعنا إليها من الله سبحانه وتعالى ، لا تتمثل في الشعائر الدينية ، من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ولكنها تتجاوز ذلك إلى أشياء كثيرة أخرى .

ومن ثم فإن العبادة لا تكون إلا لله ، بدليل أن المقصود منها القيام بعمل ، أو التقدم بفعل يدل علي الخضوع والتعظيم الزائدين على المتعارف بين

الناس ، وإذا كان التعظيم والخضوع بهذا الوصف ليس هو مطلق الخضوع أو مطلق الانقياد والطاعة ، وإنما هو يختلف عن المتعارف بين الناس ، فهو إذاً مقصور على عبادة الله وحده .

ويقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ فِي «تفسيره» عندما تعرض لكلمة العبادة ، قال : «هي الفعل الذي يرضي الرب سبحانه ، من خضوع لجلاله ، وامثال لأوامره ، وانتهاء عما نهى عنه» .

وأعتقد أن كل ذلك يتلخص في أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو اختيارنا لتحمل الأمانة ، فهذا جانب .

والأمر الثاني : هو قيامنا بعمارة الأرض وتحقيق التنمية .

ومن ثم يلتقي الطرفان : الجانب الروحي والجانب المادي .

أما إذا أردنا أن نتأمل الجانب المادي .

أسباب التخلف في البلاد الإسلامية :

أما إذا أردنا أن نتأمل الجانب المادي ، فإني أريد أن أشير إلى أن الأقطار الإسلامية لسوء حظنا ، تعد حتى الآن مهما كانت درجتها وقدرتها من الدول أو من البلاد النامية ، رغم الكثرة العددية من السكان ، ورغم اتساع أقطارها ورقعها ، ورغم ما توافر فيها من الموارد الطبيعية ، ولم ذلك؟

لأن هذه الحقائق التي من شأنها أن تكسب العزة ، وتحقق القدرة ، وتكتب لصاحبها الظهور على الغير ، والمنعة من كل خطر ، كانت لسوء الحظ مقترنة بفقر ، وملازمة لجهل ، قضى بأن يكون العالم الإسلامي في الدول النامية جميعاً متأخراً في مجال التكنولوجيا ، ولم ذلك؟

لأنه لم يؤت الأسباب التي تحقق له الثروة والغنى ، والعلم والتقدم ،
والمعرفة والإبداع في فن الإنتاج أو الفن التكنولوجي .

وقد نسأل عن الأسباب الأخرى التي تتصل بمعنى التخلف ، فنرى
أنها جملة من السلبيات ، وهي كثيرة ، نكتفي بذكر بعضها :

أولاً : أننا نلاحظ في مجتمعاتنا الإسلامية ، وفي بلادنا الواسعة ، أن
الاستخدام للموارد الإنتاجية المتاحة استخدام سيئ وردي .

ومن أسباب التخلف أو السلبيات أيضاً : فقدان المبادئ والقيم لدى
الهيكل الاجتماعية المحيطة بالعمليات الإنتاجية ، وهو ما يورثها اللامبالاة ،
ثم الكسل الذهني والحركي ، ثم الاقتصر في بلاد العالم الإسلامي على
إنتاج المواد الخام الأولية ، وتخصص الدول المتقدمة في المنتجات الصناعية .
وهذا الوضع عندما يستمر لا نستطيع أن نحقق تقدماً ، ولا أن نقوم
بعملية التنمية ؛ لأن الإنسان هو دعامة التنمية .

الإنسان صاحب التغيير :

وإذا كان الإنسان يمثل الدعامة الأساسية للتنمية ، فإنه بوضعه الحاضر
لا يمكن أن يحققها حتى يغير ما بنفسه ، وحتى يقوم بعد ذلك بتغيير
الأشياء من حوله ، ونحن نعلم بما شاهدنا وبما قرأنا وبما سمعنا ، أن
الإنسان صاحب التغيير له قدرة عليه .

ويكفي في هذا العصر وفي هذه المجتمعات الإنسانية لعهدنا ، أن
نلاحظ مجموعة من الدول استطاعت بعد أن كانت معدودة في الدول
النامية أن تغير أوضاعها تغييراً جذرياً ، وأن تصبح من القوى المنافسة
للدول الصناعية المتقدمة ، وذلك مثل اليابان ، وكذلك كوريا الجنوبية ،

وتايوان ، وسنغافورة ، وماليزيا وبانكوك ، كل هذه الدول ، خرجت من الوضع الذي كانت فيه ، وتحدث جميع الأعاصير من حولها ، ووصلت وبلغت إلى ما تطمح إليه من تقدم في الاقتصاد ، وفي العلوم التكنولوجية .

عبادة الله تستلزم ضمان الحاجيات لجميع الأفراد :

ونحن نعجب كيف استطاعت هذه الدول ، أو هذه المجموعات وحدها أن تحقق ما أرادت دون بقية المجتمعات الإسلامية ، في حين أن المجتمعات الإسلامية تتمتع بنظام يحارب الفقر حرباً فكرية وعملية ، وذلك ما يشهد له تعوذ رسول الله ﷺ من الفقر ، ومعادلته له بالكفر .

ثم لأن المؤمنين من وراء علماء الإسلام يعتقدون أن الفقر ليس حرماً فقط ، ولكنه عائق من العوائق الكبيرة التي تحول بين الإنسان وبين عبادته ، وبين تحقيق التنمية الروحية والتقويم الخلقي .

ونجد بعد ذلك فيما قرره الفقهاء أن العباداة : عبادة الله تستلزم ضمان الحاجيات لجميع الأفراد .

ومن ثم فإن ديننا يأمر بتحقيق التنمية ، ويحملنا على تغيير أوضاعنا ، ويدفعنا إلى ملاحظة هذه الحقائق .

والدعوة في هذه الآية مركزة على جانبين كما ذكرنا .

الجانب الأول : الذي يشير إليه قوله تعالى : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

والثاني : الذي يتمثل في استعمار إيانا في الأرض ، وجعل الإنسان خليفة فيها ، وهو المعنى الذي يدل على أن القرآن والمنهج الإسلامي يحملان على ضبط السلوك البشري على العمل والإنتاج ، ضبطاً ذاتياً

مستمداً من قناعة وجدانية بصدق العقيدة الإسلامية ، وسلامة المذهب الذي نسير عليه .

تفسير قوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا﴾ :

وقوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا﴾ هذه أيضاً تحتاج إلى وقفة ، فإن المفسرين قالوا فيها آراء كثيرة ، وصوروا الاستعمار للأرض بمعان مختلفة ، اخترت منها قول بعضهم : إن قوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا﴾ يعني : ألهمكم عمارة الأرض بالحرث ، وغرس الأشجار ، وحفر الأنهار ونحو ذلك .

وقال زيد بن أسلم رحمته الله في تفسير هذه الآية : طلب منكم عمارة الأرض ، وأمركم بذلك ، وإذا أصبح الأمر المقتضي للوجوب حاملاً لنا على الاستجابة لهذه الدعوة .

ثم نجد طائفة أخرى من المفسرين تجعل العمارة الحقيقة الأساسية التي من أجلها وجد الإنسان ، وإذا قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] فإن العبادة بالمعنى الذي قررناه تقضي القيام بعمارة الأرض ، فنحن لم نخلق إلا لعمارتها ، وذلك بتزجية المعاش للنفس وللغير .

ولكن ما العلاقة بين هذه العمارة : عمارة الأرض ، وبين الخلافة وهي معنى أوسع ؟

- الخلافة هي أن يأتي أحد من الناس بعد آخر ، لكن ليس هذا المراد .
- الخلافة هنا تشريف من الله تعالى لعبده ، تشريف للإنسان ، وهو الذي يشير إليه تعالى في قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة : ٣٠] . . . الآية .

فاختيار الله تعالى واصطفاه لآدم وللإنسان ليكون خليفة ، هذا فيه تشريف ، وإعلاء لمقامه ، وذلك التشريف هو الذي يقتضي مراقبة وحساباً من الله للعبد ، عندما يتأخر عن القيام بواجبه ، وهو الذي عناه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

وإذا كانت العمارة بالمعنى الذي بيناه ، فما هو اتساع الخلافة عندما تتجاوز حدود الحرث ، والزراعة ، وحفر الأنهار ، وإقامة الآبار .

ما هي الخلافة؟

الخلافة تتمثل في بذل الجهد ، لنشر الأمن ، والرفاهية بين كل الناس ، وتحقيق التعايش السلمي ، فإذا توفر ذلك استطاع كل إنسان أن يعمل جاهداً في حياته ليتبوأ المجتمع الإنساني كله الخير ، ويصل إلى السعادة المنشودة في الدنيا والآخرة .

وأنا هنا عندما أقارن بين الذي حدث من الأعاجم في المجال الصناعي والتقدم ، وما حصل لنا من تأخر ، أذكر دائماً كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول : والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد ﷺ منا يوم القيامة . ويقول الشاعر :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

وإذا كانت هذه المعاني كلها تقتضي منا الاندفاع والحركة وتغيير ما بنا من أجل القيام بالتنمية ، فذلك استجابة منا ، وامثال لقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] . والإحياء هذا الذي نريده هو التنمية الشاملة .

وكيف تكون هذه التنمية الشاملة وإلى ما تنتهي بنا في عالمنا هذا؟
تنتهي بنا بدون شك إلى تحقيق الرفاهية ، ولكن سبيلها صعب ، وهو
مركز على أصول حكمية ، ولا أقول فلسفية وآراء ونظريات جاء بها
المنهج الإسلامي .

الوسائل التي تعين على تحقيق التنمية الشاملة :

من ذلك -أي من تلك السبل التي تعين على تحقيق التنمية الشاملة-
تحقيق التوازن بين الروح والمادة ، الذي يلمح إليه قول عمر رضي الله عنه :
« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ثم تحقيق التوازن بين الفرد والمجتمع . ويشير إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :
« ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » ^(١) .

ثم التوازن أو تحقيق التوازن في الإنفاق بين التقدير والتبذير ، ثم
القيام بكفالة جميع الحقوق التي كتبها الله لنا كبشر ، والتي نوه بها
التشريع الإسلامي ، وذكرها علماء الأصول ، وذكرها رجال التفكير
الإسلامي ، وهي الحقوق الضرورية الخمسة ، والحاجية ، والتحسينية ،
ونحن لا نتأخر عن تحقيق شيء من ذلك ، لأن من واجبنا ، إذا أردنا
الرفاهية للمجتمع الإنساني ، أن نحرص على توفير هذه الحقوق ،
وتمكين الناس منها .

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٥٩/١) من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في

«المجمع» (٣٠٥/٨) : رواه الطبراني والبخاري وإسناد البزار حسن .

استخدام عناصر الإنتاج:

ثم باستخدام عناصر الإنتاج كلها ، وعناصر الإنتاج كلها من نعم الله علينا ، لم نصنع منها شيئاً ، هو الذي أعطانا إياها ، لنكون خلفاء في الأرض ، ولنقوم بوظيفة الخلافة ، وتلك المصادر التي نشير إليها هنا ، هي التربة ، أولاً ، والمعادن ، ومملكة الحيوان ، ومملكة النبات ، ففي كل مجال ، وفي كل محيط من هذه المحيطات نستطيع أن نغترف الخير ، وأن نصنع المستقبل ، وأن نغير ما بمجتمعاتنا من أحوال .

استثمار الأموال:

ثم استثمار الأموال ، وقد قال الاقتصاديون : إن المال جوهر عملية الإنتاج ، إذ بدون مال لا نستطيع أن نحقق أية خطوة ، ثم تنويع هذا الإنتاج ، فلا يجوز أن تكون المجتمعات الإسلامية كلها زراعية ، ونترك الجانب الصناعي ، ونترك الجانب التجاري ، بل لابد لنا من الأخذ بهذا التنويع ، وبهذه المجالات المختلفة في النشاط ، كما ذكر ذلك العلامة ابن خلدون في «مقدمته» ، حين أشار إلى أن الغنى لا يحصل إلا بالأعمال الإنسانية ، والصناعات ، وزيادة الآلات والمكاسب .

قال هذا من عدة قرون خلت ، وعندئذ يتلخص هذا المعنى فيما نريده من حركية في المجتمعات الإسلامية ، لتغيير ما بها ، وهو العمل الدائب الذي يرمز له قوله جل وعلا : ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم : ٣٩] .

وقول رسول الله ﷺ وهذا الحديث عجيب في حقيقته وتقرير المفاهيم المطلوبة منه في هذا المقام ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «إذا قامت

الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها وله بذلك أجر»^(١) .

ثم نجد صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب عليه السلام الذي بعث إلى وليه بمصر يقول له : «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في جلب الخراج ، فإن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة» وقد قال الشاعر :

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
وبالهمة العليا يرقى إلى العلا فمن كان أرقى همة كان أظهر

من المسئول عن التنمية؟

لكن هذه التنمية الشاملة التي يلتقي فيها الجانب الروحي ، والجانب المادي والتي ذكرنا أسباب البعد عنها ، وذكرنا طرق العلاج من أجلها ، عندما يقوم الإنسان الذي هو دعامة التنمية بواجبه تجعلنا نتساءل على من نلقي المسئولية ، مسئولية التنمية؟

تقع مسئولية التنمية على الأفراد ، ذلك أن الفرد مطالب برعاية هذه الأمانة التي حملها الله إليه ، ودعاه إلى القيام بها ، وذلك بالإعداد ، إعداد نفسه إعدادًا كاملاً ، أو إعداد المجتمع له إعدادًا مناسبًا ليقوم بوظيفته ولا يكون الأمر بالنسبة للأفراد مقصورًا على الإعداد بل هناك الجهد والبذل والعمل الدءوب .

(١) سبق تخريجه .

ثم إتقان العمل ، ليس المقصود هو القيام بأعمال ، ولكن أن تكون هذه الأعمال حسنة كما ورد في أحاديث كثيرة «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(١) .

وأما المجتمع فإن المسؤولية تقع عليه لأنه مطالب بتحقيق التعاون والتكافل ، يشير إلى ذلك قول رسول الله ﷺ : «من كان له فضلٌ زاد فليعُدْ به على من لا زاد له»^(٢) .

وأما الدولة فشأنها أوسع ، ودورها أكبر ذلك أن الدولة لا بد لها أن تتدخل بسياساتها لرفع مستوى الأفراد والجماعات في البلاد ، وأن تتحمل للناس ما لا يستطيعون ، أو تنوء به قواهم وطاقاتهم ، وتكون الدولة مطالبة بالتشجيع على هذه الأعمال والمضي فيها ، وتقديم التعويضات ، وإيجاد فرص العمل ، ونشر العدل بين الناس ، وتحقيق التقدم الروحي والمادي لكل مواطن .

وبالنسبة للعالم الإسلامي لا نكتفي بذلك ، بل نضيف إلى هذه الجوانب وجوب التنسيق بين الدول الإسلامية لعملية التنمية ، وذلك بالتخطيط والتعاون ، ثم إيجاد أو إقامة مؤتمرات إقليمية ودولية تبحث هذه المشاكل وترعاها ، وتهيئ سبيل التقدم والنجاح فيها .

ولا يجوز أبداً ونحن نتحدث عن الدول ، والدول الإسلامية بخاصة ، ألا نتحدث عن أوضاعنا .

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٩٧) ، والبيهقي في «الشعب» (٥٣١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

أهمية سريان روح التنمية في كل بلد إسلامي :

فإننا نلاحظ شيئاً له أهمية في كل بلد إسلامي ، لابد من سريان روح التنمية في كل بلد إسلامي فيها من القمة إلى القاعدة ، حتى تكون جميع العناصر البشرية الموجودة في الدولة جاهدة في سبيل ذلك التغيير ، وتحقيق الأمل المنشود .

لقد أظهروا من شكر نعمة ربهم وقائدهم ما لست عنه بنائم

الاستغفار أمر لا بد منه :

ويحسن بنا في ختام هذه الجولة أن نشير إلى أمر لا بد منه قد كان تذكيراً للآية التي هي موضوع درسنا ، وكذلك تذكيراً لما نحن فيه ، لأن التربية الوجدانية ، والتقويم الخلقي ، والمراعاة للجانب الروحي ، والقيام بما ذكرنا من أشياء للجانب المادي لا يكفیان ؛ لأن الإنسان خطاء ، والإنسان ضعيف ، والإنسان معرض للنسيان ، فلا بد من شيء يعصم به نفسه ، ويجدد به طاقته ، وذلك هو الاستغفار ، أن نستغفر الله مما حصل من الآثام وابتلينا به من عظام الأمور .

فننيب إلى الله سبحانه وتعالى ونتوب إليه ونرجو رحمته ، ونتقدم إليه بالضرعة سائلين .

فقول الله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٦١] قد كان تمهيداً لبشرى عظيمة ذكرها القرآن الكريم في الآية حيث قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ ، يشير إلى قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

وقوله ﷻ : ﴿مُحِيبٌ﴾ يشير إلى قوله ﷻ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَارِنِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ، الفرد الصمد ، بيدك الخير ، وأنت على كل شيء قدير .

اللهم املأ قلوبنا إيماناً ، وأرواحنا إيقاناً واطمئناناً ، واجمع بيننا وبينك ، وحل بيننا وبين غيرك ، اللهم ألهمنا الرشد والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم أعل مقامنا بين الأمم ، واجعلنا من خير أمة أخرجت للناس .

المحاضرة الثانية والأربعون بعد المائة

التيسير بين الغلو والتقصير

انطلاقاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» . رواه البخاري .

وبعد ، فأذكر بأصالة مبدأ التيسير في الإسلام ، وأحاول أن أقدم مفهوماً صحيحاً وطريقة للتعامل مع هذا المبدأ ، كما أحاول أن أبين مفهوم الغلو والتقصير ، انطلاقاً من الحديث .

هذا الحديث الذي رواه البخاري ، وانطلاقاً كذلك من أدلة أخرى تشهد لهذا الموضوع وتصلح دليلاً له . ولتحقيق هذا الغرض أقول : قال البخاري رحمته الله : حدثنا عبد السلام بن مطهر ، قال : حدثنا عمر بن علي ، عن معن بن محمد الغفاري ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» .

تخريج الحديث :

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان ، ورواه كذلك النسائي في كتاب الإيمان وشرائعه ، وهو حديث ورد في «صحيح البخاري» بعد ذكر أحاديث الترغيب في القيام والصيام والجهاد وقبل باب الصلاة من الإيمان ، تنبيهاً إلى أن الأولى للعامل أن لا يجهد نفسه ويواصل بذلك

الجهد الذي يتسبب في انقطاعه عن العمل أو يتسبب في عدم مواصلة العمل بنفس الوتيرة وبنفس الدرجة .

إسناد الحديث :

والحديث ورد في إسناده أربعة رجال في حاجة إلى مزيد من التعريف .

عبد السلام بن مطهر :

فأما الأول فهو عبد السلام بن مطهر بن حسام أبو ظفر البصري .

روى عن جرير بن حازم وسليمان بن المغيرة وحفص بن غياث وغيرهم .
وروى عنه الإمام البخاري وأبو داود وغيرهما . قال أبو حاتم : صدوق .
 وذكره ابن حبان في «الثقات» . توفي سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة .

عمر بن علي بن عطاء :

وأما الثاني من هؤلاء الأربعة فهو عمر بن علي بن عطاء المقدمي ،
أبو جعفر البصري .

روى عن سليمان بن أبي خالد ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وهشام بن
عروة وغيرهم . وروى عنه ابنه محمد وأحمد بن حنبل وغيرهما ، قال ابن
معين : كان يدلّس وما كان به بأس . وقال ابن سعد : كان ثقة وكان يدلّس
تدليسا شديداً .

وقال أبو حاتم : محله الصدق ، ولولا تدليسه لحكمنا له إذا جاء بزيادة ، غير
أننا نخاف أن يكون أخذه عن غير ثقة . مات رَحِمَهُ اللهُ سنة تسعين ومائة
للهجرة .

والتدليس الذي وقع منه في هذه الرواية هو تدليس بالعنعنة . والتدليس هنا في هذه الرواية رواية الإمام البخاري محمول على ثبوت سماع الراوي من طريق أخرى . وبالفعل فقد ثبت أن هذا الرجل ، أي عمر بن علي سمع من معن بن محمد ، فقد أخرج ابن حبان في «صحيحه» عن أحمد بن المقدم أحد شيوخ البخاري ، عن عمر بن علي قال : سمعت معن بن محمد ، فصرح بالسماع ، فانتفى بذلك أثر التدليس في هذا الحديث الذي رواه الإمام البخاري .

معن بن محمد بن معن :

وأما الشخص الثالث فهو معن بن محمد بن معن أبو محمد الغفاري الحجازي .

روى عن حنظلة بن علي الأسلمي وعن سعيد المقبري ، وروى عنه ابنه محمد وعمر بن علي المتقدم الذكر ، ذكره ابن حبان في «الثقات» .

سعيد بن أبي سعيد :

وأما الشخص الرابع فهو سعيد بن أبي سعيد المقبري أبو سعيد كيسان المدني .

روى عن عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما كما روى عن غيرهما ، وروى عنه الإمام مالك وابن إسحاق وغيرهما . اختلط قبل وفاته رضي الله عنه بأربع سنين ، ولولا أن الراوي معنًا سمع منه قبل اختلاطه لما أخرج هذا الحديث الإمام البخاري في «صحيحه» ، توفي رحمته الله سنة خمس وعشرين ومائة .

وفي هذا القدر من الكلام عن سند الحديث كفاية تسوغ لي أن أنتقل بعد ذلك إلى تحليل متنه .

شرح الحديث:

قوله ﷺ: «إن الدين يسر» معناه: أن الدين ذو يسر أو كائن يسر فحذفت العلاقة التي يلتزم بها الموضوع مع المحمول أي المحكوم عليه مع المحكوم به . والمحكوم عليه هنا هو الدين ، والمحكوم به هنا هو اليسر ، أو يكون التقدير هو اليسر نفسه ، أي إن الدين هو اليسر نفسه ، كما تقول في النبي ﷺ: إنه عين الرحمة ، استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ .

وفي التأكيد بـ «إن» ، في «إن الدين يسر» ، رد على منكري يسر هذا الدين . فإما أن المخاطب بهذا منكر بالفعل ليسر هذا الدين فرد عليه بهذا الخبر وبهذا التأكيد ، وإما أن ينزل منزلة المنكر ، وإما أن يكون الخطاب موجهاً إلى غير المنكرين بصفة عامة ، وإما أن يكون التأكيد وقع في هذه الجملة للعناية بشأن القصة .

قوله ﷺ: «ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»:

معناه: أن أي شخص يريد أن يدخل مع الدين في صراع ومغالبة ، ويريد أن يطبق كل جزئية ويحصى كل صغيرة فإنه حينئذ إذا دخل بنية المغالبة والصراع فإن الغلبة تكون للدين .

قوله ﷺ: «فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»:

ومعنى قوله ﷺ: «فسددوا» أي الزموا التوسط والاعتدال والسداد ، فإن لم تستطيعوا الحصول على الأكمل في الواجبات فقاربوا الحصول على الأكمل . وليس معنى هذا أن الإنسان لا يحاول أن يصل إلى الأكمل في

الواجبات وإنما النبي ﷺ نهى عن التنطع المفضي إلى المبالغة في النوافل ومحاولة مغالبة الدين بذلك ، فهذه قد تقطع الإنسان عن مواصلة السير ، «فسددوا وقاربوا وأبشروا» بالثواب على العمل .

و«أبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» استعارة لأوقات النشاط و فراغ القلب ، وهذه أوقات تكون صالحة للسفر وطيبة ، فكأنه ﷺ خاطب مسافراً إلى مقصده فنبهه على أوقات نشاطه بحيث إذا اغتنم أوقات نشاطه وحين يكون بدنه مستعداً لمواصلة السير فإنه يستطيع أن يواصل ، بخلاف ما إذا واصل الليل بالنهار فإنه لا محالة يتعرض للانقطاع ولا يدوم . كذلك الإنسان عليه أن يستثمر أوقات النشاط ويعتمد على الإنتاج على ما ينتج في هذه الأوقات ، ولا يعتمد فقط على طول المدة التي يقضيها في العمل .

شواهد قرآنية لتأكيد معنى الحديث الشريف :

هذا معنى الحديث باختصار ، وهو معنى تشهد له أدلة مختلفة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ . فلو استعرضنا أجزاء هذا الدين ، ولو أردنا أن نستقصي ما في الأحكام الإسلامية من مظاهر التيسير لما سمح المقام بذلك .

ولكن أكتفي بذكر بعض هذه الأدلة التي تشهد لهذا المعنى : من ذلك قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۚ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٧٨] . وهذا في سورة البقرة .

وكذلك ورد في سورة البقرة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وهذا في أثناء الحديث عن فريضة الصيام .

وقد تكرر مرتين هذا الحديث المليء بالرفق واللطف وتحبيب هذه الفريضة إلى نفوس المكلفين ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ .

وورد كذلك في سورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وقد ثبت في الحديث أن هذه الأدعية قد استجاب الله تعالى لها ، وهي أدعية مليئة بعناصر التخفيف والرحمة .

وكذلك ورد في الموضوع قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] .

وورد كذلك قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَهُمْ حُرِّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] .

وكذلك ورد في سورة الحج : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] .

شواهد حديثية لتأكيد معنى الحديث الشريف :

عن أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»^(١) .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : «لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال : يا جبريل ، إني بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز والشيخ الكبير والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط ، فقال جبريل عليه السلام : يا محمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(٢) .

وفي رواية أخرى عن نفس الصحابي ، أي أبي بن كعب رضي الله عنه : «أن جبريل أتى النبي ﷺ وهو بأضاعة بني غفار ، فقال : يا محمد ، إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك على حرف واحد فقال رسول الله ﷺ : أسأل الله مغفرته ومعافاته ، أو قال معافاته ومغفرته ، إنهم لا يطيقون ذلك ، فسأل لهم التخفيف ، فانطلق جبريل عليه الصلاة والسلام حتى رجع ، ثم قال للنبي ﷺ : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، فقال الرسول ﷺ : إنهم لا يطيقون ذلك ، قال : أسأل الله مغفرته ومعافاته ، أو قال معافاته ومغفرته ، إنهم لا يطيقون ذلك . فسأل لهم التخفيف ، فعل رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات ، وفي المرة الرابعة جاء جبريل وقال : «إن الله

(١) أخرجه مسلم (١٧٣٢) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٤٤) ، وأحمد في «المسند» (١٣٢ / ٥) ، وقال الترمذي : هذا

حديث حسن صحيح .

يأمر أن تقرئ القرآن على سبعة أحرف ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فمن قرأ حرفاً منها فهو كما قرأ^(١) .

نزل القرآن على سبعة أحرف من باب التيسير والتخفيف على الأمة ؛

وفي هذا الحديث الذي نص أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتره ، وله روايات مختلفة متعددة . في هذا الحديث طلب من الرسول ﷺ للتخفيف فالرسول ﷺ حتى في تلاوة القرآن الكريم على وجه واحد لم يقبل ذلك لأُمته التي كانت آنذاك أُمية ، فيها الشيخ الكبير - كما قال الرسول ﷺ - وفيها العجوز ، وفيها الجارية وفيها الرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط . هذه الأمة كانت تحتاج على تخفيف ، فالرسول ﷺ طلب لها التخفيف ، فجاء التخفيف على لسان جبريل وهو أن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

وهذا وجه من وجوه الإيجابيات لتعدد القراءات في القرآن . فالذين كانوا قد تعودوا استعمال لغة من اللغات وكثرت مثلاً عندهم الهمزة أو كثرت عندهم الإمالة أو كثر عندهم الفتح ، من المناسب أن يقرءوا بأي حرف فيه الإمالة حسب لغتهم ، أو فيه الفتح حسب لغتهم ، أو فيه الإمالة والفتح ، أو فيه الهمز وفيه التخفيف ، فيكون في هذا تخفيف من الله تعالى ورحمة بالأمة الإسلامية .

التخفيف في الطهارة؛

كذلك ورد التخفيف في كثير من الأحكام الشرعية . فهذه الطهارة مثلاً قد تتحول من طهارة مائية إلى طهارة ترابية ، وذلك في بعض الأحوال ،

(١) أخرجه مسلم (٨٢١) .

فيستعيض الإنسان عن الطهارة المائية بالطهارة الترابية تخفيفاً من الله ورحمة ، وذلك في بعض الأحوال كما قلت ، إليها يشير صاحب «المرشد المعين» بقوله :

فصل لخوف ضر أو عدم ما (أي ماء) عوض من الطهارة التيمما

أي في حالة ما إذا كان استعمال الماء يضر أو في الحالة التي يفقد فيها المكلف الماء ، فإنه حينئذ ينتقل إلى استعمال التيمم .

التخفيف في قصر الصلاة في السفر:

كذلك في السفر ، الصلاة الرباعية تتحول إلى ثنائية ، وهذا يستفيد منه سائر طبقات المجتمع دون النظر إلى مستوياتهم في الغنى وغيره ، وإنما جميع المسافرين يستفيدون من هذا التخفيف فيحولون الصلاة الرباعية إلى ثنائية من باب السنة .

التخفيف في الإفطار في السفر:

كذلك يمكن لهم أن يفطروا وهم مسافرون ، وأيضاً هذا يستفيد منه سائر طبقات المجتمع ، فمن أراد أن يفطر وهو مسافر على أن يقضي في أيام أخرى فله ذلك ، كذلك من هذا الباب التخيير والتوسيع في الكفارات ، فكفارة الصيام مثلاً عند المالكية هي على التخيير بين الإطعام وصيام شهرين متتابعين وتحرير رقبة .

وهذا التخيير عند المالكية هو أوسع من الترتيب الذي يذكره أصحاب المذاهب الأخرى ، وهذا التخيير كذلك يستفيد منه سائر طبقات المجتمع على اختلاف مستوياتهم ، خلافاً لما أفتى به يحيى بن يحيى أمير الأندلس من كون الصيام هو الذي يصلح كفارة له ، وذلك لأنه في اعتقاده أن ذلك

أنسب له ، وإنما الكفارة حسب المذهب المالكي فيها الاختيار ، يعني كفارة من انتهك حرمة رمضان عمداً .

التخفيف في كفارة اليمين :

وكذلك التخير والتوسعة في كفارة اليمين ، فكفارة اليمين للحنث الذي يحث في حلفه فيها توسعة ، بحيث نجد أن هناك أربعة أنواع ، فإذا عجز الإنسان عن القيام بواحد من الأشياء الثلاثة ، انتقل بعد ذلك إلى النوع الرابع ، هذا ما يعبر عنه قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٨٩] .

فإنه سبحانه وتعالى وسع على أمته في هذه الكفارة ، وخيرها بين ثلاثة أنواع ، فلكل حانث أن يفعل واحداً من هذه الأشياء الثلاثة ، ولا ينتقل إلى الرابع إلا بعد العجز عن الواحد من الأشياء الثلاثة ، وفي هذا توسعة وتخفيف على الأمة .

التخفيف في كفارة الظهار :

كذلك كفارة الظهار هي عند الفقهاء على الترتيب ولكن فيها توسعة وهي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوَعُّظٌ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [النساء : ٣٥] فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة : ٣ ، ٤] .

قال الفقهاء : هي على الترتيب كما ورد في الآية . ومع ذلك فيها توسعة وفيها رحمة وتخفيف للأمة .

أدلة أخرى:

وهناك أدلة أخرى ، منها ما في الإسلام من صفح وعفو وقبول التوبة والإكثار من الحسنات ، التكثير من الحسنات ، قال الله ﷻ : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

وجاء أيضًا في القرآن الكريم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

كل هذا أو غيره من الأدلة المتناثرة في الشريعة الإسلامية في نصوص الشريعة الإسلامية يدل دلالة قطعية على أصالة مبدأ التيسير .

التيسير في الإسلام يتلاءم مع طبيعة الإنسان :

ومبدأ التيسير في الإسلام مبدأ يتلاءم مع طبيعة الإنسان ، ففي طبيعة الإنسان حب الرفق والميل إلى تذوقه ، والميل إلى السهولة واليسر ، ونفور النفس من العسر والشدة والتشدد .

وهو كذلك مبدأ يتلاءم مع تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان فليس من المعقول أن يكون المقصود التعذيب والتنكيل والحرَج ، لذلك كان المقصود الرفق بهذه الأمة ، وكان المقصود أن يجب إليها أحكامه وشرائعه .

وهو كذلك مبدأ يتلاءم مع طبيعة الإسلام الذي لا بد أن يستمر ، ولا بد أن ينتشر ، فلهذا المبدأ علاقة بانتشاره واستمراره ، وهو الذي ساعد على دخول الناس في دين الله أفواجًا في القديم وفي الحديث ، هذا هو مبدأ التيسير . وقد عمل رسول الله ﷺ بهذا المبدأ .

تعامل النبي ﷺ بالتيسير في الأمور:

وفي سيرته عليه الصلاة والسلام كثير من مظاهر التعامل بالسماحة وباليسر وبالسهولة ، واستعمال المبدأ عند الاقتضاء .

ومن ذلك مثلاً ما وقع بينه عليه الصلاة والسلام وبين أعدائه في صلح الحديبية سنة ست للهجرة ، وما وقع كذلك بينه وبين خصومه لما فتح مكة سنة ثمان للهجرة ، وعن تعامله ﷺ مع هذا المبدأ وموقفه منه تقول عائشة رضي الله عنها تلخص لنا كيفية تعامله عليه الصلاة والسلام مع مبدأ التيسير وتقول : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

قد حددت تعامل الرسول ﷺ في هذا الوصف وهو أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ الإثم معياراً في كل عمل يريد أن يقدم عليه ، فإذا رأى أنه إثم كان أبعد الناس منه ، وإذا لم يكن كذلك وخير بين أمرين فإنه يختار الأيسر والأسهل . هذا عن التيسير وعن أصالته في الإسلام .

النهى عن الغلو:

أما عن الغلو فالغلو يمكن أن نفهمه في ظلال مجموعة من الأحاديث ، منها : أن الرسول ﷺ رد على الذين قال بعضهم : لا أتزوج النساء وقال

بعضهم : لا أكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، رد النبي ﷺ على هؤلاء جميعاً وقال : «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١) .

وكذلك ما ورد عنه ﷺ من كونه نهى عثمان بن مظعون عن التبتل ، وما ورد كذلك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال : «من هذه؟ قالت : فلانة تذكر من صلاتها ، وتعجب من كثرة هذه الصلاة ، فقال النبي ﷺ : مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، وكان أحب الدين إلى الله ما داوم عليه صاحبه»^(٢) .

إذاً في ظل هذا النهي النبوي عن الغلو ، في ظل هذه الأدلة السالفة الثلاثة نفهم معنى الغلو ، فالنبي ﷺ في هذه الأحاديث لم ينه عن القيام بالواجب ، ولم ينه كذلك عن القيام بالنوافل التي يقدر الإنسان على القيام بها ، ولكنه نهى عن شيء أراد المتنطعون أن يخلقوه ويخرجوا به عن سنة النبي ﷺ ، فلا زواج ولا نوم ولا أكل للحم ، وهذا طبعاً مخالفة للواجب ، وكذلك لمنهاج رسول الله ﷺ بصفة عامة .

إذاً فالغلو يفهم على هذا الشكل ، هو أن الرسول ﷺ أراد أن يلفت هؤلاء المغالين إلى الصواب ، وأن يبين أن القيام بالواجب والقيام بما يقدر عليه الإنسان من نوافل ليس غلوّاً ، ولكن الغلو هو أن يخترع الإنسان طريقة كما أراد هؤلاء أن يخالفوا بها طريقة رسول الله ﷺ ، وكذلك في الحديث الأخير ، النبي ﷺ قال : «عليكم بما تطيقون» .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣) ، ومسلم (٧٨٢) .

ومعنى هذا أن المكلف يعمل ما فيه استطاعته ويقوم بالواجبات ويقوم كذلك بما يستطيع من النوافل .

نعم ، قد يكون في استطاعة بعض الأشخاص أن يقوموا بالواجبات ويكثروا من النوافل ، وهذا حدث في التاريخ الإسلامي القديم والحديث ، بحيث تجد بعضهم يصبر على طلب العلم ، ويصبر على كثرة الصلاة ، ويصبر على كثرة الصيام . ويصبر على كثرة الجهاد ، ويصبر على كثرة الإنفاق ، وهكذا ، فيقوم بالواجبات ، ويقوم كذلك بالنوافل ، ويكثر منها كما هو الحال لدى بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، ولدى التابعين ، ولدى من تبعهم إلى يومنا هذا .

وهؤلاء إن أكثروا من النوافل زيادة على الواجبات ولم يكن عملهم في مجال النوافل على حساب القيام بالواجبات أي لم يخلوا بواجب من الواجبات ، واستطاعوا أن يفعلوا ذلك ووجدوا فيه لذة ، وقدروا عليه ، فإن هذا بالنسبة لهذه الطائفة وهؤلاء الأشخاص لا يعد كذلك غلوًا .

ومع هذا فإن عامة الناس لا يصلح معهم التوغل في النوافل والإكثار من ذلك ، وإنما يصلح معهم سلوك طريق الرفق والاعتدال لأنه أدعى إلى ضمان استمرار الأمة ودوام نظامها .

القصاص لا يُعد غلوًا :

ثم إن المكلف إذا تعرض للقصاص ، القصاص الذي يقام عليه نتيجة تصرفه غير المشروع لا يعد غلوًا ، فهو وإن كان فيه حرج وضيق وضرر بالنسبة له إلا أنه من الجانب الآخر ، أي إقامة القصاص لا يعد غلوًا لأن فيه حياة وفيه رحمة للأمة .

وعلى هذا يتنزل قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة : ١٧٩] . وإليه الإشارة بقول العرب «القتل أنفى للقتل» وقول الشاعر :

فقسا لتزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا وحيئا يرحم
وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغتر يحرسه الدم

وبين الأقوال الثلاثة فروق ، فاللفظ القرآني لا يذكر القسوة ولا يذكر الزجر ، ولا يذكر القتل ، ولا يذكر التعذيب ، ولا شيئاً من هذا القبيل ، وإنما يذكر القصاص ، ويذكر الغرض الأصلي منه وهو الحياة ، فيتميز بذلك عن بقية الأقوال .

كذلك لا يعد من الغلو ما يقع فيه المكلف ، المكلف يتصرف تصرفاً مشروعاً ثم يحدث له ما يحدث أثناء ممارسة هذا العمل المشروع ، فإذا حدث أن وقع في حادث من الحوادث فذاك ابتلاء من الله تعالى ولا يعد غلوّاً ، وله أن يدفعه ويتجنبه حسب الإمكان .

من الغلو التعدي على تفسير القرآن لمن ليس أهلاً لذلك :

ومن الغلو أن يتجنى الإنسان ويعتدي ويتعسف في تفسير نصوص القرآن الكريم كما حدث لبعض الفرق التي انتسبت إلى الإسلام . هذه الفرق ، وأقصد بعضها بالخصوص ، تعسفت على نصوص القرآن ، وذلك أنها وضعت خطة لمذاهبها وأحكاماً لآرائها وأهوائها ، ثم عمدت إلى القرآن الكريم تطوعه وتخضعه لآرائها ولما تميل إليه ، فجعلت القرآن تابعاً لا متبوعاً .

وهذا موطن الخطأ ومنشأ الخلاف بين أهل السنة والجماعة ، وبعض الفرق التي تعسفت في تفسير القرآن الكريم ، وخرجت بآراء ما أنزل الله

بها من سلطان . والمؤلفات القديمة والحديثة لا تزال تنقل لنا سخافات وخرافات لهذه التفسير .

فالإنسان المكلف إذا عمد إلى القرآن ووجد شيئاً لم يفسر في القرآن الكريم ، ولم يفسر في سنة رسول الله ﷺ ، ولا في أقوال الصحابة رضي الله عنهم ، ولم يجمع عليه كذلك التابعون ، فإن من حقه إذا كان أهلاً للاجتهاد أن يجتهد ويفسر بضوابط مقررّة عند العلماء في مظانها ، ولكن يعمد هكذا اعتماداً على هواه وعلى رأيه الشخصي دون ضوابط ، ويفسر القرآن الكريم فإن هذا التفسير يعتبر غلوّاً وتجاوزاً للحق ، وتنطعا في الدين .

من الغلو تعمد استبدال أحكام ثابتة في الدين بغيرها :

ومن ذلك أيضاً من الغلو أن يعمد الإنسان إلى المواطن التي لا يجوز له فيها أن يجتهد ف يريد أن يجتهد ، فيستبدل أحكاماً ثابتة مقررّة في عصر الرسول ﷺ في حياته ولم يدل الدليل على نسخها وإزالتها ، فيعمد إلى استبدالها بغيرها ، فيكون هذا غلوّاً في الدين لأن دائرة الاجتهاد واسعة ، ولكن خارج إطار النصوص التي تنطق بأحكام صريحة .

الاجتهاد عند غياب النص :

أما النصوص التي تقبل الاجتهاد فهذه أيضاً يمكن للإنسان أن يجتهد فيها كما يمكن له أن يجتهد عند غياب النص . لكن إذا عمد إلى إزالة حكم ثابت مقرر في عهد الرسول ﷺ ، فإنه يكون كمن يعمل بالنسخ بعد وفاته ، ولا نسخ بعد وفاته ﷺ . فما ثبت وتقرر يعمل به ، وإذا لم يعمل به الإنسان فيكون مغالياً في الدين ومتجاوزاً للحق .

اجتناب الهوى يبعد عن الغلو في الدين :

وأقول في نهاية هذا الموضوع : إن هوى الإنسان هو الذي يكون في كثير من الأحيان وراء التلاعب بمبدأ التيسير ، أو وراء الغلو في الدين ومجاوزة الحق ؛ والإسلام كما هو معلوم أراد أن يخرج الإنسان عن داعية الهوى ويجعله عبدًا لله سبحانه وتعالى ، ولم يؤسس مبادئه على أهواء الناس ؛ لأن ذلك لو اعتمد معيارًا في وضع المبادئ والأحكام لدخل على الناس فساد عريض ، ولوقعوا في الفتنة .

والله سبحانه وتعالى حذر من نتائج الهوى في كل شيء ، وقال : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] . وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] . وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

إذا فلا بد من اجتناب الهوى ، ولا بد من الوقوف عند الأحكام ، لأن هذه الأحكام هي بطبيعتها مسرة تحمل التخفيف الذي أراده الله سبحانه وتعالى .

ارتكاب أخف الضررين عند وقوع مشكلة :

وإذا كان الإنسان بعيدًا عن النصوص وبعيدًا عن الأحكام ، وواجه مشكلًا من المشاكل ، فإن له أن يقارن بين ضررين ويرتكب أخفهما ، وله كذلك أن يعمل باليسر ، ولكن أن يعتمد إلى الواجب فيتخلى عنه . فيكون هذا تقصيرًا ، ويعتمد إلى الواجب فيغيره فيكون كذلك تقصيرًا أو غلوًا في الدين .

الالتزام بمبادئ الشريعة وأحكامها هو الطريق المستقيم :

فالطريق السوي المستقيم -والله تعالى أعلم- هو أن يلتزم الإنسان بمبادئ الشريعة وأحكامها ، وأن يقوم بواجبه ما استطاع ، وأن يقوم بما يقدر عليه من النوافل ، وأن يسلك في ذلك سبيل الرفق واللطف والتدرج .

وإذا عملت الأمة كلها بهذا فإنها لا تترك الساحة فارغة للمغالين والمتشددين والمتنطعين ؛ لأن الفراغ إذا كان موجودًا يكون مهينًا لأن يتقبل ويحتضن أي تطرف وأي انحراف .

المحاضرة الثالثة والأربعون بعد المائة

منهج البحث العلمي في الإسلام

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

وسأتحدث تباعاً عن الحديث ورواياته وسنده ومعانيه ولطائفه ، ثم أشرح بعض المفاهيم التي تتعلق به كالدين والشرع والفقه .

كما سأفصل القول في المناهج العلمية عند المسلمين لأتطرق بعدها إلى الفقه في الدين وتكوين الفقيه ودوره في المجتمع خصوصاً في عصرنا الحديث .

حديث «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ورد بصيغ متعددة في صحيح البخاري ومسلم ، وفي كثير من كتب السنة كمسند الإمام أحمد وسنن الدارمي والترمذي وابن ماجه والنسائي ، كما ورد أيضاً في موطأ الإمام مالك رحمهم الله أجمعين .

طرق روايات الحديث:

وقد جاء من طرق أربعة عن الرسول ﷺ : رواه ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة ومعاوية ، في صيغ مختلفة عددها فوجدناها تصل إلى ثلاث وعشرين رواية مختلفة .

نواتها الأولى قوله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

مع زيادات في الأول والآخر .

وهي في البخاري أربع روايات : في كتاب العلم (مرتان) ، وفي كتاب الاعتصام ، وفي كتاب الخمس .

وفي صحيح مسلم روايتان : في باب الإمارة وباب النهي عن المسألة .

وفي سنن ابن ماجه روايتان أيضًا .

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل أربع روايات .

كما ورد في مسند الإمام النسائي الذي ذكره في كتاب العلم .

في صحيح البخاري باب «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» جاء الحديث بزيادة في الأخير هكذا : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» ؛ رواه البخاري عن سعيد بن عفير ، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن ، أنه سمع معاوية خطيبا يقول عن الرسول ﷺ (الحديث) .

ثم ذكره مرة أخرى في باب آخر «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما العلم بالتعلم» دون ذكر للسند .

وفي كتاب الاعتصام جاء الحديث على هذه الصيغة : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله» رواه البخاري عن إسماعيل عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد ، قال سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (الحديث) .

وورد ذكره كذلك في كتاب الخمس ، باب قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ وَلِلرَّسُولِ ﴿ [الأنفال : ٤١] ، «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين والله المعطي وأنا القاسم ، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» رواه البخاري عن حبان عن عبد الله عن يونس عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية قال ، قال رسول الله ﷺ (الحديث) .

أما في بقية المصادر التي ذكرناها فالاختلافات متعددة في الصيغة حسب الباب الذي ورد فيه الحديث .

ويتساءل الإنسان عن سر هذه الاختلافات في الصيغة؟

الجواب أن رسول الله ﷺ كان وما يزال هو المعلم الأول لهذه الأمة ، وكان يرشد أصحابه ويعلمهم ، فيأتي بالفكرة الرئيسية في الحديث ثم يتبعه بكلام في المناسبات التي تستدعيها الظروف والحالة التي قيل فيها ؛ لذلك تعددت صيغته ورواياته .

وإذا نظرنا في مختلف صيغ الحديث وملابساته نجد أن الأبواب التي ذكر فيها برواياته المختلفة هي :

- باب فضل العلماء والحث على طلب العلم .
- باب الإمارة .
- باب النهي عن المسألة .
- باب الاعتصام .
- باب ما جاء في أهل القدر .

- باب الرقائق .

- كتاب الخمس .

ذكر معاني ولطائف الحديث :

وقد وقف شراح الحديث عنده طويلا ، فترجموا لرجاله وذكروا معانيه ولطائفه .

وهو يشتمل على ثلاثة أحكام :

- فضل التفقه في الدين .

- أن المعطي في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى .

- أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبدا .

الأول : لائق بأبواب العلم .

الثاني : لائق بتقسيم الصدقات ، لذلك أورده مسلم في باب الزكاة ، والبخاري في باب الخمس .

الثالث : لائق بذكر أشراط الساعة ، لذلك أورده البخاري مرة أخرى في باب الاعتصام لالتفاتة إلى مسألة عدم خلو الزمان من مجتهد .

وقد تتعلق الروايات الأربع بأبواب العلم خاصة ، من جهة إثبات الخير لمن تفقه في دين الله ، بأن يفتح الله عليه ، ومن يفتح الله عليه لا يزال جنسه موجودا حتى يأتي أمر الله ، وقد جزم البخاري بأن المراد بهؤلاء هم أهل العلم بالآثار .

قوله : «يفقهه» أي يفهمه ، وهي ساكنة الهاء لأنها جواب الشرط و«خيرا» نكرة لتشمل القليل والكثير ، والتنكير هنا للتعظيم لأن المقام يقتضيه .

ذكر لطائف إسناد الحديث:

ذكر العيني في شرحه للبخاري في كتابه «عمدة القاري» لطائف إسناد هذا الحديث ، فذكر أن فيه التحديث والعنونة والسماع ، وأن روايته بين بصري وأيلي ومدني ، ومنها أن فيه رواية تابعي عن تابعي ، ومنها أنه قال في الإسناد : (وعن ابن شهاب قال ، قال حميد بن عبد الرحمن ولم يذكر فيه لفظ السماع ، وهكذا هو في جميع نسخ البخاري) .

علما بأن الحديث المعنعن هو الذي يقال في سنده : فلان عن فلان من غير التصريح بالتحديث أو الإخبار أو السماع ، وتشدد بعض المحدثين فعدوه من قبيل الحديث المرسل ، وهو الحديث الذي يرفعه التابعي ، بأن يقول عن النبي ﷺ مباشرة ، بينما المنقطع هو كل حديث سقط منه راو أو أكثر في أي موضع من السند .

أما السماع فهو واحد من الطرق الثمانية لأخذ الحديث وتلقيه ، وهو أرفع درجات أنواع التحديث ، وبواسطة السماع تلقى الحديث الرعيل الأول من المحدثين عن النبي ﷺ وهم الصحابة من المهاجرين والأنصار .

ومن مختلف روايات هذا الحديث استنبطت بعض الأحكام ففيه :

- فضل التفقه في الدين على سائر العلوم .
- وفضل العلماء على سائر الناس .
- ودلالة على حجية الإجماع ، لأن مفهومه أن الحق لا يعدو الأمة .
- وإخباره ﷺ بالمغيبات .
- كما استدلل به البعض على امتناع خلو العصر من مجتهد .

شرح مفاهيم تتعلق بالحديث مثل: الدين والشرع والفقه :

حينما ننظر في هذا الحديث وفي تفاسيره تعترضنا مصطلحات ثلاثة هي الدين والشرع والفقه .

يطلق لفظ الدين لغة على معان شتى ، وهو من قبيل الألفاظ المشتركة عند أهل اللغة ، فهو يفيد الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] .

وفيد الطريقة ، كما في قوله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦] . وغير هذين المعنيين وارد ، لا حاجة إلى الإطالة فيه .

أما اصطلاحاً فيراد به ما شرعه الله لعباده من أحكام سواء ما يتصل منها بالعقيدة أو الأخلاق أو الأحكام العملية .

والشرع مصدر ، شرع للناس كذا أي سنه لهم ، وهذا شرع الله أي ما شرعه الله وسنه لعباده ، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى : ١٣] كما جاء في سورة الشورى .

وهو في الاصطلاح ما سنه الله سبحانه وتعالى من أحكام عقائدية أو عملية أو خلقية .

وأما مادة الفقه فهي من فقه ففقه بمعنى علم علماً ، وهذه المادة وردت على الصيغ الثلاث : فَعَلَ وَفَعَلَ وَفَعَّلَ ، فقه يفقه وفقه يفقه وفقه يفقه ، وهذه الثالثة هي التي تدل على التمكن والتعمق ، وأن الفقه أصبح نعتاً لصاحبه وسجية له ، فلم يعد فقط مجرد علم ومعرفة .

والفقه في الأصل الفهم ، يقال أوتي فلان فقهاً في الدين ، أي فهماً فيه ، قال عجل : ﴿لَيْتَفَقَّهُوْا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، أي ليكونوا علماء به .

وعند الأصوليين والفقهاء المتأخرين يطلق الفقه على العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية؛ والذي يخوض في هذه المسائل أصبح يطلق عليه الفقيه .

وعند تعرضنا فيما بعد للمصطلحات الإسلامية سنرى كيف زحزحت بعض الألفاظ اللغوية منذ بدء الإسلام عن معانيها اللغوية الأولى التي كانت معروفة لدى الجاهليين وأصبحت لها معان اصطلاحية ثانية في الإسلام .

كلنا يعرف أن الباعث الأول لنشأة العلوم الإسلامية هو الدين الجديد الذي حفز المسلمين بعد تدوين القرآن على تدوين الحديث واللغة وما تعلق بهما من العلوم .

وهناك آيات قرآنية كريمة تدعو إلى الخوض في العلم والانصراف إليه ، والتفقه فيه ، والتدبر في العالم واعتبار خالقه وخالقه ، والرفع من شأن العلماء ، كما أن هناك أيضاً أحاديث نبوية كثيرة في الموضوع تحض على طلب العلم وتذكر بالثواب الذي يثيبه الله سبحانه وتعالى ويخصه لمن انصرف إلى العلم وتعاطى له .

قال ﷺ في سورة التوبة : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وفي سورة فاطر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وفي سورة الزمر : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الزمر : ٩] .

وفي سورة العنكبوت : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وفي سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

وفي سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ ﴿ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه : ٢٥-٢٨] .

وفي سورة طه أيضًا : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

وفي سورة المجادلة : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١٢] .

أما الأحاديث النبوية الشريفة في الموضوع فهي كثيرة كذلك نذكر بعضها :

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة » قال المنذري إسناده حسن .

وفي سنن ابن ماجه عن صفوان بن غسان المرادي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنتها رضا بما يصنع » .

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على

سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» . رواه أبوداود والترمذي بسند منقطع ، وقال البخاري إن له سندا آخر أصح من هذا .

هذه هي بعض الآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة الواردة في شأن العلم عند المسلمين ، وهي التي دفعتهم إلى طلب العلم حتى نفقت أسواقه في المجتمع الإسلامي أيام الازدهار ، فاعتنوا بالبحث العلمي وبتقنين مناهجه وطرقه .

لذلك يصح أن نقول : إن الإسلام الذي بني على خمس قد أسس كذلك على ركاز وأساس آخر هو العلم ، فمع هذه الآيات والأحاديث لا يصح للمسلم أن يكون جاهلا ، وأن لا يطلب العلم ، وأن يبقى غارقا في الأمية لأنه سيكون قد أخل بمطلب من مطالب الإسلام الكبرى .

المناهج العلمية عند المسلمين :

وقد خاض المسلمون في موضوع البحث العلمي بجد وحماس متأكدين من أن تقدم العلم رهين بتقنين مناهجه التي لها دور كبير في ترتيب المعرفة العلمية وتطورها ؛ وأن انتكاس العلم يكون سببه النقص في تطبيق المناهج العلمية وتحديثها .

والمعرفة الواعية لمناهج البحث العلمي هي التي تمكن العلماء الباحثين من الإتقان في مجالات بحثهم وتجنبهم كثيرا من الخطوات المتعثرة ، وهذا ما فهمه علماء المسلمين منذ البداية فكانت لهم طرقهم ومناهجهم الدقيقة في البحث والاستقصاء .

والمناهج والمنهاج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن حقائق العلم بواسطة طائفة من القواعد المحددة التي تهيم على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة كان يبحث عنها .

وبذلك يكون علم المناهج هو العلم الذي يبحث في الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة ؛ وفقدان المنهج وقواعده وضوابطه يؤدي إلى الأخطاء الفكرية في الحياة العلمية .

وللعلوم الإسلامية أصول أربعة :

- المعرفة التامة بالقرآن والحديث .
- المعرفة التامة باللغة العربية لأنها لغة القرآن والحديث .
- العلم بأصول الفقه لأنه عماد الاجتهاد وأساسه .
- العلم بمقاصد الشريعة لمعرفة قصد الشارع من الأحكام وغاياته ومراميه منها .

وقد كانت الثقافة الإسلامية شجرة وارفة الظلال ، متنوعة الأفنان ، متعددة الأغصان ، كلها في خدمة الدين والقرآن ، وعلاقة هذه العلوم بتفسير القرآن هي علاقة الخصوص بالعموم ، لأن علوم التفسير وعلوم القرآن نشأت من تدبره وحفظه وتلاوته ومعرفة ناسخه من منسوخه وأسباب نزوله وغير ذلك .

كما أن علوم اللغة نشأت من قراءة القرآن وبحث ألفاظه ومعانيه والتحرز من اللحن والخطأ فيه .

وعلوم البلاغة وفنونها نشأت من محاولة الوقوف على مظاهر إعجازه .

وعلم الأصول نشأ من ضبط منهج الاستنباط من أحكامه ، إذ لم تكن عملية الاستنباط اعتباطية ، وإنما كانت تجري حسب قواعد حصرها الأصوليون ، ودققوا بها عملهم ومناهجهم .

وعلم الكلام نشأ كذلك من حث القرآن على الدعوة إلى الله ، والدفاع عن الإسلام وتجريده مما يلحقه من تشويه .

والفقه نشأ من تتبع أحكام القرآن في الحلال والحرام مع الاستدلال بالسنة النبوية المبينة لتلك الأحكام .

وأخيرا نشأ علم التاريخ من دعوة القرآن إلى السير في الأرض واعتبار الأمم الغابرة ، وسنن الله في المجتمع البشري .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يكون القاعدة الثقافية الكبرى التي تشكل النشاط الفكري في المجتمع الإسلامي على مر العصور ، وكل المفاهيم الأساسية في المجتمع الإسلامي ظلت تستمد أصولها وقيمها منه ، وتقوم على قاعدته الروحية ، وهو ما جعله المرجع العام لنشأة الحضارة الإسلامية ، وبوآه المكانة الخاصة التي احتلها في توجيه حياة المسلمين الروحية والفكرية والثقافية والاجتماعية .

ونظرا لكثرة الأحكام القرآنية المجملة ، فإن الرجوع إلى الحديث النبوي الشريف كان ضرورة قصوى لتبيينها وتفصيلها وتحديد المراد منها .

ومن مظاهر الحركة العلمية عند المسلمين أيضًا التدوين التاريخي ، لأنه يتعلق بسيرة الرسول ﷺ وذلك للاهتمام بحياته والافتداء بها والاهتداء بتفاصيلها وبأعماله كلها ، وكذلك لوصف المغازي وأخبار الفتوحات اعتناء بالنصر العظيم الذي أحرزه الإسلام ، فكان لزاما على المسلمين أن

يسجلوا هذه الفتوحات وقد فعلوا ذلك .

إذن ، انبثقت من الإسلام حركة فكرية متنوعة تتناول القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واللغة وقواعدها ، والأدب وفنونه ، والتاريخ وفروعه ، والقضاء وأحكامه ، ووجهت هذه الأعمال كلها لخدمة الدين ونشر مبادئه ، وتطبيق أحكامه ؛ فكانت للفقهاء مذاهبه وكتبه وأصوله ، كما كان للدين أصوله ومتكلموه ومدوناته وفرقه .

وبعد تدوين الفقه وأصول الحديث تم تدوين اللغة والنحو ؛ ويعترف اللغويون أنهم اعتمدوا في تدوين أصول علمهم على أصول الفقه ، يقول اللغوي الكبير ابن جني : « ينتزع أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة لأنهم يجدونها منشورة في أثناء كلامه ، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق » .

أما ابن الأنباري فقد قال في مقدمة كتابه « المع الأدة في أصول النحو » إنه ألفه ليكون للنحو بمثابة علم أصول الفقه .

والسيوطي أكد ذلك في مقدمة كتابه « الاقتراح » أن كتابه هذا بالنسبة للنحو كأصول الفقه بالنسبة إلى الفقه ، ويقول إنه رتبته على نحو أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم لما بين النحو والفقه من مناسبة ، فكل منهما معقول من منقول ، كما أنه استخدم نفس المصطلحات : القياس ، والعلة ، واستصحاب الحال ، والسماع ، والإجماع وغيرها ، وبذلك كانت للعلوم الدينية آثار كبيرة في العلوم اللسانية .

ونفس الشيء مع علوم الحديث ، حينما أراد علماء اللغة أن يسيروا على

نهج علماء الحديث في التوثيق بحيث يروون الأخبار ومعاني الألفاظ ،
ويذكرون كل كلمة بسندها إلى الذي أخذت عنه ، وكذلك الخبر ؛ لكن
الحديث محدود لأنه كلام النبي ﷺ ، أما اللغة كلها فلا يمكن أن يطبق
عليها ذلك لاتساعها وتشعبها .

وهكذا استعمل المناهج الحديثية اللغويون الأولون وكذلك الأدباء
المتقدمون .

ونجد أثرا لهذا في كتاب الأغاني ، حينما يذكر الأخبار بالسند ، لكن
الأمْر صعب عليهم بعد ذلك فتركوه وعادوا يذكرون الأخبار ويفسرون
اللغة بدون ذكر للسند ، لأن حبل السند طويل جدا كما قلنا .

ويذكر كمثال على تداخل المناهج أن الجرمي كان يشتغل بالحديث ،
فلما درس كتاب سيبويه ، وهو الكتاب الأول في النحو كما نعلم ، قال :
« منذ ثلاثين سنة وأنا أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه » ، وذلك
بعدهما تعلم منه المنهج وطرق النظر والتفتيش والبحث ، فطبقها على العلم
الذي كان يشتغل به ، وهو الحديث .

هكذا كانت مناهج العلماء المسلمين وطرقهم في البحث العلمي ، وقد
كانت تتخلل اجتهاداتهم قضايا علمية ومعرفية طوال العصور ؛ ومن أهمها
قضايا الاختلاف في الرأي والنقل والعقل ، والمصطلح العلمي ثم قضية
التفاعل بين مختلف هذه العلوم .

الاختلاف في الرأي من قضايا الدين :

وقضية الاختلاف في الرأي مهمة جدا ؛ لأن الاختلاف في وجهة النظر ،

وتقديم الأشياء والحكم عليها أمر طبيعي في مجال العلم ، وهو ظاهرة صحية تغني عقل المسلم بخصوبة الرأي وسعة الاطلاع وبذكر آراء متعددة ومختلفة لعلماء كثيرين ، فيكون أمام الباحث كثير من وجهات النظر وتتوافر له رؤية المسألة من زوايا وأبعاد متعددة .

وقد اهتم العلماء بهذا الموضوع وخصوه بتأليف نجد على رأسها كتاب ابن السيد البطليوسي الأندلسي الذي ألفه في القرن الخامس الهجري وهو «الإنصاف في التنبيه على أسباب الاختلاف ، لبيان أوجه الخلاف» - كما قال- في الملة الحنيفية : حتى صار من فقهاءهم المالكي والشافعي والحنفي والأوزاعي ومن ذوي مقالاتهم ، الجبري والقدري ، وذلك لعرض أسباب اختلاف الفقهاء والمتكلمين والنحاة والقراء وغيرهم .

ولابن تيمية كذلك رسالة قيمة في الموضوع عنوانها : «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» يقول فيها : «وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته ضئيل ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع رسول الله ﷺ وعلى أن كل واحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد من عذر في تركه ، وجماع الأعذار ثلاث أصناف :

١ - عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله .

٢ - اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول .

٣ - اعتقاده أن الحكم منسوخ .

ولعل كل هذه الأسباب تنحصر في سببين رئيسين :

١ - الخلاف في ثبوت النص ، وهذا خاص بالحديث والرواية .

٢- الخلاف في فهم النص بحسب قواعد اللغة وأوضاعها المشهورة ، وهذا يشمل القرآن والحديث .

فاختلاف الفقهاء يرجع إلى اختلافهم في الأصل الذي بنيت عليه آراؤهم ، ومنه ما يرجع إلى اختلافهم في الفهم والنظر فقط مع اتحادهم في الأصل الذي رجعوا إليه ؛ فجميع الأحكام المستمدة من القرآن إنما يرجع الاختلاف فيها إلى اختلافهم في وسائل فهمه وطرائقه لا إلى اختلافهم فيه أو في ثبوته أو في وجوب العمل به» .

أما ما يخص المصطلح العلمي عند المسلمين فقد جد منذ نزول القرآن الكريم كثير من المفاهيم لم تكن معروفة في العصر الجاهلي ، فاقترضت لها مفردات من اللغة واستعملت استعمالاً خاصاً لم تكن تعرف به من قبل ؛ فالصلاة في الجاهلية هي الدعاء ، وما زال هذا المعنى عندنا حتى : (اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد) .

غير أن الصلاة في الإسلام صارت تفيد تلك الشعيرة التي نقوم بها على الوجه المعلوم في أوقات معلومة ؛ فالمعنى كان عاماً ثم خصص ، وكذلك بالنسبة للزكاة التي هي في أصل اللغة النمو ، من زكا يزكو ، إذا نما ، وأصبحت في الإسلام يقصد بها ذلك القدر الذي يجب على المسلمين إخراجه من مالهم إذا اكتمل النصاب ومر عليه الحول .

وإذا قارنا بين معاني الألفاظ الأصلية الأولى وبين معانيها الجديدة التي نقلت إليها لاحظنا أن الثانية غالباً ما تخصصها وتحد من اتساعها فتصبح مقيدة بعدما كانت تطلق إطلاقاً عاماً ، وتفيد الخصوص بعدما أفادت العموم .

إن هذه الوسيلة في تنمية اللغة قد توبعت فيما بعد فساعدت على تطور العلوم الإسلامية ومكنت العلماء من إيجاد الألفاظ اللازمة للتعبير عن المسميات الجديدة . وهذا ما يسمى بالألفاظ الإسلامية عند فقهاء اللغة .

ولو سألنا كبار الأدباء الجاهليين عن معنى الفاعل مثلاً لقالوا إنه «هو الذي يفعل الشيء» ، ولكنه أصبح عند المسلمين في مجال العلوم الإسلامية يعرف بأنه هو الذي فعل الفعل أو قام به ، وكذلك الأمر بالنسبة للمبتدأ والخبر .

ولكل مصطلحات ؛ علوم اللغة والبلاغة والفقه .

مثلاً : الموضوع هو الطهارة في اللغة وفي الاصطلاح هو كذا كذا ، أي ما اصطلاح واتفق عليه .

ذلك أن العلماء لما احتاجوا إلى توسيع اللغة لجئوا إلى هذا الباب وإلى الاشتقاق والمجاز والترجمة والتعريب والنحت ، وهذه الطرائق هي التي ما زال يتبعها علماء العربية اليوم وهم ينظرون في وضع مصطلحات جديدة لتمكينها من متابعة التطور والنمو مع تغير الحضارة الحديثة وتقدم العلم .

ضرورة التفاعل بين العلوم الإسلامية بعضها البعض :

أما موضوع التفاعل بين العلوم الإسلامية فهو أيضاً جُذْ مهم ؛ فهذه العلوم لا ينبغي أن يدرس كل منها بمعزل عن الآخر ، للتداخل الكبير بينها ، ولأنها نشأت كلها من أجل خدمة هدف واحد هو القرآن الكريم ، ومن ثم فهي صادرة عن مصدر واحد ومتأثرة بعقلية واحدة ، والتأثر والتأثير بينها واضح في المنهج والتطبيق والمصطلح .

لقد كان القدماء يعيشون في رحاب الفكر الإسلامي عامة وقليلًا ما يجسسون أنفسهم في التخصص العلمي الواحد، فنجد العالم منهم مهتمًا ومعنيًا في نفس الوقت بالقراءات والتفسير واللغة والحديث والبلاغة والنحو وغيرها من الموضوعات.

والحقيقة أن علماء التفسير كانوا أكثر الناس تطبيقًا لهذا التفاعل، لأنهم وهم يفسرون القرآن الكريم كانوا في حاجة إلى اللجوء إلى جميع العلوم الإسلامية بدون استثناء، وبذلك كانت العلاقة العضوية بين العلوم الإسلامية علاقة مكنية.

وقد رأينا أنها كانت تعتمد في مناهجها الأولى ساعة ضبطها وتوسيعها على مناهج العلوم الشرعية، فكل من يحاول الخوض في علوم الشريعة دون التعمق في علوم اللغة فإنه يعرض نفسه للخطأ في الفهم والتأويل والتقويم.

والعالم المشارك كان قديمًا لا يقف عند الفقه ولا عند الأصول ولا عند النحو ولا عند البلاغة، بل كان يتناولها كلها بالدرس ويعتمدها في عمله العلمي وإنتاجه الفكري. لذلك يجب أن يستمر التفاعل بين العلوم الإسلامية كلها اليوم، لأن الخوض في شؤون الدين يتطلب معرفة تامة وشاملة.

كما يلزم اليوم أيضًا أن يتعدى هذا التفاعل مجال العلوم الإسلامية إلى فضاء أوسع وهو التفاعل مع العلوم الأخرى، لأن العصر يقتضي ذلك؛ فالعلوم الإسلامية العقلية والنقلية في مجملها يجب أن تتصل بالعلوم العصرية الدقيقة التي لها مناهجها وروحها وقيمها وأهميتها في

التكوين العلمي اليوم، وذلك بتوسيع مفهوم الفقه ليشمل الفهم والعلم عامة .

ولم يقصد النبي ﷺ بالفقه في الحديث الذي بين أيدينا المعنى الاصطلاحي الخاص الذي قصده به المتأخرون ، لأن المعنى اللغوي الأول كان هو الفهم والعلم ، أما تخصيص الفقه بالعلم المعروف لدى السادة الفقهاء اليوم فإنه جاء متأخرا بعد ذلك .

وهكذا نتأكد من أن الأصول المتبعة في البحث العلمي لدى المسلمين دقيقة أمينة ، فقد كان لهم منهج علمي راسخ قائم على احترام النص في النقل ، ونقد النصوص بنوعيه الداخلي والخارجي ؛ وقد تطور هذا العمل تطورا كبيرا ، واكتمل على مر العصور .

والذين درسوه حديثا أعجبوا به وخصوصا لدى المحدثين الذين كانوا يقومون بعملية الجرح والتعديل في السند لئلا يخوض في الحديث ويرويه من ليس أهلا لذلك ، فكان لهم تفكير إبداعي ومقاييس صارمة في حقل المعرفة النظرية ، والتجديد في حقل الفكر التجريدي .

قدرات الفقيه :

والآن ، واعتبارا لأن الإسلام دين ودنيا وأنه صالح لكل زمان ومكان وصالح للتطور الحاصل في المجتمعات ؛ فإن التفقه في الدين بهذه الاعتبارات كلها يجب أن يتسع ، وأن لا يقف عند الموضوعات التقليدية التي اعتاد فقهاؤنا في العصور المتأخرة أن لا يتعدوها .

فالفقيه هو صاحب التخصص في الفقه ، والذي له الرأي في أحكامه ، وهو القادر في حالات خاصة على استنباط الأحكام الشرعية من مصادر

التشريع ، وهي المصادر التي يفهمها أكثر من غيره فهما علميا صحيحا بحسب القواعد الواردة في علوم القرآن والحديث ، وعلم أصول الفقه ، إضافة إلى علوم العربية كما قلنا لما لها من أهمية في الموضوع .

والفقهاء هم المهتمون بشئون الدين والدنيا ، التي أصبحت تتطلب أكثر من أي وقت مضى ثقافة خاصة ومناهج جديدة للعمل ، وهم المفتون والمجتهدون في عصرنا إلى جانب طوائف جديدة من المفكرين والمتقنين .

وللمفكر المتخصص في الفكر الإسلامي مواقف في مجالات العقيدة وعلم الكلام ، لتعمقه في شئون الحضارة والتاريخ والاجتماع ، وقدرته على تحليلها ومناقشتها والتأسيس للأفكار والنظريات التطبيقية الإسلامية .

كما أن للمثقف الإسلامي المطلع على الواقع وتطوراته وتياراته الاجتماعية والفكرية والثقافية والعلمية مواقف خاصة تجعله يتحرك ويعمل في إطار مرجعية علمية وفكرية حديثة تحركا واعيا وهادفا وتكامليا .

هذا المثقف ينتمي للإسلام دينا ، ويتبناه نظاما متكاملا للحياة ، وله مواقفه التي تعتبر دور المكان والزمان في تغيير موضوعات الأحكام ، كما أنه يؤمن بضرورة الانفتاح على ثقافة العصر والتعمق فيها ، واستيعاب كل مظاهرها وخفاياها ، فإلى جانب وعيه بالتراث ومعرفته له هناك وعي العصر .

وهذه ثنائية أصبحت الآن ملزمة يجب أن نأخذ بها في كل مراحل

التعليم والتكوين ، في دراستنا الابتدائية والثانوية والجامعية العليا ، لأن تكوين الإنسان على شق واحد يجعله ناقص الثقافة محدود الرؤية .

إن الدين الإسلامي في خضم التجربة الجديدة المعقدة وأمام الحضارة المتحركة المتحفزة المعقلنة ، له ما يؤهله ليكون شريعة المجتمعات المتقدمة ، إذا ما فهم حق الفهم وطبق أحسن تطبيق ، وليشارك في تحقيق رغبات الإنسانية العاقلة ومثلها الكبرى للمجتمعات ، وفي طليعتها قانون المرونة والتيسير الذي أكدته القرآن الكريم في غير ما آية ، وحض عليه النبي ﷺ أصحابه في غير ما موقف .

ولذلك فإن العمل الإسلامي اليوم يجب أن يستمد أسلوبه من معاني اليسر والإحسان والاستقامة والإخلاص والتقوى ، إلى جانب التزامه بالثقافة الحديثة بكل فروعها التزاما للمنهج القويم في الحياة وتطبيقا لدعوة القرآن ولتعاليمه وتوجيهاته ﷺ .

دور الفقيه المعاصر في المجتمع :

إن علماء اليوم وفقهاء بالمعنى الصحيح ، لابد أن يتسع علمهم وعقلهم ليشمل كل المجالات ، بما فيها ، على الخصوص ، فقه الدين الذي هو معرفة الحقائق الدينية من مصادرها الكبرى .

وفقه الواقع الإنساني والمجتمعي الذي لا يقل عن فهم الدين أهمية ، ويمس الواقع الداخلي والخارجي وتطور العلوم الإنسانية والمجتمعية الحديثة .

هناك فقه ثالث هو فقه التنزيل أي إحكام تنزيل القواعد الشرعية على الواقع المعيش وهذا لا يعرفه كل الفقهاء؛ فقد يعرفون الفقه، وقد يعرفون الحضارة ولكنهم حينما ينزلون الأحكام لا ينزلونها كما يجب في أمكنتها الحقيقية، والإخلال الذي يقع في تنزيل الأحكام ومطابقتها للواقع هو الذي يوشك أن يحلل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله، ويولد الفوضى والاضطراب والاختلاف في المجتمع.

ففقيهننا هذا الذي يفهم شئون الدين والدنيا هو الذي سيفتي في القضايا الحديثة الكبرى التي يخوض فيها الناس اليوم ولا محيص من الكلام فيها ومناقشتها لأنها أصبحت حديث المجتمعات اليوم.

- كمسألة الإخصاب الصناعي .
- ومسألة استئجار الأرحام والإجهاض .
- وبنك الحيوانات المنوية .
- والتحول الجنسي .
- ومرض العصر الذي هو داء السيدا^(١) .
- وزرع الأعضاء وبيعها والتبرع بها .
- وموت الرحمة الذي هو المطالبة بالرأفة بالمريض الميؤس من علاجه وذلك بجعل حد حياته .
- وكل المشاكل الاقتصادية المعقدة وعلى رأسها العمليات البنكية المتنوعة .

(١) مرض خبيث شبيه بالإيدز .

- وأهمية استعمال التقنيات الحديثة للتعريف بالإسلام (الإنترنت) وغيرها كثير وهو ما يوجب على الفقيه أن يكون على علم بما يحدث من المستجدات العلمية لتكون فتواه مقبولة ومطابقة للحقيقة الدينية والعلمية .

هذه بعض دلالات الحديث الذي تفيأنا ظله وتمتعنا ببركته ، وهو من الأحاديث الشريفة التي ستبقى لها دائماً أبعاد جديدة بحسب التطور والتغير الواقع في المجتمع ؛ ستكون معانيه دائماً قائمة لدى المسلمين ، دهر الداهرين وأبد الأبدين ، لأن دلالاته تتجدد بتجدد الحياة وتطورها ، فلا ينضب لها عطاء ولا يجف لها معين .

المحاضرة الرابعة والأربعون بعد المائة

المسئولية في الإسلام

جاء في الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمر الذي على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولدها وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» . [رواه البخاري ومسلم] .

نتناول «المسئولية في الإسلام» انطلاقاً من هذا الحديث الشريف .

هذا الحديث وارد في مختلف كتب الحديث ودواوينه بصيغ تكاد تكون متقاربة إلا ما كان من بعض الاختلاف الطفيف في اللفظ ، وقد اخترت هذه الصيغة التي رواها البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه ، وأحمد بن حنبل في مسنده ، وكذلك أبو داود في سننه ، كلهم عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر .

تعريف بالصحابي عبد الله بن عمر :

أما عبد الله بن عمر فهو ابن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أسلم مع والده وهو دون البلوغ ، وهاجر معه ، وربما هاجر قبله ، وحضر بيعة الشجرة ، وعرض نفسه على رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أحد . فرده لصغر سنه ، ولكنه قبله في غزوة الخندق ، وكان كذلك قد شارك في فتح مكة ، عبد الله بن عمر كأبيه تحريراً وورعاً ونزاهة وصرامة وكان يتحرى في

الحديث ويتحرى في الفتيا ، وإن كان كأبيه يكثر من الفتوى ، وكان مع نفر الستة الذين اختارهم أبوه عمر بن الخطاب قبل موته للشورى ليختار منهم الخليفة على ألا يكون له من الأمر شيء ، ولشدة نزاهته عرض عليه عثمان بن عفان القضاء والإمامة فامتنع ، وحين قال له عثمان : إن أباه عمر كان يقضي وكان يؤم ، أجابه : لأن عمر إذا أشكل عليه شيء سأل رسول الله ﷺ ، وإذا أشكل شيء على رسول الله ﷺ سأل جبريل فينزل الوحي ، أما هو أي عبد الله فإنه إذا أشكل عليه شيء فإنه لم يجد من يسأله ، وعرضت عليه الخلافة بعد مقتل عثمان فامتنع ، ولم يرد أن يطوق ذمته كما قال : بقتل رجل من المسلمين .

عبد الله بن عمر روى عن سيدنا رسول الله ﷺ ، وعن أبي بكر ، وعمر وعثمان ، وعلي ، وعن السيدة عائشة ، وعن أخته حفصة رضي الله عنهم أجمعين ، وروى عنه جم غفير ، وورد له في «مسند بقي» ثلاثون وستمائة وألف حديث ، واتفق له البخاري ومسلم على ستة وثمانين ومائة حديث ، وانفرد له البخاري بواحد وثمانين ومسلم بواحد وثلاثين ، كان شديد التحري ، وكان ثقة ، وكان مستقيم الحديث ، كما شهد له بذلك الجميع ، توفي سنة ثلاث وسبعين أو أربع وسبعين وقد كف بصره ، وقال ابن المسيب يوم مات : إنه آخر من بقي ، وقال عنه ابن سلمة : كان أشبه الناس بأبيه عمر بن الخطاب ، إلا أن عمر كان في زمن كان له فيه نظراء ، أما هو فكان في زمن لم يكن له فيه نظير ، هذا هو عبد الله بن عمر .

تعريف بالتابعي عبد الله بن دينار:

أما عبد الله بن دينار فهو مولى ابن عمر سمع منه ، وسمع من أنس بن مالك وحدث عنه جماعة ، منهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة ، شهد له

بالاستقامة في الحديث ، وبأنه ثقة وإن ضعفه العقيلي في كتاب الضعفاء للاضطراب في حديث ، وإن كان دافع عنه ابن عبد البر ، ودافع عنه الذهبي ، وقال عنه ابن حنبل : إنه كان ثقة مستقيم الحديث ، ويروى له في كتب الحديث نحو مائتي حديث كلها في الصحيح ، وقد انفرد بحديث منع بيع الولاية وهبتها ، وهو عند البخاري في العتق .

الإشارات اللغوية والنحوية لحديث: «ألا كلكم راع»:

في هذا الحديث بعض الإشارات اللغوية والنحوية «ألا كلكم راع» ، ألا : حرف يأتي بمعان كثيرة ، منها : أنه يكون حرف استفتاح يفيد التنبيه ويفيد التحقيق ، ذالكم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على لا النافية فإنها تفيد تحقيق ما بعدها ، ومنها : تدخل على الجملة الاسمية ، كقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] ، وتدخل كذلك على الجملة الفعلية ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ [هود: ٨] أي العذاب .

«كل» : اسم يفيد الاستغراق ، هذا الاستغراق قد يكون استغراق جنس إذا ألحقت بنكرة : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، وقد يفيد هذا الاستغراق استغراق أفراد الجنس ، إذا دخلت أو إذا ألحقت أو إذا أضيفت إلى معرفة ، كقوله تعالى : ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] ومنه ما جاء في الحديث «ألا كلكم راع» ، الراعي هو الذي يقوم على الماشية وهي تسرح ، ويطلق كذلك على من يتولى أمور الناس ، يجمع على رعاة وعلى رعيان وكذلك على رعاء ورعاء ، كما هو في الحديث : «الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»^(١) ، وغالبا ما تستعمل الرعاة ، أي

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة . وانفرد به مسلم (٨)

يستعمل جمع الرعاة للدليل على الذين ينهضون بشئون الناس ، أما الرعيان والرعاء فيأتي جمعا للذي يقوم على الماشية ، والرعية هي التي يقوم الراعي بتدبير شئونها وتجمع على رعايا ، والكل من فعل يرعى رَعِيًا ، ولا يقال هنا رَعِيًا ، لأن الرُّعْي هو الكَلَأُ ، «ألا كلكم راع وكلكم مسئول» .

مسئول من سأل يسأل سؤالاً وسؤالا وسؤلا وسؤلا ، ومسألة وسألة وسألة .

في هذا الحديث وفي آخر فقرة منه ، نلاحظ قوله ﷺ : «فكلكم» هذه الفاء هي فاء جوابية جاءت جوابا لشرط مقدر ، أي إذا كان الأمر كذلك على هذا النحو الذي جاء في الحديث ، إذا كان الأمر كذلك «فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته» .

تلاحظون في سياق هذا الحديث وفي تركيبه أنه بدأ بالتعميم ثم انتقل إلى التخصيص ، مع وضع أقسام لهذا التخصيص ، الرجل ، المرأة ، الخادم ، ثم عاد مرة أخرى في نهاية الحديث إلى التعميم وكأنه يقرر ويثبت ويؤكد ، يمكن أن يطلق على هذا رد العجز على الصدر أو ما يمكن أن يسمى فذلكة ، المقصود منها التوثيق ، والتأكيد والتأخير .

منظور الإسلام للمسئولية من خلال حديث «ألا كلكم راع» :

شرح هذا الحديث لا يحتاج إلى كلام طويل فهو يشرح نفسه ، ولكن الذي نود الوقوف عنده هو منظور الإسلام للمسئولية من خلال هذا الحديث النبوي الشريف ، فقد تحدث عن المسئولية في مستويين اثنين : في مستوى عام ، ثم في مستوى خاص .

أما المستوى العام فهو الذي أشار إليه بالإمام ويدخل فيه الإمام وكل

ولاية الأمر، ويدخل فيه كذلك العلماء، رسول الله ﷺ قال: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس الأمراء والفقهاء»^(١).

وفي رواية: «الأمراء والعلماء» وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «اعلموا أنه لا يزال الناس مستقيمين ما استقامت أئمتهم وهداتهم»، وعن ولاية الأمر يقول الله تعالى مخاطبا إياهم وحثا لهم على العدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، أما العلماء ومن إليهم من الذين يتولون مسئولية عامة.

والعلماء هم علماء الشريعة باعتبارهم حفظتها، وباعتبارهم معلميها في مقابل ولاية الأمر، الذين هم منفذون لهذه الشريعة، والعلماء بالدرجة الأولى هم علماء الشريعة.

ولكن كل العلماء من مختلف التخصصات ويدخل معهم الربون والمعلمون والأساتذة والوعاظ والخطباء والقائمون على الإعلام ومن إليهم ممن يتصلون بالجمهور وبالرأي العام، هؤلاء خاطبهم الحق سبحانه فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

الأمانة مرادفه للمسئولية وذكرت في القرآن:

هذه المسئولية نلاحظ أنها لم ترد بهذا اللفظ في القرآن الكريم على الرغم من أن الاشتقاقات التي جاءت من مادة «سأل» كثيرة في القرآن، ولكن المسئولية هكذا على صيغة المصدر الصناعي لم ترد في القرآن، وإنما ورد

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩٦/٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لفظ آخر هو رديف لها ، وهذا في الأصل صفة من أهم الصفات التي ينبغي أن تتوافر في المسئول ، تلکم هي الأمانة ، هذه الأمانة التي وصف الله تبارك وتعالى بها الملائكة ووصف بها جبريل الروح الأمين ، ووصف بها الرسل والأنبياء : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء : ١٠٧] .

حمل الإنسان للأمانة :

وتحدث القرآن الكريم عن هذه الأمانة في نطاق المسئولية فقال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

لقد امتنعت المخلوقات الكبيرة عن حمل هذه الأمانة ، ولكن امتناعها ليس امتناع استكبار ، كما امتنع إبليس عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، إنما هو امتناع ناتج عن التواضع وعن الخوف وعن الخشية من عدم القدرة على تحمل المسئولية ، ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ هنا تقرير للواقع وبما سيكون ، ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ هذا تكريم للإنسان في حقيقة الأمر .

ظلم الإنسان لنفسه وللأمانة التي حملها :

ولكن ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ كان ظلوما لهذه المسئولية ، وكان ظلوما لنفسه ، وكان جهولا بمقتضيات هذه المسئولية لخطرها ولأهميتها ، ولكن الله تبارك وتعالى أخبرنا بأن الإنسان الذي حمل هذه الأمانة سوف يخرج من هذا الجهل ، وسوف يخرج من هذا الظلم ، بماذا؟ بالإيمان وبالعَمَل الصالح ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور : ٥٥] ثم إن رسول الله ﷺ يربط الأمانة بالإيمان فيقول : « لا إيمان لمن لا أمانة

له ، ولا دين لمن لا عهد له»^(١) .

هذه الأمانة هي ترتبط بالمسئولية وترتبط بالحكم ، ينظر إليها الإسلام برؤية مخالفة للرؤية التي تنظر بها بعض المفاهيم ، أو بعض النظريات السياسية ، وبعض فلسفات الحكم الحديثة ، فهناك من يرى أن الدولة والمسئولية في الدولة تقوم على القوة ، ولا تقوم على القيم ولا تقوم على الأخلاق .

المسئولية في الإسلام تقوم على القيم :

الأمانة كما ساقها القرآن الكريم ، والمسئولية كما يراها الإسلام تقوم على القيم ، ومن ثم فإنه إذا كانت تلك النظريات تتحدث عن التناقضات التي تكون في المجتمع ، وعن الصراع الذي ينشأ عن هذه التناقضات ، وأن هذا الصراع لا يمكن أن يفض إلا بالديمقراطية أو ما إليها ، فإن الإسلام لا يلغي الصراع ، ولكنه يخفف من حدة الصراع بمجموعة من القيم .

أولاً : الإسلام يرى المجتمع قائماً على الإخاء وعلى المحبة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ثانياً : إن الإسلام يأتي بدلاً من الصراع بالتنافس ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] ، والفرق شاسع بين التنافس وبين الصراع ، فالتنافس يقود دائماً إلى الخير ، أما الصراع فيكون الهدف منه هدم الآخر وإلغاء الآخر لأخذ مكانه .

ثم إن هناك قيمة أخرى يقوم عليها منظور الإسلام للأمانة والمسئولية

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٣٥) ، وصححه ابن حبان في «صحيحه» (١٩٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

وهي التبادل والتكامل والتعاقد، التعاقد هنا تعاقد بين الطرفين، بين الراعي وبين الرعية، بين الحاكم وبين المحكوم، على الراعي أن يعدل، وعلى الرعية أن تسمع وتطيع، وهنا في الآية التي تأمر ولاية الأمر بالعدل فإنها تأتي مباشرة بعد ذلك فتقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، اللطيفة هنا هي أن هذا التعاقد يقوم على العدل وعلى السمع والطاعة، ولكنه في القرآن الكريم بدأ بالعدل، ثم جاء بالسمع والطاعة ثم إن هذا التعاقد لكي يكون على النهج الإيجابي وبالطريقة الصحيحة، فإن له مجموعة من الضوابط.

الضوابط التي تربط طرفي المسؤولية (الحاكم والرعية):

الضابط الأول: هو الشورى، هذه الشورى التي يمكن القول بأنها صيغة إسلامية للديمقراطية، أو أنها إن لم تطبقها كلا فهي تطبقها بعضها، هذه الشورى تحدث عنها القرآن الكريم مرتين، تحدث عنها في سياق الثناء على الأنصار ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وتحدث عنها في سياق أمر الرسول بالاستشارة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والرسول ﷺ كان يستشير في غير أمور الدين، لأن أمور الدين كان ينزل فيها الوحي، ولم يكن في حاجة إلى أن يستشير، ولكنه كان يستشير في أمور الدنيا ويستشار، وهو القائل عليه الصلاة والسلام: «ما كان من أمر دينكم فإلي، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به»^(١).

كان ذلك إثر حادثة تأبير النخل: أي معالجة النخل، وكان الصحابة

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٧١)، وأصله عند مسلم (٢٣٦٣).

رضوان الله عليهم قد استشاروه ، فأشار عليهم بعدم تأبير النخل فكان أن النخل لم يثمر ، فقال : « ما كان من أمر دينكم فإلي ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم له » .

وكذلك استشار الخلفاء الراشدون ، والاستشارة تكون فيما ليس فيه نص بالنسبة لنا نحن المسلمين اليوم ، الاستشارة تكون فيما ليس فيه نص ، فيما لا تعرف كيفية تطبيق النص إذا وجد ، تكون كذلك في الطوارئ والنوازل وما يحدث للأمة من قضايا الوقت ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وما إليها ، شرط واحد يشترط في المستشار أن يكون أميناً ، رسول الله ﷺ يقول : «المستشار مؤتمن ، فإذا استشير فليشرب بما كان يصنع لنفسه»^(١) والاستشارة قد تكون لعموم الناس كما هو الشأن في الاستفتاء مثلاً ، وقد تكون لاختيار جماعة أو مجلس أو نواب ، وما إلى ذلك ، هذا هو الضابط الأول .

الضابط الثاني : هو النصيحة ، رسول الله ﷺ يقول : «إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة» قالها ثلاث مرات ليبين أن الدين الكامل ، وأن أكمل ما في الدين هو النصيحة ، وأن الدين لا يتم العمل به حقاً إلا بالنصيحة ، قال الصحابة رضوان الله عليهم : النصيحة لمن يارسول الله ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه : «الله ولكتابه ولرسوله

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢١٩٥) من حديث علي رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٨١ / ٨) : رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه أحمد بن زهير ، عن عبد الرحمن بن عنبسة البصري ، ولم أعرفهما ببقية رجاله ثقات . وأخرج الشطر الأول الترمذي (٢٨٢٢) ، وأبو داود (٥١٢٨) ، وابن ماجه (٣٧٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

لله : أن نؤمن به وأن نطبق أوامره ونطيعه ونؤدي فرائضه وواجباته .

لكتابه : أي أن نصدق بما فيه ، وأن نعمل بما فيه .

والنصيحة لرسول الله : نؤمن به ونتبعه .

ولأئمة المسلمين : أن نسمعهم ونطيعهم ، ونساعدهم ونكون إلى جانبهم ، وأن نوجههم ونذكرهم وإن اقتضى الحال أن نتقدمهم ثم أن ندعو لهم ، الدعاء من النصيحة لأولى الأمر .

ثم لعامتهم : أن نعلمهم ونربيهم ونوعيهم ونوجههم ، وأن ندافع كذلك عن مصالحهم ، وأن نحفظ لهم حقوقهم ، هذا هو الضابط الثاني النصيحة .

ونصل إلى الضابط الثالث ذلكم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

المعروف : ما تعارف الناس عليه أنه خير ، أنه صلاح ، وهو ما يرضي الله ، ويوافق الشرع ، ويتفق والطبيعة البشرية السوية ، والفطرة السليمة وكذلك الذوق النقي ، ذلكم هو المعروف ، وعكسه المنكر .

الله تبارك وتعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة للمؤمنين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] .

ثم إن الله تبارك وتعالى أخبرنا - وقد أكد ذلك - أنه سينصر المؤمنين ،

(١) سبق تخريجه .

ولكن الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهٗمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿[الحج : ٤٠، ٤١].

ثم إن القرآن الكريم يتحدث مرة أخرى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيربطه بالأمة وبخيرية هذه الأمة يقول : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران : ١١٠] كنتم ، وينبغي أن تظلوا ، وينبغي أن تستمروا ، لأن الخيرية مستمرة .

ولهذا القرآن الكريم يدعونا إلى أن نقيم أمة ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] قد يكون من السهل على الإنسان أن يأمر بالمعروف ، ولكن قد لا يكون من السهل أن ينهي عن المنكر ، لاسيما حين يكون المنكر متفشيا وشائعا في المجتمع ، ولهذا رسول الله ﷺ خص المنكر ببعض الأحاديث ، من بينها قوله صلوات الله وسلامه عليه : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان»^(١) .

من يملك التغيير باليد؟

فقط هناك بعض الإشارات ، التغيير باليد يكون لأولي الأمر ، لأصحاب النفوذ وأصحاب السلطة الذين لهم حق إنزال العقوبات وحق تنفيذها .
أما باللسان فيكون للعلماء والوعاظ والمربين والمدرسين والمرشدين ،

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث طارق بن شهاب رحمته الله .

ولأجهزة الإعلام المختلفة ، ولكل أولئك الذين يدخلون في إطار العلماء الموجهين أصحاب الكلمة .

من صاحب التغيير للمنكر بالقلب؟

أما تغيير المنكر بالقلب فالنسبة للذي لا يستطيع ، هنا قد يأتي من يعترض بأمرين :

أما الأمر الأول ، فهو قول الله تبارك وتعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

قد يقول قائل ، وقد قال الصحابة ذلك ، إننا إذا اهتدينا في أنفسنا فإننا لا يهمننا الآخرون ، وسألوا رسول الله ﷺ فأجابهم : «بل ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر»^(١) ، هذا الأمر الأول .

الأمر الثاني ، هو الحديث أو بقية الحديث : «إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة»^(٢) .

الذي لا يستطيع تغيير المنكر عليه بخاصة نفسه :

هذا الحديث لا يعني الانعزال والانزواء والانكماش في شبه أنانية ، والتفرج على الأمة وعلى المجتمع وعلى المنكر وهو يتفشى ، على الأقل الذي لا يستطيع أن يفعل ، عليه بخاصة نفسه أي بنفسه هو يبدأ بها أي بأهله وبأسرته ، أي بالذين هم في دائرة عمله ، سواء كان المعلم في

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥٨) ، وأبو داود (٤٣٤١) ، وابن ماجه (٤٠١٤) من حديث

أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه .

(٢) انظر التخریج السابق .

المدرسة ، أو الموظف في الإدارة ، أو الطبيب في العيادة ، أو من إلى هؤلاء ، كل في دائرته الخاصة ، هذا هو عليك بخاصة نفسك ، ليس أن يكون الإنسان أنانيا منعزلا ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم : ٦] ، نحن مسئولون عن أسرنا وعن أبنائنا ، لأننا نحن الآن فرطنا في ذلك ، نحن مسئولون وعلينا أن نعلمهم وأن نوجههم حتى نقيهم نار جهنم والعياذ بالله ، ثم إن الله تعالى لعن أولئك الذين توقفوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقول تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

جوانب المسؤولية الخاصة :

ثم قضية خاصة النفس هي التي تحدث عنها الحديث في المستوى الثاني ، ولعلنا غفلنا عنها ، المستوى الثاني هو الذي تكون فيه المسؤولية خاصة ، الرجل في بيته ، والمرأة في بيتها مع أولادها ومع زوجها ، والمسئول عن مال البيت الخادم ، والمسئول عن العمل ، وما إلى ذلك ، هذا هو المستوى الثاني ، هذه المسؤولية كما يراها الإسلام ، نخبرنا القرآن الكريم بأنه تراعى فيها جوانب ثلاثة :

جانب ديني : يتمثل في العلاقة مع الله ﷻ ، وجانب دنيوي يتمثل في العلاقة بالمجتمع ومع الناس ، ثم جانب ثالث ذاتي يتعلق بالنفس وبالضمير .

هذه الجوانب الثلاثة جمعها القرآن الكريم في الآية الكريمة : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامِنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧]
الجوانب الثلاثة، الجانب الديني، والجانب الدنيوي، والجانب الضميري،
على هذه الجوانب الثلاثة يجبرنا القرآن الكريم بأنه ستكون المحاسبة، فالله
تبارك وتعالى يقول: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ [التوبة: ١٠٥].

المحاسبة الأولى: ﴿فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾
[التوبة: ١٠٥].

المحاسبة الثانية: ﴿وَسُتْرُودُنَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] حتى تعرفوا ويتحرك ضميركم ونفسكم.

ممارسات تخرق المسؤولية:

هذه المسؤولية وهي عامة بدءاً من الإمام إلى أي مواطن في الأمة،
المسؤولية عامة وجماعية، هذه المسؤولية للأسف الشديد أنها تخرق ببعض
الممارسات التي تدل على أن حس الحق والعدل والمسؤولية لم يستقر بعد في
كثير من النفوس، من هذه الممارسات: الظلم الذي هو ضد العدل
﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]، «الظلم ظلمات يوم
القيامة»^(١)، وفي الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي وحرمته
عليكم فلا تظالموا»^(٢).

ثم من هذه الممارسات التي تخرق المسؤولية، الباطل، الباطل الذي هو
ضد الحق، وقرأنا من قبل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] بالنسبة للجانب العام، والجانب العلمي،

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

وجانب اطلاع الناس بصدق على الحقائق، وكذلك في جانب المعاملات: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

والظلم والباطل يتجليان في ظاهرة قبيحة متفشية في كثير من المجتمعات، هي ظاهرة الارشءاء، ورسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرشي» وفي رواية «والرائس الذي يمشي بينهما»^(١).

الاستقامة لازمة للإنسان المسئول:

هذه كلها ممارسات تحرق المسئولية ولكن الإنسان المسئول يستطيع أن يجنب نفسه الوقوع في هذه الممارسات بعدد من القيم يتحلل بها؛ بالاستقامة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] لهم الجزاء في الدنيا وفي الآخرة ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] الجزاء في الدنيا، والجزاء في الآخرة.

سفيان الثقفى سأل رسول الله ﷺ قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»^(٢).

والله تبارك وتعالى أمر رسوله بالاستقامة وبعده أمر المسلمين ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] هذه الآية هي الآية التي قال عنها رسول الله ﷺ أنها شيبته، قال «شيبتي هود وأخواتها. قيل له وما شيبك في هود؟ قال:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٩/٥)، والحاكم في «المستدرک» (١١٥/٤) من حديث ثوبان رحمته الله.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(١) إذن الاستقامة ﴿فَاسْتَقِمْوْا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، ليس معنى الاستقامة أن يكون الإنسان كاملاً وتاماً، ولكنه إذا وقع منه شيء فإنه يستغفر ﴿فَاسْتَقِمْوْا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، هذا خاص بعباد الله .

التقوى لازمة للإنسان المسئول:

ثم التقوى، الأمر بالتقوى كثير في القرآن ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، هذه الآية حين نزلت على رسول الله ﷺ جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ قالوا له: من يقوى لهذا؟ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فنزل قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢).

الافتداء بالنموذج الصالح كالرسول ﷺ والصحابة والسلف الصالح:

هذه الرؤية الإسلامية التي كانت عليها المسئولية في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد الخلفاء وفي عهد السلف الصالح تحتاج إلى القدوة .

نعم نحن الآن في مختلف البلاد الإسلامية، في مختلف العالم الثالث الذي ننتمي إليه، نحن ننظر إلى النموذج من خلال الغرب ومن خلال تقدم الغرب .

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث ابن عباس رضيهما، وقال الترمذي: هذا حديث

حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه .

(٢) سبق تخريجه .

وللأسف أننا ننظر إلى الغرب ليس من خلال استقامته السلوكية ، وليس من خلال علمه وإنتاجه وتكنولوجياه ، وما يصنع وما ينتج ، ولكننا ننظر إليه من خلال الانحلال ، ومن خلال التفسخ ، ومن خلال هذه القيم المادية التي ستؤول به إلى الخراب ، ولهذا نحن نبحث عن النموذج ، وننسى أن أماننا نموذج رسول الله ﷺ ، ونموذج الصحابة رضوان الله عليهم .

فالله تبارك وتعالى ينبهنا إلى أن القدوة في الرسول ومن الرسول ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] والصحابة أيضًا ، رسول الله ﷺ يقول : «أصحابي أمانة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»^(١) ، ورسول الله ﷺ يقول كذلك : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»^(٢) .

النموذج النبوي المقتدى به يقدم من قبل المسؤولين وولاية الأمر :

نعم هذا النموذج النبوي ، وهذا النموذج الذي قدمه السلف الصالح يحتاج إلى أن يقدم اليوم ، ومن الذي يقدمه ؟ الذين يقدمونهم المسؤولون عن تقديمه وهم ولاية الأمر ، جميع ولاية الأمر ، وهم العلماء ، وهم الذين ينقلون السيرة النبوية ويعلمونها ، وهم الذين يدرسون التربية الإسلامية ، والفكر الإسلامي ، وهم الذين يطلعون على جميع تخصصات الفكر في الكليات وفي الجامعات ، عليهم أن يكون النموذج راسخًا في دينهم حتى ينقلوه .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

هذه المسؤولية تحتاج إلى تنبيه وتحتاج إلى تصحيح ، وتحتاج من أجل ذلك إلى تعبئة عامة .

ولن يتحقق ذلك إلا بالتوسل بخطاب متماسك لا تناقض فيه ولا اضطراب ، بخطاب يعيد الثقة ، ويثبت المصداقية ، ويضع المسؤولية في نصابها الحق ، خطاب يقوم على وضوح الهدف ، وعلى الاتزان في الرأي ، وعلى الاعتدال في القول ، وعلى الانضباط في الفعل ، ويقوم على احترام عقيدة الأمة ، ومراعاة معاناتها والنظر في معاناتها والعناية بتطلعاتها .

ويقوم كذلك على أسلوب بعيد عن التهريج وعن المزايدة ، وبعيد عن كل غلو وتشديد ، وأن يكون في نظره تقدير المصلحة في تقدير عقلاني للصالح العام .

* * *

المحاضرة الخامسة والأربعون بعد المائة

من توجيهات القرآن الكريم

انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ
 أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
 إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ
 بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
 حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا
 إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ
 ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي
 مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ
 وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١-١٥٣] .

بين يدي الآيات الكريمات :

هذه الآيات الكريمة التي معنا ، من أجمع الآيات القرآنية التي رسمت
 للناس طريق سعادتهم في دنياهم وفي آخرتهم .

وهذه الآيات الكريمة من سورة تسمى في القرآن الكريم بسورة
 الأنعام ، وسورة الأنعام من السور المكية أي من السور التي نزلت على
 النبي ﷺ قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، ويغلب على الظن
 كما يقول علماء التفسير ، أن نزول هذه السورة الكريمة كان في السنة
 الرابعة من بعثة النبي ﷺ .

وذكر المفسرون آثارًا متعددة، كلها تدل أن نزول هذه السورة الكريمة كان دفعة واحدة، مع طولها نزلت على النبي ﷺ دفعة واحدة، والمتدبر في هذه السورة الكريمة وهي سورة الأنعام، يرى أنها اهتمت بقضايا متعددة، على رأس القضايا التي اهتمت بها هذه السورة الكريمة، إقامة الأدلة على وحدانية الله ﷻ، إقامة الأدلة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه ﷻ، إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ﷻ، إقامة الأدلة على أن يوم القيامة حق لا ريب فيه.

ثم بعد ذلك نراها تهتم أيضًا بإيراد شبهة المشركين، تسوق الشبهة التي وجهها المشركون إلى النبي ﷺ، تسوق أكاذيبهم تسوق العنت وتسوق أيضًا الاعتراضات التي اعترض بها المشركون على النبي ﷺ، تسوقها بأمان وتحكيها بصدق، ثم بعد ذلك ترد عليها ردا يأتي على بنائها من القواعد. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

تسوق الشبهة التي أوردها المشركون حول دعوة النبي ﷺ، ثم بعد ذلك تزيلها وتحققها بالأدلة القاطعة وبالبراهين الساطعة.

فضل هذه الآيات:

عندما نقرأ هذه الآيات الكريمة في كتب التفسير نجد أن المفسرين رحمهم الله قد ساقوا آثارًا متعددة في فضل هذه الآيات الكريمة.

من تلك الآثار ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ، التي عليها خاتمه، فليقرأ هذه الآيات الكريمة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ الآيات.

وأخرج الإمام البيهقي عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : لما أمر الله رسوله ﷺ بأن يجهر بدعوته بعد أن قضى النبي ﷺ ثلاث سنوات يدعو الناس سرا إلى وحدانية الله ﷻ ، وبعد أن نزل عليه قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] ، بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بأن يجهر بدعوته ، أخذ ﷺ يعرض نفسه على القبائل ، ثم خرج إلى منى في موسم الحج لكي يدعو الناس إلى وحدانية الله ﷻ ، وإلى مكارم الأخلاق .

يقول سيدنا علي : فكنت معه أنا وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فوقف النبي ﷺ على منازل القوم ومضاربهم وخيامهم ، فسلم ﷺ فرد القوم عليه السلام ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وكان أفصح القوم لساناً وأبينهم بياناً ، فقال مفروق للنبي ﷺ : «إلام تدعو يا أخا قريش؟» يقول سيدنا علي فقال النبي ﷺ : «أدعوكم إلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، أرسلني الله سبحانه وتعالى إليكم لكي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فإن قريشا قد استغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد» .

فقال مفروق للنبي ﷺ : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟» يقول سيدنا علي : فقرأ النبي ﷺ على مسامعهم هذه الآية الكريمة ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآيات .

يقول سيدنا علي : واستمع الناس إلى ما قرأه النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان على رءوسهم الطير .

وإذا بمفروق يقول للنبي ﷺ مرة أخرى : وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ إنما هذا الكلام الذي سمعناه منك ليس من كلام البشر ، ولو كان من كلام البشر لعرفناه ، فقرأ النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

فما كان من مفروق إلا أن قال للنبي ﷺ : «يا أخا قريش ، لقد دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق وإلى محاسن الأعمال ، وإفك قوم قد كذبوك .

اشتمال الآيات على عشر وصايا :

هذه بعض الآثار التي وردت في فضل هذه الآيات الكريمة التي يسميها العلماء بالوصايا العشر .

لأن هذه الآيات الكريمة اشتملت على عشر خصال ، وختمت كل آية بقول الله ﷻ : ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ ﴾ ختمت الآية الأولى بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، والآية الثانية بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وختم الآية الثالثة بقول : ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

الوصية الأولى : الدعوة إلى توحيد الله ﷻ :

اشتملت هذه الآيات الكريمة كما قلنا على عشر وصايا ، وافتتحت هذه الوصايا بالدعوة إلى وحدانية الله ﷻ ، بالدعوة إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، لأن وحدانية الله والإقرار له بالطاعة والعبودية : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

هذا الاعتراف بوحدانية الله ، وبأنه سبحانه له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ، هو الفضيلة العظمى ، ومن يخالف ذلك ويشرك بالله ﷻ فإنه يكون قد ارتكب جريمة ، لا تقبل المغفرة ، كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، افتتحت بالدعوة إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وصدرت الآيات الكريمة بقوله ﷻ : ﴿ قُلْ ﴾ بفعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ .

وهذا الأسلوب يسميه علماء التفسير بالأسلوب التلقيني ، أي تلقين الله ﷻ لنبيه ﷺ الحجج والبراهين والأدلة التي يزيل بها شبهات المشركين واعتراضات المعترضين .

وهذا الأسلوب أسلوب التلقين نراه واضحاً كل الوضوح في هذه السورة الكريمة وهي سورة الأنعام ، عشرات الآيات نراها تبدأ بقوله تعالى في هذه السورة بقل ، بل إننا أحياناً نجد أن الآية الواحدة يتكرر فيها لفظ قل أكثر من مرة في هذه السورة بالذات ، وهي سورة الأنعام .

ولعل السر والحكمة - كما قلنا - أن سورة الأنعام يغلب على الظن أن نزولها كان في السنة الرابعة بعد البعثة ، أي بعد بعثة النبي ﷺ بأربع سنوات ، وبعد أن قضى النبي عليه الصلاة والسلام ثلاث سنوات يدعو الناس سرّاً ، وجاءت فترة الجهر بالدعوة ، وأخذ المشركون يوجهون سهامهم إلى النبي ﷺ .

في هذه الفترة الحاسمة الدقيقة نزلت سورة الأنعام دفعة واحدة ، وكأن الله ﷻ يقول لنبيه ﷺ وقد بدأ يجهر بدعوته ويواجه الصفوف ، ويواجه المعترضين : يا محمد ، إن قالوا لك كذا فقل لهم كذا ، وإن قالوا لك كذا فقل لهم كذا .

ولذلك نجد لفظ قل تكرر في هذه السورة الكريمة عشرات المرات ، بل كما قلنا في الآية الواحدة ، نجد هذا الفعل يتكرر أكثر من مرة : ﴿قُلْ أَى شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلِى هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَپَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام : ١٩] وللمرة الثالثة وفي الآية الواحدة وفي سورة الأنعام قل : ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ للمرة الرابعة : ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ١٩] .

هذا الأسلوب يسميه البلغاء وعلماء التفسير بأسلوب التلقين ، يلقن الله ﷻ نبيه ﷺ الحجة التي يزيل بها شبهات المشتهين واعتراضات المعترضين ، وبطلان المبطلين ، فبدئت الآية الكريمة بهذا الفعل قل ، قل تعالوا ، وتلك هي الوصية الأولى ، أقبِلوا نحوي : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام : ١٥١] أي قل أيها الرسول الكريم لأولئك الذين حللوا ما حرم الله ، قل لهم : أقبِلوا نحوي .

بما أن الآية السابقة على هذه الآية كانت تحكي ما حرمه المشركون بغيا وظلما ، فجاءت هذه الآيات لتقول للنبي ﷺ : «قل لهم : أقبِلوا نحوي ، لأبين لكم الحرام والحلال ، الآية التي قبل هذه الآية مباشرة ، هي قوله : ﴿قُلْ هَلْمْ شَهِدَاءُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

ثم بعد هذه الآية : ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أقبِلوا نحوي ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام : ١٥١] أن تخلصوا لله العباداة والطاعة ، أن تؤدوا التكاليف التي كلفكم بها ، أن تؤدوا هذه التكاليف بقوة وببنشاط وبعزيمة صادقة : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

ومن بلاغة القرآن الكريم أن تبدأ الوصايا بالأمر بإطلاق العبودية لله الواحد القهار: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

الوصية الثانية: الإحسان إلى الوالدين:

ثم تأتي بعد ذلك الوصية الثانية، تأتي الوصية الثانية: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وكثيرا ما نرى القرآن الكريم يقرن بين الأمر بوحداية الله وبين الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

نرى ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

نرى ذلك في سورة النساء: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

نرى ذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وما الحكمة في ذلك؟ فالحكمة لأن القرآن الكريم يجمع ويقرن بين إخلاص العبادة لله وبين الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

لعل الحكمة في ذلك أن الله ﷻ كأنه يريد أن يقول لنا: إذا كان الله ﷻ هو الذي أوجدكم من العدم، هو الذي أحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم، إذا كان الله ﷻ هو الذي أوجد الخلق كله، فإن الوالدين هما السبب المباشر في وجود الإنسان في هذا الكون في هذه الحياة، فأنت تعبد الله ﷻ عبادة خالصة لوجهه؛ لأنه هو الذي خلقك فسواك فعدلك، وأنت تحسن إلى والديك لأنهما هما السبب المباشر في وجودك إلى هذه الحياة.

ومتى حسنت الصلة بين الأبناء والآباء ، وقامت على المودة ، وقامت على المحبة ، وقامت على الاحترام من الأبناء لآبائهم ، وقامت أيضاً على المحبة والمودة من الآباء لأبنائهم ، سعدت الأمة وتقدمت وارتقت ، لأن العلاقات علاقات طيبة ، وليست علاقات متخلخلة أو مزعزعة .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يقرن بين الأمر بإخلاص العبادة لله ﷻ وبين وجوب الإحسان إلى الوالدين ، وجوب الإحسان إلى الوالدين بهذه الصيغة ، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ هذا الإحسان إلى الوالدين نرى له صوراً متعددة يطول الحديث عنها .

ولكن من أبرز هذه الصور أن الإحسان إلى الوالدين واجب ، حتى ولو حصل الخلاف بين الآباء والأبناء في العقائد : ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٥] ، حتى ولو اختلفت العقيدة يدعو القرآن الأبناء إلى أن يعاملوا آباءهم معاملة كريمة في غير معصية الله ﷻ ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، بل إن هذا الإحسان ، هذا الإحسان نرى نبينا ﷺ يأمرنا به حتى بعد وفاة الأبوين يمتد هذا الإحسان .

وفي الحديث الشريف أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، كنت باراً بوالدي وقد ماتا ، فهل بقي علي شيء من حقوقهما؟ وإذا بالرسول ﷺ يقول له : «نعم ، بقي عليك الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإكرام صديقهما»^(١) .

لأن صديق أبي هو صديقي ، إكرام صديقهما ، والوفاء بعهدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما . ليس الإحسان مقصوراً على بقائهما في

(١) سبق تخريجه .

الحياة، بل يمتد أيضًا بعد مماتها عن طريق الإحسان، عن طريق الصدقة، عن طريق الدعاء لهما بالرحمة والمغفرة كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

الوصية الثالثة: النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر:

ثم تأتي بعد ذلك الوصية الثالثة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقتل الأولاد كما هو معروف لم يكن في كل قبائل العرب، وإنما كان في بعض القبائل، وكان بصورة متفشية في البنات كما قال ﷺ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [التكوير: ٨٨] يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

بعد أن تأتي الوصية الثانية لتدعو إلى حسن الصلة بين الأبناء والآباء وتأمّر الأبناء بأن يطيعوا آباءهم في غير معصية الله، تأتي الوصية الثالثة لتقول أيضًا للآباء، وهذا أسلوب حكيم في التربية.

القرآن الكريم عندما يسوق وصاياه ويسوق توجيهاته ويسوق أحكامه ويسوق آدابه، لا يسوقها إلى جماعة دون جماعة أو إلى فرد دون فرد، وإنما يسوقها بالسوية، كما أمر الأبناء أمر الآباء، وكما أمر الآباء أمر الأبناء، فيأمر الآباء بأن يحسنوا تربية أبنائهم، بأن ينشئوهم النشأة القويمة. من حق الابن على أبيه أن يحسن اسمه وأن يحسن موضعه.

كما أن القرآن الكريم بين ما يجب على الأبناء نحو الآباء بين أيضاً ما يجب على الآباء نحو الأبناء ، لأن الأبناء هم ثمرة القلب والذرية تمنها جميع الناس حتى الأنبياء .

سيدنا إبراهيم يقول : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصفات : ١٠٠] .

سيدنا زكريا يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ويقول : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۖ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ٤-٦] .

هنا نجد القرآن الكريم كما أمر الأبناء بأن يحسنوا إلى آبائهم ، أمر الآباء أيضاً بأن يحسنوا إلى أبنائهم .

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

وهكذا نجد القرآن في توجيهاته وفي وصاياه يأتي بالوصايا الجامعة الحكيمة .

الوصية الرابعة : عدم القرب من الفواحش الظاهرة والباطنة :

ثم تأتي بعد ذلك الوصية الرابعة ، وتتمثل في قول الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

والفواحش جمع فاحشة ، والفاحشة ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال والأعمال . وأكثر ما تطلق -والعياذ بالله- على فاحشة الزنى كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، لكن كلمة فاحشة ، من الألفاظ التي عندما تسمعها الأذان تعلم منه أن الفاحشة أمر يبغضه الله .

كل قول يتنافى مع آداب الإسلام فهو فاحشة ، كل سلوك يتعارض مع آداب الإسلام فهو فاحشة ، الكذب فاحشة ، الغيبة فاحشة ، النميمة فاحشة ، والإفتاء بغير علم فاحشة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

كل قول خارج عن آداب الإسلام فهو فاحشة . الكذب ، الغيبة ، الجبن ، البغض ، النميمة ، النفاق ، التذبذب ومسك العصا من الوسط ، وعدم الجهر بكلمة الحق ، إما من أجل الهوى ، وإما من أجل المصالح الذاتية ، وإما من أجل النفاق ، كل ذلك فواحش .

والمؤمن يجب أن يكون إنساناً نقيّاً عفيفاً ، طاهراً نظيف اليد سليم القلب ، لا تطلع عينه إلى ما لم يؤت الله تعالى ، وإنما يعيش هكذا رأسه مرتفع إلى السماء ، لأن صاحب المنّة عليه إنما هو الله تعالى وحده ، هذا شأن العقلاء الذين يراقبون الله ﷻ في السر وفي العلن .

ولذلك نجد القرآن يكرر هذا النهي في آيات متعددة ، الأمر بالنهي عن القرب من الفواحش . وما أجهل ، وما أبلغ التعبير القرآني : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا ﴾ فالعلماء بالتفسير يعلمون - أن بالاستقراء - عندما يريد القرآن الكريم أن ينهى عن شيء ، وهذا الشيء تطلع إليه النفوس وتهواه ، يعبر أو ينهى بالقرب ، لا تقربوا ، كما قال : لا تقربوا الزنى ، عندما يكون النهي عن هذه الأمور لا يلجأ إليها الإنسان إلا مضطراً أو حين يكون مجبراً على ذلك . يوجه القرآن الكريم النهي مباشرة هنا . ولا تقربوا ، يعني لم ينه عن الفواحش نهياً ، لم يقل ولا تتفاحشوا ، لا ، ولا تقربوا ، اجعل بينك وبين الفاحشة زمناً طويلاً ومسافة بعيدة ، لأن من حام حول الحمى يوشك أن

يقع فيه : ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

الوصية الخامسة : حرمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق :

ثم جاءت بعد ذلك الوصية الخامسة : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام : ١٥١] لأن قتل النفس في العادة لا تتطوع إليه النفوس ، فجاء النهي مباشرة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ . تكرر هذا النهي في آيات متعددة لِمَ ؟

لأن الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيان الله ، حماية للأنفس . لكي يعيش الإنسان في حياته مطمئناً على رزقه ، مطمئناً على ماله ، مطمئناً على شرفه ، مطمئناً على حياته ينهى القرآن الكريم نهياً قاطعاً .

ويصور ذلك بصورة أخرى في سورة المائدة تصويراً يجعل النفوس تقشعر ، فيبين بأن من اعتدى على نفس واحدة فكأنما قد اعتدى على أنفس الناس جميعاً ، ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة : ٣٢] (بمعنى من تسبب في إحيائها) ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] .

ثم تختم الآيات الأولى بقوله ﷻ : ﴿ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

الوصية السادسة : رعاية اليتيم وعدم أخذ ماله ظلماً :

ثم تأتي بعد ذلك الوصية السادسة : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، حماية للضعفاء ، حماية لليتامى ، حماية للمساكين ، حماية للفقراء . وجاء على رأس هؤلاء الضعفاء اليتيم الذي فقد الأب الحان

عليه ، فقد أباه وهو صغير .

تأتي آية القرآن الكريم فتأمر الأوصياء أن يراقبوا الله في هؤلاء اليتامى :
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . وتكررت هذه الآية .

بل إننا عندما نقرأ سورة النساء نجد في مطلعها خمس آيات شبه متوالية ، تأمر برعاية اليتيم ، نجد قوله تعالى في الآية الثانية : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء : ٢] .

الآية الثالثة : ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء : ٣] .

والآية السادسة : ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء : ٦] .

ثم نجد بعد ذلك الآية الأخرى ، الآية الثامنة : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء : ٨] .

ثم نجد بعد ذلك الآية العاشرة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء : ١٠] .

خمس آيات في الربع الأول من سورة النساء شبه متوالية ، تأمر بالعدل . لم ؟
لم كل هذا؟ لكي تسود المحبة والمودة والأخوة بين أبناء المجتمع الإسلامي ،
لأن القلوب ، إذا قست نضب منها الخير وزالت منها الرحمة ، وكان عاقبة أصحابها فرطاً . ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد : ١٦] .

لا شيء يغرس في النفوس الرحمة والرفقة كرعاية اليتيم وكرعاية الضعفاء ،

وكالإحسان إليهم ، من هنا يوصي القرآن في عشر آيات بالإحسان إلى
اليتامى وإلى الفقراء وإلى المساكين .

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، ليس النهي هنا ، ليس قوله تعالى حتى يبلغ أشده
ليس غاية للنهي ، ليس معناه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فاقربوه ، لا ، وإنما هو غاية لما يفهم من النهي ، فكأنه
سبحانه يقول : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ﴾ ، فإذا بلغ أشده فأعطوه ماله ، الآية التي في أول سورة النساء
فاختبروا . ﴿وَاتَّبَلُّوا آلَيْتِمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا
فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] .

الوصية السابعة : إيفاء الكيل وإقامة الميزان بالعدل :

ثم تأتي بعد ذلك الوصية السابعة : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، أي كونوا في
معاملاتكم مع غيركم محافظين على حقوقهم ، لأن الحياة تبادل منافع بين
الناس ، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده ، الإنسان مدني بطبعه :

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدَم

وإنما يأمرك الإسلام ، وعندما يأمرك القرآن لأن تكون وفيًا في
معاملاتك ، في بيعك في شرائك ، إنما يريد أن يغرس فضيلة التعاون
الصادق طبعاً . وفي الآيات الكثير .

لقد تحدثنا عن جانب من تلك الوصايا وقلنا : إن هذه الوصايا قد

جاءت في سورة تسمى بسورة الأنعام ، وقلنا : إن هذه السورة الكريمة يغلب على الظن أنها نزلت على النبي ﷺ دفعة واحدة -على طولها- في السنة الرابعة من البعثة .

والعلماء الذين قالوا بأن هذه السورة يغلب على الظن أنها نزلت في السنة الرابعة من البعثة لم يقولوا ذلك جزافا ، لا ، وإنما قالوه بعد استقراء للسور ولآيات عندما قرءوا قوله ﷻ في سورة الحجر : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] .

وقالوا بأن سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة الحجر ، أخذوا من ذلك أن هذه السورة التي نزلت بعد أن أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يجهر بالدعوة ، والجهر بالدعوة كان في السنة الرابعة من بعثته ﷺ .

والذي يقرأ هذه السورة الكريمة يراها فعلا تتناسب مع تلك المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية حين أعلن النبي ﷺ دعوته ، ووقف المشركون له بالمرصاد يدافعون عن عقائدهم الزائفة ، يدافعون عما ألفوا عليه آباءهم وأجدادهم .

ونزلت هذه السورة الكريمة لتتكلف ولتهتم -من بين ما تهتم به- بتلك الأمور التي ذكرنا جانبا منها : إقامة الأدلة على وحدانية الله ، إقامة الأدلة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، إقامة الأدلة على أن هذه القرآن من عند الله ، إقامة الأدلة على أن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، إقامة الأدلة على أن تلك الشبهات التي وجهها المشركون إلى النبي ﷺ هي شبهات باطلة .

الأدلة على وحدانية الله:

أما إقامة الأدلة على وحدانية الله، فنجد السورة الكريمة زاخرة بالحديث عنه في مفتحها. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ١ هو الذي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ٢ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿[الأنعام: ١-٣].

في وسطها نجد آيات كثيرة تبرهن على وحدانية الله في آخرها أيضًا نجد آيات متعددة. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٤، ١٦٥].

الأدلة على صدق النبي ﷺ:

إقامة الأدلة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه، نجد أيضًا عشرات الآيات تأتي في هذه السورة الكريمة التي نزلت في تلك المرحلة الهامة من تاريخ الدعوة الإسلامية. نجد عشرات الآيات تقيم الأدلة وتلقن النبي ﷺ الأدلة على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

ثم نجد السورة الكريمة خلال تلك الأدلة: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَيْنَا بِمَا يَوْحَىٰ إِلَيْنَا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

تلك الأدلة على صدق النبي ﷺ نجد السورة الكريمة تسلحه بالصبر وكأنها تقول له : يا محمد ﷺ أنت في مرحلة الجهر بالدعوة وفي مطلعها فَتَسَلَّحْ وَلَا تَضْطَرْبْ وَلَا تَتَزَعَّزَعْ .

وجه هذه الأسلحة التي أعطيناك إياها إلى تلك الشبهات فاحققها وأزهدتها ، ثم تسليه وتدخل الطمأنينة على قلبه ، وتقول من بين ما تقول .

يقول الله ﷻ مسلِّيًا نبيه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

وقد ذكروا في سبيل هذه الآية أن أبا جهل التقى برجل آخر فقال له الرجل : يا أبا الحكم ، ألا تعتقد بأن محمدًا صادق فيما يبلغه عن ربه ، فما كان من أبي جهل إلا أن التفت يمينًا وشمالًا ، ثم قال للرجل : والله إن محمدًا لصادق ، فقال له الرجل متعجبًا : إذن لم تكذبه؟

فقال : محمد من بني هاشم ، وأنا من بني مخزوم ، نافسوا فنافسنا ، وفعلوا ففعلنا ، فأخذ يعدد ، لماذا يكون النبي من بني هاشم ولا يكون من بني مخزوم .

ونزلت الآية الكريمة : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

ثم تزيد في تسليته ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٣٤] لا مغير لأحكام الله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] . آيات كثيرة في تلك السورة تتحدث عن الأدلة على صدق النبي ﷺ .

الأدلة على أن القرآن من عند الله :

إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله : نجد أيضًا الآيات متعددة في السورة نفسها : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٢] .

الأدلة على أن يوم القيامة حق :

إقامة الأدلة على أن يوم القيامة حق ، نجد عشرات الآيات في هذه السورة الكريمة تسوق ألوانا من الأدلة والبراهين على أن الإنسان مهما طال عمره لابد أن ينتهي إلى مولاه ، ولا بد أن يوضع في القبر ، ولا بد أن يحاسب يوم القيامة على ما قدم وعلى ما أخر : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ ﴾ (لام القسم والله ليجمعنكم) ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢] .

عشرات الآيات في تلك السورة تبين أن يوم القيامة حق ، وهذه القضية اهتم بها القرآن الكريم اهتماما واضحا لا تكاد تخلو سورة من الحديث عن أهوال يوم القيامة . لماذا؟ لأن النفوس البشرية لها شهواتها ولها تطلعاتها ، فيريد القرآن أن يكفكف وأن يقول للناس : اعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا ، واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا . ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

من أهوال يوم القيامة:

ثم نرى القرآن خلال حديثه عن أهوال يوم القيامة في تلك السورة بالذات يسوق صوراً متعددة ، يبين لنا في بعض آياته من تلك السورة أن المجرمين - والعياذ بالله - الذين انطمست بصائرهم ، عندما يقفون يوم القيامة أمام النار ويرون أحوالهم يقولون : ربنا أعدنا إلى الدنيا لكي نؤمن ولكي نعمل ولكي نتصدق ، ولكي نؤدي التكاليف التي كلفتنا بها ، يبين لنا القرآن في تلك الصور طبائع النفوس ، أنهم حتى لو عادوا إلى دنياهم بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، لعادوا - والعياذ بالله - إلى ضلالهم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِغَايَةِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧) ﴿ بَلْ بَدَأَ هُمْ ﴾ (ظهر لهم) ﴿ مَا كَانُوا يَحْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (في الدنيا) ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ (أي ولو ردوا إلى الدنيا) ﴿ لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] .

محق شبهات المشركين في هذه السورة:

تسوق لنا السورة التي تبلغ آياتها خمسا وستين ومائة آية ألوانا من الأدلة ، والرسول ﷺ في مبدأ دعوته ، لكي تسلحه ، لكي تثبته ، لكي تقول له : امض في طريقك لا تخشى شيئا . فأنت على الحق المبين .

ثم لا تكتفي بكل هذا بل تحكي له شبهات المشركين ، وتنزل الآيات التي تمحقها وتزهقها . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ (ويرد القرآن) ﴿ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (أي لقضي الأمر بضلالتهم) ﴿ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ (٨) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ (هم يريدون من الرسول أن يكون من الملائكة ، بل ملكا ، فيقول لهم القرآن : كيف لو أنزلناه ملكا

لاختلط عليكم الأمر وقتلتم : نحن نعرف ولا نرتاح ، لو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا أي لجعلناه في صفة رجل ، فكيف يكون الأمر؟ ﴿وَلَلْبَسَنَّا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] ، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] .

يسوق القرآن في عشرات الآيات من تلك السورة بالذات تلك الشبهات التي أثارها المشركون حول دعوة النبي ﷺ ، ثم بعد ذلك تنزل الآيات القرآنية لتزيلها ولتمحقها ، ولتين للمؤمنين أنهم على حق لكي يزدادوا ثباتا على ثباتهم ، ولكي يزدادوا إيمانا على إيمانهم .

أسس ومعايير المعاملات السليمة بين أفراد المجتمع :

الوصية السابعة : هذه الوصية التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] . الأمر بالإيفاء الأمر بأن تعطي غيرك حقه وأنت أيضا تأخذ حقه .

هذه الوصية الكريمة هي أساس المعاملات الصحيحة السليمة بين أفراد المجتمع ، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] بالعدل ، بالحق و﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] .

ولأن هذه القضية تتعلق بالمعاملات ، والناس لا يستغني بعضهم عن بعض فيما يتعلق بالمعاملات نرى أنها تكررت أيضا في سور أخرى .

ونجد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن بينهم ، سيدنا شعيب أمر قومه أولا بإخلاص العبادة لله .

ثم أمرهم أيضًا بأن يوفوا المكيال والميزان. ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنِقُومِرَ اَعْبُدُوا اَللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا اَلْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ اِنِّى اُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَّ اِنِّى اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ۝ وَيَنِقُومِرَ اَوْفُوا اَلْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ اَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِى الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَتْ اَللهُ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا اَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ ۝﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

احتياج الإنسان الدائم الى غيره لعمارة الكون :

وهنا قد يسأل السائل : لماذا اهتم القرآن بهذه القضية - كما اهتم بغيرها من القضايا - وجاء الأمر بها في سور متعددة وعلى السنة رسل الله سبحانه وتعالى ، لأن المعاملات بين الناس لا غنى عنها ، الإنسان مدني بطبعه كما يقولون ، لا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده ، بل لا تستطيع أمة من الأمم أن تنزل عن غيرها ، لا تستطيع خصوصًا في عصرنا هذا الذي أصبحت المصالح فيه متشابكة .

وما يحدث في أقصى الشرق نعلمه بعد دقائق ونحن في أقصى الغرب . المصالح أصبحت متشابكة ، والأفراد لا يستغني بعضهم عن بعض .

وهذه حقيقة قررها القرآن الكريم في سور متعددة ، منها قوله ﷻ : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ اَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰتٍ ۝ لَّمَّا ذَا ؟ مَا الْحِكْمَةُ ؟ ۝ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] .

من سنن الله الكونية: التباين في المواهب:

هذه الآية تقرر سنة من سنن الله الكونية التي لا تتخلف وهي: الناس في كل زمان وفي كل مكان لا يستغني بعضهم عن بعض، وأن حكمة الله ﷻ قد اقتضت لكي يعمر الكون أن يكون فيه القوي والضعيف، والغني والفقير، وأن تتعدد مواهب الناس، فهذا يحسن التفسير، وهذا يحسن الحديث، وهذا يحسن الزراعة، وهذا يحسن الدفاع عن الأوطان، وهذا يحسن التجارة، وهذا يحسن الاقتصاد، وهذا يحسن كذا.

لابد أن توجد المواهب المتعددة لكي يعمر الكون، لكن لو تساوى الناس في هذه المواهب لما كان هناك تعمير للكون.

ولذلك يبين القرآن الكريم أن حكمة الله قد اقتضت ذلك. ﴿لَنُحْنِ قَسَمًا بَيْنَهُمْ﴾ (الله ﷻ هو الذي قسم) ﴿مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، هذا غني وهذا فقير، هذا قوي وهذا ضعيف، هذا يحسن كذا وهذا يحسن كذا، المواهب متعددة، وكل إنسان أعطاه الله سبحانه وتعالى مواهب قد تختلف عن مواهب غيره.

ثم تأتي الحكمة، لماذا تعددت المواهب واختلف الناس في عقولهم وفي مداركهم وفي آمالهم وفي مقاصدهم وفي غاياتهم، ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ليتعاون بعضهم مع بعض. أنا أسخر علمي لخدمة غيري، وغيري يسخر ما عنده مثلاً من فلاح أو زراعة، لأنني أرى أنني أحسن جانباً ولا أحسن جانباً، والغني يسخر للفقير، والفقير يسخر للغني، الغني يقدم ماله، والفقير يقدم عمله، وكلاهما محتاج إلى الآخر. القوي يبذل جهده، الفقير يبذل جهده، وكلاهما يتعاون مع الآخر.

ولذلك جاء التعبير الحكيم لم يقل القرآن الكريم : ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ الغني الفقير سخريا أو ليتخذ القوي الضعيف سخريا وإنما قال : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ، يعني أن القوي محتاج إلى الضعيف والغني محتاج إلى الفقير ، والفقير محتاج إلى الغني ، تبادل المنافع ، والحاكم محتاج إلى المحكوم ، والمحكوم محتاج إلى الحاكم ، وهذا معنى قول الله ﷻ : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ . فلفظ سخريا من التسخير بمعنى تسخير بعضهم لبعض ، وخدمة بعضهم لبعض واشتغال بعضهم لبعض . فالغني يقدم ماله نظير ما يقدمه له غيره من عمل . وكذلك الصانع والتاجر والمدرس والفلاح والحاكم والمحكوم .

من بلاغة القرآن :

ومن بلاغة القرآن أنه قال : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ولم يقل ليتخذ الغني الفقير أو يتخذ القوي الضعيف سخريا للإشعار بأن كل إنسان مهما بلغت مآربه ومهما بلغت قوته فهو محتاج إلى مواهب غيره .

بل الآية القرآنية تقرر سنة من سنن الله في خلقه ، وهو أن التفاوت في الأرزاق وفي الملكات وفي العقول وفي المواهب أمر لا شك فيه ، وأن تبادل المنافع بين الناس أمر لازم .

صور من المعاملات بين أفراد المجتمع :

وهذا التفاوت للمنافع ليس مقصورا على معاملة واحدة ، لا ، وإنما شريعة الإسلام بسماحتها بيسرها ، برفعها للحرص أتت بمعاملات متعددة ، ليتبادل الناس المنافع فيما بينهم عن طريق البيع عن طريق الشراء ، عن طريق الرهن ، عن طريق الوكالة ، عن طريق الصلح ، عن طريق السلم ، عن طريق الإقالة ،

عن طريق الحوالة، عن طريق العجالة، عن طريق الزراعة، عن طريق المساقاة، عن طريق الاستصناع، عن طريق المشاركة، عن طريق المضاربة، ما يقرب من عشرين معاملة، إذا لم تعجبك هذه فعامل بتلك، فوسع الدائرة، ويتعامل الناس في حدود شريعة الله بما يعود عليهم بالخير.

جملة احتراسية:

وهنا نجد القرآن يقول: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ما الداعي لهذه الجملة، القرآن يكفي مثلاً أن يقول: وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لم هذه الجملة الاحتراسية، لا نكلف نفساً إلا وسعها؟ لأن الله تعالى يعلم أن التعامل بين الناس، لا يخلو من غبن في بعض الجوانب.

قد أشتري شيئاً من إنسان فيزيد قليلاً في الميزان، وقد أشتري شيئاً من إنسان فأرى أنه ينقص شيئاً فأقول له: أنا متسامح، وأنا متنازل، فجاءت هذه الجملة لترفع الحرج عن النفوس، لا نكلف نفساً إلا وسعها، ابذل جهدك وعامل الناس معاملة كريمة، فإذا غبنت غبنا يسيراً فتنازل، وإذا غبنت غيرك غبنا يسيراً وهو راض بذلك فلا بأس. لا تكلف نفساً إلا وسعها.

الوصية الثامنة: الأمر بالعدل عند القول:

ثم تأتي بعد ذلك الوصية الثامنة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أساس رعاية المصالح بين الناس، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي ولو كان الذي عليه الحق وهو من أقرب الناس إليكم.

وهذه الوصية ترى القرآن يكررها في كثير من الآيات ، يأمر بالعدل بالقول كما هو وإذا قلتم فاعدلوا ، يأمرنا بالعدل في الحكم في الأحكام ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨] .

يأمرنا بالعدل في الشهادة ، عندما تشهد راقب الله في شهادتك ، ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق : ٢] أي : أخلصوها لله .

إن أطول آية في القرآن الكريم وهي آية الدين التي في أواخر سورة البقرة ، كرر الأمر بالعدل فيها مرتين ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وأيضا عند الإملاء ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيُهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة : ٢٨٢] إلى آخر الآية الكريمة ، يأمر بالعدل في أول الآية وفي أواخره بالعدل مع الغني ومع الفقير ، مع القريب ومع البعيد ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء : ١٣٥] .

نجد الآية الكريمة الأخرى التي في سورة المائدة أيضا تحكي ذلك ، وتأمرنا بأن نكون عادلين مع الأغنياء والفقراء ، تأمرنا أن نكون عادلين أيضا مع الأصدقاء ومع الأعداء العدل فضيلة .

الآية التي في سورة المائدة تأمرنا أن نكون عادلين مع الأصدقاء ومع الأعداء : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ (أي كراحتكم لقوم) ﴿عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨] .

العدل أساس الملك :

لم كل ذلك لأن العدل أساس الملك ، وقد قالوا في الحكم : لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالتعمير ، ولا تعمير إلا بالعدل ، فالعدل أساس الملك ، كل حلقة توصل إلى الأخرى . فالعدل هو الأساس الذي تقام عليه الأمم .

الإسلام يأمر بالعدل مع الأعداء :

نجد القرآن يأمر بهذا أن نكون عادلين مع الأصدقاء ومع الأعداء ، لم ؟ لأن بعض الناس أحيانا يتحدث بكلام يبعد الناس عن الإسلام ، يبغضهم في الإسلام ، مع أن الإسلام دين سماحة ودين يسر ودين قوة .

غير المسلمين بالنسبة للمسلمين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : إما قوم غير مسلمين ، لذا يعيشون معنا ولكنهم يعلنون الحرب علينا ، من حقنا ومن الواجب علينا أن نرد كيدهم ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وإما قوم آخرون لا يعيشون معنا ، يعيشون في بلادهم ولكنهم لا يعتدون علينا ، هم يتبادلون معنا المنافع في أقصى الشرق ونحن في أقصى الغرب ، لم يعلنوا حربا علينا وإنما نتبادل معهم المنافع ، وهؤلاء يقول القرآن في حقهم : ﴿ فَمَا اسْتَقِمْوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ سَحِيبٌ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] .

قوم آخرون يعيشون معنا في بلادنا وهم على غير ملتنا ، تظلنا سماء واحدة ، وتقلنا أرض واحدة ، ونستشق من هواء واحد ، هؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، لا يجوز لنا أن نظلمهم ، إنما يجب علينا أن نكون عادلين

بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ
أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] .

الظلم خراب البيوت العامة:

وإذا كان العدل أسمى درجات العهود والكرم والأدب والحق ، إذا كان العدل كذلك فالظلم وكلمة ظلم المكونة من ثلاثة حروف ، هذه المادة وما اشتق منها تكرر في القرآن في أكثر من ثلاثمائة موضع ، تارة يبين لنا القرآن الكريم أن الظلم -والعياذ بالله- وضع الشيء في غير موضعه ، يؤدي تارة إلى خراب البيوت العامة .

ويحكي لنا القرآن في سورة النمل ما جرى بين سيدنا صالح وبين قومه ، كيف أنهم أضمرُوا له السوء وأضمرُوا أن يقتلوه ، وقالوا : نحن نتبرأ من ذلك عندما نتهم ، ثم تأتي الآية في نهايتها : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١ فتلک بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ٥٢ [النمل : ٥٠-٥٢] يخرّب البيوت العامة .

أتعس الناس هم الظالمون :

نجد القرآن يقول بأن أتعس الناس هم الظالمون ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ
لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه : ١١١] .

عشرات الآيات وإن شئت فقل مئات الآيات وهي تحدث بأن نلتزم العدل ، وأن نبتعد عن الظلم ، لأنه بالعدل ترقى الأمم ، وتسعد وتنمو وتتقدم ، وتسود المحبة والمودة والإخاء .

أما الظلم -والعياذ بالله- فنسأل الله تعالى أن يجنبنا إياه ، سواء أكان ظلماً بين الإنسان ونفسه ، أم بين الإنسان وخالقه ، أم بين الإنسان وغيره ، لأن العدل -كما قلنا- : هو أساس الملك .

الوصية التاسعة : الوفاء بعهد الله :

ثم تأتي بعد ذلك الوصية التاسعة ، وفيها يقول الله ﷻ : ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] كونوا أوفياء بعهد الله سبحانه وتعالى . عهد الله التي أمرنا بالتزامها أن نؤدي التكليف التي كلفنا إياها من صلاة ، من زكاة ، من صيام ، من حج لمن استطاع إليه سبيلاً ، من اعتناق للفضائل ، من اجتناب للردائل . ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ .

عهود ليست جديرة بالوفاء :

والجملة الكريمة بمبناها تفيد الحصر ، للإشعار بأن هناك عهداً ليست جديرة بالوفاء ، ولا تنسب إلى الله تعالى ، بأنها قد تقدم على الظلم وعلى الجور أو على الباطل . والحديث الشريف : «المؤمنون عند شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً»^(١) .

الوصية العاشرة : وجوب اتباع الصراط المستقيم :

ثم تأتي بعد ذلك الوصية الأخيرة الجامعة : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾ [الأنعام: ١٥٣] ديني الذي أنزلته على نبينا محمد ﷺ ، وهو الذي ارتضاه الله لنا : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، الطرق الباطلة

(١) سبق تخريجه .

والمذاهب الباطلة ، وغير ذلك من الأهواء المضلة ، والتزم الطريق المستقيم ، لأن المؤمنين يكررون في اليوم الواحد على الأقل سبع عشرة مرة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦] ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

الخلاصة :

والخلاصة : أن هذه الآيات الكريمة قد وضعت أساس العقيدة السليمة ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ .

قد وضعت أساس العلاقة الطيبة بين الآباء والأبناء : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ .

قد وضعت أساس الطهر والنقاء والصفاء بين أفراد المجتمع : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ .

قد وضعت أساس العصمة للأنفس . ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

قد وضعت أساس التراحم والتعاطف ورقة القلب والشعور : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ .

قد وضعت أساس تبادل المنافع بين الناس بالطرق السليمة : ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

وقد وضعت أساس نشر العدالة ودفع الظلم : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ .

وقد وضعت أساس القيام بالتكاليف بقوة ونشاط : ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] .

وقد وضعت أساس الاستقامة على الحق والمداومة والثبات عليه : ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . والأهم إذا ما سارت على تلك الوصايا سعدت في دنياها وسعدت في آخرتها .

وفي الختام أقول : اللهم يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، ارزق الأمة الإسلامية نعمة الأمان والاطمئنان ، وحبب إلينا جميعا الإيمان ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان .

* * *

المحاضرة السادسة والأربعون بعد المائة

من جعل لأهل العلم يوماً

من القضايا المشهورة الذائعة المستفيضة قضية لا يستطيع أن يرتاب فيها مسلم، ولا يستطيع أن يكابر فيها جاحد، وهي القضية المشهورة أن الإسلام دين العلم.

وإن الذي يتتبع مباني هذه القضية وينظر إلى آفاقها وأبعادها، لا ليقم عليها البراهين، ولا ليستدل لها؛ لأنها من الاشتهار والثبوت بحيث استغنت عن الاستدلال، ولكن ليتبين معناها وحقيقتها، وليدرك مبناها، وليعرف كيف كان الإسلام دين العلم حقيقة بصورة امتازها من بين جميع الدعوات الدينية الأخرى.

فإنه يستطيع في ذلك أن يسلك طريقاً مشهورة معروفة بالنسبة إلى جميع القضايا التي أولاهها الدين الحنيف أهمية زائدة، حين يتتبع موارد تلك المادة في الكتاب العزيز، فيتبين له أنها قد كانت من الكثرة بحيث تدل على مزيد اعتناء، إما للترغيب وإما للترهيب.

ولكن هذا المسلك يمكن أن ينتهي إلى أن أصل المعنى، وهو أن مادة علم أو مادة الدلالة على معنى العلم مستعملة في القرآن العظيم بكثرة، وهي مستعملة أيضاً في الكتب السماوية الأخرى، وإن تكن مستعملة بقلّة إلا أن أصل الاستعمال قد أصبح مشتركاً بين الطرفين، ولكنه إذا عدل عن هذه الطريقة اللفظية إلى طريقة أخرى معنوية، تبين له بهذه الطريقة المعنوية كيف كان الإسلام حقيقة منفرداً من بين الأديان بكونه الداعي إلى العلم بصورة لا يشاركه دين من الأديان الأخرى فيها، ولا يشتمل كتاب

من الكتب السماوية عليها ، وذلك بالرجوع إلى معنى العلم ، لا من حيث كونه لفظاً يدل بمختلف تصاريف المادة على المعرفة والاطلاع والإدراك . بل على معنى أنه ماهية تتضمن حقيقة ذهنية وعنصرًا تكوينيًا من عناصر الشخص ، به امتازت طائفة ميزها القرآن العظيم تمييزًا من بين عناصر النوع البشري ، لمزيد الإدراك ومزيد الوعي الذي هي ممتازة به ، وهي طائفة أهل العلم أو العلماء أو الذين أوتوا العلم .

ثم ما بين القرآن العظيم من الآفاق الواسعة والأبعاد غير المتناهية للعلم ، حتى قال تعالى مع ما أثنى على أهل العلم من جهة ، فقال من جهة أخرى : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ثم النظر إلى الاستعمالات التي وردت فيها الألفاظ المؤدية إلى معنى العلم إما بطريق المرادفة ، وإما بطريق الارتباط على معنى التضمن أو على معنى الالتزام ، من معاني اللب والمعرفة ، إلى غير ذلك من المعاني التي تردت في القرآن العظيم .

فإننا إذا أخذنا العلم بهذا الاعتبار ، من حيث كونه ماهية مجردة ، ومن حيث كونه حقيقة تكوينية للشخص ، ثم من حيث كونه ملكة تثبت عند عنصر من عناصر النوع البشري يصير بها ممتازًا على بقية أفراد نوعه .

إذا أخذنا بهذا المعنى يتبين لنا أن هذا معنى لا تكاد الكتب السماوية الأخرى تشتمل عليه ، ولا تكاد الأديان الأخرى تلتفت إليه ، فيشعرنا إشعارًا حقيقيًا بما للعلم من امتياز في الدين الإسلامي ، وبما للدعوة الإسلامية من ارتباط بالعلم من هذه الناحية ، وهي كونه عنصرًا ذهنيًا تكوينيًا للفرد ، به ينال مقامًا من الامتياز بين أفراد نوعه .

وقد كان للعلم بهذا الاعتبار مكانة من الدعوة الإسلامية ، نستطيع أن نبينها بأنها مكانة ذاتية لا عرضية وأنها مكانة أساسية لا تكميلية ، بحيث إننا نلاحظ أن الدعوة الإسلامية انبنت على العلم ، وأعطت العلم مكان الحقيقة التي هي مبنى الدعوة ، وأساس الهيكل الإسلامي ، بحيث إن الإسلام متكوناً بالعلم ، وإن دعوته نافذة إلى الناس من طريق العلم لا من طريق آخر .

الدعوة الإسلامية بدأت غريبة :

وهذا يتضح عندما يلاحظ أن الدعوة الإسلامية بدأت دعوة غريبة ، وقد كانت غرابتها ترجع إلى ما انفردت به من الشمول والعموم .

من الشمول في موضوعها ومن العموم في متعلقها ؛ أعني في المخاطبين بها ، ولهذا الغرابة التي ظهرت بها الدعوة الإسلامية فقد اصطدمت في أول أمرها مع مسلمات كثيرة من القضايا الباطلة ، والعقائد الزائغة التي كانت الأمم على اختلافها تتمسك بها على ما بين تلك المسلمات الباطلة من اختلاف في مناشئها بين ما كان ناشئاً عن عقيدة دينية ، وما كان ناشئاً عن نظام اجتماعي وما كان ناشئاً عن دعوة حكمية فلسفية .

وبذلك تقرر عند الناس عقائد ، واصطبغت أوضاعهم الاجتماعية بتقاليد ، وانطبعت ذهنياتهم على مقاييس هي في حقيقة الأمر ليست مبنية على ما يقتضيها ولكن الناس التزموها التزام ما لا يلزم ، وسلموها بدون بحث فيها ، وبنوا عليها أوضاعهم الاعتقادية ، وأوضاعهم الاجتماعية ، وأوضاعهم الذهنية .

فكان من الضروري لهذه الدعوة الغريبة وهي دعوة الإسلام ، حين اصطدمت مع هذه المسلمات الباطلة ، أنه يستحيل عليها أن تنفذ إلى تصورات الناس وتصديقاتهم مع رسوخ تلك المسلمات الباطلة في أذهانهم .

وأنه يستحيل أن تبقى إذا لم تؤسس على بناء جديد من شأنه أن يتحامي ما دخل في أسس مباني الدعوات الأخرى من تلك المسلمات الباطلة ، والعقائد الزائفة .

فالتجته الدعوة الإسلامية حيثئذ لضمان بلوغها ونفوذها إلى النفوس والأفكار ولضمان قيامها وبقائها إلى محاربة تلك المسلمات التي يصبح رسوخها مانعاً من أن تنفذ الدعوة الإسلامية إلى القلوب ، أو أن تقوم هياكلها بين العقائد .

محاربة المسلمات الباطلة :

دعا الإسلام أول ما دعا في منهج محاربة المسلمات الباطلة ، التي كانت مستقرة في الأذهان من قبل ، دعا إلى النظر الذي هو الفكر الذي يطلب به العلم .

وأوجب على الإنسان أن يضع جميع ما عنده من القضايا المسلمة تحت ضوء النظر حتى لا تبقى عنده قضية مسلمة بدون تحليل ، ولا قضية ملتزمة التزام ما لا يلزم .

فأصبحت جميع المدارك الإنسانية بين مسلمة اعتقادية ، ومدركات ذهنية وأوضاع اجتماعية على اختلاف نواحي الأوضاع الاجتماعية ، أصبحت كلها موضوعة للنظر وخاضعة للبحث لأجل أن لا تبقى عند الناس قضايا

مسلمة ، يسلمون بها لأنهم لا يبحثون فيها ، ولا يبحثون فيها لأن عوارض تمنعهم وتصرفهم عن التأمل فيها والبحث في مبانيها .

وبذلك أصبحت الدعوة الإسلامية متجهة إلى تصحيح المعارف البشرية وتمحيصها ، وهذا التصحيح والتمحيص إنما يرجع إلى فحص مناشئ جميع القضايا التي تتعلق بها الأذهان البشرية تصورًا أو تصديقًا .

وهذا الفحص إنما يكون بفحص مناشئها ، والبحث عن الجهات التي أتت منها ، ووزن ذلك كله بميزان النظر الصحيح ، الذي هو عبارة عن عمل الفكر ، الذي يطلب به علم صحيح أو ظن غالب .

فاتجهت الدعوة الإسلامية إلى مقاومة المسلمات وإبطال مناشئها ، وهدم الأسس التي قامت عليها مبانيها ، وذلك بإخراجها عما كان يحوطها من التزام ، وبإلغائها عما كان يحيط بها من استثناءها من محيط النظر ، فأرجعتها إلى المحيط التي جاءت الفطر المنحرفة تخرج بها عنه .

ووضعت جميع القضايا في محيط النظر للبحث عن مناشئها وإبطال ما هو منكر منها .

فأصبح كل مبني على التقليد بدون إمكان النظر في الحجة أمرًا منكراً مهدوماً .

وأصبحت تلك القضايا التي هي من أمثال قضية أن للدين مجالاً وللعقل مجال آخر ، أو قضية أن ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر .

هذه كلها أصبحت قضايا مهدومة ؛ لأن الدين وجه إلى النظر في مناشئها ومبانيها ، ولما وضعت مناشئها ومبانيها تحت ضوء النظر تبين أنه لا وجه لما كان الناس يلتزمون منها .

سمات المنهج الإسلامي:

وبذلك خُطط منهج جديد ، وثبتت طريقة محدثة هي الطريقة الإسلامية في النظر الذي يحصل به العلم ، وفي المقاييس التي يمكن أن تسلم بها الحقائق ، وأن تثبت بها القضايا ثبوتًا عقليًا لا يمكن أن يقوم في وجهه ما تعلق بها من التقليد أو من الالتزام ، أو من التفكيك بين الواقع والنظر .

فجاء هذا المنهج الإسلامي الجديد الذي دعا إلى النظر على هذه الصورة ، ووضع القضايا المشهورة المسلمة موضع الشك والبحث والفحص والتمحيص أصبح منهجًا جديدًا ، مبنياً على طريقة تختلف عن جميع الطرائق التي كانت مسلوكة يومئذ ، بين ما سلكته الدعوات الحكمية ، وبين ما سلكته الدورات الدينية .

وقد ظهر استقلال هذا المنهج الإسلامي ومخالفته لجميع المناهج التي كانت معروفة يومئذ بين مناهج حكمية ومناهج دينية ، ظهر ذلك في الأسلوب التربوي الذي أخذت به الدعوة الإسلامية الجيل الأول الصالح من المسلمين ، وهو الأسلوب الذي تناول ذلك الجيل الفاضل بتربية مبنية على تكرار الجزئيات ، حتى يحصل من تكررها الانطباعات الكلية الشاملة للمعاني المفرقة بين تلك الجزئيات ، وذلك بما تأتي به للناس كلمة الوحي ، وما يرشداهم إليه الهدي النبوي القويم .

وبذلك أصبحت هذه الطريقة التي سارت على المنهج التربوي في التعلق أولاً بالجزئيات ، والتمرين عليها حتى تخلص منها المعاني الكلية التي هي مشتركة بين تلك الجزئيات .

أصبح هذا المنهج مبنياً على جزئيات هي مبثوثة مشورة في غضون الوحي الذي أتى به كلام الله تعالى ، وأنت به سنة النبي ﷺ ، فكان من الذين أتوا بعد الجيل الأول الذين لم يتكونوا بتلك العوامل التربوية التي جعلت الحقائق الإسلامية في نفوسهم ملكات وسلائق جعلتهم محتاجين إلى أن يرجعوا إلى تلك المعاني لبحثوا عنها ويتبعوا جزئياتها ، ويستخلصوا من تلك الجزئيات المعاني الكلية الجامعة حتى يقيموا بطريقة التعليم والتلقين ما فاتهم أن يقيموه في أنفسهم مما قام عند الجيل الأول الفاضل بطريقة التربية والسليقة ورسوخ الملكات .

فذهبوا يتتبعون موارد الأدلة التي تضمنت ما جاء به كلام الله تعالى وسنة النبي ﷺ من أصول وأدلة تدل على المعاني التربوية التي تكون بها الجيل الأول ، ولا سيما فيما يرجع إلى هذه الناحية ، وهي ناحية حقيقة العلم وماهيته التي هي طريقة تكوين المدارك الإسلامية .

وذهبوا في هذه القضية على الطريقة التي ذهبوا عليها في تحصيل مختلف العلوم ، فكما بحثوا في الأحكام المتعلقة بالعبادات والأحكام المتعلقة بالعادات ، والأحكام المتعلقة بالمعاملات ، بحثوا في الأحكام المتعلقة بالتعليم ، أو التكوين الذهني الذي هو الباب الأول من أبواب التربية الإسلامية .

فاتجهوا قبل كل شيء إلى استقصاء ما ورد من كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ مما يتضمن أدلة إجمالية من شأنها أن تستخرج منها القواعد التفصيلية المتعلقة بهذه الحقائق العلمية ، وبتلك النواحي التكوينية الإدراكية وساروا في ذلك على طريقتهم التي درجوا عليها في تحصيل الأحكام ، وهي

طريقة الاستنباط واستخراج الحكم الجزئي التفصيلي من الدليل الإجمالي ، وبذلك خططوا المنهج العلمي الإسلامي على الأصول التي جاء بها الوحي ، وبالمدارك التي وجدت في الكتاب والسنة ، ولكنهم عبروا عن ذلك بتعابير وضبطوه بضوابط ولخصوه في قواعد ليست هي التي أتت في لسان الوحي ، كما وقع ذلك بالنسبة إلى سائر العلوم الإسلامية .

فاتجهوا أولاً إلى إثبات العلم وهي قضية كبرى ، ومن معضلات القضايا الحكمية التي اختلفت فيها الطرائق الفلسفية قبل ذلك قدداً .

فقرروا أن العلم الذي هو عبارة عن إدراك حقائق الأشياء ، أو التوصل إلى معرفة الحقائق هو أمر ثابت ، وأن للأشياء حقائق ثابتة لا سبيل إلى نكرانها ، وأن انكشاف تلك الحقائق من مدارك الإنسانية هو أمر ميسور مستطاع ، بل هو أمر ثابت ومفروض .

فبنوا المنهج العلمي الإسلامي قبل كل شيء على إثبات حقائق الأشياء ، وعلى أن العلم بها متحقق ، وسلکوا في ذلك مسلك مقاومة المذاهب الفكرية الهدامة من قبل ، التي هي مذاهب السفسطائية ، وهي التي تنكر المعلومات ، ولا تثبت حقيقة العلم وتدعي أن حقيقة العلم إما معدومة ، وإما حقيقة إضافية ، وليست حقيقة ثابتة ذاتية قارة .

ولما نظروا في إثبات العلم وقرروا أنه لا بد لكل موجود من حقيقة ، وأن الذهن الإنساني لا بد من أن يدرك تلك الحقيقة ، خلافاً للسفسطائية ، فإنهم بذلك قد انحازوا إلى المنهج الذي يسمى المنهج الواقعي ، وهو الذي كان يسير عليه حكماء التاريخ القديم ، الذين بنوا مذاهبهم على مقاومة السفسطائية وإنكارها .

وهذا المنهج الواقعي وإن يكن المنهج الإسلامي قد انحاز إليه فإنه قد انحاز إليه على معنى يميزه عن جميع المسالك التي كانت سائرة في سبيل الواقعية ، مخالفة للمذهب السفسطائي ، فإن الواقعيين من الحكماء الذين تقدموا بعثة الإسلام قد كانوا في حقيقتهم واقعيين انحيازيين ؛ لأنهم وإن أثبتوا حقائق الأشياء ، إلا أنهم في إدراكها قد اختلفوا .

فكل مذهب من المذاهب أثبت طريقاً من طرق الإدراك ، وعطل طريقاً آخر فهناك مثلاً : الحاسيون الذين أثبتوا إدراك الحس ، وأنكروا إدراك العقل .

والعقليون الذين كانوا بعكس ذلك ؛ مثبتين لإدراك العقل نافين لإدراك الحس ، فجاء المنهج الإسلامي الواقعي مخالفاً لهذه الواقعيات الانحيازية ، وجاء مذهباً مبنياً على الشمول ، وعلى الاستقلال ، ومقرراً لواقعية غير محصورة .

فهو مبني على الشمول لأنه يجعل جميع الحقائق الموجودة قابلة للإدراك ، ولا يستثني منها كما استثنت بعض المذاهب .

ومبني على الاستقلال لأنه لا يتبع العقليين ولا الحاسين ولا الإشراقيين ، ولأن كل طريق من هذه الطرائق إنما أثبت منهجاً للمعرفة وعطل مناهج أخرى .

وكانت مبنية على الواقعية غير المحصورة أو الواقعية غير المنحازة ؛ لأنها بنيت على أن الواقع يستطاع إدراكه ، وأنه ليس في الواقع ما لا يمكن إدراكه ، وأن وسائل الإدراك كلها صالحة لأن تستعمل ولأن تحقق المطلوب من الإدراك باستعمال كل وسيلة منها في محلها .

فالحس للمدركات الحسية، والعقل للمدركات العقلية، والغيب للمدركات التي هي وراء المدركات الحسية ووراء المدركات العقلية، وطريق تحصيله إنما هو وحي .

وعلى ذلك فإن قضية العلم حين وضعت في تاريخ التفكير الإسلامي، وضعت من أول مرة على وضعين متباينين .

أحدهما: الوضع الإسلامي، وهو الوضع الذي تتبع أدلته علماء الدين، واستخلصوا من تلك الأدلة الأصول والقواعد، وخططوا المنهج العلمي الذي سار عليه أهل السنة قبل نشأة علم الكلام، ثم الذي بني عليه علم الكلام بعد نشأته على الطرائق التي سلكها المتكلمون في تقرير معنى العلم ووسائله وحدوده وطرق تحصيله .

وأما الطريقة الأخرى: فهي الطريقة المقابلة لهذه الطريقة، وهي طريقة طائفة من المسلمين، لم يتمكنوا من الحكمة الدينية تمكنهم الكامل، وإن تمكنوا من غيرها تمكنًا كاملاً .

وهم الحكماء الذين نشئوا على الحكمة المنقولة، وتعلقوا بها وبمذاهبها، وبرعوا فيها حتى ناظروا رجالها، وناقشواهم في نظرياتهم، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وإخوان الصفا .

فهؤلاء إنما كانوا ينظرون إلى قضية العلم نظرًا غير مؤسس على المنهج الديني؛ لأنهم كانوا غير مستطيعين الرجوع إلى الأصول، واستخراج القواعد والنظريات الجزئية منها، فذهبوا يتابعون الطرائق القديمة والمذاهب البائدة في تقرير معنى العلم، بصورة جعلتهم يشعرون من أنفسهم قبل أن يشعر منهم

غيرهم بأنهم سائرون على منهج لا يمكن أن يتساير ولا أن يتلاءم مع المنهج الإسلامي إلا على ضرب من التأويل .

فذهبوا سائرين في طريقهم متعلقين بالمنهج المشائية والإشراقية وغيرها ، وأتى المتكلمون الأولون الذين تأثروا بذلك وهم المعتزلة ، فبدءوا يتأولون للجمع بين المعاني الدينية التي أنكر الناس تنافيا مع ظواهر تلك المقالات الفلسفية ، وبين تلك المقالات الفلسفية على معنى من تأويل هذا بذاك ، وتأويل ذاك بالآخر ، حتى ظهرت الطريقة الكلامية التي بنيت على ضبط ما هو مستخلص بأئمة السنة الأولين من القضايا التفصيلية التي هي مستنبطة من أدلتها الإجمالية ، فيما يرجع إلى حقيقة العلم وطرائقه وقواعد تحصيله .

وقد وقع الذين تمسكوا بالمذهب العلمي غير الإسلامي وهو المذهب اليوناني في أغلاط فادحة ، فمنهم من مال إلى تعطيل الشريعة بالتأويل مثل إخوان الصفا ، ومنهم من مال إلى التفكيك بين نظريتي العلم والعمل ، فجعل علم الفقه من المطالب العملية التطبيقية التي يعود إليها قيام المدينة الفاضلة ولم يعطه حظاً من المعارف النظرية مثل الفارابي ، ومنهم من حدد العلوم تحاديد مختلفة مدخولة كما وقع لابن سينا .

استنباط الأحكام العامة من الأدلة :

كل ذلك والعاكفون على دراسة الإسلام دراسة إسلامية صحيحة على وجهها المستقيم كانوا يتجهون إلى استخلاص الجزئيات من أدلتها ، والتفاصيل من مجملاتها ويسيرون في ذلك على الطرائق التي كانت تنتهي بهم إلى وضع أصول العلوم .

فقد وضع الإمام الشافعي في رسالته المشهورة أصول علم الفقه ، كما وضع الإمام مسلم بن الحجاج في مقدمة «صحيحه» أصول علم الحديث ، ووضع الإمام الأشعري أصول علم العقيدة .

إلا أن واحداً من هؤلاء كان يختص بوضع الأصول في ناحية معينة ، وجهة مفردة منحازة ، هي التي ترجع إلى الموضوع الذي هو قيم عليه بحيث إنه لم توضع أصول عامة للمناهج العلمية بصورة شاملة ، وإن كانت تلك الأصول ثابتة ومستقرة عند العلماء من أئمة الدين ، إلا أنهم لم يبرزوها ولم يفصحوا عنها ، ولم يضعوها لها قوالب القواعد الضابطة لها ، كما وقع بالنسبة إلى الفقه وإلى الاجتهاد بذاته .

فقد مضت أجيال الفقهاء من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وهم يتفقهون ولهم في فقههم منهج ، ولهم في عمل استنباطهم أصول ، إلا أنهم لم يكونوا يعبرون عن تلك الأصول ، ولا يضبطونها وإنما كانوا يشعرون بها شعوراً وجدانياً ويبنون عليها عملهم بناء الأثر على النظر بصورة لم تظهر معها القواعد والنظريات إلا في منتصف القرن الثاني منذ بدأت تظهر المذاهب وبدءوا يتناقشون في حجية دليل من الأدلة دون حجية دليل آخر .

فعلى هذا المنهج كان العلماء في نظرهم إلى قضية العلم كانوا يشعرون بأن للإسلام منهجاً خاصاً به في العلم ، وأن هذا المنهج بنيت عليه الطرائق التفصيلية التي تولد بها علم الفقه وعلم الحديث وعلم الكلام وغيرها من العلوم الإنسانية .

ولكن الأصول الكلية والمنهج المشترك بين تلك الطرائق هو الذي بقي مكنوناً في صدورهم ، لم يفصحوا عنه ولم يبينوه كما كانت طرائق الاجتهاد عند المجتهدين الأولين قبل استقرار المذاهب ، حتى جاء حجة الإسلام

الإمام أبو حامد الغزالي ، فرجع إلى تلك المناهج الجزئية المختلفة من أصول علم الفقه ، وأصول علم الحديث ، وأصول علم الكلام .

وحاول أن يستخلص منها منهجًا كليًا جامعًا ، هو عبارة عن المنهج العلمي الإسلامي ، أو عبارة عن المذهب الإسلامي في نظرية المعرفة .

فحاول هذا العمل الجليل واضطلع به خير اضطلاع ، وبين في غير وضع من أوضاعه وغير تأليف من تأليفه القيمة ما يرجع إلى العلم وحقيقته ، وما يحمد منه في الإسلام وما يذم ، وما هي الأصول التي ينبغي أن يكون العلم قائمًا عليها بحيث إذا روعيت كان العلم في نظر الإسلام صحيحًا ، وإذا لم تراعى كان العلم في نظر الإسلام باطلاً .

ومع ذلك فإنه هو بنفسه على جلالته قدره لم ينج من أن يقع في مسائل خلاف بينه وبين إخوانه من أهل السنة فيما يرجع إلى أسباب تحصيل العلم ؛ حيث إنه لم يسايرهم في الاقتصار على أن أسباب العلم ثلاثة هي : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل .

ولكنه أضاف طريقة أخرى ، وهي : طريقة الإلهام أو الإشراف أو الكشف أو غيرها ، مما كانت عباراته صريحة في أنه غير متقيد بالمسالك التي تقيد بها الأولون ، لكنها لم تكن صريحة في ضبط هذا السبب الرابع من أسباب المعرفة ما هو؟!

وعلى كل حال لقد بسط في كتابه «إحياء علوم الدين» ، وفي كتابه «المنقذ من الضلال» ، وفي المقالة التي كتبها بخطه لتلميذه وصفيه القاضي أبي بكر بن العربي ، أنه يرى أن النصوص تبلغ مبلغًا من الصفاء والاستشراق بحيث تدرك المعلومات بدون وسائل ، وهذا الذي أثار الطامة الكبرى من الإنكار على الإمام الغزالي من أصحابه وتلاميذه .

وبهذا فإن معنى العلم وكونه من المعاني الإسلامية الأساسية وكون الإسلام قد دعا إلى منهج معين في العلم ، وإن اختلفت الطرائق في ضبط ذلك المنهج تفصيليًا كما وقع بين الغزالي وبين القاضي أبي بكر بن العربي ، فإن ذلك كله قد جعل من الضروري أن للإسلام نظرة إلى العلم ، وأن للإسلام منهجًا في العلم كيفما كان .

ومن ضرورة هذه القضية نشأت ضرورة قضية أخرى ، وهي أنه إذا كان من الضروري أن الإسلام دعا إلى العلم ، وأنه قد سلك في العلم منهجًا ، وأن هذا المنهج الإسلامي هو منهج خاص بالإسلام ، ينفرد به دون الدعوات الدينية والمذاهب الحكيمة الأخرى ، فإن العلم بذاته قد أصبح وجوده ضروريًا .

فأصبح من المعلوم الضروري أن هناك حقيقة ثابتة يقال لها : العلم ، وانتهى بعضهم إلى ادعاء أن معرفة ماهية هذه الحقيقة هو أمر ضروري أيضًا . فذهب الإمام فخر الدين الرازي إلى أن تعريف العلم غير مستطاع ، وأن حقيقة العلم ضرورية غير نظرية ، تعرف بدون تعاطي الأسباب المعرفة لها ، كما هو شأن المعارف الضرورية .

وبرهن على ذلك بأن تفاصيل المعارف هي نظرية ، وأن القضايا النظرية لا بد أن تنتهي في مآلها إلى قضايا ضرورية ، كما صرح بذلك المناطقة .

وأنه إذا لم تكن حقيقة العلم ضرورية ، فإن التفاصيل العلمية لا تجد ضرورة تستند إليها ، وتبقى كذلك سائرة على النظريات التي وراءها نظريات بصورة غير متناهية ، تكاد تثول إلى السفسطة .

وقد بحث كثير ممن قبل الإمام الرازي ومن بعده في ادعاء أن معرفة العلم ضرورية ، ولكنهم وافقوه في أن العلم مستغن عن التعريف والتحديد .

فذهب إمام الحرمين عبد الملك الجويني إلى أن تعريف العلم متعسر .

وصرح الغزالي في «المستصفى» بأن محاولة تعريف العلم من محاولة ما لا ينتهي إلى غاية .

وذهب القاضي أبوبكر بن العربي في «عارضة الأحوذى في شرح سنن الترمذي» إلى أنه من الخطأ البحث عن تعريف العلم وتبيينه ؛ لأنه أبين من أن يبين .

ولذلك اختار المحققون من المتأخرين الاستغناء عن تعريف العلم ، كما اختار الإمام تاج الدين السبكي الإمساك عن تعريفه .

وبين العلامة سعد الدين التفتازاني أن أكثر حقائق العلم مدخولة ، قيل لخبائثه والمحققون لوضوحه .

فقد أصبح العلم حينئذ من الضرورة من الوضوح بحيث إنه التحقق بالأصول الكلية الإسلامية التي تبني عليها حقائق الأشياء ومدارك العلوم ، ولا تبني هي على غيرها .

وبهذا يتبين لنا سر المقام الذي احتله كتاب العلم من هذا «الجامع الصحيح» الذي صنفه الإمام البخاري .

فقد بين القاضي أبوبكر بن العربي في «القبس» أن لواضعي كتب السنة في طريقة الابتداء مناحي مختلفة ، فمنهم من ابتدأ بالأصول النظرية التي هي العقائد كما فعل الإمام البخاري .

ومنهم من ابتدأ بالأعمال التكليفية التي هي العبادات كما فعل الإمام مالك ، وكما فعل غيره من أصحاب «السنن» .
والذين ابتدءوا بأحكام العبادات أيضًا منهم من ابتدأ بالمقاصد ، ومنهم من ابتدأ بالوسائل .

وقد بين في هذا أن الإمام البخاري كان من الذين جنحوا إلى طريقة الابتداء بالأصول قبل الفروع ، والنظريات قبل التطبيقات والعمليات .
وبذلك يتبين السر في أن الإمام البخاري جعل كتاب العلم بموضع وسط بين كتاب الإيمان وكتاب الطهارة الذي هو مبدأ أحكام العبادات ؛ إذ بين بذلك أن العلم كالإيمان أمر يتوقف الشروع في تقرير الأحكام الشرعية عليه ، كما أشار إلى إتباع الإيمان به ، بأنه يتنزل من الإيمان منزلة الجزء من الكل ، أو منزلة الفرع من الأصل .

وعلى ذلك جعل كتاب العلم بين كتاب الإيمان وابتداء أحكام العبادات للإشارة إلى أن العلم هو مادة البراهين القائمة على العقائد ، وهو مادة الاستنباط الذي تؤخذ به الأحكام المتعلقة بالأعمال التكليفية ، فهو حينئذ في مرتبة بين الإيمان وبين العبادة .

وإذا نحن رجعنا إلى هذا الكتاب الذي عقده الإمام البخاري وهو كتاب العلم ، وألقينا عليه نظرة عامة ؛ لنحلله ونصنف عناصره ونخرج بالصورة الاستخلاصية من مجموع الأحاديث والتراجم التي وردت فيه ؛ فإننا نجده وإن اشتمل على أكثر من مائة حديث داخلية تحت أكثر من خمسين ترجمة ؛ فإن العناصر الكلية التي ترجع إليها معاني تلك الأحاديث والتراجم ، إذا صنفناها يمكن أن ترجع إلى خمسة أصناف ، وهذه العناصر هي :

أولاً : التنوية بالعلم .

وثانياً : بيان مضمونه .

وثالثاً : بيان وسائله .

ورابعاً : بيان مناهجه .

وخامساً : بيان أساليبه .

فهذه هي العناصر الخمسة التي تتول إليها جملة التراجم ، وجملة الأحاديث التي اندرجت تحت تلك التراجم بين المكرر منها والمفرد .

أما **العنصر الأول وهو :** عنصر التنويه بالعلم ، فقد ابتدأ الإمام البخاري به في طالع كتاب العلم ، ثم رده في أثناء التراجم التي تعاقبت بعد ذلك في هذا الكتاب من أوله إلى آخره .

فأتى في تراجم عديدة بما يرجع إلى بيان فضل العلم وعظيم منزلته ، إما مباشرة وصرحة ، وإما بواسطة المآل بدلالة التضمن ، أو بدلالة الالتزام .

وأما **العنصر الثاني وهو المضمون** ، فإنه رحمته قد أشار إلى أن مضمون العلم واسع ، حيث بين مختلف ما استنبطه في التراجم من دلالات الأحاديث بأن العلم يشمل الحديث وهو أكثر ذلك ، ويشمل الفقه حيث أورد حديث : «من يرد به خيراً يفقهه في الدين»^(١) أو «يفهمه» ، وأورد حديث أو أحاديث متعلقة بالإفتاء ، والجواب عن الأسئلة المتعلقة بالأحكام .

كما بين أنه يشمل الموعظة والتذكير بأحاديث كثيرة ، منها حديث الباب الذي هو موضوعنا .

(١) سبق تخريجه .

فدل بذلك على أن مضمون العلم واسع شامل ، يشمل الفقه ، كما يشمل الحديث ، كما يشمل الموعظة والتذكير .

وقد درج الإمام البخاري في هذا على طريقة الذين يجعلون دلالة العلم دلالة واسعة ، وهي خلاف الاصطلاح الذي درج عليه الكثيرون ، حيث ضيقوا دلالة العلم ، فجعلوه قسيمًا للفقه ومقابلًا له ، فجعلوا العلم راجعًا إلى الرواية والأثر ، والفقه راجعًا إلى الدراية والنظر .

وبذلك جعلوا العلم مقصورًا على الحديث ، وجعلوا الفقه غير داخل في مدلول العلم ، فبين الإمام البخاري بهذا أنه يرى سعة مدلول العلم وشموله ، وأنه يرى أن الحديث علم ، وأن الفقه علم ، وأن الوعظ والتذكير علم .

فكانه يرى أن كل ما تحصل به المطالب علم ، وأن ما تحصل به المطالب الشرعية علم شرعي ، وما تحصل به المطالب العادية علم إنساني ، على ما أفصح عنه فيما بعد العلامة ولي الدين بن خلدون .

وأما العنصر الثالث وهو : عنصر الوسائل فقد بين الإمام البخاري أن وسائل العلم تكون بالتبليغ من المعلم للمعلم ، وتكون بالسؤال من المتعلم للمعلم ، وتكون بالكتابة كما تكون بالقراءة وقد تكون بتخصيص قوم دون قوم ، وقد تكون بتخصيص النساء دون الرجال ، وقد تكون في المحيط العام ، كما تكون في المحيط الخاص ، كما أشار إلى ذلك بترجمة من علم أُمَّتَهُ وأَهْلَهُ .

وأما العنصر الرابع ، وهو : عنصر المناهج ، فإنه قد بين فيه جواز اتخاذ أيام معلومة لبث العلم ، وبين فيه جواز اتخاذ مواعيد للنساء ، وأخرى

للرجال ، وبين فيه أن العلم يكون في مختلف الأوقات بالليل والنهار ، فيكون السمر في العلم .

وأنه قد يكون في المواضع اللاتقة بذلك ، كما بين في ترجمة : العلم في المسجد إلى غير ذلك مما يرجع إلى المناهج ، كما بين أحكام السن في متى يصح سماع الصغير ، وأحكام التناوب في طلب العلم إلى غير ذلك .

وأما العنصر الخامس وهو : عنصر الأساليب ، فقد تكلم فيه على الفهم والمراجعة والحفظ والإنصات والإعادة وذكر شيء مع ترك شيء مخافة أن لا يفهم ، والغضب من عدم فهم العلم ، وكيف يقبض العلم ، إلى غير ذلك مما هو راجع إلى الأساليب .

وحديث موضوعنا هو كما لا يخفى راجع إلى العنصر الرابع ، وهو عنصر المناهج ، حيث إنه يرجع إلى جعل أيام معلومة للعلم .

وهذا العنصر على العموم ، وهو عنصر المناهج ، سواء ما تعلق منه بموضوعنا الخاص ، وهو جعل أيام معلومة ، أما ما تعلق بغير ذلك من المواضيع الراجعة إلى المناهج ، إنما هي عبارة عن صور عملية وأحوال تطبيقية بحث الإمام البخاري كغيره من أئمة السنة والفقه على أدلتها ومداركها في موارد أدلة الأحكام من القرآن والسنة ، ثم بعد ذلك استنبط من تلك الأدلة والمدارك الأحكام المتعلقة بهذه الصور العملية .

وبهذا كانت هذه المطالب الراجعة إلى مناهج التعليم مطالب مندرجة في الأحكام الفقهية ؛ لأنها مطالب تفصيلية جزئية ترجع إلى الأدلة الإجمالية ؛ ولأن الأحكام فيها تتكون كما تتكون الأحكام في غيرها من سائر المطالب الفقهية بطريقة الاستنباط .

وقد جعل هذا الحديث الذي خرجته تحت هذه الترجمة ، وهي : « من جعل للعلم يوماً معلوماً » ؛ جعله دلالة على مشروعية هذا المعنى ؛ وذلك هو الحديث المروي عن أبي وائل وهو من كبار محدثي التابعين ، وهو كوفي يروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما حدث عن عبد الله بن مسعود ، وهو المراد بعبد الله حيثما أطلق في « صحيح البخاري » ، حديثاً كوفياً منقولاً بسند كوفي ؛ هو : ابن أبي شيبه عن جرير عن منصور عن أبي وائل ، مستندا إلى حديث نبوي منقول في « الصحيح » أيضاً في الباب الذي قبل هذا بسند آخر هو بصري ، وهو : محمد بن يوسف عن سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي وائل ، وهي طريقة من الطرائق اللطيفة التي يعبر عنها بلطائف الإسناد .

وقد بين في هذا الحديث أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يلتزم يوماً معيماً من الأسبوع ، وهو يوم الخميس لتذكير الناس والمراد بالتذكير هنا : ذكر الحقائق الدينية ، وربط المسالك الدنيوية بالنتائج الأخروية بصورة تثير ضمير المراقبة في الشخص الذي يذكر بحقائق المعاد ؛ لأجل أن يصلح بذلك المعاش ، فكان يتخذ هذا اليوم للتذكير .

ولما سئل من طرف رجل أبهم هنا ، وعرف في موارد أخرى من موارد هذا الحديث ، وهو يزيد النخعي ، سأله عن وجه هذا الاقتصار استغراباً أولاً ، وحرصاً على الاستفادة ثانياً .

لماذا خص يوم الخميس بالتذكير ؟

فبين له أن الأمر غير راجع إلى خصوص يوم الخميس ، وإنما هو راجع إلى أن التذكير لا يناسب أن يكون كل يوم ، كما رجا ذلك السائل يزيد

النخعي ؛ فبين له أن أصلاً من السنة النبوية يقتضي ذلك ، وهو أن النبي ﷺ كان يتخول الناس بالموعظة .

والتخول : هو عبارة عن التعهد الذي يكون بممارسة الشيء ، والاتصال به عن انقطاع لا عن استرسال .

وبين أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك ؛ أي أنه لم يكن يوالي الوعظ والإرشاد والتذكير استرسالاً ، وإنما كان يقطع ذلك خشية السامة ؛ وهي الملل والقلق ؛ لأنه ﷺ من نصحه لأئمة وحرصه على سلامتهم ونجاتهم ، يريد أن يتلقوا تلك المواعظ ناشطين إليها مقبلين عليها في غير سامة ولا فتور ولا ملل ولا قلق ولا إدبار .

فكان الذي حصل من هذا أن عملاً كان يسير عليه صحابي ، وهو تخصيص يوم معين من الأسبوع للتذكير ، قد بين ذلك الصحابي الجليل أن له مستنداً في السنة النبوية ، وأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك حيث كان يتخولهم بالموعظة .

ومن هنا وقع تطبيق الأصل الإجمالي على الحالة الجزئية ، فخرج حكم متعلق بالحالة الجزئية ؛ وهي تخصيص يوم الخميس ؛ مستنداً إلى دليل إجمالي ، وهو أنه ينبغي أن يتحاشى بالتذكير مظنة السامة ، وبهذا جاءت المطابقة للترجمة .

فإن مطابقة الترجمة إنما هي في عمل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث عين يوماً معلوماً ، وليست مطابقة الترجمة في الحديث ؛ لأن الحديث الشريف لم يتضمن يوماً معلوماً معيناً ، وإنما تضمن الإشارة إلى أنه ينبغي تحاشي مداخل السامة .

وبذلك يكون عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قد تصرف في هذا المعنى تصرف المكلف فيما قام الدليل على إباحته .

فإذا قام الدليل على أنه ينبغي أن تخشى السامة ، وأنه ينبغي أن يكون التذكير في أيام دون أيام ، فأصبحت الأيام التي لا تتوالى متساوية في مقام الإباحة ، وأصبح تصرفه فيها على معنى ما قرر الإمام الشاطبي في الكلام على المباح ، من أنه لما استوى طرفاه ؛ فقد أصبح لا تعلق من الشرع بطلبه ، لا من حيث الإيجاب ولا من حيث السلب .

وبذلك كان يوم الخميس كغيره من الأيام ، يستطيع كل واحد أن يصطلح على اليوم الذي يشاء ، أو على الأيام التي يشاء ، بحسب ما يرى من الملاءمات ؛ بناء على المحافظة على الأصل الذي هو جعل الأمر راجعاً إلى تحاشي السامة .

وهذا يكون أصلاً أصيلاً في مسألة البدع والمحدثات ؛ فإنه لا يخفى أن هذه المسألة تقوم على تقابل أصليين :

الأصل الأول : ما هو معلوم مشهور من ذم البدعة ومحدثات الأمور ، وهو المعنى الذي جعل البدعة كلمة ذميمة في لسان الشرع ، وبني على ذلك نسبة أهل العقائد الباطلة الزائغة إلى البدع ، فسموا أهل البدع أو المبتدعة ، وجعل ذلك في مقابلة أهل السنة أو المتسنين .

وعلى ذلك أقام العلماء التحذير من البدع ، والتحذير من المحدثات ، كما قال الشيخ في الرسالة : وترك كل ما أحدثه المحدثون ، وكما وضع الإمام الطرطوشي كتابه في البدع ، وكما استعمل البدعة الإمام أبو إسحاق

الشاطبي في كتاب «الاعتصام»، وهؤلاء جميعًا جعلوا البدعة أمرًا شرعيًا دميماً منكرًا بلسان الدين .

والأصل الثاني: الذي يقابل هذا الأصل ، هو أنه قد حدثت محدثات ، وأقرت واستحسنّت وانعقدت على بعضها الإجماع فقد جمع المصحف ولم يكن مجموعاً وأعجم ولم يكن معجمًا .

وأسس عمر رضي الله عنه بيت المال ، كما أسس الديوان وأسس الخراج .
وأسس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب السجن .

واستمر إحداث الأمور إلى العصور التي هي عصور الاجتهاد المطلق ، كما قال مالك بضرب المتهم حتى يقر ، وفيما بعد عصور الاجتهاد المطلق ، كما قالوا في بناء المدارس ، وكما أفتى ابن عبد السلام في القرن الثامن بإلزام الحاجر الفقير بتأمين ما تحت يده من المال الراجع لمحقوره ، وهذا في الحقيقة معنى يرجع إلى الصنف الذي لا ينقطع من الاجتهاد ، كما بينه الإمام الشاطبي ، وهو ما يعبر عنه بتحقيق المناط .

مخالفة الفقه للنصوص:

وعلى ذلك بنيت اختيارات كثيرة ، جاء الفقه فيها مخالفاً للنصوص ، منها ما بني عليه العمل في الأندلس ، مما أشار إلى كثير منه ابن عاصم ، وفي فاس مما تكفل ببيانه العلامة الزقاق في «لاميته» ، ثم الشيخ محمد بن أبي القاسم السجلماسي في «العمليات العامة» ، ثم الشيخ عبد الرحمن الفاسي في «العمليات الفاسية» ، إلى غير ذلك مما يرجع كله إلى مراعاة العرف والعادة ، ويؤول إلى الأصل الذي هو أحد الأصول التي بنيت عليها الشريعة فيما قال القاضي الحسين ، وهو أصل : العادة محكمة .

وقد وضع الفقيه الحنفي الكبير من المتأخرين في القرن الثالث عشر ، وهو الشيخ ابن عابدين رسالة سماها : « طيب العرف في بناء كثير من الأحكام الشرعية على العرف » ، وجعل مدارها على البيت من الرجز الذي نظمه لذلك وهو :

والعرف في الشرع له اعتبار لذا عليه الحكم قد يدار

فبناء على هذين الأصلين ، وعلى ضرورة الجمع بينهما بأن البدعة منكرة ، وأن بعض المحدثات مستحسنة ، مال الناس جميعاً إلى الاعتماد على كلمة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وهي قوله : « تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من الفجور » ، وهي التي أوردها الشيخ في الرسالة في ختامها .

ومال شراحه في محاولة الجمع بينها وبين الكلمة الأولى ، وهي ترك ما أحدثه المحدثون ، إلى أن ذلك يرجع إلى التفضيل بين ما له مستند من أدلة الشرع ، وما لا مستند له من أدلة الشرع .

وهو التحقيق الذي أقام عليه شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية نظريته في مسألة التفصيل في البدع .

فبين أن ما أتى من ذم المحدثات لا ينبغي أن يكون على إطلاقه وأنه ينبغي النظر فيها على اعتبار الرجوع بها إلى أدلتها من الديانة ، فما كان راجعاً إلى دليل يستند إليه فهو محمود وليس بمذموم ، وما لم يكن راجعاً إلى دليل فهو الذي يسمى ابتداءً .

وهذا يتضح أن لفظ البدعة قد أصبح مستعملاً في معنيين ، فله معناه اللغوي الأصلي ، وهو كل شيء حادث ، وهذا عام يشمل المحمود والمذموم .

ثم إن اللفظ قد نقل من معناه اللغوي الأصلي إلى معنى شرعي اصطلاحى استعمل فيه على الحقيقة العرفية ، فأصبحت دلالته تنصرف إليه عند عدم القرائن ، ولا تحمل على المعنى الأصلي إلا عند قيام القرينة ، كما هو الشأن في الحقيقة العرفية ، على ما بينه شهاب الدين القرافي في «التنقيح» .

وبذلك ورد استعمال البدعة في لسان بعضهم مرادًا بها المعنى اللغوي ، كما وردت في قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح ، فقال : «نعمت البدعة هذه» .

ووردت مستعملة في معنى الذم ، كما استعملت عند الكثيرين ولأجل ذلك فإن الإمام الشاطبي في كتاب «الاعتصام» لما أطلق في ذم البدعة لزمه أن يرجع إلى النظر فيما هو مستحدث غير منكر من المستحدثات .

فحاول أن يرجع ذلك إلى غير معنى البدعة ، وأن يجعله أمرًا راجعًا إلى الأدلة من المصالح المرسلة ، أو الاستحسان أو غير ذلك ، وهو معنى يرجع إلى التخالف الاصطلاحي ولا مشاحة في الاصطلاح .

وبذلك يكون ما أشار إليه الإمام البخاري هنا وفي كل ما يرجع إلى مناهج التعليم أمرًا راجعًا ، إلى أنه يجوز أن تحدث في مناهج التعليم صور وأساليب تكون محدثات مستحسنة ومطالب شرعية إذا آلت إلى أدلة تقتضيها ، كما يمكن أن يتول تخصيص الفصول إلى ما يشهد بتخصيص قوم دون قوم ، مخافة عدم الفهم ، وكما يمكن أن يستشهد لترسيم الطلبة بما ورد من الدلالة على جعل يوم للرجال ويوم للنساء .

وكما يمكن أن يستدل على توخي وسائل الاقتصار والاختصار في إلقاء المعاني والتنبية إليها بحديث : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(١) .

* * *

(١) سبق تخريجه .

المحاضرة السابعة والأربعون بعد المائة

العلم الحديث ومعرفة الغيب

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا رَاضٍ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم ، وأكرمنا بنور الفهم ، وافتح علينا بمعرفة العلم ، وسهل أخلاقنا بالحلم ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

هل اكتشاف بعض ما كان مستتراً عنا يعد ضرباً من معرفة الغيب؟

كان ولا يزال جدل يمتد بين المتصرين للعلم بمضمونه الحديث ، والغياري على العقيدة الإسلامية أن لا تشوبها شائبة ، وأن لا يتسرب إليها وهم باطل ، كان ولا يزال ثمة جدل يثور بين هذين الطرفين ، حول الكثير من المسائل التي كانت فيما مضى محجوبة عن حواس الإنسان بحجاب الغيب ، ثم إن العلم الحديث كشف عنها -فيما يبدو- هذا اللثام ، وأخضعها لحواس الإنسان .

كيف السبيل إلى التوفيق بين ما نعتقد ونجزم به مما يدل عليه كتاب الله سبحانه وتعالى ، وبين هذا الواقع العلمي الذي لا مناص من الإيمان به؟

أحسب أن في كتاب الله ﷻ آية أنهت هذا الجدل واللجج وعقدت صلحاً بين العلم الحقيقي ، وبين العقيدة الصحيحة .

بل أقول : إن هذه الآية أكدت صلحاً قائماً من الأزل بين العلم الحقيقي والعقيدة الإيمانية التي جاء بها الرسل والأنبياء ، هذه الآية هي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

فكيف أنهت هذه الآية هذا الجدل؟ عندما نتأمل في المطلع الذي صدرت به هذه الآية ، نجدنا أمام جملتين اثنتين ، كل منهما يحصر مفاتيح الغيب في ذات الله سبحانه وتعالى .

الجملة الأولى أثبتت هذه الحقيقة ، عن طريق تقديم الخبر على المبتدأ ، وتلك أداة من أدوات الحصر : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ أي : لا عند غيره .

أما الجملة الثانية فقد شرحت وأكدت ونصت على ما دلت عليه الجملة الأولى : ﴿ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .

والمهم هنا أن نتبين كيف أن الضمير يعود إلى «المفاتيح» لا إلى «الغيب» . ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا ﴾ ، أي : لا يعلم هذه المفاتيح أحد إلا الله سبحانه وتعالى .

وفي هذا دلالة عميقة ينبغي تدبرها ، وينبغي الوقوف عندها ، لنذكر كيف أن العلم والإيمان يتعانقان منذ الأزل ، ولا ينفك الواحد منهما عن الآخر .

الفرق بين الغيب ومفاته :

ما الفرق بين الغيب ومفاته؟ أما الغيب فهو : كل ما يتوقعه الإنسان مما لم يحدث بعد ، بناء على دلائل اعتمدها .

توقع الإنسان هبوط درجة الحرارة بواسطة رآها ، بواسطة كتلة هوائية رآها كيف تسير ، من الغيوب .

توقع هطول الأمطار في مكان ما بناء على دلائل قطعاً هي علمية من الغيوب .

توقع الطبيب أن يولد الجنين ذكراً ، بناءً على مؤشرات رآها في الصبغيات أو الكروموزومات من الغيوب .

توقع الشفاء بعد تناول الدواء من الغيوب .

بل توقع الاحتراق ، احتراق الهشيم بعد وضعه في النار من الغيوب ؛ ذلك لأن هذه الأمور كلها لم تقع بعد ، ولكنها متوقعة ، والشئ الذي يجعلنا نتوقعها ، بصيرة علمية رأيناها واعتمدناها ، والبصائر العلمية مبنوثة في كون الله سبحانه وتعالى هذا هو الغيب .

فما المراد بمفاتيح الغيب؟ بقطع النظر عما ذكره علماء اللغة من المعاني المتعددة لكلمة : مفاتيح ، ومفاتيح ، ومفتاح ، ومفتاح ، فإنه مما لا ريب فيه أن المراد بمفاتيح الغيب : دساتيرها . أي : الفاعلية الكامنة وراء هذه الأحداث المتوقعة ، الفاعلية الكامنة وراء تسيار الكتلة الهوائية من مكان إلى مكان ، نحن نرى هذه الكتلة الهوائية ، ولكن ترى ما الدستور الكامن وراء تحركها أو تبددها أو وقوفها في مكان ما؟ نحن بوسعنا أن نتبين مؤشرات الذكورة في الجنين .

ولكن من أين جاءت فاعلية العلاقة بين مؤشرات الذكورة في الصبغيات وبين النتيجة التي نتوقعها؟ نحن نتوقع بل ربما نعلم أن تناول الدواء يشفي ، وأن تناول السم المهلك يهلك ، ولكن ما مصدر الفاعلية الكامنة في العلاقة السارية بين هذا الدواء وأثره؟ ما مصدر العلاقة الخفية السارية بين هذا السم وأثره؟ ذلك هو الذي يعنيه البيان الإلهي بالمفتاح ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ .

ومن هنا ندرك السبب في أن الله ﷻ سكت -إن جاز التعبير- عن الغيوب التي ضرب الأمثلة بها ، وركز على حصر علم المفاتيح في ذات الله سبحانه وتعالى ، فما المعنى الذي ننتهي إليه من هذا التفصيل؟ ومن حصر الله سبحانه وتعالى مفاتيح أي : دساتير وفاعليات الغيوب في ذاته ﷻ .

هذا تنبيه لكل من سجن نفسه في سجن الطبيعة أو المادة ، رأى ظواهر المادة فأعطاهما هي فاعليتها ، أعطى الدواء فاعلية الشفاء ، أعطى النار فاعلية الإحراق ، أعطى هذه الصبغيات أو مؤشر الـ «واي Why» في الصبغيات فاعلية الذكورة .

وهكذا يرد البيان الإلهي على هؤلاء قائلا : لكم أن تشاهدوا هذه الغيوب وأن تتوقعوها ، وما أيسر أن تتوقعوها إن سلكتم مسلك الدراية والعلم .

ولكن لا تنسوا أن هذه الغيوب التي تتوقعونها ، ليست فاعليتها كامنة في ذات هذه المواد أو الطبيعة ، فاعليتها آتية من عندي ، ومن ثم فأنا أعلم كيف أتصرف بها ، هذه الكتلة الهوائية ، من حقكم أن تتصوروا كيف أنها تسير شمالاً ، ومن ثم فهي تصل بعد حين محدد إلى المنطقة الفلانية وتعمل

عملها ، ولكن لا تنسوا أن تحرك هذه الكتلة إنما هو عائد إلى سلطاني ،
مقاليد تحركها بيدي .

فأنا الذي أعلم هل أسيرها أم أوقفها أم أبددها ، ولعل أيسر تصوير
لهذا الذي يبصرنا به كتاب الله ﷻ ، أن نفترض أننا نشاهد سفينة عملاقة
تمخر عباب البحر ، متجهة إلى شاطئ ، إن بوسعنا أن نقول : بناء على
توجهها هذا : إنها ستصل إلى شاطئها بعد ثلاث ساعات مثلا ، ولكن
الحصيف والواعي من الناس يعلم أن السفينة لا تتحرك تحركا آليا ، ولكن
هناك ربان بيده مقاليدها ، فهو الذي يسيرها كما يشاء ولعل خاطرا يعن له
يدعوه إلى أن يوقفها في مكان ، أو أن ينهج بها سبيلا آخر ، وهذا مثل
نضرب به حياتنا الراهنة ، وعلاقة ما بيننا ، فكيف عندما نتذكر أن الله
سبحانه وتعالى وهو فاطر السموات والأرض ، خالق الأسباب والمسببات
ورابط ما بينهما بالعلاقة التي لا نتبين إلا نتائجها؟ هذا ما يعنيه بيان الله
سبحانه وتعالى .

فما النتيجة التي تنتهي إليها؟ النتيجة التي تنتهي إليها ، هي : أن على
الإنسان الذي آمن بالله ﷻ قيوما للسموات والأرض أن يعلم أن هذه
الأسباب عالم الأسباب والمسببات مرتبط بمقاليد ، وأن هذه المقاليد بيد الله
سبحانه وتعالى .

على الإنسان العالم قبل أن أقول المؤمن عليه أن يعلم أن هذا الذي يراه
في عالم المادة جنود الله سبحانه وتعالى ، سخرهم الله لما شاء كما يشاء .

وما ينبغي إذا كان يحترم العلم ومصادر العلم أن يخدع بالمظاهر عن
الأسرار ، أو بالصور عن المصور ، ما ينبغي إطلاقاً له أن ينجح إلى هذا
النهج ، هذا ما يحذر منه بيان الله سبحانه وتعالى .

ولكن هل هذا الكلام الذي يؤكد به بيان الله بعبارة غريبة معجزة أخاذه في هذه الآية يؤيده العلم الحديث؟ مع العلم أننا لسنا بحاجة إلى علم حديث يؤيد بيان الله ، بل العلم الحديث بحاجة إلى أن يجد دلائل صدقه في بيان الله سبحانه وتعالى ، ولكن فلنحاول هؤلاء الإخوة الذين يعتقدون بالعلم :

أذكر أني قرأت كلاماً لدافيد هيوم ، وهو العالم الوضعي المعروف يقول فيه : لو أنني رأيت أن هشيماً احترق في النار آلاف المرات ، فلن أستطيع أن أدلي بقرار علمي بأن هذا الهشيم سيحترق يقيناً للمرة الجديدة إلا إذا جربت ، وألقيت هذا الهشيم فاحترق ، ذلك ، هو لا ينطلق من قرار ديني ، وإنما ينطلق من موازين علمية هو دقيق في تبينها ، ذلك لأن الأمور التي نراها أمامنا إنما استخرجنا قواعدها من التجارب الماضية ، والتجارب الماضية لا تغطي دائماً الأحداث المستقبلية .

لعل خارقة تقع ، لعل أمراً غير متوقع يحصل ، أنا أظن ظناً راجحاً وقويا أن هذا الهشيم سيحترق ، ولكني لا أستطيع أن أجعل تصوري وقناعتي أو يقيني هذا قراراً علمياً بالمعنى الأكاديمي لكلمة : العلم .

هذا الذي يقوله هيوم ، إنما يقوله انطلاقاً من تذوق علمي ، وها نحن نرى كتاب الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن علينا أن لا نرتاب في أن الصور التي نراها إنما يسيرها الله ﷻ .

حوار نوح مع ابنه أثناء الطوفان :

في كتاب الله ﷻ صورة حوار أخذ بين سيدنا نوح وابنه ، يجسد هذه الحقيقة التي أقولها ، يبرز المنطق الوهمي الطبيعي الذي يسجن صاحبه في

ظلام من الحيرة ، ويبرز الموقف العلمي الذي يستشق صاحبه عبير الإيمان بالله ﷻ ، والارتباط بالله سبحانه وتعالى .

عندما احتاج الطوفان ، وتحولت الأرض اليابسة إلى بحار تهتاج بالأمواج المطلامة ، وكان لنوح ابن شارد عن صراط الله ﷻ ، يصور البيان الإلهي حوارًا يقول فيه : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا ﴾ [هود: ٤٢] اركب معنا في السفينة التي أمرنا الله ﷻ أن نجتمع فيها : ﴿ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣] ، ذلك هو منطق الإنسان الذي يسجن نفسه في المادة أو الطبيعة .

إن هذا الماء المنهمر من السماء أو المتفجر من الأرض إن كل ذلك إلا طغيان طبيعة ، وها أنذا سألتجئ من طغيان الطبيعة إلى حصن الطبيعة ، سألوذ من طغيان الطبيعة بهذا الجبل الأشم ، لم يتصور أن هنالك فاعلية كامنة في هذه الظاهرة إلا داخل هذا العالم الذي رأى ، فهاذا كان منطق النبوة؟ ماذا كان جواب الوالد الشفوق على ابنه الذي دعت شفقته إلى أن يجذبه عن هذا التيه إلى صعيد الإيمان بالله ﷻ ؟ ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣] .

لا عاصم اليوم ، المسألة ليست مسألة طغيان طبيعة ، ليست المسألة أن طبيعة استشرى بها الطغيان حتى تتصور أن بوسعك أن تلجأ منها إلى جبل أشم .

إنه أمر الله سبحانه وتعالى ، الماء الهاطل من السماء والمتفجر من الأرض ، والأعاصير المختلفة ، إن ذلك كله إلا جنود مجندة لله ﷻ .

والجند إنما يأخذ تعاليمه من غرفة العمليات ، إنما يأخذ تعاليمه من قائده ، فهذا العالم كله جنود ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ، هؤلاء الجنود مرتبطون بمقاليد ، مرتبطون بمفاتيح ، والمفاتيح بيد الله سبحانه وتعالى .

هذا الكلام ، هذا المشهد الحوارى يعمق هذه الحقيقة التي يتحدث عنها بيان الله سبحانه وتعالى بعبارة علمية إيمانية واضحة ، ولكن أحسب أن هاهنا إشكالا قد يطوف في أذهان كثير منا ، إذا قلت : إن مفاتيح هذه الغيوب بيد الله ﷻ وليس للأسباب التي نراها في عالم الطبيعة أي فاعلية إطلاقاً ، وإذا كان علينا أن ندرك ذلك فإننا سنجد أنفسنا في حالة لا نستطيع أن نتعامل فيها مع الحياة ، لأن الثقة بيننا وبين عالم الأسباب والمسببات تنقطع ، لن آخذ نفسي بعلاج فلعل هذا الدواء تزول فاعليته ، لن أنهض من أجل أن أتسبب بزرق ، ذلك لأن هذا السبب لا قيمة له ، إنما الفاعلية بيد الله سبحانه وتعالى ، بل لن أحمي نفسي من النيران المهلكة ، أو السموم المميتة ، فلعل هذه الفاعلية التي أراها تنجاب وتنفصل عنها .

وهكذا فإن الإنسان إذا استسلم لهذا التصور فربما أداه هذا التصور إلى عدم الثقة بهذا الكون ، ومن ثم فإن الإنسان لن يتحرك ابتغاء هدف ، وهي مشكلة ، فما الجواب عنها؟

لعل خير من أجاب عن هذه المشكلة هو حجة الإسلام الإمام الغزالي ، في كتابه «تهافت الفلاسفة» ، صور هذا الإشكال ، ثم قال : أجل إن الغيوب التي نتوقعها ليست حتمية الوقوع ؛ لأن مقاليدها ومفاتيحها بيد الله ﷻ ، ولكن لله ﷻ سنة في الكون ، أي : قانون سارٍ .

أقام على هذا القانون علاقة ما بين الأسباب والمسببات ، وأعلن في كتابه المبين أن سنة الله لا يلحقها تبديل : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] .

نعم ، وقد أكد البيان الإلهي هذا المعنى في أكثر من آية ، فإذا رأينا أن الطعام يروي ، وأن الدواء يشفي ، وأن النار تحرق ، وأن دلائل الذكورة في الصبغيات مرتبطة فعلا بالذكورة ، وكذلك العكس .

فينبغي أن نعلم أنها سنة ماضية في عالم الله سبحانه وتعالى ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] ، قانون .

العالم ليس فوضي ، ومن ثم فإننا نملك ما يسميه الإمام الغزالي : اليقين التدريبي ، بأن ما استمر على نهجه في الماضي سيظل مستمرًا في الحاضر وفي المستقبل .

نعم ، ولكن هنا لفظة دقيقة جدًا ، الله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] ، أي : لن تقوم سنة جديدة مقام السنة القديمة ، لن يقوم نظام جديد مكان النظام الذي شاء الله ﷻ في علاقة ما بين الأسباب والمسببات ، لكن الاختراق ممكن ، والاختراق غير تحويل السنة إلى سنة أخرى .

كثيرا ما تقع اختراقات باسم المعجزات أو خوارق بقطع النظر عن ارتباطها بنبي جاءت المعجزة تأكيدًا لصدقه ، تقع هذه الخوارق .

وقوع هذه الخوارق أنزل التوقع من العلم الحتمي ، إلى ما يسميه الإمام الغزالي : اليقين التدريبي .

فأنا كطبيب -مثلا- رأيت حياتي كلها ظاهرة تربط بين نوع من الصبغيات وبين ذكورة الجنين ، من حقي أن أجعل من هذه الظاهرة يقيناً لكن تدريبيّاً ، لا يقيناً علمياً أكاديمياً حتمياً .

وجدت أن الدواء يشفي ، من حقي أن أتعامل مع هذا الدواء على هذا الأساس ، ذلك لأن هذه سنة الله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢] وجدت أسباب الهلاك ، ورأيت أن الله جعلها أسباباً للهلاك ، إذن أتعامل معها ، بل تقوم شريعة الله على هذا الأساس : «تداووا عباد الله فإن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء»^(١) .

ولو أن إنساناً تفاعل مع هذه الآية الربانية ونسي سنة الله في الربط بين الأسباب والمسببات ، وألقى نفسه في مهلكة كان متتحراً ، ولكن أثماً وعاصياً .

ولو أن إنساناً قال : أنا وقد ظمئت لن أسعى إلى الماء لأرتوي منه ، فإن الله ﷻ قادر على أن يرويني .

يقول العلماء : هذا الإنسان يسيء الأدب مع كون الله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ أقام سبباً لربي ، كما أقام سبباً لشعبي ، وإذا كان الأمر كذلك فما ينبغي أن أتجاهل السنة الربانية التي أقامها الله سبحانه وتعالى بين عباده .

وهكذا فإن المشكلة تنجاب ، نتعامل مع الحياة طبقاً للأسباب والمسببات التي أقامها الله ﷻ بيننا ، إذا سمعت نشرة الأرصاد الجوية أتعامل معها ، وأعلم أن هؤلاء لم ينطلقوا من قرارهم وبياناتهم إلا من يقين

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨) ، وأبو داود (٣٨٥٥) ، وابن ماجه (٣٤٣٦) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه .

تدريبي ، أي : يقصد الإمام الغزالي باليقين التدريبي اليقين الذي تكامل وتكاثف من التجارب الكثيرة الكثيرة التي أورثتني يقينًا ، ولكن احتمال الشذوذ قائم .

مقاليد الغيب بيد الله وحده:

احتمال الشذوذ هو الذي يذكرني بقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، عنده مفاتيح الغيب ، ولعلنا جميعًا نعلم أن هنالك كتابًا ألفه باحث أو صحفي أمريكي سماه : «غرائب العالم» ، وحشد فيه مئات الغرائب التي تخالف العلم ، وتخالف في الظاهر سنن الله سبحانه وتعالى ، وكل ظاهرة من هذه الظواهر تجعل الإنسان وتضعه أمام حيرة ، ولكنها لا تضع المؤمن أمام حيرة قط .

تفسير ذلك أن الله سبحانه وتعالى يرينا بين الحين والآخر ، من خلال هذه الخوارق ما يذكرنا بأن مقاليد هذا الكون بيد الله ، وبأن مفاتيح الغيوب عائدة إلى الله سبحانه وتعالى .

وفي هذا يقول لنا تعاملوا مع هذا الكون طبق السنة التي أقمتموها ، ولكن إياكم أن تسجنوا أنفسكم من هذه السنة في تصور مادي طبيعي أرعن ، تذكروا أنني أنا الذي وضعت هذا المنهج .

أحسب أن هذا الكلام يُنبئُ العالم إلى حقيقة ما يقول الله سبحانه وتعالى ولا بد أن ينغض الرأس لبيان الله ، وأحسب أن الإنسان الغيور على العقيدة الإسلامية لا بد أن ينغض الرأس أيضًا للحقيقة العلمية التي تجعلنا نتفاعل مع عالم الأسباب والمسببات .

ولا ننسى أن الجذع الواحد عائد إلى الله فروع الأسباب كثيرة جدًا جدًا نتعلق بها ، ولكن ما ينبغي أن نفصل ما بين هذه الفروع وجذعها الذي يعبر عنه بيان الله سبحانه وتعالى بكلمة : «مفتاح» .

الخلاصة :

والآن ما النتيجة العملية التربوية التي ننتهي إليها من هذا الكلام الذي وعيناه؟

النتيجة العلمية واضحة ، لكنني لا أحب أبدا في الموضوعات التي نتناولها أن نكون نظريين فقط . أحب أن أجند كل مسألة علمية لوظيفة سلوكية تربوية ، ما الفائدة السلوكية التربوية التي يجنيها المسلم من خلال هذا الذي قلناه؟

الفائدة : هي أن الإنسان إذا وعى هذه الحقيقة عاش مع ما يقوله الربانيون ، مع وحدة الشهود ، لا أقول : وحدة الوجود ، بل وحدة الشهود ، وما وصل إنسان إلى الإيمان الحقيقي بالله سبحانه وتعالى إلا بعد أن ارتقى إلى وحدة الشهود هذه . بل ما ذاق الإنسان المؤمن نشوة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ولذة اليقين به إلا إذا ذابت الأكوان أمام بصره ، وهو موقن بها ببصيرته ليرى من خلالها المكون .

وكم يسأل كثير من الناس : ما السلم الذي يرقى بي إلى سدة وحدة الشهود؟ أكون من الأكوان وأتعامل معها ، ولا أرى من خلالها إلا المكون ، ما السبيل إلى ذلك؟ السبيل إلى ذلك أن يهضم عقلي باستمرار هذه الحقيقة التي ذكرناها ، أن يعلم الإنسان أن الغيوب المتناثرة في الكون مردها إلى مقاليد بيد الله ﷻ فهو العليم بها ، وهو المتصرف فيها .

وليغذ يقينه العلمي هذا بالكثير من ذكر الله سبحانه وتعالى .
فالإنسان إذا وعى هذه الحقيقة يعيش وهو يتعامل مع الأكوان ، مع
المكون سبحانه وتعالى .

إن تناولت الماء على ظمأ وشعرت بلذة الري تسري في كياني تذكرت الله
سبحانه وتعالى ، وعشت مع قبس وهاج من محبة الله سبحانه وتعالى وإن
تناولت الدواء وقد وصفه لي الطبيب ، ونظرت فوجدت أن الله قد شفاني
بعد تناوله أنسى الدواء ، وأعيش مع المداوي الحقيقي مع الله سبحانه وتعالى ،
أعيش مع مفاتيح هذه الغيوب .

نعم ، كذلك عندما أتناول طعامي ، كذلك عندما أجد أن هنالك أخطاراً
تطوف بي ، ثم إن أسباباً أيا كانت أبعدت هذه الأخطار عن كياني .

أعيش مع مفاتيح الغيب ، أي : مع من بيده مقاليد هذه الغيوب كلها ،
وإذا استمر بي الحال على هذا المنوال ، فلسوف أستطيع أن أجمع بين أمرين
طالما صعب على كثير من الناس الجمع بينهما ، أكون إنساناً فرشياً يتعامل
مع الأكوان تاجراً مزارعاً سياسياً قائداً أكون مع خضم هذا الكون ، ولكن
عقلي ومن ثم وجداني كل ذلك منصرف إلى شهود الله سبحانه وتعالى .

هذه هي نتيجة النتيجة . النتيجة الأولى أن نحقق عقيدتنا الإيمانية بالله
سبحانه وتعالى التي تجمع بين العلم الحقيقي وبين العقيدة الصحيحة التي
جاء بها كتاب الله سبحانه وتعالى .

ثم إنا إذا أخذنا أنفسنا بهذا الذي يقول الله سبحانه وتعالى ، وغذينا
أنفسنا بمزيد من الأدلة ، فإننا نرقى إلى مستوى وحدة الشهود .

إن الإنسان الذي ذاق لذة هذا المعنى ينظر في الأكوان كلها من حوله وكأنها ألواح من الزجاج الصافي الدقيق ، هذه الألواح موجودة ، ولكنه مهما حدق فيها لا يرى فيها إلا ما وراءها ، لا يرى فيها إلا المكون سبحانه وتعالى .

نحن نقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] نقرأ قوله : «قيوم السموات والأرض» ، نقرأ هذا الكلام وندركه علما ولكن هل نتفاعل به وجدانا؟
هذه هي النتيجة التي أرجو ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بها جميعاً .

المحاضرة الثامنة والأربعون بعد المائة

وحدة الدين وأركان الإسلام

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إن هذا العنوان ربما فهم منه بعض الناس أن وحدة الدين وأركان الإسلام شيان متميزان يختلف أحدهما عن الآخر، وإنما أردت من هذا العنوان أن أقول: إن دين الله الذي يقبله دين واحد لا تعدد فيه، وقد تحدث عنه القرآن في آيات كثيرة، ولخصه في جمل قليلة، وهو يتلخص في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وإفراده بصفات الكمال والجلال، والإيمان به حق الإيمان، والإيمان برسله المكرمين، على مدى الأزمان التي بعثوا فيها.

ثم إن الإسلام بأركانه المعروفة المشروحة هو الحلقة الأخيرة وهو الوضع الإلهي الذي ختم به رسالات السماء، فهو الحلقة الأخيرة في الدين الواحد الذي لا اختلاف فيه، فما وحدة الدين وأركان الإسلام إلا موضوع واحد متسلسل متتابع، منذ بعث الله تبارك وتعالى أول المرسلين. والآيات التي تحدثت عن وحدة الدين وأنه دعوة إلى توحيد الله وعبادته آيات كثيرة.

وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام، وقد شغل الجزء الأكبر من القرآن الكريم ومعظم ما نزل بمكة أو ما نزل قبل الهجرة مما نسميه المكي.

والآيات كما قلت كثيرة ، من أوضحها هذه الآية التي جعلناها عنوان
الدرس : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا
فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

شرح الآية :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ ﴾ الذي شرع هو الله تبارك وتعالى ، فالفاعل يعود عليه ،
ونحن في العربية نقول الضمير يرجع إلى أقرب مذكور ، وهو الله تبارك
وتعالى ، الآيات السابقة على هذه الآية كانت تتحدث عنه جل جلاله ، الآية
السابقة على هذه الآية مباشرة : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [١٢ ، ١٣] .

﴿ شَرَعَ ﴾ أوضح وأظهر وبين لكم معشر المسلمين «ما وصى به نوحًا» ،
الدين الذي وصى به نوحًا ، أمر به نوحًا ﷺ فالوصية هنا هي الأمر
والتوجيه ، ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ ﴾ ، والخطاب هنا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله ﷻ في هذه
الآية أراد أن نفهم أو أن نشعرنا أن الرسالة الأولى متصلة تمام الاتصال
بالرسالة الأخيرة ، وكأنه لا فاصل بينهما فبدل أن يعطف «الذي أوحينا»
بعد «عيسى» أتى به قبل إبراهيم وموسى وعيسى فقال : ﴿ مَا وَصَّى بِهِ
نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ . ونحن نعلم أن نوحًا ﷺ هو أول المرسلين
برسالة وهو الذي حكى عنه القرآن أول من قال فيها حكى عنه القرآن :
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون : ٢٣] .

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، هي خلاصة الدين الواحد الذي تلتقي فيه رسالات السماء جميعًا ، فنوح هو أبو البشر الثاني بعد الطوفان ، وهو أول المرسلين برسالة ، فعطف عليه محمدًا عليه الصلاة والسلام ليشعرنا أن الرسالة الأخيرة متصلة بالرسالة الأولى ، وإلا كان يأتي بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد إبراهيم وموسى وعيسى .

والذي ساعد على هذا العطف هو حرف الواو ، إذ هذا الحرف هو أعم الحروف استعمالًا ، وهو لا يقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا ، فيمكن أن يعطف به المتقدم على المتأخر والمتأخر على المتقدم .

وهكذا نسقت الآية ، لم تنسق نسقًا تاريخيًا ، وإنما عطف فيها محمد عليه الصلاة والسلام أو ما أوحى به إلى محمد على نوح عليه السلام .

﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ثم في جانب محمد عليه الصلاة والسلام قالت الآية : ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لأن المراد الإشعار برسالة محمد وهي المراد إثباتها ، والحديث عنها أكثر من غيرها في القرآن الكريم ، فتميز التعبير ، لم يقل ما وصينا به محمدًا ، وإنما قال : ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ خطابًا له ؛ لأن القرآن كان ينزل عليه حينذاك ، فهو مخاطب موجود .

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ وهؤلاء الأنبياء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل ، ولذلك اقتصرت عليهم الآية ؛ فنوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى هؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل ، وإلا فإن المراد جميع الأنبياء والمرسلين فهم على وتيرة واحدة ، ويدعون إلى شيء واحد وهم سلسلة في حلقات هذا الدين الواحد ، فهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل ، ولذلك اقتصرت عليهم الآية ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ .

﴿مَا وَصَّى﴾ ، هذه «ما» هي اسم موصول وهي موصول مشترك مبهم ، ولذلك بدئ بالجار والمجرور قبله : ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ ، فالموصى به ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ بيان هذا الجار والمجرور ، لو كانت الآية لم تذكر هذا الجار والمجرور لكان يمكن أن يكون هناك إبهام أو التباس قد لا يفهم منه ما هو الموصى به ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ .

فإذن هذا الدين الذي شرعه الله للمسلمين هو ما وصى به الأنبياء السابقين مما يدل على وحدة الدين ، وأنه لا خلاف بين دعوات الأنبياء في أصول هذه الرسائل ، وإذا كان هناك خلاف كما سنذكر ، إنما هو في التكليف والتفاصيل العملية ، أما أصول الدين فالركن الأول من أركان الإسلام ، وهو الإيمان أو ما نسميه العقيدة فهي في جميع الرسائل واحدة ، وإنما يمتاز دين عن آخر أو رسالة عن أخرى ، بالتكليف العملية .

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ هذا هو الموصى به .

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ، ﴿أَنْ﴾ هذه على هذا المعنى نسميها تفسيرية ، فهي بمعنى «أي» التفسيرية يعني أن ما بعدها يفسر ويوضح ما قبلها ، فكأن «ما وصينا به نوحًا» لم يتحدد الموصى به ولم يتبين هو من الدين ، ولكنه لم يتحدد إلا عندما قالت الآية : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أن أظهروا الدين وحافظوا على الدين ، فأن هنا تفسيرية ، وأن التفسيرية هذه تأتي بعد الكلام أو بعد الفعل الذي فيه معنى القول دون حروفه .

﴿وَصَّيْنَا﴾ هنا بمعنى الأمر ، ففيه معنى القول ، معنى التوجيه ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ لا تكونوا فيه فرقًا وشيعًا تتخاصمون ويعادي بعضكم بعضًا من أجل الدين ، فالدين واحد فيجب أن تؤمنوا به

وأن تقيموه ، تجعلوه قائماً ظاهراً قوياً مجتمعاً عليه ، أما أن تتفرقوا ، أن ينتسب كل واحد إلى شيعة ، أن تحرفوا الدين وتنتسبوا إلى ما تحرفون على أنه نحلة أو مذهب يخالف الدين الصحيح فإن هذا لا يقبله الله ﷻ ، بدليل هذا النهي .

فالقصود من إقامة الدين أن تبقى له قدسيته ، أن يبقى له صفاؤه ، أن يؤخذ من معدنه ، ومن مصدره الأصيل دون أن يحرف أو أن يُذْهَبَ به مذهبٌ غير صحيح ، أو أن يؤوله كل واحد حسب هواه وحسب ميوله ، أو أن يعتقد عقيدة ما ثم يخضع لها الدين .

في هذه الحالة يكون الانحراف ويكون التفرق ويكون التباعد ، حتى الخلاف العلمي إذا لم يكن موضوعياً ، وإذا لم يكن على منهج علمي صحيح فإنه قد يصل بأصحابه إلى التفرق والتناحر والتباعد .

ولذلك هذه الآية حتمت على المسلمين وأجبت عليهم أن يراعوا الله في هذا الدين ، وأن يتمسكوا به ، وأن يقيموه ، وأن يحافظوا عليه ، وأن يتخذوا الأدوات الصحيحة لتفسيره فلا يزيغون عنه أبداً .

فهذه الآية الكريمة - كما نرى - تنبئنا بإنشاء ظاهراً أن دين الله واحد ، وأن هذه الوحدة مستمرة إلى أن جاء الإسلام فحققتها أيما تحقق ودعا إلى الحفاظ عليها وإلى الدعوة الأكيدة إليها ، وآيات كثيرة في هذا المعنى ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ، أي بعثناه بعبادة الله فأن هنا نفserها بأن المصدرية ونجعل مما بعدها مصدراً بواسطتها ، فيكون المعنى ولقد بعثنا في كل أمة

في كل جماعة لها كيان معين رسولاً ﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بعثناهم بعبادة الله أن يعبد الناس الله ، وأن يجتمعوا على ذلك ولا يتفرقوا .

﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ الطاغوت هو الطغيان ، والطاغوت كل معبود من دون الله ، وكل رمز ينحرف بالناس عن عبادة الله فهو طاغوت ، والتاء زائدة فيه لأنه مأخوذ من الطغيان وهو تجاوز الحد ، تجاوز الحد الذي يجب أن يقف عنده العقل أو الإنسان أو أي علم من العلوم .

الإسلام هو الدين الحق :

فإذن هذه هي خلاصة الدين الحق وهو الإسلام ، والله تبارك وتعالى ، عندما قال لليهود : إن إبراهيم كان يهوديًا ، وقال النصراني : إنه كان نصرانيًا ، رد عليهم وقال : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : ٦٧] ، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة : ١٣٥] ، قالوا للمسلمين : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة : ١٣٥] ، قالوها للمسلمين : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

ثم قال القرآن للمسلمين ليضعهم على الطريق الصحيح : ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، هذا هو الدين الحق وهذه هي السلسلة المتصلة .

فالذين حرفوا الدين ، الدين الحق مثل اليهود ومثل النصراني ثم دعوا ، كل واحد منهم يدعو إلى دينه ، فعندما قالوا : كونوا هودًا أو نصراني ،

يعني قالت اليهود للمسلمين : كونوا هودًا ، وقالت النصارى : كونوا نصارى فلا اليهودي يدعو إلى النصرانية ، ولا النصراني يدعو إلى اليهودية ، وإنما كل يدعو إلى دينه ويخالف الدين الحق ، يخالف وحدة الدين ، والآيات كثيرة ؛ ولذلك تقرر الآية الكريمة القول الفصل : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، والآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

فالدين الحق الواحد هو الإسلام ، وهو دين الأنبياء جميعًا ، وأصوله واحدة في جميع الرسالات السماوية لا يختلفون في ذلك ، كما لاحظ الإمام الرازي في تفسيره الكبير «مفاتيح الغيب» .

وأما الآيات التي تشعر أن هناك فرقًا بين الرسالات السماوية فإنما ذلك في الأحكام التكليفية ، في الشريعة التي تطبق في حياة الناس لا في العقيدة مثل قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ۚ ﴾ [المائدة : ٤٨] ، لكل أمة ، بعد أن تحدث عن النصارى وتحدث عن اليهود قال تبارك وتعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ۚ ﴾ .

فالشريعة هي الشريعة وهي الأحكام التي يتعبد الله الناس بها ويطلبهم بتطبيقها في حياتهم العملية شريعة ، وهي مأخوذة من الشريعة ، والشريعة هي مورد الناس إلى الماء ، سميت بذلك لوضوحها وظهورها ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ۚ ﴾ .

أما المنهاج فهو الطريق الواضح ، هكذا معناه في اللغة العربية ، وكأن المعنى شريعة يطبقونها في حياتهم فيسيرون في طريق في منهاج واضح بين يعم الحياة كلها ، وتستضيء به جوانب الحياة المختلفة .

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فهذا الأصل مقرر في كتاب الله ، وكتاب الله هو مصدر وحدة الدين ؛ لأنه الكتاب الخاتم ؛ لأنه الكتاب المهيمن على الكتب كلها فهو الرقيب عليها ، فعندما يراد الحق وتحقيق الحق ، إنما يرجع إليه وحده ، فهو المهيمن على الكتب وهو الذي يستشار ، وهو الذي يرجع إليه لتحقيق مثل هذه العقيدة .

فالأصل الأول من أصول الإسلام أو الركن الأول من أركان الإسلام هو الذي يمثل وحدة الدين في الرسالات السماوية كلها .

ولذلك اهتم به القرآن أيما اهتمام ، واهتم به أيضًا وفصل فيه ولم يتركه لاجتهاد مجتهد في أصوله الثابتة ، وإنما تولاه الله تبارك وتعالى بنفسه ، لما هو مقرر ومعروف أن العقيدة لا تؤخذ إلا من النص المتواتر أو النص المقطوع بصحته الذي لا شك فيه ، وهو على خلاف الأحكام العملية فإنها قد تؤخذ من نصوص أقل وثوقا ، ولكن العقيدة إنما تؤخذ ويستدل لها وتثبت بالمقطوع به المتواتر ، ولا يوجد مثل هذا كما يوجد في القرآن الكريم ، فهو المتواتر دون خلاف بين المسلمين ، والعقيدة كما تثبت بالنص المتواتر ، تثبت أيضًا -أو طريق معرفتها أيضًا- العقل والبرهان .

القرآن حرك العقول لتدرك الحقائق :

والقرآن الكريم حرك العقول للتدبر والاتعاظ ولتأمل الكون ، والاستدلال به على خالقه وموجده ، فهو استعمال أو هو دعوة لاستعمال الحق لمعرفة الحق ، ومعرفة الله تبارك وتعالى هي أولى الواجبات على المسلم ، فقد اتفق العلماء أو جمهور العلماء على أن معرفة الله هي أول واجب على المكلف المسلم .

وهذه المعرفة لا تكون معرفة مقبولة في منهج الإسلام إلا إذا كانت مبنية على معرفة واعية لله ﷻ، على اقتناع عقلي، على فهم للدليل الذي يستدل به على وجود الله ووحدته وما يجب له من صفات الجلال والكمال.

فهذا الجانب أو الركن الأول هو الركن الذي ثبت إذن بإخبار الأنبياء جميعاً في رسالاتهم جميعاً، تواطئوا على الأمر أمر أقوامهم بذلك وإخبارهم بأن الله تبارك وتعالى واحد لا شريك له، وأنهم يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن يعرفوه حق المعرفة وأن يؤمنوا برسله، وثبت أيضاً بالكتب السماوية وعلى رأسها الكتاب المهيمن عليها وهو القرآن الكريم؛ فالقرآن الكريم هو طريق معرفتنا بالله ﷻ.

القرآن يدعونا للنظر والاستدلال:

ثم هذا الكتاب العزيز دعانا إلى أن نعرف ربنا عن طريق النظر والاستدلال، وفهم دلائل الكون على موجدتها وخالقها، ولذلك سمى العالم ابن جزي الكلبي كتابه «التسهيل لعلوم التنزيل» فهو كتاب في التفسير.

قال في مقدمات هذا الكتاب الجيد في تقسيمه لعلوم القرآن ومعانيه: إن القرآن فيه سبعة علوم، ثلاثة منها تخص العقيدة، وهو علم الربوبية وعلم النبوة، وعلم المعاد، علم الربوبية هو العلم الذي يعرفنا بالله عن طريق فهم الكون والاستدلال على وجوده بمخلوقاته.

وعلم النبوة هو الذي نعرف به أو نثبت به رسالات الأنبياء، وقد تحدث عنهم القرآن كثيراً، وذكر منهم خمسة وعشرين بالاسم، فوجب علينا أن نعرفهم، وذكر غيرهم إجمالاً ولم يذكرهم بالأسماء.

وعلم النبوة المقصود منه إثبات نبوة هؤلاء الأنبياء كما تحدث عنهم

القرآن ، خصوصًا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

ويدخل في هذا العلم العلم بالملائكة ؛ لأن منهم من هم سفراء بين الرسل ورب العالمين تبارك وتعالى .

أما العلم الثالث علم المعاد ، فهو علم اليوم الآخر ، وهو من علوم الغيب التي لا نعرفها إلا عن طريق الوحي ، أما العقل فإنه يقصر عن هذه المعرفة ولا يستطيع أن يبلغها .

والمقصود منه إثبات البعث والحشر ، وما في يوم القيامة من حساب وجزاء ، وجنة ونار ، وأهوال ، إلى آخر ما هنالك .

فإذن هذا الركن الأول الذي هو الإيمان كما يعبر القرآن الكريم ، توسع فيه القرآن ولم يترك فيه للنبي عليه الصلاة والسلام إلا البيان والتوضيح وشرح ما لا يفهمه الناس .

أما الأركان الأخرى العملية فقد أجمل فيها القول إجمالاً ، وترك لرسول الله محمد ﷺ أن يبين بالوحي ، وأن يفسر وأن يستكمل ، كما نعلم من دراستنا للركن الثاني الصلاة ، فهو ﷺ قد بين بالوحي ؛ العبادة لا تكون إلا بالوحي ، بين لنا أصولاً كثيرة من أصول هذا الركن العظيم من أركان الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ كما حدثنا القرآن إنما بعثه الله ليبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون .

وقد أوتي القرآن ومثله معه ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، فكأن بيان ما نزل إليهم طريقاً أو وسيلة ؛ لأن يتفكروا وأن يتأملون وأن يتدبروا ، ولعلمهم يتفكرون .

فالعقل والتفكير والاجتهاد والاستنباط لا بد منه : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ ﴾ هذه

الكلمة كلمة لعل كأنها وهي تفيد الرجاء والترجي ، كما تقول في اللغة العربية وتفيد التوقع ، فكأن القرآن يشير إلى أنه بإنزال القرآن وبيان الرسول محمد عليه الصلاة والسلام يضعنا في طريق التفكير الصحيح ، وفي المنهج الصحيح ؛ لأن نبلغ بتفكيرنا ما نستطيع بلوغه عن طريق كتاب ربنا ومنهجه ، وهو يضبط فهمنا ويضبط سلوكنا ويجعلنا على المحجة البيضاء ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

فهذه المهمة أو الوظيفة لرسول الله محمد ﷺ تتجلى لنا أبلغ ما تكون وأوضح ما تكون في أركان الإسلام .

فالقرآن الكريم تحدث عن هذه الأركان كثيرًا للتوجيه إليها ، والدعوة إليها ، والحث عليها ، والوعد بالثواب الجزيل لمن يقوم بها ، ولمن يحافظ عليها .

ولكن القرآن الكريم ذكرها في آيات كثيرة وفي مواضع كثيرة من سوره ، فكان رسول الله ﷺ وهو المبين والمفسر لكتاب الله ﷻ والموحى إليه أن هدانا إلى أركان الإسلام التي تتكون منها حقيقة هذا الدين ، والتي ليكون المسلم مسلمًا لا بد أن يقوم بها ؛ لأن الأركان جمع ركن وركن الشيء جانبه القوي ، فيكون عينه وداخلًا فيه .

ولا تتم حقيقة الشيء إلا بوجود ركنه ؛ ولذلك يقولون : إن الركن داخل في الحقيقة ، ولكن الشرط خارج عنها فما دام الشيء ركنًا فلا بد أن يكون داخلًا في مفهوم ذلك الشيء .

فإذن هذه الأركان كما حددها رسول الله ﷺ وبينها بقوله ، فقد روى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في «صحيحه» قال : حدثنا عبيد الله ابن موسى قال : أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان ، عن عكرمة بن خالد ، عن

ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان» .

هكذا رواية البخاري التي رأيتها : «الحج وصوم رمضان» .

ولكن الإمام مسلمًا رواه بأربع طرق كلها عن ابن عمر تختلف في بعض ألفاظها عن هذه الرواية وفي بعضها تقديم الحج على الصوم ، وفي الأخرى تقديم الصوم على الحج ، ولم تذكر في هذه : «من استطاع إليه سبيلاً» قالوا : لمعرفتها من حديث جبريل ؛ لأنها مشهورة ومعروفة .

«بني الإسلام على خمس» هذه صورة تشبيهية استعارية ، شبه فيها الرسول ﷺ ببناء الإسلام المعنوي ، شبهه ببناء قصر مبني بناء حسيًا للتوضيح ، وهو أسلوب تربوي وأسلوب بلاغي معروف في العربية ؛ إذ يشبهون المعنوي بالمحسوس للتوضيح والبيان .

فهذا الإسلام مبني بهذه الأركان ومن هذه الأركان ، كبناء هذا القصر الذي نحن فيه ، فإنه كما أن هذا القصر العظيم لا يتم إلا بما قام عليه من الدعائم ، كذلك الإسلام لا يكون إسلامًا إلا إذا قام على هذه الأركان ، هذه الدعائم ، فهو توضيح بالاستعارة المكنية حيث شبه الإسلام بالقصر المبني وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو البناء .

«بني الإسلام على خمس» والخمس وردت في روايات هذا الحديث بالثناء وغير الثاء خمسة وخمس ، وكلاهما جائز عندما يحذف المعدود يجوز أن يذكر العدد ، وأن يؤنث ، فإذا ما ذكر فإن المقدر يكون مؤنثًا .

وهنا نستطيع أن نقول على خمس قواعد ، أو خمس خصال مثلاً ، وإذا ما

أنت خمسة فإننا نقدر المضاف المعدود ، نقدره مذكراً فنقول : خمسة أركان ؛ لأنه من المعروف أن العدد يؤنث مع المذكر ويذكر مع المؤنث .

الشهادة:

وإذن بني الإسلام على خمس : «شهادة أن لا إله إلا الله» ؛ شهادة بدل - من حيث العربية- من خمس ، وإذا ما نظرنا إلى ما عطف عليها يكون البديل بدل كل من كل ، ولا يحتاج إلى تقدير ضمير يربط المبدل بالمبدل منه ، أما إذا اعتبرناه بدل بعض من كل فإننا نحتاج إلى تقدير ضمير ؛ فنقول : شهادة أن لا إله إلا الله منها مثلاً ؛ لأنه من المعروف في علم النحو أن بدل البعض وبديل الاشتغال يحتاجان إلى رابط يربطهما بالمبدل منه .

«شهادة أن لا إله إلا الله» أن لا إله إلا الله ، أن هذه مخففة من الثقيلة ، فاسمها ضمير محذوف ، وكأن التقدير : شهادة أنه لا إله إلا الله ، أنه الحال والشأن .

«لا إله إلا الله» وهي مصدرية ؛ ولذلك أضيفت إليها شهادة ، شهادة أن لا إله إلا الله ؛ لأن التقدير شهادة التوحيد ؛ لأن المعنى أو المصدر يؤخذ من المعنى أو من الخبر الملحوظ .

«شهادة أن لا إله إلا الله» ، «ولا إله إلا الله» ، الإله على وزن فعال ، كما يقول علماء العربية ، وهو فعال بمعنى مفعول ؛ يعني لا إله ؛ لا معبود ، فالإله هو المعبود ، كما أن الكتاب بمعنى المكتوب ، والبساط بمعنى المبسوط ، والفراش بمعنى المفروش .

فالإله على وزن فعال ، بمعنى مفعول أي معبود ، لا معبود بحق

موجود إلا الله ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، المعنى الإجمالي ، لا معبود بحق إلا الله تبارك وتعالى ، أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا بن عبد الله النبي العربي ﷺ رسول الله ؛ يعني مرسل من عند الله ؛ لأن كلمة رسول فعول بمعنى مفعول ؛ يعني بمعنى مرسل ومبعوث من عند الله ﷻ ؛ ليلغ رسالته إلى الناس أجمعين ؛ لأن رسالة نبينا محمد ﷺ رسالة عامة وخاتمة لكل رسالات السماء .

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ،
كما في سورة الأعراف ، وأن محمدًا رسول الله .

الصلاة:

«إقام الصلاة» ، فإقام الصلاة هو الركن الثاني ، وإقام الصلاة هنا في الحديث جاء بلفظ المصدر ؛ «إقام الصلاة» ، والشأن أن يقال : إقامة الصلاة بتاء العوض ؛ لأن تاء إقامة هي عوض عن الحرف المحذوف من المصدر الذي هو إقامة ، وهو معروف في علم الصرف ؛ أن هذه الكلمة حذف منها حرف علة ؛ إما أن يكون عين الكلمة ، أو الألف الزائدة ، كما هو خلاف بين بعض علماء العربية .

ولكن هذه التاء لا تحذف إلا في حالة الإضافة ؛ ولذلك نقول في الغالب : إقامة الصلاة ، ولا نقول : إقامة الصلاة ، وإن كان جائزًا .

«وإقام الصلاة» الإقامة مأخوذة من أقام ، والمضارع يقيم ، كما هو معبر به في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وفي الأحاديث النبوية الشريفة ، وكما يأتي في حديث سؤال جبريل ﷺ للنبي ﷺ .

والقرآن - كما هو ملاحظ - عندما يذكر الصلاة إنما يذكرها مع

الإقامة، مع هذه المادة يقول: «يقيمون الصلاة، إقام الصلاة، إقامة الصلاة»، ولكنه لا يقول مثلاً: يؤدون الصلاة، أو يفعلون الصلاة فكلمة الإقامة وما اشتق منها وما أخذ منها هي المناسبة لهذه العبادة العظيمة التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام.

وكان المقصود من التعبير بها إشعار المسلمين بأن مجرد الأداء الذي لا تتوفر فيه كل الشروط، وكل الآداب، أن يكون المسلم خاشعاً خاضعاً حاضر القلب في صلاته، إذا لم تكن صلاته على هذا النحو، فإنها تكون دون المستوى الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى.

فالإقامة كأنها مأخوذة من أقام العود إذا جعله قائماً معتدلاً منتصباً تمام الانتصاب، فتكون الصلاة، فيكون التعبير بكلمة الإقامة، وما أخذ منها أنسب للمقصود من فعل هذه العبادة العظيمة.

حتى إن القرآن في أول سورة المؤمنون عندما لم يعبر بكلمة الإقامة وما أخذ منها لم يقل هم للصلاة فاعلمون، وإنما قال: ﴿خَشِعُونَ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

فالمفلحون: هم أولئك الذين يخشعون في صلاتهم، يؤدونها كاملة الأركان، كاملة الآداب والشروط والمواصفات التي جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى، وجاءت في فعل رسول الله ﷺ وأحاديثه.

أصل كلمة الصلاة:

هذه الكلمة أصلها الدعاء في لغة العرب، فمن دعا فقد صلى، هكذا إطلاقها الأول كما يقول أغلب علماء اللغة العربية، إن الصلاة معناها في اللغة الدعاء، ولكن الإسلام عندما جاء وجاء القرآن الكريم أدخل على

اللغة العربية كثيرًا من التوجيهات ، أو من القيود على الكلمات ، فتكون الكلمة عامة ولكنها باستعمال القرآن ، وبتوجيه القرآن يكون لها معنى جديد تتجه به نحو غاية جديدة ؛ ولذلك أخذت هذه الكلمة وأطلقت على العبادة التي نعرفها بأركانها وآدابها ، والتي تفتتح بالتكبير وتنتهي بالسلام مع ما يقدم لها من الطهارة الحسية والمعنوية .

فإذن الصلاة أصلها الدعاء ، ثم بعد ذلك استعملت في هذه العبادة العظيمة ، هذا الركن الكبير من أركان الإسلام ، ولكن المقصود هنا من الصلاة هو الصلوات الخمس خاصة ، فهي ركن الإسلام الثاني ، أما ما زاد عن الصلوات الخمس فليس هو ركناً وإنما هي صلوات مسنونة أو صلوات مستحبة ، يقوم بها المسلم تنفلاً وزيادة في الخير ، وطلباً لرضا الله تبارك وتعالى .

فإذن ، إقام الصلاة ، كما جاء في الأحاديث الأخرى التي بينت عدد الصلوات كما في حديث سيدنا معاذ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وأمره أن يخبرهم بما يجب عليهم الإيمان به ، ثم بما يجب عليهم فعله ، وأول ذلك الصلوات الخمس .

وكما هو معروف ومنقول بالتواتر العملي عن سيدنا رسول الله ﷺ ، فالصلوات الخمس هي مفروضة بكتاب الله ، وبسنة رسول الله ﷺ ، السنة القولية والفعلية لا يستطيع مسلم أن يشك فيها إلا إذا كان قد عدم كل معاني المعرفة التي ترتبط بالإسلام .

« وإقام الصلاة » إقامة الصلاة والمواظبة عليها ، والمداومة على فعلها هي العلامة الكبرى بعد الإيمان على تحقق المسلم من إسلامه وتأدبه بآدابه .

«شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة»
 إيتاء ، مصدر آتى ممدودًا بمعنى أعطى يعطي ، فكأن معنى : «إيتاء الزكاة»
 وإعطاء الزكاة لمستحقيها ؛ لأن هذا الفعل يتعدى لمفعولين كما في قوله تعالى في
 آية البر : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ١٧٧] .

﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ مع حبه ذوي القربى ، أصحاب القرابة الذين
 ينتسبون إليه ويتصل رحمهم برحمه .

الزكاة:

«وإيتاء الزكاة» يعني إعطاء الزكاة المفروضة .

والزكاة في أصلها هي النماء والزيادة ، ثم أخذت كما فعل في الصلاة ،
 وأُطلقت على القدر المخرج الواجب إخراجه زكاة للمال الذي بلغ
 النصاب وتوفرت فيه شروط وجوب الزكاة على اختلاف أنواع الأموال
 التي تزكى ، سواء أكانت نقدية أم كانت زراعة أم كانت حيوانًا ، مما هو
 معروف في كتب الفروع ، وبالتفصيل الذي يعرفه العلماء .

«وإيتاء الزكاة» يعني إعطاء الزكاة لمستحقيها .

فهذا هو الركن الثالث ، والزكاة بحكم الترتيب هي الركن الثالث لأنها
 قرينة الصلاة في كتاب الله ، ففي أغلب الآيات ، وفي الكثير من الآيات
 عندما تذكر الصلاة تذكر معها الزكاة ؛ حتى إن الآيات التي ذكرت فيها
 الزكاة مع الصلاة بلغت اثنتين وثمانين آية .

فهي ركن مهم من أركان الإسلام وتتناول شيئًا مهمًا في حياة المسلمين ،
 وهي واجب في المال تطهر المسلم من الشح وتعلمه الجود وتشعره بحاجة
 إخوانه الفقراء المسلمين إلى ما بيده من المال .

والله تبارك وتعالى جعل هذا الحق للفقراء حدا أدنى لما يجب على المسلم أن يؤديه لإخوانه الفقراء .

وقد حدد الله تبارك وتعالى الأصناف التي تخرج لها أو تعطى لها الزكاة في سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فإذن إعطاء الزكاة بنية هذه الفريضة وبنية الانقياد لأمر الله ﷻ وطاعة الله ورسوله هو تأدية لهذا الواجب ، وقيام بركن من أركان الإسلام ، وهي حق واجب في المال ؛ ليزيد المال وينمو ، ولتزداد بركته ، وإن لم يزد حسًا فإنه يزيد معنى ، ويكون مباركًا فيه ؛ لأن الزكاة هي النماء ، هي الخير ، فإعطائها سبيل إلى هذا الخير والنماء ، ولذلك عندما أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يأخذها من الأغنياء قال : إنها تطهرهم ، في معنى الآية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وصل عليهم أي : ادع لهم .

فالصلاة هنا بمعناها اللغوي الأصلي يعني ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ : ادع لهم حتى يزدادوا خيرًا ويزدادوا صلاحًا ، ويكونوا أقرب إلى الله ، تبارك وتعالى ، حيث أدوا ما عليهم من حق الفقراء وهو شيء واجب ، وشيء تدعو إليه شريعة الله وتدعو إليه الأخلاق الكريمة الفاضلة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أي إعطاء الزكاة .

الحج :

والحج هذا هو الركن الرابع ، وهو ركن عظيم من أركان الإسلام ، والحج في أصل معناه القصد بمعناه المطلق ، ثم إن الله تبارك وتعالى جعله

حجًّا خاصًّا ، أو قصدا خاصا وهو أن يقصد المسلم الكعبة ليؤدي مناسك الحج ، أو أن يقصد البيت الحرام ليقوم بهذه الفريضة ؛ لأن الحج المقصود هنا هو الحجة الفرض التي تجب مرة في العمر عندما تتوفر شروطها ويستطيع المسلم أن يقوم بها ؛ لأن الله تبارك وتعالى عندما فرضها في كتابه شرط لها القدرة عليها : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] .

من ملك ما يستطيع أن يصل به إلى ذلك المكان الطاهر ، إلى ذلك المكان العظيم ، تلك المشاعر التي تحيي النفوس ويزداد الإيمان فيها قوة ونماء .

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قصد البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فهذه الكلمة أو هذه الجملة الأخيرة جعلت الحج فرضاً على المستطيعين الذين توفر لهم الزاد والراحلة ، وأمن الطريق والقدرة الجسمية على أداء هذه الفريضة العظيمة .

فإذن الحج هو ركن عظيم ؛ لأنه يعتبر مؤتمرا سنوياً يجتمع فيه المسلمون ويتعارفون ويتبادلون المعرفة ، ويتبادلون المنافع ، ويكونون إخوة يشعر كل واحد منهم بما لأخيه المسلم عليه من حق ، وإن تباعدت الديار ، واختلفت الألسنة ، واختلفت الألوان ، فإن الدين يجمعهم ، وإن اختلفت من نصرة الإسلام والمسلمين يجمعهم ، واجتماعهم في تلك البقعة الطاهرة في ذلك المكان بعينه يشعرهم بالوحدة ويشعرهم بالأخوة الإسلامية التي تفوق كل أخوة ، ويشعرهم بالرابطة الإيمانية التي تفوق كل رابطة ، وتفوق كل شيء في حياة المسلم المؤمن ، ولذلك جعل هذا الركن وهذه الفريضة ركناً من أركان الإسلام ما هو إلا من منهج الإسلام الذي يريد

من المسلمين أن يتآخوا، وأن يترابطوا، وأن يتعارفوا، وأن يتخذوا جميع الوسائل للالتقاء، وجعل هذا الالتقاء إيماناً إسلامياً بعيداً عن كل ما يهوش عليه، وبعيداً عن كل ما يجعله مضطرباً في شكله أو في موضوعه.

ولذلك حفه وجعله في إطار هذه الفريضة المقدسة التي هي ميراث من موارث النبوة؛ فقد كان سيدنا إبراهيم هو الذي بنى البيت وعمره منذ آلاف السنين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

فهذه الأركان تمثل حكمة الإسلام ومنهج الإسلام في العبادة وفي الأخوة الإسلامية وفي الترابط الاجتماعي حتى لا يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً متنافراً متباعداً في تفكيره، وفي شعور المسلم نحو أخيه المسلم.

الصوم:

ثم بعد ذلك كما في هذه الرواية يأتي صوم رمضان.

هذا الشهر العظيم الذي جعله الله تبارك وتعالى فريضة أو ركناً من أركان الإسلام نصومه حسبة لله تبارك وتعالى: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

والله تبارك وتعالى جعل الغاية منه أن نصل إلى التقوى، أن يكون مدرجنا إلى التقوى طريقنا إلى التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

(١) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو مدرسة إيمانية تهذيبية تتولى نفس المؤمن بالصقل ، وتتولاه بالرعاية ، وبالقيادة إلى المعاني الفاضلة ، من جعل هذا الصوم خالصاً لوجه الله ؛ لأنه سر بين العبد وربّه ، فهو تدريب على الإخلاص ، تدريب على الاتصال بالله تبارك وتعالى ، وعلى الصبر على الطاعة ، وعلى الإحساس بالجوع وألم الجوع ، وألم الحاجة إلى الطعام ، حتى يتذكر المؤمن أولئك البؤساء الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، وما يلاحقهم في حياتهم كلها من ألوان الجوع وألوان الحاجة .

فإذا ما كان في هذا الشهر درب نفسه في هذه المدرسة على هذا السلوك فإنه يكون في حياته كلها رقيق الشعور ، قوي الإيمان بالمثل العليا ، وبالأخوة في الله تبارك وتعالى .

والتقوى كلمة عامة تشمل كل ما يتصل بحياة المؤمن مما يدخل في فعل الخير وترك المعاصي والشر أيّاً كان نوعه ، فهي فعل ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه .

فالله تبارك وتعالى إنما جعل صيام هذا الشهر ركناً من أركان لتتم بهذه الأركان كل وسائل تهذيب المؤمن ، وإزالته بالمعاني الكبيرة الجميلة والشعائر العظيمة التي تجعله مؤمناً عابداً لله تبارك وتعالى ساعياً في سبيل خير إخوانه ، قاصداً إلى معرفتهم وأداء ما يجب لهم من الحق عليه ، ثم في تدريب نفسه على طاعة الله وعلى الإخلاص لله ، وعلى تقوى الله تبارك وتعالى .

ونقول بعد ذلك : إن إضافة هذه الكلمات شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، هي من إضافة المصادر إلى مفاعيلها ؛ لأن الذي يقيم الصلاة ، والذي يؤتي الزكاة ويخرجها ، ويقصد البيت ويحج هو المؤمن .

أما صوم رمضان فهو كما يقول علماء العربية : من باب التوسع في الإضافة ؛ لأن رمضان هنا اسم للشهر ، وهذا الحديث الشريف ، أو هذه الرواية دليل على ما يقوله جمهور العلماء من أنه يصح أن نقول : رمضان دون أن نقول : شهر رمضان ؛ الذي ورد في القرآن : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، فإذا لم يطلق القرآن رمضان على الشهر ، وإنما جاء في أحاديث الرسول ﷺ .

واختلف العلماء هل يجوز في اللغة أو في الشريعة أن نقول رمضان دون شهر .

فالصحيح لهذه الأحاديث أننا يصح أن نقول : رمضان دون كلمة شهر ؛ ولذلك رمضان هنا اسم للشهر ، علم عليه ، ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون ، ثم هو ما دام اسماً للشهر والشهر ظرف فكأنه هنا بمعنى الظرف ، وكأن المعنى : والصيام في رمضان ؛ لأن الصوم ليس هو رمضان وإنما الصوم هو الكف عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

فالصوم يكون في الشهر في رمضان ؛ ولكنه هو الكف عن المفطرات ، ولذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .
﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ﴾ : المقصود .

الشهر هنا منصوب على الظرفية وليس هو مفعولاً به ، فالمعنى : فمن كان شاهداً حاضراً غير مسافر في الشهر فليصم هذا الشهر ، وهذا هو معنى الآية الكريمة ، أو هذا الجزء من الآية الكريمة ؛ وبذلك نقول : إن هذا البيان العظيم من رسول الله ﷺ حدد للمسلمين أركان الإسلام ، وما

يدخل في مفهومه ، ولا يتم معناه بدونه ، فحد لهم هذه الأركان حدًّا واضحًا ، وأصبح ما ذكر عنها في القرآن مبيّنًا معروفًا .

وأن هذا الإسلام ركيزته الأولى هي العقيدة ، فبدونها لا يكون إيمان ولا إسلام ، فهي الركيزة التي يقوم عليها البيت المبني ، هذا القصر العظيم ، ثم بعد ذلك تأتي الأركان تشد هذا البناء من جوانبه ، فيكون قائمًا تامًّا إذا ما أداها المسلم حق الأداء ، واهتم بها كامل الاهتمام ، وكانت في نفسه حية قوية ، فإن هذا الإسلام يكون تام الأركان واضح البنيان .

أما إذا ما تضاعل معناها في نفسه أو ضعف وذبل ، وأصبح يتخلف عن أدائها أو يتهاون بها ، أو لا يكون مكترثًا بفعلها ، فإنه وإن آمن يكون إيمانه باهتًا ضعيفًا لا دليل عليه .

الدليل هو العمل هو التنفيذ ؛ ولذلك الركيزة الأولى تفقد معناها إذا ما سقطت جوانبها التي تشدها وتقيمها ، وتسند لها من الجوانب المختلفة ؛ ولذلك جاء في الأحاديث الأخرى الكثيرة ما يدعو المسلمين إلى الحفاظ على هذه الأركان ، خصوصًا الصلاة ، قال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة عماد الدين ، فمن هدمها فقد هدم الدين »^(١) ، وقال : « ما بين المسلم والكافر ترك الصلاة »^(٢) .

هذه العلامة المميزة ، وأحاديث كثيرة جدًّا في هذا المعنى .

وكذلك نجد في آيات القرآن الكريم ما يعطينا هذه المعاني ، حيث إن الله

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٨٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه .

تبارك وتعالى يحث عليها ويمدح فاعليها، ويعددهم بالأجر الجزيل والسعادة الدائمة في يوم الدين، بينما ينذر أولئك الذين لا يؤدونها حق الأداء .
وسيدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث أجمل الأركان، وبين في أحاديث كثيرة أخرى هذه الأركان .

أركان الإيمان والإسلام:

ومن ذلك حديث سيدنا جبريل ﷺ عندما أتى النبي وسأله عن هذه الأركان فقد روى أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :
حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذه، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال : صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال جبريل : أخبرني عن الإيمان، قال : عليه الصلاة والسلام : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، قال : صدقت، قال : أخبرني عن الإحسان، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ثم قال عمر في آخر هذا الحديث : «ثم انطلق، أي انطلق الرجل الذي لم يعرفوه فلبث ملياً، أو فلبثت ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

فأنتم ترون في هذا الحديث أنه شرح للحديث الذي سبق أن قلناه ، وهو فيه تفصيل ، خصوصاً للعقيدة لما يجب أن يؤمن به المؤمن ويصدق به .
ونلاحظ أن الرسول ﷺ أدخل الإسلام والإيمان والإحسان في مفهوم الدين ، وثلاثتها هي الدين ، فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

فإذن الدين مكون من الإسلام والإيمان والإحسان ، والإسلام كما عرفه رسول الله ﷺ دخلت فيه هذه الأركان ، فهذه الأركان هي الإسلام ، ولذلك نعود إلى كلمة : « بني الإسلام على خمس » ربما تشعروا أن المبني غير المبني عليه ، هذه الأركان غير الإسلام ، فقال العلماء : إن « على » هنا معناها من ، بني الإسلام من خمس ، فهذه الخمس هي الإسلام .

وهنا سيدنا رسول الله ﷺ أدخلها في مفهوم الإسلام ، وكذلك أدخل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فإذن ، هذا تعريف للإسلام والإيمان ، ونحن نلاحظ هنا من حيث العربية : « رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر » ، ورجل نكرة ؛ لأنهم لم يعرفوه ، وهو على هيئة لم يألّفوها ولم يجدوا دليلاً على أنه آت من بعيد ، إنه رجل مسافر ؛ لأن من شأن المسافر أن يكون رث الحال ، أو غير نظيف الثوب ، عليه غبار الطريق ، خصوصاً في ذلك الزمان الذي كانت وسيلة السفر هي الدواب والسير على الأقدام في الأرض غير المرصوفة ، فشأن المسافر أن يعلوه شيء من الإرهاق واتساخ الثياب ، ولكن جبريل جاء نظيفاً مما يدل على أن طالب العلم في مجالس الخير يجب أن يكون المسلم فيها نظيف الثوب جميل المظهر حتى يكون لائقاً بالمجلس الذي يجلس فيه .

وكذلك طالب العلم يكون بقدر ما يستطيع جميل المظهر نظيف الثوب ؛ لأنه يتعاطى أو لأنه يقبل على عبادة عظيمة ، وكذلك جبريل آت لمقابلة سيدنا محمد رسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق ، فضرب لنا المثل في المقابلة الجميلة التي يجب أن يكون عليها المسلم عندما يقبل على مثل هذا المجلس العظيم ؛ ولذلك سيدنا جبريل أخذ يسير ويدنو حتى جلس إلى النبي ﷺ ، وربما يقول بعض الناس أو نقول : كيف يخترق جبريل هذا الصف ويتقدم؟ هل من حقه أن يفعل ذلك يتخطى الآخرين ويتقدم عليهم؟

وقد أجاب العلماء عن ذلك بما ثبت في روايات أخرى أنه لم يتقدم إلا بعد الاستئذان وأخذ يقول : أأذنو ؟ أأذنو ؟ أأذنو ؟ . حتى وصل إلى الرسول ﷺ لأن كلمة «حتى جلس» تدل على أنه سار حتى دنا من الرسول ، «حتى جلس» فهي مبالغة أو هي غاية لكلمة ملاحظة من حيث المعنى .

«رجل شديد بياض الثياب» ، ورجل هنا نكرة ، قد يلاحظ بعض الناس أن صفتها مضافة ، ومن شأن المضاف في بعض الأحيان أن يكون معرفاً ، فكيف توصف النكرة بالمعرفة؟ فنقول هنا : «شديد» هي صفة مشبهة بإضافتها لفظية وليست بمعنوية ، والإضافة اللفظية لا تفيد التعريف ، ولذلك صح أن توصف هذه النكرة بمضاف ؛ لأنها إضافة لفظية وليست بإضافة معنوية تفيد التعريف ، كما في آيات من كتاب الله أيضاً .

فإذن هذا الحديث ، حديث عظيم يشرح لنا معنى الإسلام والإيمان ، ويبين لنا العقيدة التي يجب أن نؤمن بها ، وهي الركن الأول كما تحدثنا في كلمتنا السابقة .

الفرق بين الإيمان والإسلام:

بعد ذلك ربما من الخير أن نعرج على كلمة الإيمان والإسلام .
وقد تحدث عنهما العلماء كثيرًا ، واختلفوا في أشياء كثيرة تتصل بهما وبمعناها وبصلتهما ببعضهما البعض ، ومدى تطابقهما أو تخالفهما ولكن ما سأقوله هو ما توحى به ظاهر الآيات ، ولا ندخل في خلاف ولا تفاصيل وإنما ما يوحى به منهج السلف في تناول هاتين الكلمتين .
فالإيمان كما يمكن أن يفهم مما ذكرنا هو التصديق ، وفي اللغة هو التصديق مطلقًا ، لا يتعلق بتصديق خاص ، ولكن الإسلام جعله تصديقًا خاصًا .

ليس كل تصديق إيمانًا ، وإنما الإيمان هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل ، ولذلك نقول : التصديق هو التصديق بما أمرنا به الله ورسوله أن نصدق به ، وكما أجاب عليه الصلاة والسلام جبريل :
«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» .

فالتصديق هو التصديق بهذه العقائد ، والإيمان بها إيمانًا جازمًا قويًا لا يعتريه الشك ، وكما قلنا : الإيمان الحق هو ما كان عن دليل وبرهان ، ومؤيدًا بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ .

فالإيمان هو التصديق ، التصديق على نحو خاص ، والإسلام هو الانقياد والخضوع والاتجاه إلى تنفيذ أوامر الله تبارك وتعالى ، فهو يتعلق بالأعمال التكليفية بالظواهر ، ولكن الإيمان هو التصديق القلبي .

هذان المعنيان هما المعنيان اللذان توحى بهما هاتان الكلمتان من حيث اللغة ، ومن حيث المأخذ اللغوي .

أما معناهما في الإسلام ، وكما عرفنا الإيمان ، يجعلهما الإسلام ويضفي على هاتين الكلمتين معنى جديداً ، وقارب بينهما وجعلهما متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وإذا ما فقد أحدهما فإن أخاه أو قرينه يكون ضعيفاً مهزوزاً أو مفقوداً لا يكاد يوجد ، ولذلك كذب الله تبارك وتعالى المنافقين عندما ادعوا الإسلام ، لم يصدقهم ولم يقبل إسلامهم ؛ لأن من شرط الإسلام أن يسبقه إيمان صحيح ، تصديق صادق مخلص .

وفي أول سورة المنافقون : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ؛ لأنهم انقادوا في الظاهر ولم يصدقوا تصديقاً جازماً صحيحاً ، كانوا ينكرون في بواطنهم وينقادون في الظواهر خشية من المؤمنين أو حفاظاً على المصالح ، أو سعيًا وراء بعض المغانم : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢] ، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٥] ، ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

وقد أجمع المسلمون على كفر من كان إيمانه على هذا النحو ؛ لأن القرآن هو الذي حكم بذلك .

فاذن لم يكن هناك إيمان ، كذلك عندما جاء في الآية الكريمة : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : ١٤] عندما أسلموا في الظاهر ولم يحسن إيمانهم .

الله تبارك وتعالى نبههم إلى أنهم في الظاهر منقادون ، ولكنهم في الباطن بعيدون عن الحقيقة .

فإذن لا يكون إسلام بدون إيمان ، وإذا ما فقد الإيمان الدليل على وجوده من تنفيذ أوامر الله فإن صاحبه حسب التعبير القرآني لا يستحق وصف المؤمن بمعناه الذي يريده القرآن ، وعرفه السلف الصالح من المؤمنين .

وآيات الكتاب الكريم تدل دلالات واضحة على أن المؤمنين حقاً هم أولئك الذين ينفذون أوامر الله ﷻ كما في أول سورة الأنفال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢، ٣] خمس صفات في هذه الآية من اتصف بها هو المؤمن حقاً .

وتلاحظون هذا التعبير العالي المستوى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال : ٤] هذا الأسلوب المؤكد أولاً بتعريف طرفي الإسناد المبتدأ والخبر ، وثانياً فيه ضمير الفصل ويؤتى به للتأكيد هم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فكأن الإيمان محصور فيهم مقصور عليهم لا يتعداهم إلى غيرهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ .

ثم ﴿أُولَئِكَ﴾ هذه الإشارة إنما يشير بها للبعد ، المكان العالي المرتبة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ، ثم كلمة ﴿حَقًّا﴾ حقاً هذا المصدر الذي نقول إنه مؤكد لمضمون الجملة ؛ لأن معنى حقاً ومعنى الجملة شيء واحد ؛ لأن ما دلت عليه الجملة حق .

وكلمة حق أكدت هذا المعنى ؛ ولذلك هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة كما يقول علماء النحو ، فهي جملة مؤكدة توفرت لها كل أسباب التأكيد للدلالة على أن المؤمن حقاً الذي يستحق هذا الوصف إنما ذلك الذي أطاع الله ورسوله وعمل بما أمر به .

فإذن، هذا الإيمان والإسلام يدعونا إلى أن نقول: إنها شيئان عظيمان، ولا يتم أحدهما إلا بوجود الآخر.

وآية البر التي نختم بها وكنت أود أن أخرج عليها شاملة لكل ما يدعو إليه الإسلام من الإيمان والعمل الصالح ووجوه الخير.

وقد حصرت البر وهو الخير العام، حصرت في أولئك المؤمنين الذين يعملون بها جاء فيها: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

المحاضرة التاسعة والأربعون بعد المائة

مبدأ التراحم وتأسيس الحداثة الأخلاقية

ألا إن الأخلاق ليست بعضًا من ديننا الحنيف فحسب ، بل هي هذا الدين كله ، فمن قام بها قام بالدين كله ! والإنسان في عالمنا الحديث ليس إلى شيء أحوج منه إلى تجديد أخلاقه ؛ و«إسلام الأخلاق» خير دين يمد هذا الإنسان بكمال التجديد ؛ لذا فإني أتحدث عن أم القيم الأخلاقية في الإسلام ، ألا وهي «الرحمة» ! متدبرًا قول الله ﷻ : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] صدق الله العظيم .

لاشك أن الاشتغال بالحداثة واقع تفرضه على الأمم والدول ضرورات الوجود والتواجد ، غير أن «الحداثة» مفهوم مجمل يحتاج إلى تفصيل ، إذ لها أشكال عدة .

فهناك باعتبار الأقطار : «حداثة فرنسية» ، و«حداثة ألمانية» ، و«حداثة أمريكية» وغيرها .

وهناك باعتبار المجالات : «حداثة سياسية» ، و«حداثة اقتصادية» و«حداثة اجتماعية» وسواها .

كما أن للحداثة في القطر الواحد مراتب عدة ، فهناك أقطار حظها من الحداثة في هذا المجال أو ذاك أكبر من حظها منها فيما عداه ، كأن تكون - مثلاً - حداثتها الصناعية أقوى من حداثتها القانونية ، أو تكون حداثتها الاقتصادية أقوى من حداثتها السياسية ، وهكذا .

لكن الغريب في هذا الاشتغال العام بالحادثة هو أنه يتعلق بالأشكال المادية للحادثة أكثر مما يتعلق بأشكالها المعنوية ، مثل «حادثة القيم» ، و«حادثة الأخلاق» ، و«حادثة الروح» ، حتى إن أحد نظار الحادثة المشهورين قال : «إن الحادثة لا أخلاق لها» ، ثم أردف قائلا : «إنها لم تتجاهل الأخلاق فحسب ، بل خربت قسما منها» .

والدعوى التي أريد أن أقيم الدليل عليها ، والتي أسميها «دعوى الحاجة إلى الحادثة الأخلاقية» تتركب من قسمين اثنين :
أولهما : أن الأخلاق شرط في صلاح الحادثة .

الثاني : أننا -نحن المسلمين- قادرون على أن نسهم في بناء حادثة أخلاقية ولو فاتنا الإسهام في بناء الحادثة المادية .
وأمضي الآن إلى التدليل على القسم الأول .

الأخلاق وصلاح الحادثة المادية :

فمعلوم أن كل زمان يختص بتحديات وابتلاءات يحتاج أهلها إلى دفعها ، ويتطلب منهم دفعها أن يقوموا بحركة تغيرية شاملة تستثمر أقصى طاقاتهم الإبداعية .

والحادثة إنما هي هذه الحركة الإبداعية القادرة على درء التحديات والابتلاءات الخاصة بكل زمان ، وعلى هذا فالحادثة والإبداع صنوان لا يفترقان ، فالفعل المبدع يكون حداثيا ولو خالف حادثة الآخرين ، والفعل الذي لا إبداع فيه ، لا يكون حداثيا ولو قلد حادثة الآخرين .

المشاريع الانفصالية الثلاثة :

والحركة الإبداعية التي اختصت بها الحداثة في زماننا تتجلى في مشاريع انفصالية ثلاثة تمثل أطوارها الكبرى :

أحدها : مشروع الانفصال عن التراث ، والمراد به إلغاء حرمة التراث ، سواء كان تراثاً دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً ، والقصد من وراء هذا الانفصال هو تحرير إرادة الإنسان الحديث حتى يشع لنفسه بنفسه .

والثاني : مشروع الانفصال عن الطبيعة ، والمراد به إلغاء حرمة الطبيعة ، وقد اتخذ هذا القطع أشكالا ثلاثة هي : «إرادة السيادة على العالم» ، و«نزع القداسة منه» ، و«الاصطناع الكلي للطبيعة» ، وهو الشكل الذي لا يبقى فيه جانب من الطبيعة لم ينفذ إليه وسائل التقنية المتقدمة ، والقصد من وراء هذا الانفصال هو تحرير قدرة الإنسان الحديث على الإنتاج حتى يلبي كل ما يحتاج غير آبه بما ينتج من أخطار عن هذا التدخل .

والثالث : مشروع الانفصال عن الحيز ، والمراد به إلغاء حرمة الحيز .

والحيز هنا على نوعين :

الحيز الجغرافي : الذي تشكله حدود الأوطان ، إذ أخذت مؤسسات اقتصاد السوق والشركات العالمية تخترق هذه الحدود الجغرافية .

والحيز الفيزيائي : الذي تشكله حدود الأجسام ، إذ أخذت وسائل الاتصال والشبكات الدولية تخترق هذه الحدود الفيزيائية ، بحيث أصبح الإنسان يختصر ذاته كلها في نقل الأفكار والأخبار ، مستغنيا بلقاء الأذهان عن لقاء الأبدان ، والقصد من وراء هذا الانفصال هو تحرير قدرة الإنسان الحديث على الحركة ، حتى يسير حيثما يريد ، سائحا أو سابحا .

ولئن جاءت هذه المشاريع الانفصالية بكثير من المنافع والخيرات للإنسانية ، فقد جاءت بها كذلك بغير قليل من البلايا والآفات التي لا تخفى على أحد .

فالانفصال عن التراث ، وإن أطلق عقل الإنسان الحديث من عقاله ، وفتح له باب النظر في كل شيء ، فإنه لم يستطع أن يزوده ، مما يحتاج من نظائر الثوابت والرواسي التي كان يجدها في التراث ، بل على العكس من ذلك ، أغرقه في بحر من الظنون والشكوك التي لا تنتهي ، فأصبح حاله حال المتزلزل الذي لا يثبت على شيء .

وأما الانفصال عن الطبيعة ، فإنه وإن أطلق يد الإنسان الحديث من إيسارها ، وفتح باب الصناعة لكل شيء ، فإنه لم يستطع أن يمدّه بما يدفع عنه الأخطار التي تتولد من واسع تقدمه في مجال التقنية النووية والهندسة الوراثية ، والصناعة الكيماوية أو غيرها .

هذه الأخطار التي تهدد الحياة والبيئة والأرض جميعاً ، فأضحى حال هذا الإنسان حال الخائف الذي لا يأمن أي شيء .

وأما الانفصال عن الحيز ، فإنه وإن أطلق تعامل الإنسان الحديث من قيوده ، وفتح له باب التواصل مع أي شيء ، فإنه لم يستطع أن يزوده بما يحفظ مركزيته وخصوصيته ، بل على العكس من ذلك ، أضاعه في فضاء المعلومات الواسع ، فغدا حاله حال المتشرد الذي لا يقيم بأي شيء .

إخلال المشاريع الانفصالية بمبادئ الأخلاق :

من ينظر ملياً في أسباب هذه الآفات الثلاث التي دخلت على الحداثة : «آفة التزلزل» و«آفة الخوف» و«آفة التشرد» ، لا يلبث أن يتبين أنها ترجع

إلى كون هذه المشاريع الانفصالية الثلاثة أخلت بالركن الأساسي الذي تقوم عليه العلاقة الأخلاقية بين الطرفين ، وهو ما أسميه بـ «مبدأ حفظ الواجبات المتوازنة» .

وصيغته هي كالآتي : «الأصل في العلاقة الأخلاقية بين طرفين أن يحفظ طرف الإنسان منهما حقوق الطرف الآخر ، إنساناً كان أو غير إنسان ، على اعتبار أن حقوق أحد الطرفين على الآخر ، تتوازن مع حقوق الثاني على الأول» .

تترتب على هذا المبدأ نتائج مختلفة :

أولها : أن وجود الواجب شرط في وجود العلاقة الأخلاقية .

الثانية : هي أنه إذا كان أحد طرفي العلاقة الأخلاقية غير إنسان ، وقع الواجب على الإنسان ، حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك .

الثالثة : أن الواجبات لا تكون بالضرورة متساوية بين الطرفين ، فقد يجب على أحدهما أكثر أو أقل مما يجب على الآخر .

الرابعة : أن الواجبات لا تكون بالضرورة متشابهة لدى الجانبين ، فقد يجب على أحدهما ما يجب على الآخر .

ويتجلى إخلال هذه المشاريع الحداثية بمبدأ حفظ الواجبات المتوازنة في كل واحد منها بجعل الإنسان الحديث لا يكتفي بأن يثبت لنفسه كل الحقوق ، منكرًا حقوق ما انفصل عنه ، تراثًا أو طبيعة أو حيًا ، بل يتعدى ذلك إلى أن يطلب إنهاء وجوده كليًا .

فالانفصال الأول : قصد إنهاء وجود التراث .

والانفصال الثاني : قصد إنهاء وجود الطبيعة .

والانفصال الثالث : قصد إنهاء وجود الحيز .

ومن هنا جاء استعمال المحدثين لمصطلحات «نهاية التراث» ، و«نهاية الطبيعة» ، و«نهاية الجغرافيا» ، و«نهاية الجسم» ، بل اختار بعضهم عبارة بالتحليل النفسي ، فقال : «قتل الأب» ، وبهذا تكون هذه الانفصالات قد ضيعت حق التراث في أن يبقى ذاكرة حية تعزز الهوية ، كما ضيعت حق الطبيعة في أن تبقى شريكاً معطاء يصحح التقنية ، وأخيراً ضيعت حق الحيز سياقاً عينياً يحدد الوجهة .

والواقع أن لهذه الأطراف الثلاثة حقوقاً على الإنسان تنزل منزلة حقوق الأم على ولدها ، فكما أن الأم تزود رضيعها بأسباب الانفطام ، فكذلك هذه الأطراف تزود الإنسان بأسباب لولاها لما استطاع أن ينفصل عنها .

فلولا قيم التراث التي أشبع بها قلب هذا الإنسان ، لما طمع في أن يأتي بأفضل منها ، ولولا قوى الطبيعة التي بهرت عقله لما طمع في أن يقهرها بتقنياته ، ولولا أبعاد الحيز التي تأوي فعله ، لما طمع في أن يخرج عنها بتطوافه ، وعلى هذا فكما أن عناية الأم بولدها توجب عليه أن يبر بها ، فكذلك إمدادات التراث والطبيعة والحيز للإنسان توجب عليه أن يبر بها جميعاً ، فالبر بالتراث أو البر بالطبيعة أو البر بالحيز واجب كواجب البر بالوالدين .

وبهذا ، يتضح أن علاقة الإنسان بالتراث والطبيعة والحيز يجري عليها قانون الواجبات نفسه الذي يجري على علاقة الولد بأمه ، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن علاقة الولد بأمه هي النموذج الأمثل لـ «صلة الرحم» ، جاز أن نضع لهذه الواجبات وصفاً مشتقاً من اسم «الرحم» ، فنسميها : «الواجبات الرحمية» ، فإذا الواجبات الرحمية هي عبارة عن حقوق القريب على القريب .

فالتراث والطبيعة والحيز أقارب للإنسان ، كما تكون الأم أقرب قريب لولدها ، وعلى هذا فالحدث لا تكون صالحة ، أي مؤسسة على الأخلاق ، حتى تقوم بالواجبات الرحمة خير قيام ، أي حتى تحفظ صلة الرحم الموجودة بين الإنسان من جهة وبين التراث والطبيعة والحيز من جهة أخرى .

وهكذا ، أكون قد أنهيت إثبات الجزء الأول من دعوى «الحاجة إلى الحدث الأخلاقية» ، وهو أنه لا صلاح للحدث بغير أخلاق .

والآن أنتقل إلى إثبات الجزء الثاني من هذه الدعوى ، وهو «أن للمسلمين القدرة على الإسهام في بناء الحدث الأخلاقية» ، فأحتاج إلى أن أوضح كيف أن الدين الإسلامي يتضمن الواجبات الرحمة الضرورية لتخليق الحدث .

الإسلام وبناء الحدث الأخلاقية :

صيغة مبدأ التراحم :

إذا نحن استقرأنا «الواجبات الرحمة» في الثقافة الإسلامية ، وجدنا أنها تنبني على مبدأ عام ، وهذا المبدأ قد أصوغه كما يلي : «الأصل أن الموجودات ، على اختلافها يرحم بعضها بعضًا ، تخلقًا باسم الرحمن من أسائه تعالى» .

فهذا المبدأ يتضمن ثلاثة أركان ، وهي : «اسم الرحمن» ، و«الرحمة» ، و«التخلق» ، فلأبين كيف أن كل واحد من هذه الأركان يولد جملة من الواجبات الرحمة الضرورية لتخليق الحدث ، بادئًا بالركن الأول ، وهو اسم «الرحمن» .

ركن «اسم الرحمن» :

الاسم بمعنى «القيمة» :

فقد قيل إن لفظة «اسم» مشتقة من أحد الأصلين : إما «السمة» ، فيكون الاسم هو العلامة التي توضع على الشيء لتمييزه من غيره ، أي أنه «العلامة المميزة» ، وإما «السمو» ، فيكون الاسم القدر أو القيمة التي تعطى للشيء لتمييزه من غيره فيكون مدلول «الاسم» حينئذ هو «القيمة المميزة» .

والذي أراه هو أن هذا المدلول الثاني هو الأرجح وأسباب الترجيح كثيرة ، أكتفي بذكر اثنين منها :

أحدها : لغوي ، وهو أن الأسماء في اللسان العربي لا تميز مسمياتها فحسب بل تحمل معاني خاصة وهذه المعاني تدل بالذات على قيم محددة ، فمثلا إذا نودي على أحد باسمه : يا «عبدالله» ، فلا يكون المستمع قد عرف المسمى فحسب ، بل يكون قد عرف أيضًا القيمة التي يطلب من المسمى تحقيقها ، وهي «العبودية لله» .

والثاني : شرعي ، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه حذر بعض الأسماء وأوصى بها مثل : «عبدالله» و«عبدالرحمن» ، وكره بعضها ونهى عنها مثل : «مرة» و«حرب» ، كما نهى عن استعمال أسماء توجب التطير في بعض مقامات الكلام ، مثل «رياح» و«يسار» أو تختص بذاته الشريفة «أبوالقاسم» ، وأخيرا غير عددًا غير قليل منها : مثل «عاصية» و«يثرب» .

فلولا أن الأسماء تفيد قيما مخصوصة تسند -عن استحقاق أو عن غير استحقاق- إلى مسمياتها المختلفة ، لما عمد النبي الأكرم إلى تصحيح بعضها أو تعديله .

وإذا تقرر أن لفظ «الاسم» يعني أساساً «القيمة» جاز الأخذ بالتأويلات الثلاثة الآتية :

أولها : أن لفظ «الأسماء» في قول الله ﷻ : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

لا يعني كما ذهب إلى ذلك المفسرون علامات تميز ذاته سبحانه بقدر ما يعني قيماً مخصوصة تتجلى بها هذه الذات المقدسة .

فاسم العزيز -مثلاً- يعني قيمة «العزة» القائمة بهذه الذات ، واسم الكريم يعني قيمة «الكرم» القائمة بها ، بحيث يكون مدلول قوله : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ هو : «ولله القيم الحسنی» ، وصيغة التفضيل : «الحسنی» تدل على أن هذه القيم تسمو على غيرها سموًا مطلقًا ، بحيث إن أدنى قدر منها يفضل أي قدر من غيرها ، أي أنه لا يوجد قيم أخرى تضاهيها رتبة .

والثاني : أن لفظ «الأسماء» في قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة : ٣١] اشتهر لدى أغلب المفسرين أن معناه «علمه كل العلامات المميزة لما هو كائن وما سيكون من الموجودات ، عظم شأنه أو قل ، لكن سياق الآية يستفاد منه أن معناه وهو «علمه كل القيم المميزة للموجودات ، إذ جاء هذا القول في سياق الجواب عن سؤال الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة : ٣٠] ؟ وهو سؤال -كما لا يخفى- يشعر بأن بني آدم ، حسب اعتقاد الملائكة ، ليس لهم علم بالقيم العليا التي ترقى بهم من درك الفساد وسفك الدماء مثل «الرحمة» إلى رتبة الصلاح وحفظ الأرواح .

والثالث : أن لفظ «الفطرة» في قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] ، قد حمل تارة على

معنى «التوحيد» ، وتارة على معنى «الدين» عامة وأخرى على معنى «الإسلام» خاصة ، لكن يجوز أن يحمل كذلك على معنى «الخلقة المعنوية» ، وهي «جملة القيم التي تجعل الإنسان كاملاً في إنسانيته» .

فكما أن الإنسان خلق في الأصل في أكمل صورة جسمية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر : ٦٤] ، فكذلك خلق في الأصل في أكمل هيئة روحية ، أي خلق مزوداً بأسمى القيم التي تحقق كماله كما يتحصل من التشبيه الوارد في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء -أي كاملة- هل تحسون فيها من جدعاء -أي ناقصة» .

خصائص «الرحمن» :

أما عن لفظ «الرحمن» ، فهو أول أسماء الصفات الإلهية ، فالرحمن هو الله سبحانه ، وقد تجلّى أول ما تجلّى خلقه بأولى القيم وأكملها على الإطلاق ، وهي الرحمة ، والأدلة على أولية هذا الاسم كثيرة أورد منها اثنين .

أولهما : أن اسم «الرحمن» جاء ذكره في الآية الكريمة التي هي محل تدبرنا عقب ذكر اسم الذات أي «الله» ، على النحو الذي جاء به في البسملة ، حتى أنزل بعضهم اسم «الرحمن» منزلة اسم العلم مثله في ذلك مثل اسم «الله» أو جعله قريباً منه .

وواضح أن الترتيب في كلام الله لا يرد إلا لكي يفيدنا ما لا يفيدته ترتيب غيره ، وهذه الإفادة هي أن صفة الرحمة تتقدم على غيرها من الصفات في قيامها بذاته سبحانه .

والدليل الثاني : على أولية اسم الرحمن ، أن هناك آيات كريمة وأحاديث شريفة تقرر أنه ما من شيء إلا وهو أثر من آثار الرحمة الإلهية ، وأذكر من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] ، وقوله : ﴿ فَقُلْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وأخيرا قوله : ﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

وأذكر من الأحاديث ما رواه في صحيحه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي» ، وفي رواية ثانية : «رحمتي سبقت غضبي» وفي رواية ثالثة : «إن رحمتي فاقت غضبي» ، وأنه قال أيضا : «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرضين جزءا واحدا ، فمن ذلك يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تطأه وتصيبه» ، ولهذا الحديث الأخير روايات عدة .

الواجبات الرحمية اللازمة عن اسم «الرحمن» :

وبعد هذا يتعين علي أن أذكر الواجبات الرحمية التي يمكن استنباطها من اسم «الرحمن» ، والتي تمكن المجتمعات المعاصرة من تخليق الحداثة ، وأشترط في هذا الاستنباط أن تقرر هذه المجموعة من الواجبات قرب الرحمن من مخلوقاته .

أول هذه الواجبات الرحمية أصوغه كما يلي :

«لنستحضر في نفوسنا على الدوام أن علاقة الرحمن بنا علاقة قرب لا يعرف كيفها ، ولكن يعرف يقينًا وجودها» .

يتعين أن نبذ التصور الذي يجعل من الرحمن كائنًا يلقي الأوامر والنواهي إلى الإنسان من خارج أو عن بعد كما يلقي بها البشر بعضهم إلى بعض ، فعلاقة الرحمن بنا علاقة لا يمكن أن تنطبق عليها مقولة الخارج ولا مقولة الداخل ، ولا أية جهة أخرى ، لأنها مقولة مكانية ، والإله منزّه عن المكان ، وإنما كل ما يمكن أن يقال بصدها هو أنها علاقة قرب لا يعرف بالنظر المعلوم كيفها تفصيلاً وإن عرف إجمالاً أنها تستغرق وجود الإنسان على تمامه ، ومتى استحضر الإنسان المعاصر في نفسه أن علاقة الرحمن به علاقة قرب روحي ليس كمثله قرب ، تقوى لديه الشعور بالمسؤولية حيال القرب الإلهي ، فيتولى هذا الشعور تقوية إدراكه للقربة الموجودة بينه وبين غيره ، كما يتولى توسيع نطاق هذا الإدراك حتى يشمل قرابته للمخلوقات جميعاً .

والواجب الرحمي الثاني المستنبط من اسم «الرحمن» هو:

«لنعمل بمقتضى الصلة القيمة الموجودة بين اسم «الرحمن» واسم «الرحم» ، فقد كرم الرحمن علاقة الرحم بأن نسبها إلى نفسه كما جاء في حديثين رواهما أحمد ، والترمذي ، والحاكم .

أحدهما : «قال تعالى : أنا الرحمن ، أنا خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته» .

فيكون المعنى : «شققت قيمة الرحم من قيمتي» .

والحديث الثاني : «الرحم شجنة من الرحمن ، فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله» والشجنة عبارة عن عروق الشجر المشتبكة ، فيكون المعنى هو أن القربة بين أهل الأرض هي قرابة من الله مشتبكة اشتباك عروق الشجر ، فيتوجب على أهل هذا الزمان أن يعملوا بمقتضى «نسبة الرحم إلى الرحمن» ، حتى يرتقوا بالقربة الإنسانية إلى رتبة القربة الروحية .

والواجب الرحمي الثالث : المستنبط من اسم «الرحمن» صيغته هي :

«لنأخذ بمبدأ اتفاق الأديان والأمم على اسم الرحمن من أسمائه تعالى» .

يبدو أن الأديان والأمم على اختلافها تتفق على اسم «الرحمن» أو ما يقابله في لغتها ، فهذا الاسم يكثر وروده ، مثلاً في التوراة ، لهذا يتعين على أمم العالم قاطبة أن تتفق على مفهوم «الرحمانية» ، بوصفه مرادفاً لمفهوم «الألوهية» ، حتى تأخذ بما يترتب على هذا الترادف من مقتضيات التراحم في تعامل بعضها مع بعض .

بعدما أنهيت كلامي في الركن الأول من أركان مبدأ التراحم ، أنعطف على الركن الثاني من أركان مبدأ التراحم أي «الرحمة» ، فأبسط القول فيه .

ركن الرحمة :

خصائص الرحمة :

يمكن أن نعرف «الرحمة» ، على وجه الإجمال ، بكونها علاقة بين الطرفين هما : «الراحم» و«المرحوم» ، خاصية المرحوم فيها أنه محتاج ، وخاصية الراحم أنه دافع لهذا الاحتياج .

الرحمة علاقة متميزة :

لهذه العلاقة خصائص معينة نقف منها على ثلاث هي : «الانعكاس» ، و«التعدية» ، و«الترتيب» .

أ- الرحمة علاقة منعكسة :

ذلك أن الراحم لا تتعلق رحمته بغيره فحسب ، بل أيضاً تتعلق به هو نفسه ، بدءاً بتلبية حاجاته الجسمية والروحية ، ويجوز له أن يقدم رحمته لنفسه على رحمته لغيره ، بل إن الراحم ، عندما يرحم غيره ، يصبح بفعله

هذا راحمًا لنفسه أيضًا أو بإيجاز الراحم مرحوم ، وفي الحديث الصحيح :
«من لا يرحم لا يرحم»^(١).

ب- الرحمة علاقة متعددة : وذلك من وجهين :

أولهما : أن الراحم لمن يرحم غيره راحم هو أيضًا لهذا الغير ، أو بإيجاز
راحم الراحم راحم .

والثاني : أن الراحمين يرحم بعضهم بعضًا ، بحيث يصير الراحم مرحومًا ،
والمرحوم راحمًا ، وهو ما عبرت عنه الأحاديث الشريفة بلفظ «التراحم» ،
وأكثرها دورانًا على الألسن الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه ،
وهو : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ،
إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

ج- الرحمة علاقة مرتبة :

كل من كان أقرب إلى الراحم كان أولى برحمته ، فيكون ذوو الأرحام
أحق بها ، ثم عموم الأقارب ، ثم الجيران ، فالذين يلوّنهم من أهل البلد ،
ثم الأقرب فالأقرب إلى أن تسع الرحمة أهل الأرض كلهم ، أو قل بإيجاز ،
الأولوية في الرحمة للأقارب وذلك بمقتضى الواجب الرحمي الذي هو حق
القريب ، فضلًا عن أن «الرحمة» التي هي تجلي «الرحمن» تشترك في الأصل
الاشتقاقي مع «الرحم» .

(١) سبق تخريجه .

الاحتياج على أنواع:

الاحتياج شعور المرء بالحاجة إلى شيء تنتج عنه حال من عدم الرضى ، وينبغي للراحم أن يقدرها على الوجه الذي يرضي المحتاج ، وعلى هذا ، فالراحم يمارس الاستدلال العقلي ولو أنه يكابد في داخله انفعالا عاطفياً ، بل إن هذا الانفعال يكون نتيجة حكمه العقلي على حال غيره ، ومقارنة هذه الحال في الاحتياج بحاله هو تصور مآله لو أنه كان في مكانه .

فإذن الرحمة تقتزن ضرورة بالعقل قدر اقترانها بالعطف ، كما أن الراحم لا يكتفي بالاستدلال على قدر الحاجة ، بل ينهض عملياً إلى الوفاء بها ، فإذن الرحمة تقتزن ضرورة بالفعل اقترانها بالعطف والعقل .

وينقسم هذا الاحتياج إلى قسمين كبيرين :

أحدهما : الاحتياج الأصلي ، وهو عبارة عن أصل الافتقار الذي تتصف به الموجودات جمعاء ابتداء من خلقها ، فليس في الكون موجود لا يحتاج إلى دفع شيء عنه أو جلبه إليه .

القسم الثاني : الاحتياج الفرعي ، وهو بدوره على نوعين :

أحدهما : «الاحتياج الفرعي الدافع» وهو الذي يطلب فيه المحتاج دفع الأذى الظاهر عنه ، وهو النوع الذي غلب إطلاق لفظ «الاحتياج» عليه .

والآخر : «الاحتياج الفرعي الجالب» وهو الذي يرجو فيه المحتاج جلب الخير إليه من غير وجود أذى ظاهر به .

وهنا يمكن إبطال اعتقادين سائدين ناتجين عن حصر الرحمة في مجال الاحتياج الدافع .

أولهما : أن الرحمة تختص بأولئك الذين يلحقهم أذى أو ضرر مخصوص ، بحيث يتعين على الراحمين البدار إلى دفع الضرر عنهم .

والواقع أن الراحمين لا يكتفون بصرف الأذى عن المضرورين ، بل يتعدونه إلى إيصال المنافع إلى أولئك الذين لا يتعرضون لضرر ملحوظ ، بل قد يكونون سالمين أو قانعين أو مكتفين ، وهذا يعني أن الرحمة تتجاوز الإسعاف بالحاجات إلى الإنماء للقدرات ، أي أنها تتسع لما يدخل في باب زيادة الخير والتنمية والتقدم .

الاعتقاد الثاني : أن الرحمة تكون مصحوبة بعطف يخالطه الشعور بالألم ، تأثراً بحال المضروب ، بحيث يدفع هذا الشعور الراحم إلى دفع الضرر عنه ، فترجع إرادة دفع الضرر عن الغير إلى إرادة دفع الألم عن الذات .

والواقع أن العطف في الرحمة قد يخالطه أيضاً شعور الراحم بالفرح متى جلب إلى غيره منفعة لم ترفع عنه أذى معين ، وإنما زادتة فضلاً على فضله ، فالأصل في المخلوق دوام الاحتياج ، فإن لم تكن به حاجة نقصان كانت به حاجة زيادة .

الواجبات الرحمية اللازمة عن الرحمة :

أذكر الآن الواجبات الرحمية التي يمكن استنتاجها من مفهوم «الرحمة» والتي تمكن هي الأخرى المجتمعات المعاصرة من تخليق الحداثة ، وأشرط في هذا الاستنتاج أن تقرر هذه المجموعة الثانية من الواجبات الرحمية قرابة المخلوقات بعضها لبعض .

وأول هذه الواجبات الرحمية صيغته هي :

«لنرحم الآخرين رحمتنا لأنفسنا ، حفظاً لقيمة الإنسان» .

يندرج تحت اسم «الآخر» نوعان :

«الآخر الذي في الذاكرة» ، أو «الآخر التاريخي» وهو الذي صنع التراث وولى .

و «الآخر الذي في الباصرة» أو «الآخر الاجتماعي» .

وهو بدوره نوعان :

الآخر الذي معي في حاضري ومع تراثي ، ولكنه ليس نفسي ، والآخر الذي معي في حاضري ، ولكنه ليس مع تراثي .

والحال أن الرحمة تفتح باب الصلة بالآخر من حيث هو كذلك ، وهذا يعني أن الواحد من أهل زماننا ، متى اتصف بالرحمة ، أصبح يقر بأخرية الآخر ، أي يعده غير مردود إلى عالمه الخاص ، وذات الراحم ، وهي تشعر بما يكون قد شعر بها الآخر من حاجات مازجتها آلام أو أفراح تتزحزح عن جمودها على موقعها وحدودها إن كثيرًا أو قليلًا .

ويحفظها هذا التزحزح من الوقوع في آفة الفردانية ، وهي تقديم المنافع الخاصة على المنافع العامة ، والاستمتاع بالحقوق الفردية مقدمة على حاجات المجتمع ، وإلا فلا أقل من أنه يحفظها من الوقوع في آفة الأنانية أو آفة النرجسية ، وهي سعي الذات في أغراضها الخاصة ، ناسية أغراض الآخر نسيانًا كليًا .

بل إن هذا التزحزح يهيئ الراحم لأن يعتبر بأخبار وأحوال الآخر الذي في الذاكرة ، لأن يهتدي باختيارات ومآلات الآخر الذي في الباصرة ، وفي هذه الحال ، تصير الذات الراحمة محددة بعلاقتها بالآخر ، فلا تتقدم عليه ، ولا بالأولى تتأخر عنه ، وإنما تدخل معه في علاقة تأسيس متبادل فتأخذ في الانتقال عن أحوالها الخاصة إلى أحوال يندمج فيها الآخر

التاريخي والآخر الاجتماعي معًا، أحوال لا ينفك يتزايد فيها هذا الاندماج، فيكون بعضها أرقى من بعض، وهكذا تكون الرحمة هي الأصل في البناء التاريخي والاجتماعي للإنسان.

والواجب الرحمي الثاني المستتج من الرحمة، صيغته هي:

«لنرحم غير الإنسان رحمتنا للإنسان، حفظاً لقيمة الوجود».

لا تتعلق الرحمة بالإنسان وحده، ولا بعموم الأحياء فحسب، بل تتعلق بالأشياء كلها، فكما أننا نرحم بني جنسنا، فكذلك ينبغي أن نرحم الأشياء التي من حولنا، ورحمتنا لها كرحمتنا للإنسان، نوعاً وقلداً، إذ ندفع عنها هي الأخرى الشرور ونجلب لها الخيرات، حتى نحفظ كيائها ونضمن بقاءها، ولا تقف الأشياء عند حد تلقي الرحمة منا، بل إنها لا تنفك تبادلتنا هذه الرحمة، هذا إذا لم تسبق رحمتها رحمتنا، فهل من رحمة أسبق من أن تحتضن وجود الإنسان ولما يعلم هو بهذا الوجود! وحيث لا عجب أن توصف الكائنات الحية الدنيا بالرحمة، فيقال: «دابة رحمة بولدها»، بل أن توصف بها الأشياء المادية والمعنوية، فيقال: «مطر رحيم»، و«وطن رحيم»، و«سياسة رحيمة»، و«مشروع رحيم»، ولما كان التراث والطبيعة والحيز بعضاً من هذه الأشياء، فلا بد أن تكون أخلاق الإنسان معها غاية في الرحمة، لا لأنها تنزل منه منزلة أخيه الإنسان وتوجب عليه احترامها وإكرامها فحسب، بل أيضاً لأنها غمرته برحمتها وما زالت تغمره بها، فضلاً عن أن هذه الرحمت هي تجليات أرحم الراحمين، لذا، فمن يرحم الأشياء فهو إنما يستزيد من رحمتها، ومن لا يرحمها، فهو إنما يستنقص من هذه الرحمت.

وهكذا . . . فإن التراحم لا يقوم بين بني البشر فحسب ، بل إنه أيضاً يقوم بينهم وبين الأشياء ، وعلامة ذلك ما نشعر به من وشائج بيننا وبين هذه الأشياء حتى كأنه لا فرق بين روحانيتنا وماديتها متى أضحت مهددة في وجودها كما نرى ذلك في تلوث الطبيعة واندثار التراث وانفكاك الحيز .

والواجب الرحمي الثالث المستنتج من الرحمة صيغته هي :

«لنؤثر الكونية المأخوذة من الرحمة على كل كونية أخرى» .

ليست الرحمة خيراً ينبغي على كل واحد تحصيله فقط ، بل إن الخير الذي تمثله هو بالذات ربط بالصلوات بين الناس كافة ، بمعنى أن وجود الكونية منوط بوجود الرحمة ، فبقدر ما يمارس الناس الرحمة فيما بينهم ، تأتلف قلوبهم وتجتمع عقولهم ، ومتى عرفنا أن التراحم لا ينحصر في وصل البشر بعضهم ببعض ، بل يصل جميع الكائنات فيما بينها ، ناطقة أو صامتة ، متحركة وساكنة .

أدركنا أن كونية الرحمة لا تعدلها كونية كما أدركنا خطأ أولئك الذين وقفوا الكونية على العقل المجرد ، أي العقل الذي انسلخ من رقة الإحساس وانعطاف الوجدان .

وليس هذا فقط بل إن القيم الأخرى مثل «العدل» و«المساواة» و«الحرية» تستمد كونيتها من كونية الرحمة ، إذ كلما اقتربت رتبة القيمة من رتبة الرحمة زاد قدرها منها ، زادت حظوظ هذه القيمة في تحصيل لإجماع البشرية عليها ، فيلزم أن كونية العقل آتية من كونية الرحمة التي هي الكونية العليا .

وهكذا . . . يتبين أن الكونية ليست رتبة واحدة ، وإنما مراتب مختلفة ، فالبشر ، وإن اتفقوا على مجموعة من القيم ، فإن قوة اتفاهم عليها تختلف

من إحداها إلى الأخرى، إلا أن قوة هذا الاتفاق تبلغ نهايتها في قيمة التراحم، وهذا لا يمنع من أن تختلف أشكال التعبير عن التراحم، وتختلف درجات التحقق به لدى الأفراد وتختلف أنماط تطبيقه في المجتمعات، كما يظهر ذلك في أسماء «التكافل»، و«التضامن»، و«التعاضد»، و«التلاحم»، و«المساندة»، و«التعارف»، و«التواصل»، و«التحاور»، و«التبادل»، و«الاعتراف»، و«الاحترام»، و«التعايش»، و«المشاركة»، و«الشرابة»، و«الضمان»، و«التأمين» وغيرها.

بعد أن فرغت من بيان الركن الثاني من أركان مبدأ التراحم، أنتقل إلى الركن الثالث، أي التخلق فأوضح خصائصه.

ركن التخلق:

خصائص التخلق:

أضع للتخلق التعريف التالي: «التخلق هو الاتصاف على قدر الطاقة بما يتصف به القوام عن طريق التعلق به».

فها هنا عناصر ثلاثة يتعين تفصيل القول فيها، وهي: «القوام» و«التعلق» و«الاتصاف».

القوام:

الأصل في الأخلاق وجود قيم عليا تبني عليها، وحد القيمة أنها حقيقة واجبة يراد وقوعها، لا حقيقة واقعة يقطع بها، فقيمة الصدق، مثلاً هي أمر واجب، وليس شيئاً واقعياً، لهذا فإن القيمة تحتاج إلى وجود نموذج أو شاهد تمثل فيه القيمة خير تمثيل، وأطلق على هذا النموذج اسم «القوام».

فالصدق مثلاً يتطلب وجود قوام تشهد أفعاله بوجود صدقه ، فالصادق الأمين هو قوام لقيمة الصدق ، وكلما كان القوام أكمل ، زاد شرف القيمة ، حتى إذا بلغ هذا القوام نهاية الكمال ، أصبحت هذه القيمة هي عينية ، إذ لولاه لما وجدت ، فالرحمة في نهاية شرفها هي الرحمن ، إذ هو قوامها الأسمى القيوم بذاته ، والشاهد على هذا التطابق بينت القيمة وقوامها الأعلى أن من الأسماء الحسنی ما جاء بصيغة اسم المصدر وحدها ، مع إمكان ورود بعضها بصيغة الفاعل ، مثل : «العدل» ، و«النور» ، و«الحق» ، و«السلام» .

وحينئذ لا غرابة أن يعبر اللسان العربي عن الاقتران الجوهرى بين القيمة والقوام بأدوات تركيبية خاصة ، منها حرف «ذو» بمعنى «صاحب» ، فالصادق هو ذو الصدق ، ولولا مخافة أن أخالف رأي الجمهور الذي يقول بأن الأسماء الحسنی موقوفة النوع محصورة العدد لقلت بأن الأسماء الحسنی والأسماء الواردة بهذا التركيب مترادفة .

فمثلاً : «الرءوف» و«ذو الرأفة» مترادفان ، و«اللطيف» و«ذو اللطف» مترادفان .

وأستند في هذه الدعوى إلى حجج ثلاث :

أولها : أن من الأسماء الحسنی المتفق عليه ما ورد بهذه الصيغة مثل : «ذو الجلال والإكرام» .

الثانية : أن من الأسماء الحسنی ما نجد له مرادفات بهذه الصيغة التركيبية مشتقة من نفس الأصل ، بعضها جاء في الاسم معرّفًا نحو «الرحيم» ، و«ذو الرحمة» ، «القوي» و«ذو القوة» ، «الجليل» و«ذو الجلال» ، «الكريم» و«ذو الإكرام» .

وبعضها الآخر جاء فيه الاسم نكرة ، مثل : «المتقم» و«ذو انتقام» ، «الغفور» و«ذو مغفرة» .

الثالثة : أن من الأسماء الدالة على الله جل جلاله ، ما جاء بهذه الصيغة التركيبية من غير أن يرد بصيغة اسم الفاعل ، معرّفًا كان أو نكرة ، مثل «ذو العرش» و«ذو الفضل العظيم» و«ذو المعارج» و«ذو عقاب أليم» .

التعلق :

إذا كانت القيمة الخلقية لا تنفك عن قوامها ، فإن الذي يتبادر إلى ذهن من يطلبها ليس معناها التصوري ، وإنما هو قوامها التمثيلي ، بل يتبادر إليه أكمل قوام سبق أن شاهده ، أو علم به أو أخبر عنه ، وبهذا ، لا يلبث صلة بالقيمة أن تنقلب إلى صلة بقوامها ، وواضح أن مثل هذه الصلة لا تكون إلا من جنس الصلات التي تحصل بين الذوات الحية ، فلا تكون نظرًا مجردًا ، وإنما رغبة مشخصة ، ولا طلبًا بعيدًا ، وإنما لقاء قريب قريبًا ، أي أن الصلة بالقوام تكون أساسًا صلة تقرب ، وكل صلة تقرب يصحبها تعلق بالمتقرب إليه ، وهكذا ، فلا بد لطالب القيمة الخلقية من أن يحصل تعلقًا ما بقوامها ، وما لم يحصل هذا التعلق ، فلا حظ له في القيمة المطلوبة ، إلا أن يكون حظًا سرعان ما يزول أو يلتبس بضده .

وليس هذا التعلق نوعًا واحدًا ، وإنما أنواعٌ تختلف باختلاف القوام المقصود ، فقد يندرج هذا القوام في هذا النوع أو ذاك من أنواع الموجودات ، جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا أو ملكًا أو إلهًا .

كما أن هذا التعلق ليس رتبة واحدة ، وإنما رتبًا تختلف باختلاف رتب النوع الوجودي الذي يدخل فيه القوام ، فقوام الرسالة أعلى رتبة من قوام النبوة ، وقوام النبوة أعلى رتبة من قوام الصحبة ، وهكذا .

بل نجد في كل واحد من هذه القوامات مراتب : فقوام الرسالة مثلاً درجات يعلو بعضها بعضاً ، ولما كان قوام الرحمة الأكمل هو الرحمن سبحانه ، وجب أن يحصل لمن أراد أن يتحلل بها تعلق به جل وعلا ، ثم لما كان هذا القوام الأقدس منزهاً عن كل تشخيص وتمثيل ، فقد بعث لكل قوام قواماً منهم ، وبعث محمداً قواماً للناس جميعاً ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وأخيراً لما كان تعلق الإنسان بهذا القوام المرسل ليس درجة واحدة ، وإنما درجات كثيرة ، كان قدر تعلقه بالقوام الإلهي ، أي الرحمن على قدر تعلقه بهذا القوام البشري ، أي الرسول الرحيم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

الاتصاف :

متى حصل للمرء تعلق بالقوام ، انفتح له طريق الاتصاف بأخلاقه ، وهذا الاتصاف لا يحصل كما تحصل المعرفة ، فليس هو مجرد تلق لأفكار القوام وتتبع لأخباره ، وإنما أفعال يأتيها المرء على مقتضى أفعاله وآثاره يحدثها على مقتضى آثاره ، ولا يتسنى له ذلك إلا إذا كان يلاحظ أفعال القوام ويشاهد آثار أفعاله ، متخذاً من هذه الأفعال والآثار المشهودة معايير يزن بها أخلاقية أفعاله وأخلاقية آثار هذه الأفعال .

وليس مقتضى «الافتداء» إلا هذه المتابعة الحية لسلوك القوام ، وقد أخطأ بعضهم ، فظن أن الافتداء ممكن في غيبة القوام ، إذ يكفي فيه اتباع أقواله .

والصواب أنه يجب التفريق بين «الاهتداء» و«الافتداء» ، فكل افتداء اهتداء ، حيث إن المقتدي يتبع أقوال القوام وهو حال مشاهدتها مشخصة في أفعاله ، وذلك لحضوره معه ، لكن ليس كل اهتداء افتداء ، فالمهتدي ،

وإن اتبع أقوال القوام ، لا يكون على حال مشاهدتها مشخصة في أفعاله ، وذلك لغيابه عنه ، فالاهتداء أعم والافتداء أخص .

وكلما زاد تعلق المرء بالقوام ، زادت قوة هذا الاقتداء ، وكلما زاد الاقتداء لديه ، زاد استجلاؤه للقيمة التي يمثلها القوام ، فيكون أثرها في نفسه أبلغ وأنفع ، ولما كان التعلق بالقوام الإلهي على قدر الاتصاف بأخلاق القوام النبوي ، وعلى هذا فبقدر ما يتعلق المرء بالرسول الرحيم ، ينال نصيبه من رحمته الشريفة ، وعلى قدر هذا النصيب ، يكون نصيبه من الرحمة الكبرى التي يتجلى بها اسم الرحمن ، فحظ العبد من اسم الرحمن - كما يقول الغزالي ببصيرته النافذة - : « أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء ، وأن تكون كل معصية تجري في العالم كمعصية له نفسه ، فلا يألوا جهداً في إزالتها بقدر وسعه ، رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله تعالى ويستحق البعد عن جواره » .

الواجبات الرحمية اللازمة عن ركن التخلق :

والآن أورد الواجبات الرحمية التي قد نفرعها على مفهوم «التخلق» ، والتي تمكن هي كذلك المجتمعات المعاصرة من تخليق الحداثة ، وأشرط في هذا التفريع أن تجمع هذه المجموعة الثالثة من الواجبات الرحمية بين الحقيقتين السابقتين ، وهما : «قرب الرحمن من مخلوقاته» و«قربة المخلوقات فيما بينها» .

وأول هذه الواجبات الرحمية ، صيغته هي :

«لشهد في أوامر الرحمن تجلي رحمته ، لا تجلي قهره» .

إن الأوامر والنواهي التي يلقي بها القوام الإلهي إلى البشر من خلقه لا تدل مطلقاً على قهر إرادتهم وسلب حريتهم ، وإنما تدل على كمال رحمته بهم .

إذ إن مضامين هذه الأوامر والنواهي إنما هي قيم خلقية ومعان روحية ترقى بالإنسان في مدارج الكمال ومنازل القرب من القوام الأعلى ، وهل من شيء أرحم بالإنسان من دوام الارتقاء بإنسانيته .

والواجب الرحمي الثاني المتفرع على التخلق ، صيغته هي :

«للتخذ في تبين مظاهر الرحمة طريق التفكير ، لا طريق التفكير فحسب» .

يتعين على أهل هذا الزمان أن يرتقوا بعقولهم من رتبة التفكير إلى رتبة التفكير ، فحد «التفكير» هو أن يتعلق العقل بالأسباب الخارجية والموضوعية للأشياء ، وهو التعلق الذي أدى بالحادثة - كما تقدم - إلى انفصالات تلتها آفات معلومة .

أما حد «التفكير» فهو أن يجمع العقل إلى تعلقه بهذه الأسباب الخارجية والموضوعية تعلقه بالمقاصد والقيم الخفية التي وضعت من أجلها هذه الأسباب ، فينظر فيها كما ينظر في الأسباب ، حتى إذا أخذ الإنسان بالقوانين التي تنضبط بها هذه الأسباب عرف كيف يراعي هذه المقاصد والقيم ، لكي لا ينقلب عليه تطبيق هذه القوانين بالأذى والهلاك ، إن عاجلاً أو آجلاً .

فلا بد إذن من وصل الأسباب الظاهرة بالمقاصد الباطنة ؛ لأن هذه المقاصد هي بالذات وجوه الرحمة التي انبنت عليها الأسباب ، فيلزم التفطن لها والعمل بها .

الواجب الرحمي الثالث المتفرع على التخلق صيغته هي :

«للتخذ في تخلقنا طريق التشبه بأخلاق الرحمن ، لا طريق تشبيه الرحمن بأخلاق الإنسان» .

لما تعلقت رتبة التفكير من رتب العقل الإنساني بظواهر الأشياء ، وقعت في تشبيه أفعال الإله وصفاته بأفعال الإنسان وصفاته ، جاعلة أصل الأخلاق قائماً في ذات الإنسان ، لا في ذات الرحمن ، فقد ينسب «التفكير» إلى الرحمن من وصفات الإنسان ما ليس فيه مثل «التألم» أو «رقة القلب» أو ما لا يليق بحضرته القدسية ، كما أنه يغلق الباب دون تصور صفات غير موجودة في الإنسان يختص بها الإله سبحانه ، فضلاً عن أنه قد يضعف همة الإنسان ويعقده عن طلب الكمال ما دام ينزل نفسه منزلة القوام ، وهكذا ، تصبح رتبة القوام الأخلاقي منسوبة إلى أدنى لا إلى أعلى .

على حين أن رتبة التفكير من رتب العقل تأخذ بعكس هذا الطريق ، فتجعل أصل الأخلاق قائماً ، لا في ذات الإنسان ، فيكون القوام هو الرحمن وليس الإنسان ، يلزم من هذا أن أهل الزمان مطالبون بالارتقاء بأخلاقهم ، وأن الارتقاء لا يحصل لهم إلا عن طريق الاجتهاد في الاتصاف بأوصاف هذا القوام الاسمي ، وهذا ما يطلق عليه بعضهم تجوُّزاً اسم «التشبه» ، وهكذا فإن تشبه أهل هذا الزمان باسم «الرحمن» يقتضي منهم أموراً ثلاثة :

أولها : دوام تفكيرهم في اسم الرحمن ، لأن هذا التفكير هو استغراق العقل في تأمل مقاصده وقيمه في مخلوقاته .

والثاني : قوة تعلقهم بصفة الرحمة التي يتجلى بها الرحمن على كل شيء ، لأن ثمرة هذا التعلق هو تقوية شعورهم بوجود القرابة بين الآدميين جميعاً ، بل بوجودها بين الآدميين وبين كل الكائنات الحية كلها ، بل بوجودها بين الآدميين وبين كل شيء تشمله هذه الرحمة الإلهية ، حتى الأشياء الساكنة والجامدة .

والثالث : بذل طاقتهم في أن يكونوا رحماء في كل فعل من أفعالهم ؛ لأن هذا البذل هو الذي يجعل رحمتهم بسواهم تختلف باختلاف حاجاته شكلاً وقدرًا ، متمثلة في أداء حقوقه عليهم كما يؤدي القريب حقوق قريبه .

تلكم هي أمهات الواجبات الرحمية التي تتفرع على مبدأ التراحم والتي تمكن أهل هذا الزمان من تخليق الحداثة ، فإذا تقرر أن الرحمة هي تجلي الرحمن وأن التخلق بها تخلق باسم الرحمن ، لزم أن يكون اسم «الرحمن» هو بالذات الاسم الإلهي الذي يزودنا بالقدرة على تخليق حداثة هذا الزمان بما يرفع التحديات التي ابتلي بها ، وبفضل هذا التخليق ، يضمحل في الحداثة هم القضاء على التراث ، وذلك لأنها أصبحت تضع في الاعتبار أن أحد مقاصد التراث هو أن يزود الإنسان بقوة الماضي متمثلة في حفظ ذاكرته .

وحفظ الذاكرة هو القيمة التي تجلب لهذا الإنسان الثبات الذي لا تزلزل معه ، كما يضمحل في الحداثة هم القضاء على الطبيعة ، وذلك لأنها صارت تضع في الاعتبار أن أحد مقاصد الطبيعة أن تزود الإنسان بقوة المستقبل ، متمثلة في حفظ ذريته ، وحفظ الذرية هو القيمة التي تجلب لهذا الإنسان الأمن الذي لا خوف معه .

وأخيرًا يضمحل في الحداثة هم القضاء على الحيز ، وذلك لأنها أضحت تضع في الاعتبار أن أحد مقاصد الحيز أن يزود الإنسان بقوة الحاضر ، متمثلة في حفظ هويته ، وحفظ الهوية هو القيمة التي تجلب لهذا الإنسان الإقامة التي لا تشرد معها ، أو لنقل بإيجاز إن إنسان الحداثة المتخلقة إنسان ثابت آمن مقيم .

الخلاصة:

وحاصل الكلام في هذا الدرس أن الحادثة في عالمنا هذا لا تحفظ نفسها من المخاطر والآفات إلا إذا تأسست على حادثة أخلاقية ، والحادثة الأخلاقية مشروع سلوكي شامل مبدع يحول الانفصالات القاطعة إلى انفصالات واصله ، ويحول حقوق الغريب على الغريب إلى حقوق القريب على القريب ، ولا عجب أن نجد في الدين الإسلامي -وهو دين الرحمة ونبيه نبي الرحمة- أصول هذه الحادثة الأخلاقية ، فمبدأ التراحم فيه تتفرع عليه واجبات رحمة كونية ذكرنا منها تسعة ، وتقضي كلها بإيجاد مجتمع تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء جميعاً علاقات بين أقرباء ، أقرباء فيما بينهم وأقرباء من الرحمن الذي يتجلى عليهم ، لا بقهره ، وإنما برحمته ، فتكون الواجبات فيما بينهم واجبات الأقارب لا واجبات الأجانب .

وإذا كان العالم الحديث يتطلع أيما تطلع إلى أن يكون مجتمعاً إنسانياً واحداً ، فحري بأفراده أن يشتغلوا بتزكية شعورهم بقراءة بعضهم لبعض ، ولا تزكية لهذا الشعور بغير الاشتغال بتقوية أسباب الرحمة وتمتين عرى التراحم فيما بينهم .

المحاضرة الخمسون بعد المائة

التعارف والأمن البشري

انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: ١٣] صدق الله العظيم .

إن هذه الآية الكريمة التي هديت إليها بفضل الله تعالى لتكون مدخلاً لما تتضمنته ورقتي هذه ، تأتي في سياق دوحة القيم الربانية التي تزخر بها سورة الحجرات العظيمة ، والقرآن كله عظيم وجليل .

وسورة الحجرات مفعمة بسمو توجيهات القرآن الكريم ، ومبادئ وقيم الهدى الرباني القويم ، في بناء الشخصية الربانية المؤهلة للنهوض بمهمة رسالة التعارف بين الناس ، والجديرة بتحمل مسئولية تحقيق مقاصدها السامية بين العباد ، باعتبارهم جميعاً خلق الله ، وموضع عنايته ورعايته وكفالاته جل شأنه ، وأن أحبهم وأكرمهم إليه تباركت أسماؤه أنفعهم وأحرصهم وأتقاهم في تحقيق مصالح العباد ، وصون أمنهم والإعلاء من شأن كرامتهم .

وسورة الحجرات - كما هو معلوم لأهل العلم الأجلاء - مدنية الانتفاء من حيث نزولها ، وعدد آياتها : ثمان عشرة آية ، وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم ، تقدمتها سورة المجادلة ، وجاءت بعدها سورة التحريم .

وكان نزولها في سنة تسع للهجرة ، احتشدت آياتها لتؤصل أحكاماً وآداباً تتعلق بأحداث متقاربة وقعت للمسلمين ، كانت سبباً لنزول

آياتها ، وما تضمنته من مقاصد وتوجيهات تربوية وتنظيمية فهي واحدة -أي الحجرات- من سور المنظومة القرآنية المدنية في سياق المنظومة القرآنية الشاملة ، التي صيغت وفقها وعلى أساس من الهدي الرباني ، قواعد ومبادئ ومعايير النظام الإسلامي العظيم في تصريف شئون الناس وتسيير مصالحهم وضبط علاقتهم على المستوى الإقليمي الوطني ، وعلى المستوى العالمي .

وقد تبلورت معالم المنهج العام لسياسة دولة الإسلام في مستواها الإقليمي الوطني بما تضمنته الوثيقة المشهورة في كتب السيرة في صحيفة المدينة ، التي تعتبر بحق أول ميثاق في التاريخ البشري يقنن ويؤصل لعهود المواطنة المشتركة ، في إطار التنوع الديني والثقافي ، ومما تضمنته تلك الصحيفة من قيم ومبادئ :

أولاً : أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب واليهود أمة واحدة من دون الناس .

ثانياً : وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

ثالثاً : وأنهم حرب على من حاربهم وسلم على من سالمهم .

رابعاً : وأنهم يتناصرون بينهم لرد العدوان وحفظ سيادة الأوطان .

خامساً : وأن عليهم النصح والبر فيما ليس فيه إثم .

سادساً : وأن الجار كالنفس غير مضار في أمنه وكرامته ، فهذه القواعد الست ، وغيرها مما يحفل بها القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، تكون بتكاملها المنطلق الأساسي لعقد المواطنة في نظام الإسلام وشرعته ، الذي

يؤكد أن المواطنين على اختلاف انتماءاتهم الدينية والقومية والعرقية هم أمة واحدة تتساوى مصالحهم، وتتكامل حقوقهم وواجباتهم، وأن أمنهم واحد، ومصيرهم واحد من غير تمايز ولا تفاضل بينهم.

ومن جهة أخرى تبلورت على أساس من القيم والمبادئ الربانية الخالدة سياسة دولة الإسلام الراشدة في مستواها العالمي، وذلك بما جاء في الوثيقة المعروفة والمشهورة كذلك في كتب السيرة بخطبة الوداع، التي أصلت وأسست لأول ميثاق عالمي، يرسم القواعد والمبادئ الجامعة ويقنن للمعايير والضوابط المنصفة للتعايش البشري الآمن، في إطار التنوع القومي والعنقي واللوني والجنسي والديني، وكان من أبرز ما جاء بخطبة الوداع:

أولاً: أن الإيمان بالله تعالى هو مصدر الاعتقاد الديني ومنطلقه الأساسي للناس جميعاً «يا أيها الناس إن ربكم واحد».

ثانياً: أن الأسرة البشرية وحدة متجانسة لا تمايز بينها في الحياة الدنيا «يا أيها الناس إن أباكم واحد، أنتم لآدم وآدم من تراب»^(١).

ثالثاً: وأن دماء الناس وأموالهم بينهم حرام: «يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا»^(٢).

رابعاً: وأن وجوب رد الأمانات إلى أهلها أمر لا يجوز انتهاكه بحال، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

خامسًا : أن الربا واستغلال حاجة الفقراء حرام على الناس «**قضى الله ألا ربا**» وبدأ بأهله عليه الصلاة والسلام قائلًا : «**إن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله**»^(١).

سادسًا : أن الثأر من الأبرياء والافتئات على سلطة الدولة محرم في الإسلام ، إن كل دم في الجاهلية موضوع ، وبدأ كذلك بنفسه عليه الصلاة والسلام قائلًا : «**إن دم ابن ربيعة بن عبد المطلب موضوع**»^(٢).

سابعًا : وختم الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام خطبته الجامعة ، وميثاقه العالمي الخالد ، بالوصية العظيمة : «**استوصوا بالنساء خيرا ، فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا**»^(٣).

إن هذه الأعمدة السبعة التي تضمنها الميثاق العالمي لخطبة الوداع وما يتفرع عنها من قيم ومبادئ وما يتسق معها مما تزخر به توجيهات القرآن الكريم ، ومما تفصل فيه وترفده أقوال وأفعال السنة المطهرة ، وما استنه الخلفاء الراشدون المهديون من بعد ، هي بجملتها تكون الأسس الراسخة والمعالم الجلية لنظام الإسلام للنهوض بشرف مهمة الاستخلاف في الأرض ، والاضطلاع بمسئولية أمانة عمارتها ، وإقامة العدل في ربوعها .

والإسلام وهو يفصل ويقعد على هذا النحو السديد الرفيع لقيم ومبادئ وأخلاقيات المواثيق الوطنية والعالمية ، إنما يؤكد من وراء

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (١١٦٣) ، وابن ماجه (١٨٥١) من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه .

أربعة عشر قرنًا، أن الأمن الإقليمي والأمن العالمي، أمران متلازمان ومتكاملان، وأن الأمن الإقليمي لأي أمة أو شعب هو القاعدة الصلبة والمنطلق الأساس لأمنه العالمي، والمرتكز الفعال لأداء دوره الإيجابي في إشادة التعايش البشري الآن.

وهذه الحقيقة يؤكدتها الواقع البشري في ماضيه وحاضره الذي ينبئنا باستمرار بأن أخطر ما تتهم به إرادة الشعوب وأمنها هو تمزق كلمتها وتفرق صفها، وعدم استقرارها، وهذا مما يبغضه الله تعالى، ويحذر منه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رَاحَتُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

الإسلام يدعو لوحدة الصف:

ويدعو الإسلام بالمقابل إلى وحدة الصف ويرغب فيه حيث يقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

وهذا مما أصلت قواعده وأدبياته في مواطن كثيرة ومتكررة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة تأكيدًا على أهمية وحدة الكلمة، ومتانة الصف من أجل النهوض بأعباء الحياة ومسئولياتها على الصعيدين الإقليمي والدولي.

وهذا ما عنيت بأمره سورة الحجرات التي اتخذنا من آية التعارف فيها منطلقًا لهذا المبحث إذ ركزت الآيات التي سبقت آية التعارف على القواعد والمثل والأخلاقيات التي بموجبها ينبغي أن تصاغ وتكون

(١) سبق تخريجه.

شخصية الإنسان المسلم ، وشخصية كل إنسان ؛ لأنها قواعد وأدبيات عامة ، لا يستغني عنها الإنسان السوي ، أيًا كان انتهاؤه ، والتي بها وعلى أساس منها ترسخ وشائج المودة والاحترام بين الناس ، وفي إطارها تتبلور وحدة كلمتهم ومثانة صفهم .

وهو مما ينبغي أن يبقى مادة التعارف والتفاهم والتعاون بينهم ، حيث بدأت هذه السورة قبل أن تتحدث عن التعارف بالحديث عن أخطر قضية ، وأشدّها فتكًا في وحدة الكلمة ومثانة الصف ، ألا وهي جرأة التعجل في إصدار الأحكام في مسائل تتعلق بحياة العباد ، قبل التأكد من مراد الله ورسوله في مضامين النصوص ودلالاتها ، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات : ١] .

وعن الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن هذه الآية نزلت بسبب بعث رسول الله ﷺ سرية ، فقتلت بنو عامر رجال السرية إلا ثلاثة نفر نجوا ، فلقي هؤلاء الثلاثة بعد نجاتهم رجلين من بني سليم ، فسأل النفر الثلاثة الرجلين عن نسبتهم فنسبا أنفسهما إلى بني عامر ، ظنًا منهما أن هذا الانتساب أنجى لهما من شر توقعاه ؛ لأن بني عامر آنذاك كانوا أعز من بني سليم ، إلا أنهما وقعا بما لم يكن بحسبانهما إذ عدا عليهم النفر الثلاثة وقتلوهما وسلبوهما ، ثم أتوا رسول الله ﷺ ، فأخبروه ، فقال : بس ما صنعتما كانا من بني سليم - أي من قومهما - والسلب ما كسوتهما» ^(١) .

(١) انظر : «روح المعاني» (٢٦ / ١٣٣) ، و«التحرير والتنوير» (١ / ٤٠٨٨) .

كان رسول الله ﷺ قد كساهما كسوة ، فنزلت هذه الآية تنكر وتنبه من مثل هذا التصرف غير المسئول في شأن من شئون الأمة قبل أن يستأمر صاحب التصرف من رسول الله ﷺ ، أو من ولاة الأمر من بعده في كل زمان .

وتتابع السورة بالتحذير والتنبيه من محبطات الأعمال ، ومن المقولات المهلكة .

أدب الإنصات وعدم رفع الصوت في حضرة الإمام :

ومنها : رعونة ارتفاع الصوت في حضرة الإمام القائد ، والرسول الأعظم ﷺ ، مما يחדش أدب توقير القيادة وإجلالها ، ومما يتناقض مع قدسية العلاقة بين الأمة وأمرائها ، ويخالف مقتضيات اللياقة والتقدير في التحدث بين يدي ولاة الأمور ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢] .

فقد جاء في «صحيح البخاري» عن ابن الزبير في سبب نزول هذه الآية «أن وفدًا من بني تميم قدم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه : أمر عليهم القعقاع بن معبد! فقال عمر رضي الله عنه : بل أمر عليهم الأقرع بن حابس! فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلى -أو إلا- خلافي ، قال عمر : ما أردت خلافك ، فتباريا حتى ارتفعت أصواتهما في ذلك بين يدي رسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية .

وعن ابن الزبير في «صحيح البخاري»: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، حتى يستفهمه .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة ، أن أبا بكر رضي الله عنه قال بعد نزول هذه الآية : «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخ السرار حتى ألقى الله» .

وعن ابن أبي مليكة في «صحيح البخاري»: «كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ» .

وفي المقابل ، تشيد السورة وتبشر أولئك الذين هدوا إلى الفضيلة ، ووفقوا إلى التزام أدب التحدث بين يدي رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات : ٣] .

يقول المفسرون : إن هذه الآية نزلت في حق أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه ، حيث يقول ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت آية ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ، كان أبو بكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخ السرار ، أي مصاحب السر من الكلام ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية .

ويعلق المفسرون بشأن هذه الآية فيقولون : إن الثناء والوعد بالمغفرة والأجر العظيم اللذين وردا في هذه الآية يشملان أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ لأن كليهما كان يكلم رسول الله ﷺ كأخ السرار ، أي بصوت منخفض يكاد لا يسمع .

تزئيف الحقائق والأخبار:

ثم تنعطف سورة الحجرات لتحذر وتنذر من الآفة الكبرى التي كانت ولا زالت مصدرًا لكل ضغينة ، ومبعثًا لكل فتنة بين الناس ، ألا وهي آفة تحريف الأقوال عن مواضعها ، وإفساد مضامين الأخبار وقلب حقائقها ، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَنِيمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] .

وفي أرجح الروايات عند المفسرين ، عن أم سلمة وابن عباس والحارث الخزاعي أن هذه الآية نزلت بسبب قضية عرضت للمسلمين ، مفادها أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتي بصدقاتهم ، فلما بلغهم مجيئه أو لما استبطئوا مجيئه ، على اختلاف في الروايات ، فإنهم خرجوا لتلقيه أو خرجوا ليلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح ، وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة وهي حالة غير مألوفة في تلقي العاملين على الصدقات ، وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله أو لما رآهم مقبلين كذلك على اختلاف في الروايات خاف أن يكونوا أرادوا قتله ، إذ كانت بينه وبينهم شحنة في زمن الجاهلية ، فولى راجعًا إلى المدينة ليخبر النبي ﷺ ، أن بني المصطلق أرادوا قتله ، وأنهم منعه الزكاة مما أغضب رسول الله ﷺ وهم أن يبعث خالد بن الوليد ، لينظر في أمرهم .

وفي رواية أنه بعث خالدًا ، وأمره ألا يغزوهم حتى يستثبت أمرهم ، وأن خالدًا لما بلغ ديار القوم بعث عيئًا له ينظر حالهم ، فأخبروه أنهم يقيمون الصلاة ، ويرفعون الأذان ، عندها دخل خالد إلى منازل القوم ، وأخبرهم بما بلغ رسول الله ﷺ عنهم ، وقبض زكاتهم وقفل راجعًا .

وجاء في بعض الروايات أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان قد أعلم بخروج القوم إليه ، ولعل ذلك الإعلام كما يقول بعض المفسرين ، موعز به إليه ليخاف فيرجع .

وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات ، من أنها كانت حيلة من كبراء القوم الذين كانوا يكرهون أن يأتي إليهم من يجبي منهم صدقاتهم ، فيسمع أعداؤهم فيعيروهم بذلك ؛ فما كان منهم إلا أن أوهموا الوليد بن عقبة بن أبي معيط أنهم يريدون قتله لينصرف عن الدخول إليهم في حيهم ، وقد كان لهم ذلك ، وهذا ما حملهم بعد عودة الوليد إلى حمل صدقاتهم بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ معتذرين مما كان ، فتزل قول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات : ٦] الآية .

فهذا الدرس القرآني العظيم ، يؤكد لنا أن المكث والتأني والأناة في تحري المعلومة ، والتمحيص في صدق مضمونها ، ومن ثم رد أمر توظيفها واستنباط دلالاتها إلى أولي الشأن والأمر ، هو المنهج الأحكم والأسلم ، والأصلح لصون أمن الأمة ومصالحها .

وهذا ما أكد عليه قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٨٣] .

أي أن الخروج على هذه القاعدة في رد الأمور إلى أهلها وأن اجتهد المرء والتصرف بما لا يعي إنما هو من نزغ الشيطان ، الذي من شأنه أن ينتهي بالناس إلى المخالفة ، ومن ثم إلى التصرف الخاطئ والمؤذي ، بحق مصالح الأمة وأمنها واستقرارها .

أدب الاحترام بين الناس :

وتتابع السورة نهجها بالتنبيه والتحذير، من ممارسات السيئ من القول، ومن تداول الألفاظ المذمومة بين الناس، مما هو مصدر لإثارة البغضاء والشحناء بين أبناء المجتمع الواحد، بل وبين أبناء البيت الواحد :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات : ١١] .

فهذه الألفاظ النابية والأخلاقيات الشاذة، التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة، هي مما يفرق الأمة ويفسد وحدتها ومما يتناقض ابتداء مع الإيمان ووشائج الأخوة فيه .

اجتناب الظن السيئ :

وتختتم السورة مسيرتها المباركة في التثبت في التنبيه والتحذير مما هو مصدر إخلال وإفساد في مسيرة وحدة الأمة وتماسك صفها، داعية إلى اجتناب الظن، ناهية عن الغيبة والنميمة والتجسس ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات : ١٢] .

والظن اليوم من الآفات الخطيرة التي تمزق بموجبها وعلى أساس منها وحدة المجتمعات الوطنية وتقوم بسببها الخصومات والصراعات، بل وتشعل بحمقاتها نيران الحروب الشاملة بين الناس، وهذا يجعلنا

نستشعر وندرك أننا أمام خطر شامل يهدد مجتمعات البشرية بأسرها ، مما يقلق العقلاء والحكماء من داخل أمتنا ومن كل مكان في العالم .

وهذا مما يستدعي ويلح باتجاه التحرك الجاد السريع والموضوعي ، لاتخاذ مبادرة عالمية لتفعيل أسباب التعارف بين العقلاء والحكماء من جميع أنحاء العالم باعتبار أن التعارف هو السبيل والخيار الأفضل لإقامة الثقة بين الناس ، وصرف أسباب الظنون الماحقة بينهم .

وهذا ما أكدته سورة الحجرات بعد مسيرتها المكثفة ، في التنبيه والتحذير من مخاطر القيم والسلوكيات الشاذة على وحدة وأمن المجتمعات ، لتعلن من بعد بأن السبيل الأفضل والأنجع في مقاومة وتطهير المجتمعات البشرية من المفسد والمهلكات إنما هو التعارف والحوار : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

التعارف بين الناس من سمات العقلاء :

فكان هذا الإعلان الرباني الخالد نقلة موضوعية ، وعملية من ميادين التنبيه والترشيد إلى ميادين العمل والتصحيح والتفعيل لقيم الخير والفضيلة بين الناس .

وهذا النداء الرباني ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يؤكد بأن التعارف بين الناس جميعاً هو سبيل العقلاء ، وهو المنهج الأسلم والأقصر لتحقيق الأفضل للجميع .

والتعارف في الإسلام له مراتبه ، ودوائره التي يوطئ بعضها لبعض ابتداءً من دائرة التعارف مع الذات : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة : ١٤] إلى دائرة التعارف بين أبناء الأسرة الواحدة لتحديد الحقوق والواجبات بينهم :

«ألا كلكم راع وكل مسئول عن رعيته ، فالرجل في بيته راع ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راع وهي مسئولة عن رعيته ، والولد في بيت أبيه راع وهو مسئول عن رعيته ، والخادم في بيت سيده راع وهو مسئول عن رعيته ، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(١) .

ومن ثم التعارف في إطار المجتمع الواحد ، لتتنظم المسؤوليات وتتسق بين يدي تحقيق الأمن المشترك والمصالح المشتركة على أساس من قواعد النصح والتناصح ، بعيداً عن عبثية التفاضح والتناطح ، قال رسول الله ﷺ : «الدين النصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٢) ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

التعاون على الخير والفضيلة :

وتتسع دائرة التعارف لتكون على مستوى القوم والأمة ، لتتنظم فعاليات الأمة وقدراتها في مواجهة تحدياتها الإقليمية والدولية : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة : ٢] .

ومن ثم يكون التعارف على المستوى الدولي ، لتتنظم كذلك مصالح الناس ، وتتسق جهودهم من أجل العمل معاً لتحقيق الأمن والاستقرار والسلام العالمي المشترك بينهم : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

والإسلام وهو يوجه نداء التعارف بين الناس لم يدع القضية لتبقى مجرد شعار ، بل تحول بالأمر من النداء إلى التأصيل العملي الميداني ، فطرح جملة

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

من المنطلقات والمبادئ العملية والوسائل التطبيقية ، لتحقيق وإنجاز المقاصد والغايات النبيلة لمبدأ التعارف ، حيث قرر الإسلام بالإضافة إلى ما ورد سابقاً بصحيفة المدينة وخطبة الوداع ما يلي :

- ١- إن الناس جميعاً شركاء في مهمة الاستخلاف في الأرض .
- ٢- إن عمارة الأرض وإقامة العدل بين الناس غايتان أساسيتان لأمانة الاستخلاف في الأرض .
- ٣- إن الناس شركاء في ثروات الكون ، ولكن على أساس من احترام حق التملك وصون مشروعية الانتفاع .
- ٤- إن حياة الإنسان وكرامته أمران مقدسان لا يجوز انتهاكهما بغير حق .
- ٥- إن الرجل والمرأة تتكامل مسئولياتهما من أجل عمارة الأرض وإقامة العدل .
- ٦- إن الأرض والبيئة سكن البشرية المشترك تجب المحافظة على سلامتها وعدم إفسادها .
- ٧- إن الحقوق والواجبات أمور متكاملة ومتلازمة ، لتبقى العلاقة متوازنة ومنضبطة بين مسئوليات الإنتاج وأخلاقيات الاستهلاك .
- ٨- إن الأمن الإقليمي والأمن الدولي أمران متلازمان ومتكاملان ، لا يجوز أن يتتهك أحدهما لحساب الآخر .
- ٩- إن التدافع الحضاري ، والتعاون البشري أمر واجب لدفع المفساد والمخاطر وجلب المنافع والمصالح المشتركة بين الناس .

١٠- إن التواصل الثقافي والمعرفي بين الناس أمر إيجابي لتنمية العلاقات وتطوير المصالح المشتركة بينهم .

١١- إن العالمية والعولمة أمران متلازمان ، فالعالمية قيم ومبادئ ونظم ، والعولمة أداء ومهارات وتطبيق ، والعالمية بدون عولمة تبقى آمالاً وتطلعات . والعولمة بدون عالمية عادلة تتحول إلى عبثية ودمار .

١٢- إن الحوار بين الثقافات والحضارات واجب ديني وضرورة إنسانية ، ومطلب أمني من أجل :

أ- تنمية ثقافة الاحترام المتبادل بين الناس .

ب- اكتشاف القيم المشتركة بين الثقافات والتعرف على خصوصيات ثقافات الشعوب .

ج- العمل معاً لمنع العدوان والاضطهاد والظلم بين الناس .

د- العمل على تجديد القيم الروحية والأخلاقية وبعث روح المسؤولية في نفوس الأجيال البشرية .

هـ- إعادة التوازن بين حركة العلوم والتكنولوجيا وبين القيم الدينية والأخلاقية ، للمحافظة على كرامة الإنسان وسلامة البيئة والتعايش البشري الآمن .

و- التأكيد على أن الأسرة المؤسسة على الزواج الشرعي والقانوني بين الرجل والمرأة هي الوحدة الأساس في بناء المجتمعات الآمنة .

ز- التأكيد على أن المسؤولية المشتركة بين الرجل والمرأة في ميادين الحياة يجب أن تؤسس على قيم التكامل المنصف بينهما .

- ح- العمل معًا على إقامة العدل الرباني بين الناس جميعًا دون تمييز .
- ط- العمل على مساعدة الفقراء لتحرير أنفسهم من الظروف القاسية التي تتنافى مع كرامة الإنسان .
- ي- العمل معًا على إزالة العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية لاستفحال ظاهرة العنف والإرهاب في العالم .
- أجل إن التجديد الديني للقيم الربانية السمحة والضبط التكنولوجي والمعرفي والحوار الثقافي والحضاري بين الناس ، هي من الضرورات الملحة من أجل الوصول إلى نظام عالمي راشد وعولمة عادلة آمنة .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المحاضرة الثالثة والثلاثون بعد المائة	٧
تيسير القرآن صورة من إعجازه ومنهج لغوي لأتباعه	٧
المدلول اللغوي لكلمة (القرآن)	٨
القرآن ميسر	١٠
معنى كلمة (مدكر)	١٠
المحاضرة الرابعة والثلاثون بعد المائة	١٧
الدين في مواجهة التحديات الفكرية	١٧
مصطلح الدين	١٨
اتساع مدلول الدين	١٩
الخطاب الإسلامي	٢١
القرآن ومعالجة التقابلية بين الحق والباطل	٢٢
مضمون سورة الأنبياء	٢٥
هل يعني هذا أن الدين في أساسه معاد للفكر؟	٢٧
الإسلام والتحديات الفكرية	٢٨
واقع الدين في ضوء التحديات	٣٠
المنهج الإسلامي يتجه إلى القوة العقلية والفكرية	٣٢

- المحاضرة الخامسة والثلاثون بعد المائة ٣٥
- الحض على لزوم اتباع الجماعة والإمام ٣٥
- أولا : رجال سند هذا الحديث ومكانته من الصحة ٣٦
- ثانيا : لمحة عن الخير والشر الوارد ذكرهما في هذا الحديث ٣٨
- ثالثا : لزوم اتباع جماعة المسلمين وإمامهم ٤٠
- حتمية اتباع الجماعة ٤٠
- تولية الإمام واجبة ٤٠
- عدم مشروعية الخروج على الإمام ومفارقة الجماعة ٤٠
- رابعا : النتائج التي يمكن استخلاصها من حديث حذيفة هذا ٤٠
- المحاضرة السادسة والثلاثون بعد المائة ٤٠
- من خصائص الأمة المحمدية وكرامتها على ربها ٤٠
- أمة القرآن ورثت مضمون الكتب السابقة ٤٠
- تقسيم الأمة إلى ثلاثة أصناف ٤٠
- معنى الأصناف الثلاثة التي وردت بالآية ٤٠
- وختاماً نقول ٤٠
- المحاضرة السابعة والثلاثون بعد المائة ٤٠
- بوارق الأمل وطريق النصر ٤٠
- القرآن كتاب الله ووحيه إلى نبيه ٤٠
- حث المؤمنين على الصبر والتجمل عند ملاقة الشدائد ٤٠
- الطريق الذي يحمي الأمة من التفكك والتمزق ٤٠

أغراض الآية	٤٠
بيان مسيرة المؤمنين	٤٠
شعار المؤمن عند وقوع البلاء	٤٠
بيان معنى كلمة (أمة) عند الإطلاق	٤٠
بعض الأمثلة مما قابل المسلمين من أنواع الضراء	٤٠
المذهبية	٤٠
القومية	٤٠
كيف نخرج من هذا الوضع؟	٤٠
المحاضرة الثامنة والثلاثون بعد المائة	٤٠
حرية الفكر	٤٠
رجال الإسناد	٤٠
تخريج الحديث	٤٠
تفسير معاني الحديث	٤٠
الحرص على وجود رأي عام فعال يقظ لمصلحة المسلمين	٤٠
ثقل الرأي العام على حرية الفكر	٤٠
اختلاف الآراء وتشعب الأفكار	٤٠
ذكر بعض المؤلفات التي تدمر عقيدة الأمة وأخلاقها	٤٠
كتب تحاول طمس بيان القرآن ومحو إعجازه	٤٠
المحاضرة التاسعة والثلاثون بعد المائة	٤٠
الاختلاف وآثاره على المعتقدات	٤٠

- ٤٠ تفسير الأشاعرة للكسب
- ٤٠ وسطية مذهب أهل السنة
- ٤٠ الاحتمال الثاني
- ٤٠ أما أصحاب الاحتمال الثالث
- ٤٠ الاختلاف في الأمور الدينية
- ٤٠ الاختلاف في الأمور الدنيوية
- ٤٠ التفرقة بين الاختلاف المشروع وغير المشروع
- ٤٠ ذكر الاختلاف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَدَلِكْ خَلَقُهُمْ﴾
- ٤٠ أول التأويلات
- ٤٠ لا يُسأل عما يفعل
- ٤٠ الإسلام وتنظيم شئون الخلق
- ٤٠ المقصود من الاختلاف تحقيق المصلحة العامة
- ٤٠ المحاضرة الأربعون بعد المائة
- ٤٠ العربية شعار الإسلام وأهله
- ٤٠ تفسير آية: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾
- ٤٠ تفسير آية: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾
- ٤٠ مميزات اللسان العربي
- ٤٠ تعلم العربية واجب على كل مسلم
- ٤٠ كراهية التعامل والتحدث بغير العربية
- ٤٠ اعتماد لغة واحدة للمسلمين يؤدي إلى توحيدهم

- ٤٠ الابتعاد عن العربية ابتعاد عن الإسلام
- نماذج متناقضة لبعض البلاد الإسلامية
- ٤٠ التي تعتني بالعربية وغيرها
- ٤٠ اتخاذ اللغة العربية لغة للحضارة
- ٤٠ الدين والدولة عربيان وتوءمان
- ٤٠ محاولة نقل مفهوم القومية الأوربية إلى البلاد الإسلامية
- ٤٠ المحاضرة الحادية والأربعون بعد المائة
- ٤٠ الإنسان في القرآن دعامة التنمية الشاملة
- ٤٠ دعوة الرسل
- ٤٠ حقيقة الإنسان
- ٤٠ تكريم الإنسان من الله ﷻ
- ٤٠ نعم الله لا تعد ولا تحصى على الإنسان
- ٤٠ تحذير الله ﷻ للإنسان من الانحراف والظلم والطغيان
- ٤٠ أثر عبادة الله على الإنسان
- ٤٠ أسباب التخلف في البلاد الإسلامية
- ٤٠ الإنسان صاحب التغيير
- ٤٠ عبادة الله تستلزم ضمان الحاجيات لجميع الأفراد
- ٤٠ تفسير قوله ﷻ: ﴿وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا﴾
- ٤٠ ما هي الخلافة؟
- ٤٠ الوسائل التي تعين على تحقيق التنمية الشاملة

- ٤٠ استخدام عناصر الإنتاج
- ٤٠ استثمار الأموال
- ٤٠ من المسئول عن التنمية؟
- ٤٠ أهمية سريان روح التنمية في كل بلد إسلامي
- ٤٠ الاستغفار أمر لا بد منه
- ٤٠ المحاضرة الثانية والأربعون بعد المائة
- ٤٠ التيسير بين الغلو والتقصير
- ٤٠ تخريج الحديث
- ٤٠ إسناد الحديث
- ٤٠ عبد السلام بن مطهر
- ٤٠ عمر بن علي بن عطاء
- ٤٠ معن بن محمد بن معن
- ٤٠ سعيد بن أبي سعيد
- ٤٠ شرح الحديث
- ٤٠ قوله ﷺ: «ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»
- ٤٠ قوله ﷺ: «فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا
- ٤٠ بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»
- ٤٠ شواهد قرآنية لتأكيد معنى الحديث الشريف
- ٤٠ شواهد حديثية لتأكيد معنى الحديث الشريف
- ٤٠ نزول القرآن على سبعة أحرف من باب التيسير
- ٤٠ والتخفيف على الأمة

- ٤٠ التخفيف في الطهارة
- ٤٠ التخفيف في قصر الصلاة في السفر
- ٤٠ التخفيف في الإفطار في السفر
- ٤٠ التخفيف في كفارة اليمين
- ٤٠ التخفيف في كفارة الظهار
- ٤٠ أدلة أخرى
- ٤٠ التيسير في الإسلام يتلاءم مع طبيعة الإنسان
- ٤٠ تعامل النبي ﷺ بالتيسير في الأمور
- ٤٠ النهي عن الغلو
- ٤٠ القصاص لا يُعد غُلُوًا
- ٤٠ من الغلو التعدي على تفسير القرآن لمن ليس أهلاً لذلك
- ٤٠ من الغلو تعمد استبدال أحكام ثابتة في الدين بغيرها
- ٤٠ الاجتهاد عند غياب النص
- ٤٠ اجتناب الهوى يبعد عن الغلو في الدين
- ٤٠ ارتكاب أخف الضررين عند وقوع مشكلة
- ٤٠ الالتزام بمبادئ الشريعة وأحكامها هو الطريق المستقيم
- ٤٠ المحاضرة الثالثة والأربعون بعد المائة
- ٤٠ منهج البحث العلمي في الإسلام
- ٤٠ طرق روايات الحديث
- ٤٠ ذكر معاني ولطائف الحديث

- ٤٠ ذكر لطائف إسناد الحديث
- ٤٠ شرح مفاهيم تتعلق بالحديث مثل : الدين والشرع والفقه
- ٤٠ المناهج العلمية عند المسلمين
- ٤٠ الاختلاف في الرأي من قضايا الدين
- ٤٠ ضرورة التفاعل بين العلوم الإسلامية بعضها البعض
- ٤٠ قدرات الفقيه
- ٤٠ دور الفقيه المعاصر في المجتمع
- ٤٠ المحاضرة الرابعة والأربعون بعد المائة
- ٤٠ المسؤولية في الإسلام
- ٤٠ تعريف بالصحابي عبد الله بن عمر
- ٤٠ تعريف بالتابعي عبد الله بن دينار
- ٤٠ الإشارات اللغوية والنحوية لحديث : «ألا كلكم راع»
- ٤٠ منظور الإسلام للمسئولية من خلال حديث «ألا كلكم راع»
- ٤٠ الأمانة مرادفه للمسئولية وذكرت في القرآن
- ٤٠ حمل الإنسان للأمانة
- ٤٠ ظلم الإنسان لنفسه وللأمانة التي حملها
- ٤٠ المسؤولية في الإسلام تقوم على القيم
- ٤٠ الضوابط التي تربط طرفي المسؤولية (الحاكم والرعية)
- ٤٠ من يملك التغيير باليد؟

- ٤٠ من صاحب التغير للمنكر بالقلب؟
- ٤٠ الذي لا يستطيع تغير المنكر عليه بخاصة نفسه
- ٤٠ جوانب المسؤولية الخاصة
- ٤٠ ممارسات تحرق المسؤولية
- ٤٠ الاستقامة لازمة للإنسان المسئول
- ٤٠ التقوى لازمة للإنسان المسئول
- الاقتداء بالنموذج الصالح كالرسول ﷺ
- ٤٠ والصحابة والسلف الصالح
- ٤٠ النموذج النبوي المقتدى به يقدم من قبل المسئولين وولاية الأمر
- ٤٠ المحاضرة الخامسة والأربعون بعد المائة
- ٤٠ من توجهات القرآن الكريم
- ٤٠ بين يدي الآيات الكريمات
- ٤٠ فضل هذه الآيات
- ٤٠ اشتغال الآيات على عشر وصايا
- ٤٠ الوصية الأولى : الدعوة إلى توحيد الله ﷻ
- ٤٠ الوصية الثانية : الإحسان إلى الوالدين
- ٤٠ الوصية الثالثة : النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر
- ٤٠ الوصية الرابعة : عدم القرب من الفواحش الظاهرة والباطنة
- ٤٠ الوصية الخامسة : حرمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق
- ٤٠ الوصية السادسة : رعاية اليتيم وعدم أخذ ماله ظلمًا

- الوصية السابعة : إيفاء الكيل وإقامة الميزان بالعدل ٤٠
- الأدلة على وحدانية الله ٤٠
- الأدلة على صدق النبي ﷺ ٤٠
- الأدلة على أن القرآن من عند الله ٤٠
- الأدلة على أن يوم القيامة حق ٤٠
- من أهوال يوم القيامة ٤٠
- محق شبهات المشركين في هذه السورة ٤٠
- أسس ومعايير المعاملات السليمة بين أفراد المجتمع ٤٠
- احتياج الإنسان الدائم إلى غيره لعمارة الكون ٤٠
- من سنن الله الكونية : التباين في المواهب ٤٠
- من بلاغة القرآن ٤٠
- صور من المعاملات بين أفراد المجتمع ٤٠
- جملة احتراسية ٤٠
- الوصية الثامنة : الأمر بالعدل عند القول ٤٠
- العدل أساس الملك ٤٠
- الإسلام يأمر بالعدل مع الأعداء ٤٠
- الظلم خراب البيوت العامرة ٤٠
- أتعس الناس هم الظالمون ٤٠
- الوصية التاسعة : الوفاء بعهد الله ٤٠
- عهود ليست جديرة بالوفاء ٤٠

٤٠	الوصية العاشرة : وجوب اتباع الصراط المستقيم
٤٠	الخلاصة
٤٠	المحاضرة السادسة والأربعون بعد المائة
٤٠	من جعل لأهل العلم يوماً
٤٠	الدعوة الإسلامية بدأت غريبة
٤٠	محاربة المسلمات الباطلة
٤٠	سمات المنهج الإسلامي
٤٠	استنباط الأحكام العامة من الأدلة
٤٠	مخالفة الفقه للنصوص
٤٠	المحاضرة السابعة والأربعون بعد المائة
٤٠	العلم الحديث ومعرفة الغيب
٤٠	هل اكتشاف بعض ما كان مستترًا عنا يعد ضربًا من معرفة الغيب؟ ...
٤٠	الفرق بين الغيب ومفاته
٤٠	حوار نوح مع ابنه أثناء الطوفان
٤٠	مقاليد الغيب بيد الله وحده
٤٠	الخلاصة
٤٠	المحاضرة الثامنة والأربعون بعد المائة
٤٠	وحدة الدين وأركان الإسلام
٤٠	شرح الآية
٤٠	الإسلام هو الدين الحق

- ٤٠ القرآن حرك العقول لتدرك الحقائق
- ٤٠ القرآن يدعونا للنظر والاستدلال
- ٤٠ الشهادة
- ٤٠ الصلاة
- ٤٠ أصل كلمة الصلاة
- ٤٠ الزكاة
- ٤٠ الحج
- ٤٠ الصوم
- ٤٠ أركان الإيمان والإسلام
- ٤٠ الفرق بين الإيمان والإسلام
- ٤٠ المحاضرة التاسعة والأربعون بعد المائة
- ٤٠ مبدأ التراحم وتأسيس الحداثة الأخلاقية
- ٤٠ الأخلاق وصلاح الحداثة المادية
- ٤٠ المشاريع الانفصالية الثلاثة
- ٤٠ إخلال المشاريع الانفصالية بمبادئ الأخلاق
- ٤٠ الإسلام وبناء الحداثة الأخلاقية
- ٤٠ صيغة مبدأ التراحم
- ٤٠ ركن «اسم الرحمن»
- ٤٠ الاسم بمعنى «القيمة»
- ٤٠ خصائص «الرحمن»

الواجبات الرحمية اللازمة عن اسم «الرحمن»	٤٠
أول هذه الواجبات الرحمية أصوغه كما يلي	٤٠
والواجب الرحمي الثاني المستنبط من اسم «الرحمن» هو	٤٠
ركن الرحمة	٤٠
خصائص الرحمة	٤٠
الرحمة علاقة متميزة	٤٠
أ- الرحمة علاقة منعكسة	٤٠
ب- الرحمة علاقة متعددة : وذلك من وجهين	٤٠
ج- الرحمة علاقة مرتبة	٤٠
الاحتياج على أنواع	٤٠
وينقسم هذا الاحتياج إلى قسمين كبيرين	٤٠
الواجبات الرحمية اللازمة عن الرحمة	٤٠
ركن التخلق	٤٠
خصائص التخلق	٤٠
القوام	٤٠
التعلق	٤٠
الاتصاف	٤٠
الواجبات الرحمية اللازمة عن ركن التخلق	٤٠
الخلاصة	٤٠
المحاضرة الخمسون بعد المائة	٤٠

- ٤٠ التعارف والأمن البشري
- ٤٠ الإسلام يدعو لوحدة الصف
- ٤٠ أدب الإنصات وعدم رفع الصوت في حضرة الإمام
- ٤٠ تزييف الحقائق والأخبار
- ٤٠ أدب الاحترام بين الناس
- ٤٠ اجتناب الظن السيئ
- ٤٠ التعارف بين الناس من سمات العقلاء
- ٤٠ التعاون على الخير والفضيلة
- ٤٠ فهرس الموضوعات

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء العاشر

المحاضرة الواحدة والخمسون بعد المائة

الدين النصيحة

قال ﷺ : «الدين النصيحة ، قلنا : لمن؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم» .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأحسن الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

بالسند المتواصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الهمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أصالة ، النيسابوري إقامة ، رحمه الله تعالى ورضي عنه قال :

حدثنا محمد بن عباد المكي ، قال : حدثنا سفيان ، قال : قلت لصهيب : إن عمرًا حدثنا عن القعقاع عن أبيك ، قال : فقال : سمعته من أبي ، من الذي سمعه من أبي كان صديقًا له بالشام ، ثم حدثنا سفيان ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن تميم بن أوس الداري رحمته الله ، أن النبي ﷺ قال : «الدين النصيحة - قلنا : لمن؟- قال : لله ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم» .

هذا الحديث الشريف رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان من طريق سفيان بن عيينة ، ومن طريق روح بن القاسم ، كلاهما عن صهيب ، عن

عطاء . إلا أن روايته من طريق سفيان بواسطة محمد بن عباد هي أعلى الروايات المعروضة في هذا الصحيح .

ولقد كان السلف الصالح يرغبون في علو السند ، ويفرحون بقله العدد للاقتراب من عهد أبي القاسم رحمته الله وللاقتران بقرنه الشريف ، وعهده رحمته الله أنضر العهود ، وقرنه رحمته الله أفضل القرون .

بل كانوا يرحلون في طلب علو السند من بلد إلى بلد ، كما رحل عبدالله بن أنيس الخزاعي في حديث القصاص من المدينة المنورة إلى بلد الكنانة المسومة ليسمعه ممن رواه عن النبي رحمته الله مباشرة .

بل كانوا يعتبرون ذلك قرينة وطاعة وحجة وبصيرة ، وهو ما حمل سفيان رحمته الله أن يعرض حديثه على سهيل بن أبي صالح المدني رجاء أن يسقط عنه رجلاً واحداً ، فأسقط عنه رجلين حتى كان بينه وبين النبي رحمته الله ثلاثة من الرواة ، وذلك أقل الجمع عند النحاة .

وأما شيخ الحفاظ أبو عبدالله البخاري رحمته الله فقد ختم كتاب الإيمان بباب النصيحة ، وترجمه بحديث النصيحة ، جرياً على عادته في الحديث الذي لا يحفظ شرطه ولا يوافق رأيه .

ومعروف أن مدار حديث النصيحة على سهيل بن أبي صالح ، وسهيل ابن أبي صالح اختلف الناس في قيمة حفظه ، فمنهم من اعتمده ، ومنهم من استضعفه ، ومن جراء ذلك ترك الإمام البخاري رحمته الله الرواية عنه ارتباطاً بالعهد واعتباراً للشرط ، واجتهاداً في الرأي .

وأسند رحمته الله حديث جرير بن عبدالله البجلي الكوفي الصحابي الجليل الجميل ، قال : «بايعت رسول الله رحمته الله على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم» .

وحديث جرير هذا رواه الإمام مسلم بروايتين إحداهما كرواية البخاري هذه ، والأخرى بلفظ : «بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم . فلقنني رسول الله ﷺ : ما استطعت» . بفتح التاء .

والغرض من هذا التلقين إبراز أن التكليف منوط بالقدرة والاستطاعة ، وإعلان أنه لا حرج في الدين على هذه الأمة ، والأصل في هذا التلقين قول الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقول الله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقول الله جل وعلا : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقول النبي الأكرم ﷺ فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»^(١) .

الله رءوف بعباده :

ولم يكلف الله عباده بما يشق عليهم أبداً بل دعا ﷺ على من شق على أمته بقوله : «اللهم من ولي من أموري شئاً فرفق بهم فارفق اللهم به ، ومن شق عليهم فاشقق اللهم عليه»^(٢) .

ولم يثبت أنه ﷺ دعا على من سهل على أمته ، بل كان يقول لأصحابه : «اتركوني ما تركتكم»^(٣) خشية أن ينزل عليه ما يعجزون عن القيام به .

وفي «الصحيح» أن أم عبد الله عائشة الصديقة رضي الله عنها وعن أبيها قالت :

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كان رسول الله ﷺ إذا أمر أصحابه أمرهم من الأعمال بما يطيقون . هذا ما يتعلق برواية الحديث في «الصحيحين» .

وأما ما يتعلق بروايته في الدواوين الأخرى فقد رواه أبو داود السجستاني في كتاب الأدب ، ورواه أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب البيعة ، ورواه أبو عيسى الترمذي في كتاب البر والصلة .

ورواه الحافظ محمد بن خزيمة في كتاب السياسة من حديث جرير عن سهيل أن أباه حدث بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا : يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ جَمِيعًا ، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ» . قال : فقال عطاء : سمعت تميم بن أوس الداري رضي الله عنه فذكر حديث النصيحة .

ويوجد حديث النصيحة أيضًا في بعض روايات «الموطأ» ، كما قاله الشيخ محيي الدين النووي رحمته الله .

ويوجد لحديث النصيحة طرق أخرى ، ولكنها لا تسير المرحلة ولا تتجاوز القنطرة . منها ما أخرجه أبو يعلى من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه . ومنها ما أخرجه البزار من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

والقول الفصل في هذا ما قاله الكبش النطاح أبو عبد الله البخاري رحمته الله من أن حديث النصيحة لا يصح إلا من حديث تميم بن أوس الداري رضي الله عنه ، وفي مثل هذا أنشدوا قول الشاعر العربي :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

وحذام اسم امرأة تعرف بزرقاء اليمامة يضرب بها المثل في حدة البصر ، وكانت تبصر مسيرة ثلاثة أيام ، وأما تميم بن أوس الداري فاثنان في الناس . أحدهما مسلم وهو صاحب حديث النصيحة الذي روى له الإمام مسلم ، والآخر نصراني وهو صاحب قصة الجام المذكور في «صحيح البخاري» رَحِمَهُمُ اللَّهُ .

لماذا اخترنا حديث النصيحة؟

وبعد فقد آثرت واخترت أن نتحدث بحديث النصيحة ؛ لأنه حديث بارز وجامع يجمع الدين كله أصله وفرعه ، وهو من جوامع كلمه ﷺ ، ومن نور أنواره ، ومن سر أسرارهِ .

ولأن له موقعاً كبيراً وأثراً عظيماً في حياة المسلمين ، إذ عليه المدار المعول في بعث مجتمعهم وضمان نهضتهم وتحقيق وحدتهم وإصلاح قلوبهم . وما ذلك إلا لأنه يعبر عن حقيقة المجتمع الصالح الناهض ، وعن ضرورة اهتمام بعضه ببعض وانتفاع بعضه ببعض .

آثرت وفضلت حديث النصيحة لما له من الأثر الكبير في مقام البعث والنهوض ، ولأنه كثيراً ما يتردد على ألسنة الناس ، ولكنهم لا يتتفعون به في قلوبهم ، ولا يريدون أن يطبقوه على سلوكهم ، وإن كانوا قد يستفيدون منه بعقولهم ، ذلك أن حياة الإنسان وإن كانت ترتبط بعقله ، وعقله على قدر زمانه ، فإن صلاحه منوط بصلاح قلبه . كما يقول الرسول ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»^(١) .

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَحِمَهُمُ اللَّهُ .

وظيفة العقل والقلب:

فالعقل وظيفته في الحياة للإدراك والكشف والبيان، والقلب مهمته القبول والإذعان والتنفيذ، وإذا ما كشف العقل عن حقيقة من حقائق الوجود في طي العدم ولم يكن لها أية فائدة، ولا أية نتيجة، وهكذا نرى العدد العديد من الناس يفهمون الأشياء بعقولهم ولكنهم لا يقبلونها بقلوبهم فتظل في المحاولة والمداولة.

وهكذا نرى أن العصر القائم يهتف بالعقل دون القلب، ويمتاز بالإقبال على حياة الشهوة والمادة دون حياة الإيمان والجادة، ونتج عن ذلك ضعف في الضمير، وضعف في السلوك، وفصل الحياة عن الإيمان كما نشأ عن ذلك سعي حثيث نحو التحرر من القيود الدينية والإنسانية، ونحو التمرد على القيم المعنوية والأخلاق السوية.

وأصبح كثير من الناس لا يتورعون عن خدمة مصالحهم الشخصية، ولا يتخرجون من اكتساب السمعة السيئة حتى جعلوا ذلك أساساً لحياتهم، ومقياساً لنشاطهم، والمنافع الجزئية تتخاصم وتتضارب إلى حين، والتمسك بها قد يؤدي إلى نقض الشخصية وإلى تحمل المسؤولية، وقد يحمل ذلك على الزور والكذب، وقد يدفع ذلك إلى اقتحام الكبيرة، وقد يفضي ذلك في النهاية إما إلى حرب الكلام وإما إلى حرب الاصطدام.

ولو توجه الناس نحو الخير والإيمان، ونحو الحق والإنصاف، ونحو الفضيلة والمروءة، ولو تناصح الناس في حياتهم، ولو نهض الناس بمسئولياتهم، ولو تفاهم الناس وميزوا بين مفهوم الخير ومفهوم الشر لما نشبت في الدنيا حروب، ولما وقعت في الأرض، ولكن: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ

يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [الأنعام: ٣٩] ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

فحديث النصيحة الذي تحريناه وتخيرناه هو قوام الدين ، وملاك أمره ،
وعماد وجوده ، بمعنى أن حياة الدين لا تنتظم ولا تستقيم إلا بتناصح
أهله وتواصيهم وتناهيهم ، فإذا تناصحوا وتواصوا وتناهوا انتظم جمعهم
واستقام أمرهم ، وإذا ما تكاسلوا وتواكلوا ولم يكن هناك تناصح في
الحق ، ولا تواص بالخير ، ولا تناه عن المنكر ضعفت الثقة ، وقلت
الاستقامة ، وساء الظن ، وساءت المعاملة ، ولم يعد لعامل الدين أثر قوي
في النفوس ، فتنعكس الضمائر ، وتنطمس البصائر .

والإيمان كمظنا تعلمون قوة إيمانية وثورة اجتماعية ضد الضلال وضد
الفساد ، وصراط حميد يهبي نهضة كريمة وحضارة كريمة .

ولله در الإمام البخاري رحمه الله فما أدق نظره ، وما أصح بصره عندما افتتح
كتاب الإيمان بإسناد حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ،
 وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » .

وهو الحديث الدال على أن بناء الإسلام لا يقوم إلا على هذا الأساس
المكون من خمس قواعد ، وهذه القواعد تعبر عن صحة الإرادة وقوة
العزيمة ، وتقرر حياة السمو في الروح والمادة .

ومن المتعارف أن كل هيكل بنائي لا يستقر على أساس قوي صحيح
إذ أنه لا يلبث أن يتداعى ويتساقط إلى الأرض ، لذلك ابتدأ الإمام

البخاري رحمه الله كتاب الإيمان بحديث الأساس ، وختم كتاب الإيمان باب النصيحة إشارة إلى أن حياة الإسلام وهي حياة البناء والإصلاح ، وحياة السمو والكمال لا توجد إلا إذا أحكمت هذه القواعد من حيث إنها أساس البناء ، ولا تنهض إلا بالتناصح والتناصر ، والتضامن والتآزر .

ومن مبادئ الإسلام التأسيسية ، ومن القضايا المسلمة الضرورية أن المؤمنين إخوة ، سواء في الدين والدنيا ، وأن آمالهم وآلامهم واحدة ، وأن مطامعهم ومواطنهم واحدة ، كما أن المسلم هو مرآة أخيه المسلم يسمح عنه القذى والأذى ، ويجب له الخير والهدى ، كما قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) يعني : ويكره له ما يكره لنفسه .

شرح ألفاظ الحديث :

وبعد هذا أتناول شرح كلمات الحديث مستعيناً بمن له الحول والقوة ، وبمن له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ، لقد قلنا في أول هذا المجلس المبارك ، وما بالعهد من قدم ، أن حديث النصيحة يقوم عليه الدين ويعتمد عليه الإسلام ، وأن عليه وحده مدار حياة المجتمع الإسلامي ، إذ هو قاض بحمل الإنسان نفسه وغيره على مطاوعة الحق ، ومدافة الباطل ، وقائم على نصيحة الإنسان نفسه وغيره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأي دين يبقى بعد إنجاز هذا القدر ، وتحقيق هذا الأمر .

(١) سبق تخريجه .

قال علماء اللغة : ليس في كلام العرب كلمة تؤدي ما تؤديه كلمة : النصيحة ، ولا كلمة تجمع ما تجمعها كلمة النصيحة ، ولا كلمة تجمع ما تجمعها كلمة : الفلاح .

ما هي النصيحة :

فالنصيحة هي : إرادة الخير للمنصوح قولاً وفعلاً وقصدًا .

والنصيحة مأخوذة من قولهم : نصح فلان العسل إذا خلصه وصفاه ، ومن قولهم : نصح فلان الثوب إذا خاطه وجمعه ، ففعل الناصح فيما يتحراه للمنصوح من خير وسداد شبيه بما يتحراه من جمع أطراف الثوب وسد خلله ، وتخليص القول للمنصوح من الغش والدس والنفاق شبيه بتخليص العسل من الشمع والذباب ، ومن ذلك قول أهل الشرع : تاب توبة نصوحًا ، فكأن الذنب يخرب الدين ، وكأن التوبة النصوح ترمم الدين وترقعه .

والأصل في النصيحة من الكتاب العزيز ، قول الله تعالى في سورة التوبة : ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة : ٩١] . أي بما قدروا عليه من القول والفعل عائد على الإسلام والمسلمين بالخير والنفع .

وقوله تعالى على لسان بعض رسله عليهم الصلاة والسلام : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦٢] ، إلى غير ذلك من النصوص الخالدة والمواد القائمة .

معنى الدين:

والمراد بالدين في الحديث دين الإسلام، وهو الدين الذي رضيهِ الله لعباده، كما قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وكما قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وكما قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فلا إكراه في الدخول إلى هذا الدين، كما أنه لا حرية في الخروج من هذا الدين بعد النظر والاختيار، وإلا فهو تلاعب بمنطق الحرية، وتناقض مع الكرامة الإنسانية.

ذلك أن الدخول في الدين هو إنشاء عهد بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى، فهو بمثابة من وقع معاهدة مع دولة أخرى فلا بد أن ينفذها ولا بد أن يطبقها وإلا وقع ما وقع.

ومن أجل ذلك قال ﷺ في الحديث الصحيح: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١).

ومن أجل ذلك أيضًا قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ارتد من العرب بعد موت النبي ﷺ، وأباح دم من امتنع من أداء الزكاة، قائلًا: والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى النبي ﷺ لقاتلتهم عليه. أو كما قال.

ومعنى قوله: «الدين النصيحة»، أن المحور الذي يدور عليه الدين هو تناصح أهله وأتباعه. والتناصح بينهم هو تمام أمره، وقاعدة صلاحه،

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث علي رضي الله عنه.

وأما السكوت والصمت عند توصيم الدين ، وعند توهين الأخلاق ، وعند نسيان المقومات وإهمال المقدسات .

وأما عدم التواصي بالحق والخير ، وعدم التناهي عن الإثم والشر ، فإنه يؤدي إلى انتصار الباطل وازدهار الفساد ، وقد يؤول إلى انهيار الأمن والنظام ، وإلى انعدام التوازن الخلقي ، والتناسق الفكري ، فتزحف عند ذلك طلائع الفتن ، وتنصب المصائب والمحن ، وقد حذرنا الله من ذلك بقوله : ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

معنى النصيحة لله :

ثم النصيحة لله معناها : اعتقاد وجوده ووحدانيته وقدرته على تدبير هذا الكون وإدارته ، وإخلاص القصد في عبادته ، ومعاداة من جاهر بمعصيته ، وجهاد من كفر بآياته وألحد في كلماته . قيل لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : من الناصح لله؟ قال : الذي يقدم حق الله على حق الناس .

معنى النصيحة لكتاب الله :

والنصيحة لكتابه معناها : التصديق بأنه كلام لا يشبهه كلام الخلق ، وبأنه تشريع لا يعادله تشريع الخلق . إذ كل نظام مهما سما فإنه دون نظام السماء ، والتصديق بأنه صراط مستقيم يهدي إلى الرشد ، ويهدي للتي هي أقوم ، والتعظيم له ظاهراً وباطناً فلا يمسه إلا المطهرون ، ولا يقرأه إلا المتقون ، ولا يتوسل به إلى المطامع ، ولا يتلى في الطرقات والشوارع ، وإقامة حروفه عند تلاوته ، والوقوف عند حدوده وأحكامه ، والتفهم لمعانيه وأمثاله ، والاعتبار بقصصه ومواعظه ، والتعرف على آفاق معارفه ، والدعاء إلى حفظه ، والوفاء بعهده ، والثقة بوعدده ، هذه هي النصيحة لكتابه .

معنى النصيحة لرسول الله ﷺ :

والنصيحة لرسوله معناها : التصديق برسالته ، والتبشير بدعوته ، والعمل بشريعته ، والدفاع عن سنته ، وبذل المجهود والطاقة في تعلمها وتعليمها ، ونشر آدابها وفضائلها ، وإجلال قرابته وصحابته والمتسبين إليها . ومجانبة المبتدعين في دينه ، والطاعنين في هديه ، والمتقصين لقدره ، والمستهزئين بحكمه . هذه النصيحة لرسول الله ﷺ .

وهذه النصائح الثلاث أعني : النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، هي في واقع الأمر وحقيقته يرجع نفعها إلى العبد نفسه ، وإلا فالله غني عن العالمين ، وفوق نصيحة الناصحين ، لا تنفعه مضرة ، ولا تضره معرفة ، ولا ينقصه شيء ، كان الله ولا شيء معه ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وفي الحديث القدسي : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد وسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١) .

وأما الرسول ﷺ فقد أفرغ عليه ربه كل كمال ، ومنحه بفضله كل جمال ، وألبسه لباس التقوى ، وختم به طابع النبوة والرسالة : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ

(١) سبق تخريجه .

يَكْفِي عَبْدَهُ ﴿ [الزمر: ٣٦] ، بلى ! ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ [الحديد: ٢١] .

معنى النصيحة لأئمة المسلمين:

والنصيحة لأئمة المسلمين معناها : طاعتهم في الخير ، ومساعدتهم على الإصلاح ، وتأليف القلوب لمحبتهم ، ورفض سياسة الخروج عليهم ، والصلاة خلفهم ، والجهاد معهم والدعاء لهم ، وإبلاغهم ما شاع من فاسد العوائد أو ما ضاع من فروض العقائد .

وبالنسبة إلى العلماء قبول ما روه من العلم ، وإحسان الظن بهم دون ظن الإثم ، والرجوع إليهم في قضايا الإصلاح والحكم ؛ لأنهم من ذوي الحل والعقد ، ولأنهم عدول الله في الأرض ، كما قال ﷺ : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله»^(١) .

ولأنهم خلفاء الرسل ، وورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولأن الله تعالى وصفهم بالخشية منه سبحانه فقال : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] فهم أكثر الناس خشية لله ؛ لأنهم أعلم الناس به سبحانه .

ولا يعني هذا أنه إذا أخطأ عالم أو زلَّ في مسألة أن نتبعه على عمى أو نغض الطرف عن خطئه أو زلته ، فالمسلم لا يخشى في الله لومة لائم ولا يخاف إلا الله ، فوجب علينا ساعتهما التنبيه والإرشاد لمن وقع في هذا الخطأ أو الزلل من العلماء ؛ على أن يكون ذلك برفق ولطف ، كما قال الشافعي رحمه الله :

(١) سبق تخریجه .

تغمدي بنصحك في انفراد وجنبي النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أَرْضَى استماعه
ولنضرب أمثلة حية على ما قلنا، فمن ذلك ما روي أن مالك بن أنس
الأصبحي إمام المدينة وإمام أهل المغرب كان ينادي في طريق المدينة : من عرفني
فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس ، طلاق المكره لا يلزم .
وكان ذلك عندما كان الناس يكرهون عند البيعة بجملة أيهان منها
الحلف بالطلاق .

ومن ذلك أيضاً كما في «الموطأ» أن معاوية بن أبي سفيان رحمته الله باع ذهباً
بأكثر منه وزناً ، فقال له أبو الدرداء وكان قاضياً بالشام من قبل عمر بن
الخطاب رحمته الله : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك . فقال له
معاوية رحمته الله : ما أرى بذلك بأساً . قال أبو الدرداء رحمته الله : من يعذرني
من معاوية أخبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخبرني عن رأيه ، فقدم على
عمر بن الخطاب وذكر له القضية ، فكتب عمر رحمته الله إلى معاوية بن
أبي سفيان يأمره أن لا يبيع إلا وزناً بوزن وإلا مثلاً بمثل .

ومن ذلك أيضاً كما في «الموطأ» قضية الصكوك التي خرجت في عهد مروان
والتي باعها الناس قبل أن يستوفوها فقال له زيد بن ثابت الأنصاري رحمته الله :
أتحل بيع الربايا مروان ، فقال : أعوذ بالله ، وما ذلك ! قال : هذه الصكوك
يبيعها الناس قبل أن يستوفوها . فبعث مروان الحرس ينزعونها من الناس
ويردونها إلى أهلها .

ومن ذلك أيضاً أن عبداً لعبد الله بن عمر بن الخطاب رحمته الله سرق ، وهو
أبق ، فبعث به إلى والي المدينة سعيد بن العاص ليقم عليه الحد ، ويقطع يده ،

فأبى سعيد، وقال : لا تقطع يد الأبق السارق ، فقال له عبد الله ابن عمر : في أي كتاب الله وجدت هذا يا سعيد؟ ثم أمر بالعبد فقطعت يده .

هكذا كان الناس ينصح بعضهم بعضًا . ولا يخافون في الله لومة لائم .

نعم على الناصح أن يكون متأدبًا ومتهذبًا ومتواضعًا ، وأن تكون نصيحته برفق ولين ، وأن تكون على انفراد ؛ لأن النصيحة في الجماعة فضيحة ، ولذلك كان ﷺ لا يواجه أحدًا بالعتاب ، وإنما يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا أو يصنعون كذا » .

وقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام عندما بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وعلى الناصح أن يكون بصيرًا ، وأن يكون حذرًا . إن رأى خيرًا تدلى ، وإن رأى شرًا تولى .

كما على المنصوح أن لا يأنف من النصيحة إذا كانت في موضعها وجاءت بأسلوبها ، وكانت من صميم الحق ولباب الدين ، حتى لا يدخل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْأَمَهُادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٦] .

من النصائح العامة :

ومن النصيحة العامة : كف الظالم عن ظلمه ، ونصر المظلوم والوقوف بجانبه ، وذلك مبدأ من مبادئ الإسلام ، ودعامة من دعائم السلام ، ونهضة من نهضات الشعوب ، واستفاقة القلوب .

أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل : أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال : تكفه عن الظلم ، فإن ذلك نصر له» .

فعلى المسلمين أن يستجيبوا إلى هذه النصيحة ، وأن يستعدوا في كل وقت وحين لمناصرة المظلوم بأي وسيلة من الوسائل ، وفي أي بلد من بلاد الله ، كبلد فلسطين التي أصبحت عرضة للماكرين وضحية للصهيونيين .

وعلى المسلمين أن ينصروا العلاقة والصداقة بين سائر العناصر والمذاهب الإسلامية حتى يكونوا ظهرة واحدة فلا تقوى عليهم الأيام ، ويضعفون أمام الأخصام ، حتى يكونوا أحراراً أقوياء ، إخواناً أوفياء ، وما هان المسلمون وما ذلوا في أعين غيرهم حتى تصدعت وحدتهم وتفرقت كلمتهم ، قل تناصرهم ، وزاد جهلهم ، وكثر حسدهم ، فعليهم أن يصدقوا بالأعمال إيمانهم ، وأن يراجعوا على الفور حسابهم ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

المحاضرة الثانية والخمسون بعد المائة

الكون الساجد

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

موضوعنا هو: الكون الساجد، وهو في الواقع سياحة نحاول بها أن ندرك حقيقة هذا الكون وعلاقته بالخالق سبحانه وتعالى، من خلال قراءتنا لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، وهي آية في الواقع تثير مجموعة من المسائل التي ندلف من خلالها إلى بيان مفهوم السجود، وشمول هذا السجود، وعلاقة محمد ﷺ بهذه المسألة، وما أثر هذا السجود في حياتنا، ما علاقتنا بسجود هذا الكون كله؟ وأبدأ فأعرض لمعنى السجود.

معنى السجود:

والسجود: مقصود به العبادة والخضوع، فقد يقصد به المعنى الأخص وهو الانكفاء على الأرض، ووضع الجبهة والكفين والقدمين في وضع واحد، وهو على حسب ما سن رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم»^(١).

وقد يراد به أيضاً مطلق العبادة والخضوع لله تبارك وتعالى، وإنما استخدم السجود للتعبير عن مفهوم العبادة لله، لأن حال السجود حال تتضمن مطلق الاستسلام والضعف بين يدي الله تبارك وتعالى.

(١) أخرجه البخاري (٨١٠)، ومسلم (٤٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فالساجد لا يحتاج إلى توتر عضلي ، ولا يشعر أن له قوة تدفع الأرض ، أو يحس بها تسري في جسمه ، وإنما هو يشعر بالاستسلام تمامًا بين يدي الله ، وهذا هو معنى العبادة المطلوب والمفروض أن يصاحب الإنسان في كل عبادة ، أن يفوض دائمًا قوته وحوله وطوله لله تبارك وتعالى من خلال تسبيحه لله ﷻ .

والقرآن يستخدم في الواقع كلمتين ؛ كلمة تدل على معنى السجود ، وكلمة تدل على معنى التسبيح ، أو على مفهوم التسبيح ، فإذا استخدم السجود فإنما ذلك لإفادة مطلق العبادة والخضوع لله .

وإذا استخدم التسبيح فإنما معنى ذلك أن الإنسان يردد دائمًا ويعتقد دائمًا أنه في يد هذه القدرة ، وأن كل أعضائه يتخللها نور هذه القدرة ؛ لأن التسبيح من السَّبْح وهو المسيرة ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٣] . ثم يؤخذ من يَسْبَح يُسَبِّح ، وهو تضعيف يراد به تكثير ما تحويه الكلمة من مضمون عبادي .

فهو يسبح الله ﷻ أي يستمد من الله قدرًا من النور ، أو لنقل من الطاقة التي يسير بها في حياته كل عابد .

فَعِبَادَ اللَّهِ ﷻ هم الذين يسبحون الله ﷻ ﴿يَبْتَهِتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان : ٦٤] هم عباد الرحمن ، والتسبيح إذن هو عندما نرى انتشاره في الكائنات .

ووصف الكائنات بالسجود وبالتسبيح نحس أن التسبيح هو بمثابة الطاقة التي تتخلل كل الكائنات ، تتخلل الجبال ، تتخلل الشجر ، تتخلل الدواب ، تتخلل حتى أقل المخلوقات ، وتتخلل فوق ذلك السموات والأرضين ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿[الإسراء : ٤٤] .

وهي آية تدل على أنه من السموات السبع إلى الأرضين ، إلى كل ما في هذه السموات والأرضين من شيء ، ومن شيء هنا تستقصي كل مخلوقات الله ﷻ ، وليس في الكون إلا ما أنجزته القدرة الإلهية بـ«كن» عندما قال الله للكون : «كن» فكان كل شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

فليس من شيء إلا وهو يسبح ، قد ننصرف نحن عن مفهوم الدقة والاستيعاب والاستقصاء في قوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ، ونتصور أن ذلك محصور في الملائكة وفي الجن ، وفي الإنسان وربما قلنا إن بعض الطيور يسبح بحمد الله ، ولدئ العامة أقوال عن بعض الطيور التي تقول : الملك لك ، لك يا صاحب الملك . . إلخ ما يرد في هذا الصدد .

لكننا إذا أردنا فهم قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ معنى ذلك أن كل شيء يتشياً يسبح بحمد الله ، أي أن فيه سرّاً من نور الله ، ولا يكون للشيء شئيته إلا بأن يكون فيه هذا القدر من النور ، وليس من شيء خلقه الله إلا وفيه هذا القدر من النور ، أي من التسبيح ، يسبح في النور أو يسبح فيه النور .

وبذلك نستطيع أن نتصور أن الجدران مسبحة ، والأبواب مسبحة ، والسيارات مسبحة ، حتى إن بعض السلف قال : إن ثوبك يسبح ، وإن هذه الأسطوانة تسبح -أي العمود يسبح- والشجرة تسبح ، وكل ما خلق الله مغمور في هذا التسبيح ، كما أراده الله ﷻ ، وهو أعم قانون يحكم هذا الوجود : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح : ٨ ، ٩] .

شمولية التسبيح:

التسبيح : هو جُماع كل المفاهيم التوحيدية ، فهو أعم من التهليل ، أو من التكبير أو من التحميد ، هو أعم من هذا كله ، وهو جماع هذه المسائل التي يتعلق بها ذكر الله تبارك وتعالى .

فإذا تصورنا هذا التسبيح على هذا النحو فإنني أتخيله وكأنه الكهرباء تدار (بالريموت كنترول) الذي أبدعته الحضارة الحديثة ، أي تدار بإرادة الله ﷻ ، فكل حي فيه هذا البرنامج التسبيحي يقوده إلى الخير ، ويقود الكون كله إلى الخير ، إلى وجهة العبودية والتوحيد لله تبارك وتعالى .

فكل كائن من الجبال إلى الأنهار إلى المياه إلى الهواء ، كل هذه تؤدي بمهمة ما أدخله الله فيها وضمنها إياه من نوره ونور إرادته تسير بهذا النور لتؤدي وظيفتها كما أرادها الله لها .

فالماء يروي الأحياء ببركة هذا التسبيح أو بدافع من هذا التسبيح ، وهو لا يستطيع أن يقصر في مهمته ، والهواء يحيي الأنفس بإرادة الله ﷻ من خلال برنامج التسبيح ، وكذلك الشجر يطعم ويثمر كله من خلال هذا البرنامج النوري الذي أراده الله تبارك وتعالى عمودًا لهذه الحياة .

لم يستثن شيء لا يوجد في الأرض إلا الكافر ، فهو الذي أنكر وجود الله ، فحرمه الله من نوره ، ولكن هناك علاقة بينه وبين النور من خلال ظلاله .

من خلال الظل ، والآية تقول : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد : ١٥] ، وإشارة القرآن إلى الظلال كأنها استقصاء لكل الأجسام والأعراض التي تلازم هذه الحياة .

فالظلال تسجد لله ؛ ظل المؤمن يسجد طوعاً ، وظل الكافر يسجد طوعاً ، وإن امتنع صاحبه عن السجود طوعاً ، فهو كأنه يسجد كرهاً .

ويفسر بعض المفسرين أن هذا الكره إنما يحدث نتيجة مأزق يقع فيه هؤلاء الكفار : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥ ، ٦٦] ، فكأن الكافر لا يسبح الله إلا مكرهاً عندما يقع في مأزق ، أما إذا كان في بحبوحة فإنه ينسى الله ، وعلى حد قول القرآن : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩ ، ٢٠] .

مسألة :

وهنا مسألة ينبغي أن نتوقف أمامها لنرى عمق هذا المفهوم في حياتنا وفي حياة الكون .

إن القرآن يقول مثلاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : ٤١] .

سجود من في السموات ومن في الأرض ، ومن هنا للعقلاء ، ويمكن أن تشمل غير العقلاء ؛ لن نتوقف أمام هذه المسائل النحوية ، ولكن سنقف أمام قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ إنه هنا ينسب إلى الطير العلم ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ هو يعرف ويعلم كيف يصلي ، وكيف يسبح ربه .

الطير ، وهذا الاصطفاف في الجو ﴿ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ ﴾ هذا قد يكون تعبيراً عن هذا التسبيح ، طريقة في الصلاة ، طريقة في التسبيح ، وهو تحد

لعقولنا ؛ لأننا قد نتصور أن هذه الطيور المسخرة لنا تلك التي آتانا الله من خيرها لحمًا طريًا ، ونذبوحها كما نشاء ، ونقتلها صيدًا . . . إلخ .

هذه عجاوا لا تعرف شيئًا ولا تفهم شيئًا ، وإنما هي مسخرة لنا ، لكن الله يشعرنا أن هذا الطير الذي تتمتع به ، والذي سخر لك ، لديه من العلم بمهمته المحددة في توحيد الله ، والصلاة له وتسييحه ، ما تعجز أنت أيها الإنسان عن درك أعماقه ، وعن فهم أبعاده .

وانظر مثلاً إلى حديث القرآن عن قوله تعالى في حق النملة نملة سليمان :
﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ آدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

إن هذه النملة قالت ، وحين ينسب القرآن إليها القول فهذا حق ، وينبغي أن يفهم أنه حق ، وأنها قالت ، وأن بقية النمل سمع هذه المقالة ، وأنه أطاع من نصحته ؛ يعني النملة التي نصحت بقية النمل بالدخول في الجحور : ﴿ آدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

ويأتي حديث القرآن عن سليمان : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل : ١٩] أي موقف هذا؟ بل أية عظمة أية معجزة أن يؤتى سليمان فهم لغة النمل؟! .

وللنمل لغة وللنحل لغة ، ولكل الكائنات لغات ، والقرآن بنفسه يؤكد هذا ، ويقول : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فإذا جزم القرآن بهذا الحصر : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ .

وهذا الوصف : ﴿ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ينفي عن عالم الطير أو عالم الحشرات أو عالم الدواب ، ينفي عنها حياة الهمجية ، أو تصور أنها مجرد أشياء نفركها تحت أقدامنا ، أو نتمتع بها إلى أن تموت ، ولنا الحرية في أن نقتلها أو أن نتخلص منها .

ليس هذا أبداً من آداب الإسلام التي جاء بها القرآن ليعلمنا مدى العلاقة بيننا وبين هذه الأمم ؛ إنها ليست مجرد أفراد منطلقة على عواهنها لا تدري شيئاً مما حولها ؛ إنها تدري ، وإنها تدرك ، وإن لها كما يقول بعض السلف : لها أفهام .

ولا يبعد أن يخلق الله لها أفهاماً تدرك بها ، ولكنها تلزم سنة الله فيها ، وقانون الله الذي خلقها من أجله ، فهي تلتزم بالسنة ، سن لها أن تذبح فإنها تذبح ؛ لأنها تنفذ ، ولأنها تسبح الله ﷻ ، وتستسلم لهذا المصير ، شيء طبيعي من أجل هذا خلقت ومن أجل هذا تسبح وتبقى تسبح إلى أن تنتهي .

الكل يسجد لله :

وهكذا ندرك علاقتنا بالكائنات من حولنا طبقاً لآيات القرآن ، وانظر مثلاً إلى قول الله ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّيْلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٩﴾ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٤٨ - ٥٠] .

انظر إلى وصف القرآن إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله ؛ أي ظلاله

تمتد وترتد ، تطول وتقصر ، وكل ذلك بقدره الله ، وبما خص الله به هذه الكوائن الكثيفة من وجود الظل .

والظل عرض ولكن له حساباً في السجود ، وله حساب في التسييح .

وكثيراً ما حاول السلف والمفسرون أن يفسروا سجود الظل .

وقد أرى أن له أبعاداً لم تكشف حتى الآن ؛ يعني عندما يقولون : إن الظل يسجد بسجود صاحبه ، نعم هذا مفهوم ، لكن صاحبه لا يسجد وهو يسجد كيف؟

ذلك أمر من المشتبه ، لقد بحثت كثيراً لأعثر عن تفسير يحل هذا اللغز فلم أستطع إلا أن أخمن أن لذلك علاقة بمسألة علمية كشفها العلم الحديث .

لو أننا مثلاً كنا جلوساً ، في أحد المجالس ، فإذا انفض السامر وابتعدنا عن ذلك المجلس ودخل نوع من الكاميرات التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء ، وصور المكان فإن هذا المكان في خلال مدة زمنية معينة يحتفظ بأشكال الجلوس وتخرج الصورة كما كانت ونحن جلوس فيها موجودون ، وذلك أمر استخدم في الحرب الفيتنامية ، كانت القوات الأمريكية تدخل مهاجم الفيتناميين الثوار فتصور المكان بعد أن يهربوا من أمام الهجوم الكاسح ، فإذا بالصورة تخرج صور هؤلاء الثوار ، وتذهب القوات لتقبض عليهم بالنهار ، لكنهم كانوا يهربون أيضاً .

لكن لا بد أن نفهم أن الذي صور هو الظل ؛ ظلال هؤلاء صورت وهم غير موجودين ، وعبرت عن حقائقهم وهم غير موجودين ، وهو نوع من تطبيقات العلم الحديث .

يمكن أن يقال : إن مثل هذا الظل له حركة في طاعة الله ﷻ وفي الدلالة على صاحبه ، وفي البقاء في المكان مدة معينة بناموس من الله تبارك وتعالى . وهو لا يختلف عن الظل الذي يكون للإنسان بالغدو والآصال .

كل ذلك نوع من التقدير أو الاجتهاد ، لكن المسألة فيها ولاشك - فيما أتصور - إعجاز يجب أن نفهمه ونحاول هذا الفهم مع تقدم العلم الذي يستطيع أن يقدم لنا بين حين وآخر حلولاً لمثل هذه المعضلات العقلية التي نؤمن بها ونصدق أن الله قرر ، وقوله الحق وله الملك ، لا يمكن أن تحتل أو نتردد أو نشك في صدق كلمة من هذا القرآن .

تسبيح الرعد والبرق :

تعالوا بنا إلى منظر آخر من مناظر التسبيح يقرره القرآن ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : ١٢ ، ١٣] .

قال بعض المفسرين : إن الرعد اسم ملك من الملائكة ، وذكر على الخصوص ثم ألحق به العموم ، والملائكة من خيفته ، وهو أمر لا يتفق مع السياق .

السياق يقول : ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الرعد : ١٢ ، ١٣] .

هذا الرعد الذي له هذا الدوي الهائل ، دويه تسبيح ، وكأن ما أفاض الله تبارك وتعالى على هذا البلد الكريم من وابل المطر من هذا الوابل الصيب إنما هو تسبيحة رعدية ، جاءت فسقت البلد وحلت المشكلة . ونحن دائماً ينبغي أن نذكر نعمة الله علينا في تسبيح الرعد .

قد يتصور بعض الناس أن الرعد أمر مخيف ، وأن له صوتاً مرعباً ، ومع ذلك فإن الله ﷻ يربط بينه وبين السحاب الثقاب بأنه يسبح الرعد بحمده . وهذا الربط في معرض الامتنان على عباده بأنه يفيض عليهم من نعمه ، وإذا لم يأت البرق ولم يأت الرعد فإن المطر لا يكون .

وعلى أية حال فقد فسر بعض الناس هذا الرعد بأنه بشير بتلاقح السحب لكي ينزل المطر ، عندما فسروا قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢] .

قال بعض الناس : لواقح أي تحمل حبوب اللقاح ، من مكان إلى مكان ، ولكن تفسيراً آخر جاء فقال : إن من السحاب ذكوراً ، ومنها إناثاً ، إن من السحاب قوى موجبة وأخرى سالبة ، وإن المطر لا ينزل إلا بعد أن تتلاقح السحب تلاقحاً في الجو ، فإذا تلاقحت السحب نزل المطر : ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢] ، ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢] أي بمجرد تلاقح السحب ينزل المطر : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢] .

كل هذا يدور كما قلت في فلك التسبيح لله تبارك وتعالى ، والتحقق للناموس الكوني ، كما ينبغي أن يتم بإرادة الله ﷻ لتستمر هذه الحياة التي نعيشها .

وأعتقد أنه لا بد أن أشير إلى شيء جاء في القرآن حيرني ، ولكني اهتديت فيه والحمد لله ، الله ﷻ يقول لمحمد ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴿النور: ٤١﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل رأى محمد ﷺ تسبيح هذه الكائنات؟ إن خطاب الله ﷻ لمحمد ﷺ على هذا النحو يعني أن النبي ﷺ رأى، ولكن متى رأى؟ وكيف رأى؟ لا ينبغي أن نتحير في هذا كثيرا لأن الله ﷻ دعا نبيه ﷺ إلى العروج إلى الملاء الأعلى إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى .

هنالك رأى من آيات ربه الكبرى؛ رأى من حقائق هذا الكون، من حقائق هذا الخلق، رأى أمورًا تتعلق بالآخرة، رأى أناسًا من الكفرة في جهنم، رآهم في الجحيم، ورأى أناسًا من أصحابه في الجنة، والجنة والنار والقيامة لم تقع بعد .

وإنما سوف يأتي أجلها عندما يجليها لوقتها رب العرش العظيم .

فكيف رأى؟ إن رحلة المعراج وحدها يمكن أن تشرح لنا ذلك، إن المعراج إنما ارتقى بمحمد ﷺ بمعدل السرعة الكنية، سرعة كن، لا بسرعة الضوء، ولا بسرعة الصوت، فهذه سرعات متواضعة، وإنما السرعة التي ارتقى بها محمد ﷺ في المعراج هي سرعة الكنية التي يقول الله بها للشيء كن فيكون .

ومعنى ذلك أن محمدًا في رحلة المعراج قد عبر ملايين السنين ربما، آلاف السنين ربما ﴿لَا تُجْلِيهَا لَوَقَّتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، لا يعلمها إلا الله .

إذن فقد عبر ملايين السنين إلى المستقبل، وفي المستقبل قيامة وجنة ونار، فرأى محمد ﷺ أولئك وقد حشروا كل فيما استحقه عند الله تبارك وتعالى، رأى كفارًا يعذبون في جهنم، ورأى مؤمنين ينعمون في الجنة، ورأى بعض زوجاته معه في الجنة، وأخبر عن ذلك .

إذن فإن إمكان تصور هذا العبور وهذا الاطلاع على المستقبل وارد في فهم رحلة المعراج ، وبذلك نستطيع أن نقول : إن من آيات الله الكبرى ما رآه محمد ﷺ في مرآي المعراج من حقائق التسبيح ، رأى الجبال تسبح ، رأى السموات تسبح ، رأى الأرضين تسبح .

وكل ذلك واقع فعلاً عاشه رسول الله ﷺ وله الدرجة العليا ، له المقام الأسنى عند ربه ، فأراه من آياته الكبرى ، ثم عاد إلينا إلى الواقع ليخبرنا أحياناً وأحياناً يتركنا نفهم .

ترك لنا مسألة التسبيح فيها كثير من النور الذي ترشد إليه الآيات بمقارنات ومناقشات ومعارضات ، ثم أخبرنا بالأمور التي يمكن أن نتعقلها أو لا نتعقلها ، فهو يساعدنا على أن نؤمن بها ، ويكشف لنا شيئاً من عالم الحقيقة .

هذا هو عالم الحقيقة ، لو أن الله تبارك وتعالى كشف عنا الحجاب الآن لاستطعنا أن ندرك أي حشد من فرق التسبيح تسبح حولنا .

ويا ويل ذلك الذي لا يندمج في الإنشاد وفي التسبيح ، أولئك المنكرون للحقائق الكونية ؛ ولذلك الفعل الإلهي العظيم ، أولئك الذين ينكرون وجود الله عندما يكشف لهم ، ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، حينئذ سوف يدركون أن وعد الله هو الحق ، وأن أمره هو الصدق ، وأنهم فاتهم أن يلبوا داعي الله ، وأن يندمجوا في الحقيقة الكونية .

أنت عندما تسبح تندمج مع ملابسك ، تندمج مع الغرفة التي تسبح ، تندمج مع كل شيء حولك ، كله يسبح .

أما حين تشرد وتعصى ربك ، فإنك تخرج عن هذه (السيمفونية) الهائلة الرائعة المحتشدة حولك لكي تنفرد وحدك ، وعندما ينكشف لك جوهر الحقيقة ستري أنك ارتكبت في حق نفسك أبشع جريمة عندما لم تندمج في هذا الكون المسبح لله تبارك وتعالى .

تجربة :

سأقول لكم أخيراً تجربة ، عندما كنت أعالج هذه المسائل في مستوى الفهم ، وحاولت أن يكون شيء منها في مستوى التطبيق ، قدرت أنني عندما أسجد لله على الأرض فإنني أطأ على رأسي للعظيم ، ذي الجلال والإكرام ، فوضعت رأسي على الأرض ، وأردت أن أقوم فاستحييت ، وظللت ساجداً حتى شعرت أنني عاجز عن أن أقوم ، وشعرت أن نوعاً من الكهرباء يسري في العمود الفقري ، فخفت أن أموت وقمت من السجدة وأنا أقول : يا ويلنا إذا لم نسجد لهذا الإله العظيم ، يا ويلنا إذا لم نندمج في هذا الناموس الأكبر ، إذا لم نعتبر أنفسنا عبيداً دائماً نخضع له ، هو يقول لنا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] نبي يصعق لأنه أدرك مفهوم تجلي الإله .

كلنا نستطيع أن نقوم بهذه التجربة ، ونعرف كيف يتجلى الله ﷻ علينا عندما نذل ونخضع له .

والقرآن يصف نفسه بقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١] لكان هذا القرآن ، فيا

معشر الأناسي، يا معشر الأحياء، يا معشر بني آدم، كيف تتصورون أنفسكم وأنتم خوطبتم قصداً ونصاً وعمداً بهذا القرآن، أين تصدعنا أين تقطعنا، أين خضوعنا وخشوعنا مع إدراكنا لهذا الحشد الهائل حولنا من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس .

استدركت الآية لم تقبل : الإنسان ، لم تقبل : وبني آدم ، وإنما قالت : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج : ١٨] ، ومن لا يسبح ومن لا يسجد لله يهينه الله : ﴿وَمَن يُّهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج : ١٨] .

خاتمة :

أرجو أن أكون قد وضعت هذه القضية على بساط النور ؛ لنرى من حولنا هذا الكون الساجد ؛ ولنكون نحن من عباد الله الساجدين ؛ وبذلك نتقرب إلى ربنا ونضمن آخرتنا ، ونعيش حياة متصلة بهذه الآخرة ، لا يزعجنا منها فراقها ؛ لأننا سننتقل عند الفراق إلى الحبيب الذي خضعنا له ، وضرعنا له ، وسألناه أن يتقبلنا في الصالحين .



المحاضرة الثالثة والخمسون بعد المائة

البعد الديني للتنمية

إذا ذكرت الدين فإننا أعني الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وهذا العنوان في حد ذاته يقتضي وقفة قصيرة للتحديد ، تحديداً لمعاني الدين ، لو لم نكن إلا نحن معشر المسلمين القرآنيين في الدنيا لما احتجنا إلى شرح مفهومه عندنا .

ولكننا ليس لنا خيار ، نختلط بالشعوب ونتأثر ونؤثر ، فهناك من يصورون الدين ولهم أجهزة إعلام قوية ودور نشر قوية بتصوير أثره في كثير من المسلمين الذين تعلموا منهم ونهلوا من ثقافتهم .

ولكي نختصر الطريق نستعير بعض التعريفات من دائرة المعارف الفرنسية الكبرى «دائرة معارف العلوم والفنون والآداب» ، حيث نجد حوالي مائة تعريف ، كل تعريف منها مر جانباً لم يتحدث عن مفهوم الدين عندنا ، وأحرى تعريفين يقول أحدهما : إن الدين هو الطريقة التي يحاول بها الإنسان الاتصال بالقوى فوق الإنسانية - هذا التعبير غير مريح - والقوى الخفية .

ويقول تعريف آخر : إن الدين يشمل كل معرفة غير علمية وكل سلطة غير علمية ، والذين درسوا الإسلام من الكتاب والسنة يعرفون أن أمنا بحاجة ملحة إلى تحديد المفاهيم .

الدين عندنا دين وطاعة وانقياد ، واستسلام وإسلام الوجه لله ، ولكنه لا يعادي العلم إطلاقاً ، وإنما الصلة بين العلم والدين ، العلم بجميع

مراحله ومستوياته ، لم يعد مجالاً للنقاش عند المثقفين المنصفين وأهل العلم الذين يحترمون أنفسهم .

ولا أدل على هذا من أنك ستجد في كتاب الله سبحانه وتعالى سبعمئة وخمسين آية ، كلها تدعو المسلمين إلى إعمال الفكر واستغلال العقل على أفضل وجه للارتفاع إلى أعلى درجات العلم ، وجعل اكتساب المعرفة والتفهم العلمي جزءاً لا يتجزأ من حياة الأمة ، ذلك لأن طلب العلم فريضة فرضها الله على كل مسلم ذكراً أو أنثى ، هذا تذكير فقط يربط الصلة بين ديننا وبين التقدم والتنمية .

لماذا اخترت هذا الموضوع تحديداً؟

وإذا كنت اخترت هذا الموضوع فلأنني كتب لي ولكتيرين -ولاشك- من الدعاة وأهل الفكر أن أتصل بشعوب كثيرة في القارات الثلاث على الأقل ، فوجدت أن هناك سلبات ، تارة هي من صنع من يتعمدون التضليل ، وتارة هي من مفاهيم يجب أن تصحح ، هذه السلبات عطلت كثيراً من الطاقات ، وجعلت كثيراً من المتسيبين إلى الإسلام يتساهلون في أداء دورهم في بناء المجتمع ، والقيام بالتزاماتهم بحجة أن المفاهيم التي علموا أخرجتهم من دائرة الاختيار ومن دائرة المسؤولية ، وشوهت معالم الدين عندهم حتى بدا وكأن الإسلام شيء يتشبث به الإنسان فيما يقولون بينه وبين ربه ، فأردت أن أبدأ من البداية ، مثلاً كلمة التوحيد التي هي مدخل المسلمين إلى الإسلام ومدخل كل إنسان يريد الله سعيًا .

التوحيد مفتاح التقدم والتنمية :

التوحيد وحده هو مفتاح التقدم والتنمية الحقة في أوطاننا ، ذلك لأن الإنسان قبل الإسلام كانت في كثير من الأقطار تقدر مظاهر الطبيعة

وتقدس الحجر والشجر وكل ما بهره مظهرًا وعظمًا وجلالًا ، فلو استمر هذا التقديس لما حولنا الطبيعة إلى طاقة نستغلها ، فمن قدس مظهر الطبيعة امتنع عن تسخيرها واستغلالها .

إذن الملاحظ الأول أن التوحيد مدعاة إلى تسخير ما في الكون كما أراد الله لفائدة الإنسان والإنسانية ، ثم هذه الآيات التي قد نشير إلى بعضها حتى يتيقن شبيبتنا الذين هم غرض المدلسين ممن لا يريدون الخير للإسلام أن الإسلام إذا فهم في كتاب الله وفي سنة رسوله وبعقوله من صنع هذا الكتاب خير حافز لخدمة الأوطان وإسعاد الإنسان ، عقيدة يجب أن ترسخ في كل قلب وأن نلاحظها عند التخطيط لأي تكوين في بلادنا ، ذلك لأن الاستقلال الذي أشرت إليه آنفًا بعد أن حزنه وحصلنا عليه وسدنا في بلادنا ، يعني يجب أن لا نلتفت إلى أي قولة أو اتجاه أو تنظيم أو فلسفة أو فكر يشبط همم أبنائنا ، لأن النضال من أجل سعادتنا وحماية بيضتنا يعني جهادًا أكبر كما قلت لا تنتهي معاركه ولا مراحلها حتى نلقى الله سبحانه وتعالى إن شاء الله سعداء راضين مرضيين .

القضية إذن هي قضية هذه البلبلة التي أضرت بالكثير منا ، فأنا أستقي من القرآن الكريم وأستقي من السنة النبوية بعد أن وضحت مفهوم الدين عندنا لأصرح بأن الإسلام دين العلم ، وأن العلم في الإسلام لا نهاية له ، وأن العلم قوة وطاقة ، وأن الإسلام بحاجة إلى هذه القوة وإلى هذه الطاقة .

هناك دليل قريب أيضًا ثبت الآن عند آخر تحليل أن مقررات القرآن الكريم التي ليست تأويلات معتسف ، ولكن مقررات فعلاً قرآنية ثبتت ورسخت أمام الكشوفات العلمية التي هي أيضًا علم وليست افتراضات ، فهذا

في عالم الديانات يعتبر معجزة كبرى ، لأننا لم نألف هذه الحقيقة فيما ورثنا من آثار الأمم الغابرة .

ها هو القرآن كما صرح به أمثال «موريس بوكاي» وكثيرون وكما ثبت في مؤتمر الرياض في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في القاهرة وإسلام آباد ، يعني لم يبق هناك شيء يمكن أن يشكك في أن الإسلام كتاب حق وأن معطياته ومقرراته لا ينال منها اكتشاف علمي حقيقي .

هذا يريح النفس ويحرر الشبهة من العقد ، والدليل الآخر أن تاريخ الإسلام لم يعرف يوماً من الأيام محاكمة غريبة كالتى جرت للعالم الإيطالي «جاليليو» لأن الإسلام لم يضطهد قط عالماً لنظرة علمية جرت ضد هذا وجرت مظالم لأسباب عقدية فقط ، أو مظهر .

أما العلم كعلم يصادر ومرثيات يحاربها الإسلام كإسلام فهذا من شرف الإسلام أنه ما وقع قط في تاريخنا ، ولا غرو فإنه وحي الله الذي خلق الإنسان وعلم ما يصلحه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

فلو ذهبنا نستعرض الآيات التي تسند هذا المنحى لوجدنا آيات كثيرة ، ولكن قبلها دعوني أشير إلى آية درسي ، فأنا لم أسقها إلا لأركز على معنى «اعملوا» لأن التنمية مهما درت حولها لن تحقق في غياب العمل ، العمل الجاد ، العمل اليدوي ، والعمل العقلي ، ولا بد حينئذ أن نستفيد من الآية التي تقول : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] هي في سورة التوبة في صميم ما نهتم به من آخر ما نزل من القرآن ، فآياتها المائة والتسعة والعشرون مليئة بالتوجيهات الأخيرة التي قرأها الله بها علاقاتنا بين

بعضنا ، وعلاقاتنا بالمشركون وبالمنافيين ، حتى إن السورة عكست من جديد عادة عند العرب إذا عظموا شيئاً أو خافوا منه أو أعجبوا به أكثر من أسماؤه .

من أسماء سورة التوبة :

فالتوبة لها أسماء كثيرة حوالي ثلاثة عشر اسماً ، منها : المقشقة ، لأنها تعني معنى التبرؤ من عهود المشركين ، ومنها : المدمرة ، ومنها : الفاضحة ، ومنها : اسم روي عن سيدنا حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ حيث قال لمن معه : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وهي سورة العذاب .

ولهذا فيما روي من عدة أوجه وعند البخاري بالذات ، يعني لم يسم أي لم يبسم في بدايتها ، لأنها جاءت لقطع تلك العهود بالسيف ، والبسمة رحمة ، والقطع بالسيف يجانب الرحمة ، فلهذا لم ينزل مع التوبة البسمة ، كل هذه المعطيات من الأهمية بمكان ، فلو استعرض الإنسان ونحن في شهر رمضان وفي بيته مطمئناً مزوداً بزاد الثقافة العربية الوافية ، سورة التوبة لتعلم كثيراً ولتزود لكي يعلم غيره حيثما كان .

والمجتمع الإسلامي في حاضره محتاج إلى أن يستصحب معاني سورة التوبة ، التي قال أحد الصحابة قبل انتهائها : خشيت أنها لن تترك أحداً ، ومنهم ، ومنهم ، فضحت النفاق والمنافيين ، وشرك المشركين حتى خاف الأبرياء .

الإسلام دين عمل :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا ﴾ الخطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولكن ﴿ أَعْمَلُوا ﴾ من المأمورين بالعمل ؟ قيل : إن في الآية تهديداً ، وقيل : إن الخطاب للثلاثة الذين خلفوا ، ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴿ [التوبة: ١١٨] ، وقيل - وهذا على لسان شيخ المفسرين القرطبي - : إن الخطاب للجميع ﴿ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وشبيهة بهذه الآية آية قبيلها ليس فيها ذكر المؤمنين ولكن فسيرى الله عملكم ورسوله ، لأن الخطاب كان إلى المنافقين الذين يكتُمون أعمالهم الخبيثة ويظهرون الإسلام ، فلزم أن تنسب الشهادة والمشاهدة والمعرفة إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية وإلى رسوله بالوحي .

أما هنا فالخطاب للمؤمنين فعملهم يمكن أن يرى ، سيما وقد ثبت في الحديث ما معناه : لو كان أحدكم في صخرة صماء ليس لها كوة ولا باب ، وعمل عملاً لأخرجه الله إلى الناس ، إذن هذه الحالة تشعر المسلم بضرورة مراقبة الله سبحانه وتعالى في كل ما يأتي وما يذر .

إذن يهمني في الآية النص على العمل ، والإسلام بما أنه في نظرنا يعني ليس كما يقول أعداؤنا دين يحدث تخلفاً عند الملتزمين به ، بل نقول العكس ، ونحب أن يسمعه شبيهة الأمة حيث كانوا ، دين هو خير دين يحفز على تنمية يرضى الله بها .

والأدلة قريبة ما أشرت إليها ، وإذا أردنا أن نختصرها نقول : دين بدأ تنزل كتابه بقوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق : ١] ، القراءة تتضمن القراءة والكتابة والدراسة والبحث والتحليل والحرص على التعرف على أسرار الكون بإذن الله ، ولكن مع فارق مهم جداً ، وهو أن غير المسلمين يقرءون لغايات أخرى ، ويقرءون بمعزل عن السماء وتوجيهاتها ، ولكن المسلم مأمور بأن يقرأ باسم رب العالمين الذي لا إله إلا هو ، هذه القراءة

التي أشارت إلى اسم الله تعالى تجعل لثقافة المسلم هوية خاصة يجب الحرص على أن لا تذوب في أية ثقافة أخرى .

وهذه نقطة تذكرفي بذيول ما زلنا نعاني منها عبارات ورثناها من عهد الاستعمار ، يكتب كاتب في صحيفة في بلد إسلامي ويقول ما معناه : نحن في أسرار الآلهة يصوغ الآلهة بشكل الجمع ، ولا إله إلا الله ، ويتنادون إلى تكريمات باسم خمر ولا خمر ولا خمر عندنا ، لماذا لا يقال تمر أو لبن أو شيئاً آخر يجعلنا متشبثين بذاتيتنا ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ [١-٣] .

ومن كرمه أنه أخرج الأمة من بداوة إلى حضارة ، ومن شرك إلى توحيد ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الخالق ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، هذا الأكرم بنى الأمة بالقرآن فأصبحت أمة حضارية تقدمت وتطورت حتى صارت يوماً ما في هذا العالم هي وحدها يومئذ أمة الحضارة ، حتى ساغ لأحد خلفائنا وقد ساد وتمكن أن تمر به سحابة في السماء فيخاطبها حامداً شاكراً : أمطري حيث شئت فإن خراجك سوف يأتي ، وأظن أنه الخليفة هارون الرشيد الذي من شأنه ما تعرفون ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾ [العلق: ٣، ٤] والقلم مرة أخرى أداة الكتابة والتكوين ، ولكن علم الإنسان ما لم يعلم .

الذين يبحثون عن صلة الإسلام بالعلم والمعرفة والحضارة والتكوين والتنمية ليجدوا في «ما» هذه ، هي تتسع لكل ما جد ويجد في عالم المعارف .

بقي أن يأخذ المسلم الأمر بقوة ، أن يأخذ الكتاب بقوة وأن يعزم عزيمة

الإيمان ليعلم أن بناء الأوطان ليس لهوا ولكن جد لا بالهويننا يتناول .

علمية الإسلام:

قلت آنفاً: إن هناك ما يثبت علمية الإسلام عندما علمنا أن حوالي سدس آياته أو ثمن آياته تتحدث عن هذا المنحى ، ولكن لنسأل أهل العلم التجريبي اليوم ماذا يقول مثلاً أحد من فازوا بجائزة «نوبل» في الفيزياء؟

أخ مسلم من باكستان يدعي محمد عبدالسلام يقول: إنه كعالم في المختبرات يجد في القرآن في سورة الغاشية أو في سورة آل عمران توجيهها مباشراً له كي يبحث في علم الكون وفي علم الأحياء وفي علم الطب وفي الفيزياء ، عندما سمع الحق تعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] ، لتذكر أن علم الكيفيات بدقة ، عبارة عن العلم (science) الذي نتحدث عنه اليوم .

وأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خُلِقَتْ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] فإذا كان العالم الفيزيائي الذي أخذ جائزة «نوبل» وما أدراك ما هي رغم الالتواءات التي نعرفها ، إذا كان أقر أن الدين هو حافزه على حب العلم وإن أصبح في القمة ، فهذا برهان آخر يساق للشباب كي نقرأ باسم ربنا ونواصل القراءة والكتابة .

والنبي ﷺ خير من دب على ظهر الأرض ، والذي تلقى الوحي وعلم

ما لم يعلم غيره يقينًا، يؤمر من قبل الحق بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] لأن القرآن علمه قبل ذلك أو بعده أنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فكان القرآن في تلك العهود الغابرة كان قد أقر أن التقدم العلمي والتكنولوجي لا نهاية له، فالميدان واسع، ركضًا إلى العلم بزداد الصبر والتهئية والميزانية الضخمة.

وفي القرآن آيات أسوقها بلا تحليل، منها قوله تعالى: ﴿كِتَبٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وآية أخرى تمنيت لو عقد علماء العلوم المادية من المسلمين عقدًا حولها ندوة ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]؛ لأن العالم في هذه الفنون العلمية إذا درس القرآن على ضوء معطياتها المستقرة هو الذي يشهد أن القرآن فعلاً هو الحق من عند الله، وإذا ثبتت حقيقته عند الجميع كما عندنا سهل النضال من أجل التقدم بلا عقبات.

وآية أخرى تقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] يعني قضية كتفريز الألوهية والربوبية يشهدها الله ويجعل من الشهود أهل العلم الراسخين فيه.

هذا يكفي، وآيات كثيرة، والأحاديث النبوية بهذا المعنى أيضاً لا نحتاج

إلى سردها، منها فقط - ما روي عن أنس رضي الله عنه وهو حديث متفق عليه :
«من خرج لطلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» ، كما روى سهل رضي الله عنه
 أن رسول الله ﷺ قال للإمام علي وهو يقسم : **«فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً
 واحداً خير لك من حمر النعم»**^(١) أي من كل المواشي ، فالرسول يقول صادقاً
 مصدوقاً ، ولكنه يقسم للفت النظر لقضية كبيرة لأنها علم .

وسيأتي زمن يبرز فيه أناس يشربون بأعناقهم كي يشجبوا الإسلام ،
 زاعمين أنه دين بجانب العلم ، وكل هذه الآيات ومثلها معها وأكثر منها
 تنكر ذلك .

وكذلك روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله ﷺ : **«نضر الله امرأ سمع منا شيئاً
 -في هذه الرواية- فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع»**^(٢) أي رب
 شخص تنقل إليه نظرية أو آية أو مسألة فيفهم منها ما لم تفهم أنت الذي
 تلقيته ، وتبلغه ، وهذا ثبت بالتاريخ ، وليس بعد ثبوت التاريخ أي جدال .

كما نبه عن كتم العلم ، بل إن الرسول ﷺ فيما تعلمنا من أحاديثه قد
 فضل في موقف من المواقف خبرة طيب غير مسلم على طيب مسلم أقل منه
 خبرة ، وهذا منتهى التكريم للعلم ، وفي التاريخ الإسلامي صفحات
 مشرقات حدث عنها ولا حرج ، فيها تواريخ علمائنا ، مع أن بعض المشاغبين
 في بعض المجلات العلمية أخيراً في سويسرا حاول أن يقلل من قيمة هؤلاء
 العمالقة من ابن سينا إلى ابن الهيثم العالم الفيزيائي الكبير ولكن .

وكم من جبال قد علا شرفاتها رجال فبادوا والجبال جبال

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧) ، وابن ماجه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

هؤلاء القمم لا ينال منهم حاقد ولا من يحاول أن يطفئ الشمس .

الإسلام والتنمية :

إذن الآن رأينا أن التنمية حاجة ملحة ، وأنها نريدها شاملة ، وأنها لن تتحقق بغير علم وعمل ، وأن العلم يكون علماً بجميع الفروع الممكنة ، وأن العمل يكون بالعمل العقلي والعمل اليدوي في ظل النظام الذي تعلمناه من الصلاة ، الصلاة التي دققت في التنظيم حتى قال رسول الله ﷺ لمن تعجل فرفع رأسه قبل إمامه : «ألا تخشى أن يحول الله رأسك رأس حمار»^(١) ، هذا فيه ما فيه من الإيحاء البليغ .

القضاء والقدر :

بعد أن علمنا هذا فلماذا يريدون أن يعتقد شبابنا أن الإسلام يجافي التنمية؟ قالوا لأنه حرم الربا ، قالوا لأنه يقول بالقضاء والقدر ، قالوا لأنه حرم أشياء كثيرة ، قالوا لأنه . . . والحق أن الشريعة الإسلامية بريئة من كل هذه التهم ، فلو وجد نقص فلا يعدو أن يكون في المسلم الذي لم يفهم أو فهم ثم تولى وهو مدبر كجهاز استقبال معطل لا يعيب جهاز الإرسال الذي لن يتوقف قوياً ومؤثراً ، فوجب نقد ذاتي ، ومواجهة المثبتين والمضي في سبيلنا .

لاحظتم من مولدات السليبيات بعض النقط ، أرجو أن أتناولها بسرعة ؛ لأن هذا المنبر وهذا المكان المباركين يتلقى المسلمون منهما ما يحترمونه فيؤثر فيهم .

لاحظت فيمن استقبلت من شباب الأمة في أوروبا وإفريقيا وآسيا أن هناك نقطة هي حق ولكن استخدمت لإحداث شلل في همهم وهو ما

(١) أخرجه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يسمى بالقضاء والقدر، والإيمان بالقدر أصل في الإسلام، ولا إيمان بدون إيمان بالقدر.

ومباحث القدر إذا تُنوّلت فلسفيًا شغلت وشطت بالناس، ولكن إذا نظرنا في القرآن وفسرنا القرآن بالقرآن لا بد أن يتضح بتركيز واضح للشبهة أين الموقف؟ ونحن الآن لا يمكن أن نسكت عن مباحث القدر ما دام شبابنا في الثانوية يغوصون في الفلسفة، فيجب أن ألخص وأقول: المسلم مكلف، ولو لم يكن له حرية ما كلف.

والقضاء والقدر تعلمناه من رسول الله ولو كان الأمر بالسلبية لرأيناه سلبًا، ولكنه جيش الجيوش وخطط للمعارك وبعث العيون، ودعا الله وهدم الآبار بعد أن استقى وفعل كل ما في وسع قائد محنك أن يفعله وتوكل على الله، إذن كل من أراد أن يفهم من أحاديث القضاء والقدر يعني انتفاء لمسئوليته يقول له: كيف فهمها رسول الله؟ فلو كانت القضية قضية سلب لرأيناها عند رسول الله، لأنه أول من طبق تعاليم الكتاب الذي تنزل عليه.

إذن نقول للشباب: هناك قضاء وهناك قدر، فلو اختلط الحابل بالنابل لالتبس الفهم، وجدنا في أي القرآن آيات فهمنا منها أن ثمة قضاء يستوجب الصبر فقط -والحمد لله- من النوع الذي لا يحاسب عليه الرجل، يحدث له حوادث لا إرادية، أين ولد في أي بيئة نما، من أبواه، أهو جميل أم قبيح وسيم أم غير وسيم؟ ذكي أم غبي؟ أحداث مهمة.

ومن قضاء الله سنرى الآية ولكنها ليست موضوع المحاسبة، يقول الله

تعالى في سورة آل عمران : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ٦] ، هذا التصوير بمشيئته ، ولا دخل لك ، ولكن لا حساب عليك ، إذن قضاء يستوجب الصبر فقط .

ولهذا جاءت آية أخرى لتركيز المعنى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد : ٢٣] ، لأن الأسى هو الحزن المفرط ، والفرح هو الفرح الثاني لا يجديان في هذا المناخ ، في هذا النوع من القضاء . ولكن هناك قضاء يستلزم المعالجة والعمل للتغيير هو قضاء في محيط الأسباب وارتباطها بالمسببات ، هنا الجهد البشري ينفع ويؤثر ، الطالب يدرس إذا أراد النجاح ، المريض يعالج ، الغريق يعمل جهده للنجاة ، العدو إذا هاجمنا ندفعه ونقاتله .

هذه أشياء من القدر الذي قدر ، ولكن ليس مطلوباً منك أن تستسلم له ، لكن تعمل لكي تغير الأمر الذي وقع ، والله سبحانه وتعالى قال لنا في هذا المعنى قولاً بليغاً ترجمه بلغته سيدنا عمر بن الخطاب عندما أحجم عن دخول الشام ؛ لأن فيها طاعوناً فقال له سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه جميعاً : أتفر من قدر الله؟ فقال جواباً بليغاً ممتاراً ينبئ عن تعمق في هذا الدين : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله .

وبعد ذلك بقرون رأينا الشيخ عبدالقادر الجيلاني يقول : أغالب الأقدار بالأقدار وهو كذلك ، إذا حتى الدعاء من القدر ، إذن هذا القضاء يستوجب المعالجة والعمل للتغيير ، لولا هذا لاستسلم المسلمون في بلادهم جميعاً قضاء وقدراً ليستولي عليهم أعداؤهم ، ولكنهم مطالبون بالجهاد . ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

بقي قضاء ثالث أنت فيه حر ومحاسب في حدود الحرية ، تلك التكاليف الشرعية إذا فهمناه هكذا وجعلناه مقدمة لدراسة الموضوع مرة أخرى سنجد أن الأمر مريح جدًا ، قضاء للصبر ، وقضاء للمعالجة والتغيير ، وقضاء أنت فيه مخير وفي حدود الحرية تحاسب .

فلو أردنا أن نسوق لها أحاديث وآيات فهي كثيرة ولكن لا نطيل بها إلا لماما ، مثلاً الإنسان ذو إرادة فإذا علمها الشباب استعصى على الملبسين أن يؤثروا فيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] يثبت الإرادة الإنسانية المؤثرة .

وكذلك يعني ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى : ٢٠] دليل على أن الإنسان قادر على التحويل ، وهي آيات محكمات لا جدال فيها ، ولكن الذي يثبت رحمة الله بعباده أن هناك حالة الاضطرار في كل هذه الأحوال ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ١٧٣] والضرورة تقدر بقدرها .

وللعلماء في هذا مجال واسع لإقرار الحق ، ولكن مع الأسف الشديد منذ قديم نجد في كل حي بعض من نكلوا عن مسئولياتهم وخطوا الحمل على القدر ظالمين ، بل عندهم قسمة نسميها ضيزى ؛ لأن كل من أحسن يجب أن ينسب إليه إحسانه .

أبداع ، سبق ، انتصر ، ولكن إذا أخطأ جعل الله هو المسئول وجعل القدر هو المسئول ، هذه قسمة ضيزى ، ولهذا القرآن شجب هذا بقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٤٨] إذن شاء الله أن نشرك ، لا أبداً ، لأن الله قال لهم :

يعني إنه لا يكره أحداً على أن يشرك ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۚ قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨] لا علم يثبت أن الله يرضى لعباده الكفر أو الشرك، فثبت أنهم انهزموا .

هذه من الخلاصات التي تسهل على الشباب هذا المدخل ، ولكن هناك في الدين لإكمال هذه النقطة يعني في قصة آدم ﷺ وإبليس تصوير سماه أحد الأساتذة للإنسانية الناجية والإنسانية الهالكة ، كيف ذلك؟ آدم عصي نص عليه القرآن ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] في كلمة غوى معنى عميق ، لو قالت العرب : غوت الناقة ، معناه مرض وفسد ما في بطنها .

وكان آدم ﷺ قبل أن يأكل من الشجرة عاصياً ما كان فيه هضم ولا فضلات ، فغوى ثم تاب عليه ، إذن تاب عليه ؛ لأنه قال : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] اعترف بذنبه ، بينما إبليس قال : إن الله هو الذي أغواه ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] هذا اعترف بذنبه فعفي عنه وغفر له ، وذاك أصر على الضلال فلعنه الله .

وإلى الآن الإنسانية بين هذين التيارين عافانا الله ووقانا الشرور ، فقبل هذه الزيارة بيومين فاتحني مثقف محترم ظل في شكوك شبهة سنوات ، هي قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] قال : فضاعت جهوده ولم يبرد نفسي ماء عليل ، قلت : لا ، الأمر يحتاج إلى تعلم القصة ... الآية ابدأها من وراء قليلاً ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصفات: ٩٥ ، ٩٦] ، الذين نحوتوا الأصنام ثم عكفوا عليها يعبدونها يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصفات: ٩٥ ، ٩٦] ، فمن قطع الآيات دون مكملاتها تاه في البياء .

وكذلك خطاب في القرآن : خطاب فيه نحن نتكلم في تحرير طاقاتنا ،
والتحصن ضد من يبلبلون عقولنا ، خطاب نجده في القرآن كأنه ينفي
تأثير الإنسان ، وخطاب آخر يثبت فعاليتة ، ذلك لأن البشر ليسوا سواء ،
مثلاً عندما يكون فرعون طاغية ينادي ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ
الْأَسْبَبَ ۖ﴾ [سَبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ
كَذِبًا] [غافر: ٣٦، ٣٧]

هذا إذا جاءت الآيات تخاطب أمثاله ، هذه الآيات يكون فيها ما يفهم
أن ليس لك من الأمر شيء : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولكن
إذا وجد الإنسان يائساً ضعيفاً يكاد لا يؤثر حينئذ يعني يدعوه إلى أن يؤثر
ويقول له : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] أو ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وأريد الآن أن أشير بعد تقرير صلة الإسلام بالعلم بإيجاز وتركيز
وبعد إبراز علمية الإسلام ونفي تلبيسات من يريدون استعمال القضاء
والقدر للفت في أعضادنا ، أشير فقط إلى التلخيص الأخير في هذه النقطة
وهي أن من العجب أن السلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا يؤمنون به
ويدفعهم إلى التضحية والإقدام ، وفي عصور الانحطاط يؤمن الإنسان
بالقدر فتراه قابلاً في بيته سليماً ، هذا عجيب جداً ، الإمام علي عليه السلام كان
إذا أقدم واستبسل وانتصر وأبلى بلاء حسناً يفسر إقدامه للناس بقوله ما
معناه : «إنه لا يدري أي يوميه يخاف ويحجن فيه أيوم كتب الله أنه يموت؟
أم يوم لم يكتب موته؟ فإن كتب الله موته فما فائدة الجبن؟ فإن لم يكتب
موته فما فائدة الجبن؟ فما خطر الإقدام هذا بالقضاء والقدر» تشجع وأقدم
وأثر ، وبعض مسلمي اليوم آمنوا بالقضاء ولم يؤثرُوا ولم يحركوا ساكناً .

قلت : جناحا التنمية لمن ينكرون صلتنا بها إسلاميًا هما العلم والعمل ، والعمل أشارت إليه الآية : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا ﴾ أنتجوا حتى إن الرسول ﷺ سلم يومًا عليه عامل مجلت يده ، واخشوشنت فاستحيا من إيدائه للكف الناعم كف المصطفى ﷺ ، ولكن الرسول شجعه وعلمه وعلم الناس من بعده عندما قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » يد المنتج ، يد المزارع ، يد العامل ، يد من يعمل لبقاء الحياة ولاكتساب رزقه ، حتى إننا رأينا في الأحاديث أحاديث لم تشتهر وهي عظيمة جدًا مثل قوله ﷺ كما يروي أبو يعلى : « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض » .

هذا في عالم المعادن سبق طويل ، وكذلك إن فيما يروى في الشهاب أن البطالة تقسي القلب ؛ فالإنسان إذا لم يجد عملاً ولم يمارس نشاطاً ، لا يزال ينحدر حتى يصل إلى نوع من قسوة القلب والعياذ بالله ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

على الشباب المسلم بنين وبنات أن يتصيدوها لدى العلماء وفي الكتب ؛ لأن التحصن ضد الكوليرا واجب ، ولكن التحصن ضد الكوليرا الفكري والثقافي أوجب .

قال ﷺ فيما يرويه الإمام أحمد : « إذا قامت الساعة - وفي رواية : لو قامت الساعة - وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر » هذا أبلغ دعوة إلى الإنتاج ، اللهم إلا الآية التي يمر بها الإنسان ولا ينتبه لها وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨] ، إذن الآية في صمت تقرر أن المعادلة التي تفرض نفسها عند تلاوة الآية هي أن الحياة عبارة عن العبادة لله تعالى

وعن العمل ؛ لأن من علم أنه لا يستغني عن الأكل يجب أن ينتج ، ومن علم أنه لا بد يموت يجب أن يعبد ربه بإخلاص وتوحيد .

كل هذه آيات كثيرة من أمثالها تثبت أن الإسلام يدعو المسلمين إلى العمل وإلى الإنتاج ، ولكن معولهم هو الله واتكاهم على الله في إدراك النتائج .

ولو تصورنا مجتمعًا إسلاميًا سليم القيادة سليم العقيدة منضبط السلوك مستجيبًا للنداء القرآني إلى العلم وإلى التفكير وإلى التوسم وإلى التدبر وإلى السياحة في الأرض وإلى استنطاق التاريخ ، ثم أيضًا ينتج ، مستجيبًا للدعوة إلى العمل ، من أين يأتي التخلف مجتمعًا تقدميًا كهذا ، تلك دعوة الله ، وهي حقيقة الدين وكل كلام غيره يوجه إلينا فإنما هو كيد يجب أن لا نمكن صاحبه من إسماع صوته ، وفي الشريعة الإسلامية الغراء تنظيم دقيق لحقوق العمال وأصحاب الأعمال لا يظلمون ولا يظلمون ولا يتسع المجال لهذا .

المحاضرة الرابعة والخمسون بعد المائة

نظرات في سورة الأعراف

درسنا مع آيات كريمة من سورة تسمى في القرآن الكريم بسورة الأعراف. وسورة الأعراف من السور المكية الخالصة عند المحققين من المفسرين، وهي أطول سورة مكية في القرآن الكريم، وعدد آياتها ست آيات بعد المائتين.

والذي يقرأ هذه السورة الكريمة يرى أنها قد اشتملت على أهم المقاصد التي اشتمل عليها القرآن المكي، من إقامة الأدلة على وحدانية الله ﷻ، من إقامة الأدلة على صدق سيدنا رسول الله ﷺ، فيما جاء به من عند ربه، من إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. من إقامة الأدلة على أن يوم القيامة آت لا ريب فيه.

أسلوب عرض الحقائق في السورة الكريمة:

والذي يقرأ هذه السورة الكريمة أيضاً بتدبر وتأمل وتفكر، يجد أنها قد اهتمت بعرض الحقائق في أسلوبين بارزين:

١ - التذكير بالنعم:

أما الأسلوب الأول فهو التذكير بالنعم التذكير بالنعم التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على عباده. وأن الناس إذا ما شكروا خالقهم ﷻ على هذه النعم، واستعملوا هذه النعم فيما خلقت له، زادهم سبحانه وتعالى منها. كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢- التحذير من النقم :

أما الأسلوب الثاني الذي نراه في آيات هذه السورة الكريمة ، فهو أسلوب التحذير من النقم ، حتى يقلع الضالون والمنحرفون عن ضلالهم وعن انحرافهم عن الطريق المستقيم .

أسلوب التذكير بالنعم نراه في عشرات الآيات من هذه السورة الكريمة ، نراه واضحاً في لَفَتْهَا الْأَنْظَارُ في كثير من آياتها إلى ما يلمسه الناس ويحسونه ، من نعمة تمكينهم في الأرض ، من نعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، من نعمة تسخير كثير من مخلوقات هذا الكون لهم ، ولنستمع إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا ۖ مَا تَشْكُرُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠ ، ١١] .

نرى ذلك أيضاً في قوله ﷻ : ﴿ يَبْنِيْٓءَ آدَمَ ۖ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكْمُ وَرِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

نرى ذلك في قوله ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

أما أسلوب التحذير من النقم فالسورة الكريمة زاخرة بذلك . نلمس ذلك في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم ، وأكثر من نصف سورة الأعراف يتحدث عن قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم .

حدثتنا السورة الكريمة عن قصة سيدنا نوح مع قومه ، وعن قصة سيدنا هود مع قومه ، وعن قصة سيدنا صالح مع قومه ، وعن قصة سيدنا لوط مع قومه ، وعن قصة سيدنا شعيب مع قومه ، ثم سبحت سبحاً طويلاً فحدثتنا في أكثر من سبعين آية عن قصة سيدنا موسى مع فرعون ، ومع قومه من بني إسرائيل . وفي أعقاب كل قصة تذكر كيف أن الذين خالفوا أنبياءهم وعصوا رسلهم قد أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر ﴿ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) ﴿ أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ (٩٨) ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧ - ٩٩] .

والآيات التي هي موضوع درسنا اليوم قد افتتحت ببناء لبني آدم ، يقول الله تعالى فيه : ﴿ يَبْنِيْٓءَ آدَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

سبب نزول الآية :

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات متعددة .

منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن بعض العرب في الجاهلية كانوا عندما يطوفون بالبيت الحرام يخلعون ثيابهم عنهم ، ويقولون : لا نطوف في ثياب قد عصينا الله فيها .

ويبدو أن هذه العادة قد بقيت في بعض الناس ، فجاءت شريعة الإسلام لكي تمنع ذلك ، ولكي تأمر الناس بأن يتجملوا ، وأن يكونوا على أحسن هيئة عندما يقفون أمام خالقهم ﷻ في الصلاة عندما يكونون في عبادة من العبادات ، أي عليكم أيها المسلمون أن تتجملوا بالثياب التي

تستر عوراتكم عند كل صلاة ، وعند كل عبادة شرعها الله ﷻ . وقد كان العقلاء الصالحون يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى في صلاتهم وهم في أجمل زينة وفي أكمل هيئة .

هذا هو الإمام الحسن بن علي عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه . فقيل له في ذلك فقال : إني أحب أن أتجمل لربي فقد أمرني بذلك في قوله تعالى : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي عند كل صلاة .

ولاشك أن قيام المسلم للصلاة وهو في أحسن هيئة دليل على اهتمامه بها ، دليل على قوة الإيمان ، دليل على طهارة النفس ، دليل على صفاء القلب ، دليل على حسن صلته بخالقه ﷻ .

التحذير من الإسراف :

وقوله سبحانه : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ هذه الآية الكريمة بيان لما يجب أن يكون عليه المسلم في معاشه ، بعد بيان ما يجب أن يكون عليه المسلم في عبادته ، آية واحدة من كتاب الله بينت لنا ما يجب علينا عندما نؤدي العبادة التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها ، وفي الوقت ذاته بينت لنا أيضاً ما يجب علينا بالنسبة لحياتنا : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي عليكم أيها المسلمون أن تؤدوا العبادات التي كلفكم الله بأدائها وأنتم في هيئة حسنة ، وفي مظهر جميل ، وعليكم كذلك في حياتكم أن تأكلوا المأكّل الطيبة ، وأن تشربوا المشارب الحسنة التي أحلها الله ، واحذروا الإسراف ؛ لأنه سبحانه يكره المسرفين الذين يتجاوزون الحدود الشرعية في طعامهم أو في شرايهم أو في سائر شؤون حياتهم .

وفي الحديث الصحيح يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة»^(١). وقال بعض الحكماء: جمع الله ﷻ أهم مقاصد الطب في نصف آية، في قوله ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

والحق أن هذه الآية الكريمة تهدي الناس إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم، تهدي الناس إلى ما يصلحهم في دينهم وفي دنياهم، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التي أحلها الله، ولكن دون إسراف أو تبذير أو بطر، أو نسيان لشكر الله ﷻ؛ لأن الإسراف في كل شيء يتنافى مع الآداب الدينية، ويتنافى مع الأخلاق الإنسانية، ويتنافى أيضاً مع العقول السوية.

وقد تكرر التحذير من الإسراف في آيات متعددة من كتاب الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]. أي كانوا إخواناً لهم في سلوكهم القبيح وفي خلقهم الذميم، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

الإسلام دين الوسطية:

ولقد بلغ من حرص رسول الله ﷺ على أن يعلم أتباعه الاعتدال والتوسط «أنه ﷺ عندما رأى سعد بن أبي وقاص يسرف في استعمال الماء

(١) ذكره البخاري معلقاً عن ابن عباس تحت باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٨٧٨).

وهو يتوضأ، وقال له: يا سعد، ما هذا الإسراف في الماء؟ فقال سيدنا سعد، وكأنه يتعجب من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: وهل في الماء من سرف يا رسول الله؟ فأجابه ﷺ بقوله: لا تسرف ولو كنت على نهر جار^(١). فحتى في الأمور التي تتعلق بالوضوء نجد سيدنا رسول الله ﷺ يأمرنا بالاعتدال في استعمال الماء؛ لأن الماء نعمة من أجل النعم. وجاء الحديث عنها في القرآن الكريم في أكثر من ستين آية، فسيدنا رسول الله ﷺ يعلمنا ويرشدنا، ويبين لنا أن الإنسان منا إذا ما تعود على الاعتدال وعلى التوسط في مأكله في مشربه في وضوئه في كل حال من أحواله، فإن هذه العادة ترسخ في قلبه، وتجعله إنساناً عندما يرى شيئاً فيه إسراف ينفر منه، ينفر منه لماذا؟ لأنه تعود وأصبحت عادة عنده وسليقة وسجية أن يكون معتدلاً في حياته، ومن شب على شيء شاب عليه:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وفي الحقيقة: إن الذي ينظر إلى الأمم التي ارتقت وتقدمت وزاد إنتاجها يرى أن على رأس أسباب رقيها وتقدمها: التوسط، الاعتدال، نبذ الإسراف، ونبذ التبذير.

إن العقلاء من الناس هم الذين يلتزمون التوسط والاعتدال في كل أمر من أمورهم؛ لأن الإسراف في أي أمر يدل على السفه، ونقص العقل والتلبس بالغرور والعجب والخيلاء.

كما أن البخل والتقتير والشح يدل كذلك على اعوجاج في النفس

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٢١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

والتواء في الطبع وسوء في السلوك . وقد قالوا :

بين إسراف وبخل رتبة وكلا هاذين إن دام قتل

لذا جاءت الآية الثانية التي تلت هذا النداء ترد على المنتطعين الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسعه الله . فقال ﷺ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

ويبدو أيضًا أنه على النقيض من أولئك الذين كانوا يسرفون ، كان هناك أيضًا من يمتنع عن أكل الطيبات التي أحلها الله فنزلت أيضًا ، جاءت الآية الثانية لتقول : بأن الطيبات التي أحلها الله ، أباح لنا الخالق ﷻ أن نتمتع بها في حدود الاعتدال ، ونشكر الخالق ﷻ على هذه النعم .

وجاء هذا التوجيه بأسلوب الأمر والتلقين للنبي ﷺ ، أي قل أيها الرسول الكريم لأولئك الذين لم يعرفوا طريق الاعتدال ، فبعضهم أسرف ، وبعضهم بخل بما آتاه الله من فضله .

قل أيها الرسول الكريم لأولئك الذين لم يعرفوا طريق الاعتدال في عبادتهم أو في سلوكهم ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزر : من أين أتيت بهذا الحكم الذي عن طريقه حرمتهم على أنفسهم بعض الزينة ، وبعض الطيبات التي أحلها الله ﷻ لكم . ثم أمر الله ﷻ نبيه ﷺ للمرة الثانية أن يرد عليهم بأبلغ رد ، فقال : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

أي قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين لم يسلكوا الطريق المستقيم ، قل لهم : هذه الزينة وتلك الطيبات من الرزق ثابتة للمؤمنين ولغير المؤمنين في الدنيا ؛ لأن هذه الدنيا جعلها الله سبحانه وتعالى لمن يحب ولمن لا يحب .

أما في الآخرة فهذه الطيبات يتمتع بها المؤمنون وحدهم ، ولا يشاركونهم فيها من أشرك مع الله في العبادة آلهة أخرى . فالآية الكريمة نراها ترسم للمسلم في كل زمان وفي كل مكان ، ما يجب عليه نحو دينه ، وما يجب عليه نحو دنياه .

ومن أساليب القرآن الكريم التي فيها ما فيها من البلاغة أنه أحياناً عندما يتكلم عن قضية ، يتكلم عنها كلاماً أساسياً ، ويترك الفرعيات يفهمها الناس ، حتى يفتح عقولهم على التفكير وعلى التدبر . فقوله ﷻ : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ ﴾ - بالفتح ، وفي قراءة بضم التاء .

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ هنا يقول العلماء : فيه كلام يفهم من السياق . وتقدير الآية الكريمة : قل أيها الرسول الكريم للناس هذه الزينة ، وتلك الطيبات ما يتعلق بالدنيا يشترك فيها المؤمن وغير المؤمن ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي ويشاركونهم غيرهم فيها . أما في الآخرة فيأتي القسم الثاني : خالصة أو خالصة . أي هي خالصة أو حالة كونها خالصة للمؤمنين في يوم القيامة . ﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٢] . فالآية الكريمة توبخ أولئك الذين حرموا على أنفسهم ما أحله الله ، وتوضح أيضاً أن مطالب الحياة الدنيا يشترك في تحصيلها المسلم وغير المسلم ، كل على قدر استعداد ، وعلى قدر اجتهاده ، وعلى قدر مثابرته وعلى قدر جهده ، أما الآخرة فإن ثوابها وخيرها ونعيمها إنما هو خالص لمن آمن وعمل صالحاً .

ذكر الشيء وما يقابله :

من أجل تثبيت الحقائق في الأذهان نرى القرآن الكريم من أساليبه أنه

يذكر الشيء وما يقابله ، بمعنى أنك عندما تقرأ القرآن الكريم بتدبر وتمعن وتفكر ترى أن القرآن الكريم بالاستقراء ما تكلم عن المؤمنين وحسن عاقبتهم إلا وأتبع ذلك بالحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم ، والعكس صحيح .

حتى لو نظرت إلى السور التي هي من قصار المفصل تجد هذا المعنى واضحاً في سورة النازعات ، مثلاً : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٦٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٦٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَى ﴿٧٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٧١﴾ ﴾ [النازعات : ٣٧ - ٤١] . ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] . ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ﴿٧٤﴾ ضَاكِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٧٥﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٧٦﴾ تَرْهُقُهَا قَرَةٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [عبس : ٣٨ - ٤١] .

نجد أن القرآن دائماً عندما يتحدث عن الأخيار ، وعن حسن عاقبتهم يتبع ذلك بالحديث عن الأشرار ، وكأن الله ﷻ يقول لعباده : استمعوا وأنصتوا ، وانظروا ، تلك عاقبة هؤلاء ، وهذه عاقبة أولئك ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

جاءت الآيات السابقة تتحدث عن نعم الله ، وتحدث عما أحله الله ، وتحدث عن الطيبات ، وكأن سائلاً يسأل ويقول : إذا كانت تلك هي الطيبات التي أحلها الله . فما هي المحرمات التي حرمها الله ؟ تأتي المقابلة ، ويأتي الأمر لسيدنا رسول الله ﷺ للمرة الثالثة ، نجد قوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

خمس رذائل والعياذ بالله ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبعدنا وإياكم عنها ؛ أي : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حرموا على أنفسهم ما أحله الله ﷻ . قل لهم ليس الأمر كذلك . قل لهم : ﴿ حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ ﴾ . والفواحش جمع فاحشة ، وتطلق على كل قول يغضب الله ، أو على كل فعل يغضب الله ، أو على كل سلوك يغضب الله ﷻ ، وأكثر ما تكون إطلاقاً والعياذ بالله على فاحشة الزنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

الكذب فاحشة ، ويقابله الصدق فضيلة فالكذب فاحشة ؛ لأنه يتنافى مع الخلق الإنساني والطبع الإنساني ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ : «يُطْبِعُ الْمُؤْمِنَ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا سِوَى الْكَذْبِ وَالْخِيَانَةِ»^(١) . أما الصدق فله بركته ، وله ثوابه ، ويكفي قوله ﷻ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

الظلم فاحشة من أقبح الفواحش ، ويكفي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَنْتِ أَوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] .

أما العدل فبه تحيا الأمم ، به يسود الأمان ، به يسود الاطمئنان ، أمرنا الله ﷻ أن نكون عادلين في أقوالنا : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

أن نكون عادلين في أحكامنا : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥ / ٢٥٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

أن نكون عادلين في شهادتنا: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا
الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢] .

أن نكون عادلين مع العدو ومع الصديق ، مع القوي ومع الضعيف ،
مع القريب ومع البعيد ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا
أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] .

حرمة الاعتداء على النفس الإنسانية :

الاعتداء على النفس الإنسانية بأي لون من ألوان الاعتداء فاحشة . فكل
المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه . ويكفي أن الله ﷻ جعل من
يقتل نفساً إنسانية ظلماً وعدواناً فكأنه قد قتل الناس جميعاً . ومن يتسبب في
إحيائها وفي نصرتها وفي الوقوف إلى جانبها فكأنما أحيأ الناس جميعاً : ﴿أَنَّهُ
مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] أي ومن تسبب في إحيائها
﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ والتحذير من ارتكاب
الفواحش سواء أكان ارتكابها في العلن أم في السر ، المقصود منه زيادة التنفير
والترهيب ، وبيان أن الله ﷻ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

تحريم الفواحش الظاهرة والباطنة :

كما حرم سبحانه الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، حرم أيضاً الإثم
والبغي بغير الحق . والفرق بين الإثم وبين البغي أن الإثم ذنبه يتعلق
بصاحبه . فالتقصير في الصلاة إثم ؛ لأن سوء العاقبة يعود على من يقصر
في هذه الصلاة ، الذنوب التي بين الإنسان وبين خالقه من باب الآثام .

أما البغي - والعياذ بالله - فليس الذنب يعود على صاحبه فقط ، بل أيضاً

الظلم يعود على الذي اعتدى عليه الإنسان ، فقتل النفس بغي ، الظلم بغي ، السرقة بغي ، أكل أموال الناس بالباطل بغي ، استحلال ما حرمه الله سبحانه وتعالى من أموال الناس ، أو من أعراض الناس ، أو من كرامات الناس بغي . وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن كل ذلك . وانظر إلى قوله ﷻ : ﴿ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، والبغْيُ لا يكون إلا كذلك ، لكن لم قيده القرآن بهذا؟ لزيادة التشنيع ، وأن أولئك البغاة إنما فعلوا ما فعلوا ، واعتدوا على ما اعتدوا عليه وظلموا من ظلموا دون أن تكون أمامهم أية شبهة ، فبغيتهم عن إصرار وعن جحود وعن تعمد ، ولذا ذم الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : ﴿ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

الشرك بالله :

ثم جاءت الرذيلة الرابعة ، ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، أي حرم الله ﷻ عليكم أيضًا أن تجعلوا مع الله شركاء في العبادة ؛ لأن الشرك جريمة لا تغتفر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿ [النساء: ١١٦] ، وفي آية أخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿ [النساء: ٤٨] ، وفي آية ثالثة : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، هذه الجملة ﴿ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ، بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة عندهم على الشرك ، لا دليل عندهم على الشرك ، لا من النقل ولا من

العقل ، وإنما شركهم - والعياذ بالله - سببه التقليد الأعمى ، والجهل المطبق .
 لقد ساق لنا القرآن الكريم عشرات الآيات التي تشهد بوحدانية الله ﷻ ،
 ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
 الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٢ ،
 ٢٣] .

القول على الله بغير علم :

وأما الرذيلة الخامسة التي حرمها الله سبحانه ، فتتمثل في قوله ﷻ : ﴿وَأَنْ
 تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] أي : كما حرّم الخالق ﷻ عليكم
 ارتكاب الفواحش واقتراف الآثام ، والإقدام على البغي ، وحرّم أيضًا
 الإشراك بالله ، حرم عليكم أن تقولوا قولًا يتعلق بالعقائد ، أو العبادات أو
 المعاملات دون علم منكم بصحة ما تقولون . ودون بينة على صدق ما
 تدّعون . وذلك لأن القول بدون علم ، والفتوى من غير فهم ، والنطق بدون
 حجة ، خيانة للأمانة ، سفاهة في العقل ، انحراف في التفكير ، خروج على
 الآداب الشرعية وعلى الكرامة الإنسانية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
 الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
 عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل : ١١٦] .

ولقد بين لنا رسول الله ﷺ أن من علامات فساد الزمان أن يكثر عدد
 الذين يفتون بغير علم ، يفتون للهوى ، يفتون للمصلحة الشخصية ، بين
 لنا رسول الله ﷺ أن هذا يحدث عند فساد الزمان ، ففي «الصحيحين» عن
 سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، يقول عليه الصلاة والسلام :
 «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من قلوب الناس ، ولكن يقبض

العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالاً فستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا . ضلوا في أنفسهم ، وأضلوا غيرهم .
وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ : «من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانته»^(١) .

والحكم بغير علم كثيرًا ما يؤدي إلى التهلكة ، فعن جابر بن عبد الله قال : «خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ، ثم أصبح جنبا ، فقال لأصحابه : هل تجدون لي من رخصة في التيمم؟ فقالوا : لا نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل الرجل فمات - يقول سيدنا جابر - فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبر بذلك ، قال : «قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ - هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ - إنما شفاء العي - أي الجهل - السؤال ، إنما كان يكفيه أن يعصب جرحه ، ويمسح عليه ، ثم يغسل سائر جسده»^(٢) .

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧) ، وابن ماجه (٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦) من حديث جابر رضي الله عنه ، وابن ماجه (٥٧٢) من حديث ابن

عباس رضي الله عنه .

المحاضرة الخامسة والخمسون بعد المائة

المرأة في القرآن الكريم بين الطبيعة والوظيفة

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة يرفع الله بها المهمة ، ويصلح بها الأمة ، ويعزز بذكرها الدين .

اخترت أن يكون الموضوع هو : المرأة في القرآن الكريم بين الطبيعة والوظيفة ، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ، محاولة لاستجلاء الصورة المثلى التي يرسمها القرآن الكريم لطبيعة المرأة ووظيفتها .

وسأتناوله على ضوء رؤية منهجية خاصة تعتمد أساساً على دراسة بعض المفاهيم القرآنية المرتبطة بالمرأة ، فنستخرج الدلالات بعد النظرة الاستقرائية للمفهوم في القرآن ، التي ترصده في ذاته ، أو في علاقته بغيره ، أو من خلال القضايا التي يثيرها بخصوص طبيعة المرأة ووظيفتها .

وسأعرض هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور :

أبين في الأول : المعنى الإجمالي للآية ، من خلال تحديد مفرداتها وسياقها المقالي والمقامي .

وأخصص الثاني : للحديث عن طبيعة المرأة في القرآن الكريم بين التمييز والمساواة .

وأخصص الثالث : لوظيفة المرأة بين الإطلاق والتقييد .

وأركز في بيان كل ذلك على بعض المفاهيم النسائية القرآنية ، وأناقش بعض تفسيراتها لأخلص منها إلى المبدأ القرآني التكاملي بين الرجل والمرأة على المستويين معا .

المحور الأول : المعنى الإجمالي للآية

تقع الآية في المقطع الأخير من سورة آل عمران ، وهو يلخص حال أولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ، فيجأرون بالدعاء مستجيرين من العذاب ، مقرين باختيارهم طريق الإيمان ، سائلين الله تعالى الغفران ، فتأتي استجابة الله ﷻ لهم : ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي بُعْضُكُمْ مِّنْ بُعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ، فالآية من خلال هذا السياق مرتبطة بما سبق من دعاء ، وفعل «الاستجابة» يؤكد ذلك .

والمعنى : أن الله ﷻ يستجيب الدعاء سواء كان من ذكر أو أنثى ، ودلت الآية بذلك على التسوية في حفظ ثواب الأعمال المقدمة من الذكور والإناث .

وأما سبب النص على الجنسين معاً هاهنا الذكر والأنثى ، فيتبين من خلال مقام الآية سبب النزول .

فقد روى الحاكم عن ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سلمة بن أبي سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم «قالت : يا رسول الله لا أسمع الله يذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فنزلت هذه الآية» .

رواه الترمذي في سننه ، ورواه الحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح على شرط البخاري ، وأخرج ابن جرير الطبري هذه الرواية في تفسيره من

طريقين عن ابن عيينة ، وذكر للحديث رواية أخرى عن مجاهد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : «يا رسول الله ، يُذكر الرجال في الهجرة ولا نذكر؟ فنزلت الآية» .

فالآية على هذا نزلت جواباً على سؤال امرأة عن ثواب هجرة النساء ، حيث إن القرآن إلى ذلك الحين لم يذكر النساء باللفظ في حديثه عن الهجرة ، فجاءت الاستجابة بعدم تضييع ثواب العمل من الذكر والأنثى عموماً بما في ذلك ثواب الهجرة ، ولذلك جاء تمام الآية يذكر الهجرة باللفظ : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران : ١٩٥] إلى آخر الآية .

وانطلاقاً من القاعدة الأصولية : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ ولأن لفظ «العمل» جاء مطلقاً ، فإن معنى الآية يتسع ليدل على أن الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام لا يضيع أجر العمل : أي عمل كان ، ومن أيِّ كان : ﴿عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ وأدخلت «من» في قوله : ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾ مفسرة لا يجوز إسقاطها عند أهل اللغة ، بياناً لشمول الحكم للجنسين معاً .

لقد عبر في الآية بلفظ الأنثى دون سائر الألفاظ الدالة على المرأة ، مما هو مستعمل في الخطاب القرآني مثل لفظ المرأة أو النساء أو الزوج ، ولاستعماله في هذا الموضع دلالات ، من أهمها : التأكيد على الطبيعة الخلقية للمرأة في مقابل الطبيعة الخلقية للرجل ، إذ لكل جنس منهما خصائص تميزه عن الآخر ، كما يبين ذلك المعنى اللغوي للفظ الأنثى ، حيث يدور على معنى اللين والخصوبة ، في حين يدل لفظ الذكر على معاني الشدة والقوة .

ومع هذا الاختلاف فهما متفقان من وجوه آخر يدل عليها في الآية قوله تعالى : ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ﴾ بغض النظر عن اختلافكم أجناساً وألواناً .

فقدم ما يدل على الاتفاق وهو ﴿مِنْكُمْ﴾ على ما يدل على الاختلاف وهو ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ ، ثم أكد ذلك الاتفاق بقوله : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ الدال على الوحدة والمشاركة في الأصل أو في الدين أو في العمل .

والسؤال الذي يفرضه ما سبق من دلالات ، هو : هل يقتضي مفهوم الأنوثة تمييزاً نوعياً بين المرأة والرجل بسبب استعماله في مقابل الذكورة؟ أم يقتضي مساواة نوعية يفرضها قوله : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ؟ .

وهو السؤال الذي يسلمنا إلى المحور الثاني .

المحور الثاني : طبيعة المرأة بين التمييز والمساواة

لقد استعمل لفظ الأنثى في القرآن الكريم ثلاثين مرة ، وجاء صنف مهم من موارده مرتبطاً بقضية الخلق الإلهي للكون وللإنسان . وذلك على مستويين :

أولهما : يقع ضمن نظرية الخلق والتوالد ، حيث يكون الإنسان جزءاً من الكائنات الحية ، يخضع لنفس قوانينها الكونية ، ومنها الخلق من ذكر وأنثى : قال تعالى : ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [الليل : ١-٣] .

فالوحدة بين الجنسين أساسها الخلق من أصل واحد ، وغايتها التعارف بين الناس : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ، فالجنسان متحدان في أصل النشأة وفي الغاية منها ، أما نوع العمل الموصل إلى هذه الغاية وكيفية تمثله ، فذلك أمر تتباين صوره وتختلف مظاهره بحسب ما يناسب كل إنسان ، ثم التفاضل بعد ذلك كله بالتقوى .

والمستوى الثاني : يتعلق بالوظائف البيولوجية حيث يذكر ما تختص به الأنثى من حمل ووضع ، وما يرتبط بهما من ظواهر نفسية وبيولوجية .
ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْنَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [فصلت : ٤٧] .

وفي سياق هذه الخصوصيات جاء نفي المساواة بين الجنسين فيها صريحاً على لسان امرأة عمران حين وضعت مريم : ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أَثْنَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران : ٣٦] ، وذلك خوفاً من عدم إيفائها بالنذر الذي نذرته ، بأن يكون ما في بطنها خادماً للهيكل ، وهي تعلم أن الأنثى قد لا تقوى على تحمل أعباء هذه الخدمة .

ولكن الله أعلم بما وضعت ، فقد وضعت الأنثى التي رعتها العناية الإلهية ومنحتها القوة على التحمل والوفاء بالنذر ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنْثَىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

إن الصورة التي يرسمها القرآن للمرأة من خلال مفهوم الأنثى تنفي عنها أي تمييز يجعلها أقل قيمة من الرجل ، كما تنفي عنها المثلية المطلقة معه ، وبذلك تثبت لها خصوصية تتكامل بها مع الرجل ، ليشكلا معاً لبنة تتناغم مع الكون الذي خلقه الله ﷻ .

وهي الصورة التي أعطت للعالم نموذجاً مشرقاً غير معهود عن طبيعة المرأة ، حيث حظيت في عصور الإسلام بأشرف المراتب وأرقى منازل الكرامة ، على الرغم مما نجده أحياناً عند بعض المفسرين من فهم منقوص لبعض المفاهيم النسائية القرآنية .

ومن ذلك مثلاً ، تفسيرهم لآية الحلية في سورة الزخرف : ﴿أَوْمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف : ١٨] بأنها دليل على عجز المرأة وغبائها .

قال ابن كثير رحمه الله : «المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي ، منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة غبية» .

وجاء في أضواء البيان للشنقيطي : «الأنثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي ، وذلك إنما لجبر النقص الخلقي الطبيعي الذي هو الأنوثة ، بخلاف الذكر فجمال ذكوره يكفيه عن الحلي ونحوه» .

والحق ... أن الآية جاءت في نهاية مقطع يعرض لموقف العرب في الجاهلية من المرأة ، واعتقادهم الفاسد بنسبة البنات لله ﷻ ، وهو قوله تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا سَخَلُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ١١ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٢ أَوْمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف : ١٦-١٨] .

فكان القصد تسفيه فعل الجاهلين ، وإلا فإن آيات أخر قد قررت حقيقة ثابتة هي الأصل الذي يجب أن ترد إليه هذه الآية وهي أن صفة «الخصيم المبين» تعم الإنسان ذكوره وإناثه ، قال تعالى في سورة النحل : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل : ٤] ، وقال في سورة يس : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس : ٧٧] ، على أن فعل التنشئة في القراءة الثانية : ﴿أَوْمَن يُنَشَّؤُا﴾ وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وحفص ، يشير إلى أثر التربية في اكتساب المرأة لبعض صفات النقص ، كعدم الإبانة في الخصام ، وأنها متى

أتاحت لها وسائل التربية والتثقيف التي تتاح للرجل فلن تكون أقل منه في اكتساب هذه المهارة .

والأمثلة على هذا كثيرة : يكفي أن نذكر منها أن عائشة رضي الله عنها كانت عالمة بالطب والتاريخ والفقه وهي ابنة ثمانية عشر عاماً .

مصطلحات قرآنية فهمت على غير مرادها :

ومن المصطلحات القرآنية التي سيء فهم طبيعة المرأة على ضوءها : مصطلح الكيد المنسوب للنساء ، في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] .

حيث اعتبر البعض الكيد صفة لصيقة بالمرأة سببها طبيعة الشر والاحتيايل المركوزة فيها ، وذهب بعضهم إلى اعتبار كيد النساء أعظم من كيد الشيطان بناء على مقارنتهم بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وقوله في سورة النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] ، وقد حكى هذا الرأي الزمخشري والقرطبي والألوسي وغيرهم .

غير أن حقيقة الكيد في الاصطلاح القرآني أبعد من ذلك ، فقد ورد لفظ الكيد خمسا وثلاثين مرة ، خمس منها فقط مرتبط بالنساء ، وهي التي جاءت في سورة يوسف ، والباقي يأتي فيه الكيد إما مذموماً ، إذا نسب إلى الشيطان أو الكفار أو المشركين ، وإما محموداً ، إذا نسب إلى الله تعالى أو إذا وصف به الله تعالى كما في قوله : ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٣] ، أو إذا نسب إلى عباده المؤمنين .

والظاهر من هذه الموارد أن كيد الإنسان ما لم يكن موجهاً بقيم الصلاح ، فهو مذموم ، موصوف بالضلال والتباب والخسران والوهن

والضعف ، ولا يخرج كيد النساء عن هذا الوصف ؛ لأنه كيد إنساني يكون محموداً أو مذموماً بحسب المقام ، فإذا كان كيد امرأة العزيز مذموماً ، فقد كان كيد بلقيس محموداً حين وقت قومها حرباً خاسرة ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

وقد كان أول كيد يتعرض له يوسف عليه السلام هو كيد إخوته من الرجال : وذلك ما حذر منه يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] فالكيد المذموم في القرآن الكريم هو من وسوسة الشيطان ، أو من النفس الأمارة بالسوء ، أو من الخلخلة في البناء القيمي الذي يستدرجه الإنسان بين جنيته : ذكراً كان أو أنثى .

ومن ثم كان ضعيفاً ، ولذلك لم يفلح كيد تلکم النسوة مع يوسف عليه السلام بحيث استجاب له ربه : ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤] .

إن وجود بعض التفسيرات الخاطئة بخصوص طبيعة المرأة ، عند بعض المفسرين ، يرجع إلى تأثرهم بالظروف الاجتماعية والثقافية التي عاشوا فيها ، بعد أن اتسعت مساحة البلاد الإسلامية ودخلتها آثار الثقافات التي تفاعلت معها ، وبدأت تتسع الشقة قليلاً بين المعاني القرآنية وبين تلك المعاني التي أحدثتها تلکم المؤثرات الاجتماعية والنفسية والثقافية .

ولكن وجود مثل هذه التفسيرات ، فضلاً عن طابعه الاجتهادي ، لا يقدح في المنظومة التفسيرية الموروثة عند علمائنا كلها ، وإنما هي قطرة شائبة في بحر زاخر هيات أن تكدره ! .

أجل لقد كانت الثقافة السائدة قبل الإسلام ، كما كانت ثقافات أخرى غيرها ، تعتبر المرأة أدنى من الرجل من حيث طبيعتها .

وهو أمر تمتد أصوله إلى فلسفات وأعراف تشريعية موعلة في القدم .

ففي الثقافة اليونانية مهد العقل الفلسفي رأى أرسطو أن المرأة من الناحية البيولوجية تمثل التراب ويمثل الرجل الروح ، فالأنثى بطبعها -حسب هذا التصور- خسارة للبشرية ؛ لأنها تمثل انتصار التراب على الروح .

لقد هيمن هذا التقليد الأرسطي على صورة المرأة في الثقافة اليونانية والثقافة الأوروبية بعدها ، وهو ما أكدته عبارات سبينوزا حين قال : إذا احتكمتنا إلى الخبرة ، فإن تبعية المرأة للرجل ناتجة عن نقصانها الطبيعي .

وسار على هذه الأحكام رجال الفلسفة الغربية الكبار ، أمثال روسو ، وهيغل وكانت ، رغم تناقضها مع المبادئ المنطقية والإبستمولوجية للعقل الفلسفي الذي دافعوا عنه .

ثم كان طبيعيًا أن تسفر مبادئ حقوق الإنسان التي احتوت عليها تلك الفلسفات مع تطور الأمم المعاصرة عن ردود فعل تبشر بشيء من ملامح تلك الصورة المشرقة التي رسمها القرآن لطبيعة المرأة قبل قرون عديدة .

وخاصة الاعتراف بالهوية الآدمية للأنثى ، وإقرار خصوصياتها الطبيعية معًا ، وهو موقف وسطي جاء متناسقًا مع المعطيات البيولوجية والنفسية التي تثبت وجود ميزات نسوية خاصة ضمن الانتماء الإنساني العام .

وهكذا فإن تلك الصورة المشرقة التي قدمها القرآن الكريم للمرأة كانت دليلاً من أدلة إعجازه الباهر ، حيث سبق إلى تأسيس مبدأ التكامل النوعي بين المرأة والرجل ، وهو موقف وسط بين التمييز والمساواة النوعيين .

وقد بين القرآن الكريم هذا المبدأ من خلال عدد من المفاهيم، وفي مقدمتها، فضلاً عن مفهوم «الأنثى»، مفهوم «الزوجية»: الدال على الاقتران والمقابلة والتكامل، ومفهوم «اللباس»: الدال على تمام المخالطة والملازمة، ومفهوم «السكن»: الدال على التكامل النفسي، المتمثل في افتقار الرجل إلى الطمأنينة والاستقرار الذي توفره المرأة، ومفهوما: «المودة والرحمة»، الدالان على الشعور الوجداني المتبادل بينهما.

إن مبدأ التكامل هذا لا ينحصر فيما له علاقة بطبيعة المرأة، بل هو أساس أيضاً في بيان حدود وظيفتها بالمعنى الاجتماعي الواسع لكلمة وظيفة.

وهذا يؤدي بنا إلى سؤال آخر هو: هل يقتضي التساوي في الثواب تساوياً في العمل يلغي خصوصية بعض التكاليف النسائية فتكون المرأة مساوية للرجل في كل الأحكام دون قيد؟ أم أن ذكر الآية للجنسين: الذكر والأنثى هدفه الإشارة إلى بعض الخصوصيات الفاصلة بينهما؟.

المحور الثالث: وظيفة المرأة بين الإطلاق والتقييد

إن الآية صريحة في الجمع بين الخصائص الطبيعية والسمات الوظيفية للمرأة، وقد بينا ذلك في تحليلنا للسياقين المقامي والمقالي، حيث جمعت الآية بين لفظ «الأنثى» ولفظ «العمل» وقررت قاعدة التكامل بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ حل ما قد يرد في هذا المجال من إشكالات أو من بعض الفهم الخاطئة لوظيفة المرأة المتداولة في ثقافات مختلفة ومنها الثقافة الإسلامية.

وكما تعلمون فإن نظرة المجتمعات إلى طبيعة المرأة تؤثر على الوظائف التي تسند لها إليها، وقد عرفت البشرية تاريخياً مبدأين كبيرين فيما يتعلق بوظيفة المرأة:

أحدهما قديم : وهو مبدأ التقييد الوظيفي .

والثاني حديث : وهو مبدأ الإطلاق الوظيفي .

أما الأول : فالمقصود به حصر وظائف المرأة في الإنجاب وخدمة الرجل كما يخدمه عبده ، وإن نظرة متفحصة للتاريخ الإنساني لتؤكد لنا هيمنة هذا المبدأ على أمم كثيرة ، بل استمرت بعض تجلياته عند كثير من الفلاسفة الكبار الذين اعتبروا المرأة غير صالحة للعلوم الرفيعة ولا للمشاركة السياسية في المجتمع ، كما أكد ذلك هيجل وسبينوزا وغيرهما .

وأما المبدأ الثاني : وهو مبدأ الإطلاق الوظيفي فقد بني حديثاً على أساس مبدأ المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى ، وازدهر قليلاً بمجهودات الوجودية والتفكيكية والبراجماتية ، وهو يقتضي بأن من حق المرأة إلغاء جميع الوظائف الأنثوية لصالح جميع الوظائف الذكرية ، بما في ذلك تعطيل وظائفها البيولوجية الجنسية ، وتعويضها بالوظائف الجنسية الذكرية .

وهذا تطرف يخالف الطبع والعقل والشرع ، لذلك بدأت الآن تظهر دعوات من علماء الاجتماع والحقوقيين ودعاة المساواة بين الجنسين أنفسهم إلى اتخاذ مواقف أكثر وسطية واعتدلاً ، كتلك التي ربطت قضية المساواة بين الجنسين بنظرية العدالة المبنية على مبدأين هما : الاستقرار والإجماع ، اللذين تضمنهما العائلة ويثبتهما علم النفس الأخلاقي .

وعلى الرغم من قبول هذه المبادئ العامة لتفسيرات متباينة ، فإن هذا البعد العائلي المنظم وهذا الإطار الأخلاقي الجامع مهم في شرعنا الحنيف ؛ لأنه يحفظ كرامة المرأة ، حتى ولو تحررت وظائفها علمياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .

ولقد سبق أن قدم القرآن الكريم مبدأ يحفظ كل ذلك بصورة أنقى وأرقى ،

وهو مبدأ التكامل الوظيفي ، وسأبين ملامحه الأساسية من خلال بعض المفاهيم القرآنية التي قد توحى للبعض بنوع من التمييز ضد المرأة إذا أسيء فهمها ، وسأركز على مفاهيم ثلاثة هي : التفاضل والدرجة والقوامة :

أما مفهوم «التفاضل» ، فقد ورد بخصوص النساء والرجال في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء : ٣٢] ، وجاء في قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] .

وفُسر بما خص به الرجل من زيادة في بعض الحقوق الشرعية على المرأة ، كزيادة مقدار الإرث ، والدية والغنيمة ، وكحقه في التعدد في الزواج بخلاف المرأة ، وحقه في التطليق ومراجعة مطلقة .

وباستقراء المفهوم في القرآن ككل ، نجد أن فعل التفضيل ورد سبع عشرة مرة ، اثنين منها فقط يتعلقان بالتفضيل بين الرجال والنساء ، بينما يجيء التفضيل عموماً على مستويين :

أحدهما : تفضيل بني آدم على غيرهم من الخلق ، تكريماً لهم كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء : ٧٠] .

والثاني : تفضيل الناس بعضهم على بعض ، وهو على نوعين :

أولهما : تفضيل فيما هو طبيعي متعلق باختلاف الصفات ، ويدخل فيه اختلاف التنوع في الألوان والأعراق . . . فيكون الناس فيها متفاضلين ، كتفاضل النباتات في الأكل وهي تُسقى بماء واحد .

ويدخل فيه أيضًا التفضيل بين الناس في الرزق ، وتفضيل بني إسرائيل بأن جعل فيهم الأنبياء لتكون الحجة عليهم أقوى .

وتفضيل بعض الأنبياء على بعض في بعض الخصوصيات كالمعجزات والمحن والابتلاءات مع المساواة في أصل النبوة ، كما في قوله : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ... ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٣] .

والنوع الثاني : من تفاضل الناس فيما بينهم : هو تفاضل بما يكسبه الإنسان بعمله ، وهو ما يقتضي تفاضلا في الثواب أيضًا ، كما جاء في قوله تعالى بعد ذكر تفاوت الناس في العمل للدنيا أو للآخرة في سورة الإسراء : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

بعد هذا البيان تتضح صورة التفاضل بين النساء والرجال ، فهي في ضوء المفهوم ككل تسير وفق السنن الإلهية في الخلق التي لا تقتصر على مجال الإنسان بل تتعداه إلى مجال الطبيعة ، وهو ليس تفاضلاً جنسياً جوهرياً كالتفاضل بين بني آدم وباقي المخلوقات ، وإنما هو تمايز في الخصائص بحيث يكمل بعضها بعضاً ، كما قال الشاعر :

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وأما في ضوء الآيتين : فقد جاء في الأولى ما يدل على وجود تفاضل متبادل بين الرجال والنساء ، يؤكداه الجزء المتمم للآية ، والذي ذكر فيه فعل الكسب الدال على العمل : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا ۚ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ ۚ ﴾ [النساء : ٣٢] .

فدل ذلك على أن هذا التفاضل واقع فيما هو مكتسب ، وهذا يبرر النهي الذي صُدِّرت به الآية ؛ لأن الفضل متى كان ناتجاً عما استحقه الإنسان بعمله ، لم يكن لأحد الحق في الاعتراض عليه .

أما الآية الثانية : فإن التفضيل فيها مبني على التنوع الطبيعي ، فقد فضل الله الرجل على المرأة في القوة الجسدية ، ففرض عليه أموراً لم يفرضها على المرأة ، فترتب على ذلك نيله لحقوق لم تنلها .

وبالمقابل : فضل الله المرأة بخصائص طبيعية مكنتها من حقوق ليست للرجل ، كالحق في أن ينفق عليها الزوج ، ولو كانت قادرة على الإنفاق ، وغير ذلك من الحقوق الشرعية .

فالأمر كله لا يخرج عن المفهوم العام للتفاضل ، الذي يحكمه قانون واحد وسنة واحدة .

على أن كل تلك الاعتبارات المادية لا ترفع من قدر الرجل على المرأة ولا المرأة على الرجل ؛ لأن معيار الأفضلية في ميزان القرآن الكريم والسنة الشريفة هو التقوى .

وأما مفهوم الدرجة الذي جاء في قوله ﷺ : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، فقد فسر بعلو المنزلة وشرف تفضيل الرجل على المرأة في أمور كثيرة ، ذكرها الرازي في تفسيره كالعقل والدية وصلاحية الإمامة ، وقال : « وإذا ثبت فضل الرجل على المرأة في هذه الأمور ظهر أن المرأة كالأسير العاجز في يد الرجل . . . » .

لكن استقراء مفهوم الدرجة في القرآن والوقوف على سياقه في الآية يعكس دلالات أغنى من ذلك .

فقد ورد لفظ الدرجة ثمان عشرة مرة ، ثلاث مرات منها ترتبط بالبعد الزمني الغيبي حيث ترد في واحدة منها صفة لله ﷻ وهي قوله تعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر : ١٥] .

وترد في الآخرين في باب التفاضل بين الأنبياء والرسل ، كقوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وباقى الموارد الخمسة عشر هو تفاضل بشري ، منها اثنتان من باب تفاضل التسخير لغاية الابتلاء ، كقوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، والمواضع الباقية كلها تدور على معنى الجزاء الأخروي الناتج عن قدر التضحية وحسن العمل في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف : ١٩] .

وأما سياق الآية فإنها تقع ضمن آيات نزلت بخصوص أحكام الطلاق والعدة والرجعة ، وجاء الجزء المتعلق بالتفضيل تابعاً لقوله تعالى : ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، فقدم المثلية على التفضيل بدرجة .

وتفسير الدرجة على ضوء مفهومي المثلية والمعروف الواردين في الآية ، يبين أن هذه الدرجة مرتبطة بالأحكام التي ذكرت ، فللمرأة الحق بأن لا يراجعها زوجها أثناء العدة ضرراً ، إلا إذا كان يريد الإصلاح .

وعليها في المقابل ألا تضر الزوج بكتمان الحمل أو دم الحيض إذا أراد الزوج مراجعتها ، وبهذا تثبت الآية حقوقاً وواجبات للمرأة ، تتضمن في المقابل حقوقاً وواجبات للرجل .

وهذا هو مقتضى العدل والتكامل ، وهذا التفسير هو الأشبه بدلالة ظاهر التنزيل من غيره كما يقول الطبري .

ولفظ «المثل» يؤكد هذا فهو لا يدل على المطابقة التامة ، بل يدل على الشبيه والنظير ، ومعلوم أن الشيء لا يكون شبيها للشيء في جميع صفاته ، ومن مقتضيات الفطرة والعقل أنه لا وجود لمثلية في سائر الحقوق والأحوال : أجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا .

إن المثلية المقصودة هنا ليست مساواة رياضية ، وإن جنس الواجب غير جنس الحق في العلاقات بين الناس ، لهذا جاء لفظ «المعروف» في الآية ليؤكد على أن جريان هذه الأحكام والأمور يجب أن يكون على مقتضى ما تعارف عليه الناس في علاقاتهم الاجتماعية مما يوافق الفطرة السليمة ولا يتعارض مع أحكام العقل ومقاصد الشرع .

إن مفهوم «المعروف» عامل محوري في فهم العديد من القضايا التي تثيرها الآيات بشأن العلاقة بين النساء والرجال ، فقد تردد ذكر لفظ المعروف في القرآن الكريم ثمانية وثلاثين مرة ، نصفها جاء مرتبطًا بالنساء وعلاقتهن بالرجال ، جلها في سورة البقرة المشتملة على هذه الآيات ، وكلها في بيان أحكام الزواج والطلاق وما يرتبط بهما من جزئيات ، ليؤسس العدالة التشريعية على تحتية وجدانية إنسانية عميقة .

وبناء على معنى المثلية بين الحقوق والواجبات ، المقيد بالمعروف ، يكون معنى الدرجة ، داخلاً ضمن هذا الكل ، أي يفهم ضمن قاعدة نفي المثلية المطلقة ، وذلك أن الرجل عليه من الواجبات ما لا يماثله عند المرأة كالنفقة والمهر مثلاً ، وله أيضاً من الحقوق ما لا يماثله عند المرأة ، كالحق في مراجعتها إن أراد الخير والصلاح .

فإذا كان هذا هو مقتضى المثلية ، كانت الدرجة فضلا زائداً ، فسر ابن عباس رحمهما بقوله : «إنها إشارة إلى حض الرجال على حسن المعاشرة ، والتوسع للنساء في المال والخلق» .

قال ابن عطية معلقاً على هذا التفسير : «وهذا قول حسن بارع» ، ومعنى هذا أن الدرجة ليست مزية ذاتية وفصلاً في الحقوق ، بقدر ما هي مزية خلقية توجب على الرجل حسن المعاشرة .

وهذا المعنى الخلقي هو الذي ذكره الطبري بعد أن استقصى الأقوال الماثورة في مفهوم الدرجة وقال : «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس وهو أن الدرجة التي ذكر الله . . . في هذا الموضع : الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها وإغضاؤه عنه ، وأداء كل الواجب لها عليه» .

وكأنه رحمته يستحضر المعنى القرآني العام للفظ الدرجة : وهو ما يناله العبد الصالح من درجات عُلّا عند الله ثواباً على إيمانه ومسايعته إلى البر والتقوى .

مفهوم القوامه :

وضمن هذا السياق يرد مفهوم القوامه في قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] ، حيث تثبت الجملة الدالة على سبب القوامه ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تفاضلاً متبادلاً .

ومما فضل به الرجال على النساء القوامه الدالة على الحفظ والرعاية المادية والمعنوية ، على أن هذا لا يمنع مشاركة المرأة في هذه الرعاية وخاصة تلك التي

تدخل ضمن مسؤولياتها طبقاً للحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري :
«... والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها» .

أما تفسير القوامة بالطاعة ، أن طاعة المرأة للرجل ، فصحيح إن قُيد مفهوم الطاعة «بالمعروف» ، على الاصطلاح القرآني ، كما قال تعالى :
﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [المتحنة : ١٢] .

فتصبح الطاعة فعلاً تلقائياً متى ترسخت علاقة المودة والسكن والمحبة بين الزوجين .

أما إرجاع القوامة إلى المزية الذاتية للرجل أي تميزه النوعي ، فلا تنطق به الآية .

إن مفاهيم الدرجة والتفضيل والقوامة والمعروف والطاعة ، لو رُبطت بغيرها من المفاهيم كالأنثى ، والزوجية ، والسكن ، ونُظر إليها على أنها نظام مفهومي مترابط ، وأسرة مصطلحية متكاملة ، لحُلَّ إشكال التقييد والإطلاق الوظيفيين ، ولتأكد أولاً :

استحالة اختزال الفعل النسائي بما هو فعل إنساني في الوظائف البيولوجية .

وثانياً : إمكان مشاركة المرأة في العمل بمفهومه العام الدال على الفعل الإيجابي الديني والديني .

وثالثاً : استحالة تطبيق مبدأ الإطلاق الوظيفي بإلغاء جميع الوظائف الأنثوية بما فيها الحمل والرضاع لصالح جميع الوظائف الذكرية نظراً

لاستحالة المثلية المطلقة بين الذكر والأنثى ، وتطبيقاً لمبدأ التكامل الوظيفي الذي يسهم في إحداث التوازن المطلوب في نظام الأسرة ، وفي بناء الأمة ككل .

ولذلك لا يجب أن نستغرب من وجود أحكام تشريعية تخص النساء مبنية على خصوصياتهن البيولوجية ؛ لأن تنوع الوظائف تابع لحال المكلف ، ذكرًا كان أو أنثى ، بما في ذلك التنوع داخل فئة الذكور أنفسهم ، والإناث أنفسهن .

والحق أن تدبير شؤون الأسرة يقع في صلب الفعل النسائي ؛ لأن المرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسئولة عن رعيته ، ولكن ذلك لا يمنعها من المشاركة العلمية والاجتماعية والسياسية في إطار المعروف الشرعي والتسابق إلى الخيرات ، والتعاون على البر والتقوى اللذين بهما تنال أرفع الدرجات .

إن سؤال أم سلمة رضي الله عنها عن ذكر النساء في الهجرة يذكرنا بمشاركة المرأة في هذا الفعل السياسي الكبير الذي لم يكن يضاهيه إلا إقبال المرأة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على بيعته قائداً للدولة المسلمة قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المتحنة : ١٢] .

مما يدل على أن للمرأة شخصية قانونية مستقلة ، ومن ثم فهي عضو فاعل في جميع المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية للأمة ، فضلا

عن دورها الديني والتربوي الذي يجعل وظائفها المجتمعية واسعة لا تحدها إلى حدود الإيمان والوقار وحسن الخلق .

ولعل ذلك من الإشارات اللطيفة التي يوحى بها القرآن الكريم حين يجعل من المرأة مثالا للرجل مؤمنا كان أو غير مؤمن ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [التحريم : ١٠] ، ثم قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم : ١١] .

لذلك علينا أن ننظر إلى الحقوق والواجبات والطبائع والوظائف ، ضمن تصور شمولي يتأسس على الوسطية والاعتدال والتكامل ، دون أن ننسى أن القرآن الكريم قد عالج كل هذه القضايا ضمن مفاهيم «العبودية» لله ﷻ ، و«الاستخلاف» ، و«التقوى» ، و«العمل» ، و«الجزاء» فلا تفهم تلك إلا بهذه .

المحاضرة السادسة والخمسون بعد المائة

التفقه في الدين وعلماء المسلمين

انطلاقاً من قول البخاري في باب : العلم من «صحيحه» : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

وبالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام ، أبي عبد الله سيدي محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي رحمه الله ورضي عنه ، ونفعنا به وبعلومه آمين ، قال : حدثنا سعيد بن عفير ، حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله حتى يأتي أمر الله» .

رجال الإسناد :

التعريف بابن عفير :

سعيد بن عفير هو : سعيد بن كثير بن عفير بن مسلم بن يزيد بن حبيب ، أبو عثمان المصري ، سمع مالكا والليث وابن وهب وغيرهم .
وروى عنه : محمد بن يحيى الذهلي والبخاري والنسائي ومسلم بواسطة رجل عدل .

قال المقدسي في شأنه : كان من أعلم الناس بالمناقب والأنساب والأخبار الماضية ، أديباً فصيحاً ، حاضر الحجة مليح الشعر ، توفي سنة (٢٢٦هـ) .

التعريف بابن وهب :

قال : عن ابن وهب ، ابن وهب ، هو : عبد الله بن وهب بن مسلم ، أبو محمد القرشي الفهري مولى يزيد بن رمانة مولى أبي عبد الرحمن بن يزيد بن أنيس الفهري ، سمع مالكا والليث والثوري وابن جريج وابن أبي ذئب وغيرهم ، وذكر بعض المحدثين أنه سمع من نحو أربعمائة رجل ، وثبت أيضا أن مالكا رحمته الله لم يخاطب أحدا من الفقهاء بلفظ الفقيه إلا ابن وهب ، وثقه ابن معين .

وقال الإمام أحمد : صحيح الحديث .

وقال ابن أبي حاتم : نظرت في نحو ثمانين ألفا من حديث ابن وهب بمصر وغيرها ، فلا أعلم أني رأيت حديثا لا أصل له .

وقال أحمد بن صالح : حدث بمائة حديث .

وقال ابن بكير : هو أفقه من ابن القاسم ، ولد في ذي القعدة عام (١٢٥هـ) وتوفي لأربع بقين من شعبان عام (١٩٤هـ) روى له الجماعة .

التعريف بيونس :

عن ابن وهب عن يونس ، يونس هذا هو : يونس بن يزيد الأيلي ، من موالى بني أمية ، روى عن أخيه أبي علي بن يزيد ، ونافع مولى ابن عمر وهشام بن عروة وعمارة بن غزية ، وعكرمة .

وروى عنه : جرير ، ومحمد بن الحارث ، وابن أخيه عتبة بن خالد بن يزيد الأيلي ، والليث ، والأوزاعي ، وسليمان بن بلال ، وطلحة بن يحيى الزرقى ، وابن وهب ، وابن المبارك وغيرهم .

قال ابن المبارك وابن مهدي في شأنه : كتابه صحيح .

وقال ابن المبارك : إني إذا نظرت في حديث معمر عن الزهري ، وجدتهما وكأنهما خرجا من مشكاة واحدة ، وزاد قائلاً : ما رأيت أحداً أروئى للزهري من معمر ، إلا أن يونس أحفظ للسند منه ، يريد يونس الأيلي ، وتوفي بمصر عام (١٥٩هـ) على إحدى الروايات .

التعريف بابن شهاب :

ثم قال : عن ابن شهاب : ابن شهاب هذا هو : محمد بن مسلم ابن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن زهرة بن كلاب بن مرة ، الفقيه المحدث القرشي الفهري ، أبوبكر ، الفقيه المدني ، أحد الأئمة الأعلام ، وعالم الحجاز والشام ، سمع من عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وربيع بن عباد ، وعبد الرحمن بن أزهر ، والمسور بن مخرمة ، وغيرهم .

وروى عنه : عطاء بن أبي رباح ، وأبو الزبير المكي ، وعمر بن عبد العزيز ، وعمر بن القاسم ، وصالح بن كيسان ، وأبان بن صالح ، محدث حافظ متقن ، متبصر ، ثقة ، فقيه جامع بين العلم ومختلف الروايات ، قليل النسيان ، حتى إن البعض من المحدثين أثنى الشاء العاطر عليه وعلى حفظه .

التعريف بحميد :

حميد بن عبد الرحمن هذا هو : أبو عبد الرحمن أو أبو عثمان حميد بن عبد الرحمن بن عوف سمع من أبيه وأمه أم كلثوم ، وعمر وعثمان وأبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، والنعمان بن بشير ، ومعاوية ، وأم سلمة ، فهو كثير الحديث ، وثقه العجلي وأبو زرعة ، وتوفي سنة (٩٥هـ) وعمره (٧٣) عاماً .

التعريف بمعاوية :

قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيباً ، ومعاوية هو : معاوية ابن أبي سفيان بن صخر بن حرب ، الأموي ، أحد كتاب النبي ﷺ ، روى عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً ، روى البخاري منها ثمانية ، ومسلم خمسة ، واتفقا في أربعة ، روى له الجماعة ، وتوفي عام ستين هجرية ، وسنه إذ ذاك ثمانية وسبعون عاماً للهجرة .

قال حميد : سمعت معاوية خطيباً ، خطيباً منصوب على الحال من معاوية ، كذلك الجملة الفعلية بعده ، يقول : والمعنى سمعت معاوية في حال كونه خطيباً ، وفي حال كونه قائلاً : سمعت النبي ﷺ يقول : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

«من» اسم موصول ، متضمن معنى الشرط .

و «يرد» هو فعل الشرط ، وهو من الإرادة التي هي صفة مخصصة لأحد طرفي المقدور .

و «خيراً» هو مفعول «يرد» والخير يطلق بإطلاقات كثيرة ، والمراد به هنا المنفعة ، والتنوين فيه للتعظيم ، أي خيراً عظيماً على حد قول القائل ، له حاجب عن كل أمر يشينه .

والمعنى : أن من تعلقت إرادة الله تعالى أن ينال جميع المنافع الجليلة ، ويدرك كل الخيرات العظيمة في الدين والدنيا ، يسعد في الدنيا بتبوء مقعد الإجلال والإعظام والعظمة والكمال ، حيث ينطلق في مجال العلوم والعرفان ، يستنبط الأحكام من الأحاديث النبوية وآيات القرآن ، ينكب وينصب على ذلك انكباب الفارس المقدم في شجاعة واطمئنان ، واتحاد

وتوازن وائتلاف، فيحظى بالتقدير والاحترام والإكبار والإجلال، ويعيش مكرماً مرموقاً محبوباً مفضلاً، هذا في الدنيا، وينال في الآخرة الأجر العظيم، والثواب الكريم، حيث يأوي إلى جنات النعيم، يأكل من ثمارها، ويرتوي من معينها، ويستظل بظلالها، ويتمتع بحور عينها، تقديرًا وجزاء له على جده واجتهاده، وتضحيته بوقته وراحته لاستنباط الأحكام، واستدرار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

معنى الفقه في الدين:

ثم قال: «يفقهه في الدين» هذا هو جواب الشرط «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

والفقه لغة: الفهم. يقال: فقه يفقه كعلم يعلم، فهو فقيه أي فاهم عالم، ويقال فقه يفقه ككرم يكرم فقاهاة فهو فقيه أي عالم وفاهم.

وعرفاً: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية بالاستدلال، وهذا عطاء جزيل، وكرم عظيم من الله تبارك وتعالى لمن سبق في علمه أنه سيكون من ورثة الأنبياء.

وقد أهله إلى ذلك بمختلف العلوم، أهله بعلم الوضع، وبعلم اللغة والاشتقاق، فلا يمكن أن يلتبس عليه مدلول لفظ بمدلول لفظ آخر، فلا يلتبس عليه المتواطئ بالمشكك، ولا المشترك المعنوي بالمشارك اللفظي، وعلمه العربية والنحو ليستطيع أن يدرك المعنى عاجلاً، ويدركه إدراكاً صحيحاً؛ لأن صحة الإعراب تضرب بسهم وافر في صحة المعنى، وعلمه كذلك علم المنطق حيث إنه أصبح يفرق بين الإنشاء والخبر، وبين صدق

الخبر وكذبه ، وبين أنواع الدلالات الثلاثة : دلالة المطابقة ، والتضمن ، والالتزام ، وأصبح يعلم مدلولات الكليات الخمس ، وأصبح يعرف ما هو الحد التام ، وما هو الحد الناقص ، وما هو الرسم التام ، وما هو الرسم الناقص ، وما هو القياس الاقتراضي والقياس الاستثنائي ، ويعرف علم المعاني ، فلا يلتبس عليه الإسناد الحقيقي بالإسناد المجازي ، ولا قصر الصفة على الموصوف ، ولا العكس ، ولا القصر الحقيقي والقصر الإضافي ، ولا القصر الذي أريد به قصر القلب أو قصر الأفراد ، كما لا يلتبس عليه موقع الآية التي تأتي بعد آية أخرى متصلة بها ، أهي تعتبر مؤكدة تذييلية من قبيل التذييل ، أم هي جملة مؤسسة لمعنى جديد ، أم هي جملة مستأنفة ، وقعت جواباً لشرط مقدر ، أو هي جملة معترضة بين كلامين متصلين .

وكما لا يعسر عليه هذا لا يعسر عليه إذا وقع التعبير بأحد الضمائر الثلاثة ، ثم أتى في آخر التعبير بضمير غير الضمير الذي وقع به التعبير أولاً لنكتة من النكات على جهة الالتفات ، لا يعسر عليه ذلك .

كما لا يعسر عليه التفريق بين الحقيقة اللغوية التي هي استعمال اللفظ فيما وضع له ، مع الكناية التي هي استعمال اللفظ في لازم معناه ، والمجاز الذي هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لقريضة ، وعلاقة إذا كان مرسلًا ، وهي العلاقات التابعة للمجاز المرسل المعروفة ، وإذا كانت العلاقة هي المشابهة فذلك يكون على الدوام بين أقسام الاستعارة : الاستعارة الأصلية ، التصريحية ، التبعية ، التمثيلية ، الاستعارة المكنية - كل هذا يكون على علم منه .

وهو أيضًا على معرفة تامة باستكشاف النص من الظاهر، والمطلق من المقيد، والمجمل من المبين، والمحكم من المتشابه، والناسخ من المنسوخ، إلى غير ذلك، ينتقي هذا بهذا، والخاص والعام، العام الذي بقي على عمومته، والعام الذي خصص بمخصص متصل أو منفصل، والعام الذي أريد به الخصوص.

كما أنه يكون على بينة من علم الحديث فيما يتعلق بالمتن ويتعلق بالسند، عدالة وجرحًا، ضبطًا واختلافًا، يعرف الحديث الصحيح لذاته والحديث الصحيح لغيره، والحديث الحسن لذاته، والحديث الحسن لغيره، والمتواتر والمشهور، والمسند، والمتصل، والمرفوع، والمقطوع، والمعلق، والغريب، والضعيف، بمعنى أنه فارس الميدان، يستطيع أن يعرف كل هذه الأسماء لهذه الأحاديث، ليعمل بمقتضاها حينما ينفرد للتأمل في الأحاديث النبوية التي يمكن أن يأخذ منها ما يريد أن يأخذ على طريق الاجتهاد، فلا بد أن ينظر في هذه الأسانيد، وفي هؤلاء الرجال، ليكون اجتهاده مبنياً على أساس صحيح.

وأيضًا يكون عالمًا بأسباب النزول للآيات القرآنية؛ لأن علمه بأسباب النزول يعينه على فهم المعنى المراد عاجلاً، على أساس أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولأسوق بعض الأمثلة: فمن باب الإجماع، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] إلخ. أي: يا أيها المؤمنون، إذا قصدتم إلى الصلاة فافعلوا هذه الأفعال.

وظاهر الآية يؤدي إلى أن كل من توجه إلى الصلاة يجب عليه أن يتوضأ، محدثاً كان أو غير محدث، فهذا الإطلاق في آية مطلقة، مع أن الذي يجب عليه الوضوء هو المحدث، أما الذي على طهارة لم ينتقض وضوءه، فلا يجب عليه تجديد الوضوء، إذا أراد الدخول إلى الصلاة، اللهم إلا إذا أراد أن يستن، فإنه يستن في ذلك، عملاً بقوله ﷺ: «من توضأ على طهر، كتبت له عشر حسنات»^(١).

إذن ظاهر الآية يقتضي أن كل من قصد الصلاة يجب أن يتوضأ، مع أن الحقيقة غير هذا، انعقد الإجماع على تقييد هذا الإطلاق في الآية بالمؤمن المحدث ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ﴾، يا أيها المؤمنون المحدثون، لا غير المحدث.

الإجماع:

لكن قد يقال: إن الإجماع لا يعمل به إلا إذا كان له سند من السنة، أقول: السند موجود، وهو ما وقع يوم فتح مكة، حيث إن النبي ﷺ صلى الصلوات الخمس بوضوء الصباح، فقال له عمر رضي الله عنه: رأيتك يا رسول الله صنعت شيئاً لم تكن تصنعه، فأجابه ﷺ بقوله عاجلاً: «عمداً فعلت ذلك»^(٢)، فدل هذا على أن الذي يجب عليه أن يتوضأ إذا قصد الصلاة هو المحدث.

(١) أخرجه الترمذي (٥٩)، وأبو داود (٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٦١)، والنسائي في «المجتبى» (١٣٣) من حديث بريدة رضي الله عنه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أما رسول الله ﷺ فقد بقي يوم فتح مكة ، بقي طيلة ذلك اليوم وهو متوضئ حتى صلى العشاء ، إذن لا يجب الوضوء إلا على المحدث ، فالإجماع قيد الآية ، وسند هذا الإجماع هو ما ذكرناه من قصة يوم فتح مكة ، هذا من الإجماع .

القياس :

ومن القياس كقياس النباش على السارق في حكم حد السرقة ؛ بجامع أن كلا منهما سطا على مال الغير الذي هو في حرز خفية ، وكقياس النبذ على الخمر في حرمة التناول ؛ لأن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، وكقياس أقل الصداق على نصاب السرقة ، نصاب السرقة وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم ، قيس عليه أقل الصداق ، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم بجامع أن الربع من الدينار أو الثلاثة دراهم من هنا أو من هنا وقعت مدفوعة قبالة عضو ، فبالنسبة للسرقة دفعت قبالة العضو الذي أريد قطعه ، يدًا أو رجلًا ، وبالنسبة لأقل الصداق ، العضو الذي هناك ، هو بضع المرأة .

ثم قال ﷺ : « وإنما أنا قاسم ، والله يعطي » .

هاتان الجملتان الاسميتان ، إحداهما دخلت عليها أداة القصر .

وأدوات القصر إلا إنما عطف وتقديم كما تقدما

لكن القصر هنا ، هو من قصر الموصوف على الصفة ، الأمر الذي يوجب علينا أن نعتبر أن هذا القصر إنما هو إضافي لا حقيقي ؛ لأن له ﷺ من الصفات الكريمة والنعوت الجميلة ما لا يحصيه عد ، ولا له غاية ولا نهاية ، فالقصر إنما هو قصر إضافي ، وهذا القصر هو على حسب اعتقاد

المخاطبين ، فإن كانوا يعتقدون أن رسول الله ﷺ قاسم معط ، فالقصر قصر أفراد ، وإن كانوا يعتقدون أنه معط فالقصر قصر قلب .

و«قاسم» اسم فاعل قسم يقسم قسما ، والقسم هو التجزئة .

والجملة الثانية «والله يعطي» : جملة اسمية أخرى في محل نصب على الحال من مفعول «يفقهه» ، «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، «وإنما أنا قاسم» يلهمني إلقاء ما يليق بكل واحد ، والحالة هذه ، والله يعطي من أراد أن يفقهه في الدين استعدادا لإدراك ما قدر له في الأزل أن يدركه .

أعيد هذا التحليل : يلهمنا الله تبارك وتعالى إلقاء ما يليق بكل أحد - هذا تفسير «قاسم» - والحالة هذه .

والله يعطي من أراد أن يفقهه في الدين استعدادا لإدراك ما قدر له أن يدركه ، من معاني الوحي الشريف ، ويمكن أن تكون هذه الجملة حالية من الفاعل فيكون المعنى ، إني ألقى ، وإنما أنا قاسم على هذا التقرير ، إني ألقى ما سنح لي ولا أرجح أحدا على أحد ، والحالة هذه ، والله يعطي كلا ما أراد له من العطاء .

معنى المقسوم :

ولكن ما هو المقسوم؟ إنما أنا قاسم «ما هو المقسوم؟» رأيان في الموضوع :

الرأي الأول : أن المقسوم هو الوحي الإلهي الذي كان ينزل على النبي ﷺ ، فيكسوه حلة من البيان والوضوح ، عملاً بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، ثم ينتصب أستاذًا ملقنًا واعظًا مرشداً

موجهًا جميع أصحابه، ليفهمه كل واحد، ويدرك مغازيه ومراميه وأهدافه للإسلام في التشريع الإسلامي في شتى المجالات، ولكن الصحابة الكرام لم يكونوا في مستوى واحد ولا في صعيد واحد من الذكاء والفطنة، بل كانوا متفاوتين، أو هما فريقان :

الفريق الأول: الذي يتكون من علماء أفذاذ، ومن نبلاء أعلام، حباهم الله بالفهم الدقيق، وبالذكاء الثاقب، وبالإدراك الصحيح المتين، وبالفطنة الحية، فشمروا عن ساعد جدهم لاستجلاء المعاني التي يتضمنها الوحي الشريف .

وهكذا غاصوا في بحر تأملاتهم وتفكيرهم لاصطياد درره وجواهره، واقتناص أصدافه ولآلئه، وتحصيل دقائقه ومكامنه، اشتغلوا بهذا فكانوا من الفائزين، حيث استطاعوا أن يسهموا في الاستنباط، واستنبطوا عدة أحكام متعلقة بعدة مسائل، والله تبارك وتعالى يعطي فضله لمن يشاء .

ما فعله هذا الفريق إنما هو إنعام وإمداد من الله تبارك وتعالى مكنه من ذلك، يظهر أن هذا الفريق الذي استطاع أن يقفز هذه القفزة، ويغوص في بحر التأملات والتفكير في الوحي الشريف حتى اقتنص ما اقتنص واصطاد ما اصطاد وأخذ ما أخذ، لابد أن يكون مستندًا على شيء، والاستناد غالبًا على القياس أو على الإجماع، ونحن مأمورون باتباع القياس، قال تبارك وتعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ٢]، أو يكون مستندًا على الإجماع، أي على ملازمة الإجماع، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] .

ويوجد في مقدمة هؤلاء جمع كبير من الصحابة كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وأبي عبيدة ابن الجراح، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس. هذه طائفة، وإلا فهم عدد كبير الذين استطاعوا أن يتفهموا الوحي، ويقتنصوا درره وجواهره، وتبعهم على ذلك وسلك مسلكهم كثير من التابعين، كلهم سلكوا هذا النهج القويم، ونهجوا هذا الصراط المستقيم الذي سلكه الصحابة فساروا على هديهم، وذلك كقتادة، ومجاهد والضحاك، هؤلاء من التابعين.

ولم تقف المسيرة عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى الأمام، حتى وصلت إلى المدينة المنورة، فألقت رحلها أمام الفقهاء الخمسة بالمدينة المنورة، ألقت بظلالها عليهم، حتى اتصل ذلك بالأئمة الأربعة: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، وغيرهم من الذين نالوا هذا الفضل العظيم، حيث شاركوا في بناء الفكر الإسلامي، الذي شع نوره في مختلف الآفاق.

وكان من الأسباب التي أتاحت جميع الانتصارات والفتوحات، وفي وضع اللبنة الأولى في صرح البحث العلمي الذي أضاء العالم من جميع جوانبه وزواياه، وطهره من الخمول والركود، وسما به إلى قمة المدنية الحقة التي درت عليه الخير الكثير في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعمرائية، والسياسية، والعسكرية، والعدل والإنصاف، والاطمئنان والاستقرار.

آخذين منهم هؤلاء الصحابة، وهؤلاء التابعون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، آخذين كل ذلك من وحي السماء، وإعمال فكرهم في مجال

الاستنباط من الآيات القرآنية ، والأحكام النبوية ، بوسع علمهم ، ومتانة ثقافتهم ، وذكاؤهم الثاقب ، وتحملهم وصبرهم ومصابرتهم ، وتحملهم العناء الكبير ، سفرًا وحضرًا ، في البحث عن النصوص والتنقيب والدرس والتمحيص ، هذا ما يتعلق بهذا الفريق الأول .

أما الفريق الثاني : من الصحابة فلم يكن كالأول ، بل اكتفى بالوقوف عند المعنى الظاهر للوحي ، الظاهر الواضح ، ولم يكلف نفسه عناء البحث ولا التنقيب ولا غير ذلك من الأشياء ، فلم يكن له حظ كبير في الإسهام فيما يرجع للتشريع الإسلامي ، هذا التقرير الأول .

التقرير الثاني : قلنا ما هو المقسوم ؟ قررنا أن المقسوم هو الوحي ، ويتعلق بفريقين .

الرأي الثاني : أن المقسوم هو الغنائم والأرزاق ، فيكون المعنى ، إخباره ﷺ بأن ليس له مما أفاء الله عليهم إلا الخمس وهو مردود عليهم ، ويكون قوله ﷺ : « **وإنما أنا قاسم ، والله يعطي** » إنما قاله تطييبًا لحاظرهم ؛ لأنه قد فاضل في العطاء ، والمال مال الله ، والعباد عباد الله ، وإنما أنا قاسم بإذن الله .

وعليه ، فالمقسوم ، قيل : هو الوحي ، وقيل : هو الغنائم والأرزاق ، ولكن الأولى والأليق والأنسب بمقام التشريع هو أن يحمل على الأول ، على أن المقسوم هو الوحي ، اللهم إلا إذا ورد أو ثبت أن الحديث يتعلق بقسمة المال ، وأن الرسول ﷺ فاضل بعض الصحابة بالعطاء لحكمة اقتضت ذلك ، وخفيت عن بقية الصحابة .

فقد شهد الصدر الأول ، خصوصًا القرون الثلاثة الأولى جموعًا وافرة

من الفقهاء الذين فقههم الله في الدين ، فحملوا مشعل التشريع مجتهدين مستنبطين من الأدلة الشرعية ، ومن الكتاب والسنة بالخصوص ، باعتبار أن الكتاب والسنة هما المنبع العذب الفياض ، والمنهل العذب الزلال ، الذي تفتقت منه العقيدة الإسلامية ، والتكاليف الشرعية ، والأحكام المتعلقة بشئون الدين والدنيا .

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تتسع دائرة هذا التشريع ، ويعطي المسلمون مجموعة أخرى من العلماء الأفذاذ ، وهكذا خصوصاً فيما يرجع للجزيرة العربية ، والعراق ، واليمن ، والشام ، ومصر ، وآسيا الوسطى ، وشمال إفريقيا ، والأندلس ، حينما اتسعت دائرة الإسلام .

وانتشرت السنة والقرآن ، وظهرت التأليف المختلفة الأنواع ، في التفسير ، وفي الحديث ، وفي اللغة ، وفي الفقه ، وفي الأدب ، وفي غير ذلك من العلوم التي جعلت الدولة الإسلامية تبرز ظاهرة في صناعة وقوة ، الأمر الذي جعلها تفكر في أن تبتدئ البناء في صرح الحضارة العربية الإسلامية التي لازالت إلى الآن آثارها قائمة .

من أعلام الأمة :

وإننا إذ نفتح هذا الملف فإننا نلتقي بأعجاء وعلماء أفذاذ ، حباهم الله تبارك وتعالى بالفقه المتين ، والعلم الكبير ، ونجد أن درجاتهم مختلفة ، ونجد في مقدمتهم الأئمة الأربعة : الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام الشافعي ، والإمام أبا حنيفة ، والإمام مالكاً .

هؤلاء الأئمة الذين صالوا وجالوا ، وتحملوا المشاق العظيمة سفراً

وحضرًا ، من أجل الوصول إلى فهم كتاب الله ، وفهم سنة رسول الله ، واستكشاف بعض الأحكام التي لم ترد مصرحًا بها في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ؛ لأن القرآن لم ينص على جميع الجزئيات ، هناك جزئيات حقيقة تتعلق بالنكاح والطلاق والعتاق إلى آخره ، ولكن القرآن ، كله كليات ، وكذلك السنة ، لم تنص على كل شيء ، أي على حكمه .

قلنا : هؤلاء الأئمة الأربعة صالوا وجالوا في ميدان التشريع ، وبالجملة فهم متوفرون على شروط الاجتهاد ، متصفون بجميع العلوم الإسلامية في كل مجال ، وذلك ما جعل مذاهبهم باقية إلى الآن ، خالدة مخلدة ، لها أهلها ومتبعوها ، والمتمسكون بها والمدافعون عن تشريعاتها ، ولم يبق لها منافس منذ القرن الثامن الهجري حيث انقرض المذهب الظاهري ، بقيت هذه المذاهب الأربعة ، ولم يبق لها منافس .

وإذا كان هؤلاء الأئمة الأربعة ومن على شاكلتهم قد قاموا بمثل ما قاموا به تقربًا إلى الله تعالى ، فإن كل مسلم يجب عليه أن يعترف بفضلهم ، وفضل من سبقهم من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين في هذا الميدان .

وبهذه المناسبة فإننا قد نجد الحكم لمسألة أو مسائل في هذا المذهب على خلاف الحكم في هذا المذهب ، وهناك يتدخل بعض الناس فيقولون : لم هذا؟ إذا كان المستند في التشريع هو الكتاب والسنة ، لم قال الإمام الشافعي : حلال ، والإمام مالك قال : حرام؟ أو العكس ، أو قال : هذا مندوب ، والآخر قال : سنة ، لماذا؟ مع أن المستند واحد هو الكتاب والسنة ، أنا أجيب عن هذا .

الأدلة الشرعية التي تستقى منها الأحكام:

أما الأول : المستند ، ليس هو الكتاب والسنة فقط ، هناك الكتاب ، وهناك السنة ، وهناك الإجماع ، وهناك القياس ، وهناك الاستحسان ، وهناك المصالح المرسلة ، وهناك عمل أهل المدينة بالنسبة إلى المالكية ، وهناك سد الذرائع ، وهناك قول الصحابي أو غير ذلك .

إذن المنافذ ليست واحدة ، لو كان عندنا الكتاب والسنة فقط ، يمكننا أن نستغرب ؛ لأن الأمور ليست منصوصة كلها في الكتاب والسنة ، بل بعضها منصوص في الكتاب والسنة ، وبعضها أخذ بطريق الاستحسان ، مثال : رجل اشترى أرضاً بالخيار ومات ، اختلف الورثة ، واحد أراد أن يرد تلك الدار أو الأرض إلى صاحبها ، والآخر قال له : لا أنا لا أردّها ، وكل منا يأخذ حقه .

ما هو الاستحسان؟

من أراد أن يأخذ واجبه فهو يخير إما أن يأخذ الجميع ، وإما أن يترك الجميع ، هذا استحسان ، كذلك دخول الحمام ، لا نسأل هل نغسل بعشر لترات أو مائة لتر ، كذلك السقاء ، نأخذ منه الماء لنشربه من غير أن نتشاطر معه ، هذه كلها جائزة والغرر أو الغبن فيها مرفوع ، ولا ينظر فيها إلى قياس ولا إلى غيره .

قلنا : إن التشريع ليس خاضعاً للكتاب والسنة فحسب ؛ بل كذلك للقياس ، وكذلك الإجماع ، فمذهب الإمام مالك مبني على سبع عشرة قاعدة : نص الكتاب ، وظاهر الكتاب ، ودليل الكتاب ، ونص السنة ، وظاهر السنة ،

ودليل السنة ، ومفهوم المخالفة ، والموافقة للكتاب ، ومفهوم المخالفة ، والموافقة للسنة ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وعمل أهل المدينة ، وقول الصحابي ، وسد الذرائع .

كل إمام عنده قواعد بنى عليها مذهبه :

وعلى هذا فالأئمة الأربعة ومن نحى نحوهم ، وسار على شاكلتهم ، ممدوحون مأجورون من الله تبارك وتعالى ، فهم مجاهدون أولاً وبالذات .

قد يقع الاختلاف لتعارض الدليلين ، ولا مرجح ، هذا دليل يقول : هذا حلال ، وهذا يقول : هذا حرام ، تعارض الدليلان ، فيثبت كل واحد الحكم في تلك المسألة على حسب ما ترجح عنده ، ويقع الاختلاف أيضاً بالعلم بالدليل وعدم العلم بالدليل ، فمن علم الدليل من الأحاديث النبوية أثبت الحكم الشرعي ، ومن لم يصله الدليل ولم يعلم به ، تمسك بالبراءة الأصلية ، كذلك إذا وصل الدليل إلى هذا الإمام من طرق صحيحة ، وإلى الآخر من طرق ضعيفة ، فمن وصله من طرق صحيحة تمسك به ، وأثبت الحكم الشرعي به ، ومن وصله من طرق ضعيفة ألغاه وتمسك بالبراءة الأصلية .

كذلك القياس ، الأئمة الأربعة وغيرهم ، باستثناء الظاهرية ، يأخذون بالقياس ، والظاهرية لا يأخذون بالقياس ، إذن الاختلاف معهم ليس جوهرياً ، كذلك يقع الاختلاف بين الأئمة باختلاف القراءة ، هذا يقرأ بالبصري ، وذلك يقرأ بالمكي ، وذاك يقرأ بالعشر ، اختلاف القراءة ، واختلاف القراءة قد يؤدي إلى اختلاف المعنى .

وكذلك في إعراب الآية أو الحديث ، فإن الاختلاف في الإعراب قد يؤدي إلى اختلاف المعنى ، وكذلك تعدد الرواية بصيغتين مختلفتين ، جاء هذا الراوي وروى هذه المسألة بلفظ يقتضي الوجوب ، والآخر أتى يرويها بلفظ يقتضي الندب ، وكذلك إذا وجد راو لحديث رواه ، ولكنه لا يعمل بمقتضى ذلك الحديث ، فهو يخالف مرويه ، وقع الاختلاف بين المالكية وبين الحنفية ، المالكية يأخذون بمرويه ، والحنفية يأخذون بمذهبه .

* * *

المحاضرة السابعة والخمسون بعد المائة

من هدي القرآن إلى وازع السلطان

إذا تأمل متأمل في حاضر المسلمين لم يجدهم يشكون من قلة عددية ، أو نقص في الأسباب المادية ، وإنما يجد وراء آفاتهم المستشرية ، عوائق فكرية ونفسية ، تشوش على الفهم الضروري السليم للعلاقة بين الدين بمقوماته ، والدولة الحديثة بنظامها ومقتضياتها ، قصور يتولد عنه في بعض الأحيان مواقف سلبية أو مناهضة أو عدائية ، تصدر في الغالب من جانب فئة لا هي استلهمت بهذا الصدد السلوكيات الأولى لأعلام الدين في العهد المؤسس ، ولا هي قادرة على الاجتهاد في إدراك مقاصد الدولة في ماضيها ولا سيما في حاضرها .

ولما كان بعض الناس ينفرون من الدولة في عدد من البلدان الإسلامية ويحاسبونها بمرجعية ما ورد في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صوره وصيغه ووقائعه كما كان منذ قرون ، فإن الكلام في أصله وسياقه وكنهه من أحسن المداخل لتصفية بعض الأفكار وتبديد بعض الغموض .

أما من حيث أصله ففي الكتاب والسنة ، إذ ورد في القرآن الكريم آيات عديدة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي جلها جاء مقروناً بالقيام بالركنين الأعظمين : ركن الصلاة وركن الزكاة ، دليلاً على أهميته وعلى مركزيته .

ولو سلكت هذه الآيات في منطق قراءة واعية لبرز ما بين آي الذكر الحكيم في هذا الموضوع من الترابط والتكامل والتوافق .

وسنوردها هنا في ترتيب يلتبس أحد أوجه هذا التوافق الممكنة . فمن هذه الآيات ما نزل بمكة ، وهي قوله تعالى في سورة لقمان على لسان هذا النبي الحكيم ﷺ :

﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْاُمُوْر﴾ [لقمان : ١٧] .

ويفهم من هنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي أن يدخل في تنشئة الأولاد وتربيتهم مدعماً بصفات سامية كالصبر وتقوية العزائم . ومنها قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿الَّذِيْنَ يَتَّبِعُوْنَ الرَّسُوْلَ النَّبِيَّ الَّذِيْ يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوْبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيْلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ويفهم من هنا مرجعية هذا الواجب في الرسائل السابقة التي تجدها وتتممها رسالة المتبع الخاتم محمد ﷺ ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ينظم الرسائل الإلهية في انسجامها وتتابعها . ومنه قوله تعالى في نفس السورة :

﴿الْمُنْفِقُوْنَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوْفِ وَيَقْبِضُوْنَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة : ٦٧] .

ويدرك منها أن ما جاء به الإسلام من الأمور الواجبة والمندوبة هو المعروف ، وأن ما جاء بالنهي عنه هو المنكر ، وأن الاتجاه المعارض له من بين الذين خاطبهم الرسول اتجاه يتميز على أساس هذا الرافض بالمعاكسة والمحاربة .

أما السور المدنية التي جاءت في الموضوع فمنها قوله تعالى في سورة المائدة :
﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ
مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

ويفهم منها تصعيد في صيرورة إرساء هذا الأمر بالمرجعية الثابتة في
الرسالات السابقة ، وتحذير من الوقوع فيما سقط فيه أقوام من قبل ، إذ
كانوا لا يتناهون عن المنكر ، إما لتفسخ ينتج عنه انحلال الحضارة ، أو لعدم
قيامهم بمستلزمات حفظه كالتمرد على من يقوم به من الأمراء والعلماء
والصالحين .

المسنول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

مما يفهم منها أن الأمة المعنية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تكون فئة
أو نخبة تقوم بهذا الواجب على سبيل الكفاية عن الآخرين ، والحرص على أن
تكون هذه الأمة أي الجماعة قائمة على الدوام ، واجب حي لا يسقطونه ولا
يصدر عنهم ما لعن بسببه الآخرون من الترك وعدم التناصح .

وفي آيتين أخريين من نفس السورة يقول الله ﷻ : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣﴾ يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران : ١١٣ ، ١١٤] .

ويتبين من الآيتين معنى الأمة القائمة ، أي الجماعة المسئولة المذكورة في الآية السابقة ، وهي موصوفة بأحوال ربانية تصاحب من يوكل إليه الأمر أو يتصدى له ، فتخبرنا أن أهل الكتاب لم يسقطوا كلهم هذا الواجب الذي تصلح به الأحوال ، بل كان منهم من يسارعون في الخيرات حتى وصفوا بالصالحين .

وتأتي آية أخرى في نفس السورة وفيها قوله تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ويفهم منها الكمال الذي انتدبت له أمة الإسلام بالنسبة للأمم السابقة ، إذا هي حرصت على سلامة حياتها السياسية بالمعنى الشامل ، وهذه الحياة ، إذا تأملنا ، هي التي وقع التعبير عنها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

النساء شقائق الرجال :

أما الآية الثامنة فقد جاءت في سورة التوبة وهي قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وفي تسوية الرجال بالنساء في أعباء هذا الواجب ، بالرغم من التأويل الإقصائي لبعض المفسرين الذين نظروا بحسب أحوال عصرهم فقالوا إن المرأة لا تستطيع أن تأمر وتنهى ، وهي ضعيفة في البدن مأمورة بخفض الصوت وبلزوم البيوت ، ناسين أنها وحتى في أحوال عصرهم ، هي التي

يطلب منها أن تربي الأولاد على التشبع بقيم الالتزام بالمعروف وكراهية المنكر، قبل أن يصبحوا مناط الأمر والنهي .

وفي الآية التاسعة ، وقد وردت في سورة التوبة ، نقرأ قول الله تعالى :

﴿التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّائِحُونَ الزَّكَوُونَ
السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١١٢] .

وتستنبط منها ، على الخصوص ، الشروط الخلقية المؤهلة للقيام بهذا الواجب العظيم الذي لا يجوز أن يتصدى له إلا من توفرت فيه ، وهي ليست متوقفة على القدرة المادية ولا على المعرفة العلمية فحسب ، بل تتوقف قبل كل شيء على صفات إيمانية تهدي للأسلوب الرقيق الخطير الذي يتوقف عليه النجاح .

ثم نأتي في الأخير إلى الآيتين اللتين أسسنا عليهما هذا الدرس وهما من سورة الحج ، وفيهما قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ أَعْيُنُهُمْ لَوَافِحُ أَعْيُنِهِمْ فَضَلُّوا سُبُلًا وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ أَعْيُنُهُمْ لَوَافِحُ أَعْيُنِهِمْ فَضَلُّوا سُبُلًا وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ أَعْيُنُهُمْ لَوَافِحُ أَعْيُنِهِمْ فَضَلُّوا سُبُلًا﴾ [الحج : ٤٠ ، ٤١] .

وعند الطبري في تفسيرها ، أن أهل التأويل اختلفوا في معنى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ . فقال بعضهم : دفع المشركين بالمسلمين ، وقال آخرون معناه : لولا القتال والجهاد في سبيل الله . وقال آخرون معناه : ولولا دفع الله بأصحاب رسول الله ﷺ عمن

بعدهم من التابعين، إلى أن قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال إن الله تعالى أخبر أنه لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض لهدم ما ذكر من دفعه تعالى بعضهم ببعض، وكفه المشركين بالمسلمين عن ذلك، ومنه كفه بعضهم التظالم، كالسلطان الذي كف به رعيته عن التظالم بينهم... لولا ذلك لتظالموا فهدم القاهرون صوامع المهوورين وبيعهم.

والمقصود بالصوامع أماكن عبادة الرهبان أو الصابئين، والمقصود بالبيع بيع النصارى أو كنائس اليهود، وقال بعضهم في معنى صلوات: هي الكنائس. وقال آخرون: هي مساجد الصابئين، وقال آخرون: هي مساجد للمسلمين.

أما في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فقال الطبري: كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده، لا شريك له، ونهيه عن المنكر أن نهوا عن عبادة الأوثان، وعبادة الشيطان، قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم، فقد أمر بالمعروف، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان فقد نهى عن المنكر.

ومن هذا النموذج في التفسير لعلم من كبار أعلام هذه الأمة أبي جعفر الطبري، يتبين أن المقصود -في فهم الأوائل- بالمعروف هو المعروف الأكبر وهو الدعوة إلى التوحيد، والمقصود بالمنكر، هو المنكر الأكبر وهو الشرك بالله وعبادة الأوثان.

ولما كان كلام الله المنزل لا ينفد، فإننا في عصرنا هذا، في ضوء وقائع التاريخ الكوني الذي نعرف تفاصيله وقواعده أكثر من غيرنا من أهل القرون

الماضية ، نستطيع أن نفهم عن الله أن التدافع بين الناس ذلك الذي يبعد بهم عن المنكر والظلم ، يدرك في مستويات عدة نعيشها في عصرنا هذا . فالتدافع بين الناس على مستوى الكون هو ما يسمى بالتوازن الدولي ، وهو توازن قائم على ما يسمى بالسلم المسلح بين كتلتين أو عدة كتل . وملحوظ ما يشبهه على المستوى الإقليمي . أما على مستوى البلد الواحد فالتدافع المطلوب ، ليس هو التقابل بين حاكم وبقية محكوميه ، بل بين قوى يمكن لبعضها أن يكف ويردع البعض الآخر . ولم يتأت هذا التدافع بالتي هي أحسن إلا داخل النظام الحديثي الذي درج إليه الناس عبر محن كثيرة ، وهو النظام السياسي المتعدد الاقتراحات والاجتهادات . ففي داخل البلد الواحد الذي لا يتوفر فيه هذا التدافع يمكن للمعتدين الأقوياء أن يتحزبوا ويمنعوا غيرهم من حرية العبادة وغيرها من الحريات .

وعلى هذا فالتمكين في الأرض الذي ينتج عنه إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجميع مراتبه ، هو قيام دولة متمكنة مستقرة نتيجة ذلك التدافع الذي يستفاد منه الدفاع عن الاجتهاد في الحق ولا يفهم منه التصادم ، إذ لو كان التصادم لتعين أن يختفي بعض هذه البيوت المتساكنة : المساجد ، والبيع ، والصوامع . وعليها يقاس تعدد الآراء الاجتهادية داخل الملل المتساكنة أو داخل الملة الواحدة .

الأصل الثاني في الإسلام:

أما الأصل الثاني للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد كتاب الله فهو حديث رسول الله ﷺ ، وقد وردت في هذا الواجب أحاديث كثيرة نقتصر منها على حديثين اثنين :

أولهما : ورد في «صحيح مسلم» و«مسند أحمد» و«سنن ابن ماجه» من حديث أبي ذر الغفاري وفيه : «أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور -أي أصحاب الأموال الذين ينفقون وحدهم المأجورون أكثر من غيرهم- يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم -أي ما فاض من رءوس أموالهم- قال : قال رسول الله ﷺ : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» والبضع هو المجامعة بين الأزواج .

أما الحديث الثاني فيبين ما لم يرد في القرآن الكريم من مراتب التدخل لتغيير المنكر على الخصوص، وقد جاء في «صحيح مسلم» و«مسند أحمد» وكتب السنن الأربعة وغيرها من حديث طارق بن شهاب قال : «أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان بن الحكم -كان مروان عاملاً للمدينة عدة مرات في العقد الخامس من القرن الأول للهجرة، ثم صار خليفة في دولة بني أمية- فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة . فقال مروان : قد ترك ذلك . فقال أبو سعيد الخدري وكان حاضراً : أما هذا - يقصد الرجل صاحب الملاحظة - فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» .

هذا الحديث هو الذي شغل أهل المذاهب والفرق الإسلامية على امتداد القرون .

قال الصالحى فى كتابه «الكنز الأكبر» وهو أجمع كتاب لمباحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقفنا عليه باللغة العربية ، قال :

تضمن هذا الحديث أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له ثلاث مراتب ليس إلا :

الأولى : إزالة المنكر باليد ، وذلك يكون لمن كان له سلطان ، وإلا قد يأمر وينهى من كان حقيرًا بين الناس ويأمر كثيرًا فيفضي إلى شر ، وقد يفضي إلى تقاتل .

الثانية : إزالة باللسان ، وهذه دون الأولى ، فهذه يتصف بها العلماء ؛ لأنهم أهل اللسان ، فيدعون من يتعاطى المنكر ويأمرونه وينهونه باللسان ، ويستدلون على ذلك .

الثالثة : من لم يكن له سلطان ولا هو من أهل العلم ، بل هو ضعيف الإيمان ، ويرى منكراً لا يقدر على إزالته لا بيد ولا بلسان ، فينكر بقلبه ، ووصف الإنكار بالقلب أن يعبس عند رؤيته المنكر ويكره ذلك بقلبه كراهية شديدة .

إن قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كمستند شرعى أساسى ، لما نسميه اليوم بالمشاركة السياسية أو المشاركة فى الحياة العامة ، قد نشأت عن مباشرته فتن ومحن وأزمات سالت فيها الدماء ، ولكن النقاش حول كفاءتها وشرعيتها قد أسال كثيراً من المداد ، وقد دار معظم النقاش حول مسألتين تتعلقان بتغيير المنكر باليد :

- هل تحتكره الدولة ولا يكون إلا بإذن الحاكم فى جميع الحالات ؟

- هل يصح فى بعض الحالات تجاوز هذا الإذن من الدولة ؟

- وهل يصح في هذا التجاوز استعمال السلاح لتغيير المنكر من طرف الأفراد والجماعات؟

- إن من اطلع على النقاش المستفيض الذي دار حول هذه المسائل يستنتج أنه نقاش ما كان يمكن نظراً للملابسات الظرفية المحيطة به أن يخضع للمنطق المطلق، بل إنه عكس في كثير من الأحيان مواقع أصحابه إما في الدولة أو من الدولة أو من واقع التعامل معها، وهذا ما تعكسه آراء الفرق والمذاهب من حنابلة ومعتزلة وزيدية وإمامية وحنفية وشافعية ومالكية وإباضية وقد غامر الدكتور مايكل كوك في كتابه :

Commanding Right and Forbidding Wrong in Islamic Thought

«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو أوسع كتاب في لغة أجنبية حول هذا الموضوع، وصدر سنة ٢٠٠٠ غامر في التوزيع الجغرافي لرواة الحديث في العهد الأموي، فزعم أن ثلثي عدد الأحاديث التي حاولت أن تلغي واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة للمبادرة الفردية مصدرها الشام مركز الدولة، بينما مصدر الأحاديث الأخرى بالعراق حيث كانت تنهياً المعارضة السياسية.

ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه والتعريف به هو أن الأئمة الأوائل المؤسسين على تفاوت حماسهم للتعامل مع الدولة، قد أجمعوا على أن تغيير المنكر بالسلاح أو تغييره باليد من اختصاص الأمير، أي الحكومة، وليس لأحد أن يرتكبه إلا إذا كلف به وانتدب إليه، كما أجمعوا على أن الحالات التي يكون فيها التغيير باليد من طرف الأفراد لا يجوز أن يستعمل فيها السلاح.

لكن اجتهادات بعض المتأخرين عن العهد الأول جوزت للأفراد أن يتدخلوا بالتغيير المادي ، لاسيما في حالة الشغور ، أي وقوع فراغ في السلطة أو ما في حكمه ، وتأتي خطورة هذا الاختلاف من كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن يستهدف إصلاح المنحرفين من الناس العاديين الأفراد فحسب ، بل كان يستهدف أيضًا إصلاح الحكام ، بل إصلاح المنحرفين من الحكام على الخصوص ، إما بالوعظ القولي من طرف من لا يخاف في الله لومة لائم ، أو بمواجهة قد تتحول إلى صدام أو تمرد .

وإذا كانت هذه هي الملامح العامة للمسائل التي دار حولها النقاش فإن توقفاً سريعاً على مذهب الإمام مالك رحمته الله ، يقربنا من تلمس تنوع الآراء وتطورها حتى داخل المذهب الواحد .

كانت بيئة المالكية الأولى حضرية في مدن كمدينة النبي ﷺ والفسطاط والقيروان وقرطبة ، ومعنى هذا افتراض وجود سلطة قوية نسبياً ، وهي بيئة تسمح بممارسة كثيفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من طرف الحاكم أو تحت سلطته .

لقد سأل تلاميذ الإمام مالك رحمته الله إمامهم عن مسائل تتعلق بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فشجعهم على بعض الحالات ووافق على حالات أخرى واشترط الرفق وعدم التعنيف ، واستشهد بقول الله تعالى لهارون وموسى حيث أمرهما بكيفية وعظ فرعون وقال : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : ٤٤] . واستنتج ابن رشد الجدل في كتابه «البيان والتحصيل» أن بعض أجوبة الإمام مالك يفهم منها عدم الوجوب في حالات معينة ووجوبه إذا لم يكن هناك خوف من وقوع الضرر .

ومذهب مالك في العلاقة مع الدولة هو وجوب أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وكل ذلك في إطار التعامل مع الحاكم ، وعلى هذا السنن من التعاون صار المالكية المتأخرون من أمثال الباجي وابن رشد وغيرهما الذي أدخل الأشعرية إلى الأندلس . فهو كالإمام يرى أن الناهي عن المنكر ينبغي أن يتأكد من أن عمله لن يؤدي إلى شر كالذي ينهى عنه أو إلى شر أكبر منه .

يوافق ابن رشد الجد (٥٢٠ هـ) على شروط الباجي ولا يشترط العصمة فيمن يقوم بالأمر والنهي ، ويتبع الإمام مالك في القول بوجوب إذن السلطان بأنه وحده القادر على القيام بها الواجب جملة ، ومن واجب السلطان تعيين من يقوم بذلك .

أما من جهة مفسري القرآن من المالكية فنجد أبا بكر بن العربي في «الأحكام» يقول فيما يتعلق باستعمال السلاح : «إذا لم يكن هناك وسيلة أخرى للنهي عن المنكر غير السلاح ، فعلى المرء أن يترك القيام به ؛ لأن اللجوء إلى السلاح حكر على السلطان ؛ لأن قيام غيره به قد يؤدي إلى الفتنة» ، أي إلى شر أعظم مما يريد الناهي أن يجنبه . إن كلمة الفتنة تحيلنا على هذا الكابوس الذي طرد ضمير المسلمين في تاريخهم ولا سيما أهل السنة منهم وهم إذا ذكروا الفتنة وربما فضلوا التوقف عن كل مبادرة . فكل الفتن عندهم بدأت بالفتنة الكبرى . الفتنة التي قامت في صدر الإسلام ، وتكونت على إثرها الفرق السياسية والمذهبية المعروفة .

ولكن هذا التخوف من الفتن لم يمتنع من قيام دول عظيمة في الإسلام ، ابتكرت مؤسسات للعدل وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن أهمها القضاء والحسبة ، فقد نشأ في نظام الإسلام قضاء حر مجتهد واسع النفوذ

والاختصاصات ، أسسه هدي رسول الله ﷺ ، وشرحت مناهجه رسالة الخليفة عمر الشهيرة في القضاء ، وقد امتزج القضاء في الإسلام بخشية الله ، ومن التحلي بها استمد مشاهير القضاة هيبته .

وعرف النظام الإسلامي مستوى عاليًا خاصًا من هذا القضاء يسمى بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية يقول عنها ابن خلدون : «هي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطة ونصفه القضاء» .

وكان اختصاصه النظر في أمر العمال والولاة الذين يستغلون نفوذهم ، والقضاة الذين يجورون في أحكامهم ، وجباة الأموال إذا حادوا ، وكبار الموظفين وأبناء الأعيان والحكام إذا أكلوا أموال الناس ، وليس عليهم شهود أو بينة .

الحسبة:

أما نظام الحسبة الذي نظم ليقوم بجانب مهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول عنه ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية» :

«وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى فهو المسمى بالحسبة» ؛ وهكذا كان المحتسب يفتش الأسواق ويراقبها ، ويتدخل لإصلاح سريع لأنواع الخلل في كل مرافق المجتمع ، فجمع بين مهمات النيابة العامة اليوم وبين إدارة الصحة والتموين والبلدية وشرطة الآداب والمرور ، يتدخل في كل الأمور السريعة الحاسمة التي لا تتحمل الإجراء .

أما نظام الدولة السياسي العام فقد بني على التعاقد كما يلخصه الماوردي في «الأحكام السلطانية» ، (وهو يذكر فيما يجب على الحاكم حيال الأمة ملخصًا لهذه الواجبات) في عشر قواعد هي :

- ١- المشاورة في كل ما ليس فيه نص .
 - ٢- حفظ الدين على أموره المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة .
 - ٣- تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود .
 - ٤- حماية الأمن وصيانة النظام .
 - ٥- جباية الفيء والصدقات .
 - ٦- صرف الأرزاق للناس وتدبير الأموال لهم وحمايتهم من الأمراض والمجاعات .
 - ٧- استخدام الأكفاء وتقبل النصح من الأمناء .
 - ٨- نشر الدعوة الإسلامية وتبليغها .
 - ٩- أن يباشر الأمير بنفسه أمور الناس .
- ومع كل هذا النمو لمؤسسات الدولة الإسلامية التاريخية أينما استقرت ، فإنها لم تحتكر خطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يتسع إلى ذلك ما دامت تستفيد من التعبئة التي تمثلها .
- غير أن نوازع الاستبداد وطبائعه في مناخ لم تكن فيه كل وسائل ضبط الحريات متوفرة دفعت إلى صدامات بين أطراف المجتمع وبين الحاكمين والمحكومين كان من نتائجها السلبية :
- أولاً :** الصدام القاتل مع فرق من ذوي المعتقدات الشاذة التي أبانت عن راديكالية في المواقف .
- ثانياً :** انسحاب عدد من الكفاءات الخلقية والروحية من ساحة الفعل السياسي واللجوء إلى الهامش ، وتراكم رواسب الريبة والشك في الحكم .

ثالثاً : سلوك الانصياع وخوف الفتنة لدى عدد من الناطقين باسم الدين أو لجوئهم إلى تعابير تجريدية أو سقوط بعضهم في السلبية والدعوة إلى انشغال كل بخويصة نفسه وترك الفضول ، وترويج آثار تدل على اليأس المكرس بصفة فيها كثير من القدرية . ومع ذلك فقد ظلت ترتفع أصوات النصيح الحكام ووعظهم حتى كان أدب الملوك في الإسلام مفخرة العصور .

ومن جملة ما تفتخر به ساحة النصيح تلك الرسالة الشهيرة التي رفعها العالم الفقيه الصالح أبو علي اليوسي ، المولى إسماعيل وقد جاء فيها : وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوف إلى الموعظة والنصح ، ونرجو وإن لم نكن أهلاً لأن نعظ ، أن يكون سيدنا أهلاً لأن يتعظ .

ثم نقول : إن على السلطان حقوقاً تقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها :

- جمع المال من حق وتفريقه في حق .

- إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله .

- الإنصاف من الظالم للمظلوم .

ومن طريف ما ورد في هذه الرسالة قول اليوسي وهو يخاطب إسماعيل :

«فعلى السلطان أن يتفقد الجبابة ، ويكف أيديهم عن الظلم ، ولا يغتر

بكل من يزين له الوقت» .

إن المسلمين في تاريخهم السياسي الطويل ، الحافل بأنواع التعسف والجور والإقصاء ، قد ظلوا يحافظون على جذوة الاعتراض المبدئي والاحتجاج المعنوي ضد الفساد ، وذلك ما ينبجلي في ترسانة التراث الفقهي والكلامي والتاريخي المتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . تراث شحنته القرون

بكثير من رواسب الضيم والإحباط والوعيد المرعب المخيف . يعود هذا التراث اليوم إلى ساحة الإعلام بوسائله المتعددة ، فيقدم وكأن شيئاً لم يتغير منذ الزمن ، يقدم لشحن الأذهان وتهيج النفوس وطمس العقول ، يقدم مجرداً عن سياقه التاريخي ، والحال أننا في هذا الزمان نعيش مع الإنسانية جمعاء أنواعاً من النقاش والطروحات حول الصلاح والفساد . فمن واجب المسلمين أن يحضروا هذه النقاشات ويسعوا إلى الريادة فيها والمنافسة من حيث المبادئ والمرجعيات ، فالمبادئ قابلة للمقارنات ، ولكن الآليات والوسائل التي تأخرنا فيها قد تبدلت عما كان معروفاً وممكناً في السابق ، لذلك فإن الفكر الإسلامي مطالب بنقل عقول المسلمين إلى عصرهم هذا ليصرهم بكيفية ملائمة الوسائل مع المقاصد .

إن من يتأمل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأركانه وشروطه وآدابه يجده نسقاً عالياً من تعبئة القرآن للمسلمين بقصد الإصلاح الفردي والجماعي الدائب ، واليقظة الفاعلة المستحضرة للالتزام بالإيمان بمختلف شعبه وتجلياته . وهو على الجملة يتشوف إلى إعانة الدولة إذا كانت عادلة ، ومحاسبة لها وممارسة ضغط عليها إذا كانت مقصرة ، ينوب عن الدولة حيث تغيب ، ويتدارك الأمر قبل أن تحضر إلى عين المكان ، ومعظم المجتهدين كما قلنا يقولون بأن أنواع التأديب بالوسائل المادية من حبس وعقاب وغير ذلك إنما تكون بيد أولي الأمر ولا يقوم بها الأفراد .

ومن أعلام السلف من سمى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسبة ، ففصل الكلام في أركانها ، وهم المحتسب وهو الأمر الناهي والمحتسب عليه ، وهو مرتكب المنكر موضع التغيير ، والمحتسب فيه ، وهو الفعل

المرتقب الذي يرجئ تغييره، ونفس الاحتساب وهو الأسلوب الذي ينبغي أن يتبع في التغيير، وشددوا في صفات المحتسب وأجمعوا على أنه الشخص الذي لا يكون له الغرض الشخصي والرغبة في الزعامة والظهور، وميزوا بين المناكر العادية الظاهرة التي يمكن أن يتدخل في تغييرها عامة الناس وبين المسائل التي تحتاج إلى الاجتهاد وهي لا يتدخل فيها إلا أهل الخبرة والعلم، وأسسوا آداب الاحتساب على الرفق واللين وعدم احتقار المحتسب عليهم.

إذا نظرنا إلى هذا الإرث اليوم وجدنا جزءاً منه قد انتظم في حياة الدولة الحديثة وانصرف إلى المؤسسات التشريعية والحكومية، ولكن جزءاً آخر منه صالح لأن يبقى في نطاق ما نسميه اليوم بمبادرة المجتمع المدني.

فباحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضع الإسلام أسساً ديناميكية للتفاعل الاجتماعي من أجل الإصلاح، لكن الوازع القرآني احتاج إلى تجل في مرآة التاريخ، والوازع السلطاني لم تكن لديه لا الآليات ولا الوسائل، هذه الآليات والوسائل التي لم يبدأ توفرها للدول إلا ابتداء من القرن السادس عشر في أوروبا، وإلا فكيف يمكن للمسلمين أن يشرحوا تاريخهم، أي فشلهم النسبي في تحقيق العدل المناسب لوازع القرآن، بالرغم من أن تاريخهم تاريخ منافحة من أجل الإنصاف ومطالبة بالعدل.

إن النصوص المؤسسة للديناميكية السياسية والتنمية الخلقية كما جاءت في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ينبغي أن تعرض عليها حياتنا الحاضرة بكيفية مباشرة دون وساطة الشروح والفهوم الراجعة لعهود انعدام الحرية وانعدام وسائل التنفيذ المبرمجة المتوفرة اليوم،

وفي ضوء هذا العرض نراجع الأدوار، ونقدر المنجزات، نراجع أدوار الحكام وأدوار العلماء، وأدوار من كانوا يسمون بالعامّة، ونتحقق من المواطن الفكرية التي ما تزال تقبع فيها اليوم جذور الفتنة التي طالما كبح الخوف من شبحها مبادرة المسلمين المتمسكين.

فلتتمعن في واقعنا اليوم بعناصره الثلاثة المفضية إلى التجديد وهي المؤسسات التشريعية التي موكل لها التغيير باليد ويدها السلطة التنفيذية.

العلماء الذين يغيرون باللسان على نطاق واسع، بل وحتى اليد إذا نصحوا للحاكم، ثم لتأمل لنر أن الناهين عن المنكر لم يعودوا ينحصرون في الأصناف المعروفة، ويكفي أن نشير هنا إلى ما استجد من الجمعيات ذات الاهتمامات الخيرة المختلفة وجماعات الضغط والصحافة بل وتدخل المجتمع الدولي في كثير من الشؤون.

ومن مسائل الممارسة التقليدية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تداخلها في الحياة الخاصة للأفراد، علماً بأن أئمة الأمر ميزوا بين المنكر الذي فيه ضرر للغير والمنكر الذي لا يضر به صاحبه إلا نفسه، وكذلك التوجه القانوني الاجتماعي اليوم، فيه ما يقضي التدخل لحماية الفرد من نفسه أيضاً. ولكن بأساليب تناسب الرفق الذي ألح عليه المؤسسون من أمتنا. ثم إن القانون يمنع المجاهرة كما يمنعها الشرع، ولا بد بهذا الخصوص أن نقبل بإقامة سلم للأولويات وأن نتجنب مواقف الإكراه، ونعالج الأمور بالتوجيه والتربية والقُدوة الحسنة والمنافسة في إطلاق طاقات التربية الروحية. فالأولويات تقتضي بأن يكون الهم الأول هو بقاء الأمة، ثم حماية أرضها، ثم بناء عزتها المادية والمعنوية، ثم بناء

شخصيتها الأخلاقية إلى غير ذلك ، ولا شك أن كل إضعاف لدولة العدل يخالف الشرع وينال من بلوغ هذه الأولويات . فقد نصب المتكلمون في الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ميزان المقارنة بين الإصلاح المنشود والضرر المتوقع ، ولا أفيد في هذا المجال من اتخاذ مبدأ الحرية مع التقييد القانوني الذي لا يخلق حرجاً ولا فتنة .

فنحن في عصر يتميز بالحساسية السياسية والاجتماعية الكبرى ، وفي عصر قوي فيه الوازعان :

وازع القرآن بعمق الإيمان وبسواد الأمن ورقي التربية وشيوع التعليم وكثرة الكتب وبفعل وسائل الاتصال ، ووازع السلطان بقوة الدولة ووسائلها وضخامة تنظيماتها ، لكن هذه القوة تقيدها القوانين أي قوة الدولة تقيدها القوانين وتقيدها الرغبة في حصول الرضا عنها ، على أساس برامج إصلاحية وأعمال تدخل في المنفعة العامة .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الشغل الشاغل للدولة الحديثة ، فلتأمل ذلك في أنواع القوانين الصادرة في كل يوم وكل أسبوع وشهر وسنة فهي ما بين ما يمكن أن يحسب على الأمر بالمعروف ، وما يمكن أن يحسب على النهي عن المنكر .

ولو بحثنا عنها لوجدناها كلها لحفظ النفوس والأعراض والذمم والأموال ورفع الحيف والظلم وجلب أنواع الخير .

تصدر بعد مناقشة نواب الأمة ومحتسبها في جميع الميادين ، ولو بحثنا في مضامينها ومراميها لوجدناها إما مؤصلة في شرع الله وسنة رسوله بحكم النص أو الاستنباط أو الاجتهاد ، وإما داخلية في المصالح المرسلة .

إن الحاكمية لله كما يقدمها بعض المفكرين الإسلاميين والدعاة ، مبدأ قوي لمواجهة كل الأيديولوجيات والتصدي لكل التسلطات ، ولكن التلويح بهذا الشعار من فتنة صفين إلى الفضائيات الحديثة ينبغي الاحتياط منها لكي لا يكون هذا مجرد فكرة مثالية حائدة عن المنهج القويم في ضرورة الدولة وضرورة مساندتها .

خلف لنا الأسلاف تراثاً ثقافياً في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتناول شروط الناهين وصفات المنهيين والأمور التي يتم النهي عنها وكيف ذلك النهي ، وهذه بعض أوجه التحيين اللازمة الممكنة لهذه المبدأ في دولة العدل والمؤسسات :

١- من جهة وجوبه ، أي وجوب هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلو انطلق المكلفون من المسلمين من عقيدة هذا الواجب لما عانوا من العزوف عن المشاركة السياسية في الانتخابات .

٢- من جهة الأنماط الثلاثة للتغيير : يحسم فيها بتفويض استعمال القوة للدولة مع مراقبتها .

٣- انتداب قائمين على التغيير بالقانون قولاً وحسبة متمثلين في المؤسسات المحلية والوطنية .

٤- إعادة الاعتبار للمرأة في تحمل واجبها في مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٥- إعادة الاعتبار للعامة باعتبار الناس سواسية من حيث كونهم مستودعي أمانة تكرسها الإنسانية ويكرسها سر الله في الخلق .

٦- إعطاء العلماء دورهم الروحي والإرشادي وهم متحررون من ظروف الخوف والمداهمة .

٧- إعادة مصالحة بين الضمير الإسلامي مع دولته لا من جهة الجبر أو خوف الفتنة ، بل من جهة ارتجاء فعل المعروف وضمان أنواع الحماية المختلفة من المناكر .

٨- الاطمئنان لإجراءات التخليق التي على الدولة أن تقوم بها سواء فيما يتعلق بالآداب العامة ما ظهر من حياة الناس ، أو في المحاسبة المتعلقة بالأموال والنفوذ .

٩- تغليب الأمر بالمعروف حتى لا يصبح النهي عن المنكر سوى إجراءات لتوفير الأمن والطمأنينة لأفراد الأمة وحمايتهم من الفاسدين .

١٠- تعريف الناس العاديين عامة وخدام الدولة خاصة بالآداب الربانية المشروطة فيمن يتصدى للنهي عن المنكر بأي وسيلة كانت وفي أي موقع كان .

غير أن عملية التحيين هذه يجب أن يصاحبها عمل في الاجتهاد يقنع المتشبعين بهذا التراث بأمور لم يعد يخاف منها لا على عقيدة التوحيد ولا من نشر الفساد بين الناس ، ومن هذه الأمور التي تحتاج إلى الاجتهاد قضية مفهوم الحرية من منطلق أن لا إكراه في الدين ، وقضية توسيع مفهوم الحياة الشخصية الخاصة ، وقضية الموقف من بعض المنهيات التي لا ينبغي أن يعمم الحكم التراثي بشأنها .

لقد اهتم تراث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدد من المباحث تجاوز عصرنا هذا بعضها وعالجها بما هو أنجع منها وأكثر تفصيلاً في

غالب الأحيان ، ولكن الذي لا يمكن تجاوزه ، بل يتعين تحيينه ، هو جانب الأدب الزهدي والتجدي الذي وقع اشتراطه في المتصدين لجميع المهام الرسمية وغيرها .

واليوم وقد تأتي لهذا الوازع السلطاني -أي للدولة الحديثة- أن تتوفر على أسباب التدخل والتصرف في مؤسساتها في حماية الأمن وصيانة الأخلاق ، فإن الكمال يكون في اللقاء التضافري بين الأمرين معاً ، هدي القرآن ووازع السلطان ، فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا مصدرًا للشغب والتشويش ، بل صانعًا للتعبئة العامة التي تحتاج إليها الدولة وتحتاج إليها الأمة ويحتاج إليها المجتمع في كل الأحوال لأن الوسائل ووسائل الدولة لا تكفي وإن جلت .

المحاضرة الثامنة والخمسون بعد المائة

أمة وقبلة

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

انطلاقاً من هذه الآية أتحدث عن علاقة الأمة في الإسلام بالقبلة ، وقد لفتني إلى ذلك حديث القرآن حين ربط بين كلامه عن الأمة ووصفها ، وحديثه عن القبلة ، بما جاء بعد ذلك من آيات تخاطب نبينا ﷺ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۚ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٤] إلى آخر هذه الآيات .

الربط بين الأمة والقبلة :

ورأيت أنه لا بد أن يكون لذلك حكمة ، لا بد أن نلتمسها في هذا الربط بين ابتداء الآية بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۚ ﴾ حديث عن الأمة ووظيفتها ، ثم ينتقل الحديث إلى القبلة ، هل هناك علاقة بين الأمة والقبلة ؟

الواقع أن العلاقة علاقة محكمة وثيقة ، إنها كعلاقة الكواكب بالشمس ، أو علاقة عناصر الذرة بالنواة ، كذلك علاقة الناس المؤمنين بالكعبة ، علاقة تشدهم بجاذبية إيمانية ، كتلك الجاذبية الكونية التي تشد الكواكب إلى الشمس مركزها ، كتلك الجاذبية التي تدمج عناصر النواة في ذرة واحدة ، بل أقوى منها .

هكذا نفهم أمر الله تبارك وتعالى حين صاغ هذه الأمة حول محورها ، وهو الكعبة ، والكعبة في الواقع رمز لنقطة الالتقاء بين عناصر هذه الأمة وقد أثبت العلم أن مكة هي أوسط مكان على سطح الأرض في يابستنا .

ومعنى ذلك تغير فهم الناس لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] كان الناس يفهمون أن أم القرى هي مكة ، وأن من حولها هم قبائل العرب ، فإذا بالمعنى يتغير ، حين يفهم أن أم القرى هي في الحقيقة أم المدن جميعاً .

والقرآن عندما يستخدم كلمة قرية ، فإنما يعني عكس البادية ، فالقرية هي المدينة ، وهي الحضارة .

وقد جاء الدين لبيني أساس الحضارة ، وجعل الدين للحضارة أمًا ، هي أم القرى أي : أم المدن ، وبذلك كانت مكة أوسط بلاد الله ، والناس من حول الكعبة ، وهي المركز ، يتحلقون حلقات تضيق كلما اقتربوا ، وتوسع وتتراحب كلما تباعدت الأماكن ، وقد كتب الله ﷻ لهذه الحلقات أن لا تتوقف ، لا في زمان ولا مكان في ، على اختلاف المواقيت ، فنحن نصلي هنا العصر ، والناس يصلون المغرب هناك ، أو نصلي الظهر ويصلون المغرب أو العصر هناك .

وبذلك تستمر الحلقات التي تتكون منها هذه الأمة ، لا يسكت أبدًا ذكر الله من على هذه الأرض .

وهذا هو المحور الذي نتحدث عنه ، وهذه هي الأمة التي تحدث عنها القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

مفهوم الوسطية :

ولابد أن نتساءل عن معنى الوسطية ؛ لأن بعضاً يتحدثون عن الوسطية في ضوء قوله تعالى مثلاً : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] فهذه وسطية بين الإسراف والتقتير ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] فهذه وسطية .

وقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] فهذه وسطية ، وأنا أرى ، والله تبارك وتعالى يوفقني في هذا الرأي ، أن المعبر عنه في هذه الآيات إنما هو معنى الاعتدال ، وهو خلق محمود في سلوكيات الأفراد .

أما حديث الآية ، فليس حديثاً عن الأفراد ، إنما هو حديث عن الأمة ، الحديث عن الأفراد ارتبط بعوامل المادة ، ارتبط بما يجمعون من طيبات هذه الحياة وغير الطيبات .

أما الحديث عن الأمة فقد اختار الله ﷻ له كلمة : الوسط ، والوسط في الحقيقة في كل شيء أعلاه ، كما تتوسط القمة في الجبل قواعد الجبل .

هذه هي الوسطية ، كما يتوسط الحاكم بين الخصوم مثلاً ، إن مكانه مكان عال ، وإن مهمته مهمة مرموقة ، وإن عليه أن ينهض بالوظيفة التي أناطها الله به ، لا يتخلى عنها أبداً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ إذن فالوسطية تعني مسئولية ، هي مسئولية الشهادة على الناس ، ولا بد للشاهد أن يكون حاضراً ، فلا بد أن يكون للأمة حضور ؛ هذا الحضور ، هو مكانها الأسمى ، هو تفوقها على من عداها من الأمم ، وإلا فإنها لن ترى شيئاً ، ولن يكون لديها ما تشهد عليه .

إذا كانت أمة متفرقة ممزقة فعلام تشهد؟ إن الرؤية تتمزق بتمزق الأمة، وحينئذ لو قامت لتشهد يوم القيامة على الناس، فعلام تشهد؟ ستكون شهادة زور، وسيثبت الرسول ﷺ بشهادته على الأمة أن هذه الشهادة خاطئة.

ولعلنا نقرأ هنا الحديث الذي يقول ما معناه: «إن رسول الله ﷺ يرى أناسا من أمته يساقون إلى النار يوم القيامة، فيقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال له: إنهم ليسوا أمتك، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(١)، أي إنهم تخلوا عن وظيفتهم التي كلفهم الله بها: أن يكونوا شهداء على الناس، أي أن يكونوا مسئولين عما أحدث الناس على هذه الأرض.

وعلى ذلك فالأمة هنا تستخدم في القرآن بالمعنى السياسي الذي يعني أن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، هو من هذه الأمة مهما شط مكانه، أو ابتعد موقعه، مهما اقترب، أو مهما تفرق أو تجمع، كل إنسان شهد الشهادتين فهو جزء من هذه الأمة.

ماذا تعني كلمة «أمة» في القرآن؟

لكن لا بد أن نعلم شيئا من كتاب ربنا، فالقرآن يستخدم كلمة أمة استخدامات متعددة، أحصيت معانيها فوجدتها عشرا في المعجم، ثم إذا بالقرآن يأتي بسبعة معان، من هذه المعاني:

فالأمة تعني خلق الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي منذ خلقهم.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي خلقًا واحدًا. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١١٨ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٩].

فالمعنى الأول هو خلق الله، ثم يتفرع عن هذا المعنى حلقات من دلالات الكلمة، يختلف الناس، فيرسل الله ﷻ لأقسام المختلفين رسلا، فإذا هم أقوام وشعوب وقبائل.

فإذا ذهب الرسول إلى الأقوام كان من الناس من يتبع ومن يرفض الاتباع، فإذا بالأقوام جماعات، ولذلك عندما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] أي في كل قوم، لكن عندما يقول: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] أي جماعة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] أي أمة محمد ﷺ.

هنا يبدأ المعنى في التشقق حتى يصل إلى الطريقة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي على طريقة. ثم يصل إلى القدر من الزمان: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي بعد قدر من الزمان، أو مدة من الزمن. وقوله تعالى: ﴿وَلِئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا تَحْبِسُهُ﴾ [هود: ٨] أي إلى قدر من الزمن معدود، محدود. هذه هي المعاني الأولى. وقد لاحظت أن أكثر ما يتحدث القرآن في هذا المعنى في الوحي المكي، قليل منه في المدني.

لكن يأتي معنى هو أكثر المعنى ورودا في استخدام كلمة أمة، وهو أتباع الدين، ويبدأ هذا المعنى عند قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وهي آية مدنية ، كأنها تمهد للآيات الأخرى ، الآيات التي جاءت :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

والآية : ﴿وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

والآية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

هنا يتحدث القرآن عن المستقبل ، إنه يتحدث في المدنية عندما أو بعد أن تكونت الأمة ، وبعد أن طولبوا بأن يستمروا في زيادة الأمة ، وتدعيم كيائها ، وتأسيس وجودها .

ومما هو معلوم أن رسول الله ﷺ قد تميز من بين النبيين بأنه هو الذي تكونت به الأمة ، وتأسست به الدولة ، وطبقت على يديه الشريعة ، لم يجتمع هذا لنبي قبله ، وإنما كان هذا خاصا برسول الله ﷺ باعتباره خاتم النبيين ، ولا نبي بعده ولا معقب عليه من نبوة .

إذا فهذا هو الموقف الذي عاجله القرآن في الآيات المدنية ، يحدد وجود الأمة ، ويبين وظيفتها ، ويؤكد على وحدتها : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٩٢] ، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون : ٥٢] .

يؤكد على أوصاف هذه الأمة ، أمة واحدة ، هذه هيئتها ، أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، هذه أوصافها .

ولذلك تصبح هي الأمة الوسط ، لأن هذه الأوصاف لم تتوفر لأمة أخرى غير الأمة الإسلامية ، فمن هنا كانت الأمة الوسط لا بد أن يستمر وجودها لتنهض بهذه الوظائف ، وليصلح الله بها أمم الدنيا .

فإذا خرجت الأمة من الوسطية فقد انتهت ، إذا تنازلت عن الخيرية فقد انتهت ، ومن ثم كان مضمار الوسطية ، ومضمار الخيرية ، هو الذي ينبغي أن تسعى فيه جماهير هذه الأمة دون أن تتواكل أو تتباطأ أو تتمزق ، لأن وجودها هو نتيجة أمر الله تبارك وتعالى .

لقد فرض الله علينا فرائضه التي نقوم بها أفرادا ، فرضها علينا بمثل هذه الأوامر ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] ، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: ٣١] ، ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢] .

كل هذا أنواع من الأوامر التي تفرض تكاليف فردية .

أما هذه الأوامر التي جاءت في القرآن مؤكدة باستخدام لام الأمر : ﴿وَلْتَكُنْ﴾ ثم التحذير الذي جاء بعد قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٦] .

يقول المفسرون : أي أتفرقتم بعد وحدتكم؟

ففي ميزان الآية التفرق هو الكفر ، والوحدة هي الإيمان ، أي الإيمان على مستوى الأمة ، لأن التكاليف والوجود على مستويين :

مستوى فردي يقوم به الإنسان الفرد ، وينهض به دون أن يحتاج إلى الآخرين ، وتكاليف أخرى عامة ، على أساسها قال العلماء بتنوع الفرض ،

فقالوا: الفرض نوعان: فرض عين، وفرض كفاية.

أما فرض العين: فهو الذي يلزم كل فرد من الأمة أن يقوم به بقدر ما يطيق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وأما فرض الكفاية: فهو الفرض الذي يفهم منه التكليف الجماعي، إذا فعله البعض سقط عن الباقيين.

وبعض الناس عندما كنا نتعلم الفقه، وكانوا يشرحون لنا هذه القضية، قضية الفرق بين فرض العين وفرض الكفاية، كنا نشعر أن فرض العين هو إلزام، لأنه يلزم كل فرد منا.

أما فرض الكفاية، فإذا فعله البعض سقط عن الباقيين، فهو فرض على التراخي.

ولكن الحقيقة أن فرض الكفاية فرض عام، هو المسؤولية الجماعية، كما يكون وجود الإنسان المسلم متحققاً بشهادة «لا إله إلا الله». فإن وجوده أيضاً لا يتحقق إلا بأن يكون جزءاً من أمة، وأمة متحققة، أقام بناءها رسول الله ﷺ، وقدم لها دستوراً، وقال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً»^(١).

إذن، فالأمة تسلمناها أمانة جاهزة، وانضوينا في ظلها، ودخلنا تحت لوائها.

ثم ماذا حدث؟ حدثت أمور عجيبة: من عوامل خارجية، تحاول أن تدمر هذه الوحدة، وعوامل داخلية، تحاول أن تخلخل هذه الوحدة،

(١) سبق تخريجه.

وبذلك تحولت الحال من أمة متماسكة ، وصفها رسول الله ﷺ في حديثين من أحسن ما يمكن أن نحفظ لأبنائنا ، أولهما قوله : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١) . أتتصورون مثلاً ، كيف يؤلم الإنسان سن من أسنانه ، ماذا يحدث لقدميه؟ وماذا يحدث لعينيه؟ هكذا أمة محمد ﷺ .

ثم إنها أمة وصفها بوصف لا يتحقق في أية أمة ، وهو قوله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم»^(٢) .

ما معنى هذا؟ معناه : أن المسلمين لا يتميزون فيما بينهم بأي اعتبار من اعتبارات الحياة الدنيا ، فدماؤهم متكافئة ، وأقدارهم متكافئة ، ولا يختلفون إلا في درجات المسؤولية ، لأنه كما يعلم في النظام الأخلاقي الإسلامي يكون الجزاء أعظم بقدر ما تكون المسؤولية أعظم . فكل من حمل مسؤولية ، فإنما سيكون جزاؤه بقدر هذه المسؤولية ، ومن ثم وجدنا أن القرآن يخاطب نساء النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب : ٣٠] .

لأن إتيان ذلك من أم من أمهات المؤمنين هو أفدح من أن يكون من أية إنسانة في هذه الأمة ، ومن ثم كان هذا النذير ، ولذلك وجدنا

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٣٠) ، والنسائي في «المجتبى» (٤٧٣٤) من حديث علي عليه السلام ، وابن ماجه (٢٦٨٣) من حديث ابن عباس عليه السلام .

رسول الله ﷺ يستمع إلى قراءة القرآن من ابن مسعود، وهو يقرأ من سورة النساء، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى وهو يتحدث عن الأمة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١، ٤٢] بكى رسول الله ﷺ، إنه بكى لإحساسه بعظم المسؤولية ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

إن ما كان يشعر به رسول الله ﷺ، أنه كان يحمل هم هذه الأمة، منذ كانت إلى أن يلقاها على الحوض بين يدي الله تبارك وتعالى. هذا هو حجم المسؤولية، وجسامة المسؤولية.

ومعنى ذلك أن هذه الأمة ينبغي أن تعرف قدرها، وأن تدرك خطرها في الناس، فإذا تفرقت على هذا النحو الذي نشهده، وهي تعلم أن كونها أمة فريضة، وليس الأمر بأن نكون أمة على الوعظ، أو على التوجيه الأخلاقي أو على التوسع والتمدد، لا، هذه فريضة، وفريضة مؤكدة: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ فريضة، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فريضة.

كل الآيات توحى بالفرضية بل إني أقول إن وجود هذه الأمة يجمع بين الوصفين بين فرضية العين، وفرضية الكفاية، لأن كل فرد يجب أن يكون جزءا من الأمة، وأن يعمل على تصحيح مسيرة الأمة، وأن يحرص على موقعه في هيئة الأمة.

ثم إن وجود الأمة مسئولية جماعية، كما أنه مسئولية فردية، فهذا هو فرض الفرائض، وبكل أسف هو الفريضة الضائعة.

بكل أسف، غفل الناس عن هذا كله، وانصرفوا إلى أن يعيشوا وجودهم كما شاءت لهم الظروف .

كيف يمكن أن يكون لقاءنا مع الله تبارك وتعالى يوم القيامة؟ ونحن قد تسلمنا أمانة، ثم إذا بها تتبدد بين أيدينا .

الأمة الإسلامية تملك من القوة ما لا تملكه أمة غيرها :

إن أمة الإسلام تملك من مقومات الوحدة ما لا تملكه أمة غيرها، أمة الإسلام لا تختلف في الفرائض الأخلاقية، لا تختلف في أن الصدق فريضة، وأن الكذب حرام . لا تختلف في أن الكرم أو العطاء أو أداء الحق فريضة من باب الزكاة، وأن البخل حرام ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] .

الناس يأخذون هذه المسائل على أنها مجرد عظات يمكن أن يمصمصوا شفاههم عندما يستمعون إليها، ولا يقدرّون أن الله هو الذي يخاطبهم، أنه هو الذي يناديهم، فلا ينبغي أن تصم الآذان عن هذا الصوت الإلهي الرباني .

هذه هي أسس قيام وبناء هذه الأمة، فعلام تختلف؟ تقسمت إلى طوائف وشيع، وأصبحت ممزقة على النحو الذي يرويه التاريخ .

الأسباب! هل انقسمنا طوائف لأننا نختلف في الله كما هو الشأن بالنسبة للنصارى مثلاً؟ النصارى يختلفون في طبيعة الإله، أهو المسيح؟ أم أن المسيح ابن الإله؟ أم أنه أحد الأقانيم الثلاثة؟ ... إلخ

أما نحن، فالله واحد لا شريك له، محمد نبينا، هل اختلفنا فيه؟

القرآن ، هل اختلفنا في أنه معجزة ودستور لنا؟ القبلة ، هل صلى مسلم إلى غير القبلة؟ لم يحدث .

وإنما نتفرق لأسباب تاريخية ، وهي أسباب تجاوزها الزمان ، وخطت الحياة البشرية قفزات هائلة ، وتركت وراءها هذا التاريخ ، لماذا يبقى أناس منا على هذا التاريخ ويفرضون على الأمة الانقسام؟

إذا كان نداء الله ومشيتته أن نكون أمة واحدة ، فما هذا التعلق بأسباب التاريخ ، وبذرائعه التي تمثل في الحقيقة مصالح اقتصادية لبعض من يمسكون بأزمة الأمور ، فإذا بهم يأرزون إلى هذه الزوايا من التفكير ، ومن ترسيخ الانقسامات ، وتشويه الكلمات؟!

إن الأمل كبير في هذا الجيل الذي سيسلم الأمانة للجيل القادم ، ولا بد أن نتحمل المسؤولية ، طالما كانت أنفاسنا تتردد في صدورنا ، لا ينبغي أن نغفل أبدا عن هذه المهمة ، أو هذه الأمانة ، أو هذه المسؤولية .

إننا لسنا هنا فقط ، إنما نحن هناك ، إن أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فأين نحن؟ وما موقعنا الذي نختاره؟ هذا هو الجهاد الحق الذي نسأل الله ﷻ أن يعيننا على تبعاته ، فليس هذا بالأمر الهين .

ويؤسفني ويؤلمني أن أرى الشباب ، وقد ضيعت أهدافه ، وإذا به لا يجد موطئ قدم في مجال العلم ، فيتشبث بالجزئيات ، وبالأفكار الضحلة ، ويركب نصا صغيرا ، ثم يتصور أنه أصبح يملك أقطار العلم اللدني الذي لا يباريه فيه أحد . آسى على هؤلاء وأقول كيف ضاع هؤلاء ، وما المسؤولية التي نتحملها تجاههم .

إن على أولياء الأمر أن يمكنوا العاملين في الحقل الإسلامي ، وأن يمكنوهم من أداء واجبهم في تبليغ الدعوة ، وأداء الأمانة ، وإن على الدعاة أن يتمكنوا من رسالتهم ، وأن يترفقوا بالناس ، وأن يلتزموا الحق في دعوتهم .

لابد أن نعلم أننا نتحمل هذه المسؤولية تجاه الجيل الراهن . وأن أولياء الأمر ينبغي أن يستجيبيوا بأن يمكنوا الدعاة من أن يقولوا كلمة الحق ، وأقول هنا الدعاة ، وأقصد الدعاة بحق ، الذين تمكنوا من العلم ، وعرف عنهم قصد وجه الله تبارك وتعالى ، الذين لا يراءون الناس ، هؤلاء هم الذين يلزمون في هذا الموقف ، لأن الأزمة بين العلماء وبين الشباب هي أزمة ثقة ، ولا بد أن نرد إلى شبابنا الثقة في مصادر العلم والمعرفة ، لا أن نتركهم هكذا يتلقطون الكلام من أي فم ومن أي مصدر ؛ ثم بعد ذلك لا نلوم إلا أنفسنا ، هذا هو الهدف من هذا الموضوع ، نحن أمة ، هي خير أمة أخرجت للناس ، فإما أن نكون كذلك ، وإما أن نتلقى نذير الله ﷻ ، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨] ، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : ٥٤] .

والأمة الإسلامية تكون حيث كان ناطق بالشهادتين ، في آسيا الوسطى ، في القوقاز ، في دول الأقليات ، إن أقلية إسلامية واحدة يبلغ تعدادها تعداد بريطانيا وفرنسا معا أقلية المسلمين في الهند لأنها بالنسبة إلى

مليار من البشر أو تسعمائة مليون ، هي الآن أكثر من مائتي مليون ، إنها في حجم أكبر الدول ، ومع ذلك فهي تعتبر أقلية ، وهي جزء من الأمة .

نحن نريد أن يصحو ويستيقظ العالم الإسلامي على نداء أممي ، نداء الأمة الواحدة ، لأن هذا هو الزاد ، وهو العدة التي ندخل بها إلى القرن الحادي والعشرين ، أما لو استمرت الحال على ما هي عليه ، فإن هذا الانقسام لن يفيد حتى المنقسمين ، بل سوف يجني عليهم ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يلم شامل هذه الأمة ، وأن يوحد صفوفها ، وأن يلهمها رشدها .

المحاضرة التاسعة والخمسون بعد المائة

الإسلام وصحة البيئة

قال الله ﷻ في سورة الرحمن : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧-٩]، فربنا الذي أحسن كل شيء خلقه ، يلفت أنظارنا بقوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ، إلى هذا التوازن الدقيق الذي نلمحه إذا أمعنا النظر في كل جزئية من جزئيات هذا الكون ، ثم يرسم لنا-وله الحمد- طريقة الحفاظ على هذا التوازن ووقايته من كل اختلال في أي اتجاه ، إفراطا كان أو تفريطا ، فيأمرنا بالتزام القسط والعدل ، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ ، ويحذرننا من الطغيان ، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ ومن الإخسار ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ على حد سواء ، لأن أي إخلال بهذا الميزان يمكن أن يفضي إلى أسوأ العواقب ، كما قال سبحانه في سورة يونس : ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس : ٢٣] ، والبغي في لسان العرب : التعدي والفساد .

مفهوم الصحة العصري :

ومفهوم الصحة العصري ينطلق من هذا القانون الكوني الثابت ، ويقوم على وجود ما ندعوه بالميزان الصحي ، الذي يضمن الحفاظ على صحة الإنسان ، ما دام في حالة توازن واستتباب ، كما يقوم على وجود رصيد صحي يكفل عدم اختلال الميزان الصحي ، ويتكفل بإعادته إلى توازنه عندما يتعرض إلى أي اختلال ، وقد تنبه أطباؤنا ، أطباء الحضارة العربية الإسلامية ، قبل مئات السنين إلى هذه المفاهيم التي نظنها اليوم

حديثه، فعرف علي بن العباس الصحة قبل ألف عام بتعريف موجز جامع، قال: الصحة: هي اعتدال البدن. وتحدث ابن سينا قبل ألف عام أيضًا، كأنه يتحدث بلغة العصر عما يمكن أن يخفف موازين الصحة إن ساء، ويثقل موازين الصحة إن حسن، وصنف ذلك تصنيفا بديعا إلى مجموعة من العوامل أطلق عليها اسم: الأسباب المغيرة أو الحافظة لحالات بدن الإنسان، وأدرج فيها العوامل التالية: الأهوية، الهواء وما يتصل به، والمطاعم والأطعمة، والمياه والمشارب وما يتصل بها، والاستفراغ والاحتقان، والبلدان والمساكن، وما يتصل بها، والحركات والسكنات البدنية والنفسانية، ومنها النوم واليقظة، والاستحالة في الأسنان أي في الأعمار والاختلاف فيها، وفي الأجناس والصناعات والعادات.

والواقع أننا لو أمعنا النظر في هذه العوامل لوجدناها تنقسم إلى مجموعتين اثنتين:

المجموعة الأولى: هي البيئة، وتضم عناصر تعم أفراد المجتمع كلهم أجمعين، كالماء والهواء والغذاء والمفرغات. وعناصر تختص بكل فرد على حدة، كالمسكن، والصلاة.

والمجموعة الثانية: هي ما نسميه اليوم أنماط الحياة.

فهاتان المجموعتان من العوامل تؤثران في الرصيد الصحي فتنبئانه أو تخسرانه، وتؤثران من ثم في الميزان الصحي، فتحفظان على الإنسان صحته أو تجنحان بها مجنح المرض.

للبيئة إذن أثر عظيم في الصحة، ومعرفتنا لهذا الأثر واعترافنا به يؤلفان خطوة مهمة نحو وقاية الصحة من خلال وقاية البيئة.

مفهوم البيئة :

والبيئة هي الوسط المحيط بالإنسان ، تضيق فتكون محصورة بما يحيط بالفرد مباشرة ، وتتسع قليلا فتشمل محيطه العائلي في المنزل ، وتتسع أكثر من ذلك فتشمل جواره ، ثم تشمل حيه ، فقريته أو مدينته أو تشمل قطرا بعينه أو صقعا بعينه ، أو تتسع أكثر من ذلك فتشمل هذا الكوكب الأرضي بأسره ، وقد تتعدى ذلك قليلا أو كثيرا .

ولقد لفت الله سبحانه أنظار عباده إلى هذه البيئة بأفسح آفاقها وبأدق تفاصيلها على حد سواء ، فقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، ﴿ أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ [ق : ٦] ، ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي خُلِقَتْ ﴾ [٧] ، ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [٨] ، ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [٩] ، ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧-٢٠] ، ﴿ فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم : ٥٠] ، ﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] ، ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣] ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨] ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ [الواقعة : ٧١] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج : ٦٣] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ﴾ [النور : ٤٣] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ الْآلِيلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْآلِيلِ ﴾ [لقمان : ٢٩] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر : ٢٧] ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿الشعراء: ٧﴾ ، ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩] .

في كم هائل من الآيات الكريمة التي تطالب الإنسان بأن يستعمل حواسه في معرفة هذا الكون وما فيه ، والتعرف على بيئته وتفاصيلها بغية معرفة الله ﷻ بمعرفة نعمه وآلائه ، ثم معرفة حقيقة هذه النعم ، وسبل الاستفادة منها والحفاظ عليها .

ولقد لفت الله ﷻ أنظار عباده إلى أن بيئتهم أوسع مما يتصورون بكثير ، وإلى أنها مسخرة لهم ميسرة ذلول ، ما عليهم إلا أن يحسنوا الاستفادة منها والانتفاع بها ، فقال سبحانه : ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢] ، وقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ، وقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] ، وقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] ، وقال : ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥] ، بل قال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] .

سخر للإنسان الشمس ، فإذا هي تقطر له الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي ، وإذا هي تلقي على الأرض صررا من الطاقة لا عداد لها ، تتلقفها البانيات الخضراء في النبات ، فتحولها إلى شكل من الطاقة يستطيع أن يستعمله الإنسان ، وإذا هي ترسل من إشعاعاتها المختلفة بمقدار موزون ما يكون له أثر في التدفئة والتطهير دون أن يبلغ ذلك حد التخريب والتدمير ، وسخر للإنسان الجبال أوتادا فكما تثبت الأوتاد التي يعرفها الإنسان خيام البدو ومضارب الأعراب ، فكذلك تثبت له الجبال -والله أعلم- تلك الخيمة الجوية وما بظاها من طبقة الأوزون ، فتحميه من الهلاك والبوار ، وسخر للإنسان

الأرض فجعلها على وجه صالح لمعيشته ؛ بما تشتمل عليه من نبات وحيوان وجراثيم ومواد عضوية وغير عضوية ، وذلك كله مندرج في قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [المرسلات : ٢٥] أي مستوعبة مشتملة ﴿ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾ [المرسلات : ٢٦] .

كذلك تحتوي الأرض على الماء الذي لا تقوم الحياة بدونه .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات : ٣١] ، ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر : ٢١] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ [السجدة : ٢٧] .

والأرض تشتمل كذلك على سائر ما يعيش به الإنسان ويكون به قوام حياته ﴿ مَكْنَكُمُ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ ﴾ [الأعراف : ١٠] ، ﴿ جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك : ١٥] ، ﴿ كُلُوا مِنْهَا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا ﴾ [البقرة : ١٦٨] ، ﴿ وَمَا ذَرَأُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ [النحل : ١٣] ، ﴿ نُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٢٥] ، ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٤] .

والله ﷻ قد بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها .

ومن أسمائه الحسنی سبحانه وتعالى (المقيت) ، وهو المقتدر والمقدر والحفيظ ؛ الذي يعطي الشيء بمقدار ما يلزم للحفظ ، وهذا التقدير نوع من التوازن العجيب الذي يتخلل الكون كله : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ [الحجر : ١٩] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] واذكر ما شئت بعد ذلك من عجائب التسخير .

ولقد استطاع الإنسان بما سخر الله له من هذه الأشياء ومكنه من التصرف فيها بحسب حاجته ، أن يستنبط ينابيع المياه ، ويستغل موارد الطاقة ويتخير من النبات ما يشاء لغذائه ، ويدجن الحيوانات لطعامه وركوبه وأعماله ، ويتعاون مع أخيه الإنسان في تطوير المعارف والتقانة بما يجعله يستثمر المزيد من خيرات الأرض وبركات السماء .

وقد كان منسجماً كل الانسجام مع الغاية من وجوده على هذه الأرض التي يشعر لها بالانتماء ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] .
وقد شهد التاريخ الإنساني كثيراً ممن أثاروا الأرض وعمروها ، ولكنه بدأ يشهد شيئاً فشيئاً مع تطور الإنسان وتقدمه بعض آثار الفساد الذي واکب هذا الاستغلال المتزايد لثروات الكون .

ميزان الله في الكون :

لقد سبق أن تحدثنا عن التوازن أو الميزان الذي وضعه الله في طبيعة هذا الكون بمختلف منظوماته ومنها الإنسان ، واستطعنا أن نستنبط من ذلك وجود ميزان صحي يضبط للإنسان أمور حياته ، ويحفظ عليه عافيته .
وإنه لحري بنا أن نستنبط أيضاً وجود ميزان بيئي لا يختلف عن الميزان الصحي في قليل ولا كثير .

فللبئية ميزان دقيق وتوازن ديناميكي محبوك لا بد من المحافظة عليه في حالة اعتدال ، وللبيئة رصيد بيئي يضمن تصحيح كل اختلال .
ومن الواجب تقوية هذا الرصيد وإغناؤه لأن استنفاده يجعل الخلل يستمر والتوازن يضمحل .

فإذا كان الإنسان مأمورًا ومأجورًا بعمارة هذه الأرض ، فإنه كذلك مأمور بعدم الإفراط في إنتاج ما يفسد البيئة ، وعدم الإفراط في استنفاد رصيد البيئة مما يحفظ التوازن ، ذلك أنه سيدفع ثمن كل طغيان في هذا التوازن أو إخلال .

وقد بدأ يدفع الثمن بالفعل فقد ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

ذلك أن الإنسان لم يكتف بالاعتدال فيما يعتمل ويستصنع ولا بالقصد فيما يزدرع ويستثمر .

وإنما أخذ بعد الثورة الصناعية يقفز قفزات لا يكاد يستوعبها الخيال ، وإذا بمصانعه في هذا الربع الأخير من القرن العشرين تنفث أبخرتها السامة ، وسواكبها المؤذية ، وتلفظ هياكلها المخيفة ، وأنسجتها الصناعية ، وتنشر مبيداتها الحشرية وضبابها المعطرة ، وتنشر إشعاعاتها المؤينة ، وأهوالها النووية ، وهو لا يكف عن الجري وراء المزيد والتكاثر في كل قاصمة من هذه القواصم ، حتى تحقق فيه قول ربه الحكيم العليم : ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ① حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ [التكاثر : ١ ، ٢] فما الذي يمكن أن نفعله لنستنقذ هذه البيئة ونستنقذ أنفسنا مما حل بها من خلل الموازين ؟

لقد ذكر الله ﷻ في عدة مواضع من كتابه أنه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق ، بل قال : ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم : ٨] .

ولفظه الحق لفظة فريدة من ألفاظ القرآن الكريم ، تشتمل على معان جليلة ، أريد أن أشير إلى واحد منها فيما نحن بصده ، فالله سبحانه وتعالى

يقول في سورة الرعد :

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ ۖ الْبَاطِلُ ۖ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ۖ الْحَقُّ ۖ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ [الرعد: ١٧] .

فدلت الآية الكريمة على أن الحق هو ما ينفع الناس ، وأن الباطل عكسه ، وبذلك يتجلى أمامنا معنى جميل ، ألا وهو خلق السموات والأرض بالكيفية التي تنفع الناس .

فهذه البيئة كما خلقها الله لتحقيق منفعة الناس ومصلحتهم ، والإخلال بموازينها التي قدرها الله يقود إلى مضرة الناس ومفسدتهم ، والشرعية كما يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام : الشرعية كلها مصالح ؛ إما تدرأ مفاسد ، أو تجلب مصالح .

وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها ، والزجر عن المفساد بأسرها قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] .

فإن الألف واللام للعموم والاستغراق ، فلا يبقى من دق العدل وجله شيء إلا اندرج في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ، ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان .

والعدل : هو التسوية والإنصاف ، والإحسان : إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة ، فالذي يقوله لنا الدين في موضوع البيئة هو قبل كل شيء تلك المبادئ العامة الجامعة ، أن الله خلق هذه البيئة بالحق ، وأن الحق ما يحقق منفعة الناس .

فالمحافظة على البيئة تكون بالتزام ما يحقق منفعة الناس ، ويدراً الضرر عنهم ، وأن الله يأمر بالعدل والإحسان .

والعدل يذكر بالاعتدال ، والإحسان جلب المصلحة ودفع المفسدة ، وأن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .

والبغي في «لسان العرب» - كما قلنا - التعدي والفساد ، ولقد لفت الله سبحانه وتعالى النظر إلى ما يمكن أن يحدث وهو ما نراه اليوم ، إذا أغرق الإنسان في استغلال هذه البيئة دون مبالاة بالموازين ، فقال عز من قائل : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٢٧] وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿ ١٥١ ﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥١ ، ١٥٢] ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

الإسراف والطفيان بغير حق :

المشكلة إذن لا تكمن في استغلال خيرات السماء وبركات الأرض فتلك لازمة من لوازم التسخير ولوازم العمران ، ولكنها تكمن في الإسراف والطفيان والبغي بغير الحق ، وكلها مترادفات تعني تجاوز الحد وعدم المبالاة بالموازين ، وكلها تؤدي إلى الإخلال بالموازين إخلالاً يفسد هذه البيئة ويجعلها غير صالحة لحياة الناس ، ولقد حذر الله سبحانه في مواضع متعددة من كتابه الكريم من الفساد في الأرض ، والفساد البيئي أول ما يتبادر في هذا المقام ، ولو أن ذلك لا يستبعد سائر أصناف الفساد ، فقال سبحانه : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] ، وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، وقال عز من قائل : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي

الْأَرْضِ ﴿[القصص: ٧٧] ولطالما نهى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوامهم عن الفساد في الأرض .

إن هذا الإسراف في استغلال البيئة دون ضابط ولا ناظم ظلم ما بعده ظلم ، وكفر بنعمة الله . لأن شكر النعمة يكون بالحفاظ عليها لا بتبديلها ، وقد حذر الله جل وعلا من هذا التبديل للنعم بقوله : ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] .

وضرب الله سبحانه في القرآن الكريم مثل القرية التي ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] .

وقال عن أمثالها : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكنهم كانوا يبعون في الأرض بغير الحق ، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣] .

ولم يقتصر الله سبحانه على التحذير من هذا الفساد ، وإنما بين طريق الصواب ، فقال ﷺ : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] أي العدل والاعتدال في الأمور كلها دون إفراط ولا تفريط ، ثم كان التطبيق العملي الإسلامي لهذه المبادئ العامة مثالا يحتذى في كل جيل ، وسوف نقتطف بعض القطوف المباركة .

يقول الإمام الشاطبي في «الموافقات» : وقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس ، وهي : الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل . وليس يخفى أن ثلاثا على

الأقل من هذه الضروريات الخمس وهي : النفس ، والنسل ، والعقل ، لا تكتمل المحافظة عليها إلا بحفظ الصحة ، وعن هذه الضروريات يقول الإمام الشاطبي : والحفظ لها يكون بأمرين :

أحدهما : ما يقيم أركانها ، ويثبت قواعدها ، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود .

والثاني : ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها ، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم . وهذا التصنيف البديع الذي وضعه الإمام الشاطبي رحمته الله ، ينطبق أفضل انطباق على الهدى الإسلامي في ضمان صحة البيئة الصحية التي لا بد منها لحفظ هذه الضروريات .

أنواع التدابير من واقع القرآن :

فهذا الهدى الكريم يتضمن نوعين من التدابير : تدابير تعزيزية تقيم أركان البيئة وتثبت قواعدها ، وتدابير وقائية تدرأ عن البيئة الاختلال الواقع أو المتوقع فيها ، وهذه التدابير الوقائية تنقسم إلى قسمين اثنين : عدم تلويث البيئة من جهة ، وعدم استنفاد العناصر الضرورية للحفاظ على سلامتها من جهة أخرى ، أما التدابير التعزيزية فتتنقسم كذلك إلى قسمين اثنين : تنظيف البيئة من جهة ، وزيادة رصيدها من العناصر التي تحافظ على سلامتها من جهة أخرى .

فالنهي عن تلويث البيئة يندرج أولاً وقبل كل شيء تحت تلك القاعدة الجامعة الفذة التي وضعها لنا سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الدارقطني عن أبي سعيد الخدري والحاكم في المستدرک وقال عنه : صحيح الإسناد على شرط مسلم : « لا ضرر ولا ضرار » ومعناها تحريم الإضرار

بالنفس ، والإضرار بالآخرين ، وقد قال النبي ﷺ : «تكف شرك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك»^(١) ، وقال ﷺ : «والله لا يؤمن ، قالوا : من هو يا رسول الله خاب وخسر؟ قال : من لا يأمن جاره بوائقه»^(٢) والبوائق : الغوائل والشُرور .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

والرسول ﷺ يقول : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»^(٣) ، ويندرج ذلك كله في هذا الحديث الجامع الذي رواه الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد بإسناد صحيح : «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمّنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده» .

على أن الأمر لم يقتصر على هذه القاعدة العامة ، وإنما جاء النهي عن تلوّث البيئة بصريح النص على وجه الخصوص ، فقد قال النبي ﷺ : «من أذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»^(٤) ، وكان من هديه ﷺ أنه قال : «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد»^(٥) ، وكان يقول : «اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل»^(٦) .

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٦) من حديث أبي شريح رضي الله عنه ، ومسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٥١٨٦) ، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٧٩) من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٨٣) : إسناده حسن .

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٩) ، ومسلم (٢٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) أخرجه أبو داود (٢٦) ، وابن ماجه (٣٢٨) من حديث معاذ رضي الله عنه .

ومما يلفت النظر في هذه الأحاديث الصحيحة استعمال لفظة اللعن ومشتقاتها، واللعن الطرد والنبد والإبعاد، مما يدل على أن فاعل هذه الأعمال التي تلوث البيئة يسقط اعتباره الاجتماعي، ويصبح منبوذا من مجتمعه .

التدبير الوقائي الأول إذن هو عدم تلويث البيئة بما يؤذي الناس، وذلك ابتداء من البيئة الصغيرة بيئة المنزل وما شابهها من أماكن محصورة يمكن فيها عدد محدود من الناس، فلا يجوز بل يحرم تلويثها مثلاً بدخان السجائر الذي أصبح ضرره اليوم عين اليقين، ومرورا ببيئة الجوار حيث يحرم على صاحب المصنع أن يسكب نفايات مصنعه في المياه المشتركة بين الناس، أو يطلق أدخنة مصنعه دون تصفية أو ترشيح، فيلوث جو المدينة وهواءها الذي يتنفسه الناس، بل يحرم التلويث الضوضائي بالأصوات العالية التي تزعج الناس، لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، ويقول: ﴿وَاذْكُرْ لَكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وانتهاء بالبيئة العالمية الواسعة التي تضر بها على سبيل المثال المواد الفلوروكلورونية التي تستخدم في البخاخات وأجهزة التبريد، والأكاسيد الأوزونية التي تصدرها عوادم السيارات، وكلها من المواد التي تستنضب الأوزون من الطبقات الجوية العليا من جهة، فتعرض سكان العالم إلى الآثار المضرة للأشعة فوق البنفسجية وتساعد في الوقت نفسه على توليد الأوزون في الطبقات الجوية الدنيا، فتزيد من هجمات الربو، وتهيج الحنجرة والجهاز التنفسي، وتؤخر نموها .

أما التدبير الوقائي الثاني فهو عدم اسنفاد العناصر الضرورية للحفاظ على سلامة البيئة ، فقد نهى النبي ﷺ مثلاً عن الإسراف في استعمال الماء ، حتى في التنظيف والتطهير ، وضرب بنفسه المثل لذلك ، فقد كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد ، والمد أقل من نصف لتر ، والصاع أقل من لترين اثنين ، بل روى الإمام أبو عبيد في كتاب الطهور عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه مر بنهر فنزل وأخذ قعباً (وعاء معه) فملاًه من الماء ، ثم تنحى عنه ، ثم توضأ ، ففضل من ذلك الماء فردّه إلى النهر ، وقال : «يبلغه الله إنساناً أو دابة وأشباهه ينفعهم الله به» .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الوضوء ، فأراه ثلاثاً ثلاثاً ، ثم قال : «هذا الوضوء ، فمن زاد على هذا فقد أساء أو تعدى أو ظلم»^(١) .

ومن الأمثلة المهمة الأخرى على استبقاء ما يحفظ البيئة الصحية : الحفاظ على الثروة النباتية ، والحيوانية ، فقد قال النبي ﷺ : «من قطع سدره صوب الله رأسه في النار»^(٢) .

وقد كان ﷺ أول من أنشأ محميات بيئية ، لا يجوز قطع شجرها ولا قتل حيوانها ، فقد حمى رسول الله ﷺ كل ناحية من المدينة بريداً بريداً ، والبريد اثنا عشر ميلاً ، لا يخط شجره أي لا ينزع ، ولا يعضد أي لا يقطع إلا ما يساق به الجمل ، وكان ينهى أن يقطع من شجر المدينة شيء وقال عن واد

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٣٩) من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه .

بالطائف : «إن صيد وَجَّ - هذا اسم الوادي - وعضاهه حرام»^(١) ، والعضاه الشجر .

وقال الإمام أبو يوسف في كتابه «الخراج» : حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه عن النبي ﷺ أنه حرم عضاه المدينة وما حولها اثني عشر ميلاً وحرم الصيد فيها أربعة أميال ، قال أبو يوسف : وقد قال بعض العلماء : إن تفسير هذا إنما هو لاستبقاء العضاه أي المحافظة على الشجر ، وقد تغلغلت هذه المعاني في أفهام المسلمين أيما تغلغل ، ولنستمع إن شئنا إلى الإمام أبي محمد بن حزم يقول في «المحل» : والإحسان إلى الحيوان بر وتقوى ، فمن لم يعن على إصلاحه فقد أعان على الإثم والعدوان ، وعصى الله تعالى ، بل يجبر على سقي النخل إن كان في ترك سقيه هلاك النخل ، وكذلك في الزرع ، برهان ذلك قول الله ﷻ : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

قال أبو محمد : فَمَنْعُ الحيوان ما لا معاش له إلا به من علف أو رعي ، وتَرْكُ سقي شجر الثمر والزرع حتى يهلك ، هو بنص كلام الله تعالى فساد في الأرض ، وإهلاك للحرث والنسل ، والله تعالى لا يحب هذا العمل .

التعاليم التعزيزية لصحة البيئة :

أما التعاليم التعزيزية لضمان صحة البيئة ، فهي أيضاً على ضربين : تنظيف البيئة من جهة ، وزيادة رصيدها من العناصر التي تحافظ على موازينها من جهة أخرى ، فقد كان النبي ﷺ يحض على تنظيف البيئة فيقول : «عرضت علي أعمال

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٣٢) ، وأحمد في «المسند» من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه .

أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق»^(١)، ويقول: «إمالة الأذى عن الطريق صدقة»^(٢)، ويقول: «نظفوا أفئيتكم»^(٣) وكلها أحاديث صحاح، وفي مقابل ذلك حرص النبي ﷺ على تشجيع الزراعة بما يزيد الثروة النباتية، ويضيف إلى البيئة الصالحة، فقال: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفل، عند قيام الساعة»^(٤).

وقال ﷺ: «لا يغرس المسلم غرسا، ولا يزرع زرعا، فيأكل منه إنسان أو دابة أو شيء، إلا كانت له صدقة»^(٥)، وقال: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»^(٦).

وقد اتبع الخلفاء الراشدون المهديون هذا الهدى المبارك، فقد روى يحيى بن آدم في كتاب الخراج قال: كتب عمر بن الخطاب رحمته الله إلى الناس: من أحيا مواتا فهو أحق به.

وروى كذلك عن أمير المؤمنين علي رحمته الله أنه قال: يا أيها الناس أعينوا على أنفسكم، فإن السبعة أو قال التسعة يكونون في القرية فيحيونها بإذن الله عز وجل، وجاء رجل إلى علي رحمته الله فقال: أتيت أرضا قد خربت وعجز عنها أهلها، فكريت أنهارا وزرعتها، قال: كل هنيئا، وأنت مصلح غير مفسد، معمر غير مخرب.

(١) أخرجه مسلم (٥٥٣) من حديث أبي ذر رحمته الله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رحمته الله.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رحمته الله.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم (١٥٥٢) من حديث جابر رحمته الله.

(٦) سبق تخريجه.

وروى يحيى بن آدم عن عمر بن عبد العزيز رحمته الله أنه كتب : انظر ما قبلكم من أرض الصافية ، فأعطوها بالمزراعة بالنصف ، وما لم تزرع أعطوها بالثلث ، فإن لم تزرع فأعطوها حتى تبلغ العشر ، فإن لم يزرعها أحد فامنحها ، فإن لم يزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين .

أما كيف نضع هذه التدابير الوقائية والتعزيرية موضع التنفيذ ، فلا بد من الرؤية المعاصرة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن من عظيم نعم الله على هذه الأمة أن زودها بهذا الضمير الحركي الذي يقال له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واعتبره سبب خيريتها ، وعلة إخراجها للناس ، وأبرز سجايها ، إذ قال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وهي سجية كان أول من اتصف بها إمام هذه الأمة وقودتها ومعلمها صلوات الله وسلامه عليه ، كما جاء وصفه في التوراة والإنجيل : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، ثم هي من بعده صفة أولى الأمر من هذه الأمة ، ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] ، ثم هي صفة كل فرد من أفراد هذه الأمة ، ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] ، ﴿ يَبْنِي أَقْصَى الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

وما أعلم صفة أخرى تحدث القرآن الكريم بهذا التفصيل عن تخللها جميع أفراد الأمة ، حكاما ومحكومين ، ذكورا وإناثا ، كبارا وصغارا ، وما ذلك والله أعلم إلا لأنها ضمانته جلب المصالح ودرء المفاسد .

والمؤسف أن المسلمين في عصرنا الحاضر قد مسخوا هذه الفريضة وقزموها وشوهوها، وقصروها على بعض شعائر الدين ومظاهره، مع أنها في أصل الشرع تتدخل في كل أمر يحقق مصالح الدين والدنيا .

فمخالفة إشارة المرور في عصرنا هذا تندرج في المنكر، لأن النبي ﷺ يقول: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية»^(١).

وتنظيم المرور ليس معصية، بل هو مصلحة وخير وبر، فالالتزام به فرض بنص الحديث، ومخالفته منكر، ولُفْتُ نظر من يخالفه أمر بالمعروف .

وإلقاء ورقة على الطريق في غير المكان المحدد لها منكر، وتوجيه من يقترب ذلك أمر بالمعروف .

ومثل هذه الرؤية العصرية تنطبق أفضل انطباق على موضوع البيئة، فكل فرد من أفراد هذه الأمة بلا استثناء مطالب بمقدار ما علم وبمقدار ما استطاع أن يأمر بالمعروف، وهو إصلاح البيئة في مجالنا هذا، وينهى عن المنكر وهو إفساد البيئة في هذا المجال، اهتداء بقول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

ذلك أن إفساد البيئة وهو من أسوأ أنواع الظلم، لا تقتصر مغبته على مقترفه وإنما تتعداه إلى غيره، كما نبهنا الله ﷻ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ

(١) سبق تخريجه .

ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴿[الأنفال: ٢٥]، وهو ما نلمسه بأنفسنا في هذه الأيام، مما يدفع ثمنه الأبرياء الذين لا ناقة لهم في إفساد البيئة ولا جمل، وقد ذم الله قوما ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، وقال مثنيا على الذين يجاربون الفساد: ﴿أُخْجِنَا الَّذِينَ يَهْتَوُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونني فلا يستجاب لكم»^(١)، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أرايت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال: تحجزه - أي تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره»^(٢).

وقد قام الخلفاء الراشدون المهديون بما فهموه من كتاب ربهم ﷻ وسنة نبيهم ﷺ بإضفاء الطابع المؤسسي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنشئوا النظام الذي صار يعرف باسم نظام الحسبة، وكانت بدايته يوم ولي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الشفاء بنت عبد الله السوق، لتشرف بنفسها ﷺ على سلوك الناس بعهد الراشدين، وتحتاط لاتقاء أي نوع من أنواع الفساد، وبذلك اضطلعت المرأة المسلمة في عهد الراشدين بدورها الذي حدده لها ربها ﷻ بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ. وقال الترمذي: هذا

حديث حسن.

(٢) سبق تخريجه.

صفوة القول أن نستثمر فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونستغلها في مجال الحفاظ على البيئة وحمايتها من الفساد ، وهي كما قلت فريضة على كل مسلم بقدر ما علم وبقدر ما استطاع ، كما بين ذلك معلم هذه الأمة صلوات الله وسلامه عليه بقوله : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان»^(١) .

فالتغيير بالقلب الذي أسميه استنكار المنكر يشترك فيه الناس أجمعون ، ولا بد له من التوعية الشاملة التي يمكن ، بل ينبغي ، أن تقوم بها اليوم وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، وخطب المساجد ، وتدخل في مناهج التعليم منذ المرحلة الابتدائية ، فتتغرس في عقول الناشئة حتى يشبوا عليها وهي جزء من تكوينهم الفكري وسلوكهم العملي .

(١) سبق تخريجه .

المحاضرة الستون بعد المائة

القراءات والرسم القرآني

روى أبو عيسى الترمذي في «سننه» في باب القراءات قال : حدثنا أبو كريب ، أخبرنا رشدين بن سعد ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن عتبة بن حميد ، عن عبادة بن نسي ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قرأ : ﴿ هل تستطيع ربك ﴾ ، فأدغم لام : ﴿ هل ﴾ في تاء ﴿ تستطيع ﴾ ونصب باء ﴿ ربك ﴾ وقرأ : ﴿ هل تستطيع ربك ﴾ أن ينزل علينا مائدة من السماء [المائدة : ١١٢] .

هذا الحديث علق عليه أبو عيسى الترمذي فقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من طريق رشدين بن سعد ، وإسناده ليس بالقوي ، ورشدين بن سعد ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم يضعفان في الحديث .

لكن أقول : لا يدل حكم أبي عيسى الترمذي : ليس إسناده بالقوي ، كما لا يدل حكمه على الراويين رشدين بن سعد ، وعبد الرحمن بن زياد بالضعف ، على أن هذه القراءة ليست صحيحة ولا متواترة ، ولا يتقرب بها العبد إلى الله ، بل هي صحيحة قرأ بها من السبعة ، الإمام الكسائي الذي وصلته بالتواتر عن رسول الله ﷺ .

ومعلوم أن التواتر هو ما روته جماعة عن جماعة ، يستحيل تواطؤهم على الكذب من البداية إلى النهاية .

ومما يعزز تواترها ويقوي صحتها ويجعلنا نطمئن إليها ونتقرب بها إلى الله ، هو أن معاذ بن جبل قال : سمعت مراراً رسول الله ﷺ يقرأها بالتاء ، وبالتاء كان يقرأها سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه .

ولسائل أن يسأل بعد هذا ما هو توجيه القراءتين؟ قراءة التاء : (هل تستطيع ربك) التي قرأ بها الكسائي ، أخذها عن رسول الله ﷺ بالتواتر الصحيح .

وقراءة الياء : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [المائدة : ١١٢] التي يقرأ بها جماعة من القراء .

ما هو توجيه هاتين القراءتين من حيث الرسم والضبط؟
وقبل الإجابة عن هذا السؤال لابد أن نحدد معنى الرسم ومعنى الضبط؟
فالرسم ، الرسم العثماني ، وهو توقيفي ، الرسم العثماني هو الصوامت فقط دون سواها .

وأما الحركات والنقط والهمزات ، فهو الضبط الذي يضاف على الرسم العثماني قصد إغناء الأداء الحامل لمراد الله من كلامه ، هذا الضبط يضاف على الرسم لإغناء النص القرآني الذي أداه رسول الله ﷺ بأمر من ربه .
سيقال لي : كيف يكون هذا المثال ، كيف يكون الضبط مضافا على الرسم؟ مثلت لذلك بمثال ، يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف : (وهو الذي يرسل الرياح نشراً) .

إذن ، هذا الأداء الذي يؤديه رسول الله ﷺ هو مطابق للرسم العثماني ، وهو مبلغ عن ربه وليس مفسراً ، وهذا التعدد لأن مراد الله تبارك وتعالى يتعدد ، مراد الله تبارك وتعالى ليس في رواية واحدة ، وإنما هو في القرآن كله لا في رواية واحدة .

هذا شيء يغيب عنا كثيراً ، فالقارئ عندما يريد أن يختار القراءة يطبق على نفسه الأمر الصادر إليه من الحق سبحانه وتعالى ، كل قارئ يريد أن يختار

القراءة التي تناسبه ، ويعتقد أنه يتقرب بها إلى الله ، يقرأ القرآن ويطبق الأمر الصادر إليه من الحق سبحانه وتعالى والمتضمن في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] .

القراءة والاستماع لهما ضوابط :

والقراءة لها قواعد ، والاستماع له أحكام ، والإنصات له ضوابط ، فعندما يقرأ طبقاً لهذه القواعد ، ويستمع طبقاً لهذه الأحكام ، وينصت طبقاً لهذه الضوابط يتدبر الأمر ويدخل القرآن قلبه ، وينوره الله بنوره ، فيدرك المراد من كلامه .

فماذا يقول الله تبارك وتعالى حول الآية التي هي موضوعنا : (هل تستطيع ربك) ماذا يقول ربنا؟ لماذا اختار هذا : (هل تستطيع) وهذا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾؟ لنوجهها إن شاء الله .

ماذا يقول ربنا؟ يقول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَآشَهِدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [٣] إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ إِذَا قُرِئَ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ بِالتَّاءِ (تستطيع ربك) ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٤] قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْبِخَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة : ١١١-١١٣] إلى آخر الآيات .

إذا ما الذي وقع عندما استفتيت قلبي ، ماذا رأيت؟

الله تبارك وتعالى أمر الحواريين بالإيمان : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا﴾ أمرهم أن يؤمنوا .

الحواريون ماذا فعلوا؟

آمنوا بالله ولم يكتفوا بالإيمان، بل أشهدوا على إيمانهم رسول الله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الذي شهد على إيمانهم، ولم يكتفوا بذلك بل أكدوا إيمانهم تأكيداً شديداً، بأن قالوا: ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هنا في سورة المائدة لأن هذه الآية في المائدة أكدوها تأكيداً شديداً، الحواريون وقع لهم أكثر من هذا مع عيسى عليه الصلاة والسلام وشك فيهم؛ لأنه شك في كفرهم، ولم يؤكدوا إيمانهم هذا التأكيد.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ الله! عيسى أحس الكفر من الحواريين ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ خُنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] لم يقولوا هنا: (بأننا مسلمون).

لكن هنا في آية: (هل تستطيع ربك) أكدوها تأكيداً شديداً ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فهل بعد هذا يأتي إنسان فيجعل الحواريين يشكون في قدرة الله فيقرءون: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؛ لأن هذا إذا قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ نشم منها رائحة الشك في قدرة الله.

إذا قلنا لقراء يقرءون هذا بالياء: يستطيع: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إذا قلنا لهم: أيشك الحواريون في قدرة الله؟

يجيبوننا: لا؛ ليس هنا شك بالمرة، بل إنه فقط كما يقول رجل لصاحبه: أأتستطيع أن تأتي عندنا اليوم؟ وهو يعلم علم اليقين أنه يستطيع أن يأتي وقادر عليه، ولا يمنعه مانع من المجيء، هذا هو.

ثم إن الحواريين كانوا يعلمون باستطاعة الحق سبحانه وتعالى بإنزال المائدة، لكن علم دلالة وخبر ونظر.

يعلمون أن الله تبارك وتعالى يستطيع أن ينزل المائدة ويستطيع أن يفعل كل شيء ، لكن علم نظر وخبر ودلالة ، لا علم معاينة ، ومعلوم أن علم الدلالة والخبر والنظر تدخله الشبهة ، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك ؛ تبعاً لحديث رسول الله ﷺ الذي يرويه عنه سيدنا عبدالله بن مسعود قال : «ليس الخبر كالمعاينة»^(١) .

فالحواريون أرادوا المعاينة ، وأما هم فيعلمون علم نظر ودلالة أن الله يستطيع ، وما وقع للحواريين في هذا - في مسألة الشك الذي يطلب المعاينة ، ولا يكتفي بالنظر والدلالة والخبر - وقع لأكثر منهم ، وقع لسيدنا إبراهيم نفسه .

ففي الآية التي فيها هذا الأمر : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة : ٢٦٠] سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يعلم علم برهان استطاعة الحق سبحانه وتعالى إحياء الموتى ، معلومة عنده برهاناً ، فأراد أن يضيف إلى البرهان المعاينة ؛ لأن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت عنه .

فالنفس دائماً مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت عنه ؛ يأتيني صديق عزيز علي لا يكذب أبداً فيخبرني بشيء خارق للعادة ؛ أصدقه ، ولكن يبقى في نفسي شك ؛ أريد المعاينة ، فإذا رأيت ذلك صدقته مائة في المائة .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ٢١٥) ، وابن حبان في «صحيحه» (١٤ / ٩٦) ، والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٣٥١) ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في «التلخيص» .

عندما يخبرني بشيء خارق للعادة وهو غير كاذب، صادق دائماً أبقى شاكاً قليلاً، فالمعينة إذن لا بد منها، ذلك ما فعل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يريد أن يضيف إلى علم البرهان علم المعينة.

وهذا ما وقع أيضاً لغيره من الأنبياء، وهي مسألة فيما يسمى بالاتصال الفعلي، الاتصال بفعل الخطاب، وهو شيء خطير جداً أولاه القرآن وأولته السنة عناية عظيمة.

درسه القرآن كما لم يدرسه أحد، لم يتنبه الغرب إلا حديثاً لخطورة فعل الخطاب.

وهذا الشيء الذي وقع لهؤلاء، وقع أيضاً لسيدنا زكريا، عليه الصلاة والسلام، سيدنا زكريا كان شيخاً كبيراً وامرأته عاقراً، فقال له ربه في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

ها هو ربي يعده بالولد، وربى سيفي بوعدته لا محالة، وسيرزقه بالولد، ولكن زكريا يقول: كيف؟ ﴿قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فيجيبه ربنا: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

فأراد سيدنا زكريا أن يحول المعلوم برهاناً إلى المعلوم عياناً فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ يعني حول لي هذا الشيء الذي أعلمه أنا دلالة ونظراً وبرهاناً إلى معينة؛ لأنه لا يستطيع أن يكون له الولد حالاً، لا بد أن يصبر شهوراً، حتى تلد زوجته، فيريد حالاً، فيقول له

ربنا : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ۖ وَآذُنُكَ رَمِيمٌ ۚ كَثِيرًا وَسَبِيحًا بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۚ ﴾ [آل عمران : ٤١] .

تفصيل الكلام في الرسم :

سأفصل الكلام في الرسم ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : في الثابت المحفوظ

النقطة الثانية : في المفصول والموصول .

والنقطة الثالثة : في الهمزة المعصدة .

نقول : هذه الكلمة ثابتة ، معنى ثابتة أنها فيها ألف يفصل بين حرفين .
مثلاً تجد في القرآن كلمة (كتاب) مفصولة التاء عن الباء بألف ، وتجدها في أماكن كثيرة في القرآن بدون فصل ، التاء مع الباء وبينهما شرطة صغيرة ، نسميها محذوفة .

فلماذا هذا الرسم ؟ الرسم : آلة يستطيع المفسر بواسطتها أن يصل إلى مراد الله من كلامه بالرسم ، الرسم آلة من الآلات كالوقوف آلة من آلات المفسر لا بد أن يتقنها .

فهذا الثابت في الكتاب مثلاً قد يكون الكتاب هذا ثابت ، وهذا محذوف بجانبه ، فالثابت لا يدل على أنه كتاب المطبوع ، لا ، الكتاب هو الأجل ، فعندما يكون الأجل يكون بالألف ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] .

الأجل الذي لا يزيد ولا ينقص ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٩] فهذا محذوف لأنه الكتاب في اللوح المحفوظ ، هذا الثابت والحذف مهم جداً للغاية .

فقد تكون الكلمة ثابتة لأننا نحبها لأننا نستفيد منها ، حببة علينا ، نتقرب بها إلى الله ، وتكون محذوفة ، إذا كانت كريهة عندنا نفر منها ، لا نريدها ، آخذ مثلاً ، وهذا كثير في القرآن : (الأصوات) كثيرة ، منها أصوات نحبها ، أصوات تسبح ربها وتمجده ، وأصوات كريهة بعيدة عن هذا .

فإذا كانت أصوات تسبح وتمجد ربها كانت ثابتة مثلاً : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه : ١٠٨] هذه (الأصوات) يتقرب بها العبد إلى ربه ، فلا بد أن تكون ثابتة ، وهناك أصوات كريهة .

يأتي سيدنا لقمان فينصح ابنه ويقول له : ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان : ١٧-١٩] .

من أين يأتي الثبت لهذه الأصوات وهي كريهة نفر منها .

هذه (أصوات) محذوفة ، لا يمكن أن تكون ثابتة ، بخلاف (الأصوات) الأخرى التي تسبح ربها .

وكذلك (الضعف) مثلاً ، إذا قرأت الآية القرآنية ، فما فيه خير كان ثابتاً ، وما هو مكروه كان محذوفاً .

إذا قرأت في سورة البقرة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْضَعًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٤٥] كل مسلم يقرض الله قرضاً حسناً ، يقدم صدقة يقدم إحساناً لمن يحتاج إليه ، يعطيه الله أضعافاً مضاعفة من الحسنات ومن الأجر ، فهذه ثابتة .

لكن إن قرأت في آل عمران قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران : ١٣٠] فكيف تكون (أضعافاً) المتعلقة بالربا ثابتة ، الربا لا يربي المال ، ينقصه ولا يزيده بل يمحقه .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران : ١٣٠] هذه لابد أن تكون محذوفة ، والألف يثبت في القرآن بشكل غريب ، وهو إجماع من الحق سبحانه وتعالى لينبئنا إلى ذلك .

فكثير من الناس يسأل لماذا زيدت الألف في ﴿لَا أَذْهَبَنَّهٗ﴾ [النمل : ٢١] في سورة النمل؟

هذه ﴿لَا أَذْهَبَنَّهٗ﴾ فيها قاعدة ، ما هي القاعدة؟ إذا اجتمع فعلا في آية واحدة وكان الفعل الثاني أقوى وأشد ، زيدت فيه الألف تنبيهاً على هذه الحالة .

فتعال ننظر ماذا يقول ربنا ؛ لنرى هل الفعل (لأذهبنه) أقوى أم أضعف؟ وهل هو في الدرجة الثانية أم في الدرجة الأولى؟ نحن قلنا القاعدة : إذا اجتمع فعلا في آية قرآنية ، وكان الفعل الثاني أقوى وأشد زيدت فيه الألف تنبيهاً على ذلك .

ربي يقول في سورة النمل : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ سيدنا سليمان يتفقد الطير ، تفقد المخلوقات من الأنبياء هذه وظيفة بل أكبر وظيفة من وظائف الرسل ، كل الرسل تفقد الرعية ، وسيدنا رسول الله ﷺ سيد المتفقدين تفقد الرسول ﷺ رعيته في السلم وفي الحرب حتى في الصلاة تفقدهم ، حتى في الجهاد .

كان عندما يعد الجيش للجهاد كان يقف والناس صفًا صفًا ، فإذا خرج أحد عن الصف رده ، يتفقد كل واحد ، نحن نستفيد من هذا التفقد كما نستفيد من تفقد سليمان ومن تفقد إبراهيم ومن تفقد نوح ومن تفقد داود .

سيدنا رسول الله ﷺ يتفقد الجيش فخرج صحابي قصداً عنوة لا سهواً خرج من الصف ، وهو يعرف أن رسول الله ﷺ سيرده إلى الصف ، فرده بدفعه إلى الصف بيده في بطنه ، فقال الصحابي رحمه الله : «أذيتني يا رسول الله ، أذيتني يا رسول الله ، قال : اقتص مني ياسيدي ، اقتص مني يا أخي ، قال : والله أنا لا أريد أن أققص ، قال : اقتص قال : والله لا أققص إلا في المكان الذي أذيتني فيه يا رسول الله ، قال : في المكان الذي أذيتك؟ قال : نعم ، والله لا أققص منك إلا في المكان الذي أذيتني . . . فأزال الرداء عن المكان وهذا مكان خاتم النبوة ، فارتمى عليه صاحب يقبله ، وقال : يا رسول الله أنا أحببت أن يكون آخر عهدي بالدنيا تقييل خاتم النبوة»^(١) ، ورجع إلى صفه ، ما فعله إلا قصداً .

وتفقد المسلمين في الصلاة يتصافون ، ويتفقد رسول الله ﷺ الناس من هو غائب ومن هو حاضر ، ومن غاب يسأل عنه لماذا غاب؟ إلخ . . . فكان وقع له شيء غريب نستفيد منه كثيراً .

يرى إنساناً يدخل معه في الصلاة ، ولكن عندما يسلم وينظر لا يجده في الصلاة ، فتساءل رسول الله ﷺ ماذا يفعل هذا الرجل أيدخل في صلاتنا ثم يغادر الصلاة قبل أن تنتهي أم ماذا؟ فقال : لا بد أن نجد حلاً لهذا ، فذات يوم قرر أن يسلم بسرعة ويلتفت ، فسلم سيدي رسول الله ﷺ بسرعة ، والتفت

(١) ذكره ابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٣٢) ، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٧١) .

فإذا بالرجل واقف يستعد للخروج ، فقال : تعال يا سيدي ، ماذا تفعل لماذا تخرج؟ قال : والله يا مولاي لا نملك من الرداء الجميل الذي يصلح للصلاة إلا هذا أنا وزوجتي ، فأنا آتي أصلي بهذا ، وأذهب للبيت بسرعة لتلبسه زوجتي وتصلي به .

فقال : تعال ، ذهب لبيته ، فلما وصل إلى البيت قالت له زوجته : لماذا تأخرت يا فلان ، تأخرت كذا تسبيحة ؛ لأن زوجته تبقى تسبح عندما يذهب للعصر تسبح مائة تسبيحة ، ويأتي اليوم وقد سبحت مائتين ، فقالت : لماذا تأخرت علي مائة تسبيحة أخرى يا رجل؟ قال لها : والله ما تأخرت إلا ريشما شرحت قضية القميص لرسول الله ﷺ ، قالت له : يا رجل تشتكي ربك لمحمد ، أيملك محمد من الأمر شيئاً فتشتكي ربك لمحمد .

فسليمان يتفقد الطير قال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ ﴿١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ فَمَكَثَ ﴿٣﴾ وفي قراءة : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ ﴿٤﴾ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٥﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ [النمل : ٢٠-٢٣] .

إذن الذبح أقوى من العذاب ، أو أقل؟ أقوى من العذاب ، فزيد فيه في الرسم ألف ، وكتبنا على الألف دائرة نسميها دائرة الإسقاط ، حتى لا يقرأها المبتدئ ، جعلنا الألف زائدة تنبيهًا على أن هذا الفعل هو الفعل الثاني ، وهو أقوى وأشد ، وهذا في القرآن كثير .

يقول سيدنا يعقوب لأبنائه ، حين بعثهم إلى مصر : ﴿ يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ فِتْنَتِهِمْ فِئْتَانُ ﴾ [يوسف : ٢١] .

رَّوَحَ اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ [يوسف : ٨٧] من هو أقوى الرضا بالحال أو اليأس حتى تمزق الثياب؟

اليأس أقوى ، وهو ثان ؛ لذا نكتبه بألف زائدة .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الرعد : ٣١] .

هل الرضا بما قدر الله أقوى من اليأس أو اليأس أقوى؟

الرضا والصبر على أن يهدينا الله جميعاً هو أبسط من اليأس ؛ لذلك كتبنا اليأس بالألف ، وهذه الألف تضاف أيضاً لغرض آخر في القرآن مهم جداً ، فعندما يكون الأمر الذي يتحدث عنه القرآن مادياً محسوساً ملموساً ، يكتب بالألف ، وعندما يكون معنوياً ، كلمة نفس الكلمة تعني المعنوي لا يكتبها بالألف ، وأحسن مثال يمكن أن نقدمه هو «قيام» فإذا قرأتها أنا وشعرنا أنها إنما هي معنوية ليس إلا ، لا نكتبها بالألف رغم المد ، فإن كانت مادية ينتصب «القيام» كانتصاب الألف ، كتبناها بالألف ، يقول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتِدَ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا ﴾ هل الكعبة تقوم يعني قيام الدين وقيام الساعة وقيام كذا... إلخ .

هي لا تقوم ، هي قيام صلاح ومعاش لأمن الناس ، جعل الله الكعبة صلاحاً ومعاشاً لأمن الناس ، كل من دخل الكعبة فهو آمن : ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

فقيام هنا صلاح ومعاش لأمن الناس وليس قياما ماديا ، فهي مكتوبة بدون ألف ، لكن إن قرئت في مكان آخر في الزمر مثلا : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] قيام ينظرون ، أولئك يخرجون من القبر ، منهم من سيذهب إلى الجنة ومنهم من سيذهب إلى النار .

هل يستطيع أحد أن يقول لا! أريد أن أبقى في قبري؟ أم لابد أن ينتصب كانتصاب الألف؟ القيام ثابتة .

الكفار هم الذين يقولون : لا أريد أن أبقى ، قالوا : ﴿ يَوَيْلَ لَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ سورة يس [يس: ٥٢] .

من مرقدنا هذا الذي استحليناه ، لا ، هو نفخ في الصور لابد أن يقوموا ، ولذلك كتب قياما بالألف ، فكلما كانت (قيام) معنوية كانت بدون ألف ، وإن كان فيها المد ، وكلما كانت مادية كتبت بالألف ، هذه قاعدة لابد منها .

ولكن إذا اتفق الرسامون في القرآن الكريم على أن الفعل الثاني ، إذا كان أقوى وأشد زيدت فيه الألف تنبيها على ذلك ، فإنهم اختلفوا في تقييم الشدة والثقل ، اختلفوا فيه ، فنحن عندما ننظر إلى المصحف برواية ورش عن نافع ، وقرأنا في سورة الأنفال : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرَهُ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ لَوَ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦ ، ٤٧] .

لوجدنا (لأوضعوا) بدون ألف ، وهو الصواب لماذا؟ لأن الأيضاع دون الخبال .

الخبال أقوى من الأيضاع ؛ ولذلك أزلنا الألف من فترة طويلة ولا زال هذا الألف في مصاحف تطبع في جنوب شرق آسيا ، إذا قرأتموها تجدون فيها هذا ، هم يعتقدون أن الخبال هو النميمة ومحاولة شق جماعة المسلمين ، والأيضاع نميمة فقط بدون محاولة ولا شيء ، ولم ينتبهوا إلى شيء مهم ، لم يقل الخبل والأيضاع ، وإنما قال : زيادة الخبال ، فإذا الفعل الأول أقوى بكثير من الفعل الثاني ، ولذلك ليس فيه ألف ، وهو الصواب الموجود في المصحف برواية ورش .

وأنتقل إلى النقطة الثانية : وهي الفصل والوصل ، هذه مسألة مهمة جدًا وفيها سر عظيم ، وبها يستطيع المفسر أن يعرف مراد الله من كلامه ؛ ولتقريب هذا الموضوع -أنا أعرف أن الرسم صعب- ولاشك أنني لن أنجح في حديثي كما نجح إخواني من العلماء ؛ لأن الرسم صعب ، ولا سيما إذا كان مطبقًا في القراءات المتواترة ؛ ولذلك سأحاول أن أبسط هذا الأمر بأمثلة تتكرر في القرآن ، فلنأخذ مثلاً جملة تتكرر في القرآن ثلاث مرات : ﴿وَأَمَّا نُورِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس : ٤٦] هذه كررت ثلاث مرات ، كررت في يونس وكررت في الرعد ، وكررت في غافر .

ما هي القاعدة هنا؟ إما أن تكتب (إن ما) وإما أن تكتب (إما) أنتم إذا فتحت المصحف مرة تجدون ﴿وَأَمَّا نُورِيكَ﴾ مفصولة وتارة تجدنها متصلة ، سهلة بسيطة ، لها قاعدة ، ما هي القاعدة؟

«إن» هذه شرطية ، دخلت على ما ، ولا بد للشرط من جواب ، فإذا كان الجواب يتحقق دفعة واحدة كانت متصلة ، وإن كان يتحقق في مرحلتين اثنتين مختلفتين بعيدتين في مكانين مختلفين فصلت .

غريب! الصحابة كتبوا هذا، أكانوا يعرفون هذا؟ شيء عظيم جدًا إذا قرأتم هذا الآن ستقولون: لا أفصل هذه وأفصل هذه، نقرأ التي في سورة الرعد: ﴿وَأَمَّا نُزْيْنُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ مآل واحد الرجوع إلى الله.

نقرأ الثانية، وسترون أن الجواب يتحقق في مكانين مختلفين مع مخاطبين اثنين، ليس مخاطبًا واحدًا، يقول: ﴿وَإِنَّمَا نُزْيْنُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] في أي مكان البلاغ؟ في الدنيا، وأين الحساب؟ في الآخرة، ومن يقوم بالبلاغ؟ رسول الله، ومن يقوم بالحساب؟ الله، فالجواب مقسم إلى قسمين في مكانين مختلفين: فكيف نصل إلى هذا، هذه مفصلة (إن ما)؛ لماذا؟ لأن جوابها مفصول.

وإذا قرأنا الثالثة: ستقول لي: هي مفصلة أو متصلة؟ يقول الله فيها في سورة غافر: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا نُزْيْنُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] جواب واحد، ولذلك تجدها متصلة.

وأمثل بمثال آخر لعله يتضح الأمر أكثر (بألا) هذه (ألا) موجودة في القرآن بكثرة، وفيها ما هو مفصول وفيها ما هو متصل، والمغاربة الذين يتقنون هذا الرسم كيف يستطيعون فهم هذا الأمر، إحدى عشر مفصلة، وكذا متصلة، وهذه موجودة هنا، وهذه موجودة هنا.

هم استطاعوا أن يجدوا طريقة منهج يسميها البرابرة تنصيت؛ لأن عندنا ثروة كبيرة بتنصيت بالبربرية فجمعوا هذه (ألا) برجز جميل

بالمغربية يذكر الثمن أو الربع الموجود فيه (ألا) مفصلاً بالنص كما يقوله الحفاظ في المساجد :

ألا بالنون معرق أو لم يهد محقق
وسئلهم غدا مقللق لقد تاب وافهمني
دابرة الفريقين وذا النون هاذان
ألم أعهد يا بني جاء عيسى يشفيني
عسى الله طائف يا بفضل آيات عليا
نقط الألف مع اليا يارب لا تنساني

ليس المهم أن نعرف أين توجد ، ولكن المهم أن نعرف لماذا هي مفصلة ، هذا هو الذي يهنا كمتقنين كباحثين ، تفصل إذا كان في الجملة اسم الجلالة ، تعظيماً لاسم الجلالة .

وتسهيلاً علينا آتي بمثال أيضاً تكرر في القرآن ، واحد فيه متصل والآخر منفصل .

فإذا رأيت فيه اسم الجلالة قل هذه منفصلة ، وإذا غاب اسم الجلالة ، وذكر غيره عبد من عباده اتصلت .

نحن تحدثنا عن سليمان الذي تفقد الطير ، سليمان بعث برسالة إلى بلقيس ملكة سبأ ، فقرأتها على العقلاء من شعبها : ﴿ قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْملُؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٢٩-٣١] ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىٰ ﴾ على سليمان ، وليس على الله ، فإنه نبي ما في ذلك شك ، ولكنه عبد من عباده فـ ﴿ أَلَّا تَعْلُوا ﴾ متصلة .

لكن إن قرأت في الدخان : قال : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ [الدخان : ١٦-٢٠] هذه ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ منفصلة .

إذن القاعدة عندنا في هذه المسائل في كثير من المسائل في النون عندما يدغم في اللام أو النون أو عندما يدغم في الميم ، إذا ذكر اسم الجلالة انفصل الأمر تعظيماً للمقام .

الهمزة المعضدة:

هي الهمزة التي تكتب في الرسم الاصطلاحي على حامل عادي ، ولكنها في القرآن كتبت على حامل غير الحامل العادي ، لماذا؟

ليقول لنا ربنا انتبهوا هذه لها وضع ، فمثلاً : القاعدة البسيطة الهمزة إذا كانت في آخر الكلمة ، وكان قبلها ساكن ، فإن من حقها أن تكتب على السطر .

يأتي في القرآن فيتحدث لنا عن ابني آدم ، قدما قرباناً ، فالذي تقبل منه الله قال له أخوه : سأقتلك : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢١) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾ [المائدة : ٢٧-٢٩] كلمة ﴿تَبُوءَ﴾ حقها أن تكتب على السطر فكتبت على الألف لماذا؟

لأن هذا يَبوءُ بِإِثْمِهِ وَيُبَاثِمُ أَخِيهِ ، العبد لا يَبوءُ إِلَّا بِإِثْمِهِ ، ولا يسأل أحد عن ذنب غيره ، هذه هي القاعدة الإسلامية .

هذا الرجل سيسأل عن ذنبه وذنب أخيه ، فسيبوء غداً بين يدي الله بِإِثْمِ أَخِيهِ وَيُبَاثِمُهُ هُوَ ، فعصدها كذلك .

كذلك في سورة القصص : ﴿لَتَنُوْا بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] المفاتيح تنوء بالعصبة أُولَى القوة ، المفاتيح تنوء بثقلها ، ولكنها ناءت كذلك بالعصبة ، وكذلك المَلَأ ، المَلَأ هو الناس .

فإذا كان الناس عاديين كتبت كما نكتبها الهمزة على الألف ، هكذا : المَلَأ ، لكن إن كان هذا المَلَأ يتميز بشيء بعقل برجاجة عقل ، بعلم بفكر ، بقوة عضلات ، عضده بالواو ، كتب الهمزة على الواو ، فكتب المَلَأ : أَلَف ، لام ، ميم ، لام ، واو ، همزة على الواو ، وأَلَف زائد ، هي أربعة في القرآن نقراً واحدة منها .

نقرأ الأخيرة : سليمان أيضاً لما قال له الهدهد : أنا وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء وهي تعبد الشمس . . . إلخ أراد أن يدخلها لدين الله فقال : ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَكُفَّ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] .

العرش يأتي به من أين؟ من جنوب اليمن من سبأ ، بجانب السد من حضر موت ، إلى كنعان في فلسطين ، من يستطيع أن يأتي بالعرش من هناك إلى هناك : ﴿قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَكُفَّ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ إلى المَلَأ الذي عضده الله بالهمزة : ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] .

المحاضرة الواحدة والستون بعد المائة

وجوب طاعة رسول الله ﷺ واتباع سنته وبيان أن العمل بما صح من حديثه ﷺ لا يعد اجتهاداً ولا تقليداً

انطلاقاً من قول الله ﷻ : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

إنه من المعلوم أن الله تعالى أرسل رسوله سيدنا محمداً ﷺ إلى الناس وهم لا يعلمون من دين الله الذي ارتضاه لعباده شيئاً إلا ما علمهم رسوله ، وبلغهم إياه عما أنزل الله عليه في كتابه وأوحى به إليه ربه .

فانحصر الدين كله في مضامين كتاب الله وسنة رسوله ، فكل ما خرج عن هديهما وتعاليمهما ولم يكن لهما سند ولا دليل منهما ، فإنه لا يكون من دين الله في شيء ، ويكون مردوداً على صاحبه ، كائناً من كان ، عملاً بقوله ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» كما في «الصحيحين» .

مصادر التشريع :

ولذا كانت مصادر الدين بالأصالة مقصورة على الكتاب والسنة ؛ وألحق بهما القياس والإجماع لاستنادهما إلى الكتاب والسنة إذ القياس يشترط فيه : وجود أصل يقاس عليه الفرع الذي يراد إلحاقه به وإعطائه حكمه لمشاركته إياه في العلة .

والإجماع لا يمكن أن ينعقد إلا على دليل شرعي ؛ إذ يستحيل انعقاد إجماع على فراغ ، وعلى ما لا أصل له في الشرع ، فدعماً لهذا ؛ أن المرجعية الأولى

والأساس في دين الله وشرعه هي كتاب الله أولاً وسنة رسوله ثانياً ولا يعدل عنهما إلى غيرهما ، من رأي أو اجتهاد إلا إذا تعذر نص منهما ، وكما يدل على ذلك حديث معاذ بن جبل المشهور ، حين بعثه رسول الله ﷺ قاضياً إلى اليمن ، وقال له : «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال : أقضي بما في سنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله ﷺ بيديه في صدره ، وفي رواية : فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون .

فدل الحديث على أن مرتبة السنة في التشريع تأتي بعد مرتبة القرآن مباشرة ، باعتبار أن السنة بيان وتفصيل لما أجمله القرآن وتوضيح له : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] .

السنة كالقرآن في التشريع :

ومن ثم كانت السنة حجة في دين الله وشرعه كالقرآن ، وكان اتباعها ، والعمل بها واجباً ، وعلى هذا درج المسلمون قاطبة ، وانعقد عليه إجماعهم منذ عصر الصحابة والتابعين ، وهلم جرا إلى أن صار ذلك معلوماً من الدين بالضرورة ، ومما لا يمتري فيه اثنان ولا يحتاج إلى دليل ولا برهان .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولم يخالف في ذلك إلا طائفة من المبتدعة الضالين المنحرفين عن هدي السلف الصالح ، وعن عقيدة المسلمين ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً ، سواء

من كتاب الله أو من حديث رسوله ﷺ ، فقد أمر الله تعالى بطاعة رسوله ، وحث على اتباعه والالتساء بفعله ، والافتداء بهديه ، في آيات كثيرة ، حتى جعل سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ طاعة له : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء : ٨٠] .

وجعل طاعة رسوله ابتداء ، ومخالفته وعصيانه ضللاً مبيناً ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور : ٥٤] ، ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

كما حذرنا ، جل علاه مغبة معصية رسوله ومخالفة أمره ، فقال جل من قائل : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣] .

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ : يعرضون ويصدون .

﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ : بلاء ومحنة .

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ : زيادة على الفتنة لأن ﴿أَوْ﴾ في الآية مانعة الخلو ، وهي لا تمنع الجمع بين متعاطفيها .

وخص بعضهم «الفتنة» في الآية بفتنة القلب ، بالطبع عليه والختم ، وبإصابته بعمى البصيرة ، حتى لا ينفذ إليه شعاع من نور الحق ولا يهتدي إليه سبيلاً : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد : ٣٣] .

ليبقى «العذاب الأليم» في الآية منصرفاً إلى ما عدا الفتنة من أنواع العذاب المعروفة في الدنيا بله عذاب الآخرة نسأل الله السلامة والعافية .

كما بين سبحانه وتعالى في آية أخرى أن اتباع رسوله ﷺ موجب لمحبهته ، ولمغفرة ذنوب من اتبعه فقال ﷺ : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية عدة أقوال :

ف قيل : إنها نزلت للرد على النصارى حين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ﴾ [المائدة : ١٨] .

وقيل : نزلت للرد على المشركين حين زعموا أنهم إنما يعبدون الأصنام حباً في الله ولتقربهم إليه ، وكما حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال الحسن البصري وابن جريج : « إن أقواماً قالوا : إنا نحب الله تعالى ، فأنزل الله الآية ؛ لتكون علامة على صدق دعوى المحبة لله تعالى ، حتى يختبر كل من يدعي محبة الله نفسه ؛ ليعلم هل هو صادق في دعواه أم لا ؟ حتى إذا وجد نفسه يخالف رسوله ﷺ ولا يتبع دينه ولا شرعه علم أنه غير صادق في دعواه محبة الله ؛ لأن من شأن المحبة الصادقة أنها تقتضي الطاعة والامتثال » .

وكما قيل :

إن المحب لمن يحب مطيع

وسئل رويم عن المحبة فقال : الموافقة في جميع الأحوال ، وأنشد :

ولو قلت لي مت مت سمعاً وطاعة وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا

وقال آخر :

ومن لخبه لو نهاني عن الماء عطشان لم أشرب

ولذلك لما خاف بعض المحبين لرسول الله ﷺ أن تنقطع عنهم رؤيته في الجنة ؛ لأنهم وإن دخلوها فإن درجة رسول الله ﷺ أعلى من درجاتهم ، بل يكون رسول الله ﷺ في أعلى درجات الجنة .

والجنة كما في «الصحيحين» : «مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض» .

وكان هؤلاء المحبون لا يهدأ لهم خاطر ، ولا يرتاح لهم بال ، حتى يأتوا رسول الله ﷺ ويستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم ، لما خافوا ذلك أنزل الله تعالى تطميناً لهؤلاء المحبين وتبشيراً لهم بأن يروا رسوله ﷺ في الجنة وإن اختلفت درجاتهم ، أنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وكان تطابق الآية في سبب النزول يقتضي أن تنزل الآية بلفظ المحبة فيقال : ومن يحب الله ورسوله ، ولكن الآية لم تنزل بلفظ المحبة ، بل نزلت بلفظ الطاعة إشارة إلى أنه لا عبرة بمحبة دون طاعة ، وأنه ما لم تكن طاعة فلا محبة ، فإذا وجدت الطاعة ، وجدت المحبة التي بها يستحق المحب أن يكون مع من أحب ، وكما تواترت الأخبار بذلك عن رسول الله ﷺ : «أن المرء مع من أحب»^(١) ، فكانت العلاقة بين المحبة والطاعة علاقة ترابط وتلازم ؛ ولذا قيل في تفسير محبة العبد لربه : طاعته له ، فدل ذلك على فضل اتباع رسول الله ﷺ ناهيك بالجزاء الكريم يجازي الله به من اتبع حبيبه حتى إنه يحبه ، وإذا أحب الله عبداً فقد ظفر بخيري الدنيا والآخرة ، وسعد السعادة الكبرى التي

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ما بعدها من سعادة ، وما ذلك إلا لأن طاعة رسول الله ﷺ حيث هي في الواقع طاعة لله الذي أرسله ، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وأكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله كما في «الصحيحين» : «من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله» .

وفي حديث آخر ، وهو كذلك في «الصحيحين» : «من أطاع محمدًا فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس» .

«فرق بين الناس» : أي فارق بين الناس ، بين مؤمنهم وكافرهم ، سعيدهم وشقيهم ، وبين من هو من أهل الجنة ، وبين من هو من أهل النار .

وأخرج البخاري في «صحيحه» عنه أيضًا أنه ﷺ قال : «كل أمتي يدخلون الجنة ؛ إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى» .

أي أبى وامتنع باختياره من دخول الجنة حين اختار الانحراف عن الطريق الوحيد المؤدي إليها ، وهو طريق رسول الله ﷺ وطاعته والالتزام بدينه وشريعته .

إذاً فطريقه هو المحبة ، وكل من سلك طريقًا غير طريقه فلن يؤدي به ذلك إلا إلى النار ، وبئس القرار عيادًا بالله تعالى .

طاعة الرسول واجبة :

ثم أردف سبحانه وتعالى الأمر باتباع رسوله في الآية السابقة بالأمر بطاعة الله ورسوله تقوية وتأكيدها للأمر الأول وللرد على رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول حين قال لما نزلت الآية : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ قال : إن محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله ، ويأمرنا أن نحبه كما أحببت

النصارى عيسى بن مريم ، فأنزل الله تعالى للرد عليه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ في كل أمر ونهي صدر عنهما ؛ لأن حذف المتعلق يؤذن بالعموم ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا ، وتولوا في الآية يحتمل أن تكون فعلاً مضارعاً بحذف تاء المضارعة ، أي تتولوا وتعرضوا ، وعليه فتكون الجملة الشرطية بتمامها من جملة المقول الذي أمر رسول الله ﷺ بقوله للمخاطبين بالآية .

ويحتمل أن تكون فعلاً ماضياً ، خارجاً عن المقول ذيل به الأمر بطاعة الله ورسوله ببيان حكم الرافض لطاعتها وهو الكفر ، المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ولذا قال ابن عباس في تفسير الآية : «يقول الله تعالى إن طيعوا محمداً فقد أطعتموني ، أما أن تطيعوني وتعصوا محمداً فلن أقبل منكم» .

وقال ابن كثير في «تفسيره» : دلت الآية على أن مخالفة الرسول في الطريقة كفر ، أي مخالفته في دينه وشرعه إلى غير ذلك من الآيات التي يتعذر أو يطول الوقت بتتبعها فضلاً عما ورد في ذلك من حديث رسول الله ﷺ ، وهو كذلك شيء كثير ، حتى أفرد هذا النوع من الكتب بتأليف تحت عنوان خاص ، كتب السنة وهي كلها تحت على الالتزام بسنة رسول الله ﷺ ، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو بالعبادة أو بالأخلاق والسلوك والأعمال ، وذلك مثل كتاب «السنة» للإمام أحمد ، وكتاب «السنة» لأبي داود ، وكتاب «السنة» لابن شاهين ، وكتاب «السنة» لابن أبي عاصم ، وعشرات الكتب الأخرى التي تحمل نفس العنوان ، وللحافظ السيوطي رسالة في الموضوع مطبوعة ، سماها «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة» .

إِذَا لَا عَجَب بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنْ التَّزِمَ الْمُسْلِمُونَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَوْجِبُوا اتِّبَاعَهَا ، وَالْعَمَلَ بِمَا صَحَّ مِنْهَا ، وَأَوْصُوا بِتَقْدِيمِهِ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ خَالَفَهُ ، عَمَلًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات : ١] .

قال المفسرون في الآية ، ومعناها أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يعجلوا ويسبقوا رسول الله تعالى بأمر ، أو إصدار رأي بحضرته وبين يديه ، حتى يكون هو الأمر والبادئ بذلك ، قالوا والمراد في الآية هو النهي عن التقدم بين يدي رسوله ، وبدليل سبب نزول الآية ، وإنما ذكر التقدم ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ قبل ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ ، للإشارة إلى أن حكم الله ومراده ، لا يدركان إلا من قبل رسوله الموكول إليه أمر بيان كتابه ، والناطق عن وحيه ، وللاشارة كذلك إلى أن رسول الله ﷺ ، هو من ربه بمكانة عزيزة ، توجب احترامه وتعظيمه ، والتزام الأدب معه ، ومن جملة ذلك ، ألا يتقدموا بأمر أو نهى بين يديه ﷺ حتى يكون هو الأمر والناهي .

وإذا كانوا قد نهوا عن مجرد السبق بأمر أو إبداء رأي ، قبل أن يكون ﷺ هو البادئ بالأمر ، والبادئ بالرأي فما بالك إذا قدموا أقوالهم على قول رسول الله ﷺ ، إذا صدر منه قول بالفعل ، لاشك أن ذلك يكون منهيًا عنه من باب أولى وأحرى .

ولذلك ، وعليه فكل من ثبتت عنده سنة صحت عن رسول الله ﷺ ثم توقف عن العمل بها ، أو خالفها لقول من خالفها ، فإنه يكون ممن تقدم من بين يدي الله ورسوله ، ومن اتبع غير أمره الله باتباعه ، في قوله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ ءَوْلِيَاءَ ﴾ [الأعراف : ٣] .

وشمله بالتالي وعيد قوله ﷺ كما في «الصحيحين»: «من رغب عن سنتي فليس مني» .

لا حجة لأحد في ترك السنة:

ولذا أجمع الفقهاء قاطبة ، وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم ، أجمعوا على أنه لا عذر لأحد في ترك العمل بسنة صحت عن رسول الله ﷺ ، وصح بها حديثه ، إذ لا حجة في قول أحد مع قول رسوله ﷺ حتى ولو كان أحد الخلفاء الراشدين ، فأحرى إذا كان ممن هو دونهم رتبة وعلماً وفضلاً .

بعض نصوص العلماء في الحث على الاتباع:

وها هي ذي بعض نصوصهم في ذلك .

قال الإمام الشافعي رحمه الله: أجمعوا على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، كائناً من كان ، وقال أيضاً : لم أسمع أحداً نسبته أو نسبه الناس إلى العلم يحكي خلافاً في أن فضل الله على عباده اتباع رسوله والتسليم لحكمه ، وأن الله لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه ، وأن فضل الله علينا ، وعلى من قبلنا ، وعلى من بعدنا قبول الخبر عن رسول الله ﷺ .

وحكى الفقيه الحنفي علي بن أبي بكر المرغيناني صاحب كتاب «الهداية» في فقه الحنفية ، وهو من عمد كتبهم ، أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله قيل له : إذا كان قولك مخالف كتاب الله؟ قال : اتركوا قولي لكتاب الله قالوا : فإذا كان خبر رسول الله ﷺ يخالف قولك؟ قال : اتركوا قولي لخبر رسول الله ، قيل له : فإذا كان قول الصحابي يخالف قولك؟ قال : اتركوا قولي لقول الصحابي .

وحكى عنه كذلك الفقيه الحنفي أبو الليث السمرقندي أنه قال : لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه ؛ أي ما لم يعلم دليله من الكتاب أو السنة أو الإجماع مثلاً .

وحكى مثل ذلك عن بعض كبار أصحابه ، مثل القاضي أبي يوسف وزفر وعافية بن زيد وغيرهم ؛ وأنهم اجتمعوا في مكان فقالوا كلهم : لا يحل لأحد أن يفتي بأقوالنا ما لم يعلم من أين قلناها ، وهناك نقول كثيرة عن فقهاء الحنفية تركتها اختصاراً .

وأما ما روي عن الإمام مالك رحمته الله في ذلك فهو أيضاً شيء كثير ، ونكتفي ببعضه فقط ، وحكى سحنون عن عبد الله بن وهب قال : قال لي مالك رحمته الله وهو ينكر كثرة المسائل : يا عبد الله ما علمته فقل به ودل عليه ؛ أي ما علمت دليله فقل به ودل عليه ، وما لم تعلم فاسكت عنه ؛ أي لا تفت به ولا تقل به وإن قاله من قاله ، حتى تعلم دليله .

قال الفقهاء : إن المقلد للإمام إذا توقف على ضعف مأخذه ومدركه ، وخالفه في مسألة أو مسائل لدليل ترجح لديه ، فإنه بذلك لا يكون خارجاً عن المذهب ، ولا عن الانتساب إليه ، ولو كان كل من خالف الإمام في مسألة أو مسائل لدليل خارجاً عن المذهب ؛ لما بقي ممن يتنسب إلى المذهب إلا القليل .

ولاسيما بالنسبة للمتقدمين ، فالمتقدمون من أصحاب الأئمة رضوان الله عليهم لم يكونوا يقلدون التقليد الأعمى ، بل كانوا يأخذون من الأئمة ويتركون تنفيذاً لوصاياهم مثلاً ، أمثال ابن القاسم وأصبغ وأشهب وابن رشد والحفيد ابن رشد والباجي وابن العربي وغيرهم بالنسبة للمالكية ، وكذلك بالنسبة للشافعية .

ما من إمام إلا وأصحابه القدامى خالفوه في أكثر من مسألة ، وكما يعلم ذلك من مراجعة تراجمهم بل وحتى من كتب الفقه نفسها .

فكتب الفقه نفسها تذكر أحياناً في المسألة الواحدة ثلاثة أقوال أو أربعة ، وأحياناً يكون من جملة الأقوال الواردة في الموضوع قول الإمام ، ومع ذلك يذكرونه مع أتباعه على التساوي .

وعلى سبيل المثال مسألة فاقد الطهورين ، الرجل الذي فقد الماء والطهور ، فلم يجد ما يتطهر به وحضر وقت الصلاة ماذا يعمل ؟

في المسألة أربعة أقوال : قيل : يصلي محافظة على الوقت ؛ لأنه من أهم فرائض الصلاة وواجباتها ، وعملاً بالقاعدة : الميسور لا يسقط بالمعسور : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقيل : يصلي ويعيد إذا عثر على الماء أو التراب ، وقيل : لا يصلي حتى يعثر على الماء أو التراب ، وإن تأخرت خرجت الصلاة عن وقتها ، وقيل : تسقط عنه بالمرة ، إذا لم يحصل على ما يتطهر به داخل الوقت ، وهذا قول الإمام ، وقد نظم بعضهم هذه المسألة في بيتين مشهورين فقال :

ومن لم يجد ماء ولا متيمماً فأربعة الأقوال يحكين مذهبا
يصلي ويقضي عكسه قال مالك وأصبغ يقضي والأداء لأشهباً

فقد سمعناه إذا ساوى بين قول الإمام وأقوالهم ، ومع ذلك رجح المالكية قول أشهب ، كما قال ابن عبد السلام والأكثر على ترجيح ما قال أشهب ؛ لأدلة ذكرها الشيخ السيد الطالب بن الحاج في «حاشيته على شرح ميارة على المرشد» .

وهكذا رحمهم الله كانوا دائماً يأخذون ويتركون من أقوال الأئمة حسب ما يقتضيه الدليل ، على أنه الأمر الذي صح به الدليل عن رسول الله ﷺ وجاء به النص صريحاً لا يمكن أن ينتسب إلى مذهب معين ، فلا يمكن أن يقال مذهب مالك أن الصلاة واجبة ، أو الحج واجب في مذهب الشافعي ، أو مثلاً رمضان واجب في مذهب أبي حنيفة ، هذه الفرائض يستوي فيها العام والخاص ؛ لأن المسلمين مأمورون باتباعه ، والقرآن نزل بها والحديث نص عليها فلا يبقى فيها اختيار لأحد ؛ ولا يصح أن تنسب لأحد دون آخر .

أو لإمام دون آخر ، ولذلك فإن المسائل التي يدخلها الاجتهاد هي المسائل التي تنسب إلى المذهب ، هي المسائل الاجتهادية التي لم يرد فيها النص ، وذلك لأن الاجتهاد مأخوذ من الجهد والمشقة ، وذلك يستلزم من الفقيه بذل مجهوده للحصول على حكم شرعي غير منصوص عليه ، ومن ثم عرفوا الاجتهاد بأنه استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي غير منصوص عليه ، وما دام الحكم منصوصاً عليه فأى حاجة في اجتهاد ضائع ولا داعي إليه ، وهل هو إلا من باب تحصيل الحاصل .

ولهذا يقول ابن أبي الأصبغ الأندلسي في «معالمه» :

والاجتهاد إنما يكون في كل ما دليله مظنون
أما الذي فيه الدليل القاطع فهو كما جاء ولا منازع

ولذلك قال الشيخ محمد بن عرفة الدسوقي رحمه الله في «حاشيته على شرح الدردير على مختصر خليل» عند قول خليل رحمه الله : سألني جماعة مختصراً على مذهب مالك قال : مذهب مالك هو مجموعة الأحكام الاجتهادية التي

بذل فيها وسعه لتحصيلها ، أما المسائل المنصوص عليها فلا تنسب لا إلى مذهب مالك ولا إلى غيره .

ومن هنا يعلم أن من أخذ حكمًا من حديث صريح أي لا يحتمل التأويل حتى يحتاج إلى اجتهاد يعني إما نص في المسألة ، أو كانت دلالة ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل أو لا تقبل التأويل لا يسمى اجتهادًا كما لا يسمى تقليدًا ؛ لأن التقليد في عرف العلماء ما هو ؟

هو قبول قول من لا تجب طاعته من غير معرفة دليله ، نقلد مالكًا ، أو الشافعي ولما داوم دين الله عليه ، وإنما الإمام قال : اتبع فاتبعت هذا هو التقليد .

أما ما عرف دليله فإن الاتباع لا يكون للقائل وإنما يكون للدليل الذي أتى به ، ومن ثم قالوا : كل ما ورد فيه الدليل لا يصلح أن يكون فيه التقليد ، وإنما هو اتباع لمن أمر الله باتباعه ولمن جعل قوله دون غيره حجة في دين الله وشرعه ، ومنه يعلم ؛ إلا أنه مع هذا لا بد من تنبيه حتى لا يظن بكلامي غير المقصود منه ، وهو أن هذه الدعوة إلى العمل بالحديث مثلاً إنما تتأتى في حق من ؟

في حق الملم باللغة وبالعلوم الشرعية ، والعارف بمصطلحاتها هذا هو الذي يمكنه أن يأخذ الحكم مباشرة من كتاب الله أو سنة رسوله إذا ما كان الأمر واضحًا .

أما إذا كان دون ذلك لا يحسن اللغة ، أو يحسن بعض الأشياء ولا يحسن البعض ، فهذا لا يسعه إلا أن يرجع إلى ذوي الاختصاص وأهل الذكر عملاً بقول الله تعالى : ﴿ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] . كما

أن الموضوع لا يتناول إلا ما ورد فيه النص صراحة ، أما ما لم يرد فيه نص صريح ففتوى العالم المجتهد ، والإمام الحاذق أولى للمستفتي .
ونشر سنة المصطفى ﷺ ، وكل عمل يهدف لإحيائها ونشرها من أعظم المكرمات .

قال ﷺ : «من أحيا سنتي عند فساد أمتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة» رواه الترمذي والبيهقي .

* * *

المحاضرة الثانية والستون بعد المائة

الإسلام والتنمية الشاملة

الأمة - كما تعلمون - تتعرض في هذه الأيام لمشكلات ملحة ، في مجالات مواجهة مع الجهل والمرض والفقر والتخلف بكل صوره وأشكاله ، فتوضع الخطط وتبنى البرامج ، وتقترح الاستراتيجيات والآليات بهدف تحقيق التنمية وبناء الاقتصاد ، وينشغل الساسة والمفكرون والمصلحون بهذا الموضوع ، أمام زيادة حدة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية ، وانتشار مظاهر المعاناة وتدفق الإحصائيات عن مظاهر الجهل والفقر والمرض ، التي تفرع ناقوس الخطر ، مما يدفع إلى الإسراع في المعالجة ، والتحذير من الإهمال أو الارتجال .

ويؤكد الواعون في هذا المجال ، على ضرورة بناء خطط التنمية ، على ما هو راسخ في كيان نافذ من مفاهيم إيجابية ، وقيم أصيلة ؛ لتكون التنمية ذات جذور راسخة في عنان السماء ويقوم توافق وانسجام بين ما يؤمن به الناس ، وما يأخذون به من برامج وخطط للنهوض بحياتهم ، وتطوير أوضاعهم .

لقد أراد الله سبحانه وتعالى الإسلام ديناً خاتماً ، وللناس كافة من أجل تحقيق خير الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، فأنزل الله كتابه ، وعلم رسوله الهدى والتوجيه الذي يمكن الناس من الوصول إلى ذلك في كل الأماكن والعصور .

قال تعالى : ﴿ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذْرًا لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿ [الأنبياء: ١٠٧] فما هي التوجيهات الربانية والمعالجات الإسلامية التي يجب أن تكون نبراسًا لنا، ومحورًا لخططنا وبرامجنا ونحن نتصدى لأهم قضايانا قضية تحقيق التنمية الشاملة لمجتمعاتنا .

إنه موضوع كبير لا يتسع الوقت للإلمام به ، ولكنها وقفات على عدد من المبادئ والقواعد الأساسية التي يتعامل بها هذا الدين ، مع هذا الموضوع الكبير ، وأنطلق في معالجة هذا الأمر من آية وحديث .

أما الآية فقولہ تعالیٰ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

وأما الحديث فقولہ ﷺ : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلي وعلي»^(١) .

فالآية وأمثالها في الكتاب الكريم تضع قواعد التصور الإسلامي ؛ لتحقيق التنمية الشاملة .

الاستخلاف والتسخير والتذليل ﴿ذُلُولًا﴾ والدعوة إلى العمل ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ ، وتحقيق الحياة الهانئة لذلك ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ ، وكله لله تعالى ، وخاضع لحسابه ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ .

والحديث يقدم الصورة العملية لمسئولية الدولة وواجبها في رعاية المؤمنين ، كما أنه يشير إلى مبدأ التملك الفردي ، وما يتعلق به من حقوق وواجبات : «من ترك مالا فلورثته» إلى جوار الضمان الاجتماعي ، له موارده في الشريعة : «من ترك دينًا أو ضياعًا فإلي وعلي» .

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٧) ، ومسلم (١٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والحديث ورد بألفاظ عديدة كلها تلتقي على معناه في البخاري ومسلم .

فمن رواية البخاري : «ومن ترك ديناً أو عيلاً فعلي» .

وفي رواية البخاري ومسلم : «من ترك مالا فلورثته ومن ترك كيلاً فالينا» .

وفي سبيل توضيح الخطوط العريضة لهذا الموضوع لابد أن نقف قليلاً عند مفهوم التنمية وحقيقتها ، من منظور إسلامي ، ثم نقف عند أهم محاور التنمية وحوافزها في النظر الإسلامي .

الفرق بين التنمية والنمو:

لقد انشغل الباحثون بتعريف التنمية ، وقد كانوا يركزون على الاقتصادية فيها لفترة طويلة ، ويفرق العديد منهم بين التنمية والنمو ؛ فيقصرون النمو على الطبيعي من تحسن الأحوال الاقتصادية للمجتمع ، والتنمية على ما يبذل من جهد من الدولة لتحقيق هذا التحسن .

وقد باتت الدراسات والخطط تهتم بالتنمية الاجتماعية إلى جوار الاقتصادية بل تهتم بالتنمية الشاملة بحيث باتوا يؤكدون على أن تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، يتطلب تحقيق التنمية البشرية والسياسية والإدارية وغيرها ، وأصبح الحديث عن التنمية الشاملة والتنمية المستدامة شغل الباحثين والمخططين والمنفذين ، ويؤكد كثير من الباحثين المعاصرين في موضوع التنمية الاقتصادية أن التنمية يجب أن لا تنحصر في زيادة الإنتاج فحسب ، إنما يجب أن تهتم بتوزيع عادل للثروة ، وتنمية الجوانب السياسية والاجتماعية ، والعلمية ، والثقافية ، وتطوير مجمل الحياة الإنسانية نحو الأفضل .

فلا تقتصر على نشاط واحد من نشاطات المجتمع ، ولا تهتم بفئة محدودة من فئاته .

وهنا تأتي أهمية الحديث عن قطاع المرأة والأسرة ، وإن هذا الفهم المعاصر مستقر حقيقة في التصور الإسلامي .

فالإسلام لا يعنى بتوجيه الأفراد والدولة إلى الأعمال ذات المردود الاقتصادي فحسب ، إنما يهتم اهتماماً واضحاً بالأعمال ذات العائد الاجتماعي ، بل إن اهتمامه بأمور الدنيا ، وإعمار الأرض لا يتم على حساب أمور الآخرة ، وتوثيق الصلة بالله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

والواقع أن طبيعة التنمية في الإسلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمبادئ العقيدة ، من منطلق أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، هو الذي استخلفه في الأرض وهياً له بهذا الاستخلاف كل ما يمكنه من إعمارها وبناء حياته فيها وقد هياً له بكرمه كل ما يمكنه من ذلك تسخييراً وتذليلاً : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ويقول جل من قائل : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠] .

ويقول سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ؛ ولذلك يقابل اصطلاح التنمية في النظر الإسلامي ، اصطلاح إعمار الأرض واصطلاح إقامة الحياة الطيبة .

يقول جل من قائل :

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، يقول المفسرون : أي جعلكم عمارها وسكانها ، والاستعمار يعني طلب العمارة والطلب المطلق يدل على الوجوب ، كما قال الجصاص في «أحكام القرآن» : يعني أمركم بعمارها بما تحتاجون إليه ، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض بالزراعة والغراس والأبنية .

فالتنمية بهذا الفهم ، واجب إلهي ألقاه الله جل وعلا على عاتق الإنسان ، وبصرف النظر عن الاصطلاح فإن المستقر في المنظور الإسلامي هو أن التنمية داخلية في مفاهيم الاستخلاف الإلهي كما قررها جل وعلا للإنسان في هذه الأرض .

بل إن عملية تعامل الإنسان مع الكون أو الطبيعة تحكمها علاقة التسخير والإنعام ، وليس علاقة العداء والقهر ، كما هو الحال في النظرة الغربية .

وبعد هذا الجواب الموجز لمفهوم الإسلام للتنمية ، وأنه يقوم على التعامل مع الإنسان بكيونته المتكاملة جسمًا وعقلًا وروحًا ، فتشبع حاجات جسده وتلبي أشواق روحه ويفتح المجال لعقله ليدع وينطلق اجتهدًا في فهم نصوص الشريعة وفي إعمار الأرض وتحقيق تقدم الإنسان ، ونمو حياته المادية والخلقية والعلمية والثقافية .

والواقع أن هذا الأمر يجعل من قضية التنمية في الإسلام ، ليست قضية رفاه مادي فحسب بعيدًا عن المعايير والقيم الخلقية والأطر والاهتمامات الاجتماعية والروحية ، إنما تتواكب وتتوازن العناية بالرفاه المادي مع

العناية بالقيم الخلقية والعدالة الاجتماعية، والعناية بالمصالح الخاصة مع العناية بالمصالح العامة، في نسق متوازن، يصون الحقوق الفردية ويحترمها، ولكنه يقيد بها يحقق المصلحة العامة، ويحمل الأفراد من الواجبات المادية والمعنوية ما ينهض بالمجتمع ويحقق استقراره وتقدمه .

مجاور التنمية في النظر الإسلامي :

أما الأمر الثاني المتعلق بمجاور التنمية في النظر الإسلامي فإننا نوجزها فيما يلي بعد استعراض لكثير من النظريات الاقتصادية والأفكار والدراسات بهذا الخصوص .

المحور الأول : إعداد الإنسان الصالح وبناء المجتمع السليم على أساس مراعاة الطبيعة الإنسانية المتكاملة .

المحور الثاني : القيام بواجب عمارة الأرض وفق نظر شمولي يقوم على العناية بكل ميادين الحياة .

المحور الثالث : إقامة جميع المرافق التي تحتاجها الأمة وبخاصة الاقتصادية منها وعلى أساس من التخطيط السليم وضمن الإمكانيات المتاحة بحيث تظل التنمية عملاً مستمراً ومستداماً .

المحور الرابع : العمل على تحقيق الحياة الكريمة لكل إنسان .

المحور الخامس : تحقيق التوزيع العادل للدخل والثروات ضمن منظومة قدمتها الشريعة في هذا الإطار، تقوم على جهد الإنسان وعطاءه وعلى إجراءات الدولة واجتهاد الإمام، في مواكبة حركة المجتمع وعمله الدءوب ليظل المجتمع مجتمعاً نامياً ومتقدماً .

المحور الأول :

وأما إذا أخذنا نستعرض هذه المحاور ، محورًا محورًا ، فإننا نلاحظ أن إعداد الإنسان الصالح وبناء المجتمع السليم في النظر الإسلامي ، يتم وفق منظومة متكاملة من التوجيهات والأوامر والنواهي القرآنية والنبوية تغطي كل آفاق الحياة الإنسانية ، وتجعل من العملية عملية تقترن فيها العقيدة مع الأخلاق مع العبادات مع المعالجات الحياتية لكل شأن من شئونها .

ونلاحظ هنا حقيقة صورة مشرقة ، كيف أن رسول الله ﷺ عكس هذا الأمر على بنائه للمجتمع الإسلامي الأول ، فكما شغل بإقامة المسجد كمؤسسة تحيط المسلمين بكل معاني التوجيه والرعاية ، وتحسن صلتهم بالله سبحانه ، وتوثق العلاقات بينهم عقد المؤاخاة فيما بينهم ، وأقام ذلك العقد التاريخي بين فئات المجتمع .

فنظم كل ما يتعلق بالعلاقات بين فئات المجتمع هناك بما يشمل المسلمين وغير المسلمين في المجتمع ، وقام أيضًا بذلك الاهتمام بالتعليم والتربية ، حتى إنه في معاركه ﷺ لم ينس هذا الشأن فجعل فداء الأسرى تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

ولم يكتف بذلك ، إنما أقام السوق ليهتم بالجانب الاقتصادي وحرك السرايا والجيوش لحماية المجتمع الوليد إذًا من أي تأثير لأهمية بناء القوة العسكرية .

هذا النظر الشمولي حقيقة يبرز في ممارسات رسول الله ﷺ في المجتمع الإسلامي الأول ، وهو أمر يطول شرحه وبيانه .

المحور الثاني :

أما فيما يتعلق بالمحور الثاني ، فواضح كما ألمحنا أن عمارة الأرض تشمل كل ما يتعلق ببناء هذه الأرض ، والتعامل معها بما يوفر للإنسان كل حياة هنيئة وكريمة .

المحور الثالث :

وأحب في الواقع أن أقف قليلاً عند المحور الثالث لأهميته في هذه الأيام ، وهو المحور الذي يتعلق بفهم متقدم قدمه فقهاؤنا ، وهو اعتبار كل مرفق تحتاجه الأمة فرض كفاية تؤاخذ الأمة جميعها بتركها ، إذا لم تقم به بما يفي بحاجاتها وهذا يشمل المرافق العلمية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

لكن أحب أن أقف قليلاً هنا عند ما يتعلق بالجانب الاقتصادي ؛ لأن بعض المتابعين لهذا الشأن يظنون أننا نرتجل الحديث في مثل هذه القضايا ، ونفتعله بينما أن الأمر هو نوع من المحاكاة للفكر الوضعي ، وما يقدم من دراسات .

لكن لننظر إلى تفسيرات علمائنا عندما يتحدثون عن فروض الكفاية ، فإنهم يؤكدون على أن الصنائع المحتاجة إليها وعمل القناطر والجسور وإصلاحها وبناء الطرق وغير ذلك ، يعتبر من فروض الكفاية التي تأثم الأمة جميعها بتركها إذا لم تقم بها بما يفي بحاجتها ، بل ذهب علمائنا إلى أكثر من ذلك ، فالنووي في «المنهاج» يقول : «إن الحرف والصنائع وما تتم به المعاش من فروض الكفاية» .

والرملي يشرح هذا القول يقول -ويلقب بالشافعي الصغير- : «بأن الناس لو تمالئوا على تركها أثموا وأوذوا» .

إلى هذه الدرجة تبلغ عملية الاهتمام بالجانب الاقتصادي في المجتمع .

ومن جميل ما يذكر هنا الشافعي في «مغني المحتاج» فيقول : «بأن قيام الدنيا بهذه الأسباب وقيام الدين يتوقف على أمر الدنيا حتى لو امتنع الخلق منه أثموا وكانوا ساعين في هلاك أنفسهم» .

والغزالي يقول : «فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش ، وهلك أكثر الخلق» .

فانتظام أمر الكل بتعاون الكل ، وتكفل كل فريق بعمل . ولو أقبلوا كلهم على صفة واحدة تعطلت البواخر وهلكوا ، حتى أن علماءنا عقدوا مقارنات بين أنواع الاستثمار وصوره هل الزراعة أحل أم الصناعة أم التجارة؟ وهو أمر طريف ، يطول الحديث عنه لكن أحب أن أشير إلى أن المحققين منهم ، قالوا إن الأفضل هو الذي تحتاجه الأمة أكثر ، وهذا يتوافق مع الأنظار الاقتصادية المعاصرة ، التي تهتم بتحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة أولاً مما يعني أن حاجة الأمة هي التي تقرر أفضلية قطاع من قطاعات الإنتاج على غيره ، وتحدد الشريعة ضوابط قواعد ذلك وأولوياته ، ونشير هنا إلى ما قرره علماءنا في موضوع المصالح المرسلة ، الذي هو موضوع الضروريات والحاجيات والتحسينات ، والذي جلى أموره فقهاء المذهب المالكي في إبداعهم العلمي في فهم مقاصد الشريعة وتحقيقها في مثل ما كتب الشاطبي والقرافي وغيرهما ، مما أرساه الإمام مالك رحمته الله .

هذا فيما يتعلق بمجمل العمل العام في مجال الاقتصاد لكن إذا نظرنا على مستوى الأفراد، فإننا نلاحظ كيف أن كل عمل يصدر عن الفرد بما فيه العمل الاقتصادي، اعتبره الإسلام عبادة.

وقد ألف علماؤنا في الحث على المستوى الفردي كتباً، وأفردوا أبواباً في كتبهم الموسوعية، ومن جميل ما يذكر هنا كتاب «الاكتساب في الرزق المستطاب» لمحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة (١٨٧هـ).

وكتاب أبي بكر الخلال «الحث على التجارة والصناعة والعمل»، وكتاب «البركة في فضل السعي والحركة» وغيرها من كتب جديرة بأن تنشر بيننا في هذه الأيام.

وقد استعرض هؤلاء العلماء عشرات النصوص من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، يؤكد هذا المعنى أن نذكر مثل قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقول النبي ﷺ: «ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»^(١).

ويعلق جاك ستروي في كتابه: «التنمية الاقتصادية في الإسلام» على مثل هذه النصوص قائلاً: إن المحرك للتنمية الاقتصادية موجود في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالشريعة لا تسمح فقط بجهد المبدع بل تأمر بذلك بأسلوب قوي في الميادين الفكرية والمادية، كما ظهر لنا من الدراسة الموضوعية للنصوص المقدسة.

(١) سبق تخريجه.

المحور الرابع :

أما في موضوع تحقيق الحياة الكريمة لكل إنسان في المجتمع ، فنلاحظ هنا أن الشريعة قد قررت مبدأ ضمان الحاجات الأساسية لجميع أبناء المجتمع بما فيهم غير المسلمين فيه .

ويقف حديثنا واضحاً دليلاً على ذلك ومنظومة تشريعية متكاملة من الحث على العمل إلى الدعوة إلى أن تؤمن الدولة قدر جهدها ، فرص العمل إلى دعوة مباركة خيرة في تقرير نظام النفقات بين الأقرباء إلى إجراءات عديدة سنشير إليها في المحور الأخير بعد قليل ، لكن أحب هنا أن أذكر كيف أن هذا المبدأ طبق على غير المسلمين كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على البصرة يحثه على أن يهتم بأمور أهل الذمة ، فينظر من كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب أن يجري عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ، فيقول مستدلاً لذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب مر بشيخ من أهل الذمة ، يسأل على أبواب الناس فقال : ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيعناك في كبرك ، وقال : أجر عليه من بيت المال ما يصلحه .

ومر عمر بن الخطاب - كما في «فتوح البلدان» للبلاذري - في طريقه إلى الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر بأن ينفق عليهم من بيت مال المسلمين ، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤنه .

حتى أن هذا الأمر قد لوحظ في العهود والمواثيق التي كانت تعقد ، عندما يحدث الصلح بين المسلمين وغيرهم في عملية انتشارهم في الأرض .

المحور الخامس :

على أية حال ففي موضوع المحور الخامس وهو من المحاور المهمة ، أحب أن أشير إلى أن الأمر منوط حتى في صور الزكاة وجهد الدولة في هذا المجال توظيفاً فيما نسميه هذه الأيام بالمشروعات الإنتاجية والتأهيلية .

فنصوص العلماء ملتقية على أنه يعطى الفقير من الزكاة ما ينقله من الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ، بحيث لا يعود محتاجاً للزكاة مرة أخرى .

فإذا كان -يقول العلماء - صاحب حرفة أعطي ما يمكنه من الاحتراف وإذا كان حاذقاً في التجارة أعطي ما يمكنه من التجارة ، وإذا كان حاذقاً في الزراعة ، استؤجرت له الأرض أو اشترت ليقوم بزراعتها ضمن منظومة متكاملة تقوم الدولة بالإشراف عليها ، لتحقيق ذلك .

ويجلى هذه القضية الحديث النبوي الصحيح الذي اعتمده كبار علمائنا في هذا المجال وهو قوله ﷺ في حديث طويل عندما يبرر الإعطاء يقول : «أنه حتى يصيب قواماً من عيش»^(١) ، حتى يصيب سداً من عيش ، أي : حتى يستقل بأمره فيكون قادراً على أن يقيم مشروعه الذي يكتفي به .

ما يسمى بالتنمية المستدامة والمشروعات الإنتاجية والتأهيلية لأنها حقيقة لا تتركس الفقر ، إنما تنقل الإنسان من الفقر إلى الغنى ، ونعلم جهد الزكاة في هذا المجال وكيف حققت هذا الأمر عبر مسيرة المجتمع الإسلامي .

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٤) من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه .

دور الحاكم المسلم :

وأحب أن أنهي حديثي بالإشارة إلى أن الحاكم المسلم في مواكبته لحركة المجتمع هو حريص على العدالة الاجتماعية ، وحريص على تحقيق توزيع اقتصادي متوازن في المجتمع ، وهنا نقصد بذلك قوله جل من قائل عندما حدد مصارف الفيء وبرر جل وعلا وعلل ذلك بقوله : ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر : ٧] فمبدأ عدالة الثروة في المجتمع مبدأ يحرص عليه هذا الدين .

وقد وضع في قواعده وأسس ، إن كان في الميراث أو إن كان في الحث على الإنفاق العام ، أو فيما قرر في مجال الزكاة .

كل هذه الأسس والقواعد والمبادئ ، تعمل لتكون عملية عدالة اجتماعية وتوزيع متميز للثروة .

وحقيقة نقف هنا عند فعل الرسول ﷺ ، عندما وزع فيء بني النضير قال لهم : «ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتكم أموالكم ، وقسمت هذه فيهم خاصة ، فقالوا : بل اقسم هذه بينهم ، واقسم لهم من أموالنا ما شئتم»^(١) فنزل قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] وقدم صورة مشرقة في إنزال المهاجرين في دور الأنصار ، وإتاحة الفرصة لهم للعمل في حقولهم .

(١) سبق تخريجه .

ونعلم نحن الاجتهاد الفذ الذي قام به عمر بن الخطاب في عدم قسمة الأراضي المفتوحة عنوة، وقد لحظ في هذا الأمر عدالة بين الأجيال، وقال: من لمن يأتي بعد؟ ولذلك فرض الخراج، وكان ما يأتي بعد لخير الأجيال القادمة.

ومن هنا بين علماءنا أن ترشيد استهلاك الثروات، يجب أن يلحظ فيه أمر الأجيال القادمة.

وأن يكون هنالك نظر شامل، يغطي آفاق الأمة ويلحق بكل فئاتها حتى القادمة منها.

المحاضرة الثالثة والستون بعد المائة

وحدة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٣١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران : ١٠٢-١٠٩] .

للخطاب القرآني صيغتان :

إن الخطاب القرآني يتخذ صيغتين : صيغة توجه إلى عموم البشرية عندما يناديها الله تعالى بقوله : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ [البقرة : ٢١] ، وصيغة توجه إلى الجماعة المؤمنة التي أسلمت لربها وصدقت الرسل والتزمت بمنهجها ، فيناديها بقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة : ١٤] ، وهو شيء يثير الاعتزاز ويشعر هذه الجماعة التي عاشت في جاهليتها تعزز

بما تعزز به الجاهلية من القيم الأرضية الهابطة ، فنقلها الإسلام إلى مجال أسمى وأرفع فأصبحت لا تعزز إلا بقيمة واحدة هي القيمة الإيمانية ، وإنه لإعجاز وتكريم عظيم .

وإنها عندما تسمع رسول الله ﷺ يبلغها هذا النداء الرباني تتطلع إلى ما يلقي عليها من توجيه رباني .

ها هو التوجيه يأتي : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وإن هذا الموضوع موضوع التقوى هو نفسه الغاية التي أراد الله أن يصل إليها بفريضة الصيام . فعندما جاءت آية الصيام ذكرت الغاية المرجاة أن يصل إليها الصائمون وهي التقوى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

والتقوى هي هذه العلاقة ، هذه الصلة ، هذه الحساسية ، هذه اليقظة التي يحملها المؤمن في أعماق ضميره تصله بالله وتجعله يستشعر أن الله معه فيما يقول ومعه فيما يفعل يراقبه ويلحظه ويسجل أعماله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٦-١٨] ، هي العبادة التي يصل فيها الإنسان إلى درجة القرب من الله تبارك وتعالى ، بحيث إن فيها درجتين كما صورها رسول الله ﷺ : درجة يصل فيها الإنسان إلى أنه يرى الله بإيمانه ،

ليس الرؤية الحسية التي نرى بها الأشياء المحسوسة وإنما أن يصل في درجة القرب إلى الشعور بأنه يقف أمام ربه ويشاهده .

وهناك الدرجة التي هي أدنى من هذه وهي أن يتيقن بأن الله يراه ، علمًا أن الإنسان إذا كان يقف أمام مسئول من مسئوليته البشريين فإنه يحرص كل الحرص ويجتهد على أن يأتي بالأعمال متقنة ، فكيف بمن يتيقن بأنه يقف أمام الله ، والله يشاهده ، لذلك جاءت هذه الآية الكريمة تقول : ﴿ حَقُّ تَقَاتِهِ ﴾ .

﴿ حَقُّ تَقَاتِهِ ﴾ تعني كما يحق له أن يتقى ، وكما يحق له أن يطاع وكما يحق للألوهية أن يتعامل بها الخالق وأن يتعامل بها المخلوق .

فلم يرسم مقياسًا محددًا ولا عملاً ظاهرًا محددًا يكون الإنسان إذا فعله يصل إلى حق التقاة ، وإنما ترك القلب المؤمن يجتهد في بلوغ هذه الدرجة من القرب من الله وهذا القلب المؤمن كلما أوغل في هذا الطريق طريق القرب من الله تكشف له آفاق وجدت له أشواق .

وهناك حديث شريف روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ «أنه فسر لنا اتقوا الله حق التقاة فقال : اتقوا الله حق التقاة : أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر»^(١) .

أمر النبوة قائم على أمرين :

وإن في هذا التفسير النبوي علمًا بأن رسول الله ﷺ مهمته قائمة على أمرين إلهيين :

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ٣٧٥) ، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٩٢) .

الأول : هو البلاغ ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] .

والثاني : هو التفسير والبيان ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] ولا تفسير أصح من تفسير رسول الله ﷺ ، فتقوى الله حق التقاة أن يطاع الله فلا يعصى ، وطاعة الله هي عبادته في كل مجال ، وليست مقتصرة على الشعائر كما يرى البعض ، أن طاعة الله إنما تتمثل فقط في الشعائر التعبدية ، أن طاعة الله تشمل كل حياة الإنسان .

وقد جاء في آيات قاطعة محكمة وبصيغة الحصر أن حياة الإنسان كلها هي الطاعة ، أي رسالة الإنسان في الحياة الدنيا تتمثل كلها في طاعة الله ، وما خلق الإنسان إلا لهذا .

جاء هذا في سورة الذاريات : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

وجاء في سورة البينة : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥] .

فمهمة الإنسان في هذه الحياة هي أن يطيع ربه وأن يطبق شريعته ، وأن يعمل بمنهج ، والإنسان في الحياة الدنيا سفير ، وسفارته تتمثل في أن يقوم بواجبات الخلافة عن ربه ، فهو ليس إلهاً في الأرض ولكنه خليفة لربه في الأرض .

هذه قضية السفارة نفسها نستطيع أن نتلمسها في آية بينة من سورة البقرة : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وليس للسفير أن يتصرف في بلد بعث إليه كما يشتهي هو ، بل عليه أن يطبق التعليمات التي تصدر إليه من الجهة الباعثة ، ووجود الإنسان في الحياة الدنيا إنما هو وجود مؤقت ليقوم بمهمة ، ومهمته هي أن يطبق التعاليم التي صدرت إليه من ربه .

فالإنسان إذا عاش عاصياً لربه وهو متعمد أن يخالف عن أمر ربه ، فإذا خالف عن أمر ربه ، وإذا عاش الناس وهم يخالفون عن أمر ربهم فهي الفتنة إذاً ، وهي العذاب الأليم .

المقصود بالذكر

«أن يذكر فلا ينسى» ، إن الذكر لا يقتصر على مجرد الأذكار التي تعودنا أن نقوم بها في أوردنا ، إن هذه الأذكار هي التذكير ، إننا عندما نذكر أسماء الله الحسنی مثلاً ، فإن هذه الأسماء الحسنی لها دلالات ، فالعفو يبعث فينا العفو ، والغفور يبعث فينا المغفرة ، والرحيم يوحى إلينا بأن نكون رحماء : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١) .

وهكذا فإن ذكر الله يجب أن يتحول من اللسان إلى الفعل وإلى التطبيق ، وفي كل المجالات ؛ مجالات الحياة ، فعلينا أن نذكر الله قائلين ونذكر الله فاعلين ، ونذكر الله منفردين ، ونذكر الله مجتمعين ، ونذكر الله ونحن نمارس أي شغل أو نقوم بأي عمل أو نتعامل مع الناس أو مع أنفسنا أو

(١) سبق تخريجه .

مع أهلنا ، أو حتى مع الحيوانات ، إن علينا أن نذكر الله ، وذكر الله هو الذي يسدد خطواتنا ويجعل أعمالنا كلها ماضية في سبيل النجاح .

المقصود بالشكر :

«وَأَنْ يَشْكُرَ فَلَا يَكْفُرُ» : إن الله أنعم علينا بنعم كثيرة ، نعمة الخلق ، ونعمة الرزق ونعمة الرسالة ، ونعمة الهداية ، ونعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وكل أعمالنا وكل ما نقوم به من قربات إنما يندرج في إطار الشكر لله .

أما الله ﷻ فلا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] .

بل إنه كتب على نفسه الرحمة ، أننا إذا شكرنا الله وحمدناه فإنه يزيدنا توفيقًا ويزيدنا نجاحًا ويزيدنا يمناً وبركة : ﴿لِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ولكي لا ننسى نعم الله علينا جعل الله لنا سورة هي أم الكتاب لا تصح الصلاة إلا بها ، ولو صلى الإنسان بالقرآن كله ولم يصل بالفاتحة فلم يصل ، هذه السورة تستهل بالحمد والشكر لله رب العالمين ، حتى لا ننسى نعم الله علينا .

الكفر كفران :

«وَأَنْ يَشْكُرَ فَلَا يَكْفُرُ» ، والكفر كفران : كفر بما أنزل الله وبالعقائد التي يصح بها إيمان الإنسان ، وكفر بأنعم الله ، كفر بالله هو أعظم جريمة في هذه الأرض : ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ١ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ٢ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ٣ كَلَّا بَلْ

تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿٣﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حِيمٍ ﴿٦﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٧﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٩﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٠﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١١﴾ [الأنفطار: ٦-١٩] .

وهناك كفر بأنعم الله ، أنعم الله التي أنعم بها علينا ، لا تدوم هذه النعمة إلا إذا قمنا بأمر الله طاعة لأمره وتنفيذًا ، واجتنابًا لنهيهِ وابتعادًا ، والتزامًا بنهجه وعدم انحراف ، فإن الله تعالى إذا علم منا هذا الصدق وهذا الوفاء يزيدها من رحماته ويزيدنا من بركاته ، وقد وعد هذه الأمة المسلمة أنها إذا وفّت لربها وبعهده ، والتزمت بكتابه وسنة نبيه فإن خيرَه وفضله ونصره وتوفيقه يدوم عليها .

وقفت مع هذا الحديث الشريف في معانيه هذه الثلاث ، «أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر» .

ثم قال ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فهو نهي وتحذير من أن يموت الإنسان على غير الإسلام ، وهذه أعظم وصية وأكرمها وأغلاها وأثمنها ، نوه الله بنبيين من أنبيائه أوصيا بها بنيهما : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] .

ولكن السؤال : كيف يستطيع الإنسان أن يضمن أنه يموت على الإسلام مع أن الموت أمر غيبي لا ندري متى يجيء ولا كيف يجيء ، ولا أين يجيء ؟
إنه أمر مغيب ، كيف نضمن أن نموت على الإسلام ونلقى الله على

الإسلام؟

المنطقي هنا هو أننا يجب أن نلتزم بهذا الإسلام منذ اللحظة الأولى ، منذ اللحظة التي يصلنا فيها البلاغ الإلهي ، فعلينا أن نعيش الإسلام في كل لحظة حتى نلقى الله على هذا الإسلام في آخر لحظة ، هذا كما يقول شيخنا عبد الحميد بن باديس رحمته الله : إننا عندما نتناول القرآن الكريم فعلينا أن نلتمس فيه حظين : حظ العلم وحظ العمل ، أما حظ العلم فهو فهمه بقدر ما ييسر الله لنا ، وأما حظ العمل أن نحاول تحويل هذا المعنى إلى الواقع المعيش .

فنحن نعلم أن الذين يؤمنون بأي مبدأ من المبادئ ، والذين يؤمنون بأي سياسة من السياسات ، أو بأي عقيدة من العقائد يؤمنون بها إيماناً راسخاً ، فهم يتمسكون بها ويستمررون عليها ، والاستمرار هو الذي يضمن النجاح ، وأن لا يكون موقف الإنسان إيمان يوم وكفر يوم ، فعليه أن يثبت : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

الثبات على الإسلام في كل اللحظات : في الشدة والرخاء ، في اليسر والعسر ، في الضائقة والسعة ، في الفقر والغنى ، في جميع الظروف .

إذا علم الله في الإنسان صدقاً وعلم فيه صفاء وعلم فيه وفاء ، فإنه يثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إن شاء الله .

الركيزة الأولى من ركائز المجتمع الإسلامي :

بعد ذلك قبل أن أغادر هذا الجزء من القطاع العام في هذه الآيات أقول :

إن هذه الركيزة الأولى من ركائز المجتمع الإسلامي : الركيزة النفسية الأولى ، والإسلام يهتم أساسًا بالداخل ، يهتم بالنفس ، ولا يهتم كثيرًا بالمظاهر التي يأتي بها يوم ويذهب يوم آخر ، كما قال كاتب الإسلام الخالد ، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمته الله : إن الإسلام يهتم بداخل النفس البشرية وبعملها : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ ١٠ ﴾ [الشمس : ٧-١٠] .

الركيزة النفسية الأولى :

الركيزة التي ينبع منها بناء هذا المجتمع المسلم ، كما يريد الله هي الإيمان والتقوى ، ولكي لا يكون هذا مجرد كلام طائر في الهواء ليس له وصفة محددة ، وليس له وثيقة تبين معالمه ، وليس له مرجع يحدد خطوات الطريق جاءت الآية الثانية لتأكيد مضمون الآية الأولى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

الاعتصام هو التمسك بما يعصم ، بما يمنع ، بما يعطينا المنعة ، بما يعطينا الحصانة ، بما يحصننا ضد الخطر ، وضد الشر ، وضد ما يتهددنا ، وضد ما فيه الهلاك .

فالإنسان لابد أن يكون له حصن ومنعة ، وحبل الله ، هذا الحبل نعتبر أن اللفظ القرآني لفظ معجز ، يأتينا بالمعاني الجليلة في صور محسوسة وكأنه مشهد مرئي .

نتصور أن جماعة موشكة على الغرق أو على الهلاك أو شيء من هذا وهي تجأ إلى الله تطلب النجاة أو تطلب الغوث فيلقي إليها حبل ينقذها

من الغرق أو ينقذها من الهلاك ، سفينة مثلاً تمخر عباب البحر تتقاذفها الأمواج الهائجة يميناً وشمالاً ، وتوشك السفينة أن تغرق ، ويجأر سكانها طالبين الإنقاذ فيأتي حبل ممدود من السماء فينقذهم ، حديث نبوي شريف أرى هذا الحديث النبوي الشريف يقول فيه النبي ﷺ : «القرآن هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»^(١).

إن القرآن هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض ، هذا البيان النبوي يفسر لنا الوضع الذي كانت عليه البشرية قبيل مجيء الدعوة الإسلامية ، كانت هالكة ، كانت توشك على الدمار وتوشك على الهلاك ، فإذا برسالة الإسلام تنقذها من جاهليتها ، ومما أفرزته الجاهلية مما يهدد البشرية بالفناء والدمار .

مد لها هذا الحبل الإلهي فأنقذها وذهب بها إلى النجاة ، والحبل كما نرى هو وسيلة من الوسائل التي تستعمل للربط أو للشد أو للجمع أو للتكتيل ، فهو إما أن يتدلى من السماء ، وإما أن ينزل لينقذ الناس في الأسفل .

المهم أن هذه صورة تقرب وتصور المشهد ، مشهد قوم في حاجة إلى إنقاذ .

الاعتصام بالقرآن :

أما المعنى الذي يستفاد من هذا فهو أن القرآن الحكيم الذي هو حبل الله ،

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٨) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وأحمد في «المسند» (٣/

١٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والذي فيه ميثاق الله الذي واثق به البشر ، هو حبل النجاة ، فإذا اعتصمنا بهذا القرآن الكريم الذي صورته رسول الله ﷺ في حديث آخر رواه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يقول فيه : «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم»^(١) ، فإذا كان القرآن الكريم يشتمل على كل هذا فماذا نريد أكثر من هذا؟ إننا نلتمس من القصص القرآني ما فيه الصدق الذي لا ريب فيه ، الحق الذي لا ريب فيه لنعرف ماذا نتعظ به وماذا نستفيد به من أحداث التاريخ!

إننا عندما نريد أن نرسم خطة للمستقبل فعلينا أن نهتدي بتوجيهات القرآن حتى يكون خطنا خطأ سليماً .

عندما تعرض أمامنا مشكلة حاضرة معاصرة فإن القرآن الكريم عندما نهتدي به فإنه يلهمنا إلى اتخاذ الحكم العادل وإلى اتخاذ الموقف السليم ، وما حياة الإنسان إلا الماضي والحاضر والآتي : «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم» .

غير أن هناك كلمة جاءت بعد هذه وهي قوله تعالى : ﴿ جَمِيعًا ﴾ والنحويون يقولون : إنها حال ، وفعلاً هذه كلمة الحال هي الصورة التي يكون عليها المجتمع وهو يتمسك بالقرآن ، هل القرآن يقبل من المسلمين أن ينزل كل فرد في ناحيته ويعبد الله في جهته ولا يهتم بما يحدث في بقية أمته؟

إن الله تعالى لا يقبل منا إلا أن نتمسك بدينه ، ونحن مجتمعون ، ونحن متكاتفون ، ونحن متضامنون ، ونحن متلاحمون ، وهنا يأتي البيان النبوي

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) ، وأحمد في «المسند» (١ / ٩١) ، والدارمي في «السنن» (٣٣٣١) .

فيعطي لنا صورًا أخرى : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»^(١) ،
«مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه
عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢) .

اعتصموا بحبل الله ، لكن ليس اعتصام كل فرد بنفسه منفردًا عن
إخوانه وعن قضايا أمته ومجتمعه ، اعتصامًا تكتليًا تجمعيًا تضامنيًا تكافليًا
تعاونيًا على البر والتقوى ، هذا هو الذي يريده الله ، وتوجيهات القرآن
الكريم والسنة النبوية هي كلها توجيهات جماعية ، فأوامر الله كلها سواء
أوامر بالفعل أو بالنهي كل توجيهات القرآن الكريم توجه إلى الجماعة ولا
يأتي التوجيه بالمفرد إلا إلى رسول الله ﷺ .

وهنا حتى إذا جاء التوجيه إلى الرسول إما أن يكون فيما يخص النبوة ،
شخصية الرسول ، وحتى فيما يخص النبوة علينا أن نلتمس فيه قدوة ؛ لأن
حياة رسول الله ﷺ حتى حياته الشخصية ليست له ، وحياته العائلية ليست
له وحده ، إنما تكون قدوة لأئمة ، في الآية الواحدة والعشرين من سورة
الأحزاب ، قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ في شعائر الإسلام وشرائع الإسلام
وآداب الإسلام دعوة إلى الجماعية ورفض للفردية الانعزالية ، فما معنى أن
يدعو رسول الله ﷺ إلى صلاة الجماعة ويحث عليها ، ويجعلها تفضل صلاة
الفرد بسبع وعشرين درجة؟

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

إن ذلك معناه أن يعيش المسلمون في مجتمع ، وأن يعيشوا في مجتمع منظم منضبط ، مصلون يصلون في المسجد متراسي الصفوف ، وراء إمامة راشدة ، والإمامة في الإسلام ليس فيها انفصام بين إمامة الصلاة وإمامة الحياة .

الحجة التي رشحت أبا بكر رضي الله عنه للخلافة ، الحجة الكبيرة أو أعتقد أنها الحجة الكبرى هي تكليف رسول الله ﷺ للصديق رضي الله عنه في مرض وفاته الذي رفعه الله إلى الملاء الأعلى بعد هذا المرض ، عندما عجز رسول الله ﷺ عن أن يؤم المسلمين ، قال : «مروا أبا بكر فليصل بالناس»^(١) .

ورغم إلحاح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على أن يكلف عمر بذلك ؛ لأن أبا بكر رجل بكاء ، أو رجل رقيق القلب ، أصر رسول الله ﷺ على أمره فقال : «مروا أبا بكر فليصل بالناس» .

فالإمامة في الإسلام لا انفصام فيها بين إمامة الصلاة وإمامة الحياة ، فالصلاحية للصلاة هي الصلاحية للحياة ولا عكس في ذلك ، فالإنسان المسلم يتعلم كيف يعيش في نظام جماعي ، ويتعلم أفضل نظام للحكم أيضاً في الصلاة وحدها لو أدت وأقيمت كما يريد الله بخشوع وإخلاص .

فالإمام يمثل القيادة والإمام قبل أن يشرع في الصلاة يلتفت إلى المأمومين فيقول لهم : سوا صفوفكم ، إن الله يكره أن ينظر إلى الصف الأعوج .

والله تعالى جعل سورة في القرآن هي سورة الصف ، وجاء في آيتها الرابعة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَنٌ مَّرْصُومٌ﴾ [الصف : ٤] ، والمسلمون في عهد الدولة الإسلامية الواحدة إذا

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

حزبهم أمر نادوا : الصلاة جامعة ، فيأتي الناس إلى المسجد ليلقي إليهم الخبر ، فلفظة الجامع نفسها أنها تجمع ولا تفرق : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ .

مغبة الاختلاف والنزاع :

إن كل أدواء المسلمين من قديم العهود إلى حديثها إنما نشأت من التفرقة التي أشاعت بين المسلمين الاختلاف والنزاع ، ثم جاء الفشل وسقطت هيبة الأمة الإسلامية في العالم ، وهذه حقيقة ما ينبغي أن نتجاهلها ، إن ﴿جَمِيعًا﴾ هي كلمة ، ولكن مدلولها عظيم .

إن كل عمل إسلامي يجب أن يقام به ويمارس في نطاق المجتمع ومجتمع منظم ، ومجتمع موحد ، ومجتمع ينهج في أسسه الثابتة التي لا تقبل التغيير منهج رسول الله ﷺ : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة : ١٣٧ ، ١٣٨] .

صحيح أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ، وقال المفسرون : إنها نزلت في أهل الكتاب ، لكن المسلمين إذا تحولوا إلى ما تحول إليه أهل الكتاب جرت عليهم سنة الله ، كما جرت على أهل الكتاب كما يقول أمير المؤمنين عمر : اعلّموا أنه ليس لله عند أحد نسب ولا صهر ، فسنة الله في الأولين هي سنة الله في الآخرين ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ هو تأكيد وتثبيت لقوله ﴿جَمِيعًا﴾ ، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ

عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا ﴿١٠٣﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

سبب نزول هذه الآية كما قال المفسرون هو ما كان عليه الوضع في المدينة بين الأوس والخزرج ، الأوس والخزرج حيان في المدينة المنورة ينسبان إلى أخوين شقيقين ، نشأ بينهما نزاع وصراع أدّى إلى قتال وحروب متوالية .

ففي يوم من الأيام مر يهودي على مجلس من الأنصار من الأوس والخزرج يسوده الصفاء والوثام والمحبة والسلام فهاله ذلك ، فأرسل رجلاً آخر إليهم فجلس فيهم وأخذ يذكرهم بالأحقاد الجاهلية والثرات الجاهلية ومنها ما يسمونه بأيام العرب ، يوم بعث ، فثارت فيهم الأحقاد ونفخ الشيطان في المجلس ، فقالوا : لو شئتم لأعدناها ، فسمع رسول الله ﷺ ، وجاء إليهم عاصفاً غاضباً وقال : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟»^(١) فتعانقا وتصافحا وعاد إليهم الوثام والسلام ﷺ .

هذا ما ذكر في سبب النزول ، لكن العبرة كما يقول العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، العبرة لأن هذه الآية القرآنية كسائر آيات الله البينات في القرآن الكريم إنما أنزلت لتكون كتاب الله ومعجزته الخالدة في كل زمان ومكان .

وهو ينسحب ويمتد على امتداد الزمان والمكان ، فكما حول الله مجتمع الجاهلية الذي تسوده الأحقاد والإحن إلى مجتمع الأخوة والتكافل والتضامن والتعاون والمحبة ، كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم ، وحتى الدقة في التعبير القرآني لم يقل : فألف بينكم قال : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ ؛ لأن كل شيء إذا لم ينبع من القلب فهو آيل إلى الزوال .

(١) سبق تخريجه .

هذه المظاهر التي تحدع لا يمكن أن يعتمد عليها إلا إذا نبعت من القلب ، والقلب كما يقول رسول الله ﷺ بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك ، ثبت قلبي على دينك»^(١) .

فالتأليف بين القلوب هو الذي مكن هذا المجتمع الذي كان حتى المجتمع الداخلي بين الأشقاء ، بين الأوس والخزرج اللذين كانت بينهما حروب ، حتى أصبحت لحمه الأخوة والمودة والصفاء تسودهم ، وأصبحوا أكثر من ذلك يستقبلون إخوانهم المهاجرين من مكة المكرمة بالحب والتسامح ، فتقاسموا معهم الأموال ، وتقاسموا معهم العروض ، وتقاسموا معهم حتى ما لا يقتسم ، الشيء الذي أدى إلى أن ينوه الله بهم في آيتين : الآية التاسعة والعاشرة من سورة الحشر : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْبِئُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] هذه هي الآية التاسعة .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] الآية العاشرة .

هذا المجتمع لو لم يقع فعلاً في التاريخ ، لو لم يمر في التاريخ لعد من أحلام الخالمين ، من هذا المجتمع انطلق الزحف ، انطلق الفتح ، انطلق العمل الإسلامي في كل مجال ، فانبثقت من هذا المجتمع الذي كان في أدنى

(١) سبق تخريجه .

مستويات الحضارة أمة علمت الدنيا كيف تكون الحضارة ، وكيف تكون العدالة ، وكيف يكون المجتمع الأمثل ، علمت الدنيا الحضارة المزدهرة التي ما تزال النفوس الشريفة الطيبة الإنسانية تتطلع إليها ، هذا المجتمع الذي ما يزال في التاريخ البشري مشعلاً يضيء الأجيال والأجيال ، والعهد والعهد ، هو المجتمع المثالي الذي يجب أن نتمسك به :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

﴿ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

والنار هذه ، المفسرون قالوا : هي الوضع الذي كان عليه العالم وليس فقط العالم العربي ، بل كان عليه العالم من حولهم ، الفرس والروم والمجتمعات الموجودة كلها كانت ينطبق عليها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] .

وضع آيل إلى الدمار ، آيل إلى الهلاك ، بسبب النيران المشتعلة : نيران الحروب والعداوات والجاهليات ، أو أن فساد المعتقدات وفساد الاتصال بالله ، وانقطاع الصلة بين الإنسان وربّه ، يوشك أن يلقي به في حفرة جهنم ، سواء كان هذا أو ذاك إن الإسلام إنقاذ .

إن رسالة الإسلام هي التي أنقذت الأولين وهي التي تنقذ الآخرين ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، فإذا التجأنا إلى هنا أو إلى هناك ، إلى شرق أو إلى غرب ، فقد جربنا وجربت شعوبنا أن تأخذ معتقداتها ونظرياتها

وفلسفاتها من هنا أو من هناك خارج الإسلام فكان الضلال ، وكان التيه ، وكان الضياع ، وكان الهلاك .

تحضرنى كلمة خالدة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، وما الطريق الوسطى إلا الإسلام : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] كيف يمكن للأمة الإسلامية في وضعها الحالي أن تكون شاهدة على الناس ، وإذا كانت لا تصلح للشهادة حتى على نفسها فكيف يمكن أن تشهد على غيرها؟ إذا كانت لا تصلح للشهادة في هذه الحياة الدنيا فكيف تصلح للشهادة أمام الله يوم القيامة ، وهي لم تعد تلك الأمة التي تركها رسول الله ﷺ ؟

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] إن الآيات التي في كتاب الله تعالى هي الآيات التي تعلم وتوضح وتفسر الأحكام ، وكل قضية جاء بها الإسلام عندما تعرض على البحث نجد أنها الحق الذي لا ريب فيه : ﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

وما دخول هؤلاء الذين تبجحوا بأنهم أكثر حضارة وأكثر علماً وأكثر تقدماً ، وتبجحوا بأنهم بنوا فلسفتهم على المنهج العلمي ، ما معنى أن يأتي أبناءؤهم وبناتهم فيسلمون الآن في عصر الذين يتهمون الإسلام بأنه يتناقض مع العلم؟

إنهم يأتون عن طريق واحد ، ليس للإسلام الآن جيش فاتح يغزو العالم كما يدعي المستشرقون ، إن الذي يغزو هو القرآن الكريم الذي يغزو العقل

البشري، ويغزو الذهن البشري ويغزو الفكر البشري، ويبين سفاهات وحماقات الفلسفات والمعتقدات التي أرادت أن تصد عن دين الله، وتقدم للناس ما لا يرضاه الله.

إن البيان الحق والهدى الحق لا يمكن أن يلتبس إلا من الحق، وكما قلت من قبل: لا تأتي الوحدة إلا من الواحد الأحد، أقول: إنه لا يأتي الحق إلا من الحق والحق هو الله تبارك وتعالى.

رسالة الأمة:

بعد هذا لابد لهذه الأمة الإسلامية أن تكون لها رسالة.

إن هذه المبادئ التي تقوم عليها الأمة المسلمة والتي نشأت عليها، والتي كتب الله أن تكون ركيزتها، ذكرت ركيزتين الآن: الأولى هي الإيمان والتقوى، والثانية هي مجتمع الأخوة الإيمانية: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] هذه ركيزة الإيمان والتقوى.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذا المجتمع القائم على التقوى لابد أن تنشق منه مجموعة متآخية في الله، وهي التي تنهض بأمانة الرسالة وبمهمة الدعوة: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ هذه الصيغة

أقوى مما لو كانت : كونوا منكم أمة ، بلام الأمر ، فيها تأكيد أنه لا بد ولا معدى ولا ملجأ ولا مفر للمسلمين الملتزمين بدينهم أن يكونوا أمة .

هناك وقفة للمفسرين مع كلمة من أو حرف من ، منهم من قال : إنها للتبويض أي أن القيام بالدعوة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من اختصاص جماعة من أهل العلم ، من أهل الذكر ، الذين تتوفر لهم شروط القيام بهذه المهمة ، حتى لا يأتي تغيير المنكر بمنكر أشد ، وحتى لا يعرف -ربما- المنكر بالمعروف والمعروف بالمنكر ، لا بد من أهل العلم ومن أهل الذكر أن تكون نخبة عالمة فقيهة في دين الله لتنهض بهذه المسؤولية ، واعتمادهم في هذا على من ، يعني بعضكم .

ورد عليهم بأن الأمة الإسلامية في مجموع أفرادها ، كل مسلم مسئول عن نشر دعوة الإسلام كل حسب مستواه وحسب طاقته وحسب إمكانياته .

إنما وجدت رأياً تفسيرياً معاصراً أن في الأمر أمرين في الحقيقة ، هناك دعوة إلى الخير ، وهناك أمر بمعروف ونهي عن المنكر هناك تفصيل : ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ، ثم قال : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ .

أما الدعوة إلى الخير فهي مسئولية كل مسلم ، يدعو بقدر استطاعته ، بحسب مستواه بقدر إمكانياته ، والدعوة هنا تنبع من ذاته أولاً ، أن يكون قدوة ، أن يحول إيمانه إلى واقع عملي مثلما حدث لأولئك الذين جاءوا تجاراً أو حرفيين أو مهنين أو ما إلى ذلك ، فساحوا في الأرض بدعوى أنهم تجار ، أو بدعوى أنهم عمال ، أو بدعوى أنهم حرفيون ، ولكن مهمتهم الأصلية هي نشر دعوة الله ، وهؤلاء جعل الله الفتح على أيديهم .

ولو نظرنا إلى إحصاء الأمة الإسلامية في العالم الآن لوجدنا الذين دخلوا بواسطة هؤلاء في دين الله يمثل نسبة خمسة وسبعين في المائة ٧٥٪ ولبطلت دعوى الذين قالوا: إن الإسلام انتشر بالسيف .

الدعوة إلى الخير واجب كل مسلم حسب استطاعته ، إنما يجب أن تكون هذه الدعوة بالقُدوة والمثال ، بالأمانة والصدق ، فيدعو الإنسان بشخصه وخلقه وتعامله أكثر مما يدعو بلسانه ، أما الأمر بالمعروف ، كلمة الأمر كلمة النهي ، فهذا من اختصاص السلطة .

إن السلطة هي التي تملك أن تأمر وتملك أن تنهى ؛ لأن من مقتضيات الأمر التنفيذ ، وماذا لو لم ينفذ الناس ، فإن هناك عقاباً على الامتناع عن التنفيذ .

إن هناك ثواباً للمحسنين وعقاباً للمسيئين ، وهي عدالة الله سبحانه وتعالى يثيب الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويعاقب الله الذين كفروا وكذبوا بالآيات .

وعملنا بمنهج الله يقتضي أن نشيب المحسن ونعاقب المسيء .

فالذي يملك الأمر والنهي هو من بيده أو من ولاه الله أمر المسلمين ، أما الدعوة إلى الخير فهي نصيب وحظ مشترك بين جميع المؤمنين ، والله أعلم .

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ١١٤ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ [آل عمران : ١٠٤ ، ١٠٥] .

وهنا أيضاً ناحية لغوية ﴿جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الإمام القرطبي في تفسيره

«الجامع لأحكام القرآن» يقول: جاءهم على الجمع، وجاءتهم على الجماعة، يصح هذا، والقرآن الكريم لغته فوق كل لغة، وأسلوبه فوق كل أسلوب ولا يناقش.

﴿جَاءَهُمُ الْيَقِينُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] الذين تفرقوا، الذين اختلفوا بعدما جاءهم المنهج الجامع والمنهج الموحد، فتركوا الوحدة إلى الفرقة، وتركوا الائتلاف إلى الاختلاف، فهؤلاء لهم عذاب عظيم.

وهذا العذاب العظيم بقي هكذا عامًّا، يمكن أن يكون لهم عذاب عظيم حتى في حياتهم الدنيا، ويمكن أن يكون العذاب العظيم يخص بالآخرة، فالآية لم تفصل أن يكون هذا العذاب العظيم، ولكن إذا نظرنا إلى ما أتى بعد ذلك من توضيح علمنا بأن هذا العذاب العظيم ينتظرهم يوم القيامة؛ لأنه خص فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ من البشر ومن البشاشة، ومن السعادة بنعيم الله، الذي يتلقى به الذين رضي الله عنهم وأرضاهم، والذين تمسكوا بنهجه واعتصموا بحبله، وتجنبوا الفرقة، وقاموا على كتابه وسنة نبيه، فهؤلاء تطفح وجوههم بالبشر وتفيض نورًا لما يلقونه من الكرامة.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الذين تفرقوا واختلفوا وحادوا عن أمر الله، واتبعوا الشهوات وزاغوا عن الحق وابتغوها عوجًا، واستمعوا إلى الشياطين وأعرضوا عن ذكر الله بعد أن جاءهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكًا وَخَشْرَةً، يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٧٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿طه : ١٢٤-١٢٦﴾ .

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران : ١٠٦] لماذا لا يكتفي بتعذيبهم بأنهم يشعروا بأن يعذبوا ويجدوا أنفسهم في وضع من العذاب الأليم الذي يبعث فيهم الحسرة والكمد؟ بل يضاف إلى هذا العذاب تبكيتهم وتقريعهم ، فيقال لهم : ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَيُحَدِّثُونَ رَحْمَةً أَلَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٦، ١٠٧] .

والقرآن الكريم دائماً يذكرنا في جميع المناسبات بصدق الرسالة ، وأن هذا الذي نتلقاه في هذه الآيات ، وأن هذا الذي نستمع إليه من رسوله الكريم ﷺ هو وحي الله الصادق الأمين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ١٠٨] .

وختاماً الملك لله ، له الملك وله الحمد ، وله الكبرياء في السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ

اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ [آل عمران : ٨ ، ٩] ، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

* * *

المحاضرة الرابعة والستون بعد المائة

السلام دعوة الإسلام وشعار المؤمنين

انطلاقاً من الحديث النبوي الذي رواه البخاري وغيره : «أي الإسلام خير؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» .

دلالة الحديث النبوي الشريف الذي رويناه فيه أن رجلاً قيل إنه أبوذر الغفاري قد سأل رسول الله ﷺ قائلاً : «أي الإسلام خير؟» فكان جواب المصطفى عليه صلوات الله وسلامه : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وما نسعى إلى تبينه ، كما يسر الله لنا إدراكه ، هو أن جواب المصطفى ، متى أمعنا فيه النظر ، جواب يحتمل في حقيقته معان عدة ، من تلك المعاني ما يدرك بكيفية مباشرة ، فهو في متناول الفهم العام . ومنها ما هو أبعد من الإدراك المباشر وأعلى ، ففهمه يستوجب بذل الجهد وتقصي احتمالات القول العربي للحقيقة والمجاز .

ومن تلك المعاني -ثالثاً وأخيراً- ما هو أبعد غوراً وأكثر خفاءً فإدراكه يتطلب الارتقاء بالعقل إلى درجة من الفهم لا تكون لعامة الناس ، بل هي لا تتيسر في حقيقة الأمر إلا لأولئك الذين ترتقي بهم المسؤولية إلى درجات عليا من الفهم والإدراك ، ولا تتأتى إلا لمن كانوا من مراتب الوجود الاجتماعي في مواقع تحول لهم تبين ما لا يظهر لغيرهم .

وبالتالي فإن الخطاب النبوي خطاب واحد في لفظه وعبارته ولكنه متعدد في معناه ودلالته . وتفسير ذلك أن أصناف المخاطبين متعددة ومداركهم مختلفة ، لأمر يقدره الله تعالى ، مع التقائهم في الآدمية من جهة أولى ، وفي التكليف الشرعي من جهة ثانية .

بيد أن بسط القول في مستويات الإدراك الثلاثة التي نشير إليها يقتضي التمهيد . بمقدمات ثلاث نسوقها على وجه الإجمال والإيجاز فنقول :

المقدمة الأولى :

هي أن الحديث النبوي ، كما بلغنا ، حديث متفق عليه في نصه من رواية الحديث المقدمين عند أهل الاختصاص وهم البخاري ، ومسلم وابن حنبل . فقد رواه البخاري في كتابي الإيمان والاستئذان من «صحيحه» . ورواه مسلم في «صحيحه» ، بلفظه مع اختلاف في الإسناد ، وأخرجه ابن حنبل في مواطن عدة من مسنده ، وباختلاف في اللفظ وفي السند معاً أخرجه أصحاب السنن الثلاثة : ابن ماجه ، والنسائي ، وأبو داود .

أضف إلى ذلك أن هذا الحديث هو من أقوال الرسول الكريم التي يكثر تداولها ، في لفظها وفي معناها ، في محفوظاتنا الإسلامية ، فهو يدخل في مكونات ثقافتنا عامة ، ومن ثم نجد له الأثر القوي في سلوك المسلم .

وبالجملة فإن هذا الحديث الشريف من الأحاديث النبوية التي تشرع للمبادئ والكليات التي تحكم الوجود الاجتماعي للمسلمين فترسم له آفاق العمل والسلوك في دائرة الوجود الإنساني عامة .

المقدمة الثانية :

تتعلق بنعت الخير كما ورد في الحديث ، والنعت قد ورد ، كما نلاحظ ذلك نكرة «خير» ، وهذا أمر يستوجب التنبيه عليه . ذلك أن النكرة في قواعد النحو العربي ، تفيد الاستغراق كما يقول النحاة أو الشمول والإطلاق كما نقول في لغتنا المتداولة اليوم .

وقد يتضح ما نقصده إذا ما انتبهنا إلى أن سؤال السائل يرد في لفظ مختلف في إحدى روايات مسلم في «صحيحه» تقول الرواية : «قلت : يا رسول الله : أي الإسلام أفضل؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده» .

ولاشك أنه مسلم على درجة عالية من الصلاح ذاك الذي يسلم المسلمون من شر لسانه وبطش يده ، غير أن صيغة السؤال تنبها إلى حقيقة أخرى وهي أن السؤال عن الأفضل يقتضي وجود المفضل من جهة ووجود من هو أكثر فضلاً من جهة أخرى (أو يحتمل ذلك) .

أما نعت «خير» أي الإسلام خير؟ فإنه لا يقتضي المفاضلة ولا يفيدها بل يفيد حصول الحال المستقرة التي لا تحتمل التبدل . يريد السائل أن يعرف كيف يكون إسلام المرء في أعظم حال ممكنة وأحسنها إطلاقاً فيأتي جواب النبي الكريم ليفيد الشمول والإطلاق والتحرر من كل قيد «على من عرفت ومن لم تعرف» . وبالتالي فالجواب يشمل المسلم وغير المسلم ومن ثم فهو يدل على تكريم الشرع الإسلامي للإنسانية في الإنسان .

المقدمة الثالثة :

والتنبيه الأخير يتعلق بلفظة «السلام» في دلالة القول العربي . ذلك أن السلام كلمة تحتمل معانٍ عديدة ، مختلفة ومنفتحة معاً ، معانٍ تشترك في التسمية والنطق ، وتختلف في المسمى والإفادة . هي إذاً من الكلمات التي ينعتها المناطقة وعلماء الأصول بالأسماء المشتركة .

ونحن ، إذ نبحث ، نجد أن السلام نقيض الحرب ، والسلام الاستقرار ، والسلام التسليم بالإسلام وقبوله ديناً دون الارتقاء إلى منزلة الإيمان القوي ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات : ١٤] .

وللسلام في القرآن الكريم معان أخرى عديدة : فالسلام خطاب الله لأنبياؤه المرسلين ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات : ٧٩] ، ﴿وَسَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ، ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصفات : ١٢٠] ، ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات : ١٨١] .

والسلام خطاب المولى ﷺ لأصفيائه من الناس : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل : ٥٩] .

والسلام فعل يأمر الله تعالى المؤمنين من عباده بالالتزام به ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

والسلام ، فوق هذا وذاك ، اسم من أسماء الله الحسنی ، يتمجد به الحق سبحانه في الكتاب العزيز فنقرأ : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر : ٢٣] .

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري نقرأ أن رسول الله ﷺ قد نهى الرجل الذي كان يصلي خلفه حين سمعه يقول عقب الصلاة : «السلام على الله» فنبهه ﷺ قائلاً : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل : ٥٩] إلى آخر الحديث .

ولانتساع القول في أسماء الله الحسنی ، والسلام أحدها ، أفرد لها علماء الكلام مصنفات خاصة كما فعل فخر الدين الرازي ، والبيهقي ، وغيرهما .

ومن كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي نقتطف هذه الجملة في شرح معنى السلام حيث يقول : «إنه السالم من المعائب ، فهي غير جائزة على القديم ، فإن جوازها على المصنوعات لأنها أحداث وبدائع» انتهى قوله .

وإلى هذا المعنى تذهب جمهرة المفسرين في اجتهادات عجيبة وقفنا على البعض منها عند الزمخشري ، والقرطبي ، وسواهما .

مفهوم السلام :

ما نريد أن نخلص إليه من هذا التنبيه الثالث هو أن السلام في مرجعيتنا الأساس ، وهي الكتاب والسنة ، مفهوم غزير المعنى خصب الدلالة ، ولذلك كان له في الوجدان الإسلامي حضور قوي ، وكان ذلك الحضور مشبعًا بالحمولة القدسية ، تلتقطه الأذن العربية عند سماعه ، فتترجمه ترجمات تختلف باختلاف المدارك وتتفاوت بتفاوت الموقع من المسؤولية والمكانة في الوجود الاجتماعي .

نأتي وقد فرغنا من هذه المقدمات ، إلى محاولة استخلاص ما يبدو أن الخطاب النبوي يستدعيه من مستويات ثلاثة في الفهم ؛ مستويات يرتفع بعضها فوق البعض الآخر كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك .

المستوى الأول :

يستحق نعته بمستوى الإدراك المباشر والمعنى الظاهر الذي لا يكون في حاجة إلى تفسير أو تأويل ، فخطاب النبي الكريم خطاب عام مطلق فهو يقصد عموم المكلفين وليس له أن يكون مقصورًا على خاصتهم .

في «مسند ابن حنبل» نقرأ رواية يرد فيها جواب خير الوري للوسائل عن خير الإسلام جوابا مقترنا بأداة الشرط «أن» فيقول : «أن تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» فكأنه يقول للوسائل مجيبًا : إذا أردت أن تحوز صفة خير الإسلام فعليك أن تطعم الطعام . . . (إلى آخر الحديث) .

يدرك جواب خير الورى في سهولة ويسر تامين فيبلغ عقول الناس وقلوبهم ويغمر وجدانهم ويجد تأكيداً له ، وتأيداً من كلام رب العالمين في أكثر من آية من آيات القرآن العظيم . نقرأ في وصف العباد الصالحين ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [٨٩، ٩٠] .

وننظر في أحكام الكتاب العزيز فنجد إطعام الطعام ، بواسطة التصدق على الفقراء ، يأتي بديلاً عن الصوم على سبيل التخيير من أجل التكفير عن الذنب وطلب المغفرة من المولى ﷻ .

فالإطعام يكون من أجل التكفير عن الحنث في اليمين ﴿فَكَفَّرْتُهُوَ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة : ٨٩] .

والإطعام كفارة عن الإفطار المتعمد في رمضان : فصيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً .

والإطعام يكون وسيلة للتكفير عن الإخلال بأحد واجبات الحج ، دون أركانه - بطبيعة الأمر - ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة : ١٩٦] . والهدي ، وهو تقديم الذبيحة التي ينال الفقراء لحومها ، أو يوزع عليهم ما يقابل ثمنها ، كفارة يلتمس بها الحاج من الله تعالى أن يقبل منه ما أجاز له لنفسه من متعة بين العمرة والحج ، متى كان قد عقد النية على الإقرا ن بينها .

وأما السلام ، في معنى التحية ، فالأمر الإلهي فيه واضح وهو وجوب رد التحية بمثلها ، بل وبأحسن منها .

وأما تحية السلام عند أبواب البيوت فهي أمر من الله يستوجب الاستئذان من أصحاب البيوت قبل ولوجها ، كما يستوجب قبول المنع من دخولها متى رغب أصحابها عن ذلك .

إن قوله تعالى ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧] دليل قاطع على أن المساكن حرمت لا يجب انتهاكها إلا لعذر مثل كف مظلمة أو دفع أذى ، وبالتالي فإن الاستئذان طمأنة لعباد الله على أرواحهم وممتلكاتهم وضمان لأمنهم ، وتحقيق للسلام بالجملة .

وما أبلغ دلالة الحديث النبوي الذي أخرجه ابن حنبل في «مسنده» حيث يبلغنا قول رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه . «اعبدوا الرحمن ، وأفسوا السلام ، وأطعموا الطعام ، تدخلون الجنان» .

وكم هو جدير بالتأمل وغني في المضمون هذا الاقتران بين العبادة ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام .

وكفى بهذا الحديث دليلاً على تنبيه الإسلام أن السلام لا يتحقق إلا إذا كان أمناً شاملاً : أمناً في الأرواح ، وفي الأبدان ، وفي الأموال .

إن هذا الأمن في معناه الشامل الذي تتوق البشرية اليوم إلى تحقيقه وتجده فيه مطلباً ترتفع العقيرة بالنداء به في المنتديات والمجتمعات الدولية ليجد في الإسلام مبدأ عاماً وقاعدة كلية ترقى إلى الاقتران بدرجة العبادة .

المستوى الثاني

من مستويات إدراك الحديث النبوي ، موضوعنا ، فإنه يقتضي كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك ، الارتقاء إلى درجة في الفهم تعلو على درجة

الإدراك المباشر، وترتفع فوق الدلالة الحقيقية للفظ وتطلب المجاز والكناية، ذلك أن الإدراك الذي نتحدث عنه يستدعي البحث عن المعنى الخفي الذي يقوم خلف فعل الإطعام، والكشف عن السر الذي يكمن في قراءة السلام.

والجواب الذي يتبادر إلى ذهننا هو أن الإطعام فعل يستهدف تحريك الوعي بوجود الجماعة والانتباه إلى الفقير بوجود المعوز من أبنائها، ويستدعي روح التآلف والتضامن الاجتماعي. والشعور بوجود الجماعة. والحاجة إلى التضامن فيها أمران ضروريان للاجتماع البشري بهما يكون قيام المجتمع وبهما تتحقق سعادته، كما يقرر ذلك الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وكما تجتهد التشريعات والقوانين إلى إرساء الضوابط والقواعد التي تهدف إلى استقراره.

وأما قراءة السلام، وقد انتقلنا في إدراك معناها إلى هذا المستوى الثاني الذي نتحدث عنه، فهي تعني إشاعة السلام الذي هو الأمن، والابتعاد عن الفتنة حتى يحصل للناس الاطمئنان على أرواحهم وممتلكاتهم، يكون منهم الإقبال على الحياة وقد ولى شبح الحرب واندثرت صورة القلق والخوف.

ولا يفيد خطاب التحية في الإسلام (السلام عليكم) شيئاً آخر غير ذلك، فهذه التحية، بمفردها، تجعل المرء يستحضر عالماً من الإيحاءات والرموز: فهي إعلان للسلم، يطمئن به قائله الفرد أو الجماعة وقد ورد عليها في غير ترقب أو انتظار وهي التزام ضمني باستمرار العمل بالعهد والمواثيق، سواء كانت بين المتعاهدين عن حب وطوعية، أو المتعاقدين عن ضرورة وإكراه، وسواء كانت عهداً تتصل بالوجود السياسي أو الاقتصادي أو غيرهما.

ومن المعلوم أن احترام المواثيق والعهود سبب قوي من أسباب السلام، وعامل فاعل من عوامل استقراره؛ ذلك أن الطمأنينة في النفوس تتم بموجب ذلك الاحترام، والثقة والأمن يكونان بين الشعوب والأمم نتيجة لمراعاة تلك المواثيق والعهود.

ولعظم احترام العهود جعله الله تعالى في القرآن الكريم مفتتحاً لسورة من سور القرآن العظيم وهي سورة المائدة حين يقول تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] والعقود عند المفسرين هي العهود، والأمر الرباني تشريع لمبدأ من المبادئ السامية التي تحكم الوجود الإنساني الذي يبتغي سعادة الناس، وتشرع لأحد الكليات التي تقعد لأصول التعامل بين الأمم والشعوب، وترسي أسس العلاقات السليمة بين الدول، وبين المجموعات السياسية، والاقتصادية، والتجارية في العالم.

المستوى الثالث:

نخلص الآن إلى المستوى الثالث من مستويات إدراك الخطاب النبوي الشريف، وهو المستوى الذي نعتقد أنه الفهم الأعلى والمقصد الأبعد في قول نبينا الكريم. وما يسلمنا إليه اجتهادنا هو أن هذا الفهم -بعد حصوله- تنتج عنه واجبات تلزم فئات مخصوصة من المسلمين نتائج تلزم، من جهة أولى، كل الموجودين في مقام المسؤولية في إدارة الشأن العام، وبديهي أن الالتزام في هذا المجال يكبر بكبر المسؤولية ويعظم باتساع مداها.

كما أن هذه النتائج تلزم من جهة ثانية، كل الذين يمسكون بأعنة الاقتصاد وإدارة الأموال من أرباب الشركات والمقاولات العظمى، ثم من كانوا دونهم في مجال تصريف الثروات وإنتاجها.

وهي ثالثًا وأخيرًا، نتائج تلزم كل المساهمين في تفعيل المجتمع المدني وذلك بما لديهم من وسائل الاتصال بالجماعات، والقدرة على تحريك أنشطتها والانخراط الفاعل في فعالياته العديدة والمتنوعة.

وما نقدر أن اجتهاد النظر ينتهي إليه في هذا الشأن هو أن مسائل ثلاث تشغل من هموم الإنسان المعاصر مساحة شاسعة من العقل والوجدان، وتحتل من الوجود السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي معًا مكان الصدارة.

الكرامة الإنسانية:

المسألة الأولى:

تتصل بالكرامة الإنسانية ومما يحفظها على الإنسان. ومتى تعلق الأمر بالإطعام وتحصيل لقمة العيش فإن أشرف وسيلة هي -ولاشك في ذلك- بذل الجهد والاشتغال في مقابل المال الذي به يكون الإنفاق على النفس وعلى الأسرة.

ومن البديهي أن الشغل، من أجل تحصيل الطعام، لا يكون شرطًا ملزمًا إلا بالنسبة للفرد المعافى في عقله وبدنه القادر على العمل وبذل الجهد. وأما العاجز عن ذلك بحكم المرض أو التقدم في السن، أو الإعاقة التي تمنع من الحركة، فإن التمكين من الطعام وتوفير ما يتصل به من أسباب العيش الكريم يغدو مسئولية ترجع إلى الأمة جمعاء، وواجبًا يلزم المجتمع برمته.

والمصطفى صلوات الله وسلامه عليه كان يرغب في العمل، ويحض على الاشتغال وترك البطالة، ويمتدح المهن والمتكسبين بها، ويعظم من شأن التجارة والمشتغلين بها متى تحلوا بأخلاق الصدق والأمانة.

كما لسنا في حاجة إلى التذكير بأنه كان ينهى عن التكفف وسؤال الناس مع القدرة على الشغل ، مثلما ينهى عن الانقطاع للعبادة والغلو فيها إهمالاً للأسرة والأولاد ، واعتماداً على الغير في الرعاية والإطعام .

وعلى كل فليس من الأخلاق الحميدة في شيء أن يتوانى القادر على الشغل عن بذل الجهد والتكسب بالمتاح من العمل الحلال ، وليس من المروءة في شيء أن يعزف المرء عن القيام بعمل يتوهم فيه خطأ من قدره ونزولاً عن قدراته الذهنية وكفاءاته العلمية ، مستسلماً للفراغ ومترقباً لفرصة يظن أنها آتية . فما أبعد حال هذا الإنسان عن الامتثال للأمرين الإلهي والنبوي معاً ، وما أشد ابتعاده عن حقيقة الدين الإسلامي .

وما أكل ابن آدم طعاماً ألد من نتاج يده ، وما أسعد الإنسان الذي يمتلك القدرة على إسعاد غيره بتمكينه من العمل ، ففعله يحمل على تبديد الخوف ، وإشاعة الأمن والسلام ، وهو يرد على النفس الأمل ويحييها . ومن أحيأ نفساً واحدة فكأنها أحيأ الناس جميعاً . فالإنسانية في الإنسان واحدة لا تتجزأ .

تحصيل المعارف وامتلاك العلم النافع :

وأما المسألة الثانية :

تتعلق بتحصيل المعارف الضرورية وامتلاك العلم النافع ، وسيلها الشغل ، وطريقها الكرامة الإنسانية ، ووسيلتها الامتثال للأمر الشرعي بالإطعام والسعي من أجل السلام ، ولا يخفى أن الأمية والعجز عن القراءة والكتابة تعتبر ، في عالم اليوم ، شكلاً من أشكال الإعاقة ؛ إعاقة الفرد عن الحركة والإقبال على الحياة ، وإعاقة المجتمع عن التنمية والتطور .

إعلان الحرب على الأمية :

وإذا فإعلان الحرب على الأمية يكون بهذا المعنى أول شروط الاستجابة للأمر النبوي الكريم بإطعام الطعام وذلك بالإعداد الأولي للناس عن طريق إبعاد ظلمات الجهل من طريقهم ، وتمكينهم من سلوك طريق النور الذي مفتاحه القدرة على فك رموز الكتابة والقراءة ، والقدرة على ترجمة ما في الأوراق إلى معلومات ومعارف .

والحق أننا لو أنصفنا لقلنا إن هذا العمل ، وإن كان من مسئولية الدولة ، إلا أنها لا تستطيع أن تنهض به بمفردها ، إذ لابد في ذلك من إسهام جماعي يشارك فيه الفاعلون الاقتصاديون من جانب ، ويساهم فيه المجتمع المدني من جانب آخر ، كل الجهتين حسب قدراتها وإمكاناتها ولكل منهما فائدة أكيدة تجنيها .

فهل يجادل عاقل في قولنا إن مردودية العامل الذي يعرف مبادئ القراءة والكتابة أكثر وأجود من تلك التي تكون في المعمل أو المقولة للعامل الذي يجهل تلك المبادئ؟ إن هذه النتيجة ، وهذه المقارنة ، تؤيدهما دراسات ميدانية وتؤكدتهما أقوال وحجج من أصحاب المعامل وأرباب المقاولات .

هذا فضلاً عما يصاحب الشعور برفع الأمية من ارتياح واستبشار .

وأما الجمعيات ومؤسسات التضامن غيرهما من التنظيمات ، فإن أدوارها في تحقيق الانتصار العظيم في معركة محاربة الأمية أدوار معلومة ، والنتائج المحصلة من العمل الجماعي في هذا الصدد لا تحتاج إلى دليل أو برهان .

إذا تحقق شرط رفع الأمية عن المجتمع على النحو الذي نقول ، وكان العمل الجماعي الذي يقوم على تضافر الجهود والشعار والموجه في ذلك العمل ، أمكننا القول مع علماء أصول الفقه ، بأننا قد حققنا الشرط الضروري ، ويكون علينا أن نسعى لتحقيق الشرط الحاجي .

والشرط الحاجي في قضيتنا هو التمكين ، تمكين أطفالنا وصغارنا في سن التنشئة من التعليم الأساسي حيث يتم تحصيل المعارف الأساسية ، ويكون الإعداد لمراحل الدراسة المتوسطة والعليا ، والتي تتفاوت المدارك في القدرة على متابعتها والاستفادة منها ، يملك البعض ذلك فهو ينطلق ليصل إلى أعلى الرتب وينال أعلى الشهادات ، ولا تسعف البعض الآخر في ذلك قدراته وملكاته الذهنية فهو يجد أمامه أنواعاً من التكوين القصير أو متوسط المدى ، وفي كل خير ، وفي كل إعداد للحياة العملية ، وتمكين من القدرة على تأمين لقمة العيش مع الكرامة ، وذلك بالاشتغال بالمهن والحرف التي يعود نفعها على صاحبها وعلى الجماعة فتكون من أسباب توفير الأمن وإقرار السلام .

رفع الأمية شرط ضروري ، وإقرار التعليم الأساسي شرط حاجي كما ذكرنا . والمناطق يرون أن الشرط التحسيني ، أو شرط الكمال ، الذي يكون به تمام الوظيفة وكما لها ، يعني تحقيقها على أفضل الوجوه الممكنة .

وفي القضية التي نحن بصددھا فإن التوجيه نحو التعليم العالي وتسهيل السبل في سلوكه هو الوسيلة في إمداد الأمة بما هي في حاجة إليه من الأطباء والمهندسين والأساتذة ورجال القانون ، والعلماء المتخصصين في العديد من الميادين ، وبالتالي كل ما يتصل بتأمين الحياة الكريمة ، وهو ما

يوفر للدولة ما تكون في حاجة إليه من كفاءات في كل المجالات التي هي تحت نظرها، وهو ما يمكن الفاعلين الاقتصاديين وأرباب الثروات وأصحاب رؤوس الأموال من الأطر الضرورية والنافعة في تسيير شئون المال والتجارة والصناعة.

إن التوجيه نحو هذا التعليم ورعايته، مع السهر على جعله تعليمًا عاليًا يجمع من جهة أولى شرط الجودة وتلقين المعارف الواجب توفيرها من أجل الارتقاء إلى المستوى العالمي المطلوب في مختلف الاختصاصات، وبين القدرة على الإعداد والتأهيل للحياة العملية والقدرة على الإفادة في عالم المال والاقتصاد وفي القطاعات الأخرى وهذا من جهة أخرى.

إن هذه الأمور كلها باجتماعها يتحقق التعليم النافع المأمول، وما يقول عن المناطق إنه شرط الكمال في معنى كمال الوظيفة وتمامها، وليس الكمال مطلقًا فذاك لا يكون إلا لله تعالى.

وغني عن البيان أن المسؤولية في استحداث الأصناف المتنوعة من أشكال التعليم العالي، وكذا رعايته والسهر على تطويره والعمل على تمويله مسؤولية عامة تشمل في حدود القدرة والاستطاعة كل المستفيدين منه.

المسألة الثالثة :

فهي عندنا تطبيق فعلي وترجمة عملية على أرض الواقع لما تقدم، فنحن نرى أن عبارة واحدة تشملها وتفي بالقصد في التعبير عنها على سبيل الإيجاز والاختصار. إنها لفظ «الاستثمار»، الاستثمار وقد تم إدراكه في معناه الشامل ودلالته الكاملة. وشمول المعنى واتساع الدلالة، يجعل الاستثمار يفيد من

جهة أولى ، التوظيف العملي للعلم في الحياة العملية ، ويعني من جهة ثانية استثمار الثروات ورءوس الأموال وتوظيفها من أجل استحداث فرص الشغل وتنويعها ، وبالتالي الإسهام الفعلي في تطوير الاقتصاد في البلاد .

فكلا الاستثمارين ، وقد تم فهم الدلالة الصحيحة لكل منهما ، وقد نظر إلى كل منهما في الأبعاد الكاملة والعميقة التي يفيدها كل منهما ، كلاهما يكونان من الواجبات الملزمة للفئات التي تحدثنا عنها ، وكلاهما شكلان من أشكال الاستجابة للخطاب النبوي الكريم والامثال لأمره في العمل على التمكين من تحصيل التغذية وما يتصل بها ، والإسهام في إرساء أسباب الأمن والسلام ، فضلاً عما يخولانه من عظيم الثواب .

وليس لعاقل أن يظن أن المجتمع المدني بما يتوافر عليه من مؤسسات وتنظيمات ، وبما يحققه من أشكال التضامن الجماعي ، بل وبما يكون له به نصب في تفعيل الحياة الاقتصادية بواسطة ما يرقاه من مشاريع تستجلب الثروات الصغيرة وتنميها . ليس له أن يظن أن هذا المجتمع يكون خارج دائرة الاستثمار ، فالتوظيف النافع للعلم والمال والجهد كلها ثروات وخيرات .

كل هذه المسائل الثلاث قضايا يفيد الالتزام بها في الفهم الأسمى لخطاب خير الوري الامثال الحق للأمر النبوي في تحقيق الأمن الغذائي ، والأمن الاجتماعي ، والأمن الروحي ، وبالتالي تحقيق السلام وإرساء الوجود الاجتماعي على قواعده السليمة .

على أن كمال الفهم الأسمى للسلام كما يقصده خطاب النبي الكريم ويريده رب العالمين ، فهم يؤول في نهاية التحليل إلى القول بأن السلام لا

يكون عامًّا وشاملاً إلا متى كان مزاجية بين العمل في الصعيد الوطني على إحقاق الأمن الغذائي، والأمن الروحي، وتأمين الوحدة الترابية، وبين العمل في المجال الأرحب للوجود البشري، وكان حركة دائبة، واجتهادًا متصلًا من أجل الإسهام في إخماد الفتن وإبعاد شبح الحروب في العالم، وعملاً من أجل احترام المواثيق والعهود الممضاة بين الدول والشعوب .

كل هذه مسئوليات جسام، وأعمال ثقال، وأمانة لا يطيقها إلا من هياهم الله لها، ويسر لهم السبل إليها .

المحاضرة الخامسة والستون بعد المائة

الغرس والزرع في الإسلام

روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

«كتاب المزارعة» : كتاب : مصدر كتب يكتب كتابًا وكتابة ، والكتاب بمعنى الضم والجمع ، ثم إن الكتاب الذي يلاحظ فيه الضم والجمع يطلق عليه اسم الكتاب حقيقةً ، ومنه الكتيبة للقطعة من الجيش ، فالمجموعة من الجيش يقال لها كتيبة .

وإطلاق الكتاب على المسائل والفصول والأبواب والأمور التي لها اتصال بعضها ببعض يطلق عليها اسم الكتاب حقيقة ، أما إطلاق الكتاب على المعاني والمدلولات التي تُستفاد من الكتاب فهو إطلاق مجازي من باب إطلاق الدال وإرادة المدلول .

«كتاب المزارعة» : المزارعة : هي مفاعلة ، معلومٌ أن فاعل مصدره الفاعل والمفاعلة ، عملاً بقول صاحب «الخلاصة»^(١) :

لِفَاعِلِ الْفِعَالِ وَالْمَفَاعِلِ وَغَيْرُ مَا مَرَّ السَّمْعُ عَادِلُهُ

معنى المزارعة :

والمزارعة تطلق بإزاء معنيين اثنين : تطلق المزارعة على إعطاء الأرض لمن يعمل فيها بجزء مما تُثبته ، وتطلق المزارعة على الشركة في الحرث . وإطلاقها

(1) بيت من منظومة «ألفية ابن مالك» الشهيرة في النحو : باب أبنية المصادر .

على المعنى الأول ، بمعنى : إعطاؤها لمن يعمل فيها بجزء مما تنبته . هذا النوع وقع فيه خلاف كثير بين الأئمة ، هناك من يمنع إعطاء الأرض بجزء مما تنبته ويمنع كذلك كراءها بالدراهم ، ويستند على حديث رافع بن خديج ، وهو أنه روى عن الرسول ﷺ النهي عن المزارعة .

وهناك قول ثان يرى جواز إعطائها بالدراهم خاصة . . .

القول الثالث يقول بأنه يجوز كراؤها بالدراهم وإعطاؤها بالطعام إذا كان من غير ما تُنبته .

والقول الأخير - وهو الراجح - أنه يجوز إعطاؤها لمن يعمل فيها بجزء منه ، وهذا القول الأخير له ما يشهد له من حديث الرسول ﷺ فقد روى البخاري عن سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما فتح خيبر أعطى يهود خيبر أرض خيبر ونخلها . صلحاً أو عنوة؟ فتحت عنوة وهو الصواب ، وإن لم تكن فتحت كلها فقد فتح جُلُّها ، ولذلك فما يأخذه الرسول عليه الصلاة والسلام من يهود خيبر هل هو باسم الجزية أو باسم أنه يملك الأرض ويدفعها لمن يعطيه جزءاً منها؟

الصواب أنه باسم أنه يملك الأرض ، ومملكه للأرض يُحوّل له أن يدفعها لمن يعمل فيها بجزء منها ، وقد دفعها بالشطر رضي الله عنه .

والقول بأنها فتحت صلحاً لا عنوة ، هذا يتناقض مع ما ثبت لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أفضت إليه الخلافة أجلاهم عن خيبر ، ولو كانت الأرض مملوكة لهم لما أجلاهم عنها فهي ملك للمسلمين . هذا هو المعنى الأول الذي شرحنا به المزارعة .

نعم هذه المزارعة بهذا المعنى هناك من الأئمة من خالف فيها ، ويقول بأنه لا يجوز إعطاؤها بجزء مما تنبتة نظراً للجهل الموجود فيها لأنه كأنها إجارة بعوض غير معلوم (مجهول) ، ومعلوم مقرّر أن الإجارة هي كالبيع .

يقول «مختصر خليل» رَحِمَهُ اللهُ : (صَحَّتْ الإِجَارَةُ بِعَاقِدٍ وَأَجَرَ كَالْبَيْعِ) ، وقد أحال على البيع ، والبيع قد ذكر فيه «مختصر خليل» في صدره : (وَشُرْطٌ لِلْمَعْقُودِ عَلَيْهِ طَهَارَةٌ وَانْتِفَاعٌ بِهِ وَقُدْرَةٌ عَلَى تَسْلِيمِهِ وَكَوْنُهُ مَعْلُومًا) .

والعوض في الجزء أو الشطر أو الثلث أو الربع هو في الواقع ليس بمعلوم ، وإن كان معلوماً اسماً ، ولكن كَمَّةً ومقداره هل هو معروف أو مجهول؟ مجهول ، لكن رغم ذلك فهذا من الأشياء التي خالف فيها أهل الأندلس مذهب مالك وهو ما أشار إليه بعضهم بقوله :

قد خولف المذهب في الأندلس في ستة منهن سَهْمُ الْفَرَسِ

وغرسُ الأشجار لدَى المساجِدِ والأخذُ باليمين قُلْ والشَّاهِدُ^(١)

وله الأجر بما تُنْبِتُهُ ، خالف أهل الأندلس مالكا وأباحوا إعطاء الأرض بما تُنْبِتُهُ وتُخْرِجُهُ من سدس أو شَطْر أو رُبْع . والحقيقة أن هذا شيء تماهياً عليه

(1) هذان البيتان يتعلقان بالخلاف في بعض الأحكام والفروع الفقهية من جملة من ذكرها الشيخ محمد ميارة في شرحه الكبير على منظومة الفقيه الجليل أبي محمد عبد الواحد بن عاشر في مبادئ التوحيد وأحكام الطهارة وأركان الإسلام الخمس ، وجاء ذكر البيتين عند الكلام على سنة الأذان للجماعة وما يتعلق به من فروع ، فيمكن الرجوع إليهما في الشرح المذكور أو في غيره من كتب الفقه .

الصحابة ، فقد روى البخاري هنا أن عبد الله بن عمرو ، وأن سعد بن مالك وأن عبد الله بن مسعود وأن آل أبي بكر وأن آل عمر وأن علي كلهم كانوا يزرعون ويعطون الأرض بالثلث وبالربع وبالشطر ، قال : وما في المدينة أهل بيت هجرة إلا ويزرعون على الشطر وعلى الثلث وعلى الربع . هذا معنى قول الإمام البخاري : «كتاب المزارعة» .

بقي المعنى الثاني للمزارعة ، وهو الشركة في الحرث ، والشركة في الحرث قد نص الفقهاء على أنه لا بد من أن تتوفر فيها شروط .

والصورة الصحيحة للشركة في الحرث أن يكون كل من الشريكين أسهم بنصيبه فيما يرجع للبذر وفيما يرجع للأرض وفيما يرجع للعمل وفيما يرجع للآلة ، فإن تساوى الشريكان في هذه الأمور كلها فتكون شركة الحرث صحيحة .

مسألة الخماس :

وهنا تُثار مسألة الخُمَّاس هل هي من قبيل الشركة أو من قبيل الإجارة؟ هناك من يقول : إنها من قبيل الشركة في الحرث ، ولكن يشوش عليها كون الخماس لا حَظَّ له من التَّبن وإنما يأخذ الحبَّ خاصة ، ولو كان شريكاً حقيقة لأخذ الحبَّ وأخذ التبن ، فحيث لم يأخذ التبن وإنما أخذ الحبَّ فليس بشريك .

والواقع أنها إجارة ولكن الإجارة لا تخلو من شيئين : لكن لما تمَّالاً الناس عليها وعمَّت بها البلوى صار الناس يتعاملون بها ويأخذون التبن ويعطونه الدواب ، ويُعطونه البذر والأرض ويكلفونه ، وما يفِيء الله به يكون له فيه الخمس ، هذا شيء تمَّالاً الناس عليه .

هذا معنى قول الإمام رحمه الله : «كتاب المزارعة» .

ثم قال رحمه الله علينا ورحمة الله عليه وعلى سائر المسلمين : «باب فضل الغرس والزرع إذا أكل منه» .

الباب في اللغة هي مُعَدَّة للمدخل ، وإطلاقها على غير المدخل هو من قبيل المجاز .

الفضل في اللغة هو الزيادة .

الغرس والزرع مصدران ، ولكن من قبيل إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول المغروس والمزروع على حد قوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ١١] أي مخلوق الله .

«باب فضل الغرس والزرع إذا أكل منه» : إذا أكل ليس ذلك قاصراً على خصوص ما يُطْعَم ويؤكل ، بل المراد إذا انتفع بذلك ، لأنه سيأتي إن شاء الله عندما نتحدث عن الحديث ، سنذكر أن أوجه الانتفاع كثيرة ، منها الأكل ومنها الاستغلال وقت الحر بالنسبة للإنسان ، وبالنسبة للحيوان ، ومنها المحافظة على التربة مخافة أن يحصل فيها انجراف ، فهذا كله من قبيل ما يصدق عليه الأكل .

وهذا التعبير بالأكل كثيراً ما نجده في كتاب الله ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء : ١٠] ليس المراد خصوص الطعام والشراب ، يأكلون يستهلكون ويبدرون ويضيعون .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة : ١٨٨] أي لا تتصرفوا فيها بأنواع التصرفات غير الجائزة .

باب فضل الغرس والزرع إذا أكل منه

ثم قال الإمام البخاري رحمه الله علينا وعليه : وقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] . هذه الآية مذكورة في سورة الواقعة ، ومعلوم أن سورة الواقعة هي مكية ، ولا يخفى أن المكي هو ما نزل من القرآن قبل الهجرة ، وزيادة على كونه ما نزل قبل الهجرة ، المكي هو الذي يطبع بطابع العناية بالعقيدة ، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والاعتراف بأن هناك يوماً آخر إلى الاعتراف بالسمعيات كلها ، من بينها البعث والحشر والنشر والصراط والميزان والحوض والجنة والنار .

هذه الآية سبقت لأجل إقامة الحجة على منكري البعث : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ، يعني أن الأرض بعد شقها ووضع البذر فيها بقي البذر هناك ، الذي أحياه وأخرجه وأنبته وصيره سنبلًا فيه حبُّ هو الله سبحانه وتعالى ، كذلك كنتم أحياء فحصل موتكم فهو قادر على أن يحييكم مرة أخرى ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] .

لكن هذا الجانب ليس مقصوداً عند البخاري رحمه الله ، لم يسق هذه الآية لأجل الاستدلال على إباحة الغرس والزرع ، وبيان ذلك هو أن قول الله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا ﴾ [الواقعة: ٦٥] .

يعني : هذه نعمة أنعمنا بها عليكم ولنا القدرة الكاملة على أن نصير ذلك الزرع هشيمًا تذروه الرياح ، ولا يُتَنَفَّع به لا في مطعم ولا في غذاء ، والامتنان بالشيء فرعٌ حليته وإباحته أم لا؟

لاشك أنه فرع حليته وإباحته ، فهو سبحانه وتعالى امتنَّ علينا بهذه النعمة التي هي إخراج الحب من الأرض ، وصيرورة ذلك سنبلاً فيه الحب ، فهذا الامتنان هو فرع جواز ذلك ؛ لأنه لا يمتن بالشيء الذي لا يحل ، إنما يقع الامتنان بالشيء الذي أباحه الله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١) **أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** .

قال المفسرون : إن هذه الآية يمكن أن يؤخذ منها أن من الأدب أن لا يقول الفلاح : زرعت ، وإنما يقول : حرثت وبذرت ، لأن الزارع في الحقيقة هو الله ، ولكن هذا على جهة الأدب خاصة ، وإلا فالحديث نفسه الذي سنقرؤه ، فيه قول الرسول : «أو يزرع زرعاً» ، فنسب الرسول ﷺ الزرع للإنسان أو لم ينسبه إليه؟ وقد ورد في حديث رواه أبو هريرة : «لا يقل أحدكم : زرعت وليقل حرثت فإن الزارع هو الله» (١) .

ونظير هذا قول الرسول ﷺ : «لا يقل أحدكم : عبدي وأمتي ، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي وجاريتي» (٢) . هذا النهي لا في هذا الحديث الذي ذكرناه أخيراً ولا في الحديث السابق إنما هو نهي أدب ، فينبغي للإنسان أن يتأدب مع الله تعالى ، وإلا فقد نسب الله تعالى الزرع للإنسان ، هذا معنى قوله : وقول الله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ **أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** .

وهنا نقف وقفه نجيل النظر في الباب ، ونحاول أن نربط بينها وبين الحديث ، فنجد أن الإمام البخاري رحمه الله علينا وعليه ، دائماً وأبداً يذكر

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٢٣) ، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٨ / ٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فقهه في تراجمه: «باب فصل الغرس والزرع إذا أكل منه»، ثم أتى بالحديث الذي هو صالح للاحتجاج على ما ذكره في الترجمة، وهذا شيء موجود عنده بكثرة، في كتاب العلم عنده رحمته الله، قال: «كتاب العلم»، وذكر أبواباً، من بينها: باب قول الرسول ﷺ: «اللهم علمه الكتاب»، ثم ساق حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صَمَّنِي رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب» إذا فالترجمة مطابقة للحديث الذي يسوقه، وكذلك فيما يرجع لكتاب الجهاد، قال: «كتاب الجهاد»، وذكر عدة أبواب: من الأبواب التي ذكرها: «باب الغدوة والرَّوْحَة في سبيل الله» ثم أخرج حديثاً فيه: «لَغْدُوَّةٌ أَوْ رَوْحَةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

كذلك ذكر باباً في كتاب الجهاد قال فيه: «باب من جَهَّزَ غَازِيَا في سبيل الله فقد غزا»، ثم ساق حديثاً مروياً عن الرسول ﷺ وفيه: «من جَهَّزَ غَازِيَا في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَفَ غَازِيَا في سبيل الله بخير فقد غزا».

كذلك ذكر في باب الجهاد باباً قال فيه: «باب رباط يوم في سبيل الله»، ثم ساق حديثاً فيه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

وإذا انتقلنا إلى «كتاب الأحكام» فسنجده فعل مثل ما فعله في كتاب العلم وفي كتاب الجهاد، ذكر كتاب الأحكام وذكر أبواباً متعددة، من الأبواب باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ثم ساق حديثاً عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني».

كذلك نجد في كتاب الوصايا ذكر عدة أبواب، من بينها: باب، ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، ثم أخرج حديثاً وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»، والشاهد في قوله: «وأكل مال اليتيم».

إذاً فالحديث هو صالح، وبعبارة له ارتباط دقيق، لأن الإمام رحمه الله كانت له خبرة وإطلاع واسع يحاول أن يناسب بين الترجمة والحديث بأدنى شيء لا يجيده مطلق الناس، كذلك نجد في كتاب النكاح أنه قال: «باب قيام المرأة على الرجال وخدمتهم بالنفس»، وساق حديثاً فيه: «أن أبا أسيد لما عَزَسَ دعا الرسول ﷺ وأصحابه، وأن أبا أسيد لم يصنع طعاماً، إلا أن امرأته، واسمها سلامة بنت وهب، عَمَدَت إلى تمرات فَبَلَّثَهَا في طور من حجارة بليل، ولما فرغ الرسول ﷺ من الطعام ناولته ذلك تُثَحِّفُهُ به».

قال الإمام الحافظ ابن حجر: ففي الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تخدم ضيوفها ليلة البناء بها ولكن على أساس الحُشْمَةِ والوقار والحياء ولباس ما هو صالح ولائق بالمسلمة.

إذاً فهذه التراجم التي يذكرها البخاري سواء في كتاب العلم أو في كتاب الأحكام أو في كتاب الوصايا أو في كتاب النكاح، كلها لها ارتباط بالأحاديث التي يذكرها داخل الترجمة.

فضل الغرس والزرع، وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ٦٣-٦٥.
تَزْرَعُونَهُ أَمْ حَنِ الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴿٦٥﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥].

﴿لَوْ﴾ إذا دخلت على المضارع فإنها تَقْلِبُهُ ، ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ أي لو شئنا ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ هشيماً تَذْرُوهُ الرياح لا يحصل به انتفاع لا في طعام ولا في غيره فهذا ما يتعلق بالقسم الأول .

سند الحديث :

قتيبة بن سعيد :

قال الإمام البخاري : حدثنا قتيبة بن سعيد ، قتيبة بن سعيد هو أحد شيوخ البخاري . البخاري له شيوخ ، منهم ما يُعَدُّون في الطبقة الأولى ، ومنهم ما يعدون في الطبقة الثانية ، ومنهم ما يعدون في الطبقة الثالثة ، السيد الجليل رَحِمَهُ اللهُ قتيبة بن سعيد الثقفي هذا من الطبقة الثالثة ، هو وسليمان بن حرث وعلي بن المديني وغيرهم ممن لم يأخذوا عن التابعين ، وإنما أخذوا عن كبار تابعي التابعين . قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي ، كان مولى للحجاج بن يوسف الثقفي .

أبو عوانة :

حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا أبو عوانة ، أبو عوانة هو الوضاح بن عبد الله الشكري البصري . قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» : إن الرجل كان له كتاب في الحديث في غاية الإتقان فهو كان محدثاً ، وله كتاب في غاية الإتقان في الحديث وهو بَصْرِي ، ومعنى كونه بصرياً أعني من أولئك الذين اتصلوا بالصحابة والتابعين لأن البصرة كان يحج إليها كبار الصحابة ودخلها جماعة منهم ، منهم أنس بن مالك ، ومنهم عبد الله بن

عباس ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، ومنهم كذلك معقل بن يسار وغيرهم من الصحابة . ولا شك أنهم قد أخذوا العلم عن هؤلاء الصحابة ، وفي مقدمة من أخذ العلم عن الصحابة الحسن البصري ، فقد قالوا : إنه أدرك ما يقرب من خمسمائة صحابي ، فالبصرة كانت مدرسة الحديث ، تخرج فيها أبو عوانة الوضاح بن عبد الله الشكري .

عبد الرحمن بن المبارك :

حدثنا أبو عوانة ، ثم قال البخاري : وحدثني عبد الرحمن بن المبارك ، إذا ما تأملنا نجد أن البخاري روى هذا الحديث عن شيخين اثنين : الشيخ الأول هو قتيبة بن سعيد ، والشيخ الثاني هو عبد الرحمن بن المبارك .

وقد استغرب الحافظ ابن حجر من ذكره لهذا الشيخ الثاني ، لأنه إذا ما تأملت فسوف تجد أنه لا خلاف في السياق ففيما يرجع لرواية قتيبة وفيما يرجع لرواية عبد الرحمن بن المبارك ، قال الحافظ ابن حجر : كل منهما روى عن أبي عوانة ، وليس هناك اختلاف في لفظ أو كلمة كلاهما روى : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا . . . » .

قال الحافظ ابن حجر : ولعل ذلك يرجع لكونه لم يسمع منهما دفعة واحدة ، سمع من قتيبة بن سعيد على انفراد ، وسمع من عبد الرحمن بن المبارك على انفراد .

عبد الرحمن بن المبارك يقال له عبد الرحمن بن المبارك العيشي من بني عائش ، وهو بصري كذلك من مُحدّثي البصرة . حدثني عبد الرحمن بن المبارك حدثنا أبو عوانة وقد ذكرنا ترجمتهم .

قتادة بن دعامة :

ثم قال : عن قتادة : قتادة هذا هو قتادة بن دعامة السدوسي من كبار التابعين ، شخصية بارزة وحافظ ، وله مركز قوي فيما يرجع لنشر الحديث ، ومن العلماء المجتهدين ، وكثيراً ما يقول بعض المفسرين : وذهب قتادة فكأن له مذهباً يخصه .

أنس بن مالك :

عن أنس بن مالك . أنس هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري النجاري ، خادم رسول الله ﷺ ، أتت به أمه أم سُلَيْم إلى رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله : إن ابني هذا أريد أن يخدمك فدعا له عليه الصلاة والسلام وقال : «اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة» ، قال أنس بن مالك يحدث عن نفسه : خدمته ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته : لِمَ فعلته؟ ولا لشيء تركته : لِمَ تركته؟

أنس بن مالك هو من الكثيرين للحديث عن الرسول ﷺ ويحق له أن يكثر الحديث لأنه خادم الرسول ، وكلما نطق الرسول بكلمة أو بجوهره أو ياقوته إلا ويلتقطها منه ، فهو في معرض أن يكثر الحديث .

ولكن الأكثر منه تحديداً هو عبدالرحمن بن صخر الدوسي أبوهريرة ، لأنه كان ملازماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قيل له : أكثرت علينا من الحديث فقال يدافع عن نفسه لأنهم رموه بما لا يليق : إن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّخَب في الأسواق أي البيع والشراء ، وإن أباهريرة كان يلازم الرسول ﷺ على ملء بطنه يحفظ ما لا تحفظون ويستظهر ما لا تستظهرون ،

ثم يقول بعد ذلك : ولولا آيتان من كتاب الله ﷻ ما حدثت ، ويتلو قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] .

هؤلاء : أبو هريرة وأنس بن مالك وجابر وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عباس ، وأبو سعيد الخدري ، وعائشة رضي الله عنها المجموع سبعة : وقد يسر الله فنظمهم عبيد ربه في أبيات قال فيها :

المكثرون للحديث عدة أبو هريرة كذاك عائشة
وابن عباس ابن عم ، جابر وأنس ، أبو سعيد يُذكر
وعُدَّ فيهم كذاك ابن عمر أما ابن مسعود فقليل : قد أكثر
وليس ذا شعرا ولكن نظم فاجن ثمار الجمع فهو العلم

هذا ما فتح الله به علينا فجمعنا هذه الأسماء في هذه الأبيات . المقصود أن هؤلاء هم المكثرون للحديث عن الرسول ﷺ . عن أنس بن مالك . وهنا انتهى الكلام على القسم الثاني . الآن نحن بصدد الحديث عن القسم الثالث .

معنى الحديث :

نتناول فيه معنى الحديث ، ولكن بعد أن نُلمَّ إمامة قريبة فيما يرجع لبعض المفردات المذكورة فيه .

قال رضي الله عنه : « ما من مسلم يغرس غرسًا ، « ما » نافية ، و « من » عاملة في « مسلم » ، و « مسلم » نكرة ، وقد سبقه النفي .

وقوله : «يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا» ، جملة في محل جر ، نعت لمسلم ، عملاً بقول صاحب «الجمَل» :

وإن وردت من بعد محض مُعْرِفٍ فإعرابها حال لما قبل قد خلا

وإن وردت من بعد محض مُنْكَرٍ فإعرابها نعتٌ لِمَا قَبْلُ قد تلا^(١)

فالجملة في محل جر نعت لمسلم . ثم نلاحظ أن قوله عليه الصلاة والسلام : «ما من مسلم» ، أنه أوتي بالنكرة في سياق النفي .

والقاعدة المقررة في علم الأصول أن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، لأن هناك ألفاظاً تفيد العموم ، المفرد المُحَلَّى بأل ، والجمع المحلَّى بأل ، أسماء الشروط ، أسماء الاستفهام ، أسماء الموصولات ، النكرة في سياق النفي .

«ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا» ، «يغرس غرسًا» يعني يعمد إلى عودٍ من الشجر فيضعه في الأرض لينبت ، «أو يزرع زرعًا» ، يعمد إلى حبٍّ فيرميه ويطره في الأرض لينبت بإذن الله ، «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان» ، فينتفع به طير أو إنسان كما سنبينه في المعنى .

والطير جمع مفردة طائر ، والطائر هو الحيوان الذي له جناحان يسبح بهما في الهواء .

أو بهيمة : البهيمة جرى العرف أنها تطلق على ذوات الأربع وإنما سميت بهيمة لانبهاهم أمرها من جهة نقص نطقها ، لأننا لا نعلم ما تريده ،

(1) بيتان مقتطفان من منظومة مشهورة في معرفة الجمَل التي لها محل من الإعراب والتي لا محل لها .

وما تدريه ، ومنه قولهم : باب مُبْهَمٌ أي مُعَلَّقٌ لا نعلم ما بداخله ، وقولهم : لَيْلٌ بِهِمٌ أي مظلم لا نعلم ما يروج فيه ، ويظهر . إذن هذه هي الألفاظ التي يتوقف عليها شرح الحديث ثم نقول :

قال : « ما من مسلم » - هذا حقيقة - البخاري ذكره ولم يذكر سبب وروده ، لأنه لا يخفى كما أن لبعض الآي سبب نزول ، كذلك لبعض الأحاديث سبب ورود . بعض الآي لها سبب نزول ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] ، لا يخفى أنها نزلت في قضية مفاتيح الكعبة ، ولكن المفاتيح ليست جمعا إنما هي مفرد ، فالمراد أنه يجب رد الأمانات كيفما كانت ، مفتاحا أو غير ذلك لأنهم يقولون في علم الأصول : العام الوارد على سبب خاصٍّ مُعْتَبَرٌ عمومته عند الأكثر ، فإن كانت قرينة التعميم فأجدر . ومعلوم أن قرينة التعميم هنا موجودة ، وهو الإتيان بالأمانات جمعا في حين أن المفتاح إنما هو أمانة واحدة ، وكذلك يقال فيما يرجع للحديث ، وكذلك يقال فيما يرجع لآية السرقة ، يقول تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] يذكرون أن لها سبب نزول ، ذلك أن قتادة بن النعمان عمد إلى غرارة من دقيق وسرقها من بيت طعمة بن أبيرق ، وخبأها عند زيد بن السمير اليهودي ، فلما جاء يبحث عن غرارته من الدقيق لم يجدها فاقتفى أثر ذلك ، لأنه كان فيها ثقبٌ فاقتفى أثر ذلك حتى وجدها عند زيد بن السمير ، فقال زيد بن السمير : والله لا أعلم قضيتها ولا قصتها ، إنه وضعها عندي أمانة ، فأراد الرسول ﷺ أن يبرر قول قتادة بن النعمان لأنه أنكر أن يكون أخذها .

فقال تعالى : ﴿وَلَا تُجَدِّلْ عَنِ الَّذِينَ سَخَطْنَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء : ١٠٧]
ونزل قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة : ٣٨] .

فقوله تعالى : والسارق والسارقة فيه قرينة على أنه لا لقتادة بن النعمان بل كل سارقٍ تقطع يده ، فذكر السارقة بجانب السارق دليل على العموم لأن الذي سرق ذكر ، وليس بأنثى ، ولكن لما ذكر كتاب الله تعالى السرقة عَلِمَ أنه لا مفهوم لذلك ، وكذلك دخل صفوان بن أمية فعمد إلى رداءه فَنَاقَهَا وتوسدها في المسجد ، فجاء أحدهم وأخذها خِلْسَةً من تحت رأسه وخرج بها ، فاقتفى أثره ، فرفعه إلى الرسول ﷺ ، فحكم عليه ، قيل : إنها نزلت فيه هذه الآية : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فقال له صفوان : أفي رداء يا رسول الله تقطع يده قال له : هَلَّا ساحتها قبل أن تأتي به إلي ، فإن الحدود إذا انتهت إلي فإنها غير مردودة ، ومن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله ﷻ ، إذن هذا فيما يرجع لسبب النزول في الآية .

سبب ورود الحديث :

كذلك الحديث له سبب وُزِدَ هناك من الأحاديث ما لها سبب ورود ، وهذا البخاري لم يتحدث عنه ، ولكن الذي ذكره الإمام مسلم ، أخرج الحديث هذا الذي هو حديث الباب ، والذي عنه نتحدث ونتكلم ، أخرجه ولكن ساقه على أساس أنه ﷺ خرج فرأى نخلاً لأمٍّ مُبَشِّرٍ أو بِشْرٍ أو معبد ، امرأة من الأنصار ، فقال ﷺ : من غرس هذا : كافر أو مسلم؟ قالوا : مسلم ، فحدث بحديثه : «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» .

إذن هل هناك مفهوم لذلك الذي غرس نخل أم معبد أو لا مفهوم له؟ لا مفهوم له لأن العام الوارد على سبب خاص مُعْتَبَر عمومته عند الأكثر . على كل حال ، القصد هو أن الحديث له سبب ورود بالنسبة لما رواه الإمام مسلم ، أما الآن فنحن بصدد بيان معنى الحديث .

يقول علماء الحديث : إن الرسول عليه الصلاة والسلام الذي اصطفاه الله ، والذي قال : «إن الله اصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيارٌ من خيار من خيار»^(١) .

قال ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً» معناه أن أي مسلم كيفما كان ، طائعا أو عاصيا ، كان حرا أو كان عبدا ، ما من مسلم يعمل عملا مباحا ينتفع به أي حيوان كيفما كان إلا ويكتب له بذلك الصدقة كما سنبينه .

فالغرس إنما هو جزئية ، القصد هو أن ما من مسلم يعمل عملا فيه خير وهو من قبيل المباح ، وفيه خير ينتفع به الناس ويحصلون على الخير والفضل من جهته إلا كان له به صدقة . الكلام على حذف مضاف ، أي إلا كان له به ثواب صدقة ، ففي الكلام دلالة اقتضاء وهي التي أشار إليها ابن السبكي بقوله : «فإن توقف الصدق أو الصحة على إضمار دلالة اقتضاء» ، على حد قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] أي حرم عليكم نكاح أمهاتكم ، وعلى قوله تعالى : ﴿ وَسَقَلُ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف : ٨٢] أي أهل القرية ، وعلى حد قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ ﴾ [المائدة : ٣] أي حرم عليكم أكل الميتة ، إذن فهناك دلالة اقتضاء . «إلا كان له به صدقة» . المراد بالصدقة ما يُعطى على وجه التطوع والمعروف والإحسان .

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه .

أما إذا كان من قبيل الواجب فلا يُطلق عليه اسم الصدقة وإنما يقال له الزكاة، ولكن نجد في كتاب الله أنه أطلق الصدقة على الزكاة، حيث قال يخاطب نبيه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال عندما تحدث عن الأصناف الثمانية الذين تُعطى لهم الزكاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ما من مسلم أي أن أي مسلم يعمل عملاً من قبيل المباح ينتفع به حيوان أو إنسان، والإنسان تعرفونه، إن عُرِفَ بالحدِّ التام فيقال: هو الحيوان الناطق، وإن عرف بالرسم التام فيقال: هو الحيوان الضاحك، وإن عرف بالحد الناطق فيقال هو الناطق، وإن عرف بالرسم الناطق فيقال هو الضاحك:

الحدُّ بالجنس وفصلٍ وقَعَا والرسمُ بالجنس وخاصةً معاً^(١)

كما قال صاحب السلم.

«ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

إذا ما تأملنا في الحديث نجد أنه نص على المسلم، بمعنى أن المسلم إذا عمل هذا العمل المباح فزرع فأكل الطير أو أكلت البهيمة أو أكل الإنسان، فإنه يحصل على الثواب في الدنيا، وفي الآخرة، يُثَبِّه الله على ذلك في الدنيا ويُثَبِّه على ذلك في الآخرة، مفهومه إذا غرس أو زرع غير المسلم وهو الكافر، أما في

(١) بيت من منظومة في علم المنطق (السُّلَم).

الآخرة فلا سبيل إلى حصوله على الثواب ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَخْبَطُنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

فإذا كان قد غرس أو زرع ، حقيقة أن ما غرسه أو زرعه لا يضيع عليه ويثيبه الله على ذلك في الدنيا ، وحيث يطرّد نجاحه في أعماله يستطيع أن يحصل على نتائج مرضية فيما يرجع لأبنائه في دنياه . إذا غرس فاستظل إنسان بغرسه أو أكل من ثماره أو إذا زرع فأكل الإنسان أو أكلت دابة أو أكل الطير فإن الله يثيبه على ذلك ، ولكن يثيبه في الآخرة أو إنما يثيبه في الدنيا؟ يثيبه في الدنيا خاصة .

قال الحافظ ابن حجر : والقول بأنه يخفف عنه العذاب في الآخرة ، يحتاج لدليل وليس هناك من دليل . وذلك أمره يرجع إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو أعلم وأحكم بذلك ، بحيث على مقتضى التشريع الإسلامي عندنا أن الذي يثاب في الآخرة ويحسب له الأجر والثواب ويُدخَرُ له هو المسلم ، أما الكافر فغاية ما هناك أنه ينتفع بعمله في الدنيا .

نحن لا ننكر هذا ، ولكن الآخرة هناك الحاجز والمانع الذي يَحْجِزُهُ ويمنعه عن الثواب لأن الله يقول : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

«ما من مسلم يغرس غرسًا» . ثم ينبغي أن يلاحظ أن هذا الثواب وهذا الأجر الذي يلحق الغارس سواء كان مالكا لما غرسه أو أجيّرا فقط ، حتى الذي استأجرته فغرس لك شجرة فنبّت وأثمرت وجاء أحد فاستظل

تحتها هل ينال الأجر أو لا يناله؟ لاشك أنه يناله، فهو أي الغارس الأجير، والغارس المالك، سواء بقي ما غرسه على ملكه أو انتقل إلى ملك آخر سواء بقي حيا أو توفي، لأن هذا من الأمور التي يلحق الثواب فيها في الدار الآخرة.

وقد ذكر الإمام ابن العربي أن هناك أموراً ستة، بمحض كرمه وفضله يلحق الثواب لصاحبها في الدار الآخرة، الثلاثة أنتم على علم وبينه منها، وهي التي وردت في الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»^(١)، والثلاثة الأخرى اثنان مذكوران هنا وهما الغارس والزارع، ويضاف إلى ذلك المرابط في سبيل الله، فهؤلاء الستة يحصل لهم الأجر والثواب سواء استمروا أحياء أو ماتوا، لأن ما قاموا به هو عمل جليل، ولذلك نصل إلى ما قاله الحق سبحانه وتعالى في سورة هود عند قوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وقال العلامة الألوسي: إن المراد بالاستعمار أي جعلكم تَعْمُرُونَهَا، وعِمارة الأرض هل تكون عن كون الإنسان يَتَّبِعُ في بيته ويجلس ولا يعمل عملاً بالمرّة، فهذه لا تسمى عمارة. عمارة الأرض تكون بحفر الآبار وشق الأنهار وغرس الأشجار، وبذر الحبوب، وبناء السكن.

هذه الأمور ضرورية لأنه بها يستطيع الإنسان أن يستقر على الأرض، فالله سبحانه وتعالى يَمُنُّ علينا بأنه أَعْمَرَنَا الأرض على أساس أن نقوم بما

(١) سبق تخريجه.

كُلفنا به ، لأنه غير ممكن لنا أن نعيش على هذه البسيطة ، ولا نبحث عن سكن نأوي إليه ولا عن طعام نقتاته ولا عن ثوب نلبسه وغير ذلك من الأمور فإذا ن قوله تعالى : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ،

قال الألوسي : إن هذا يكاد يؤخذ منه أنه يجب القيام بالغرس والفلاحة ، والقيام بشق الأنهار وحفر الآبار ، والقيام بكل شيء يضمن للإنسان الحياة في دنياه ما دام حيا ، لأن الإنسان غير ممكن له أن يعيش في اطمئنان وفي أمان إذا كان يفقد القوت أو يفقد اللباس ، أو يجحد مسكنا يأوي إليه ، ولذلك قال إنَّ هذا يجب .

لعل العلامة الألوسي قصد بالوجوب فرض الكفاية ، لأنها أي الفلاحة والزراعة ، والصناعة والتجارة كلها من قبيل فروض الكفاية ، إذا قام بها البعض سقط الطلب عن الباقي ، وإن تركها الكل أثم الجميع .

ونختتم بما ورد من الخلاف فيما يتعلق بأفضل المكاسب ، هناك من يقول : إنَّ أفضل المكاسب التجارة ، وهناك من يرى أن أفضل المكاسب الفلاحة ، وهو بيت القصيد ، وهناك من يرى أن أفضل المكاسب الصنعة ، والحق والمعول عليه من غير تحيز أن أفضل المكاسب هو الفلاحة .

١ - أولاً لأن الإنسان لا يمكنه أن يبحث عن الملبس ولا عن النعل حتى يكون قد شبع وملاً بطنه ، وهذا شيء يجب أن نبحث عنه أولاً ، وبالذات .

٢ - وثانياً يلاحظ أن أفضل المكاسب الفلاحة نظراً لكون التاجر والصانع وإن كانوا متوكلين على الله ، ولكن الذي هو أشد توكلًا على الله هو

الفلاح ، فالتاجر يضع الأغلاق على متجره ، والصّانع كذلك يحتاج لنفسه ، أمّا الفلاح فإنّه يعتمد إلى حبه وبذره ، فيخرجه ويبذره في الطين والماء وينقلب إلى بيته ، فمن المتوكل على الله حقيقة؟ هو الفلاح ، لذلك فنحن نرجو أن يكون هذا الدرس فيه فائدة للذين لهم أُرْجِيَّةٌ ووسع الله عليهم أن يعملوا ما في وسعهم لبناء المساكن للمحتاجين ، وللزيادة في حرث الأرض ، وللزيادة في شق الأنهار وفي حفر الآبار .

المحاضرة السادسة والستون بعد المائة

تلاوة القرآن الكريم ترتيبه وتجويده والتغني به

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ،
ووعد من تلا القرآن وفهمه وعمل به الجزاء الجزيل ، والصلاة والسلام
على خير من تلا القرآن ورتله ترتيلاً ، وعلى آله وصحابه الأبرار الذين
نقلوا إلينا القرآن عذباً صافياً بقراءاته المختلفة ، وبكيفياته المتعددة ، وفق
ما أذن به الوحي الوارد في قوله ﷺ : «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(١) .

وانطلاقاً من قول الله ﷻ : ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان : ٣٢] .
نجد أن تلاوة القرآن الكريم وسيلة من الوسائل التي اعتمدها أئمة القراءة
في نقل هذا القرآن صافياً عذباً منذ أن نزل على رسول الله ﷺ إلى زماننا
هذا .

معنى التلاوة لغة :

والتلاوة بدلالاتها اللغوية ، بمعنى ضم اللفظ بعضه إلى بعض ، واردة في
القرآن الكريم في عدة آيات . قال الله ﷻ في سورة البقرة : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ
الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة : ١٢١] . وقال في سورة يونس : ﴿قُلْ
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُمْ﴾ [يونس : ١٦] . وقال في سورة النمل : ﴿وَأَنْ أَتْلُوا
الْقُرْآنَ﴾ [النمل : ٩٢] . وقال في سورة فاطر : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ

(١) سبق تخريجه .

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠] الآية . وهذه التلاوة أمر بها رسول الله ﷺ في هذا النص وهو جزء من آية ، تمامها : ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ٤] .

والآية بتمامها هي الآية الرابعة من سورة المزمل وهي من أوائل السور وأوائل سورة المزمل مكية . ومهما تكن الأسباب ، أسباب النزول التي وردت مرتبطة بهذه الآيات ، ومهما تكن الدوافع ، فإن الذي يتلو السياق الذي وردت فيه هذه الآية يستدل على أن النبي ﷺ خوطب بأمر عظام ، دعي إلى التشمير وإلى الاستعداد ، وإلى التأهل للأمر العظام ، ومنها : تلاوة القرآن الكريم بترتيل : ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُزْمَلُ﴾ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿نَضْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل : ١-٥] إلى آخر الآيات .

فالذي يقرأ هذه الأوامر ، وهذه الأمور يستدل على أن الآية وردت في سياق يطلب من النبي ﷺ التشمير والاستعداد لممارسة مهامه المنتظرة العظيمة ، لأن هذا من القرآن الذي نزل في أوائل العهد المكي . وقد يكون في التعبير بـ﴿الْمُزْمَلُ﴾ ملاطفة للتأنيس ، للإيناس ، كما عبر الرسول ﷺ بقوله لعلي بن أبي طالب حين غاضب فاطمة عليها السلام ، ووجده نائما وقد التصق وجهه بالتراب ، فقال : «قم يا أبا تراب»^(١) . تلطيفا له ، ودلالة على أنه ليس عاتبا عليه .

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ . هذا الخطاب للنبي ﷺ وهو جامع بين الأمر وتوكيده ، وهذا الأسلوب معروف عند العلماء بأنه أسلوب إنشائي ،

(١) أخرجه البخاري (٤٤١) ، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

ومهما يكن خلاف العلماء في الأمر، هل هو للوجوب مطلقاً؟ هل أوامر الله للوجوب فقط، وأوامر رسول الله ﷺ للندب؟ أو كل الأوامر للوجوب. مهما يكن الخلاف، فإن الأسلوب دال على أن هذا الأمر في غاية العظمة والجلال، وهو مطلوب من النبي ﷺ على جهة التوكيد.

ويدعم هذا أيضاً أسلوب الإخبار الوارد في سورة الفرقان؛ قال الله ﷻ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، فجاء الإخبار، وجاء الإنشاء، وكل ذلك دلالة على أن القرآن نزل مرتلاً، وأنه يجب أن يرتل كما فهم ذلك رسول الله ﷺ، وكما سنرى فيما بعد، عندما نعرض لبعض النصوص التي تدل على ذلك.

ولعل هذا هو الذي فهمه ابن الجزري رَحِمَهُ اللهُ، وعبر عنه في مقدمته المعروفة والمشهورة لدى أهل الاختصاص حين قال:

والأخذ بالتجويد حتم لازم من لم يجد القرآن آثم

لأنه به الإله أنزلا وهكذا منه إلينا وصلا

فلعله فهم هذا من هذه الآية ونظم ذلك.

الآية فيها كلمة القرآن، وكلمة القرآن قرأها العشر بالهمز، ما عدا ابن كثير الذي قرأها بالنقل: القرآن، فهو يقرأ: القرآن «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً». وكل كلمة وردت في القرآن الكريم قرأها بالتخفيف، أي: بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها.

ومذهب النقل هذا مشهور عن ورش، ولكن المقام لا يسمح للكلام فيه بتوسع، إنما ابن كثير التقى مع ورش في بعض الكلمات، ولكن خالفه في بعض الكلمات. ومن الكلمات التي خالفه فيها هذه الكلمة، وهي:

القرآن ، فورش لا يقرأ القرآن بالنقل ، وإنما يقرأها بالهمز ، نعم لا يقرأها بالنقل ، وإنما يقرأها بالهمزة «القرآن» كباقي العشرة . وورش نفسه قرأ بعض الكلمات أيضاً بالتخفيف قرأ : «رِدًا يُصَدِّقُنِي» . مع أن القاعدة العامة عنده أنه لا ينقل إلا إذا كان الأمر يتعلق بالجمع بين كلمتين ، ولذلك شروط معروفة لدى أهل الاختصاص .

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ . رجعت إلى الكتب التي اعتنت بهذا الموضوع ، والتي لها صلة بمعاني القرآن الكريم ، فوقفت على تفسيرين اثنين لهذه الآية ، أجملهما فيما يلي :

التفسير الأول : هو أن المقصود بقوله ﷻ : ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ تمهل في قراءته ، وتأن وأرسل الكلمات مستقيمة ، الواحدة تلو الأخرى ، ورتلها كما هو حال الثغر المرتل ، الذي توجد بين أسنانه فجوات ، يوجد بين أسنانه تباعد .

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ . هذا المعنى تجد له تفسيراً فيما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، فهم قالوا : إن المراد بالترتيل هذا المعنى ، وهو ما نجده في كثير من كتب التفسير وغيرها ، كما هو الحال في : «معاني القرآن» للفرء ، و«الكشاف» للزمخشري ، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ، و«معجم المفردات» للراغب الأصفهاني ، فهذه كلها نحت هذا المنحى ، واتجهت هذا الاتجاه ، وهو أن المراد بالترتيل هو التمهّل والتأني ، وإرسال الكلمة بتؤدة .

وهناك تفسير ثان ، وهو أن معنى ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي : جوده تجويدا ، وأن معنى ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان : ٣٢] بمعنى : جودناه تجويدا .

وقد سئل الإمام علي عليه السلام عن معنى قوله تعالى : ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ فقال : الترتيل : تجويد الحروف ، ومعرفة الوقوف ، ولعل هذا هو الذي قصده ابن الجزري في مقدمته حين قال :

وهو إعطاء الحروف حقها من صفة لها ومستحقها ورد كل واحد لأصله واللفظ في نظيره كمثله مكمل من غير ما تكلف في اللفظ بالنطق بلا تعسف

ابن الجزري إذن عبر عن مفهوم الترتيل بأنه : تجويد الحروف ، ومعرفة الوقوف . وهذا كذلك يشهد له بعض الكتب التي ألفها المحققون من علماء القراءات ، أمثال : مكّي بن أبي طالب الذي ألف الرعاية ، كتاب : الرعاية ، وأراد أن يبين فيه تحقيق لفظ التلاوة ، وتجويد القراءة ، وبيان مراتب الحروف ، وصفاتها ومخارجها وما إلى ذلك . وهو كذلك ما فعله ابن الجزري ، كما قلت في مقدمته ، وفعله كذلك الصفاقسي في تنبيه الغافلين .

ويدل على ذلك أن هؤلاء لما ألفوا وكتبوا في كتبهم مخارج الحروف وصفاتها ومراتبها وما يتعلق بذلك ، أوردوا في أواخر كتبهم أبواباً تتعلق بالوقف والابتداء ، لماذا؟ لأن الوقوف والابتداء ، يساعد على تمام المعنى ، ويكمل مع المبنى إعجاز القرآن الكريم .

ومهما يكن الخلاف بين مفهوم الترتيل عند هؤلاء وأولئك ، فإن هذه المعاني كلها جمعها النبي صلى الله عليه وسلم والتزم بها وقرأ بها ، ورتل القرآن بها . فسواء قلنا إن الترتيل أعم من التجويد ، أو إن التجويد مباين للترتيل ، فإن الهدف واحد ، وإمكانية جمع هذه المعاني كلها في تلاوة القرآن وفي قراءاتها ممكن .

ونحن عندنا من القواعد أن النصوص إذا وقع بينها تعارض ، وكانت كلها صحيحة ، أو فهمت بفهوم كلها صحيحة ، وأمکن الجمع فإننا لا نلجأ إلى التعارض أو إلى الترجيح ، ما دام الجمع ممكنا .

وأرى - والله أعلم - أن ما فعله رسول الله ﷺ هو جمع لهذه المعاني كلها ، لماذا؟ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام جود القرآن ، وبلغ في ذلك الذروة والقمة ، لأن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءه بالترتيل ، وأمره بالترتيل ، وقرأه كما طلب منه ، وفي حديث آخر : «إن الله يحب أن يقرأ القرآن كما أنزل»^(١) وقد قرأه ﷺ كما أنزل ، وجمع كل هذه المعاني ، يدل على ذلك عدة أحاديث ، منها :

«أن النبي ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها»^(٢) .

ومنها كذلك ما رواه قتادة ، قال : سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ ، فقال : «كان يمد مدًّا» ، وفي رواية النسائي : «كان يمد صوته مدًّا» .

وعن عبد الله بن مغفل قال : رأيت النبي ﷺ يوم الفتح وهو على ناقته أو جملة وهو يسير ، وهو يقرأ قراءة لينة . . . الحديث .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لي النبي ﷺ : «اقرأ علي ، قلت أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : نعم ، إني أحب أن أسمع من غيري»^(٣) . قال : فقرأت سورة النساء حتى إذا أتيت هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ

(١) عزاه صاحب «الكنز» (٢/ ٦٥) للسجزي في «الإبانة» من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٣) من حديث حفصة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .

أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجَعْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ [النساء : ٤١] . قال : حسبك ،
فالتفت فإذا عيناه تذرفان» ، واللفظ وارد في «الصحيحين» ، وفي غيرهما
من الكتب المعتمدة ، «فإذا عيناه تذرفان» .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : صليت إلى جنب النبي ﷺ ليلة ، فقرأ ، فكان
إذا قرأ آية عذاب وقف وتعوذ ، وإذا قرأ آية رحمة ، وقف ودعا .

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : «زينوا القرآن
بأصواتكم»^(١) .

من مجموع هذه النصوص المذكورة وقد عدلت عن عدد آخر من
النصوص الصحيحة في هذا الموضوع ، من هذه النصوص يستخلص أن
النبي ﷺ جمع كل هذه المعاني التي تضمنتها الآية منطلق الموضوع ، بحيث
جمع بين التمهّل والتؤدة في قراءة لينة ، ميسرة الخشوع واستحضار القلب ،
وما يدعو إلى الموعظة ، وهذا أمر أساسي .

كذلك كان يحسن الصوت ، هو ﷺ حسن الصوت ، وهذا من تحصيل
الحاصل ، لأن النبي ﷺ قد رزق في هذا الباب الشيء الذي لا يبلغه ولا
يجاريه فيه غيره ، فكان إذن حسن الصوت يتلو بتؤدة ، يتلو بتمهّل ،
يستحضر ما يدعو إلى الخشية والتدبر والخوف من الله ، كما لاحظنا في
الحديث الصحيح عندما ذكر ﷺ ، لأنه استحضر هول المسؤولية ،
وجسامتها ، فبكى عليه الصلاة والسلام .

وهذه المعاني - على كل حال - حاول أئمتنا رحمهم الله أن يلتزموا بها ، هم
كذلك ، وينقلوها جيلا عن جيل ، عن طريق المشافهة ، لأن عملية القراءة

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٨) ، والنسائي في «المجتبى» (١٠١٥) ، وابن ماجه (١٣٤٢) .

حتى بهيئتها الصوتية التي لا تتعلق بالحركة ، بحركات الإعراب بالضم أو بالفتح أو بالكسر ، أو ما أشبه ذلك ، حتى هذه حاول أئمتنا رحمهم الله أن ينقلوها كما وصلت إليهم ، جيلا بعد جيل ، وطبقة بعد طبقة ، وقد أفلحوا في ذلك ، وقاموا بواجبهم في هذا الباب .

وهذا الواجب واجب أساسي ، لأن أي فهم سليم للقرآن ، وأي عمل صحيح بالقرآن ، ينبنى على هذه العملية ، عملية صيانة النص ، وسلامة النص ، وهذه العملية قام بها الأئمة رحمهم الله ، وإذا كان هناك قصور في الميدانين الآخرين فهو يرجع لشيء آخر بعيد عن هؤلاء الأئمة رحمهم الله .

هؤلاء الأئمة نقلوا هذا الأمر مشافهة ، ونقلوه كذلك كتابة . وصفوا لنا كيف كانت القراءة مستمرة وقائمة عبر الأجيال المختلفة إلى زمان الناس هذا ، حاولوا في كتبهم ولا سيما المتأخرون ، حاولوا أن يصفوا لنا أبعاد التلاوة ومراتبها ، فقالوا : إن التلاوة قد تبلغ نهايتها في الكمال ، وفي التؤدة وفي البطء ، وقد تنزل إلى مستوى أدنى ، وبين المرتبة الدنيا والمرتبة العليا مرتبة وسطى .

وقصدهم - على كل حال - بهذه المرتبة ، أو بالمرتبة الثانية أو الثالثة ، وما سماه ابن الجزري : التحقيق ، والحدرد والتدوير ، القصد في الحقيقة هو تقريب الصورة من المسلمين ، ومن المتخصصين بصفة خاصة ، وإلا فهذه التقسيمات عند التمحيص ، وعند التدقيق ، نجدها في الغالب تقريبية ، ونسبية .

فلو مثلاً - على سبيل المثال - لو أتينا بمتخصصين اثنين وقلنا لشخص : اقرأ عليهما ، ثم طلبنا منهما أن يصفنا لنا هذه التلاوة ، لربما يقول أحدهم : لقد قرأ بالتدوير ، أي : بمرتبة وسطى ، ولقال الآخر : إنه قرأ بالتحقيق ،

أي بمرتبة عليا بلغ في البطء نهايته ، ولربما قال أحدهما : إنه قرأ بالحدرد ، مما يدل على أن في الأمر سعة ومرونة ويسرا . وهذه الأشياء تؤخذ ولكن بصفة نسبية .

نعم ، أئمة القراءات المحققون إذا جمعناهم على صعيد واحد وقلنا لهم : لاحظوا هل هناك خطأ في هذه القراءة ، وبينوا وجه الخطأ الذي يكون هذا القارئ قد وقع فيه ، فإنهم لا يختلفون في ذلك ، هذا أمر لا يختلفون فيه .

ولكن هناك أشياء - على كل حال - تقريبية ، يمكن أن يقع فيها خلاف ، وأظن كذلك - وهذا حسب التجربة - أن هناك هامشا ، يمكن أن نسميه باللغة المعاصرة : هامشا فنيا ذوقيا يخضع للذوق ، فقد يقول هذا : إن هذه التلاوة كذا ، والآخر يقول : إن هذه التلاوة كذا ، فتختلف الأحكام .

وقد يكون كل واحد من هؤلاء مصيبا ، بشرط أن يلتزم الجميع ، جميع القارئين ، وفق هذه المراتب التي ذكرت ، بتقويم اللفظ ، تقويما صحيحا ، وفق قواعد التجويد التي أشرت إليها منذ قليل ، والتي ذكرها ابن الجزري في مقدمته ، وذكرها غيره .

كذلك يحافظ على الوقف الذي لا يفسد المعنى ، لأن إفساد المعنى يترتب عليه إفساد الإعجاز . والقرآن معجز قد بلغ في ذلك النهاية ، وهو جامع في ذلك بين المبنى والمعنى ، فلا يمكن أن نسيء الوقف ، كما لا يمكن أن نسيء إلى مخارج الحروف وإلى صفاتها .

وربما يقع خلل في عدم التوازن بين الحرف ونظيره ، يقرأ مثلاً : فانصب ، ﴿فَأَنْصَبْ﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿ [الشرح : ٨،٧] . القراءة الأولى واضح أن فيها تمحلا وتعسفا ، فهذه القلقة في آخر الكلمة موجودة

ولكن لا يكون في ذلك تعسف، بل يكفي ما يوافق لحون العرب وأصواتها، دون تعسف ودون تكلف.

إن هذه المراتب وهذه العناصر التي ذكرت، والتي حاول أن يلتزم بها أئمتنا طوال تاريخ القراءات إلى زماننا هذا لا مجال فيها للاختلاف، وهي عند المحققين أمر مسلم، ويجب أن يحترم، والناس في ذلك درجات.

فنحن نقصد هنا الأئمة المحققين، الذين يحافظون لنا على أرقى مستوى، أما دون هذا المستوى، فالناس يختلفون حسب مواهبهم، وقدراتهم العقلية والثقافية، ومن لم يستطع أن يحفظ أكبر ما يمكن من القرآن فليحفظ الجزء اليسير، والله سبحانه وتعالى يسر القرآن من جميع النواحي، وإنما الخطاب موجه إلى فئة معينة، تقوم وتنهض بهذه المسؤولية. فهذه تبقى كذلك إلى يوم الدين، تحاول أن ترقى إلى أعلى مستوى. هذه المسائل كلها على عجل ذكرتها، وليس فيها خلاف يستحق الوقوف عنده.

التغني بالقرآن:

ولكن هناك مسألة ثالثة، أو مسألة أخرى، وهي ما يسمى بالتغني بالقرآن، وهذه المسألة، مسألة التغني بالقرآن، هي أيضًا أمر بها رسول الله ﷺ في أحاديث صحيحة، أو بعضها صحيح، وبعضها دون ذلك.

وعلى كل حال، فالأحاديث الثابتة في الأمر بالتغني موجودة.

من ذلك ما جاء في «صحيح البخاري»، وفي «صحيح مسلم»، واللفظ هنا لمسلم، وفي غيرهما: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».

فالسباق يدل على أن التغني ، وتحسين الصوت ، والجهر بالقراءة ، المقصود هنا التغني أي تطريب الصوت ، كما سنرى فيما بعد .

وفي رواية أخرى : «من لم يتغن بالقرآن فليس منا» .

وفي شعب الإيمان : «إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، وتغنوا به ، فمن لم يتغن به فليس منا» .

وهذه مشكلة ، كيف أن المسلم ، ونحن نقول منذ قليل : إن الله سبحانه وتعالى يسر القرآن ، وسهله على جميع المسلمين ، وكل واحد يأخذ منه بقدر ما يستطيع ، ويتلو ما تيسر له ، فإذا لم يتغن بالقرآن ، فلا يكون من أمة محمد؟

الجواب عن هذا السؤال ، هو : أن اللفظة نفسها من المشترك ، فتغنى بمعنى استغنى في اللغة العربية ، وتغنى بمعنى : صوت وطرب بصوته ؛ ولذلك اختلف العلماء في تفسير هذا النص ، هل المقصود بالتغني الاستغناء بالقرآن عما سواه في اللفظ وفي المعنى وفي العمل؟ أي : أن القرآن الكريم من لم يجد فيه الغنى النفسي عما عداه فهو مذموم .

والتفسير الثاني ، وهو تفسير الجمهور ، وهو الصحيح : أن المقصود هو التغني أي التطريب بالصوت ، أو تحسين الصوت ، ولكن جمهور العلماء لا يقولون بالغناء المعروف عند أهل الحرفة ، وإنما يقولون : المراد به تزيين الصوت وتحسينه ، بدليل القرينة التي سبقت لنا في حديث مسلم : «يقرأ القرآن يجهر به» ، يتغن بالقرآن يجهر به .

هذه القرائن تدل على أن المراد هنا الغناء ، أو التطريب بالصوت ، أو التحزين ، كما هو عند جمهور العلماء ، وليس المقصود الاستغناء الذي ذهب إليه أبو عبيد القاسم بن سلام المقرئ الكبير ، المحدث ، المتوفى سنة أربع

وعشرين ومائتين للهجرة (٢٢٤هـ)، ونسب كذلك إلى سفيان بن عيينة .
هذا التفسير رده كثير من العلماء ، وذلك بحجج وقرائن تدل على أن
الرسول ﷺ يقصد تحسين الصوت وتزيينه ، لكن هذا التحسين نفسه ،
اختلف فيه هؤلاء ، أي جمهور العلماء ، هؤلاء الذين قالوا بهذا ، قالوا : إلى
آية درجة يمكن أن يصل هذا التحزين ، وإلى آية درجة يمكن أن يصل
هذا التحسين ؟

الأئمة المالكية والشافعية والحنابلة على العموم ، قالوا : بأنه لا يصح
أن يقع ذلك وفق الألحان المعروفة عند أهل الغناء ، وأن لا يخضع للقانون
الموسيقي ، ولا للإيقاعات ولا لما سماه بعضهم بالطبوع ، وإنما يحسن
المسلم القارئ تلاوته وفق سجيته وطبيعته ، وليترك هذه السجية تأتي بما
شاء الله أن تأتي به ، من زخارف صوتية ، دون تكلف ودون تعسف .

ونسب إلى الإمام أبي حنيفة ، وجماعة ، أن القراءة بالألحان ، إذا كانت لا
تخرج التلاوة عن ضوابطها وعن قواعدها ، وبقيت وفق لحون العرب
وأصواتها ، فإن ذلك لا بأس به ، بل يزيد من تحبيب القرآن للنفوس
وتشويقها إليه ، فلا مانع منه .

لكن ، لا الحنفية ولا غيرهم من أئمة المذاهب ولا من أئمة القراءات ،
كلهم متفقون على أن القراءة بالألحان ، إذا أخرجت التلاوة عن حدها
المشروع فهي حرام .

فإذا أخضع التالي للقرآن الكريم التلاوة للمقامات وأفسد المعنى وزاد
حرفاً من الحروف ، كأن يقول مثلاً في : « محمد رسول الله » ، (ومحمد رسول
الله) يزيد الواو ، هذه الزيادة أو هذا التوليد ، الأئمة كلهم متفقون على أنه

لا يصح .

وعلى أية حال أقول : إن مذهب الجمهور أسلم من جميع النواحي ، ذلك أننا إذا جمعنا التمهّل والتأني ، وإرسال الكلمات ، وقرأنا قراءة لينة ، وبذلنا ما في وسعنا من أجل تحسين الصوت بالقرآن ، أو تحسين القرآن بالصوت ، بذلنا جهودنا في سبيل ذلك ، فإن هذا يكفي ليعث من القرآن ومن ذات القرآن ما يثير الخشوع وما يثير التدبر وما يثير التأمل وما يثير خشية الله سبحانه وتعالى لأن أسلوب القرآن مليء بالقبض ، ومليء بالبسط ، ومليء بالوعد والوعيد ، ومليء بالترغيب والترهيب ، يضاف إلى ذلك فواصله التي تحمل جرسا ووقعا على النفوس إذا قرئت بصوت جميل ، فكل هذا يكفي فلا داعي لتلك الألحان ، ولهذه الإيقاعات .

يضاف إلى هذا أننا دائماً ننادي أن الإسلام ينبعث من ذاته التيسير أو من مبادئ التيسير ، والتيسير طبعاً هو نابع منه ، ليس التيسير الخارج عنه ، أي ما يفهمه الناس وما يريدون أن يلصقوه بالإسلام ، فهذا خارج عن التيسير المشروع ، وإنما التيسير المشروع ، وهو كثير ، ومجاله واسع ، نطقت به نصوص الكتاب والسنة ، ننادي بهذا ثم نقول : إنه لا بد أن يقرأ هذا القارئ على الألحان ، ووفق القانون الموسيقي ، فنزيد المسألة صعوبة ، ونضيق مساحة التلاوة ، ونشدد على الناس .

وإذن فمذهب الجمهور أسلم ، وتكون كل قراءة توفرت على تلك الشروط ، قراءة صحيحة ، خلافاً لما نسمعه اليوم في كثير من المنتديات وفي كثير من المباريات على المستوى الوطني ، أو على المستوى الدولي ، نسمع أن بعضهم ينعت قراءة بأنها مرتلة ، هي مرتلة فقط .

إذا كان يقصد المفهوم اللغوي ، المدلول اللغوي فقط ، فربما يكون معه

الصواب ، ولكن إذا كان يقصد -طبعاً- هذا الترتيل الذي جاء به جبريل ، والذي التزم به الرسول ﷺ ، وحاول الأئمة أن يلتزموا به ، فهذا خطأ .

وترى بعضه وهو في حالة الاستماع إلى قارئ من القراء يرفع يده إلى السماء وينزلها ، وربما ضرب على يديه ويقول : كان يجب عليه أن يقف ، وهو لا ينتبه إلى قوة المعنى ، وإنما ينتبه فقط إلى أنه كسر المقام ، أو كسر الميزان ، وهذا شيء قد يزيد في صرف الناس عن تدبر معاني القرآن ، عن تأملها ، وهذا هو بيت القصيد ، وهو العنصر الأساسي في العملية .

وإذن فأرى والله تعالى أعلم - أنه لا بد من توفر الحد الأدنى اليوم على المستوى العالمي في تقويم التلاوة . فأستطيع أن أقول :

إن العالم الإسلامي اليوم وهو يشهد هذه الصحوه القرائية صحوه التلاوة ، صحوه في الرجوع إلى القرآن . وإلى أدائه بأصوات جميلة ، في بلاد الله كلها ، ولا سيما في أرض العالم الإسلامي ، من غرب البلاد الإسلامية إلى ماليزيا وبروناي ، وما بينهما من أراضي العالم الإسلامي نجد أصواتا جميلة ، تقرأ القرآن بكيفية شرعية .

ولكن على الناس ، أو على أهل الاختصاص أن يحذروا من الشطط ، ومن الغلو ، قد يقرأ مصري قراءة صحيحة ، سليمة من جميع الوجوه ، وبصوت حسن ، فلا يمكن أن يقولوا : إن هذه التلاوة دون المستوى ، وقد يقرأ السعودي ، وقد يقرأ السوداني ، وقد يقرأ اليمني ، وأنا قصدت أن أذكر نماذج من هذه الدول ، لأنها ربما هي التي لا تبالغ في هذا التغني ، سواء كان عن طريق الصدفة ، وعن طريق السجية ، أو عن طريق القصد إلى إخضاع التلاوة للمقامات . إذا تلا واحد من هذه الدول تلاوة

صحيحة ، فينبغي أن لا يقال إن ذلك دون المستوى المطلوب ، حتى تبقى الأمور في إطارها الصحيح ، وحتى لا نضيق -كما قلت- على الناس ، وحتى يستطيع أن يقبل أكبر عدد ممكن على تلاوة كتاب الله ﷻ .

وهكذا نرى أن الحد الأدنى الذي يمكن أن يتفق على أنه أساس لتقويم تلاوة القرآن الكريم ، هو الذي يتألف من ثلاثة عناصر :

-التجويد . - معرفة الوقوف . - الصوت .

يراعى في التجويد طبعاً قواعده ، وهي معروفة لدى المتخصصين : إخراج الحرف من مخرجه ، المحافظة على صفاته ، نطق الحرف كنظيره ، إذا قلقل الباء بدرجة معينة ، وهي ساكنة في الأخير ، فليقلقلها كذلك وهي ساكنة في الأخير ، بنفس الدرجة . وهذا يعرفه المتخصصون ، ويستطيعون أن يدركوا مستويات ذلك التجويد .

ويراعى في الوقوف -طبعاً الوقوف- مدى اجتناب أو مدى قدرة القارئ على اجتناب الوقوف القبيحة فقط . هذا الشرط في معرفة الوقوف يراعى ، وفي الصوت يراعى الصفاء والعدوبة ، وقدرة القارئ على التحكم في النفس ، بحيث إذا تلا لا يظهر أن هناك تعسفاً ، وهناك تكلفاً ، وهناك تصنعاً في أن يسيطر على أنفاسه ، يصعد بفشل وينزل بفشل ، وإنما يظهر أن ذلك فيه سجية ، وأنه تدرب على ذلك وهو قادر عليه .

يضاف إلى هذا أنه يراعى في الصوت مناسبة الجنس ، إذا كان القارئ ذكراً ، فينبغي أن يناسب ذلك الذكر ، وإذا كان القارئ أنثى كان الصوت كذلك مناسباً للأنثى .

هذه الأشياء تراعى في التقويم ، ويبقى كما قلت أن هناك مجالاً فنياً ،

ربما يتعلق بذوق أي حكم من الأحكام .

وإذا نحن استطعنا أن نفعل هذا على مستوى العالم الإسلامي فإننا نكون بحمد الله وحسن عونه - قد قدمنا خدمة من الخدمات التي توحد المسلمين ، فيكون هذا القاسم المشترك بين سائر المسلمين عاملا من عوامل التعاون والتآزر والتوحد .

* * *

المحاضرة السابعة والستون بعد المائة

عظمة الكون في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٥-٧٦] .

درسنا يتمحور موضوعه حول عظمة الكون ، انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ . سأحاول إبراز عظمة الكون من ثلاثة محاور :

محاور عظمة الكون :

المحور الأول : يعتمد على دلائل من القرآن الكريم

المحور الثاني : يعتمد على مقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم في هذا المضمار والاكتشافات العلمية الحديثة .

المحور الثالث : يكون بمثابة نقطة التقاء بين هذين المحورين نستخلص منه القيمة الأخلاقية المتمثلة في عظمة الكون .

كل ذلك بعبارات وجيزة ؛ لأن الموضوع شاسع .

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ، وإن من يتناول القرآن الكريم بالبحث والتحليل ويتأمله ومعانيه آخذا بعين الاعتبار التطور العلمي في جوهره وفي ملابساته وتداخل الثقافات في عمومها وفي مقارنتها ، يتبين له أن

عظمة الكون إنما تتجلى من ظواهر كثيرة، وما تحمل هذه الظواهر من دلالات عميقة قد يصعب حصرها وإبرازها.

عظمة الكون:

تتجلى عظمة الكون أولاً: من أطراف القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وأكثر من ذلك فإنها تتجلى مما أخذ الله سبحانه وتعالى على نفسه أن يقسم في غير ما آية بالكون، أو بما يتضمنه من نجوم وكواكب، أو ما يترتب عنه من مقاييس زمنية من ليل ونهار، وأيام وسنين.

ومن جملة هذه الآيات نقتصر على بعض منها:

الآية الأولى: يقول الله فيها: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَنَهَا ۝ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝﴾ [الشمس: ١-٨]، إلى آخر الآيات.

الآية الثانية: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ [الطارق: ١-٣].

الآية الثالثة: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝﴾ [الليل: ١-٣] إلى آخره.

الآية الرابعة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝﴾ [البروج: ١-٣].

الآية الخامسة: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝﴾ [الفجر: ١-٥].

والآية السادسة والأخيرة: ﴿وَالْضُّحَىٰ ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٣﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]، إلى آخر الآية .

وكل هذه الآيات وغيرها تبتدئ بقسم الله سبحانه وتعالى مما هو مأخوذ من الكون أو من أطرافه وضوابطه .

النظر في الكون دليل على خالقه :

وتتجلى عظمة الكون ثانيًا : من حيث يقيم الدليل على وجود السبب والمسبب ، إذ جعل الله سبحانه وتعالى من مشاهدة السموات والأرض وما بينهما والتدبر فيها سببا وسبيلا إلى التيقن من وجود خالقها سبحانه وتعالى ومن قدرته وجلاله . ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ، ١٩١] ، فكان الكون وعظمة الكون بمثابة دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى ، ولو شاء الله أن ندرك وجوده بغير سبب لفعل ولكن لكل شيء سببا على حد قول الشاعر :

ألم تعلم بأن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع تساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن لكل شيء سبب

الكون نظام بديع :

وتتجلى عظمة الكون ثالثًا : مما هو عليه من نظام بديع وتركيب عجيب وامتداد لا تدركه الأبصار ولا يدركه العقل ، وقد توصل العلم الحديث

إلى بعض من هذه الأشياء ، مما يجعلنا نشعر بعظمة الكون أكثر مما كنا عليه من قبل .

ارتباط الكون بالإنسان :

وتتجلى عظمة الكون رابعًا : في الروابط الحميمة التي تشد الإنسان بالكون . والدليل على ذلك أن السماء كانت دائمًا تستقطب اهتمام الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى ، فأثارت نجومها وكواكبها اندهاشه وإعجابه ، وبهرته إلى حد بلغ بكثير من الأقوام إلى درجة الشرك ، وذلك مما حدا بسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يقول كما أخبر المولى ﷺ عنه وحكاه في القرآن قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ إِلَهِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [الأنعام : ٧٥-٧٩] .

ومن إلهام الله سبحانه للإنسان أنه جعله يشعر منذ القدم - منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى - بأن بينه وبين الكون وشائج القرابة التي هيأته لأن يستوعب الكون ؛ لأن يستوعبه بإحساساته قبل عقله ، وبحدسه قبل تجاربه ، وذلك ما نجده في كثير من الروايات وفي كثير من الأشعار ظلت خيالية إلى أن أكد العلم صوابها .

ألم يقل أحد شعراء اليونان وهو من القرن السادس قبل المسيح ﷺ :
 إذا كنت وليد الأرض السوداء فإنني كذلك وليد السماء ذات البروج
 أو كقول الشاعر القديم :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وتتجلى أخيرا وقبل كل شيء عظمة الكون فيما أخبر به القرآن الكريم ،
 فيما أخبر به عن تكون الكون ، عن نشأته ، عن تطوره ، وربما حتى عن
 مآله ، عن حركات الكواكب عن حركات الأجرام السماوية ، مخالفا بذلك
 ما كان يعتقد قبل الإسلام وحتى بعد الإسلام بقرون من أن الكون ثابت
 لا يتغير ولا يتحرك .

بل كانوا يعتقدون أن الأرض ثابتة ، والكل يعرف التطور التاريخي
 الذي وقع في مسألة دوران الأرض ، فلما أراد (غاليليو) أن يثبت عكس
 ذلك قامت المدرسة الأرسطوطاليسية مؤيدة بالكنيسة الأرثوذكسية
 حتى إنهم حكموا عليه بالإعدام من أجل ذلك .

بينما نجد القرآن الكريم يخبرنا بأشياء عن حال الكون ، يخبرنا أولا
 بكروية الأرض في قوله : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
 اللَّيْلِ﴾ [الزمر : ٥] .

ثم يدلنا ثانيا على أن النجوم غير قارة بل تتحرك كما في قوله :
 ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۚ﴾ ، ولا
 يكون الطرق إلا بالحركة .

وبيين لنا كذلك أن الكون لم يكن على حالته ، على الحالة التي نراه فيها الآن بل كان غير ذلك في أوله في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

وهذه آية عجيبة جدا ، وسنرى فيما بعد ماذا يقول العلم الحديث في هذا الباب .

الكون ليس أزليا :

وبيين لنا كذلك أن الكون لم يكن أزليا ، بل خلقه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٢٩] . وتأملوا هنا (وما بث فيها من دابة . . .) بمقتضى القرآن هناك دواب في الأجواء العليا ، ما زال العلم الحديث يبحث عنها بشتى الوسائل عن طريق استكشاف الفضاء ولم يتوصل إلى شيء يحمد .

ولكن بمقتضى القرآن توجد دواب ، لا ندري هل هي من جنس الأناسي أو من جنس آخر ، على كل حال فهناك دواب وتأملوا قول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وهي عميقة الدلالة : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

ألا تشير هذه الآية إلى مآل الكون كما يتنبأ به العلماء الآن وكما سنرى فيما بعد؟ ورغم وضوح هذه الآيات كان علماء السلف الصالح رضوان الله عليهم يتأولونها لكي يتفقوا مع ما كان معروفا في عصورهم من أن الكون ثابت ، وأن النجوم ثابتة كذلك .

وكان بعض العلماء أمثال الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا وغيرهما، يضرّبون الوتر على معنى وهو أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد لا كتاب علوم .

وأصلهم (أساسهم) في ذلك أنهم كانوا يخافون إذا ما وقع تطور في العلم أن تظهر مخالفات بين القرآن الكريم مع العلم، كما وقع للنصارى في مسألة دوران الأرض .

وهذه مسألة قديمة في الحقيقة، موروثة عن المنطق الأرسطوطاليسي الذي كان يقول بسقوط المدلول عند سقوط الدليل، أي إذا سقط الدليل فالمدلول يسقط، ولكن إمام الحرمين تدارك الأمر، وبين أن سقوط الدليل لا يؤدي إلى سقوط المدلول، بل إذا سقط فلأنه ضعيف، فيجب البحث إذ ذاك عن دليل يوافق حقيقة وواقع المدلول .

حقيقة إن القرآن الكريم ليس كتاب علوم، ليس كالكتب والمصنفات العلمية، وإنما يضع أرض العلم، يضع أسلوب العلم ويأتي بأخبار قد يصل العقل البشري والعلم إلى إقامة الدليل عليها .

وبحمد الله إلى يومنا هذا لم يأت أي عالم ولا أية نظرية بما من شأنه أن يخالف ما جاء في القرآن الكريم، أو بما من شأنه أن يزحزح الثقة في القرآن الكريم؛ بل الاكتشافات العصرية تبين وتؤكد وتقيم الدليل على ما جاء في القرآن الكريم فيما يتعلق بالكون كما سنرى فيما يلي .

ولذلك سأحاول أن أعرف الكون كما يظهر للرائي، وكما يعرفه العلم الحديث، وأستسمح القارئ إذا كنت مضطرا إلى اللجوء إلى بعض الأعداد؛ لأنه لا مناص من ذلك .

عندما نتكلم عن الكون فإن مقاييس المسافات ومقاييس الأزمنة المتداولة بيننا ليست هي مقاييس الزمان والأزمنة والمسافات عندما يتعلق الأمر بالكون: إذا كنا في حياتنا نستعمل الكيلومترات وآلاف الكيلومترات، ونستعمل السنين والقرون، فإنه بالنسبة للكون تعد المسافات بالسنين الضوئية، وأما الأزمنة فتقاس بالملايين، بل ببلايين السنين.

السنة الضوئية:

ما هي السنة الضوئية؟ السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة، علمًا بأن سرعة الضوء تساوي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، معنى ذلك أن السنة الضوئية تساوي تسعة آلاف مليار من الكيلومترات، ولتتضح لنا هذه المسافة لابد من إعطاء بعض الأمثلة، ففي ثانية واحدة يقطع الضوء مسافة تساوي محيط الأرض مضروباً على سبعة، وفي أقل من ثانية ونصف يقطع الضوء المسافة الفاصلة بين الأرض والسماء.

معنى ذلك أن السنة الضوئية تعادل ما يفوق ستين ألف، تفوق المسافة بين الشمس والأرض مضروبة في ستين ألفاً. يعني أن السنة الضوئية مسافة طويلة وكبيرة جداً، هذا فيما يتعلق بالسنة الضوئية.

فإذا أبصرنا السماء في ليلة صافية نشاهد كثيراً من النجوم، فهذه النجوم التي تظهر للرائي، والنجوم التي لا يمكن أن نراها إلا بواسطة مكبرات بصرية، والكواكب التي تدور حول كل نجم من هذه النجوم والأجرام السماوية الأخرى.

كل هذا يكون ما نسميه بالمجرة ، وهي المجرة التي تقع فيها الأرض والشمس ، وهذه المجرة تحتوي على ما لا يقل عن مائة مليار من النجوم ، زيادة على عدد كبير يفوق هذا العدد من الكواكب ومن الأجرام السماوية الأخرى ، وهذه المجرة شكلها شكل دائري إذا صح التعبير (أسطواني) ، وقطر هذه المجرة يساوي خمسين ألف سنة ضوئية ، وهذه النجوم وهذه الكواكب كلها تسبح داخل المجرة .

فالشمس -مثلاً- تقوم بدورة كاملة حول مركز المجرة في ظرف مائتي مليون سنة وبسرعة مليون كيلومتر في الساعة ، والأرض كذلك تدور حول مركز المجرة بهذه السرعة وفي هذه المدة أي في مدة مائتي مليون سنة .
فالسؤال الآن الذي يطرح علينا ، هل هناك مجرات أخرى غير مجرتنا لأننا عرفنا مجرتنا؟

أجل ، إن هناك مجرات كثيرة ، وعددها يقدر بالآلاف المليارات ، وأغلبها أكبر من مجرتنا .

ومن المناسب هنا أن نذكر أن العالم عبدالرحمن الصوفي قد توصل أو اكتشف سنة أربع وستين وتسعمائة مجرة غير مجرتنا أطلق عليها اسم السحاب الصغير ، وهي ما يسميه الفرنسيون (لاليلوزدن تغومت) ، وتبعد هذه المجرة ، مجرة الصوفي عن مجرتنا بما لا يقل عن مليون سنة ضوئية .

وأبعد مجرة من مجرتنا ، والتي نتمكن من التقاطها بوسائلنا تبعد عن مجرتنا بخمسة عشر مليار سنة ضوئية .

فما هو الكون إذن؟ لاشك أنه سؤال صعب ، ومن الصعب الجواب عليه ؛ لأن العلم لا يعرف كل شيء إلى حد الآن عن الكون .

ولكن على وجه التقريب نقول : إن الكون هو مجموع هذه المجرات التي نلتقطها وأخرى لا يمكن أن نلتقطها ، وأن كل مجرة مكونة من عدد يقدر بآلاف الملايين من النجوم وبآلاف الملايين من الكواكب والأجرام السماوية ، ومن هنا ترد علينا أسئلة متعددة منها :

١- هل هناك كون غير الكون الذي عرفناه آنفا؟

٢- إذا اقتصرنا على الكون الذي عرفناه آنفا فهل لهذا الكون تاريخ؟
بمعنى : ما هي نشأته؟ وكيف نشأ؟ ، وكيف تطور؟ وما هو مآله؟

٣- ما هو شكل الكون ، شكله الهندسي هل يخضع لهندسة إقليدس ، المتداولة على وجه البسيطة ، أم يخضع لهندسة أخرى؟ كلها أسئلة متعددة ، وإن كانت تتسم بشيء من الجراءة وبشيء من الرجم بالغيب فإنها مع ذلك من قبيل المعقول ، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿يَمَعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن : ٣٣] . وربما قد يطول الشرح إذا حللنا جميع هذه المسائل ، ولكن سأتوقف عند تاريخ الكون إذا صح هذا التعبير ، عن نشأته كما يتصوره العلم .

فلقد تبين للعلماء عن طريق المصادفة أن المجرات التي يتكون منها الكون تبتعد بعضها عن البعض بسرعة فائقة ، وهذه السرعة تتناسب مع المسافة التي تفصل مجرتين مثلاً .

إذن ، إذا كانت المجرات تبتعد بعضها عن بعض فمعنى ذلك أن الكون يتسع ، أن الكون ينتشر ويمتد ، فإذا كان الكون يمتد فمعنى ذلك أنه كان أصغر من ذلك حجما قبل ملايين بل مليارات من السنين .

نشأة الكون :

وهنا توضع مسألة نشأة الكون ، كيف نشأ؟ هناك عدة احتمالات ، ولكن واحدة هي التي قال بها العلماء ؛ لأن لها من القرائن ما يرجحها أكثر من غيرها ، وهذا الاحتمال هو الذي تتضمنه نظرية ما يسمى بالانفجار العظيم ، وهذا الانفجار العظيم يفيد ما يلي :

يقول على وجه التقريب : إن الكون في بدايته كان يشبه نقطة مادية صغيرة ذات كثافة وحرارة كبيرتين جدًا جدًا ، سمحا لتلك النقطة المادية بأن تنفجر ، وبقوة ذلك الانفجار ، وبعد مرور مليارات من السنين تكونت من ذلك الانفجار النجوم ثم الكواكب ، ثم أجرام سماوية أخرى ، وتقسمت هذه النجوم وهذه الكواكب إلى مجرات ، وبحكم قوة ذلك الانفجار ، أصبحت تلك المجرات تبتعد واحدة عن الأخرى وباستمرار إلى يومنا هذا .

وبذلك بين العلم نظريته حول انتشار الكون ، وهنا لابد أن نتأمل قول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وهي ليست ببعيدة عما جاء به العلم : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۚ﴾ .

ومن ثم تأتي كثير من التساؤلات وهي كما يلي :

- ١- هل سيبقى الكون في انتشار مستمر أم سيتوقف؟
- ٢- هل سيتوقف هذا الانتشار؟ وإذا توقف ، هل سيبقى الكون على حاله عندما يصل حجما معيناً أم سيتقلص ذلك الحجم تدريجياً وإلى أي حد؟

وهناك تصوران اثنان :

التصور الأول : يقول بانتشار الكون إلى ما لا نهاية .

والتصور الثاني: يقول بأن ذلك الانتشار سيتوقف، وعندما يصل الكون إلى حجم معين سينقرض ذلك الحجم -أي الكون تدريجيًا- إلى أن يصل إلى نقطة صغيرة مادية لها من الحرارة ومن الكثافة ما يمكنها من انفجار آخر يؤدي مرة أخرى إلى كواكب وإلى مجرات، ثم إلى اتساع، ومرة أخرى يقع الاندثار، يقع الانكماش، ثم تبقى المسألة إلى ما لا نهاية بين انتشار وانقراض، وانتشار وانقراض.

وفي هذا الصدد أريد أن نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

فكل من هذين المحملين اللذين ذكرت أنفاً، جائز إلا أن التصور الأول الذي يقول بانتشار الكون إلى ما لا نهاية له ما يبرره من تبريرات تجعل العلماء يعتقدون أن هذا ربما هو الصحيح الذي يمكن أن يكون. وهكذا نرى من خلال ما ذكرنا -ولم نذكر إلا القليل- مدى عظمة الكون، تلك العظمة التي لم نتمكن من التعبير عنها إلا بواسطة أعداد، تلك الأعداد التي تظهر خفيفة على اللسان، ولكنها غزيرة المعاني والدلالات.

خلاصة القول:

وهنا لابد أن نتوقف وقفة تأمل لنستخلص القيمة الأخلاقية المتمثلة في عظمة الكون ولنستخلص العبرة.

والعبرة الأولى: هي أن الكون بنظامه البديع وتركيبه العجيب وامتداده العجيب، إنما يدل على وجود خالقه سبحانه وتعالى وعلى جزء ضئيل من قدرته ومن جلاله.

تلك العظمة -أي عظمة الكون- التي أدت بأحد كبار الملحدين من القرن الثامن عشر وهو «فولتير» إلى القول في آخر حياته : «كلما عمقت التفكير في سير هذا الكون تيقنت بأنه لا يمكن أن يكون بغير مدبر» .

والعبرة الثانية : تبرز من خلال استشكال جاء به العلماء ، ومن بينهم واضعو نظرية النسبية ، مفاده ما يلي : كيف أمكن لهذا الجرم الصغير - بالمقارنة للكون وهو الإنسان- أن يستوعب الكون وأن يتقمصه ، وأن يعبر عنه بمفاهيم ونظريات ، غالبا ما ابتكرها بعيدا عن الواقع المحسوس ، بعيدا عن كل شيء ، نظريات ابتكرها بكل حرية ، ما هو السر في تطابق هذه المفاهيم المبتدعة مع واقع الكون المحسوس .

أجل إننا- نحن المسلمين- نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء كلها ، ونحن نرث منه هذه القدرة ، ولكن هذه القدرة ألا تقتضي قابلية؟ ألا تقتضي فطنة وذكاء على الإبداع والابتكار؟

وهنا يعود إلينا عالم بيولوجي وهو مونود بجواب ذكي جدا يقول فيه ما يلي : فلما كان الإنسان قد خلق من تراب ولما كانت الأرض عنصرا من الكون ، ولما كان الكون قد انبثق من هذا الانفجار الذي تكلمنا عليه ، فقد انطبع تاريخ الكون في خلايا الإنسان ، في دماغه الذي هو جزء من الكون ، فبقي ذلك التاريخ يسري بحكم التسلسل الوراثي .

وما نعتقد أننا نعبر عنه بطريقة حرة وبطريقة عفوية ، إنما هو ناتج عن هذا الإرث الأزلي ، إنما هو ناجم عن تكوين الإنسان منذ بدايته .

ولئن كان هذا الجواب ربما يعتبر فيه نوع من الرجم بالغيب ، إلا أننا نعتقد أنه لا يتعارض مع القرآن الكريم ، ما دام كل شيء من خلق الله

سبحانه وتعالى ، والكل من فضله ، فالشيء الذي يختلف هو طرق الفهم لا أقل ولا أكثر ، هذا ما قاله العالم جاك مونود ، وكم كان ملهما الشاعر العربي بالمقارنة مع ما قاله مونود كم كان ملهما عندما قال :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فمن هذا المنطلق ، نؤمن بالعلم ، ونؤمن بالقرآن الكريم إيماناً مطلقاً ، علماً بأن العلم لا يثبت على حال ولا يعد بشيء ، فهو يتغير في كل لحظة وحين ، والأطروحات تتعاقب ، وكل أطروحة تأتي لتصحيح الأطروحة السابقة .

فإن إيماننا بالعلم هو الذي جعلنا نقبس هذه الأمور ونستعين بها لفهم كتاب الله وسنة نبيه ، وكيفما كان الحال فالقرآن الكريم محفوظ من لدن خالق الكون ، والإسلام كذلك محفوظ من لدن خالق الكون سبحانه وتعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] . فكل ما يأتي به العلم وما يأتي به العلماء ليس هو العلم في حد ذاته بقدر ما هو وحي إلى قلوب الناس ، إلى ضمائر الناس ، إلى نفوسهم ، فالهمم هو تلك الأنوار التي تقذف في قلب الإنسان من جراء تلك الاكتشافات العلمية .

وصدق إمامنا مالك رضوان الله عليه حين قال : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء .

المحاضرة الثامنة والستون بعد المائة

الصحة الاجتماعية من منظور إسلامي

انطلاقاً من قوله ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها» رواه الإمام الترمذي رحمه الله ، عن عبد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه ، وقال حديث حسن .

لا يخالف أحد في أن الصحة نعمة من أكبر نعم الله ﷻ ، بل هي في نظر الإسلام أكبر نعمة بعد نعمة الإيمان ، إذ يقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام ابن ماجه عن أبي بكر رحمه الله : «سلوا الله المعافاة ، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة» .

وقد اعتمدت منظمة الصحة العالمية هذه المعافاة لتعريف الصحة ، فنصت في ديباجة دستورها على أن الصحة هي المعافاة الكاملة جسمياً ونفسياً واجتماعياً ، ثم أضافت المنظمة فيما بعد البعد الروحي إلى البعد الجسمي والنفسي والاجتماعي فاكتمل بذلك تعريف الصحة واستقر معناها .

ثم إن الله سبحانه الذي قدر فهدى ، قد دل الإنسان على خير الدنيا والآخرة ، وهداه إلى ما فيه مصلحته ، وحفظ نفسه وعقله ونسله ، ومن أجل ذلك كانت آيات القرآن المجيد ، وأحاديث النبي ﷺ حافلة بعدد لا يحصى من المبادئ التي تحافظ للمرء على سوائه ، وتديم عليه معافاته وتعزز صحته الجسمية والنفسية والاجتماعية والروحية .

ولطالما تحدث علماؤنا عن هذا التماثل والتداخل بين الشرع والطب ، ومن ذلك مثلاً ما ذكره الفقيه الطبيب الفيلسوف أبو الوليد بن رشد في

«فصل المقال» بقوله : وذلك أن نسبة الطبيب إلى صحة الأبدان نسبة الشارع إلى صحة الأنفس .

أعني أن الطبيب هو الذي يطلب أن يحفظ صحة الأبدان إذا وجدت ويستردها إذا عدت ، والشارع هو الذي يبتغي هذا في صحة الأنفس ، وهذه الصحة هي المسماة : تقوى .

ولقد صرح الكتاب العزيز بطلبها بالأفعال الشرعية في غير ما آية ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] ، وقال : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنفِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] . إلى غير ذلك من الآيات التي تضمنها الكتاب العزيز من هذا المعنى ، فالشارع إنما يطلب بالعلم الشرعي والعمل الشرعي هذه الصحة ، وهذه الصحة هي التي تترتب عليها السعادة الأخروية ، وعلى ضدها الشقاء الأخروي .

ومن بعد ابن رشد قال سلطان العلماء العزبن عبد السلام ، في «قواعد الأحكام» : فإن الطب كالشرع وضع لجلب مصالح السلامة والعافية ، ولدفع مفسدات المعاطب والأسقام ، والذي وضع الشرع هو الذي وضع الطب ، فإن كل واحد منهما موضوع لجلب مصالح العباد ودفع مفسداتهم .

بعض جوانب البعد الاجتماعي للصحة :

سأتحدث عن بعض جوانب البعد الاجتماعي للصحة من المنطلق نفسه .

إن المتأمل في بنية المجتمع الإسلامي والضمانات التي وضعها الإسلام للحفاظ على مقومات هذا المجتمع ، ولتوطيد شبكة العلاقات الاجتماعية فيه ، ولتفعيل كل خلية من خلاياه تفعيلاً مستمراً متجدداً يجد في هذا المجتمع -إذا

كان مطبقاً لإسلامه - كل ما يصبو إليه من ما يكفل الصحة الدائمة للمجتمع وأفراده ، ويلمس في آلياته الاجتماعية كل ما يحقق له المعافاة الكاملة .

دعائم المجتمع الإسلامي :

وأنا متحدث إن شاء الله عن ثلاث من دعائم هذا المجتمع الإسلامي هي : التماسك ، والتعاون ، والاستكفاء أو الاكتفاء الذاتي . ومتحدث في كل منها عن عدد من الضمانات التي تكفل سلامة هذه الدعائم وقوتها .

الدعامة الأولى : التماسك :

وأول ما يلفت النظر في بنیان المجتمع الإسلامي المثالي : تميزه الكامل عن تلك المجتمعات المتفككة التي تنقطع فيها العلائق الاجتماعية وتتمزق ، وتميزه الكامل في الوقت نفسه عن تلك المجتمعات التي يذوب فيها الأفراد في بوتقة المجتمع .

فالذي يهدف إليه بنیان المجتمع الإسلامي قبل كل شيء ، هو أن يحتفظ كل فرد من أفراده بشخصيته ، في الوقت الذي يتماسك فيه هؤلاء الأفراد تماسك البنیان ، مصداقا لوصف النبي ﷺ لهذا المجتمع ، في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

قال الإمام القرطبي في تفسيره : فإن البناء لا يتم ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضا ويقويه ، ولا يكون ذلك بالدمج والصهر ، وإنما بالتوحد والتآلف .

وللتآلف بعد غيبي شريف ، ذكره الله ﷻ في سورة الأنفال بقوله عن المؤمنين : ﴿ وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

ومن هنا كان التشبيه الآخر الذي أورده النبي ﷺ مجتمع المؤمنين في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وواضح أن خلايا الجسد لا تعيش عيشة فردية منعزلة، وإلا ماتت جميعاً، بل هناك رابطة تجمع بينها، وتجعلها تعيش عيشة الجسد الواحد. ولننظر إلى هذه الإشارة اللطيفة في الحديث إلى قوة التماسك، والتعبير عنها بصيغة التفاعل فهو تواد وتراحم وتعاطف، يود كل كلا، ويعطف كل على كل، ويرحم كل كلا.

ولدينا في المصطلح الإسلامي لفظ جميل دقيق للتعبير عن التماسك، هو: ذات البين، قال القرطبي رحمه الله: ذات البين، أي الحال التي يقع بها الاجتماع.

وقال السيد رشيد رضا رحمه الله في «تفسير المنار»: وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين، فهو واجب شرعاً، تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومناعتها، وتحفظ به وحدتها، وقد صدق رحمه الله وأحسن إليه.

أما في الكتاب، فقد قال الله ﷻ في سورة الأنفال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وأما في السنة، فقد قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي الدرداء: «ألا أنبئكم بدرجة أفضل من الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين. ثم قال: وفساد ذات البين هي الحالقة».

وسائل التماسك والترابط:

وفي الإسلام ضمانات مهمة تضمن بقاء هذا التماسك ، أهمها ثلاث :
صلاة الجماعة ، وإفشاء السلام ، والشورى .

صلاة الجماعة :

وما إخالني بحاجة إلى الحديث عن وجوب صلاة الجماعة ، وعن التشديد فيها ، والزجر على التخلف عنها ، ولكني أريد أن أقول : إن في صلاة الجماعة تذكيراً دائماً ، يتكرر خمس مرات كل يوم ، بانتفاء المرء إلى مجتمع .

وأريد أن أقول : إن التذكيرات اليومية التي يكررها الإمام ، كل إمام في صلاة الجماعة ، هي نفس ما يراد التذكير بها في شأن المجتمع كله .

ففيها أمر بالاستواء والاستقامة : «سوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة» . وهو حديث متفق عليه عن أنس .

وفيهما نهي عن الاختلاف خشية اختلاف القلوب : «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» . رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود .

وفيهما رص الصفوف ونبذ التباعد : «رصوا صفوفكم وقاربوا بينها» . رواه النسائي عن أنس .

وفيهما اللين بأيدي الإخوان بما يديم الألفة ، والحرص على عدم السماح بأي خلل في الصف الإسلامي ، أو فرجة يتسلل منها الشيطان ، «أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات للشيطان» . رواه أبو داود عن ابن عمر بإسناد صحيح .

بل فيها الترغيب في الانضمام إلى الصف الإسلامي : «من وصل صفًا

وصله الله» رواه النسائي عن عبد الله بن عمر .

والترهيب من الابتعاد عن الصف الإسلامي : « لا صلاة للذي خلف الصف» رواه ابن ماجه عن علي بن شيبان .

إفشاء السلام :

أما الضمانة الثانية المهمة من ضمانات التماسك ، فهي : إفشاء السلام والأصل في ذلك حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم» . وفي ظني أن إفشاء السلام المذكور في هذا الحديث لا يقتصر على التسليم والتحية ، وإن كان ذلك عاملا مهما جدا من عوامل التماسك ، حتى ورد في السنة الحضر على إلقاء السلام على من يعرف المرء ومن لا يعرف ، كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو .

ولكنني أظن أن الإفشاء الوارد في الحديث ، ينسحب على السلام الاجتماعي بجميع وجوهه وصوره ، وينطبق على كل ما يزيد في التحاب والتواد بين أفراد المجتمع ، وينأى بهم عن البغضاء والشحناء .

ومن ذلك فيما يزيد المحبة حديث المقدم بن معدي كرب الذي أخرجه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» .

ومنها : حديث عبد الله بن عباس الذي أخرجه الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا» .

ومنها : الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «حق

المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس .

ومنها : الحديث المتفق عليه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

ومن ذلك فيما ينأى عن البغضاء والشحناء : الحديث الجامع المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا ، ويشير إلى صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله ، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

الشورى :

وأما الضمانة الثالثة من ضمانات التماسك فهي : الشورى .

وقد أمر الله سبحانه بها نبيه ﷺ في سورة آل عمران فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . واعتبر الشورى صفة مميزة لمجتمع المسلمين ، فقال عنهم في سورة الشورى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] . وقال لهم في سورة الطلاق : ﴿ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : ٦] .

وهذه الشورى ينبغي أن تتحقق على جميع المستويات ابتداء من مستوى الخلية الاجتماعية الصغيرة ، وهي الأسرة وذلك في صغير الأمر وكبيره ؛ لأن الله سبحانه قد أوجب الشورى في الأمر كله ، ولم يفرق بين صغير

وكبير ، بل قال في شأن فطام الرضيع : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

وقد كان من نعم الله على عباده أنه لم يحدد للشورى صورة واحدة ، ولا قوالب ثابتة ، بل كل ما تتحقق به الشورى أيا كانت صورته وآليته ، محقق -إن شاء الله- لمراد الله ﷻ .

والديمقراطية في صورتها التي تطبق بها في العصر الحديث درجة من درجات الشورى مقبولة محمودة ، رغم أنها تقصر كثيرا عن أن تبلغ الآفاق العلى التي تطمح إليها الشورى .

ففرق كبير بين أن يكون للمرء صوت يختار به من يمثله ويفوض إليه أن ينوب عنه في اتخاذ القرار ، وبين أن تكون له كلمة في اتخاذ كل قرار يتعلق به .

أن يكون للمواطن صوت يعني أنه قد فوض أولئك الذين أعطاهم صوته ، ومنحهم ثقته فهم يخططون له ، ويختارون له ما يظنون أنه خير له ، وهم قلما يواصلون التشاور معه في الجزئيات بعد أن يختارهم ، وإنما يجتهدون في تقرير أولوياته بالنيابة عنه ، ويجتهدون في اختيار سبل تحقيق هذه الأولويات دون أن يرجعوا إليه .

أما أن يكون للمواطن كلمة ، فيعني : أن أولئك الذين اختارهم يواصلون التشاور معه حتى في الجزئيات بأسلوب مرن ، يختلف باختلاف الظروف والأحوال ، وأنهم يستشيرونه في تحديد أولوياته ، وفي سبل تحقيق هذه الأولويات .

صور تحقق الشورى :

وأنا ذاكر صورتين اثنتين من الصور التي تتحقق بها هذه الشورى خير تحقيق :

الصورة الأولى : استفتاء المواطنين بين الفينة والفينة في بعض الجزئيات والتفاصيل ، كالذي يحدث في بعض البلدان من استفتاء حول بناء جسر أو شق نفق أو انتهاء إلى منظمة دولية أو ما إلى ذلك .

وأما الصورة الثانية : وأنا عائد إليها بعد قليل -إن شاء الله- فهي : التشاور مع أفراد المجتمع المحلي في تحديد أولوياتهم التنموية ، وفي كيفية وضع هذه الأولويات موضع التنفيذ .

وأذكر أن آية سورة آل عمران إنما نزلت بعد أن شاور النبي الكريم صلوات الله عليه أصحابه ونزل على رأي الأغلبية من الشبان الذين تحمسوا للخروج إلى أحد ، على خلاف ما مال هو إليه -بأبي هو وأمي- وما ارتآه كبار المهاجرين والأنصار .

وقد تبين خطأ الأغلبية فيما بعد ، وتعرضوا إلى ما تعرضوا إليه في غزوة أحد حتى أخذوا يصعدون ولا يلوون على أحد ، وحتى أثابهم الله غما بغم ، ومع ذلك فإن رب العزة سبحانه قال لنبيه الكريم : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ .

الدعامة الثانية : التعاون :

الدعامة الأولى من دعائم الصحة الاجتماعية إذن هي التماسك . أما الدعامة الثانية فهي : التعاون ، ويوضحها قول النبي ﷺ : « خير الناس أنفعهم للناس » .

وهذا الحديث الذي رواه الدارقطني في الأفراد والضياء المقدسي في المختارة عن جابر تعبير عن المظهر الإيجابي لجلب المصالح . ومثله قوله ﷺ : «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل» . وهو حديث رواه مسلم عن جابر .

فالمفترض في المسلم أن ينفع أخاه ويعمل ما وسعه على أن يجلب إليه ما فيه مصلحة ولا يسمح للإسلام للمسلم أن يكون سلبيا أو لا مباليا بل ينزع صفة الانتماء إلى المجتمع الإسلامي نزعا صارما عن كل فرد من أفراد لا يهتم بمصلحة الآخرين ؛ لأن : «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» ، كما في الحديث الذي رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن حذيفة بن اليمان .

وينبني هذا الركن على مفهوم أخوة المؤمن للمؤمن الذي ورد عليه النص في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ثم وضحه النبي ﷺ كل التوضيح بقوله في الحديث المتفق عليه عن أنس : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

وقوله ﷺ فيما رواه أبو داود ، وخرجه العراقي في «تخريج الإحياء» : «المؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه» .

وقوله ﷺ في المتفق عليه عن ابن عمر : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه» ، وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة : «ولا يخذله» .

وهكذا ، فلا يحل للمسلم أن يرى أي فرد آخر في المجتمع الإسلامي يتعرض إلى سوء فيقف منه موقف المتفرج ، ولا يمد إليه يد العون ؛ لأنه بذلك يكون قد خذله وأسلمه ، بل ظلمه حقا هو له على كل أخ في المجتمع الإسلامي .

وفي الإسلام ضمانة مدهشة ، تضمن بقاء هذا التعاون والمحافظة عليه ، وهي ضمانة فريدة لا نجد لها في أي نظام آخر ألا وهي : فرض الكفاية .

فتحقيق كل ما فيه مصلحة للمجتمع الإسلامي يعتبر فرض كفاية ، أي إنه فرض جماعي لا بد من أن يقام به ، ولكنه لما كان يمكن أن يقوم به بعض أفراد المجتمع فحسب ، فإن من غير الضروري استنفار جهود الجميع للحصول عليه ، ولكن الضمانة تأتي في أنه إن لم يقم به أحد فالكل آثمون .

لذلك يعتبر كل امرئ نفسه مطالبا بفرض الكفاية قبل سائر إخوانه ، ويتسابق وإياهم على القيام به تنفيذا لقول الله ﷻ : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : «بادروا بالأعمال الصالحة» .

وقد تحدث عن فرض الكفاية العزبن عبدالسلام حين حديثه عن حقوق بعض المكلفين على بعض وذكر أن ضابط هذه الحقوق هو : جلب كل مصلحة واجبة أو مندوبة ، ودرء كل مفسدة محرمة أو مكروهة .

وهي منقسمة إلى فرض عين ، وفرض كفاية . وسنة عين ، وسنة كفاية . والشرعية طافحة بذلك ، ويدل على ذلك جميعا قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

وهذا نهى عن التسبب في المفسد ، وأمر بالتسبب إلى تحصيل المصالح . وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وهذا أمر بالمصالح وأسبابها .

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وهذا نهى عن المفسد وأسبابها .

الدعامة الثالثة : الاكتفاء الذاتي :

وأما الدعامة الثالثة من دعائم المجتمع الإسلامي إلى جانب التماسك والتعاون فهي : الاستكفاء ، أو الاكتفاء الذاتي . ويعني بذلك بقاء المجتمع الإسلامي في حالة نمو دائم بناء ، كما جاء مثله في الإنجيل : ﴿كَرَّعَ أَخْرَجَ شَطْءَهُ، فَآزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فكل ابن من أبناء المجتمع الإسلامي كمثل الشطء أو الغصن الذي يتفرع عن جذع الشجرة ، ولكنه لا يكون عبئاً عليه ، وإنما يقوم بدوره في دعم المجتمع يؤازره ونتيجة لهذه المؤازرات المتعددة المتواصلة يستغلظ المجتمع ، ويستوي على سوقه ويعجب .

والأصل في ذلك أن المجتمع الإسلامي يوجب على كل فرد من أفرادهِ أن يساهم في دعم المجتمع حتى لا يحتاج إلى الغير بقدر الإمكان .
فالمسلم كما يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى : «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» .

وكما قال أيضاً : «طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية» ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن جابر .

بل لقد قال ﷺ : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»^(١) . فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل .

(١) سبق تخريجه .

وضرب ﷺ هذا النموذج الرائع لفئة فاضلة من المجتمع الإسلامي في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى «إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم» .

والإسلام يأمر المسلم أن يسعى في تأمين دخله . فالله ﷻ يقول : ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠] ، وهو يشجعه على الأعمال التي يستطيع بها أن يستجلب الدخل لنفسه ، فيستعف به عن سؤال الناس ويستغني ، ويكتفي بنفسه وجهده عن الاعتماد على الغير . فالنبي ﷺ يقول : «من استغنى أغناه الله ﷻ ، ومن استعف أعفه الله ﷻ ، ومن استكفى كفاه الله ﷻ» وهو حديث حسن صحيح رواه النسائي عن أبي سعيد الخدري .

ويقول : «لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» وهو حديث رواه البخاري عن الزبير بن العوام .

ويقول «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» . رواه البخاري عن المقدم بن معدي كرب .

بذلك يبنى مجتمع اليد العليا الذي قال عنه النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن حكيم بن حزام : «اليد العليا خير من اليد السفلى» .

توفير الاحتياجات التنموية الأساسية في حضارة الإسلام :

بعد هذا الذي قدمته عن دعائم الصحة الاجتماعية في الإسلام . سأحدث عن مفهوم توفير الاحتياجات التنموية الأساسية هذا ، مفهوم

عميق الجذور في حضارة الإسلام . والمطالع لسيرة النبي ﷺ يلفت نظره أن أول ما اهتم به النبي ﷺ بعد أن استقر به المقام في المدينة ، أن يوفر لهذا المجتمع الوليد الحد الأدنى من الاحتياجات الأساسية .

أولاً : الأمن :

وقد كان في مقدمة هذه الاحتياجات : الأمن . وهو الشرط الذي لا يمكن لسائر الاحتياجات أن تلبى أو تزدهر إلا في ظله .

وقد بين القرآن الكريم في مواضع عديدة أهمية الأمن ، فذكر لنا دعاء أبينا إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

وذكر لنا أن يوسف ﷺ قال لأبويه وإخوته : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩] .

ومن على قريش فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص : ٥٧] .

وقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣، ٤] .

وقال النبي ﷺ : «من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا» . وقد روى هذا الحديث ابن أبي الدنيا في «القناعة» عن عبدالله بن عمر ، وابن ماجه والبخاري في «الأدب المفرد» ، والترمذي من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وهو حديث حسن . بمجموع الطريقتين .

ومن أجل ذلك آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، ثم أبرم

معاهدة مع اليهود ورد نصها في صحيفة المدينة المشهورة .

وفيها : أن يهود بني عوف وكذا سائر قبائل اليهود أمة مع المؤمنين ، وإن كان لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم .

وفيها أن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن .

ثانيا : الماء :

ومن هذه الاحتياجات الأساسية التي اهتم النبي ﷺ بتأمينها : الماء . ففي حديث عثمان الذي رواه الترمذي وحسنه ، أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب -أي يصلح للشرب- غير بئر رومة ، فقال رسول الله ﷺ : «من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة» . فاشتراها ذو النورين عليه السلام ، وجعلها تحت تصرف المسلمين .

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي ذر : «إفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة» .

وقال في الحديث الذي رواه البخاري في «الأدب المفرد» عن أبي ذر : «والشربة من الماء تسقيها صدقة» .

ثالثا : الغذاء :

ومن هذه الاحتياجات الأساسية كذلك : الغذاء ، وقد قرنه الله سبحانه بالأمن في الآية التي تقدمت ، وكذلك قرنه به النبي ﷺ في الحديث الذي سبق .

وقد حض النبي ﷺ على الزراعة التي بفضلها يتوافر الغذاء ، فقال : «لا يغرس المسلم غرسا ولا يزرع زرعاً يأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء

إلا كانت له صدقة» رواه مسلم عن جابر .

بل قال : «إن قامت الساعة وبيد أحدهم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل» وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عند أنس بن مالك حديث عجيب ، فقد كان المرء يتوقع أن يأمره رسول الله ﷺ إذا قامت الساعة بأن يسارع بالتوبة ويلجأ إلى التضرع والاستغفار ، فإذا به يأمره بأن يغرس فسيلة .

رابعاً : المسجد :

ومن هذه الاحتياجات الأساسية : المسجد . وهو في الإسلام ساحة العبادة ، ودار التربية ، ومدرسة العلم ، وندوة الأدب ومكان اجتماع المسلمين .

وفي «الصحيحين» وغيرهما من حديث أنس قصة بناء المسجد ، وفيها كيف كان الرسول ﷺ يشارك أصحابه الكرام في حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم ، ويجهد كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم .

خامساً : التعليم :

ومن هذه الاحتياجات الأساسية : التعليم . وقد حض النبي ﷺ على طلب العلم ، بل جعل ذلك فريضة تتصف بكل ما تتصف به الفرائض من طهارة وإخلاص ووجوب . فقال ﷺ في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أنس : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» . ولا خلاف بين العلماء في أن لفظ المسلم يشمل الذكر والأنثى ، بل إن كثيرا من العلماء يرويه : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» .

ولا يخفى أن اعتبار طلب العلم فريضة من الفرائض يوجب على الدولة الإسلامية أن تلزم المسلمين بها رجالا ونساء ؛ لأنها جزء من

المعروف ، وقد جعل الله من واجبات الذين يمكنهم في الأرض أن يقيموا الفرائض ويأمرُوا بالمعروف : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الحج : ٤١] .

كذلك قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الدارمي عن أبي الدرداء : «الناس عالم ومتعلم ، ولا خير فيما بعد ذلك» . وجعل فداء الأسرى يوم بدر أن يعلم من يعرف القراءة والكتابة منهم عددا من المسلمين ، بل حدد ﷺ نوعية العلم المطلوب ، فقال في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم سلمة : «اللهم إني أسألك علما نافعا» وقال في الحديث الذي رواه مسلم عن زيد بن أرقم : «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» .

كما حدد الطريقة التربوية المثلى للتعليم والتعلم ، فقال ﷺ في الحديث الحسن الذي أخرجه الخطيب في «تاريخه» عن أبي هريرة «إنما العلم بالتعلم» . وقال ﷺ وهو يعلم أصحابه في الحديث الذي رواه البخاري في «الأدب المفرد» ، وأحمد عن ابن عباس : «علموا ، ويسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا» .

سادسا : استدرار الدخل :

ومن هذه الاحتياجات الأساسية : استدرار الدخل ، وإنما يكون ذلك بالعمل ، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد عن أبي هريرة : «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح» .

وقال ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم عن رافع بن خديج : «أطيب الكسب عمل الرجل بيده» . وقال صلوات الله عليه في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري : «على كل مسلم صدقة» .

قالوا فإن لم يجد . قال : « فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » .

ونحن في أمس الحاجة اليوم إلى اتباع هذا المنهج الذي شرعه لنا الرسول الكريم ﷺ . ولا نشك لحظة في أنه سيثبت نجاحا ، فيصلح أمر آخر هذه الأمة بما صلح به أولها . وإنما نطلق عليه اسم أسلوب توفير الاحتياجات التنموية الأساسية إirازا لمنطلقه الإنشائي أو الإعماري ، الذي هو غاية رئيسية من غايات وجود الإنسان على هذه الأرض .

والله سبحانه قد بين ذلك بقوله : ﴿ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] ، وهو ما فهمه العالم المسلم ابن خلدون ، بثاقب نظره ، وعمق تفكيره ، وعبر عنه في المقدمة بقوله : الاجتماع ضروري للنوع الإنساني ، وإلا لم يكمل وجودهم ، وما أراد الله من اعتماد العالم بهم ، واستخلافه إياهم . وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم .

ولقد يسر الله سبحانه للإنسان سبل عمارة الأرض كما يتبين من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ ﴾ [الأعراف : ١٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا ﴾ [المالك : ١٥] .

ولذلك كان طبيعيا أن يلتزم المرء المسلم بطاعة ربه في تحقيق غاية العمران ، أو فلنقل : التنمية ، بمصطلح اليوم ، وأن يستفرغ في العمل التنموي جهده ، وي بذل غاية طاقته وأقصى وسعه ؛ لأن ربه ﷻ يأمره بذلك فيقول : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح : ٧] ؛ ولأن نبيه ﷺ يقول له : « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

المحاضرة التاسعة والستون بعد المائة

الإسلام دين الأمانة

يشكو الناس فساد الزمان فهلا رجعوا إلى أنفسهم ونظروا فيما استخلفهم الله فيه من أرضه . فمن المعاني التي من شأنها أن يصلح بها المسلم نفسه وما حوله : «الأمانة» .

معنى الأمانة في القرآن والسنة :

قد جاءت الأمانة في القرآن بمعنى الوديعة التي تستودع عند أحد ، فيجب أن يردّها سليمة إلى صاحبها . ومن ذلك قوله تعالى في الرهان بدلا من كتابة الدين في حالة عدم وجود الكاتب في السفر ، ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] إلا أن الأمانة قد اتخذت في الكتاب والسنة معاني أخرى كثيرة .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما خطبنا نبي الله ﷺ إلا قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له» ، وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ المسلمين في خطبة حجة الوداع قوله في النساء : «وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ومن كانت عنده أمانة ، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها»^(١) .

فنشهد نحن مع أهل الموقف أنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة أتم أداء . وفي تعميم رسول الله ﷺ معنى الأمانة امتثال للقرآن ، ففي آخر سورة

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥ / ٧٢) ، وأخرج الشطر الأول مسلم (١٢١٨) من حديث

جابر رضي الله عنه .

الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ،
ثم ختم السورة ببيان المقصود من هذا العرض بقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٣] .

ظلم الإنسان لنفسه ولغيره يوم تحمله للأمانة

فما هي هذه الأمانة التي استقلها أحسن الخلائق وحملها الإنسان الضعيف ، ظالما لنفسه ولغيره ، جاهلا بقدرها وبعاقيبتها؟ يرى أكثر المفسرين أنها فرائض الدين أو جميع وظائف الدين أو بعبارة أخرى «التكليف» فإن فيها معنى المشقة .

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن السموات والأرض والجبال عندما عرضت الأمانة عليهن ، سألن : وما فيها؟ قيل لهن : إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكروا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، إذن قبلها آدم مخيرا ، ثم بنوه ، فهم مسئولون عن هذا الحمل ، مجزيين عليه . والتكليف شامل هنا لحقائق الإيمان والتوحيد والقيام بوظائف الدين .

الإيمان أمانة الباطن ، والشريعة بأنواعها أمانة الظاهر ، فمن قام بهاتين الخصلتين كان آمينا وإلا كان خائنا - كما ذكره الشيخ ابن عجيبة في بحره المديد - ولأن الإيمان أول أمانة يؤتمن عليها الإنسان ، عليه يقع الجزاء أولا فذكر الله تعالى عذاب المشركين والمنافقين وتوبته على عباده المؤمنين ، وإنما ذكر الله التوبة على الغفران لعلمه بأن الإنسان ولا بد مقصر في أمانته ، وخير الخطائين التوابون .

ثم بين المفسرون أن العبادات كلها أمانات وكذلك المعاملات . ومن منا يدعي أنه أدّى الصلاة على أتم وجه ، وراعى أمانة الله فيها .

الأمانة تشمل أعضاء الإنسان وجوارحه :

الإنسان بطبعه ضياع للأمانة وكذلك أعضاء الإنسان وجوارحه أمانات عنده ؛ العين والأذن واللسان واليد والرجل والفرج والقلب مؤتمن على ذلك كله ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، والأحاديث بين الناس أمانات .

روى أبو داود في السنن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة» ، أي لا يفشي هذا الكلام في غير موضعه .

والوظائف والأشغال كلها أمانات ، دينية كانت أم دنيوية .

أورد مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : ألا تستعملني؟ قال : فضرب بيده على منكبي ثم قال : «يا أباذر، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذ بحقها ، وأدّى الذي عليه فيها» فإن كان الإنسان الذي حمل الأمانة : آدم عليه السلام فلا شك أن الأمانة أيضاً خلافته في أرض الله وهي سارية في جميع بنيه كما قال ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

الأمانة تشمل التكاليف التي يحاسب عليها الإنسان :

فقد جاءت الأمانة شاملة لكل التكاليف التي يحاسب عليها الإنسان ، ولنا أن نتساءل : هذه الأمانات أو الودائع إلى من نردها؟ يقول الله عز من

قائل في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ثم قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ [النساء: ٥٩] إلى آخر الآية .

ولأجل ذكر أولي الأمر في الآية الثانية ، كان الإمام علي عليه السلام يرى أن أداء الأمانات يخص هنا ولاية الأمر ، كما روى عنه الطبري في تفسيره : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة وإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعه وأن يجيبوه إذا دعوا .

سبب نزول هذه الآية الكريمة :

ولكن ورد في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وطاف بالبيت طلب من عثمان بن طلحة من بني شيبه من بني عبد الدار . وكانت عندهم سدانة البيت أن يسلم إليه مفتاح الكعبة ، فامتنع عثمان أولاً ، ثم ناول الرسول المفتاح قائلاً له : هاك الأمانة ! فطلب العباس عليه السلام عم الرسول ﷺ أن يناوله المفتاح . أي أراد أن يضيف إلى السقاية سقاية الحجاج التي كانت عند بني هاشم سدانة البيت . فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وصلّى فيها وأنزل الله تعالى عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية ، ورد المفتاح إلى عثمان بن طلحة . فلم يلبث هذا أن أسلم معجبا بدين يؤدي الأمانات إلى أهلها .

هذه الآية أصل للسياسة الشرعية :

وهذا خبر خاص أريد به العام ، ولذلك جعل الإمام أحمد بن تيمية هذه الآية أصلاً للسياسة الشرعية أي وجب تولية الأصلاح على كل عمل من

أعمال المسلمين ولكن رأى الإمام الفخر الرازي في تفسيره الأمر أعم من ذلك ، يرى أن الله تعالى قد قدم الأمانات في هذه الآية وهي جميع الحقوق التي على الإنسان أن يؤدي إلى من له عليه حق وآخر الحكم بالعدل وهو جميع الحقوق التي للناس على غيرهم ، فأنت مأمور بأن تأمر من عليه الحق أن يدفع لمن له الحق .

فعلى هذا تبدأ بنفسك ثم تشتغل بالغير ، وهكذا ترتيب الشريعة . ثم إن الله تعالى مدح المؤمنين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، ومن حيث رعايتها وإلى من نؤديها . يقسم الإمام الرازي رعاية الأمانات إلى أقسام ثلاثة :

تقسيم الرازي لرعاية الأمانات إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - رعاية الأمانة مع الله في العبادات واستعمال الجوارح مثلاً .
- ٢ - رعاية الأمانة مع الخلق ، وأنواعها كثيرة : الودائع وسائر الأموال التي يؤتمن عليها الإنسان وترك التطفيف في الكيل والوزن وسائر الحرف والوظائف وكل من له علينا حق فهو أمانة عندنا وهو بمعنى حديث «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(١) .
- ٣ - رعاية الإنسان الأمانة مع نفسه : فحرام على الإنسان أن يضيع نفسه جسماً ونفساً وعقلاً وروحاً ، فالكل أمانة عنده وعليه أن يختار الأصلح لنفسه كما يختار ولي الأمر الأصلح في ولاية من الولايات .

(١) سبق تخريجه .

التحذير من خيانة الأمانة:

الإنسان في هذه الرعاية بين الأمانة والخيانة فحذرنا من الخيانة فقال عز شأنه في سورة الأنفال، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] ورد في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ عندما حاصر بني قريظة في حصونهم بعد وقعة الأحزاب، بعث إليهم أبا لبابة طلبا منهم، وذلك أن أبا لبابة كان من الأوس وكان من حلفاء بني قريظة. فقالوا له: أترى أنزل على حكم محمد؟ فقال: نعم.

وفي نفس الوقت ولأن نفسه خانتته أشار أبو لبابة إلى حلقه، أي سيكون الذبح. فوصل رسول الله ﷺ الكلام، وخانه بالإشارة. وما أن فعل ذلك حتى عرف أنه خان الله ورسوله، فانطلق على وجهه ولم يرجع إلى الرسول حتى ارتبط إلى عمود في المسجد وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت.

وقيل: إنه أخبر بني قريظة بما سيكون لأنه كان له عندهم أولاد وأموال ولذلك قال الله تعالى في الآية التي بعدها ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] فأخبرنا سبحانه أن خيانة النفوس يأتي أكثرها من تعلقها بالدنيا إلا أن المؤمن الحقيقي مثل أبي لبابة على علم بذلك فأسرع إلى التوبة لذلك ختم الآية بقوله ﴿... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أنواع الخيانات:

نجد في هذه الآية أن الخيانات ثلاث: خيانة الله وخيانة الرسول وخيانة الأمانات.

قل خيانة الله فيما يخفى عن الناس من الفرائض فإنه لا يطلع عليها إلا الله، وقل هو حب الدنيا؛ فإنه لا يجتمع في قلب الإنسان حب الله وحب الدنيا.

وأما خيانة الرسول فقليل في ترك السنن والآداب وبالأخص ترك الأدب مع رسول الله ﷺ. ومن ذلك إذابة أهل البيت وعدم محبتهم، وقد أمرنا الله على لسان رسوله فقال ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فهذه أمانة عظيمة عند المسلمين.

وأما خيانة الأمانات فمن العلوم التي يجب إيصالها إلى من يستحقها كما قيل: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم». وقد تكون الأمانات هنا أيضًا بمعنى النفوس، فنفس الإنسان أعدى عدوه وهي في نفس الوقت أثمن الكنوز والأمانات، ومن ضيع الأمانة صار لها ضامنا.

فقد أصبح الإنسان بجمعه لهذه الأمانات كلها، حملها في مركز دائرة الكون وقد يكون سر حمله أنه بخلاف السموات والأرض، هذه الكائنات العليا والسفلى، جامع بين الأعلى والأسفل، بين الروح والجسد بين الحس والمعنى فاغتر بذلك وحمل ما لا يطيق.

الإنسان أمين على ما أوتقن عليه :

ومهما يكن الأمر فقد أصبح الإنسان مؤتمنا على ما بينه وبين ربه ، وما بينه وبين نفسه ، وما بينه وبين الناس ، وما بينه وبين سائر الأكوان . وقد صدقت هذه الآية ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم : ٤١] في زمان نزول القرآن ، فماذا نقول اليوم ؟ ففي شعور الإنسان -والإنسان المسلم المؤمن بصفة خاصة أنه أمين على كل شيء على نفسه وعلى أهله وعلى أولاده وعلى إخوانه وعلى كل من له حق عليه- بأنه أمين على علمه وعمله وعلى محيطه . مبدأ عظيم في إصلاح الحاضر والمجتمع والبيئة .

وقد يقول القائل : إن الأمانات قد كثرت وأننى لنا بها ؟ ولكن لو اجتهد كل واحد بأداء واحدة من هذه الأمانات فربما نال من الفلاح ما وعد الله عباده المؤمنين الراعين للأمانات والعهود ، يقول سيد الأماناء ﷺ فيما يرويه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة» .

المسئوليات مشتركة بين الجميع

ومن وجهة أخرى نلاحظ أن الناس يشتكون من فساد الأحوال في كل المجالات وهؤلاء عادة يرون المسؤولية على الآخر لا على أنفسهم ، والأمر يقتضي الطرفين والأمانات متبادلات . الزوجة أمانة عند زوجها وهو أمانة عندها ، والأولاد أمانة عند والديهم وهما أمانة عندهم ، والتلاميذ أمانة عند الأستاذ وهو أمانة عندهم ، والرعية أمانة عند الراعي ، وهو أمانة عندهم . وهكذا والبر والبحر أمانة عند الناس . وما للإنسان لا يحافظ

على الأرض ولا على السماء؟ والأولى ثقله والأخرى تظله . فالمسئوليات فيها اشتراك .

والآن إن نظرنا إلى كل هذه الحقائق التي أحاط بها معنى الأمانة رأينا أنها اجتمعت كلها في هذا القرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ﷺ فكما أبت الجبال أن يحملن الأمانة وأشفقن منها وحملها الإنسان كذلك لم يطق الجبل نزول القرآن عليه ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا عَلَى الْفُرَّانِ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] . وكما كان الإنسان ظلوماً جهولاً كان القرآن حجة على الإنسان إما له وإما عليه .

من الأمانات الجامعة الرسالة المحمدية :

من الأمانات الجامعة أيضاً الرسالة التي بلغها رسول الله ﷺ إلى أمته بما فيها من الإنذار والتبشير والدعوة إلى الله والتشريع فأدلى رسول الله ﷺ هاتين الأمانتين إلى أمته فكل مسلم مؤتمن عليهما ، والمؤتمن ضامن إن قصر في رعاية الأمانة .

ويقول المصطفى ﷺ فيما رواه الإمام مالك : «ترك فيك أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه» .

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» .

رفع القرآن والأمانة عند اقتراب الساعة:

فأداء الأمانة في القرآن والسنة العلم والعمل بهما ، وأداء الأمانة في أهل البيت المودة في القربى ، ومن المناسبة بين القرآن والأمانة أنها سيرفعان عند اقتراب الساعة كأن الأرض لا تقوم إلا على من يحملها إذا ذهب لم يبق لهذه الدنيا معنى .

روى الدارمي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ليسرين على القرآن ذات ليلة ولا يترك آية في مصحف ولا في قلب أحد إلا رفعت » ، وفي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه .

الأمانة في الوداع:

وأخيرا لا ننسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ودع رجلاً - وبين الوداع والودعة قرابة لغوية - أخذ يده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو يدعها . أي : يدع يد النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول صلى الله عليه وسلم : « أستودع الله دينك وأمانتك وآخر عملك أو خواتيم عملك »^(١) .

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤٣) ، وأبو داود (٢٦٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

المحاضرة السبعون بعد المائة

نصر الله للمؤمنين

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٦٨﴾ [الحج: ٣٨-٤١].

حول سورة الحج:

هذه أربع آيات من سورة كريمة تسمى بسورة «الحج»، وسورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب سور المصحف، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية، وسميت بهذا الاسم لحديثها بشيء من التفصيل عن أحكام فريضة الحج، وعن سمو منزلة المسجد الحرام، وعن أمر الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام بتطهير بيته للطائفين والقائمين والركع السجود.

وهذه الآيات الكريمة يرى جمع من المحققين أنها أول ما نزل من قرآن في مشروعية الجهاد، وفي الإذن للمؤمنين بأن يدفعوا عدوان المعتدين بكل ما يملكون من قوة أحلها الله سبحانه وتعالى للدفاع عن عقيدتهم، وللدفاع عن أنفسهم، وللدفاع عن أموالهم، وللدفاع عن حريتهم، وللدفاع عن

كرامتهم الإنسانية التي منحها الخالق ﷻ لهم فهو القائل : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ كُلِّ شَيْءٍ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

الله ﷻ يدافع عن الذين آمنوا :

وقد افتتحت هذه الآيات بوعده من الله ﷻ ووعده الله ﷻ لا يتخلف ، افتتحت بأن الله ﷻ يدافع عن المؤمنين ، ويجعل النصر في النهاية لهم فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ .

أي : إن الله تعالى بفضلله وعونه يدافع عن المؤمنين بأن يجعل العاقبة الطيبة لهم ، وبأن يرد كيد أعدائهم في نحورهم كلما حاولوا العدوان على من أخلصوا العبادة لخالقهم ﷻ .

فالجملة الكريمة بشارة للمؤمنين ، وتشيت لعزائمهم ، وتحريض لهم على الصمود في وجه الظالمين ، حتى يقبلوا على ما شرعه خالقهم لهم بإقدام لا تردد معه ، وبأمل عظيم في النصر .

أسباب دفاع الله تعالى عن المؤمنين :

وقوله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذه الجملة الكريمة بيان لأسباب دفاع الله سبحانه وتعالى عن عباده المؤمنين ، وتعليل لخذلانه ﷻ لمن بغى عليهم . والإنسان الخوان هو الذي صارت الخيانة صفة ملازمة له ، والإنسان الكفور هو الذي يحدد الحق مع معرفته بأنه حق . فهو يحدد الحق لا عن جهل ونسيان ، وإنما يحدد الحق عن علم ونكران ، واللفظان كلاهما صيغة مبالغة لكل ملازم للخيانة ، ولكل مصر على جحود الحق .

والمعنى : إن الله ﷻ يدافع عن المؤمنين لأنهم قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا على طريق الحق ، ويكره الذين انغمسوا في الخيانة ، وفي جحود النعم إلى أحط الدرجات .

المؤمنون يدافعون عن دينهم وعن أنفسهم :

ثم رخص الخالق ﷻ لعباده المؤمنين في الدفاع عن دينهم وفي الدفاع عن حقوقهم التي شرعها الله سبحانه وتعالى لهم بعد أن ظلموا ما يقرب من خمسة عشر عاما ، ظلوا مضطهدين في مكة من المشركين ، فقال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ والفعل «أذن» مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة والرخصة ، والمأذون لهم فيه إنما هو الدفاع عن حقوقهم التي شرعها الله سبحانه وتعالى لهم .

أي أذن الله ﷻ لعباده المؤمنين ورخص لهم ، بأن يدافعوا عن دينهم ، وأن يدافعوا عن أنفسهم وأن يأخذوا حقوقهم من الذين بغوا عليهم وأن يقاتلوا الذين ظلموهم ، بعد أن صبر هؤلاء المؤمنين على أذى أعدائهم زمناً طويلاً .

ولقد كان المؤمنون في مكة يأتون إلى النبي ﷺ يشكون إليه أذى المشركين ، فكان ﷺ يقول لهم : «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال»^(١) ، ويقرأ عليهم قول الله ﷻ : ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

(١) انظر : «تفسير البغوي» (١ / ٣٨٨) ، والشوكاني في «فتح القدير» (٣ / ٦٥٣) ، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٥ / ٤٣٦) .

وعد الله للمؤمنين بالنصر على عدوهم:

وقوله سبحانه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ بشارة ثانية للمؤمنين ، ووعد منه - سبحانه - ووعد لهم بنصرهم على من ظلمهم ، وحض لهم على الثبات والإقدام ، فكأنه ﷻ يقول لهم : لقد دعوتكم أيها المؤمنون بالدفاع عنكم ومن دافع الله تعالى عنه كان الخير في ركابه ، ووعدتكم بالنصر على من ظلمكم ووعدني لا يتخلف ، وما دام الأمر كذلك فازدادوا إيماناً على إيمانكم ، وازدادوا طاعة لي ولرسولكم ﷺ ، وازدادوا شكراً لي على شكركم لكي أزيدكم من رعايتي ومن نعمي التي لا تحصى .

ثم بين سبحانه بأسلوب منطقي مؤثر حكيم ، بين الأسباب التي من أجلها أباح الله لعباده المؤمنين أن يدافعوا عن حقوقهم فقال : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ .

أي إن الله تعالى لقدير على نصر عباده المؤمنين ، الذين أخرجهم الظالمون من مساكنهم ظلماً وعدواناً ، ودون أي سبب من الأسباب ، سوى قولهم : الله ربنا .

فهذه الجملة الكريمة تبين بوضوح أن الظلم عندما يستولي على النفوس ، وأن الجهل عندما يطمس العقول ، وأن الحسد والحقد عندما يمتزج بالقلوب ، وأن الغرور عندما تطفح به الأعضاء ، هذه الرذائل عندما تحيط - والعياذ بالله - بأي إنسان تذهب برشده وبعقله ، وتجعل الحق في نظره باطلاً ، وتجعل الخير في نظره شراً ، وتجعل المعروف في نظره منكراً ، وتجعل الفضائل في وجدانه قبائح ، والمؤمنون الصادقون قد أخرجهم الظالمون من ديارهم ، لأنهم كانوا يقولون أسمى وأعظم وأصدق كلمة في الوجود ، ألا وهي كلمة : ربنا الله .

ومن قبل هؤلاء الظالمين قال أمثالهم من قوم سيدنا شعيب عليه السلام :
**﴿لُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي
 مِلَّتِنَا...﴾** [الأعراف : ٨٨] .

دفاع أهل الحق عن حقوقهم بأمر الله ﷻ :

ثم بين سبحانه سنة من سننه التي لا تتخلف ، وهي أن دفاع أهل الحق
 عن حقوقهم أمر يستلزمه نظام هذا الكون ، ويقتضيه صلاحه ، فقال
 تعالى : **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ
 وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾** .

ولفظ «صوامع» جمع صومعة ، وهي بناء مرتفع يتخذها الرهبان معابد لهم ،
 ولفظ «بيع» : جمع بيعة وهي كنائس النصارى التي لا تختص بالرهبان . ولفظ
 «صلوات» جمع صلاة ، وتطلق على أماكن العبادة لليهود .

والمعنى : ولولا أن الله تعالى أباح للمؤمنين قتال المعتدين عليهم ، لعاث
 المعتدون في الأرض فسادا ، وهدموا في زمن موسى وعيسى - عليهما
 السلام - أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما ، وهدموا في زمن الرسول ﷺ
 المساجد التي هي بيوت الله ﷻ .

تسليط أهل الحق على أهل الباطل بأمر من الله تعالى :

وشبه هذه الآية الكريمة قوله تعالى في آية أخرى **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
 النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
 الْعَالَمِينَ﴾** [البقرة : ٢٥١] ، أي : ولولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل
 بأهل الحق ويسلط على الظالمين الغادرين من يردعهم ويقهرهم ، لولا
 هذا التصرف العادل الحكيم من الخالق ﷻ لشئون هذا الكون لفسدت

الأرض ، ولعمها الخراب ، لأن أهل الفساد إذا تركوا دون مقاومة استطارت شرورهم ، وكثر بغيهم وغلبوا بباطلهم على حق غيرهم ، ولكن الله تعالى صاحب الفضل على العالمين قيض لكل ظالم من يقتص منه ، وعقاب الله للظالمين أشد وأبقى .

فلفظ «لولا» في الآيتين الكريمتين حرف امتناع لوجود ، أي : امتنع فساد الأرض ، لأن الله تعالى بفضله وبعده توعده الظالمين بالعذاب الأليم ، وأباح للمظلومين أن يقاوموهم وأن يردوهم على أعقابهم خاسرين لأن السكوت على الظلم سيؤدي إلى فتنة في الأرض وإلى فساد كبير .

النصر للمؤمنين الصادقين :

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتأكيد سنته في جعل النصر في النهاية لعباده المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : وعزتي وجلالي لأنصرن من ينصر ديني ، ومن يعتنق الفضائل وينفر من الرذائل ، ومن يقف إلى جانب الحق حتى النهاية ، ومن يحارب الباطل منذ البداية ، ثم ختم سبحانه هذه الآيات بأن وصف عباده الذين وعدهم بنصره بأكرم الصفات فقال : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ ۚ ۝ ﴾ .

أي : وعزتي وجلالي لأنصرن هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، والذين من صفاتهم أنهم إذا ما مكناهم في الأرض ، وإذا ما نصرناهم على أعدائهم لم يغتروا ولم يظلموا وإنما يشكرون الله على كرمه لهم ، ويزدادون نقاء على نقائهم ، ويزدادون

صلاحاً على صلاحهم ، ويزدادون تواضعاً على تواضعهم ، ويزدادون استقامة على استقامتهم ، فيقيمون الصلاة في خشوع ومداومة ، ويؤدون الزكاة ويأمرون أنفسهم وغيرهم بكل حق وعدل ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وختم الله ﷻ الآية الكريمة بقوله ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي ومردّها و مرجعها إلى الله ﷻ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم : ٣١] .

ما تُرشد إليه الآيات الكريّيات :

إن هذه الآيات الكريمة ترشدنا إلى ألوان من الوصايا الحكيمة ، ومن التوجيهات السديدة ، ومن العظات البليغة .

ترشدنا أولاً : إلى بشارات بشر الله بها عباده المؤمنين ، وهذه البشارات قد جاءت بأسلوب مؤكد ، نرى ذلك في قوله ﷻ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ وفي قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وفي قوله ﷻ : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

ترشدنا ثانياً : إلى أن الله تعالى يكره الخائنين لعهودهم ، ويبغض الجاحدين لنعمه ، وذلك لأن الخيانة تتنافى مع الفطرة الإنسانية ، ففي الحديث الشريف : «يطبع المؤمن على الخلال كلها سوى الكذب والخيانة» .

ومن دعوات الرسول ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

أما جحود النعم ، واستعمالها في الشر لا في الخير ، وفي الرذائل لا في الفضائل ، فإن ذلك يؤدي إلى اضمحلال هذه النعم وإلى زوالها . والله تعالى يقول : ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وترشدنا ثالثا : إلى أن الله تعالى قد أمر عباده المؤمنين أن يعيشوا أعزة ، ومن أجل هذه العزة شرع لهم أن يدافعوا عن حقوقهم وعن مقدساتهم ، وعن أموالهم ، وعن أعراضهم ، وأذن لهم في قتال من يعتدي عليهم .

بل إنه سبحانه توعد الذين يرضون بالحياة الذليلة بسوء المصير : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَتَمَنَّيَنَّ أَنْفُسَهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسَعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا﴾ [النساء : ٩٧-٩٩] .

وإننا نلاحظ ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر .

من يخلط بين الجهاد وبين الإرهاب ، مع أن الفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء ، هما نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يلتقيان .

الجهاد شرع للدفاع عن الدين والنفس والمال والعرض والشرف والكرامة :

إن الجهاد في شريعة الإسلام قد شرعه الله للدفاع عن الدين وعن النفس وعن المال وعن العرض وعن الشرف وعن الكرامة الإنسانية ، وعن كل الحقوق التي كفلها الله تعالى للإنسان مع الالتزام بعدم العدوان ، فقد قال

تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

أما الإرهاب فهو عدوان على الأديان ، وعدوان على الأنفس ، وعدوان على الأموال ، وعدوان على الأعراض ، تارة عن طريق اغتصاب أرض الغير ، وتارة عن طريق هدم مسكنه ، وتارة عن طريق محاصرته ، وتارة عن طريق استلاب حقوقه ، وتارة عن طريق محاربته في رزقه وفي كرامته وفي حرите .

فالإرهابيون هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، أما المجاهدون فهم الذين يدافعون عن حقوقهم التي كفلها خالقهم لهم ، فإن عاشوا عاشوا أعزاء ، وإن ماتوا ماتوا شهداء .

القتال شرع لدفع العدوان ونصرة المظلومين :

ومن أوضح الأدلة على أن القتال في الإسلام قد شرع لدفع العدوان ولنصرة المظلومين ، أن رسول الله ﷺ قضى في مكة ثلاث عشرة سنة ، تعرض أصحابه خلالها لألوان من أذى المشركين ، ومع كل ذلك صبروا على هذا الأذى حتى يأتي أمر الله .

فلما هاجر ﷺ هو وأصحابه إلى المدينة وأسسوا دولتهم الفتية ، كانت جميع الغزوات للدفاع عن الحق ، ولنصرة المظلوم ، ولم تكن غزوة واحدة لونا من العدوان .

غزوة بدر كانت ضد المشركين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم لأنهم قالوا ربنا الله .

غزوة «أحد» كانت دفاعا عن المدينة المنورة بعد أن جاء المشركون وعسكروا بالقرب منها .

غزوة «الأحزاب» كانت دفاعا عن الدين وعن النفس وعن المال بعد أن أحاط المشركون بالمدينة المنورة .

غزوة الفتح الأعظم التي تمت في شهر رمضان من السنة الثامنة ، كانت من أجل نصره بني خزاعة ، حلفاء المسلمين ، بعد أن غدر بهم الغادرون من المشركين وحلفائهم .

وهكذا نرى أن غزوات الرسول ﷺ كانت من أجل نصره الحق ، من أجل الدفاع عن المظلوم .

وترشدنا هذه الآيات رابعا : إلى أن هذه الحياة هي معركة بين الأخيار والأشرار ، بين الحق والباطل ، بين الفضائل والردائل ، وأن على أهل الحق أن يتسلحوا بالقوة التي تردع الظالمين .

والقوة التي يحبها الله هي القوة التي تصلح ولا تفسد ، هي التي تجمع ولا تفرق ، هي التي تبني ولا تهدم ، هي التي يتعاون أصحابها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، أما القوة التي يستعملها أصحابها في الغدر وفي الظلم . ويأكل معك في المساء ويغدر بك في الصباح فهي ليست القوة التي يريد الإسلام ، وإنما هذا غدر نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، وتوعد الذين يفعلونه بسوء المصير في الدنيا قبل الآخرة ، والقوة التي تعطي كل ذي حق حقه هي صفة من صفات الله ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] ، وهي صفة من صفات ملائكة الله ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُ غِلَاطٍ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وهي صفة من صفات أمين الوحي ، من صفات سيدنا جبريل ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥ ، ٦] أي علم القرآن

للنبي ﷺ ملك ، هذا الملك من صفاته أنه شديد القوى ، القوة التي تنصر الحق هي الحياة ، والضعف هو الموت .

هذا ما قاله التاريخ في جميع أطواره الماضية ، وهذا ما سيقوله في جميع أدواره الآتية ، فالضعفاء ليس لهم في دنيا الأقوياء نصيب ورحم الله القائل :

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفاحيا تجتنبك المظالم

وترشدنا هذه الآيات - خامسا : إلى أن من صفات العقلاء الأخيار أنهم عندما يعطيهم الله القوة ، وعندما يعطيهم الله الخير ، وعندما يعطيهم الله المال ، وعندما يعطيهم ما يغنيهم عن التطلع إلى غيرهم ، عندما يعطيهم الله ﷻ الخير ويمنحهم المزيد من نعمه فإنهم يقابلون هذه النعم بالشكر لله ﷻ وباستعمالها في الخير لا في الشر ، وفي الطاعة لا في المعصية وفي الفضائل لا في الرذائل ، فقد قال الله ﷻ في مدح هؤلاء ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

نور من القرآن والسنة

٣٤٠

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المحاضرة الواحدة والخمسون بعد المائة	٧
الدين النصيحة	٧
الله رءوف بعباده	٩
لماذا اخترنا حديث النصيحة؟	١١
وظيفة العقل والقلب	١٢
شرح ألفاظ الحديث	١٤
ما هي النصيحة	١٥
معنى الدين	١٦
معنى النصيحة لله	١٧
معنى النصيحة لكتاب الله	١٧
معنى النصيحة لرسول الله ﷺ	١٨
معنى النصيحة لأئمة المسلمين	١٩
من النصائح العامة	٢١
المحاضرة الثانية والخمسون بعد المائة	٢٣
الكون الساجد	٢٣

- ٢٣ معنى السجود
- ٢٦ شمولية التسبيح
- ٢٧ مسألة
- ٢٩ الكل يسجد لله
- ٣١ تسبيح الرعد والبرق
- ٣٥ تجربة
- ٣٦ خاتمة
- ٣٧ المحاضرة الثالثة والخمسون بعد المائة
- ٣٧ البعد الديني للتنمية
- ٣٨ لماذا اخترت هذا الموضوع تحديداً؟
- ٣٨ التوحيد مفتاح التقدم والتنمية
- ٤١ من أسماء سورة التوبة
- ٤١ الإسلام دين عمل
- ٤٤ علمية الإسلام
- ٤٧ الإسلام والتنمية
- ٤٧ القضاء والقدر
- ٥٥ المحاضرة الرابعة والخمسون بعد المائة
- ٥٥ نظرات في سورة الأعراف
- ٥٥ أسلوب عرض الحقائق في السورة الكريمة
- ٥٥ ١ - التذكير بالنعم

٥٦	٢- التحذير من النقم
٥٧	سبب نزول الآية
٥٨	التحذير من الإسراف
٥٩	الإسلام دين الوسطية
٦٢	ذكر الشيء وما يقابله
٦٥	حرمة الاعتداء على النفس الإنسانية
٦٥	تحريم الفواحش الظاهرة والباطنة
٦٦	الشرك بالله
٦٧	القول على الله بغير علم
٦٩	المحاضرة الخامسة والخمسون بعد المائة
٦٩	المرأة في القرآن الكريم بين الطبيعة والوظيفة
٧٥	مصطلحات قرآنية فهمت على غير مرادها
٨٥	مفهوم القوامة
٨٩	المحاضرة السادسة والخمسون بعد المائة
٨٩	التفقه في الدين وعلماء المسلمين
٨٩	رجال الإسناد
٨٩	التعريف بابن عفير
٩٠	التعريف بابن وهب
٩٠	التعريف بيونس
٩١	التعريف بابن شهاب

- التعريف بحميد ٩١
- التعريف بمعاوية ٩٢
- معنى الفقه في الدين ٩٣
- الإجماع ٩٦
- القياس ٩٧
- معنى المقسوم ٩٨
- من أعلام الأمة ١٠٢
- الأدلة الشرعية التي تستقى منها الأحكام ١٠٤
- ما هو الاستحسان؟ ١٠٤
- كل إمام عنده قواعد بنى عليها مذهبه ١٠٥
- المحاضرة السابعة والخمسون بعد المائة ١٠٧
- من هدي القرآن إلى وازع السلطان ١٠٧
- المستول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٠٩
- النساء شقائق الرجال ١١٠
- الأصل الثاني في الإسلام ١١٣
- الحسبة ١١٩
- المحاضرة الثامنة والخمسون بعد المائة ١٢٩
- أمة وقبلة ١٢٩
- الربط بين الأمة والقبلة ١٢٩
- مفهوم الوسطية ١٣١

١٣٢.....	ماذا تعني كلمة «أمة» في القرآن؟
١٣٩.....	الأمة الإسلامية تملك من القوة ما لا تملكه أمة غيرها
١٤٣.....	المحاضرة التاسعة والخمسون بعد المائة
١٤٣.....	الإسلام وصحة البيئة
١٤٣.....	مفهوم الصحة العصري
١٤٥.....	مفهوم البيئة
١٤٨.....	ميزان الله في الكون
١٥١.....	الإسراف والطغيان بغير حق
١٥٣.....	أنواع التدابير من واقع القرآن
١٥٧.....	التعاليم التعزيزية لصحة البيئة
١٦٣.....	المحاضرة الستون بعد المائة
١٦٣.....	القراءات والرسم القرآني
١٦٥.....	القراءة والاستماع لهما ضوابط
١٦٩.....	تفصل الكلام في الرسم
١٧٨.....	الهمزة المعصدة
١٧٨.....	المحاضرة الواحدة والستون بعد المائة
	وجوب طاعة رسول الله ﷺ واتباع سنته وبيان أن العمل بما صح
١٧٨.....	من حديثه ﷺ لا يعد اجتهادًا ولا تقليدًا
١٧٨.....	مصادر التشريع
١٧٨.....	السنة كالقرآن في التشريع

- ١٧٨..... طاعة الرسول واجبة
- ١٧٨..... لا حجة لأحد في ترك السنة
- ١٧٨..... بعض نصوص العلماء في الحث على الاتباع
- ١٧٨..... المحاضرة الثانية والستون بعد المائة
- ١٧٨..... الإسلام والتنمية الشاملة
- ١٧٨..... الفرق بين التنمية والنمو
- ١٧٨..... محاور التنمية في النظر الإسلامي
- ١٧٨..... المحور الأول
- ١٧٨..... المحور الثاني
- ١٧٨..... المحور الثالث
- ١٧٨..... المحور الرابع
- ١٧٨..... المحور الخامس
- ١٧٨..... دور الحاكم المسلم
- ١٧٨..... المحاضرة الثالثة والستون بعد المائة
- ١٧٨..... وَخِذْهُ الصَّفِّ
- ١٧٨..... للخطاب القرآني صيغتان
- ١٧٨..... أمر النبوة قائم على أمرين
- ١٧٨..... المقصود بالذكر
- ١٧٨..... المقصود بالشكر
- ١٧٨..... الكفر كفران

١٧٨.....	الركيزة الأولى من ركائز المجتمع الإسلامي
١٧٨.....	الركيزة النفسية الأولى
١٧٨.....	الاعتصام بالقرآن
١٧٨.....	مغبة الاختلاف والنزاع
١٧٨.....	رسالة الأمة
١٧٨.....	المحاضرة الرابعة والستون بعد المائة
١٧٨.....	السلام دعوة الإسلام وشعار المؤمنين
١٧٨.....	المقدمة الأولى
١٧٨.....	المقدمة الثانية
١٧٨.....	المقدمة الثالثة
١٧٨.....	مفهوم السلام
١٧٨.....	المستوى الأول
١٧٨.....	المستوى الثاني
١٧٨.....	المستوى الثالث
١٧٨.....	الكرامة الإنسانية
١٧٨.....	المسألة الأولى
١٧٨.....	تحصيل المعارف وامتلاك العلم النافع
١٧٨.....	وأما المسألة الثانية
١٧٨.....	إعلان الحرب على الأمة
١٧٨.....	المسألة الثالثة

- ١٧٨..... المحاضرة الخامسة والستون بعد المائة
- ١٧٨..... الغرس والزرع في الإسلام
- ١٧٨..... معنى المزارعة :
- ١٧٨..... مسألة الخماس
- ١٧٨..... باب فضل الغرس والزرع إذا أُكِلَ منه
- ١٧٨..... فضل الغرس والزرع
- ١٧٨..... سند الحديث
- ١٧٨..... قتيبة بن سعيد
- ١٧٨..... أبو عوانة
- ١٧٨..... عبد الرحمن بن المبارك
- ١٧٨..... قتادة بن دعامة
- ١٧٨..... أنس بن مالك
- ١٧٨..... معنى الحديث
- ١٧٨..... سبب ورود الحديث
- ١٧٨..... المحاضرة السادسة والستون بعد المائة
- ١٧٨..... تلاوة القرآن الكريم ترتيله وتجويده والتغني به
- ١٧٨..... معنى التلاوة لغة
- ١٧٨..... التغني بالقرآن
- ١٧٨..... المحاضرة السابعة والستون بعد المائة
- ١٧٨..... عظمة الكون في القرآن الكريم

١٧٨.....	محاور عظمة الكون
١٧٨.....	عظمة الكون
١٧٨.....	النظر في الكون دليل على خالقه
١٧٨.....	الكون نظام بديع
١٧٨.....	ارتباط الكون بالإنسان
١٧٨.....	الكون ليس أزليًا
١٧٨.....	السنة الضوئية
١٧٨.....	نشأة الكون
١٧٨.....	خلاصة القول
١٧٨.....	المحاضرة الثامنة والستون بعد المائة
١٧٨.....	الصحة الاجتماعية من منظور إسلامي
١٧٨.....	بعض جوانب البعد الاجتماعي للصحة
١٧٨.....	دعائم المجتمع الإسلامي
١٧٨.....	الدعامة الأولى : التماسك
١٧٨.....	وسائل التماسك والترابط
١٧٨.....	صلاة الجماعة
١٧٨.....	إفشاء السلام
١٧٨.....	الشورى
١٧٨.....	صور تحقق الشورى
١٧٨.....	الدعامة الثانية : التعاون

- ١٧٨..... توفير الاحتياجات التنموية الأساسية في حضارة الإسلام
- ١٧٨..... أولاً : الأمن
- ١٧٨..... ثانياً : الماء
- ١٧٨..... ثالثاً : الغذاء
- ١٧٨..... رابعاً : المسجد
- ١٧٨..... خامساً : التعليم
- ١٧٨..... سادساً : استقرار الدخل
- ١٧٨..... المحاضرة التاسعة والستون بعد المائة
- ١٧٨..... الإسلام دين الأمانة
- ١٧٨..... معنى الأمانة في القرآن والسنة
- ١٧٨..... ظلم الإنسان لنفسه ولغيره يوم تحمله للأمانة
- ١٧٨..... الأمانة تشمل أعضاء الإنسان وجوارحه
- ١٧٨..... الأمانة تشمل التكاليف التي يحاسب عليها الإنسان
- ١٧٨..... سبب نزول هذه الآية الكريمة :
- ١٧٨..... هذه الآية أصل للسياسة الشرعية
- ١٧٨..... تقسيم الرازي لرعاية الأمانات إلى ثلاثة أقسام
- ١٧٨..... التحذير من خيانة الأمان
- ١٧٨..... أنواع الخيانات
- ١٧٨..... الإنسان أمين على ما اؤتمن عليه
- ١٧٨..... المسؤوليات مشتركة بين الجميع

- ١٧٨..... من الأمانات الجامعة الرسالة المحمدي
- ١٧٨..... رفع القرآن والأمانة عند اقتراب الساعة :
- ١٧٨..... الأمانة في الوداع
- ١٧٨..... المحاضرة السبعون بعد المائة
- ١٧٨..... نصر الله للمؤمنين
- ١٧٨..... حول سورة الحج
- ١٧٨..... الله ﷻ يدافع عن الذين آمنوا
- ١٧٨..... أسباب دفاع الله تعالى عن المؤمنين
- ١٧٨..... المؤمنون يدافعون عن دينهم وعن أنفسهم
- ١٧٨..... وعد الله للمؤمنين بالنصر على عدوهم
- ١٧٨..... دفاع أهل الحق عن حقوقهم بأمر الله ﷻ
- ١٧٨..... تسليط أهل الحق على أهل الباطل بأمر من الله تعالى
- ١٧٨..... النصر للمؤمنين الصادقين
- ١٧٨..... ما تُرشد إليه الآيات الكريمات
- ١٧٨..... الجهاد شرع للدفاع عن الدين والنفس والمال والعرض والشرف
- ١٧٨..... القتال شرع لدفع العدوان ونصرة المظلومين
- ١٧٨..... فهرس الموضوعات

نور هة القراءة و السنة



أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الحادي عشر

المحاضرة الحادية والسبعون بعد المائة

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

مقدمة:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أهمية الاستدلال العقلي في العصر الحاضر:

قال الله تبارك وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] لقد مر على العالم الإسلامي وقت طويل ، كان يعيش في عزلة ، وكان في ناحية عقيدته ، وفي ناحية تشريعه ، يكتفي بأن يقال له قال الله أو قال رسول الله ، فيقف عند ذلك ، ولا يحتاج إلى الاستدلال العقلي ، اللهم إلا إذا كان للاطمئنان ، اطمئنان القلب .

واليوم وقد صار العالم يعيش في صعيد واحد ، واختلطت الأجناس والديانات في جميع أنحاء العالم ، فلا محيص من الجمع بين الاستدلال النقلي والاستدلال العقلي ، إلا أن الاستدلال النقلي الذي كنا نستعمله فيما

مضئ ؛ وهو الاستدلال بالكتاب والسنة ، يفيد مع المسلم ولكنه لا يفيد مع غير المسلم ، لذلك يكون الاستدلال النقلى الذى يمكننا الآن أن نعلمد عليه هو الوقائع التاريخية المحسوسة التى يمكن للخصم أن يسلم بها ؛ أو الاستدلال العقلى ، أما ما عدا ذلك بأن تقول للأجنبى قال الله أو قال رسول الله فهذا شىء ليس بمسلم .

وقد سبق لنا أن تكلمنا عن هذه الآية ، وأتينا بأدلة تدل على فضل الإسلام ، وعلى فضل كتاب الله ، وكانت تلك الأدلة تجمع بين النقل والعقل ، والآن نريد أن نتكلم على بعض الجوانب التى لا تزال متعلقة بهذه الآية .

ونريد أن نتكلم عن نقطتين اثنتين لا تزالان تتعلقان بهذا الموضوع وهما :

١ - دراسة الناحية التطبيقية لهذه الآية ، إلا أننا إذا أردنا أن ندرس المعنى التطبيقى لهذه الآية فى جميع الميادين الإسلامية ، يكون ذلك متعذراً ولهذا يمكننا أن نقتصر على جانب من الجوانب التطبيقية من ناحية التشريع الإسلامى ، ومن ناحية العقيدة ، إلا أنه بقيت لنا هناك نقطة تعتمد دراستنا عليها ها هنا ، وهى التوقيت فى الرسالات ، الذى تكلمنا عليه ، واستمرار القرآن الذى تكلمنا عليه .

التوقيت فى الرسالات وفائدة ذلك :

قد يقال : ما هى الفائدة من التوقيت لهذه الرسالة ؟ وهلا أتت الرسالة من أول الأمر ما دامت كانت ملة بحيث تسير التطور الإنسانى فى كل زمان ومكان !

تدريجية التربية:

إن الله تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن تقع التربية تدريجية في البشرية ، فكان يرسل الرسول بشريعة محددة الزمان والمكان ، حتى إذا ما مات ذلك الرسول ووقعت انحرافات بعده ، ثم طال الزمان وتطورت البشرية أرسل رسولاً آخر ، ليقوم ما وقع من تحريف وليتم الحاجيات المستجدة في التشريع .

وهكذا دواليك إلى أن جاءت رسالة الرسول ﷺ بعد أن استكملت البشرية نضجها ، جيء بقانون يمكنه الدوام والاستمرار وهو يشمل على عناصر النمو التي يمكن أن تسير كل بيئة زمانية أو مكانية ؛ وأينما كان الإنسان .

ويمكننا أن نعبر عن هذا بما يعبر عنه أهل القانون وهي مسألة التقنين ، ذلك أنه في القوانين الوضعية مسألة التقنين ، وهي جمع القوانين التي تكون في الولايات عند الأمة في حال بداوتها ، وجمعها في قانون واحد ، ويمكن أن يكون القرآن مثلاً لهذا ، ذلك أن الله تبارك وتعالى كان يرسل الرسل بتشريعات ، ثم تتغير الظروف فيأتي الرسول بتشريع متمم لما سبق ، ومقرر لما لا يزال صالحاً .

وهكذا دواليك تتداعى التشريعات إلى أن جاء النبي ﷺ فوق التقنين النهائي .

مثل معاصر واقعي:

إذا رجعنا إلى القوانين الوضعية ؛ نجد أول قانون مكتوب هو قانون حمورابي ، لا شك أن أول تشريع وقع على سطح الكرة الأرضية حسبما

وصل إليه علماء التشريع هو القانون السوماري ، ثم جاء بعده القانون الأكابي ، وفي أيام الآشوريين برز فيهم حمورابي سنة (٢٠٠٠ قبل الميلاد) فجمع تلك القوانين التي سبقته وألفها في قانون واحد ، وهذا ما يسمى عنده بالتقنين وهذا أول تقنين وقع على سطح الكرة الأرضية .

ثم بعد ذلك تتابعت الأيام إلى أيام الرومان فلم يكن القانون في أيام الرومان مقننا عندهم إلى أن كتبت شريعة الألواح سنة (٤٥٠ قبل الميلاد) فكانت أول تقنين وقع عند الرومان ، ثم تبعها أيضًا التقنين الذي وقع في أواخر القرن الخامس على عهد جوستينوس في مدونته .

التقنينات في أوروبا :

أول تقنين وقع في أوروبا هو قانون نابليون ، ذلك أن فرنسا كان لكل ولاية فيها قانونها الذي تستند إليه ، ثم بعد ذلك جمعت هذه القوانين سنة (١٨٠٤) في قانون عام ، وهو قانون نابليون .

وهكذا تتابع التقنين في بقية الدول الأوروبية فقد وقع التقنين الإيطالي مثلاً سنة (١٨٦٥) ، ثم تبعه أيضًا التقنين الألماني الذي وقع سنة (١٩٠٠) ، ثم تبعه القانون السويسري في العقود والالتزامات الذي وقع سنة (١٩١٢) ، هكذا جرت قضية التقنين .

فيمكننا أن نقول إن هذه الشرائع التي مرت على سطح الكرة الأرضية كانت حسب البيئة والزمان والمكان ، وحسب الصلاحية في وقت محدد .

اشتمال التشريع الإسلامي على عناصر ثلاثة :

التشريع الإسلامي يشتمل على عناصر ثلاثة وهي : عنصر العقيدة ، وعنصر العبادة ، وعنصر المعاملات .

هكذا يقال : إن الديانة الإسلامية هي : دين ودولة ، هي دين لأنها تتعلق بتنظيم العلاقة بين العبد وخالقه ، سواء كان عقيدة أو عبادة ، وتعلق أيضاً بنظام المجتمع أي ما يتعلق بالأمور الدنيوية .

مصدر العقيدة الإسلامية هو القرآن والسنة :

إن التشريع الإسلامي دين ودولة ، هذه النواحي الثلاثة وهي ناحية العقيدة وناحية العبادة وناحية المعاملات ، قد أفاض القرآن القول فيها ولم يترك فيها مستزید أن یزید ، فلا يتطرق فيها إلى الاجتهاد ؛ لأن الاجتهاد إنما يقع في المعاملات ولا يقع في العقيدة أو العبادة ، إذا كيف برزت العقيدة الإسلامية في أول طورها؟ لقد كانت العقيدة الإسلامية تؤخذ من الكتاب والسنة أي من النبي عليه الصلاة والسلام ، كان يلقنهم العقيدة ، فيأخذونها من غير بحث ، لأن الناس كانوا متشبعين بالإيمان ، فلم تكن بهم حاجة إلى البحث وإلى التساؤل .

التمسك بهذا المصدر زمن الصحابة رضي الله عنهم :

بعد وفاة الرسول ﷺ جاء الخلفاء بعده وطبقوا نفس الطريقة فما كانوا يتساءلون عن المسائل التافهة بل كانوا يعاقبون من يسأل عن المسائل السهلة ، فقد ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه سأله رجل عن مسألة سهلة ، فقال له : «ما الأبُّ فقال له : نهينا عن التعمق في الدين» الأبُّ معلوم ولكن سيدنا عمر ما أراد أن يفتح هذا الباب الذي لا يترتب عليه أية فائدة .

وكذلك لما جاءه صبيغ بن عسل الحنظلي ، فقال له : ما معنى قول الله تبارك وتعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] وقد كان وجهه مع عمرو بن

العاص فترة الفتوحات لمصر ، وكان يكثر هذا التساؤل بين الجيش فأرسل إلى عمرو بن العاص وقال له أن أرسله إلي ، فأرسله إليه فلما وصل إلى عمر وسأله في الموضوع جلده ونفاه ، ثم جاء رجل آخر يسأله عن الموضوع فقال له : «ما أحوجك بصبيغ»! فما كان الناس يتساءلون عن العقيدة .

بداية الانحراف وظهور الأهواء:

بعد ذلك حدث ما حدث ؛ لأسباب كانت تقتضي ذلك ، وهو التطور الفكري الذي حدث بعد ذلك ، فبدأ الناس يتساءلون في العقيدة ، ولعل أول مشكلة طرحت هي مشكلة معبد الجهنني فقد كان أول من تكلم في القدر ، ومعبد الجهنني هذا قال عنه الذهبي في «الميزان» : صدوق في نفسه ، ولكنه سن سنة سيئة فكان أول من تكلم في القدر .

ظهور المسائل الكلامية كالجوهر والفرد . . . إلخ:

تجاوز الناس المسائل الكلامية إلى المسائل الطبيعية بمقتضى الطبيعة الفلسفية التي تقتضي التدرج في التكوين ، فقد تجاوزوا هذا الميدان إلى البحث في الطبيعة ؛ ومن جملة ما تكلم فيه علماء الإسلام ، تكلموا على مسألة جوهر الفرد وعلى مسألة الذرة وإن كان ديموقريطس تكلم على الذرة ، إلا أنه لم يستطع الاستدلال عليها .

وكذلك الآن في وقتنا الحاضر تجد كثيرًا من الفلاسفة ومن غيرهم يتكلمون في مسألة الذرة ، ولكن عند الاستدلال لا يستطيعون الاستدلال عليها ، و قد استدل عليها أبو علي الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب «الإشارات» في الجزء الثاني الذي يتكلم عن الطبيعيات فقال : «القول

بالذرة ، هو أمر مفروغ منه ، أما ما يقوله الأشاعرة من الجوهر الفرد ؛ فهذا ليس بصحيح» .

واستدل على ذلك بمسألة واضحة يمكن لكل واحد أن يفهمها ، فقد قال : «إننا إذا وضعنا ثلاث ذرات متوازية في صف واحد ، فإنه يتكون من ذلك خط ، فإذا تكون من ذلك خط ، فهنا طرفان وواسطة» ، ثم قال : «إن هذه الواسطة لا يخلو حالها ، إما أن تفصل بين الطرفين ، فهي قابلة للقسم إذاً ، وإما ألا تفصل بينهما ، فتكون معدومة ، والفرض أنها موجودة» .

هذا استدلال توصل إليه علماء الإسلام قبل أن يتوصل إليه الغربيون لا قديماً ولا حديثاً .

هكذا تطورت قضية العقيدة ، ودخلت في أمور تبحث في الأطياف السبعة ، وفي غير ذلك من المسائل التي تتعلق بعلم الطبيعة ، هذا ما يتعلق بناحية العقيدة .

عودة إلى مصادر التشريع الإسلامي :

إذا رجعنا إلى ناحية التشريع فقد كان الناس في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام يأخذون عنه ما يحتاجون فيه إلى حل مشاكلهم ، فإذا كان هناك قرآن فصل بينهم به ، وإن لم يكن قرآن انتظر الوحي ، وإذا لم يكن هناك وحي حكم عليه الصلاة والسلام بما يلهمه الله ؛ وهو ما يسمى بالسنة .

ولكن ثبت في حياة النبي ﷺ مصدران للتشريع أساسيان : وهما الكتاب والسنة .

ظهور المصدر الثالث (الإجماع):

المصدر الأساسي الأول هو الكتاب ، وهو الذي شهد لنا بأن السنة هي المصدر الثاني ، ثم بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد اتساع الفتوحات الإسلامية ، سارع الناس إلى الخلفاء الراشدين حيث يجدون هناك مسائل معقدة في البلاد التي فتحوها والتي تواجه فيها حضارات لم تكن موجودة في الجزيرة العربية كأرض فارس وكذلك أرض الروم ، فوجدوا هناك مشاكل تحتاج إلى إيجاد مصدر ثالث ، وهو مصدر الإجماع .

أدلة الإجماع من القرآن والسنة:

الإجماع له دليل في السنة وله دليل في القرآن ، أما دليله من القرآن فقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

وأما دليله من السنة ؛ فقول النبي ﷺ : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »^(١) إذن هذا مصدر ثالث ولكنه مأخوذ من الكتاب والسنة .

ثم مع توالي الأيام لم يعد الإجماع والكتاب والسنة كافياً بسبب تجديد الحوادث ؛ لأن الحوادث البشرية تتجدد في كل لحظة ونصوص الكتاب والسنة هي محددة ولا يمكن أن يستوعب المحدد غير ما هو محدد ، ولذلك احتيج إلى مصدر رابع وهو القياس .

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » . وابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

القياس كمصدر رابع للتشريع:

الاحتياج إلى القياس هنا لا بد أن يعتمد على نص ، فلا يمكن أن يقع القياس بدون نص لا بد له من النص ، وله شاهد من الكتاب ، وله شاهد من السنة .

أما شاهده من الكتاب فقول الله تبارك وتعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ دُونِ النَّبِيِّينَ لِكَلِمَةٍ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الحشر: ٢] بناء على أنه من العبور لا من العبرة ؛ هذا شاهدهم من الكتاب ، أما من السنة فحديث معاذ لما أرسله النبي إلى اليمن قال له : «بِمَ تقضي؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد في كتاب الله! قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد في سنة رسول الله! قال : أجتهد رأيي فقال عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذي أرشد رسول الله إلى ما يرضي رسول الله»^(١) . هذا دليل القياس .

كيف استعمل القياس كمصدر للتشريع:

كيف استعملت الأمة القياس؟ وكيف استعمله الصحابة؟

كانوا يعتمدون أولاً على المسائل التي تدعو إلى القياس ، وهي المصلحة ، فإذا كانت هناك مصلحة ؛ ووقعت واقعة ولم يكن فيها نص وكانت هناك مصلحة لا بد من حلها على طريق المصلحة .

عمر في قسمة أرض العراق:

لما فتح سيدنا عمر أرض العراق ، أراد الصحابة أن يدفع الخمس لبيت مال

(١) سبق تخريجه .

المسلمين وينفق في الطرق التي عينها كتاب الله تعالى ، والأربعة الأخماس الباقية تقسم بين الفاتحين ، وهذا ما كان عليه سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، فقد وقف في وجه سيدنا عمر وطلب منه أن يقسم الغنائم بين الناس ، ولكن سيدنا عمر كان يقول : هو كما تقولون ، ولكن هذا رأيي ، وتارة يقول هذا هو المصلحة ، فسيدنا عمر قال لهم : «أرأيتم إذا قسمنا هذه الأراضي بعلوجها ، وكانت هذه الثغور التي توجد في هذه الأراضي لا بد لها من جيوش فمن أين ننفق على هذه الجيوش ، إذا صارت هذه الأرض إرثاً أخذها أصحابها ثم بيعت ثم ذهبت إلى حال سبيلها فيماذا تملأ هذه الثغور» ، فالمصلحة تقتضي بقاءها ، طال النزاع بينه وبين المهاجرين ، ثم بعد ذلك أرسل إلى خمسة من الأوس وإلى خمسة من الخزرج ، ليستشيرهم في الأمر فوافقوه على رأيه ، ولأجل ذلك بعث من يمسح أراضي العراق .

ماذا لو اعترض بآية الخمس؟

قد يقال هاهنا إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [الأنفال : ٤١] فالآية تعطي بمنطوقها ، أن الخمس لبيت المال وتعطي بمفهومها أن أربعة أخماس للفاتحين .

فهل يمكننا هنا أن نقول إن سيدنا عمر ضرب على هذا النص صفحاً وخالف القرآن؟ لا ، يقال إن سيدنا عمر من كبار الصحابة وكان القرآن ينزل بموافقه فلا يمكن أن نقول إنه يخالف كتاب الله ، إلا إذا كانت هناك مصلحة ، والمصلحة هل تقدم على النص؟ هذه مسألة طويلة في مسألة علم الأصول على الخلاف بين الحنابلة والمالكية ، على كل ، سيدنا عمر

هاهنا رأى في ذلك مصلحة ولكنه ذهب إلى ناحية التخصيص لا إلى ناحية الإلغاء ، وذهب أيضاً إلى إعمال نصوص عامة كانت هناك نصوص عامة التي تقتضي أن الشرائع كلها ما جاءت إلا لجلب المصلحة ودرء المفسدة عن العباد فإذا وجدنا في تطبيق النص ما يقتضي مفسدة ينبغي أن نترك ذلك النص وأن نأخذ نصوصاً عامة ، كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة : ٦] هذه نصوص عامة تفيد أن الشرائع كلها ما جاءت إلا لأجل المصلحة .

ولهذا سيدنا عمر لا نقول فيه هنا إنه ألغى النص ، ولكن أخذ بنصوص عامة تقتضي أن يعمل بالمصلحة على أن سيدنا عمر لم يوقف قسمة الغنائم كلها ، وإنما أوقف قسمة العقار ، أما ما كان من المنقولات فإنه قسمها بين الناس كما هو المعتاد ، فيكون هذا من باب التخصيص لأنه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ [الأنفال : ٤١] سواء كان عقاراً أو غيره ، ولكن سيدنا عمر حمله على العقار وما عدا ذلك قسمه على الناس ، حملها على المنقولات وترك العقار ، هذا من جملة ما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه ، رعاية للمصلحة .

مسألة الطلاق الثلاث في كلمة واحدة:

كان الطلاق في عهد النبي ﷺ ، وفي عهد أبي بكر وصدرًا من خلافة سيدنا عمر كان إنما تلزم به طلقة واحدة .

ثم بعد ذلك رأى سيدنا عمر أن الناس قد تجرأوا على هذا ، وصاروا ينطقون بالطلاق الثلاث مرة واحدة فألزمهم به ، نظرًا للمصلحة إلا أن هذه المصلحة كما يقول ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» قال : «إن هذه

المصلحة قد تغيرت بل صارت مفسدة وهو إلزامه الثلاث في كلمة واحدة» ، ولهذا إذا وجدنا مثلاً في مدونة الأحوال الشخصية أن الطلاق الثلاث في كلمة واحدة لا يلزم ، فإن سنده موجود ، وهو سند النبي ﷺ وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر وإلزام الثلاث إنما هو اجتهاد من سيدنا عمر رحمته الله .

عصر التدوين وظهور الخلاف المذهبي :

بعد ذلك جاء عصر التدوين ، فماذا فعل الفقهاء الذين قاموا بمجهوداتهم الفردية؟ لقد كان فعلاً الفقهاء في كل وقت مستعدين لحل المشاكل المتجددة من غير أن يخرجوا عن دائرة القرآن .

هذا هو الشأن في العلماء وهكذا كانت الحال ، ولهذا قام الخلاف بين المذاهب كل حسب بيئته التي أثرت فيه وحسب العوامل التي كانت عنده ، فأفتى بما يوافق البيئة ، ذلك أن الله تبارك وتعالى جعل لنا العبادات والعقيدة في جانب أما المعاملات فإن الله أتى فيها بأدلة كلية وترك التفصيل والجزئيات لاجتهاد العلماء ، ومما يدل على ذلك هو أن آيات القرآن تتجاوز ستة آلاف ، وإذا تتبعنا آيات الأحكام هذه إنما تجدها خمسمائة أو تزيد ، لماذا؟ لأن ما يتعلق بالمعاملات والأحكام هذه إنما تكفي فيه الأدلة العمومية وأما التفصيل وتفصيل الجزئيات ، فهذا لا ينبغي أن يكون في باب التشريع ، فأتى القرآن بالأدلة العامة ، التي يمكن أن تستنبط منها الأحكام ، وترك التفصيل للعلماء وليجتهد كل واحد حسب بيئته .

فكان العلماء يجتهدون في كل حالة ، بحسب الظروف التي تحيط بها ، ويتغير اجتهادهم إذا تغيرت الظروف ، وسندهم في ذلك كتاب الله تبارك وتعالى ، فقد كان يتغير إذا تغيرت الظروف ، فقد كانت الأحكام

تنزل ثم إذا تغيرت الظروف تنسخ الآيات وتأتي آيات أخرى في مكانها فتعلم الصحابة الذين عاصروا النبي ﷺ وتربوا في مدرسته وتشبعوا بروحه ، تعلموا روح الشريعة وما ينبغي منها فسلكوا هذا المسلك نفسه ، وصاروا يعللون بالمصالح ، وإذا تغير الزمان أو تغيرت العلة ينبغي أن يتغير المعلوم .

وهذا ما فعله سيدنا عمر في مسألة المؤلفه قلوبهم ، ففي قضية المؤلفه قلوبهم جاء الأقرع بن حابس وسعد الخيل إلى سيدنا عمر فقالا له : «أعطنا مما كان يعطينا رسول الله ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ إنما كان يعطيكم لكون الإسلام كان ضعيفاً والآن قد صار الإسلام قوياً ، فإما أن تثبتوا على إسلامكم ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم» فسيدنا عمر ، نظر هنا إلى أن الحكم مبني على علة ، والقاعدة أن الحكم إذا كان مبنياً على علة يدور مع علته وجوداً وعدماً .

ماذا نفعل في عصرنا نحن؟

في عصرنا الحاضر ماذا نفعل؟ هل نتبع سيدنا عمر في اجتهاده فينبغي لنا أن ننظر في العلة هل عادت أو زالت بالكلية من أيام سيدنا عمر ، فنحن نجد في العالم الإسلامي أقليات إسلامية مضطهدة في كل قطر من الأقطار ، فينبغي أن يرجع حد المؤلفه قلوبهم ليوزع على هؤلاء المضطهدين في سائر أنحاء العالم ، هذا ما يتعلق بناحية التشريع الذي سلكه سيدنا عمر وسلكه التابعون بعده ، ثم إن الطريق الذي سلكوه ، هو ما سلكه القرآن ، فلم يخرجوا عن القرآن .

التعليل في القرآن الكريم:

التعليل وارد في القرآن ، فالله تبارك وتعالى كثيراً ما يأتي بالأحكام المعللة خلاف الإمام الرازي الذي يقول إن أحكام الله ليست معللة فجاء القرآن بتعليلات ، وهي تختلف في نوع التعليل .

تعليق الحكم على الوصف:

نجد في القرآن مثلاً تعليق الحكم على الوصف ، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] لماذا تقطع الأيدي؟ لأجل السرقة لأن تعليق الحكم على المشتق يدين بعلة ما منه الاشتقاق . فالعلة إذاً هي السرقة وعلى هذا يمكن القياس إذا وجدنا نازلة أخرى وفيها حكم معلق على وصف ينبغي أن تقاس على هذه الآية .

تعليقه بمشتق:

كذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] فإن الحكم هاهنا معلق على مشتق وهو الزاني والزانية ، فينبغي أن يكون الزنا هو أصل التعليل لأن تعليق الحكم على المشتق يؤذن بعلة ما منه الاشتقاق .

التعليل بالمصلحة:

كذلك من جملة ما ورد فيه التعليل في القرآن التعليل بالمصلحة ، أو بدفع المفسدة .

جاء التعليل بالمصلحة في قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، فالله تبارك وتعالى هاهنا قال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ،

وما للعموم والاستعداد في كل زمان بحسبه ، فإذا قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ، في الوقت الذي كانت الخيل تصلح للحرب ، فالآن يراد بذلك الدبابات والصواريخ وغير ذلك ؛ فلكل وقت ما يناسبه من الاستعداد .

ثم قال الله تبارك وتعالى : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فقد بين الله تبارك وتعالى العلة هاهنا وهي إرهاب العدو ، وليس المراد هاهنا أن الإسلام يأمر بالقتال وبالحروب إن الله تبارك وتعالى قال : ﴿تُرْهِبُونَ﴾ فدل ذلك على أن المراد الاستعداد الحربي لتخافة الأمم .

وهذا ما يسمى بالسلام المسلح ، فإذا كانت الأمة قوية وكانت مستعدة للحرب دائماً ، وعندها جيوشها وعندها المعدات الحربية فإن الأمم تخافها ولا تقع الحرب ، وهذا فعلاً ما يقع الآن بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ، كل واحد يستعد ، والاستعداد يمنع من الحرب ؛ لأن كل واحد يخاف من خصمه .

هذا ما هو واقع الآن في العالم ، الله تبارك وتعالى قال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، فهاهنا التعليل بالمصلحة ، المصلحة في الاستعداد الحربي ما هي ؟ هو إرهاب العدو .

التعليل بדרך المفسدة:

كذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] هنا نهى الله تبارك وتعالى أن تسب

الأصنام لماذا وقع النهي؟ كي لا يسب الله تبارك وتعالى وفي سب الله مفسدة ،
فالتعليل هاهنا كون سب الأصنام يؤدي إلى سب الله فهو يؤدي إلى مفسدة وإن
كان سبهم جائزاً لأنهم ليسوا على شيء ، ولكن سبهم يؤدي إلى مفسدة .

الرسالة بداية التأليف في التعليل:

هذه المسالك التي وردت في التعليل جاءت في زمان الصحابة وفي زمن
التدوين ، ولكن في زمن التدوين تطور الحال - هذا التطور الذي حصل
التعليل - فصار الناس يبحثون عن التعليل وألفوا في ذلك ، وأول من ألف
فيه هو الإمام الشافعي الذي ألف «الرسالة» وكان ثالث الأصول ، كان
بمثابة تكميل لما يسمى بمراقبة دستورية القوانين .

نهي النبي ﷺ عن الابتداع في الدين:

قال النبي عليه الصلاة والسلام : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس
منه فهو رد»^(١) . فدل هذا الحديث على أن كل من أحدث شيئاً مخالفاً
للإسلام يرد عليه كيفما كان ، فإذا كان هذا يرد عليه ، فمن الذي يرده
عليه؟ الدولة ، هي التي تتكلف بالرد عليه ؛ لأن القانون لا بد له من
حماية ، وهذه الحماية تتمثل في السلطة التنفيذية التي تقوم على ذلك
فلهذا كانت مسألة مراقبة القوانين تستفاد من قول النبي عليه الصلاة
والسلام : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢) ولكن
الفكرة زادت ووضحت فيما بعد .

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) سبق تخريجه .

ظهور المجتهدين ومدعي الاجتهاد:

عندما جاء عصر الاجتهاد كثر المجتهدون ، وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه ، فصار الناس يجتهدون ، ويدعون الاجتهاد ، كل واحد يريد أن يكون مجتهداً ، ولم تكن هناك ضوابط تحدد الاجتهاد ، فصار كل واحد بلغ رتبة من العلم يمكنه أن يجتهد ، حتى دخل الغزو إلى حظيرة الاجتهاد ، ذلك أنه قيل إن رجلاً قام يخطب في وسط القطر المصري فقال : أما بعد ، فإن الاستعمار قد أفسد علينا ديننا - وهو من دعاة الاجتهاد - واستدل على ذلك بحديث : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، . . . »^(١) قال : هذا ليس بحديث ، والدليل على ذلك أنه لم يذكر فيه الجهاد ، هذا من عدم وضع القواعد التي تحدد دائرة المجتهد ، وما هي القدرات التي يمكن أن يعتمد عليها في اجتهاده .

وضع ضوابط الاجتهاد بتأليف الرسالة:

قام الإمام الشافعي بتنفيذ هذه المسؤولية فألف كتاب « الرسالة » ، وكان أول ما ألف في علم الأصول ، ثم بعد ذلك ألف الأصول بناء واستنباطاً من سنة الرسول ، فعلم الأصول وإن كان مستحدثاً - وهذا علم لا يوجد عند أمة من الأمم في الغرب ولا في الشرق - هو خاص بالأمة الإسلامية وحدها ولا يوجد الأصول عند غيرها ، أما ما يسمى بأصول القانون عند « مونتسكيو » فليس هو من هذا الباب ، وإنما معناه المصادر التي نشأ عنها القانون كالعرف والعادة والقانون الطبيعي وما إلى ذلك ، أما كونه للقواعد التي ينبنى عليها الاجتهاد ، هذا علم اختص به علماء الإسلام ، ولا يوجد عند غيرهم .

(١) أخرجه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

كيف يقع الاختلاف بين المذاهب:

إن العلماء اعتمدوا على التعليل ، فكان العالم إذا عرضت له مسألة ، ولم يدر حكم الله فيها ، ينظر في تلك النازلة ، هل تشتمل على علة أم لا؟ فإذا نظر فيها ووجد فيها العلة يبحث أولاً ويتركها فيبحث فيما يريد أن يقيس عليه ، ويستقصي العلل ، وهنا يقع اختلاف المذاهب ، كثيراً ما يقع اختلاف المذاهب في استقصاء العلل ، كمثال الربوي ما هو؟ الربوي عند الشافعية كل مطعموم ، والحنفية المكيل والموزون ، وعند المالكية ما كان مقتاتاً منه أو مدخراً ، وقع الاختلاف فيها لماذا؟ لسبب استقصاء العلل كل واحد اختار علة لنفسه بناء على القواعد التي وضعها لمذهبه في استنباط الأحكام .

مسائل يبنى عليها القياس:

كان العالم المجتهد يبحث أولاً في الأصل هل توجد فيه علة أم لا توجد فيه؟ فإذا وجد فيه علل متعددة ، وهذا ما يسمونه عند علماء الأصول بتخريج المناط ، ثم بعد ذلك إذا وجدت هذه العلل المتعددة ينظر في أيها يكون أنسب للحكم . وهذا ما يسمى عند الأصوليين بتنقيح المناط ، ثم بعد ذلك يرجع إلى الأصل فيبحث في الأصل هل توجد فيه تلك العلة أو لا توجد فيه؟ وهذا ما يسمى في اصطلاح الأصوليين بتحقيق المناط ، عندنا :

١- تخريج المناط .

٢- تنقيح المناط .

٣- تحقيق المناط .

هذه مسائل يبنى عليها القياس ، ويتكلمون عليها عندما يتكلمون على المناسب .

المصلحة كمقصد للتشريع الإسلامي:

عندما يتكلمون عن المناسب الملائم وغير الملائم ، عند الأصوليين نجد أن العلماء يتكلمون عن المسائل المقصودة من التشريع ما هي ؟ ما هو المقصود من التشريع ؟ إذا قلنا إن التشريع ما جاء إلا لمصلحة العباد ، فكل تشريع خالف المصلحة ينبغي ألا ينظر إليه بعين الاعتبار ، إلا أنه ينبغي لنا أن نحدد المصلحة حتى لا نكون بحسب الأهواء ، بحيث كل واحد أراد أن يفعل شيئاً حسب هواه يقول إن المصلحة تقتضي كذا ، ولكن مصلحة من ؟ المصلحة يشترط فيها أن تكون عامة ، فيشترط أن تتعلق بمصلحة الأمة لا بمصلحة فرد خصوصي أو جماعة مخصوصة ، ويشترط في المصلحة ألا تخالف النص على خلاف في ذلك ؛ لأن هذا الشرط يهدم المصلحة من تمامها ، لأن المصلحة لا يمكن أن تخالف النص حتى إن خالفت نصاً خصوصياً فهي موافقة لنص عام .

هذا من جملة الشروط ، ويشترط في إعمال المصلحة أن تكون متعلقة بالمعاملات لا بالعبادات ، ثم عندما يستدلون بهذه المصلحة ، قلنا إن المصلحة التي يستدلون بها لإحداث تشريعات جديدة لم تكن قبل .

بداية عصر التقهقر والجمود وأسباب ذلك:

هكذا صار التشريع في العالم الإسلامي طيلة عهد النبي ﷺ وفي زمن الخلفاء الراشدين وفي زمان المجتهدين بحيث وصل التشريع الإسلامي إلى ذروته وإلى غايته ، بحيث لا توجد أمة من الأمم عندها من ثروة الفقه ما يوجد في العالم الإسلامي .

ولكن اختلاف المذاهب، وتعصب الأتباع لأشياخهم وللمذاهب التي يقلدونها، أدخل الضيق والخرج على التشريع الإسلامي، ولهذا ابتداء عصر التفقه والجمود، عندما كان الفقه يسير في طريقه وفي تقدمه، وقع التوقف ثم وقع التفقه والجمود، وهذا التوقف الذي وقع هو في الحقيقة كان تابعا للفساد السياسي الذي حدث أخيرا في الدولة الإسلامية لما توقف الجانب السياسي توقف معه الجانب الثقافي، بجميع فروعها، سواء كانت الثقافة تشريعية أو كانت غير ذلك توقفت ولم يبق هناك من الثقافة إلا بعض النوابع الذين يبرزون في بعض النواحي، ولكن ذلك نادر، هكذا توقفت الثقافة الإسلامية، وكان لهذا التوقف أسباب.

دخول القوانين الغربية وأثر ذلك على حضارة الأمة:

بعد هذا التوقف، صار الجمود والتأخر شيئا فشيئا إلى أن دخلت القوانين الغربية إلى البلاد، هذا التوقف الذي توقف فيه التشريع الإسلامي، وصار في واد والحياة في واد آخر، كان سببا في تأخر المسلمين وتحلفهم، بأن كان الواقع يعيش في واد، والتشريع يعيش في واد، ذلك دليل على طفولة الأمة في الحضارة والسياسة، أو على شيخوختها وتفقهها.

فعندما كان الإسلام يسير جنبا إلى جنب مع الحياة اليومية للناس، كان الإسلام مزدهرا ومنتصرا، وعندما صار الإسلام يعيش في واد والتشريع يعيش في واد والأمة تعيش في واد، تحلف المسلمون لأنهم أهملوا تشريعهم في الماضي وعادوا يتخلفون شيئا فشيئا، فدخلت القوانين الغربية.

محمد علي ودوره في إدخال القوانين:

كان أول من اتخذ ذلك محمد علي ، ذلك أنه بعث بعثة علمية إلى فرنسا برئاسة رفاعة الطهطاوي فذهبت هذه البعثة إلى فرنسا ودرست ، وكانت معجبة بالقوانين الغربية فصارت تدخل القوانين الغربية شيئاً فشيئاً ، وبقيت كذلك إلى عهد الخديوي إسماعيل .

سوء الحال في عهد إسماعيل:

في عهد الخديوي إسماعيل ضغط عليه الأجانب لكثرتهم إذ ذاك في مصر ، وقالوا له : إن تشريعكم غير منظم وليس بمضبوط فينبغي أن تطبقوا القانون الفرنسي ، ولماذا القانون الفرنسي وبريطانيا هي التي تحتل مصر؟ لأن بريطانيا هذه لا يهمها وإنما تريد أن يذهب الإسلام من البلاد فلا عليها أن يطبق القانون الفرنسي أو الإنجليزي ، هذا لا يهم الاستعمار إنما تريد إبعاد الناس عن الإسلام بأي طريقة كانت ، فدخل القانون الفرنسي في عهد الخديوي إسماعيل ، ومن يتحمل مسؤولية ذلك؟ يتحمل العلماء منه نصيباً ويتحمل منه المسؤولون نصيباً آخر ذلك أن إسماعيل الخديوي أرسل رفاعة الطهطاوي وتكلم معه لأن يذهب إلى علماء الأزهر لينظموا التشريع الإسلامي ، لأن الغربيين يضغطون عليه ويريدون إدخال قانونهم ، فأراد من العلماء أن يضعوا له قانوناً وتشريعاً إسلامياً لا يخرج عن دائرة الإسلام ولا يخرج عن مذهب معين ، بل يكون من جميع المذاهب ، وإنما ينبغي أن يكون منظماً ، فقال له رفاعة الطهطاوي : «يا مولاي لا تعرضني لهذه الآفة فيكفرني علماء الأزهر في آخر حياتي ، لأنهم لا يقبلون هذا التفكير» .

ثم بعد ذلك أرسل إليهم ، فخطبهم في الأمر ، فأجابه الكل بأنه حرام ، فتركهم مع حرامهم وأتى بقانون نابليون .

دخول الاستعمار وأثر ذلك في حضارة الأمة :

هذا أول ما وقع ، ثم تتابع بعد ذلك القانون الغربي ، ثم جاء بعده الاستعمار الذي احتل العالم الإسلامي ولم تبق منه أية بقعة في العالم ، فأدخلت بطبيعة الحال القوانين الغربية وتلا ذلك التفكير الغربي .

التقدم لا يقتصر على جانب معين :

العالم الإسلامي عندما كان يتقدم في التشريع الإسلامي لم يكن تقدمه في هذه الناحية فقط لأن عناصر الحضارة كما هو معلوم هي أربعة : العنصر السياسي ، والعنصر الاقتصادي ، والعنصر الثقافي ، والعنصر العقلي ، وكان العالم الإسلامي يتقدم في جميع هذه النواحي ولم يكن مقتصرًا على ناحية ، وكان يتقدم في جميع العلوم يدلنا على ذلك وما وصلت إليه العلوم الطبيعية في الإسلام ، وما وصل إليه علم الطب في الإسلام ، وما وصل إليه العلماء في سائر الميادين .

أسبقة المسلمين للغربيين في الجانب العلمي :

كانت أوروبا تفتخر «بهارفي» الذي اكتشف الدورة الدموية ، و«هارفي» هذا كان يعيش في القرن السابع عشر ، بينما الدورة الدموية أشار إليها ابن النفيس وخطأ جالينوس فيما ذكره فيها ، وابن النفيس ، هذا كان في القرن التاسع ، فبينه وبين «هارفي» بون شاسع .

فابن النفيس سبق إلى هذه النظرية وتكلم عليها قبل «هارفي» .

المقارنة بين سرعة الصوت والضوء:

نجد الغربيين مثلاً يتكلمون عن المقارنة بين سرعة الصوت والضوء ، وهذه مسألة ذكرها «البيروني» وتكلم عليها قبل أن توجد أوربا ؛ لأن أوربا ما وجدت -في الحقيقة- إلا بعد وجود القوميات ، وكان ذلك في القرن السادس عشر ، أما قبل ذلك فإنما كانت تدعى الأمة المسيحية ولم تكن هناك قوميات ولم تكن هناك دول على الحقيقة .

الجراحة على يد أبي القاسم الزهراوي:

في ميدان الجراحة مثلاً نجد أن أوربا وقعت فيها أول جراحة في القرن الثالث عشر ، فكتبت الكنيسة منشورا وعلقته على جميع الجدران تقول : إن الكنيسة تقشعر من الدم البشري بينما الجراحة وقعت على يد علماء قبل ذلك بقرون على يد أبي القاسم الزهراوي وعلى يد غيره وكتب كتابا وصور فيه الآلة التي كان يباشر بها الجراحة .

فقد سبق العالم الإسلامي إلى هذه الناحية .

الصيدلة على يد جابر بن حيان:

في مسألة الصيدلة نجد «جابر بن حيان» الذي يريد الأوروبيون أن يغالطوا فيه ويقولون إنما هو شخصية خيالية ولا وجود له في الحقيقة هذا جابر بن حيان الذي كان مع محمد الباقر ، هو الذي وضع أسس علم الصيدلة بحيث كان في مسألة التصعيط والتقطير هو الذي اخترعها قبل أن يعرف الأوروبيون ذلك ، بل أوربا كانت إذ ذاك يمكن القول إنها ليست بموجودة بالمعنى الصحيح إذا ذهبنا إلى الوجود الذي يقرره سارتر هو أن الوجود هو مسألة الحرية ، هكذا في الميدان الطبي مثلاً .

الحسن بن الهيثم والانعكاس الضوئي:

كذلك في مسألة الانعكاس الضوئي نجد أن «أبا علي الحسن بن الهيثم» الذي ولد في البصرة وكان يعيش في الدولة الفاطمية وكان أول شخص اقترح فكرة السد العالي، نجده أيضا تكلم على الانعكاس الضوئي قبل أن تكون في أوروبا هذه العلوم، ثم عندما انتقلت العلوم إلى أوروبا نجد أن ألبيرك الكبير الذي ذهب إلى الشام وترجم كتب محمد بن موسى الخوارزمي في الرياضيات، وترجم غير ذلك، نجده تعلم العربية، وكذلك روزنباكو، قالوا إنه هو مخترع التجربة، نجد أن هذه التجربة كانت عند علماء الإسلام، حتى قال ابن زهر حكيم إشبيلية: إنه لا يعتمد على آراء جالينوس، وإنما يعتمد على ما استفاده من تجربته.

ترك الدين هو سبب التخلف:

العالم الإسلامي كان متقدما في جميع النواحي العلمية، وكان متقدما في النواحي الاقتصادية، والنواحي السياسية، حسب القوانين التي وضعها له القرآن، ولم يكن متخلفا هكذا، وإنما جاءه التخلف لما ترك الدين الإسلامي لأنه ترك نصره الله فتركه الله، كان معتمدا على الله في بداية أمره؛ فترك الدين الإسلامي جانبا وصار يعتمد على الأفكار الغربية ومع الأسف، فإننا نجد أن بعض الناس الذين أتوا البيوت من ظهورها وتركوا أبوابها، الذين لا يعرفون من الإسلام إلا ما صوره لهم الغرب، نجد أنهم يتباهون فيما إذا ذكر رجل من رجال القانون الغربي، إذا ذكر كايوس مثلا أو غيره من رجال الرومان، أو إذا ذكر رجل من رجال القانون الفرنسي مثلا، نجدهم يتفاخرون ويتباهون بذلك.

ولكن إذا ذكرت لهم الإمام مالك ، أو ذكرت لهم أبا حنيفة ، أو ذكرت لهم الشافعي ، تراهم يلوون أعناقهم ولكنهم معذورون في ذلك ولا يمكننا أن نؤاخذهم في ذلك ؛ لأن ذلك ما أوصلته لهم ثقافتهم ، ولو أنهم درسوا الإسلام من منابعه الأصلية لما اعتقدوا هذا الاعتقاد لأن القاعدة أن الأمم التي حدثت .

وقال القداكوني فكانت يمكنها أن تعتمد من المذاهب ومن الأفكار ما تشاء ، كما في الولايات المتحدة مثلا هذه أمة لم تكن ، ولكنها كانت ؛ تعتنق من المذاهب ما تشاء .

الحاضر لابد أن يبني على الماضي :

الأمم التي لها حضاراتها ولها دينها ولها عقيدتها ، ينبغي أن تبني حضارتها على ماضيها ، فإذا وقع الفصل بين الماضي والحاضر كان البناء على غير أساس ، ولا يلبث أن ينهار ، هكذا كانت الثقافة الإسلامية فيما مضى .

تأثر الغرب بالإسلام حتى في مسألة الكلام :

إذا رجعنا إلى التفكير في أوروبا ، نجد أن ما وقع في العالم الإسلامي كانت هناك فرقتان مشهورتان وهي فرقة المعتزلة ، وفرقة الأشاعرة فإذا رجعنا إلى أوروبا نجد نفس الشيء لأنه تأسس في باريس فرقتان وهما فرقة الدونمکان وفرقة فرنسيسكان ؛ فرقة فرنسيسكان هي فرقة تسير على مذهب المعتزلة ، وكانت فرقة الدونمکان تسير على مذهب الأشاعرة .

فكان هؤلاء يترجمون كتب المعتزلة ، وهؤلاء يترجمون كتب الأشاعرة ، فكانوا يسировون على النهج فكانت الحضارات الغربية الأوروبية تسير على الحضارة الإسلامية حذو النعل بالنعل ؛ لأن الحضارة كانت بطبيعة الحال تنتقل بين الشرق والغرب فلما انتقلت إلى الغرب سارت على هذا المنهج .

نعمة العقل وفضلها :

إن ما سبق يدلنا على أن قول الله تبارك وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] ، وأن الله تبارك وتعالى لم يذكر هناك المتعلق ، قال : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأي شيء ؟ لم يذكر الله المتعلق ، واحد في المتعلق يدين بالعموم ، بحيث يكون الدين كاملا في كل جانب ، ومن أكمل النعم التي أتم علينا بها الدين ، هي مسألة العقل ، حيث أطلق العقل من عقاله الذي كان يقيد في الديانات السابقة ، فما تجد آية إلا ويذيلها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٤] أو ﴿كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ [يونس : ٢٤] وما أشبه ذلك .

فكان هذا التحرير العقلي الذي أتى به الإسلام كان سببا في التقدم الإسلامي وفي تقدم العلوم إلى أن وصلت الأمة الإسلامية إلى ما وصلت إليه ، فكان هذا من جملة النعم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على الإسلام فحذف المعمول هنا مقصود قال : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأي شيء ؟ من جميع النواحي ، لا من الناحية العلمية ولا من الناحية الاقتصادية ولا من الناحية السياسية ولا من غير ذلك .

هذا ما أردنا أن تدين به هذه الآية من هذه المواضع ، وإن كان لا يزال الكلام فيها طويلا ، من الجوانب الأخرى لأنه لا يمكن للإنسان أن يتكلم في جميع النواحي التي أتم الله بها الإسلام وأكمل بها نعمة الإسلام ؛ لأن هذا يستلزم الكلام على الإسلام كله ، وهذا مما لا يمكن لأي إنسان أن يتكلم على الإسلام كله ولو طال عمره ما طال ؛ فلهذا يجب أن نقصر على هذا الحد .

ضرورة عقد المناقشات العلمية:

ينبغي أن نعيد مجد الإسلام بعودة حكام وعلماء الإسلام بعقد جلسات المناقشات العلمية وإبراز محاسن الدين لتتبلور الصورة النقية لهذا الدين ، ففي بداية النهضة الإسلامية كان دور العلماء ، بل ودور الخلفاء للمناقشات العلمية ، فكان المأمون يحضر في المناقشات بنفسه ؛ ويلاحظ الملاحظات القيمة سواء من الناحية الفلسفية أو الحديثية أو من ناحية الفقه أو غير ذلك .

وعندما جاءت الحروب الصليبية واختلط العالم الغربي بالعالم الإسلامي ، وكان الاتصال بواسطة الأندلس وبواسطة صقلية ، رأوا ما عليه الإسلام وما عليه من المباحثات العلمية استحوالت دور العلماء المفكرين في باريس ودور الأغنياء إلى أندية للمناقشة ، فكانوا يتناقشون في المسائل العلمية وبالأخص كانوا يتناقشون في فلسفة ابن رشد لأن فلسفة ابن رشد كانت لها مراكز ثلاثة وهي :

١- جامعة بادوا في إيطاليا .

٢- جامعة خريستسلان في باريس .

٣- جامعة باريس .

كانت هذه المراكز الثلاثة تقوم على الفلسفة الرشدية وإن كان هناك من كان يعارضها ، فكانت المناقشات تعقد حول ابن رشد ، والمقارنة بين ابن رشد وابن سينا ، ويأتي إليها علماء من بلاد الإنجليز وغيرها ، فكانت هذه المناقشات سببا في تقدم العلوم ، سواء العلوم الطبيعية أو الفلسفية أو غيرها فتريد نحن كذلك من هذه الفكرة أن تعود بالنفع على العلماء .

المحاضرة الثانية والسبعون بعد المائة

الإسلام أفضل الأديان وكتابه أفضل الكتب

انطلاقاً من قول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ؛

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

زمان الآية ومكانها:

نريد أن نتناول هذه الآية التي تدل على فضل الإسلام ، وقبل ذلك نريد أن نتناول المفردات اللغوية التي فيها ، ونزولها ، فهذه الآية : هي نهائية ولا شك ، وسفريه ولا شك ؛ لأنها نزلت بعرفات يوم الجمعة ، بعد صلاة العصر ، ثم قيل : إنها مكية ، بناء على أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، وقيل : إنها مدنية بناء على أن المدني ما نزل بالمدينة .

اليوم في اللغة:

اليوم يطلق شرعاً على ما بين الغروب والغروب ، أو ما بين بزوغ الشمس إلى غروب الشمس ، وهذا هو اليوم الشرعي ، ويقابله الليل .

اليوم عند الفلكيين .

عند الفلكيين يطلق اليوم على المدة التي تستكمل الأرض فيها دورتها من المغرب إلى المشرق حول محورها ، واختلف الفلكيون في مدته ، فقليل : إن اليوم يبتدئ من الغروب إلى الغروب الثاني ، أو من الشروق إلى الشروق التالي ، وهذا مذهب المتقدمين من الفلكيين ، وذهب المتأخرون إلى أن اليوم يبتدئ عند مواصلة الشمس لخط نصف النهار أو معدل النهار . ويستمر إلى نهاية الثانية . وعليه فيكون أربعاً وعشرين ساعة هذا هو اليوم عند الفلكيين .

الدين في اللغة :

الدين يطلق في اللغة على العادة ، كما في قول الشاعر :

تقول إذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبداً وديني

الدين في الشرع :

عرفه السيد في «التعريفات» بقوله : هو وضع إلهي يدعو العقلاء إلى التسليم لما جاءت به الرسل ، وهذا تعريف له بالمعنى المصدري . ويمكننا أن نعرفه بالمعنى الاسمي . بمعنى أن الدين هو نفس الشيء الذي جاءت به الرسل ، والنعمة هي الإحسان والنفع ، لا لغرض ولا لعوض .

الإسلام يطلق على الانقياد الظاهر :

يطلق الإسلام على الانقياد الظاهر فقط ، كما في قول الله تبارك وتعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات : ١٤] ، ويطلق الإسلام على جميع الأعمال ، أعمال الجوارح ، أي أركان العبادات ، وعلى

الإيمان ، وعلى الإحسان ، وهذا ما جاء في حديث جبريل ، حيث قال النبي ﷺ بعدما ذكر الثلاثة : «قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١) ، وهذا هو المراد في الآية هاهنا .

إذ يبعد كل البعد أن يرتضي الله تبارك وتعالى لهذه الأمة الانقياد الظاهري فحسب ، فالمراد بالإسلام هاهنا الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لهذه الأمة ما يشمل الشعائر الدينية ، والإيمان ، ويشمل أيضاً الإحسان . هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

الآية تدل على أفضلية الإسلام وكتابه :

إذا ما أردنا أن ننظر إلى معنى هذه الآية نجد أنها تدل على أفضلية الإسلام وعلى أفضلية كتابه الذي يتضمن المبادئ الإسلامية ، ذلك أن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] . فالدين الذي يرتضيه الله تبارك وتعالى للأمة لا شك أنه يكون أفضل الأديان . وهذا تدل عليه الآية مطابقة ، وتدل التزاماً على أن القرآن أفضل كتاب وجد على سطح البسيطة ؛ لأنه إذا كان الدين أفضل الأديان فينبغي أن يكون الكتاب الذي يتضمن مبادئه أفضل الكتب .

كل دين يدعي لنفسه الأفضلية :

إن هذه الأفضلية التي ندعيها للإسلام وندعيها لكتاب الإسلام ، هذه الأفضلية تتنازعها الأديان . فالمسيحية تقول إنها أفضل الأديان ، والعبرية

(١) سبق تخريجه .

تقول إنها أفضل الأديان ، هذا في الديانات السماوية ، وكذلك في الديانات الوضعية نرى أن الزرادشتية مثلا تقول إن دينها هو أفضل الأديان ، وكذلك المانوية ، وكذلك الشنتوية وكذلك البوذية ، إلى غير ذلك من الأديان ، ما من ديانة إلا وتدعي أنها أفضل الأديان .

دليل أفضلية الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ :

نحن نؤمن أن القرآن مثلاً أو الديانة الإسلامية هي أفضل الأديان .
فإذا قلنا : إن الإسلام أفضل الأديان ، نستشهد مثلاً بقول الله تعالى :
﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

من: تدل على العموم:

نقرر هنا أن الله تبارك وتعالى أتى بصيغة العموم التي «من» كل شخص
كيفما كانت حالة هذا الشخص .

ثم وقع الإتيان أيضاً بصيغة المضارع ليدل ذلك على الحاضر ، وأن كل
من اتخذ ديناً غير دين الإسلام يكون غير مقبول ، ويكون دينه باطلاً ،
وهذا يدل على عموم الإسلام وعلى شموله ، وأنه يدوم إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها .

ثم أتى الله تبارك وتعالى بعد ذلك بلفظة «دين» ، وأتى بها بصيغة
النكرة ، والنكرة في سياق الشرط تعم كما يقول الأصوليون ، فكل من اتخذ
ديناً غير الإسلام سواء كان هذا الدين سماوياً أو كان غير سماوي ،
لا يكون ذلك مقبولا منه .

الحصر والتأكيد في الآية:

نستدل بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالله تبارك وتعالى هاهنا جاء بهذه العبارة، وأتى بها بتعريف جزأين، وهو يدل على الحصر، أي لا ديانة إلا ديانة الإسلام، ثم أتى أيضًا بـ «إن» التي تؤكد النسبة بين الطرفين فقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

حديث النبي المحجة البيضاء:

نستدل أيضًا على أفضلية الإسلام بقول النبي ﷺ: «تركتم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١). هذه كلها تدل على أفضلية الإسلام.

آية: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

عندما نريد أن نستدل على أفضلية القرآن، نستدل مثلاً بهذه الآية التي تدل على أفضليته بالالتزام.

وكذلك نستدل بقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. على أحد الاحتمالين، إذ قيل إن المراد بالكتاب هاهنا: اللوح المحفوظ، ولكن الخطاب هاهنا للأمة، فينبغي أن يراد بالكتاب هاهنا القرآن، ومعنى كونه لم يفرط في الكتاب من شيء أنه ما ترك شيئاً إلا ودل عليه، إما بطريقة التفصيل والتحليل، كما في مسائل العبادات

(١) سبق تخريجه.

والعقيدة ، وإما بالإتيان بالقواعد الكلية التي تدل على إحكام المعاملات وتصرفها ، بحيث تكون أحكام المعاملات كلها فيه موجودة ولكن ليست موجودة بالتفصيل ، ولكنها توجد على سبيل الإجمال ، وعلى سبيل القواعد العامة التي يمكن أن يتوصل الإنسان بها إلى السعادتين الدنيوية والأخروية .

دليل أفضلية القرآن ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ :

إننا نستدل على أفضلية القرآن بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

حديث النبي : « تركت فيكم . . . » :

نستدل على أفضلية القرآن أيضاً بقول النبي ﷺ : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله ، وستي »^(١) .

هذه الأدلة لا تفيد مخالفاً في العقيدة :

هذه آيات وأحاديث تدل على أفضلية الإسلام وعلى أفضلية القرآن ، ولكن الاستدلال بهذه الآيات وهذه الأحاديث إنما يفيد مع الموافقة في العقيدة . أما إذا كان الإنسان مخالفاً في العقيدة ، فإن هذه دلالة لا تنهض ولا تكون حجة عليه ، ويكون ذلك بمثابة من ادعى وشهد لنفسه ، فهو لا يسلم بالقرآن وأنت تستشهد عليه بالقرآن .

إذن هذه أدلة لا تصح ، لذلك ينبغي لنا أن نأتي بأدلة يمكن أن تكون حجة على الخصم ، والتي يمكن أن يسلم بها ، وهذه الأدلة تكمن في تتبعنا للديانات

(١) سبق تخريجه .

التي لا تزال موجودة إلى الآن ، هذه الديانات التي توجد بحسب الظاهر ، وإما بحسب ما في نفس الأمر ، فإنها يوجد الإسلام وحده .

ولسنا نريد هاهنا بالتعرض إلى هذه الديانات أن نحط من قدرها ؛ لأن الإسلام لم يعودنا المهجوم على الناس لا في الحروب ولا في التفكير ، وإنما نريد أن ندافع عن الإسلام ؛ لأن المهجوم قد وقع علينا في ديننا وفي قرآننا ، وفي تفكيرنا وفي لغتنا ، وفي كل ناحية من نواحي حياتنا . فنحن نريد أن ندافع ولا نريد أن نهجم أحداً .

أول ديانة على الإطلاق :

أول ديانة على الإطلاق ، وأول تشريع على الإطلاق ، بحيث لم يكن هناك تشريع وضعي ولا تشريع سماوي ، التشريع الأول الذي ظهر ، هو قول الله تبارك وتعالى مخاطباً آدم في قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة : ٣٥] .

شروط القاعدة القانونية :

هذه الآية يمكننا أن نقول إنها تتوفر فيها شروط القاعدة القانونية ؛ لأن القانون كما يقول الفقيه الإنجليزي «أوسلان» ، يقول : (إن القانون هو خطاب صادر من السلطة العليا يتضمن أمراً ونهيًا ، يكون مصحوباً (بجزاء) . هذه الشروط هاهنا هي متوفرة في هذه الآية ، فهي خطاب صادر من سلطة هي أعلى من كل سلطة ، وهو الله تبارك وتعالى ، وهو يتضمن أمراً ونهيًا مصحوباً بجزاء ، ولا يقال هاهنا : إن مسطرة القاعدة القانونية أن تكون عامة ومجردة ، وهذه الآية من قبيل قضية الأعيان ، ومن شأن قضايا الأعيان أنها لا تعم ؛ لأنه يمكننا أن نسلك بالآية مسلك التجريد ،

فنقول : هذا أمر من سلطة عليا ، وكل أمر من سلطة عليا يعاقب مخالفه ، ولذلك تكتسب قضية العموم وتنشئ مركزاً قانونياً بحيث تقصد على كل شخص وعلى كل واقعة من غير أن تكون معينة .

حاجة الخليقة إلى إرسال الرسل :

هذا أول تشريع صدر من حيث التشريع السماوي ، ثم اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يتتابع الرسل بعد آدم ، فبعدها تناسلت البشرية ، وتفرقت في أنحاء الكرة الأرضية ، كانت هناك الحاجة تدعو إلى بعثة الرسل ، ولكن بعثة الرسل هذه كانت محددة بالزمان والمكان ، فكان الله تبارك وتعالى يرسل رسولا إلى أمة معينة ، وفي زمان معين لا يتعداه ، بل ربما يرسل الله تبارك وتعالى رسولين في آن واحد ، كما في قضية سيدنا إبراهيم ، وسيدنا لوط ، وربما أرسل الله تبارك وتعالى رسولا إلى عدد معين كما في قضية سيدنا يونس ، حيث قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصفافات : ١٤٧] .

وبما أن هذه الرسائل كانت محدودة الزمان والمكان يلزم على ذلك ألا تكون فيها قواعد عامة يمكن أن تضبط حياة الناس ، وإنما تكون هذه القواعد التي تتضمنها هذه الرسالة في مستوى الأمة التي أرسل إليها الرسول . فإذا مات الرسول وتقدمت الأمة في مستواها وفي نضجها العقلي ، فتكون الرسالة قد تخلفت عما هو مطلوب منها ، وعليه فيحتاج الحال إلى إرسال رسول آخر . وهكذا كان الشأن فكانت كلما جاءت فترة من الرسل إلا ويرسل الله تبارك وتعالى رسولا آخر ليجدد للأمة من دينها ما تحرف ، وليأتي بحلول للمشاكل التي استجدت عند الأمة . وهكذا دواليك إلى أن جاءت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام .

عدد الرسل غير معلوم بالضبط:

نحن لا نعلم عدد الرسل بالضبط ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨] ، إلا أن الذي نعلمه ونتيقنه هو أن الرسائل المتقدمة كان يوجد فيها قدر مشترك بين جميع الرسل ، وهو ما يدعو إلى العقيدة ويدعو إلى عبادة الله ، وهذا ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الشورى : ١٣] ، فإذا كان ذلك من قبيل المعاملات فإنه يكون مختلفاً حسب الأزمنة والأمكنة ، وحسب تقدم الأمة وهذا ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

الرسالات السابقة والقرآن . . خصوصية وعموم :

هكذا كانت الرسالات في سالف الأزمان ، وهكذا كانت مهمتها بحيث تكون محدودة الزمان والمكان ، وكلما تقدمت الأمة إلا وتكون متأخرة عن مستواها ، فينبغي أن تجدد هذه الرسالة ، فيبعث الله تبارك وتعالى رسولا آخر . وما قيل في القوانين السماوية يقال كذلك في القوانين الوضعية ، فإن القوانين الوضعية توضع للأمة في زمان معين وفي وقت معين ، فإذا تقدمت الأمة يكون القانون دون مستواها ، فيعاد النظر في تنظيم القانون ، ولذلك نرى الأمم تعدل قوانينها وتزيد فيها أو تنقص حسبها تقتضيه الظروف فلا نجد قانوناً استمر طيلة استمرار القرآن أربعة عشر قرناً . ومع ذلك بقي صالحاً للتطبيق في كل حال وفي كل زمان وفي كل مكان . فما من قانون إلا وتجدد عدة مرات ، ولا يوجد قانون استمر استمرار القانون الذي وضعه الله تبارك وتعالى ، واختاره لعباده ، هذا باعتبار الشرائع .

النظر في الرسائل السابقة:

إذا أردنا أن نقارن بين هذه الشرائع بالأفضلية فينبغي أن ننظر في هذه الشرائع الموجودة الثلاثة، لم يسجل لنا التاريخ من الرسائل إلا ثلاث رسائل، وهي العبرية، ديانة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، وكتابتها التوراة، وديانة سيدنا عيسى وهي المسيحية وكتابتها التوراة والإنجيل معًا، وهو ما يسمى بالكتاب المقدس، وديانة الإسلام وكتابتها هو القرآن الكريم.

العبرية وبعض مواقف جاحدة لبني إسرائيل:

إذا أردنا أن ننظر في العبرية، نرى أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، قد بعثه الله فيما بين القرن الرابع عشر، أو القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وبعثه الله بمعجزات واضحة ظاهرة حسية؛ لأن قومه كانوا لا يؤمنون إلا بالحسيات. فأتاه الله تبارك وتعالى العصا التي كان يتصرف بها، وعندما أراد أن يخرج من مصر، وضرب البحر فانفلق. مر قومه برجال يعكفون على أصنام لهم. فقالوا له: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. هذه أولًا.

ثم لما ذهب إلى ميقات ربه، اتخذوا العجل إلهًا لهم من دون الله تبارك وتعالى.

ثم بعدما رجع إليهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قالوا له: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

ثم عندما أراد الله معاقبتهم ورفع فوقهم الطور وقال لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] وعندما طلب منهم سيدنا موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا

جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴿ [المائدة : ٢٢] ، ثم قالوا له بعد ذلك : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] .

من هذا يتبين لنا جحود هذه الأمة ، عندما جاءها سيدنا موسى كانت تقريباً على الكفر ، وكانت تطالب بالمعجزات ، فهي دائماً تميل إلى الكفر ، وعندما توفي سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وخلفه سيدنا يوشع ، ترك التوراة التي أنزلت عليه عند أبناء سيدنا هارون عليه الصلاة والسلام . ومن بعد وفاة سيدنا يوشع إلى بعثة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان اليهود يترددون بين الكفر وعبادة الأوثان وبناء الهياكل في الكثير ، وبين الإيمان في القليل .

إحراق التوراة في القرن السادس ق.م :

قبل الأسر البابلي في بداية القرن السادس قبل الميلاد بالضبط ، كان يدبر أمرهم ملك يقال له : «يهوياقين» ، وهو كافر ، فأخذ التوراة وأحرقها ، فصارت أثراً بعد عين .

كتابة سفر التكوين والخروج آخر القرن التاسع ق.م :

من المستغرب أننا نشاهد أن الإسرائيليين ابتدءوا في كتابة التوراة قبل إحراق التوراة الموجودة عندهم ، فقد كتب سفر التكوين ، وسفر الخروج ، في آخر القرن التاسع والتوراة إذ ذاك لم يحرق بعد ، فهم أرادوا أن يكتبوا لأنفسهم توراة غير التوراة التي كانت مكتوبة عند أبناء سيدنا هارون عليه السلام .

سفر التثنية في آخر القرن السابع ق.م :

كتبوا سفر التثنية في آخر القرن السابع ، أما سفر العدد ، وسفر اللاويين فهذان السفران إنما كتبا بعد رجوعهم من الأسر البابلي ؛ لأن الأسر البابلي كان سنة (٥٨٦) ومكثوا هناك في الأسر مدة ثمان وثلاثين سنة .

التأثر بتشريع حمورابي:

هناك تأثروا بتشريع حمورابي وما احتوى عليه من تشريع السوماريين والأكاديين ، فتأثروا بهذا التشريع ، ثم لما رجعوا صاروا يكتبون ، كتبوا سفر العدد ، وسفر اللاويين .

بدء كتابة التلمود في القرن الثاني الميلادي:

بعد ذلك في القرن الثاني بعد الميلاد ، ابتدءوا في كتابة التلمود ، ولم يتم التلمود وهو يشتمل على ثلاث وستين سفرًا ، ولم تتم كتابة التلمود إلا في القرن الخامس بعد الميلاد ، فقد تناولت كتابة هذا التلمود وكذلك كتابة غيره ، تناولت عدة أجيال ، وكتب فيها من كتب من غير أن يعلم الكاتب ولا الظروف التي كتبت فيها هذه الكتب ، ويغلب على الظن أنها كتبت في حالة الكفر ، وإذا كان الأمر كذلك فهذه الكتب هي منقطعة السند ؛ لأن من شرط البحث في الكتاب ، إذا أردنا أن نتقّد كتابًا ما ، فينبغي لنا أن نعرف كاتبه ، وأن نعرف الظروف التي كتب فيها ، والسبب الذي من أجله كتب ، هذه أمور لا بد منها للنقد والتحقيق ، وكل هذا لا يتوفر في سند التوراة .

التوراة من ناحية المتن:

هذا من ناحية السند فإذا رجعنا إلى ناحية المتن ، نجد أن التوراة الذي يوجد الآن بين يدي العبريين يشتمل على مسائل يستحيل أن تصدر من عاقل ، فضلًا عن أن تصدر من نبي ، فضلًا عن أن تكون وحيا إلهيا .

أباطيل في قصة آدم وأكله من الشجرة:

عندما تقف في أول سفر التكوين ترى أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمره ألا يأكل من شجرة المعرفة ، ثم إن آدم خالف وأكل من تلك الشجرة ، فجاء النبي إلى الجنة يتفقد آدم ، فلما ناداه وجده مختفياً وراء شجرة . فقال له : أين أنت يا آدم؟ قال له : هأنذا . قال له : ما لك قد اختبأت؟ قال له : إني عريان ، قال له : ومن قال لك ذلك؟ قال : لعلك أكلت من شجرة المعرفة .

ثم إن الله تبارك وتعالى قال : (يقول سفر التكوين) ، نصب حراساً على شجرة الحياة لئلا يأكل منها آدم فيصير إلهاً ، هكذا يقول سفر التكوين ، ثم قال بعد ذلك : إن الله قد ندم على خلق آدم لما صدر منه من الفساد وتأسف في قلبه ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الملائكة كانوا أعلم من الله ، عندما قالوا له : ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ، فكلام اليهود هذا يدل على أن كلام الملائكة كان أحق من كلام الله ، نعوذ بالله من ذلك .

أباطيل وافتراءات حول إبراهيم عليه السلام:

إذا تقدمت في هذا الكتاب ، تجد أن سيدنا إبراهيم تجلى إليه الله تبارك وتعالى مع ملك من الملائكة ، فقدم لهما الماء ليغسلوا أرجلهم ، وطلب منهم أن يتكئوا تحت شجرة فقدم إليهم الطعام فأكلوه وباركوه وذهبوا .

افتراءات حول يعقوب عليه السلام:

من الافتراءات حول نبي الله يعقوب عليه السلام أن الله تبارك وتعالى تجلى ليعقوب فتصارع معه ، فكانت الغلبة ليعقوب ، فقال له الله تبارك وتعالى : ما اسمك؟ قال : يعقوب . قال : من الآن لا تسمى يعقوب وإنما تسمى إسرائيل . ومعناه الأسر والغلبة أي الذي غلب الله ، هذه أمور لا يمكن أن تكون صادرة عن رجل عاقل ، فضلاً عن نبي ، فضلاً عن أن تكون وحياً من الله سبحانه وتعالى ، وهم يزعمون أن هذه الأسفار الأربعة هي التي جاء بها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

المسيحية وسقوط السند:

هذا ما يتعلق بالعبرية ، فإذا أتينا إلى المسيحية ، نجد أن سيدنا عيسى عليه السلام ، بعث على رأس الثلاثين ، ومكث في أمته ثلاث سنوات ، ثم رفعه الله إليه ، وقد أنزل الله عليه الإنجيل ، وعلمه التوراة . إذن فالمسيحية تتمسك بالتوراة والإنجيل معاً ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكتب ، بل بمجرد ما رفع سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ارتفع معه التوراة والإنجيل . فبقي المسيحيون بدون كتاب ، فابتدأت كتابة الأناجيل ، وصارت هذه الأناجيل تكتب شيئاً بعد شيء إلى أن تجاوزت المائة . وكان أول إنجيل كتب هو إنجيل متى وقد كتب هذا بالعبرية ، أما الأناجيل الأربعة الأخرى التي هي : إنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل بولس ، فهذه كتبت باليونانية . ولنسلم تسليمًا جدلياً أن هذه الأناجيل كتبها الحواريون أنفسهم . فإن أصولها قد اختفت ، وظهرت ترجماتها ولم يعلم من ترجمها . فينبغي أيضاً أن تكون منقطعة السند ، أما إذا رجعنا إلى متنها فإننا نجد بعض الأناجيل يناقض

بعضًا. بل نجد الإنجيل الواحد يناقض نفسه ، ولهذا تكون هذه الديانة أيضًا منقطعة السند ، وتكون فاسدة المتن ، وبهذا يثبت ما قلناه من أن الديانة الإسلامية هي أفضل الديانات .

القرآن محاط بالحفظ والعناية من أول وهلة:

القرآن الكريم كانت تحفه العناية الربانية من أول وهلة وفي جميع المراحل . فقد أنزله الله تبارك وتعالى في شهر رمضان إلى اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وكما قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] ، ثم بعد ذلك صار ينزل منجمًا حسب الحوادث والوقائع التي كان النبي ﷺ يسأل عنها أو تقع ، فكان ذلك أسهل لحفظه ولكتابته . ثم بعد ذلك وفق الله تبارك وتعالى سيدنا عمر بن الخطاب بعد وقعة اليمامة أن اقترح على أبي بكر أن يجمع القرآن . فاستدعى لذلك رجالًا كانوا يكتبون الوحي للنبي ﷺ فتولوا كتابته ، وهم أعلم به وبمواضعه ، فكتب القرآن ، ولكنه لم يكن على حرف واحد بل بقية الحروف السبعة المشهورة التي أنزل عليها القرآن ، وبقي هذا المصحف عند سيدنا أبي بكر الصديق إلى أن مات . ثم بقي عند سيدنا عمر إلى أن مات . فبقي عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب إلى زمن سيدنا عثمان رضي الله عنه . وفي زمن سيدنا عثمان جاء حذيفة بن اليمان بعدما كان بالشام ، وسمع القراءة من المسلمين الذين كانوا معه في الجيش . فسمع القراءات المختلفة على حسب الحروف التي كان النبي ﷺ رخص فيها ، تيسيرًا على العرب فقال له : أدرك المسلمين قبل أن يختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم . فجاء سيدنا عثمان ، وأرسل إلى حفصة فأرسلت إليه المصحف الذي كان عندها وجمع الكتاب المصحف وكتبه على

حرف واحد ، و وزع هذه المصاحف في سائر النواحي ، وبذلك وصل إلينا قرآنًا متواترًا ، هذه المزية التي لم تحصل لكتاب قبله ولا لكتاب بعده . حيث إنه وصلنا بطريق التواتر .

الحملات ضد الإسلام وأهله :

مع هذه المزايا التي حصلت للقرآن ، هل سلم القرآن من المعارضة؟ إنا نجد الحملات المتعددة تقوم ضد الإسلام ، سواء من الناحية اللغوية ، أو من الناحية العقدية ، أو من الناحية القانونية ، أو من الناحية السياسية . فما من ناحية إلا وعورض منها الإسلام . وهذا شيء طبيعي ، فإنما وقعت المعارضة للإسلام لكون الإسلام عظيمًا ، ولو كان الإسلام كغيره لما وقع التعرض له . فقد درس المستشرقون الديانات الوضعية ، ودرسوا أيضًا الديانات السماوية على ما فيها من تحريف وما فيها من تشويه ، ودرسوا الديانات الوضعية على ما فيها من وثنية ومن خرافات ، ومع ذلك لم ينتقدوها بمثل ما انتقدوا به الإسلام . وهذه الانتقادات تخصص لها أناس متعددون ؛ فوجهوا الطعون للإسلام ولكنها طعون واهية .

كتب وأسماء طعنت في الإسلام :

من جملة أولئك الذين توجهوا للإسلام بالنقد : «بلا مانش» البلجيكي في كتابه : «معلمة الإسلام» ، وكذلك العالم الفرنسي : «رينان» في كتابه : «الإسلام والعلم» ، وكذلك : «كولد زير» في كتابه : «تطور العقيدة والشريعة في الإسلام» ، وكتابه : «مذاهب التفسير في الإسلام» ، وكذلك العالم الأمريكي : «كوفين» في كتابه : «تاريخ آسيا» ، وكذلك : «كولدفوا»

في كتابه : «التاريخ والمؤرخون» ، هؤلاء كلهم طعنوا في الإسلام بطعون لا تقوم على أساس ، ولا يمكنها أن تثبت أمام البحث إذا ما أردنا أن نبحثها ، ويمكننا أن نوجز هذه البحوث ونختصرها في أربعة مواضع .

الطعن في اللغة :

هناك من طعن في الإسلام من حيث لغته . فقال : إن لغة الإسلام هي لغة منحطة ، ولا يمكنها أن تعبر عن العلوم ، وهي أيضًا صعبة ، فينبغي للمسلمين إذا أرادوا أن يتقدموا وأن يسيروا في ركب الحضارة أن يأخذوا لغة أخرى غير لغتهم . أو على الأقل ينبغي لهم أن يكتبوا كلماتهم بالحروف اللاتينية ، ومع الأسف كان بعض العلماء الكبار قد تزعم هذه الفكرة وهو مسلم ، وهو عبدالعزيز فهمي ، كان قد تزعم هذه الفكرة بأن تكتب العربية بالحروف اللاتينية .

قالوا عن العربية :

قالوا : إن اللغة العربية لا يمكن أن تعبر عن العلوم ، ولا يمكن أن تعبر عن المصطلحات العلمية ، وهذا جهل بتاريخ اللغة وبقاعدة اللغة ، فإن اللغة يقول فيها علماء اللغة : إن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وإذا كانت ظاهرة اجتماعية فينبغي أن تكون تابعة للتفكير ؛ لأن الشيء يرتسم في ذهن الإنسان أولاً ثم يعبر عنه ، لا أنه يعبر عنه ثم يوجد بعد ذلك . فما تقدمت لغة الأمم إلا بعد تقدم الأمة . فليس تقدم اللغة سابقاً على تقدم الأمة ؛ لأن التقدم ينبغي أن تنظر في شيء فترسم منه صورة في ذهنك فتعبر عنها ، فما قالوه هو مخالف للقواعد العقلية ، وأيضاً هو مخالف للتاريخ ، ذلك أننا إذا نظرنا إلى تقدم الأمة العربية في بداية أمرها ، نرى

أنها عندما أقدمت على العلوم التي كانت عند الأمم التي دخلت تحت نفوذها ، كانت تترجم هذه العلوم من اللغة السريانية ؛ لأن علماء الإسلام لم يتصلوا باليونانية من أول الأمر وإنما كانوا يترجمون عن السريانية ، وأخيراً اتصلوا باللغة اليونانية مباشرة . فصاروا يترجمون هذه العلوم ، ولم يجدوا صعوبة في الترجمة لما تحتوي عليه اللغة العربية من المرونة من قواعد الاشتقاق ومن استعمال المجاز ومن النحو ومن غير ذلك ، لم يجدوا صعوبة في ترجمة هذه العلوم اليونانية ، بخلاف أوربا عندما أرادت أن تترجم منطق أرسطو ، فإنها لم تستطع أن تفعل كما فعل العرب ، فالعرب عبروا عن القضية والموضوع والمحمول والقياس والنتيجة والعكس والنقيض وما إلى ذلك . أما أوربا فإنها لم تجد في اللاتينية ما يعبر عن ذلك . فصاروا ينقلون تلك المفردات اليونانية ويستعملونها بلفظها في المعنى التي تدل عليه في اللغة اليونانية .

النهضة الأوروبية وأثر ذلك في الترجمة :

عندما جاءت النهضة الأوروبية ، وصار الناس يتعلمون العربية ليرجموها العلوم التي كانت عند العرب ، وصاروا يترجمون العلوم التي كانت عند المسلمين من علوم البصريات والطبيعات وغير ذلك من العلوم ، ترجموها إلى لغتهم . ولم يثبت في تاريخ العرب أنهم قالوا ندرس العلوم باللغة اليونانية لأنها لغة العلوم ، ولا ثبت عند الغربيين أنهم قالوا ندرس العلوم باللغة العربية لأنها لغة العلوم ، ذلك أن اللغات والعلوم لم يكن بينهما معاهدة واتفاق ، بحيث تكون هذه اللغة متصلة بعلم ، وهذه لا تتصل به ، فهذا إنما هو شيء خرافي ، ولا يمكن أن يكون مبنياً على أساس عقلي ، فاللغات كلها صالحة للتعبير عن العلوم ، والأشخاص الذين يتحملون اللغة

هم الذين يكونون عاجزين عن تطبيقها وعن السير بها إلى الأمام . فما قاله هؤلاء هو خارج عن الناحية العقلية والقاعدة الاجتماعية بأن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وهو خارج أيضًا عن الناحية التاريخية . هذا من جملة الطعون التي طعنوا بها على المسلمين ، طعنوا في لغتهم .

دعوى تخلف معتنقيه والرد على ذلك :

هناك من طعن أيضًا في الإسلام من ناحية جموده . قالوا : إن سبب تأخر المسلمين هو الإسلام . ذلك أن التمسك بالإسلام أدى بهم إلى التأخر ، وهذه مسألة العكس فيها هو الصحيح .

فتوحات عظيمة في زمان العزة :

إن المسلمين عندما كانوا متمسكين بإسلامهم حاربوا أعظم دولة في الشرق فغلبوها وأطاحوا بها . وهي دولة الساسانيين ، وحاربوا أعظم دولة في الغرب وهي دولة البيزنطيين واستولوا على أخصب أراضيها ، وحاربوا في ناحية الشمال ، فذهب مسلمة بن عبد الملك إلى أن دخل بخارى وإلى غيرها ، وذهب المهلب بن أبي صفرة إلى أن وصل إلى كابول ، وذهب قتيبة بن مسلم إلى أن وصل إلى أرض الهند وإلى أرض الصين ، وما ذلك إلا لتمسكهم بالإسلام ، وتوجه عقبة بن نافع إلى أن وصل إلى جبال الأطلس ، وتوجه موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى أن وصلوا إلى جبال بريني ، وكل هذا مع تمسكهم بإسلامهم ووقوفهم عند حدوده ، فما منعهم الإسلام من التقدم ؛ لأن الإسلام لا يمنع من التقدم ، بل هو يحث على التقدم وعلى العلوم كيفما كان نوعها ؛ لأن العلوم ليست بحرام ، فما من علم علم إلا والإسلام محتاج إليه ويأمر بتعلمه .

الإسلام يبحث على العلم حتى علوم العجم:

قال عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا العلم ولو في الصين»^(١)، ومن المعلوم أن الصين إذ ذاك لم تكن تتكلم العربية بل كانت تتكلم لغتها فيلزم من ذلك تعلم اللغة الأجنبية - الإسلام لا يعارض المدنية - ثم لما انحرف المسلمون عن الإسلام، وتركوا مبادئ الإسلام، وأعرضوا عن الله تبارك وتعالى مع الأسف، حاربوا الغرب فانهمزوا، واستولى الغرب على أموالهم وديارهم، وتصرفوا في خيراتهم، وحاربوا اليهود فغلبوا وانتزعت منهم أرضهم، وحاربوا المجوس فغلبوا، وانتزعت منهم أراضيهم، وما ذلك إلا لعدم تمسكهم بالإسلام، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وأنتم تعلمون أن هذه القضية قضية شرطية، وهي من قبيل الشرطية المتصلة، والقاعدة أن القضية الشرطية المتصلة، يلزم فيها من وضع المقدم وضع التالي، ومن رفع التالي رفع المقدم: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، لكنكم لا تنصروه فلا ينصركم، فقد وقع الانفصال بين العباد وبين الله، وأعرضوا عنه، ولذلك تسبب لهم ما تسبب من هذه الكوارث التي تصيبهم اليوم بعد اليوم.

ولا أظن أنهم ينتصرون ما داموا لم يرجعوا إلى الإسلام. فلا يفيدهم المحاربة والقوة؛ لأن الإسلام في أول أمره كان لا يحارب بالقوة، بل كان يحارب بالإيمان، فلما ذهب الإيمان وبقيت القوة وحدها أصبح أعداؤنا هم أقوى منا عددًا وعدة، فينبغي أن يغلبونا وهذا أمر لا نزاع فيه؛ لأن الجانب الذي كنا نغلب به وكان المسلم يقف للعشرة، قد ذهب ذلك الوازع الديني وذلك الإيمان، هذا فيما يتعلق بهذه الفئة التي قالت: إن سبب تأخر المسلمين هو تمسكهم بالإسلام.

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٦٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

دعوى التأخر بسبب العقيدة والرد عليها:

هناك فئة أخرى قالت : إن سبب تأخر المسلمين هو العقيدة ؛ ذلك أنهم يتمسكون بقضية القدر ، والقدر يجعل الإنسان متكاسلاً كلاً على غيره ، وينتظر ما تجود عليه السماء به ، وهو يقول : إنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من حياته . فما قدره الله كائن لا محالة ، هكذا قالوا . إذن فعلة تأخر المسلمين هو اعتقادهم بالقدر ، وهذا غلط في فهم المصطلحات العلمية ، فهؤلاء لم يفرقوا بين الجبر والقدر ، فهناك فرق بين الجبر والقدر فالجبر شيء والقدر شيء آخر . ومسألة الجبر أو الحتمية بناء على أنها مترادفان ، وقيل : إن الحتمية مختصة بالعلوم الطبيعية ، والجبرية تكون فيما يتعلق بالإنسان .

مسألة الجبر والاختيار وصلتها بدعوى التأخر:

مسألة الجبر ومسألة الاختيار ، أو ما يسمى بالحرية الفلسفية ، هذه مسألة حيرت الفلاسفة قديماً وحديثاً ، وحيرت علماء الإسلام ، وأعتقد أن الحل النهائي يكمن في الإسلام ، في مسألة القضاء والقدر .

مسألة الجبر والاختيار لم توجد زمن النبي وأصحابه :

هذه المسألة لم تكن في بداية الإسلام أولاً ، فكان الناس يعتقدون ما جاء به النبي ﷺ من غير أن يبحث أو يسأل .

وكذلك في زمن الصحابة رضوان الله عليهم فما كانوا يبحثون في شيء من الأشياء فيما يرجع للعقيدة ، ومن بحث عن مشكل في العقيدة كان يلقي جزاءه من الخليفة .

سد ذرائع التعمق والتكلف في الدين:

جاء رجل إلى سيدنا عمر رضي الله عنه فسأله عن الاستواء فجلبده ونفاه ، وأمر الناس بالابتعاد عنه ؛ لأنه سأل عما لا يعنيه .

وسئل مرة سيدنا عمر عن معنى الأب ، فقال : نهينا عن التعمق في الدين ، فما كان الصحابة رضوان الله عليهم يبحثون في مثل هذه الأشياء .

اتخاذ المسألة لمنحى سياسي:

تبدلت الظروف في زمن بني أمية ، وكانت المسألة سياسية أكثر منها عقدية ، ذلك أن سيدنا معاوية رضي الله عنه عندما سلم له الحسن بن علي الخلافة سنة إحدى وأربعين ، أراد أن يظهر للناس أن ولايته كانت بقدر الله . فكتب إلى المغيرة بن شعبة ، كما روى البخاري عن المغيرة بن شعبة قال : «كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة وكان إذ ذاك في العراق ، يستفسره عما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم خلف الصلاة . فقال له : إنه كان يقول : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» . فاتخذ سيدنا معاوية رضي الله عنه هذا ذريعة في ولايته ، وأن ولايته كانت من الله تبارك وتعالى ، وكانت قدرًا محتومًا فلا ينبغي أن يعترض عليه أحد .

وبعدما ذهب سيدنا معاوية وجاء بنو مروان ، استغلوا المسألة بكيفية أخرى ، فصار عمالهم يتصرفون تصرفاً غير موافق للإسلام ، ويظلمون الناس في أموالهم وفي أعراضهم ويقولون : هذا قدر الله ، وقد كان عطاء ابن يسار ، ومعبد الجهني يذهبان إلى الحسن البصري وهو في المسجد ، فيقولان له : أبا سعيد! أما ترى ما يفعل هؤلاء فإنهم يظلمون الناس ويقولون : هذا بقدر الله . فيقول الحسن البصري : كذب أعداء الله . ولكن

معنى قوله : كذب أعداء الله هل كذبوا في أن ذلك قدره الله أو لم يقدره ليس هذا هو المراد وإنما كذب أعداء الله في احتجاجهم بالقدر في غير محله ، هذا الذي يعنيه الحسن البصري رحمته الله .

معبد الجهني ومقولته في القدر:

كانت فكرة الجبر لا القدر سائدة عند بني أمية وكانوا يؤيدونها ، فكان لابد من رد الفعل ، وكان الذي تولى رد الفعل هو معبد الجهني هذا ، ولكن معبدًا الجهني هذا لم يجد الشجاعة الكافية ليصرح بأن الإنسان مسئول عن أعماله وإنما أخذ في ذلك طريق اللف والدوران ، وأعوزته العبارة ، فقال : إن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها . وهذا اللفظ يدل مطابقة على هذا المعنى الذي نقوله وهو أن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها ولكنه يدل التزامًا على أن الإنسان عندما يتقدم إلى فعل من الأفعال يكون الله غير عالم به وعليه فينبغي أن يتحمل مسؤوليته . فاللفظ له مدلول مطابق وهو الذي تستر تحته معبد الجهني . وله مدلول التزامي وهو الذي أراده معبد الجهني . وهو أن الإنسان يكون مسئولاً عن أعماله .

ثم إن معبدًا الجهني ، مع تصريحه بهذه الأفكار لم يعتد عليه بنو أمية فبقي حرًا إلى أن دخل إلى ميدان السياسة ، فعندما خرج مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث أخذه الحجاج وقتله . ثم أخذ الفكرة بعده غيلان الدمشقي ، وهذا أيضًا قتله هشام ، هذا ما يرجع إلى مسألة القدر في أول الأمر .

فالقدر عند علماء الإسلام هو علم الله تبارك وتعالى بالأشياء قبل وقوعها على الكيفية التي تكون عليها ، والكيفية التي تصدر عليها . وهذا كان السلف يعتقدونه ولا يتنازعون فيه ، ثم إن معبدًا الجهني قال : إن الأمر أنف ، وأن الله

لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها ، فهو لا يعلمها قبل الوقوع . وهذا ما يسمى بالقدرية الأولى عند علماء الكلام ، وهم كفار بالاتفاق .

وهناك ما يسمى بالقدر الثاني ، هذه القدرية التي تسمى بالقدر الأول ، أخذ هذه الفكرة واصل بن عطاء الغزال الذي ازداد في المدينة سنة ثمانين . وهي السنة التي قتل فيها معبد الجهني . أخذها على علتها ، ولكن بعد ذلك تصرف فيها فقهاء المعتزلة ، لما رأوا من أنه يلزم على ذلك الجهل بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى ، والجهل محال . فقالوا : إن معنى القدر هو قدرة العبد على أفعاله . هكذا قال علماء المعتزلة ، ولكن أهل السنة يخالفونهم في ذلك .

ملابسات في مسألة القدر:

هنا تكثر المناقشة حول هذه المسألة في وقتنا الحاضر ، ويقال : إذا كان كل شيء مقدرًا من الله تبارك وتعالى ، وكان العبد يتصرف وفق ما أراده الله تبارك وتعالى ، ولا يخرج عن مراد الله ، فلماذا يعاقب؟ ولماذا بعثت الرسل؟ إذا كان الذي يعمل الخير لا بد أن يعمل ، والذي قدر في الأزل أنه يعمل الشر لا بد أن يعمل؟ فلماذا بعثت الرسل لتبين الخير من الشر ، لا فائدة في الفرق بين الخير والشر ما دام أن الكل من الله ، هكذا يقولون في هذا الوقت الحاضر . ويتخذون ذلك ذريعة للطعن في الإسلام .

تحرير ابن القيم للمسألة وإزالته للبس:

المسألة ليست على ما يظنون ، فالمسألة كما حررها ابن قيم الجوزية في كتابه : «شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل» ؛ أنه يوجد عندنا هناك محلان : يوجد عندنا القدر وشبه القدر .

فالقدر والأعمال التي هي مقدرة للإنسان أن يعملها ، والتي ينبني عليها التكليف وينبني عليها الثواب والعقاب ، هو ما جاء به الرسل . فإذا جاء الرسول وقال لك : هذا حلال وهذا حرام ، فينبغي أن تجتنب هذا وأن تفعل هذا ، وليس لك أن تبحث وراء ذلك هل الله قدره أو كان عنده أنك ستفعله أو لا تفعله ؛ لأن ذلك قبل البعثة يتعلق فيما قبل البعثة ، وقبل البعثة قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، فينبغي للإنسان أن يقف بعقله عند ما جاءت به الرسل ولا يتجاوز ذلك .

ولذلك يقول الإمام الغزالي في «المستصفى» عند تفصيله للعلوم يقول : إن العلوم تنقسم إلى قسمين : إما أن تكون عقلية ، وإما أن تكون دينية ، والدينية إما أن تكون كلية وإما أن تكون جزئية . والعلم الكلي هو علم الكلام ؛ لأنه يتناول الوجود من حيث إنه موجود . ثم بعد ذلك يقسم الموجود إلى قديم وإلى حادث ، ثم يذكر الحادث وخواصه ، ثم يذكر القديم وخواصه ، ويذكر أن من جملة ما هو الله تبارك وتعالى يذكر بالنسبة إليه الواجب والجائز والمستحيل ، ثم يذكر أن من جملة الجائز هو بعثة الرسل . وأن هذا الجائز قد وقع بالفعل ، ويجب التصديق بما جاء به الرسل . وهنا يقف العقل ، ويعدل نفسه عن البحث ولا يتجاوز وراء ذلك ، ويدخل في الشرك وفي ملك الله ، ويبحث عن هذا هل هو مقدر في الأزل أو لم يقدر .

هذا تحرير مسألة القدر التي أرادوا أن يطعنوا في الإسلام بسببها .

دعوى الجمود والرد عليها:

هناك أناس طعنوا في الإسلام من ناحية أخرى من الناحية القانونية ، قالوا : إن الإسلام دين جامد ، ثم لما وجدوا فقهه متصرفاً ، وأنه يحيط بالمسائل ، وتوجد فيه قواعد مهمة . قالوا : إنه مكتسب ومتنحل ، واستعمل فيه قياس أرسطو . أما كون التشريع جامداً فتعللوا بأن التشريع عند المسلمين ينطبق حتى على المسائل الدنيوية ، والمسائل الدنيوية والعلاقات البشرية هي تتجدد وتتطور ، والمسائل الدينية لا تتطور ، وبما أن المسائل العملية عند المسلمين من الدين فهي لا تتطور ، إذن فالتشريع الإسلامي لا يصلح للتطور ، وهذا جهل بما أراده علماء الإسلام بمسألة الصبغة الدينية التي تضيف على المعاملة فقد عدوها هنا من سيئات الإسلام ، والحق أن ذلك من حسناته ، ذلك أن الإسلام أضفى الصبغة الدينية على مسائل المعاملات ليكون هناك وازع ديني ، وليكون الإنسان دائماً خائفاً يترقب ، وإن كان له انفلات من رقابة القضاء . فهناك مراقبة الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهذه الميزة لم تحصل للقوانين الوضعية ، فهي ميزة خاصة بالقانون الإسلامي . وهم يريدون الآن استدراك الأمر به مسألة الضمير وأنه ينبغي للإنسان أن يكون له ضمير يحترم القانون ولو كان منفرداً وحده ، ولكن شتان بين ما وضعه الله وما وضعه البشر .

هكذا قالوا في سبب جمود الإسلام .

دعوى الانتحال والرد على ذلك:

أما قولهم بأنه متنحل ويدل على ذلك استعمال القياس فيه ، وأرسطو هو الذي وضع القياس ، فهذا جهل بالاصطلاحات العلمية ، ذلك أن

القياس الأرسطي هو قياس يتألف من قضايا يلزم من تسليمها تسليم النتيجة . والقياس الأصولي مخالف لهذا ، فالقياس الأصولي ذكر الأصوليون عندما يتكلمون عن المناسب . قالوا : إن العالم إذا نزلت به نازلة ولم يجد حكمها فهو يذهب إلى الأصل ، فيبحث ويستقصي . وهذا ما يسمى من قبيل الاستقراء ، ويستقرئ جميع الأوصاف التي هي في الأصل ، وهذا ما يسمونه بتخريج المناط . ثم بعد ذلك ينظر في أي الأوصاف يمكن أن يكون سبباً للحكم . وهذا ما يسمى عندهم بتنقيح المناط ، ثم بعد ذلك ينظر في الفرع وهل تحققت فيه علة الأصل أو لم تتحقق فيه ، وهذا ما يسمونه أيضاً بتحقيق المناط .

ففرق بين القياس الأرسطي والقياس الأصولي . فالقياس الأرسطي يتألف من مقدمتين أو أكثر فالقياس المركب ويلزم من تسليمه ما تسلمه النتيجة ، والقياس الأصولي هو قياس معلوم على معلوم لمساواته له في علة حكمه ولو عند الحامل ليدخل في ذلك القياس الفاسد ، هكذا قالوا في هذه المسألة .

عودة إلى دعوى الجمود ومتابعة الرد عليها :

هناك من طعن في الإسلام من ناحية أخرى ، وهي الناحية القانونية ، قالوا : إن الإسلام جامد ، ولكننا إذا نظرنا إلى الإسلام وما اشتمل عليه من المبادئ التي لم يصل إليها الغرب إلا في العصر الحاضر ، نرى أن الإسلام كان أرقى وأسمى من القوانين الغربية .

النسخ دليل المرونة وعدم الجمود:

الغربيون يقولون مثلاً : إن مسألة تغير الأحكام بتغير الأزمان هذه إنما توصل إليها «مونتسكيو» الذي توفي سنة ١٧٥٥م هو الذي توصل إلى مسألة تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال ، مع أننا نجد هذه في الإسلام عندما جاء في أول وهلة ، ويدل على ذلك مسألة النسخ ، فقد كانت تأتي الأحكام ، ثم بعد ذلك تتغير الظروف والأحوال فتتغير تلك الأحكام وتستبدل بحكم آخر ، على أن ابن قيم الجوزية في كتابه : «إعلام الموقعين» قد حرر المسألة وتناول لها قبل «مونتسكيو» بأربعة قرون . هذا من جملة ما سبق به الإسلام .

قضية سوء استعمال الحق:

من جملة ما سبق به الإسلام كذلك مسألة سوء استعمال الحق كما يقول علماء القانون . فهذه المسألة يقول علماء الألمان إنهم هم الذين اخترعوها . مع أن المسألة موجودة في الإسلام قديماً ، فقد قال النبي ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »^(١) من هذه القضية يستفاد منها سوء استعمال الحق .

ومن جملة ما يقولون هو ما حدث في القرن العشرين هو أن الغرب استحدث منظمات لفض النزاع بالوسائل السلمية ، ونحن نقول : إن الإسلام سبق لهذا . فقد قال الله ﷻ تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] . فالله تبارك وتعالى

(١) سبق تخريجه .

هاهنا أمر بفض النزاع بالوسائل السلمية بالصلح أولاً ، فإذا لم يحل ينبغي أن تستخدم القوة لفض النزاع ، وإذا فض النزاع في الأخير فلا ينبغي أن تؤاخذ تلك الطائفة الباغية ببغيها ، بل ينبغي أن يحكم بين المتنازعين بالعدل ، وألا يخرج الناس ما فعلته الدولة المعتدية به عن الحق وعن العدل .

فهذه المنظمات التي ذكرها القرآن ، لم يجعل فيها دولا صغيرة ولا كبيرة ، ولم يجعل فيها لبعض الطوائف حق التعرض دون الأخرى ، ولم يجعل فيها سلطة التوزيع ، توزيع الشعوب الضعيفة على الأمم إما تحت الانتداب ، كما كان قديماً ، أو تحت الوصاية كما يوجد حديثاً ، بل جعل هذه الأمة تقوم بالعدل لا تظلم الصغير ، ولا تظلم الكبير ، وتقوم بالسواسية فيما بينهم .

غرض الطعن تحطيم الإسلام وإبادته :

هذا من جملة المسائل التي طعنوا بها في الإسلام ، ومع الأسف الشديد ، مع ما أشرنا إليه من تقدم الإسلام نرى أن بعض المسلمين قد تأثروا بهذه الدعاية المغرضة التي لا يراد منها إلا تحطيم الإسلام .

والتي يفصح لنا عنها ما قاله رئيس وزراء بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر وهو : «وليام إدواردت كليدستون» ، فقد دخل يوماً إلى مجلس العموم البريطاني رافعاً في يده المصحف . وقال : إنه لا يستقر لبريطانيا قرار ما دام هذا القرآن يتلى في مصر ، ونحن نقول : إن الغرب جميعاً يقول مثلاً قاله «كليدستون» . فإنه يعلم أنه لا يقر له قرار في الشرق ما دام القرآن يتلى فيه ، هذه هي الغاية التي يسعون لها وأنهم يريدون أن يفصلونا عن ديننا .

وهذه الغاية يمكن للإنسان أن يطلع عليها أكثر إذا رجع إلى مذكرة «اللورد برايت» التي كتبها عن الحرب العالمية الأولى وعن أسبابها ، وكذلك فيما كتب عن «المسألة الشرقية» أو «الرجل المريض» الذي قالوا فيه إنهم لا يريدونه أن يموت ولا أن يعالج حتى يقتسموا تركته .

وعلى كل فإن الطعون في الإسلام متعددة ولكنها طعون مبنية على الأهواء والأغراض وليست مبنية على أساس ، وهذا آخر ما أردنا قوله ، فالموضوع طويل ، ولكن في هذا كفاية .

المحاضرة الثالثة والسبعون بعد المائة

الإسرائيليات في التفسير ومعلومات خاطئة عن الأقصى

حديثي عن الإسرائيليات التي أدخلت في تفسير كتاب الله ، فشوهت سيرة الأنبياء والمرسلين -وهم المعصومون المنزهون- وحول المسجد الأقصى الذي ألصقت به معلومات خاطئة أتناولها في إيجاز ، في سرد علمي موضوعي بعيد عن الهوى والانفعال .

الموضوع ينحصر في ثلاثة أمور :

- ١- بدء التفسير وبدء الإسرائيليات القصصية فيه .
 - ٢- بيان بعض الإسرائيليات لتفسير بعض الآيات تفسيرًا صحيحًا ، ولا سيما عن إبراهيم عليه السلام ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام .
 - ٣- الخرافات والمعلومات الإسرائيلية الخاطئة عن المسجد الأقصى .
- أما الموضوع الأول ، وهو موضوع التفسير :

أدوار التفسير: الأول: تفسير القرآن بالحديث:

من المعلوم أنه بدئ في تفسير كتاب الله تعالى بالأحاديث ، فكان التفسير بابًا من أبواب الأحاديث ، تناوله عدد من العلماء يفسرون آيات الله بما يروونه من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من أشهر هؤلاء العلماء يزيد بن هارون في سنة ١١٧هـ ، وشعبة بن الحجاج في سنة ١٦٠هـ ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ .

الثاني: التفسير بما أثر عن النبي ﷺ وأصحابه:

بدأ تفسير القرآن الكريم يأخذ طابعاً مستقلاً ، ويصبح علماً مستقلاً بنفسه ، لكل آياته حسب ترتيب المصحف ، وكان في بادئ الأمر يفسر بالمأثور أي بالتفسيرات المأثورة ، كذلك بما عرف عن رسول الله ﷺ وروى عنه ، وبما روي عن الصحابة كذلك وعن بعض التابعين ، ولا سيما عن الذين اشتهروا من صحابة النبي ﷺ بمعرفتهم للتفسير كسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

وأشهر من ألف في هذا الموضوع ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

الثالث: دخول القصص في التفسير:

خرج التفسير عن التفسير بالمأثور ، وبدأ هنا يأخذ طابعاً ولو بشكل قليل من آراء المفسرين وتفسيراتهم لآيات الله ﷻ ، وفي هذه المرحلة بالذات بدأت القصص تأخذ مسيرتها إلى الدخول في تفسير كتاب الله ﷻ ، ولا سيما من القصص والوعاظ الذين يعتمدون على القصص في استهواء الناس .

والقصة مما تميل إليها النفوس ، فكانوا يلجئون إلى تفسير كتاب الله بهذا القصص ، ومن هنا دخل في موضوع التفسير القصص الإسرائيلي وفتح من هذا الباب شر كبير جداً ، إذ بدأت الخرافات الموضوعة عن بني إسرائيل وعن غير بني إسرائيل تدخل في تفسير كتاب الله ﷻ ، تسربت إليه خاصة عندما تجاوز بعض المفسرين في التفسير حذف الأسانيد وحذف الروايات فأمكن من هنا إدخال القصص في تفسير كتاب الله ﷻ ، ومن هنا نشأ أو

استطاع بعض الناس أن يدخلوا تفسيرات تنسب إلى مثل مقاتل ابن سليمان ، وتنسب إلى كعب الأحبار ، وتنسب كذلك إلى وهب بن منبه وغيرهم ، ممن أدخلوا أو اعتمدوا على الروايات الإسرائيلية في هذا الأمر .

الرابع: التفسير بحسب اتجاه المفسر وفكره:

توسع العلماء في التفسير توسعاً كبيراً وأخذ التفسير طابعاً خاصاً بحسب اتجاه كل مفسر من مفسري كتاب الله ، فظهرت هناك التفاسير اللغوية ؛ مثل الكشاف التي تعتمد على النحو واللغة ، وظهرت تفاسير مثل التفاسير العقلية والفلسفية ؛ مثل تفسير الإمام الرازي ، كذلك تفسير الصوفية ، وبعضهم اتخذ في تفسيره الشطحات الصوفية كابن عربي ، وبعضهم أيضاً اعتمد في التفسير على آيات التشريع التي تستنبط منها أحكام الشريعة الإسلامية ؛ مثل تفسير الجصاص وتفسير ابن العربي ، وما ورد أيضاً في بعض تفسيرات القرطبي ، ثم هذا التخصص فبعضهم اقتصر فيه على نواح خاصة من كتاب الله ﷻ كتفسير إعجاز القرآن ، وما إلى ذلك من هذه الأمور .

ظهور التفسيرات الإسرائيلية:

ظهر عدد من المفسرين اعتمدوا على التفسيرات الإسرائيلية . ونعني بالتفسيرات الإسرائيلية القصص التي اعتمدت أو كانت منتشرة في الأمم السابقة على السنة بني إسرائيل وحيكت وقيلت حول أنبياء بني إسرائيل .

ومن أشهر هؤلاء المفسرين الذين أدخلوا الإسرائيليات في التفسير : تفسير الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤١٧ هـ وتفسير الخازن الدمشقي المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

والإسرائيليات اغتر بها بعض الناس ، وهذه المرحلة الثانية التي نتحدث عنها اغتر بها بعض الناس واعتمدوا عليها في التفسير حتى يستجلبوا أنظار الناس وعوام الناس إلى مجالسهم فانتشرت هذه التفسيرات وخرجوا بها عن حدود المعقول وتجاوزوا فيها دائرة الجواز التي حدثنا بها النبي ﷺ وحددها فيها راوه البخاري ، قال عليه الصلاة والسلام : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي عامدا متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار» .

وقوله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، و﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١١٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا وَإِنْ قُولُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١١٧) صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبَغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿ [البقرة : ١٣٦-١٣٨] » (١) .

أنواع الإسرائيلية كما قسمها ابن كثير:

الإسرائيليات قسمها ابن كثير إلى ثلاثة أنواع : فنوع يقول : ما علمنا صحته مما يشهد له القرآن والأخبار والحديث بالصدق فنصدقه ، ونوع علمنا كذبه لأنه ناقض للآيات في القرآن وناقض عصمة الأنبياء ، وكذلك ناقض الأحاديث التي وردت في هذا الأمر ، فهذا يخالف الإسلام فنكذبه ، وبعض هذه الإسرائيلية مسكوت عنه ، فهذه الإسرائيلية طويلة كثيرة جداً في التفاسير ولا نستطيع في هذا المقام أن نوردتها كلها ، وأن نتعرض لها كلها ، وكم كنت أتمنى لو أن مجموعة من علماء التفسير تنهض لهذا

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) ، (٧٣٦٢) ، (٧٥٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الأمر فتقوم بتنفيذها واحدة واحدة ، وتنقية تفسير كتاب الله منها ، نعم قام بعض العلماء بتنفيذ بعضها .

أمثلة للإسرائيليات المنسوبة للأنبياء:

إبراهيم عليه السلام:

أنا أجتزئ بعضها تنويهاً وتنبيهاً ولا سيما ما أراه في نظري مهمًا في بيانه ، مثلاً : إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء ، ومعلوم أنه ولد في العراق وأن أباه تارخ أو آزر ، بعضهم يختلف في موضوع اسم أبيه آزر ، وأنه ليس اسم أبيه ، وأن اسم أبيه تارخ وأن آزر صنم كان يعبد في العراق .

ويقول بعضهم : إنه يماثل الصنم الذي كان يعبد في مصر : (أوزوريس) .

زعموا أن إبراهيم كان يهوديًا:

على كل حال سيدنا إبراهيم عليه السلام كان نبيًا مرسلًا ، جاء القرن التاسع عشر قبل الميلاد كما حققه بعض المؤرخين ، وكانت ديانته التوحيد الخالص لله عز وجل بنص القرآن ، ونحن نعتمد نص القرآن ، ولا نعتمد سواه .

فالكتاب الموثوق هو كتاب القرآن ؛ كتاب الله عز وجل ، والكتاب الذي يعتمد والذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا بين يديه ، ولا من أمامه أبدًا هو القرآن ، ولذلك نعتمد النص القرآني في إثبات ديانة إبراهيم عليه السلام .

ولذلك ما زعمته دائرة المعارف البريطانية على لسان (فلسيك) المستشرق من أنه يهودي هذا لا يعتبر ولا يقام له وزن ، إنما كان بنص القرآن كما قال الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا ﴾

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ [آل عمران : ٦٧] ، وهو الذي يدعو الله ويقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

وأيضاً الله سبحانه وتعالى يقول في إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٥] .

فهي متأخرة عنهم حتى لقد زعم بعضهم -بعض الإسرائيليات- أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما جاء من العراق إلى فلسطين وطاف في بعض بلدانها استقر به المقام في مدينة الخليل ، جاء معه مجموعة من اليهود .

اليهود لم يكونوا موجودين أبداً في ذلك الوقت ، ولذلك هذا تضليل إسرائيلي تاريخي .

ثم وكما نعلم أن اليهودية كدين ، إنما ظهرت بسيدنا موسى عليه السلام وهو في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ ولذلك لم تكن اليهودية إلا في زمن سيدنا موسى عليه السلام .

هذا الخطأ وقع فيه مع الأسف عدد من الكتاب ، مثل عباس العقاد في بعض كتبه ، كذلك وقع فيه أيضاً كاتبان مشهوران أحمد زكي بدوي ، وكاتب فلسطيني مسيحي (اسمه أمين الخوري) .

ووقع بعض الكتاب في هذا الخطأ أيضاً ؛ ولذلك نعتمد ما جاء أو قال به القرآن الكريم ، ثم إن أبناء سيدنا إبراهيم عليه السلام إسماعيل وإسحاق ، وكذلك بنو يعقوب المسمى بإسرائيل (عابد الرب) ، وبنوه موحدون .

سيدنا يعقوب وبنوه موحدون ، وواضح هذا في نص القرآن الكريم ، ليسوا يهوداً ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ، وقال أيضاً : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٢٨] وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ ١٣٣ ﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٣] .

إلصاق التهم بإبراهيم عليه السلام والرد على ذلك:

ألصقوا بسيدنا إبراهيم قصصاً لا تليق به نبياً ورسولاً ، وهو الرسول المعصوم .

عندما جاء إلى مصر وزعم لملك مصر أن زوجته هي أخته ، ولولا أن الله تبارك وتعالى صان أخته فلم تقع فيما يريده الملك منها ، وإلا لوقعت زوجة سيدنا إبراهيم فيما هو محرم في الأديان كلها .

ثم هذا دعوى كذب على سيدنا إبراهيم أن ينسب إليه الكذب ؛ ولذلك وجدت في بعض الإسرائيليات أنهم ينسبون إلى سيدنا إبراهيم الكذب في ست مسائل : وهي : قوله عن زوجته سارة أنها أخته ، وقوله كذلك : إني سقيم ﴿ فَظَرَّ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ [٨٨] فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿ [الصفات: ٨٨ ، ٨٩] أي مريض ، وقوله : هذا ربي ، ثلاث مرات للنجم وللقمر وللشمس ، وقوله عندما كسر الأصنام وسئل : من فعل هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فزعموا نسبة الكذب إليه ، وهذا غير صحيح .

وكذلك في حديث الشفاعة أن سيدنا إبراهيم قال فيما ينسب إليه :
«كذبت ثلاث كذبات»^(١) ، وهذا غير صحيح ؛ فسيدنا إبراهيم ما كان
ليكذب ، هذا كان منه استدراجاً مع المخالفين ليتوصل معهم إلى الإيمان
بالله ﷻ ، كما هو معروف في قصته مع رؤية الكواكب .

ولذلك فالتفسير الصحيح هو هذا التفسير ، وكما قال الإمام فخر الدين
الرازي : قالوا : كيف نكذب الرواة وهم صادقون؟! قال : نكذب الرواة ،
ولا ننسب الكذب إلى سيدنا إبراهيم في الدنيا والآخرة .

يوسف ﷺ :

هو سيدنا يوسف ﷺ وكثيرة هي الأمور التي يتحدث بها عن سيدنا
يوسف ، ولكنني آخذ موضوعاً لعل فيه رأياً لا أقول رأياً جديداً ، ولكن
ربما كان وجهة نظر في تفسيره .

معلوم أن سيدنا يوسف ﷺ هو نبي مرسل آتاه الله تبارك وتعالى
الحكمة ، وهو موحد لله ﷻ ، اصطفاه الله ﷻ .

قصته مع امرأة العزيز وما فيها من افتراء :

قصته معروفة ، فلما نشأ في بيت عزيز مصر ، والقصة التي وردت في
قوله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، وقد سبق حديث الله تبارك وتعالى
عن موضوع سيدنا يوسف وما كان بينه وبين امرأة العزيز سبق أن قال الله
تبارك وتعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾
[يوسف : ٢٢] .

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فأعطاه وصف النبوة ؛ إذن والرسالة ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الآية . [يوسف : ٢٣] .

زعموا أن يوسف عليه السلام لما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ؛ ظهر له معصم سيدنا يعقوب عليه السلام مكتوب عليه : إن الزنا كان فاحشة وساء سبيلاً ، وزعموا أن جبريل نزل من السماء فمسه فطارت الشهوة من صدره ، وزعموا كذلك أنه رأى آيات في النهي عن فعلته هاته مكتوبة في سقف الحائط .

وزعموا أشياء كثيرة ، وأن نفس يوسف مالت إلى هذا الأمر ، وأراد أن يفعل من هذا الفعل ، وهذا حقيقة مناقض للنبوة .

رؤية لغوية في تفسير القصة :

أقول : ما أراه من التفسير معتمداً على اللغة في هذا الأمر قوله سبحانه : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ فعبر في قوله : ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ عن مخالطة يوسف لها دائماً ؛ لأنه عبد أو خادم في هذا البيت ، دائماً يراها وتراه ، ويرأها في كل حالاتها ، وتراه وقد أحبته إذن : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أرادت منه فعل الفاحشة ، ولما كانت ترى منه الصد والابتعاد وعدم الاستجابة ، وأرادت مرة فغلقت الأبواب ، ولذلك عبر بالواو ، والواو فيها فاصل زمني ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ وقالت أيضاً بعد أن غلقت الأبواب وأخذت فترة زمنية حتى غلقت الأبواب ، وتهايات له ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ عندما قالت هيت لك ، انظروا ماذا يقول الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ بعد ذلك : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، فلم يستعمل أي حرف من حروف العطف ، لا الواو ولا الفاء ولا

غيرها لماذا؟ لأن سيدنا يوسف نبي مرسل لا يمكن أن يفكر في فعل الفاحشة مطلقاً ولا يخطر على باله ، وإلا لما كان جديراً بأن يكون نبياً رسولاً ، قال فوراً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ أي عزيز مصر ﴿أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ إقامتي وأكرمني ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ كيف أظلمه في أهله .

تفسير معنى الهم لغة:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف : ٢٤] التفسيرات أنه قعد منها مقعد الرجل إلى آخر ذلك ، حقيقة الأمر أنا رجعت إلى كتب اللغة فوجدت أن معنى هم به قام ليضربه ، ومعروف في قصة سيدنا عمر عندما أراد أن يضرب المنافق قالوا : ولقد هم به عمر ؛ أراد أن يضربه .

هذه المرأة وهي في ثورة شهوتها ، وهي السيدة المطاعة ، التي تأمر فتطاع قالت ليوسف : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فامتنع ، عندما امتنع ، وهي السيدة وفي ثورة عنفوانها أرادت أن تضربه ، قامت لتضربه ، وسيدنا يوسف رجل وأراد أن يضربها ، وكذلك أمسك بيدها ومنعها أن تضربه .

معنى البرهان في الآية:

ما الذي منعه من أن يضربها : ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف : ٢٣] ، برهان ربه هنا ، تذكر نعمة سيده عليه ، ولذلك جاء قوله ﴿وَعَلَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ [يوسف : ٢٤] ضربها والفسحشاء الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وهذا يتناسب مع مقام النبوة ، نحن نعلم بعد ذلك أنها اعترفت بفعلتها ، اعترفت أنها هي التي راودته عن نفسه واعترفت كذلك أنه مظلوم وأنه بريء ، وقام التحقيق بصدق ما قال عندما وجدوا أن قميصه

فقد من الخلف ولم يُقَدَّ من الأمام عندما استبقا الباب ؛ هذا ما أراه في تفسير هذه القصة والابتعاد بها عن الإسرائيليات تنزيهاً لمقام النبوة الكريم .

داود عليه السلام :

قصة داود عليه السلام ، فداود كذلك وُصِمَ بالإسرائيليات بأشياء كثيرة أتناول منها قصة واحدة لنرى أن الله سبحانه وتعالى يُنزِه أنبياءه عن أمثال ما ألصق بهم .

قصة منكرة منسوبة إلى داود :

قيل : إن داود كان في بيته فتمثل له الشيطان في حمامة ذات لون فضي ، ثم طارت أمام سيدنا داود ، فأعجب بها فلحقها فجاء إلى شُرْفة البيت ، فرأى من شُرْفة البيت امرأة جميلة تستحم فأرسل إليها ، وكانت زوجة قائده «أوريا» من قواده الكبار أرسل إليها وواقعها وحملت منه كما يزعمون ، وقيل : إن ممن حملت منه : سليمان عليه السلام بعد ذلك أو هذا الحمل ، هذا ما يُنسب إلى سيدنا داود ، وأنه بعد ذلك أرسل «أوريا» إلى القتال وجعله في مقدمة الجيش ليقتل فلم يقتل أول مرة وانتصر ، وثاني مرة لم يقتل وانتصر ، وكان يجعله دائماً في الحروب ، ثم قتل في الثالثة ، وخلصت زوجة «أوريا» إليه .

تفسير باطل للآيات :

هذا الكلام نسب إلى سيدنا داود ، وأنه نزل عليه العتاب من السماء ، وأن الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ أرسل إليه ملكين يقولان لسيدنا داود كما ورد في سورة ص : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٦٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءٍ

الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٤﴾ [ص: ٢١-٢٣] لاحظوا هنا أراد كما روت القصة أن يقرب الله إليه خطيئته - أن يبصره بها - فتاب داود ومكث أربعين يوماً تائباً لا يأكل ولا يشرب حتى سالت دموعه ، ونبت العشب عليه من دموعه إلى آخر هذه المقولات التي لا يستسيغها العقل ، وكما قال عنها المفسرون ؛ ابن كثير وغيره : إن فيها نكارة وأنها لا تقبل بل هي من الخرافات .

التفسير الصحيح للآيات :

التفسير الصحيح لهذا : أن الله تبارك وتعالى أراد أن يعلم سيدنا داود كيف يفصل في الخصومات بين الناس ، فأرسل إليه ملكين تسوروا عليه المحراب ، ثم دخلا عليه فأتيا بمسألة واضحة كل الوضوح ، قال الأول : لي نعجة واحدة ، وأخي له تسع وتسعون نعجة ، أراد صاحب التسع والتسعين نعجة أن يأخذ نعجتي ظلماً فالأمر واضح ؛ لذلك سيدنا داود رأساً قال بدون فاصل لغوي : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٤] .

هنا أيها الإخوة نرى أن الأمر في كيفية فصل سيدنا داود تعجل وحكم للخصم بسماع قوله فقط دون أن يسمع قول الخصم الآخر ؛ ولذلك كان عمر بن عبد العزيز يقول عندما يقرأ هذه الآيات كان يقول : لو أتاك إنسان قد فقئت عينه فادعى على آخر أنه فقأ عينه ، فلا تحكم له حتى ترى الخصم الآخر ، فربما فقأ له العينين .

ولهذا ناسب أن يقال بعد ذلك : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] فالله تبارك وتعالى علم سيدنا داود الحكمة وفصل الخطاب .

أقول كذلك عن سيدنا سليمان في قصة واحدة فقط أو قصتين ، مما نسب إلى سيدنا سليمان وكثير ينسبونها من الأمور إلى سيدنا سليمان .

قصة جِيَاد سُلَيْمَانَ ﷺ :

يقول الله ﷻ : ﴿ وَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] ، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه أواب ، أي نبي مرسل خاشع خاضع لله ﷻ متعبد لله ﷻ هنا : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجِيَادُ ﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿ ٣١ ﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿ ٣٢ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴿ [ص : ٣١-٣٤] هنا الرواية الإسرائيلية تقول : إن سيدنا سليمان وكان ملكاً بجانب النبوة والرسالة وآلة الحرب في ذلك الوقت هي الخيل ، ومن أهم وسائل الحرب كما قال عليه الصلاة والسلام : «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١) استعرض الجياد ، فلما استعرضها وأعجب بها ، عندئذ أرسلها فتواتر بالحجاب ؛ ذهب بالحجاب ، هم يقولون : استعرضها فشغلته عن صلاة العصر ، وقيل : شغلته عن صلاة المغرب إلى آخر ذلك من الروايات فلما رأى أنها شغلته عن ذكر ربه ، طفق فيها مسحاً بالسوق والأعناق ؛ يعني أخذ يضرب عراقيبها ويقطعها ويقتلها كما قال الإمام محمد بن جرير الطبري : هذا لا يصح من أي إنسان عاقل غير نبي ، فكيف من سيدنا سليمان ﷺ؟!

التفسير الصحيح للقصة :

التفسير الصحيح هنا تفسيران :

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٠) ، ومسلم (١٨٧٣) من حديث عروة البارقي رضي الله عنه .

تفسير للفخر الرازي يقول : طفق يمسح عليها محبة لها كما يفعل الإنسان بخيله على أعناقها ، ثم أرسلها وكانت عدتها كما قيل عددًا كبيرًا أربعة آلاف من الجياد ، حتى توارت بالحجاب ، وذهبت أمام ناظره ، ومن حبه لها قال : ردوها علي مرة أخرى ، فأخذ يمسحها مرة أخرى ، وعندما أخذ يمسحها أخذ يذكر نعمة ربه عليه ، ولذلك في بادئ الأمر لم يذكر أو لم يذكر نعمة الله ثم ردوها عليه حتى يشكر الله ﷻ أمام الناس وأمام أتباعه على ما أعطاه الله إياه .

وهذا القول حقيقة هو أنسب الأقوال لأنه في التفسير كما هو معلوم لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة ، فالحقيقة هي المسح ، وهو الأقرب برجل سيدنا سليمان ﷺ ، أما أهل الحشو والإسرائيليات فيزيدون في هذه الأشياء الكثيرة ، والواقع أنها من الوجوه السخيفة التي لا تقبل .

قصة إلقاء الجسد على كرسي سليمان ﷺ :

الأمر الثاني قصة إلقاء الجسد على كرسي سيدنا سليمان ، كما ورد في الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [٣٤] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ [ص : ٣٤ ، ٣٥] .

هنا بعض العلماء أو بعض المفسرين يرون في الإنكار لما وصف به سيدنا سليمان غرابة ، أما الغرابة حقيقة كما ذهب كثير من المفسرين إلى أن ألصق بسيدنا سليمان هذا الأمر ؛ قصة عجيبة غريبة أن سيدنا سليمان ﷺ غزا جزيرة في البحر تسمى صيدون ، وهي غير صيدا ، وقتل ملكها ، وكانت له بنت جميلة تسمى جرادة ، فتزوجها وكانت

معجبة بأبيها ودائمًا تذكره ، وقالوا : إن سليمان عمل لها تمثالاً لأبيها ، فكانت تعبد خفية من خلف سيدنا سليمان ، فأخبره آصف -من أتباع سيدنا سليمان- بذلك فغضب عليها وكسر الصنم ، وكان له خاتم الملك ، هذا الخاتم كان يضعه عند أم ولد له تسمى أمينة ، فلما غضب وكان إذا غضب وأراد أن يتوضأ وضع الخاتم في يد أمينة ، فوضعه في يدها ، ثم ذهب فتمثل الشيطان بصورة سيدنا سليمان ، فجاء إلى أمينة فأخذ الخاتم منها ثم جلس على كرسي سليمان ، ولما رجع سيدنا سليمان وطلب الخاتم قالت له : أعطيته لك ، وأنكر سيدنا سليمان ، فراح على وجهه يسير في الطرقات يستذل نفسه ، كلما قال للناس : أنا سليمان استدلوه ولم يقبلوا قوله ، ثم اشتغل مع الذين يصطادون السمك حتى ساء حاله جدًا ، وفي يوم من الأيام الشيطان كشف أمره بعد أن أحضر الجن والإنس والطير والأتباع ، وقيل -والعياذ بالله- إنه واقع زوجات سليمان وأنكرن منه أن يواقعهن في وقت الحذر وغير ذلك ، فأنكشف أمر الشيطان وألقى الخاتم ثم هرب ، فوقع الخاتم في البحر فالتقطته سمكة ، وكان يشتغل عند السماكين فأعطوه سمكة أجراً له ، ففتح السمكة فإذا بها الخاتم فلبس الخاتم وعاد إلى ملكه .

تفنيد القصة وبيان بطلانها :

هذه قصة تروى إسرائيلية ، في الواقع إن هذه القصة لا يقبلها عقل وهي باطلة ؛ الشياطين لا تتمثل في صورة الأنبياء إلا بسليمان!! هل يريد الله ﷻ أن يذل نبياً ملكاً هذا الإذلال أمام أتباعه ثم الشيطان يعتدي على نساء الأنبياء ، هذا لا يليق بمقام النبي المرسل .

ثم ذكر أن الجن والإنس والطير جاءت إليه ، والمعلوم - كما ورد في القرآن - أن الله سخرها لسيدها سليمان بعد ذلك .

وأما التفسير الذي أقبله في هذا ما رواه بعض المفسرين أنه ابتلي بمرض شديد ، هذا المرض أقعده حتى نحل منه وضعف ، وكان يقعد على الكرسي بضعف فيلقي بنفسه على الكرسي كأنه جسد ملقى ، كما قال بعض المفسرين ، والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على عظم وجسم بلا روح .

بعد ذلك سيدنا سليمان آبت إليه صحته ، واستغفر الله ﷻ وغفر الله له ﷻ على ما كان منه من هذا الضعف ، وعدم قيامه بأعباء الملك نتيجة الضعف .

هذا التفسير يمكن أن يكون التفسير المعقول لهذا الأمر .

هذه الحقيقة نحن نعلم أن الأنبياء دائماً إذا أعطوا الملك يكون لهم رسالة وقوة ، وأن المسلمين وملوك المسلمين لهم رسالة وقوة وعلم كذلك ، فلا يعقل في سيدنا سليمان أن يتسلط عليه الشيطان ، وهو صاحب الرسالة كما ورد في قصته مع بلقيس ملكة سبأ وغيرها ، وكما حدث القرآن الكريم عنه .

هذه أشياء من الإسرائيليات أحببت أن أورها تنزيهاً للأنبياء عن أن توصم بهم ، فنحن ننزههم عنها .

وصف الحرم القدسي الشريف:

الأمر الثالث وفي موضوعي هذا أحببت بدارستي عن المسجد الأقصى

في متابعته ورعايته لا أريد هنا أن أتحدث عما يحدث ، إنما هذه المعلومات عن هذا المكان الحرم القدسي الشريف والمعبر عنه بالمسجد الأقصى ؛ أي كل ما ضمه السور من قباب ، من قبة الصخرة ، من أسبلة ، من آبار ، كذلك من ساحات ، وبناء المسجد الأقصى ، وما يتعلق به من أروقة كذلك ، ثم بعض القبور الموجودة في الحدائق ، كل هذا يسمى المسجد الأقصى ؛ أي الحرم القدسي الشريف .

نبذة تاريخية عن قبة الصخرة وما يتعلق بها :

الحقيقة أن الرواية التي تقول : إن سيدنا داود اشترى جبل المريا ، وهو جبل الصخرة المشرف على وادي قدرون بالمتابعة لم أجد سندًا صحيحًا لهذه الرواية ، وبالتالي لم يكن هناك أي وجود صحيح لنبي من أنبياء بني إسرائيل في ساحات المسجد الأقصى المعروفة الآن ، ولم يكن ثم هيكل سليمان ، ووجدت آثارًا تاريخية لبعض المؤرخين تؤيد ذلك ، ثم من المعروف أن ساحات المسجد الأقصى وقبة الصخرة .

ومسجد الصخرة ابتداءً ببناءها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللهُ ، وتمت على يد ابنه الوليد بن عبد الملك رَحِمَهُ اللهُ .

وقد كلف العالم المشهور رجاء بن حيوة بالإشراف عليه وجعل له خراج مصر سنوات حتى بقي حوالي مائتي ألف دينار وهبها لرجاء بن حيوة وللبناء الذي قام بالبناء وأشرف عليه ، فأبيا أن يأخذها ، وسبكت قرصًا وضع في قبة الصخرة أذيت فيما بعد ، أظن في أيام أبي جعفر المنصور ، وقد حصل خلخلة أو تصدع في قبة الصخرة فأذابوها وأعادوا

بناءها ، وهذا البناء كله بناء إسلامي ، وما ورد فيه من أسماء غفل عنها بعض المسلمين .

يقولون : هذا كرسي سليمان ، أي سيدنا سليمان ، هذه قبة سليمان ، هذا جُبُّ يوسف ، هذا كذا ، وهذه الصخرة المعلقة في الواقع بتتبع هذه الأشياء لم نجد لهذا صحة ، فليس هناك أي أثر عبري في داخل المسجد الأقصى وما حول السور .

أذكر بعض المعلومات في إيجاز :

أولاً : قبة سليمان وكرسي سليمان :

واقع الأمر أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي الذي جاء بعد الوليد بن عبد الملك .

ومعلوم أن سليمان كانت عليه مأخذ لكنه قيل عنه : ابتدأ بعمل صالح ، وختم حياته بعمل صالح ؛ ختم حياته بأن رشح عمر بن عبد العزيز رحمته الله خليفة للمسلمين ، وابتدأ حياته بأنه أراد أن تكون له البيعة في ساحة المسجد الأقصى ؛ فبنيت له قبة وهذه القبة هي قبة سليمان أي سليمان بن عبد الملك ، وفي القبة هذه كذلك وضع له كرسي فيها فصار على ألسنة الناس كرسي سليمان أي سليمان بن عبد الملك ، وليس سليمان النبي .

قبة السلسلة :

كانت نموذجاً لقبة الصخرة وضعها المهندسون ، وسميت قبة السلسلة .

وفي زمن عبد الملك بن مروان أي سنة ست وستين هجرية هذه القبة زعموا أنها كانت هناك سلسلة لأنبياء بني إسرائيل ؛ هذه السلسلة متصلة

بالسماء تلف حول المذنب فيعترف إلى آخر ذلك ، والواقع أنها قبة صغيرة نموذج للصخرة ، جدها السلطان سليمان القانوني في ساحة المسجد الأقصى ، ثم أطلق عليها خطأ محكمة داود ، وهذا كان التباساً من آية كتبها السلطان سليمان القانوني على القبة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [ص: ٢٦] فالناس ظنوا أنها محكمة داود ، وجري على السنة الناس .

قبة يوسف :

كذلك قبة يوسف ، فهناك قبة صغيرة ليوسف ، الناس يقولون : قبة سيدنا يوسف ، حقيقة الأمر هي التي بناها صلاح الدين الأيوبي واسمه يوسف بن أيوب سنة خمسمائة وسبع وثمانين هجرية ، الموافق ألف ومائة وواحد وتسعون ميلادية .

قبة موسى :

كذلك قبة موسى ، قبة معروفة التعميرات ، استمرت خاصة بعد استرداد القدس .

لما استردها صلاح الدين عمر أشياء كثيرة ، ثم جاءت الدول بعد ذلك : الدولة الأيوبية والمماليك والعثمانيون وغيرهم وصلحاء المسلمين يبنون في ساحات المسجد أشياء كثيرة ، منها قبة موسى ، قالوا : إنما هي قبة سيدنا موسى .

والواقع أن سيدنا موسى لم يدخل ولم يجتز نهر الأردن ولم يصل إلى تلك المنطقة مطلقاً ، وإنما مات في التيه كما هو معروف .

هذه بناها الملك الصالح نجم الدين بن أيوب سنة ستمائة وسبع وأربعين هجرية والموافق سنة ألف ومائتين وتسع وأربعين ميلادية وسماها قبة الشجرة ، ثم جاء بعد ذلك الأمير الملك الأشرف موسى ، آخر ملوك بني أيوب بمصر ، فجددها فنسبت إليه ، وذلك سنة ستمائة واثنين وخمسين هجرية ، فصارت على السنة الناس قبة موسى ، فيظنون أنها قبة سيدنا موسى .

كذلك محراب داود بناه عبد الملك بن مروان ، والتسمية جاءت من الآية : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص : ٢١] إلى آخر هذه الأشياء كلها .

إصطبلات سليمان المشهورة ، وهي مساحة تقع في حوالي أربعة آلاف متر مربع في الجانب الشرقي القبلي من المسجد الأقصى ، وتحت الساحة السماوية ، كانت للخيل ولها أبواب ولترية الحمام الزاجل من أيام عبد الملك بن مروان ، فلما دخل الصليبيون المسجد الأقصى ووضعوا فيها خيولهم سموها إصطبلات سليمان ، الفرسان الداودية المسمون بالهيكليين هؤلاء سموها إصطبلات سليمان وأهملت بعد ذلك حتى كثر فيها ما يخرج من الحمام والخيل إلى يومنا هذا .

المحاضرة الرابعة والسبعون بعد المائة

عباد الرحمن

تمهيد :

أوصاف عباد الرحمن حسبها جاء في سورة الفرقان ، انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ ﴾ [الفرقان : ٦٣-٦٦] إلى آخر الآيات .

أوصاف عباد الرحمن التي تميزهم عن عباد الهوى والدنيا والشیطان هي أوصافٌ جليلة ونعوت جميلة تتراوح بين التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ، تعلي لأصحابها ذكرا وتكسبهم عند ربهم منزلة وقدرًا ، فهي أوصاف تسعة في الإحصاء والعد ، ولها من التأثير الطيب في السلوك الحسن ما لا يحصى ولا يعد ، وأصحابها هدفهم الأسمى وبغيتهم المثلى أن تكون لهم بالله صلة قوية وارتباط متين ؛ فعباد الرحمن هم خلاصة البشرية عند انتهاء المعركة الطويلة بين أرباب الهداية الإلهية ، وأصحاب الضلالة الشيطانية .

هُمُ الرِّجَالُ وَعِيبٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَصَفَّ بِمَعَانِي وَصَفَهُمْ رَجُلٌ

إنهم عباد الرحمن ، وتلك أوصاف نذكرها إجمالاً ثم نعود إليها بنوع ما من الشرح والتفصيل فنقول وبالله القائل والمقول .

الوصف الأول من أوصاف عباد الرحمن : التواضع لله والتواضع مع خلق الله . وعند تناول شرح نسق هذا الموضوع التعبيرى : سأتناول التواضع ومزاياه ، والتكبر وخزاياه وما يظن أنه من الكبر وليس من الكبر في شيء في نطاق ثنياه .

الوصف الثانى : إعراضهم عن جهل الجاهلين وترفعهم عن مهاترة الطائشين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ۖ﴾ .

الوصف الثالث : وصف ليلهم وهو خير ليل يَصُفُّون فيه أقدامهم ويسكبون فيه دموعهم طالبين من الله فكاك رقابهم من النار .

قوم إذا جنَّ الظلام عليهم باتوا هنالك سُجَّدًا وقيامًا

الوصف الرابع : امتلاء قلوبهم بتقوى الله ، والشعور بجلاله ، والخوف من عقابه ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ﴾ .

الوصف الخامس : كون سلوكهم المادى المالى على أعلى مقام لارتكازه على فضيلة التوسط بين إسراف وإقتار ، وهو أنجع طريق لصيانة المال والاقتصاد مدى الأيام .

الوصف السادس : تشبعهم بالحقيقة الأولية التى ينبني عليها التصور الاعتقادى فى الإسلام مع كون حياتهم نقية نظيفة تحترم فيها الكرامة الإنسانية لا قتل ولا زنا .

الوصف السابع : عدم حضورهم مواضع الزور ، وابتعادهم عن ساحته وإعراضهم عن أنواع اللغو الأربعة : لغو الفعل ، ولغو القول ، ولغو الاهتمام ، ولغو الشعور .

الوصف الثامن : سماعهم آيات ربهم بأذان واعية وإبصارها بقلوب واعية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان : ٧٣] .

والوصف التاسع : وهو الختام : امتداد آمالهم لتكوين مواطنين صالحين يرجون منهم أن يكونوا قادة وأئمة للمتقين .
تلك هي أوصاف عباد الرحمن على طريق الإجمال .

كلمة : «عباد» في اللغة :

قال تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الأكثرون من المفسرين على أن عباد جمع عبد ، وقال ابنُ بحر : جمع عابد كصاحب وصحاب وتوافقه قراءة اليماني : «وعِبَادُ الرحمن» ، لأن كون فُعَال جمعاً لفاعل هو جمع قياسي مطرد كما هو مقرر في موضعه ، وعباد الرحمن ، وعلى هذا القول فهو من العبودية ، والعبودية أن ترضى ما يفعلُه الرب .

معنى العبادة والعبودية :

قال الراغب في الفرق بين العبادة والعبودية ، والتذلل والخضوع : والعبادة منها ، إذ هي غاية التذلل وغاية الخضوع ، وفرق بينهما بعضهم بأن العبادة فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب عند الله والنجاة من عقاب الله ، والعبودية فعل المأمورات وترك المنهيات لا لما ذكر ، بل لإحسان الله تعالى وإنعامه ، وفوقهما العبودية ، العبودية هي فعل وترك ما ذكر لأمر الله تعالى واستحقاقه الذاتي بأن يعبد ويعظم ويطاع ، يشير إلى ذلك قوله الله تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر : ٢] .

وقرأ الحسن : (وعُبد الرحمن) جمع عبد ، وعن الأخفش أنه أنشد في هاته القراءة قول الشاعر :

أنسب العبد إلى آبائه أسود الجلد في قوم عبد

الوصف بالعبودية أشرف الأوصاف:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان : ٦٣] والعبودية اسمها لا يستحقه إلا من آمن بالله وعبده وشغل قلبه وسمعه وبصره بما شرعه ؛ فالعبودية من أجل الأوصاف ، ولذلك وصف الله بها حبيبه الأعظم ﷺ في أعلى المقامات وصفه بالعبودية حال إنزال القرآن عليه : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [الأنفال : ٤١] أنزل على عبده الفرقان .

ووصفه بالعبودية حال الدعوة إلى الله : ﴿وَأَنَّهُ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن : ١٩] ، ووصفه بالعبودية في مقام الإسراء : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء : ١] .

ووصفه بالعبودية حال نزول الوحي عليه : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم : ١٠] .

العبودية المطلقة خاصة بالنبي:

العبودية المطلقة التي لا تقيد بذكر الاسم ، خاصة برسول الله ﷺ ، أما غيره من الأنبياء فإذا نسبت إليهم العبودية فإنها تقترب بأسمائهم .

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص : ٤١] ، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص : ١٧] ، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص : ٤٥] . إلى آخر الآيات .

أما العبودية المطلقة وكمالها فهي لرسول الله ﷺ كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] . وفي العبودية إشارة إلى كماله تعالى واستغنائه واحتياجه غيره إليه في جميع أحواله .

كلام لابن عطاء في حكمه :

قال ابن عطاء الله في «الحكم» : كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا ، والعبودية ترك الاختيار ، والثقة بالفاعل المختار ، وعدم منازعة الأقدار ، وتفويض الأمر لله الواحد القهار ، وفي المناجاة :

كفاني فخراً أن كنت لي ربا وكفاني عزا أن كنت لك عبدا
ومما يُعزى لأبي الفضل القاضي عياض :

ومما زادني طربا وتيها وكدت بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

إضافة العباد إلى الرحمن تشریف لهم :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ : الإضافة هاهنا إضافة تشریف وتكريم ، واختصت باسمه تعالى الرحمن من دون أسمائه الأخرى لتفضيلهم على من عداهم بكونهم مرحومين وبكونهم منعماً عليهم ، كما يفيد فحوى الإضافة إلى المشتق .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ : أما لفظ الرحمن فهو فعلا من أمثلة المبالغة ، صيغته تدل على وصف فعلي ذاتي كما تدل على المبالغة ، وهو مشتق من الرحمة ، والرحمة المنسوبة إلى الله ، المقصود منها لازمها من إطلاق المألوم وإرادة اللازم على طريق المجاز .

معنى كون الله الرحمن : أنه هو المنعم على عباده بنعم لا تحصى ، ولا تعد ولا تستقصى ، لأن الرحمة بمعناها اللغوي : العطف والحنان ، وهذا مستحيل في حقه تعالى ؛ لأنه من أوصاف المخلوقات ، والمقصود لازم الرحمة الذي هو الإحسان والإنعام ، يعني الله تعالى الرحمن : هو المبالغ في الإحسان إلى عباده والمبالغ في الإنعام عليهم . ﴿ مَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] . وهذا اللفظ لفظ الرحمن مستعمل في مجازه ، ولم يستعمل في حقيقته ، بهذا يرد قول بعض البلغاء : إن كل مجاز لابد له من الحقيقة ، فالصواب أن يقول : كل مجاز تكون الحقيقة كأصل له ، لا يمكن أن تشتطره بدليل لفظة الرحمن هذه ، والرحمن لا يسمى به غير الله ﷻ ، وأما قول بعض من فتن بمسيلة الكذاب :

وأنت غيث مخاطبا له ، وهو غيث الورى لا زال رحمانا على زعمه ، فقول باطل جاء الحق فدمغه وأزاله من صفحة الوجود وأماته فأقبره ، إذ لا أصل لذلك القول ، على أن المختص بالله هو الرحمن المعروف بأل ، لم ينقل عن العرب إطلاق اسم الرحمن على غير الله ﷻ .

والرحمن هو الله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] . وكلها تقديس وتعظيم موجد وخالق الكون عظيم الفضل والوجود سبحانه وتعالى .

ذكر اسم الرحمن في القرآن :

أولها في سورة الفاتحة : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [الفاتحة : ٣] بعد البسملة ، وآخرها في سورة النبأ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] .

قال بعض الأسياف: قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فكان الكل في رحمته الواسعة، ولو قال الله: القهار على العرش استوى لذاب الكون بأسره.

الوصف الأول: التواضع والحلم والسكينة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي يمشون بسكينة ووقار دون تجبر ولا استكبار؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] فعباد الرحمن يمشون مشية طبيعية لا تكلف فيها ولا تصنع، ولا ترهل ولا تخلع، لا يضربون أقدامهم الأرض خيلاء وكبرا، ولا يخففون نعالهم في المشي بطرا وأشرا، بل يمشون متواضعين قاصدين في مشيتهم لأن مشية الإنسان ككل حركة من حركاته تعبر عن شخصيته، وعمما يستقر في مشاعره، فالنفس الجادة تخلع صفاتها على مشية صاحبها فتكون مشيته ناشئة عن قصد، فيها العزة والكرامة، وفيها الجد والقوة، فترى الجاد لا يتهاوت في مشيته، ولا يتظاهر بالصلاح بتنكيس رأسه، بل يمشي قصدا سويا.

وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له: يا هذا، إن البختر مشية تكره إلا في سبيل الله.

وقد وصف الله عباد الرحمن بقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فاقصد في مشيتك.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه في شرح الآية: أي يمشون حلما ذوي سكينة ووقار.

وقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع»^(١)، والأيضاع هو السير السريع المتكلف، وكان رسول الله ﷺ، إذا مشى تكفأً تكفؤاً، وكان أحسن مشية وأسرعها وأحسنها وأزكاها، كما يدل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: ما رأيت شيئاً أحسن من وجه رسول الله كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أسرع مشية من رسول الله كأنما الأرض تطوى له، وإننا لنجهد أنفسنا من ورائه وهو غير مكترث.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأً تكفؤاً كأنما ينحط من صلب، وهي مشية أولى العزم والهمة والشجاعة.

فضل تواضع عباد الرحمن:

إن عباد الرحمن يمشون متواضعين في الأرض لا يتجبرون، ولا يتكبرون، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، على عكس أحوال المتكبرين، على أن المتكبرين لو نظروا إلى ماضي غيرهم ومستقبل حياتهم، لظهروا أنفسهم من رذيلة الكبر ولخشعوا لله وتواضعوا للناس؛ لأن التواضع فيه أدبان:

أدب نفسي واجتماعي:

أدب نفسي، وأدب اجتماعي، أدب مع الله، وأدب مع خلق الله، والتواضع من أفضل الصفات، ومن سجايا الأخيار خصوصاً في جانب العطاء والأشراف، فإن العظيم يزيده التواضع تعظيماً والشريف يزيده التواضع تشريفاً، أما التكبر فمن سجايا الأشرار.

(١) أخرجه البخاري (١٦٧١)، ومسلم (١٢٨٢).

النبي كان متواضعاً :

هذا سيد الأولين والآخرين يتواضع لأصحابه ، وهم له أتباع ، ويخضع لهم الجناح ، وهو السيد المطاع ، فالتواضع يحبه الناس ويحبه الله لتواضعه ولين جانبه ، والمتكبر يبغضه الناس لانتفاشه وانتفاخه ، وتشاخه بأنفه وتقاصيه ، ويبغضه الله لبطره وكفران نعمته ، ويطبع الله على قلبه ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ويصرفه الله عن النظر في آياته بقوله تعالى : ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَعَايَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

التواضع يوصل إلى الجنة :

المؤمن ينبغي له أن يرى دائماً متواضعاً ، لماذا؟ ليكون من أهل الجنة ، لحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن حارثة بن وهب الخزاعي قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأهل الجنة : كل ضعيف متضعف» ، وفي رواية : «متضاعف لو أقسم على الله لأبره - والمراد بالمتضعف والمتضاعف المتواضع - ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر . . .» وفسر الجواظ بالسمين المختال في مشيته كما فسر بالجموع المنوع ، وكما فسر بالفظ الغليظ .

قيمة الرجل بقلبه وعمله وخلقه :

هذا الحديث الشريف يرشدنا إلى أن قيمة الرجال لا تعتبر بالضخامة والمنة ، ولا بالشكل والقوة ، و لا بالزري والصورة ، إنما تعتبر قيمة الرجال

بثلاثة أمور : بالقلوب التي تحملها ، والأعمال التي تصدرها ، والأخلاق التي تتجمل بها .

فمن حمل قلباً سليماً ، وأصدر عملاً جليلاً ، وتخلق خلقاً نبيلًا ، كان هو الرجل الذي يحمد الله صنيعه ويجزل له الثواب ، وإن كان ضعيف الجسم قليل المال ، فهو قوي النفس صافي الضمير سليم العقيدة ، لو أقسم على الله أن يهبه مالا أو علما أو جاها أو انتصارا لأبره الله في قسمه ، ولأناله رغبته ، وصدقه في حلفه لعلو منزلته عند الله ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

أما من حمل قلباً لئيمًا ، وأصدر عملاً ذميماً ، وتخلق خلقاً رذيلًا وكان جافي الطبع ، نفورا من الموعظة ، شديد المخاصمة ، متكبرا على الخلق ، معرضا عن الحق ، إذا سمع آيات الله تتلى ولّى مستكبرا كأن لم يسمعها فهذا له أسوأ الجزاء في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

والنفوس المتواضعة هي نفوس لها مجد ذاتي وعز طبيعي ، فهي كالذهب في جوف الصحراء ، أو كالنجم على صفحات الماء لا يغيرها المال ، ولا العلم ، ولا الجاه ولا شيء من الأشياء .

تواضع تكن كالبدرا للاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالمدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو وضع

وعيد الله للمتكبرين :

قد ورد وعيد شديد في المتكبرين في عدة أحاديث : من ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «من جرثوبه خيلة لن ينظر الله إليه

يوم القيامة» ، أي لم يرحمه ولم يحسن إليه لماذا؟ لأنه أراد أن ينازع الله في صفاته ؛ لأن الكبرياء وصف الله ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧] ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منها أدخلته ناري»^(١) .

وفي رواية : «قصمته» ، أي : قطعت ظهره ، والإنسان لا يتكبر إلا حين تخلو نفسه من الشعور بجلال الواحد القهار ، وإلا لو علم أن ما يبلغه من ثراء أو علم أو أو . . . أنه من الله لأمن من كبريائه وخفف من خيالاته ومشى على الأرض هونا .

معنى الكبر وأسبابه :

الكبر بينه الرسول ﷺ في حديثه حيث قال : «الكبر بطر الحق وغمص الناس»^(٢) ، أي : رد الحق والمهارة فيه واحتقار الناس .

وللكبر أسباب متعددة : منها العلم ، ومنها المال ، ومنها الحسب والنسب ، ومنها غير ذلك ، فما أسرع الكبر إلى بعض العلماء لأنه يحسب أنه استكمل العلم ويستجهل الناس ويستحقروهم ، وهذا ليس بعلم حقيقي ؛ لأن العلم الحقيقي هو ما يعرف الإنسان نفسه وخطر أمره فتنبعث عنه خشية الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] . من لم يهذب علمه أخلاقه ، لم ينتفع بعلمه في الآخرة .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

على أن الإنسان لو علم ما علم فبالنسبة لما يجهل لو قارن بينهما لوجد في جانبه صفرا، ومنتهى العلم إلى الله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ولله در الشافعي حيث يقول في هذا المعنى :

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي وإذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي

شرف الحسب والعمل منة من الله :

كذلك الحسب والنسب فمن كان شريف الحسب وشريف العمل فقد جمع الله له بين الحسنين وأكرمه بنعمتين ، والفضل بيد الله ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣]. أما من كان شريف الأصل وسيء الفعل فإنه ينبغي أن يراجع نفسه لأن الإنسان ليس في استطاعته أن يحسن أصله ، لكن في استطاعته أن يحسن فعله .

قالت عائشة رضي الله عنها : «كل كرم دونه لؤم ، فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به» .

من يفتخر بجدوده وبأعظم الأماكن فقل له في جوابه نعم الحدود ولكن يقولون كن عصاميا ولا تكن عظاميا :

شرف العصاميين صنع نفوسهم هذا يساوي بهم بني الأشراف
أعلمت للقمرين من أسلافي

إلى آخر ما قال شوقي في شعره ، والنبي ﷺ يقول في هذا : «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أما من جمع بين حسن الأصل وحسن الفعل فقد أكرمه الله تعالى بفضله وكرمه ، فمن وجد منكم خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

كثرة المال سلاح ذو حدين:

كذلك الافتخار بالمال لماذا؟ لأن المال وسيلة إما للخير وإما للشر . الله خلق نفس الإنسان وخلق المال وخلق النفس تحب المال ﴿وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات : ٨] وحب النفس للمال أحد أمراضها ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] . ولذلك في إخراج الأموال في منافع الوطن وفي المنافع الكثيرة وفيما يجلب الخير له ولنفسه ولوطنه فقد طهر نفسه من ماذا؟ من الشح والبخل ، واستعلى على حب الذات وانتصر على وسوسة الشيطان في كونه يأمر الإنسان بالبخل ويحضر له الفقر بين عينيه ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة : ٢٦٨] وهكذا فالكبر - على كل حال - داء وبيل ينبغي للإنسان أن يحترس منه ويتحفظ منه .

التواضع صفة عباد الرحمن:

الوصف الأول من أوصاف عباد الرحمن أنهم متواضعون يمشون على الأرض هونا ، أي بسكينة ووقار بدون تجبر ولا استكبار ، على أن المتكبر تحته الأرض لا يقدر على خرقها بدوسه لها ووطئه عليها ، وفوقه الجبال لا يصل إلى قممتها علواً أو طولاً ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء : ٣٧] وهذا الضعيف المكتنف بين هذين الجمادين وهو أضعف منهما لماذا يتكبر؟

ولله در القائل :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
فإن كنت في عز وخير ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمتع
فلذلك ، التواضع هو الوصف الأول من أوصاف عباد الرحمن
﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ .

حسن المنظر والهيئة ليس من الكبر:

ليس من التكبر تجميل الثياب أو تحسين المنزل أو التمتع بما أعطاك الله أو إظهار آثار نعم الله عليك ، فهذا ليس من الكبر بل هو أمر مطلوب ومرغوب فيه ومن باب التحدث بنعم الله ﷻ ، فالله قد أمر نبيه وأمر أمته بأسرها في شخص نبيها بالتحدث بالنعمة فقال : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] .

حدث بنعمة الله عليك:

روى النسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» . ويرى السلف الصالح كما ذكره ابن جرير نقلا عن أبي بردة الأنصاري أن المسلمين الأولين كانوا يرون التحدث بنعم الله من قبيل الشكر وذكر لذلك أمثلة متعددة .

وروى أبو يعلى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صعد المنبر ذات يوم فخطب الناس فقال : الحمد لله الذي صيرني ليس فوقني أحد ، فليل له في ذلك ، فقال : إنما ذكرت ذلك إظهارا لنعمة الله وتحدثا بشكر الله ﷻ ؛ لأن التحدث بالنعمة شكر وتركه كفر ، أي كفر بنعم الله ، والنعمة إذا شكرت قرت ، وإذا كفرت فرت ، وإذا فرت قل أن ترجع .

يقول الله في هذا الموضع : ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧]. وقال بعض السلف : الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود ، ويقول ابن عطاء الله : من كفر النعمة فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها ، وورد أن موسى عليه السلام قال : «يا رب خلقتني وجعلتني رسولا وكلمتني وأديت الأمانة ، وأعطيت لي الثواب ، فאלكل منك كيف أشكرک ، فأوحى الله إليه : إذا علمت ذلك فقد شكرتني»^(١) ، «و من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير»^(٢) .

فلذلك التحدث بالنعمة ليس من قبيل الكبر في شيء . ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢] . وقرأ خالصة نافع وحده هو الذي قرأ خالصة والآخرين قرءوا خالصة ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ .

الوصف الثاني لعباد الرحمن :

الوصف الثاني : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ بيان لخال عباد الله في المعاملة مع غيرهم ، إثر بيان حالهم في الوصف الأول لأنفسهم .

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦ / ٥٦) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ٢٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وأخرج الشطر الأول الترمذي (١٩٥٤) ، وأبو داود (٤٨١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

معنى الجهل :

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ والجاهلون ، هذا اللفظ ذكر ثلاث مرات في القرآن في سورة يوسف : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] ، وفي سورة الزمر : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر : ٦٤] ، وفي سورة الفرقان ها هنا : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ .

وهذا الوصف المشتق من الجهل يلجئنا إلى أن نتكلم على ما هو المراد بالجهل ها هنا ؛ لأن الجهل يُوتى به نقيض العلم ونقيض الحلم وهو المراد هنا ، وكلاهما مذمومان ؛ لأن الجاهل النقيض للعالم ، والجاهل النقيض للحليم كلاهما مذمومان ، إذن الجهل ما هو؟ هو السفاهة التي تلبس النفس عند ثورة شهوة أو ثورة غضب .

من وصفهم الإعراض عن الجاهلين :

عباد الله لا يلتفتون إلى حماقة الحمقى ، ولا سفاهة السفهاء ، فإذا جهل عليهم الجاهلون وسفه عليهم السفهاء يعرضون عنه ويعفون ويصفحون ويقولون سلاما لا عن ضعف بل عن ترفع ، ولا عن عجز ، إنما عن استعلاء ، لماذا؟ لأن لهم من الأدب ما يحول بينهم وبين كل فعل ذميم ؛ لأن لهم وقتا ثميناً وجهدا جهيدا لا يريدون أن ينفق فيما لا يتناسب والرجل الكريم .

الصمت عندهم منجاة :

عباد الرحمن يرون السكوت عن السفیه إذا نطق هو النطق الصحيح ، ومن هنا أخذ علماء البلاغة قولهم : من البلاغة السكوت ، يعني السكوت

في بعض المواضع يكون نطقاً ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا تزيده صفة الجهل إلا حلماً .

وعباد الرحمن لا يروجون للجاهلين بضاعتهم السوداء من السب والشتم والافتعال والبهتان ، بل إذا بهتوا وكذبوا وافتعلوا ما افتعلوه يعرضون عنهم ولا يكثرثون بهم ، وقد قالوا : ما عوتب الأحق بمثل السكوت عنه .

وإن أفاد سكوت كان السكوت كلاماً وإن أهين كريم بالسب قال سلاماً ومن حكم الشعر قول الشاعر :

وللكف عن شتم اللئيم تكرماً أضربه من شتمه حين يشتم

وقد قالوا : اللسان مقياس عقل الإنسان ، ومن الأمثال القديمة المأثورة ، لسان الرشيد من وراء عقله ، لا ينطق إلا بما هو له ، أما الجاهل الأحق فعقله من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له ، وقد قيل قديماً : إذا كان الكلام من الفضة ، فالسكوت من ذهب ، وقالوا : العاقل الرشيد هو الذي يصمت حتى يسأل ويعز حتى يطلب ، فإذا دعي بعد ذلك لبى ، وإذا سئل أجاب ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴾ .

أوصاف عظيمة يطلب أهلها الجنة :

أوصاف جليلة ، ونعوت جميلة ، لها عظيم الأثر في الناحية الروحية وفي الكمالات الإنسانية ، ترسم أمام أعيننا شخصية المسلم الكامل في أفقها الوضيء الأعلى ، وفي الإطناب بذكر أوصافهم الطيبة تعريض بالمشركون الذين يأبون السجود للرحمن ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٠] .

وأصحاب هذه الأوصاف بغيتهم المثالي وهدفهم الأسمى أن تكون لهم بالله صلة قوية وارتباط متين ، ليستحقوا النعيم الخالد المقيم في جنات النعيم ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾  خَلِيدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ [الفرقان : ٧٥، ٧٦] .

مقارنة بين الوصف الأول والثاني:

الوصف الأول قد مضى الكلام عليه وهو كونهم يتواضعون لا يتكبرون ولا يتجبرون مدة حياتهم وعدد أيام أعمارهم ، كما تفيد صيغة الاستقبال -يمشون- من الدوام والاستمرار ، وذلك الوصف الأول هو بيان لحالهم في أنفسهم ، أما بيان حالهم في معاملتهم مع غيرهم فهو الوصف الثاني ، وهو إعراضهم عن جهالة الجاهلين وترفعهم عن الطائشين ، وإليه يشير قول الله ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ .

الجهل نوعان: نقيض الحلم ، ونقيض العلم:

الجهل من المفسرين من فسره بنقيض الحلم ، وهو أولى ، ومنهم من فسره بنقيض العلم .

والجهل الذي هو نقيض الحلم ، هو السفاهة التي تلبس النفس عند ثورة الشهوة أو ثورة الغضب .

كلمة «الجاهلون» وذكرها في القرآن:

الجاهلون بالواو ذكرت في القرآن ثلاث مرات ، في سورة يوسف : ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف : ٨٩] ، وفي سورة الزمر : ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر : ٦٤] ،

وفي هذه السورة سورة الفرقان هنا: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ .
 وإذا خاطبهم الجاهلون أي السفهاء قليلو الأدب . كقول عمرو ابن كلثوم
 في معلقته :

ألا لا يجلهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

الصمت عن الجاهلين وفائدته :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ : لا يلتفتون إلى حماقة الحمقى ، ولا إلى سفاهة
 السفهاء حين يجهلون عليهم لما لهم من الأدب الذي يحول بينهم وبين فعل
 كل ذميم ، بل لا يريدون أن يضيعوا وقتهم الثمين في الانسياق معهم في
 الجدال بل يترفعون عن الطائشين ، بحيث إذا سفه عليهم السفهاء بالقول
 القبيح وبالسب والشتم لا يروجون لهم بضاعتهم السوداء في ذلك ، بل
 يعفون ويصفحون لا عن ضعف بل عن ترفع ، ولا عن عجز بل عن
 استعلاء ، صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يتناسب مع الرجل الكريم
 المشغول بما هو أنفع وأعلم وأكرم .

قالوا سلاما أي تسليما ومتاركة ، بحيث لا خير ولا شر بينهم وبينهم ،
 ويحتمل أن يكون السلام سلام توديع ، لا سلام تحية ، كقول إبراهيم عليه السلام
 لأبيه : ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] بعد
 أن قال له إبراهيم : ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] ،
 ويحتمل أن يكون سلاما معناه سدادا كما قال مجاهد .

الصمت عن الجاهلين من هديه ﷺ:

﴿وَعِبَاذُ الرَّحْمَنِ﴾: يرون السكوت عن السفیه هو النطق الفصیح ،
والجواب الصریح ، وقد قالوا: ما عوتب الأحق بمثل السكوت عنه ،
ومن حکم الشعر قول القائل :

وللكف عن شتم اللئيم تكريما أضربه من شتمه حين يشتم
وقول الآخر نصحا :

وإن بليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع ولم يقل
وكان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما ، فلذلك من
كان من عباد الرحمن لا ينطق بالسفه .

من يُعن بالحمد لا ينطق بما سفه ولم يجد عن سبيل المجد والكرم
بل لا ينطق إلا بأطهر من ماء الغمام ، وبالقول الذي هو أحسن ،
انطلاقا من قول الله سبحانه : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء :
٥٣] ، وتطبيقا لقول رسول الله ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليقل خيرا أو ليصمت»^(١) .

ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد :

المؤمن حين يريد أن يتكلم ، يعلم أن ربه سبحانه يعلم ما توسوس به
نفسه وما يتصوره عقله ؛ لأنه يؤمن بقول الله ﷻ : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] ، ولذلك حين يريد أن يتكلم يستحضر أنه تحت
سمع الله وبصره لأن الله هو الذي خلقه ، هل هناك أعلم بالآلة من

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

مخترعها؟ وهل هناك أعرف بالجهاز من صانعه؟ وهل هناك أدرى بالبيت من مهندسه وبانيه؟ فكيف بالخالق من خلقه؟ فالمخلوق لا يعزم ولا يصمم إلا والله الذي خلقه من ورائه سميع عليم، يحصي عليه همساته وخلجاته ونزعاته وحركاته، كما قال تعالى في سورة ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِثْلَ ثُوْرٍ ۚ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۚ﴾ [ق: ١٦] في كل ما ينوي وما يريد، ولكمال صدق إيمان العبد بموقفه من ربه يعلم أن كل عبارة صدرت منه سيجازى عليها، فينبغي له أن يكون عمله أكثر من قوله، وما أجمل العمل في دائرة الصمت والهدوء؛ لأن الصمت دليل على ثقة صاحبه بقوة نفسه، وبرهان على يقينه بكمال شخصيته.

الصمت من شيم العقلاء:

اللسان هو عقل الإنسان، والصمت في محله لا يضر إذا لم ينفع، ولا يخسر إذا لم يربح، والله در الشافعي رحمته حيث يقول:

وجدت سكوتي متجرا فلزمته إذا لم أجد ربحا فلست بخاسر
وما الصمت إلا للرجال متاجر وتاجرهم يعلو على كل تاجر

والعقل الرشيد هو الذي يصمت حتى يسأل ويعز حتى يطلب فإن دعي بعد ذلك لبي وإن سئل أجاب، ومن الأمثال المأثورة، لسان العاقل من وراء قلبه، إن كان له الكلام تكلم، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه، يتكلم بكل ما عرض له، وقديما قد قيل: (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب)، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ قال: (هم حلماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا ولم يسفهاوا)؛ لأن الحلم من الخلق الكريم.

ضوابط للحلم المطلوب:

الحلم يكون مرغوبا فيه ، ويكون ممدوحا ما لم يؤد إلى التشميت ، والتشميت هو انتقاص الحقوق والتجرؤ على كلام يمس كرامة الإنسان ، أو كرامة الأوطان ، فعندئذ يجب ترك الحلم ، ويجب أن يعلن عن الحقيقة التي ينبغي أن يكون عليها الأمر ، والله در النابغة الجعدي الصحابي الجليل حيث يقول في شعره :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرها
على أن الحلم لا يقتضي إهمالا بل إمهالا فقط ، ومن الأمثال (اتقوا غضبة الحليم) ، والله سبحانه وتعالى حليم ، وهو يمهل ولا يهمل ﴿ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَمَّهُمْ رُؤُوسًا ﴾ [الطارق: ١٧] ومن المفسرين من فسر الجهل بنقيض العلم ، وهو عدم المعرفة وهو مذموم أيضا ، يقول فيه حسان بن ثابت :
وداء الجهل ليس له طيب

ذم الجهل في القرآن:

كفى الجاهل ذما ما سجله عليه القرآن من كونه مطبوعا على قلبه ، وذلك شيء لا يقبله العقل السليم ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١] ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] .
ويقول السموءل :

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

فضل العالم على الجاهل:

فضل العالم على الجاهل كفضل البدر على سائر الكواكب إذا طلع ، وتم نوره وسطع ، وما استزاد الله نبيه ﷺ في شيء من الأشياء إلا في العلم ، فقال ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] . روى الإمام الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بعد نزول هذه الآية : « كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمي ما ينفعني ، وزدني علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » . وكان عبد الله بن مسعود الغافقي رضي الله عنه إذا قرأ الآية ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ يقول : اللهم زدني إيمانا وفقها ، ويقينا وعلما . والعلم أيامه كلها سعود ، على أن ليالي الجهل كلها نحوس ، والله در القائل :

وللعلم أيام هي السعد كله وأما ليالي الجهل فهي مناحس
فيا قوم عافوا الجهل فهو جريمة وإن مصير المجرمين المحابس
إلى أن قال :

إذا ما أقام العلم راية أمة فليس لها حتى القيامة ناكس
ويقول إمامنا مالك رضي الله عنه : العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور : ٣٥] ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] . وقد جعل القرآن لأولي العلم خواص ومميزات فقال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .
﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها من قبيل عطف الصفة على موصوف واحد ، على حد قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

الوصف الثالث: قيام الليل:

الوصف الثالث وهو من الأوصاف المغبوبة لعباد الرحمن ، وهو وصف ليلهم ، وفيه بيان حالهم مع ربهم في ليلهم ، كما في الوصف الثاني المفروغ من ذكره بيان حالهم في معاملتهم مع غير أنفسهم ، هذا الوصف الثالث هو وصف ليلهم ، وليلهم هم خير ليل ، يصفون فيه أقدامهم ، ويسكبون فيه دموعهم ، راجين من الله فكاك رقابهم من النار ، يحيون الليالي كلها أو بعضها بالصلوات ساجدين لله ، وهذا وصف عظيم ناشئ عن تقوى الله ومراقبته ، والشعور بجلاله ، والخوف من عقابه . ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] .

قوم إذا جن الظلام عليهم باتوا هنالك سجدا وقياما
والذين يبيتون ، بات الرجل إذا أتاه الليل ، سواء نام أو لم ينم ، ومنه قول زهير :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا ينازعنا في نفسه وننازعه
والذين يبيتون ، وأعيد الموصول لإفادة تأكيد أنهم يعرفون بهذه الصفات ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ . قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه :
«من صلى ركعتين بعد العشاء أو أكثر ، فقد بات لله ساجدا قائما»^(١) ، والقلوب في الليل تكون أكثر انفتاحا لتلقي الأسرار الربانية ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل : ٦] .

(١) انظر : «تفسير القرطبي» (١٣ / ٧٠) ، و «تفسير البغوي» (١ / ٩٤) .

فضل العبادة بالليل :

العبادة في الليل تكون أبعد عن ساحة الرياء ، وفي الليل يجتمع الحبيب مع حبيبه ، ولذلك أسرى الله بحبيبه الأعظم عبده سيدنا محمد ليلا ، حتى كان قاب قوسين أو أدنى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ١٧ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿ [النجم : ١٧ ، ١٨] . والتعبير في جانب صلاتهم بالسجود والقيام ، يصور لنا حركة عباد الرحمن في جنح الليالي والناس نيام ، فما أحسن هيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية في تلك اللحظات الليلية في خشية وفي طمع ، يتنازعها الخوف والرجاء ، الخوف من عقابه والرجاء في رحمته ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] . ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلِنتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] . وقال عليه الصلاة والسلام : «إن أخا لكم لا يقول الرفث»^(١) ويعني الرسول بهذا القول ما قاله شاعره عبد الله بن رواحة في حقه ﷺ من قوله :

يبست يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ويقال : أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم ، ولكن اللذة هاهنا لذة الأرواح ؛ لأن اللذة أنواع أربعة : لذة الأجسام ، ولذة النفوس ، ولذة العقول ، ولذة الأرواح .

أما لذة الأجسام : ففي المأكولات والمشروبات .

وأما لذة النفوس : ففي الشهوات .

(١) أخرجه البخاري (١١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأما لذة العقول : ففي المعاني المدركات .

وأما لذة الأرواح : ففي ملكوت السموات .

﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] . ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ [الفرقان: ٦٤] وفي قوله تعالى : ﴿ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ النوع المسمى عند علماء البديع بالطباق كما هو مقرر في محله .

الوصف الرابع: خوف الله:

له ارتباط بما قبله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [٥٠] إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ هذا الوصف ناشئ عن تقوى الله والخوف ، يقولون أي عباد الرحمن : ﴿ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ ، إنهم يسألون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشديد آلامها وما رأوها ، ولكنهم آمنوا بوجودها وتمثلوا صورتها على حسب ما جاء في القرآن الكريم وحديث نبينا العظيم ، فقالوا ﴿ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ ثم أعلنوا عن سبب سؤالهم من وجهين : الوجه الأول : ما يفيد قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي كان عذابا ، ملازما وخسرانا دائما .

والوجه الثاني : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئس المستقر مستقرا وبئس المقام مقاما .

فائدة التعبير بكلمة (غراما) :

قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم كما قال الحسن البصري في تفسير الآية . والتعبير بأن عذاب جهنم كان غراما يفيد أنه لا يفارقهم ولا يتحول عنهم ولا يقللهم فاستقلوا أعمالهم وسجودهم

وركوعهم ولم يأمنوا مكر الله علموا أنهم إن لم ينلهم فضل الله تعالى وعفوه فليس فيما عملوا لهم أمان ولا ضمان من النار فيتعرضون إلى ربهم ويسألونه أن يصرف عنهم عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿الفرقان: ٦٥، ٦٦﴾ والغرام في اللغة : هو اللزوم ، ومنه قول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط يعط جزيلا

إن يعاقب يكن غراما أي ملازما ، ولذلك قال الحسن البصري : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿.

الوصف الخامس: القصد والاعتدال في النفقة:

هو بيان سلوكهم المادي ، وأن سلوكهم المادي على أعلى ما يرام ؛ لأنه القصد والاعتدال حالة إنفاق المال ، والقصد في كل شيء ، هو السبيل للحياة الطيبة وللعيشة الراضية ، ولهذا جاءت آية الإسراء منهجا زكيا ، فقالت : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] . وقال الله ها هنا في وصفهم : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] .

المنهج الإسلامي هو أصح منهج في حماية الاقتصاد المالي ؛ لأنه يوجه الفرد للنفقة على أشياء ترجع إليه ، وعلى أشياء ترجع إلى وطنه ومصالح البلاد والعباد بأن يعطي عطاء وسطا بحيث لا تقتير ولا إسراف .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن أنهم لا يتجاوزون الحد المطلوب

منهم في الإنفاق ، بل جاءوا به على الوجه الأكمل ، و كذلك فهم لم يقتروا فيقصروا في الواجب عليهم ، فكان إنفاقهم قواماً ، أي : وسطاً بين الإسراف والتقتير .

الوصف السادس: خلوهم من الموبقات كالشرك والقتل والزنا :

يقول تعالى متابعاً في وصف عباده المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان : ٦٨ ، ٦٩] فجعل من صفاتهم أفرادهم لله ﷻ بالعبودية ثم براءتهم من القتل والدماء إلا بالحق ، ثم ثلث بصفة العفاف والتنزه عن الزنا والفواحش .

وهذه الموبقات الثلاثة : الإشرak بالله ، وقتل النفس ، والزنا ، من أقبح البوائق ، من يفعلها فالله يعذبه عذاباً جسيماً وعذاباً نفسياً ، يضاعف له العذاب في جسمه كلما نضج جلده ، بدل بجلد غيره ، ويضاعف له العذاب في إهانته ﴿ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فِيمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] ، ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٢] .

وهذا العذاب الأليم والمهين ترفعه التوبة والإنابة وعمل الصالحات ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

اللهم إلا إذا تاب توبة نصوحا فإن التائب كمن لا ذنب له ، فمن تاب توبة نصوحا وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، بحيث حسنات التوبة تمحو سيئات الذنوب . ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

«يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١). وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين ناس يوم القيامة، يودون لو أنهم استكثروا السيئات، فقليل من هم يا رسول الله؟ قال ﷺ: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات»^(٢) والتبديل هاهنا من باب كرم العفو الإلهي، وهذا المعنى قد نظر إليه أبو نواس:

تعص ندامة كفيك مما تركت مخافة الذنب السرورا
نظر في هذا البيت إلى هذا المعنى ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿[الفرقان: ٧٠، ٧١] ولكن العمل الصالح لا بد أن نقرره ونذكر شروطه، إذ ربما كل عامل يدعي أن عمله صالح.

شروط قبول العمل:

يشترط الفقهاء فيه أربعة شروط: العلم، النية، الإخلاص، الصبر.

فإذا خلا من واحد من هذه الشروط، فليس بصالح.

١- العلم: لأن الله لا يعبد بالجهل.

٢- النية: لأن النية هي معيار لتصحيح العمل، إذا صلحت صلح العمل، وإذا فسدت فسدت العمل، وهي الفارق بين العادات والعبادات، وبين العبادات بعضها مع بعض، وبين عدة أشياء، وإنما لكل امرئ ما نوى، كما يقول من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨١) لابن أبي حاتم وابن مردويه.

٣- **الإخلاص** : لأن الإخلاص هو روح العمل ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥] ، ويقول ابن عطاء الله : (الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها) .

٤- **الصبر** : هو حبس النفس على فعل ما ، مع نوع من الاختيار ؛ لأن الصبر هو سبيل النجاح ودليل الفلاح وقد ذكر في القرآن في واحد وسبعين موضعا .

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان : ٧٠] .

الجنة خاتمة عباد الرحمن :

خاتمة المطاف بالنسبة لعباد الرحمن ، أنهم يدخلون الجنة ، وهي دار الخلود ، ويلقون فيها سلاما ، والملائكة يدخلون عليهم ويسلمون عليهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد : ٢٤] ، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان : ٧٥ ، ٧٦] .

تلك هي صفات عباد الرحمن التي تميزهم عن عباد الهوى والشیطان .
فنحمد الله تعالى على هذه اللحظات المليئة بنور الإيمان وبنور القرآن ، وهي لحظات تتلاقح فيها الأفكار وتتجاوب فيها الأرواح ، وتتعانق فيها النفوس ، وتتقوى فيها أواصر الأخوة بين ذوي العلم والعرفان .

المحاضرة الخامسة والسبعون بعد المائة

تجديد الدين الذي ننشده

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبو داود في «سننه»، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار»، والخطيب في «التاريخ»، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، صدق رسول الله ﷺ.

وإنما اخترت هذا الموضوع في ضوء هذا الحديث الشريف لسبيين رئيسيين:

السبب الأول: أن أقاوم موجة اليأس التي انتشرت بين المسلمين في الزمن الأخير، والظن القائم أن الدين دائماً في إدبار وأن الكفر في إقبال، وإننا في آخر الزمان، وأنه لن تقوم للإسلام دولة ولن ترتفع له راية، وعززوا هذا الفهم أو الوهم بأحاديث وردت في الفتن وأشرار الساعة ظنوا معها أنه لا فائدة من عمل يرجى، ولا من إصلاح ينشد، واعتمدوا على أحاديث مثل أحاديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١)، مع أن في رواية هذا الحديث «قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»^(١)، فليس الغرباء قومًا سلبين، وإنما هم مصلحون مجددون عاملون إيجابيون، اعتمدوا على حديث مثل حديث أنس في «صحيح البخاري»: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه»، مع أن الحافظ ابن حجر في شرحه

(١) سبق تخريجه.

للبخاري في «فتح الباري» قال : إن هذا مخصوص بالمخاطبين وإن فهم الصحابي العموم وإلا لتناقض هذا الحديث مع الواقع التاريخي ، فقد جاء زمن مثل عمر بن عبدالعزيز وكان خيرًا من الأزمنة التي قبله ، وأيضًا جاء في الأحاديث بأن الإسلام سيكون له شأن في آخر الزمان عند ظهور المهدي وعند نزول عيسى بن مريم .

هكذا جاءت الأحاديث : إذن فلا ينبغي أن تؤخذ هذه الأحاديث كما يفهمها بعض الناس ويخطفونها خطأ ، ويتتهون منها إلى أن الأمر لم يعد هناك سبيل إلى إصلاحه .

وهل يعقل أن يأتي محمد ﷺ ، بدين يدعو الناس فيه للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإصلاح الفساد ، ثم يقول للناس أحاديث تثبط همهم ، وتضعف عزائمهم عن عمل الخير وخير العمل .

الحاجة إلى المبشرات عند حلول الأزمات :

نحن في حاجة إلى الأحاديث المبشرة ، ومنها هذا الحديث الذي معنا وأحاديث أخرى مثل ما رواه ابن حبان : «ليبلغن هذا الأمر وهذا الدين ما بلغ الليل والنهار ، ولا يبقى بيت مدر أو وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزيز الله به الإسلام ، وذل يذل الله به الكفر» .

وكم من الأحاديث المبشرة نسيها هؤلاء بل نسوا القرآن نفسه ، والقرآن يقول : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور : ٥٥] .

القرآن الذي يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

لهذا كانت أحداث الفتن والملاحم وأشراف الساعة في حاجة إلى أن ينظر فيها أهل البصيرة من العلماء حتى تفهم على وجهها الصحيح ، ولا نجد من ينكرها إطلاقاً ويفر منها بإنكارها إنكاراً كلياً أو يفهمها على غير وجهها .
لهذا اخترت هذا الحديث لبعث الأمل وزرع الرجاء في قلوب الأمة المسلمة ، أن هناك من يجدد لهذه الأمة أمر دينها .

السبب الثاني : - لاختيار هذا الموضوع - هو الخطب ، والخطب الذي نراه عند كثيرين عندما يتحدثون عن تجديد الدين ، ما المراد بالتجديد؟

هناك قوم يريدون أن يجددوا الدين كأنما يريدون أن يحدثوا طبعة جديدة منقحة من هذا الدين ، إنهم يريدون ديناً جديداً غير الدين الذي دعا إليه محمد ﷺ ، وطبقه خلفاؤه الراشدون من بعده ، وعرفه السلف الصالح لهذه الأمة ، هؤلاء الذين سخر منهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي حينما قال : (إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر) .

والذين قال فيهم أمير الشعراء في قصيدته عن الأزهر :

لا تحذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم أمر منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناء قصرا

هؤلاء الذين يريدون أن يجددوا الدين بمعنى أن يطوروه ويغيروه ، كنا في حاجة إلى أن نصح مفهوم التجديد في هذا الدين ، وهذا ما جعلني أختار

هذا الموضوع تجديد الدين الذي ننشده من منطلق هذا الحديث الشريف ، وإذا أردنا البحث في هذا الحديث ، وهو حديث رواه أبو داود وصححه غير واحد ، صححه زين الدين العراقي والحاكم ، ورمز له السيوطي بالصحة في «جامعه الصغير» ، وأقره على ذلك العلامة المناوي ، فهو حديث صحيح ، وإن لم يرد في «الصحيحين» وقد صدقه الواقع ، حديث يتكون من جملة خبرية واحدة : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ، وهو من الإخبار بالغيب أخبر به من لا ينطق عن الهوى ، وإذا أخبر ﷺ عن شيء من شئون الغيب فإنما أخبره الله به وأطلعته عليه : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» .

لابد أن نتحدث هنا عن المجدد وعن المجدد وعن المجدد له وعن معنى التجديد ومداه وجوانبه ، من يجدد؟

ذهب فريق إلى أن المجدد فرد واحد :

ذهب الأكثرون من شراح هذا الحديث إلى أن المجدد فرد ، فهموا من كلمة : «من يجدد لها دينها» أنه شخص واحد ، وعلى هذا اشتهر أن مجدد المائة الأولى هو خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز ، ومجدد المائة الثانية هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، عمر بن عبدالعزيز توفي سنة (١٠١هـ) ، والإمام الشافعي توفي سنة (٢٠٤هـ) .

والسنة الثالثة اختلفوا فيها هل هو أبو الحسن الأشعري أم هو ابن سريج؟

وفي السنة الرابعة اختلفوا أيضًا هل هو الباقلاني أم الصعلوكي؟

وفي السنة الخامسة اتفقوا على أنه أبو حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) .

وفي السنة السادسة قالوا : إنه الفخر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦هـ) ، وبعضهم قال : الرافعي الشافعي .

وفي السابعة قالوا : إنه ابن دقيق العيد ، وهكذا ذهبوا إلى أن المجدد فرد واحد .

وآخرون ذهبوا إلى أن المجدد جماعة :

ذهب الإمام ابن الأثير في «جامع الأصول» وكذلك الإمام الذهبي ، إلى أن كلمة «من» كما أنها تصلح للمفرد تصلح للجمع ، «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ، لماذا جعلناه واحدًا مع أن «من» تصلح للمفرد وتصلح للجمع .

فإن قيل : إن الله ينصر من يجاهد في سبيله : قد يكون هذا المجاهد فردًا ، وقد يكون جماعة ، ولذلك قال ابن الأثير : إن هذا المجدد قد يكون مُحَدَّثًا ، وقد يكون فقيهاً ، وقد يكون مفسراً ، وقد يكون قائماً بالأمر حاكماً من الحكام ، وقد يكون مجاهداً من الذين يجاهدون في سبيل الله ، ويجددون الدين عن طريق الحرب والغزو ، وليس واحداً .

ثم ذكر أن مما عابه على العلماء من قبله أن كل جماعة كانوا يحملون المجدد على واحد من أهل مذهبه ، فالشافعية يحاولون أن يجعلوه شافعيًا ، والمحدثون يريدون أن يجعلوه محدثًا ، والمتكلمون يريدون أن يجعلوه متكلمًا مع أن التجديد يسع الجميع فقد يكون في هذا الوقت على رأس المائة عدد من المجددين .

ولذلك قال الإمام ابن الأثير : إن من الممكن في السنة الأولى أن يكون

عمر ابن عبدالعزيز من أولي الأمر ، ويكون هناك القاسم بن محمد من الفقهاء السبعة ، وسالم بن عبدالله ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، وعدد عديداً من الناس ، وكذلك كل سنة من السنوات على رأس المائة يمكن أن يكون هناك عدد من المجددين .

كلا الأمرين ممكن :

وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن الذي يقوم بالتجديد والإحياء يمكن أن يكون فرداً ، أو أفراداً ، أو جماعة من الناس ، أو مدرسة فكرية ، أو حركة علمية ، أو تربوية ، أو فقهية ، مجاميع مختلفة من الناس ، ينتشرون في الأرض كما قال الإمام النووي في شرح حديث : « لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك »^(١) .

قال بعض الشراح : هم أصحاب الحديث ، لم يرتض ذلك النووي ، وقال : ممكن أن يكون منهم المحدث والفقيه والمفسر ، وأن يكونوا في بلد واحد وأن يتفرقوا في البلاد ، وهذا هو الصحيح .

إذن نحن لسنا في حاجة إلى أن نحبد شخصاً واحداً وأن نقول هذا هو المجدد للمائة الأولى أو الثانية ، أو المجدد للمائة الرابعة عشرة في قرننا هذا ، ولسنا في حاجة إلى أن يدعي بعض الناس لواحد من المذهب الفلاني أنه هو المجدد ، ولسنا في حاجة إلى أن يدعي شخص أنه هو المجدد ، كما فعل الحافظ السيوطي الذي قال عن نفسه إنه مجدّد المائة التاسعة ، وأنكر عليه معاصروه .

(١) سبق تخريجه .

ترجيح القول بأن المجدد جماعة:

مما سبق يترجح لدينا أن التجديد يمكن أن يقوم به جماعات من الناس وهذا أولى وهو الموافق لما جاء في الأحاديث أن الذي يقوم بنصرة الدين في آخر الزمان طائفة وليس فردًا، طائفة قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم، وهو الموافق لقول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وهذا الذي جاء به خبر الله هو الذي جاء به أمر الله تعالى أيضًا حينما قال: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الفرد قدرته محدودة بخلاف الجماعة:

الفرد مهما كان عطاؤه ومهما كانت قدرته ومواهبه فهو محدود الطاقة والقدرة، وهو في حاجة إلى غيره، المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قوي بجماعته وبأعوانه، موسى عليه السلام دعا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ عليه السلام أَخِي ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي [طه: ٢٩-٣٢]، وقال الله تعالى له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] كان في حاجة إلى معين، والنبي ﷺ قال الله تبارك وتعالى له: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

إذن لا داعي أن نتظر التجديد من فرد واحد، والناس يخيل إليهم كأن هناك شخصًا يهبط عليهم من السماء في علبة مغلقة فلا يفعلون شيئًا إلا أن ينتظروا هذا الشخص، ولذلك شاعت فكرة المهدي المنتظر بدل أن يبحث الناس عن المهدي المنظور ظلوا يبحثون عن المهدي المنتظر ولا يفعلون شيئًا

كل الأمة مطلوب منها أن تساهم في التجديد ، تجديد الدين مطلوب من الأمة جميعاً ، ويتفاوت الناس في هذا الأمر فأهل العلم عليهم مسئولية ، وأهل الحكم عليهم مسئولية أكبر من غيرهم ، ولكن الجميع مطالبون بأن يسهموا وأن يؤدوا دورهم في تجديد الدين .

ما الشيء المراد تجديده؟

هذا معنى من يجدد ، أمّا ماذا يجدد؟ فالحديث يقول : «يجدد لها دينها» ، الدين بالنسبة للأمة الإسلامية ليس شيئاً ثانوياً ولا على هامش حياتها ، إنه روح وجودها وسر بقائها فإذا تجدد دينها تجددت الأمة كلها والفترات التي رأينا فيها المجد والانتصار هي الفترات التي قوي فيها الدين وقوي فيها الإسلام وقد جربنا أن هذه الأمة مفتاح شخصيتها في دينها ، كما أن للسيارة مفتاحاً بلمسة منه يستطيع الإنسان أن يحركها ويدفعها إلى الأمام فكذلك الشخصية الإسلامية لها مفتاح ، مفتاح الشخصية المسلمة هو الدين ، هو الإيمان ، تستطيع أن تفعل بهذه الأمة العجائب وتقتحم بها اللجج وتصنع بها المستحيلات إذا حركتها باسم الله ، بالإيمان ، بالدين ، بحقيقة الجنة ، إذا قال لها قائل : هبي يا رياح الجنة ، إذا نادى فيها قال : الله أكبر ، انطلقت الأمة وراءه بالملايين ، ولكن بأي شيء آخر لن تتحرك الأمة طالما رأينا أناساً عزفوا على نغمة القومية ، أو على نغمة الاشتراكية ، أو على نغمة الديمقراطية فلم تتحرك الأمة وراءهم ولكن حينما تقول : الله أكبر ، حينما ترفع المصحف ستجد هذه الأمة وراءك .

الدين حرك المسلمين في حطين:

يوم جاء نور الدين محمود الشهيد ، يوم جاء صلاح الدين الأيوبي ماذا فعلوا؟ إنهم جددوا دين الأمة فتجددت الأمة ، كان صلاح الدين الأيوبي يمر

على الخيام في الليل في حطين ، فإذا وجد خيمة فيها من يذكر الله أو يتلو القرآن ، أو يسبح ، أو يهلل ، أو يكبر ، أو يصلي ، قال : الحمد لله بهذا ننتصر ، فإذا وجد أهل خيمة كلهم نيام قال : أخشى أن تأتي الهزيمة من هنا ، من النائمين الذين لا يجد فيهم من يذكر الله ﷻ حركوا الأمة باسم الإسلام .

الدين حركهم في عين جالوت :

المظفر قطز في معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ من الهجرة وبعد سنتين فقط من سقوط بغداد ، بعد أن ظن الناس الظنون وظنوا أن لا تقوم للإسلام راية بعد اليوم ، وأن بساط الإسلام قد طوي إلى الأبد ، بعد سنتين فقط كانت معركة عين جالوت ، ولما رأى قطز في أول الأمر الناس أدبروا من هول ما كانوا يسمعون من التتار حتى كان المثل السائد إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق ، أسطورة القوة التي لا تقهر .

هناك رمى قطز بخوذته في الأرض وقال قوله وصاح صيحته التاريخية المعروفة : «وا إسلاماه» هنالك أقدم المحجم وثبت المتردد ورجع الفار وكانت الدولة للمسلمين وكان الانتصار لهم .

بالدين إذن تتحرك الأمة : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ، فالمُجَدِّدُ قد عرفناه ، والمُجَدِّدُ هو دين الأمة ، والمجدد له هو هذه الأمة .

ما المقصود بالأمة في الحديث؟

قال ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة» ، يشير النبي ﷺ ، كأنه استحضّر الأمة أمامه بأجيالها وقرونها المختلفة وأشار إليها ، وإذا ذكرت الأمة في القرآن أو الحديث فليست إلا الجماعة المحمدية ، هي أمة الإسلام ، هي أمة

الإجابة ، ليست أمة مبنية على أساس عنصري ولا على أساس إقليمي ولا على أي أساس إلا على أساس الإسلام ، إنها الأمة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، إنها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، إنها الأمة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المؤمنون : ٥٢] ، وهي أمة واحدة ، ليست أمماً ، من الخطأ أن نقول الأمم الإسلامية كما يقول كثير من الناس ولكنها شعوب إسلامية وأمة إسلامية واحدة ، أمة ذات شعوب ، فهذه الأمة ، التجديد لها .

التجديد الكامل والجزئي!!

التجديد الكامل يكون على مستوى الأمة ، ولكن هناك تجديد جزئي هو الذي يكون في قطر دون قطر ، في بيئة دون بيئة ، في فئة دون فئة ، في جانب من الحياة دون جانب ، كل هذا يمكن أن يشمل التجديد ، أما التجديد المطلق ، التجديد الكامل هو الذي يجدد هذه الأمة كما كان تجديد عمر بن عبدالعزيز للأمة كلها حيث كان خليفة للمسلمين عامة .

معنى التجديد :

يأتي بعد ذلك ما معنى التجديد؟ كيف نجدد في الدين حتى نجدد الأمة؟ هنا لابد لنا من وقفة ، بعض الناس يوهنا كأن التجديد هو تغيير طبيعة الإسلام ، وكلمة التجديد لا تفيد هذا ؛ لأن تجديد الشيء معناه العودة به إلى يوم نشأ وظهر ، كأنه بدأ اليوم ، يعني العودة به إلى قممه يوم بدأ فليس معنى التجديد هو تغيير طبيعة الشيء أو استحداث شيء مبتكر ، مستحدث ، لو أخذنا مثلاً في الحسيات ، إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق

فما معنى تجديده؟ معناه أن نبقي على جوهره، على خصائصه، على مقوماته، على طابعه، على معالنه الرئيسية حتى طريقة نقشه، نبقي عليه، نرمم ما تهدم منه، ما فعلته عوامل التعرية ولكن ليس معنى التجديد أن نهدم القديم ونقيم شيئاً مستحدثاً على أحدث طراز مكانه هذا ليس تجديدًا، فتجديد الدين أن نبقي على جوهر الدين، على خصائصه، على مقوماته، ولكن نحسن في عرض الدين نفهمه فهمًا جديدًا في ضوء النصوص القطعية، في ضوء المقاصد العامة للشريعة.

أمور ثابتة لا تجديد فيها:

هناك أمور في الدين، لا يدخلها اجتهاد ولا يدخلها تجديد، أمور ثبتت بنصوص قطعية الثبوت، قطعية الدلالة.

هذه هي التي تمثل الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، وهذه لا مجال فيها لاجتهاد المجتهد ولا لتجديد مجدد وهي وجوب الواجبات، حرمة المحرمات، أصول الفضائل، أصول الرذائل، القطعيات في الشريعة، ما علم من الدين بالضرورة، كل هذه أشياء لا مجال فيها لاجتهاد ولا لتجديد.

أمور قابلة للتجديد:

هناك منطقتان أخريان: منطقة النصوص الظنية، سواء كانت: ظنية في ثبوتها أو ظنية في دلالتها، وهذه معظم نصوص الشريعة، من فضل الله علينا أنه لم يقيدنا بنصوص محكمة قاطعة إلا في القليل، فمعظم النصوص جاءت ظنية لتفسح المجال لاجتهاد المجتهدين، فنجد المدرسة الحرفية مثل مدرسة الظاهرية والمدرسة الأثرية التي تهتم بالأثر ومدرسة الرأي والمدرسة المتوسطة نجد هذه الأفهام.

الاختلاف في فهم النص زمن النبي ﷺ:

قد ثبت هذا في عهد النبي ﷺ، في قضية بني قريظة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»^(١).

وفي الطريق قال قوم: إنما أراد منا سرعة النهوض فلنصل قبل أن يفوت الوقت، وجماعة قالوا: لا نصلي إلا في بني قريظة ولو كان ذلك في منتصف الليل.

جماعة أخذوا بالظاهر وجماعة أخذوا بالفحوى وبالروح، فما عنف النبي ﷺ هؤلاء ولا هؤلاء، وأقر الاجتهاد، فهناك نصوص ظنية الدلالة وظنية الثبوت، والقرآن قطعي الثبوت ولكن فيه نصوص ظنية الدلالة، والسنة فيها ظني الثبوت وهو الأكثر وقطعي الثبوت وهو المتواتر وأكثرها ظني الدلالة.

هنا نجد مجالاً للمجتهدين، لفهم الأمور من جديد في ضوء ظروفنا وفي ضوء حياتنا ومقاصد شريعتنا، فهذه منطقة ومنطقة أخرى هي التي لا نص فيها؛ لأن الشريعة لم تنص على كل شيء، إنها نصت على أشياء معظمها ما لا يتغير بتغير الزمان والمكان والحال، وتركت أشياء لا نص فيها كما جاء في الحديث: «إن الله حد لكم حدوداً فلا تعتدوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

منطقة العفو وما سكت عنه :

هناك منطقة يسميها العلماء العفو : «وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤] ^(١) .

هذه المنطقة ، منطقة الفراغ التشريعي يمكن أن نملأها على طريق القياس على المنصوص ، عن طريق الاستصلاح كما يقول المالكية وغيرهم . أيضاً عن طريق الاستحسان ، عن طريق سد الذرائع ، عن طريق رعاية العرف ، عن طرق شتى ، أمامنا متسع ملء هذا الفراغ .

مقولة : هم رجال ونحن رجال :

إذن هناك مجال للتجديد ، مناطق مفتوحة للتجديد ومناطق لا يمكن أن يدخلها التجديد ، الذين يريدون أن يطوروا الإسلام كله بعقائده وعباداته وقيمه الأخلاقية وقطعيات شريعته ، هؤلاء مخطئون وهؤلاء لا يقفون عند حد ، هؤلاء التطوريون لا يقفون عند حد ، إنهم يقولون لا حاجة لنا بأقوال الفقهاء وإنما هم بشر ونحن بشر ، هم رجال ونحن رجال ، فإن سلمنا لهم وطرحنا هذه الثروة الفقهية كلها جاءوا وقالوا : لا نستطيع أن نأخذ من السنة إلا القطعي والمتواتر ، ولو سلمنا لهم لجاءوا إلى القرآن وقالوا : القرآن نفسه نزل مراعيًا للبيئة ، لأنه حينما حرم الخنزير حرم خنازير كانت سيئة التغذية ، أما الخنازير التي كانت تربي في حظائر ويشرف عليها أناس وتحت إشراف طبي وعناية صحية فهذه ليست كتلك ، وقوم يقولون : الخمر إنما حرم في

(١) سبق تخريجه .

بلاد حارة ولو نزل القرآن في بلاد باردة لكان له شأن آخر . ويقولون : المرأة إنما كان لها نصف الميراث لأنها لم تكن تعمل كالرجل ولم يكن لها الاستقلال الاقتصادي .

باب الاجتهاد مفتوح شريطة عدم الخلط :

معنى هذا أننا لو سرنا وراء هؤلاء لما بقي لنا شيء ، لم يبق لنا شرع وجعل هؤلاء أنفسهم مشرعين في كل الأمور ، لا ، نحن نقول هؤلاء إن الله أنزل شرعه ليحكمكم لا ليحكمكم وليتبع لا ليتبع ، الشرع ميزان والميزان يجب أن يثبت ، هؤلاء الذين يطالبوننا بأن نطور الإسلام نقول لهم : إذا كنتم تطالبون الإسلام أن يتطور فأولئك بكم أن تطالبوا التطور أن يسلم بدلاً من أن تعصرونه كما يقولون أو نحدث الإسلام ، العصر هو الذي يجب أن يسلم ويخضع لمقتضيات الشرع القطعي لا ينبغي أن نخلط بين ما يجوز فيه الاجتهاد والتجديد وما لا يجوز ، نحن لا نقول بإغلاق باب الاجتهاد فهذا قول لم يقله إمام قاله بعض المقلدين ، والمقلد لا يُقَلَّد .

أما من قال من الأئمة : إن باب الاجتهاد قد أغلق ، فمن يملك إغلاق باب فتحه رسول الله ﷺ ، ومن الذي نسخ النصوص التي أقرت الاجتهاد؟ لهذا فالاجتهاد قائم وثابت ، رأى الحنابلة ومعهم بعض علماء المذاهب الأخرى أن أي عصر لا يخلو من مجتهد ولا يجوز أن يخلو من مجتهد ، وألف في ذلك الإمام السيوطي رسالته : «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» ، فالاجتهاد فرض في كل عصر ولو جاز ألا يكون هناك مجتهد ولا اجتهاد في عصر ما فلا يجوز في عصرنا أن يقال هذا ؛ لأن الحياة قد تغيرت ، الحياة في العصور الغابرة كانت بطيئة التغير ، كانت رتيبة .

الاجتهاد في العبادات (رؤية الهلال):

أما عصرنا فقد جرت فيه أمور أصبحت تحتاج إلى اجتهاد وإلى أعمال فكر فلا بد أن نجتهد لها وهذا في المعاملات وحتى في العبادات نفسها، الصوم نفسه، كيف يثبت الهلال؟

الناس يرفضون أن نستخدم المراصد في رؤية الهلال ويفرضون على الناس أن يروا بالعين المجردة من قال هذا؟ قال: «صوموا لرؤيته»^(١)، من قال إن الرؤية يجب أن تكون بالعين المجردة، ألسنا نستخدم النظارات المكبرة للقراءة، ألسنا نستخدم مكبرات الصوت فلماذا لا نرى بالمراصد؟ بل إن الإمام السبكي قال: إن الحساب الفلكي إذا كانت مقدماته قطعية ينبغي أن يؤخذ به في النفي لا في الإثبات، أي إذا نفى أن يولد الهلال وإن كان رؤيته، فإن القاضي لا يجوز له أن يعتبر الشهود في هذه الحالة، يرفض الشهود إذا قال: الحساب القطعي أنه لا يمكن الرؤية وقال: إن الظني لا يعارض القطعي. وكان للإمام السبكي - وقد بلغ مرتبة الاجتهاد في عصره - إدراك وإمام بعلم الفلك.

مثل هذه الآراء موجودة في الصوم وفي الحج لا زلنا إلى اليوم نختلف ونرى الذبائح ترمى في منى وتلقى ولا ينتفع بها أحد مع أن الله تعالى يقول: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَاسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

الاجتهاد في المعاملات:

إذا كان هذا في العبادات فكيف في المعاملات في عصرنا وقد جدت فيه

(١) سبق تخريجه.

أشياء كثيرة ومؤسسات تحتاج إلى فتوى فلا بد لنا أن نعمل الرأي ، لا بد لنا أن نجتهد حتى لا يقول قائل : إن الإسلام لا يصلح لهذا العصر وإن علماء المسلمين لم يقدموا لنا البديل ، كل ما يقولون إن هذا حرام ... قولوا لنا البدائل .

إذا قدمنا للناس البدائل استطاع الناس أن يستغنوا بالحلال عن الحرام وما حرم الله شيئاً إلا وفي الحلال ما يغني عنه ، لا يمكن أن يحرم الله على الناس شيئاً يضطرون إليه أو يحتاجون إليه .

لهذا نحن ندعو إلى الاجتهاد ولكن لأهل الاجتهاد ليس للأدعياء ولا للمتطفلين الذين لم يملكوا مؤهلات الاجتهاد ولم يملكوا شروطه وإنما أتوا الأمور من غير بابها ويريدون أن يقول الناس عنهم مجتهدون .

حاجة المسلمين إلى فهم الإسلام :

التجديد في هذا الجانب لا بد منه ، نحن نحتاج إلى تجديد في الفقه ، في الفهم ، في الفكر ، ولكني أقول : إن الاجتهاد ليس خاصاً بالعلماء أو الفهم أو الفقه أو البصيرة ، نحن نحتاج إلى تجديد في الفهم بالنسبة لعامة المسلمين ، لجاهير المسلمين ، لقد فهم الإسلام خطأ ، لبسه الناس كما يلبس الفرو مقلوباً كما يقول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه . أخطأ الناس فهم الإسلام ، أخرجوا من الإسلام ما هو من صلبه وأدخلوا فيه ما ليس من صلبه ، وقدموا فيه ما حقه التأخير وأخروا ما حقه التقديم ، وهذا شر ما يصاب به الإسلام أن تزيد في الإسلام ما ليس منه ، وهذا الابتداع أن تحذف من صلب الإسلام ما هو منه وهذا للأسف ما نجده في عصرنا بعض الناس يريدون الإسلام نسخة من الأديان الأخرى أو من

مذاهب أخرى ، يريدونه سلاحًا بلا جهاد ، أو عقيدة بلا شريعة ، أو زواجًا بلا طلاق ، أو دينًا بلا دولة ، أو حقًا بلا قوة ، أو مصحفًا بلا سيف ، والإسلام هو هذا كله ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ونظام حياة متكامل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل : ٨٩] .

أحكام الإسلام تتناول حياة الفرد كلها :

الإسلام يصحب الإنسان منذ أن يولد إلى أن يموت في رحلة الحياة كلها ، بل قبل أن يولد وبعد أن يموت ، هناك أحكام في الشريعة تشرع للجنين في بطن أمه ، أحكام تتعلق بالحمل .

أحكام تتعلق بالميت ، أحكام تتعلق بالجنائز ، بعد أن يموت الميت كيف ندفنه ، وكيف نغسله ، وكيف نكفنه ، وكيف نصلي عليه ؟ ومسئولية من هذه الأمور ؟ وكيف نوزع تركته ونقضي حقوقه وديونه وننفذ وصاياه ؟

الإسلام يصحب الإنسان في رحلة الحياة كما يصحبه في جوانب الحياة كلها ، لا يصحبه في المسجد فقط ، وإنما يصحبه في المسجد والسوق والبيت والمزرعة والمتجر والديوان وفي كل جوانب الحياة ، نحن في حاجة إلى أن نفهم الإسلام فهمًا شموليًا بدل هذا الفهم التجزيئي ، وأن نفهمه فهمًا متوازنًا ، فبعض المسلمين يأخذون جزءًا من الإسلام ويضخمونه فينمو نموًا سرطانيًا على حساب أجزاء أخرى ، هناك من يبالغ في الجانب العبادي على حساب الجانب الأخلاقي ، وهناك من يبالغ في الجانب الأخلاقي على حساب التبعّد ، وهناك من ينسى جانب النظام للحياة الإسلامية ، النظام الاجتماعي واقتصادي وسياسي جاء ليقوم العدالة في الأبدان ، نوازن بين هذه الأمور كلها .

شعب الإسلام الثلاثة :

الإسلام ذو شعب أساسية ثلاث : شعبة تتجه إلى الفرد فتصلح نفسه بالتزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٩، ١٠] ، وشعبة تتجه إلى المجتمع فتصلحه بالعدالة والتكافل ، وشعبة تتجه إلى الحكم فتصلحه بالشورى .

بصلاح الفرد نصلح المجتمع :

الفرد هو أساس المجتمع ، وإصلاح الفرد إنما يكون بإصلاح نفسه ، بإصلاح أخلاقه ، إذا غيرنا نفس الفرد تغير المجتمع ، لا يقول الإسلام ما تقول الماركسية غير الاقتصاد أو علاقات الإنتاج يتغير التاريخ بل يقول غير نفسك يتغير التاريخ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] ، ولهذا كان عمل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا بمكة هو تربية الفرد المؤمن ؛ لأن هذا أساس المجتمع المؤمن فيما بعد .

التزكية وأثرها في الإصلاح :

شعبة التزكية هي الأساس ، تأتي الشعبة الاجتماعية : العدالة والتكافل ، الإسلام يريد مجتمعًا متكافلاً يقف القوي فيه بجانب الضعيف ، ويصب الغني فيه على الفقير ولا يعيش طبقات متنافرة يحسد بعضها بعضًا ، لا يميز الإسلام أن يوجد في مجتمعه من يأكل حتى يضع يده على بطنه من زحمة التخمّة ، وآخر يجوع حتى يضع يده على بطنه من عضّة الجوع ، لا يجوز أن يولد في المجتمع الإسلامي من يشكو من ضغط الدم ومن يشكو من فقر الدم لا يجوز أن يكون هذا في المجتمع ، فهؤلاء هم الذين

يتيحون الفرصة للمبادئ الهدامة أن تعشش وتفرخ ، لقد جاء عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : «لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته» ، وجاء في الحديث : «كاد الفقر أن يكون كفراً»^(١) ، وقال أبو ذر رضي الله عنه : إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر : خذني معك . بتعبير عصرنا تقول له الشيوعية : خذني معك ؛ لأن الشيوعية إنما تجد ضحاياها بين هؤلاء المحرومين ، تثير أحقادهم على أولئك الذين ينفقون الملايين ، وآخرون لا يجدون الملايين .

عدالة الإسلام وأثرها في الإصلاح :

الإسلام يقيم العدالة ، أول دين في الأرض جعل في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يؤخذ كرهاً إن لم يؤخذ طوعاً ويقاقل عليه بحد السلاح ، هو الإسلام ، الزكاة ليست صدقة المتطوعين ، ليست إحساناً اختياريّاً ، إنما هي حق معلوم ، هو من شأن الدولة المسلمة ، لذا جعلها من مصرفها مصرفاً للعاملين عليها ، وقال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، فهي حق يؤخذ ، ومن هنا كان أبو بكر الصديق أول حاكم في التاريخ يقاقل ويشن الحرب من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء وقال كلمته المعروفة : والله لو منعوني عقلاً - أي حبل - بغير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه . ثم أمسك السيف بيده .

الشورى وأثرها في الإصلاح :

لابد من تثبيت الشورى في المجتمع المسلم ، فالحكم في الإسلام يقوم على أساس الشورى ، وكان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه رغم أنه المؤيد

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٠٤٨) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦١٢) .

المعصوم وقال الله تعالى له : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وجاء هذا بعد غزوة أحد التي شاور فيها ونزل فيها عن رأيه إلى رأي أصحابه وكانت النتيجة استشهاد سبعين من الصحابة منهم حمزة أسد الله وأسد رسوله ومع هذا قال له : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، أي اثبت على المشاورة مهما تكن نتائجها .

آية الشورى جمعت الشعب الثلاثة :

قد جمعت آية واحدة لسورة الشورى هذه الشعب الثلاث : الشعبة التي تتجه إلى الفرد فتصلحه بالتركية ، والشعبة التي تتجه إلى المجتمع فتصلحه بالتكافل ، والشعبة التي تتجه إلى الحكم فتصلحه بالشورى ، جمعت آية واحدة هذه الشعب الثلاث ، آية من سورة الشورى حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨] .

نحن في حاجة إلى أن نفهم الإسلام فهماً شمولياً متوازناً متكاملًا لا نضخم بعض أجزائه على حساب البعض الآخر ، يجب أن نرفض اتجاه الذين يجزئون الإسلام ويجب أن نرفض اتجاه الذين يميعون الإسلام فقوم يدعون إلى بلشفة الإسلام ، وقوم يدعون إلى رأسمالية الإسلام ، وقوم يدعون إلى تنصير الإسلام . . . إلخ .

الإسلام يرفض الجمود مع مذهب بعينه :

نحن نريد الإسلام فقط ، ونرفض اتجاه الذين يجمدون الإسلام من أولئك الذين يريدون أن نقف عند حدود الفقه الموروث فقط ولا نبني عليه ، هذا ليس صحيحًا ، الفقه الموروث ثروة ضخمة ولكن ينبغي أن

نبني على هذا الفقه وأن نتقي من المذاهب إذا أردنا أن نقيم تشريعاً لعصرنا، لا يجوز أن نقف عند مذهب واحد .

المالكي يتبنى رأي أبي حنيفة في بعض المسائل:

إن الإمام أبا بكر بن العربي وهو مالكي ورأس المالكية في عصره في موضوع الزكاة حينما جاء عند زكاة ما أخرجت الأرض يقول في كتابه . «أحكام القرآن» وهو يشرح قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، تحدث عن مذاهب مختلفة ومنها مذهب مالك ثم قال في إنصاف: وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته، فأبصر الحق فأوجب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض .

وفي شرحه للترمذي في «عارضة الأخوذي» حينما كان يشرح الحديث: «فيما سقت السماء العشر»، قال أيضاً: وأقوى المذاهب في المسألة هو قول أبي حنيفة وهو أليقها بشكر النعمة، وأحوطها للمساكين، وهو الموافق لعموم الآية والحديث .

وهذا من الإنصاف وسعة الأفق إذا أردنا أن نقيم تشريعاً يجب أن نختار من المذاهب ولا حرج علينا في ذلك .

دعوة باطلة:

بعض الشيوعيين يتهمون المسلمين قائلين: إن الإسلام يعفي الإقطاعيين والرأسماليين الكبار ويجعل عبء الزكاة فقط على الزراع الصغار وذلك لأن المجالس الإسلامية هناك كانت تأخذ الزكاة من زارع القمح والشعير

ولكنها لا تأخذ شيئاً من أصحاب مزارع المطاط ومزارع الشاي ومزارع جوز الهند وغيرها وهي أشياء ضخمة جداً عملاً بمذهب الشافعي في هذا .
فقليل لهم : إن الشافعي له مذهبان : قديم قبل أن يصل إلى مصر ،
وجديد في مصر ولو أن الشافعي رأى ما نرى الآن لعله كان يغير اجتهاده ،
إن أماننا أن نختار لا بد أن نجتهد لعصرنا في ظل المبادئ والمقاصد
الإسلامية والثروة الفقهية كلها .

تجديد الفهم والإيمان والعمل :

إن الإسلام ليس فهماً فقط ولا فكراً فقط ، غالب الذين يتحدثون عن
التجديد يصبون التجديد على الناحية الفقهية والفكرية والعقلية ، ولكن
الإسلام فهم وإيمان وعمل لا بد أن نجدد إيماننا .

أيضاً نحن في حاجة إلى تجديد الروح ، نحن في حاجة أن نجدد قلوبنا ،
نحن في حاجة إلى متنسكة معتدلة تزرع في القلوب الخشية لله والرجاء في
رحمته ، نحن في حاجة إلى هذا النوع من النسك السني الإيجابي ، نحن نرفض
الذين يقولون : دع الملك للمالك ، والخلق للخالق ، أو أقام العباد فيما أراد
ولا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر .

نحن نرفض الذين يفرقون بين الحقيقة والشرعية ويقولون : من نظر
إلى الخلق بعين الحقيقة عذرهم ومن نظر إليهم بعين الشريعة مقتهم .

إنما نريد النسك الذي يربي الخلق كما قال ابن القيم نقلاً عن متقدم :
النسك هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في النسك .

تجديد العمل:

نحن في حاجة إلى تجديد الإيمان ، نحن في حاجة إلى تجديد العمل ، العمل بالإسلام ، والعمل للإسلام .

نحن نريد أن نعمل بالإسلام ، ليس الإسلام قولاً وليس الإسلام فكراً فقط ، الإسلام عمل إن الله خلق السموات والأرض : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧] ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] ، أي أن الناس لا يتسابقون ولا يتنافسون في حسن العمل فقط بل في أحسنية العمل ، أيهم يكون أحسن عملاً ، ينبغي أن نعمل وأن نحسن العمل ، وأن نعمل للدين وللدنيا معاً ، الإسلام دين ودنيا ، يجب أن نفهم هذا ، لا يمكن أن ننصر ديننا إذا أضعنا دنيانا ، نحن في بلاد المسلمين بوأنا الله أحسن البلاد بقعة وأعظمها رقعة وأخصبها أرضاً ، الثروات في باطن أرضنا مذكورة وعلى ظاهرها منشورة ومع هذا نعيش حالة على الأمم ، في معظم بلاد المسلمين نستورد القوات أو نصف القوات أو أقل أو أكثر في الصناعة ، نحن حالة على غيرنا ، أمة سورة الحديد لم تتقن حتى اليوم صناعة الحديد ، ولا الصناعة المدنية التي يشير إليها تعالى : ﴿ وَمَنْفَعُ النَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، ولا الصناعة العسكرية التي يشير إليها قوله تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، هذا إشارة إلى المصنوعات الحربية ، ﴿ وَمَنْفَعُ النَّاسِ ﴾ إشارة إلى المصنوعات المدنية ، نحن ينبغي أن نتقن الأمرين ، العمل لديننا والعمل لدنيانا ، وبهذا نتقرب إلى الله .

العمل للدنيا عبادة:

العمل للدنيا عبادة في نظر المسلمين ، التفوق في كل علم أو صناعة يحتاج إليها المسلمون فريضة ، فرض كفاية إذا قام بها عدد كاف سقط الإثم عن الأمة وإلا أثمت الأمة عامة وأولو الأمر فيها خاصة .

نحن في حاجة إلى أن نعمل للإسلام كما أننا نعمل للدنيا ، كل أهل دين يعملون لدينهم ، قرأت أن رجلاً درس الإسلام وأعجب به فقال كلمة لا زلت أذكرها : يا له من دين لو كان له رجال ، مع أن للإسلام ألف مليون (مليار) مسلم في العالم ولكن من هؤلاء الألف مليون يعد من رجال الإسلام ، إنهم ينسبون إليه ويحسبون عليه ولكنهم لا يعملون له ، كل أصحاب دين يعملون لدينهم ، اليهودية عملت لدينها وأقامت دولة في قلب ديارنا العربية والإسلامية ، ظللنا سنين من الزمان نقول إسرائيل المزعومة ثم أصبحت هذه المزعومة ترفض هذه الدولة وتضرب تلك وتتحدى الجبهات كلها فتركنا كلمة المزعومة بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين .

عمل النصرانية لدينها:

النصرانية تعمل لدينها في الأرض وتبشر به في الشرق والغرب ، منذ سنوات اجتمع مؤتمر في ولاية كلورادو وقدم فيه أربعون بحثاً عن أحوال المسلمين في العالم وقرروا في هذا المؤتمر العمل على تنصير المسلمين في العالم ، وأنشئ لذلك معهد سموه «معهد زويمر» ورصد لذلك ألف مليون دولار ، هذا الأمر نشر في كتاب ونشرته الصحف وتحدثت عنه المجلات ، ألف مليون دولار لتنصير المسلمين في العالم ماذا فعلنا نحن؟

ماذا فعل المسلمون لدينهم:

ماذا فعلنا لديننا؟ نحن نستطيع أن نرصد مثلهم أو أكثر منهم لسنا فقراء ولا ضعفاء، لو أن كل مسلم في العالم دفع دولارًا لجمعنا الألف مليون دولار، كان اليهود قديمًا يقولون لأتباعهم في أوروبا وأمريكا: ادفع دولارًا تقتل عربيًا، نحن نقول: ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا، لو كان هناك من يوقظ المسلمين لاستطعنا أن نفعل الكثير، نحن في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، نجد أن المسلمين للأسف لم يقدموا لدينهم عملاً كبيرًا رغم سعة الجبهة الإسلامية وعرضها وطولها ورخائها وما تملك من أموال طائلة ومن بلايين، رغم هذا كله لم تقدم للإسلام شيئًا يذكر، المسلمون يأكل بعضهم بعضًا، العاملون للإسلام يهدم بعضهم بعضًا، نحن في حاجة أن نقف في مطلع هذا القرن وقفة تقويم ومحاسبة لأنفسنا إذا أردنا أن نجدد ديننا حقًا... إن ديننا هو أعظم الأديان هو الدين الذي كتب الله له الخلود، وهو الذي من الله به علينا وأتم علينا النعمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولكن الدين لا ينتصر وحده وإنما ينتصر الدين برجاله وبأهله وكما قال الطغرائي:

وشيمة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطله

وكما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

الدين مسئولية الجميع:

إننا في حاجة إلى أن نجدد الدين في أنفسنا قبل كل شيء، ولا ننتظر مجددًا فردًا ينزل من السماء أو تأتي به الخوارق ليجدد لنا ديننا، إن المسئولية

مُسئوليتنا جميعًا ، إن من الآفات التي نشكوها أن هناك من الناس من يحاول الفرار من المسؤولية ، الشعب يلقي المسؤولية على العلماء ، والعلماء يلقون المسؤولية على الحكام ، والحكام يلقون المسؤولية على الاستعمار مع أن الجميع مسئولون .

والحديث الشريف الذي يرويه الشيخان يقول : «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته» ، قال بعض الناس لأحد العلماء الدعاة يومًا : ماذا فعلتم صار لكم أربعون سنة تدعون الناس؟ فقال له : وأنتم صار لكم أربعون سنة تسمعون ماذا عملتم؟ إذا كنا نتكلم أربعين سنة ولم نفعل ، فأنتم تسمعون أربعين سنة ولم تفعلوا لماذا يكون العالم مسئولًا وحده ، والمتكلم ليس مسئولًا؟

الشعب مسئول والعلماء مسئولون والحكام مسئولون ، كل على قدر ما آتاه الله ﷻ ، كلنا مسئولون عن تجديد هذا الدين وعن النهوض به ، ويسألنا الله جميعًا عنه فعلينا أن نحضر للسؤال جوابًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين : ٦] .

المحاضرة السادسة والسبعون بعد المائة

سماحة الإسلام

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَرَهُ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

سبب نزول الآية:

يروى في سبب نزول هذه الآية: أنها نزلت في رجل يسمى نبهان التمار، كان له حانوت يبيع فيه تمرًا فجاءته امرأة تشتري منه فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت، فندم نبهان فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع، فقال: لعل زوجها غاز، فنزلت هذه الآية، وقيل: إن المشركين قالوا للمسلمين إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت^(١). قاله زيد بن أسلم وابنه.

قول آخر في سبب النزول:

وقيل في سبب نزول قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية: إن اليهود كانت تقول إذا هلك لهم صبي صغير هو صديق فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٤/ ٢٠٦)، و«زاد المسير» (١/ ٤٦١).

أنه شقي أو سعيد»^(١) فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ، وقيل : نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم ، والظاهر أنه خطاب عام .

معنى المحسنين :

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ ، هذا نعت للمحسنين ؛ أي أن المحسنين هم الذين لا يرتكبون كبائر الإثم والفواحش .

قراءات للآية :

قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحزمة والكسائي : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ (كَبِيرَ) الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ ، وإنما قلنا : إن ذلك وصف للمحسنين لقوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣٢﴾ [النجم : ٣١ ، ٣٢] أي أن الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش .

وجميع ما في القرآن من «الذين» ، و«الذي» يجوز فيه الوصل بما قبله نعتاً له ، والقطع على أنه خبر مبتدأ إلا في سبعة مواضع ذكرها المفسرون فإن الابتداء بها هو المعين وليست منها هذه الآية .

اختلاف المفسرين حول معنى الكبائر :

الكبائر اختلف المفسرون فيها ، فقليل : الكبائر سبع ، فمما يروى عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه خطب الناس في مسجد الكوفة فقال : يا أيها الناس إن الكبائر سبع ؛ الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢ / ٨١) من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه .

المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والفرار يوم الزحف ، والتعرب بعد الهجرة . وهو أن يترك المهاجر الجهاد ويرتد أعرابياً كما كان^(١) .

وقيل : الكبائر تسع ؛ هي ما ذكر ، والسحر والإلحاد بالبيت الحرام .

وقال آخرون : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، ويروى هذا القول عن ابن عباس ، وأنه سئل عن الكبائر أسبع هي ؟ قال : إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار ، وبين ذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء : ٣١] قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب .

إلا إن ما ثبت نقله عن رسول الله في ذلك أحق بالتقديم وأولى بالاعتماد ، فعن أنس بن مالك قال : ذكر رسول الله الكبائر فقال : «الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال : قول الزور أو قال : شهادة الزور»^(٢) .

وروي عنه ﷺ غير ذلك ، إلا أن المتحصل من أقواله ﷺ أن الكبائر هي : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنة ، والفرار من الزحف ، والزنا بحليلة الجار .

اختلاف المفسرين في معنى «اللمم» :

اللمم : اختلف في معناه اختلافاً كثيراً .

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٤ / ٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٧) ، ومسلم (٨٨) .

هو: ما ارتكب في الجاهلية من آثام:

قيل : اللمم الذي ألموا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام ،
فإن الله قد عفا لهم عنه فلا يؤاخذهم به .

هو: الذنب يرتكبه العبد ثم يتوب منه:

قيل : اللمم الذي يلزم به العبد ثم يدعه ويتوب ، كأن يزني ثم يتوب أو يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود ، ودليل هذا قول الله تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] هؤلاء قال فيهم الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [آل عمران : ١٣٦] ، فضمن لهم المغفرة كما قال في الآية التي نحن بصدد تفسيرها : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم : ٣٢] .

وفي ذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، فتلک الأمام . وعن مجاهد قال : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ الذي يلزم بالذنب ثم يدعه .

وقال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأي عبد لك لا ألما

والعرب تقول : ما يأتينا إلا لمامًا ، أي : في الحين بعد الحين ، ولا يكون اللمم إلا مع الفعل لأن العرب لا تقول : ألم بكذا إلا إذا فعل ، لا إذا هم

ولم يفعل . ويؤيد هذا ما قاله أبو إسحاق الزجاج : أصل اللمم وهو الإلمام ما يعمل به الإنسان المرة بعد المرة لا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ، يقال : ألممت به إذا زرتّه وانصرفت عنه .

ومن الإلمام الخيال ، قال الأعشى :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى حبلها من حبلنا فتصرما

هو: الذنب الذي ليس له حد ولا توعّد:

قيل : اللمم هو الذنب الذي لم يأت عليه حد في الدنيا ولا توعّد عليه بعذاب في الآخرة ، ويكون اللمم على هذا القول هي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه ، وهذا النوع من الذنوب تكفره الصلوات الخمس .

قال ابن عباس : ﴿إِلَّا أَلَمَّ﴾ إلا النظرة والغمزة واللمزة يلوم بها نفسه ويتوب عليها كما يكفره اجتناب الكبائر .

هو: خاطر القلب من الذنب:

قيل : اللمم هو ما ألم على القلب أي خطر ، قاله سعيد بن المسيب ، وهذا فيه بعد إذ هو معفو عنه ابتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد ولا اختيار .

معنى الاستثناء في الآية:

مدار الأمر في هذه الأقوال جميعها على معنى الاستثناء من هذه الآية ، وهل هو استثناء منقطع أو استثناء متصل ، فالذين اعتبروه استثناء منقطعاً

جعلوا اللطم غير داخل في كبائر الإثم والفواحش ، ومعناه : إلا أن يلم بشيء ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش .

والذين اعتبروا الاستثناء متصلاً جعلوا اللطم داخلاً في كبائر الإثم والفواحش ، ومعنى الكلام عندهم : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا أن يلموا بشيء منها ثم يتوبوا .

والذي يبدو - والله أعلم - أن كلا الوجهين صحيح ، وأن غفران اللطم الذي هو من كبائر الإثم والفواحش يجعل ما دونه داخلاً فيه من باب الأولى والأحرى .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ ﴾ [النجم : ٣٢] : إن ربك واسع عفوه للمذنبين التائبين ، سواء كانت ذنوبهم من الكبائر دون الشرك أو كانت من الصغائر .

وقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] : أي أن ربكم أعلم بالمؤمن منكم من الكافر ، والمحسن منكم من المسيء ، والمطيع من العاصي منذ نشأتكم الأولى ، فهو أعلم بكم منكم بأنفسكم .

وقوله : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] أي فلا تبرئوا أنفسكم من الذنوب ، ولا تشهدوا لها بالبراءة من المعاصي .

وقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢] أي أن التقوى ليست بالادعاء ؛ لأن الله لا يخفى عليه حالكم ، وهو أعلم بالمتقين وغير المتقين .

وهذه الآية موضوع الدرس ومثيلاتها هي من الآيات التي تختلف فيها أنظار العلماء حسب اتجاهات ثلاث .

الاتجاه الأول : متفائل بالرجاء في الله وحسن الظن به ، واثق بمغفرة الذنوب صغائرها وكبائرها دون الشرك بالله تحقيقاً لوعده الله .

الاتجاه الثاني : ميال إلى التشدد مشفق من الاتكال على المغفرة ومتجه إلى التخويف من عذاب الله وعقابه ، حتى لا يقع تهاون أو تساهل تنحل معه عروة الدين .

الاتجاه الثالث : متوسط يقرن التبشير بالتخويف ويجعل لمقام التشجيع التبشير ولمقام التحذير التخويف .

والذي أميل إليه والله أعلم أن الاتجاه الأول المتفائل هو الأصل ، والثاني والثالث مكملان ولا غنى عنهما ، وبذلك يتم التوفيق بين الاتجاهات الثلاث ويتحقق تصويب علماء الأمة جميعهم ، لا سيما وأن قصد الجميع حفظ مصالح العباد في الدنيا وفي دار المعاد .

وقولنا بأن الاتجاه الأول هو الأصل تشهد له دلائل كثيرة نقتصر على بعضها .

الدليل الأول: تأكيد القرآن ضعف الإنسان:

إن الخالق سبحانه وتعالى وصف هذا المخلوق في كتابه العزيز بأوصاف عديدة ؛ بعضها يرجع إلى بدنه ، وبعضها يرجع إلى نفسه وقلبه ، وهو أعلم به لأنه صانعه وبارئه ، وظهر الإنسان من خلال هذه الأوصاف على حقيقته ومن جملة ما أظهره الله به أنه ضعيف لا يقدر على شيء .

يقول الله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] .

الضعف البدني:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

الضعف العلمي:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ضعيف أمام الخير والشر:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

ضعيف أمام شهوته:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُوءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

ضعيف أمام شيطانه:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

ضعيف أمام نفسه:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

ضعيف مع المال والأهل:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاؤُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا آمُونَا وَاهْلُونَا فَاَسْتَغْفِرْنَا﴾ [الفتح: ١١].

ضعيف أمام الدنيا ومتاعها:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وإنسان هذا حاله لا بد أن يكون خالقه المتصف بالحكمة والحلم رءوفاً به، متقبلاً لعمله على علاقته، غافراً لذنبه كبر هذا الذنب أم صغر، وهذا منسجم مع الآية موضوع درسنا، ومع قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومع قوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وقوله ﷺ: «لولا أنكم تذنّبون لخلق الله خلقًا يذنّبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»^(١).

الدليل الثاني:

أسماء الله الحسنى تحمل العبد على حسن الظن بالله ، فهو :
الرحمن الرحيم .
السلام : الذي معناه الأمان لخلقه ، والذي سلم المؤمنون من عقوبته .
المؤمن : الذي معناه المؤمن لخلقه من العذاب المصدق وعده لهم .
الغفار : الذي معناه الستار لذنوب عباده مرة بعد مرة .
الفتاح : الذي يفتح لعباده المنغلق من أمور دنياهم ويفتح لهم خزائن رحمته .
الرافع : الذي يرفع من يشاء بإنعامه لا بعمل عبده .
اللطيف : البر بعباده .
الحليم : الذي يؤخر العقوبة على مستحقها ثم قد يعفو عنه ولا يستنزفه الغضب فيتعجل العقوبة .
الغفور : الذي يكثّر من المغفرة .
الشكور : الذي يشكر اليسير من الطاعة ويعطي عليه الكثرة من المثوبة .
الكريم : الكثير الخير المحسن بما لا يجب عليه .
الواسع : الذي عمت رحمته كل شيء .
الودود : المحب الخير لخلقه والمحسن إليهم في كل حال .

(١) سبق تخرجه .

البر : الكثير البر العظيم الإحسان .

التواب : الذي يوفق العصاة للتوبة ويقبلها منهم .

العفو : الذي يمحو سيئات من أناب إليه .

الرءوف : عظيم الرأفة والرحمة .

النافع : الذي عم نفعه وخيره كل خلقه .

النور : الظاهر بنفسه والمظهر لغيره .

الصبور : الذي لا يتعجل بالعقوبة .

وهذا دليل قوي جدًا ؛ لأن الأسماء والصفات من وسائل المعرفة بالله ، ولا يمكن أن يخالف فعل الله أسماءه وصفاته ، فإذا تعرف العبد على هذه المجموعة من الأسماء التي اقتصرت عليها هنا عرف أن سيكون صنيع ربه به من جنس أسمائه .

مع كثرة الذنوب فإن رحمة الله واسعة :

إذا نظرنا إلى أفعال العباد وجمعنا كبائرهم دون الشرك بالله وعرضناها على هذا الجلال والجمال وجدناها قطرة في بحر ، وعلمنا خطأ المتشددين الذين يقفون في وجه الإنسان وسوط العذاب في أيديهم يلفحونه به كلما زلت قدمه حتى ملئوه رعبًا ونفورًا ، فصار مثل ذلك الطفل الشقي الذي يزداد إصرارًا على الخطأ ، كلما ازداد أبوه إصرارًا على القسوة .

إن الصغائر تكفرها الصلوات الخمس وإن الكبائر مغفورة بالتوبة ، والله تعالى لطيف بعباده ، رءوف رحيم ، والتضييق على عباد الله فيه مخالفة للطف الله بهم .

والذين يلاحقون الإنسان بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والإلحاح على الجانب السلبي من سلوكه بدل الإغضاء عنه والنظر إلى الجانب الإيجابي وتشجيعه عليه وتبشيره بدل تنفيره وتخويفه ، هؤلاء هم الذين يزكون أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويلومون الناس وهم مذنبون ؛ ولذلك خاطبهم الله تعالى في هذه الآية مشعراً إياهم بأنه هو أعلم بهم ؛ لأنه هو الذي خلقهم وأنهم لا بد واقعون في الغلط شأن كل مخلوق ضعيف ، فقال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢] .

الدليل الثالث:

أسلوب القرآن في التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله .

وهذا الدليل والأدلة التي تليه هي من أسرار القرآن الكريم التي يتنبه إليها من تدبر آياته وتأمل في معجزته ، كقوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] قال : بيدك الخير ، ولم يقل : والشر ، وإن كانا جميعاً بيده تأدباً في الخطاب ، وتغليظاً لجانب الخير على جانب الشر ، ومثله قول مؤمني الجن : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] فحذف الفاعل في إرادة الشر وبنى الفعل للمجهول تأدباً في الخطاب حتى لا يشعر العبد أن الله قد يريد به الشر ، بينما صرح بالفاعل في إرادة الرشد ، فقال : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] .

وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٠] ، فنسب هو يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿ ٧٦ ﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿ [الشعراء : ٨٠-٧٨] ، فنسب

إلى رب العالمين الخلق والهداية والإطعام والسقي والشفاء ؛ لأنه يضاف إليه كل خير ، ولم ينسب إليه المرض .

وانظر إلى الفرق في الأسلوب عند تقديم فعل البشر في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وتقديم فعل الله في قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] .

وإذا كان الأمر كذلك لزم أن يتأدب العالم في خطاب الناس بالشرعية ، وذلك بإضافة الخير والبشرى إلى الله وأن يقدم الثواب على العقاب ، والرحمة على العذاب ، والرجاء على اليأس ، ويغلب جانب الإيجاب على جانب السلب ، اقتداء بأسلوب القرآن في مخاطبة العباد .

الدليل الرابع :

أسلوب القرآن حيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة .

فمن أساليب القرآن العجيبة أنه حيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٤] ، وقوله : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣١] ، وقوله : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [الإسراء : ٥٤] .

وعلى هذا قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى : «إن رحمتي سبقت غضبي»^(١) ، وقد خرجت عن هذه القاعدة بعض الآيات ، ولكن الغالب هو تقديم الرحمة على العذاب بالاستقراء التام .

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والله تعالى كتب على نفسه الرحمة : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾
[الأنعام : ٥٤] ، واختص بها سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾
[الأنعام : ١٣٣] ، وجمع فيها ما أرسل به نبيه محمدا ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ووصف بها ما بعث به النبيين : ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾
[هود : ١٧] ، و﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ [مريم : ٢١] ، و﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ٧٧] ، والحمد لله الذي لم يجعل خزائن رحمته بيد هؤلاء المتشددين إذا لأمسكوا وقفروا علينا تقتيرا : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

الدليل الخامس :

أسلوب القرآن حيث ذكر المعروف والمنكر أن يبدأ بذكر المعروف .
يقول الله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ويقول سبحانه : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٤] .

فجاء الاعتراف لهم بالإيمان ثناء عليهم ثم جاء الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر ، وهذا أسلوب عجيب وإرشاد عظيم في طريقة الدعوة إلى الله ؛ لأن تقديم الثناء فيه تطيب للنفوس ، كما أن الإنسان يجب أن تذكر حسناته قبل أن نلومه على سيئاته ، وأيضا فإن الأمر بالمعروف أحق

بالتقديم على النهي عن المنكر ؛ لأنه يغني عنه في كثير من الأحيان ؛ ولأن الأمر بالمعروف في حد ذاته نهي عن المنكر .

وإذا اعتنى العلماء ببيان فضيلة الصدق مثلاً كان ذلك أجدى من مطالبة الناس باجتنب الكذب لأننا في هذه الحالة نكون كمن يفترض أن الأصل في الناس الكذب ويتجه إلى نهيهم عنه .

وكذلك فإن بيان فضيلة الإحصان والعفاف والحياء والطهارة والمروءة خير من التركيز على بيان رذيلة الزنا ، والتشهير بأهلها ، وكأننا نفترض أن الأصل في الناس الزنا ، مع أن المفروض أن نحمل الناس على التسابق في الخيرات ، ولعل أسلوب التربية لدى المتنسكين ألصق بهذا المعنى ، وذلك حين رتبوا مراتب الكمال ، وقالوا بأن ما تقتضيه المرتبة العليا فوق ما تقتضيه المرتبة التي دونها .

والعقل لا يرضى بالدون ، ولذلك أمر بالاستباق إلى الخيرات مطلقاً ، وكان من شأن المتنسكين أن يتجاروا في ميدان الفضائل حتى عدوا من لم يكن في ازدياد ناقصاً ، ومن لم يعمر أنفاسه بطلاً .

إلا أن المسارعة في الخيرات تقتضي المطالبة بأقصى المراتب بحسب الإمكان عادة ، فلا يليق بصاحبها الاقتصار على مرتبة دون ما فوقها ، فلذلك تستنقص النفوس الإقامة ببعض المراتب مع إمكان الرقي ، وتتحسر إذا رأت شغوف ما فوقها عليها حتى قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ أي يعتبرها المقربون سيئات لنقص رتبته عن مراتب فوقها ؛ ولذلك كان تقديمه سبحانه ذكر المعروف والأمر به على النهي عن المنكر بمثابة إرشاد المؤمنين إلى الحلبة التي عليهم أن يتسابقوا فيها ، وهي حلبة المعروف .

الدليل السادس:

أسلوب القرآن في تغليب الترغيب على التهيب .

الأصل أنه إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه التهيب في لواحقه أو قرائنه وبالعكس ، وكذلك الترجية مع التخويف ، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله ، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس ؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترغيباً وترجية ، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً ، وقد يرد التخويف ويتسع مجاله لكنه لا يخلو من الترجية .

اتساع الترجية في مواطن القنوط:

ترد الترجية أيضاً ويتسع مجالها وذلك في مواطن القنوط ومظنته ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] فإن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمداً ﷺ ، فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا ألنا لما عملنا كفارة؟ فنزلت ؛ فهذا موطن خوف يخاف منه القنوط فجيء فيه بالترجية غالبية .

متابعة كلام الشاطبي وتحقيقه:

لقد استوقفتني عبارة وردت في كلام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الموافقات» وهي قوله : ولما كان جانب الإخلال من العباد أغلب كان جانب التخويف أغلب ، وذلك في مظانه الخاصة لا على الإطلاق .

وأردت أن أحقق كلامه فقمت بمحاولة للإحصاء فوجدت أن البشير والبشرى بعد إسقاط البشرى بالعذاب وردت في القرآن (٧٦) مرة .

بينما لم يأت النذير والإنذار بالعذاب خصوصًا سوى (٤٥) مرة .
وجاء الثواب والجزاء والمغفرة والرحمة والعفو والجنة (٨٠٧) مرة .
ولم يأت العقاب والجزاء الذي بمعنى العقاب والعذاب والنار وجهنم سوى (٦٦١) مرة .

وجاء الهدى والهداية (٣٠٧) مرة .

بينما لم يأت الضلال والضلالة سوى (٩١) مرة .

وجاء الخير والخيرات والأخيار (١٨٧) مرة .

ولم يأت الشر والأشرار سوى (٣٠) مرة .

ولذلك فإن الأصح أن يقال : إنه لما كان جانب الإخلال من العباد أغلب كان جانب العفو والرجاء أغلب على عكس ما ذهب إليه الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ .

ولا شك أن هذه الحقائق الاستقرائية لها دلالتها ، ولا بد أن هذا التفاوت الدائم في العدد وغلبة الجانب الإيجابي على السلبي في المقدار يشير إلى خاصية من خصائص الأسلوب القرآني والمنهج الرباني يتعين الانتباه إليها والاهتمام بها في التوجيه الديني للإنسان .

الدليل السابع :

أسلوب القرآن في النسخ متجه إلى اللطف بعباد الله .

وهذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾
[الأعراف: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾
[البقرة: ١٨٥].

ضابط الفهم للنسخ صحة العقيدة:

النسخ في القرآن من أجل المباحث التي لها صلة قوية بالعقيدة، وتناسخ الأحكام والرسالات السماوية لا يمكن فهمه فهماً سليماً إلا في إطار عقيدة سليمة، وإلا فإن المرء سيعرض له ما عرض لليهود عندما قالت: إن النسخ إن لم يكن لحكمة كان عبثاً يتنزه الله عنه، وإن كان لحكمة فإنه يقتضي ظهور مصلحة لم تكن ظاهرة له.

ولو كان لليهود إيمان لأدركت أن النسخ وإن لم يكن لحكمة ظاهرة فإنه لن يكون عبثاً في حق الله تعالى؛ لأن الإيمان يقتضي أن الله تعالى يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل.

من حكم النسخ التدرج في التشريع:

إن التدرج في التشريع حكمة اقتضتها رعاية الخالق لمصلحة العباد.

وهذه المصالح لا تكون في تكليفهم بما لا يطيقون ولا في التشديد عليهم بل تكون في إظهار لطف الله بهم وفضله عليهم بالانتقال بهم من الخوف إلى الرجاء ومن العسر إلى اليسر، وبالتتبع والاستقراء التام لآيات الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم نجدها لا تخرج عن هذا النهج.

أمثلة للنسخ:

من الأمثلة على ذلك نسخ قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]، بقوله: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

ونسخ قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ونسخ قيام الليل الوارد في أول سورة المزمل: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴿١﴾ قُرْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ، أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤]، بقوله في آخر السورة: ﴿إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي إِلَيْلٍ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ إِلَيْلَ وَالنَّهَارِ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

قول لا يصح والرد عليه:

إن بعض العلماء المتشددین قالوا بأن جميع آيات الصفح والعفو والإعراض عن المشركين وأهل الكتاب منسوخة بآية السيف حتى بلغ عدد الآيات المنسوخة بآية السيف خمسًا وسبعين آية .

وهكذا صار قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومثيلاتها منسوخة بآية السيف وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥] بمعنى أن الرسول الذي كان مأمورًا بالصفح والصبر والإعراض عن المشركين أصبح مأمورًا بقتالهم وترك الصفع والصبر والإعراض.

وهذا خطأ من شأنه أن يفرض السيف كحل وحيد مع أهل الكتاب والمشركين، ويقضي على جميع فرص السلام ويظهر الإسلام في مظهر دموي، والحالة أن آية السيف في القرآن آية واحدة وآيات الصفع والعفو والترك خمس وسبعون آية.

والصواب هو أن شيئًا من ذلك لم ينسخ وليس من قبيل المنسوخ، وإنما من قبيل المنسأ، وأن كل أمر يجب امتثاله في وقت مخصوص لعلته تقتضي ذلك الحكم، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، والغريب أن هذه الآية الداعية إلى السلام جاءت مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإذا كنا لا نستطيع في هذا الدرس أن نناقش كل آية من هذه الآيات التي قيل بأنها منسوخة بآية السيف، فلا أقل من ذكر أهم الأسباب التي نعتمد عليها في القول ببطلان دعوى النسخ.

أدلة بطلان دعوى النسخ السابقة:

أولاً: أنه لا يكفي التعارض الظاهر بين الأمر بالصفح والعفو والإعراض وبين الأمر بالقتال للقول بنسخ الثاني للأول؛ لأن النسخ لا بد فيه من النقل الصريح عن رسول الله ﷺ؛ فإن لم يكن هذا النقل ولم يكن سوى التعارض فلا بد أن يكون هذا التعارض مقطوعاً به، وبالنسبة لموضوعنا لم يتوفر نقل صريح وصحيح بالنسبة لكل آية؛ إذ لو توفر لما قام هذا الخلاف بين العلماء في الموضوع، ولم يتوفر التعارض المقطوع به لأن الأمر بالقتال صالح لحال قوة المسلمين واستحالة الوئام والسلام منسأ في حال الضعف والأمر بالعفو، والإعراض صالح لحال إمكانية السلام وحال الضعف، وكل أمر صالح للحالة التي تناسبه ولم ينسخ أحدهما الآخر.

ثانياً: أن المشركين الذين ورد الأمر بقتالهم في آية السيف ليسوا هم كل المشركين، وفي كل زمان ومكان، بل هم فريق خاص منهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وظاهروا عليه، فأمر الله تعالى بقتالهم.

فكيف يصح أن يقال بأن آية السيف ناسخة لكل آية تتضمن العفو والصفح والصبر وأنها أمر عام بقتال المشركين حيثما كانوا وكيفما كانوا.

ثالثاً: إن التأمل في أدلة النسخ وأدلة الأحكام في كل آية على حدة وربط كل آية بسياقها في القرآن وبأسباب النزول لا يجعلنا نقطع بالنسخ.

وقد رد ابن الجوزي كثيراً من دعاوى النسخ في هذه الآيات، وكذلك الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الإتقان».

قال الزركشي رَحِمَهُ اللهُ عند بيانه للقسم الثالث من أقسام النسخ : ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها ، ثم نسخه إيجاب ذلك ، وهذا ليس بنسخ في الحقيقة ، وإنما هو نساء ، كما قال تعالى : ﴿أَوْ تُنْسَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى .

ثم زاد قائلاً : وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف ، وليست كذلك بل هي من المنسأ .

التأكيد على سماحة الإسلام:

نعجب كيف أن الناس يريدون أن يظهروا الإسلام بهذا المظهر الدموي ، والله تعالى يقول بعد آية السيف مباشرة : ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢] .

ويعلل القتال بمنع الفتنة ويقول : ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] ويقول بعدها بآيات معدودات : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] .

وهكذا نخلص من هذا الدليل إلى تأكيد الوجه المشرق للإسلام كدين للسلام والسماحة والعفو والصفح ، وهو آخر دليل عندنا على الاتجاه المتفائل والذي قلنا بأنه هو الأصل .

وأما الاتجاه المتشدد المشفق من الاتكال على المغفرة والمتجه إلى التخويف من عذاب الله وعقابه منعًا للتهاون والتساهل المؤدي إلى انحلال عروة الدين؛ فإن أصحابه يظهرون الإسلام دائمًا بوجه عبوس، قاتم في الداخل، وبوجه صارم ودموي في الخارج؛ لأن أصحاب هذا الاتجاه منحازون إلى نسخ آيات الصفح والعفو بآية السيف.



المحاضرة السابعة والسبعون بعد المائة

الوعي الكوني في التصور الإسلامي

حديثي عن الوعي الكوني في التصور الإسلامي انطلاقاً من الآية الرابعة والستين بعد المائة من سورة البقرة الزهراء : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

هذه آية واحدة من آيات في القرآن كثيرة متعددة تتسامى بعقل الإنسان وفكره وروحه ونفسه ، وبشعوره وحسه إلى استخدام طاقاته كلها لارتداد الكون والكشف عن عجائبه في ضوء منهج إسلامي علمي متكامل يرتقي به هذا الإنسان الكوني في معارج هذا الوعي الكوني إلى قمة المعرفة وإلى عين اليقين ؛ ذلك لأن المشاهد الكونية التي تعرضها الآية علينا مهما نألف تكرارها واستمرارها تهز منا المشاعر وتدير منا الرؤوس إذا نحن استقبلناها بنظر متطلع وبحس متوفر ، بفؤاد متيقظ نكاد نلمسها لمساً ؛ نكاد ندوقها مذاقاً ، بل نكاد نندمج فيها اندماجاً ، ويوشك أحياناً أن نحس بأن ذواتنا منفصلة عنها على وعي كما أننا لو أردنا أن نتحد معها على وعي .

وقفة مع الآية وما فيها من ظواهر كونية :

إننا من هذه الآية وحدها من غير أن نضم إليها نظائرها التي في معناها وهي كثيرة في كتاب الله ، إننا منها أمام كتاب الكون المفتوح قد أزيح من

طريقنا كل حاجز ، قد كشف عن بصائرنا وبصرنا كل حجاب لنطل من نافذتها على الفضاء الرهيب بنجومه ، بكواكبه ببروجه ، بأجرامه العظام الهائلات ، ولنكتشف الأرض المهاد بها فيها من مجاهل وأبعاد ، ولتتابع تحرك الأفلاك وتعاقب الليل والنهار ، ولنرى تلك السفن والفلك السابحات العائيات الجواري كالأعلام ، الشاখات كالجبال ، وهي تمخر عباب البحار ، ولنشاهد الأمطار وهي تنهمر فتحيي الموات وتبث من كل دابة من الدواب ، وتخرج النبات وتنعش البلاد متاعاً للحيوان وللعباد ، ولنشاهد تلك الرياح المصرفة المتحولة المتنقلة من مكان إلى مكان ، وذلك السحاب المحمول على الهواء المسخر بين الأرض والسماء ، والكل خاضع للنواميس المطردة وللسنن الجارية ولآلاف الموافقات والتقديرات والحسابات والأرقام .

حث الآية على التدبر العقلي لآيات الكون :

نحن من ذلك كله بذواتنا بأشخاصنا ، بكل ما أودعه الله فينا من الملكات والطاقات أمام رؤية جديدة للأكوان ، أمام استشفاف عميق لأسرار الزمان ، أمام استجلاء برهافة في الحس غريبة لمعايير الجلال والجمال ، أمام وعي شامل لمغزى الحياة ولمغزى وجودنا على وجه هذه الحياة ، وحينئذ نفهم لماذا قال ربنا أن في هذه المشاهد الكونية بعد أن سردها : ﴿لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤] ﴿يَنْفَكُّوْنَ﴾ [يونس : ٢٤] يشاهدون ، يتأملون ، يتحسسون ، يعقدون المقارنات بين الأشياء يربطون بين الأسباب والمسببات يصلون ما بين العلوم الكونية والذات الأزلية الأبدية ويناجون السماء بلغة الأرض ، كما يخاطبون الأرض بلغة السماء .

اعتراض حول ذكر أسباب النزول للآية:

لقد كان بديهيًا ، بل كان طبيعيًا جدًا إزاء هذا التصور المتكامل للتعامل مع الكون للاتصال به ، للفتيح عليه ألا يفكر مفسرو الآية بسبب نزولها ، وما رَوَاهُ حولها من الروايات لا يناسب سياقها ولا يلائم محتواها ، بل ربما يغض من مضمونها ومغزاها ولا سيما إذا نوهنا بما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أتت قریش رسول الله ﷺ فقالت : يا محمد إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، والصفا هو الموقع المعروف مع المروة وإليهما يطوف الحجاج ، وقالوا له : إذا حولته ذهبًا أو حوله ربك ذهبًا اشترينا به الخيل والسلاح وآمنا بك وقاتلنا معك ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «أتوثقونني أعطونني عهدًا على ذلك لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهبًا لتؤمنن بي» فأوثقوه على ذلك ، فجاء جبريل فقال : إن الله قد جعل الصفا ذهبًا لهؤلاء القوم ، ولكن إذا هم لم يؤمنوا بك ليعذبنهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين . قال رسول الله ﷺ : «ربي لا ، بل دع لي قومي فلا أدعوهم يومًا بعد يوم» .

وفي رواية أخرى لابن أبي حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبي المغيرة «أن جبريل قال لرسول الله ﷺ : كيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا» .

ومن الطريف أنهم رَوَوْا رواية شبيهة بهذه حول آيات بهذا المعنى واردة في أواخر سورة آل عمران : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿[آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

وجاءت هذه الرواية الجديدة عن ابن عباس أيضًا أنه قال : «أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى؟ قالوا : بعصاه تتلقف ما يأفكون وبيده بيضاء للناظرين ، فجاءوا النصارى فقالوا لهم : كيف كان عيسى؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى . فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبًا»^(١) إلى آخر الرواية الماضية ، وأنه دعا ربه وأن الآية نزلت بعد ذلك .

خلاصة القول في ذكر أسباب النزول للآية :

يعلق هنا المحقق المفسر الكبير ابن كثير قائلاً : وهذا مشكل فإن الآية مدنية ، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبًا كان بمكة ، والله أعلم . وكان ينبغي لابن كثير أن يعلق بمثل هذا التعليق على الآية التي انطلقنا منها من سورة البقرة فإنها مدنية أيضًا ، وأن كل آيات الزهراوين البقرة وآل عمران مدنيات من أوائل ما نزل من سور القرآن بعد الهجرة النبوية .

تأويل الآية أعم وأشمل مما ذكر :

إن تأويل الآيتين يظل أوضح وأعم وأشمل من غير ما حاجة إلى ذلك السبب الذي ذكره .

وكأي من آية في القرآن المجيد قد أنزلت ابتداء غير مبنية على أسباب لتوجيه أصحاب العقول وأولي الأبواب إلى مصالح المنهج الإسلامي الكوني الشامل العظيم عند إرادة التعرف إلى حقيقة الكون إلى ما فيه إلى

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/١٢) ، و عزاه ابن كثير في «تفسيره» (١/٥٨٠) لابن أبي حاتم وابن مردويه .

الغاية منه إلى علة نشأته ، إلى حقيقة مركز الإنسان فيه على أن لتلك الآية من أواخر سورة آل عمران خصوصية شديدة لمعنى لطيف ، وكأنها تلقي الأضواء على الآية التي انطلقنا منها من سورة البقرة في معان إجمالية وعامة ، وكأن آية آل عمران تفسر لآية البقرة ، ولا عجب في ذلك بعد أن قالوا : القرآن يفسر بعضه بعضاً .

صفات أولي الألباب كما في آية البقرة وآل عمران :

إذا ذيلت آية البقرة في ختامها بقوله : ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فقد انضم واجتمع لأولي الألباب في آية آل عمران وصفان متكاملان أحدهما أن أولي الألباب ذاكرون عابدون : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

أما الأمر الآخر فهو أنهم متفكرون عارفون بالكون ، عارفون بالحقيقة : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران : ١٩١] .

التصور الإسلامي للإنسان الكوني :

اجتماع هذين المعنيين وانضمام أحدهما إلى الآخر تبرز ميزة التصور الإسلامي للوعي الكوني وبزوغ الإنساني الكوني الذي يفهم الكون عندما يقرن الذكر بالفكر والتعبد بالفقه والقلب بالعقل والعقل بالدين مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وذلك يعني أن التصور الإسلامي لهذا الإنسان الكوني القادر على استنباط الكون وعلى اكتشافه يتلخص في أنه كائن مفكر ، وأنه دائم التفكير فيما حوله

وأنة من تلقاء نفسه يحول تأملاته في الكون وفي الحياة نوعاً من العبادة والصلاة يناجي بهما ربه ومولاه ، وذلك يشكل خصيصة من أعظم الخصائص التي يستطيع بها الفرد المسلم أن ينظر إلى الكون كله على أنه صديق لا على أنه يعاديه أو يضطر إلى معاداته فهو يعرف كيف ينظر إليه من طريق العبادة عندما يعبد الذي خلقه ، وكذلك الكون معه يعبد الذي خلقه : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وإن هذا ليتجلى بصورة شديدة التفرد عندما نعلم أن الفكر الإسلامي يجسم بلا تردد بأن الكائن الإنساني كائن مفكر محكوم عليه بأن يكون مفكراً .

الخطأ في رؤية بعض الوجوديين للإنسان :

إننا نسمع في الشرق وفي الغرب ، في كل مكان في الدول الراقية ، وفي الدول النامية ، وحتى في الدول المتخلفة كلمات تتردد بسداجة في أقوال بعض الوجوديين مثل «جان بول سارتر» في كتابه «الوجود والعدم» عندما يقول : إن الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرّاً لا أن يكون مفكراً .

وعندما نسمع إلى قوله العجيب : (نحن قلق) وعندما نسمع إليه وهو يعلن أن الإنسان عاطفة بغير جدوى وأن وجوده يحمل في صميمه العدم ، وأنه ليس في حياته إلا العبث والضياع .

ومع ذلك لا يرى هذا الوجودي خيراً في أن يقول : إن هذا الإنسان القلق الحائر ، الضجر الضائع ، هو ما يصنع نفسه ، وهو كما يتصور نفسه بعد أن يشعر بوجوده وحرية هي وحدها المقياس الأساسي لاصطناع كل قيمه ومعايره في الوجود .

وبمثل قوله قال ذاك الشيخ اليقن «هربرت ماركوزا» في كتابه : «الإنسان ذو البعد الواحد» عندما رأى أن بعده لا يتجلى إلا في حريته يفعل بها ما يشاء ، يتتبع الملذات والشهوات يكون غرائزياً ومع ذلك يدعي أنه يعيش في القرن العشرين .

الحاجة إلى علم الوعي الكوني الإسلامي :

إزاء هذا القلق وهذا الضياع ، لم يكن بد من منهج متكامل يجعل الإنسان يدرك حقيقة مركزه في الكون ويدرك الكون نفسه ، وإذا انفصل عنه بذاته انفصل واعياً ، وإذا أراد أن يتحد معه بذاته اتحد واعياً ؛ لكي تبرز قيمة شخصه ولكي تبرز كرامته التي يقول فيها رب العالمين : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وهنا برزت معالم هذا المنهج الإسلامي الكوني الذي أنشأ للمسلمين علماً قد نصطلح على تسميته علم الوعي الكوني من طريق الإسلام وهو مؤلف من قيم كثيرة نكتفي بذكر خمس منها بإيجاز شديد ؛ أنها أربع على مستوى الأكوان والخامسة التي تتممها هي على مستوى الإنسان .

قيم علم الوعي الكوني الإسلامي؟

أما الأربع الكونيات فهي : قيمة الزمان لرفض العدم ، وقيمة الحياة لرفض العبث ، وقيمة الأرقام لرفض الأوهام ، وقيمة الفضاء لرفض الفراغ .

وأما الخامسة التي تكملها وإليها نهاية المطاف في هذه الحياة الفانية قبل المصير إلى دار الخلود فهي قيمة الشخص لرفض الهوى والانسحاق والاستغلال والانحلال .

قيمة الزمان:

أما القيمة الأولى فأمرها ظاهر حتى في الآيات التي انطلقنا منها بل هو ظاهر منها كل الظهور ، سواء أكان ذلك في آية البقرة أم في آية آل عمران في ذكر قوله : ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [البقرة: ١٦٤] ؛ فإن اختلاف الليل والنهار هو مرجعنا الوحيد للإحساس بالزمان الوجودي نتعامل معه ، لا بد لنا من تجربة معه ، ما من كائن أفلت من التعامل معه ، إنه رأس مالنا الأوحد أو على الأقل الأكبر في فهمنا للوجود وفهمنا لنطاقنا الشخصي .

وإذا كان هذا التعامل مع الزمان ، مع الساعات ، مع الدقائق ، مع الثواني ، مع الأسابيع ، مع الشهور ، مع الأعوام ، يتناول النبات والحيوان فكيف به بالقياس إلى الإنسان لا لأن الإنسان يملك المخ المطلوب والجهاز العصبي المطلوب ، ولا لأنه يملك في داخله ساعة أو شبه ساعة بيولوجية ، ولا لأنه مدني بالطبع ، ولكن لأنه ذلك الكائن الممتاز المضطر في كل لحظة إلى التعاون والتعامل مع الزمان ، وإلى حل كل مشكلاته على ضوء الزمان ؛ متذكراً أن خالقه خلقه أطواراً مع الزمان ، وأن ربنا ﷻ في الحديث القدسي الذي يرويه عنه رسول الله ﷺ يقول : «يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»^(١) .

إن التعامل مع الزمان بهذا الشكل هو الذي يمنع الإنسان من السقوط في مهاوي العدم ، فالعدمية انتهت لأن الإنسان يلحظ نفسه ، ويعرف في الوجود رأس ماله ، ومن هنا تنتقل إلى قيمة الحياة لرفض العبث : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] ،

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَتْنٍ يَمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾ [القيامة : ٣٦-٤٠] .

قيمة الحياة:

هكذا في قيمة الحياة أنزل ربنا ﷻ في آية من سورة الحديد قصة للحياة قصها علينا عرفنا قيمتها عرفنا مغزاها ، عرفنا سبب وجودنا فيها عرفنا حتى إلى مراحلها ومراتبها : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْنَهُ مُمْصِقًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] . الكفار : الزراع .

وهكذا نلاحظ أن قيمة الحياة على أهميتها نسبية ومرحلية ، كالزمان فهو نسبي وهو مرحلي ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] هو لعب الطفولة البريء ، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ [الحديد : ٢٠] هو لهو المراهقة العابث ، ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] هي زينة الشباب الجميل ، ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٠] عند الكهول الذين يتفاخرون بأعجاد الماضي بعد أن جاوزوا سن الأربعين ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد : ٢٠] عند الطاعنين في السن الذين يعوضون عزهم وضعفهم وشيخوختهم بما اكتسبوه من الأموال والثروات وما خلفوه من الأولاد والأحفاد يخلدون ذكراهم بعد الممات .

قيمة الحياة وسورة التكاثر:

يقول القرآن المجيد : ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ [التكاثر: ١-٨].

فإذا كتب «وليم جيمس» من كبار علماء النفس مقالة بعنوان «للحياة قيمة» مؤكداً أن لها قيمة إن لم ننظر إليها على أنها حياة جزئية أو فردانية، بل إذا نظرنا إليها على أنها حياة عامة.

إنها صراع ضد الموت، ضد العبث ضد العدم ضد اللامبالاة، ضد التذمر، ضد الأشياء، ضد فقدان الشعور بمغزى أو بهدف أو بغاية إنها تصبح حقيقة بأن نحيائها جديرة بأن نشعر بجملها ولذاتها وأن نقول من كل قلوبنا: ما أجمل الحياة.

الحياة لها قيمة عظيمة بشروط:

إذا كتب «روبرت ميرتون» بهذا المعنى نفسه في كتابه «البنية الاجتماعية والمسؤولية الاجتماعية» مؤكداً أن الحياة ذات قيمة عظيمة، إذا نحن تعالينا فيها على الجراح وانتصرنا على الهزيمة والإخفاق، ولم نتكل على الحظ والنصيب ولم نقل: هذا مكتوب من غير أن نكتب فيه شيئاً بعلمنا فإن الحياة أيضاً تكون جميلة، وجدير بنا حينئذ أن نقول عنها: ما أجملها!

وإذا نصح كل من المفكرين الألمانين: «أدورنو» و«ليشهاين» كل من يجد بأساً في الحياة أن يشغل نفسه بشيء ولو على طريق الهوايات، فإنهم في الوقت نفسه برمتهم يقصدون أن يبرزوا معنى أو مغزى للحياة، ويقصدون في الوقت نفسه أن يردوا على أمثال «جورج مانهاين» الذين كانوا يعتقدون أن الحياة لا مغزى لها وأنها عبث وضياع ولأمثال هؤلاء نذكر قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا

قيمة الفضاء لرفض الفراغ:

القيمة الرابعة هي قيمة الفضاء لرفض الفراغ ، ولن يرفض الفراغ إلا الفضاء ؛ لأن الفضاء واسع رحيب ، لا نعرف أين ينتهي لأنه في نظرنا لا نهائي ، مادام صادراً عن صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولكننا مع ذلك إذا خفنا الفراغ فإننا نخاف المجهول لأننا كلما تعلمنا جديداً علمنا أن ما نجهله أضعاف أضعاف ما قد علمناه ، كما قال الإمام الشافعي :

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي وإذا ما ازددت علماً زادني علماً بجهلي
ومن أجل ذلك لما وردت في القرآن المجيد آيات تنبئ البشر بأنهم سيقطعون أبعد المسافات بأقصر الأوقات ، في مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِالْشفقِ ۚ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۚ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۚ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۚ ﴾ [الانشقاق : ١٦-١٩] ، ولما علق على هذه الآية إمام المفسرين ابن جرير الطبري بأقوال للصحابة والتابعين تفيد ما خلاصته ستركبون أيها البشر طبقاً من طباق السموات بعد طبق ، يوم أدرك الإنسان هذا كان يتعجب بأنه لم يكن يفكر أن شيئاً من هذا مهما يكن صغيراً قد يتحقق ، ولكن الإنسان وطئ أرض القمر وهو في طريقه إلى ارتياد أكوان أخرى ، وآية الرحمن تجلجل في الآفاق لا لتحدثي الإنسان بل لتستخرج كل طاقاته وكل سلطاته : ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

قيمة الشخص لرفض الهوى والانحلال:

الخامسة هي التي تتوج الأربع السابقات لأنها تعطينا مغزى الأكوان ، وتعرفنا ما الذي يمكننا أن نكتشفه منها ، وإلى أي حد يتم هذا الاكتشاف ،

صدقنا ما يقوله علماء الاجتماع المعاصرون من أن هذا الإنسان المفكر -أنا شيء مفكر، كما يقول «ديكارت»- قد تحول الآن إلى متمرّد غرائزي، وإلى متمرّد حضاري أدركنا لماذا ينبغي أن تكون قيمة الشخص الذي لا ينسحق، والذي لا يهان والذي لا يستغل، والذي لا يستعبد، هي أعلى القيم وبدونها لا قيمة لكل الأكوان.

كل ما في الكون مسخر للإنسان:

إن الله قد خلق الأكوان، لمن يشاء فيها ولمن يفهمها ولمن يسخرها لمصلحته ولم يكن هذا إلا للإنسان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]، فلم يستثن ربنا شيئاً لا في الأرض المهاد ولا في السموات الطباق ولا في المعادن ولا الخيرات ولا الآفاق إلا وهو مسخر لمنفعتنا، والآيات في هذا كثيرة سخر الليل والنهار، وسخر الشمس والقمر، وسخر البحر لتأكلوا منه، سخر وسخر، وكل شيء مسخر: ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولا مجال لذكر هذه الآيات، فبعضها يغني عن باقيها، إلا أن هذا الإنسان حتى بعد أن تمرد على عقله الذي هو أعظم مزية منحه الله إياها عندما خضع لغريزته، عندما غلب وعيه على وعيه عندئذ أدرك أن السموات والأرض ربما صارتا أفضل منه.

فالله ربنا يقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والشاهد ما ذيلت به الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، تعلم، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأراد أن يعدل فما عدل لا مع نفسه ، ولا مع غيره ، لا في إقليمه ولا في الأقاليم ، لا في الشرق ولا في الغرب ؛ لأنه لم يعرف كيف يدرس نفسه مع أن ربنا لما أراد أن يعلمه كيف يكتشف الأكوان نبهه إلى نفسه فقال : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ [الذاريات : ٢٠ ، ٢١] .

قيمة الشخص هي أكبر القيم :

كانت قيمة الشخص هي أكبر القيم ، كانت قمة القيم ، كانت التي بدونها كل القيم لا تجدي ، وبها كل القيم تصبح مجدية ؛ لأن كل العلاقات معها ، ومنها وفيها وعليها .

الإنسان والكون من الخادم والمخدوم؟

كان يردد ابن عطاء الله السكندري في « حكمه » : إذا كنت مع الأكوان ولم تشهدها فالأكوان تغلبك ، وأنت عبد لها ، وإذا كانت الأكوان معك فهي خادمة لك وأنت حر مستغن عنها .

وذلك ما ينبغي أن يوجه لا إلى القوم الذين عاش بين ظهرائهم ابن عطاء الله السكندري ، بل إلى القوم الذين تعلموا وفتتوا الذرة وفهموا المادة ، ولكنهم لم يفهموا أنفسهم : ﴿ قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴾ (٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ ﴾ [عبس : ١٧-٢٣] .

كلا حتى الآن لما يقض حتى هذه اللحظة ما أمره الله به ، وقد أودعه الله من القوى ما يستطيع به أن يكتشف كل الكون ولكنه لن يسمح أن ينظر الكون نفسه ، بل أن ينظر ما في الكون ، وما في المكونات ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .

المحاضرة الثامنة والسبعون بعد المائة

دور التفسير في تجديد الأحكام الشرعية

مقدمة عن الاجتهاد وبعض ضوابطه :

قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] .

بعض الناس يتخوف من كلمة التجديد ويعتبره مخالفة للنصوص الشرعية ويعتمدون على قاعدة فقهية تقول : لا اجتهاد مع النص ، وهذه قاعدة فقهية سليمة ، إلا أن مدلولها يختلف كل الاختلاف عما يستعمل اليوم .

فالاجتهاد يكون فيما ورد فيه نص ، وفيما لم يرد به نص ، والاجتهاد فيما ورد به نص هو الدور الذي يقوم به المفسر في تفسيره للنص ، من جانبيين :

١- من جانب ثبوته .

٢- من جانب دلالاته .

فمن جانب الثبوت : النصوص هناك نصوص قطعية في ثبوتها وهناك نصوص ظنية في ثبوتها ، ودور المجتهد هنا أن يبحث عن الدليل أولاً هل هو يصلح للاستدلال به أم لا؟

والجانب الآخر وهو الدور الذي يقوم به المفسر ، وهو البحث عن الدلالة الظنية أو القطعية للنص ، فإن كانت الدلالة قطعية فلا مجال فيها

للاجتهاد وإن كانت الدلالة ظنية هنا يكون موطن الاجتهاد واضحًا ، وهنا يبرز الدور الكبير للمفسر في تفسير النصوص لكي تعبر عن مراد الله في النص الذي ورد به الحكم .

وعلماء التفسير عندما يتحدثون عن علم التفسير يقولون : غاية هذا العلم هو البحث عن مراد الله ، بقدر الطاقة البشرية ، وهنا كلمة الطاقة البشرية دليل على ظنية الدور الذي يقوم به المجتهد أو المفسر .
الموضوع سوف أتناوله من جوانب عدة .

أولاً : سوف أتحدث عن التعريف بالتفسير ، العلاقة بين التفسير والنص ، الخطاب ، المخاطب ، المخاطب .

ثانيًا : سوف أتناول مدارس التفسير ، سأتكلم عن المدرسة التقليدية والمدرسة المتطورة والمدرسة العلمية .

ثالثًا : سوف أتكلم عن أقسام التفسير ، وهي الأقسام التي يتساءل فيها : من الذي يقوم بالتفسير؟ هل هو التفسير التشريعي أم التفسير القضائي أم التفسير الفقهي؟

رابعًا : سوف أتحدث عن مجالات التفسير ، ومجالات التجديد ، وهناك قواعد متعددة ، قاعدة التفسير ، وقاعدة القياس ، وقاعدة الاستحداث ، هذا مجمل الدرس .

التفسير في اللغة :

أولاً : عندما نقول : كلمة تفسير ، التفسير في اللغة يفيد معنى الكشف ، الكشف المادي والكشف المعنوي ، ويراد بها البيان ويراد بها الظهور ، ويراد بها التوضيح .

والتفسير يراد به التوضيح والإظهار ، ولا يقال : الظهور ، والفرق بين الإظهار والظهور أن الظهور ذاتي لا يحتاج إلى جهد بشري ، أما الإظهار فيحتاج إلى جهد عقلي ؛ ولهذا نقول : ظهر الهلال ، هنا لا جهد ، لا نجد جهداً بشرياً ؛ لأن الظهور ذاتي ، ولكنني أقول : أظهرت المعنى أي بذلت جهداً في إظهار المعنى ، وهنا يبرز معنى العقل البشري الذي يسهم في التعريف بالمراد الذي يراد من ذلك النص .

المفسر والمفسر والمخاطب:

كلمة التفسير تدفعنا إلى الحديث عن المفسر ، من المفسر؟ هو الإنسان ، والمفسر هو النص ، وهو الخطاب الشرعي .

علماء الأصول يتحدثون عن الحاكم والحكم والمحكوم عليه ، والحكم هو الخطاب الشرعي ، أو الحكم المستمد من الخطاب الشرعي ، والحاكم هو الله ، لا نتحدث عن موضوع الحاكم ، ولا نتحدث عن موضوع المحكوم عليه وهو الإنسان ؛ لأن ذلك يدخل ضمن مباحث الأهلية وهي أبحاث طويلة ودقيقة .

ولكنني أتساءل في البداية عن المخاطب ، من المخاطب بالنسبة للنص التشريعي؟ المخاطب هو الإنسان ، ولكن أي إنسان هو الذي يخاطب؟

من المخاطب؟

عندما أجد نصاً أجد نفسي أطرح عليها ذلك التساؤل من المخاطب بالنص؟ إن قلت : غيري فقد أعدم النص ، أقول : المخاطب هو أنا أي الإنسان الذي قرأ النص ؛ إذن ليس هو غيري لأنني عندما أقول : المفسر ،

الخطاب لغيري ، إذن غيري هو الذي يقوم بالتفسير ، وعندما أقول :
المخاطب هو أنا ، أي الذي قرأت النص ، فعندئذ عليّ أن أتصدى لمهمة
التفسير .

تفسير جيل لا يغني عن تفسير جيل آخر:

هنا نقول : تفسير جيل لا يغني عن تفسير جيل آخر ، لا يجوز لإنسان
في هذا اليوم أن يقول : إنني لا أتصدى للتفسير لأن جيلًا سبق قد قام بهذه
المهمة ، فالخطاب الشرعي يتجدد لكل إنسان ، ويتجدد لكل جيل .

وهنا يكون ذلك الجيل هو الذي يتصدى للتفسير ، وهنا يبرز دور التجديد
في كل جيل عندما يتصدى ذلك الجيل لتفسير الخطاب الشرعي الموجه إليه .

والشاعر الباكستاني الشهير «محمد إقبال» عندما خاطب ولده قال :
«يا بُني ، اقرأ القرآن كأنه عليك أنزل» .

هنا يكون الخطاب الشرعي يتنزل على الإنسان لا يتنزل بمفهوم تنزل
الوحي إنما يخاطب به الإنسان ، إذا توفرت فيه شروط التكليف ، وشروط
الكفاءة العلمية ، هو الذي يتصدى لمهمة التفسير والاجتهاد ، وهنا تكون
بداية التجديد ، ويكون بداية الازدهار الفقهي في مجال الأحكام ؛ لأننا
نتصدى لمهمة الفهم المتجدد في كل عصر بما ينسجم مع رؤية ذلك العصر .

ثانيًا: مدارس التفسير:

الأولى : المدرسة التقليدية : الالتزام بالمعنى اللغوي :

ما الاعتبارات التي نأخذها عندما نريد أن نتصدى للتفسير؟ هل نلتزم
بالدلالة اللغوية ولا علاقة لنا بمراد المشرع؟

بعض المدارس : المدرسة التقليدية تقول : علينا أن نبحث عن إرادة المشرع عندما وضع التشريع ، ونكتشف تلك الإرادة من خلال الدلالة اللغوية ، فإرادة المشرع كامنة في الدلالة اللغوية .

هذه هي المدرسة التقليدية ، وقد تبناها في مجال القانون علماء الفقه الفرنسي بعد الثورة الفرنسية ، وسموها مدرسة الشرح على المتون ، حتى إنه ينقل عن أحد الفقهاء الفرنسيين أنه قال : أنا لا أعرف شيئاً اسمه القانون ، إنما أشرح مدونة نابليون ، لا علاقة لي بما يحدث من تطور في مجال القانون ، وإنما مهمتي أن أقوم بشرح المتن بما تدل عليه اللغة ، ولو أدى ذلك إلى مخالفة ما يحتاج إليه الناس . هذه هي المدرسة الأولى .

المدرسة المتطورة : تجديد دور المفسر لينسجم مع ضمير الجماعة :

من الطبيعي أن تظهر مدرسة أخرى وقد تبناها علماء الفقه الألماني ، قالوا : لا علاقة بين المشرع الوضعي وبين النص التشريعي ؛ لأن المشرع عندما وضع النص كان يمثل ضمير الجماعة في لحظة ما .

وضمير الجماعة يتجدد في كل عصر فمهمة المفسر هو أن يفسر ذلك النص بما ينسجم مع ضمير الجماعة في العصر اللاحق .

وهنا تكون حركة التجديد مستمرة في مجال ولو أدى ذلك في بعض الأحيان إلى أنه يتجاوز المتن أو نص الخطاب الشرعي .

وهنا أخذ على هذا الاتجاه أنه سيؤدي إلى مخالفة النصوص الشرعية وسيعطي للمفسر سلطة افتراضية يفترض من خلالها أن المفسر قد أراد إرادة متجددة سوف تتجدد في كل عصر ، ويكون في هذا خروج عن مقتضى النص القانوني .

المدرسة العلمية : الجمع بين المدرستين :

برزت المدرسة الثالثة التي حاولت أن تجمع بين المدرستين بين المدرسة الملتزمة بالمعنى اللغوي ، وبين المدرسة المتطورة التي حاولت أن تعطي للمفسر دورًا متجددًا منسجمًا مع ضمير الجماعة المتجدد ، حتى إنهم قالوا : لو أن ذلك المشرع ظهر في عصر آخر لكان التشريع معبرًا عن ضمير الجماعة ، فهو كالمرآة يعبر عن ضمير الجماعة الذي يتجدد .

فالمدرسة العلمية حاولت أن تأخذ بالمدرستين ، التزمت بالنص ، وحاولت في نفس الوقت أن تراعي مقاصد المشرع من ذلك التشريع ؛ لأنه لا يجوز في جميع الأحوال أن يدفعنا الالتزام بالنص إلى مخالفة المقاصد التي قصد إليها المشرع ، هذه النقطة الثانية .

النقطة الثالثة : أقسام التفسير :

الجهة التي تقوم بالتفسير ، إما أن تكون جهة تملك سلطة التشريع ، وإما أن تكون جهة قضائية ، وإما أن تكون جهة فقهية .

التفسير التشريعي : امتداد للتشريع وهو تفسير ملزم :

التفسير التشريعي هو الذي يقوم به الإنسان الذي يملك سلطة التشريع عن طريق التفويض ، وهنا يكون التفسير التشريعي امتدادًا للتشريع ذاته .

ولهذا يكون له أثر رجعي ؛ لأن التفسير يكون كاشفًا عن إرادة المشرع ، فلو أن قانونًا ظهر في سنة ما ثم أخذ القضاء يفسره بطرق مختلفة ثم جاء تفسير تشريعي بعد سنوات ، فإن ذلك التفسير التشريعي له أثر رجعي على القضايا السابقة ؛ لأن التفسير التشريعي هو امتداد للتشريع ، وله أثر رجعي وهو ملزم ، وهذا ما نجده بالنسبة للقرآن .

السنة لها دور بياني : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] ، وهنا دور السنة البيان ، البيان التشريعي الذي يملك نفس خصائص الخطاب القرآني .

التفسير القضائي : يحسم به المنازعات وله روح علمية مرنة :

أما التفسير الثاني ، وهو التفسير القضائي ، وهو الذي يقوم به القضاء ، والقضاء ليس من اختصاصه في البداية أن يقوم بالتفسير ، ولهذا لو أن إنساناً قدّم دعوى إلى القضاء وطالب فيها بأن يفسر القضاء نصّاً من النصوص ، من حق القضاء أن يرفض تلك الدعوى ؛ لأنه ليس من مهمة القضاء أن يقوم بالتفسير ، ولكنه عندما يكون أمام قضية معروضة عليه ويكون بحاجة إلى القضاء والفصل فعندئذ يجوز للقاضي أن يفسر النص لحسم المنازعات ، وهذا التفسير يسمى بالتفسير القضائي .

فالتفسير إذن بالنسبة للقضاء لا يعتبر شيئاً أساسياً ، ويتميز التفسير القضائي بالروح العلمية وبالمرونة ؛ لأن القضاء يلمس حياة الناس ويعبر عنها .

التفسير الفقهي : اعتماد الدلالة اللغوية :

أما التفسير الفقهي فهو غاية بحد ذاته ، الفقيه ليس قاضياً ، وهو عندما يتصدى للتفسير يتصدى لبيان ما تدل عليه الدلالة اللغوية من معان .

يؤخذ على الفقهاء سواء فقهاء الفقه الإسلامي ، أو فقهاء القانون ؛ أنهم عندما يفسرون يتعدون ويخلقون في القضاء ، يتعدون عن قضايا الناس العملية .

ضرورة التقارب بين الفقه والقضاء:

من الضروري أن يكون هنا تقارب بين القضاء والفقه ؛ لأن القضاء يستفيد من عمق الفقهاء في تحليلهم للمعاني وللدلالات اللغوية ، والفقهاء يستفيدون من واقعية القضاء لكي يكون تفسيرهم منسجماً مع الحياة الاجتماعية ، وهنا يكون التجديد في التفسير .

اعتبار مقاصد الشرع في التفسير سيما اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم :

إن الالتزام بالنص لا يجوز له أن يخرج المفسر عن مقاصد التشريع ، سواء كان تشريعاً وضعياً أو تشريعاً سماوياً ، فالتشريع له أهداف ، ومقاصد الشرع يجب أن تؤخذ بالاعتبار .

وهذا ما نجده في كثير من الاجتهادات التي صدرت عن الصحابة .

عمر بن الخطاب وسهم المؤلفة قلوبهم:

عمر بن الخطاب عندما أوقف ما كان يعطيه من أموال الزكاة للمؤلفة قلوبهم ، ماذا فعل في هذا؟ أخذ بالاعتبار بأن الشريعة عندما أقرت هذا الحق للمؤلفة قلوبهم إنما كانت تهدف من وراء ذلك إلى تأليف قلوبهم لمصلحة كانت واقعة ، فعندما زال السبب أوقف ذلك الحكم ، والإيقاف هنا إيقاف مؤقت لزوال الأسباب ، أو لزوال الحكمة التي أدت إلى دفع الزكاة إلى تلك الفئة .

عمر بن الخطاب وإيقافه حد السرقة عام المجاعة:

عندما نجد في بعض الاجتهادات ونقول في كثير من الأحيان : إن عمر بن الخطاب أوقف حد السرقة في عام المجاعة ، ويتبدى الفقهاء يفسرون هذه الظاهرة .

كان اجتهاد عمر في إيقاف الحد اجتهاداً قضائياً :

إن الاجتهاد -وهو اجتهاد عمر- هنا اجتهاد قضائي لأنه في مركز القضاء ، وفي مركز السلطة ، فهو ليس اجتهاداً فقهياً وليس اجتهاداً تشريعياً ، الاجتهاد التشريعي لا يملكه عمر والاجتهاد الفقهي خاص بالفقهاء ، أما عمر فهو في مركز السلطة ، فكان قاضياً في هذا الموطن ، فاجتهاده يدخل ضمن الاجتهاد القضائي .

أركان الجريمة لم تتوفر عام المجاعة فأوقف الحد :

سيدنا عمر رضي الله عنه لا يملك إيقاف حد من الحدود ، ولكنه رأى أن أركان الجريمة لم تتوفر في جريمة السرقة في عام المجاعة لماذا؟
لأن ركن الجريمة في السرقة ليس هو الفعل المادي وهو أخذ المال من يد مالكة فقط ، هذا ركن مادي بحث ، هناك أركان ثلاثة للجريمة .

ركن الجريمة الأول هو : الفعل المادي :

إذا قلنا في جريمة القتل ، إزهاق الروح : هذا جرم ، هذا الفعل المادي ، ولكن أحياناً نكون أمام جريمة مادية والقانون لا يحاسب عليها كما في حالة الدفاع عن النفس ، فهناك إذن العامل الأول ، وهو الفعل المادي ، وقد وقع في الجريمة في السرقة في عام المجاعة .

الركن الثاني : وجود النص :

هو وجود النص الذي يحرم ذلك الفعل .

الركن الثالث : وجود النية والقصد إلى ذلك :

هو القصد إلى ارتكاب الجريمة بنية ارتكاب الجريمة ، وهنا هذا الإنسان الجائع في عام المجاعة ولم يجد وسيلة أخرى لتلبية حاجاته ، كان في وضع الإكراه ، فعمر أوقف الحد لعدم توفر أركان الجريمة في هذه الحالة . وهذا لا يمنع من عقوبة أخرى غير العقوبة المتعلقة بالحد ، والقاعدة : ادرءوا الحدود بالشبهات .

مجالات التجديد : النص وامتداداته :

النقطة الرابعة وتعلق بمجالات التجديد وهو النص ، ذلك النص الذي نتحدث عنه ، له امتدادات : الامتداد الأول والامتداد الثاني والامتداد الثالث .

الامتداد الأول : اللغوي (الارتباط بالنطق اللغوي عند التفسير) :

الامتداد الأول هو الامتداد اللغوي في إطار المنطوق والمفهوم ، وهنا تحدث العلماء عن اللغة ، كيف تثبت اللغة؟

إذا أردنا أن نقوم بالتفسير نرتبط بالنطق اللغوي ، هذا النطق كيف نستطيع أن نفسر النص؟ قالوا : تثبت اللغة عن طريق التواتر ، النقل المتواتر عن العرب ، وتثبت عن طريق نقل الأحاد ، وتثبت عن طريق المنطق العقلي المدعم بالدليل النقلي ؛ لئلا يكون هناك تقول على لغة العرب .

القياس اللغوي واختلاف العلماء حوله :

اختلفوا في حكم القياس اللغوي هل يجوز لنا أن نستعمل القياس في مجال اللغة؟

مثال ذلك : الخمر ؛ الخمر استعمال بمعنى معين ، وهو الذي يؤدي إلى الإسكار ، اللغة أكثر ضيقًا من الفقهاء في مجال القياس .

الفقهاء يأخذون بالعلة ، أما علماء اللغة فيتمسكون بالنقل ، لو أخذنا عصير التفاح فأدّى إلى الإسكار هل يجوز لنا لغويًا أن نقول هذا خمر؟

فريق المعارضين:

علماء اللغة يقولون : لا يجوز لنا . البعض يقول : لا يجوز القياس في اللغة لأن الخمر يطلق على عصير العنب الذي يؤدي إلى الإسكار ، أما إذا وجدنا أن الخمر استعمال في شيء أدّى إلى الإسكار في شيء آخر فلا يقال له : خمر ؛ لأن هذا يعتبر من القول على العرب .

فريق المؤيدين:

الفريق الآخر قال : يجوز لنا أن نستعمل القياس في مجال اللغة لأن اللغة أيضًا معقولة ، ويجوز لنا أن نستعمل القياس اللغوي .

استعمال الشرع للكلمات اللغوية:

النقطة الثانية في مجال اللغة ؛ هي أن الشرع استعمال الكلمات اللغوية وخرجت عن معناها اللغوي ، وبقيت مرتبطة بمعناها اللغوي ولكن الشرع تحكم فيها عن طريق ، كما تحكم العرف في بعض الكلمات .

فعندما تطلق كلمة الربا في القرآن نقول : كلمة الربا ليست مجرد الزيادة ؛ لأن الربح فيه زيادة أيضًا ، كلمة الربا تدل على شيء معين ؛ لأن الشرع استعمال هذه الكلمة بطريقة معينة تدل على كيفية معينة من المعاملات ،

فإذن لا تطلق على كل زيادة، ولو أخذنا بالمعنى اللغوي لاستعملنا كلمة الربا في مجال الربح؛ لأن الربح أيضاً فيه زيادة.

اعتبار المنطوق والمفهوم معاً:

يجب أن نأخذ بالاعتبار عند دراستنا للكلمات اللغوية، وعند تفسيرنا الاستعمال الشرعي لتلك الكلمة، ولهذا الفقهاء عندما يتحدثون عن كلمة يقولون لغة وشرعاً، لغة كيف استعملت لدى علماء اللغة، وشرعاً كيف استعملت عند علماء الشريعة، ثم بعد ذلك نتقل في مجال الامتداد الأول إلى أن هذه الكلمة (الكلمة اللغوية) لها منطوق وهو ما ينطق به الإنسان، لها منطوق ولها ظل يرتبط بالمنطوق، ويدل عليه اللفظ عن طريق الضرورة من غير أن يقصده الإنسان وهو ما يسمى بالمفهوم، عندما يقول الله سبحانه: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ﴾ [الإسراء: ٢٣] نفهم من هذا النطق لا تقل لهما أف، ولكن ما هو المفهوم؟

المفهوم أنه لا يسيء إليهما، فإن استعمل وسيلة أقوى من كلمة أف، فهذا يدخل ضمن المفهوم ولا يدخل ضمن المنطوق، فالكلمة تدل على شيء معين ورد به النص، وتدل على شيء آخر لم يرد به النص، سكت عنه النص، ولكنه عن طريق الضرورة يفيد ذلك المعنى، وهنا يكون له امتداد موافق وامتداد مخالف، فما سكت عنه اللفظ نعطيه حكم المنطوق، إن كان موافقاً للمنطوق ونعطيه حكماً مخالفاً في حالة مخالفته للمنطوق، كما إذا قلنا مثلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] هذا هو المنطوق؛ إن جاء عدل بهذا الخبر هل نتبين؟ المعنى يفيد عن طريق الفهم أنه إن كان عدلاً وفي موطن الثقة فلا نتبين لأن العدل لا يحتاج إلى

بيان ، أما هنا إن جاءكم فاسق ، يجب أن نتيين لأنه فاسق ، فإن كان عدلاً فلا نحتاج إلى التبين لأنه عدل فالعدالة إذن تكفي هنا عن التبين والتثبت .

الامتداد في إطار التفسير:

هذه القاعدة الأولى للفظ ؛ وهو امتداد في إطار التفسير ، يمكن لنا أن نمذ تلك القاعدة عن طريق التفسير المتجدد لكي نعبر عن قضايا مسكوت عنها عن طريق النطق ، عن طريق استعمال مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة .

قاعدة الإلحاق:

نتنقل إلى قاعدة ثانية وهي قاعدة الإلحاق ، هنا هذه خارجة عن نطاق التفسير ، وإن كانت هي تدخل ضمن التفسير ، ولكن هنا التفسير في إطار الروابط العامة بالنسبة للفظ في إطار الحكم ، وليس في إطار الدلالة اللغوية .

فصلة الفرع بالأصل هنا ليست صلة لغوية وإنما هي صلة عِلِّيَّة ، أي بالعلة بالوصف الذي أنيط الحكم به : أناط الشرع الحكم بشيء ما ، هذا الحكم الذي ينطق به الشرع يكون كالعربة القوية ؛ لأن الحكم ورد به ثم تكون عندنا عربات صغيرة لابد من وجود رابط بين العربة الأصلية والعربات الفرعية ؛ ذلك الرابط هو ما نسميه بالعلة ، فعلة الأصل إن توفرت في الفرع نعطي للفرع حكم الأصل ، وهنا تكون عملية الامتداد قاعدة كبيرة وواسعة وتعطينا فرصة لنبحث عن قضايا مسكوت عنها عن طريق التنظير وعن طريق القياس وعن طريق العلة .

العلة (الوصف المناسب): توسع دائرة القياس:

العلة هنا التي تقوم بدور التوسيع توسيع دائرة القياس أو توسيع دائرة الحكم هي ما يسميها علماء الأصول بالوصف المناسب الذي أضاف الشارع الحكم إليه كما إذا قلت في الخمر: الخمر حُرْم لماذا؟ هل لأنه سائل؟ لو كان سائلاً لكان الماء محرماً؛ لا، الشرع قال: العلة ليست في السيولة، العلة هنا الإسكار، فحيثما وجد الإسكار في أي مادة من المواد من عصير العنب أو من عصير التفاح أو من عصير أي شيء حتى إننا لو حفرنا بئراً وكان ماء البئر طيباً ثم كان من خصائص ذلك الماء أنه يسكر نقول: إنه محرم لوجود العلة، وهو الوصف الذي ربط الشارع الحكم به.

شروط العلة: الظهور- الانضباط- التعدي- ألا يلغي الشرع اعتبارها:

الأول: الظهور:

لماذا تكون ظاهرة؟ قالوا: لأننا نريد أن نربط بها حكماً، فينبغي أن تكون واضحة وتكون تحت نظرنا لكي لا نربط الحكم بوصف غير مناسب فنقع في عملية الخطأ، كما إذا قلنا: السيولة هي العلة في تحريم الخمر، عندئذ نحرم كل سائل، وهنا نقع في الخطأ فعلياً أن نبحث عن العلة.

فالعلة تثبت أحياناً عن طريق النص، وأحياناً تثبت عن طريق الاستقراء إذا وجدناها هنا وهنا وهنا في كل مجال نجد أن العلة تثبت أحياناً عن طريق الاستقراء كما هو الشأن عندما نتحدث عن موضوع الولاية على الصغير، لماذا تكون الولاية على الصغير؟

كلما وجدنا صغيراً تكون هناك ولاية ، ما العلة هنا؟ العلة الصغر ، فعندما يزول الصغر يعود الرشد مرة ثانية ونثبت الرشد .
هذه القاعدة أو الوصف أو الشرط الأول وهو الظهور ؛ أن تكون العلة ظاهرة .

الثاني : الانضباط :

أن تكون العلة منضبطة ، كيف تكون منضبطة؟ قالوا : لو أننا ربطنا العلة بطريقة غير منضبطة لأدّى ذلك إلى التحكم في تلك العلة والناس يتحكمون بها بطريقة يخرجون عن الضبط المفروض في الأحكام الشرعية .

الإفطار في رمضان ؛ لو قلنا : إن المشقة تبيح الإفطار لجاء واحد من الناس وهو يركب سيارة مرسيدس مكيفة وذهب إلى مكتبه وعاد إلى البيت ، قال : لقد شعرت بمشقة كبيرة ، قلنا : لا ، المشقة ليست منضبطة ، ربطنا الحكم بوصف ظاهر وهو السفر ، فالسفر مظنة للمشقة ، فحيثما وجد السفر تكون هناك مظنة للمشقة ، وجدت المشقة أو لم توجد .

من الممكن ألا يشعر الإنسان في السفر بأية مشقة ، ومع هذا فإنه يجوز له أن يفطر ؛ لأن السفر في الأساس -وهي قاعدة عامة- مظنة للمشقة ، فإذا ربطناها بوصف منضبط .

الثالث : التعدي :

الشرط الثالث : أن تكون العلة متعدية ؛ بأنها ليست علة خاصة خارجة عن نطاق القياس ، ليست علة لا تقبل التعدية ، وينبغي أن تكون قابلة للتعدية لكي تنتقل من الأصل إلى الفرع ؛ لأننا نقف أمام حكم الفرع ، وعلينا

أن نثبت الفرع حكمًا ليس له حكم ؛ لأننا نقيس الفرع بالأصل عن طريق العلة ، وعندئذ نعطي للفرع حكم الأصل ، وتكون هنا قاعدة القياس .

الرابع : ألا يلغي الشرع اعتبارها :

الشرط الرابع في العلة ألا تكون العلة من الأوصاف التي ألغى الشارع اعتبارها ، هناك أوصاف ، ولكن الشارع لم يعتبر تلك الأوصاف .

مثال ذلك ؛ لو قلنا : الطلاق أعطي للرجل ولم يعط للمرأة . لماذا لم يعط للمرأة؟

الشرع ألغى هنا المصلحة بالنسبة للمرأة لماذا؟ لمصلحة أسمى وأكبر ؛ لئلا يوسع دائرة الطلاق .

فإذن الشرع هنا عندما قرر حكمًا ألغى المصلحة بالنسبة للمرأة ، واعتبره بالنسبة للرجل ؛ لئلا يوسع دائرة الطلاق في العلاقات الإنسانية ، وأعطى السلطة أو الحق للمرأة في أن تطالب بالطلاق بطريقة منظمة .

هذه هي القاعدة الثانية أو الامتداد الثاني وهو الامتداد القياسي .

الامتداد الثالث : الاستحداث :

هناك الامتداد الثالث : وهو امتداد الاستحداث ، كيف يمكننا أن نستحدث حكمًا؟ من الطبيعي أن الاستحداث لا يدخل ضمن قواعد التفسير ولا يدخل ضمن قواعد القياس .

الاستحداث له قاعدة جديدة وهي مقاصد الشريعة ، عندما نجد ذلك النص نجد أن ذلك النص له امتداد وهو روح النص أو الغاية التي أنزل من أجلها النص ، وهو جلب المصالح ودرء المفاسد .

عندما تكون هناك مصلحة، فعلينا أن نمتد من تلك المصلحة وأن نستحدث أحكامًا لكي تلبي تلك الأحكام مصالح الناس.

والأدلة كثيرة على جواز الاستحداث، منها حديث معاذ عندما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وهو حديث معروف، ثم النصوص محدودة والحوادث متجددة، ولا يمكن للنصوص المحدودة أن تلبي حوادث الناس المتجددة إلا عن طريق استحداث أحكام جديدة، والتجديد هنا يمثل الاستمرارية.

والذين يرفضون التجديد يرفضون استمرارية الشريعة الإسلامية؛ لأن الاستحداث هو الذي يكفل للشريعة الاستمرار.

فإذا قلنا: لا اجتهاد، والذين قالوا: لا اجتهاد كأنها حكموا على الشريعة بالإعدام، ولا يملك أحد أن يقول: أغلقنا باب الاجتهاد.

الاجتهاد هو رؤية متجددة ونحن ملكفون شرعًا بأن نفسر إذا توفرت شروط التفسير، ولا يجوز لإنسان أن يقول: أنا لا أجتهد؛ لأن الاجتهاد أغلق بابه.

هذه الرؤيا البشرية التي خوطبنا بها بمقتضى التكليف الشرعي، هناك شرطان للاستحداث: السلامة الاعتقادية والكفاءة العلمية.

شروط الاستحداث:

السلامة الاعتقادية:

الشرط الأول: السلامة الاعتقادية؛ إذا كان هناك إنسان صاحب بدعة، ليس مستقيمًا في فكره، لا نسمح له أن يتصدى لعملية الاجتهاد، ولا لعملية الاستحداث.

الكفاءة العلمية :

الشرط الثاني : أن يكون صاحب كفاءة علمية ، والكفاءة العلمية هنا ضرورية ؛ لأننا كما نقول في مجال الطب : لا يجوز لأحد أن يجتهد في قضية طبية إلا أن يكون طبيباً .

حتى في الأحكام الشرعية ؛ إذا كان الحكم مرتبطاً بقضية مختصة لا يقرر فيها الفقيه ، عندما نتحدث عن الطفل في بطن أمه كم يمكن الجنين في بطن أمه؟

هذه ليست من اختصاص الفقهاء ، هذه قضية تحال إلى رأي الطب ، والطب هو الذي يقرر والرأي الفقهي يدعم الرأي الطبي .

أما أن نقول : إن هذا الطفل قد رقد وبقي سنة أو سنتين أو ثلاثة ، هذا أمر لا يدخل في اختصاص الفقهاء ، إذا كان عندنا إمكانية قطعية لمعرفة الحقيقة .

وعملية الاستحداث أيضاً تحتاج إلى أن نكون أمام أحداث جديدة تفرض علينا أن نتصدى لعملية الاجتهاد والاستحداث ، لكي تكون الشريعة مؤدية للغرض منها .

هذه ملحوظات حول موضوع التفسير ودوره في تجديد الأحكام الشرعية .



المحاضرة التاسعة والسبعون بعد المائة

حماية الحقوق الإنسانية في الإسلام

تمهيد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

إن من أهم جوانب الرسالة الخالدة للشريعة الإسلامية التكفل بحماية الحقوق لأصحابها وتقرير الحق بصورة واضحة بحيث لا يكون وجوده محل شك أو جدل يذهب باستقراره، ثم حمايته واحترامه من الناس أجمعين، وتقرير الجزاء الملائم لمن يعتدي عليه أو ينتقص منه.

معنى الحق في الفقه الإسلامي:

الحق في الفقه الإسلامي ذو معنى شامل يدخل فيه معنى الحرية فتكون الحرية العامة نوعاً من الحقوق، فإذا ما ورد في الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي كلمة الحق، فقد تعني حقاً مالياً، أو حقاً للدولة، أو حقاً شخصياً، أو حرية من الحريات بحسب ما يدل عليها معناها في كل مقام.

الحق في اللغة:

يدل معنى الحق في اللغة على الملك والمال، والأمر الموجود الثابت. ولم يعرف الفقهاء المسلمون الحق بمعناه الاصطلاحي، ومن عرفه منهم لم يخرج عن المعنى اللغوي، وقد تناول علماء الأصول تقسيم الحق في باب المحكوم فيه حين تعرضوا لفعل المكلف الذي يتعلق به خطاب الشارع، وقسموه إلى قسمين رئيسيين.

أقسام الحق من حيث فعل المكلف :

أولاً: حق الله تعالى أو الحق العام الخالص ، ويدخل تحته العقوبات والكفارات وسائر العبادات ، وإضافة هذا الحق له سبحانه لعظيم خطره وشمول نفعه .

ثانياً: حق العبد وهو ما له مصلحة خاصة ، ويشمل حقوق الأفراد المالية أو المتعلقة بالمال .

ويلاحظ أن دائرة حقوق الله تعالى في الفقه الإسلامي واسعة تتلاقى مع دائرة القانون العام ، بينما يدخل حق العبد في دائرة القانون الخاص .

مصدر الحقوق في الإسلام:

تقرير الحقوق والواجبات في الإسلام راجع إلى الله ﷻ الذي هو الحق المبين ، وتشريعه هو العدل المطلق الذي لا يحابي ولا يتحامل ، والإيمان بالله خير ضمان لحقوق الإنسان ، من حيث تقريرها ، ومن حيث إنفاذها وتدعيمها ، والنضال من أجلها .

تقسيم فقهاء القانون للحقوق:

يقسم فقهاء القانون الحقوق إلى قسمين رئيسين :

إلى حقوق مالية ، وهي الحقوق التي يبدو عليها التعامل بالمال بين الناس فتباع وتشتري وتقدر بالمال وتشمل الحقوق الشخصية والحقوق العينية .

وإلى حقوق غير مالية وهي الحقوق التي لا يبدو عليها التعامل بالمال ، وهي حقوق لا تباع ولا تشتري ، هي حقوق لا تقدر ولا تقوم بهال ، لا لشيء إلا لأنها أسمى وأعلى وأعز من أن تقدر بالمال أو الثمن ، وتشمل الحقوق السياسية ، والحريات العامة وحقوق الأسرة .

مقاصد الشريعة عند الإمام الشاطبي:

لقد خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض ينفذ أحكامه ويطبق شرائعه، وكلفه بالسعي فيها وعمارتها، ومنحه العقل الذي يدرك به بعض أسرارهِ في كونه إذا أطال النظر وأمعن التفكير، وسخر له كثيراً من مخلوقاته، ومن استقرأ الأحكام الشرعية في المجالات المتعددة يتضح له أن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في تنظيم الخلق، وهذه المقاصد كما فصلها الإمام الشاطبي لا تعدو ثلاثة أقسام: ضرورة، وحاجية، وتحسينية، وفي دائرة هذه المقاصد تروج حقوق الإنسان وقد لاح لواؤها وبزغت معالمها.

أسبقية الإسلام في إعلان حقوق الإنسان لمفاهيمها الكاملة:

بالرغم مما تضمنه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية اللاحقة له، فإن دين الإسلام كان الأسبق في إعلان تلك الحقوق بمفاهيمها الكاملة وضماناتها الشاملة في أحسن صورة وأتم بيان، وكان الأسبق في ربط الحقوق والحريات العامة بوظيفتها الاجتماعية، إذ أناط بهذه الحريات تحقيق المصلحة العامة، وابتغاء وجه الباري سبحانه، ومهما سما العقل البشري في هذا المجال فهو عاجز وقاصر عما أرشد إليه القرآن من أصول ومبادئ خالدة على مر الزمن.

الإسلام يحمي شخصية الإنسان مادياً وروحياً:

يعتبر النهج الإسلامي في حد ذاته ثورة شاملة على جميع الأوضاع الفاسدة المزرية التي بلغت الإنسانية في عهود سابقة، حيث أهدرت فيها حقوق الفرد وامتهنت كرامته، وكان الإسلام حامياً لشخصية الإنسان

بشقيها : المادي والروحي ، ضمناً لعدم التفكك الاجتماعي والانحلال الخلقي ، موازناً بين مصلحة الفرد في صيانة حقوقه الأساسية ، ومصلحة الجماعة في التجريم والعقاب .

عالمية الإسلام وشموليته يكفلان للإنسان كل حقوقه :

الدعوة الإسلامية دعوة عالمية موجهة للناس كافة ، وتقوم على الكرامة والحرية والعدل والمساواة ، وفي إطار من هذه الشمولية كفّل الإسلام للإنسان الحق في الحياة ، والكرامة ، والعدل ، والمساواة ، وحق العمل ، والأمان ، وحق الهجرة ، كما كفّل للإنسان حرية العقيدة والتفكير ، والضمير والرأي ، والمسكن والتنقل وغير ذلك من الحقوق الأساسية ، وكان كتاب الله الميزان الأعلى والمعيار الأسمى والمعين الذي لا ينضب ، والسلسيل الذي لا يغور ولا يذهب ، والنبراس المنير الوهاج حين يعم الظلام وتلتطم الأمواج .

أول سور القرآن نزولاً تهتم بالإنسان وحقوقه :

إن أول سورة نزلت من سور القرآن كانت تحمل معاني التكريم الإنساني والاهتمام بشأنه ، وتلمح إلى آثار تكريم الله سبحانه ؛ لهذا الإنسان إذ بمحض الكرم وجد ، وبخالص الجود والعطاء اهتدى ورشد ، كما تشير هذه السورة التي بدأت بها الرسالة المحمدية إلى سبق عناية الله تعالى بهذا الإنسان على سائر المخلوقات فجعله مهذباً ، له قابلية للعلم والفهم . قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝۲ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝۳ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝۴ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝۵ ﴾ [العلق : ١-٥] .

آية التكريم في سورة الإسراء:

صرح الخالق العظيم سبحانه بهذا التكريم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. وهذه الآية من سورة الإسراء المكية، والقرآن المكي يتعلق في أغلبه بتقرير العقيدة الإسلامية في النفوس، والدفاع عن الرسالة المحمدية والعناية بأمور البعث والآخرة، وله تعلق آخر وهو المبادئ الأخلاقية والإنسانية. ومحل هذه الآية بين ما سبق وما لحق من آيات في نفس الموضوع يدل على أن تسخير هذا الكون من الله سبحانه للإنسان من بحر وبر مع تكريم الله له، يجب أن يقترن بطاعته والاعتراف بوحدانيته ليكون مهتديًا في الدنيا والآخرة، كما تحمل الآية نوعًا من التقريب في تقدير النعمة وشكرها، وجاء هذا الترغيب بين ترهييبين.

كلام بديع للشاطبي في «موافقاته»:

هذا ما قرره الإمام أبو إسحاق الشاطبي في «الموافقات» بقوله: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه، وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفًا، فهو راجع إلى الترجية والتخويف».

آيات دالة على تكريم الإنسان:

من الآيات القرآنية الدالة في نفس المعنى على تكريم الله تعالى للإنسان وما أكثرها ، قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾ قَالَ يَتَادُمُ أَنْبِئْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة : ٣١-٣٣] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ﴿٢٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن : ٣] .

﴿ وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ١-٤] .

﴿ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾ [النساء : ٩٢] .

أحاديث دالة على تكريم الإنسان:

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم

على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه .

وقال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» .

كلام العلماء في آيات التكريم:

القرطبي :

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، قال القرطبي : ﴿كَرَّمْنَا﴾ : تضعيف كَرَّمَ أي جعلنا لهم كرمًا أي شرفًا وفضلًا . وهذا كرم نفى النقصان لا كرم المال ، والمراد ببني آدم جميع النوع ، فليس هناك تخصيص ولا تقييد .

ابن الجوزي :

قال عبدالرحمن بن الجوزي في «زاد المسير» : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي فضلناهم .

أفضلية بني آدم على غيرهم من الخلق :

قال أبو عبيدة : وللمفسرين فيما فُضِّلوا به أحد عشر قولاً :

أحدها : أنهم فُضِّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة : جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، ومَلَك الموت . وأشباههم . قاله أبو صالح عن ابن عباس . فعلى هذا يكون المراد المؤمن منهم ، ويكون تفضيلهم بالإيمان .

والثاني : أن سائر الحيوان يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده ، رواه ميمون ابن مهران عن ابن عباس . وقال بعض المفسرين : المراد بهذا التفضيل أكلهم بأيديهم ونظافة ما يقتاتونه ، إذ الجن يقتاتون العظام والروث .

والثالث : فضلوا بالعقل ، روي عن ابن عباس .

والرابع : بالنطق والتمييز ، قاله الضحاك .

والخامس : بتعديل القامة وامتدادها ، قاله عطاء .

والسادس : بأن جعل سيدنا محمدًا ﷺ منهم ، قاله محمد بن كعب .

والسابع : فضلوا بالمطاعم واللذات في الدنيا ، قاله زيد بن أسلم .

والثامن : بحسن الصورة ، قاله يمان .

والتاسع : بتسليطهم على غيرهم من الخلق وتسخير سائر الخلق لهم ، قاله محمد بن جرير .

والعاشر : بالأمر والنهي ، ذكره الماوردي .

والحادي عشر : بأن جعلت اللحم للرجال والذوائب للنساء ، ذكره الثعلبي .

وهذا ما لخصه عبدالله بن أحمد النسفي في «تفسيره» حيث ذكر أن متعلق التكريم بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد والاستيلاء ، وتسخير الأشياء ، وتناول الطعام بالأيدي .

أكثر المفسرين على أن مناط التكريم هو العقل :

رجح أكثر المفسرين القدامى والمحدثين ، منهم : الفخر الرازي ، والقرطبي ، والألويسي ، والشيخ الطاهر بن عاشور رحمهم الله ، أن مناط التكريم هو العقل .

قال القرطبي : والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب ، فمثال الشرع : الشمس ، ومثال العقل : العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء .

وما ذكره المفسرون من متعلقات التفضيل ، فهو على سبيل المثال لا الحصر ، وهذا ما أكدّه الألويسي في «تفسيره» عند هذه الآية ، وإنما يعتبر العقل في أعلى منزلة للتفضيل .

وقال سيد قطب في «الظلال» : وقد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه ، كرمه بخلقه على تلك الهيئة بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان ، وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل ، ويتنج فيها وينشئ ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة ، وكرمه بتسخير القوة المكونة في الأرض وإمداده بعون القوة في الكوكب والأفلاك ، وكرّمه بذلك الاستقرار الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ، ويعيد فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان ، وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملاء الأعلى الباقي في الأرض : القرآن .

وإن أكبر تكريم للإنسان هو تمتعه بنعمة العلم دون سائر المخلوقات .

خلاف العلماء حول قوله تعالى : ﴿مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ [الإسراء : ٧٠] :

كانت هذه الآية وبخاصة عبارة ﴿مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مثار جدل بين علماء المسلمين ؛ إذ استدل المعتزلة بجانب أدلة أخرى على مذهبهم في تفضيل

الملائكة على البشر؛ لأن الآية تصرح بأن التفضيل على كثير ولم يكن على كل خلق الله . وقد رد أهل السنة برود تؤيد مذهبهم من تفضيل البشر على الملائكة .

وللفخر الرازي هنا لفظة لطيفة ذكرها في قوله : قال في أول الآية : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ، وقال في آخرها : ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ : ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل ، وإلا لزم التكرار ، والأقرب أن يقال : إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ، ثم إنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحية والأخلاق الفاضلة ، فالأول هو التكريم ، والثاني هو التفضيل ، هذا الإنسان بخلقته وفطرته وطاقاته وقدراته ، كرمه الله في السماء بذكره في الملأ الأعلى والنفخ فيه من روحه وإسجاده الملائكة المقربين له ، فلا عجب أن يكرم الله الإنسان في الأرض بما وهبه من عقل وإرادة ونطق ، وما سخر له في هذا الكون من طاقات وما أنزل إليه بهدايته وكتبه وإرسال رسله .

وبعد فتلك لمحات وإشارات مستوحاة من أشرف خطاب وأعظم كتاب لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفذ معانيه ، فإن من أشق التبعات على الباحث أن يتعرف على مراد الله تعالى من محكم كلامه ، وأن يقول الكلمة الفاصلة أو القريبة منها أو الشبيهة بها في معنى من معانيه .

مظاهر حماية الإسلام لحقوق الإنسان:

على ضوء هذه الآية الكريمة نتناول مظاهر حماية حقوق الإنسان في الإسلام وهي على سبيل المثال لا الحصر ، موردين ذلك في شكل ملاحظات ،

متتبعين الحقوق المتعلقة به عبر مختلف أطوار حياته منذ ولادته وخبر حياته إلى مرحلة وفاته ، وذلك على وجه الإجمال :

١ - لكي يوجد الحق لابد أن تتوفر له مقومات وجوده ، وهي الدعائم الأساسية التي يرسى عليها ، وهذه الدعائم والأسس هي :

أولاً : الشخص الذي ثبت له تلك السلطة ، وهذا هو صاحب الحق .

ثانياً : العمل أو الشيء الذي تتمثل فيه تلك السلطة ، وهذا هو محل الموضوع الحق .

ثالثاً : الحماية القانونية التي تدفع هذه القدرة على العمل للحق . والإنسان يتميز بأن الشخصية تضافى عليه بطبيعة الأمور ذاتها ، فهي تثبت له بمجرد كونه إنساناً . ويبدأ وجود الإنسان بولادته حيّاً ، وتبدأ بالميلاد أيضاً شخصيته القولية ، ويزول هذا الوجود بالوفاة ، ولذلك تنقضي أيضاً حينئذ هذه الشخصية ، وإذا كانت القوانين الغربية تشترط لبدء شخصية الإنسان أن يولد حيّاً وأن يكون قابلاً للحياة فإن الشريعة الإسلامية تكتفي بأن ينفصل الشخص حيّاً ليكون طرفاً في الحق ، أي أنها لا تفرض الشرط الثاني الذي يقضي بأنه يجب أن يكون قابلاً للحياة .

الشروط التي تبدأ بها شخصية الإنسان :

ومما سبق يتضح أنه يشترط لكي تبدأ شخصية الإنسان شرطان :

الأول : أن تتم ولادته حقيقة .

والثاني : أن تتحقق حياته بالولادة ولو بلحظة قصيرة بما يدل عليها من علامات ظاهرة كالبكاء والصراخ والشهيق والحركة والرضاع ، فموت

المولود بعد لحظة قصيرة من الحياة لا يؤدي إلى حرمانه من اكتساب هذه الشخصية ، بل يؤدي إلى انقضائها بعد أن تثبت له .

والشخصية تثبت للإنسان بمجرد ولادته حيًا ولو كان بطبيعته غير قابل للحياة ، ويترتب على هذا أن الشخصية لا تثبت للجنين أو الحمل المستكين في بطن أمه ، وهذه النتيجة سلبية من حيث إن الجنين لا تثبت له الشخصية الكاملة .

وقد لوحظ أن للجنين مصلحة في أن تثبت له شخصية من نوع معين ، ولهذا اعترفت له الشريعة بشخصية ناقصة ومحدودة . فأجازت للأب مثلاً أن يقيم وصيًا على الحمل ، وأجازت للقاضي تعيين مقدم إذا لم يكن للحمل وصي ، كما قضت بصحة الوصية لمن كان موجودًا وقتها ، أو كان منتظر الوجود .

إقرار الشريعة للحياة الحكيمة إلى جانب الحقيقية :

هكذا نجد أن الشريعة تعترف للحمل المستكين ببعض الحقوق وهي تعترف بشخصية ناقصة ، وتكون للجنين أهلية وجوب قاصرة على صلاحيته لكسب التصرفات والحقوق النافعة نفعًا محضًا ، إنها لا يتأكد وجود هذه الشخصية إلا من وقت تمام ولادته حيًا ، وإذا كانت القاعدة أن شخصية الإنسان تنتهي بموته ، إلا أن عادة أكثر الفقهاء جرت على القول بأن الإنسان بعد موته يعتبر حيًا حكمًا أي بحكم القانون لا حقيقة حتى تسدد ديونه وتوزع تركته ، فالقاعدة في الشريعة الإسلامية هي أن لا تركة إلا بعد سداد الدين ؛ وبذلك نجد أن هذه الشريعة تتميز بإقرارها للحياة الحكيمة بجانب الحياة الحقيقية لتضمن لأصحاب الحقوق استيفاء حقوقهم .

وإذا كان الأصل أن شخصية الإنسان لا تنتهي إلا بالموت الحقيقي ، إلا أنه إذا طالت غيبة المفقود ، فليس من المصلحة أن يترك أمره معلقاً دون أن يعرف مصير أمواله ومركز زوجته ، ولا سيما إذا غلب احتمال وفاته . لهذا يقضى بموت المفقود حكماً لا حقيقة على خلاف الأصل ، وبذلك تنتهي شخصيته ، وكُلُّ هذا أيضاً لضمان من له حقوق بأموال المفقود وتحديد مركز زوجته .

وحرصاً من الشريعة الإسلامية على ضمان حقوق الغير فإن المسؤولية المدنية تتعلق بذمة المولود لحظة ولادته إذا حصل منه ما يضر بهال هذا الغير ، وهكذا ورد في «مرشد الخيران لمعرفة أحوال الإنسان» ، أنه لو أن مولوداً ساعة ولادته انقلب على مال الإنسان فأتلفه يلزمه الضمان ، ويقابل هذا المعنى قاعدة : (الخطأ والعمد في أموال الناس سواء) .

الحياة حق أساسي من حقوق الإنسان :

ثانياً : تعتبر الحياة حقاً أساسياً من حقوق الإنسان الذي كرمه الله بالخلافة في الأرض ليعمرها . ومن هنا حذر الإسلام من اقتراف جريمة قتل الإنسان بغير حق شرعي ، وأحاط حرمة هذه الحياة بأسوار من الزجر والتنفير والوعيد . وجريمة القتل جعلت الملائكة تخشى من وقوعها في الأرض ، ومن أجل ذلك حدث تساؤلهم : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] ، ومن ثم

لا يجوز الاعتداء على حياة الناس إلا بسلطان الشريعة ولا تقتل النفس إلا بالحق، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقد نهى الله سبحانه عن قتل الإنسان نفسه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

تحريم الدين للانتحار حفظا لحق الحياة:

لذلك يكون الانتحار ممنوعاً وحراماً في شرع الإسلام، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحصى سمّاً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

الإضراب عن الطعام لا يجوز في الدين:

أما الإضراب عن الطعام من أجل المطالبة بحق فليس جائزاً في الشريعة الإسلامية؛ لأنه تعذيب للنفس بدون مبرر شرعي حيث نهى النبي ﷺ عن الوصال وهو مواصلة الصيام بدون انقطاع، بناء على ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني».

ومن تأمل القرآن في وصفه للحياة الدنيا يجد أن المقصود الأكبر هو توجيه هذه الحياة للحياة الأخرى.

تكريم القرآن للإنسان بنعم لا تحصى:

ثالثًا: إذا كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يبدأ بمقدمة تؤكد الاعتراف بكرامة الإنسان، فالقرآن الكريم كرم الإنسان بنعم لا تحصى، وفضّله على كثير من المخلوقات التي خلقها وكان تكريم الله لهذا الإنسان بأنه أحسن صورته، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، ثم كان تكريم الله لهذا الإنسان في عدم إهانته أو تحقيره أو السخرية منه أو تنابزه بألقاب ممقوتة.

حق المساواة:

رابعًا: من أقوى الضمانات التي تكفل التوازن مبدأ المساواة الذي اعتبره الكثيرون حجر الزاوية في الحقوق والحريات العامة وأساسها الذي لا قيام له بدونه، ومن هنا كان بديهيًا أن تحرص الدساتير الحديثة على أن تضمن نصوصها تقرير مبدأ المساواة بين جميع المواطنين، فلا تميز بينهم بسبب الجنس أو الأصل، أو اللون أو العقيدة الدينية أو السياسية، ولقد كان لمبدأ المساواة أهمية بالغة ودورٌ جليلٌ في ازدهار الحرية الفردية، حيث إنه قد عمل على إقرار هذه الحريات وقادها إلى عالم النور بعد ظلام حالك، عاشته ربحًا من الزمن.

ومن ثم يمكن القول أن الحريات الفردية تعد أثرًا من آثار مبدأ المساواة، وترتبط فكرة الحرية بفكرة المساواة ارتباطًا وثيقًا حيث إن تعريف الحرية مشتق من المساواة.

تأكيد القرآن على مبدأ المساواة:

أكد القرآن الكريم على مبدأ المساواة وعدم التمييز ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

لقد أعطى الإسلام للمرأة شخصية بجانب الرجل ، وحافظ على حقوقها كما يجب ، فهي مطالبة بما على الرجل من واجبات ، ولها ما له من حقوق ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وهكذا فإن شخصيتها المدنية مصانة ابتداء من اسمها الشخصي ولقبها العائلي ، فليس هناك إدماج ولا محو لانتسابها ، وكذلك فإن ذمتها المالية مستقلة عن ذمة زوجها ، وهي حرة في التصرف في مالها ، فإذا كانت القوانين الغربية تطبق نظام الأموال المشتركة ، فإن الشريعة الإسلامية تقرر نظام الأموال المنفصلة ، وبذلك تعتبر أموال الزوجة منفصلة عن أموال الزوج ، ولا يمكن أن تشكل أموالها ضمناً عاماً لدائن زوجها .

والشريعة الإسلامية مع تقريرها لقاعدة المساواة بين الرجل والمرأة ، قد ميزت الرجل عن المرأة في مجموعة من الأمور ، وذلك نابع من وظيفة كل منهما في المجتمع الإسلامي ، كالإشراف على الأسرة ، والميراث ، والشهادة ، والطلاق ، والطاعة الزوجية ، كما قررت الشريعة الإسلامية ، مبدأ المساواة أمام القضاء ، وفاقاً لما انتهت إليه القوانين الوضعية ، ولم تكتف الشريعة بمظهر المساواة هذا بل نفذت إلى عمق تحقيق العدالة المطلقة مفرقة في ذلك بين الحقيقة القضائية والحقيقة الواقعية .

حق الحرية:

خامسًا: حرية الإنسان الشخصية هي أعز ما يملك وقوام حياته ووجوده، وهي الأساس في بناء المجتمع السليم، وكلما كانت هذه الحرية مصانة ومكفولة لها ضمانات وجودها كلما ازدهر المجتمع وتقدم في مدارج الرقي، وإذا مست تلك الحرية اهتزت ثقة الفرد في مجتمعه، ونأى بنفسه عن كل ما قد يؤدي إلى ذلك المساس صونًا لذاته وإبقاء لكيانه. والشريعة الإسلامية تعتبر أن حرية الإنسان المقدسة كحياته سواء بسواء. وهي الصفة الطبيعية الأولى التي بها يولد الإنسان تأكيدًا لحديث رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة».

ومن طبيعة الأمور في أي مجتمع منظم ألا تكون حرية الفرد مطلقة دون ضوابط لها تنظمها، وإلا لو تصرف الفرد حسب هواه لدبت الفوضى في المجتمع، ولهذا كان من أُلزم الأمور أن تنظم تلك الحرية بما يؤمن المجتمع ويطمئن أفرادها حياة هادئة مستقرة.

قواعد أصولية تؤيد حق الحرية:

ومن القواعد الأصولية في هذا المجال: (الأصل في الأشياء الإباحة)، (الأصل في الإنسان البراءة)، وذلك في العقوبات، (الأصل براءة الذمة) وذلك في المداينات، (الضرورة تقدر بقدرها)، (الاستثناء لا يقاس عليه)، (الذمة عامرة بيقين فلا تبرأ إلا بيقين)، (الشك يفسر لمصلحة المتهم) في العقوبات، (الشك يفسر لمصلحة المدين في المداينات).

وقد حد الإسلام حدودًا بأوامره ونواهيه ، وشرع لمجاوزتها عقوبات ، بعضها مقدرة وهي الحدود ، وبعضها موكل إلى ولاية الأمر وهي التعازير ، وهذه القواعد مقررّة أن يعرفها القانون الوضعي ، تطبيقًا لقاعدة (لا جريمة ولا عقوبة إلا بالنص) .

وقد اتفق علماء الإسلام على عقوبات لا تثبت بالرأي والقياس وأنها لا تثبت إلا بالنص ، وقد انتهى فقهاء القانون الجنائي الحديث إلى اعتبار التأهيل ، وهو إعادة المحكوم عليه ، مواطنًا صالحًا حقًا للمحكوم عليه ، فالمجرم الذي عانى من ظروف اجتماعية ، قررت له الجريمة الحق في أن يعود للمجتمع يومًا مواطنًا صالحًا .



المحاضرة الثمانون بعد المائة

الإسلام والبيئة

تمهيد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

«البيئة» موضوع يشغل العالم كله ، وخاصة فيما تتناقله الأخبار العلمية من المخاوف التي تهدد أرضنا بما كسبت أيدي الناس من تلوث للبيئة ، وانتشار للسموم ، واختلال في التوازن وتغير في المناخ واتساع لرقعة الأوزون ، ومما قد يصيب العالم من أخطار في تسيير المفاعلات النووية ، ومن أخطار في سوء استخدام الطاقات ووسائل الدمار .

الفرق بين الإسلام والفكر المادي:

للإسلام كلمة الفصل دومًا في كل شئون البشر ، وكلمته تسبق المشكلة لتحول دون وقوعها ، ثم تتقدم بالحلول ، لتمحو آثارها ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فإذا كان الفكر المادي يعبث ويخرب فإن الإسلام يبني ويقوي ، وإذا كان الفكر المادي يدفع بالإنسان والحياة إلى الفوضى والاختلال ، فإن الإسلام ينهض في كل آن بحماية الإنسان والحياة ، ويبدأ من حيث يجب الابتداء ، بربط الوجود كله بالله الذي خلقه ورعاه ورباه ، وربطه بالحكمة التي من أجلها كان الوجود وكان النظام .

فالفكر المادي الذي عبد الطبيعة قديماً واتخذ منها آلهة ، يستعبد الطبيعة حديثاً ويخضعها لهواه ، والفكر المادي الذي وقف حائراً أمام الكون ، واخترع الافتراضات والأساطير في تفسير نشأته ، وتحديد غايته ، ينحدر اليوم إلى الغرور والاستكبار ، فيما يظنه نهايات علمية وقوانين يقينية ، وما هي في الحقيقة إلا بدايات ومقدمات تقود حتماً إلى الإيثار واليقين .

والإسلام رحمة للعالمين ، ومن الرحمة التي اختص بها أنه عالمي الدعوة ، وعالمي الرعاية ، والرحمة فيه تشمل الإنسان والحيوان والأكوان ، وتشمل الهداية من الضلال والصيانة من التلف .

نظرة الإسلام للبيئة نظرة إيجابية عبادية:

إن نظرة الإسلام إلى موضوع «البيئة» هي نظرة إيمانية عبادية ، فهي لا تتوقف عند تحقيق منفعة مادية ، أو دفع مضرة مادية ، بل إنها تعالج الأمور بمبدأ إيماني وبموقف عبادي وبمسئولية دينية ، فالبشر ليسوا أحراراً في إفساد عالمهم أو إصلاحه ، وليسوا محايدين أمام تخريب البيئة أو حمايتها ، بل هم مأمورون بدفع الفساد وإصلاح البيئة ، وإلا تحملوا نتائج تخريبهم وإهمالهم على صعيد الأضرار التي تلحق بهم وبالعالمهم ، ثم على صعيد الأوزار التي يحاسبون عليها بين يدي الله .

ماذا يعني مصطلح البيئة؟

البيئة مصطلح عام يقصد به حديثاً كل ما سوى الإنسان من مخلوقات مادية ، والإسلام يتحدث عن عالمي الغيب والشهادة ؛ ليكون المسلم على بينة منهما ، وعلى صلة محددة بكل منهما ، وعلى هذا فإن موضوع الإسلام والبيئة موضوع متعدد الأبواب والجوانب وقد آثرنا أن نجمله في ناحيتين :

الأولى : علاقة الكون بالخالق .

والثانية : علاقته بال مخلوق .

وذكرنا في ذلك مبادئ مجملة دون أن ندخل في تفصيلات وجزئيات ؛ لأن الوقت لا يتسع لذلك ، وما جاء في كتاب الله من آيات شاهدة ومؤكدة لهذا الموضوع ، وهو أن الناس قد يستطيعون الحديث في أي أمر ويستحضرون له أسانيد ، من أي موقف تفرضه الحاجات والتطورات ، أما المسلمون فإنهم يفصلون في كل أمر على هدي من تعاليم دينهم وبينه من كتاب الله .

الكون بما فيه من آيات الله الكبرى :

أولاً : الكون مع الله ، المبدأ الأول ، الكون بكلياته وجزئياته وبوجوده وبنظامه وبدلالاته ، هو مجموعة آيات من آيات الله الكبرى : ﴿ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَعَيْنُهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦] .

الكون هو معجزة مرئية لله :

ثانياً : الكون هو معجزة الخالق المرئية : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ ١٠٥ ﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان : ١٠ ، ١١] .

الكون دليل وجود ووحدانية الله ﷻ :

ثالثاً : الكون دليل وجود الخالق ، ودليل وحدانيته .

التأمل والتفكر والنظر من مطالب الشرع:

رابعًا: النظر في البيئة الكونية من أرض وسماء ومخلوقات مطلب شرعي، وهو يقود إلى الإيمان اليقيني: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

الكون دليل من أدلة القدرة:

خامسًا: الكون بإتقانه ونظامه وقوانينه واستمراره دليل القدرة الإلهية، ودليل العناية الإلهية، ودليل الإتيقان الإلهي.

نهاية الكون تبدأ بفساده:

سادسًا: إن نهاية الكون تبدأ بفساده أي بتفريغه من نظامه ومن اعتداله ومن طاقاته.

الكون ميدان لنفاذ إرادة الله:

سابعًا: هذا الكون هو ميدان نفاذ إرادة الله، فهو موضع التجلي والرحمة، وهو ميدان البركة والخير وأي تصادم مع الكون أو نفور منه أو تأثم من الاندماج به هو مفسدة للحكمة العليا.

الكون في صلاة دائمة وذكر:

ثامنًا: الكون بكل مجراته وذراته وقوانينه وحركته ونموه هو في صلاة دائمة وذكر لله وتنزيه له وخضوع لجلاله واثتهار بأمره، وانقياد لحكمه:

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

كل شيء في الكون خلق بقدر:

تاسعاً: الكون يسير وفق تقديرات دقيقة موزونة ومتوازنة ، خلقه الله بموجبها وأقام استقرارها واستمراره عليها ، وهي السر المكنون الذي يدعونا الخالق للتعرف إليه ، وللالتزام به والمحافظة عليه .

البيئة من إبداع البديع سبحانه وتعالى:

عاشراً: هذه البيئة الكونية الهائلة القوية المتناسكة المنظمة هي بيئة جمالية ، فهي من إبداع الخالق الجميل الذي يحب الجمال والذي يدعو لإدراك جمالية الكون في كل خلقه ونظامه وتناسقه وألوانه وبهجته ، ويدعو للاندماج في هذه الجمالية للتسامي من بعد إلى كمال الجمال الإلهي .

الكون والإنسان:

وحدة الكون مقررة في كتاب الله :

أولاً: إن وحدة الكون مقررة في كتاب الله ، وإن وحدة الأحياء ذات مصدر حياتي واحد: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] .

الإنسان ابن البيئة :

ثانياً: الإنسان هو ابن هذه البيئة القريبة وهي الأرض: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [فاطر: ١١] .

خصوصية الأرض بصلاحياتها للحياة:

ثالثًا: خص الله هذه الأرض بخصائص متفردة لتكون صالحة للحياة وللإنسان بشكل خاص، فهي وإن كانت جزءًا من الأجرام الكبرى؛ إلا أنها خصت بما يجعلها البيئة الصالحة للحياة: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ۖ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۚ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۚ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۚ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ۚ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُفُّكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

البيئة ممهدة للإنسان:

رابعًا: هذه البيئة الأرضية القريبة التي أعدت لحياة الإنسان قد يسرت أيضًا ومهدت لتوفر للإنسان الراحة والاستقرار: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: ١٥]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦].

البيئة محكومة بقوانين تكفل لها الاستقرار:

خامسًا: البيئة الأرضية محكومة كسواها بقوانين تكفل لها الاستقرار والاستمرار والحفظ فهي محفوظة من الإشعاع الكوني، ومن الاضطراب المسيري، ومن فقدان التوازن بين طاقاتها وقوانينها: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۚ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ١-٤]، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠].

الإنسان خلق من الأرض ويعيش فيها:

سادسًا : البيئة الأرضية خلق الإنسان منها ويعيش بها ويسرح فوقها ، ويموت فيها ، ثم يخرج من ثراها حيًّا تارة أخرى ، بعد أن تعود إليه الإشرافة العليا وتتجمع عناصره وذراته التي تفرقت وبقيت تحمل رقمها ، ورمزها الذري حتى يصدر الأمر الإلهي بتجميعها وتوحيدها : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ۚ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۚ﴾ [طه : ٥٣-٥٥] .

البيئة توفر الراحة والمتعة للإنسان:

سابعًا : هذه البيئة المعدة لتوفير معاش الإنسان ، معدة أيضًا لتوفير متعته في آن : ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة : ٣٦] ، ﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلَآئِنَّمِ لَكُمْ﴾ [النازعات : ٣٣] .

البيئة مسخرة للإنسان بنظام دقيق:

ثامنًا : إن البيئة الأرضية وما علاها من أكوان مسخرة للإنسان ، وهذا التسخير ليس عشوائيًا ، لكنه واقع ضمن منظومة من الدقائق والأسباب والاستخدامات العلمية وفي نطاق عدم الإخلال بها وبتوازنها : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان : ٢٠] .

البيئة نعمة من الله للإنسان:

تاسعاً: إن البيئة الأرضية والكونية هي نعمة من الخالق يجد فيها المخلوق حاجته وهناءته، فهو مطالب أن يعرف قدرها ويفي بشكرها، فلا يوظفها في غير ما وجدت له، ولا ينحرف بها إلى إساءة لنفسه أو لكونه أو إضرار بأرضه، فهو المسئول عن صيانتها بانحرافه، وبانحرافه يكون فسادها وانحرافها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤١] قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٥١] فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٤٩-٥١]، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

بقاء الأرض طاهرة من الفساد مطلب من مطالب الشرع:

عاشراً: إن الأرض طاهرة، وطهارتها تعني فيما تعني خلوها من الفساد والدنس، وما يؤذي الحياة والأحياء، فكل ما يحمل جرائم الإساءة والهدم، يدخل في نطاق النجاسة، وكل ما يتصل بالسموم والمهلكات، يدخل في نطاق الحرمة.

فالخنزير نجس لأنه مستودع الآفات، والأقذار نجسة لأنها مختلطة بالسموم والميكروبات، فلا بد للوقوف بين يدي الله من طهارة الجسد والثوب والمكان، ولا بد للمؤمن من أن يكون طاهراً دوماً.

وأن يحافظ على طهارة البيئة من ماء و تراب وأشياء ، حتى لا يتسبب في تنجيس شيء من ذلك ، ولا يقدم على تعاطي شيء منه من مأكّل أو ملبس أو مسكن أو ملمس ، وهو بالتالي مسئول عن طهارة البيئة وحفظها من السموم والفساد ، يقول الحق : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء : ٤٣] .

ويقول رسول الله ﷺ : «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»^(١) ، ويقول : «الطهور شرط الإيمان»^(٢) ، ويروى عنه قوله : «إن الله نظيف يحب النظافة»^(٣) ، «إن الله جميل يحب الجمال»^(٣) .

الإسلام يدعو لفض مغاليق الكون :

حادي عشر : الإسلام يدعو البشر لفض مغاليق الكون المادي ، عن طريق معرفة القوانين التي يقوم عليها انتظام الكون ، من أجل التوصل إلى أوسع آفاق المعرفة الكونية ، ومن أجل توظيف هذه المعرفة في مصلحة تقدم الإنسان ورقيه ، ومن أجل أفضل مجالات التسخير لقوى الكون وطاقاته ، وتبلغ الدعوة غاية متهاها ، وأبلغ مقاصدها بقول الله ﷻ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت : ١٩ ، ٢٠] .

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه .

الإضرار بالبيئة عدوان على الحياة بها:

ثاني عشر: إيقاع الضرر في الإسلام محرم ، سواء أكان تصويب الضرر للحياة أو للأحياء ، أو كان إيقاعه على ما تعتمد عليه الحياة ، ويحتاج إليه الأحياء ، وبالتالي فإن الإضرار بالبيئة هو عدوان على الحياة بشكل عام ، وعدوان على انتظام المسيرة الكونية ، وعدوان على جمالية البيئة التي أبدعها الله ، والقاعدة الشرعية : «لا ضرر ولا ضرار» .

والحرية الفردية تنتهي عند الحريات العامة ، وعند المصالح الكبرى ، فلا حرية لأحد ولا لدولة بتصرف ينتج عنه إيذاء الآخرين ، وتهديد للسلامة العامة ؛ لأن الحرية وقتها تصبح عدواناً وبغياً ، يقول رسول الله ﷺ : «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»^(١) .

الإسلام يحض على حماية البيئة وإصلاحها:

ثالث عشر: الإسلام يحض على المسارعة لحماية البيئة ، بل إلى زيادة قدرتها ونمائها وعطائها ، وعلى إضافة جماليات الإنسانية إلى مباحجها الطبيعية ، وهو يدعو إلى إحياء مواتها ، والرسول ﷺ يقول : «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له»^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

والفقه الإسلامي يتسع لهذا البحث الفريد من نوعه حتى إن من أهمل هذه الأرض نزعت منه وأعطيت لسواه ، والإسلام يدعو لحماية المياه من التلوث والتلويث ، ويضع سلسلة من التوجيهات والأوامر التفصيلية والجزئية في هذا الباب ، ويدعو لمضاعفة نمو الطبيعة وازدهار ثروتها ، يقول رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة»^(١).

ويدعو المسلم للاندفاع في هذا السبيل بغض النظر عن عامل الزمن أو المصلحة الفردية فيقول : «إذا قامت الساعة وبدا أحدكم فسيلة واستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم فليغرسها»^(١).

ثم هو ينهى عن قطع الشجر لغير مصلحة أو إحراقه حتى في الحرب ، فلا يجوز قتل الصبية في الحرب ، ولا النساء والشيوخ ، ولا الذين انقطعوا في الأديرة للعبادة ، وكذلك لا يجوز قطع أشجار العدو ولا إحراقها .

والإسلام ينهى عن تشويه البيئة والتسبب بما يسيء إليها ، كما يدعو إلى نظافتها ونضارتها وحركة الأحياء فيها ، يقول النبي ﷺ : «الإسلام بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(١) ، ومن باب أولى : إمطة الأذى عن أسباب الحياة وعن مصادرها .

وفوق ذلك يأتي موقف ديني حضاري نادر ، فالإسلام يفرض النفقة للإنسان والحيوان والأشياء ، وهذا أمر لم يعرف في الشرائع السابقة ، ولم يعرف إلا مؤخرًا ، وبشكل جانبي ، فنفقة الأشياء واجبة على صاحبها ، وإلا تولت السلطات المسؤولة الإنفاق على حساب صاحب الشيء ، فمن

(١) سبق تخريجه .

يملك حقلاً وأوشك على الذبول ، وامتنع صاحبه عن الإنفاق عليه ، ورأت الدولة مصلحة في المحافظة عليه وتنميته فإنها تنفق عليه ، وتعود بالنفقة على مالك الحقل ، وهكذا في كثير من الأشياء ، وفي الجهة المقابلة لا يسمح لأحد بأن يؤذي البيئة أو يزري بها ، وعلى الحاكم أن يسهر على ذلك ، ويحمي البيئة كحمايته للأنفس والمجتمع .

تحسين البيئة وإصلاحها يدخل في إطار الأمر الشامل:

رابع عشر: إن رعاية البيئة والمحافظة عليها والسعي لتحسينها وتجميلها يدخل في نطاق الأمر الشامل ، الذي صدر عن الله تعالى ، في تحديد الواجب الإنساني العام ، تجاه أمتنا الأرض ، وكيفية التعاطي معها والأخذ منها ، مما يدخل في توضيح المهام الكبرى لموضوع الخلافة الإنسانية ، يقول الله تعالى على لسان نبيه صالح : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] ؛ أي جعلكم عمارها وطلب إليكم عمارتها ، وعمارة الأرض دعوة جامعة ، ومن موجباتها الأولى المحافظة على استقرارها وعدم إفساد تربتها ومائها وهوائها ، وعدم تعريضها لتقلبات تعيق الحياة عليها أو تنتقص من خيراتها أو تشوه من معالمها .

من عناية الشرع بالبيئة حثه على الاقتصاد وعدم الإسراف:

خامس عشر: ومن عناية الله بالأرض تحريمه للإسراف في استهلاك خيراتها ؛ لأن الإسراف يغري باستنزاف طاقاتها وبإجهادها وتكليفها فوق طاقتها ، واستخدام وسائل ضارة لتحصيل أكبر قدر ممكن من منافعها ، وفي ذلك إنهاك لها وإفساد لتربتها وتبذير بمياهاها ، وتبديد سريع لمخزوناتا ، وتكثيف للمواد السامة التي تخلفها وسائل الإنتاج وطرق الاستهلاك يقول الله

تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

ويحذر من تجاوز حدود الحاجة، والكفاية والتمتع المقبول، والتنعم العادل، حتى لا ينجح البشر إلى الترف والنهم في استهلاك الأرض واستنزاف النعم وهو مبعث شقاء الأرض في العالم المعاصر، الذي يعرض أرضه للتلوث والإنهاك والفساد.

حقيقة المشكلة في هذه الأيام:

مشكلة البيئة أن البشر قد استنزفوا كثيرًا من خيراتها وقد أدخلوا بتوازناتها، وقد قطعوا أشجارها وقد عبثوا بكل طاقاتها فكانت مشكلة الأوزون وسواها.

يقول تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّلْكَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ٥-١٠].

فكل نظم الكون محسوبة بدقة من قبل الذي خلقها، ورتب مسيرتها واستقرارها على نظام حسابي، وأقام حياتها على توازنات لا تبدل ولا تختل، حتى لا تضطرب المسيرة، بحيث إن أي تغيير في معادلاتها أو أي مساس بتوازناتها التنظيمية، وأي اجتراء على النسب والمقادير التي تحكم حركتها وقانون وجودها يعرضها للخلل العام، وينسحب هذا الخلل على حياة الإنسان وعلى مصيره، فكل شيء بمقدار، وكل نظام بحسبان، وكل تصريف بوزن، وسوى ذلك هو طغيان في الميزان، الذي أشارت إليه الآية الكريمة، حيث قال

الحق: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّلْزَالَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]
فالطغيان هو مجاوزة الحق والتعدي على قانون الاعتدال .

سادس عشر: إن الله تعالى يقرر صراحة بأنه أصلح الأرض ، ويحذر صراحة من العبث بهذا الإصلاح ، وبتلك الصلاحية ، ومنذ أن توجهت الإرادة الإلهية لخلق الإنسان ، خشيت الملائكة من أن يعدو الإنسان على هذا الكوكب الجميل ، وأرادت أن تطمئن على مستقبله ، بأن يكون ساكنه صالحاً ومصلحاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

فهو سبحانه يريد مخلوقاً يتمتع بالاختيار وحرية الحركة ليقوم بالدور الإصلاحي بكفاح وتسام بالغ ، ويذكر الله لنا نوعاً آخر من الصنف الآخر الذي يهبط إلى الغرائزية وينحو إلى الهدم والتشويه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] .

الدور الإيجابي للإنسان يتمثل في الاستجابة للإصلاح:

الدور الإيماني الذي لا تأخذه نشوة التصافي والتسامي للابتعاد عن الأرض كأنها لا تعنيه أو تهوي به النزعات إلى الإفساد والتشويه ، وهو الدور المتميز والسواء الذي يصحو على الجانب المادي في الكون ، يستنبط ذخائره ، ويسخر مكانه ويرقيه ويرتقي به ، ويتمتع به ، ويحافظ عليه ، ويأخذ منه ويضيف إليه ، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وهو

الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
 سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
 لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا
 يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [الأعراف: ٥٦-٥٨].

الضرب على أيدي المفسدين من وسائل إصلاح البيئة:

تأتي الأحكام التفصيلية لحماية البيئة والضرب على أيدي المفسدين لأن
 الأرض ليست لفئة دون فئة، ولأن الكون مسخر للبشرية جمعاء، ولأن
 إرادة الله العليا قضت بأن يعيش الإنسان على هذه الأرض عيشة مكرمة.

فالذين يسيئون إلى البيئة يسيئون إلى دنياهم وأخراهم، والعالم الإسلامي
 مطالب بأن يحافظ على بيئته، وأن يتقدم بحلول لإصلاح البيئة العالمية،
 والدعوة إليها، والمساهمة فيها، لتسلم الأرض، وتنظف الحياة.

المحاضرة الحادية والثمانون بعد المائة

محاولة للتقريب بين الفرق الإسلامية

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» أخرجه مالك في «موطئه» .

مقدمة في التقريب بين السنة والشيعة:

أبدأ في الحديث عن موضوع من أعظم المواضيع نفعا، وأجداها على الأمة جلبا ودفعاً، وأكثرها في هذا الوقت إلحاحاً وأنجعها تأليفاً وإصلاحاً، وهو التقريب بين فرقتين عظيمتين من فرق الإسلام، وهما فرقنا السنة والشيعة تقريباً تأتلف به القلوب المتنافرة، وتصفو به النفوس المتغيرة، ويحل به التعاون محل التغابن، والتضامن محل التطاحن، وهو مطلب عزيز، وذهب إبريز، طالما راود أحلام العلماء وأغرى بالتدبر والتفكير كبار العقلاء، وتمنى تحقيقه الأجيال، ومات دونه عظماء الرجال، وكيف وفيه عزة الإسلام وقوته، ومنعته وحصانته، وفيه جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوف المؤمنين، وفيه الاستجابة لقول رب العالمين: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

السنة والشيعة ومحاولات التقريب:

أريد أن أذكر موضوعاً طالما اشتاقت نفسي إلى أن أطرحه بكل وضوح وبكل أخوة، وبكل إيمان، وهو لماذا لا نعمل على التفكير في التقريب

بين السنة والشيعة ، لماذا والحالة هاته ، تساكناً نحن السنيين والشيعة
ثلاثة عشر قرناً ، ولماذا ابتداء من منتصف القرن العشرين أصبح الشيعة
والسنة يتطاحنان ولا يتعارفان ، وناديننا بانبثاق حوار محكم لطيف ، مقنع
متسم بالتساكن والتسامح ، وقلنا : إن ذلك إذا تم فإن كثيراً من مخاوفنا
على الإسلام ستتمحي نهائياً .

وإن هذا المنطق الواعي السليم ، والتفكير المقنع الفخيم ، يعرض الموضوع
ومنهجه ، ويبين مدخله ومخرجه ، ويحدد غايته وثمرته ، وخطره وعاقبته ،
فإن تناوله أحد بغير هذا المنهج ، كان ضرره أكثر من نفعه ، وطمسه أولى
من نقعه ، والإعراض عنه في هذا الشهر الكريم أسلم ، والإمساك عنه في
هذا المجلس العظيم أحكم .

ولذلك نلتزم بأن يكون الحوار إن شاء الله محكماً لطيفاً ، والإقناع
مستقيماً أليفاً ، وأن نعالج الموضوع بحكمة وسماحة ولباقة وكياسة وصراحة
مقتصرين على ما يسهل به التوفيق ، معرضين عما يؤدي إلى النفرة والتفريق
سائلين الله العلي القدير التسديد والتوفيق .

قداسة الحديث النبوي:

هذا الحديث روضة من رياض السنة ، وجنة من جنات الشريعة يملأ
المجلس بأنواره النبوية ، ويلقي عليه من أسرارهِ وبركاته المصطفوية
ما يجعله مجلساً من مجالس العبادة ولقاء ربانياً لنيل الحسنَى وزيادة .

وأول ما ينبغي التنبيه عليه والإشارة إليه ، هو أن هذه الأحاديث النبوية
التي نروها ليست متروكة لهوى من يريد أن يعبث بها أو يزيد فيها ، فيكون
الحديث موضوعاً ويجعله مرفوعاً ، بل ، هي أشرف من ذلك وأقدس وأسمى

وأنفس ، مروية وفق قواعد مدققة وضوابط محققة ، لا يتطرق إليها الخلل ، ولا تتساهل مع الخطأ والزلل ، بها تعرف أحوال متن الحديث وسنده ودرجته وطرقه ، ويتم التمييز بين الصحيح والحسن والضعيف ، والمسند والمتصل والمرفوع ، والمعنعن والمعلق والمنقطع ، والمقطوع والمرسل والمدرج والمسلسل والمصحف والمحرف والموقوف والمعضل والمدلس والمتروك والمعلل والمضطرب والمقلوب والشاذ والمنكر والموضوع ، وعليها رجال عدول ينفون عنها تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ، فلا يملك أحد أن يتناول عليها أو يزعم ثقة الناس فيها ، أو يشككهم في صحتها ، وكل من حاول ذلك تصدى له الجهابذة العلماء من حراس السنة الأمانة ليكشفوا للناس عن مكره ، ويردوا كيده في نحره .

حديث نبوي :

الحديث الذي اخترته منطلقاً لهذا الدرس ، الذي أشرف بإلقائه أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً ؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال» .

وهذا الحديث مسند محفوظ للإمام مالك وغيره ، عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا أن الإمام مالكا أخرجه في «الموطأ» مرسلًا عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه عن النبي ﷺ ، ولم يذكر أبا هريرة .

الحديث المرسل:

المرسل : هو ما رفعه التابعي إلى النبي ﷺ ، سواء كان من كبار التابعين أو من صغارهم وهو المشهور ، وقصره بعضهم على ما رفعه التابعي الكبير .

أما مراسيل صغار التابعين فإنها لا تسمى مرسلات على هذا القول ، بل هي منقطعة ، وقيل : إن المرسل هو ما سقط راو من إسناده فأكثر من أي موضع كان ، وعلى هذا فالمرسل والمنقطع سواء ، والقول الأول هو المشهور والأكثر في الاستعمال .

جاء في «ألفية العراقي على مقدمة ابن الصلاح» :

مرفوع تابع على المشهور مرسل أو قيده بالكبير
أو سقط راو منه ذو أقوال والأول الأكثر في استعمال

مراسيل مالك:

قد أخرج الإمام مالك في «الموطأ» أحاديث كثيرة مرسلات قال عنها أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» : وكل من يتفق منهم لمالك ويتحله إذا سألت من شئت منهم عن مراسيل «الموطأ» قالوا : صحاح ، لا يسوغ لأحد الطعن فيها ، لثقة ناقلها وأمانة مرسلها ، وصدقوا فيما قالوه من ذلك .

الحديث مسنداً:

على أن هذا الحديث روي مسنداً عن مالك عن سهيل عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، من عدة طرق أخرى كما في «التمهيد» ، وأخرجه

الإمام مسلم في كتاب الأقضية من «صحيحه» مسندًا، قال : حدثني زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال» .

وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» قال : حدثنا عبد الله ، حدثنا أبي ، حدثنا عبد الصمد ، عن حماد ، عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله كره لكم ثلاثًا، ورضي لكم ثلاثًا؛ رضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تنصحوا لولاة الأمر، وكره لكم قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال» .

سهيل بن أبي صالح وأبوه :

سهيل بن أبي صالح الذي روى عنه الإمام مالك هذا الحديث رجل ثقة روى عنه الأئمة واحتجوا به وروى عنه الإمام مالك في «الموطأ» عشرة أحاديث ، وتوفي في أول خلافة أبي جعفر المنصور ، وأبوه أبو صالح اسمه ذكوان ، ويقال له : السمان والزيات ، قدم الكوفة في تجارة ، فروى عنه هناك الأعمش ، وروى عنه ابنه سهيل ، وتوفي بالمدينة سنة ١٠١ ، وهو معدود من أهل المدينة ، وروى عنه جماعة من علمائها جلة ، مثل زيد بن أسلم ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الله بن دينار وغيرهم .

رضا الله وسخطه :

قوله ﷺ : «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا» .

قال العلماء : الرضا والكراهة والسخط المنسوبة إلى الله تعالى ترجع إلى أمره ونهيه ، أو إلى إثابته وعقوبته ، أو إلى إرادته ذلك ^(١) .

«يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» ، فهو سبحانه يحب من عباده الإخلاص في عبادته في التوحيد ، وسائر الأعمال كلها التي يعبد بها ، ومنها الإيمان بأنه لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطي ولا يمنع على الحقيقة غيره ؛ لأن من أشرك بعبادته أحداً لم يعبد .

معنى حبلى الله :

«وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً» قال العلماء : حبلى الله في هذا الموضع له معنيان : أحدهما كتاب الله ، والآخر : الجماعة ، وهما معنيان متداخلان متقاربان ؛ لأن كتاب الله يأمر بالألفة ، وينهى عن الفرقة .

أدلة الاجتماع وعدم الفرقة :

قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران : ١٠٥] الآية ، وقال : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

وروي عن قتادة أنه قال : إن الله قد كره إليكم الفرقة ، وقدم إليكم فيها وحذركموها ونهاكم عنها ، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة ، فارضضوا لأنفسكم بما رضي الله لكم ، فقد ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول : «من فارق جماعة المسلمين قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه» ^(٢) .

(١) بل هو كما أراده رسول الله ﷺ ، ووصف بهم ربه تبارك وتعالى من غير تأويل .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) ، وأبو داود (٤٧٥٨) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وعن عبد الله بن مسعود قال في خطبته : «أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة»^(١) .

وروي عن أبي صادق عن علي بن أبي طالب أنه قال : «إن الإسلام ثلاث أثافي ؛ الإيمان والصلاة والجماعة ، فلا تقبل الصلاة بلا إيمان ، ومن آمن صلى ولازم الجماعة ، ومن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»^(٢) .

مغبة مفارقة الجماعة :

قد ذكر العلماء أن مفارقة الجماعة وشق عصا المسلمين ، يريق الدم ويبيحه ، ويوجب قتال من فعل ذلك .

وقوله ﷺ : «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» .

في «مسند الإمام أحمد» : «وأن تنصحوا» ، وفي «الجامع الصغير» للسيوطي : «وأن تناصحوا» . و«من ولاه الله أمركم» هو الإمام ونوابه ، بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه ، وقد قال ﷺ : «الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله؟ قال : لله ﷻ ، ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣) .

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩ / ١٩٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٩ / ٢٤٩) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦ / ١٧٠) .

(٣) سبق تخريجه .

ومناصحة أولى الأمر أنفع من معارضتهم ؛ لأن الإنسان يلين للجهة الناصحة ، ولا يلين للجهة القاذحة ، ويضيق بالقدح ولا يضيق بالنصح ، لأن النصح عمل إيجابي ، والقدح عمل سلبي .

شرح معنى قيل وقال :

قوله ﷺ : «يسخط لكم قيل وقال» .

قال الإمام مالك رحمته الله فيما نقل الزرقاني في شرحه على «الموطأ» : هو الإكثار من الكلام نحو قول الناس : قال فلان وفعل فلان ، والخوض فيما لا ينبغي ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع»^(١) .

والقيل والقال في زمننا لم يعد مقتصرًا على ما تلوكه الألسنة ؛ لأن الصحافة وبقية وسائل الإعلام إذا لم تكن جادة وملتزمة ومؤمنة برسالتها في المجتمع وفي البناء الحضاري ، لن ترقى فوق مستوى القيل والقال المنهي عنه ، وسوف تصبح أداة للهدم ، وتلويث العقل والتهريج والتضليل ونشر الأكاذيب والأباطيل ، وشغل الناس بالكلام الفارغ عن العمل النافع ، وقد جاء القرآن الكريم بضابط من أهم ضوابط الإعلام وهو التبين فقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَ كُفْرًا سِقُ بَنِي فَتَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] .

شرح معنى إضاعة المال :

قال ﷺ : «إضاعة المال» .

(١) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١٠ / ١) .

قال الباجي في «المنتقى»: يحتمل أن يريد بتضييعه ترك تثميره وحفظه ،
ويحتمل أن يريد به إنفاقه في غير وجهه من السرف والمعاصي .

ومعلوم أن ترك استثمار المال يعرضه إلى الضياع بتناقص قيمته مع
الأيام ، وتضييع فرصة الكسب عن الآخرين ؛ لأن الاستثمار يؤدي إلى
التشغيل والتشغيل يؤدي إلى الكسب ، وترك المال بدون استثمار ضياع
يسخطه الله تعالى ، كما يسخط صرفه في غير وجهه .

شرح معنى كثرة السؤال:

قوله ﷺ: «وكثرة السؤال» .

قال أكثر العلماء: معناه التكثير من المسائل والنوازل ، وكثرة السؤال عما
لم يقع ولا تدعو إليه الحاجة .

مسألة التقريب بين السنة والشيعة:

نرجع إلى موضوعنا الذي هو غاية درسنا ، وأول ما ينبغي اعتباره وحسابه
في هذا الموضوع وادكاره ، هو أن التقارب بين أهل السنة والشيعة أمر صعب ،
واعتبره بعض العلماء مستحيلاً ، وقالوا بإمكان التقريب بين أبناء الطوائف
والمذاهب الأخرى ، واستحالته مع الشيعة على الخصوص ؛ لأن الخلاف - كما
جاء في كتاب «بطلان عقائد الشيعة» لمحمد عبد الستار التنسوي رئيس منظمة
أهل السنة بالباكستان - خلاف أصولي ، وفي أمهات العقائد ، ثم إنه شديد
جداً ، حيث يخرج صاحبه من الملة على حد قوله .

والذي يظهر أن وقوف أهل السنة هذا الموقف المتشدد ، إذا نظرنا إليه
بمعزل عن الظروف السياسية ، والصراع الحاد الذي خاضه الشيعة من

أجل الوصول إلى السلطة وأثر ذلك في نشأة المذهب وطبيعته ، وهذا موضوع آخر يطول شرحه ، نجد هذا الموقف المتشدد لأهل السنة يرجع إلى أسباب وعوامل يمكن تلخيصها فيما يلي :

فرق الشيعة :

أولاً : إن الشيعة ليست فرقة واحدة ، وإنما هي فرق متعددة ، تصل إلى نحو ثلاثين فرقة ، منها معتدلة قريبة من أهل السنة مثل الزيدية والإمامية ، ومنها ضالة خارجة عن إطار الإسلام ، وهي فرق الغلاة مثل الباطنية والبيانية والمغيرية والجناحية والمنصورية والحلولية وغيرها ، وربما وجد الناس أقوالاً منكراً ، ومذاهب مكفّرة لإحدى تلك الفرق الضالة التي يطلق عليها لفظ الشيعة ، فظنوا أنه مذهب الجميع ، وهذا ليس صحيحاً .

ولقد انقرضت بعض هذه الفرق أو تلك ، ولكن أقوالهم ما زالت تملأ كتب الشيعة وتنتقل في ركام التراث الشيعي فتحسب عليه وتنسب إليه ، رغم الجهود التي يبذلها علماء الشيعة المعتدلون في تنقية مذهبهم من الشوائب ، والبراءة مما لصق به من أقوال كل مبتدع كاذب .

مبدأ التقية عند فرق الشيعة :

ثانياً : إن الفرقة الواحدة من هذه الفرق الشيعية لا تفصح عن حقيقة عقيدتها كل الإفصاح ، ولا تسفر عن وجهها بالإصلاح ، بل تخالط الناس بالبرانية وتخالفهم بالجوانية ، عملاً بمبدأ التقية خوفاً على المذهب من أعدائه وحفظاً لأسرارهم من أوليائهم .

ومع أن كثيراً من الناس شنعوا على الشيعة أبلغ تشنيع ؛ بسبب قولهم بالتقية وإظهارهم عكس ما يبطنون ، وإعلانهم ضد ما يكتُمون ، فإن فرق

الشيعة ليست في ذلك سواء ، فالفرق المعتدلة وإن قالت بالتقية فإنها في الغالب لا تخفي بها شرًا ولا تبطن مكراً ، أما فرق الغلاة فيتلبسون بها على الناس ، لبث سمومهم ونشر أوهامهم ويتسربون بها في مسارب العمل السري ، ويركبون مركب الغدر والخديعة لتحقيق أغراضهم وبلوغ أهدافهم .

التعمية والتعتيم في المذهب الشيعي:

ثالثاً : إن أصل المذهب مبني على محض الاختلاف في الأقوال والروايات مقصود فيه إلى التضارب في الأخبار والحكايات والغرض من ذلك هو التعمية والتعتيم لتضليل الخصوم ، وقد روى الكليني في الأصول من «الكافي» أخباراً كثيرة تدل على هذا الأمر ، وبين الغرض فيما رواه عن أبي عبد الله قال : من عرف أنا لا نقول إلا حقاً فليكتف بما يعلم منا ، فإن سمع منا خلاف ما يعلم ، فليعلم أن ذلك دفاع منا عنه ، وهذه الأمور الثلاثة التي مهدت بها ، جعلت مذهب الشيعة عند معظم الخلق كمًّا غامضاً ، يتحير العقل في أمره ، وتضيق السبل في سبر غوره ، فتوقف الناس في شأنه يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ؛ لأنهم ليسوا على بينة من أمره ، ولا يدرون هل وجهه الحقيقي في ظاهره أم في سره ، بل ربما اطلعوا على عقائد فاسدة للغلاة والفرق الضالة ، فحسبوا عقيدة الشيعة جميعاً ، وربما وقفوا على بعض المرويات والمقولات وحملوها على ظاهرها ، فوقعوا في الغلط سريعاً ، وسوف أضرب أمثلة على ذلك لأوضح أن جسور التقريب بين السنة والشيعة ما زالت رغم ذلك ممدودة ، وفرص التوفيق موجودة غير مفقودة ، وأن الأمر يحتاج فقط إلى جهود المخلصين من الطرفين ، في حوار نزيه مخلص ، لرفع الشك وإزالة الغموض ، وهذا من أوجب الواجبات وأكد الفروض .

مؤتمر التوفيق بين السنة والشيعة:

قد سبق عقد لقاء بين أهل السنة والشيعة منذ قرنين ونصف من الزمن، وكان اجتماعهم بالنجف وحضره مجتهدو الشيعة الإيرانيون وعلماء النجف وعلماء أهل السنة والجماعة من أرزلان والأفغان وما وراء النهر، وحضر هذا المؤتمر خلائق لا يحصر عددهم إلا الله من العجم والعرب والتركستان، وكان نادر شاه وهو أعظم ملوك إيران في ذلك العصر، يشرف شخصيًا على أعمال هذا المؤتمر، فقرر علماء الشيعة ومجتهدوهم جميعًا بلا استثناء، وعلى رأسهم عظيمهم الديني الملاً باشي أنهم ينزلون ويقولون بمذهب أهل السنة في مقام النبي ﷺ ومقام سيدنا علي كرم الله وجهه، ومقام الصحابة، فمن سب أو قال خلاف ذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وقد وضعوا جميعًا أختامهم على المحضر الرسمي لهذا المؤتمر، وهذه الوثيقة تضمنها كتيب ألفه رئيس هذا المؤتمر العلامة عبد الله السويدي العباسي من أهل السنة بعنوان: «الحجج القطعية باتفاق الفرق الإسلامية» وطبع سنة ١٣٢٣هـ بالقاهرة، ثم أعاد طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب بالرياض ضمن كتابه «الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية» وهو يسمي مذهبهم دينًا ويتحامل عليهم كثيرًا، ولا يرى التوفيق بيننا وبينهم ممكنًا.

مسألة تفضيل الأئمة على الأنبياء والرسل:

حينما ننظر مسألة تفضيل الأئمة على الأنبياء والرسل والملائكة وهي مسألة دقيقة شائكة خبط الناس فيها خبطًا، وخلطوا الكلام فيها خلطًا، ونسبوا إلى الشيعة هذا التفضيل، وأن الأئمة معصومون، وأنهم يعلمون

الغيب ، وأنهم يعلمون متى يموتون ، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم ، إلى آخره .

ومعظم هذه القضايا لا تقوم بالنسبة للشيعة المعتدلين أمام البحث العلمي النزيه ، فكيف يكون الأئمة أفضل من الأنبياء والملائكة ، ونحن نقرأ في كتب الحديث عند الشيعة أن سائلاً سأل أبا جعفر عليه السلام : جعلت فداك ، أنتم أفضل أم الأنبياء؟ قال : بل الأنبياء .

والخلط الواقع في هذه المسألة لا يبعد أن يكون واقعاً حتى في أذهان الشيعة أنفسهم الذين لا يفقهون مذهبهم كما يجب ، وليان ذلك فقد جاء في أصول الشيعة أن الأنبياء والرسل عليهم السلام منهم من كان نبياً رسولاً إماماً ، ومنهم من كان نبياً رسولاً ولم يكن إماماً ، ويضربون المثل بسيدنا إبراهيم عليه السلام ، فقد كان نبياً ولم يكن إماماً ، حتى قال الله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

ومن هؤلاء الأنبياء الأئمة : نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم ، وهؤلاء الأنبياء الرسل الأئمة ، هم أفضل سائر الأنبياء والرسل ، وهذا هو معنى الأئمة الذين يفضلون جميع الأنبياء والرسل ، هم الأنبياء الرسل الأئمة ، وهذا مقبول لا اعتراض عليه ، وكل شيعي يقول بأن الأئمة الإثني عشر أو من جاء بعدهم أفضل ، فهو جاهل بمذهبه مخالف لما ثبت عن هؤلاء الأئمة الإثني عشر أنفسهم .

مسألة علم أئمة الشيعة بالغيب :

أما أنهم يعلمون الغيب ، فقد روي في كتب الشيعة المعتمدة عندهم ، أن أبا عبد الله خرج ذات يوم وهو مغضب فلما أخذ مجلسه ، قال : يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلا الله تعالى .

مسألة علم أئمة الشيعة بموتهم:

أما أنهم يعلمون متى يموتون فإن الروايات الواردة في هذا الشأن والتي استعرضناها كلها تقول: إنها تدل على أنهم يشعرون بقرب آجالهم، مثل ما يحدث للعديد من عباد الله الصالحين، وهذا أمر استفاضت فيه أخبار الصالحين في كل زمان، وأما أنهم لا يموتون إلا باختيارهم فينصرف إلى تفضيلهم الموت على الحياة زهداً في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله ﷻ، وهذا منتهى حظهم في الاختيار^(١).

مسألة عصمة الأئمة:

تبقى عقائد أخرى مثل القول بعصمة الأئمة، وقد اعتمدوا فيها على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولما كان الرجس بمعنى مطلق الذنوب والآثام والخطأ، فإن نفيه عنهم من الله يعني عصمتهم، وهذه المسألة إذا رجعنا فيها إلى الأئمة أنفسهم، وأولهم علي كرم الله وجهه، نجدهم يعترفون بذنوبهم وأخطائهم ويستغفرون منها، ولا يدعون عصمة ولا غيرها، وإذا ذكرت العصمة فسروها بأنها الاعتصام بحبل الله، فقد سئل عنها علي بن الحسين فقال: إنها الاعتصام بحبل الله ثم تلا: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]^(٢).

(١) وهذا ضرب من الخلط في الفهم واعتذار عنهم في غير موطنه لأنهم يقصدون ما يقولون ويعتقدون فيها يسطرون.

(٢) وهذا التأويل من باب التقية.

كتب الشيعة المعتمدة لديهم :

المتأمل في هذه العقائد الفاسدة مثل العصمة والبداء والتفويض والشفاعة ، وتفضيل الأئمة على الأنبياء والرسل والملائكة لا يصعب عليه أن يكتشف أن أصل وجود هذا المذهب يرجع إلى خطأ في المنهج ؛ ذلك أن الشيعة اعتمدوا كتباً أربعة في الحديث واعتبروها مصدراً للتشريع ، واعتبروا كل ما ورد فيها حجة ، وكل أحاديثها صحيحة ، وكل أحكامها قطعية ، ولما كانت هذه الكتب الأربعة مليئة بالروايات والأحاديث المؤيدة لهذه العقائد الفاسدة ، وكان الشيعة لا يستطيعون التخلص منها ؛ لسبق قولهم بصحتها وقطعيتها ، تمكنت من النفوس ، وأناخت بكلكلها على المذهب ، وسدت الطريق أمام أي إصلاح ، رغم ما أظهره البحث من كذب أكثر تلك الروايات والأحاديث ، ومناقضتها لكتاب الله ، وللتأنيب من سنة رسول الله ﷺ ، وللمروى بالأسانيد الصحيحة عن الأئمة الإثني عشر أنفسهم ، وهذه الكتب الأربعة هي كتاب «الأصول من الكافي» للكليني ، وكتاب «من لا يحضره الفقيه» لابن بابويه ، وكتاب «التهذيب» ، وكتاب «الاستبصار» للطوسي .

وللثقة بهذه الكتب الأربعة ، استغنى بها الشيعة عما قبلها من كتب الحديث ، واكتفوا بها عن كل بحث أو تمحيص في هذه الروايات وأسانيدها ، جاء في كتاب «وسائل الشيعة» للحر العاملي : فمعلوم أن كتب القدماء ، إنما اندرست بعد ذلك ، لوجود ما يغني عنها ، بل هو أوثق منها مثل الكتب الأربعة ، وجاء فيه نقلاً عن الشهيد : إن الكتب الأربعة مروية بالأسانيد الصحيحة المتصلة والقوية ، والإنكار بعد ذلك مكابرة محضة ، وهكذا لم تعد هناك حاجة إلى البحث في صحة هذه الروايات المذكورة في هذه الكتب الأربعة ، ولا في ثقة رجالها ، وإلا كان ذلك مكابرة محضة ؛

لأن أصحاب الكتب الأربعة كما جاء في نفس المصدر ، كانوا متمكنين من تمييز الصحيح من غيره غاية التمكن . وهنا يظهر مصدر الخطأ الذي وقع فيه الشيعة ، ويظهر أيضاً الفرق بيننا وبينهم في المنهج .

الفرق بين منهج الشيعة ومنهج أهل السنة :

إننا نحن أهل السنة ، وإن كانت لنا كتب جامعة للصحيح ، وهي : «صحيح البخاري» ، و «صحيح مسلم» ، وكتب «السنن» ، فإن أصحابها رحمهم الله ، إنما قصدوا الصحة في الظاهر ، لا على سبيل القطع ، فبقي باب النظر فيها مفتوحاً ، قال صاحب الألفية :

وبالصحيح والضعيف قصدوا في ظاهر ، لا القطع ، والمعتمد
إمساكنا عن حكمنا على سَنَدٍ بأنه أصح مطلقاً وقد
خاض به قوم إلخ

ثم إن جميع الأحاديث عندنا تعرض على كتاب الله ، فما وافقه رويناه ، وما خالفه طرحناه ، كائنًا من كان راويه . ثم إن عندنا ميزانًا في علم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل ، فلا نروي إلا ما كان بنقل العدل الضابط ، عن العدل الضابط إلى منتهاه .

إمكانية الحوار بين السنة والشيعة :

في رأيي أن الحوار بيننا وبين إخواننا الشيعة ، لو انصب على المسائل المتفرعة في العقائد وغيرها لما وصلنا إلى أية نتيجة ، فوجب أن ينصب على المنهج ، وعلى ميزان واحد توزن به أقوال الطرفين وحجج الفريقين ، فما صح أخذنا به جميعاً ، وما اختلف طرحناه جميعاً . ومما يبشر بأن هذا الأمر ممكن ، أن أصواتاً مخلصه من علماء الشيعة ، ارتفعت للرد على حججة الكتب الأربعة التي ذكرنا ،

وإبطال القول بقطعية أحكامها ، ومن هؤلاء : أبو القاسم الموسوي الخوئي الذي ذكر في كتابه «معجم رجال الحديث» ، أن دعوى القطع بصدقهم في خصوص روايات الكتب الأربعة ، لا أساس لها ، وأنها بلا بينة ولا برهان ، وخلص إلى أنه لم تثبت صحة جميع روايات الكتاب الأربعة ، فلا بد من النظر في سند كل رواية منها . ومنذ بدأ التحقيق والبحث في صحة هذه الروايات أو عدم صحتها ، والكلام في رجالها وطرقها ، وارتفعت الدعوة إلى إعادة النظر فيها بين علماء المذهب ، بدأ الأمل يراود الجميع في الرجوع إلى الحق ، والقضاء التدريجي على العقائد الفاسدة المندرجة في المذهب ، والمنسوبة إليه ، وظهور التشيع السني الذي يمثل جسر التقارب الحقيقي .

الخلاصة :

إن آفاق الحوار واسعة ، وأسباب التقارب في الجملة غير منقطعة ، إلا أن الأمر يحتاج إلى جهود كبيرة ، ومراحل كثيرة في الدراسة العلمية الموضوعية ، التي من شأنها توفير معطيات ثابتة صحيحة ، ومعلومات واضحة صريحة ، تقضي على الغموض الذي يكتنف المذهب ، وتزيل الشك لدى من يريد أن يجيء فيه ويذهب ، وإلى أن يتم ذلك ، وتنقشع هذه الظلم الحوالم ، فإن أقصى ما يمكن أن نطمح إليه في هذه المرحلة ، هو التآخي والتعاون في الجملة ، والتسامح والتساكن بين كل دولة ودولة ، أما الشعوب ومخاطبتها ، وترويج كتب الشيعة فيها ومفاتهاها باسم التقريب بين الفرقتين أو التوفيق بين الطائفتين ، فأمر سابق لأوانه ، ومطلب في غير إبانه ، لاسيما وأن الحمى الأولى أن يُحمى ، وليس أجدر بمذهبننا أهل السنة أن يُحمى .

المحاضرة الثانية والثمانون بعد المائة

كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم

مقدمة:

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام، أبي عبد الله سيدي محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه البخاري الجعفي رحمته الله، ونفعنا جميعاً ببركته وبعلمه آمين، قال: باب من أخذ بالركاب ونحوه، قال: حدثنا إسحاق بن منصور، قال: أخبرنا عبدالرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة...» إلى آخر ما سيأتي إن شاء الله.

نبذة عن شهر رمضان:

قبل أن نبدأ محاضرتنا لابد أن نعرج على تلك المناسبة وهي شهر رمضان، هذا الشهر الذي جاء فيه أن: «من صامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

هذا الشهر الذي ورد فيه أن النبي ﷺ قال: «استكثروا فيه من أربع خصال: خصلتان ترضون بهما ربكم، وخصلتان لا غناء لکم عنهما، فأما

(١) سبق تخريجه.

الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه ،
وأما الخصلتان اللتان لا غناء لكم عنهما : فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به
من النار»^(١) .

فضل صيام رمضان وقيامه :

هذا الشهر المبارك الذي جعل الله صيامه فريضة ، وقيامه تطوعاً ، وجاء
فيه : «من قام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢) .

هذا الشهر الذي أجمع الله فيه الناس عن الأكل والشرب وعن جميع
المفطرات ، وذلك هو لجام التقوى ، ينبغي للإنسان أن يصون نفسه فيه
عن المحرمات ، وأن يحبس لسانه عن كل ما ليس بخير ؛ لأن النبي عليه
الصلاة والسلام يوصينا أن نحبس ألسنتنا ، وأن لا نتكلم إلا بالخير : «من
كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٣) .

هذا الشهر الذي ينبغي للمؤمن أن يجتهد فيه غاية الاجتهاد حتى
لا ينسلخ إلا وقد غفر الله له جميع ذنوبه ، ولا ينبغي له أن يضيعه في اللهو
واللعب وغير ذلك من أنواع الأمور التي يشتغل بها كثير من الناس ،
فذلك لأن النبي ﷺ يقول كما في «الصحيح» : «من لم يدع قول الزور
والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» ، ويقول عليه
الصلاة والسلام : «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، ورب

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٨٧) ، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٣٠٥) من
حديث سلمان رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٧) ، ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه .

قائم حظه من قيامه السهر»^(١)، هذا الشهر ينبغي للإنسان أن يصونه ، فإذا صانه فهو صائم ، وإن لم يصنه فغير صائم .

لا تجعلن رمضان شهر فكاكة تلهيك فيه من الحديث فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله حتى تكون تصومه وتصونه
إذا لم يكن في السمع مني تصاون وفي بصري غض وفي منطقي صمت
فحظي إذن من صومي الجوع والظما وإن قلت إني صمت يوماً فما صمت

المحذورات في رمضان :

هذا الشهر الذي ينبغي للإنسان أن يتحرى فيه ، فلا يفطر إلا بعد تحقق غروب الشمس ، وذلك لأنه إذا أفطر من غير رخصة ولا سفر ، فإنه إن أفطر يوماً من هذا الشهر لم يقضه صيام الدهر وإن صامه ، كما جاء في الحديث .

هذا الشهر الذي جعل الله فيه الدعاء مستجاباً ، وجعل فيه كذلك التقوى مضاعفاً أجرها ، فمن أدنى فريضة فيه كان كمن أدنى سبعين فيما سواه ، كما جاء كل ذلك في الأحاديث الشريفة .

هذا الشهر الذي ينبغي للإنسان أن يصوم فيه عن جميع المفطرات ، عن الأكل والشرب والجماع ومقدماته ، ولأجل ذلك يقول الفقهاء : إن مقدمات الجماع إذا كان الإنسان يعلم السلامة من نفسه تكون مكروهة في نهار رمضان ، أما إذا كان لا يعلم السلامة من نفسه فهي حرام ، يقول في «المختصر» : مقدمة الجماع كقبلة وفكر إن علمت السلامة وإلا حرمت .

ويكره اللمس وفكر سلماً دأباً من المذي وإلا حرماً

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٩٠) ، وأحمد في «مسنده» (٣٧٣ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فإن وقع ونزل وتعمد الإنسان إخراج المنى نهائاً في رمضان ، فمعلوم في الفقه الإسلامي أن عليه الكفارة والقضاء ، يقول في «المختصر» : وكفر إن تعمّد بلا تأويل قريب وجهل في رمضان فقط ، جماعاً أو أكلاً أو شرباً . . . إلى آخره ، فالله تبارك وتعالى يوفقنا لنقوم بما يجب علينا في هذا الشهر .

فضل بر الوالدين :

هذا الشهر الذي ورد فيه أن النبي ﷺ كما رواه ابن خزيمة والحاكم : «قال لأصحابه : احضروا المنبر ، فحضرنا ، يقول الراوي : فلما ارتقى الدرجة الأولى ، قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية ، قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة ، قال : آمين ، فلما نزل قال له الصحابة : سمعنا منك شيئاً ما كنا نسمعه من ذي قبل ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن جبريل عرض لي في الدرجة الأولى ، فقال : من أدرك والديه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخله الجنة فأبعده الله ، فقلت : آمين» . هذا ترغيب في بر الوالدين وتحذير من العقوق ، وأن من أدرك أبويه معاً أو أحدهما فلم يبرهما حتى يدخله الجنة ، فقد دعا عليه سيدنا جبريل بالبعد من رحمة الله ، وأمن على دعائه سيد العالمين ﷺ ، فهذا الدعاء مستجاب ولا إشكال .

فضل رمضان :

فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : «من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله ، فقال النبي ﷺ : آمين» ، ومعناه أن من أدرك رمضان ، ولم يشتغل فيه بالعبادة وبجميع أنواع الطاعة حتى انسلخ رمضان ، ولم يفر فيه بطائل فقد دعا عليه سيدنا جبريل بأن يبعده الله من رحمته ، وأمن على دعائه سيدنا محمد ﷺ .

فضل الصلاة على النبي ﷺ :

فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : «من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله ، فقال : آمين» . ولأجل ذلك يقول العلماء : إن الصلاة عليه ﷺ تجب على كل مسلم وقتها سمع ذكره ﷺ ، سواء سمعه بالاسم الظاهر أو بالضمير أو باسم الإشارة أو بالوصول أو بغير ذلك ، فإنه مطلوب بأن يصلي على سيدنا محمد ﷺ ؛ لأن هذا شيء أخبر الله به في القرآن ، بعد أن أخبر أنه سبحانه وتعالى يصلي على رسوله ﷺ هو وملائكته : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] ، فالواجب على الإنسان أن يكون على بصيرة من هذا .

فضل إمطة الأذى عن الطريق والتحذير من أذى المسلمين :

لنرجع إلى المقصود بالذات ، وهو الدرس الذي قرر تدريسه وتحليله ، فإنه يروي الإمام البخاري هذا الحديث في أربعة مواضع :

أولاً : رواه في إمطة الأذى عن الطريق ، باب إمطة الأذى عن الطريق ، وذكره معلقاً ، فقال : وقال إسحاق عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «يميط الأذى عن الطريق صدقة» ، والمراد بإمطة الأذى هو أن يزيل الأذى من طريق المسلمين ، وألا يلقي الأذى في طريقهم ؛ لأن النبي ﷺ يقول : «من أذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه لعنتهم»^(١) ، فينبغي للإنسان ألا يضع في الطريق شيئاً يؤذي المارة ، ولأجل ذلك يقول الفقهاء في

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣ / ١٧٩) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١ / ٤٨٣) : إسناده حسن .

آداب قضاء الحاجة ، واتقاء حجر ، وريح ، ومورد ، وطريق ، وظل ، وصلب ، لأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يصون الطرقات عن النجاسات والقاذورات والعفونات والمزلاقات ، والمؤذيات ، ولأجل هذا يذكر الفقهاء في أبواب الدية ، أن من وضع شيئاً مزلقاً في الطريق ليمر فلان منها وليزلق فيسقط فيموت ، فوقع ذلك ، أنه يقتل به ؛ لأنه متسبب ، والمتسبب كالمباشر ، وقد أشار في «المختصر» إلى هذا في أبواب الدية ، كذلك من ربط دابة ركالة في الطريق فمر شخص ، فركلته الدابة فمات ، فإن ذلك الشخص الذي ربط الدابة يقتل بذلك الشخص الذي ركلته الدابة ؛ لأنه متسبب والمتسبب كالمباشر ، وكذلك من ربط كلباً عقوراً على باب حانوته فجاء شخص لبيع معه ويشترى ، فثار عليه الكلب فعضه فمات ، فإن ذلك الشخص الذي اتخذ ذلك الكلب العقور يقتل به ؛ لأنه خالف ما جاء عن نبينا ﷺ من إمطة الأذى عن الطريق ، فعلينا أن نحافظ على طرقاتنا ، وألا نقذرهما ، ولا نجسهما ، ولا نعفنهما ؛ لأنه يكون دليلاً على نظافتنا .

دِنْ بالنظافة فالنظافة ديننا والشعر عنوان النظافة في الأصح

شرح حديث: «كل سلامى من الناس عليه صدقة»:

هذه خصلة من الخصال التي جعلها سيدنا محمد ﷺ صدقة حينما قال : «كل سلامى من الناس عليه صدقة» ، والمراد بالسلامى المفصل ، كما جاء ذلك مصرحاً به في حديث رواه الإمام مسلم ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «خلق الإنسان على ستين وثلاثمائة مفصل» ، فإذا أصبحت هذه المفاصل سالمة بقي الرقيق منها رقيقاً ، وبقي الغليظ منها غليظاً ، وبقي الطويل طويلاً ، والقصير قصيراً ، فقد استحقت أن

يتصدق عن سلامتها، وأن يتصدق المرء المسلم عن كل مفصل من هذه المفاصل بصدقة، ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «كل سلامي من الناس عليه صدقة»، وأفضل ما فسر به «سلامي» أنه المفصل؛ لأنه مفصل بالوارد، وخير ما فصلته بالوارد، وهناك من قال: المراد بالسلامي: الأئمة، يعني مفاصل الأصابع، ثلاثة مفاصل: براجم رواجب أشاجع، معناه: أن الله تعالى أكرم بني آدم، وجعل أصابعه فيها مفاصل كثيرة، بحيث يمكنه أن يقبضها وأن يبسطها، ولذلك مدح ذلك الممدوح بقوله:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها، فليثق الله سائله

وهذا يعني مبالغة في المدح؛ لأنه يصف هذا الرجل الممدوح بأنه تعود بسط الكف، دائماً يبسط كفه؛ لأنه يعطي بكفه المبسوطة: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها، فليثق الله سائله

وجوب شكر الله:

يجب على كل إنسان شكر الله تبارك وتعالى أن يؤدي عن كل مفصل من هذه المفاصل الثلاثمائة والستين صدقة في كل مطلع شمس، فالله تبارك وتعالى يطلب منا أن نشكره سبحانه لا إله إلا هو: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

تفسير الشكر:

﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ الله تبارك وتعالى في القرآن ، وفسره سيدنا محمد ﷺ ، أما تفسيره في القرآن فقول الله تبارك وتعالى : ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ، فالشكر هو العمل الصالح ، هو أن تعبد الله تعالى بجميع جوارحك ، بلسانك ، وقلبك ، وبصرك ، وسمعك ، وكل جارحة من هذه الجوارح ، شكرها معلوم .

فشكر العينين أنك إذا أبصرت بهما خيراً أعلنته ، وإن أبصرت بهما شراً سترته .

وشكر اللسان هو أن تستعمله في ذكر الله ، وفي طاعة الرحمن : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء : ١١٤] .

وشكر الأذنين أنك إذا سمعت بهما خيراً أعلنته ، وإن سمعت بهما شراً سترته .

وشكر اليدين ألا تأخذ بهما ما لا يحل لك أخذه ، ولا تستعملهما فيما حرمه الله عليك .

وشكر الرجلين أن تسعى بهما إلى الجمعة والجماعات ، ومجالس الوعظ والإرشاد ، وما يفيدك مع الله .

وشكر البطن هو أن تجنبه كل ما حرمه الله عليك ، وألا تدخل إليه إلا مباحاً ، وهكذا .

ولذلك يقول الإمام الجنيد : الشكر ألا يعصى الله بنعمه .

فقد أنعم علينا بالبصر فلا نستعمله في المحرمات ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

وأنعم علينا بالسمع ، فلا نسمع به إلا ما يرضي ربنا : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، لا بد أن يسأل الإنسان عما سمعه ، وعما أبصره ، وعما وقع في قلبه ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

أنواع الشكر:

الشكر هو أن ينصب العبد قدميه في محراب العبودية ، وأن يطيع الله تبارك وتعالى ، وأن يستغرق أوقاته في الطاعة ، وألا يغتر بالدنيا ، وألا يغتر بأمهال الله له ، وألا يغتر بإسباغ الله النعم عليه ، ربما يكون ذلك استدراجاً ، فينبغي له أن يشكر الله ليزيده ؛ لأنه يقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، قال ابن عطاء الله في «الحكم» : من لم يشكر النعم ، فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها .

أمثلة لأنواع الصدقة:

الواجب على الإنسان الشكر ، ولأجل ذلك أرشدنا ﷺ إلى أن نشكر الله تعالى على سلامة هذه المفاصل التي تبلغ ستين وثلاثمائة مفصل ، «على كل سلامي من الناس صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس» ؛ لأن هذه الصدقة مطلوبة في كل يوم ، فكل يوم تطلع فيه الشمس يعدل الإنسان بين اثنين صدقة ، يعدل بين المتحاكمين ، أو بين المتخاصمين ، أو بين

المتهاجرين ؛ ليكون سبباً في دوام الألفة بينهما ، وفي إزالة النفرة التي بينهما ، فهذه صدقة تصدق بها على أولئك المتخاصمين ، أو على أولئك المتحاكمين ، أو على أولئك المتهاجرين ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته صدقة ، والمراد بالدابة ما يركب عليه ، ولو كانت سفينة ، كذلك فإن الإنسان يحتاج إلى المعين ، فإذا أعنت شخصاً على الركوب على دابته أو على سفينته ، أو على حمل متاعه عليها ، فتلك صدقة تصدقت بها على ذلك الرجل المعان ، وتعين الرجل في دابته ، فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة .

الكلمة الطيبة صدقة :

الكلمة الطيبة من ذكر وثناء على الله ، وصلاة على رسول الله ﷺ ، أو ثناء على أخيك المسلم ، أو مدح له ، أو سلام عليه ، أو رد السلام عليه ، أو أمره بالمعروف ، أو نهيهِ عن المنكر ، أو نصحه ، أو غير ذلك مما هو طيب .

«والكلمة الطيبة صدقة» : فعلينا أن نتخلق بهذه الأخلاق ، وأن نكون فيما بيننا لا يخاطب بعضنا بعضاً إلا بالكلمة الطيبة ، لنكون من الناس الذين يتصدقون شكرًا لله تعالى على سلامة مفاصلهم .

الخطوات إلى المسجد صدقة :

«وكل خطوة» هكذا بفتح الخاء ، من الخطو ، أو خطوة ما بين القدمين . «كل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة» ، معناه أن الإنسان إذا مشى من منزله إلى المسجد بقصد أن يصلي مع الناس جماعة ، فكل خطوة صدرت منه فإنها صدقة ، تحسب له صدقة ، وتحسب له شكرًا على تلك النعم التي أنعم الله بها عليه ، من سلامة جميع مفاصله ، وعلى هذا فكثر الخطا هي أفضل من

قلتها ، فيلزم من ذلك أن الصلاة في المسجد البعيد أكثر أجراً من الصلاة في المسجد القريب ، وذلك لأن كثرة الخطأ إنما هي في المساجد البعيدة .

ولذلك فإن بني سلمة لما أرادوا أن ينتقلوا من ديارهم البعيدة عن مسجد الرسول ﷺ أمرهم النبي ﷺ ألا يفعلوا ، وأمرهم أن يلزموا مساكنهم : «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»^(١) ، فما هو الأحسن ، أن تستعمل خطاك فيما يرضي الله ، أو أن تستعمل خطاك فيما يغضب الله ويسخطه ، كن على بصيرة .

أنواع أخرى من الصدقات :

اعلم أن النبي ﷺ نصحننا نصحاً عظيماً ، وأرشدنا وعلمنا وهدانا ، ولا غرابة في أن نقول : هداًنا ؛ لأن الله أطلق عليه في القرآن أنه هاد ، حيث قال : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وكل خطوة أو كل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، والأمر بالمعروف وكذلك صدقة ، والنهي عن المنكر كذلك صدقة ، والمراد بالمعروف ما عرفت مشروعيته في الشرع ، ما أمر به الشرع ، وذلك كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وغير ذلك من الأخلاق الطيبة يعني من تبسمك في وجه أخيك المسلم ، ومن قضاء حوائج إخوانك المسلمين ، فإن الله تعالى خلق أقواماً لا شغل لهم إلا قضاء حوائج إخوانهم ، فهذا كذلك من جملة أنواع الصدقات ، كما أنه من الصدقات أن تفرغ من دلوك في إناء أخيك ، كما أنه

(١) أخرجه مسلم (٦٦٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

من الصدقات غير ذلك مما سيأتي إن شاء الله بيانه بحول الله تعالى وقوته بعد الفراغ من حديث الإمام البخاري رحمته الله ، وكذلك مسألة الدلالة على الطريق ، ولذلك يقول ابن الحاج في «المدخل» : ينبغي للمسلم إذا خرج من منزله إلى الصلاة ألا تكون نيته حضور الجماعة فقط ، والصلاة ، وتحصيل فضل الجماعة الذي جاء فيه : «إن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»^(١) ، بل ينوي عدة أمور ، ينوي أنه إذا سمع بمريض عاده ، وإذا وجد جنازة شيعها ، وإذا وجد مسكيناً تصدق عليه ، وإذا وجد ضالاً هداه الطريق ، وإذا وجد متخاصمين أصلح بينهما ، وهكذا ، فكل ما نواه يثاب عليه ؛ لأن النبي عليه السلام يقول : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٢) .

جاء في «صحيح مسلم» : «أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم كان جالساً مع أصحابه ، فقال لهم : هل فيكم من أصبح صائماً؟ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أنا يا رسول الله ، قال : هل فيكم من شيع جنازة؟ فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، فقال : هل فيكم من عاد مريضاً؟ فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، فقال : هل فيكم من أطعم مسكيناً؟ فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» ، يعني هذه الخصال الأربعة ، ما اجتمعت في امرئ بأن كان يقوم بها ، يشيع الجناز ، ويعود المرضى ، ويطعم المساكين ، ويصوم يعني : يصوم التطوع ، يصوم الإثنين والخميس ، يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ،

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥) ، ومسلم (٦٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) سبق تخريجه .

يصوم صيام داود عليه السلام ، قال فيه النبي ﷺ : «أحب الصيام إلى الله صيام داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»^(١) .

«ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» ، ويطعم المساكين ، يعطف عليهم ، وخصوصاً في شهر رمضان ، فإنه يذوق حرارة الجوع ، ويذوق حرارة العطش ، فيحمله ذلك على أن تتركب فيه الرحمة والشفقة على المخلوقات فيعطف عليهم ، فيكون في الصيام فائدة عظيمة ، وهو تهذيب النفس ، والشعور بأحوال المسلمين الضعفاء ، الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة ، وأن يتبع أخلاق المصطفى ﷺ ؛ لأن النجاة في ذلك ، ولأن السلامة في ذلك ، أما كونه يكون غافلاً عن ذلك ، فهذا مما لا ينبغي للمسلم .

قال : «ودل الطريق» ومعناه : الدلالة على الطريق لمن كان جاهلاً بها .

فضل التسبيح :

كذلك كل تسبيحة كما عند الإمام مسلم : «كل تسبيحة صدقة» ، كل تسبيحة .

يقول الرسول ﷺ كما عند البخاري وغيره : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» .

ويقول الرسول ﷺ : «سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله وأتوب إليه من قالها كتبت كما قالها ، ثم علقت بالعرش ،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٠) ، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه .

لا يمحوها ذنب عمله صاحبها حتى يلقي الله ، وهي مختومة كما قالها»^(١) ،
فالتسبيح شيء عظيم ؛ المراد به تنزيه الله عما لا يليق به ، والتخلية مقدمة
على التحلية ، فالتسبيح مقدم على التحميد ، ومقدم على التهليل
والتكبير ، والتسبيح ، جاء في الحديث : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، وهذا
الحديث ذكره الإمام القسطلاني في «المواهب اللدنية» ، وعبر بقوله يعني
ترجم للحديث بقوله : دواء الفقر ، ثم ساق حديثاً : «أن رجلاً جاء إلى
النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! لقد أدبرت عني الدنيا ، فقال له النبي ﷺ :
أين أنت من صلاة الملائكة ، وتسبيح الخلائق ، وبه يرزقون - أين أنت من
صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبه يرزقون - قل عند الفجر مائة مرة
سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله ، تأتلك الدنيا
صاغرة ، فذهب ذلك الصحابي وغاب مدة ، ثم رجع إلى النبي ﷺ وقال :
يا رسول الله ، والله لقد أقبلت علي الدنيا حتى إني لا أجد أين أضعها» .

فضل الصدقة مع اليقين :

هذا شأن من يسمع الأحاديث والآيات القرآنية فيعمل بها بصدق نية
وحسن عزيمة ، أما المتشكك والمتردد فإنه بعيد من أن ينال ما في القرآن ،
أو ما صرح به الحديث الشريف ، كان بعض التابعين كما ذكر الحافظ
الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ، كان يأخذ ثلاثمائة دينار في خراجه ، ويتصدق
بها في طريقه ، فإذا أصبح وجد ما تصدق به تحت وسادته ، فسمعه بعض
أقاربه فأراد أن يفعل مثله ، فتصدق أولاً ثم بحث تحت الوسادة فلم يجد
شيئاً ، وتصدق ثانياً فبحث فلم يجد شيئاً ، وتصدق ثالثاً فلم يجد شيئاً ، ثم

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢ / ١٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

قال لذلك الرجل : ما بالك تتصدق بخراجك وتجده تحت الوسادة ، وأنا تصدقت مراراً متعددة فلم أجد شيئاً؟ فأجابه وقال له : أنا أفعل ذلك وأنا متيقن أن الله سيخلفني : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ : ٣٩] ، وأنت تفعل ذلك تجربة ، والكريم لا يجرب ؛ لأنه كريم ، وقد وعد بأن يخلف ما أنفق الإنسان : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] ، فلأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يفعل ما جاء عن النبي ﷺ وهو متيقن أنه لا بد أن يقع ، وأنه ﷺ صادق مصدوق ، لا ينطق عن الهوى ، وأن جميع ما أخبر به واقع ، غير أن ذلك ربما تحقق بحسب النية ، وربما تخلف بحسب النية : ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال : ٧٠] ، و : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) .

فضل حمد الله :

«وكل تحميدة صدقة» ، يعني قولك : الحمد لله ، أو حمدت الله ، أو أنا أحمد الله ، وكل ما اشتق من مادة الحمد ، فإن الإنسان إذا حمد الله تبارك وتعالى بلسانه وقلبه ، فإنه تصدق على نفسه ، وشكر نعمة سلامة مفاصله .

فضل ذكر الله :

«وكل تهليلة صدقة» ، لا إله إلا الله ، المراد بالتهليلة .

يقول النبي ﷺ : «إنه لما لقي سيدنا إبراهيم ، قال : أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر» ، زاد في

(١) سبق تخريجه .

رواية: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١).

وهذا الذكر له خصائص كبيرة ينبغي للإنسان أن يحافظ عليه ، بل ينبغي للإنسان أن يحافظ على الذكر في كل وقت وحين ؛ لأن الله يقول في كتابه المبين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] ، قال مجاهد : الذكر الكثير ألا ينسى العبد مولاه ، وقال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما : الذكر الكثير هو التسبيح والتهليل ، والتحميد ، لذلك أتبعه الله تعالى بقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤٢] .

فالذكر هذا شيء مأمور به كتاباً وسنة ، ويكفي أن الذاكر إذا ذكر الله ، ذكره الله ، وأين ذكر العبد من ذكر سيده؟! ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٤١] ، ويقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فذكر الله هو سبب لكل خير ، ولأجل ذلك ما كان ﷺ يترك ذكر الله ، تقول عائشة ؓ : «كان ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»^(٢) ، أي في جميع

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢) ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود ؓ .

(٢) أخرجه مسلم (٣٧٣) .

أوقاته، وجاء عن سيدنا موسى أنه لما كان في المناجاة، قال: «يا رب أقرب فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ فقال له الله تبارك وتعالى: إني جليس لمن ذكرني - ومصادقه - : أنا معه إذا ذكرني، أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، أنا جليس لمن ذكرني، زاد سيدنا موسى: يا رب، إني أكون على حالة أُجَلِّك أن أذكرك عليها - يعني حالة الجنبانة - فقال له الله سبحانه وتعالى: اذكرني على كل حال، فإن ذكر الله مطلوب في جميع الأوقات، إلا إذا كان الإنسان في حال قضاء حاجته، هناك ينحى ذكر الله كما هو معلوم في الفقه الإسلامي: وبكنيف نحى ذكر الله تعالى.

أما عند إرادة الجماع، فقد جاءت مطلوبة الذكر في «صحيح الإمام البخاري» عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فقضي بينهما ولد، لم يضره»، وهذه فائدة عظيمة في كون الإنسان إذا نطق بهذا الذكر يكون أولاده محفوظين من نزغات الشيطان ولا يكون للشيطان سبيل عليهم بخلاف من لا يذكر هذا الذكر، فإن أولاده تكون نواصيهم بأيدي الشياطين... إلى آخره، لذلك النبي ﷺ حضنا على أن نقول هذا عند إرادة الجماع: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فقضي بينهما ولد لم يضره»، فذكر الله مطلوب في جميع الأوقات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، يعني الذكر الكثير ألا ينسى العبد مولاه.

قالوا أتسى الذي تهوى فقلت لهم يا قوم من هو وروحي كيف أنساه وكيف أنساه والأشياء به حسنت من العجائب أن ينسى العبد مولاه

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]، فكل من نسي الله لا يذكر الله ونسيه ، فقد سجل القرآن عليه أنه فاسق : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ١٩، ٢٠] .

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»^(١) ، مثل الذي يذكر ربه كممثل الحي ، ما دام الإنسان حيًّا فهو ينتفع بحياته ، ولا ينقطع عمله إلا إذا مات : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يبثه في صدور الرجال ، أو ولد صالح يدعو له»^(٢) ، أما إذا بقي حيًّا فإنه ينبغي له أن يذكر الله وألا ينساه ، لئلا يكون كالميت .

هذا في «صحيح الإمام البخاري» : «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ، مثل الحي والميت» .

فضل التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير :

قال : «وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة» .

جاء في حديث آخر في «صحيح الإمام مسلم» وهو عند البخاري ، نعم الروايتان مختلفتان ، أما الإمام البخاري فقد روى لنا : «أن جماعة من فقراء

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

المهاجرين قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل أموال، يتصدقون ولا نتصدق، فقال لهم ﷺ: ألا أخبركم بما إن فعلتموه أدركتم من قبلكم، ولم يدرككم من بعدكم إلا من فعل مثله: تسبحون، وتكبرون، وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتختمون المائة بلا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد كذا عند البخاري، فلما علم النبي ﷺ السادات المهاجرين هذا الذكر، وذكره سمع به إخوانهم الأنصار فصاروا يذكرونه، فرجعوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: «يا رسول الله سمع إخواننا بما فعلنا، ففعلوا مثله» أي سمعوا بأنك لقتنا ذكراً نذكره دبر الصلوات فصاروا يذكرونه، فشاركونا في كل شيء، فلم تبق لنا خصوصية، فقال لهم النبي ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

شرح حديث أهل الدثور:

تكلم الحافظ ابن حجر وغيره في شرح هذه الجملة: «ذلك فضل الله»، هل يعود ذلك على الذكر؟ أو يعود على الغنى وعلى المال؟ بمعنى أن الله تعالى هو الذي يؤتي الأموال للإنسان، ويلهمه أن يتصدق بها ويصرفها فيما يرضي الله، أو ذلك يعود على الذكر، ومعناه أن الله هو الذي يثيب على الذكر بفضل سبحانه لا إله إلا هو.

أما الإمام مسلم فقد جاء في روايته أنه ﷺ قال لهم، لما قالوا: «ذهب إخواننا أهل الأموال بالدثور»، الدثور هي الأموال، الدثور جمع دثر هكذا بفتح الدال، كفلوس جمع فلس، والمراد بالدثور الأموال، «قالوا: ويتصدقون ولا نتصدق، قال لهم النبي ﷺ: أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟» يعني لا تقولوا هذا؛ لأن الله تعالى جعل لكم ما تتصدقون به

وإن بغير المال؛ لأن الصدقة ليست مختصة بالمال بل أهل الأموال يتصدقون بأموالهم كما جاء في الحديث، وأهل الأقوات يتصدقون من قوتهم، والعلماء يتصدقون من علمهم، بمعنى أنهم لا يبخلون بعلمهم على الناس، بل يعلمون الناس، ويعقدون مجالس العلم في كل وقت وحين، وفي كل مناسبة، ويعلمون الناس العلم الذي ينفعهم، «أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة».

فضل إتيان الزوجة:

قال النبي ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة»، يعني أنه ﷺ أخبرهم بأن الإنسان إذا أتى أهله فذلك الإتيان هو صدقة، إذ تصدق به على نفسه، حيث كفها عن النظر إلى المحرمات، وتصدق على زوجته، حيث لم يبقها يعني متشوقة إلى الغير، وتصدق على المجتمع الإنساني؛ لأن تلك الواقعة والمواقعة ربما خرج منها ولد يكون ممن يكثّر سواد المسلمين.

«وفي بضع أحدكم صدقة»، نعم، الصحابة هنا استغربوا كون الإنسان يأتي شهوته، ويكون له فيها أجر، ويكون إتيانه صدقة، فقالوا له ﷺ: «أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال ﷺ: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟» (هذا القياس) قياس شيء على شيء، أحد الأمور التي بنى عليها الإمام مالك مذهبه، «أرأيتم لو وضعها في حرام؟ أي أخبروني لو وضع الإنسان شهوته في حرام: «أكان عليه وزر؟» فسكتوا، فكأنهم قالوا: نعم يكون عليه وزر، فقال لهم ﷺ: «فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر»، وفي هذا الحديث حمل للشبان ولغير المتزوجين على أن يتزوجوا؛ لأنهم إذا علموا أن الزوج يكون فيه استكمال الشهوة

النفسانية الطبيعية التي خلق الله الإنسان مجبولا عليها، وحكم عليه بالضعف في قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، بمعنى أنه لا صبر له على النساء، إذا علم أن إتيانه امرأته فيه صدقة، وفيه استكمال الشهوة، فإنه يبادر إلى التزوج، ويمثل قول النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أحصن للفرج، وأغض للبصر، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١). أي خصاء؛ لأنه يضعف الشهوة، يعني إذا طال، أما إذا كان بعض أيام معلومات فإنه ربما كان سببا في ثورانها، ولأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة.

الشاهد عندنا في أنه ﷺ قال لهم: «أوليس الله قد جعل لكم ما تتصدقون به؟» وأخبرهم بأمور أخرى يتصدق الإنسان بها من جملتها أنه إذا أتى أهله ففي ذلك صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر».

وعلى كل حال هذه الخصال التي ذكرها سيدنا محمد ﷺ كلها المراد منها شكر الله تعالى على سلامة المفاصل.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

المحاضرة الثالثة والثمانون بعد المائة

المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء

مقدمة :

انطلاقاً من قوله ﷺ : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكالات يقرن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »^(١) .

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ، أرسله بين يدي الساعة ، شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، فبصر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وهدى به من الضلال ، وفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وأنزل عليه كتابه المبين ، فشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونشني عليك الخير كله ! نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ! إن عذابك الجد بالكفار ملحق !

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) من حديث المقدم بن معدي كرب رحمته الله ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

الإسلام والطب:

«المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء» هذه القاعدة الذهبية التي تنسب إلى النبي ﷺ هي على الأصح من كلام الحارث بن كلدة الثقفي ، وهو مقدم أطباء العرب في عهد الرسالة ، وقد كان النبي ﷺ يثق بطبه ، ويأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده .

وفيما صح عنه صلوات الله عليه كثير من هذا الهدى المبارك ، كالذي رواه الترمذي ، وابن ماجه ، والنسائي في «سننه الكبرى» ، وابن حبان ، والحاكم ، وأحمد في «مسنده» ، وابن سعد ، والطبراني في «معجمه الكبير» ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» . . . كلهم عن المقدام بن معدي كرب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن! بحسب ابن آدم أكلات -أو قال : لُقَيْمَات- يُقْمَن صلبه ، فإن كان لا محالة -وفي رواية : فإن غلبت الآدمي نفسه ، فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس» .

ولابد لي من مقدمة أضع بها هذا الموضوع في إطاره الصحيح ، فقد أجمع الأطباء -من قبل ومن بعد- على أن الطب طِبَّان : حفظ الصحة على الأصحاء ، ورد الصحة على المرضى بالمداواة وبالتأهيل .

وقد ورد عن النبي ﷺ جملة أحاديث تصف بعض الأدوية لبعض الأمراض ، واهتم بها بعض العلماء ، ظانين أنها جزء من الدين والوحي الإلهي ، ولكن الواقع أن منها ما هو مما عرفته العرب من خبرات البيئة وتجاربها ، كما جاء في الحديث المتفق عليه ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : «إن كان في شي من أدويتكم خير -أو قال : شفاء- ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار توافق الداء ؛ وما أحب أن أكتوي» ، ومنها

ما يليق ببيئة معينة في حرارتها ومناخها وظروفها، كالبيئة الصحراوية العربية ولا يمكن أن يحمل على العموم لكل الناس - كما بين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» - ورسول الله ﷺ - كما يقول ابن القيم - إنما بعث هاديا ، وداعيا إلى الله ، وإلى جنته ، ومعرفا بالله ، ومبينا للأمة مواقع رضاه وآمرأ لهم بها ، ومواقع سخطه وناهيا لهم عنها . . . وأما طب الأبدان فجاء من تكميل شريعته ، ومقصودا لغيره .

إقرار النبي ﷺ لمبدأ التداوي وأمره به :

في هذا الشطر من شطري الطب ، شطر المداواة ، أن النبي ﷺ قرر مبدأ التداوي وأمر به ، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود عن أسامة بن شريك رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : «تداووا!!» ، وفي رواية الترمذي : «نعم يا عباد الله تداووا!!» ؛ وفتح باب الأمل على مصراعيه أمام المرضى في إمكان الشفاء من كل مرض كما في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» ؛ وحث الأطباء على التفتيش عن الدواء والقيام بالبحث العلمي الذي يوصلهم إليه ، بقوله صلوات الله عليه في الحديث الذي رواه مسلم وأحمد عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء ، برأ بإذن الله» ، وفي رواية لأحمد : «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله» .

والمهم في شطر المداواة أيضا أن النبي صلوات الله عليه وسلامه وضع للناس قضية التداوي في موضعها الصحيح ، يوم قيل له - فيما رواه الترمذي عن أبي خزيمة - أرأيت رُقِيَ نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال ﷺ : «هي من قدر الله» . مبينا

بذلك -بأبي هو وأمي- أن أقدر الله تدفع بأقدار الله ، فلا مكان في الإسلام للتواكل باسم التوكل ، بل إن المسلم مأمور بأن يدفع قدر الله بقدر الله ، متوكلا في ذلك على الله .

والمهم في شطر المداواة كذلك أن النبي ﷺ قد قاوم ما يسمى «بالطب الروحاني» واحترم الطب القائم على الملاحظة والتجربة ، والأسباب والمسببات ، وأبطل ما أشاعته الوثنية الجاهلية عند العرب وغيرهم ، من أطراح الأسباب الظاهرة والسنن الكونية ، والاعتماد على الأسباب الخفية والقوى المجهولة ، من تائم ، ورقى غير مفهومة ، وشعوذة يروجها السحرة والدجالون . . . فقال صلوات الله عليه في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر : «من علق تيممة فقد أشرك» ، وفي رواية عنه لأبي داود والنسائي وابن ماجه والحاكم : «من علق تيممة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا ودع الله له» أي لا تركه الله في دعة وسكون .

حفظ الصحة من الإيمان :

هذا ما كان من أمر ما ورد في هديه ﷺ في التداوي ، أما حفظ الصحة على الأصحاء فذلك جزء واضح من هديه صلوات الله عليه ؛ لأن قواعد حفظ الصحة قواعد عامة ، تنسجم مع سنن الله في خلقه ، والقوانين التي وضعها الخالق لخليقته ، وتسعى إلى المحافظة على خلق الله في وضعه الأمثل ، فقد قال سبحانه في سورة الأعلى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾﴾ [الأعلى : ١ ، ٢] ، وقال عز من قائل في سورة الانفطار : ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار : ٦ ، ٧] ، وقال تبارك وتعالى في سورة الشمس : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس : ٧] .

فالمحافظة على وضع «السواء» هذا جزء أساسي من مقاصد هذه الشريعة ؛ لأن الشرع موضوع لجلب مصالح العباد ودرء مفاسدهم -كما يقول العز بن عبد السلام في كتابه النفيس «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»- ثم يوضح ذلك بقوله : والشريعة كلها إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح ، فإذا سمعت الله يقول : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، فتأمل وصيته بعد ندائه ، فلا تجدد إلا خيرا يثبتك عليه ، أو شرا يزجرك عنه ، أو جمعا بين الحث والزجر ، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد ، حثا على اجتناب المفاسد ، وما في بعض الأحكام من المصالح حثا على إتيان المصالح .

حقوق الإنسان في الإسلام:

اتفقت الأمة ؛ بل سائر الملل -كما يقول الإمام الشاطبي في «الموافقات»- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وهذه هي حقوق الإنسان الأساسية ! ونحن واجدون إن شاء الله بعد قليل تأمل أن ثلاثا من هذه الضروريات الخمس ، وهي النفس والنسل والعقل ، لا تكتمل المحافظة عليها إلا بحفظ الصحة .

فلا عجب إذن ، أن نجد في كتاب الله ﷻ ، وسنة نبيه ﷺ ، كثيرا من النصوص التي تضمن للإنسان حفظ صحته ، وتعزيزها ، والمحافظة على وضعه السوي الذي فطره الله عليه . ولو أننا تعمقنا في فهم هذه النصوص ، وطبقناها تطبيقا سديدا على ما ينبغي أن يفعله الإنسان ، إذن لوجدنا بين أيدينا سفرا مسهبا في فقه الصحة ، بناء على أن الشريعة هي النصوص المحكمة ، والفقه هو عمل الفكر الإسلامي في أعمال هذه النصوص .

حق الجسد في الإسلام:

يأتي في مقدمة هذه النصوص المباركة ذلك النص الفريد الذي لا نجده في أي كلام آخر سوى كلام المعصوم صلوات الله عليه وسلامه ، وهو قوله في الحديث المتفق عليه عن عبدالله بن عمرو : «إن لجسدك عليك حقاً» .

وقد توصل الناس بعد أربعة عشر قرناً من تقرير الإسلام لحقوق الإنسان إلى إصدار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى إعلان «حق الجسد» ، الذي من حقه على صاحبه أن يطعمه إذا جاع ، ويريمه إذا تعب ، وينظفه إذا اتسخ ، ويحميه مما يؤذيه ، ويقيه من الوقوع في براثن المرض ، ويداويه إذا مرض ، ولا يكلفه ما لا يطيق . وهو حق واجب لا يجوز في نظر الإسلام أن ينسى ويهمل لحساب الحقوق الأخرى ، ولو كان منها حق الله ﷻ .

التوازن في الإسلام:

من أهم النصوص التي نستمد منها فقه الصحة ، قوله سبحانه وتعالى في سورة الرحمن : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن : ٧-٩] .

فهذه الآية الجامعة تتحدث عن هذا الميزان الذي وضعه الله جل وعز في طبيعة هذا الكون بمختلف منظوماته ومنها الإنسان ، فتلفت النظر إلى هذا التوازن الذي يتنظم فيه كل شيء ، وتنبه إلى أن أي إخلال به ، أيا كان اتجاهه طغياناً كان أم إفساراً ، يمكن أن يخل بهذا الميزان ويفضي إلى أسوأ العواقب ، كما قال سبحانه في سورة يونس : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس : ٢٣] .

الاعتدال مطلوب:

لقد فهم الطبيب العربي المسلم ذلك واستوعبه ، وطبقه في مجال الصحة ، معبرا عن هذا التوازن الديناميكي بتعبير الاعتدال . فقال علي بن العباس مثلاً قبل ألف عام بكل إيجاز : «الصحة هي اعتدال البدن» .

وعبر عن ديناميكية هذا التوازن ابن سينا - قبل ألف عام أيضا - بقوله : «الاعتدال الذي للإنسان له عرض - مجال - وله في الإفراط والتفريط حدان» .

فهو إذن ميزان يتأرجح بين حدين يحدان الاعتدال .

الميزان الصحي والرصيد الصحي:

لحفاظ على «الميزان الصحي» في حالة الاعتدال ، وحمايته من الاختلال ، وإعادته إلى الاعتدال كلما اختل ، ينبغي أن يكون للمرء «رصيد صحي» إن صح التعبير ، وردت الإشارة إليه في حديث البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما : «وخذ من صحتك لمرضك» .

وهذا الرصيد الصحي قد يعني حالة تغذوية حسنة ، وقد يعني ذخيرة مناعية جيدة ، وقد يعني لياقة بدنية تمكنه من التكيف تكيفا ناجحا إزاء الضغوط التي يتعرض لها البدن ، وقد يعني طمأنينة أو استقرارا عاطفيا وانفعاليا ، يجعله قادرا على مجابهة الكربات النفسية التي تزعزع الكيان ؛ بل الحق أن الرصيد الصحي إنما هو جماع ذلك كله .

هذا الفصل من فصول فقه الصحة هو الذي نعتبره اليوم في منظمة الصحة العالمية من مكتشفات هذا العصر ، متحدثين عن بعدين اثنين للصحة ، هما

بالحرف «الميزان الصحي» و«الرصيد الصحي» كما نطلق على السبل المتخذة للحفاظ على اعتدال الميزان الصحي اسم: «حفظ الصحة»، وعلى السبل المتخذة لزيادة الرصيد الصحي اسم: «تعزيز الصحة».

تعريف الصحة بين القديم والحديث:

في إطار هذين البعدين صاغت منظمة الصحة العالمية قبل خمسين سنة، تعريفها للصحة على أنها «المعافاة الكاملة، جسميا ونفسيا واجتماعيا، لا مجرد انتفاء المرض أو العجز».

يذكرنا ذلك بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه: «سلوا الله المعافاة، فإنه ما أوتي أحد بعد اليقين خيرا من معافاة». وقد كان لهذا التعريف - تعريف منظمة الصحة العالمية - وقع كبير، فقد كان الأطباء من قبل يعرفون الصحة على أنها انتفاء المرض، كالذي يعرف الحياة بأنها انتفاء الموت! وأغفل جهابذة النصف الأول من القرن العشرين ما قاله أطباؤنا... أطباء الحضارة العربية الإسلامية قبل مئات السنين.

فالصحة - كما قال الطبيب الفقيه ابن رشد قبل ثمانمائة عام: «هي حالة في العضو، بها يفعل الفعل الذي له بالطبع أو ينفع الانفعال الذي له».

أو هي كما قال علي بن العباس قبل ألف عام: «حال للبدن، تتم بها الأفعال التي في المجرى الطبيعي».

أو هي كما قال ابن النفيس قبل سبعمائة عام: «هيئة بدنية تكون الأفعال بها لذاتها سليمة... والمرض هيئة مضادة لذلك».

فالصحة عند أطبائنا جميعا هي الأساس والمنطلق ، والمرض هو الهيئة المضادة للصحة ، وهم إنما فقهوا ذلك من قول ربهم ﷻ : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار : ٧] ، وقوله عز من قائل : ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة : ٣٨] ، وقوله سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس : ٧] .

ومما يلفت النظر في هذا التعريف الحديث عن معافاة كاملة لا عن مجرد معافاة ، فمادة «ع ف و» التي تشتق منها المعافاة في «لسان العرب» ، أصل يدل على الكثرة والفضل . فـ«عفو» كل شيء : خياره وأجوده وما صفا منه وكثر . وهذه هي الصحة التي نريدها للإنسان في خير أحواله وأفضلها وأجودها وأرقاها بدنيا ونفسيا واجتماعيا وروحيا .

الإسلام والصحة :

الإسلام يعتبر الصحة نعمة من أعظم نعم الله ﷻ ، بل هي أعظم نعمة بعد الإيمان ، لقوله ﷺ فيما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ؛ الصحة والفراغ» ، وقوله صلوات الله عليه فيما رواه ابن ماجه عن سيدنا أبي بكر رضى الله عنه : «ما أوتي أحد بعد اليقين خيرا من معافاة» ، وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الحسن الذي رواه الترمذي عن عبد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه : «من أصبح منكم آمنا في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها» .

والمحافظة على هذه النعمة الجليلة ، نعمة الصحة تكون بشكرها ، لقول الله ﷻ في سورة إبراهيم : ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧] ، ولقوله

سبحانه في سورة النحل : ﴿إِنَّ إِثْرَهُمْ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [النحل : ١٢٠] ، أي : قدوة وأسوة ، علينا جميعاً أن نقتدي به ونأتسي ونأتم ، ولا سيما بكونه - كما تذكر الآية التي بعدها - ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ [النحل : ١٢١] .

وانتهاج أي سلوك ، أو الإقدام على أي تصرف ، يؤدي إلى التفريط بهذه النعمة أو تبديلها وتغييرها ، يفضي إلى زوال نعمة الصحة ، وإلى العقوبة بالمرض ، مصداقاً لقوله ﷻ في سورة البقرة : ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة : ٢١١] ، وقوله جل شأنه في سورة الأنفال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

مبدأ لا ضرر ولا ضرار :

ثمة مبدأ آخر مهم من مبادئ فقه الصحة ، يتلخص في كلمتين اثنتين : «لا ضرر ، ولا ضرار» . وهذه العبارة الجامعة الفذة ، حديث شريف ، رواه الدارقطني عن أبي سعيد الخدري ، وقال عنه الحاكم : صحيح على شرط مسلم . ولعل خير ما يفسر به هذا الحديث أنه نهي عن الإضرار بالنفس والغير ، بالفرد والمجتمع . وقد جاء تحريم الضرر في كتاب الله ﷻ في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقوله في سورة الأنعام : ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمَ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٠] ، مع قوله سبحانه في سورة البقرة عن الخمر والميسر : ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] فجعل الإثم نقيض النفع فهو الضرر إذن ، وهو - كما نرى - محرم بنص القرآن ، لا يحل للمسلم أن يضر بنفسه أو يضرار بغيره ، وذلك في كتاب الله

كثير؛ كما في آية البقرة: ﴿لَا تُضَاكِرْ وَلِدَةً يُوَلِّدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولِدُهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: والذي منع أبواه من المضاربة به هو الولد بلا شك. وكما في آية النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وآية البقرة: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. ويدخل في ذلك كل تصرف يمكن أن يؤدي بحياة المراء عاجلاً أو آجلاً. وكما في سورة الأنعام والإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وآية الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وآية الأنعام الأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكما في آية الأحزاب: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]. وقد كان من أهم عناصر البيعة التي يأخذها الرسول ﷺ من النساء جميعاً أن لا يقتلن أولادهن، وهو نص سورة الممتحنة.

ومن ذلك في هدي رسول الله ﷺ كثير، كما في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة: «والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! قالوا: من هو يا رسول الله خاب وخسر؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه». قال الإمام ابن تيمية في «فتاويه»: فإذا كان هذا بمجرد الخوف من بوائقه، فكيف فعل البوائق مع عدم أمن جاره منه؟ والبوائق: الغوائل والشرور.

وكذلك الحديث المتفق عليه عن أبي ذر: «تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك».

فالرسول صلوات الله عليه وسلامه يقول في الحديث الذي رواه أبو نعيم عن أنس بن حذيفة: «ألا إن كل مسكر حرام، وكل مخدر حرام - هكذا بلفظ مخدر - وما أسكر كثيره حرم قليله، وما خمر العقل فهو حرام».

والمقصود بما خمر العقل -والله أعلم- تلك المواد التي نطلق عليها في مصطلح اليوم اسم المواد النفسانية : التأثير ، والمصطلح النبوي أدق وأوضح وأوقع .

والتبغ لم تكن أضراره معروفة من قبل ، ومن أجل ذلك اعتاد الناس تدخينه دون معرفة بأذاه ، فلما أخذت أضراره المحققة تتكشف في العقود الثلاثة الأخيرة ، كانت العادة قد استحكمت فيمن دخن ، وذلك بفعل مادة النيكوتين التي في التبغ ، وهي من المواد المحدثه للتعود .

ولفقهاء الشريعة تفصيل لطيف في الموضوع ، فهم يحرمون التدخين على من لم يدخن أصلا ، ولا سيما الأطفال والشباب والنساء الذين تتزايد أعداد المدخنين بينهم زيادة مخيفة في بلداننا النامية ، وتشتد الحرمة وتتضاعف إذا كان هذا التدخين بمحضر من الغير ، جنينا كان أم طفلا ، أم امرأة حاملا ، أم شيخا كبيرا ، أم أي واحد من خلق الله .

فالإضرار بالغير أكبر من الإضرار بالنفس ، وقد نهى النبي ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يؤذي جاره ، والجار في مقعد الطائرة جار ، وفي مقعد الحافلة جار ، وفي الأماكن العامة جار ، والجار في داخل البيت جار ذو قربى . وقد أمرنا الله سبحانه في سورة النساء بالإحسان إلى الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . وليس تعريض أي منهم إلى مضار التدخين من الإحسان في شيء .

العدوى من باب الضرر والضرار:

يدخل في باب الضرر والضرار موضوع العدوى . فلا يجوز للمسلم أن يعدي أخاه ، أو يتهاون في ذلك ، أو يجلب أسباب العدوى إلى المجتمع ،

حتى لقد يميل المرء إلى أن يفهم قول النبي عليه الصلاة والسلام الذي رواه الإمام أحمد : « لا عدوى ولا طيرة » على أنه نهي عن العدوى كما أنه نهي عن التطير ، وليس نفيا لها كما أنه ليس نفيا للتطير . وقد وردت أحاديث كثيرة بهذه الصيغة للدلالة على النهي والزجر ، ألصقها بموضوعنا : « لا ضرر ولا ضارا » .

الوقاية والتوقي من الإسلام:

من المبادئ الأخرى المباركة في فقه الصحة ، الأمر بالوقاية والتوقي وقد تقدم حديث الترمذي عن أبي خزيمة يوم قال الناس لنبي الله صلوات الله عليه وسلامه : أرأيت رقى نسترقها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال : « هي من قدر الله » . كذلك أخرج الخطيب في « تاريخه » عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ومن يتوق الشر يوقه » . ومن أجل ذلك أبى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدخل على الطاعون ، وقال لأبي عبيدة لما سأله : أتفر من قدر الله؟ قال له : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ! .

وقد حرج رسول الله ﷺ كثيرا تعريض أي من أفراد المجتمع لأي أذى أو ضرر ، وأمر باتخاذ جميع الاحتياطات الكفيلة بوقايتهم من ذلك ، فقال في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى : « من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل ، فليمسك - أو ليقبض - على نصالها بكفه ، أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشيء » .

المعدة بيت الداء:

بعد هذه المقدمة التي طالت ولم يكن منها بُد ، أعود إلى المعدة التي هي

بيت الداء ، وإلى البطن الذي ما ملأ ابن ادم وعاء شرا منه ؛ فأحدث عنها في ضوء ما تقدم من تعظيم شأن نعمة الصحة ، وتحريم الإضرار بالنفس ، واتباع سبل الوقاية ، والحرص على ما ينفع الإنسان ، لقوله ﷺ فيما رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة : « احرص على ما ينفعك » .

وليس يخفى أن المعدة هي المحطة الأولى من محطات الغذاء بعد مروره بالفم والمريء ، ومن أجل ذلك كان علينا أن نبحث عن هدي الإسلام في الغذاء والتغذية ، وهو ما نحاول أن نستنبطه فيما يلي من النصوص الشرعية .

معنى الصدقة وأبوابها :

أول ما يصادفنا في هذا المقام ، الحديث الذي رواه الإمام البخاري في «الأدب المفرد» عن المقدم بن معدي كرب ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة » .

أقف وقفة غير موجزة عند لفظ «الصدقة» .

وأقرب ما يرد إلى خاطر في شأنها ، أنها بدلالة اسمها مصداق التزام المرء بالإسلام ، ومصداق انتمائه إلى المجتمع الإسلامي ، يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام - فيما رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري : «والصدقة برهان» .

وهذه المصدقية تتجلى بأنماط متعددة من السلوك ، كل منها يبرهن على شعور المرء بهذا الالتزام بالإسلام ، وبهذا الانتماء إلى مجتمع المؤمنين الذي يضم أفرادا متحضرين حضرهم الإسلام ؛ فلعل أقرب مفهوم إلى لفظ الصدقة ، هو ما نقول له اليوم : «السلوك الحضاري» أو : «التصرف الحضاري» .

والإسلام يطلب من المسلم أن يبرهن يومياً على انتمائه إلى المجتمع الإسلامي المتحضر، وذلك بتصرف حضاري واحد على الأقل .

ففي ذلك التوجيه العام الذي أصدره معلم هذه الأمة صلوات الله عليه قال فيما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر : «على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه» .

ولقد تبادر إلى ذهن السامع ، قصر مفهوم الصدقة على المظهر المادي لها ، فسأله : من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ وكان الجواب التوضيحي المفصل أن للصدقة أبواباً عديدة :

لأن من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وأستغفر الله ، وتأمراً بالمعروف وتنهي عن المنكر ، وتغزل الشوكة عن طريق الناس والعظمة والحجر ، وتهدي الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف . . كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك .

وفي حديث آخر أو رواية أخرى عن أبي ذر رواها الترمذي - والسياق له - والبخاري في «الأدب المفرد» ، وابن حبان : «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك الرجل الرديء البصر صدقة ، وإمادتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة» .

وفي حديث ثالث عن أبي ذر : «تعين صانعا أو تصنع لأخرق»^(١) .
وفي حديث رابع رواه البخاري في «الأدب المفرد» : «كل كلمة طيبة صدقة ، وعون الرجل أخاه صدقة ، والشربة من الماء تسقيها صدقة ، وإمالة الأذن عن الطريق صدقة» .

الدروس المستفادة من حديث الصدقة :

في ظلال هذا الجو الحضاري المحلق ، نعود ثانية إلى معلم الناس الخير عندما يقول : «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة» ثم نبحت في ذلك بتفصيل :

● فتحري الغذاء الطيب ، واجتناب الغذاء الخبيث ضمانا للصحة ، والله سبحانه يقول في سورة البقرة : ﴿كُلُوا مِمَّنْ طَيَّبَتْ مَا رَزَقْتَكُمْ﴾ [البقرة : ٥٧] ، وفيها أيضا : ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة : ١٦٨] ، ويقول ﷺ في صفة النبي ﷺ في سورة الأعراف : ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

● والامتناع عن الغذاء الطيب بلا مسوغ مشروع ، أمر مناف للصحة ، ولا يسمح به الإسلام ، يقول الله ﷻ في سورة المائدة : ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة : ٨٧] .

● والتغذية الصحية هي التغذية المتوازنة ، تحقيقا للميزان الذي وضعه الله في كل شيء ، وجاء ذكره في سورة الرحمن : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧-٩] .

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) .

● هي أولا التغذية المتوازنة من حيث الكم ؛ فالإسراف في الغذاء مضر بالصحة ، لما يؤدي إليه بصورة مباشرة من اضطراب الهضم والتخمة ، ولما يؤدي إليه بصورة غير مباشرة من أمراض فرط التغذية التي يقال لها اليوم : «أمراض الرخاء» ، أو «أمراض التخمة» ، ومن أهمها «السكري» أو مرض السكر ، وارتفاع ضغط الدم ، وأمراض شرايين القلب المحدثه للذبحة والجلطة ، وأمراض شرايين الدماغ المؤدية إلى السكتة والفالج ، وما إلى ذلك .

وبذلك تكون المعدة بيت الداء حقا ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وتكون مسئولة عن طائفة من أخطر الأمراض ، وهذا الإسراف في كم الغذاء مخالف لتعاليم الإسلام ؛ إذ يقول الله سبحانه في سورة طه : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه : ٨١] ، ويقول النبي ﷺ في حديث المقدام بن معدي كرب : «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه»^(١) أي : يكفيه الحد الأدنى من الغذاء الذي يفي باحتياجاته الحيوية الأساسية ، ويقول في الحديث الذي رواه مسلم عن جابر : «طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية» .

هذا ما كان من أمر التوازن من حيث الكم .

● ولكن التغذية الصحية هي أيضا التغذية المتوازنة من حيث المحتوى ؛ وهي تشتمل على مزيج من مختلف أنواع الأغذية التي أنعم الله بها على

(١) سبق تحريجه .

عباده لسد حاجة الجسم من البروتينات والدهنيات والنشويات والأملاح والفيتامينات ، وغيرها ، والتي ذكر الله سبحانه معظمها في سورة النحل وهي سورة النعم ؛ إذ فيها قول الله ﷻ : ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل : ٥] ، وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ تَكْوِلاً مِنْهُ لَحْمًا طَرِيفًا﴾ [النحل : ١٤] ، وقوله : ﴿يُنِيبُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل : ١١] ، وقوله : ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل : ٦٦] ، وقوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل : ٦٩] ، هذا إلى قوله سبحانه في سورة الحج : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج : ٣٦] ، وقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، وقوله في سورة يس : ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس : ٣٣] .

- ويفضل الإسلام الأغذية الكاملة ، فيرجح مثلا استعمال الدقيق الكامل على الدقيق المنخول ، كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أم أيمن أنها غربلت دقيقا فصنعتة للنبي ﷺ رغيفا ، فقال : «ما هذا؟ فقالت : طعام نصنعه بأرضنا فأحببت أن أصنع منه لك رغيفا ؛ فقال : رديه فيه ثم اعجنيه» .

قواعد صحية مهمة في الإسلام:

- من القواعد الصحية : غسل اليدين قبل الطعام ، تحاشيا لتلويثه ببعض ما قد يضر ، ووقاية للمعدة من التهيج أو الالتهاب بفعل هذا الضار .

وقد كان ﷺ إذا أراد أن يأكل غسل يديه ، كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة .

● ومن القواعد الصحية : حفظ الطعام والشراب من التلوث ، والإسلام يأمر بتغطية الطعام حماية له من التلوث كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن جابر : « غطوا الإناء » ، وفي رواية البخاري عن جابر : « خمروا - أي : غطوا - الطعام والشراب » . كما يحرّج النبي صلوات الله عليه تلويث الغذاء والماء بمفرغات البدن التي تحمل الجراثيم وتنقل العدوى ، فيقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة : « لا يبولن أحدكم في الماء الراكد » ، ويقول في الحديث الذي رواه أبو داود عن معاذ بن جبل : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » . ولا يخفى أن تلويث موارد المياه بالبراز وما يشتمل عليه من جراثيم ، عامل أساسي في نقل الأمراض بصورة مباشرة من خلال شرب الماء الملوّث ، أو غير مباشرة من خلال تلوث الخضراوات والثمار التي تسقى بهذا الماء ، وفي ذكر الظل نكتة لطيفة ؛ لأن ما يكون في الظل لا تطهره الشمس ، فيبقى مرتعا خصبا للجراثيم ويعمل على تكثيرها .

المعدة إذن بيت الداء حقا إن أساء المرء التصرف ، وأخل بالموازين ، وجانبه الاعتدال في أمره كله . والبطن شر وعاء يملأ متجاوزا به حدود السواء والحكمة .

فكيف السبيل إلى اتقاء ذلك كله؟

السبيل مرسوم بالشرط الثاني من المقولة والحديث الشريف .

الإسلام يأمر بالاعتدال:

الاعتدال من حيث الكم : ثلث للطعام ، والاعتدال من حيث الكيف :
الحمية رأس الدواء .

فكمية الطعام التي يتناولها المرء ينبغي أن لا تزيد على ثلث حجم معدته ؛ لأنه لا بد له من سوائل يشربها ليسيغ طعامه ، ويستمرئ غذاءه ، ويعوض ما يفقده البدن من سوائل في مفرزاته ومفرغاته ، وقد قدر النبي صلوات الله عليه ثلثا آخر من أجلها ، ثم لا بد له من ثلث ثالث ، هو ضروري لإبقاء جهاز التنفس قائما بوظيفته على الوجه الأكمل ، هذا إن فهمنا «النفس» على هذا النحو ، أما إن فهمنا «النفس» على أنه الهواء ، فلا بد من وجود هذا الحيز الذي نسميه جيب الهواء في المعدة ، وهو الذي نراه دائما مرتسما بلون أسود في الصور الشعاعية التي يدرسها الأطباء .

والاعتدال في الكم وحده يمكن أن يقي الكثير من الأمراض .

على أننا كثيرا ما نحتاج إلى الاعتدال في الكيف أيضا ، فمن المعد ما يؤذيها نوع معين من الطعام ، ومن الأبدان ما يؤذيه تناول نوع أو أنواع من الغذاء ، واتقاء هذا الأذى يكون بالحمية ، وهي في اللغة : منع المرء من تناول طعام معين يضره ، ولو أن الاستعمال اتسع بها ليدل على تناول نوع مفيد أو لازم في حالة معينة ، ومهما يكن من أمر فإن المقصود بها في نظري أن «تحمي» المرء من غائلة غذائية المنشأ .

الحمية رأس الدواء:

الحماية والوقاية أمران مهمان جدًّا ومتربطان جدًّا في نظر الطب وفي نظر الشرع .

فليس يخفى أن الصيام نوع مخصوص من أنواع الحمية ، وهو -بفضل الله- مما كتبه الله على عباده ، نحن والذين من قبلنا . وهذا النوع من «الحمية» يفيد -إذا أحسن أدائه- في «حماية» البدن من تراكم الرسوبات الغذائية المنشأ التي كثيراً ما يؤدي تراكمها إلى المرض . وهذه «الحماية» مقصودة لذاتها ، فقد روي عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : «صوموا تصحوا»^(١) و«الحماية» و«الوقاية» مترابطتان كما ذكرت . والله سبحانه قد كتب الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] . وهذه «التقوى» وإن تكن في المقام الأول هي تقوى القلوب ، فإنه ليسوغ لنا أن نفهمها أيضاً على أنها «وقاية» الأبدان . وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿وَلْيَأْسُ الْتَقْوَى﴾ [الأعراف: ٢٦] و﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] للدالة على معنى مادي محسوس ينضاف إلى تقوى القلوب . وهذه لطيفة من لطائف الكتاب العزيز .

ومما يعجب له المرء في عصرنا الحاضر أن موضوع الحمية أو التدبير الغذائي الذي احتل مكاناً عالياً في بحوث الأطباء ، وفي وصاياهم لمرضاهم ، إنما قصر اهتمامه أو كاد على الحمية عن الأغذية التي تؤدي إلى السمنة ، أو إلى ارتفاع ضغط الدم ، أو السكري ، أو انسداد الشرايين ، وهي في مجملها قوت قليل الدهون ولا سيما الدهون الجوامد (كالسمن والزبد والشحم) ، مشتمل على الدهون الموائع ولا سيما زيت الزيتون وعلى الدهن الذي في الأسماك غني بالنشويات والخضراوات والفواكه ، ولكنه لم يكد يتعرض إلى الحمية اللازمة لاتقاء أمراض الجهاز الهضمي نفسه .

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤١٦ / ٣) : رجاله ثقات .

ومن أجل ذلك أخذ الداعون يدعون في السنوات الخمس الأخيرة إلى الاهتمام بذلك ، وتوصل الباحثون إلى قوت آخر يلتقي مع الأول في جل عناصره ؛ ألا وهو القوت الغني بالألياف ، القليل الدهن ، الفقير بالمواد الحريفة الحارقة ، الفقير بسكر اللبن (اللاكتوز) ، والفقير بالبقول التي تحدث الغازات ، وهو قوت مثالي لقرحة المعدة والتهاب القولون وتهيجه وسائر اضطرابات الأمعاء .

وحينما نقول الغني بكذا والفقير بكذا ، فإننا نحاول أن نصل بكل مقوم من مقومات الغذاء إلى المستوى الذي يحافظ للجسم على حالة السواء التي سواه الله سبحانه وتعالى عليها وعدله . وهذا الاعتدال لب الحمية وجوهرها ، بل هو جوهر كل خير ولبابه .

المحاضرة الرابعة والثمانون بعد المائة

السلام في مفهوم الإسلام وفي منظور العصر

مقدمة :

إن الإسلام والسلام يجمعهما في أصل الاشتقاق جذر واحد ، يتألف من (سلم) كما يجمعهما أكثر من مدلول ، كالاستسلام والخضوع ، والسلامة من الآفات النفسية والخلقية . . وإلى ملامح أخرى مشتركة بين الإسلام والسلام الذي جعله الله شعارًا لخاتمة الشرائع .

ومن جهة أخرى ، فالإسلام دين جهاد ، أي قتال ، ولكن سماه جهادًا ؛ لأن القتال فيه لم يكن لذات القتال ، ولا كان يقع تحت ضغط العوامل الاقتصادية والأطماع التوسعية ، وذلك معنى (في سبيل الله) الوارد مرارًا في النصوص التي تحت على البذل نفساً ومالاً بهدف إعلاء كلمة الله .

فالإسلام إذن يدعو إلى الجهاد والسلام معاً ، وهذا منشأ التأمل وإرسال النظر في التوفيق بين دعوة الإسلام في نصوص صريحة إلى الجهاد الدائم واليقظة المستمرة التي يطلق عليها في لغة الشرع «المrabطة» ، وبين ترغيبه في السلام ودعوته إليه في نصوص أخرى ، تحمل طابع الإسلام وشعاره الذي يدل عليه كدين ينشر السلام والأمن في الأرض بصفة شمولية عالمية ، لأنه إعلان عام من الخالق الأعلى بتحرير الإنسانية من خوف الإنسان ومن عبادة الأوثان ، ومن سائر القيود التي تتحكم في إرادته ووجدانه بغاية أن يكون مسؤولاً عن نفسه وضميره دون عائق بينه وبين ما يعتقد ويختار ، فإذا زالت العوائق أمامه يكله الإسلام إلى ضميره ، لا يداخله في اختياره ، ولا يجبره على الدخول فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

مشروعية الجهاد:

أما الجهاد فهو مشروع لإزالة العوائق أمام الدعوة لتنتقل في مسار مفتوح، فالعصبيات الجاهلية والأنظمة المادية التي تصدر الحريات، وتعتدي على الحرمات، كل أولئك عوائق تصد الإنسان عن الحق، وتحجب عنه الإعلام برسالة الإسلام.

تدرج أحكام الجهاد في القرآن:

إن آيات القتال في القرآن الكريم نزلت على مراحل، وعلى قدر الحاجة إلى الجهاد، دفعاً للظلم والحرمان، ورداً مضاداً للعدوان، وابتداء لردع الطغيان، ومنعاً للقتال بالإعداد للقتال. وقبل هذه المراحل كانت مرحلة من الجهاد هي الكف عن القتال، والامتناع من التصدي لألوان من الأذى والتعدي كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]. كانت خطوات الجهاد تدرجاً رتيباً، وعداً تصاعدياً مضبوطاً، وليست حركات طائشة نتيجة الطفرة وحرق المراحل وسبق الأحداث، كما هو شأن الحركات الفاشلة التي تلغي قانون السنن الكونية. كانت أولاً بالبلاغ المبين قرآناً، وخطبة، ورسالة، على منهجه تعالى في مراعاة منازل الناس في الإدراك وأحوالهم النفسية، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

الجهاد بالحجة:

إن الجهاد في الإسلام أعم من الجهاد بالسلاح، والجهاد به أحد مدلولاته، وآخر ما يلجأ إليه حين تستنفد جميع الحلول، أما قبل ذلك

فهناك جهاد آخر هو الأساس ، لا عنف فيه ولا قتال ؛ إنه الجهاد بالحجة ، كما كان الشأن في عهد النبوة المكي ، فقد كان المفروض فيه هو الجهاد بالحجة أي بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] .

الجهاد بالكلمة :

وكانت الدعوة ثانيًا بالخطاب الذي يوجه نظر الإنسان إلى آيات الله الكونية عن طريق وسائل الإدراك الحسي والعقلي التي يتألف من مجموعها البرهان الذي يقود إلى طريق الهدى ، وقد تعددت أساليب الخطاب هذه في كتاب الله ، وتنوعت فيه أدوات البلاغ ، ففي الوحي المكي مثلاً من سورة الغاشية يوجه تعالى أنظار المخاطبين إلى الاعتبار بصنع الله البديع في خلقه ، فقال جل من قائل : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧-٢٠] . وقد اعتمدت هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة أسلوب الإدراك الحسي ، وذلك تأييداً لنظرية هذا الإدراك في معرفة العالم الخارجي وإثبات الحقائق ، مع العلم بأنه لا ينفصل عن التأمل الباطني والنظر العقلي .

الفلسفة اليونانية وقصور الإدراك :

كانت الفلسفة اليونانية لا تأخذ في إثبات الحقائق إلا بالإدراك العقلي ، ولتقديسها للعقل وحده ألغت الإدراكات الحسية ، فلم تكن تعتبرها لا في النفي ولا في الإثبات ، وقد كان أفلاطون يقدر فيها ، لأنها في نظره لا تفيد اليقين ، من أجل ذلك مات أرسطو وهو يعتقد أن أسنان الرجل أكثر من أسنان المرأة ، بناء على الاعتقاد السائد في اليونان القديمة من أن المرأة دون الرجل ، وأحط من كل طبقة في المجتمع .

استخدام الرياضة البدنية في الدعوة:

ثالثًا الدعوة بتبنيه فطرة الإيمان في الإنسان ، فأمر الحق سبحانه حامل الرسالة بالتذكير والإنذار ، دون أن يحمل هموم النتيجة السلبية ، كما جاء في قوله تعالى من سورة الغاشية : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] . وليس على الداعية إلا البلاغ ، وليس عليه أن يحمل الناس على الهدى ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] . لم يترك الرسول الأمين وسيلة سلمية إلا بلغ بها ، حتى الرياضة البدنية وظيفها ﷺ في سبيل الدعوة على وجه الرهان والتحدي ، وليس ذلك مستغربا بالقياس إلى الإسلام الذي من شأنه التفتح على الحياة بكل مفاهيمها الإنسانية ، فكان من خصائص منهجه في الدعوة أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويعاملهم كذلك على أساس عاداتهم وهوياتهم ، فالغاية النبيلة يجب العمل لها ، والوسائل ما دامت مقبولة يجب الاستعانة بها على الوصول إلى الغاية ، من أجل ذلك جاهد الرسول القوي الأمين بقوته الجسدية بهدف تكثير سواد المسلمين ، كما جاهد بالقرآن والبلاغ المبين . حدث ابن هشام عن ابن إسحاق قال : « كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم أشد قريش ، أي المصارع الأول ، فخلا يوما برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة فقال له رسول الله ﷺ : يا ركانة ، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال : إني لو أعلم أن الذي تقول حق لا تبعثك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أفرأيت إن صرعتك ، أتعلم أن ما أقول حق؟ قال : نعم ، قال : فقم حتى أصارعك ، فقام ركانة إليه فصارعه ، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عد يا محمد ، فعاد فصرعه ، ثم قال : يا محمد ، إن هذا للعجب ، أتصرعني؟ » فكان من نتيجة هذا الرهان إيمان ركانة ﷺ .

الجهاد ضرورة وليس أصلاً:

يظهر جلياً منذ المراحل الأولى لدعوة الإسلام أن السلام فيه هو الأصل والقاعدة، وأن الحرب هي الاستثناء تلجئ إليها ضرورة الدفاع أو إزالة الظلم وتكسير شوكة المعتدين، أو جهاد من يعترض سبيل المؤمنين.

السلام شعار الإسلام:

إنّ شعار الإسلام هو السلام، وكانت التحية الخاصة بالمسلمين هي: «السلام عليكم»، يتبادلونها فيما بينهم، وتتجدد في كل لقاء على وجه الندب أو الوجوب حتى أفرد لأفضليتها وأحكامها باب واسع في أصول التشريع الإسلامي، (السلام عليكم) توقيع عقد الأمان بين المسلم المسلم وبين من يرد عليه السلام، ومن ثم كان أمانة الإسلام، ووثيقة الأمن والسلام، وقد جعله الرسول أفضل خصال الإسلام فقال ﷺ في جواب من سأل أي الإسلام خير؟: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(١).

دليل من السنة:

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللهُ، في رواية صحيحة بسند العلامة الشيخ محمد الحبيب البوشواري رَحِمَهُ اللهُ، قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ: باب، السلام من الإسلام، وقال عمار: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الاقتار.

(١) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَوَاهُ عَنْهُمَا.

معنى الحديث الموقوف:

أورد البخاري رَحِمَهُ اللهُ هذا الأثر في كتاب الإيمان معلقاً وموقوفاً بصيغة الجزم ، حين قال : وقال عمار . والموقوف هو ما انتهى إلى الصحابي كما في هذا النص ، فيسمى موقوفاً بلا تقييد وإذا انتهى إلى تابعي من بعده يقيد الوقف ، فيقال - مثلاً - موقوف على طاوس ، أو على عطاء ، أو على مالك ، وقد أشار إلى ذلك العلامة العراقي في ألفيته فقال:

وسَمَّ بالموقوف ما قصرته بصاحب ، وصلت أو قطعته

أي سواء كان مقطوع السند كما في هذا الحديث ، أو كان موصوله كما في أحاديث أخرى رواها البخاري .

معنى الحديث المعلق:

أما كونه معلقاً فلأن البخاري حذف سنده إلى الصحابي عمار رَحِمَهُ اللهُ ، شبهوا المعلق بشيء معلق مفصول عن القاعدة ، وقد أشار العراقي إلى هذا فقال :

وإن يكن أول الإسناد حُذِفَ مع صيغة الجزم فتعليقاً عُرف

ماذا يسمى الموقوف؟

وهل يسمى الموقوف حديثاً أو أثراً؟ أكثر الفقهاء - كما قال النووي - يسمونه بالأثر ، ويسمون المرفوع بالخبر ، وعند المحدثين كل هذا يسمى «أثراً» ، قال السيوطي : لأنه مأخوذ من آثرت الحديث أي رويته . ومن جهة أخرى : فحكم المعلق إذا روي بصيغة الجزم هو الصحة ، وبالأخص إذا روي في «الصحيحين» ، بل قالوا : إن ما روى البخاري بصيغة التمریض

يدخل في حكم الصحيح . قال النووي في «التقريب» : فما كان بصيغة الجزم كقال وفعل وأمر فهو حكم بصحته عن المضاف إليه .

روايات أخرى للأثر:

بل إن هذا الأثر الذي علقه البخاري روي بثلاث درجات :

- ١ - علقه البخاري موقوفًا كما رأينا .
 - ٢ - وصله غيره كالإمام أحمد من طريق سفيان الثوري كما قال الحافظ ، وكما رواه يعقوب بن شيبه في «مسنده» عن طريق شعبة .
 - ٣ - رفعه آخرون إلى النبي ﷺ ، منهم عبد الرزاق في «مُصنّفه» ، وابن الأعرابي في «مُعْجَمه» ، وقال الحافظ : رويناه مرفوعًا من وجه آخر عن عمار أخرج الطبراني في «الكبير» .
- ومن جهة أخرى فالتعليق في «صحيح البخاري» كثيرة ، وقد عدوها فبلغت ألفًا وثلاثمائة وواحدًا وأربعين ، وليس في «صحيح مسلم» إلا سبعة عشر تعليقًا - كما قال السيوطي في «تدريب الراوي» .

سياقته عند البخاري:

الأثر ساقه البخاري للاستشهاد به على شعبة من شعب الإيمان فقال : باب السلام من الإسلام . وفقه البخاري - كما هو معروف - يؤخذ من تراجمه أي : هذا باب بيان أن السلام من شعب الإسلام ، وفي رواية غير ابن عساكر وأبي ذر - كما هو في رواية الكرماني - باب إفشاء السلام ، أي : نشر السلام في الناس ، كما جاء في حديث مسند صحيح : «أن تسلم

علي من عرفت ومن لم تعرف»^(١)، وهو الذي عضد هذا الأثر لأنه في معنى «بذل السلام للعالم» الوارد في هذا النص .

ترجمة عمار بن ياسر راوي الحديث:

راوي الأثر هو سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه، وهو أحد السابقين إلى الإسلام، وهو من المعذبين في الله مع أبيه سيدنا ياسر، وأمه سمية رضي الله عنها وهي أول شهيدة في الإسلام، ويليهما زوجها أبو عمار رضي الله عنه، وقد مر بهم النبي ﷺ وهم يُعَذَّبون فقال لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(٢). والقصة مشهورة. أما سيدنا عمار فكنيته أبو اليقظان بن ياسر بن عامر بن مالك المخزومي. كان ياسر ووالداه زُهِنُوا في القمار، فصاروا بذلك عبيداً، ثم أعزهم الله بالإسلام، فعُذِّبُوا حتى الموت إلا عماراً رضي الله عنه فقد أعطى المشركين بلسانه ما أرادوا، وقلبه عامر بالإيمان، وفيه نزلت الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد الغزوات كلها بما فيها غزوة بدر، قيل: هو أول من بنى مسجداً لله في الإسلام. قال الكرمانى والحافظ: روي له عن رسول الله ﷺ اثنان وستون حديثاً، روى البخاري منها خمسة فقط فهو من المُقَلِّين، وليس ذلك مقياساً لمنازل الصحابة رضوان الله عليهم، لأن كل واحد يقوم بجانب أو جوانب من شئون الإسلام، فهناك تخصصات توزعها الصحابة، لذلك قال ﷺ: «أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ، وَأَعْلَمُكُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَعْلَمُكُمْ

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣/ ٤٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٣٩).

بالفرائض زيد بن ثابت»^(١). ومن مناقب عمار أن الرسول شهد له بقوة الإيمان ، وبسلامة الصدر وصفاء السريرة ، وحسن السلوك فقال ﷺ : «مُليءَ عمار إيمانًا إلى أخمص قدميه»^(٢) ، وتعبير النبي قوي الدلالة . وقال له أيضًا : «مرحبا بالطيب المطيب»^(٣) . وقال في حقه أيضًا : «اهتدوا بهدي عمار»^(٤) وقد شهد صفيّ يقاتل عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، قالوا : وكان المسلمون يومئذ يتبعونه أتى سار ، لأنهم حفظوا قول النبي : «ويح عمار تقتله الفئة الباغية»^(٥) . وذلك من المغييات التي أخبر بها النبي ﷺ ، فكانوا يعلمون أنه من الفئة العادلة . وقد قتل هناك شهيدًا كما أخبر الرسول ، وذلك سنة سبع وثلاثين ، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة .

شرح معاني الحديث :

معنى الحديث : ثلاث ، أي ثلاث خصال ، أو خصال ثلاث ، «من جمعهن فقد جمع خصال الإيمان» فذكرها ، وهي العدل في أرقى صورته ، وهو الإنصاف من النفس ، ونشر السلام بمفهومه الخاص ، وهو التحية التي تنمي المحبة بين الناس ، وبمفهومه العام عن طريق الالتزام ، لأن من بذل السلام للناس جميعًا فقد أمنهم ، وقد قصر بعد العلماء السلام على المسلمين ، ولكن اللفظ عام بمعناه الذي هو من خصائص الإسلام . والثالثة : الإنفاق في حالة

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٥٠٠٧) ، وابن ماجه (١٤٧) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٩٨) ، وابن ماجه (١٤٦) من حديث علي عليه السلام ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٩٩) ، من حديث حذيفة عليه السلام ، وقال الترمذي : حديث حسن .

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري عليه السلام .

الأزمة وشدة الحاجة ، وعبر عن ذلك بقوله : «الإنفاق من الإقتار» ، وذلك أعلى درجات السخاء وكرم النفس ، من أجل ذلك أثنى الحق سبحانه على أصحاب هذه المنزلة فقال تعالى : ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] . وإعراب «ثلاث» على الابتداء ، ولو كان نكرة ، لأنه في حكم صفة لموصوف محذوف تقديره خصال ثلاث أو هو على تقدير الإضافة ، أي : ثلاث خصال ، وذلك يكفي في حد الإفادة التي يشترطها النحويون ، والتي أشار إليها ابن مالك في ألفيته بقوله :

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تُفد كعند زيد نكرة

ومثله في الإعراب قوله ﷺ في حديث صحيح رواه البخاري في كتاب الإيمان قبل هذا الأثر الذي نشرحه : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان . . .» إلخ . والخبر في الأثر الجملة الشرطية : «من جمعهن فقد جمع الإيمان» ثم أبدل منها الخصال الثلاث . والإقتار يأتي لمعنيين :

١ - القلة ، وفي هذه الحالة تبقى «من» على معناها الأصلي وهو الابتداء .

٢ - ويأتي بمعنى الافتقار ، فيكون معنى «من» : مع ، أو عند الإنفاق مع الفقر أو عنده ، لأن الإنفاق لا يحصل من الفقر ، وإنما يحصل من كثرة أو قلة .

كلمة للكرماني على شرح الحديث:

قال الكرماني رَحِمَهُ اللهُ وهو الرائد في شرح البخاري : هذه الكلمات جامعة لخصال الإيمان كلها ، لأنها إما مالية أو بدنية ، والإنفاق إشارة إلى المالية ، والبدنية إما مع الله تعالى أي التعظيم لأمر الله ، وهو الإنصاف ، أو مع الناس أي الشفقة على خلق الله تعالى وهو بذل السلام .

لطيفة للحافظ ابن حجر:

قال الحافظ ابن حجر بعد أن توسع في هذه المعاني : وهذا التقرير يقوي أن يكون الحديث مرفوعاً ، لأنه يشبه أن يكون كلام من أوتي جوامع الكلم ، والله أعلم . وهذه الملاحظة من الحافظ الكبير تدل على تشبعه بالحديث الشريف ، وتذوقه العالي لكلام سيد المرسلين .

السلام يقوم على الرفق:

«بذل السلام للعالم» تعبير رائع واضح المدلول إطلاقاً وعموماً ، منظوقاً ومفهوماً ، بذل السلام للعالم إلى جانب الإنصاف من النفس ، والإنفاق مع الأزمة وشدة الحاجة قمة الإسلام وكمال الإيمان ، في شريعة خاتم المرسلين .

السلام يحتاج إلى السيف أيضاً:

لقد جنى المتعصبون للباطل على الإسلام ، فزعموا أنه قام على السيف ، كأنهم لا يتصورون من السلام إلا جانباً واحداً ، وهو المعبر عنه بما ينسبون إلى عيسى عليه السلام من أمثال هذا القول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ولا يذكرون قول المسيح في إنجيل متى ، إصحاح (١٠) فقرة (٣٤) : لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً .

صور السلام بالمعنى المعاصر:

من خلال شريط الأحداث في عهد النبوة نجد صوراً رائعة للسلام وأنواعه ، ابتداء من مبعث الرسول إلى الهجرة حتى وفاة الرسول الأكرم .

فما هي أنواع السلام؟ وما هي مفاهيمه؟ لا أحاول الاستقصاء في جواب السؤالين، وإنما أعبر سريعاً للوقوف على بعض المفارقات ومضامين السلام كما ورد في القرآن الكريم وحسب مفاهيم العصر، مقتصرًا على ما وجدت له في نصوص الشريعة مفهومًا خاصًا يعطيه النوعية والتميز، ثم صنفته حسب ما يلي:

- ١- السلام الأعزل .
- ٢- السلام المسلح .
- ٣- السلام التكافئي .
- ٤- السلام الانهزامي .
- ٥- سلام الهجرة والتَّزْكُ .
- ٦- السلام الاجتماعي .

السلام الأعزل:

هو ما يطلق عليه «سياسة اللاعنف» أو «المقاومة السلبية»، أي الكف عن القتال مع الثبات على المبدأ، وقد تكون هذه المقاومة أبلغ أثرًا من المواجهة المسلحة، وكان من حقها أن تأخذ وصف الإيجابية لا السلبية. كان هذا النوع من الجهاد في عهد الدعوة المكي، حيث كان الرسول وأصحابه السابقون يصبرون على ألوان الأذى والحصار الشديد، فقابلوا الطغيان بالصبر إلى درجة أنه ﷺ لم يوافق على تدمير المشركين حين عرض عليه ملكُ الجبال أن يطبق عليهم أخشبي مكة، وهما جبلاها، فقال: «لا، بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبدني لا يشرك به شيئاً».

موقف صلح الحديبية:

إن الدعوة الإسلامية في أساسها سلمية قائمة على الرحمة والعدل، وقد فتح الله للمسلمين في مدد الصلح والمعاهدات أكثر مما فتح لهم بواسطة

الجيش في عهد النبي ﷺ، لذلك سمى الله صلح الحديبية فتحاً مبيناً، ولم يقع فيه قتال، وقد كان أكثر الصحابة الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة على الجهاد والموت أسفين على قبول الصلح بشروط قاسية في الظاهر، فجادلوا النبي ﷺ في شأنها حتى قال عمر رضي الله عنه: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ. فخاطب النبي ﷺ قائلاً: أأنت نبي الله؟ ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ فيقول الرسول: بلى، فيقول عمر: عَلَامَ نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟»^(١). إلى آخر الحوار الذي عبر فيه عمر رضي الله عنه عن شعور المبايعين على الموت، ما عدا أبا بكر الذي شرح الله صدره للحق عند الصدمة الأولى بقرار النبي الحكيم، ثم أنزل الله سكينته على قلوب المؤمنين بعد الرجوع إلى الانضباط الذي ساهمت في عودته إحدى أمهات المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها حين دخل عليها رسول الله فذكر لها ما لقي من الناس، فاقترحت عليه أن يخرج عليهم ولا يكلمهم، فينحر ويخلق، ففعل ﷺ، فبادر الصحابة إلى مثل ما فعل.

الانضباط في الإسلام:

إن الانضباط يقوم مقام جيش مدجج بالسلاح، وفي الإسلام كانت طاعة الإمام بعد البيعة قمة الانضباط، فلا يجوز عصيانه والافتيات عليه، لأن ذلك يفتح باب الشر والانشطار، وينذر بأسوأ الأخطار. قيل لأبي ذر بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه وقد كان نفاه إلى الربذة: ألا ترجع إلى المدينة؟ قال: لا، والله لأطيعنه - أي عثمان - حياً وميتاً، فلم يستسغ أن يخالف إمامه حتى بعد وفاته، كما أطاعه في حياته، لأن القضية ليست قضية إمام

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

رحل ، أو ما زال في قيد الحياة ، ولكنها قضية مبدأ ونظام وخضوع لإجراء قصد به المصلحة العامة حسب اجتهاد الإمام الذي يرفع الخلاف .

الثورة نظام يقوم على الشدة والعنف :

لقد ظلم الذين ظلموا أبا ذر فنعته بالاشتراكية ، وظلموا الإسلام فنعته بالثورية ، كأنه قائم على أساس العنف وسفك الدماء ، لأن مفهوم الثورة هو نظام وضعي يقوم على الشدة والعنف ، تفرضه أقلية على أكثرية كما هو واقع الثورات المعروفة في التاريخ ، لقد حاول الشيطان أن يجر في بعض مواقف النصر بعض قادة الصحابة إلى هذا المنحدر منحدر مفهوم الثورة ليدمر مسار الدعوة ويلوث شعار الجهاد بالدم الحرام ، ودموع اليتامى والأيتامى ، كما هو شأن الثوريين ، ولكن الله تعالى كان يعصمهم ، فيبادر الرسول الحكيم إلى ضبط التوازن وإبعاد الجَنَف عن حركة الإسلام وسلوكياته ، فيجعل أنجح قائد متواضعاً لله ، مستشعراً عظمته تعالى وجلاله .

مشهد من يوم فتح مكة :

لما كان يوم فتح مكة أمر ﷺ عمه العباس أن يقف بزعم مكة أبي سفيان بعد إسلامه مباشرة ، عند مضيق الوادي حيث تمر كتائب الإسلام ليرى بعينه كيف أصبح للإسلام قوة رادعة ، فدهش من تنظيم الجيش ووفرة عدته وعدده ، وهو يسأل حارسه العباس رحمته الله : من هؤلاء؟ ومن هؤلاء؟ فيعرفه بهم قبيلة قبيلة ، فلما مرت كتيبة كان لواؤها وقيادتها لسعد بن عباد رحمته الله صاح سعد منادياً أبا سفيان قائلاً : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل المحرمة اليوم أذل الله قريشاً . فانزعج أبو سفيان ومن سمع من أهل مكة مقالة سعد ، فلما مر الرسول في كتيبة

الأنصار والمهاجرين ناداه أبو سفيان : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك؟ فإنه زعم سعد أنه قاتلنا وقال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل المحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، وإني أنشدك الله في قومك وأنت أبر الناس وأوصلهم وأرحمهم . فقال رسول الله ﷺ : « لا يا أبا سفيان ، اليوم يوم الرحمة اليوم ، أعز الله قريشاً »^(١) . ثم وقف شاعر قريش ضرار بن الخطاب الفهري يعبر عن مخاوف أهل مكة ويشكو سعد بن عباد إلى رسول الله ، ويبلغه ما قال لأبي سفيان فقال في قصيدة :

يا نبيَّ الهدى إليك لَجَا حَيَّ يُّ قريشٍ ولاتٍ حين لَجَاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعدًا يريد قاصمة الظهر ر بأهل الحجون والبطحاء
إلى أن قال في آخرها :

فأنهَيْتُهُ فإنه أَسَدُ الأُسْ د لدئ العَاب والغُ في الدماء
إنه مُطَرِّقٌ يدير لنا الأم ر سُكُوتًا كالحَيَّةِ الصماء

حكمة الرسول في هذا الموقف :

هل ترك الرسول قائد الكتيبة يدخل مكة تحت تأثير نشوة النصر؟ لقد أمر الرسول الحكيم بنزع اللواء من سعد بن عباد رضي الله عنه وعزله من القيادة ، ولكنه في نفس الوقت لم يجرح نفسية المجاهد ، ولم يحطم معنويته ، فأعطى اللواء لولده قيس ، فأرضى الطرفين ، وأصاب هدفين .

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣ / ٤٥٣) .

السلام المسلح:

كذلك ظهر الإسلام على أساس البرهان والإقناع ، وكذلك انتشر فيما بعد ، ولكن ليس دين الخنوع والدروشة والاستخذاء للأقوياء ، بل هو دين العزة والعلو يتحتم على أهله أن يملكوا قوة لحمايته والدفاع عن كيانهم ، وإرهاب العدو الذي يتربص بهم ، وذلك بتحقيق ما يسمى اليوم بـ (السلام المسلح) الذي أمر الله المسلمين في كل عصر ومصر بالأخذ به في جميع الأحوال ، حتى يكونوا في مأمن من العدو وأطماعه ، فقال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

فالتعبير بـ «قوة» على وجه التنكير يفيد العموم ليشمل كل أسباب القوة المادية والمعنوية ، فالذين لا يملكون مصانع السلاح لا يملكون القوة ، وإن كان لديهم زُكام من السلاح المستورد .

منزلة القوة المعنوية في الجهاد:

أما القوة المعنوية فهي بالمنزلة العليا في استنزال النصر ، وقد قال فرانز فانون : من لا يملكون السلاح لا يملكون القضية ، وأنا أقول : من لا يملكون العقيدة التي تصنع المعنويات لا يملكون السلاح ولا القضية وقد وضعها خبراء الاستراتيجية في مقدمة برامج العمل التعبوي ، والتربية العسكرية ، حتى قال نابليون : قيمة المعنويات بالنسبة إلى القوة المادية ثلاثة إلى واحد . وأيده كبار القادة في الماضي والحاضر ، كما قال بعض المتخصصين . وقبله قال خالد بن الوليد رضي الله عنه في معركة اليرموك الحاسمة لما سمع رجلاً من المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين . فقال سيف الله خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين . إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان .

منزلة القوة الاقتصادية في الجهاد :

ليس السلاح وحده هو كل مدلول القوة المادية ، فهناك قوة اقتصادية إلى جانب التسليح وتكنولوجيا السلاح ، وإلى جانب قوة المعنويات والمناعة ضد الحرب النفسية ، فتكير (قوة) كما سبق يفيد تعدد الدلالات ، فالقوة العسكرية - مثلاً- لا تقوم إلا على قوة الاقتصاد والاكتفاء الذاتي في محاولات أساسية من كل ما يصلح أن يكون منبعاً للإنفاق الذي أمر الله به في أكثر من آية ، ففي الآية التي نستلهمها علق تعالى إعداد القوة بالإنفاق فقال : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

من أجل ذلك تكون التنمية الاقتصادية - ويجب أن يكون ذلك - من اختصاص القيادة العليا في الدولة ، حتى تتمشى جنباً إلى جنب مع السياسة الدفاعية وصيانة الأمن وحماية الحدود ، وإقامة المؤسسات الصناعية التي تضمن المدد والعتاد اللازم للمؤسسات العسكرية . فالطاقة الحربية آلة وبشرًا لا تتولد إلا من المال وإنفاقه ، لذلك جاء الترغيب الإلهي في الإنفاق والإمداد ، بعد الأمر بالتعبئة والإعداد .

استراتيجيات الجهاد :

الواقع أن الجهاد يتخذ أشكالاً وألواناً ، مثلما نشاهد في هذا العصر ، من حيث تعدد الاستراتيجيات ، فهناك استراتيجية السلاح إنتاجاً واحتكاراً ، ومراقبة على أسرار التكنولوجيا الصناعية . وهناك استراتيجية الإعلام ، وهي من أخطر الوسائل للهيمنة على الرأي العام ، إلى جانب توظيفه لنشر الرعب وتذكية الحرب النفسية التي تمهد لهزيمة العدو في ميدان المعركة .

وهناك استراتيجية القمح ، وهي - أيضاً- من أخطر الأسلحة التي تهيمن بها الدول التي تملك إنتاج القمح ، وتبذل أكبر الجهود بهدف احتكاره ، وجعل الشعوب الجائعة والجائحة إلى الكسل تحت رحمتها . لقد وظّف في الجهاد الإسلامي سلاح القمح بطريقة إيجابية هادفة ، وقد يستغرب هذا من لم يتتبع وقائع السيرة النبوية ، أو لم يتشبع بفقهاها وإن كان يحفظ أحداثها .

قصة إسلام ثمامة بن أثال :

وأذكر قصة إسلام ثمامة بن أثال لخصها الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «زاد المعاد» :

«بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت بثمامة بن أثال سيد بني حنيفة ، فَرُبَطَ إلى سارية من سوارى المسجد ، ومر به رسول الله فقال : ما عندك يا ثمامة؟ قال : يا محمد إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وإن تُنْعِمَ تنعم على شاكِر ، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت ، فتركه ، ثم مر به مرة أخرى فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولاً ، ثم مر به ثالثة فقال : أَطْلِقُوا ثمامة ، فأطلقوه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ثم جاء فأسلم وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صَبَأَتْ يا ثمامة؟ قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ ، ولا والله ما يأتكم من حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وكانت اليمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل

حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ . وفي رواية ابن هشام هذه الزيادة : « فكتبوا إلى رسول الله ﷺ : إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا ، وقد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل » .

سلاح المقاطعة وتأثيره في الجهاد :

من أسلحة الجهاد أيضًا سلاح المقاطعة ، أو « سلاح الجوع » الذي يشهر اليوم على المستضعفين في الأرض ، وهو ما لا يوافق عليه الإسلام إلا في حدود المصلحة ، وإلا إذا كان وسيلة لإزالة الظلم وإشعار الظالم به حتى يكف عن الطغيان ، ويحترم حقوق الإنسان .

سلام التوازن :

كذلك أوجب الله على المسلمين أن يأخذوا بأسباب « السلام المسلح » إعدادًا وإمدادًا حتى لا يؤخذوا على حين غرة ، أو على حالة من الضعف المادي والمعنوي ، لكون العدو أقوى سلاحًا وأحسن تنظيمًا فكان من الواجب ليس مجرد التسليح فحسب ، بل يجب إلى جانب ذلك مراقبة العدو حتى لا يتفوق فيصبح المسلمون كمن لا سلاح له ، أما إذا فعلوا فإن سلام التكافؤ يفرض نفسه ، أي ما يسمى اليوم (توازن القوى) وهو ما يقوم على التوازن بين الأقوياء ، ويدل عليه بالالتزام قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١] . وما كانوا ليجنحوا إلى السلم إلا إذا علموا أن المسلمين ملكوا قوة توازي قوتهم ، إلى جانب الصمود والاستعداد ، ومن ثم جاءت هذه الآية بعد آية إعداد القوة ، أي

إن المناسبة بينها وبين التي قبلها هي أن الجنوح للسلام من قبل العدو لا يكون إلا إذا علم قوة المسلمين الضاربة ، واستعدادهم للنزال والتعبئة الجيدة ، وذلك ما تسعى إليه الدول القوية اليوم ، خوفاً من اعتداء بعضها على بعض ، وتجنباً للحرب بتوفير وسائل الحرب .

امتلاك القوة للسلام وإشاعة الأمن :

الإسلام لا يعني امتلاك القوة والتفوق فيها أن يسلطها على العالم ويفسد في الأرض ويدمر ، ويعتدي على الضعفاء والأمينين . إن للمسلم عقيدة تحرم عليه الظلم بصفة شمولية ، وتمنعه من التجاوزات حتى على العدو الذي التزم العهود ، ووقف على الحدود ، وذلك هو الفرق بينه وبين من لا يملك هذه العقيدة ، فينشر الرعب في العالم وليس السلام . وصدق المفكر رجاء جارودي حين قال : «العلم للعلم يؤدي إلى توازن الرعب» ، يعني أن العلم بلا رابط يربطه بالإسلام وأخلاقه لا ينتج إلا الدمار ، وعدم الاستقرار . قوة الإسلام لها ضابط يمنعها من الشطط والجموح ، فلو بني الجهاد فيه على الثارات لخربت مكة يوم الفتح ، ولأبىد أهلها ، فهم الذين أخرجوا النبي ﷺ والمسلمين منها ، فصادروا ديارهم وأموالهم ، ثم غزوه في المدينة ثلاث مرات ، وبالرغم من ذلك كان الفتح أبيض ناصعاً ، فكان للرسول يوم الفتح مواقف رائعة لم ير التاريخ الحربي والسياسي - ولن يرى - مثلها .

موقفه ﷺ من أهل مكة يوم الفتح :

لقد وقف رجال مكة صفوفاً صفوفاً في المسجد الحرام ، والرسول يكسر رموز الشرك أصناماً وتماثيل ، ثم التفت إليهم قائلاً : «ماتظنون أني فاعل

بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم»، فلم يلبثوا أن ملأ أسماعهم وصدورهم رنينُ كلمة ما كانوا ينتظرونها منه، كلمة ما زال صداها يتغلغل في أعماق التاريخ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

السلام الاجتماعي:

كما دعا الإسلام بمختلف الوسائل إلى السلام الشامل بين المسلمين وبين غيرهم، أمرهم كذلك بالدخول في السلام مع أنفسهم ومجتمعهم، ومع البيئة كلها بما فيها من حيوان ونبات وجماد، إلى جانب الاستسلام لأحكام الله، وهو السلام بينهم وبين الله أيضًا.. إنه السلام الاجتماعي. السلام الاجتماعي هو قمة السلام، ونتيجة الجهاد من أجل السلام.

الدين يأمر بالسلام بين المؤمنين:

دليل ذلك عليها قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فالأمر موجه إلى المؤمنين بالدخول في السلام الاجتماعي، والأخذ بأسباب الائتلاف والاتفاق، حتى لا يفتحوا عليهم سبيلًا للشيطان والمنافقين الذين يسرهم الشقاق والتمزق في المجتمع الإسلامي. وكلمة (كافة) تعطي مدلول الشمول للمؤمنين، ولشعب الإيمان جميعًا، وهي التي - لو فترتها - وضع لها الرسول إطارًا عامًا يجمعها في أوجز لفظ يغني فيه التلميح عن التصريح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩ / ١١٨).

شعبة من الإيمان»^(١). فقد خص الحياء بالذكر لأن له مفهومًا يسحب العموم على كثير من شرائع الإسلام وأخلاقه. فالآية تتسع لتلك المفاهيم كلها. وسبب نزولها واختلاف المفسرين في تحديده، وفي معنى السلم الوارد فيها، هل المراد به الإسلام أو المسالمة والصلح؟ أو غير ذلك مما يعود إليهما، لا يؤثر في الدلالة الشمولية في النص القرآني، لأن المعتبر - كما هو معروف - عموم الخطاب، وليس خصوص الأسباب.

الأمن الغذائي:

والواقع أن الأمن الاجتماعي في حكم الإسلام لا يخص النزاعات السياسية والتنظيمية والاجتهادية، لكنه يشمل جميع مناحي الحياة الإنسانية، بل يتعدى الإنسان إلى الحيوان، وإلى مظاهر البيئة كلها، فالأمن الغذائي، والأمن الصحي لا يفترقان عن الأمن النفسي في الاعتبار، فقد نوه الرسول ﷺ بهؤلاء في هذا النص: «من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه، وعندة قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(٢). والأمن الغذائي عرفه الإسلام قبل المنظمة العالمية للأغذية والزراعة، وألح في المحافظة عليه.

أدلة من السنة على الأمن الغذائي:

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن

رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

صدقة». وأخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت قال صلى الله عليه وسلم: «التمسوا الرزق من خبايا الأرض». وقال الرسول في حديث: «إن قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»^(١).

الملكية وإحياء الموات:

وفي تاريخ الحضارة الإسلامية مواقف رائعة من حيث علاقة الإنسان المسلم بالأرض زراعة وغرسا وتعدينا وإحياء لمواتها، إلى درجة أن الفقه الإسلامي يعتبر هذا الإحياء سببا للملكية، فحدث الرسول كما رواه أبو داود والنسائي والترمذي: «من أحيا أرضا ميتة فهي له». أما العكس فهو يسقط الملكية للأرض الموات بالنسبة لمن لم يعمرها، روى سالم بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: من أحيا أرضا ميتة فهي له، وليس لمحتجرها حق بعد ثلاث سنين. وذلك أن رجلا كانوا يحتجرون من الأرض ما لا يعملون أي ما لا يستثمرون.

كل من له إمام بعلم الاجتماع يدرك ما ينشأ عن الجوع وانعدام التوازن الطبقي من صراع بين المتخمين والجائعين، وأمراض اجتماعية لا يعالجها إلا الشبّع العام أو التوزيع العادل لمصادر الثروة والغذاء.



(١) سبق تخريجه.

المحاضرة الخامسة والثمانون بعد المائة

من الجدل إلى المناظرة إلى الاعتقاد

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

سبب اختيار الآية:

ليس الغرض من اختيار الآية التعرض لأقوال المفسرين، ولا تحديد مستوياتها التأويلية الممكنة، وإنما الغرض هو الاكتفاء بأصلين ظاهرين مجملين أبني عليهما تحليل المناظرة، والأصلان قولان، وهما أحسن الأقوال.

الأصل الأول: وهو الدعوة إلى الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾.

الأصل الثاني: هو الاعتقاد: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

واعتمادًا على هذين الأصلين أقسم معالجتي للموضوع تقسيمًا يربط الدعوة بالاعتقاد. فأميز نقاطًا ثلاثة تمليها طبيعة مطالب السؤال المشهور. وهي السؤال بهل، وكيف، ولم، في ترتيبها فأضع الأسئلة الثلاثة الآتية. هل ناظر المسلمون؟ وكيف ناظروا؟ ولم ناظروا؟ فتتكون لي العناصر التي سأتناولها واحدًا واحدًا وهي على التوالي.

أولاً: واقع انتهاج الدعوة الإسلامية أسلوب المناظرة.

ثانيًا: أصول المنطق الاعتقادي للمتناظرين.

أولاً: واقع انتهاج الدعوة الإسلامية أسلوب المناظرة:

لو قمنا بإحصاء لمواقع لفظة «الجدل» في القرآن، لوجدناها تسعة وعشرين موقعا، في سبع وعشرين آية، تتوزع إلى قسمين: القسم الأكبر منها في ذم الجدل وهي ستة وعشرون موقعا، والقسم الأصغر منها في الجدل المحمود. وهذا التفاوت بين عناصر المجموعتين قد يدعو إلى تأويل ينفع، بتعبير الأصوليين، «معتقدي الجدل»، لكن سرعان ما يضعف احتمال هذا التأويل بمجرد ما ندخل في الاعتبار المعاني الأخرى التي ينبنى عليها الجدل، والتي وردت في كتاب الله مثل معنى «الحجة» ومعنى «البينة»، ومعنى «السلطان»، إذ تزيد إذ ذاك سعة مجموعة الجدل المحمود زيادة كبرى إذ مواقع «الحجة» سبعة وعشرون موقعا، ومواقع «السلطان» ثلاثة وثلاثون، بل إن هذا التأويل السليبي للجدل يصبح بعيد الاحتمال لقيام مرجح قوي وهو أن القرآن الكريم يشتمل على طرق صريحة الحجاج كثيرة ومتنوعة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وقد جرت عادة معتقدي الجدل أن يمثلوا عليها بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في مجادلته للنمرود في موضوع إثبات الوحدانية لله ^(١).

بل قد يبطل - بطلانا كلياً - التأويل القادح في الجدل قدحا مطلقا إذا ما تدبرنا الآيات التي يستند إليها هذا التأويل والتي إن كان منطوقها يفيد ذم الجدل، فإنها تتضمن أدوات لغوية تقيد معنى الجدل، فتوجب الأخذ «بمفهوم المخالفة» مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ

(١) راجع سورة البقرة الآية: (٢٥٨).

سُلْطَنٍ أَتَتْهُمْ ﴿ غافر : ٣٥ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [الحج : ٨ ، لقمان : ٢٠] ، ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ [الكهف : ٥٦] . فمفهومها المخالف أن الجدل بالسلطان وبالعلم وبالهدى وبالكتاب وبالحق جائز بل هو محمود إن لم يكن واجباً^(١) .

سبل الدعوة إلى الله ﷻ :

فإذا تبين لنا أن الجدل بهذه القيود محمود ، فكيف يحدد القرآن وضع الجدل من بين أساليب الدعوة إلى الله ؟

فالآية التي يستشهد بها عادة ، في هذا الصدد ، هي قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

أكتفي من هذه الآية بإيراد الاحتمالات التفسيرية الممكنة لها دون تفصيلها .

المجادلة كسبيل من سبل الدعوة :

فلا تخلو المجادلة بالتي هي أحسن المذكورة في الآية :

- إما أن تكون واحداً من سبل الدعوة إلى الله ، فيكون عدد هذه السبل ثلاثة : الحكمة والموعظة والمجادلة (موقف الزمخشري) .

ولعل مما عمل على ترسيخ التمييز الثلاثي لأساليب الدعوة إلى الله ثبوت صنفين من التمييز في تاريخ المعرفة الإسلامية :

(١) القشيري ، «لطائف الإشارات» (ص : ٢٠٣) .

أولهما : التمييز الكلامي الشهير ذو الأصل الفلسفي بين أساليب القول : البرهان (يمثل الحكمة) والخطابة (تقابل الموعظة) والجدل (يرادف المجادلة) .

ثانيهما : التمييز الروحي بين الحقيقة ومنهجها منهج ذوقي قلبي (نظير الحكمة) ، والطريقة ومنهجها تربوي عملي (نظير الموعظة) والشريعة ومنهجها عقلي نظري (نظير المجادلة) .

وسيلة دفاعية أو من وسائل الحكمة :

قد لا تشكل المجادلة سبيلا مستقلا من سبل الدعوة ، فتكون هذه السبل سبيلين (وهما الحكمة والموعظة) ، وفي هذه الحال لا تخلو المجادلة إما أن تكون وسيلة دفاعية وحسب ، تمنع بها العقيدة عن مهاجمة خصومها (موقف الرازي) ، وإما أن تكون وسيلة من وسائل الحكمة والموعظة نفسيهما فيلزم الحكيم والواعظ أن يجادلا لتقرير وتبليغ مضمون أقوالهما .

وقد يكون الباعث على تمييز الحكمة والموعظة عن المجادلة هو أن الحكمة والموعظة مقولتان عمليتان سلوكيتان أي خلقيتان اختباريتان بينما المجادلة مفهوم قولِي نظري اعتباري .

دور الجدل في الدفاع عن العقائد ونشر الدين :

سواء اعتبرنا الجدل قسما قائما بذاته إلى جانب الحكمة والموعظة أي أصلا من أصول ثلاثة للدعوة إلى الله أو اعتبرناه فرعاً تابعاً لقسمي الحكمة والموعظة ، فإن واقع ممارسة الجدل عند المسلمين يلزمنا بالإقرار بالدور الحاسم الذي أداه الجدل في الدعوة إلى الله والدفاع عن العقيدة

ونشر المعرفة الإسلامية على اختلاف مناحيها ومستوياتها . فما طبق منهج ولا عمم على جميع قطاعات الإنتاج الفكري الإسلامي عقيدة وعلما مثلما طبق وعمم منهج الجدل ؛ فقد أقيمت مجالس للتجاوز عرفت بالمناظرات ، كما وضعت تآليف على طريقة المناظرة ، فخطاب التهافت (الغزالي وابن رشد والطوسي...) وخطاب الرد (ابن تيمية) وخطاب النقض وخطاب التعارض في الفكر الإسلامي ، وجوه صريحة للإقرار بالمجادلة منهجا نظريًا ، ناهيكم عن علم الكلام الذي قام على تواجه العقائد ، فأولى به أن يسمى «علم المناظرة العقدي» . بل حيثما وجدت مذاهب ومدارس واتجاهات في ميدان من ميادين المعرفة الإسلامية كانت المناظرة طريقة التعامل بينها ، وهذا شأن الفقه (باب الخلاف) والنحو (باب القياس) والأدب (باب النقائص) ، ولم تكن المجادلة وجه تفاعل التيارات التي تنتسب إلى قطاع معرفي واحد فحسب ، بل طبعت أيضًا التعامل بين أهل العلم من قطاعات مختلفة (مثال المناظرة بين سعيد السيرافي النحوي ومتى بن يونس الفيلسوف)^(١) .

تداول المسلمين لمنهج الجدل وألفاظه المختلفة في اللغة:

إذا أدخلنا في الاعتبار أمرا آخر وهو الفرضية التي تقول بأن اللغة تحمل سمات فكر من يتكلمونها ، فإن غنى معجم المناظرة في اللغة العربية ليدل بحق على تداول المسلمين الأغلب لهذا المنهج ، والتزامهم به أكثر من غيره في تحصيل المعرفة وتبليغها ، ونذكر من هذا المعجم ، لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل المثال ، مجموعة المفردات التالية وهي : بالإضافة إلى لفظي

(١) انظر «المقابسات» لأبي حيان التوحيدي .

المنظرة والمجادلة : «المخاطبة» و«المحاورة» و«المحاججة» و«المناقشة» و«المنازعة» و«المذاكرة» و«المباحثة» و«المجالسة» و«المفاوضة» (في معناها القديم) و«المراجعة» و«المطارحة» و«المساجلة» و«المعارضة» و«المناقضة» و«المدافعة» و«المدخل» وأخرى غيرها كثير .

وإذا اتضح لنا أن الجدل شمل كل مناحي الإنتاج الفكري الإسلامي ، وكنا نعلم ، من جهة أخرى ، أن حده في عرف من تأثر بأرسطو من المسلمين إفادة الظن وحسب في مقابل منهج المنطق الذي يفيد اليقين ، أيعني هذا أن الجزء الأكبر من المعرفة الإسلامية لا يرقى إلى مستوى اليقين ويكون طلبه غير نافع ولا واجبا ؟ .

هذا ما قد يسارع إلى القول به الصرحاء من أعداء الإسلام ويميل إليه مناصرو أطروحاتهم من مذبذبي الإسلام .

دعوى : المعرفة الإسلامية ظنية جدلية غير يقينية :

نرد على هذه الدعوى من وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : هو أن النظار المسلمين وضعوا للجدل شروطا وقوانين تنافس في استيفائها وضبطها وصرامتها وترتيبها ضوابط المنطق وأحكامه ، باعتباره علما لقوانين العقل ، ولا أدل على ذلك من أنهم استخدموا طرق الجدل في الاستدلال على قضايا من صميم المنطق نفسه ، وبهذا فتحوا الطريق أمام مشروع رد المنطق إلى الجدل : هذا المشروع الذي يترتب عنه أن النظر العقلي هو في أصله تناظر ، وأن ما يدعى «بالعقلانية» إن هو إلا عين الجدل .

الوجه الثاني : أن الأساليب الرياضية الحديثة التي صيغ فيها المنطق ، انتهت إلى ترجيح أسلوب جدلي في هذه الصياغة ؛ فبعد مرحلة كان فيها المناطقة يكتفون بتقنين صور الألفاظ وتراكيب العبارات دون النظر إلى معانيها من صدق أو كذب ، انتقلوا إلى مرحلة جعلوا فيها لمدلولات الألفاظ ومضامين العبارات دورًا حاسمًا في هذا التقنين ، ومنها إلى مرحلة ثالثة جددوا فيها الاعتبار للمتكلم وللمخاطب في صورة متناظرين يطلبان تمييز الصواب من الخطأ ، وفي هذا ما يركي كامل التزكية المنحى الذي جنح إليه المسلمون في جعل علم المنطق جزءًا من علم المناظرة وإلباسه لباس الجدل .

الوجه الثالث : هو أن اليقين الذي ينبنى عليه الجدل هو يقين عملي ، بينما اليقين المنطقي هو يقين نظري ، صناعي ، صوري ، واليقين العملي أقوى وأنفع وأفضل من اليقين النظري ، فالجدل فعالية تداولية لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي ، إذ غرضه الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية إنشاء موجهها بقدر الحاجة ، والاستدلالية التي يستند إليها ليست حسابا آليا ، إنما فعالية مبناها على عرض رأي أو الاعتراض عليه ، وممرها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض أو بطلان الرأي المعارض عليه ؛ مما يجعل الجدل بناء مثويا تقابليا يتواجه فيه «عارض» و«معارض» ، ويتوجه فيه كل منهما بآليات إقناعية خاصة وحقوق وواجبات محددة ، ومن شأن هذا التقابل المثوي أن يغير وأن «يفعل» في اعتقادات المتقابلين .

هذا الفعل المتبادل بين الجانبين هو الباعث على تسمية الجدل بالمناظرة أو «التناظر» ، وبهذا يكون تعريف المناظر هو من كان عارضا أو معترضا وكان لعرضه أو اعتراضه أثر هادف ومشروع في اعتقادات غيره عارضا كان أو معترضا .

ثانياً: النموذج النظري للمناظرة

بعد الرد على الموقف القادح في المعرفة الإسلامية ، أنتقل إلى النقطة الثانية ، وأستخرج بعض سمات نموذج المناظرة الإسلامي الذي أهمله الباحثون^(١) .

لما كان غرض المناظرة - أو البحث كما أطلق عليها - إظهار الصواب ، فقد حددت لها الشروط العامة الآتية :

- لا بد لها من جانبيين .
- لا بد لها من دعوى .
- لا بد لها من مآل (أو نهاية) يكون بعجز أحد الجانبين .
- لكل من الجانبين وظائف وآداب .
- تتحدد هذه الوظائف تبعاً لما تكلم به أو حرره كل من الجانبين ، لا بما فكراً فيه من غير نطق ولا تحرير .
- تخضع هذه الوظائف لقانون «التوجيه» لكي تكون مسموعة (أي مقبولة) .
- من هذه الشروط ما هو أخلاقي وما هو منطقي .

أخلاقيات المناظرة:

أن يكون المتناظران متقاربين معرفة ومكانة ، حتى لا يؤدي استعظام أحدهما الآخر ، أو استحقاره له ، إلى أن يضعف عن القيام بحجته ، أو يتهاون فيها .

(١) لقد انتبه ابن خلدون إلى هجران المسلمين لهذا البحث متأسفاً على ذلك عند ذكره لطريقين تقليديين في التناظر هما : طريقة البزدوي الخاصة بالأدلة الشرعية وطريقة العميدي العامة ، ولا نذهب بعيداً لتبيين هذا الإهمال وآثاره ، فابن خلدون نفسه في هذا الفصل يخلط بين وظيفتي السائل والمجيب ، وكذلك بين قانوني الاعتراض والمعارضة .

أن يمهّل المناظر خصمه حتى يستوفي في مسأله ، كي لا يفسد عليه
توارد أفكاره ، وحتى يفهم مراده من كلامه ، كي لا يقول ما لم يقل .

أن يتجنب المناظر الإساءة إلى خصمه بالقول أو الفعل ، بغية إضعافه عن
القيام بحجته ، ومن ذلك : قلة الإصغاء إليه ، والسخرية منه ، وتجييله
بفضح عيوبه وتشنيعه بالقدح في كلامه والتطاول عليه بالتنقيص والشتم .

أن يقصد المناظر الاشتراك مع خصمه في إظهار الحق والاعتراف به ، حتى
لا يتباهى به إذا ظهر على يده ، ولا يعاند فيه إذا ظهر على يد خصمه .

أن يتجنب المناظر محاورة من ليس مذهبه إلا المضادة ، لأن من كان هذا
مسلكه لا ينفع معه الإقناع بالحجة ، وإنما الردع بالسلطان .

أن يتفادى المناظر مساوئ التعبير : من إسهاب في الكلام بغير فائدة ، ومن
إنجاز مغل بالفهم ، ومن استعمال لحوشي الألفاظ وركيك التراكيب .

منطقيات المناظرة:

على المتناظرين أن يختار أحدهما دور «العارض» أو «المعتقد» (ويدعى
في اصطلاح أهل المناظرة باسم «المدعي» أو «المستدل» أو «المعلل» أو
«المجيب»)، والآخر دور «المعترض» أو «المنتقد» (ويطلق عليه اسم
«السائل» أو «المانع»).

من شروط «الادعاء» ، أنه لما كان المدعي يعتقد صدق دعواه ، ويطالب
مخاطبه بالتصديق بدوره فيها ، لزم أن تتوافر له الحجة على ما يدعي ، وأن
يعتقد صحتها ، وصدق القضايا التي تتركب منها ، وأن يقصد بها إقناع
المعترض على دعواه بالعدول عن اعتراضه .

من شروط الاعتراض أن يكون منطوقه مخالفا لمنطوق دعوى المدعي ، ومفهومه المخالف موافقا لمنطوق هذه الدعوى ، وأن يكون غرضه متفاعلا مع غرض الدعوى ، وأن تكون حجته معاكسة ومجاوزة في قوتها لحجة الدعوى ، وأن يكون في دليله وتوجيه هذا الدليل تابعا لدليل الدعوى وتوجيه دليلها .

اعتراضات المنتقد على دعوى المدعي :

من حق المنتقد أن يوجه لدعوى المدعي اعتراضات ثلاثة :

أن يعترض على لفظ الدعوى : يكون هذا الاعتراض أولا بالاستفسار عما قد تحتوي عليه الدعوى من الألفاظ الغريبة أو ذات المعاني المتعددة (الألفاظ المجملة) ، وثانيا بإثبات هذه الغرابة وهذا الإجمال إذا اعترض المدعي على مشروعية هذا الاستفسار ، ولا يسع المدعي إذ ذاك إلا أن يقدم تفسيراً أو شواهد ترفع الغرابة والإجمال .

أن يعترض على صحة نقل الدعوى إذا كان المدعي ناقلا ؛ ويكون هذا الاعتراض بالمطالبة ببيان صدور نص المنقول عن قائله .

وعلى المدعي الناقل إذ ذاك أن يصحح نقله ، طبق الطرق المعهودة في إثبات الأقوال المروية ، كأن يحضر الكتاب المنقول عنه أو يشهد أحد الحاضرين الثقات .

أن يعترض على صحة مضمون النقل إذا كان المدعي ملتزما صحة هذا المضمون المنقول ، أو على صحة مضمون الدعوى إذا كان منشئا لها ويختلف هذا الاعتراض باختلاف اقتران الدعوى بالدليل أو عدم اقترانها به :

المنع : على من يعترض على دعوى غير مقرونة بالدليل أن يطالب بالدليل عليها ، لا أن يقيم الدليل على بطلانها ، ويسمى هذا الصنف من الاعتراض «منعاً» وصيغته : «لا أسلم لك هذه الدعوى» أو «أمنع هذه الدعوى» إلخ .

يجوز للمانع أن يذكر «سندا» لتقوية اعتراضه وتنبيه المدعي لما قد يكون غافلاً عنه ، ولا يستقيم هذا السند إلا إذا كان هو عين نقيض الدعوى المعترض عليها أو كان قضية مساوية لنقيضها ، أو على الأقل قضية يلزم عنها نقيض الدعوى ؛ فهو وإن كان لا يتميز صورة عن الاستدلال بنقيض الدعوى ، فإنه يتميز عنه من حيث أن المنتقد لا يقصد التدليل به ، -وإلا وقع في غضب وظيفة المدعي - وإنما الاستناد إليه وحسب ، وكذلك ، من حيث صيغته اللفظية المتراوحة بين الجواز والقطع ، كأن يقول المنتقد «إني لا أسلم لك هذه الدعوى ، لم لا يكون كذا»؟ أو «كيف ذلك والأمر كذا؟» أو «يصح ما ذكرت لو كان الأمر كذا» .

ومن حق المدعي أن يدفع المنع ، سواء بتوضيح مراده من الدعوى إذا استشعر من المنتقد تعثراً في إدراك مقصوده ، أو بإقامة الدليل على عين الدعوى المعترض عليها ، أو على دعوى أخرى تساويها ، أو تستلزمها ، أو بإبطال السند ؛ فمتى بطل السند الذي يساوي نقيض الدعوى ، ارتفع الاعتراض وثبتت الدعوى .

ولا ينفع المدعي أن «يمنع منع» المنتقد بأن يعترض على صحة ورود المنع أو على صلاحية السند للاستناد إليه ، أو يمنع السند القطعي أو يعترض على عبارة المنع بدعوى مخالفتها لقوانين اللغة ، لأن من شأن «منع

المنع» ، أن يؤدي إلى الانتقال من بحث الدعوى الأصلية المعترض عليها ، إلى بحث دعوى أو دعاوى أخرى أي إلى الوقوع في ما يسمى «بالنشر والخبط» .

لن يعترض على دعوى مقرونة بالدليل حق :

المنع : أن يطالب بإقامة الدليل على مقدمة من مقدمات دليل هذه الدعوى ، وللمدعي أن يرد هذا الاعتراض بما يرد به على منع الدعوى غير المدلل عليها .

النقض : أن يبطل دليل المدعي ببيان أنه لا يستلزم الدعوى أو أنه يستلزم المحال ، وذلك بذكر حالة - تعرف بالشاهد - تظهر فساد هذا الدليل .

وللمدعي أن يرد اعتراض النقض بالاعتراض على تخلف الدعوى عن الدليل أو الاعتراض على استلزامها المحال ، وقد يتم له دفع النقض بتعيين مراده من الدعوى أو مراده من الدليل ، كما يحق له أن يدفعه بإثبات دعواه بدليل آخر .

المعارضة : أن يبطل دعوى المدعي بإقامة الدليل على نقيضها أو على دعوى تساوي نقيضها أو تستلزمه أو يبطل مقدمة من مقدمات دليل هذه الدعوى ، بعد أن يكون المدعي قد أقام الدليل عليها ، وقد يتم هذا الإبطال بدليل المدعي عينه (المعارضة بالقلب) أو بدليل آخر يماثله صورة (المعارضة بالمثل) أو يخالفه فيها (المعارضة بالغير) .

وللمدعي أن يدفع اعتراض المعارضة بإحدى الوظائف الثلاث : «المنع» أو «النقض» أو «المعارضة» إذ يصير كالمعترض في التزام وظائفه .

على المتناظرين أن يظهر الصواب بأقرب الطرق ، فيندب أن لا يتدخل بأكثر من دعوى واحدة أو دليل واحد في كل مرة ، وأن لا يدفع المدعي الاعتراض الواحد بأكثر من دليل واحد في كل مرة ، وأن لا ينتقد المعارض إلا دعوى واحدة في كل مرة .

من شأن كل إخلال بالقواعد ، سواء كان قولاً أو فعلاً ، أن يؤدي إلى الانقطاع ، وإلى منح الخصم الحق في الامتناع عن الجواب والانسحاب من المناظرة .

من الواجب أن تنتهي المناظرة إما بإلزام المنتقد أو إفحام المدعي :

يلزم المنتقد إذا انتهى دليل المدعي إلى قضية مسلم بها عند المنتقد سواء سلم بها بعد أن كان قد اعترض عليها ، أو اعترض عليها بعد أن كان قد سلم بها ، أي يفقد حقوقه في متابعة اعتراضاته ، مع اعتبار عدم قوله أو فعله لأي شيء يؤدي إلى «الانقطاع» .

يفحم المدعي إذا عجز عن إقامة الدليل على دعوى من دعاويه المعارض عليها ، أي إذا استنفد جميع حقوقه في دفع الاعتراض ، مع عدم قوله أو فعله لأي شيء يؤدي إلى «الانقطاع» .

وهكذا يتبين ، أن التناظر مقوم للإنتاج الفكري الإسلامي فلا كلام منشئ للمعرفة إلا بين اثنين ولو كان كلام المرء مع نفسه ، ولا اثنين إلا معتقد (مدع) ومنتقد (معارض) ، ولا معتقد إلا بدليل ، ولا منتقد إلا لطلب الصواب ، ولا طلب للصواب إلا بقواعد وآداب .

ثالثاً: المنطق الاعتقادي للمتناظرين:

أمضي إلى النقطة الثالثة المتعلقة بالاعتقاد فأنظر في البناء العقلي لاعتقادات المدعي وانتقادات المعارض مميزاً بعض خصائصهما ، في صورة مجموعة من المبادئ كي أسلط الأضواء بها على الآية الكريمة موضوع تدبرنا .

مجموعة المبادئ الخاصة بالمدعي:

إن من يعتقد دعوى ، يبني اعتقاده على دليل (وإلا بطل ما يعتقد) .
 إن من يعتقد دعوى ، يعتقد كذلك صحة الدليل الذي يقيمه عليها .
 إن كل من يعتقد دعوى ملزم ، مبدئياً ، بأن يعتقد كل القضايا الضرورية والبدئية والمسلم بها عقلية كانت أو نقلية .
 لكن تأملنا لواقع الاعتقاد عند المتناظرين ، يكشف لنا أن منهم من يخل بهذا المبدأ أو ذاك ، فقد يعتقد المناظر قضية لم يقيم الدليل عليها ، وقد لا يعتقد في حقائق قام الدليل عليها ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

فالاعتقاد إذن اعتقادان : اعتقاد تقيده الأدلة أي مقيد ، واعتقاد لا يقيده الدليل أي مطلق ، وللذي يقيده الدليل مراتب يحددها قربه من اليقين أو بعده عنه ، فالاعتقاد المقيد اعتقاد يقبل مبدأ التفاضل .

وإذا نقلنا هذه المبادئ الاعتقادية الثلاثة إلى الشطر القولي الثاني من الآية المذكورة ، فإن قول القائل : «إنني من المسلمين» يكون معناه : إنني أعتقد أفضل اعتقاد مقيد بأيقن الأدلة .

مجموعة المبادئ الخاصة بالمعترض:

إن من ينتقد دعوى ، يعتقد انتقاده لهذه الدعوى ، فالانتقاد لا يمنع من الاعتقاد ، فقد رأينا أنه كلما قام شرط الاعتقاد قام معه واجب التدليل (أو الإثبات) ، فالإثبات دليل لحصول الاعتقاد ، والمعارض هو بدوره يثبت ، وإثباته اثباتان : إثبات أحسن ويكون بالسند ، وإثبات أقوى ويكون بالدليل . ولما كان المعارض هذه حاله أي مثبتا ، كان بالضرورة معتقدا ، مثله في ذلك مثل المدعي .

إن من يعتقد دعوى ، لا يعتقد (أي ينتقد) نقيض هذه الدعوى ، وإلا لزمه الجمع بين النقيضين .

أما عكس هذا المبدأ وهو أن من ينتقد دعوى أو يعترض عليها يعتقد نقيضها ، لا يمكن أن يصح ، وإلا ترتب عليه أن كل القضايا إما معتقدة أو منتقدة ولا سبيل لحال ثالث ، وهذا مخالف لوضع المرء الذي قد يقف في دعوى أو لا يكثرث بها أو يكون جاهلا لها .

وإذا طبقنا مبادئ الاعتراض أو الانتقاد على الشطر القولي الثاني من الآية ، تأدينا إلى أن من يقول : «إنني من المسلمين» يعتقد الإسلام ويعترض على ما سواه مصداقا للآية الكريمة : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

مجموعة المبادئ العامة:

إن كل من يعتقد دعوى ، يعتقد صحة اعتقاده فيها (مبدأ اعتقاد الاعتقاد) ، ويدل على ذلك أنه لا يمكن أن يعترض على اعتقاده (أي ينتقده) إلا في زمن غير الزمن الذي حصل فيه اعتقاده .

كل من يعتقد دعوى ، يعتقد ما يلزم عن اعتقاده لزوما قريبا (مبدأ اعتقاد لوازم الاعتقاد القريبة) ، و إلا صح أن يكن قد أحاط علما بكل شيء ، وهذا متعذر في حق البشر الموصوف بالنقص .

وإذا نقلنا مبدأي اعتقاد الاعتقاد واعتقاد لوازمه القريبة إلى الشرط القولي الأول من الآية وهو : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت : ٣٣] ، تبين لنا أن الدعوة تقوم ، من بين ما تقوم عليه ، على الاجتهاد بحيث أن الداعية المجتهد يبذل قصارى وسعه لاستنتاج أحكام معلولة من أصول الدعوة ، وعليه ، فهو معتقد لما يلزم عن اعتقاده من أحكام ومدرك للزومها عنه ، إلا أن هذا الإدراك قد يتعرض للخطأ ، ومبدأ اعتقاد الاعتقاد هو الذي يسمح له بأن يراجع اعتقاداته ويصوبها ويستبدل لوازم لها بأخرى .

مجموعة مبادئ المعرفة :

كل من يعرف قضية ، يكون معتقدا لها (المعرفة جزء من الاعتقاد) .
 إن كل من يعرف قضية ، يعتقد أمرا حقا ، أي إن كل القضايا التي تكون محل معرفة تكون حقائق لا جدال فيها .
 إن كل من يعرف قضية ، يعتقد دعوى مدلا عليها .

ونقل مبادئ المعرفة هذه إلى الشرط القولي الأول من الآية وهو : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ ، يبين لنا أن الداعي إلى الله عارف ، لأنه عارف بشرع الله ، وشرع الله حق لا يعلى عليه ، فالداعية إذن عارف معتقد الحق دون سواه ، مع عدم عصمته وعدم إحاطته علما بكل شيء .

بعض النتائج المترتبة على المناظرة:

بعد أن تعرضت للعناصر الثلاثة المكونة لصلب الموضوع ، أجهل بعض النتائج المترتبة عن المناظرة الإسلامية والمتصلة بالعقلانية التناظرية وبالنظام الاجتماعي نشير إليهما على عجل .

أما العقلانية التي تؤسس المناظرة ، فهي تتحدد انطلاقاً من المعايير التي اتفق المتناظرون على اتباعها ، ولهذه المعايير خصائص ثلاث : فهي منطقية وتجريبية ووظيفية ، إذ مبانيها لا تفارق معانيها ، ومعانيها لا تفارق أصولها في واقع الأشياء ، ومبانيها ومعانيها كليهما موجهة أنسب توجيه لتحقيق الغرض المقصود من المناظرة .

ويلزم عن ارتباط المعايير بالمعنى والواقع والمقصد ، أن ادعاء وجود قواعد كلية ومطلقة للجدل ، لا يمكن أن يحالفه الصواب ، ولا الادعاء المقابل بأن هذه المعايير تعم فيها فوضى تعسف الإرادة الجماعية أي تصطبغ بالنسبية المطلقة ، ادعاء محق ؛ ذلك أن الطرق الاحتجاجية التي يسلكها المتناظرون تتفاوت كفاية من حيث تحقيقها لغرض المناظرة ، وهذا من شأنه أن يجعل بعضها أكثر موضوعية من بعض وأن يحد من نسيبتها .

وعليه فإن العقلانية الجدلية لا تعير بمدى تبني تقنيات الاستدلال المستعمل في الحساب ، وإنما باعتمادها آليات معلولة لمقتضيات الواقع وخاضعة لمحك التناظر .

أما عن النظام الاجتماعي ، فإن المناظرة تقوم على تعدد المناهج ، إذ الطرق إلى الحق كثيرة ومتباينة ومذاهب المتناظرين شتى . والمناظرة تعين على تصور واقع اجتماعي يقر بالمبادرة الفردية وبالنزعة الجماعية ، ويطلب إشراك الجميع في البحث عن حلول للأوضاع تقبل التنقيح والتغيير .

المحاضرة السادسة والثمانون بعد المائة

من معاني البرِّ

حديث شريف في البر والإثم:

قال الشيخ الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رحمته الله في كتابه «الصحيح»، من كتاب البر والصلة والآداب: حدثني محمد بن حاتم بن ميمون قال: حدثنا ابن مهدي عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان الأنصاري رحمته الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»، هذا الحديث الكريم من جوامع كلمه ﷺ؛ بل ومن أوجزها؛ لأن كلمة «البر» كلمة جامعة لكل فعل من أفعال الخير. كما أن كلمة «الإثم» كلمة جامعة لكل فعل من أفعال الشر. وقابل ﷺ بين الضدين في هذا الحديث الشريف.

ترجمة النواس بن سمعان راوي الحديث:

الراوي لهذا الحديث هو الصحابي الجليل النواس بن سمعان بن خالد ابن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن صعبعة العامري الكيلاني رحمته الله: وهو معدود في أهل الصفة، ومعدود في الشاميين. ووصفه في سند الإمام مسلم هذا بالخصوص بأنه أنصاري، يحمل على أنه حليف لهم، بدليل ما روي عنه أنه قال: أقيمت بالمدينة مع رسول الله ﷺ سنة ما منعني من العود إلى الوطن إلا ما يرد على رسول الله ﷺ من الأسئلة من جهة أصحابه، فكانت إقامته مع النبي ﷺ تلك المدة لأجل الارتواء من معين الأسئلة

الدينية ، ولأجل الاقتباس من أجوبتها المصطفوية ؛ ذلك ليتفقه في دينه ولينخرط فيمن أراد الله به خيرًا في هديه وشأنه .

وقد روي له سبعة عشر حديثًا ، اقتصر الإمام مسلم منها على ثلاثة ، روى عنه جبير بن نفير ، ونفير بن عبد الله وجماعة آخرون ، كما ذكر ذلك الحافظ ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب» .

ترجمة الصحابي سمعان أبو النواس :

أبوه سمعان صحابي جليل أيضًا ؛ لأنه وفد على رسول الله ﷺ فدعا له رسول الله وأعطاه نعليه ، فقبلهما رسول الله ﷺ ، وزوجه أخته ، فلما دخلت على النبي تعوذت منه ، فتركها ﷺ ، وهي الكلابية المشهور أمرها في السيرة .

كلمة البر في القرآن الكريم :

ذكرت كلمة «البر» في القرآن في خمسة مواضع : في موضعين في سورة البقرة : الأولى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] ، الآية الثانية : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية ، وذكرت في موضع واحد في سورة آل عمران : ﴿ إِنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] ، وفي موضع واحد في سورة المائدة : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢] ، وفي موضع واحد في سورة المجادلة : ﴿ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المجادلة: ٩] .

معاني كلمة «البر»:

كلمة البر من أحسن الكلمات ذكرا ، وأوسعها دلالة ، وأعظمها أثرا في النفوس ؛ إذ يندرج تحتها عدة معان سامية كلها من قبيل الأخلاق المرضية .

١- الخير والصلاح :

كما في قوله ﷺ : «الصدق يهدي إلى البر»^(١) ، ويطلق على التقى ، ومنه قول لبيد بن ربيعة العامري :

وما البر إلا مضمرات من التقى

٢- الطاعة :

ويأتي البر بمعنى الطاعة ، ومنه حديث الاعتكاف : «أكبر تردن»^(٢) .
ومنه حديث الصيام في السفر : «ليس من البر الصيام في السفر»^(٣) .

٣- الصدق :

قال أبو بكر الصديق : لم يخرجني اللين ولا بر . ومن هذا المعنى قولهم في الجواد السابق : الجواد المبر ؛ لأنه إذا جرى صدق ، وإذا حمل صدق . ومنه قولهم : فلان بر في يمينه ؛ معناه : صدق في يمينه .

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٣) ، ومسلم (١١٧٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه البخاري (١٩٤٦) ، ومسلم (١١١٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

٤- الصلة :

منه : بررت والدي ، ومنه الخبر من أبر الناس بي؟ قال : «أملك» الحديث .
وفي المثل : «فلان أبر من فلحس» ، وفلحس هذا علم على رجل من شييان ،
كان في البرور بوالده بمكان ، إذ يحمله على عاتقه وهو مسن قد بلغ من الكبر
عتيا . فأصبح مضرب المثل في البرور .

٥- الجنة :

يأتي البر بمعنى الجنة ، كما قال السدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿لَنْ
تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ [آل عمران: ٩٢] أي الجنة ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل
إمran: ٩٢] .

٦- القبول :

منه قولهم : بر الله حجك ، وأبر الله حجك ، أي قبله .

٧- حسن العشرة ولين الكلام وطلاقه الوجه :

كما في قول عمر رضي الله عنه :

بني إن البر شيء هين فعل جميل وكلام لين

٨- حسن المعاملة مع الخلق :

يفسر البر إذا قرن بالتقوى -كما في آية المائدة- بحسن المعاملة مع
الخلق ، كما يفسر التقوى بحسن المعاملة مع الحق .

معاني أخرى للبر :

قال بعضهم في تفسير البر : هو الإنصاف في المعاملة ، والرفق في المجادلة ،

والعدل في الأحكام، والبذل والإحسان في حالة اليسر، والإيثار في حالة العسر، وغير ذلك من السجايا الحميدة: كقلة الغضب واحتمال الأذى، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، إلى غير ذلك.

البر حسن الخلق:

كلمة البر تتقبل جميع هذه المعاني وأزيد منها، من كل شيء جميل حسن. روى الإمام الحسن عن أبي الحسن، عن جد الحسن، بسند حسن: «أن أحسن الحسن، الخلق الحسن» رواه الإمام الترمذي وقال: حديث حسن، والحديث إذا ارتفع عند المحدثين إلى درجة الحسن، يستدل به حتى في الأحكام، كما عليه جل الفقهاء الأعلام. وقد أشار السيوطي في ألفيته الأثرية، إلى هذا بقوله:

والاحتجاج يجتبي الفقها وجل أهل العلم

إذا فسرنا حسن الخلق ببعض أنواع الخير، يكون الحصر المستفاد من جملة الحديث، حصرا مجازيا، بمعنى أن معظم البر حسن الخلق، كما في قوله ﷺ: «الحج عرفة»^(١)، «الدين النصيحة»^(١)، وإذا فسرنا حسن الخلق بالتخلق بالأخلاق الشريفة، والتأدب بالآداب الشرعية، بما فيها من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، كان الحصر في الحديث حصرا حقيقيا. وهذا الثاني أولى وأوفق بحال السائل النواس بن سمعان؛ لأنه سأل رسول الله عن البر بسائر أنواعه، لا لأنه سأله عن بعض أنواع البر.

(١) سبق تخريجها.

البر في اللغة:

تفسير البر بالمعنى الواسع يساعد عليه في اللغة ما ذكره الراغب في «مفرداته» من قوله : البر لغة التوسع في الخير ، مأخوذ من البر ضد البحر ، في تصور سعته . وقد قيل : إن البر في تغذية النفوس والأرواح بمنزلة البر في تغذية الأبدان والأشباح .

البر بمعناه الشامل العام المطلق:

تفسير البر بالمعنى الشامل العام المطلق يتلاءم وآية البر ، ويواكب محتوياتها الشريفة ، وهي قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

هذه الآية آية جامعة للكلمات الإنسانية ؛ لأن الكلمات الإنسانية رغم كثرتها وتشعبها ، منحصرة في ثلاثة أشياء :

- في صحة الاعتقاد .

- وحسن المعاشرة .

- وتهذيب النفس .

وقد أشير إلى الأول منها بقوله تعالى : ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ .

وأشير إلى الثاني : بقوله تعالى : ﴿وَعَاقَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ ۖ﴾ .
وإلى الثالث بقوله : ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاقَى الزَّكَاةَ﴾ إلى آخر الآية .

المستفاد من آية البر:

هذه الآية تضع لنا قواعد التصور الإيماني الصحيح ؛ إذ تقرر لنا صفات المؤمنين الصادقين ، وتبين لنا سلوك المتقين ، فما من فضيلة إلا وقد شرحتها ، وهذه الآية لها صلة وثيقة بتحويل القبلة الذي ترك جدلاً طويلاً على ألسنة المغرضين ، خصوصاً اليهود المجرمين الذين يصطادون الفرص لإثارة الفتن والشبه حول عقائد الإسلام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية دلالة وتنبيهاً على أن البر ليس شكلاً من الشكليات ، ولا مظهرًا من المظاهر البدنية ، ولكن البر تصور وشعور وأعمال وسلوك .

تصور يظهر أثره في ضمير حياة الفرد وحياة الجماعة ، وسلوك يظهر أثره في حياة الفرد وحياة الجماعة .

عناصر البر في الآية:

البر الذي بيته الآية الشريفة يتكون من عنصرين :

العنصر الأول : بر العقيدة .

والعنصر الثاني : بر العمل .

أما البر في العقيدة : فلا يصلح عمل من الأعمال ولا خلق من الأخلاق إلا إذا كان مرتكزاً عليه ؛ لأنه الإيمان الحق ، الذي تنفعل به نفس المؤمن

ويتأثر به وجدانه ؛ فيتجلى بكل فضيلة ، ويتخلّى عن كل رذيلة ، ويرتبط بربه ، ويستحضر عظمته ، ويطمئن قلبه بذكره : ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] .

وأما البر في العمل : فيتجلى في بذل المال على حبه والاعتزاز به ، وفي إيتائه الأصناف الستة الآتي بيانها ، وبه يصل المؤمن إلى إحساسه بإحساس أخيه المؤمن ، فيتألم لألمه ، ويفرح لفرحه ؛ فيحصل بينهما التعاطف والتراحم والمواساة والمعونة ، فيتآلفان ، ويتساندان .

وبيان ذلك البر ناشئ عن العنصر الأول الذي هو البر في العقيدة ؛ ولذلك فالأول يقدم وضعاً ؛ لأنه مقدم طبعاً ، إذ هو كالتصور بالنسبة للتصديق .

شرح العنصر الأول (بر العقيدة) :

ركزته الآية الشريفة في خمسة أمور ، فقال تعالى : ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ .

الركيزة الأولى : الإيمان بالله : وهو وصف يجعل صاحبه يخضع نفسه لإله واحد ، وهو الله الذي : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] . ولا يقدر أمرًا فيه عصيانه ومخالفة أمره ، وعليه فالإيمان في الواقع نقطة تحول في الحياة البشرية ، من عبودية أشياء متفرقة كالأصنام والأوثان والملائكة وغير ذلك ، إلى عبودية الله وحده ﷻ ؛ فتتحرر النفس بهذه العبودية لله عن كل عبودية لغيره ، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد .

وهو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام في العبادة ، ونقطة التحول من التفكك إلى وحدة الاتجاه : ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ، فالمؤمنون اتجاهاً مستقر ذاتي ثابت ، لا يتبدل ولا يتغير ؛ لأنه وقع لإله واحد لا يفنى ولا يتغير وهو الله .

أثر غياب الإيمان عن النفس:

أما البشرية بدون إيمان بالله الواحد الأحد فإنها لا تعرف قصدا مستقيما ، ولا تعرف غاية مطردة ، ولا تعرف نقطة ارتكاز تتجمع حولها في إطار الجد والمساواة ، كما يتجمع الوجود كله واضح النسب والارتباطات والأهداف .

أثر الإيمان بالله في النفس:

الإيمان بالله ﷻ هو الأساس الأول لبيان حقيقة البر الحقيقي ، ولكن هذا الإيمان يشترط فيه ، أن يكون إيمانا صادقا بأن يكون متمكنا من النفس ، مصحوبا بالإذعان والخضوع ، وباطمئنان القلب ، بحيث لا تبطره نعمة ، ولا تؤيسه نقمة . وليس الإيمان الصادق مجرد حركة اللسان أو تحريك الشفتين ؛ بل الإيمان الصادق ما يعلمه الله من عبده من حقيقة نورانية مستقرة في القلب ، يصدقها صالح العمل تحنس معها الوسوس ، وتبتعد بها عن النفس الهواجس ، ويظهر أثرها في السلوك الحسن : ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] ، فالإيمان الصادق إنما ينشأ عن التوحيد الصادق .

التوحيد وصفاته :

التوحيد الصادق وحدة مكونة من صفات أربع ؛ هذه الصفات الأربع لا بد لكل مؤمن أن يعرفها ويؤمن بها ، وتمتزج بلحمه ودمه ، وإن جهل ولو واحدة منها أو لم يؤمن ولو بواحدة منها - فليس بمؤمن ، هذه الصفات الأربع ، هي :

١- الألوهية . ٢- الوجود .

٣- الوحدانية . ٤- رسالة سيدنا محمد ﷺ .

الله موجود إله واحد محمد نعم الرسول الماجد
فهذه هي الصفات الأربعة جاهلها قُل فيه لا إيمان له

ثمررة الإيمان الصادق :

الإيمان الصادق ثمرته عبادة الله وحده ، ونفي الشريك عنه في العبادة . وعبادة الله وحده هو الأمر الذي اتفقت عليه سائر الشرائع الإلهية على ألسنة الرسل أجمعين ؛ فما من رسول إلا ويأمر بهذا الركن الركين في الدين وهو عبادة الله ، ما من رسول إلا ويقول لقومه : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وفي قراءة : ﴿ إِلَّا (يُوحَى) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ، وقد أمر الله نبيه ﷺ بأن يدعو اليهود والنصارى إلى هذا الأساس القوي في الدين ، فقال عز من قائل : ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

البغي والعدوان سبب الاختلاف في الدين:

الدين الإلهي دين واحد لا اختلاف فيه ، وإنما طراً عليه الاختلاف من قبل القائمين عليه بغيا وعدوانا واندفاعا مع مصالحهم الشخصية ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران : ١٩] .

الإسلام جاء للسلام بين البشر:

دين الله ﷺ جاء ليكون سلاماً على أهل الأرض ، وليكون مناراً يهتدي به البشر في إسعاده في الحياتين ، وليكون مودة ووئاما بين الأفراد والأمم ، ولذلك حذر الله أتباع سيدنا محمد ﷺ من الوقوع في التفرق في الدين والاختلاف ، فقال عز من قائل : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] .

بعض شبهات الماديين:

هذه الحقائق التي أعلنها القرآن الكريم تدحض شبهات الماديين الذين ينكرون وجود الدين بدعوى الاختلاف فيه ، فالقرآن يبين أن الدين واحد لا اختلاف في أصله أبداً ، إنما يطرأ الاختلاف في بعض التشريعات نظراً للمصالح الاجتماعية ، ونظراً لأحوال الأمة ، وعلى درجة استعدادها العقلي ونضجها الفكري ، ولهذا كان من الحكمة بل من المنّة الكبرى على البشر والنعمة العظمى أن بعث سيدنا محمداً ﷺ .

الشريعة جاءت لمصالح البشر:

جاء النبي ﷺ بالشريعة الخالدة التي توافق ما يقتضيه التطور العقلي الإنساني ، ويصلح لكل زمان ولكل مكان ، ولكل شعب ، ولكل دولة . شريعة توفرت فيها عوامل التقدم والإصلاح ، وعناصر التجدد والنمو ، فالشرائع قبلها إنما هي حرف جاء لمعنى ، وذلك المعنى هو شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، شريعة أنزلها خالق البشر لمصالح البشر ، وهو أعلم بمصالح خلقه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] ، فالشريعة الإسلامية وحدها هي الشريعة المقبولة عند الله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وفي قراءة « البر » بالرفع هكذا : (ليس البر) ، وقرأ الجمهور بالتشديد هكذا : (ولكن) . وقرأ ابن عامر ونافع بالتخفيف ، كما هو معلوم في مبحث القراءات السبعة .

معنى بلاغي في الآية الشريفة:

في الآية الشريفة الإخبار عن المعنى بالذات : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ﴾ ، والإخبار عن المعنى بالذات موجود في الكلام العربي الفصيح ، يقولون مثلاً : ليس الكرم أن تدعو الأصدقاء والأغنياء إلى طعامك ، ولكن الكرم من يعطي العاجزين عن الكسب ، وهكذا ، فإن المعنى المقصود من الكلام معنى مفهوم لا يحتاج إلى تقدير مضاف ، لا في جانب المسند ولا في جانب المسند إليه . لا نحتاج إلى أن نقول ولكن ذا الكرم ، أو ولكن الكرم كرم ، كما قدر جماعة من المفسرين المضاف هاهنا . بعضهم في جانب المسند إليه فقال : ولكن ذا البر . وبعضهم في جانب المسند قال : ولكن البر بر من

آمن . ولكن يظهر أن الآية القرآنية والعبارة القرآنية ، تفيدنا معنى دقيقا ، إذ تمثل الإيمان في النفس ، تفيدنا أن البر الإيمان والأعمال معا ، باعتبار اتحادهما ، وتلبس البار بهما معا ، لأن الإيمان باعث على الأعمال ، والأعمال منبعثة عن إيمان ، فهي تستمد منه وتمده وتغذيه في آن واحد . فالتعبير القرآني أدق ، وفي النفوس أعمق ، وهو أبلغ ، سبحانه من هذا كلامه : ﴿وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

الركيزة الثانية : من ركائز حقيقة البر ، الإيمان باليوم الآخر ، اليوم الآخر هو اليوم الذي تبلى فيه السرائر ، ويبرز ما تكنه الضمائر ، ويظهر فيه للمحسن إحسانه فيثاب ، وللمسيء إساءته فيعاقب ، الإيمان باليوم الآخر هو إيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء على الأعمال ، حقيرها وجليلها ، وصغيرها وعظيمها : ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، وهل ترك من العدالة شيئا من أشهدك على نفسك؟ ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] .

أثر الإيمان باليوم الآخر في النفس:

الإيمان باليوم الآخر يحيط الإنسان علما بأن له حياة أخرى وراء هذه الحياة ، تلك الحياة تظهر فيها العدالة الكاملة المفقودة هاهنا . ويحيط الإنسان علما بأن حياة الإنسان على وجه الأرض ليست سدى ، وليست فوضى بدون ميزان ، ويحيطه بأن الأعمال لا بد أن تلقي جزاءها ، كما أن المقدمات لا بد أن تعطي نتائجها : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، وعامل الخير لا يستوي مع عامل الشر أبداً ، وحال المؤمن لا يستوي مع حال الفاسق أبداً : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

أَلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]. فلهذا الإيمان باليوم الآخر يوم الجزاء والحساب، يجعل الإنسان في هذه الحياة رجالاً مهتدياً، رجالاً قيساً. إذ يحمله على ألا يجعل سعيه كله فيما يخدم الجسم، ويحمله على ألا يجعل شهوات الدنيا ولذاتها أكبر همه وكل شيء في الحياة، بل يجعله يحافظ على التوازن في أعماله، ويسلك طريق الاعتدال في أحواله، يتفكر في منافع الدنيا غير غافل عن الآخرة، ويتفكر في منافع الآخرة غير غافل عن الدنيا؛ لأن المؤمن خلق الله له الدنيا والآخرة بمصدق قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولذلك علمنا الله تعالى كيف نطلب الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة؛ فقال عز من قائل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. وقال قبل هذه الآية في بيان أحوال الكافرين الذين نظرهم مقصور على هذه الحياة الفانية الذين يقال لهم في الآخرة: ﴿أَذْهَبَتْكُمْ طَبِيعَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، قال في شأنهم: ﴿فَمَنْ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

لطيفة بلاغية:

ومن الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز في هذه الآية الكريمة، حذف المفعول: ﴿فَمَنْ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾، اعطنا ماذا؟ سكت عنه القرآن، لأن مطالب الناس مطالب متعددة ومختلفة، كل له مطلب خاص، ولذلك القرآن حذفه ليفيد العموم والشمول.

فالإيمان باليوم الآخر ركن ركين من أركان الدين : ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

الدلائل العقلية على اليوم الآخر:

لشوت هذا اليوم يوم الجزاء والحساب دلائل عقلية ، ودلائل عقلية ، أما الدلائل العقلية فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، إذ كلها متفقة على وجود حياة أخرى ؛ يحاسب الإنسان فيها على عمله ويجد كل عامل عمله محضرا .

الدلائل العقلية:

أما الدلائل العقلية فإليكُم بيانها ، ففي الناس قديما وحديثا في البدو والحضر ، في الإنسان العالم والجاهل شعور خفي يشبه الإلهام بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، وإلا كانت هذه الحياة سدى . تلك الحياة التي ينال الإنسان فيها جزاء أعماله ، والشعور الغريزي بوجود عالم آخر بعد الموت ، غير هذا العالم من أقوى الأدلة على هذا الوجود ، إذ الله تعالى بمقتضى بالغ حكمته إذا أراد أن يقنع البشر بأمر ما ، يغرس فكرة الاقتناع بذلك الأمر في غرائزهم وفطرهم . وهذه الحقائق العظمى نأخذها من طريق العقيدة . ومن طريق الإلهام ، ومن طريق المشاعر النفسية . إذ ليس من المنطق أن يخلق الله الإنسان مستعدا إلى الذي لا يتناهى من الكمال ، ويهبه عقلا لا يقف عند حد في علم من العلوم ، ولا يقف عند كشف سر من أسرار الكائنات ، وينشئه هذه النشأة الرفيعة بعد أن خلقه في أحسن تقويم ، ثم في النهاية يجعل غايته كغاية الحيوان الذي لم يعط استعدادا هذا ولم يكرم به ، لا ، بل الله تعالى كرم الإنسان بما منحه من المواهب والاستعدادات ليجعل له حياة أخرى يستثمر فيها أعماله ، وينال فيها كماله .

أثر الفكر المادي على الانحلال الخلقي:

أما ما يدعيه الماديون من أن الفكر والشعور والعواطف نتيجة المادة وحدها، ومن أن الروح لا وجود لها. فهذا من قبيل الأوهام، ومن نسيج الخيال، ولذلك نرى مذهب الماديين رغم ما بذلوه فيه نرى نتيجته التدهور في الآداب العامة والانحلال الخلقي، فمذهب الماديين مذهب خطير على المجتمع البشري، وربما يوقع الإنسانية في هوة سحيقة من الانحلال لا يكون له علاج، فالعقلية المادية الصرفة، التي تساورنا اليوم سم نافع يجتاح إنسانيتنا، وإن تسرب هذا السم القاتل ليلوث كل ما بقي في نفوسنا من عظيم وجليل ونيل. فالقوانين البشرية تعجز عن كبح أي جماع إنساني مهما فقدت الأخلاق سلطانها على القلوب. ولذلك الإيمان باليوم الآخر، ويوم الجزاء والحساب هو الذي يجعل الإنسان صالحا ومصلحا. فالمرء لا يكون صبورا ولا رحيما ولا محسنا ولا عدلا، لولا ما يترأى له من حياة أبدية خالدة أكمل من هذه الحياة. فيجب علينا جميعا أن نوجه رءوسنا نحو السماء، وأن نلفت أرواحنا إلى تلك الحياة الدائمة: ﴿وَإِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لِهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فيكون الإيمان باليوم الآخر من الركائز التي تركز عليها حقيقة البر الصادق: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ مِّنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ﴾، الأساس الأول، والأساس الثاني: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهو يوم الجزاء والحساب، لأن الإيمان بهذا اليوم هو الذي يقوم حياة الإنسان، ويسير بها في الطريق المستقيم الذي لا يضل فيه السالك، ولا يخشى عليه من المهالك.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾.

الركيزة الثالثة : من ركائز حقيقة البر في العقيدة : الإيمان بعالم الملائكة .
والملائكة عالم آخر ، لا يعلم عددهم إلا خالقهم .

الإيمان بالملائكة هو طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان . بين تصور الإنسان لهذا الوجود وبين تصور الحيوان . الإنسان الذي يحس بها وراء المادة ، والحيوان الذي يتقيد بحسه فلا يتعداه .

والإيمان بالملائكة أصل للإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر ، لأن ملك الوحي هو الذي يفيض العلم على النبي بإذن الله وأمره : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴾ [القدر: ٤] ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] .

حقيقة الملائكة :

أما حقيقة الملائكة فإن القرآن تعرض لخلق الإنسان ، وذكر أن الإنسان خلق من تراب ، وتعرض لخلق الجن ، وذكر أن الجن خلق من نار ، ولم يتعرض لأصل الملائكة ، لكن ورد حديث في «صحيح الإمام مسلم» ، أن النبي ﷺ قال : «خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج من نار» فبين هذا الحديث الشريف أن الملائكة من عالم لطيف غيبي غير محسوس والملائكة وإن كانوا غير مرئيين لنا لا ينفي العقل وجودهم ، لأن الإنسان لا يمكن أن يدعي أنه أحاط علما بسائر الكائنات الحية . فالبحث العلمي الجديد كشف عن كائنات حية ما كنا نعرفها من قبل ، والعوالم الإلهية لا تحصى الأرقام : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] ، فالإيمان بالملائكة أمر واجب ، والإيمان بالملائكة يوحي إلى الإنسان أن له في حد ذاته حياة روحية يجب

عليه تنشيطها، ويجب عليه الاستجابة لعوامل الخير التي أودعها الله فيها، إذ بها يرتقي الإنسان إلى درجات الكمال.

طبيعة الملائكة:

أما طبيعة الملائكة وأعمالها، فإنها تختلف عن طبائع البشر، لأن الملائكة ليس لهم قوة الاختيار، بل هم موكلون بصفة ترجع إلى قوة طبيعتهم، ومن طبيعة الملائكة الطاعة وعدم العصيان: ﴿عِبَادُ مَكْرُومَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٤٩] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

أعمال الملائكة:

وأهم أعمال الملائكة وأبرزها هو إبلاغ الوحي الإلهي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما جاء ذلك صريحا في قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، فالآية تشير إلى أن الله تعالى جعل الملائكة وسائط بينه وبين رسله، ليلغوهم رسالات ربه، كما تفيد قدرة الملائكة على السرعة في تنفيذ الأوامر الإلهية، نظرا إلى ما يفيدته التعبير بالأجنحة، لأن الأجنحة في عالم المادة هي الآلة المساعدة على الطيران.

بعض أسماء ملك الوحي:

في «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ رأى ليلة أسري به جبريل، وله ستمائة جناح، والملك الذي ينزل على سيدنا محمد اسمه جبريل بنص

القرآن: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] ، ويسمى الروح الأمين ، ويسمى روح القدس : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤﴾ ، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢] .

فائدة تفسيرية:

أما قول الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] ، الغرض من الروح في هذه الآية هو الوحي ، لأن الغرض : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي بتبليغ رسالة الله ، لمن اصطفاه لرسالته ، ليحذر الناس من مخالفة أمره وعصيانه : ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ، وشبه الوحي هاهنا بالروح ، لأن الوحي يحیی النفوس والقلوب كما تحیی الروح الأجساد والأجسام .

أعمال أخرى للملائكة:

من أعمال الملائكة ووظائفها ، أنها تؤيد الرسل وتؤمنهم ، وتهون عليهم الأمر وسط اللاواء والشدة ، كما قال تعالى في شأن عيسى : ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] ، ومن وظائف الملائكة أنها تنزل على المؤمنين الذين استقاموا بالتأمين والتبشير : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلًا مِنْ عَفْوَِرٍ رَحِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٠-٣٢] ، تفيد الآية أن المستضيئين

بنور الإيمان ، السائرين في طريقه المستقيم تنزل عليهم الملائكة في الدنيا ، فتوجههم وجهة الخير والصواب ، وعند الموت مطمئنة إياهم بألا يحزنوا على ما خلفوا وراءهم من مال وولد ، مبشرة إياهم بالجنة التي وعدهم الله بها ، ويقولون لهم : نحن أولياؤكم وأحباؤكم في الدنيا ، نرعاكم فيها ، ونحن أولياؤكم ونصراؤكم في الآخرة كذلك ، نسلم عليكم بما صبرتم كما قال تعالى : ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤] .

وكذلك من وظائف الملائكة أنها تشفع للمؤمنين ، وتستغفر لهم ، وتدعو لهم بالهداية إلى طريق النجاة ، أما شفاعتهم للمؤمنين فمتوقفة على إذن الله تعالى ورضاه : ﴿ وَكَرَّمْنَا لَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦] .

أما استغفارهم ودعاؤهم للمؤمنين : ﴿ الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝۸ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمْتَهُ ۖ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝۹ ﴾ [غافر: ٧-٩] .

المحاضرة السابعة والثمانون بعد المائة

الوحدة الثقافية بين المسلمين مطلب إيماني

أهمية الموضوع:

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ويقول سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إن من النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم أن نتحدث إليهم ، وبين أيديهم في كل المسائل التي تهم الإسلام والمسلمين ، ونكون بعد ذلك جنودا لهم نفعل ما يطلبون ، ونؤدي ما يطلب إلينا منهم .

سأتحدث عن بعض موضوعات تمت إلى العقيدة الإسلامية ، وإلى الثقافة الإسلامية ، وأعتقد أن وقعها على أسماعنا سيكون أليما ، ولكن وقعها في الخارج أشد إيلا ، وأعظم في النتائج من الألم الوقتي ، الذي نسمع فيه هذه الملاحظات ، وإنها ليست ملاحظات ولكنها وقائع ، حقائق ينبغي أن نعرفها جيدا ، وسوف لا أذهب بعيدا .

الإسلام دين السلام:

الإسلام من يوم نشأته حتى اليوم قد دعا للمسلم والسلام ولكن الأعداء الذين لا يحبون أن يصطادوا في غير الماء العكر، لا يقبلون وجهة النظر هذه، فوقفوا للإسلام بالمرصاد، فهاجموا الإسلام والمسلمين من أجل الحياة، ومن أجل البقاء، وكنا نظن أن هذه الحملة المسعورة ضد الإسلام والمسلمين قد فثت، أو كادت بعد الحروب العنيفة التي وقعت بين الإسلام والمسيحية في عدة عصور.

مواقف عدائية للإسلام وأهله:

لكنني سأحدث عن وقائع حدثت في العقد السادس من القرن العشرين.

قصة مبشر مشهور:

في يوم من الأيام وفي سنة ١٩٦١ بالذات قام مبشر مشهور، وأعلن أنه ذاهب إلى ديار الإسلام ليحارب الأسد في عرينه، وليغزو المسلمين في عقر دارهم، فما أن أعلن هذا الخبر حتى وضعت ثروات طائلة تحت قدميه لينفذ ما أراد، فانتقل هذا الرجل، وزار كثيرا من بلاد العالم الإسلامي، وعلى الرغم من هذا البيان المفترى، على الرغم من هذه الرغبة العنيدة، فقد استقبله المسلمون كعادتهم بالكرم والسخاء، وسمحوا له أن يحاضر، فحاضر وقال كثيرا وهاجم كثيرا، ولكنه عاد أدراجه ليروي لمن أرسله خيبة أمله وأنه لم ينجح، وأخفق في مهمته.

ولكن الباعث على حرب المسلمين لا يزال باقيا في نفسه، وهو ينتهز الوقت الملائم، والوقت المناسب ليغزو بأسلوب أو بآخر.

واقعة لكاتب شرقي مشهور:

بعده بقليل قرأنا في بعض الجرائد العالمية لكاتب شرقي مشهور، يقول تقريباً بالحرف الواحد يخاطب دول العالم الغربي، ويطلب إليها أن تسير قدماً إلى الأمام في سياستها العنيفة نحو الإسلام والمسلمين، لأن الإسلام - هكذا يقول - لم يعد له تلك القوة المخيفة، التي كانت له من قبل، ويضيف: لا تغتروا بما يذاع هنا وهناك من أن قوة الجهاد بين المسلمين لا تزال باقية فهذا حديث وحين تولد المعارك لا تجدون شيئاً من ذلك، فالمسلمون أصبحوا اليوم أضعف من أن يؤثروا في توجيه التاريخ وفي توجيه سياسة العالم، فسيروا ولا تنظروا إلى هؤلاء الناس، ولا تنظروا إلى آرائهم بل افعلوا ما تريدون.

افتراءات عالم الاجتماع الأول في العالم على المسلمين:

هناك أحد علماء الاجتماع، وينظر إليه الآن في كثير من الدوائر العلمية على أنه العالم الأول في دراسة الاجتماع، وسيد علماء الاجتماع، يقول هذا الرجل في كتاب الله ولم يستحي أن يقول هذا الحديث الذي سأرويهِ الآن على بعض المجتمعات الإسلامية.

يقول بالحرف الواحد ما يلي: إن المسلمين يزعمون ويريدون أن يقنعوا العالم بأنهم أمة واحدة، وأنهم يد واحدة على من عداهم، وأنهم إخوة، وأنهم كيت، وكيت يقول هذا الكاتب: إنه ليس بين بلاد وشعوب العالم الإسلامي، وليس بين دول العالم الإسلامي، وليس بين أفراد العالم الإسلامي من رابطة سوى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما عدا ذلك فهم يختلفون اختلافاً بيّناً.

وحتى في هذه يذهب الرجل ويقول في لا إله إلا الله محمد رسول الله لم يتفقوا حتى فيما صدق ، ومفهوم هذا أيضا ، فلا إله إلا الله لها مفهوم خاص عند الأشاعرة ، لها مفهوم خاص عند المعتزلة ، لها مفهوم خاص عند الشيعة ، لها مفهوم خاص عند السبئية ، وما إليها من فرق وطوائف في الإسلام ، ومحمد رسول الله أيضا يختلف فيها كذلك يعني ، أنه ليس هناك ستمائة أو سبعمائة مليون مسلم كما نقول ، ولكن هناك أفراد يسمون أنفسهم مسلمين وكلمة الإسلام في نظري عامة ، ليس لها مفهوم واحد ، ليس لها مدلول واحد ، ليس لها منصرف واحد .

هذه العبارة بعينها تؤدي نفس عبارة الكاتب الذي أشرت إليه ، وهو أن المسلمين ليسوا قوة يعتد بها ، أو يخشى منها .

كلام مستشرق آخر:

من عهد قريب جدا ، يقف مستشرق كبير ، كان له وزن كبير بين العرب بنوع خاص ، وبين بعض البلاد الإسلامية كذلك ، يدعى هذا المستشرق الكبير ليحاضر في مسجد لندن في المركز الثقافي الإسلامي ، هناك الذي يشرف على إدارته سفراء العالم الإسلامي ، الذين يمثلون بلادهم في بريطانيا فيقول : سألني فلان ويعني الشخص الذي دعاه ليحاضر أن أتحدث عن الإسلام ، ولقد حاولت كثيرا أن أعصر ذهني وأجد نقطة انطلاق أبدأ منها التحدث عن الإسلام ، فلم أجد ذلك ، لأن الإسلام يختلف باختلاف الفرق وباختلاف الطوائف ، ثم بدأ يعدد السبئية ، والخوارج ، والشيعة ، والرافضة ، والزيدية ، وما إليها ، ثم انتقل إلى العصور الحديثة ، فقال هل أحدثكم عن إسلام القاديانية؟ هل أحدثكم عن إسلام البهائية؟ هل أحدثكم عن إسلام فلان أو فلان ، ثم خلاص من هذا كله إلى أن

الإسلام في نظره عبارة عن مجموعة من المسائل الفقهية ليست من الكليات في نظره ، ليست هناك كليات يمكن أن يتمسك بها .
هذا اللون يمكن أن نربطه أيضا بالكلمتين السابقتين .

مستشرق آخر:

عالم يقال أنه مستشرق أيضا وهو الآن مشغول بكتاب يقول إنه يحلل فيه نفسية الرسول محمد ﷺ من خلال القرآن ، فكان هذا الشخص يفترض أن القرآن من عمل محمد ﷺ ، وليس وحيا منزلا من عند الله .

فرية كتاب اسمه «القرآن الصحيح»:

الأدهى والأمر من ذلك أنه وقع في يدنا منذ أقل من ستين مضت مصحفا مترجما إلى اللغة الإنجليزية تقرب صفحاته من ألفين ، وليس فيه نص عربي وليس فيه تعليق .

والقرآن حين يترجم معناه إلى اللغة الانجليزية ؛ لو فرضنا أن الشخص كان مطيلا في عباراته ينبغي أن لا يتجاوز (٥٠٠) صفحة ، فلما رأيت في أكثر من ألف وثمانمائة صفحة شغلني ذلك ، فاطلعت عليه وقرأت كثيرا منه ، فوجدته محرّفا كل التحريف لكثير من آيات القرآن ، وبنوع خاص في آيات الأحكام ، فحين جاء إلى سورة البقرة ، وفي تحدّثه سبحانه وتعالى عن الطلاق فحين يقول : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨] أضاف من عنده ما يلي : إن للمرأة أن تطلق زوجها كذلك ، وأن الزوجة إذا طلقت زوجها يتربص نفس العدة التي ترتبصها الزوجة . وهكذا يسير كأنه نص قرآني وفي آية المواريث ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء : ١١] يحذف : مثل ويضع مكانه : نصف ، هكذا :

وللذكر نصف حظ الأنثيين يعني جعل نصيب الذكر مثل نصيب الأنثى .
ولقد كتب على هذا المصحف: «القرآن الصحيح» .

يزعم الكاتب أن القرآن الذي بأيدينا ليس قرآنا صحيحا ، وليس قرآنا صادقا ، وأن القرآن الذي افتراه هو إنما هو صدق . من الكتاب؟ لا يعرف . من الناشر؟ لا يعرف ، أين طبع؟ لا يعرف . من الذي طبع مثل هذا الكتاب ولم يكتب على غلافه سوى القرآن الصحيح؟ وبدأ بسورة الفاتحة ، وانتهى بسورة الناس ، دون أن يذكر شيئا عن هوية الكاتب ، أو يعرفنا بالكتاب ، لا بد أن يكون رجلا له قصد سيء ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون فردا ، إنها مؤسسة ، إنها مجتمع مجموعة من الناس تمول ، فمن هم؟ هنالك تخطيط من هو المخطط؟ لا أدري؟ ولست أدري؟ ولا أحاول أن أدري وليس يهمننا أن نعرف .

بذل الجهد لإيقاف هذه الهجمات:

لكن الذي يهمننا في هذا الصدد هو أن نحاول أن نسد هذا الفراغ وأن يكون لنا جهازا من العلماء الأخصائيين الفنيين ، الذين يتبعون هذه الترهات في كل مكان وأن يجيبوا عنها .

ولو فرضنا أن الكاتبين كانا جاهلين لوجب علينا أيضا أن نعمل عملا في هذا الصدد هذه ناحية ، ناحية أخرى ليست أقل أهمية من هذه الناحية التي تستدعي من المسلمين كبير الاهتمام . عدد أفراد العالم الإسلامي يزيد عن مليار نفس ، وأكبر عدد للمتدينين من دين واحد ، المسيحيون إذا جمعوا معا قاربوا هذا العدد أو زادوا عنه بقليل ولكنه في الإحصاء لا يجمعون هكذا فالدين الإسلامي على هذا الأساس أكبر الأديان عددا في العالم ، يوجد من

بين هذا العدد حوالي سبعمائة مليوناً في بلاد تتمتع باستقلالها، والعدد الباقي الذي يجاوز مائتي مليون لا يزال يعيش كأقليات في إفريقيا وفي آسيا وفي أوروبا وفي أمريكا غير أن هذه الأقليات أقلية هزيلة في بعض المواطن، وأقليات كبرى في مواطن أخرى، أقلية تبلغ أحياناً النصف، وأقليات تنزل إلى ٢ أو ٥ في المائة، وبينهما عدد كثير، كثير من هؤلاء المسلمين وفي بعض المواطن لا يستطيعون بحال من الأحوال أن يذهبوا عن طريق بلادهم ليتعلموا، لينفروا في سبيل الله متعلمين، ويتعلمون الثقافة الدينية لا يستطيعون أن يرسلوا طالبا منهم إلى الخارج، لا نستطيع نحن أن نرسل إليهم مدرسا ليعلمهم، وقد لا يكون ضرورياً أن أذكر هذه البلاد الآن ولكنها معروفة، وطالما أرسل من الأزهر مدرسون فعادوا أدراجهم، وكان لنا في بعض هذه البلاد مدرسون فطردوا، وبقي المسلمون حيارى في أمر دينهم لا يعلمون شيئاً، ولا يجدون من يعلمهم ولا يسمح لهم بأن يستقدموا من يعلمهم، وفي بعض الأحيان يسير شباب من هناك على الأقدام فيفدون إلى المغرب أو إلى (ج. م. ع) أو إلى تونس أو إلى الجزائر أو إلى ليبيا أو غيرها من البلاد القريبة، فإذا علم بهم نكل بأهلهم تنكيلاً، وحرّموا من حقوقهم، حقوق المواطنين.

فقدان بعض الأقليات المسلمة للحق الديني:

لست أتكلم عن الحقوق السياسية، وحتى الحقوق الاقتصادية، ولكنني أتكلم عن شيء يتحدث عنه القرن الحادي والعشرون أن لكل واحد الحق في أن يمارس الشعائر الدينية للعقيدة التي يتمسك بها، وأن يتعلم طقوسها وآدابها، هؤلاء الناس محرومون من كل هذا الأمر، قد يكون هينا لأن كثيراً من الآباء كانوا قد تعلموا عن آبائهم شيئاً من الدين ولطول

العهد قلت المعرفة . فماذا يصنع الشباب؟ وقد وجدوا أنفسهم بين المغريات التي تحتاج إلى عقيدة وتيقن ، لتمنع الشخص من السقوط في الهاوية ؛ يعرض عليهم التعليم بالمجان في بلاد كبرى ، فهل يرفض الشاب؟ يعرض عليهم التعليم في مدارس الإرساليات هناك ، فهل يعترض الشاب؟ وخاصة إذا لم يجد سبيلا غير ذلك ، يعالجون في مستشفياتهم ، وليس للمسلمين أو أبنائهم مستشفيات تقدم لهم الوظائف ، ومن ترك منهم دينه وأصبح وثنيا يمكن أن يلي المناصب ، ويمكن أن يعالج ، ويمكن أن يعلم لست أقول فمن المسئول عن هذا كله ، لأن الوضع العام العالمي قد يكون مسئولا ، ولكن على من يقع العبء للنهوض بالثقافة الدينية لهؤلاء ، وبتعليم هؤلاء ، ولبناء المساجد والمستشفيات والمعاهد الدينية لهؤلاء؟ أقول نحن المسلمين ، وقد أصبح فرض عين علينا أجمعين .

دعوة إلى التخطيط لعلاج الأزمة:

لست أذيع سرا إذا قلت لكم إن هناك محاولات من جميع بلاد العالم الإسلامي لمساعدة هؤلاء الناس تبذل ، ولكن المسألة ليست مسألة مساعدات المسألة مسألة تخطيط ، ومسألة تنسيق جهود يمكن أن تؤدي ثمراتها إذا ما تعاونت الجهود جميعها ، إذا ما سعى أولو الأمر وأولو الأمر هم ملوكنا ورؤساء دولنا هؤلاء جميعا هم أولو الأمر ، الذين يمكن أن يقوموا بعمليات التنسيق هذه ، هذا كله أو هذه المسائل المتجهة إلى العقيدة والمسلمين ، وقد نستطيع أن نغمض العين عنها قليلا ، وخاصة لأنها لم تمس الحياة اليومية المباشرة للمسلم في وطنه .

بعض مظاهر الفساد في أوطاننا :

لكن هل وطننا في الداخل محصن من مثل هذه العاديات؟ أقول : كلا ، فإذا سرنا في كثير من مواطن العالم الإسلامي ونظرنا في الأسواق ، أسواق الكتاب بنوع خاص ، وجدنا سيلا جارفا من الكتب المتحللة من كل خلق ، المتحللة من كل فضيلة ، التي تدعو إلى الإلحاد ، والتي تثير بما فيها من ترهات ومن نقص وغموض غرائز الشباب ، وتجعلهم يقرءونها وتجعلهم يهضمونها ثم لا تنحصر المسألة في الكتاب فحسب ، بل في أجهزة الإعلام كذلك ، من راديو وتلفزيون وما إلى ذلك ، هناك كتب تغزو أسواقنا لا ندري من أين جاءت حقيقة لا ندري من أين جاءت ، وكأنها تطبع محليا .

وإلى عهد قريب غزيت بعض أسواق البلاد العربية بكتاب لا يعرف مصدره وهو : «المسيح في القرآن» ، نحن نجل المسيح ، نحن نحب المسيح ، نحترم المسيح ، ولكن ظهر هذا الكتاب ليقول إن المسلمين الذين يرمون المسيحيين بالشرك ، وبأنهم عبدوا أكثر من إله في شخص الأتاني ، هم الذين يوصمون بهذه الوصمة ، لأنهم يقدسون المسيح أكثر من تقديس المسيحيين له ، فيقولون هو كلمة الله وما إليها .

حتى رسول الله ؟!

ثم بعد ذلك يلجئون إلى الرسول ﷺ في هذا الكتاب ويصفونه بالأوصاف التي كان يوصف بها في أوربا في عهود الظلام ، في العهود التي ظنوا أن مثل هذه الكتب لا يمكن بحال من الأحوال أن ينظر إليها مسلم ، أو يردها مسلم ، كل هذا أوجد عند شبابنا بلبلة في الفكر ، وخاصة حينما

يربطون هذا التقدم الفكري وهذا التقدم الفني التكنولوجي بالعقيدة ، ويقولون للشباب انظروا كيف أن عقيدتكم أبقتكم دولا نامية ، في حين أن عقيدتنا هي التي نهضت بنا ، وهي التي جعلتنا نغزو الفضاء ، وإلى المريخ ، ونعمره وأنتم حتى اليوم لم تنجحوا في تعمير البقعة التي تعيشون فيها .

حاجة الشباب إلى العلم والتبصر:

الشباب لا يعلمون كثيرا مما نعلم ، وليس لهم وقت لعلهم ما نعلم وأن هؤلاء الناس قد تحللوا حتى من دينهم ، ودين الإسلام هو الذي يدعو إلى العمران ، ويدعو إلى التطور ، وهكذا خلقت الدنيا هذه لتعمر ولكن شبابنا لا يعرف شيئا من ذلك ، ويحتاج إلى من يبصره ، وهذه المشكلة تكاد توجد في بلاد العالم الإسلامي جميعا مرحلة الحيرة ، والتردد والبلبلة في نفوس الشباب ، الذي أثرت عليهم تأثيرا كبيرا .

ما العمل إذن ؟!

هذه بعض المشاكل الكبرى التي أعتقد أنها تواجه العالم الإسلامي اليوم ، فما الذي يمكن أن نعمله ؟ وما الذي ينقصنا نحن المسلمين عن أن نكون مثل هؤلاء الناس أو أقوى منهم .

التخطيط أول سبل النجاح:

أنا شخصا لا أجد بحال من الأحوال أن شيئا ينقصنا سوى التنسيق والتخطيط ، فالشريعة الإسلامية مثلا بغزارتها وبعمقها وبكثرة تفريعاتها وبحكمها ، وبأنها لا تهتم إلا بالموضوع ، إنها لا تعرف النسبة ولكنها تعرف العدل المطلق ، هذه الشريعة لا تحتاج بحال من الأحوال إلى أن تستعير شيئا من خارج حدودها ، هكذا كانت وهكذا ستكون إلى يوم الدين .

كتائب من العلماء المجتهدين:

كل ما تريده الشريعة علماء يفقهون جيدا حكم التشريع ويربطون الجديد بالقديم ، وبحكم التشريع وبالقواعد الكلية ، فإذا اتسقت واتفقت معها فيها ونعمت والحمد لله ، وإذا ضلت عنها عدلت هذا الوضع الجديد أو غير وبدل لأن غيره لا بد أن يكون خيرا منه .

سد الاحتياجات المادية باستخراج الثروات الدفينة:

هذا من الناحية الفكرية ، ولسنا أو وليست العقلية الغربية خيرا من العقلية الشرقية بحال ، بل إنني أقول بالعكس ، وكلنا نعلم أن المخترعات الحديثة جمعاء كلها ابتنت أو القليل الذي اخترعه آباؤنا العرب ، حقيقة حدثت نكسة وحدث ركود ، ولم يكن المسلمون السبب الأول فيه ، بل كانوا شركاء فيما نسميه الجريمة ، وهذا النقص وذاك الانتكاس ، ولكن العقلية الجبارة المبتكرة ، ولكن خصوبة الخيال في العالم الإسلامي لا تزال قوية ، ولا يزال قادرا على الإنتاج حين تواتيه الفرصة ، أما إذا لجأنا إلى المواد الطبيعية الدفينة في أرض العالم الإسلامي فنجد أن بطن الأرض مليئة بكل الخيرات التي يمكن أن تجعل أهلها من أغني بلاد العالم في كل ألوان الحياة ، ولكنها كعطاء الله دائما موزعة توزيعا عادلا على كل بلاد العالم الإسلامي ، ففي هذا البلد أنواع وفي البلد المجاور له أنواع أخرى ، وفي البلد الثالث أنواع مختلفة ، وهكذا فخيرات الأرض جميعها موجودة عندنا وموفرة إلى حد قد يزيد بكثير عن الحد الذي وجدته دولة غنية مثل أمريكا وأصبحت بها غنية .

صناعة أجهزة لبث الثقافة الإسلامية:

ليس في أمريكا ولاية من ولاياتها تستطيع أن تكون غنية بنفسها، لكنها غنية بتنسيق وتعاون الولايات بعضها مع بعض، فنحن والحمد لله لا ينقصنا الفكر، لا ينقصنا الرجال، لا ينقصنا المال، ولكن ينقصنا التنسيق والتعاون والتضامن لنصنع ما نشاء.

لنصنع كثيرا لا بد لنا من أن يكون لنا جهاز قوي، أعني للعالم الإسلامي جميعا، جهاز قوي متخصص تكون مهمته الأولى الثقافة الإسلامية، أولا لتقصي الحقائق لتقصي كل ما يكتب عن الإسلام ومعرفة الباعث عليه، على هذا الكتاب إن كان جهلا أو ظلما وطغيانا أو نتيجة تخطيط دولي أو فردي أو جماعي، ثم بعد ذلك تعد العدة للرد على ما كتب، أو ما أشيع أو ما أذيع بالكتاب أو بالنشرة أو بالمواجهة، فينبغي أن يكون هذا الجهاز عالميا إسلاميا، يتكون أفراد من كل بلاد العالم الإسلامي، ويكون من عمل هذا الجهاز مساعدة الأقليات الإسلامية في مواطنها بالتعليم، وبناء المساجد، وبناء المعاهد الدينية، ثم بتزويدها بالمدرسين، ثم قبول الطلاب في هذه البلاد وسيتعذر على هؤلاء الناس الذين كانوا يمنعون هؤلاء من الخروج للتعلم، سيتعذر عليهم أن يمنعوا اتصال هؤلاء بالمسلمين للمعرفة والثقافة، كما تفعل الفاتكان مع بعض البلاد المسيحية، وخاصة الأقليات المسيحية.

صعوبة الأمر على دولة بمفردها:

إذا أرادت دولة من دول العالم الإسلامي أن تقوم بهذا الجهد وحدها، نقول بارك الله عليها، ولكن هل تستطيع دولة إسلامية أن تقوم وحدها

بهذا العبء الثقيل في هذا الظرف ، وفي هذا الوقت العصيب إنني أقول لا ، لأن هذا العمل يستدعي مئات من العلماء الأخصائيين الفنيين المضحين ، الذين لهم اهتمام خاص بالدعوة إلى الله ، وتبليغ كلمته ، وتوضيحها إلى الأفهام والأذهان ، وإن استطاعت أن تدبر هذا العدد فلن تستطيع أيضا أن تدبر المال ، لأن المال المطلوب في نظري سيكون كل سنة يعد بالملايين .

فالمجهود مجهود ضخم ، يحتاج إلى عدد كبير من الرجال ، وإلى عدد كبير من المال ، فإذا وجد ، إذا أمكن أن يوجد نوع من التضامن ، نوع من التعاون بين المسلمين في هذه الحركة المباركة ، اجتمع زعماءنا ورؤسائنا هم أو من ينوب عنهم ، ودرسوا المشكلة على طبيعتها ، وأدركوا مدى أهميتها ، وهي حقيقة مهمة لا لمرکزنا في العقيدة ، ولا لمرکزنا فيما يتعلق بالثقافة الإسلامية وحدها ، بل لمرکزنا السياسي .

قوة الثقافة أفضل السبل إلى الاستقرار عمومًا :

كذلك فإني أعتقد أنه كلما قويت الدولة في ثقافتها ، وكلما اكتمل لها خلقها وخاصة في الدولة الإسلامية ، استقرت أوضاعها ، والفضيلة كما تعلمون في الإسلام ، فضيلة اجتماعية ، ليست فضيلة فردية بحال من الأحوال ، فالرجل الذي يصلي ويصوم فحسب ولا صلة له بغيره ولا ينفع الناس ، أقل شأنًا ممن يفيد الناس بعمله وبفضله وبخلقه وبجهاده وبكفاحه ، الفرد محاسب لاشك في هذا ، ولل فرد شخصيته وذاتيته واستقلاله الشخصي الذي يجب أن يحترم .

أنا ... لا أما نحن فنعم:

لكن في نفس الوقت لا يكون مسلماً كاملاً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، حتى يكون مضحياً من أجل المجتمع ، ومن أجل أخيه الإنسان حيث لا يكون شخصاً يقول أنا بل يقول نحن لأن أنا لا تعيش ولا تنفع ولا تفيد المجتمع .

ونحن كلمة الجماعة وأنا كلمة الشيطان لأنه هو المغتر بنفسه ، فعندنا الآن مشروع أو اقتراح أو رغبة ، نسميها رغبة في أن يكون هذا الجهاز .

محاولة ... ولكن قاصرة!

لقد حاول الأزهر محاولة وبعض الإخوان هنا يعرفها بإنشاء مجمع البحوث الإسلامية وإعطائه نزعة عالمية ولكنني أقول إنه ليس مقصراً ولكنه قاصر كل القصور عن الوفاء بحق هذا العمل كله ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يقوم وحده لو أخذنا خريجي الأزهر جميعاً للقيام بهذه الحركة ما كفوا لو ضغطنا على الحكومة وأخذنا منها أكثر مما نأخذ لا يكفي .

معاودة الحث على تنظيم الجهود:

الذي ينبغي أن يكون هو تنسيق الجهود بشيء ، دعنا نقول بصراحة ووضوح بشيء كمؤتمر إسلامي عالمي ، بشيء كجامعة إسلامية تكمل الجامعة العربية مثلاً ، فالجامعة العربية لها مجالها الحيوي ، وهي ضرورة وخطوة ضرورية ، وأدت غايتها وستستمر إن شاء الله في تأدية هذه الغاية الموفقة ، فهي خطوة مباركة لا بد أن تستمر ، ولكنها ليست الغاية النهائية ، يمكن أن يوجد بجوارها ومعها جامعة إسلامية .

أهمية الوحدة الثقافية الفكرية بين المسلمين:

لا نتحدث في الوقت الحاضر عن المجال السياسي للعالم الإسلامي ، ولا المجال الاقتصادي للعالم الإسلامي ، ولكننا نتحدث فقط في هذه الوحدة الثقافية الفكرية بين المسلمين تدفع الغزو الثقافي الخارجي عن ديار المسلمين ، تنسيق التعليم الديني بين بلاد العالم الإسلامي بتقريب مناهج التعليم الديني تصر على أن يدخل التعليم الديني في جميع مدارس الدولة ، سواء أكانت مدرسة مدنية أم معهدا دينيا ، بحيث يتخرج الشاب ولديه ثقافة موحدة بين أفراد جميع العالم الإسلامي ، فتكون مهمتها داخلة في هذا اللون من التنسيق من ناحية ، ثم في الإشراف ، توضع قاعدة عامة ، وتنفذ هذه القاعدة على جميع بلاد العالم الإسلامي المشتركة في هذه الجامعة أو في هذا الجهاز الذي يتقرر إنشاؤه ، يكون لهم حق الإشراف على كل ما ينشر باسم الدين ، وعلى كل نوع من الإشراف الكلي ، وعلى الكتب التي تدعو إلى الانحراف والتحلل ، سواء أكانت وافدة ، أم كانت صادرة من الخارج ، وإذا كان للدولة أن تقيم حجرا صحيا على المرضى وتمنعهم من مخالطة الجماهير ، فأولى بها أن تضع حجرا صحيا على ما ينشر من كتب تدعو إلى التحلل والانحراف ، فالرجل المريض جسمه والمعافى قلبه وعقله ، والقوية نفسه ، يمكن أن يكافح في الحياة ، وأما الجسم الصحيح الذي ليس له قلب ، وقد انهارت روحه ونفسه المعنوية لا يفيد المجتمع في قليل ولا كثير ، وإني أعتقد أن هذا الحجر على مثل هذا الكتاب لا يقل لزوما عما نسميه الآن بالحجر الصحي ، يكون هذا من عمل هذا الجهاز الذي قد يفكر في إنشائه للتربية في الداخل ، ولدفع العدوان الخارجي .

حاجة الأمة إلى جامعة إسلامية :

يسرني أن أقول في هذا الصدد إن فكرة الجامعة الإسلامية فكرة قديمة ، وأظن أن بعض إخواننا من رجال الباكستان وقد يكونون حاضرين يعلمون كيف أنها بدأت بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة ، وكان من دعائها السيد خليف الزمان ، وأعتقد أنه لا يزال حيا يرزق ، ولكن السيد خليف الزمان كان يتكلم عن الوحدة وعن «إسلامستان» يعني دولة إسلامية قوية موحدة .

وإلى عهد قريب بدأ المؤتمر الإسلامي الذي اشتركت فيه الباكستان والد (ج م ع) والمملكة العربية السعودية ثم عمل قليلا وتوارى هذا الجهاز .

نحن في حاجة إليه سواء سميناه جامعة إسلامية ، أم أسميناه اسما آخر ، وقد يكون إن شاء الله ، وهذا تفكيرنا لهذا الجهاز الثقافي الديني قد يكون له أثره في المستقبل القريب أو البعيد ، في تكوين ما نصبو إليه جميعا من وحدة اتحاد وائتلاف بأي أسلوب من الأساليب بين دول العالم الإسلامي جميعا ، ولكن حصول ذلك متوقف على أن يوجد أولا هذا اللون من التعاون ، ليحفظ علينا ديننا أولا ، فإذا حفظ علينا الدين حفظ الله علينا كل شيء .

بشرى خير :

في هذه المناسبة يسرني أن أذكر أن مجمع البحوث الإسلامية قد أشار إلى شيء من هذا بتوصية موجهة إلى رؤساء العالم الإسلامي ، كان تحدث عن قضية فلسطين ووجوب تأزر الحكومات والهيئات المسؤولة معا ليقف المسلمون صفا واحدا في مواجهة الموقف .

كما دعا لتأليف وفد من العلماء يعنى بالعمل ، وأن يقف المسلمون صفا واحدا وراء قضية فلسطين من ناحية ، ووراء تنفيذ الوصية الأولى الذي يدعو المؤتمر فيها إلى إنشاء صندوق لتمويل كفاح أبناء الشعب ، وللدعوة الإسلامية كذلك ، فهنا يقول في النهاية يدعو المؤتمر إلى تأليف وفد للعمل على تنفيذ هذه التوصية وتوثيق عرى المودة والتآخي والتعاون الفعال بين البلاد الإسلامية تمهيدا لقيام الجامعة الإسلامية المنشودة .



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المحاضرة الحادية والسبعون بعد المائة	٧
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ..	٧
مقدمة	٧
أهمية الاستدلال العقلي في العصر الحاضر	٧
التوقيت في الرسائل وفائدة ذلك	٨
تدريجية التربية	٩
مثل معاصر واقعي	٩
التقنيات في أوروبا	١٠
اشتمال التشريع الإسلامي على عناصر ثلاثة	١٠
مصدر العقيدة الإسلامية هو القرآن والسنة	١١
التمسك بهذا المصدر زمن الصحابة رضي الله عنهم	١١
بداية الانحراف وظهور الأهواء	١٢
ظهور المسائل الكلامية كالجوهر والفرد... إلخ	١٢
عودة إلى مصادر التشريع الإسلامي	١٣
ظهور المصدر الثالث (الإجماع)	١٤
أدلة الإجماع من القرآن والسنة	١٤
القياس كمصدر رابع للتشريع	١٥

- ١٥ كيف استعمل القياس كمصدر للتشريع
- ١٥ عمر في قسمة أرض العراق
- ١٦ ماذا لو اعترض بآية الخمس؟
- ١٧ مسألة الطلاق الثلاث في كلمة واحدة
- ١٨ عصر التدوين وظهور الخلاف المذهبي
- ١٩ ماذا نفعل في عصرنا نحن؟
- ٢٠ التعليل في القرآن الكريم
- ٢٠ تعليق الحكم على الوصف
- ٢٠ تعليقه بمشتق
- ٢٠ التعليل بالمصلحة
- ٢١ التعليل بدرء المفسدة
- ٢٢ الرسالة بداية التأليف في التعليل
- ٢٢ نهي النبي ﷺ عن الابتداع في الدين
- ٢٣ ظهور المجتهدين ومدعي الاجتهاد
- ٢٣ وضع ضوابط الاجتهاد بتأليف الرسالة
- ٢٤ كيف يقع الاختلاف بين المذاهب
- ٢٤ مسائل يبنى عليها القياس
- ٢٥ المصلحة كمقصد للتشريع الإسلامي
- ٢٥ بداية عصر التفقه والجمود وأسباب ذلك
- ٢٦ دخول القوانين الغربية وأثر ذلك على حضارة الأمة
- ٢٧ محمد علي ودوره في إدخال القوانين
- ٢٧ سوء الحال في عهد إسماعيل

فهرس الموضوعات

٣٦٧

٢٨	دخول الاستعمار وأثر ذلك في حضارة الأمة
٢٨	التقدم لا يقتصر على جانب معين
٢٨	أسبقية المسلمين للغربيين في الجانب العلمي
٢٩	المقارنة بين سرعة الصوت والضوء
٢٩	الجراحة على يد أبي القاسم الزهراوي
٢٩	الصيدلة على يد جابر بن حيان
٣٠	الحسن بن الهيثم والانعكاس الضوئي
٣٠	ترك الدين هو سبب التخلف
٣١	الحاضر لابد أن يبنى على الماضي
٣١	تأثر الغرب بالإسلام حتى في مسألة الكلام
٣٢	نعمة العقل وفضلها
٣٣	ضرورة عقد المناقشات العلمية
٣٤	المحاضرة الثانية والسبعون بعد المائة
٣٤	الإسلام أفضل الأديان وكتابه أفضل الكتب
٣٤	زمان الآية ومكانها
٣٤	اليوم في اللغة
٣٥	اليوم عند الفلكيين
٣٥	الدين في اللغة
٣٥	الدين في الشرع
٣٥	الإسلام يطلق على الانقياد الظاهر
٣٦	الآية تدل على أفضلية الإسلام وكتابه
٣٦	كل دين يدعي لنفسه الأفضلية

- دليل أفضلية الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .. ٣٧
- من: تدل على العموم ٣٧
- الحصر والتأكيد في الآية ٣٨
- حديث النبي المحجة البيضاء ٣٨
- آية: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ٣٨
- دليل أفضلية القرآن ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ٣٩
- حديث النبي: «تركت فيكم...» ٣٩
- هذه الأدلة لا تفيد مخالفاً في العقيدة ٣٩
- أول ديانة على الإطلاق ٤٠
- شروط القاعدة القانونية ٤٠
- حاجة الخليقة إلى إرسال الرسل ٤١
- عدد الرسل غير معلوم بالضبط ٤٢
- الرسالات السابقة والقرآن .. خصوصية وعموم ٤٢
- النظر في الرسالات السابقة ٤٣
- العبرية وبعض مواقف جاحدة لبني إسرائيل ٤٣
- إحراق التوراة في القرن السادس ق.م ٤٤
- كتابة سفر التكوين والخروج آخر القرن التاسع ق.م ٤٤
- سفر الشئفة في آخر القرن السابع ق.م ٤٤
- التأثر بتشريع حمورابي ٤٥
- بدء كتابة التلمود في القرن الثاني الميلادي ٤٥
- التوراة من ناحية المتن ٤٥
- أباطيل في قصة آدم وأكله من الشجرة ٤٦

- أباطيل وافتراءات حول إبراهيم عليه السلام ٤٦
- افتراءات حول يعقوب عليه السلام ٤٧
- المسيحية وسقوط السند ٤٧
- القرآن محاط بالحفظ والعناية من أول وهلة ٤٨
- الحمالات ضد الإسلام وأهله ٤٩
- كتب وأسماء طعنت في الإسلام ٤٩
- الطعن في اللغة ٥٠
- قالوا عن العربية ٥٠
- النهضة الأوروبية وأثر ذلك في الترجمة ٥١
- دعوى تخلف معتنقيه والرد على ذلك ٥٢
- فتوحات عظيمة في زمان العزة ٥٢
- الإسلام يحث على العلم حتى علوم العجم ٥٣
- دعوى التأخر بسبب العقيدة والرد عليها ٥٤
- مسألة الجبر والاختيار وصلتها بدعوى التأخر ٥٤
- مسألة الجبر والاختيار لم توجد زمن النبي وأصحابه ٥٤
- سد ذرائع التعمق والتكلف في الدين ٥٥
- اتخاذ المسألة لمنحى سياسي ٥٥
- معبد الجهنني ومقولته في القدر ٥٦
- ملايسات في مسألة القدر ٥٧
- تحرير ابن القيم للمسألة وإزالته للبس ٥٧
- دعوى الجمود والرد عليها ٥٩
- دعوى الانتحال والرد على ذلك ٥٩

- ٦٠ عودة إلى دعوى الجمود ومتابعة الرد عليها
- ٦١ النسخ دليل المرونة وعدم الجمود
- ٦١ قضية سوء استعمال الحق
- ٦٢ غرض الطعن تحطيم الإسلام وإبادته
- ٦٤ المحاضرة الثالثة والسبعون بعد المائة
- ٦٤ الإسرائيليات في التفسير ومعلومات خاطئة عن الأقصى
- ٦٤ أدوار التفسير : الأول : تفسير القرآن بالحديث
- ٦٥ الثاني : التفسير بما أثر عن النبي ﷺ وأصحابه
- ٦٥ الثالث : دخول القصص في التفسير
- ٦٦ الرابع : التفسير بحسب اتجاه المفسر وفكره
- ٦٦ ظهور التفسيرات الإسرائيلية
- ٦٧ أنواع الإسرائيليات كما قسمها ابن كثير
- ٦٨ أمثلة للإسرائيليات المنسوبة للأنبياء
- ٦٨ إبراهيم عليه السلام
- ٦٨ زعموا أن إبراهيم كان يهوديًا
- ٧٠ إلصاق التهم بإبراهيم عليه السلام والرد على ذلك
- ٧١ يوسف عليه السلام
- ٧١ قصته مع امرأة العزيز وما فيها من افتراء
- ٧٢ رؤية لغوية في تفسير القصة
- ٧٣ تفسير معنى الهم لغة
- ٧٣ معنى البرهان في الآية
- ٧٤ داود عليه السلام

٧٦	قصة جياذ سليمان عليه السلام
٧٨	تفنيد القصة وبيان بطلانها
٧٩	وصف الحرم القدسي الشريف
٨٠	نبذة تاريخية عن قبة الصخرة وما يتعلق بها
٨١	قبة السلسلة
٨٢	قبة يوسف
٨٢	قبة موسى
٨٤	المحاضرة الرابعة والسبعون بعد المائة
٨٤	عباد الرحمن
٨٤	تمهيد
٨٦	كلمة : «عباد» في اللغة
٨٦	معنى العبادة والعبودية
٨٧	الوصف بالعبودية أشرف الأوصاف
٨٧	العبودية المطلقة خاصة بالنبي
٨٨	كلام لابن عطاء في حكمه
٨٨	إضافة العباد إلى الرحمن تشريف لهم
٨٩	ذكر اسم الرحمن في القرآن
٩٠	الوصف الأول : التواضع والحلم والسكينة
٩١	فضل تواضع عباد الرحمن
٩١	أدب نفسي واجتماعي
٩٢	النبي كان متواضعاً
٩٢	التواضع يوصل إلى الجنة

- ٩٢ قيمة الرجل بقلبه وعمله وخلقه
- ٩٣ وعيد الله للمتكبرين
- ٩٤ معنى الكبر وأسبابه
- ٩٥ شرف الحسب والعمل منة من الله
- ٩٦ كثرة المال سلاح ذو حدين
- ٩٦ التواضع صفة عباد الرحمن
- ٩٧ حسن المنظر والهيئة ليس من الكبر
- ٩٧ حدث بنعمة الله عليك
- ٩٨ الوصف الثاني لعباد الرحمن
- ٩٩ معنى الجهل
- ٩٩ من وصفهم الإعراض عن الجاهلين
- ٩٩ الصمت عندهم منجاة
- ١٠٠ أوصاف عظيمة يطلب أهلها الجنة
- ١٠١ مقارنة بين الوصف الأول والثاني
- ١٠١ الجهل نوعان : نقيض الحلم ، ونقيض العلم
- ١٠١ كلمة «الجاهلون» وذكرها في القرآن
- ١٠٢ الصمت عن الجاهلين وفائدته
- ١٠٣ الصمت عن الجاهلين من هديه ﷺ
- ١٠٣ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد
- ١٠٤ الصمت من شيم العقلاء
- ١٠٥ ضوابط للحلم المطلوب
- ١٠٥ ذم الجهل في القرآن

١٠٦.....	فضل العالم على الجاهل
١٠٧.....	الوصف الثالث : قيام الليل
١٠٨.....	فضل العبادة بالليل
١٠٩.....	الوصف الرابع : خوف الله
١٠٩.....	فائدة التعبير بكلمة (غرامًا)
١١٠.....	الوصف الخامس : القصد والاعتدال في النفقة
١١١.....	الوصف السادس : خلوهم من الموبقات كالشرك والقتل والزنا
١١٢.....	شروط قبول العمل
١١٣.....	الجنة خاتمة عباد الرحمن
١١٤.....	المحاضرة الخامسة والسبعون بعد المائة
١١٤.....	تجديد الدين الذي ننشده
١١٥.....	الحاجة إلى المبشرات عند حلول الأزمات
١١٧.....	ذهب فريق إلى أن المجدد فرد واحد
١١٨.....	وآخرون ذهبوا إلى أن المجدد جماعة
١١٩.....	كلا الأمرين ممكن
١٢٠.....	ترجيح القول بأن المجدد جماعة
١٢٠.....	الفرد قدرته محدودة بخلاف الجماعة
١٢١.....	ما الشيء المراد تجديده؟
١٢١.....	الدين حرك المسلمين في حطين
١٢٢.....	الدين حركهم في عين جالوت
١٢٢.....	ما المقصود بالأمّة في الحديث؟
١٢٣.....	التجديد الكامل والجزئي

١٢٣	 معنى التجديد
١٢٤	 أمور ثابتة لا تتجدد فيها
١٢٤	 أمور قابلة للتجديد
١٢٥	 الاختلاف في فهم النص زمن النبي ﷺ
١٢٦	 منطقة العفو وما سكت عنه
١٢٦	 مقولة : هم رجال ونحن رجال
١٢٧	 باب الاجتهاد مفتوح شريطة عدم الخلط
١٢٨	 الاجتهاد في العبادات (رؤية الهلال)
١٢٨	 الاجتهاد في المعاملات
١٢٩	 حاجة المسلمين إلى فهم الإسلام
١٣٠	 أحكام الإسلام تتناول حياة الفرد كلها
١٣١	 شعب الإسلام الثلاثة
١٣١	 بصلاح الفرد نصلح المجتمع
١٣١	 التزكية وأثرها في الإصلاح
١٣٢	 عدالة الإسلام وأثرها في الإصلاح
١٣٢	 الشورى وأثرها في الإصلاح
١٣٣	 آية الشورى جمعت الشعب الثلاثة
١٣٣	 الإسلام يرفض الجمود مع مذهب بعينه
١٣٤	 المالكي يتبنى رأي أبي حنيفة في بعض المسائل
١٣٤	 دعوة باطلة
١٣٥	 تجديد الفهم والإيمان والعمل
١٣٦	 تجديد العمل

١٣٧	العمل للدنيا عبادة
١٣٧	عمل النصرانية لدينها
١٣٨	ماذا فعل المسلمون لدينهم
١٣٨	الدين مسئولية الجميع
١٤٠	المحاضرة السادسة والسبعون بعد المائة
١٤٠	سماحة الإسلام
١٤٠	سبب نزول الآية
١٤٠	قول آخر في سبب النزول
١٤١	معنى المحسنين
١٤١	قراءات للآية
١٤١	اختلاف المفسرين حول معنى الكبائر
١٤٢	اختلاف المفسرين في معنى «اللمم»
١٤٣	هو : ما ارتكب في الجاهلية من آثام
١٤٣	هو : الذنب يرتكبه العبد ثم يتوب منه
١٤٤	هو : الذنب الذي ليس له حد ولا توعده
١٤٤	هو : خاطر القلب من الذنب
١٤٤	معنى الاستثناء في الآية
١٤٦	الدليل الأول : تأكيد القرآن ضعف الإنسان
١٤٧	الضعف البدني
١٤٧	الضعف العلمي
١٤٧	ضعيف أمام الخير والشر
١٤٧	ضعيف أمام شهوته

- ١٤٧ ضعيف أمام شيطانه
- ١٤٧ ضعيف أمام نفسه
- ١٤٨ ضعيف مع المال والأهل
- ١٤٨ ضعيف أمام الدنيا ومتاعها
- ١٤٩ الدليل الثاني
- ١٥٠ مع كثرة الذنوب فإن رحمة الله واسعة
- ١٥١ الدليل الثالث
- ١٥٢ الدليل الرابع
- ١٥٣ الدليل الخامس
- ١٥٥ الدليل السادس
- ١٥٥ اتساع الترجية في مواطن القنوط
- ١٥٥ متابعة كلام الشاطبي وتحقيقه
- ١٥٦ الدليل السابع
- ١٥٧ ضابط الفهم للنسخ صحة العقيدة
- ١٥٧ من حكم النسخ التدرج في التشريع
- ١٥٨ أمثلة للنسخ
- ١٥٨ قول لا يصح والرد عليه
- ١٦٠ أدلة بطلان دعوى النسخ السابقة
- ١٦١ التأكيد على سماحة الإسلام
- ١٦٣ المحاضرة السابعة والسبعون بعد المائة
- ١٦٣ الوعي الكوني في التصور الإسلامي
- ١٦٣ وقفة مع الآية وما فيها من ظواهر كونية

فهرس الموضوعات

٣٧٧

- ١٦٤ حث الآية على التدبر العقلي لآيات الكون
- ١٦٥ اعتراض حول ذكر أسباب النزول للآية
- ١٦٦ خلاصة القول في ذكر أسباب النزول للآية
- ١٦٦ تأويل الآية أعم وأشمل مما ذكر
- ١٦٧ صفات أولي الألباب كما في آية البقرة وآل عمران
- ١٦٧ التصور الإسلامي للإنسان الكوني
- ١٦٨ الخطأ في رؤية بعض الوجوديين للإنسان
- ١٦٩ الحاجة إلى علم الوعي الكوني الإسلامي
- ١٦٩ فيم علم الوعي الكوني الإسلامي؟
- ١٧٠ قيمة الزمان
- ١٧١ قيمة الحياة
- ١٧١ قيمة الحياة وسورة التكاثر
- ١٧٢ الحياة لها قيمة عظيمة بشروط
- ١٧٣ قيمة الأرقام
- ١٧٤ قيمة الفضاء لرفض الفراغ
- ١٧٤ قيمة الشخص لرفض الهوى والانحلال
- ١٧٥ كل ما في الكون مسخر للإنسان
- ١٧٦ قيمة الشخص هي أكبر القيم
- ١٧٦ الإنسان والكون من الخادم والمخدوم؟
- ١٧٧ المحاضرة الثامنة والسبعون بعد المائة
- ١٧٧ دور التفسير في تجديد الأحكام الشرعية
- ١٧٧ مقدمة عن الاجتهاد وبعض ضوابطه

- التفسير في اللغة ١٧٨
- المفسّر والمفسّر والمخاطب ١٧٩
- من المخاطب؟ ١٧٩
- تفسير جيل لا يغني عن تفسير جيل آخر ١٨٠
- ثانيًا : مدارس التفسير ١٨٠
- النقطة الثالثة : أقسام التفسير ١٨٢
- ضرورة التقارب بين الفقه والقضاء ١٨٤
- اعتبار مقاصد الشرع في التفسير سيما اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم .. ١٨٤
- عمر بن الخطاب وسهم المؤلف قلوبهم ١٨٤
- عمر بن الخطاب وإيقافه حد السرقة عام المجاعة ١٨٤
- كان اجتهاد عمر في إيقاف الحد اجتهادًا قضائيًا ١٨٥
- أركان الجريمة لم تتوفر عام المجاعة فأوقف الحد ١٨٥
- مجالات التجديد : النص وامتداداته ١٨٦
- القياس اللغوي واختلاف العلماء حوله ١٨٦
- فريق المعارضين ١٨٧
- فريق المؤيدين ١٨٧
- استعمال الشرع للكلمات اللغوية ١٨٧
- اعتبار المنطوق والمفهوم معًا ١٨٨
- الامتداد في إطار التفسير ١٨٩
- قاعدة الإلحاق ١٨٩
- العلة (الوصف المناسب) : توسع دائرة القياس ١٩٠
- شروط العلة : الظهور - الانضباط - التعدي ١٩٠

فهرس الموضوعات

٣٧٩

الامتداد الثالث : الاستحداث	١٩٢
شروط الاستحداث	١٩٣
المحاضرة التاسعة والسبعون بعد المائة	١٩٥
حماية الحقوق الإنسانية في الإسلام	١٩٥
تمهيد	١٩٥
معنى الحق في الفقه الإسلامي	١٩٥
مصدر الحقوق في الإسلام	١٩٦
تقسيم فقهاء القانون للحقوق	١٩٦
مقاصد الشريعة عند الإمام الشاطبي	١٩٧
أسبقية الإسلام في إعلان حقوق الإنسان لمفاهيمها الكاملة	١٩٧
الإسلام يحمي شخصية الإنسان مادياً وروحياً	١٩٧
عالمية الإسلام وشموليته يكفلان للإنسان كل حقوقه	١٩٨
أول سور القرآن نزولاً تهتم بالإنسان وحقوقه	١٩٨
آية التكريم في سورة الإسراء	١٩٩
كلام بديع للشاطبي في «موافقاته»	١٩٩
آيات دالة على تكريم الإنسان	٢٠٠
أحاديث دالة على تكريم الإنسان	٢٠٠
كلام العلماء في آيات التكريم	٢٠١
أفضلية بني آدم على غيرهم من الخلق	٢٠١
أكثر المفسرين على أن مناط التكريم هو العقل	٢٠٢
خلاف العلماء حول قوله تعالى : ﴿مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾	٢٠٣
مظاهر حماية الإسلام لحقوق الإنسان	٢٠٤

- الشروط التي تبدأ بها شخصية الإنسان ٢٠٥
- إقرار الشريعة للحياة الحكمية إلى جانب الحقيقية ٢٠٦
- الحياة حق أساسي من حقوق الإنسان ٢٠٧
- تحريم الدين للانتحار حفظاً لحق الحياة ٢٠٨
- الإضرار عن الطعام لا يجوز في الدين ٢٠٨
- تكريم القرآن للإنسان بنعم لا تحصى ٢٠٩
- حق المساواة ٢٠٩
- تأكيد القرآن على مبدأ المساواة ٢١٠
- حق الحرية ٢١١
- قواعد أصولية تؤيد حق الحرية ٢١١
- المحاضرة الثمانون بعد المائة ٢١٣
- الإسلام والبيئة ٢١٣
- تمهيد ٢١٣
- الفرق بين الإسلام والفكر المادي ٢١٣
- نظرة الإسلام للبيئة نظرة إيجابية عبادية ٢١٤
- ماذا يعني مصطلح البيئة؟ ٢١٤
- الكون بما فيه من آيات الله الكبرى ٢١٥
- الكون هو معجزة مرئية لله ٢١٥
- الكون دليل وجود ووحداية الله ﷻ ٢١٥
- التأمل والتفكير والنظر من مطالب الشرع ٢١٦
- الكون دليل من أدلة القدرة ٢١٦
- نهاية الكون تبدأ بفساده ٢١٦

- الكون ميدان لنفاذ إرادة الله ٢١٦
- الكون في صلاة دائمة وذكر ٢١٦
- كل شيء في الكون خلق بقدر ٢١٧
- البيئة من إبداع البديع سبحانه وتعالى ٢١٧
- الكون والإنسان ٢١٧
- خصوصية الأرض بصلاحياتها للحياة ٢١٨
- البيئة ممهدة للإنسان ٢١٨
- البيئة محكومة بقوانين تكفل لها الاستقرار ٢١٨
- الإنسان خلق من الأرض ويعيش فيها ٢١٩
- البيئة توفر الراحة والمتعة للإنسان ٢١٩
- البيئة مسخرة للإنسان بنظام دقيق ٢١٩
- البيئة نعمة من الله للإنسان ٢٢٠
- بقاء الأرض طاهرة من الفساد مطلب من مطالب الشرع ٢٢٠
- الإسلام يدعو لفض مغاليق الكون ٢٢١
- الإضرار بالبيئة عدوان على الحياة بها ٢٢٢
- الإسلام يحض على حماية البيئة وإصلاحها ٢٢٢
- تحسين البيئة وإصلاحها يدخل في إطار الأمر الشامل ٢٢٤
- من عناية الشرع بالبيئة حثه على الاقتصاد وعدم الإسراف ٢٢٤
- حقيقة المشكلة في هذه الأيام ٢٢٥
- الدور الإيجابي للإنسان يتمثل في الاستجابة للإصلاح ٢٢٦
- الضرب على أيدي المفسدين من وسائل إصلاح البيئة ٢٢٧

٢٢٨.....	المحاضرة الحادية والثمانون بعد المائة
٢٢٨.....	محاولة للتقريب بين الفرق الإسلامية
٢٢٨.....	مقدمة في التقريب بين السنة والشيعة
٢٢٨.....	السنة والشيعة ومحاولات التقريب
٢٢٩.....	قداسة الحديث النبوي
٢٣٠.....	حديث نبوي
٢٣١.....	الحديث المرسل
٢٣١.....	مراسيل مالك
٢٣١.....	الحديث مسنداً
٢٣٢.....	سهيل بن أبي صالح وأبوه
٢٣٢.....	رضا الله وسخطه
٢٣٣.....	معنى حبلى الله
٢٣٣.....	أدلة الاجتماع وعدم الفرقة
٢٣٤.....	مغبة مفارقة الجماعة
٢٣٥.....	شرح معنى قيل وقال
٢٣٥.....	شرح معنى إضاعة المال
٢٣٦.....	شرح معنى كثرة السؤال
٢٣٦.....	مسألة التقريب بين السنة والشيعة
٢٣٧.....	فرق الشيعة
٢٣٧.....	مبدأ التقية عند فرق الشيعة
٢٣٨.....	التعمية والتعظيم في المذهب الشيعي
٢٣٩.....	مؤتمر التوفيق بين السنة والشيعة

٢٣٩	مسألة تفضيل الأئمة على الأنبياء والرسل
٢٤٠	مسألة علم أئمة الشيعة بالغيب
٢٤١	مسألة علم أئمة الشيعة بموتهم
٢٤١	مسألة عصمة الأئمة
٢٤٢	كتب الشيعة المعتمدة لديهم
٢٤٣	الفرق بين منهج الشيعة ومنهج أهل السنة
٢٤٣	إمكانية الحوار بين السنة والشيعة
٢٤٤	الخلاصة
٢٤٥	المحاضرة الثانية والثمانون بعد المائة
٢٤٥	كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم
٢٤٥	مقدمة
٢٤٥	نبذة عن شهر رمضان
٢٤٦	فضل صيام رمضان وقيامه
٢٤٧	المحذورات في رمضان
٢٤٨	فضل بر الوالدين
٢٤٨	فضل رمضان
٢٤٩	فضل الصلاة على النبي ﷺ
٢٤٩	فضل إمطة الأذى عن الطريق والتحذير من أذى المسلمين
٢٥٠	شرح حديث : «كل سلامى من الناس عليه صدقة»
٢٥١	وجوب شكر الله
٢٥٢	تفسير الشكر
٢٥٣	أنواع الشكر

٢٥٣	أمثلة لأنواع الصدقة
٢٥٤	الكلمة الطيبة صدقة
٢٥٤	الخطوات إلى المسجد صدقة
٢٥٥	أنواع أخرى من الصدقات
٢٥٧	فضل التسبيح
٢٥٨	فضل الصدقة مع اليقين
٢٥٩	فضل حمد الله
٢٥٩	فضل ذكر الله
٢٦٢	فضل التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير
٢٦٣	شرح حديث أهل الدثور
٢٦٤	فضل إتيان الزوجة
٢٦٦	المحاضرة الثالثة والثمانون بعد المائة
٢٦٦	المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء
٢٦٦	مقدمة
٢٦٧	الإسلام والطب
٢٦٨	إقرار النبي ﷺ لمبدأ التداوي وأمره به
٢٦٩	حفظ الصحة من الإيمان
٢٧٠	حقوق الإنسان في الإسلام
٢٧١	حق الجسد في الإسلام
٢٧١	التوازن في الإسلام
٢٧٢	الاعتدال مطلوب
٢٧٢	الميزان الصحي والرصيد الصحي

٢٧٣	تعريف الصحة بين القديم والحديث
٢٧٤	الإسلام والصحة
٢٧٥	مبدأ لا ضرر ولا ضرار
٢٧٧	العدوى من باب الضرر والضرار
٢٧٨	الوقاية والتوقي من الإسلام
٢٧٨	المعدة بيت الداء
٢٧٩	معنى الصدقة وأبوابها
٢٨١	الدروس المستفادة من حديث الصدقة
٢٨٣	قواعد صحية مهمة في الإسلام
٢٨٥	الإسلام يأمر بالاعتدال
٢٨٥	الحمية رأس الدواء
٢٨٨	المحاضرة الرابعة والثمانون بعد المائة
٢٨٨	السلام في مفهوم الإسلام وفي منظور العصر
٢٨٨	مقدمة
٢٨٩	مشروعية الجهاد
٢٨٩	تدرج أحكام الجهاد في القرآن
٢٨٩	الجهاد بالحجة
٢٩٠	الجهاد بالكلمة
٢٩٠	الفلسفة اليونانية وقصور الإدراك
٢٩١	استخدام الرياضة البدنية في الدعوة
٢٩٢	الجهاد ضرورة وليس أصلاً
٢٩٢	السلام شعار الإسلام

٢٩٢	دليل من السنة
٢٩٣	معنى الحديث الموقوف
٢٩٣	معنى الحديث المعلق
٢٩٣	ماذا يسمى الموقوف؟
٢٩٤	روايات أخرى للأثر
٢٩٤	سياقته عند البخاري
٢٩٥	ترجمة عمار بن ياسر راوي الحديث
٢٩٦	شرح معاني الحديث
٢٩٧	كلمة للكرماني على شرح الحديث
٢٩٨	لطيفة للحافظ ابن حجر
٢٩٨	السلام يقوم على الرفق
٢٩٨	السلام يحتاج إلى السيف أيضًا
٢٩٨	صور السلام بالمعنى المعاصر
٢٩٩	السلام الأعزل
٢٩٩	موقف صلح الحديبية
٣٠٠	الانضباط في الإسلام
٣٠١	الثورة نظام يقوم على الشدة والعنف
٣٠١	مشهد من يوم فتح مكة
٣٠٢	حكمة الرسول في هذا الموقف
٣٠٣	السلام المسلح
٣٠٣	منزلة القوة المعنوية في الجهاد
٣٠٤	منزلة القوة الاقتصادية في الجهاد

فهرس الموضوعات

٣٨٧

- ٣٠٤ استراتيجيات الجهاد
- ٣٠٥ قصة إسلام ثمامة بن أثال
- ٣٠٦ سلاح المقاطعة وتأثيره في الجهاد
- ٣٠٦ سلام التوازن
- ٣٠٧ امتلاك القوة للسلام وإشاعة الأمن
- ٣٠٧ موقفه ﷺ من أهل مكة يوم الفتح
- ٣٠٨ السلام الاجتماعي
- ٣٠٨ الدين يأمر بالسلام بين المؤمنين
- ٣٠٩ الأمن الغذائي
- ٣٠٩ أدلة من السنة على الأمن الغذائي
- ٣١٠ الملكية وإحياء الموات
- ٣١١ المحاضرة الخامسة والثمانون بعد المائة
- ٣١١ من الجدل إلى المناظرة إلى الاعتقاد
- ٣١١ سبب اختيار الآية
- ٣١٢ أولاً : واقع انتهاج الدعوة الإسلامية أسلوب المناظرة
- ٣١٣ سبل الدعوة إلى الله ﷻ
- ٣١٣ المجادلة كسبيل من سبل الدعوة
- ٣١٤ وسيلة دفاعية أو من وسائل الحكمة
- ٣١٤ دور الجدل في الدفاع عن العقائد ونشر الدين
- ٣١٥ تداول المسلمين لمنهج الجدل وألفاظه المختلفة في اللغة
- ٣١٦ دعوى : المعرفة الإسلامية ظنية جدلية غير يقينية
- ٣١٨ ثانياً : النموذج النظري للمناظرة

أخلاقيات المناظرة	٣١٨
منطقيات المناظرة	٣١٩
اعتراضات المتقصد على دعوى المدعي	٣٢٠
ثالثا : المنطق الاعتقادي للمتناظرين	٣٢٤
مجموعة المبادئ الخاصة بالمدعي	٣٢٤
مجموعة المبادئ الخاصة بالمعترض	٣٢٥
مجموعة المبادئ العامة	٣٢٥
مجموعة مبادئ المعرفة	٣٢٦
بعض النتائج المترتبة على المناظرة	٣٢٧
المحاضرة السادسة والثمانون بعد المائة	٣٢٨
من معاني البر	٣٢٨
حديث شريف في البر والإثم	٣٢٨
ترجمة النواس بن سمعان راوي الحديث	٣٢٨
ترجمة الصباحي سمعان أبو النواس	٣٢٩
كلمة البر في القرآن الكريم	٣٢٩
معاني كلمة «البر»	٣٣٠
معاني أخرى للبر	٣٣١
البر حسن الخلق	٣٣٢
البر في اللغة	٣٣٣
البر بمعناه الشامل العام المطلق	٣٣٣
المستفاد من آية البر	٣٣٤
عناصر البر في الآية	٣٣٤

- ٣٣٥ شرح العنصر الأول (بر العقيدة)
- ٣٣٦ أثر غياب الإيمان عن النفس
- ٣٣٦ أثر الإيمان بالله في النفس
- ٣٣٧ التوحيد وصفاته
- ٣٣٧ ثمرة الإيمان الصادق
- ٣٣٨ البغي والعدوان سبب الاختلاف في الدين
- ٣٣٨ الإسلام جاء للسلام بين البشر
- ٣٣٨ بعض شبهات الماديين
- ٣٣٩ الشريعة جاءت لمصالح البشر
- ٣٣٩ معنى بلاغي في الآية الشريفة
- ٣٤٠ أثر الإيمان باليوم الآخر في النفس
- ٣٤١ لطيفة بلاغية
- ٣٤٢ الدلائل العقلية على اليوم الآخر
- ٣٤٢ الدلائل العقلية
- ٣٤٣ أثر الفكر المادي على الانحلال الخلقي
- ٣٤٤ حقيقة الملائكة
- ٣٤٥ طبيعة الملائكة
- ٣٤٥ أعمال الملائكة
- ٣٤٥ بعض أسماء ملك الوحي
- ٣٤٦ فائدة تفسيرية
- ٣٤٦ أعمال أخرى للملائكة

المحاضرة السابعة والثمانون بعد المائة	٣٤٨
الوحدة الثقافية بين المسلمين مطلب إيماني	٣٤٨
أهمية الموضوع	٣٤٨
الإسلام دين السلام	٣٤٩
مواقف عدائية للإسلام وأهله	٣٤٩
قصة مبشر مشهور	٣٤٩
واقعة لكاتب شرقي مشهور	٣٥٠
افتراءات عالم الاجتماع الأول في العالم على المسلمين	٣٥٠
كلام لمستشرق آخر	٣٥١
مستشرق آخر	٣٥٢
فرية كتاب اسمه «القرآن الصحيح»	٣٥٢
بذل الجهد لإيقاف هذه الهجمات	٣٥٣
فقدان بعض الأقليات المسلمة للحق الديني	٣٥٤
دعوة إلى التخطيط لعلاج الأزمة	٣٥٥
بعض مظاهر الفساد في أوطاننا	٣٥٦
حتى رسول الله؟!	٣٥٦
حاجة الشباب إلى العلم والتبصر	٣٥٧
ما العمل إذن؟!	٣٥٧
التخطيط أول سبل النجاح	٣٥٧
كتائب من العلماء المجتهدين	٣٥٨
سد الاحتياجات المادية باستخراج الثروات الدفينة	٣٥٨
صناعة أجهزة لبث الثقافة الإسلامية	٣٥٩

٣٥٩	صعوبة الأمر على دولة بمفردها
٣٦٠	قوة الثقافة أفضل السبل إلى الاستقرار عمومًا
٣٦١	أنا ... لا أما نحن فنعم
٣٦١	محاولة ... ولكن قاصرة!
٣٦١	معاودة الحث على تنظيم الجهود
٣٦٢	أهمية الوحدة الثقافية الفكرية بين المسلمين
٣٦٣	حاجة الأمة إلى جامعة إسلامية
٣٦٣	بشرى خير
٣٦٥	فهرس الموضوعات

* * *

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الثاني عشر

المحاضرة الثامنة والثمانون بعد المائة

بركة القرآن على العالم

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

معنى البركة :

الزيادة واليمن ، ومن معانيها : القدسية . فتبارك الله ﷻ ، أي : تقدس ، قال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] . هنا هذا يطابقه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٦] فالبشارة تقابل البركة والإنذار في الحالتين ، ولو أردنا أن نحصي نعمة الله ، فإننا لن نستطيع إحصاءها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] .

بعض من بركة الإسلام والقرآن :

من أجل ذلك ، أذكر أمرين من أمر بركة الإسلام والقرآن ، وهما متصلتان معًا .

أولاً : دعوة الإسلام عامة .

ثانيًا : الإسلام جاء بمعجزة القرآن .

أما كون دعوة الإسلام عامة . فإن ذلك أشد تأثيرا في أمر الإخاء ، لأن الدعوة الدينية يراد بها التهذيب ، ويراد بها أولا من كل شيء أن يُعْبَدَ الله ، ثم هي تجمع الناس جميعا ، وقد كان لكل أمة رسول ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ

يَا بَلِيغَاتِ ﴿ [الروم: ٤٧] ولكن رسالة رسولنا محمد ﷺ كانت من أولها عامة ، وذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنَةُ ﴿١﴾ قُرْآنُذَرْ﴾ [المدر: ١، ٢] ، ثم بعد ذلك لم يترك من يجب إبلاغه إلا أبلغ ، فأبلغ رسول الله ﷺ عشيرته الأقربين ، ثم أُنذِرَ وكتب إلى الروم والفرس . وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ، فانتقلت الرسالة من زمانه ﷺ إلى الأجيال بعده . وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فصار التبليغ هاهنا عاما ، ودخل فيه الثقلان معًا .

من فوائد عمومية الدعوة:

من فوائد الدعوة العامة ومن لوازمها ، أنها تمحو الفوارق بين الناس ، لذلك جاء الإسلام وجاء القرآن هذا بالبركات العظيمة : بطرح العنصرية ، وبطرح الطبقة التي تتفرع منها ، وانفرد الإسلام بين سائر الأديان بأن دعوته عامة أصيلة في ذلك .

عمومية الإسلام وخصوصية الرسالات قبله :

أُرسل سيدنا موسى إلى فرعون ؛ لكي يُخرج بني إسرائيل ، فدعوته كانت لبني إسرائيل ، وأُرسل سيدنا عيسى لبني إسرائيل ؛ ليبين لهم بعض الذي كانوا يختلفون فيه ، فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، ولكن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أُرسل للناس كافة ، كما قدمنا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] ، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] . لهذا نزل كتاب الله لكي تكون الدعوة دعوة لمتساوين ، لأن الإخاء لا يصلح فيه التعالي ، لذلك وجب طرح العنصرية والطبقية . وجاء في كتاب الله :

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

الأفضلية في الإسلام نصيب كل تقي:

جاء في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ﴾ [فاطر: ٢٧] ، [٢٨] ، فاختلاف الألوان واختلاف القبائل واختلاف الشعوب ليس من جوهر الأمر . جوهر الأمر أن التفاضل لا يقع بين الناس بشيء قبل التقوى ، وقبل عبادة الله ، قبل ذلك هم سواسية ، ليس هذا في أيما كتاب سماوي ولا في أيما الكتب العلمانية أو العلمانية الحديثة ، اللهم أستثني شيئاً واحداً جاء في أعمال الرسل من العهد القديم أن بطرس قال : (إن الله لا يحترم الأشخاص ، ولكن من يعبدّه ويخافه يدخل في القبول) .

خصوصية دعوة عيسى عليه السلام:

هاهنا أمر مهم ، المسيحية دين دعوته عامة ، ولكنها لم تكن عامة في الأصل لأن سيدنا عيسى إنما أرسل لبني إسرائيل ، وفي كتاب متى في موضعين ، في الأول أنه قال لأتباعه لا تدعوا في مدن غيرنا ، ولكن اجعلوا الدعوة لبني إسرائيل ، للحملان الضائعة من بيت بني إسرائيل ، هذا في الكتاب العاشر ، وفي الكتاب الخامس عشر قال لهم نفس المعنى . وفي كتاب آخر من نفس الإنجيل جاءت امرأة من كنعان تلمس علاج ابنتها ، فقال لها : «إن الخبز إذا لم يكف الصبية لا يعطى للكلاب» ، فقالت له : إن الكلاب تأكل حتى من الفتات المتساقط من مائدة السيد ، فرق لها وداوى

لها ابتتها ، ولكن هذه لم تكن منه دعوة لأن تدخل في ديانتها ، الذي وسَّع دعوة المسيحية هو بطرس برؤيا رآها ، ثم بعد ذلك بولس ، وبولس اخترع فكرة بيت بني إسرائيل الجديد ، وهو بيت روعي دعا أن يدخل فيه الأميون لكي يتطهروا ويكون لهم خلاصة .

تعقيب:

دعوة الإسلام على خلاف ذلك ؛ لأنها بدأت من أول الأمر عامة ، ونفت العنصرية وما أشبهها ، فإن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته أن يرسل نبياً أميناً للأميين ، أي : لغير أهل الكتاب ، من اليهود الذين كانوا يظنون أنهم وحدهم شعب الله المختار ، وأمره أن يبلغ أهل الكتاب ، وأمره بأن يدخلوا في دعوة الأميين ، فهذا أصل في أمر الدعوة وفي أمر المساواة ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] ، ﴿يَتَأْهَلُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧] ، في آيات كثيرات في هذه المخاطبة المباشرة في أهل الكتاب . كيما يدخلوا في هذه الدعوة العامة .

توطئة إلهية لإرسال الرسالة المحمدية:

لكي تكون الدعوة عامة شاملة مؤثرة حقاً فإن الله ﷻ هياً هؤلاء الأميين لها .

اتساع رقعة التعامل عن طريق التجارة:

كانت بلاد العرب طريق التجارة الأعظم في الدنيا القديمة تربط بين المحيط الهندي وبين بحر الروم ، بين أمم إفريقية وبين أمم آسيا ، وكان طريق

العبور صحراء لا غير ، وأعطى أهل الصحراء البعير ، أقوى حيوان على قطع الصحراء وهو أصبر الحيوانات على العطش ، وهو وحده من بين ذوات الأربع يشرب الماء المالح فيروح . وأعطاهم معه مقدرة في تربية الخيل ، ورثوها عن أبيهم إسماعيل عليه السلام ؛ إذ هو أول من رود الخيل العربية ، هذه الخيل ربوها وتعلم الناس منهم تربية الخيل والفروسية وكانت تحرسهم وتحرس بعيرهم ، وكانوا مع ذلك يعرفون البحر ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ ﴾ [يونس: ٢٢] . بعض المفسرين فسروا البحر هاهنا بالخواصر والمدن ، وهو تفسير ضعيف ؛ لأن الفلك مذكورة ، ولأن الأمواج مذكورة ، ومعرفة العرب بالبحر لاشك فيها في الجاهلية وفي الإسلام ، وكانوا من أهدى الناس بيطرياً ومن أعلمهم بالنجوم ، هذا مع كونهم كانوا أميين ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَتِ بِالْأَنْجُمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦] . وسموا المهتدي - الهادي في الأمور - دعموصاً ، شبهوه بالدويبة ، التي تكون في المستنقعات وتتحرك بسرعة ، وزعموا أن رجلاً كان يدعى دعموصاً ، كان هادياً بالطريق جداً .

ولكن مرة طلب إبلاً كثيرة ، تسعة وتسعين بكرة ؛ لكي يدل الناس على أرض الجن فاخطفته الجن ، فكانوا يقولون : فلان دعموص أبواب الملوك أي : يعرف الطريق إليهم ، ورثى أمية بن أبي الصلت من قُتل من صناديد قريش ، فقال :

من كل بطريق لبطريق كريم الوجه واضح
دعموص أبواب الملوك وجائب للخرق فاتح

أي : يجوب الخرق ، يخترق الصحراء .

البراعة الأدبية:

مع هذا أعدهم المولى سبحانه وتعالى إعدادًا آخر ، كانت مع السلع التي يجلبونها ويحرسونها سلع أخرى ، من خطب ورجز وقصيد ، وفي القرن السادس الميلادي كان أرقى آداب العالم هو الأدب العربي لا ينازعه في ذلك منازع .

ذلك بأن الآداب الكلاسيكية قد درست جميعًا في القرن الخامس والسادس ، وما بقيت منها إلا جذوة واحدة ، كانت في كتاب (عزاء الفيلسوف) لبيتيوس الروماني ، كتبه في سجن تيودرك الغوطي ما بين سنة (٥٢٠-٥٢٤) ، وهي السنة التي قتل فيها ، كان في السنتين في السجن فكتب هذا الكتاب ، وليست فيه كلمة واحدة من المسيحية ، ولكنه كتاب في الفلسفة بأسلوب كان آخر شعلة قبل انطفاء سراج الآداب الكلاسيكية ، فكانت الشعلة المشتعلة في ذلك الزمان هي الأدب العربي لا غير ، وبعض الناس حسدًا لهم يحاولون إنكار هذا بدعوى الانتحال للأدب العربي ، فهذا لا نريد أن ندخل فيه الآن وإنما نضيف إلى هذا أن العرب لحفظ أديهم هذا اخترعوا وسيلة من التجويد لم يعرفها أحد سواهم وهي الرواية ، أتقنوا الرواية وجودوها غاية الإتقان حفظًا .

وهذا الأسلوب من الرواية خلص منهم من بعد إلى المسلمين فأحكموه إحكامًا أعظم ولا يماثلهم فيه أحد ، ومن طريقه نشأت المدارس التي تطورت منها الجامعات إلى عصرنا الحديث ، وهذا من أعظم البركات على خلق الله أجمعين ، هذا ولأن اللغة العربية كما قلت كانت أرقى الآداب في ذلك الزمان ، جاء القرآن يتحدث إلى العرب في البلاغة ، قال تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١-٤] لكي يعلم القرآن .

بعض ثمرات البلاغة القرآنية:

هذا الإنسان الذي أعدّه لمعرفة القرآن ، أعطاه ذروة البلاغة قبل أن يتسمع القرآن ، فلما سمع القرآن رآه درجات أعلى بكثير مما بلغه بلغاؤه ، فالذين هداهم الله آمنوا بلا تردد ، حتى من كان في ضرب من عصيان آمن بلا تردد ، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى وسمع سورة طه فآمن ، وأغرب من ذلك أنهمذكروا أن ضهادًا كان صاحبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية ، وسمع أنه يقال عنه إنه مجنون ، فجاءه شفقة عليه ، وقال له : إني أداوي من هذه الريح ، فحمد النبي صلى الله عليه وسلم إليه وجعل يخاطبه بالتحميد أول الأمر قبل أن ينهي كلامه .

قال له : أشهد إنك لرسول الله ، علم أن ذلك الكلام من عند الله ، ورجل آخر يقال له : عمرو ابن عبسة ، وقيل : عنبة من بني سليم ، سمع قائلًا يقرأ : ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] فوق هذا في قلبه فركب حتى صار إلى مكة وآمن ، ذلك بأن العرب بطريقة تناقلهم للرواية وللشعر وللأخبار قد جعلوا يتلقفون القرآن في مواسمهم فحفظوا منه كثيرًا قبل أن يسلموا ، وحاكوه في أساليب شعرهم ، ويخطئ من يجد بيتًا فيه شيء إسلامي فيقول : هذا منتحل ؛ لأن فيه شيئًا إسلاميًا .

مكابرة قريش وعدم إيمانها بالقرآن:

العرب قلدت الإسلاميات قبل أن تسلم وراعتها القرآن ، وإنما كانت تنتظر هذا الحي من قريش أن يسلم ، فلما أسلم دخلوا في دين الله أفواجًا ، ولكن الحي من قريش كان منه رجال كابروا ، والمكابرة نفسها اعتراف لما تحداهم القرآن ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا هُوَ الْحَقُّ مِّنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] . وما مكان

الحجارة من السماء مع البلاغة ، هذه المكابرة كان فيها دليل صدق النبي عليه الصلاة والسلام .

ولذلك دهاتهم زجروهم أخيرًا عن المقالة التي لا خير فيها .

اتهام القرآن بالسحر:

اجتمع دهاة قريش ليصلوا إلى رأي حاسم في القرآن ، وحكموا الوليد بن المغيرة ، وكان من دهاة العرب ، فقال لهم : إنه لخلو ، ثم بعد ذلك فكر وقدر ، وقال لهم : إنه سحر بيان ، يفرق به بين المرء وزوجه ، وهذا كان من أخبث القول ، وقد وصفه المولى رحمه الله في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ [المدر: ١٨-٢٢] إلى آخر الآيات ، وعلى طريقة مكابرة الوليد بن المغيرة ، كابر المستشرقون فيما بعد .

تأثر الغرب بالأسلوب القرآني البديع:

كان الأوروبيون في القرون الوسطى يعرفون العربية ، ذكر ولترسكوب في قصته «إفن هو» الكاملة أن كل الفرسان الذين كانوا يتبارون في مدينة أشبل دلاجوج في شمال إنجلترا كانوا كلهم يعرفون العربية ، فكان فرسانهم ورؤساؤهم وعلماءهم يعرفون العربية ، وأقبلوا على القرآن وراعتهم معجزاته فترجموه ، ورأوا أنهم قصرُوا ، ثم ترجموه ، ثم ما زالوا يترجمونه جيلاً بعد جيل منذ ذلك الزمان إلى زماننا هذا ليدركوا معجزته .

ومن تأمل ونظر ، عسى أن يجد أن ترجمة الإنجيل التي كانت على عهد تنديل وكفرديل والملك يعقوب الأول في إنجلترا تأثرت بأساليب القرآن ، وهذا أمر لا يمكن أن نفصله في هذه العجالة .

روحانية القرآن اجتذبت الإنس والجن:

هذا القرآن الذي أعجز العرب بروعته أعجزتهم فيما يقول الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والباقلاني بنظمه ، ولكن الأمر لا يقف عند النظم في هذا التركيب الذي تحدى العرب وغلبهم ، روحانية أسمى من كل بلاغة ، كل كلام بليغ من شاعر أو أديب أو خطيب فيه نفس روحاني ، ولكن القرآن كان مفعماً كل الإفعام بنور الروح ، حتى إن اللغة العربية فيه احتملت أن تحتوي كلام الله القديم المنزل ، من أجل هذا خلصت روحانيته إلى اللغة العربية نفسها ، وقد التمس الناس الروحانية في القرآن من وجوه شتى ، ولشدة روحانية القرآن ، استمعتة الجن فأمّنت . ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآيات . لعل بعض المعاصرين أن يشك في أمر الجن هؤلاء ، ولعل هذا المعاصر نفسه إن قرأ في مجلة عصرية أن أطباء جاءت من السموات تحمل مخلوقات يختلفون عنا أن يصدق ذلك ؛ لأن هذا وضع له في أسلوب مثل الأساليب الحديثة العصرية ، ولكن أمر الروح أكبر من أن ينظر إليه بهذا الشك السقيم السريع .

طلب الروحانية في آيات القرآن وحروفه:

المؤمنون نظروا في كتاب الله ، وطلبوا الروحانية حتى في حروفه ، طلبوها في الحروف المقطعة ، طلبوها في الآيات ، جعلوا يحاولون الاستيقاظ بآخر سورة الكهف ، ويطردون النوم بأن الله وملائكته يصلون على النبي ، ويجرسون البيت بـ: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۖ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قریش: ١، ٢] ، ويجرسون أنفسهم بآية «الكرسي» ، وبـ«يس» ، بل إن بعض القوم جعلوا يطلبون اسم الله الأعظم في ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدٌ﴾ وفي غير ذلك من الآيات ، واسم الله الأعظم هذا هو الذي يذكر أن آصف بن برخية قالوا : قصة عفريت من الجن .

طرف من قصة سليمان عليه السلام:

إن العفريت جاء لسيدنا سليمان وقال له أنا أتيك بعرش بلقيس قبل أن تقوم من مقامك : ﴿أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾  قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿النمل: ٣٩، ٤٠﴾ .

تقدم معنا أن الملائكة في اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة يسافرون بسرعة الضوء ، يدانون ذلك أو يزيدون وهي نحو من ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية ، فلعل العفريت لن يكون سافر بسرعة الصوت ؛ لأن المسافة قريبة في اليمن أو أراد أن يسافر ، والذي عنده علم من الكتاب لعله أن يكون فعل ذلك بسرعة الضوء ، ولكن أمراً مهماً في الأمر ينبغي أن نتنبه له ، أنه جاء بالكرسي وسما فوق المادة والزمان ؛ لأن سرعة الضوء تتلاشى معها الأجساد .

أما الذي عنده علم من الكتاب جاء بالعرش نفسه لم يتغير ، بدليل أن سيدنا سليمان عليه السلام قال : ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ . فلو جاء متغيراً لما قال ذلك ، وهذا يدعونا إلى أن ننظر في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ، ليس بين كن فيكون من فجوة لا زمانية ولا مكانية . ولذلك قال الغزالي : إن الزمان شيء محدث في عقل المحدثين ، وذلك باللفظ أن الزمان شيء نسبي ، ولعل النسبية أن يكون أصلها من الغزالي ، والله تعالى أعلم .

مع لغة القرآن وفضلها :

مهما يكن من شيء ، فهذه الروحانية التي في القرآن خلصت إلى اللغة العربية . وأمر هام في اللغة العربية ينبغي أن نتنبه إليه ، وهو أنه لا نظير للغة العربية بين اللغات ؛ لأنها حملت الرسالة العامة الشاملة التي كسرت الحواجز بين المرسل والمرسل إليهم ، ليس ثمة من حجاب بين الأمي والأُميين ، فلا يكون ثمة من حجاب بين العربية ومتلقيها من المسلمين ؛ لذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] .

خلو اللغة العربية من العنصرية اللغوية :

لا توجد لغة تخلو من العنصرية اللغوية خلو العربية ، والأدلة على ذلك كثيرة :

منها أن سحيم عبد بني الحسحاس أخذ عبداً ألكن ، فتعلم العربية ونظم أعظم قصائد الغزل العربي ، ونحن نعرف أنه كان ألكن لأن سيدنا عمر قال له : (لو قلت كفى الإسلام والشيب) قال له : (إذن يا أمير المؤمنين ما سمرت) ؛ لأنه لم يكن يستطيع أن ينطق الشين . ومهيار الديلمي من المتأخرين ، تعلم وأسلم على شيء من كبر ، علمه الشريف الرضي ، وكان أشعر من بعد من الشريف الرضي ، وصار شعره نماذج للعالم ، بل لماذا نقف عند هذا؟ سيبويه الفارسي وضع لنا كتاب العربية الأول ، وإسماعيل بن حماد التركي وضع لنا أصح قاموس في العربية هو «صحيح الجوهري» .

العنصرية ظاهرة في الإنجليزية والفرنسية:

العنصرية التي في الفرنسية والإنجليزية لا تحتاج إلى دليل . جوزف قنرد ، كتب أجود القصص ، وأقصى ما يقال عنه وهو كتبها بالإنجليزية : إن إنجليزته توشك أن تكون محكمة ، بل في الإنجليزية طبقية بدليل أن شكسبير أكبر شعراء الإنجليزية ، ولكن لاتينيته كانت قليلة ، وكانت أقل منها يونانيتها ، فشهد شاهد من أهلها ، فمن أين جاء شكسبير بهذه البلاغة ؟ شكسبير جاء بهذه البلاغة لأنه نظر في أصول لا يعرف متى وأين نظر فيها ، وهذا باب لا أريد أن أمدد فيه الآن .

دعوة إلى إحياء لغة القرآن:

بركة اللغة العربية عرفها آباؤنا الأولون ، فبدءوا التعليم بها كانوا يؤذنون في أذن الطفل ، فيسمع لا إله إلا الله ، وهي في القرآن في سورتي الصافات ومحمد من هذه السن الناعمة ، وكان بعد ذلك يسار به إلى المسجد إلى الكتّاب إلى الخلاء فيبدأ بكتاب الله ، وابن خلدون ليس من أعمق الناس تدينا في كتاباته ، نص على أن البدء بالقرآن يعطي البركة ، وهو المستعمل في كل البلاد الإسلامية .

الآن نحن نطمع أن نعمم اللغة العربية التي فيها البركة ، فاللغة العربية هي اللغة الفصيحة التي في كتاب الله وليست هي اللغة الركيكة التي نراها في الجرائد وأشباه الجرائد ، لعل هذه تكون من لغة الطاغوت ، والله تعالى أعلم .

المحاضرة التاسعة والثمانون بعد المائة

من تراثنا القضائي

بين يدي الموضوع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد أقام الإسلام آلية قوية لضمان العدل في البلاد، وحماية حقوق الله وحقوق العباد، وأعاد بناء مؤسسة القضاء الذي تولى منصبه رسول الله ﷺ بنفسه أول الأمر، ثم عين من ينوب عنه في الأطراف، عندما اتسعت رقعة الإسلام، وامتد نوره.

وما من دولة من دول الإسلام إلا أحاطت هذه المؤسسة بكامل عنايتها، ووافر رعايتها، ونشأ للقضاء فقه خاص، يتناول شروطه، وما يحكم به القاضي، ومسطرة التقاضي، بل نشأ فقه خاص يعرف ويسمى بأداب القضاء، يبين هيئة القاضي، ومجلسه، وترتيب معاونيه، وغير ذلك. واهتمت دول الإسلام بالقاضي وبالقضاء اهتماما بالغاً مازال مسطراً في كتب التاريخ بحروف من ذهب، وإذا كان من الواجب شكر النعم والتحدث بها، فإن مما يدخل في هذا الواجب، العمل بما يؤدي إلى دوام النعم وشمولها، وإن مما يندرج في هذا المعنى أن يهتم رجال العلم والفكر بأمر القضاء، وأن يبحثوا في تراثنا على ما يقويه ويرقى به ويحييه.

وقد اخترت موضوعاً لهذا الدرس من تراثنا القضائي لتحقيق المصالح ،
ودرء المفاسد ، ورفع الحرج ؛ وهذا الموضوع هو : «ما جرى به العمل» .

انطلاقاً من قوله ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) .

وسأحاول بإذن الله وحسن عونه وتوفيقه أن أتحدث باختصار عن سند
هذا الحديث وامتنه ، وعن مفهوم ما جرى به العمل ، وعن أمثلة تطبيقية
تبين معناه ، ومجالاته وفائدته وموقف العلماء منه ؛ وأبين شروطه ، وأختم
ببيان ثمرة البحث في هذا الموضوع ، وبالله التوفيق .

نص الحديث:

روى الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى ورضي عنه ، في باب
نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور ، من كتاب الأقضية من
«صحيحه» ، قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم وعبد بن حميد جميعاً عن
أبي عامر ، قال عبد ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عبد الله بن جعفر
الزهري ، قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، قال : سألت القاسم بن محمد
عن رجل له ثلاثة مساكن ؛ أوصى بالثلث في كل مسكن منها . قال قاسم :
يجمع ذلك كله في مسكن واحد ، أخبرني عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال :
«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» .

وأخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه في كتابه الاعتصام
بالكتاب والسنة من «صحيحه» ، قال : باب إذا اجتهد الحاكم أو العامل
فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ؛ قال الرسول ﷺ :
«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» . وأخرجه البخاري أيضاً في

(١) سبق تخرجه .

كتاب البيوع من «صحيحه»، قال: باب النجش، ومن قال إنه لا يصح، وقول ابن أبي أوفى: الناجش أكل ربا خائن، وهو خادع باطل لا يحل؛ قال الرسول ﷺ: «الخدیعة فی النار، ومن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد».

معنى النجش:

والنجش المذكور في هذا الحديث هو أن يزيد أحد في السلعة وليس في نفسه شراؤها، يريد أن ينفع البائع، ويضر المشتري؛ يزيد في السلعة وهو لا يريد شراؤها، إنما يزيد فيها ليضر المشتري، وينفع البائع؛ هذا محرم.

بعض معاني الحديث:

وهذا الحديث: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» هو من نفس مشكاة الحديث الصحيح المشهور: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١). وكلاهما مروي عن مولانا عائشة رضي الله عنها. والرد هنا في هذا الحديث بمعنى المردود من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول، مثل: خلق أي: مخلوق، ونسخ أي: منسوخ. قال علماء الحديث: وهذا الحديث: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» من قواعد الشريعة، ومن جوامع كلمه ﷺ. وهو صريح في رد البدع والمخترعات وإبطال الأمور المحدثه. وحكى ابن حجر العسقلاني في «الفتح» القول بأن هذا الحديث يصلح أن يوصف بأنه نصف أدلة الشرع، هذا ما يتعلق بهذا الحديث.

(١) سبق تخريجه.

وإذا كان هذا الحديث تضمن من الهدي ما يعتبر محجة بيضاء ، ينجو من يتمسك بها ، فإنه بالنسبة للقضاة يعتبر بمثابة الحبل المتين الذي من تمسك به نجا ، ومن تركه هلك ؛ لاسيما إذا كان القاضي مجتهدا ، وذلك لقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل عندما أراد أن يرسله إلى اليمن : «كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟ قال له : أقضي بكتاب الله . قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله ﷺ قال فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ صدر معاذ وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله»^(١) .

على القاضي معرفة المجمع عليه والراجع من الأحكام:

هذا النوع لا يسع القاضي إلا أن يتمسك به ويتبعه ، ويعمل على وفقه لا يخالفه ، ولا يخرج عنه بحال ، وبين المختلف فيه .

المجمع عليه يتبعه ولا يخالفه بحال ، والمختلف فيه (وهو كل مسألة تعددت فيها الأقوال واختلفت) ، لا يسع القاضي إلا أن يسير مع الراجع والمشهور ، ولا يتركهما إلى القول الضعيف ، وإلا أوشك عمله أن يخالف الأمر المذكور في هذا الحديث : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» . وهذا ما كان عليه السلف الصالح من قضاة أمتنا إلى اليوم .

أخذ القاضي بما جرى به العمل:

لكن القاضي إذا عرضت له قضايا ونوازل ينتج عن الحكم فيها بالمشهور والراجع مفسدة ، أو تحدث مضرة أو تضيع مصلحة ، أو يأتي الحكم مخالفا

(١) سبق تخريجه .

لعرف صار في الناس ، أو مخالفا لعادة جرت عليها تصرفاتهم . ولا يخرج القاضي من هذا المحذور إلا بالوقوع في المحذور الذي نبهنا عليه وهو ترك المشهور والراجح ، والقول بالضعيف .

هنا إذا عرضت للقاضي هذه المسألة لا يخلو الأمر إما أن يكون القاضي من أهل الترجيح وأهل العلم والنظر ، ومن ذوي الكفاءة التي تؤهله للنظر والاختيار بين الأقوال المتعارضة ، وإما أن يكون قاضيا مقلدا لا قدرة له على الترجيح ، ولا على الاختيار بين الأقوال المتعارضة .

إذا كان من أهل الترجيح ومن لهم الكفاءة على الاختيار بين الأقوال المتعارضة ، واختار للخروج من الإشكال الذي وقع فيه أن يعمل بالقول الضعيف ، ويترك القول المشهور الراجح ، ولا يخلو الأمر ؛ إما أن يرفض القضاة متابعته على هذا الحكم ، ويبقى حكمه حكما فرديا لا عبرة به ، وإما أن يختاروا متابعته على هذا الحكم ، فيتواردون على نفس الاجتهاد الذي قام به ، وعلى ترك المشهور والراجح ، والأخذ بالقول الضعيف ، وهنا ينشأ ما يسمى بالعمل ، وما جرى به العمل ؛ لأن ما جرى به العمل ، هو : أن يحكم القضاة ضعيف ، أن يحكم القضاة في نازلة من النوازل مقلدين لقول ضعيف مخالفين للمشهور أو الراجح لأمر اقتضاه ، مع استقرار القضاء عليه ، وعمل القضاة به .

إذن ، القاضي عندما يختار القول الضعيف ، ويترك المشهور والراجح إذا تبعه القضاة في ذلك ، نشأ ما يسمى بما جرى به العمل ؛ إذا لم يتبعه القضاة في ذلك لم ينشأ العمل ، وبقي الحكم حكما فرديا لا أقل ولا أكثر .

موقف القاضي تجاه محدثات المسائل:

إن تعدد النوازل وتنوعها وتداخل المصالح وتشعبها ، وما يحدثه الناس من أمور تقتضي أقضية جديدة وإحداث أقضية جديدة لها . كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمته الله : «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» ؛ كل ذلك يفرض على القاضي أن يبحث في التراث الفقهي على ما يستند عليه في حل المعضلة التي بين يديه ، فإذا لم يسعفه الراجح أو المشهور بحث حتى في الأقوال الضعيفة . والمهم عنده هو أن تبقى أحكامه داخل إطار الشريعة لا تخرج عليها ، إذا تبعه القضاة على ذلك ، كنا أمام ما يسمى بالعمل أو بالعمليات الفقهية ، أو أمام ما يسمى بما جرى به العمل .

وقد اهتم العلماء بهذا الفن ، فخصص له الزقاق فصلا في لاميته ، وألف أبو العباس أحمد بن القاضي فيه كتاب : (نيل الأمل فيما به بين الأئمة جرى العمل) .

أخذ العلماء بما جرى به العمل والإفتاء به :

واستقر العلماء على ما جرى به العمل وأفتوا بوجوب مراعاته والتزام القضاة به ، وأن القاضي لا يجوز له مخالفة ما جرى به العمل والرجوع إلى المشهور ، والراجح إذا كان قضاة البلد قد جرى عملهم في مسألة معينة بحكم معين ، قالوا :

وما به العمل دون المشهور مقدم في الأخذ غير مهجور

وسأحاول أن أعطي أمثلة تطبيقية توضح ما جرى به العمل بصورة أكثر ؛ وأول مثال يتعلق بشهادة الليف ، ومعلوم أن الشهادة هي إخبار

الشاهد بأمر شاهده أو بلغ إلى علمه ، الإجماع على أن الشهادة لا يقوم بها إلا العدول ؛ لقول الله تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] ، وقوله تعالى : ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، ولكن وجود العدول لا يتفق دائما ؛ فقد تحدث للناس قضايا ومشاكل لا يتأتى حضور العدول فيها وقت الإشهاد ، ويضطرون إلى طلب الشهادة ممن اتفق حضورهم من الناس ، ولو من العامة .

المثال الأول: شهادة غير العدول:

العلماء أفتوا بأن شهادة غير العدول لا تجوز مطلقا ، وكان قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج رد ورفض شهادة خمسين رجلا من عامة الناس ، متمسكا بالمشهور ، وهو أن شهادة العوام لا تجوز ، كما أن القاضي أبا الحسن الصغير سئل عن شهادة اللفي ، وقال : إنها لا أصل لها ، ولا مستند لها ، واقتصرهم على اثني عشر رجلا في اللفي لا يجوز . وحكى الفقيه ابن العربي أن الأشياخ الكبار من القضاة والعلماء كلهم على شهادة العامة بلغت ما بلغت في العدد .

ولو سرنا على هذا النحو ، لما وقع بيع ولا شراء ، ولا تعامل بين الناس إلا إذا حضر العدول ، والعدول لا يحضرون على الدوام في الوقت المطلوب ، ولتضرر الناس ضررا كبيرا ، ولضاعت حقوق ، ووقعت مفسدة كبيرة ، لذلك رجع العلماء عن هذا القول المشهور ، وأفتوا بجواز شهادة اللفي ، وأخذوا بها حتى في باب النكاح وثبوت الزوجية .

شهادة النساء والصبي:

كما أنهم أفتوا أن السارق يؤخذ بشهادة من رآه من النساء والصبيان والرعاة وكل من اتفق لهم رؤيته ؛ كما أنهم قالوا بأنه في الأمور التي تقع في الأماكن التي يبعد أو يستحيل فيها حضور العدول ، كالملاهي مثلا ، يؤخذ فيها بشهادة بعض الحاضرين على بعض بدون مراعاة عدالة أو غيرها .

هكذا رجع العلماء عن القول المشهور الراجح ، وعملوا بالقول الضعيف وهو شهادة العامة ؛ واستمر العمل على ذلك في القضاء ، وأصبحت شهادة اللفيف أو شهادة العامة ، مما جرى به العمل .

المثال الثاني: العقوبة بالمال:

فمن المعلوم أن الله تبارك وتعالى شرع العقوبات لحفظ النظام ، وحفظ أرواح الناس ومصالحهم وحقوقهم ، وجعل من الأمانة الملقاة على ولاية الأمور حماية حقوق الناس وأرواحهم ، وأمواهم وأنفسهم وأعراضهم ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بالعقوبات التي هي زاجرة وجابرة ؛ زاجرة لأنها تزجر المجرمين عن العودة إلى أفعالهم الشنيعة ، وتزجر غيرهم عن الاقتداء بهم في تلك الأعمال ؛ كما أنها تجبر خطاياهم إذا اقترنت بالتوبة الصالحة الخالصة ، وتنجيهم من تجديد العقوبة عليهم بما أجرموا في الآخرة .

الأصل في العقوبة كونها بدنية:

الأصل في العقوبة أن تكون بدنية ، كالقتل قصاصا والرجم ، وقطع يد السارق ، والجلد حدا ؛ ولكن هذه العقوبات البدنية لا يمكن أن تتم إلا مع قيام الدولة وبسط سلطانها .

قوة الدولة وعجزها وأثره على العقوبات:

أما إذا كانت الدولة عاجزة ، أو كانت غير قائمة بالمرة ؛ فإنه لا يتأتى القيام بفرض العقوبات البدنية ، وتبقى البلاد سائبة كما وقع في عدد من فترات التاريخ ؛ أو تكون الدولة قوية ، وباسطة سلطتها على أنحاء البلد ، ولكن لا يتأتى إقامة العقوبات البدنية لأسباب ولضرورات ، منها : أسباب اقتصادية واجتماعية ، يكثر معها مثلاً اللصوص ، ويتعذر قطع أيديهم ، أو يكثر المخمورون ويتعذر جلدهم جميعاً أو غير ذلك .

إذن إما أن تكون الدولة قائمة عاجزة ، أو قائمة قوية ، لكن يتعذر إقامة الحدود على وجهها الشرعي ، أو غير قائمة بالمرة ، إذا كانت الدولة غير قائمة بالمرة ، أو قائمة ولكنها عاجزة فنحن بين أمرين : إما أن تترك العقوبات ، وهذا فيه مفسدة عظيمة ، وإما أن يقوم بالعقاب من له مطلق سلطة وهو القبيلة على أفرادها ، والجماعة على أبنائها ؛ وهذه الجهة لا يمكنها أن تقوم بالحدود الشرعية ، وهي العقوبات البدنية ، لأن العقوبات البدنية لا يقوم بها إلا السلطان ، أو من ينوب عنه من قاض أو غيره . أما في هذه الحالة فتقوم تلك القبائل والجماعات بعقوبات ليست بدنية ، وإنما هي عقوبات مالية ، تقوم مقام العقوبات البدنية في انتظار أن ترجع الأحوال والمياه إلى مجاريها ولا تبقى الأمور عارية عن العقوبة ، وقد وقع هذا في عدد من فترات التاريخ .

متى يلجأ إلى العقوبة المالية:

العلماء متفقون على أنه في هذه الحالة : عدم قيام الدولة أو قيامها وعجزها ، متفقون على جواز ترك العقوبة البدنية والانتقال إلى العقوبة

المالية . أما في حال قيام الدولة وقوتها ولكن يقع تعذر إقامة العقوبات البدنية ، والعلماء اختلفوا ؛ منهم من قال : إنه لا يجوز الانتقال من العقوبة البدنية إلى العقوبة المالية بحال ، ومنهم من قال بأنه تجوز ، يجوز الانتقال من العقوبة البدنية إلى العقوبة المالية للضرورة ، أو لمصلحة محققة ، أو لأن الحدود الشرعية لا يمكن إقامتها على وجهها الصحيح . وهذا القول الأخير هو الذي جرى به العمل في هذه المسألة . ويقول الشيخ محمد محمود العلوي بأنه جرى العمل بالانتقال من العقوبة البدنية إلى العقوبة المالية مع قيام السلاطين إلى سنة اثنين وعشرين ومائة وألف ، وارتفع الخلاف عن العمل بها .

وهكذا يتضح في هذا المثال كيف انتقلنا من القول المشهور الراجح ، وهو وجوب الالتزام بالعقوبة البدنية ، إلى القول الضعيف وهو الانتقال إلى العقوبات المالية ، وكيف جرى العمل بذلك .

نشأة العمل ومراحله :

إننا إذا تأملنا نشأة العمل والمراحل التي مر منها ، نجده يرجع إلى عمل أهل المدينة ، وهو الأصل فيما جرى به العمل .

عمل مجتمع المدينة من الصحابة وتابعيهم :

معلوم أن المدينة المنورة مكث فيها رسول الله ﷺ عشر سنين ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يستمعون إلى التنزيل وهو ينزل غضا طريا ، ويشاهدون تطبيقه في حياة الرسول ﷺ عمليا ، ثم مات الرسول ﷺ ولم يغيروا شيئا من ذلك ، وأصبحت المدينة المنورة قاعدة للخلافة

الراشدة ، وفيها أكابر الصحابة ، والخلفاء الراشدون يسألون الصحابة عن عمل الرسول ﷺ وعن تقريراته ، ثم نشأ التابعون وساروا سيرة الصحابة رضوان الله عليهم ، فكان مجتمع المدينة المنورة نموذجا من المجتمع الجديد الذي جاء به الإسلام ، والذي عرضه كمثال يقتدى به بالنسبة للبشرية جمعاء .

اتخاذ مالك عمل أهل المدينة أصلاً له :

هذا العمل هو الذي جعل الإمام مالكا يعتبره أصلا من أصول مذهبه ، ودليلا قويا من أدلته في الفقه ، ويتمسك به ، قال : وهذا ظاهر في عدد من أقوال الإمام مالك رحمه الله ؛ ومن ذلك رسالته التي أرسلها إلى الليث بن سعد ، حيث يقول له فيها : وإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم ، يأمرهم فيطيعونه ، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل ؛ فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولاً به ، لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها أو ادعاؤها .

وكان الإمام مالك يردد عبارة شيخه ربعة الرأي . ألف عن ألف ، خير من واحد عن واحد . وكان يقال لأبي الدرداء : بلغنا كذا وكذا ومن الأحاديث ، فيقول : وأنا أيضا قد سمعته ، ولكن العمل كان على خلافه . وثبت عن مالك رحمه الله ، أنه كان يقول عن ابن شهاب الزهري : سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ، ما حدثت بها قط قيل لم ؟ قال : لأن العمل كان على خلافها .

قول الشاطبي في «الموافقات» :

قال الشاطبي في «الموافقات» ، ومن هذا المكان يتطلع إلى قصد مالك رَحِمَهُ اللهُ في جعله العمل مقدما على الأحاديث ؛ إذ كان إنما يراعي كل المراعاة العمل المستمر الأكثر ، ويترك ما سواه ، ولو كانت فيه أحاديث ، وكان ممن أدرك التابعين وراقب أعمالهم ، وكان العمل مستمرا في الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم يكن مستمرا فيهم ، إلا وهو مستمر في عمل الرسول ﷺ أو في قوة المستمر .

قال الشاطبي : وقد بين في «العتبية» أصلا لهذا المعنى يجل موقعه ، ذلك أن الإمام مالكا سئل عن الرجل يأتيه الخبر السار يفرحه ويعجبه ويسجد لله شكرا ، قال الإمام مالك : لا يفعل . قيل له : إن أبا بكر الصديق سجد يوم اليمامة شكرا لله تعالى . هل سمعت ذلك ؟ قال : ما سمعته ؛ وما أرى إلا أنهم كذبوا على أبي بكر . ثم قال : قد فتح على النبي ﷺ ، وعلى المسلمين من بعده ، فهل سمعت أحدا منهم سجد ؟

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ : ومن هنا لم يسمع أهل السنة قول الرافضة أن النبي ﷺ أوصى لعلي كرم الله وجهه بخلافته ، لأن العمل كان على خلافه ، والصحابة لا تجتمع على ضلال .

وقد تطورت نظرة الفقهاء إلى العمل ، فكما أن الإمام مالكا رَحِمَهُ اللهُ كان ينظر إلى العمل الأكثر والمستمر ، ويقدمه على الأحاديث ، كذلك رأى القضاة والفقهاء أن القاضي عليه أن ينظر في عمل سلفه من القضاة ، فما كان أكثر ومستمرا عمل به والتزم به وقدمه على المشهور وعلى أدلة أخرى .

والأصل في هذا العمل ظهر في الأندلس ، فكانت قرطبة مشهورة بالعمل ، وكان عمل قرطبة مهيمنا على غرب العالم الإسلامي أيام عزها وازدهارها .

اعتراض على ما جرى به العمل:

إلا أن العلماء لم يرتاحوا كثيرا لهذا الاتجاه ، واعتبروه مظهرا من مظاهر الضعف والتقهر ، وقالوا بأن الخروج عن المشهور وما جرى به العمل ، والركون إلى الأقوال الضعيفة ، لا يكون إلا إذا ضعفت الأمة ، وشق عليها التمسك بالمشهور ، وما جرى به العمل ، وأخذت تتمسك بالأعراف والعادات ، وما إليها من الأمور المخففات ، كما أن الأخذ بالعمل إذا كان سالما في وقت قوة الدولة ، فإنه لا يكون كذلك في وقت ضعفها ، لأنه بضعف الدول يضعف العلماء ، وإذا ضعف العلماء ضعف العمل ، وأصبحنا أمام نوع من الأعمال فيها تحريف وتخريف . ولذلك جابهوا ما جرى به العمل وردوه ، وقالوا بأنه عبارة عن ضلالات ، ووصفوا بعض الناس العاملين به بأنهم عصاة ، ومما أيدهم في هذا ظهور بعض الأنواع من العمل المنحرف في الواقع ، مثل ما جرى به العمل مثلاً بترك اللعان ، مع أنه منصوص عليه في الكتاب والسنة ؛ ومثل ما جرى به العمل من أعراف في بعض البوادي وعاداتها ؛ الشيء الذي جعل بعض العلماء يفتون بأن تلك الأحكام المنزلة على القضايا الواقعة في تلك الجهات ، لا تجوز إلا لأهل تلك الجهات ، ولا تجوز لغيرهم .

وضع الضوابط والشروط لهذا المنهج:

وهذا الملحظ الذي لاحظته العلماء هو ما جعلهم يشترطون شروطا دقيقة في حال قبول العمل ، بحيث إذا قضى ونزل ، وقبلنا بما جرى به العمل ، وفتحنا له المجال فلا بد أن تتوفر شروط . ومن هذه الشروط :

- أن يكون القاضي من أهل الترجيح ، إذا لم يكن من أهل الاجتهاد وقد تقدمت الإشارة إليه .
- وأن يتابع القضاة المشهود لهم بالكفاءة والعلم ، أن يتابعوا هذا القاضي على هذا الحكم ، وقد تقدمت أيضا الإشارة إلى المتابعة .
- ومن هذه الشروط أن يدخل العمل ضمن القواعد الشرعية .
- ومنها أن لا يكون ضعفه شديدا .

وقفة مع الشرط الثالث والرابع:

أتناول الشرط الثالث والرابع فأقول : بأن اشتراط دخول العمل ضمن القواعد الشرعية يعني أن يكون العمل جاريا على الأصول في الأخذ بالمصالح المرسله ، والاستحسان ، وسد الذرائع ، وغيرها ؛ وأن يأخذ ويندرج فيما يعرف بالسياسة الشرعية وهي تلك الأحكام الخاصة بولي الأمر ، أو بخليفة المسلمين ، والتي يصدرها إما من أجل حفظ النظام ، وإما من أجل ما يسمى بالتراتب الإدارية . إذا كان ما جرى به العمل داخلا في هذا الإطار ، في إطار هذه القواعد فهو مقبول .

وهناك قواعد أخرى ينبغي أن يكون مندرجا بينها ، منها قاعدة : درء المفسد مقدم على جلب المصالح . ومنها : حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله . لا ضرر ولا ضرار ، ومنها : الضرر يزال ، ومنها الأمر إذا ضاق اتسع ، ومنها قاعدة : الحرج مرفوع ، ومنها قاعدة : العبرة بمآل الأفعال ، ومنها قاعدة : إنما الأعمال بالنيات ، ومنها قاعدة : الأعراف محكمة ، ومنها قاعدة : المعروف عرفا كالمشروط شرطا .

وقفة مع قاعدة: الأعراف محكمة:

من المفيد أن أقف عند هذه القاعدة الأخيرة ، وهي المتعلقة بالأعراف ، لأقول بأن ما جرى به العمل في معظمه ينبني ويتأسس على العرف وعلى العادات وعلى التقاليد الجارية في البلد الذي يوجد فيه القاضي .

والعرف هو ما استقر في النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ، والعادة هي غلبة معنى من المعاني على الناس . وكلاهما معتبر شرعا ، وتوسع الملكية فيه ، واعتبروا العرف والعادة أصلا من أصول المذهب المالكي . بل خصصوا به بعض الأدلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] هذا حكم عام ، كل الوالدات يجب عليهن أن يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ؛ قالوا إلا إذا كانت المرأة شريفة مرفهة فلا ترضع ؛ بل على الزوج أن يكتري من ترضع له أولاده ، فخصصوا هذه الآية بهذا العرف . ورجحوا بالعرف القول الضعيف والشاذ . قالوا :

ورجحوا بالعرف وهو أقوى من سائر المرجحات أقوى

العادة والعرف من أركان الشريعة:

ونقل المهدي الوزاني أن العادة والعرف ركن من أركان الشريعة ؛ واستحبوا في القاضي أن يكون بلديا ، ليعرف أعراف البلد وعاداته وتقاليده ، ويحكم وفقها ولا يخالفها ؛ لأن الناس يشق عليهم الحكم بما يخالف أعرافهم وعاداتهم .

وإذا كان علماء السلف قد بوءوا العرف هذه المكانة ووفقوا بين الأعراف والنصوص ، فإنه لا يجوز لقضاتنا أن يجمدوا على النصوص ، نصوص القانون الوضعي ، وأن يتجاهلوا تفسيرها وتأويلها ، والتعرف على وجوها ،

انطلاقاً من الأعراف والعادات السائدة في البلد الذي هم فيه ؛ وكان العلماء قد اعتبروا الجمود على النصوص ضلالاً وإضلالاً ؛ قالوا :

وكل ما يبنى على العرف يدور معه وجوداً عدماً دور الدور
فما اقتضته عادة تجددت تعين الحكم بها إذا بدت
ولا أريد أن أطيل بالشرط الرابع وهو أن لا يكون مستند القول الذي
جرى به العمل شديد الضعف .

ملاحظات مهمة :

وأنتقل إلى بيان بعض الملاحظات التي يمكن أن تستخلص من البحث
في ميدان العمل ؛ منها :

أولاً : أن العمل أعطى الدليل على أن الفقه الإسلامي مرن وحي عكس
ما يصفه به خصومه من أنه جامد وغير قابل للتطور ؛ لأنه فقه يراعي
العادات والأعراف ، والتقاليد والظروف والأحوال ، ويذهب بعيداً إلى حد
الانتقال من القول المشهور إلى القول الضعيف ، لضمان المصالح وتحقيقها .

وثانياً : أن من فوائد العمل أسلمة الأعراف ؛ لأن عدداً من الأعراف والتقاليد
يضمها العمل ، ويدخلها في القضاء الشرعي ، وتأخذ طابعاً شرعياً .

الثالث : أن (ما جرى به العمل) هو باب من أبواب إغناء التشريع ، بما
يدخل فيه من أحكام عن طريق ما يجد من أحداث ، وعن طريق
الاجتهادات التي يقوم بها القضاة في إيجاد الأحكام للنوازل الجديدة .

الرابع : أن العرف نظراً لموقفه الإيجابي من أعراف الناس وتقاليدهم ، كان
له دور كبير في تحبيب الشعوب والأجناس والقبائل في الإسلام ؛ لأنها

وجدته لا يتعارض مع أعرافها وتقاليدها، ووجدت فيه استعدادا كاملا للتلاؤم مع تلك الأعراف والعادات والتقاليد، ولذلك تمسكت به، وقاومت كل تيار يريد إبعادها عنه .

الخامس : أن ما جرى به العمل يساعد على الفهم الصحيح للتشريع، لأن التشريع إذا فهم انطلاقا من السوابق القضائية ومن عمل القضاة الأولين في التطبيق سيكون فهمه أسلم .

الملاحظة السادسة : أن ما جرى به العمل هو اجتهاد قضائي متوفر على جميع الشروط .

الملاحظة السابعة : أنه دليل على أن باب الاجتهاد لم يغلق، عكس ما يدعيه خصوم الإسلام .

الملاحظة الثامنة : أن ما جرى به العمل يؤدي إلى وحدة الأحكام، وذلك بالمتابعة والاستمرار .

الملاحظة التاسعة : أنه يؤدي إلى استقرار الناس على عوائدهم .

الملاحظة العاشرة : أنه يرشد إلى إمكانيات هائلة لإيجاد الحلول الناجعة للقضايا التي يظن الناس اليوم أن لها بابا واحدا، وأنه لا يمكن أن يوجد لها حل إلا في إطار المشهور أو الراجح؛ بينما ما جرى به العمل يفتح الباب واسعا أمام الحلول الناجعة لعدد من القضايا .

نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا مقبولة غير مردودة، وأن يجنبنا مواقع الزلل، ويرشدنا إلى صالح العمل .

المحاضرة التسعون بعد المائة

أثر العمل الصالح في انفراج الشدائد

موضوع الدرس: أصحاب الغار الثلاثة:

شرح حديث الثلاثة أصحاب الغار، المُكرّمين الأخيار، الذين حدثنا عنهم النبي المختار ﷺ. وقد وضعت له العنوان التالي: (أثر العمل الصالح في انفراج الشدائد) استنادا إلى قوله تعالى في كتابه العزيز، في آخر سورة مريم عليها السلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. فأسأل الله تعالى أن يوفقني للنهوض بشرح حديث رسوله الكريم. وأن يأخذ بأيدينا وقلوبنا جميعا إليه حتى نكون من أهل وده العظيم، وهو السميع المجيب.

نص الحديث:

روى البخاري ومسلم في «صحيحَيْهما»، والإمام أحمد في «مسنده»، وأبو دواد في «سُنَّته»، وأدخلت بعضهم في بعض، والسند الآتي هو للبخاري رحمه الله تعالى، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال حدثنا أبو عاصم، قال أخبرنا ابن جُرَيْجٍ، قال أخبرني موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه أبو داود بنحو هذا السند فقال في آخره: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله، قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فرق الأرز؟».

روى البخاري ومسلم في «صحيحهما»، والإمام أحمد في «مسنده»، وأبو داود في «سننه» وأدخلت حديث بعضهم في بعض: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله، قالوا: يا رسول الله. وما صاحب فرق الأرز؟»

قال: خرج ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون يرتادون لأهلهم، فغيمت السماء، وأصابهم المطر، حتى آواهم المبيت إلى غار في جبل، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم باب الغار، فانطبقت عليهم حتى ما يرون خصاصة، فعالجوها فلم يستطيعوها. فقال بعضهم لبعض: قد وقع الحجر، وعفا الأثر ولا يعلم بمكانكم إلا الله ﻋﻠﻤﻪ، لقد وقعت في أمر عظيم. إنه والله لا ينجيكم إلا الصدق، إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه فادعوا الله بأفضل عمل عملتموه، لعل الله يفرجها عنكم برحمته، وينجيننا من هذا.

فقال أحدهم: اللهم (إنك تعلم) أنه كان لي أبوان شيخان كباران، وامرأتي وصبية صغار، فكنت أخرج فأرعى عليهم ثم أجيء فأحلب، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي. فنأى بي طلب الشجر والكأ يوماً، فأبطأت عنهما ليلة، فما أتيت حتى أمسيت. فجئت فوجدتهما نائمين، فحلبت كما كنت أحلب، فقامت عند رءوسهما وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، والصبية يتضاغون عند قدمي، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما وأبدأ بالصبية قبلهما، فلبثت والقدرح على

يدي ، ولم يزل ذلك دأبي ودأبهما ، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله لهم فرجة يرون منها السماء ، ولا يستطيعون الخروج .

وقال الثاني : اللهم (إنك تعلم) أي كنت أحب امرأة من بنات عمي ، كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها عن نفسها ، فامتنعت مني ، حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تحلي بيني وبين نفسها ، ففعلت . حتى إذا قدرت عليها (وجلست منها مجلس الرجل من المرأة) قالت : اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، وارتعدت من تحتي . فقلت لها : ما شأنك ؟ قالت : أخاف الله رب العالمين ، قلت : خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء . فتركها وانصرفت عنها ، وهي أحب الناس إلي ، وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت تعلم أي فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فافرج لنا منها فرجة ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم (إنك تعلم) أي كنت استأجرت أجرا ، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، استأجرته بفرق من أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطني حقي ، فعرضت عليه حقه ، وأعطيته فرقه ، فتركه ورغب عنه ، وزعم أن أجره أكثر من أجور أصحابه ، فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، ولم أزل أزريه حتى كثرت منه الأموال ، فصار من أمره أي اشتريت منه بقرا ورعاتها . فجاءني بعد حين بعدما افتقر وكبر فقال : يا عبد الله ، أد إلي أجري ولا تظلمني وأعطني حقي ، فقلت له : كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق من أجرك ، فإنها لك ، إنها من

ذلك الفرق ، اذهب فخذها ، فقال : يا عبد الله ، اتق الله ولا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا أستهزئ بك ، ولكنه مالك فخذ ، فأخذه كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئا وذهب به . اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فافرج لنا ما بقي ، ففرج الله عنهم ، وانفرجت الصخرة وخرجوا من الغار يمشون .

موضع الحديث عند البخاري:

هذا الحديث الشريف رواه البخاري في خمسة مواضع من «صحيحه» ، رواه في كتاب البيوع في (باب إذا اشترى الرجل شيئا لغيره بغير إذنه فرضي) ، ورواه في كتاب الإجارة ، في (باب من استأجر أجيرا فترك أجره ، فعمل فيه المستأجر فزاد ، أو من عمل في مال غيره فاستفضل) ، ورواه في كتاب الحرث والمزارعة ، في (باب إذا زرع بهمال قوم بغير إذنه وكان في ذلك صلاح لهم) ورواه في كتاب أحاديث الأنبياء ، في (باب حديث الغار) ، ورواه في كتاب الأدب ، في (باب إجابة دعاء من بر والديه) .

موضعه عند مسلم وأبي داود وأحمد:

رواه مسلم في «صحيحه» ، في كتاب الرقاق ، وعنون عليه الإمام النووي بقوله : (باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال) ، ورواه أبو داود في «سننه» ، في كتاب البيوع والإجازات ، في (باب الرجل يتجر في مال الرجل بغير إذنه) ، ورواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

وقد جمعت بين روايات هؤلاء المحدثين ، وأدخلت حديث بعضهم في بعض ، لتكتمل الصورة في الحديث الشريف ، وتتضح معانيه باكتمال جملة

وألفاظه ، وهذا أمر من الناحية الحديثية الاصطلاحية لا مانع منه ، وخاصة أننا لسنا في مقام الرواية والإملاء ، وإنما نحن في مقام الشرح والاستنباط والاستهداء .

مراحل الحديث عن الحديث:

والكلام على هذا الحديث الشريف يتخذ المراحل التالية الخمس :

أولاً : في صحته وثبوته .

ثانياً : في تلبية أصحاب الغار وتحديد زمانهم الذي كانوا فيه وبيان موضع الغار الذي أووا إليه .

ثالثاً : في تفسير بعض ألفاظه الغريبة وبيان بعض معانيه المجملة .

رابعاً : في ذكر ما يستنبط منه من أحكام وآداب .

خامساً : في بيان ما في الحديث من عبر وعظات بالغات ، والربط بين حياتنا وبين معطيات هذا الحديث الشريف .

وبذلك الختام ، ثم مسك الختام بالدعاء والاسترحام .

أولاً : في صحة الحديث وثبوته :

هذا الحديث الشريف صحيح كل الصحة ، فقد رواه الإمام البخاري في خمسة مواضع من «صحيحه» كما ذكرته من قبل ، ورواه الإمام مسلم في «صحيحه» أيضاً ، وهما الإمامان المشهوران المشهود لكتابيهما بالصحة العليا والمرتبة القصوى ، وكذلك رواه أبو داود في «سننه» والإمام أحمد في «مسنده» ، كلاهما رواه بإسناد صحيح أيضاً .

وهذا الحديث جاء من ثمانية طرق أخرى عن ثمانية من الصحابة غير عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، ولكن البخاري ومسلم وأبا داود لم يخرجوه إلا من رواية ابن عمر فقط .

١- وقد أخرجه عن أنس الطبراني في الدعاء بإسناد صحيح ، ومن وجه آخر بإسناد حسن .

٢- وأخرجه عن أبي هريرة الطبراني في الدعاء أيضا بإسناد حسن وهو في «صحيح» ابن حبان .

٣- وأخرجه عن النعمان بن بشير الإمام أحمد والبخاري والطبراني بأسانيد حسان .

٤- وجاء عن علي بن أبي طالب .

٥- وعقبة بن عامر .

٦- وعبد الله بن عمرو بن العاص .

٧- وعن ابن أبي أوفى بأسانيد ضعاف .

٨- وعن ابن عباس أيضا .

وقد استوعب طرقه أبو عوانة في «صحيحه» والطبراني في الدعاء ، فالحديث كامل الصحة والثبوت لصحة إسناده وتعدد مخارجه ، وهو عند بعض العلماء يعد من الحديث المتواتر لكثرة طرقه التي جاء بها .

ثانياً: في تسمية أصحاب الغار:

أما أسماء هؤلاء الثلاثة أصحاب الغار فلم يوقف على اسم واحد منهم ، وأما زمنهم الذي كانوا فيه فهو في زمن بني إسرائيل ، ففي حديث

عقبة بن عامر عند الطبراني في الدعاء : «أن ثلاثة نفر من بني إسرائيل . .» الحديث . أما موضع الغار الذي أووا إليه ، فهو الرقيم الذي جاء ذكره في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] ، وقد أخرج البزار والطبراني بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، أنه سمع النبي ﷺ يذكر الرقيم ، قال : «انطلق ثلاثة نفر فكانوا في كهف ، فوقع الجبل على باب الكهف فأوحد عليهم» ، فذكر الحديث . وقد مال البخاري رحمه الله تعالى إلى هذا في «صحيحه» ، فأورد حديث أصحاب الغار الثلاثة بعد قصة أصحاب الكهف .

وقال القرطبي المفسر عند ذكر (أصحاب الرقيم) في تفسيره : «قيل : الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم ، وإليه نحا البخاري» .

ثالثاً: في تفسير الألفاظ الغريبة ، وبيان بعض معانيه المجملة :

الفرق :

جاء في الحديث لفظ (الْفَرْق) وهو : مكيال يسع ثلاثة أصع من الأرز أو الحنطة أو نحوهما .

الخصاصة :

وجاء في الحديث لفظ : «حتى ما يرون خصاصة» ، الخصاصة هنا معناها : الفرجة الصغيرة يرى منها الضوء .

يتضاغون :

وجاء في الحديث لفظ : «وأهلي وعيالي والصبية يتضاغون من الجوع» أي يتضورون ويتألمون ويصيحون من الجوع .

الغبوق :

وجاء في الحديث لفظ : «فاستيقظا فشربا غبوقهما» ، الغبوق : ما يشرب في الليل ، والصبوح : ما يشرب في النهار .

إن كنت تعلم :

وجاء في الحديث لفظ : «اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك» . وفيه إشكال من حيث صيغة الشك المفاد من قوله : (إن كنت تعلم) ، والمؤمن يعلم يقينا أن الله يعلم ذلك ، فكيف جاءت العبارة بأسلوب الشك؟ والجواب أن الشك هنا بالنظر إلى نية القائل وتحقق إخلاصه ، وليس الشك في علم الله المخاطب المحيط بكل شيء علما .

وجاء في الحديث لفظ : «قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه» . ومعنى هذا الكلام أن هذه المرأة المؤمنة تقول للرجل الذي أرادها على الزنا والعصيان ودنا منها دنو الرجل من زوجته ، تقول له : أنا لا أحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح ، فاتق الله في وابتعد عني ، ناشدتك تقوى الله الذي يراني ويراك .

رابعا : في ذكر ما يستنبط من الحديث من أحكام وآداب :

١- في هذا الحديث الشريف أولا : أسلوب التشويق والإهاجة إلى الانتباه واليقظ في المتعلم والسامع وذلك قوله ﷺ : «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله» فهاجهم ﷺ بهذا الأسلوب التشويقي إلى التوجه إلى السؤال والمعرفة لصاحب فرق الأرز ، فقالوا : «ومن صاحب فرق الأرز يا رسول الله؟» فحدثهم عنه وعن أخويه

الذين شاركاه في الاحتباس في الغار ، وعما كان لكل واحد من الثلاثة من الأعمال الصالحة وهذا أسلوب تعليمي تربوي رفيع ، أن يوقظ المعلم النشاط والتنبه في المتعلم والسامع ، ثم يلقي إليه العلم ، فيكون أوعى ما يكون لما سمع وعلم ، وهذا ما فعله النبي ﷺ وهو سيد المعلمين والمربين كافة .

٢- وفي هذا الحديث من أحكام البيوع : جواز عقد الفضولي ، وهو الذي يبيع أو يشتري لغيره شيئا بغير إذنه ، ويكون إبرام العقد ونفاذه موقوفا على إذن ذلك الغير ، فإذا أذن به نفذ ، وإن لم يأذن به بقي ذلك الشيء في ملك صاحبه . ودليل هذا من الحديث : أن الرجل أخذ فرق الأرز ، حين تركه صاحبه ساخطا له مستقلا ، فزرعه حتى نما وكثر وازداد زيادة عظيمة ، فاشترى منه بقرا ، وإبلا وغنما ورقيقا ، وحفظها كلها لصاحب فرق الأرز . فالرجل تصرف في مال الأجير بغير إذنه ، ولكنه لما ثمره له ونماه وأعطاه إياه ، أخذه الأجير ورضي به ، فدل ذلك على جواز عقد الفضولي في مثل هذا ونحوه ، وخاصة أن النبي ﷺ ساقه مساق المدح والثناء على فعله ، وحكاه داعيا إلى الإغراء بمشابهته ، فقال ﷺ : «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله» . وقد مال البخاري في هذه المسألة إلى الجواز كما يظهر من العنوان الذي وضعه للحديث في الموضع الأول ، وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة أيضا .

٣- وفي هذا الحديث من أحكام البيوع أيضا : أن من عمل بمال غيره من غير إذنه ، ففما المال وازداد ، فالزيادة والربح كله لصاحب المال ، وعلى هذا المعنى عنون البخاري لهذا الحديث بقوله : (باب من استأجر

أجيرا فترك أجره ، فعمل فيه المستأجر فزاد ، أو من عمل في مال غيره فاستفضل) ، أي أتى بالفضل والزيادة والأرباح ، وهذه المسألة تعد من مسألة تصرف الفضولي التي سبق الكلام فيها . ومذهب البخاري أن المال الزائد النامي من مال الأجير إنما هو للأجير بكامله ؛ لأن التصرف فيه تصرف لا على سبيل الإذن أو القرض ، وإنما هو على سبيل الفضول وإرادة الخير . ودليل هذا في الحديث أن الأجير لما ترك أجره وانصرف ، وعمل فيه المستأجر ونماه ، ثم رجع إليه الأجير يطالبه بأجره الذي كان قدرا يسيرا ، قال له المستأجر : كل ما ترى من أجرك ، فأخذه كله ولم يترك منه شيئا ، وأقر الرسول الكريم هذا التصرف بحكاية دون إنكار أو تعديل واستدراك .

٤- وفي هذا الحديث من أحكام المزارعة : أن من زرع بمال غيره المعين ، بدون إذنه ، وكان في ذلك صلاح لصاحب المال ونفع ، فالنماء كله لصاحب المال ؛ لأنه تولد من ماله ، فإن المزارع هنا تصرف في أجره العامل التي كان عينها له ، وهي فرق الأرز ، فزرعه فنماه الله وبارك فيه ، ولم يعد هذا التصرف تعديا ، لأنه تصرف بطريق الإصلاح والنفع ، لا بطريق التضييع والإساءة ، ولذلك توسل بهذا العمل فاعله إلى الله ﷻ ، وجعله من أفضل أعماله ، وأقر على ذلك ، ووقعت له الإجابة في ساعة العسرة .

٥- وفي الحديث من الأحكام - إضافة إلى ما تقدم - : استحباب الدعاء عند حدوث الكروب فإن أصحاب الغار توسلوا إلى الله تعالى بالدعاء ، فاستجاب لهم سبحانه .

٦- وفي الحديث أيضا : التقرب إلى الله تعالى بذكر العمل الصالح ، فإن كل واحد منهم ذكر العمل الصالح الذي رجا به الفرج من تلك الشدة .

٧- وفي الحديث أيضا : فضل الإخلاص لله تعالى في العمل ، فإنه كان مفتاح الفرج باستجابة دعائهم .

٨- وفي الحديث فضل بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على الولد والأهل ، وفضل تحمل المشقة لأجلهما ، وفضل فعل ما يسرهما ، وأن ذلك مدعاة الفرج للولد إذا وقع في شدة أو كرب .

٩- وفي الحديث أيضا : فضل العفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة عليه وأن ذلك وإن كان واجبا : مجلبة للرحمة والإنقاذ من المهالك .

١٠- وفي الحديث أيضا : أن ترك المعصية طاعة لله : يمحو مقدمات طلبها ، ويعد حسنة صالحة عند الله تعالى ، ويشهد لذلك قوله ﷺ في الحديث المعروف «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»^(١) .

١١- وفي الحديث أيضا : أن التوبة تجب ما قبلها من الذنب ، فلما تاب المراد للمرأة عن مراودته وتركها انقلب من عاص أثيم ، إلى طائع كريم يستجاب له الدعاء .

١٢- وفي الحديث أيضا : جواز الإجارة بالطعام المعلوم بين المتأجرين ، فإن المستأجر استعمل الأجير على فرق من الأرز ، وكان ذلك أجرته .

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

١٣- وفي الحديث أيضا : فضل أداء الأمانة . ولعل هذا كان أشق الأعمال الثلاثة التي قام بها أصحاب الغار وأصعبها ، فإن الرجل الأجير لما غضب وترك أجره ،- كان أجره فرقا من رز يبلغ ثمنه نصف درهم ، فنهاه الرجل المستأجر حتى بلغ قطيعا من البقر والغنم والجمال وجملة من الرقيق ، وذلك إنما يتم في مدة سنين طوال ، فبقي هذا الرجل المستأجر أمينا عليه لم يطمع بكثرته ونمائه ، ولم تحوله الأموال الكثيرة عن أمانته ، ولا غيرته السنون المتتالية عن استقامته ، فلما جاء الأجير بعد حين وقد بلغ من الكبر عتيا ، وطحنه الفقر والعوز طحنا ، جاء راجيا أن يأخذ أجره الذي يعدل نصف درهم يتبلغ به الرmq والعيش ، ولكن المستأجر الأمين أعطاه أموالا أدهشته ، وما كاد عقله يصدق أنها له ، فقال للرجل : لا تستهزئ بي ، فأكد له المستأجر الأمين أنها كلها له ، نهماها من أجره وبارك الله له فيها وزادت وكثرت وتنوعت حتى صارت إبلا وبقرا وغنما ورقيقا ، فاستاقها كلها وما كاد يصدق ذلك .

أيهم أفضل؟

وكان هذا المتوسل آخر الثلاثة توسلا ، وأفضل الثلاثة عملا ، فلذلك كان انحدار الصخرة عن فم الغار عند توسله . ووجه أفضليته على الاثنين الآخرين أنه كان متطوعا أمينا ومخلصا تقيا طوال تلك السنين .

أما المتوسل بطاعة أبويه وبرهما ، وما أكرمها من طاعة وبر! فإن ذلك واجب عليه ، وهو أمر مألوف من طبيعة التربية الصحيحة والدين القويم ، الذي ينشأ عليه المؤمن ، فلا يجد في ذلك المشقة التي لا تطاق .

وأما المتراجع عن الزنا بالمرأة التي توصل إليها بالمغريات بعد نزول الفقر والحاجة بها ، ثم لما وصل إليها ودنا منها دنو الرجل من زوجته ، رجع عنها ونفسه أقوى ما تشتهيها فذلك واجب عليه شرعا ، ثم إنه رجع عن معصية مقدمتها معصية ونهايتها معصية ، فهو قد رجع عن منكر ذميم ، إذا قضاه ناله السقوط والبوار ، في هذه الدار وتلك الدار .

أما المستأجر الأمين فإنه صبر على أمانته الأعوام الطوال ، والأزمان المتلاحقة متطوعا برعاية أجرة الفقير التي هي فرق الرز وهو يعدل نصف الدرهم ، فصار من أمانته وجهده واجتهاده نصف الدرهم ثروة هائلة : قطيعا من الإبل ، وقطيعا من البقر ، وقطيعا من الغنم ، وجملة كبيرة من الرقيق تخدم هذه القطعان والمواشي ، وترعى شأنها حق رعايتها ، فلذلك كان أفضل هؤلاء الثلاثة . ويشهد بذلك قول الصادق المصدوق عليه السلام الذي أورده في أول نص الحديث : «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله» . فهذا قول فصل في أنه أفضل الثلاثة ، إذ جعله الرسول ﷺ مثلاً يحتذى وقدوة يتبع .

١٤- وفي الحديث أيضا : الإخبار عما وقع في الأمم الماضية ، ليعتبر السامعون بأعمالهم ، فيعمل بحسنها ، ويترك قبيحها .

وهنا يجب أن أقول : إن النبي ﷺ إذ يتحدث عن الأقوام الماضين في أحاديثه الشريفة ، إنما يتحدث عن وقائع ونوازل جرت فيهم حقيقة ، فهو يخبر عن حقائق وقعت وأحداث حدثت ، يقصد من ذلك التعليم للناس والحض على فعل ما هو خير والتنبيه والتحذير من فعل ما هو شر ، فحديثه ﷺ على سبيل القصص الواقع الحق .

هل القصص في الأحاديث قصص واقعي؟

وأخطأ كل الخطأ من زعم فقال : إن هذا القصص في الأحاديث الشريفة قصص رمزي ليس له واقع . وهذا من قائله خطأ لا سداد معه ، فلم يكن النبي ﷺ قصاصا ولا إخباريا ولا محدثا رمزيا ، بل كان رسولا نبيا ، يخبر عن الحق واليقين ، وهو القائل : «حدثوا عن بني إسرائيل فقد كانت فيهم الأعاجيب»^(١) ، و «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»^(٢) .

عظات وعبر في الحديث الشريف:

هذه جملة الأحكام التي تستخرج من هذا الحديث الشريف على سبيل الإجمال ، وبقي الأمر الخامس وهو بيان ما في الحديث من عبر وعظات بالغات ، والربط بين حياتنا وبين معطيات هذا الحديث الشريف .

في هذا الحديث الشريف : نداء وتوجيه للأبناء ، إلى البر والعناية بالآباء ، وفي هذا الحديث الشريف نداء وتوجيه للشباب النبلاء ، إلى التعفف والابتعاد عن الحرام والفحشاء ، وفي هذا الحديث الشريف ، نداء وتوجيه للنساء بالاستمسك بالعفاف والطهر ، والتحفظ من الوقوع في حباله الزنا والإغراء . وفي هذا الحديث الشريف نداء وتوجيه للأثرياء والأغنياء إلى البر والرعاية لحقوق العمال والفقراء ، وهؤلاء جميعا هم سواد المجتمع كله .

(١) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (١١٥٦) ، وابن أبي الدنيا في «من عاش بعد الموت» (٥٨) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (١١٠) ، ومسلم (١٠/١) في «مقدمة صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأحب أن أنبه إلى معنى سام رفيع جاء في هذا الحديث ، لم تسبق الإشارة مني إليه فأقول : في هذا الحديث الشريف بيان عنصر هام من عناصر الخير التي أودعها الله تعالى في المرأة المؤمنة ، فالمرأة المؤمنة هنا هي التي حولت الرجل الشهواني من زان مغتصب أثيم إلى تائب نادم مستغفر منيب ، وذلك بفضل عففتها وطهارتها وشدة خشيتها من الله تعالى ، وهي في أصعب الساعات ، وأقسى الشدائد والإغراءات ، فبإيمانها ونزاهتها ردت الرجل التائه الطياش إلى حضرة الله تعالى عبدا صالح تقيا ، تستجاب دعوته ، وتكشف محنته ، وتحكى قصتها وقصته ، لتكون نبأ لاهتداء والاعتصام بالله تعالى .

صلاح المرأة صلاح للرجل :

فأنت أيتها الأخت المؤمنة : بالسلوك الصالح تهذين الرجال ، وتصححين الخلل وتردين الهائم الغافل العاثر إلى حضرة الله ذي الجلال .

فيالك من امرأة مؤمنة صالحة ، ويالك من عابدة معلمة هادية ناجحة ، جعل الله حديث أختك العفيفة الطاهرة الزكية ، حديثا يحدث به سيد الأنبياء ﷺ ، ويتحدث به من بعده ويروى في مجالس المحدثين والعلماء ، ويتحدث به الآباء للأبناء ، فيكون قبسا ونورا لهداية التائهين والتائهات وبصيرة ناطقة معلمة للجاهلين والجاهلات .

ومن يتق الله يجعل له مخرجا :

وأنت أيها الرجل المؤمن الغافل الطياش ، والهائم في وادي الشهوات والنزوات ، ما أقربك من الله تعالى إذا تَبَهَّتْ إلى إيمانك بالله في تلك

اللحظات ، وتعاملت مع قلبك وربك بترك الشهوات ، فوالله لرجوع الرجل عن الريبة والحرام أوزن عند الله تعالى من كثير من الأعمال المطلوبة الصالحة ، وأحلى عاقبة من الوصول إلى ذلك المنال .

نعم رجوعك أيها الرجل المؤمن عن الريبة والحرام وهو لك ميسور ، سيفتح الله لك به بابا من أبواب الفرج وأنت مهموم مكروب معسور ، فقد قال شيخ التربية والمربين الشيخ ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى في حكمه العطائية : (جل ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه نسيئة) .

فاستبشر أيها العبد المؤمن الخطأ فإن العمل الصالح الذي تعمله والطاعة الطيبة التي تقدمها لله تعالى ، سيجازيك الله تعالى عليها في أشد ما تكون احتياجا إليها في ساعة العسرة : حين تنقطع الآمال وتفقد الحيل والأعمال ، فيظل عليك فرج الله ، فما أقربك عندها من الله ، وما أرحم الله بك في تلك الساعة الرهيبة العصيبة ، هذا أثر من أثر العمل الصالح مع الله ، فلا تبخل على نفسك به ، فإنه الذخيرة الحاضرة والمغيث السريع .

يا أهل المال اتقوا الله في إخوانكم :

وأنت أيها الأخ الغني الثري الذي أنعم الله عليك بالسعة والمال ، كن أمينا رفيقا بأخيك العامل والأجير والفقير ، فبأمانتك على جهده ، وبرعايتك لحقوقه ومراقبة الله تعالى فيها ، تملك منه قلبه ولبه ، وتكسب بذلك رضوان الله تعالى فيكون أخوا لك لا عدوا عليك ، ويبارك الله لك بمالك ، وينجيك من الشدائد والأهوال التي يقع فيها الظالمون ، فالله الله في أخيك الفقير ، ونصيرك الأجير ، ولك من الله العون الكبير .

التوبة مفتاح للخيرات وتفريج الكربات:

هذا، ويستخلص من قصة أصحاب الغار الثلاثة الأخيار، الذين نزلت بهم المصيبة المميتة ثم انقشعت عنهم بفضل توسلهم إلى الله بصالح أعمالهم، يؤخذ من حديثهم هذا: أن الشدائد والكروب التي تنزل بالأمة، فتأخذ منها بالأنفاس والتلابيب، وتحز فيها الغلاصم والقلوب، وتيس من زوالها وانقشاعها النفوس والأرواح، أنها من الممكن أن تزول إذا عولجت بالطاعات والعبادات، وترك الذنوب والمنكرات، والاستكثار من الأعمال الصالحات، فإن الأعمال الصالحة تدفع البلاء، وترد القضاء. وما صلاة الاستسقاء في الإسلام إلا رمز وتعليم للناس أن القحط الماحق، والجفاف الساحق يعالج بزيادة صلاة سادسة للاستسقاء، وصيام أيام قبلها، وصدقات معها، وجوار ودعاء إلى الله عندها، فما هي إلا لمحة وسحابات الغيث تجيء.

يمر السحاب على بلدة بماء معين من المعصرات
يريد النزول فلا يستطيع لما حل فيها من المنكرات

فيا أيها الناس إننا في شدائد يأخذ بعضها برقاب بعض، والله لا ينجينا منها إلا التوبة الصادقة والأعمال الصالحة، والتوجه إلى الله، فما هي إلا زائلة كأن لم تكن بالأمس، فالبدار البدار إلى الطاعات والعبادات، وترك الذنوب والمنكرات.

المحاضرة الحادية والتسعون بعد المائة

نقض المنهج الإرهابي

موضوع الدرس:

إن الدرس يدور حول ظاهرة عمت بها البلوى، وعانت منها كل البلاد والعباد، وحارت فيها الأفهام، وزلت فيها الأقدام، وتنازرت فيها الأقاليم، وينبغي أن تتكاتف الجهود الفكرية والعلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية بغية استئصال جذورها الفكرية، ومعالجة أسبابها الآنية والمستقبلية.

أهمية الموضوع:

إن هذه الظاهرة - ظاهرة الإرهاب - تعدُّ ظاهرةً معقّدة ومقلقة ذلك لأنَّ المتورطين فيها فتيةٌ في ريعان الشباب، وهم فلذات الأكباد، وثرورات الأمم والشعوب، وآمال الغد المشرق، وهم من أبناء جلدتنا، والأدهي والأمر في شأن هذه الظاهرة، أن لأولئك الصبية المفتونين مقولات مغلوطة ومقلوبة يبرأ منها العلم والمنطق والحكمة والعدل والإنصاف، ولا يطيقها ذوق ولا خلق ولا سجية، ولا يحتاج المرء إلى كبير جهد للكشف عن زيف تلك المقولات المنبثقة عن عجز فكري، وضعف معرفي، بل إن أدنى نظرة في تلك المقولات تنبئكم أنَّ وراءها عيًّا فكريًّا، وقصورًا ذهنيًّا، وفقرًا علميًّا، ويأسًا منهجيًّا، مما جعل النظرة السطحيّة مُستحكمة فيها، والتأويلات المتسرعة مُتأصلة في جذورها!

لئن كانت مقولات القوم على قدر شديد من الوهن الفكري والضعف العلمي ، فإنَّ ذلك لن يثنيّا - بأي حال من الأحوال - عن القيام بواجب النصح الذي أمر به الله ورسوله ، ونقض الأساس المرجعي ، والمنطلق الفكري الذي تحوم حوله تلکم المقولات ، ويُسْتَنْدُ إليها لتبرير تلکم الأفعال الخاطئة ، ونشر الآفات المدمّرة ، حتى إذا ما انهار ذلك الأساس ، كان ذلك إيذاناً بانھیار سائر المقولات المتفرعة عنه ، وانھیار جملة التصرفات والسلوكيات ، وعندئذ تاب أكابرُ القوم وأتباعُهم إلى رشدهم ، وتابوا توبة فكريةً عقديّةً ، وتبرءوا من كل تطرف وتزمت وغلو وتحريف وانحراف إن شاء الله !

وقفات هادئة مع حجج هؤلاء وأدلتهم :

إن هذا الدرس يتمحورُ حول وقفات هادئة عند الركن الركين لمقولات القوم ، والأساس المتين الذي يعتصمون به لبثّ الدمار والشنار في الأرجاء ، ومما يرثى له أن آية مباركةً من آي الذكر الحكيم التي أنزلها الخالق الرؤوف الرحيم على قلب النبي الكريم هي التي يلوذون بها ، ويتخذونها أساساً لجميع مقولاتهم ، إنَّها قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] فلئن كان حظ كثير من أي كتاب الله العظيم أن تعيش - عبر التاريخ - غربة مفتعلة بين قاصري النظر وسوء فهم مرير لمراميها ومقاصدها وأحكامها على أيدي المبطلين بهذه الآفة فإن حظ هذه الآية الكريمة من سوء الفهم وسوء التنزيل أكبر وأشد من أية آية أخرى في كتاب الله في العصر الراهن .

لقد لثبت حيناً من الزمن وأنا أقرأ هذه الآية المباركة وأتبع القراءة بالأخرى عساي أن أعثر على شيء من التأويل الذي اهتدت إليه هذه الطائفة المبتلاة من أبناء الأمة ، فلم أظفر حتى هذه اللحظة عند عالم من علماء التفسير والحديث والأصول واللغة والفقه والمقاصد عبر تاريخنا المجيد توظيفاً لهذه الآية العظيمة لما توظف له اليوم لتبرير سفك الدماء المعصومة وهتك الأعراض المصونة ، ونقض العهود المبرمة ، وزرع الرعب والفرع في النفوس الآمنة ، وتدمير البنى التحتية والفوقية للأمم والشعوب ظلماً وعدواناً .

غايتنا من هذه الوقفات :

إن هول هذه الفعلية ، وعظم المصيبة ، وبشاعة الجرائم التي ترتكب باسم هذه الآية الكريمة وغيرها من آي الذكر الحكيم يدفعنا دفعا إلى أن نقف وقفات متأنية رصينة عند مقاصد هذه الآية و مراميها ، لنصل من خلال تلکم الوقفات إلى معالجة علمية منهجية موضوعية شاملة تضم بين جنباتها بيانات دامغة وقاطعة دابر التأويلات الجائرة التي تورط فيها القوم على حين غفلة ، فتسببوا في تشويه صورة الإسلام الناصعة وصورة الإنسان المسلم أينما حل وارتحل في جميع الأرجاء ، وغايتنا من هذه الوقفات الهادئة أن تؤدي إلى إزالة ما ران على قلوب القوم من حيف وزيف في الفهم وغبش في الرؤية وغبن في الحكم ، وأملنا في هذه المعالجة نشر رسالة السلام والإسلام والأمان إلى العالم أجمع ، وتعميق روح الحوار الحضاري والتواصل الحكيم مع مختلف الشعوب والأمم بعيداً عن جميع أشكال التطرف والتزمت والغلو والتسيب .

نتأمل بهذه الوقفات المنهجية الموضوعية مع مقاصد هذه الآية ومغزاها :

الوقفه الأولى: سبب نزول الخطاب القرآني

أهمية سبب النزول لفهم الآية:

ليس بخاف على أحد من أهل العلم والمعرفة أن معرفة سبب التنزيل لازمة لمن أراد فهم مقاصد ومعاني الآيات ، فعلم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن ومعرفة مقاصد الكلام ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب ، من جهة نفس الخطاب ، والمخاطب ، والمخاطب ؛ فالكلام الواحد - كما يقول الإمام الشاطبي - يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك . . . وليس كل حال يُنقل ، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملةً ، أو فهم شيء منه ، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط ، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد ، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال . . والجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات ، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وقوع النزاع . . انتهى .

الآية نزلت بعد غزوة بدر:

إنه لا مرية عند أحد من أهل العلم بسيرة المصطفى ، وبإجماع أهل التفسير والتأويل أن هذه الآية المباركة نزلت بعد غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها الحق على الباطل ، والعدل على الظلم ، والنور على الظلام .

بعض المشاهد من الغزوة المباركة:

يحدثنا القرآن الكريم بأن المدد السهاويّ أسعف المسلمين في تلك المعركة التاريخية الفاصلة ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١٢٣] إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿ ١٢٤ ﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿ ١٢٥ ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ ١٢٦ ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦]

كما كان ثم دور جلي للقوة الإيمانية الراسخة التي كانت تملأ جوانح الصحب الكرام، وتفيض بها صدورهم، وأما القوة المادية المتمثلة في الآلات والأسلحة الحربية، فإنها لم تكن متكافئة في تلك المعركة، ولذلك لابد من تنبيه ولي أمر المسلمين على أن القوة الإيمانية وحدها لا يمكن لها أن تقيم للأمة الإسلامية دولة، ولا يمكن لها أن تحفظ لهم عزة أو كرامة، ولذلك فقد أمر الباري جل جلاله رسوله ﷺ أن يمكن الأمة قدر الاستطاعة من جميع القوى التي من شأنها حماية بيضتهم من الاعتداء، وكرامتهم من الامتهان، وعزتهم من الاستخفاف والإسفاف، لأنه لا تحقيق لهذه الحماية ما لم تكن للأمة قوة روحية، وقوة علمية، وقوة اقتصادية، وقوة فكرية، وقوة سياسية، وقوة عسكرية، فهذه القوى بمجموعها هي التي تحمي الأمم وهي التي تصون الأعراض وهي التي تحفظ الأنفس، بل هي التي تحقق العزة والكرامة والأمن والاستقرار للبلاد والعباد.

سبب نزول الآية الكريمة:

إن السبب الكامن وراء نزول هذه الآية الكريمة هو حث ولي أمر المسلمين - عليه أفضل صلوات ربي وأتم التسليم - على إعداد تلك القوى للدفاع عن الحمى، ورد العدوان، والتصدي للخائنين الذين يخونون العهد، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، ولم تنزل الآية لدعوة الأمة الإسلامية أفراداً أو جماعات أو تنظيمات إلى مهاجمة المسلمين وغير المسلمين، كما أنها لم تنزل لتحث الأمة على الاعتداء على الآخرين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

الآية ليست دليلاً بحال على شرعية الإرهاب:

ليس من حصيف الرأي ولا من سديد القول الاستناد إلى تلك الآية لإضفاء صبغة شرعية على تفجير، أو انتحار، أو انقتال أو قتل أو تقتيل أو تدمير أو اختطاف، أو سوى ذلك من الممارسات الخاطئة الآثمة المخالفة للعقل والنقل معا، فالآية الكريمة حسب سبب نزولها بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب من كل الجرائم والأفعال الشنيعة التي ترتكب باسمها زورا وبهتانا فهي لا تدعو لا أصالة ولا تبعا إلى أي معنى من المعاني التي أثقلتها وحملتها إياها تلكم الفئة المبتلاة.

الوقف الثانية: تكامل الآيات وتربطها

اعتبار السباق والسياق واللاحق في فهم الآية:

إنَّ من نافلة القول أن آيات الذكر الحكيم تتكامل ، ولا تتنافر ، وتتواصل ولا تتقاطع ، ولا يمكن فهم آية كريمة فهماً سديداً دون فهم سباقها وسياقها . لأن الآية تمثل عقداً ذا حلقات متسلسلة مترابطة ، ولا يمكن للعقد أن يكون عقداً إذا اختلت فيه حلقة ، فالسباقات والسياقات واللواحق تمثل الحلقات التي تتكامل للحفاظ على العقد ، ورحم الله الإمام الشاطبي عندما قرر ذات يوم بأن القضية وإن اشتملت على جمل ، فبعضها متعلق ببعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد ، فلا يحصى للمتفهم عن ردِّ آخر الكلام على أوَّله ، وأوَّله على آخره ، وإذ ذلك يحصل مقصودُ الشارع في فهم المكلف ، فإن فرقَ النظر في أجزائه ، فلا يتوصل به إلى مراده ، فلا يصحُّ الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض .

الآيات السابقة للآية:

إن الآيات الخمس التي قبل آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] يقول فيها ربنا جل جلاله : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأُنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٩] .

الآيات اللاحقة للآية :

وأما الآيات الخمس التي بعدها فهي : قوله جل ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنفال: ٦١-٦٥] .

بعض معاني الآيات السابقة :

إن فهم آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ فيها سديدا لا تمام له إذا لم يتم ربطها بالآيات التي قبلها والآيات التي بعدها، فالآيات التي قبلها تناولت كيفية مواجهة الخيانة الظاهرة للعهد الذي كان بين المسلمين وغيرهم، كما تناولت سبل الحيلولة دون الخيانة الباطنة، فبالنسبة للخيانة الأولى، فقد أمر الباري جل جلاله رسوله الكريم بالتنكيل بالخائنين الخائضين مع غيرهم في قتال المسلمين ﴿فَأَمَّا تَثَقَفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ وأما الخيانة الباطنة المتمثلة في الغدر المتوقع من المعاهدين فقد أمر الباري ولي أمر المسلمين بنذ العهد وطرحه ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ ولبشاعة الخيانة وفضاعتها، نهى الباري جل جلاله رسوله الحبيب عن الخيانة، فالله بريء من الخيانة والخونة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ .

بعض معاني الآيات اللاحقة :

أما الآيات التي أتت بعد آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ فإنها دعوة للمصطفى ﷺ بضرورة الجنوح إلى السلم في حالة جنوح القوم لها ، ذلك لأن السلم هي الأصل في العلاقات بين البشر ، والحرب استثناء وضرورة لا يلجأ إليها إلا للدفاع أو رد العدوان ، وبطبيعة الحال ، لا يعني الجنوح للسلم استسلاما أو انسحابا أو هزيمة ، ولكنه استراتيجية يقصد منها اغتنام الفرص والإمكانات من أجل إعادة بناء القوى الاجتماعية المتمثلة في تعميق روابط التواصل والتعاون بين أفراد الأمة الإسلامية ، والعمل على إعداد القوى الفكرية والسياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية للدفاع عن نفسها ضد الاعتداءات والابتلاءات التي تحملها الأيام القادمة ويوم يقع عدوان على الأمة فإن على ولي الأمر المسلمين حث الأمة الإسلامية التي تكون جاهزة فكريا واجتماعيا وسياسيا وأمنيا واقتصاديا على الدفاع عن نفسها ، ورد العدوان وكف الأذى .

ما ترشد إليه الآية في ضوء سباقها ولحاقها :

إن نظرة متمعنة في سباقات الآيات وسياقاتها تهدينا إلى إيمان كامل بأنها توجيهات ربانية خالدة تتضمن بيانا بليغا لاستراتيجيات التعامل مع المعتدين في حالي السلم والحرب ، كما تتوافر على توجيه كريم للنبي العظيم ﷺ بوصفه الإمام الأعظم والقائد الملهم الذي كان يدرك بعمق واقتدار أهمية إعداد القوة الضرورية التي تحقق للأمة الإسلامية ما يعرف اليوم في لغة العصر بالتوازن السلمي ، فإن هذه الآيات المباركات بسباقاتها

وسياقاتها لتتضمن أمراً إلهياً سامياً متمثلاً في دعوة كافة الأفراد والجماعات والتنظيمات داخل الدولة الإسلامية إلى وجوب الانصياع وطاعة ولي أمر المسلمين في جميع المسائل العامة وخاصة المسألة الأمنية ، ذلك لأنه ليس في مقدور فرد أو جماعة أو تنظيم أنى كانت إمكاناته حماية البيضة ، وحفظ الأنفس والأموال ، وصون الأعراض والعقول ، والارتقاء بالأمة ، فالأفراد والجماعات والتنظيمات والتجمعات أنى كانت توجهاتها واتجاهاتها وغاياتها ومقاصدها تبع في المسألة الأمنية والمسائل العامة لولي أمر المسلمين الذي كلفه الله بالقيام بواجب حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

قتال المعاهد غدر وخيانة :

إن هذه الآيات الكريمات ومثيلاتها في الذكر العظيم تأكيد وتقرير بمنطوقها ومفهومها بأنه لا يجوز لأحد كائناً من كان قتال المعاهدين والمستأمنين قبل أن يطرح الإمام ولي أمر المسلمين عهدهم وأمانهم ، فقتلهم قبل نبد العهد يعدُّ غدراً وخيانة ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] ، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥] كما يعدُّ ذلك افتتاتاً على الإمام الذي خصه الله بهذه المهمة .

إنه حريٌّ بالناشئة أن يدركوا ويفهموا أن آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ حجة عليهم لا لهم ، فكلها تحريمٌ بعبارتها وإشارتها ودلالاتها لخيانة العهد والاعتداء على المعاهدين والمستأمنين ما دام العهد قائماً بينهم وبين ولي الأمر . وقد قال المصطفى ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» كما قال خليفة رسول الله وصاحبه في الغار ، أبو بكر

الصديق عليه السلام «إني موصيك بخصال : لا تغدر ، ولا تُمَثِّل ، ولا تقتل هرما ، ولا امرأة ، ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تُحَرِّبن عامرا . . .»^(١) .

الاعتداء على المسلم أشد خيانة وغدرًا :

إن أي اعتداء مادي أو معنوي على المعاهدين والمستأمنين سواء أكانوا في الدول الإسلامية أم كانوا في الدول الصديقة يعد خيانة للعهد ، كما يعد كبيرة من الكبائر التي ورد النهي الصريح عنها في ثنايا الكتاب والسنة الطاهرة ، وتزداد هذه الخيانة فظاعة عندما يقع ذلك الاعتداء في الدول الإسلامية ، لما يفضي إليه من الغدر والاعتداء على الإخوة في الملة والعقيدة ، وسفك الدماء المعصومة ، وهتك الأعراض المصونة التي حرمها الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] . وفي الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن : «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم» ، وفي حديث آخر : «لا يزال المسلم في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما»^(٢) .



(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩ / ٩٠) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢ / ٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر عليه السلام .

الوقفه الثالثة: المخاطبون بهذه الآية الكريمة

من صفات الرسول الكريم:

لقد كان لرسول الله ﷺ صفاتٌ عديدة ، فقد كان النبي الملهم والرسول الأعظم وكان الإمام الأعدل ، والقائد الأعلى ، وكان القاضي الأحكم ، والزوج الأرحم الودود ، والأب الرؤوف الرحيم ، والجد الحنون ، بل كان الجار العزيز ، والصديق الوفي .

لا يجوز الخلط بين تصرفاته ﷺ:

لكل من هذه الصفات خصائص تشريعية لا يجوز الخلط بينها ، فتصرفه ﷺ بصفة النبوة يختلف عن تصرفه بصفة الإمامة والقيادة ، وتصرفه بصفة القضاء يختلف عن تصرفه بصفة الإفتاء . . وقد نبّه الإمام القرافي إلى هذا الأمر فقال : «فاعلم أن تصرفه ﷺ ينقسم إلى أربعة أقسام : قسمٌ اتفق العلماء على أنه تصرف بالإمامة ، كإقامة الحدود وتجهيز الجيوش ، وإرسال الجيوش ، وترتيب أموال بيت المال . . وقسمٌ اتفق العلماء على أنه تصرف بالقضاء ، كإلزام أداء الديون ، وفسخ الأنكحة . وقسمٌ اتفق العلماء على أنه تصرف منه ﷺ من باب الفتيا ، وقسمٌ وقع منه ﷺ متردداً بين هذه الأقسام . . وما فعله رسول الله ﷺ بطريقة الإمامة كقسمة الغنائم ، وتفريق أموال بيت المال على المصالح ، وإقامة الحدود وتدوين الدواوين وترتيب الجيوش وتدوين الديون ، وقتال البغاة ، ونحو ذلك لا يجوز لأحد الإقدام عليه إلا بإذن إمام الوقت الحاضر ، لأن الرسول ﷺ فعله من موقع الإمامة ، وما استباح إلا بإذنه . . ويقول شيخ الأزهر الأسبق الشيخ

محمود شلتوت رَحِمَهُ اللهُ : ما يصدر عنه رَحِمَهُ اللهُ بوصف الإمامة والرئاسة العامة لجماعة المسلمين : كبعث الجيوش للقتال ، وصرف أموال بيت المال في جهاتها ، وجمعها من محلها ، وتولية القضاة والولاة ، وقسمة الغنائم ، وعقد المعاهدات ، وغير ذلك مما هو شأن الإمامة والتدبير العام لمصلحة الجماعة . وحكم هذا أنه ليس تشريعا عاما ، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام وليس لأحد أن يفعل شيئا منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبي رَحِمَهُ اللهُ فعله .

الخطاب في الآية موجه إلى الرسول رَحِمَهُ اللهُ :

إن إمعان النظر في آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ في سباقاتها وسياقاتها يفيد أن الخطاب فيها موجه إلى الرسول رَحِمَهُ اللهُ بوصفه إماما وقائدا أعلى للقوات المسلحة ، وقد تضمنت الآيات قرائن قطعية تؤكد هذا الأمر ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ﴾ [الأنفال: ٥٦] أنت يا محمد ﴿مِنْهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَأِمَّا يَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] ، وقوله : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ [الأنفال: ٥٩] ، وقوله : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] ، وقوله ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢] ، وقوله : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

فهذه القرائن تنضاف إلى قرائن الحال القطعية المتمثلة في شهادة التاريخ التي تؤكد بأن إعلان الجهاد ، والدعوة إليه ، وتجهيز الجيوش ، وإقامة الحدود ، وإعطاء الأمان العام ، لم يكن كل أولئك في يوم من الأيام مهامها موكولة إلى الأفراد أو الجماعات أو التنظيمات ، بل إنها مهام خصَّ الله بها نبيه بوصفه إماما وقائدا أعلى .

الهدف من اختصاص الإمام بمهام خاصة:

لعل المقصد الإلهي الأجل والأسمى من اختصاص الإمام بهذه المهام يكمن في أنها مهام لا يمكن للأفراد ولا للجماعات أو التنظيمات القيام بها، لأنها تفوق إمكانياتهم وتفوق قدراتهم، ولأن قيام بعض الأفراد بهذه المهام دون بعضهم مدعاة إلى الاضطراب والفوضى والتقاتل والتنازع، والثأرات التي لا نهاية لها.. والتاريخ خير شاهد على أن الأمم التي تصدت فيها الأفراد والجماعات والتنظيمات لهذه المهام كان حظها أن تعيش في حروب أهلية طاحنة، وأن ينفلت فيها الأمن والاستقرار، ويباد فيها الحرث والنسل.. وبناء على هذا، فإن المشرع عندما أوكل إلى الإمام القيام بهذه المهام كان إدراكا لما يتوفر عليه الإمام من قدرة وأجهزة وإمكانات عسكرية وسياسية واستطلاعية تؤهله لتقييم الوضع الداخلي والخارجي للأمة، وتقرير ما يراه صالحا في مرحلة من المراحل.

فهم الصحابة رضي الله عنهم لأسباب الخصوصية:

قد أدرك الصحب الكرام رضي الله عنهم اختصاص النبي بهذه المهام بوصفه إماما وقائدا، ولم يؤثر عنهم قط خروج أو افتئات عليه صلى الله عليه وسلم في هذه المهام.

تجلي هذا الفهم في صلح الحديبية:

إن إيمانهم بهذا الاختصاص تجلّى في موقفهم من صلح الحديبية، فلقد أدرك المصطفى صلى الله عليه وسلم بنظره المسدد المؤيد أن الصلح عامئذ كان أفضل من المواجهة، وأن السلم أوفر من الحرب فدرء المفاصد في شرعنا مقدم على جلب المصالح كما أدرك صلى الله عليه وسلم بما توافر عليه من دراية فذة واستراتيجية عميقة أن التريث والأناة في غاية من الأهمية في تلك المرحلة، فكل يوم

كان يمضي كان يسجل نصرا معنويا للأمة الإسلامية في ذلك الصلح ، ذلك لأن قوى الظلم والاستبداد كانت في تفكك مستمر ، وقد سئم الناس منها ، ويرجون خلاصا منها . حتى إذا ما أقبل العام الثامن من الهجرة انهارت تلك القوى انهيارا تاما ، ودخل المصطفى ﷺ مكة المكرمة دون إراقة دم أو مقاومة دموية . بالنظر في هذا الصلح نجد أن الصحب الكرام - على الرغم من عدم رضا أكثرهم بالقرار النبوي تقديم الصلح على المواجهة وعلى الرغم من تدمير كثير منهم من بعض البنود المجحفة في ذلك الصلح إلا أنهم - رضوان الله عليهم - لم يخرجوا على المصطفى ، ولم يعلنوا انشقاقا عن الجماعة الإسلامية ، بل إنهم - وحاشاهم - لم يتهموه ﷺ بعمالة أو عطالة ، أو تراجع ، بل نزلوا عند رأيه ﷺ والتزموا العهد الذي أبرمه ولم ينبذوه .

أجل ، لقد كان من الممكن أن يزعم زاعم حينئذ بأن الرسول ﷺ عازف عن الجهاد ، ومستسلم للأعداء ، وبالتالي كان بإمكانهم - والعياذ بالله - أن يشكلوا خلايا تخريبية ، ويخرجوا على أمره ﷺ بيد أنهم كانوا يدركون أن إعلان الجهاد وأن المسألة الأمنية وتجهيز الجيوش وإقامة الحدود ، وتدوين الدواوين كل ذلك من اختصاصات الإمام ، لا يجوز للأفراد أو الجماعات أو التنظيمات اغتصابها والقيام بها دون إذن الإمام ، وبدون تفويض منه . . !

دعوة إلى أخذ العلم من منابعه الصافية :

إن اعتصام الفئة المبتلاة بآية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ ، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٍ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ لا يعدو أن يكون اعتداء صارخا على المقررات

اليقينية القطعية التي لم يؤثر في شأنها خلاف لدئ أحد من أهل العلم بالأصول والتفسير والتأويل والمقاصد، كما لا يعدو أن يكون ذلك خروجاً سافراً على منهاج النبوة، ومنهج السلف الصالح، وليس ثمَّ عالم معتبر في تاريخنا الإسلامي عدَّ هذه الآيات المباركات تشريعاً عاماً لكل من هب ودب، وبالتالي، فإنَّ توظيفها اليوم لتبرير تلك الأعمال النكراء والممارسات المشينة خروجٌ على ما أجمعت عليه الأمة من لدن الرسول ﷺ، فإنَّ الحكمة والمنطق والعقل والنقل كل أولئك يدعو الفئة المفتونة إلى توبة فكرية عاجلة، وعودة صادقة مخلصنة إلى منابع العلم ومصادره، بغية النهل من معين العلم الصافي، بعيداً عن جميع أشكال التزمت والتطرف والشطط والغلو في الفكر والسلوك والتصرف.

الوقف الرابع: محل الخطاب

أركان الخطاب الشرعي في الآية الكريمة:

يتفق أهل العلم بالأصول بأن لكل خطاب شرعي أربعة أركان، وهذه الأركان تتمثل في وجود حاكم، ومحكوم عليه، ومحكوم فيه، ومحكوم به، ومرادهم بالحاكم هو الله جل جلاله في كتابه وسنة نبيه ﷺ، ومرادهم بالمحكوم عليه هو المخاطب بهذا الخطاب، ومرادهم بالمحكوم فيه هو الجهة والمحل التي ينزل فيها الخطاب، والمحكوم به هو فعل المكلف القيام به إذا كان الحاكم في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ هو الله جل جلاله وكان المحكوم عليه المخاطب هو النبي ﷺ بوصفه إماماً، وقائداً للقوات المسلحة وكان المحكوم به - المأمور به - إعداد جميع أشكال القوى الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية لصد الخيانات الظاهرة والباطنة، وأما المحكوم فيه في هذه الآية المباركة أي محل الخطاب هم المعاهدون الذين خانوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين خانوا خيانة ظاهرة، وذلك بانضمامهم إلى جحافل الظلم، وقد وصفهم الباري بشرّ الدوابّ، كما أن محل الخطاب في هذه الآية المباركة أولئك المعاهدين الذين استبطنوا خيانة وهموا بمعاونة المعتدين الظالمين وقد أمر الباري جل جلاله النبي الأعظم بمعاملة هؤلاء بنقيض طويبتهم ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي اطحر إليهم عهدهم وتبرأ منهم.

فهذه الآية بسياقها وسباقاتها لا تتوجه - بأي حال من الأحوال - بدعوة الأفراد والجماعات والتنظيمات إلى إعداد القوى لإرهاب المسلمين أو

المعاهدين في عقر ديارهم ، كما لا تدعو من قريب أو من بعيد إلى زرع الخوف والرعب في النفوس الآمنة بأمان الدين أو العهد ، وذلك بدعوى إقامة شرع الله ، أو تطبيق حدوده زورا وبهتانا .

توظيف الآية في معنى الإرهاب المعاصر خطأ ظاهر:

إن توظيف هذه الآية الكريمة لإضفاء الصبغة الشرعية على الممارسات الشاذة المخالفة للعقل والنقل سواء داخل الدول الإسلامية ، أو الدول الصديقة يعد ذلك ليا لأعناق النصوص ، وتنزيلا لها في غير ما أنزلت فيها ، ومصادرة مكشوفة آثمة لما أجمعت عليه الأمة من لدن المصطفى ﷺ ، ولهذا فإنه حري بالشبيبة المفتونة المبتلاة الذين غدر بهم ذوو الأفهام التخريبية ، والنفوس المريضة ، أن يعودوا إلى رشدهم ، وأن يتبرءوا من أشباه المتعلمين ، وأن ينبذوا العنف والغلو والتزمت ، والتطرف ، فما أحوجهم إلى التعلم والتشبع بسيرة المصطفى ﷺ .

الوقفه الخامسة

حقيقة ما تدعو إليه الآية الكريمة :

إن المحكوم به في تلكم الآية المباركة هو الإعداد الشامل لجميع أشكال القوى وصنوفها المتاحة للتصدي لعدوان المعتدين ، وطمع الطامعين ، فإن التأمل في هذا الأمر الإلهي السامي ، نجده أمرا بالإعداد لا أمرا بقتال أو انقتال أو تفجير أو اعتداء أو تدمير ، وبالرجوع إلى معاجم اللغة وفقه اللغة نجد أن الإعداد في اللغة والاصطلاح يعني اتخاذ الشيء لوقت الحاجة ، ولم يقل معجم أو قاموس قط بأن المراد به التفجير أو القتل أو انقتال أو التدمير أو التفجير أو سوى ذلك من المعاني التي أثقلت بها الفئة الباغية كاهل مصطلح الإعداد ، وهي معاني بعيدة لا تقرها لغة ولا يعترف بها نقل ولا عقل ولا منطق ، وبتعبير آخر لم يعن الإعداد في يوم من الأيام أمرا بقتال أو انقتال أو قتلا أو تفجيرا أو تدميرا . ولهذا فإن اعتبار الدعوة إلى الإعداد في تلكم الآية المباركة دعوة إلى تلك الأعمال الخاطئة وخروج على ما تواضع عليه جميع أهل العلم باللغة والبلاغة والبيان والأصول ، لأنه لا ترادف بين مصطلح الإعداد وبين مصطلحات التفجير والتدمير والتقتيل والانقتال ، ولم يقل أحد قط من علماء اللغة والتفسير والأصول بأن ثَمَّ رحما بين مصطلح الإعداد وهذه المصطلحات الثقيلة . على أن إعداد القوى الفكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية المأمور بها في هذه الآية المباركة لم يرد بها استخدامها في الاعتداء على المسلمين أو غير المسلمين ، بل إنها قوة كانت وينبغي أن تكون للدفاع لا للهجوم ، للبناء لا للهدم ، للترقي لا للانحطاط ، للتواصل لا للتنازع .

الوقفه الأخيرة

معنى القوة المأمور بإعدادها:

إننا نخلص إلى تقرير القول بأن القوة التي أمر الله ولي أمر المسلمين بإعدادها لمواجهة خيانات الأعداء ما كانت لها لأن تنحصر ذات يوم في القوة العسكرية، على الرغم مما لتلك القوة من أهمية وضرورة لحماية البيضة، فالأمة الإسلامية بحاجة إلى أن تكون لها قوة فكرية تحاور بها القوى الفكرية العالمية المنافسة لها في العالم، كما لابد لها من قوة علمية متقدمة تجعلها أمة منتجة لا أمة مستهلكة، وقوة سياسية تمكنها من احترام الشعوب والأمم لها دبلوماسيتها ونظراتها ورؤاها الثاقبة العادلة الدقيقة، ولا بد لها فوق كل ذلك من قوة اقتصادية تحفظ لها ماء وجهها، وتوفر لها قوتها، فتمتلك بذلك قرارها واستقلالها، وحماية لهذه القوى، لابد لها من قوة عسكرية تكون بالمرصاد لمن هم بالاعتداء عليها، والنيل منها أو من كرامتها، أو من حدودها وممتلكاتها.

إن هذه القوى بمجموعها هي التي يتم من خلالها إرهاب العدو والخائنين الطامعين في النيل من الأمة ظلماً وعدواناً، وليس من الوارد في شيء بشهادة التاريخ وبشهادة المنصفين والمحققين وأصحاب الثَّهْي كَمَا أسلفنا القول بأن يحقق فرد أو جماعة أو تنظيم أو اتجاهات لعموم الأمة أيّاً من هذه القوى، بل لابد من دولة تخطط لكل واحدة منها، وترصد لها ميزانيتها، وترسم لها الخطوط العريضة والسياسات العامة القائمة على الرؤى الثابتة الواضحة.

أعمال العنف والإرهاب مجازفة بسمعة الإسلام وأهله :

إن مجازفة الفئة المفتونة التي لم تتوافر على أي من القوى المشار إليها بمستقبل أمور الأمة ، وبسمعة الإسلام والمسلمين ، وذلك بخروجها على ولاة أمرها ، واعتدائها على أبناء جلدتها ، وعلى المعاهدين الذين بينهم وبين ولي أمر المسلمين عهد ، لا تفسير لهذه المجازفة سوى الفكر الأجوف والأجرب ، والفهم الأعوج المقلوب لتعاليم الإسلام ومقاصد الكتاب والسنة النبوية الطاهرة ، كما لا تفسير لتلك المجازفة سوى أن تكون نابعة عن نزعة عدوانية شريرة تعمي البصيرة ، وتغيب الوعي ، وتدفع صاحبها إلى ارتكاب كل المحرمات من أجل تحقيق الأطماع الدنيوية الفانية ؛ وإن تعسفهم واعتسافهم في تأويل أي الذكر الحكيم ولي المراد منها دليل واضح على مرض القلوب والعقول !

ما يرجى من الفئة المخدوعة :

إن المأمول أن تثوب هذه الفئة المخدوعة إلى رشدها ، وأن تتبرأ من كل التأويلات المتوترة ، وبدلاً من تكفير قومها ، وتفجير نفسها ، وتدمير ممتلكات أمتها ، وزعزعة أمنها واستقرارها ، بدلاً من ذلك كله فإن عليها أن تكون عوناً للأمة ولولي أمرها على التمكن من القوى التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية في المرحلة الراهنة من تاريخها العصيب ، فليس ثمة جهاد اليوم أشرف لها لهؤلاء الفتية من ذلك الجهاد الذي يتحقق به الحفاظ على وحدة الأمة ، ولم شملها ، وتحقيق الأمن والاستقرار لها ، وتمكين الأمة في الأرض من القوى الفكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية . . ولا تحقيق لهذا كله إذا ظلت الشبهة ضحية الأفكار التائهة الضيقة ، وحبسة العقول المتحجرة المتصلبة التي تدفعها إلى مرامي هذه الأفعال

الشيعة وتدفعها إلى الاعتقاد بأنها تعيش وحدها في هذا العالم ، فلا تأبه بمقاصد المشرّع ولا بمآلات الأفعال ، وتلك كلها آفات نبرأ إلى الله منها ، ونضرع إليه - جل جلاله - أن يحمي منها البلاد والعباد .

الأمل في الله كبير:

تلکم وقفات هادئة مع أساس مقولات الإرهاب ، وأملنا في الله أن تسهم هذه الوقفات في تصحيح المفاهيم ، وإزالة الغبش ، وعودة شباب الأمة إلى رشدها ، واستشعارها المسؤوليات الجسام ، والتحديات المتفاقمة التي تواجه الأمة في هذه المرحلة العويصة التي تمر فيها أمتنا بمنعطفات خطيرة ، وهي على مفترق الطرق ، وتتطلب من جميع أفراد الأمة رجالا ونساءً ، شبانا وشيبا ، التفافا صادقا حول ولادة الأمر ، ونبذا لجميع أشكال التطرف والغلو والتزمت ، وإيماننا مشتركا لدى جميع شرائح المجتمع برفض العنف والقتل والانقتال والتفجير والترويع والتدمير والاعتداء على الأنفس والأعراض والممتلكات ، كما تتطلب المرحلة إحساسا من لدن قادة الفكر والعلم والمعرفة بمسؤولية تقديم النصح الصادق المخلص والمشورة النافعة المنصفة للراعي والرعية في لغة نبوة رشيدة رشيقة ، تراعي فيها المقامات .. ويتباعد فيها عن الاتهامات .. وإن الأمل معقود في أن تنكشف الغمّة ، وتزول الظلمة ، وتحقق القوة والعزة والكرامة للأمة الإسلامية ، وما ذلك على الله بعزيز .

اللهم إنا نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تحفظ بحفظك الإسلام ، وتنصر المسلمين واجعل راياتهم مرفوعة ، وأعلامهم قائمة إلى يوم اللقاء الأعظم يا رب العالمين .

المحاضرة الثانية والتسعون بعد المائة

حوار مع عالم مسيحي

تمهيد:

انطلاقاً من الحديث الشريف: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». رواه الشيخان.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، صلاة تخرجنا بها من ظلمات الوهم، وتكرمنا بنور الفهم، وتوضح لنا ما أشكل حتى يفهم، إنك تعلم ولا نعلم، وأنت علام الغيوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد، فإن من عجائب صنع الله ﷻ، وبديع تدبيره أن بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم آياته، ويبين لهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

ولقد صار الأعراب عبدة الأصنام، وأداة البنات، سفكة الدماء خير أمة أخرجت للناس، تدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة، وتخطب البشرية من قمم التواضع والعبودية لله ﷻ؛ لتخرجها من الظلمات إلى

النور ، وإن هذا التحول الذي طرأ على هذه الأمة العربية البدوية الجاهلية المتخلفة ، ما كان ليقع إلا بعملية عظيمة هائلة ، أخضعها الإسلام لها ، وكانت بمثابة إعادة خلقها خلقاً جديداً ، تلك العملية كانت تربوية ، تمس وجدان تلك الأمة ، وضميرها وكيانها ، أعادت خلق الإنسان العربي خلقاً جديداً ، وجعلته إنساناً يحس بكرامته ، ويشعر بإنسانيته إنساناً إيجابياً خلاقاً مبدعاً ، متحرر العقل من التقليد ، متحرر الضمير من العبودية لغير الله تعالى .

وبهذا التحول استطاعت تلك الأمة أن ترقى إلى المستوى الحضاري الذي يسمح لها بالتفاعل مع حضارات الفرس والروم والإغريق ، وأصبح لها ذلك الدور في توجيه الإنسان وإحداث ذلك التغيير الجذري الذي وقع للعالم بظهور الإسلام .

أضرار التفاوت الحضاري بين المجتمعات :

ومن هنا ندرك أن التفاوت بين المجتمعات والأمم في السلم الحضاري ، إذا كان من أكبر عوائق التفاعل ، وكان من أكبر عوائق الحوار ؛ فإن الوسيلة الوحيدة للتغلب عليه هي تأهيل الإنسان وتطويره ، والرقى به فكراً وذوقاً إلى المستوى الذي يسمح له بالحوار ، وبالتفاعل مع الأمم ، وبالتأثر والتأثير ، وبالأخذ والعطاء .

إنه لا حوار بدون تكافؤ ، ولا تكافؤ بدون تأهيل ، ولا تأهيل إلا بالإيمان والعلم والتنمية والديمقراطية .

وفي هذا الإطار اخترت موضوعاً لهذا الدرس «حواراً مع عالم مسيحي» حول حديث شريف رواه الشيخان وهو : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» .

التعريف بالباحث وببحثه :

سأقدم تعريفاً بهذا الباحث وببحثه ، ثم أقدم هذا الحديث في إطاره التاريخي ، وفي إطار الأحداث التي ورد فيها ، قبل أن أستخلص العبر والنتائج من ذلك كله . فأقول وبالله التوفيق :

يصدر المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية مجلة علمية متخصصة ، تعني بالحوار الإسلامي المسيحي ، وبالدراسات العلمية الأكاديمية الإسلامية المسيحية . وفي العدد : ٢٢ من هذه المجلة لفت نظري بحث لعالم مسيحي فرنسي تحت عنوان : «اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» .

ولقد أثار الباحث في هذا البحث عدة قضايا :

أولها : المنازعة في نسبة هذا الحديث للرسول ﷺ .

وثانيها : تشابه صور الأنبياء في التراث الديني .

وثالثها : تشابه المعجزات .

أولاً : المنازعة في نسبة الحديث إلى النبي ﷺ :

ينطلق هذا الباحث في بحثه من ملاحظة خاصة ، وهي : أن المسلمين ينتحلون هذا الحديث : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وينسبونه لسيدنا محمد ﷺ ، مع أن هذا الحديث هو لسيدنا عيسى ، وليس لسيدنا محمد ﷺ ، ويبنى على هذه الملاحظة الخاصة قضية عامة كبرى ، وهي أن هذا الانتقال ليس خاصاً بهذه الواقعة ، ولا هو واقعة معزولة وفريدة في تاريخ الديانات ، وأنه يندرج في حركة الأخذ والاقتراس والتصحيح التي تمارسها الديانات على النماذج القديمة ، وعلى الديانات السابقة . ويقول :

إننا نعلم مثلاً أن إنجيل «ماتيو» بل وكل الثقافة التي تعتبر امتداداً للإنجيل عندما تتحدث عن سيدنا عيسى تستعمل نفس الألفاظ والصور التي في التراث اليهودي عن سيدنا موسى ، وأننا نجد شخصية سيدنا موسى تتكرر في شخصية سيدنا عيسى بفضل نوع من الصدفة السعيدة .

وبطبيعة الحال فإن المقصود هنا بتكرار سيرة سيدنا موسى في شخص سيدنا عيسى ليس هو تفاصيل السيرة الذاتية للنبيين عليهما السلام ، ولكن المقصود هو مضامين السيرة الذاتية التي يحرص الخطاب الديني على تركيزها في أذهان القراء والمستمعين .

ويتمنى هذا الباحث لو تحقق له استجلاء جميع الحالات التي تناول فيها تراث المسلمين عناصر من الديانات السابقة ، وقام المسلمون إما بانتحائها ونسبتها إلى الإسلام ، واعتبار الإسلام وارثاً شرعياً لها ، وإما بتصحيحها وتقويم ما لا يتلاءم مع دينهم في شأنها .

نقد نظرية جان لوي:

يتبين مما تقدم أن الباحث يريد باختصار أن يجعل من حديث : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» عنواناً لقضية كبرى ، هي : تشابه الديانات وتكرار بعضها لبعض ، واقتباس بعضها من بعض ، وأن هذا يعتبر تقليداً راسخاً في الخطاب الديني ، سارت عليه جميع الديانات ، وهو معهود فيها جميعاً .

النظرية تهدف إلى إعادة تقييم بعض الأديان:

الواقع أن نظرية جان لوي دوكلي هذا ، ما هي إلا تلخيص وتأكيده لمجموعة من الأفكار ، سائدة في الفكر الديني الحديث ، وتستند هذه

الأفكار على دراسات وتحليلات لوثائق النصوص الدينية ، وعلى حفريات لغوية وتاريخية - إن صح التعبير - تهدف في النهاية إلى القول بالتشابه بين الديانات وصولاً إلى إعادة تقييم بعض الديانات على أسس جديدة .

النظرية تتصف بالإجمال:

حديث (جون لوي ديكلي) في نظريته هذه يتصف بالإجمال ، ولا بد في تحليله من التفصيل بحسب مكونات الخطاب الديني ، فإذا كنا نقصد بالخطاب الديني مجموع المرويات والحكايات والقصص الشعبي الذي يتوارثه الخلف عن السلف والذي يكون مجموعة من الثقافة الشعبية الدينية السائدة ، فإننا لا ننكر أن هذا الرصيد الثقافي الديني العام هو خليط من تراث مشترك بين الديانات ؛ وأنا في ديننا الإسلامي أيضاً لنا جَمٌّ وكم لا يستهان به من الإسرائيليات ومن المرويات ذات الأصول المسيحية واليهودية .

تفصيل في مسألة التشابه بين الديانات:

فإذا كان (جون لوي ديكلي) يقصد بالتشابه الموجود بين الديانات ، والتكرار الموجود بينها ما يقع في هذا الرصيد الثقافي الديني العام فنظريته على حق ، ولا ننكر أن جميع الثقافات الدينية لها قدر مشترك من هذا الخليط المشترك بين الديانات ، ولكن هذا كله يقع - بطبيعة الحال - خارج الدين ، لأن الدين عندنا لا يكون ديناً إلا إذا صح دليله ، واتضح بالحجة القاطعة سبيله ، أما هذا التراث الديني العام فلا نعتبره ديناً شرعاً ، ولذلك لا يعنينا كمسلمين ، ولا يعني الإسلام كدين ، هذا من جهة .

الدين على قسمين (عقيدة وشرعية) :

أولاً : العقيدة :

فأما العقيدة فعقيدة جميع أنبياء الله تعالى واحدة ، قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١١٦] فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوْوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال النبي ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد»^(١) .

والعلات : الضرائر .

وكما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : هذا الدين الواحد هو دين الإسلام ، وهو الذي عليه جميع الأنبياء في الأولين والآخرين ، ورأس هذا الإسلام مطلقاً هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وهو الإسلام الذي بعث به الله تعالى جميع الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) ، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

فهناك الإسلام بمعناه الخاص ، وهو المتضمن في شريعة القرآن الكريم ، وهو دين سيدنا محمد ﷺ ، وهناك الإسلام العام ، وهو دين جميع أنبياء الله تعالى .

وحدة العقيدة بين الرسل :

كل ما أخبر به القرآن الكريم والرسول المصطفى الكريم عن عقيدة أنبياء الله تعالى فإننا نؤمن به ، ونعتقه ، ونعتبره عقيدة لنا ، لا تشابهًا ولا تكرارًا ، وإنما اتباعًا واهتداءً واقتداءً وإيمانًا ووحدةً .

وبطبيعة الحال فإنه إذا وجدنا عبارات متشابهة في معناها تتضمن عقيدة من قبيل هذه العقيدة الواحدة التي هي عقيدة جميع الأنبياء ، أو وجدنا نصًا دينيًا يتضمن هذه العقيدة ، فإننا لا يمكن أن ندعي أنه دليل على التشابه ، وإنما هو دليل على وحدة العقيدة ، وأن تلك العقيدة المتضمنة في هذا النص أصلية عندنا كما هي أصلية في تلك الديانات .

ومثال ذلك : نداء «الله أكبر» ، فالله أكبر موجود عندنا ، نردده في صلواتنا حتى أصبح عنوانًا على الإسلام ، ولكنه موجود أيضًا عند المسيحية ، ومذكور في الإنجيل .

فإذا نظرنا إلى هذا النداء الموجود عندنا وعند المسيحية فإننا لا ينبغي أن نعتبره من قبيل التشابه المشتبه فيه ، وإنما هو من قبيل العقيدة الواحدة .

شخصية المسيح ﷺ :

كمثال على الوحدة التي هي الأصل ، والتي ليست من قبيل التشابه نذكر شخصية المسيح ﷺ في الإنجيل وفي القرآن فمن يستطيع أن يدعي وجود تشابه بين الشخصيتين في الكتابين؟ يقول الله تبارك وتعالى :

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣] .

فاذن ليس هناك تشابه على الإطلاق ، وإنما هناك ترسيخ في شخصية المسيح ﷺ في القرآن لعقيدة جميع الأنبياء ، ولصورة جميع الأنبياء عليهم السلام في التراث الديني منذ آدم ﷺ إلى سيدنا محمد ﷺ ؛ هذا بالنسبة للقسم الأول الذي هو العقيدة .

ثانيا : الشريعة :

وأما الشريعة والتي هي القسم الثاني ، فالأصل هو أن شرع من قبلنا شرع لنا ، قال علماؤنا : الصحيح لزوم شرع من قبلنا إذا أخبرنا به نبينا ، ولم يأتنا من طريق غيره ؛ لأن أي طريق غيره غير مأمون ، فشرع من قبلنا شرع لنا ، وإذا وجدنا حكما شرعيا في دين من الديانات السابقة ، ومثله في القرآن الكريم ، فلا نعتبر هذا من قبيل التشابه المشتبه فيه ، وإنما هو من قبيل وحدة الشرع .

قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] .

من أمثلة القاعدة (الصيام):

من الأمثلة على شرع من قبلنا شرع لنا شريعة الصيام ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣ ، ١٨٤] .

قال أبو بكر بن العربي المعافري في كتابه : «الأحكام» : كان النصارى يصومون شهر رمضان ، فاختلف عليهم الزمان ، فأصبح النهار يأتيهم طويلاً في الحر ، وقصيراً في البرد ، فرأوا برأيهم أن ينتقلوا به إلى زمان معتدل ، وكانوا يصومون ثلاثين يوماً ، ثم غيروا ذلك إلى أيام متفرقة حسب ما هو مروي عنهم في هذا .

وبقراءتنا للآية المذكورة آنفاً : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، نرى أن الإسلام يرجع بالصيام إلى أصله ، كما أنه رجع بشخصية المسيح ﷺ إلى أصلها .

عودة إلى موضوع الدرس:

نعود إلى الحديث موضوع الدرس : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» .

نسبة الحديث إلى عيسى ﷺ :

بحثت عن هذا الحديث في المصادر المسيحية ، فوجدت فعلاً في العهد الجديد ، في الفقرة (٢٣) من إنجيل «لوقا» تحت عنوان : يسوع على الصليب ، الحديث بهذا اللفظ : «اغفر لهم يا أبي إنهم لا يعرفون ما يعملون» .

والجدير بالملاحظة أن إنجيل «لوقا» هذا ينفرد بهذا الحديث ، وجميع الأناجيل والبشارات والأسفار سواء في العهد القديم أو الجديد لا تذكره ،

وإن كانت كلها تذكر نفس اللحظة التي ورد فيها ، وهي اللحظة التي كان المسيح ﷺ فيها على الصليب والتي بعدها مباشرة أسلم الروح في زعمهم . ومعلوم أن صلبه وقتله كل ذلك أوهام في أوهام ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٥٧] .

نسبة الحديث إلى موسى ﷺ :

إذا كان (جون لوي ديكلي) يعتبر أن هذا الحديث هو لسيدنا عيسى ويتمسك بذلك ، فإن بعض المصادر المسيحية نفسها تنسبه لسيدنا موسى وليس لسيدنا عيسى ، وقد ذكر ذلك (جون لوي ديكلي) نفسه وعاتب الترجمة الفرنسية للإنجيل التي نسبت هذا الحديث لسيدنا موسى معتمدة في ذلك على ما يبدو على سفر الخروج من العهد القديم .

نسبته إلى نوح ﷺ :

نسبته بعض المصادر الإسلامية إلى سيدنا نوح ﷺ ، ومن هذه المصادر : ابن عساكر في «تاريخ دمشق» في ترجمة نوح ﷺ ، قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» .

ويتضح من هذا أن هذا الحديث : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» مختلف فيه ، سواء في لفظه أو في نسبته ، فهناك من ينسبه لسيدنا عيسى ، وهناك من ينسبه لسيدنا موسى ، ومن ينسبه لسيدنا نوح ، ونحن يقال فينا أننا ننتحله وننسبه لسيدنا محمد ﷺ .

مستند دعوى الانتحال والرد على ذلك:

كل ما يتمسك به هذا الباحث المسيحي الفرنسي في القول بأن المسلمين انتحلوا هذا الحديث وأجروه على لسان نبيهم ﷺ هو ما ذكره الأمير عبد القادر في كتابه: «المواقف»، إذ ذكر ما كان يعانيه الرسول ﷺ من قومه، وصبره وحلمه، وأنه كان يقول عند إذايتهم له: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

والواقع أن هناك روايات أخرى تنسب هذا الحديث لسيدنا محمد ﷺ، من ذلك: ابن حجر في «الفتح»، ذكر لابن عائد من طريق الأوزاعي: بلغنا أنه لما جرح رسول الله ﷺ يوم أحد أخذ شيئاً فجعل ينشف به دمه، وقال: «لو وقع شيء منه على الأرض لنزل عليكم العذاب من السماء»، ثم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

والطبراني نسب هذا الحديث أيضاً لسيدنا محمد ﷺ وأنه قال يوم أحد: «اشتد غضب الله على قوم دموا وجهه رسوله» ثم مكث ساعة فقال: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وذكره أيضاً القرطبي في «التفسير»، وأنه ﷺ لما كسرت ربايعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقاً شديداً، وقالوا له: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لعانا، ولكنني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وإذا أخذنا بهذه الروايات، وجدنا أنها مؤيدة لما ذكره الأمير عبد القادر، وأنها تؤيد جانب (جون لوي ديكلي) الباحث المسيحي الفرنسي الذي يدعي أن المسلمين أجروا هذا الحديث على لسان سيدنا محمد مع أنه لسيدنا عيسى.

روايات للحدث من كتب الصحاح:

إذا رجعنا إلى كتب الحديث الصحيح نجد الأمر يختلف: أخرج الإمام البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم من «صحيحه» قال: باب حدثنا عمر بن حفص، حدثنا الأعمش، قال: حدثني شقيق، قال عبد الله: كأي أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

فإذن حسب هذا الحديث الصحيح المذكور في البخاري، النبي ﷺ إنما يحكي هذا الحديث عن نبي من الأنبياء وبلسانه، ولا ينسبه لنفسه. وكذلك البخاري ومن روى عنه هذا الحديث لا ينسبونه للنبي ﷺ يحكي الحديث عن نبي من الأنبياء ويتجنب أن يذكر هذا النبي، وكأنه يشير إلى الخلاف الواقع حول شخصية هذا النبي واسمه.

وفي باب غزوة أحد من كتاب الجهاد، أخرج الإمام مسلم بن الحجاج هذا الحديث فقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن شقيق، عن عبد الله قال: كأي أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه، فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ومثله في «سنن ابن ماجه».

وفي «مسند الإمام أحمد» أن النبي ﷺ قسم غنائم حنين بالجعراثة، قال: فازدحموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إن عبداً من عباد الله بعثه الله ﷻ إلى قومه فكذبوه وشجوه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قال: قال عبد الله: فكأي أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح جبهته يحكي الرجل».

فأين الانتحال؟! الرسول ﷺ يحكي هذا الحديث عن نبي من الأنبياء بكل أمانة ، ومصادرنا الأصلية الصحيحة تحكي هذا الحديث أيضا بكل أمانة .

تهافت دعوى الضرب في رجال السند:

لا أريد أن أطيل بذكر بقية الروايات الصحيحة التي ذكرت هذا الحديث ؛ ولا أريد أيضا أن أطيل بغمز (جون لوي ديكلي) في بعضها بكون رجال إسنادها من أهل الكوفة ، وأن الكوفة كانت مشهورة بدار الضرب ، لأنها كانت توضع فيها الأحاديث المكذوبة ، لأنه يكفيننا في الرد عليه أن الحديث بهذه الصيغة التي ذكرنا مما اتفق عليها الشيخان ، ومعلوم أن ما اتفق عليه الشيخان هو أعلى درجات الحديث الصحيح .

ولا يقال إن الباحث مسيحي وأنت تحتج عليه بما رواه الشيخان ، لأننا نقول : إننا إنما نحتج عليه في الواقع بمنهج مدرسة علمية حديثة معترف بها ، ومشهود لها من طرف العلماء الأكاديميين اليوم بصحة أحكامها ودقة نتائجها ، وأن هذه المدرسة هي المدرسة الحديثية الإسلامية ، وأن البخاري ومسلم ، ما هما إلا رمز لهذه المدرسة ، فنحن لا نحتج عليه بالشيخين ، وإنما نحتج عليه بمنهج علمي قائم معترف به .

الحديث معجزة نبوية:

أعتقد أن هذا الحديث في حد ذاته معجزة من معجزات نبينا ﷺ ، إذ أنه يروي هذا الحديث بأمانة عن نبي من الأنبياء ، وهو لا علم له بما هو موجود في التراث الديني ، وبهذا الخلاف الواقع حول هذا الحديث ، يتجنب أن يحسم في هذا الخلاف نهائيا ، ولا يذكر اسم هذا النبي ، هذا من

معجزاته ﷺ، ولا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وعبد الله بن مسعود الذي تدور عليه رواية هذا الحديث هو حامل وصاحب نعلي الرسول ﷺ وملازمه، وكان سادس من أسلم، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان رحمه الله أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة، وكان الرسول ﷺ يقول: «من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(١) أي عبد الله بن مسعود، وكان رحمه الله أقرب الصحابة إلى رسول الله ﷺ هديا وسمتا، وقال أبو نعيم وغيره: إنه توفي في سنة اثنين وثلاثين للهجرة.

مناسبة ورود الحديث عند مسلم:

أما المناسبة التي ورد فيها هذا الحديث، فهي غزوة أحد على ما ذكره الإمام مسلم بن الحجاج كما سبق، إلا أنه ورد عليه إشكال. ذلك أنه في «صحيح مسلم»، وفي نفس الباب، روى مسلم ثلاثة أحاديث:

أولها: حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته، أي: سنه يوم أحد، وشج في رأسه فجعل يسيل الدم ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٨)، وأحمد في «مسنده» (٧ / ١).

وفي حديث آخر قال في نفس الظرف : «اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا برسول الله». وهو حينئذ يشير إلى رباعيته .
وبين هذين الحديثين ذكر الحديث موضوع الدرس .

إشكال مهم:

الإشكال هو كيف يستغفر الرسول ﷺ لقومه ، وفي نفس الوقت يقول : «كيف يفلح قوم فعلوا هذا برسول الله ، اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا برسول الله» .

الرد على الإشكال السابق:

أجاب العلماء على هذا الإشكال بأجوبة قوية تزيله ، وترجح ورود الحديث في غزوة أحد ، تبعا للإمام مسلم والجمهور العلماء ، ومن هذه الأجوبة ما ذكره القرطبي في «التفسير» ، وهو أن النبي ﷺ قال : «كيف يفلح قوم فعلوا هذا برسول الله؟» فأنزل الله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ . لأن النبي ﷺ عندما قال : «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنيهم» ، كان يستبعد مغفرة الله تعالى لهؤلاء القوم وهدايتهم . فلما نزل قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ علم ﷺ أن في هذا إشارة إلى أن الله تعالى سيهديهم ويغفر لهم . وفعلا قد آمن منهم كثير ؛ منهم خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعدد من المشركين الذين كانوا في غزوة أحد ، وتسببوا للرسول ﷺ فيما ذكر ، فلما قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أطمعه في إسلامهم وهدايتهم ، ولما أطمع في ذلك قال : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» .

رد آخر:

ومن أجاب على هذا الإشكال أيضا الأبى قال : المراد بالمغفرة في هذا الحديث هو الهداية ، وليس المغفرة الحقيقية ، لأن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، وهذه الهداية قد تحققت بإسلام من أسلم من هؤلاء المشركين .

رد ثالث:

وأجاب شراح آخرون بحمل هذا الحديث «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ، على ما كان عليه الأنبياء جميعا من الصبر والحلم والتجاوز عن أقوامهم ، وأن النبي ﷺ من هؤلاء الأنبياء وعلى هديهم يستغفر لقومه كما استغفروا لهم .

جواب رابع:

وهناك جواب رابع ، وهو أنه إذا كان ذلك النبي الذي يحكي عنه الرسول ﷺ استغفر لقومه ، فالنبي ﷺ الذي بعث رحمة للعالمين أولى بالاستغفار لقومه ، ثم إن حمل هذا الحديث على غزوة أحد أولى من حمله على غزوة حنين ، لأنه في غزوة حنين لم يذكر أحد من المفسرين أن النبي ﷺ شج رأسه أو كسرت رباعيته ، أو جرح أو أسيل دمه ، وكل ما في الأمر أنهم اجتمعوا عليه وألجئوه إلى شجرة ، ذلك أنه ﷺ عندما قسم غنائم حنين أعطى للمؤلفة قلوبهم من قريش نصيبا كبيرا من هذه الغنائم ، فلم يدرك قومه من الأنصار والمهاجرين الحكمة في تأليف القلوب ، وفيما فعله الرسول ﷺ من قسمة الغنائم ، فاجتمعوا عليه ، حتى قال بعضهم : والله إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ؛ واجتمعوا عليه يطلبون منه حظهم في

الغنائم حتى ألجئوه إلى شجرة، فكان يقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ولا يبعد أن الحديث تكرر في الغزوتين بلفظ البخاري ومسلم في غزوة أحد، ولفظ الإمام أحمد في غزوة حنين.

اتباع المنهج العلمي يقلل من الخلاف:

لا يتسع المجال للحديث عن وقائع هاتين الغزوتين العظيمتين، ونقتصر على تلخيص ما سبق في أن هذا الحديث: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». يجب أن يكون البحث فيه مدعاة لكل طرف من كل دين من الأديان إلى الثبوت والتروي وتجنب الأحكام المسبقة قبل النظر في النصوص الأصلية للديانات السماوية المختلفة، وأن هذا المنهج العلمي إذا اتبعه الجميع سيؤدي إلى تقليل شقة الخلاف.

ونعتقد أننا إذا نظرنا إلى النصوص الدينية المختلفة نظرة علمية فاحصة، فإننا سنجد أن الخلاف بيننا ضئيل، وأن العقيدة واحدة، وأن أصول الشرع واحدة، وأن علينا أن نعتبر أنفسنا كما قال النبي ﷺ: «الأنبياء أبناء لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١)؛ وأن تجتمع كلمتنا على غرس الفضيلة في المؤمنين، وعلى تقوية معسكر الإيمان، وعلى توظيف الدين لخدمة السلم، وخدمة التعايش، وخدمة التساكن، وخدمة المحبة بين البشر، وخدمة البشرية والإنسانية، ومواجهة التحديات التي تواجه معسكر الإيمان، والتي لا يمكن أن نواجهها إلا متعاونين.



(١) سبق تخريجه.

المحاضرة الثالثة والتسعون بعد المائة

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]

مقدمة:

إذا كان عون الله للمرء ناصرا هيا له من كل صعب مراده
حديثنا اليوم في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ
وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وهذه المقدمة تشتمل على بعض الشرائع المحمدية الخلقية والخلقية :
أكرم بخلق نبي زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم
وسأذكر في هذا الدرس ومقدمته آيات قرآنية ، وأروي فيها أحاديث
نبوية ، مع ذكر جملة اقتبستها ، وذكر جملة أخرى أنشأتها :
فتنزه في ذاته ومعانيه اجتماعا إن عز منها اجتلاء
واملا السمع من محاسن يملئها عليك الإنشاد والإنشاء
فأقول : وعلى الله التوكل في المنقول والمقول .

مدخل إلى موضوع الدرس:

إن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقال :
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
[النساء: ١٦٥] ، وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ

﴿إبراهيم: ٤﴾ ، وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] . وفي حديث رسول الله ﷺ قوله : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الخلق كافة»^(١) ، وهذه خصلة واحدة من ستين خصلة ، كلها لنبينا ﷺ وليست لغيره من الأنبياء عليهم السلام :

فبخصلة من الستين وإن تكن مريدا كما لا مطولا طالعا
وسأذكر بعضها ، أثناء الشرائع التي سأشرع فيها .

دلائل شمائل النبي ﷺ من القرآن :

قال الله تعالى في خطابه للرسول ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، وقال : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] ، وقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ، وقال : ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] ، وقال : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَ رُوءَا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ، وقال : ﴿وَالْوِاسْتَقْتِمُوهَا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿٦٠﴾ لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧] .

دلائل شمائله ﷺ من السنة المطهرة :

وقال عليه الصلاة والسلام : «ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه حسن

(١) سبق تخريجه .

الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا» ، وقال : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) ، وقال : «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»^(٢) ، وقال : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(٣) صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه .

عموم شمائله ﷺ :

ثم اعلم ، نور الله قلبي وقلبك ، وضاعف تجاه النبي الكريم حبي وحبك ، أنك إذا نظرت إلى وجهه ﷺ زال عنك الشقاء . وإذا نظرت إلى حسنه تجده :

سُرَّ الحسن منه بالحسن فاعجب لجمال له الجمال وقاء

ذكاءه وعقله وثباته ﷺ :

إذا نظرت إلى ذكاء له تجده أذكى الأذكاء ، وإذا نظرت إلى عقله تجده أعقل العقلاء ، وإذا نظرت إلى ثباته تجده :

لا تحل البأساء منه عرا الصب — رولا تستخفه السراء

كرمه ﷺ :

وإذا نظرت إلى كرم فيه ، تجده :

كرمت نفسه فما يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٦٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .
(٢) سبق تخريجه .

علمه وحلمه ﷺ :

إذا نظرت إلى علمه تجده أعلم من أسند عنه الرواة والحكماء ، وإذا نظرت إلى حلمه تجده :

جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

فصاحته وجوده وزهده ﷺ :

إذا نظرت إلى فصاحة لفظه تجده أفصح الناس لسانا ، وإذا نظرت إلى صراحة وعظه تجده أوضح الناس دلالة وإذا نظرت إلى جوده وكرمه ، تجده أجود الناس وأكثرهم إحسانا ، وإذا نظرت إلى زهده تجده أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، وأتى إليه بها جماهيرها . فكان يقابل الإيراد ولا يستأثر بالإصدار بدرهم ولا دينار . وربما يمكث الشهر والشهرين لا يستوقد وإنما يأكل ماء وتمرا .

شجاعته وعدله وحكمته وتعبدته وطبه ﷺ :

إذا نظرت إلى شجاعته ، تجده أثبت الناس نفسا ، وأشدهم بأسا ، يقبل ولا يهرب . ويقبل ولا يتزعزع ، وإذا نظرت إلى حكمه وعدله ، تجده أحكم الناس وأعدلهم ، وأقسطهم وأقومهم ، وإذا نظرت إلى عبادة ربه ، تجده يعبدته على قدر علمه به ، وإذا نظرت إلى طبه تجد يده :

وأزالت بلمسها كل داء أكبرته أطبته وإساء
وعيون مرت بها وهي رمذ فآرتها ما لم تر الزرقاء
وأعادت على قتادة عينا فهي حتى مماته النجلاء

وقد جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال له : من أنت؟ فقال له الرجل :
 أنا ابن الذي سألت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
 فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد
 وعلي لما تفلت بعيني — — — — — وكلتاهما معاً رمداً
 فغدا ناظراً بعيني عقاب في غزاة لها العقاب لواء

بركة دعائه ﷺ :

وإذا نظرت إلى إجابة دعائه :

ودعا للأنام إذ دهمتهم سنة من محولها شهباء
 فاستهلت بالغيث سبعة أيا م عليهم سحابة وطفاء
 تتحرى مواضع الرعي والسقـي وحيث العطاش توهى السقاء
 وأتى الناس يشتكون أذاها ورخاء يؤذي الأنام غلاء
 فدعا فانجلى الغمام فقلت في وصف عيـث إفلاعه استسقاء
 كل فضل في العالمين فمن فضـل النبي استعاره الفضلاء
 وأقول كما قال الإمام البوصيري أيضا في خاتمة همزيتـه ، يخاطب هذا
 النبي الرسول ﷺ .

إن من معجزاتك العجز عن وصفك إذ لا يحده الإحصاء
 كيف يستوعب الكلام سجايا ك وهل تنزع البحار الركاء
 ليس من غاية لوصفك أبغى — — — — — وللقول غاية وانتهاء

بلاغة العرب وفصاحتهم وعجزهم أمام القرآن :

قال الله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ
 الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤١﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤٢﴾ [الجمعة: ١-٤] .

بعث الله سيدنا محمدا ﷺ، فوجد العرب معتزين بلغتهم وبلاغتهم البارعة، وألفاظها الناصعة، وكلماتها الجامعة، يمدحون ويقدحون، ويرفعون ويضعون، ويتوصلون ويتوصلون، واللغة تسعفهم بما يريدون، وتواتيهم بما يشتهون، فما أجدعهم إلا كتاب الله يتلى بينهم، وتقرع بيناته أسماعهم، فسمعوا كلاما بهرت بلاغته العقول، وظهرت على كل مقول، فتاهت عقولهم وأحلامهم، وعجزت ألسنتهم وأقلامهم، وودوا عربته فما أفلحوا، وعلى أعقابهم نكصوا، ولكن وهم فرسان هذا الميدان، وأبطال هذا الشأن، أتوا إلى رسول الله ﷺ وهم مسرعون، من بين مهتد وبين مفتون .

انبهار الوليد بن المغيرة بفصاحة القرآن:

فتقدم زعيم قريش في الفصاحة الوليد بن المغيرة، تقدم إلى رسول الله ﷺ فقال له: اقرأ علي . فقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال له الوليد: أعد، فأعاد ﷺ فقال الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر .

إسلام عمر وانبهاره بالقرآن:

وقع لعمر بن الخطاب قبل إسلامه وذلك عندما دخل على أخته فاطمة بعدما أسلمت، فجعل يتخاصم معها ويتشاجر وينازعها في الدخول

للإسلام، وهي ترد عليه . فبعد ذلك رأى عندها ورقة مكتوب فيها قول الله تعالى خطابه لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٣-١٦] .

قال عمر بن الخطاب : هذا كلام الله ، هذا كلام لا يقوله بشر ، دلوني على محمد ، فأتي به إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما كان بين يديه وضع صلى الله عليه وسلم يده على منكبه وقال له : أسلم يا عمر ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يكبر ، وجعل الصحابة يكبرون ، حتى سمع التكبير في طرق مكة ، ثم نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إن الملائكة في السماء استبشروا بإسلام عمر .

أشعار في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم والصحابة :

قال عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
فبهذا النبي الرسول ، هدى الله من سبقت لهم السعادة بعد الضلالة ،
وعلمهم بعد الجهالة ، ورفعهم بعد الخمالة ، وسأهم بعد النكران ،
وكثرهم بعد القلة ، وأغناهم بعد العيلة ، وجمعهم بعد الفرقة ، وألف بين
قلوبهم المختلفة ، وأهوائهم المتشتتة ، وأمهم المتفرقة . وجعلهم خير أمة
أخرجت للناس :

وأفضل الأمة ذات القدر أصحاب من أعطي شرح الصدر

إذ جاء في القرآن ما يقضي لهم بالسبق في أي حوت تفضيلهم
 وكم أحاديث عليهم تشي كقوله خير القرون قرني
 وقول طه المصطفى لو أنفق أجل فمن زكاهم الله اتقى
 كما قال العلامة المقري في «إضاءة الدجنة» وقال العلامة العربي بن
 السائح في «الصحابة» أيضا :

ناهيك من سادة حازوا الكمال بمن ساد الخلائق تابعوا ومتبوعا

رسالة من الغزالي لبعض معاصريه :

قد كتب الإمام الغزالي رسالة إلى بعض معاصريه ، من كبار مصر ، منها
 قوله :

«من أشد الناس غباوة وجهلا ، من تهمة أمور دنياه التي تختطف عند الموت ،
 ولا يهيمه أن يعرف أنه من أهل الجنة أو النار ، وقد عرفه الله ذلك فقال : ﴿ إِنَّ
 الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [٣] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ [الانفطار: ١٣ ، ١٤] ، وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ
 طَغَى ﴿ ٢٧ ﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿ ٢٨ ﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿ ٢٩ ﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
 النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿ ٤٠ ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] .

ثم قال الإمام الغزالي : «وقد أصبح أكثر الناس أمواتا عن كتاب الله ،
 فإن كانوا أحياء في معاشهم ، وبكما عن كتاب الله ؛ وإن كانوا يتلونه
 بالسننهم ، وصما عن سماعه وإن كانوا يسمعونه بأذانهم ، وعميا عن
 عجائبه وإن كانوا ينظرون إليه في مصاحفهم . وأمين في أسرارهم ومعانيه ،
 وإن كانوا يشرحونه في دفاترهم ، فاحذر أن تكون منهم» .

إذا كان الإمام الغزالي ، يقول ذلك ، فهو بالضبط ولد عام ٤٥٠ هـ فما حال المسلمين ، في مشارق الأرض ومغاربها ، بعيدها وقريبها ، في هذا القرن الرابع بعد العشر ، الذي الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر .

نصح وإرشاد :

فليحاسب كل واحد منا نفسه ، هل هو متبع لكتاب الله وسنة رسول الله ، أم هم مخالفون ؟ أم البعض مخالف والبعض متبع ؟

يحاسب النفس على الأنفاس ويزن الخطر بالقسطاس فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .
وقديما قيل :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع
وقيل :

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف
وقديما قيل : ثلاث جمل لو كتبت على الظفر ما وسعها وفيها خير كثير ،
الشر الأول : اتبع ولا تبندع ، الثاني : اتضع لا ترتفع ، الثالث : من ورع
لا يفتتن .

ثم أقول : قال عليه الصلاة والسلام : «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا
وخلق النار وخلق لها أهلا...»^(١) إلى آخر الحديث فمن جملة الذين
يحبهم الله تعالى ويدخلهم الجنة ، المقسطون ، الذين يحكمون بين الناس

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) من حديث عائشة رضي الله عنها .

بالعدل . قال الله تعالى : ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]
قال ﷺ : «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة . . .»^(١) ومن جملة
الذين يدخلون النار ، القاسطون ، وهم الذين يحكمون بين الناس بالجور ،
قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] ، وقال عليه
الصلاة والسلام : «من أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أدخل الجور في
حكمه» .

أقسام العدل :

أذكر أقساماً ثلاثة من أقسام العدل ، وبعد ذلك أذكر أسئلة خمسة مع
أجوبتها وبها يتم الدرس .

القسم الأول :

قال عليه الصلاة والسلام : «لا يحكم القاضي وهو غضبان»^(٢) أي
شديد الغضب ، لأنه إذا كان في حال شدة الغضب ، لا يميز بين السماء
والأرض ، ولا الطول والعرض ، ولا يمكن له حل ما أشكل ، ولا فصل
ما أعضل .

القياس على الغضب :

مثل الغضبان شديد العطش وشديد الجوع وما إلى ذلك من باب القياس .
والأخذ بالقياس مضطر له وجل أهل العلم يقفوا سبله

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٨) ، ومسلم (١٧١٧) من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

كما قاله العلامة ابن عاصم في «منتقى الوصول إلى علم الأصول» وقال أيضا :

ومنع غضبان من القضاء قيس عليه كثرة الإعياء
والجوع مع إفراطه والعطش وكل ما عن نظريشوش
ولا يقاس تافه الأشياء بأن فعلا للابتلاء

الشورى في القضاء :

إذا أشكل حكم على القاضي ، أحضر العلماء وشاورهم ، قال العلامة الزقاق :

وشاور ذوي علم وسيد مجلس

بعض أمور القضاء : تفريغ الفكر :

قال أيضا :

وفكرك فرغ واطلب النص وافهم فبعد حصول الفهم قطعاً لتفصل

التسوية بين الناس :

قد كتب أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب إلى عامله بالبصرة أبي موسى الأشعري يقول له : «سو بين الناس في المجلس أو في مجلسك وفي قضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك» .

أمر آخر الرجوع عن الباطل :

قال له : «لا يمتنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك وهديت إلى رشدك ، أن تراجع الحق فيه ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء .

ومراجعة الحق خير من التهادي في الباطل . . » .

هذا بعض كتاب أمير المؤمنين :

وأبي حفص الذي أظهر الله به الدين فارعوى الرقباء
والذي تقرب الأبعد في الله به إليه وتبعد القرباء
عمر بن الخطاب مَنْ قوله الف صل ومن حكمه السوي سواء
فر منه الشيطان إذ كان فارو قافلنار من سنائه انبراء

القسم الثاني: التوسط والالتزام والاعتدال:

لا يجوز لإنسان أن يكون عالة على غيره . فالسما لا تمطر ذهباً ولا فضة .
ولا يجوز للإنسان أن يكون عالة على غيره . هذا يمنعه وهذا يعطيه ويمنحه .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١) ،
وقال : «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا أعطاه
أو منعه»^(٢) فلا يجوز له أن يقبل على الدنيا إقبالا ، ويصرف أوقاته فيها ،
حتى لا يترك حقاً من حقوق الله أو من حقوق العباد .

إن الله يقول : ﴿يَتَائِبُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِنَهْكُمُ أَمْوَالَكُم وَلَا أَوْلَدُكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] .

ففي كل مطلع شمس ، يقول ملك : «ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى» .
يجب عليه التوسط ، والالتزام والاعتدال ، والعدل في طلب المال ، ليحصله
بوسيلة طيبة ، ولا يجوز له أن يتوصل إلى المال ببيع الحرام لأن النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٩) ، ومسلم (١٠٣٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٤) ، ومسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يقول : «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها»^(١) ، وفي حديث آخر : «وأجلها»^(٢) كما نبه على ذلك الأئمة ، هكذا : «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه في معصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»^(٣) .

القسم الثالث: الزكاة وعدم البخل والإسراف والتبذير:

إذا طلب المال وحصل عليه ، إياه وأن يبخل به ﴿مَنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨] ، ﴿وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ، من إعطاء الزكاة ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] .

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وفي الحديث «إن في المال لحقا سوى الزكاة»^(٤) ولا يبذر تبذيرا يجب

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١١ / ١٢٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨ / ١٦٦) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠ / ٢٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧ / ٧٩) ، والبيهقي في «الشعب» (٧ / ٢٩٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) سبق تخريجه .

الاعتدال والاتزان ، قال الله تعالى : ﴿وَأَتِذَا الْقُرُوفِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧] .

وقال جل شأنه : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] ، وقال تعالى :
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾
[الفرقان: ٦٧] .

الأمر بالاعتدال في الطعام:

قال عليه الصلاة والسلام : «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن
تذرهم عالة يتكففون الناس»^(١) ، وقال : «من فقه الرجل رفقه في معيشته»^(٢) ،
وقال : «من الترف أن تأكل كل ما اشتهيت»^(٣) وقال أمير المؤمنين سيدنا
عمر بن الخطاب : «إذا أكلتم فراجموا» والمراجمة أن تأكل يوما لحما ودجاجا
وبين اللحم والدجاج عدس ، لأنه مادة حديدية ، ويوما ، ويوما ، ويوما
لئلا تكون سلطة عليك .

لأنه رب يوم يكون فيه اللحم ولا درهم ، ورب يوم فيه الدرهم ولا
لحم . ورب يوم لا درهم ، ولا لحم . وقد عود الإنسان نفسه اللحم ، فتراه
يذهب لا يميز بين السماء والأرض ، ولا بين الطول والعرض ، وإنما آثار
جسمه ، وأنت تسلم عليه أما روحه ففي محل اللحم .

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٦) ، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٤ / ٥) ، والطبراني في «مسنده الشاميين» (٢٥٣ / ٢) من

حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

الترفه يبعث على الشر:

لا ينبغي للإنسان أن يترفه كثيرا فوق العادة ، لأنه إذا ترفه كثيرا . وأراد أن يرجع ، فصعب على الإنسان ما لم يعود ، فتراه إذا فقد ما كان بيده من أموال ، ومما يعيشه من رفاهية واحتاج إلى الدراهم أو للدراهم . فنراه يكد على المال كذا للدراهم ويصيده صيدا ، لا يميز بين الحسن والقبيح ، ولا بين السقيم والصحيح . فتتخطفه الشياطين ، ويضل في سائر الميادين ، ويصبح شرا على نفسه وعلى أبنائه .

عمر بن عبد العزيز وزهده في الطعام:

كان سيدنا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ينوع في الطعام تارة دجاجا ، وتارة عدسا ، وتارة لحما ، وفي يوم من الأيام جاء دور الحماض فتغدى به ، فقال له بعض أقاربه : يا أمير المؤمنين هلا أكلت طعاما طيبا اليوم إن الله يقول : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ولا تأكل هذا الحماض؟ فقال له عمر بن عبد العزيز : أتظن الطعام الطيب ، هو الشيء الذي تستلذه النفس . . هيهات هيهات ، إن الطعام الطيب هو كل ما كان حلالا ، فكل ما كان حلالا فهو طيب .

خمس أسئلة تتعلق بالجنة:

الآن أشرع في الأسئلة الخمسة ؛ وهي تتعلق بالجنة ختم الله لنا وللمسلمين بها ، وبها يتم الدرس .

قال ﷺ : «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا . وخلق النار وخلق لها أهلا»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

أين مكان الجنة؟

الجنة موجودة ، أعدت للمتقين ، والنار موجودة ، أعدت للكافرين كما في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأين الجنة؟ أين مقرها؟ وأين موضعها؟ وأين محلها؟ هذا سؤال ، الجواب : إن الجنة فوق السموات السبع ، وليست الجنة في داخل السماء ولا في داخل الأرض ، لأن الله يقول : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، ويقول : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

وكما أن السموات سبع ، كذلك الأرضون سبع ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

ولقد ذكر الأئمة ، أن المراد بعرض الجنة ساحتها ، وقالوا : لو فرضنا أن السموات السبع والأرضين السبع بسطت بسطا ، وجعلت متصلة بعضها مع بعض ، ثم وضعت الجنة فوق السموات السبع ، والأرضين السبع ، لكانت المساحة مثل المساحة .

وبناء على هذا ، فلا يمكن أن تكون الجنة في السماء ولا في الأرض ، لأن الكل لا يحل في الصغير ، الكبير لا يحل في الصغير ، والدليل على أن الجنة فوق السموات السبع ، الحديث الصحيح الصريح الذي جاء عن رسول الله ﷺ ، وقد تقدم القول في سيدنا عبد الله بن رواحة .

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

ويقول العلامة المقرئ :

وكل ما أتى من الأخبار عن أحمد الموصوف بالإكبار

فذاك حق واقع لا يمتري فيه وما كان حديثا يفتري

وقال الله تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ

[النجم: ١-٦] . هذا هو السؤال الأول مع جوابه .

وأي مكان النار؟

أما النار ، فهي موجودة أعدت للكافرين . ولكن لا ندري موضعها لأن النبي ﷺ لم يخبر بمكانها فنعتمد وجودها ولا نعرف مكانها ، وهي موجودة .

السؤال الثاني : من يدخل الجنة؟!

هذه الجنة لا يدخلها إلا من يخاف الله قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] ، وقال في آية أخرى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧، ٨] .

النتيجة ، أن الجنة لا يدخلها إلا من يخاف الله ، ومن الذي يخاف الله؟ من هم؟ قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] . فكانت نتيجة النتائج أن الجنة لا يدخلها إلا العلماء ، وأين يذهب العوام؟ أين يذهب الأميون؟ وفيهم الأخيار والأبرار والمتقون أين يذهبون؟ إذا اختص العلماء بالجنة ، الذين يخافون الله .

ابن عباس وتفسير معنى العلماء:

الجواب عند سيدنا عبد الله بن عباس ، حبر الأمة وترجمان القرآن الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام : «اللهم علمه الحكمة ، اللهم علمه الكتاب» . كما في «الصحيح» . وفي «مسند الإمام أحمد» : «وعلمه التأويل» وبيان ذلك أنه ليس المراد بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ هم العلماء الذين يعرفون التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول ، والمعاني ، والبيان ، واللغة ، والنحو ، والصرف ، والعروض ، والمنطق ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والحساب ، والهندسة ، والطب ، إلى غير ذلك . بل هم المرادون أيضا ، ولكن مراد معهم الأميون والعوام ، يشترط أن ينطبق على الكل ، وهو أن يتفكروا في مصنوعات الله العلوية والسفلية بحسب المستطاع :

فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي

تجد به صنعا بديع الحكم

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

التفكر في صنع الله عبادة:

فإذا تفكر الإنسان في مصنوعات الله أو بعضها استحضر عظمة الله في قلبه ، فتلين جلوده للطاعة ، وفي حديث رسول الله ﷺ قوله : «أَلَا وَإِنْ فِي

الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»^(١) .

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء
والتقوى هي التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

السؤال الثالث: دخول الجنة بفضل الله :

هذه الجنة ندخلها جميعا- إن شاء الله الحاضرون والغائبون ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] ، وقال : ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١] .

فأقول كما قال الأئمة : ذا بيع وشراء ، والشأن في البيع والشراء أن يكون العوضان متساويين ، أو مع التوفية ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ [الشعراء: ١٨١] وهنا الأعمال الصالحة ، وإن كثرت فهي قليلة كما وكيفا ، وزمانا ومكانا . بخلاف الجنة فإن نعيمها مقيم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١] وفي الحديث : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»^(٢) فيها النظر إلى وجه الله النظر اللائق به .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]
وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى الجنة
والزيادة رؤية الحق سبحانه وتعالى، وفيها النظر إلى الأنبياء والصديقين،
والشهداء والصالحين، وفيها أحد العوضين أعظم وأعظم. ولهذا يعلمه قوله
عليه الصلاة والسلام: «لن يدخل أحد الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت
يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

بالفضل لا بالعمل يكون دخول الجنة:

ولكن اقتضت حكمة الله ورحمته ونعمته ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ
اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] أن
يقبل منا هذه الأعمال وإن كانت قليلة كما وكيفاً، وزماناً ومكاناً، وأن
يقبلها عوضاً عن الجزاء في الآخرة. ويقول لنا: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
[المائدة: ١٠٥] من باب الفضل فقط. وإنما هو في الحقيقة كالإرث، الإرث
يأتي للإنسان من غير عوض ولذلك قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ
مِنَ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] ويقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾
[الزمر: ٧٤]، فالكل من باب الفضل. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ
فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ [النساء: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿٢١﴾ [الحديد: ٢١] وقال عليه الصلاة والسلام وقد قدمته فيما قبل : «لن يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١) .

السؤال الرابع : شرط دخول الجنة عمل الصالحات ولكن!

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلها»^(١) وندخل الجنة من باب الفضل ، لكن هذا الفضل قرنه الله سبحانه لا إله إلا هو ، بشرط . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ [الكهف: ١٠٧] .

الصالحات : جمع معرف «بأل» يفيد العموم ، والعام لفظ يستغرق الصالح كله من غير حاصل ، ومدلوليته كلية ، لا كل ولا كلي . كما يقول الإمام ابن السبكي في جمع الجوامع .

وحيثما لكل فرد حكم فإنه كلية قد علم

وعموم الأشخاص ، يستلزم عموم الأحوال والأزمنة والبقاع كما قال ابن السبكي أيضا ، فتكون النتيجة لا يدخل المؤمن الجنة إلا إذا آمن وأتى بكل فرد ، فرد من الأعمال الصالحات ، وأينا يطيق هذا .

وقد تقرر في الأصول ، أنه لا يجوز العمل بالعام إلا بعد البحث هل هنالك تخصص :

والأخذ بالعموم قبل البحث عن تخصص مما به المنع اقترن

كما يقول الإمام ابن عاصم في «منتقى الأصول» .

(١) سبق تخريجه .

العمل وفق الاستطاعة رحمة من الله :

وقد بحث الأئمة عن المخصص . فوجدوا هناك مخصصات في آيات قرآنية وأحاديث نبوية . قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢] ، عندنا هنا مبتدأ وخبر وجملة ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ هذا مبتدأ والخبر هو ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

والخبر جزء متم الفائدة كالله بر والأأيادي شاهدة

ومثل ابن مالك بجملة لما نحن فيه بـ «والأأيادي شاهدة» .

الاستطاعة قنطرة للجنة :

ولكن بين المبتدأ والخبر قنطرة أنعم الله بها على عباده ، يمر الإنسان عليها من الأعمال الصالحات إلى الجنة ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ المرور من أين؟ من قنطرة . ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ويالها من رحمة! ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا : «أينا يطيق هذا» فنزل قوله تعالى : ﴿ فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] . وقال عليه الصلاة والسلام : «عليكم من الأعمال بما تطيقون»^(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»^(١) هذا هو السؤال الرابع مع جوابه .

(١) سبق تخريجه .

السؤال الخامس : هذا هو الختام ، ختام الدرس :

قبل أن أذكر هذا السؤال أقدم بيتا للإمام البوصيري :
وبحب النبي فابغ رضا اللـ ه ففي حبه الرضا والرضا

حب النبي ﷺ طريق الجنة :

حبة المصطفى ﷺ، منزلة يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وإلى علوها شمر السابقون، وفيها يتفانى المحبون، وبروح نسيمها يتروح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقدته فهو في بحر الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وأسقام.

منزلة طاعة الله ورسوله يوم القيامة :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له يا رسول الله : أنت أحب إلي من نفسي، وأنت أحب إلي من أهلي، وأنت أحب إلي من أولادي ومالي، وإني أذكرك في البيت، فلا أستطيع أن أصبر، حتى آتيك فأنظر إليك، وإني أذكر موتي وموتك، فأعلم أنك تدخل الجنة وتكون مع النبيين وأعرف أنني أدخل الجنة ولكني لا أراك، فسكت رسول الله ﷺ حتى نزل قول الله : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩].

الوسيلة والشفاعة يوم القيامة :

هنا سؤال ، النبي ﷺ أعطي منزلة وأعطي لكل الأنبياء منازل على قدر درجاتهم . فأعطي للنبي ﷺ الوسيلة فقال ﷺ : «الوسيلة منزلة في الجنة ، لا ينبغي أن تكون إلا لعبد وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(١) .

المعية ومعناها :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ﴾ «مع» والمعنى في المعية أن كل مؤمن يحشر مع النبي ﷺ حشرا في منزلته ، لا لأن المنزلة لا تسع ذلك لا بل المعنى في ذلك أوسع ، ولكن لا يشاركونه في الوسيلة الخاصة به لأنه قال : «لا ينبغي أن تكون إلا لعبد فأرجو أن أكون أنا هو» ، الجواب عن ذلك كما أجاب جلة العلماء رضي الله عنهم : أن كل مؤمن في الجنة لا يبقى بينه وبين النبي ﷺ حجاب . بحيث إذا رفع بصره ، رأى نبينا ﷺ وأشرق الأنوار ، وانشرح صدره وزاد في الانشراح . وإن التفت هكذا ورأى سيدنا إبراهيم ورأى .. هذا معنى قوله : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ .

وهذه آية وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل : ٩٠] الآية كغير هذه الآيات .

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

لها معانٍ كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
وهنا ، أسأل الله سبحانه وتعالى ، أن يجعلنا جميعًا وسائر المؤمنين ﴿مَعَ
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ .

المحاضرة الرابعة والتسعون بعد المائة

الصدق ومزية التحلي به

مقدمة:

انطلاقاً من قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] .

الأمر بالتقوى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، «اتقوا الله» التقوى عمل تحت مظلة وقاية ، التقوى اسم الوقاية والعمل تحت الوقاية ، عمل مع الوقاية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، امثلوا أمر الله ، راقبوا الله بامثال أمره وتجنب حدوده لتكونوا في الدنيا من أهل ولايته وطاعته ، وتكونوا في الآخرة مع الصادقين . راقبوا الله بامثال أمره على قدر الاستطاعة ، وتجنبوا حدوده تجنباً تاماً . ليتفق الكلام مع قول الرسول ﷺ : «فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١) . اتقوا الله ، عمل تحت مظلة وقاية ، نعم ، لأن القرآن الكريم يأمر بتقوى الله .

كونوا مع الصادقين:

يأتي بعد الأمر بتقوى الله ، أمر بشيء هام: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، يعني راقبوا الله وانضموا لمعية الصادقين ، ولذلك نظائر

(١) سبق تخريجه .

كثيرة في القرآن الكريم ، لأنه بمراقبة الله قبل العمل نتقن العمل ونحسنه فنصل بذلك إلى درجة الإحسان ، وهي أعلى درجة في الإيمان ، راقبوا الله فأتقنوا أعمالكم ، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، كما في الآية الكريمة : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] ، يعني راقبوا الله وقولوا الكلمة الصائبة التي تصيب الهدف ، وتسد نوافذ الشيطان وثغرات الشيطان : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال : ١] ، راقبوا الله وأصلحوا أموركم فيما بينكم . ليكون الإصلاح نافعا ناجعا ، ذلك ما جاء في الآية الكريمة : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر : ١٨] ، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء : ٩] ، قولا صائبا ، يسد ثغرات الشيطان ، ويحسن التفاهم بين الورثة . إذن الأمر بتقوى الله ، ويعقبه أمر آخر بشيء هام ، فيكون معنى تقوى الله هنا : مراقبة الله ﷻ قبل العمل .

من الصادقون :

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، من هم الصادقون؟ كلنا نعرف أن الصدق ، هو مطابقة الكلام للواقع والاعتقاد معا ، والصادقون هم الذين إذا حدثوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا ما وعدوا ، وإذا عاهدوا وفوا بعهودهم . هذه معان واضحة . . ولكن منهجية القرآن الكريم ، أنه لا يأتي بالأمر بالصدق ، اصدقوا ، لا ، لأن الأمر تهرب منه النفس ، ولكن في منهجية القرآن الكريم أنه ينصب المثل العليا والنماذج الكريمة ويأتي عنها

صدق الوعد . وخاصة إذا حدثنا عن آبائنا ، على طريقة حدثني عن آبائي فإذا أردت أن أحدثك عن آبائك اشأبت عنقك ، وأنصت أذنك وانتبهت ، وانقاد الإنسان إلى مجد آبائه بجاذبية لا يشعر بها .

لفت النظر إلى بلاغة القرآن :

الله ﷻ عندما أراد أن يأمر المسلمين بصدق الوعد لم يقل لهم اصدقوا وعدكم ، وإنما قال : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [٥٤] وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿ [مريم : ٥٤] ، وإسماعيل جد العرب ، والإنسان يعتز بمجد آبائه ، وبهذا تنجذب النفس إلى تقليد هذا المثل الأعلى سيدنا إسماعيل في صدق الوعد .

الصدق أولى بالاتباع :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، الصادقون اسم فاعل يدل على ذات حدث منها الفعل ، فهي من المشتقات ، قال علماء الأصول : تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بالعلية ، أي اتقوا الله وكونوا مع الصادقين لأنهم صادقون ، بصرف النظر عن طائفتهم ، أو نزعاتهم أو بلدهم ، وبصرف النظر عن مرتبتهم صغيرا كان الصادق أو كبيرا ، فالصدق أولى بالاتباع ، والحق أحق أن يتبع : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، أي لأنهم صادقون ، فالصدق يجمعنا ويجمع معيتنا على أساس متين .

بين أفلاطون وتلميذه أرسطو :

كان أفلاطون الفيلسوف اليوناني يرى حكم الظن بالمعرفة وأهل المعرفة ، فأراد أن يكون المدينة الفاضلة من أهل المعرفة ، ويجعل الرأي فيها لأهل

المعرفة ، ولكن التجربة لم تنجح على كل حال لأسباب ، وجاء بعده تلميذه أرسطو فلم يعتمد على المعرفة وأهل المعرفة ، وإنما اعتمد على التجربة بعد المعرفة ، المعرفة أولا . ثم تجربة أهل المعرفة . وقال أرسطو : إن التجربة هي أقوى الأدلة ، تفرض أنه يعرف كل شيء ، ولكن أين التجربة؟ إن التجربة هي التي تحكم . فلما قال أرسطو ذلك واعتمد على التجربة بعد المعرفة قالوا له : لقد خالفت أستاذك أفلاطون . فقال أرسطو : أستاذي صديقي . والحق صديقي ، فإذا تنازعا فالحق أولى بالصدقة .

معية الصدق هي التي تجمعنا :

على هذا الأساس نرى أن المعية مع الصادقين هي التي تجمعنا ، وهي التي تؤلف بيننا ، بشرط أننا نكون صادقين لنؤهل أنفسنا للاندماج والمعية مع الصادقين . وهكذا قرأها ابن مسعود : « اتقوا الله وكونوا من الصادقين » ، يتأولها على ترك الذنب أولا ، حتى نؤهل أنفسنا لكون في معية الصادقين : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، لتزيدوا عددهم ، ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، لتتشروا الثقة بين الناس ، ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، لتكثروا سوادهم . فمن كثر سواد قوم فهو منهم ، وإذا انتشرت الثقة بين الناس جاء السعد ، وجاء الرخاء .

بعض المعاني البلاغية في الآية :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، كلمة «مع» ظرف ، ولكن له معان متعددة ، كلها تقتضي المعية . تكررت في القرآن أكثر من مائة وسبعين مرة ، وكلها ترفث أي تطلب المعية ، معية إنتاج ، كما تأتي بأوكسجين وهيدروجين فيتكون منهما عنصر آخر ، غير الأوكسجين وغير الهيدروجين ،

هو الماء . نسبة واحد على اثنين ، وعلى هذا نجد أن القرآن جاء بالمعية في القرآن بلفظ مع أكثر من مائة وسبعين مرة ، لفظ مع ظرف ، يقتضي معنى الاجتماع والارتباط والتناصر ، والمعية العملية ، مع ظرف يقتضي الاجتماع ، زمانا أو مكانا أو رتبة ، تقول : ولدا معا في يوم واحد . هذا ظرف زمان ، هما معا في الدار ، ظرف مكان ، هما معا في مرتبة عالية . هذه الرتبة . بيان معنى الرتبة . مع ظرف يقتضي التعاقب والاتصال السريع : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥] ، لأنه ليس من المعقول أن يجتمع اليسر والعسر في لحظة واحدة عند شخص واحد ، وإنما أراد الله ﷻ أن يقول لنا : إن اليسر يعقب العسر مباشرة . بارتباط واتصال وتعاقب سريع .

المعية تقتضي النصر:

مع ظرف يقتضي النصر للمضاف إليه . حين تقول «أنا معك» يعني أنصرك . ومع ظرف يقتضي النصر لما بعد مع : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] معي يهديني وينصري : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، المعية هنا ، المراد بها النصر . الله معهم ؛ ينصرهم حتما . فمع ، تقتضي نصره المضاف إليه ، مع تقتضي المعية العملية ؛ والاتباع ، تقول : «أنا معك» أتبع رأيك ، وأقتدي بطريقتك . أسير على نهجك . هذا معنى ومع تقتضي المعية العملية في ميدان الجهاد : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] ، فالقرآن الكريم في منهجيته يؤكد على المعية أولا . المعية هنا ، تكوين الوحدة والمعية الصادقة هنا في الدنيا ، لتكون المعية هناك فيما بعد في الآخرة .

زمان هذه المعية:

لا تظنوا أن الله يقصد المعية في الجنة ، لأن الكلام لم يذكر فيه جنة ولا نار ، إنما الكلام ، يقصد آيات فيها المعية هنا أولاً . ومن سعد هنا ، سعد هناك ، فالمعية تقتضي المعية العملية في ميدان الجهاد : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ ، ويقول الله تعالى على قراءة حفص : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ، مع النبي ربيون كثير ، علماء ، حكماء ، فنيون ، ربيون تساوي فنيون ، تساوي تربويون ، فنيون في فن القتال . حكماء علماء في فن القتال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ ﴾ ، طبعاً مادام قاتلوا ، لا بد أن يكون هناك شهداء : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا ﴾ ، كلمة مع تقتضي الارتباط والاجتماع ، والاتصال نصره ، والمعية العملية ، فهي معية اندماج وارتباط ، هي معية انتساب كالنسب ، معية تشريف ، معية تكثير لجند الرحمن : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصفات: ١٧٣] .

المعية والشجاعة:

من العجب للظرف مع أن له غريبتين إذا تكررت كلمة «مع» في كلمة واحدة دلت على الشجاعة معمعة ، تقول العرب عن صوت الشجاعة في الحرب «معمعة» ، فإذا اشتدت الحرب سموها «المعمعة» ، فمع معيتها تقتضي الشجاعة إذا طورت .

الإمعة والكيان :

الغريبة الأخرى أن كلمة مع إذا جئنا بجملتها ، وأدجناها في كلمة واحدة . واشتققنا منها على وجه الإفعال ، دلت الذبذبة ، جاء فلان مع ، وإن مال الريح يمينا معه ، وإن مال الريح يسارا معه ، قال الرسول ﷺ : « لا يكن أحدكم إمعة » ، إن قام وجاء فلان معه ، وإن جاء آخر معه ، وإن جاء وقام آخر معه ، أين الكيان ؟ لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس . فالإمعة الذي شأنه أن يقول لكل أحد أنا معك . فقول الرسول ﷺ يحثنا على الكيان . والاحتفاظ بالكيان طولا وعرضا ، ووجودا « لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم »^(١) وعلى هذا المنوال . نزل القرآن في آيات عديدة ، فضح القرآن الإمعة في كثير من الآيات في القرآن : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ، ففضح الله أسرارهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطِئُ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَاهِدًا ﴾ [النساء : ٧٢] وَلَيْنَ أَصَابِكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٧٢ ، ٧٣] .

﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [النساء : ١٤١] ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ [العنكبوت: ١٠] ، فالقرآن الكريم كما أمر بالمعوية ذم الإمعات ، وبين الذبذبة في الإمعات ليفضح الله أسرارهم . وصرف المؤمنين عن هذه الإمعات : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، ارتباطا واندماجا . وانتسابا كالنسب .

شعائر الإسلام كلها معية :

الله ﷻ جعل شعائر الإسلام معية . فنحن في صلاة الجماعة ، في الجمعة ، في العيدين ، في الحج ، معية صادقة . ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧] ، قياما ، يعني نظاما . تقول : قام ، يقوم يعني انتظم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبْتَهُ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم: ٢٥] ، ينتظم أمر السماء والأرض بأمر الله فقام في القرآن يعني انتظم ، وعلى ذلك أيضا يكون الحج أيضا نظاما لشئون المسلمين . فهي معية كاملة إنتاجية إيجابية ، ونحن في الصلاة إذا كنت إماما أقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فأتكلم بنحن ، والمصلي فردا يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فهو يتكلم عن نفسه وعن يوافقه على طريقته . لا يغير الكلام ولا يقول : إياك أعبد وإياك أستعين اهدي الصراط المستقيم ، لأنه يصلي وحده . ولكنه حين يصلي وحده يتكلم باسمه ، واسم من معه من معية الصالحين ، وكذلك في التشهد يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، علينا ، من معك ؟ كل من وافقني على طريقتي .

حديث شريف في المعية :

روى البخاري عن ابن مسعود ، قال : « علمنا رسول الله ﷺ التشهد ، فلما وصل إلى قوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال ﷺ : فإذا

قَلِّمُوها ، أَصاب كل عبد لله صالحا في السماء والأرض : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، مع المعية مع الصالحين ، هي التي ركز عليها القرآن ، المعية ، مجرد تكوين المعية والاندماجية ، مجرد وجود كيان فيهم معية متكاثفة على هذا المنوال .

معية الدنيا ومعية الآخرة :

يقول الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ، ومن يطع الله والرسول ، في أمر يحببه لا في أمر شاق . ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فطاعة الله والرسول ، لا تكلفنا ثمنا باهظا أبدا . إنما هي لأمر يحببنا : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، لم يقل في الجنة ، راقبوا معي أن الآيات التي ستأتي تنتظر المعية في الدنيا ، تكتل على الحق على الصدق ، أما معية الآخرة فهي أمر مضمون . لا شك فيه ، ومعية الآخرة تترتب على معية الدنيا . فلنحسن هنا أولا ، لنسعد هنا أولا . إن القرآن لا يحيل كل شيء على الآخرة ، أيسعد غيرنا ونحن نحال على الآخرة؟ إن القرآن يريد منا أن نسعد هنا وهناك . فلنحقق المعية مع الصالحين هنا ، لنسعد هناك . اسمع الآية لا تجد فيها جواب الجنة : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ، ما أحسنها رفقة ، ما أحسنها اجتماعا ما أحسنها معية ، ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ﴿ ٦٩ ﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴿ [النساء : ٦٩ ، ٧٠] .

المعية وتطهير النفس:

المعية مع الصالحين تحتاج إلى تطهير النفس أولاً ، وبعد ذلك يصلح للانضمام لبنة في هذا الصرح وهذا البناء المشيد ، قال الله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ، هذا استثناء من حالة المنافقين ، حين قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] ، فتح باب التوبة وقال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ ، فبين الله تعالى للمنافقين أنه يمكنهم أن يصلحوا ما أفسدوا ، لينضموا مع المؤمنين ، فلم يقل الله مع المؤمنين في الجنة . إنما وقف عندها وقال : ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . ثم عطف عليها وقال : ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] في الدنيا وفي الآخرة .

المعية تقتضي التبادل:

المعية أمر متبادل ، أقول لك أنا معك ، وتقول لي : وأنا معك ، فالمعية تقتضي التبادل . أما المعية من جهة واحدة لا تفيد شيئاً ، تكون حملاً ثقيلاً على الأعداء . إنما شرط المعية التبادل . يقول الله تعالى للنبي ﷺ : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] واصبر نفسك ، احبس نفسك يا محمد ، وأقصر همتك وتطلعك مع هؤلاء الذين يعبدون ربهم صباح مساء . أراد كفار قريش أن يجعل لهم مجلساً خاصاً ، يتعدون عن السابقين الأولين في الإسلام وليكون لهم زينة في مجلسهم وحدهم فهم النبي ﷺ وكاد أن يوافقهم . وعمر قال لعلهم يدخلون في الإسلام يا رسول الله . فهم الرسول أن يجعل لهم مجلساً خاصاً ؛ فإذا بالوحي بالمرصاد .

المعية والوحي:

إذا بالوحي يبين للنبي ﷺ قبل أن يلبي رغبة الوجهاء من كفار قريش ، جاءه الوحي : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ﴾ ، أي أقصر معيتك مع هؤلاء : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ، يعبدون ربهم ، يريدون بالعمل الذي يعملونه وجه الله ﷻ : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ .

لطائف من الكتاب العزيز:

من العجب أن النهي يوجه إلى عيني الرسول لم يقل ولا تصرف عينيك كأن يكون النهي للرسول . ولكن النهي منصب على عيني الرسول . كأن عيني الرسول إنسان يعقل يتحمل النهي ويمثل الأمر : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ عينك فاعل مرفوع بالألف ، فالنهي موجه إلى عيني الرسول ﷺ ، يا عيني محمد لا تنصرفا عن هؤلاء المخلصين إلى غيرهم ولو كانوا أهل زينة ووجاهة ، فالمعية مع الرسول معية متبادلة ، الرسول معنا ونحن معه ، كما في الآية الكريمة : ﴿ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ، الذين معه من هم الصحابة التابعون؟! الماضي الحاضر المستقبل؟ يشمل كل هذا ، فهي معية ممتدة ، شركة مفتوحة ، أسسها تتسع لكل من دخل في معية الرسول واتصف بهذه الصفات المذكورة في الآية . وفي سورة التحريم : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم : ٨] ، طبعا لا يخزي الله النبي ، هذا أمر معلوم معروف ، لأن النبي محمداً ﷺ سيد الخلق يوم القيامة . «أنا سيد الأولين والآخرين يوم القيامة» «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» ، صاحب اللواء المعقود . والحوض المورود . وصاحب الشفاعة العظمى . صاحب الكلمة المسموعة ، والرجاء المقبول

يوم القيامة فلا يخزيه الله ، فلماذا يبدأ الله به ، ويقول : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨]؟ كأنه قياس إلزامي . فكما أن الله لا يخزي النبي محمدا وأثبت له الفضل كله والكلمة المسموعة ، والشفاعة العظمى ، فلن يخزي الذين آمنوا معه ، ارتباط بالمعية الكريمة ، واتصال بالمعية المشرفة ؛ ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ ، إن معية الصالحين أمل ورجاء . تمناه السابقون قبل هذا .

الحواريون والمعية :

قال الحواريون لسيدنا عيسى : ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٥٢] ، ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٥٣] ، فالحواريون أشهدوا عيسى بأنهم مسلمون ، قالوا : اشهد بأننا مسلمون ، ثم سألوا ربهم أن يكتبهم مع الشاهدين .

أهل نجران والمعية :

إن وفد نجران حين جاء إلى الرسول ﷺ وسمعوا القرآن ، فاضت أعينهم من الدمع لما عرفوا من الحق ، قالوا : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿ [المائدة : ٨٣ ، ٨٤] ، هذا طلب المعية مع الشاهدين ومع القوم الصالحين ، مع الشاهدين من الأنبياء بأنهم بلغوا الرسالة ، مع الشاهدين على المعاندين بأنهم خالفوا ، بدون تعليق أو ارتباط . فالشهادة الصحيحة ركن من أركان العدالة : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، الحواريون يقولون : ﴿ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا﴾ ، إيمان ، فاتباع وبعدها دعاء ، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

المعية مع الصالحين دعاء:

المعية مع الصالحين دعاء علمنا الله إياه في القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ، معهم ، يموت البار فنكون معه ندخل معه القبر ، الأبرار الذين ماتوا قبل هذا؟ أو الموجودون أو من يأتي بعدهم؟ لا . قلت : تقول : أنا معك ، يعني على طريقتك ، لو كان عالما في باكستان وأقول أنا معه ، يعني على طريقته ، على مبدئه ، أسير في مسيرته ، وأتبع نهجه ، فحين تقول ، أنا معك وعلى طريقتك ، فالآية تقول : ﴿ وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ، أي على مثل أعمال الأبرار . لنموت على طريقة هي طريقة الأبرار ، فنحظى بالمكانة التي ينالها الأبرار مع الذاكرين .

حديث قدسي في المعية:

الحديث القدسي الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : «قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، أنا معه إذا ذكرني» . الله ﷻ يعطي معيته وعنايته للذاكرين ، «أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني» .

ذكر الله نوعان ، ذكر باللسان للمبتدئين ، وذكر بالقلب للواصلين ، فالمبتدئون يذكرون الله باللسان ، ويجركون اللسان ليأخذوا القلب معهم ، أما الواصلون ، فإنهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا الله ، وتذكروا رقابة الله . فالذكر إذا نوعان : ذكر باللسان للمبتدئين ، وذكر بالقلب للواصلين . فكل من يذكر الله بلسانه . أو يتذكر الله رقابة واستحضارا فالله معه . وأفاض الله عليه من معيته . حيث قال : «وأنا معه إذا ذكرني» مع

الذاكرين ولو مرة، مع الصالحين عسى أن تنالنا نفحة من نفحاتهم . مع الصالحين ، عسى أن تصيبنا بركة من بركاتهم . مع الصالحين ، عسى أن تأتي ساعة رضا معهم .

حديث شريف في المعية :

روى الشيخان عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر . فإذا وجدوا جماعة يذكرون الله . جلس معهم الملائكة يستمعون الذكر ، ثم يسألهم ربهم وهو أعلم ، ما يقول عبادي؟ فيقولون : يا رب يسبحونك ويقدسونك ويمجدونك ويسألونك الجنة ، ويستعيذون بك من النار . يستغفرونك يا رب ، فيقول الله ﷻ : أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم . فيخرج ملك ويقول : رب ؛ فيهم فلان ليس منهم ، وإنما مر لحاجة فجلس معهم . فليس من الذاكرين ، فيقول الله ﷻ : «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» .

وفي رواية لمسلم ، «فتقول الملائكة الذين حضروا الجلسة ؛ يا رب فيهم فلان ، عبد خطاء ليس منهم ، وإنما مر لحاجة فجلس معهم . فيقول الله ﷻ : وله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» ، فمع الذاكرين ولو مرة ، مع الذاكرين لنفوز بهم ، مع الذاكرين لتنالنا بركاتهم .

الصدق العملي :

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ✽ إن القرآن الكريم ركز على الصدق العملي . إن القرآن الكريم ركز النجاح والفلاح وحصر الفلاح كله في الصدق العملي . أما الأمر بصدق اللسان ، فموجود في التوراة ، وموجود في الإنجيل . موجود في كتب في المدارس ، في التعليمات الأولى .

أما القرآن في منهجيته ركز على الصدق العملي . ولذلك سرد عشر آيات من القرآن الكريم . فيها الصدق العملي ، صدقنا بلساننا وصدقنا في وعدنا ، وصدقنا في عهدنا . هذه انتهت . وخرجنا من الابتدائي إلى ثانوي أول إلى ثانوي ثاني إلى التعليم العالي فنصدق في أعمالنا .

عشر آيات في الصدق العملي : الآية الأولى :

سأسرد عشر آيات من القرآن فيها الصدق العملي . ففي سورة البقرة على قراءة حفص : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، أولئك اسم إشارة ، الذين اسم موصول ، واسم الإشارة معرفة واسم الموصول معرفة . وتعريف الطرفين يؤذن بالقصر والحصر ، يعني هؤلاء هم الصادقون وحدهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ ، الصابرون في البأساء والضراء ، وحين البأس ، عند الشدائد . صبروا ووقفوا . وحفظوا كيانهم وما فضحوا أنفسهم . وما أضاعوا أسرارهم وما هتكوا حجابهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] . هذه واحدة .

الآية الثانية :

في سورة الأحزاب : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٧، ٨] المذكورون في الآية : الأنبياء ، المرسلون ،

وأولو العزم من الرسل . سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وسيدنا نوح وسيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى وسيدنا عيسى . حتى الأنبياء المرسلين ، حتى أولو العزم من الرسل يسألهم الله عن صدقهم ، لقد صدقوا ، واعترف القرآن أنهم صدقوا ، ﴿لَيْسَ لَكَ الصِّدِّيقِينَ﴾ ، قلت : إن اسم الفاعل يدل على ذات حدث منها الفعل ، الأنبياء صادقون ، أولو العزم من الرسل صادقون ، ذات اتصفت بالصدق ولكن مع هذا الصدق ، يسألهم الله ، ليسأل الله الصادقين بلسانهم عن تحقيق أعمالهم ، تنفيذاً ، وتطبيقاً ، وسلوكاً ، ومتابعة ، وتأيداً ، ودعوة ، وتحديثاً ، ويبدئون بأنفسهم ، ليسأل الصادقين عن صدقهم تنبيهاً على أنهم لا بد في الاعتراف بالحق من تحري تحقيقه صدقا وعملا وتأيدا تنفيذا ، وحسن تطبيق . لا بد من تأييد الحق متابعة ؛ وراءه . لا بد أن تمشي وراء الحق بالمتابعة حتى يصل الحق إلى أصحابه . وبهذا نرى أن الصادقين الأنبياء ، المرسلون ، أولو العزم من الرسل يسألهم الله ﷻ .

الآية الثالثة:

في سورة الأحزاب : ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (١٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴿[الأحزاب : ٢٣ ، ٢٤] ، من المؤمنين رجال نزلت هذه الآية بعد غزوة الأحزاب . ووقف المسلمون رجالا عند الخندق يدافعون عن الإسلام . ووقفوا في أماكنهم ، فلم يتزحزحوا ونصروا الحق وهزموا الباطل . ونصرهم الله وأيدهم . فنزلت الآية تحكي عن رجولتهم : ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ، عاهدوا الله على نصره الإسلام بألستهم ، فصدقوا بتنفيذه تطبيقا عمليا ، فوقفوا في أماكنهم ثابتين ، بأعين يقظة ، وأذان يقظة ، ووقفوا ، ودافعوا عن حوزة الإسلام ، فسماهم الله رجالا صادقين : ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ .

معنى قضى نحبه :

لا تظنوا أن قضى نحبه ، يعني مات ، لا . أصل النحب النذر ، قضى نحبه : أدى نذره ، أدى واجبه ، أدى الذي عليه . بدليل أن الرسول ﷺ أشار إلى طلحة بن عبيد الله ، بعد غزوة الخندق بزمان وقال : « هذا ممن قضى نحبه »^(١) ، وكان طلحة يعيش ويمشي على الأرض . وعاش بعد الرسول ﷺ مدة ، ولكن قضى نحبه ، يعني أدى واجبه : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ ، أدى واجبه ؛ ووقف مكانه ، وأدى الأمر الموكل إليه بأمانة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ﴾ ، والباقون الذين لم يؤدوا واجبهم ، ينتظرون دورهم ، ليؤدوا واجبهم ويشفوا صدورهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ﴾ لا الذين ماتوا فقط في عداد الموجودين . ولا الذين استشهدوا فتوا في عضد الموجودين أو ضعضعوهم ، ولكن موت الشهداء قوى وحفز الموجودين : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ : أي تبديل كان ، النكرة تفيد العموم . وما بدلوا أي تبديل كان : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ ﴾ ، صدق عملي ، وقف في ميدان الجهاد ودافع عن الإسلام : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ .

الآية الرابعة :

يقول الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] ، من الذي جاءنا بالصدق ، سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، والذي جاء بالصدق ، وصدق به ، سيدنا محمد جاء بالقرآن ، وطبقه تطبيقاً ، وحُسن تطبيق ، تنفيذاً عملياً ، سلوكاً ، متابعة ،

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٢) ، وابن ماجه (١٢٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

﴿جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ ، وطبقه على نفسه أولاً وعلى أعز أقاربه ، على فاطمة ابنته ، على أهله الأكرمين ، نفذ التعليقات عليهم . فهو الذي جاء بالصدق وصدق به ، جعل المبتدأ بالذي ، والخبر بالجمع ، لماذا؟ أولئك هم المتقون ، لماذا؟ ليدلنا الله على أن كل من اتبع الرسول ﷺ فهو معه . فالمشروع جاءوا بالصدق ونفذوه حسن تطبيق . وتنفيذا وسلوكا ، وبدءوا بأنفسهم يدخلون مع الذي ، مع رسول الله ﷺ أهل التشريع ، أهل الأمن ، أهل الأمانات جاءوا بالصدق ، ونفذوه ، تطبيقا وعملا وسلوكا ومتابعة . هؤلاء يدخلون في معية الرسول ﷺ ، فجاء المبتدأ مفردا ، والخبر جمعا ليقول : هلم معي : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ ، نفذه تحقيقا وسلوكا .

الآية الخامسة :

في سورة الحجرات : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات : ١٥] إنما : أداة حصر ، يعني ما المؤمنون إلا الباذلون المضحون : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ، تعريف الطرفين يؤذن بالحصر .

الآية السادسة :

وصف الله المهاجرين الأولين بأنهم هم الصادقون : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر : ٨] ، فلا يكفي في عمق الإيمان أن

يكون إيماننا هنا بدون بذل أو تضحية، فالمهاجرون الأولون بذلوا وضحووا بأموالهم وأنفسهم، فلا يكفي في وصف الإيمان بالعمق أن نقول: إيمانه عميق في قلبه؛ إنما لابد أن يخدم العقيدة بالتضحية والبذل.

الآية السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، قدم حركة، لأن الحركة بالقدم. فما معنى هذا؟ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾. قدم معروفة وقدم صدق، كيف؟ قال المفسرون: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي منزلة كريمة عند ربهم. قدموها بصالح أعمالهم وصادق أفعالهم. فعبر الله بالقدم لأن القدم تشير إلى الحركة. فهي صدق بالعمل والحركة. ليس صدق القاعدين الكسالى، وليس صدق من رفعوا أيديهم وكفى. إنما هي حركة في سبيل تأييد الدعوة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولكن قال عند ربهم، فهم يوم القيامة أمام الله، على أرض ثابتة وبأقدام ثابتة، لا زعزعة، ولا لجلجة، ولا رعدة، ولا رعشة، ولا اصطكاك أسنان، ولا رعدة الفرائص. ولكن يقف أمام الله بأقدام ثابتة. قدم صدق، بالصدق الذي صدقوه في الدنيا، وقفت أقدامهم ثابتة أمام الله عالي الهامة، مرفوعي القامة، مفتوحي العينين، ثابتي الأعضاء، أقدامهم ثابتة لا لجلجة، ولا لعثمة، ولا رعشة، ولا رعدة أمام الله، لأن الصدق الذي قدم لهم هذا المنزل الكريم، ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩].

الآية الثامنة:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، هذا

عمل ، حركة ، حركة في الصدق ، صدق عملي : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ، روى الترمذي عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية على النبي محمد ﷺ وهو في طريقه في الهجرة إلى المدينة : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي ﴾ انظر إلى القرآن وحسن تعبيره : هو اتجاهه للمدينة ، فجاء بالاتجاه أولا : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي ﴾ (من مكة) ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ، وقد حقق الله هذا الدعاء ، فدخل المدينة ، وأدخله الله المدينة مدخل صدق ، فأسس الدعوة ، وربى رجالا ، وكون أبطالا ، وثبت قواعد الإسلام ، وقواعد الإسلام راسخة متينة . فكان إدخال الله إياه المدينة مدخل صدق : ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ، هاجر الرسول من مكة فلم ينشروا له صحيفة اتهام قط ، وعاد إلى مكة يوم الفتح فلم يعيروه بغلظة أو هفوة في تاريخه قط . فكان دخوله المدينة ، دخول صدق بفعل الله . وخروجه من مكة ، خروج صدق بفعل الله ﷻ .

الآية التاسعة :

يقول الله تعالى في سورة الشعراء ، من دعاء سيدنا إبراهيم يقول : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، لسان صدق ، يعني ثناء عاطرا من بعدي كان بإمكانه أن يقول : « واجعل لي ثناء عاطرا » بدل لسان صدق ليبين الله ﷻ أن المراد ثناء في موضعه ، وكلاما في مستحقه . ومدحا في موضعه بدون مبالغة أو مغالاة أو تحيز ، ما أخرجنا إلى التاريخ الصادق ، إن الذين وضعوا كتب التاريخ تحيزوا لناحية ما ، ولكن سيدنا إبراهيم يطلب من الله تاريخا صادقا . بدون مغالاة أو تحيز : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ .

كما قال الشاعر :

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نشي وفوق الذي نشي
إذا نحن أثينا عليك بصالح ، كان ثناؤنا في موضعه لا مغالاة ولا مبالغة ،
ولا دوافع الحب التي تجعل الإنسان يغالي في المدح ، ولا دوافع الكره التي تجعل
الإنسان يغالي في الذم ، وإنما هو الثناء في موضعه . فسيدنا إبراهيم ، يطلب
من الله ويقول : ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ، يعني ثناء في موضعه .

الآية العاشرة:

قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ
مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر : ٥٤ ، ٥٥] .

قلت لنا الصديق العملي هذا مقعد صدق ، مقعد والقعود ليس فيه
حركة . قلت قدم تمشي لسان صدق وقلنا التاريخ مخرج صدق ومدخل
صدق وفهمنا لكن ما (مقعد صدق) هذا .

قطعوا الأشواط واستراحوا ، قطعوا الأشواط ومعهم عصا التسيار ،
فقطعوا مرحلة الدنيا في جهاد وكفاح ، ومرحلة القبر والبرزخ بانتظار ،
 ومرحلة الحساب في انتظار لرحمة الله ، حتى وصلوا إلى الجنة ، وقعدوا على
الأرائك ينظرون :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرعينا بالإياب المسافر
تحمّلوها في الدنيا مرارة حتى فازوا بها بحلاوة الآخرة .

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعند اللقاء فالكديصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

قعدوا على الأرائك ينظرون في مقعد صدق . هذا المقعد هياه لهم صدقهم العملي في الدنيا .

بلاغة القرآن في وصفه أحوال أهل الجنة:

حين يجلس الإنسان بعد الشوط البعيد يجلس متعباً ، وكلمة هاء تخرج من الشخص إذا صعد بعد شوط طويل ، تخرج من الإنسان هذه «الها» تنفس الصعداء . وقد حمد المسير اسمعوا كلام أهل الجنة . أول وصولهم في أول لحظة في الجنة ، أول ما وصلوا . أول كلمة تقال حين ندخل الجنة ستجدون في هذه الآية . ها ، ها ، ست مرات . والهاء فيها تنفس الصعداء : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، هذا في وصف دخول أهل الجنة ، الجنة أول ساعة دخولهم : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٤٢] وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْ يَرَوْا الْكَلِمَةَ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٢ ، ٤٣] .

بلاغة القرآن في التعبير بالألفاظ:

في سورة فاطر : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [٢٤] الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٤ ، ٣٥] ، انظروا إلى الجمال الموسيقي في الآية : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ ، حزن أو حزن ، ولكنك لو نظرت في المرأة وقلت حزن لوجدت الشفتين تقلصتا . السكونين اجتماعاً ، وبؤس شكل كلمة حزن تنطق بها فتعطي الوجه منظر البؤس . ولكن الله أراد أن يخفف عن

أهل الجنة ، حتى في ضم الشفتين ، حتى في مظهر البؤس ، حتى في حالة النطق بالكلمة . فغير الحركة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ ، جميل ، حركة جميلة . ربنا سبحانه وتعالى يعطي أهل الجنة حتى خفة النطق واختيار الكلمة في حركاتها ، وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٤] ، هذا صدق عملي . درجة الصديقين هي أعلى درجة ، حين نصل إلى درجة الصديقين نجد أنفسنا وصلنا إلى أعلى مرتبة . ولكن لن نصل إلى الصديقية إلا بعد أن نصدق في قولنا وأعمالنا . وبالصدق العملي الذي سردهنا .

المؤمن ودرجة الصديقية :

درجة الصديقية جاءت في القرآن للأنبياء ، ولغير الأنبياء ، أما للأنبياء فيقول الله ﷻ : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤١] ، ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ [٥٦] وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦] ، هذا وصف الأنبياء : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف : ٤٦] ، فوصف الصديق جاء للأنبياء . فكل نبي صديق ، وجعل وصف الصديقية لغير الأنبياء من الصالحين اسمع الآيات : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] ، والعطف بالواو ، يقتضي المغايرة : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] ، وفي سورة الحديد : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٩] ، فكل مؤمن بالله ورسوله ، إيماننا تاما ، يكون من الصديقين : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم بدأ بالشهداء ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

من هو الصديق:

وأجمعت الأمة على وصف أبي بكر بالصديق . فقالوا : أبو بكر الصديق ،
فالسلف الصالح وكل الأمة أجمعوا على أن أبا بكر هو أبو بكر الصديق .
فوصف الصديقية جاء للأنبياء ، وجاء للصالحين ، فمن هو الصديق ؟
الصديق ، هو الذي التزم الصدق واستمر عليه . نية وقولا وعملا ، وشارة ،
وهيئة ، وتنفيذا وسلوكا . الصديق هو الذي التزم الصدق واستمر عليه ، حتى
ألفه وتعوده . الصديق هو الذي يترك المعاصي مراقبة لله ﷻ ، فلا يفعل
المعصية مهما لمع له بريق الذهب ، ومهما سنحت له الفرص . ومهما ساعدته
الظروف ، ومهما أمكنه أن يتلاعب بالقانون . ومهما أمكنه أن يفر من أعين
العدالة ، فلن يفعل المعصية لأنه يراقب الله تعالى .

طريق الصديقية ترك المعاصي:

قالوا للحسن البصري : إن بالمسجد رجالا يصلون النوافل من الظهر إلى
العصر . فقال الحسن البصري : الصلاة يعملها البر والفاجر . ولا يترك
المعاصي إلا صديق ، فقرأ الآية : ﴿ يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ ، فالصديقية أن
نترك المعاصي مراقبة لله ﷻ ، والرسول ﷺ فتح لنا باب الصديقية لنصل إلى
هذه المرتبة .

دليل من السنة:

روى الشيخان عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الصدق
يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى
الصدق حتى يكتب عند الله صديقا» ، فالصدق يهدي ، يوصل . لأن
الهداية نوعان : هداية إرشاد ، وهداية توصيل بالفعل . فالصدق يوصلك إلى

عمل الخير الواسع إلى البر، والبر يوصلك إلى الجنة . طاعة تدخلني بها جنتك . فالمسلم يبدأ بالصدق بقلبه ، ثم بلسانه ، ثم بالوفاء بوعدده ، ثم في شارته وملابسه ، فيلبس ملابس العلماء ، ويعمل عمل العلماء ، لتكون الملابس صادقة يتزيا بزي الصالحين ويعمل عمل الصالحين ليكون الزي صادقا . شارة رجال الأمن ، ويعمل عمل رجال الأمن لتكون الشارة صادقة . ليكون المسلم في الصدق العملي . لينجو المسلم من هذا الجو ، ومن هذه التيارات . فيصعد في هذا الجو الخانق المحرق في صحراء هذه الرياح والأعاصير . ويخرج منها سليما . فيصل إلى درجة الصديقية .

الصدق طمأنينة :

روى الإمام الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، عن سبط أبي محمد الحسن بن علي ، هكذا لفظ الترمذي قال : عن فلان عن فلان بسنده عن الحسن السبط ، أبي محمد ، الحسن بن علي قال : حفظت من رسول الله ﷺ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة» ، هذه الكلمة وافقت أخلاق الحسن أبي محمد ، السبط الكريم . وافقت أخلاقه فحفظها وهو ابن ست سنوات ، علقت بذهنه . لأنها وافقت هوى في نفسه ، وافقت غرضا في هذه الوراثة الكريمة من بيت النبوة . قال : حفظت من رسول الله ﷺ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة» . دع ما تشك في حله إلى أمر تتيقن حله ، دع ما يزعجك ويقلقك إلى أمر لا يزعجك ولا يقلقك ، دع أشواك الشك والتهم إلى يقين الأمن والأمان .

معنى الطمأنينة الرضا:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»
الطمأنينة الرضا إن الصدق رضا كلمة جاءت في القرآن بمعان منها الرضا،
﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، يعني الراضية ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٨] اجزاء من جنس العمل رضية هنا فرضي الله عنها هناك .
إذن الطمأنينة معناها الرضا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ
أَطْمَأَنَّ بِهِ﴾ [الحج: ١١]، يعني رضي: ﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، يعني راض بالإيمان، فمن معاني الطمأنينة الرضا .
فإن الصدق طمأنينة يؤنس النفس رضا بالحلال ، وقناعة بالمال الحلال
والكسب الحلال . إن الصدق طمأنينة .

معنى الطمأنينة زوال الخوف:

من معاني الطمأنينة زوال الخوف: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾
[النساء: ١٠٣]، إذا زال الخوف فأقيموا الصلاة . من معاني الطمأنينة زوال
الخوف من العدو: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل
عمران: ١٢٦] تطمئن قلوبكم ، لأنه زال الخوف ، سمعتم وعد الله فاطمأنت
نفوسكم ، وهدأت لوعده الله ﷻ ، فالطمأنينة معناها زوال الخوف أيضا :
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، أي يزول قلقها
وخوفها . «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» ، كلمة ريبة اسم هيئة على
وزن فعلة ، واسم الهيئة يدل على الحالة . فحالة الشخص تعطيه هيئة .

الكذب ريبة:

يقولون مشى مشية الضابط ، هيئة ، جلس جلسة المؤدب هيئة فالفعلة

تدل على الهيئة ، فالرسول ﷺ قال : «فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة» ريبة يعني هيئة ، إن الكذاب تلمح الكذب في هيئته ، عيون شاردة ، ويكذب عشر كذبات ليواري كذبه الأولى ، ينام قلقا ، ويمشي متلفتا ، يتكلم ويخشى أن يفضح أمره ، ويكشف سره . فحالته مضطربة «والكذب ريبة» فالريب معناه الإزعاج والاضطراب ، في الحديث الصحيح مر رسول الله ﷺ مع أصحابه فوجدوا ظبيا حاقفا مثل الغزالة صيد جميل ، فتلفت إليه الصحابة ومعهم النبال والسهام وهم مغرمون بالصيد . فقال الرسول ﷺ : «لا يريبه أحد» بهذا اللفظ الجميل . لا يريبه أو لا يربه ، لا ناهية ، لو قلنا لا ناهية إذن يربه مجزوم بحذف العلة ، ولكن الرسول جاء بها نفيا وقال : لا يريبه ، كأن الامتثال قد تم وانتهى ، وأخبر الرسول عن هذا الامتثال ، فجاء الرسول بصيغة النهي أدبا في اللفظ . لم يوجه النهي ثقيلًا على نفوس تحب الصيد وتستعد له . ومعهم النبال وآلات الصيد ، يسرعون إلى صيد هذه الغزال الجميلة وهي الصيد الثمين . . . والنهمة إلى ذلك الطعام سريع ، ولكن الرسول أخبر ، لم يوجه النهي وإنما وجهه إخبارا ، أدبا في اللفظ . وحملًا على الامتثال . فقال : «لا يريبه أحد» لا يزعجه أحد ، فالريب معناه الإزعاج ، والشك والقلق والاضطراب ، فالكذاب منزعج ، فيه شك فيه اضطراب .

المعية عصبية للحق :

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ عصبية للحق ؛ نعم ، عصبية للحق . ما المانع أن نتعصب للحق؟ إن العصبية للحق محمودة مطلوبة ، غيرنا تعصب للباطل ونجح ، ألا نتعصب نحن للحق إذا كنا مع الصادقين فنحن على الحق . ونتعصب للحق فما الذي يضرنا؟ إن الله ﷻ جعل جماعتين ، في الخطاب العام لأولاد آدم .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] ، فهذه جماعة عامة لأولاد آدم . ثم قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ، على نطاق ضيق ، أقل من أولاد آدم على نطاق الصفات المحمودة : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فتعصب للحق .

بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد :

إن العصبية للحق محمودة ، والرسول ﷺ حين كتبوا صحيفة المقاطعة . وخرج بنو هاشم إلى شعب أبي طالب ، انضم إليهم بنو المطلب . المقاطعة كانت لبني هاشم ، فانضم إليهم بنو المطلب . وكان جد الرسول الثاني عبد مناف ، له أربعة أولاد : هاشم ، والمطلب ، وعبد شمس ، ونوفل ، ولكن لم ينضم إلى بني هاشم إلا بني المطلب فقط ، فلما دار الإسلام دورته وكان للرسول غنائم وأمر الله الرسول أن يوزع سهام ذوي القربى اختار الرسول من ذوي القربى ، بني هاشم وبني المطلب .

فجاء أولاد عبد شمس وأولاد نوفل ، فقالوا : نحن منك بمنزلة واحدة . فقال الرسول ﷺ : «إنما بنو هاشم وبنو المطلب في الجاهلية والإسلام شيء واحد ، إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»^(١) . وهكذا كانت العصبية حمية ، ولكنها في الحق فلتتعصب لحقنا ولننضم مع الصادقين ، ولنكون المعية الصالحة هنا ، ليرضى الله بها عنا ، فيجمعنا في معية الصالحين في الجنة .

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٤١٣٧) ، وأبو داود (٢٩٨٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه .

المحاضرة الخامسة والتسعون بعد المائة

الهدف من الوجود

مقدمة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]
ولكن قبل البدء في الدرس ننظر إلى الآية الأخرى التي تشهد بقول الماديين
الدهريين الذين لا يؤمنون بشيء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا
حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾
[الجاثية: ٢٤]. فهذا يشير بالضبط إلى الماديين والدهريين الموجودين اليوم،
الذين ينكرون أن هناك أي شيء غير العالم المادي المحسوس الذي نعيش
فيه. وهذا يخالف معاني الإسلام، لأن في هذه الدنيا نموت ونحيا ولا
يهلكنا إلا الدهر ليس هناك معنى، لا يمكن أن يكون هناك معنى. مع أن
الماديين المعاصرين حاولوا أن يبنوا معنى، ولكن فشلوا كما سألنا إن شاء
الله. لكن الإسلام النزيه يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا
بَطْلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ [الدخان: ٣٨]. فهذا معناه أن هناك
هدفا (فعلا) من الوجود.

الهدف من الخلق للعبادة:

لكن ما هو الهدف؟ الهدف في آية الانطلاق هاهنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. خلقنا للعبادة، وبين أن العمل
أيضا عبادة كما هو في آية أخرى. قال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي

بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ [المالك: ١، ٢]. ليلوكم أيكم أحسن عملا أي أن هناك غرضين يمكننا أن نستنبطهما أو نستخرجهما من الآيتين: العبادة الموجهة لله - مثلا في الصلاة وفي الصيام - وحده خالصة له، والعمل - لصالح في الدنيا بين الناس، هاتان هما الغايتان للإنسان، اللتان يمكن أن نتصورهما ولكن كيف يصل الإنسان إلى هذا؟ هذه الدنيا اليوم التي بسبب الزيادة في عمل الإنسان من المنشآت ومن الدراسات ومن العلوم تفتقر إلى الإيمان الأصيل الحنيف أحيانا.

الإيمان مرتبط بالعبادة والعمل:

الإيمان لابد مرتبط بالعبادة والعمل بحيث كيف نريد أن نعبد أو نعمل بغير الإيمان. فالإيمان أول شيء وأول شرط، كما قال سبحانه وتعالى في صدر سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، فأول شرط في الإيمان هو الإيمان بالغيب، أي أن هناك شيئا غائبا، ومهما نحاول أن نقلل من الإيمان بالغيب هناك شيء من الإيمان بالغيب لا شك ولا بد.

الإيمان درجات:

إن الإيمان درجات، وفي الآيتين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَإِذَا قُلْنَا لَهُمْ تَوَضَّعُوا لِلَّهِ وَقُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿[الحجرات: ١٤، ١٥]﴾ . وفي هاتين الآيتين حدود الإيمان من الحد الأدنى إلى الحد الأكبر .

إن هناك تدرجا في درجات الإيمان : أناس عندهم قدر قليل من الإيمان ، ثم يطيعون الله والرسول ، ولا يحول أو يمنع من جزائهم شيء بسبب أعمالهم . ويجب أن يكون هناك قدر ما من الإيمان كي يعملوا إطلاقا . لكن المؤمنين حق الإيمان ، الصادقين مع أنفسهم في الإيمان هم الذين لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله يزدادون إيمانا ، وقال الله سبحانه وتعالى في درجات الإيمان ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وهذا دليل قاطع على تدرج الإيمان إلى درجات .

حديث قدسي في زيادة الإيمان:

إن المسلم أو الإنسان عموما في كل البشر جميع البشر يستطيع أن يحول وأن يزيد من إيمانه بنفسه . وفي الحديث القدسي قال الله سبحانه وتعالى على لسان النبي ﷺ : «إذا تقرب العبد إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١) . فهذا يدل على أن الإنسان إذا تقرب إلى الله . فإن الله يتقرب منه أيضا .

طرق الإيمان:

نستطيع أن نميز أربعة طرق إلى الإيمان موصوفة في آي القرآن الكريم .

(١) سبق تخريجه .

الطريق الأولى : طريق الفطرة :

هذا شعور تلقائي بوجود الخالق سبحانه وتعالى يكون في وجدان الإنسان وهو يشعر به طبيعياً . قال الله تعالى : ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] . وهذا - ربما - الطريق السهل ، لأن الإنسان إذا وجد الإيمان في قلبه تلقائياً يؤمن وهذا - ربما- أيضاً أعطاه الله وأنعم به على الناس البسطاء المحرومين الذين يؤمنون بسهولة ، لكن الله رءوف رحيم بالعباد ، فيجعل طرقاً أخرى إذا كان الإنسان لا يجد الفطرة في نفسه بسبب أن الفطرة مدفونة في نفسه نتيجة ما تراكم من المدنية وأشياء أخرى .

الطريق الثانية : آيات الخلق :

هناك طريق آيات الخلق وتكاملها مثلاً ، والآيات كثيرة جداً في هذا الباب ، فالله تعالى يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤] . ومن عظمة خلق الله سبحانه وتعالى التكامل .

وأريد أن أشير هاهنا فقط أيضاً إلى أن الإنسان عندما يعيش في الطبيعة ويرى آيات الله في الخلق يرى النجوم والشمس والقمر ، يرى البهائم والخضرة ويرى الريح - الطقس - الجو ، كل شيء ، خصوبة الأرض ، ما شاء الله ، ولكن لما يتمدن يبتعد - ربما- شيئاً ما عن هذه الآيات ، ولكن يزداد علماً من الدراسات العلمية . والآن علمنا في الأحياء يجب أن يزداد عن أي وقت مضى في تاريخ العالم ، فهذا يجب أن يزداد إيماناً لا أن

ينقصنا إيماننا كما هو الحال عند بعض الناس ، يجب أن يزيدنا إيماننا عندما نرى تكامل الخلق وتشابك كل الأشياء بعضها في بعض ، وكل علماء الفكر والعلوم الطبيعية يعتقدون أنهم اكتشفوا مزيدا من الحقائق حتى وصلوا الحدود اكتشفوا مزيدا وراء ذلك .

الطريق الثالثة : آيات النفس :

هناك طريق ثالثة ؛ لأن الإنسان ربما يتعد عن آيات الخلق . هناك آيات النفس ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] وفي أنفسهم أي إن هناك في كل إنسان - طبعاً - جهازاً إيمانياً مستعداً لقبول الإيمان وهذه هي الفطرة . فالإنسان مكلف أن يطلب الفطرة ويبحث عنها في نفسه ، لكن أيضاً الإنسان يمر بتجارب منظمة فيجد هناك من التوازن في الحياة الدنيا ما لا يمكن أن يتصور أنه مجرد صدفة ، لأن الإنسان يجد أن حياته وحياة كل إنسان متكاملة وموجودة لسبب ما . كل إنسان له كفاح معين ، وهذا الإنسان عندما يتأمل هذه الحقائق في نفسه ثم يدركها يؤمن ، وقال الله في هذا الصدد أيضاً : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] الحمد لله رب العالمين .

الطريق الرابعة : كتاب الله :

هناك في الطريق الرابعة قراءة الكتاب ، لأن الله رءوف رحيم بالعباد وبالبشر ، لا يكتفي بهذه الطرق الثلاثة الواضحة ، إنما يوفر أيضاً طريقاً رابعاً ، ألا وهو طريق الكتاب ، ينزل الرسائل على ألسنة الأنبياء عليهم السلام لتكون هدى للبشر وفي نفس الوقت حجة عليهم يوم القيامة ،

وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فهذه هي آيات الإيمان الأربعة .

تقسيم العمل:

يمكننا أن نقسم العمل إلى ثلاثة أقسام :

١- العمل لكسب المعيشة :

هذا هو الحد الأدنى من العمل . وهذا أيضا مشروع في الإسلام كما قال النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده»^(١) فهذا واجب أيضا على المسلمين .

٢- عمل الخير :

إن الإنسان يشيع الخير في الدنيا ، هذا مضمون في الآية أو جزء من آية : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ، وفي أماكن كثيرة .

٣- طلب زيادة العلم :

الشيء الثالث المكلف به الإنسان من ناحية العمل أن يتعلم أن يزداد علما ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] . قال النبي ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» رواه الترمذي . فطبعاً ، العلم هنا المقصود ، العلم في الدين ، ولكن الدين الشامل يشمل جميع مجالات الحياة ، لذلك فإن العلم المشروع

(١) سبق تخريجه .

هو كل العلم وكل التعلم . والآن بعض الناس من ناحية العلوم وإعجابهم بالعلوم يصيرون إلى طريق ناحية عبادة العملية نفسها ، عملية تحصيل العلم من العلوم الطبيعية وغيرها ، وهذا خطأ لأنه لازم علينا أن نعتزف أن العلم محدود . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] فإذا وجدنا في تعاملنا فيه حقائق العلم حاليا نجد مثلا أولا مازالت حقائق الحياة بسيطة : ميلاد ، معاش ، ممات ، هذه حقائق الحياة البسيطة التي يجب أن نعيشها ونعالجها .

الكون محدود والسرعة محدودة:

العلم قد أثبت أن الكون نفسه محدود مغلق ، ثم هناك فيه شيء آخر ، السرعة محدودة ، الإنسان نظريا يستطيع أن يصل إلى سرعة الضوء ، ولكن سرعة الضوء أقصى ما يصل إليه الإنسان . ثم هناك حدود حتى في قدرة الإنسان على اختراق الفضاء : ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

الإنسان وغزو الفضاء:

يقولون : هذا معناه سلطان العلم ، ولكن في الحقيقة - مع أن معلوماتنا توسعت جدًّا عن الفضاء - في نفس حياتي عندما أتذكر كيف كانت الكتب عن الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية في صغري ، وكيف هي الآن بعد الصواريخ التي يبعثونها إلى هناك ، إلى بعض الكواكب ، أشعر باعتزاز أن

الإنسان وصل إلى شيء، لكن في نفس الوقت . ما هي الاكتشافات؟ الاكتشافات أن الفضاء قاحل أجرد ليس فيه شيء، كله مثل القمر، الاكتشاف أن رواد الفضاء الأمريكان أنفسهم عندما وصلوا إلى الفضاء ونظروا إلى الأرض، الكرة الأرضية الحبيبة، وهي مجرد كرة صغيرة، ونفوسهم احترقت بوجود هذه الكرة، جنة الدنيا التي تعتبر كل شيء بالنسبة للإنسان، كل التاريخ حدث في هذه الكرة الصغيرة التي تعتبر مجرد رملة في المجرة. ففي الحقيقة هم شعروا بوجود الله، وبعضهم أصبحوا متدينين على ديانتهم بعد هذه التجربة، هذه الوحدة والغربة التي شعروا بها عندما وصلوا إلى القمر مثلاً فيجب أن نعترف بحدود العلم .

حدود الذكاء والقدرة:

هناك حدود الذكاء والقدرة على تطوير اللغة، هناك من يقول: العقل الصناعي قد وصل لكل شيء فيحل مكان الإنسان، لكن هناك قاعدة . الإنسان غير قادر على خلق ما هو أذكى منه، فلذلك أيضاً هنا حدود، وهناك نشك في أن الإنسان يستطيع أن يخلق آلة تفكر جدياً بطريقة التفكير التي في الإنسان لأن الإنسان جسد وروح وليس جسداً فقط .

حدود الوعي الإنساني وحدود الزمان:

هناك حدود الوعي الإنساني وحدود الزمان، نحن لا نستطيع أن ندرك أكثر من زمن واحد في وقت واحد، لا نستطيع أن نكون في زمانين في وقت واحد وهذا طبعا بسيط، وربما الشخص يسخر ويقول: أتيتنا بماذا؟ لكن أقول: هذه هي الحدود أيضاً على الرغم من بعض القصص الخيالية عند بعض الغربيين تخترق هذه الحدود، لكنها حدود مرسومة للإنسان، فإذا الإنسان له رسالة أزلية أبدية في الأرض .

آية قرآنية تفسر خطأ:

أريد أن أشير هنا أيضا إلى الآية : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] جزء من الآية ، هذه الآية التي تستخدم ذريعة لدى بعض الناس للانهماك في ملذات الدنيا وحتى الانحرافات ، لكن أقول : هذه الآية تظهر في قصة قارون ، وهي موعظة : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ، بينما تكون في الدنيا من أعمال الخير ، وقال قارون في الآية التالية : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨] ، فهناك الموعظة أنك تقول : أنا موجه ضد من يقول : أوتيته على علم عندي ، بل هو نعمة من الله ، نعمة من عند الله ما تعلمنا شيئا .

مخ الإنسان وذكأؤه محدود:

بدأت في هذه الأشياء ، لأن هناك نظريات تاريخية مادية تبني على أساس العلوم الطبيعية ، وهي التي تتحدثى الديانات كلها الآن في الحقيقة ، فنرجع إلى الآية : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] ، يظنون ، لأن مخ الإنسان محدود ، ذكأؤه محدود ، لا يستطيع أن يعي كل شيء في وقت واحد ، فلذلك لا يستطيع إلا الظن في حاجة ، في شيء مثل العلوم والحقائق الكبرى عن الكون .

الكفر كله ملة واحدة:

الإسلام يعتبر من لا يعبد الله يعبد غيره ، ويعتبر الكفر ملة واحدة ، أي إن جميع الدعوات المادية في الحقيقة سواء بسواء أكانت ماركسية أو ما

تدعي شيئاً آخر، وأنها شائعة في معظم الدول غير الإسلامية. فالمسلمون اليوم مكلفون بأعظم رسالة، وهي نفس الرسالة التي كلفوا بها، كل التاريخ، إذ كان هناك مسلمون قبل الإسلام، لأن الأنبياء جميعاً كانوا مسلمين منذ سيدنا آدم عليه السلام. فلذلك، الرسالة دائمة، والكفر أيضاً والشك، والمادية والدهرية أيضاً دائمون. كانوا موجودين أيضاً في الوقت القديم، في التاريخ القديم، فكل إنسان جندي لله في هذا الصراع، صراع مع نفسه، صراع مع الاتجاهات المادية التي توجد حوله. كل إنسان جندي في الصراع، كل إنسان مجاهد وخاصة اليوم. فنحن نجد أنفسنا على خط النار جميعاً في جميع الأماكن بسبب الاتصالات المباشرة الموجودة الآن في العالم، ليس هناك معزل، معقل معزول عن العصر الحديث، يجب أن نواجه العصر الحديث مباشرة.

الإنسانية والتقدم المادي طاغوتا العصر الحديث:

في الحقيقة عندما نحلل الاعتقاد المادي في التاريخ نجد أن هناك طاغوتين أقاموهما، هما الإنسانية والتقدم المادي. وأريد هنا أن أشير طبعاً أن الإسلام يقر بالإنسانية والمعاملات الإنسانية والخير من أجل الله سبحانه وتعالى ومن أجل أمره. والإسلام يقر بالتقدم المادي، ومن يرفض التقدم المادي؟ أذكر مثلاً في هذا عندما كنت في الصعيد المصري في قرية كنت أزورها أحياناً وأحبها لأسباب كثيرة بسبب الأصالة التي وجدت فيها. وأيضاً كنت هناك أنظر إلى النجوم، الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]. وأحب منظر النجوم غير الكهرباء. ولكن الكهرباء دخلت القرية من بعد، فقلت للفلاح ساكن القرية: ألا تفتقد منظر النجوم في

وجود الضوء؟ فقال لي: بل أفقد منظر الضوء عندما تنقطع الكهرباء، فهذا هو الحقيقة.

إن الإنسان دائما يترقى إلى الشيء الأحسن: نور فهذا شيء مفروع منه، فلا أقصد أننا نحن نرفض التقدم، كما يرمينا به - كتهمة - أعداء الإسلام الماديون، لا، لا أقصد هذا. هم يقولون دائما: نحن تقدميون، وأنتم تخلفيون، هذا قولهم، لا، الإسلام دائما يريد الأحسن للإنسان، يطلب الأحسن. لكن عندما نجعل نفس عملية التقدم إلها، ونفس عملية الإنسانية أو نفس وجود الإنسانية إلها، نكون قد أشرطنا بالله ونعوذ بالله من ذلك، لأنهم ينصبون الإنسانية كمفهوم، يقولون في غياب الخالق سبحانه وتعالى: يجب أن يكون فيه رسالة ولا يجب أن يكون هناك استدامة للإنسان لا، أبدا، الأبدية للإنسان، وإذا حدث في يوم أن الإنسانية انتهت، فما كانت رسالتها، ما كانت، فليس هناك رسالة أو معنى، ثم مجرد وجود الإنسانية غير كاف، لأن الإنسان إذن يعيش ويموت، ولا يتقدم إلى شيء أحسن، فليس حياته معنى إطلاقا، فلذلك يجعلون مع صنم الإنسانية صنم التقدم المادي فيقولون: يجب أن يكون التقدم المادي أبديا سرمديا.

مصير الكون عند السوفيت والأمريكان:

هناك كتاب عن الفلك لباحثين: سوفياتي وأمريكي، فالسوفياتي يقول عندما يتناول مصير الكون: الكون حسب قول علماء الفلك ينتشر، لكن ببطء أكثر فأكثر فإما ينتشر حتى يصل إلى حد، يعني ولكن لا ينهار على نفسه، ولكن ينتشر إلى حد ثم ينتشر قليلا قليلا، وإما ينتشر إلى نقطة ثم ينهار على نفسه ويصبح نقطة، فكل شيء ينسحق في هذه الحالة. فيقول السوفياتي: النظرية الأولى صائبة لأن الثانية تتناقض والماركسية بسبب أنه

يجب أن يكون هناك فرصة للتقدم ولا أبدية البشر ، وأين هي موضوعيتكم العلمية التي ادعيتكم ، أين الموضوعية؟ هناك ليس الموضوعية ، هناك القمع ، هذا هو الحال ، حتى الإسلام لما يقطع في هذه المسألة ، لكن الشيوعية أو الماركسية تقطع . ثم العالم الأمريكي يقول : فعلا ، هو من الصعب أن نميز معنى في الكون يسحق نفسه كل ثلاثين ألف مليون سنة أو ستين ألف مليون سنة . فهناك هذه المشكلة ، هذه هي المأزق عند الغربيين مأزق الماديين ، لأنه ليس هناك معنى إلا بهذه الأشياء .

الإسلام يقطع بعودة الحياة بعد فنائها :

إذا نظرنا إلى الكون حولنا وإلى الطبيعة ، وبالمقارنة نرى هناك بعد فصل الربيع والصيف شتاء ، بعد الحياة موت ، إن الأشياء تمشي وترجع ، إذا رأينا هكذا ربما نرجح النظرية الثانية هي أن الكون ينهار على نفسه كما في قول لتفسير الآية الكريمة : ﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] . إن هناك «ن» يعني أول نقطة في بسم الله الرحمن الرحيم ، خصها الله بالقلم عندما بدأ الخلق ، فالخلق انتشر من نقطة واحدة فهذا -ربما- الصحيح- إن علماء الفيزياء اليوم يقولون : الكون - أصلا قبل أن ينتشر - كان بدأ وقطره ستان ضوئيتان أو أربع سنوات ضوئية أو ما أدري . لكن لماذا كان له قطر إطلاقا ، كان نقطة ، وهنا يدخل الدين هنا تدخل المعجزات ، هنا يدخل الخلق من عند خالق العالمين سبحانه وتعالى . ثم يقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٣] يعني أن الله يبدئ الخلق ثم يعيده ، فهذا أيضا ربما يشبه فكرة انتشار الكون إلى حد ما ، ثم انهياره على نفسه مرة أخرى ، فمن ثم نجد أن المسلمين مسرورون جدًا من هذه الحقائق ، ويمكنهم أن يستحملوا أي اكتشافات علمية ، الإسلام باق لكن بالنسبة للنظريات المادية لا .

اعتراض دجولين هاكسلي:

هناك اعتراض آخر على التفكير المادي ، مثلا في كتاب دجولين هاكسلي ، الذي كان بريطانيا ملحدا ، وكان يدعو لما يسمى الإنسانية قال : من لا يخترع اختراعا جديدا فليس له قيمة ولا ذكر ، أي إن كل إنسان - كي يذكر- يجب أن يترك ذكره في الدنيا ، ولكن في الحقيقة هذا يجعل معنى حياة سلفنا- معظمهم وحياة غالبية المسلمين باطلة ليس لها قيمة ، وحياة الإنسان عموما ليس لها قيمة . فإذا نرى أن هذا الرأي رأي رجال صفوة علمية معينة يريدون أن يتفضلوا على الناس ، فنعوذ بالله من ذلك فبطلت النظرية المادية للتاريخ التي تقول : إن الإنسان قد خلق من أجل مستوى معيشة أرفع أو أكثر ترفيها .

هناك - إذن- نظرية إسلامية للتاريخ معاكسة للنظرية المادية ، ويجب على المسلمين الآن أن يكونوا نظرية جديدة .

الإسلام ونظريته السائدة:

النظرية الجديدة تكون أشمل ، لأن الإسلام دين شامل ، يشمل الخلق يشمل جميع البشر ، ويدعو جميع البشر ، فيجب على المسلمين أيضا أن يعتبروا غير المسلمين مسلمين بالانتظار ، أو أناسا ربما يسلمون ، يجب أن يعتبروهم هكذا . وفعلا من انتشار الإسلام في الدول الغربية الآن أشياء لا تصدق ، كيف أن الناس تصبح تسلم ، في نظريتنا نقر الاهتمام بالإنسانية ، إذ الله سبحانه وتعالى اهتم بالإنسانية ، وأحب الإنسان وتفضل عليه بالإنعام ، ثم نقر تحسين ظروف الإنسان كما قلنا ، لكن هناك شيء آخر وراء ذلك وما هو؟

التوحيد هو الرسالة التاريخية للإسلام:

ما هو معنى التاريخ؟ إذا نظرنا إلى التاريخ جميعا نظرة إسلامية نجد أنه التوحيد، إن رسالته رسالة التوحيد، هو التوحيد الموجود في كل حين وفي كل مكان وكل زمان بلا استثناء، ولذلك يجب على المسلمين أن يدرسوا لا التاريخ الإسلامي منذ سيدنا محمد ﷺ فحسب بل تاريخ البشرية كلها، لأن جميع أفراد البشر لهم تاريخ لهم تراث، وكل التراث البشري مشترك فهو كتلة كاملة لا تتجزأ منها الأجزاء، فيجب أن ندرس جميع التاريخ، إذا درسنا جميع التاريخ نجد التوحيد في كل مكان وكل زمان، نجد أولا إرشادات ربنا سبحانه وتعالى في القرآن يدل على وجود التوحيد عند الأنبياء المذكورين، لكن هناك أيضا عندما واحد يدرس، حتى البدائيون الهنود الحمر من قبيلة هوبس ولاية أريزونا يجد عندهم أيضا فكرة التوحيد أصلا، فكرة الخالق أصلا، فإذا ركزنا على الساميين نجد أن هناك كلمة (إل) التي هي اسم الله سبحانه وتعالى موجود في أقدم العصور.

في بداية التاريخ (إل) موجود، في الشرق الأوسط بابل يعني باب الله وحتى هنا بابل باب الله، فكرة الله، وجود الله موجود منذ البداية.

الصراع بين الإسلام والمادية قديم:

هناك تاريخ الصراع بين المادية وبين الإسلام قديما قبل الإسلام عندما كان التوحيد عند بني إسرائيل، وكانوا يحاربون المادية الرومانية.

فآنذاك من ألفي سنة في أيام عيسى عليه السلام كان الوضع أن اليونانيين والرومان يتفضلون على اليهود وغيرهم من الناس المتدينين ويقولون لهم: أنتم مخرفون، عندنا العلوم، عندنا كل شيء حديث، ونحن أيضا أقوى منكم عسكريا،

وماذا بعد هذا؟ وماذا حدث؟ الديانات انتشرت ، الوثنية الرومانية انتهت ، التفكير المادي انتهى في الرومان وأصبحوا نصاري ، ثم أصبح نصفهم مسلمين اليوم ، المسلمون من تركيا إلى المغرب ، ما شاء الله ، كل البلاد نصف البلاد التي كان فيها الرومان ، والنصف الباقي كان هناك النصرانية .

الإسلام والغزو الفكري المادي:

الآن حدث نفس الشيء مرة أخرى ، نفس الشيء ، غزو فكري يترك الإنسان تحت سيطرة غيره ، فهذا لا ينبغي أن يكون ، الإنسان ، المفروض في الإنسان المؤمن المسلم ، أن يطلب تقوية إيمانه ، ويطلب الفطرة في نفسه كي ينفذ رسالته التي كلفه بها الله سبحانه وتعالى ، فهناك اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية نجد نفس الوضع ، المشاكل العصرية في بلد المستهلكين ويقال عليها أحيانا من بعض أهلها : جنة المستهلكين .

الفرد ليس له قيمة في الفكر المادي:

في الحقيقة هناك مشاكل جسيمة بسبب العقيدة المادية المنتشرة ، فهناك مثلا ، عدم وجود الهدف المقنع يجرد الإنسان من كرامته ويشعره بالضيق ، لأن الفرد ليس له أية قيمة في التفكير المادي . فالتفكير المادي يقول : الجماعة ، يقول الإنسانية تدوم إلى الأبد ، إنما الفرد الواحد ليس له أي قيمة .

الإسلام فردي وجماعي:

الإسلام فردي وجماعي في وقت واحد ، إذ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَنُزِرُ أَخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] . وقال واصفا ليوم القيامة : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (١٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (١٥) وَصَدِّيقِهِ

وَبَيْنَهُ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٨﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] أي أن هناك الإنسان يوم القيامة لن ينظر يمينا أو شمالا إلى أخيه أو صاحبه أو أي شيء ، لكن يكون ماثلا بمفرده أمام الخالق سبحانه وتعالى وحده بمفرده ، فهذا معنى أن الدين فردي ، لأن كل إنسان إنما يكسب لنفسه ، وهذه عقيدة غير موجودة على الإطلاق في المجتمعات المادية ، وبالذات ، ليس هناك ما يقمع أو يمنع ارتكاب الجرائم أو أي شيء إن كان هذا عقيدة لبناء مجتمع الإنسان وتوضيح للإنسان في المستقبل ، فما يمنع الإنسان من أن يرتكب جريمة من أن يتعاطى مخدرات أو أي شيء ، خصوصا أي شيء ينسي نفسه الوضع الذي يعيشه ، ثم يجرد الإنسان من استقلاله أيضا ، لأن الإنسان المسلم مستقل يلبي أمر ربنا سبحانه وتعالى ، لكن الإنسان في المجتمع العصري يشعر بالتنافر والتنفير أو النفور بسبب كبر حجم الهيئات التي يشتغل فيها .

الأسرة بين الإسلام والفكر المادي:

المجتمع المادي يحطم فكرة الأسرة في غياب المسؤولية الفردية والأخلاق الحسنة ، فنجد أن الأسرة تتحطم تماما ، لكن الأسرة شيء مهم في الإسلام ، ركيزة الإسلام الأسرة ، وماذا نكون بغير الأسرة وبغير العلاقات الإنسانية بين الناس؟ إنما بعض الماديين لا يفكرون إلا في المزيد من فعالية الإنتاج .

الحرية والضياع في الفكر المادي:

نفس الحرية المنشودة في الغرب أيضا تشعر الإنسان الفرد بالضياع ، إذ أباحوا كل شيء ، فهذا أيضا يشعر الإنسان بالضياع لأنه ليس هناك شيء

أفضل من شيء ، فما هو قسطاس الأشياء؟ وما هو مقياس الأشياء كي يقيس الإنسان شيئا ويقول : هذا الشيء أحسن من الشيء الآخر؟ هذا هو الضياع تماما . فينتج من هذا عدم الوفاء في العلاقات الشخصية ، والزوجية ، وعدم الوفاء إلى المبادئ ، فهذا كله لأي غرض؟ ليس هناك غرض معين .

انتشار الإسلام بين السود في أمريكا:

نجد في الناس الذين ضاعوا هناك من الأمريكان يتجهون - صحيحا- إلى الإسلام ، ويوفون بالإسلام حق الإيفاء . ثم هذه الحركة ربما تنتشر أكثر شيء عند السود في أمريكا ، وهذا شيء ، لأن السود أراذل القول كما يظن البعض - يؤلم بعض المسلمين ، ولا ينبغي أن يكون ذلك ، بل أكرم القوم ، لأنهم المجربون الذين جربوا المر وجربوا الفقر وجربوا الظلم حقا ، بل الأكرمون ، فهذا شيء ممتاز ، وكان كفار قريش أيضا يوجهون نفس التهمة ضد بعض الصحابة ، يقولون : أراذل القوم ، هذا اللفظ ظاهر في المصحف ، إنما اتبعه أراذل القوم . فهكذا يكون هنا على هامش نقطة تاريخية أنى وجدت في كتاب ولا أدري مدى صحة هذا الذكر ، لأن أول أسود أمريكي نشر الإسلام في أمريكا وكان اسمه (نيمرديو) وهو بدأ تقريبا في مطلع القرن ما بين مطلع القرن وسنة عشرين أو قبل سنة عشرين ربما بمراحل قال : إنه كان له وصية من سلطان المغرب لنشر الإسلام في أمريكا .

خاتمة:

الإسلام في الحقيقة يستجيب لحاجة الإنسان ، فنقول في الأخير ، إن المسلم متفائل دائما ، وهذا أيضا ليس مصير المادي ، المادي يجب أن يكون

متشائما ، وحتى إنه لو خادع نفسه أنه متفائل فإنه ليس له شيء فيما بعد ،
لكن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
[الزمر: ٥٣] . فهذا هو الهدف من الوجود في الإسلام والتاريخ : عبادة الله ،
التوحيد ، عمل الخير ، والحياة كلها جهاد لتحقيق هذه الأغراض .

المحاضرة السادسة والتسعون بعد المائة

الزمان بين الحقيقة والمعركة

مقدمة:

إن هذا الموضوع يتمحور حول مفهوم الزمان وهو من أصعب المفاهيم إدراكا واستيعابا، نظرا لما يكتنفه من غموض وإبهام، وما يرافقه من مفارقات قل نظيرها، وكلما حاول الإنسان أن يتناوله بالدرس والتحليل، إلا وازداد ذلك الغموض وذلك الإبهام شدة وعمقا. وما من عالم، وما من مفكر منذ غابر العصور إلى يومنا هذا، إلا وتأمل الزمان وخاض فيه كثيرا. وخلاصة هذه التأملات، تتول إلى النتيجة الآتية:

غموض مفهوم الزمان عند الفلاسفة والعلماء:

إننا لا نعرف عن الزمان - عن حقيقته وطبيعته - إلا نورا يسيرا. ألم يقل أحد الفلاسفة والمفكرين وهو القديس أغستينوس: إنني أدرك مفهوم الزمان طالما لم يسألني عنه سائل. ولكن، عندما أسأل عنه أجد نفسي لا أعرف عنه شيئا.

الماديون والزمان:

نحا هذا المنحى جميع العلماء، ومن بينهم العلامة «أينشتاين» ذلك العالم الذي قضى حياته أكثر من غيره في البحث في الزمان والمكان حيث قال: «إن من الصعوبة بمكان الكلام عن الزمان والمكان، لأننا نحيا ونعيش في كنفهما كالسمك في الماء. فلا السمك قادر على أن يتكلم عن الماء، ولا الإنسان عن الزمان والمكان».

كيف ذلك يا ترى والزمان موجود في أعماق جميع المخلوقات من نبات وحيوان، وحتى السماوية. كيف ذلك والناس يتعاملون معه، صباح مساء، خيره وشره، يتغنون به كلما انشروا في أيام من أيامه، ويتألمون منه كلما أيقظتهم خطوبته، أو أصابتهم خيبة أمل، يتصارعون معه كي لا يمر عليهم هباء منثورا، تارة يغرقون فيه إلى درجة التآليه، كما فعل الدهريون، عندما افترضوا ما ليس بحق بقولهم: «وما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر» وتارة أخرى يسبون ويسبون الدهر، وما كان ينبغي ذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى في هذا الحديث القدسي: «يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»^(١). وتارة أخرى يصبرون نفوسهم على أمره مرددين قول الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا يوم نساء ويوم نسر

لغز الزمان وحيرة العقول فيه:

ألا يعزى كل ذلك إلى هيمنة الزمان على حياتنا وعلى عقولنا وإحساساتنا؟ أليس من المفارقات الغريبة أن تبتعد الأشياء عن إدراكنا، بقدر ما تقترب منا ومن شعورنا؟ ذلكم هو لغز الزمان الذي حير العقول، فلم يجد العلماء والباحثون من سبيل إلا أن يتأولوا طبيعته وحقيقته انطلاقا تارة من المعرفة العلمية، وتارة أخرى من التأمل المجرد.

شكسبير وغموض الزمان:

أليس من الحكمة والحالة هذه أن نقول مع الشاعر والأديب «ويليام شكسبير»: إن البحث في الزمان وفي الليل والنهار، يضع الزمان ويضع

(١) سبق تخريجه.

الليل والنهار ، ولكن من خصائص العقل البشري ألا يدعن للصعوبات وإن فاقت قدرته .

قضايا متعلقة بمفهوم الزمان وجوانبها :

سنحاول بعون الله طرح بعض القضايا المتعلقة بمفهوم الزمان من خلال تحليلنا للآية التي ينطلق منها هذا الموضوع ، وذلك من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : يرمي إلى إبراز نسبية تعداد الأزمنة من خلال المقارنة بين يوم وألف سنة كما جاء ذلك في الآية الكريمة .

والجانب الثاني : يرمي إلى الوقوف عند المقدار الزمني الوارد في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [السجدة : ٤] الآية ، وذلك باعتدانا على المستجدات العلمية .

وفي الجانب الثالث : سنحاول إبراز العلاقة الموجودة بين ثلاثة عناصر :

- عنصر الزمان .
- وعنصر المعرفة .
- وعنصر العمل أو الإبداع أو الخلق . لأجل استخلاص القيمة الأخلاقية الكامنة في مفهوم الزمان .

كل ذلك بعبارات وجيزة ، لأن الموضوع شاسع ، ويضيق عنه درس أو دروس كثيرة ، ناهيك عن الجوانب الفلسفية الأخرى التي تطرق إليها مثلاً الفخر الرازي - حيث ميز بين الزمان الناجم عن حركات الأجرام السماوية ، والزمان الأزلي ، وكذلك المواقف التي عبر عنها الفيلسوف بيركسون عندما نبذ الزمان : الزمان الناجم عن حركات الأجرام السماوية ، وأكد على مفهوم المدة .

القرآن معجزة الزمان الخالدة:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] .

لقد جاء القرآن الكريم بأخبار علمية فاقت كل ما كان عند الإنسان من معرفة وعلم، واستعصى على الإنسان فهمها واحتار السلف الصالح في تأويلها .

وسيظل القرآن الكريم متضمنا لحقائق سوف يصعب على الإنسان إدراك جميع وجوهها، ولعل في ذلك حكمة ربانية، لكي يجد في هذه الحقائق كل جيل من الأجيال بحسب المستجدات العلمية ما على مثله يتقنوا، وما من شأنه أن يفضي بهم إلى الإيمان بالله، فيبقى القرآن معجزة خالدة، لا ينقطع نفاذه مدى الدهر .

مسألة الزمان في آيات القرآن:

يكفي أن نضرب المثال بمسألة الزمان لنرى أن البون شاسع بين ما أخبر به القرآن الكريم، وما كان عند الإنسان من معرفة وعلم إلى حدود القرن الحادي والعشرين ولأجل ذلك سوف أنطلق من أربع آيات :

الآية الأولى : من سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤] الآية .

الآية الثانية : من سورة السجدة كذلك: ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] .

الآية الثالثة : من سورة الحج : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧] .

الآية الرابعة : من سورة المعارج : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] .

لقد آلت هذه الآيات إلى تأويلات كثيرة من طرف العلماء سنحاول تلخيص ما جاء فيها قبل الإتيان ببعض الآراء المتواضعة فيها :

تساؤلات المفسرين عن الزمان في القرآن :

لقد اتجهت أنظار المفسرين إلى تساؤلات كثيرة : منها تساؤل عن وجه تخصيص الألف والخمسين ألف ، وتساؤل عن المقارنة بين يوم وألف سنة ، وبين يوم وخمسين ألف سنة ، وتساؤل عن دلالة اليوم عند الله سبحانه وتعالى .

القرافي وألفاظ الأعداد في القرآن :

أما بخصوص العددين : ألف ، وخمسين ألف ، فيمكن أن ندرج هذا التساؤل في الاستشكال العظيم الذي تركه قائما شهاب الدين القرافي ، في فرقه الثامن والعشرين بعد المائة من فروقه ، والمتعلق بألفاظ العدد أو بألفاظ الأعداد . ذلك أن للأعداد استعمالات كثيرة في القرآن الكريم منها ما هو مجازي ، كقوله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة : ٨٠] أو كقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ [القدر : ١-٣] . ومنها ما هو مستعمل في صريح عبارته كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ .

الأعداد نصوص لا تقبل المجاز:

استشكال القرافي هذا في نظرنا يدخل في استشكال آخر أوسع : وهو المتعلق بطبيعة الأعداد ، وعلاقتها باللغة . ذلك أن اللغة كيفما كانت لا يمكن أن تكون إلا تقريبية . ولا يمكن أن تعبر بدقة مطلقة عن معطيات علمية ، أو عن ظواهر طبيعية ، بينما الأعداد وما ترتب عن ذلك من بنيات رياضية وعلوم طبيعية ، تعبر بدقة لا تقبل المجاز ، لا تترك أدنى التباس من شأنه أن يكون محط اختلاف الأنظار ، فالأعداد كما صرح بذلك شهاب الدين القرافي ، نصوص في معانيها لا تقبل المجاز ، ولا يمكن أن تستعمل في غير موضعها . فالألف مثلا تدل على ألف دون زيادة أو نقصان ، فإن الأعداد ليست من نسج خيال الإنسان أو من المصطلحات حتى يبحث عن وجه تخصيصها كلما وردت في نص ما ، بل فرضت على العقل البشري فرضا إلى أن بات من الضروري أن يكون لها وجود حقيقي في عالم ربما يتعدى عالم المحسوسات .

الأعداد توقيفية:

قال بذلك أفلاطون عندما صرح بوجود هذه الأعداد في عالم سماه بعالم الأفكار ، وتبعه في ذلك كثير من العلماء ومن بينهم العالم الرياضي الألماني «كوميكير» الذي ذهب إلى أبعد من ذلك حيث جزم أن الأعداد من صنع الله سبحانه وتعالى ، وليست من ابتكار العقل البشري . وأصلهم في ذلك اعتقادهم أنه لولا هذا الوجود الحقيقي للأعداد لانهارت أسس العلوم الرياضية ولانهارت معها أسس العلوم الطبيعية ولأصبحت من تعداد المعارف الاصطلاحية ، الشيء الذي يضر بالعلم بطبيعة الحال ، والشيء الذي يفنده الواقع ، ويفنده الالتحام الموجود بين هذه العلوم ،

والظواهر الطبيعية الموضوعية . ولكن الأعداد لما داخلتها لغة المخاطبة وأصبحنا نستعملها مجازاً ، أو تمثيلاً للدلالة على الكثرة الكثيرة أو على القلة القليلة ، داخلها الالتباس والغموض .

الأعداد ألف وما فوقه يدل على الكثرة الكثيرة:

لما كان القرآن الكريم يخاطبنا بلغتنا وبحسب منطقنا ، ولما كان العدد ألف عند العرب يدل على منتهى مراتب الأعداد ، فكان لابد من البحث عما هو مجازي في ألفاظ الأعداد ، وما هو غير مجازي ، ولذلك كان العلماء عند تأويلهم للعديدين ألف ، وخمسين ألف ، يتأرجحون بين الاستعمال المجازي والاستعمال الصريح ، وفي كلتا الحالتين ، استقر رأيهم على أن هذين العددين إنما يدلان على الكثرة الكثيرة الشديدة .

القسم الثاني: المقارنة بين يوم وألف سنة:

قد فرضت في هذه المسألة عدة احتمالات نجملها فيما يلي :

هو أنه تَحْصُلُ في ذلك اليوم من تصرفات الله في كائنات السماء والأرض ما لو كان من عمل الإنسان ، لكان حصول مثله في ألف سنة . فلنا أن نقدر ذلك بقطع المسافات أو بكثرة التصرفات واستطالة نفادها ، أو بشدة العذاب بالنسبة للكافرين ، وكذلك الشأن فيما يرجع لليوم المقدر بخمسين ألف سنة .

وقد قيل إن اليوم المقدر بألف سنة إنه يوم الساعة ، وإن اليوم المقدر بخمسين ألف سنة هو يوم القيامة . وقد أطلق البعض على اليوم الأول اسم يوم الربوبي ، وعلى اليوم الثاني اسم يوم الإلهي أو يوم المعارج .

هذه جملة لا تفصيلاً ما جاء في أقوال المفسرين .

آراء في مسألة الزمان:

ذلك أن هذه الآيات تدل دلالة واضحة على نسبية الزمان ، وعلى أن الزمان بالنسبة للمتقلين بين السماء والأرض يتأثر بسرعة ذلك المتنقل . فإنها تبين بأن من يتنقل بين السماء والأرض بسرعة ما ، يكون تسلسل الزمان عنده أقل من تسلسل الزمان على الأرض ، والمتنقلون هنا هم الملائكة الذين يحملون أمر الله إلى الأرض ثم يعرجون بنتيجة تصرفات البشر ليرفعوها إلى علم الله سبحانه وتعالى أو ليضعوها في اللوح المحفوظ ، كما قال بذلك جمهور المفسرين . وهذه المعاني التي ألمحنا إليها تجد كلها تفسيراً واضحاً ومنطقياً في إطار العلم الحديث ، انطلاقاً من نظرية النسبية . وقبل الشروع في بيان ذلك ، لابد من الإشارة إلى أن هذه الأخبار التي تضمنها القرآن الكريم في اختلاف الأزمنة ، قد فاقت كل ما كان عند الإنسان من معرفة وعلم في هذا الميدان . بحيث كان العلماء والمتتبعون للعلم يعبرون أن الزمان مطلق ، وأنه لا يتأثر بسرعة التنقل من مكان إلى مكان . فأعمال جليليلو ونيوتن وغيرهما من علماء القرن التاسع عشر أو قبله ، تنطوي على هذا المعنى ، ومع مطلع القرن العشرين أصبحت شيئاً فشيئاً تبلور فكرة نظرية النسبية عند العالم الفرنسي «ريمون بوان كاري» ، الشيء الذي ساعد أينشتاين على وضع نظرية النسبية .

نظرية النسبية الحديثة:

خلاصة هذه النظرية هي أن من يتنقل بين السماء والأرض بسرعة ما ، يكون تسلسل الزمان عنده وبالنسبة إليه أقل من تسلسل الزمان على الأرض ، وهذا التسلسل ، تسلسل الزمان بالنسبة للمتنقل ، يزداد بطناً

كلما ارتفعت السرعة ، مع العلم أن أكبر سرعة ممكنة هي سرعة الضوء ، وتعادل ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة ، ولا يمكن لأي جسم مادي أن يعادها ، أو أن يفوقها في تحركه ، ولتتضح لنا هذه الآيات ، نعطي مثالا بسيطا ، ذلك إذا افترضنا أن بالإمكان إرسال مركبة فضائية من محطة أرضية ، تسير بسرعة فائقة تقترب من سرعة الضوء ، وبداخلها ساعة من ساعاتنا ، فبعد مرور شهر على ذلك الإرسال وبتوقيت الأرض لم تشر ساعة المركب إلا إلى مرور ساعتين فقط . ولقد جاء في هذا السياق مثال مشهور ، أطلق عليه العلماء اسم مفارقة التوأمين نصوغه كما يلي :

مثال مشهور في النسبية :

ذلك إذا افترضنا أن لنا توأمين : عمر وزيد فلما بلغ أشدهما ، امتطى عمر مركبة فضائية تسير بسرعة فائقة تقترب من سرعة الضوء وبداخلها ساعة من ساعاتنا . فبينما هي سائرة في هذه السرعة الفائقة ، فإذا بزید الذي لم يغادر الأرض يشاهد هذه المركبة وكأن كل شيء بداخلها قد يمر ببطء كبير جدا ، فعقارب ساعة المركبة تدور ببطء كبير جدا ، قلب عمر ينبض ببطء كبير ، حركاته ، كل شيء داخل المركبة يبدو وكأنه يمر ببطء كبير . بينما عمر الذي يوجد بداخل المركبة ، لا يلاحظ أي شيء من هذا القليل ، ولا يشعر بأي تغيير لا في نبضات قلبه ولا في دوران عقارب ساعته ، ولا في حركاته وسكناته ، بل كل شيء لديه عادي ، فبعد قطعه لمسافة تقدر ببعض الآلاف من الملايير من الكيلومترات ، ورجوعه إلى الأرض يلاحظ أنه مر على الأرض ، وبتوقيت ساعة الأرض مرت عليها مائة سنة بينما لم تشر ساعته إلا إلى مرور ثلاثة شهور ، إن هذا المثال ليس ضربا من ضروب الخيال ، أو مقتبسا من رواية ويلس أو جولفيرن

الخيالية، وإنما هو تبسيط لنظرية النسبية التي أكدت صحتها مختلف التجارب العلمية التي قام بها العلماء داخل المختبرات وخارجها، ناهيك عن الاعتبارات أو الدلائل النظرية القاطعة.

آية الحج وتفسير الزمن بها:

استنتاجا مما سبق يتبين لنا أن الفرق الظاهري بين يوم، وألف سنة كما ورد في آية السجدة وآية المعارج أما آية الحج فنخصها بتحليل آخر - أن الفرق الظاهري بين يوم وألف سنة، إنما هو ناتج عن سرعة الملائكة، ذلك أن المدة التي تقضيها الملائكة لقطع مسافة ما وبسرعة ما يكون أقل من المدة التي تدور على الأرض أثناء ذلك التنقل للملائكة، فما هي يا ترى هذه السرعة؟ وما هي المسافة التي قطعها الملائكة؟ وكذلك الشأن فيما يتعلق بالمقارنة بين يوم وخمسين ألف سنة، كما ورد في سورة المعارج.

سرعة الملائكة وسرعة الضوء:

فإذا اعتمدنا نظرية النسبية يمكن معرفة هذه المسافة وهذه السرعة. وعند تحليلنا للمعادلات التي تتضمنها هذه النظرية، وجدنا أن سرعة الملائكة، تعادل تقريبا سرعة الضوء، بحيث الفرق بين سرعة الملائكة وسرعة الضوء، لا تفوق ميليمترين في الساعة الواحدة مع العلم أن سرعة الضوء تعادل مائة مليون كيلومتر في الساعة. فميليمترين شيء قليل جدا، لذا يمكن أن نقول: إن الملائكة تنتقل بسرعة الضوء، وهذا شيء غريب عجيب، لأنه بمقتضى نظرية النسبية لا يمكن لأي جسم مادي أن يعادل هذه السرعة، أما المسافة التي تقطعها الملائكة فهي مسافات كبيرة جدا، لا يمكن للعقل أن يتخيلها بحيث تقدر بأربعمئة وخمسين مليارا من

الكيلومترات . وهي مسافة كبيرة إذا أريد قطعها بالسير العادي للبشر لتطلب ذلك مئات الملايين من السنين ، خلافا لما صرح به المفسرون ، عندما افترضوا إمكانية قطع هذه المسافة في ظرف خمسين ألف سنة بل المدة المطلوبة تفوق خمسمائة مليار سنة .

معنى اليوم في آية سورة الحج :

أما فيما يرجع للآية الواردة في سورة الحج : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧] . فإننا نرى والله أعلم خلافا عن الآيتين الواردتين في سورة السجدة وفي سورة المعارج ، أن هذه الآية تدل والله أعلم على نسبية الاستعجال ، ذلك أن الكافرين كانوا يسألون رسول الله ﷺ بتعجيل العذاب تهكما منهم بالمسلمين وكناية عن يقينهم بعدم حصوله لا في الدنيا ولا في الآخرة . فنبه الله سبحانه وتعالى أنه لا مبدل لقضائه ولن يخلف وعده ، وأن استعجال البشر ليس شيئا يذكر بالنسبة لاستعجاله هو فإذا كانت ألف سنة لا يقابلها إلا يوم عند الله سبحانه وتعالى فما قيمة سنة ، أو شهر أو يوم أو ساعة من أيامنا؟ لا شيء فإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة يتبين لنا أن اليوم من أيامنا لا يصل عشر معشار لمحبة بصر عند الله سبحانه وتعالى ، معنى ذلك أنه إذا أراد أن يستعجل بحدوث شيء لكان ذلك يفوق أكثر ما يمكن أن يتخيل الإنسان . ولكن لن يخلف الله وعده ، ولا مبدل لقضائه .

القسم الثالث :

أننتقل مباشرة إلى القسم الثالث ، لنقف وقفة تأمل عند المقدار الزمني الوارد في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي

سِتَّةَ أَيَّامٍ ﴿ نستخلص العبرة أو القيمة الأخلاقية الكامنة في مفهوم الزمان . وهذه القيمة سوف تتجلى من العلاقة الموجودة بين ثلاثة عناصر .

١- عنصر الزمان .

٢- وعنصر المعرفة .

٣- وعنصر العمل أو الإبداع أو الخلق .

استشكال تصور الزمان :

سوف ننطلق من استشكال عظيم ، جاء به العلماء المحدثون : وهو المتعلق بمعرفة ما إذا كان للزمان اتجاه أو لا؟ أو بعبارة تشبيهية أخرى ، هل التاريخ يعيد نفسه أم لا؟ ذلك إذا أمعنا النظر في مفهوم جوهر الزمان ، يفرض علينا ذلك التأمل تصورين اثنين للزمان مختلفين كل الاختلاف .

التصور الأول : يجعلنا نميل أن الزمان يمر بدون انقطاع ويتجه من الماضي إلى المستقبل مروراً بالحاضر ، كقطار يسير بدون انقطاع وبدون توقف وبدون رجعة إلى الوراء . تصور يفرضه علينا إمامنا الراسخ بالعلاقة الموجودة بين بداية كل شيء ، ونهايته بين الحياة والموت ، إمامنا الراسخ بأن كل شيء بدأ لا بد أن ينتهي ، ولا يمكن للزمان أن يعود به إلى سالف عهده .

التصور الثاني : يخالف للتصور الأول من حيث لا يوجد للزمان فيه ماضٍ ولا مستقبل بل زمان دَوْرِي يعيد نفسه ويفرضه علينا طلوع الشمس كل صباح ، وغروبها كل مساء ، يفرضه علينا تعاقب الليل والنهار تعاقب الفصول الأربعة وعودتها بانتظام . فأَي هذين المحملين يعكس طبيعة الزمان؟

التصور الثاني ومبدأ الحتمية العلمية:

مسألة اختلف فيها العلماء طرائق قدداً فالتصور الثاني الذي يوحى بعكسية الزمان وعدم اتجاهه ، تعكسه المعادلات التي تترجم تقريباً جميع قوانين الطبيعة ، والذين تشبثوا بهذا التصور ، إنما كانوا متشبثين بعلم رواه العلماء منذ القرن التاسع عشر ، ورواه بعض العلماء من القرن العشرين . ذلك المتمثل المتجسم في مبدأ الحتمية العلمية التي تقتضي بالضرورة عكسية الزمان ، وعدم اتجاهه . ليتأتى للعالم عندما تتطور وسائله التقنية ووسائله الحسابية أن يتمكن من معرفة ماضي الكون ، والتنبؤ بمستقبله ، انطلاقاً من معرفة حاله ، هذا هو مبدأ الحتمية العلمية كما جاء بها العلماء .

التصور الأول يقضي على الحتمية العلمية:

أما التصور الثاني الذي يوحى باتجاه الزمان وعدم رجعته ، فتعكسه العلوم التي تعنى بالحرارة ، علوم السييرناتيك التي تعنى بالمعلومات أو بعلاج المعلومات ، والقول باتجاه الزمان ، يعني القضاء على مبدأ الحتمية العلمية . وقد أقامت هذه العلوم - العلوم التي تعنى بالحرارة وعلوم السييرناتيك - أقامت الدليل على اتجاه الزمان . ذلك إذا شاهدنا نسقا ماديا - ويمكن اعتبار الكون بمثابة نسق مادي - فنلاحظ أنه ينتقل من حال إلى حال أكثر اضطراباً منه ، ويقيس علماء السييرناتيك حال نسق مادي بقيمة عددية اصطلاحوا على تسميتها بالقصور المعرفي ، وهذا القصور المعرفي لا يستقر على قيمة معينة بل ينخفض باستمرار مع مرور الزمان ، فلما كان انخفاض القصور المعرفي مستمراً مع مرور الزمان ، ولما كان لا يمكن أن يستقر على قيمة معينة ، ولا يمكن أن يعود إلى قيمة سالفة

فكان ذلك حسب العلماء كان ذلك دليلاً على اتجاه الزمان . وتجربنا علوم السبيرانتيك أن كل نسق كيفما كان ، مادياً كان أو مجتمعيًا أو غيرهما ، يتضمن مجموعة من المعلومات ، وأن هذه المجموعة لها قيمة عددية معينة وتساوي - وهذا عجيب - القصور المعرفي فكلما مر الزمان انخفض ذلك القصور المعرفي . وكلما انخفض ذلك القصور المعرفي ، تضاعل عدد المعلومات الكامنة في ذلك النسق وضاع قسط منه ما لم نقتبسه قبل فواته وقبل فوات الأوان . واقتباس هذه المعلومات تمنح من يمتلكها قدرة على تغيير الأشياء على تحويلها من حال إلى حال ، على التنظيم وعلى التدبير ، وتمنحه كذلك قدرة عملية على الخلق والإبداع والابتكار ، وتمنحه كذلك قدرة معنوية على السيطرة على الأشياء ، على الطبيعة ، حتى على الإنسان ، إن هو تحلف ، وهذا حلم قديم راود أفكار العلماء عند بزوغ النهضة اليونانية ، وبالاخص منذ القرن السابع عشر من السيطرة على الطبيعة وامتلاكها وتسخيرها كما جاء ذلك في كتابات ديكارت ، ومن ثم تبرز العلاقة الكاملة بين العناصر الثلاثة : عنصر الزمان ، وعنصر المعرفة ، وعنصر العمل . والتي من خلالها يتبين أن الزمان شرط المعرفة ، وأن المعرفة شرط العمل ، وأن العمل لا يمكن أن يكون مجدياً دون معرفة تحيط بما نريد أن نقوم به من عمل ، ومن هذا المنطلق ندرك القيمة الأخلاقية الكامنة في المقدار الزمني الوارد في الآيات الكريمة السابقة .

تصور العدد في خلق السموات والأرض :

فلما كان خلق السموات والأرض وما بينهما قد تطلب بمقتضى حكمته سبحانه وتعالى مدة معينة ، وإن كانت قصيرة ، فكان ذلك لا بد من الوجهة المنطقية - والله سبحانه وتعالى يخاطبنا بحسب منطقنا - أن يسبق هذا

الخلق التصور والشمولية فيما وجب خلقه ، وأن يصاحبه الإتيان ، وأن يليه حسن التدبير ، وحسن الرعاية . فالقيمة الأخلاقية كلها في هذه المدة وربما كان المراد من ذكرها في هذه الآية . هذه القيمة وهذه المعاني السامية ، لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء في اللحظة التي تقتضيها إرادته . ولكن أراد سبحانه وتعالى - والله أعلم - أن يضرب لنا المثل من خلال بديع صنعه ، لأن الزمان في نظرنا يحمل في طياته معاني كثيرة . معاني الجهد والاجتهاد والتعب . معاني العلم ، والمعرفة . معاني الخلق والإبداع والابتكار معاني التدبير والرعاية . معاني الطموح والتفاؤل لا الخمول والتشاؤم ، وكذلك معاني التواضع والخشوع لله سبحانه وتعالى ، كما عبر عن ذلك الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ :

كلما أدبني الدهر - ر أُراني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علما - زادني علما بجهلي

لأن كل ما نعمل ، وكل ما نعلم ، ليس شيئاً كثيراً بالنسبة لما لا نعلم وما لا نعمل . فإذا أراد الإنسان - وهذه هي العبرة - أن يبتكر شيئاً فلا بد أن يخص ذلك بما يستحق من زمان ثمين ، وأن يقدره حق قدره ، لأن الزمان مرادف العلم والمعرفة ، والعلم مرادف العمل ، والعمل مرادف الأمانة التي أوكلها الله إلينا .

الصراع بين الإنسان والزمان صراع توظيفي :

صراع الإنسان مع الزمان - إذا قلنا بهذا الصراع - ليس صراعاً بين الحياة والموت ، أو بين الوجود والعدم ، أو بين الشدة والرخاء . وأن لكل جانب من هذه الجوانب أهميته الذاتية ، بقدر ما هو صراع بين توظيف الزمان

وحسن توظيفه توظيفاً يرضي الله والعباد ويرضي من أوكل الله إليه أمر دنيانا. فالعبرة إذن فيما نكتسب، وما نترك من علم ومعرفة وابتكار وإبداع، فالعبرة فيما نترك للأجيال القادمة من هذه الأشياء كلها، وما نترك لهم من مثل عليا بها آمنا، من مقدسات ووطنية بها تشبنا، ليكونوا من بعدنا حماة لآثارها، معترزين بها، حافظين لها دائماً وأبداً، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «الكيس من عمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان»^(١).

خاتمة:

لا بد أن نفضي إلى نهاية لنقول: إننا عندما نتأمل الزمان ندرك قصر الحياة، وعندما نتأمل الكون ندرك رتبة الإنسان فيه، وعندما نتدبر هذا وذاك، نحمد الله سبحانه وتعالى على أن حباننا ملكات العقل التي تسمو بنا إلى الدرجات العلى فتغنينا عن قصر حياتنا وصغر حجمنا، وترشدنا إلى سبيل الخلود. بهذه الملكات نتأمل ونتدبر. وكلما أغرقنا في تأملنا إلا وأدركنا أن الزمان يولينا بمقدار ويعلمنا باستمرار. يؤتينا المعرفة ويعلمنا أن من وراء كل معرفة يتستر مجهول عميق، ومن وراء كل مجهول عميق يكمن سر عظيم، من خلاله يتجلى أمر من أمور رب العالمين. يعلمنا الدهر أن الحياة لم تكن على الحقيقة إلا لحظة وجيزة بين خلودين: خلود لم نكن فيه شيئاً، وخلود نرد فيه إلى عالم الغيب والشهادة، لحظة لم تكن إلا طريقاً يلعب به القلب والعقل وسط ليلة طويلة، لا ندري متى بدأت

(١) سبق تخريجه.

ولا متى تنتهي ، ولكن المهم هو ذلك البريق الذي بانتقاله من جيل إلى جيل ، وباقتباس فاعليته من أنوار الله الخالدة ، يصير نورا لا يهلكه زمان ولا يقتصر على مكان ، نور من بعد نور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولعلنا نجد لما أوردناه تلخيصا في كلام ذي نفس أخلاقية وفلسفية للأديب محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ ، حيث قال في رسالة مشهورة له : (وهو الدهر لا يرد عن مراده ، ولا يصادر في إصداره وإيراده ، فإذا دار الفلك فعليك أو فلك ، والله في خلقه أمر ، لا تدرك العقول حكمته) .



المحاضرة السابعة والتسعون بعد المائة

المصلحة والمسئولية

مقدمة:

قال الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ورضي عنه : حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا قال : سمعت عامرا يقول : سمعت رسول الله ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» .

تهييد:

سأقسم كلامي عن هذا الحديث إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أتناول فيه هذا الحديث من حيث المتن والسند على قواعد مصطلح علم الحديث .

والقسم الثاني : أتناول فيه الحرية وارتباطها بالمصلحة وموقف الشرع من المصالح التي تستجد في كل عصر ولا يوجد لها نص في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في إجماع المسلمين ، والموقف من المصالح التي تظهر وتكون متعارضة مع النصوص . وهذا هو القسم الثاني .

وفي القسم الثالث : أتناول مسؤولية الأمة في ذلك كله .

مواضع روايات الحديث:

هذا الحديث الذي أتناوله أخرجه الإمام البخاري في كتاب الشركة من «صحيحه» في باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ، وأخرجه البخاري أيضا في كتاب «الشهادات» في باب القرعة في المشكلات وقوله ﷺ : ﴿إِذَا يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، وأخرجه الإمام الترمذي رحمته الله في «صحيحه» في باب الفتن ، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله في «مسنده» بخمسة أسانيد مختلفة ، وهذه الروايات سواء في صحيح البخاري أو في صحيح الترمذي أو في مسند الإمام أحمد كلها تدور على النعمان بن بشير .

ورواية البخاري أعلاها وكل هذه الروايات بعضها يفسر بعضها .

ترجمة أبي نعيم الفضل بن دكين:

قال البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه : حدثنا أبو نعيم ، وأبو نعيم هو الفضل بن دكين ، وهو لقب واسمه عمرو بن حماد بن زهير التميمي الكوفي أبو نعيم الأحول ، كان مأمونا ثقة ، وثقته جماعة وروى عنه البخاري في عدة من أحاديثه وتوفي سنة ثمان عشرة ومائتين .

ترجمة زكريا بن أبي زائدة:

قال حدثنا زكريا ، وزكريا هو ابن أبي زائدة أبو يحيى الكوفي الأحول ، هذا المحدث الكبير وثقه ابن سعد والبخاري واحتجت به الجماعة وأخذت بأحاديثه ، وتوفي سنة سبع وأربعين ومائة .

ترجمة الشعبي:

قال حدثنا عامر ، وعامر هو ابن شراحيل بن عمرو الكوفي الهمداني المشهور بالشعبي وكان إماما حافظا فقيها متقنا متفننا حجة ، وشهرة الشعبي تُغني عن مزيد التعريف به .

ترجمة النعمان بن بشير:

قال سمعت النعمان بن بشير ، والنعمان بن بشير هو الذي عليه مدار هذا الحديث ، وهو النعمان بن بشير بن ثعلبة بن خلاص (أو ابن جلاس) له ولأبويه صحبة وأمه عمرة بنت رواحة ، حدث عن سيدنا عمر وعن عائشة وعن عدد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولأه سيدنا معاوية قضاء الكوفة ثم نقله إلى حمص ولما توفي يزيد بن معاوية دعا النعمان بن بشير إلى سيدنا عبد الله بن الزبير ثم دعا إلى نفسه فيما بعد وقاتله مروان بن الحكم فقتل سنة خمس وستين للهجرة وقيل سنة ست وستين للهجرة .

وكان هذا الصحابي الجليل خطيبا ، بليغا ، وشاعرا مجودا ، وله ديوان مطبوع معروف منشور بين الناس اليوم .

استشكال الحسن والصحة في أحكام الترمذي:

الإمام الترمذي رحمه الله تعالى ورضي عنه عندما أخرج هذا الحديث قال : هذا حديث حسن صحيح واستشكل العلماء جمعه بين الحسن والصحة في حديث واحد ، لأن الحديث إما أن يكون حسنا وإما أن يكون صحيحا ، أما أن يكون حسنا وصحيحا في نفس الوقت فكيف ذلك؟!

إن الحسن درجة قاصرة عن الصحة فكيف يمكن الجمع بين القصور ونفيه ، كيف يمكن تأكيد القصور ونفيه في وقت واحد؟ هذا لا يمكن وهذا هو موضع الاستشكال .

أجوبة عن هذا الاستشكال:

أجاب العلماء عن هذا الاستشكال بعدة أجوبة أختصرها فيما يلي :

الجواب الأول : أنه قد يراد به الحسن اللغوي وليس الاصطلاحي إذا قلنا حديث حسن صحيح فالمقصود هو الحسن اللغوي وليس الاصطلاحي وإلا فهو صحيح .

الجواب الثاني : إن قولنا حسن صحيح لا يكون إلا بالنسبة للحديث الذي يكون في مرتبة بين هاتين المرتبتين ، أي بين الصحة وبين الحسن ، فالحديث له ثلاث مراتب الصحيح أعلاها ، والحسن أدناها ، والثالثة ما تشرب من كل منهما كما أن الشيء الذي إذا جمع بين وصفين متقابلين تكون له رتبة مفردة فنقول مثلا للشيء الذي لا يكون حلوا ولا حامضا وإنما يكون جامعا بين الوصفين : حلوا حامض ، أي : مز ، فالمز هو الحلوا الحامض الذي يجمع بين وصفين .

الجواب الثالث : الذي على هذا الإشكال هو أنه قد يراد بذلك الحديث الذي له إسنادان ، بحيث يكون له إسناد صحيح وسند حسن فيقال فيه صحيح حسن أي صحيح باعتبار السند الأول ، حسن باعتبار السند الثاني .

جواب آخر : هو أن هذا اصطلاح يقال في الحديث الذي كان حسنا باعتبار إسناده ، صحيحا باعتبار حكمه .

وهذه الأجوبة كلها صالحة في بيان هذا الاستشكال ، وفي بيان الاستعمال الذي جرى على لسان سيدنا أبي عيسى الترمذي رحمته الله في «صحيحه» ، كل هذه الأجوبة صالحة في تفسير هذا الاستعمال عنده وقد اختصرها واختصر الردود التي رد بها عليها الناظم في قوله :

واستشكل الحسن مع الصحة في متن فإن لفظا يرد فقل صف
به الضعيف أو يرد ما يختلف سنده فكيف إن فرد وصف
ولأبي الفتح في الاقتراح أن انفراد الحسن ذو اصطلاح
وإن يكن صح فليس يلتبس كل صحيح حسن لا ينعكس

مراتب الحديث:

الإمام البخاري عندما أخرج هذا الحديث في «صحيحه» دل على أن هذا الحديث في المرتبة الثانية من الصحة لأنه أخرجه الإمام البخاري وانفرد به ولم يخرج الإمام مسلم ، والحديث مراتب أعلاها ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم ويليهما في الدرجة ما انفرد به البخاري وحده ثم ما انفرد به مسلم وحده ، ثم ما اشتمل على شروطهما ، ثم ما اشتمل على شروط البخاري ثم ما اشتمل على شروط مسلم ، ثم ما اشتمل على شروط غيرهما .

وهذا الترتيب يلخصه صاحب الألفية بقوله :

وأرفع الصحيح مرويهما ثم البخاري فمسلم فما
شرطهما حوى فشرط الجعفي فمسلم بعد فغير يكفي

مرتبة حديث الدرس

هذا الحديث إذن بحسب قواعد المصطلح ونظرا لكون الإمام البخاري انفرد به عن الإمام مسلم يقع في المرتبة الثانية من الحديث الصحيح .

شرح معاني الحديث:

قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها»، أي مثل الناهي عن المعصية ومرتكبها، وفي الرواية الثانية للبخاري الواردة في كتاب «الشهادات»: «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها»، والمدهن هو المرائي المحابي الذي لا يغير المنكر، وبحسب الرواية الأولى يكون الحديث قد ضرب المثل للنهي عن المعصية ومرتكبها، وبحسب الرواية الثانية يكون الحديث قد ضرب المثل للمدهن والمحابي مع مرتكب المنكر ومع مرتكب المعصية، وكلا الروايتين تؤدي المعنى المقصود بالحديث، وإن كنت أفضل الرواية الأولى الواردة في باب «الشركة» من كتاب صحيح البخاري لأنها اتفق عليها البخاري والترمذي وأحمد من جهة، ولأنها أظهر في باب المقابلة بين النهي عن المعصية وبين مرتكبها.

القرعة دليل شرعي معترف به في الشريعة:

«مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة»، واستهموا أي اقترعوا فكان لكل واحد منهم نصيب بالقرعة، والقرعة من جملة البيئات، فكما تقطع الخصومة بالبيئة تقطع بالقرعة وتجري في عدة مسائل وفي عدة أبواب من الفقه.

أمثلة تجرى فيها القرعة:

تجري القرعة في حسم النزاع بين الأئمة إذا تسابقوا على الصلاة وعلى إمامة المسلمين في الصلاة، فيقرع بينهم ويقدم من خرجت القرعة في سهمه، وتستخدم أيضا في الأذان إذا تزاخروا عليه، وتستخدم بين الأقارب في التنازع على تغسيل ميتهم والصلاة عليه، وتستعمل كذلك بين

الزوجات في المبيت ، وتستعمل كذلك في السفر إذا أراد الشخص أن يسافر بإحدى زوجاته مع تعدد زوجاته فتنازعن في ذلك فيقرع بينهما ، وتستخدم كذلك في مقاعد الأسواق إذا اختارت مجموعة من الناس مقعدا واحدا في الأسواق واختلفوا عليه يقرع بينهم في ذلك ، وتستخدم في عدد من الأمور فهي دليل شرعي معمول به ومعترف به في الشريعة الإسلامية .

أمثلة أخرى تجرى فيها القرعة :

تستخدم كذلك القرعة في تحديد الملك كالشخص الذي يوصي بعق مجموعة من عبده أو بعق عبده كلهم فيضيق عليهم الثلث فيقرع بينهم لمعرفة من السابق من اللاحق فيعتق في حدود الثلث ويبقى الآخرون في الرقبة ، كما أن القرعة تستعمل في بيان الأنصبة في العقار المشترك فنقرع وكل من خرجت له القرعة في نصيب من ذلك العقار أخذه ، فهي بينة من جملة البيّنات ولذلك تعتبر معمولاً بها في الشريعة الإسلامية .

مثل قوم استهموا على سفينة ، وفي رواية الإمام أحمد مثل ثلاثة ركبوا سفينة ، فجاءت هذه الرواية ببيان عدد ركاب هذه السفينة ، وقوله ﷺ : «فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها» ، وهذه السفينة تتألف من طابقين طابقها السفلي وهو أوعرها وشرها كما بيته رواية الإمام أحمد ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، وهذا يبين سبب النزاع ، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، وفي الرواية الثانية للبخاري فأخذ فأسا وأخذ يخرق السفينة فقالوا له : ما لك ؟ قال : تأذيتم بي ولا بد لي من الماء فبينت هذه الرواية الثانية الآلة التي استعملها هذا الجاني في خرق السفينة وهي الفأس ، وبيّنت سبب إقدامه على هذا العمل وهو ما قدره من كونهم تأذوا

به وأنه لا بد له من الماء ، وأن مصلحته كلها تتمثل في خرق السفينة لكفاية نفسه بثؤنة الطلوع والهبوط والمروور على أصحاب الطابق العلوي ولأخذ الماء الذي لا بد له منه .

وبينت رواية أخرى لهذا الحديث موقف أصحاب السفينة ، فقال بعضهم إنما يخرق في نصيبه ، وهذا حكم فاسد ، وقال بعضهم لا ، قال النبي ﷺ : «فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» .

الدروس والفوائد المستفادة من الحديث :

في هذا الحديث الشريف من الفقه درر كبيرة ونفيسة ففيه أن إقامة الحدود تكون النجاة بها لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها ، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه جواز ضرب المثل لبيان أحكام الشرع وفيه الصبر على إذاية الجار إلا إذا خشي الجار وقوع ضرر فادح يهلكه ويهلك المتسبب في ذلك الضرر ، وفيه أن صاحب السفن ليس له أن يحدث ضررا بصاحب العلو ، وإذا أحدثه لزمه إصلاحه ، وفيه جواز القرعة في بيان الأنصبة في العقار ولو كان متألفا من علو وسفل ، وفيه فقه كثير وفوائد عظيمة ستظهر إن شاء الله فيما سيأتي من أقسام هذا الدرس .

فائدة أخرى في الحديث :

هذا الحديث الشريف يبين أن هذه السفينة التي نحن جميعا فيها ، فيها نوع من البشر لا تهمه إلا مصلحته ، ولا يهمه ما إذا أصاب الناس خيرا أم أصابهم شر من سعيه من وراء تحقيق هذه المصلحة ، وأنه ينفرد بتقدير مصلحته ، وأنه حر

في جميع الأعمال التي تؤدي إلى هذه المصلحة التي انفرد بتقديرها لأن جميع من في السفينة ليس لهم أية دالة عليه فهم جميعا مجرد ركاب مثله لهم نفس الصفة الوضعية القانونية ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

مسئولية الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذا النوع من البشر هم الواقعون في حدود الله ، والأخذ على أيديهم واجب وإلا هلك الجميع .

والأمة هي التي تتولى الأخذ على أيديهم كما يشير إليه هذا الحديث لأن هذا الحديث لا يشير إلى وجود ربان في هذه السفينة وإنما يشير إلى مجموعة من الركاب متساوون في الصفة وفي الوضعية القانونية ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، ومع ذلك يقع على بعضهم واجب كف البعض الآخر إذا أراد أن يقوم بأي عمل من شأنه المس بسلامة السفينة ، فهذا الحديث يشير إلى مسؤولية الأمة في القيام بالإصلاح وفي القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

خطر سوء استخدام الحرية:

بطبيعة الحال فإن الخطر الكبير الذي يتهدد السفينة من مثل هذا الإنسان الذي أراد خرقها هو خطؤه في تقديره المصلحة وخطؤه في تقدير المسؤولية ، والحرية والمصلحة لم تتركهما الشريعة هملا بل تناولتهما بالتنظيم والتقنين والتوجيه حتى أصبحا مؤديين للمصالح العام وحتى جردتهما من كل خطر يمكن أن يتهدد السفينة .

الحرية والمصلحة وتنظيم الشريعة لهما :

الحرية في الشريعة لها وضع خاص ليس هو وضعها الذي يوجد في الأنظمة الحديثة ذلك أن الحرية إذا كانت هي ذهاب الإنسان مع مشيئته في الاختيار وإذا كان الاختيار لا بد أن ينصب على المصالح ؛ لأن الإنسان لا يختار ما يضره وإنما يختار ما ينفعه اللهم إذا كان أحق ، فالإنسان يختار ويختار مصالحه فإذا كانت المصالح هي ما أمر به الشرع والمفاسد هي ما نهى عنه ، وأن المصالح هي مجموع المأمورات وأن المضار هي مجموع المنهيات فتكون الحرية بهذا المفهوم دائرة في نطاق المأمورات وفي نطاق الواجبات ولا تكون متحللة ومنطلقة خارج المأمورات وخارج الواجبات وخارج التكاليف .

أمثلة لتنظيم الشريعة للحرية حرية العقيدة :

لقد جاءت الحرية في الشريعة الإسلامية محددة في نطاق المأمورات وفي نطاق التكاليف ، وأعطى أمثلة لتوضيح هذه الفكرة حرية العقيدة : الإنسان في ظل الأنظمة الحديثة حر في أن يعتقد ما يشاء له أن يؤمن بالله وله أن يكفر به وله أن يمارس هذه الحرية كما شاء وعلى حكومته حسب الأنظمة الحديثة أن تكفل له جميع الوسائل لممارسة هذه الحرية ، بينما الأمر يختلف بالنسبة لهذه النقطة في الشريعة الإسلامية ، فالإنسان ليس حراً في أن يعتقد ما يشاء بل هو مأمور بعقيدة معينة ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَوَفَّكُمُ وَأُمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ١٠٤] ، فالرسول مأمور بأن يكون من المؤمنين وجميع الخلق مأمورون بعبادة الله وبالإيمان به ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وهذا الإنسان في ظل الشريعة الإسلامية ليس حراً في أن يعتقد ما يشاء ؛ لأن الحرية في هذا الباب معناها السماح باختيار الكفر وهذا شيء لا يقبله عقل ولا نقل ، وحتى الآية الواردة في كتاب الله : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] هذه لم تأت على وجه التخيير بل جاءت على وجه التهديد بدليل ما جاء في نفس الآية : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩] فهذا دليل على أن اختيار الكفر أو حرية الاختيار التي تؤدي إلى اختيار الكفر غير ممكنة وغير مقبولة .

الخروج عن العقيدة خيانة عظمى

لا يمكن للإنسان في ظل الشريعة الإسلامية أن يبدل عقيدته لأنه إذا كان مؤمناً ثم ارتد يقتل بعد الاستتابة .

لأنه يكون خارجاً عن الجماعة ، والخروج عن الجماعة خيانة عظمى تستحق الإعدام حتى في الأنظمة الحديثة كما أنه إنسان لا عهد له لأنه خرج على عهد الجماعة فأصبح عنصراً غير مرغوب فيه .

فاذن هذا المثال دليل على أن حرية العقيدة هي داخلة في الواجبات وفي التكليف . ونأخذ حرية التعبير .

مثال آخر: حرية التعبير أمر بمعروف ونهي عن منكر:

حرية التعبير في ظل الأنظمة الحديثة أيضاً تأتي كاختيار للإنسان ليقول ما يشاء ولينشر في الجماعة ما يشاء بواسطة الصحافة وبواسطة الإذاعة وهذا هو الخطر لأن هذه الحرية يجب أن تكون موجهة ، وأن تكون هادفة ، وأن تكون إيجابية ، وأن تكون مؤدية إلى مصلحة الجماعة وليست مطلقة

على عواهنها ، وهذا هو مفهوم هذه الحرية في الشريعة الإسلامية ولها مجال رحب وميدان فسيح وهو مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ، وكما يقول النبي ﷺ : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يصييكم بعذاب من عنده ثم لتدعونه فلا يستجاب لكم»^(١) فحرية التعبير داخلية في نطاق الواجبات الملقة على كاهل المؤمن وموجهة وهادفة ومجالها محدد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

مبدأ الشورى واجب وتكليف :

إن مبدأ المشاركة أي الشورى ليس حرية فحسب وإنما هو أيضا واجب وتكليف ، فالله تعالى أمرنا بالشورى كتكليف ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فهذا أمر ، الشورى جاءت في القرآن كأمر وكذلك الآية الأخرى : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] .

هذه الآية أيضا وضعت الشورى بين إقام الصلاة والإنفاق سواء كان زكاة أو غيرها لتوحي بأنها واجب من جملة الواجبات التي على الأمة .

العلاقة بين الحاكم والمحكومين في الشرع :

الدولة في مفهوم الإسلام خلافة والخلافة رئاسة في أمور الدين والدنيا ، والخليفة في المفهوم الإسلامي نائب عن صاحب الشرع ومكلف بحماية

(١) سبق تخريجه .

الملة والذب عن حوزة الشريعة ، وطاعته واجبة لأنها ليست مجرد حرية بل هي أمر يتعبدون الله به ، فهذا هو مفهوم العلاقة بين المحكومين والحاكمين في الشريعة الإسلامية .

أهمية البيعة في الشرع:

يقول النبي ﷺ : «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات ولا بيعة في عنقه مات موتة الجاهلية»^(١) فالبيعة لها مفهوم ديني ولها ارتباط ديني لأنها تؤدي إلى مصلحة حفظ حوزة الملة وحفظ نظام الشريعة .

هيئة أهل الحل والعقد وأهمية دورها في الأمة:

أمير المؤمنين تكون إلى جانبه هيئة من أهل الحل والعقد من علماء الأمة ووجهائها ورؤسائها وهم الذين يستشيرهم في المهمات ، وهذه الهيئة يترك للأمة الاجتهاد في كيفية تشكيلها وتنظيمها إما بالتعيين وإما بالاقتراع الذي يشير إليه هذا الحديث لأن القرعة داخلة أيضا في هذا الباب ويمكن أن تفهم على هذا المستوى .

فهكذا النظام والترابط الموجود بين الراعي والرعية ودائما هذه الهيئة التي يستشيرها ولي الأمر مقيدة بقيد كبير والنصح للأمة والنصح لله ولرسوله ولإمام المسلمين ولعامتهم ، فلا تؤثر فيها لا الحسابات السياسية ولا الاعتبار الحزبية ولا أي شيء بل هي فوق كل اعتبار وفوق كل مظنة وهي هيئة تمثل ضمير الأمة ، وهي هيئة ملتزمة بالنصح لله ولرسوله ولإمام المسلمين ولعامتهم المسلمين .

(١) سبق تخرجه .

هذا مفهوم الحريات السياسية وهذا هو إطارها العام وفي هذا الإطار يمكن لأي أحد أن يمارس الحرية السياسية لأنها ستؤدي إلى مصلحة الجماعة .

دور الشريعة في حماية الأمة من الفتنة :

الشريعة الإسلامية في الواقع اهتمت اهتماما كبيرا بالحرية ولم تتركها هملا ، بل إننا في بعض الأحيان لنحس بدقة المراقبة الشرعية على الحرية حتى في بعض تصرفاتنا الشخصية ، فالشرع مثلا يمنع الإنسان من نوع من المشي لأن فيه فتنة ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [٣٨، ٣٧ : الإسراء] فالتدخل حتى في نوع المشي لحماية الجماعة من الفتنة به .

مثال لذلك :

يُروى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع بنصر بن الحجاج وتشبيب النساء به لحسن صورته وجمال شعره فأحضره وأمر بحلق شعره فزاده ذلك جمالا وزاد افتتان النساء به فلم يجد حلا إلا أن نفاه وفي المقابل ضاعف عطاءه .

فهذا التدخل القوي والدقيق في تصرفات الإنسان حماية للجماعة من بعض ما يضرها من هذه التصرفات ، وحماية لهذه السفينة من كل ضرر كيفما كان .

تنظيم الشريعة لمصالح الناس :

أنتقل بعد هذا الحديث عن الحرية ، والذي حاولت جهد الإمكان أن أظهر فيه ارتباط الحرية بالمصلحة ، أنتقل إلى المصلحة لأبين بأن الشريعة

الإسلامية تناولت المصالح ضمن نظام لا يختلف ، وتولت هي بيان المصالح ولم تكلها لتقدير فرد من الأفراد ، ذلك أن التقدير كالتقدير الشخصي يشوبه الهوى ويشوبه النقص ولذلك فلا يمكن أن نضع بين يدي الشخص تقدير المصالح وإنما توكل إلى الشرع ، فما أمر به الشرع فهو مصلحة وما نهى عنه الشرع فهو مفسدة ، إلا أن المصالح في الحقيقة لا تدخل تحت حصر ، ولا يمكن ضبطها بجميع مفرداتها لأنها تتجدد وتنوع بتجدد الأيام وتوالي الأزمان ، وبحركة التطور والتقدم والإبداع البشري الذي تتبعه المنجزات وتتبعه المشكلات في نفس الوقت ، فكل حضارة وكل تقدم لها ميزتها ولكل مشكلتها التي تنتج عنها ، ولذلك نجد في بعض الأحيان مصالح تظهر مع الأيام ولا نجد لها نصا ، لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في إجماع المسلمين .

بين نصوص الشرع والمصالح المتجددة:

هناك مصالح أخرى تتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله ، أو مع إجماع المسلمين فما العمل؟ هل نتمسك بالمصلحة على حساب النصوص ونعطل النصوص أم نتمسك بالنصوص ونعطل المصالح؟ .

هذه المشاكل في الحقيقة لا تواجه العالم وحده ، بل تواجه الحاكم يوميا ، وتواجه رجل الشارع يوميا وتواجه كل مسلم في حياته الخاصة والعامة يوميا ، ولذلك لا بد من التصدي لها وبيان موقف الشريعة منها حتى نقطع الطريق على كل من يحاول اغتنامها للوصول إلى الإضرار بالسفينة التي نحن جميعا فيها .

النوع الأول: المصالح المرسلة:

أبدأ بنوع المصالح التي ليس لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله نص ، كما أنها ليست منصوفا عليها في إجماع المسلمين وهذا النوع من المصالح هو ما يسمى بالمصالح المرسلة وهي تلك المنافع التي ليس لها شاهد خاص بالاعتبار أو بالإلغاء أو هي كما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ : ما فهم رعايته من حق الخلق من جلب المصالح ودرء المفاسد على وجه لا يستقل العقل بدركه بحال .

وهذا النوع من المصالح هو ما يسمى بالمصالح المرسلة .

مثال للمصالح المرسلة:

هذا النوع من المصالح المرسلة واجه المسلمين منذ الساعات الأولى من موت الرسول ﷺ ، فواجهتهم مشكلة الخلافة ، من سيؤمرونه عليهم؟

وتبدو حيرتهم شديدة في المناقشات التي جرت في سقيفة بني ساعدة .

مثال آخر:

أيضاً واجهتهم مشكلة جمع القرآن هل يجوز جمع القرآن في مصحف واحد أم لا يجوز؟ هذه حيرة وهذه مصلحة في نفس الوقت هي مصلحة ولكن لا نجد في كتاب الله لا ما يوجب جمع المصحف ولا ما لا يوجبه وكذلك في حديث الرسول ﷺ ، فقام سيدنا أبو بكر الصديق بتوفيق من الله وأمر سيدنا زيد بن ثابت بجمعه .

مثال ثالث:

ثم واجهتهم قضية توحيد المصحف في مصحف واحد وترك ما عداه فتصدى لها سيدنا عثمان بن عفان وهكذا جاءت هذه المصالح في كل عصر وجاءت في كل وقت ووجدنا السلف الصالح يتصدى لها ويبت فيها .

أمثلة لتعامل السلف الصالح مع المصالح المرسلة:

يمكن أن أعطي أمثلة تبين أن السلف الصالح رضوان الله عليهم قاموا بالفعل وبكل شجاعة ببيان حكم الشريعة في هذا النوع من المصالح الذي لا يوجد له نص في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في إجماع المسلمين .

نفي أهل الفساد:

من تلك الأحكام التي أصدروها نفي أهل الفساد إلى بلد يؤمن فيه شرهم ، هذه مصلحة للجماعة ، أهل الفساد لهم عقوبات معينة بحسب ما أحدثوا من الفجور ولكن لا يوجد نص يقرر نفيهم لمصلحة حماية الأمة من شرهم ومع ذلك تصدى الفقهاء وأفتوا بجواز نفي أهل الفساد إلى بلد يؤمن فيه شرهم .

تغليظ حد شارب الخمر في رمضان:

أيضًا من جملة الأحكام التي أصدروها في هذا الباب تغليظ الحد على شارب الخمر في شهر رمضان ، فحد شرب الخمر واضح ثمانون جلدة لأنه حد المفترى لأنه من شرب هذى ومن هذى افتري فيحد حد المفترى ولكن تغليظ الحد عليه لأنه شرب في نهار رمضان ، هذه مصلحة ولكن لا يوجد نص عليها لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله فتصدى العلماء لها ضمانا لهذه المصلحة وأفتوا بجواز تغليظ الحد عليه لهذه الغاية .

إلزام إسكان من لا مأوى له :

ومن ذلك أيضا إسكان أو إلزام من له متسع في منزله بإسكان من لا مأوى له ، هذا من باب التكافل الاجتماعي ، وهذه مصلحة ولكن لا يوجد نص يلزمني بأن أسكن في بيتي من لا مأوى له إذا كان بيتي فيه متسع ، فأخذنا في هذا الحكم بالمصلحة وجوزنا وجوب إلزام من له متسع في بيته بإسكان من لا مأوى له .

إجبار أهل الصناعات والحرف على عملها بأجر المثل :

وكذلك إجبار أهل الصناعات على القيام بها بأجر المثل إذا احتاج الناس إلى صناعاتهم فلنفرض مثلا أن الفلاحين احتاجوا إلى عدد من المحاريث الخشبية ، فامتنع الصانع من صناعة هذا النوع من المحاريث ؛ لأنه ليس لهم فيه كبير ربح ونحن في حاجة إليها فنجبرهم على صنعائها وندفع لهم أجر المثل أخذنا بالمصلحة ، لا يوجد نص يلزمهم بذلك .

تحديد الأسعار حماية لمصلحة الناس :

كذلك تحديد الأسعار إذا تمسك التجار ببعض الأسعار وامتنعوا من البيع إلا بهذه الأسعار نظرا لندرة السلعة وكثرة الطلب عليها جاز لنا إلزامهم بسعر محدد رعاية للمصلحة .

الشروط المعتبرة في المصالح للأخذ بها :

فهذه صور لهذا النوع من الأحكام مبني على المصالح وأردت به أن أشير إلى أن هذا الباب يمكن أن نستفيد منه إلى حد كبير في الوقت الحاضر في ميدان التشريع ، ففي كل يوم تظهر مصالح يمكننا أن نعرضها على

المقاصد العامة للشريعة الإسلامية وعلى مبادئها العامة وعلى روح الشريعة ، وننظر كذلك إذا كانت هذه المصالح مصالح حقيقية وليست موهومة ومصالح تؤدي إلى رفع الضرر ، أو إلى جلب منفعة أو إلى التوسيع على الأمة ورفع الحرج عنها . وكانت عامة وليست خاصة بفرد من الأفراد ولا يعارضها نص من كتاب الله ولا من سنة رسوله ولا من إجماع المسلمين وكانت لا تفوت مصلحة أهم منها أو مساوية لها ، إذا توفرت في المصلحة هذه الشروط أخذنا بها واعتمدناها .

أمثلة لذلك :

أمثلة لذلك من حياتنا المعاصرة :

جمع الدم وتحاقن الدم ورصده لحاجة الناس إليه في وقت السلم أو في وقت الحرب ، هذه مصلحة حديثة لم تكن في عهد النبي ﷺ ، ولا في عهد صحابته ولم يرد في شأنها نص لا من الكتاب ولا من السنة بالجواز ولا بالمنع ، وهي مصلحة عامة لا شك في ذلك ولا تتعارض لا مع كتاب الله ولا مع سنة رسوله فنأخذ بها .

استخدام مكبرات الصوت :

يمكنني أن أعطي مثالا كذلك ، وضع مكبرة الصوت في المآذن وفي المساجد للاستعانة بها على تبليغ الخطب وتبليغ الأذان ، هذه مصلحة أيضا وإن كنت لا أحب أن يبقى المؤذن جالسا متكئا على السارية وفي يده الميكروفون وهو يؤذن بل لابد أن يصعد إلى الصومعة للمحافظة على هذه السنة وللأحتراس من أن يقع عطب في الجهاز فينقطع الأذان عن المسلمين .

الملك العائلي في التشريع العقاري:

يمكنني كذلك أن أعطي مثالا آخر الملك العائلي في التشريع العقاري هو ملكية قطعة فلاحية تخصص لمصلحة الأسرة ولا يمكن للفلاح أن يقوم بتفويتها ، ولا يمكن لأحد أن يجرده منها ، وهذا تشريع فيه مصلحة لأن الفلاح قد تطرأ له مصالح أخرى يفضلها على الأرض فيأخذ في بيع أرضه جريا وراء تلك المصالح وفي الأخير يترك أبناءه بلا أرض فلا بد من تحديد هذا النوع من الملك العائلي حماية لمصلحة الأولاد .

الوصية الواجبة:

يمكن أن أعطي مثالا آخر قضية الوصية الواجبة ، هذه منصوص عليها في قانون مدونة الأحوال الشخصية ذلك أنه كان أبناء الأبناء يجربون من الإرث بالأبناء وكان داعي الشفقة يدفع الجد إلى القيام بالوصية لأحفاده أو بتنزيلهم منزلة أبنائه وكان أبناء الأبناء إذا توفي أبوهم في حياة جدهم حرموا من الميراث ، قام المشرع وتدارك هؤلاء الأحفاد وفرض أن الجد أوصى لهم فعلا بواجبهم في حق أبيهم شريطة ألا يتعدى الثلث ، فكانت هذه هي الوصية الواجبة رعاية لمصلحة الأحفاد .

المالكية وشهرتهم بالمصالح المرسلة:

هذه أمثلة على هذا النوع من المصالح التي لم يرد في شأنها نص والتي ينبغي أن توظف الهمم للجري فيها على سنن السلف الصالح رضوان الله عليهم لاسيما وأن هذا الدليل الشرعي وهو باب المصالح المرسلة تقول به المذاهب الفقهية كلها وإن كانت المالكية اشتهروا به شهرة خاصة فنسب

إليهم وحسب عليهم ، وهذا من الأمور التي تعطي مرونة للمذهب المالكي وتعطيه مزية كبيرة والواقع أن جميع المذاهب استعملت هذا الدليل ولكن المالكية أكثرها فيه بالخصوص .

النوع الثاني من المصالح:

أنتقل إلى النوع الثاني من المصالح وهي المصالح التي تعارضت مع النصوص وهنا يكثُر الزلل لأننا جميعا ينبغي أن تكون لنا الرغبة والاستعداد الكامل في مسابقة ركب التطور وعدم الوقوف حجر عثرة في وجه ما يستجد من المصالح وما يحدث من الأمور الجديدة التي تدعو إليها الحضارة والتي يأتي بها التقدم ، ولكن في نفس الوقت يجب أن نقف عند حدود الله لا نتعدها لا باسم المصلحة ولا بغيرها .

وجوب الاحتراز في هذا الباب:

هذا الباب في الواقع فيه حرج كبير ولكن الاستعانة عليه بتقوى الله هو مفتاح النجاح فيه لأن هذا الباب لا بد فيه من التقوى وإلا سنفتن بهذه المصالح المغرية التي تجذبنا وتهزنا إليها حتى أننا في بعض الأحيان نظن أن هذه النصوص الواقفة في وجهنا ينبغي ألا نقف عندها وهذا ضلال ما بعده ضلال .

مثال معاصر: قضية تحديد النسل:

أعطي مثالا من حياتنا المعاصرة قبل أن أبين عمل السلف وتصرفهم في هذا الباب : أخذ مثلاً قضية تحديد النسل التي يدعو إليها كثير من الناس باسم المصلحة وأن فيها مصلحة اقتصادية واجتماعية ويقدمونها أيضا تحت ستار تنظيم الأسرة مع أنه إذا رجعنا إلى النصوص الشرعية وجدنا عددا

من النصوص يعارض هذه المصلحة فنجد النبي ﷺ يقول: «تَنكَّاحُوا تَنَاسَلُوا فَإِنِّي مَبَاهُ بِكُمْ الْأُمَمِ»^(١)، ويقول: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ»^(٢). وبعض صور تحديد النسل ما هو إلا نوع من أنواع الوأد الخفي ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩] كما أن بعضه يمكن أن يكون نوعاً من قتل الأولاد فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُونُ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

تعدد الزوجات وهدفه في الإسلام:

لقد جاء مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام لتعزيز مبدأ التكاثر والتناسل لأن تعدد الزوجات ينشأ عنه كثرة الولد.

الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ:

بهذه المناسبة أريد أن أفتح قوساً لأقول بأن تعدد زوجات النبي ﷺ، ليس كما يظنه بعض المبطلين وليس قابلاً لفهمهم ولتأويلاتهم الخاطئة والتي لا تنسجم مع كرامة الرسول ﷺ، وإنما هناك غاية تشريعية وراء تعدد زوجاته ﷺ، لأنه لولا تعدد زوجات النبي ﷺ بذلك العدد وبذلك القدر الذي ثبت لدينا لما وجدنا من ينقل لنا التشريع الخاص والمتعلق بحياته الداخلية فمن ينقل لنا أدعيته عندما يريد أن ينام وصلاته وقيامه في الليل وكثيراً من تصرفاته التي ترجع إلى حياته الداخلية والتي لا يمكن أن

(١) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (٦/ ١٧٣).

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٣٢٢٧)، وأبو داود (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

يطلع عليها أي أحد ، إلا أن نكتفي بزوجة واحدة من أزواج الرسول ﷺ في هذا الباب لأنه يمكن أن تذكر شيئاً وتنسى أشياء ، ولا يمكن كذلك أن نكتفي بواحدة أو باثنتين لأن النبي ﷺ له أحوال الحضور وأحوال السفر وله أحوال كثيرة تطلع عليها بعض نساءه ولا تطلع عليها باقيهن .

عودة إلى مبدأ تعدد الزوجات :

إذن فالغاية والحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ لها ارتباط بالتشريع أكثر مما لها ارتباط بأي نوع آخر ، وأعود إلى النقطة التي كنت بصدها فأقول بأن تعدد الزوجات له ارتباط بالحض على التناسل والحض على التكاثر وهذا الأمر له ارتباط بالرسالة الملقاة على عاتق هذه الأمة ، لأنها رسالة إنسانية عالمية نحن ما زلنا وكما كنا وسنبقى مكلفين بنشر هذه الرسالة لا في أراضينا فقط وفي بلداننا بل في العالم بأسره ، ونشر هذه الرسالة يريد ويحتاج إلى أمة قوية العدد والعدة ، وتلك الغايات الشريفة هي التي كانت وراء هذا التشريع ووراء هذا الحض على تكثير النسل ، فنحن أمة مجاهدة لا نضع السيف أبداً كما لا نضع القلم أبداً ، نجاهد بأقلامنا ونجاهد بألستنا ونجاهد بسيوفنا ويستشهد الكثير منا في هذه الغاية ويبقى الكثير لأنه والحمد لله الأمة تكون متكاثرة .

التعارض الظاهر في الموضوع :

هذه النصوص وهذا الوضع الشرعي متعارض مع تحديد النسل ولذلك لابد من تحديد الموقف بين المصلحة وبين النصوص ونستعين على ذلك بمعرفة تصرف السلف في مثل هذه الأمور .

أمثلة من عهد الصحابة والتابعين:

يروى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه عطل سهم المؤلفة قلوبهم مع أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠] فسيدنا عمر بن الخطاب يروى عنه أنه عطل سهم المؤلفة قلوبهم مع التنصيص عليه في كتاب الله رعاية للمصلحة، ويروى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضا أنه لم يقطع يد السارق في عام المجاعة أو عام الرمادة مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] ويروى عن الإمام مالك رضي الله عنه أنه أفتى بعدم وجوب الإرضاع على الشريفة إذا كانت ستأذى من ذلك إما بتعبير الزوج لها أو بمس أنفتها أو ما إلى ذلك مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ويروى عن الإمام مالك أيضا رضي الله تعالى عنه أنه أفتى بضرب المتهم وحبسه استظهارا لاعترافه بالسرقة وهذا مخالف لقوله ﷺ: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»^(١) فمن يدعي أن هذا الشخص سرقة هو الذي عليه البينة فأفتى الإمام مالك بضربه لاستخراج الاعتراف منه رعاية لمصلحة أصحاب الأموال.

نجم الدين الطوفي وتقديمه المصلحة على النص:

في القرن السابع جاء نجم الدين الطوفي سليمان بن عبد القوي فأحدث نظرية جريئة وعبر عنها عند شرحه للأربعين حديثا النووي، ذلك أنه قال بأن المصالح إذا تعارضت مع النصوص قدمت المصالح على النصوص،

(١) سبق تخريجه.

ذلك أن المصالح هي مقصود الشرع وهي الهدف من الشريعة فإذا جاء نص بخلافها قدمنا المصلحة على النص ، ونجم الدين الطوفي هذا يقول بأن النصوص يؤخذ بها في العبادات فقط ، أما في العادات والمعاملات فيؤخذ بالمصالح لأنه في العبادات الشرع وحده هو الذي يستقل بمفهوم المصلحة فيها ، وأما العادات والمعاملات فالكل يمكنه أن يقدر وأن يعرف نوع المصلحة ، فإذا اختلفت المصلحة مع النص قدمت المصلحة ، وهذه نظرية خطيرة عند نجم الدين الطوفي والرد عليها يستنتج من الرد على ما قدمنا من المروي عن سيدنا عمر بن الخطاب وعن الإمام مالك رضي الله عنهم أجمعين .

تفسير اجتهاد سيدنا عمر في وقف سهم المؤلفة :

عندما أوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم وأبطله لم يكن أبدا قد قدم المصلحة على النص ولا قام بتعطيل النص حاشاه أن يقوم بذلك رضي الله عنه ، بل قام بإعمال النص واجتهد داخل النص وفهم النص وحسن الاستنباط من النص ، ذلك أن اعطاء المؤلفة قلوبهم ليس هو الحكم وإنما هو مناط الحكم فإذا تخلف هذا المناط تخلف الحكم وتوقف ، فالمؤلفة قلوبهم نعطيهم عندما كنا في حاجة إليهم فلما أعز الله الإسلام ولم نعد في حاجة إلى هذا ولم يبق مناط الحكم لم يبق الحكم بالإعطاء واجبا ، كمثال حالة الفقير مناط الإعطاء للفقير هو الفقر فإذا زال الفقر زال الحكم بإعطائه .

فإذن هذا فهم للنص وإعمال للنص واجتهاد داخل النص واستنباط من النص وليس تعطيل للنص .

تفسير اجتهاده رحمته في عدم قطع يد السارق:

كذلك عندما أمر عمر بن الخطاب بعدم قطع يد السارق في عام المجاعة لم يعطل النص ذلك أن السارق إذا سرق في عام المجاعة تعلق حق له بالمال المسروق أليس الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] فالسائل والمحروم له حق في ذلك المال فإذا اضطر إليه وسرقه إنما أخذ شيئاً مما له الحق فيه ولذلك لا مبرر لقطع يده، فهذا اجتهاد في فهم النص أيضاً.

تفسير فتوى الإمام مالك في الإرضاع:

كذلك عندما أفتى الإمام مالك رحمته بعدم وجوب الإرضاع على الزوجة الشريفة لم يكن معارضا لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ لماذا؟ لأن الشريفة وعدم إرضاعها عرف من العرف الذي كان مقررا في ذلك الوقت، أن الشريفة لا ترضع والمعروف عرفا كالمشروط شرطا، والذي تزوج الشريفة كأنها شرطت عليه في العقد أنها لا ترضع، فإذا لا تعارض أبدا بين فتوى الإمام مالك رحمته وبين الآية الكريمة.

تفسير فتواه بضرب المتهم:

كذلك فتواه بضرب المتهم ليعترف بالتهمة رعاية لمصلحة أصحاب الأموال ذلك أن النبي ﷺ، قضى أو سجن متهما يوما وليلة للاعتراف ولاستظهار الحق، والسجن يمكن أن يحمل عليه الضرب لأنها جميعا لهما نفس الصلة، فيقاس الضرب على السجن لأنها جميعا لهما نفس الصلة وهي استخراج الاعتراف من المتهم فلا يكون الإمام مالك قد عارض النص ولا عطله هو ولا سيدنا عمر بن الخطاب ولا أي واحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

الشريعة لا تتعارض أبداً مع المصلحة:

تلك التصرفات التي قام به السلف الصالح رضوان الله عليهم تشير إلى مسئوليتنا في حسن فهم الشريعة وفي الاجتهاد داخل النصوص وفي استنباط الأحكام منها والاستعانة بالنظائر والأشباه وبالمبادئ العامة للشريعة الإسلامية، فكلما عرضت لنا مصالح من هذه المصالح التي نتوهم أنها متعارضة مع النصوص ينبغي فقط إذا وجدنا التعارض أن نستخدم فكرنا لحل مغلق النص لا أقل ولا أكثر ولا بد أننا سنجد حلاً لأن الشريعة لا يمكن أن تتعارض مع المصلحة أبداً فإذا بذلنا كل هذا الجهد وبقي التعارض مع ذلك موجوداً آمناً وصدقنا بأنها ليست مصلحة وأنها مصلحة وهمية ينبغي أن تلغى وأن تطرح ونبقى متمسكين بالنص .

مسئولية علمائنا تجاه المستجدات الحضارية:

هذا في الحقيقة جانب من مسئولية علمائنا في هذا الظرف الذي تشهد فيه الإنسانية تطوراً كبيراً ، والذي تتسرب إلينا فيه مظاهر حضارية يومية فلذلك تتمثل مسئولية العلماء في النظر إلى هذه الحضارة بمنظور الشرع وتحديد الموقف منها بكل إيجابية وترك موقف التفرج وموقف السلبية ، بل ينبغي أن تكون لنا الشجاعة الكاملة للربط القوي المتين بين شريعتنا وبين حضارتنا لأن أكبر جانب من جوانب الإصلاح لا يمكن أن تقوم به لا الحكومات ولا غيرها ، بل الأمة هي التي ينبغي أن تتحمل أكبر قسط في الإصلاح وذلك بأن يكون فيها الضمير الديني القوي السليم النقي الذي يجعلها تستشعر مسئوليتها .

المحاضرة الثامنة والتسعون بعد المائة

الإسلام دين الحق

قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِثَانِدِ اللَّهِ فَإِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٩ ، ٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٣-٨٥] .

ما ترشد إليه الآيتان إجمالاً :

هاتان الآيتان الكريمتان إعلان من الله سبحانه وتعالى بخير الأديان
وأكملها ، وأوضح المناهج وأحكمها ، تناولت بيان الدين الحق وتصوير
اعتراض أهل الكتاب والمشركين لهذه الدعوة ، وذهابهم بعد ذلك إلى محاجة
الرسول ﷺ وبينت موقف الرسول - بتوجيه الله لنبيه - من هؤلاء المشركين
الضالين المضلين ، ثم تصوير لما ينبغي أن يقفه منهم ومن دعوتهم .

التركيز على حقيقة الدين الحق:

كذلك كان لهاتين الآيتين الكريمتين أثر باق بعد ذلك لكونهما قد ركزتا الحقيقة الثابتة للدين الإسلامي، وبيتنا المنهج الأساسي لتحقيق هذه الحقيقة في سلوك العالمين، فمن وجد نفسه أنه قد حقق تلك الأغراض والمعاني التي يقتضيها الإسلام فهو على نور من ربه، ومن كان دون ذلك قام بمحاسبة نفسه ومراقبتها حتى يرتقي بها إلى الدرجة اللائقة بالكمال الذي ينشده المسلم.

ارتباط الآيتين بغيرهما من آيات السورة:

هاتان الآيتان لهما ارتباط بصدر السورة -سورة آل عمران- كما لهما ارتباط بالآية الثامنة عشرة التي تقدمتها.

الارتباط بصدر السورة:

أما الارتباط الأول بصدر سورة آل عمران، فذلك أنها يشيران إلى الأصل الذي أنكره أهل الكتاب وأبوا الانتفاع به، والاستفادة منه وهو الذكر الحكيم، والكتاب المبين، فقد أعرضوا عن هذا الكتاب ولم يستجيبوا للداعي إلى الله، ويأخذوا بما جاء فيه من حكمة وهداية، ومن أجل ذلك جاءت الآية الأولى من سورة آل عمران تعرض باليهود والنصارى، وتذكر هذه الحقيقة، وتميز القرآن تمييزاً يفضي تفضيله على غيره من الكتب السماوية، فسماء الله سبحانه وتعالى الفرقان وذلك قوله تعالى: ﴿الَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ١ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ٢ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ٣﴾ [آل عمران: ١-٤] فجعله

فارقا بين الحق والباطل ، وجعله هديا يستطيع الناس أن يستفيدوا منه ، وجعله مهيمنا ومصدقا لما بين يديه ، فكان بذلك له الحجة على غيره من الكتب السابقة التي دخلها التغيير والتبديل والتحريف وسوء التأويل .

ارتباطهما بالآية السابقة لهما :

أما الارتباط الذي لهاتين الآيتين الكريمتين بالآية المتقدمة عليهما وهي الآية الثامنة عشرة ، فذلك ما تشير إليه هذه الآية من وجوب القول والاعتقاد بوحداية الله سبحانه وتعالى ، هذه الوحداية التي شهد بها الله وأقام لها الدلائل الكونية والآيات الكثيرة برهانا قاطعا على صحتها ، وجاءت الملائكة بالوحي من قبله إلى الأنبياء والرسل إلى هداية الناس إلى هذه الحقيقة ، ثم جاء الرسل والأنبياء والدعاة إلى الخير يقيمون الحجج المتوالية المتعاقبة على صحة هذه العقيدة وهذه الآية هي قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، فتكون هذه الآية تمهيدا للآية التي هي موضوع درسنا أو التي هي بداية موضوع درسنا وهي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

آيات وقرائن صاحبت ظهور الدين الحق :

لا يسعنا ونحن نشير إلى هذه العلاقة الموجودة بين آيتنا وبين الآيتين اللتين هما موضوع درسنا ، وبين الآية السابقة حتى ننظر في الملابسات والقرائن والآيات التي صاحبت ولاست ظهور هذا الدين الذي جاء به خاتم النبيين ﷺ ذلك أن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ من قبل ربه ، كان دينا قد خوطبت به أمة بدوية بعيدة عن ألوان الحضارة ، بعيدة

عن كل المذاهب الهدامة ، وعن كل الطرائق الملتوية التي تجعلها عازفة عزوفا شديدا عن الامتثال للداعي أو لقبول هذا الدين الجديد ، فكانت أكثر الأمم تهيؤا واستعدادا لقبول هذا الدين .

أمية الرسول المختار ﷺ :

أما الآيات البينات القائمة على صحة هذا الدين : فهو أن الرجل الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للاضطلاع على هذه الأمانة ، ولتبليغ هذه الرسالة ، كان رجلا أميا وهو وإن كان من أوساط قومه وأشرافهم ، إلا أنه لم يكن حاكما ، ولم يكن ملكا ولا حكيما ، ولا مر بتجارب وخبرات تؤهله فيقال هذا من عنده ، ولكنه كان بعيدا عن ذلك حتى يأتي بالهدى ويأتي بالتشريع ، ويأتي بالعقيدة السمحة ، وبالمنهج الرابع فيكون ذلك كله ثابتا قطعا منسوبا له باعتبار كونه رسولا أتى به من الله .

الدين يخاطب الفطرة ويدعو إليها :

أما أساس هذه العقيدة وهي عقيدة الإسلام فإنها تتمثل في كون هذا الدين يبعد بالناس عن ذميم العوائد ويحملهم على اتباع الحق . وما الابتعاد عن ذميم العوائد واتباع الحق إلا تحقيقا لمعنى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فإن مقتضى الفطرة هو الطبع الرصيد الذي يستطيع به الإنسان أن يميل إلى الخيرات ، وأن يسعى إليها بنفسه ، وأن يعزف ويبتعد ويميل عن الشرور والآثام والقبائح لكونها مستهجنة في نفسه ، فيكون ما نسميه الفطرة هو الذي هدى الله إليها كما قال في القرآن : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] فهذه الهداية إلى النجدين كانت نابعة من الفطرة السليمة التي أودعها الله في خلقه .

الفطرة عند ابن سينا:

تحدث الشيخ الرئيس علي بن سينا في كتاب «النجاة» عن هذه الفطرة ويبينها لنا بصفة تكاد تكون منطقية خاضعة للقواعد التي نعرفها عند أهل البحث عن المصطلحات العلمية فيقول : الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه ، حصل في الدنيا دفعة وهو عاقل لم يسمع رأيا ، ولم يعتقد مذهبا ولم يعاشر أمة لكنه شاهد المحسوسات ثم يعرض على ذهنه الأشياء شيئا فشيئا فإن أمكنه الشك في شيء فالفطرة لا تشهد به وتأباه ، وإن لم يمكنه الشك فيه فالفطرة توجهه وتقتضيه ، وليس كل ما توجهه الفطرة صادقا ، بل الصادق عنه ما تشهد به فطرة القوة التي تسعى عقلا قبل أن يعترضه الوهم .

ظواهر خدمة الدين عند ابن عاشور:

إذا تبينا بأن الفطرة هي أساس الاستجابة من الناس إلى داعي ربهم - لأنه لم يخاطبهم بما يرهقهم أو بما يعتنهم أو بما لا يستطيعون - فإنه لا بد من تصور للظواهر التي أعانت على تركيز دين الإسلام في الفطرة ومهيئة لجميع الناس لقبوله ، وهو ما تفضل ببيانه وشرحه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «التحرير والتنوير» عندما عرض لهذه الآية فقال : إن هذه الظواهر تنحصر في تسع مسائل . وأنا لا أريد أن أطيل أو أكثر عليكم فأختصرها وأردها إلى نصف هذا العدد فتكون خمسا .

الأولى: إصلاح العقيدة والنفس والحياة:

أما الظاهرة الأولى فهي إصلاح العقيدة والنفس والحياة ، فإن الدين الذي يخاطب الفطرة وتستجيب له بسهولة ومن تلقاء النفس لا بد أن يكون مصلحا للفكر ، ومصلحا للنفس ، وهاديا في الحياة .

إصلاح العقيدة:

أما إصلاح العقيدة فذلك بترسيخ حقيقة التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالى، والخلوص من كل الضلالات والأوهام التي توجب البعد عن الله والضعف عن تصور الحقائق الدنية التي بها يسمو الإنسان ويكون في رحمة من ربه، فإذا كان الدين الإسلامي قاضيا على الخوف من لا شيء مما يخافه أهل الضلال وأهل الشكوك، قاضيا على الطمع في غير شيء، فلا مطمع إلا في الله ولا تقرب ولا استعانة ولا عبادة إلا لله فإن تركزه في الدعوة إلى الله التي جاءت صريحة في الكتاب المبين في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكْتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إصلاح النفس:

أما إصلاح النفس فهو تزكيتها بالهدي القرآني، تزكيتها بالحكم المتعددة التي تشرحها وتجليها وتسمو بها وترقى إلى الدرجات العلى، فتكون تلك النفس بعد ذلك طاهرة مطهرة مطمئنة، وهي التي يفيدنا بمعناها ويفسر لنا محتواها قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن. فإذا كان القرآن هو الأدب الذي يزكيها ويطهرها ويسمو بها، ويدفع عنها كل العاهات والأمراض النفسية، فإنه لابد من الأخذ بهذا الكتاب والاستفادة منه، والتأدب به حتى يكون واسطة حقيقية، وطريقا إلى مناجاة الله، المناجاة الصادقة.

إصلاح الحياة:

أما إصلاح الحياة فيكون بتطبيق المنهج الإلهي الذي أراده بوضعه للتشريع الذي كان سببا في تنظيم الحياة العملية بين الناس ، في تنظيم حياة الفرد ، في علاقته بنفسه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بالمجتمع من حوله ، وعلاقة المجتمع بالمجتمعات الأخرى ، بالأُمم والشعوب فكل ذلك له ضوابط وكل ذلك له أحكام ، ثم إن الأحكام الكثيرة المتعددة التي منها ما يتصل بالأحوال الشخصية ، ومنها ما يتصل بالأحوال المدنية ، ومنها ما يتصل بالأحوال الجزائية ، كل ذلك موجود في الدستور الإسلامي ، وفي منهج التشريع الإسلامي وليس بين الإنسان وتجربة هذه الحقيقة إلا أن يرجع إلى صدر الإسلام ، وما كانوا عليه من اصطفاء ورقي ، وتقدم وحضارة ، ومعرفة بالله ، وأن يحاسب نفسه على ما هو عليه الآن .

فإذا تصورنا هذه الحقيقة وأدركنا أن الإصلاح للنفس يكون بتزكيتها ، والإصلاح للمجتمع يكون بتطبيق شريعة الله ، وجدنا شاهداً على ذلك من القرآن الكريم يدعونا إلى الأخذ بهذا المنهج ، وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

الثانية: الدعوة إلى الله:

أما الظاهرة الثانية التي يستبق الصالحون إليها ، ويسعون لأدائها ، وللإضطلاع بها باعتبارها مسئولية ملقاة على كل مؤمن يستطيع أن ينهض بها ، وأن يحقق بها اتصال الخير بينه وبين الأجيال التي تأتي من بعده ، فهي الدعوة إلى الله ، وهذه الدعوة هي عبارة عن إقامة الحجة لله

في الأرض ، ولذلك اعتبروا أن الشهيد أو أن الشهداء ليسوا فقط الذين يموتون في سبيل الله ، بل من الشهداء من يكون شاهدا بعظمة الله وسلطانه وقدرته ، فتكون دعوتهم أساسا لتحقيق هذه الشهادة لله بإقامة الحجة لهم في الأرض .

ثم إن هذه الحجة أو هذه الدعوة قد تكون مع المؤمنين ، وقد تكون مع الضالين ، وقد تكون مع المغضوب عليهم ، وقد تكون مع غيرهم ، والناس طبقات منهم الذي يعي ويفهم ، ومنهم الذي يتردد ، ومنهم الذي يشاكل وينازع ، فجاء قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] فكانت أنواع الدعوة وإقامة الحجة مرتبة على هذا الأساس على ثلاثة أنماط .

اتسام الدعوة بالشمول والعموم :

هذه الدعوة الإسلامية تتميز على غيرها من الدعوات التي سبقت في الديانات الأخرى ، لأنها تتسم بالشمول والعموم ، لأن النبي ﷺ بعث للناس كافة ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . ثم هي رسالة دائمة فهو خاتم النبيين وهذا الدين قد أتمه الله وأكمله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ ﴾ [المائدة : ٣] . فهذا الدين هو الدين الباقي الذي جاء لتصحيح الأديان السابقة التي وقع ما وقع فيها من تغيير أو تبديل ، ولا يمكن أن يلحقه شيء يكمله أو يتممه لأن الله أتم نوره وأتى بالشرعية السمحة التي هي صالحة لكل زمان ومكان .

الثالثة: أنواع الأحكام الواردة في كتاب الله:

أما الناحية الأخرى التي أشار إليها شيخنا رَحِمَهُ اللهُ فِيهِ أنواع الأحكام الواردة في كتاب الله ، وفي هذه الشريعة فنحن نعرف أن القرآن قد تضمن آيات أحكام عديدة، كما أن السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام تضمنت أحاديث كثيرة تسمى أحاديث الأحكام، لكن هذه الأحاديث وتلك الآيات الكريمة إنما وردت في مسائل محدودة وقضايا جزئية معينة والبقية إنما هي قواعد عامة وأحكام كلية، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، لأن تلك القواعد الكلية، وتلك الأحكام العامة هي التي تسمى فلسفة التشريع، وهي التي نستطيع أن نطبقها بالاجتهاد على كثير من الأحوال التي تجد في عصرنا الحاضر، والتي لو ترجمت هذه الحقائق وعرفها العالم الغربي لأصبحوا يأخذون بتلك النظريات التي تساوي بل تتجاوز في الأهمية النظريات القانونية، وفلسفات التشريع التي توجد عندهم، ويكفي للإنسان أن يقارن بين ما جاء في الإسلام من هذه القوانين التي أصبحنا نجهلها ولا نعرفها حقيقة المعرفة، وبين القوانين السائرة والسائدة في أطراف العالم والتي نعرفها لا كمعرفتنا لتلك الأحكام الإسلامية، ولكن معرفة أدق وأكمل لكوننا نمارس بها القضايا التي تجري في حياتنا.

الرابعة: التيسير:

أما الظاهرة الأخرى التي يتسم بها هذا الدين فهو التيسير، فإن الله يسر على العالمين وأخذ بصنوف الرحمة وشملهم بأنواع العناية، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال ﷺ: «لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه»^(١).

فهذه ظاهرة تدل على أن الإسلام أو على أن هذا الدين دين الفطرة، هو دين يمكن كل الناس من الانتساب إليه والأخذ به والتأدب بآدابه.

الخامسة: ارتباط الشريعة بالحكم (السلطان):

أيضاً من هذه الجوانب ارتباط الشريعة بالحكم أو ارتباط الشريعة بالسلطان وقد رأينا النبي ﷺ بالمدينة المنورة عندما كان يهرع إليه الناس فيحدثهم ويعلمهم ويؤدبهم، ويكون النشء والجيل الإسلامي الجديد امتثالاً أو تحقيقاً لأمر الله لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

هذا المعنى الذي تكون به الفرد المؤمن الجماعة المؤمنة قد عززه رسول الله ﷺ بتكوين الدولة المؤمنة والسلطان الإسلامي المؤمن، لأن السلطان والدولة تستطيع أن تحمي الملة وأن تمنع الشر عن المسلمين ولذلك قال المتقدمون: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

مجاور تنتظمها الآيتان:

فالآيتان الكريمتان إذن وهما قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إلى آخر الآية الثانية تنتظمان مجاور ثلاثة:

(١) سبق تخريجه.

الأول : الإعلان عن الدين :

المحور الأول هو كما قلنا الإعلان عن دين الحق وهذا ملخصه أو ضابطه أو الذي ينطق به في الآية : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

الثاني : إخباره عن حال أهل الكتاب :

أما العنصر الثاني أو المحور الثاني فهو الإخبار عن سوء التلقي وسوء الفهم للإسلام من أهل الكتاب بالرغم من مجيء العلم إليهم عن طريق الوحي وعن طريق الرسل ، وهذا بسبب البغي والظلم والحسد والتنافس ، وهو الذي يشير إليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

الثالث : محاجة النصارى :

أما المحور الثالث فهو متفرع ومترتب في الوجود على العنصرين أو المحورين الأول والثاني وهو الذي يشير إلى المحاجة ، محاجة النصارى ، محاجة وفد نجران في هذه الآية التي تبدأ بها حقيقة أو موضوع السورة -سورة آل عمران- فهي المجادلة والمكابرة التي ظهرت من النصارى دفعت بالرسول ﷺ إلى أن يقف موقفا أملاؤه الله عليه ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وأما الموقف الثاني فهو يتمثل في الاستمرار على الدعوة وإن انقطعت المحاجة بسبب المكابرة والعناد ، وهو الذي يشير إليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقفه مع المحور الأول:

إذا نحن تتبعنا هذه المحاور الثلاثة، وجدنا المحور الأول الذي يستوقفنا قليلا دافعا بنا إلى ملاحظة أن هذه الجملة التي اعتبرناها بلاغا وإعلانا، بكون هذا الدين هو دين الحق، هي جملة اسمية كما يقول النحاة وهي مصدرة بأن المفيدة للتأكيد لكن هذه الاستعمالات أو هذه الأداة قرئت بوجهين فهناك من قرأ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وهناك من قرأ: ﴿(أَنَّ) الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

توجيه القراءات في الآية:

أما القراءة الأولى فهي قراءة جمهور القراء، وبذلك تحمل الجملة كلها على كونها استئنفا ابتدائيا لبيان فضيلة هذا الدين بأجمع عبارة وأجزائها فقد وقع حصر المسند إليه وهو الدين في المسند وهو الإسلام فكأنه لا دين آخر إطلاقا إلا الإسلام، وبذلك وقع القصر قصر المسند إليه على المسند.

وأما الرواية الأخرى أو القراءة الثانية فهي قراءة الكسائي فإنه قرأ: ﴿(أَنَّ) الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، والقراءة بالفتح لها معنى آخر لأنها تشير إلى معنى البدلية فإن قوله تعالى: ﴿(أَنَّ) الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ يكون بدلا من قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبذلك نستطيع بفهم هذين المعنيين المتناسبين، المتقاربين اللذين يقتضيهما اللفظ أن نعلم أن التركيز في هذه الآية وقع على عدة أشياء، وقع على الدين ومعناه، ووقع على الإسلام والغاية منه، ووقع على قصر الدين على الإسلام لتبين بعد ذلك الخصائص التي يكتسبها الدين الإسلامي، دين الفطرة، ويتميز بها على غيره من الأديان.

معنى الدين في الآية:

أما الدين فهو الخضوع تقول : دان فلان لكذا بمعنى خضع له ، ويكون الدين بمعنى الجزاء ، وهو استعمال شائع ومن ثم انتقلت الدلالة دلالة لفظ الدين من الجزاء على العقيدة المتلقاة عن الرسل ، لأن تلك العقيدة المتلقاة على الرسل تقتضي عملا وذلك العمل يترتب عليه جزاء فهي في آخر الأمر تنتهي إلى نفس الحقيقة وهي الجزاء .

وكذلك الآراء التي يدعو إليها بعض الفلاسفة أو رجال أصحاب المذاهب قد تصبح في قدراتها وشمولها وكثرة الأتباع لها مثل الدين ، ولذلك يترتب على الانتساب لتلك المذاهب والآراء شيء من التقدير والاحترام أو المقاومة والإبعاد ، وهذا أيضا هو في نفسه جزاء فيكون معنى الدين إما دينا شرعيا سماويا ، أو دينا من الأديان الموضوعة التي لا تسمى بالسماوية ولذلك فرق الله سبحانه وتعالى بين الدينين بقوله جل وعلا : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] .

الحقيقة العلمية للدين:

أما الحقيقة العلمية بالنسبة للدين فقد ضبطها لنا شيخنا الأستاذ الإمام رَحِمَهُ اللهُ بقوله : هي وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير باطنا وظاهرا ، لأن هذا الوضع الإلهي الذي يلتزم به الناس طاعة لربهم واستجابة لدعوته يمكنان الفرد المسلم من اقتفاء أثر الخير في سلوكه الباطني ، وفي حياته العملية .

الإسلام في الآية علم على الدين:

أما الإسلام، فهو علم بالغلبة، من عهد الرسول ﷺ، إلى اليوم على الدين الذي جاء به عليه صلوات الله. فدين محمد هو دين الإسلام لا غير، وأما الإطلاق اللغوي فإن الإسلام أُطلق على الإيمان كما أُطلق الإيمان على الإسلام، والله سمى هذه الأمة المؤمنة على لسان نبيها أو لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَاجْهَدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] فقد استعمل كلمة الإسلام، فالإسلام بعضهم يقول هو عبارة عن العمل ويختلف عن الإيمان لكون الإيمان عبارة عن العقيدة وقد كتبوا في ذلك رسائل كثيرة ولكننا نجد أيضا في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذا الحديث المشهور هو الذي فصل فيه النبي ﷺ القول في بيان حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام وحقيقة الإحسان.

معنى العندية في الآية:

هذا الحديث الذي يفصل فيه الرسول ﷺ بين الإيمان والإسلام والإحسان فيه إشارة إلى اختلاف الماهية لأن كل واحد من هذه الألفاظ له دلالة الخاصة والماهية التي تبرزه وتشخصه للناس، ثم نجد في هذا التركيب لفظ العندية: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، فما هي هذه العندية؟ العندية هنا ليست علما، ليس معناها أن الدين في علم الله هو الإسلام، لأن الله قد بعث النبيين والرسول من قبل بأديان أخرى قد تكون هي إسلاما أيضا وقد لا تكون هي الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ لكن المقصود هنا في هذه العندية هو الاعتبار والاعتناء الذي أضفاه الله سبحانه

وتعالى على هذا الدين ليكون خاتم الأديان وأشرفها، والذي يدل على ذلك هو هذا القصر الذي أشرنا إليه في أول الحديث، قصر المسند إليه باعتبار قيد فيه لا في جميع اعتباراته، وذلك بأن يقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فيما نزل على الرسول ﷺ وقت إخباره بذلك لأنه لم يبق هناك دين صحيح ولذلك يصبح الدين الوحيد الحق هو دين الإسلام. أو لأن الدين قد بلغ مرتبة من الكمال من حيث التشريع ومن حيث الهداية، ومن حيث التوجيه، ومن حيث الفصل بين الحقوق ما لم تبلغه الشرائع السابقة والأديان المتقدمة.

وقف مع المحور الثاني:

أما المحور الثاني وهو الذي تنطق به الآية الكريمة: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]. فهو كالجملية المعارضة بين بيان حقيقة الدين والإعلان عن شرف هذه العقيدة الإسلامية، وبين بيان الحاجة وما انتهت إليه من ذكر إسلام الوجه لله، وهذه الحقيقة أفادت أشياء كثيرة فالآية معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وهي إخبار عن حال أهل الكتاب الذين انحرفوا وصدوا عن السبيل ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ إعراضاً ومكابرة وعناداً وقد كان ذلك سبباً في تفرقهم تفرقاً عجيباً فيما بين ملهم، ولكنهم بالرغم من تفرقهم واختلافهم كانوا مجتمعين في محاربة الإسلام، ومتحدين في مناهضته، ومقاومته، ولذلك فإن هذه الأديان الأخرى لم تبلغ عند أهل الكتاب ما بلغه الإسلام من الكمال ومسه من التحريف والتبديل ما جعلها غير صالحة لأن يعيش عليها المجتمع الإنساني فجاء

هذا الدين ليهدي الناس عامة وليربهم سبل الرشاد وبذلك تنتقل من هذه الجملة الاعتراضية إن صح التعبير أي التي لا تتصل بحقيقة الإسلام ولا بيان معنى الإسلام التفضيلي ، ولكنها تبين موقف أهل الكتاب والأُميين إلى هذه الحقيقة الثالثة أو المحور الأخير الذي يتمثل في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقفة مع المحور الثالث:

المحور الثالث هو أيضا محور عجيب ينبغي أن نتحرى الفوائد الموجودة فيه . قرئت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ، بإثبات الياء مرة في الفصل والوصل ، وبذكرها في الوصل دون الوقف ، فالذين ذهبوا إلى إثباتها في الوصل دون الوقف هم القراء : نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف . والبقية أثبتوها وصلا ووقفاً والآية مرتبة على ما قبلها من المحورين ومفرعة عليهما وقوله : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ هذه المحاجة مفاعلة ، والمفاعلة تقتضي أن يكون الحديث أو الفعل من الطرفين ، لكنها ليست المجادلة فهي أقوى من المجادلة ، لأن المجادلة نقاش ، والمحاجة تستعمل في أكثر ما تستعمل عندما يكون الجدل بالباطل ، عندما تقترن المجادلة بشيء من العناد والمكابرة وعدم الالتفات إلى الشواهد القواطع التي تدل على صحة الأمر المختلف فيه ولذلك وردت في قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ [الأنعام : ٨٠] ووردت بهذا المعنى في قوله جل وعلا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، فالمحاجون هنا وفد نجران لا المشركون ولا اليهود . المشركون لأن

القضية ابتعدت بين النبي ﷺ وبينهم في هذه الفترة، فالآية نزلت في المدينة وأمر المشركين إلى تلف وإلى ذهاب وأما اليهود فقد سالموا النبي ﷺ لونا من المسألة فلم تبق قضية المجادلة والمحااجة قائمة إلا بينه وبين النصارى أي بينه وبين وفد نجران .

وهنا في بيان هذا الموقف العجيب الذي أوحى به الله سبحانه وتعالى لرسوله في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ ، هؤلاء المعارضون والجاحدون والمحاجون لا يريدون الرجوع عن الباطل ، ولا يريدون الاعتراف بالحق وهم يعرفونه ، لكن المكابرة والعناد طمست أعينهم وقلوبهم ، وأصبحوا لا يريدون الامتثال ولا الارعواء . ومن ثم لم يبق مفيدا معهم الحجج والمناقشة ، فإذا ظهر عليك مثل هذا فقل يا محمد أسلمت وجهي لله ومن اتبعني .

اختلاف المفسرين حول الآية الكريمة:

لكن هذه الحقيقة المتمثلة في الآية الكريمة اختلف المفسرون فيها طرائق ثلاث في تأويلها :

التأويل الأول : هو الذي مال إليه القرطبي .

والتأويل الثاني : هو الذي جنح إليه أبو مسلم الأصفهاني .

والتأويل الثالث : هو الذي اعتمده الفخر الرازي .

التأويل الأول:

أما التأويل الأول فهو يعتبر أن المحااجة انقطعت بين الرسول ﷺ ، وبين وفد نجران ، فإنهم لما أظهروا من المكابرة والعناد لم يبق من داع ولا

من سبب للاستمرار على المناقشة والجدال ، ومن أُصيب بمثل هؤلاء ينبغي أن يسلم وجهه لله ، ولذلك قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ : إن الحق إذا ابتلي بالمبطل اللجوج يقول أما أنا فمناقد للحق . وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ .

أي تلك شيمة الرسول ﷺ وشيمة الذين اتبعوه وساروا على هديه .

التأويل الثاني :

أما المنهج الثاني في التفسير فهو الذي مال إليه الأصفهاني ، وذلك لأنه يقول : إن قوله سبحانه وتعالى على لسان رسوله وبما أوحى إليه بالتوجيه : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ هو محجة أيضا لأن هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين جميعهم يؤمنون بإبراهيم عليه السلام ولكن الأديان المتعاقبة بعد دين إبراهيم قد غيرت هذا الدين بشيء من الزيادة أو بشيء من التعديل فأصبحت بالنسبة إليهم الملة الحنيفية ودين إبراهيم مسلم لديهم على الإطلاق فإذا قال لهم : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ فهو يذكرهم بدين إبراهيم الذي أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يسير على هديه في قوله جل وعلا : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] وإبراهيم عليه السلام هو نفسه قال هذه المقالة ، لم يقل : (فقل إني أسلمت وجهي لله) ولكنه قال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

فإذا كان هذا المعنى الذي ذهب إلى تقريره إبراهيم عليه السلام ليكون حجة على الضالين المبتدعين الغواة من حوله ، فإن نفس الحجة استعملها محمد ﷺ وإذا كان هؤلاء يؤمنون بإبراهيم ويعرفونه حق المعرفة ، فإن التسليم

بصحة هذه الحجة يقتضي إسكاتهم وإلزامهم بالأخذ بنفس الحجة ، لأن محمداً كان على أثر أبيه إبراهيم عليه السلام . وهنا يأتي دور المجادلة والتي هي أحسن ويكون سلوك الطريق في الاحتجاج على المشركين .

التأويل الثالث:

أما المنهج الثالث للمفسرين والذي يتمثل في مقالة الفخر الرازي فإنه يقول : إن هذه الآية : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ ليست مرتبطة فقط أو مركزة على قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ بل هي مركزة على المعنى الأول الذي تشير إليه الآية الأولى في المحور الأول وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

وسورة المجادلة على طريقة الفخر الرازي تتمثل بهذا الشكل فإن حاجوك في أن الدين عند الله الإسلام ، فقل إني بالإسلام أسلمت وجهي لله فلا ألتفت إلى عبادة غيره ، فديني الذي أرسلت به هو الدين عند الله ، وهو الدين الحق وما سواه ليس دينا عند الله ، وبذلك يبطل عليه السلام بهذه الجملة الحجة القائمة من طرفهم في كونهم يدينون ويتمسكون بالعقيدة ، لأنه قد تبين أن هذه العقيدة ليست بشيء ، وأن ما يدينون به ليس دين الله بل هو باطل .

فإذا أردنا أن نساير الآية وأن نقف عند كثير من مفرداتها ، فإننا نجد أن قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ ، مقترناً بأداة الشرط ، والاقتران بأداة الشرط مع استعمال الماضي يقتضي الاستقبال والاستمرار فكأنه دعوة من الله سبحانه وتعالى لأن نسلك نفس السبيل في المحاجة والمجادلة ، لأن اقتضاء الاستمرار والاستقبال يمكن أن يفيد هذا المعنى .

معنى الإسلام في الآية:

أما قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ﴾. وقوله من قبل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فهو يشير إلى هذه الحقيقة الجديدة السرمدية التي تميز بها دين محمد، وهو الدين الحق فكان إسلاما.

فما هو الإسلام؟ الإسلام هو الإلقاء والتسليم حذف مفعوله لأنه في الأصل إسلام الشيء. حذف مفعوله ونزل منزلة اللازم وحذف المفعول هنا لدلالة معنى الفاعل عليه. وقد نريد أن نتبين حقيقة الإسلام وأبعاده في قولنا الإسلام هو الإلقاء والتسليم، فنبحث عن ضالتنا في مقالات السابقين المتقدمين من الأئمة، ونجد الإمام عليًا عليه السلام كما ذكر ذلك الشهاب الألوسي يقول: «الإسلام هو أمر خطير وجليل لم يسبق كثير من الناس إلى تعريفه ولذلك صدع عليه السلام بقوله: لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد من قبلي».

الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، فنحن ننتهي من الكلمة الأولى إلى غاية المطاف في تقرير هذه المراحل إلى المعنى الذي انتهى إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا تفصيل لمقالة الرسول صلى الله عليه وسلم في كون الإسلام عملا وليس قولاً.

لماذا ذكر الوجه ولم تذكر النفس؟

أما قولك أسلمت نفسي. أسلمت نفسي. أو أسلمتني فهي عبارة عن تقديم النفس وجعلها في خدمة الحق ويمكن أن نقول، لم لم يذكر النفس

وذكر الوجه؟ لأن الآية أسلمت وجهي ذلك لأن الوجه أشرف ما في الإنسان ويمكن أن يطلق على هذا المعنى أي على النفس ذاتها ، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] وكذلك أسلمت وجهي للذي أسلم له المزن تحمل عذبا زلالا في كلام العرب . وإسلام النفس في هذا الاعتبار لله حق إسلامها لأجله وصيرورتها ملكا له فجميع أعمال النفس إذا كانت مسلمة تكون مبتغية من وراء هذه الحركة ، من وراء هذا العمل إرضاء الله سبحانه وتعالى هو التحقيق طلبا .

وهنا نبحث عن حقيقة الإسلام وقد بحثتها الآية وأومات إلى هذا المعنى بم يتحقق الإسلام؟

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ وما تتضمنه :

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ يتضمن عدة معان عدها الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ ، فجعلها عشرة ، لكننا رددناها إلى أربعة لإمكان حصر تلك الأغراض المختلفة في هذه العناصر الأربعة :

أولاً : التوحيد :

أما العنصر الأول فهو التوحيد : التوحيد هو مظهر من مظاهر الإسلام ودلالة حقيقية له لأنه ينافي الشرك ويقتضي كذلك التصديق بالمغيبات جميعها ، بالقدر خيره وشره بالجنة والنار ، بالبعث بالجزاء بالحساب .

ثانياً : السلوك :

النقطة الثانية هي السلوك ، وسلوك المسلم يختلف تماما عن سلوك غير المسلم ، فقولك أسلمت وجهي لله يقتضي من المسلم إخلاص العمل لله ،

وإخلاص العمل بأن لا يكون العمل الذي نقوم به مراعاة ولا مفاخرة ولكننا نريد من ورائه تحقيق مراد الله فقط .

وأما إخلاص القول لله فإنه يكون بالقيام له بالحجة والبعد عن المصانعة والملق والنفاق حتى لا يكون الإنسان كما قال الرسول ﷺ نافيا عن شخصه هذا المعنى ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] ، وإنما يكون بالدعوة إلى الله ، بالأمر بالمعروف ، بالنهي عن المنكر ، بإقامة الحجة لإثبات العقيدة ، وإعلاء كلمة الله ، ثم بالامثال بالأوامر والنواهي .

فالإنسان المسلم لابد أن يقف عند حدود الله وذلك هو التسليم الحق لأنه إذا ما أتى ما أمره الله به وانتهى عما نهاه عنه فقد كان قائما بتحقيق معنى الإسلام ومرضيا لربه فإذا زاد عن دينه مع ذلك بلغ القمة والإعراض عن الهوى ، وعن القول في الدين بغير سلطان ، كل ذلك من السمات والحقائق المتصلة بالسلوك الإسلامي الذي ينبغي على الناس أن يلتزموه ، ولذلك قال تعالى صارفا عن غير هذه الحقيقة : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] .

ثالثا: التلقي والنظر :

أما المعنى الثالث هو التلقي والنظر ، تلقينا من رسول الله ﷺ هذا الدين وجاء الكتاب المنزل ، وجاءت السنة المبينة المفصلة وهي الحكمة فماذا عسانا نفعل؟ نأخذ بهذه الحقائق ونضيف إليها التدبر والنظر في كثير من الحقائق الغامضة علينا وذلك بالاجتهاد وبقياس الأشياء على بعضها قياس النظائر والأشياء المتشابهة حتى نجد الحلول لما ليس له حل قطعي

منصوص عليه في الكتاب والسنة وهذا من التقوى ، تقوى الله وقد قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

رابعاً : الحاكمية لله وحده :

أما الحاكمية وهي العنصر الأخير والمهم فهي ألا يجعل الإنسان لنفسه حكماً مع الله فيما صدعت به الآيات القرآنية وجاءت به الحكمة النبوية . وقد قال تعالى : في الإنكار على الذين يسرفون فيما يقدمون عليه من أعمال ، ولا يحكمون كتاب الله ولا سنة رسوله ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور : ٤٨ ، ٤٩] ، وقد قال سبحانه وتعالى في وصف المؤمن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وأخيراً : المعاملات العامة :

أما النقطة الأخيرة المتصلة بالحاكمية فهي المعاملات العامة التي أشرنا إليها قبل بين الأفراد والجماعات والأمم ، ينبغي أن تكون على وفق مراد الله وبذلك يتحقق الإسلام عقيدة وسلوكاً وتلقياً ونظراً وتطبيقاً للأحكام الشرعية .

المحاضرة التاسعة والنسعون بعد المائة

مجاهدة النفس

انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] صدق الله العظيم .

الكلام على أصل الإنسانية :

هذه الآية متعلقة بمجاهدة النفس ، ومجاهدة النفس تقتضي منا أن نذكر أصل الإنسانية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ، وقال الله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان : ٢] ، فأجسام الإنسانية أربعة :

- ١- جسم آدم .
- ٢- جسم حواء .
- ٣- أجسام بني آدم .
- ٤- جسم عيسى عليه السلام .

وكل جسم من هذه الأجسام ظهر بسبب يخالف السبب الذي نشأ منه الجسم الآخر؛ وذلك لثلاثيهم أن الخليقة كلها ترجع إلى سبب واحد، كما يقول الطبيعيون: «إن المادة تخلق المادة»، فالله تعالى رد عليهم بأن خلق الإنسان في أربع نشآت.

فظهر جسم آدم بطريق لم يظهر به جسم حواء، وظهر جسم حواء بطريق لم يظهر به أجسام أولاد آدم، وظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسى عليه السلام.

أسبقية علم الله بتناسل آدم وذريته:

ولما كان في علم الله تعالى القديم أن العالم يتوالد من نسل آدم في هذه الدار؛ ليبقى هذا النوع؛ لأن النوع الإنساني عليه مدار الكون كله ما دام الإنسان على الأرض، فالكون موجود، والسماء موجودة، والأرض موجودة، وإذا فقد هذا النوع، فإن السماء تنعدم، والأرض كذلك تنعدم، ولا يبقى شيء، ويتنقل العمران إلى الدار الآخرة، حيث أن بني آدم انتقلوا إلى الدار الآخرة، فانتقل العمران معهم، فعمرت الدار الآخرة، الجنة بما فيها، والنار بما فيها، فالعمران كله متوقف على وجود الإنسان في هذه الدار.

خلق حواء:

ولما كان في علم الله القديم أن هذه الدار تعمّر بسلالة ابن آدم استخرج من ضلع من أضلاعه القصيرة حواء، وكان في استخراجها من الضلع القصير حكمة، أما أنه كان قصيرًا؛ فلأن قصور المرأة عن أن تبلغ مبلغ الرجال، فلا يمكن أن تلحق المرأة بالرجال أبدًا، وكذلك كان الانحناء دليلًا على أنها مركز الحنو ومركز الحنان والعطف؛ لأنها خلقت من ضلع

منحن ، فهذا الانحناء أكسبها حنواً ، وأكسبها عطفاً ، فكانت مركز الحنان ، فهي تحن على ولدها ، وعلى زوجها ، باعتبار أصلها الذي نشأت منه ، وآدم يحن عليها ؛ لأنها جزء منه ، فحنينه إليها حنين إلى نفسه ، وحب المرأة للرجل حب لموطنها الذي نشأت منه ، والله تعالى خلق في المرأة قوة ، يعبر عنها بالحياء في محبة الرجل ؛ لذلك قويت على إخفاء المحبة ، أما الرجل فمحبتة ظاهرة ؛ لأنها جزء منه ، فكأنه يحب نفسه ، فظهر حب الرجل واختفى حب المرأة .

أولاد بني آدم:

إن الماء لما وضع في الرحم تولته العناية الإلهية وطورته طوراً بعد طور حتى صار علقه ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم كُسي العظام لحماً ، ولما أتم الله إنشاء هذه النشأة الحيوانية نفخ فيه الروح الإنساني ، فصار بشراً سوياً .

خلق عيسى والرد على الطبيعيين:

وأما عيسى ابن مريم ، فإن الله تعالى أراد أن يرد به على الطبيعيين ؛ لأنهم يقولون : إن ماء المرأة لا يتكون منه شيء ، وإن الإنسان يتكون من ماء الرجل ، فرد الله عليهم بأن كَوَّن عيسى من غير رجل ، فسواء كان الجنين ظهر في بطنها حين تمثل لها الروح بشراً سوياً ، أو كان من نفخ بغير ماء ، سواء كان هذا أو هذا ، فعلى كل وجه فهو جسم رابع مغاير للأجسام السالفة في سبب النشأة .

وهم يقولون : إن السبب واحد ، وأن التوالد من المادة ، والمادة لا بد أن تخلق المادة الأخرى ، وهكذا ، فرد الله على الطبيعيين ؛ ولذلك لم يلبث في

بطن أمه على ما قيل لبث الجنين المعتاد ، بل أسرع إليه التكوين ليرد به على الطبيعيين ؛ وليجعله آية . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، أي : صفة تكوينه ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] هذه أربعة .

نشأة الذرية الآدمية على وجوه أربعة :

كذلك في نشأة الذرية الآدمية ، جعلها الله أربعة ، قال الله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى : ٤٩] ، [٥٠] ، فهذه أربعة أيضًا ، فهناك جسم خلق من غير أب ومن غير أم وهو آدم ، وجسم خلق من أب ومن غير أم وهو حواء ، وجسم خلق من أم بلا أب وهو عيسى ، وجسم خلق من الاثنين وهو بقية الذرية .

معنى المجاهدة في الآية :

هذه الفطرة لا بد أن نقدمها حتى نعرف المجاهدة ؛ فالمجاهدة لها ارتباط بالنفس ؛ لأن الإنسان يجاهد نفسه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ [العنكبوت : ٦] ، أي : من أجل نفسه ، والمجاهدة أصلها وملاكها : فطم النفس عن مألوفاتها ، وحملها على خلاف هواها .

إذن فالمجاهدة : حمل النفس على المشاق البدنية ، كما أن الرياضة الروحية تهذب الأخلاق النفسية بحملها على احتمال الأذى ، هذه أصل المجاهدة .

معنى السبيل في الآية:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، سبيل الله ، أي الطريق إلى الله ، ومعنى الطريق إلى الله : أي الوصول إليه من كونه إلها ، فالجهاد لمعرفة المرتبة التي ظهر عنها هذا العالم ، وهي مرتبة الألوهية ، هذا هو الجهاد في سبيل الله ، قال الله تعالى: ﴿يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] .

عون الله للمحسن ونصرته له:

السائر إلى الله تعالى كالمسافر في طريق شاق مخيف ؛ لأنه عرض ماله للإتلاف ، كذلك عرض نفسه للتلف ، كذلك عرض نفسه لفقد مألوفاته ، فهو طريق شاق ؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني أن الذي يسير في هذا الطريق إذا أخلص وصدق مع الله ، كان الله له معيناً وعاوناً ، وكان له ناصرًا حتى يبلغ مراده من هذه المسافة ، ومن هذا الطريق الشاق .

الروح في أصل نشأتها طاهرة نزيهة:

أصل الروح في نشأتها الطهارة والنزاهة ؛ لأنها من عالم القدس ، ولذلك لما كانت الأرواح صافية ونزيهة كانت عالمة بكل الأسرار وكل العلوم ؛ لأن العلوم منطبعة في الأرواح من يوم الميثاق ، فنشأت الروح عالمة بما كان وما يكون ، وفيها جميع الأسرار ، وفيها جميع العلوم ، إلا أنها لما حجبت في هذا الجسد غابت عن عالمها ، وغاب عنها ذلك الإدراك وذلك الفهم ، وتلك العلوم كلها غابت عنها ؛ لأنها اشتغلت بتدبير هذا الهيكل الجسماني ، ومن

الناس من ظلت روحه على طهارتها ونزاهتها ، ولنضرب مثلاً بسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه كان يقول : «إني لأذكر العهد الذي أخذه الله علي وأنا في صورة الذر» ؛ وهذا طبعاً من صفاء روحه ونقاها وبقائها على قدسيته .

فلما انشغلت الروح بهذا الجسد ، وجبت المجاهدة ، فمن أسعده الله ، وفقه لمجاهدتها ومخالفتها حتى تعود إلى أصلها ، وحتى يكتب لها كما كانت ، وحتى تكون طاهرة كما خلقت ، وقد يزول عنها هذا الدنس وهذا الرين ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، فهذا الرين هو الذي حجب عنها العلوم والمعارف .

علاقة المجاهدة بطهارة الروح ودينها :

من جاهد نفسه ، فإن الله سبحانه وتعالى يكشف له وتتصل الروح بأصلها ، ومن أراد الله خذلانه وهوانه بعدله شغله عن ذلك بشهواته الجسمانية ولذاته الفانية ؛ ولذلك يقول القائل في الصوفية :

كمل حقيقتك التي لم تكمل وعن ارتكاب النقص كن في معزل
أتكمل الفاني وترك باقيا تكميله أولى بحق الأكمل
فالجسم للنفس النفيسة آلة تقضي المرام بها إذا لم تكسل
يفنى وتبقى دائماً في غبطة إن فارقه ودولة لم تنقل
إلى أن قال :

من يستطيع بلوغ أعلى منزل متدرجاً فوق السهاك الأعزل

لفتة إلى المتصوفة:

هؤلاء الذين يتصوفون كذبًا وزورًا أو يدعون أنهم سائرون إلى الله ،
ويحسنون المظاهر ، ويصرفون الباطن في بحر من ظلمات الجهل ، وظلمات
السيئات ، أولئك غرهم الشيطان واستحوذ عليهم ، وما كانوا حزبًا لله ،
بل هم حزب الشيطان ، وإن حزب الشيطان هم الخاسرون ، وقال فيهم
القائل :

وكل يدعون وصال ليلى وليلى لا تقر لهم بذاك
إذا انسكبت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى
وقال محمد بن العربي رحمته الله :

ولا والذي حجت قريش بيته مستقبليين الركن من بطائنها
ما أبصر عيني خيام قبيلة إلا بكيت أحبتي بفنائها
أما الخيام فإنها كخيامها وأرى نساء الحي غير نساها

فالظاهر مظهر الدين ، ومظهر الولاية ، ولكن الباطن مسود كما هو ، لم
يطرأ عليه تغيير ولا تبديل هؤلاء ، فهؤلاء هم المدعون ، وهم داء الأمة
العياء ؛ لأنهم انتشروا كالخنافس في كل جهة ، والناس يتبعونهم على ضلالة
وعلى جهل .

الكلام عن رسول الله ﷺ وسيادته في الدنيا والآخرة:

نقول : إننا لم نتكلم في أحاديثنا كلها عن رسول الله ﷺ ، حيث أن له
السيادة في الدنيا والآخرة .

السيادة ثبتت للرسول ﷺ؛ فهو سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، والله تعالى قال في حق يحيى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فإذا كان يحيى سيِّداً بالقرآن، والله تعالى قال لنا: إن يحيى سيد، أفلا يكون الرسول ﷺ -وهو إمام المرسلين، وأفضل الأولين والآخرين- له السيادة! هذه مغالطة لا يقبلها الشرع، ولا يقبلها الدين الإسلامي، فسيِّدنا رسول الله ﷺ أعطاه الله السيادة في الدنيا وفي الآخرة.

عودة إلى تفسير الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].
 أولاً: إن الله تعالى قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾، وعدهم بالهدى بأنه يهديهم، وهم أهل هداية.

ثم وعدهم وعداً حسناً، بأن أخبرهم أنهم من المحسنين، والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، هذا هو الإحسان الذي قال به النبي ﷺ، وقد فسره.

فالمحسنون هم الذين يعبدون الله على صدق وعلى بصيرة، وجاءت المعية في أشياء كثيرة في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨]، هذه معية خاصة.

وهناك معية عامة، وقد عبر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، لا شأن لنا في الحديث بهذا؛ لأنه يطول الحديث فيه، وإنما الذي يعيننا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، السبل كثيرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿[الأنعام: ١٥٣]﴾ ، لما نزلت هذه الآية خط رسول الله ﷺ خطأً مستقيماً ، وقال : «هذا صراط الله» ، ثم خط خطأً عن يمينه ، وخطوطاً عن شماله ، وقال : «هذه سبل الشيطان»^(١) .

فالسبل كثيرة ، وكلها ترجع إلى الله ؛ إذ الأمر منه وإليه ، إلا أن الله تعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، الذين عرفناهم ، وقلنا لهم إنها هي سبيل واحد ، وإن الباقي من السبل هي سبل الشيطان ، فالذين جاهدوا في سبيلنا هذه التي عرفناها لهم ، نهديهم إلى طريقنا حتى يصلوا إلى معرفة الله ﷻ .

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١ / ١٨٠) ، وأحمد في «مسنده» (١ / ٤٣٥) ، والدارمي في «سننه» (١ / ٧٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

المحاضرة المائتان

الاستجابة لله ورسوله طريق السعادة

قال الله جلّت عظمته وتعالّت كلمته : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا
لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وبلغ رسوله الكريم
﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذْكَرَ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢] .

لكل نبي من الأنبياء معجزة:

روينا في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال :
«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما
كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم
القيامة» .

وترجمة الحديث : أن كل نبي من الأنبياء أعطاه الله من المعجزات
والخوارق ما جعل الناس يؤمنون به في حياته وفي زمانه .

معجزة الإسلام وحي يوحى إليه :

إن نبي المسلمين ﷺ ما كانت معجزته الكبرى إلا وحياً يوحى إليه ،
فكانت معجزة في حياته ، وبعد مماته ، أي أنه معجزة قائمة ما قام عالم
الدنيا ، وما دام العقل البشري يخلق في الأجواء ، وبذلك يمكن أن يكون
اتباعه ﷺ أكثر وأوفر ؛ لأن معجزته تفوق حد طاقة البشر ، وتقوم على

النظر والبصر، ومطابقة الواقع بالخبر، وها هي الاكتشافات العلمية والمحاولات الفضائية ما تزال تطالعنا من حين لآخر، بما يفسر بعض الآيات الكونية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] .

أثر النور القرآني في القلب:

روينا في «صحيح البخاري» عن جندب بن عبد الله العلقمي رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه» ، وبراعة الحديث تأتي من التعبير بقراءة القرآن في جانب الائتلاف ، وبالقيام عنه في جانب الاختلاف ، فاتتلفوا ولا تختلفوا ، واستووا ولا تنحرفوا ، فتلك هي طبيعة وحي القرآن ، وذلك هو أثر نوره في قلب الإنسان .

وجاء في «سنن أبي عبد الله بن ماجه» ، من حديث عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «إنما هما اثنتان : الكلام ، والهدي» ، فأحسن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدي هدي رسول الله ﷺ .

مدرسة القرآن هي مدرسة الحق:

تركز في سماء العقول ، وتغلغل في أعماق القلوب أن المدرسة الناطقة بالحق مدرسة القرآن الكريم ، والفرقان الهادي ، نهضت بالمسلمين الأولين نظراً وأدباً وعملاً ، فاضطلعوا بالمهام والمسؤوليات ، وأدركوا معنى الحقوق والواجبات ، وحافظت على توازنهم وتماسكهم بتربيتهم على الإيمان الصادق ، والعمل الخالص ، والسلوك القويم .

هي مدرسة الرجال والأبطال:

من شأن الإيمان الصادق أن يثبت المزية الخلقية التي توضح جانب الإنسانية أكثر مما توضحها الناطقية، هذه المدرسة نهضت بالمسلمين، وحافظت على توازنهم، وجعلت منهم رجالاً وأبطالاً يدفعون العار، ويحمون الجار ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، كما جعلتهم وسطاً في عقائدهم وأخلاقهم، وفي عباداتهم ومعاملاتهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي بما يرضاه الله منكم وبما يراه الناس من سمو في الأخلاق، ونهوض في الأعمال، ووجود في الآفاق، إذ لا يشهد على الناس إلا العدول وأفاضل الناس.

هي مدرسة البصائر فلا تنطق عن هوى:

هذه المدرسة في حاجة إلى من يتبصر في حقائقها، ويتحقق ببصائرها للبلوغ إلى الغاية، وللوصول إلى الحاجة، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وإنما كانت كذلك؛ لأنها تنطق عن الله ولا تنطق عن الهوى، ولأنها تتصل بالسماء؛ لأنها من وحي السماء، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ولأنها المدرسة التي تستطيع أن تقيم عهد السلام، وتشيع العدل بين سائر الأنام ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

هي مدرسة الأنوار والبركة :

لأنها المدرسة التي لا تفتأ ترسل على الأرض نورًا من أنوار السماء ، وبركة من بركات السماء ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور : ٣٥] ، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة : ٦٦] .

ومن خصائصها أيضًا :

أنها المدرسة التي سخرت المادة للروح ، ولم تسخر الروح للمادة ، كما هو شأن الحضارات الأخرى ، إلا أن نظامها لا يقاس بنظام البشر ، وشرعها لا يوزن بشرع البشر ، ونظامها أقوى وقانونها أسمى ، كما أنها لا تقبل التبعية في الإيمان ، والتجزئة في العمل ، فإما أن يؤخذ وحيها كاملاً ؛ لأنها وحدة لا تتجزأ ، ودعوة لا تتفرق ، وإما أن يترك وحيها كاملاً ، فلا تتحرك الحياة بجاداتها ، بل تتراءى في أفق غير أفقه ، وتتعثر في طريق غير طريقه ، وأما أن يؤخذ البعض ويترك البعض ، فلا ولا ؛ لأن الحياة بذلك تعود حياة مقتضبة ، أو حياة مغتصبة لا تسلم من التناقض والآفات ، ولا تصحبها سعادة الحياة وسعادة الممات ، وأسوأ من هذا أن تنسب الحياة إلى نظامه ، ولكنها لا تكتسب من بابه ، فإن ظاهرها وباطنها لا يلتقيان ، وإن صاحبها وطالبها لا ينتصران ، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا

جَزَاءٌ مَّن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴿البقرة: ٨٥﴾، ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿النساء: ١٥٠، ١٥١﴾، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٢٦﴾﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًّا ﴿الكهف: ١٠٣-١٠٥﴾.

الإسلام دين التطور والتجديد:

إن الإسلام دين التقدم والتجديد، أو دين التطور والتجديد، ودين الوحدة والتوحيد، دين التطور والتجديد؛ لأنه نشأ بعدما قطعت البشرية أشواطاً ومراحل في الحياة الفطرية والبدائية، وفي الحياة التجريدية والنظامية، فهو جماع ثمرات الكتب السماوية، وهو ختام كل الأنظمة الشرائعية، تلك الأنظمة التي اختلفت مناهجها، وتعددت مناسكها، تبعاً لاختلاف الطبائع والمصالح، وتفاوت المطامع والمطامح، كما قال الله جل وعلا: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾﴾، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا ﴿الحج: ٣٤﴾﴾.

الإسلام دين الوحدة والتوحيد:

السر في أن الإسلام دين الوحدة والتوحيد؛ لأنه ينشد الوحدة بين سائر القوة الموجودة في هذا الكون، وليس بين الطبيعة البشرية فحسب، فلا حرج إن كان لا يقبل التجزئة والتبعيض، ولا بدع إن كان دين الوحدة

والتوحيد، توحيد الإله وتوحيد العبادة لله، وتوحيد سائر الأديان في دين الله، وتوحيد الرسل في التبشير لدين الله، وفي إقامة ذلك الدين الواحد، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فالدين دين الوحدة والتوحيد.

وكذلك التوحيد بين العادات والعبادات حتى إن النشاط العادي يعد عبادة من العبادات، وما أنفس قول سيد السادات: «إنما الأعمال بالنيات»^(١)، وكذلك التوحيد بين القيم الروحية والقيم المادية، وبين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وكذلك الربط بين السماء والأرض وما بينهما في حكم النظر: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٨٥﴾ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴿الذاريات: ٢١، ٢٢﴾.

وحدة الإسلام يصدر عنها:

تصدر عن هذه الوحدة الكبرى تشريعات الإسلام، وتوجيهاته، وتوصياته، ونظرياته، وحدوده، وفرائضه، فالإنسان والحياة والكون وحدة متكاملة ومتضامنة بموجب صدورها عن إرادة واحدة مطلقة شاملة وبمقتضى ذلك النظام الساري في مجموع الكائنات التي يكمل بعضها بعضًا بحكم التعرف إليها، والتعاون معها.

(١) سبق تخرجه.

دور العلوم الكونية في ازدهار الحياة:

كانت العلوم الكونية والعلوم الطبيعية التي يتعرف إليها الإنسان تساعده على ازدهار حياته، وتقوية وجوده وإنتاجه، إذ كل ما يتعرف إليه الإنسان في هذه الحياة يؤهله لاستحقاق الخلافة عن الله في أرضه، ويوسع آفاق حياته، ويفجر طاقات أفكاره، ولقد كان للعالم عناية لهذه المدرسة الإسلامية الكبرى، فدرسها دراسة دقيقة وعميقة، حتى استفاد منها في نمو نهضته، وفي سمو شخصيته، ثم قدرها حق قدرها، ومد يده إلى ترجمتها، وإن كان قد ينقصها اكتشاف المعاني عن طريق طبيعتها، واعتبار دلالة السياق في فهم نصوصها، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

المعارضون لهذه المدرسة وخطورة مذهبهم:

أما الذين كفروا بهذه المدرسة وضاقوا ذرعًا بنهضتها، فقد ائتمروا بها من قبل ومن بعد، ائتمروا بها إذ حكموا عليها حكم اللثام، ووضعوا في طريقها كثيرًا من الألغام، وسلطوا عليها السماسرة والمحسوبين على الإسلام، أولئك الذين زاحموا الصحف بمناكبهم، وخاضوا المعركة بباطلهم، وعلى حساب قومهم، وتفضلوا بعباراتهم المنمقة، وعناوينهم البراقة، فصل الدين عن الدولة، فصل الدين عن القانون، فصل الدين عن الأخلاق، فصل الدين عن المجتمع، إلى غير ذلك مما نمم به الأشقياء، وهمهم به الأعداء.

وفصل الدين عن هذه المجالات الحيوية، معناه إصدار الحكم عليه بالإعدام من طرف أولئك الذين لا يهمهم عدل، ولا يهمهم سلام، «وكل

ميسر لما خلق له»^(١)، ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

مدرسة النبي محمد ﷺ أولى بالاتباع:

إن هذه المدرسة التي شكلت تلك الوحدة المتآخدة، والقوة المتزايدة، والنهضة المتصاعدة وحدة الكون، وقوة الكون، وتعاون الكون، هذه المدرسة هي التي كان يعلم فيها محمد ﷺ، وهي التي كانت ملاك أمره، ودعامة حياته، كما أخبرت بذلك الصديقة بنت الصديق، المفضلة على النساء، والمبرأة من السماء عائشة بنت عبدالله بن أبي قحافة التيمي -رضي الله عنها وعن أبيها- قالت: كان خلقه ﷺ القرآن.

فسيرته ﷺ في نفسه وفي بيته، هي سيرته بين الناس جميعاً، لا يوجد بينها أي خلاف، ولا أي حجاب، ودعوته ﷺ التي عرضها على الناس، كان أسرع الناس إلى الأخذ بها، وأول الناس احتكاماً إليها، ورسالته ﷺ التي نادى بها هي الرسالة التي عاش عليها، وهي التي ضببطت أحواله وعوائده ومبادئه وعقائده ﷺ، سواء منها ما اطلع عليه الناس، أو ما خفي عن أعين الناس، وظل ﷺ كذلك بارزاً للخصوم والأصدقاء، فما عرفت عنه ريبة، ولا وقعت منه مناقضة.

نهضة القرآن تكتب لأهل دعوة الحق:

إن نهضة القرآن لا تكتب إلا لمن جمع قلبه على دعوة الحق، وعزم على

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام.

تنفيذها بين سائر الخلق ، ولا تدخل في حكم الواقع إلا إذا كان للغتها وزن وقيمة ، واعتبار ومقام ، والمسلمون كما تعلمون لم يتأخروا وهم آخذون بعروة الإسلام ، ولكنهم تأخروا وهم ناكبون عن صراطه ، وغائبون عن نظامه ؛ لأن مجرد الانتماء إلى الإسلام ليس هو حقيقة الإسلام ، فالإسلام محجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ، والإسلام خط مستقيم لا ينحرف ولا ينعرج ، والإسلام يقوم على الإيمان والعمل ، وعلى التضحية والجهاد ، ولا يقوم أبداً على الجبن والكسل ، ولا على اللغو والجدل ، فعلى المسلمين وقد خبروا الأمر في باطنه أن ينظروا فيما بين أيديهم وما خلفهم ، وأن ينهضوا بحضارة الإسلام في بلادهم ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] ، والله يعهد إليكم بقوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

الآية مدنية بطبيعتها :

قال الله جل ذكره : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، هذه الآية مدنية بطبيعتها وحقيقتها ، وللمدني والمكي طابع يطبع هويته ويميز حقيقته ، فلا يلتبس هذا بذاك .

جاءت الآية تأكيداً لآيات الأنفال :

الآية الكريمة جاءت تأكيداً بعد تأكيد ، لما أتى في صدر سورة الأنفال من التقوى والطاعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١] ، إن كنتم من أهل الإيمان ؛ لأن الإيمان يربأ بصاحبه أن يقف موقف المخالفة لربه والمعادنة لحكمه ، وكثيراً ما أوصى الله بطاعة الرسول وعدم مخالفة أمره ، في حرب الجهاد الذي

هو مبدأ العزة والتحرر، وفي غير حرب الجهاد من أعمال التقدم والبروز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ولما كان للإنسان حظ سماع الأذن، وحظ سماع القلب، وكان سماع القلب هو المجدي والنافع في قبول الوصايا، وفي تنفيذ التعاليم الصادرة إلى العباد، قال الله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

تشبيه الإنسان الذي لا يعقل بالأنعام:

لما كان الإنسان الذي لا يسمع ولا يعقل أشبه شيء بالدواب وبالأنعام، بل هو شر الدواب وأضل من الأنعام؛ لخبث نفسه، ولسوء استعداداته؛ لإعراضه عن دلائل الهدى ومجيبات الإيمان، قال الله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٣] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

ولما كانت نهضة الإنسان لا تستقيم إلا باعتبار الحق، ولما كان لقاح المسلم لا يتم إلا عن طريق الهداية إلى الصراط المستقيم، أكد الله هذه الوصية، وكرر ذلك النداء تنبيها من الإغفاء، وتمكيناً من الإصغاء، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

هدف النداء في الآية تحقيق المصلحة:

كل مؤمن بالله مخاطب باحترام هذا النداء، وبإجابة هذا الأمر الذي لا يهدف إلا إلى نهضة الإنسان ومصلحته، لما تعلمون أن الأوامر الشرعية تعتمد المصالح والمنافع، كما أن النواهي الشرعية ترتبط بالمضار والمفاسد،

إلا أن هذه الحياة الدنيا قد بنيت على أساس الامتزاج والاختلاط بين المصالح والمفاسد، وبين الخير والشر، فما من مصلحة إلا وفي طيها مفسدة، وما من خير إلا وفي ضمنه شر، والعكس بالعكس، ومن ثم استقر رأي المشرعين على اعتبار جهة الغلبة في المصالح والمفاسد، وأسسوا قاعدة الحكم للغالب، وشاهد ذلك قول الله ﷻ في مسألة الخمر والميسر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقول الله ﷻ في مسألة القذف الخطير: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور: ١١]؛ لأن ما كشف عنه الإفك من الخير أكثر مما كشف عنه من الشر، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يقال: استجبت له وأجبته، كما يقال: استجبته وأجبت له، ومن الثاني قول الشاعر العربي سعد بن مالك الغنوي:

وداع دعا هل من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

سبب توحد الضمير في ﴿دَعَاكُمْ﴾:

يرجع توحد الضمير في قوله تعالى: ﴿دَعَاكُمْ﴾ إلى الرسول؛ لأنه ﷺ هو المباشر للدعوة، ولأن استجابته ﷺ استجابة لله ﷻ، كما قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

معنى الاستجابة:

أصل الاستجابة بمعنى الطاعة والامتثال، هو إفراد الله بغاية المحبة بحيث لا يشرك معه فيها أحد على الإطلاق، وأمرة هذه المحبة اتباع النبوة والرسالة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

الاستجابة من ثمرات المحبة:

محبة الله على الوجه الأتم لا بد وأن تنتج هذه الاستجابة ؛ لأن من أحب شيئاً استجاب له ، وامثل أمره ، ولا بد أن تنتج محبة الله للعبد ولا أحلى ولا أعلى من محبة الله للإنسان ، إذ هي عبارة عن العناية به ، والالتفات إلى أمره ، كما قال الله جل وعلا في الحديث القدسي : «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١) .

العلة في خلق الخلق:

لقد أكد القرآن أن العلة في خلق الإنس والجن إنما هي طاعته الجامعة لمحبهته ، والداعية إلى امتثال كلمته ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، أي إلا ليحبوني وليطيعوني ويمثلوا أمري ويحتبوا نهيي ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

نوع الاستجابة المطلوبة:

الاستجابة المطلوبة ليست هي مجرد القول واللسان ، ولا هي مجرد التوسل والدعاء ، وإنما هي استجابة العقل والضمير ، استجابة بالقلب وانطلاقة إلى العمل ، وإنما هي وجود الصدق والإخلاص في معاملة الله ، وفي معاملة عباد الله ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وإنما هي جهاد مستمر للدعوة إلى عبادة الله ، وإلى العمل في سبيل الله ، وإلى تربية القلوب على تقوى الله ، ومقاومة

(١) سبق تخريجه .

الزائغين عن صراط الله ، وكفكفة الطغاة عن طغيانهم ، ورد المعتدين عن عدوانهم ، وإنما هي ضمان كرامة الإنسان ؛ لأن الله كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْخَلْقِ ، وإنما هي توفير العدل للإنسان ؛ لأن الله أَوْصَى بِالْعَدْلِ وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ ، وإنما هي تأمين حقوق الإنسان ؛ لأن الله أمر بصيانتها وعدم إضاعتها ، وإنما هي تأمين العقائد والنفوس والعقول والأموال والأعراض ، فالاستجابة هذه تعني حياة أرقى مما يتعارفه الجهال والضعاف ، وأسمى مما يصل إليه أصحاب المشاعر المحدودة ، والحواس الموصولة بظواهر الحياة الدنيا فحسب ، فإذا لم نكن نعلم أن الإسلام حياة تجدد المجتمعات ، وروح تخلق الأفراد والطاقات ، فقد جهلنا حقيقة الإسلام الذي يباعد بين شريعته وغيرها ، وبين أتباعه وغيرهم ، فيقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر : ١٩-٢٢] .

فالإسلام رسالة حياة كاملة تعترضها المشاق والصعوبات ، وتتناها المشاكل والأزمات ، فلا بد من مواجهتها بعزيمة مشحودة ماضية ، وبإرادة قوية صادقة ، ولا بد من معالجتها بما تستحق من علاج مادي أو أدبي ، إيجابي أو سلبي ، وقد يكون السلب في بعض المقامات أقوى وأنجع من الإيجاب في العلاج .

المقصود من الدعوة في الآية :

ودعوة الإسلام هذه ، ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ هي دعوة إلى الحياة بكل معنى من معانيها ، وبكل مقوم من مقوماتها ، فهي دعوة طبيعية تقوم على التفهم والتسلح والتسامح ، وتقوم على خلق دولة تطبع نفسها بطابع الولاء

والوفاء، وترفرف عليها راية العدل والإخاء، وتقود أصحابها في ميادين التعمير والإنشاء، وفي آفاق التطور والارتقاء، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ما أكثر الصور والمعاني التي تكمن في هذه الكلمة الوجيزة: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وذلك من شمول القرآن، وكمال بلاغته، وسحر بيانه، وقوة إعجازه، فصور الحياة وإن تعددت، ومعانيها وإن تجددت، ومداخلها وإن تشعبت، تتجمع في هذا النص المحكم، وتراءى من خلال هذا التعبير المجمل، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

الدعوة إلى تكميل الفطرة الإنسانية:

يا أيها المؤمنون، استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لتكميل الفطرة الإنسانية، ولسعادة الحياة في الدنيا وفي الآخرة، لتوحيد الله وعبادته، وبعدم الخروج عن سبيله وصراطه، ﴿فَظَرَّتْ أَلَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلْفَيْمٌ﴾ [الروم: ٣٠]، والدين كما تعلمون حياة ونور، يكشف الحق، ويشفي الصدور، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

الدعوة إلى المعرفة:

يا أيها المؤمنون، ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للمعرفة النظرية، وللخبرة العملية، وهما مناط حياة القلب وحياة الجسم.

والإسلام كما تعلمون حضارة كاملة سامية، والحضارة لا تقوم على الجهل وال فراغ، ومن ثم كان العلم قبل العمل، وكانت الدراية أهم من الرواية.

الدعوة لنصرة الحق:

يا أيها المؤمنون، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ لنصرة الحق، ومعونة الخلق، فإنكم إذا نصرتم الحق بما معكم من القوة نصركم الله، ورفع أقداركم، وثبت أقدامكم، كما قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصْرُوا اللَّهَ نَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ونصر الله معناه: نصر الحق في موضعه، وطرده الباطل وطرده أهله.

فإن تعافوا العدل والإيماناً فإن في أيماننا نيراناً

وإن الله يساعد العبد ما كان العبد في مساعدة أخيه، وما كان يجب له ما يجب لنفسه.

الدعوة إلى العزة والقوة:

يا أيها المؤمنون، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للقوة والعزة، وللبعث واليقظة، وللعفة والرحمة، ولثقة بربكم، وبدينكم، وبنفسكم، وبعملكم حتى لا تكونوا عالة على غيركم، والله يأمركم بقوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، أي إنكم مراقبون من الله، ومن الرسول، ومن الناس، فأصلحوا قلوبكم، وأصلحوا أعمالكم، والرسول ﷺ يرشدكم بقوله: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١).

الدعوة إلى الوحدة والتآخي:

يا أيها المؤمنون، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للوحدة والتآخي،

(١) سبق تخريجه.

وللتآزر والتآسي على أساس الاعتصام بكتاب الله ، والاستمسك بعروته الوثقة .

يا أيها المؤمنون ، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ لإصلاح وإعمار أرضه ، ولإقامة العدل بين عباده ، ولتطلب النهوض والصعود ، وللأخذ بأسباب المجد والنفوذ .

الدعوة إلى التحرر من الهوى :

يا أيها المؤمنون ، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للتحرر من أهوائكم ، وللتحرر من أعدائكم ، وللدفاع عن حوزة أوطانكم ، وإن وطن المسلمين كما تعلمون واحد ، لا تفرق بينه العنصرية ولا العصبية ، ولا الجنسية ولا الجغرافية ، فنكبة الشرق نكبة الغرب ، ونكبة الغرب نكبة الشرق ، فلا يجمل بقوة الإسلام والحالة هذه أن يتغاضى بعضها عن بعض ، أو أن يطغى بعضها على بعض ، بل على العكس من ذلك ينبغي أن تتداعى وتتواصى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، لمجرد هزة وقعت في جزء من أجزاء الوطن الموحد .

ولو أننا وفقنا إلى الإيمان بوحدة القرآن الكريم ، وإلى العمل بوصية القرآن الكريم ، لما توالى النكبات على المسلمين ، ولما وقعت ضحية العدوان الصهيوني فلسطين ، تلك البلاد الجريحة الشهيدة ، تلك البلاد المقدسة المباركة ، التي أصبحت تعبئة الجهود من أجلها وفي سبيلها فرضاً من آكد الفروض ؛ لأنها من تراث الإسلام ، ولأنها من تراث الجدود ، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ٤١] .

الدعوة إلى الإيمان بالله :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اُسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ اِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ،
 هذه الآية الكريمة تعبر بدقة عن ضرورة العناية بما جاء به محمد ﷺ من
 الوحي الجلي ، ومن الوحي الخفي ، وتؤكد الدعوة إلى الإيمان بالله وإلى
 حياة الإيمان بالله ، وهي حياة الجد والنشاط ، وحياة الخير والإسعاد ، وحياة
 الطهر والعفاف ، وحياة السمو والكمال ما دامت تقتص طريق الإيمان وتتجه
 في سبيل الحق : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي اَدْعُوْا اِلَى اللّٰهِ عَلَىٰ بَصِيْرَةٍ اَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي
 وَسُبْحَنَ اللّٰهِ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

الإيمان هو دعامة كل نشاط :

الإيمان بالله هو دعامة كل نشاط ، وقاعدة كل عمل ، فلا عمل بدون
 إيمان ، ولا إيمان بدون عمل ، إذ لا يكاد الإيمان الحق يستقر في الإيمان ،
 حتى يعلن عن نفسه بنفسه في صورة بناء وتصميم ، أو في صورة إصلاح
 وترميم .

من مقومات الإيمان أحكام النظام الكوني :

الإيمان بالله سنده هو العناية بهذا الكون ، وإحكام نظامه ، واستمرار
 وجوده من دون خلل ولا فساد ، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي
 خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُوْرٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ
 إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك : ٣، ٤] ، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ اِلَّا اللّٰهُ
 لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] أي لاختل نظامهما وفسد سيرهما ، لكنهما لم يختلا ولم
 يفسدا ، فالإله واحد وليس بعدد ، وأساس حياة الإيمان بالله هو الإيمان

بالجهاد : جهاد العدو المتصل ، وجهاد العدو المنفصل ، جهاد الكفر والإلحاد ، ومقاومة الظلم والفساد ، والجهاد حياة في الدنيا ، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، وحياة في البرزخ ، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة : ١٥٤] ، وحياة في الآخرة ، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، والحيوان معناه : الحياة . ذلك أن حياة الشهداء الذين قاتلوا ؛ لإعلاء كلمة الله ، وقادوا شعوبهم في سبيل الله ، وصمدوا وصبروا حتى تحرروا من سيطرة أعداء الله ، حياة الشهداء أعظم عند الله من حياة غيرهم ، كما قال : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ... ﴿[آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠] .

الحياة الحقيقية في الاستجابة :

الحياة الناهضة هي حياة من استجاب لله وللرسول سرا وعلنا ، ظاهرا وباطنا ، فهو لاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم هم الأموات وإن عاشوا ، ولذلك كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لله وللرسول ، كما كان ذلك في أوائل صدر الإسلام ، وعنه عبر نبي المسلمين ﷺ بقوله : «خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»^(١) ، وفي ضمنه أن كل قرن خير مما يليه ، ذلك أن كل ما دعا إليه الرسول ﷺ ففيه الطلب للمصلحة ، والهرب من المفسدة ، وفي ذلك الخلاص من طغيان الشهوات ، والقيام في صف المعجزات ، ومن فاته جزء من هذه الدعوة ، فقد فاته جزء من النهضة ، وكان فيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ ، وشاهد

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

ذلك اختلاف النهضات القائمة في بلدان الإسلام شرقاً وغرباً، إذ لم يكتب لهذه البلدان أن تأخذ الأمر من الأول إلى الآخر، ومن الرأس إلى القدم، وإنما هي نهضات متزعة من هنا وهناك، تزيد وتنقص، تسير وتنكص، والله الأمر من قبل ومن بعد .

الآية تدعو إلى حياة الجسم والقلب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ،
 الإنسان مضطر إلى حياة الجسم وإلى حياة القلب، فكما أن الجسم الصحيح يكون شاعراً بالنفع والضرر، وبالراحة والألم، كذلك القلب الحي يكون قادراً على تمييز الحق من الباطل، والرشد من الضلال، وكما أن الجسم لا حياة له ما لم ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه، كذلك لا حياة للقلب ما لم ينفخ فيه الرسول ﷺ من روحه، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فمن حصل على النفخ الملكي والنفخ البشري، حصل على الحياتين معاً حياة الجسم وحياة القلب، وهي حياة كاملة وسامية، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول ﷺ حصل على حياة الجسم دون حياة القلب، وهي حياة ناقصة وهابطة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ، فقال البحر والحبر ابن عباس رضي الله عنهما : أو من من كان ضالاً فهديناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور، والنور هو نور الهداية المحمدية ونور الدعاية الإسلامية، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ

مَنْ اللَّهُ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٧].

أداء العبادات أهم مقتضيات الاستجابة:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ، من الاستجابة لله وللرسول : أداء العبادات ، وإقامة العبادات التي كان لها أثر كبير في تربية المجتمع وتقويم أخلاقه ، والتي جعلها الله شعاراً لوحدتنا وسلاحاً لقهر أعدائنا ، وجعل سبحانه وتعالى من هذا الشعار شعوراً تتفجر ينباعه في قلوبنا ، فيسود التراحم والتعاطف والتناصر والتكاتف ، وتسود وحدة الصف ووحدة الاتجاه ، فلا يوجد بيننا قائم وقاعد ولا جائع وشبعان ، ولا شرقي وغربي ، وإنما هي أمة واحدة ، أمة واحدة تحس إحساساً واحداً مشتركاً يجمعها في البأساء والضراء ، ويشملها في النعماء والرخاء .

الصلاة:

الصلاة -وهي عمود الإسلام- تدعو إلى وحدة الصف وإلى سلامة المجتمع ، كما قال الله جل ذكره : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، وإنما تكون تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا لم تكن صورة مجردة من الروح والسر ، أما إذا كانت كذلك فإنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً من الله ، فالسر هنا هو الإخلاص والخشوع ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] ، فالصلاة هي أقوى وسيلة لإصلاح الفرد ولإسعاد المجتمع ، ولتنظيم الصف والعمل .

الصيام:

الصيام كذلك هو رياضة تهذيبية ، ومدرسة إعدادية تعد الإنسان للقاء الأحداث ، ولحمل الأعباء ، ولبذل التضحية في سبيل الله ، وفي سبيل المجتمع ، كما أنه مظهر من مظاهر المساواة والمواسة ، ونظام شامل لنظام التغذية ، فهو وسيلة للشعور بعز الوحدة وألم الحاجة ، وباتقاء الأمراض التي تهدد الإنسان في حياته ، وتهدد المجتمع في كيانه ، ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

الزكاة:

الزكاة ضريبة مقدسة أوجبها التضامن الاجتماعي ، والإخاء الإنساني على القادرين والمقتدرين ، تمسح أثر الدموع ، وتدفع داء الجوع ، وتقرب الأخ من أخيه ؛ لأنه طبعاً يساويه ، وشرعاً يواسيه ، كما أنها تطهر صاحبها من داء الشح والبخل ، وتركيه بفضيلة الحب والعطف .

الحج:

أما الحج فهو مؤتمر الإسلام من قبل ومن بعد ، يغشاه المسلمون من كل بلد لأداء مناسكهم ، ولقضاء عبادتهم ، ولإحياء سنة التعارف بينهم ، وللتداول فيما يحدث من مشاكلهم ، فهو مؤتمر يشمل قضايا الدين وقضايا الدنيا ، ويبحث مواقف السياسة ، ومعالم الدنيا والدين ، وهو مؤتمر يجعل من قوات الإسلام قوة واحدة ، ومن شعوب الإسلام شعباً واحداً ، يحس إحساساً واحداً ، ويتجه اتجاهًا واحدًا ، وذلك هو ما ساد به الأولون ، وعز به الأقدمون .

وذلك هو ما رسمه محمد ﷺ بأقواله ، وشيده بأعماله وقام على تحقيقه الخلفاء والنصرء من ورائه .

ومن مقتضيات الاستجابة التعاون في أصول الحياة:

ومن الاستجابة لله والرسول أيضًا: التعاون في أصول الحياة وفروعها، والتناصر عند الضرورات، ومفاجأة الأحداث، وإقامة الحياة على دعائم الإسلام ومصالح الشريعة ومقاصدها، وعرض النزاعات القائمة بين المسلمين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ومنها: تنظيم الدفاع عن الدين:

ومن الاستجابة لله والرسول: تنظيم قوات الدفاع عن الإسلام تنظيمًا يجاري سنة العصر، ويوازي قوة الخصم، وذلك ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

وقول النبي ﷺ وهو يعلم بعض أصحابه الأخذ بالحيلة والحذر: «تذكر قول القائل: أخوك البكري فلا تأمنه»^(١)، وإذا كنت لا تأمن الشقيق من إخوانك، فكيف تأمن ما لا يؤمن من أعدائك!

حديث أبي بن كعب الأنصاري:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، مما يندرج في هذه الآية الكريمة ما ورد في الحديث الصحيح، وهو: «أن النبي

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦١) من حديث عمرو بن الفغواء الخزاعي رحمته الله.

ﷺ خرج على أبي بن كعب الأنصاري، وهو يصلي، فقال: يا أبي، فالتفت إليه ولم يجبه، ثم خفف وصل، فقال له رسول الله ﷺ: يا أبي، ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟ فقال أبي ﷺ: كنت أصلي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: ألم تجد فيما أوحى إلي ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ قال: بلى يا رسول الله، ولا أعود لذلك إن شاء الله^(١).

من لا يستجيب لا يستجاب له:

مثل حديث أبي بن كعب الأنصاري هذا حديث أبي سعيد بن المعلى الأنصاري الذي خرجه الإمام البخاري، فهذان الحديثان يسجلان تخصيص الآية التي أوجبت على المصلي ألا يتكلم في الصلاة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَتْنَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي ساكتين، كما رواه الشيخان عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت هذه الآية، فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، إذا استجاب العبد لربه في أوامره ونواهيه، استجاب الله لعبده في أدعيته وأسئلته، كما يقول: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وإذا لم يستجب العبد لربه لم يستجب الله لعبده؛ لأن من لا يستجيب لا يُستجاب، وإنما يستجيب الذي يسمعون لصحة قصدهم وسلامة قلوبهم، والله يقول: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿الرعد: ١٨﴾ .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] الآيات .

هذه الآيات الكريمة الموصولة يجمعها خيال المؤمن المسلم ، ويقبلها ضميره الحي الكريم ، ويؤمن بشريعتها وحقيقتها قلبه الصالح السليم ، فقوله تعالى : ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ شريعة ، وقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حقيقة ، في هذا جمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو على غرار قوله سبحانه وتعالى : ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩] .

الله ﷻ يحول بين المرء وقلبه :

روى الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ ، عن سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أن النبي ﷺ قال : «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به سوى مرتين ، كل ذلك كان الله يحول بيني وبين ما أريد ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته ، مرة قلت لراع كان يرعى معي : لو أبصرت إلى غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت حتى أتيت أول دار من مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فجلست أنظر ، فضرب على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم

أهم بسوء» ، وهذا المهم كان منه ﷺ قبل النبوة ، ومع ذلك حال الله بينه وبين ما هم به ، وأما بعد النبوة فلا يقع ؛ لأن الله تعالى نصبه للخلق ، وعصمه من الخلط .

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية الكريمة : يحول الله بين الكافر وطاعته ، وبين المؤمن ومعصيته ، فالسعيد من أسعده الله ، والشقي من أشقاه الله ، والقلوب كلها بيد الله يقلبها كيف يشاء ، ويصرفها كما يريد سبحانه وتعالى .

الله ﷻ يقلب القلوب :

وفي «صحيح البخاري» في ترجمة هذه الآية عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كثيراً ما كان النبي ﷺ يحلف بقوله : «لا ومقلب القلوب» ، فقال الحافظ ابن حجر : كأن البخاري رحمه الله رأى تفسير الحيلولة في الآية بتقليب القلوب في الحديث ، ولقد كان من دعاء النبي ﷺ : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١) ، وفي رواية : «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» .

وفي «صحيح الإمام مسلم» : «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفها كما يشاء» ، أي من الضلال إلى الهدى ، ومن الهدى إلى الضلال .

نسأل الله الهداية والتوفيق : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

(١) سبق تخريجه .

الاستعارة في الآية:

في الآية الكريمة استعارة تمثيلية بأن شبه تمكنه سبحانه وتعالى من قلوب عباده وتصريفه إياها كيف شاء ، بمن حال بين إنسان ومتاعه ، فهو يقدر على التصرف فيه دون صاحبه .

عاقبة التباطؤ في الاستجابة:

المراد من قوله تعالى : ﴿يَحُولُ بَيْنَكَ الْمَرْءُ وَقَلْبِهِ﴾ أنه يميته فنفوته الفرصة التي هو واجدها ، وعلى أي حال فالمناسبة ظاهرة بين الآية وما قبلها ، وهي أنه لا ينبغي للمؤمن أن يتباطأ في الاستجابة ، فإنه لا يأمن أن يحول الله بينه وبينها ، فلا يمكنه بعد ذلك من الاستجابة ، عقوبة له على تركها عند وضوح الحق واستبانة الطريق ، فتكون الآية ، كقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وكقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥] ، ويكون في الآية أيضاً تحذير للإنسان من تأخير الاستجابة ، وقد تمكن منها ، فلربما حيل بينه وبين القلب ، أو بينه وبين العمل ، فلا يستجيب ولا يهتدي .

الثابت من ثبته الله:

إننا لنشاهد بعض الناس وهم يسرون في طريق سوي ويحتنبون كل طريق ملتو ، فإذا بقلوبهم قد انحرفت عن الصراط المستقيم ، إما بشبهة زعزعت اعتقادهم ، وإما بشهوة أزالَتْ رشادهم ، وفي ذلك عبرة وعظة لمن يعتبر ، للطائع حتى لا يغتر بالطاعة ، وللعاصي حتى لا ييأس من الرحمة ، وللمؤمن الكيس حتى يظل محاسباً لنفسه ، ومراقباً على قلبه ، إلى آخر لحظة من لحظات حياته ، فلا تقطعه القواطع ، ولا تعصف به العواصف .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فيما رواه عن النبي ﷺ : «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة»^(١) .

معنى آخر للآية :

يمكن أن يكون معنى الآية : أن الله قريب من العبد وقلبه ، بحيث لا تخفى عليه خافية من أمره ، فيعلم سبحانه هل استجاب القلب أم لا؟ وهل أضمر خيراً أو شراً؟ فالله سبحانه وتعالى لا يخاطب إلا العقول ، ولا يراقب إلا القلوب ، وخير القلوب أوعاها للخير .

وعلى هذا فالآية كناية عن شدة الاتصال ، وعن شدة القرب والاتصال ؛ لأن من فصل بين شيئين متصلين كان أقرب إلى كل منهما من أحدهما للآخر ، لاتصاله بهما ولانفصال أحدهما عن الآخر ، وهذا المعنى روي عن قتادة بن دعامة السدوسي البصري رحمته الله ، حيث قال في قوله : ﴿يَحُولُ بَيْنَكَ الْمَرْءُ وَقَلْبِهِ﴾ قال هي كقوله تعالى : ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] ، ولعل هذا المعنى يكون أنسب بسياق الآية ، فإن العبرة باستجابة الباطن لا باستجابة الظاهر ، وكون الظاهر عنوان للباطن هو من باب الأغلب ، وإلا فكم من ظاهر مموه على باطن مشوه .

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٤) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، أي فقلوبكم بين يديه وأنتم محشورون إليه ، ليحصي لكم أعمالكم ، وليوفيكم جزاءكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن غير نفسه ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] .

الله خالق كل شيء بقدر:

إن آية الأنفال هذه تفيد أن الله سبحانه وتعالى خالق الكفر والإيمان ، وحائل بين الكافر والإيمان ، فهو سبحانه وتعالى خالق الخير وخالق الشر ، بل هو سبحانه وتعالى خالق أصل الشر وهو إبليس ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ① من شر ما خلق ﴿[الفلق: ١، ٢] .

والظاهر من هذه الآية ، ومن قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿إِنَّ الْذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ② خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[البقرة: ٦، ٧] .

ومن قوله تعالى في سورة يس : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ ③ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ④ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[يس: ٨-١٠] .

الإيمان منحة من الله للعبد:

الظاهر من هذه النصوص القرآنية أن الإيمان هبة من الله وهداية ، وأنه ليس للإنسان فيه أثر واختيار ، فالله سبحانه وتعالى قد حال بين المرء وقلبه ،

كما في الآية الكريمة ، والله سبحانه وتعالى قد ختم على قلوب الكافرين من عباده ، وهناك آيات تؤيد هذا المفهوم ، كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، وكقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ، ومع ذلك فقد ختم الله هذه الآية -أي آية الأنفال- بقوله : ﴿وَأَنَّهُٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وختم آية البقرة بقوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] ، فما هو التوفيق بين عدم الاختيار وثبوت المسؤولية؟

القدرية وإثبات الاختيار التام:

لقد اختلف الناس في هذا اختلافاً كثيراً وبعيداً ، من الناس من أثبت الاختيار التام للعبد في أفعاله ، وتأول النصوص الشرعية وفق رأيه ومذهبه ، وهم فئة القدرية .

الجبرية نفوا الاختيار تماماً:

من الناس من نفى الاختيار الكلي عن العبد في أفعاله ، وقال : إنه مجبور ومقهور ، وهم فئة الجبرية .

المعتزلة: الخير إلى الله والشر إلى العبد:

من الناس من أضاف الخير إلى الله والشر إلى العباد ، مستدلاً بقوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ، وهم فئة المعتزلة .

عقيدة أهل السنة في فعل العبد:

من الناس من رأى أن الأفعال من الله باعتبار ، ومن العبد باعتبار آخر ، وهم أهل السنة والجماعة ، وكأنهم نظروا إلى الإنسان من ناحيتين ، نظروا إليه من ناحية أعماله ، ونظروا إليه من ناحية دوافعه ، فإذا نظرنا إلى أعمال الإنسان بحسب الظاهر تراءى لنا أنه حر مختار ، يأخذ ما يشاء ويرفض ما يشاء ، وعلى هذا الظاهر يثاب أو يعاقب .

وإذا نظرنا إلى الدوافع التي تدفعه إلى العمل ، وحللنا ألوانها ، فإننا نرى أن إقدامه على أعمال معينة يكون دائماً نتيجة عوامل مختلفة ، من تربية وثقافة وإراثة ، ونتيجة ظروف اجتماعية وتاريخية وسياسية ، ولا ريب أن هذه العوامل وهذه الظروف لها أكبر الأثر على حرية الإنسان وعلى سير أعماله وحياته ، وعلى ذلك فهو غير مختار ، بل خاضع لقوات كامنة فيه ، ولعل هذا هو معنى قوله ﷺ : «كل ميسر لما خلق له»^(١) .

ارتباط الإنسان بالطبيعة:

إن الإنسان هو قطعة من الطبيعة وجزء من الكون ، فلا بد أن يتأثر بالطبيعة ، ولا بد أن يخضع لقانون الطبيعة ، فهو مقيد بها في حياته لا يستطيع أن يخالفها ولا أن يقاومها ، فهو مثلاً إن وقع في النار حرق ، وإن سقط في البحر غرق ، ليس له من الأمر شيء ، وعلى هذا فهو مقيد وغير مختار ، إلا أن هذه العوامل الموجهة للإنسان والمحيطة بالإنسان في إمكان هذا الإنسان أن يغيرها ، وأن يحولها إلى عوامل أخرى يكون لها اتجاه آخر ،

(١) سبق تخريجه .

كما يستفاد من قوله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه»^(١) ، فإذا كانت هذه العوامل المكونة للإنسان توجهه إلى ناحية الشر ، فعليه أن يسعى في تغييرها واعتناق عوامل أخرى توجهه إلى ناحية الخير ، فإن فعل فذاك ، وإلا فهو بالطبع آثم ومسئول ، وهذه حالة المسلمين في العصور الأخيرة مع ما وقعوا فيه من استعمار ، استعمار بالمعنى الجديد ، وهو التخريب والتهديم لا بالمعنى القديم وهو البناء والتعمير ، ذلك لأن طبيعة المستعمر إنه إذا احتل البلد أول شيء يفكر فيه هو تخريب مقوماتها ، وتهديم حضارتها ، ليقم على أنقاضها مقومات أخرى وحضارات أخرى ، ولكن هذه الحالة هي نتيجة حتمية لعوامل معينة ، أخضعت المسلمين إلى ما آلوا إليه من تأخر وتقهقر في جميع الميادين الحيوية ، ولا شك أنهم مسئولون عن هذه الحالة أمام الله ، وأمام التاريخ ، إلا أنهم أخذوا يستيقظون ويثرون على الوضعية التي كانوا خاضعين لها في تربيتهم ، وفي ثقافتهم ، وفي سياستهم ، فيغيرون العوامل من عبودية إلى حرية ، ومن حقارة إلى كرامة ، ومن ضعف إلى قوة ، وهذه هي الطبيعة ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ، وإن أخشى ما يخشاه المتبصرون ، هو أن تنساق هذه الثورة التحريرية مع التيارات الجامحة التي تتجاهل العقيدة والأخلاق ، وتتناسى المذهب والتاريخ ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتولاهم وأن يصحبهم في طريقه ، إنه على ذلك قدير .

(١) سبق تخريجه .

عقيدة القضاء والقدر نظام كلي شامل:

على أية حال فعقيدة القضاء والقدر ما هي إلا عبارة عن نظام كلي شامل يجري الكون وما فيه على مقتضاه ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون وما فيه من الطبائع ، وخلق قوانين ونواميس ، وقدر سبحانه وتعالى أن تجري حياة الكون على مقتضى هذه النواميس الطبيعية والقوانين الكونية ، ولعله يكون من جملة السنن الكونية ، خلق الإنسان حرًا مختارًا وسنة الاختيار هذه بني عليها التكليف والجزاء ، والله سبحانه وتعالى علم في الأزل -أي : قبل وجود هذا العالم- كل ما يبرز من الإنسان باختياره من خير أو شر ، وهذا العلم ليس فيه تأثير على حرية الإنسان واختياره ، لما تعلمون أن العلم ليس هو صفة تأثير ، وإنما هو صفة اكتشاف لما سيقع على مقتضى السنن التي رسمها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون .

لا يجوز الاحتجاج بالقدر على الضلال:

إذن فلا يسمح الإسلام لمن ضل عن عقيدته أو انحرف عن أوامره ، ثم يعتذر بعقيدة القضاء والقدر ، وإلا بطلت التكاليف ، وكان إرسال الرسل وإنزال الكتب ، والوعد بالثواب على الخير وبالعقاب على الشر باطلاً ، وعبثاً لا يتفق ، وحكمة الحكيم في تكليفه لخلقه ، وفي رحمته لعباده ، ومن ثم كان الإيمان بالقضاء والقدر أمراً لازماً لا مناص منه ، كما في حديث عمر وابنه .

من حكم الإيمان بالقدر:

كانت حكمة الإيمان بالقدر أن تنطلق قوة الإيمان وطاقة الإنسان للتعرف على هذه السنن ، حتى يعمل بمقتضاها ، وبذلك يكون الإيمان

بالقضاء والقدر باعثاً على النشاط ، وداعياً إلى البحث والتنقيب لفتح مخبآت هذا الكون حتى ينتفع بها هذا العالم المحتاج .

القدر سر من الأسرار:

هذه المسألة هي من الأسرار الغامضة التي لا يمكن الوصول إليها ، والتي لا يجلب التنازع فيها إلا الوسوسة ، والاستراب في أصل العقيدة ، ولذلك روى أبو هريرة رضي الله عنه كما في «جامع الترمذي» : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة ، وهم يتنازعون في القدر ، فغضب صلى الله عليه وسلم حتى أحمر وجهه الشريف ، وقال : «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلك حينما تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ، عزمت عليكم ، ألا تنازعوا فيه» ، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمن سأله عن القدر : هو بحر عميق فلا تغوصوه ، وسر مكتوم فلا تلجوه .

نسأل الله تعالى أن يثبت إيماننا بالقدر ، ونعوذ به من كل شر وشرر ، قال الله جل ذكره : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٢٤] وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[الأنفال : ٢٤ ، ٢٥] .

معنى الفتنة:

الفتنة : هي البدعة والمعصية والردة ، وكل ما يوقع في العداوة والبغضاء بين الناس . والخاصة : هي ضد العامة ، وهو منصوب على أنه مفعول مطلق ، أو على أنه حال ، لا تصيبهم في حال الخصوص ، بل في حال العموم ، و«اتقى» أصلها «إوتقى» ، ولكن بعد عملية القلب والإدغام

أصبحت على هذه الصورة، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

التحذير من التراخي في الاستجابة:

لما كانت الدعوة الإسلامية تتضمن أمراً بالمصالح، ونهيًا عن المفسد، تناولت الآية الأولى الاستجابة إلى الأوامر، وحذرت من التراخي في الاستجابة، وتناولت هذه الآية اتقاء المحارم والمكاهل والمناهي التي قد تسبب في إثارة الفتنة، ولما كانت الاستجابة إلى النواهي أشق على النفس من الاستجابة إلى الأوامر ذيلت الآية الكريمة بالتهديد وبعقاب الله الشديد، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ذلك أن اقتحام المفسد والمعاصي له ما وراءه من ترقب العقاب وتنزل العذاب، وذلك أثر طبيعي لوجود المآسي ولركوب المعاصي.

مقتل عثمان رضي الله عنه وما تبعه من الفتن:

الفتنة الكبرى التي اختلفت فيها الآراء، وسالت بسببها الدماء، هي فتنة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلقد ترتب عن هذه الفتنة سيل متنوع من الفتن، كفتنة صفين والجلل، وكفتنة ابن الزبير مع بني أمية، وكقتل سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه بكر بلاء من أرض العراق، ثم جاء بعد ذلك فتنة الملك والخلافة، ثم المذاهب الدينية، ثم المذاهب السياسية، وهلم جرا، ولو حسم الأمر من أول الأمر لما تنوعت الفتن، ولما تابعت، ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير التابعي الجليل، قال: قلنا للزبير بن العوام في قصة الجمل: يا أبا عبد الله،

ما جاء بكم ضيعتم الخليفة بالمدينة ، ثم جئتم تطلبون بدمه في البصرة ، فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ولم نكن نتوقع أننا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت .

وروى الإمام أحمد في «مسنده» ، عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، أمتك مختلفة بعدك ، فقلت : فما المخرج يا جبريل ؟ قال : في كتاب الله ، من أخذ به نجا ومن تركه هلك - مرتين - ، قول فصل وليس بالهزل ، لا تخلطه الألسنة ، ولا تفنى عجائبه ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وفصل ما بينكم ، وخبر ما هو كائن بعدكم» .

النجاة في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله :

الخلاص من الفتن والتنازع والاختلاف ، هو الرجوع إلى كتاب الله تعالى ، كما قال جبريل للنبي ﷺ ، بحيث نتربى بتربيته ، ونسوس الناس بسياسته ، ونستشير في المسير ، ونحكمه في المصير ، والله على كل شيء قدير .



المحاضرة الأولى بعد المائتين

التوبة

مقدمة:

انطلاقاً من الحديث القدسي : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل يمشي أقبلت إليه أهرولاً»^(١) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد .

وبسندنا المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبي عبد الله وأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رحمتهما الله في كتابه «الصحيح» ، الذي هو أصح كتاب في الحديث بعد «صحيح الإمام البخاري» -رضي الله عنهم جميعاً .

نص الحديث:

بسنده عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «يقول الله ﻋﻠﻴﻪ : أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله لله

(١) سبق تخريجه .

أفرح بتوبة عبده من أحدكم إذا وجد ضالته في فلاة ، ومن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إليَّ ذراعًا ، تقربت إليه باعًا ، ومن مشى إليَّ جئت إليه أهرولاً .

نبذة عن معاني الحديث مجملته:

هذا هو الحديث الشريف الذي بعض أجزاءه من الحديث القدسي ، والطرف الآخر من قول النبي ﷺ ، وهو من الأحاديث الصحيحة التي رواها الإمام مسلم في كثير من أبوابه ، رواها في باب الذكر ، ثم رواها في باب التوبة ، وقد اخترنا الرواية الموجودة في كتاب (التوبة) من «صحيح الإمام مسلم رحمه الله» ، وهذا الحديث الشريف روي بألفاظ مختلفة ، وبتصورات من سيدنا محمد ﷺ عظيمة ، وكلها ترمي إلى أن تصور لنا مقدار العلاقة الموجودة بين العبد وبين الله ، بين الأرض وبين السماء ، بحيث إن الإنسان لا يمكن أن ينقطع رجاءه في الله ولو ارتكب ما ارتكب من الذنوب ، ولو أتى ما أتى من المعاصي ؛ لأن أبواب التوبة دائماً مفتوحة ، ولأن الله سبحانه وتعالى ينادي عبده ، ويقول له : ارجع إلي وأقبل إلي ، فأنا مستعد لقبولك في أي وقت أتيتني ، وإنما مثلي ومثلك كمثلي رجل كان في الفلاة -أي : في الصحراء- التي هي من طبيعتها لا ماء فيها ولا كلاً ، لا طعام ولا شراب ، وكانت عنده ناقة يحمل عليها زاده - زاد المسافر- فيها طعامه وفيها شرابه ، وفيها كل حاجاته التي يتوقف عليها ، نام قليلاً في ناحية من نواحي الصحراء الفسيحة ، وبينما هو نائم إذ ذهب ناقته تسير في الأرض وتسري فيها ، فضلت الطريق ولم تعرف سبيل الرجوع إلى صاحبها ، واستيقظ صاحبها من تلك النومة الهادئة ، فإذا

به لم يجد ضالته التي يحمل عليها زاده وأمتعته ، فذهب يبحث عنها في كل مكان ، ويفتش عنها في تلك الصحراء الشاسعة ، ولكن ذلك كان عبثاً منه ، فقرر أن يرجع إلى مكانه - كما في الحديث الآخر - وينام حتى يموت ؛ لأنه لم يبق عنده أمل في النجاة ، فلما رجع إلى مكانه وجد ناقته واقفة في ذلك المكان .

تصوروا مقدار الفرحة التي ملكت هذا الأعرابي بعد أن رجع إليه زاده وراحلته بعد اليأس ، وبعد أن ضاع أمله مدة طويلة ، فذلك مثلكم ومثل الله سبحانه وتعالى ، فالله تعالى يقول لنا : ذلك مثلكم ومثلي معكم ، فهذه الفرحة التي يكون عليها ذلك الأعرابي ليست شيئاً كثيراً بالنسبة للفرحة التي أكون عليها حينما ترجعون إليّ - حينما تتوبون إليّ - فأنتم بمثابة تلك الناقة الضالة إذا أذنبتم وانحرفتم ، ولكن حينما تقرررون العودة إليّ فإنني أكون فرحاً مستبشراً ، وأكون عند حسن ظنكم بي .

شرح الحديث:

هذا الحديث الشريف يشتمل على أجزاء مهمة : أولها : قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ، وعلى لسان الباري ﷻ : «أنا عند ظن عبدي بي» ، وفي بعض الروايات : «فليظن بي ما شاء» ، يعني أننا إذا أردنا أن نذكر الله سبحانه وتعالى ، فينبغي أن نتصور أن هذا الذكر سيقبله الله ﷻ منا ، فإذا ظننا أن الله سيقبل منا ذلك الذكر ، فإن ذلك الذكر سيكون مقبولاً عنده سبحانه وتعالى ، وإذا نحن رجونا منه المعونة ، فينبغي لنا أن نعتقد ونظن أن الله سبحانه وتعالى سيعيننا ، فإذا تيقنا من هذه المعونة فإن الله سبحانه وتعالى لا محالة سيعيننا ، وإذا نحن استغفرناه ، وطلبنا منه المغفرة فينبغي لنا

أن نظن أنه سبحانه وتعالى سيغفر لنا ، فإذا نحن ظننا ذلك ، فإن الله لا بد أن يكون عند حسن ظننا ، ولا بد من أن يغفر لنا ، وإذا نحن تبنا إليه وأنبنا ، فلا بد أن نظن أن توبتنا ستكون مقبولة عنده سبحانه وتعالى ، وهو ﷻ سيكون عند حسن ظننا به ، وسيتقبل توبتنا ، فكل شيء تقدم به من أعمال ومن عبادات ، ومن طاعات ، يجب أن يكون مصحوبًا بالظن الجميل في الله الذي هو وحده الكفيل بأن يجعله سبحانه وتعالى قويًا قادرًا على أن يقبل منا تلك الأعمال الصالحة ، وتلك التوبة ، وتلك الإنابة ، «أنا عند حسن ظن عبدي بي» .

معنى آخر تشتمله الجملة :

هنالك أيضًا معنى آخر تشتمل عليه هذه الفقرة من الحديث الشريف ، وهي تحذير الإنسان من أن يفكر في شيء يخالف ثقته في الله ، وإيمانه بالله ، فهي على حد قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ﴾ [البقرة : ٢٨٤] ، ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال : ٧٠] ، فالعبرة بما في قلب الإنسان بما يضمه من الثقة وحسن الظن في الباري ﷻ ؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث : «إذا دعوتكم الله فادعوه وأنتم موقنون بالاستجابة»^(١) ، يعني : إذا توجهتم إلى الله سبحانه وتعالى بالدعوة ، فكونوا متيقنين مع أنفسكم أن الله سيستجيب دعاءكم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، قال : ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] .

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

صور استجابة الله للدعاء:

وعدنا سبحانه بالاستجابة ، فالاستجابة لا بد أن تكون ، ولا بد أن تتحقق ، وهي إما أن يتحقق فيها المطلوب الذي ندعوه من أجله بنفسه ، وإما أن يتحقق فيها تعويض عن ذلك المطلوب إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قدر خلاف ما طلبناه ، وإما أن يتحقق فيها ثواب عظيم من الله سبحانه وتعالى ، فالاستجابة على كل حال واقعة ، فلذلك قال لنا نبينا ﷺ : «إذا دعوتكم الله فادعوه وأنتم موقنون»^(١) ، ولا ينبغي للإنسان أبداً أن يتشكك في استجابة الله لدعائه وفي طلبه ، وفي توبته ، وفي استغفاره ؛ لأن ذلك ربما يؤدي به إلى الإرجاء ، ولذلك قال النبي ﷺ : «الكيس من عمل لما بعد الموت ، والمعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني»^(٢) ، وحسن الظن في الله هو الذي أوصى به النبي ﷺ غير ما مرة ، وهو الذي أوصى به الصالحون من عباده .

أيهما يغلب الإنسان : الخوف أم الرجاء؟

اختلف العلماء : هل ينبغي للإنسان أن يغلب جانب الرجاء في الباري ﷻ أم يغلب جانب الخوف من الله سبحانه وتعالى؟ فذهبت جماعة من العلماء إلى أنه ينبغي له أن يغلب في حياته الدنيوية ما دام حيًا ، وما دام سالمًا ، وما دام صحيحًا ، أن يغلب الخوف من الله ؛ لأن الخوف من الله دليل على كون الإنسان عارفاً بربه ، عالماً بقدرة الله ، عالماً بمكر الله ، فهو يخافه في كل شيء ، ولذلك يقول الشاعر :

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
وآمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

(١) سبق تخريجه .

وأصلهم في ذلك الحديث القدسي قوله ﷺ: «لا تأمن مكري وإن أمتك»^(١)، ولذلك قال المتنسكون: ما قطع أكباد العارفين إلا خوف الموت على سوء الخاتمة؛ لأنهم دائماً يفكرون في مصيرهم؛ لأنهم دائماً يعملون لتحقيق مصيرهم عند الله سبحانه وتعالى، ولا يعيشون في حياة الغرور وحياة الشهوة، وحياة الاستلذاذ بملذات الحياة الدنيوية، إنهم يخافون الله سبحانه وتعالى في كل الأوقات، وإنهم يطلبون منه العفو والمغفرة، وإنهم دائماً يحاسبون أنفسهم ويتوبون.

كان النبي أكثر الناس استغفاراً:

كان سيدنا محمد ﷺ أكثر الناس استغفاراً لله، وأشد توبة لله سبحانه وتعالى، وقد قال ﷺ: «إني لأعرفكم بالله، وأشدكم منه خشية»^(٢)، وقال ﷺ: «إني لأتوب في اليوم واللييلة مائة مرة»^(٣)، هذا مع العلم بأنه ﷺ قد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فقد كان يتوب من كل خاطر ومن كل فكر، من الصغيرة التي هو معصوم منها، ومن الخوف من أن يكون قد ارتكب شيئاً؛ لأنه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

الفريق المرجع للرجاء:

أما الطبقة المتفائلة من المتنسكين، فإنهم كانوا يقولون: إن الإنسان ينبغي له أن يغلب الرجاء في الله سبحانه وتعالى عملاً بهذا الحديث: «أنا

(١) أخرجه ابن عساكر في «التاريخ» (١٣٤ / ٦١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رحمته الله.

عند حسن ظن عبدي بي...»، وفي رواية: «فليظن بي ما شاء»، فإن الله سبحانه وتعالى رحيم عليم، لا يمكنه أن يترك عباده يتألمون ويتعذبون، ولا بد من أن يغفر لهم، يعفو عنهم، بشرط أن تكون عندهم روح التوبة وروح القبول بما عند الله سبحانه وتعالى.

تغليب الخوف أولى إلا في وقت الاحتضار:

من الفقهاء من يقول: إن تغليب الخوف يجب أن يكون دائماً ما لم يصل وقت الاحتضار، أما إذا وصل وقت الاحتضار ولا سيما وقت الغرغرة، فينبغي أن يغلب الإنسان الرجاء على الخوف، ويجب المتنسكون بأن الإنسان دائماً محتضر، دائماً في حضرة الموت، دائماً معد لأن يفقد حياته؛ لأنه لا يعرف متى الموت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فيقولون: إن الإنسان ينبغي له أن يغلب الرجاء في الباقي عَلَيْهِ السَّلَام.

أعظم نعمة جاءتنا بغير مسألة:

لقد أبهت علينا الأمر لندرج ونخاف، فأمن بفضلك خوفنا، ولا تخيب فيك رجاءنا، فقد أعطيتنا الإيمان من غير مسألة، وأبهت علينا الأمر، هذه المعرفة الربانية.

وأبهت علينا الأمر، يعني كتمت عنا الحقيقة، فلا ندري أننا نحن أم صائرون إلى عذابك؟ لا ندري أم هالكون؟ فنحن بين الخوف وبين الرجاء، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا في هذا التردد الدائم، أبهم علينا الأمر؛ لنأخذ من الخوف ومن الرجاء، نخاف الله، ولا نأمن مكر الله، ونرجو الله ونطمئن إليه، ولا نياس من روحه؛ لأنه ﴿لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، و﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْخَسِرُونَ ﴿[الأعراف: ٩٩]﴾، فالله وحده القادر على أن يعطينا نتائج الإيمان، وهي الطاعة، والامتنثال لأمر الله والاجتناب لنواهيه، وعبادته حق عبادته، ومحبة آل بيت النبي ﷺ، والعمل بكل ما يريده سبحانه وتعالى.

يجب ألا نأمن مكر الله:

إذا أعطانا ذلك تفضلاً منه وامتناناً، فسيكون قد ضمن لنا النجاة، ومع ذلك فينبغي لنا أن لا نأمن مكر الله.

النبي رغم علو مكانته يسأل الله:

إن النبي ﷺ كان لا يأمن مكر الله، وأيضاً فإن كل ما يصل إليه الإنسان من الدرجات، وكل ما يمكنه أن يبلغه من المقامات، إنها هي درجات لا تصل إلى الدرجات العليا، ولذلك قالوا: لا يمكن للولي أن يصل لأعلى درجة.

المقامات العالية:

كان النبي ﷺ يدعو الله دائماً أن يرزقه الوسيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود عنده، ولذلك أمرنا بأن ندعو له بذلك ﷺ، وأمرنا الله بأن نصلي عليه وعلى أصحابه وعلى آله، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وإنما أمرنا ﷺ بأن ندعو له بالمغفرة والمقامات العالية، والوسيلة والدرجة الرفيعة، مع أنه ﷺ قد أعطي من المكانة عند الله، ومن المقامات الرفيعة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والذي لا شك فيه أنه بلغ مبلغاً لا يمكن أن يصله رسول، ولا نبي، ولا ملك،

ولا ولي، فمقامه ﷺ فوق جميع المقامات، ودرجته في أعلى الدرجات، ومع ذلك أمرنا ﷺ بأن نصلي عليه، وأن ندعو له بالرحمة والسكينة، والمقام المحمود عنده، وأن نطلب من الله تعالى أن يرفع درجته، ويعطيه الوسيلة والمكانة الرفيعة التي وعده سبحانه وتعالى بها، وما ذلك إلا ليعين لنا -نحن المسلمين ولللناس- أنه مهما كانت الدرجات فلا ينبغي لكم أيها المسلمون، أن تقفوا عند تلك الدرجة التي نلتم، لا من الدرجات الدنيوية ولا من الدرجات الآخروية.

ينبغي أن يطلب الإنسان المزيد من الكمال:

ينبغي لكم أن تطلبوا المزيد دائماً من المعرفة، ينبغي لكم أن تطلبوا المزيد دائماً من الكمال، ينبغي لكم أن تطلبوا المزيد دائماً من الجلال، ينبغي لكم أن تطلبوا المزيد دائماً من الجمال.

الفرق بين الظن والوهم:

هذا مدلول قوله سبحانه وتعالى في هذا الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»، ثم لا يخفاكم أن الظن هو ترجيح لأحد الأمرين المتساويين، وأن المناطقة يقولون: إن الشك في أحد المتقابلين شك في الآخر، فإذا كان هنالك مرجح، فالجانب المرجح يصبح ظناً، والجانب المرجوح يصبح وهمًا، فإذا شككنا في أن زيدًا قائم أو غير قائم، فإنه يستوي عندنا القول بقيامه وعدم قيامه، فإذا نحن رجحنا قيامه، فإن القيام يصير مظنونًا عندنا، ويصير عدم القيام موهومًا.

وهذا الحديث الشريف ينص على الظن، فالظن فيه ترجيح لجانب القبول من الباري ﷻ، وربما يطلق الظن في القرآن الكريم ويُراد به

اليقين ، أو يُراد به المبالغة ؛ لأن الإنسان إذا ظن في الله سبحانه وتعالى ، فلا بد من أن ينال جزاءه على حسن ظنه ، فأحرى إذا تيقن في الباري ﷻ بأنه سيعطيه ، فإن الله تعالى لا يجرمه من ذلك ، وهذا مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة المطففين : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ [٤-٦] ، ألا يظن أولئك الذين يطففون في الكيل والميزان أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، وهو يوم القيامة ، يحاسبون فيه على ما فرط منهم ؛ لأنهم لو كانوا يظنون في البعث والنشور لما ارتكبوا تلك المعاصي ، فالعمل الصالح دليل على أن العقيدة موجودة ، والعمل الطالح دليل على أن العقيدة ضعيفة ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ [٤-٦] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يجب أن يحسن الإنسان ظنه بربه :

هذا الحديث ورد من جهة أخرى بزيادة : « فليظن بي ما شاء » ، وهذا حملة القابسي على أن المقصود من الإنسان هو أن يكون حسن الظن بالله ؛ لأن حسن ظنه دليل على حسن نيته ، وعلى عمله الصالح ، إن المقصود بحسن الظن هو العمل الصالح الذي يعمله الإنسان ، كما يقول الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

الإنسان الذي يكون سيئ الظن دائماً ، يكون ذلك دليلاً على أن أعماله

سيئة .

فالقابسي يفسر هذا الحديث ، أي : حثنا على حسن الظن على اعتبار العمل الصالح ، ويؤيد ذلك ما ثبت في الحديث الشريف : لا تموتن إلا وأن أفعالكم الجميلة تدل على حسن ظنكم بالباري ﷻ ، هذا معنى قوله في

الفقرة الأولى: «أنا عند حسن ظن عبدي بي»، ثم قال سبحانه وتعالى: «وأنا معه حيث يذكرني» أي: مع عبدي حيث يذكرني، هذه الفقرة عظيمة، والله سبحانه وتعالى يكون مع عبده دائماً؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، والمقصود هنا: أنا مع عبدي بالحضور والتوفيق؛ لأنني أنا الذي وفقته لذكري، ولولا توفيق الله لعبده ما وفق لذكركه سبحانه وتعالى.

التوفيق إلى الذكر دليل محبة:

ذكر الإنسان لله يدل على محبة الله لعبده، ويدل على توفيق الله لعبده، ويذكرون في هذا المقام قصة؛ ذلك أن رجلاً كانت له جارية، فقام في قصره في الليل يتفقددها، فلم يجدها، فذهب يبحث عنها في زوايا قصره، فإذا به يجدها تسجد لله سبحانه وتعالى، وهي تقول: اللهم بمحبتك لي فاغفر لي، فلما فرغت من صلاتها، قال لها: يا هذه، لم تقولين: اللهم بمحبتك لي، ولم تقولي: اللهم بمحبتك لي؟ قالت له: إن محبته لي هي التي أيقظتني للصلاة وأنا متك أنت، فلولا توفيق الله سبحانه لعباده ما استطاع أحد منا أن يعمل عملاً صالحاً، ولا أن يأتي حسنة، ولا أن يرتكب خيراً من الخيرات، فالكل من الله، والفضل لله سبحانه وتعالى، وهو الذي اصطنع لنا المعروف وجازانا عليه.

فإذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك، «فأنا معه حيث يذكرني»، أو المقصود أنا معه في سره حيث يذكرني، فكما ذكرني في سره فأنا أجزيه بمجازاته لا يطلع عليها أحد إلا هو وأنا، فأنا أجزيه بذلك العمل الصالح الذي قام به، ثم إنه سبحانه وتعالى قال في هذه الفقرة: «فأنا معه حيث يذكرني»، فسرهما في بعض الروايات الأخرى، «إن ذكرني

في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه» ، وهي موجودة في كتاب (الذكر) من «صحيح الإمام مسلم» .

«وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» يريد أنه سبحانه وتعالى ينادي وسط الملائكة ، وفي المقام العلي : إن فلاناً قد ذكرني فأنا أذكره وأنا أثني عليه .

هل الملائكة أفضل من البشر؟

استفاد العلماء من هذا الحديث : أن الملائكة أفضل من البشر ، فهذا مبحث من علم الكلام ؛ لأنه قال : «إن ذكرني في ملأ ذكرته في مل خير من ملئه» والملا الذين عند الله سبحانه وتعالى هم ملا الملائكة ، وقد اضطرب رأي العلماء في هذه المسألة ، فمنهم من قال : إن الملائكة أفضل من عموم البشر ، ومنهم من قال : إن الأنبياء والصالحين أفضل من الملائكة ، ودليلهم في ذلك أن الملائكة معصومون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] ، فطبيعتهم مركبة على العصمة ، وعلى عدم العصيان ، وأما الإنسان فإنه مركب على الامتحان ، على الخير ، وعلى الشر ، فالمطيعون المؤمنون المخلصون والأنبياء والمرسلون ، هم أفضل من الملائكة على هذا الرأي ، وهذا الخلاف الذي عندهم لا يدخل فيه سيدنا محمد ﷺ .

النبي أفضل الخلق بالإجماع:

أما النبي ﷺ فالذي يعتقده المسلمون أنه أفضل من جميع الكائنات ، من الإنس والجن والملائكة ، والأنبياء والمرسلين ، وكل مخلوق خلقه الله سبحانه

وتعالى ، وهذا ما وقع عليه إجماع العلماء ، ولم يخالف في ذلك إلا الزمخشري في «الكشاف» ، وعليه رد المقرئ في «المقاصد الحسنة» ، حيث قال :

نبينا أفضل بالإطباق من كل مخلوق على الإطلاق
وما انتحى الكشاف في التفسير خلاف إجماع ذوي التنوير

وهذا هو الذي تشير إليه هذه الأبيات في مدح علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم وعلى آله جميعاً .

وقيل إن هذه الأبيات منسوبة إلى أبي نواس ولكنها لشاعر تونسي هو محمود قابادو أبو الثنا يقول :

قل لي أنت أحسن الناس طرّاً سبك لفظ وصوغ معني نزيه
فعلام تركت مدح ابن موسى وهو أحرى بأعظم التنويه
أولم تستبن كمال علاه والخصال التي تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام طهر الوحي بيته وذويه
ما عسى أن أقول في مدح من قد كان جبريل خادماً لأبيه

تفضيل النبي على المخلوقات تفضيل لأمته على الأمم :

هذا ما يؤيده العلماء أن سيدنا محمداً ﷺ أفضل بالإطلاق من جميع الكائنات من غير استثناء ، وهذه فضيلة لهذه الأمة المحمدية التي شرفها الله بسيدنا محمد ﷺ ، وكذلك بعترته - آل بيته - كما قال ﷺ : «تركتم فيكم اثنين ، إذا اتبعتموهما لن تضلوا أبداً : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي»^(١) كما

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

ثبت في بعض الأحاديث الشريفة ، فإذن سيدنا محمد ﷺ أفضل من جميع المخلوقات ، وهذا ما يبين أن الذي وقع في هذه الفقرة من هذا الحديث الشريف لا يقصد منها تفضيل الملائكة على البشر ، ولكن الملائكة لهم مقامهم العظيم ؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

ماذا يقصد بالملا في الحديث؟

إذا ذكر الإنسان ربه في ملا ذكره الله سبحانه في ملا خير من ذلك الملا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١] ، ليس عند الله الملائكة فقط ، هناك الأنبياء ، والمرسلون ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون ، وهنالك المخلوقات التي عنده سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، كما قال ﷺ ، فإذن ينبغي للإنسان أن يذكر الله في كل مكان ، وأن يمجده بكل لسان ، وإذا كان هناك ملا فيه العبادة ، فعليه أن يذكر الله سبحانه وتعالى ؛ ليذكره الله في ملا أفضل من ذلك الملا .

فرحة الله بعبده حين يتوب إليه :

قال ﷺ في الحديث الشريف -انتقل من الخطاب الذاتي الإلهي إلى الغيبة- : «والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم إذا أصاب ضالته في الفلاة...» ، «والله» : قسم من النبي ﷺ ، «الله» : هذا تأكيد بأن الله سبحانه وتعالى أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من ذلك الرجل الذي ضلت ناقته في الفلاة ثم وجدها .

والمقصود بالفرح : السرور والانبساط الذي يقع عند الإنسان -والله المثل الأعلى- وسمي السرور سرورًا ؛ لأنه يظهر في سريرة الإنسان وفي وجهه .

شروط التوبة المقبولة:

هذه التوبة عظيمة بشرنا الله سبحانه وتعالى بها في هذا الحديث وفي غيره ، وجعل لنا أبواب رحمته مفتوحة في كل وقت وحين ، فلا ينبغي لنا أن نئس ، ولا أن نمل ، ولا أن نقنط مهما كانت ذنوبنا ما علينا إلا أن نفكر ونرجع إلى الله ، ونتوب إلى الله ، وإذا به سبحانه وتعالى قد غفر لنا كل ما سبق بفضل تلك التوبة ، ولكن بشرط الإقلاع والعزم على عدم الرجوع إلى تلك الذنوب التي كنا مرتكبين لها ، وبشرط تلافي ما وقع لنا بالعبادات وبأنواع الطاعات ، وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه العزيز التوبة التي يلزم الباري ﷻ قبولها ، والتوبة التي يعتبر قبولها رحمة من الباري ﷻ وتفضلاً ، وإذا قلنا : يلزمه ﷻ قبولها -يعني التزاماً منه سبحانه وتعالى تفضلاً ورحمة- لأنه لا يجب عليه شيء ﷻ ؛ لأنه سبحانه وتعالى الحاكم المطلق الذي يفعل في ملكه ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولكن جرت سنته سبحانه وتعالى بأن يلتزم لعباده بأشياء ، فإذا التزم لهم فإنه يستحيل في حقه سبحانه وتعالى التراجع ؛ لأن التراجع معناه ظهور البداء على الله ، وظهور البداء على الله محال في حق ألوهيته ﷻ .

التوبة لغة وشرعاً:

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ وَلَا الَّذِينَ يَمْوَتُونَ وَهُمْ كَغُفَّاءٍ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ [النساء: ١٧، ١٨] ، والله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أمر التوبة وفصلها .

فالتوبة لغةً معناها : الإنابة والرجوع ، إذا كان الإنسان يفعل شيئاً ورجع عنه ، فقد تاب ، إذا ذهب ورجع فقد تاب .

أما اصطلاحاً : فإن المقصود بالتوبة هو الرجوع الخاص عن بعض الأعمال التي يرتكبها الإنسان مخالفاً بذلك أمر الله .

تعريف الأصفهاني للتوبة :

التوبة فسرّها الإمام الراغب الأصفهاني -هذا الرجل العظيم الفيلسوف الإسلامي الكبير، الذي ما عرّف أحد مفردات القرآن كما عرّفها هو- فقال : إن الاعتذار عما يفعله الإنسان -لا يخلو- يحلّل أخلاق الإنسان إذا فعلت شيئاً ، وقيل لك : لِمَ فعلته؟ إما أن تقول : لم أفعل ، وإما أن تقول : فعلت ، وتحاول تبرير ذلك الفعل ، وإما أن تقول : فعلت وأساءت ، وأنا تائب إلى الله ، وراجع عما فعلته ، وهذه هي التوبة الحقيقية ؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يلتجئ إلى النكران ، ولا يمكن للإنسان أن يلتجئ إلى العناد ، ويحاول تبرير أعماله السيئة ، بل عليه أن يقول : إني فعلت وأذنبت ، ولكنني تائب إلى الباري ﷻ . قال : فهذه هي التوبة التي يقصدها القرآن في كلام الله سبحانه وتعالى ، ثم إن التوبة تطلق على فعل التائب ، كما تطلق على فعل القبول من الباري ﷻ ، فيقال : تاب فلان ، ويقال : تاب الله على فلان ، فأما تاب فلان ، فهي أن يرجع الإنسان عن غيه .

وأما توبة الله عليه ، فمعنى ذلك أن الله يتقبل منه تلك التوبة ، ويجازيه عليها ، فلذلك يقال : تاب الله عليه .

الناس مع التوبة أربعة أقسام:

الآية الكريمة التي تلونها تبين لنا أن الناس بالنسبة إلى التوبة أربعة أقسام:

القسم الأول: هم المبادرون بالتوبة:

الذين يبادرون بالتوبة، يتوبون من قريب، يفعلون السوء، وتأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْأَسْوَأَ﴾ بالمفرد، ولم يقل السيئات؛ لأن الذين يتوبون من قريب شأنهم ألا يفعلوا السوء المرة بعد المرة، ولا يفعلون السيئات بالاستمرار، ويواظبون عليها، وإنما يفعلون السوء المرة بعد المرة، ثم يتوبون من قريب.

معنى قول الله ﷻ ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾: اختلف العلماء في معنى القريب هذا، فما هو؟ فقليل: إن الحياة كلها قرب؛ لأن الإنسان ما دام لم يصل إليه الموت إلا وقد تاب من قريب، وقيل: إن التوبة عند الغرغرة كذلك تقبل؛ لأنها من قريب، ولكن الذي يفهم من الآية الكريمة بالتفاصيل المذكورة فيها أن التوبة من قريب يعني التوبة في زمن قريب من فعل السوء الذي ارتكبه قرباً نسبياً، وليست الحياة برمتها، وإلا ما كان هنالك فرق بين هذا الرجل الذي يتوب من قريب، وبين الرجل الذي يتوب إذا حضره الموت، هنالك فرق لا محالة، فالذي يتوب من قريب، مثل: إنسان يسيء إلى بعض الأشخاص مثلاً، يرتكب إساءة في حالة غضب، ثم حين تسكن نفسه، ويرجع إلى ضميره يعتذر لذلك السيد، ويتوب إلى الله سبحانه وتعالى، فهذه في الحقيقة التوبة من قريب، التزم سبحانه وتعالى بأن يقبلها: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾، إما لجهالة؛ لسوء فهم، وإما لأن طبيعتهم هي تلك، وإما لعجز عن عدم كبح جماحهم، فيقبل الله

منهم تلك التوبة وتلك الإنابة ، التزم سبحانه وتعالى بأن يقبلها منهم ، والتزامه لا تراجع فيه .

القسم الثاني : هم الغارقون في شهواتهم ومعاصيهم :

الذين يتركون أنفسهم في الملذات وفي الشهوات وفي المعاصي غير مباليين ولا نادمين حتى إذا حضر أحدهم الموت ، قال : إني تبت الآن ، هذا لا يلزم الباري أن يقبل توبتهم ، ولكن لا تسد في وجوههم أبواب التوبة ؛ لأنه يمكنهم أن يتوبوا ، ويبقى أمرهم إلى الباري ﷻ بعدله وإحسانه ، إن شاء عاقبهم ، وإن شاء عفا عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، فلا يأمن مع الله سبحانه وتعالى .

القسم الثالث : هم الذين يموتون كفارًا :

الذين نص عليهم القرآن الكريم في هذه الآية : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ، والغريب أن القرآن الكريم تكلم في هذه الآية عن الكفار مع أن المقام مقام التوبة ، والتوبة الأمر فيها هي أمر المذنبين لا أمر الكفار ، ولا العصاة ، فلماذا ذكر الكفار هنا؟ خرج العلماء ذلك مخارج كثيرة ، قيل : إنما ذكر الكفار ؛ لتنبية المؤمن إلى أن المعاصي بريد الكفر ، وإلى أن الإنسان إذا واصل في ارتكاب المعاصي حتى مات ، فيخشى عليه أن يكون مات على سوء الخاتمة ؛ لأن المعاصي بريد الكفر .

شؤم المعصية على قلب العبد :

إن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه الكريم أن المعصية التي يرتكبها الإنسان تتكت نكتة سوداء في قلبه ، كما قال ﷺ : «إذا هو تاب واستغفر

محيت تلك النكتة ، وإذا هو بقي في معاصيه ، ازدادت نكتة على نكتة ، ولا تزال تلك النكت تزداد حتى يسود قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ^(١) .

بريد الكفر:

إن المعاصي بريد الكفر ، لأن الاستمرار في المعاصي وعدم التوبة يؤدي إلى تجاهل كل شيء ، وإلى الغرور بالحياة الدنيا ، وإلى نكران الدين ، وإلى الكفر ، فلذلك قال : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ .

معنى الكفر في الآية:

المقصود بذكر الكفار هنا إنما هو من باب المبالغة ؛ لأن من سنة الإسلام أن يسمى بعض الأعمال الفضيحة كفرًا أو غير إيمان ، كقوله ﷺ : «من غشنا فليس منا» ^(٢) ، مع أنه لو غش يبقى مسلمًا ، «من غشنا فليس منا» ، وكقوله ﷺ : «ليس بمؤمن ، ليس بمؤمن ، ليس بمؤمن ، قيل : من يا رسول الله؟ قال : من لا يأمن جاره بوائقه» ^(٣) ، وكذلك قوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» ^(٤) .

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال

الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فلا شك أن المقصود ليس أن الزاني يكفر بالله تعالى ، فالزنا معصية لا تصل إلى درجة الكفر ، وشرب الخمر كذلك معصية ولا يصل إلى درجة الكفر ، ومع ذلك عبر ﷺ بقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

مثال واقعي :

فسر الإمام الغزالي ذلك في «الإحياء» قال : مثل الإنسان في هذه الأعمال كمثل المريض ، لو فرضنا أن الطبيب عاد مريضاً بلغت درجة السكر عنده مقاماً كبيراً ، وقال له : لا تشرب السكر ، ولا تأكل الطعام الفلاني ، فإنك إن أكلته فستموت ، فإذا هو صدق الطبيب ، لن يأكل تلك النشويات ولا تلك السكريات التي نهاه عنها ، وإذا هو لم يصدقه ، وقال : الأطباء هكذا يبالغون أو شيئاً من هذا القبيل ، فإنه يأكل السكريات فيهلك ، فهو حينما يشرب الشاي ، وحينما يأكل السكر ، وحينما يأكل النشويات لا يكون مؤمناً بصدق قول الطبيب ، هذا معنى قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، كذلك الإنسان حينما يرتكب معصية الزنا ، أو يشرب الخمر لا يكون مع نفسه موقفاً بأن ما قاله ﷺ من العذاب ، ومن العقوبة التي ادخرها الله لمن يفعل ذلك أنها صحيحة وأنها موجودة ، بل ربما يقول : هذا خرج مخرج المبالغة ، وأن هذا إنما هو لشيء .

والمقصود أن الشارع يطلق هذه الإطلاقات ليعين لنا أن العمل الصالح ينبغي أن يكون بعقيدة وبثبات وبصدق نية ، والإسلام يبين لنا أن هذه المعاصي ربما تصل إلى درجة الكفر ، فيحذرنا منها ، ولا يريد منا أن نصل إليها ، وهذا هو السر في إطلاق الباري ﷻ على الذين يموتون وهم كفار ،

أولئك الذين يغفلون عن التوبة بحيث إنهم أكثر ممن سبقهم ، لا يتوبون عند الموت ، ولكن يموتون ولا يتوبون ، ومع ذلك هؤلاء لا يلتزم الله لهم بالمغفرة ، ولكن يجوز أن يغفر لهم الباري ﷻ ؛ لأن أبواب الرحمة واسعة لكل شيء .

القسم الرابع : هم المسوفون المتراخون في التوبة :

هذا القسم غير مذكور في الآية لفظاً ، ولكنه مفهوم منها ، وهم أولئك الذين لا يؤخرون التوبة إلى وقت الاحتضار ، ولا يتوبون من قريب ، ولكنهم يماطلون مع أنفسهم قليلاً قليلاً ، ثم يتوبون وهم أصحاب قبل أن يصل المرض إليهم ، وهؤلاء قد يتوب الله تعالى عليهم ، وهم أحسن حالاً بلا شك من الأقسام الأخرى التي ذكرناها .

اختلف علماء التوحيد فيما بين المعتزلة وبين أهل السنة ، فأهل السنة يقولون : إنه لا يجب على الله شيء ، والمعتزلة يقولون : إن قبول توبة التائب واجبة ؛ لأن هذا من باب الأصلح الواجب على الباري ﷻ ، ولكن الخلاف لا محل له ؛ لأنه ما دمنا قد قلنا إن الله قد التزم بنفسه ، وقد جرت سنته أنه لا تبديل لكلمات الله ، وأن ما أَرَادَهُ سبحانه لا يمكن أن يتبدل أو يتغير ، فلا محل لتلك الاختلافات .

الفلسفة الإسلامية في باب التوبة :

نتكلم الآن عن مسألة التوبة بصفة عامة ، وعن مسألة الفلسفة الإسلامية في هذا الباب ، تلك التوبة التي يريد الإسلام من المجتمع الإسلامي ، ذلك أن الناس فيما مضى قبل الإسلام وبعد الإسلام اختلفوا طرائق متعددة .

مدينة أفلاطون الفاضلة:

منهم أولئك الذين كانوا يأملون في المدن الفاضلة كأفلاطون ومن نحى نحوه ، وكانوا يعتقدون أن الإنسانية لابد أن تصل يوماً إلى أن تكون في مدينة فاضلة ليس فيها إثم وليس فيها خطأ ، وليس فيها غلط ، وليست فيها شهوة ، فهم يصورون تلك الطوبيات على هذه الصفة ، وتبعهم في ذلك بعض الفلاسفة المسلمين الذين انتحوا المدرسة اليونانية ، كالفارابي في «مدينته الفاضلة» ، وكابن الطيفيل في رسالته «حي بن يقظان» وغيرها من الرسائل ، وهذه الرسائل كلها تبين أملاً كبيراً ومثلاً عالياً يصل إليه الإنسان في هذه الدنيا .

مدينة ماركس الفاضلة:

نجد أيضاً اليوم أن هنالك نوعاً من هذه المدينة الفاضلة يبشر بها الماركسيون في هذه الأرض ، ويقولون : إن الدنيا ستصل إلى أن ينصف الناس بعضهم بعضاً ، وألا يحتاجوا إلى حكومة ولا إلى شيء ، هذه في الحقيقة كلها خيالات وكلها أوهام ، فهذا لم يحدث في الماضي ولا في الحاضر ، ولن يكون في المستقبل .

التشاؤم عند اليهود والنصارى:

أما اليهود والنصارى فإنهم نحوا منحى آخر ، وهو أنهم ذهبوا مذهب التشاؤم ، وقالوا : إن الإنسان كان قد ولد أول مرة طيباً طاهراً ، والعجيب أن رجلاً مثل الشيخ محمد عبده نحى هذا المنحى بتأثر من «جان جاك رسو» في كتاباته ، ولكن الواقع أن الإسلام يخالف ذلك كما سنبين ، قالوا : إن الإنسان كان قد ولد طاهراً طيباً نقياً ، ولكنه سقط بخطيئة آدم ، وأن

هذه الخطيئة التي ارتكبها آدم هي التي أنزلت الإنسان إلى الحضيض ، وجعلته غير قادر على النهوض ، فنحن نرث هذه الخطيئة ، ونحملها على أكتافنا ، ولا يمكننا أن نصل إليها إلا بطريق التضحية وطريق الفداء ، لا فدائنا نحن ، ولكن فداء الباري ، لا بد أن يأتي الباري في صورة بشر ، ولا بد أن يضحي بنفسه من أجلنا ، لكي نعيش نحن ، لا يثقون بالإنسان ، ويعتبرون أن الإله يجب أن ينزل إلى الأرض ، مع أن الإنسان الذي يجب أن يرتفع إلى السماء ، فهذه الاعتبارات الفلسفية التي ذكرت لكم خيالات وأوهام ، وهذه الاعتبارات خرافات لا أصل لها ، واحتقار للإنسان ، ومساس بقيمته .

وسطية الإسلام في مطالب الجسد والروح:

جاء الإسلام يبين الوسط ، ويبين التعادل بين الجسم وبين الروح ، بين الخير وبين الشر ، فهو يقول : إن الإنسان الذي وجد في هذه الأرض وجد مركباً من الخير ومن الشر ، وهكذا أراده الباري ، وهكذا يجب أن يكون ؛ لأن الله قد خلقه ليَجعله خليفة في الأرض ، وجعله خليفة في الأرض لا بد من أن يكون له فكر ، ولا بد من أن تكون له مسئولية ، والمسئولية لا بد أن تكون معها الحرية ، والحرية لا بد أن يكون معها الخطأ ومعها الصواب ، فالإنسان مركب بهذه الطبيعة ، ليكون في هذه الحياة وليعيش فيها بخطيئته لا الأصلية ، ولكن خطيئته التي يرتكبها هو ، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى قصة آدم بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْثُوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴿٣١﴾ [البقرة : ٣٠-٣٢] ، فهذه الآية تبين جانباً من جوانب الكون ، فالملائكة في هذه الآية الكريمة لا يقصدون أن الإنسان لا بد من أن يرتكب الخطيئة ، وإنما يقصدون أن التركيب الإنساني مبني على أساس إمكان ارتكاب الغلط ؛ ولذلك قالوا هذا الإنسان الذي يمكن أن يفسد في الأرض ويمكن أن يسفك الدماء لا يصلح أن يكون خليفة ، وإنما نحن معصومون من الخطأ ومن الغلط ، ونسبح بحمدك ونقدس لك ، أولى بالخلافة في الأرض ، فقال لهم الله : لا ، هذا الإنسان الخاطئ ، ذاك الإنسان الغالط ، ذاك الإنسان المذنب هو الجدير بالخلافة في الأرض ، ثم علم آدم الأسماء ، وهذه إشارة إلى ما ركبه في الإنسان من القدرة على المعرفة ، واكتشاف الأشياء ، وكُنه معاني الألفاظ والأسماء والمسميات ، فلما عرض عليهم آدم بذكائه وفطنته ومعرفته وعلمه ، قال لهم : ﴿ أَنْثُوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾ ؟ إشارة إلى المعرفة التي هي عند الإنسان ، ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ ، فظهر عجز الملائكة عن أن يكونوا من المعرفة ، ومن الاكتشافات للحقائق بما ركب عليه الإنسان الكامل مثل آدم ﷺ .

عداوة الشيطان الأبدية للإنسان في الأرض :

جاء الإسلام بعد ذلك يبين لنا هذا الجانب من الكون ، وأن الإنسان خليفة لله في الأرض ، وأنه مركب من الخير ومن الشر ، فيه عنصر الخير وعنصر الشر ، وأن الله قد علمه ولقنه ، وهداه النجدين ، وأعطاه الفكر الذي يدرك به الأشياء ، ولكن من جهة أخرى سلط عليه الشيطان عدوه وعدو الله ، سلط عليه روح الشر في هذه الدنيا ، شياطين الإنس والجن ،

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢] هذه الآية الكريمة في سورة الحجر ، تبين جانباً من جوانب الكون ، وهي أن هنالك عدواً للإنسان ، هناك المعرفة والعقل والفكر وكل شيء ، وهنالك إنسان ، وهنالك مخلوق وهو الشيطان مسلط على الإنسان ليغويه ويضله دائماً ، فهو يزين لنا الأرض ، ويبعدنا عن السماء ، وقال الله تعالى له : افعل ما تشاء ، أما الصراط الذي جعلته أنا فهو مستقيم ، وعبادي المؤمنون بي ، المتمثلون لأمرى لا تستطيع أن تغويهم ، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ، فأنت تسيطر عليهم إلى يوم يبعثون ، ثم يحاسبون أنت وإياهم على عملهم .

بعض مظاهر الإغواءات الشيطانية:

في سورة «الإسراء» يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴿٦٣﴾ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَفْزَعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِّلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥] ، الشيطان يستفزنا قدر استطاعته ، يجب إلينا الأموال ، ويجب إلينا الأولاد ، يجب إلينا المعاصي ، يجب إلينا الخروج عن الشريعة ، يجب لنا كل شيء ، ولكن عباد الله

المؤمنون بالله لا سيطرة للشيطان عليهم؛ لأنهم مؤمنون بالله، ولأنهم يتبعون أوامر الله، ويتغلبون على الشيطان، ويتغلبون على كل شيطان من شياطين الإنس والجن، ووصف القرآن الكريم كذلك الجاهلين الأولين:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَنًا مَرِيدًا ۝ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ وَلَاضَلَّهُمْ وَلَآمَنَ لَهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرْنَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٧-١١٩]، فقد رأيتم كيف أن التغيرات التي يرتكها الإنسان في الدنيا في الحقيقة، والانحرافات التي يخرج بها عن الشريعة كلها من زيغ الشيطان ومن إغواء الشيطان، وإغراء الشيطان.

العلاج القرآني لكيد الشيطان:

العلاج الذي جاء القرآن يصفه الله تعالى في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَنَّكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، هذا هو الإسلام، المجتمع الإسلامي مدعو بأن يعمل بمتقضى هذه الآيات الكريمة، يريد الله ليبين لكم، لا يريد أن يترككم لمجرد تفكيركم، فقد تخطئون في أفكاركم، وقد لا تدركون الحسن والقبیح كله بمجرد نظركم، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَنَّكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ﴾ ويرشدكم ﴿سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فلا يترككم لأن تجربوا تجارب أخرى بعد أن تجربتها الأمم السابقة من قبلكم، وفي ذلك موعظة لكم، وهو يقص عليكم نبأهم، ويرشدكم إلى أخطائهم، ويرشدكم إلى العلاج الذي أمرهم أن

يعالجوا أنفسهم به ، ﴿ وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٦] مما ارتكبتموه من الضلال في الجاهلية ، حيث كنتم تعبدون الأوثان والأصنام ، تئدون البنات ، وتستعملون الربا إلى غير ذلك من الفظائع التي كانت في أيام الجاهلية الأولى .

بعض المعاني في الآية الكريمة :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴿ هذا تأكيد ، ﴾ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ﴾ [النساء : ٢٦-٢٧] وهم دعاة الرفاهية ، ودعاة السوء ، ودعاة السيطرة الجسدية والشهوانية على الإنسان ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا ﴾ أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم ، ميلاً عظيماً ، يريد الله أن يخفف عنكم ؛ لعدم اتباع هؤلاء القوم ، ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٧] ؛ لأنه سرعان ما يتأثر بالدعوات المختلفة .

النداءات المعنوية في الآية الكريمة :

هذه الآية تبين لنا أن هنالك دعوتين في الأفق ، هنالك مناديان مناد من قبل الله يبين لنا ، ويهدينا سنن الذين من قبلنا ، ويريد منا أن لا نضل ولا نغوى ، وأن نتبع الشريعة المطهرة والأخلاق الإسلامية الكريمة ، والفئة الثانية فئة المترفين ، فئة المترفين ، فئة شياطين الإنس والجن الذين لا يريدون إلا أن تضلوا ضلالاً بعيداً ، وتخرجوا عن الطريق ، وتنحرفوا عن السبيل ، وأنتم ضعفاء في تركيبكم ، فعليكم أن تتوبوا إلى الله ، وترجعوا إليه سبحانه وتعالى .

كلام ابن عباس وابن مسعود حول الآيات:

هذه الآيات يقول فيها ابن عباس : إنها من الآيات التي هي أفضل من الدنيا وما فيها . يعني يؤثرها على ما في الدنيا وما فيها ، وكذلك سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول : نزلت في سورة النساء آيات ما أحب أن لي بها الدنيا ، من جملتها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، هذه الآية الأولى ، والآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْتَبُوا كَبَآئِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] ، الآية الثالثة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، الآية الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] ، الآية الخامسة : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] .

ما ترشد إليه الآيات:

هذه الآيات المبشرات في كتاب الله عز وجل كلها تبين أن الإسلام ليس شيئاً صعباً ، وأن بناء المجتمع على أسس إسلامية ليس شيئاً عظيمًا ، وإنما هو يحتاج إلى شيء من الإيمان ، وإلى شيء من الثقة بالنفس ، إن هنالك دعوات جاءت للعالم الإسلامي من الاستعمار الصليبي الأجنبي ، جعلتنا نفر من أنفسنا ، ولا نثق بديننا ، ولا نثق بربنا ، ولا نريد الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا نريد التوبة إلى الله ، مع أن الإسلام لا يطلب منا أن نكون ملائكة يمشون في الأرض ، ولا يريد منا أن نكون أناسًا لا

يعصون شيئاً ، ما كان المجتمع الإسلامي قط بهذه الصفة ، كان مثاليًا في العصور الأولى ، ومع ذلك كانت فيه المعاصي ، وأقيمت فيه الحدود ، فلا يقصد من مجتمع إسلامي أن الناس سيكونون بعيدين عن الرفاهية ، بعيدين عن الحياة ، بعيدين عن مستلذاتها ، ولكن بمجرد ما فتح نابليون مصر ، وصنع هناك القانون المدني ابتعدنا عن الشريعة ، والدليل على ما قلته لكم من أن الإنسان لا يطلب منه أن يكون ملكًا في الأرض ، وإنما يُراد منه أن يكون قابلاً لمبدء الطاعة لله سبحانه وتعالى ، وإذا ارتكب معصية تاب منها ورجع عنها .

* * *

المحاضرة الثانية بعد المائتين

﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

نبذة حول العنوان:

إن هذه الجملة من كتاب الله القرآن الكريم تشير إلى أن لكل علم أهلاً ، ينبغي الرجوع إليهم ؛ للتعرف على دخائله وخصائصه .

وإذا كانت العلوم الشرعية من أجلّ العلوم وأفضلها ؛ باعتبارها تبين للناس الحلال والحرام ، وأحكام العبادات والمعاملات ، وتحدد مصادر كل تلك الأحكام ، وتهدي إلى أن الأدلة الأساسية أربعة ، هي : القرآن الكريم ، والسُّنة النبوية الشريفة ، والإجماع ، والقياس ، كانت أولى بالرجوع إلى أهل الذكر فيها ، باعتبارهم أصحاب الخبرة والدراية ، وهذا ما تسانده آيات أخرى في القرآن الكريم .

مراتب هذه الأدلة:

ليست هذه الأدلة في درجة واحدة عند الرجوع إليها والاستنباط منها ، وإنما هي مرتبة على ذلك الوجه : فالقرآن الكريم أول هذه الأدلة ، وهو المرجع الأول لمن أراد الوقوف على حكم من الأحكام .

فإذا كان الحكم المبحوث عنه ظاهراً في القرآن الكريم ، لم يبحث في غيره عن ذات الحكم ، وإن لم يوجد في القرآن كان البحث عنه في السُّنة ، فإذا لم يوجد كان على الباحث التعرف عليه في المسائل المجمع عليها ، فإن لم يكن عليه إجماع كان القياس .

الاستدلال بحديث معاذ:

يدل على هذا حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن؛ ليعلم أهلها القرآن وأحكام الدين، وليقضي بينهم، حيث سأل الرسول ﷺ معاذًا: «كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم يكن؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو»^(١)، أي لا أقصر في الاجتهاد والبحث.

صنيع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

يدل لهذا المسلك أيضًا صنيع الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، فقد روي أنه كان إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد في سنة رسول الله جمع خيار الصحابة واستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به.

صنيع عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ذلك، فإذا لم يجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ الحكم الذي يبتغيه، نظر في قضاء أبي بكر، فإن وجدته قضى به، وإن لم يجد جمع خيار الناس، فإن أجمعوا على شيء قضى به.

الدليل على حجية الإجماع:

لعل من الطريف في باب الإجماع والاستدلال على حجيته أن أشير إلى أن من معاني القرآن الكريم ما لا يعلمه إلا خواص العلماء دون عامتهم،

(١) سبق تخريجه.

كذلك المعنى الذي استنبطه الإمام الشافعي رحمته الله استدلالاً على حجية الإجماع ، وذلك من قول الله سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

حيث قال رحمته الله : لا يصلية جهنم إلا إذا كان اتباع غير سبيل المؤمنين أمراً محرماً ، وكان اتباع سبيل المؤمنين أمراً واجباً .

هذا ، وهناك أدلة أخرى تختلف عليها بين الفقهاء والأصوليين .

أنواع الأدلة الشرعية :

الأدلة الشرعية سواء المتفق عليها أو المختلف فيها نوعان :

أحدهما : نقلي ، والآخر : عقلي .

الأدلة النقلية :

الأدلة النقلية طريقها النقل ولا دخل للمجتهد في تكوينها ولا في إيجادها ، كالكتاب والسنة ، إذ لا دخل للمجتهد في إيجادهما ، وكذلك الإجماع فإنه وجد واستقر قبل استدلال المجتهد به .

ومن هذا القبيل أيضاً العرف ، وشرع من قبلنا ، وقول الصحابي ؛ لأن كل ذلك راجع إلى العمل بأمر لا دخل للمجتهد في وجوده .

الأدلة العقلية :

هي التي يكون للمجتهد دخل في تكوينها ووجودها ، كالقياس ، والمصالح المرسلة ، والاستحسان في بعض صورته .

وكل واحد من نوعي الأدلة مفتقر إلى الآخر ولا غنى له عنه ؛ لأن الاستدلال بالمنقول لا بد فيه من النظر والتدبر بالعقل ، والاستدلال بالمعقول لا يكون معتبراً في نظر الشرع إلا إذا كان مستنده النقل إذ العقل وحده لا دخل له في تشريع الأحكام .

العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح :

من هذا يظهر أن التقسيم للأدلة إنما هو بالنسبة إلى أصول الأدلة ذاتها ، ويجب أن يستقر في الأذهان أن الأدلة الشرعية لا تتناقض مع العقول السليمة ، فلا يوجد دليل صحيح يشتمل على حكم يناقض العقل السليم ، وإنما يكون التناقض أو التعارض في حالة عدم صحة الدليل أو عدم فهمه على الوجه المقصود في الشرع أو في حالة انحراف العقل عن الفهم السليم بمرض أو بهوى وميل إلى بعض الآراء الفاسدة ؛ ذلك لأن تلك الأدلة إنما أنزلها الله على رسوله للعمل بها ، ولا يجوز مع هذا أن تكون غير مقبولة من العقول السليمة ، وإلا كان إرسال الرسل ومعهم هذه الأحكام عبثاً ، والله سبحانه منزه عن العبث ، ولست بصدد الحديث تفصيلاً عن هذه الأدلة للأحكام الشرعية وبيانها ، ولكن بسبيل من هم أهل الذكر في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وبيان من هم أولئك الذي وكل الله إليهم استنباط الأحكام للناس كما جاء في الآية الأخرى من سورة النساء : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

وذلك لأن الأحكام الشرعية قد نص على بعضها في القرآن وفي السنة النبوية الشريفة ، وبعضها الآخر لم ينص عليه فيها صراحة ، وإنما عرفت بالاجتهاد بأمارات نصبها الشارع للتوصل إليها .

الأحكام المنصوص عليها قسمان:

الأول: أحكام ثبتت بنصوص قاطعة الدلالة ، ولا يجوز أن يقع في أصولها المنصوصة خلاف ، ويجب اتباع حكم النص فيها .

والقسم الآخر: الأحكام التي دلت عليها نصوص ثابتة قطعاً ، ولكنها ظنية الدلالة ، مثل : مقدار الرضاع المحرم ، والقضاء بشاهد ويمين المدعي ، والقضاء بالقرائن ، وهذا النوع محل للاجتهاد ، بمعنى أنه يمكن إدراك أحد الحكمين المحتملين بإمعان النظر والاجتهاد في تعريف الاحتمالات حسبما يظهر من فهم المراد من النص ، كما يمكن ترجيح أحد المعنيين أو المعاني التي يفيدها النص ، وهذا من عمل المجتهد إذ واجبه في مثل هذه الوقائع أن يُبذل جهده في الترجيح ، وأن ينظر جيداً في الأصول اللغوية والتشريعية ، حتى إذا توصل اجتجاهه إلى حكم شرعي وجب عليه العمل بمقتضاه .

ومن أمثلة النوع الأخير : حكم المسح على الرأس في الوضوء ، فإنه ثابت بدليل قطعي هو آية الوضوء في «سورة المائدة» ، حيث جاء فيها : ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة : ٦] .

لكن القدر الذي يجب مسحه من الرأس قد اختلف فيه ، فعند مالك : المسح للرأس كله ، بينما غيره من الأئمة يقولون : المسح لبعض الرأس ، ثم اختلف هؤلاء في تحديد البعض الممسوح ، وأساس هذا الاختلاف هو حرف الباء في قوله تعالى : ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ ؛ لأنها ذات معان عديدة ، فقد ترد للتبعيض والجزئية كما في قوله : «أخذت بثوبه ، وأمسكت به» ، وقد ترد زائدة في قول البعض ، كما في قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يُدُھُنِ﴾ [المؤمنون : ٢٠] تلك الأحكام التي نص عليها .

الأحكام التي لم ينص عليها نوعان:

الأول: نوع لم يدل نص من القرآن ولا من السنة على حكمه الشرعي ، لكن اتفق المجتهدون وأجمعوا على حكمه في عصر من العصور ، وهذا أيضاً لا محل للاجتهاد فيه ؛ لأن حجية الإجماع مقررة بالنصوص الثابتة ، لاسيما إذا كان الإجماع على حكم لا يتغير بتغير الزمان ، ومثال المجمع عليه الذي لا يتغير ، الإجماع على توريث الجدة ، وعلى تحريم شحم الخنزير بدخوله في اسم اللحم الذي جاء نصاً في آيات تحريمه .

والنوع الآخر: هو ما لم يدل على حكمه دليل من قرآن أو سنة أو إجماع ، وهذا هو موضع الاجتهاد ممن توافرت فيه شروط المجتهد ، وهنا نصل إلى أن الاجتهاد هو الطريق إلى استنباط الأحكام الشرعية في الوقائع التي لم يوجد نص من القرآن أو السنة يدل على حكمها ، كما لم يسبق انعقاد إجماع من المجتهدين في شأنها ، وكذلك الوقائع التي ورد في شأنها نص غير قطعي الدلالة ، وإن كان قطعي الثبوت ، فإن مثل هذا في حاجة إلى نظر واجتهاد لتحديد وجه الدلالة .

القياس وأهم أركانه:

أول وسيلة للاستنباط هو القياس ، وأهم أركانه التعرف على علة الحكم ، وإدراك وجه المصلحة التي شرع لأجلها ، والتعرف كذلك على الوصف الذي بني عليه الحكم باعتبار أنه مظنة لهذه المصلحة .

متى يلجأ المجتهد إلى القياس:

من ثم لم يكن للمجتهد أن يلجأ إلى القياس إلا إذا كان حكم النص مما تدرك علة بالعقل ، بمعنى أن يكون للعقل سبيل إلى فهم المصلحة التي

استهدفها النص ؛ لأن الله سبحانه شرع الأحكام لأسباب اقتضتها ، وليس لمجرد التكليف بها أو الحرمان مما حرمه من مطعومات أو غيرها من بعض العقود والمعاملات مصادرة لحريات المكلفين ، وإنما جاءت الأحكام الشرعية لتحقيق مصالح العباد وتنظيم العلائق فيما بينهم في التعامل ، وفيما بينهم وبين الله تعالى في العبادات والطاعات .

نصوص صرحت بالعلة للحكم :

بعض هذه النصوص قد صرحت بعلة الحكم ، كما في قوله تعالى في فريضة الحج : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٨] ، وفي شأن القصاص في «سورة البقرة» : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وفي شأن الزكاة في «سورة التوبة» : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وفي مثل قول رسول الله ﷺ : «يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء»^(١) .

وفي شأن تحريم الجمع بين بعض النسوة : «لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»^(٢) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١ / ٣٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

نصوص لم تصرح بعلة الحكم:

إن بعض النصوص لم تصرح بعلة الحكم ، وتلك في حاجة إلى إعمال الفكر لاستظهار هذه العلة بأوصافها المنضبطة ، ولا يكون ذلك إلا بالاجتهاد .

تعريف الاجتهاد وأهدافه:

الاجتهاد: بذل الجهد ، وفي الاصطلاح : بذل الفقيه جهده وغاية وسعه ، إما في استنباط الأحكام الشرعية ، وإما في تطبيقها .

ومن هذا يعرف أن الاجتهاد على ضربين ، أحدهما : هدفه الاستنباط ، والآخر : هدفه التطبيق .

والاجتهاد بهذا المعنى ليس إنشاء للحكم ، وإنما هو إبانة وكشف لحكم الله في الواقعة بالنسبة للمجتهد ، ولمن يقلده في اجتهاده .

من هو المجتهد؟

المجتهد في هذا المقام هو من يتمكن من استنباط الأحكام الشرعية العملية من الأدلة التفصيلية ، وهو المعنى عند علماء أصول الفقه باسم الفقيه أو المفتي ، أما من يعرف مجرد الأحكام الشرعية ، وكان فاقد القدرة على أخذها من المصادر الشرعية ، فلا يقال عنه إنه مجتهد ، ولا فقيه ، ولا مفت ، وإن حفظ الكثير من الفروع الفقهية .

والفرق بين الاجتهاد والقياس من وجهين:

الأول: أن الاجتهاد يشمل بذل الجهد فيما لا نص فيه ، وفيما ورد في شأنه نص للوصول إلى الحكم الشرعي بأي طريق من طرق الاستنباط ،

سواء كان ذلك بالقياس أو بالاستحسان أو بالاستصحاب أو بالاستصلاح ، أما القياس فهو بذل الجهد فيما لا نص فيه لإلحاقه بما ورد فيه نص للتسوية بينهما في الحكم ، وبذلك يكون الاجتهاد أعم ، فكل قياس اجتهاد دون العكس .

الوجه الثاني:

أن مجال القياس الحوادث التي لم يرد فيها نص ، أما مجال الاجتهاد فكل ما يقع من حوادث سواء كانت مما ورد فيها نص أو لم يرد فيها ، وسواء كانت هذه الحوادث من المعاملات أو العبادات أو العقوبات في حين أن القياس لا مجال لإعماله في التعبديات التي لا تدرك علتها ، إذ لا مجال للعقل في العبادات والكفارات والحدود ، وما حدده القرآن من أنصبة المواريث .

محل الاجتهاد:

مما سلف يمكن حصر الأحكام الشرعية التي تعتبر محلاً للاجتهاد ، فيما يلي :

أولاً : ما جاء فيه نص قطعي الثبوت ظني الدلالة ، إذ الوقائع التي يحكمها نص بهذه الكيفية تكون مجالاً للاجتهاد .

ومن أمثلتها عدة المطلقة من ذوات الأقرء ، فإن النص في بيانها قوله تعالى في «سورة البقرة» : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، وهذا النص قرآن قطعي الثبوت لا شك في تواتره ، فهو مفيد لليقين ، لكنه ظني الدلالة ؛ لأن قروء في النص جمع قرء ، وهذا المفرد يحتمل في اللغة مفهومين : الحيض ، والطهر .

ودلالة اللفظ على أحدهما ظنية ، فكان على المجتهد بذل جهده ووسعه في الوصول إلى أي المفهومين مراد من النص؟ فتوصل فقهاء الحنفية باجتهادهم إلى أن المراد بلفظ القرء الحيض ، فحكموا بأن عدة المطلقة ذات الأقراء تنقضي بثلاث حيضات ، بينما فقهاء المذهب الشافعي وغيرهم أوصلهم اجتهادهم إلى أن المراد من القرء الطهر ، فحكموا بأن عدة المطلقة أن تطهر من حيضها ثلاث مرات .

ثانياً : ما فيه نص ظني الثبوت قطعي الدلالة يكون محلاً للاجتهاد مثل ما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري : «ليس فيما دون خمس من الإبل صدقة» .

فهذا الحديث نص في موضوعه قطعي الدلالة ، لكنه ظني الثبوت ؛ لأنه لم ينقل بطريق التواتر ، فكان محل الاجتهاد فيه سنده ورواته ومبلغهم من الصدق والثقة والعدالة والضبط .

ثالثاً : إذا كان النص ظني الثبوت ظني الدلالة ، مثل حديث : «لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب»^(١) ، كان محلاً للاجتهاد من حيث سنده ورواته ومبلغهم من الصدق والثقة والعدالة والضبط ، ومن حيث الدلالة ؛ لأن لفظه يحتمل أحد معنيين :

الأول : لا صلاة صحيحة إلا بفاتحة الكتاب .

والمعنى الآخر : لا صلاة كاملة إلا بفاتحة الكتاب ، وقد توصل اجتهاد الشافعية ومن وافقهم إلى الأول ، وحكموا ببطلان صلاة من لم يقرأ في

(١) أخرجه أبو داود (٨٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

صلاته بفاتحة الكتاب ، بينما توصل فقهاء الحنفية إلى المعنى الآخر ، فقالوا : بنفي الكمال في الصلاة إذا تركت الفاتحة وقرئ فيها بغيرها .

رابعاً : الوقائع التي لا نص فيها ، وهذه تكون محلاً للاجتهاد بحثاً عن معرفة حكمها الشرعي ، فقد يؤدي الاجتهاد إلى الوصول إلى الحكم بطريق القياس أو المصالح المرسلة ، أو الاستحسان أو غير هذا من الأدلة .

مثال الوقائع التي لا نص فيها :

استخلاف أبي بكر رضي الله عنه :

لم يرد نص فيمن يخلف النبي ﷺ بعد موته ، وبعد أن اجتهد الصحابة - رضوان الله عليهم - ولوه خليفة لرسول الله ﷺ قياساً على إنابته في الصلاة إماماً لهم ، وقال قائلهم : «رضيك رسول الله لدينا أفلا نرضاك لديانا» .

جمع المصحف الشريف :

واقعة جمع صحف القرآن في مجموعة واحدة ، بعد أن استشهد كثير من الحفاظ في حروب الردة وخشي الصحابة ضياع القرآن اجتهدوا وأداهم اجتهدهم إلى جمع الصحف التي كتب فيها القرآن إعمالاً لمبدأ المصلحة ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله إنه لخير ومصلحة للمسلمين .

الأحكام التي ليست محلاً للاجتهاد :

هي ثلاثة أنواع :

الأول : الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة ، كوجوب الإيمان بالله وملائكته ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، ووجوب الصلاة ،

والزكاة ، والصوم ، والحج ، وتحريم الربا ، والزنا ، والسرقه ، والقتل ؛ إذ كل هذا وأمثاله لا مجال فيه للاجتهاد .

الثاني : الأحكام التي جاء فيها نص قطعي الثبوت والدلالة ، مثل : كفارة اليمين الثابتة بالآية : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة : ٨٩] ، فإن هذا النص قرآن قطعي الثبوت ، وهو مع هذا قطعي الدلالة في مقدار الكفارة .

وهكذا سائر الحدود والكفارات المقدرة لا مجال للاجتهاد فيها ولا يتصور فيها وقوع خلاف .

الثالث : الأحكام العملية التي لا تحمل تأويلاً مثل كيفية الصلاة والحج بعد بيانها من رسول الله ﷺ ، حيث أوضح عدد الركعات وشروط الصلوات وأركانها ومواقيتها ، وقال : «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١) ، وأوضح مناسك الحج ، وقال : «خذوا عني مناسككم»^(١) ، فلا محل للاجتهاد في هيئة ومناسك الصلاة والحج ، وشروط كل منهما .

وإذا كان الاجتهاد واستنباط الأحكام للوقائع من فروض الكفاية في الجملة ، فمن هو المجتهد؟

شروط المجتهد:

يتعين على من يتصدى للنظر في الأدلة الشرعية لاستنباط الأحكام أن تتوافر فيه الشروط الآتية :

(١) سبق تخريجه .

الأول : أن يكون بالغًا عاقلًا مسلمًا ؛ لأن غير البالغ قاصر النظر ، وغير العاقل كالمجنون والمعتوه فاقد الإدراك والفهم لمقاصد الكلام ، وغير المسلم غير المؤمن بالله وملائكته وبرسوله محمد ﷺ ، وسائر الأنبياء والمرسلين وبما وجب الإيمان به ، لا يتجه إلى جوهر الدين ولبه ، بل يضلله الهوى .

الثاني : أن يعرف المجتهد اللغة العربية معرفة تمكنه من فهم القرآن الكريم والسنة الشريفة ؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، والسنة جاءت بيانًا له ، وفي القدر الذي يتحتم توافره في المجتهد من العلم بلغة القرآن الكريم ، قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي «المستصفى» : إنه القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعاداتهم في الاستعمال ؛ حتى يميز بين صريح الكلم وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه .

ومن هذا يظهر أن الغزالي يشترط العلم الدقيق والتبحر في لغة العرب حتى يصل إلى درجة أن يضاهي في فهمها -العربي- وليس من شأن العربي أن يعرف جميع اللغة ، وكذلك المجتهد بالنسبة للغة العرب ، ليس مرغوبًا أو مشروطًا فيه علمه باللغة العربية علم استيعاب لكل أساليبها ومفرداتها وفقهها واستعمال قبائلها المختلفة ، فإن ذلك ليس في مقدور أحد ، إنما المطلوب ألا يتقاصر علم المجتهد عن معرفة أسرارها في الجملة ، وعلى قدر فهم الباحث في الشريعة لأسرار البيان العربي تكون قدرته على فهم واستنباط الأحكام الشرعية من نصوصها .

ترتيب الشاطبي للباحثين:

في هذا يقول الشاطبي مرتبًا الباحثين في الشريعة على أساس مرتبتهم في لغة العرب : «وإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة ، أو متوسطًا فهو متوسط في فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية ، فإذا انتهى إلى الغاية في العربية كان كذلك في فهم الشريعة ، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة ، فمن لم يبلغ شأوهم فقد نقص من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم ، وكل من قصر فهمه لم يكن حجة ولا كان قوله مقبولاً» .

ليس المقصود من العلم باللغة الجمع الشامل:

من هذا يمكن أن يقال : إنه ليس المراد من العلم باللغة العربية واشتراط هذا في المجتهد في الشريعة أن يكون حافظًا وجامعًا ، كالمقدمين من أئمة اللغة كالحليل وسيبويه والكسائي والفراء ، ومن كان على درهم ودرجتهم ، وإنما المراد أن يكون فهمه صحيحًا على وفق أساليب اللغة ، وذلك إما أن يكون بالسليقة بأن تكون نشأته بين فصحاء العرب ، فكان كأحدهم كالإمام مالك والإمام الشافعي وأمثالهما ، وإما بأن يعرف علوم العربية كالنحو والصرف وعلوم البلاغة والأدب بطريق الممارسة والتعليم حتى تصير من أوصافه اللازمة له كما كان الحال بالنسبة للإمامين : أبي حنيفة والليث بن سعد وأمثالهما من الفقهاء والمجتهدين من الذين لم يكونوا من أصل عربي ، ولكن بالممارسة لهذه اللغة أجادوا فهمها وصاروا كأبنائها .

الثالث : أن يكون على علم بالقرآن الكريم ؛ لأنه الأصل في التشريع الإسلامي ، وذلك بأن يتفهمه لغة وشريعة ويحيط به ، بأن يعرف المفردات

والتراكيب وخواصها، ويعرف المعاني، ووجوه الدلالة من عبارة وإشارة واقتضاء ومنطوق ومفهوم، وأقسام اللفظ من عام وخاص ومشترك ومجمل ومفسر ومشكل ومحكم وخفي وظاهر ونص، إلى غير هذا من الأقسام والمباحث المدونة في موضعها من علوم اللغة وأصول الفقه.

لا يشترط للمجتهد العلم بجميع الآيات:

هذا، ولا يشترط معرفته لجميع آيات القرآن الكريم، بل يكفي في ذلك أن يعرف آيات الأحكام الشرعية العملية التي حصرها بعض العلماء في نحو خمسمائة آية وإن نازع البعض في هذا الحصر على أساس تنوع القرائح والأذهان وما يفتحه الله من القدرة على الاستنباط، إذ قد يستطيع من له فهم صحيح أن يستخرج الأحكام من آيات القصص والأمثال. ولقد جمعت آيات الأحكام وفسرها بعض الفقهاء.

يجب العلم بالناسخ والمنسوخ:

يجب أن يكون المجتهد على علم - كذلك - بالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم وبما خصص بالشئنة، وأن يكون بوجه عام عالماً - مع ما تقدم - بما اشتمل عليه القرآن الكريم إذ أن القرآن غير منفصل بعرضه عن بعض، وتميز آيات الأحكام من غيرها يتوقف بالضرورة على معرفة جميع آياته.

الرابع: أن يعرف المجتهد الشئنة النبوية الشريفة بمعرفة طرق وصولها وروايتها من تواتر أو شهرة أو آحاد وحكم كل منها وحال الرواة من جرح أو تعديل ليميز الصحيح من الفاسد، والمقبول فيها عن المردود، وأن يعرف معانيها لغة وشرعية على نحو ما سلف مع القرآن.

والطريق إلى معرفة كل ذلك هو الاعتماد على ما دونه الأئمة الموثوق بهم في علوم الحديث كالبخاري ومسلم ، وليس بلازم أن يعرف المجتهد كل السُّنة ، بل ما يتعلق منها بالأحكام العملية من هذه المصادر الموثقة بالإضافة إلى كتب السُّنة الأخرى التي تلقتها الأمة بالقبول .

هذا وقد عني عدد من المُحدِّثين بجمع أحاديث الأحكام في كتب وتبويبها تبعاً لأبواب الفقه وشرحها رواية ودراية ، وهي مشهورة متداولة .

الخامس : العلم بالوقائع المجمع على الحكم فيها ، مثل : الفرائض ، والمواثيق ، والمحرمات ، وغير هذا مما جاء حكمه نصّاً في القرآن الكريم والسُّنة ، وأجمع عليه المسلمون .

وكذلك ما اختلف فيه ليتمكنه الموازنة بين الصحيح وغيره ، وفي هذا قال الإمام الشافعي في «الرسالة» : «لا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ؛ لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبيتاً فيما اعتقد من الصواب ، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده ، والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول ، وترك ما يترك ، ولا يكون بما قال أعني منه بما خالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما ترك إن شاء الله» .

وبهذا أوجب الإمام الشافعي على المجتهد أن يعرف رأي من خالفه ؛ حتى يتثبت من أنه أدرك الحق فيما ذهب إليه ما دام لم يجد في كلام من خالفه ما يردده .

وقد كان هذا دأب أولئك الأئمة ، فهذا الإمام أبو حنيفة يقول : أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس ، فإن تنازع الآراء المختلفة يظهر الحق

من بينها ، وكان الإمام مالك إذا لقي أحدًا من تلاميذ أبي حنيفة سألته عما كان يقول به في المسائل التي تعرض له في دراسته .

ومن أجل هذا عني بعض الفقهاء بجمع الآراء في دراساتهم الفقهية ، فمنهم من جمع أقوال الصحابة واختلافهم ، ومنهم من جمع أقوال فقهاء الأمصار المختلفة .

السادس : معرفة القياس وفي شأنه قال الإمام الشافعي : «إن الاجتهاد هو العلم بأوجه القياس وطرائقه» .

أمور يقتضيها العلم بالقياس :

العلم بالقياس يقتضي معرفة أمور ثلاثة :

أولاً : العلم بالأصول من النصوص والعلل التي قامت عليها أحكام هذه النصوص ، والتي يمكن بمقتضاها إلحاق الفرع بالأصل .

ثانيًا : معرفة قوانين القياس وضوابطه ، مثل : أوصاف العلة التي يقوم عليها القياس ويلتحق بها الفرع بالأصل ، ومثل : ما لا يتعدى حكمه .

ثالثًا : معرفة الطرق التي سلكها السلف في تعرف العلل والأوصاف التي اعتبرت أساسًا لاستخراج طائفة من الأحكام الفقهية ، وفي هذا قال الأسنوي : «لا بد أن يعرفه (أي القياس) ويعرف شرائطه المعتمدة ؛ لأنه قاعدة الاجتهاد والموصل إلى تفاصيل الأحكام التي لا حصر لها» .

السابع في شروط المجتهد : معرفة مقاصد الأحكام :

فإن مقاصد الأحكام في الشريعة الإسلامية تتمثل في الرحمة بالعباد ، إذ

هي المقصود الأصلي للرسالة المحمدية على ما يشير إليه قول الله سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، فهذه الرحمة التي جاءت في هذه الآية على سبيل الحصر رحمة عامة وشاملة اقتضت أن تكون شريعة الإسلام قائمة على رعاية المصالح بمراتبها الثلاث : الضروريات ، ثم الحاجيات ، ثم التحسينات ، واقتضت كذلك تخير اليسر على العسر ، ورفع الحرج ، ومنع الضيق .

وفي هذا الموضوع نبه الشاطبي إلى أصليين :

الأصل الأول : ضرورة فهم حقائق الشريعة ، وأنها مبنية على اعتبار المصالح التي هي حقائق ذاتية لا ينظر إليها باعتبارها شهوات أو رغبات للمكلف ، بل ينظر فيها إلى الأمر ذاته من حيث كونه نافعا أو ضارا ، قال في الموافقات : «إذا بلغ الإنسان مبلغا فهم فيه عن الشارع قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة ، وفي كل باب من أبوابها ، فقد حصل له وصل هو السبب في بلوغه منزلة الخليفة للنبي ﷺ في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله تعالى» .

الأصل الثاني : هو التمكن من الاستنباط بمعرفة العربية ومعرفة أحكام القرآن والسنة والإجماع وخلاف الفقهاء ، قال الشاطبي في هذا الصدد : «إن الأصل الأول هو الأساس ، والثاني خادم له ؛ لأن فهم مقاصد الشرع هو العلم الذي يبني عليه المجتهد ، والمعارف الأخرى من لغة وعلم بأحكام القرآن والسنة لا تنتج استنباطا جديداً إن لم يكن على علم كامل بمقصود الشارع ومراميه» .

الثامن : العلم بأصول الفقه مع صحة الفهم :

إذ إن علم أصول الفقه طريق الاجتهاد وعماده ، وبدونه لا يصل الفقيه إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، إذ لهذه الأدلة كفيات متنوعة في الدلالة ، فتكون أمراً أو نهياً ، وتكون عاماً أو خاصاً ، وما شابه ذلك مما هو مفصل في مباحثه من هذا العلم ، من أجل هذا كان من أهم العلوم اللازمة للمجتهد .

كما قال فخر الدين الرازي في كتابه «المحصول» : «هذا ، ولا يكفي طالب الاجتهاد أن يعرف مسائل أصول الفقه التي قررها غيره من المجتهدين ، بل عليه أن يدرك هذه الأصول كما أدركها سابقوه بالتمرس عليها من الموارد الشرعية وبرسوخ قدمه في فهم اللغة العربية ومعرفته بوجوه تصاريح الألفاظ والمعاني والتراكيب ، ومع كل ذلك لابد من صحة الفهم وحسن التقدير ؛ لأن ذلك أداة المجتهد الذاتية التي تمكنه من استخدام كل المعلومات والعلوم التي حصلها» .

يقول الأسنوي : «يشترط أن يعرف شرائط الحدود والبراهين ، وكيفية تركيب مقدماتها ، واستنباط المطلوب منها ؛ ليأمن من الخطأ في نظره» .
والمقصود أن يكون المجتهد حسن الفهم ، نافذ النظر حتى يصل إلى الحق الذي يبتغيه .

هذا ، ولا مرأ في أنه يلزم أن يكون المجتهد بعيداً عن الهوى غير مبتدع ؛ لأنه إذا كان كذلك كان فاسد الاعتقاد ، ويجب ألا يكون ممارياً بالباطل ، بل يكون كما كان السلف من الأئمة غايته الحق كما قال الإمام أبو حنيفة : «وهذا أحسن ما وصلنا إليه ، ومن وصل إلى أحسن منه فليتبعه» .

وإذا كان من أهل الذكر المجتهدون ، وهم الذين وكل إليهم استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأصلية ، وكانت هذه هي الشروط الواجب توافرها فيمن يتصدى للاجتهاد في بيان أحكام الوقائع ، وفهم النصوص الشرعية ، فهل يكون الاجتهاد فرديًا أو جماعيًا؟

أنواع الاجتهاد:

الذي يظهر من تتبع ما ورد عن الرسول ﷺ في شأن الدعوة إلى الاجتهاد أنه نوعان :

الأول : الاجتهاد الفردي : وهو ما انفرد به مجتهد في نطاق الكتاب والسنة وسائر الأدلة ، وقد دل على هذا حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي سبقت الإشارة إليه ، وقد رواه أبو داود في «سننه» .

الثاني : الاجتهاد الجماعي : وهو الذي يتولاه أهل العلم والرأي ؛ لاستنباط حكم واقعة لا نص فيها ، مثاله : ما رواه الطبراني في «الأوسط» عن علي رضي الله عنه ، قال : «قلت يا رسول الله ، إن عرض لي أمر لم ينزل قضاء في أمره ولا سنة كيف تأمرني؟

قال : تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين ، ولا تقض فيه برأيك خاصة» .

ويؤخذ من هذا الحديث أمران :

الأول : أن أمر الاجتهاد في الأحكام الشرعية منوط بأهل الفقه والعابدين من المؤمنين ، وليس متروكًا لعامة الناس ، يواجهه من لا علم له ولا دين عن هوى وبدعة .

الأمر الآخر : أن الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ينبغي أن لا يستبد به فرد ، يدل على هذا قول الرسول ﷺ في هذا الحديث : «تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين ، ولا تقض فيه برأيك خاصة» .

وهكذا فعل أصحاب رسول الله ﷺ عند اختيار الخليفة الأول ، فلم يستبد بالأمر واحد ، وإنما كان شورى بين الصحابة تهاوروا فيه ، وتشاوروا حتى استقر على اختيار أبي بكر رضي الله عنه خليفة ، وطبق هذا الخليفة ذات المبدأ في قضائه واجتهاده .

وإذا كان الاجتهاد الفردي في عصرنا قد تعثر أو تعذر بسبب عدم توافر الشروط في مجتهد بذاته ، فإن أنسب الطرق في عصرنا هو الاجتهاد الجماعي لكي تتساند الأقوال والأفكار وتتكامل ، وينجلي الحوار عن الصواب ، لا سيما بعد أن جدت واقعات ومعاملات لم يسبق مواجهتها .

ومن هنا كانت الضرورة قاضية بحث المجامع الفقهية في كافة البلاد الإسلامية على بذل الجهد ، وتبادل الأفكار والآراء فيما تتولاه هذه المجامع من بحوث وفتاوى طلباً لتمحيصها والوقوف على وجه الصواب فيها ، وكان على المفتين وكل من يتصدى لبيان الأحكام الشرعية ، أن يحافظوا على دراسة تراثنا الفقهي في شتى المذاهب باعتباره ثروة فقهية ينبغي الاستعانة والاستفادة بها ، فإنها تصلح إماماً ومرشداً ، وهكذا كان يفعل السلف الصالح من العلماء .

حكم التقليد :

إذا كان ذلك حكم الاجتهاد والشروط الواجب توافرها في المجتهد الذي هو من أهل الذكر ، فهل الاجتهاد مطلوب من كل مسلم ، أو أن من لم يحسن الاجتهاد كان عليه أن يقلد غيره ويأخذ بقوله ؟

للعلماء في هذا أقوال ثلاثة :

الأول : لا يجوز التقليد مطلقاً ؛ لأن الواجب على كل شخص مسلم مكلف أن يواجه بنفسه أمور دينه مستمداً إياها من مصادرها الصحيحة ، وأن يجتهد فيما يعرض له من حوادث ويعمل بما يؤديه إليه اجتهاده بعد الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

الثاني : عدم جواز الاجتهاد ووجوب التقليد ، وحجة هذا القول أن زمن الأئمة المجتهدين الذين سلمت لهم الأمة بهذا الوصف قد مضى ، فلا يصح الاجتهاد بعدهم ويجب تقليدهم .

الثالث : وجوب التقليد على من لم يبلغ درجة الاجتهاد ، وهذا هو الرأي السديد للأسباب التي نوجزها فيما يلي :

أولاً : أن الله قد رفع الحرج عن المسلمين في أمور دينهم ، فقال في «سورة الحج» : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] ، ولو وجب الاجتهاد على كل مسلم كما يقول أصحاب الرأي الأول لوقع الناس في حرج شديد ، ولتعطلت مصالحهم إذ ليس كل مسلم مؤهلاً ذاتياً للاجتهاد في أحكام الدين ، بل إن الله سبحانه أمر من جهل أمراً بالسؤال عنه وأخذه عن علم به .

فقال سبحانه وتعالى في «سورة الأنبياء» : ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، وهذا القول من الله سبحانه دليل قاطع على تفاوت الناس في العلم وفي القدرة على تحصيله مما يقتضي وجوب سؤال من جهل لمن علم ، وإلا لما كان في إيجاب السؤال بهذه الآية فائدة .

وبهذا يكون القول بمنع التقليد، ووجوب الاجتهاد على كل مسلم مخالفاً لحكم هذا النص القرآني الكريم .

ثانياً: أن الصحابة والتابعين -رضوان الله عليهم أجمعين- لم يكونوا جميعاً من المجتهدين ، وكان عامتهم يلجئون إلى المجتهدين منهم يستفتونهم فيما طرأ من حوادث ولم ينكروا على أحد سؤاله ، بل كان المجتهدون منهم يفيدون سائلهم بحكم الله ، ولم ينقل أن أولئك السائلين أمروا بالاجتهاد ، فيعتبر هذا إجماعاً من الصحابة على أن من جهل حكماً شرعياً ، وعجز عن الاجتهاد في شأنه لا يكلف الاجتهاد ، وكان عليه سؤال القادر على الاجتهاد في هذا الحكم والعمل بفتواه ، وجرى على ذلك عمل التابعين أيضاً -رضوان الله عليهم أجمعين .

ثالثاً: أن الناس متفاوتون في الفهم وقوة الإدراك ، وللاجتهاد في الدين واستنباط الأحكام من مصادرها شروط ، بل إن ذلك ملكة لا تتوافر لدى كل المسلمين ، فإذا كلف بها من لا يستطيعها كان ذلك تكليفاً بغير المستطاع ، مع أن الله فرض المستطاع ورفع الحرج عن المسلمين ، كما في آية «سورة البقرة»: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وفوق هذا فإنه لو فرض الاجتهاد على كل مسلم لوجب عليهم جميعاً الانصراف إلى تحصيل أدواته من العلوم الشرعية واللغوية ، وهذا يؤدي إلى الانقطاع عن القيام بمصالح المعيشة وضرورات الحياة وعمارتها ، وفي هذا فساد نظام المجتمع لتوقف مصالحه ، بل فيه هلاكه .

ومع هذا كله فذلك قول الله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

ومن ثم كان حتمًا على المسلم الذي لم يبلغ درجة الاجتهاد ولم تتوافر لديه سماته وأدواته أن يقلد أحد الأئمة المجتهدين الذين شاعت مذاهبهم وعرفت أقوالهم وأصولهم وفروعهم ، وتلقت الأمة اجتهادهم بالقبول .

ولا يلزم قول من قال بوجوب تقليد واحد من الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، إذ لا دليل على ذلك ، ولكن لكل مسلم لم يبلغ درجة الاجتهاد أن يقلد أحد هؤلاء أو جميعهم أو غيرهم ممن نقلت مذاهبهم على وجه صحيح موثوق به .

أما هؤلاء الذين يتنادون بإهدار فقه الأئمة ، وتجاوز هذه الثورة الفقهية التي فقه الناس بها هذا الزمن المديد من عمر الإسلام وإهمالها والبدء بالاستنباط من جديد من القرآن والسنة .

أما هؤلاء فليسوا على حق ، وفي دعواهم هذه إضاعة للوقت ، وإهدار لعلم قد تحصل وتأصل ، وهل هؤلاء الذين وصلوا إلى القمر وجابوا الفضاء كان هذا بعلمهم الذاتي أم بناء على علم الأولين؟

إن علينا بذل الجهد في فهم هذا الفقه على اختلاف مذاهبه وتحصيله ، وعرضه بالطريقة التي تبرزه وتبين أهدافه ومراميه وما عاجله من مشاكل ، وما يمكن أن يواجهه من الحوادث التي وقعت في زمننا وأسبغنا عليها أحكامًا تتنافى مع شريعة الله .

هل يجب على المقلد التزام مذهب معين؟

رأي الجمهور :

الحق الذي ذهب إليه جمهور العلماء أنه لا يجب على المقلد التمسك بمذهب معين ، بحيث لا يجوز له الخروج عنه ، بل له أن يعمل في مسألة

بقول أبي حنيفة وفي أخرى بقول مالك أو الشافعي ، للقطع بأن المستفتين في كل عصر من زمن الصحابة ومن بعدهم كانوا يستفتون مرة واحدة ومرة أخرى مجتهدًا آخر ، غير ملتزمين مفتيًا واحدًا ، وعلى ذلك لو التزم مقلد مذهبًا معينًا لا يلزمه الاستمرار في تقليده .

اختار هذا : الأمدى ، وابن الحاجب ، والكمال بن الهمام ، والرافعي وغيرهم .

ذلك لأن التزام مذهب معين غير ملزم ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله تعالى ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب إمام معين من المجتهدين ، فيقلده في دينه ، يأخذ كل ما يقرر دون غيره .

قال ابن أمير حاج في «شرح على التحرير» للكمال بن الهمام في هذا الصدد ما يلي - ثم في «أصول ابن مفلح» : ذكر بعض أصحابنا (يعني الحنابلة والمالكية والشافعية) هل يلزمه التمسك بمذهب والأخذ برخصه وعزائمه؟ فيه وجهان ، أشهرهما : لا ، كجمهور العلماء فيتخير .

ونقل عن بعض الحنابلة أنه قال : وفي لزوم الأخذ برخصه وعزائمه طاعة غير النبي ﷺ في أمره ، وهو خلاف الإجماع ، وتوقف في جوازه .

وقال أيضًا : إن خالفه في زيادة علم أو تقوى فقد أحسن ، ولم يقدر في عدالته بلا نزاع ، بل يجب في هذه الحالة وأنه نص أحمد .

ثم قال ابن أمير حاج بعد نقل هذا : وقد انطوت القرون الفاضلة على عدم القول بذلك (يعني الالتزام بمذهب معين) ، بل لا يصح للعامي مذهب ، ولو تمذهب به ؛ لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال وبصر بالمذهب على حسبه أو لمن قرأ كتابًا في فروع ذلك المذهب وعرف

فتاوى إمامه وأقواله ، وأما من لم يتأهل لذلك البتة ، بل قال : أنا حنفي أو شافعي وغير ذلك؟ لم يصر كذلك بمجرد القول ، كما لو قال : أنا فقيه أو نحوي أو كاتب لم يصر كذلك بمجرد قوله يوضحه أن قائله يزعم أنه متبع لذلك الإمام ، سالك طريقه في العلم والمعرفة والاستدلال ، فأما مع جهله وبعده جدًا عن سيرة إمامه وعلمه بطريقه ، فكيف يصح الانتساب إليه إلا بالدعوة المجردة والقول الفارغ عن المعنى .

العامي لا مذهب له :

من هنا اشتهر قول العلماء : العامي لا مذهب له ، وأن مذهبه مذهب مفتيه ، ولعلي أختتم هذه الكلمة بما قاله العز بن عبد السلام في كتابه «قواعد الأحكام» ، قال : «وكذلك لا حكم إلا له (الله تعالى) ، فأحكامه مستفادة من الكتاب والسنة والإجماع والأقيسة الصحيحة والاستدلالات المعتبرة ، فليس لأحد أن يستحسن ولا أن يستعمل مصلحة مرسله ، ولا أن يقلد أحدًا لم يؤمر بتقليده كالمجتهد في تقليد المجتهد أو في تقليد الصحابة ، وفي هذه المسائل اختلاف بين العلماء ، ويرد على من خالف في ذلك قوله تعالى : ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف : ٤٠] ، ويستثنى من ذلك العامة ، فإن وظيفتهم التقليد ؛ لعجزهم عن التوصل إلى معرفة الأحكام بالاجتهاد ، بخلاف المجتهد ، فإنه قادر على النظر المؤدي إلى الحكم .

ما الحكم فيمن قلد إمامًا وأراد تقليد آخر؟

من قلد إمامًا من الأئمة ، ثم أراد تقليد غيره ، فهل له ذلك؟ فيه خلاف ، والمختار التفصيل ، فإن كان المذهب الذي أراد الانتقال إليه مما ينقض فيه الحكم ، فليس له الانتقال إلى حكم يجب نقضه ، فإنه لم يجب نقضه إلا

لبطلانه ، فإن كان المأخذان متقاربين جاز التقليد والانتقال ؛ لأن الناس لم يزالوا من زمن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب الأربعة يقلدون من اتفق من العلماء من غير نكير من أحد يعتبر إنكاره ، ولو كان ذلك باطلاً لأنكروه ، وكذلك لا يجب تقليد الأفضل وإن كان هو الأولى ؛ لأنه لو وجب تقليده لما قلد الناس الفاضل والمفضول في زمن الصحابة والتابعين من غير نكير ، بل كانوا مسترسلين في تقليد الفاضل والأفضل ، ولم يكن الأفضل يدعو الكل إلى تقليد نفسه ، ولا المفضول يمنع من سألته عند وجود الفاضل ، وهذا مما لا يرتاب فيه عاقل .

العصبية البغيضة للمذهب:

من العجب العجيب أن يقف أحد الفقهاء المقلدين على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لدفعه مدفعاً ، ومع هذا يقلده فيه ، ويترك الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه ، جهوداً على تقليد إمامه ، بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتناولهما بالتأولات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده .

إلى أن قال الشيخ العز بن عبد السلام في ذات الموضع : وما رأيت أحداً رجع عن مذهب إمامه إذا ظهر له الحق في غيره ، بل يصر عليه مع علمه بضعفه وبعده . ثم ختم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا البحث ، بقوله : وفقنا الله لاتباع الحق أين ما كان ، وعلى لسان من ظهر ، وأين هذا من مناظرة السلف ومشاورتهم في الأحكام ومسارعتهم إلى اتباع الحق إذا ظهر على لسان الخصم ، وقد نقل عن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أنه قال : ما ناظرت أحداً إلا قلت : اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه ، فإن كان الحق معي اتبعني ، وإن كان الحق معه اتبعته . اهـ .

هذا وقد اتفق علماء أصول الفقه على أن الرجوع عن التقليد لإبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر غير جائز؛ لأن إمضاء الفعل كإمضاء القاضي لا ينقض، وقد تحدث عن هذا الأمدى في كتابه «الأحكام»، وصاحب «مسلم الثبوت» و«جمع الجوامع» و«شرح» للجلال المحلي، والكمال بن الهمام في كتابه «التحريض».

بضاعة أمتنا أفضل بضاعة ولكن لن يفقه!!

إن تيارات كثيرة في عالمنا الإسلامي اليوم متضاربة، وهي في مجملها لم تمارس فقه المسلمين وأصوله الذي حرر وأصل من مئات السنين واستفادت به ومنه أُمم أخرى، ولعل هذا البلد المبارك الذي كان معبراً انتقلت عنه الثقافة الإسلامية بمعناها الأعم، ومنها ما يتصل بالشرعية والتشريع إلى أوروبا، فاستنارت بها وتفاعلت معها واتخذت منها ما رآته مناسباً لبيئتها، ثم خلف من بعد أولئك الأئمة الفوارس خلف استباحوا لأنفسهم أن يهجروا تراثهم، وأن يستوردوا من أولئك وغيرهم أثواباً نسجوها، فما سترت لهم أجساداً، وما أقامت لهم عماداً، وها هم بالرغم من تراثهم المادي، وتقدمهم في العلوم المادية والأدوات يتلهفون على تفهم هذه الشريعة وينقلون فقهها ويعقدون له الدراسات، ويتسابقون في إقامة الندوات يدعون إليها علماء المسلمين؛ ليأخذوا عنهم حقائق علوم الشريعة وصحيح قواعد الفقهاء التي انبهروا بها واعتمدوا عليها، فاتخذوها لهم سنداً وبضاعة، ثم عادوا أو يعودون ليعرضوها علينا، وكأنها بضاعتهم، ونحن من فرط فراغ قلوبنا عن الممارسة الحقة لعلوم شريعتنا نبهر بدراساتهم ونظرياتهم التي أصلوها نلوي بها ألسنتنا وما حسبنا أن هذه بضاعتنا ردت إلينا؛ ذلك لأننا قد أنسينا أصولنا

وأعرضنا عن فقها، فلتنشط مجامعنا، ولتأخذ المبادرة إلى نفض الغبار الذي تراكم على تراثنا المدفون في خزائن الكتب، نتباهى به أو بحيازته دون أن نفض مغاليقها، ونورثه لأولادنا وأجيالنا نقيًا مجلّوًا كبضاعة غني بها تاجرها، يُعرضها بهجة للناظرين ومتعة للمشتريين الفاهقين.

الخلاصة:

إن أهل الذكر الذين حث القرآن الكريم على التوجه إليهم بالسؤال والاستفتاء يتنوعون بحسب ما فقهوا من علم، ولقد كان الحديث في هذه الكلمة التي راعيت أن أبين فيها مجمل شرائط أهل الذكر الذين قد أسند الله إليهم استنباط الأحكام الشرعية على تنوعها حتى تتضح سماتهم، وحتى ينصرف عن غيرهم أولئك الذين يصلون فيما لا يفقهون، ويجولون فيما لا يحسنون، ويتقولون على شرع الله المتمثل في كتابه وسنة رسوله ﷺ بما لا يعرفون.

أما باقي مباحث الاجتهاد والتقليد والتلفيق، فلا يتسع الوقت لاستيعابها، بل ربما ولا إلى إيجازها.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفُ رُحْمَنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وصلّى الله على خاتم رسله محمد وسلم تسليمًا كثيرًا، وعلى آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين.

وسلام على إخوته من المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الثالثة بعد المائتين

الطفل في الإسلام

انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۚ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] .

في ظلال الآية الكريمة ومعانيها :

معنى قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يختص به تعالى ملك السموات والأرض والتصرف فيهما ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، يخلق ما يشاء مما تعلمون ومما لا تعلمون ، وهذه المقدمة التوحيدية في هذه الآية ، هدفها تمهيد النفوس للتسليم بقدرته الله تعالى ، وأن الأمور كلها بيده ، والرضا بجميع ما أعطى ، سواء كان ذكراً أو أنثى ، وسواء كان قليلاً أو كثيراً ، هذه المقدمة تمهد النفوس والقلوب وتطمئننها لقبول ما يعطي الله تعالى .

في ظلال لفظ «الهبة» :

﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ ، استعمل الله لفظ الهبة ؛ للإشعار بأن المواليد والأولاد سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً ، إنما هم هبة من الله تعالى وتفضل منه وعطاء بدون عوض ، وأن من سوء الأدب من طرف الإنسان أن يرد ما أعطاه الله ، أو أن يستنكف منه أو أن يشمئز ، فما دامت هبة فهي مقبولة بكامل الرضا .

التقديم والتأخير للفظ الإناث والذكور:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ، قدم الله تعالى الإناث على الذكور في هذه الآيات ؛ لأسباب : إما لتطيب خاطر آبائهن ، وعادة الإنسان أن يفضل الذكر على الأنثى ، فإذا رزقه الله أنثى طيب خاطره بتقديم ذكرها في هذه الآية : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ، إذن وقع التقديم ، إما لتطيب خاطر الآباء ، وإما لكثرة النساء على الرجال ، وإما لضعف الأنثى وحاجتها إلى إشعارها بعناية الله بها ، وذلك لتزيد طاعتها ويزيد إقبالها على الله تعالى ، وإما لتطيب خاطر النساء أنفسهن ، ورفع كل ما يمكن أن يشعرن به من النقص ، فلما قدم الله تعالى الإناث على الذكور هنا ، قام بجبر ذلك ، وجبر خاطر الذكور ، فذكرهم معرفين بأل العهدية ، قال : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ تطييباً كذلك لخاطر الذكور ، ثم ذكرهم مقدمين فيما بعد ، فقال : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] ، فقدم الذكران على الإناث ، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾ ، أي يجمع لمن يشاء الذكور والإناث بقدرته تعالى وبمشيئته .

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ ، والعقم : هو انقطاع الولد ، ويقال امرأة عقيم ، ورجل عقيم ، ونساء عقم ، ومنه قول الشاعر :

عقم النساء فما يلدن مثيله إن النساء بمثله عقم

هذا في مدح الممدوح :

عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ، أي عليم بمصالحكم أيها العباد ، فيعطي لكل واحد حسبما يرى له فيه مصلحة ، قدير : يقدر الأمور حسب علمه ، وحسب مصالح عباد ، وحسب ما يليق بتصرفه في ملكه .

هذا باختصار ما ورد في تفسير هذه الآية الكريمة ، وسأكتفي به لأنقل إلى بيان جانب مهم من جوانب الشريعة الإسلامية ، وهو جانب التشريع الخاص بالأبناء وبالأطفال ، وسنلاحظ أن الشريعة الإسلامية وفرت للطفل مدونة كاملة ودقيقة وشاملة ، تغطي جميع مراحل حياته ، وجميع أطوار طفولته ، وتضع ضمانات تحمي حقوقه في الأحوال العادية ، وفي الأحوال غير العادية ، وفي جميع الظروف .

اهتمام الإسلام بالطفل نطفة :

لقد الإسلام اهتم بالطفل منذ أن كان نطفة في صلب أبيه ، فقال الرسول ﷺ : «تخيروا لنطفكم ، فإن العرق دساس»^(١) ، وأمر الرسول ﷺ بأن نختار لأمهات أولادنا النساء الغريبات عن أُسْرنا حرصاً على قوة النسل ، فقال ﷺ : «اغتربوا لا ترضوا» ، أي حتى لا تضعفوا ، تزوجوا الغريبات ولا تتزوجوا القريبات حتى لا يتطرق من ذلك ضعف إلى نسلكم ، وهذا من قول الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة ليضوى وقد يضوى سليل الأقارب
يصفه بالقوة والصلابة .

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢ / ٤٢) : «رواه ابن ماجه (١٩٦٨) من حديث عائشة مختصراً دون قوله : «فإن العرق» ، وروى أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس : «تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس» . . .» .

تحريم الشرع الكريم للزنا :

حرم الشرع الكريم الزنا ؛ حتى لا تتطرق الأمراض التناسلية إلى الجنين وتضرّ به ، وحمل الجنين في بطن أمه ، فممنع إسقاطه وإجهاضه .

فمما روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن امرأتين من هذيل تخاصمتا ، فرمت إحداهما الأخرى ، فأسقطت جنينها ، فقصى فيه الرسول ﷺ بغرة عبد أو أمة .

إباحة الإفطار في رمضان للحامل :

إن عناية الشريعة الإسلامية بالجنين امتدت حتى اشملت آفاقاً أخرى ، فأباحَت للمرأة الحامل الإفطار في رمضان ؛ رفقاً بجنينها ، وحتى لا يتضرر بالصيام ، ومنعت إقامة الحد عليها إلى أن تضع جنينها رحمة بها ورحمة بذلك الجنين وحماية له ، كما أن الشريعة الإسلامية قررت للمرأة الحامل نفقتها وبقاءها في مسكن الزوجية إلى أن تضع حملها ، وحتى لا تشرد الزوجة الحامل بعد الطلاق أو الوفاة ، فيصاب الحمل بضرر .

حقوق الطفل بعد الولادة :

إن الشريعة الإسلامية اعتنت بهذا الجنين عندما يخرج إلى الدنيا وأبرمت له أحكاماً تظهر مدى العناية به في أبسط الجزئيات وأدقها .

الأذان والإقامة :

شرع لنا الأذان في أذن المولود اليمنى والإقامة في أذنه اليسرى حتى يكون اسم الله تعالى أول ما يقع على هذا الطفل .

التحنيك والعقيقة:

يَحْتَكُ الطفل بتمرّة وتذبح له العقيقة في سابعه ، والعقيقة مأخوذة من الشعر الذي يكون فوق الرأس ؛ لأنه في يوم السابع تذبح العقيقة ويحلق رأس الصبي ، وتُسمى تلك الذبيحة التي ذبحت بمناسبة خلق ذلك الشعر الذي هو العقيقة عقيقة .

التسمية بالاسم الحسن:

يسمى الطفل ، والاسم من حق الأبوين ، لكن إذا تنازعا فهو من حق الوالد ؛ لأنه هو الذي يذبح العقيقة ، وهو الذي تقع عليه نفقة الولد ، ومن حق هذا الولد على أبيه شرعاً أن يتخير له الاسم الحسن ، فقد كان النبي ﷺ يقول : «إذا أبردتُم إليّ بريدًا فأبردوه حسن الاسم حسن الوجه»^(١) ، ويروى عنه ﷺ : «أنه أمر بحلب ناقة ، فقام رجل ليحلبها ، فقال له النبي ﷺ : ما اسمك؟ قال : مُرّة ، قال : اقعد ، ثم قام رجل آخر ليحلبها ، فقال : ما اسمك؟ قال : جمرّة ، قال : اقعد ، ثم قام ثالث ليحلبها ، فقال له : ما اسمك؟ قال : يعيش ، قال : احلبها»^(٢) .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب ، وهذه الرواية رواها سيدنا نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : أن سيدنا عمر كانت له بنت تسمى عاصية ، فسماها رسول الله ﷺ جميلة ، وهكذا شرع لنا الإسلام العناية حتى باسم الطفل ، واختيار أحسن الأسماء له .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦ / ٤٧٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٢٧٧) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ٩٣) : «إسناده حسن» .

الاهتمام بنسب الطفل:

تأتي قضية النسب ، والطفل بطبيعة الحال إما أن يكون معلوم النسب ، وإما أن يكون مجهول النسب .

ومجهول النسب هذا هو ما يعبر عنه باللقيط ، هذا الطفل اللقيط الذي لا يعرف له أب ولا أم لم تحرمه الشريعة من عنايتها ورعايتها ، فعاملته نفس المعاملة التي يعامل بها معلوم النسب ، ووفرت له جميع الضمانات للعيش الكريم .

نفقة اللقيط:

قررت الشريعة الإسلامية أن اللقيط يكون لمن التقطه ، وتلزمه نفقته إذا كان قادرًا عليها ، فإن لم يكن قادرًا عليها ، فنفقة هذا اللقيط في بيت مال المسلمين .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه رجل قد التقط لقيطاً ، فقال له : خذه ، لك ولاؤه ، وعليك نفقته ، وهذا الشخص الذي يلتقط اللقيط ويكون له ، لا ينسبه إلى نفسه ولا يدعيه ولا يتبناه ؛ لأن التبني ممنوع في الشريعة ، وإنما تكون له الولاية عليه ، والولاية إما ولاية على النفس ، وإما ولاية على المال ، وهكذا الشخص يباشر على هذا الطفل هذه الولاية بشقيها ، ويبقى عنده إلى أن يتنازل عنه ، فيضم إلى ملجأ من ملاجئ الأيتام ، وينفق عليه من بيت مال المسلمين ، أو تحتل الشروط الواجبة في الملتقط كأن يرتد عن الإسلام فلا يصبح صالحاً لولاية هذا الطفل ، أو تظهر على أخلاقه ما نخشى منه على مستقبل هذا الطفل ، فنتزعه منه شرعاً ، ونعهد به إلى من نطمئن على الطفل عنده .

دين اللقيط:

هذا الطفل اللقيط إذا التقط في دار الإسلام فهو مسلم ولو التقطه نصراني، وإذا التقط في دار الكفر، فإذا التقطه مسلم فهو مسلم، وإن التقطه غير مسلم فهو غير مسلم.

هذه الشريعة الإسلامية اهتمت بهذه المسألة أيضًا؛ لأن إسلام الطفل تترتب عليه أمور كثيرة.

تعليم اللقيط وتهذيبه:

هذا الطفل اللقيط واجب على من التقطه تعليمه وتهذيبه، وتعليمه صنعة أو حرفة يصبح معها عضوًا نافعًا، صالحًا في المجتمع.

الطفل مجهول الوالد أو ابن الزنا:

الطفل كما يكون مجهول الأبوين يكون مجهول الأب، وكذلك قد يكون معلوم الأبوين ولكنه ولد بطريقة غير شرعية، هذا النوع من الأطفال بشقيه: الشق المجهول الأب والمعلوم الأم، والشق المعلوم الأبوين، والمولود بولادة غير شرعية، أيضًا لم تهمله الشريعة واعتنت به عناية كبيرة، فإذا كان الطفل مجهول الأب معلوم الأم، فحقوقه مترتبة في ذمة أمه، عليها نفقته وحضنته وتربيته والعناية به، ويتوارث معها ويكون أحواله أوليائه ولاية النفس وولاية المال، فإن لم يكن له أحوال يقومون بواجب الولاية، فالقاضي ولي من لا ولي له، ففي جميع الأحوال لا نجد فرصة تضيع فيها حقوق الطفل في حضن الشريعة الإسلامية، كذلك الطفل المعلوم الأبوين والمولود بطريقة غير شرعية، وهو ابن الزنا

والذي وقعت ولادته بأي طريقة أخرى من الطرق غير الشرعية على حسب ما سنبينه ، هذا الطفل أيضًا إذا كان لا يرث أباه ولا يرثه ولا ينسب إليه ، ولا تقع على هذا الأب غير الشرعي نفقة ، ولا شيء من الحقوق ، فإنه بالنسبة للأم عكس ذلك ، فأمه هي التي ينسب إليها ، وهي المكلفة بنفقته وحضانه وولايته ، فإذا الشريعة الإسلامية كما اعتنت بالطفل المعلوم النسب ومتعته بجميع الحقوق والضمانات ، كذلك اعتنت بالطفل مجهول النسب واعتنت بالطفل مجهول الأب معلوم الأم ، واعتنت بالطفل معلوم الأبوين ، والمنحدر من طريقة غير شرعية .

الفجوة بين الشريعة والقانون :

مما سبق نلاحظ أنه في الحياة العملية ورغم وجود تشريع مضبوط ومتقن ومنسجم مع مبادئ الشريعة الإسلامية وأحكامها ، وقائم على نصوص شرعية ثابتة ، وهو القانون الجاري به العمل فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ، وما يتعلق بالخصوص بموضوعنا الذي هو موضوع الطفل ، رغم وجود قانون من هذا النوع في أعلى مستويات الجودة والإتقان ، فإنه تبقى فجوة بين صرامة القانون وسماحة الشريعة ، وخلال هذه الفجوة يمكن أن تضيع حقوق كثير من الأطفال ، وهذا شيء طبيعي .

أمثلة على البون بين الشريعة والقانون :

شيء طبيعي أن تقع هذه الفجوة بين القانون وبين الشريعة ؛ لأن هذا القانون المعمول به ما هو إلا جزء من الشريعة ، والشريعة كل ، وما هو إلا قبسٌ منها ، وهي ذلك المصباح الكبير الذي يشع بأنواره في جميع الاتجاهات وكيفما كانت الأحوال والظروف ، وسأعطي أمثلة لبيان هذا الأمر .

المثال الأول: الشهود في عقد النكاح:

أخُذْ كمثال ، ما نص عليه القانون من كون عقد الزواج يشترط في صحته حضور شاهدين عدلين سامعين للإيجاب والقبول . . . إلخ .

حضور الشاهدين العدلين أثناء العقد حسب القانون ، شرط صحة في العقد بحيث إذا لم يبرم العقد أمام العدول ، فالزوجة غير قائمة ، نعم نص القانون على أحوال استثنائية يمكن فيها قبول إثبات الزوجة بواسطة الشهود ، وهذه الأحوال الاستثنائية تنصب على عقود الزواج التي أبرمت قبل تاريخ صدور القانون ، وتنصب كذلك على الأحوال التي تبرم فيها عقود الزواج في مناطق بعيدة عن المراكز التي يوجد فيها العدول ، ولكن خارج هذا الاستثناء لا يمكن قبول ثبوت الزوجة ، ونص القانون على أن القاضي ملزم إذا أخذ بثبوت الزوجة ، بأن يبين ظروف الاستثناء التي دفعتة إلى قبول ذلك ، والعدول عن العقد إلى الليف .

الزواج بدون عقد إشهاد:

إذا كان الأمر كذلك ، وكلنا نعلم أن أسلافنا كانوا يبرمون الزواج بالفاتحة والوليمة ، ودون عقد إشهاد ، واستمر العمل في بعض الأسر على هذا النحو ، وبالأخص في بعض البوادي التي يبرم فيها الزواج بواسطة الفاتحة والوليمة ، ووجدنا حالة من هذا النوع ، فإن العدول إذا قاموا بإثبات الزوجة بواسطة الشهود ، فإن القاضي لن يقبل ذلك ؛ لأن هذه الواقعة وقعت بعد تاريخ القانون ، وكذلك في أماكن يوجد فيها العدول ولا يوجد أي مانع من إبرام العقد أمام العدول ، فيتعذر على الزوجة إثبات الزوجة ، وتظهر شدة المشكل عندما يتناكر الزوجان ، ويكون

بينهم أولاد، القانون واضح، والزوجة لا تستطيع أن تثبت الزوجية؛ لأنها ليس لها عقد، والمحكمة لم تأخذ بثبوت الزوجية؛ لأن ظروف الاستثناء غير متوفرة، بينما إذا نظرنا إلى الشريعة الإسلامية نجد لها تعالج هذا المشكل بمطلق السحاحة.

الإشهاد على الزواج في المذهب المالكي:

في المذهب المالكي أن الإشهاد ليس شرطاً من شروط الزواج، وأنه يمكن تعاقد دون إشهاد، ولكن عند الدخول تقام الوليمة للإشهاد على الدخول، وهذا يكفي، ومما يروى قال أبو الوليد الباجي في كتابه «المنتقى»: إن مما يشهد على صحة قول المالكية في هذا الباب ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أقام بين خيبر والمدينة ثلاثاً، ثلاث ليال وبيننا عليه بصفية بنت حيي بن أخطب، وكان الناس وأولم وليمة، وأكلنا من الوليمة، وأخذ الناس يقولون: إنها من أمهات المؤمنين، وبعضهم قال: إنها من ملك يمينه (مما ملكت يمينه)، ثم قالوا: إذا حجبها عن الناس، فهي من أمهات المؤمنين، وإذا لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما خرج النبي ﷺ وطأ لها خلفه وأسدل عليها الحجاب، فعلم الناس أنها من أمهات المؤمنين، قال أبو الوليد الباجي: لو كان النبي ﷺ أشهد على زواجه بصفية لما تردد الناس، ولما انتظروا أن يعرفوا هل هي من أمهات المؤمنين أم هي مما ملكت يمينه، فهذا فيه دليل على أن هذا الزواج الذي قام به النبي ﷺ كان بدون إشهاد، وهو الأمر المقرر في المذهب المالكي.

الأحوال الشخصية إذا كانت تقرر ما ذكرناه فيما سبق، فهي تتلافى هذا

الأمر في آخر كل باب من أبوابها ، فتنص على أنه كل ما لم يقع النص عليه في هذا القانون يرجع فيه إلى الراجح أو المشهور ، وإنما ينبغي التطبيق تطبيقاً سليماً بمراعاة المبادئ العامة للشريعة ومراعاة جميع الأقوال الواردة في الفقه الإسلامي .

مثال آخر: الزواج بغير ولي:

أعطي مثلاً آخر : وهو مثال الزواج بدون ولي ، فالولي شرط صحة في النكاح في لائحة الأحوال الشخصية ؛ لقول النبي ﷺ : « لا نكاح إلا بولي ، وشاهدي عدل »^(١) ، وإذا كان ذلك مقررًا ، فإنه من المعلوم أن العدول لن يكتبوا عقد زواج بدون ولي ، وكذلك حتى إذا التجأنا إلى إقامة ثبوت الزوجية لن يسمحوا لنا بإقامة ثبوت الزوجية إذا علموا أن هذا الزواج كان قد تم بدون ولي ، فتبقى المرأة الأم لا حجة لديها لإثبات الزوجية ، وإذا لم تثبت الزوجية ، فإنه لا حجة لها لإثبات حقوق أبنائها مع وجود روايتين في هذا الموضوع .

رواية أشهب : وهي أن الولي شرط صحة في النكاح ، وإذا وقع النكاح بدون ولي فهو باطل .

ورواية ابن القاسم : وهي أن الولي شرط تمام فقط ، وأنه سنة لا فرض ، فإذا في الفقه المالكي سعة وبحبوحه وإمكانات واسعة لإيجاد الحلول ، فلا ينبغي أبداً وبأي حال من الأحوال أن نعرض عن هذه الأم التي جاءت تطالب بحقوق أبنائها .

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٠٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

حق الطفل الناتج عن زواج فاسد:

في أقصى الأحوال ، وحتى إذا قلنا بأنه لا يمكن عقد الزواج بغير ولي ؛ لأن الولي شرط صحة في النكاح ، ولم نذهب مع الرواية الثانية التي هي رواية ابن القاسم ، أقصى ما هناك أن يكون هذا النكاح فاسداً ، والنكاح الفاسد إما أن يكون فاسداً لعقده ، وإما أن يكون فاسداً لصدقه ، وفي جميع الأحوال يثبت فيه النسب بفسخ النكاح ، ويثبت نسب الولد ، وهذا أيضاً من المبادئ المهمة التي قررتها الشريعة لحماية حقوق الأولاد ؛ لأنه حتى في حالة الزواج الفاسد لا تضيع حقوق الأولاد ، بل يفسخ الزواج وينسب ذلك الابن إلى والده ، وإذا قلنا بأنه ينسب إليه ، فمعنى ذلك أننا صَمَمْنَا له جميع حقوقه .

لكن فرق بين السماء والأرض ، وبين هذه المرأة وبين أن تصل إلى هذا الحكم ، لن تصل إليه ؛ لأن أحداً لن يسمع منها إقامة ثبوت الزوجية إذا كان الأمر يتعلق بزواج لا ولي له ، فتضيع الحقوق ليس بسبب خطأ في القانون ولا نقص أبداً ، ولكن إذا وقع سوء تطبيق هذه النصوص ، فإننا نصل إلى أحوال تضيع فيها حقوق الأولاد ضياعاً خطيراً ، ومثل ما قلناه عن المثال الأول والمثال الثاني ، نقوله فيما يتعلق بصور أخرى من صور النكاح الفاسد كالنكاح في أثناء العدة ، ونكاح المحرمة بالصهر ، ونكاح المرأة التي زواجها فاسد لصدقه ، كالشخص الذي يصدق زوجته مالاً حراماً أو خمرًا أو خنزيرًا أو ما إلى ذلك من الأمور ، هذه كلها أقصى ما هناك أن يفسخ العقد ، وينسب الطفل إلى والده .

من هذه النظرة السريعة تتبين عناية الشريعة الإسلامية بالطفل في أخرج الظروف والأحوال ، وفي الأوقات التي يكون الطفل فيها أحوج ما

يكون إلى من يمد له يد العون والمساعدة والدعم ، وهنا تتبين الحقيقة سماحة الشريعة الإسلامية ويسرها .

التلقيح الصناعي وأثره على حقوق الطفل :

كما تضيع حقوق الأولاد لأسباب راجعة إلى ما ذكرنا ، تضيع حقوق الأولاد أيضًا لأسباب صناعية ، ونقصد هنا أنه في السنين الأخيرة أخذ يظهر نوع جديد من الأبناء ، ناتج عن التلقيح الاصطناعي أو ما يعرف بأطفال الأنابيب ، وهذا النوع لا بد أن نهتم به ، وأن نبحت في الشريعة الإسلامية عن أحكامه حتى لا نفاجأ بوقوع حالات يستعصي علينا حلها ، ولا نجد للأبناء المنحدرين منها الحلول إلا بعد فوات الأوان .

وهذا التلقيح الاصطناعي يمكن أن يسمى بجميع صورته بالتخليق ؛ لأن الخلق هو بيد الله تعالى ، وهو القادر عليه وحده ؛ لأنه هو وحده الموجد لمادته الأولى والمخرج لها من العدم ، أما التخليق فلا يتعدى معالجة المادة الأولية معالجة تؤدي إلى إظهار ما فيها من الخلق .

وقد عرف علماء الإسلام هذا التخليق وبحثوه من الناحية النظرية ، ولكنهم لم يتابعوه من الناحية التطبيقية إلى أن يصلوا به إلى ما وصل به الغرب اليوم .

إشارة العلماء إلى التلقيح الصناعي في كتبهم :

إذا رجعنا إلى مقدمة عبدالرحمن بن خلدون نجد أنه ذكر عملية التلقيح الاصطناعي وعملية التخليق في «مقدمته» بصورة واضحة ، وذلك عندما كان يتحدث عن الكيمياء ، فقال : إذا سلمنا لمن يشتغل بالكيمياء قدرته

على صنع الذهب من الحديد ، فإننا سنسلم للإنسان قدرته على تخليق الإنسان من الماء الذي يخلق به ، وهذا -قال ابن خلدون- لا يتسنى له إلا إذا كان محيطاً بجميع أجزائه وأطواره ونسبته وتركيب ذلك ، وعلم ذلك كله علمًا لا يعزب عنه فيه أي جزئية من جزئياته ، وأنى له ذلك؟! وقف هنا ابن خلدون ، وهذه إشارة كافية للدليل على أن علماء الإسلام بحثوا هذا الموضوع .

العلم الحديث وظهور النماذج الأولى للعملية :

جاء العلم الحديث وتم في بريطانيا سنة ١٩٧٧م تلقيح ، يعني إنتاج لقيحة من الرجل والمرأة داخل أنبوب ثم إرجاعها إلى رحم الأم ، وولدت بعد ذلك الطفلة التي اشتهرت باسم طفلة الأنبوب ، كما أنه انتزع جنين من رحم أمه عمره خمس سنوات واحتفظ به في أنبوب اصطناعي ، ثم وضع في رحم امرأة أخرى ، وولدت تلك المرأة وتتابع عمليات هذا النوع من التخليق ، واستمرت حتى نتج عنها ما يسمى ببنك ماء الإخصاب ، ونتج عنها كذلك ما يسمى بتلقيح أو زرع المبيض أو زرع الرحم ، ونتج عنها كذلك ما يسمى بالحمل بعد الوفاة ، وما إلى ذلك من العمليات .

فتاوى علماء الإسلام في المسألة :

علماء الشريعة الإسلامية منذ أن بدءوا يتسامعون بأخبار هذا الفن الجديد ، أخذوا يفكرون بجد في موقف الشريعة من هذا الأمر ، وأصدروا فتاوى ، وعرضت القضية على مجمع الفقه الإسلامي بمكة المكرمة ، وأصدر فيها قرارات ، ملخص هذا كله أن التلقيح الاصطناعي له أسلوبان .

أساليب التلقيح الصناعي وصوره:

الأسلوب الأول : التلقيح الاصطناعي الداخلي : وله صورتان :
الصورة الأولى : أن يكون الطرف الثاني زوجًا للمرأة ، فيقع تلقيحها داخل رحمها من ماء زوجها .

والصورة الثانية : أن يكون الطرف الثاني أجنبيًا عن المرأة .
وقررت هذه الفتاوى والقرارات أن الابن في الصورة الأولى يكون شرعيًا ؛
لأن عملية التلقيح تمت بين الزوجين فقط ، وهي عملية داخلية في الرحم .
وأما في الصورة الثانية فالولد فيها غير شرعي ، ولا ينسب إلى ذلك
الأب ، ولا يترتب له أي حقوق من الحقوق الشرعية ، وإنما ينسب إلى
المرأة التي ولدته .

والأسلوب الثاني : التلقيح الصناعي الخارجي :

هذا التلقيح : هو الذي يتم فيه التلقيح خارج الرحم داخل أنبوب أو
طبق اصطناعي ، وتبقى هذه اللقيحة في هذه الأنبة إلى أن تتكاثر وتنقسم ،
وتصل إلى حد معين وأجل مضبوط ، ثم بعد ذلك تزرع في رحم الزوجة
أو في رحم امرأة أخرى ، وله خمس صور :

الصورة الأولى : أن تؤخذ اللقيحة من الزوجين ، وعندما تنمو وتنقسم
وتتكاثر تزرع في رحم الزوجة نفسها ، وقرر العلماء أن الولد في هذه
الصورة : شرعي وبنوته شرعية .

الصورة الثانية : أن تؤخذ اللقيحة من الزوجين ، ثم تزرع في رحم
الزوجة الثانية ؛ لذلك الزوج في حالة تعدد الزوجات ، أي ضررتها تنوب

عنها في الحمل ، هذه الحالة قال العلماء أيضًا : إن الولد شرعي ، وينسب إلى ذلك الأب ؛ لأنه ليس هناك طرف أجنبي .

والصورة الثالثة : أن تؤخذ اللقيحة من الزوجين وتزرع في رحم امرأة أجنبية متزوجة بالغير ، هذه الحالة قرر العلماء : أن الولد فيها غير شرعي ولا ينسب إلى ذلك الأب .

الصورة الرابعة : أن تؤخذ اللقيحة من شخصين أجنبيين وتزرع في رحم الزوجة نفسها ، هذا الولد أيضًا في هذه الحالة غير شرعي .

والصورة الخامسة : هي أن تؤخذ اللقيحة من شخص أجنبي وامرأة أجنبية ، وتزرع في امرأة أخرى تتطوع بالحمل أو تؤجر رحمها ، وهذه الحالة أيضًا تكون فيها البنية غير شرعية .

قصور المحاولة من عدة جوانب :

هذا ملخص هذه الفتاوى والقرارات التي عالج بها العلماء هذا المشكل ، وهي معالجة جدية وبذلوا فيها - جزاهم الله خيرًا - كامل الجهد ، ولكن نرى أنها محاولة غير كاملة ، ويتطرق إليها القصور من عدة جوانب :

الجانب الأول : هو أن هذه المحاولة انصرفت إلى تتبع الصور وتفرعاتها وتنزيل الحكم على كل صورة صورة ، وإذا كانت الصور لا تنتهي وتفرعاتها لا تحد ، فإننا لن نستطيع متابعة كل الصور وكل الحالات وكل النوازل لنجد لكل حالة ولكل صورة حكمًا ، كان الأولى بهم والأجدر أن يتجهوا إلى تعقيد قاعدة تدرج تحتها الصور والحالات والنوازل المختلفة ، فكان من الواجب رسم المبادئ وتحديد القواعد التي تدرج فيها هذه الصور بدلًا من تنزيل الحكم على كل صورة على حدة .

ثانيًا: هذا الولد لا ينفيه أبوه عنه . الزوجية قائمة ، والأب لا ينفي هذا الولد عنه ، ومعلوم أن الحالة الوحيدة التي يمكن فيها قطع الصلة بين الولد ووالده وعدم نسبته إليه هي حالة اتهامه لزوجته ، هذا الرجل لا يتهم زوجته بشيء وينسب الولد لنفسه والزوجية قائمة ، فمن الصعب انتزاع الولد منه وعدم نسبته إليه ، ثم إن هذه الفتاوى والقرارات حكمت بكون البتوة غير شرعية وسكتت عن مصير الزوجية .

بما أننا قلنا : إن البتوة غير شرعية ، فمعناه أنه تم عمل غير شرعي ، هذا العمل غير الشرعي في مستوى الزنا أو يؤدي إلى فسخ ما بين الزوجين والتفريق بينهما ، كان هذا واجبًا إذا حكمنا بأن عملية التلقيح من قبيل الزنا ، كان من الواجب فسخ الرابطة التي تربط بين الزوجين واستبراء الزوجة وما إلى ذلك من الأمور ، سكتت هذه القرارات عن ذلك ، وكأنها أحست بأن التلقيح الاصطناعي وإن كان فيه عنصر أجنبي لا يصل إلى حد أن يفرق بسببه بين الزوجين ، وأن يتم استبراء الزوجة وأن يترتب عليه كل ما يترتب على الزنا .

وإذا حافظت هذه الفتاوى والقرارات على مصير الزوجية ودوامها واستمرارها ، فلماذا لم تحافظ على بقاء الطفل في حضن هذه الزوجية؟

القضية في الواقع في غاية الإشكال ، والذي نريد أن نخرج به في هذه المناقشة لهذه القرارات والتوصيات هو أن الأمر ما زال في حاجة إلى الدراسة ، وما زال في حاجة إلى التأمي .

مثال واقعي :

سأعطي مثلاً يقنعنا بأن الأمر في الواقع ما زال في حاجة إلى الدراسة والبحث والتمحيص ، وأن هذه القرارات والفتاوى المشار إليها سابقاً غير كافية ، هذا المثال الذي أعطيه هو قاعدة من أهم قواعد الشريعة الإسلامية ، وفي هذا الميدان بالخصوص ، وهي قاعدة : الولد للفراش ، وهذه القاعدة مأخوذة من قول النبي ﷺ : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر »^(١) ، ومعنى هذه القاعدة أنه إذا كانت الزوجية قائمة من تاريخ الدخول بالزوجة إلى أقل مدة الحمل ، وهي ستة أشهر ، فإن الولد ينسب إلى فراش الزوجية كيفما كانت الظروف والأحوال ، ولو نفاه عنه ذلك الأب ، فيكفي مثلاً إذا قام الزوج ينفي عنه هذا الولد ، ويقول : إنه ليس ولده يكفي الزوجة بمقتضى هذه القاعدة بأن تستظهر بعقد الزوجية وما يثبت حصول المدة فيما بين الدخول وما بين الولادة ، فيحكم لها بنسبة الولد إلى أبيه طبقاً لقوله ﷺ : « الولد للفراش » .

من اتهم زوجته بالزنا ونسب الولد لنفسه :

وقعت نازلة قريبة من هذا النوع في الفقه المالكي ، وتم الحكم فيها حكماً يقربنا إلى المعنى ، هذه النازلة هي نازلة الشخص الزوج الذي يتهم زوجته بالزنا وينسب الولد لنفسه ، هذه مفارقة غريبة ، بحيث يتهم زوجته ، ولكن الولد ينسب لنفسه .

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٣) ، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

جاء في الفقه المالكي عن مالك رحمته الله في هذه المسألة ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن هذا الزوج يحد ، ويلحق الولد به ، ويلاعن .

القول الثاني : يلاعن ولا يلحق به الولد .

القول الثالث : يلحق به الولد ، ويلاعن لدرء الحد عنه .

في هذه الأقوال الثلاثة : هناك قولان فيهما يلحق به الولد ، والقول الثالث لا ينفى عنه الولد ولا يفصل عنه إلا بعد اللعان ، هذه الحالة من المنظور الشرعي أصعب من حالة التلقيح الاصطناعي ، ومع ذلك كان الحكم فيها كله في صالح الطفل ، إنه في قولين اثنين لمالك يلحق به الطفل ، وفي القول الثالث لا ينفى عنه إلا بعد اللعان ، أما نحن فنصرح بسبب التلقيح فقط ، ونقول بأن بنوة الابن غير شرعية .

نعم ، يمكن أن نحتاط احتياطاً ضرورياً ونقيد الاعتماد على قاعدة الولد للفراش في نازلة التلقيح الاصطناعي بقيد مهم ، وهو أن لا يتم هذا التلقيح الاصطناعي إلا في حالة الضرورة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا سندخل في باب آخر من أبواب الأصول وهو باب فتح الذرائع ، وفتح الذرائع معناه أن الوسيلة إذا كانت ممنوعة شرعاً ، وكانت تؤدي إلى مصلحة محققة أو ترفع ضرورة ، فإن هذه الوسيلة الممنوعة شرعاً تصبح جائزة .

الغاية لا تبرر الوسيلة :

الإسلام ضد مبدأ : الغاية تبرر الوسيلة ، ولذلك فهو لا يسمح بالسرقة من أجل الإنفاق على العيال ، ولا يسمح بالقمار من أجل الأعمال الخيرية ، ولا يسمح بالكذب من أجل ترويج البضاعة في التجارة ، إن الغاية

لا تبرر الوسيلة عندنا في الإسلام، لكن إذا كانت الوسيلة ممنوعة وتؤدي إلى رفع ضرر أو إلى مصلحة محققة، فإن الضرورات تقدر بقدرها وتباح تلك الوسيلة، والضرورة هنا قائمة وهي الضرورة إلى الأولاد، وهذا ما يجعل الناس يلجئون إلى التلقيح الاصطناعي من أجل إنجاب الأولاد، وهذه ضرورة مشروعة لا بد أن تقدر بقدرها ويقيد كل سماح بالتلقيح الاصطناعي أو غيره بهذا القيد، وهو أنه لا يسمح به إلا في حالة الضرورة القصوى، هذه نظرة عامة.

إن الشريعة الإسلامية في غاية السعة، وإنه ينبغي لعلمائنا أن يتيحوا للأمة الاستفادة من سعة الشريعة وسماحتها لا بتحليل ما هو حرام ولا تحريم ما هو حلال، ولكن بإعمال المبادئ الشرعية الثابتة الراسخة، وعدم الإجحاف في الحكم وتقدير مخاطر أي حكم؛ لأن الأمر يتعلق بمصير أطفال أبرياء لا ذنب لهم يترجون سماحة هذه الشريعة ولهم حظ في هذه السماحة، ولا بد أن نتيح لهم الاستفادة من ذلك.

إذا كان موقف الشريعة من الطفل في هذه الأحوال العصبية على هذا المستوى من السماحة، فكيف بنا عندما يكون الطفل في الأحوال العادية؟ إن الشريعة الإسلامية رحيمة بالطفل في أصعب ظروفه، فمحاولة إقامة الدليل على أنها رحيمة به في الظروف العادية هو من باب إقامة الدليل على وجود النهار إذا احتاج النهار إلى دليل.

الآية تحتاج إلى مزيد بحث:

الآية ما زالت في حاجة إلى أن ينظر إليها من منظور آخر، وهو منظور علاقتها بالغيب، وهذا منظور واسع، وهذا مشكل آخر، وموضوع يحتاج إلى

درس آخر ، وإنما أشير فقط إلى أن مسألة الغيب من المسائل التي ينبغي لعلماء الشريعة الإسلامية أن يحددوا موقفًا واضحًا فيها ؛ لأن كثيرًا من الأشياء كانت تعتبر من قبيل الغيب ، فإذا بالعلم الحديث وتطوره ، يكشف أنها في متناول الإنسان ، فينبغي أن نحدد ما هو من قبيل الغيب ، وما ليس من قبيل الغيب ، وأن يكون دليلنا في ذلك هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، لا أقوال السلف فقط ؛ لأن أقوال السلف من علماء هذه الأمة لا شك أنها كانت متأثرة في كثير من الحالات بأزمانهم وأحوالهم وظروفهم ، وبمستوى العلوم في عصورهم ، بينما إذا رجعنا إلى الكتاب والسنة نجد إمكانيات هامة جدًا لتحديد ما هو من قبيل الغيب ، وما ليس من قبيل الغيب حتى لا تصطدم مسلمائنا الدينية بالعلم ، وحتى لا تقع البلبلة في العقول والنفوس كلما ظهرت اكتشافات جديدة .

* * *

المحاضرة الرابعة بعد المائتين

التغيير وأسبابه

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

آيات المواكبة في القرآن :

إننا حين نقف لنستروح هذا الكتاب الكريم ، ونستمد منه ما نحن في حاجة كبيرة إليه ، نجد القرآن الكريم قد اشتمل على العقيدة الصحيحة التي هدانا الله إليها ، وعلى الأحكام الشرعية التي طالبنا بتطبيقها ، لنكون عند أمره ونهيه ، وبين لنا كذلك المسلك الرابع والسبيل الأقوم في السلوك ومنهج الحياة ، ولكننا حين نتأمل هذه الحقائق ونتبعها في كتاب الله الكريم آية آية وسورة سورة ، نجد الله سبحانه وتعالى قد وصف كتابه هذا بكونه بياناً وحقاً ونوراً وهدىً وشفاءً ، ومن ثم أصبح العمل به والالتزام بأحكامه أمراً ضرورياً إذا أردنا الخير لأنفسنا وللمجتمع الإنساني بأسره ، ولكننا بالإضافة إلى هذه الحقائق التي لا تخفى على أحد ، نلاحظ من لطائف الله بالمؤمنين ورحمته بالناس جميعاً أنه جعل في هذا الكتاب آيات تكون مواكبة لعمل الفرد ، ولعمل الجماعة المسلمة ، وأعني بالفرد محمداً رسول الله ﷺ ، وبالجماعة المسلمة والمؤمنة أصحاب محمد الذين كانوا من حوله كالآلة يتبعون أمره ، ويهتدون بهديه ويسيرون وفق الخطة التي يرسمها لهم ، وهذا ما أسميه آيات المواكبة .

آيات السنن الكونية في القرآن:

هي آيات تقرر السنن الكونية والنواميس التي لا تتخلف ، والتي تكون سبيلاً لإنارة العاملين إلى اتخاذ الطريق السوي الذي ينتهي بهم إلى الرشد ويحقق لهم الخير .

أمثلة على آيات المواكبة:

من الآيات الأولى التي تكون مواكبة لعمل رسول الله ﷺ في دعوته الناس إلى الحق ، وحملهم على الصراط ، وفي بيان ما أمر به والإصداغ به قول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] ، فهذه الآية تأمر النبي ﷺ بالتحمل ، تحمل أذى المشركين ، ولكنها بالإضافة إلى هذا تطمئنه وتجعله في مأمن من كل شر ؛ لأنها تعلن عن حماية الله له ونصرته لرسالته .

والآية الثانية هي قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، فهذه تدفع بالمؤمنين عامة إلى الأخذ بالسبيل الرشيد ، والطريق الأقوم ، والبذل ، والعطاء ، والعمل ، متنافسين في ذلك ثم يهنئهم ويطمئنهم بأن ذكرهم سوف يكون باقياً ، وعملهم سوف يكون ماضياً ؛ وذلك لأن الله سيرى هذه ويباركها ، ويجازيهم عليها ، وسيشهد الرسول هذه الأعمال الطيبة ، كما أن المؤمنين عامة ينظرون إليها ، ويراقبونها ، ويشهدونها ، فيكون ذلك للعاملين علماً ومعرفة ومقاماً كريماً عند الناس جميعاً بذكرهم في مقامات المصلحين .

أمثلة على الآيات الكونية:

أما الآيات الكونية أو ما يشير إلى الحقائق الكونية فإني ألاحظ مثلاً أن قضية الصدود عن الكتاب من الماكرين المتعالين الذين لا يستجيبون إلى دعوة الرحمن ، ولا يمثلون إلى كتاب الله ، ويمكرون بالمؤمنين ويقاومونهم ، فإن مكر هؤلاء سوف يبور ، وإن مكر هؤلاء وهو المكر السيئ سيحق بهم ، وتلك سنة من سنن الله قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [٤٣، ٤٢] . فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴿ [فاطر : ٤٣، ٤٢] .

ومن الحقائق الكونية أو السنن الثابتة التي لا تتخلف ، والتي ينبغي أن نعتبرها ونتخذها ميزاناً في أعمالنا أن الذين يدعون إلى أمر ويريدون الاستجابة له ، فإن الاستجابة له تكون في الوقت الموسع الذي قدر لهم ، فإذا لم يقوموا بواجب الاستجابة للداعي ، وانتظروا حتى يأتي الموت أو تأتي القيامة أو يأتي عذاب الله ، فإن الاستجابة منهم تكون مردودة وإيمانهم في تلك الحالة لا يكون مقبولاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٥] .

التغيير سنة كونية:

القضية الثالثة التي أريد أن أشير إليها كسنة ماضية لا تتخلف ، وكقاعدة مطردة لا يمكن أن تتعطل ، هو أن التغيير الذي يحصل للأمم وللمجتمعات بسبب إعراضها عن حقوق النعمة ؛ لأن النعمة من الله تقتضي الشكر ، فإذا أعرض الناس عن هذه النعمة وصدوا عن كتاب الله ، وغيروا ما بهم إلى ما هو أسوأ ، فإن الله يغير ما بهم ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وهذه الآية الكريمة تلتقي مع آيتنا التي نحن فيها، وهي قوله جل وعلا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، والآيتان -آية درسنا التي هي من سورة الأنفال، والآية الثانية التي هي من سورة الرعد- ترتبان الجزاء الإلهي على العمل الفردي، أو الشخصي، أو المجمع، بحيث إذا قام الإنسان بعمل، فإنه يجازي على ذلك العمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

طرف من نعم الله وجزاء شاكرها وكافرها:

إن الله بدأ بإنعامه على العالمين، فأعطاهم العقل وهو النور الذي يميزون به بين الحق والباطل، ويعرفون به السبيل الشريف الذي ينتهي بهم إلى تحقيق الحق وإيجاد الخير، وبين الطريق المتعرجة أو التي لا تهديهم إلى سبيلهم ولا تنتهي بهم إلى ما يريدون الانتهاء إليه، فيكون السير على هذا الأمر الذي يقتضيه العقل الصافي الصالح المدرك، ثم على القدرة التي أنعم الله بها عليهم؛ ليطبقوا ما يمليه العقل ولينفذوا ما يريدونه لأنفسهم، ثم ما نجد من نعم الله عليهم التي تشمل دفع الحواجز من طرقهم أو من طريقهم أو لتيسير السبل لهم؛ لبلوغ مآربهم، ثم إرساله سبحانه وتعالى الرسل؛ لهداية البشر، كل ذلك من النعم التي تستحق الشكر وتستحق حب عبادة الواحد الأحد، فإذا آمنوا واستجابوا لرهبهم وشكروه وعبدوه كانوا من المؤمنين الموقنين، وإن هم أعرضوا وصدفوا عن الذكر وكانوا قومًا جبارين، فإنهم يقابلون هذه النعم بالكفران وبالفسق.

دوام النعمة يقتضي التمسك بمنهج الله الصحيح:

إن من تمسك بالحبل والعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وأخذ بهذه النتائج التي تقتضيها نعم الله عليه من : عقل ، وقدرة ، وإزاحة الأخطار ، وتيسير السبل ، وإرسال الرسل ، يكون بعد ذلك بإعماله لهذا العقل وبتصرفه بمقتضى القدرة الإلهية ، وبتسخير الله له جميع الأشياء التي ينبغي أن تكون في خدمته ؛ لتحقيق الخلافة في الأرض أو الاستخلاف ، فإن هذا العبد يوثق بدون شك القوة والعزة والخير والأمن والسعادة ، وهذه الصفات كلها أو الحقائق جميعها تكون للأفراد كما تكون للجماعات وللمجتمعات الإنسانية ؛ لأن هذه النعمة المتمثلة في المكان والقدرات ، وفيما يترتب عليها لا يطمع في الحفاظ عليها ولا في بقائها إلا بشروط ؛ لأن دوام النعمة يقتضي الاستمساك بالمنهج الرابع ، ويقتضي أن يكون المؤمنون وعامة الناس متصفين بما اتصف به الرعيل الأول من المسلمين ، فنحن نلاحظ في السير التاريخية ما كان عليه السلف الصالح مع النبي ﷺ ومن بعده أيام الخلافة الراشدة ، وأن الفتوحات الإسلامية انتشرت إلى الآفاق في أقرب وقت وأقل مدئ ، وأنها استطاعت أن تهز أركان الدنيا وعروش الأكاسر والفرس وغيرهم ، وأن كلمة الله أصبحت هي العليا ، وأن المسلمين بلغوا الذروة واستطاعوا أن يكونوا للأجيال وللأمم من بعدهم حضارة إسلامية دائمة باقية ، وكانوا في محل الريادة ، وفي محل العزة .

سؤال مهم!

نحن نتساءل كيف استطاع هؤلاء في الفترة القصيرة ، وفي الزمن القليل أن يحققوا ما لم تستطعه الدول في القرون المديدة والأيام الطويلة؟ لم يتوفر

هذا لغير الجماعة الإسلامية، ولم يتوفر مثله بالنسبة لغير الجماعة الإسلامية، ذلك لأن هؤلاء آمنوا بربهم ولكونهم كانوا في كل ما يعملون وما يقدمون وما يبذلون، كانوا مع الله فكان الله معهم، وكانوا ينصرون دينهم، ويهتدون بستته فأمدهم سبحانه بنصر من عنده، ولا بدعة في ذلك إذا كان الناس على رشاد ولا بدعة في ذلك إذا كان التأييد من الله ماداموا متمسكين بالعروة الوثقى وماضين في الطريق السديد.

وعد الله المؤمنين بالنصرة:

إن الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر في غير ما آية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فإذا سألنا أنفسنا اليوم هل هذه الحقائق متوفرة؟ وهل هذا النصر قائم؟ وهل هذا التأييد الإلهي للمؤمنين مستمر؟

سبب تخلف النصر عنا:

نجد هذه الحقيقة ضائعة ونجد مدلولها غير متوفر، ولعلنا نسأل أنفسنا عن السبب، فنقول: إن الانحراف عن المنهج الإسلامي والصدود عن آيات الله، وبعد الناس عن الطريق الذي رسمه القرآن ورسمته السنة هو الذي كان سبباً في عدم استجابة الله للمؤمنين، أي هؤلاء الذين يدعون الإيمان، أو الذين ينتسبون للأمة الإسلامية وليسوا على حق؛ لأنهم حرفوا، ولأنهم غيروا دينهم، ولأنهم ارتضوا ما لم يرتضه لهم الله، فهؤلاء قد ضرب الله الأمثال بهم في كتابه، حين قال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ

قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴿[القصص: ٥٨]، وحين قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا
أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾
[الإسراء: ١٦].

إذن التغيير الذي يكون من الفرد أو من الجماعة بإنكار آيات الله، ونعمه
والذين يتسببون في تعطيل سنة الله وما أراد الله للمجتمع الإنساني من رقي
وتقدم، وخير يكون مدعاة لجلب كثير من الأضرار ومن الآفات ومن
العقوبات ومن العذاب، ولذلك فإن الجزاء يكون من جنس العمل وما
يترتب على تغيير المنهج الإسلامي يكون مناسباً لذلك التغيير إن قل أو كثر.

أدلة تظهر سبب تأخرنا:

لعل مما يشهد لهذا حديث علي -كرم الله وجهه- رواه مرفوعاً وهو
حديث قدسي، رواه ابن أبي شيبة، وكذلك ابن مردويه، وهو قول الله ﷻ
في هذا الحديث القدسي: «وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من
أهل قرية، ولا أهل بيت، ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت من
معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما
يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل قرية، ولا أهل
بيت، ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا إلى ما
كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من
عذابي»، وهكذا تكون السنة المطردة الكونية مقتضية وجود النعمة وحجب
النعمة على أساس الإقبال على الطاعة والأخذ بتعاليم الدين أو البعد عن
تعاليم الدين والنفور منها، ذلك أن نرى النعم منوطة عند الله بالأعمال
الصالحات، وبالأخلاق وبالعوائد وبالسلوك الذي يكون عليه الرجل أو

الجماعة المؤمنة ، فإذا تغير العقل بأن انطفأت جذوته ولم يصح الفكر وطمس على البصائر ، ووقعت التحدية عن المنهج واختفى العدل ، وبعد الناس عن الاستقامة وصدفوا عن الصدق في القول ، وعن العفة في السلوك وعن السلام في الصدر ، فإن هذا يقتضي نزول العذاب بهم ، والبعد عن الطريق الذي يكتب الله به النجاة ، ويكتب لهم السعادة والظهور على الغير .

النعمة منوطة بالعمل الصالح :

إن النعم ليست منوطة عند الله إلا بالعمل الصالح ، وليست منوطة عند الله إلا بالتزام السبيل الأقوم ، وليست منوطة عند الله إلا بالعلم والعطاء والبذل والإيمان الصادق .

وإما أن تكون هذه النعم منوطة بالسعة في الرزق والقوة في الجماعة وكثرة الحصاد حين قال الشاعر الجاهلي :

إنما العزة للكائر

فإن هذا ليس له معنى ولا يمثل سنة كونية مطردة ؛ لأن المشركين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ ، فرد الله عليهم مقاتلتهم هذه بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبا : ٣٧] ، وليست النعم أيضًا منوطة بما يتصوره العبد من القرب من الله أو باعتبار نفسه من أبناء الله وأحبائه كما كانت عقيدة اليهود والنصارى ، فقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ﴾ [المائدة : ١٨] ، فرد الله عليهم قولهم هذا بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ [المائدة : ١٨] .

عدل الله ﷻ مع عباده:

هذه الحقائق التي تجلي لنا أثر التغيير في السلوك واستجلاب النعمة بدل استجلاب النعمة هو الذي يمثل بصورة واضحة وبطريقة عجيبة رائعة أحكاماً متعددة ، منها : عدل الله في معاملة العباد ، فإن العباد إذا كانوا ملتزمين بهدي الله نجوا ونجحوا ، وتواردت عليهم الخيرات ، وإذا كانوا بالعكس كان العقاب بدل أن تكون النعمة ، فهذا مظهر من مظاهر العدل الإلهي .

تكريم الله ﷻ للإنسان:

إن هذه الآيات الأولى من سورتي الأنفال والرعد تشير إلى تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلقد كرمه الله ﷻ وذلك بأن جعل قدره سبحانه ينفذ عن طريق عمل الإنسان ، وعن طريق حركته وسلوكه ، فإنه يستحق ما قدر الله في الغيب من عذاب إذا انحرف ، ويستحق ما قدر الله له من نجاة ومن خير إذا هو استقام .

عود التبعة على الإنسان لانحرافه عن الطريق:

نلاحظ جانباً ثالثاً هو إلقاء التبعة على العبد ؛ ذلك لأن الإنسان بحكم هذه السنة المطردة التي أشارت إليها الآية يملك استبقاء النعم ، كما يملك الاستزادة منها ، فإذا انحرف عن الطريق ولم يستجب للداعي ، ولم يكن خيراً ولم يعمل ولم يبذل ، ولم يعط ، ولم يجاهد ، ولم يحقق معنى الخلافة في الأرض ، فإنه يكون مفراطاً في النعم ، ويكون موجباً بحكم سلوكه لإزالتها .

وهذا المعنى الذي قرره بعض المفسرين من وجود عدالة الله كظاهرة من الظواهر وتكريم الله للإنسان وإلقاء التبعة عليه ، تقوض الدعوة التي يقولها كثير من الفلاسفة ، وخصوصًا في هذا العصر من أن الإنسان ليس مخيرًا وليس قادرًا على أن يحقق ما يريد ، فإن الإنسان في سلوكه وتصرفه قد يكون أمام حتميات ، الحتميات الاقتصادية والحتميات التاريخية وغيرها ، مثل حتمية التطور ، فإن هذه الحتميات تفرض على الإنسان وعلى الجماعة مقدورًا ووضعًا لا يجوز أن يتعداه ، لكن الآية تقول غير ذلك ، تقول إن في الإنسان عنصرًا إيجابيًا يستطيع بمقتضاه إن هو أخلص النية وتحرك وقام بالسلوك الجيد وعمل ، وكان ذا عقل رشيد وحس مرهف وقدرة ظاهرة واختيار دقيق ، فإن الله يؤازره ويكون في عونه ، ويحقق له ما يطمع فيه وما خلقه من أجله ، وهي الخلافة في الأرض الخلافة التي بها يكون قادرًا على تعمير الدنيا وعلى إيجاد الخيرات وتفجير الثروات ، ونشر العدل ، وتحقيق الأمن بين الناس ، وتنقص هذه الحقائق وتضعف بالابتعاد عن المنهج والتغيير الذي يكون قد حصل فيه الإنسان أو يحصل .

وجوه التغيير:

أريد أن أنبه إلى أن التغيير له وجهان : تغيير إلى الأدنى ، وتغيير إلى الأعلى .

تغيير إلى الأدنى : وهو مقابلة النعم بالكفران .

وتغيير إلى الأعلى : وهو الإعراض عن المدام والبعد عن الآثام ؛ للتعلم بالمنهج الرشيد الذي دعا إليه الله ، فإذا نحن تأملنا هذه الحقائق أدركنا أن التغيير أمر طبيعي لا يمكن أن يتخلف ، كما أن الالتزام بالكتاب والسنة والعمل بهما ، والأخذ بالسييل الأقوم هو أمر يحتاج إلى عزم وإلى إيمان وإلى يقين .

وهذه المعاني أي حقيقة التغير أو التغير طبيعية ، فهي في الإنسان يرشد إليها قول النبي ﷺ في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «والذي نفس محمد بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها»^(١) .

التغير إلى الأدنى :

التغير الأول هو التغير إلى الأدنى ، والتغير الثاني هو التغير إلى الأعلى ، ويكون بذلك قد استفاد الناس معرفة ما يمكن أن يحققه لأنفسهم من خير .

وجود هذا النوع في الفرد والجماعة :

نفس هذا التغير الذي يلاحظ في الأفراد ، لاحظته علماء الاجتماع في الجماعة لاحظوه في الأسر ، فإن الأسرة التي لم تكن ناهية ولا معروفة يظهر فيها شخص قوي ، له إرادة صلبة وله قدرة وله عقل فاحص ، وإيمان وحركة وعمل ، فإذا هو يبني مجدا ، وقد سمى ابن خلدون هذا العنصر الأول في الأسرة البناء ، ثم يأتي فرد آخر من بعده يكون مباشرا لما قام به الوالد لابنه يسير في طريقه ، ويطبق تعاليم والده ويلتزم بالمنهج الذي رآه خيرا ومجديا ونافعاً عن أهله ، لكن هذا المباشر لا يستطيع أن يستمر طويلاً ؛ لأنه لا يملك الحماس الذي كان عند أبيه ولا الشعور اليقظ الذي تميز به والده فتكون

(١) سبق تخريجه .

الوراثة منه إلى من بعده وراثة تقليدية ، فيأتي العنصر الثالث ، ويكون مقلداً ولا يكون مباشراً ، ولا بناء فتكون درجته الدنيا ، درجة سالفه .

ثم إن المقلد لا يصبر على التقليد ويضعف شيئاً فشيئاً ، فيأتي الدرجة الرابعة والأخيرة ، فيكون منها الهدام الذي يقوض البناء كله آملاً في إيجاد طرق أخرى جديدة تنهض به وتكونه وتجعله قادراً على الظهور على غيره ، وقد شاء علماء الاجتماع ، وخاصة ابن خلدون في «مقدمته» أن يطبق هذه القاعدة على الدول ، فقال : إن الدولة الرومانية والدولة الفارسية والدولة الهندية وما إليها ، ثم الحضارة الحديثة والدول الغربية بعضها زال وانقرض ، وبعضها في طريق الزوال ؛ لأنها قد مسها عيب ذاتي فيها كان قادحاً في استمرارها وعائقاً عن بلوغها للهدف .

المجتمع الإسلامي قد يضعف لكنه لا يموت :

أما الإسلام فإنه كان على غير ذلك ؛ لأن الإسلام والمجتمع الإسلامي والدول الإسلامية مهما ضعفت ، ومهما ابتعدت عن الطريق ، ومهما زعزعتها الظروف أو الأحوال ، فإنها تستطيع أن تلوذ بشيء يعصمها من الفناء ، وهذا الشيء الذي يعصمها من الفناء هو الذي بمقتضاه قال مالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية» : نحن نلاحظ أن الأمة الإسلامية حين بدأت بدعوة الرسول ﷺ استطاعت أن تقضي على الجاهلية الجاهلاء ، وأن تبلغ خطى بعيدة في بناء الحضارة والتقدم والرقى ، وتكوين الأمة وجمع شملها ، وإيجاد القوانين التي تحفظها وتقيمها وتعينها على التطور والتقدم .

ثم استمر هذا الخير في الأمة الإسلامية إلى الخلافة العباسية ، إلى أيام المأمون فبلغت الأمة الإسلامية القمة ، لكنها بعد ذلك أخذت في الضعف

والتراجع والتقهقر فكان عهد المماليك ، ثم كان عهد القضاء على الدولة (الدولة الإسلامية) ، حتى قىض الله الخلافة العثمانية ، فانتشلت العالم الإسلامي ، وعادت إلى فتوحات العالم الإسلامي وامتدت في أوروبا وغزت كثيراً من الديار ، وتمكنت من الأمر وأقامت للإسلام الحجة .

لكن هذه الدولة أيضاً قد مسها من اللغوب والضعف ومسها من الانحراف والبعد عن الطريق شيء كثير عندما بلغت إلى حال الرجل المريض ، وعند ذلك تمزق شمل الإسلام ، واقتسم الغرب أراضيهِ ودوره ومنازله ، واقتطعوه رقاعاً واستعمروها واستغلوها ، ولم ينقذ المسلمين إلا تغيير ما بهم ، وذلك عندما قاموا مجتهدين في سبيل بلادهم وعقيدتهم ، وبذلك رجعت لهم أوطانهم وأعزهم الله .

هذه التغييرات التي أشار إليها «مالك بن نبي» شهد بها أيضاً المستشرق الفرنسي الذي كان أميناً عاماً لمؤتمر المستشرقين (رونيه غروسيه) في كتابه «تاريخ آسيا» عندما تحدث عن العالم الإسلامي ، فقال : إنه يعرف ظاهرتين عجيبتين ، الظاهرة الأولى : هي الخلود ، والظاهرة الثانية : هي التجدد .

ولعل هذين المعنيين اللذين أشار إليهما «غروسيه» ودل عليهما من بعده مالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية» يشهد لهما القرآن وتشهد لهما السنة ، ففي كتاب الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وحفظ القرآن وحفظ الكتاب وحفظ هذا التنزيل بما فيه يكون بركة وخيراً وتوعية وإنقاذاً للمجتمع الإسلامي ، يشهد بأن هذا الدين باق ، وبأن هذه الأمة خالدة .

دليل من السنة:

الدليل الثاني: هو من سنة رسول الله ﷺ، حين يقول: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر هذه الأمة»^(١)، فالتجديد بأيدينا، التجديد بأيدي المسلمين، والتجديد معناه: التغيير، فإذا نحن غيرنا ما بنا، غير الله ما بنا، وكنا على أحسن حال.

اختلاف أصول التغيير بين المجتمعات:

أصول التغيير اختلفت بين المجتمع الإسلامي والدول النامية، وبين المجتمع المتحضر المصنع المجتمع الأوربي.

أوروبا المادية والتفكك والانحلال مع التكنولوجيا:

هذا المجتمع الأوربي المتحضر المصنع كان أول تغيير له قطع الصلة بالله، أصبحت الفلسفة المادية وتآليه العقل وتآليه العلم أصولاً يسير عليها ومناهج يعتمدوها في حياتهم العلمية والعملية، وكان ذلك إلى جانب قضية أخرى هي أشد مقلقة، وذلك أنه لا يراعي كرامة الإنسان في الإنسانية كما جاء بذلك الكتاب، وإنما ينظر في الإنسان إلى جانبين اثنين فقط الحيوانية التي تفضي به إلى السلوك الجنسي المعين، والمادية التي تجعله يجري وراء المادة ووراء المنافع.

وظهرت الفلسفات المادية، مثل: التفسير المادي للتاريخ، ومثل التفسير الجنسي للسلوك، وأصبح العالم الغربي كله يجري وراء الإنتاج وتحقيق الإنتاجية، ويحقق ذلك بسرعة مذهلة لا سبيل إلى حكمها أو توقيفها؛

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأنها تقطع كل سبيل أمام من يريد اللحاق بها ، وبذلك ظهر النمو المتزايد العجيب ، وظهر التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حقق الخير الكثير للإنسانية لكنه بانحرافه عن الروح وبعده عن الجانب الخلقي أصبح يهدد الإنسانية بالشر المستطير ، ولا يوفر لها الأمن والطمأنينة .

فعلى هذه العناصر الأساسية التي ذكرناها بياناً لما أوجده العالم الغربي والمصنع من تغيير جذري في الحياة الفكرية والعلمية والاقتصادية والسلوكية ترتبت آثار هي التي نسميها العقاب الإلهي ، أو هي التي نسميها ما استبدلهم الله من نعم بهذه الأشياء ، وذلك أن المجتمع الغربي والمصنع قد ركب كثيراً من أفراده الغرور والأنانية والجشع والاستعلاء وإرادة تسخير الغير كلما كان ذلك الغير ضعيفاً يحتاج إليه ويمد يده سائلاً العطاء أو العون ، ثم نلاحظ في المجتمعات الغربية الانحلال والتفسخ الأخلاقي وإدمان المخدرات والفوضى الجنسية والخلقية ، ونلاحظ في الحياة الاجتماعية تفكك الروابط الأسرية ، وتفكك الروابط الاجتماعية أو المجتمعية وانفلات الناس جميعاً أو أكثر الناس من كل القيم والمعنويات ، وبذلك انتشر الإجرام ، ثم أصبح العلماء لا يبالون بما ينتج عن تطور العلم والتقدم الصناعي من تلويث للمحيط ومن أمراض عصبية وقلبية ، وارتفعت نسبة البطالة ، وكان السباق إلى التسلح ، والنتيجة أن المجتمع الغربي كله يشكو الخوف والقلق واليأس ويخاف من الغد .

ظهور التغيرات الإيجابية :

هذه الحقائق هي التي دفعت بعدد كبير من الناس في فرنسا وفي ألمانيا ، وحتى في روسيا الاتحادية ، وفي كثير من البلاد إلى الإقبال على الله ،

والرجوع إلى الإيمان ، والدخول في دين الله أفواجًا في الإسلام ، كما ظهر عدد كبير من المفكرين والعلماء الذين نعرف مراحل حياتهم ، فكانت التجربة الذاتية لهم دافعة بهم إلى اعتناق الإسلام لكونه السبيل الوحيد للخروج مما هم فيه ، ولحماية المجتمع الإنساني مما يمكن أن يؤول إليه .

مراحل التغيير في بلاد الإسلام:

هذه التغييرات التي حصلت في المجتمع الغربي ، في المجتمع الراقي المصنع حصل مثلها بالنسبة للمجتمعات النامية ، حصل مثلها في البلاد الإسلامية ، لكن بلاد الإسلام كانت على مرحلتين في تقرير هذه التغييرات .

الأولى: جهاد ومقاومة:

أما التغييرات الأولى ، فهي جهاد ومقاومة وكفاح من أجل تحقيق الاستقلال ، وقد خرجت منصوره مظفرة ، وكتب الله لها العزة والنصر ، لما صدقت الله فيما قامت به من أعمال .

الثانية: تقليد الغرب والسير على نهجه:

فلما أصبحت محرة ووجدت نفسها تتصرف في قدرات ، وفي أراض ، وفي أرزاق ، وفي ممتلكات رأت أن ما عليه أوروبا هو الأمر السديد ، وأن المنهج في الحياة الذي سلكه الغرب هو المنهج الرشيد ؛ ولذلك أرادت أن تتبع الغرب خطوة بخطوة آخذة ما فيه من تقدم ، وهذا لا يستطيع أن ينكره أحد ، لكنها وارثه مع هذا التقدم كل الأمراض والعيوب والآفات الموجودة في المجتمع الغربي ، وفي البلاد المصنعة .

وفي داخل هذه البلاد نلاحظ أن الأمم الإسلامية والبلاد النامية بقدر ما حاولت أن تلتحق بركب الحضارة المادية ، فإنها ليست بالغة المدئ الكبير ؛ لأن البلاد الغربية لا تقف في أعمالها فهي مطردة التقدم ، ونحن وإن اطرد نمونا ؛ لأن الفارق كبير بيننا وبينهم ، فلا بد أن يكون لنا ما يقينا ويحمينا ويسدد خطانا ، وهو المنهج الإسلامي الذي نعتمده .

عقاب الله للأمة بسبب الانحراف عن منهجه :

لقد عاقب الله المجتمعات الإسلامية والبلاد النامية حين أعرضت عن المنهج السديد ، ومن هذه العقوبات : الفقر ، والأمراض ، والجوع ، والتخلف ، والتبعية ، كنا ملحقين بهذه الدول الغربية - بهذه الدول الكبرى - التي استعمرت أراضينا ، فأصبحنا تابعين لها فكريًا ، وتابعين لها ذوقيًا ، وتابعين لها فلسفًا ، وهذه التبعية تقضي على كياننا كأمة مستقلة لها مقوماتها ولها خصائصها .

وأما العثرات الأخرى والنقمة والعذاب الذي سلط على المجتمعات النامية في غير داخل البلاد ، فهي تتمثل في انخراط النظام الاقتصادي العالمي ، وفي عدم التعاون بين دول الشمال والجنوب ، ثم في هذه الفتن والأزمات والحروب التي تجري في العالم المتخلف أو العالم النامي ، سواء في البلاد الإسلامية أو غير الإسلامية ، إذا كان هذا هو واقعنا أو واقع المجتمع الإنساني في الدول المصنعة ، وفي الدول النامية فما هو سبيل التغيير ؟

سبيل التغيير المنشود بكون بأمرين:

الأمر الأول: العودة إلى الله ، وذلك بتركيز التعليم الديني ووصاياه وغرس الوازع الديني في النفوس ؛ حتى لا يقوم الإنسان أو الجماعة بعمل إلا وقد راقبوا الله فيما يقدمون عليه ، فإذا كان أمراً خيراً أسرعوا إلى تحقيقه ، وإن كان عكس ذلك فإنهم ينكفون عن المضي في هذه السبيل .

إقامة العدل ونشره:

الأمر الثاني: هو إقامة العدل ونشره بين الناس ؛ حتى تتكافأ الفرص ، ويطمئن كل مجتمع إلى ما يملك من طاقات وقدرات تعينه على القيام بواجبه ، ثم هناك نشر الأمن بين جميع الناس في المجتمع النامي ، وحتى في المجتمع المصنع ، وذلك بالقضاء على أسباب العنف ودواعيه في المجتمع الإنساني ، ثم بناء العلاقات الإنسانية والدولية على أساس التعاون والتكافل والاحترام المتبادل ، ثم حسن استغلال الموارد الطبيعية والثروات المخزونة في الأراضي المختلفة الثرية التي لم تقدر كثير من البلاد النامية على استغلالها أو التمتع بها .

الحد من هجرة العقول المفكرة:

إن أطراً كثيرة ظهرت في البلاد النامية وفي العالم الإسلامي كانت لها قدرة ويمكن الاعتماد عليها إلا أنها بسبب عدم الأمن أو عدم توفر الحاجات الذاتية لها ترضى بالخروج إلى الغرب ، والالتحاق به والعمل فيه ، ومن ثم لا بد من الحد من هجرة العقول المفكرة الموجودة في العالم الإسلامي .



فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
٧	المحاضرة الثامنة والثمانون بعد المائة
٧	بركة القرآن على العالم
٧	معنى البركة
٧	بعض من بركة الإسلام والقرآن
٨	من فوائد عمومية الدعوة
٨	عمومية الإسلام وخصوصية الرسالات قبله
٩	الأفضلية في الإسلام نصيب كل تقي
٩	خصوصية دعوة عيسى عليه السلام
١٠	تعقيب
١٠	توطئة إلهية لإرسال الرسالة المحمدية
١٠	اتساع رقعة التعامل عن طريق التجارة
١٢	البراعة الأدبية
١٣	بعض ثمرات البلاغة القرآنية
١٣	مكابرة قريش وعدم إيمانها بالقرآن
١٤	اتهام القرآن بالسحر
١٤	تأثر الغرب بالأسلوب القرآني البديع
١٥	روحانية القرآن اجتذبت الإنس والجن
١٥	طلب الروحانية في آيات القرآن وحروفه
١٦	طرف من قصة سليمان عليه السلام

- ١٧ مع لغة القرآن وفضلها
- ١٧ خلو اللغة العربية من العنصرية اللغوية
- ١٨ العنصرية ظاهرة في الإنجليزية والفرنسية
- ١٨ دعوة إلى إحياء لغة القرآن
- ١٩ المحاضرة التاسعة والثمانون بعد المائة
- ١٩ من تراثنا القضائي
- ١٩ بين يدي الموضوع
- ٢٠ نص الحديث
- ٢١ معنى النجش
- ٢١ بعض معاني الحديث
- ٢٢ على القاضي معرفة المجمع عليه والراجع من الأحكام
- ٢٢ أخذ القاضي بما جرى به العمل
- ٢٤ موقف القاضي تجاه محدثات المسائل
- ٢٤ أخذ العلماء بما جرى به العمل والإفتاء به
- ٢٥ المثال الأول : شهادة غير العدول
- ٢٦ شهادة النساء والصبي
- ٢٦ المثال الثاني : العقوبة بالمال
- ٢٦ الأصل في العقوبة كونها بدنية
- ٢٧ قوة الدولة وعجزها وأثره على العقوبات
- ٢٧ متى يلجأ إلى العقوبة المالية
- ٢٨ نشأة العمل ومراحلها
- ٢٨ عمل مجتمع المدينة من الصحابة وتابعيهم

٢٩	اتخاذ مالك عمل أهل المدينة أصلاً له
٣٠	قول الشاطبي في «الموافقات»
٣١	اعتراض علي ما جرى به العمل
٣١	وضع الضوابط والشروط لهذا المنهج
٣٢	وقفة مع الشرط الثالث والرابع
٣٣	وقفة مع قاعدة : الأعراف محكمة
٣٣	العادة والعرف من أركان الشريعة
٣٤	ملاحظات مهمة
٣٦	المحاضرة التسعون بعد المائة
٣٦	أثر العمل الصالح في انفراج الشدائد
٣٦	موضوع الدرس : الثلاثة أصحاب الغار
٣٦	نص الحديث
٣٩	موضع الحديث عند البخاري
٣٩	موضعه عند مسلم وأبي داود وأحمد
٤٠	مراحل الحديث عن الحديث
٤٠	أولاً : في صحة الحديث وثبوته
٤١	ثانياً : في تسمية أصحاب الغار
٤٢	ثالثاً : في تفسير الألفاظ الغريبة ، وبيان بعض معانيه المجملة
٤٣	رابعاً : في ذكر ما يستنبط من الحديث من أحكام وآداب
٤٧	أيهم أفضل ؟
٤٩	هل القصص في الأحاديث قصص واقعي ؟
٤٩	عظات وعبر في الحديث الشريف

- ٥٠ صلاح المرأة صلاح للرجل
- ٥٠ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً
- ٥١ يا أهل المال اتقوا الله في إخوانكم
- ٥٢ التوبة مفتاح للخيرات وتفريج الكربات
- ٥٣ المحاضرة الحادية والتسعون بعد المائة
- ٥٣ نقض المنهج الإرهابي
- ٥٣ موضوع الدرس
- ٥٣ أهمية الموضوع
- ٥٤ وقفات هادئة مع حجج هؤلاء وأدلتهم
- ٥٥ غايتنا من هذه الوقفات
- ٥٦ الوقفة الأولى : سبب نزول الخطاب القرآني
- ٥٦ أهمية سبب النزول لفهم الآية
- ٥٦ الآية نزلت بعد غزوة بدر
- ٥٧ بعض المشاهد من الغزوة المباركة
- ٥٨ سبب نزول الآية الكريمة
- ٥٨ الآية ليست دليلاً بحال على شرعية الإرهاب
- ٥٩ الوقفة الثانية : تكامل الآيات وتربطها
- ٥٩ اعتبار السباق والسياق واللاحق في فهم الآية
- ٥٩ الآيات السابقة للآية
- ٦٠ الآيات اللاحقة للآية
- ٦٠ بعض معاني الآيات السابقة
- ٦١ بعض معاني الآيات اللاحقة

- ٦١ ما ترشد إليه الآية في ضوء سباقها ولحاقها
- ٦٢ قتال المعاهد غدر وخيانة
- ٦٣ الاعتداء على المسلم أشد خيانة وغدرًا
- ٦٤ الوقفة الثالثة : المخاطبون بهذه الآية الكريمة
- ٦٤ من صفات الرسول الكريم
- ٦٤ لا يجوز الخلط بين تصرفاته ﷺ
- ٦٥ الخطاب في الآية موجه إلى الرسول ﷺ
- ٦٦ الهدف من اختصاص الإمام بمهام خاصة
- ٦٦ فهم الصحابة رضي الله عنهم لأسباب الخصوصية
- ٦٦ تجلي هذا الفهم في صلح الحديبية
- ٦٧ دعوة إلى أخذ العلم من منابعه الصافية
- ٦٩ الوقفة الرابعة : محل الخطاب
- ٦٩ أركان الخطاب الشرعي في الآية الكريمة
- ٧٠ توظيف الآية في معنى الإرهاب المعاصر خطأ ظاهر
- ٧١ الوقفة الخامسة
- ٧١ حقيقة ما تدعو إليه الآية الكريمة
- ٧٢ الوقفة الأخيرة
- ٧٢ معنى القوة المأمور بإعدادها
- ٧٣ أعمال العنف والإرهاب مجازفة بسمعة الإسلام وأهله
- ٧٣ ما يرجى من الفئة المخدوعة
- ٧٤ الأمل في الله كبير

- ٧٥ المحاضرة الثانية والتسعون بعد المائة
- ٧٥ حوار مع عالم مسيحي
- ٧٥ تمهيد
- ٧٦ أضرار التفاوت الحضاري بين المجتمعات
- ٧٧ التعريف بالباحث وببحثه
- ٧٧ أولاً : المنازعة في نسبة الحديث إلى النبي ﷺ
- ٧٨ نقد نظرية جان لوي
- ٧٨ النظرية تهدف إلى إعادة تقسيم بعض الأديان
- ٧٩ النظرية تتصف بالإجمال
- ٧٩ تفصيل في مسألة التشابه بين الديانات
- ٨٠ الدين على قسمين (عقيدة وشرعية)
- ٨١ وحدة العقيدة بين الرسل
- ٨١ شخصية المسيح ﷺ
- ٨٣ من أمثلة القاعدة (الصيام)
- ٨٣ عودة إلى موضوع الدرس
- ٨٣ نسبة الحديث إلى عيسى ﷺ
- ٨٤ نسبة الحديث إلى موسى ﷺ
- ٨٤ نسبته إلى نوح ﷺ
- ٨٥ مستند دعوى الانتحال والرد على ذلك
- ٨٦ روايات للحدث من كتب الصحاح
- ٨٧ تهافت دعوى الضرب في رجال السند
- ٨٧ الحديث معجزة نبوية

٨٨	مناسبة ورود الحديث عند مسلم
٨٩	إشكال مهم
٨٩	الرد على الإشكال السابق
٩٠	رد آخر
٩٠	رد ثالث
٩٠	جواب رابع
٩١	اتباع المنهج العلمي يقلل من الخلاف
٩٢	المحاضرة الثالثة والتسعون بعد المائة
	﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾
٩٢	مقدمة
٩٢	مدخل إلى موضوع الدرس
٩٣	دلائل شمائل النبي ﷺ من القرآن
٩٣	دلائل شمائله ﷺ من السنة المطهرة
٩٤	عموم شمائله ﷺ
٩٤	ذكاؤه وعقله وثباته ﷺ
٩٤	كرمه ﷺ
٩٥	علمه وحلمه ﷺ
٩٥	فصاحته وجوده وزهده ﷺ
٩٥	شجاعته وعدله وحكمته وتعبدته وطبه ﷺ
٩٦	بركة دعائه ﷺ
٩٦	بلاغة العرب وفصاحتهم وعجزهم أمام القرآن

- ٩٧ انبهار الوليد بن المغيرة بفصاحة القرآن
- ٩٧ إسلام عمر وانبهاره بالقرآن
- ٩٨ أشعار في مدح النبي ﷺ والقرآن الكريم والصحابة
- ٩٩ رسالة من الغزالي لبعض معاصريه
- ١٠٠ نصيح وإرشاد
- ١٠١ أقسام العدل
- ١٠١ القسم الأول
- ١٠١ القياس على الغضب
- ١٠٢ الشورى في القضاء
- ١٠٢ بعض أمور القضاء: تفرغ الفكر
- ١٠٢ التسوية بين الناس
- ١٠٢ أمر آخر الرجوع عن الباطل
- ١٠٣ القسم الثاني: التوسط والالتزام والاعتدال
- ١٠٤ القسم الثالث: الزكاة وعدم البخل والإسراف والتبذير
- ١٠٥ الأمر بالاعتدال في الطعام
- ١٠٦ الترفه يبعث على الشر
- ١٠٦ عمر بن عبد العزيز وزهده في الطعام
- ١٠٦ خمسة أسئلة تتعلق بالجنة
- ١٠٧ أين مكان الجنة؟
- ١٠٨ وأين مكان النار؟
- ١٠٨ السؤال الثاني: من يدخل الجنة؟!
- ١٠٩ ابن عباس وتفسير معنى العلماء

١٠٩	التفكر في صنع الله عبادة
١١٠	السؤال الثالث : دخول الجنة بفضل الله
١١١	بالفضل لا بالعمل يكون دخول الجنة
١١٢	السؤال الرابع : شرط دخول الجنة عمل الصالحات ولكن !!
١١٣	العمل وفق الاستطاعة رحمة من الله
١١٣	الاستطاعة قنطرة للجنة
١١٤	السؤال الخامس : هذا هو الختام ، ختام الدرس
١١٤	حب النبي ﷺ طريق الجنة
١١٤	منزلة طاعة الله ورسوله يوم القيامة
١١٥	الوسيلة والشفاعة يوم القيامة
١١٥	المعية ومعناها
١١٧	المحاضرة الرابعة والتسعون بعد المائة
١١٧	الصدق ومزية التحلي به
١١٧	مقدمة
١١٧	الأمر بالتقوى
١١٧	كونوا مع الصادقين
١١٨	من الصادقون
١١٩	لفت النظر إلى بلاغة القرآن
١١٩	الصدق أولى بالاتباع
١١٩	بين أفلاطون وتلميذه أرسطو
١٢٠	معية الصدق هي التي تجمعنا
١٢٠	بعض المعاني البلاغية في الآية

- المعينة تقتضي النصرة ١٢١
- زمان هذه المعينة ١٢٢
- المعينة والشجاعة ١٢٢
- الإيمعة والكيان ١٢٣
- شعائر الإسلام كلها معينة ١٢٤
- حديث شريف في المعينة ١٢٤
- معينة الدنيا ومعينة الآخرة ١٢٥
- المعينة وتطهير النفس ١٢٦
- المعينة تقتضي التبادل ١٢٦
- المعينة والوحي ١٢٧
- لطائف من الكتاب العزيز ١٢٧
- الحواريون والمعينة ١٢٨
- أهل نجران والمعينة ١٢٨
- المعينة مع الصالحين دعاء ١٢٩
- حديث قدسي في المعينة ١٢٩
- حديث شريف في المعينة ١٣٠
- الصدق العملي ١٣٠
- عشر آيات في الصدق العملي : الآية الأولى ١٣١
- الآية الثانية ١٣١
- الآية الثالثة ١٣٢
- معنى قضى نحبه ١٣٣
- الآية الرابعة ١٣٣

١٣٤	الآية الخامسة
١٣٤	الآية السادسة
١٣٥	الآية السابعة
١٣٥	الآية الثامنة
١٣٦	الآية التاسعة
١٣٧	الآية العاشرة
١٣٨	بلاغة القرآن في وصفه أحوال أهل الجنة
١٣٨	بلاغة القرآن في التعبير بالألفاظ
١٣٩	المؤمن ودرجة الصديقية
١٤٠	من هو الصديق
١٤٠	طريق الصديقية ترك المعاصي
١٤٠	دليل من السنة
١٤١	الصدق طمأنينة
١٤٢	معنى الطمأنينة الرضا
١٤٢	معنى الطمأنينة زوال الخوف
١٤٢	الكذب ريبة
١٤٣	المعية عصبية للحق
١٤٤	بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد
١٤٥	المحاضرة الخامسة والتسعون بعد المائة
١٤٥	الهدف من الوجود
١٤٥	مقدمة
١٤٥	الهدف من الخلق العبادة

- الإيمان مرتبط بالعبادة والعمل ١٤٦
- الإيمان درجات ١٤٦
- حديث قدسي في زيادة الإيمان ١٤٧
- طرق الإيمان ١٤٧
- تقسيم العمل ١٥٠
- الكون محدود والسرعة محدودة ١٥١
- الإنسان وغزو الفضاء ١٥١
- حدود الذكاء والقدرة ١٥٢
- حدود الوعي الإنساني وحدود الزمان ١٥٢
- آية قرآنية تفسر خطأ ١٥٣
- مخ الإنسان وذكاءه محدود ١٥٣
- الكفر كله ملة واحدة ١٥٣
- الإنسانية والتقدم المادي طاغوتا العصر الحديث ١٥٤
- مصير الكون عند السوفيت والأمريكان ١٥٥
- الإسلام يقطع بعودة الحياة بعد فنائها ١٥٦
- اعتراض دجولين هاكسلمي ١٥٧
- الإسلام ونظريته السائدة ١٥٧
- التوحيد هو الرسالة التاريخية للإسلام ١٥٨
- الصراع بين الإسلام والمادية قديم ١٥٨
- الإسلام والغزو الفكري المادي ١٥٩
- الفرد ليس له قيمة في الفكر المادي ١٥٩
- الإسلام فردي وجماعي ١٥٩

الأسرة بين الإسلام والفكر المادي	١٦٠
الحرية والضياغ في الفكر المادي	١٦٠
انتشار الإسلام بين السود في أمريكا	١٦١
خاتمة	١٦١
المحاضرة السادسة والتسعون بعد المائة	١٦٣
الزمان بين الحقيقة والمعرفة	١٦٣
مقدمة	١٦٣
غموض مفهوم الزمان عند الفلاسفة والعلماء	١٦٣
الماديون والزمان	١٦٣
لغز الزمان وحيرة العقول فيه	١٦٤
شكسبير وغموض الزمان	١٦٤
قضايا متعلقة بمفهوم الزمان وجوانبها	١٦٥
القرآن معجزة الزمان الخالدة	١٦٦
مسألة الزمان في آيات القرآن	١٦٦
تساؤلات المفسرين عن الزمان في القرآن	١٦٧
القرافي وألفاظ الأعداد في القرآن	١٦٧
الأعداد نصوص لا تقبل المجاز	١٦٨
الأعداد توقيفية	١٦٨
الأعداد ألف وما فوقه يدل على الكثرة الكثيرة	١٦٩
القسم الثاني : المقارنة بين يوم وألف سنة	١٦٩
آراء في مسألة الزمان	١٧٠
نظرية النسبية الحديثة	١٧٠

- ١٧١ مثال مشهور في النسبية
- ١٧٢ آية الحج وتفسير الزمن بها
- ١٧٢ سرعة الملائكة وسرعة الضوء
- ١٧٣ معنى اليوم في آية سورة الحج
- ١٧٣ القسم الثالث
- ١٧٤ استشكال تصور الزمان
- ١٧٥ التصور الثاني ومبدأ الحتمية العلمية
- ١٧٥ التصور الأول يقضي على الحتمية العلمية
- ١٧٦ تصور العدد في خلق السموات والأرض
- ١٧٧ الصراع بين الإنسان والزمان صراع توظيفي
- ١٧٨ خاتمة
- ١٨٠ المحاضرة السابعة والتسعون بعد المائة
- ١٨٠ المصلحة والمسئولية
- ١٨٠ مقدمة
- ١٨٠ تمهيد
- ١٨١ مواضع روايات الحديث
- ١٨١ ترجمة أبي نعيم الفضل بن دكين
- ١٨١ ترجمة زكريا بن أبي زائدة
- ١٨٢ ترجمة الشعبي
- ١٨٢ ترجمة النعمان بن بشير
- ١٨٢ استشكال الحسن والصحة في أحكام الترمذي
- ١٨٣ أجوبة عن هذا الاستشكال

١٨٤	مراتب الحديث
١٨٤	مرتبة حديث الدرس
١٨٥	شرح معاني الحديث
١٨٥	القرعة دليل شرعي معترف به في الشريعة
١٨٥	أمثلة تجرى فيها القرعة
١٨٦	أمثلة أخرى تجرى فيها القرعة
١٨٧	الدروس والفوائد المستفادة من الحديث
١٨٧	فائدة أخرى في الحديث
١٨٨	مسئولية الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٨٨	خطر سوء استخدام الحرية
١٨٩	الحرية والمصلحة وتنظيم الشريعة لهما
١٨٩	أمثلة لتنظيم الشريعة للحرية حرية العقيدة
١٩٠	الخروج عن العقيدة خيانة عظيمة
١٩٠	مثال آخر : حرية التعبير أمر بمعروف ونهي عن منكر
١٩١	مبدأ الشورى واجب وتكليف
١٩١	العلاقة بين الحاكم والمحكومين في الشرع
١٩٢	أهمية البيعة في الشرع
١٩٢	هيئة أهل الحل والعقد وأهمية دورها في الأمة
١٩٣	دور الشريعة في حماية الأمة من الفتنة
١٩٣	مثال لذلك
١٩٣	تنظيم الشريعة لمصالح الناس
١٩٤	بين نصوص الشرع والمصالح المتجددة

- النوع الأول : المصالح المرسله ١٩٥
- مثال للمصالح المرسله ١٩٥
- مثال آخر ١٩٥
- مثال ثالث ١٩٦
- أمثلة لتعامل السلف الصالح مع المصالح المرسله ١٩٦
- نفى أهل الفساد ١٩٦
- تغليظ حد شارب الخمر في رمضان ١٩٦
- إلزام إسكان من لا مأوى له ١٩٧
- إجبار أهل الصناعات والحرف على عملها بأجر المثل ١٩٧
- تحديد الأسعار لحماية لمصلحة الناس ١٩٧
- الشروط المعتمدة في المصالح للأخذ بها ١٩٧
- أمثلة لذلك ١٩٨
- استخدام مكبرات الصوت ١٩٨
- الملك العائلي في التشريع العقاري ١٩٩
- الوصية الواجبة ١٩٩
- المالكية وشهرتهم بالمصالح المرسله ١٩٩
- النوع الثاني من المصالح ٢٠٠
- وجوب الاحتراز في هذا الباب ٢٠٠
- مثال معاصر : قضية تحديد النسل ٢٠٠
- تعدد الزوجات وهدفه في الإسلام ٢٠١
- الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ ٢٠١
- عودة إلى مبدأ تعدد الزوجات ٢٠٢

- ٢٠٢ التعارض الظاهر في الموضوع
- ٢٠٣ أمثلة من عهد الصحابة والتابعين
- ٢٠٣ نجم الدين الطوفي وتقديمه المصلحة على النص
- ٢٠٤ تفسير اجتهاد سيدنا عمر في وقف سهم المؤلفة
- ٢٠٥ تفسير اجتهاده رحمته الله في عدم قطع يد السارق
- ٢٠٥ تفسير فتوى الإمام مالك في الإرضاع
- ٢٠٥ تفسير فتواه بضرب المتهم
- ٢٠٦ الشريعة لا تتعارض أبداً مع المصلحة
- ٢٠٦ مسئولية علمائنا تجاه المستجدات الحضارية
- ٢٠٧ المحاضرة الثامنة والتسعون بعد المائة
- ٢٠٧ الإسلام دين الحق
- ٢٠٧ ما ترشد إليه الآيتان إجمالاً
- ٢٠٨ التركيز على حقيقة الدين الحق
- ٢٠٨ ارتباط الآيتين بغيرهما من آيات السورة
- ٢٠٨ الارتباط بصدر السورة
- ٢٠٩ ارتباطهما بالآية السابقة لهما
- ٢٠٩ آيات وقرائن صاحبت ظهور الدين الحق
- ٢١٠ أمية الرسول المختار ﷺ
- ٢١٠ الدين يخاطب الفطرة ويدعو إليها
- ٢١١ الفطرة عند ابن سينا
- ٢١١ ظواهر خدمة الدين عند ابن عاشور
- ٢١١ الأولى : إصلاح العقيدة والنفس والحياة

- ٢١٢ إصلاح العقيدة
- ٢١٢ إصلاح النفس
- ٢١٣ إصلاح الحياة
- ٢١٣ الثانية : الدعوة إلى الله
- ٢١٤ اتسام الدعوة بالشمول والعموم
- ٢١٥ الثالثة : أنواع الأحكام الواردة في كتاب الله
- ٢١٥ الرابعة : التيسير
- ٢١٦ الخامسة : ارتباط الشريعة بالحكم (السلطان)
- ٢١٦ محاور تنظمها الآيتان
- ٢١٨ وقفة مع المحور الأول
- ٢١٨ توجيه القراءات في الآية
- ٢١٩ معنى الدين في الآية
- ٢١٩ الحقيقة العلمية للدين
- ٢٢٠ الإسلام في الآية علم على الدين
- ٢٢٠ معنى العندية في الآية
- ٢٢١ وقفة مع المحور الثاني
- ٢٢٢ وقفة مع المحور الثالث
- ٢٢٣ اختلاف المفسرين حول الآية الكريمة
- ٢٢٣ التأويل الأول
- ٢٢٤ التأويل الثاني
- ٢٢٥ التأويل الثالث
- ٢٢٦ معنى الإسلام في الآية

٢٢٦.....	لماذا ذكر الوجه ولم تذكر النفس ؟
٢٢٧.....	﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ وما تتضمنه
٢٢٩.....	وأخيرًا : المعاملات العامة
٢٣٠.....	المحاضرة التاسعة والتسعون بعد المائة
٢٣٠.....	مجاهدة النفس
٢٣٠.....	الكلام على أصل الإنسانية
٢٣١.....	أسبقية علم الله بتناسل آدم وذريته
٢٣١.....	خلق حواء
٢٣٢.....	أولاد بني آدم
٢٣٢.....	خلق عيسى والرد على الطبعيين
٢٣٣.....	نشأة الذرية الآدمية على وجوه أربعة
٢٣٣.....	معنى المجاهدة في الآية
٢٣٤.....	معنى السبيل في الآية
٢٣٤.....	عون الله للمحسن ونصرته له
٢٣٤.....	الروح في أصل نشأتها طاهرة نزيهة
٢٣٥.....	علاقة المجاهدة بطهارة الروح ودينسها
٢٣٦.....	لفتة إلى المتصوفة
٢٣٦.....	الكلام عن رسول الله ﷺ وسيادته في الدنيا والآخرة
٢٣٧.....	عودة إلى تفسير الآية الكريمة
٢٣٩.....	المحاضرة المائتان
٢٣٩.....	الاستجابة لله ورسوله طريق السعادة
٢٣٩.....	لكل نبي من الأنبياء معجزة

- ٢٣٩ معجزة الإسلام وحي يوحى إليه
- ٢٤٠ أثر النور القرآني في القلب
- ٢٤٠ مدرسة القرآن هي مدرسة الحق
- ٢٤١ هي مدرسة الرجال والأبطال
- ٢٤١ هي مدرسة البصائر فلا تنطق عن هوى
- ٢٤٢ هي مدرسة الأنوار والبركة
- ٢٤٢ ومن خصائصها أيضًا
- ٢٤٣ الإسلام دين التطور والتجديد
- ٢٤٣ الإسلام دين الوحدة والتوحيد
- ٢٤٤ وحدة الإسلام يصدر عنها
- ٢٤٥ دور العلوم الكونية في ازدهار الحياة
- ٢٤٥ المعارضون لهذه المدرسة وخطورة مذهبهم
- ٢٤٦ مدرسة النبي محمد ﷺ أولى بالاتباع
- ٢٤٦ نهضة القرآن تكتب لأهل دعوة الحق
- ٢٤٧ الآية مدنية بطبيعتها
- ٢٤٧ جاءت الآية تأكيدًا لآيات الأنفال
- ٢٤٨ تشبيه الإنسان الذي لا يعقل بالأنعام
- ٢٤٨ هدف النداء في الآية تحقيق المصلحة
- ٢٤٩ سبب توحد الضمير في ﴿دَعَاكُمْ﴾
- ٢٤٩ معنى الاستجابة
- ٢٥٠ الاستجابة من ثمرات المحبة
- ٢٥٠ العلة في خلق الخلق

٢٥٠	نوع الاستجابة المطلوبة
٢٥١	المقصود من الدعوة في الآية
٢٥٢	الدعوة إلى تكميل الفطرة الإنسانية
٢٥٢	الدعوة إلى المعرفة
٢٥٣	الدعوة لنصرة الحق
٢٥٣	الدعوة إلى العزة والقوة
٢٥٣	الدعوة إلى الوحدة والتآخي
٢٥٤	الدعوة إلى التحرر من الهوى
٢٥٥	الدعوة إلى الإيمان بالله
٢٥٥	الإيمان هو دعامة كل نشاط
٢٥٥	من مقومات الإيمان أحكام النظام الكوني
٢٥٦	الحياة الحقيقية في الاستجابة
٢٥٧	الآية تدعو إلى حياة الجسم والقلب
٢٥٨	أداء العبادات أهم مقتضيات الاستجابة
٢٥٨	الصلاة
٢٥٩	الصيام
٢٥٩	الزكاة
٢٥٩	الحج
٢٦٠	ومن مقتضيات الاستجابة التعاون في أصول الحياة
٢٦٠	ومنها : تنظيم الدفاع عن الدين
٢٦٠	حديث أبي بن كعب الأنصاري
٢٦١	من لا يستجيب لا يستجاب له

- الله ﷻ يحول بين المرء وقلبه ٢٦٢
- الله ﷻ يقلب القلوب ٢٦٣
- الاستعارة في الآية ٢٦٤
- عاقبة التباطؤ في الاستجابة ٢٦٤
- الثابت من ثبته الله ٢٦٤
- معنى آخر للآية ٢٦٥
- الله خالق كل شيء بقدر ٢٦٦
- الإيمان منحة من الله للعبد ٢٦٦
- القدرية وإثبات الاختيار التام ٢٦٧
- الجبرية نفوا الاختيار تمامًا ٢٦٧
- المعتزلة : الخير إلى الله والشر إلى العبد ٢٦٧
- عقيدة أهل السنة في فعل العبد ٢٦٨
- ارتباط الإنسان بالطبيعة ٢٦٨
- عقيدة القضاء والقدر نظام كلي شامل ٢٧٠
- لا يجوز الاحتجاج بالقدر على الضلال ٢٧٠
- من حكم الإيمان بالقدر ٢٧٠
- القدر سر من الأسرار ٢٧١
- معنى الفتنة ٢٧١
- التحذير من التراخي في الاستجابة ٢٧٢
- مقتل عثمان رضي الله عنه وما تبعه من الفتن ٢٧٢
- النجاة في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ٢٧٣

٢٧٤.....	المحاضرة الأولى بعد المائتين
٢٧٤.....	التوبة
٢٧٤.....	مقدمة
٢٧٤.....	نص الحديث
٢٧٥.....	نبذة عن معاني الحديث مجملّة
٢٧٦.....	شرح الحديث
٢٧٧.....	معنى آخر تشتمله الجملة
٢٧٨.....	صور استجابة الله للدعاء
٢٧٨.....	أيهما يغلب الإنسان : الخوف أم الرجاء؟
٢٧٩.....	كان النبي أكثر الناس استغفارًا
٢٧٩.....	الفريق المرجح للرجاء
٢٨٠.....	تغليب الخوف أولى إلا في وقت الاحتضار
٢٨٠.....	أعظم نعمة جاءتنا بغير مسألة
٢٨١.....	يجب ألا نأمن مكر الله
٢٨١.....	النبي رغم علو مكانته يسأل الله
٢٨١.....	المقامات العالية
٢٨٢.....	ينبغي أن يطلب الإنسان المزيد من الكمال
٢٨٢.....	الفرق بين الظن والوهم
٢٨٣.....	يجب أن يحسن الإنسان ظنه بربه
٢٨٤.....	التوفيق إلى الذكر دليل محبة
٢٨٥.....	هل الملائكة أفضل من البشر؟
٢٨٥.....	النبي أفضل الخلق بالإجماع

- ٢٨٦ تفضيل النبي على المخلوقات تفضيل لأُمَّته على الأمم
- ٢٨٧ ماذا يقصد بالملأ في الحديث؟
- ٢٨٧ فرحة الله بعبده حين يتوب إليه
- ٢٨٨ شروط التوبة المقبولة
- ٢٨٨ التوبة لغة وشرعاً
- ٢٨٩ تعريف الأصهباني للتوبة
- ٢٩٠ الناس مع التوبة أربعة أقسام
- ٢٩١ شؤم المعصية على قلب العبد
- ٢٩٢ بريد الكفر
- ٢٩٢ معنى الكفر في الآية
- ٢٩٣ مثال واقعي
- ٢٩٤ الفلسفة الإسلامية في باب التوبة
- ٢٩٥ مدينة أفلاطون الفاضلة
- ٢٩٥ مدينة ماركس الفاضلة
- ٢٩٥ التشاؤم عند اليهود والنصارى
- ٢٩٦ وسطية الإسلام في مطالب الجسد والروح
- ٢٩٧ عداوة الشيطان الأبدية للإنسان في الأرض
- ٢٩٨ بعض مظاهر الإغواءات الشيطانية
- ٢٩٩ العلاج القرآني لكيد الشيطان
- ٣٠٠ بعض المعاني في الآية الكريمة
- ٣٠٠ النداءات المعنوية في الآية الكريمة
- ٣٠١ كلام ابن عباس وابن مسعود حول الآيات
- ٣٠١ ما ترشد إليه الآيات

٣٠٣.....	المحاضرة الثانية بعد المائتين
٣٠٣.....	﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
٣٠٣.....	نبذة حول العنوان
٣٠٣.....	مراتب هذه الأدلة
٣٠٤.....	الاستدلال بحديث معاذ
٣٠٤.....	صنيع أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٣٠٤.....	صنيع عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٣٠٤.....	الدليل على حجية الإجماع
٣٠٥.....	أنواع الأدلة الشرعية
٣٠٥.....	الأدلة النقلية
٣٠٥.....	الأدلة العقلية
٣٠٦.....	العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح
٣٠٧.....	الأحكام المنصوص عليها قسمان
٣٠٨.....	الأحكام التي لم ينص عليها نوعان
٣٠٨.....	القياس وأهم أركانه
٣٠٨.....	متى يلجأ المجتهد إلى القياس
٣٠٩.....	نصوص صرحت بالعلة للحكم
٣١٠.....	نصوص لم تصرح بعلة الحكم
٣١٠.....	تعريف الاجتهاد وأهدافه
٣١٠.....	من هو المجتهد؟
٣١٠.....	والفرق بين الاجتهاد والقياس من وجهين
٣١٠.....	الأول

- الوجه الثاني ٣١١
- محل الاجتهاد ٣١١
- مثال الوقائع التي لا نصّ فيها ٣١٣
- الأحكام التي ليست محلاً للاجتهاد ٣١٣
- شروط المجتهد ٣١٤
- ترتيب الشاطبي للباحثين ٣١٦
- ليس المقصود من العلم باللغة الجمع الشامل ٣١٦
- لا يشترط للمجتهد العلم بجميع الآيات ٣١٧
- يجب العلم بالناسخ والمنسوخ ٣١٧
- أمر يقتضيها العلم بالقياس ٣١٩
- أنواع الاجتهاد ٣٢٢
- حكم التقليد ٣٢٣
- هل يجب على المقلد التزام مذهب معين؟ ٣٢٦
- العامي لا مذهب له ٣٢٨
- ما الحكم فيمن قلّد إماماً وأراد تقليد آخر؟ ٣٢٨
- العصبية البغيضة للمذهب ٣٢٩
- بضاعة أمتنا أفضل بضاعة ولكن لمن يفقه!! ٣٣٠
- الخلاصة ٣٣١
- المحاضرة الثالثة بعد المائتين ٣٣٢
- الطفل في الإسلام ٣٣٢
- في ظلال الآية الكريمة ومعانيها ٣٣٢
- في ظلال لفظ «الهبة» ٣٣٢

٣٣٣	التقديم والتأخير للفظ الإناث والذكور
٣٣٤	اهتمام الإسلام بالطفل نطفة
٣٣٥	تحريم الشرع الكريم للزنا
٣٣٥	إباحة الإفطار في رمضان للحامل
٣٣٥	حقوق الطفل بعد الولادة
٣٣٥	الأذان والإقامة
٣٣٦	التحنيك والعقيقة
٣٣٦	التسمية بالاسم الحسن
٣٣٧	الاهتمام بنسب الطفل
٣٣٧	نفقة اللقيط
٣٣٨	دين اللقيط
٣٣٨	تعليم اللقيط وتهذيبه
٣٣٨	الطفل مجهول الوالد أو ابن الزنا
٣٣٩	الفجوة بين الشريعة والقانون
٣٣٩	أمثلة على البون بين الشريعة والقانون
٣٤٠	المثال الأول : الشهود في عقد النكاح
٣٤٠	الزواج بدون عقد إشهاد
٣٤١	الإشهاد على الزواج في المذهب المالكي
٣٤٢	مثال آخر : الزواج بغير ولي
٣٤٣	حق الطفل الناتج عن زواج فاسد
٣٤٤	التلقيح الصناعي وأثره على حقوق الطفل
٣٤٤	إشارة العلماء إلى التلقيح الصناعي في كتبهم

- ٣٤٥ العلم الحديث وظهور النماذج الأولى للعملية
- ٣٤٥ فتاوى علماء الإسام في المسألة
- ٣٤٦ أساليب التلقيح الصناعي وصوره
- ٣٤٧ قصور المحاولة من عدة جوانب
- ٣٤٩ مثال واقعي
- ٣٤٩ من اتهم زوجته بالزنا ونسب الولد لنفسه
- ٣٥٠ الغاية لا تبرر الوسيلة
- ٣٥١ الآية تحتاج إلى مزيد بحث
- ٣٥٣ المحاضرة الرابعة بعد المائتين
- ٣٥٣ التغيير وأسبابه
- ٣٥٣ آيات المواكبة في القرآن
- ٣٥٤ آيات السنن الكونية في القرآن
- ٣٥٤ أمثلة على آيات المواكبة
- ٣٥٥ أمثلة على الآيات الكونية
- ٣٥٥ التغيير سنة كونية
- ٣٥٦ طرف من نعم الله وجزاء شاكرها وكافرها
- ٣٥٧ دوام النعمة يقتضي التمسك بمنهج الله الصحيح
- ٣٥٧ سؤال مهم!
- ٣٥٨ وعد الله المؤمنين بالنصرة
- ٣٥٨ سبب تخلف النصره عنا
- ٣٥٩ أدلة تظهر سبب تأخرنا
- ٣٦٠ النعمة منوطة بالعمل الصالح

٣٦١	عدل الله ﷻ مع عباده
٣٦١	تكريم الله ﷻ للإنسان
٣٦١	عود التبعة على الإنسان لانحرافه عن الطريق
٣٦٢	وجوه التغيير
٣٦٣	التغيير إلى الأدنى
٣٦٣	وجود هذا النوع في الفرد والجماعة
٣٦٤	المجتمع الإسلامي قد يضعف لكنه لا يموت
٣٦٦	دليل من السنة
٣٦٦	اختلاف أصول التغيير بين المجتمعات
٣٦٦	أوربا المادية والتفكك والانحلال مع التكنولوجيا
٣٦٧	ظهور التغييرات الإيجابية
٣٦٨	مراحل التغيير في بلاد الإسلام
٣٦٨	الأولى : جهاد ومقاومة
٣٦٨	الثانية : تقليد الغرب والسير على نهجه
٣٦٩	عقاب الله للأمة بسبب الانحراف عن منهجه
٣٧٠	سبيل التغيير المنشود بكون بأمرين
٣٧٠	إقامة العدل ونشره
٣٧٠	الحد من هجرة العقول المفكرة
٣٧١	فهرس الموضوعات

نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الثالث عشر

المحاضرة الخامسة بعد المائتين

كيف صاغ القرآن الكريم شخصية النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]

تأثير القرآن على تكوين شخصية المصطفى ﷺ:

قد يتبادر إلى الأذهان أن وظيفة النبي ﷺ بالنسبة للقرآن الكريم كانت هي إبلاغ هذا القرآن الكريم دون أن يغير فيه أو يبدل، إن الله تبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، لقد اختار المصطفى ﷺ لحمل هذه الرسالة، ولتلقى هذا القرآن وللتأثر به كأخصب قلب يمكن أن يتأثر بالقرآن الكريم، ومن هنا كان القرآن يؤثر أثره بادئ ذي بدء على نبينا - صلوات الله وسلامه عليه.

إن القرآن الكريم كتاب حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، لكن كيف لنا أن نتصور أن تنزل سورة كبيرة في ليلة من ليالي مكة أو من ليالي المدينة سورة كسورة الأنعام مثلاً، قوامها خمس وستون ومائة آية تنزل دفعة واحدة في ليلة واحدة، وتتناول العالم كله مبدأه ومعاشه ومعهاده، تتناول الرسائل السماوية كلها، تتناول كل ما تجتمع عليه الأنبياء والمرسلون لتصفى هذا كله لنبينا ﷺ، حيث يتأثر به أولاً ثم ينقله إلينا من بعد، وحيث تكون هذه السورة بمثابة الرحلة القلبية والعقلية والوجدانية يسير معها النبي ﷺ خطوة خطوة حتى يفضي إلى ما نقرؤه جميعاً في نهايتها أو قبيل نهايتها: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ

صَلَائِي وَنُكُي وَمَحَايَ وَمَعَايَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

أهمية هذه الآيات في حياة المسلم:

إن هذه الآيات الثلاث تمثل خلاصة للمسلم الأول، ولما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم في هذه الحياة، تمثل النموذج الكامل للإنسان، وليس هناك أكمل من شخصية المصطفى ﷺ، ويني أن المرء حينما يصل إلى هذا المستوى أو قريباً منه فقد أصبح عنصراً فعالاً، يمكن أن يسهم في تربية الفرد وفي تنمية المجتمع، فسوف نعبر ونعيش خاشعين مع بعض آيات هذه السورة لنأخذ منها فقط بعض الأمثلة: كيف تأثر النبي ﷺ؟ وكيف كان النبي - صلوات الله وسلامه عليه؟ - وكيف كان تأثير المصطفى ﷺ على الساحة الإنسانية منذ أشرق شمس، ومنذ طلع قمره إلى يوم الناس هذا؟

إطلالة على آيات سورة الأنعام:

تبدأ السورة بالحديث عن خلق السموات والأرض، وعظمة الخالق، ثم يفضي الحديث إلى إثارة من علم عما واجه به المشركون دعوة المصطفى ﷺ، وكيف كذبوه؟ وكيف أعرضوا عنه؟ وكيف سخروا منه؟ ثم تقف الآيات بحديث مباشر بين الله وبين نبيه ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، حقيقة كونية أن هذا الذي يحدث من مشركي مكة ليس بدعاً، فكم سخر الساخرون من المرسلين، وكم طلبوا الآيات تعنتاً وسخرية، وكم ناووا وعادوا، ولكن ما الذي حدث؟ هل صنعوا ما صنعوا وهم بمنجاة عن

قدرة من أرسله؟ كلا ، لقد سخروا ما سخروا ، لكن حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، اتل عليهم هذه الآية فإذا كذبوا أو كانوا في مرية من ذلك ، فقل لهم : سيروا في الأرض ثم انظروا ، عيشوا مليًا لا تستعجلوا ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

النبي ﷺ معلم وداعية :

قد حدد القرآن شخصية المصطفى ﷺ ومهمته في نحو قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ۝ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] ، ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ، كمعلم وكداعية أثر سؤالاً ، خذ منهم انتباهاتهم ، ﴿ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولا تنتظر منهم أن يجيؤك ، فهم معاندون ، ونحن لا نأخذ منهم المعلوم ، ولكن اصدع عليهم بالحقيقة ، لا تنتظر منهم جواباً ، أعلمهم ، لكن تخير جواباً لا يحاول فيه محاول أن يجادل ، تخير جواباً مفحماً ، ﴿ قُلْ لِلَّهِ ﴾ ، وستجابه بأسئلة أخرى بعد أن تقول : لله ، سوف يقول قائل : والقرآن يخاطب به المؤمن ويخاطب به الكافر ، ربما قال قائل : كيف يمكن أن نجد في أنفسنا مبرراً لعطاء الله وإحسانه على البر والفاجر ، على المؤمن والكافر ، فلا تقتصر على الكلمة الأولى ، وإنما اشفعها بكلمة أخرى ، هي : ﴿ كُنْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ رحمة ، لا تستعجلوا ، إن الله رحمن رحيم ، إن الرحمن هو ذو الرحمة الواسعة ، وإن الرحيم هو ذو الرحمة الدائمة ، ومظهر الرحمة الواسعة هنا في الدنيا يعم بها البر والفاجر والمؤمن والكافر ؛ لأن رحمته سبقت غضبه ، ولكن هذا الكون

الذي تحدثت عنه الكلمة الأولى ، قل لله ، فيه ماذا؟ فيه كل هذه الكائنات كل كائن يمكن أن يوجد بصفة ضد الصفة التي وجد عليها ، من الذي اختار؟ ومن الذي أبرز؟ إن هذا الاختيار وهذا الإبراز لابد وأن يرجع إلى قادر عليم مختار حكيم ، وهذا القادر العليم المختار الحكيم لا تزول عنه قدرته ولا علمه ولا إرادته ولا حكمته ، ولقد كتب أن تسبق رحمته غضبه ، ثم كتب أن يكون من ضمن رحمته أن يرسل الأنبياء والمرسلين ليبينوا للناس المنهج الأقوم في هذه الحياة حتى لا يضلوا السبيل ، وحتى يكون هناك يوم آخر لا ريب فيه ؛ لأن هنا بعض من سوف يظلم دون أن يأخذ حقه أو بعض من يظلم دون أن يجازى بظلمه ، ومن هنا فقد اقتضت حكمة الله الذي ملك مبدأ العالم وملك أيضًا مسيره أن يملك مصيره .

يوم القيامة من أدلة القدرة مكانًا وزمانًا :

تأتي الجملة الثالثة لتحدثنا عن يوم القيامة حديث الواثق المؤكد الموقن : ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء : ٨٧] ، تأتي هذه الجمل الثلاث في هذه الآية الكريمة لتحل مشكلة اعتاص حلها على فلاسفة العالم شرقه وغربه : مما كان هذا العالم؟ وكيف يسير؟ وإلى أين ينتهي؟ ﴿قُلْ لِلَّهِ كُنُودٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ، فمن استطاع أن يظفر بالنهج الأسمى الذي جاء به الأنبياء والمرسلون وقوم به حياته ؛ لأنه هو النهج القيم ، ولأنه هو النهج القيم فقد أفلح ونجا وفاز ، وأما من نأى وأعرض بجانبه ، فالذين خسروا أنفسهم ، فأولئك هم الذي لا يؤمنون ، والذين سوف يخسرون الخسارة الحقيقية يكون هذا الخسار في الآخرة لا في الدنيا ، هذا هو المجال المكاني

تحدث عنه هذه الآية ، وتؤثر تأثيرها فيمن يجابه القوم بمثل هذه الآيات حتى يستقطب قلوبهم لدين الله ولنهجه ، لكن الصورة لا بد أن تكتمل ، إن الاقتدار الإلهي على المجال المكاني لا بد أن يشفع باقتدار إلهي على المجال الزماني ، ومن هنا جاءت الآية تشير وتشير بأن القادر والممتلك لخاصية المجال المكاني في الكون هو الممتلك لخاصية المجال الزماني في الكون .

تسليية الله ﷻ لنبيه مما يجده من أذى :

تأتي الآية الثانية ، وتقول : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي آلِيلٍ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام : ١٣] ، لكن كلمة السميع العليم تأتي لتحفر حفرها في نفسية المصطفى ﷺ ، لقد سيقّت الآيات في معرض السلوى عن التكذيب وعن السخرية ، ومن هنا كان لا بد أن تأتي هذه الآية بحديث عن أن الله يسمع ويرى ويعلم ما يصنعون وما يدبرون ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس : ٧٦] ، تأتي هذه الآية إذن لتشير نبينا ﷺ أن الله معه وليزداد بهذه المعية إقبالا على الدور الذي وكل إليه ونيط به ، ثم ليزداد نشاطا في حمل الرسالة والصدع بها ، ومن هنا تأتي هذه الآية بمثابة ما يطمئن قلب النبي ﷺ بمثابة ما يشيع في نفسه الرضا عن الله ﷻ والثقة في نصره ، وهو السميع العليم ، الثقة في ماذا أيضا؟ في أن الله سوف يتولى كل أمره ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَئِنْ جُنَدَانَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [الصافات : ١٧١-١٧٣] .

لله الخلق والأمر:

تأتي الآية الثالثة لتكمل السورة أكثر وأكثر ، قل بعد هذا كله ، أبعد هذا كله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام : ١٤] ومن هو الله؟ فاطر السموات والأرض ، وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم .

لقد أثبتت الآيتان الأوليان أن الله له الخلق ، فهل له الأمر أيضًا؟ إن الآية الثالثة تثبت أن له الخلق والأمر ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤]! ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام : ١٤] يلي أمري ويلي نصري ويتولى حراستي ورعايتي ، ويتولى الزيادة عن دينه وعن كل المسيرة الإسلامية .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام : ١٤] يحفظني في ليلي ونهاري ، ويحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن أمامي وعن يميني وعن شمالي ، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ كما تتخذون ، ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٤] خالقهما ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : ١٤] .

انظروا ، إن هذا الإله هو الغني ، ونحن الفقراء ، إنه الذي يطعمنا دون أن يُطْعَم هو ، هو الذي منحنا دون أن نمنحه شيئًا ، إنه الذي يعطينا دون أن نعطيه شيئًا .

الأمر بالإسلام نهي عن الشرك:

تأتي الآية لتعلمنا بحقيقة هامة أن المعلم ينبغي أن يشفع قاعدته بالمثال أو أمره وتوجيهه بالتطبيق ، ومن هنا يقول النبي ﷺ كما يعلمه القرآن الكريم : ﴿ قُلْ إِنِّي ﴾ بعد هذه المقدمات كلها : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام : ١٤] ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤] .

إن الأمر بالإسلام نهي عن الشرك ، لكن حتى لا يكون هناك أي طماعية من غير المؤمنين أن يستجيب لهم النبي بأية صورة من صور الاستجابة ، فقد جاء الأمر وأعقب بالنهي ، حتى يكون ذلك من ربنا تبارك وتعالى دليلاً على أن من يُربِّينا بإحسانه وبإنعامه لا ينبغي أبداً أن نفرط في طاعته وفي ولايته ، وأن من له الملك والجبروت والقوة لا ينبغي مطلقاً أن نشرك به أو أن نواجهه بعداوة ، ومن هنا تأتي هذه الآية لتكامل في شخصية المصطفى ﷺ حتى يستطيع أن يواجه معترك الشر ، يعطيه حجمه دون أن يبالغ في هذا الحجم ، ثم يأخذ طريقه رويداً رويداً نحو الغاية التي وظفه الله تبارك وتعالى لها دون أن يشغله شاغل من سخرية الساخرين أو مكر الماكرين .

وحي الله لنبيه ليرد افتراء المشركين:

الآيات تمضي شيئاً فشيئاً لتعطينا في آية رابعة أن النبي ﷺ كان قوياً أقوى ما تكون القوة ؛ لأنهم حاولوا أن يتظاهروا بأن هذا النبي ﷺ لو كان نبياً فلماذا لا يُنزل الله ملكاً يُصدق ، أو لماذا لا يُنزل كتاباً عليهم يقرءونه ، وإذا برئنا تبارك وتعالى يلحقن - وكلمة قل ، كلها تلقينية - نبينا ﷺ كيف يواجه هذه المسألة : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً ﴾ [الأنعام : ١٩] ا طرح عليهم السؤال مرة أخرى واستشر انتباههم ، فلن يكون هناك أعظم من الله شهيداً ، وكفى به شهيداً ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٩] بماذا؟ بهذا القرآن الكريم ، إن الله الذي ليس كمثله شيء أيضاً ليس كمثله كلامه شيء ، ومن هنا عجزتم عن أن تباروا هذا الكلام وأنتم أفصح البلغاء وأبلغ الفصحاء ، كيف بهذا العجز إذن؟ لا بد أن يكون عجزكم هذا شهادة لي بأني صادق عمن أرسلني ، ولا بد أن يكون

هذا الكتاب الذي أرسلني الله به شهادة ممن أرسلني به حيث عجزتم عنه ،
 إني صادق فيما ادعيته أنني رسوله ، ومن هنا كأن هذه المعجزة تقول في
 صراحة ووضوح : صدق عبدي في كل ما يبلغ عني : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد : ٤٣] ، ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾
 [الأنعام : ١٩] ، ثم ماذا؟ ثم يقول ﷺ : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ ،
 يعني لأخوفكم إن لم تكونوا معه ، إن لم تؤمنوا به ، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني :
 لأخوف به أيضًا من بلغه هذا القرآن ، ومن هنا كان محمد بن كعب
 القرظي ، يقول : من بلغه القرآن فكأنها رأى النبي ﷺ .

الاهتمام بقضية التوحيد وتعميقها في النفس :

كأنك يا محمد بعنايتك بهذا الكتاب وباهتمامك وتهمك بإبلاغ هذا
 الكتاب لمن لم يبلغه كأنما تريد أن تسهم في أن يعايش كل منا ضوء النبوة
 كأنما يرى النبي ﷺ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ، ثم يسافه -
 صلوات الله وسلامه عليه- تعليمًا من الله ويعجب من شأن هؤلاء : أئنكم
 بعد هذا كله لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل لا أشهد ، لماذا؟ لأنكم
 على باطل ، ولأنكم لو كنتم على حق لشهدت معكم ، أئنكم مع هذا
 البرهان النير لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل : لا أشهد ، ولا تكتف
 بذلك يا محمد ؛ لأن القضية قضية التوحيد ، وهي في مزيد حاجة إلى
 تعميق وإلى تأكيد ، قل بعد هذا : قل إنما هو إله واحد ، لا تكتف بأن لا
 تشهد سلبًا وإنما أثبت القضية ، أثبت قضية التوحيد ، قل : إنما هو إله
 واحد ، ولا تكتف بمجرد الإثبات ، وإنما اقطع عليهم خيط أوهامهم ،
 فربما تصور متصور أنك تأتي مرة لتداهنهم أو لتوافقهم أو لتشايعهم
 ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ١٩] الآن وفي المستقبل .

حزن النبي ﷺ وهمه وإشفاقه على أمة الدعوة:

تمضي الآيات بعد هذه المقدمات الأربع لتُحدّث عن شيء هام ربما كان يُخشى على النبي ﷺ أن يصرفه أو أن يوقف مسيرته ، مسألة الحزن مِنْ وَعَلَى ، كان النبي ﷺ يحزن منهم ، ثم كان يحزن عليهم ، وقد عالج القرآن هذه المسألة علاجاً كبيراً لماذا؟ لأن الحزن النفسي لو استبد بالداعية المعلم ، ولو استبد بالمرء لربما قتله ، ومرض الاكتئاب العصري ، ضيق النفس ، التفكير في الانتحار ، إنما يأتي بعيداً عن الإيمان ، ومن هنا كانت عناية القرآن بأن يجعل نفس النبي ﷺ أقوى ما تكون فيما يتعلق بالحزن عليهم حسمت الأمر ، أنت تحزن عليهم ، لماذا؟ لأنهم لم يؤمنوا ، لكن ليس عليك هُداهم ولكن الله يهدي من يشاء ، أنت تهدي ، نعم أنت تهدي هداية بيان ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] .

لكن خلق الهداية بالفعل ، أن يكونوا مهتدين بالفعل ، حتى ولو كانوا ذوي القربى ليس ذلك إليك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

يكفيك مثلاً أن الله عليم بما يصنعون ، يكفيك أن الله سوف يتولى أمرهم ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] ، كل هذا يأتي في سورة الأنعام ويأتي في غير سورة الأنعام .

تسليّة الله لنبيه بعد تعرضه لافتراء المشركين:

يأتي حديث كأنما هو حديث النجوى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] ، ليحزنك الذي يقولون بالنسبة لك ، ما أفظع ما

كانوا يقولون، يقولون: كذاب، مجنون، ساحر، أمور لا يمكن أن تُقبل، لكن لو انصرف النبي ﷺ إليها أو لو ذهبت نفسه معها لربما تفرقت نفسه حسرات وحسرات؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، قد نعلم في سورة لا ينقضي منها الفكر قد نعلم بعظمتنا: إنه ليحزنك الذي يقولون، فلا تحزن، لماذا؟ فإنهم لا يكذبونك أنت، إن المعركة ليست معك يا محمد، إنها مع الله فإنهم لا يكذبونك أنت؛ لأنك الصادق الأمين، أنت الصادق المصدوق لم تكن مجرد صادق وإنما كنت الصادق كأنما كنت الفرد الكامل في الصدق إنك الصادق المصدوق فإنهم لا يكذبونك لأنهم يعلمون جيدًا أنك الصادق المصدوق، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] يجحدون يعني ينكرون ما يعرفون أنه حق، لقد قال أبو جهل، ويا بؤس ما قال، ويا بؤس ما ينتظره: لقد كنا كفرسي رهان نحن وبنو عبدالمطلب، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقونا، يعني كان من الممكن أن نجاريهم، وأن نصنع مثل ما يصنعون، فأما أن يأتي محمد، ويقول: إنه نبي، فكيف لنا بالنبوة، لا، هذه لا نسلم بها، لقد سئل أبو جهل أتكذب محمدًا؟ فقال: لا، ولكن أكذب ما جاء به، يعني لا أريد أن أسلم أنه نبي، لكنني أصدق أنه صادق، كيف يمكن أن يكون هذا المنطق المتعارض؟ ومن هنا تولى الله نفسية نبينا ﷺ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] من تكذيب، فلا تحزن؛ لأنهم لا يكذبونك، والآية فيها احتباك؛ لأنه يحذف من المقطع الأول ما يذكر في الثاني، ويحذف من الثاني ما يذكر في الأول، فتبدأ هذه الآية ثم تدلف به رويدًا رويدًا إلى ما سبق من الأنبياء

والمرسلين وكيف واجهوا هذا الأمر ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] يعني فاصبر .

الصبر الجميل من قبل النبي ﷺ:

لقد كان نبينا ﷺ يصبرُ نفسه لكنه حسب مقامه الأسمى لم يكن يصبر صبرًا عاديًا ، وحسب مقامه الأسمى أيضًا لم يكن يصفح عن أعدائه صفحًا عاديًا ، إنما كان يصفح صفحًا جميلًا ، وكان يصبر صبرًا جميلًا ، كما علمه الله تبارك وتعالى ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] ، ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] ، في «سورة الحجر» : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] ، هنا حزن على من لم يؤمن ، لكن هذا الأمر يسبق بسوابق ، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] بالعدل ، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] ، لك مهمة ، إن ربك هو الخلاق العليم .

حث الآية على الحلم وسعة الصدر:

حينما تلقيت حديث النبي ﷺ الجامع لمن جاءه يوصيه بوصية جامعة : «أوصني ، لا تغضب ، أوصني : لا تغضب ، أوصني ، يردد مرارًا لا تغضب»^(١) ، كنت أقول كيف ، وكنت أقرأ ، لكنني لم أقتنع بمعنى هذه الجملة الجامعة إلا حينما قرأت قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦] ؛ لأن هذه الآية الكريمة تأتي في معرض الترقى بالنبي عن أن يحزن أو أن

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يضيق صدره وسوف يأتي أيضًا ، لأن هذه الآية تعالج الأمرين جميعًا ؛ لأنه في آخر «سورة الحجر» : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] إذن هذه الآية تعالج الأمرين جميعًا ، لا تغضب لماذا؟ لأن ربك هو الخلاق العليم ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات : ٩٦] .

التسلي بقدر الله على قدر الله :

كان نبينا ﷺ حينما يواجه عدوه يقول : «يا رب ، اللهم أنت ربُّنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم»^(١) ، هذه الإحاطة في القدرة هي التي كانت تصوغ شخصية المصطفى ﷺ ، ثم كان يقرأ عن الله قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات : ٩٦] ، يعني خلقكم وخلق أعداءكم وما يعملون وما تعملون ، إذن هذا الذي وُوجه به ﷺ في مسيرته لو شاء الله لما كان ، حين يعود الفكر بالحدث إلى أن الخالق والمؤثر هو الله ﷻ ، فلن يأسى نفسيًا ، هو سوف يواجه الحدث بما يعالجه أو بما ينبغي أن يتصدى له بكل الحكمة ، لكن الذي عني به القرآن هو الناحية النفسية ونفسية الرسول ﷺ ؛ حتى لا تؤثر على المسيرة ، وحتى لا يقف أمر التفكير أو يُشل أمر الدعوة ، ومن هنا كان لابد أن يعي النبي ﷺ هذه الحقيقة ليعيها كل منا حينما يواجه بسفاهة أو حماقة أو بغدر أو بمكر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٨٦] .

(١) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (٥ / ٢٤٨) ، والبيهقي في «الكبرى» (٩ / ١٥٢) من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه .

نعم الله أكبر مقارنة بالبلاء:

هذا الذي أوديت به يا محمد بلاء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، نعم ، لكن هذا البلاء يقتضيك أمراً هاماً أمراً نفيساً تعيش به مع نفسك ، إن هذا البلاء شدة ، محنة ، لكن ألم يعطك الله منحي ، ألم يعطك الله نوالاً ، ألم يُنعم عليك بنعمة أو بنعم يتضاءل أمامها هذا الذي قد ابتليت به؟ بلى ، ومن هنا تأتي الآيات التالية بعد الحديث عن الابتلاء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧] فأَيُّ عطاء بعد هذا العطاء ، وأي تذكر لمحنة أمام هذا العطاء؟ إن هذا التذكر لهذا المنح يجعل المحنة تنقلب إلى منحة ، وحيث تنقلب إلى منحة يفكر النبي ﷺ ويفكر كل من يأتي به أن يشكر الله بدل أن يجزع ، ولهذا قال العلماء إن قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وهو يشير إلى معنى : فلا تحزن ، نهياً عن الحزن ، أن النهي ليس عن أمر فطري ؛ لأنه لا بد للمرء أن تتغير طبيعته ، لكن النهي نهى عن الاسترسال في الحزن الذي يُفضي بالمرء إلى الجزع ، الذي يُفضي بالمرء إلى عدم الصبر ، الذي يفضي بالمرء إلى قطع العلاقة بينه وبين الله رويداً رويداً ، وربنا تبارك وتعالى من رحمته حريص أوكد الحرص على أن تظل علاقتنا به بمقتضى رأفته وبمقتضى رحمته ، خصوصاً إذا كان الموجه إليه زعيماً رئيساً نبياً رسولاً قائداً معلماً موجهاً ، ومن هنا عُنيَت الآية بأن تركز على الإنعام ، وهذا الإنعام الذي أعطيه ﷺ القرآن العظيم والسبع المثاني لا يمكن أن يوازي أو يُسامى بإنعام آخر .

علاج الآية لأفتي الحقد والحسد:

جاء الحديث الآخر: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] أصنافاً منهم، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، لا تمدن عينيك بهذا العطاء الإلهي إلى ما أنعم الله به على غيرك، وهذه أجمل ألوان العلاج للحقد والحسد، والأخوة لا تتقطع أواصرها إلا بالحقد والحسد، وحينما ينظر كل منا إلى من هو أقل منه في العطاء المادي فسوف يُحس بنعمة الله عليه، ومن هنا وُجه نبينا ﷺ إلى أن ينظر إلى عطاء الله له، هذا العطاء الروحي الذي يتضاءل أمامه كل عطاء مادي، حتى لا تذهب نفسه حسراتٍ أو همماً أو غمّاً من ناحية، وحتى لا ينظر إلى ما متع الله به غيره من الدنيا بنظرة قد تفتح باباً للحقد أو الحسد، ومن هنا قال علمائنا وفي ضوء توجيهات المصطفى ﷺ: إنه كلما نظر المرء إلى من كان أشد منه بلاء كلما أحس برحمة الله عليه وبنعمته، وكلما نظر إلى من هو أقل منه عطاء كلما أحس بنعمة الله المادية عليه فلم تمتد عينه بحقد ولا بحسد، لماذا؟ لأن هذا الأمر متأسس على إيمان بالله الحكيم، ونحن نؤمن بأن الله تبارك وتعالى أنعم على من أنعم وقضى لكل ما قضاه وقدره لمن قضى له وقدره بمقتضى علم وحكمة واختيار، وقد جاء في الإيمان كما أعلمنا المصطفى ﷺ: «أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ كُلِّهِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ حُلُوهُ وَمَرُّهُ»^(١)، ولا شك أن هذا داخل ضمن هذه الجزئية من جزئيات الإيمان، ومن هنا كان هذا الإيمان عامل علاج لكل ما يمكن أن يغشى النفس من غواشي الحقد أو الحسد.

(١) سبق تخريجه .

جرعة إيمانية علاجية لضيق الصدر:

يأتي قوله تعالى توجيهًا خاصًّا لنبينا المصطفى ﷺ ومناجاة أخص وأخص: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

لقد ذكرت كلمة الرب هنا لتذكر النبي ﷺ بالإنعام والإحسان.

التسبيح:

كيف يمكن أن يكون التسبيح علاجًا لضيق الصدر؟ وما أكثر ما يضيق المرء هنا بكثير من المواقف من غيره، إن التسبيح أولاً هو تنزيه الله عن كل نقص وإثبات كل كمال لله، ويذكر عندما يرى المرء جمالاً فائقاً، أو عندما يرى أمراً يفوق الحد في القدرة، كما جاء في أمر الإسراء والمعراج ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فسبح يعني فنزهه ربك هنا عن أن يعجز عن أن ينال منك عدوك ما دمت معه؛ لأنه القادر، ولأنه المسيطر.

السجود:

إذا كان أمر ربك كذلك، وقد عرفت عنه في سورة الأنعام ما عرفت، وعرفت ولايته لك فاحمد ربك على أن أنعم عليك بما أنعم، بما يتضاءل أمامه أي بلاء مهما اشتد ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨] لا تهرع إلى بشر إلى مخلوق كن من الساجدين، يعني كن من المصلين؛ لأن الصلاة هي جوهر الدين، ولأن السجود هو المجال الذي يكون فيه المرء أقرب ما يكون إلى الله ﷻ، فإذا كنت في شدة فلا تضق لكن الجأ إلى الله، وعندك

السجود ادعُ به شئت ، وهو الذي يفرج عنك ، ولا تقتصر على الصلاة فحسب ، وإنما اجعل حياتك كلها معبداً ، حيث تكون في إمارتك ، حيث تكون في ولايتك ، حيث تكون في عملك ، أنى وكيفما كان هذا العمل .

العبادة حتى الموت:

ما دمت تبتغي وجه الله من وراء هذا العمل ، فأنت في عبادة ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ دائماً ﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] ، ومن هنا يكون الله معك في كل خلواتك وجلواتك في كل حركاتك وسكناتك .

افتداء النبي ﷺ بسلفه من أنبياء الله عليهم السلام:

نستطيع أن نقول : إن القرآن الكريم كان حين ينزل على قلب المصطفى ﷺ يتأثر به أيما تأثر ، ثم يكون به الأسوة والقدوة ، وما أعظم ما اختار الله لنا ! إن هذا الحديث يذكرنا بأن كلا منا لا ينسى بعض أساتذة له في حياته ، ولا يُقال للأستاذ أستاذ للشخص إلا إذا كان له تأثير في عقليته ، وفي وجدانياته ، وفي أفكاره وفي خطوطه وفي ملامح شخصيته ، وكلما كثر الأساتذة كثرت العناصر التي يكتسبها المرء من كل أستاذ ، الذي لا ينقضي منه العجب أن رحمة الله المهداة للعالمين ، وأن المصطفى ﷺ كان صفوة الصفوة في أواسط «سورة الأنعام» ، حديث عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وكيف آتاه الله الحجة ، وحديث عن هذه الحجة : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ، وللرسول ﷺ بأبي الأنبياء صلة وثيقة ، فقد أمر أن يتبع ملته ، ومن هنا كانت الإفاضة في الحديث عن إبراهيم : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ ٨٣ ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَى
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٧].

أرأيتم كيف جمع الله تعالى في هذه الآيات صفوة الصفوة: الأنبياء والمرسلين وآباءهم وذرياتهم وإخوانهم، لم يكن هذا الجمع إلا ليعلمنا المولى كيف كان الأنبياء والمرسلون لبنينا ﷺ، كيف اقتدى بكل منهم، كيف أخذ من كل منهم أعظم ما عنده ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتُهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، أرأيتم كيف كان النبي ﷺ؟ كيف كان المصطفى ﷺ صفوة الصفوة؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتُهُمْ أَقْتَدَهُ﴾، اقتدى نبينا بكل الأنبياء والمرسلين، فكان خلاصتهم، كان صفوتهم، وكان خيرهم، وأخذ العهد على كل منهم إن جاء محمد في زمن أي منهم ليؤمنن به ولينصرنه، ولقد كان المصطفى ﷺ يقول: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»^(١)، بيد أنه كان يعلمنا التواضع حين يشتد عليه الأذى أو حين يعاني ما يعاني، فيتواضع أشد التواضع، ويقول: «رحم الله أخي موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر»^(٢)، إن النبي ﷺ كان قمة لكنه كان يعطينا أيضًا قمة

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ١٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

السلوك في التواضع الباهر ، كيف يمكن أن يكون هذا التواضع رافعاً للمرء إلى حيث يتبوأ مكانته من الله ومن الناس .

توجيهات إلهية بعد رحلة علمية عقلية قلبية :

هذه الرحلة خلال هذه السورة ، وهي رحلة لا يتسع لها الحديث تعطينا كيف كانت الآيات حين تنزل ، ويمضي معها الرسول رويداً رويداً ، يتأثر بكل حرف ، يتأثر بكل كلمة ، يتأثر بكل آية ، وكل آية تأخذ بحجز الآية الأخرى حتى ينتهي منها ، فتعطينا عنه وتعطيه أيضاً الصورة السوية التي يمكن أن يكون عليها المسلم ، لقد جاء في أول السورة ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام : ١٤] أمر أن يكون أول من أسلم ، لكن في نهاية المطاف وبعد عبور هذه الرسالات ، وبعد الحديث عن الوصايا العشر الجامعة بين الأنبياء والمرسلين يأتي توجيه الله لنبه بعد هذه الرحلة العلمية والعقلية والقلبية : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام : ١٦١] ، هو كل ما في هذا الكتاب ، وكل ما أوحى إلي من السنة معه ، ديناً قيماً أو قيماً قراءتان .

والدين القيم : هو الدين البليغ القيام والاعتدال والثبات ، والقيم : هو الدين القائم ، مبالغة في أنه هو القيام نفسه ، دين معتدل مع الفطرة : ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٦١] قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي : [الأنعام : ١٦١ ، ١٦٢] ، وهي خلاصة الدين الصلاة والنسك : ما تقرب به المرء إلى الله من الذبائح ، ومن الشعائر والمشاعر ، ومن كل عمل يتبغي به وجه الله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام : ١٦١-١٦٣] ، طاقتي مالي فكري توجهي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦١-١٦٣] .

نجاح الداعية بالقول والعمل معاً :

لقد تحقق أنه الآن أول المسلمين بعد أن كانت الآية الأولى تُحدث أنه أمر ، كأن القرآن يريد أن يقول لنا إن محمداً -صلوات الله وسلامه عليه- وهو صفوة الصفوة من الخلق أجمعين لم يكن يؤمر بشيء من القرآن إلا ويكون أسبق الناس إليه ، وهكذا يكون الداعية أو المعلم الذي يريد أن ينجح ، إن المعلم قد يشفع قاعدته بمثال ، ويكون في غمار المسلمين ، لكن الداعية حين يشفع دعوته بمثال لا بد أن يكون أسبق الناس إلى ما يدعوهم إليه ، ولا بد أن يكون هو أول من يطبق ما جاء به ، ومن هنا تأتي الآية الأخيرة ، وهي تكاد تكون نهاية المطاف في السورة ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] لقد أمرتُ ، فهكذا هو ، لقد انصاع وانقاد ، والمسلم هو من ليس له خيار مع الله ﷻ ، إنه هو الذي يُسلم نفسه وماله وطاقته وفكره وحياته لله رب العالمين .

أمثلة نادرة في موافقة القول بالعمل :

يقيني أن المجتمع حين ينجح في غرس هذه الصورة اللائقة المشرقة ، بحيث يكون عليها أفراد المجتمع فسوف تعود بهم الصورة التي كانت بادئ ذي بدء مع المصطفى ﷺ ، لقد أذكر الآن غزوة العسرة حين دعا إلى التسليح ، والدعوة إلى التسليح دعوة في صميم العبادة ؛ لأنه لا قوام للعبادة إلا بها ، ولا حماية للدين إلا بها ، ونادى نبينا ﷺ صحابته إلى التبرع ؛ لأنه لم تكن هناك أسلحة ولم تكن هناك قاعدة اقتصادية صلبة يمكن أن يسلح بها الجيش ، وجاء عبدالرحمن بن عوف بهائتي أوقية ذهباً ، وجاء عثمان بن عفان بثلاث الجيش بما يجهز ثلث الجيش ، وجاء عمر

بنصف ثروته ، وسأله المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه : «ماذا أبقيت لأهلك؟» ، فقال : أبقيت لهم نصف ثروتي ، فقال : «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أبقيت» ، ثم جاء أبو بكر الصديق بماله كله ، هنا سأله نبينا ﷺ : «وماذا أبقيت لأهلك؟» فقال -كأنما يعبر عن هذه الآية : أبقيت لهم الله ورسوله^(١) ، إن مالي وثروتي وأولادي وطاقتي وفكري لله رب العالمين ، وما دام هذا كله لله ، فلن نضيع عند من بيده كل شيء ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض .

ومن هنا فأنا أستطيع أن أقول إن هذه الآية التي أمرنا أن نقتدي بالنبى ﷺ فيها ، هذه الآية حينما يتمثلها كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فسوف يكونون صفًا واحدًا ، وسوف يكونون جنّدًا واحدًا ، وسوف يكونون أخوة متلاقية على ما يرضي الله تبارك وتعالى ، وسوف يكون منهم العمل المؤثر الفعال لصالح الدعوة ، لصالح الإسلام ، لصالح المسلمين ، وسوف تنتهي عوامل الأثرة والأنانية والحقد والبغضاء ؛ لتحل محلها الإيثارية ، ولتحل محلها المحبة ، ولتحل محلها الأخوة .



(١) أخرجه الترمذي (٣٦٧٥) ، وأبو داود (١٦٧٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

المحاضرة السادسة بعد المائتين

الفقه الإسلامي يهدي إلى الرشد ويقضي بالعدل
ويحل مشاكل الجماعة

مقدمة:

موضوع هذا الدرس : هو قول النبي ﷺ : «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وكان اختياري لهذا الموضوع لأسباب كثيرة أخرى ، هي إرادة بيان الجوانب الثلاثة التي يشير إليها الحديث أو يرمز إليها ؛ لأنه تعرض للفقه ، وللتفقه أولاً ، وتعرض لإقامة العدل ثانياً ، ثم إلى عدم جواز خلو الزمان من قائم لله بالحجة ، ومجتهد لتحقيق التيسير على الناس بفتواهم ، وانعقاد جماعات الأمة على تحقيق هذا الأمر المهم الذي يحلون به مشاكل الفرد والجماعة .

تمهيد:

هذا الحديث النبوي الشريف تضمنته كثير من دواوين السُّنة ، أوردته البخاري وأورده مسلم ، وجاء في الترمذي ، وفي سنن ابن ماجه ، وأورده الدارمي ، وأورده مالك في «الموطأ» ، وذكره الطبراني في «المعجم الكبير» ، وتعرض له البزار .

(١) سبق تخريجه .

تعدد روايات حديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»:

هذا الحديث الشريف جاء من طرق أربعة؛ لأن أربعة من الصحابة روه عن رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم: ابن عباس، وابن مسعود، وأبو هريرة، ومعاوية - رضي الله عنهم جميعاً - لكن صيغة الحديث وردت مختلفة في هذه الروايات المتعددة، فابن عباس اقتصر على الجزء الأول من الحديث، وهو قول رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١)، أما رواية ابن مسعود، فقد كانت على الوجه التالي: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وألهمه رشده»^(٢)، وكانت رواية أبي هريرة تضيف إلى هذا المعنى جزءاً من الأجزاء التي أوردها البخاري في روايته عن معاوية رضي الله عنه إذ يقول أبو هريرة في روايته عن الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله ﷻ».

روايات معاوية للحديث:

أما روايات معاوية فكثيرة، وأريد أن أذكر بأن معاوية كان أقل الناس رواية للحديث، ولكنه ما كان ليترك هذه الكلمات في الجمع؛ ولذلك ورد هذا الحديث الذي يرويه عن رسول الله ﷺ بصور مختلفة نستطيع أن نجعلها أول حديثنا ستة، فالرواية الأولى التي جاءت عن معاوية رضي الله عنه: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»^(٣)، وهذا لا يتناول إلا جانباً من جوانب الحديث.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (١٧٠٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٢٧): رواه البزار والطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٢ / ٤).

والرواية الثانية : «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، وإن السامع المطيع لا حجة عليه ، وإن السامع العاصي لا حجة له»^(١) ، والرواية الثالثة : «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، وإن هذا المال حلو خضر ، من يأخذه بحقه يبارك له فيه ، وإياكم والتماح فإنه الذبح»^(٢) ، والرواية الرابعة : «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة ، أو يأتي أمر الله»^(٣) ، والرواية الخامسة : بالإضافة إلى الجزء الأول من هذا الحديث : «والله المعطي ، وأنا القاسم ، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»^(٤) ، والرواية السادسة : بضميمة الأصل أو الجزء الأول من هذا الحديث : «وإنما أنا قاسم ، والله يعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله . . .»^(٥) .

ما سبب اختلاف الروايات؟

من حق كل مسلم عندما يستمع إلى هذا الحديث الذي فيه تنويه بالفقه والتفقه أن يتساءل قبل كل شيء عند اختلاف هذه الروايات : ما سببها؟ كيف جاءت مختلفة حتى من الطريق الواحد؟ معاوية رضي الله عنه يروي هذا الحديث بصور مختلفة متعددة ، وإن كانت متقاربة ومتماثلة في النهاية .

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٦ / ٤) ، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩ / ١٩) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٢ / ٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١٢) .

(٤) أخرجه البخاري (٣١١٦) .

(٥) أخرجه البخاري (٧١) .

والجواب عن ذلك :

أن الملابس التي تحفُّ بالناس في مجلس رسول الله ﷺ كانت تدعوه ؛ لأن يذكر الأصل الذي يريد أن يحدث به وأن يشير إلى جوانب تقتضيها تلك الملابس وتوجبها ، أو تقتضي الالتفات إليها تلك الأحوال ، فكان في كل مرة يضيف أطرافاً لهذا الحديث تتناسب مع الأطراف التي يضيفها في المرات الأخرى ، فيكون التكرير لرواية الحديث مع الملابس المختلفة ، ويأتي منه قدر مشترك لا خلاف فيه ، وهو التنويه بالفقه والتفقه ، وتأتي بقية الأطراف إما للإشارة إلى أن المطيع لا حجة عليه ؛ لأنه أخذ بهدي هذا الدين وبكتاب الله وبسنة رسول الله ، وأن العاصي لا حجة له ؛ لأنه تمرّد على الكتاب وعلى السنة وعلى أحكام هذه الشريعة ، وإما أن تكون الإضافة للإشارة إلى التقليل من أهمية المال وعزته وتأثيره وهيمته على النفوس ، فحذر منه ، فقال : «هو حلو خضر»^(١) .

التمادح هو الذبح :

لكنه أضاف بعد ذلك جزءاً جديداً لا نجده في بقية الأحاديث أو الروايات لهذا الحديث ، وهو النهي عن التمداح الذي سماه الذبح ؛ لأن التمداح ينتهي بالناس إلى أن يكذب بعضهم بعضاً ، فيوشك ذلك أن يملأ نفوسهم غروراً وأن يجعلهم بعيدين عن الحق .

العطاء من الله والرسول قاسم :

نجد الإضافة الأخيرة أو الرواية الأخيرة التي اعتمدها البخاري -في

(١) سبق تخريجه .

المواطن التي أورد فيها الحديث جميعها- فيها الإشارة إلى أن العطاء من الله والقسمة من الرسول ﷺ ، فلا يكون للرسول من حق في تغيير هذا العطاء الذي أعطاه الله لعباده ، ولكنه يقسم بينهم قسمة عادلة يريد بها وجه الله ، ثم الأمر بالاستقامة في بعض الروايات ، ثم القيام لله بالحجة حتى يأتي أمر الله ، وذلك كله يشير إلى أن الدين الإسلامي والتفقه في هذا الدين يجعل المسلمين من يوم ظهور الإسلام وإشراقه في الجزيرة العربية عن طريق المهدي محمد بن عبد الله ﷺ وتلقي الناس له عصرًا بعد عصر إلى أن وصل إلينا ، ينبغي أن يكون حاملاً لنا على التفقه وعلى العدل ، وعلى البحث عن الطرق التي يتسنى بها حل المشاكل للفرد والجماعة ، ويكون المسلمون في كل هذه الأحوال معتمدين بكتاب الله وسنة رسوله ، ملتزمين بهذا الهدي الديني ، آخذين بالصرط السوي الذي يهديهم السبيل .

روايات الحديث وموضعه عند البخاري:

بعد هذه المقدمة التي عرفنا فيها روايات هذا الحديث وطرقه ، أريد أن أشير إلى أن البخاري رحمه الله ذكر هذا الحديث في ثلاثة كتب من جامعه الصحيح ، ذكره في كتاب العلم ، وهذا الذي يرمز إلى قول النبي ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، وذكره في كتاب الخمس -أي تقسيم الغنائم- وهو الذي أشار إليه بقوله ﷺ : «وإنما أنا قاسم ، والله يعطي» ، والناحية الثالثة أو الكتاب الثالث الذي أورد فيه البخاري هذا الحديث هو كتاب الاعتصام ؛ لأن الاعتصام بالكتاب هو المحقق لمقومات هذه الأمة الإسلامية ، والمحقق لغزتها والمتسبب في سعادتها ، والقيام لله بالحجة حتى يأتي أمر الله .

جوانب الحديث:

إذن هذا الحديث لما كان متناولاً لجوانب ثلاثة ، أريد أن أقف عند كل جانب وقفة قصيرة .

أما الجانب الأول : الفقه في الدين :

وهو القدر المشترك ، وهو الذي أشرنا فيه إلى قول رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، فإني أرى أن لتحقيق هذا الجانب طريقين :

الطريق الأول : هو طريق نظري .

والطريق الثاني : هو طريق عملي ، ولكن قبل البحث في الطريق النظري ، والطريق العملي لهذا الجانب يحسن بنا أن ننظر في مادة الحديث ، ونصه ؛ لأن قول النبي ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١) ، يحملنا على البحث عن معنى الفقه ، وعن معنى التفقه .

معنى الفقه والتفقه لغةً :

إن الفقه يطلق في اللغة أساساً على الفهم ، ويطلق أيضاً على الفطنة ، والفهم أطلق عليه لفظ الفقه ، إما إطلاقاً عاماً فيكون المراد من الفقه الفهم العام أو التفهم العام ، أو يكون المراد بالفقه إدراك أسرار المعاني والدقائق التي لا يمكن أن يقف عليها كل أحد ، وفي هذا اختلاف بين الإطلاقيين :

(١) سبق تخريجه .

الإطلاق الأول: يشهد له قول الله تعالى: ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، أي ليتبينوا معانيه، ليتصوروا أغراضه ليحيطوا بأحكامه.

الإطلاق الثاني: المعنى الدقيق الذي يرجع إلى أسرار المعاني، فذلك ما يشهد له قول رسول الله ﷺ حين دعا لعبدالله بن عباس رضي الله عنه بقوله: «اللهم علمه الدين وفقهه في التأويل»^(١)، أي أن يكون قادرًا على الغوص على المعاني الدقيقة والأسرار الجزئية التي يمكن بها تأويل هذه المعاني التي تتصل بالكتاب والسنة.

مثال آخر:

من هذا السياق أيضًا أو الاستعمال ما ورد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، فإنه يقال: إن سلمان الفارسي دخل العراق، فنزل عند امرأة من الأنباط، وعندما أراد أن يصلي، قال لها: هل في البيت مكان نظيف أستطيع أن أصلي فيه؟ فقالت هذه المرأة: طهر قلبك وصل حيث شئت، فكان هذا دافعًا بسلمان الفارسي إلى ملاحظة أن المرأة فهمت أسرار الصلاة، وأدركت الحق المراد من وراء الصلاة؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكان ذلك حاملاً لها على أن تأمره، وأن تذكره بأن تطهير القلب من النقائص والأدران والعيوب والرغائب واللذات والهوى، وما يتصل بذلك هو الذي يحقق له الصلاة الكاملة التي يقبلها الله من عباده.

الفقه في الاصطلاح:

إن الفقه له دلالاته الاصطلاحية، وهذه الدلالات الاصطلاحية تختلف

(١) سبق تخريجه.

بين الفقهاء والأصوليين ، أما الفقهاء فإنهم أطلقوا الفقه على الأحكام الشرعية العملية ، ومنهم من أطلق الفقه على حفظ تلك الأحكام ، فالفقيه هو العالم بتلك الأحكام الشرعية العملية أي المتصلة بحياة الناس في معاملاتهم ، سواء كانت هذه المعاملات فيما بينهم وبين الله ، أو فيما بين الإنسان ونفسه ، أو فيما بين الإنسان وعامة الناس من حوله ، ولكنهم لم ينظروا في هذا التعريف والتحديد إلى طريق الاستنباط للأحكام ، فلم يعرجوا على الأدلة ، ولم يقولوا لا بد من معرفة الدليل للحكم الشرعي .

الفقه عند الأصوليين:

أما الأصوليون : فإنهم جعلوا الفقه بإزاء كلمة شرع ، وبإزاء كلمة علم ، وعرفوه تعريفاً عاماً ، وهو الذي أشار إليه الإمام أبو حنيفة رحمته الله بقوله : إن الفقه عبارة عن معرفة النفس ، ما لها وما عليها ، فمعرفة النفس ما لها وما عليها ، هذا تعريف جامع للفقه عند الأصوليين ؛ لأنه في المرحلة الأولى كان الفقه يشمل العقيدة ، ويشمل الأخلاق ، ويشمل المعاملات ، فكان قوله معرفة النفس ما لها وما عليها جامعاً لكل هذه الجوامع .

تطور تعريف الفقه عند الأصوليين:

أما المرحلة الثانية التي ذهب فيها الأصوليون إلى تحديد معنى الفقه ، فقد قالوا : هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المستمدة من أدلتها التفصيلية ، وهنا انتقلوا من هذا التعريف الأول العام إلى حصر الأحكام المراد بحثها في الأحكام الشرعية الفرعية لا الأصلية المتعلقة بعلم الكلام ؛ لأن هذه قد استقلت بعلم منفرد لا يحتاج معه إلى دراسة العقيدة في علم الفقه .

التعريف الثالث عند الأصوليين:

أما التعريف الثالث فهو قولهم: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية. وإذا كانت كلمة الفرعية قد أخرجت الأصلية وهي العقيدة التي استقلت بالفقه الأكبر، فإن قوله العملية أخرجت قضية السلوك، وتربية النفس والأخلاق؛ لأن هذه هي من الفقه، ولكنهم عندما أرادوا حصر الفقه في أحكام المعاملات، وفي أحكام تصرفات البشر جعلوا هذا الأمر المتعلق بالسلوك والذي يرجع إلى تربية النفس وكما لها أمراً آخر اختص به علم السلوك، أو علم الأخلاق، كما ذهب إلى ذلك كثير من العلماء، وهكذا يتبين لنا أن كلمة دين وكلمة شرع وكلمة فقه متقاربة، بعضها يطلق بإزاء بعض، وإن كان الدين والشرع أوسع معنى وأشمل صوراً من استعمال كلمة فقه؛ لأن بين الشرع والدين من جهة والفقه من جهة ثانية عموماً وخصوصاً.

الطريق النظري للفقه:

أما الطريق النظري الذي أشرنا إليه بالنسبة لقضية التفقه، فإني أريد أن أذكر بأن الطريق النظري هو الاكتساب، هو التعلم، هو الاستفادة من الكتاب، والاستفادة من السنة، والاستفادة من الحكم، ومن الآراء الفقهية، ومن الشريعة، وهو القائم على التدبر والتأمل في المصدرين الأساسيين، وفيما ضبطه العلماء والمجتهدون من أحكام في الشريعة الإسلامية مستمدة من الكتاب والسنة، ووظيفتها أنها تهدي إلى الرشد، والذي يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ

وَكُتِبَ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ
السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

دور السنة في الفقه :

الذي يؤكد أن السنة لها دور أي دور، أنها تفصل ما أجمله القرآن الكريم، وتقيد ما أطلقه وتخصص عمومه، وتكشف عن المشكل من الألفاظ القرآنية في أحاديث نبينا ﷺ التي كانت بياناً للناس، وكانت بأمر من الله، بقوله سبحانه وتعالى حين تحدث عن هذا النبي الأمي مخاطباً لأهل الكتاب الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، قال في وصفه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

دور الشريعة في الهداية :

إذا كان الكتاب من جهة والسنة من جهة أخرى يهديان إلى الرشد، فإن الشريعة أيضاً، وهي الأحكام الفقهية المستمدة من كتاب الله، ومما جاء عن رسول الله ﷺ تهدي أيضاً للرشد.

صفات الشريعة :

الشريعة الإسلامية شريعة ربانية؛ لكونها تتصف بصفات ثلاث، هي :

الثبات وعدم التغيير :

الثبات وعدم التغيير في قواعدها العامة التي يستطيع الفقيه والمجتهد أن

يخضع لها جميع الأحوال والظروف والملابسات التي يعيشها أو التي قد تحدث بعد ذلك من تطورات الحياة، وبسبب تقدم العلم وبسبب كثرة المشاكل يخضع كل ذلك لهذه القواعد العامة، فيجدها واضحة ويجد السبيل إلى حلها .

صفتا الكمال والديمومة :

بجانب هذه الصفة صفة الثبات، هناك صفة الكمال، وصفة الديمومة ؛ لأن كتاب الله عبارة عن الشريعة التي نسخت كل الشرائع التي سبقتها، ولكنه لا يُنسخ، فهو الكتاب الدائم ؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى ممتنًا على عباده، مشيرًا إلى رحمته بهم وإلى ما حققته لهم من نعمة : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

الشريعة تكسب الناس الصفاء الروحي وتنزع بهم إلى الكمال :

إذا أخذنا بقواعد هذا الدين وبأحكام هذه الشريعة واستلهمنا من أجل الوصول إلى ذلك الكتاب والسنة، فإننا بإذن الله نصل إلى الغرض الذي نريده لأنفسنا، والذي بشرنا النبي ﷺ بأنه لا محالة واقع إذا نحن أخذنا بهذا الهدى ؛ ولذلك فإن الطريق العملي لهذا الجانب يتمثل أولاً في أثر الشريعة ذاتها في النفس ؛ لأن علماء الإسلام فسروا الشريعة وعرفوها بكونها، بعد أن كانت أحكاماً وبعد أن كانت قانوناً إلهياً، وبعد أن كانت آيات بينات وأحاديث محكمة جاء بها رسول الله ﷺ، هذا التراث له أثر في النفس له تغيير وتأثير على الإنسان حين يتلقى هذه المعارف، فنكون قد خرجنا من مرحلة الاكتساب، وهي الدرس لكتاب الله

والدرس لسنة رسوله ، والفقه أو التفقه بالإسلام وأحكامه الشرعية ، تكون هذه الشريعة متحولة من قوانين وهداية إلى وضع خاص تتكيف به نفس المسلم ، ولذلك قال علماء الشريعة : الشريعة وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات ، ومعنى ذلك أن الشريعة تكسب الناس الصفاء الروحي وتنزع بهم إلى الكمال ، وتجعلهم في كل حين مراقبين لأنفسهم حتى لا يقع منها أي من تلك النفوس ما يغضب الرب .

الخوف من الله من سمات العلماء :

الخوف والخشية من الله من سمات العلماء ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وخشية الله والتزام أمره والوقوف عند حدوده هو الذي يرقى بالنفس البشرية ، ويخلصها من جميع الأدران ؛ ولذلك قال بعضهم :

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
وءامن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

بعض المسلمين وتصورهم الخاطئ للشرع :

هذا المعنى الذي يُرغب المتقين ويحمل الصالحين على الزيادة من هذه الشحنات الروحية ، وتعبئة نفوسهم بالهدي الديني ، وقد لا تصلح لعامة المسلمين ؛ لأن عامة المسلمين يعيشون مشاكل ، وتتنازعهم الأهواء ، وتتقاذفهم الشهوات ، ونفوسهم ملأى بكثير من الانحرافات ، وهذا كله يجعل المسلمين أو جماعة من المسلمين إذا أردنا أن نتحرى التعبير يضيّقون

أحياناً بأحكام الإسلام ويرونها شاقة وصعبة ، فنريد أن نؤكد لهم أن أحكام الإسلام ليست كما يتصورون ، وإنما أحكام الإسلام جاءت لتخرج الناس عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عباداً لله .

وإذا تخلص الإنسان من أهوائه ، فإنه يكون في تصرفه ، وفي عمله مستقيماً ، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

الشريعة لرفع الحرج عن الناس والتيسير عليهم :

الأمر الثاني الذي قصدناه من بيان مزايا هذه الشريعة : هو رفع الحرج عن المؤمنين ، بل رفع الحرج عن الناس ، والتيسير عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، وأما التيسير فنحن نعلم أن رسول الله ﷺ حث الناس ، وخاصة الدعاة إلى الله ، وإلى هذا الدين بأن ييسروا ولا يشددوا على الناس ، وأن يرغبوا ولا ينفروا .

الجانب الثاني للحديث الشريف : العدل :

أما الجانب الثاني فهو الذي أشار إليه الحديث بقوله ﷺ : « وإنما أنا قاسم ، والله يعطي » ، والعطاء من الله أمر مفروغ منه ، والقسمة من الرسول إشارة للعدل ؛ ولذلك فإن الذين يريدون أن يستفيدوا من الفقه الإسلامي وأحكامه ، وأن يعدلوا بين الناس وأن يكونوا قضاة عدل ، لا قضاة ظلم وجور ، لابد لهم من معرفة الطرق التي بها يضبطون الأحكام ، ويضعونها في المحال التي لابد من وضعها فيها ؛ لأن أحوال

الناس في معاملاتهم قد تكون ملتبسة على كثيرين ، وقد لا تكون واضحة وتحتاج إلى بيان .

أنواع دلالات النص التشريعي:

يهرع الناس إلى الأصول ، أي علم الأصول لبيان الدلالات ، الدلالات التي تعين الباحث المسلم على معرفة معنى الآية ، ومعنى الحديث ؛ لأن الدلالة قد تكون دلالة نص ، وقد تكون دلالة إشارة ، وقد تكون دلالة اقتضاء ، وقد تكون دلالة التزام ، والقرآن الكريم نفسه والحديث فيه وجوه من البيان ، ووجوه من الخفاء .

معرفة الدلالات لتوخي العدل:

من لم يقف على تفصيل هذه الوجوه لا يستطيع أن يضع العدل في مكانه ويضع الموازين في مقامها ، وبحثُ العموم والخصوص ، والإطلاق والتقييد ، والآيات الناسخة ، والأحاديث الناسخة ، والآيات المنسوخة والأحاديث المنسوخة ، والنظريات والضوابط الفقهية والعزائم والرخص التي هي عبارة عن طرفين يمكن للمسلم أن يتصرف فيما بينهما ؛ ليأخذ أهل الرخص بالرخص ، حيث تكون الرخص بالنسبة إليهم عزائم ويضع بقية الناس في محل الأخذ بالعزائم ، هذه المعاني كلها قد جاءت كتب إسلامية شريفة علمية خطيرة بحثت في الفروق ، مثل : فروق القرافي ، وبحثت في الأشباه والنظائر ، مثل «الأشباه والنظائر» لابن نجيم ، والقواعد ، كـ «قواعد العز بن عبدالسلام» ، أو «قواعد ابن رجب» .

التشريع الإسلامي ونظرة المنصفين من الغرب:

جملة هذه النظريات هي التي تكون الفلسفة ، فلسفة التشريع الإسلامي ، وهي مضبوطة ودقيقة جدًا ، وهي مستمدة من الكتاب ومن السنة ، ومن الجمع بين الاتجاهات والآراء المختلفة لأصحاب الفقه والتفقه الذين كتبوا التفسير والحديث ، وشرحوا الحديث ، ووضعوا الأصول وبينوا القواعد ؛ ولذلك نحن لا نعجب لكوننا مسلمين ولكون هذا الفقه ديننا ، لا نعجب إذا كان واحد كـ«كهلر» العالم الفقيه القانوني الألماني عندما وقف على دراسة رسالة الدكتوراه في «التعسف في استعمال الحق» ، قال : عجبًا ، إني وجدت في هذا الكتاب نظريات إسلامية لم يصل إليها القانون الغربي إلا بعد عشرة قرون من ظهور الإسلام ، وفي المؤتمرات : مؤتمرات أسبوع الفقه التي انعقدت بدمشق ، والتي انعقدت في باريز سنة إحدى وخمسين وجدنا كل العلماء من رجال القانون والشرعية يتفقون على جعل مبادئ الفقه قيمًا حقوقية لا مرأى فيها ، كما أنهم يعتبرون المذاهب والآراء الفقهية ثروة كبيرة ، تعين المجتهدين على إيجاد الحلول اللازمة لكل مشكل يعترض الناس أو يعترض الجماعات ، ثم قرروا أيضًا أن التشريع الإسلامي ينبغي أن يعد في طليعة مصادر التشريع الحديث .

هذا هو الطريق النظري بالنسبة لجانب العدل الوارد في الحديث .

الطريق العملي لجانب العدل:

أما الطريق العملي فهو الاستجابة لنداء الله سبحانه وتعالى ، حين يقول لنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا ﴿[النساء: ٥٩]، ولا بدع في كون الاتباع لهذا المنهج يحقق -كما قلنا- العدل ويحمي الحق، ويتطور ويتماشى مع تطورات الزمان، ثم إن التفقه في الدين يهيئ لخلافة النبوة؛ لأن التفقه في الدين يمكن الفقهاء من النصح للناس والإرشاد لهم والتعليم لأحكام الله والحكم فيما بينهم.

الجانب الثالث للحديث الشريف:

أما الجانب الأخير، وهو الجانب الثالث فهو الإشارة من الحديث النبوي الشريف إلى أن هذا الدين سيظل قائمًا، وأن الله يحفظه مهما كانت الاضطرابات والتطورات، ولكن العلماء قد يقلون في بعض الأزمنة، فيظهر جماعات في هذا البلد، وجماعات في بلد آخر، أو ثلة تجتمع من هؤلاء العلماء جميعًا فيتدارسون أحكام الشريعة ويحاولون تطويرها أي إيجاد الحلول منها لأحكام الشريعة، فكان ذلك هو ما ألع إليه الحديث الشريف من أن هذا العصر أو العصور الأخيرة من عمر الزمان لا يمكن أن تخلو من ظهور قائم لله بالحجة، والقائم لله بالحجة هو المجتهد.

الطريق النظري:

الطريق النظري في هذه القضية هو الاعتصام بكتاب الله، والاعتصام بسنة رسوله، والعلم بما ورد في الكتاب والسنة وفي كلام الفقهاء؛ ولذلك لا يجوز ولا يمكن أن نجتهد في دين الله لنقول آراءنا، وإنما نجتهد لنقول حكم الله، فنحن نبلغ عن الله، والمبلغ عن الله لا بد أن يكون عارفًا بآيات الأحكام، عارفًا بأحاديث الأحكام، عارفًا بمعاهد الاجتماع، متبينًا لضروب القياس قادرًا على أن يتصرف عند استنباط

الأحكام باعتماد الاستحسان مرة، واعتماد الأعراف المقبولة شرعاً مرة، والأخذ بالمصالح المرسلة، ومواكبة العلم والتطورات التي نشهدها، وذلك بإخضاع كل شيء إلى الخبراء الذين يبينون لنا المنهج حتى ننتهي إلى الحكم الإلهي .

الطريق العملي :

أما الطريق العملي : فهو تسليط النظر على المشاكل الفردية بالفتوى ، وقيام المجامع الفقهية في كثير من البلاد لدراسة تلك المشاكل دراسة متكاملة ، فإذا أغفل بعض الناس جانباً انتبه له الآخر ، وإذا تلاهى بعضنا عن أصل من أصول الشريعة نبه إليه آخر ، وبذلك فإن الأحكام تكون صادرة عن أهل الحل والعقد ، عن جماعة المسلمين ، فلا يطعن فيها كما يطعن في فتوى رجل واحد ، فنحن نرى أن المفتين قد يختلفون ، وقد يكون لهذا في بلد كذا رأي ، وللآخر في بلد ثان رأي يخالف الأول في نفس القضية ، ولكن إذا كان الأمر بيد أهل الحل والعقد جميعاً ، وفي مثل هذه المجامع فإننا نأمل من الله أن يصلوا إلى الحقائق الدقيقة والأحكام الثابتة التي لا يمكن أن يطعن فيها أحد .

أهمية دور المجامع الفقهية في الوقت الحاضر :

نشير هنا إلى أن دور المجامع الفقهية كبير ؛ لأن الأوضاع الاقتصادية المتطورة ، والتطورات الاجتماعية التي نعيشها وأحوال التنمية ودواعيها في العالم الإسلامي ، كلها تدفع بنا إلى الأخذ بهذا المنهج ، وقديماً كنا في مأمن ، في مأمن ؛ لأن النبي ﷺ كان ينفر إليه الناس ويحضرون مجالسه ؛

لِيَأْخُذُوا عَنْهُ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

ثم جاء بعد ذلك فقهاء الصحابة ، ثم جاء بعد ذلك فقهاء التابعين ، ونحن كلنا نستمسك ونرتبط ونشد بآثار هؤلاء العظيمة التي كانت بعيدة عن الأهواء ، وتهدى إلى الرشد ، لكن العالم الإسلامي عرف بعد ذلك ، كما جاء في مقال يتحدث عن أكبر المعالم وأكبر المدارس الإسلامية في العالم في ذلك الوقت ، فذكر ثلاثة : الزيتونة ، والأزهر ، والقرويين .

فضل المدارس الإسلامية الحديثة على الأمة :

إن كل مدرسة من هذه المدارس لها فضل على المسلمين عامة من يوم وجدت إلى الآن ، ولا أريد أن أتحدث عنها جميعاً ، فأنا أريد أن أشير فقط إلى أن أئمتنا جميعاً من الزيتونة ، أو من الأزهر ، أو من القرويين ، كان كتاب الله عمدهم ، وكانت السنة حجتهم ، وكان الرسول ﷺ بما يتابعونه فيه ويتأسون بإمامهم ، فهم إذا الأئمة ، وهم السند العلمي ، وهم العُدَّة ، وهم الفخر ، فأنا عندما أذكر كتاباً قرأته لعالم في الأزهر أو لعالم في الزيتونة أو لعالم في القرويين ، أحسبني ممتزجاً به كل الامتزاج ؛ لأن هؤلاء هم الأصل الثقافي والعلمي الذي تكونت به أو تكون به جميع المسلمين ، بل أقول إن فضل هذه الكتب والآثار كان عامّاً في جميع المسلمين .

ضرورة إحياء الدواوين الفقهية:

نحن بجانب ذلك نريد أن يتجه شباب الإسلام، أو شباب علماء الإسلام في هذا البلد وفي غيره إلى إحياء الدواوين الفقهية لما رأينا فيها من خير، ولجمع الفتاوى والآراء في كل القضايا؛ للمقارنة بينها ودراستها وتمحيصها، ثم دراسة الأحكام الاجتهادية التي سبقت في العصور الخوالي، وقد أصبحت الآن غير مناسبة لعصرنا فتحتاج إلى إعادة النظر، ثم العناية بالسياسة الشرعية.

خاتمة:

أريد أخيرًا أن أختم كلامي بالإشارة إلى ما كنت أشرت إليه من أن روايات الحديث ليست الستة التي ذكرناها من طريق ابن مسعود، بل إن هناك طريقًا آخر أو رواية أخرى، وهي التي يقول فيها رحمته، رواية عن رسول الله ﷺ في هذا الحديث: «يا أيها الناس، إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء»^(١)، فهذا دليل على أن الاكتساب للعلم والعمل بالعلم هو الذي يحقق الخير الكثير.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩ / ٣٩٥).

المحاضرة السابعة بعد المائتين

البعث والحشر بين النظر العقلي والإيمان الديني

قال الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عبيد الله ابن أبي جعفر ، قال : سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر ، قال : سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزرعة لحم »^(١) .

تناولي لشرح الحديث على أربع مراحل :

الأولى : تمهيد بمدخل وجيز للحديث ، وتراجم إسناده .

الثانية : تحليل لغوياته ، ولمحة عن أعلامه .

الثالثة : فقه الحديث واستنباطاته وإفاداته .

الرابعة : خلاصة واعتبار .

تمهيد :

من المعلوم أن من عناصر الإيمان : التصديق ، والإيقان بالبعث والنشور ، والصراط ، ونصب الميزان ، وغير ذلك مما ورد في حديث جبريل الشهير .

ومن المعلوم أن ابن آدم مكون من عناصر ، أساسها عنصران اثنان :

الأول : جسم يدركه ما يدركه إلا جزءاً أو جُزئاً صغيراً منه كالنواة في عُذرة النخاع يبقى خالداً لاستعماله في النشأة الأخرى .

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٥) ، ومسلم (١٠٤٠) .

والعنصر الثاني: نفس وروح من أمر الله استعصى على البسكولوجيين تحديد ماهيتها حتى في عصرنا هذا، لكن في حواشي الشيخ البناني آراء في حقيقتها تجاوزت العشرات، والمختار منها أن الروح جسم لطيف سارٍ في البدن كله سريان النار في الحطب والماء في العود الأخضر، قضى الله بحياة البدن ما دامت مشابهة له، ولا غرو أن التساؤل عن هذه اللطيفة الغيبية عائد إلى فجر التاريخ أو ضحاه، وأن التفكير في المصير الإنساني قد أثر وعرف بوصف أولي أيام الحضارة الأولى تقريباً حوالي الألف الخامس قبل الميلاد، ثم تزايد بشكل واضح خلال الألف الأول، ثم تردد صداه في أجواء النهضة اليونانية، وعلى لسان عظمائها المفكرين في الكون ونشأته وعناصره الجرمية والعرضية، بل ذهب ذاهبون إلى أن الإنسان قد اهتدى بتفكيره المجرد إلى لزوم المعاد قبل ظهور الثبوت، وقبل اتصال الأرض بالسماء بواسطة الديانات، هذه الديانات التي اتفقت كلها على عقيدة اليوم الآخر كما يعلم من كُتُبها، سواء في ذلك القديمة، منها: الصابئة والبرهمة الهندية والزرادشتية الفارسية، والحديثة نسبياً، كذلك الإبراهيمية الحنيفية والمساوية، وفروعها العبرية إلى المسيحية بمذاهبها النسطورية وغيرها، وبأناجيلها المعتمدة والمستعدة، وكيفينا نحن المسلمين شرع الله المحمدي ناسخ الأديان بالعهد والميثاق المأخوذ من زعماء الأديان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، فكتاب الإسلام وحديث نبي الإسلام مليان بمئات النصوص حول فناء العالم وانبعاث عالم آخر، يصدر فيه الناس ﴿أَشْنَاءًا لِيَرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ [الزلة: ٦]، ويؤتون صحفهم بأيامهم وغير أيامهم، وتقام الموازين بالقسط؛ لتقويم الأعمال، وتبلغ القلوب فيه الحناجر من شدة الحر، ومعاناة الأهوال.

سند الحديث عند البخاري:

من مشاهد ذلك اليوم الأبدي ما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري في عدة كتب وأبواب وبعده صيغ وألفاظ دائرة بين الإيجاز والإطناب، أخصرها متناً وأوثقها سنداً، لفظه هذا الذي بين أيديكم المروي بطريق المصريين والمدنيين، الجامع بين صيغة التحمل تحديثاً وسماعاً وعنونة، وأقول راوياً له عمن أجازني به قولاً وكتابة شيخ الإسلام والشيخ الحجة الحجوجي الحسني صاحب «اليواقيت الغالية في الأسانيد العالية».

يحيى بن بكير:

قال بسنده إليه: حدثنا يحيى بن بكير، المحدث الإمام البخاري، ومحدثه شيخه يحيى بن عبدالله بن بكير المصري استيطاناً المخزومي ولأه، محدث مصر، روى عنه البخاري مباشرة ومُسلم بواسطة، له رحلات خارج مصر، ورحلات إلى المدينة المنورة، حيث سمع «الموطأ» من الإمام مالك سبع عشرة مرة، فقيه مالكي من أوعية العلم بالمائة الثالثة للهجرة.

الليث بن سعد:

قال: حدثنا الليث، أي قال يحيى: حدثنا الليث، وهو الفقيه ابن سعد المصري استيطاناً الأصبهاني أصلاً ونجاراً، من مشاهير المائة الثانية من الهجرة، صاحب مذهب فقهي من المذاهب العشرة، لقي مالكا وحضر مناظراته لأبي حنيفة، ويقال: إنه أفقه من مالك، وليس كذلك، فتى ولا كمالك، وتبادل معه الرسائل أي مع الإمام مالك في حجية عمل أهل المدينة، وبينهما مبرات ومكاتبات.

عبيد الله بن أبي جعفر:

قال : عن عبيدالله بن أبي جعفر المصري استيطاننا ، المغربي أبا ، حدث عن حمزة بن عبدالله ومن في طبقته ، وحدث عنه ابن جريج والليث وسواهما ، فقيه مجمع على علمه وصدقه من مخضرمي المائة الأولى والثانية من الهجرة .

حمزة بن عبد الله:

قال : سمعت حمزة بن عبدالله بن عمر ، هو التابعي الجليل ، الفقيه المدني ، الصدوق ، سمع أباه وعمته حفصة وعائشة من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن ، وحدث عنه الزهري وغيره ، وهو من خيرة رجال المائة الأولى من الهجرة .

عبد الله بن عمر:

قال : سمعت عبدالله بن عمر رحمهما الله ، هذا خامس الرجال في حلقات السند ، أبو عبدالرحمن ابن الخليفة الثاني عمر الفاروق القرشي العدوي من السبعة المكثرين الراوي أكثر من ألف حديث ، وأنشدوا :

سبع من الصَّحْب فوق الألف قد نقلوا**من الحديث عن المختار خير مُضَر**

لا نطيل : منهم عبدالله بن عمر ، هذا أحد أعلام الصحابة في العلم ، وصدق الإيمان ، وحب الرسول وسنته ، وحب بضعته واحترامهم ، لما طلب سيدنا الحسن ابن الإمام علي بقبول البيعة خلَّفًا عن أبيه أشار عليهم بآبن عمر ، فخطب في ذلك ، فقال : لا والله ما كنت لأتقدم آل البيت ، هم أمس رحماً برسول الله ﷺ وأعلم بستته ، بايعوا الحسن رحمهما الله .

شهد غزوة الخندق وشارك في بيعة الرضوان ، شجاع مقدام ، أمار بالمعروف ونهأ عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، صرخ في وجه الحجاج الثقفي في المسجد ، صرخ في وجه الحجاج عامل بني أمية فانتقم منه ، وكان ما كان مما لست أذكره .

معاني المفردات :

القيامة هي قيام الناس من المقابر للعرض والحساب ، زیدت آخره تاء للمبالغة ، والمزعة والمزعة من اللحم : القطعة منه كالمزعة قليلاً ، لغة رديئة ، والعرق ما يرشح به البدن من مسام إهابه ، وبلوغه مبلغه تصوير لمشهد الناس في ذلك اليوم الشديد الحر الكثير الزحام ، وردت أحاديث قوية في تفاوت الناس في أهوال الحر وأثره ، فمنهم من يبلغ العرق ركبته ، ومنهم من يبلغ حقويه ، ومنهم من يلجمه إجمالاً ، لكن بجانبها أحاديث أصح وأقوى في لطف الله بعباده بتهوين ذلك اليوم على المقربين إليه ، كحديث : «السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، منهم الإمام العادل . . .»^(١) الحديث .

استغاثة البشر بأبيهم آدم عليه السلام :

قال رسول الله ﷺ : «فبينما هم كذلك» ، بين : ظرف زمان زیدت فيه ألف للتأكيد والتقوية ، وما بعده مسند إليه ، ومسند استغاثوا بآدم ، آدم هو أبو البشر ، خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته سجود شكر لا سجود عبادة ، أمره ونهأه ، ثم أسكنه الكوكب الأرضي فاستعمره ،

(١) سبق تخريجه .

قيل : هو أول من سكنه ، وقيل : سكن بمخلوق قبله ، قال فيلسوف المعرة : جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم ، وهو أمر ممكن عقلاً ، وقد تشهد له آية ، وعاش آدم تسعمائة وخمسين سنة فيما يذكره المفسرون والمؤرخون ، والله أعلم .

استغاثتهم بموسى ﷺ :

قال رسول الله ﷺ : «استغاثوا بموسى» ، هو نبي الله موسى بن عمران ابن قاهت بن لاوي أخي يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم شقيق هارون من أبيه ، وأمه يكابت بنت لاوي عمة عمران ، فوالد موسى عمران كان متزوجاً بعمته حسبما أبيح في شريعته ، كما للمفسرين نقلاً من سفر الخروج ، والله أعلم .

الشك في التوراة والإنجيل بخلاف القرآن :

لا وثوق بالتوراة بعد عُزَيْر ، ولا وثوق بالإنجيل بعد عيسى ، وإنما الثقة في القرآن الكريم الذي هو حقيقة علمية حتى عند من لا يؤمن بالإسلام ؛ نظراً لسنده المسلسل وتواتره المفيد لليقين ، فقد رواه جمع أي القرآن ، روى القرآن جمع عن جمع عن النبي ﷺ الأمين ، عن سفير الوحي عن رب العالمين ، قال السبكي في «جمع الجوامع» : وآية العلم اجتماع شرائطه ، فالسند في الرواية من خصائص هذه الأمة المحمدية ، ولولاه لقال من شاء ما شاء ، كما لابن المبارك .

وشهد شاهد من أهلها :

شهد شاهد من أهلها أن التوراة والأنجيل مشكوك في نسبتها حتى

لأصحابها ، كما في لاروس القرن العشرين ، وأقرب الأناجيل إلى القرآن فيما اختلف فيه الإسلام مع النصرانية «إنجيل القديس برنابة» الممنوع قراءته على المسيحيين ؛ لأسباب لا تخفى على الباحثين في شئون اللاهوت ، والناهوت ، والناسوت ، وخبايا رجال الكهنوت .

لجؤهم إلى محمد ﷺ :

قال رسول الله ﷺ : «ثم بمحمد ﷺ» هذا الذي قال : أنا لها بعد اعتذار الرسل قبله بأعذار مفصلة في رواية أخرى من حديث البخاري في غير هذا الكتاب ، وفي أحاديث أخرى لمسلم وغيره من الأئمة ، وأعرضت قصداً عن مقارنة هذا الحديث برواياته كلها لما فيها من التشويش على العامة باعتراف الأنبياء على أنفسهم بالإثم والعصيان ، وإن أجيب عنها بما أجيب عنها كالمعاريض ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ، هذا أبو القاسم سيد ولد آدم على الإطلاق روي في السنن الصحاح ، قال رسول الله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأنا أول شافع ، وأنا أول مشفع ولا فخر ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي»^(١) .

نسب النبي ﷺ :

هو النبي العربي القرشي أباً وأماً ، العدناني الإسماعيلي محتدداً ؛ لأنه سيدنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم .

هنا أقف ، ابن حكيم الملقب بما لقب به لصيده بها لا غير ، وحاشاه مما يوحي به ذلك اللفظ البشع ؛ لأن آباءه وأسلافه كلهم سادة قادة ممجدون

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث غريب .

في العرب قبل الإسلام ، فهم حكام مكة ، وبناة الكعبة ، وحجاب البيت ، وزمزم والمقام فيهم ، يقول ابن كعب الخزاعي :

يا أيها الرجل المَحْوُلُ رَحْلَهُ هَلَّا نَزَلْتَ بِأَلٍ عَبْدَ مَنْافٍ
هَبْلَتْهُ أُمُّهُ لَوْ نَزَلْتَ بِدَارِهِمْ ضَمْنُوكَ مِنْ جُزْمٍ وَمِنْ إِقْرَافِ
الْمُنْعَمِينَ إِذَا النُّجُومُ تَغَيَّرَتْ وَالظَّاعِنِينَ لِرَحْلَةِ الْإِيْلَافِ
وفي جده عليه السلام عمرو الهاشم ضجيع الشام ، يقول الشاعر نفسه :

عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ قَوْمَ بِمَكَّةَ مُسْتَتِينَ عِجَافٍ
سُنْتُ إِلَيْهِ الرَّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْيَافِ

أما قصي منسوب لما نسب إليه وحاشاه ، وهو حكيم أو عروة ، كما للمؤرخين المحققين ، وهو صاحب الفضل على قريش كلها في لم شتاتها وتحرير رقابها ومشاعرها من آل صفوان المتعسفين ، وهو أول ملكٍ قرشي ببيع بمكة ، من زعماء اثنتي عشرة قبيلة لا تدين العرب لغيرها ، فيه يقول حذيفة العدوي الجاهلي :

أَبُوكُمْ قَصِي كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ
قَصِي الَّذِي عَادَى كِنَانَةَ كُلِّهَا وَرَابَطَ بَيْتَ اللَّهِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
بُئُوهُ سَرَاةً كَهْلُهُمْ وَشَبَابُهُمْ تَفَلَّقَ عَنْهُ بَيْضَةُ الطَّائِرِ الصَّقْرِيِّ
هُمُومًا مَلَأُوا الْبَطْحَاءَ مَجْدًا وَعِزَّةً إِذَا اسْتَبَقَ الْخِيَرَاتُ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ

من هذا البيت المحترم في الجاهلية باللواء والندوة والسقاية والعمارة والإطعام والأمن من الخوف ، من هذا البيت المحترم في الإسلام أيضًا باشتراط شريعته النسب القرشي في نظام الحكم والخلافة ، من هذا البيت المحترم في العهدين انبثق نور الإسلام ونبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام -

سنة سبعين أو إحدى وسبعين وخمسمائة ميلادية ، وعاش ثلاثة وستين عاماً قضاها كما تقول الشئائل متواصل الأحرار ، وأنجز في ثلاث وعشرين سنة ما لم يظفر به سواه من عظماء التاريخ ، لقد اهتدى به المسلمون الأولون كلياً ، فسادوا وسعدوا ، وكان لهم النفوذ القوي على العالم كله ، شرقه وغربه ، فمتى يعيد التاريخ نفسه ، ولا مستحيل تحت الشمس ، ومتى يدور الفلك دورته بالتضامن والتآزر والصفاء الروحي والالتزام بأمانة الإسلام ، ومبادئ الإسلام وأخلاقية الإسلام؟ وما ذلك على الله بعزيز ، متى يتحقق هذا تحت راية الكتاب والسنة باعتبارهما منهاجين مجردين في إنقاذ بني الإنسان وانتشالهم من متاهات الضياع والخسران؟

وكما قال سلفنا الصالح : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » ، كذلك قال أكبر فلاسفة أوربا في القرن العشرين في كتابه «ينبوعا الدين والأخلاق» ، وهذا من عجيب الاتفاق .

القرآن هو معجزة النبي ﷺ :

إذا كان لكل نبي معجزة من نوع ما يتقنه قومه ؛ ليتم بها التحدي ، وتقام به حجة الله على خلقه ، فأعظم معجزة له ﷺ القرآن المعجز لفظاً ومضموناً ، المصون عن التحريف والتبديل المحفوظ في صدور الأبرار ، المحمول على كاهل آل البيت الأطهار في مختلف الأعصار والأمصار ، ولا يتسع الوقت لاستعراض مناقب هذا الرسول الأعظم وخصائصه وخوارقه ومعجزاته ، لكنني أقف قليلاً عند واحدة -إن سمح الوقت : من الخوارق العجيبة ألا وهي إخباره بالغيبات ، فقد ثبت في السنن الصحاح أنه أخبر أصحابه بجميع أحوال أمته ، وتحدث عن وقائعها ومتاعبها وأدوائها إلى قيام الساعة وظهور علاماتها .

إخباره ﷺ بمرض افتراق الأمة:

من ذلك حديثه في تشخيص الداء وإخباره بافتراق أمتيه اثنتين وسبعين فرقة الناجية منها واحدة، وهي الملتزمة بالكتاب والسنة، ومنها قوله ﷺ: «لَتَبْعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقَذَى بِالْقَذَى...»^(١) الحديث.

تشخيص العلاج:

من وصفاته الطبية للعلاج الحاسم حديث الحاكم في «المستدرک»: قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف...» إلى آخر الحديث المعجز حقًا، وآخره المطوي أكثر إعجازًا من صدره كما يعلم بالرجوع إليه، لكن البلغاء اقتصروا على حاجتهم منه في محسنات البديع ولأسباب لا تخفى.

ومن إرشاده الطبي: حديث الإمام أحمد وغيره: قال رسول الله ﷺ: «إني عن قريب سأدعى وأجيب، وإني تارك فيكم خليفين كتاب الله، جبل ممدود بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض» صدق رسول الله ﷺ، وبلغ.

عود على بدء:

هذه خطرات سجلتها هنا بمناسبة ورود الاسم في الحديث الشريف، ثم قال البخاري: وزاد عبدالله: حدثني الليث حدثني ابن أبي جعفر: (فيشفع ليقضى بين الخلق)، عبدالله هذا هو ابن صالح العجلي كاتب

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ١٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٧ / ٢٨١) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

الليث ، وليس المراد به عبدالله بن عمر ولا واحدًا من العبادلة الأربعة ، وزيادته هذه معلقة عند البخاري ، ولكنها موصولة عند غيره من الأئمة ، كالطبراني في أوسط معاجمه ، والبزار في بعض مصادره ، وابن منده في كتاب «الإيمان» ، والتعليق عند النحاة .

قلنا : إن الزيادة معلقة والتعليق عند النحاة وعلماء الأصول والقانون يختلف معناه عند المحدثين . . . قال في الطرفة الفاسية في علم الاصطلاح :
ما أول السند ساقط ولو إلى تمامه المعلق دَعَوْا

معنى الشفاعة:

الشفاعة لغة : المعونة والمساعدة ببذل الجاه ، الماضي والمضارع مفتوح الفاء قياسًا وسماحًا ، شفع يشفع ؛ لقول مالك الجياني في لاميته :

في غير هذا لدئ الحلقي فتحًا أشع بالاتفاق كآت صيغ من سألأ
وأصل المادة من الشفع أي أن يصير الواحد زوجًا ، فكأن المستشفع في مطلبه صار اثنين بمساندة الشفيع له ، وإذا مللتم فأحمضوا بأدبيات القصور ، من ذلك ما كتب به الوزير ابن مسعدة إلى أمير عصره : أما بعد ، فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتكرم في إلحاقه بنظرائه ، فأعلمته بأن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك بعد عن طاعته ، فوقّع الأمير في كتابه ، قد عرفنا نصيحتك له وتعريضك لنفسك ، فأجبنك إليهما ، وهذا إيجاز بليغ .

وإذا السعادة لحظتك عيونها نَمَ فالمخاوفُ كُلُّهن أمانُ
واصطدَّ بها العنقاء فهي جبالٌ واقتدَّ بها الجوزاء فهي عِنانُ

لا أنساها لطلحة رَحِمَهُ اللهُ يشير لموقف الصحابي الجليل طلحة الخير في شأن بعض القضايا الوطنية ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠] نرويا بالوجادة في كتاب، فيا ليتها دونت إلى مثيلتها، والومضات الإشرافية في التلميح وحسن الاقتباس :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّخْلُ

ثم قال : «حتى يأخذ بحلقة الباب» .

المراد بالباب والحلقة في الحديث:

المراد بالباب : باب الجنة ، وبالحلقة : عروتها ، وهي بسكون اللام وفتحها كدائرة القوم ، وإنكار أبي عمرو الشيباني الفتح مردود بنقل أئمة اللغة ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

قال أعرابي يخاطب ريحانة الرسول الحسن عليه السلام : لم يجب الآن من رجاك ، ومن حرك من دون بابك الحلقة ، وكذلك ورد في «النشر الفصيح» : مما لا يقدح فيه بالضرورات الشعرية ، قال السبكي : مسألة ، واللغة توقيفية .

فقه الحديث الشريف:

المرحلة الثالثة : فقه الحديث وإفاداته ، يستنبط من صدر الحديث وترجمته : النهي عن كثرة السؤال في العلم والمال وما سواهما ؛ لورود اللفظ ، لفظ السؤال غير مخصص بمعين ، وحذف المتعلق يفيد العموم ، والعام : لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر ، فيندرج في عمومه سؤال الزكاة ، والنهي عنه ، وخاصة إذا كان السائل غنيًا .

ويستنبط من الحديث توعدده وإنذاره بالعقاب على سؤاله بأن يبعث يوم القيامة عاري الوجه شديد الإحساس لحر الشمس ، وهذه مناسبة دقيقة لذكر حديث الشفاعة في كتاب الزكاة ، وفي باب من سأل الناس تكثراً لتصدير الحديث بالتوعد على كثرة السؤال ، وبهذا الفهم الذي ليس لي فيه إلا عرضه وتقعيده ودعومه بتقنية الأصول ؛ أنه للحافظ ابن حجر يكون حديثنا مطابقاً للترجمتين كتاباً وباباً ، على عادة الإمام البخاري ولا يشق غباره في الإشارة إلى فقه الحديث بتراجم أبوابه ، إلا أن منها ما هو واضح ، ومنها ما هو موغل في الغموض ؛ ولذا فضل بعض العلماء «صحيح مسلم» عليه ؛ لوضوح تراجمه وعدم تكراره وجمع أسانيده ، وأنشدوا ما أنشدوا :

قالوا: لمسلم فضل قلت: البخاري أعلى... إلخ

الحديث في حكم المتواتر:

يستنبط من اختلاف ألفاظ الحديث ومقارنته بالروايات الأخرى ، أنه غير متواتر بالمعنى الأصولي للتواتر ، لكنه في حكم المتواتر في قوة الاحتجاج به ؛ ولذا سماه التقي السبكي وابن دقيق العيد بالمتواتر المعنوي ، وإليه مال بعض المحققين كالإمام التاودي ابن سودة ، حيث ذكر هذا الحديث رابع ستة في حواشيه على البخاري ، قال :

**ما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتاً واحتسب
ورؤية شفاعة والحوض ومسح خفين وهذي بعض**

هذا تعداد الأحاديث المتواترة معنوياً .

مجيء الحديث بشكل مختصر:

يستفاد أيضًا من مقارنته بالروايات الأخرى أن في هذا الحديث اختصارًا من الحديث المطول في كتب أخرى من «صحيح البخاري» وغيره من أئمة السنة، ففي كتاب الرقاق وغيره من الصحيح ذكر نوح وإبراهيم قبل موسى، وذكر عيسى قبل نبينا -عليهم الصلاة والسلام- وأنهم خشوا من الوقوف أمام الله للشفاعة، وكان شعارهم يومئذ نفسي نفسي، اللهم سلم سلم، إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، إلا واحدًا منهم، قال: أنا لها، هو أبو القاسم عليه السلام وعلى آله.

الاستشفاع بالأسادة والفضلاء مشروع:

ويستنبط من الحديث أيضًا أن الاستشفاع إلى الحكام بسلالة الناس وفضلائهم مشروع، بل مندوب لكن بشرط؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] لكن بشرط النزاهة، وألا تكون الشفاعة على أساس عوض متفق عليه سابقًا، وإلا منعت فقهاً ومروءةً، قال فقهاؤنا:

ثلاثة ليست لغير الله القرض والضمان رفق الجاه

ويستنبط منه أيضًا أن الإعانة بالجاه من مكارم الأخلاق، بل قالوا: في كل شيء زكاة وزكاة الجاه نفع الناس به.

شعر:

وأدّ زكاة الجاه لله إن زكاته كمثل زكاة المال تمّ نصابها

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام امتلاكها

ونجدة المستغيث خلق عربي قديم ، قال الحماسي :

إذا استصرخوا كان الصراخ لهم قرع الضنابيب

الضنابيب ، والضببوب : عظم العقب ، قلت : إنه خلق عربي قديم ،
أقره الإسلام أيضًا ؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح في البخاري :
«اشفعوا ، تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» .

فائدة ذكر الوجه واللحم والعرق :

يستنبط أيضًا من ذكر الوجه واللحم والعرق أن البعث للجسد والروح
معًا .

وفيه رد لمن يقول بالمفهوم الفلسفي اليوناني ، وتابعهم على ذلك بعض
فلاسفة الإسلام عفا الله عنهم ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، لا يعيننا
أمرهم ، وفيه رد لمن يقول بالمفهوم الفلسفي ، وأن البعث للأرواح فقط
دون أجسادها .

وهي من المسائل العشرين في كتاب «المقاصد المتقدمة في كتاب التهافت»
لحجة الإسلام .

وتصدئ للجواب عن الفلاسفة فيلسوف البلاط المراكشي ابن رشد
الحفيد صاحب «البداية» لا جده صاحب «البيان والتحصيل» ، كما في
بعض الموسوعات غلطًا ، ويظن أن التحامل على الغزالي وعلى المذهب
الرسمي للدولة -الغزالي أو الغزالي ، كلاهما الغزالي نسبة إلى غزاة قرية ،

والغزالي المغزل ، غزلت له غزلاً رقيقاً . . . إلخ .
وعلى المذهب الرسمي للدولة كان من أسباب سقوط ابن رشد ، وذلك
جزاؤه لمصادمته لعقيدة السلف والخلف من أهل السنة ، قال أبو العباس
المقرئ في كتابه «إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة» .

وكل ما جاء من الأخبار عن أحمد المخصوص بالإكبار
فذاك حق كائن لا يمتري فيه وما كان حديثاً يفتري
مثل السؤال وعذاب القبر والبعث للأبدان يوم الحشر
ويستفاد من الحديث صراحة ، ولا أقول استنباطاً : أن صاحب المقام
المحمود هو محمد ﷺ .

معنى المقام المحمود :

قيل : إنه أول من يفتح له باب الجنة ، وأول من يرى رب العزة ، ورؤية
الحق سبحانه مذهبنا أهل السنة ، وقيل : المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد ،
وقيل : المقام المحمود هو قبول شفاعته الكبرى في تعجيل الحساب ، وهذا
الذي رجحه القاضي عياض السبتي صاحب «المشارك» ، ومن عجب بُدُو
المشارك ، وبناء على هذا الراجح في تفسير المقام المحمود بالشفاعة تكون
قضية الشفاعة ليست ثابتة بالسنة فقط ، بل ثابتة بالسنة وبالكتاب أيضاً
لورود المقام المحمود في «سورة الإسراء» في قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَيْلٍ
فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

المرحلة الرابعة : تلخيص واعتبار

إن قضية العالم الآخر والبعث من القبور بالمفهوم الازدواجي والفردية

اليوناني ، تناوله الوحي السماوي والفكر البشري عبر التاريخ الديني والفلسفي منذ عهد طاليس وديمقراطس وبقية الحكماء السبعة ، ومن قبلهم من الرواد الأوائل ، وكذلك ثار الحديث حوله في عهد سقراط الحكيم المأسوي الذي استرخص حياته في سبيل الفضيلة .

أدلة البعث عند أفلاطون :

هذا أفلاطون من بعده نجده في محاورة فيدون صريحاً في القول بخلود النفس لتلقى جزاءها في عالم أبدي ، وقيم الدليل البرهاني بالقياس المنطقي الحملي من الشكل الأول ، هكذا : الروح من مشتقات الألوهية ، وكل ما كان من مشتقات الألوهية محكوم له بالخلود ، النتيجة ، الروح محكوم لها بالخلود ؛ لأن الروح نفثة من العالم الأزلي :

حَمْلٌ بِصَغَرَى وَضَعُهُ بِكُبْرَى يُدْعَى بِشَكْلِ أَوَّلٍ وَيُدْرَى

نصيحة إلى المسلمين :

يقيم أفلاطون دليلاً آخر من القياس الشرطي ، هكذا : لو كانت النفوس فانية لسقطت الحقوق والواجبات ، ولما كان هناك مبرر احتمال الشقاء من أجل العدل والفضيلة ، ولو لم يكن بعث ومعاد لكان الأخيار أشقى الناس ، ولكان نقيض الأخيار أسعد الناس ، وهذا هدم للمعايير وتصادم للحكمة التي قام البرهان على أنها من أوصاف الألوهية ، لكن هذه اللوازم كلها باطلة ، فما أدنى إليه باطل أيضاً .

قال في أرجوزة الميزان المنطقي :

فإن يك الشرطيُّ ذا اتصال أنتج وضع ذاك وضع التالي

ورفعَ تالٍ رفعَ أول ولا ه يلزم في عكسهما لِمَا انجلى

هذا ومن النصيحة للمسلمين ، وهي عمود الدين ما يذكره علماء الإسلام في هذا المقام مما يتوسل به إلى شفاعته خير الأنام : الإخلاص في توحيد الألوهية ؛ لحديث : «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال : من قال لا إله إلا الله مخلصًا بها قلبه»^(١) ، والمراد قائلها وعمل بها ؛ لأن الإخلاص في القلب يستدعي العمل .

وإذا حلت الهداية قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء

ومن وسائل الشفاعته التزام دعاء معين ؛ لحديث الإمام البخاري : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، حلت له شفاعتي» .

ومن الوسائل شد الرحال إلى مسجده ﷺ ، ومن الوسائل زيارة قبره والوقوف بأعتابه بالسلام المباشر ؛ لحديث : «من زار قبري وجبت له شفاعتي»^(٢) ، وفي حديث الزيارة هذا كلام وكلام لا يتسع له المقام ، والحق أن الزيارة مشروعة ؛ لأن أحاديثها وإن كانت قاصرة عن مرتبة الحسن ، فهي مندرجة في الأصل العام الصحيح : «كنت نهيتكم عن زيارة

(١) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢/ ٤٧٨) ، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٠) من

حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

القبور ألا فزوروها»^(١)، ومن أحق بالزيارة من قبر الرسول ﷺ؟

ومن وسائل تخفيف هول يوم القيامة ونيل الشفاعة ، تفريج الضائقات عن عامة الناس خصوصًا أهل الإيمان ؛ لحديث الإمام مسلم ، قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» .

(١) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحنفية .

المحاضرة الثامنة بعد المائتين**منهج الفكر القانوني في الفقه الإسلامي****مقدمة :**

قصدت من هذا العنوان أن أناقش ما إذا كان هنالك في الفقه الإسلامي منهج قانوني بالمعنى المصطلح عليه حديثاً ، وهذا يتطلب إثبات أن استنباط أحكام هذا الفقه يخضع لقواعد قانونية علمية تسمح للفقه بأن يبسط على مجالات الحياة المختلفة ، وأن يتطور كما تتطور الحياة على وجه الأرض ، أما إذا كان الفقه يقتصر على مجرد النقل من السابقين إلى اللاحقين ، فهنا لا مجال للحديث عن المنهجية القانونية .

نظرة الفكر الغربي للمعرفة الإسلامية :

في ٢٨ أكتوبر ١٩٨٣ ألقى المفكر التركي الأستاذ «سوزوكين» محاضرة ، مما جاء فيها أنه في رأي الفكر الغربي : أن الفكر الإسلامي لا ينظر إلى الأمام إنه قائم على أساس انتهاء المعرفة ، ولذلك لا يتطلع إلى كشف المجهول ، واستدل على ذلك برأي أحد أساتذته الألمان ، الذي قال : إن الحضارة الإسلامية لا تقوم على فكر خلاق ، والدليل على ذلك أن مهمة العالم في العالم الإسلامي هو نقل معارف سابقيه إلى الجيل اللاحق ، عكس الفكر الغربي الذي يستوعب معرفة سابقيه ، ويتعشق دوماً إلى كشف المجهول .

التغيير بين الفكر الغربي والفقہ الإسلامي:

ثانيًا: أنه في ظل الفقه الإسلامي أن كل تغيير يصيب المجتمع الإسلامي يعتبر تدهورًا عكس الحال في الفكر الغربي، فإن التدهور يكمن في عدم التغيير.

دحض تصور الفكر الغربي عن المعرفة في الفقه الإسلامي:

ثالثًا: إن العالم دائمًا ينظر إلى نقل معارف سابقه بأمانة دون أن يحاول اكتشاف الجديد، ويقول الأستاذ «سوزوكين»: إنه رد على أستاذه بكلام لابن الهيثم الذي يقول فيه: «إن المعرفة لا تتناهى، بل إن العالم كله قائم على معادلات رياضية، وأنه بتحليل هذه المعادلات الرياضية يمكن لنا أن نسخر العالم كله وأن المعرفة لا تتناهى».

كما نقل عن جابر بن حيان أن مهمة العالم هو كشف المجهول؛ لأن المعارف لا تتناهى، هذا ما نقله الأستاذ سوزوكين عن ابن الهيثم وجابر بن حيان، ويمكن أن نضيف قوله للإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، يقول فيها: «والمعارف إذا اجتمعت في القلب ازدوجت في القلب»، وهو يقصد بالقلب هنا العقل، كما يفسره في بداية كتابه على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة إذا حصلت معرفة أخرى، وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر، وهكذا يتماهى النتاج وتتماهى العلوم، ويتماهى الفكر إلى غير نهاية.

هذا نص كلام الإمام الغزالي رحمته الله، إذن بالنسبة للفكر الإسلامي كان هنالك عدد غير قليل من المفكرين الإسلاميين الذين لا يقولون بتناهي

المعرفة ، وأن مهمة العالم هو اكتشاف المجهول دومًا ؛ لأن العقل البشري لا تقف أمامه عوائق .

أسئلة وأجوبة :

للإحاطة بالموضوع ، أريد أن أضع ثلاثة أسئلة للجواب عليها :

السؤال الأول : ما المقصود بعقلنة الفقه؟

السؤال الثاني : هل عقلنة الفقه تتلاءم مع طبيعة الفقه الإسلامي؟

السؤال الثالث : كيف نشأ منهج الفقه القانوني في الفقه الإسلامي؟ وكيف تطور؟

مشاكل تعترض التشريع :

ملء الثغرات :

ذلك هو السؤال الأول ، وهو المقصود بعقلنة الفقه : أقول : كل تشريع كيفما كان تعترضه ثلاث مشاكل أساسية ، هذه المشاكل هي ملء الثغرات ؛ لأنه مهما اتسعت نصوص التشريع لن تستطيع استيعاب وقائع الحياة اللاحقة .

مشكلة التكليف :

المشكلة الثانية : هي الملاءمة بين عمومية النصوص ووقائع الحياة التي تتسم بعناصر وملابسات خاصة بكل واقعة ، وهو ما نعرفه بمشكلة التكليف .

مشكلة التطور :

المشكلة الثالثة أو الصعوبة الثالثة : التي تعترض أي تشريع ، مشكلة التطور ؛ لأن النصوص القانونية جامدة ، والحياة دوماً في السير ، ولذلك كانت هذه أيضاً الصعوبة الثالثة التي تعترض كل تشريع .

حتمية نشأة فقه أو علم القانون :

للتغلب على هذه الصعوبات كان من الضروري أن ينشأ علم القانون أو فقه القانون هذا العلم الذي يتوصل عن طريق ملاحظة القواعد القانونية إلى مرتبة التركيب والتحليل ، لكي يستطيع عن طريق التركيب والتحليل أن يتغلب على هذه الصعوبات .

معنى عقلنة الفقه :

المقصود بعقلنة الفقه : هو إخضاع استنتاج الأحكام لقواعد علمية منضبطة ، مستنداً عليها بالأدلة المقبولة عقلاً .

ملحوظات على ملائمة الفقه العقلاني لطبيعة الفكر الإسلامي :

ننتقل للسؤال الثاني : هل تتلاءم هذه العقلنة مع طبيعة الفكر الإسلامي ؟ ووضعت هذا السؤال ؛ لأنني أعتقد أن هنالك ملاحظة ربما ملاحظتين ، ربما متعارضتين .

الملاحظة الأولى : يمكن أن تقول : إن الفقه الإسلامي عندما نتكلم عن الثغرات ونتكلم عن التطوير ربما لا ننظر إلى طبيعة الشريعة الإسلامية ، وأنها شريعة كاملة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نَعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ [المائدة: ٣] ، ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، فلذلك كيف يمكن أن نقول إن هنالك ثغرات؟ وعندما نتكلم عن التطوير كيف نتكلم عن التطوير مع أن المجتمع هو الذي يجب أن يتقيد بالشرعية الإسلامية ، إن الشرعية هي التي تسير المجتمع ، هذا جانب أو الملاحظة الأولى .

الملاحظة الثانية : الملاحظة ربما المضادة تقول : كيف نتكلم عن منهاج فكري قانوني في الشرعية الإسلامية؟ ومن خصائص المنهج الفكري أن يكون المفكر أو الفقيه حرًا في استنتاج ما يريد استنتاجه ، والفقيه في الشرعية الإسلامية مقيد بقداسة النصوص ، وهنالك قواعد أصولية ، منها مثلاً : النقل قبل العقل ، والاجتهاد مع مورد النص ، فكيف نزع أن هنالك فكرًا قانونيًا مع وجود هذه القواعد الأصولية ، ومع الاحتفاظ بقداسة النصوص التي لا يمكن للفقيه أن يمسها .

الإجابة على الملاحظة الأولى :

أجيب على الملاحظة الأولى التي تقول : إن شريعة الله كاملة ونهائية لا يمكن أن تتطور ، فأقول بالنسبة إذا ما استعملت كلمات ثغرات أو التطوير ، فينبغي أن نتفق أولاً على مفهوم المصطلحات قبل أن نناقش الفكرة ، ذلك أنه في فقهننا الإسلامي للأسف كثيرًا ما كانت الألفاظ غير الواضحة المعنى سببًا للاختلافات الشكلية ، ولا أدل على ذلك مثلاً من الاستحسان الذي يقول به الإمام مالك ، والإمام أبو حنيفة ، بينما يقول الإمام الشافعي من استحسن فقد شرع ، ينكره مع أن الإمام مالكًا وأبا حنيفة لم يشرعوا ، إنما كانوا يفقهون كتاب الله وسنة رسوله .

معنى الثغرات:

إنني أقصد بالثغرات وجود مبادئ في الشريعة الإسلامية تحتاج إلى أحكام تفصيلية وأقصد بالثغرات كذلك وجود مجالات لم تتعرض الشريعة الإسلامية لتنظيمها، وأعتقد أن هذا لا يختلف فيه اثنان في المجال الدستوري ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَى يَنْبَغُ﴾ [الشورى: ٣٨] كيف يطبق في المجال المدني ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] في المجال التجاري ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ [النساء: ٢٩] إلى غير ذلك من المبادئ الكثيرة التي تحتاج إلى الأحكام التطبيقية، كذلك هنالك مجالات أخرى كثيرة متعددة استجدت مع الحياة، ونحن الآن نعيشها، ولم تكن موجودة عند نزول الشريعة الإسلامية.

معنى التطوير:

أقصد كذلك بالتطوير: هو تفسير النصوص الشرعية بالشكل الذي تؤدي به وظيفتها التي أنزلت من أجلها، وهي مصالح الخلق، فكل المذاهب الإسلامية تتفق أن الشريعة الإسلامية أنزلت إما لجلب المصلحة أو لدرء المفسدة، فليس المقصود بالتطوير هو تعطيل النصوص، ولكن تفسيرها بالشكل الذي تؤدي معه وظيفتها.

أمثلة على ذلك:

أعتقد أننا إذا رجعنا إلى بعض الأمثلة البسيطة في عهد سلفنا الصالح نتأكد من هذا، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه استجدت أمور في عهده،

فأحدث أحكامًا ، استجدت أمور فأعاد تفسير نصوص الشريعة ، نعلم أنه عندما افتتحت العراق منع توزيع الأراضي على عكس السنة التي كانت من قبل ، وقال : إنه ربما لا يفتح إقليم آخر على الأمة الإسلامية ، وهذه الأقاليم تحتاج إلى ثغور ، ومن يربط فيها فمن أين لهؤلاء المرابطين من يرزقهم ، فترك الأرض وفرض عليها الخراج ؛ لكي يؤدي بها أجره الجنود الذين يحرسونها .

مثال آخر:

مسألة فرض التعشير على الداخلين على الأمة الإسلامية ، وعلى الخارجين منها ، بل إن النص المتعلق بالزكاة وبالمؤلفة قلوبهم المنصوص عليها في الآية القرآنية : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٠] لما رأى أن الحكمة لم تعد قائمة ، فسر النص بشكل آخر ، فعمر بن الخطاب إذن عندما استحدث هذه الأمور ، وعندما دون الدواوين ، وعندما أخذ يؤرخ كتبه بالتاريخ الهجري ... كل هذه الأمور لم يحدث جديدًا في الشريعة ، ولكنه فسر نصوصها بما يتطابق والحياة التي استجدت في عهده .

أعتقد أنه إذا ما فسرنا الثغرات بهذا المعنى والتطوير كذلك بهذا المعنى لم يعد هنالك مجال للاختلاف من ناحية الجوهر .

التطوير وطبيعة الفكر الإسلامي:

السؤال الثاني : هل يتفق هذا مع الطبيعة - طبيعة الفقه الإسلامي؟
أقول : نعم ، وأكد هذا بالرغم من وجود قاعدة النقل قبل العقل ، ذلك

أنه بالنسبة لأحكام الشريعة الإسلامية أقتصر فقط على نقط هامة : نرجع إلى الصياغة الموجودة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، والصياغة المستعملة في القانون الوضعي ، فالقانون الوضعي كما نعلم هنالك الجانب الهام هي النصوص الخاصة التي تتعرض للأحكام الجزئية ، وهنالك إلى جانبها مبادئ عامة .

سهولة تغيير النصوص الجزئية:

النصوص الجزئية : لا شك أنها تتغير بسهولة ؛ لأنها تتعلق بوقائع قائمة وقت صدور التشريع ؛ لذلك ما إن يمر عليها الوقت حتى يستدعي الأمر تغييرها وتعديلها .

المبادئ العامة وكيفية التعامل معها:

أما بالنسبة للمبادئ ، فهذه المبادئ في واقع الأمر في التشريع الوضعي نراها على نوعين : نوع يتعلق بتكريس فلسفة معينة محددة ، وهذه أيضاً عرضة للتغيير ، ومبادئ مأخوذة من طبيعة التعايش الإسلامي .

أمثلة من القانون الفرنسي:

أضرب لهذا مثلاً إذا أخذنا مثلاً القانون الفرنسي ، نجد هنالك ثلاثة مبادئ تعتبر تكريساً للفلسفة الفردية التي كانت مهيمنة وقت قيام الثورة الفرنسية ، ووقت صدور التشريع سنة ١٨٠٤ ، هذه المبادئ هي الملكية حق مطلق ، لا مسئولية بدون خطأ ، العقد شريعة المتعاقدين ، هذه المبادئ الثلاثة التي تكرر الفلسفة الفردية سرعان ما أصبحت غير قابلة للتطبيق عندما تغيرت الأوضاع الاجتماعية ، وعندما دخلت المذاهب

الاجتماعية إلى الحياة وأخذت تنادي بالرجوع عن الفلسفة الفردية، ولذلك عانى الفقه الفرنسي والقضاء الفرنسي كذلك من هذه المبادئ الثلاثة، عانى معاناة كثيرة، وكتب عشرات الآلاف من المجلدات حولها، والسبب في ذلك هو أنها تمثل فلسفة معينة محددة لما تغيرت الأفكار حول هذه الفلسفة أصبحت هذه المبادئ غير قابلة للمسايرة.

مثال آخر:

هنالك مبادئ أخرى في القانون الفرنسي نفسه لا تمثل فلسفة معينة، ولم نر الفقه ينتقدها، ما تزال قابلة للتطبيق، ما ينص عليه القانون الفرنسي في المادتين ١١٣١، ١١٣٣ اللتين تنصان على أن كل التزام يجب أن يكون سببه غير مخالف للأخلاق الحميدة، ولا للنظام العام، وكذلك المادة ١١٣٤ التي تقول: يجب على المتعاقدين تنفيذ التزاماتها بحسن نية.

هذان المبدآن اللذان لم يكونا من نتاج الفلسفة الفردية نجدهما ما يزالان مطبقين ولا نجد الفقه الفرنسي ينتقدهما ولا يمسهما.

مبادئ الشريعة الإسلامية مستقاة من القرآن الكريم:

إذا رجعنا إلى صياغة الشريعة الإسلامية نجدها في مجملها مبادئ عامة، يمكن أن تقرأ في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]... إلى غير ذلك من عشرات الآيات الأخرى الكثيرة.

هذه المبادئ التي لا نعتقد أن أي مجتمع يمكن أن ينادي بخلافها ، نعم ، إن وسائل تطبيقها تتطور حسب تطور المجتمع .

مثال من الشريعة الإسلامية :

نجد في الشريعة الإسلامية النصوص أو الأحكام الخاصة ، وأشير إلى موضوع خاص ؛ لأنه هو الذي تأتى لي أن أتبعه عن كثب الأحكام المتعلقة بالأسرة الواردة في القرآن ، ونجد أن الأسرة لعله أهم موضوع تعرض القرآن لأحكامه بتفصيل .

أحكام الأسرة وكيفية تطبيقها :

تبين لي من تتبع الآيات المتعلقة بالأسرة أنه في السور الثلاث : البقرة ، والنساء ، والطلاق التي أوردت أهم أحكام الأسرة تكررت كلمة معروف أو المعروف بصورة ملفتة للنظر اثنتين وعشرين مرة ، مما يدل على أن أحكام الأسرة المفصلة في القرآن تطبق بالمعروف ، ما معنى بالمعروف؟ بالمقبول من المجتمع وبما لا يعتبر منكراً ، مما يؤدي بالتالي إلى أن تكون هذه الأحكام وتطبيقها متطورة مع تطور المفاهيم الاجتماعية لمفهوم المعروف ، ولمفهوم العدل وعدم الظلم .

هذا بالنسبة للسؤالين اللذين أتيت بهما ، وانتقل للسؤال الثالث ، وهو : متى نشأ المنهج القانوني في الفكر الإسلامي؟ وكيف تطور؟

نشأة علم القانون الإسلامي :

يمكن أن أقول باختصار إن الفكر الفقهي الإسلامي لم ينشأ بقواعده إلا في منتصف القرن الثاني الهجري ، وأربط هذا بتأليف الإمام الشافعي

لرسالته في الأصول ، طبعًا كانت هنالك مبادئ من قبل ، ولكن أعتقد أن تدوين هذه القواعد في الكتاب يعتبر بداية لنشوء هذا العلم قائم الأركان واضح المعالم .

بين القانون وعلم القانون :

يمكن القول أنه قبل هذه الفترة أو في القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني كانت الأمة الإسلامية تعيش بقانون دون علم القانون ، وهو أمر لا يبدو غريبًا ، فالمهم هو القانون ، وليس علم القانون حتى أن أحد فلاسفة الألمان وهو «يوليوس كريمان» ، قال : إن أي أمة لا يمكنها أن تعيش بدون قانون ، ولكن لا يستحيل عليها أن تستغني عن علم القانون ، واستدل على ذلك باليونان وبالرومان ، كذلك الذي قال : إن القانون لم ينضج إلا بعد انتهاء عهد الجمهورية أي بعد عدة قرون من الزمان .

بساطة أحكام القانون الإسلامي مع نشأته :

العيش بدون قانون غير ممكن ، ولكن العيش بدون علم القانون أمر ممكن وميسر ؛ ولذلك كانت أحكام القانون في هذه الفترة الأولى من تاريخ الأمة الإسلامية كان بسيطًا ، وكان كل الناس يحلون مشاكلهم والفتاوى تصدر دون أي تعقيد .

أُسُس علم أصول الفقه :

الأساس الأول :

هذه الفترة نشأ فيها علم أصول الفقه ، وكان مكونًا من موضوعين أساسيين ، هما : الموضوع الأول : يتعلق بفهم نصوص الشريعة «الكتاب

والسُّنة» ، وهو ما يسمى بمباحث الألفاظ ، هذه المباحث التي تعنى بتفسير معاني الكلمات ، ومعاني العبارات الواردة في الكتاب والسُّنة وما يلحق بها من معرفة الناسخ والمنسوخ ، والترجيح وأخبار الآحاد والسنة المتواترة إلى آخره ، فكان هذا الجانب الذي يتعلق بالجانب اللفظي ، بجانب فهم مصادر أو مصدري الشريعة الأساسيين .

الأساس الثاني :

يتعلق بمقاصد الشريعة وبحكمها وبعملها حتى يستطيع المجتهد أن يستنبط الأحكام وفق هذه المقاصد ، وكان هذان الموضوعان هما اللذان يتكون منهما أصول الفقه والتي كانت تؤدي وظيفة علم القانون ؛ لأنها من جهة تُعنى بفهم النصوص ، والثاني : قواعد الاستنباط ؛ ولذلك نجد أن الأحكام كانت ينظر فيها إلى حكمها وإلى غايتها مثلاً .

مثال على ذلك : صلاة الخوف :

أقتصر على مثال واحد للإمام الشافعي أورده في رسالته ويتعلق بصلاة الخوف ، ثبت لديه ثلاثة أحاديث في صلاة الخوف بهيئات مختلفة : هيئة رواها أبو عياش الزرقني ، وهيئة رواها عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، وهيئة ثالثة رواها خوات بن جبير ، قال الإمام الشافعي : بالنسبة للهيئة التي رواها أبو عياش الزرقني أنها كانت في ظروف خاصة وعدد الجند الذي كان مع الرسول ﷺ وأياً كان العدو إلى آخره وانتهى إلى القول بأنه إذا توافرت هذه الظروف يقول الإمام الشافعي أمرت بصلاة الخوف هكذا .

الرواية المقبولة:

أما الرواية التي أتى بها عبدالله بن عمر ، فقال : إنها لا تؤدي الحكمة من سنة صلاة الخوف وهي الاحتياط من المشركين ؛ لأن هذه الهيئة تقول إن كل فئة تصلي ركعة مع رسول الله ﷺ ، وتنسحب ثم يقضي الجميع ، فقال : إن هذا غير ممكن ويبقى الرسول بمفرده ، وهو لا يستطيع مقاومة العدو ، ولذلك هذه الهيئة لا تؤدي الوظيفة أو الحكمة التي من أجلها شرعت صلاة الخوف ، فاستبعدوها وأخذ رواية خوات بن جبير .

ارتباط التشريع بحكمته:

يقول الفقيه الأندلسي أبو إسحاق الشاطبي : من أجل الارتباط بحكمة التشريع ، يقول : إنه يجب على المجتهد ألا ينظر إلى الفعل في ذاته ، ولكن ينظر في مآله ، هل تترتب عليه مصلحة؟ أو إدراء مفسدة؟ بل أكثر من هذا يقول : إنه يجب بقدر الإمكان تحقيق المناط الخاص ومعنى تحقيق المناط الخاص اختلاف الأحكام حسب اختلاف الناس أو بعبارة أخرى التقليل والتقليص من عمومية القاعدة القانونية وعدم شمولها لكل الناس ؛ لأن الأفراد يتفاوتون فيما بينهم ، وطالب بالنظر إلى تحقيق المناط الخاص .

تدهور تطبيق علم الأصول:

نشأ هذا العلم الذي كان يؤدي وظيفته ، لكن ماذا حدث له بعد ذلك؟ الذي حدث له بعد ذلك أنه صار في الاتجاه غير المرغوب فيه ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل لعل أهمها : اتصاله بأصول الفقه ، وبعلم الكلام ، وبعلم المنطق ، وأخيرًا تقليص موضوعي .

تأثر علم الأصول بالكلام:

من حيث الاتصال بعلم الكلام نجد الكتب التي ألفت في أصول الفقه تشتمل على موضوعات متعددة من علم الكلام ، مثل : هل هؤلاء الرسل معصومون قبل البعثة؟ وهل أرسل الله رسلاً من الجن؟ وهل يجوز التكليف بما لا يطاق؟ وتكليف المعدوم؟ أو التكليف بالمحال؟ إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا علاقة لها بالفقه واستنباط أحكامه .

منجى آخر:

ناحية ثانية أيضًا متصلة بعلم الكلام : الافتراضات ، ليس الافتراضات التي ألفناها في الفقه للوقائع التي يمكن أن تقع ، ولكن الافتراضات التي لا وجود لها ولا فائدة لها في الفقه ، ويكفي أن نرجع مثلاً إلى باب النسخ في «جمع الجوامع» ؛ لنرى الكثرة من الافتراضات التي تتعلق هل يمكن أن يقع النسخ بكذا إذا قال الله : صوموا وجوباً أو صوموا أبداً هل يجوز النسخ؟ إلى غير ذلك من الافتراضات التي أيضًا لا علاقة لها باستنباط أحكام الفقه .

منجى ثالث:

اتصال آخر بعلم الكلام أعتقد أنه الأهم والجوهري يتعلق بتفسير علة الأحكام ، فقد كانت علة الأحكام هي حكمته وغايتها لكن كما نعلم الخلاف الذي كان بين المتكلمين حول تعليل أحكام الله بين المعتزلة والأشاعرة وميل الأشاعرة إلى عدم القول بالتعليل ، وأن أحكام الله تتعالى عن الغير ، هذه الفكرة انتقلت إلى علم أصول الفقه ، وفي مقدمة من نقلها الإمام فخر الرازي في كتابه «المحصول في علم الأصول» ، ففسر العلة بإمارة الحكم وليس بحكمته ، والفرق جد كبير .

مثال لتأثر علم الأصول بالكلام:

يمكن أن نضرب مثلاً ، نهى الرسول ﷺ عن بيع الطعام قبل قبضه ، هذا النهي إذا بحثنا عن حكمته نجد أنه لا شك هو السعي إلى تحقيق الأمن الغذائي في السوق ، وإذا رجعنا إلى تاريخ وقت صدور هذا الحديث نجد كيف كانت تمول مكة والمدينة بقوافل تستغرق عدة شهور وتحمل القليل من الطعام ، وكثرة الاحتياج إليه ، فكانت هنالك حكمة في النهي عن بيع الطعام قبل قبضه .

تطبيق المثال السابق على واقعنا المعاصر:

في وقتنا الحاضر عندما تتكلف الدولة بتزويد السوق وبتحديد قواعد وقوانين الخزن والتسويق ، وحتى تحديد الأسعار هل تبقى الحكمة قائمة أم لا؟ إذا ربطنا الحكم بالحكمة قلنا يمكن أن نقول إنه لا حرج في بيع الطعام قبل قبضه ، ولكن إذا تركناه مرتبطاً بإمارته ، وهو الطعام ، فنقول : كل طعام وفي كل زمان ، وفي كل مكان لا يجوز بيعه قبل قبضه .

الرازي وأثره في علم الأصول:

كان من جهة رأي الإمام الرازي ووزنه العلمي الذي نعرفه في الفكر الإسلامي ، هو الذي أثر على نقل المعنى الجديد للعلة إلى فقه الأصول ، وإلى علم الأصول فبقيت الأمور تدور مع إمارتها لا مع حكمها .

العبادات وأحكامها الخاصة:

ربما كان هناك سبب آخر يتعلق بتوحيد القواعد بين العبادات والمعاملات ، ولا شك أنه بالنسبة للعبادات يصعب القول بربط الحكم

بالحكم ؛ لأن العبادات لها أحكامها الخاصة ، فكانت وحدة القواعد إذن من الأسباب أيضاً التي أدت إلى تفسير العلة بهذا المعنى .

علم الأصول والمنطق :

أما بالنسبة للاتصال بعلم المنطق فنجده يتعلق باستعمال القياس المنطقي في استنباط الأحكام ويسمى بالمقدمتين الصغرى والكبرى . . . إلخ .
هذا القياس المنطقي أو الصوري الذي استعمل طغى على أصول الفقه .

المازري وأثره في أصول الفقه :

قال المازري : إن بعض المؤلفين ألف كتاباً خصصه للدفاع عن الرأي القائل بأن أصول الفقه كلها مأخوذة من أصول المنطق ، ويستنكر المازري هذا ، ولكن يأتي من بعده ، يقول : إن المازري يقول هذا ؛ لأنه كان جاهلاً بالمنطق ، والمازري من هو لم يكن أبداً جاهلاً بالمنطق ، ولكن كان يريد أن يبعد المنطق نسبياً عن علم أصول الفقه .

استنكار معاصر :

لم يكن المازري هو وحده الذي استنكر هذا ، بل إننا نجد في الفقه الحديث ، وفي الفقه المقارن من استنكر هذا ، نجد مثلاً في ألمانيا «فيليب هيك» مؤسس مدرسة فقه المصالح ، يقول : إن الفقيه الذي يبنى قواعده وأفكاره بقواعد المنطق الصوري أو القياس أو القياس المنطقي البعيدة عن الحياة الواقعية يشبه الشخص الذي يصنع ساعة ، ولكن ليس لقياس الزمن ، ولكن ليضعها زينة في منزله ؛ لذلك نرى أن الاتصال بعلم الكلام من جهة

والاتصال بعلم المنطق من جهة ثانية أثر على مسلك أصول الفقه ، وارتفع به من حياة الواقعية إلى الحياة الفكرية المجردة ، وإلى القياس المنطقي الصوري .

موضوع علم الأصول:

الجانب الثاني يتعلق بموضوع علم الأصول ، فالموضوع كما رأينا منذ قليل كان يتعلق من مباحث الألفاظ ، ومن مقاصد الشريعة ، لكن مقاصد الشريعة وقع الاستغناء عنها ، واقتصر البحث عن مباحث الألفاظ مع الموضوعات التي أقحمت في أصول الفقه .

الشاطبي والسبكي وأثرهما في علم الأصول:

جاء أبو إسحاق الشاطبي في القرن الثامن ، وحاول أن يعيد لعلم الأصول كامل موضوعه بإدخال مقاصد الشريعة لكن محاولته لم يكن لها أي أثر ، ويمثل هذا بصورة واضحة أن مؤلف ابن السبكي المسمى بـ «جمع الجوامع في أصول الفقه» بقي هو وحده ، هو الذي يدرس في جامعة القرويين ، وفي الزيتونة بتونس ، وفي الأزهر بمصر لعدة قرون ، هو وحده الذي يدرس ، وكل المعاهد التابعة لهذه الجامعات .

ومؤلف ابن السبكي في جمع الجوامع تتوافر فيه هذه المؤشرات أو الخصائص التي أشرنا إليها ، فهو متأثر إلى حد كبير بعلم الكلام ، وفيه كثير من الفرضيات التي أشرنا إليها ، وهو كذلك يفسر العلة بمعنى إمارة الحكم وليست حكمة الحكم ، وهو كذلك لم يتناول مقاصد الشريعة وتناول موضوعات خارجة عن أصول الفقه كأصل اللغة .

استظهار عيوب علم الأصول:

إذن كان علم الأصول قد أصيب بهذين العييين ، الاتصال بعلم الكلام والمنطق من جهة ، وتقلص موضوعه من جهة ثانية ، الأمر الذي أدى إلى أن علم الأصول لم يبق يؤدي وظيفته ، فكثير من الذين يقرءونه ويدرسونه ويحفظون القرآن الكريم بكامله وعشرات الآلاف من الأحاديث ، بل ويستظهرون مؤلفات كاملة نجد أنه من حيث الإنتاج الفكري إما أنه بسيط وأحياناً عقيم .

كيف نعيد الفقه الإسلامي لسابق عهده؟

إذا كان الأمر كذلك ، فكيف ينبغي أن نعيد للمنهج الفكري القانوني في الفقه الإسلامي حياته الأولى؟

لا شك أن إعادة هذه الحياة تقتضي العودة إلى منشئه ، وهو دراسة القسم المتعلق بالألفاظ ؛ لفهم الكتاب والسنة والقسم المتعلق بمقاصد الشريعة - فهذا يمكن أن نرجع إلى تعقل الأحكام الفقهية كما كان السلف الأول من أجدادنا يفعل ، وليس معنى هذا أن الأحكام الفقهية وعشرات المؤلفات التي ألفت لم تعد صالحة أبداً ؛ لأن هذه تمثل حضارة ولا يوجد في تاريخ الإنسان هدم أية حضارة ، فالحضارة يبنى عليها ولكنها لا تهدم .

إمكانية عودة الفقه الإسلامي لسابق عهده:

إن الفقه الإسلامي وإن كانت فيه بعض الثغرات نتيجة لتوقفه الجزئي عن السير منذ قرون عديدة ، فإنه ما يزال يقرر مبادئ صالحة وسبق بها الكثير من مدارس الفقه المقارن .

أمثلة على ذلك:

لا أقول هذا جزافاً ، ولكنني أقتصر على مثالين اثنين من القانون الجنائي على اعتبار أن القانون الجنائي الإسلامي كلما ذكر إلا وربط بالمرحلة القائمة من العدالة الجنائية عند الكنيسة وعند محاكم التفتيش .

هذان المثالان يتعلقان بالوظيفة النفعية ، والوقائية للعقوبة وبتفريد العقاب .

الوظيفة النفعية الوقائية للعقوبة:

نجد القرافي في «الفروق» يقرر في الفرق التاسع والثلاثين ، يقول : قاعدة في الزواجر ، وقاعدة الجوابر .

الزواجر : ويقصد بها العقوبات شرعت لدرء الخطر المستقبل ، والجوابر : أي التعويضات شرعت لإصلاح الفساد السابق .

فالتعويض إذن كان ينظر إليه على أنه إصلاح للضرر الذي وقع ، بينما العقوبة هي لدرء الخطر المستقبل ، بل يضيف القرافي وينقلها إمام الحرمين قوله : إن العقوبة ويعبر إمام الحرمين بكلمة التأديبات لم تشرع إلا لمصلحة ، والإيلام شرع لمصلحة فلا يجوز توقيعه إذا انتفت المصلحة ، ولذلك يقول : إنه إذا كان هنالك متهم لا تؤثر عليه العقوبة المقررة لتلك الجريمة ، فإنه يعفى من العقاب ، هكذا يقرر إمام الحرمين ؛ لأن المصلحة أو المنفعة للعقوبة لم تؤد وظيفتها .

التفريد في العقاب:

أما فيما يرجع إلى التفريد في العقاب نجد الإمام الشاطبي يشير إلى تحقيق المناط الخاص ، ويمثل لذلك في المجال الجنائي بآية الحراة التي تقرر أربع عقوبات ، هذه العقوبات التي تقررها على أساس الاختيار ، ولكن يقول الشاطبي : إنه يتعين أن تطبق كل عقوبة على نوع الجاني الذي تتلاءم طبيعته مع طبيعة العقوبة الموقعة عليه ، إذن : نجد أن الفقه الإسلامي يتوفر على مبادئ ما تزال صالحة .



المحاضرة التاسعة بعد المائتين

محبة آل البيت

مقدمة:

قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» رواه الترمذي.

وقفت عند عتبة الموازنة بين التمسك بكتاب الله، وحب الشرفاء أهل بيت رسول الله ﷺ، فترأى لي من خلفها مهامه يسرح فيها البال، ويحتاج إلى كثير من الكد؛ ليظفر بالمنال، فما وسعني إلا أن أقف عند عتبة الحديث الشريف الذي أجعل جوانبه أربعة:

١- تأصيل: أذكر فيه بالحالة التي كان عليها الإنسان حين نزول الوحي، وبأثر الوحي على عقل الإنسان، وبفضل رسول الله ﷺ، وبأن امتداد الوحي ماثل في كتاب الله، وبأن امتداد بشرية رسول الله ﷺ ماثل في عترته أهل رسول الله ﷺ.

٢- صحة الاحتجاج بالحديث، وهو تأصيل للنص.

٣- تتبع لفقرات الحديث، وتفهمها حسبما استجليته من موقف ومظاهر الحال.

٤- مواكبة هذا الحديث - وهذا إن اتسع الوقت - لآيتين شريفتين، هما: قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

أَلْبَيْتِ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٣٣] ، والثانية ، قوله ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى: ٢٣] ، ومن الله أطلب التوفيق .

توطئة:

أقول : في زحمة التمرد على قوانين المادة والتجرد عن سننها الثابتة ، وفي غمرة تجسيم لمحات الخيال وتجسيد أحلام طغت على البال ، وفي بحبوحه نوم الفكر عن العالم الموجود ، وتعطيل العقل عن إدراك خالق الوجود ، حين كان الإنسان يخضع لآلهة الخرافات ، وينصاع إلى أبطال الأسطورات ، ملأت بشكل أفضع أوهام الإغريق واستبدت بخيالهم العتيق .

ظلام يتبدد وليل ينجلي:

في فترات ذلكم التمرد على السنن والقوانين ، والاحتكام إلى الكهان والمجانين ، هز القلوب والمشاعر بلاغ سائد ، وقول رسول الله ﷺ : «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَلَا يَخْطِئُ نَهْجَهُ» ، إنه لأول إعلان علني ؛ لأنه ﷺ مرسل من رب العالمين إلى الناس أجمعين بدين إلهي ختم به سبحانه الأديان السماوية ، إعلان به انتبه العقل من السبات ، وانجابت عن الفكر الغشاوات وأخذ الإنسان يبحث عن نفسه ، ويستجلي حقيقة أمره فما لبث أن تشبع بالإدراك السليم ، وتخلّى عن المعتقد العقيم ، فمنذ ذلكم الإعلان وهو - عليه الصلاة والسلام- يتناول بالتوجيه وبالإرشاد ، مدارك الإنسان ومواهبه ، وملكاته ومقدراته ، إلى أن نمت وتكاملت ، حتى بلغت به إلى مقام الخلافة الذي ما هو إلا قدرته على حسن التصرف في هذا الكون الذي خلقه الله تعالى .

النبي المعلم:

منذ ذلكم الإعلان، وهو ﷺ يتناول هذا التوجيه، فبفضله ﷺ تيسرت للإنسان صلته بالحقيقة المطلقة التي هي من مدد الوحي، وحسن التوجيه في حقيقته المحدودة التي لا تأتي إلا من زاوية عقله الخاصة به؛ لأن العقل لا يدري إلا ما يلائم وظيفته ويخضع لمقاييسه، فمدد الوحي هو فوق الطاقة العقلية، وفوق طاقة الملكات والحواس، وهو الذي يسير بالكل في منهجه القويم، وفي اتجاهه السليم.

مدد لا ينتهي:

لم ينته ذلكم المدد بانقطاع الوحي، وإكمال الدين، بل بقي متجليًا في كتاب الله، وفيما يروى من أحاديث رسول الله ﷺ ومن اجتهاداته ﷺ التي أقره الله عليها وأوحى إليه بقبولها، واتخذها مجتهدو الأمة منهجًا في اجتهادهم المؤدي إلى الكشف عن مراد الله في الأحكام، يثوبون بالأجر المضاعف إن أصابوا، وبالأجر الواحد إن أخطئوا، فالأحكام الإلهية غير منحصرة في نطاق محدود، أو قدر معدود، وإنما هي تنجلي بمرور الزمان، وبما يقتضيه التطور في حياة الإنسان.

فضل النبي ﷺ في امتداد الأثر:

الفضل كل الفضل في هذا، وفي غيره، راجع إلى رسول الله ﷺ، فبقدر ما يستمر مدد الوحي، يستمر فضل رسول الله ﷺ على الناس ويتوالى إنقاذه للعام منهم وللخاص، فليس لفضله مدى الدهر انقضاء، ولا لإنقاذه ﷺ انتهاء.

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفهم

بين تريمنا للنبي وتكريم الله له ﷺ :

إن تكريمنا إياه ، قاصر وإن تضاعف ، وإعطاء ما يستحقه من الأجر لا نوفيّه وإن تكاثف ؛ لذلك تكفل الله له بالتكريم ، ووفى له الأجر من غير حساب ولا تقنين ، أما وصولنا نحن إلى مقام رضاه وإلى حرمة ، فذلك منوط بنا قائم على محبته محبة تقدم على كل ما نهواه ، وتكون سابقة على حب ما سواه ، لقد ربط هذه المحبة رسول الله ﷺ بعترته وأناطها بحب أهل بيته ؛ لأنهم هم الامتداد البشري لبشريته ﷺ ، كما أن الكتاب هو امتداد لوحي الله تبارك وتعالى .

حب عترة النبي ﷺ من الإيمان :

إن رسول الله ﷺ قد جعل العترة النبوية والكتاب العزيز كتوءمين ، وأخبر أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليه عليهما السلام حوضه الذي أعطاه الله إياه ، بالسند المتصل إلى الحافظ الحجة الإمام أبي عيسى الترمذي رحمه الله قال : حدثنا علي بن منذر الكوفي ، أخبرنا محمد بن فضيل ، أخبرنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والأعمش ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» .

التوصية بكتاب الله وبعترته ﷺ :

التوصية بكتاب الله وبالعتر النبوية ، كما رواه الإمام الترمذي ، رواها
سواه من الأئمة ، فقد روى الإمام مسلم في «صحيحه» بسنده إلى يزيد بن
حيان ، قال : «انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى يزيد بن
أرقم ، فلما جلسنا إليه ، قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ،
رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد
لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، خبرنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ» ، وفي
حديثه رحمته الله قال : قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بهاء يدعى حمّاً بين
مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ، ثم قال : «أما بعد ، ألا
أيها الناس ، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك
فيكم الثقلين ، أولهما : كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله
واستمسكوا به» ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : «وعترتي أهل
بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي» .

تكرار التوصية :

إن حديث مسلم هذا عن زيد مغاير في اللفظ لحديث الترمذي ،
وحديث مسلم أيضاً نص فيه زيد على أنه سمعه من رسول الله ﷺ وهو
يخطب به في غدير خم ، فيجمع بين الروايتين ، بين الحديثين على أن زيداً
سمعه من رسول الله ﷺ مرتين : مرة وهو يخطب ، ومرة وهو يحدث به ؛
ولذلك اختلف لفظهما .

التوصية بعترته ﷺ في حجة الوداع:

يؤيد ما ذكرته من هذا الجمع ، ومن أن رسول الله ﷺ قد تكررت منه التوصية بالكتاب وبالعتره النبوية ، ما رواه الإمام الترمذي وحسنه بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة ، وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعتة يقول : يا أيها الناس ، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي » .

قال الترمذي : « وفي الباب عن أبي ذر ، وأبي سعيد ، وزيد بن أرقم ، وحذيفة بن أسلم ، فسيدنا جابر سمع هذه التوصية من رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع ، ولم يرو هذه التوصية زيد وجابر فقط ، بل رواها جماعة من الصحابة ، ذكر منهم الإمام الترمذي : أبا ذر ، وأبا سعيد ، وحذيفة بن أسيد ، فتعدد رواته عن رسول الله ﷺ مع تعدد موضع التلقي وزمانه دال على ما ذكرته من أنه ﷺ تكرر منه الحديث » .

إجلال الأمة للعتره كإجلالهم لكتاب الله :

بهذه التوصية ، ومن هذه المقارنة يتبين أن الأمة الإسلامية قد طلب من جميع أفرادها الذين يمثلون هيئتها العامة ، أن يكون إجلالهم لكتاب الله ، متوازيًا لإجلالهم لعتره رسول الله ﷺ ، فقد خطب بذلك في جموع الصحابة ، في المشهد الذي يحضر فيه جمهورهم ، لا سيما في خطبة حجة الوداع التي كان يكرر فيها ﷺ قوله : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »^(١) ، والغائب هنا على معناه الواسع ، فيشمل من يأتي بعده ﷺ إلى

(١) سبق تخريجه .

أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وعليه فالمسلمون جميعهم عبر الأعصار ، مفروض عليهم أن يتعلقوا بكتاب الله ، وبالعترة النبوية ، إلا أننا لا نقف عند هذا الحد ، وقد ثبتنا بما سقته من الشواهد ، لا أقف عند هذا الحد ، بل يتطلب مني الأمر شيئين اثنين :

أولهما : هناك حديث ظاهره أنه معارض لحديث الترمذي الذي هو حديث الموضوع ، ففي «الموطأ» في (القدر) ، وهو من بلاغات الإمام مالك ، فيه : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : «إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه» ؛ لأجل النظر في المقارنة بين الحديثين والترجيح لابد من أن يكون النظر على جهتين اثنتين : جهة الرواية التي نؤكد بها الصحة . الثانية : جهة التقارب بالنسبة لمعنى الحديثين :

تحليل الرواية الأولى للحديث :

حديث الترمذي هو إسناده متصل لا انقطاع فيه ولا إرسال ، رواه كلهم كوفيون ، راويه عن رسول الله ﷺ هو الصحابي الجليل زيد بن أرقم ، أنصاري خزرجي ، تربى في بيت سيدنا عبدالله بن رواحة ، وحضر معه غزوة مؤتة ، وشهد مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة ، ونزل الكوفة وبقي فيها حتى توفي سنة ٦٨ هـ برواية ابن سعد ، روى عنه سيدنا أنس ، وجمع غفير من التابعين ، روي له عن رسول الله ﷺ سبعون حديثاً ، اتفق الشيخان منهما على أربعة ، وانفرد البخاري بحديثين ، وانفرد مسلم بستة .

القسم الأول من سند الحديث :

شيوخ الإمام الترمذي بعد هذا الصحابي الجليل خمسة ، كلهم كوفيون ، كما ذكرت ، وأقسمهم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : شيخان لا صلة لهما بأية نحلة سوى السنية ، الأول : هو الشيخ الثالث في السند ، وهو الأعمش ، هذا لقبه ، واسمه سليمان بن مهران الكاهلي مولا هم ، أصله من طبرستان ، ولكنه ولد بالكوفة ونشأ بها ، ذكره ابن حبان في «ثقات التابعين» ، وروى عن سيدنا أنس ، ولكن لم يثبت أنه سمعه ، كما روى عن كثير من التابعين كإبراهيم النخعي وغيره ، وروى عنه كثيرون جدًا منهم سليمان التيمي ، وكذلك ابن المبارك ، وكذلك أبو نعيم ، قال فيه ابن المديني : «حفظت أمة محمد ﷺ العلم عن ستة : عمرو بن دينار بمكة ، والزهري بالمدينة ، وأبو إسحاق السبيعي ، والأعمش بالكوفة ، وقتادة ، ويحيى بن أبي كثير بالبصرة» .

وقال فيه ابن عينة : «فاق أصحابه ، فكان أقرأهم للقرآن ، وأحفظهم لحديث رسول الله ﷺ ، وأعلمهم بالفرائض» ، فهو إذن لا شبهة فيه ، وهو من أول المقبولين عند علماء التعديل والتجريح ، ومروياته بالنسبة إليه هو صحيحة .

الثاني : هو الخامس في السند ، وهو حبيب بن أبي ثابت يلحق هذا في الاعتماد ، فهو فقيه الكوفة ومفتيها ، وروى كذلك عن كثير من الصحابة ، روى عن سيدنا عبدالله بن عمر ، وسيدنا عبدالله بن عباس ، وسيدنا أنس ، وسيدنا زيد بن أرقم هذا ، فهو أيضًا معتمد .

القسم الثاني : شيوخ انتحلوا التشيع ، ومن المعلوم أن علماء التعديل والتجريح لا يؤخذون الراوي بنحلته إذا تأكد أنه ليس داعيًا لها ولا يحرف الكلم عن مواضعه بحال ، وتتوفر فيه شروط الرواية وتكون أحاديثه قد ثبتت صحتها ، وهما شيخان ، الأول : شيخ الترمذي المباشر ، وهو علي بن منذر الكوفي ، هو أيضًا يكفي أن يقول فيه ابن ماجه :

«سمعتَه يقول : حججت ثمانياً وخمسين حجة ، كنت في معظمها راجلاً» ،
والثاني هو تقريباً في هذا المستوى ، هو شيخ الترمذي محمد بن
فضيل ، وهو من حفاظ الحديث .

القسم الثالث : هو شيخ ولكنه اختلفت أقوال أصحاب التعديل
والتجريح فيه ، فابن حبان ذكره في «الضعفاء» ، وضعفه النسائي ، وهذا
الشيخ هو عطية العوفي ، وهو شيخ الإمام الترمذي الرابع ، هذا سبب
تضعيفه رواه ابن حبان ، ورواه أحمد بن حنبل ، كذلك قال ما مؤداه : كان
يتردد على سيدنا أبي سعيد الخدري في أواخر عمر أبي سعيد ، وكان قد أخذ
منه بعض الأحاديث ، فلما توفي أبو سعيد ، أخذ يتردد عطية هذا على
الكلبي ، وكناه بأبي سعيد ، وكان كلما أخذ منه التفسير وأحاديث رسول الله
ﷺ ، وأراد أن يحدث بها قال : قال أبو سعيد ، وهي كنية صدرت من قبل
عطية ، فيتوهم الناس أن أبا سعيد هو أبو سعيد الخدري ، ومن أجل هذا لم
يقبل الكثير من المحدثين روايته .

تفسير بعض ما جاء في السند :

الواقع أن الدقة التي تبينت في هذا السند عند الإمام الترمذي تجعل
المتبصر ينظر إلى سلوكه في نطاقها بعين الإكبار ؛ لأنه قال : «حدثنا
الأعمش عن عطية ، عن أبي سعيد ، والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت» ،
فالإمام الترمذي كأنه نحى عطية من السند ، كل ما فعل أن أمانة الرواية
فرضت عليه أن يذكره كما تلقاه بواسطة الأعمش ، فالأعمش بالنسبة
لعطية ، شيخ لعطية تارة ، ومتلق من عطية تارة أخرى ، وعطية هذا حين
حدث حدث كذلك مع أبي سعيد ، ونحن نقطع بأنه أبو سعيد الذي كناه ؛

لأن أبا سعيد هنا في السند روى عن حبيب بن أبي ثابت ، وهو تابعي ، ونحن نعلم أن التابعي هو الذي يروي عن التابعي ، إذا فبهذا الصنيع ، جعل الإمام الترمذي بدلاً من أن يكون الرجال في السند خمسة إلى الصحابي الجليل الذي هو زيد بن أرقم ، جعلهم أربعة ؛ لأنه لما قال : «حدثنا الأعمش عن عطية ، ثم قال عن أبي سعيد والأعمش» ، فالأعمش إذن هو الذي روى مع أبي سعيد عن حبيب بن أبي ثابت ، فصار رجال السند بالنسبة إلى الإمام الترمذي أربعة ، وهكذا يكون الإمام الترمذي قد صحح السند ، وكان صنيعه فيه رائعا ، والغريب هو أن شراح هذا الحديث لم يتعرضوا بحال إلى السند ، وإنما هو إمعان النظر ، فأرجو الله أن يكون توفيقاً من قبله سبحانه .

درجة الحديث :

هذا السند رغم ما فيه من الصحة ، احتاط الإمام الترمذي ، وحسنه فقط ، وقد قال هو رَحِمَهُ اللهُ : إنه يذكر في الحديث أنه حسن .

ملخص الحكم على سند الحديث :

إذا كان رجاله سالمين من الاتهام ، وكان الحديث سالماً من الشذوذ ، وكان ذلك الحديث معززاً بأحاديث أخرى ، وهذه الشروط قد توفرت في هذا الحديث ، فنحن بتبعه جميعاً حين تتبعنا رجال السند ، فالرجل الضعيف فيه قد نحاه الإمام الترمذي ، فأخفى رجالاً غير معتمدين ، ثم أيضاً ليس فيه الشذوذ ، ثم أيضاً قد عزز بالأحاديث التي رويت بعضها ، كحديث الترمذي عن سيدنا جابر بن عبد الله ، وحديث مسلم عن زيد بن أرقم رَحِمَهُ اللهُ ، هذا هو تثبيت السند والرواية بالنسبة لهذا الحديث .

الكلام على رواية الإمام مالك:

أما الحديث الذي رواه الإمام مالك في «موطئه» هو غير مسند، ونحن نعلم أن ابن عُيينة قال: «إن جميع بلاغات الإمام مالك صحيحة»، ولكن الواقع لمن يريد أن يطبق القواعد المتعلقة بعلوم الحديث أن هذا القول، لا يحمل على نطاق الكلية التي تتعلق بالحكم فيها على جميع الأفراد، بل يحمل من قبيل الكل يتخلف فيه البعض عن الحكم، وهذا الحديث هو من جملة هذا؛ لأن بلاغات الإمام مالك، تتبعها الإمام ابن عبد البر واحدًا واحدًا، وأسندها إلا أربعة، وتلك الأربعة تتبعها الإمام الدارقطني وأسندها كذلك، وهي موجودة في مؤلف خاص.

رجال سند الحديث:

السند الذي توصل إليه الإمام ابن عبد البر لحديث الإمام مالك: هو من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، وكثير هذا، كل من اعتنى بالتعديل والتجريح كذبه، ولم يجعله معتمدًا بحال، بل إن الإمام ابن عبد البر نفسه قال: مجمع على تكذيبه، فتبقى الأبحاث من جهة الصناعة تعطي الأرجحية للحديث الذي سقناه، ولكن الإمام مالكًا هو أول معتمد له، ولا يمكن بحال أن نلتفت لأي تفسير بالنسبة إليه، ولكن علينا أن نعلم أنه اختار موطأه من عشرة آلاف من الأحاديث، وبقي ينقحها ثم ينقحها حتى صارت أقل من ألف حسبما ضبطه الكثيرون، فقد تكون هذه الرواية التي هي ليحيى الليثي قد وجد فيها هذا البلاغ، ولم يوجد عند غيره من رواة الموطأ على كل حال، الأمر يتطلب التمحيص والبحث، وبما أن حديث الترمذي هو معزز بالأحاديث الصحيحة، فهو المعتمد إن شاء الله، والحكم الذي يعطيه هو الحكم المقبول بحول الله، هذا جانب.

أما الجانب الثاني : فهو تتبع فقرات هذا الحديث الشريف ، قال رسول الله ﷺ : «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي» .

تحليل ألفاظ الحديث :

التارك للشيء : هو الذي يتخلى عنه قصدًا واختيارًا ، أو قهراً و اضطرارًا ، كما قال الراغب : والمتروك للغير هو الذي سبق لتاركه ملك ذاته أو ملك منفعته ، أو سبق له حق فيه بوجه من الوجوه ، وهو واضح بالنسبة للعترة ، وأما بالنسبة للكتاب ، فقد جعل الله لرسوله الحق فيه بالملازمة ، وأوجهها كثيرة ، فمثلاً حين يذكر الله تبارك وتعالى إنزال الكتاب ، يذكره متعلقاً به - عليه الصلاة والسلام- وحين يذكر إنزال غيره من الكتب السماوية لا يذكرها متعلقة بمن نزلت عليه ، الله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة : ٤] ، ويقول : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] «ما» واقعة على الكتاب ، وقد وقع التصريح به فقد قال الله تعالى وهو يخاطب رسوله : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران : ١-٣] ، وفي إنزال التوراة والإنجيل ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٣] ، وقال سبحانه في إنزاله التوراة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقد نستنتج من ذكر من تعلق به النزول ، أن إنزال الكتاب سيقى متحققاً ومستمرّاً في النزول دون أي تغيير ولا تحريف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يستشف هذا من إنزال الكتب السماوية ؛ لأن من تعلق به الإنزال لم يذكر .

«وما» في قوله ﷺ : «إني تركت فيكم ما» هي واقعة على الكتاب وعلى العترة ، فهو إجمال ذكر بعده تفصيل ؛ للاهتمام بالمفصل .

بعض اللطائف من كلام سيد المرسلين:

إن قول رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي»، هذا القول يزيل كل التباس ويقطع الأوهام في أن التمسك بهذين الأمرين اللذين أوصى بهما الله تبارك وتعالى، يتتفي معه الضلال، إلا أن الخطاب هنا لا يتعلق بالفرد فقط، بل هو متعلق بجميع المخاطبين، إما على مستواهم الفردي، وإما على مستواهم الجماعي الذي يدخل في نطاق ذلك المستوى الجماعي: الأسرة والقبيلة والمنظمة، والهيئة، والدولة، والأمة التي تستمد وصفها من الإسلام، وإذن فعدم الضلال مضمون؛ لأن رسول الله ﷺ أطلق في الخطاب، والإطلاق في محل التقييد، يؤذن بالعموم، وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى.

الكل الجماعي والكل المجموعي:

فقضية قول رسول الله ﷺ: «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي»، ليست هي من قبيل القضية الكلية التي الحكم فيها على جميع الأفراد، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] فهي ليست من قبيل كل الجماعي، بل هي من قبيل الكل المجموعي الذي أفراد القضية فيه النظر بالنسبة إليهم هو بالنظر إلى هيئته.

تمثيل ذلك:

على هذا فعدم الضلال موجود لهيئة المسلمين العامة، سواء في نطاق أمتهم الشاملة التي يدخل في نطاقها الدول، أو بالنسبة للدولة التي يدخل في نطاقها أفراد تلك الدولة.

فإذا تخلف عن الأمة - التي هي عامة - بعض لا يؤثر في النطاق العام ، وهذا شيء قد نص عليه المناطقة ويمثلون مثلاً : كل بني تميم يحملون الصخرة العظيمة ، ففي قبيلة بني تميم ، الضعيف والشيخ الذي لا يستطيع حمل الصخرة ، ومع ذلك وقع الحكم على المجموع ، فكذلك هنا حين يكون المظهر العام في دولة من الدول التمسك بكتاب الله وبالعتره النبوية لا يكون ضاللاً أبداً ؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر بذلك .

تغير أوضاع الأمة مرتبط بوصية النبي ﷺ :

لو أن الأمة الإسلامية أخذت هذه التوصية على مستواها الأعلى ، وكانت دول الإسلام تضبط عتره رسول الله ﷺ التي هي عتره بشرية واستمرار بشري لرسول الله ﷺ لتغيرت الأوضاع من سوء إلى خير ، ومن خصام إلى وفاق ، ومن شدة إلى رخاء .

السيوطي وجمعه لأحاديث آل البيت :

لقد قام الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ اللهُ بجمع الأحاديث المتعلقة بآل رسول الله ﷺ وسمّى ما جمعه بـ «إحياء الميت في فضائل آل البيت» ، وهي أحاديث بلغت الستين تقريباً ، يسترعي النظر فيها - بعضها - كقول سيدنا عمر حين تزوج بنت علي بن أبي طالب : ألا تُهنئوني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ينقطع كل سبب ونسب ، إلا سببي ونسبي»^(١) .

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣/ ١٥٣) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

الإسلام ضد القوميات والقبليات:

الأحاديث التي فيها: «كل صهر ونسب منقطع إلا صهري ونسبي»، فكان رسول الله ﷺ يهيب بالمسلمين أن يتواجدوا بالمصاهرة مع عترته ﷺ؛ ليعم خيرها من جهة، وليكون هذا سبباً في زوال القوميات والقبليات؛ لأن كل قبيلة حين تشعر أن من بينها شريفة أو شريفاً، وهو بمقتضى التعاليم الإسلامية، يفرض ذلك عليها ألا يتسبب للشريف في أي إضرار، حينئذ تسود المسالمة، وتنقطع الفوارق، ويكون رسول الله ﷺ قد حقق بسبب هذه الدعوة إلى هذه المصاهرة إلى أن يكون كل مسلم له صلة به - عليه الصلاة والسلام.

حب الصحابة لآل البيت:

كان رسول الله ﷺ يحب أن يعطي هذا الوصف لأصحابه، فقد كان أصحابه ﷺ يتعلقون به ويودون أن تكون لهم صلة به بأي وجه من الوجوه، فقد أراد سلمان أن يتسبب إلى رسول الله ﷺ، فقبل، وقال - عليه الصلاة والسلام - : «سلمان منا آل البيت»^(١)، وواثلة بن الأسقع ﷺ قال لرسول الله ﷺ : «ألا أكون من أهلك يا رسول الله؟ فقال له رسول الله ﷺ : أنت من أهلي، فكان واثلة يقول : والله لا أجد شيئاً أحب لي منها»^(٢).

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣ / ٦٩١).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٥ / ٤٣٢)، والطبراني في «الكبير» (٣ / ٥٥).

خلاصة القول:

يريد رسول الله ﷺ أن تكون الصلة به بأية ملابس كانت ، فإذا تحققت بالمصاهرة فإن الأمن من ورائها ، وإن عدمت فالضلال من ورائها ، وإن السير في ركاب الخيل موجود معها ، لا أتبع الكلمات ؛ لأنه كما قلت في البداية : إن هذا الحديث من وراء عتبه مهامه ، على الإنسان أن يتبعها خصوصاً وأن البحث يتطلب أيضاً الجوانب التاريخية ، والجوانب التطبيقية كذلك .

يقول رسول الله ﷺ : « كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض » ، هذا الحبل الممدود ، إنما كان مده إشعاراً باستمراره ، ووجوده إلى يوم القيامة ، ولذلك فكتاب الله قائم موجود فينا ، لا يمكن أن يلحقه أي تحريف كما لحق سواه ، ومن الكلمة الشريفة يتبين السبب الذي من أجله كان أعظم من الآخر ؛ لأنه قال ﷺ : « كتاب الله » ، فهذه الإضافة هي إضافة اختصاص ، تجعلنا نؤمن أنه قديم بلفظه ، وقد رأينا العطاءات التي يأخذها ويعطيها كتاب الله .



المحاضرة العاشرة بعد المائتين

حديث جبريل حول الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، والقدر

مقدمة :

قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج رَحِمَهُ اللهُ : حدثني أبو خيثمة زهير بن حرب ، حدثنا وكيع ، عن كهَمَس عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمرح ، وحدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري - وهذا حديثه - حدثنا أبي ، حدثنا كهَمَس عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر ، قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي ، أهدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقصرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف ، فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب ، قال : «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن

لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة ، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق ، فلبث ملياً ، ثم قال لي : يا عمر ، أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم .

توطئة في الكلام على الحديث :

بسم الله ، وعلى بركة الله ، نستفتح هذه الدروس في هذا الشهر المبارك إحياء لسنة قديمة ما يزال العالم الإسلامي يقتفي أثرها في كل زمان ومكان ، وأصلها هو ما ثبت في «الصحيح» : أن جبريل كان ينزل إلى النبي ﷺ في رمضان ، فيدارسه القرآن ، ويظهر من أثر ذلك في النبي ﷺ ما تكلم عليه الحديث .

وبحكم أننا نقتبس حديث اليوم ، ودرسنا وموضوعنا من كتابه «الصحيح» للإمام مسلم ، فمن حق الإمام مسلم وكتابه علينا ، أن نقدم كلمة قصيرة في التعريف به ، لا تزيده عند الناس معرفة ، كما عبر المتنبي في بعض أشعاره :

أسامياً لم تزد معرفته وإنما لذة ذكرناها

تعريف بالإمام مسلم:

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ، نسبة إلى بني قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، قبيلة من العرب كبيرة ينتسب إليها كثير من الصحابة والتابعين ، وخلق لا يحصون من العلماء والقادة ، وليس هو منسوباً إلى قشير أسلم ، التي ينتسب إليها سلمة بن الأكوع ، كما وهم بعض مترجميه ، فنسبه إليها .

نشأته:

هو نيسابوري نسبة إلى مدينة نيسابور ، التابعة الآن لإيران ، وكانت من أعظم مدن خراسان ، وسميت باسم بانيها وهو سابور ذو الأكتاف ؛ لأنه مر بمكانها فأعجبه ، وكان فيه قصب كثير ، والقصب بلغة فارس «الني» ، فأمر بقطعه ، وبنى مدينة هناك ، فقليل : نيسابور أي قصبه سابور ، ومنه : الناي الذي ينفخ فيه ، فهو قصبه .

مولده:

ولد مسلم رَحِمَهُ اللهُ سنة أربع ومائتين .

رحلته وشيوخه:

طلب الحديث ببلده ، وشد الرحلة إلى أعلامه في الأمصار ، فأخذ بخراسان عن إسحاق بن راهويه ، وعن يحيى بن يحيى يعني التميمي ، لا الليثي راوي «الموطأ» .

وأخذ بالعراق عن عبدالله بن مسلمة بن ثعلب ، وعن أحمد بن حنبل ، وناهيك به ، وأخذ بالحجاز عن مصعب المدني ، وعن أبي عون المدني وعن

غيرهما، وأخذ بجميع الأمصار عن كثير من المشايخ، حتى نيف شيوخه على المئات، وشارك البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي مائة وخمسة وخمسين من شيوخه .

مؤلفات الإمام مسلم:

ألف كتبًا كثيرة أهمها: «الجامع الصحيح»، ومنها: «الجامع» مرتب على الأبواب «الجامع الكبير»، ومنها: «المسند الكبير» رتبته على الرجال؛ لأن المسند يكون على أسماء الصحابة، والجامع يكون على الأبواب، فله جامع آخر أكبر من هذا، وله كذلك أيضًا كتاب «العلل»، وكتاب «طبقات التابعين»، وكتاب «الأفراد والوحدان»، وكتاب «المخضرمين»، وكتاب «التميز»، وكتاب «أوهام المحدثين»، فكتبه تدل على مزيد اختصاصه ورسوخ قدمه، وتعمقه في هذا العلم الشريف الذي هو علم الحديث .

وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وإحدى وستين هجرية، عن سبع وخمسين سنة، عشية الأحد لخمس بقين من رجب، ودفن يوم الإثنين .

كتابه «الجامع الصحيح»:

كتابه هذا، ألف من ثلاثمائة ألف حديث، روى أبو بكر الخطيب بسنده إليه، قال: ألفت كتابي «الجامع الصحيح»، من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة .

بعض أقوال العلماء في مسلم وكتابه :

قال أبو أحمد بن سلمة : «رأيت أبا زرعة وأبا حاتم لا يقدمان على مسلم أحداً من عصرهما في معرفة الصحيح» .

وقال مكي بن عبدان عن مسلم : «لو أن أهل الحديث كتبوا الحديث مائة سنة ، فمدارهم على هذا الجامع الصحيح» .

والواقع ، أن هذا الكتاب هو من منن الله على هذه الأمة ، ومن أعظم الآثار التي تركها مسلم ، فسجل فيها الشئ بطريفة اختص بها ، ولم يشاركه فيها أحد ، حتى قال الحافظ أبو علي النيسابوري : «ما تحت أديم السماء أصبح من كتاب مسلم» ، وإن انفرد بهذا الرأي ، ولكن يذكر أن علماء الأندلس يساندونه أيضاً في هذه الفكرة .

المقارنة بين كتابي البخاري ومسلم :

الأمر يثير لنا إشكالاً ، وذلك أنه قد عرف أن أصح الكتب بعد كتاب الله هو «صحيح البخاري» ، وهذا ما عليه الجمهور ، لكن هناك من يقول بتساويهما ، بتساوي كتاب البخاري وكتاب مسلم ؛ ولذلك أطلقت عليهما الأمة كتاب «الصحيحين» ، وتلقتهما بالقبول ، وقال إمام الحرمين : لو أن أحداً حلف بالطلاق ، على أن ما في «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» ، هو من الأحاديث الصحيحة ، مما صححه ، ومن الأحاديث التي تكلم بها النبي ﷺ ومن أقواله ، لما حنث ، ولما طلقت عليه زوجته ، فهذا مما يدل على مساواتهما ، وهنا ينشد :

هما الإمامان في علم ومعرفة كالبحر حين طما والغيث حين هما

لو قيل من فاق أهل الأرض قاطبة في النقل والنقد والتحرير قيل هما

وقيل : بأفضلية البخاري ، وقيل : بأفضلية مسلم ، وليس بالمساواة وذلك كما قلنا ، هو رأي أبي علي النيسابوري ، وشاركه في ذلك بعض الأندلسيين وإلى هذا يشير الحافظ العراقي في ألفيته .

أول من صنف في الصحيح محمد وخص بالترجيح
فمسلم وبعض أهل الأندلس مع أبي علي فضلوا ذالونفع

موطأ مالك وصحيح البخاري :

بيان ذلك : على أن أول من ألف في الصحيح ، هو الإمام البخاري ، وهذا بقيد لا بد منه ، وذلك أن نقول : الصحيح المجرد ، وإلا فإن الإمام مالك ، قد سبقه لذلك في كتابه «الموطأ» ، ونعلم كلمة الإمام الشافعي في «الموطأ» : وأنه أصح الكتب بعد كتاب الله ، ولكن قال الحافظ : إن هذا قبل تأليف الإمام البخاري لكتابه ؛ لأن كتاب البخاري جرده للصحيح ، في حين أن كتاب «الموطأ» يحتوي على الأحاديث الصحيحة ، ويحتوي على الآثار والنقول والأخبار عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وعن آراء الإمام مالك أيضًا ، وما فيه من هذا أكثر مما فيه من الحديث ، فبقي «صحيح البخاري» هو الذي جرد للصحيح ، وهو أول ما ألف في الصحيح المجرد ، وهذا أمر مسلم ، قال : وخص بالترجيح ، أي فضل من ناحية الصحة على غيره .

عود إلى كتاب «صحيح مسلم» :

قال العراقي : فمسلم يأتي بعده ، وبعض أهل الأندلس مع أبي علي فضل هذا لو نفع ، لكنه لا ينفع ، فأما بالنسبة لأبي علي النيسابوري ، فقد

ذكرنا كلمته ، وأما بالنسبة للأندلس فيهما أن نعطي المسألة بعض التفصيل :

المقصود بالمغاربية :

أولاً : المراد بالمغاربية هنا ، هم علماء المغرب الكبير -القطر المغربي- والجزائر وتونس وليبيا ، وكذلك صقلية ، والأندلس ، مثل : المازري ، ومثل : القرطبي ، ومثل : عياض إلى أن يصل الأمر إلى الأبي والسنوسي ، ممن اعتنوا بـ «صحيح مسلم» وشرحوه ، وكتبوا عليه أكثر مما عنوا بـ «صحيح البخاري» .

طريقة البخاري في كتابه :

ثانياً : إن مسألة اعتناء المغاربة بـ «صحيح مسلم» ، ترجع لمسألة فنية دقيقة ، ذلك أن طريقة البخاري رَحَّلَهُ كما هو معروف ، هي جمع الأحاديث ، والاستنباط منها ، والاستدلال بها ، والحكم على الترجمة التي يترجم بها ، فكتابه يشبه أن يكون كتاب فقه وكتاب حديث ، وليس كتاب حديث خالصاً ؛ لأنه يدلي برأيه ويحكم ويستنبط ، ويستدل بما يريده من الأحاديث .

«صحيح البخاري» أقرب إلى الفقه ككتاب :

لهذا كان الكتاب من هذه الجهة كتاب فقه ، وكتاب رأي يملئ رأيه فيه ، ويجعل الحديث الذي يريده دليلاً على ذلك الرأي ؛ ولذلك قيل : إن فقهه في تراجمه ، في مقابل هذه النقطة الإمام مسلم يجمع الأحاديث ويأتي بها ، ويرد كل حديث للباب الذي يناسبه ، والأمر الذي يغلب عليه ، والغرض

الذي هو مسوق إليه ، ولكنه لا يحكم ، ولا يستنبط ولا يأخذ الحديث حجة على ما يمكن أن يؤخذ عليه ، كما يفعل البخاري .

طريقة البخاري في تقطيع الأحاديث:

ثالثاً : هذه القاعدة ، أو هذه الطريقة التي تبعها البخاري رَحِمَهُ اللهُ جعلته يقطع الحديث ويفرقه على الأبواب ، فإنه يحتج بالحديث وبطرف منه في كتاب الطهارة مثلاً ، وفي كتاب الصلاة ، وفي كتاب البيوع ، وفي كتاب الآداب ، وما إلى ذلك ، فيأخذ محل الشاهد ويورده فقط ، ويترك الباقي غالباً إلى مكان آخر .

مسلم وتعامله مع الأحاديث:

في حين أن مسلماً في هذه القضية يأتي بالحديث كاملاً غير منقوص لا يقطعه ، ولا يأخذ منه أطرافه ، ويحصره إلى الباب الذي يغلب عليه ، وإلى الموضوع الذي هو مسوق له ، فلذلك لا يميل رأياً ولا يحكم ، ولا يستنبط من الحديث شيئاً ، ويترك لقارئه الاستنباط والأخذ والاستدلال .

طريقة مسلم في كتابه:

من ورعه رَحِمَهُ اللهُ أنه في هذا الباب لم يترجم ولم يبوب كتابه ، فكتابه وإن كان على الأبواب بمعنى أنه في هذا الباب أو الذي نتحدث عنه ، كتاب الإيمان ، ذكر جميع الأحاديث التي ترتبط بالإيمان ، ولكنه لم يضع في أول الكتاب ترجمة ، أي باباً ، أو ترجمة كبرى التي تشمل الموضوع الأكبر كما يفعل البخاري ، فيقول كتاب العلم ، أو كتاب الإيمان ، أو ما إلى ذلك ، كما

لم يضع تراجم صغرى ، وأبواباً للمسائل التي تندرج تحت الموضوع الكبير ، بحيث يبوب لكل موضوع باب ، فيكون حيثئذ هذا التبويب ، كأنه إملاء للرأي ، وكأنه حكم ، وكأنه استنباط ، بل يضع أيضًا في هذا المكان ، في مكان الحديث الذي يختلف موضوعه عن الحديث الذي قبله ، يضع بياضًا ، يترك محل الترجمة ، أبيض ولا يترك فيه بابًا إطلاقًا من عنده .

اختلاف العلماء في تفسير فعل مسلم :

قالوا : إن هذا ربما كان للاختصار ، ولكن الاختصار لا يتأتى ببضعة أبواب ، أو بعشرة أبواب مثلاً ، أو بمائة باب مثلاً ، يذكرها بعبارة صغيرة في هذه الكتب المختلفة ، وقالوا : إن ذلك ربما كان ؛ لأن المنية عاجلته قبل وضع هذه التراجم ، لكن الكتاب أخذ عنه ، وروى عنه ، روايات عديدة ، وأخذ عنه كثير من المشايخ ، فلا يمكن أن تكون المنية عاجلته قبل أن يضع هذه التراجم .

الرأي الراجح :

الذي يظهر هو أنه أراد أن يسوق الحديث مجردًا من غير أن يملئ رأيًا ، ومن غير أن يحكم ، ومن غير أن يستنبط ، وبذلك ترك هذه الأبواب فارغة من غير أن يملأها ، وصار العلماء بعد ذلك ، ولا سيما شراحه يملئون هذا البياض بالكتب ، أي العنوان الكبير الذي يشمل موضوعًا كبيرًا ، وبالأبواب أي العناوين الصغيرة التي تشمل المسائل الصغيرة التي تندرج تحت الأبواب ، ومنهم المجيد ، ومنهم غير المجيد ، هذه مسألة أيضًا .

تفريق البخاري روايات أحاديثه في الأبواب:

هناك مسألة أخرى تقابلها ، وهي أن البخاري رَحِمَهُ اللهُ لما كان يستنبط وكان يستخدم الحديث ويستدل به وينوعه ويأخذ أطرافه ، كان يأخذ طرقه المختلفة ، ويأتي بها في أبواب مختلفة ، ففي هذا الباب يأتي بهذا الحديث من طريق ، وفي الباب الآخر يأتي به من طريق آخر ، وهكذا تفرقت أسانيده في الأبواب المختلفة ، فصعب على المحدثين وعلى الفقهاء وعلى طلاب الحديث أن يجمعوا الأحاديث ؛ لأنها مفرقة ومقسمة ومقطعة على أبواب ، وصعب عليهم أيضاً أن يجمعوا أسانيدها ؛ لأنها مفرقة أيضاً على الأبواب ، حتى إن بعضهم قد يقول : إن هذا الحديث لم يخرج به البخاري ؛ لأن البخاري رَحِمَهُ اللهُ لم يخرج به في الكتاب الذي هو مظنة له ، لم يخرج به في كتاب الإيمان مثلاً ، أو في كتاب الآداب ، أو في البيوع ، بل خرج به في باب بعيد جداً من المظنة ؛ لأنه ظهر له في معنى استدل به على ذلك المعنى ، وقالوا : إن هذا الحديث لا يوجد في البخاري مع أنه موجود فيه .

جمع مسلم روايات الحديث الواحد في الباب:

في مقابل هذا مسلم رَحِمَهُ اللهُ يعزو الأحاديث كلها إلى باب واحد ، الذي هو مظنة لذكرها ، يأتي كذلك أيضاً بالأسانيد في هذا الباب ، الأسانيد التي يروي بها ذلك الحديث في باب واحد ، فتجتمع للطالب فائدة الحديث ، يطلبه في مظنته فيجده ، ويطلبه كاملاً فيجده ، ولا يجده مقطوعاً ، ويطلبه برواياته المختلفة فيجده .

صنيع موافقة مسلم لعلماء المغاربة:

العلماء -رحمهم الله- لما كانوا في أبعد نقطة من العالم الإسلامي وأبعد ما يكون من مشرق البلاد، الذي هو موطن الحديث، وموطن الرواية، وقل منهم من شد الرحلة وأخذ الحديث عن أربابه، كان صنيع مسلم، وكانت طريقته هذه هي التي توافقهم، وهي التي تسد حاجتهم، وتشبع نهمتهم في الحديث، بخلاف البخاري، فإنه عندهم يكون بمثابة كتاب فقه، لا بمثابة كتاب حديث، وقد طغى هذا المعنى على البخاري، حتى إنه عقد في كتابه كتابًا يسمى (كتاب الخيل)، رد به في الغالب على الإمام أبي حنيفة وعلى أصحاب الرأي، وكان يقول فيه لا يسمى الإمام الأعظم، ولكنه يقول: وقال بعض الناس، ويرى بعض الناس، وذهب بعض الناس، ثم يأتي بالحديث، من أجل أن يرد على ذلك الرأي، فصنعه كله يدور على مسألة الاستنباط والحكم، والفقه، وإملاء الرأي.

علماء المغاربة فقهاء مالكية يفضلون مسلمًا:

المغاربة كما نعلم، جلهم فقهاء مالكية، أو فقهاء فيما مضى ظاهرية، أو فقهاء ينتمون إلى مدرسة الحديث، فيتحررون الأخذ بالمالكية الخالصة، ويختارون لأنفسهم، فكانوا إلى مسلم أقرب منهم إلى «صحيح البخاري»؛ لأنهم يختارون هذه الطريقة، ليس فيها حكم، وليس فيها استنباط، وليس فيها إملاء لرأي إطلاقًا، بل فيها الحديث المجرد، والحديث في بابهِ معروف، وجميع رواياته مدخرة هنا، فلذلك كانت طريقة الإمام مسلم من هذه الناحية مفيدة جدًا، ولا سيما لمن بعدت داره عن ديار الحديث.

تفضيل مسلم ليس على مسألة الصحة:

نظن أن هذا هو الذي جعلهم يفضلون مسلماً على البخاري ، لا مسألة الصحة ، وإلا فمسألة الصحة يمكن أن نتعرض لها أيضاً بإشارة بسيطة ، لا يتهامس أحد في أنها في جانب البخاري ، ذلك أن الحديث الصحيح كما هو معروف ، هو رواية الحافظ ، الضابط ، الثقة عن مثله إلى النبي ﷺ .

ثم الصحيح عندهم ما اتصل بنقل عدل ضبطه قد كمل إلى النهاية بلا تعليل ولا شذوذ فاعنى بالتحصيل هذا قدر متفق عليه بين البخاري وبين مسلم ، ثم بعد ذلك تبقى مسألة المعاصرة ، ومسألة اللقاء ، التي هي شرط البخاري .

مسألة المعاصرة ومسألة اللقاء:

مسألة المعاصرة ، مأخوذة من الرواية فلان عن فلان ؛ لأنه ما روى عنه حتى كان معاصراً له ، لكن مسألة اللقاء ، إنما تؤخذ من بعض صيغ الرواية وصيغ التحمل ، وذلك مثل : حدثنا وأخبرنا ، وسمعت ، فهذه قطعاً لا يقولها المحدث ، ونحن قد علمنا أنه هو الحافظ الضابط الثقة ، لا يمكن أن يقولها إلا إذا لقي الشخص وأخذ عنه وسمع منه ، حدثنا : سمع منه هو وغيره ، حدثني : سمع منه وحده ، أو سمعت وهكذا .

العنونة في الحديث:

أما حين يكون الحديث فيه عنونة ، وأنأنة حيثئذ يأتي هذا الإشكال ، لما يقول : حدثنا فلان عن فلان ، فعن فلان ، الحافظ الضابط الثقة ، المظنة أنه لا يقول : عن فلان ، إلا إذا لقيه وسمع منه ، أما المعاصرة ، فهي طبعاً لا بد

أن تشترط ؛ لأنه لا يكون حديثاً متصلًا ، إلا إذا كان معاصرًا له ، والمعاصرة هي مظنة اللقاء فقط ، وليست بقطعية في اللقاء ، فقوله : حدثنا فلان عن فلان معناه أنه معاصر له ، وأنه ربما أخذ عنه وسمع منه ، ولا سيما وهو حافظ ، ضابط ثقة ، مبرأ من التدليس ومن الإرسال ، والتدليس هو أن لا يروي عنه ويقول : رويت عنه مثلاً .

المعاصرة واللقاء شرط البخاري :

الإمام البخاري ، يقول : لا بد من المعاصرة ، ويقول : لا بد من اللقاء ولو ساعة ، وهو ولو مرة بحيث لا يقول عن فلان ، ويكون الحديث متصلًا إلا إذا كان معاصرًا لهذا الفلان ، ولا بد أن يكون كذلك لقيه لأجل أن يقول عنه ، فتكون عنه متصلة .

المعاصرة شرط مسلم دون اللقاء :

الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ لم يشترط اللقي ، واشترط المعاصرة ، وقال : لا بد أن يكون معاصرًا له ؛ لأجل أن يقول حدثني عنه ، فيكون الحديث صحيحًا ، وأما اللقاء فليس بلامزم ؛ لأنه ما يلزم على المعاصرة يلزم على اللقاء ؛ لأن المعاصرة هي مظنة اللقاء ، واللقاء هو مظنة الرواية ، لا سيما وهو يقول -أي البخاري- لا بد من أن يلقاه ولو مرة واحدة ، فمن يدرينا أنه في هذه المرة الواحدة ، روى عنه وأخذ منه جملة الأحاديث التي يرويها عنه ، فالأمر ما دام مظنة وما دام في دائرة الإمكان فقط ، فإنهما متساويان ، وعقد مسلم رَحِمَهُ اللهُ في مقدمة كتابه هذا فصلًا أو بابًا طويلًا لهذا المعنى ، ودافع عنه بقوة كبيرة وبحماس ، وقال : إن

القول باللقي ، إنما هو شيء مستحدث وبدعة ، لم يقل به أحد ممن تقدم ، وعلى كل حال ، فإن مسألة المعاصرة ، قد اتفقا عليها ، وأما مسألة اللقي ، فإنها لا تزيدنا إلا وثوقاً وتحرياً واحتياطاً ، فلا يمكن أن نردها ، بل نقول : إن شأن ما اجتمع فيه اللقي مع المعاصرة ليس كشأن ما فقد أحدهما .

اللقي يثبت بالتاريخ :

المعاصرة ثابتة واللقي إنما يثبت بالتاريخ ، ويظهر من كلام المؤرخين أن فلاناً وفلاناً التقيا في زمن ما ، أو مكان ما ، فإذا لم يثبت في التاريخ أنهما التقيا ، فالمعاصرة قائمة ، وهذا يرويه البخاري ويرويه مسلم ، ولكن البخاري يزيد ، بأن يكون اللقي ثابتاً ، فهذه الزيادة لها أهمية عظيمة ، لما فيها من زيادة التحري .

الإجماع على «صحيح البخاري» :

حكم الفقهاء وحكم العلماء ، وحكم المحدثون بأن أحاديث «صحيح البخاري» فيها درجة زائدة في الصحة ، وإلى هذا يشير بعضهم ، بقوله :

قالوا **المسلم فضل** قلت **البخاري أعلى**

قالوا **المكرر فيه** قلت **المكرر أحلى**

فالمكرر هنا فيه تورية ؛ لأنه يشير إلى أن المكرر ، هو المصنفى من السكر ، كلما صفي السكر كلما زاد حلاوة ، ويعبرون عن هذه التصيفة بالتكرير ، فكلما كرر السكر كان أحلى ، والبخاري عندما يكرر الحديث في الأبواب المختلفة يكون ذلك زيادة في حلاوته ؛ أنه يستنبط منه معارف وحكم ، لا يمكن أن يستنبطه منه مطلق الناس .

حكم بعض المغاربة على البخاري ومسلم:

قال العلامة أبو العباس أحمد بن عبدالعزيز الهلالي السجلماسي في قضية مسلم ، وطريقة تقديم المغاربة له ، قال :

تخاصم قوم في البخاري ومسلم إلي وقالوا : أي ذين تقدم

فقلت لأن فاق البخاري صحة فقد فاق في حكم الصناعة مسلم

ففي حكم الصناعة ، لا يقدم على مسلم البخاري ؛ لأن حسن الصناعة الحديثية هي التي يحكم بها ، وأظنهم إنما حكموا بتقديم مسلم لهذه النكته ، وهي الصناعة الحديثية ، مع بعد دارهم عن أماكن الحديث ، وأظن مع ذلك أن هذا كله إنما هو زيادة في التحري ، وزيادة في الضبط ، وإلا فإن المعاصرة فيما يظهر كافية ؛ لأن الرواة الذين يروون الحديث وهم حفاظ ثقات لا يحوم الشك حولهم بحال ، لا يروون إذا كانوا قد لقوا ، وإذا كانوا قد أخذوا ، وإلا فإنه إذا لم يكن كذلك ، فإن التاريخ ليس بحكم في هذا الباب ؛ لأنهم كما يقولون : عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، إذا لم يذكر التاريخ لقي فلان لفلان ، فإنه لا يمنع أن يكون قد لقيه ، فالتاريخ لا يحصي جميع الجزئيات ، فقد يكون لقيه ، ولكن التاريخ لم يحفظه ، على كل حال ما يزال شرط البخاري مقدماً على شرط مسلم في هذه الناحية .

صحة درجات الحديث:

يعرف أن أرفع الحديث وأصح الحديث ، هو ما كان على شرط مسلم والبخاري معاً ، ثم إذا انفرد الحديث فما كان على شرط البخاري ، ثم إذا انفرد ولم يخرج به البخاري ، فما كان على شرط مسلم ، ثم إذا لم يكن على

شرطهما معًا ، فحينئذ ، تؤخذ شروط غيرهما من الحفاظ ، وهكذا يتدرج الحديث ، وهكذا يترتب ويعرف السابق منه من اللاحق .

خلاصة القول :

خاتمة القول ، الكتابان معًا ، والمؤلفان معًا ، هما أصح الكتب ، وهما ما حكمت الأمة بتلقيهما بالقبول ، ولا بد أن نشير لئلا يظن أننا نطلق الكلام على عواهنه ، أن الصحة هنا هي بالنسبة إلى المرويات وإلى النقليات وإلى العلوم الدينية ، وليس في هذا تعرض للعلوم التجريبية والطبيعية ، والرياضية التي تخضع للتجارب ، فإن هذه قطعًا صحتها في نفسها ، وليس المراد هي ، بل المراد العلوم الدينية والنقلية ، وما يروى عن النبي ﷺ . وعلم الحديث باختصار هو الذي نقول فيه إن أصح الكتب ، هما هذان الكتابان لا غير .

ميزة انفرد بها الإمام مسلم :

نقول : إن الإمام مسلم رحمته الله انفرد بميزة ليست للبخاري ولا لغيره من المحدثين من أصحاب الكتب الستة ولا لغيرهم ، هذه الميزة هي مقدمته العظيمة التي كتبها لكتابه الصحيح ، فإن هذه المقدمة مما امتاز به ، وجعل كتابه يعد من الكتب التي وضعت الأساس لعلم مصطلح الحديث .

مقدمة الإمام مسلم لـ « صحيحه » :

هذه المقدمة ذكر فيها أولاً أن الكتاب طلب منه ، وأنه وضعه باقتراح ، وأن هذا المقترح طلب منه أن يكون هذا الكتاب جامعاً للأحاديث الصحيحة ، والأخبار الثابتة من غير أن يكون فيها تكرار ولا إعادة ؛ لأجل

أن يحفظها هذا الطالب وأن يعيها وأن يحصلها ، وأنه وافق غرضاً في نفس مسلم ، وأنه كان يفكر في ذلك ، وأنه أراد أن يحقق هذا الغرض ؛ لأنه رأى كثرة التأليف في الحديث ، وعدم الاحتياط فيها ، واختلاط الرواة واختلاف الناس فيهم ، فلذلك أراد أن يميز الحديث الصحيح ويميز الرواة ، ويميز بين طبقات الناس ؛ لأجل أن يؤلف هذا الكتاب ويخرجه للناس ، وقال : إنه جعل طبقة الرواة كطبقة الأحاديث الثلاث .

طبقات الرواة عند مسلم :

الطبقة الأولى : التي لا يعترها الشك ولا يرقى إليها الارتباب .

الطبقة الثانية : هي تقريباً في منزلة الطبقة الأولى من حيث الضبط والإتقان ، ولكنها تحف عنها قليلاً .

الطبقة الثالثة : هي طبقة الضعفاء والمتروكين الذين لا يحتاج بهم ولا يعول عليهم ، وأنه على هذا المنوال صار ، فخرج للطبقة الأولى والطبقة الثانية في هذا الكتاب ، ولم يعرج على الطبقة الثالثة ، ثم إنه لم يكرر إلا ما كان فيه فائدة واضحة ، وبزيادة ثقة لا ترد ، ومن فائدة في سند ، لا تكون في السند الأول ، وهذه دقيقة لا يعرفها إلا المحدثون ، بحيث يكون مثلاً في سند عنعن ، وفي سند آخر سماع ، وما إلى ذلك ، فإنه يزيد هذا السند ، ويكون هذا التكرار للفائدة لا غيرها .

تقسيم مسلم مقدمته إلى أبواب :

أتى الإمام مسلم بسبعة أبواب في هذه المقدمة .

الباب الأول : في الحض ووجوب التحري في الرواية عن النبي ﷺ والحمل على الثقات ، وعدم الرواية عن غيرهم ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات : ٦] ، وقوله : ﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وقوله ﷺ : «من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب ، فهو أحد الكاذبين»^(١) .

الباب الثاني : في التحذير من الكذب على النبي ﷺ ، وأتى فيه بالحديث المتواتر الذي يقول فيه النبي ﷺ : «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢) .

الباب الثالث : في النهي عن الحديث بكل ما يسمع الإنسان ، وأورد فيه حديث : «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(٣) .

الباب الرابع : وأورد قول الإمام مالك لابن وهب : «اعلم أنه لا يسلم أحد حدث بكل ما سمع ، ولا يكون إماماً أبداً ، وهو يحدث بكل ما سمع» ، نهى فيه عن الرواية عن الضعفاء ، وعن الذين لا ثقة بهم ، وعن الذين لا تعرف لهم رواية صحيحة ، ولا شيوخاً ، وأورد فيه أحاديث كثيرة ، منها قوله ﷺ : «سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم»^(٣) ، وقول ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بأذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول ، لم نأخذ من

(١) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١ / ٧) ، والترمذي (٢٦٦٢) ، وابن ماجه (٣٨) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١ / ١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الناس إلا ما نعرف .

الباب الخامس : ذكر فيه الإسناد ومزيته وقيمته ، وأورد فيه آثارًا كثيرة ، منها : عن ابن سيرين قوله : «إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم» ، وقول عبدالله بن المبارك : «الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» ، وهذه الكلمات تفسيرها يدل على قيمتها .

وأورد كذلك أيضًا قول عبدالله بن المبارك : «بيننا وبين القوم القوائم» ، يعني القوائم واللوائح التي جعلوا فيها أسماء الثقات ، وأسماء الضعفاء المتروكين ، ولم يرو إلا عن أسماء الأولين .

وكذلك أيضًا أورد عن الطالقاني ، أنه سأل عبدالله بن المبارك ، فقال : «يا أبا عبدالرحمن ، الحديث الذي جاء : إن من البر بعد البر -أي أن من بر الوالدين بعد موتهم- أن تصلي لوالديك مع صلاتك ، وتصوم لهما مع صومك؟ فقال : يا أبا إسحاق ، عمن هذا؟ قال : عن شهاب بن خراش ، قال : ثقة ، قال : عمن؟ قال : عن الحجاج بن دينار ، قال : ثقة ، قال : عمن؟ قال : قال النبي ﷺ ، فقال : يا أبا إسحاق ، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع دونها الأعناق ، ولكن ليس في الصدقة خلاف» .

الباب السادس : كشف فيه عن معاييب الرواة ، والضعفاء وما لهم من المنكرات ، وذكر أسماء كثيرة في هذا الباب ، وحذر منهم ، ومن الرواية عنهم ، ومما يذكر له في هذا الباب ، ويقدر له حق قدره ، أنه اعتصم أيضًا وامتنع من الرواية عن أهل البدع ، ولو كانوا ثقات على أن غيره يروي عن أهل البدع إن كانوا ثقات ، وكانوا غير دعاة ، وممن ذكر من هذه الأسماء

بكل صراحة ، وبدون تهيب : عمرو بن عبيد مع إجماع الناس على زهده وعلى ورعه ، حتى إن المنصور أبا العباس المنصور العباسي ، مدحه بشعر وكان لما يكون عنده ويخرج ، يقول : كلكم يمشي رويدًا ، كلكم يطلب صيدًا غير عمرو بن عبيد .

ولكن مع ذلك مسلم رَحِمَهُ اللهُ ترفع عن الرواية عنه ، ولم يذكره ؛ لأنه روي أنه كان لما يخلو يتكلم في الصحابة ، وقيل مرة : إنه روى عنه أحدهم أنه لما كان يقوم للصلاة يقوم كأنه عمود ، فقال له آخر : لو اطلعت عليه في بيته لما يكون يصلي وحده .

فهذه من النكت العظيمة عند مسلم في هذا الباب الذي حرره غاية التحرير .

الباب السابع : ذكر فيه عمن تصح الرواية وذكر مسألة المعنعن ، ومسألة المعنعن قد أشرنا إليها ، مذهبه فيها ، أن الإجماع على أنه لا يشترط فيه اللقي ، وممكن أنه قبل البخاري لم يكن هناك أحد يشترط اللقي ، فلهذا قال مسلم رَحِمَهُ اللهُ : إن الإجماع وقع على ذلك .

رد مسلم على مسألة اللقي :

قلنا : إن اللقي إنما هو زيادة تحر ، وزيادة ضبط فلا يمكن أن يرد ولو بما رد به مسلم رَحِمَهُ اللهُ من الأنظار ومن الآراء ، ومن الروايات الكثيرة ، حتى إنه ذكر جملة أحاديث رواها الجميع ، وهي من الصحة بمكان ويستدل بها على كثير من الشعائر ومن الشرائع ومن الأحكام ، ولم يثبت تاريخيًا أن بين بعض رواها لقاء ، ولا يمكن أن ترد ؛ لأنها إذا ردت انخرم كثير من أحكام الشريعة ، فهذه حجة عظيمة لمسلم ، لكن مع ذلك لا

يمنعنا أن نقول : إن زيادة التحري في هذا الباب ، وزيادة الشرط الذي اشترطه البخاري وهو اللقي ، إنما هي زيادة توثيق ، وزيادة تعديل ، وزيادة ضبط ، ولا علينا فيما وقع بعد ذلك ، فإنه يكون صحيحًا ويحكم به ، والبخاري لم يقل بعدم صحة هذه الأحاديث التي لم يثبت تاريخيًا لقاء بعض رواها لبعض ، وإنما قال ما ثبت فيه لقاء بعض الرواة لبعض ، يكون أصح من الأخرى ، ويكون أكثر وثوقًا .

مسلم ومقدمته :

هذه المقدمات العظيمة ، هي من أعظم ما انفرد به مسلم عن البخاري ، وعن غيره من الكتب الحديثية ؛ لأنها كلها تفتتح كتبها بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب كذا .

فالبخاري قال : باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

فبدأ بالوحي ؛ نظرًا لأن الوحي أصل الشرع .

والإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ قال : بسم الله الرحمن الرحيم باب وقوت الصلاة ؛ نظرًا لأن الصلاة هي عماد الدين ، وبها بدأ .

بدأ مسلم بكتاب الإيمان ؛ نظرًا إلى أن الإيمان هو أصل كل عمل ، وهكذا لكل وجهة هو موليها .

مسلم أول من وضع علم مصطلح الحديث :

إن المقدمة مما اختص بها مسلم ، ولذلك نرى أن مسلمًا رَحِمَهُ اللهُ هو من الواضعين لعلم مصطلح الحديث ، وأول المؤلفين فيه ، خلافًا لما عند القسطلاني ، وما عليه بعض الشيوخ ، كالشيخ أحمد بن الحياط ، ومحمد

كنون في حواشيها؛ أن الواضع لعلم الحديث وأول مؤلفيه هو الحافظ الرامهرمزي، فإن الرامهرمزي إنما أتى بعد مسلم بمدة طويلة، فهذا فيه غمط لجانب مسلم رَحِمَهُ اللهُ وَيَنْبَغِي أَنْ يَعَادَ النَّظْرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

خاتمة:

هذا التقرير لهذه المقدمة، ولما حررناه ولما بيناه من طريقة مسلم، وبالسند الذي ذكرناه نروي حديث الباب الذي قال فيه رَحِمَهُ اللهُ بعد أن افتتح هذا الباب بالخصوص، وهو كتاب الإيمان: «بِعُونَ الله نَبْتَدِئُ، وَإِيَاهُ نَسْتَكْفِي، وَمَا تَوْفِيقُنَا إِلَّا بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ».

الإيمان عند أهل السنة:

نشير إلى أن أهل السُّنَّة من السلف والخلف على أن الإيمان، هو قول وعمل، يزيد وينقص، لا خلاف بين أهل السُّنَّة والجماعة على هذا القدر، قول باللسان: وهو النطق بالشهادتين، وعمل بالقلب والجوارح، بالقلب أي التصديق، وبالجوارح أي الطاعة، هذا هو الإيمان عند أهل السُّنَّة، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ»^(١)، هذا من أدلة الزيادة: «وَلَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١)، هذا من أدلة النقص.

الإيمان يزيد وينقص:

الإيمان يزيد وينقص، قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ شَيْخٍ

(١) سبق تخريجه.

من أهل العلم ، من رجال الأمصار ، فكلهم سمعته يقول : إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص .

الإيمان شرط كمال عند أهل السنة :

هذا معناه ودلالته : هو أن الإيمان وحده غير كاف ، فلا يغترن أحد بأنه مؤمن من دون أن يكون مطيعاً ، فلا بد من القول الذي هو الإقرار بالشهادتين ، ولا بد من العمل بالقلب الذي هو التصديق ، وبالجوارح التي هي الطاعة ، فإذا اختلت جهة من هذه الجهات ، فإن الإيمان يكون حينئذ مختلاً غاية الأمر يكون ناقصاً ؛ لأن هذا مذهب أهل السنة أيضاً ، فإن العمل عند أهل السنة هو شرط كمال ، وليس شرط صحة ، كما يقول المعتزلة .

الإيمان شرط صحة عند المعتزلة :

المعتزلة عندهم : العمل شرط صحة ، بحيث إذا لم يعمل فليس بصحيح الإيمان ، وإيمانه باطل .

مفهوم الإسلام والإيمان :

أهل السنة مع تحريمهم ، مذهبهم فيه تخفيف ، وهذا التخفيف يتناسب وروح الإسلام ، وروح الدعوة المحمدية ، فعلى كل حال غاية الأمر ، أن يكون غير الممثل مؤمناً عاصياً وأمره إلى الله ، وأما إذا أراد أن يكون مؤمناً ، ويقول : إنه يكفيه الإيمان ، فهذا ليس بصحيح ، ولذلك تواردا وتغيرا ، تواردا الإيمان والإسلام وتغيرا ، تواردا في كون المصدق لا يصدق إلا عليهما معاً ، أي على الإيمان والإسلام ، الإسلام الذي هو الانقياد بالظاهر ، والإيمان الذي هو التصديق بالباطن ، وتغيرا من

حيث المفهوم ؛ لأن مفهوم الإسلام هو انقياد في الظاهر ، ويمكن أن يكون الباطن فارغاً والعياذ بالله ، وحينئذ لا ينفع أيضاً ، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ١٤] ، وتواردا مصداقاً ؛ لأن الشرع لا يرى إلا أنها معاً يجتمعان ، ويصدقان ولا ينفرد أحدهما عن الآخر ، وإذا انتفى أحدهما انتفى الآخر ؛ ولذلك جاء في الآية الأخرى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات : ٣٥ ، ٣٦] فالمسلمون والمؤمنون سواء ، من امثل واجتنب ، من أطاع وآمن ، فهو المؤمن وهو المسلم ، وتقول فيه مسلم ، كما تقول فيه مؤمن ، ولذلك جاء في حديث عبد القيس ، حيث أطلق الإيمان على الإسلام ، فهما في الشرع متواردان ، والآيات كثيرة في ذلك .

وإذا نظرنا إليهما من الناحية اللغوية ، ومن ناحية المفهوم اختلفا ، ولكن الشارع لا ينظر إليهما بهذه النظرة .

وفي «المراصد» :

وبتساوي مؤمن ومسلم في الصدق للزوم شرعاً فاعلم

وإن تراعي فيهما المفهوم كان التغير به محكوماً

ولكن هذا في غير الإطلاق الشرعي .

كتاب الإيمان لمسلم :

نقول هذه الكلمة باختصار عن الإيمان الذي هو الكتاب الأول من «صحيح مسلم» ، قال رَحِمَهُ اللهُ : حدثني أبو خيثمة زهير بن حرب ، ثم قال : حدثنا وكيع بن الجراح - المعروف شيخ الشافعي - قال : عن كهمس أبي الحسن التميمي البصري ، قال : عن عبدالله ، فقد اكتفى الحديث حينئذ

على صيغة التحمل التي هي عن ، عند البخاري ومسلم ، محتملاً للقي والماصرة ، حدثني أبو خيثمة ، وقال أبو خيثمة : حدثنا وكيع .

ومن اللطائف في علم مصطلح الحديث أن المحدث عندما يقول حدثني ، فإنما يعني أنه سمع وحده من الشيخ ، ولما يقول : حدثنا ، فإنه يعني أنه سمع هو وغيره ، فلذلك قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ : حدثني أبو خيثمة ، أنه يعني وحده ، وقال زهير بن حرب : حدثنا وكيع نحن جماعة ، ثم قال : عن كهمس ، فجاء بالنعنة هنا ، فباصطلاح مسلم الماصرة فقط ، وباصطلاح البخاري اللقي .

ثم قال : عن عبدالله بن بريدة ، ثم قال : عن يحيى بن يعمر كلاهما بالنعنة .

تحويل السند في الأحاديث :

قال : ح . تحويل هذه الحاء تأتي عند المحدثين لما ينتقلون من سند إلى سند ، لما يذكرون الحديث بسنتين فيجعلون بين السند الأول والسند الثاني ح . ولعلماء الاصطلاح فيها مذاهب ، بعضهم يقول : إن هذه الحاء ، من الحيلولة تحول بين السند الأول والثاني ، وبعضهم يقول : إنها مختصرة من الحديث ، فمعناها أنه إذا وصل القارئ لها يقول : الحديث ، أي اقرأ الحديث الآتي ، وبعضهم يقول : إنها حاء التحويل ، يعني أن السند تحول إلى شخص آخر ، وهذا الذي أدركنا عليه شيوخنا -رحمهم الله- فإنهم حين كانوا يصلون إلى هنا ، يقولون : تحويل ، ويصرحون به ، وبعضهم يقول : إنها مختصرة من «صح» ؛ لأنه لما يكتب وحدثنا ، فالواو هنا ربما يظن القارئ الذي لا مساس له بالعلم ، أن هذه الواو

مقحمة هناك، فكتبوا عليها «صح»؛ لإثباتها ثم خففت «صح»، وحذفت الصاد وبقيت الحاء، ثم أدخلت الحاء في السطر، فصارت حاء هناك، وإلى هذا يشير صاحب «الألفية» بقوله :

وكتبوا عند انتقال من سند لغيره ح وانطقن بها وقد ورأى بعضهم أن لا تقرأ .

فإذا اعتبرنا أنها من حائل، فلا تقرأ وقد رأى بعض أولي العلم بأن يقول مكانها الحديث...، وقيل :

بل حاء تحويل وقال قد كتب مكانها صح فحاشا منها انتخب

تفسير معنى حاء التحويل:

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ : ح وحدثنا أتى بالحاء وأتى بالواو؛ لأجل أن يعرف أن عبيداً ليس شيخاً ليحيى بن يعمر الذي ذكر قبله، بل هو شيخه، وعبر بحدثنا ليشير، فالأول أنه لما روى عنه زهير بن حرب رواه وحده، فقال : حدثني، ولما روى عن عبيدالله، روى عنه هو وغيره، قال : حدثنا، هو وغيره .

هذه لطائف يحرص عليها المحدثون، وربما الذي لا يفتبه لها يظن أنها أشياء عادية، ولكنها مقصودة، وحدثنا عبيدالله بن معاذ العنبري، ثم من لطائف مسلم رَحِمَهُ اللهُ أنه لما يأتي بالحديث بروايتين يشير إلى أن هذا لفظ الحديث لهذا الشخص الثاني، حيث قال : عبيدالله العنبري، وهذا حديثه، يعني أن الحديث السابق ربما اختلف عن هذا في بعض الألفاظ، ولكن الذي سأورده هو بلفظي هذا، فهذا زيادة أيضاً في التحري، فهذا حديثه .

لطيفة:

قال : حدثنا أبي ، ثم قال : حدثنا كهمس هنا أيضًا لطيفة جدًا في السند السابق ، قال : عن كهمس بالعننة ، والعننة تعلمون أن فيها خلافاً ، وأنها أقل درجة من التحديث ، ولكن هنا قال : حدثنا ، ولذلك أتى بهذا الحديث مرة ثانية ، ولو لم يكن في علو ولا نزول ، بل كان متساوياً - عن ابن بريده ثم قال . . . وذكر هنا ابن بريده ، وفيما سبق قال : عن عبدالله بن بريده ؛ لأنه فيما سبق أخذه عن شيخه ، عن عبدالله بن بريده ، هكذا لا يزيد فيها ولا ينقص ، وهنا قال : عن ابن بريده كما سمعه من شيخه ، وذلك من تمام الاحتياط وتمام التحفظ والتحري .

ذكر ابن يعمر مرة أخرى:

قال : عن يحيى بن يعمر سماء مرة ثانية ؛ وذلك لأنه ورد كما قال النووي سند في نسخة للسند السابق ، عن ابن يعمر ، ولم يذكر يحيى ، فذكر هنا يحيى لأجل أن يبينه .

معبد الجهني أول من تكلم في القدر:

قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، هذا معبد كان من تلاميذ الحسن ، واعتزله الحسن البصري لما قال بالقدر ، كما اعتزله واصل بن عطاء ، ثم قال بالاعتزال ، ثم قال : فانطلقت أنا وحميد بن عبدالله بن عبدالرحمن الحميري .

يحيى بن يعمر:

يحيى بن يعمر ، هذا النحوي الكبير ، وهو أحد واضعي النحو ، وهو

من الثقة والزهد والعلم بمكان ، وكان تلميذ أبي الأسود الدؤلي الذي أخذ عنه النحو ، وهو من شيوخه ويطول الكلام إذا تكلمنا عنه .

عود لحديث القدر:

ثم قال : انطلق هو وحيد هذا حاجين أو معتمرين ، إما أن يعتمرا فقط وإما أن يحجا ويعتمرا ، وإما الشك من الراوي ، وقال : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ هؤلاء الذين تكلموا في القدر من أهل البصرة ، ثم قال : فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد ، قال : فاكتفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، قال : وظننت أن صاحبي سيكل إلي الكلام ؛ لأنه كان ألسن منه ، وكذلك كان ، فقال له : «يا أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا - أي في جهتنا- ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم» ، أي يتبعونه يطلبونه ، وذكر من شأنهم أنهم ناس لهم قيمة علمية كبيرة ، ولكن يزعمون أنه لا قدر سابق وأن الأمر أثف ، أي مستأنف ومستقبل ، وعندما يقع حينما يقع وأن ما في سابق الأزل ، فإنه لم يقدر ولم يعلم ، والله سبحانه وتعالى لم يقدره ، وهذه المسألة من الأهمية بمكان نتعرض بشيء قليل من البسط .

فقال : «إذا لقيت أولئك ، فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني» .

مسألة القضاء والقدر:

مسألة القضاء والقدر في الإسلام هي ما صدقه حديث جبريل ، أنه لا يؤمن الإنسان حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، ومسألة القضاء والقدر فيها مذهبان : مذهب السلف ، ومذهب الخلف .

مذهب السلف على القاعدة في كل التشابهات ، التفويض ؛ لأن الأدلة اختلفت ، واختلفت بحسب الظاهر كما سنبينه ؛ لأن الأمر كله لله ، ففي بعض الآيات وفي بعض الأحاديث تسند الأمور إلى الإنسان ، وفي بعضها الآخر تسند إلى الله سبحانه وتعالى ، وفي بعضها يسند الخير إلى الله ، والشر إلى الإنسان ، فاختلفت هذه الآيات وهذه الأحاديث أو هذه النصوص على بعض الناس ، وظنوا أن الأمر ليس على ظاهره ، وأن الشر لا يمكن أن يكون من الله سبحانه وتعالى ، وأن الأمر لا يكون مقدراً في الأزل ، ثم يعاقب الإنسان عليه ، فلذلك قالوا : إن الأمر مستأنف وأنف ، وهذا من الغلط بمكان .

الخطابي وقوله في القضاء والقدر:

نأتي بعبارة قصيرة في هذا الموضوع للعلامة الإمام الخطابي في «معالم السنن» ، وقد نقلها كذلك أيضاً الإمام النووي في شرحه ، وهي قوله : «وقد يحسب كثير أن القضاء والقدر هو إجبار الله سبحانه وتعالى العبد ، وقهره على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمون ، وإنما هو الإخبار بتقدم علم الله سبحانه وتعالى بالاكْتِسَاب وقدر الله تعالى وخلقه للعمل» هذا غاية القضاء والقدر عند علماء السُّنة .

سبق العلم بالقدر ، وإبراز هذا القدر في وقته ، ويشير إلى ذلك بعضهم ، حيث يقول :

في اللوح قد تجملت أشياء بقلم وذلك القضاء
إبراز ما برز للعيان مما هو القدر بالبيان

شرح مسألة القضاء والقدر:

حينما يأتي الوقت وتبرز هذه الأحداث يكون ذلك هو القدر، الأمر يتعلق بصفة العلم، الله سبحانه وتعالى سبق في علمه لما خلق الخلق أن فلانًا سيعصي وأن فلانًا سيطيع، ولو كان الإنسان مجبورًا على الطاعة، ومجبورًا على المعصية لبطل التكليف؛ لأنه لا يعقل أن يكون مكلفًا، ثم يجبر على الطاعة، فلا فائدة له حينئذ في هذه الطاعة، ولا أن يكون مجبرًا على المعصية فيعاقب فحينئذ يكون العقاب في غير محله، ليس هناك إلا أن الحق سبحانه وتعالى لما خلق الخلق، وكانوا قد حملوا الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والأمانة هي التكليف، لما عرض على الناس وحملها الإنسان، كان من ذلك أن الإنسان له الاختيار، وله الكسب، فالله تعالى قد هداه الطريق، وبين له الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فالله سبحانه وتعالى علم من سيطيع، وعلم من سيعصي، ورتب الثواب على الطاعة، ورتب العقاب على المعصية، وإن شاء فإنه يغفر كذلك أيضًا للعاصي، وليس له تأثير إطلاقًا على الشخص الذي يعصي أو على الذي يطيع؛ لأن العلم كما قرر في محله ليس صفة تأثير، الصفات التي هي صفات المعاني، القدرة والإرادة والعلم، والحياة والسمع والبصر، والكلام معلوم عند المتكلمين أنها تتعلق، هذه الصفات هي معاني قائمة بالذات العلية، يقولون: بحيث لو كشف الحجاب لرأيناها، ولكل صفة منها تعلق، فالقدرة لها تعلق تأثير، تؤثر في الممكن القدرة صفة تؤثر في الشيء عند تعلقها به.

الإرادة صفة تخصيص:

الإرادة صفة تخصيص ، تخصص بعض الممكنات المتقابلات بالوجود بدلاً من مقابلها ، عدم أو غير عدم ، كالبياض دون السواد ، والسواد دون البياض بمستواه إلى غير ذلك .

العلم صفة انكشاف:

العلم صفة انكشاف ، تكتشف بها الأشياء ، الواجبات والجائزات والمستحيلات ؛ ولذلك يقولون : العلم صفة كاشفة لجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات ، على ما هي به في الواقع ، كشفاً إحاطياً في الظاهر والباطن ، لا فرق بين ذلك بين خفيها وأخفاها ، وجليها وأجلاها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران : ٥] ، والكلام يتعلق بما يتعلق به العلم من المتعلقات يعني بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، لكن كل تعلق له ناحية وله صفة ، فقلنا : إن القدرة تعلقها تأثير ، والإرادة تعلقها تخصيص ، والكلام تعلقه دلالة ، يدل على هذه الأشياء ، والعلم تعلقه تعلق انكشاف ، أي اطلاع فقط ، وليس تأثيراً .

التكليف متعلق بالعقل:

الله تعالى لما علم في الأزل أن فلاناً من المخيرين ، سيعصي لم يجبره على العصيان ، ولما علم أن فلاناً من المخيرين -نحن كلنا مخيرون- سيطيع ، لم يجبره على الطاعة ، وإلا لبطل التكليف ، بل بطل الدين كله ؛ لأن الدين الإسلامي - كما نعلم - متعلق بالعقل ، وكل تكليف بشرط العقل ، وهذا

أعظم الأدلة التي نرد بها على من يقول أن الدين يخالف العقل ، فالدين الإسلامي لا يمكن أن يكون ولا يمكن أن يقبل ولا أن يكلف الشخص إلا إذا كان عاقلًا ، فإذا فقد عقله لا تكليف عليه ، ولا مطالبة عليه بأي شيء ، فالعقل شرط أساسي في معرفة الدين وكذلك أيضًا التكليف شرط أساسي في مسألة الثواب والعقاب ، ولو انخرم ذلك لبطل الثواب والعقاب ، فالعلم صفة انكشاف ، يطلع الحق سبحانه وتعالى على العبد ، فكيف يؤثر فيه .

التعلق الصلاحي والتعلق التنجيزي:

إن هذه التعلقات منها ما هو - كما يقول المتكلمون - : له تعلق صلاحي وتعلق تنجيزي ، التعلق الصلاحي والتعلق التنجيزي يشيران إلى مثال واحد ، فنقول : القدرة لها تعلقان ، تعلق صلاحي : وهي أنها في القدم صالحة للإيجاد الممكن ، وتعلق تنجيزي : تنجز هذا الإيجاد في وقته ، فهما تعلقان صلاحي وتنجيزي ، العلم بخلاف ذلك ، ليس له إلا تعلق واحد ، وهو تعلق تنجيزي ، ومع ذلك قديم ليس بحديث ؛ لأنه في القديم وفي الأزل علم الله تعالى هذه الأشياء ، واطلع عليها وعرفها وكان تعلق علمه بذلك تعلقًا تنجيزيًا ، أي علمًا واقعًا في ذلك الوقت ، ولا يصلح أن يكون صلاحيًا ؛ لأن ما صلح لأن يعلم ليس بمعلوم ، فإذا قلنا : إن له تعلقًا صلاحيًا يكون فيه نسبة الجهل إلى الله سبحانه وتعالى ، وذلك محال ، فلهذا كيف نقول : إن العبد مجبور على الطاعة وعلى المعصية؟ وغاية الأمر أن الله سبحانه وتعالى لما كلفه ولما أعطاه الاختيار ، وأعطاه الكسب ولما جعله يختار أعطى له القدرة ؛ لأننا أيضًا نقول نختلف مع القدرية ؛ لأن القدرية يقولون : إنهم بقدرتهم يفعلون ، ولكننا نقول عندما يختار العبد يعطيه الله القدرة ، ولما يختار الطاعة

يعطيه كذلك القدرة ، وهو ليس مسئولاً عن ذلك ، كما لو كنا في عليّة في مكان مرتفع ، ونحن نطلع على البحر رأينا شخصاً غرق ، فهل لنا يد في غرقه؟ ليس لنا يد في غرقه ولا في نجاته أيضاً ، لا يمكننا أن ننقذه ونحن بعيدون جدّاً عنه ، وليس لنا وسائل لإنقاذه ، وهذا العبد بالنسبة إلينا يقابل معنى أن الله سبحانه وتعالى اطلع على ذلك وأعطى القدرة لهذا الشخص ؛ لأنه اختار ، ولأنه مكلف .

العلم تعلق تنجيزي :

نقول : إن العلم هو تعلق تنجيزي ، وتعلق قديم ؛ لأنه اطلع الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما مضى ، ثم هذا التعلق تعلق اكتشاف لا غير ، ليس تعلقاً تأثيرياً ، ولا عملياً وفعلياً .
ولهذا يشير العلامة القادري بقوله :

كل المعاني صفة تعلق إلا الحياة ما لها تعلق

الحياة لا تتعلق بشيء كما هو معروف ، يكفي أنها قائمة بالذات .

هذا التعلق رعاك الله تعلق التأثير أو سواء

أما الذي الترتيب قد أفاده فذلك القدرة والإرادة

السمع تعلق في شك المسموعات كلها ، البصر تعلق في شك ، العلم تعلق في شك ، الكلام تعلق دلالة كما هو .

وكل إلا العلم في التمييز يكتم للصالح والتنجيز

فلا تضاف علماً من العليم إلا لتنجيز له قديم

تعلق إنجازي قديم ، اطلع الحق سبحانه وتعالى عليه عملاً ، وعرف ما

سيفعله هذا العبد ، ثم أعطاه القدرة على عمل ذلك ، وبقي ثوابه وباب رحمته مفتوحاً للجميع ، فكيف يقال : إن القدر حينئذ إجبار ، أو يقال : إنه قهر ، فهذا ليس بصحيح إطلاقاً ، وهو ما قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ تعالى : إن القدر ليس هو إجبار العبد وقهره على العمل ، وإنما هو تعلق العلم فيما مضى . . . إلى آخره .



المحاضرة الحادية عشرة بعد المائتين

الحكم والمتشابه

تمهيد:

انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ﷻ، وأفضل الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

اسم الموضوع:

موضوعنا اليوم أخذنا من هذه الآية الكريمة ، هو المحكم والمتشابه ، وهو بالنسبة إلى مبحث القضاء والقدر أصله وأم كتابه ، وقعدوده وجامع أبوابه ، فلذلك أردنا أن نتناوله ؛ ليستقر الأمر في نصابه ، ومن الله التوفيق ، وما الاستعانة إلا به .

سبب نزول الآية الكريمة:

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] هذه الآية هي السابعة من سورة آل عمران ، والآي التي قبلها والآي التي بعدها كلها نزلت في وفد نجران ، والمراد بها نجران اليمن ، كان وفداً من النصارى العرب ورد على النبي ﷺ المدينة ، فيما يغلب على الظن عام الوفود ، في السنة التاسعة من الهجرة ، حين ضرب الإسلام بعطن ، وألقى بجيرانه في الجزيرة العربية ، وظهر أمره ، وانتشر خبره ، ولا سيما فيما يتعلق بالإصلاح العظيم ، الذي أتى به هذا الدين بعقيدة التوحيد ، وردها إلى أصلها ، وكانت الديانة النصرانية بالخصوص قد أفسدتها وأدخلت عليها ما ليس منها باعتقادها في ألوهية المسيح وألوهية أمه مريم ، فلما شاع أمر الإسلام وذاع تلقته الناس بالقبول ؛ لأنه شيء معقول ، أنقذ الناس من عبادة البشر وردهم إلى عبادة وتوحيد خالق البشر ، وصاحب القوة والقدر ، حينها اضطربت المسيحية ، ولا سيما في جزيرة العرب ، فجاء هذا الوفد إلى النبي ﷺ ليخاصمه في أمر المسيح ، وكان هذا الوفد وفداً عظيماً ، يبلغ ستين نفراً ، فيهم كثير من أشرف نجران ، وبعض قسوس النصارى .

الآيات تلفت الأنظار إلى التوحيد:

هذه الآيات تكاد تبلغ ثمانين آية أو تزيد، كلها في مناقشة أمر المسيح، وتنبيه المسيحيين إلى الخطأ الذي وقعوا فيه، تارة بالتصريح، وتارة بالتلميح، فمثلاً قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿الَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، بدأ بكلمة التوحيد، ثم قال: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فوصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه حي على الدوام، وأنه قيوم، ومعنى قيوم السموات والأرض، القائم بأمرهما ومصالحهما، ثم قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، فأخبر بأن هذا الكتاب الذي نزل وهو القرآن نزل بالحق، والحق المقصود به هنا: تقرير عقيدة التوحيد، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معترفاً بالشرائع السماوية التي سبقتها، ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]، ثم أعاد ذكر نزول القرآن الكريم باسم ثان، وهو الفرقان إشارة إلى أنه نزل فارقاً بين الحق والباطل، وبين ما يزعمه هؤلاء الناس، وما هو الحق في الواقع.

بعض معاني الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وهذا فيه وعيد لهم، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، كذلك أيضاً فيه تأكيد للوعيد، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، إشارة إلى عموم علمه، وعموم تعلق علمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء، في السماء وفي الأرض، واجبة أو جائزة أو مستحيلة، كما هو معلوم في متعلق العلم، بخلاف علم عيسى الذي كان كما جاء في الآية: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فإذا كان ينبيئ بني إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون في بيوتهم، فهذا علم

ضئيل جدًا ، ولا نسبة بينه وبين علم الله سبحانه وتعالى ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهذا رد عليهم أيضًا بطريق التعريض .

الله ﷻ هو المصور:

ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، ثم أشار إلى أنه سبحانه وتعالى يصور المخلوقات في الأرحام ، المخلوقات كلها والمواليد جميعها ، سواء إنسانية أو حيوانية ، يصورها في الأرحام ، وهذا شيء عظيم ، إذا قارنا به ما ثبت من معجزة عيسى : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٤٩] ، هذا شيء ضئيل جدًا بالنسبة لخلق الله سبحانه وتعالى ، وعموم قدرته وإرادته ، وجميل صنعه ، فإذا كان عيسى يخلق من الطين شكلًا بشكل الطائر ، وقيل : إن هذا الطائر هو الخفاش فقط ، أي ما نعبر عنه بالعامية بـ « طير الليل » ، وهذا أيضًا بالنسبة لعلم الرسم ومبادئه وعلم التصوير ، سهل التصوير ، وسهل التخطيط ، وسهل التمثيل ، فإذا كان هذا ما أعطي لعيسى من قبل الحق سبحانه وتعالى ، فماذا يكون هذا بجانب صنع الحق سبحانه وتعالى ؟ حيث يصور المخلوقات في الأرحام ، ثم هو في هذه الآية أيضًا يعرض بأن عيسى نفسه من المصورات في الأرحام ، وهذا لا ينكره أحد ؛ لأنه كان في رحم مريم - عليها السلام - فهو رد أيضًا بطريق التلميح والتصريح ، ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦] .

مناقشة وفد نجران للنبي ﷺ في شأن المسيح ﷺ :

ثم قال بعد ذلك سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أُنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وذلك أن وفد نجران في

مناقشتهم للنبي ﷺ قالوا له : «أليس في كتابك أن المسيح كلمة الله وروح الله؟ فقال : نعم ، قالوا : حسبنا إذن»^(١) ، تمسكوا بهذه العبارة التي لها تأويل في اللغة واضح لا غبار عليه ، فإنه لما كانت نشأة عيسى أو خلقه أولاً بدون أب ، كان مثاراً للاشتباه عندهم وعند الناس كلهم ؛ لأنه كان معجزة ، فبيّن سبحانه وتعالى أنه كلمة الله ، أي قال له : «كن» ، فكان ، وقال : إنه روح الله ، أي إنه نفخ فيه من روحه ، فهذا ليس مما يوقع في الإيهام والالتباس لحد أن يؤله المسيح ؛ لأنه إذا كان الإطلاق لفظياً ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء : ١٧١] يجعله من الله تعالى ، فقد أطلق الله سبحانه وتعالى الروح كلها على جبريل ، فقال : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء : ١٩٣] ، فهذا ليس مثاراً للشبهة التي وقع فيها النصاري ، فقولهم : «حسبنا» يعني يكفيننا هذا ، هذا إنما هو من التعلل ، ومن الهروب من مناقشة المسألة التي ناقشها القرآن الكريم كثير جداً ، ومما قال في ذلك : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة : ٧٥] ، فقلوه : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فيه إشارة خفية بأن عيسى بشر وليس بإله ؛ لأن من أكل الطعام لابد أن تأخذه حاجة الإنسان ، فهذا دليل على النقص ، فلذلك كانت هذه الصورة وجل آياتها الأولى ، ربما صدرها كلها إلى حد ثمانين آية أو أكثر كلها في مناقشة هذا الوعد ، فقلوه تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران : ٧] ، الكتاب هنا مقصود به القرآن الكريم باتفاق ، وبدليل خطاب الله تعالى للنبي ﷺ بقوله : ﴿عَلَيْكَ﴾ .

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ١٧٠) .

تقسيم القرآن الكريم إلى محكم ومتشابه :

ثم قال : ﴿ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ أي إن القرآن ينقسم إلى قسمين : محكم ، ومتشابه .

معنى المحكم :

معنى محكمة ، أي واضحة الدلالة ، واضحة المعنى ، لا تحتاج إلى من يفسرها ، وهي مع ذلك أم القرآن ، أم الكتاب ، معنى أمه : أنها أكثره وأنها عمدته ، وأنها المرجع ، فقوله : ﴿ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي إن هذه الآيات المحكمة الواضحة المعنى ، البينة الدلالة التي لا يشتبه فيها أحد ، والتي تدرك معانيها بمجرد قراءتها وتلاوتها ، هي أكثر القرآن ، هي أم الكتاب .

معنى المتشابه :

﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ ، ومنه آيات أخر متشابهات ، ومعنى متشابهات ، أي إنها ليست مثل الأولى بعكس الأولى وسنين هذا .

فعندنا حينئذ المحكم والمتشابه ، وهذا الإحكام في هذه الآية والتشابه يرجع إلى المعنى ، بخلافه في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ [هود : ١] ، يشير إلى أن الكتاب كله محكم ، ليس فيه شيء محكم وشيء غير محكم ، الإحكام هنا يرجع إلى اللفظ ، والنظم ، والتعبير ، وطرق الأداء ، والبيان ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ ، فأياته كلها محكمة ، كلها بينة ، كلها ذات بلاغة وإعجاز ، وكذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] ليس التشابه هنا مثل التشابه

في هذه الآية التي نحن بصدددها، ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ : أي آياته شبيهة بعضها ببعض فيما تدل عليه، وفيما ترشد إليه، وكلها تدل على التوحيد وتبين الأحكام، وتبين الأخلاق والسلوك وأخبار الأمم، وألفاظها كذلك أيضًا عربية معروفة بينة للناس، فالتشابه هنا غير التشابه في هذه الآيات الأخرى، وهو أحرى أن يكون قريبًا من التشابه الذي ورد في الحديث الصحيح: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات (مشبهات)، لا يعلمهن كثير من الناس»^(١)، هذه الأمور المشبهات، هي التي يتردد النظر والرأي والفهم فيها بين أن تكون حلالًا وبين أن تكون حرامًا، فهذه المشبهات في الأحكام، وهذه المشبهات الأخرى في العقائد وغيرها، فتلك خاصة بالأحكام -الحلال والحرام- وما بينهما مما هو مناط الورع، مما يتعلق به الورع؛ لأن من تورع عنها لا يقع فيها.

رجوع الإحكام والتشابه إلى المعنى:

فعلى كل حال الإحكام هنا والتشابه يرجع إلى المعاني، واختلف فيه العلماء، فقالوا: إن المحكم هو آيات الأحكام، والناسخ أي ما نسخ غيره من الآيات، وكذلك الأوامر والنواهي، والفرائض، مثل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وما إلى ذلك، فهذه آيات محكمة لا غبار على معناها، ولا تحتاج في تفسيرها إلى كبير عناء، بخلاف المتشابه، فإن المتشابه هو الذي لا يظهر معناه الحقيقي في بادئ الأمر وربما يوقع في الالتباس، فلذلك تختلف فيه الأنظار.

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

أمثلة على التشابهات:

قال كثير من العلماء: إن التشابه من القرآن مثل الآيات أو الأحرف التي في أوائل السور، وكذلك أيضاً المنسوخات التي نسخت بالآيات المحكمة التي قلنا إنها ناسخة، فهي محكمة، وكذلك أمر المغيبات التي لا يعلمها أحد، واستأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها: كقيام الساعة، وكمسألة الروح التي سئل عنها النبي ﷺ، وأمر أن يقول: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقيام الساعة، وكثير من المغيبات التي لم تحدد أو لم تقع، فهذه من التشابهات.

وقيل: كذلك إن التشابهات هي الآيات التي تتوقف على غيرها بخلاف المحكمات، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] من التشابهات؛ لأنها وحدها لا تفسر حتى نقرأ آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، لأنه بما إذا سمعها الإنسان يتكل عليها، ولا يعمل ما هو مخاطب به.

وقيل: إن التشابهات، هي ما يرجع لوصف الله سبحانه وتعالى ولذاته، ولعقيدة التوحيد على العموم، وخصوصاً المغيب من الأخبار التي جاءت بها الرسل، أو جاء بها نبينا -عليه الصلاة والسلام- بالأحرى، فهذه لا يعلمها أحد، وهي مما استأثر الله تعالى بعلمه.

تلخيص الكلام في هذا الباب:

يمكن أن نجمل كلام العلماء في هذا الباب ونحصله ونحصره في ثلاثة أقوال:

١- ما لا يفسر باستقلال ولا بد من غيره يفسره ، كآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ مثلاً .

٢- ما يحتاج إلى ما يفسره من وحي ، وحجة ودليل .

٣- ما لا يفسر إطلاقاً ، واستأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه كالروح ، وقيام الساعة ، وما إلى ذلك .

فهذه ثلاثة أقوال يرجع بعضها إلى أنه يمكن التفسير ، ولكن لا بد من رؤية ما يفسر به ، وبعضها يرجع إلى أنه لا يفسر إطلاقاً ، وذلك ما يجعلنا نفهم أن التشابه منه ما يمكن أن يعلم ، ومنه ما لا يمكن أن يعلم مما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحد .

وما وجدت الوسائل لمعرفة المراد منه ، وتحقيقه ، إما من أدلة ومن نصوص أخرى ، وإما باعتبار مورده ، واستعماله ، ومناحي اللغة العربية ، ووجوه استعمالات الألفاظ ، كالمجاز والاستعارة والكناية وما إلى ذلك ، فهذا أيضاً يمكن أن يعرف باستعمال هذه الطرق ، وعلى هذا ننزل قوله تعالى : ﴿مَنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٧] .

معنى الزيغ في الآية :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ميل عن الحق ، فإن زاغ معناها : مال ، والزيغ قد يكون الكفر ، فإما أن يكون هؤلاء ممن مالوا عن الحق وليسوا بكفار ، وإما أن يكونوا كفاراً كما في وفد نجران .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ، فإنهم يتتبعون هذا المشابه ويأخذونه ويجمعونه ، ويحدثون به المشاكل ويطرحونه على الناس ؛ لأجل أن يشككهم ، ولأجل أن يحدثوا الفتنة بينهم ، ويزعزعوا عقيدتهم ، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ هنا تعليل لهذا التبع ، يعني إنما يتتبعونه لهذا الغرض ؛ لأجل أن يفتنوا الناس ، ولأجل أن يؤولوه ، لا التأويل الموافق ، بل التأويل المرغوب عنه .

صفة التأويل السليم:

أما إذا كان هذا التأويل تأويلاً موافقاً لأصول العربية واستعمالاتها ، ولوسائل الدلالة التي تؤدي إلى معرفة المعنى ، وكذلك إذا كان موافقاً لبعض النصوص التي تفسره ، فإن هذا غير معيب ؛ لأن هذا النهي أو التحامل على هؤلاء المتبعين له ، إنما كان لهذه العلة وهي ابتغاء الفتنة ، وابتغاء التأويل غير المرغوب ، فإذا كان التأويل مرغوباً وموافقاً ، فلا بأس بذلك ومما يدلنا على هذا أن النبي ﷺ قال لابن عباس : «اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل»^(١) ، وكان يقال فيه : حبر الأمة ، وترجمان القرآن .

وروي عنه أنه كان ممن قال : أنا ممن يعلم تأويله ، كما روي عنه العكس ، وهو أنه من الذين لا يعلمون تأويله . وكان على رأس من يتخرج من تأويله : أبو بكر الصديق ، وعائشة ، وعروة بن الزبير ، وروي عن ابن عباس كذلك أنه كان يتخرج من تأويله .

(١) سبق تخريجه .

توجيه كلام ابن عباس رضي الله عنه :

لا يعلم تأويله إذا كان مما لا يؤول وكان مما يستأثر الله بعلمه كالروح ، وقيام الساعة وما إلى ذلك . ويعلم تأويله إذا كان مما يؤول ، ومما تدل الدلائل على أن معناه يمكن أن يظهر ويمكن أن يفهم ، بعرضه على الاستعمالات العربية ، وعلى القرائن ، وكذلك أيضًا على النصوص التي تفسره كما قلنا في آية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] .

الحكمة من استنثار الله بتأويل بعض الآيات :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] إذا وقفنا على اسم الجلالة ، يكون التشابه مختص بعلمه سبحانه وتعالى وحده ، ولا يتصور على فهمه ولا يصل إلى معرفته أحد ، فتقول حينئذ ، ولماذا ورد في القرآن ؟ ولم ورد في الدين وفي النصوص إذا كان لا يعلم تأويله إلا الله ؟ والقرآن أنزل لهداية البشر وبيانًا للناس ، وبلاغًا للناس ، وهدى ورحمة وموعظة ، فحينئذ لماذا يقع في القرآن ؟ وهذا من الأدلة على أن منه ما يؤول ، ومنه ما يعرف معناه ؛ لأن القرآن حقيقة إنما أنزل للناس هداية ورحمة ، ودلالة على طريق الحق ، لكن نزوله أساسًا هو لأن العبارات مهما اتسعت ومهما اتضحت ، ومهما كانت اللغة غنية وثرية ، فإن هناك من المعاني والأسرار ، ومن المطالب العليا للروح وللنفس ، وما يتعلق بالحقيقة الأزلية ، وبالمطلق كما يقولون ، أشياء لا يبلغ إليها الفهم ، ويقصر عنها الإدراك ، ولا بد من الإشارة إلى بعض معانيها ؛ لأنه لا يمكن أن يحيط بها العقل القاصر ، ولا يمكن أن يحيط العاجز والقاصر والفاني بالقادر العليم الحكيم ، الباقي بلا نهاية ، والأول بلا بداية ، هذه الأشياء تقع حتى في

كلام البشر ، فإن كثيرًا من المتكلمين مؤلفين وأدباء وشعراء يقع في كلامهم أشياء لا تفهم ، ومن ذلك المذهب الواقعي الآن ، الذي انتصر كثيرًا ، وما فوق الواقع أيضًا ، وكثير من الأشياء التي تقع في الكلام لقصور العبارات عن إبلاغها وعن تفهيمها للناس ، وقد قال أحد الشعراء : أموت وفي نفسي حسرة من القصائد التي لم أستطع نظمها ؛ لأن معانيها تجول في ذهنه ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنها ، فلا بد من وقوع هذا التشابه في كل كلام لاسيما إذا كان بمثابة القرآن الكريم الذي هو أصح الكتب السأوية وأعلاها وأشرفها ، وناهيك بأنه ينسب إلى الله تعالى ، ويضاف إليه فيقال : كتاب الله ، ومع ذلك فإن الأشياء التي لا تفهم بالمرة ، أشياء قليلة جدًا ، وهي في سائر الشرائع وفي سائر الفلسفات ، وفي سائر المذاهب غير معروفة ، كالروح مثلاً ، وكذلك أيضًا البعث متى يكون؟ والباقي نتوصل إليه بالطرق التي يمكن أن نتوصل بها إلى معرفته من التضلع في العلم ومن رسوخ القدم في العلوم والعربية بالخصوص ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٧] .

«الراسخون» معطوفة أم مستأنفة؟

ثم قال : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ، فإذا قلنا : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ليست مستأنفة بل معطوفة على اسم الجلالة يكون هذا النظر له وجه ودليل ، والقرآن الكريم أيضًا يؤيده ، فنقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٧] ، هم أيضًا يعلمون تأويله ، وطبعًا إنه لا يمكن أن يعلمه إلا من كان راسخًا في العلم ، أما إذا كان غير راسخ في العلم ، فإنه لا يعلمه ، ولا يفهمه ، وإذا كان عربيًا وجادل في ذلك كوفد نجران ،

فإن ذلك كان منهم مكابرة ؛ ولذلك كما جاء في «صحيح البخاري» لما ذكر وفد نجران ، قال أحدهما للآخر : تعالوا نلاعنه ، فقال : ويحك أما تدري أن لو كان نبيًا فلاعنه ، فإنه تلزم لعنته لنا ولأبنائنا إلى يوم القيامة؟ فقد خافوا من هذه الملاعنة ومن هذه المباهلة ، لئلا يقعوا في سخط الله الدائم .

لا بد في التأويل من رسوخ القدم في العلم:

لابد في التأويل من رسوخ القدم ، ولا بد فيه من الإحاطة بالعلوم التي ينبغي أن تكون عند الإنسان لأجل أن يؤوّل هذا المتشابه ، وبالخصوص الذي يقبل التأويل ، وقد قال بقبول التأويل ابن عباس في القول الثاني كما سبق ، ومجاهد ، وكثير من العلماء بعد ذلك ، وأيده ابن فورك بكلام كثير ، وأيده أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية ، وحسبك به ، فإنه من أهل السُّنة ومن الواقفين عند النصوص ، ومع ذلك كتب مسودات كثيرة في إمكان تأويل المتشابه ، فهذا مما يرجح هذه الناحية .

لماذا لم يصفهم الله بالراسخون في الدين!

ثم إنه سبحانه وتعالى قال : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ولم يقل : والراسخون في الدين ؛ لأجل أن تنصب الآية على الإيمان ، وعلى أن يقولوا : ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، بل قال : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ والعلم قطعًا له تعلق وطموح وتشوف وتطلع لمعرفة الحقائق ، فهذا كأنه تلميح إلى أنه يجوز لنا أن نتعلق بهذا المتشابه ، وأن نبحت عنه ، وأن نتفهمه إذا كان من الأمور التي لم يستأثر الله تعالى بعلمها .

مناقشة القراءة بالعطف والاستئناف:

قراءة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على العطف لا على الاستئناف، لها وجه وجيه أيضاً، وإن كان أكثر السلف على القراءة الأولى، وسنبين السبب الذي جعل الخلف يعتمدون الوجه الثاني، ويؤيد قولهم ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾، يكون فيه حذف الفعل وحذف المعمول معاً، وإتيان الحال من الراسخين في العلم التي حذف عاملها، وحذف معمولها؛ لأن التقدير أن يقول: والراسخون في العلم الذين يعلمونه يقولون آمنا به كل من عند ربنا، والراسخون في العلم إذا كانوا لا يعلمونه، يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، أما لما قيل: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] تكون حينئذ حالاً، وصاحب الحال محذوف، وكذلك ما أتى منه الحال محذوف، وهو المشابه، يعلمونه قائلين: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الاعتراض على هذا الرأي:

لكن هذا رُدُّ بأنه ورد في القرآن أيضاً عطف المفرد على المفرد، وإتيان الحال منه بدون تكرار العامل مرة ثانية ولا ذكر المعمول كذلك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، فإن ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، وكذلك الآية التي بعدها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ١٠] فهي تماماً مثل قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فهي حال منهم مع معرفتهم به وبتأويله.

والخلاصة:

لا يبقى حيثئذ إلا أن باب التأويل مفتوح ولكن للراسخين ، وليس لكل أحد ، ثم هو مفتوح فيما يمكن أن يؤول ، وفيما يمكن أن يكون له تفسير ، وما ليس كذلك فلا يجوز تأويله .

وعلى هذا ، فهناك مذهبان :

الأول : مذهب يقول بعدم التأويل ، وهو الصحيح .

الثاني : ومذهب يقول بالتأويل ، فيما يصح فيه التأويل .

المذهب الأول : كما نعلم من حاله فيه طائفتان :

أ - طائفة السلف .

ب - طائفة الأشعرية .

والمذهب الثاني : يشمل طائفة الخلف فقط .

وهذا هو الذي أشار له الإمام القصار في بيت واحد ، ذكر فيه هذه المذاهب الثلاثة ، وذكر فيه كذلك أيضًا أمثلة من المتشابه ، وهو بيت من الرجز قصير جدًا ، ولكنه يوزن بالذهب ، قال :

الاستواء والوجه والعين ويد صفات أو فَوْضُ أو أوَّل ما ورد

من مسائل المتشابه :

الاستواء على العرش : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] ،
﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، هذه من أول المسائل التي أثرت في المتشابه ، وكان ممن يتبعها صبير بن عسيب ، فكان يأتي إلى عمر ويسأله عن هذه المسائل ، فلما أكثر عليه ، عرف أنه ممن يريد أن يثير الفتنة ، فزجره وضربه بالدرة ونهاه عن ذلك .

صفة الاستواء:

الاستواء من أوائل المسائل التي أثرت به ، وكان العرب يفهمون الاستواء ، ويفهمون العرش ، ويفهمون الحق سبحانه وتعالى ويسمعون قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ولكنهم لا يسألون عن هذا ؛ لأنهم مقتنعون أن الله تعالى فوق كل ما يمكن أن يتصور ، فلذلك لا يسألون عنه ، بعد ذلك جدت طوائف من المسلمين ، من مسلمي الأمصار ، ولا سيما ممن لم يكونوا متمكنين في اللغة العربية ، ولا يعرفون دقائق تعبيرها ، فجعلوا يسألون عن هذه الأشياء ، ومن ذلك السؤال الذي طرح على الإمام مالك المتعلق بمسألة الاستواء بالخصوص ، فقال له : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، كيف جلس ؟ وكيف استوى ؟ وكيف تمثل ؟ لا نعرف ، والسؤال عن هذا بدعة ، هذا تقرير مذهب السلف بالنسبة لكل متشابه .

صفة الوجه:

أيضاً من مسائل المتشابه : الوجه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] ، العرب كانت تعرف الوجه ، وتعرف أن الحق سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، وأنه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] .

فتعتقد أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بهذا الوصف ولكنها لا تمثله ولا تشخصه إطلاقاً ، وتكتفي بذلك ، لذلك لا تسأل عنه ، الإحساس بالمعاني والشعور بها باطن ومعروف في نفوسهم ، والتنزيه مغروس كذلك أيضاً في نفوسهم ، فاكثفوا بهذا ولم يبحثوا عنه ، لكن جاءت طوائف بعد

ذلك من المسلمين ، ومن محدودي الثقافة ، ومن لا يمكن أن يكون لهم إيمان الصحابة وإيمان السلف الصالح ، فجعلوا يسألون عن هذا الوجه ما هو؟ فأول لهم بأن الوجه المراد به الذات العلية . وانتهى الإشكال ؛ لأن أهم عضو الإنسان وأهم جزء في الإنسان مثلاً ، والله المثل الأعلى هو وجهه ، فإذا قيل : وجهه هو ذاته ، يكون ذلك من باب إطلاق البعض على الكل ، وهذه مسألة مجازية معروفة وواقعة في الكلام كثيراً ، الاستواء ، والوجه .

صفة العين :

كذلك أيضاً من التشابهات مسألة العين بالنسبة للحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] ، ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩] ، فالله سبحانه وتعالى ينسب لنفسه العين والأعين ، فلا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى له عين كأعيننا مثلاً ، العرب فهموا ما فهموا من ذلك ، ولم يبحثوا ؛ لأن جلال الله سبحانه وتعالى مقرر لديهم بطريق النبوة ، فلذلك آمنوا بهذا ، ولم يبحثوا ، فلا تقل إنهم كانوا لا يفهمون أو كانوا سذجاً ، أو مرت عليهم مثلاً هذه الأشياء -حاشا وكلا- ، فإنهم أعرف الناس وأعلم الناس ، ولا سيما اللغة لغتهم ، والدين كانوا يأخذونه من المنبع ، من في رسول الله ﷺ ، فكان الاطمئنان حاصلاً لهم على أتم ما يكون الاطمئنان بهذه المعاني ، مع تنزيه الحق سبحانه وتعالى .

فقليل في العين لما جاءت الطوائف التي قلنا وهي لا تعرف التجريد ، والعامة بعبارة أخرى ، فالعامة لا يمكن أن تجرد المعاني تجريداً تاماً ، لا بد لها من نوع من التشخيص ، وهذا هو السبب الذي أوقع الديانات السابقة في إقامة التماثيل والأصنام ، وما إلى ذلك ؛ لأن العامة عقولها قاصرة ، فلا

تؤمن إلا بالمحسوس ، فلذلك أقيم تمثالاً لبوذا ، ومن يديرنا أن بوذا كان نبياً؟ وكان ينهى عن عبادة الأصنام وما إلى ذلك ، وأقيم كذلك لعيسى ولغيره من الأنبياء ومن الزعماء الدينيين ومن الدعاة . . . إلخ ؛ لأن العامة لا تؤمن إلا بهذا القدر .

صفة اليد :

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] لأن الأيد في الآية بمعنى القوة من التأييد وهو التقوية ونحوه . فاليد أيضاً جارحة ، العرب فهموا الجارحة ، وعرفوا أن الله سبحانه وتعالى منزّه عنها ، فلا يصفون الحق سبحانه وتعالى بها أبداً كما نعرفها ، ويقولون : الله سبحانه وتعالى موصوف بهذا الوصف الذي وصف به نفسه ، ولكن بما يليق به ، أما الذين أتوا بعد ذلك فإنهم لم يقتنعوا بهذا فؤولت لهم اليد بالقدرة ، والقدرة أيضاً بما يناسب اليد ؛ لأن الإنسان يبطش بيده ، ويتناول الأشياء بيده ، وقوة الدفع عنه ، والقتال بيده ، فقليل في اليد القدرة ، فهذا تأويل الخلف ، وأما السلف فإنهم كانوا يفوضون في هذه المعرفة مع إثبات هذه الصفات للخالق ؛ لأنه سبحانه هو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ .

مذهب الأشاعرة :

ثم المذهب الثاني ، وهو مذهب الأشاعرة ، الإمام الأشعري . وإن كان من المؤولة ، كان أولاً من المعتزلة ، ثم وضع مذهب الأشعرية وتبرأ من الاعتزال ، وبعد ذلك لم يقتنع بمذهب الأشاعرة في آخر أيام حياته ، فكتب كتاب الإبانة ، وبين فيه رجوعه للسنة ، ولمذهب أهل الأثر ،

فاختار في آخر حياته أن هذه الأشياء هي صفات لله سبحانه وتعالى ، فالوجه صفة من صفات الله تعالى ، صفة سمعية لا ندري ما هي ! مع التنزيه ، واليد صفة من صفاته تعالى لا ندري ما هي وهكذا لم يقتصر الأمر على هذا ، فهناك كثير من الكلمات وكثير من الأوصاف التي أطلقت عليه سبحانه وتعالى .

قول الشيخ رضوان الجني:

قال العلامة رضوان الجني رَحِمَهُ اللهُ : يجب على كل مكلف أن يعتقد أن العرش سقف الجنان ، لا مستقر الرحمن ، والكلام أيضًا في هذا يطول .
وأن الكرسي آية القدم ، وليس هو موضع القدم ، وأن السماء معدن الملك لا محل الملك ، وأن استواءه سلطانه ، كما قلنا في التأويل الآخر ، هو القهر والغلبة .

قول المؤلفين:

قال هؤلاء المؤلفون : إن الاستواء على العرش معناه الاستيلاء عليه والتمكن منه ، والحكم فيه وقهره ؛ لأن العرش هو شيء عظيم جدًا ، وخارج عن التصور بدليل الحديث : «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، وما السموات السبع ، والأرضون السبع ، والكرسي في العرش إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

على كل حال قوله : استواءه سلطانه ، ونزوله امتنان ؛ لأنه في الحديث الصحيح : «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة ، فيقول : ألا من مستغفر فأغفر له ، ألا من داع فأستجيب له . . . ألا كذا ، ألا كذا حتى يطلع الفجر»^(١) .

معنى نزوله : امتنانه على عباده ، وضحك غفرانه ، وضحك ربك لمن يقنط من العباد ، و«ضحك ربك لرجلين قتل أحدهما الآخر ودخلا الجنة معاً . . .»^(٢) إلى آخر الحديث ، معنى الضحك : هو الغفران ، وضحك : غفرانه ، ووجهه وجوده ، وهو ذاته وعينه شهوده ، ويده جوده ، قال : ومن لم يعتقد هذا فالصنم معبوده .

لكن هذا غير صحيح أبداً ؛ لذلك صححه من نظم هذه الأبيات ، وهو :

معتقد ظاهر ما تقدما لا شك ما يعبد إلا الصنما
الذي يعتقد ظاهر هذا فلا يعبد إلا الصنم ، أما من اعتقد اعتقاد
السلف ، فإنه يكون على الصواب .

أثر الفلسفة والمنطق على العقيدة الإسلامية :

والخلاصة : أن أسلافنا عليهم السلام كانوا على هذا المذهب ، الذي هو التفويض والتسليم والإيمان بما جاء عن الله ، على مراد الله من غير دخل في تأويله ولا في تفسيره ، ثم لما دخلت الفلسفة اليونانية والمنطق على

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٦) ، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العلوم الإسلامية ، وجد الناس ولم يقتنعوا بهذا التسليم ، ووقع العوام في التشبيه كما قلنا في التجسيم ، اضطر العلماء إلى تأويل ذلك لتفهم العامة ، فقالوا لهم : عينه شهود إلى آخره ، وهذا عمل من السلف الصالح .

ونتبع ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب كذلك أيضًا في إنكاره على الأشاعرة والتشنيع عليهم .

المحاضرة الثانية عشرة بعد المائتين

الإسلام والتجديد

مقدمة :

كيف نجدد رسالة الإسلام؟ هذا السؤال يتوقف الجواب عنه على عدة مقدمات .

المقدمة الأولى : هل الإسلام قابل للتجديد؟

المقدمة الثانية : ما هو النوع الذي يقبله الإسلام من أنواع التجديد؟

المقدمة الثالثة : إذا كان الإسلام قابلاً للتجديد فهل هو في الوقت الراهن مفتقر إلى التجديد؟

المقدمة الرابعة : إذا كان الإسلام مفتقراً للتجديد فعلاً فما هي الأسباب التي جعلته في حاجة إلى التجديد؟

المقدمة الخامسة : هل يوجد في نصوص الشريعة ما يشير إلى الجوانب المحتاجة للتجديد؟

المقدمة السادسة : هل يوجد في نصوص الشريعة ما يسمح بممارسة التجديد؟

تحليل هذه المقدمات منطقيًا ومعنويًا يجب أن يسبق الجواب كيف نجدد رسالة الإسلام؟ فلنطرح هذه النقاط بشيء من التفصيل .

النقطة الأولى: هل الإسلام قابل للتجديد؟

الإسلام قابل للتجديد ، بمعنى أنه قادر على التكيف مع جميع العصور والبيئات ، وقد أثبت التاريخ صلاحيته وقدرته على هذا التكيف عبر القرون ، بمعنى : أنه قادر على استيعاب وهضم وتنسيق جميع ما يصل إلى يده من الحضارات ، والتجاوب مع جميع متطلبات الحياة لمختلف الأجناس والسلالات ، والتعايش مع جميع الاكتشافات والاختراعات ؛ لأنها لا تبهره ولا تزعزعه عن مكانه ، لأن العناصر الأساسية والجوهرية التي يتألف منها نظام الإسلام منسجمة في أصلها مع الفطرة الإنسانية من جهة ، ولا تحول دون أي تطور صالح من جهة أخرى .

النقطة الثانية: التجديد الذي يقبله الإسلام:

الإسلام يقبل التجديد ، الذي هو بمعنى الصيانة ، ونفض الغبار ، والتطهير من الحشرات والطفيليات ، وضرب الحراسة القوية من حوله ، حتى لا يتسلل إليه اللصوص والمخربون .

والمناداة بتجديد الإسلام عندما ننادي بها لم تكن على أساس أن التجديد موضوعة من الأزياء التي تتغير كل يوم ، أو من الشعارات البراقة ، فالإسلام لا يسير وراء الأزياء ولا وراء الشعارات ، ولكن المناداة بتجديد الإسلام نابعة من ضرورة حيوية يتوقف عليها مصير الإسلام ، ويتنظرها مستقبل الإسلام ، وبدونها يتعرض الإسلام لكثير من الأخطار .

جوهر الإسلام الخاص لا يقبل التجديد:

الإسلام قابل للتجديد من هذه الوجوه ، لكنه من وجوه آخر لا يقبل التجديد بالمفهوم العام الشائع عند المتحذلقين الذين لا يعرفون طبيعة

الإسلام ، فجوهره الخاص لا يقبل التجديد ، بمعنى أن العناصر الأساسية والجوهرية التي يتألف منها نظامه الأساسي عناصر متلاحمة ، متكاملة ، لا تقبل التفكيك ولا التجزئة ، ولا الانقسام ، وترفض كل عنصر دخيل يريد أن يتسرب إليها - ليس منها وإليها - كما يرفض جسم الإنسان قبول القلب الغريب الذي يزرع فيه ؛ لأنه لا يتلاءم مع نسيج خلاياه الأصلية في شيء .

فعناصر الإسلام الأساسية لا تتوقف في طبيعتها وجوهرها ، ولا تحتاج إلى أي مدد أجنبي ؛ لأن نظرة الإسلام إلى الفرد والمجتمع كانت منذ فجره المبكر ، نظرة شاملة تستوعبهما ككل لا تتجزأ .

مثال ذلك :

الدواء الذي يضعه الأطباء والصيدلة لمرض من الأمراض ، يكون مؤلفاً من عناصر معينة ، ذات نسب محددة ، فإذا أُدخل على عناصره عنصر غريب ، أو اختلت نسبة بعض عناصره التكوينية ، لم يعد دواء لذلك المرض ، بل أصبح في كثير من الأحيان هو مصدر للمرض ، ولذلك عندما يؤخذ الإسلام مفككاً مفصلاً بعضه عن بعض لا يثمر الثمرة المرجوة التي من أجلها أنزله الله .

النقطة الثالثة : افتقار الإسلام إلى التجديد ، وأسباب ذلك :

الإسلام مفتقر إلى التجديد ؛ لأنه تمر بهذه الأمة فترات كثيرة يفتر فيها الحماس الديني عند القائمين بالدين ، فيقيض الله لهذا الدين من ينفخ فيه من روحه روحاً جديدة من روح النبوة حماساً يملأ قلوب الجماهير إيماناً وثقة بالإسلام وبالله .

نعم يفتقر عند ضعف الشجاعة الأدبية :

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما تضعف الشجاعة الأدبية عند القائمين عليه ، فيتخلون عن رسالته ولا يجهرون بها ، فيمد الله الإسلام برجال يأخذون على عاتقهم أن يتقدموا الصفوف ؛ ليعلنوا كلمة الله كاملة غير منقوصة .

نعم يفتقر عند طغيان المصالح الشخصية :

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما تغطي المصالح الشخصية على القائمين به ، فيفكرون في ذواتهم قبل أن يفكروا في دينهم ، ويفكرون في مصالحهم قبل أن يفكروا في مصلحة الجماهير الإسلامية ، وفي الرسالة الإسلامية الملقاة على عاتقهم ، فيأذن الله بظهور أشخاص يتصدون لهذه المهمة التي ترك فيها الحبل على الغارب ، فيعطون لها من ذات أنفسهم كل شيء ، ويضحون في سبيلها بأعز شيء .

نعم يفتقر عند انتشار الفواحش والمنكرات :

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما تفشو الفواحش والمنكرات ، فيصبح المجتمع الإسلامي فيه بقع سوداء لا تتفق مع نظافته وطهارته ، وينزعج الضمير الإسلامي مما يراه من تلك الفواحش والمنكرات ؛ لأن في ضمير كل مسلم محبة الطهر ، ومحبة النظافة ، فيأذن الله بظهور مجددين يأخذون على عاتقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلونهم بالتي هي أحسن .

نعم يفتقر عندما تتوالى المحن والأزمات :

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما تتوالى عليه المحن والأزمات والنكبات مما يزعزع مشاعر المؤمنين ، ويؤثر في نفوسهم ، فيحتاج الإسلام إلى مدد جديد يكون سبيلاً إلى رفع تلك الأزمات ، وإزالة تلك المآسي ، تكون فيه التسلية وبعث الأمل ، وإنقاذ الموقف المخجل الذي يوجد فيه المسلمون .

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما يصبح مستوى القائمين عليه دون المستوى المطلوب ، ولا يبقون في مستوى عصرهم ، فيكون دون مستوى العصر ، يريدون أن يعرضوا الإسلام في حلة قشبية ، وفي أسلوب مبسط يتلاءم مع معطيات العصر ، وهم عاجزون عن إعطائه تلك الحلة ، وعن تقديمه بذلك الأسلوب المناسب ، فيأذن الله تعالى بظهور أشخاص يأخذون على عاتقهم أداء هذه الرسالة ، ليبلغوا الإسلام إلى العامة والخاصة ، وليجعلوه على طرف اهتمام من كافة الناس .

نعم يفتقر عند الشعور بالنقص :

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما يشعر المجتمع الإسلامي بالنقص . العالم من حوله ينمو ، والمشاكل من حوله تزداد ، والأنظمة من حوله تنشأ وتتعاظم ، وهو ينظر إليها بإعجاب ، بل ببله دون قدرة على أن يساهم برأيه في تلك المشاكل ، ولا أن يقدم لها أي حل من الحلول ، عندما يصبح المجتمع الإسلامي في وضع كهذا الوضع ، هنالك يحتاج الإسلام إلى التجديد ، وإلى أولئك الذين يأخذون على عاتقهم مواجهة هذه المشاكل ، بقلب شجاع ، ورأي سليم ، وبصيرة نافذة ، ومعرفة عميقة بالإسلام ، فلا يجبنون ولا يتقهقرون عن إعلان ما ينبغي أن يقال من كلمة الإسلام في كل مشكلة واجهت المسلمين .

نعم يفتقر عندما يفشو الانحراف :

يفتقر الإسلام إلى التجديد عندما يسود التحريف ، ويفشو الانحراف ، عندما يكثر الدجاجة الذين يزيفون الدين ، ويزيفون المفاهيم ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وعندما يفشو الانحراف في تربية المسلمين ، في أحوالهم ، فيصبحون على حالة غير الحالة التي عرفوا عليها ، يصبحون عبارة عن حيارى وسكارى ، هائمين في الحياة ، دون ضابط أخلاقي ، ولا وازع ديني ، وقتئذ لابد أن يظهر مجدد يأخذ على عاتقه تقويم الانحراف ، وتقويم التحريف ، من هذه الوجوه كلها نجد الإسلام مفتقرًا إلى التجديد .

الإسلام لا يفتقر إلى التجديد من وجوه :

لكنه من وجوه آخر غير مفتقر إلى التجديد ، وأنه غني بنفسه ؛ لأن نظام الإسلام الأساسي نظام سليم في حد ذاته ، ولا خلل فيه من الداخل ، وذلك لعدة أسباب :

حفظ كتابه (القرآن الكريم) من قبل الله :

القرآن الكريم محفوظ ، وهو النص الوحيد من الكتب الإلهية التي لم يزل ولن يزال محفوظًا من كل تبديل وتغيير لفظًا ومعنى ، وسياقًا وترتيبًا .

حفظ السنة بما قيض لها من رجال :

السنة محفوظة ، فقد قيض الله لها قومًا مخلصين ، تطوعوا بتهذيبها وجمعها ، وإبعاد كل شائبة دخيلة عليها ، فأصبحت السنة محفوظة ، وهي اللائحة التطبيقية للكتاب ، وهي التي تتضمن السوابق الأولى لتنفيذ الكتاب .

وضوح معالم تراثه العظيم :

التراث الإسلامي الصحيح في عمومه لا يزال -والحمد لله- واضح المعالم ، بفضل الجهود الخالصة المخلصة التي بذلها العلماء المجددون في خدمة الإسلام ، بالرغم مما تعرض له الإسلام ، ومما تعرض له هذا التراث من سطو وفتك .

ثبات نظامه :

الإسلام غير مفتقر إلى التجديد ؛ لأن الإسلام نظام ثابت ، لا يحتاج في جوهره إلى أي تغيير ، وثباته آت من أنه وضع إلهي من اللطيف الخبير ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] ؛ لأنه دين إلهي كامل ، لا وضع إنساني ناقص ، فكل زيادة فيه -بالعكس- تعد نقصاً : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

الانتقال إلى النقطة الرابعة والخامسة :

نتقل إلى النقطة الخامسة ، هل يوجد في نصوص الشريعة ما يشير إلى الجوانب المحتاجة إلى التجديد؟ وهل يوجد في نصوص الشريعة -وهذه هي النقطة السادسة- ما يسمح بممارسة التجديد؟

إخبار الله رسوله عما حدث للأمم السابقة :

إن الله تعالى قد قص على رسوله أحسن القصص ، فقال تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه : ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

الْقُرَّاءَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴿٣﴾ [يوسف: ٣]، فهذه الأحداث والوقائع التي قصها الحق سبحانه وتعالى في كتابه على رسوله الأمين، أعطت للرسول العظيم فكرة مضبوطة عن تطور الأمم، وعن تطور الرسالات، وعمّا تتعرض له الملل والأديان من إدبار وإقبال، ومن قوة وضعف، ومن استقامة وانحراف، ومن صواب وتحريف.

فالنبي ﷺ كان يدرك تمام الإدراك - كما أنه ليس بدعاً من الرسل ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] فكذلك أمته لم تكن بدعاً من الأمم - القوانين الإلهية، والسنن الإلهية التي جرت على بقية الأمم، والتي جرت على بقية الرسالات، ومن المنتظر والمتوقع دائماً أن تجري على نفس هذه الأمة إذا سلكت مسلك الأمم السالفة.

النبي هو الرجل الأول الذي ذب عن الدين:

لم تجد هذه الرسالة من يأخذ على عاتقه الحفاظ عليها والذب عنها، فرسول الله ﷺ - بحكم القرآن الكريم الذي وصف له الأحداث السابقة، وعرض عليه حياة الأمم وحياة الأنبياء السابقين - كان يتوقع أن تقع أمته في مثل تلك الأزمات، وأن تتعرض أمته أيضاً لمثل تلك التقلبات، ومن أجل ذلك، نجد رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عما يتوقعه من هزات تصيب الأمة الإسلامية، والملة الإسلامية، لكنه عندما يتحدث إليهم عن ذلك، لا يقصد من ذلك أن تلك التقلبات وتلك الأزمات أمر محتوم لا سبيل لتفاديه، وأنه لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه.

تحذير النبي لأصحابه حتى لا تتكرر الأخطاء:

إنما كان يحدثهم عن ذلك ليحذروهم من أن يقعوا في تلك الأزمات وفي

تلك المشاكل ، وكان يحدثهم عن ذلك ؛ لأنه ينذرهم سوء العاقبة وسوء المصير ، إذا ما سلكوا مسلك الأمم السالفة إزاء الرسالات التي وجهها الحق سبحانه وتعالى إليها ، بل نجد في كتاب الله تعالى ما يؤكد هذا المعنى ، يقول الله تعالى حكاية عن الرسول الأعظم : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] .

فالرسول ﷺ عرف أن هذه الأمة قد تهجر القرآن الكريم ، ولكنه وضع لها الطريق الذي يعود بها إلى طريق السلامة ، والذي يوصلها إلى سبيل النجاة ، ونجد في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، ﴿ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [الشمس : ٣٩] ، ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ [النجم : ٣٩ ، ٤٠] ، الإنسان فردًا كان أو جماعة ، فهذا كله يعطينا الدليل ، ويشق أماننا الطريق إلى الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ ، والتي تتحدث عن التحريف والانحراف الذي يمكن أن ينزل بالمسلمين وبالإسلام .

سيرة الأنبياء الكرام في القرآن الكريم:

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨ ، ٨٩] ، هذه الآية الكريمة جاءت في سورة الأنعام ، ووردت بعد الإشارة إلى ثمانية عشر نبيًا ، ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، واستمرت الآية تذكر الأنبياء واحدًا تلو الآخر ، إلى أن أتمت ثمانية عشر نبيًا ، ثم جاء التعقيب عليهم

جميعاً بقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، ثم قال الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى سلسلة الأنبياء التي ذكرت أسماؤهم في هذه الآيات ، والتي لم تذكر كذلك ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ، هذا هو الميراث الإلهي الذي بعث الله به الأنبياء والرسل ، كتاب وحكم بمعنى الحكمة والنبوة التي هي المظهر والوسيلة لإبراز هذا الكتاب ، ولتطبيق تلك الحكمة ، قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ ، إن يكفر بالنبوة وبالكتاب ، والحكم بمعنى الحكمة والنبوة ، فهؤلاء هم الكافرون الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ ، وكل كافر بالحق بالتبع لهم في كل عصر وفي كل جيل ، فإن يكفر بها هؤلاء فإنها لن تضيع ، ولن تبعد ، إن الله يحفظها ، ويدخر لها من يقوم بأعبائها ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ .

توكيل الله لأنبيائه ليحفظوا تراث النبوة:

هذه الآية الكريمة تشير إلى أن الله تعالى وكل أفراداً مختارين من خلقه للحفاظ على تراث النبوة ، وللحفاظ على الكتاب ، لفهم الحكمة والدعوة إليها وتصديقها في هذا العالم ، هؤلاء موكلون من الله تعالى ، خصهم بهذه المهمة ، ووقفهم لها ، ودعاهم للقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها ، وهبهم لأن يكونوا ناصحين لها ، وذلك على غرار ما يوكل أحدنا من يأتمنه على شيء يقوم به ويتعهد به ، ويحافظ عليه حتى لا يضيع ولا يبعد ؛ لأنه عزيز عليه لا يريده أن يبعد أو يضيع ، هذه الآية تعطينا المفتاح بأن الإسلام قد وضع الأساس لممارسة التجديد ، وهياً لممارسة هذا الحق قوماً مختارين من خلقه .

علام يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ :

الضمير في ﴿بِهَا﴾ هنا يعود على ثلاثة أشياء : الكتاب ، والحكم -بمعنى الحكمة- والنبوة ، أو يعود على أقرب مذكور ، أي على النبوة ، والنبوة تشمل الجميع .

العلماء وكلاء وأمناء على الدين :

جعل الله سبحانه العلماء الحاملين للعلم النبوي وكلاء وأمناء على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه ، ولكن هذا التوكيل ليس توكيل تشريف ، ولكنه توكيل تكليف يقتضي ممن هيئوا أنفسهم لهذه المهمة ، وأعدهم الله لها ، أن يقوموا بها علماً وعملاً ، وجهاداً وتضحية ، وأن لا ييخلوا بأي شيء من ذات أنفسهم في سبيل هذه الأمانة الملقاة على عاتقهم ، هذا التوكيل الذي نجده في الآية الكريمة : ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لِّيُسْأَلُوا بِهَا الْكَافِرِينَ﴾ .

تأكيد هذا المعنى في نص السنة المطهرة :

قال الرسول ﷺ في الحديث الشريف : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»^(١) ، فالنبي ﷺ يتحدث عن قوم يتطوعون لحمل هذا الدين . وهذا العلم الذي يشير له الرسول ﷺ هو العلم النبوي ، العلم الوارد عن طريق الوحي الإلهي ، الذي لا مجال للتدخل البشري فيه : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» ، فحملة هذا العلم هم وكلاء له .

(١) سبق تخرجه .

السند من السنة المطهرة لممارسة التجديد:

نجد هنا سندًا من الحديث النبوي يعطي الحق للمجددين لممارسة التجديد على الأساس الإسلامي وضمن الميثاق الإسلامي، الذي حدده الرسول بقوله: «ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

تخريج الحديث الشريف:

هذا الحديث ورد عن رسول الله ﷺ من رواية إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، وعبد الله بن عمرو، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وأسامة بن زيد، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وقد أورده الحافظ ابن عبد البر في كتابه «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» من أربعة طرق، وأورده عز الدين بن الأثير في كتابه «أسد الغابة في معرفة الصحابة» من أربعة طرق أيضًا، وأورده ابن قيم الجوزية في كتابه «مفتاح دار السعادة» من عشرة طرق.

ولذلك تأكدت صحة هذا الحديث لفظًا ومعنىً.

ما يشير إليه الحديث الشريف من الآفات:

هذا الحديث الكريم يشير إلى الآفات التي تؤذي الإسلام، وإلى الفئات التي هي خطر على الإسلام، أما الآفات التي تؤذي الإسلام حسب منطوق هذا الحديث، فهي: التحريف، والانتحال، والتأويل، وأما الفئات التي تحرب الإسلام، والتي يخشى منها الخطر على بنيانه الشامخ، فهي ثلاثة: الغلاة في الدين، الوضاعون المبطلون، الذين يكذبون على

الدين ، الجاهلون الذين لا يفهمون الدين ، ويعطون لأنفسهم الحق في أن يتقولوا عليه ما لم يقل .

التحريف والانتحال والتأويل :

هذه الآفات الثلاث نجدناها كلها نص عليها كتاب الله تعالى في آيات بينات ، ونجدناها جميعاً منسوبة إلى يهود بني إسرائيل ، أولئك الذين أنشئوا مدرسة التحريف ، وابتكروا طرق الانتحال ، واخترعوا أضاليل التأويل ، يقول الله تعالى في شأن التحريف منسوباً إليهم : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [المائدة : ١٢] ، إلى أن جاء في الآية : ﴿ فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : ١٣] إشارة إلى كل ما يمكن أن يأتي من هذا الجنس ، ونجد قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة : ٤١] ، ونجد قول الله تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء : ٤٦] .

أساتذة التحريف هم بنو إسرائيل :

أساتذة التحريف في الأديان هم بنو إسرائيل ، وعندما ذكر الله تعالى هذا التحريف بالتفسير منه ، إنما أراد أن ينبه المسلمين إلى خطره وإلى أضراره ؛ حتى لا يقعوا فيه .

آفة الانتحال والكذب:

عندما ننظر إلى الانتحال ، والكذب ، نجد قول الله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ٥٠] ، ونجد الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨] ، ونجد قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ [الصف : ٧] ، فكتاب الله عندما وصف الانتحال ، وبين مخترعيه ومبتكريه ، وذكرهم بأشنع النعوت ، إنما أراد من المسلمين كذلك أن يتفادوا هذا الداء ، وأن يعملوا على تلافي هذا الخطر ، وأن يحتاطوا حتى لا يقعوا في هذه الشبكة .

آفة التأويل:

أما التأويل ، فنجد قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] ، فهنا كتاب الله يوضح لنا أن أعداء الإسلام الذين يريدون أن يلغوا الشبه عليه ، هم الذين يصطادون في الماء العكر ، ويبحثون عن الآيات المتشابهات ليؤولوا دين الإسلام أسوأ تأويل ، وليفرغوه من معانيه ، وليحدثوا البلبلة في مدلولاته ومضامينه ، فهذه الآفات الثلاث هي التي قال رسول الله ﷺ مبينا - لمن يحمل هذا العلم ، ما هو العبء الذي يجب أن يحمله - : « ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، أما الفئات المخربة ، والتي منها دخل

الخطر على الإسلام ، ولا يزال ، فهي ثلاث فئات :

آفة الغلاة:

الغلاة : هم الذين يأخذون هذا الدين اليسر ، وهذه الحنيفة السمحة ، ويجعلون منها آصاراً وأغلالاً ، ويتشددون فيها ، ويجعلونها غير مستساغة ولا مقبولة عند الجماهير المسلمة ، أولئك شر على الإسلام ، ومن أكبر أعدائه ، أولئك هم الغلاة الذين يضيقون ما وسعه الله ، والذين يعسرون ما يسره الله ، والذين يوقعون الناس في الحرج ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ورسول الله ﷺ يقول : «إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا»^(١) ، والله تعالى يقول : ﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [النساء : ١٧١] ، ويقول : ﴿ قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٧٧] وهذا النهي عن الغلو ، كما أنه منصب على أهل الكتاب الذين سبقونا ، هو منصب علينا كذلك بالتبع .

آفة المبطلين:

أما المبطلون : فهم أولئك الذين أعطوا لأنفسهم الحق في الكذب على الإسلام ، والتزوير عليه ، وما أكثر ما زوروا ، وما أكثر ما وضعوا ، وما أكثر ما نسبوا إليه ، وهو من ذلك براء ، هؤلاء المبطلون ينتحلون ويكذبون على الإسلام ، كذبوا عليه في الماضي ، ويكذبون عليه في الحاضر ، وينسبون إليه ما ليس فيه ، ومع الأسف تعيش أكاذيبهم ، وتنتشر

(١) سبق تخريجه .

أحاديثهم الموضوعة بين الجماهير الإسلامية ؛ حتى لتعد كأنها هي صميم الدين ، وهي ليست من الدين في شيء .

تصدي العلماء لهم :

هؤلاء المبطلون تصدى لهم علماء الإسلام ، فأبرزوا نواحي وضعهم ، وسدوا الثغرات التي أرادوا أن يفتحوها في الدين ، فألفوا في ذلك تأليف عن الأحاديث الموضوعة : كابن الجوزي ، وابن كثير ، والسيوطي ، والشوكاني ... وغيرهم ، وتكفلوا بالبحث في هذه الأحاديث ونفيها عن محيط الإسلام ؛ حتى لا يغتر بها مسلم ، ينفون عنها انتحال المبطلين .

نماذج من المبطلين :

من جملة المبطلين الذين ظهروا في هذا العصر ، طائفة من المستشرقين من اليهود والنصارى ، أخذوا على عاتقهم تشويه الإسلام ، ونسبة ما ليس منه إليه ، ومع الأسف أخذت كتبهم تنتشر بين المثقفين باللغات الأجنبية ، الذين لم يطلعوا على الإسلام في أصوله الأولى ، ولا في منابعه الصافية ، فكلما أراد أحدهم أن يطل إطلالة خفيفة على الإسلام ، أمسك بكتاب مستشرق يهودي أو مسيحي ليأخذ فتواه في الإسلام ، وذلك غلط كبير ، وخطأ ليس بعده من خطأ ، فإن اليهود لا يأخذون يهوديتهم عن المسلمين ، والنصارى لا يستفتون المسلمين في النصرانية ، وليس من حق المسلمين أن يأخذوا إسلامهم عن أعداء الإسلام ، الذين يتربصون به الدوائر ، والذين خصصوا جهودًا كثيرة لتفتيت قواه ، ولإلقاء الشبه عليه .

آفة الجاهلين:

الجاهلون هم أولئك الذين أعطوا لأنفسهم الحق الكلام في الدين وهم غير أهل للكلام فيه، فيؤولونه، ويخرجونه عن أصوله، ويأتون فيه بأقوال لا تصل بينه وبينها أية صلة، هذا التأويل الباطل يمثل الباطنية، والقرامطة، ويمثله كثير من الفرق، التي أتت إلى نصوص القرآن والسنة، فأفرغتها من محتواها، وحملتها على غير محلها، فالله تعالى قد نادى بما فيه تنفير من الجاهلين، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

تنبيه إلى حديث شريف:

في هذا المقام ينبغي أن ننبه إلى حديث راجع بين المسلمين نسب إلى رسول الله ﷺ، وروى في بعض الكتب الصحيحة.

نص الحديث والمراد منه:

هذا الحديث هو: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١)، «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، هذا الحديث المراد منه هو أن بني إسرائيل مرت عليهم أعاجيب، وأحاطت بحياتهم وتاريخهم كثير من النكبات والمصائب والأزمات التي أراد الله تعالى أن يتفادها المسلمون.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

غرض الحديث:

كان الغرض من هذا الحديث تعريف المسلمين بكل ما وقع لهذا الجنس ، من رقي وانحطاط ، ومن رضا وسخط ، ومن اختيار ، ومن عطاء وسلب حتى يبتعد المسلمون عن ذلك .

فهم خاطئ للحديث:

لكن فريقاً من المسلمين فهموا أنهم يفتحون الباب على مصراعيه للإسرائيليات ، فأصبحت الإسرائيليات جزءاً لا يتجزأ من كتب الإسلام ، وامتألت تفاسير المسلمين وكتبهم بالإسرائيليات التي تحجر الإسلام ، والتي توهن من قوته ، والتي تجعله دين خرافات وأوهام .

آية وحديث يفتحان الباب للتجديد:

هذه النقط التي تتعلق بهذا الحديث الشريف ، والآية الكريمة هي التي تعطينا المفتاح للتجديد ، وتمنحنا أهلية القيام بهذه المهمة السامية ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] ، «ويحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» ، هذه البيانات التي أوردناها توضح لنا الآفات التي تعرض لها الإسلام ، والتي يمكن أن يتعرض لها ، وتبين لنا الجهات التي ينتظر منها الخطر ، والتي ينبغي أن نحذر منها كل الحذر .

ثم نمضي في صلب الموضوع طبقاً للتصميم الآتي :

أولاً : سند التجديد ، ونقطة الانطلاق في حركات التجديد ، وفئات المجددين التي نادى بالتجديد .

ثم بعد ذلك ماذا يناسب هذا العصر من تيارات التجديد .

أولاً : مناهج وطرائق التجديد ، وهي في نظرنا تنحصر في ثلاثة :

- تجديد العرض والتحليل .

- تجديد التفسير والتأويل .

- تجديد التوجيه والتعليل .

ثانياً : مجالات أو ميادين التجديد ، وهذه المجالات كثيرة وواسعة ، ولكن

أعمها بالنسبة للظروف الراهنة ثلاثة :

- مجال التربية والتعليم .

- مجال الإعلام والدعاية والدعوة .

- مجال الإدارة والحكم .

فلنشرع بعون الله في تحليل هذه النقاط بكل ما يمكن من الإنجاز ؛

فنعول :

سند التجديد عند المسلمين :

اشتهر سند التجديد عند المسلمين ، والذي اعتبروه بمنزلة النور الأخضر الذي يأذن بالمرور ، هو قوله ﷺ - فيما ذكره أحمد بن حنبل ، ورواه أبو داود في «سننه» ، والحاكم في «مستدركه» وصححه ، والبيهقي في «المدخل» وصححه ، ونص على صحته الحافظ أبو الفضل العراقي ، والحافظ ابن حجر - : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» .

وقد أورد الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه «الكشف عن مجازة هذه الأمة الألف» ، نقلًا عن ابن أبي حاتم في «التفسير» حديثًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة إلا كان عند رأس المائة أمر .

مما يعطي الدليل على تعلق أنظار المسلمين بمثل هذا التاريخ الذي أشار له الحديث .

التعليق على الحديث :

تعليقًا على هذا الحديث الكريم ، لابد لنا من الإشارة إلى بعض النقط ، فهذا الحديث الشريف يقول : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة» .

على رأس مائة سنة ليس بقيد :

قوله : «على رأس كل مائة سنة» ، هل هو قيد أو هو جار مجرى الغالب؟ الذي انتهى إليه المحققون أنه ليس بقيد ، وأن المجددين قد يظهرون في منتصف القرن أو وسطه أو آخره أو بدايته ، بدليل وقائع التاريخ التي تناقلها المسلمون في تاريخهم .

من يجدد هل المجدد فرد أم جماعة؟

قوله : «على رأس كل مائة سنة من يجدد» هذا الذي يجدد هل هو فرد ، أم يمكن أن يكون جماعة وطائفة ، ارتأى البعض قصره على فرد دون آخر ، وتحملوا في سبيل ذلك كلفة نسبة التجديد إلى فرد من الأفراد طبقًا لهواهم الشخصي ، أو لميولهم المذهبية الخاصة ، ولكن المحققين على أن من

يجدد ، تصدق بالعدد الكثير كما تصدق بالفرد الواحد ، ووقائع التاريخ قد دلت على ذلك ، ففي كل قرن من القرون الإسلامية الماضية لم يظهر مجدد واحد ، وإنما تعدد المجددون .

هل يشترط كون المجدد من العلماء؟

يثير الحافظ ابن حجر رحمته الله موضوعاً في غاية الأهمية ، هل هذا المجدد ينبغي أن يكون فقط من العلماء؟ أو يمكن أن يكون من كافة أصناف الأمة التي تؤدي للإسلام خدمة جليلة في وقت يحتاج فيه الإسلام إلى تلك الخدمة ، واستقر رأي الحافظ ابن حجر على أنه لا داعي لقصر صفة المجدد على طائفة العلماء وحدهم ، وأن الصفات التي ينبغي تجديدها لا تنحصر في نوع من أنواع الخير ، وأنه لا يلزم أن تجتمع خصال الخير كلها في شخص واحد ، بل أشار إلى الإمام الشافعي الذي اعتبره الشافعية هو مجدد القرن الثاني ، فقال : إن الشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجليلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد أو الحاكم بالعدل ، مشيراً بذلك إلى أن القائم بأمر الجهاد يكون مجدداً ، ويصدق عليه هذا الحديث ، وإلى أن الإمام العادل يكون مجدداً ، ويصدق عليه هذا الحديث ، وانتهى في الأخير إلى أن كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة ، يكون مراداً بهذا الحديث ، سواء كان فرداً أو متعدداً ، ووجه كلامه بنص آخر للحافظ النووي في نفس الاتجاه ، ذكره الإمام النووي عند شرح قوله ﷺ في الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »^(١) ، وفيه روايات كثيرة .

(١) سبق تخريجه .

وقد نص الإمام النووي فيما كتبه على «صحيح مسلم» أن المراد بالطائفة، لا ينبغي أن تقصر الطائفة على جماعة معينة من الناس، وقال: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقهه، ومحدث، ومفسر، وقائم بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد، وعابد، وبذلك عمم الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق على جميع هذه الأصناف من الناس.

الرأي الراجح:

ونحن نميل إلى هذا الرأي؛ لأنه هو الرأي الصحيح السليم، والذي دلت عليه وقائع التاريخ الإسلامي، والذي دلت عليه اتجاهات المؤرخين عندما أدرجوا في سلك المجتدين عددًا من المجاهدين والأمرء والأئمة والعلماء بها في ذلك من أصناف متعددة ومختلفة.

معنى التجديد:

«إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد»، ما هو التجديد؟ وما معنى التجديد؟ هذا المعنى نرجع في تحديده إلى رواية أحمد بن حنبل رحمته الله، فقد روى هذا الحديث بعدة ألفاظ، منها: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يصح لهذه الأمة دينها»، ورواية أخرى عنه: «إن الله تعالى يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب»، وفي هاتين الروايتين اتضح بكل وضوح وتدقيق معنى التجديد المراد في الحديث، ونجد كذلك في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» حديثًا شريفًا رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «جددوا إيمانكم، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال:

أكثرها من قول لا إله إلا الله» ، على اعتبار أن لا إله إلا الله بالنسبة للدين كفاتحة الكتاب بالنسبة للقرآن الكريم .

معنى الدين:

«من يجد لها دينها» ، الدين في عرف المسلمين وضع إلهي صادر عن الله ، سائق لذوي العقول ، فعنصر العقل داخل فيه ، باختيارهم المحمود ، فحرية الفرد أمر ضروري في الاقتناع بالدين ، سائق لهم إلى الخير المضمون الذي لا جدال فيه ، والذي لا يقع فيه أي غلط قلبياً كان أو قلبياً ، قلبياً إشارة إلى الحياة الروحية التي ينظمها الدين ، وقلبياً إشارة إلى الحياة المادية التي ينظمها الدين ؛ نظراً لأن الإنسان جسم وروح ، والإسلام يرضي مطالب الروح ومطالب الجسد في وقت واحد .

مدلول الدين عند المسلمين وغيرهم:

هاهنا نجد الفرق الشاسع بين مدلول الدين في الإسلام ، ومدلول الدين عند غير المسلمين ، مثال ذلك كلمة (Religieux, Religin) بالفرنسية فإنها تدل على معنى لا يتفق مع المعنى الذي نفسر به الدين ، وكثير من الناس يغلط ويخطئ فيجعل كلمة (رلوجيو) بالفرنسية مرادفة لكلمة الدين في الإسلام ، ويترتب على ذلك كثير من الأغلاط في المقارنة وفي الاستنتاج ، وذلك لأن كلمة Religion كما يحددها قاموس دائرة المعارف الفرنسية الكبرى في العلوم والآداب والفنون .

تعريف الدين عند الفرنسيين:

قد أورد علماء اللغة الفرنسية في شأنه مائة تعريف ، ثم بعد ذلك

أسقطوها جميعًا ما عدا تعريفين ، وهما مناقضان للمعنى الإسلامي ، وإليك هذا التعريفان :

(روليغيون Religion) فسرت في هذه الدائرة : الطريقة التي يحقق بها الإنسان صلته مع القوى غير العلوية ، وبذلك لا يكون للدين في مفهوم غير المسلمين أي علاقة بالدنيا .

والتعريف الثاني عندهم : هو ما يشتمل على كل معلوم ، وكل سلطة لا تتفق مع العلم ، وبذلك يفصمون الرابطة بين العلم والدين ، بينما الدين الإسلامي هو حارس العلم ، وهو الحافظ على التعلم منذ اليوم الأول ؛ ولهذا نرى أن مفهوم الدين عندنا وعندهم على طرفي نقيض .

صفات المجدد :

من يحدد لهذه الأمة أمر دينها . الصفات التي يرى علماء الإسلام وجوب توفرها في المجدد ، فنجد أنهم صرحوا بأن الصفات التي يجب أن تتوفر فيه أولاً أن تكون له ملكة يذب بها الباطل ، وينصر الحق ، وأن يتصف بصفة أو صفات ينشأ عنها نفع الأمة ، كالتدريس ، والوعظ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودفع المكراه عن الناس ، ونصرة أهل الحق ، ومثلوا بمتولي الإمارة ، وهاهنا أيضاً تأكد الاتجاه إلى تعميم لقب المجدد وشموله للعلماء والأمراء معاً ، وقالوا : إن المجدد لا يشترط فيه أن يكون مجتهداً ، لكنه لابد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية ، ناصراً للسنة ، قامعاً للبدعة .

هل يكون المجدد من أهل البيت؟

أثير إشكال هل المجدد يقتصر على آل البيت ، أو يمكن أن يكون من آل البيت وغيرهم ؛ نظرًا لورود حديث نصه : «المجدد منا آل البيت» ، وارتفع هذا الإشكال بقبول المجددين من غير آل البيت ، بالإضافة إلى آل البيت ، وإذا كان المجدد من آل البيت ، فإن حرصه على التجديد سيكون أوثق وأعمق بحكم الوراثة الطينية الدينية ، والذين أضافوا كل مسلم قام بالتجديد من غير آل البيت ، استندوا إلى قوله ﷺ : «آل البيت كل تقي»^(١) .

من شروط المجدد:

أضاف الباحثون المحدثون إلى هذه الصفات والشروط : القدرة على التمييز بين الإفراط والتفريط عند القيام بالتجديد ، والتزام الاعتدال في أية حركة من هذا النوع ، ثم ضرورة اطمئنان قلب المجدد بتعاليم الإسلام ، وكونه مسلمًا حقيقيًا في وجهة نظره وفهمه وشعوره ، وأن لا يبتدئ عمله بدعوى ليلفت الأنظار إليه فيتخذ من التجديد حيلة لأغراضه الشخصية .

شأن الحديث في مجال التجديد:

هذا الحديث الشريف كان هو نقطة الانطلاق ، ومحور الارتكاز في حركات التجديد في العالم الإسلامي ، تلك الحركات التي استهدفت بعث الإسلام ، وتصحيح المفاهيم الإسلامية كلما تعرض الإسلام للخطر ، وببركة

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٣٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

هذا الحديث لم ينقطع مدد الإحياء والتجديد في أي قرن من القرون .

عدد المجددين عند المسلمين وغيرهم:

إن تاريخ التجديد في الإسلام تاريخ حافل ، ولائحة المجددين فيه لائحة لا مثيل لها في الأديان الأخرى ، بينما نجد التجديد الإسلامي يبدأ في القرن الأول للهجرة ، أي في أوائل القرن الثامن الميلادي ، نجد حركة الإصلاح الديني في المسيحية لا تظهر إلا في القرن السادس عشر الميلادي ، ونجد أنه لم يمر قرن من القرون في تاريخ الإسلام إلا وعرف مجددًا أو مجددين في المشرق والمغرب ، حتى بلغ عددهم حوالي ستة وخمسين مجددًا ، بنسبة أربعة مجددين في كل قرن ، موزعين بين أقطار الإسلام .

بينما المسيحية مثلاً لم تعرف في تاريخها منذ القرن السادس عشر إلى الآن سوى أربعة أشخاص يعدهم المسيحيون مصلحين ، أولهم : مارتن لوتر ، وثانيهم : إكناس ذوليولا ، وثالثهم : هنري تامن ، ورابعهم : كالفن ، ولم تنتج المسيحية إلى هذا العصر أي رجل آخر يضاف إلى هؤلاء الأربعة .

مجدد الإسلام الأول : الراشد العمري:

أول من عرفه تاريخ الإسلام في سلسلة المجددين ، وأجمع المسلمون قاطبة على أنه مجدد الإسلام الأول ؛ لعلمه وصلاحه ، هو الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، الذي ولد بمصر سنة إحدى وستين ، وتولى الخلافة سنة تسع وتسعين بعهد من سليمان بن عبد الملك ، وقضى في الخلافة مدة سنتين وخمسة أشهر بقدر المدة التي قضاها في الخلافة الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، حيث توفي يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة ،

وكان عمره لا يتجاوز تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر .

ومن عجائب الأقدار والموافقات أنه كما عهد سليمان الأموي بالخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز وتخطى بها أبناءه ، فإن سليمان العلوي عهد بإمرة المؤمنين إلى ابن أخيه عبدالرحمن بن هشام ، وكتب في شأن ذلك يقول : لا أجد أصلح لهذا الأمر منه ، ثم قال : أرجو الله أن يكون لي من هذا الأمر مثل ما كان لسليمان بن عبدالملك في عهده لعمر بن عبدالعزيز ، وقد كان عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ مقدراً لمسئولية الحكم ، متفرغاً لمهام الدولة ، متبّعاً لأخبار الولاة والرعية ، متحريراً في اختيار الموظفين ، متشدداً في اختيار بطانته وجلسائه ، مسرعاً في رد المظالم وإنصاف الرعية ، مبغضاً للعمال الظالمين ، مهتماً بتعليم رعيته دينها في البدو والحضر ، حريصاً على راحتها ، رفيقاً بها ، مسعفاً لها ، ممتنعاً عن إعطاء من لا يحتاج ، متعاوناً مع الرعية على مكافحة الفساد ، محتاطاً على حياته من المشبهين ، حريصاً على سماع الموعدة في وقتها المناسب ، قائلًا في شأنها لمن يعظه : اعلم أنه لم يجعل المفتاح على الباب لكي ما يغلق فلا يفتح ، أو ليفتح فلا يغلق ، ولكن ليغلق في حينه ، ويفتح في حينه .

شهادة إمام أهل السنة :

من أجل هذه الصفات الممتازة قال في شأنه أحمد بن حنبل معبراً عن رأيه ورأي بقية الأمة : نظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبدالعزيز ، والحديث عن المجددين لا يتسع له المقام .

فئات المجددين وتصنيفهم:

لقد سلكنا طريقًا معقولاً في تصنيف هؤلاء المجددين ، وتقسيمهم إلى فئات ، وإليك الفئات التي تألفت منها سلسلة المجددين .

الفئة الأولى :

كرست جهودها لخدمة السنة النبوية ، إما بتركيزها كأصل من أصول التشريع ، وإما بتطهيرها من شوائب الوضع والابتداع ، وإما بإحيائها باعتبارها أنها أمثل سيرة تصلح للاقتداء والاتباع .

الفئة الثانية :

كرست جهودها لخدمة الشريعة الإسلامية ، إما بالكشف عن مقاصدها وأسرارها ، وإلقاء الأضواء على فلسفتها ، واستخراج نظام تشريعي متكامل من نصوصها ، وإما ببعث روح الاجتهاد والابتكار بين حملتها والقائمين عليها .

الفئة الثالثة :

كرست جهودها لخدمة العقيدة الإسلامية ، إما بدفع الشبه الواردة عليها من الداخل ، وإما بدفع الهجمات الموجهة إليها من الخارج ، وإما بكشف عن زيف الأقوال والأعمال التي انتشرت بين عامة المسلمين ، والإسلام بريء منها .

الفئة الرابعة :

كرست جهودها لتوعية الجماهير الإسلامية ، ببث التربية الدينية ،

والعمل على تنقيحها من جميع القشور والشوائب ، وإما بالعمل على إعادة ربط الدين بحياة المسلمين اليومية .

الفئة الخامسة :

كرست جهودها ؛ لتطهير المجتمعات الإسلامية ، إما بالتدخل المباشر لمكافحة ما فشا فيها من الفواحش والمنكرات ، وإما بالتعاون مع الولاة والضغط على السلطات .

الفئة السادسة :

كرست جهودها ؛ لإلقاء الأضواء على الحكم الإسلامي والإدارة الإسلامية ، إما عن طريق القيام بتقييمهما وبالنقد الذاتي لكل منهما ، وإما بإحياء المفاهيم الإسلامية الصحيحة عنهما وتطبيقها عليهما .

الفئة السابعة :

كرست جهودها ؛ لبعث القوة الإسلامية ، إما بإلهاب حماس المسلمين بتجديد قوتهم العسكرية ، وإما بإلهاب حماس المسلمين ؛ لتجديد قوتهم السياسية .

الفئة الثامنة :

كرست جهودها ؛ لإحياء الثقافة الإسلامية إما بانتقاد نظام التعليم القائم ، واقتراح نظام جديد يتوفر فيه كل ما هو لازم ، وإما بانتقال ما أصاب العلوم الإسلامية من نقائص ومعايب ، واقتراح تنقيحها من جميع القشور والشوائب .

مناهج التجديد:

نتقل إلى الحديث عن مناهج التجديد ، وهي ثلاثة كما أوضحنا :

أولاً : تجديد العرض والتحليل :

أولاً : ينبغي أن نعرض نظام الإسلام على المسلمين وغيرهم على وجه شامل يبرز عناصره الأساسية ، ويجلي صورته الصحيحة المنسقة المتكاملة للأنظار ، اعتقاداً ، وتحليلاً ، وتشريعاً ، وسلوكاً بالنسبة للحياة العامة والحياة الخاصة ، بحيث يمكن تقويمه ، ويمكن مقارنته ويمكن إدراك الفروق الشاسعة والفوارق الفاصلة بينه وبين النظام الرأسمالي الديمقراطي ، والنظام الشيوعي الاشتراكي ، اعتماداً على مصادره الأصلية ، واستناداً إلى تحليل جهابذة الإسلام في مختلف العصور .

ثانياً : بالرغم من العرض الإسلامي عرضاً تحليلياً منسقاً ، يلزم عند تصميم عرضه مراعاة السن ، والمستويات العقلية المختلفة ، التي يوجد عليها الناس ، المستوى المدرسي في التعليم الابتدائي والثانوي ، والمستوى الجامعي ، والمستوى الشعبي العام ، والمستوى العلمي للمتخصصين في الدراسات الإسلامية ، بحيث يكون تصميم عرض عناصره الأساسية واحدة ، وإنما يختلف المضمون والمحتوى كمّاً وكيفاً ، إيجازاً وإطناباً .

ثالثاً : ينبغي أن نتجنب استعمال مصطلحات الفنون والعلوم أثناء عرض الإسلام على غير المتخصصين في علومه وفنونه ؛ لأن هذه المصطلحات إذا كانت بالنسبة للمتخصصين مفاتيح أقفال ، وشبه شفرة سرية ،

يتفاهمون بها بسرعة واختزال ، فإنها بالنسبة لغيرهم ليست إلا مجرد أقفال تحجب الناس عن معرفة الإسلام ، وتصدهم عن فهمه ، وتكون حجر عثرة بينهم وبين ولوج رحابه ، وتحول بين الدعوة الإسلامية والوصول إلى أهدافها ، وتحقيق غاياتها .

رابعاً : ينبغي أن نختار عند التعبير عن نظام الإسلام الشامل لغة سهلة واضحة ، وأسلوباً سهلاً سلساً لائقاً ، يمتاز بالتبسيط والتركيز والتسلسل المنطقي ، وتقديم الأهم على المهم ، ويعنى بالجواهر واللباب بالنسبة لكل باب .

خامساً : عند عرض الإسلام على غير المسلمين ، ينبغي استعمال اللغة الجارية عندهم ، والأسلوب المتعارف لديهم ؛ حتى يتمكنوا من فهم الإسلام بأسلوبهم الخاص ، ويصلوا إلى أعماقه من أقرب طريق ، وهذا يتطلب العدول عن الأساليب المتبعة عندنا في التصنيف والتأليف ، و الأخذ بأساليب أخرى ملائمة للمخاطبين ، والعمل على صب الإسلام في قوالب جديدة ملائمة لمداركهم ، مع الحفاظ التام على جوهر الإسلام ومادته الخام .

النوع الثاني : تجديد التفسير والتأويل :

لقد تعرض الإسلام لعملية تشويه وتزييف عبر العصور ، سواء في ذلك الجانب النظري أو الجانب العملي .

تصحيح المفاهيم الإسلامية

لابد من تصحيح المفاهيم الإسلامية ، وتطهيرها من العناصر الدخيلة ،

حتى لا تبقى فيها أدنى شائبة من شوائب التحريف والانحراف ، وتعود إلى أصلها السليم القويم ، طبقاً لما في الكتاب والسنة ، ووفقاً لما أجمع عليه جهابذة الأمة .

إبراز الخطوط الكبرى للإسلام:

لقد رسم الإسلام حياة الإنسان خطوطاً عريضة ؛ لتنظيم الأسرة ، وتنظيم المجتمع ، وتنظيم الدولة ، وتوجيه الاقتصاد ، فلا بد من العمل على إبراز هذه الخطوط الكبرى وفرزها على حدة ، من بين ركام المفاهيم الضيقة التي استولت على عقول المسلمين ، وعطلت فعالية الإسلام في العصور الأخيرة ، وذلك لكي يقتنع من لا يزال عنده شك بأن الإسلام صالح لأن يظل بين المسلمين نقطة الارتكاز ومحور التطور في هذا العصر ، وباقي العصور كما كان في عصوره الذهبية السالفة ، على أساس لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

لا بأس بدراسة ما لا يقف في وجه الدين والأخلاق:

لقد ظهرت في العصور الحديثة بين الغربيين عدة فلسفات ونظريات مقبولة ، لا تهاجم الدين ، ولا تناصر الإباحية والإلحاد ، بل تقف بجانب القيم الروحية والأخلاقية مؤيدة ومناصرة بأسلوب عقلي سليم ، وحجج منطقية مقبولة ، فلا بأس بدراستها ، والانتفاع بما هو صالح منها في تفسير المفاهيم الإسلامية تفسيراً عصرياً ، ومواجهة الاتجاهات الفلسفية الغربية المنحرفة بالنقد والإبطال ، على حد ما جاء في القرآن الكريم : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦] ، وأمثلة لذلك بفلسفة

(كانت Kant)، وفلسفة (ديكارت)، وفلسفة (وليام جيمس)، وفلسفة (بيركسون)، فهذه الفلسفات كلها تتلاقى مع الإسلام في صعيد واحد.

بذل الجهد في النقد الذاتي لبعض التأويلات:

لقد بذل علماء الإسلام في القرون الماضية جهودًا جبارة في تفسير نصوص الإسلام، وتأويلها تأويلًا يجعلها معقولة ومقبولة عند معاصريهم بقدر ما وصل إليهم مستواهم الفكري، وحسب المعطيات العلمية التي كانت رائجة ومتعارفة في عصورهم، لكن لما تقدمت البحوث العلمية المعاصرة تبين أنه إلى جانب التأويلات والتفسيرات التي لا تقبل ردًا ولا نقضًا - لأنها من صميم الإسلام - توجد بعض التأويلات والتفسيرات التي أصبحت تعد غلطًا، نظرًا إلى أن المعطيات القديمة التي انبنت عليها دخل عليها التغيير والتحوير، طبقًا للمعطيات العلمية الجديدة، فلا بد إذن من القيام بالنقد الذاتي لكل تأويل من هذا النوع الأخير الذي قام الدليل على أنه لم يبق متفقًا مع معطيات العلم الحديث، ولا بد من تعويضه بتأويل جديد يتمشى مع المسلمات العلمية في هذا العصر، ولا ينبغي الإصرار على التأويلات الشخصية المغلوطة ما دامت مجرد تأويلات نظرية لا سند لها من العقل والنقل والتجربة، إن الإصرار على ذلك يؤدي إلى اتهام نصوص الإسلام بمناقضة العلم التجريبي الحديث، ويضعف ثقة المسلمين بدينهم الحنيف، ولا سيما النخبة المثقفة الواعية.

النوع الثالث: تجديد التوجيه والتعليل:

المراد هنا بالتوجيه والتعليل محاولة الكشف عن الأسرار والحكم التي

أودعها الله في عقائد الإسلام وشعائره وتشريعاته ، حتى يتبين ما فيها من تجاوب عميق مع الفطرة الإسلامية ، وانسجام تام مع المنطق السليم ، وحتى يبرز للعيان ما تتضمنه من تحصيل مصلحة الإنسان وسعادته في العاجل والآجل ، وفي هذا النطاق من البحث نجد علماءنا السابقين - رضوان الله عليهم - قد تناولوا جملة من العقائد والأحكام بالتوجيه والتعليل ، وكشفوا الستار عن حكمها وأسرارها بشكل قوي ومقنع ، لا يزال صالحاً إلى الآن ، وحتى الآن هذا النوع يحتفظ به ويقتصر التجديد فيه على إعادة سبكه في أسلوب شيق ، وتقديمه للناس في حلة قشبية رائعة .

حاجة بعض الشرائع إلى التجديد:

إلى جانب هذا النوع الممتاز توجد عدة شعائر وشرائع في الإسلام لم يعن العلماء السابقون بتعليلها والكشف عن أسرارها ، إما لأن معلوماتهم بشأن تعليلها كانت ما تزال محدودة غير كافية للقيام بهذه المهمة ، وإما لأن الناس تقبلوها بالتسليم ، ولم يثيروا حولها أي جدل أو نقاش ، فلم تدعهم الحاجة إلى ذلك ، وهذا النوع لا بد من القيام بالكشف عن أسرارها ، وتبيين حكمه بقدر الإمكان كلما تقدم بنا الزمان ، وتمكن الاستعانة على هذا العمل بما كشفتته البحوث الحديثة من معطيات وحقائق حتى لا يبقى أي غموض أو إشكال حول ما في هذا الدين الحنيف من لطائف ورفائق ، ومن هذا النوع عدة مسائل تتضمنها العبادات ، والعقوبات ، والموارث ، والأحوال الشخصية .

وهناك نوع ثالث عاجله العلماء السابقون بالتعليل والتوجيه ، إلا أن ما قدموه في شأنه من التعليلات والتوجيهات ، أصبح مع توالي الأيام

واتساع نطاق المعارف غير كاف ولا مقنع ، وهذا النوع من مصلحة الإسلام أن يشمل التجديد ، وأن يقدم للناس في أمره ما يأنسون به ويطمئنون إليه ، حفظاً لمكانة الإسلام في القلوب ، وغني عن القول أن تعليل أحكام الإسلام لتبدو متجهة ومعقولة للجميع ، مبدأ مسلم به في الشريعة ، فمن قواعدها الأساسية هذه القاعدة «الأصل في الأحكام التعليل» ، وأكثر العلماء متفقون على أن نفس الأمور التعبدية في الإسلام إنما شرعت لحكمة من ورائها ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ويؤيد هذا الاتجاه ما أورده الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه «الأشباه والنظائر» ، إذ قال : قال بعضهم -عندما يعجز عن التعليل- : إذا عجز الفقيه عن تعليل الحكم ، قال : هذا تعبدى ، وإذا عجز عنه النحوي ، قال : هذا مسموع ، وإذا عجز عنه الحكيم -أي الطبيب- قال : هذا بالخاصية .

مجالات التجديد :

المجال الأول : التربية والتعليم :

المجال الأول : مجال التربية والتعليم : من البديهيات المسلمة في هذا العصر ، أن أنظمة التربية والتعليم القائمة الآن في المعسكرين الديمقراطي والشيوعي ، كغيرها من الأنظمة الاقتصادية والسياسية السائدة في بلدانها ، إنما هي تعبير صادق عن عقيدتهما وفلسفتهما ونظرتها إلى الحياة والكون ، وهي من أجل ذلك مصطبغة بالصبغة العقائدية والفلسفية التي يدين بها كل من المعسكرين ، فمن حق البلاد الإسلامية إن لم يكن واجبها في الوقت الراهن أن تسلك نفس المسلك ، فتقيم أنظمة التربية والتعليم فيها

على أساس عقيدة الإسلام وفلسفته ، ونظرته الخاصة إلى الحياة والكون ، وأن تطهر أنظمتها التربوية والتعليمية مما علق بها من المفاهيم ، والاتجاهات الدخيلة التي تسربت إليها في عهد التبعية والاستعمار ، حيث إن تلك المفاهيم والاتجاهات لا تتفق مع الإسلام في شيء .

أولاً : مراجعة كافة المناهج والكتب :

وبناء على هذا الاتجاه يلزم القيام بمراجعة المناهج الدراسية ، والكتب المدرسية ، لا فرق في ذلك بين مناهج وكتب المواد الفلسفية والاجتماعية ، والمواد العلمية بغية تصفيتها من جميع الشوائب وجعلها منسجمة مع الإسلام دون تناقض ولا تعارض .

ثانياً : إدراج مادة الإسلام والحضارة :

ينبغي إدراج مادة الإسلام والحضارة الإسلامية ، وينبغي إضفاء الروح العملية على تلقين هذه المادة حتى يتزود النشء الإسلامي والشباب المسلم بالزاد الكافي لحياته الروحية ، وممارسة دينه ممارسة عملية ويومية ، على غرار ما يتزود به من المواد الأخرى لحياته المادية ، وهذه المادة ينبغي أن تكون مادة إجبارية ، لا يتم النجاح بدونها في الامتحانات ، مع التركيز في تدريسها على معالم الإسلام وخطوطه الكبرى ، ولا بدعة في هذا ولا غرابة ، فلن ينتقدنا أحد ؛ وذلك لأن المعسكر الشيوعي يلحق العقيدة الماركسية في جميع مراحل التدريس ، وفي جميع الكليات بما في ذلك كليات العلوم والهندسة والطب ، لكن القيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل يستلزم إعداد مدرسين أكفاء ؛ ليقوموا بتدريس هذه المادة بطريقة حديثة وأسلوب جذاب يتناسب مع الطريقة والأسلوب المتبعين في تدريس المواد الأخرى .

ثالثاً : إدراج مادة دراسية تعرف بالإسلام وأهله :

ينبغي صرف عناية خاصة للتعريف بالعالم الإسلامي والأمة الإسلامية ، وإدراج مادة دراسية كفيلة بتحقيق هذا الغرض بين مواد الدراسة ، حتى يكون النشء الإسلامي على بينة من أحوال إخوانه المسلمين ومشاكلهم ، وحتى يقاسمهم مشاغلهم ومطامحهم عن وعي وشعور ، ويتوفر على معرفة تامة بما يمتلكه العالم الإسلامي من ثروات طبيعية ، وطاقات بشرية ، ومواقع استراتيجية قليلة النظير ، وهذه الوسيلة هي أقرب الوسائل لتعميق الشعور بوحدة الأمة الإسلامية بين الشباب المسلم في المشرق والمغرب ، وأقرب الوسائل للوقوف في وجه الدعايات العنصرية والطبقية المغرضة ، وإن ننسى فلا ننسى تلك الدعايات التي انتشرت في العالم العربي والإسلامي بعد الحرب العالمية الأولى ، وهي الدعوة الفينيقية في لبنان ، والدعوة الآشورية والبابلية في العراق ، والدعوة الفرعونية في مصر ، والدعوة التي أرادت أن تقيم فرنسا دعائمها في شمال إفريقيا الدعوة البربرية .

دور المسلمين في رد الدعايات الباطلة :

لقد كافح رجال العروبة والإسلام تلك الدعايات الباطلة كلها ، وكان انتصار الشعب عليها انتصاراً حاسماً وفاصلاً ، بالرغم من وجود الاستعمار ، فقد اتحدوا حاضرة وبادية المتمون إلى العرب والمتمون إلى البربر ، وهذا الانتماء إنما هو انتماء لغوي لا جنسي ؛ لأنه لا يوجد الآن بعد الإسلام إلا المسلم ، فقد اختلطت دماء العرب بالبربر ، وتكونت أسرة واحدة .

ومن أجل ذلك سهلت مقاومة التيارات الاستعمارية التي دعت إلى السياسة البربرية، ووضع رجال الوطنية في فترات حاسمة زيف النظرية الفرنسية، وأن ما يقال من بربر وعرب لا حقيقة له؛ فجميع الشعب كلهم تتفق أشكاهم، وجماعهم، ووجوههم، وألوانهم، ومن تراهم في هذه المنطقة تراهم في المنطقة الأخرى، وهم كلهم سواسية، صهرتهم روح الإسلام في بوتقتها الخالدة، وبذلك كانت تلك الدعوة الباطلة انتهت، فلا بد من تعميق الشعور بين كافة الشباب المسلم بوحدة العالم الإسلامي والأمة الإسلامية، ووحدة المسلمين داخل الوطن الواحد، ويساعد على ذلك إدراج مادة كهذه المادة في صلب جدول التدريس.

رابعاً: إدراج مادة لكل كلية تعرف بمبرزي الكلية ومفكرها:

ينبغي للجامعات الإسلامية أن تدرج في كل كلية من كلياتها مادة خاصة للتعريف بالمساهمة الكبرى التي ساهم بها مفكرو الإسلام بخصوص المواد المتداسة بهذه الكلية أو تلك.

في كلية الطب مثلاً، يكون محور هذه المادة التعريف بما ساهم به أطباء المسلمين في تقدم الطب من نظريات وتجارب.

وفي كلية العلوم مثلاً يكون محور هذه المادة، التعريف بما ساهم به علماء الرياضيات والطبيعات من علماء المسلمين، وهكذا.

وبذلك يطلع الطلبة المسلمون على الجهود الجبارة التي بذلها أسلافهم في خدمة العلم والحضارة الإنسانية، ويستعيدون ثقتهم بأمّتهم وبأنفسهم،

وتنبعث العبقرية الإسلامية من مرقدها؛ لتستأنف نشاطها الخلاق من جديد، ولتقوم بمساهمات ثمينة جدية بالتقدير والاعتبار، لما فيها من أصالة وابتكار.

المجال الثاني: مجال الإعلام والدعاية:

المقصود بالتجديد في مجال الدعاية: الانتفاع بجميع الوسائل العصرية الفعالة في تنوير العقول، وتوعية الضمائر، وبث المبادئ والأفكار، بغية تعميم الوعي الإسلامي بين الجماهير الإسلامية، بمقادير معقولة ونسب مقبولة، ما بين سينما ومسرح، وإذاعة وتلفزة، ورصد، وصورة، وكتاب، وقصة، وحتى نفس الإعلام.

الاستعانة بالوسائل الإعلامية لإصلاح المجتمع:

إذا كان الشيطان يستعين بهذه الوسائل كلها على إغواء الإنسان، ويتخذ منها أخطر سلاح لإبعاده عن جنة الرضوان، فلماذا لا نستعين بها نحن على تطهير المجتمع الملوث من مظاهر الإباحية والانحلال؟ ولماذا لا نستعين بها على إعادته إلى ما كان عليه من الطهر والعفاف في سابق الأجيال؟ ولماذا لا ننتفع بها نحن في إصلاح ما فسد؟ وإثارة الحماس الإسلامي بعدما خبا وخمد، وأما التجديد في مجال الدعوة فيقتضي استبعاد كل ما فيه تنفير وتعسير، ومواجهة المخاطبين بطريقة مهذبة تجمع بين الإقناع والتيسير، كما يقتضي تفادي كثرة الاستطرادات، والابتعاد عما هو عقيم من المناقشات.

شعار الداعين إلى الله:

إذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، كان لكل مقام

مقال ، وأحسن منهاج يلتزمه الداعي إلى الله في الدعوة الإسلامية بالنسبة لأنواع المخاطبين ، قوله تعالى في كتابه المبين : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وما نحن نرى أن كتاب الله أطلق في هذه الآية لفظة الحكمة دون قيد ، ولم يقيد بها بوصف الحسنة ، لم يقل الحكمة الحسنة ؛ لأن الحكمة كلها حسنة ، ولأن وصف الحسن لها ذاتي ، أليست الحكمة في جوهرها وحقيقتها هي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي ؟ بينما نجد كتاب الله قيد لفظ الموعظة الحسنة بوصف الإحسان ، إذ ما أكثر المواعظ التي لا تطابق مقتضى الحال ، فلا تلقى إلا الإعراض والإهمال .

المراد ﴿بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ :

المراد في قوله تعالى : ﴿ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ معنيان اثنان :

المعنى الأول : مجادلة المعاند بالحال التي هي أحسن .

والمعنى الثاني : مجادلة المعاند بالحجة التي هي أوضح وأبين .

المجال الثالث : التجديد في مجال الإدارة والحكم :

الآن نتقل إلى التجديد المرغوب فيه في مجال الإدارة والحكم حتى يعود إلى الاصطباغ بالصبغة الإسلامية في بلاد المسلمين ، أما التجديد الإسلامي في مجال الإدارة والحكم ، فالمراد به رد الاعتبار للمفاهيم الإسلامية ، والقيم الخلقية في حياة المسلمين اليومية في كلا المجالين ، والعمل على بعث الروح الإسلامية الحققة في طريقة الحكم ، وإضفاء الطابع الإسلامي الصحيح على تصرفات الإدارة ، وألزم ما يلزم لتجديد الإدارة في نطاق

الإسلام ، شرط الكفاءة أولاً ، و شرط الأمانة ثانياً .

الكفاءة اللازمة للقيام بأعبائها ، والأمانة اللازمة لإيصال الحقوق إلى أصحابها : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] ، وألزم ما يلزم لتجديد الحكم في نطاق الإسلام ، الالتجاء إلى الشورى والتقيد بالعدل والإحسان ، وضمان العيش الكريم لكل إنسان ، والالتزام التام لخدمة الصالح العام ، بحيث إذا تعارض الأمر بين مفسدتين لا مفر منهما ، كان الأخذ بأخف الضررين ، وإذا تعارض الأمر بين مفسدة ومصلحة كان الأخذ بالمصلحة دون المفسدة ، وإذا تعارض الأمر بين مصلحتين متساويتين في النفع ، كان الخيار في الأخذ بواحد منهما ، وإذا تعارض الأمر بين مصلحة راجحة وأخرى مرجوحة ، كان الأخذ بالمصلحة الراجحة وحدها ، عملاً بمقتضى القاعدة الشرعية «تصرف الإمام منوط بمصلحة الرعية» ، وأحسن منهاج يهتدي باتباعه حكام المسلمين ، قول الله تعالى في محكم كتابه المبين : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، وبالنسبة لطاعة الرعية ، على الحاكم المسلم أن يقبل منها ما سهل عليها ، وألا يستقصي في البحث عن بواطنها ، وأن يقبل أعذارها ، وأن لا يحملها على العنت فيفسد قلوبها ، وهذا معنى قوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ، وبالنسبة لتدبير الرعية ، على الحاكم المسلم أن يتقيد في أوامره ونواهيه بالمعروف ، وهو ما به صلاح الرعية ونفعها من كل أمر معروف ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ، وبالنسبة لانتقاد المتقدين ، واعتراض المعترضين ممن ينتقدون ويعارضون دون حق ، على الحاكم المسلم أن يعرض عنهم ، ولا يتنقم لنفسه منهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ .

نموذج عظيم للإدارة والحكم :

روى البخاري في «صحيحه» ضمن (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) :
أن عيينة بن حصن قدم ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن ،
وكان ابن أخيه من نفر الذين يدينهم عمر ، قال البخاري في الحديث
الذي رواه : وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو
شباناً ، فاستأذن عمر للقاء عمه عيينة ، فلما دخل عيينة على عمر قال : يا
ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل -وعمر هو
المثل الأعلى في العدل ، وفي العطاء الجزيل - فغضب عمر حتى هم بأن يقع
به ، فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ :
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، وإن هذا من الجاهلين ،
قال : فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله .

المحاضرة الثالثة عشرة بعد المائتين

القراءات القرآنية

انطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»^(١).

القرآن معجزة الإسلام الخالدة:

القرآن معجزة الإسلام الخالدة وكتاب العربية الأول، وهو دستور المسلمين، أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم الصراط المستقيم، ومن ثم كان اهتمام المسلمين به -وما يزال- عظيمًا، حفظوه عن ظهر قلب خلال العصور، ودرسوه وألفوا في علومه كثيرًا، في المكي والمدني من آياته، في أسباب نزوله، في جمعه وترتيبه، في تفسيره وأحكامه، في معانيه ومجازه، في محكمه ومتشابهه، في عامه وخاصه، في ناسخه ومنسوخه، في إعجازه ولغاته، وفي قراءاته كذلك.

موضوع الدرس:

لكن القرآن نص واحد، فكيف يُحدث عن القراءات هكذا بالجمع، أي عن قراءات متنوعة، مختلفة متعددة، ذلك هو موضوع «القراءات القرآنية» الذي ستحدث عنه اليوم انطلاقاً من حديثه ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»، والحديث عن

(١) سبق تخريجه.

القراءات القرآنية من أمتع الأحاديث وأكثرها فائدة؛ لأنه يمس مجالاً واسعاً من مجالات الدراسات الإسلامية المتعددة، التقى فيه أهل النقل والرواية والسند بأصحاب القياس والعقل، والمنطق والبرهان.

عناصر الموضوع:

ستحدث فيه عن :

ثبوت تعدد القراءات واختلافها منذ عهد النبي ﷺ .

ثم عن الجهود المبذولة والتدابير التي اتخذها ﷺ ، وكذا الخلفاء من بعده ، والتابعون لتوثيق النص القرآني بحفظه في الصدور وبالتدوين الكتابي .

ثم عن التعريف بالقراءات وبأصحابها وشروطها .

ثم عن عملية الشد والدفع التي كانت بين القراء والنحاة من أجل الاستشهاد بالقراءات لاختلاف مناهج الفريقين .

ثم عن جمع القراءات ومصادرها والاحتجاج لها .

ثم عن قيمة هذه الدراسات وأهميتها في العصر الراهن .

نص الحديث الشريف:

جاء في «صحيح البخاري» في باب (فضائل القرآن) : أن عمر رضي الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلما سلم لببته

بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها؟ قال :
أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت ، فوالله إن رسول الله ﷺ هو أقرأني
هذه السورة التي سمعتك تقرأها ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ،
فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم
تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان ، قال رسول الله ﷺ : «أرسله يا
عمر ، اقرأ يا هشام» ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها ، فقال رسول
الله ﷺ : «هكذا أنزلت» ، ثم قال رسول الله ﷺ : «اقرأ يا عمر» ، فقرأت
القراءة التي أقرأني رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «هكذا أنزلت» ،
ثم قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما
تيسر منه» .

شأن الحديث بالنسبة للقرآن الكريم:

لهذا الحديث شأن كبير في تاريخ القرآن الكريم ، فقد أثار قضايا تتعلق
بالعقيدة والتاريخ واللغة انطلاقاً من مسألة القراءات القرآنية وتعددتها ؛
ولذلك حظي بعناية خاصة واهتمام بالغ من العلماء في القديم والحديث ،
نظراً لما أثاره من إشكالات ، ولما فتحه من أبواب واسعة للفهم والتأويل ،
من أجل ذلك تعددت صيغه واختلفت رواياته حتى بلغت العشرات كما
سنرى ، وقد أورده ابن جرير الطبري في «تفسيره» وغيره بروايات كثيرة ،
وطرق مختلفة نستنتج منها ما يلي :

- أن عدد الصحابة الذين رووه يبلغ عددهم خمسة عشر صحابياً ،
أضاف إليهم السيوطي في «الإتقان» ستة آخرين ، فصار عددهم يبلغ
واحدًا وعشرين صحابياً .

- أن عدد الأسانيد التي ورد من طريقها الحديث ستة وأربعون سنَدًا ،
(٣٨) صحيحة لا مطعن فيها ، فصار الحديث بمجموع هذه الأسانيد
يصل إلى درجة التواتر .

معنى «الأحرف» في نص الحديث:

قد كانت للمسلمين عبر مختلف العصور آراء كثيرة في تفسير معنى
«الأحرف» ، وتأويل العدد سبعة في هذا الحديث .
والمراد بالأحرف على الأصح : الوجه من اللغة الذي تُقرأ عليه الكلمة ،
وهذا هو المعول عليه .

المراد بالعدد «سبعة» في الحديث:

وكذلك المراد بالسبعة اختلف فيه ، فقليل فيه أيضًا كلام كثير ، ومنه أنها
تفيد السعة والتيسير ، وهو للكثرة ، وأنه لا حرج على أحد إذا قرأ بها هو
من لغات العرب ، وبالطبع هناك أقوال كثيرة أخرى لا نتعرض لها ،
والعرب يطلقون هذا العدد لا يريدون به الحقيقة ، بل الكثرة ، وقال
آخرون : إن العدد سبعة وارد على حقيقته ، ومن حججهم في ذلك حديث
ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : «أقرأني جبريل على حرف فراجعته ،
فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(١) .

سبب ورود القرآن على سبعة أحرف:

أجمع العلماء على أن السماح بهذا التعدد في القراءات إنما كان كما قلنا

(١) سبق تخريجه .

للتيسير والتوسعة على الأمة ، يقول ابن الجزري في «النشر» : فأما سبب وروده على سبعة أحرف ؛ فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها شرفاً لها وتوسعة ورحمة . . . وهو أيضاً رأي ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القراءات» الذي عزا هذه الاختلافات إلى الفروق اللغوية بين لهجات العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وبذلك يكون تعدد القراءات واختلافها ثابتاً عن النبي ﷺ تخفيفاً عن الأمة وتوسيعاً عليها ، قبله علماء المسلمين وارتضوه بشروطه وسجلوه ودونوه .

عناية المسلمين بكتابة النص القرآني :

عناية المسلمين بالنص القرآني لم تقف في وقت نزوله عند القراءة والحفظ ، فقد اعتنوا بكتابته أيضاً : وقد قال النبي ﷺ : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحاه »^(١) ، وذلك خوفاً من اختلاط الحديث بالقرآن الكريم ، وتوثيقاً للنص القرآني بحفظه مكتوباً بعد حفظه في الصدور . يقول زيد بن ثابت : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ، بعث إلي فكتبته .

جمع القرآن في مصحف واحد :

بعد موته ﷺ واستشهاد كثير من الصحابة في الحروب خيف على القرآن من الضياع فصدر الأمر بجمعه في مصحف واحد في عهد أبي بكر بإيعاز من عمر رضي الله عنه ، وذلك بعد موت عدد كبير من الصحابة القراء في حرب اليمامة التي وقعت سنة إحدى عشرة هجرية ، وكانت هي السبب

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

المباشر في لفت النظر إلى الخطر الذي أصبح القرآن الكريم معرضاً له .

وفي عهد عثمان جاءه سنة ثلاثين للهجرة حذيفة بن اليمان فاتح نهاوند ، وقد هاله ما رأى من تناحر المسلمين من أجل خلافات كان يلاحظها كل فريق لدى قراءة الفريق الآخر للقرآن ، فقد كان أهل العراق يتمسكون بقراءة ابن مسعود ، وأهل الشام يتمسكون بقراءة أبي بن كعب ، قال حذيفة بن اليمان للخليفة عثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأمر عثمان بجمع المصحف ، وكان عمله تكميلاً لما فعله الخلفتان الأولان .

وقد بلغ المصحف العثماني في مدة وجيزة مقام الوثوق والاعتماد من قبل جميع المسلمين إلا ما كان من بعض الخلاف الذي وقع مع بعض الصحابة ممن أرادوا البقاء على ما في مصاحفهم ، كعبدالله بن مسعود - الذي يقال : إنه غضب أول الأمر لعدم توليه نسخ القرآن- فأنكر مصحف عثمان وأبى أن يزال مصحفه ، وقال : أخذت من في رسول الله ﷺ بضعة وسبعين سورة ، وزيد بن ثابت غلام له ذوأبتان يلعب مع الغلمان .

وفي «شرح النووي على صحيح مسلم» : أنه كان يكتب في مصحفه بعض الأحكام والتفاسير مما ليس بقرآن ، وكان لا يعتقد تحريم ذلك ، بينما رأى عثمان وجماعة المسلمين تحريمه ؛ لئلا يظن أنه قرآن مع تقادم الزمن ، لكن لم يفتأ ابن مسعود أن تراجع عن رأيه هذا حينما رأى مزايا المصاحف العثمانية وفوائدها وإجماع الأمة عليها ، وبذلك شرع الناس في انتقاد كل من يقرأ بغير الحروف المثبتة في المصاحف العثمانية الموزعة على الأمصار ، ولو

كانت القراءة لبعض من كبار الصحابة ، كعبدالله بن مسعود الذي قال فيه رسول الله ﷺ بعد أن استمع إلى قراءته ذات مرة : «من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(١) ، ورغم ذلك فإن قراءته شذذت بسبب مخالفتها -في الغالب- للمصحف العثماني .

مرحلة الاهتمام بالقراءات :

هي مرحلة التصدي للقراءات والاهتمام بها ، تجرد فيها قوم للقراءة والأخذ واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ليؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقي قرائهم بالقبول ، ولم يختلف عليهم فيها اثنان ، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم كما يقول ابن الجزري .

هذه إذن ، هي الفروق بين القراءات ، وهي فروق جزئية وبسيطة جداً لا تغير في النص القرآني شيئاً ولا تمس عمقه وجوهره ، عرفها النبي ﷺ وسلمها ، ووافق عليها وأجازها ، تيسيراً على المسلمين ، وتسهيلاً عليهم في القراءة ، وبهذا نرد وندحض الشبهات التي حاول بعضهم إثارتها في الموضوع ؛ لأنها محض اختراع واقتراء ، ولأنها آراء سخيفة ومزاعم منبودة لا يلتفت إليها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

فما هي القراءات إذن؟

يعرفها ابن الجزري : بأنها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها

(١) سبق تخريجه .

معزواً لنقله ، فالقراءة اختيار وجمع ، ولا بد من معرفة من يقوم بهذا الجمع ، ومن أن يُعرف به .

وقد قسم العلماء نسبة القراءة إلى الأئمة ومن بعدهم كما يلي :

١ - القراءة : إذا نسبت إلى أحد الأئمة كقراءة نافع وحفص ...

٢ - الرواية : إذا نسبت إلى الراوي عن الإمام كرواية ورش عن نافع أو قالون عن نافع ، حينها يقول الناس بقراءة ورش لا يكونون دقيقين في تعبيرهم إنما تقرأ بقراءة نافع ورواية ورش ، وبعد الراوي يأتي إذا أخذ الراوي عن الراوي ، يقال : بطريق فلان .

ابن مجاهد وتأصيل علم القراءات:

لم يتفق علماء القراءات في أول الأمر على أئمة بأعيانهم يحملون عنهم وحدهم القرآن الكريم حتى جاء ابن مجاهد المقرئ الخطير الكبير الذي سبغ السبع وأقام علم القراءات على قواعد اقتصر عليها الناس فيما بعد .

وابن مجاهد هذا ، ولد ببغداد سنة خمس وأربعين ومائتين هجرية ، ودرس العلوم اللغوية والشرعية والقراءات ، وانكب على القرآن يتعمق في أدائه وتفسيره ومعانيه وإعرابه ، فأقبل عليه طلاب القراءات بعدما أصبح شيخها من غير منازع .

وهو الذي سبغ السبع للحفاظ على القراءات القرآنية حتى لا تخرج عن طريق الرواية ، والنقل الموثوق بهما إلى طريق الاجتهادات الشخصية .

ذكر أصحاب القراءات السبع:

أصحاب القراءات السبع التي اشتهرت قراءاتهم فيما بعد وما زالت هي
المعتبرة حتى الآن هم كما يلي :

١- مقرئ الشام : عبدالله بن عامر اليحصبي .

٢- مقرئ مكة : عبدالله بن كثير .

٣- مقرئ البصرة : أبو عمرو بن العلاء .

٤- مقرئ المدينة : نافع بن عبدالرحمن .

٥- مقرئ الكوفة : حمزة بن حبيب الزيات .

٦- مقرئ الكوفة : عاصم بن أبي النجود .

٧- مقرئ الكوفة : علي بن حمزة الكسائي .

وبذلك كان للكوفة وحدها ثلاثة مقرئين ، وواحد لكل مصر ، من الأمصار
الأخرى ، وهي : مكة والمدينة والبصرة ، ودمشق .

ضوابط ابن مجاهد في اختيار القارئ:

أما القياس الذي اتبعه ابن مجاهد في اختياره القراءات السبعة ، فهو :

١- أن يكون القارئ مجتمعا على قراءته من قبل أهل مصره .

٢- أن يكون إجماع أهل مصره على قراءته قائما على أساس من توافره
على العلم بالقراءة واللغة توافرا يدل على أصالة وعمق .

هل الأحرف السبعة هي القراءات السبعة؟

دفعًا لما علق في كثير من الأذهان من أن الأحرف السبعة الوارد ذكرها في الحديث الشريف: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(١)، هي القراءات السبع التي اتفق عليها عموم الناس واختارها ابن مجاهد واعتبرها الصحاح، وما عداها شواذ، دفعًا لهذا الخلط شرع بعض المؤلفين في تفريد القراءات وتسديسها وتثمينها وتعشيرها.

والقراءات السبع هي غير الواردة في الحديث الشريف، وإنما المصادفة في العددين إنما هي من قبيل المصادفة فقط، والتفريد هو التأليف في قراءة واحدة.

والتسديس ذكر ست قراءات، والتعشير ذكر عشر قراءات.

وقالوا أيضًا: إن التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سُنّة، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين وهو كذلك، ووهم من قال: إنه لا تجوز الزيادة على ذلك؛ ولذلك ضم بعضهم إلى السبعة المار ذكرهم ثلاثة ليتم العدد عشرة، وزاد آخرون فبلغوا بعددهم أربعة عشر، واختلف في القراءات الأخيرة هل هي متواترة أم لا؟ فقال بعضهم بصحتها، وقال بعضهم بشذوذها.

مرحلة الاختيار في القراءات:

الخلاصة: أنه منذ القرن الهجري الثاني بدأت مرحلة الاختيار في القراءات، فقد شرع كل واحد من القراء في النظر في القراءات المروية

(١) سبق تخريجه.

ليختار منها حروفه على أساس مقياس معين ارتضاه في الاختيار ، وبعد ذلك تبنى ذلك الاختيار فنسب إليه ، وعليه فالاختيار : هو الحرف الذي يختاره القارئ من بين مروياته ، وباجتهاده في اختياره ، ولم يكن اجتهاد القراء في وضع القراءات وإنما في اختيار الرواية ، في علم القراءات الاجتهاد معناه الاجتهاد في الاختيار ، وليس في الوضع ، فالاجتهاد في القراءات إنما هو في الرواية والاختيار وليس في الوضع .

مقاييس القراءة الصحيحة المقبولة :

قد استقرت عند الجميع المقاييس الضابطة للقراءات الصحيحة في ثلاثة أركان ذكرها علماء القراءات هكذا :

١ - صحة السند .

٢ - موافقة العربية ولو بوجه .

٣ - موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً .

وبذلك انقسمت القراءات إلى شاذة وغير شاذة ، وغلب وصف الشاذ على القراءات التي لم تتوافر فيها الشروط الثلاثة المذكورة بأكملها .

وقد قدّر جُلّ معاصري ابن مجاهد ومن جاءوا بعده قيمة عمله الكبرى وأهميتها ؛ لأنه أدّى للأمة عملاً جليلاً باختياره للسبعة ووقوفه عندهم ، إذ كانت الروايات قد أخذت تفضي إلى أنواع الاضطراب عند طائفة من القراء غير المتقنين .

حادثة ابن شنبوذ المقرئ:

نجد أن قومًا توهّموا أن ابن مجاهد أراد إهدار القراءات الأخرى ، فثار جدل عنيف وخصومات بينه وبين مقرئين آخرين لم يرتضوا عمله ، ومن بين هؤلاء ابن شنبوذ الذي عقد لمحاكمته ببغداد مجلس حضره الوزير ابن مقلة وابن مجاهد ، وجماعة من العلماء والقضاة بعد اتهمه بأنه كان يعتمد شواذ القراءات ويقرئ بها الناس ، وما فعل ذلك إلا ليخالف ابن مجاهد ، ويذكر الصولي الحادثة في الأوراق ، فيقول : وقبض السلطان على ابن شنبوذ لما رفع إليه من قراءته بما لا يجوز ، وشهد عليه بشهادات ، فأحضر إلى دار ابن مقلة وحضر ابن مجاهد وجماعة من القضاة والفقهاء ، فنوظر فتاب ورجع عن رأيه ، كذلك ابن مقسم ، ويذكر عنه أنه كان يقول : إن كل قراءة وافقت المصحف ووجهًا في العربية ، فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند ، وعقد له أيضًا مجلس فتاب ورجع ، وهذا غير ما كان ينحوه ابن شنبوذ ، فإنه كان يعتمد على السند وإن خالف المصحف ، وابن مقسم يعتمد على المصحف وإن خالف النقل ، واتفقا معًا على موافقة العربية .

الخلاف بين أهل اللغة وأهل القراءات:

بعد ذلك كثر القراء واختلفت طبقاتهم ودرجاتهم ، وكانت منهم جماعة بالغت في الاجتهاد والتحري في نقل القراءات وروايتها بأصول أصولها وأركان فصلوها ، ولا يمكن الحديث عن القراءات والمقرئين دون ذكر النحاة وعلماء اللغة للدور الكبير الذي نهض به هؤلاء في خدمة

النص القرآني الكريم ، وللخلافات المنهجية التي شجرت بينهم وبين المقرئين تبعاً لاختلاف المقاييس المتبعة لدى كل فريق ، ذلك أن النحو كباقي العلوم الإسلامية نشأ لفهم القرآن الكريم وصيانة العربية من اللحن .

وكان النحاة الأولون الذين نظروا في القرآن من المقرئين فتكونت لديهم مجموعة أولى من الملاحظات البسيطة حول النص القرآني ، تلك التي لا تخرج عن طبيعة القراءة بحرف محفوظ من أحد القراء المتقدمين ، وأورثوها تلامذتهم .

ظهور القياس وأثر ذلك على القراءات :

لما ضببطت القواعد واستوت أسسها لدى البصريين ولاسيما في مجال القياس على يد يونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وبقيت وجوه من القراءات ترفض الخضوع للضوابط الجديدة ، مال النحاة إلى أن لا يستشهدوا بهذه القراءات إلا إذا كانت مدعومة بشعر يسندها أو كلام عربي يؤيدها أو قياس يوافقها ويؤكددها ، حتى بلغ الأمر بهم إلى عدم الاستشهاد بها إذا خالفت قواعدهم مباشرة ، محتجين بأن القراءات سنة يجوز التعرض لها بنقد أو تخطئة ، وهم يسلكون بهذا طريق النحاة ، ويتهربون من مواجهات لم تكن في صالحهم ، وهو ما يؤكد القراء أنفسهم .

ثبوت الرواية بالقراءة مقدم على قياس العربية :

قال أبو عمرو الداني : وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن

على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ولا فشو لغة ؛ لأنّ القراءات سُنّة متبعة ويلزم قبولها والمصير إليها .

هذه القاعدة هي أم القواعد في علم القراءات وأصل المناهج ومرتكزها الأول والأخير ، لا يعمل في القراءات على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، وإنما يعمل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل ، وعليه فالقراءة علم نقلي ، لا يعرف التعليل ولا المنطق ، ولا الفلسفة .

نقد النحاة:

ورغم ارتباط الدرس النحوي بكتاب الله وهو ما كان السبب في ازدهاره ؛ لأن مهمته الأولى استنطاق النص ومحاولة معرفة دلالاته معرفة صحيحة ما أمكن ، رغم كل ذلك وجه إلى النحاة النقد اللاذع ، واتهموا بأنهم بنوا قواعدهم على نتف شعرية ونثرية جمعوها من البادية ورووها عن أعراب وعن نساء وشيوخ وصغار ، ثم سدّدوها بمقاييس منطقية يريدون اطرادها في الكلام ، حتى إذا وقع بعضهم على قراءة صحيحة تخالف قاعدته القياسية وهنّاه وضعّفها ، وإن كان صاحبها أبلغ من كثير من الأعراب الذين يحتج في النحو بكلامهم ، غير معتبر ما للقراءة الصحيحة من القوة وما قد يكون في مقاييسه المنطقية من قصور أو خلل ، وفي ذلك يقول فخر الدين الرازي في تفسيره مستغرباً من موقفهم هذا : إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول فجواز إثباتها بالقرآن أولى ، وكثيراً ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ

الواردة في القرآن الكريم ، فإذا استشهدوا في تقريرها بيت مجهول فرحوا به .

ويقول ابن حزم في «الفصل» : من النحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكمًا لفظيًا ويتخذ مذهبًا ، ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرف الآية عن وجهها ، وقد بقي الخلاف بين الجماعتين قرونًا طويلة لاختلاف منهجهما ومقاييسهما في الحكم .

نماذج من الاعتراضات :

عبد الله بن عامر ، قاضي دمشق المشهور ، وإمام الشاميين في القراءة وأحد القراء السبعة المشهورين لم ينبج من انتقاد الزمخشري في تفسيره «الكشاف» بمناسبة حديثه عن قراءته : «قتل أولادهم شركائهم» [الأنعام : ٣٧] . برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر شركائهم على إضافة القتل إلى الشركاء ، قتل : مضاف ، وأولادهم : مفعول به ، وشركائهم : مضاف إليه ، وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، وهو ما لا يقبله البصريون مطلقًا ؛ لأنه في اعتبارهم فصل بين المتضايين ، فقد وَهَّنَ الزمخشري هذه القراءة وضعفها رغم إسنادها القوي ، ورغم أن القراءة سماع لا مجال للاجتهاد فيها ، لكن الزمخشري بقي عند القاعدة المقررة عند البصريين ، وهي التي تقول بعدم الفصل بين المتضايين بأجنبي إلا في الشعر وبالظرف والجار والمجرور ، جعلوها ضرورة من ضرورات الشعر ، واشتروا أنه إذا كان الفصل يكون بالظرف والجار والمجرور فقط ، أما أن يكون بالمفعول به كما في هذه القراءة وهي في القرآن الكريم ، فذلك ما لا يجوز ، وذلك لأن المضاف والمضاف إليه في حكم الشيء الواحد والكلمة الواحدة .

ومثل هذا في القراءة الثانية في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

هذه قراءة مخلف: مضاف، وعده: مضاف إليه، رسله: مفعول به، وقراءة ابن عامر (مخلف وعده رُسُلِه)، مخلف: مضاف، ووعدته: مفعول به، ورسله: مضاف إليه، وفصل بين المتضايين بالمفعول، والحقيقة أن في هذا محاولة لبسط سلطان القواعد المتأخر وضعها زمنًا عن المروي المأثور المتقدم زمنًا أيضًا.

لا يصح إخضاع القرآن للغة:

إن اللغة سبقت القواعد والقرآن سبق القواعد، فلا يجب إخضاع أساليبه للقواعد التي قُعدت أخيرًا، وهو تعسف وشطط لا مزيد عليهما، ساق إلى أنواع من التأويل والتخريج في الآيات المخالفة للقواعد، الموضوعية بقصد جعلها تنسجم مع القاعدة وتخضع لها وتدخل فيها؛ لأن النحاة الأقدمين احتكموا إلى المنطق وحده في كثير من الأحيان وأقاموا عليه قواعدهم، فكثرت لديهم الشروح والتأويلات والتوجيهات والمقدرات والمحدوفات والعوامل وغيرها من آليات الصناعة، ناسين أن اللغة تتجاوز حدود المنطق والقياس؛ لأنها أكثر اتساعًا وأرحب مجالًا من أن تشملها وتستوعبها، فترفض أحيانًا الدخول في قوالب محددة ضاغطة هي قوالب القواعد، ولا بأس عند هذا المستوى من ملاحظتين:

ملاحظات هامة:

١- فيما يخص قضية الاستشهاد بالحديث ما دمنا بصدد الحديث عن الاستشهاد بالقرآن الكريم، فالنحاة الأولون رفضوا الاستشهاد بالحديث رفضاً مطلقاً؛ لأن رواته الأوائل كانوا أعاجم، وكانوا يجوزون رواية الحديث بالمعنى، فلذلك تكثر في روايتهم الأغلاط النحوية، وهو ما لا يقبله النحاة، وعندنا أمثلة لذلك في حديث نبوي شريف: «فلما وصلوا أحرموا كلهم إلا أبو قتادة»^(١)، كان يجب أن يقال: إلا أبا قتادة؛ لأن المستثنى منه مذكور، والكلام مثبت فيجب أن ينصب ما بعد إلا، وكذلك: «إن قعر جهنم سبعين خريفاً»^(٢)، ويجب أن يقال سبعون؛ لأن العقود تلحق بجمع المذكر السالم، فترفع بالواو... وهكذا.

٢- الملاحظة الثانية: أن موقف النحاة من نص القرآن الكريم على هذا الشكل لم يكن خاصاً بهم، فقد كانت لبعض الطوائف الكلامية مواقف كهذه.

يقول الشيخ محمد عبده في ذلك: القرآن لا يتبع العقيدة، وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن، القرآن أصل تحمل عليه المذاهب والآراء لا أن تكون المذاهب أصلاً، والقرآن هو الذي يحمل عليها، ويرجع بالتأويل والتحريف إليها، بعض أصحاب المذاهب الكلامية كانوا يكونون أنظمتهم في

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٤) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (٢٨٤٠) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الاعتقاد ثم يأتون إلى القرآن الكريم ليبحثوا فيه عما يدعم اعتقاداتهم ، فإن لم يجدوا أولوا الآية القرآنية ، ولذلك يجب اعتبار القرآن الكريم أصلاً سواء في الاعتقاد أو في القواعد اللغوية والنحوية .

ولعل غرابة هذا الموقف ترتفع وتزول إذا تتبعنا تطور الفكر النحوي في التراث العربي وما نتج عنه من عقليات ومواقف واتجاهات ، ولناخذ الموضوع في أوسع صوره وأزهاها في القرن الرابع الهجري مثلاً ، عصر ازدهار الفكر والثقافة عامة لدى العرب والمسلمين .

طوائف النحاة وأقسامهم:

فقد انقسم النحاة أقساماً وطوائف :

طائفة تعتمد طريق المناطق فتخلط بين حدود النحو والمنطق ، ولا تميز بينهما كعلي بن عيسى الرماني الذي اشتهر نحوه بالتعقيد وعسر الفهم ، وطائفة جعلت للقياس شأنًا عظيمًا في البحث فصار النظر في النحو لديها رياضة فكرية وعملية عقلية تتطلب من الرواية والإدراك الشيء الكثير ، وكان على رأسها فارسا اللغة والنحو أبو علي الفارسي وتلميذه أبو الفتح ابن جني .

وطائفة ثالثة اكتفت بالسماع واعتمدت الحفظ والرواية والنقل منهاجاً كالقاضي أبي سعيد السيرافي ، وكل من هؤلاء يتشبث بطريقته ويفضلها على غيرها ، فهذا أبو علي الفارسي إمام أصحاب القياس ، يقول : لأن أخطئ في خمسين مسألة مما بابه الرواية أحب إلي من أن أخطئ في مسألة واحدة مما بابه القياس ، وينتقد الرماني وطريقته المعقدة في تدريس النحو

قائلاً : إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء ، وكان المعاصرون واعين لهذا الاختلاف في المناهج .

فقد ذكر ابن الأنباري أن بعض مشايخ من أهل الأدب ، قال : كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين ، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئاً ، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ، ومنهم من نفهم جميع كلامه ، فأما من لا نفهم من كلامه شيئاً فأبو الحسن الرماني ، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي ، وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي وأبو سعيد السيرافي هذا كان من أصحاب الثقافة العربية ، الذي لا يزوج بأنفه في الثقافات الأجنبية وفي أساليبها ، ولذلك كان أسلوبه واضحاً بسيطاً ؛ لأنه يعتمد على النقل والرواية فقط .

سر الخلاف بين القراء والنحاة:

إذا عرفنا هذا فهمنا سر الاختلاف بين مناهج القراء ومناهج النحاة .
فالأولون بقوا عند الرواية والسمع والحفظ والسند ، فانحصر عملهم في تحقيق النص وتوثيقه ، وأصبحت بذلك القراءات القرآنية من أهم علوم المسلمين ؛ لأنها أوثقها اتصالاً بالنص القرآني ، ولأنها أصلت منهج النقل اللغوي فيما أصلت بالاعتماد على الرواية ليس غير ، ولأنها وضعت منهجاً في نقد الرواية يفوق منهج المحدثين ، وعمل المحدثين كان منصباً على كلام رسول الله ﷺ ، وعمل القراء كان منصباً على كلام الله تعالى ؛ ولذلك كان تحريمهم أكثر وأعمق .

أما النحاة فقد جمعوا المادة اللغوية من شعر ونثر ، ولكنهم لم يقفوا عندها بل تعدوها للاستفادة عند النظر فيها من اتساع المناهج وتطور الفكر في الثقافة الإسلامية وما صب فيها من روافد ثقافية أجنبية مختلفة ، فكان عملهم يكون مرحلة ثانية في البحث هي التوجيه والشرح والتعليق ، وصح بذلك القول بأن القراءات تجاوزت لديهم مرحلة الرواية لتكون علمًا من علوم الدراية ، خاصة وأنهم وجدوا في هذه القراءات صحيحها وشاذها مجالًا واسعًا للتطبيقات اللغوية والتحقيقات والتدقيقات لبسط معارفهم وعرض معلوماتهم ومطالعتهم في لغات القبائل ولهجاتها واختلافاتها وتنوعها ، مما خلف لنا كنزًا لغويًا ونحويًا له أهميته الكبرى وقيمه التي لا تضاهى في الميادين الدراسية اللسانية الحديثة ، وذلك عند اهتمامهم بموضوع الاحتجاج للقراءات وتصديهم لها .

وقد أردنا لهذه المحاولة أن تكون عملية معززة بالنصوص التي ثبتت صحتها وضبطت أسانيدھا وأكدت رواياتھا ، ووثق العلماء ناقلیھا وعدلوهم حتى أصبحوا أئمة مقبولین لا تنالهم الشكوك ولا ترقى إلیهم المطاعن .

القراءات وأثرها في الاستشهاد الشعري:

دفعت القراءات القرآنية العلماء إلى التنقيب في التراث الأدبي الواسع العريض للاستشهاد به حتى قيل : إن عدد ما أحصي من شواهد القرآن الشعرية قد بلغ ثلاثمائة ألف بيت ، وأصل هذا دعوة ابن عباس المشار إليها آنفًا للرجوع إلى الشعر العربي قصد الاستعانة به على تفسير القرآن .

قال شاعر العربية متحدثاً بلسانها :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

صدفاتها الكامنة في أحضانها ، المستقرة في أحشائها ، هي أساليبها البليغة وتعبيرها المعجزة التي بقي جزء منها فوق القواعد التي أسسها النحاة وحددها علماء اللغة ، وترفض أن تنضغط في قوالبها الضيقة رغم بعض الشطط في التأويل والتعنت في التقدير ، مما جعل بعض اللغويين المعاصرين يتحدثون من جديد عن نحو القرآن الكريم ، باعتبار كتاب الله -بجميع قراءاته وتعددتها واتصالها بالشعر العربي وكلام العرب على العموم- مشتملاً على أساليب وتعبير وطرق في القول ومناهج في الكلام ما زالت لم يشملها كلها الوصف اللغوي القديم : البصري منه والكوفي ، وتحتاج إلى غواصين يغوصون لاستخراجها واستنباطها خدمة للغة العربية التي نريدها اليوم -لغة الحياة اليومية لكل الناس- تستوعب في مرونتها كل مظاهر الحياة العصرية المتغيرة المتطورة فيتلقنها الصغار في المدرسة ، ويرون الحياة من خلالها ، ويدرس بها الطلبة في الجامعات ، ويبحث بها العلماء ويتتجون بها ، وفيها العلم الجديد والأفكار الحديثة ، لغة كهذه تحتاج إلى شيء من السلاسة والمرونة .



المحاضرة الرابعة عشرة بعد المائتين

العلاقة بين السياسة والدين

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد لبنة التمام ، وعلى آل بيته وصحبه الغر الكرام .

موضوعنا هو مبحث العلاقة بين السياسة والدين ، فأقول وبالله أستعين : إن كلا من موضوع السياسة وموضوع الدين ، إذ عُرِضا على نظر البحث ، وجدنا لهما جوانب متعددة ، وأغوارا عميقة ، وجذورًا عريقة ، وتجليات مستحدثة ، تلتقي وتفرق بحسب ميدان الاشتغال ، وحسب وجهات نظر الدارسين ، سواء كانوا من المؤرخين ، أو من الفلاسفة المبرزين ، أو من المتخصصين في دراسة علم السياسة أو علوم الأديان ، أو حسب وجهات نظر الممارسين لهذين النشاطين . وتجنبنا لتشعيب الحديث وتوخيا للوضوح نقول : إن كل المختصين في الميدانين ، قد أدلوا بأرائهم ، وما يزالون يدلون في باب العلاقة النظرية بين الدين والسياسة . ولكننا في هذا الحديث إنما نروم أن نتكلم عن تدبير هذه العلاقة وليس عن تنظيرها ، وسنسوق الكلام إن شاء الله في محور أول ، هو عبارة عن مدخل نوضح فيه المقصود بالسياسة وبالدين ، وعلاقتها بالتاريخ الذي يطويهما ، مع إيراد إشارة إلى مثال مقارنة من تاريخ الغرب الأوروبي .

ومحور ثان ، نتناول فيه شرح الآية المؤسس عليها هذا الدرس ، مع ذكر بعض ما لمسناه فيها من إنارة تهم الموضوع الذي نحن بصدده .

نظرة القدماء إلى السياسة:

نظر القدماء إلى السياسة على أنها نشاط يهدف إلى خير المجتمع ، ورأوا أنها النشاط الذي يحكم كل النشاطات الأخرى ، لكون الخير الذي تهدف إليه أعلى من الخير الذي يهدف إليه غيرها من النشاطات .

نظرة مشابهة عند بعض المحدثين:

وجد هذا النظر القديم صدئ عند بعض المحدثين فقالوا : إن كل شيء يدخل تحت مجال السياسة ، وإن تخصصت بالشئون العمومية ، كحفظ الأمن والتساكن المنظم بالقانون ، وقد تراوح فيها النظر بين آراء ترجح كفة العدل وأخرى ترجح كفة الفعالية . ثم إنها في بحثها عن أحسن نظام ممكن للحكم ، تطورت من التعسف في القرار إلى ما نسميه اليوم بدولة القانون ، وذلك عبر نقاش طويل حاول التوفيق بين ضرورة وضع قواعد للانسجام من أجل التساكن وبين مراعاة حرية المواطنين .

مفهوم الدين في الحضارات القديمة:

أما الدين فقد ظهر مفهومه في الحضارات القديمة ليدل على مجال من الحياة الاجتماعية مستقل عن الدولة ، وذلك لتدبير كل الممارسات والتقاليد التي لها علاقة بأمور يقدها الناس .

موقف مفكري النهضة الحديثة من الدين:

أما معظم مفكري النهضة والعصر الحديث في أوروبا ، فقد سلطوا نقدهم العقلاني على جانب الطقوس والمؤسسات الدينية ، ومالوا بالإيمان إلى التجريد بعيداً عن تعاليم الوحي ، ولا سيما جانب العبادة منها . ولكن

بعض المفكرين منهم أقروا بعلاقة السياسة بالدين من خلال الضرورة الاجتماعية التي نشأ منها الدين نفسه ، كما أقروا بدور عملي للدين لكونه يدبر الأمل في الجزاء على العمل الصالح .

تلك ومضة تهم تاريخ الفكرة الدينية في السياق الغربي ، تجلُّ إضاءتها بومضة أخرى حول علاقة السياسة بالدين في هذا السياق .

علاقة السياسة بالدين في المسيحية :

كان شعار المسيحيين الأوائل «أن ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر» ، إلى أن تمسَّح العالم الروماني ابتداء من عهد قسطنطين وألغى استقلال الدين عن الدولة ، ولم يعد الدين مجرد فضيلة فردية . إلا أن أحد أقطاب المسيحية وهو القديس أوغسطين ، وهو من شمالي إفريقيا ، قد أبرز شيئاً مهماً عندما قال : إن الدين جزء من فضيلة العدل .

فقد وقع في هذا السياق كما هو معلوم تفاوت بين الدين والسياسة في جوانب متعددة من الحياة ، وذلك عندما تجاوز الواقع التاريخي بجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، منذ عصر النهضة ، عديداً من صيغ النظر والممارسة التي كانت تقترحها المؤسسة الدينية في الغرب الأوربي ، وقامت في داخل المسيحية نفسها حركات إصلاحية للتخفيف من التعارض مع التاريخ ، إلا أن التفاوت ظل يتفاقم مع توالي مختلف الثورات المتلاحقة .

الحرب العالمية وأثرها على علاقة السياسة بالدين :

غير أن الحرب العالمية الثانية ، بما تمخض عنها في السياسة الدولية من

فتح غير مسبوق للملف الديمقراطية، قد أعقبها ما أخرج في كثير من البلدان عددًا من الأوساط الدينية في العالم الغربي، إذ لم تكن هذه الأوساط مستعدة لتوجه جديد، فوقع من وجوه انفصال الدين عن السياسة ما لم يقع طوال القرون الماضية، واحتد الشعور بالآزمة مع ظهور وقائع جديدة كنزع الاستعمار، والضغط الماركسي على المسيحية، كنموذج وكمنافس، وكحملة حقوق الإنسان كما شنّها مارتن لوتركينك في أمريكا خلال أعوام الستين.

انعقاد مجمع الفاتيكان سنة ١٩٦٥:

في هذا السياق انعقد مجمع الفاتيكان الثاني الذي أسفر ابتداء من عام ١٩٦٥ عن تغيير عدد من التوجهات، ولا سيما بإعادة الحوار إلى داخل المؤسسة الكنسية من أجل التجاوز والاندماج في مسيرة تاريخ العالم المعاصر. وفي كل الأوساط أخذت تظهر سياسة دينية تتوخى هذا الاندماج.

ظهور مفهوم العدل وأثر ذلك:

قد استمرت فكرة الاندماج هذه تتعمق في الأوساط المسيحية، وتظهر في تقبل عدد من القضايا التي فرضها العصر ووجب التعامل معها، بل وتبريرها وتأصيلها من داخل الدين نفسه، من أهمها: مفهوم العدل الذي وقع في موضوعه الرجوع إلى العهدين: القديم والجديد، وما ورد فيهما من تعاليم تدافع عن الفقراء والمقهورين. لكن أهم هذه القضايا على الإطلاق هي قضية التعامل مع إشكالية القانون الطبيعي، وما يستوجب هذا التعامل من تبني قضايا حقوق الإنسان، وعدد آخر من

تقاليد الفكر المصاحب للديمقراطية .

إن المثال الذي أوجزناه يبين علاقة الدين بالسياسة في سيرورة تفاوت بين فهم الناس وممارستهم لتعاليم كانوا يرون فيها التزامًا بالدين ، وبين وقائع تاريخ لم يجر خارج إرادة الله ، بل جرى وآتى أكله في ملك الله المهيمن .

حال الدين مع السياسة :

إذا كانت السياسة هي أشكال تنظيم المجتمع البشري وتدبير شئونه ، فإما أن يقود الدين هذه الأشكال وإما أن يتخلف عنها وتنفلت منه ، ويكون الدين هو المضطر إلى مسايرتها بتحسينات فهمه ، وتبريرات من المنطق الذي يستعمله أتباعه . وهذان الاحتمالان واردان بالنسبة لجميع الأديان بمقتضى ما تتحقق به حقيقة اسم الله الغني سبحانه ، والله الغني عن العالمين .

وإنما يصعب فهم التفاوت بين الوحي والتاريخ ، أي بين الدين والسياسة ، عندما ننظر إلى الدين على أنه شيء قائم الذات مستقل عن الإنسان ، والحال أنه الإنسان المقصود به ، إنما جاء الدين ليخبره ويفهمه ويهديه ، والعلاقة بينهما لا تسمح باستقلال ، لأنها علاقة تمر عبر تصور وفهم وتمثل وتصريف وممارسة من جهة هذا الإنسان .

الإشارة في الحديث إلى علاقة الدين بالسياسة :

قد أشار الصادق المصدوق عليه السلام ببلاغة حديثه إلى هذه العلاقة المرجوع في حسمها إلى الإنسان عندما قال : «تركتم فيكم ما لن تضلوا بعده إن

اعتصمتم به كتاب الله وعترتي»^(١). وعبارة «فيكم» في الحديث، تعني أصحاب رسول الله ﷺ، ومن سيأتي بعدهم من المسلمين على توالي القرون، وما سيكون من علاقة الدين بهذا التاريخ تشير إليه عبارة «بعده»، والاعتصام يفترض فهمًا مساييرًا لموضوعه حيثًا، ومقاديره ودرجاته غير محدودة لا إجمالًا ولا حسب الجوانب المختلفة، ابتداء من إدراك عمق التوحيد ومرورًا بتطبيقاته في العبادات والمعاملات والسلوك، ووصولًا إلى شئون الإمامة والسياسة الكبرى.

آية تبين العلاقة بين الدين والسياسة:

في توافق مع هذا الحديث الذي وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم في التاريخ، في ارتباط مع فهمهم لكيفية الاتباع، بدا لنا أن من أنسب آيات القرآن الكريم التي يمكن أن يبنى عليها الكلام في موضوع العلاقة بين الدين والسياسة قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

تفسير الآية الكريمة:

قبل أن نتدبر الآية من وجهة العلاقة بين السياسة والدين، نشير بعجالة إلى ما قاله في شرحها بعض المفسرين. فقد قالوا: إن «يهدي» بمعنى يدل ويرشد ويدعو، وقالوا في شرح «التي» المقصود بها توحيد الله والإيمان برسله والعمل بطاعته، وهي الطريقة والحالة. وفسروا «أقوم» بأصوب بلا

(١) سبق تخرجه.

عوج وأعدل . قال الزمخشري في أقوم «ذوق بلاغي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقد بإيضاحه» وقال الفخر الرازي : «أقوم» نعت لموصوف ، والتقدير يهدي للملة أو الطريقة ، ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت : ٣٤] . وقال الجكني الشنقيطي : هذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعد لها وأصوبها . فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال ، لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة .

وقفة متأنية مع ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ :

لمزيد من التعمق في معنى الآية ، لابد من الوقوف عند عبارة «إن هذا القرآن» من خلال القرآن نفسه ، وذلك بتأمل القرآن طبيعته وموضوعاً ومنهجاً ، باعتباره مصدر الهداية . فهو التنزيل لا تنفذ كلماته ، مبین حكيم مجيد ، يعلم بضرب الأمثال ، جاء للتبليغ والهداية والإنذار ، لذلك وجب ترتيله والإنصات إليه ، ثم هو ذكر وشفاء ورحمة للمؤمنين ، ليس كأى كتاب ، لأن مكنونه ليس على سطحه ، لذلك فإن درجات من قراءته البليغة تؤدي إلى درجات تنهى القارئ مع المقروء ، إذ هو نور يسكن في الصدور .

الفكر وحده لا يكفي لفهم القرآن :

القرآن بلغة الإدراك اليوم نسق محكم ، لكنه نسق لا يكفي في إدراكه الفكر وحده بل إن مسه ، أي التحلي به كما يقال : يستوجب طهارة القلب

وذكاء النفس . مفتاحه الإيمان به ، وقطبه الرئيس هو التوحيد ، وتوجهه إلى غاية واحدة هي هداية الإنسان ، ولذلك فإن هذه النسقية القرآنية لا يتيسر إدراكها حتى عقلا بالقراءة التجزيئية للآيات المتتابعة في المصحف وما يرتبط بها من أسباب النزول .

بل إن الله تعالى هو الذي يتجلى في القرآن بإرادته وقدرته وآياته ، خالقاً فاعلاً رازقاً ، مسخراً ، غفّاراً تواباً ، رحيمًا ، يبصر الإنسان بمبدئه وغايته ، وضعفه وغروره ، وآفاق اكتماله ، يبصره بأسباب فلاحه ومواطن هلاكه ، يصله بأسباب سعادته ومواقف تضرعه ومناجاته ، وأحوال شكره ودعائه .

والهداية التي يمكن أن يستمدّها الإنسان من هذا البيان والتجلي ، إنما هي اصطفاء ، لأن الله تعالى لو شاء لهدى الناس جميعًا ، وهي هداية ليست إملاءً بقدر ما هي تنشيط وبرنامج ، تخلق الاستعداد الذي ييسر الاتباع ، اتباعًا يستوجب الشكر على المنّة ، ولكنها هداية مرهونة بإقبال الإنسان على طلبها ، والاجتهاد فيها مصداقًا لقوله تعالى عن الإنسان .

- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان : ٣]

- وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقفه مع «بالتى هي أقوم» :

لابد من التوقف عند التعبير القرآني للتي هي أقوم ، لأنها العبارة المفصلة في هذه الآية تلتقي فيها السياسة بمعنى إيجاد الحل الأنسب لمشكل قائم بإعمال الاجتهاد ، تلتقي بالدين الذي يتمثل في استمداد الهداية من الوحي بشروط لهذا الاجتهاد ، هداية تتلقاها الروح ويتمثلها

العقل ، حيث إن الإيمان سابق على إمكانها . فصيغة المضارع الذي عليه فعل يهدي ، تحيل على الزمن كله من نزول القرآن إلى اليوم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، أي أنها تحيل على تاريخ الإنسان الذي هو مقصود بالهداية ، والذي من أجله أنزلت يرى بعض المفسرين أن المقصود من الآية الكريمة : أن الأحكام الواردة في القرآن حلول للمشاكل هي أقوم وأسد وأعدل من غيرها . هذا صحيح لا مرأى فيه ، ولكن التعبير القرآني لا يتعلق بهذه الأحكام والحلول في صيغة حصرية ، فلا يغلق على الإنسان في فهم للآيات محددة بزمان ومكان معينين ، بل الأولى بنا وقد عرفنا ما وقع في تاريخ غيرنا ووجب أن نتعظ به ، أن نذهب إلى أن القرآن الكريم بهذه الآية يضع منهجاً ويقترح حركية ، فيستفاد من هذا التوجيه أن لكل قضية في زمان ومكان معين حلاً أو حكماً هو أقوم بمقتضى المقاصد الكبرى في الدين من درء المفساد وجلب المصالح والجري على مكارم الأخلاق ولكن الحلول متوقفة على اجتهد الإنسان واختياره ، فالحلول المطلوبة لمشاكل الإنسان هي الموصوف المحذوف بصفة أقوم .

في ظلال كلمة : «أقوم» :

إن كلمة «أقوم» تحيل على الاستقامة ، وهي ضد العوج الذي نفاه الله عن كلامه المبين . والمؤمن المصلي يطلب أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم في اليوم عدد ركعات صلاة الفرض على الأقل ، ولعل الصيغة بصورة الجمع : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، تشير إلى أن آداب الدعاء تلتقي بالصيغة الجماعية للخلاص لأن الدين كالسياسة من أمور الجماعة .

علاقة الإنسان بالدين:

علاقة الإنسان بالدين علاقتان : علاقة عمودية هي علاقته كفرد بربه ، وعلاقة أفقية هي علاقته بربه من خلال علاقته بغيره من الناس ، إذ يمكن أن نصل إلى الله ، أي أن ننال رضاه ، من خلال صلاتنا ودعائنا ، كما يمكن أن نصل إليه من خلال نفعنا لعياله وهم كل خلائقه . وقطع المسافة في خط أقوم ، أي مستقيم ، ليس كقطعها في خط أعوج قد يؤدي إلى التيهان في الأرض وضياع السنين والقرون . وإذا عرضنا هذه الصورة على تاريخ المسلمين وجدناهم قد أضاعوا كثيرًا من الوقت بالنسبة لتاريخ بعض الأمم الأخرى ، ولا سيما في القرون الأخيرة ، فيجوز أن يقال - والحالة هذه - : إنهم لم يهتدوا إلى التي هي أقوم في كثير من أمور الحياة ، سواء في السياسة أو في أمور النفع في الميادين المختلفة الأخرى .

التقصير في الالتفات إلى قضايا السياسة والدين:

لقد حرص المسلمون طيلة تاريخهم على توحيد الله تعالى وطاعته بتطبيق أحكام القرآن والاهتداء بهديه ، وذلك بإرشاد دائب من أئمتهم وعلمائهم . ولكن هذا الحرص لم يكن مستقصيًا لكل آفاق هدي القرآن ، بل ربما اقتصر على الأقل منها ، إذ وقع تركيز أكبر على الالتزام ببعض الطاعات التي تهم فلاح الأفراد ، ووقع التفات أقل من المطلوب إلى القضايا الكبرى التي توجه السياسة والتاريخ . والواقع أن كل نص لا يجيب إلا على الأسئلة التي نلقيها عليه ، والأسئلة الجديدة تأتي من الاجتهاد في العمل والسعي إلى عمل الصالحات في الأرض في مهمة الاستخلاف ، فإذا نقص الاجتهاد وغلب التواكل لم تظهر آيات الله ولم يفتح على الإنسان بأسئلة

مستنبطة للنص ، والحال أن العقم فينا يحول بين ما هو متاح لنا من الاهتداء . ولنتأس في هذا الباب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] .

القرآن إمام ورحمة ، كتاب كيمياء الروح ، كتاب تربية على الربانية ، ولما كانت الهداية مقابلة للضلال ، فإن هذه الربانية التي يهيم لها القرآن بالإيمان والذكر ، هي روحانية تقوي النفس اللوامة حتى لا تنزع إلى الهوى وتفسد بالأناية والطغيان ، فإذا المتقارعة خارج التأثير على أوضاع مختلف البلدان الداخلية ، ربما كانت مصدر تشويش أكثر مما هي منبع اهتداء ، ولا فائدة ترجى لقعقتها . وعصب الحرب هنا ليس هو المال ، بل هو تمثل علاقة ناجعة بين الدين والسياسة ، يصعب سبيل الوصول إليها في أمد قريب في كثير من البلدان بسبب تعدد المذاهب والآراء والاختيارات والمصالح واختلاط الحابل بالنابل في خطاب المقاربة والتناول .

وإذا انتقلنا إلى عرض حكم كل ما ذكرناه بالنسبة للعلاقة بين الدين والسياسة فلا بد أن نذكر أن الجانب النظري من تعريف السياسة وكذا جانبها المتعلق بالنظام السياسي أمور لا تهمنا .

الاهتمام بعلاقة السياسة بالدين عملياً :

العلاقة بين الدين والسياسة ليست مطروحة في مستوى الاختيارات المحسوم فيها ، وإنما هي مطروحة على مستوى الممارسة التعاملية للفاعلين في الميدانين : السياسي ، والديني ، حيث السياسة نشاط تطبيقي يحاول حل مشاكل محسوسة تعرض للمجتمع مع مراعاة الظروف ، وذلك من خلال

المؤسسات القائمة . فهي سياسة اشتغالية وهادفة ، لها علاقة بالأنشطة الأخرى كالاقتصاد ولكن علاقتها بالدين علاقة متميزة بحسب مكان الالتقاء .

فالمأمول ، إذاً ، تحقيق حداثة مندجة للدين في السياسة ، وللسياسة في الدين .

لم تعد للمسلمين في أية جهة كانت فرصة تاريخ طويل تتصادم فيه اجتهاداتهم الفكرية بواقعهم على وتيرة زمنية يختارونها لأنفسهم ويتحكمون فيها ، بل إنهم تحت ضغط تاريخ آخر ، قد يراه بعضهم تاريخاً فاجراً ، وعليه إذ ذاك أن يقول : قد يصلح الله تاريخنا بضغط تاريخ فاجر .

ظهور دعوة فصل الدين عن شؤون الحياة:

من ضغوط هذا التاريخ وتأثيره داخل بلدان الإسلام ظهور تيار يرى أن الإقناع بتفسير مبادئ الدين بطيء السيورة في بلاد الإسلام ، وأن الوقت لا يرحم ، وأن أمور البلاد في شؤونها العامة لا يجوز أن تعيقها تلك الفهوم ، فلا سبيل إلى الخلاص - والحالة هذه - إلا فصل الدين عن شؤون الحياة في بعدها العام .

ظهور دعوة الوقوف في وقف المستجدات:

بينما يرى تيار في الاتجاه الآخر أن الدين تتهدده أخطار من الداخل والخارج تتمثل على الخصوص في انحراف بعض المظاهر الخارجية للسلوك ، وفي الأخذ بتنظيمات لم تستوح على مهل من تأصيلات في الدين ، فلا سبيل

إذن سوى الوقوف لكل المستجدات بالمرصاد .

الأمة مهددة بأمرين :

إن هذين الموقفين إذا تلبسا بالسياسة تحولا دون أن يرغب أصحابهما في ذلك بالضرورة ، تحولا إلى تكتلات تنغمس في حماة تراشقات سجالية يواكبها رأي مرتجل ضحل واستشهادات خلافية لا حسم فيها يرجى بمجرد إعمال النظر والمناقشة ، الأمر الذي يهدد الأمة بأمرين خطيرين :

أولاً : عواقب وقوع عدد من الناس تحت تأثير أحد التيارين في نظام سياسي له مقوماته التاريخية ، بعد أن أخذ في اختياره السياسي بنظام تحكيم العدد والأغلبية .

ثانياً : خطر إعادة الواقع النفسي لما يسمى بالعدو الداخلي ، وهو واقع لا يقبله الدين ولا تقبله السياسة الحديثة .

عموم لفظ الصالحات في الآية الكريمة :

هذه هي المعطيات التي ينبغي أن تقنع الجميع بأن فك أسر التاريخ يتوقف على الاحتكام إلى كلمة سواء هي التوافق على عمل الصالحات ، والشرط في ذلك هو الاتفاق على تعريف الصالحات ، بأنها كل ما يحقق أو يهيئ ظروف تحقيق العزة للمجتمع ويحفظ كرامة الأمة في كل جوانبها ، ويضمن العدل بين أبنائها .

إذا تبين أن التنافس في عمل الصالحات ، دون مراوغة ، على أساس التعريف المذكور ، إذا تبين أن هذا التنافس من صميم الدين في عقيدة المؤمن به ، أو هو مما يلتقي مع الدين في نظر كل مواطن ، تبينت ضرورة تنقية

الساحة من كل جدل عقيم ، أو سلوك غير قويم ، يحول دون هذا التوافق .

على أن هذا التوافق على شروط تساكن خطاب السياسة وخطاب الدين ، إذا كان الأخذ به يتوقف بالأساس على الفاعلين السياسيين ، فإن الوعي بجدواه واجب على الفاعلين الآخرين ، التربويين والإعلاميين ، والمفكرين في المتدييات ، وعلى الخطباء والوعاظ في المساجد ، ويحق للعلماء على الخصوص بل ويجب عليهم أن يعلموا الفئات العريضة من الناس أن الإسلام الذي بدأ متساقطاً ديناً وسياسة في عهد النبوة ينبغي أن نحقق مقاصده في هذا العصر . فإن عصر النبوة والخلافة الراشدة كان من أزهى العصور مساجداً ، وأكثرها قراءة للقرآن ، وأكثرها عدلاً ، وإنصافاً ، وألينها طبعاً ، وأكثرها أمناً ، وأغزرها علماً بالإسلام ، وأقلها بدعة ، وأحسنها اتباعاً لشريعة الله .

فهم العلاقة بين السياسية والدين متوقف على فهم الدين :

يتضح بما قلناه أن تدبير العلاقة بين السياسة والدين لا يتم الاطمئنان التام إليه إلا إذا قام فهم الدين على ما تقرر في نص القرآن من الابتعاد عن الإكراه ، وعلى الأخذ بالحرية المنضبطة بالقانون ، كما يقوم عليها النظام السياسي الحديث .

فتدبير العلاقة بين السياسة والدين هو في جانب مهم منه تدبير الحرية .

إيجاد النماذج السلوكية كحجة عملية :

الواقع أن الحضور المقنع للدين في مستقبل بناء للمسلمين ، لن يتأتى في

شروط ممارسة هذه الحرية إلا إذا كان للغيورين عليه حجة لا تقتصر على الحجة القولية، بل تكون كحجة السلف الصالح، حجة بنماذج سلوكية، تعانق القضايا الأخلاقية المطروحة على الضمير الإنساني مثل مواجهة البؤس، والفقر، والجهل، ومشاكل التدبير النظيف للحكم، والتيسير العمومي، وقضايا الكسب الحلال، وقضايا المساواة بين بني آدم، وقد كرمهم الله حتى قبل أن تأتي الديانات والرسالات، ومشاكل الجريمة والعقاب، والقضايا التي تهم الحرب والسلام، والصحة النفسية للجماعات إلى غير ذلك.

ما أسمى هذه القضايا وأبلغها أثرًا إذا قيست بما يقدمه الفهم القاصر إلى يومنا هذا على أنها معضلات تقض مضجع ضمير أهل الدين.

فلا بد من وعي يتحول به النظر من صغريات الأمور، إلى كبرياتها. لتسجم حياة الناس في ظلال وارفة من العبودية لله، ووفاء المجتمع بحقوقه، وهيمته الدين على المجتمع.

المحاضرة الخامسة عشرة بعد المائتين

الإسلام والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩] صدق الله العظيم .

معنى السلم في الآية الكريمة:

السلم في الآية الكريمة ، هو السلام والمصالحة والموادعة الدائمة . . بل السلام هو الله جل وعلا نفسه ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، سمى به نفسه تعظيماً لشأنه ودعوة للبشر أن يجعلوه هدفهم في حياتهم ، ويسلكوا إليه سبيله .

السلام هو شعار الإسلام:

استعلن الإسلام (السلام) شعاراً للإسلام عقيدة وخلقاً وسلوكاً ونظاماً، فإذا هو والإسلام معنى واحد، وحقيقة واحدة لا انفصام بينهما. ولست أعرف في مذاهب الفكر عامة ما يشبههما في هذا التمازج والتماسك والالتحام، كما يتجلى ذلك في جملة التشريع الإسلامي وآدابه وأخلاقياته حقاً وصدقاً، لا زعماً ولا خلافاً من القول يعلن كلاماً ويخفي سهاماً وكلاماً .

حيثما يذكر الإسلام فثم السلام:

حيث يذكر (الإسلام) فثم (السلام): سلام الحرية والعزة والكرامة والشرف ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وحيث يذكر (السلام) يشخص (الإسلام) كله حاضرًا وماثلاً في الذهن بجملته مقوماته ومشخصاته... بعقيدته وأخلاقه. بعباراته وأذكاره. بمعاملاته وتشريعاته... كلها قواعد التي ينهض عليها بناؤه ومنها منطلقاته في التعامل مع الحياة والسلوك مع البشر، كما تبدو تطبيقاته في أجمل صورة وأكمل كمال في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام وفي سلوك خلفائه وصحابته وسير الهداة المهديين بهذا الدين الإلهي العظيم. هذه الوشيجة الملتحمة بين المبدأ والغاية وبين العقيدة والتطبيق، حالة فريدة، استقل بها الإسلام وليس في شيء من توجهات الشرائع سماويها ووضعيتها، نازعة إلى السلام، تنصب عليه هذا الانصباب وتوليه هذا الاهتمام وتصيره هو مطلبها الأسمى، ومطمحها الأوحى، محصناً بالإيمان والعقيدة والأخلاق... لم يرسل الكلام فيه عاريًا من الروح ومن الأخلاق وغير محصن بالإيمان المستقر في القلب. وأين من هذا كله، هذا السلام الذي ترسمه القوانين الوضعية، وتستبقيه سلامًا مكتوبًا على الورق وليس له في ميادين الحياة ظهور ولا حياة.

حقيقة السلام الإسلامي:

سلام الإسلام ليس لفظًا يرسل ليذهب مع الرياح أو دعوى تستعلن عند أمر طارئ يستدعي حضوره حتى إذا انتفت دواعيه عاد الخصام كما

بدأ وعاد التعادي بدوافع تضارب المصالح وشخص نازعة المنفعة الخاصة ، وإذا حكاية السلام آل في صحراء التخيل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وأين هذا من سلام الإسلام؟

السلام الإسلامي ثمرة غراس الفضائل والشمائل والتقوى مما أصل الشرع وأثل للحياة من عقيدة وأخلاق ، وأشربته الأرواح لتصنع المجتمع العالمي المتزن المتوازن ، مجتمع العدل والإحسان الذي ترعى فيه الحرمات والحريات والذمم ، ويحصر فيه السوء في أدق الحدود وأضيق المسالك .

الإسلام يروض النفس ويسوسها إلى الخير:

لما كانت النفس الإنسانية كل نفس ، أمارة بالسوء ، إلا من رحم ، انتصب الإسلام بجملة آدابه وأخلاقياته وتشريعاته يروض بها ليغلب فيها روح الخير ، وينشئ من طبعه عليها القوة التي توجهها إلى تكوين المجتمع الفاضل الذي يريده الله تعالى لعباده .

لقد أعلنه الإسلام نفيراً عاماً على البغي والسوء ، واستنفر كل جنود الخير فعبأها في مواجهتهما تعبئة نفسية وعقلية وأخلاقية وتشريعية ، لا أسلم منها ولا أحكم لأنها من وحي الله ومراشده ، فوظفها مجتمعة لجهادها بالدعوة إلى سبيل الله (وهو السلام) بالحكمة والموعظة الحسنة .

سلام الإسلام ، سلام مع الله تعالى بالاهتداء بنوره وبالكتاب المبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

يَاذِنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥٠﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

السلام مع النفس:

من هذا التأصيل وينبوعه الصافي العذب ، يتولد السلام مع النفس حين يبتغي المرء رضوان الله فيصفي ضميره من الدغل ، ويتجه بنفسه إلى صنائع المعروف وفعل الخيرات ، وفي أدب النبوة ، وأعظم به من أدب وخلقٍ عظيم : «اصنع المعروف إلى من هو أهله ، وإلى من ليس من أهله فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله . وإن لم تصب أهله فأنت أهله» . «هذا سبيل من سبل السلام في الإسلام .

السلام مع العقل:

يتولد منه السلام مع العقل حين يستنير العقل بنور الله ، ويعي مرشد الوحي ، فيتوخى الحق فلا يحكم إلا به ، له أو عليه ، وهذا سبيل ثان من سبل السلام .

السلام مع البيت:

يكون السلام مع البيت . . . مع الأسرة : الأهل والزوج والبنين وذوي القربى والعشيرة يعاطيهم المرء ما نشأه الإسلام عليه من أدب وتهذيب ، فيعطيهم من صفاء نفسه وصفاء عقله الحب والحنان ، ويمنحهم الرعاية والبر والإحسان . وهذا سبيل ثالث من سبل السلام ، وما أكثر شعبه .

السلام مع الجيران ومن حولهم:

يكون السلام مع الجيرة ومع أهل الحي... يقيم المرء علائقه بهم بالتواصل والمودة الخالصة يعين المكروب على تفريج همه ويقضي حاجات المحتاجين بقدر استطاعته ، وما إلى هذا من قضايا الحياة . وهذا سبيل رابع من سبل السلام .

السلام مع المجتمع:

يكون السلام مع المجتمع كله بكل هذه الفضائل والفواضل والشمائل فيوليه المرء اهتمامه البالغ بأموره وأمور ناسه كائنًا ما كان الجنس واللون والفكر ، فهم جميعًا أهله فيسعى بذمتهم ويعطيهم من نفسه وعقله ، ومن قدرات فكره وعمله كل ما يستطيعه دوامًا .

يا همومي تأخري مما بأهلي	من هموم بأن تدافع أمثل
أهلي الناس إذ يكونون سلما	لا يعادون مثل سلمي وأعدل
إن أهلي كل وإنني بعض	أنائن وعدل أهلي أول
إن ريجي من ريجهم تتهادئ	وشراعي بريجهم يترسل
ما دهاهم من صائل يتعادئ	إنما سهمهم إلي المعجل
وإذا اخضل عيشهم من نعيم	مخصب الخير طاب عيشي وأخضل
من يقدم حقوق أهله يعقد	طرفي سؤدد ومجد مؤثل
قد شكرت السحاب جاد نداه	كل أرض ، ولم ينص ويبخل
لا تطيب الحياة عندي إذ عي	ش أناس جذب ، وعيشي رغفل
أبسط الأفق ، لا تضيق مداه	وسع الناس ما تقيم وترحل

وهذا سبيل خامس من سبل السلام .

بمثل هذه النازعة الإنسانية ، التي غرسها الإسلام في وعي صاحب هذا الشعر الإنساني وفي قلبه وعقله ، ففاض على لسانه روحاً من الروح ويقىاً من الإيمان بالإسلام والسلام يرتقي سلام الإسلام بمراحمه وصدقه وخيره سمّاً بعد سمت ، ومن أفق إلى أفق أعلى ، فيعم البشر كله والوجود كله .

تعبئة الإسلام للنفس لمواجهة قوى الشر:

ما كان ليكون هذا السمو إلى السلام لولا ما عبأ الإسلام في مواجهة روح الشر من القوى النفسية والعقلية والأخلاقية . . . عبأها في العبادات والأذكار . وعبأها في أصول العقيدة وعبأها في المثل الأخلاقية ، وأنماط التشريعات . . . ليكون بها قوام السلام الدائم : سلام الحرية والعزة والكرامة والشرف .

عبأها بالعقيدة:

عبأها في كل هذه الجوانب ، ليكون السلام إيماناً ينعقد عليه القلب ، وعقيدة تستقر في الوجدان والعقل وتحتمل دواماً لتثمر . . .

عبأها بالعبادات والأذكار:

عبأها في العبادات والأذكار وألهج به السنة المؤمنين آناء الليل وأطراف النهار في الصلوات الفروض والسنن والنوافل : «السلام عليك أيها النبي» ، وبعد الصلاة وانتهاء المصلين عن اليمين والشمال ، السلام عليكم ورحمة الله ، وفي الأذكار اللهم أنت السلام ومنك السلام ، ورفعه شعار

المجتمع ما بين مشرق الشمس ومغربها فأصبحت تحية المسلمين حين يلاقي بعضهم بعضاً: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وهو شعارهم حتى عند زيارة من ودعوا دنياهم وسكنوا القبور. «السلام عليكم دار قوم مؤمنين». وسمى الله الحياة الآخرة (دار السلام): ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

الإسلام كله سلام، ولهج بالسلام، وما أكثر ترديد ألفاظ السلم والسلام والإسلام في كتاب الله وفي أحاديث سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

عبأها بالقوانين والأخلاق والرحمة:

عبأها فيما شرع للمسلمين من قوانين الأخلاق، ومنطلق هذه القوانين كلها (الرحمة) فجعلها رديفة (السلام) لا يذكر السلام إلا مقروناً بذكر (الرحمة).

الرحمة والسلام قرينان:

الرحمة صفة من صفات الله تعالى، جل وجلت أسماؤه وصفاته ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ١٢] وهو الرحمن الرحيم، وهما اسمان من أسماؤه الحسنى كالسلام. بهاتين الكلمتين الرديفتين الشفافتين، وهما تحملان روح الله ولطفه... يستفتحون كل عمل يبدءونه، فيقولون (بسم الله الرحمن الرحيم) ويردفون السلام بالرحمة والبركات، إشعاراً بقيامها جمعاء في أعماق النفس... وما أكثر ما يتردد من ذكر الرحمة ومشتقات الرحمة في كتاب الله وفي أحاديث رسول الله ﷺ لتمتلى قلوب المؤمنين. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الراحمون يرحمهم الله:

«الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١).

وما فرغت صدور الأقوام من الرحمة إلا غالبهم البغي وكانوا وباء على البشر.

من فوائد الرحمة ومزاياها:

بالرحمة التي تخامر القلوب ، يختفي هذا البغي ، ويسود السلام ، ويعود الناس - كما كانوا أمة واحدة ، الأخوة فيها أخوة النازغة الواحدة تحصن أخوة النسب الواحد في أصل الخلق والإيجاد من نفس واحدة ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُؤُا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

التقوى سياق الرحمة وسند السلام:

ما أكثر ما تردد ذكرها في آي الذكر الحكيم وفي أحاديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم . إنها القانون الإلهي يرد بها الله الناس إلى اتخاذها مصدرًا للتعامل في الحياة . وأصلًا يدخلونه في حسابهم في كل الأحوال ويصدرون عنه . ينطوي تحت مفهومها في الفكر الإسلامي كل مفاهيم الأخلاق الإنسانية الرفيعة ، وبتحكيمةا في التعامل والأخذ والعطاء يستقيم مجتمع العدل والرحمة والسلام ، وتقوم جامعة الأخوة ويختفي هذا المجتمع المحترَب يأكل قويه ضعيفه والبشر منه في هرج ومرج واصطخاب ،

(١) سبق تخريجه .

ويتقاذفون بالهول بعد الهول ، لا تأخذهم مناسم رحمة ورأفة ليجني بعضهم من بعض مغنم زائلة بالظلم ، وهم قادرون على توفيرها لأنفسهم باتباع رضوان الله .

خلاصة القول في سلام الإسلام ورحمته :

جملة القول في الإسلام وسلامه ورحمته أنه شرع يقوم به للبشر نظام سلام حقيقي ، يستمر في الحياة ما شاء الله ما استرشد البشر بنوره ، والتقت الأجناس على هداه بالتقوى التقاء الإخاء والرحمة والإحسان .

إنه نقلة فريدة في تاريخ البشر ، نقلت البشر من طور التفرق والشقاق والتخلف إلى طور التوحد والاتلاف الروحي والتقدم في مسالك الحياة .

أشاع في حس البشر اليقظة ، وحرك وجدانه نحو التكافل العام ، وبسط جناحه عليه أمناً وسلاماً . وما انتكست الحياة به فتخبط في ردغات الشر إلا يوم أدبر عن هذا الخير .

نقطة فريدة حققها عليه الصلاة والسلام خلال ثلاثة وعشرين عاماً من عمره السعيد ، وما ثلاثة وعشرون عاماً في حساب آمد هذا الزمان ، حين يقاس إليها ما أنجز فيها وأقام من صرح هذا النظام العالمي ؟

هل أقام النبي بناء الإسلام بالسيف؟

هذا النظام الشامخ العظيم . . . هل أقامه هذا النبي الرسول العظيم عليه الصلاة والتسليم بالسيف كما يحلو لربائب العصبية العنصرية أن يهرفوا ويبهتوا وهم يعرفون ويحرفون؟

فأي سيف هذا السيف الذي أنشأ عالماً جديداً ، يعتمل في وجدانه حب

الحق والعدل وحب الخير وصنائع المعروف؟

سيف الدعوة هو سلاح الإسلام:

إن يكن واقعاً ما يبهتون، فلنسمه معهم سيفاً، وأكرم به من سيف حقق عالم الخير والرحمة والسلام، ولكنه ليس السيف الحديد، يكره الناس أن يكونوا مؤمنين.

فمتى صح في العقل الصحيح أن إدخال الإيمان إلى القلوب يتم بالتقتيل والإكراه، وليس بالحجة والإقناع؟

إنه سيف الدعوة إلى الله بكتاب الله، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، هذا السيف هو سلاح الإسلام، أقام به صرح الإسلام، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

تلك آيات الله البيّنات في كتابه العزيز... دعوة إلى الله وتبليغ، والسبيل إلى تحقيق أهدافها هو هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة والإقناع، تصل إلى أعماق النفوس، فتبذر فيها بذور الإيمان، ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

عالمية الدعوة تستلزم الحسنى لا الإكراه:

إن دعوة الإسلام دعوة عالمية، ورسالة للناس كافة، لا لقوم دون قوم، ولا للعرب دون أجناس الأمم، وهي دعوة تحمل كل معاني الخير، إذن

فهي تستلزم الحسنى لا الإكراه ، وليست دعوة خاصة ، دافعها مذهب المنفعة ، وسبيلها إلى الوصول إليها الاستعلاء بالسيف .

مذهب الإكراه هو مذهب المستعمرين :

هذا مذهب المستعمرين ، أعني المستعبدين للناس المستضعفين في الأرض ، السالين الناهيين ما يملكونه من خير وكنوز ، وليس من مذهب الإسلام في شيء ، وليس من طبيعته وغايته .

الإذن بالقتال لدفع العدوان :

لم يؤذن بالقتال في الإسلام للعدوان ، فإن العدوان محرم في شرع الله ، ولكن أذن به لدفع العدوان وحماية النفس والعقيدة وحرية العبادة وإقامة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك حين تألبت عليه أحلاف الوثنية والشرك لتذهب بريجه ، وطفقت تقاتل المؤمنين وتهجرهم من ديارهم بغير حق وتصددهم عن سبيل الله وهم يحملون للإنسانية جمعاء هذا الخير العظيم ، فلم يكن للمؤمنين بد من أن يتخذوا موقفًا دفاعيًا يحفظ أرواحهم ويصون حقوق الإنسان وحرية وكرامته ، وليس من العقل أن يقفوا من هذا البغي الفاحش موقف الذل والاستكانة والاستسلام ، فأباح الله لهم الحرب دفاعية تنصر الحق ، لا هجومية تفرض الإكراه ، وحصرها في أضيق حدودها حتى تضع أوزارها فتحرم عند زوال أسبابها قطعًا .

رسالة إلى أعداء الإسلام تقول:

هذا هو الإسلام ، وفي هذا نزل الذكر الحكيم وهو يحدد مقاصد هذه الحرب الدفاعية والأغراض منها ويقول : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٦) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠].

يا ليت الذين يتهمون الإسلام بأنه عدو الأديان وأنه عدو البشر وأنه قام بالسيف ، أن يقرءوا هذه الآية الكريمة ، وكيف أن الإسلام يحفظ الشرائع ، وما تزال الكنائس والبيع قائمة في ديار الإسلام من مشرق الأرض إلى مغاربها .

هذا أعظم ما جاء في الذكر الحكيم : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤١) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿[الحج: ٤٠، ٤١].

الاستعداد لدفع البغاة الظالمين من المصالح العالية للبشرية:

من أجل هذه المصلحة العالمية العظمى ، وجب على المؤمنين أن يكونوا دائماً على استعداد بالغ لمواجهة العدوان يستدفعون به البغاة الظالمين بمثل سلاحهم اضطراراً ، لا تعمداً للشر والعدوان وركوباً لمتون البغي والإفساد في الأرض ، وكان لزاماً أن يؤمروا بهذا الاستعداد : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُّوكُمْ ﴿[الأُنْفَال: ٦٠]، فجعل الله تعالى هذا القانون لردع العدوان لا للعدوان، قد يمنع البغاة من اقتحام سبيله، وليحقق المسلمون المقصد الأسمى في دين الإسلام، وهو غرس الرحمة في القلوب وإقامة صرح السلام، ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأُنْفَال: ٦١]، ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٨] إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[المتحنة: ٨، ٩]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

دعاء وشكوى وختام:

اللهم إنا نسألك أن تمنحنا العافية، وتمام العافية، ودوام العافية، والشكر على العافية، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك السلام.

اللهم... إن ناسًا من خلقك، لك في خلقهم وتسليطهم حكمة بالغة، لهم في الإسلام ادعاء عريض، يقولونه بألسنتهم ولا تؤمن به قلوبهم وأفعالهم إذ يناصبون بها السلام والإسلام تكذب ما يقولون وما يدعون، لقد أقاموها في ديار الإسلام على المسلمين - بل عليك يارب إذ أنت جل جلالك - السلام - حربًا ضروسًا موصولة الأعوام بالأعوام. وكلما دعوا إلى السلام نفروا منه نفورًا وعموا وصموا، وازدادوا عتوا وطغيانًا وظلمًا مبينًا.

لقد أمرت المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة ، ونهيتهم أن يتبعوا خطوات الشيطان ، فلو كان هؤلاء الناس مؤمنين حقًا وصدقًا لاستجابوا لأمرك وأطاعوا ، وانتهوا عما نهيت عنه ولم يزلوا من بعد ما جاءتهم البينات ، ولم يصروا على ما يجترحون ويسفكون من دماء المسلمين ما يسفكون .

اللهم إنا نكل عقوبتهم إليك في دنياهم عاجلاً وفي آخرهم آجلاً ونستعين بك على قمع البغي ودفع البلاء ومحق الظالمين ، ونسألك يا ذا الطول والحول والإحسان دوام إعزاز جندنا الميامين المرابطين المدافعين عن الأرض والعرض والوطن بالنصر المؤزر المبين ولا قوة إلا بك .

المحاضرة السادسة عشرة بعد المائتين

الاعتصام بحبل الله ووحدة المسلمين

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ما تضمنته الآية الكريمة من مبادئ:

هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وهي مدنية ، ولقد تضمنت الآية الدعوة إلى توحيد الكلمة ، وجمع الشمل ، والتماسك حول محور واحد ، والتوجه نحو قبة واحدة ، والتجمع حول هدف واحد ، تسعى إليه الأمة وتتوخاه .

المراد بالحبل في الآية:

أما حبل الله فالمختار في تفسيره أنه القرآن الكريم . روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه»^(١) .

والقرآن كلام الله جل جلاله ، وكتابه الذي ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] . أنزله تعالى على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١ / ٧٤١) ، والبيهقي في «الشعب» (٢ / ٣٢٤) . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

رحمة للعالمين وهدى للمتقين ، ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢-٢] . فكان آية الله الباهرة ، ومعجزته الخالدة ، بأسلوبه وتراكيبه ، بفصاحته وبلاغته بحكمه ومراميه ، بأحكامه وإرشاداته ، بمبادئه وتعاليمه ، بما اشتمل عليه من المثل العليا ، والنظم القويمة ، والآيات البينات التي بهرت العقول وحيرت الأبواب ، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ [فصلت : ٤١ ، ٤٢] .

القرآن معجزة مادية كونية :

لقد اقتضت إرادة الله جل جلاله وحكمته أن يمتاز هذا القرآن في إعجازه عن بقية المعجزات الأخرى بكونها مادية كونية ، بنت وقتها ووليدة ساعتها ، تؤثر حين صدورها ثم يمحوها الزمن فتتسنى وتفقد قوة التأثير ، وهي في الوقت ذاته تخاطب الحس ، وتؤثر على من شاهدها ورآها رأي العين ، ولا تكاد تؤثر التأثير الكافي حتى على من سمع بها حين حدوثها ولم يشهدها .

العصا معجزة حسية :

المعجزة التي أعطيت لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وهي العصا التي تنقلب حية تلقف ما يأفك السحرة والمبطلون ، هي معجزة حسية تؤثر حين صدورها ثم يمحوها الزمن ولا يبقى لها كبير تأثير .

معجزات عيسى معجزات حسية :

إن معجزات سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله معجزات حسية .

القرآن معجزة عقلية معنوية دائمة:

القرآن الكريم هو المعجزة العقلية ، المعنوية الباقية ، الدائمة المستمرة إلى ما شاء الله ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . والقرآن أيضاً المعجزة التي تهز القلوب ، وتخطب الألباب والعقول ، وتدعو إلى التفكير والتدبر ، والنظر والتأمل ، فصلتها بالروح ، وتأثيرها على القلب والوجدان ، فهي لذلك أعمق أثراً وأبقى هداية .

رسالة الرسل خاصة ورسالة نبينا عامة:

حكمة ذلك أن الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام كانت رسالاتهم خاصة بأقوامهم ، أما سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فإنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، لا نبي بعده ولا رسول ، فدعوته عامة ، ورسالته جامعة شاملة ، ﴿ قُلْ يَتَّيْهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام نبي العرب وحدهم ، ولم تكن هدايته مقصورة عليهم دون غيرهم ، بل كان رحمة للعالمين ، وهدى للناس أجمعين ، مصداقاً لقول رب العالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا : ٢٨] ، فناسب أن تكون المعجزة خالدة صالحة لكل زمان ومكان ، فكانت قرآناً عربياً غير ذي عوج من لدن حكيم خبير .

تحدي الله ﷻ العرب في مشابهة القرآن:

مع أن العرب حين نزول القرآن الكريم كانوا قد ضربوا بسهم وافر في الإيجاز والبلاغة والتأثير والفصاحة، وكانوا شديدي الحرص على معارضته والتهوين من أمره، وقد صرحوا بأن هذا القرآن مفترى، وأنه ليس من العسير عليهم أن يأتوا بمثله. ولكن الله تعالى تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فقال جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨]، ولكن عجز فصحاؤهم، وسكت بلغاؤهم، وبهت الذي كفر منهم.

إخبار الله ﷻ بعجزهم وإن تظاهروا:

لقد سجل الله تعالى هذا العجز عليهم وعلى غيرهم من الإنس والجن، حيث قال جل شأنه في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

أنزله جل جلاله على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، فأثار به الوجود من ظلمة البغي وطغيان الجهل، وألف به بين القلوب النابية المتفرقة، ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

الأفضلية عند الله لصاحب التقوى:

أنزله تعالى فوحد به بين الشعوب النائية البعيدة ، ففضلى على العصبية ، وجاء بتوحيد الله ، فجعل بني الإنسان سواسية : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ، لا حكم إلا لله ، ولا ميزة إلا للفضيلة ، وأكرم الناس أتقاهم .

الأمر بالاعتصام والاتحاد وعدم الفرقة:

قال تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، إن القرآن الكريم أمر المسلمين على تباعد ديارهم ، وتعدد أجناسهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، أن يكونوا كتلة واحدة ، أمة ملتزمة الأجزاء ، قوية العقيدة ، متينة الروابط ، قويمة الخلق ، عزيزة الجانب تتساوى أفرادها في الحقوق والواجبات ، وتتعاون على ما يجلب لها الخير ، ويدفع عنها الضر ، وتتكاتف في سبيل نصره الشريعة المطهرة ، وإعلاء كلمة الله .

وحدة الأمة من غايات التشريع المهمة:

إن الله تعالى قد شرع للمسلمين من الأحكام والتعاليم ما يجمع شملهم ، ويوحد كلمتهم ، ويلم شعثهم ، ويضم شتاتهم ، ليكون التعاون بين أفرادهم وجماعاتهم وثيق العرى عظيم النفع ، وفرض الجمعة والحج ، وشرع العيدين وندب إلى الجماعة ، وأبان فضلها ، وحث عليها ، وأنذر المتخلف عنها بالوبال والخسران ، لأنه يقع فلا يجد من يدفع عنه أو من يعينه ، لأنه تخلف عن الجماعة ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

التأكيد على الارتباط يجعل المؤمنين أخوة:

لقد أمر القرآن الكريم المسلمين بالاتحاد والتعاقد، ووطد دعائم هذا الاتحاد على مبدأ الأخوة، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وبالغ في محبة البعض للبعض حتى جعلها شرطاً في الإيمان، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»^(١).

في الاتحاد عزة وقوة ومنعة:

أمر بالاتحاد، ونهى عن التفرق والتنازع والشقاق، لما في الاتحاد من القوة والعزة والمنعة، ولما في التفرق والاختلاف من الفشل والخيبة وزوال الوحدة التي هي معقد العزة والقوة. وبالعزة يعتز الحق ويعلو في العالمين. وبالقوة يحفظ الحق وأهله من هجمات المفسدين وكيد الكائدين.

حب الله للمقاتلين في سبيله صفًا متحدين:

لقد بين تعالى في كتابه العزيز بأنه يحب أولئك المؤمنين الذين يقاتلون في سبيله صفًا واحدًا، ورأيًا واحدًا، وقلبًا واحدًا، بحيث لا يتطرق الخلاف إلى نفوسهم، أو أن يصل النزاع إلى صفوفهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾ [الصف: ٤]، ويقول ﷺ فيها رواه الشيخان: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا»، ويقول

(١) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أيضًا: «مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

تحذير النبي ﷺ من الاختلاف والفرقة:

لقد حذر رسول الله ﷺ المسلمين من الاختلاف ومن التنازع، وبين لهم أن عاقبة التنازع والاختلاف هو الهلاك والفناء؛ قال ﷺ: «لا تختلفوا، فإن من قبلكم قد اختلفوا فهلكوا»^(٢).

أمر الإسلام بالإصلاح بين المتقاتلين:

لقد حرص الإسلام على أن تبقى عروة الإخاء والمودة، ورابطة التعاون والتعاقد قوية متينة بين المؤمنين، بحيث لا يصيبها وهن أو يمسها ضعف، ولذلك فقد أوجب الإسلام على المؤمنين إذا ما نشب قتال أو نزاع أو شقاق بين فئتين أو طائفتين أو جماعتين من المؤمنين، أن يهبوا لإصلاح ذات البين والحيلولة دون استفحال الشر واتساع الخرق، قال جل شأنه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

وأمرهم بأن يبذلوا جميع ما في وسعهم من جهد لإزالة هذا الخلاف، وأن يجعلوا تقوى الله أمام أعينهم في سعيهم، لعل رحمة الله تصل إليهم، وهي قريب من المحسنين، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ولا يجوز للمؤمنين أن يقفوا مكتوفي الأيدي ، غير عابئين بما يحصل بين إخوانهم من شقاق ونزاع وخلاف ، فإن المؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فترك أمور الخلاف دون اهتمام بمعالجتها يؤدي إلى استفحال الشرور ، وإلى النتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي لا تقتصر على الفرقاء المتنازعين فحسب ، وإنما تشمل الأمة بمجموعها ، وصدق الله العظيم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] .

عدم الاستهانة بصغائر الأمور:

لا يجوز للمؤمنين أن يستهينوا بالأمر التي تظهر في أعينهم بسيطة لأهمية لها ، فالحرب أولها الكلام . ومعظم النار من مستصغر الشرر . وربما بدأت صغيرة لا يؤبه لها ، ولا يعاب بها ، فانتهدت كالسيل الجارف ، تجرف في سبيلها كل شيء ، أو كالصاعقة المحرقة تحرق الأخضر واليابس ، وتأتي على الصغير والكبير ، أو كالريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، فالفتنة عمياء صماء ، تودي بالبريء وغير البريء .

الإصلاح بين الناس من أعظم الفضائل:

الإصلاح فضيلة من أعظم الفضائل وأعلاها ، وهو واجب شرعاً حرصاً على وحدة الأمة وتضامنها واتفاق كلمتها ، والإصلاح عمل جليل ، وأمر عظيم ، له من المنافع والفوائد ما يجعله في مقدمة الفضائل التي تقرب العبد من ربه ، وتجزل له في عطائه .

أهمية الإصلاح:

مما يدل على أهمية الإصلاح قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

ما ترشد إليه الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، في هذه الآية يذكر الله عباده المؤمنين بنعمته الكبيرة عليهم، وهي نعمة تأليف القلوب، ورأب الصدوع، والارتفاع عن حزازات الصدور، والتفاني في غاية سامية جليلة هي التفاني في الحق، والإعراض عن كل ما يقف في سبيل الحق وتأنيده وإعلاء كلمة الله، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حقاً إنها المعجزة كبرى ونعمة عظيمة، تلك التي حولت شتات العرب في جاهليتهم إلى وفاق، وعداوتهم إلى مودة، وفسادهم إلى صلاح. والآية تشير إلى ما أصبح عليه المؤمنون في زمن الرسول ﷺ من أخوة الإيمان التي قاسم بها الأنصار إخوانهم المهاجرين في ديارهم وأموالهم، والتي كانوا يؤثرون بها إخوانهم على أنفسهم في الأشياء مع أنهم كانوا في خصاصة

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٩)، وأبو داود (٤٩١٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وحاجة إليها : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] .

أثر الإيمان في تحقيق الأخوة الإيمانية :

إنهم تمكنوا بفضل إيمانهم أن يكونوا أخوة بعد ما كان ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وسفك الدماء . ولقد تناولت الحرب بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة ، حتى أطفأها الله بالإسلام ، وألف بين قلوبهم برسول الله ﷺ ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب شركهم وكفرهم واختلافهم ، وتفرق كلمتهم ، فأنقذهم الله بأن هداهم إلى الإيمان ، وأنقذهم من أدران الجاهلية وطغيانها .

فتنة خبيثة والنبي ﷺ لها :

لقد روي أن اليهود وهم أعداء المسلمين والعرب منذ فجر تاريخهم ، لما رأوا أن الأوس والخزرج في المدينة قد اجتمعوا بعد فرقة ، وائتلفوا بعد خصام ، أدركوا بأن الخطر أصبح قريباً منهم وذلك لأن لا حياة لهم إلا إذا تفرقت كلمة العرب وتشتت شملهم ، فجلس يهودي بين أحد الحيين ، وصار يذكرهم بيوم «بعث» ، وهو يوم اشتدت فيه الحرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية ، وصار ينشدهم أشعاراً قالها خصومهم ، ليشير بذلك أحقادهم وضغائنهم وبالفعل فعل الشعر فعله في النفوس ، فتنادى الحيان وقال قائل : يا آل أوس ، وقال آخر : يا آل خزرج ، واصطفوا واستعدوا ليعيدوها حرباً ضرورياً كما كانت في الجاهلية فأدركهم رسول الله ﷺ وقال لهم : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟»^(١) . ثم ذكرهم بأن

(١) سبق تخريجه .

اليهود قد غاظهم اجتماع هذه الفئة من العرب ، واتحاد كلمتهم ، فأرسلوا ودسوا عليهم من يذكرهم بجاهليتهم ليرجعوا كفارًا بعد إيمان ، وأشتاتًا بعد جمع ، وآحادًا بعد أمة ، ليبقى العز لليهود ، وليبقى السلطان فيما بينهم ، فلما تذكر الحيان ما ذكرهم به رسول الله ﷺ ندموا على ما فعلوا ، وألقوا السلاح ، وبكوا ، وتعانقوا ، وانصرفوا طائعين ، وتلا رسول الله ﷺ : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

اليوم فتنة ولا أحد لها :

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أشبه اليوم بالأمس ، وهاهم اليهود اليوم ، هاهي إسرائيل ، الصهيونية في العالم يعتقدون بأنه لا حياة لهم ولا بقاء لهم إلا إذا استحكم الخلاف بين العرب . وأن وحدة العرب واتفاق كلمتهم يقض مضاجع اليهود والصهاينة ، ويعكر صفو حياتهم ، ولذلك فإنهم يعملون في الليل والنهار ، وفي السر والعلانية ، يعملون على إفساد وتوسيع شقة الخلاف ما بين العرب ، لأجل أن يبقى العز لهم ، ولأجل أن تثبت أقدامهم .

فلينظر المسلمون والعرب ما هم فاعلون ، وإنني لأسأل الله تعالى أن يوحد كلمتهم ، وأن يجعلهم يدًا على من سواهم .

آيات قرآنية تحت على الوحدة الإيمانية :

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ، لقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله وأمر بالاتحاد والتعاقد ، ونهى عن التنازع والتفرق في

القرآن الكريم في آيات كثيرة .

طاعة الله والاعتصام بحبله يكون بامتثال أمره :

من ذلك قوله ﷻ : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] . وطاعة الله والاعتصام بحبله إنما يكون بامتثال أوامره المرشدة إلى ما يحقق الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، فكل من آمن بالله واتقاه ، واعتصم بحبله ، ولزم حدوده ، وقام بما يجب عليه نحو ربه وخالقه ونفسه وقومه وأمتة والإنسانية ، وقام بالعمل الصالح النافع ، فاز بالحياة الطيبة في الدنيا ، وفاز بالنعيم والجزاء الحسن في الدار الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٧] .

من الطاعة والاعتصام بحبل الله مراقبة الله :

من طاعة الله والاعتصام بحبله أن يراقب المؤمن ربه في حركاته وسكناته .

من الاعتصام بحبله الإخلاص في العمل وابتغاء وجهه به :

إن الإخلاص شرط رئيسي جوهرى لقبول العبادات والطاعات . ولقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يبتغوا بأعمالهم وتصرفاتهم وجه الله تعالى ، وعني بطبع هذا الأصل في نفوسهم عنايته بطبعها على التوحيد ، لأنه مكمل له ، فاعتبر كل عمل لا يقصد به وجه الله هو مردود على صاحبه ، بل ووبالاً عليه : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﷻ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿[الماعون : ٤-٧] .

اقتران العبادة بالإخلاص في آيات كثيرة:

لقد قرن الله تعالى العبادة بالإخلاص في كثير من الآيات القرآنية للدلالة على أن العبادة مع رفعة شأنها وعلو قدرها لا تكون مقبولة قبولاً حسناً عند الله إلا بالإخلاص ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

الإخلاص شرط في قبول العمل:

إنما كان الإخلاص شرطاً في قبول العبادات والطاعات ، لأن الله تعالى يريد أن يبعد بين المؤمنين وبين الرياء والنفاق والمخادعة ، إنه يريد منهم الطهر الخالص ، والصفاء الخالص ، والجمال الخالص ، فلا يخادعون أنفسهم ، ولا يخادعون خالقهم ، ولا يخادعون الناس .

إن الله يريد من المؤمن أن يظهر على حقيقته ، أن يكون مرفوع الرأس ، أبيض الوجه ، ناصع الجبين ، فلا يظهر بمظهر يخالف حقيقته ، ولا يأتي بعمل يخالف نيته .

من شؤم الرياء والنفاق البعد عن الله:

أما النفاق والرياء فهي من الأمور التي تبعد صاحبها عن الله وعن كل نعيم ، فالنية قبل كل شيء ، وعند كل شيء ، والني ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو

امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١) .

فالنية عليها المعول ، النية الصالحة تجعل القليل كثيرًا ، والحقير عظيمًا . والنية الفاسدة تجعل العظيم حقيرًا والكثير قليلًا ، ومن هنا كان حساب الله تعالى لعباده يوم القيامة ، لا على حسب ما أظفروه فحسب ، بل على حسب ما قصدوا ، وعلى حسب ما نوا ، والنبي ﷺ يقول : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢) .

من الاعتصام بحبل الله الجهاد في سبيله :

من طاعة الله والاعتصام بحبله ، الجهاد في سبيل الله ، وأن يضحي المؤمن بنفسه وروحه وبدمه وماله في سبيل الله وفي سبيل الصالح العام ، والجهاد أمر به الله تعالى أمرًا لا هوادة فيه ، أمر به وحث عليه وأبان فضله ، وما أعدده للمجاهدين الأخيار من ثواب عظيم ، ونعيم مقيم .

الآيات في فضل الجهاد :

قال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج : ٧٨] . وقال أيضًا : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] ، ويقول جل جلاله أيضًا : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ويقول جل شأنه أيضًا : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يَغْلِبَ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ [النساء : ٧٤] .

الأحاديث في فضل المراقبة والجهاد :

في فضل المراقبة والجهاد، وفي فضل الشهادة يقول ﷺ : «عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١)، ويقول أيضاً : «تضمن الله - أي تكفل الله - لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم، وريحه مسك، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله فأحيا ثم أقتل فأحيا، ثم أقتل فأحيا ثم أقتل»^(٢)، ويقول ﷺ : «ما من عبد يموت له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة»^(٣). وروى الشيخان أيضاً : «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع الشمس عليه وتغرب»، وقال ﷺ أيضاً : «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال : حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري مرفقاً (٣٦)، (٢٣٧)، (٢٧٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه .

المراد بالجهاد في الآيات والأحاديث:

المراد بالجهاد هو الجهاد الذي يقصد به إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن الحق وعن الوطن والأمة والديار . فعن أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، الرجل يقاتل للذكر ، الرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله» ^(١) .

ولقد ورد أيضاً : «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم ، فلان يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية ، ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله . فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» .

صفحات مضيئة للسلف الصالح:

لقد كان المؤمنون الأولون يلبون النداء ، ويستجيبون للدعاء ، ويتمنون لقاء الأعداء ، لينالوا الشهادة التي يعتبرونها غاية المنى عندهم ، لقد كانوا يتسابقون إلى الموت . وما كان الولد يقدم أباه عليه في الجهاد ، كما أن الوالد ما كان ليؤثر ولده عليه في الجهاد ، وقد يتخاصمان ويلجأان إلى القرعة .

خيثة أبو سعد رضي الله عنه :

هذا خيثة أبو سعد ، يريد الخروج مع النبي ﷺ في غزوة بدر فيأتي ولده سعد ، ويجادله في أن يخرج بدلاً منه ، وأخيراً يقترعان فتخرج القرعة

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٦) ، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

في نصيب سعد، فيخرج مع النبي ﷺ فيموت شهيداً في تلك الغزوة .
لقيت روحه ربها راضية مرضية .

ولما أراد أن يخرج ، وقبل الخروج ، جاءه والده خيثمة وقال له : يا بني
أثري اليوم ودعني أجاهد بدلاً منك . فقال له سعد : والله يا أبت لو كان
ما تطلبه مني غير الجنة لفعلت . يريد بذلك أنه بخروجه إلى الجهاد مع
الرسول ﷺ سينال الشهادة ، وقد نالها .

ولما جاءت غزوة أحد قال خيثمة عند الخروج إليها : لقد أخطأتني وقعة
بدر ، وكنت والله عليها حريصاً . وقد ساهمت ابني في القرعة فخرج في
السهم نصيبه . وقد رأيت البارحة ابني في النوم على أحسن صورة يسرح
في ثمار الجنة وأنهارها . ويقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فإني قد وجدت
ما وعد ربي حقاً . وإني يا رسول الله قد أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد
كبرت سني ، ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي ، فادع الله أن يرزقني
الشهادة . فدعا الرسول له . فخرج إلى أحد ، فقتل فيها شهيداً .

عبد الله أبو جابر:

ها هو جابر بن عبد الله يخلفه أبوه على أخوات له سبع ، ويقول له : يا بني
ما ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذي
أؤثرك على نفسي بالجهاد مع رسول الله ﷺ ، فتخلف على أخواتك . فتخلف
عليهن . خرج والد جابر عبد الله واستشهد في غزوة أحد ، وقال فيه عليه
الصلاة والسلام : «ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»^(١) .

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٢) ، ومسلم (٢٤٧١) من حديث جابر رضي الله عنه .

حتى أصحاب الأعدار يخرجون للجهاد:

لقد كان حب الجهاد قد ملك قلوب المؤمنين الأولين حتى امتد هذا الحب إلى أصحاب الأعدار من المؤمنين ، حتى امتد هذا الحب إلى الأولاد الصغار الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال . فها هو رسول الله ﷺ يستعرض الجيش في غزة أحد . فيرى بينهم أولادًا صغارًا فيردهم ، إلا أن فتى اسمه رافع أخذ يتناول على أطراف أصابع قدميه ليوهم الرسول ﷺ بأنه بلغ سن القتال ، فأجازه الرسول وخرج معه . كما خرج معه أيضًا أولاد ألحوا عليه ، لأجل أن ينالوا الشهادة في سبيل الله .

عمرو بن الجموح:

هذا عمرو بن الجموح ، هذا كان أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء يجاهدون ويغزون مع النبي ﷺ ، فلما أراد عليه الصلاة والسلام أن يخرج إلى أحد أراد عمرو أن يخرج معه ، فقال له أولاده . لقد جعل الله لك رخصة وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ [النور: ٦١] ، فنحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد . فذهب عمرو إلى النبي ﷺ وقال له : إن بني يمنعوني أن أخرج معك للجهاد . فقال له : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . ثم قال لبنيه . وما عليكم أن تدعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فذهب واستشهد في غزوة أحد . فذهبت روحه إلى ربها راضية مرضية .

من الاعتصام بحبل الله التعاون على البر:

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، من الاعتصام بالله ، ومن طاعة الله أن يتعاون المؤمنون على القيام بالمشاريع

الهامة العامة التي تحقق الخير والفلاح للأمة والبلاد . يقول جل جلاله : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] ، إن التعاون المأمور به في هذه الآية عام يشمل المؤازرة على كل عمل ينتج عنه الخير للفرد أو الجماعة أو الأمة ، لا فرق في ذلك بين أن يكون هذا الخير من مصالح هذه الدنيا التي تقرأها الشريعة المطهرة ، أو من وسائل السعادة في الدار الآخرة .

فكما أن من التعاون على البر أن ينهض القوم لإعلاء كلمة الله ، بنصرة دينه ، وتأييد شريعته ، وإقامة المساجد التي يذكر فيها اسمه ، وتقام فيها شعائره ، كذلك من التعاون على البر أن ينهض القوم لإعلاء كلمتهم ، بنحو بناء المدارس والمعاهد والمستشفيات ، والملاجئ ودور الأيتام ، وتأسيس الشركات ، والجمعيات الخيرية والتعاونية على اختلاف أشكالها ، وعلى إقامة المصانع الحربية التي تزودهم بالأسلحة ليتمكنوا من الوقوف أمام أعدائهم وهم كثيرون .

اتخاذ الوسائل لحفظ الحرية والكرامة :

من الاعتصام بالله أن تتخذ الأمة الوسائل المجدية ، لتكون عزيزة الجانب ، موفورة الكرامة ، تتمتع بحريتها واستقلالها ، وأن تعرف أصول الحياة الطيبة ، والسنن التي ربط الله بها عز الأمم وسعادتها ، لتعمل لها جاهدة ، وتحرص عليها الحرص كله .

إعداد العدة المناسبة للعدو :

من الاعتصام بالله وطاعته أن تعد الأمة العدة الكافية للدفاع عنها ، ودفع كل أذى واعتداء يوجه إليها ، يقول جل شأنه : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

أَسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠]. على أن تسير الأمة في طريقها سير العاقل الرشيد، فتقدم حين ترى في الإقدام الخير والمصلحة، وتحجم حين ترى في الإحجام الخير والمصلحة، فاتخاذ الحيلة وإعداد العدة، ولزوم الحذر، والعمل بكل تدبير وحكمة، وكيد وخدعة، وصبر وثبات، من وسائل النصر على الأعداء، والظفر بالخصوم الأشداء.

تبادل المشاعر الصادقة ونشر الإيثار والحب:

من طاعة الله والاعتصام بحبله أن يتحسس المؤمن بإحساس أخيه، وأن تشعر الجماعة بشعور الجماعة، وأن يشعر كل قطر من الأقطار الإسلامية بشعور بقية الأقطار.

أي اعتداء على مسلم فهو عليهم جميعاً:

إن من الاعتصام بحبل الله أن يعتبر المسلمون الاعتداء الواقع على أي قطر من أقطارهم. هو اعتداء موجه إليهم جميعاً، عليهم أن يهبوا للدفاع عن ذلك القطر. فالاعتداء على فلسطين اعتداء على المسلمين جميعاً في جميع أقطارهم. وعليهم أن يهبوا لنجدتها ونصرتها ومساندتها لاسترداد الجزء السليب منها.

مَنْ لفلسطين الأرض المقدسة؟

إن فلسطين بلد الإسراء والمعراج، فلسطين بلد المسجد الأقصى المبارك، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ولقد جاهد المسلمون الأولون في سبيلها جهاداً مستميتاً، ودافعوا عنها دفاعاً قوياً، وحافظوا

عليها ، ومنذ فجر الإسلام وقوافل المقاتلين ، ومواكب المجاهدين ، وركب الميامين تسير إلى تلك البلاد المقدسة لتنال الشهادة على أرضها ، ولتلاقي ربها راضية مرضية ، ولتسعد في جواره بالحياة الطيبة ، والرزق الكريم . كما قال ﷻ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

ولقد اختلطت تربتها بدماء الشهداء الأبرار من الصحابة والتابعين ، ومن أنصار صلاح الدين ، ولقد ساهم رجال الإسلام الأخيار في الدفاع عن فلسطين ، واستشهد عدد منهم على أرضها ، ونال الشهادة في سبيلها . ولا تزال قبورهم في فلسطين يذكرها الناس بكل إجلال وتكريم .

إن هذه البلاد المقدسة فلسطين قد عبث بها الأعداء ، وتآمرت عليها الدول الاستعمارية ، دول الظلم والطغيان في الشرق والغرب ، ولكن تآمرت عليها في حين غفلة منا ، وبسبب تفرق كلمتنا ، وابتعادنا عن الله ، وعن دينه وعن تعاليمه ، واقتطعوا جزءاً غالياً منها وسلموه لقمة سائغة إلى اليهود ، وأنشئوا إسرائيل لتكون شوكة في قلب البلاد الإسلامية والعربية ، ولتكون مصدر شر وفساد في تلك المنطقة الحيوية الهامة من العالم .

فالصراع القائم الآن بيننا وبين أعدائنا في فلسطين هو صراع بين الحق والباطل ، صراع بين العدل والظلم ، بين الهدى والضلال ، والباطل لا يدوم ، وإن اشتدت صولته ، وامتدت دولته إلى حين . والحق يعلو ولا يعلى عليه ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

الواجب على أصحاب الحق:

على أصحاب الحق أن يعملوا من أجله ، وأن يجاهدوا في سبيل تحقيقه وتأنيده ، فالحق لا ينال بسهولة . ولا يعطى بليوننة بل لابد من اقتحام المخاطر ، وملاقة الشدائد ، وبقدر الكد والعمل النافع المنتج يكون الربح والجزاء وليس للضعيف مكان في هذه الحياة . ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

إن نصر الله قريب لمن نصر دينه ، وأيد شريعته ، وأقام حدوده .

اتباع الصراط المستقيم:

من الاعتصام بالله اتباع صراط الله المستقيم ، والابتعاد عن السبل الضارة التي تخالفه ، يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، فصرط الله وسبيله ظاهر الاستقامة ، لا يضل سالكه ولا يهتدي تاركه ، ولقد أفرد الصراط ، صراط الله وجمعت السبل ؛ لأن صراط الله هو الحق ، والحق واحد والباطل ما يخالفه وهو كثير .

ولقد روى ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ خط بيده خطاً ثم قال : «هذا سبيل الله مستقيماً» ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»

ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ .

من ثمرات الاعتصام بحبل الله :

إن الاعتصام بحبل الله فيه سعادة الأمة في عاجلها وآجلها ، وفي دنياها
وآخرتها . وإنه ليجدر بالأمة التي جعلت حبل الله وكتاب الله إمامها في
أعمالها وقائدها في أمورها ، ومرشدها في خلاها وخصالها ، ونورها الذي
تستضيء به لسلوك سبيلها السوي وطريقها القويم . هذه الأمة جدير بها
أن تكون أرفع الأمم شأنًا ، وأعلاها قدرًا ، وأقواها بأسًا . وأفضلها
للاستخلاف في الأرض ، والتمتع بالسعادتين في الدنيا والآخرة . ﴿وَعَدَ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ
بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥] .

نموذج مشرق لأهل الاعتصام :

هاهم المؤمنون الأولون الذين آمنوا بالله ، واعتصموا بحبله ، وتمسكوا
بكتابه ، واهتدوا بسنة رسوله ، ووجدوا كلمتهم ، وأجمعوا أمرهم ، هاهم
أقاموا أمة قوية متماسكة أقامت قواعدها ، وأسست بنيانها على تقوى
من الله ورضوان ، وقد استطاعوا بفضل ذلك أن يفتحوا البلاد ، ويؤسسوا
الممالك ، ويتغلبوا على أعدائهم وخصومهم في مدة وجيزة لا تزيد عن
نصف قرن ، فنشروا العدل والهداية ، والأمن والطمأنينة .

وإن تقدم أولئك المؤمنين ، وإن نجاحهم وفوزهم وتغلبهم على أعدائهم لم يكن راجعاً لماضي سلاحهم ، ولا لوافر علمهم ، ولا لكثرة عددهم ، ولا لقوة عتادهم ، وإنما جل الفضل كان في اجتماع كلمتهم ، وتوحيد شتاتهم ، وجمع شملهم ، وأخيراً لاعتناقهم عقيدة عملوا من أجلها ، وضحوا في سبيلها ، وتفانوا فيها ، تلك هي فكرة التوحيد والاتحاد ، والتعاون على البر والتقوى ، ممثلين أمر الله ، ومحققين معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۖ ﴾ .

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ :

قد استمر تقدمهم ، وتوالت انتصاراتهم ، وتضاعفت قوتهم ما كانوا ملتزمين لحدود الله ، وما داموا معتصمين بحبل الله ، إلى أن خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات وانقادوا لأهوائهم ، وساروا وراء أطماعهم وشهواتهم ، وآثروا مصالحهم الشخصية على مصالح الأمة العامة ، ونسوا الله فسيهم ، وسلط عليهم من أعدائهم من يسومهم سوء العذاب ، ومن يأكل خيرات بلادهم ، ومن يسلبهم حريتهم ، ومن يذيقهم ألوان الأذى والاضطهاد ، ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

لقد تباينت أهوائهم ، واختلفت كلمتهم ، وتعددت أهدافهم ، وغيروا ما بأنفسهم ، فغير الله حالهم ، فأبدلهم بعد العز ذللاً ، وبعد الغنى فقراً وبعد القوة ضعفاً ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكْ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

الأمة لا تحيا إلا بتضحية أبنائها:

إن الشدائد التي مرت بالمسلمين وتمر بهم ينبغي أن تكون حافزة لهم إلى الرجوع إلى الله، والاعتصام بحبله، والتمسك بكتابه، والاستهانة بالعقبات والمشقات في سبيل الذود عن حياض الدين، والمحافظة على سلامة الوطن الكبير، فالأمة لا تحيا إلا إذا ضحت في سبيل سيادتها وسعادتها، وجاهدت في سبيل عقيدتها وإيمانها، وبذلت في سبيل حريتها وكرامتها، فمن استشهد من أبنائها في ميدان الشرف والجهاد لقي ربه مرضيًّا، وفاز في جواره وكنفه بالنعيم المقيم. والذين يبقون بعد حصد السيوف، وقذف المدافع هم الناجحون في الحياة، الجديرون بكل رفعة وكرامة وحرية واستقلال.

دعوة إلى الإيجابية ونبذ السلبية:

المؤمن لم يخلق ليلهو ويلعب، ولا ليأكل ويشرب فحسب، وإنما خلق ليعمل ويكد ويجد، ليكون عضوًا فعالًا عاملاً نافعًا في هذه الحياة، وليعيش مرفوع الرأس، عزيز الجانب، موفور الكرامة، وهذا هو تاريخ المسلمين والعرب المجيد، هذا هو عمل السلف الصالح الحميد، إذا رجعنا إليه رأينا أنهم لم ينالوا عزًّا بغير جهاد، ولم يدركوا خيرًا بغير نضال، ولقد أجمعوا كلمتهم، ووحدوا صفوفهم، وصدقوا الله فيما عاهدوا، وأخلصوا له فيما قالوا وما فعلوا، فكان لهم نصيرًا، ومعهم معينًا، ومكنهم من أعدائهم ونصرهم عليهم.

فعلينا معاصر المسلمين وقد اشتد الخطب وعظم الكرب، وتكالت علينا الجموع والأعداء من كل جانب، علينا أن نسير على نهجهم، وأن نسلك

سبيلهم ، وأن نمشي في طريقهم ليؤتينا الله خيرًا كثيرًا ويدفع عنا شر أعدائنا ،
وينصرنا عليهم ، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١٤] .

﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ :

لعل العبر الماثلة أمام المسلمين اليوم ، لعل الأخطار المحدقة ، لعل هذا
وذاك يوقظ النائم ، وينبه الغافل ، ويحرك الجامد ، ولعل نفحة من نفحات الله
تهب على قلوب المؤمنين فتجمعهم بعد شتات ، وتؤلف بينهم بعد جفاء ،
وتقربهم بعد نفرة ، وتوحدهم بعد فرقة . ولعل نفحة من النفحات الربانية
تهب على قلوب المسلمين فتعدهم لتلقي النور الإلهي ، وتحملهم على
الرجوع إلى الهدى النبوي ، وما ذلك بعزيز على رب الأرباب ، مؤلف
القلوب ومفرج الكروب ، سبحانه لا إله إلا هو ، وحده لا شريك له ، له
الحكم وإليه ترجعون .

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] . هذا
وعد صريح قاطع من الله ﷻ لعباده المؤمنين بأن ينصرهم على أعدائهم ،
ويمكن لهم في الأرض ، ويثبت أقدامهم إذا هم نصروا دينه ، واعتصموا
بجبله ، وتمسكوا بكتابه ، وجاهدوا في الله حق جهاده .

المحاضرة السابعة عشرة بعد المائتين

الاجتهاد في الإسلام

روى البخاري عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :
«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم
أخطأ فله أجر» .

سؤال مهم :

قبل الخوض في الموضوع سأعرض هذا السؤال وأتناول البحث عنه من
جميع جوانبه باختصار ، هل في إمكان العالم الإسلامي أن ينهض من
عثرته ، ويقف على رجليه من جديد؟ أم إن أمره انتهى ودخل في حيز
التاريخ؟

هناك تياران مختلفان ، إذا كان أنهى العالم الإسلامي مهمته ، فماذا ينبغي
له أن يفعل؟ أن يندمج ، أن يستسلم! إذا كان لم ينه مهمته ، فما هو الطريق
إلى البعث والنهوض؟ هل بالتخلي نهائياً عن الإسلام؟ أم بإحياء الإسلام
والعودة إلى الإسلام؟ مشكل فكري واجتماعي جدير بفحص عناصره
ووضعه على بساط البحث .

وسيلة تجديد الإسلام :

إذا كنا نقول بأن الإسلام يمكن تجديده ، ونحن ممن يقول ذلك فرضا
علينا وإيماناً بمعتقدنا وديننا ، فبأي وسيلة يمكن تجديد الإسلام؟
الوسيلة في رأينا هي استئناف العملية التي برز بها الإسلام من قبل ، والتي

بهر بها العالم ، فهي تجربة عملية ناجحة ، كل الدلائل تدل على أنها كانت تجربة موفقة ، ملائمة للفطرة وللطبيعة ولسير التاريخ ، نعم إن الإسلام أول ما انبلج فجره وأضاء نوره على العالم .

تحرير العقل البشري من أوهامه :

كان أول ما امتاز به هو أنه نادى بتحرير الفكر البشري ، وإنقاذ العقل من جميع ما كان لاصقاً به من الأوهام والوساوس والضلالات ، فقد قام الإسلام بعملية كبرى ، عملية التطهير للفكر البشري ، فأنقذه وطهره ، وجعله جوهراً لامعاً شفافاً مضيئاً مشرقاً ، وكانت آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام كلها ناطقة وداعية إلى تقديس العقل ، وإلى فرض التفكير والتدبر والتأمل والاعتبار ، وإلى إبراز أن أهم ما في الإنسان هو عقله ، وأن هذا العقل يجب أن يتحرر وأن ينطلق وأن يعمل كل ما هيئ له في هذه الحياة ، وكان من ذلك العقيدة والشريعة ، فلم يبخل الإسلام أن يجعل العقيدة مجالاً للعقل ، ولم يبخل بأن يجعل الشريعة مجالاً للعقل ، حتى إن من آمن بالله ، ولم يدرك إيمانه ببرهان عقلي ، يعتبر في نظر المسلمين غير مسلم ، وحتى إن الشريعة الإسلامية جعلت العقل عنصراً مساعداً لها ، وعنصراً فعالاً يتدخل من البداية إلى النهاية في ظلها ، وفي إطارها .

أعظم تكريم للعقل في الإسلام أهليته للاجتهاد :

هكذا كان الاجتهاد في الشريعة أي : إطلاق العبقورية الإنسانية في مجالها الحيوي الطبيعي لتستنبط وتفكر وتبتكر وتبدع ، كان الاجتهاد في الشريعة الإسلامية جزءاً من خطة الإسلام في تحرير الفكر وتقييمه ، وفتح المجال

لنشاطه وتطوره ، وهكذا أصبح العقل ينظر ليس فقط في شئون الطبيعة والكون المجرد ، بل يتدخل في شئون الدين نفسه تدخلاً مباشراً ، واعترف الإسلام للعقل بأهليته للاجتهاد ، وكان ذلك الاعتراف هو أسمى درجة من التكريم للعقل ، والاعتراف بصلاحيته وكفاءته ، ورغمًا عن أن النظر في الشريعة في الأصل هو من اختصاص الوحي والنبوة ، وأن الحكم فيها لله قبل كل شيء ، فإن الله تعالى قد أعطى للعقل صلاحية الاستنباط ، وأعطاه بذلك أسمى مركز بالنسبة للعقل ، ومنحه أكبر وسام إلهي ناله الإنسان على يد الإسلام ، إذ جعل له حق التدخل في نفس الشريعة ، وجعله عنصراً مساعداً إلى جانب الوحي .

نشأة الاجتهاد :

متى ابتدأ الاجتهاد؟ هل الاجتهاد عملية طارئة نشأت تحت ضغط الظروف بعدما فارق الرسول ﷺ هذا العالم ، أم أن رسول الله ﷺ الذي كان يتلقى الوحي ويلقيه للناس هو نفسه الذي اجتهد بنفسه ، وعلم أصحابه كيف يجتهدون ، وأقرهم على الاجتهاد؟ وبذلك وضع الخطة الكاملة للتشريع الإسلامي بحيث كان الإسلام من أول لحظة قد استكمل عدته فأقام شريعته على عنصرين : عنصر الوحي ، وهو من نور الله ، وعنصر الاجتهاد وهو من نور العقل الذي خلقه الله .

وكان الوحي هو الطليعة الأولى للشريعة وهو الأساس الأول للتشريع الإسلامي ، بما احتوى عليه من كتاب الله ، وسنة الرسول ﷺ ، ولكن هذا الوحي شاءت القدرة أن يمتد إلى زمن محدود ، وأن ينتهي في وقت خاص ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وانقطع الوحي ، فهل يبقى

المسلمون في ظلمات بدون نور؟ من سيوحى إليه بعد الرسول ﷺ؟ إن الرسول خاتم الأنبياء والمرسلين، وإن الوحي قد انقطع، نعم انقطع الوحي، ولكن بقي إحياء الوحي، واستحياء الوحي، والإحياء والاستحياء عملية درب عليها الرسول ﷺ أصحابه، ومكنهم منها وأقرهم عليها، وتلك العملية هي عملية الاجتهاد.

إقرار النبي ﷺ لأصحابه على الاجتهاد:

كان رسول الله ﷺ والوحي يحيط به من كل جانب، وصلته بالله قائمة في كل لحظة وحين، لا يحتاج إلى اجتهاد، ولكن الرسول ﷺ، يعلم أن الله جعل دينه شريعة عامة للخلق، وأنه بعث إلى الناس كافة، وأن حوادث الكون وتطورات وأوضاعه لن تقف عند الحد الذي كان عليه الحال في عهد الرسول ﷺ، فكان يهيئ المدرسة المحمدية التي ستتلقى المجد بأيديها، والتي ستقبض بصولجان الفتح، والملك الإسلامي في أطراف الأرض كلها، وكان لابد من أن يعد هؤلاء التلاميذ ليؤدوا دورهم على أحسن حال، فاجتهد رسول الله ﷺ وترك أصحابه أن يجتهدوا، واستفسروه فأقر بعضهم على ما أصاب فيه، وصحح اجتهاد بعضهم بعدما كان خطأ.

الحكمة من اجتهاد النبي ﷺ:

إن التجربة النبوية نفسها جعلت الرسول ﷺ يجتهد فيصيب، ويجتهد أحياناً فيتعرض اجتهاده لعتاب من الله رقيق، وكل ذلك لحكمة إلهية:

أولاً: أن يستن المسلمون بسنة الرسول ﷺ فيجتهدوا، وثانياً: ألا يحصل للمسلمين هلع وخوف من الخطأ في الاجتهاد، فإن في رسول الله ﷺ أسوة،

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى لا يقر رسوله على خطأ لأنه يتداركه بالوحي حيناً، فإن الوحي سوف يظل قائماً يهدي المجتهدين إذا أخطئوا، ويقوم من خطئهم في الوقت المناسب، وهكذا كان اجتهاد رسول الله ﷺ هو اللبنة الأولى في تطور الإسلام، وفي استعداده للاستيعاب للحياة.

تخرج الدفعة الأولى من المدرسة المحمدية:

تخرج الصحابة وهم التلامذة الأولون في المدرسة المحمدية فكانوا على أهبة ودربة، لأنهم تلقوا من رسول الله ﷺ كل المناهج الصالحة ليقوموا بدورهم الكامل في الحياة، وما كادت الفتوحات الإسلامية تبدأ، وما كادت الحياة الإسلامية تأخذ في التطور، وفي الحركة يوماً بعد يوم، حتى أخذوا يواجهون الأحداث بقلب مطمئن، وفكر متزن، وعقل نافذ، وبصيرة مستنيرة، ورأي سليم، فاجتهدوا على ضوء اجتهاد الرسول ﷺ. ولم يتهيئوا أن يواجهوا أية مشكلة من أي نوع، وما أظن أنه مر على المسلمين عهد واجهوا فيه من المشاكل والمتاعب مثل ما واجهه أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فلم تتسع رقعة الإسلام في عهد كما اتسعت في ذلك العهد، ولم تزدحم الحوادث والمشاكل كما ازدحمت في ذلك الوقت، فكان هؤلاء الخريجون الأوفياء يوفون بما عاهدوا الله عليه، ويؤدون للإسلام كل ما يحتاجه من تشريع ومن تنظيم، ومن حكم سليم، وبذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم هم الطليعة الأولى، والرواد الأولون في ميدان الاجتهاد، بحيث نجد في اجتهاداتهم خير ما يرشدنا إلى أدق النظريات الحديثة التي يقال اليوم إنها تقدمية وتحررية.

خلفاء الرسول وحمل راية الاجتهاد :

نجد عمر بن الخطاب هو إمام المجتهدين الأول ، وهو مؤسس مدرسة الاجتهاد في أوسع نطاق ، وهكذا ما كاد يتسلسل العلم من الخلفاء الراشدين ، ومن الصحابة إلى التابعين ، ومن التابعين إلى أتباع التابعين ، حتى استمرت الهداية الإسلامية آخذاً طريقها واستمرت تقاليد الاجتهاد تعمل عملها ، واستمرت الدوائر الفكرية الإسلامية ، تبحث وتفكر ، وتشعر وتجتهد ، مؤمنة بنفسها ، واثقة بقدرتها ، مستعدة لمواجهة كل مشكل ، ليس عندها أي مركب نقص ، ومن هنا كان العالم لإسلامي ، وكان الإسلام لم يقع فيه فراغ ، فإذا غاب رسول الله ﷺ فإن نوره لم يغب ، وإذا غاب رسول الله ﷺ فإن خلافته قد قامت ، وهذه الخلافة الدينية الفكرية التشريعية ، هي خلافة المجتهدين .

فقد وجد في العالم الإسلامي بعد رسول الله ﷺ من يحمل المصباح ، وينير السبيل ، أولئك هم المجتهدون الذين استوعبوا الشريعة ، واندجت في نفوسهم ، وعرفوا أسرارها ومقاصدها ، واطلعوا على خفاياها ، واختلطت بضمايرهم ، وتكون لهم فيها ذوق وحساسية دقيقة ، يميزون بها الحق من الباطل ، والخير من الشر ، أولئك هم خلفاء الرسول في التشريع ، في النبوة في الاجتهاد في إلقاء الأضواء على العالم الإسلام ، في الوقوف على حافة الفصل بين الحلال والحرام ، حتى لا يضل المسلمون ، وحتى يهتدوا دائماً إلى ما هو خير وما هو حق ، ومن هنا كانت المكانة العظمى للاجتهاد في الإسلام .

مقام المجتهد في الأمة:

ما من مسلم عندما يتذكر المجتهدين، مجتهدي الصحابة، مجتهدي التابعين، مجتهدي الأئمة، إلا ويترحم عليهم ويطأطئ الرأس إجلالاً لهم، لأن متتهم على المسلمين في أعناق المسلمين جميعاً، ولأن فضلهم على العالم الإسلامي لا يحصى ولا ينتهي، وهذه المكانة آتية من أن حكم الله ورسوله، يظهر على أربعة ألسنة، وفي طليعتهم لسان المجتهد، ولسان المفتي، وبعده لسان الحاكم، ولسان الشاهد، ولسان الراوي، فهذه الألسنة عن طريقها يصل حكم الله إلى المسلمين، والمبرز في هذا المجال هو المجتهد، لأنه قائم في الأمة مقام النبي ﷺ ألم يقل الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١).

إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم... والعلم النبوي هو علم الهداية، وعلم التشريع، ألم يقل الرسول ﷺ: «من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه»^(٢). فالنبوة بين جنبيه حية طرية، يقطرة، ومنها يستمد المسلمون حياتهم ونورانيتهم. ألم يقل الحق سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]؟، ألم يقل للمجتهدين: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فالمجتهدون منذرون على قدم الرسول النذير.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١/ ٧٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٥٢٢) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

المجتهد نائب عن الرسول في تبليغ الأحكام:

المجتهدون كذلك نواب عن الرسول ﷺ في تبليغ الأحكام، فهذه النصوص من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم تنتقل من جيل إلى جيل إلا بواسطة التبليغ، وعلى عاتق من وقع هذا التبليغ بالدرجة الأولى؟ إنه وقع على عاتق الأئمة العلماء المجتهدين، فلهم ندين، وبفضلهم نعيش في ظل الإسلام، لقد قال الرسول ﷺ: «ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب»^(١)، لقد قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^(١). والمجتهدون صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلم يكتموا عن أمة الإسلام شيئاً، وتبليغ أحكام رسول الله ﷺ وأحكام الدين، إما أن يكون تبليغاً لما هو منقول من نصوص القرآن والحديث، والمجتهد عندما يبلغ ذلك يوضح معالم هذه النصوص، فيلقي عليها الأضواء حتى تفهم الفهم الصحيح، بتحقيق ألفاظها، بتحقيق مناطها، بتنزيلها على الحوادث والنوازل والقضايا والأحكام، وإذا كان الذي يبلغه إلى المسلمين غير منقول لأنه لم يرد فيه نص، فسيكون مستنبطاً من منقول أي بمجهود المجتهد، وببذله الوسع، وبخبرته العلمية، فهو في ذلك يقوم مقام الشارع، لأنه ينشئ حكماً شرعياً على ضوء هداية الشارع وفي إطاره، فكيف لا تكون له المكانة الكبرى في الإسلام؟ وهو خليفة عن الرسول مبلغ عنه، وهو في نفس الوقت يملأ الفراغ الذي بقي بعد الرسول ﷺ، والذي فتح الرسول ﷺ له الآفاق، وأعطى المفتاح والنور الأخضر.

(١) سبق تخرجه .

المجتهد هو الموقع عن الله:

المجتهدون كذلك يخبرون عن الله كالنبي ، ويوقعون على أفعال المكلفين بأحكام شرعية ، هذا حلال ، هذا حرام ، وهذا التوقيع من التوقيعات الشريفة ، لأنه قائم بمنشور من الخلافة النبوية للمجتهدين ، والمجتهد واقف للناس على خط الفصل بين الحلال والحرام ، فهو الذي يقف في الطريق كأنه العسكري المحافظ على الأمن الذي يقول : مر من هنا ، ولا تمر من هنا ، هذا حمى الله فلا تنتهكه ، وهذا حلال فلتقربه ، فمن هنا كانت مكانة الاجتهاد عظيمة في الإسلام ، وكان مركز المجتهدين كبيراً عند الله وعند المسلمين .

المجتهدون حملة الحكمة ومنازل الفرقان:

قد أكرم الله هؤلاء المجتهدين فجعلهم حملة الحكمة ، وجعلهم منازلًا للفرقان ، وصدق عليهم قول الله تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ، ولقد جاء في الأثر : «إن الحكمة هي الفقه في دين الله» ، وقال الله تعالى : ﴿إِنْ تَقُفُوا عَلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] ، وهذا الفرقان واضح في أذهان المجتهدين ، وفي مشاعرهم ، وفي حساسيتهم ، فهم يدركون أمارات الحق بسرعة وبديهة وفطرة ، في الوقت الذي لا ينتبه إليها بقية الناس ، بحيث يميزون الحق من الباطل تمييزاً حساساً كأنه تمييز غريزي ، لأن الله آتاهم هذا الفرقان ، ﴿إِنْ تَقُفُوا عَلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ .

هذه الأهمية للمجتهدين:

هذه الأهمية إنما جاءت للمجتهدين من أجل الوظيفة التي يقومون بها ، لأن الوظيفة التي يؤدونها في الإسلام وظيفة كبرى ، فلولا أن الله أكرم الإسلام بالمجتهدين الذين حافظوا على إبقاء المدد الإسلامي ، ومدد الوحي ، مستمرًا قائمًا إلى يوم الدين ، لما كان للإسلام وجود حتى اليوم .

فضل الاجتهاد على المسلمين:

إن ظهور الاجتهاد كان نعمة كبرى من الله على المسلمين ، لأنه أعطى الدليل لكل الفئات التي دخلت في الإسلام ، وقد كانت متعطشة إلى النور ، ومتعطشة إلى العدل ، ومتعطشة إلى التقدم والرفاهية ، أعطاهما الدليل على أن الإسلام قادر على أن يستوعب الحياة من جميع جنباتها ، وقادر على أن يقدم الحلول لجميع المشاكل ، وقادر على أن يرضي كافة الحاجيات للناس على اختلاف طبقاتهم وسلالاتهم ، بل حتى على اختلاف مللهم ، فقد كانت الدولة الإسلامية كما تشتمل على المسلمين تشتمل على غير المسلمين ، وكان المجتهدون يشرعون للمسلمين ، ولمن هم في ظل الحكم الإسلامي من بقية الناس ، وأحسن العالم كله أن الإسلام له القدرة الكافية القاهرة والخارقة على أن يملأ كل فراغ في هذه الأرض ، وفعلاً ملأ الفراغ ، وكان جديرًا بما ناله من عزة وعظمة واستقرار وامتداد أفق ، وامتداد رقعة .

الاجتهاد لم يقتصر على الجانب التشريعي:

إن الاجتهاد في العصور الإسلامية الزاهرة لم يكن قاصرًا على الجانب التشريعي ، فقد كان الاجتهاد ظاهرة عامة في سائر فروع الثقافة الإسلامية ، في

كل فرع مجتهدون، وفي كل علم عابرة، والعقل الإسلامي منطلق، وطاقاته معبأة، والمجالات مفتوحة في وجهه، وهو يخترق الآفاق والسحب، ويستوعب من الحقائق ويقدم من التجارب، ويقعد من القواعد ما يملأ الأدمغة علمًا، وما يملأ الأفكار نورًا.

الاجتهاد عم كل العلوم:

الاجتهاد ظاهرة إسلامية عمت كل العلوم وكل الفروع، في العربية، في البلاغة، في الحديث، في الطب، في الفلسفة، في العقيدة، في علم التوحيد، في الفقه، في جميع الفروع، وبذلك كان الامتداد الإسلامي، وكان المدد للفكر الإسلامي، والدفع الإسلامي في منتهى القوة، بحيث حرك جميع الجهود، وعبأ جميع الطاقات، ووجه الأفكار كلها وجهة واحدة لتسابق وتتنافس في ميدان الإبداع والسمو والكمال.

كيف بدأ الاجتهاد في التشريع؟

الاجتهاد في التشريع كيف نشأ هذا الاجتهاد؟ لقد رأينا أن رسول الله ﷺ هو الذي وضع اللبنة الأولى فيه، ورأينا الصحابة رضوان الله عليهم، أقبلوا عليه إقبالًا كليًا، اجتهدًا جماعيًا واجتهادًا فرديًا، لم يقولوا في وقت من الأوقات إننا عاجزون أو لنبحث عند الفرس أو عند الرومان أو عند البيزنطيين أن يعطونا حلًا لمشكلتنا، بل كانوا أعز وأكرم، لا يستنبطون ولا يقتبسون ولا يهتدون إلا بالإسلام ومن الإسلام.

هذا الاجتهاد نشأ متسلسلاً من اجتهاد العصر النبوي، ثم في عصر الصحابة وأفتوا فتاويهم في النوازل التي حدثت لهم، اتفقوا وأجمعوا على

قسم مهم ، واجتهدوا اجتهدًا فرديًا في قسم مهم ، وجاء التابعون بعدهم ، فأخذوا هذا الرصيد من أيديهم ، يستمتعون به ، ثم أخذوا يضيفون على غرارهم ، فيستحدثون للنوازل الجديدة أحكامًا جديدة تزيد في ذلك الرصيد ، وتوسع ذلك التراث ، واستمرت الحلقة متواصلة والسلسلة متواصلة من يد إلى يد ، من يد الرسول إلى يد الصحابة ، ومن يد الصحابة إلى يد التابعين ، ومن يد التابعين إلى يد أتباع التابعين ، وقد قال ﷺ : «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»^(١) .

أنواع المجتهدين في الإسلام:

هكذا يكون في الإسلام أنواع من المجتهدين ، هذه الأنواع يمكن أن نحصرها في ثلاثة :

النوع الأول :

مجتهد استطاع أن يستوعب جميع الفروع والمعارف الاجتهادية التي يتوقف عليها في اجتهاده ، من الجانب التشريعي ومن الجانب اللغوي . ومن الجانب الفلسفي للشريعة ، حكمة التشريع ، نصوص ومعاني ولغة ، فكان مجتهدًا في جميع هذه الفروع ، وهذا هو الذي نعتبره في القمة .

النوع الثاني :

يليه في الدرجة الثانية قسم آخر يلم بهذه المعلومات الضرورية ويعرفها ، ويعرف كل ما يحتاج إليه لاستنباط الحكم والوصول إليه ، ولكن المعارف

(١) سبق تخريجه .

المساعدة التي يحتاج إليها ليس مجتهدًا فيها فمثلاً : ليس مجتهدًا في الحديث ، ولكنه يتلقاه مسلماً من غيره ، أو ليس مجتهدًا في علم القراءات ، ولكنه يتلقى نصوص القراءات من يد المقرئين ، أو ليس مجتهدًا في النسخ والمنسوخ والإجماع ، فهو يتلقى أن هذا ناسخ أو منسوخ أو مجمع عليه من المجتهدين في ذلك العلم ، ويبني على تلك المقدمات التي أخذها وتسلمها حكمه الاجتهادي في النازلة التي اجتهد فيها .

النوع الثالث :

القسم الثالث هو الذي لم يصل إلى الاجتهاد في كافة المعارف الضرورية للاجتهاد ولم يصل إلى كافة العلوم والمعارف الضرورية للاجتهاد ، ولم يصل فيها إلى نفس درجة الاجتهاد ، ولكنه عالم بالغاية التي يريد ، مطلع على الجانب الذي يفتقر إليه في المسألة التي يريد أن يجتهد فيها ، ويعرف أن أهل الاختصاص هم ذوو العلم الفلاني ، وأهل العلم الفلاني ، فهو يطرق بابهم ليأخذ منهم ويستمد ما يحتاج إليه من عناصر مكملة وضرورية ليني عليها اجتهاده في النهاية ، وهذا هو الذي يعتبر في درجة ثالثة .

عصر الاجتهاد الذهبي :

لم تضق فكرة الإسلام عن أن تفتح المجال للاجتهاد ولو في هذا الحد الثالث ، لأن الإسلام يريد أن يشجع على الاجتهاد ، وعلى الاستيعاب ، وعلى التفكير ، ومضت الحركة الاجتهادية التشريعية إلى أن وصل عصرها الذهبي ، وعصرها الذهبي كان عبارة عن قرنين اثنين : القرن الثاني ، والقرن الثالث .

أبرز المجتهدين في القرن الثاني:

في القرن الثاني ظهر وبرز عدة أئمة مجتهدين ، دونت مذاهبهم ، وذكرهم حسب وفياتهم :

الحسن البصري ، توفي سنة ١١٠هـ ، أبو حنيفة النعمان توفي سنة ١٥٠هـ ، عبد الرحمن الأوزاعي توفي ١٥٧هـ ، سفيان الثوري توفي ١٦١هـ ، الليث بن سعد توفي سنة ١٧٥هـ ، مالك بن أنس توفي سنة ١٧٩هـ ، سفيان بن عيينة توفي سنة ١٩٨هـ ، محمد بن إدريس الشافعي توفي سنة ٢٠٤هـ . هؤلاء الثانية ، هذه المصاييح المضيئة ، ظهرت في القرن الثاني .

أبرز المجتهدين في القرن الثالث:

تبعها في القرن الثالث بعدها خمسة مجتهدين بارزين دونت مذاهبهم ، وملئوا الدنيا علماً ، وهؤلاء هم حسب الترتيب :

إسحاق بن راهويه ، أبو ثور ، أحمد بن حنبل ، داود بن علي الأصبهاني ، محمد بن جرير الطبري .

ففي هذين القرنين كان العصر الذهبي للاجتهاد فكملت المذاهب ، واتضحت مناهج التشريع ، واستوعبت المسائل التي كان يتخبط فيها العالم الإسلامي إذ ذاك ، ووضعت لها الحلول التشريعية الملائمة .

فشا التقليد في القرن الرابع:

في القرن الرابع أي القرن الذي تلا هذين القرنين ، فشا التقليد ، وأصبح الموضوع الذي يثار بين الناس : أي المذاهب أرجح وأي المذاهب أفضل ؟

الخلاصة:

هكذا نرى أن العصر الذهبي في أكمله كان هو القرن الثاني ، فلم يكن فيه إلا مجتهدون ، والذين ذكرناهم إنما ذكرنا منهم الذين دونت مذاهبهم وقلدوا ، وإلا فهناك أسماء كثيرة لمجتهدين كثيرين ، والقرن الذي بعده لم يبرز فيه إلا خمسة مجتهدين دونت مذاهبهم ، وقد بدأ في ذلك القرن الثالث يتسرب التقليد إلى جانب الاجتهاد ، فما جاء القرن الرابع حتى كان التقليد يفسو ، والاجتهاد يتضاءل يوماً بعد يوم .

لا خلاف بين المجتهدين في الأصول:

هؤلاء المجتهدون على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم هم جميعاً متفقون على أصول الأحكام بحيث لا يوجد بينهم خلاف في الأصول الأصلية العليا ، وما يوجد من أقوال قد تكون مرجوحة أو ضعيفة ، فإنما توجد على تلك الصورة لأنها خرجت عن الأصل الأصيل لغلط وقع في الاجتهاد ، والخلاف بينهم إنما كان مظهرًا لاشتباه وجوه الرأي ، حسب طبيعة الاجتهاد ، كما أنه كان مظهرًا لاستقلال الشخصية ، وللنزاهة العلمية ، فليس هناك تملق ولا متابعة ولا موافقة بدون مبرر ، ولا ترجيح بدون مرجح ، والخلاف بينهم لم يكن للأنانية ولا للمعارضة ، بل كان سعة ورحمة ، ومعنى أنه سعة ورحمة ، أنه وسع باب النظر ، ووسع آفاق البحث ، وأعطى للأمة الإسلامية حلولاً متنوعة مختلفة ، يمكن للمسلمين أن يأخذوا منها ويختاروا ما يلائم مجتمعهم وظروفهم في أي وقت يريدون .

ظاهرتان ميزتا الاجتهاد في عصره الذهبي:

لابد أن نلفت النظر هنا إلى أمرين : هناك ظاهرتان ميزتا هذا العصر الذهبي للاجتهاد ، ولا سيما القسم الأخير منه ، القرن الثالث .

الحركة الحديثية:

في هذا القرن كانت الحركة الحديثية قد بلغت أشدها ، فهناك أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وابن المديني ، وابن معين ، وابن مهدي ، ونظراؤهم ، قد تصدوا فجمعوا السنة المفرقة في أقطار الإسلام كلها ، واستوعبوها جميعاً ، وتنقلوا بين أطراف المملكة الإسلامية في خراسان ، في العراق ، في مصر ، في الشام ، في كل مكان وصل إليه الصحابة ، وتكون لهم تلاميذ نقلوا عنهم أحاديث الرسول ﷺ فاستوعبوا تلك الأحاديث وجمعوها ودونوها ، وأصبح للحديث قوة وهيمنة ، وأصبح الفقهاء يواجهون أمامهم محصولاً نبوياً عظيماً ، لا يستطيعون أن يواجهوه بالنقض ولا بالمعارضة فكان ذلك سبباً في انكماش الاجتهاد القياسي ، في انكماش اجتهاد الرأي ، ذلك الاجتهاد الذي كان ينمو يوماً بعد يوم في أحضان الرأي والفكر ، في عهد مالك وأبي حنيفة ، والذي كان قائماً على عنصر طيب ومهم من الحديث النبوي ، ولكن لم يكن يوجد ذلك الحديث على ما هو عليه من السعة والكثرة كما أصبح عليه الآن ، هذا الحديث الغزير الكثير أصبح يتطلع إليه كل باحث في الفقه ومجتهد فيه ، فهو يحاول ألا يرى الرأي إلا منسجماً مع الحديث ، ويحاول ألا يتخلف عن الحديث ، ويتركه إلى الرأي والقياس .

وهكذا وجدنا أن الذين تكونوا في هذه الفترة من المجتهدين ، كان أكثرهم من أهل الحديث الذين يتمسكون بالاعتماد على النصوص أكثر مما يتوسعون في الرأي والقياس ، فهذه ظاهرة أولى .

اتساع النهضة الفكرية:

الظاهرة الثانية أن هذا الوقت نفسه المائة الثالثة وما يليها ، والمائة الثانية في هذا العصر كانت النهضة الفكرية قد اتسعت أطرافها ، وكانت النهضة العباسية قد آتت أكلها ، فهناك ترجمات وهناك بيت الحكمة الذي يوجد فيه المترجمون ، وهناك آثار الفكرة الفلسفية القديمة والعناصر الأجنبية غير الإسلامية من أفكار وآراء وفلسفة ، كل ذلك يترجم ويعرض على الناس ، ويتضح أمامهم ، ويدخل في محصلهم .

ملاحظة مهمة:

نلاحظ أن فقهاء الإسلام كانوا يتجاهلون كل التجاهل كل عنصر دخيل غير إسلامي ، فلم يتأثر الفقه الإسلامي ولا الشريعة الإسلامية لا بفلسفة اليونان ، ولا بقانون الرومان ، ولم يعترف علماء الإسلام لغير الإسلام بأن يكون مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي .

وكلما أمعنا النظر في اصطلاحات الفقه الإسلامي في معانيه ، في مناهج اجتهاده ، في الحلول التي يضعها فلن نجد فيه أثرًا قليلًا أو كثيرًا لشيء أجنبي غير إسلامي ، ومن عرف الفقه الإسلامي يستطيع أن يثبت ألف دليل ودليل على أن هذا التشريع معجزة محمد ﷺ الباقية على الدهر ، التي لم تدنسها عناصر دخيلة من أي وجه كان ، لأنها لم تفتقر إلى تلك العناصر ، إذ اكتفت بمصباح الوحي وباستحياء الوحي وبالاقتداء بالوحي .

مدرسة القانون ببيروت وأثرها في الاجتهاد:

ما يذكره بعض الناس من أن بيروت كانت فيها مدرسة للقانون الروماني، فعلاً كانت في بيروت مدرسة للقانون الروماني، وكانت في نهاية العصر الثاني قبل الميلاد أو أوائل العصر الثالث أيام عائلة (سيفر) الإمبراطور السوري الأصل، هذه المدرسة كانت قبل الميلاد بمدة طويلة، فلما جاء الإسلام لم يكن لها عين ولا أثر.

ليس للمدرسة أثر على الاجتهاد ودليل ذلك:

الدليل على أنها لم تترك أي أثر أن مجتهد المنطقة وخريتها وهو الأوزاعي رحمه الله، مجتهد دمشق وبيروت، لم يظهر في اجتهاده ولا في آرائه أي أثر لشيء اسمه القانون الروماني أو أي أثر للقانون الأجنبي بحيث نجد الأوزاعي في طليعة الفقهاء والمجتهدين المتمسكين بالحديث المعتمدين على النصوص، المتشددون في البعد عن الرأي كلما أمكن الابتعاد، وبذلك نستطيع أن نقيم الدليل في عين المكان على أنه لم يكن هناك أي أثر باق لشيء اسمه قانون الرومان، فلم يكن في المنطقة إلا قانون الإسلام، التي وصلت مذاهبه إلى ثلاثة عشر مذهباً انتشرت في العالم الإسلامي انتشاراً حراً.

تقرير عن المذاهب المنتشرة في القرن السادس:

في القرن السادس يحدثنا القاضي عياض أنه كان انقرض منها ثمانية مذاهب، ولم يبق منها إلا خمسة، بإضافة الظاهرية إلى المالكية، والشافعية، والحنابلة، والحنفية، ثم مضى وقت فانقرض المذهب الظاهري، ولم يكتب البقاء إلا لهذه المذاهب الأربعة: المالكية والحنفية، والشافعية والحنبلية.

وهذه المذاهب بما يضاف إليها من فقه الزيدية في اليمن ، ومن فقه الشيعة في إيران هي التي طاولت الزمن ، ومطاولتها للزمن واستقرارها في العالم الإسلامي دليل على أنها صالحة للبقاء ، فالعالم الإسلامي قد أعطى فتواه في الاتجاه الذي يلائمه من المذاهب ، هذا الاتجاه هو أنه يريد تشريعاً معللاً معقولاً ملائماً لمصالحه ، محققاً لأغراضه ، لا يكون تشريعاً متزمتاً ، ولا جامداً ، ولا قاصراً على الظواهر ، ولكنه ينفذ إلى أعماق الحكم والعلل الشرعية ، والأسرار الربانية التي من وراء الشريعة الإسلامية .

انحسار المذاهب المتجمدة عن الساحة :

قضي على المذاهب التي كانت متحجرة ، كانت جامدة ، كانت تعتصم بعدم الإقبال على الرأي ، وتمتنع من التعليل ، وبقيّة المذاهب التي تصلح لمسايرة الزمن ، ولتلبية حاجات المسلمين .

انتشار مذهب مالك في بلاد الأندلس والمغرب :

كان من ذلك أن مذهب مالك رَحِمَهُ اللهُ استطاع أن يتنقل وأن يغزو الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي ، ففي الأندلس كان المجال فسيحاً ومفتوحاً ، إذ الأندلس وقتئذ عندما فتحت وعندما قامت فيها بالخصوص دولة بني أمية لم يكن هناك رؤساء مذاهب ولا أئمة كبار ملئوا الدنيا بعلمهم ، بل كانت منطقة فارغة مستعدة لقبول أي تيار ، وأي مذهب ، وحيث إن أول الوافدين على الأندلس كانوا من الشام ، فقد نقلوا معهم مذهب إمامهم الأوزاعي ، فكان مذهب الأوزاعي أول مذهب دخل إلى الأندلس ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن أقبلت الطليعة الأولى من تلامذة

مالك الذين وفدوا إلى الأندلس ، وفي طليعتهم زياد بن عبد الرحمن ، والغازي بن قيس ، وأضرابهم ، فلما أقبلوا أشاعوا علمه ونشروا مذهبه ، وأخذ مذهب مالك ينتشر شيئاً فشيئاً ، واقتنع هشام بن عبد الرحمن الأموي بأن مذهب مالك أصلح المذاهب .

علة انتشار المذهب المالكي :

البعض يعلل ذلك بأن بني أمية أرادوا أن يتخلصوا من ربقة المذهب الحنفي الذي وجد في العراق ، ومن المذهب الشافعي الذي وجد كذلك في بلاد الخلافة العباسية ، وأنهم أرادوا أن يستقلوا بمذهب خاص ، ولكن الذي يبحث ويطلع على آثار هؤلاء الملوك هشام بن عبد الرحمن ، وابنه الحكم بن عبد الرحمن ، يجد فيما كتبوه عن اختيارهم لمذهب مالك أنهم تحروا هذا المذهب تفادياً من العقائد الزائغة التي رافقت بقية المذاهب الأخرى من خوارج ورافضة وشيعة وغير ذلك من المذاهب التي كانت منتشرة في الشرق بين كافة الممتنمين إلى المذاهب الفقهية ، فلما رأوا أن أتباع مالك كانوا متحررين من تلك العقائد كلها ، ملتزمين للسنة التزاماً تاماً ، موحدين توحيداً كاملاً اختاروا هذا المذهب ليضمنوا وحدتهم الاعتقادية ، ووحدتهم التشريعية .

شخصيات ساعدت على انتشار المذهب المالكي :

كان لهشام بن عبد الرحمن اليد الطولى في خدمة المذهب المالكي ، ولابنه الحكم بن عبد الرحمن يد أطول ، فإنه هو الذي أمر بجمع أقوال مالك من جميع السماعيات التي كانت موجودة في ذلك العهد ، وكلف بجمعها عالمين

جليلين هما أبو عمرو الإشبيلي ، ومحمد بن عبيد الله المعيطي ، وفي هذه الفترة يحيى بن يحيى الليثي المصمودي من مصمودة طنجة ، هذا الرجل تلقى العلم على مالك بن أنس ، وروى عنه الموطأ ، وانتقلت إليه رئاسة العلم بالأندلس ، وكان مستشاراً لبني أمية ، فكان من حسن تأثيره عليهم أنه كان يختار للقضاء في الأندلس قضاة على المذهب المالكي ، وأدى ذلك إلى انتشار المذهب المالكي انتشاراً أوسع في نطاق أوسع ، وفي نفس الوقت وفي عصر مقارب كان كذلك بمصر قاضي القضاة هو الحارث بن مسكين ، فكان ينشر مذهب مالك في مصر ، وفي نفس الوقت كان بالقيروان وإفريقيا في تونس سحنون قاضي القضاة ، فكان لهؤلاء الثلاثة يد طويل في خدمة مذهب مالك ونشره في هذه الأقطار ، وكان له فضل كبير في نشر هذا العلم ، ونشر هذا المذهب .

الاجتهاد مسئولية صعبة وشاقة :

لنشر الآن إشارة خاطفة إلى الاجتهاد ، وما فيه من تعب ، وما فيه من مسئوليات ، وما فيه من مجهود فكري خارق ، فالاجتهاد وعملية لا تتم بسهولة ، ولكنه يحتاج إلى ملكة وملكة عظيمة ، ويحتاج إلى بذل مجهود في اجتهاد حول النصوص ، واجتهاد على ضوء النصوص ، واجتهاد بمقتضى النصوص ، واجتهاد بمقتضى القواعد المعنوية المستقرأة من النصوص ، ومناهج الاجتهاد تحتاج إلى النظر في الإجماع ، والاجتهاد الجماعي ، وفي القياس ، والاجتهاد الفردي ، والقياس يحتاج إلى البحث في الحكمة والعلة ، ومسالك العلة ، وتحقيق المناط ، وتخريج المناط ، وتنقيح المناط ، والقياس قياس علة ، وقياس دلالة ، وقياس شبه ، ثم هناك الاستدلال بفروعه

المختلفة، البراءة الأصلية، الاستصحاب، الاستحسان، المصالح المرسلة، السياسة الشرعية، سد الذرائع، شرع من قبلنا، ثم هناك مجال للتعارض بالنصوص والترجيح بينها، فقد يتعارض نصان، ويتعارض النقل والعقل، ويقضي الأمر بإبطال أحد النصين وإعمال الآخر، وهناك النسخ، الناسخ والمنسوخ، وهناك الطريقة التي يستطيع بها المجتهد أن يعمل نصاً وأن يلغي آخر، وعلى أي أساس يبني ذلك، فهذه العملية المتشعبة المعقدة هي العملية التي يقوم بها المجتهد، وعرضها بهذا الاختصار لا يعطي عنها ولو أقل صورة ولكننا نأتي بذلك على الأقل على سبيل الذكرى.

سبب قلة الاجتهاد أو توقفه:

الآن نتساءل: هذا الاجتهاد الذي ابتدأ من عهد الرسول ﷺ والذي مضى متسلسلاً في عهد الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ثم وقف، هل توقفت عملية الاجتهاد؟ ولماذا؟ هذه ظاهرة غريبة، أين هي هذه العبقرية الخارقة التي كانت تمضي وتخرق السحب وتصل إلى أعلى عليين في الإنتاج والابتكار ثم تقف فجأة؟ أين ذهبت العبقرية الإسلامية؟ لماذا؟ والمسلمون لازالوا في ديارهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ورغماً عما وقع من هزات باستيلاء التتر، وسقوط بغداد، وسقوط الأندلس، وسقوط صقلية، فإن تلك الهزات لم يكن لها من القوة ما تقضي به على الفكر الإسلامي حتى يصبح فكراً هزياً عقيماً، لماذا توقفت هذه العملية؟

إذا لاحظنا الأمر نجد أن الاجتهاد لم يتوقف فجأة، بل نحس بوادر التوقف من القرن الثالث، فبينما في القرن الثاني، نجد ثمانية مجتهدين عمالقة، يملئون سمع الدنيا وبصرها، نجد في القرن الذي يليه خمسة

فقط ، وهم أقل منهم لمعائًا وشفوفًا ، وبينما نجد في القرن الثاني كل العلماء مجتهدين ، نجد في القرن الثالث فريقًا يجتهد وفريقًا أخذ يقل ، وما تأتي المائة الرابعة حتى يحمّل الناس ، وتتكاثر الأذهان ، ويبتدئ العلماء ينطلق من صفوفهم : رضينا بالتقليد ، ولكن أي مذهب نرجحه ونفضله ، فلكل مذهب حزبه ، ولكل زعيم أتباعه ، ما هي أسباب هذا التوقف ؟ هناك أسباب يذكرها المؤرخون على اختلافهم ، شاعت بينهم ، وهناك أسباب سنعرضها نحن بحول الله .

انقسام الأمة وتفككها :

الأسباب التي يذكرونها هي أن الدولة الإسلامية التي كانت متحدة ، وكان الفكر الإسلامي يتجاوب في جنبتها على أنها مملكة واحدة مرتبطة متلاقية ، قد انقسمت وأصبحت موزعة على حدود ، وعلى سياسات ، وعلى عنعنات وعصبيات خاصة ، فالرابطة الفكرية التي كانت انقطعت .

فرض بعض المذاهب بالسلطان :

السبب الثاني أن بعض الولاة قلدوا مذهبًا وآمنوا به ، واستغلوا سلطتهم ونفوذهم ليفرضوا ذلك المذهب في الرقعة التي يحكمون فيها ، فأصبح ذلك المذهب سائدًا لأنه تسنده الدولة وتشجعه ، وبالتالي لم يبق مجال للاجتهاد ، لأن مذهبًا قد فرض على الناس ، فما عليهم إلا أن يتبعوه .

كثرة الفتن وضعف الاقتصاد :

السبب الآخر أن العالم الإسلامي أصابته فتن كثيرة ، ومستواه الاقتصادي والعيش أصبح يتضاءل ، الرفاهية التي عرفها الإسلام في عصره الذهبي

تدهورت ، والطريق التجاري الذي كان قائماً من قبل ، والذي كان يمر في أقطار العالم الإسلامي ، فينتفع منه المسلمون من تياراته ومبادلاته المادية والفكرية ، قد تحول إلى جهة أخرى ، فأصبح نوع من البؤس والتفكير في العيش يفرض على العلماء أن يفكروا في أنفسهم وفي عيشهم قبل أن يفكروا في العلم والاجتهاد ، ثم هنالك ذلك التبادل الفكري الذي كان شائعاً بين علماء الإسلام عن طريق الرحلة ، وعن طريق التلقي ، أصبحت روابطه تتقطع وتتضاءل ، بل جاء الوقت الذي منع فيه الحج على المسلمين في مملكة ، لأن الحكم في المملكة الأخرى في يد آخرين .

شيوع التعصب والأنانية:

هناك سبب آخر ، وهو شيوع التعصب والأنانية بين العلماء أنفسهم ، فقد تكون لكل مذهب طائفة ، بالتالي تكونت مصالح لهذه الطائفة ، وتبع ذلك أن الأوقاف التي كانت في الأصل توقف على مشاريع الخير عموماً أصبح كثير منها يوقف على مذهب خاص ، فريع الأوقاف يشجع الفقيه ويشجع الأستاذ على أن يتلقى مذهباً معيناً ، ويدرس مذهباً معيناً ، ويستظل براية مذهب معين ، لينتفع بريع الأوقاف ، لأن نص المحبس كنص الشارع كما يقولون .

استصغار النفس أمام عمالة الاجتهاد الأول:

الأئمة الذين ظهرُوا في العصر الذهبي للاجتهاد ، كانوا فعلاً عمالة في التفكير بشخصياتهم ، وبأفكارهم ، وبسلوكهم ، كانوا منارة تستهوي النفوس ، وتجذب القلوب ، وكانت الرحلة إليهم من العالم الإسلامي كله ، وبحكم ذلك هذه الهيبة ، وهذه الجلالة التي نالوها ، وانتقلت عبر

الزمان نقلها التلاميذ عن التلاميذ، والأبناء عن الآباء، تكونت لهم هبة وروعة في نفوس الناس، فالنشء الجديد الذي ينشأ، ينشأ على أنه موصوم بالنقص إزاء كما لهم، وبالشعور أنه نشء من الأقزام أمام أئمة من العمالقة، فأخذ هؤلاء الناس يقولون: كيف وماذا سنجتهد، من أنا أمام مالك؟ ومن أنا أمام أبي حنيفة؟ إن هؤلاء لم يتركوا لنا مجالاً. إن الفرق بيننا وبينهم فرق الثرى من الثريا، فهذا الشعور النفسي أوحى وأثر في نفوس العلماء الناشئين ألا يحاولوا محاولة الأئمة المجتهدين المتقدمين.

شيوع حالة من الرضا في ظل التشريعات القائمة:

العالم الإسلامي في هذه الفترة بعدما كمل التشريع في إطار المذاهب قد أصبح عالمًا متشابهًا متماثلًا في احتياجاته وفي رغباته وفي مشاكله، فهو في حالة استقرار وهدوء، لم تبق فيه تلك الحركة، ولم يبق فيه ذلك التطور الذي يدعو إلى الاجتهاد والتجديد، فالعالم الإسلامي في كل مكان هو هو، صورة طبق الأصل بتصرفه، وبأنظمته، وبتقاليد حكمه، وبأساليب العيش في أسرته، هو عبارة عن صورة واحدة. تراها في كل مكان، وهذا العالم إذن قد وجد الطمأنينة والرضى في ظل التشريعات القائمة التي وصل إليها الأئمة، ولم تبق له أي حاجة غير مكفية، فقد اكتفى اكتفاء ذاتيًا بكل ما يحتاج إليه من التشريعات، إذن، ففيم التعب؟ وفيم الاجتهاد؟ أمن أجل عملية مكررة تنتهي إلى نفس النتيجة؟ ثم هؤلاء الناس، هذه الجماهير الإسلامية في كل العالم الإسلامي قد ألفت مذاهبها، واطمأنت إليها، ورضيت بها، فماذا يفعل هذا المجتهد الناشئ؟ فهل يستطيع أن يخلق لنفسه أكثرية تتابعه تعادل الأكثرية القائمة التي ذهبت على مذهب مالك أو على

مذهب أبي حنيفة؟ إن جهده يراه جهدًا ضائعًا ، ومحاولته يراها محاولة غير ناجحة ، ولذلك يتقهقر ويتراجع ، ويقول : مع الناس ومع الجماعة ، وفي إطار المذاهب وفي ظل المذاهب .

طبيعة الفقه الإسلامي نفسه :

من جملة الأسباب ، وهذا سبب داخلي لنفس الفقه ، من طبيعة التشريع الفقهي نفسه ، هذا الفقه الإسلامي هو غريبة الغرائب ، ومعجزة المعجزات ، إذا كان فقه الرومان قد تكون في ثلاثة عشر قرنًا ، ففقه الإسلام تكون في ثلاثة قرون ، نضج بسرعة ، واكتمل بسرعة ، واستوفى مسائله ومشاكله بغاية الضبط ، وحدد مناهج التشريع ، وحدد مصادر التشريع ، وجمع نصوص التشريع ، فلم يبق لقائل ما يقول ، ماذا يزيد الناس؟ إن الذي يأتي من بعد الأئمة يجد نفسه في فراغ ، ماذا سيفعل؟ ما هي النقطة الفارغة التي يتممها؟ ما هي الثغرة الناقصة التي سيحدث فيها حدثًا جديدًا؟ إن كل الثغرات مملوءة ، وإن كل المشاكل توجد لها الحلول ، بل إن أئمتنا الفقهاء رضوان الله عليهم ، وفي طليعتهم أبو حنيفة لم يكتفوا بالتشريع لما هو واقع ، بل شرع لما يمكن أن يقع ، ففي صلب التشريع مجموعات فقهية عديدة لا تحصى ، ونظريات واسعة لا يناها العد ، كلها تشريعات وحلول لمشاكل قد يمكن أن تقع ، فهذا الفقيه المسلم الجديد حتى الشيء الذي قد يقع ، إنه يجد في حصيلته وفي رصيده ما يستوفيه ، وما يعطي له الحل المناسب ، وهكذا أصبح الفقهاء الذين أتوا من بعد لا يجدون لهم المجال للابتكار والإبداع ، لأن العلم اكتمل ، ولأن البناء انتهى ، ولا يحتاج لا إلى ترميم ، ولا إلى تزيين ، فهذه جملة من الأسباب التي أدت إلى توقف الاجتهاد في إطاره الواسع .

السبب في التزام مذهب معين حكمًا وتعبداً:

نريد أن نبين نقطة تتصل بالموضوع ، لماذا التزمت الأمة الإسلامية ،
والحكام المسلمون في هذا الجو الجديد بالالتزام بمذهب معين في الحكم
والتعبد؟ في الوقت الذي توقف فيه الاجتهاد ، لم يعد من المناسب أن
نترك للقضاء وللقضاة أن يحكموا بما يشاءون ، فهؤلاء القضاة يمكن
أن يحكموا بأهوائهم ، وأن يتخذوا من اسم الاجتهاد وهم غير مجتهدين
ذريعة لأغراضهم وشهواتهم ، فالسياسة الشرعية وانضباط الأحكام
والعدالة المتساوية بالنسبة لكافة المحكومين ، اقتضت إلزام القضاء
بمذهب واحد ، والتزامه في سائر الأحكام ، فالنص الذي يحكم به علي
أحمد هو الذي يحكم به علي محمد ، والنص الذي يحكم به في النازلة
الفلانية هو الذي يحكم به في مثلها ، وبذلك قلت الخلافات ، وأصبح
الناس يحسون أنهم أمام عدالة فيها المساواة الكاملة ، لأنهم يرجعون
جميعاً إلى نصوص واحدة ، أي إلى مواد قانونية لا جدل فيها ولا تبديل
ولا تغيير ، وتلك المواد هي مواد المذهب المقرر المحرر المنقح المتناقل ،
المدرس ، هذه العملية ، عملية الاجتهاد هل توقفت كلياً؟ أم توقفت
جزئياً؟

ظهور مجتهد المذهب ومجتهد الفتوى:

الواقع أن هذه العملية في إطارها الأعلى من ناحية الاجتهاد المطلق ،
حقيقة توقفت ، ولكن من ناحية الاجتهاد في دائرة معينة قد بقي منه شيء ،
فهناك مجتهد المذهب ، وهنالك مجتهد الفتوى .

مجتهد المذهب :

هو الذي يلتزم بأصول مذهبه ، ويسير على غرار إمامه ، وقد يستحدث من الأحكام ما يجري وفق الطريقة التي سار عليها الإمام ، فهو في ظل الإمام يعمل ، هذا مجتهد المذهب .

مجتهد الفتوى :

هو المقلد الذي لا يستحدث حكمًا من الأحكام ، ولكنه يقف بعين يقظة ليعين رجحان هذا القول ، واختيار هذا القول ، وأفضلية هذا الوجه ، فله الرأي في الترجيح والاختيار ، والتنبيه إلى مواطن النقص ومواطن الكمال في المذهب .

خصائص مجتهد المذهب :

مهمة هؤلاء لم تكن كذلك مهمة سهلة ، فمجتهد المذهب ساعدنا كثيرًا على أن يكشف لنا عن قواعد المذهب الأساسية ، عن فلسفة المذهب ، عن الأسس التي انتظمت جزئياته بأكملها ، فعن طريقه عرفنا فلسفة التشريع ، لمختلف المذاهب ، وعن طريقه أدركنا أصول المذهب في ناحيتها الإجمالية ، ويمثل العلماء لمجتهد المذهب : المزني والبويطي من الشافعية ، ومحمد بن الحسن وأبي يوسف من الحنفية ، وابن القاسم وأشهب من المالكية ، والقاضي أبي يعلى والقاضي أبي علي موسى من الحنابلة .

خصائص مجتهد الفتوى :

مجتهد الفتوى لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إليه سهلاً ، ففي خلال هذه الفترة ، فترة نقل المذاهب وتحريرها وكتابتها وضبطها ، وقد علمتم أنه

في هذا الوقت كان الورق قد انتشر بكثرة ، وساعد ذلك على تأليف الدواوين والكتب ، وتكثير النوازل الفقهية ما شاء الله أن تكثر ، هذا المجتهد في الفتوى عنده شغل متعب مضمّن كذلك لأن هناك أقوالاً تنسب إلى الإمام وليست له ، وهناك أقوال قديمة رجع عنها وهي مدرجة مع أقواله الجديدة التي لم يتراجع عنها ، فهو يحقق ويحرر وينقح ، ويرجح قولاً على قول ، ولولا مجهود هؤلاء لما استطاع الفقه الإسلامي والتشريع الإسلامي أن يجد طريقه اللاحب في الفتوى والقضاء ، بالنسبة للعصور التالية .

فكرة موت العبقرية الإسلامية وضررها :

إذا قلنا إن الاجتهاد توقف فهل العبقرية الإسلامية ماتت خلال هذه القرون؟ أنا من أولئك الناس الذين ينادون ضد هذه الفكرة، لأن نشر فكرة أن العبقرية الإسلامية ماتت من زمن مبكر، والتهويل لمسألة التقليد، حصل التقليد ولم يبق الاجتهاد، كأن العالم الإسلامي انقرض ومات، وانطفأت فيه جميع المصابيح، هذه الفكرة فكرة ضارة بنفسية المسلمين، لأنها تشعر المسلمين بأن داءهم طويل، وأن عثرتهم لا سبيل إلى النهضة منها، وأن كبوتهم لا سبيل إلى الخروج منها .

وجود المجتهدين في كل عصر دليل حياة للعبقرية المسلمة :

إن العالم الإسلامي وإن وقف في هذا التيار فإن الفكر الإسلامي والعبقرية الإسلامية لم تمت بل وجهت وجهتها وجهة أخرى ، على اختلاف المجالات ، وفي طليعة هؤلاء البارزين الذين يعتبرون من مجتهد المذاهب ، ويعتبرون من مجددي الإسلام ، الذين يصدق عليهم قول الرسول ﷺ :

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها»^(١)، وقول رسول الله ﷺ: «لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة» بفضل هذه التوجيهات الإسلامية قد بقي مدد الإسلام ساريًا، ولأذكر لكم بعض الأسماء فقط، فأنا في مجال اختصار ونظرة خاطفة، أمانا القاضي عبد الوهاب بن أبي زيد القيرواني، هؤلاء أعلام في الطريق، وأبو عمر يوسف بن عبد البر، اللخمي واختياراته، الباجي صاحب المتقى، والمازري، وأبو بكر بن العربي المعافري، والقاضي عياض، وابن رشد الفيلسوف الفقيه، وابن رشد الجد، والقرافي صاحب الفروق، والشاطبي صاحب مقاصد التشريع الموافقات، والمقري، الذي جمع من قواعد المذهب المالكي ألفًا ومائتي قاعدة، لهذا المذهب، ومحبي الدين بن العربي الحاتمي، وأبو الحسن الأشعري، الذي هو عماد أهل السنة في العقيدة، وأبو إسحاق الإسفراييني، وأبو بكر الباقلاني، وأبو الحسن الماوردي، المبرز في دراسة الأحكام السلطانية، في القانون الدستوري والإداري للإسلام، وإمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي، وسراج الدين البلقيني، وابن تيمية، وأحمد بن حنبل، والعسقلاني صاحب فتح الباري، والحافظ السيوطي، والشيخ مرتضى الزبيدي، ومحمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري قاضي الجماعة بتونس، وابن هارون، وابن راشد القفصي، وأبوزكريا يحيى النووي، وأبو عمرو بن الصلاح، وعز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء.

(١) سبق تخريجه .

هؤلاء فقط أعلام في الطريق ، ما من شخصية من تلك الشخصيات إلا وهي عبقرية بارعة وبارزة ، قد آتت أكلها ، وأنتجت في الإسلام خير إنتاج ، وتركت لنا من التراث الإسلامي العميق ما نفتخر به ، ونرفع به الرأس عاليًا ، مما يعطينا الدليل على أنه إذا كانت العبقرية الإسلامية لم تستمر في طريقها في مجال معين ، فإنها قد وجهت اتجاهها في ناحية أخرى ، لكن العبقرية الإسلامية قامت واستقرت واستمرت ، وهي قائمة إلى يوم الدين .

هل الأمة في حاجة لاجتهاد؟

الآن نتساءل ، هل من حاجة وضرورة لاستمرار وظيفة الاجتهاد واستئناف عملية الاجتهاد؟ هل من ضرورة لعملية الاجتهاد؟ ولماذا هذه الضرورة؟ نعم إن حكم الاجتهاد بالنسبة للإسلام فرض كفاية على العموم ، وفروض الكفاية معناها أنه إذا قام بها بعض المسلمين سقط الطلب عن باقي المسلمين ، فإذا قصر المسلمون جميعًا في ذلك الفرض ، فهم آثمون جميعًا ، بسائر طوائفهم ، وسائر دولهم ، وسائر شعوبهم ، فالاجتهاد إذن فرض كفاية ، لا بد أن يقوم ، ويجب أن يقوم ، ويجب أن يوجد له رجال ، وأن يتكون له أهل ، يضطلعون به في كل مكان ، نعم ، ونحن أمام نظر الشارع ، لماذا نشأت الشريعة؟ ولماذا نزل الوحي؟ هل لتركنا الشريعة فوضى؟ هل لتقول لنا الشريعة احكموا بالشريعة في كذا؟ وأنتم احكموا بهواكم وشهواتكم في كذا ، فأنتم أحرار في هذه الجهة ، ومقيدون في هذه الجهة ، مكلفون هنا ، وساقط عنكم التكليف هناك ، هذا ليس بمنطق للشريعة ، التكليف والشريعة معناها أن المكلفين يجب أن

ينضبطوا بضابط شرعي في حياتهم وسلوكهم، وسائر شئونهم، وأن يستحدثوا من الأحكام لكل نازلة في كل وقت ما يلائم مقصد الشرع، ويحقق أهدافه بالنسبة للمكلفين، ذلك أن لكل مسألة حكمًا، فليس هناك فراغ، هذا الفراغ لا يعرفه الإسلام في التشريع، الإسلام لا يقر الفراغ في التشريع، وحتى إذا كان هناك فراغ، فقد يكون مؤقتًا في انتظار ملء الفراغ، إن الله تعالى يقول - وعلماءنا يستدلون بهذه الآيات على أن لكل مسألة حكمًا، يأتون بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

إذن فنحن مطالبون بأن نجد حكمًا لكل مسألة تواجهنا، وكذلك كان أسلافنا، وكذلك كان الصحابة، يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يحدث لهم من شئون، صغيرة وكبيرة ما كانوا يقولون: عن هذا الأمر يخصنا، بل أحسوا أن ربقة التكليف في أعناقهم، فهم دائمًا مطالبون بأن يسلكوا سلوكًا ملائمًا لنظر الشارع.

الاجتهاد أمر ضروري لملء الفراغ التشريعي:

إذن فالاجتهاد ضروري، لأن هناك فراغًا تشريعيًا موجودًا، ضروري لملء الفراغ، وبدون اجتهاد ماذا ينشأ؟ نصبح في حالة فترة، نظير الفترة التي كانت قبل بداية البعثة المحمدية، نصبح في جاهلية، في فترة، معناه أنه لا مرشد موجود، ولا نبي موجود، ولا شرع قائم، إذن فنحن في

فترة ، لكن إذا كانت الفترة مباحة قبل أن يأتي الرسول وأن يأتي النبي ، فهل يعقل أن توجد فترة في ظل الإسلام ، وكتاب الله قائم ، من حكم به عدل ، ومن اهتدى به وجد الهدى ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، كلا ، نحن في ظل الشريعة الإسلامية ، ولن يبعث رسول آخر ، فلا معنى للفترة أن تكون في وقتنا ، إن قضايا الإسلام والتزامات الإسلام ، تفرض علينا أن نوجد التشريع وأن نوجد المجتهد الذي يملأ هذا الفراغ ، ذلك لأنه إذا لم يكن هذا الاجتهاد ، فإننا نصبح كما قلنا في فترة ، وإذا كانت هذه الفترة تحدث بصفة فردية لأحد المكلفين عندما لا يجد مجتهداً يستفتيه أو عالماً يرشده ، ولا يعرف حكم النازلة التي يريد أن يستفتي فيها ، فإن ذلك مرهون بزمان محدود لمجرد ما يتصل بعالم أو بمفتي أو بمجتهد ، فإنه ينال الحكم ويهتدي إلى الفتوى الشرعية الملائمة ، أما أن يبقى العالم الإسلامي في فراغ قائم ، وكثير من المشاكل والنوازل تواجهه ، وهو ينظر ، لا حكم إسلامي ، ولا تشريع إسلامي ، ولا اجتهاد إسلامي ، ونحن في انتظار ، هل يعقل أن يبقى الفراغ؟ إن الفراغ لا يبقى لا في الزمان ولا في المكان ، حتى الهواء متى كان فراغاً ملاً الهواء ، فإذا انتظرنا فسيماً فراغاً عقيدة أخرى ، وشريعة أخرى ، ومذاهب أخرى ، وتيارات أخرى ليست من الخير للعالم الإسلامي في شيء ، إذن على هذا نحن إذن مطالبون بالاجتهاد .

هل تتوفر لدى الأمة مؤهلات الاجتهاد :

هل مؤهلات الاجتهاد في طوقنا؟ نعم أيها السادة ، إن مهمة الاجتهاد اليوم أيسر من مهمة المجتهدين من ذي قبل ، فجميع العناصر اللازمة للاجتهاد كلها ميسورة ومتوفرة .

ما هو الاجتهاد المرجو المطلوب؟

الاجتهاد المنتظر الذي نريده إما أن يكون في إطار الإسلام، وإما أن يكون خارجاً عن الإسلام، أما الاجتهاد خارج الإسلام، فإنه ينادي به بعض المخرفين، ومن أمثلته مثلاً: مساواة الذكر بالأنثى في الإرث، ومنع الطلاق، وإباحة الزنا، وإباحة الاختلاط، وجعل ذلك كله مشروعاً، وإلغاء رمضان، وعدم مطالبة المسلمين بالصلاة... إلخ من جميع المسائل التي توافق أهواء الناس، لأنهم يريدون أن يخففوا أثقالهم، وأن يقولوا إنهم مسلمون من غير أن يبقوا مسلمين، هذا النوع من الاجتهاد يرفضه الإسلام ولا يقبله، لأنه اجتهاد غير معتبر شرعاً، لأنه قائم على التشهي والتخير والهوى، ولا يلاحظ فيه قصد الشارع من التكليف ولا قصده من هداية الخلق وتركية الناس، أما الاجتهاد الذي نريده فهو الاجتهاد في إطار الإسلام، في إطار مقاصد التشريع الإسلامي، في إطار القواعد الكلية المعنوية للتشريع الإسلامي، في إطار المبادئ التقدمية التي نادى بها مفاخر علماء المسلمين، مثل عز الدين بن عبد السلام، وابن القيم، والشاطبي، وأمثال هؤلاء من فطاحل الإسلام الذين فتحوا أبواب الاجتهاد على مصراعيه والذين أناروا لنا الطريق لنوجد تشريعاً سمحاً مرناً قابلاً للتطور، سريعاً للتطور، يؤدي أغراضنا بكل ارتياح واطمئنان.

المحاضرة الثامنة عشرة بعد المائتين

ليلة القدر من خلال كتاب الاعتكاف

عطية ليلة القدر... لماذا؟

انطلاقاً من الحديث الشريف الذي أورده الإمام مالك في موطئه :
ما جاء في ليلة القدر : وحدثني زياد عن مالك أنه سمع من يثق به من أهل
العلم يقول : إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من
ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم
في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر .

وبالسند المتصل إلى إمام دار الهجرة ، عالم الأمة ، وإمام السنة ، مالك بن
أنس الأصبحي رحمته الله ، إلى أن قال من موطئه في كتاب الاعتكاف ما جاء في
ليلة القدر ، وحدثني زياد عن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم
يقول : إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله ، أو ما شاء الله من ذلك ،
فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول
العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر .

غاية الدعوة الإسلامية وهدفها الأعظم :

يقول الله تعالى في خطاب نبيه الكريم ﷺ : ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] وإن من يتتبع الدعوة الإسلامية في جوهرها وفي
ملاساتها وفي مقارناتها ، يتبين له أنها لم تكن على الحقيقة إلا دعوة جاءت
لتخرج الناس أجمعين من الظلمات إلى النور ، ولترفع بهم من حضيض

الجهالة والعمل الباطل إلى يفاع المعرفة والعمل الصالح ، وذلك بترشيدهم من الحجر الذي كان مضروبًا عليهم ، وتحريرهم من الرق الذي كان مستحكمًا في رقابهم .

دعوة الإسلام دعوة شاملة:

لأجل تحقيق هذه الغاية الإنسانية السامية من الرسالة التي بعث الله تعالى بها عبده ونبيه ووليه محمدًا بن عبد الله ﷺ لأجل تحقيق هذه الرسالة ، جاءت دعوة الإسلام دعوة عامة شاملة ، شمولًا لا يقتصر على شمول المدعوين بها في كونها موجهة إلى الناس قاطبة ، ولكنه شمول يرجع إلى الدعوة في ذاتها .

شمولية الدعوة بالاعتبار الديني:

إذا نظرنا إلى هذه الدعوة بالاعتبار الديني تبين لنا أنها دعوة جمعت العقيدة الصحيحة السالمة من أطراف الدعوات النبوية التي مهدت لها ، وتقدمت بين يديها ، وكان هذا الجمع مقترنًا بتخليص لجميع العقائد التي هي عقيدة واحدة أتت بها النبوات المتعددة ، ولكن الناس شابوها بضلال وبدع وتحريف ، فجاءت دعوة الإسلام تجمع تلك العقيدة وتطهرها مما ألصق بها ، وترجعها إلى أصلها الموحد ، الذي تستوي فيه الأديان كلها ، وبذلك تناولت الدعوة الإسلامية مواضيع الحياة الإنسانية قاطبة ، بصورة لا تقتصر كما هو المتبادر من المفهوم الديني عند الكثيرين على أحوال العبادات ، ولكنها تشمل بصورة عامة كل ما تناولته الدعوات السابقة وزيادة كبيرة على ذلك من أحكام العبادات ، وأحكام العادات ، وأحكام المعاملات .

قصور الدعوات الدينية الأخرى عن السمو فوق دعوة الإسلام:

إنه لا يمكن أن تكون دعوة من الدعوات الدينية محاولة أن تسمو فوق هذه الدعوة المحمدية الكريمة ، وذلك لأن كل ما تحاول دعوة من الدعوات الدينية أن تسمو به فوق الدعوة المحمدية ، فإن الدعوة المحمدية مشتملة على ذلك ، مما في الدين الذي ربما يحاول أن يسمو عليها وعلى غيره مما هو مأخوذ من أطراف ديانات أخرى ضمت إلى ما أخذ من ذلك الدين ، وعلى زائد كثير يكمل ما هو ناقص في الدعوات السابقة ، ويصلح ما أفسد الناس منها ويبين ما أجمل فيها .

العموم والخصوص بين دعوة الإسلام وغيرها:

يكون بين الدين الإسلامي وبين غيره من الأديان السماوية الأخرى ، عموم وخصوص مطلق ، كما يقول المنطقة ، فإن دعوة الديانة الإسلامية دعوة ينتظم فيها كل ما تفرق بين الدعوات الأخرى ، فتكون كل ديانة هي أخص موضوعاً من الديانة الإسلامية ، وتكون الديانة الإسلامية أعم موضوعاً من الديانات الأخرى ، وبذلك يكون الإسلام مغنياً عن غيره من الديانات ، ولا يكون غيره مغنياً عنه نظراً لأنه انتظم فيه ما في ذلك الغير وما في غيره أيضاً من زيادات عظيمة ذات شأن .

هذا إذا نظرنا إلى الدعوة الإسلامية بالاعتبار الديني .

شمولية الدعوة بالاعتبار الإنساني:

إذا نظرنا إليها باعتبار آخر وهو الاعتبار الإنساني الذي ينظر إلى الإنسان باعتبار وجوده الذي يتمثل في العنصرين اللذين يقوم عليهما الوجود الإنساني ، وهما العنصر الفكري والعنصر المادي .

احترام الدعوة الإسلامية للأدمية وهدمها للعنصريات:

إننا إذا نظرنا إلى الدعوة الإسلامية بهذا الاعتبار وهو الاعتبار الإنساني المطلق ، فإنه يتبين لنا أنها دعوة رفعت من شأن الإنسان ، إذ أدخلت الإنسان باعتباريه المادي والفكري فيما لم يكن له دخل فيه من قبل ، ولا سيما بالاعتبار الفكري الذي يرجع إلى ما تميز به الإنسان عن بقية الحيوانات من معنى الإدراك الذهني الذي يعبر عنه عندنا بالناطقة ، وبذلك فإن دعوة الإسلام شرفت الإنسان في ذاته تشريفًا ذاتيًا لا تشريفًا عرضيًا ، إذ جعلت الشرف كله في الأدمية ، وجعلت كل ما زاد على معنى الأدمية من المعاني التي يتفاضل بها الناس مما يرجع إلى اعتبارات العنصريات وغيرها أمرًا مهدومًا لا نظر إليه وراء الحقيقة الإنسانية الذاتية ، وبذلك فإنها كما قلنا حررت الإنسان ، وأخرجته من الظلمات إلى النور ، ووضعت في حالة الرشد والأهلية بعد أن كان موضوعًا في حالة القصور والحجر .

أهمية التكوين والإعداد في الوصول إلى الرشد:

معلوم أن هذا الوضع أي الإخراج من الحجر إلى الرشد ، والإخراج من العبودية إلى الحرية إنما يتوقف على إعداد وتكوين ، لأنه ليس بممكن أن الذي كان مشتملاً على صفات اقتضت أن يكون محجورًا ، أو اقتضت أن يسلب حريته يمكن أن يتناول الرشد ، أو أن يتناول الحرية مع بقاءه على تلك الصفات التي كانت مقتضية لضرب الحجر عليه ، أو لوقوعه في ربة الرق ، فلذلك كان ترشيد الإنسانية وتحريرها والسمو بها إلى هذا الطور الجديد الذي دعا الإسلام الإنسانية قاطبة إلى الصعود إليه ، إنما يتوقف

على إعداد وتكوين وتطور بالحقيقة الإنسانية من أوضاعها القديمة التي اقتضت لها ذلك الوضع السيئ إلى أوضاع جديدة تقتضي لها الوضع الشريف الذي هيئت إليه الإنسانية بمقتضى الدعوة الإسلامية .

طبيعة التكوين والتشريع تقتضي التطور والإعداد :

هذا أمر يتضافر على اقتضائه طبيعتا التكوين والتشريع .

التكوين :

إن التكوين الإلهي جعل بلوغ الإنسان إلى المقدرة المادية على التصرف في حظوظه ، وحفظ نفسه من الهلاك ، وتناول ما يقيم حياته ، ويغذي وجوده ، متوقفاً على تطور وإعداد يتكون بهما الفرد الإنساني تكويناً تدرجياً حتى ينتهي إلى حالة الكمال الجسماني الكمال المادي ، التي يكون عند الوصول إليها بعد تلك الأطوار مستطيعاً أن يستقل بالقيام بذاته .

التشريع :

التشريع كذلك جاء يقتضي أن تعليم الإنسان وتربيته وإعداده للعمل الصالح ، والبعد به عن نزوات الطيش والسفه ، والخروج به عن منازل الصغر والصبا ، هو الذي يمكن أن يهيئه لأن يتناول حظوظ التصرف في الأمور التي يتصرف فيها بناطقيته مما يعبر عنه بالأهلية أو يعبر عنه بالرشد .

كما أن للبلوغ شروطاً فللرشد شروط :

كما أن للبلوغ الطبيعي شروطاً من التطور الجسماني ، فكذا للرشد التصرفي شروط ترجع إلى إعداد الذي يتطلع إلى التصرف في حظوظ نفسه بنفسه من أن يستوفيها حتى يبلغ إلى تلك المنزلة من أهلية التصرف .

ما يقوم به الإعداد:

هذا الإعداد إنما يقوم لا محالة على تطور المواهب الأولى للإنسان ، سواء أكان ذلك في قواه المادية ، أم في قواه الفكرية ، ويرجع إلى توسيع تلك المواهب وتنميتها وحسن توجيهها ، وحمايتها من الوجهة السيئة ، وحمايتها من أن يضرب عليها بعامل من العوامل العارضة ما يقف بها عند درجة معينة حتى يمنعها من الصعود إلى الدرجة التي فوقها ، والتي بالتدرج منها إلى التي وراءها ، يمكن أن تنتهي إلى المنزلة السامية التي أعد الله تعالى لها هذا النوع الإنساني بفطرته السليمة التي فطر الله الناس عليها ، وهذا العمل الذي هو إعداد بتوسيع المواهب ، وتنمية الملكات ، وتطوير القدرات هو العمل الذي يعبر عنه بالتربية .

منهج الإسلام لصيانة القدرات والمواهب:

إن الإسلام وضع للإنسان منهجًا يتناول ملكاته وقدراته ، ومداركه ومواهبه بالتوجيه الصحيح والإرشاد ، حتى تسمو وتنمو وتكون مستعدة لأن تبلغ بالإنسان إلى الغاية التي هي غاية خلافة الله تعالى في أرضه بالتصرف فيما خلق الله في الأرض جميعًا .

أصول المنهج التربوي الإسلامي:

هذا المنهج التربوي الذي خططه الإسلام للسمو بالإنسان حتى يستطيع أن يدرك المنزلة التي أعده الله تعالى لها ، إنما هو منهج يقوم كما تقوم المناهج التربوية المثلى على ثلاثة أصول ، وهذه الأصول الثلاثة أولها : التلقين ، وثانيها : التمثيل ، وثالثها : التمرين .

فعلى أصول التلقين ، والتمثيل ، والتمرين ، تقوم التربية الإسلامية ، ويسير الإسلام بالمربي الذي هو الإنسان المطلق ، لا خصوص عنصر من عناصر الإنسان ، يسير به على هذا المنهج التربوي المعتمد على أصوله الثلاثة من التلقين والتمثيل والتمرين ، حتى ينتهي به إلى إقرار الملكات السليمة الصحيحة ، التي يكون بها مستعداً لأن يخرج من الظلمات إلى النور ، ولأن يتحرر كما أراد الله تعالى له ، ولأن يرشد كما أعده الله تعالى لأن يرشد .

هذا المنهج التربوي مصدره الوحي :

لا شك أن هذا المنهج التربوي الذي أقيم على الأصول الثلاثة : التلقين والتمثيل والتمرين ، إنما هو أصل مصدره الوحي ، واستمداده إنما يكون من مصدري الوحي بالنسبة إلى الديانة الإسلامية ، وهما القرآن والسنة .

اشتراك القرآن والسنة في عنصر التلقين :

إذا كان القرآن العظيم ، قد اشترك هو والسنة في الأصل الأول الذي هو التلقين ، بحيث إن تقرير المبادئ ، وبسط الدعوات ، وإرساء القواعد ، إنما أتى بعضه من طريق الوحي المراد به الإعجاز وهو القرآن ، وأتى به البعض الآخر من طريق الوحي المجرد عن قصد الإعجاز ، وهو السنة النبوية الشريفة .

اختصاص السنة بعنصري التمثيل والتمرين :

إذا كان القرآن والسنة قد اشتركا في هذا الأصل الذي هو التلقين ، فإنهما بعد ذلك اختلفا ، فاختص القرآن العظيم بكونه الآية المقتضية صحة الرسالة ، وصدق النبوة ، وذلك باشتماله دون السنة على قصد الإعجاز ،

وانفردت السنة النبوية بأنها بعد أن تشارك القرآن العظيم في تقرير الأصل الأول الذي هو التلقين ، تتجه إلى تحقيق الأصلين الآخرين ، وهما أصل التمثيل ، وأصل التمرين ، فالقرآن والسنة إنما أمدا المسلم بأدلة سمعية هي موضوع الأحكام الشرعية الذي تستمد الأحكام منه .

كلام الغزالي في «المستصفى» .

هي كما عبر عنها الإمام الغزالي في المستصفى التي تسمى بـ«مدارك الأحكام» أو «مدارك الشريعة» ، وهذه المدارك التي تلقيت عن القرآن الكريم بلسان الإعجاز ، وتلقيت عن السنة الشريفة بلسان الوحي المجرد عن قصد الإعجاز ، تتحقق من القرآن ، ومن السنة على السواء ، ولكن السنة تزيد باختصاصها بتحقيق الأصلين الثاني والثالث ، وهما أصل التمثيل ، وأصل التمرين .

السنة توفي بالأصول التربوية الثلاثة:

صارت السنة بذاتها بقطع النظر عما اشتركت فيه مع القرآن العظيم موفية بالأصول الثلاثة التي أقيم عليها المنهج التربوي الإسلامي وهي : التلقين ، والتمثيل ، والتمرين ، فتماثلت السنة الشريفة في هذا مع الكتب السماوية السابقة .

القرآن لا يقارن بالكتب السماوية الأخرى:

لأن القرآن العظيم افرق عن الكتب السماوية السابقة بما اختص به دونها من قصد الإعجاز ، وبذلك فإنه لا يمكن أن يقارن مقارنة تامة دقيقة مع الكتب السماوية الأخرى .

القرآن كلمة الله لا كلمة الرسول المعبرة عن الوحي:

الكتب السماوية الأخرى ليست منقولة على معنى أنها الكلمة الإلهية الملقاة إلى الرسول ، بل نقلت على معنى أنها كلمة الرسول التي عبر بها عن الوحي الإلهي ، والتي نقلها الناس عنه بالطرق المختلفة من النقل ، مع تجردها عن قصد الإعجاز فيها ، أما القرآن العظيم فلما كان قصد الإعجاز متمثلاً فيه ، وكان معتبراً لدى النبي ﷺ ولدى الأمة تبعاً له اعتبار الكلمة الإلهية الملقاة إلى الرسول ، لا اعتبار كلمة الرسول التي تحكي الوحي الإلهي .

السنة هي التي تقارن بالكتب السماوية:

صار الذي يمكن أن يقارن بالكتب السماوية المتقدمة من مصدري الوحي الإسلامي ، إنما هو السنة الشريفة دون القرآن العظيم ، وإن من يرجع إلى تعريف السنة النبوية المشهور ، فيعلم أنها عبارة عن أقوال النبي ﷺ وأفعاله ، وإقراراته ، يتبين له في جلاء كونها الموفية بهذه الأصول الثلاثة التي أشرنا إليها من التلقين ، والتمثيل ، والتمرين ، فإن الأقوال هي تلقين وإلقاء للحقائق ، وتعريف بالواجبات ، وإرساء للقواعد ، وأفعال النبي ﷺ هي تمثيل ليكون فيها النبي ﷺ المثل الصالح للأمة فيما يأتي من الأعمال وما يترك ، وما يحقق من امتثال الواجبات ، وما يحقق من اجتناب النواهي ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

بالإقرارات يتحقق عنصر التمرين:

أما الإقرارات فإنها هي عبارة عن أفعال غير النبي ﷺ من المؤمنين التي تكون محلاً لمراقبة النبي ﷺ ، ورضاه عنها إذا كانت مرضية ، أو إنكاره إياها إذا كانت منكراً ، فإن هذا يرجع إلى معنى التمرين ، فالصورة التي يباشر بها المكلفون الامتثال لأحكام الشريعة بين يدي النبي ﷺ والتي تكون محلاً لإقراره أو لإنكاره ، هي الصورة التي يتعود المؤمنون عليها عادة تنتهي إلى الرسوخ في نفوسهم إذا أقرها النبي ﷺ ، وإلى شيوعها فيما بينهم بالمثل المتكررة من إقراره ﷺ لأفعال المكلفين المختلفين التي يأتونها بين يديه ، وبذلك يتحقق الأصل التمريني من الأصول الثلاثة التي أقيم عليها المنهج التربوي الإسلامي ، ولذلك عبر عن هذا المصدر من مصدري الوحي ، وهو المصدر النبوي ، عبر عنه بالسنة .

اختلاف تعريف السنة في اصطلاح الشرع:

من هنا جاء الاشتراك الذي عرض لكلمة السنة في استعمالها المختلفة في المصطلح الشرعي الإسلامي .

إطلاقها على آثار النبي ﷺ في مقابل القرآن:

قد أطلق لفظ السنة على الآثار المنقولة عن النبي ﷺ مما يرجع إلى الأقوال والأفعال والإقرارات .

إطلاقها على السلوك المتبع من الدين في مقابل البدع:

أطلقت السنة على السلوك المتبع المعهود من الدين ، المتناسب مع روح الدين ، وبالإستعمال الأول أصبحت السنة مقابلة للقرآن ، وبالإستعمال

الثاني أصبحت السنة مقابلة للبدعة، فإن الأشياء التي ليست من الأمر المعهود، وليست من السلوك المتبع تعتبر من محدثات الأمور وبدعها، بمعنى أنها تعتبر مخالفة للسنة الماثورة والسلوك المعهود، وخارجة عنها.

إطلاقها على العقيدة الأصلية في مقابل الأهواء:

المعنى الثالث هو معنى العقيدة الأصلية التي تتلاءم مع روح الدعوة القرآنية السنية، والتي ترجع إلى الأصل الذي كان عليه بالتواضع الواقعي العملي، وإن لم يتكلم فيه أصحاب النبي ﷺ وتابعوهم، خلافاً لما حدث من المقالات التي حدثت بعد ذلك فاعتبرت من البدع الاعتقادية، أو اعتبرت من الأهواء في العقيدة، وبذلك كانت السنة بهذا الاستعمال الثالث مقابلة للأهواء والعقائد الضالة المنحرفة.

نشأة الجيل الأول على هذه المعاني للسنة:

السنة بهذا المعنى الأول الذي هو معنى الآثار المنقولة عن النبي ﷺ تكونت السنة بالمعنى الثاني الذي هو معنى السلوك المشروع، وتكونت السنة بالمعنى الثالث الذي هو معنى العقيدة الصافية الصحيحة الأصلية، وبهذا المعنى من السنة تكون الجيل الأول من المسلمين تكوناً تربوياً كما قلنا، يظهر في العقيدة والسلوك، فتربي الجيل الأول وهو جيل الصحابة رحمهم الله تربيتين: تربية فردية، وتربية اجتماعية.

والجيل الثاني كذلك:

من ذينك التربيتين سرت التربية الإسلامية التي استمدت من السنة من الجيل الأول إلى الجيل الثاني، أو من الصحابة إلى التابعين، فتكون الجيل

الثاني تكونًا اجتماعيًا على المثال الذي تكون عليه الجيل الأول الذي انشق الجيل الثاني منه ، وتكون بين يديه .

توالي الأجيال على اقتفاء الأثر الأول:

استمرت الأجيال الإسلامية هكذا متسلسلة على التعاقب يتكون كل جيل منها على مثال الجيل السابق على صورة التربية الاجتماعية التي تكون بها ذلك الجيل الأول بتأثير السنة ، فصارت السنة بهذا مصدر المدارك الأساسية لروح الأمة .

المعلوم من الدين بالضرورة وصلته بالسنة:

إذا كان هناك معلومات قطعية نسميها معلومات من الدين بالضرورة ، ونعتبرها أصولاً إسلامية لا تقبل الاختلاف ، ولا يمكن الحياد عنها ، ولا يستطاع إنكارها ، حتى اعتبر إنكارها مقتضياً للكفر ، كما هو المصرح به في إنكار المعلوم من الدين بالضرورة ، فإن هذه المعلومات الضرورية أو المدارك الأساسية ، إنما تكونت لروح الأمة الإسلامية استمداً من السنة فقط ، فالقرآن العظيم بما اشتمل عليه من قواطع المتون أي من النصوص القولية التي هي منقولة بطريق التواتر الذي يفيد العلم القطعي ، قد بقي فيها من حيث المعنى مجال للتأويل ، ومجال للتخصيص ، ومجال للتقييد ، بحيث إن التي حملت الأدلة القرآنية على محاملها المضبوطة ، ومنعت من أن يسلك بها طريق إلى محمل آخر ، وجعلت فهم المعنى القرآني سارياً في الجيل الأول ، ثم في الأجيال بعده على صورة مضبوطة معينة حتى صار ذلك من المعلوم من الدين بالضرورة ، إنما هي هذه المعاني المتواترة

المتظاهرة من آثار السنة التي وإن كانت في ذاتها أدلة ظنية إلا أن مجموعها أصبح يفيد القطع ، كما يقال : إن مجموع الأدلة الظنية يفيد القطع ، أو إن مجموع الظواهر يفيد القطع .

ممارسة السنة وقود لتكون الاجتماعي عبر الأجيال :

إن ممارسة السنة التي هي بمعنى أخبار النبي ﷺ المتعلقة بأقواله ، وأفعاله ، وإقراراته ، هي التي أصبحت مادة مغذية لذلك المعنى من التكون الاجتماعي المتسلسل من جيل إلى جيل من أجيال الأمة الإسلامية ، فممارسة السنة تسمو بصاحبها من كل جيل من الأجيال نحو رتبة الأولين من الجيل الأول ، وهو جيل الصحابة الذي تكون بتلك العوامل التربوية المتظاهرة التي ترجع إلى أقسام السنة العديدة ، من الأقوال والأفعال والإقرارات ، فكان الأثر الحاصل بالنسبة إلى الجيل الأول عين الأثر الحاصل بالنسبة إلى الممارسين ممارسة تامة للسنة المنقولة المحكية ، التي ترجع إلى الأقوال والأفعال والإقرارات ، بصورة تحصل في أفراد ممارسين للسنة من الأجيال الآتية بعد الجيل الأول ، ما حصل في الجيل الأول من ذلك الأثر النفساني الانفعالي ، الذي هو أثر راسخ نستطيع أن نعبر عنه بالملكة ، فالسنة قد طبعت الجيل الأول وهو جيل الصحابة على ملكات نفسية وذهنية ، هي التي بها يتصرفون في استمداد الأحكام من القرآن والسنة ، والتي بها يستطيعون أن يميزوا بين ما هو ضرورة دينية لا مجال للخروج عنها ، وبين ما هو أمر نظري يكون قابلاً لاختلاف الأنظار ، وتعاقب الاجتهادات .

المعرفة التفصيلية الموضوعية وارتباطها بالقرآن:

وراء هذه المعرفة الجمالية التي هي راجعة إلى تحصيل الملكة الراسخة تأتي المعرفة التفصيلية الموضوعية التي ترجع إلى ما يتعلق بالقرآن العظيم من العلوم التي يعرف بها ناسخ القرآن ومنسوخه ، ويعرف بها المتعارض ، ودفع التعارض ببيان محامل الآيتين المتعارضتين ظاهراً ، يعرف بها المجمل والمبين ، ويعرف بها العام والمخصص ، ويعرف بها المطلق والمقيد ، ويعرف بها سبب النزول ، ويعرف بها المكى والمدني ، فما هذه إلا معرفة تفصيلية موضوعية تستند إلى تلك المعرفة الجمالية الكلية الأساسية التي صارت ملكة راسخة يتصرف بها الذين ثبتت لهم تلك الملكة في تقرير أحكام الدين ، استناداً إلى المعارف التفصيلية الموضوعية .

تعدد مصادر السنة وأثره على الجامعين لها:

إذا كان القرآن العظيم منحصراً لانضباط نصه بالتواتر ، ولأن مقداره مقدار يسير ، فإن السنة النبوية الشريفة غير منحصرة نظراً إلى وفرتها ، وإلى تعدد مصادرها ، ولذلك أتى من تعارض الأحاديث ، ومن تفاوت درجة الأخبار ما جعل عمل تمحيص السنة ونقدها عملاً كبيراً ، إذا استقام استقامت به حقائق الديانة الإسلامية الإجمالية والتفصيلية ، وإذا اختل اختلت به أصول الديانة الإسلامية ، واختلت به فروعها ، فإن استناد السنة إلى أخبار الآحاد ، ورجوعها بالنقل إلى المصادر المختلفة ، وتفاوت درجات الأخبار ، مع اختلاف عوامل الترجيح فيما بين بعضها وبعض ، قد أوقع العاملين على جمع السنة في خوف عظيم مما عسى أن يكون داخل السنة النبوية الشريفة من اشتباه ، أو توهم ، أو من كذب ووضع .

ظهور علم الحديث لحفظ السنة النبوية:

لأجل حماية السنة من أن يختلط فيها هذا بذاك ، وأن يخالط حقها الصريح باطل ، ظهر في القرن الثاني علم السنة ، أو علم الحديث الذي هو في حقيقته علم نقدي لا كما يظنه الناس غالباً ، علماً ، نقلًا .

اعتماد علم الحديث على النقد لا النقل:

علم الحديث يعتمد على النقد ولا يعتمد على النقل ، وهذا النقد الذي اعتمد عليه علم الحديث في نشأته هو نقد يرجع إلى الأسانيد ، وآخر يرجع إلى المعاني .

احتياج الفقهاء إلى معارف علماء الحديث النقدية:

إن الفقه الذي هو تقرير الأحكام الشرعية التفصيلية المستنبطة من أدلتها الإجمالية التي منها أدلة السنة ، يستند إلى السنة باعتبار كونها أحد المصدرين ، وباعتبار كونها أوفر المصدرين عددًا ، فلذلك احتاج الفقهاء إلى المعارف النقدية التي بني عليها علم السنة أو علم الحديث ، وظهر بهذا الاستناد الفقهي إلى نقود السنة التمييز بين عنصريين من علماء الدين ، هما : العنصر الذي عرف بأهل العلم أو أهل الرواية أو أهل الأثر والعنصر الآخر الذي عرف بأهل الفقه ، أو أهل الدراية ، أو أهل النظر ، فكان من العلماء من هم منقطعون للأثر ، وكان منهم من هم منقطعون للنظر ، وكان أهل النظر مضطرين إلى الاستناد إلى معارف أهل الأثر وأهل الفقه مضطرين إلى الاستناد إلى معارف أهل العلم ؛ لأن تمحيص النصوص التي يستند الفقه إليها إنما يرجع فيها إلى أهل العلم .

ظهور طبقة تجمع بين العلم والفقه :

امتازت من بين هؤلاء وهؤلاء طبقة من الرجال الكمل ، عرفت بالجمع بين العلم والفقه ، واشتهرت بذلك ، فكانوا أهل أثر ونظر ، أو أهل رواية ودراية .

الإمام مالك وكتابه «الموطأ» :

يعتبر من مقدم هذه الطبقة وأشهر رجالها الإمام مالك بن أنس رحمته الله ، ويعتبر كتاب مالك بن أنس ، وهو الموطأ الذي هو أقدم ما يوجد عندنا الآن من التراث الإسلامي ، بل هو أقدم كتاب بعد كتاب الله وكتبه بالحرف العربي ، بصورة عامة ، فإنه يعتبر أول وضع جامع لهذين العنصرين ، وهما العنصر الفقهي والعنصر العلمي ، أو العنصر الأثري والعنصر النظري ، ولسنا بحاجة إلى أن نورد ما قيل في الموطأ من ثناء الأئمة عليه ، وتقديرهم لقيمته ، وتعريفهم بفضلهم على العلماء والفقهاء ، أو على أهل الرواية وأهل الدراية ، واعتبارهم إياه كتاباً جامعاً ، حتى ترددوا في اعتباره كتاب حديث أو كتاب فقه ، فاستقروا في النهاية على اعتباره كتاب فقه وحديث معاً .

منهج مالك في «موطأه» :

إنما أراد مالك إسناد الفقه بالأخبار ، وأراد دعم الفقه بالعلم ، فلذلك توجه إلى الأحكام الشرعية التفصيلية التي هي الفقه ، ورجع بها إلى مصادرها من السنة ، فلم يرجع إلى القرآن العظيم لأن ذلك له موضوع آخر ، هو موضوع أحكام القرآن الذي صنف فيه بعد الإمام مالك الإمام الشافعي رحمته الله ، ولكنه اعتمد على هذا العمل الذي هو ديدن أهل العلم والرواية ، وهو نقد الأخبار نقداً يرجع إلى الأسانيد ، أو نقداً يرجع إلى المعاني .

عدد ما جمعه مالك وعدد ما رواه:

لكم نوه الناس بعدد ما جمع مالك رحمته الله ، وروى من الأحاديث ، حتى قالوا بالضبط : إن الذي رواه مالك بن أنس يربو على مائة ألف حديث وقارنوا ذلك بما أثبت مالك بن أنس ، وبما رواه غيره عنه ، أو بما حدث به مالك من جملة ما روى ، فكان ذلك بالنسبة إلى مرويه نزرًا يسيرًا ، لأنهم لم يتجاوزوا به قرابة الألف وسبعمئة وخمسين حديثًا ، ولم يحدث مالك بغير ذلك من كل ما روى مما يرجع في مجموعه إلى الأخبار المسندة ، والأخبار الموقوفة والمرسلة ، والبلاغات ، والأخبار الفقهية المتعلقة بالعمل ، وبأقوال الفقهاء من الصحابة والتابعين ، إلى غير ذلك .

الجمع بين نقد السند ونقد المعنى:

لما كان هذا النقد مبنياً من جهة على نقد الأسانيد بما يرجع إلى التأمل في قوة الحكاية والرواية باعتبار الجرح والتعديل مما يرجع إلى الأصول المقررة عند علماء الحديث من العدالة والضبط ، وثبوت التلاقي إلى غير ذلك ، فإنه من حيث المعنى نقد الأحاديث أيضاً نقدًا لا يقل عن النقد الذي نقد هذه من حيث الإسناد ، فجعل عنصر الفقه أحيانًا ، وعنصر العمل المتبع أحيانًا طريقة للنقد ، وبذلك أتى في نقده المعنوي هذا بعمل عجيب ، إذ جعل السنة منتقدة بالسنة ، وجعل مصدر الفقه منتقدًا بالفقه ، وهذا هو المعنى الناشئ من رسوخ تلك الملكة التي نوهنا بها ، والتي قلنا إنها ملكة تنشأ من ممارسة السنة وتعاطي علومها ، وذلك ما عبر عنه مالك بن أنس بنفسه في قوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء .

الفرق بين معنى القذف عند مالك والغزالي:

إن المراد بالقذف هنا ليس القذف الذي نزع إليه الإمام الغزالي، والذي مال إليه كثير من الصوفية من معنى تحصيل المعرفة بدون الطريق المحصل للمعرفة عادة، ولكنه عبارة عن قذف إلهي، بتوفيق الطالب إلى الطلب، وإعانتته على تحصيل ما طلب، والفتح عليه فيما يطلب، وتمكينه بحسن تقدير الله تعالى من تحصيل العلوم المتعلقة بالسنة، ومن ممارسة الآثار التي تتكون بها تلك الملكة التي عبر عنها بأنها نور مقدوف في القلب، يقذفه الله في قلب من يشاء، وبمقتضى هذه الملكة، أو بمقتضى هذه القوة النورانية، استطاع الإمام مالك رحمته الله أن يتصرف في الأحاديث الصحيحة من حيث الإسناد إثباتاً ونفيًا، اعتماداً على المعاني، كما هو مشهور عند علماء الحديث وعلماء الأصول، من عمله في حديث اختيار المجلس، ومن عمله في حديث المصرة، ومن غير ذلك مما عمد فيه إلى أخبار صحيحة من حيث الإسناد موثوق برجالها من أركان النقد الإسنادي الراجع إلى الجرح والتعديل، فاعتبر المعاني الفقهية المنتزعة من ذلك مقياساً لتصحيحها والأخذ بها، حتى اعتمد على تركها مع تقرير صحة أسانيدها.

اشتمال «موطأ مالك» على بلاغات وموقوفات ومقطوعات:

من جهة أخرى تقابل هذه، فإنه اعتمد في موطئه على أخبار لا تعتبر عند علماء الحديث من بعده بالغة درجة الصحيح، على حسب نقد المتن على القواعد التي تقررت عند علماء الحديث، وإنما اعتمد مالك على تلك الأحاديث، وحدث بها وخرجها وأرواها؛ لأن المعاني والأعمال

المأثورة التي نقد بها أحاديث صحيحة فضعتها ، تسند هذه الأحاديث وتعصدها فتقويها حتى ترتفع بها إلى درجة الصحيح ، وإن كانت من حيث المتن غير بالغة إلى درجة الصحيح ، ومن ذلك ما وقع في «موطأ الإمام مالك» من إخراج أحاديث من الموقوف ومن المرسل ومن البلاغ ، اعتماداً على أنها معصودة إما بأحاديث أخرى ، أو بأقوال ترجع إلى فقهاء الصحابة والتابعين ، أو بمجرد الاكتفاء بالاشتهار ، حتى اعتبر ذكر راو مغنياً عن ذكر المروي عنه ، كما هو الشأن في المراسيل التي أرسلها عن سعيد بن المسيب ، وهي منقولة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وإن لم يذكره ، أو المراسيل التي أرسلها عن عروة بن الزبير ، وهي منقولة عن عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، وإن لم يذكرها .

الموقف من صنيع مالك في «الموطأ» :

إن هذا الصنيع أوقع المتبعين للموطأ بعد أن نبهوا بقيمته في حيرة من الجمع بين التحري العظيم ، الذي اشتهر به مالك ، والصحة التي أخذ بمقتضاها كل حديث مسند خرج في «الموطأ» مسلماً عند أهل الصحيح ، وبين ما وقع في «الموطأ» من اشتغال على مراسيل ، وبلاغات ، وموقوفات ، ومقطوعات ، ليس من الشأن أن تكون ثابتة عند أهل الصحيح .

ابن عبد البر رحمته الله :

ذهب الحافظ أبو عمر بن عبد البر إلى أن مذهب مالك والسلف ، حجية تلك الآثار ، فبنى على ذلك أن مالكا يقول بحجية المرسل ، ويقول بحجية البلاغ ، ويقول بحجية الموقوف ، وإن كان المحققون من الأصوليين لم يزالوا غير مطمئنين إلى هذا المعنى .

الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللهُ :

قال الإمام الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللهُ : إن المعروف من كون هذا مذهبا للمالك وللسلف قبله كما ذكره ابن عبد البر هو أمر على فرض كونه ثابتا لا يحتاج إلى ذكره ، وذلك لأن هذه الآثار الموقوفة أو المرسلة إنما هي آثار معسودة من طرق أخرى ، وهي كلها ثابتة عند أهل الصحيح ، فلذلك لا يمكن أن نعتبر مخرجها قائلا بحجيتها لأنها لو كانت مرسلة إرسالا فقط ، ولم تكن معسودة بإسناد مرفوع من طريق آخر لصح أن يقال إن الذي خرجها يقول بحجية المرسل ، أو يقول بحجية الموقوف ، ولكن هذا المرسل الذي خرج مرسل هو في حقيقته مسند ، والموقوف الذي خرج موقوفا هو في حقيقته مسند مرفوع ، ولأجل ذلك اهتم المتتبعون بتتبع أحاديث «الموطأ» ، وكان المجلي في ذلك هو الحافظ أبا عمر بن عبد البر ، فتتبع جميع أحاديث «الموطأ» من الموقوفات ، والمراسيل ، والبلاغات ، واستقصى تخريجها من طرق أخرى عن مالك غير مرسلة ، أو غير موقوفة ، أو عن غير مالك بطريق يصل بها إلى درجة الصحة ويثبتها .

أحاديث وردت بلاغا في «الموطأ» :

الدرس الذي نبحت فيه الآن هو بلاغ من هذه البلاغات ، لأنه قد قال مالك : إنه بلغه عمن يثق به من أهل العلم ، وقد أحصى ابن عبد البر البلاغات التي وقعت في «الموطأ» ، فانتهى بها إلى واحد وستين بلاغا ، وخرجها كلها مسندة من طرق مختلفة في كتاب التقصي ، إلا أربعة أحاديث وردت بلاغا في «الموطأ» ، ولم يقف ابن عبد البر ولا غيره من بعده على طريق لإسنادها .

أولها : حديثنا هذا ، حديث ليلة القدر .

وثانيها : حديث : «إني لأنسى أو أنسى لأسن» .

وثالثها : حديث : «إذا نشأت بحرية وتشاءمت ، فتلك عين غديقة» .

ورابعها : حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ وقد وضعت رجلي في الغرز أن قال : «حسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل» ، وهذا الحديث الذي هو رابع البلاغات غير المسندة في «الموطأ» ، هو الحديث الذي أورده مالك رضي الله عنه ، حديثاً سابقاً في الأحاديث التي جمعها تحت ترجمة ما جاء في ليلة القدر ، وختم بعده بحديث ثامن هو حديث إدراك العشاء من ليلة القدر ، وهذه الترجمة وهي ترجمة ما جاء في ليلة القدر .

اختلاف روايات «الموطأ» حول الحديث :

اختلفت روايات «الموطأ» في موضعها الترتيبي من الكتاب الذي تندرج فيه خاتمة له ، ففي هذه الرواية التي بين أيدينا ، والتي حدثنا بها الآن ، وهي رواية يحيى بن يحيى المصمودي الليثي ، عن زياد بن عبد الرحمن ، المشهور بشبطون ، أنه سمع مالكا ، وهي ترجع إلى عدة أحاديث من كتاب الاعتكاف لم يروها يحيى بن يحيى مباشرة عن مالك رضي الله عنه ، وإنما رواها عن زياد بن عبد الرحمن ، وذلك أن يحيى سمع «الموطأ» أولاً قبل أن يهاجر إلى المدينة لمالك بن أنس ، عن زياد بن عبد الرحمن ، ثم لما أدرك مالكا روى عنه متبثاً مما كان سمعه من زياد ، وفاته مجلس أو مجالس لمالك رضي الله عنه حدث فيها بهذه الأحاديث في غيبته ، فلم يتجرأ على التحديث بها عن مالك ، لأنه لم يسمعها منه مباشرة ، وإنما اكتفى بالتحديث بها بسنده الأول عن زياد بن عبد الرحمن .

وهذا الحديث والأحاديث التي انتظمت معه في ترجمة ما جاء في ليلة القدر اعتبرت في روايات أخرى غير رواية يحيى بن يحيى من «الموطأ» موضوعة في كتاب الصوم آخره ، لا في كتاب الاعتكاف آخره ، وهذا هو الصنيع الذي درج عليه الإمام البخاري في «صحيحه» ، فإنه اعتبر ما جاء في ليلة القدر تابعاً لكتاب الصوم ، أما على اعتبار كتاب التراويح مفصلاً عن كتاب الصوم ومستقلاً عنه ، فجعل ما جاء في ليلة القدر مندرجاً في كتاب التراويح ، وهي رواية المستملي ، وأما على اعتبار التراويح تابعاً لكتاب الصوم ، فكان ما جاء في ليلة القدر متصلاً بما جاء في التراويح ، وبما جاء في فضل قيام رمضان ، ومندرجاً في كتاب الصوم على جميع روايات البخاري ، غير رواية المستملي عن أبي ذر .

اتصال الحديث بكتاب الاعتكاف لا الصوم :

اعتبار هذا الحديث والأحاديث التي تدرج معه تحت ترجمة ما جاء في ليلة القدر متصلاً بكتاب الاعتكاف هو أولى من اعتباره متصلاً بكتاب الصوم ، وذلك لما ورد في هذه الأحاديث بذاتها من تحري الأيام التي جعلت ليلة القدر متحراً فيها بالاعتكاف ، ومن أمر النبي ﷺ باعتكاف العشر الأواخر التي أرى فيها ليلة القدر ، بعد أن اعتكف ﷺ العشر الوسطى ، ثم رأى ليلة القدر في العشر الأواخر ، فاعتكف في العشر الأواخر ، وحث على الاعتكاف معه وندب إليه .

بين الحديث سبب الأفضلية ليلية القدر :

قد أفاد هذا الحديث السبب في إعطاء هذا الفضل ليلية القدر ، فالأحاديث السابقة وهي الأحاديث الستة التي تقدمت قبل هذا الحديث تحت

عنوان : ما جاء في ليلة القدر ، قررت فضل ليلة القدر ، وهذا الفضل الذي قررته الأحاديث هو الفضل المقرر بالتواتر ، أخذًا من سورة القدر ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ [القدر : ١ ، ٢] إلى آخر السورة . فهذه السورة جاءت تنوه بالقرآن العظيم من طريق التنويه بمنزله ، وإسناده إلى أعظم منزل وهو الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ۝ ﴾ ، ثم بطريق التنويه بالليلة التي أنزل فيها وهي ليلة القدر ، إذ قال تعالى : ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ ﴾ ، ثم بين فضلها فقال : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ٣] ثم بين السبب في ذلك بقوله :

﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر : ٤] إلى آخر السورة ، وهذا المعنى من التنويه جاء مطردًا منعكسًا بين القرآن الذي هو المنزل ، وبين الليلة التي هي المنزل فيها ، فإن تشريف المنزل يقتضي تشريف الطرف ، وتشريف الطرف يقتضي من جهة أخرى تشريف المظروف وهو المنزل ، ولأجل ذلك فإن هذا التنويه المطرد المنعكس قد تقرر أولاً على صورة إجمالية بأن القرآن وما أدراك ما هو؟ نزل في ليلة القدر ، وما أدراك ما هي؟ ثم بعد ذلك فصل هذا الإجمال بقوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، ثم بعد ذلك بين الوجه في هذا التفصيل التشريفي التفضيلي الذي فصل به الإجمال الأول .

أسباب الأفضلية ليلية القدر:

أورد الله تعالى الأسباب الثلاثة التي جعلت ليلة القدر خيرًا من ألف شهر ، وهي :

أولاً : تنزل الملائكة والروح .

وثانيًا : شرف الإذن الذي يستند إليه هذا التنزل .

وثالثًا : كونها مقصورة على السلام ، بحيث إنها لا تشتمل على غضب ، ولا على نقمة ، ولا على ضرر ، فكان المعنى الواضح المتفق عليه استمدادًا من دلالة هذه السورة أن الله أنزل القرآن في ليلة القدر ، وأن ليلة القدر أفضل من ألف شهر ، وأن سبب هذه الفضيلة إنما هو تنزل الملائكة ، إلى آخره ، وبعد الاتفاق على هذا الأمر الواضح ، ابتدأت مواقع الأنظار تدق ، وبدأت الاختلافات بين الناظرين تثور .

المسار الأول: ضبط معنى الإنزال:

ثار الخلاف أولاً فيما يرجع إلى ضبط معنى إنزال القرآن في ليلة القدر ، وذلك لما هو معلوم مشهور مقرر من أن القرآن العظيم لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما نزل منجماً في نحو من ثلاث وعشرين سنة ، وبذلك لا يمكن أن يكون إنزال القرآن العظيم حاصلاً في ليلة كما هو ظاهر ما دلت عليه سورة القدر .

الرد على إشكال: نزول القرآن في ليلة واحدة:

سلك المستشعرون لهذا الإشكال الواضح طريقتين في دفع هذا الاستشكال :

الطريقة الأولى : وهي الطريقة التي نصرها القاضي البيضاوي ، وهي أن المراد بإنزاله في ليلة القدر ، ابتداء إنزاله ، فقوله تعالى : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، أي أنزلناه مبتدئين ، وجعلنا الشروع فيه المقتضي لما يتعاقب بعد ذلك واقعاً في ليلة القدر ، فعبر بالظرف عما كان ظرفاً لبعض الحدث لا لكليه كما هي الطريقة المشهورة من التجاوز في استعمال الظروف .

الطريقة الثانية : هي الطريقة التي بنيت على أن النزول هنا هو غير النزول الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ بالقرآن منجماً ، وإنما هو نزول يرجع إلى معنى غيبي ، وهو نزول القرآن العظيم إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وإلقاؤه إلى السفرة الذين تلقى جبريل عنهم ما يبلغه إلى النبي ﷺ ، وهذا وإن كان أمراً في ذاته مقبولاً ، إلا أنه لما كان أمراً غيبياً فإنه يتوقف على دليل توقيفي ، وهذا الدليل غير متوفر ، لأن الأدلة التي استندوا إليها في إثبات هذا المعنى ترجع إلى أحاديث ضعيفة غير موثوق بها عند نقدة الأثر ، على أن الداعي إلى هذا الادعاء الذي لا دليل عليه هو داع غير متحقق ، وذلك لما بينا مما أشار إليه القاضي البيضاوي واختاره ، وهو أن يكون معنى الإنزال هنا ابتداء الإنزال ، هذا هو المسار الأول من مسارات النظر .

المسار الثاني: مسار الجمع بين الآيات:

أما المسار الثاني فهو معنى الجمع بين ما أفاده قوله تعالى في سورة القدر ، وما أفاده قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ (٢) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿ [الدخان : ٣ ، ٤] ، فترددوا هل الليلة التي أشير إليها في سورة الدخان ، ووصفت بكونها مباركة ، وبأنها يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي عين الليلة التي أشير إليها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ، ووصفت بتنزل الملائكة والروح إلى آخره؟

اختيار الجمهور:

اختار جمهور من المحققين أن الليلة واحدة ، وهو الذي اختاره القاضي البيضاوي تبعاً لصاحب الكشف ، وهو الذي جزم به الإمام القاضي

أبو بكر بن العربي في شرحه على «الموطأ» الذي سماه : «القبس» وبذلك تكون هذه الليلة هي التي وصفت بهذه الأوصاف المختلفة المجتمعة مما ورد في سورة القدر ، ومما ورد في سورة الدخان .

معنى الأمر الحكيم في الآية :

تكون هي الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، فإن فرق الأمر الحكيم على ما قرره البيضاوي إنما هو من فرق بمعنى ميز ، وأزال الاختلاط ، ويكون الأمر الحكيم إما من الحكمة وإما من المحكم ، وهو ضد المتشابه ، وإما من المقضي الذي حكم به ، من استعمال حكم بمعنى قضى ، وأيًا ما كان فإن المقصود بهذا الأمر الحكيم الذي يفرق فيها إنما هو ما جاء به القرآن العظيم من الهدى والبيان ، فذلك هو الأمر المقضي ، أو هو الأمر المحكم ضد المتشابه ، أو هو الأمر الذي بني على الحكمة ، لأن الذي أنزله الله تعالى من الوحي على النبي ﷺ هو الحكمة ، فعلى هذا درجوا على أن الليلة هي الليلة ، وأن المنزل هو المنزل .

رأي آخر في معنى «ليلة» «الدخان» :

هناك طريقة أخرى جعلت الليلة غير الليلة ، وجعلت الأمر الذي يفرق فيها غير الأمر الذي ينتزل به الملائكة والروح مما ورد في سورة القدر ، فأثبتوا أن هذه الليلة التي ورد ذكرها في سورة الدخان ، والتي يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي ليلة النصف من شعبان ، وادعوا أن تلك الليلة تقدر فيها الأمور تقديرًا سنويًا ، بحيث إنما يقع تعلق القدرة والإرادة به مما سبق تحقيقه في علم الله تعالى إنما يتعلق بتنفيذه وتنجيذه تعلقًا خاصًا بما هو واقع بين ليلة نصف شعبان وليلة نصف شعبان ، مما تتظمه تلك السنة من الأحداث .

استناد هذا الرأي على أدلة ضعيفة أيضاً:

قد استندوا في هذا إلى أحاديث هي أضعف درجة وأقل شأنًا من الأحاديث التي استند إليها الأولون فيما يرجع إلى معنى المنزل ، وإلى ادعاء أنه ينزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

استشكال عظيم:

على هذا ورد إشكال عظيم ، وهو إشكال يتعلق بهذا المعنى الذي ادعوه مما يرجع إلى التصرف في صفة من صفات الله تعالى بما لم يرد عليه دليل من الأدلة التوقيفية ، نظرًا إلى أنهم زعموا هذا المعنى من التقدير السنوي ، فإلى أي نوع يرجع هذا من نوعي التعلق التي هي مقررة في علم الكلام لصفة القدرة وصفة الإرادة على معنى التكوين ، فإن كان المراد بالتقدير التقدير الصلوحى ، فإن التقدير الصلوحى تقدير أزلي قديم وإذا كان المراد به تقديرًا تنجيزيًا حادثًا ، فإن التقدير التنجيزى الحادث يتعلق بكل حدث عند بروزه إلى حيز الواقع ، فأى معنى لهذا التقدير الذي اعتبروه تقديرًا سنويًا؟ ونظرًا إلى تظاهر أوجه الاستبعاد والاستشكال من طريق النقل ومن طريق العقل ، من الطريق الحديثي ومن الطريق الكلامي .

دفع البعض للاستشكالات:

إن بعض المتأخرين وهو الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، المشهور بشاه ولي الله ، صاحب كتاب «حجة الله البالغة» قد مال لدفع هذه الاستشكالات ، وللجمع بين الطرق المتعارضة إلى ادعاء أن ليلة القدر ليلتان ، ليلة هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، وهي غير خاصة برمضان

فيما ادعى ، ولكنها تكون دائرة في السنة ، وكانت في رمضان على الخصوص في السنة التي أنزل فيها القرآن ، وليلة أخرى هي ليلة يتضاعف فيها فضل القربات ويسمو ثواب الطاعات ، ويقوم المؤمنون فيها مجتمعين بالطاعات ، فتعكس أنوار طاعاتهم بعضها على بعض ، وهذه هي المرادة في ليلة سورة القدر التي يتنزل فيها الملائكة والروح .

رد للقاضي ابن العربي:

قد جزم القاضي أبو بكر بن العربي ببطلان هذه الطريقة ، وجزم بأن الإنزال واحد ، وبأن المنزل واحد ، وبأن الليلة ينبغي لذلك أن تكون واحدة ، وقال إن هذا المعنى وهو ما يقتضيه وحدة الإنزال ووحدة المنزل من وحدة الليلة ، هو الذي خفي على كثير من المفسرين لأحاديث نमित إلى النبي ﷺ لا أصل لها من الصحة ، فلا تحفلوا بها .

رأي الجمهور من المحققين:

استقر جمهور المحققين على أن الليلة المشار إليها في سورتي القدر والدخان إنما هي ليلة واحدة ، وأنها ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن ، والتي يفرق فيها كل أمر حكيم ، وبذلك تجتمع الفضائل لليلة القدر ، ويتجه ما مال إليه الجمهور ، واقتضته صراحة الأحاديث من أنها لا تكون إلا في رمضان في المظان التي تتحرى فيها على حسب ما ورد في الأحاديث ، وعلى حسب ما اختلفت عليه أقوال العلماء بحسب اختلافهم بين مسالك الترجيح للأحاديث المتعارضة ، وتكون هذه المزية راجعة إلى المزية التي أثبتها الله تعالى لشهر رمضان ، إذ قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فكان تفضيل شهر رمضان بإنزال القرآن مقتضياً تفضيلاً خاصاً من شهر رمضان، لخصوص الليلة من ذلك الشهر التي كانت محلاً لنزول ما فضل بنزوله الشهر كله، وهذا يرجع إلى معنى تفضيل الأيام بالأعمال التي هي ظروف لها، كما ورد في الشرع العزيز من تفضيل الأشهر الحرم، ومن تفضيل يوم عرفة، ومن تفضيل يوم الأضحى، ومن تفضيل يوم الفطر، ومن تفضيل يوم الجمعة.

تفضيل الله لبعض الأزمان على بعض:

هذا التفضيل الشرعي الذي وردت به الأدلة الشرعية للأزمان، أشهراً كانت أم أياماً أم ليالي، هو له مقتض ومقتضى، أما المقتضى لهذا التفضيل، فإنه ما يشتمل عليه ذلك الزمان من حدوث أمر إلهي شرفه الله تعالى وبارك فيه، فشرف ظرفه وبارك في ظرفه بمباركته في الحدث الذي وقع فيه، وأما المقتضى الذي يقتضيه هذا التفضيل فهو الحث على العبادة، والحث على القربات، ورفع درجة العبادة ودرجة القربى في ذلك الزمان عن مثل درجتها في زمن آخر.

تفضيل بعض الأماكن على بعض:

نظير هذا ما وردت به الأدلة الشرعية أيضاً من تفضيل الأماكن، كما ورد في تفضيل الحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وفي تفضيل المسجد الأقصى، وفي تفضيل المساجد، وتخصيص كل من هذه المفضلات بأحكام يقتضيها التفضيل على حسب الدرجة التي وضع ذلك المفضل فيها.

الهدف من التفضيل تحقق المصلحة للعباد :

هذا المعنى من مشروعية العبادة والطاعات والقربات التي هي ذات معانٍ أخروية لا دنيوية لأجل تفضيل الأماكن أو تفضيل الأزمنة إنما يرجع إلى قصد الشرع من صلاح العباد ، وذلك لما قرره الإمام أبو إسحاق الشاطبي ، واحتفل لتقريره في كتاب المقاصد من موافقاته من أن الأحكام الشرعية إنما قصدت بها مصالح العباد لا غير ، وأن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لذاتها ، وإنما هي مقصودة للمعاني القائمة بها التي هي المصالح التي شرعت تلك العبادات لأجلها .

تحقيق مصلحة المعاش والمعاد من أهم أغراض الرسالة :

معلوم أن المصلحة من مشروعية العبادة من حيث هي هو ما تكرر التصريح به في القرآن العظيم في الغرض من الرسالة ، وهو التزكية النفسية ، وما في العبادة من إعداد للمعاد ، ومن صلاح للمعاش ، وذلك لأننا إذا قررنا مصلحة العباد على الوجه اللائق بالحكمة الإسلامية ، فإن تلك المصلحة إنما ينبغي أن تتقرر بالاعتبار المزدوج بين المصلحتين ، المعاشية والمعادية .

مصاحبة المشقة لبعض التكاليف ليس غرضه الإعانات :

إذا كان الشرع قد كلفنا بأعمال لا تخلو من مشقة ، وهي أعمال العبادات والقربات ، فإن التكليف بهذا ليس مقصوداً للإعانات ولا للنداء والإرهاق ، وإنما تقوم المصالح المستجلبة والمفاسد المستدفة على اعتبار معنى الجمع بين مصلحة الحياة الدنيا ومصلحة الحياة الآخرة ، أي من حيث تقام الحياة الدنيا لحياة الآخرة ، كما عبر عن ذلك أبو إسحاق الشاطبي .

زيادة توضيح لقضية صلاح المعاش والمعاد :

إذا ثبت أن للإنسان معادًا ، فإنه ليس من الرشد أن يتغافل عن معاده ذلك ، وليس من نصيح الناصح المشرع الحكيم أن يحثه على مصلحة معاشه ، وأن يهمل مصلحة معاده ، وذلك لأن الدنيا باعتبار فتنها ، وباعتبار كونها ماثلة للإدراك الحسي مثولاً مادياً كثيراً ما تلهي عن ملاحظة أمر الآخرة ، فيكون صلاح معاشه في أمور كثيرة محققاً لفساد معاده ، ويكون ذلك جازاً به إلى التفريط في المعاد ، بحيث إنه يصلح حياته بفساد أخراه ، ولذلك أعطته الشريعة نظاماً يجعل أعماله في الدنيا ذات أثر في الآخرة ، بما قرره من وصفني الحسن والقبح بمعنى ترتب الثواب وترتب العقاب للأعمال الدنيوية بصورة يتحقق بها ذلك في عالم الجزاء لا في الحياة الدنيا ، وجعلت الشريعة محل الفائدة من تلك التكاليف إنما يرجع إلى الصلاح الإنساني فيما يصلح به الفرد وفيما يصلح به المجتمع ، فكان المعاد غاية ، وكان المعاش موضوعاً ، وبذلك جاء الفضل الإلهي بمنح بعض القربات التي جعلت وسيلة لتحقيق سعادة المعاد نائلة من التفضيل ومن الزيادة ومن التوفير ما اقتضاه فضل الله تعالى ، نظراً إلى أن الناس مشغولون بدنياهم ، محجوبون عن أخراهم ، ولما كانت الآخرة محجبة عنهم ، فإنهم كثيراً ما يقعون في الإعراض عنها من حيث يقصدون ومن حيث لا يقصدون ، ولذلك لزم أن يكون فضل الله تعالى موصلاً إياهم إلى السعادة الأخروية مع مراعاة ما هو مركب فيهم من النزعة إلى الحظوظ الدنيوية ، كما قال القاضي أبو بكر بن العربي فيما أوتيت هذه الليلة ، وهي ليلة القدر من الفضائل ، أن المسلمين فيها يكونون قد خفت عليهم أتعاب الدنيا ، ووفرت لهم فضائل الآخرة .

كلام للقرافي رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفُرُوقِ»:

أورد العلامة شهاب الدين القرافي في الفصل التاسع والتسعين من فروقه ، فرقا بناء على تقرير تفضيل الأماكن وتفضيل الأزمنة بما يشرع في تفضيلها من القربات ، فقرر أن الشريعة فضلت أماكن ، وفضلت أزمنة ، وأنها جعلت العبادات من الصلاة ، والصيام ، مقتضى لذلك التفضيل ، وأن نسبة الصلاة إلى البقاع كنسبة الصوم إلى الأزمنة ، وبعد أن قرر هذا أورد على عادته استشكالاً بناء على تفضيل الأشهر الحرم ، فإنها أزمان فضلها الله تعالى ، ولم يشرع لها الصوم تفضيلاً ، مع أنه لما فضل الأماكن كالمساجد شرع الصلاة لإعلان تفضيلها وهذا الأمر الذي ذهب إليه القرافي من الفرق ، وبنى عليه ما أورد من الاستشكال هو في الغالب بالنسبة إلى الأشهر الحرم ممنوع ، لأن كثيراً من الأشهر الحرم مشروع صومه على معنى الندب ، وإذا سلم أن بعض الأزمنة لم يشرع فيه الصوم ، فإنما ذلك إنما يكون لموانع كما هو الشأن بالنسبة لتحية المسجد ، أو لركعتي الطواف في الأوقات التي هي أوقات حرمة للنافلة أو كراهة لها ، فعلى ذلك يجري القياس فيما لم يشرع صيامه من الأشهر الحرم ، أو ما منع صيامه من مثل يومي العيدين ، أو مثل يوم الجمعة عند كثير من الفقهاء ، وإن كان قول مالك في «الموطأ» على عدم كراهة صوم يوم الجمعة ، وقال إنه حسن ، وقد دل القرآن العظيم من جهة أخرى على أن الصوم مشروع لتعظيم الأزمنة فيما تقدم من قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ .

استدراك على القرافي:

بهذا المعنى الذي يندفع به الاستشكال الذي قرره القرافي في الفرق التاسع والتسعين، ينبغي الاستدراك على القرافي أيضًا فيما تضمنه فرقه الآخر، وهو الفرق الثالث عشر بعد المائة، الراجع إلى تفضيل المعلومات، حيث حصر أسباب التفضيل الشرعية في قواعد انتهى بها إلى عشرين، وجعل بعض مقتضيات التفضيل راجعة إلى الذات، أو إلى الصفة، أو إلى المدلول، أو إلى الدلالة، أو إلى التعلق، أو إلى الجوار، أو إلى النسب والسبب، أو إلى الثمرة، أو إلى الحلول، وأراد من هذا الفرق الانتصار إلى ما قرره القاضي عياض، وحكى الإجماع عليه من تفضيل محل قبر النبي ﷺ على كل موضع في الدنيا على الإطلاق تفضيلاً يستثني محل القبر الشريف من الخلاف في التفاضل بين مكة والمدينة.

رأي الذين توقفوا فيما حكاه القاضي عياض:

إن الذين توقفوا فيما حكاه القاضي عياض بنوا توقفهم على جعل التفضيل الشرعي جعليًا أي بكثرة الثواب، وبين القرافي أن التفضيل لا يكون بكثرة الثواب وإنما يكون راجعاً إلى القواعد العشرين التي ذكرها، ولكنه أخل في ذكره القواعد العشرين بالتفضيل الذي يكون راجعاً إلى الاستقرار في الأزمنة، والذي منه تفضيل ليلة القدر، زيادة على ما فيها من داع آخر للتفضيل يرجع إلى قاعدة من القواعد التي ذكرها القرافي، وهي التفضيل بسبب المتعلق، وظاهر الحديث في تفضيل ليلة القدر من أن النبي ﷺ أرى... فكأنه تقاصر... إلى آخره. أن ليلة القدر لم يكن فضلها مشروعاً قبل ما أرى النبي ﷺ ما أرى، وأن هذه الإراءة إنما

كانت عبارة عن اطلاع على الغيب بطريق الوحي ، فالبناء للنائب إنما هو لأن الفاعل معروف ، وهو الله تعالى ، وكثيراً ما وقع التعبير على المرئي النبوية بطريق الوحي بهذا الطريق من البناء للنائب ، والمرئي إنما هو أعمار الناس قبله ، وأعمار الناس قبله لا يخفى أنها صيغة تستغرق جميع العصور السابقة لعصر البعثة النبوية الشريفة ، وهذه الإراءة لما كانت إراءة غير عادية ، وكانت متعلقة بالأعمار التي هي شيء لا يدرك بالأبصار ، فإنها يجوز أن تكون راجعة إلى الأعمار بالمعنى الفردي ، ويجوز أن تكون راجعة إليها بالمعنى الجماعي أي أعمار الأمم ، وقد استعمل القرآن العظيم لفظ العمر في الدلالة على المعنيين ، فكل من المحملين جائز ، وكل من المحملين توجد عليه أدلة .

صعوبة ضبط المعنى في الرؤية والمشاهدة:

نظراً إلى صعوبة ضبط هذا المعنى من الرؤية ومن المشاهدة ، وصعوبة تحقيق تعلقه بالأعمار التي هي أمر مجرد غير محسوس جاء الراوي في تعبيره بما اقتضاه الحرص على التحري في مثل هذه الأمور التي لا يمكن أن تؤذيها العبارة تأدية دقيقة ، بقوله : أو ما شاء الله من ذلك ، لأن هذه الرؤية هي أمر لا يكيف .

القول في معنى الرؤية:

يجوز أنه ﷺ رأى الأعمار ، ويجوز أنه رأى آثارها من الأعمال ، كما قيل في وزن الأعمال ، وهذا يرجع إلى معنى من معاني شمائله الكريمة ﷺ في حرصه على أمته ، وشفقته عليها ، حيث إنه لما رأى هذا تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغه السابقون ، فأراد أن يبلغ بهم إلى

ما فوق ذلك ، وعلى ذلك يكون إعطاء الله تعالى إياه ليلة القدر مبيّناً على اطلاع إلهي انكشف به للعلم القديم ما في نفس النبي ﷺ بدون أن يعبر عنه ، على نحو ما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَدْ زَرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، ويجوز أن يكون النبي ﷺ دعا بذلك دعاء صريحاً ، فأجابه الله إلى ذلك بإعطائه ليلة القدر خيراً من ألف شهر ، على أن صريح الآية يقتضي تفضيل ليلة القدر على الأيام الطويلة ، وعلى الأشهر الكثيرة ، بقوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

وجه تخصيص العدد بالألف :

قد اتجهت أنظار المفسرين إلى التساؤل عن وجه تخصيص الألف ، لماذا كان المقدار الزمني الذي فضلت عليه ليلة القدر مقداراً محصوراً في ألف شهر فترددوا في أن هذا المقدار المحصور مراد الحصر والتعيين أو ليس مراداً؟

القائلون بأن العدد مراد في ذاته :

لما ذهبوا إلى أن العدد مراد ، جاءت الأخبار الواهية من الإسرائيليات والأحاديث الراجعة إلى العصبية التي منها الأحاديث الراجعة إلى تنقيص بني أمية ، وهذه الأحاديث لا تبلغ درجة الصحيح ، ولكن أمثلها هو حديث الترمذي أن النبي ﷺ رأى في منامه بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه ، فنزل عليه : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، قال الراوي : فعددنا حكم بني أمية فإذا هي ألف شهر ، لا تزيد ولا تنقص ، وهذا المعنى هو غير مسلم أولاً من جهة الواقع ؛ لأن مدة حكم بني أمية أكثر من ألف شهر ، وثانياً فإنه من الأحاديث التي وردت من طريق الدعايات والعصبية السياسية ، وهي في الغالب أحاديث غير موثوق بها .

كلام ابن العربي حول الحديث:

قد جزم الإمام الحافظ، أبو بكر بن العربي برد هذا الحديث، وبين أنه حديث لا يصح، وزاد فبين أن الإشارة إلى عدم صحة هذا الحديث، إنما هي مأخوذة من حديثنا، وهو بلاغ مالك أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله، وجعل تخريج مالك رَحِمَهُ اللهُ لهذا الحديث عقب الأحاديث المقتضية تفضيل ليلة القدر، إنما كان أولاً لبيان السبب في إعطاء ليلة القدر، وثانياً للتنصيص على بطلان الحديث الآخر، لأن هذا البلاغ يعارض الحديث الذي خرجه الترمذي ولم يصححه ولم يحسنه مما يتعلق بشأن بني أمية، فلذلك مال أكثر المحققين، وفي مقدمتهم القاضي ناصر الدين البضاوي إلى أن الألف المذكورة هنا لا خصوصية لها، وأنه ليس المراد منها عدداً معيناً حتى يبحث عن الوجه الذي اقتضى تخصيص هذا العدد، وإنما هي كما قال البضاوي مجرد تمثيل للكثرة لا يقصر على عدد معين.

استشكال من القرافي في «الفروق»:

هنا يعود إلينا شهاب الدين القرافي بإشكال، هو إشكاله الذي تضمنه الفرق الثامن والعشرون بعد المائة من فروقه، الذي يتعلق بألفاظ العدد، فبعد أن بين أن ألفاظ العدد نصوص في معانيها لا تقبل المجاز أورد ما صرح به المفسرون من استعمالات كثيرة وردت فيها أسماء الأعداد مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿ذَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢] وكما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وكما في ﴿ثُمَّ أُنْجِجْ أَبْصَرَ كَرْنَيْنِ﴾ [الملك: ٤] إلى آخره. وبقي هذا الاستشكال الذي أورده

القرافي قائماً، فالقاعدة تقتضي أن أسماء الأعداد نصوص، والاستعمال الذي صرحوا به يقتضي أن أسماء الأعداد استعملت في غير المعاني الموضوعة لها.

مناقشة استشكال القرافي:

قد كان لهذا الاستشكال الذي تركه شهاب الدين القرافي قائماً بعده رجوع بين العلماء في القرن الماضي في مراجعة شهيرة جرت في توجيه استشكال القرافي ومحاولة الجواب عنه بالفرق بين معنى الاستعمال المجازي ومعنى الاستعمال التمثيلي، وأجاب بأن المأخوذ من كلام الكمال بن الهمام في «فتح القدير»، أن المراد من قولهم أن أسماء الأعداد لا تستعمل في غير ما وضعت له، أنها لا تستعمل في الدلالة على أعداد أخرى يعني لا تستعمل السبعين للدلالة على واحد وسبعين، وأما استعمالها مجازاً في معنى آخر غير عددي فهذا لا مانع منه، وقد تمسك في مراجعته بأن الخروج عن المعنى الموضوع له هو الذي ينافي النصية، وأن استشكال القرافي يبقى قائماً ما دمنا قائلين بالاستعمال المجازي إلا إذا قلنا بأن الاستعمال إنما هو تمثيلي، كما صرح بذلك صاحب الكشف، وكما صرح به البيضاوي، وذلك لأن التمثيل يكون لفظ العدد فيه مستعملاً في معناه الحقيقي، ويكون ذلك المعنى الحقيقي ممثلاً به للمعنى المطلق الذي يتجاوز ذلك العدد، فكأنه معنى من معاني التشبيه، كأنه قيل: كثرة تشبه مقدار السبعين، أو كثرة تشبه مقدار المائة، أو كثرة تشبه مقدار الألف.

استقرار المحققين على أن الألف لا مفهوم له :

استقر المحققون من المفسرين على أن الألف ليس لها مفهوم هنا ، وأنها مستعملة تمثيلاً في الكثرة ، وأن المراد منها أن ليلة القدر تفضل الأشهر الكثيرة العديدة البالغة من الكثرة مبلغاً فائقاً ، وهذا يقتضي تفضيلاً آخر لليلة القدر ، وهو تفضيلها بالموازنة بعد تفضيلها بالاعتبار الذاتي الذي نوه به أولاً في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ، وهو صريح في أفضلية ليلة القدر أفضلية مطلقة ، ولأجل ذلك اتجه عند الجمهور القول بأن ليلة القدر أفضل ليلة في السنة .

أيهما أفضل ليلة القدر أم يوم الجمعة؟

أورد الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في رسالته التي وضعها في فضل يوم الجمعة استشكالا مبنياً على الأحاديث التي وردت في فضل يوم الجمعة ، مثل حديث أبي لبابة الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه : من أن يوم الجمعة سيد الأيام ، ومثل حديث أبي هريرة في قصته الشهيرة مع كعب الأحبار من أن يوم الجمعة خير يوم طلعت عليه الشمس ، وهو مروي في صحيح مسلم وفي «الموطأ» ، فأثبت أن لبعض فقهاء الشافعية قولاً بأن يوم الجمعة أفضل من ليلة القدر ، وأن لهم في ذلك تأويلاً يرجع إلى قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، حاصله أن التفضيل إنما كان على ألف شهر ، ليس منها يوم الجمعة ، كما أن التأويل وقع مضطراً إليه في أن يكون مستثنى منها ليلة القدر لامتناع تفضيل الشيء على نفسه ، فحيث دخلها التأويل أولت باستثناء يوم الجمعة ، كما أولت باستثناء ليلة القدر ، وبهذا تتقرر خصوصية لهذه الأمة ترجع إلى معنى

البشارة ، وتندرج في خصائص النبي ﷺ وفضائله ، فإنه لا يخفى أن كل ما أوتيت هذه الأمة من الخصائص والفضائل إنما هو مستمد من خصوصية النبي ﷺ وفضله .

لما دعا الله داعيناً لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

التفضيل داعٍ إلى السمو والسيادة:

يكون هذا التفضيل الذي خصت به هذه الأمة تنبيهاً لها إلى ما ينبغي أن تكون عليه من الهمة في السمو بنفسها إلى مراقبي السيادة والفضل ، حتى لا تكون بإخلاها بذلك مخلة بما يجب للنبي ﷺ من فضيلة ، أو مخلة بما يجب من الشعور بنعمة الله تعالى عليها ، وشكر تلك النعمة بممارستها .

أمثلة على ما فضلت به أمة النبي ﷺ:

هذا يرجع إلى مثل ما ورد به تفضيل يوم الجمعة في حديث أبي هريرة في البخاري ، أن النبي ﷺ قال : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم كان هذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، فهدانا الله إليه ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد» وهذا هو الذي ترجع إليه المعاني التي ثبتت بها فضائل الأعمال اليسيرة المستنزرة مما كان فضلاً عظيماً وإحساناً غزيراً ، بفضل مقام النبي ﷺ ، وعظيم شفاعته .

فكما ورد في حديث المعراج أن الصلوات خمس وهي خمسون ، وأن الحسنه بعشر أمثالها ، وكما ورد في أن صلاة السفر لا تنقص فضلاً عن صلاة الحضر ، وكما تقدم نقله عن الإمام القاضي أبي بكر بن العربي في أن

قلة المشقة لم تستوجب لهذه الأمة قلة الأجر ، فخفف عنهم تعب الدنيا ، وأدركوا عظيم الثواب في الآخرة ، وكما ورد في حديث الإجارة ، المشهور ، وهو حديث مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر ، أن النبي ﷺ قال : «إنما مثلكم واليهود والنصارى ، كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود ثم عملت النصارى على قيراط قيراط ، ثم أنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ، فقال هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا : لا ، فقال : فذلك فضلي أوتيته من أشياء»^(١) . وإلى هذا المعنى من أن الفضل الذي أعطاه الله تعالى للعبادات والقربات إنما هو أمر جعلي ليس راجعاً إلى ما تشتمل عليه تلك العبادات من المشاق أو من الكثرة والوفرة .

فضل من شهد عشاء ليلة القدر:

أشار الإمام مالك في الحديث الذي أعقب به حديث درسنا ، وهو بلاغ سعيد بن المسيب : «أن من شهد العشاء ليلة القدر فقد شهد حظه منها» ، فكان هذا مفيداً أن المقدار الواجب من العبادات الذي هو صلاة العشاء بدون زيادة عليه يرجى معه أن يكون الذي قام به حائزاً لفضل القيام ليلة القدر ، لما ثبت في حديث «الصحيحين» : «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه» ، فبقيامه بصلاة العشاء وهي

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٩) .

فريضة ، تنزل عليه الملائكة والروح ، ويشمله السلام الذي جعله الله تعالى مبثوثاً في هذه الليلة ، شاملاً لها إلى مطلع الفجر .

العبرة بالقصد إلى تحري ليلة القدر:

إن العبرة في ذلك بالقصد إلى تحري تلك الليلة ، وذلك معنى الإيمان والاحتساب ، وبالتطلع إلى ما يمنح الله تعالى فيها من الفضل ، وبذلك يكون مهياً لأن يشمله الفضل باعتبار تحريه إياها ، واحتسابه وتطلعه إلى أن يكون مشمولاً بالفضل الذي جعله الله تعالى غامراً للناس فيها ، ولمثل هذه النكتة التي ختم لأجلها الإمام مالك ما جاء في ليلة القدر ببلاغ سعيد ابن المسيب كان عمل الإمام البخاري في ختمه جامعاً الصحيح ، بالحديث الذي يقتضي أن أخف الأعمال يقتضي أثقل الأجر في الميزان ، وهو حديث : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» .



فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
٧	المحاضرة الخامسة بعد المائتين
٧	كيف صاغ القرآن الكريم شخصية النبي ﷺ
٧	تأثير القرآن على تكوين شخصية المصطفى ﷺ
٨	أهمية هذه الآيات في حياة المسلم
٨	إطالة على آيات سورة الأنعام
٩	النبي ﷺ معلم وداعية
١٠	يوم القيامة من أدلة القدرة مكاناً وزماناً
١١	تسليية الله ﷻ لنبيه مما يجده من أذى
١٢	الله الخلق والأمر
١٢	الأمر بالإسلام نهى عن الشرك
١٣	وحي الله لنبيه ليرد افتراء المشركين
١٤	الاهتمام بقضية التوحيد وتعميقها في النفس
١٥	حزن النبي ﷺ وهمه وإشفاقه على أمة الدعوة
١٥	تسليية الله لنبيه بعد تعرضه لافتراء المشركين
١٧	الصبر الجميل من قبل النبي ﷺ
١٧	حث الآية على الحلم وسعة الصدر
١٨	التسليي بقدر الله على قدر الله
١٩	نعم الله أكبر مقارنة بالبلاء
٢٠	علاج الآية لآفتي الحقد والحسد
٢١	جرعة إيمانية علاجية لضيق الصدر

التسييح	٢١
السجود	٢١
العبادة حتى الموت	٢٢
اقتداء النبي ﷺ بسلفه من أنبياء الله عليهم السلام	٢٢
توجيهات إلهية بعد رحلة علمية عقلية قلبية	٢٤
نجاح الداعية بالقول والعمل معًا	٢٥
أمثلة نادرة في موافقة القول بالعمل	٢٥
المحاضرة السادسة بعد المائتين	٢٧
الفقه الإسلامي يهدي إلى الرشد ويقضي بالعدل ويحل مشاكل الجماعة	٢٧
مقدمة	٢٧
تمهيد	٢٧
تعدد روايات حديث: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»	٢٨
روايات معاوية للحديث	٢٨
ما سبب اختلاف الروايات؟	٢٩
التمادح هو الذبح	٣٠
العطاء من الله والرسول قاسم	٣٠
روايات الحديث ومواضعه عند البخاري	٣١
جوانب الحديث	٣٢
معنى الفقه والتفقه لغةً	٣٢
مثال آخر	٣٣
الفقه في الاصطلاح	٣٣
الفقه عند الأصوليين	٣٤
تطور تعريف الفقه عند الأصوليين	٣٤

٣٥	التعريف الثالث عند الأصوليين
٣٥	الطريق النظري للفقهاء
٣٦	دور السنة في الفقه
٣٦	دور الشريعة في الهداية
٣٦	صفات الشريعة
٣٧	الشريعة تكسب الناس الصفاء الروحي وتنزع بهم إلى الكمال
٣٨	الخوف من الله من سمات العلماء
٣٨	بعض المسلمين وتصورهم الخاطئ للشرع
٣٩	الشريعة لرفع الحرج عن الناس والتيسير عليهم
٣٩	الجانب الثاني للحديث الشريف: العدل
٤٠	أنواع دلالات النص التشريعي
٤٠	معرفة الدلالات لتوخي العدل
٤١	التشريع الإسلامي ونظرة المنصفين من الغرب
٤١	الطريق العملي لجانب العدل
٤٢	الجانب الثالث للحديث الشريف
٤٢	الطريق النظري
٤٣	الطريق العملي
٤٣	أهمية دور المجامع الفقهية في الوقت الحاضر
٤٤	فضل المدارس الإسلامية الحديثة على الأمة
٤٥	ضرورة إحياء الدواوين الفقهية
٤٥	خاتمة
٤٦	المحاضرة السابعة بعد المائتين
٤٦	البعث والحشر بين النظر العقلي والإيمان الديني

٤٦	تمهيد
٤٨	سند الحديث عند البخاري
٤٨	يحيى بن بكير
٤٨	الليث بن سعد
٤٩	عبيد الله بن أبي جعفر
٤٩	حمزة بن عبد الله
٤٩	عبد الله بن عمر
٥٠	معاني المفردات
٥٠	استغاثة البشر بأبيهم آدم عليه السلام
٥١	استغاثتهم بموسى عليه السلام
٥١	الشك في التوراة والإنجيل بخلاف القرآن
٥١	وشهد شاهد من أهلها
٥٢	لجؤهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم
٥٢	نسب النبي صلى الله عليه وسلم
٥٤	القرآن هو معجزة النبي صلى الله عليه وسلم
٥٥	إخباره صلى الله عليه وسلم بمرض افتراق الأمة
٥٥	تشخيص العلاج
٥٥	عود على بدء
٥٦	معنى الشفاعة
٥٧	المراد بالبَاب والحلقة في الحديث
٥٧	فقه الحديث الشريف
٥٨	الحديث في حكم المتواتر
٥٩	مجيء الحديث بشكل مختصر

٥٩	الاستشفاع بالسادة والفضلاء مشروع
٦٠	فائدة ذكر الوجه واللحم والعرق
٦١	معنى المقام المحمود
٦١	المرحلة الرابعة : تلخيص واعتبار
٦٢	أدلة البعث عند أفلاطون
٦٢	نصيحة إلى المسلمين
٦٥	المحاضرة الثامنة بعد المائتين
٦٥	منهج الفكر القانوني في الفقه الإسلامي
٦٥	مقدمة
٦٥	نظرة الفكر الغربي للمعرفة الإسلامية
٦٦	التغيير بين الفكر الغربي والفقه الإسلامي
٦٦	دحض تصور الفكر الغربي عن المعرفة في الفقه الإسلامي
٦٧	أسئلة وأجوبة
٦٧	مشاكل تعترض التشريع
٦٨	حتمية نشأة فقه أو علم القانون
٦٨	معنى عقلنة الفقه
٦٨	ملحوظات على ملاءمة الفقه العقلاني لطبيعة الفكر الإسلامي
٦٩	الإجابة على الملاحظة الأولى
٧٠	معنى الثغرات
٧٠	معنى التطوير
٧٠	أمثلة على ذلك
٧١	مثال آخر
٧١	التطوير وطبيعة الفكر الإسلامي

- ٧٢ سهولة تغيير النصوص الجزئية
- ٧٢ المبادئ العامة وكيفية التعامل معها
- ٧٢ أمثلة من القانون الفرنسي
- ٧٣ مثال آخر
- ٧٣ مبادئ الشريعة الإسلامية مستقاة من القرآن الكريم
- ٧٤ مثال من الشريعة الإسلامية
- ٧٤ أحكام الأسرة وكيفية تطبيقها
- ٧٤ نشأة علم القانون الإسلامي
- ٧٥ بين القانون وعلم القانون
- ٧٥ بساطة أحكام القانون الإسلامي مع نشأته
- ٧٥ أُسس علم أصول الفقه
- ٧٦ مثال على ذلك : صلاة الخوف
- ٧٧ الرواية المقبولة
- ٧٧ ارتباط التشريع بحكمته
- ٧٧ تدهور تطبيق علم الأصول
- ٧٨ تأثر علم الأصول بالكلام
- ٧٨ منحى آخر
- ٧٨ منحى ثالث
- ٧٩ مثال لتأثر علم الأصول بالكلام
- ٧٩ تطبيق المثال السابق على واقعنا المعاصر
- ٧٩ الرازي وأثره في علم الأصول
- ٧٩ العبادات وأحكامها الخاصة
- ٨٠ علم الأصول والمنطق

٨٠	المازري وأثره في أصول الفقه
٨٠	استنكار معاصر
٨١	موضوع علم الأصول
٨١	الشاطبي والسبكي وأثرهما في علم الأصول
٨٢	استظهار عيوب علم الأصول
٨٢	كيف نعيد الفقه الإسلامي لسابق عهده؟
٨٢	إمكانية عودة الفقه الإسلامي لسابق عهده
٨٣	أمثلة على ذلك
٨٣	الوظيفة النفعية الوقائية للعقوبة
٨٤	التفريد في العقاب
٨٥	المحاضرة التاسعة بعد المائتين
٨٥	محبة آل البيت
٨٥	مقدمة
٨٦	توطئة
٨٦	ظلام يتبدد وليل ينجلي
٨٧	النبي المعلم
٨٧	مدد لا ينتهي
٨٧	فضل النبي ﷺ في امتداد الأثر
٨٨	بين تريمنا للنبي وتكريم الله له ﷺ
٨٨	حب عترة النبي ﷺ من الإيمان
٨٩	التوصية بكتاب الله وبعترته ﷺ
٨٩	تكرار التوصية
٩٠	التوصية بعترته ﷺ في حجة الوداع

٩٠	إجلال الأمة للعترة كإجلالهم لكتاب الله
٩١	تحليل الرواية الأولى للحديث
٩٣	تفسير بعض ما جاء في السند
٩٤	درجة الحديث
٩٤	ملخص الحكم على سند الحديث
٩٥	الكلام على رواية الإمام مالك
٩٥	رجال سند الحديث
٩٦	تحليل ألفاظ الحديث
٩٧	بعض اللطائف من كلام سيد المرسلين
٩٧	الكل الجميعي والكل المجموعي
٩٧	تمثيل ذلك
٩٨	تغير أوضاع الأمة مرتبط بوصية النبي ﷺ
٩٨	السيوطي وجمعه لأحاديث آل البيت
٩٩	الإسلام ضد القوميات والقبلات
٩٩	حب الصحابة لآل البيت
١٠٠	خلاصة القول
١٠١	المحاضرة العاشرة بعد المائتين
١٠١	حديث جبريل حول الإسلام، والإيمان، والإحسان، والقدر
١٠١	مقدمة
١٠٢	توطئة في الكلام على الحديث
١٠٣	تعريف بالإمام مسلم
١٠٣	نشأته
١٠٣	مولده

١٠٣	رحلته وشيوخه
١٠٤	مؤلفات الإمام مسلم
١٠٤	وفاته
١٠٤	كتابه «الجامع الصحيح»
١٠٥	بعض أقوال العلماء في مسلم وكتابه
١٠٥	المقارنة بين كتابي البخاري ومسلم
١٠٦	موطأ مالك وصحيح البخاري
١٠٦	عود إلى كتاب «صحيح مسلم»
١٠٧	المقصود بالمغاربة
١٠٧	طريقة البخاري في كتابه
١٠٧	«صحيح البخاري» أقرب إلى الفقه ككتاب
١٠٨	طريقة البخاري في تقطيع الأحاديث
١٠٨	مسلم وتعامله مع الأحاديث
١٠٨	طريقة مسلم في كتابه
١٠٩	اختلاف العلماء في تفسير فعل مسلم
١٠٩	الرأي الراجح
١١٠	تفريق البخاري روايات أحاديثه في الأبواب
١١٠	جمع مسلم روايات الحديث الواحد في الباب
١١١	صنيع موافقة مسلم لعلماء المغاربة
١١١	علماء المغاربة فقهاء مالكية يفضلون مسلمًا
١١٢	تفضيل مسلم ليس على مسألة الصحة
١١٢	مسألة المعاصرة ومسألة اللقاء
١١٢	العنونة في الحديث

- المعاصرة واللقاء شرط البخاري ١١٣
- المعاصرة شرط مسلم دون اللقاء ١١٣
- اللقي يثبت بالتاريخ ١١٤
- الإجماع على «صحيح البخاري» ١١٤
- حكم بعض المغاربة على البخاري ومسلم ١١٥
- صحة درجات الحديث ١١٥
- خلاصة القول ١١٦
- ميزة انفرد بها الإمام مسلم ١١٦
- مقدمة الإمام مسلم لـ «صحيحه» ١١٦
- طبقات الرواة عند مسلم ١١٧
- تقسيم مسلم مقدمته إلى أبواب ١١٧
- رد مسلم على مسألة اللقي ١٢٠
- مسلم ومقدمته ١٢١
- مسلم أول من وضع علم مصطلح الحديث ١٢١
- خاتمة ١٢٢
- الإيمان عند أهل السنة ١٢٢
- الإيمان يزيد وينقص ١٢٢
- الإيمان شرط كمال عند أهل السنة ١٢٣
- الإيمان شرط صحة عند المعتزلة ١٢٣
- مفهوم الإسلام والإيمان ١٢٣
- كتاب الإيمان لمسلم ١٢٤
- تحويل السند في الأحاديث ١٢٥
- تفسير معنى حاء التحويل ١٢٦

١٢٧	لطيفة
١٢٧	ذكر ابن يعمر مرة أخرى
١٢٧	معبد الجهني أول من تكلم في القدر
١٢٧	يحيى بن يعمر
١٢٨	عود لحديث القدر
١٢٨	مسألة القضاء والقدر
١٢٩	الخطابي وقوله في القضاء والقدر
١٣٠	شرح مسألة القضاء والقدر
١٣١	الإرادة صفة تخصيص
١٣١	العلم صفة انكشاف
١٣١	التكليف متعلق بالعقل
١٣٢	التعلق الصلاحي والتعلق التنجيزي
١٣٣	العلم تعلق تنجيزي
١٣٥	المحاضرة الحادية عشرة بعد المائتين
١٣٥	المحكم والمتشابه
١٣٥	تمهيد
١٣٦	اسم الموضوع
١٣٦	سبب نزول الآية الكريمة
١٣٧	الآيات تلفت الأنظار إلى التوحيد
١٣٧	بعض معاني الآيات الكريمة
١٣٨	الله ﷻ هو المصور
١٣٨	مناقشة وفد نجران للنبي ﷺ في شأن المسيح ﷺ
١٤٠	تقسيم القرآن الكريم إلى محكم ومتشابه

- معنى الحكم ١٤٠
- معنى التشابه ١٤٠
- رجوع الإحكام والتشابه إلى المعنى ١٤١
- أمثلة على التشابهات ١٤٢
- تلخيص الكلام في هذا الباب ١٤٢
- معنى الزيف في الآية ١٤٣
- صفة التأويل السليم ١٤٤
- توجيه كلام ابن عباس رحمهما الله ١٤٥
- الحكمة من استئثار الله بتأويل بعض الآيات ١٤٥
- «والراسخون» معطوفة أم مستأنفة؟ ١٤٦
- لا بد في التأويل من رسوخ القدم في العلم ١٤٧
- لماذا لم يصفهم الله بالراسخون في الدين! ١٤٧
- مناقشة القراءة بالعطف والاستئناف ١٤٨
- الاعتراض على هذا الرأي ١٤٨
- والخلاصة ١٤٩
- من مسائل التشابه ١٤٩
- صفة الاستواء ١٥٠
- صفة الوجه ١٥٠
- صفة العين ١٥١
- صفة اليد ١٥٢
- مذهب الأشاعرة ١٥٢
- قول الشيخ رضوان الجني ١٥٣
- قول المؤولين ١٥٣
- أثر الفلسفة والمنطق على العقيدة الإسلامية ١٥٤

١٥٦.....	المحاضرة الثانية عشرة بعد المائتين
١٥٦.....	الإسلام والتجديد
١٥٦.....	مقدمة
١٥٧.....	النقطة الأولى : هل الإسلام قابل للتجديد؟
١٥٧.....	النقطة الثانية : التجديد الذي يقبله الإسلام
١٥٧.....	جوهر الإسلام الخاص لا يقبل التجديد
١٥٨.....	مثال ذلك
١٥٨.....	النقطة الثالثة : افتقار الإسلام إلى التجديد ، وأسباب ذلك
١٦١.....	الإسلام لا يفتقر إلى التجديد من وجوه
١٦٢.....	الانتقال إلى النقطة الرابعة والخامسة
١٦٢.....	إخبار الله رسوله عما حدث للأمم السابقة
١٦٣.....	النبي هو الرجل الأول الذي ذب عن الدين
١٦٣.....	تحذير النبي لأصحابه حتى لا تتكرر الأخطاء
١٦٤.....	سيرة الأنبياء الكرام في القرآن الكريم
١٦٥.....	توكيل الله لأنبيائه ليحفظوا تراث النبوة
١٦٦.....	علام يعود الضمير في قوله تعالى : ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾
١٦٦.....	العلماء وكلاء وأمناء على الدين
١٦٦.....	تأكيد هذا المعنى في نص السنة المطهرة
١٦٧.....	السند من السنة المطهرة لممارسة التجديد
١٦٧.....	تخريج الحديث الشريف
١٦٧.....	ما يشير إليه الحديث الشريف من الآفات
١٦٨.....	التحريف والانتحال والتأويل
١٦٨.....	أساتذة التحريف هم بنو إسرائيل

١٦٩	آفة الانتحال والكذب
١٦٩	آفة التأويل
١٧٠	آفة الغلاة
١٧٠	آفة المبطلين
١٧١	تصدي العلماء لهم
١٧١	نماذج من المبطلين
١٧٢	آفة الجاهلين
١٧٢	تنبيه إلى حديث شريف
١٧٢	نص الحديث والمراد منه
١٧٣	غرض الحديث
١٧٣	فهم خاطئ للحديث
١٧٣	آية وحديث يفتحان الباب للتجديد
١٧٤	سند التجديد عند المسلمين
١٧٥	التعليق على الحديث
١٧٥	على رأس مائة سنة ليس بقيد
١٧٥	من يحدد هل المجدد فرد أم جماعة؟
١٧٦	هل يشترط كون المجدد من العلماء؟
١٧٧	الرأي الراجح
١٧٧	معنى التجديد
١٧٨	معنى الدين
١٧٨	مدلول الدين عند المسلمين وغيرهم
١٧٨	تعريف الدين عند الفرنسيين
١٧٩	صفات المجدد

١٨٠	هل يكون المجدد من أهل البيت؟
١٨٠	من شروط المجدد
١٨٠	شأن الحديث في مجال التجديد
١٨١	عدد المجددين عند المسلمين وغيرهم
١٨١	مجدد الإسلام الأول : الراشد العمري
١٨٢	شهادة إمام أهل السنة
١٨٣	فئات المجددين وتصنيفهم
١٨٥	مناهج التجديد
١٨٦	تصحيح المفاهيم الإسلامية
١٨٧	إبراز الخطوط الكبرى للإسلام
١٨٧	لا بأس بدراسة ما لا يقف في وجه الدين والأخلاق
١٨٨	بذل الجهد في النقد الذاتي لبعض التأويلات
١٨٩	حاجة بعض الشرائع إلى التجديد
١٩٠	مجالات التجديد
١٩٢	دور المسلمين في رد الدعوات الباطلة
١٩٤	شعار الداعين إلى الله
١٩٥	المراد ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
١٩٨	المحاضرة الثالثة عشرة بعد المائتين
١٩٨	القراءات القرآنية
١٩٨	القرآن معجزة الإسلام الخالدة
١٩٨	موضوع الدرس
١٩٩	عناصر الموضوع
١٩٩	نص الحديث الشريف

- شأن الحديث بالنسبة للقرآن الكريم ٢٠٠
- معنى «الأحرف» في نص الحديث ٢٠١
- المراد بالعدد «سبعة» في الحديث ٢٠١
- سبب ورود القرآن على سبعة أحرف ٢٠١
- عناية المسلمين بكتابة النص القرآني ٢٠٢
- جمع القرآن في مصحف واحد ٢٠٢
- مرحلة الاهتمام بالقراءات ٢٠٤
- فما هي القراءات إذن؟ ٢٠٤
- ابن مجاهد وتأصيل علم القراءات ٢٠٥
- ذكر أصحاب القراءات السبع ٢٠٦
- ضوابط ابن مجاهد في اختيار القارئ ٢٠٦
- هل الأحرف السبعة هي القراءات السبعة؟ ٢٠٧
- مرحلة الاختيار في القراءات ٢٠٧
- مقاييس القراءة الصحيحة المقبولة ٢٠٨
- حادثة ابن شنبوذ المقرئ ٢٠٩
- الخلاف بين أهل اللغة وأهل القراءات ٢٠٩
- ظهور القياس وأثر ذلك على القراءات ٢١٠
- ثبوت الرواية بالقراءة مقدم على قياس العربية ٢١٠
- نقد النحاة ٢١١
- نماذج من الاعتراضات ٢١٢
- لا يصح إخضاع القرآن للغة ٢١٣
- ملاحظات هامة ٢١٤

٢١٥	طوائف النحاة وأقسامهم
٢١٦	سر الخلاف بين القراء والنحاة
٢١٧	القراءات وأثرها في الاستشهاد الشعري
٢١٩	المحاضرة الرابعة عشرة بعد المائتين
٢١٩	العلاقة بين السياسة والدين
٢١٩	تمهيد
٢٢٠	نظرة القدماء إلى السياسة
٢٢٠	نظرة مشابهة عند بعض المحدثين
٢٢٠	مفهوم الدين في الحضارات القديمة
٢٢٠	موقف مفكري النهضة الحديثة من الدين
٢٢١	علاقة السياسة بالدين في المسيحية
٢٢١	الحرب العالمية وأثرها على علاقة السياسة بالدين
٢٢٢	انعقاد مجمع الفاتيكان سنة ١٩٦٥
٢٢٢	ظهور مفهوم العدل وأثر ذلك
٢٢٣	حال الدين مع السياسة
٢٢٣	الإشارة في الحديث إلى علاقة الدين بالسياسة
٢٢٤	آية تبين العلاقة بين الدين والسياسة
٢٢٤	تفسير الآية الكريمة
٢٢٥	وقفه متأنية مع ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾
٢٢٥	الفكر وحده لا يكفي لفهم القرآن
٢٢٦	وقفه مع «بالتي هي أقوم»
٢٢٧	في ظلال كلمة : «أقوم»
٢٢٨	علاقة الإنسان بالدين

- التقصير في الالتفات إلى قضايا السياسة والدين ٢٢٨
- الاهتمام بعلاقة السياسة بالدين عمليًا ٢٢٩
- ظهور دعوة فصل الدين عن شؤون الحياة ٢٣٠
- ظهور دعوة الوقوف في وقف المستجدات ٢٣٠
- الأمة مهددة بأمرين ٢٣١
- عموم لفظ الصالحات في الآية الكريمة ٢٣١
- فهم العلاقة بين السياسية والدين متوقف على فهم الدين ٢٣٢
- إيجاد النماذج السلوكية كحجة عملية ٢٣٢
- المحاضرة الخامسة عشرة بعد المائتين ٢٣٤
- الإسلام والسلام ٢٣٤
- معنى السلم في الآية الكريمة ٢٣٤
- السلام هو شعار الإسلام ٢٣٤
- حيثما يذكر الإسلام فثم السلام ٢٣٥
- حقيقة السلام الإسلامي ٢٣٥
- الإسلام يروض النفس ويسوسها إلى الخير ٢٣٦
- السلام مع النفس ٢٣٧
- السلام مع العقل ٢٣٧
- السلام مع البيت ٢٣٧
- السلام مع الجيران ومن حولهم ٢٣٨
- السلام مع المجتمع ٢٣٨
- تعبئة الإسلام للنفس لمواجهة قوى الشر ٢٣٩
- عبأها بالعقيدة ٢٣٩
- عبأها بالعبادات والأذكار ٢٣٩

فهرس الموضوعات

٣٦٧

- ٢٤٠ عبأها بالقوانين والأخلاق والرحمة
- ٢٤٠ الرحمة والسلام قرينان
- ٢٤١ الراحمون يرحمهم الله
- ٢٤١ من فوائد الرحمة ومزاياها
- ٢٤١ التقوى سياج الرحمة وسند السلام
- ٢٤٢ خلاصة القول في سلام الإسلام ورحمته
- ٢٤٢ هل أقام النبي بناء الإسلام بالسيف؟
- ٢٤٣ سيف الدعوة هو سلاح الإسلام
- ٢٤٣ عالمية الدعوة تستلزم الحسنى لا الإكراه
- ٢٤٤ مذهب الإكراه هو مذهب المستعمرين
- ٢٤٤ الإذن بالقتال لدفع العدوان
- ٢٤٥ رسالة إلى أعداء الإسلام تقول
- ٢٤٥ الاستعداد لدفع البغاة الظالمين من المصالح العالمية للبشرية
- ٢٤٦ دعاء وشكوى وختام
- ٢٤٨ المحاضرة السادسة عشرة بعد المائتين
- ٢٤٨ الاعتصام بحبل الله ووحدته المسلمين
- ٢٤٨ ما تضمنته الآية الكريمة من مبادئ
- ٢٤٨ المراد بالحبل في الآية
- ٢٤٩ القرآن معجزة مادية كونية
- ٢٤٩ العصا معجزة حسية
- ٢٤٩ معجزات عيسى معجزات حسية
- ٢٥٠ القرآن معجزة عقلية معنوية دائمة
- ٢٥٠ رسالة الرسل خاصة ورسالة نبينا عامة
- ٢٥١ تحدي الله ﷻ العرب في مشابهة القرآن

- ٢٥١ إخبار الله ﷻ بعجزهم وإن تظاهروا
- ٢٥٢ الأفضلية عند الله ﷻ لصاحب التقوى
- ٢٥٢ الأمر بالاعتصام والاتحاد وعدم الفرقة
- ٢٥٢ وحدة الأمة من غايات التشريع المهمة
- ٢٥٣ التأكيد على الارتباط يجعل المؤمنين أخوة
- ٢٥٣ في الاتحاد عزة وقوة ومنعة
- ٢٥٣ حب الله ﷻ للمقاتلين في سبيله صفًا متحدين
- ٢٥٤ تحذير النبي ﷺ من الاختلاف والفرقة
- ٢٥٤ أمر الإسلام بالإصلاح بين المتقاتلين
- ٢٥٥ عدم الاستهانة بصغائر الأمور
- ٢٥٥ الإصلاح بين الناس من أعظم الفضائل
- ٢٥٦ أهمية الإصلاح
- ٢٥٦ ما ترشد إليه الآية الكريمة
- ٢٥٧ أثر الإيمان في تحقيق الأخوة الإيمانية
- ٢٥٧ فتنة خبيثة والنبي ﷺ لها
- ٢٥٨ اليوم فتنة ولا أحد لها
- ٢٥٨ آيات قرآنية تحث على الوحدة الإيمانية
- ٢٥٩ طاعة الله ﷻ والاعتصام بحبله يكون بامثال أمره
- ٢٥٩ من الطاعة والاعتصام بحبل الله ﷻ مراقبة الله
- ٢٥٩ من الاعتصام بحبله بالإخلاص في العمل وابتغاء وجهه به
- ٢٦٠ اقتران العبادة بالإخلاص في آيات كثيرة
- ٢٦٠ الإخلاص شرط في قبول العمل
- ٢٦٠ من شؤم الرياء والنفاق البعد عن الله

فهرس الموضوعات

٣٦٩

- ٢٦١ من الاعتصام بحبل الله الجهاد في سبيله
- ٢٦١ الآيات في فضل الجهاد
- ٢٦٢ الأحاديث في فضل المراقبة والجهاد
- ٢٦٣ المراد بالجهاد في الآيات والأحاديث
- ٢٦٣ صفحات مضيئة للسلف الصالح
- ٢٦٣ خيشمة أبو سعد رحمته الله
- ٢٦٤ عبد الله أبو جابر
- ٢٦٥ حتى أصحاب الأعداء يخرجون للجهاد
- ٢٦٥ عمرو بن الجموح
- ٢٦٥ من الاعتصام بحبل الله التعاون على البر
- ٢٦٦ اتخاذ الوسائل لحفظ الحرية والكرامة
- ٢٦٦ إعداد العدة المناسبة للعدو
- ٢٦٧ تبادل المشاعر الصادقة ونشر الإيثار والحب
- ٢٦٧ أي اعتداء على مسلم فهو عليهم جميعاً
- ٢٦٧ مَنْ لِفِلَسْطِينَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ؟
- ٢٦٩ الواجب على أصحاب الحق
- ٢٦٩ اتباع الصراط المستقيم
- ٢٧٠ من ثمرات الاعتصام بحبل الله
- ٢٧٠ نموذج مشرق لأهل الاعتصام
- ٢٧١ ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾
- ٢٧٢ الأمة لا تحيا إلا بتضحية أبنائها
- ٢٧٢ دعوة إلى الإيجابية ونبد السلبية
- ٢٧٣ ﴿إِنْ تَصْرُؤْا اللَّهُ يَصْرُكُمْ﴾

٢٧٤.....	المحاضرة السابعة عشرة بعد المائتين
٢٧٤.....	الاجتهاد في الإسلام
٢٧٤.....	سؤال مهم
٢٧٤.....	وسيلة تجديد الإسلام
٢٧٥.....	تحرير العقل البشري من أوهامه
٢٧٥.....	أعظم تكريم للعقل في الإسلام أهليته للاجتهاد
٢٧٦.....	نشأة الاجتهاد
٢٧٧.....	إقرار النبي ﷺ لأصحابه على الاجتهاد
٢٧٧.....	الحكمة من اجتهاد النبي ﷺ
٢٧٨.....	تخرج الدفعة الأولى من المدرسة المحمدية
٢٧٩.....	خلفاء الرسول وحمل راية الاجتهاد
٢٨٠.....	مقام المجتهد في الأمة
٢٨١.....	المجتهد نائب عن الرسول في تبليغ الأحكام
٢٨٢.....	المجتهد هو الموقع عن الله
٢٨٢.....	المجتهدون حملة الحكمة ومنار الفرقان
٢٨٣.....	هذه الأهمية للمجتهدين
٢٨٣.....	فضل الاجتهاد على المسلمين
٢٨٣.....	الاجتهاد لم يقتصر على الجانب التشريعي
٢٨٤.....	الاجتهاد عم كل العلوم
٢٨٤.....	كيف بدأ الاجتهاد في التشريع؟
٢٨٥.....	أنواع المجتهدين في الإسلام
٢٨٦.....	عصر الاجتهاد الذهبي
٢٨٧.....	أبرز المجتهدين في القرن الثاني

فهرس الموضوعات

٣٧١

- أبرز المجتهدين في القرن الثالث ٢٨٧
- فشو التقليد في القرن الرابع ٢٨٧
- الخلاصة ٢٨٨
- لا خلاف بين المجتهدين في الأصول ٢٨٨
- ظاهران ميزتا الاجتهاد في عصره الذهبي ٢٨٩
- الحركة الحديثة ٢٨٩
- اتساع النهضة الفكرية ٢٩٠
- ملاحظة مهمة ٢٩٠
- مدرسة القانون ببيروت وأثرها في الاجتهاد ٢٩١
- ليس للمدرسة أثر على الاجتهاد ودليل ذلك ٢٩١
- تقرير عن المذاهب المنتشرة في القرن السادس ٢٩١
- انحسار المذاهب المتجمدة عن الساحة ٢٩٢
- انتشار مذهب مالك في بلاد الأندلس والمغرب ٢٩٢
- علة انتشار المذهب المالكي ٢٩٣
- شخصيات ساعدت على انتشار المذهب المالكي ٢٩٣
- الاجتهاد مسئولية صعبة وشاقة ٢٩٤
- سبب قلة الاجتهاد أو توقفه ٢٩٥
- انقسام الأمة وتفككها ٢٩٦
- فرض بعض المذاهب بالسلطان ٢٩٦
- كثرة الفتن وضعف الاقتصاد ٢٩٦
- شيوع التعصب والأناية ٢٩٧
- استصغار النفس أمام عمالقة الاجتهاد الأول ٢٩٧
- شيوع حالة من الرضا في ظل التشريعات القائمة ٢٩٨

- طبيعة الفقه الإسلامي نفسه ٢٩٩
- السبب في التزام مذهب معين حكمًا وتعبدًا ٣٠٠
- ظهور مجتهد المذهب ومجتهد الفتوى ٣٠٠
- خصائص مجتهد المذهب ٣٠١
- خصائص مجتهد الفتوى ٣٠١
- فكرة موت العبقرية الإسلامية وضررها ٣٠٢
- وجود المجتهدين في كل عصر دليل حياة للعبقرية المسلمة ٣٠٢
- هل الأمة في حاجة ضرورية للاجتهد؟ ٣٠٤
- الاجتهاد أمر ضروري لملء الفراغ التشريعي ٣٠٥
- هل تتوفر لدى الأمة مؤهلات الاجتهاد ٣٠٦
- ما هو الاجتهاد المرجو المطلوب؟ ٣٠٧
- المحاضرة الثامنة عشرة بعد المائتين ٣٠٨
- ليلة القدر من خلال كتاب الاعتكاف ٣٠٨
- عطية ليلة القدر ... لماذا؟ ٣٠٨
- غاية الدعوة الإسلامية وهدفها الأعظم ٣٠٨
- دعوة الإسلام دعوة شاملة ٣٠٩
- شمولية الدعوة بالاعتبار الديني ٣٠٩
- قصور الدعوات الدينية الأخرى عن السمو فوق دعوة الإسلام ٣١٠
- العموم والخصوص بين دعوة الإسلام وغيرها ٣١٠
- شمولية الدعوة بالاعتبار الإنساني ٣١٠
- احترام الدعوة الإسلامية للأدوية وهدمها للعنصريات ٣١١
- أهمية التكوين والإعداد في الوصول إلى الرشد ٣١١
- طبيعة التكوين والتشريع تقتضي التطور والإعداد ٣١٢

- ٣١٢ كما أن للبلوغ شروطاً فللرشد شروط
- ٣١٣ ما يقوم به الإعداد
- ٣١٣ منهج الإسلام لصيانة القدرات والمواهب
- ٣١٣ أصول المنهج التربوي الإسلامي
- ٣١٤ هذا المنهج التربوي مصدره الوحي
- ٣١٤ اشتراك القرآن والسنة في عنصر التلقين
- ٣١٤ اختصاص السنة بعنصري التمثيل والتمرين
- ٣١٥ كلام الغزالي في «المستصفى»
- ٣١٥ السنة توفي بالأصول التربوية الثلاثة
- ٣١٥ القرآن لا يقارن بالكتب السماوية الأخرى
- ٣١٦ القرآن كلمة الله لا كلمة الرسول المعبرة عن الوحي
- ٣١٦ السنة هي التي تقارن بالكتب السماوية
- ٣١٧ بالإقرارات يتحقق عنصر التمرين
- ٣١٧ اختلاف تعريف السنة في اصطلاح الشرع
- ٣١٧ إطلاقها على آثار النبي ﷺ في مقابل القرآن
- ٣١٧ إطلاقها على السلوك المتبع من الدين في مقابل البدع
- ٣١٨ إطلاقها على العقيدة الأصلية في مقابل الأهواء
- ٣١٨ نشأة الجيل الأول على هذه المعاني للسنة
- ٣١٨ والجيل الثاني كذلك
- ٣١٩ توالي الأجيال على اقتفاء الأثر الأول
- ٣١٩ المعلوم من الدين بالضرورة وصلته بالسنة
- ٣٢٠ ممارسة السنة وقود لتكون الاجتماعي عبر الأجيال

- المعرفة التفصيلية الموضوعية وارتباطها بالقرآن ٣٢١
- تعدد مصادر السنة وأثره على الجامعين لها ٣٢١
- ظهور علم الحديث لحفظ السنة النبوية ٣٢٢
- اعتماد علم الحديث على النقد لا النقل ٣٢٢
- احتياج الفقهاء إلى معارف علماء الحديث النقدية ٣٢٢
- ظهور طبقة تجمع بين العلم والفقه ٣٢٣
- الإمام مالك وكتابه «الموطأ» ٣٢٣
- منهج مالك في «موطأه» ٣٢٣
- عدد ما جمعه مالك وعدد ما رواه ٣٢٤
- الجمع بين نقد السند ونقد المعنى ٣٢٤
- الفرق بين معنى القذف عند مالك والغزالي ٣٢٥
- اشتغال «موطأ مالك» على بلاغات وموقوفات ومقطوعات ٣٢٥
- الموقف من صنيع مالك في «الموطأ» ٣٢٦
- ابن عبد البر رحمته الله ٣٢٦
- الحافظ السيوطي رحمته الله ٣٢٧
- أحاديث وردت بلاغاً في «الموطأ» ٣٢٧
- اختلاف روايات «الموطأ» حول الحديث ٣٢٨
- اتصال الحديث بكتاب الاعتكاف لا الصوم ٣٢٩
- بيّن الحديث سبب الأفضلية لليلة القدر ٣٢٩
- أسباب الأفضلية لليلة القدر ٣٣٠
- المسار الأول : ضبط معنى الإنزال ٣٣١
- الرد على إشكال : نزول القرآن في ليلة واحدة ٣٣١

فهرس الموضوعات

٣٧٥

- المسار الثاني : مسار الجمع بين الآيات ٣٣٢
- اختيار الجمهور ٣٣٢
- معنى الأمر الحكيم في الآية ٣٣٣
- رأي آخر في معنى «ليلة» «الدخان» ٣٣٣
- استناد هذا الرأي على أدلة ضعيفة أيضًا ٣٣٤
- استشكال عظيم ٣٣٤
- دفع البعض للاستشكالات ٣٣٤
- رد للقاضي ابن العربي ٣٣٥
- رأي الجمهور من المحققين ٣٣٥
- تفضيل الله لبعض الأزمان على بعض ٣٣٦
- تفضيل بعض الأماكن على بعض ٣٣٦
- الهدف من التفضيل تحقق المصلحة للعباد ٣٣٧
- تحقيق مصلحة المعاش والمعاد من أهم أغراض الرسالة ٣٣٧
- مصاحبة المشقة لبعض التكاليف ليس غرضه الإعانات ٣٣٧
- زيادة توضيح لقضية صلاح المعاش والمعاد ٣٣٨
- كلام للقرافي رَحِمَهُ اللهُ فِي «الفروق» ٣٣٩
- استدراك على القرافي ٣٤٠
- رأي الذين توقفوا فيها حكاه القاضي عياض ٣٤٠
- صعوبة ضبط المعنى في الرؤية والمشاهدة ٣٤١
- القول في معنى الرؤية ٣٤١
- وجه تخصيص العدد بالألف ٣٤٢
- القائلون بأن العدد مراد في ذاته ٣٤٢

٣٤٣	كلام ابن العربي حول الحديث
٣٤٣	استشكال من القرافي في «الفروق»
٣٤٤	مناقشة استشكال القرافي
٣٤٥	استقرار المحققين على أن الألف لا مفهوم له
٣٤٥	أيهما أفضل ليلة القدر أم يوم الجمعة؟
٣٤٦	التفضيل داعٍ إلى السمو والسيادة
٣٤٦	أمثلة على ما فضلت به أمة النبي ﷺ
٣٤٧	فضل من شهر عشاء ليلة القدر
٣٤٨	العبرة بالقصد إلى تحرّي ليلة القدر
٣٤٩	فهرس الموضوعات



نور هة القراءة و السنة

أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الرابع عشر

المحاضرة التاسعة عشرة بعد المائتين

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»

نص الحديث الشريف في «الأربعين النووية»:

قال الحافظ الكبير يحيى بن شرف الدين النووي رَحِمَهُ اللهُ في متن الأربعين النووية ، في الأحاديث الصحيحة النبوية : في الحديث الرابع والعشرين ، عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم .

نص الحديث عند مسلم رَحِمَهُ اللهُ :

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام ، أبي عبد الله مسلم ابن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رَحِمَهُ اللهُ ، بسنده عن سيدنا أبي ذر الغفاري رَحِمَهُ اللهُ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه قال : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم» إلى آخر الحديث الشريف .

الفرق بين الحديث القدسي والنبوي والقرآن الكريم:

هذا الحديث هو من الأحاديث القدسية المروية عن رسول الله ﷺ والتي ينسبها عليه الصلاة والسلام إلى ربه تعالى ، وهناك فرق بين الأحاديث النبوية ، وبين الأحاديث القدسية ، وبين نصوص القرآن الكريم .

القرآن الكريم :

أما كتاب الله تعالى فهو الكتاب المنزل على سيدنا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته ، والذي وقع الإعجاز ب كله وبجزء منه ، هذا هو القرآن الكريم وهو الذي يتلى بين دفتي المصحف ، وهو متواتر عن رسول الله ﷺ ، بحيث لا نشك لحظة في أن ما نتلوه بين دفتي المصحف خرج من بين شفطي النبي ﷺ ، ونقل إلينا بالأسانيد المتواترة ونصوصه قطعية ولا تقبل المعارضة ، وهذا هو كتاب الله ، ويجب لقراءته فروض وآداب ، ومن جملتها أن

يكون الإنسان متطهرًا الطهارة الكبرى والصغرى ، ومن جملة ذلك ألا يمس المصحف إلا متطهر ، وألا يمسه إلا مؤمن ، وألا يباع لغير المسلمين ، هذا ما يرجع للقرآن الكريم ، وهو الذي تصح تلاوته في الصلاة ، ولا تجوز الصلاة بدونه ، وهذا من خصائص القرآن .

الحديث النبوي :

أما الحديث النبوي فهو الذي ينقل عن رسول الله ﷺ باللفظ والمعنى . بمعنى أن لفظه ومعناه كليهما من رسول الله ﷺ ، وهذه الأحاديث النبوية منها ما هو في درجة المتواتر ، وهو الذي رواه جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب من أول السند إلى آخره ، وهو قطعي من جهة ثبوته عن رسول الله ﷺ ، وأما من جهة الدلالة فهي ظنية كما لا يخفى . وأما الأحاديث خبر الآحاد فهو القسم الثاني ، وهو الذي ينقل عن رسول الله ﷺ بغير طريقة المتواتر وفيه أقسام كثيرة يعرفها علماء اصطلاح الحديث ، ولا محل للحديث عنها الآن ، هذا هو الحديث النبوي .

الحديث القدسي :

أما الحديث القدسي ، فهو الحديث الذي يصل للنبي ﷺ من ربه إما بطريق الإلهام ، وإما بطريق المنام ، ولكن لفظه يكون من عند النبي ﷺ فلفظه ناشئ محدث ليس كلفظ القرآن . والقرآن الكريم يوحى إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل وأما هذا الكلام القدسي فإنه يوحى إلى النبي ﷺ بطريق الإلهام ، أو بطريق حديث النفس ، أو بطريق المنام ، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى : ٥١] .

كلام المناوي والرد عليه :

لذلك لا يصح ما قاله المناوي هنا من أن الحديث القدسي أيضًا يرويه النبي ﷺ عن جبريل عن ربه سبحانه وتعالى ، لأن الذي يرويه النبي ﷺ عن جبريل عن الباري ﷻ هو كتاب الله تعالى ، وهذه من الفوارق التي يفترق بها الحديث القدسي عن القرآن وهنالك مجموعة قيمة من الأحاديث القدسية اختصها بعض المؤلفين القدماء وأوصلوها إلى مائة حتى جاء السيد عبد الرؤوف المناوي المصري القاهري فألفها وجمعها ، فأصبحت مائتين وثلاث وسبعين حديثًا قدسية ، وقد كان الفضل للسيد منير الدمشقي فطبعها مع شرح مختصر عليها في المطبعة السلفية في مصر .

فهذا الكتاب القيم يشتمل على مجموعة من الأحاديث القدسية الثابتة عن رسول الله ﷺ ، ومنها ما يكون خطابًا من الباري ﷻ ، ومنها ما يكون مقالًا يقوله النبي ﷺ حكاية عن الباري تبارك وتعالى .

كلام العلماء عن الحديث :

هذا الحديث الذي نرويه الآن هو من هذه الأحاديث القدسية الذي يكون لفظها من عند رسول الله ﷺ ، أما معناها فهو إلهام من الباري ﷻ ، وهو من الأحاديث القيمة التي كان يعتز بها المحدثون وفطاحل العلماء المسلمين ، حتى إن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله كان يقول : هذا أشرف حديث رواه أهل الشام ؛ لأن رواه كلهم دمشقيون ، فهو من أشرف الأحاديث ، بل أشرف حديث رواه أهل الشام ، وكان أبو إدريس الخولاني حسب ما رواه الإمام مسلم على إثر ذكره لهذا الحديث الكريم ، كان إذا حدث بهذا الحديث القدسي جثا على ركبتيه احترامًا له وتعظيمًا ،

وقد اشتمل على فوائد جمة ، وأصول عديدة من الأحكام ، وفروع مفيدة لجميع الأنام ، فهو مشتمل على كثير من المعاني ، وكثير من القواعد الفقهية من الفقه الأصلي ، ومن الفروع الفقهية كذلك .

شرح الحديث سنداً :

هذا هو الحديث ، قال الراوي عن أبي ذر رضي الله عنه .

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه :

أبو ذر الغفاري هذا ، هو الصحابي الجليل رابع أربعة أسلموا في الإسلام ، هو الرابع من الذين أسلموا واتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم .

قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه :

قد حدثنا أبو ذر الغفاري في «صحيح مسلم» عن طريقة إسلامه ، والمشقة التي لاقاها ، والمصائب التي عاناها حينما وصل إلى مكة ، حتى وصل إلى يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل الإسلام .

ضيافة أبي ذر عند خاله :

قال أبو ذر كانت غفار تحل الأشهر الحرام ، فخرجت أنا وأخي وأمي ، وأضافنا خال لنا ، فأكرم ضيافتنا ثم حسدنا قومه حسدونا على أنه أكرمنا لمدة طويلة ونحن مقيمون عنده .

إيقاع الحساد بينه وبين خاله :

فحسدنا قومه فقالوا له : إن أنيساً ، أنيس هذا هو أخو أبي ذر الغفاري وهو من شعراء الصحابة المجيدين الكثيرين رضي الله عنه ، قالوا له إن أنيساً هذا

حينما يخرج خاله يصل إلى زوجة خاله ، فنث ذلك علينا أي أفشاه وأذاعه ، ولم يكتم ذلك السر خالهم ، فنثه عليهم وأفشاه وأذاعه ، فقالوا له : أما إحسانك الذي أحسنت إلينا من قبل فإنك قد أفسدته بما قلته ، ولا جماع بيننا بعد اليوم ، ثم أخذوا صرمتهم وهي ثلاثون من الإبل ، مجموعة من الإبل ، خرجوا بها أخذوا صرمتهم ورحلوا ، أما خالهم فقد وضع الثوب على وجهه وأخذ يبكي لما وقع بينهم ولفرقتهم .

خروج أبي ذر إلى مكة :

ذهبوا مع تلك الصرمة ، أبو ذر وأنيس أخوه وأمهما حتى دخلوا إلى مكة المكرمة ، وذهب أنيس الشاعر ينافر الشعراء ، فنافر على صرمتين ، أي على أن يعطي صرمته التي هي ثلاثون ناقة أو يأخذ ثلاثين ناقة من عند شاعر آخر ، فغلب أنيس وأخذ الثلاثين ناقة ، ثم توجه إلى الكاهن فاستشاره فيما يفعل فخير الكاهن في ذلك فرجع بصرمتين أي : رجع بستين ناقة ، ثم قال لأبي ذر : انتظري هنا حتى أذهب لأختبر ولأستخبر عن هذا الخبر الذي يقولون إن صابئاً قد وجد ، وهو محمد ﷺ .

عبادة أبي ذر قبل رؤيته للنبي ﷺ :

قال أبو ذر : وكنت قد عبدت الله سبحانه وتعالى ثلاثة أعوام يا ابن أخي قبل أن أرى النبي ﷺ قال الراوي : فسألت أبا ذر وبماذا عبدت الله ؟ قال : عبدته وحده لا شريك له ، قال كنت أصلي العشاء وما أزال أصلي حتى أنام ، وكأنني شيء ملقى ، وكأنني خفاء أي : كساء ، حتى تعلوني الشمس . فقال أنيس إن لي حاجة بمكة فاكفني . فانطلق أنيس حتى أتى

مكة فراث أي : أبطأ وتأخر علي ، ثم جاء فقلت : ما صنعت ؟ قال : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله .

قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر كاهن ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء . قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقرأ أي : طرق وأنواع الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . قال قلت فاكفني حتى أذهب فأنظر . قال فأتيت مكة فتضعفت أي : بحثت عن أضعفهم فسألته : أين هذا الذي تدعونه الصابئ فأشار إلي فقال : الصابئ . فمال أي : اجتمع علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم ، والمدرة : الطين اليابس حتى خررت مغشيا علي - قال - فارتفعت حين ارتفعت كأني نصب أحمر أي : كالصنم الملطخ بالدم - قال - فأتيت زمزم فغسلت عني الدماء وشربت من مائها ولقد لبثت يا ابن أخي ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لي طعام إلا ماء زمزم حتى سمت عكن بطني وتكسرت ، فقال له النبي ﷺ «نعم الماء ماء زمزم وإنه طعام طعم»^(١) يعني طعام مطعم يشبع كما يغني عن الشراب كذلك ، هكذا قال له النبي ﷺ .

إطعام أبي بكر له :

فقال أبو بكر الصديق : ائذن لي يا رسول الله أن أطعمه الليلة ، فذهب النبي ﷺ وأبو بكر الصديق وأبو ذر إلى منزل أبي بكر الصديق ﷺ ، فأطعمهم ، قبض لهم زبيب الطائف وأعطاهم إياه فأكلوه ، فقال أبو ذر

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) من حديث أبي ذر ﷺ .

فذلك أول طعام أكلته بعد وصولي إلى مكة وبعد دخولي في الإسلام ، ثم بعد ذلك غربت ، غاب مدة طويلة .

أبو ذر رسول رسول الله إلى قومه :

جاء أبو ذر إلى النبي ﷺ فقال له : « يا أبا ذر إنني ووجهت بأرض فيها نخيل كثير وأظنها يثرب ، وأرى إذا شئت أن تذهب فتبلغ عني إلى قومك ، فلعل الله يدخل بك في الإسلام خلقًا كثيرًا » ، وكان مراد النبي ﷺ أنه سيذهب إلى الهجرة يوري له بالهجرة النبوية .

دخول غفار جميعها في الإسلام ببركة أبي ذر:

فذهب سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، إلى أخيه فأخبره أنه أسلم وصدق النبي ﷺ فقال له : إنني لا أرغب عن دين آمنت به فأمن أخوه أنيس رسميًا ، ثم توجه إلى أمه فأمنت ، ثم ذهب إلى غفار قبيلته ، فأسلم نصفها ، وأما نصفها الآخر فقال له : عندما يأتي رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة سندخل في الإسلام ، وفعلا بعدما وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة أسلم باقي غفار .

أسلم حليفة غفار تدخل في الإسلام ببركة أبي ذر:

ثم كانت قبيلة أخرى اسمها أسلم هي حليفة لغفار فأسلمت كذلك ، فقال النبي ﷺ غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، هذه قصة إسلام سيدنا أبي ذر الغفاري ، وقد كانت زيارته للكعبة ولمكة المكرمة ودخوله في الدين بركة عليه وعلى قبيلته وعلى أحلاف قبيلته ، فدعا النبي ﷺ لهم بالمغفرة وبالسلامة ، وناهيك بها دعوة طيبة من رسول كريم .

تبشير النبي له بالجنة:

إن سيدنا أبا ذر رضي الله عنه كان من الصحابة المبشرين بالجنة ، بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .

زهد أبي ذر رضي الله عنه :

كان من الزهاد واعتبروه مثالا في الزهد ، وهو كذلك مثال في الاشتراكية الإسلامية التي كان أول من نادى بها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمن معاوية رضي الله عنه ، وقد كان أبو ذر يقول ، من فضائله متحدثا بنعمة الله عليه يقول للصحابة ، إنني أقربكم مجلسا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فإذا سأله عن سبب ذلك ، قال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن أقرب الناس مجلسا إليه يوم القيامة هو الذي يبقى على ما تركه عليه بعد موته ، وما منكم إلا تسبب في هذه الدنيا بشيء ، غيري .

أبو ذر الغفاري أمة وحده:

قد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول عن أبي ذر : «إنه أمة وحده ، يعيش وحده ، ويموت وحده»^(١) ، لأنه كان له رأي شاذ في مسألة الملكية العامة ، فكان لا يقول بأحقية الامتلاك لأحد ، وكان يتأول قول الباري سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبْشِرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٣٤ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣ / ٥٢) ، وابن عساکر في «تاریخ دمشق» (٦٦ / ١٨٦) ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

تأويل أبي ذر رضي الله عنه للآية:

هذه الآية الكريمة يتأولها عموم المسلمين ، وهو التأويل الرسمي في الإسلام السني ، يتأولها المسلمون على أن المقصود بها الاحتكار والمنع من الزكاة الشرعية ، وأما أبو ذر الغفاري فكان يقول إن معناها احتكار المال والاكتساب مطلقاً ، يعني الاحتفاظ بما اكتسبه الإنسان مطلقاً ، وكان يقول ؛ لا يجوز للإنسان أن يملك أكثر من درهمين ، درهم ينفقه على عياله ، ودرهم يقدمه لآخرته ، وفي ذلك يروي حديثاً عن النبي ﷺ كان يحدث به في المسجد النبوي بعد موت النبي ﷺ كما كان يتحدث بذلك في عهده عليه الصلاة والسلام ، كان يقول : «حدثني خليلي ، فإذا قيل له من خليلك؟ يقول محمد ﷺ : حدثني خليلي فقال : اجعل المال درهمين درهما تنفقه على عيالك ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، والثالث يضرك ، لا ينفعك لا تريده»^(١) ، وكان يقول أيضاً في الحديث ، قال لي خليلي ، قلت ومن خليلك؟ قال رسول الله ﷺ : «اجعل الدنيا مجلسين ، مجلسا في طلب العلم ، ومجلسا في طلب الآخرة ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده»^(٢) هذه هي فلسفة أبي ذر .

أبو ذر أصدق الناس لهجة:

قال فيه النبي ﷺ : «لا يوجد أحد أصدق لهجة من أبي ذر ، وما أقلت الخضراء ولا أظلت الغبراء أحداً أصدق لهجة من أبي ذر»^(٣) ، هكذا قال فيه النبي ﷺ .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٠١) ، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

أبو ذر وكاء ملئ علماً :

قال فيه علي بن أبي طالب : إن أبا ذر وكاء ملئ علماً ثم أوكي عليه ،
فهذا دليل على عظمة هذا الرجل الكبير أبي ذر رضي الله عنه .

رحيل أبي ذر إلى الشام ومواقفه مع معاوية رضي الله عنه :

بعدما توفي النبي صلى الله عليه وسلم صدقت نبوءته فيه فقد ارتحل إلى الشام ، وأقام فيه
زمن معاوية رضي الله عنه ، ولكنه رأى الناس يسمون الفيء أي الغنيمة بمال الله ،
فلم تعجبه هذه التسمية لأنه كان يعتبرها تملصاً من أداء المال إلى الفقراء
وإلى المساكين ، فكان يقول لهم لا تسموا هذا المال مال الله ، ولكن سموه
مال المسلمين ، وقد جمع من حوله جماعة من الضعفاء والمساكين ، وكان
يتوجه إلى معاوية يطالبه بما ينفقه على المسلمين في هذا السيل ، ويقول
له : إن المال مال المسلمين وليس مال الله ، فعليك أن تصرفه كما كان
يصرفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما كان يصرفه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم ، فاشتكاها
معاوية إلى عثمان رضي الله عنه فطلب نقله إلى المدينة .

مقام أبي ذر بالربذة حتى وفاته :

في رواية أن أبا ذر هو الذي فر بنفسه إلى المدينة ، وأنه اختار المقام في
الربذة ، وفي رواية أنه اجتمع عليه خلق كثير في المدينة المنورة ، فلم يقو
على البقاء فأمره عثمان بأن ينتقل إلى الربذة ، وهي على ثلاث مراحل من
المدينة المنورة ، ولم يزل هنالك يعلم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان
يصوم كثيراً ويصلي ويتهجد ، وكان يعلم هذه المبادئ التي سمعناها حتى
توفي رضي الله عنه ، وأوصى بأن لا يجهزه أحد ممن يكتسب بوسائل غير كد يمينه

حتى جاء عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فهو الذي كفنه وصلى عليه ، وقد توفي سنة ثلاثين بعد وفاة النبي ﷺ ، وقيل سنة إحدى وثلاثين بعد موته عليه الصلاة والسلام .

ما يستفاد من الترجمة :

نستفيد من ترجمة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه :

قبول الاجتهادات المخالفة بشرط الاتفاق في العقيدة :

إن النبي ﷺ كان يقبل في عصره وفي عهده عليه السلام الأفكار التي لم تكن تتفق مع معظم المسلمين ، ومع فكرة الرسول ﷺ والتفسيرات التي كان يعطيها إذا كانت اجتهاداً وتأويلاً في كتاب الله ، لكتاب الله سبحانه وتعالى ، وهذا أعظم ما يمكن من الحرية التي وضعها سيدنا محمد ﷺ في مثل هذه الأشياء التي ترجع لشئون التشريع الإسلامي ولشئون الدين ، وذلك هو الذي يفتح باب الاجتهاد لجميع المسلمين ، وباب الاجتهاد هو الوسيلة التي جعلها الباري سبحانه وتعالى لإشراك المسلمين في قضية التشريع في غير المسائل التعبدية ، وفي غير مسائل التوحيد التي لا تبديل فيها ولا تغيير - فكل ما هو من قبيل المصلحة العامة فإن للمسلمين إذا كانوا من أهل العلم القادرين على ذلك - أن يجتهدوا وأن يبدوا رأيهم في ذلك ، وما يراه عامة المسلمين والمجتهدون إذا أجمعوا على شيء وجب اتباعه فإن لم يجمعوا على شيء وكان أغلبية العلماء والمجتهدين يقولون به ، وجب اتباعه ، ولكن يجوز لصاحب الرأي الفرد أن ينفرد به عن الإجماع ، وأن ينفرد به عن الكثرة الكاثرة من العلماء ، وهذا ما يدل عليه معاملة النبي ﷺ لسيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .

والحقيقة أن الإسلام متفق في خطوطه العامة مع هذه المبادئ التي كان يعلمها أبو ذر الغفاري ، وإنما كان يشوب أفكاره شيء من الزهد الذي لا يقوى عليه الجميع ، هذا هو راوي هذا الحديث الكريم أبو ذر الغفاري ، وما أجدر هذا الحديث الكريم أن يكون راويه أبا ذر الغفاري رضي الله عنه جميعاً .

عبارة: « فيما يرويه عن ربه »:

قال أبو ذر : عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ، يحتمل أن يكون أبو ذر قد قال هذه الكلمة ، ويحتمل أن تكون قد زيدت من الرواة من بعده ، أو من مؤلف الصحيح وهو الإمام مسلم رحمته الله ؛ ليدل بها على أن هذا الحديث هو من الأحاديث القدسية . ومن المعلوم أن الأحاديث القدسية يرويها النبي ﷺ عن الباري ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ .

المقصود بالعباد في الحديث:

قال تعالى : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا » النداء موجه للعباد ، والعباد جمع عبد مثل العبيد كذلك ، وله جموع كثيرة معروفة ، عباء وعبيدان وعبيدان إلى آخره هذه الجموع الكثيرة التي للعبد منها عبادي والمقصود بعبادي هنا قال الشراح ، ما يشمل الإنس والجن ، وبالعالم غيرهم حتى قال إنه ما يشمل جميع الكائنات ، لأن جميع الكائنات مسخرة للباري ، لأنه هو الذي خلقها فهي من عباد الله سبحانه وتعالى ، ولكن يعجبني كلام السيد المناوي في شرحه هنا حيث قال : إن المقصود بالعباد الإنسان جنس الإنسان ، فالخطاب موجه للناس قاطبة .

فما معنى قول الباري ﷻ يا عبادي : يا أيها الناس الذي خلقتهم ، وأكرمتمهم وسخرتهم لعمارة هذه الأرض ، إنني محدثكم عما يجب عليكم أن تقوموا به لمصلحتكم ، وللامثال لأمره سبحانه وتعالى .

درجة العبودية من الدرجات:

العبودية هذه درجة كريمة حتى إن سيدنا محمداً ﷺ خير بين أن يكون نبياً ملكاً ، وبين أن يكون نبياً عبداً ، فاختر أن يكون نبياً عبداً ، فلذلك ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يعتبر العبودية شيئاً عظيماً ، العبودية لله وقال الشاعر في هذا المعنى .

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفه الذاهب والرائي

لا تدعوني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

والعبودية إذا تحقق بها الإنسان تعني تمام المحبوبة وتمام المحبة للباري ﷻ .

صفة العدل الإلهي في الحديث:

إن الله سبحانه وتعالى في هذا الحديث الكريم أخبرنا عن شيء مستحيل في حقه سبحانه وتعالى ، وتحدث عنه كأنه شيء يمكن الوقوع ، ولكن ليبنى عليه ما بعده ، وهو في الحقيقة مجرد وصف كاشف لصفة ذاتية للباري ﷻ وهي العدل ، وعدم الظلم ، فالإله لا يمكن أن يتصور ظالماً أبداً لا عقلاً ولا شرعاً ، ولكن الباري ﷻ مع ذلك قال يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي والتحرير يعني المنع ، والمعنى أنه يمكن الوقوع ولكن الإمكان لا يصح هنا ، فالمقصود أن الظلم لا يمكن أبداً أن يقع مني ، أي من الباري ﷻ ، فهو نوع من باب المشاكلة في التعبير ليس إلا .

دلالة هذه الطريقة في التعبير:

قد أراد سبحانه وتعالى أن يدلنا بهذه الصفة في التعبير ، والتعبير في الحقيقة من كلام سيدنا محمد ﷺ ، أراد أن يدلنا بهذه الطريقة في التعبير على أن الإنسان يجب عليه وينبغي له لكي يتخلق بأخلاق الإنسانية الكاملة ، أن يتخلق بأخلاق الله ، ولذلك ثبت في الحديث الضعيف ، حديث ضعيف ولكنه يذكر في الفضائل ويعتمده العلماء والأخلاقون كثيراً وهو قولهم : «تخلقوا بأخلاق الله»^(١) .

والمقصود أن الإنسان يأخذ أخلاق الباري ﷻ ، أي صفات الباري ﷻ مثلاً أعلى يقبس ، بقدر الاستطاعة ، وإلا فلا يمكن لمخلوق سواء كان نبياً أو رسولاً أو ولياً أو ملكاً أن يصل ولو لجزء يسير من أخلاق الباري ﷻ ، وإنما المقصود من هذه الصفات الإلهية الاقتداء والاقتفاء وبذل الجهد في التخلق بقدر الاستطاعة ، كما ثبت في هذا الحديث : «تخلقوا بأخلاق الله» .

معنى الظلم ، وهل يوصف الله به؟

هذا معنى قوله : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» ، والظلم في اللغة هو وضع الأشياء في غير موضعها ، وهذا الحديث كان سبباً لخلافات كثيرة ، ومجالات كبيرة بين أئمة الدين ، لا من جهة السلفيين ، ولا من جهة السنيين ، الأشاعرة والماتريدية ، ولا من جهة المعتزلة ، ولا غيرهم من علماء المذاهب كلها ، كانت لهم مجالات في هذا الموضوع في معنى إطلاق الظلم على

(١) قال الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» (٢٨٢٢) : لا أصل له .

البارئ سبحانه وتعالى ، وما هو الظلم الذي يمنع وقوعه للبارئ ، والصواب الذي استقر عليه رأي السلفين وإمامهم العلامة ابن تيمية رحمته الله هو التفسير اللغوي أي وضع الشيء في غير موضعه ، ومعنى ذلك أنه يستحيل في حق البارئ ﷻ أن يأتي لرجل أحسن واستحق الحسنات فيأخذ حسناته ويعطيها إلى غيره ، أو يضع مكانها سيئات مكان حسناته ، هذا لا يمكن أن يفعله البارئ ، ولذلك منع سبحانه وتعالى نفسه من ذلك .

إطلاق النفس على الله ، ودلالة ذلك :

إطلاق النفس أيضًا على البارئ إنما هو من قبيل المشكلة لأن النفس منفوسة ، ولكن إذا أريد بالنفس الذات ، فإن الله سبحانه وتعالى ذات متصف بالصفات ، أما حقيقة ذاته فالله أعلم بها .

فإذا أريد بالنفس الذات صح إطلاقها عليه ، وأما إذا أريد بالنفس حقيقة النفس المنفوسة فإن إطلاقها هنا إنما وقع من باب المشكلة ولا يصح إلا إذا كان بهذا المعنى .

المعنى العام للعبارة الأولى في الحديث :

«إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً» يعني رجوت منكم ورغبت منكم وأردت منكم أن تكونوا متخلقين بأخلاقى ، مقتفين آثارى فجعلت الظلم محرماً بينكم .

اختلاف الروايات في قوله : «تظالموا» :

فلا تظالموا ، هكذا بحذف إحدى التاءين والأصل فلا تتظالموا .

ومن المعلوم أنه إذا اجتمعت تاءان وكانتا متساويتين فإنه يجوز حذف الأولى منهما، أما إذا كانتا غير متساويتين فإنه لا يجوز حذفها كما إذا قيل تتظالموا، فإنه حينئذ لا يصح حذفها في هذه الصورة تحذف التاء الأولى فلا تظالموا، والأصل فلا تتظالموا وهذه هي الرواية المشهورة وأما هنالك رواية أخرى فلا تظالموا بالإدغام أي فلا يظلم بعضكم بعضًا.

بعض أنواع الظلم في الإسلام:

الظلم أنواع كثيرة والديانة الإسلامية وجميع الشرائع تقوم على أمرين: الأوامر وهي العدل، والنواهي وهي الظلم.

ظلم الشرك بالله:

أول هذا الظلم هو الشرك بالبارئ ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فإذا أشرك الإنسان بالبارئ ﷻ وارتكب هذه الجريمة، ف﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فأول درجات العدل هو أن يقر الإنسان بوحداية الله، وألا يشرك معه أحدًا لا في ألوهيته ولا في ربوبيته.

أما الشرك في الألوهية فهو أن يدعي الإنسان مع الله سبحانه وتعالى ربا غيره، أو إلهًا؛ شجرًا، أو حجرًا، أو وثنا، أو وليًا، أو صديقًا، أو نبيا، أو رسولًا، كل ذلك لا شرك له مع الله سبحانه وتعالى، الرب رب، والعبد عبد.

وأما شرك الربوبية فهو أن يتولى تشريعًا في المسائل الدينية ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] أن يتولى

تشريعاً في المسائل الدينية لا يأذن به البارئ ﷻ، فهذا يسمى شرك الربوبية، ودليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد سئل ابن عباس عن تأويل هذه الآية الكريمة، فقال: إنهم أحلوا لهم الحرام - يعني الرهابة، أحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، وحرّموا لهم الحلال فاتبعوهم فتلك عبادتهم إياهم، فهذه العبادة هي شرك في الربوبية، ولذلك لا يجوز لمسلم أن يشرع في شئون الدين بما لم يأذن به الله إلا اجتهداً أو تأويلاً لكتاب أو سنة؛ لأن الخطابات الشرعية ما تزال قائمة، وعليها ينبنى الإثبات والنفي في جميع الأحكام.

ومن جملة الخطابات الإلهية، القياس في المصلحيات، القياس والمصلحيات والاستحسان وغير ذلك من وسائل التشريع الموجودة والمعترف بها في الإسلام، المصلحة المرسلة والاستحسان وغير ذلك من ضروب القياس، ولكن الخطاب واحد وهو خطاب الله تعالى للمكلفين، فالبارئ ﷻ هو الذي يعطي للأشياء صفتها، فيقول هذا الشيء حلال، وهذا الشيء حرام، الحلال بين والحرام بين، وذلك مبين من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ واجتهاد الأئمة.

ظلم المعاصي عمومًا:

كذلك أيضًا الظلم يدخل في المعاصي، فكل أنواع المعاصي في الحقيقة يظلم الإنسان بها نفسه، سواء كانت هذه المعاصي من المعاصي الفردية أو كانت من المعاصي الاجتماعية.

المعاصي الفردية:

أما المعاصي الفردية فهي أن يرتكب الإنسان بعض الذنوب من الكبائر كالكذب ، أو بعض الأمور التي لا تمس الآخرين مسًا كبيرًا .

المعاصي الاجتماعية:

أما المظالم الاجتماعية فهي أن يرتكب الإنسان الفظائع التي تمس المجتمع إما غشا أو خيانة أو خديعة أو أخذ رشوة أو ظلمًا في الحكم أو غير ذلك من أنواع المظالم ، وقد يظلم الإنسان نفسه ، وقد يظلم أسرته ، وقد يظلم شعبه ، وقد يظلم الجميع ، وقد يظلم الإنسانية كلها إذا ارتكب معاص كثيرة ، فإن الشرك ظلم عظيم ، والمعاصي كذلك من أنواع الظلم .

أمر الله ﷻ بالعدل وحثه عليه :

أما ما عدا ذلك فكله عدل ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل وحث عليه وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

معنى العدل وفضله :

المقصود بالعدل هو الاستقامة في الأمور وليست المساواة فقط ، ولكن الاستقامة وإقرار الحق في مكانه ، وقد قال النبي ﷺ : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»^(١) ، وذكر منهم : إمام عادل .

(١) سبق تخرجه .

الإمام العادل وما أعدّه الله له :

الإمام العادل من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله ؛ لأنه حينما يكون عادلاً يكون في الدنيا ظلاً لله سبحانه وتعالى في الأرض ، يكون ظلاً لله في الأرض يستظل به الضعيف ، ويأوي إليه المظلوم . والمقصود بالظل هنا ليس الظل بالمعنى الذي كان يقوله المسيحيون فيما يرجع لملوكهم ، ولكن المقصود بالظل أنه ذلك الظل الذي يكون من الشجرة تعبير عربي ، والبلاد العربية فيها شمس كثيرة فالظل شيء عظيم ، فالاستظلال بالرؤساء العادلين وبالمملوك المخلصين والخلفاء الراشدين الاستظلال بظلمهم ، بمعنى الالتجاء إلى حمايتهم من الظلم ومن كل المساس الذي يمكن أن يلحق الضعفاء والمساكين من غيرهم ، هذه هي الظلية التي يشير إليها الحديث الشريف : «السلطان ظل الله في الأرض»^(١) ، فليس المقصود منها أنها صورة من صور الباري ﷻ . الإسلام لا يعرف هذا ، ولكن الذي يعرفه الإسلام هو أن أمير المؤمنين هو ظل الله في الأرض بمعنى يأوي إليه الضعيف والمساكين وذو الحاجة ، ويحميهم من غيرهم من الناس ، والظلم تحت جناح كل أحد ، فلذلك يحتاج البشر إلى من يمنعهم من الظلم ، وهذا هو السر في الخلافة ، وهذا هو السر في كيان الدولة بأسرها .

تنفير النبي ﷺ من الظلم وأهله :

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» أي لا يظلم بعضكم بعضاً وقد قال ﷺ في حجة الوداع حين خطب ﷺ في الناس : «أي يوم هذا؟ أي شهر هذا؟

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٨ / ١٦٢) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٠٤) .

قالوا : يوم حرام ، قالوا : شهر حرام ، أي بلد هذا؟ قالوا : بلد حرام ، قال ﷺ : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، اللهم هل بلغت ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، ثم قال ﷺ : لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض^(١) والظلم كفر كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ، «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» ، هذا هو المقصود من توصية البارئ ﷻ للمسلمين لكي يقيموا العدل والقسطاس ، والمقسطون كما ثبت في الحديث الذي ختم به الإمام البخاري : «المقسطون على منابر عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين» ، والمقسطون هم العادلون ، والقاسطون هم الظالمون : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] هذا هو مصداق الحديث الشريف .

الفقرة الثانية مترتبة على الأولى :

«يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم» .

هذه الفقرة الثانية ، وقد رتبها سبحانه وتعالى على الفقرة الأولى ، لئلا ييئس الناس ؛ لأن الظلم موجود في العالم ، فقال لهم البارئ ﷻ إني حرمت عليكم الظلم ، فإذا كنتم أنتم تحسون من أنفسكم ميلًا في هذا المعنى ، فيجب أن تعرفوا أنكم جميعًا ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم . فطلبكم الهداية يكون من البارئ ﷻ فهو الذي يرزقكم هذه الهداية ويرشدكم إلى طريق الرشاد .

(١) سبق تخريجه .

المراد بالضلال في الحديث:

قال تعالى في هذا الكلام : كلكم ضال . الخطاب موجه لعباد الله ، لجميع البشر ، كلكم ضال إلا من هديته . والضلال يختلف في المقصود به ، هل هو الضلال بمعنى الانحراف عن الطريق ، أو الضلال بمعنى الحيرة . والصواب أن نأخذ الكلمة هنا باللفظ العام حتى يكون المقصود بالضلال بمعنى الحيرة ، فكل بني آدم حيارى إذا لم يرشدهم الله إلى الطريق المستقيم .

معنى الضلال في آية سورة الضحى:

والنبي ﷺ يدخل أيضاً في عباد الله ، وقد قال سبحانه وتعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧] ، والضلال الذي وجد عليه النبي ﷺ ليس هو الانحراف عن الطريق ، ولكنه هو الحيرة ، فقد كان النبي ﷺ حائرًا فيما يفعله بأمره ، وما يفعله بملمته ، وما هي الطريقة التي يسلكها لإصلاح حالة الشعب العربي ، وما كان عليه من الجاهلية الجهلاء ، والوثنية وعبودية الأوثان والأصنام إلى غير ذلك من هذه الأمور ، فهده الله سبحانه بأن أنزل عليه الوحي ، فجاءه جبريل وهو في غار حراء إلى آخر الحديث المشهور . هذا هو المقصود بالضلال بمعنى الحيرة .

وقوع التناقض الظاهري بين الشراح:

أحب أن أبين هنا أن الشراح قد وقع لهم تناقض في ذهنهم ، وصعب عليهم الجمع بين هذه المتناقضات ، بين كون الإنسان يكون أولاً ضالاً ثم يهدى ، وبين قول النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه »^(١) . فمدلول الحديث الثاني كل مولود

(١) سبق تخريجه .

يولد على الفطرة أن الفطرة تعني كون الإنسان متشوقاً لأول مرة إلى عبادة الباري ﷻ وإلى الطلوع إلى الباري ﷻ .

ومعنى قوله ضال أنه يكون قبل أول مرة متشوقاً للضلال أو حائرًا في الأمر ، ثم بعد ذلك يهدي الله من اهتدى ، ويضل من يضل ، فهذا يقع فيه تناقض في ذهنية العلماء ، وقد أجابوا عن ذلك بأن القصد الأول هو ما أشار إليه الباري ﷻ في القرآن ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

كان الناس أمة واحدة يعني أنهم كانوا متفقين غير مختلفين ولكن في الضلال والكفر وعدم معرفة الباري ﷻ ، فلما جاءت الرسل آمنت طائفة منهم وكفرت طائفة ، فاختلَفوا ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ ، فلما بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، اختلفوا فيما بينهم ، لأن طائفة آمنت وطائفة كفرت ، فلا يقع الخلاف إلا إذا وقع هنالك شيء جديد يؤدي إلى ذلك الاختلاف ، هذا معنى هذه الآية .

وأما آية الفطرة فتكون بعد مجيء النبيين فقد أصبح الناس بعد ذلك مفطورين على الإسلام ، ولكن هذا الجواب ، في نظري ، لا يقنع .

رأي آخر في بيان هذه القضية :

الذي أراه في بيان القضية هو أن الباري ﷻ خلق الناس مفطورين مجبولين على الإيمان وعلى عبادة الله ، ومعنى قوله ﷻ : « كل مولود يولد

على الفطرة» ، هو ما يشير إليه الحديث ، الإسلام دين الفطرة ، فالإنسان مجبول على أن يتشوق للعبادة ويميل إليها ، ولكن هذا شيء شوقي روحاني عقلي قلبي ، هل يقوم بهذه العبادة أم لا؟ المسألة تتعلق بالتعليم والتربية ، فإن رباه أهله وأقاربه على اليهودية مال إلى اليهودية وهو يعتقد أن اليهودية هي ذلك الدين المجبول عليه في فطرته ، وإن علموه النصرانية مال إلى تلك العقيدة معتقداً أن الدين الذي في فطرته هو تلك النصرانية ، فهو جاهل في الحقيقة . أما الفطرة ، فهي موجودة . المسألة مسألة جهل ، وأما الفطرة فهي موجودة قطعاً ، وهذه الفطرة طبيعية ، وتكون هذه الفكرة الإسلامية .

فلسفة الإسلام في قضية الفطرة:

هذه الفلسفة التي جاء بها الإسلام في قضية الفطرة خالفت جميع النظريات الموجودة من قبل ، فلم يكن الإنسان وحشياً كما يقول علماء الأنثربولوجي ، ولم يكن الإنسان كذلك متمدناً ثم فسد كما يقول جان جاك رسو وأضرابه ، ولكنه في الحقيقة كان إنساناً ولا يزال إنساناً ، بدليل أن القرآن يحدثنا عن الميثاق الذي واثق الله به البرية وهي لا تزال ، فيما لا يزال ، فقالوا سمعنا وأطعنا .

وقد عرض عليهم الأمانة التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، فالإنسان هو الذي تحمل هذه المسؤولية فاستحق الخلافة في الأرض ، ولكن الله تعالى اقتضت حكمته أن يعطي للناس الحرية ، والحرية لا تكون إلا مع المسؤولية ، والمسؤولية لا تتحقق إلا بالحرية ، ولذلك عليهم أن يجتهدوا لاكتشاف معالم الفطرة في أعمالهم ، ومعالم الدين فيما يتبعونه من كلام الله ، وكلام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلذلك منهم من يصيب ، ومنهم من يخطئ .

وهذه الألوهية من صفاتها في الحقيقة أنها تحسن إلى الخلق كما ذكر سبحانه وتعالى في المنن التي امتن بها علينا حرم الظلم على نفسه ، وهذا بعد أن كنا ضالين .

الفطرة تعني الميل لعبادة الله :

البارئ يستحق بمقتضى ذلك الحمد والثناء ، والحمد والثناء إنما يكون كلامًا وثناء بالجميل على فعل الجميل للجميل ، فتكون حينئذ الفطرة الإنسانية مرتبطة بالجمال الإلهي ، فالفطرة حينئذ هي الميل لعبادة الله معنى ذلك الميل لمحبة الله سبحانه وتعالى ، ومحبة الله تعني الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، وهي تلك الصفات التي ذكرها سبحانه في بقية الحديث القدسي .

فالمحبة التي يحبها الإنسان لله ، تؤدي به إلى العبادة الحقيقية ، كما يقول ابن عطاء الله : ما أحببت شيئًا إلا وكنت له عبدًا وهو لا يريد أن تكون لغيره عبدًا ، الذي يحب الجمال البشري يكون عبدًا لذلك الجمال البشري ، والذي يحب الجمال الإلهي يكون عبدًا لذلك الجمال الإلهي ، والذي يحب الدنيا يصير إليها ويعبدها ، والذي يحب الجاه يصير إليه ويعبده وهكذا .

الفطرة تعني الاتصال بالجمال الإلهي :

لذلك فالحقيقة أن الفطرة هي عبارة عن اتصال إنساني بالجمال الإلهي هذا موجود في الإنسان فطريًا ، ولكن حينما يلبس الشياطين للإنسان شهواتهم ، ويميلون إلى ديانات غير الديانة الإسلامية ، أو إلى عبادة وثن أو صنم ، يكونون ممن يحبون تلك الأشياء ، ولذلك قال سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالفطرة موجودة وهي المحبة والميلان للشيء المعبود المقدس ، ولكن معرفة المقدس

الحقيقي ما هو؟ موضع الغلط في الإنسانية ، وهو الذي احتاج إلى إرسال الرسل ، وينوب عنهم العلماء ، والخلفاء الراشدون في توضيح مسائل ذلك كله إلى الناس حتى يكونوا على بينة ، ولا تزال طائفة من أمته ﷺ ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، وهذا الحديث قيم وطويل ، وفيه موضوعات كثيرة ، من جملتها هذه المسألة التي أشرناها ، ومن جملتها قضية التوكل ، وقضية الكسب ، وغير ذلك من المسائل .

عود إلى الحديث القدسي :

عود على بدء من هذا الحديث القدسي الكريم ، وقد تكلمنا على فقراته الأولى ، وهي قوله سبحانه وتعالى : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم ، فلا تظالموا » ، وهذه هي المنة الأولى من البارئ ﷻ على عباده ، ورتب عليها أمره لعباده بأن يتخلقوا بأخلاقه ﷻ .

هداية الله منوطة بطلبنا :

قال سبحانه وتعالى في الفقرة الثانية : « كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم » ، وهذه أيضاً منة من منن الله ﷻ ، حيث إنه جعل هدايته سبحانه وتعالى منوطة بطلبنا منه ذلك ، فكلنا في الأصل في الحقيقة ضالون إلا إذا استهدينا بهديه سبحانه وتعالى ، ولا شك أن الضلال إنما يزول بهذا الاستهداء ، والاستهداء يكون بالدعاء للبارئ ﷻ ، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستهديه في جميع صلواتنا ، اهدنا الصراط المستقيم ، حينما نقرأ الفاتحة ، وهذا الاستهداء هو طلب الدعاء ، ويكون الاستهداء كذلك ولا بد منه ؛ لأن الدعاء لا يكفي وحده ، يكون بطريق طلب الهداية ، فاستهدوني أي اطلبوا طريق الهداية مني ، ولا شك

أن ذلك يكون بطريق العقل ، وبطريق الشرع ، أي بطريقة البحث العقلي في أحكام الشريعة والنظر فيها والاستفادة منها .

ولذلك أمرنا سبحانه وتعالى بعد أن هدانا النجدين ، هدانا سبحانه وتعالى النجدين أي الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، وطلب منا كذلك أن نسلك في هذه الطريق ، وأن نبحت عنها ، فهذا هو القسم من مجهوداتنا الخاصة التي يجب أن نصرّفها للبحث عن الهداية الربانية ، ولكن هذا البحث يجب أن يكون مقروئاً في الوقت نفسه بالدعاء للبارئ ﷻ ، لأنه لا حول لنا ولا قوة ولا هداية إلا بهداية البارئ ﷻ ، فلا بد من العمل بالبحث عن طريق الهداية ، وذلك بدراسة القرآن ودراسة السنة ، ومحاولة أخذ النفس بالسلوك في مسالك النبي ﷺ المسالك القرآنية ، والأخلاق الربانية ، التي مثلها على الأرض شخصياً سيدنا محمد ﷺ ، لا بد من أن نسلك ذلك بهذه الطريق ، ثم في الوقت نفسه ، نتعلق بالبارئ ﷻ فندعوه سبحانه وتعالى ليهدينا ، أي ليسلك بنا مسالك الهداية ، ومسالك النجاة ، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم ، صل وارغب ، صل وانصب ، لا بد من الصلاة ومن النصب ومن التعب ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿ [الشرح : ٧ ، ٨] ، صل لربك وانصب ، لا بد من النصب والتعب ، ولا بد من الرغبة إلى البارئ ﷻ ، بحيث لا يكتفي الإنسان بمجرد الدعاء ، بل لا بد من أن يسلك في البحث عن طريق الهداية مسالك الدراسة لكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وهذه الهداية منوطة بتعاليم النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أنها موجودة في أحكامه ، وفي أخلاقه ، وفي شريعته كلها ، وفي سننه وفي تقاليده عليه الصلاة والسلام .

الهداية تتحقق بالإسلام والامتثال له :

لابد إذا أراد الإنسان أن يكون مهديًا أن يكون مسلمًا ؛ لأن الهداية هي شرح الله سبحانه وتعالى صدر الإنسان للإسلام ، فإذا شرح الله صدر الإنسان للإسلام ، فإنه حينئذ يكون مهديًا ، وبسيرته يكون كذلك هاديًا ، فالهداية هي الإسلام نفسه ، فلا بد من أن نكون مسلمين ، ولا بد أن نتعلم أحكام الشريعة وأخلاقها ، ولا بد من أن نسلك أنفسنا بهذه الأحكام وفي طريقها وفي منهجها ، ثم بعد ذلك نطلب من البارئ سبحانه وتعالى أن يوفقنا وأن يتقبل منا ، ولذلك قال النبي ﷺ : «اعقلها وتوكل»^(١) . وستكلم على التوكل في الفقرة الثانية بعد هذه ، هذا معنى قوله في هذا الحديث القدسي : «كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم» .

معنى الفقرة الثالثة والرابعة من الحديث :

قال سبحانه وتعالى : «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم» ، ثم بعد ذلك : «يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم» فمعنى هاتين الفقرتين الكريمتين من الحديث القدسي أن الإنسان يولد وجميع الناس يولدون على صفة واحدة ، مجردين من كل حول وطول ، ومن كل قدرة كاملة ، ومن كل قدرة شخصية ذاتية كاملة يستطيعون بها أن يأكلوا أو أن يكسوا أو أن يشربوا أو أن يفعلوا شيئًا من الأشياء التي يتوقفون عليها ، فالناس كلهم يولدون متساوين في البؤس والفاقة والحاجة إلى الله سبحانه وتعالى ، الذي هو وحده الذي يقوم بأودهم وبسد عوزهم في أكلمهم وفي شربهم وفي لباسهم .

(١) سبق تخرجه .

نعمة الأكل والشرب واللباس:

بعد أن امتن البارئ ﷻ في الفقرتين الأولى والثانية بأنه سبحانه وتعالى لا يظلمنا وإن كان ذلك مستحيلاً في حقه ، وطلب منا ألا نظلم بعضنا ، وامتن علينا كذلك بأننا ضالون ، ولكنه هو الذي يهديننا ، وهذه المنة روحية ، وامتن علينا بعد ذلك بمتين ماديتين ، وهي مسألة الأكل والشرب ، ومسألة اللباس ، بحيث لا يمكننا أبداً أن ننال شيئاً من مأكلا ومشاربنا وملابسنا وجميع حاجاتنا إلا إذا أعاننا البارئ ﷻ على ذلك .

الدعاء إلى الهداية المعنوية في الصلاة عند المسلمين:

هذه المنة لم يستعملها سبحانه وتعالى في الدعاء في وقت الصلاة في الفاتحة ، إنما استعمل الهداية المعنوية التي هي سلوك الطريق المستقيم ، أهدنا الصراط المستقيم ، والفاتحة كلها تشتمل على دعوات صالحة تين لنا مقدار الرغبة في الهداية و سلوك الطريق المستقيم ، والابتعاد عن سلوك طرق الضالين ، وطرق الذين لا يهتدون ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾ .

الدعاء في صلاة النصارى!:

يقول المفسرون ، إن المغضوب عليهم هنا هم اليهود ، والضالون هم النصارى . وعلى كل حال فإذا قارنا هذه الصلاة التي نصلي بها في كل ركعة من ركعاتنا ، وقارناها بالصلوات التي يدعو بها المسيحيون مثلاً في صلواتهم ، نجد أن هذه الصلاة الإسلامية تتعلق بالروحانيات المحضة ولا تتعلق بالماديات ، بينما نجد الصلاة المسيحية تقول : خبزنا كفافنا

أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر إلى المسيئين إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ، زاد في نسخة الإنجيل الأمريكية ، ولكن نجنا من الشر .

فهذه الروايات المختلفة للإنجيل هي الصلوات التي يقوم بها المسيحيون في صلواتهم أما الصلوات الإسلامية ، فإنها إنما تقوم بالدعوى للهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، بعد أن تنزه الله سبحانه وتعالى ، وبعد أن يتعلق الإنسان تعلقاً كاملاً بالله في عبادته ، وفي الاستعانة به ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، هذا شيء في الصلاة ، وخارج هذا الإطار امتن الله سبحانه علينا بقصد التذكر ، وبقصد تذكر النعم الإلهية علينا .

الفقرتان في الحديث ترشدان إلى النعم المادية :

بعد أن امتن بالمعنويات والروحانيات امتن علينا كذلك بهذه الأشياء المادية ، وهاتان الفقرتان ، كما قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَشْتَمِلَانِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ أَاسَاسِيَتَيْنِ :

أما النقطة الأولى : فهي التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ .

وأما النقطة الثانية : فهي العمل والكسب من أجل القوت ، ومن أجل المسائل الدنيوية وعدم إهمالها .

أمر الشريعة بالتوكل على الله الصحيح :

إن الشريعة الإسلامية أمرتنا بالتوكل على الله ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] ، لابد من التوكل على الله في أعمالنا كلها ، وأمرتنا كذلك بأن نقوم بالكد والجد والاحتراف والعمل للكسب .

لا نتواكل الصوفية:

أما الصوفية ، فإنهم اكتفوا بأخذ الشق الأول ، وهو مسألة التوكل يعني كبار الصوفية ، حتى إنهم كانوا يتركون العمل لدنياهم بالمرة ، وأما غيرهم من مطلق المسلمين ، ولا سيما في هذا العصر ، فإنهم اكتفوا بالبحث والجد عن الدنيا بطرق مشروعة وغير مشروعة ، ولكن لم يوافقوا الإسلام الصحيح ، وإنما الإسلام الصحيح يأمرنا بأن نجمع بين العمل للآخرة والعمل للدنيا ، وألا نتواكل على الله سبحانه تعالى بمعنى الكسل وعدم العمل . ولكن يجب أن نعمل ونتوكل كما قال ﷺ «اعقلها وتوكل»^(١) ، أغلق الباب وتوكل على الله لئلا يدخل عليك سارق ، ولكن لا بد من إقفال الباب ، وكذلك أيضًا جميع الأشياء التي نطلبها يجب أن نبذل جهدنا في الحصول عليها بطريق الكد والاجتهاد ، وبجميع الوسائل التي أرادها البارئ ﷻ ، والتي جعلها لنا في هذه الحياة سببًا لا بد منه غير مستقل ، ولكنه ضروري للحصول على كل شيء في هذه الحياة أو في الدار الآخرة .

أهمية العمل في الإسلام:

الله سبحانه وتعالى قادر على أن يعطي الناس ما يريد بدون سبب ، ولكن جرت حكمته سبحانه وإرادته على أن الناس لن ينالوا شيئًا لا من ثواب الدنيا ولا من ثواب الآخرة إلا بأعمالهم ، وإلا إذا وافقت أعمالهم أوامر الله ونواهيه ، فإذا وافقت أعمالهم وقد تم ذلك التطابق بين إرادة الله وبين أعمال العبد ، حينئذ تتحقق الأشياء التي يريد الإنسان .

(١) سبق تخرجه .

وأما إذا لم يقع هذا التوافق وذلك التطابق بين الإرادة الإلهية الشرعية وبين أعمال الإنسان ، فإن إرادة الله الشرعية حينئذ لا تتحقق لأن أعمال العبد لم توافقها وهذه إرادته وَعَلَيْكُمْ .

كل عمل ابن آدم يُجزى عليه :

يمكننا أن نجتمع بين أقوال مختلف علماء الكلام في هذه القضية ، وبين الشريعة التي جاءت عن رسول الله ﷺ ، وقد ثبت في القرآن الكريم في غير ما آية من الآيات ، ترتيب الجزاء على العمل ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، فكل شيء قليل أو كبير يجازى عليه الإنسان ، ولو كان مثقال ذرة ، ولو كان تلك الذرة التي كانوا يقولون إنها لا تنقسم ، وثبت بعد ذلك أنها تنقسم ومنصوص في القرآن على أنها تنقسم كذلك ، لأن النواة التي في القرآن كذلك تنقسم .

فهذه الأشياء التي نعملها صغيرة أو كبيرة هي التي يترتب عليها الجزاء الإلهي لنا ، وهي التي يجب أن يترتب عليها الجزاء الدنيوي في حكم الشريعة .

فهم خاطئ للتوكل :

إذا أراد الإنسان أن يزعم أنه يمكنه أن يجلس في بيته ، ويعمل للآخرة فقط ، يصلي ويصوم ، ثم يقول بعد ذلك إني متوكل على الله ، وأنه هو الذي سيطعمني ويسقيني من غير أي عمل ، فهذا في الحقيقة كسل ، وليس متفقاً مع الشريعة الإسلامية في شيء ، ولكن الشريعة الإسلامية تفرض علينا أن نعمل لدنيانا كما نعمل لآخرتنا ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

وكذلك أيضًا قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الأثر الذي ينسبه بعض الناس إلى الحديث وليس بحديث: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموت غداً، يعني أن الإنسان يجب عليه أن يعمل ويجد ويجهد لأمر الآخرة حتى كأنه سيموت غداً، وإذا فكر الإنسان وتيقن أنه سيموت غداً، فإنه حينئذ سيقوم بأنواع العبادات، ولا يفكر في شيء، ويقطع كل صلة بالدنيا، واعمَلْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، فإذا فكر الإنسان وتيقن أنه سيعيش أبدًا سوف لا يفكر في الآخرة كثيرًا وسيعمل للدنيا. ولكن الشارع أراد منا أن نعمل لدنيانا كأننا سنعيش إلى الأبد، لأن عملنا سيقبَلُ لمن بعدنا، ونعمل لآخرتنا كأننا سنموت غداً. وبذلك سيتم التوافق بين ما أراده الشارع من الجد والاجتهاد في الأمور الأخروية والكد والاجتهاد في الأمور الدنيوية. وبذلك ستكون الدنيا في ظل الإسلام مليئة بالدنيويات، ومليئة بالروحانيات كذلك، ولا يكون هنالك رهبانية كرهبانية المسيحية، ولا تكون هنالك قارونية كقارونية قارون، وكما سار فيه الإسرائيليون في عهد موسى عليه السلام، فلا بد من الكد والعمل.

الجزاء على العمل محفوظ دنيا وآخره:

إن القرآن بين لنا أن كل عمل يقوم به الإنسان لا يضيع، قال تعالى: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فكل عامل عمل عملاً من الأعمال إلا ويجازيه الله عليه، وهذه الأعمال لا يقصد بها الأعمال الأخروية فقط، بل الأعمال الدنيوية كذلك. وإذا كان بعض المفسرين يقتصرون على تفسير الجزاء على العمل بالجزاء الأخروي الأعمال

الأخروية ، فينبغي أن يعمم هذا التفسير على الجزء الذي أراده الله سبحانه وتعالى للإنسان في الدنيا إذا قام بعمل دنيوي ؛ لأن تلك الأسباب التي يتخذها الإنسان تترتب عليها نتائج ، الله سبحانه وتعالى قد التزم بأن يطبقها وأن ينفذها لعباده .

وعلى ذلك نبي أن كل إنسان في الدنيا يجب أن ينال جزاءه كذلك من الحاكمين ، بحيث إذا قام أي إنسان ببناء أو بغرس ، أو بأي عمل من الأعمال الدنيوية ، ينبغي أن يجازى على ذلك الجزء الأوفى الذي قدره له الشارع ، كل على قدر عمله .

درس عظيم من دروس الفاروق:

نجد الشريعة الإسلامية قد سبقت غيرها من الشرائع ، نجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قسمته للغنائم ، يعطينا درسًا عظيمًا وكلمة كريمة خالدة . حتى الآن لم يصل إليها المتفهبون من الغربيين لا بالاشتراكية ولا بالرأسمالية ولا بغيرها هذه الكلمة التي قالها سيدنا عمر بن الخطاب هي قوله : المؤمن يجازى على قدر حاجته ، والمؤمن يجازى على قدر جهده . يعني أن الناس يجازون إما على قدر حاجتهم . فكل محتاج لابد من أن يعطى ، وإما أن يأخذوا على قدر مجهودهم ، أي لا يضيع عمل عامل ، بل يأخذ كل ما يستحقه على عمله .

فرق بين مقالة الفاروق ومقالة الشيوعية:

هذه الكلمة القيمة من سيدنا عمر بن الخطاب ، إذا قارناها بآخر كلمة قالتها الشيوعية مثلاً .

هي أنه من كل قدر طاقته ، ومن كل جزاء عمله . إذا قارنا هذه الكلمة

بالجملة الني نطق بها سيدنا عمر بن الخطاب ، منذ ثلاثة عشر قرناً ، نجد أن كلمة عمر بن الخطاب أضمن للعدل من هذه الكلمة الأخيرة ، لأن سيدنا عمر بن الخطاب ، قال : يأخذ الإنسان على قدر حاجته ، ويأخذ الإنسان على قدر جهده ، يعني كل عمل قام به الإنسان يحسب له ، ويعطاه الجزاء الأوفى عليه ، فإذا كان هذا الإنسان لا يستطيع بجهده أو بعلمه أو بجسمه أن يصل إلى القدر الذي يسد حاجته بعمله ، فهل نضيعه؟ لا ، نعطيه قدر حاجته الأقل الحيوي ، لا بد من أن يعطى . هكذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب ، وهذه الكلمة الخالدة التي لو وقعت لأحد من فلاسفة الغرب ، لقلبوا بها الدنيا ظهراً على بطن ، ولكن نطق بها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وهو يقسم الغنائم وطبقها بالفعل على المسلمين .

لماذا فعل عمر ذلك ؟

فعل عمر رضي الله عنه ذلك لأن القرآن أمرنا بأن نقسم الغنائم بين المسلمين بعد أن نعطي النصيب المقدر للدولة أي لله ولرسوله ، حينئذ نقسم تلك الأشياء على الناس حتى لا تكون دولة بين الأغنياء منكم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] ، ما معنى أن تكون دولة بين الأغنياء منكم؟ أي لا يبقى المال مكتتلاً ، متكدساً ، تتقاسمه الأغنياء ويدول من يد إلى يد دون أن يسير إلى جميع الأيدي ، وإنما يبقى يسير من يد بعض الأغنياء إلى يد بعض الأغنياء ، وهذا هو الواقع الآن في الدنيا ، بحيث إن أموال العالم كلها قد تكدست وتكتلت في يد مجموعة من الناس من كبار الشخصيات المالية في الدنيا .

وهذه الشخصيات كلها يجري المال من يد إلى يد ، والباقي في جميع الدنيا يشتغل مع هذه الكتلة القليلة من الناس ، فيجمعون هذه الأموال ويستعملون

فيها الربويات ، ويجرون بالعالم إلى الحرب الكبيرة ، ليتحقق الإنذار القرآني الذي جاء به القرآن الكريم : ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

طعامنا ، شرابنا ، كساؤنا ، محض فضل من الله :

نجد أن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بأنه هو الذي يطعمنا ويسقينا ، وهو الذي يرزقنا الملابس ، وكل الأشياء التي نتوقف عليها ، وأنه بدونه سبحانه وتعالى ، بحيث لا يمكن لنا أن نفكر بأنه بغنانا أو بثروتنا أو بعلمنا أو بجهدنا أو بقوتنا الجسمية نستطيع أن نحصل على شيء باستقلال عن الإرادة الإلهية ، هذا مستحيل ، لأننا لا نستطيع أن نعمل كل شيء ، وإذا لم يرد الله سبحانه وتعالى أن ينجز عملنا ، فإنه سبحانه وتعالى حيث لا يفعل ، فهو القادر على ما يشاء ، ولكنه سبحانه وتعالى اقتضت حكمته ، أننا إذا فعلنا شيئاً ، وفانا أجرنا بغير حساب ، فهو سبحانه لا يبدل القول لديه ، وما هو بظلام للعبيد ، ونحن كذلك يجب علينا ألا نظلم أنفسنا ومعنى أن لا نظلم أنفسنا أن نقوم بواجب الكد والاجتهاد مع الاتكال على البارئ سبحانه وتعالى .

استدلال خاطئ والرد عليه :

يستدل البعض بالحديث الشريف : «لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خاصاً وتروح بطائناً»^(١) فيقولون : إن الطير تغدو بنفسها خاصاً ، وتروح بطائناً لأنها تعمل معتمدة على الله سبحانه

(١) سبق تخريجه .

وتعالى قلنا لهم لا ، هذا الحديث نفسه يدل على أنه لا بد من العمل ، لأنه لم يقل ، الطير تبقى في أوكارها ويأتيها الرزق ، ولكنها تغدو جائعة وتروح مليئة البطون ، فغدوها في الصباح ورواحها في العشي ، وانتقالها بين الأفياء وبين الأشجار وبين الأتربة وغير ذلك من الأماكن ، هو عملها هو كدها هو اجتهداها . فالنبي ﷺ يعطينا مثالا حيوانيا من الطيور يقول لنا : لو كنتم متوكلين حقيقة لما جلستم في بيوتكم تنتظرون الرزق من السماء ، ولكن خرجتم في الصباح الباكر كما تقوم الطيور في الصباح الباكر ، ولم تقبوا نائمين ، بل ذهبتهم للعمل وغدوتم كما تغدو الطيور ، تغدو خماسا في الصباح أي جائعة ، فتكد وتجتهد ، وتروح في المساء ، وهي مليئة البطون شبعانة ريانة ، ثم تستكين بالليل ، وفي الصباح كذلك تستأنف عملها .

نفس المثال يدل على ضرورة العمل :

هذا المثال الذي يذكرونه كدليل على التوكل ، هو نفسه دليل على ضرورة العمل فلا بد من أن نكد ، ولا بد من أن نجتهد ولا بد من أن نعمل لكي يشيننا الله على علمنا ، إن كان العمل أخرويا أثابنا عليه ، وإن كان العمل دنيويا أثابنا عليه ، هذا معنى قوله في هاتين الفقرتين : «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم» .

الفقرة الخامسة من الحديث :

«يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم» .

المراد بالخطأ في العبارة:

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، أخطأ يخطئ ، هذه هي الرواية الصحيحة في الحديث تخطئون بضم التاء وكسر الطاء ، وفي بعض الروايات ، تخطئون خطأ وهو من الخطأ قال الراغب في مفردات القرآن ، الإمام الراغب الفيلسوف الإسلامي الكبير ، قال في مفردات القرآن الخطأ هو الانحراف عن الطريق ، عمل غير ما يريد الإنسان ، وله أضرب ، له أشكال ، فإذا كان الإنسان أراد شيئاً مخالفاً للصواب ، وعمل ذلك الشيء المخالف للصواب يقال فيها خطأ يخطأ خطأ بهذا الصفة ، خطأ كبيراً ، وإذا عمل الإنسان فعلاً فكرياً أن يعمل الشيء صواباً ، وعمله على خلاف الصواب ، أو فكر في أن يعمل الشيء غير صواب ، وعمله غير صواب ، فهذا يقال له أخطأ ، فيكون قد أصاب في خطئه أو أخطأ في خطئه ، أو أخطأ في صوابه ، كل هذا يمكن أن يقال فيه أخطأ .

أما إذا كان قد أراد الشيء على خلاف ما هو عليه ، وأصاب في خطئه أي عمله ، فإنه حينئذ يقال له قد أخطأ ، وأما إذا كان أراد على غير صوابه وعمله على غير صوابه ، فهذا يقال له ارتكب الخطيئة وهي الخطأ أو الخطء .

على كل حال يصح من جهة اللغة أن يقال في هذا الحديث الشريف : يخطئون ، ولذلك لا معنى لأن نتوجه إلى الرواية الأخرى التي تقرأها تخطئون ، إنكم تخطئون بالليل والنهار .

دلالة ذكر الليل والنهار في هذه الفقرة:

أما ذكر الليل والنهار ، فليس المقصود منه أننا نرتكب الخطأ في كل يوم وليلة ، جميع الدنيا ترتكب الأخطاء في جميع الليل والنهار ، كما يتبادر من

اللفظ ، ولكن هو من باب القاعدة الأصولية «مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا» ، كما إذا قلنا ركب القوم دوابهم ، فليس المقصود أن جميع القوم ركبوا نفس الدواب ، ولكن المقصود التقسيم ، ركب كل واحد دابته الخاصة به .

فمعنى قوله في الحديث إنكم تخطئون على هذا ، المقابلة التي تقتضي القسمة آحادًا ، أي كل واحد منكم يرتكب بعض الأخطاء ، تارة بالليل وتارة بالنهار ، وليس المقصود أنهم جميعًا يرتكبون جميع الأخطاء في الليل والنهار ، إنكم تخطئون بالليل والنهار .

الله غافر الذنب:

«وأنا أغفر الذنوب جميعًا» ، أي ومن شيمتي ومن خلقي الذاتي ومن خلقه سبحانه وتعالى الذاتي أنه يغفر الذنوب جميعًا كيفما كانت هذه الذنوب بدون استثناء ، فهو سبحانه وتعالى قادر على مغفرة جميع الذنوب بقواعدها الشرعية ، كما سنبينه ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، وقد مهد سبحانه وتعالى بشيئين ، قال سبحانه وتعالى إنكم تخطئون أي شيمتكم الخطأ ، وشيمته سبحانه وتعالى المغفرة ، أن يغفر جميع الذنوب كيفما كانت ، وذكرها الذنوب المعهودة لديكم لتعم جميع الذنوب ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، ثم رتب على ذلك ، فاستغفروني أغفر لكم ، حيث إن من شأنكم أن تخطئوا ، وحيث إن من شأني أن أغفر الذنوب ، فلماذا تبكون على خطئكم؟

الاستغفار يحقق المغفرة:

«فاستغفروني أغفر لكم» هذا تمهيد لكي يهيم أنفسنا لندعوه سبحانه ونستغفره ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠] ، فالله سبحانه

وتعالى كثير المغفرة ، إنه كان غفارًا ولا يزال غفارًا ، كان الدائمة ، بحيث سبحانه وتعالى غفار في جميع الأوقات .

أنواع المغفرة:

إنني أغفر الذنوب جميعًا ، هذه الذنوب كيفما كانت يغفرها البارئ ﷻ ، ولكن هذه الذنوب إما أن تكون مغفرتها مغفرة كاملة ، بحيث تمحو الخطيئة وأثرها في النفس ، وإما أن تكون هذه المغفرة مجرد تخفيف وتأخير ، نوعان من المغفرة يقوم بهما البارئ ﷻ .

المغفرة التامة:

أما الأولى فهي المغفرة التامة ، بحيث يغفر جميع الذنوب ويمحوها للإنسان ، وهذه المغفرة تقع لكل ذنب ، ولو الشرك ، إذا تاب منه الإنسان ، بشرط التوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، ولكن إذا تاب المشرك وأسلم ، وآمن ، فإن الله يغفر له إشراكه السابق ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] ، فلا شك أن الذين كفروا إذا تابوا ، والمشركون إذا تابوا غفر الله لهم ما قد سلف من ذنوبهم ، هذه المغفرة ، وكذلك يغفر الله الذنوب ما دون الشرك ، فهي كذلك يغفر سبحانه وتعالى بشرط التوبة ، ولكنه سبحانه وتعالى إذا لم تقع التوبة من الإنسان تبقى رحمته للجميع عامة إلا المشركين ، فقد اقتضت إرادته سبحانه وتعالى ألا يغفر الشرك إلا إذا تاب المشركون من شركهم .

وأما هنالك نوع من الذنوب ، وهي الذنوب التي يرتكبها الإنسان ، ويحمل غيره على ارتكابها ، هذه حاول بعض المتكلمين أن يقول بأن الله

تعالى لا يغفرها ، واستدلوا لذلك بحديث إسرائيلي معناه أن هذا ما فعلته أنت ، فكيف الإضلال الذي أضللت به غيرك ، ولكن لا ، ثبت في الحديث الشريف وثبت في مختلف الأحاديث ، أن الإنسان إذا ارتكب إثماً ولو كان داعية للإثم وحمل غيره على الإثم ، ثم تاب إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الله تعالى يغفر له ما قد صنعه قبل ذلك ، لأن الإسلام يجب ما قبله .

فالتوبة تقع بها المغفرة التامة ، توبوا قبل أن تموتوا ، يجب أن يتوب الإنسان قبل أن يموت فلا يمكنه أن يتوب .

مغفرة التخفيف:

أما المغفرة الثانية وهي مغفرة التخفيف ، فهذه يقع بها التأجيل من الباري سبحانه وتعالى للعباد ، ولذلك لا يهلك سبحانه الظالمين ولا يهلك الكافرين في الدنيا ، ولا يهلك الكثيرين من المذنبين ، ويدخرهم إلى الآخرة ليجازيهم على عملهم ، وربما عجل لهم في وقت ما في الدنيا بعض العقوبات بحسب إرادته سبحانه وتعالى ، فهذا تأخير .

أمثلة على مغفرة التخفيف:

من جملة ما وقع في هذا الباب ، ما ورد أن النبي ﷺ قال : «إن الله خفف عن عمه أبي لهب بسبب سروره بولادة النبي ﷺ»^(١) . وهذا التخفيف الذي وقع لأبي لهب بسبب أنه لما جاءته جارية تبشره بولادة النبي ﷺ أعتقها سرورًا بالنبي ﷺ يدل على أن الأعمال مهما كانت إذا عمل الإنسان عملاً تلقائياً ، وتقبله سبحانه وتعالى ، فإن ذلك يخفف به عنه ما أصابه من

(١) أخرجه البخاري (٥١٠١) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها .

الآلام ، كما قال الشاعر :

إذا كان هذا كافراً جاء ذمه وتبت يده في الجحيم مخلدا
أني أنه في يوم الإثنين دائماً يخفف عنه للسروور بأحمداً
فما الظن بالعبد الذي عاش عمره بأحمد مسرورا ومات موحداً

إذا كان هذا أبو لهب بسروره بمحمد ﷺ يقع له هذا التخفيف في يوم
الاثنين ، فكيف بمن آمن بسيدنا محمد ﷺ ، وعاش عمره مسروراً لكونه من
المسلمين ، ومسروراً بكونه من أتباع محمد ﷺ . هذا الفرح بالنبي ﷺ لا شك
أنه ضمين بأن يساعدنا على الحصول على المغفرة من البارئ ﷻ .

فما الظن بالعبد الذي عاش عمره بأحمد مسرورا ومات موحداً
بشرط الموت على الشهادة .

حرص النبي المعصوم على الاستغفار:

إذا كانت هذه المغفرة تقع للإنسان ، وكان الرب سبحانه غفاراً رحيمًا ،
فيجب علينا أن نطلب منه المغفرة وأن نستغفره ، وقد ثبت في الحديث عن
النبي ﷺ : «أنه كان يستغفر الله سبحانه مائة مرة في الجلسة الواحدة مائة
مرة»^(١) ، وثبت في الحديث الشريف أنه ﷺ قال : «إنني أتوب إلى الله في
اليوم مائة مرة»^(٢) ، وثبت في الحديث الشريف أنه قال : «إنكم خطاءون
وخير الخطائين التوابون»^(٣) . فكلنا نخطئ وكلنا نذنب ، وليس في البشرية

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٤) ، وأبو داود (١٥١٦) ، وابن ماجه (٣٨١٤) من حديث
ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال
الترمذي : هذا حديث غريب .

معصوم ، وهذا هو السر في وجودنا في الخلافة في هذه الأرض ، أي عمارة الأرض ؛ لأن الله تعالى أنشأنا في الأرض واستعمرنا فيها ، فاستغفروه وتوبوا إليه . لأننا إذا كنا قد استعمرنا في هذه الأرض ، وسنقوم بواجب الخلافة البشرية ، آدم خليفة الله في الأرض ، وذريته كلهم خلفاء ، أي مكلفون بأن يعمروا هذه الأرض ، ويقوموا بواجبهم فيها ، فإذا قصرنا في ذلك ، فأمامنا باب التوبة ، لا بد من التقصير لأننا مسئولون ، والمسئولية لا بد فيها من الحرية ، وقد خيرنا سبحانه وهدانا النجدين ، وعلق نجاحنا ونجاتنا بأعمالنا ، فلذلك ينبغي أن نعمل وأن نمتحن أنفسنا كلما تقدمنا في الحياة ، وكلما عملنا شيئاً ، فإن وجدنا عملنا طيباً حمدنا الله تعالى على ذلك ، وإن وجدنا غير ذلك ، رجعنا باللوم على أنفسنا كما سيأتي في الحديث ، ورجعنا بالندامة وبنقد أنفسنا ، وحينئذ نتوب إلى الله ، فإذا تبنا ولو ارتكبنا بعد ذلك خطأ فلا بأس إذا تبنا مرة أخرى .

الله يغفر الذنب ولو تكرر مراراً :

قد ثبت في الحديث : «أن العبد إذا أذنب ذنباً ، ثم تاب إلى الله واستغفره ، قال الله : إني قد غفرت لك حيث ذكرتني يا عبدي ، وعلمت أني غفور رحيم ، ثم إذا ارتكب بعد ذلك ذنباً ، ثم تاب إلى الله ، واستغفر الله تبارك وتعالى ، قال الله ﷻ : إني قد غفرت لك لأنك ذكرتني واستغفرتني وعلمت أني غفور رحيم ، فإذا فعل الثالثة كذلك أجابه البارئ سبحانه وتعالى بالمغفرة ، فإذا عاد قال له البارئ : افعل ما شئت ، فقد غفرت لك » ، يعني ما دمت تتوب ، ما دمت كلما ارتكبت إثماً رجعت إلى البارئ ﷻ ، وحاسبت نفسك ؛ لأنني أعلم أنك مخطئ ، ولا بد من أن تذنّب ، فها دمت

ترتكب الخطيئة ثم تتوب إلى البارئ ﷻ «إلا وقد غفرت لك ، فاعمل ما شئت»^(١) ، يعني دائماً بشرط التوبة المستمرة .

الولي أيضاً يخطئ ولكن . . !

يقول العلماء : إن الولي من أولياء الله تعالى يذنب كما يذنب غيره ، وإنما الفرق بين الولي وبين غيره ، هو أن الولي لا يوطد نفسه على الخطيئة ، أولاً ، ثم إذا استعمل الخطيئة لا يفرح بها ، ثانياً ثم إذا فرغ من الخطيئة ندم ورجع إلى الله وتاب إليه ، فالأولياء تقع منهم الذنوب كما يقع من غيرهم ، فالفرق بينهم وبين من سواهم هي أنهم تتحقق لهم هذه الأمور ، لا يصممون من أول مرة على الخطيئة ، ويبحثون عنها ليعملوها ، وإذا عملوها لم يفرحوا بها بحيث نفوسهم لامتهم وعاتبتم ، ثم بعد ذلك يتوبون إلى الله ، ويصممون على عدم ارتكابها ، وقد لا يوفقهم الله فيرتكبون خطيئة مرة أخرى ، فما داموا يحافظون على هذه الصفات ، فإنه يرجئ لهم المغفرة .

انكسار العاصي خير من صولة المطيع :

يقول ابن عطاء الله : انكسار العاصي خير من صولة المطيع ، فإذا كان الإنسان أذنب أو ارتكب شيئاً وانكسرت نفسه ، فإنه حينئذ يكون أحسن ممن أطاع الله ثم اعتقد أنه قد فعل شيئاً كبيراً ، انكسار العاصي خير من صولة المطيع ، فالإنسان لا بد له من أن يوطد عزمه على التوبة والإنابة إلى الله ، وأن يكون دائم الفكر دائم الذكر ، كلما رأى مصيبة صدرت منه إلا ورجع باللائمة على نفسه ، وتاب إلى الله فيما بينه وبين ربه ، حينئذ يوشك

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أن يغفر الله ذنوبه ، وأن يوفقه بسبب توبته إلى عدم العودة إلى ارتكاب الذنوب ، ولا شك أنه إذا تكررت توبته مرارًا فإن قلبه يطهر ، ونفسه تطيب ، ولا يبقى من المذنبين ، وذلك ما نرجوه للجميع إن شاء الله .

الفقرات التالية في الحديث:

قال الله ﷻ في الحديث : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب رجل واحد منكم ، ثم سألوني فأعطيت كل واحد منكم مسألة ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني» .

معنى الضر:

الضر بالفتح هذا هو الصواب هنا ، لأن الضر يكون في المعنويات ، والضر (بالضم) يكون في الماديات كما قال الإمام الأزهري ، بحيث كل شيء أحدث ضرًا في جسم أو بدن أو مال ، فهو ضر ، وكل شيء أحدث ضرًا معنويًا فهو ضر (بالفتح) وإن كان المحدثون يضبطون الحديث باللفظين معًا ، يعني بالضم ، وبالفتح لن تبلغوا ضري فتضروني يعني أن أعمالكم وتوبتكم وعبادتكم وطاعتكم لا تفيدني أنا شيئًا ، فلست متوقعًا عليها ، ولكنها تنفعكم أنتم ، ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

الله ﷻ غني عن العالمين:

أعمالنا الطيبة التي يجازينا سبحانه وتعالى عليها ، لا تنفعه شيئًا سبحانه

وتعالى ، وإنما تنفعنا نحن ، فلذلك لا ينبغي أن نتبجح بكوننا نطيع ولا أن نمتن ، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات : ١٧] ، لا نمتن على الله تعالى بإسلامنا ، ولا بطاعتنا ، بل هو الذي سبحانه وتعالى يمتن علينا لأنه هو الذي وفقنا ، وهو الذي هدانا إلى الإسلام ، وإلى الطاعة .

الهدف من الطاعات :

طاعتنا المقصود منها -وهذه هي الحكمة في الطاعات كلها- تطهير النفس ، المقصود منها تربية الإنسان على الطاعة في الحياة ، تربية الإنسان على تنظيف فكره وتحرير نفسه من العبوديات التي توقعه فيها شهواته البدنية والمعنوية ، هذا المقصود من هذه الكلمة ، فالمهم أن الإنسان يمثل أمر الله ويحجب نواحيه .

الفقرة الأخيرة من الحديث :

قال ﷺ : «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

دور الملائكة في إحصاء الأعمال :

إن الجزء الذي أعطيكم في الدار الآخرة إنما هو ثمرة عملكم أحصيه لكم بنفسي وبواسطة الحفظة ، ووجود الحفظة الذين يرافقون الإنسان دائماً لإحصاء عمله ، ليس هو لمساعدة الباري ، حاشا وكلا ، وإنما المقصود من وجود الحفظة هو الشهود الذين يشهدون على الإنسان ، وهذه منة أيضاً من الباري ﷻ ، لأن المؤمن إذا اعتقد أنه معه حفظة كراماً يكتبون السيئات ، كما يكتبون الحسنات ويدلون بها في الدار الآخرة أمام الله ﷻ ، فإنه احتراماً

لإيمانه ، واحترامًا لأولئك الحفظة الكرام ، يؤثر أن يعمل الصالحات فيكتبها الملائكة الكرام ، ولا يعمل السيئات ، وهذا الإيمان الحقيقي .

الإيمان الحقيقي الذي إذا سمع أن هنالك حفظة كرامًا يكتبون ما يفعل الإنسان آمن بذلك وصدق واعتقد أن هذا الشيء أمامه كأنه شيء موجود .

حينما يكون الإيمان بهذه الدرجة يستطيع الإنسان أن يراعي هؤلاء الملائكة ، فلا يقول ولا يعمل إلا ما تقتضيه الحرمة التي يجب عليه نحو هؤلاء الملائكة الذين هم جنود بررة ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، فهذه منة من الامتنانات الإلهية على العبد ، أحصياها لكم بنفسى وهو يعلمها ، وهو إحصاء في كتاب في لوح محفوظ .

جزاء الآخرة ثمرة لأعمال الدنيا :

قال ﷺ : « ثم أوفيكُم إياها » أي أوفيكُم جزاء أعمالكم ، فلما حذف المضاف ، قام المضاف إليه مقامه فانتصب ، ثم أجازيكم إياها ، أي أجازيكم بثواب أعمالكم التي قمتُم بها ، لا أضيع أجر عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، سواء هذا الثواب في الآخرة أو في الدنيا ، لأن الذي يعمل العمل الصالح يجازيه البارئ تعالى في الحياة الدنيا ، ويشبهه بأن يحيا حياة طيبة صادقة .

الله ﷻ أهل للحمد ، والنفس أهل للاتهام :

من وجد خيرًا في الدار الآخرة ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن ، أي لا يعاتبن إلا نفسه ، وكذلك في هذه الدنيا من وجد نفسه

يقوم بأعمال صالحة ، فليحمد الله على أن وفقه لذلك ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر : ٣٤] إلخ .

هذه الصفات التي ينطق بها من يعمل العمل الصالح في الدار الآخرة ، كذلك ينطق بها الإنسان إذا عمل عملاً صالحاً في الدنيا وتوفق لذلك ، فيعتقد أن الله قد وفقه ، وأن ذلك من منن الله تعالى عليه ، وإياه أن يعتقد أن هذا العمل قد قام به بحوله وطوله ، فيفسد عمله ، فلذلك قال من وجد خيراً في الدنيا فليحمد الله على ما وفقه الله إليه ، أي من وجد في نفسه استعداداً للعمل الصالح فقد وفقه الله إليه ، فليحمد الله على ذلك ومن وجد غير ذلك فعليه أن يرجع بمعاقبة نفسه ولومها ، ولا يلوم من غيره ممن أساء الظن به أو غيره ممن يتركه في عمله ، بل عليه أن يرجع إلى نفسه باللومة والمثوبة ، وحينئذ تكون عنده النفس اللوامة ، والنفس اللوامة تؤدي بصاحبها إلى الهداية وإلى الرشاد .

وهذا هو معنى الحديث الشريف مجملاً ، وفيه فوائد كثيرة لا نطيل بها ، وإن شاء الله تبارك وتعالى إذا توفرت عدة فرص سيعلمها كثير من العلماء لمن بعدنا إن شاء الله .



المحاضرة العشرون بعد المائتين

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

قال الله جلّت عظمته ، وتعالّت كلمته : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ
شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾ [النور : ٣٥] .

حديث أبي موسى عند البخاري :

روى الإمام البخاري في «صحيحه» عن أبي موسى عبد الله بن قيس
الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «مثل ما بعثني الله به من العلم
والهدى ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية ، قبلت الماء ،
فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله
بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي
قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه
ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل
هدى الله الذي أرسلت به» .

الغرض من الحديث :

الغاية من هذا الخبر أن العلم طريق البعث والنهوض والهداية وأن
العلم يحيي القلوب بعد قسوتها ، كما أن الماء يحيي الأرض بعد موتها ، وأن

طبيعة الناس في قبول العلم والاستفادة منه والإفادة تشبه طبيعة الأرض في قبول الماء والانتفاع به والنفع ، فالعلم لا يهدي إلا إذا صادف قلباً ، إلا إذا صادف محلاً كريماً يستفيد ويفيد ، والتعليم لا يجدي إلا إذا كان المعلم يفيد ، والمتعلم يستفيد ، وما بينهما وهو المستوى ينهض ويزيد .

أثر ابن سيرين : عند مسلم :

روى الإمام مسلم بن الحجاج في «صحيحه» ، عن محمد بن سيرين البصري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : إِنْ هَذَا الْعِلْمُ دِينَ ، فَاَنْظُرُوا عَمَنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ .

الغرض من الأثر :

إنه لا ينبغي أن يؤخذ العلم إلا عن أهله المتحققين به دراية وهداية ، لأن العلم دين يسير الإنسان على هداة ، والدين أمانة ، والأمانة لا تسند إلى غير أمين .

حديث «الموطأ» :

روى إمام الأئمة مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي المدني رَحِمَهُ اللهُ فِي «الموطأ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَى هَدًى إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ اتَّبَعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْئاً ، وَمَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَى ضَلَالَةٍ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِهِمْ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً» .

غرض الحديث :

هذا الحديث أبلغ شيء في فضل العلم والعمل به ، والدعوة إليه ، وبذل المجهود في سبيله .

مدخل للحديث عن أهمية الدين:

إن الله قد سمى كتابه نورًا، وسمى رسوله نورًا، وسمى دينه ووحيه نورًا، ومن أسمائه سبحانه النور، ولا يذكر هذا النور إلا وهو موحد؛ لأن الحق واحد، ولأن صراط الحق واحد، لا يتعدد ولا يتكثر، ولا يتبدل ولا يتغير، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وحيث إن شمس الشريعة هي كشمس الطبيعة في الإشراق والنور، وفي الوضوح والظهور، وحيث إن الآية المعروضة للبحث آية النور، كان من وجه الأمر، وسداد الرأي، أن نستهل هذه المسامرة بحديث يربط الشريعة بالطبيعة، والمادة بالروح، ويعالج حقيقة الدين، وفلسفة الدين، الدين الذي هو خاصة من خواص الطبيعة البشرية، ودعوة تتعلق بمعنى الحياة البشرية، الدين الذي هو مادة الوجود للأخلاق الإنسانية، وجادة الطريق لسير السلالات البشرية، الدين الذي يربي بمكارمه، ويهدي بتعاليمه، ويجمع بين أهاليه في صعيد واحد ليتبادلوا الطاقات، وليتعاونوا على الخيرات حتى يتسنى لهم أن يضعوا حياة طيبة، ويصنعوا قوة رهيبة، ترهب عدو الله وعدوهم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم.

كلام الرافعي من وحي القلم:

قد رأيت للمناسبة أن يكون هذا الحديث من صنع الرافعي رَحِمَهُ اللهُ ومن وحي قلمه، وإشراق قلبه.

الكلام عن النبي ﷺ وفضله :

يقول الرافعي : كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع النور المسمى بالنهار ، يوجد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين ، وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها ، والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي في عملها للمادة ، والنبي أرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله للروح ، ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور ، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية للإنسان في نور من الكلام ، فليس النبي إنساناً من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يقذف بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية ، وإنما هو إنسان نجمي يقرأ بمثل التليسكوب في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان .

النبي نموذج أخلاقي راقٍ للبشر :

النبي إشراق إلهي على الإنسانية يقومها في فلكها الأخلاقي ، ويجذبها إلى الكمال في نظامها الراقي ، وبعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب ، ويحيي النبي فتجيء معه الحقيقة الإلهية ، في مثل بلاغة الفن البياني ليكون ذلك أقوى أثراً ، وأيسر فهماً ، وأبدع تمثيلاً ، وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً فن الناس جميعاً ، كما تكون البلاغة فن لغة بأكملها ، هو الرجل المفسر ، إذا تعسف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمنون منها ، ولا كيف يهتدون فيها ، وتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه ، وفيما تتهالك فيه من أطماع الدنيا ، ثم يخلق ذلك الرجل ليكون هو التفسير لما مضى ولما يأتي ، ولتظهر به حقائق الآداب العالية في صورة أبلغ وأسمى مما تظهر في صورة أخرى .

النبي نموذج فريد لإصلاح المجتمع :

ما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه حتى هو في طباعه وشماله طبيعة قائمة وحدها ، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء ، وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس ، أن قابلوها على هذا الأصل وصححوها ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية ، ومن ثم فنبي البشرية كلها من بعث بالدين أعمالاً مفصلة على النفس أدق تفصيل ، وأوفاه بمصلحتها ، فهو يعطي الحياة عقلها العملي الثابت المستقر ، تنظم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة ، وهو يدع للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير ، تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى وهذه هي حقيقة الإسلام في أحص معانيه ، لا يغني عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة علم ولا أدب ولا فلسفة ، كأنها هو نبع في الأرض لمعاني النور بإزاء الشمس التي هي ينبوع النور في السماء .

اجتماع الفضائل كلها في شخص محمد ﷺ :

كل ذلك تراه في نفس محمد ﷺ فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة ، لا يمكن للأرض أن تعرف أكمل منها ، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت في نصاب واحد ، ما بلغت أن يجيء منها مثل نفس محمد ﷺ ، كيف وهي النفس الاجتماعية الكبرى من أين تدبرتها رأيته على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحى ، وتلك هي الشهادة له ﷺ بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير .

الكلام عن الدين :

هذا الدين في مجموعه ما هو إلا صورة لتلك النفس العظيمة في مجموعها ، وهذا الدين صلابته بمقدار الحق الإنسان الثابت ، لا بمقدار الإنسان المتغير الذي يكون عند سبب جبلاً صلباً وعند سبب آخر ماء عذباً ، وهو دين يعمل بالقوة ، ويدعو إلى القوة ، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ، وهي تعمل للتفريق وإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، وهو يعمل للمساواة وإلحاق الأضعف بالأقوى ، وقوة الطبيعة وعملها هما أساسا حياة العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها هما أهم أسباب الحرية .

نظرة المسلم إلى الدنيا :

العين المسلمة لا تنظر إلى أسباب الدنيا نظرة الفكر المنازع ، يحرص على ما يكون له ، ويُسَرُّهُ إلى ما ليس له ، ويمعن في المكر والحيلة ، ويدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الحياة الدنيا ، بل نظرة القلب السالم المسالم الذي يعمل للدنيا ، ويسخو بالدنيا ، ويعفو عن كثير ، ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه ، وأن الحرام وإن عز ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقابه .

من أهم أغراض الشرع تحقيق سلامة النفس :

إن أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الإنسان على الأرض ، فمن أي عطفية التفت هذا الإنسان وجد عن يمينته وعن يسرته ملكين من ملائكة الله ، يكتبان أعماله بخيرها وشرها ، فهو كالمتهم المستراب في سياسة النفس ، لا يخطو خطوة إلا بين رئدين يحصيان

عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد ، ويترجمان عنه حتى معاني النظر ، وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية ، وتقررت في اعتبار النفس ، قام منها على النفس شرع نافذ ، وهو قانون الإرادة المميزة التي تريد الحسنات وتعمل لها ، وتخشى السيئات وتنفر منها ، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً لا لتحقيق السلطة والحكومة ، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة ، وإذا نواويس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان قد نهضت إلى جانبها نواويس الإرادة الحكيمة في الإنسان ، وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان لا يراد به إلا سلام النفس في عاقبتها ، وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها ، وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هي غايتها ، وهذه هي فلسفتها ، لا يقررها للإنسانية فحسب ، بل يغرسها في الوراثة غرساً بالاعتقاد والمران حتى تكون علماً وعملاً .

انتشار الدين بأخلاقه سبب للسلام :

إن السلام يعم إذا عم هذا الدين بأخلاقه ، وشمل الأرض أو أكثرها ، فإن قانون العالم حينئذ يصبح منتزعا من طبيعة التراحم ، فإما انفسخ به قانون التنازع الطبيعي ، وإما كسر من حدته وشرته ، ويومئذ يولد المولود وتولد معه الأخلاق الإنسانية ، وتوجد معه الأعمال السامية ، انتهى قوله ، والله دره .

بعض ما تضمنته الآية الكريمة :

قال الله جل ذكره : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، هذه آية مدنية من سورة مدنية تتضمن أحكاماً اجتماعية ، ووصايا إنسانية ، وحقائق كونية ،

بمعنى أنها تحمل في طيها تعاليم دينية ، وسياسة مدنية ، وتحول دون الجهل والهمجية ، وترفع المؤمن إلى آفاق عليية .

المكي والمدني وأسباب النزول :

كما هو معهود فالعلم بالمكي والمدني أهم موضوعات علوم القرآن ، وأحوج إلى تمحيص الروايات ، وتحقيق النصوص ، وتحكيم التاريخ ، أحوج إلى ذلك كله من العلم بأسباب النزول ، لأن العلم بالسبب وإن كان يساعد على فهم المسبب ، ويباعد من ضلال الجهل وفساد الرأي ، فإنما يتناول شيئاً معيناً من الجزئيات ، له علاقة بالمناسبة الفردية أو المناسبة الاجتماعية ، ولا يتناول ما عدا ذلك مما نزل ابتداء غير مبني على سبب خاص ، وإن كان القرآن الكريم نزل للمعجزة ، وللهداية ، وللتوحيد ، نزل لتوحيد الألوهية والعبودية ، لأن الناس كانوا كلهم وثنيين ، وإن كان البعض منهم يزعم الإيمان ويدعي التوحيد ، نزل للإعجاز بنظمه وأسلوبه ، وبنسقه وسياقه ، وبقوة بيانه ، ووضوح معانيه ، وبعدل أحكامه ، وصدق أخباره ، ﴿ وَكَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] ، كما نزل لتأسيس هداية إسلامية ، وتحقيق حضارة إنسانية ، أساسها الإيمان والفضل ، وقوامها العلم والعدل ، وذلك كله من السبب العام ، وليس من السبب الخاص .

العلم بالمكي والمدني :

على العكس من هذا العلم بالمكي والمدني ، فإنه لا غنى له عن تناول القرآن كله ، سوره وآياته ، فما من آية آية وما من سورة سورة إلا وهي من النوازل المكية ، أو النوازل المدنية .

الخطاب المدني مبني على الخطاب المكي:

الخطاب المدني يبنى فهمه غالبًا على الخطاب المكي الذي يحرص على بناء أسس العقيدة الإسلامية ، وإلى ذلك أيضًا والوقوف على السابق واللاحق من هذا الخطاب يشكل وضعية الناسخ والمنسوخ ، ويكشف عن وجه الحقيقة ويشير إلى وجه المناسبة ، ومن ثم كان هذا العلم خليقًا بالعبارة البالغة ، وجديرًا أن يعد نقطة انطلاق لاستيفاء البحث عن مراحل الدعوة الإسلامية وأساليبها المختلفة ، وللتعرف على خطواتها المتدرجة مع الأحداث والظروف ، والمتجوبة مع طبع البادية وطبع الحاضرة .

العلم بالمكي والمدني من أشرف العلوم:

هذا العلم وضع شريف ، وبحث دقيق ، يتجاوب ويتناسب ، وهو ترتيب زمني ، وتحديد مكاني ، وتعيين إنساني .

الاختلاف في تقسيم المكي والمدني:

لا نشك أن هذه الألوان قد طافت بأذهان علمائنا حينما ترددوا في تقسيم المكي والمدني على أساس من الزمان أو المكان ، أو اعتبار شخصية الإنسان ، فمن قال : المكي ما نزل بمكة ، والمدني ما نزل بالمدينة لاحظ المكان ، ومن قال : المكي ما كان خطابًا لأهل مكة ، والمدني ما كان خطابًا لأهل المدينة ، نظر إلى الأشخاص ، ومن قال : المكي ما نزل قبل الهجرة ولو بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو بغير المدينة اعتبر الترتيب الزمني في تحركات الإسلام وتطوراته ، وكيفما كان الاعتبار أو الاختيار فهذا العلم حافل بالبحوث الدقيقة الإسلامية ، وله موضع خاص يدرس به ، فنكتفي منه بهذا القدر المناسب الميسور ، ونتوجه بحول الله إلى استجواب آية النور .

في ظلال سورة النور:

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، هذه هي آية النور ، وبها سميت السورة سورة النور ، حيث ذكر النور متصلاً بذات الله ، ومتصلاً بآثاره في القلوب والأرواح ، الممثلة في سلوك الآداب والأخلاق التي يقوم عليها نظام هذه الأمة ، التي كانت خير أمة أخرجت للناس ، والتي يقوم عليها بناء هذه السورة المفروضة ، التي أنزلها الله للهداية والذكرى ، كما قال سبحانه ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور : ١] .

سورة النور سورة التربية والتزكية :

هذه السورة تتناول التربية والتزكية ، وتحد من النزوات والشهوات النفسية ، وتبث في النفس شواهد الإيمان والوحدانية ، والعرب يقولون : نور المرء إذا نفر من التهمة والريبة وسوء السيرة ، وسورة النور سيقى للتنفير من قول السوء ، وفعل السوء ، وظن السوء ، ولتنظيف وتنظيم حياة الأسرة وحياة المجتمع ، ومن ثم قال ابن الخطاب رحمته الله : «علموا نساءكم سورة النور» . ذلك أن المرأة هي وجه المجتمع ، وهي صورته الناطقة ، إذا صلحت صلح المجتمع ، وإذا فسدت فسد المجتمع ، ولهذا الأهمية خصها صلى الله عليه وسلم وجعلها عذيلة الدنيا ، في حديث : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

تحذير السورة من نكاح الزناة وحكمة ذلك:

مما يرشد إلى هذا المعنى العام الذي يدور عليه محور هذه السورة ، قوله تعالى في أول هذه السورة : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] ، فهذه الآية تحذر من نكاح الزاني أو الزانية ، ومن نكاح المشرك أو المشركة ، لماذا؟ لأن علاقة النكاح أخص علاقة ، ولأن رابطة النكاح أقوى رابطة ، ولأن ميثاق النكاح أعظم ميثاق ، كما ذكر الله ذلك في إعجاز وإيجاز بقوله : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، فمن السهل أن يتحول أحد الزوجين إلى عقيدة الآخر ، وإلى سياسة الآخر ، فيقصد قصده ، ويأخذ أخذه ، لا سيما إذا كان صاحبه ذا مرونة ، وذا ثقافة ، وذا سياسة وذا ريادة فكان من اليسير عليه أن يستولي على صاحبه ، لذلك نفرت الآية الكريمة من وجود علاقة بين الزاني أو الزانية ، وبين المشرك ، أو المشركة ، والمشرك والمشركة أسوأ حالاً من الزاني والزانية ، ذلك أن الإيمان يربأ بصاحبه أن يقف مواقف الشبهات ، فضلاً أن يقف مواقف المحرمات ، والإيمان لا يجامع في طبيعته وفي حقيقته حياة الكفر والطغيان ، ولا يلائم كذلك حياة المخالفة والعصيان ، ولأن الطبع قد يسرق الطبع ، وقد يتحدى الوضع ، فلهذا كله حذرت الآية الكريمة ونفرت من وجود علاقة بين الزانيين أو بين المشركين .

ما يعتبر في الكفاءة في النكاح:

تشرح الآية الكريمة كفاءة النكاح في الإسلام ، وأنه لا يعتبر منها إلا الدين والفضيلة ، أو الإيمان والمروءة ، وأن ما وراء ذلك من الشعارات

والاعتبارات لا يعبأ به ، ولا يلتفت إليه ، فلا أثر لتفرقة طبقية ، ولا لدعوى عنصرية ، ولا لحماية جاهلية ، وهكذا هو في مختصر المالكية حيث قال : والكفاءة ، الدين والنسب ، فالمسلمون جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أكفاء ، وشرعهم سواء ، وأكرمهم عند الله وعند الناس أتقاهم ، وأفضلهم عند الله وعند الناس أزكاهم ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وقد كانت أخت عبد الرحمن ابن عوف ، وهو من عليّة القوم نسباً ومالاً وفضلاً ، كانت تحت بلال بن رباح الحبشي العتيق .

والأب والأم في كل زمان وفي كل مكان هما قاعدة البيت ، ودعامة المجتمع .

الإيمان وكرم الأخلاق من آثار نور الله في الكون :

إن إيمان المؤمن ، وخلقه الكريم ، وقوله الحسن ، وعمله الناهض ، وعدله القائم ، وخيره وتقواه ، وحياءه من مولاه ، كل ذلك آثار لنور الله الفائض في القلوب ، الشائع في الأكوان ، فنور الله هو قوام نور السموات والأرض ، وهو قوام نظامهما ، وهداية أهلها بما بث فيهما من دابة ، وبما نصب فيهما من آية ، تهدي العقول بنورها إلى ما يجب من وجود الله ووحدته ذاته ، وكمال صفاته ، وجمال أفعاله ، وإلى ما يجب من اعتبار مصالح الدنيا ومطالب الآخرة ، فبنوره المشرق يبصرون ، وبهداه المنزل يهتدون ، ومن ثم أردف سبحانه وتعالى ما سبق من أحكام ومواظب بآية النور ، وجعلها وسطاً وفصلاً ليقرر بها ما قبلها ، وليرتب عليها ما بعدها ، وليعلن أن حياة الدين هي حياة النور ، وأن من لم يجعل الله له نوراً فما له

من نور ، و حياة النور هي التي تحسن معرفة الله ، وتقيم حدود الله ، وتوائم بين ما نعلم من دين الله ، وما تبلغ الحياة من أطوار في علم الله ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

كلام المفسرين في الآية :

قال الله جل ذكره : ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

التفسير الأول :

من الناس من فسر الآية الكريمة بأن الله منور السموات والأرض ، استناداً إلى قراءة زيد بن علي رحمته الله ، وإلى الجعل المستفاد من قوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] ، وهذا إنما هو فعله ، وأما النور الذي هو وصفه ، فقائم بذاته ، واسم من أسمائه ، وكما يضاف النور إلى الله إضافة الفعل إلى الفاعل ، يضاف إلى الله إضافة الوصف إلى الموصوف ، ومن هذا الأخير قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقوله ﷺ في الدعاء المشهور : «أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني ، لا إله إلا أنت»^(١) ، وقوله ﷺ في الدعاء الذي دعا به يوم الطائف : «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»^(٢) ، وحديث أبي بكر الصديق رحمته الله في «الصحيحين» أن النبي ﷺ كان يستفتح قيام الليل بقوله : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . . .» ، وقول عبد الله بن مسعود الهذلي رحمته الله كما في «المعجم» للطبراني :

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رحمته الله .

(٢) سبق تخريجه .

«ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه»،
وقول ابن مسعود هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،
وتفسير الصحابي محكوم له بحكم الرفع، على ما اعتمده الحاكم في
«المستدرک».

التفسير الثاني :

لا ينافي هذا التفسير، تفسير الآية بالتنوير، بما مضى أنه يصح إطلاق
النور على الله من حيث إنه فعل من أفعاله، ومن حيث إنه صفة من
صفاته، فهو نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

التفسير الثالث :

لا يتنافى أيضًا مع من فسر الآية بقوله : الله هادي السموات والأرض ،
لأن كلاً من الهداية والنور يستتبع الآخر ، فالله يهدي بنوره ، ويهدي لنوره
من يشاء من عباده ، وروى الإمام مسلم في «صحيحه» عن أبي ذر الغفاري
رضي الله عنه : «أنه سأل النبي ﷺ غداة الإسراء والمعراج ، هل رأيت ربك؟ فقال
ﷺ : نور أنى أراه» ، وفي لفظ آخر صحيح : «رأيت نوراً»^(١) ، ولعل هذا
النور المروي والمرئي هو الذي عبر عنه النبي ﷺ في حديث آخر : «حجابه
النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢) ،
وهذه إشارة عابرة لا تؤدي بنا إلى بحث موضوع الرؤية إيجاباً أو سلباً ،
وإنما نحن بصدد جلب النصوص المناسبة المعينة على فهم النص الكريم ،
وتأويله تأويلاً يقبله الوضع ، ويتبناه الشرع .

(١) أخرجه مسلم (١٧٨) .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

الفرق بين الضياء والنور:

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، ظاهر كلام الناس أن الضياء والنور في الوضع شيان مترادفان ، يفسر أحدهما بالآخر ، وهو ما شاع وذاع ، ولكن الفرق بينهما واضح من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ، فالضياء أقوى من النور ، كما ذكره جار الله الزمخشري في «الكشاف» عن هذه الآية .

كلام ابن عطية:

قال أبو محمد بن عطية رَحِمَهُ اللهُ : الآية تقتضي أن الضياء أعظم وأبهى بحسب الشمس والقمر ، ويتأيد ذلك بقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيَاءٌ﴾ [القصص: ٧١] ، وبقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] ، أي مضيئة ، فالضياء ما كان فيه إشراق وإحراق من ذاته وطبيعته ، كما هو شأن النار والشمس والكهرباء ، ولذلك خاطب الله النار ، وقد ألقى فيها إبراهيم عليه السلام: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ، ولذلك ضرب الله المثل للمنافقين بالنار في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] ، وقيل بنورهم لا بضوئهم وإن كان التعبير قد وقع بالإضاءة ، للدلالة على ذهاب النور من أصله ، لا ما جاد عليه من ضوئه ، وقيل بنورهم لا بنارهم ، وإن كان اللسان العربي يضع أحدهما موضع الآخر ، لإفادة ذهاب الإشراق وبقاء الإحراق .

سبب تمثيل هدى الله بالنور:

على أساس هذا الفرق أورد الإمام ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ سؤالا عن تمثيله سبحانه وتعالى هداه بالنور ، في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ، وكان محصول جوابه ، أن الله جل وعلا لو مثل الهدى بالضياء لوجب ألا يضل أحد من الناس ، إذ كان يجب أن يكون الضياء مثل الشمس التي لا يبقى معها ظلام ، ولذلك مثل هداه في الكفر بالنور في الظلام ، ولو مثله بالضياء لعم الهدى سائر الأنام ، والله تعالى يقول : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [النور: ٢٦] الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [البقرة: ٢٦، ٢٧] ،

فالفاسقون والخاسرون هم القاطعون للوصل ، والناقضون للعهد ، والمفسدون في الأرض ، وهؤلاء هم عناصر الشر ، وعناصر الشر أكثر من عناصر الخير ، كما يقول الله تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ، وكما يقول تعالى : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] ، على أن كل رابح في الشر فهو خاسر ، كما يقول الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَعَمَارَاتٍ بَحْتٍ بَحْرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] .

وفي الحديث الصحيح : «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَحِمَهُ اللهُ .

وصف الصلاة بالنور والصبر بالضياء:

من هنا يتبين سر اختصاص الصلاة بالنور، والصبر بالضياء، في حديث أبي مالك الأشعري المخرج في «صحيح مسلم»: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». ذلك أن كل صابر بهذا المعنى، وهو الصبر على العبادات، والصبر على المخالفات، والصبر على النائبات، كل صابر بهذا المعنى مصل، وليس كل مصل صابراً، فمن ثم اختصت الصلاة بالنور، واختص الصبر بالضياء، فاقترن الأخص بالأخص، والأعم بالأعم، وكان كل ضياء نوراً، وليس كل نور ضياء.

تشبيه الاجتهاد بالضياء والتقليد بالنور:

الحديث ذو شجون ما قاله بعض الأذكياء من تشبيه الاجتهاد بنور الشمس القوي، والتقليد بنور القمر الضعيف، فالقلد وإن بلغ من العلم أطوريه قليل الفائدة وضئيل المنفعة، لأنه لا يبحث الدليل، ولا ينظر في مسالك التعليل، ومن ثم اعتبره الأئمة عامياً، واعتبروا المجتهد عالماً لتمكنه من حرية النظر، ومن حرية التصرف في الدلائل الشرعية، والمصادر الأصلية.

بعض مزايا الاجتهاد:

الاجتهاد المشار إليه كان وما زال عنصراً طبيعياً وشيئاً ضرورياً للإنسان الذي تتجدد حياته، وتتعدد أحداثه، وكتاب المسلمين جامع قوي، ودستور قائم طري، ينطبق في كل عصر على تطوراته العلمية والعملية،

وعلى ما يروج من صفات الحياة وصورة العصر ، وتلك هي معجزته القائمة ، ونورانيته الدائمة ، ولا يكون كذلك إلا إذا أخذنا منه مباشرة تشريعات مناسبة للوضع القائم ، وللعصر الحاضر ، وركبنا في ذلك سفينة النجاة ، وهي سفينة السنة التي عليها المدار في بيان التنزيل ، وتحقيق التأويل ، واستنبطنا منه بواسطة اجتهاد جماعي يعتمد أسساً شرعية وقواعد منطقية ، يرجع إليها الاجتهاد ، ويقوم حولها الاستعداد ، وبذلك فلا نعجز إن شاء الله عن اللحاق بركب الحاضرين ، ولانقف إن شاء الله مع أقوال الغابرين ، وآراء الذاهبين ، فذلك شيء كان يخص زمانهم ومجتمعهم ، ويلائم حياتهم وبيئتهم .

بعض مضار الجمود والتجبر:

إذا جمدنا نحن على ما كان ، وعرفنا الإسلام في استنباطات سابقة ، وتطورات ماضية ، واختلافات مذهبية ، فقد أسأنا إلى الإسلام ، وأسأنا إلى المسلمين ، وعرضنا أنفسنا إلى مسئولية عظيمة ، لا تغفر إلا بالتوبة والإنابة ، والشعور بالذنب والخطيئة ، والله يقول : ﴿ هُوَ أَهْلُ النُّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفَرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦] .

الاجتهاد الجماعي هو الأحوط والأنسب لعصرنا:

الاجتهاد الجماعي الذي أومأنا إليه هو أحوط وأليق بحال العصر ، لتشعب الحياة وفنونها ، ولكثرة الآراء وظنونها ، أما الاجتهاد الفردي فقد قام به في زمن سابق أفراد مخنكون ، اجتمع القول على علمهم وفضلهم ، واشتهروا بمكانتهم الدينية ، وبتحريمهم وجهة الحق والصواب ، وباطلاعهم على شؤون السنة والكتاب ، فكانوا بذلك موضع ثقة وقوة وإجماع .

شبهة والرد عليها:

ليس قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، بمانع من الاجتهاد، كيف والنبي ﷺ كان يجتهد، وهو ينزل عليه الوحي، كيف والنبي ﷺ قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١)، كيف وقد اجتمع الصحابة بعدما انقطع الوحي عنهم، واجتهد التابعون وتابعو التابعين بعدهم، وما أكثر صور الاجتهاد التي عرفها التاريخ، وأثبتها الواقع، على أن الإمام محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: ليس المراد بإكمال الدين في الآية إكمال الأحكام والفرائض، لما ثبت من نزول آيات في الأحكام بعد هذه الآية، وإنما المراد بالإكمال إكمال الدين إقرار المسلمين في الحرم، وإجلاء المشركين عن الحرم حتى حجه، فالمسلمون لا يخالطهم المشركون، ليس النص الكريم بحائل دون الاجتهاد، وإنما يتعلق بالطبيعة الشرعية، والمقاصد الأصلية حتى إن ما تأباه طبيعة الإسلام ولا تقبله مقاصده العليا يرد بإطلاق، تبعاً لما ثبت في «الصحيحين» من حديث أم المؤمنين، أم عبد الله، عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وبمجموع الروايتين لا يكون أحد بمنجاة من المسؤولية، فالمحدث مسئول عمل أو لم يعمل، والعامل مسئول أحدث أو لم يحدث.

سبب القول بانقطاع الاجتهاد:

أيّاماً يكون فإنما تجرأ من تجرأ على القول بانقطاع الاجتهاد لشعوره بضعف الثقة، وتأثره بفساد الفطرة، وهو وإن كان كذلك فلا ينبغي

(١) سبق تخريجه.

إطلاق القول على عواهنه ، وإنما يجب أن يؤخذ بوسائل الحجم والاحتياط كما هو الشأن في الحياة كلها ، والحياة مشاكل تتقاضى حلاً زمنياً ، واجتهاداً عملياً ، فإن كان ذلك وإلا وقف دولابها ، وتغير وجهها ، وتأخر سيرها ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

حاجة الناس إلى نور العلم والإيمان :

قال الله جل ذكره : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، أخبر الله في كثير من آيات كتابه العزيز أن التصرفات الحكيمة الرحيمة في هذا الوجود لا تنهض إلا بنور الإيمان والعلم وريادتهما الخاصة والعامة ، وأن نور الإيمان والعلم من نور الله الشامل لهذا الكون ، وأن سير الناس في الحياة بدون هذا النور غير مجد عليهم ، ولا نافع لهم ، بل ربما يكون ضرره أكثر ، وفساده أكبر ، وربما كان أهله يتردون في الأزمات ، ويترددون في الظلمات ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وأزمات بعضها أشد من بعض ، لذلك خاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ءُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ءُجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ءُيَغْفِرْ لَكُمْ ءُاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨] ، وبقوله : ﴿ءَاَمَنَ كَانَ مِثَآءً فَآَحْيَيْنَـهُ ءُجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ ءُفِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وبقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمُ بُسُورٌ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِىهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرُـهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] ، وفي قوله تعالى : ﴿وَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد : ٢٨] ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ ءُفِي النَّاسِ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

أهل النور وأهل الظلام:

إن أهل النور هم أهل التدبير والتسيير ، وأن ما عداهم يعد من ذوي الزمانة والتقصير ، وهم الذين لا تشير أحوالهم إلى خير وصلاح ، ولا تسيير أعمالهم إلى طاعة وفلاح ، وكما أن الزمان ليل ونهار ، فالحياة نور وظلام ، وأهل النور هم أهل العلم والهداية ، وأهل الظلام هم أهل الجهل والغواية ، ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢] ، والعمى في سياق القرآن كثيرًا ما يراد به الجهل وفساد القلب ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ، وغالبًا ما يقابل به العلم والإدراك الصحيح ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ نَمًّا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مِنَ رَبِّكَ الْخُبْرُ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد: ١٩] ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا الْحُرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢] ، وقول الله العظيم : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] ، وكفى حدا فاصلاً في الفرق بين مختلف المقامات قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ، لا يستويان أبداً .

أهل العلم وأهل الجهل:

الذين يعلمون هم الذين يشرفون على الحياة في ظاهرها ، ويسيرون دواليب أجهزتها ، ويقومون على فرض وتوجيه سياستها ، ولا يغفلون مع ذلك الآخرة وحياتها ، والذين لا يعلمون هم الذين يجهلون ويجهلون أنهم يجهلون ، وهم الذين لا يفيدون ولا يستفيدون وإنما هم أشياع وأتباع ،

كما قال ﷺ: «لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»^(١) فلا تسير الحياة إلا بنور العلم وحياة القلب، ولا تنال درجات السمو والمجد إلا بتبادل هذا النور، وتوافر هذا الإشعاع، لذلك ينبغي تركيز الجهود في ميدان التربية والمعرفة لاستصلاح القلوب والعقول، ولاستطلاع مواطن الخير والخصب، حتى يكون لهذه الحياة وجود سليم، ونتاج عظيم، أخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل، فبذلك أقول: جف القلم على علم الله».

أصل اجتماعي إسلامي مهم:

من الأصول الاجتماعية في الإسلام أن كل علم نافع فهو فرض كفاية، إن لم يوجد من يتحقق به من الأمة، أثمت الأمة بأجمعها، وأساءت إلى نفسها، ومن الأسباب التي أطلقت حرية التعليم للناس جميعا هو حث الإسلام على العلم والنظر والاعتبار، مما أدّى إلى المنافسات العلمية، ثم إلى الامتحان والاختبار، ثم إلى ما شاء الله من الإبداع والابتكار، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

حقيقة سريان النور في المخلوقات:

قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أعلن القرآن قديما عن حقيقة مستأنفة لم يسبق إليها، وهي أن نور الله سار في كائنات السماء

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والأرض ، وأعلنت البشرية أخيرًا أنها استطاعت أن تدرك بالعلم شيئًا من هذه الحقيقة ، عندما اكتشفت جاذبية الكهرباء ، وعندما استحال في أيديها ما كان يسمى بالمادة بعد تحطيم الذرة إلى إشعاع قوي ينطلق حيث شاء الله ، لا قوام لها إلا النور ، ولا مادة لها إلا النور ، والذرة أصغر ما عرف من أجزاء المادة ، وهي تتألف من قوة سالبة وأخرى موجبة ، وتلك سنة التزاوج في هذا الكون ، فلقد خلق الله الأحياء كلها أو الأشياء كلها أزواجًا من نبات ، وحيوان ، وإنسان ، وغير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٨] ، ومن يدري فلعل هذه السنة هي قاعدة الكون كله حتى الجمادات ، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس : ٣٦] .

أسبقية القلب في إدراك حقيقة النور:

القلب البشري كان يدرك هذه الحقيقة قبل العلم بقرون وأجيال ، كان يدركها كلما هب وانطلق إلى آفاق النور ، ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد ﷺ ، وهو عائد من الطائف ، نافض كفيه من الناس يقول : «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة»^(١) ، ولقد فاض بها في رحلة الإسراء والمعراج عندما سئل من بعض أصحابه ، هل رأيت ربك؟ قال : «رأيت نورًا»^(١) وهذا النور الذي أفصح عنه نبي المسلمين ﷺ في نأناة الإسلام ، هو الذي ملأ الأكوان وعم الآفاق ، فاستضاء به كل مبصر ، واهتدى به كل مؤمن .

(١) سبق تخريجه .

إدراك العلماء لطرف من هذا النور:

إن هذا الذي أدرك العلماء طرفاً منه بواسطة البحث والدراسة ، وبطول التجربة والممارسة ، والعلم كما تعلمون نور ، يكشف عن النور ، ويستوضح ما يستقبله من مجاهل ومشاكل ، ويستشف ما وراءه من خبايا وخفايا ، والعلم طريق الإيمان بالله ، وعلماء الكون أقرب إلى الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله لا يتخلل شعاب القلب إلا بمقدار ما يعي المرء من آيات الله في ملكوت الله ، كما قال الله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] ، فهذه الآية العظمى ، وهذه الحقيقة الكبرى ، هي التي أعلن عنها القرآن بقوله : ﴿ اَللّٰهُ نُورٌ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ﴾ ، وبقوله : ﴿ اَللّٰهُ وَلِىُّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

حقيقة العلاقة بين القرآن والمسائل العلمية:

من المهم أن نتذكر بهذه المناسبة أنه لا يطلب من كتاب المسلمين أن يطابق مسائل العلم الحديثة ، كلما ظهرت مسألة لجيل من الأجيال الحديثة ، ولا يطلب من المسلمين كذلك أن يستخرجوا منه تفاصيل هذه العلوم ، لأن هذه التفاصيل تتوقف على جهود الإنسان ومحاولاته ، كما تتوقف على حاجاته وأحوال زمانه ، وكل ما يطلب من الكتاب العزيز في هذا الشأن هو أنه يفتح باب المعرفة على مصراعيه ، وأنه يحث على النظر والاستنتاج وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمان ، وتجدد أدوات الكشف ، وتطور وسائل العلم ، وأنه لا يتضمن أي حكم يعطل حركة العقل ، أو يحول بينه وبين المزيد من الاطلاع ، كيف وهو الذي يجعل الفكر السليم والنظر

المستقيم، وسيلة من وسائل معرفة الله والإيمان به، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًّى ثُمَّ وَقَعَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمْ قُرْآنًا وَعِلْمًا﴾ [سبأ: ٤٦]، ﴿قُلْ أُنظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فالقرآن الكريم يطابق العلوم الطبيعية والعلوم الفلكية بهذا المعنى الذي تستقيم به عقيدته، ولا تتعرض للنقائص والأظانين عندما تتبدل القواعد العلمية، أو عندما تأتي الاكتشافات بجديد ينقض ما كان من قديم، أو يبطل ما كان من تخمين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُبٌ غَرِيبٌ﴾ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

علام يعود الضمير في «نوره»؟

قال الله جل ذكره: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ﴾ ، اختلف الرأي في تفسير الضمير في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ﴾ ، فمن الناس من فسره بالمؤمن، أي مثل نور المؤمن كنور مشكاة المصباح، ومن الناس من فسره بالنبي ﷺ أي مثل نور محمد ﷺ كنور المصباح في المشكاة ومن الناس من فسره بالاسم العظيم الكريم، أي مثل نور الله تعالى في قلب عبده المؤمن، كمشكاة فيها مصباح، ولا ينكر أن أعظم الناس نصيباً من هذا النور هو النبي محمد ﷺ، كما أننا لا نتردد في ترجيح التفسير الأخير، لكونه أنسب للغة، وأجمع للكلمة، وأقرب إلى الرواية، إذ كذلك روي عن أبي بن كعب الأنصاري رحمه الله .

المراد بالنور في الآية!

النور ما أودعه الله في قلوب عباده ، من نور معرفته ومحبته ، وطاعته وعبادته ، وتوفيقه وهدايته ، فلقد أمدهم سبحانه وتعالى بنوره ، وجعلهم يمشون بين الناس بأمره ، فضلاً ورحمة وامتناناً ، وأصل النور أن يكون في القلب ، ثم إذا قويت مادته ووفرت وسيلته ، وامتلاء القلب ، ظهر أثره على الوجوه والجوارح ، يبصره من الناس من كان منهم مبصراً ، وإن كان سائر الخلق له منكراً ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور بأيمانهم ، وسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، كما قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا تُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم : ٨] .

أحوال الناس مع النور يوم القيامة :

إن الناس في هذا النور قوة وضعفاً بحسب سيرهم على صراط الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، ومنهم من نوره كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، ومنهم من يعطى نوراً على إبهام قدمه ، إذ كان ذلك حال نوره في الدنيا ، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك حذو القذة بالقذة ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت مستقر ، بل كان شيئاً ظاهرياً لا صلة له بالأعماق ، أعطي نوراً مآله إلى الظلام وعدم الإبصار ، كما قال الله تعالى : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة : ١٧] .

المثل في الآية الكريمة :

قال الله جل ذكره : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ، ضرب الله مثلاً للإيمان المؤمن بطاقة المصباح ، والمثل هو لغة في المثل يأتي لمعان متفاوتة ، منها القول السائر ، ومنها التسوية والتشبيه ، ومنها الآية والعبرة ، ومنها الصفة العجيبة الغريبة ، كما هو في هذا المقام ، أي مثل هذا النور العجيب الغريب كنور مشكاة المصباح على وجه التقريب ، لأنه يقرب صورة غير المحدود للإدراك المحدود ، وهنا نذكر ما وري أن أبا تمام الشاعر المشهور حبيب بن أوس الطائي وفد على المعتصم العباسي بقصيدة سينية ، يمدحه فيها ، وكان بحضرة المعتصم يوسف الكندي الفيلسوف المعروف ، فقال أبو تمام فيما قال :

إقدام عمرو في سباحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
فقال يوسف الكندي : الملك فوق من ذكرت من الناس ، فأطرق أبو تمام ملياً ، ثم رفع رأسه وقال :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
فثبت صوابه ، واستحسن جوابه .

معنى المشكاة ، والمصباح ، والزجاجة :

إن المشكاة كلمة عجمية ، وقيل كلمة عربية ، وهي كل كوة غير نافذة يوضع فيها المصباح بمثابة صدر المؤمن لنور الإيمان ، و«المصباح» هو الفتيلة والدوبالة أي الخرقه التي تُزَات وتوقد ، وكلمة «يوقد» في الآية قرئت بالتاء على الماضي والمضارع ، والضمير فيها كناية إما عن الزجاجة ،

وإما عن المصباح ، ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ ، أي في قارورة من أصفى أنية الزجاج ، ولذلك شبهت بالكوكب الدرّي اللامع ، نسبة إلى الدر ، لشدة بياضه وصفائه .

قراءة «دريء»:

قرأ بعض السبعة «دريء» ، من الدرء بمعنى الدفع ، لأن النور يدرأ الظلام ويدفعه ، والزجاجة كالقلب يجمع بينهما صفة الرقة والصفاء والصلابة ، من دون أن تبطل إحدى هذه الصفات الأخرى ، فبصفاء القلب يرى المؤمن الحق حقاً فينفذه ، والباطل باطلاً فيرفضه ، وبرقة القلب يرأف المؤمن ويرحم ، ويتأوه ويتألم ، وبصلابة القلب يجاهد لإعلاء الحق ، ويشدد على أعداء الحق ، ومن ثم وصف الله النبي وصحبه بالرأفة والرحمة بالمؤمنين ، والشدة والغلظة على الكافرين ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وجاء في الأثر : إن أحب القلوب إلى الله أصفها ، وأرقها وأصلبها .

زيت الزجاجة يخرج من شجرة مباركة:

للزجاجة القائمة بالمصباح مادة زيت معصور من شجرة مباركة ، واقعة في أعدل الأماكن وأفضل المنابت ، فزيتها لذلك من أنضج الزيوت وأصفها على الإطلاق ، بحيث إنه يكاد يضيء من دون أن تصيبه نار ، فمادة نور المصباح من شجرة الزيتون المباركة ، التي لا هي شرقية ولا هي غربية ، ومادة نور الإيمان من شجرة الوحي المباركة التي لا هي يهودية ولا هي نصرانية ، وإنما هي حنيفية مسلمة ، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

ثم إن هذا النور الذي يمثل به نور الإيمان ، قد تضامنت فيه المشكاة والزجاجة والشجرة ، حتى تكامل ضوءه ، وتضاعف نوره ، فكان نوراً على نور ، ذلك أن المصباح إذا كان في مكان ضيق غير نافذ كان أضواً وأجمع للنور بخلاف المكان النافذ الواسع فإن ضوءه يضعف بسبب تشتته وانتشاره ، وشفافية الزجاج وشفاء زيت الشجرة مما يساعد على زيادة الإنارة ومضاعفة الإشراف ، أشرق الله قلبنا وقلوبكم بنور الإيمان والوفاء .

النور المعقول . . والنور المحسوس :

قال الله جل ذكره : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ، ذكر الله نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلب عباده المؤمنين الذين يرفعون بيوته ، ويذكرون أسماءه ، وينفذون أوامره ، ويخافون حسابه ، وينالون ثوابه ، وذلك هو النور المعقول ، المعروف بالبصائر والقلوب ، والآخر هو النور المحسوس المشهود بالأبصار والعيون ، فهما نوران ، وأحدهما أعظم من الآخر ، والقلب الذي يستضيء بنور الله هو القلب المستجيب للحق بفطرته وبطبيعته ، وحيث لا مادة له من نفسه جاءت مادة الوحي فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فاتصل إيمان الفطرة بإيمان المعرفة ، ذلك أن المؤمن يعرف الحق قبل أن يأتيه العلم ، وقبل أن يبين له ، كما قال ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله»^(١) ، وإذا كان المؤمن يدرك الحق بفطرته إجمالاً ، ثم يدركه بواسطة الوحي تفصيلاً ، فلا جرم أن إيمانه ناشئ عن الطبيعة والشرعية ، وناتج عن الفراسة والرسالة ، وذلك هو المؤمن الحي القوي الناهض ، وهو الإيمان النقي الصحيح الكامل ، وقلب فقد منه هذا

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث غريب .

النور ، إما قلب قاس جامد ، لا صلة له بالحق ، ولا رحمة فيه للخلق ، وإما قلب ضعيف مشترك يقبل كل ما يرد عليه ، ويؤثر فيه كل ما خالطه من قوي أو ضعيف ، والقلب بهذه المثابة قلب ميت لا حياة له ، كما لا حياة للحيوان بمكان لا نور فيه ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٣٥] .

مثل حسي لتقريب المعنى :

قال الله جل ذكره : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ، هذا مثل تقريرى وتقريبى ، بمعنى أنه يحمل على الإقرار بهذه الحقيقة ، ويقرب للإدراك طبيعة النور حينما يعجز الإدراك عن تتبع آثاره المترامية والمتناثرة ، ويرسم صورة مصغرة يألّفها الحس ، ويأنس بها الإدراك ، وهي صورة الزيت الموجود في طاقة تحصر الضوء وتجمع النور ، فيبدو قويًا مشرقًا ، ويرى مجتمعة متألّقا ، لأن القنديل الزجاجي يقيه من الريح ، وهو في ذاته جوهر شفاف ، لامع ساطع ، يشبه كوكبا من الدراري المشتهرة ، مثل المشترى والمريخ والزهرة ، وفي ذكر الكوكب جمع بين الحقيقة والمثل ، للارتقاء من الزجاج الصغير إلى الكوكب الكبير حتى لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلا تقريبا للأصل الكبير .

المراد بالشجرة المباركة :

الشجرة المباركة ، هي ذات المنافع الكثيرة مثل الإدام والدهان ، والدباغ ، والوقاد ، وما من شيء فيها إلا وفيه خير ونفع للإنسان وهي ذات العمر الطويل المبارك الذي قد يتجاوز ألف سنة ، هي من الأشجار التي تعمر

وتطول حياتها ، وقد التفت أبو محمد الحريري في بعض مقاماته إلى هذه الشجرة المباركة ، فشبّه بها ، ونوه بها في قوله

بورك فيك من طلا كما بورك في لا ولا

يشير بذلك إلى الزيتون الموصوفة بلا شرقية ولا غربية ، وأصل هذه الشجرة في الشام ، وهي أقرب منابت الزيتون إلى جزيرة العرب ، التي منها أطل فجر الإسلام وانشق نوره ، ومن الشام هاجرت إلى سائر الأقطار ، وثمرها جيد وجميل من خير الثمار ، والشجرة هذه ليست شجرة معينة حتى تتحيز إلى الشرق أو الغرب ، بل هي في وسط الأرض ، وزيتها ليس من ذلك النوع المشهود المحدود ، وإنما هو زيت خالص لماع ، يكاد يضيء من دون أن تقاربه نار ، فهو نور مترادف ومتضاعف ، ومن ثم قال الإمام ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ : إن الله لا يضرب المثل لخلقه إلا ببعض خلقه ، فالشجرة المذكورة هنا مخلوقة وموجودة في الدنيا ، والله أعلم بما هو موجود في عالم الدنيا .

الأسرار والمعاني في المثل :

قال الله جل ذكره : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ، في هذا المثل العظيم من الأسرار والمعاني ما تقر به العين ، وتطرب له الروح ، وتسمو به النفس .

العلم والعمل هما مادة حياة القلب :

إن نور الإيمان لا يشعشع في القلب إلا إذا توفرت له مادة العلم والعمل ، فهما مادة نوره ، وحياة قلبه ، إذا اتصل به اتصلت حياته ، وتلاأت سويداؤه ، وإذا انقطعا عنه انقطع نوره ، وانطفأ نوره ، كما

ينطفئ نور المصباح بنفاد مادة الزيت وفراغها ، لأن الله قد ربطه بها في قوله : ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [النور : ٣٥] ، أي يشعل من زيتها ، فهو مادة نور المصباح في الكوة كما أن العلم والعمل مادة نور الإيمان في القلب ، وقد علم من مذهب السلف الصالح أن الإيمان يزيد بزيادة العلم والعمل ، وينقص بنقصانها ، أخرج الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب ، فجددوا إيمانكم» ، وأخرج الإمام البخاري في «صحيحه» عن معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله عنه أنه قال للأسود بن هلال : «اجلس بنا نؤمن ساعة» أي نجدد إيماننا ساعة ، وفي هذا ما يدل على أن الحياة في حاجة إلى التعهد والتجديد ، وإلى المزيد من الجهاد والتوحيد .

مدار وضوح الإيمان على وضوح القلب وصفائه :

إن المدار في وضوح الإيمان على وضوح المادة ، بحيث لا تشوبها شوائب الجهل والشك ، ولا تصيبها رواسب الكفر والشرك ، ولا يخلط فيها الخير بالشر ، والحق بالباطل ، فإذا علق بها شيء من ذلك ران الرين على القلب فتصدأ زجاجته ، وتتغير طبيعته ، كما يتغير بكدورة المادة نور المصباح ، ويعتريه شيء من الضعف وقلة الإيضاح ، ووجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصف هذه المادة بغاية النقاء والصفاء ، حيث قال : ﴿يُضَيِّئُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور : ٣٥] ، هذا دليل على تمام النقاء والصفاء فصفاء الإيمان بصفاء أمداده وأسبابه وكمال الإيمان بكمال فرائضه وشرائعه .

رسالة عمر بن عبد العزيز إلى عامله :

أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» أن عمر بن عبد العزيز الأموي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كتب إلى عامله بالمدينة : إن للإيمان فرائض وشرائع ، وحدودًا وسنًا ، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسوف أبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أنا مت فما أنا على صحبتكم بحريص .

كيف يستكمل المسلم الإيمان؟

روى أصحاب السنن الأربعة : «من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان» .

مثل الإيمان مثل الشجرة الطيبة :

إن الله شبه الإيمان بشجرة طيبة ، وهي النخلة كما في حديث عبد الله بن عمر وشبه نور الإيمان بشجرة مباركة ، وهي شجرة الزيتون كما هنا في سورة النور ، وإذا كانت النخلة طيبة ، والشجرة مباركة ، فينبغي أن يكون المؤمن المشبه بهما طيبًا ومباركًا ، وينبغي أن تكون حياته كذلك طيبة مباركة ، لأن الإيمان يوحى بهذه الحال ، ولأن النبي ﷺ قال : «المؤمن بخير على كل حال»^(١) وإذا كانت شجرة المادة لها عروق ، وفروع ، وساق ، وثمر ، فشجرة الإيمان كذلك ، لها عروق ، وفروع ، وساق ، وثمر ، فعروقها فنون العلم والمعرفة ، وفروعها الأقوال ، والأعمال ،

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١٨٤٣) ، وأحمد في «مسنده» (١ / ٢٩٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

والأحوال ، وساقها الإخلاص والإحسان ، وثمرتها ما تحييه الأقوال والأعمال من سلوك بار ، وما تتركه وراءها من حميد السنن والآثار ، والدلالة على وجود هذه الشجرة واستقرارها هو اطراد وجود هذه الأشياء واستمرارها ، إلا أنه إذا كان العلم مطابقاً للوحي ، والعمل متابعاً للأمر ، فهي شجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وإذا كان الأمر جاريًا على الهوى ، وقائمًا على الشهوة ، فهي شجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار .

الوصف بالبركة ورد في عدة مواضع :

إن الله وصف الشجرة بالبركة ، وهذا الوصف قد جاء في عدة مواضع من كتاب الله العزيز لمعان تختلف وتأتلف .

ليلة إنزال القرآن :

قال الله تعالى في الكتاب ، وفي ليلة إنزال الكتاب : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] ، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ [الدخان : ٣] .

وفي قصة موسى عليه السلام :

قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام ، وقد قضى الأجل المضروب مع شعيب عليه السلام ، وقد آنس في طريقه مع أهله نازًا بجانب الطور ، ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٨] .

أرض الأقصى وما حوله :

قال الله تعالى في المسجد الأقصى، وفي أرض الشام، وفي قرى الشام ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِّنْ عَيْنِنَا﴾ [الإسراء: ١]، ونجيناه (أي إبراهيم) ﴿وَنَجِّنْهُ وَلَوْ طَأَّ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وكقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٨]، وكقوله تعالى في خلق الأرض ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رُوسًا مِّنْ فَوْقِهَا وَنَرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

وكقوله تعالى في الماء المنزل من السماء: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] الآية، وكقوله ﷺ في مادة الزيت: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه مبارك»^(١)، وكقوله ﷺ، «البركة مع أكابرکم»^(٢) إلى غير ذلك من النصوص الواردة بهذا الوصف السمي.

البركة: معناها وشروطها:

البركة معناها الخير والنماء والسعادة، وبركة الحياة وثمرتها من بركة الإنسان وثمرته، وبركة الإنسان وثمرته، هي إيمانه واستقامته، ومن ثم كان الإيمان لا يذكر في وحي الكتاب ولا في هدي السنة إلا مقروناً بالعمل الطيب المستقيم، ففي أول سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٥٩)، والحاكم في «مستدرکه» (١/ ١٣١) من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿البقرة: ٢٥﴾، وفي حديث سفيان بن عبد الله كما في «صحيح مسلم» أنه قال: «قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم»، ومن ثم كانت الحياة الطيبة نتيجة للإيمان الصادق، وللعمل الناطق، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

شروط البركة:

فتح البركات من السماء والأرض على الناس مشروط بالإيمان والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والإنسان يعيش بين السماء والأرض ففي السماء رزقه وفي الأرض مستقره كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَفَرٌ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

فإذا آمن المؤمن بالله صدقاً، واستقام في حياته حقاً، كانت حياته نامية وسامية، لها أثرها ونهضتها، ولها سعادتها وبركتها.

البركة من الله:

كما في حديث جابر بن عبد الله، فهو الذي يبارك وحده ولا شيء معه، وكل ما نسب إليه فهو مبارك، فكتابه مبارك، ورسوله مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهي الشام مباركة، وأرضه على الإطلاق مبارك فيها، فلا مبارك إلا هو، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، وكل ما باعده عن

نفسه من الأعيان ، والأعمال ، والأقوال ، فلا بركة له ، ولا فائدة فيه ، ومن ثم كان للمعاصي والذنوب ، وللجرائم والسخائم أثر كبير في محق البركة من العلم والعمل ، ومن الرزق والأجل ، وما أكثر الأفراد الذين قصرت أعمارهم وطالت أعمالهم ، مما ينبئ عن وجود الثمرة وحصول البركة ، وما أحسن قول علمائنا في أحاديث زيادة الأجل ، إن الزيادة معناها البركة ، فبارك الله في أعمالنا وفي أعمارنا ، وجدد النور في قلوبنا وفي أفئدتنا .

أنواع الهداية ومعناها في الآية الكريمة :

قال الله جل ذكره : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَبَضَرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٣٥] .

يهدي الله لنوره من يشاء ، هذه الكلمة من تمام الكلام الصادق ، ذلك أن الأشياء والحقائق والأعمال لا يتم إدراكها ولا يقوم الإخلاص فيها إلا إذا صاحبت هداية الله الإنسان ، وحالفه التوفيق في علمه وفي عمله .

هداية الإدلال :

الهداية معناها الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب دينًا ودنيا ، يقال : هداه الطريق وللطريق ، وإلى الطريق ، بمعنى أنه أرشده إليه وعرفه به ، وهذه هي وظيفة الرسل ، والخلفاء ، والعلماء ، فإنهم يدلون الناس على الإيمان بالله وعلى فعل الخير واجتناب الإثم ، ويهدونهم إلى النهوض إلى طريق الصراط المستقيم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

هداية التوفيق :

أما الهداية المضافة إلى الله تعالى ، فمعناها التوفيق والتثبيت والإعانة ، ولذلك نفاها الله عن رسوله في قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

معنى الهداية في الآية الكريمة :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، والمعنى هنا أن الله تعالى يوفق من يشاء من عباده للنظر في إصابة الحق ، وسلوك الجادة ، ولباس التقوى ، ومن لم يوفقه الله لا يتبصر في أموره ، ولا يعلم ما هو الحق من الباطل ، وهذه الهداية هي أخص الهدايا الممنوحة للإنسان ، ذلك أن الإنسان لما كان عرضة للخطأ في فهم الدين ، وللخطأ في استعمال العقل واستعمال الحواس ، كان في حاجة إلى هذه المعونة الخاصة فأمرنا بطلبها من الله في قوله تعالى : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، أي اهدنا هداية تصحبنا إلى الغاية ، وتحفظنا من الغواية ، وما كان هذا أول سؤال علمنا الله إياه ، إلا لأننا في أشد الحاجة إليه من كل شيء سواه .

هداية الوجدان النفسي والإلهام الفطري :

من الهداية الممنوحة للإنسان هداية الوجدان النفسي ، والإلهام الفطري ، ويكون ذلك بمجرد الولادة ، فالطفل بعدما يولد ، يجد ألم الحاجة إلى الغذاء ، فيصرخ طالباً له بفطرتة ، وإذا ما قدم له الثدي التقمه وامتصه وانقطع عن الصراخ .

هداية الحواس والمشاعر:

من الهداية الممنوحة للإنسان هداية الحواس والمشاعر ، وهذه الهداية تتمم هداية الإلهام ، ويشترك فيها الخاص والعام ، أي الإنسان والحيوان بل الحيوان في هذه الهداية أكمل من الإنسان ؛ لأن إحساسه وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل بخلاف الإنسان ، فإنها يكمل له ذلك بالتدريج وفي زمن غير قصير .

هداية العقل:

من الهداية الممنوحة للإنسان هداية العقل ، ذلك أن الإنسان خلق ليعيش مجتمعاً مع غيره ، ولم يعط من الإلهام ما يكفي لفهم هذه الناحية الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل ، فإن الله قد وهبهما إلهاماً كافياً لأن يعيشا في اجتماع ، بحيث يقدم كل واحد منهما وظيفة العمل للجميع ، ويقدم الجميع وظيفة العمل للواحد ، وبذلك قامت واستقامت حياة أنواعهما ، كما هو مشهود ومحسوس أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل هذا الإلهام ، فأعطاه الله هداية هي أعلى وأسمى من هداية الحس والإلهام ، هي هداية العقل الذي يصحح الأغلاط ، ويبين الأسباب ، فالبصر مثلاً يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً ، والعقل هو الذي يصحح هذا الغلط ، وهو الذي يحكم بفساد هذا الإدراك .

هداية الدين وحاجة الإنسان إليها:

من الهداية الممنوحة للإنسان هداية الدين ، ذلك أن العقل قد يضل في إدراكه ، ويغلط كما تغلط الحواس والمشاعر ، وقد يهمل الإنسان استعمال

عقله وحواسه فيما فيه خيره وسعاده، ويسلك بتلك الهداية مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته، حتى توردته موارد الهلاك، لذلك هو في حاجة إلى هداية ترشده في ظلمات أهوائه، وتبين له حدود عمله ليقف عندها، وليكف عما وراءها، لأنه لا يعيش وحده، بل يعيش مع غيره، وكان مما أودع في غرائزه الشعور بسلطة غيبية ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبب، لكونها الواهبة لكل موجود ما به قوام وجوده، والشعور أيضًا بحياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع الإنسان بتلك الهدايات أن يصل إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة؟ الذي خلقه وسواه، ووهبه الهدايات وغير الهدايات، وهل يستطيع الإنسان أن يصل إلى تحديد سعاده في الحياة التالية؟ كلا ثم كلا، إنه في أشد الحاجة إلى هداية الدين، كما قال الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي طريق الخير وطريق الشر، طريق السعادة، وطريق الشقاوة، فعليه أن يقتحم العقبات وأن يتجاوز الحدود والموانع والحواجز التي تحول بينه وبين الاتصال بأعمال الخير، كفك الإنسان وتحريره، وتخليصه من قيود العبودية الفردية، والعبودية الجماعية، وكإطعامه اليتامى والمساكين، الأقارب والأباعد في أيام المسغبة، فهذه الهدايات كلها قد منحت للإنسان فضلًا من الله ورحمة منه بالعباد، وهذه الهداية كل واحدة منها تتمم الأخرى.

ضرب الأمثال فيه إرشاد ونصح:

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾، على حسب ما تدعو إليه حالهم، لما في ضرب الأمثال من إيضاح المعقول بالمحسوس، مبالغة في النصح والإرشاد، ورحمة من الله بالعباد، ولكون الأمثال أدعى

إلى الترضية والإقناع ، وأرجى في القبول والإقناع ، ومن ثم كثر ضربها في الكتاب العزيز حتى بأصغر الأمور وأحقرها ، مثل البعوض والذباب والعنكبوت ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] ، والله بكل شيء عليم ، يعطي هدايته من يستحقها ممن تطهرت نفوسهم ، واستجابت قلوبهم ، واستعدوا لتلقي أحكام الله ، وقبول وصيته ، وسماع موعظته ، ويجعل وسائلها تختلف باختلاف أحوال العباد ، لتقوم له الحجة عليهم يوم الجزاء والمعاد ، والآية فيها وعد لمن تدبر الأمثال وعرف ما فيها من الحكمة والعلم ، ووعد لمن أعرض عنها بأنه لا يصل إلى الحق ، ولا يهتدي إلى سبيله ، ولا ينجح في حياته ، ولا ينهض في سياسته ، ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩] .

المحاضرة الحادية والعشرون بعد المائتين

السمع والطاعة لله ولرسوله

القرآن خير شاغل في رمضان:

ليس هناك شيء نشتغل به في رمضان أفضل من القرآن لأن النبي ﷺ لو كان يعلم أن هناك شيئاً أحسن من القرآن العظيم لاشتغل به في رمضان ولكنه ﷺ كان لا يشتغل في ليالي رمضان إلا بدراسة القرآن ، فكان يأتيه جبريل فيدارسه في كل ليلة ، وقد دام ذلك تسعة رمضانات . نعم في السنة الأخيرة التي توفي فيها ﷺ دارسه مرتين ، ولأجل ذلك ذكر الإمام البخاري هذا الحديث في بدء الوحي ، لأن نزول القرآن كان في رمضان ، ويكفينا على ذلك دليلاً قول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، فإنه ثبت أنه أنزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان ، ثم ينزل منجماً بحسب الوقائع ، فكان ذلك دليلاً على حرمة هذا الشهر ، وعلى عظم قدره عند الله تعالى لأنه أنزل فيه على رسوله كتابه المبين .

اشتغال النبي ﷺ وبعده سلفنا الصالح بالقرآن:

كان ﷺ يشتغل بالتلاوة ، وهذا شأن السلف الصالح ، فإنهم كانوا يقرءون القرآن ، فعن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يختم القرآن كله في ركعة الوتر ، وكذلك سيدنا تميم الداري ، وكذلك سيدنا أسيد بن حضير ، وكذلك أبو حنيفة رضي الله عنه فهو لاء من خيار الأمة كلهم كانوا يعكفون على قراءة القرآن ، فكانوا يقرءونه ليلاً ولذلك لقب سيدنا عثمان

بذي النورين ، لأن القرآن نور ، وصلاة الليل نور ، فلذلك يقال له : ذو النورين وقيل إنما لقب بذلك لأنه لم يتفق لأي واحد أن عقد على بنتي نبي سواه .

على كل حال فالسلف الصالح كلهم كانوا على هذه الوتيرة ، ففي رجال البخاري عدد كثير ممن كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء وداموا على ذلك أربعين سنة ، فقد كانوا رضوان الله عليهم معتكفين على القرآن ، دارسين له ، قارئين له .

الوصية بكتاب الله والتخلق بأخلاقه :

القرآن شيء عظيم ، جاء فيه أن النبي ﷺ أوصى بكتاب الله ، قال في «الفتح» : أوصى به أن يعلم ، ويتعلم ، ويعظم ، ويحترم ، ويعمل بما فيه ، ويمثل أوامره ، وتجنب نواهيه ، أوصى به ﷺ أن يقف الإنسان عند حدوده ، أوصى به ﷺ أن يتخلق الإنسان بأخلاقه ، ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ متخلقا بأخلاق القرآن ، كما ورد عن عائشة رضي الله عنها ، والحديث في صحيح الإمام مسلم ، أنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن ، يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه .

هكذا رواه الإمام مسلم بهذا اللفظ ، القرآن على كل حال التخلق به هو تخلق بأخلاق الله ، وذلك لأن العلماء ذكروا أنه يمكن أن يتخلق العبد بأخلاق الله إلا لفظ الله ، فإنه صالح للتعلم لا للتخلق ، أما غير ذلك كالرحمن ، والرحيم ، والكرءوف ، والرحيم ، وغير ذلك ، فالإنسان يمكنه أن يتخلق بهذه الأخلاق .

التخلق بأخلاق الله:

قد كان ﷺ متخلقًا بأخلاق ربه ، وعائشة رضي الله عنها كتّت عن ذلك بقولها
كان خلقه القرآن ، يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه .

خلق الحلم:

من أخلاق مولانا سبحانه وتعالى الحلم ، فإنه يرى جناية الجناة ، وظلم
الظالمين ، وكفر الكافرين ، وعناد المعاندين ، وإشراك المشركين ، وإلحاد
الملحدين ، وطغيان الطاغين ، وكبر المتكبرين ، ومع ذلك لا يستفزه
الغضب ، بل يؤثر الأناة والحلم ليكون له الفضل والنعمة .

قال جلت عظمتة : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا
لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾ [الكهف : ٥٨] .

خلق الرحمة:

من أخلاق الله التي ينبغي التخلق بها الرحمة ، فإنه سبحانه وتعالى رحيم
بنا وقد قال في كتابه ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، الآية ورد في الحديث «إن لله مائة رحمة أخرج
منها رحمة واحدة بين الخلائق ، فيها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وآخر
تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده المؤمنين يوم القيامة» ، فالإنسان كذلك
يتخلق بهذا الخلق العظيم ، الذي هو الرحمة .

أحاديث تدل على خلق الرحمة:

قد قال النبي ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض

يرحمكم من في السماء»^(١) والأقرع بن حابس دخل على النبي ﷺ ووجده يقبل ابن ابنته الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(١)، فالرحمة من خلق الله تعالى ينبغي للعبد أن يتخلق بها .

بشرى لأهل القرآن:

ينبغي للعبد أن يتبع أحسن القول، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] ولا شك أن العلماء - علماء التفسير - قالوا إن أحسن القول هو كتاب الله، أحسن القول هو القرآن العظيم فإذا سمع الإنسان القرآن وغيره، ولكنه ترك غير القرآن العظيم واتبع القرآن، فهذا من العباد المبشرين، الذين بشرهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ حيث قال له: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، ثم ذكر عنهم سبحانه وتعالى أنهم هم الذين هداهم الله، وأنهم هم أولو الألباب، فكل من يستمع القرآن ويتبعه، أو يسمع العزائم والرخص، فيترك الرخص ويتبع العزائم أو يسمع الإغضاء والمؤاخذه، فيستعمل الإغضاء، أو يسمع الصبر وضده فيستعمل الصبر، فهذا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْتُكُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] .

(١) سبق تخرجه .

من هم أولو الألباب؟

أولو الألباب معناه أرباب العقول ، وأصحاب العقول وكثير من الناس يعتقد أنه من أصحاب العقول ولكن الواقع خلاف ذلك ، لأن الله تعالى وصف أرباب العقول بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يُفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۚ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۚ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۚ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۚ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۚ ﴾ [الرعد : ١٩-٢٤] .

فأولو الألباب على الحقيقة هم الذين اتصفوا بهذه الصفات التي نعتهم الله بها ، وكل من كان خالياً عارياً عن هذه الصفات فلا يعد نفسه أنه من أولي الألباب ، بل لا يكون منهم ، إلا إذا توفرت فيه هذه النعوت المشار إليها بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يُفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ۚ ﴾ ... الآية .

وقال جلت عظمته أيضاً : ﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلِيلِ وَالنَّهَارِ لَاَيَتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] ... إلى آخر الآيات الكريمة .

صفات أولي الألباب:

الواجب على العبد إذا أراد أن يكون من أولي الألباب أن يتصف بصفاتهم، أما كونه يعتقد أنه من العقلاء، ولكنه والعياذ بالله منحرف عنهم بكل ما في الكلمة من معنى، فإنه يرتكب الفواحش، يتجرأ على معاصي الله، ولا يستحيي من الله سبحانه وتعالى وليست فيه صفة من صفات أولي الألباب.

صفة الوفاء بالعهد:

فمثلاً قوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٠]، فهناك عهود، عهدها الإنسان وعاهد عليها ربه سبحانه لا إله إلا هو، ولكنه لم يف بها وعدم الوفاء بالعهد هو خصلة من خصال المنافقين لما ثبت في صحيح الإمامين البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

التحذير من خيانة العهد:

لا يكون المؤمن مؤمناً كاملاً بالإيمان، لا تشوب إيمانه شائبة النفاق، إلا إذا كان خالياً من هذه الصفات الأربع، التي ذكرها ﷺ في هذا الحديث الكريم: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

حث القرآن على الوفاء بالعهد:

قد قال مولانا جلت عظمتة في كتابه الكريم ، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] ، فالإنسان ينبغي له أن يكون على هذه الوتيرة وأن يكون من الذين إذا عاهدوا وفوا ، قال ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠] ، لا ينقضون جميع ما وثقوه ، وجميع ما أخذ عليهم من المواثيق مع الله تعالى ، ومع العباد ، فلا يتركون شيئاً من ذلك إلا ويوفون به ، ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، كل ما أمر الله به أن يوصل فيشمل صلة الرحم ويشمل صلة المحتاجين ، والمساكين ، والفقراء ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم هؤلاء هم العقلاء ، يخافون عقابه سبحانه لا إله إلا هو ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، أي مناقشته وذلك لأنه جاء في الصحيح من نوقش الحساب عذب ، فقالت عائشة لما سمعت هذا من رسول الله ﷺ أو ليس يقول الله : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ، فقال لها ﷺ ، «إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب عذب» ، ويخافون سوء الحساب .

صفة الصبر:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ، صبروا على المأمورات وعلى المنهيات ، وترك المنهيات أشد على النفس من فعل المأمورات ، فلا يكون الإنسان من أولي الألباب ، ومن أصحاب العقول إلا إذا صبر على أوامر الله .

أمر الله نبيه بالصبر:

لقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بالصبر فقال له سبحانه وتعالى : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] ، خطاب للنبي محمد ﷺ : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] ، أي على أدائها في وقتها ، على أدائها مع شروطها وأركانها ، وفرائضها ، وسننها ، ومستحباتها ، وخشوعها ، وخضوعها ، وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ، ولذلك يقول ابن عطاء الله في الحكم : وليكن همك إقامة الصلاة لا وجودها ، فما كل مصل مقيم ، والله قال : ﴿وَأَقِيمُوا﴾ ولم يقل صلوا ، أقيموا الصلاة كذلك يقول الله لحبيبه ﷺ ، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ، اصطر على خضوعها وخشوعها لأن الإنسان لا يكون مفلحًا إلا إذا كان خاشعًا في صلاته .

بكاء النبي في الصلاة والصبر عليها:

قد جاء أن سيدنا محمد ﷺ ، كان يسمع لصدره الشريف أزيز كأزيز
المرجل من البكاء وهو في الصلاة ﷺ^(١) ، ولهذا يقول فقهاؤنا إن البكاء إذا

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١٢١٤) ، وأحمد في «مسنده» (٢٦/٤) من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه .

كان لأجل التخشع فإنه جائز ، بل سنة ، مطلوب ، فعله الرسول ﷺ ، وإلا فهو كالكلام يفصل بين عمده وسهوه ، إذا كان عمداً ولم يكن لإصلاح الصلاة ، ولم يكن استجابة لرسول الله ﷺ ، فإنه يكون مبطلاً للصلاة . أما إذا كان استجابة لرسول الله ، أو كان لإصلاح الصلاة ، فإنه لا يبطل الصلاة كما هو معلوم .

أما البكاء في الصلاة للتخشع فقد فعله الرسول ﷺ وعلى آله حتى إنه كان يسمع بصدرة صوت كصوت القدر حين غليانها ، وهو في الصلاة ﷺ وعلى آله .

بكاؤه ﷺ عند سماع القرآن :

بكى ﷺ من سماع القرآن كما جاء في «صحيح الإمام البخاري» وغيره أنه أمر عبد الله مسعود أن يقرأ عليه القرآن ، فقال أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ فقال «إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأ ﷺ سورة النساء إلى أن بلغ قول الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] ، قال فرأيت عيني النبي ﷺ تهملان .

هذه الصلاة ، هذه صلاة المتقين وغيرهم ، فؤاده نائم ولسانه يتكلم كما ينسب للشيخ أبي العباس ﷺ أنه قال :

وكم من مصل ماله من صلاته سوى رؤية المحراب والخفض والرفع
يرى شخصه فوق الحصيرة قائماً وهمته في السوق في الأخذ والدفع
ووصف صلاة المتقين بقوله :

رفعوا الأنامل للصلاة وكبروا فبدا الخشوع بخوفهم يترنم

فبدت سواكب دمعهم مسبولة خوفاً مما قد أخرجوا أو قدموا

هذه صلاة المتقين وغيرهم ناعي الفؤاد واللسان يتكلم أو يكلم على كل حال الشاهد عندنا في أنه القرآن العظيم هو سبب للخشوع، ومن لم يخشع لسماع القرآن، والعباد بالله، فلا يخشع أبداً، فإن القرآن هو موعظة بليغة، وهو قد تركه فينا ﷺ وعلى آله بحيث إذا تمسكنا به فإننا لا نضل أبداً. فالقرآن العظيم شيء عظيم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ١٧، ١٨].

الرجوع إلى موضوع الدرس:

لنرجع إلى المقصود فنقول قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، إلى آخر الآية.

الآية من سورة النور:

هذه الآية هي من سورة النور وأنتم تعلمون أن سورة النور هي سورة عظيمة، وهي التي افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[النور: ١، ٢].

الخلاف حول معنى النور في الآية:

وسميت سورة النور لأن الله تعالى ذكر فيها بقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، اختلفوا في هذه الآية: الله نور السموات والأرض.

التفسير الأول :

منهم من قال : هو نورهما ، ومنورهما ، والموجد للنور فيهما ، سبحانه ولولاه لما كان فيهما نور ، فهو نور الوجود سبحانه لا إله هو ، ونوره هو الذي يفيض على الوجود سبحانه لا إله هو .

التفسير الثاني :

منهم من قال نور بمعنى منور ، فالله سبحانه وتعالى هو المنور للسموات وللأرض ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ [يونس : ٥] .

التفسير الثالث :

منهم من قال نور السموات والأرض موجدهما ، سبحانه لا إله إلا هو ، وهو الذي يمسكهما ، وهذا يؤيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

سبب التسمية :

حق لها أن تسمى سورة النور ، لأنها مشتملة على فرائض ، وعلى حدود ، وعلى أحكام كلها واجبة ، كما قال المفسرون ، جميع ما ذكر من الأحكام في هذه السورة الكريمة فإنه مفترض على العباد ، ولا بد منه .

فضل إقامة الحد في الأمة :

إذ فيها إقامة الحدود ، والأمة الإسلامية لا تزال بخير ما أقامت الحدود ، والحدود هي زواجر أو جوابر ، فلا بد من إقامتها ، وفي إقامتها خير كثير ،

لأنه يقل البغي ، ويقل الفساد ، ولا ينتشر ، ولأجل ذلك قال الله سبحانه وتعالى في إقامة الحدود عموماً ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلَبِ لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] .

جلد الزاني غير المحصن ، ورجم المحصن :

الواجب أن الزاني إذا لم يكن محصناً أن يجلد مائة جلدة كما قال الله في هذه السورة ، وإذا كان محصناً أن يرجم إلى أن يموت ، وقد بين لنا ذلك ﷺ ، لأنه رجم ما عرّأ الأسلمي ، ورجم المرأة الجهنية ، وأقام عليهما الحد لأنها اعترفا لديه ﷺ بالزنا ، فأقام عليهما الحد ، ولم تأخذه رافة بهما ﷺ ، مع أنه أراف الناس ، وأرحم الناس ، وقد قال فيه الله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] . ولكنه ﷺ لم يكن ليرتك امتثال أمره سبحانه وتعالى ، لم يكن يفعل ما نهاه الله عنه ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] .

وفي الصحيح : «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم بذلك فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو له كفارة ، ومن ستره الله فهو إلى الله فمن شاء عفا عنه ، ومن شاء عاقبه » ، سبحانه لا إله إلا هو ، فما أجدر هذه السورة بتسميتها بسورة النور بما فيها من النور ، الذي يهتدي به كل مؤمن ومؤمنة .

الأمر بتعليمها النساء:

جاء الأمر بتعليمها للنساء لما فيها من المحافظة على العرض ، والمحافظة على الصيانة ، والحصانة ، والعفة ، وغير ذلك إذ فيها ذكرت آية القذف ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] ، هذا هو حد القذف ، كما ذكر فيها قضية اللعان لعويمر العجلاني كما في «صحيح الإمام البخاري» أنه جاء إلى النبي ﷺ وقال : والرجل يجد رجلاً مع امرأته أيقنته فتقتلونه ، أم ماذا يفعل ؟ فأنزل الله فيهما أي في عويمر العجلاني مع زوجته ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ...﴾ [النور: ٦] .

اللعان وشروطه:

إن مسألة اللعان المذكورة في كتب الفقه ، اللعان الذي يذكره الفقهاء ويشترطون فيه الشروط التي منها أن يكون معجلاً لمجرد ما يرى الحمل ، أو بمجرد ما يرى زوجته صدر ، منها ما صدر ، فإنه ينفي الحمل عنه ، أما إذا تأخر إلى أن ظهر الحمل فإن اللعان لا يقبل منه ، كما هو معلوم ولذلك يقول في المختصر : بلعان معجل ، ويقول في التحفة :

إنما للزوج أن يلتعن بنفي حمل أو برؤية الزنا
مع ادعائه للاستبراء وحيضة بينة الإجزاء
ويقول :

وسكت الحمل حمل بين يحد مطلقاً ولا يلتعن

متى يجب اللعان؟

اللعان هو سنة قرآنية مطلقاً وهو واجب على من علم أن الحمل ليس منه ، لأن الأنساب ينبغي أن يحافظ عليها ، وهي من المسائل التي تجب

المحافظة عليها ، فلا يجوز للإنسان أن يعلم أن الولد ليس ولدًا له ، ومع ذلك يسكت ، بل يجب عليه أن يبادر ، ولذلك يقول الله : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور : ٦-٩] .

وهذه الصورة التي قام بها سيدنا محمد ﷺ بين عويمر العجلاني وزوجته ، ثم إنه لما تلاعنا قال يا رسول الله كذبت عليها إن أمسكتها ، فطلقها فكانت سنة المتلاعنين أنهما إذا تلاعنا فإنه لا يحل له أن يقربها ولا تحل له ويتأبد تحريمها عليه ، ويتنفي الولد كما هو معلوم . نعم الولد يرث أمه ، ولا يرث أباه ، لأنه ابن أمه على كل حال ، أما أبوه فإنه لا يرثه كما أن أباه لا يرث الولد ، لأن اللعان هو من جملة موانع الإرث .

موانع الإرث :

من جملة موانع الإرث اللعان ، وكذلك الكفر ، وكذلك الرق ، وكذلك الشك في الأسبق ، وكذلك الزنا ، عش لك رزق .

ع : عدم الاستهلال ش : الشك في الأسبق ل : اللعان

ك : الكفر ر : الرق ز : الزنا

ق : القتل عمدا

هذه كلها موانع للإرث ، بحيث لا يوجد الإرث معها .

ما ذكره البعض من ترك اللعان :

من جملة ما ذكر - الفقهاء يقولون - إن اللعان جرى العمل بتركه فقد نظم في العمل الفاسق أن العمل جرى بترك اللعان حيث قال :

واترك لفاسق وغيره اللعان أو هو لفاسق فقط بدون تال
وتبعه أبو علي الزقاق في اللامية حيث قال :

وترك لعان مطلقاً أو لفاسق

وقال يعيش الشاوي كيف يمكن أن يجري العمل بترك شيء مذكور في كتاب الله ، وجاء في سنة رسول الله ﷺ ، فإذا ما أراد الإنسان أن ينفي الحمل الذي هو متحقق بأنه ليس منه ، فإننا نقول له جرى العمل بترك اللعان ، اسكت وألحق هذا الولد بك ولو كان من غير نسبك هذا ، لا يقوله مسلم لا يقوله فاضل ، لا يقوله عاقل فضلاً عن فاضل ، ولأجل ذلك لاحظوا على قول صاحب العمل :

اترك لفاسق وغيره اللعان أو هو لفاسق فقط بدون تال

ولكن الصواب أن الإنسان إذا تحقق وعزم على أن يلتعن ، فإنه لا يمنع من ذلك ، لأنهم قدروا الآية التي هي قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا ... ﴾ إلخ ، قالوا هناك فالواجب شهادة أحدهم ... إلخ ، على كل حال الشاهد عندنا أن هذا من جملة ما ذكر في سورة النور .

قضية الإفك وتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

من جملة ما ذكر في سورة النور قضية الإفك التي نزلت في عهده ﷺ ، ولكن قد برأ الله تعالى عائشة الصديقة وأنزل براءتها من السماء حيث قال

جلت عظمتها : ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] ، فبرأها سبحانه وتعالى من هذه الحيشة يعني ، وبرأها كذلك بحسب الواقع ، وهو أن الله تعالى أعد الطيبات للطيبين ، وأعد الطيبين للطيبات حينما قال سبحانه وتعالى : ﴿الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] .

أحداث وأمور في قضية الإفك :

وقعت فيها أحداث وأمور :

قطع أبي بكر النفقة عن مسطح ورجوعه عن ذلك :

إن أبا بكر الصديق كان ينفق على مسطح ، ولما قال ما قال ، وكان من الذين جاءوا بالإفك الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١] . والذي تولى كبره وهو عبدالله بن أبي ابن سلول ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، إلى أن قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ﴾ [النور: ٢٢] ، لأن سيدنا أبا بكر الصديق كان ينفق على مسطح وكان ابن خالته ، كان قريباً له بينه وبينه رحم ثم إنه ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] .

فلما قرأ سيدنا محمد ﷺ هذه الآية على سيدنا أبي بكر الصديق ، قال :
 بلأى أحببت أن يغفر لي ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ كان جوابه بلأى ،
 أحببت أن يغفر لي ، وكفر عن يمينه ، ورجع النفقة إلى مسطح ، وذلك
 لأنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال : «إني لا أحلف على يمين فأرى غيرها
 خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير ، وكفرت عن يميني»^(١) .

وهكذا ينبغي لكل مقتد بسيدنا محمد ﷺ إذا صدرت منه يمين بالله
 تبارك وتعالى كانت تقبل كفارة ، فإنه ينبغي له أن يفعل الذي هو خير ،
 ويكفر عن يمينه ، اقتداءً بمحمد ﷺ وعلى آله .

قضية الأشعرين :

الأشعريون لما أتوا النبي ﷺ وطلبوا منه أن يحملهم فقال «والله
 لا أحملكم ، وليس عندي ما أحملكم» ، ولكن الله تعالى جاء بالخير الكثير ،
 والرغد غزير ، فبحث عنهم ﷺ وأعطاهم ما طلبوا ، وحقق رغبتهم ،
 فقالوا إنه لا يبارك لنا فيما أخذنا ، لقد تغفلنا يا رسول الله ﷺ ، فقالوا له
 يا رسول الله إنك حلفت ألا تحملنا فقال لهم : «اذهبوا فإني ما حملتكم ،
 ولكن الله حملكم وإني لا أحلف على شيء فأرى غيره خيراً لي إلا فعلت
 الذي هو خير ، وكفرت عن يميني»^(٢) .

هكذا ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة من أفعاله ﷺ ، ومما كان
 يقوم به ﷺ في المعاملات ، وفي النوازل الفقهية ، والأحكام الشرعية ،
 فيعمل به ويكون على بصيرة منه .

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٣) ، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

قضية الاستئذان وآدابه :

من جملة ما ذكر في سورة النور كذلك قضية الاستئذان ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، فالاستئذان جاء في القرآن وهو مما أمر الله به ، ونهانا عن أن نتهجم ونقتحم بيتًا قبل الاستئذان ، فهو من آداب القرآن ، ومن آداب الإسلام والدين ، ليس مكتسبًا ، أو لسنا مقلدين فيه لغيرنا ، بل هو لنا ولديننا ولإسلامنا ، لأن الله يقول : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] . تستأذِنُوا : أي تستأذِنُوا الاستئناس : هو الاستئذان ، فلا ينبغي للإنسان أن يتهجم على منزل شخص إلا بعد استئذانه فإن أذن له دخل وإلا رجع ، ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٧ ، ٢٨] .

قضية حمل الفتيات على البغاء :

هذه آداب القرآن وهذه آداب الدين ، ومما ذكر فيها كذلك قضية النهي عن حمل الفتيات على البغاء ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣] .

الأمر بغض البصر :

من جملة ما ذكر فيها الأمر بغض البصر ، قال تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١] إلخ .

الحث على تلاوة القرآن وحفظه :

على كل حال الإنسان إذا تتبع القرآن العظيم وتأمله ، وتدبره كما هو الواجب ، يجد نفسه قد جعل بينه وبين القرآن بوناً بعيداً إنا لله وإنا إليه راجعون .

على كل حال ما دام القرآن بين أظهرنا إلا ويجب علينا أن نعمل بما فيه ، وأن نقف عند حدوده وألا نتخذه مهجوراً ، حتى لا يقال قال الرسول يا ربي إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وينبغي لنا كذلك ألا ننساه ، وقد جاء في حديث أنه ﷺ قال : « عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد ، وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من رجل أوتي سورة أو آية من القرآن فنسيها »^(١) فالإنسان لا ينبغي له أن ينسى ما حفظ من القرآن ، بل ينبغي له أن يكرره ، وأن يكثر من تلاوته . وقد كان الإمام البخاري رحمه الله يقرأ في رمضان ختمة للقرآن في كل يوم ، ويختم في ثلاث ليال ختمة أخرى ، فكان عنده ثلاثون ختمة بحسب الشهر وعشرة بحسب ختمة في كل ثلاثة أيام هي أربعون ختمة قرآنية كان يختمها الإمام البخاري رحمه الله ، وهو الذي يقول لا أعلم شيئاً يحتاج إليه في التشريع ، والآداب ، ونظام الدولة ، والمجتمع ،

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٦) ، وأبو داود (٤٦١) من حديث أنس رحمه الله ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب .

إلا وهو في كتاب الله ، عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدُنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

السمع والطاعة لله والرسول:

من جملة ما جاء في سورة النور قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، هذه الآية ذكرت بعد ذكر أوصاف المنافقين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٤٧ ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٤٨ ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور : ٤٧-٤٩] .

سبب نزول الآية:

سبب نزول هذه الآية هو أن منافقًا من المنافقين ، كانت له قضية مع يهودي ، وكان اليهودي يدعوه إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ وعلى آله ، والمنافق يدعوه إلى التحاكم عند كعب بن الأشرف يعني كاهن من الكهان ومن اليهود ، ولكن كانوا مع هذا وذاك إن علموا أن الحق لهم جاءوا إلى النبي ﷺ وتسارعوا إلى الحكم - إلى حكمه - وأتوه مذعنين منقادين ، وإذا كان الحق عليهم فروا من التحاكم إلى رسول الله ﷺ ودعوا خصمه إلى التحاكم عند الطاغوت كما قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ يَرْغُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَكًا بَعِيدًا ﴿٦١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٢﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]. طاغوت : كاهن ، جبت : ساحر ، وقد ذكر الإمام البخاري هذا اللفظ : الجبت والطاغوت ، حكى عن عكرمة أن الجبت ساحر بلسان الحبشة ، وأن الطاغوت هو الشيطان ثم تكلم في «الفتح» على أن هذه الألفاظ هل هي عربية محضة أو معربة ، وذكر ألفاظاً كثيرة ، وقال إن التاج السبكي ذكر منها سبعة وعشرين لفظة ، وزاد هو عليها أربعة وعشرين لفظة منها الجبت ، ومنها الطاغوت ، ومنها قطلة ومنها ناشئة ، ومنها قسورة ومنها غير ذلك مما يطول ذكره ، ولكن الذي عليه المحققون من فطاحلة المفسرين ، هو أن هذا من الموافقات التي توافقت عليها اللغات ، يعني هذا اللفظ كالجبت ، كالطاغوت ، وكقسورة ، وكناشئة الليل ، هي ألفاظ متوافقة في سائر اللغات ، جاءت بمعنى واحد ، لا أنها دخيلة ، وإلا لو قلنا إنها دخيلة لكان في القرآن ما هو دخيل ، مع أن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] .

القرآن العظيم هدى وشفاء:

القرآن العظيم هدى وشفاء ، هدى يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وشفاء للمعاصي ذلك لأن كل من وقف مع أوامره ونواهيه ومع وعده

ووعيده ، فإنه يكون شفاء له ، وشفاء حتى من الأمراض فيحكى أن الإمام
القشيري رحمته ، أنه كان له ولد ، ومرض له مرضاً شديداً ، وأعياء الأطباء فلم
يفيدوه شيئاً ، فنام فرأى النبي ﷺ في المنام فشكى له مرض ولده فقال له ﷺ أين
أنت من آيات الشفاء؟ ثم إنه استيقظ فجعل يفكر في آي الشفاء فوجدها ست
آيات أولها قول الله تعالى : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٤]
الثانية : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾
[يونس : ٥٧] ، الثالثة قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ، فِيهِ
شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل : ٦٩] ، الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ
شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] ، والسادسة قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
هُدًى وَشِفَاءً ﴾ [فصلت : ٤٤] . فكتب هذه الآيات في إناء ومحاها وسقاها
ولده ، فقام من حينه كأنها نشط من عقل ، وهذا سر القرآن العظيم ، والمدار
على النية ، وعلى حسن الطوية ، فهي التي تنفع الإنسان ، ولأجل ذلك نقرأ
كذلك في صحيح الإمام البخاري أنه انبعث حي من الصحابة ، ثم إنهم نزلوا
قرية فاستضافوا أهل القرية فلم يضيفوهم ، فلدغ سيدهم فبحثوا له عن الدواء
فلم يفد ، ثم جاءوا إلى ذلك الحي فقالوا هل فيكم راق فإنه لدغ سيدنا ، فقالوا
لهم : والله لا نرقيه حتى تجاعلونا ، فجاعلوهم على قطع من غنم ، فجاء
أبو سعيد الخدري رحمته ، فقرأ عليه فاتحة الكتاب ، سبع آيات ، فقام من حينه
كأن لم يكن به ألم ، ومن أسمائها «الشافية» فلأجل ذلك القرآن العظيم هو شفاء
ولا إشكال ، ما دامت لنا النية ، وما دام عندنا حسن الطوية ، وما دما نستشفي
بالقرآن ، ونتبرك به ، ونعتقد اعتقاداً جازماً لا يحتمل النقيض أن الله تعالى
يسشفينا ، ويشافينا سبحانه لا إله إلا هو .

رقيا النبي ﷺ:

ولذلك كان النبي ﷺ يرقى ويقول «باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك الله يشفيك»^(١).

وكان ﷺ يقول كما في البخاري: «اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك»، وورد عنه ﷺ أنه قال: «من عاد مريضاً لم يحضره أجله فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك، شفاه الله تعالى»^(٢)، وورد عنه ﷺ أن الإنسان إذا أحس بالألم فإنه يضع يده على المحل الذي يتألم، ويقول ثلاثاً «باسم الله، باسم الله، باسم الله»، ويقول سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(٣)، إلى أن يكمل سبع مرات، فإن الله تعالى يشفيه، وهذا كله من المجردات عند العلماء الذين لهم طوية حسنة، ولهم نية صادقة.

التصديق واليقين بالله طريق الشفاء:

أما أولئك الذين يشكون، أو يتزحزون في عدد الشفاء فإنهم لا يتفعلون بذلك، ولقد ذكرني بذلك قضية حياة بن شريح التابعي الجليل رحمته الله، فإنه كان يأخذ في خراج ستين ديناراً وكان لا يصل إلى منزله حتى يتصدق بها جميعاً، وإذا استيقظ من نومه يجد ذلك القدر تحت وسادته. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] سبحانه لا إله إلا هو:

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد رحمته الله.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٨٣)، وأبو داود (٣١٠٦) من حديث ابن عباس رحمتهما الله، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي.

لكن سرّاً لله في صدق الطلب كم رأي في أصحابه من العجب
فما أنفقت من شيء فهو يخلفه فسمعه ابن عم له ففعل مثل ما فعل
فتصدق كذلك بخراجه ، ولكنه أصبح يحمل فراش البيت كله ولم يجد شيئاً
فذهب عنده ، فقال له ما بالك تتصدق وتجد ما تصدقت به تحت وسادتك
وأنا قد تصدقت مراراً متعددة ولم أجد شيئاً؟ فقال له أنت فعلته اختباراً
وتجربة ، وأنا فعلته تصديقاً ويقيناً .

هكذا يكون الشيء ، أي هكذا ينبغي للإنسان أن يكون على هذه الوتيرة
كنية حيوة بن شريح وكتصديقه ، وكإيمانه القوي ، ﴿إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ
خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال : ٧٠] .

أما كون الإنسان يقرأ القرآن ونيته غير صادقة ولا يقين عنده أن الله
سيشفيه بالقرآن فهذا قطعاً لا ينتفع بالقرآن ، لأنه لا ينتفع بالقرآن إلا من
كان قوي الإيمان والإيقان ، أما إذا كان متشككاً ، أو غير جازم لأن الله
تعالى جعل القرآن شفاءً ، فإنه لا ينتفع بذلك أبداً .

عود إلى سبب نزول الآية :

على كل حال القرآن العظيم شيء كبير ، والشاهد عندنا في أنه سبب نزول
الآية أن المنافقين كان إذا كان لهم الحق يقبلون التحاكم عند رسول الله ﷺ ،
لأنهم يعلمون أنه ﷺ يوصل إليهم حقوقهم ، وأنه لا يقبل الرشوة ،
وحاشاه من ذلك ﷺ وعلى آله .

أما اليهود فإنهم يرشون ، ويقبلون الرشوة ، فكانوا يذهبون عند ، اليهود
ليرشوهم . . . إلخ . فيقبلون لهم الحق مع أن الحقوق عليهم ، فلأجل ذلك
كانوا يفرون ويهربون من حكم رسول الله ﷺ ، إذا كان عليهم الحق ، أما إذا

كان لهم الحق يأتون إليه مذعنين كما قال الله سبحانه وتعالى ، ولذلك
حكى الله سبحانه وتعالى هذا الوصف عن المنافقين فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ
الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور : ٤٧-٤٩] .

الاستفهام في الآية وغرضه :

الله تبارك وتعالى استفهم استفهام إنكار ، والاستفهام مجاز ، لأنه أعلم
بالحقائق سبحانه لا إله إلا هو فالاستفهام منه إنما هو مجازي وليس بحقيقي ،
أفي قلوبهم مرض ، والمرض هنا المراد منه النفاق قال الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] ،
أفي قلوبهم مرض فلذلك لم يذعنوا إلى حكم الرسول ﷺ إذا كان الحق
عليهم ، أم ارتابوا في نبوته ، وأنه لا يحيف في حكمه ، وأنه لا يحكم إلا بالحق
ﷺ عليه وعلى آله ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟

لا شيء من هذه الأمور ، بل إنما يفعلون ذلك لظلمهم ، سجل الله
عليهم الظلم فقال : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

أما المؤمنون فعالهم غير ذلك :

قال سبحانه وتعالى إذا كان هذا وصف المنافقين فالمؤمنون لا يناسبهم
هذا ، بل إنما -بأداة القصر- وعلماء البلاغة يقولون «إنما» تأتي لقصر
القلب في الكلام البليغ ، كما ذكر ذلك السعد في شرحه على التلخيص ،
إنما تأتي لقصر القلب ، لا لقصر الأفراد ، لأن القصر ينقسم إلى قصر
قلب ، وإلى قصر أفراد ، وإنما في القصر البليغ لا تستعمل إلا في قصر

القلب أعني لا يكون قول المؤمنين هو قول المنافقين بل قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم هو أن يقولوا سمعنا وأطعنا إنما كان قول المؤمنين ، وكان هناك كما قال أبو جعفر الطبري في تفسيره ، تجردت عن دلالتها على الزمن الماضي فيقضى ، وصارت لمجرد التأنيب ، ولمجرد التوبيخ ، كقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الفرقان : ١٨] ، وكقول الله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَنًى عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٦] .

لماذا أفرد الضمير في «ليحكم» :

﴿ إِنَّمَا كَانَ ﴾ أي إنما ينبغي للمؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، إلى الله ورسوله لم أفرد الضمير في قول ليحكم ولم يقل ليحكمنا ، وذلك لأن الحاكم مباشرة هو النبي ﷺ ، وإن كان لا حكم إلا لله ، وفي «جمع الجوامع» لا حكم إلا لله ، ومن ثم لا حكم إلا لله ، ويقول الله تعالى : **إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فِي آيَتَيْنِ ﴿٦٧﴾** **﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [يوسف : ٦٧] **﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [يوسف : ٤٠] .

ولكن الرسول ﷺ هو الحاكم المباشر وما حكم به الرسول ﷺ هو كما حكم به الله لأن الله يقول : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ولأن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] فالله سبحانه وتعالى جعل طاعة الرسول طاعته ، وجعل مبايعة الرسول مبايعة الله ، ولأجل ذلك يقول جلّت عظمته ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور : ٥١] .

ما فرضه الله على المؤمنين إذا دعاهم:

هذا هو الواجب الذي فرضه الله تعالى على المؤمنين ، إذا دعوا لحكم الله ولحكم رسول الله ﷺ ، قولهم الذي يجب عليهم أن يقولوه ، هو سمعنا من دعانا إلى حكم الله ، وأطعنا رسول الله ﷺ فيما حكم به علينا لا أنهم يقولون ، إننا نتحاكم إلى الطاغوت ، أو إلى الجبت ، أو إلى غير ذلك ، لا ، سمعنا وأطعنا ، قال الله تعالى وأولئك هم المفلحون وأولئك الذين يقولون إذا ما دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله ﷺ يقولون سمعنا وأطعنا ، هم المفلحون الناجحون الفائزون بخير الدنيا والآخرة ، ومن يطع الله فيما فرضه عليه ، ورسوله فيما سنه ، ويخش الله فيما فرط من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل من عمره .

معنى كلمة «الفائزين»:

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ، وأحسن ما فسر به الفائزون أن يفسر بالوارد وخير ما فسره بالوارد ، قال الله سبحانه وتعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، فالفائز هو الذي زحزح عن النار وأدخل الجنة ، أما من لم يزحزح عن النار ولم يدخل الجنة فليس بفائز ، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ .

القول في طاعة الأمير:

هذا ، القرآن يأمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، ثم ربما يقول القائل نحن نطيع الله فيما حكم به علينا ، ونطيع الرسول كذلك فيما حكم به علينا ، ولكن إذا دعينا إلى حكم الأمير فما هو الواجب علينا؟ فيقال لهم

الواجب عليكم السمع والطاعة ، ذلك لأن رسول الله ﷺ يقول كما في «الصحيحين» البخاري ومسلم ولا مخالفة بينهما إلا في كون فعل الشرط وجوابه إما ماضيين ، أو مضارعين ، أو متخالفين ، يقول الرسول ﷺ كما في «صحيح الإمام البخاري» ، واللفظ للبخاري ، «من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني» .

فقد جعل الرسول ﷺ طاعة الأمير من طاعته ، كما أن الله تعالى جعل طاعة الرسول من طاعته ، فحيث أن طاعة الأمير فقد أطاع الله ، من يطع الأمير فقد أطاع الله مختلفًا هذا لفظ البخاري ، من أطاعني - هكذا يقول الرسول ﷺ : «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني» ، ولفظ الإمام مسلم فقد جاء مختلفًا جاء فيه فعل الشرط ماضيًا ، وجوابه مضارعًا ، وجاء فيه العكس ، لأن عنده روايات .

وزاد الإمام البخاري : «وإنما الإمام جنة يتقى به ويقاقل من ورائه ، فإن أمر بتقوى الله فإن له بذلك أجرًا ، وإن قال بغيره كان عليه منه» ، هذا لفظ الإمام البخاري ، فطاعة الأمير هي طاعة الله .

الحث على طاعة الأمير في المعروف :

إذا أردنا أن نتمشى على الترتيب نقول طاعة الأمير هي طاعة للرسول ﷺ وعلى آله ، وطاعة الرسول هي طاعة لله ، فمن أطاع الأمير فقد أطاع الرسول ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، وهذا أمر واجب .

وجاء أيضًا في صحيح الإمام البخاري وكذلك في مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ، وجاء أيضًا في صحيح الإمام البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجل من الأنصار ، وأمرهم أن يطيعوه فغضب ، قال لهم لقد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني ، قالوا بلى ، قال عزمتم عليكم لما جمعتم حطبًا ووقدتم نارًا ثم وقعتم فيها ، فجمعوا حطبًا ثم أوقدوه ثم هموا بالدخول فيها فقام ينظر بعضهم إلى بعض قال بعضهم إنما تبعنا النبي ﷺ فرأوا من النار أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال «لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا - هذا لفظ الإمام البخاري - إنما الطاعة في المعروف» ، لو دخلوها - من المحسنات البديعية - وذلك لأن الضمير في دخولها يعود على النار التي أوقدت ، وفي : ما خرجوا منها يعود على نار جهنم لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا إنما الطاعة في المعروف ، فبين لهم رسول الله ﷺ أن الإنسان لا يطيع مخلوقًا في المعصية ولو كان طاعة المخلوق في المعصية واجبة لكانت طاعة الوالدين ، إذا أمرا بمعصية واجبة ، مع أن الله قال في كتابه العزيز ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] .

هل البخاري مقلد أم مجتهد؟

في «صحيح الإمام البخاري» باب وجوب صلاة الجماعة ، والإمام البخاري - كما تعلمون - هو مختلف فيه هل هو مقلد أم مجتهد - هناك من قال إنه مقلد ،

وهناك من قال إنه مجتهد ، والقول بأنه مجتهد أقوى وأصح من القول الذي يقول إنه مقلد ، ولأجل ذلك يأتي بالتراجم ويحكم فيها ، ثم يتبعها بالأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ المتوفرة فيها شروطه التي يشترطها رحمته .

طاعة الوالدين في ترك صلاة الجماعة!

قال رحمته باب وجوب صلاة الجماعة ، ثم أردفه بقوله : وقال الحسن - وإذا أطلق الحسن المراد به الحسن البصري من أكابر التابعين رضوان الله تعالى عليه ، وقال الحسن إن منعه أمه عن العشاء جماعة لم يطعها ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، على فرض أن أم الإنسان لو أمرته أن يصلي معها أو في البيت وألا يحصل الجماعة فإنه لا يطيعها ، هذا على القول الذي يقول بأن الجماعة واجبة ، أما على القول الذي يقول بأنها سنة وهو مذهب الإمام مالك ، فعلى كل حال يطيعها ، سيما إذا كانت مريضة ولذلك يقول في المختصر .

وعذر تركها والجماعة شدة وحل ، ومطر ، ومرض ، وتمريض ، وإشراف قرين ونحوه فإذا فرضنا أن أمه مشرفة على الموت ، أو مريضة ولا ممرضة لها ، فإنه يصلي وحده منفردًا ، ويترك الجماعة ، هذا على القول الذي يقول بسنية الجماعة وهو مذهب الإمام مالك .

أما على القول الذي يقول بوجوبها فقد قال إن منعه أمه عن العشاء جماعة لا يطيعها ، ثم ذكر الإمام البخاري رحمته حديث سيدنا أبي هريرة الذي قال فيه النبي ﷺ «لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أتخلف إلى رجال يتخلفون عن الجماعة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار . . .» الحديث .

الولاية العظمى وما يتفرع عنها:

على كل حال ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فلأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يقف مع الحدود ، وعلى كل حال بقيت مسائل كثيرة لا بأس باختصارها في لحظة وهي أن قضية الولاية ، الولايات : أعظم الولاية ، هي الإمامة العظمى فالخليفة الأعظم أمير المؤمنين ، هذا هو الأصل ، هذه الإمامة الأصلية ، هذه الخلافة عن الله وعن رسوله ، السلطان ظل الله في الأرض ، هذه هي الخلافة العظمى ، هذه الإمامة العظمى ، وهناك ولايات تتفرع عن هذه الولاية العظمى التي هي مثل ولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية السوق ، وولاية الشرطة وولاية الرد... إلخ . وولاية النفر هي ستة المشار إليها بقول الزقاق :

لها خطط ست قضاء مظالم وسوق ورد شرطة مصر إن جلي
وأعظمها قدراً وأكمل منصبا قضاء نعم إن أن قاض على علا
ولكن حذار يا عليماً بشيعة توقيه واهرب واعدل إن كنت مبتلي
تأمل حديث القاضيين وثالث وقول رسول الله يحيا مغلاً
وقوله في ذبح بلا مدية وآية الجن فيمن جرى تكفي لتعدىلا
ويرى بتفضيل عتو وبعد لمن قد جرى إياك والبلا

هذه الخطط الست على كل حال تكلم الفقهاء فيها ، وحققوها وتكلموا عليها ، وعلى ما يعتورها ، وعلى شروطها ، وعلى الأمور التي تتعلق بها ، القضاء معلوم ، القاضي هو الممثل الشرعي للأحكام وله نيابة عن الإمام القاضي نائب عن السلطان ، وكذلك الوزير نائب عن السلطان ، وكذلك العامل نائب عن السلطان ، وكذلك المحتسب نائب عن السلطان ، وكذلك الشرطي نائب عن السلطان ، هؤلاء كلهم أي هذه الخطط الست

كلها متفرعة عن الولاية العظمى التي هي الإمارة الكبرى ، وكل هؤلاء الولاة مسئولون عن رعيتهم ، كما قال النبي ﷺ «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع ومسئول عن رعيته»^(١) ، وكذلك كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين .

حث الأمراء على العدل في الرعية :

لأجل هذا يجب العدل على كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين ، وجاء في الحديث : «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين»^(١) ، ومن هؤلاء المقسطون الذين يعدلون في حكمهم ، وأهلهم ، وما ولوا عليه ، فالعدل يطلب من كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين ، وإذا عدل فإن الله تعالى يجعله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وهو المقدم في حديث الرسول ﷺ والمروي في صحيح الإمام البخاري ومسلم وغيرهما : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل» ، فالعدل هو سبب العمران ، والعدل أوصى به الله .

وصية القرآن للأمراء بالعدل :

كما أوصى الله تعالى المؤمنين بطاعة الأمراء كذلك أوصى الأمراء بالعدل فيما بينهم ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء : ٥٨] ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة : ٤٢] ، وأما القاسطون هم الجائرون ، قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا أُولَٰئِجْهَنَّمْ حَطْبًا﴾ [الجن : ١٥] .

(١) سبق تخريجه .

فالواجب على كل من ولي ولاية من أمور المسلمين أن يعدل فيها وأن يتمشى فيها على حسب الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وألا يتعدى القرآن العظيم ، وسنة سيدنا محمد ﷺ أو ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية ، لأن الأمة لا تتفق على ضلال وينبغي له أن يكون رءوفاً رحيماً مشفقاً ، متحلياً بالفضائل ، متخلقاً بالأخلاق النبوية التي كان عليها سيدنا محمد ﷺ ، لأن الخلق هو ترك الرذائل والتحلي بالفضائل ، هذا هو الخلق ، الخلق الحسن ، والتخلية مقدمة على التحلية ، فينبغي لكل من ولي أمراً من أمور المسلمين أن يعدل وإلا - فعلى كل حال - سيكون حطب جهنم ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ .

وصية السنة للأمرء بالعدل:

قال عليه الصلاة والسلام : «القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، واثنان في النار ، قاض عرف الحق وقضى به فهو في الجنة ، وقاض لم يعرف الحق ، وقضى للناس على جهل فهو في النار ، وقاض عرف الحق ولم يقض به وجار فهو في النار»^(١) . «ومن ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين»^(٢) ، وجاء في رواية : «فقد ذبح بالسكين»^(٣) ، وإنا لنرجو له الذبح بالسكين أيضاً .

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٢) ، وأبو داود (٣٥٧٣) ، وابن ماجه (٢٣١٥) من حديث بريدة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (١٣٢٥) ، وأبو داود (٣٥٧١) ، وابن ماجه (٢٣٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥٩٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

على كل حال الشاهد عندنا في أن العدل مطلوب في الرعية ﴿أَعْدِلُوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وعدل ساعة - كما جاء في الحديث - خير من
عبادة ستين سنة، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ
يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

* * *

المحاضرة الثانية والعشرون بعد المائتين

العدل إحدى ركائز الإسلام

تمهيد:

لكي تلتقي أفئدة المؤمنين على البر والتقوى آثرنا أن يكون حديث هذه الليلة حديثاً عن العدل، إحدى ركائز الإسلام الكبرى. هذا العدل كما حض عليه القرآن الكريم أصولاً وقواعد، وكما جاءت به السنة هدياً وإرشاداً، وكما نظمه المسلمون دولة ومذهباً ونظاماً، فساسوا به المعمورة، ودانت لهم الممالك.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

تعريف العدل:

ما هو العدل؟ لقد عرفه بعض الفقهاء والعلماء بأنه إعطاء كل ذي حق حقه من أقرب طريق، عن طريق ولاية عامة كولاية الإمام. أو عن طريق ولاية خاصة كولاية القضاء. أو عن طريق التحكيم، إذا تحاكم إلى شخص ما متنازعان.

التعليق على التعريف:

لكننا نعتقد أن هذا التعريف كما يقول المناطقة غير جامع فالذين عرفوا العدل بهذا المعنى لم يقصدوا إلا جانباً من جوانبه، في حين أن العدل الإسلامي متشعب الجوانب، ومن الصعب أن يظفر الإنسان للعدل

بتعريف جامع مانع . لا لأن العدل في حد ذاته متشعب ، ولا لأن غايته غير مفهومة ولا واضحة ، ولكن لأن طريق العدل وطريق إقامته ووسائل إسناده متشعبة . ومن ذلك كان تشعب التعريف عنه ، والتعريف به ، إلا أننا سنسلك فيه - في تعريف العدل - طريقة نبرز معها سرًا من أسرار اللغة العربية للذين يتعمقون هاته الأسرار ، ونشير إلى أنه مما انفردت به اللغة العربية على بقية اللغات لمن يعرفون أسرارها ويتعمقونها أن المادة الواحدة يمكن أن يستنتج منها ومن مشتقاتها معنى واحدًا أو معاني فتعطي للكلمة معناها الحقيقي .

فائدة لغوية :

نضرب على ذلك مثالًا قبل أن نوضح العدل اللغوي مما قاله بعض اللغويين الحاذقين بأسرار اللغة العربية بأن الجيم والنون المكرر المضعف يعطي دائمًا في اللغة العربية الستر والغيب . فيقال : جن الليل إذا أظلم وستر نور النهار . ويقال : الجنين في بطن أمه وهو مستور لا يرى . ويقال الجنان وهو مجموع الحقائق مجموع الجنة المغطاة بالأشجار . ويقال : الجنة التي وعد الله بها المتقين ، وطلب منهم أن يؤمنوا بها كما يؤمنون بالغيب . ويقال : الجنان للقلب الذي تضمه الحنايا وتغطيه . ويقال : الجنون ، لمن فقد عقله ، وستر عقله . ويقال : المجن للآلة التي يحملها الفارس على ظهره فتقيه عاديات الرماح والسيوف .

مادة العدل واشتقاقها :

من ذلك نجد ، أن هذا مما اختصت به العربية ، وأن مادة الكلمة ذات الأسرة الواحدة تعطي معنى مشتركًا في اللغة العربية فلننقس هذا على

العدل فإن حرف العين والdal واللام ، إن هذه المادة تنتج معنيين . تنتج معنى التساوي وتنتج معنى الإصلاح فيقال عدل الموازين والمكاييل ، إذا سواها . ويقال هذا فلان عدل فلان أي مثيله ونظيره . ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿أَوْعَدُّ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة : ٩٥] . وقول المهلهل :

على أن ليس عدلاً من كليب إذا ظهرت مسطرة الخدور
فنجده أن العدل يطلق على معنى التسوية ، ونجده أيضاً يطلق على
الإصلاح والتقويم فتعديل الموازين تسويتها بقصد إصلاح الكيل ، وتعديل
الشعر في اللغة العربية حفظه من الكسر ، ومن عيوب الأوزان والقوافي ،
والتعديل والتجريح في الحديث علم نقد الحديث متناً وسنداً ، ولذلك يمكن
أن نقول إن هاتاه المادة مادة العدل تفيد التسوية . وتفيد الإصلاح .

دلالة العدل على التسوية :

أما التسوية فهي الوسيلة التي يتوصل بها العدل لإقامة الإصلاح بين
الناس . وبذلك يمكن أن نقول إن العدل هو مجموعة نظم يتساوى فيها البشر
بعضهم مع بعض ليستقيم توازن المجتمع . وهذا أحسن أنواع التعاريف فيه .

ونقول إن التعريف الذي أعطاه بعض الفقهاء غير جامع لأنهم إنما قصرُوا
فيه الحديث والكلام على العدل بمعنى القضاء في الأحكام . والعدل أعم من
ذلك . فالعدل عدل في الأقوال . قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا﴾ [الأنعام :
١٥٢] ، والعدل عدل في الأخلاق ، وليعدل الرجل بين نسائه في المعاملة ،
والعدل عدل في القضاء أيضاً : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾
[النساء : ٥٨] . والعدل الاجتماعي هو هذا النظام الذي أشرنا إليه ، والذي
يقوم على التسوية لأجل ضمان استقرار البشر واستقرار المجتمع .

أقسام العدل :

قيل إن العدل أقسام :

عدل الإنسان في نفسه :

فعدل الإنسان في نفسه أن يحملها على الصلاح والتقوى . وهذا أحسن عدل ، لأنه إذا خرج بها إلى طريق التقصير أو إذا خرج بها عن طريق التجاوز لحدودها فإنه يكون غير عادل وهو بذلك يظلم نفسه . ولذلك قال الله تعالى بعد أن بين الأحكام للذين يخالفون عن أمره : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١] .

عدل الإنسان في غيره :

عدل الإنسان لغيره إما أن يكون من الأعلى إلى الأدنى ، عدل الإمام في رعيته معاملتها بالرفق وحرصه على مصالحها . وعدل من أدنى إلى أعلى ، عدل الرعية لإمامها وراعيها والمسؤولين على حكومتها ، وامثال أوامرهم ، والسير وفق إرادتهم ما أطاعوا الله واتبعوا سنة رسول الله .

ولذلك فإن هذا العدل بهذا المعنى جهاد كبير في النفس ، جهاد من جميع طبقات المجتمع من المسؤولين في أعلى مرتبة ، ومن الرعية إلى آخر واحد في الرعية ، جهاد يتنافى مع ما جبل عليه الإنسان من الأنانية ومن حب الهوى ومن حب النفس ، ولذلك كان من حق الإنسان أن يعدل في نفسه ، وأن يعدل في غيره ، كان غيره أعلى منه ، أو كان غيره أدنى منه .

ولأجل أن هذا العدل بهذا المعنى جهاد كبير ، وردت في حقه وفي الحض عليه آيات كثيرة ، وأحاديث قدسية ، وأحاديث نبوية . ذلك لأنه يتطلب

مرآناً من النفس ، ويتطلب كفاحاً لنزواتها وغلوائها ولذلك جاء القرآن والسنة المحمدية يحثان عليه في غير ما آية وفي غير ما حديث .

الحض على العدل في الآيات المكية:

الواقع أننا نجد القرآن الكريم قد تحدث عن العدل في الآيات المكية وحتى قبل أن يشرع في بيان الأحكام ، ذلك لأن هذا العدل هو قوام جميع الأحكام وجميع الشرائع ، وهو يسبق التفاصيل والفروع . ولذلك قدم الله الحض عليه في الآيات المكية لأجل أن يثبت ويبين بأن العدل هو البداية الأولى ، والانطلاقة الأولى ، التي عنها تتفرع الأحكام وتتفرع الشرائع .

المقصود بالميزان في آية الرحمن:

نجد أن الله سبحانه وتعالى قال في سورة الرحمن : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧] ، والذين يظنون أن الميزان هنا معناه موازين الكيل يخطئون . فالله سبحانه وتعالى قد وضع الكرة الأرضية ، وهي في صورة كرة في شكل كرة ، وسواها . سواها مادياً ليستطيع البشر أن يمشوا عليها ذلولاً . وسواها معنوياً بوضع العدل . فلا يستقيم اعوجاجها المادي إلا بالتسوية المادية . ولا يستقيم اعوجاجها الروحي إلا بميزان العدل وهذا معنى قوله ، أحسن التفاسير في معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧] ، في حين وضعها وفي حالة تسويتها لم يرد أن يتركها هملاً ولم يرد أن يتركها على علاتها . بل أبى إلا أن يقرن تسويتها المادية بتسويتها المعنوية .

عدل الإنسان مع قرنائه :

من العدل ، عدل الإنسان مع قرنائه بأن لا يتناول عليهم ، ولا يتكبر عليهم ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨] . هذا العدل الذي قلنا عنه إن الله سبحانه وتعالى شرعه في الآيات المكية وقبل أن ينزل تفاصيل الأحكام نجد الحث عليه منبثًا في القرآن الكريم .

آيات تدل على العدل :

نحن نقرأ قول الله تعالى : ﴿إِنَّكَ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّكَ اللَّهُ نِعَمًا يُعْظِمُكُمْ بِهِ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] .

سبب نزول الآية الكريمة :

هذه الآية يقول المفسرون في سبب نزولها إن النبي ﷺ بعد أن هيا الله له فتح مكة ، وأراد دخول الكعبة ، وجد مفاتيحها عند سادنها عثمان بن طلحة بن عبد الدار . وكان يقبض على هذه المفاتيح أبا عن جد . فلما أراد النبي ﷺ أن يدخل الكعبة ، وطلب منه المفاتيح أبى أن يسلمها إليه ولكن على بن أبي طالب توصل إلى هذه المفاتيح ، باتفاق مع سادنها ودخل النبي ﷺ الكعبة ، وكانت في يده المفاتيح . فلما انتهى من زيارة الكعبة والطواف بها ، جاءه عمه العباس ، وكان مكلفًا بسقاية الحاج فطلب من رسول الله ﷺ أن يضيف السدانة إلى السقاية جمعًا للنظائر والأشباه ، فتردد النبي ﷺ فأخرج المفاتيح من يد عثمان بن طلحة إلى عمه العباس وقد كان مكلفًا

بالسقاية وفي هذا التردد وفي هذه اللحظة نزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ، فطلب من نبيه ﷺ أن يرد المفاتيح إلى من كان مؤتمناً عليها .

العبرة بعموم اللفظ :

سواء كان سبب النزول هذا أو غيره فإن المعروف عند علماء الأصول أن السبب لا يخصص ، وأن السبب لا يخصص عموم الخطاب ، وبذلك يبقى خطاب الله سبحانه وتعالى إلى مخاطبيه في هذه الآية عامًّا يشمل مفاتيح الكعبة ، ويشمل جميع الأمانات ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى استعمل صيغة الجمع فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ .

ما يشمله لفظ الأمانات :

الأمانات - كما قلنا - تشمل أمانة الذمة ، وأمانة العلم بتوصيله إلى الرجال ، وأمانة المال ، وأمانة أداء العدل ، التي عطفها الله سبحانه وتعالى عليها بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ ، وإذا حكمتم بين الناس ، وإذا قضيتم بين الناس ، المتنازعين إليكم ، المطالبين لتحكيمكم ، المتقاضين في مجالسكم ، فاحكموا بالعدل ، وإذا حكمتم بين الناس أي وإذا سستم الناس فسوسوهم بالعدل ، فهو أعم من العدل بمعنى القضاء كما أسلفنا في تعريف العدل .

المنوط بالخطاب في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الخطاب في هذا إما إلى جميع الأجناس فكل الأجناس البشرية مأمورة بأن تؤدي الأمانة ، وكل الأجناس البشرية مأمورة بأن تقيم دعائم العدل ، وتؤسس أسسه ، أو يكون الخطاب خاصًا بالأمة الإسلامية المجتمع النموذجي الذي يجب أن يقلده البشر ويسيروا على هديه ، فالخطاب إلى الأمة المحمدية ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ . ما أحسن ما يعظكم الله به يا بني آدم أو يا أمة محمد .

أسلوب التأكيد في الآية:

قد كان ظاهر الكلام والتعبير أن يقول الله سبحانه وتعالى بعد أن قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ، أن يقول : فنعم ما يعظكم به الله ، ولكن الله تبارك وتعالى أبرز اسم الجلالة وأكد فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ، لأن المقام عظيم ، والمقام مقام الخشية ومقام الهيبة من الله سبحانه وتعالى الأمر الذي يجب أن يطاع . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ .

دلالة إدراج كلمة العظة:

في هذا التحذير الكبير ، وفي هذا الأمر العظيم ، أدرج الله سبحانه وتعالى رفقا بعباده كلمة العظة ، فالأمر هنا أمر ، ولكنه وعظ في ذات الوقت ، وعظ لأن إقامة العدل في صالح العباد لا في صالح الله . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ .

اللَّهُ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ ۖ . وكلمة العظة واستعمال العظة في هذا المقام ليكون التنفيذ أقرب إلى القلب ، وأدعى إلى الإذعان ، فإن الإنسان كثيرًا ما ينفذ الأوامر التي يرتاح لها قلبه ، وتطمئن لها نفسه أكثر مما ينفذ الأوامر الزاجرة الرادعة دون أن يتعظ بها . ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

دلالة اسمى الله السميع والبصير في الآية :

كان سميعًا : المقام هنا أيضًا مقام السمع والبصر . مقام السمع البصير ، والبصر السامع ، ولذلك يقول الله مذيلاً : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ . كان سميعًا بكم بخلجات صدوركم ، بتحاييلكم إذا كنتم لا تريدون أن تقيموا العدل حق إقامة ، ولا تسندوه حق إسناد ، بصير بجميع ما يختلج في هذه الصدور ، ويطلع عليها ، إن الله كان سميعًا بصيرًا . ويجب عليكم أنتم في مقام العدل أن تكونوا سميعين بصراء . فتتلقفوا الكلام من المتخاصمين وتتفهموه ، وتنصتوا إليه ، وتعطوه كل دالتكم لتفهموا الحق ، وتستنتجوا الحق ، إن الله كان سميعًا بصيرًا . يجب على القاضي والحاكم أن يتحرى القرائن ويتتبع الوقائع وأن يتثبت من شهود الإثبات وشهود النفي وأن يكون نافذ البصيرة مرهف السمع لأجل أن يعرف حكمة الله وحكم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

العلاقة بين الآيتين :

قد بين الله في الآية التي بعدها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] ، ما في الضرورة التي تقضي عليهم برد الأمانات ، وبتحكيم العدل ، وبإقامة العدل . قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ ﴿١﴾ . أطيعوا الله الأمر لكم بالعدل ، الأمر برد الأمانات إلى أهلها ، وأدائها إلى أهلها . ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله .

من هم أولو الأمر؟

﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ، أولي الأمر الذين ولوا أموركم ، ولوا أموركم فعرفوا معنى هذه التولية وهذه المسؤولية وتجردوا لخدمتها وآمنوا بأن توليتهم استخلاف لله سبحانه وتعالى منه لهم في الأرض . أولي الأمر ، ولكن منكم أولي الأمر الذي لا يتغلبون عليكم بكفر ، ولا يتغلبون عليكم باعتداء ولا يخضعونكم بدون إرادتكم . أولي الأمر منكم قال بعض المفسرين : إن الله تبارك وتعالى قال : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ، ولم يردد ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر منكم . فلماذا؟ إن طاعة الله وطاعة رسوله غير مقيدة بشرط وطاعة أولي الأمر مقيدة ، مقيدة بأن يعطوا من الأوامر ومن التعاليم ما يتماشى والسنة المحمدية .

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأطيعوا أولي الأمر منكم ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولذلك لم يكرر الله سبحانه وتعالى صيغة الأمر بالنسبة لأولي الأمر . ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ .

عند النزاع يرد الأمر إلى الله ورسوله :

يبين الله سبحانه وتعالى في الآية التي بعدها أمر فض النزاعات والخصومات ، فيقول : ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [النساء : ٥٩] ، فإن وقعت بينكم خصومة في بعض الأشياء ، أو فإن تنازعتم في شيء لأنكم لم تتفقوا على رأي ، وسار كل واحد في طريق بمقتضى الاجتهاد والرأي . فإن مرد

كل ذلك النزاع ، وذلك الاختلاف في الرأي إلى الله في كتابه وإلى الرسول إن كان بين ظهرائكم فاطلبوا منه أن يعلمكم أمر دينكم ، وأن يحق الحق لمن له الحق . وإلا فارجعوا إلى سنته . فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم عند غياب رسول الله ﷺ إلى الإمام الذي استخلفه الله في الأرض ، وإلى من ولاه الإمام أمر المسلمين بالنيابة عنه ، فإذا قال الإمام وقال الله وقال الرسول . فلم يبق لأحد ما يقول : ﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] ذلك شرط إيمان ، ذلك الإيمان مشروط بهذا الخضوع ، وبهذا الركون إلى كلمة الحق ، تخرج من آيات الله أو من فم رسول الله ، أو بأمر من الإمام ومن استخلفه الإمام عنه ﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

ذلك الرد إلى كلام الله ، وإلى سنة رسول الله ، وإلى أوامر أولي الأمر منكم ، خير لكم وأحسن تأويلاً ، وأحسن مآلاً لكم في معاشكم وفي معادكم . أو ذلك الرد هو خير لما يفسر به ما تنازعتم فيه ، وما يحل المشكل . ذلك خير وأحسن تأويلاً فينتهي التأويل ويتعطل ، ولا يبقى للكل إلا الامتثال ، بعد أن قال الله ، وقال رسول الله ، ونطق خليفة الله .

نظير الآية الكريمة من القرآن :

هذه الآية نجد لها نظيراً آخر . فالله تبارك وتعالى وقبل أن يشرع الأحكام كما أسلفنا يهتم بأمر العدل ، وبأمر رد الأمانات ، وما إقامة العدل إلا جزء من أداء الأمانات . ونجده في آية أخرى يقرن العدل بأسس الفضيلة الإسلامية فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] .

المراد بالإحسان:

الإحسان : إحسان نحو الخالق ونحو المخلوق . فالإحسان إلى المخلوق معاملته بالحسنى ، والإحسان إلى الخالق عبادته حق عبادته ، واتقاؤه حق تقواه ، حتى لكأن المحسن يرى في كل عبادة الله فإن لم يكن يراه فإنه يراه .

ويقرن العدل بالإحسان وهو جماع الإيمان ، كما يقرن ضده بجماع الفواحش : ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل : ٩٠] ، وفي هذه الآية كما في التي قبلها يكرر الله كلمة العظة فيقول : ﴿يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠] . فالآيتان منسجمتان وفي بحر واحد .

إقامة العدل على النفس والأقربين:

هذا العدل - كما قلنا جهاد كبير - طلب من المرء ومن المتولي للعدل أن يكافح نفسه ، وأن يكافح ميوّله ، وأن ينسى صداقاته ، وأن ينسى عداواته ، وأن ينسى قرابته ، وأن يكون مثال الاستقامة في جميع ما يصدره من أحكام .

فأما نسيان القرابات ، ونسيان النفس ، فمصداق ذلك قول الله تعالى في سورة النساء : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء : ١٣٥] . لا يفرق الإنسان في إصدار العدل بين غني وفقير ، ولا يهمله أن ينصف الغني ضد الفقير ، ولا يهمله العطف على الفقير . ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء : ١٣٥] . وليس من حق من انتصب للقضاء والعدل أن يعطف على الفقير لأنه فقير ، وأن يظلم الغني لأنه غني . فهذا من أمر الله والله أولى به ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء : ١٣٥] .

فيطلب الله أن نتجرد من عداوتنا فيقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]، الخصومات التي بينكم وبين الناس لا يجب أن تحملكم على نسيان العدل، وعلى تحكيم الهوى والأنانية.

العدل يقرب من الله:

هذا العدل - كما قلنا - إذا قام الإنسان به خير قيام، فقد تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، وأصبح قريباً منه، وأصبح يزاوِل عملية التقوى التي هي الاجتناب والامتناع وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] أي العدل.

وقد قرن الله كما قلنا العدل بالفضائل، وقرن ضده وهو البغي والظلم بالفواحش والردائل.

أمر الأنبياء بالعدل أيضاً:

لأجل أن المقام عظيم، وأن الإنسان البشري أناني بطبعه، فإن الأمر من الله تعالى بإقامة العدل توجه إلى الأنبياء وهم معصومون، فقال سبحانه وتعالى متوجّهاً إلى النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وتوجه إلى النبي داود ﷺ بالخطاب في القرآن فقال: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال في سورة الشورى على لسان النبي ﷺ: ﴿وَأْمُرْ بِالْعَدْلِ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، ذلك العدل كما حض عليه القرآن الكريم.

تنديد القرآن بالظلم وأهله :

كما حض القرآن الكريم على العدل ، ندد بضده وهو الظلم ، ونفى الله تبارك وتعالى أن يجتمع الإصلاح من قوم وإقامة العدل منهم ، أن يجتمع مع إبادتهم ومع تشتيت شملهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] ، فما دام العدل يسود الأمة ، وما دام العدل يسود المجتمع ، فالله تبارك وتعالى ينسى في عمر الأمم ويطيئها ويبارك فيها . وقد قيل إن الحكم يدوم مع العدل وإن كان من كافر ، ولا يدوم مع الظلم وإن كان من مؤمن ، وهذه حقيقة واقعة .

نفي الله الظلم عن نفسه :

إن الله تبارك وتعالى حين أمر عباده في أعلى المستويات حتى الأنبياء بإقامة العدل . بدأ المثل سبحانه وتعالى من نفسه فنفى عن نفسه الظلم ، قليله وكثيره ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] والظلام ليس معناه المبالغة ، فالله ينفي أقل الظلم عن نفسه حتى وزن الذرة آخر أجزاء الجسم ، الذرة الجزء الذي لا يتجزأ من المادة ، أو الهباء الذي يرى في شعاع الشمس عند مدخلها في النوافذ ، نفاه الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠] ، أي وزن ذرة ، وقال في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا »^(١) فالله تبارك وتعالى شرع هذه الشريعة العادلة ، وبدأ من نفسه ، وأعطى المثل من نفسه ، وطلب منا أن نكون في جميع المستويات سادة ومسودين ، أنبياء وغير أنبياء ، مكلفين في أعلى درجات المسؤولية ، أو في أصغر درجات

(١) سبق تخرجه .

المسئولية ، طلب الله تبارك وتعالى من عباده من جميع الأجناس أن يقيموا العدل ، وأن لا ينجحوا إلى الظلم .

اسم الله العدل :

هنا نريد أن نقف وقفة لنبين بعض أسرار التشريع الحكيم ، وبعض الأحكام الشرعية ، أن الله تبارك وتعالى عادل ، وهو الذي سمى نفسه من بين أسمائه ، أسمائه الحسنى ، سمى نفسه بالعدل بلفظ المصدر ، لأن مصدر عدل العدل ، وسمى نفسه بالمقسط من أقسط لا من قسط فإن القاسط هو الظالم . ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن : ١٥] .

نكتة لغوية :

هنا أفتح هلالاً لغوياً لأذكر ما قرأناه في التاريخ من أن الحجاج بن يوسف الثقفي وكان معروفاً بمكره ، دخل عنده أحد من أهل العراق مادحاً فقال يا حجاج إنك فينا لقاسط عادل . فأمر به فضربت عنقه ولم يفهم الحاضرون لماذا ، قال أتدرون لماذا فعلت ذلك إنه قصد بالقاسط إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ . وأما العادل فقصد به الإشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام : ١] أي يسوون في الربوبية بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها .

نقول : إن الله تبارك وتعالى الذي حرم الظلم على نفسه أقام الحجة على عبادة إن خالفوا أمره ، فقال لهم : لقد بينت لكم الشرائع ، وبينت لكم الأحكام ، إذا تجاوزتم حدودها فأنتم الظالمون ، ذلك هو قوله

تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة : ٥٧] ، بالتعدي لحدودنا ، والتعدي لإرادتنا .

الأدلة على عدل الله سبحانه وتعالى :

قلنا إننا نريد أن نقف هنا وقفة لنذكر من مصادر التشريع الإسلامي ، ومن بعض الأحكام الشرعية ثلاثة عشر مثلاً ، نسوقها هنا لبيان عدل الله سبحانه وتعالى ، أو لبيان العدل الإلهي ، وسنذكرها بكل سرعة لأن الكلام في العدل سيطول ، وسيطول جداً ، ولذلك سنذكرها بسرعة ، لأجل أن نلفت الأنظار إلى أن الله سبحانه وتعالى إن ضرب المثل للناس بنفسه في العدل ، فقد أعطى هذا العدل وصيره حقيقة واقعة من ذاته وتشريعاته وأحكامه .

لا عقاب قبل إقامة الحجة :

المثال الأول أو القاعدة الأولى : أن لا عقاب قبل البعث ، هذه قاعدة نطق بها الإسلام ونطق بها القرآن : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] ، وذلك أقصى ما يمكن من العدل إذ لا يؤاخذ الإنسان إلا إذا عرف حقائق التشريع ، وإلا إذا وقف على الأحكام وإلا إذا سمع ما يجب أن يسلكه في طريقه وفي حياته ، فلا عذاب قبل البعث .

لا عقاب قبل التكليف :

لا عقاب إلا بعد التكليف ، وهذا التكليف وهو المثال الثاني لا يكون إلا بعقل وبلوغ . فالله لا يكلف البشر ، إلا إذا تمكنوا بحواسهم كبشر كجسم وبحواسهم بما فيهم من العقل أن يدركوا مغازي التشريع ودقائق التشريع ، وأن يفهموا التشريع فيقفوا عنده ، فالأطفال غير مكلفين ،

والمجانين غير مكلفين، لذلك يقول علماء الأصول: أن لا تكليف إلا بعقل، وفي الحديث رويانا في الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، والمبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر»^(١)، وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ أنه قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم»^(٢). وذلك عدل من الله سبحانه وتعالى ورحمة بعباده.

انقسام الأحكام التكليفية وتنوعها:

المثال الثالث: توزيع الأحكام إلى خمسة، فالله تبارك وتعالى لم يشرع في قوانينه المساوية الحلال والحرام، وإن كان الحلال في منطقة، والحرام في منطقة، فيبينها مراحل وحلقات أخرى، يمر بها المكلف من الوجوب إلى الحرمة، يمر بحالات الإباحة، وحالات الاستحباب، وحالات الكراهية، فلم يضيق الله تبارك وتعالى على عباده، بل ترك لهم في هذه الحالات مجالاً لليسر، ومجالاً للتوسع، فلم يحرم إلا ما فيه ضرر، ولم يأمر ويوجب إلا ما فيه نفع.

ارتباط التكليف بالأفعال والمقاصد:

المثال الرابع: أن الله تبارك وتعالى وهذا من العدل الإسلامي الإلهي، أنه إنما أناط التكليف بالأفعال والمقاصد. دليل ذلك قول النبي ﷺ:

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٣٤٢٣)، وأبو داود (٤٣٩٩)، وابن ماجه (٢٠٤١).

من حديث عائشة رضي الله عنها.

«إنما الأعمال بالنيات»^(١). فأعمال النائمين، وأعمال المجانين ومن أكرهوا على ارتكاب محرم إكراهًا، لا يؤاخذهم الله ولا يعاقبهم ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ومن ذلك أن الله تبارك وتعالى لا يؤاخذنا بالخطأ والنسيان، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١)، وهذا عدل ممزوج بالرحمة وبالرفق بعباده، وقد قال الله تبارك وتعالى أيضًا في كتابه العزيز: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

رفع الحرج عن غير المستطيع:

المثال الخامس: من أصول التشريع وأسراره أن الحرج مرفوع عن المكلف، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، لا يكلف الله عباده إلا بما يطيقون، ويعفو عنهم فيما لا يطيقون، وقد استثنى الله تبارك وتعالى من بعض الأحكام الشرعية طائفة من المجتمع لا يستطيعون القيام بها فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [النور: ٦١]، بل نفى الله سبحانه وتعالى الحرج عن الدين كله، قواعده وأصوله، وتشريعاته وفروعه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ذلك لأن الله تبارك وتعالى يعلم أن عبده ضعيف، مكون من لحم ودم، وبنيته لا تستطيع الحرج إذ يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفًا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(١) سبق تخريجه.

التنديد بالمعسرين :

إذا كانت هذه إرادة الله فالذين يتجاوزون اليسر ويحملون أنفسهم على العسر يندد الله بهم ، والسنة والكتاب تندد بهم ، إن الله أراد بعباده اليسر فما لعباده يخرجون أنفسهم . ذلك مصداق قول النبي ﷺ : «إن هذا الدين يسر ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه»^(١) ، فالذي يريد أن يصارع الله في هذا الميدان مغلوب ، لأن الله تعالى أراد اليسر لعباده ، ولم يرد بهم الحرج ، إن هذا يسر ، ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه .

موقف معاذ بن جبل :

يروى في الحديث أن معاذًا رضي الله عنه كان يطيل الصلاة ويقف والناس وراءه والناس يخرجون فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعاه وقال له : «أفتان أنت يا معاذ؟»^(١) ذلك أنه أراد أن يحمل الناس على أمر لم يطالبهم الإسلام به ، الإسلام دين ودنيا ، والإسلام يسر وليس بعسر ، أفتان أنت يا معاذ؟!

موقف الأعرابي المتبول في المسجد :

روينا في الحديث أيضًا أن أعرابيًا جاء إلى المسجد فبال ، فاجتمع عليه المسلمون منددين به ، وكادوا يهجمون عليه ، فوصل النبي ﷺ فقال لهم : «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(١) .

النهى عن مواصلة القيام :

روينا في الحديث أن النبي ﷺ نهى عن مواصلة الصيام بعد رمضان

(١) سبق تخريجه .

رحمة بالناس^(١)، ولم يكن هو نفسه يتبع هذه القاعدة، بل كان يواصل، فقيل له: لماذا؟ فقال أيكم مثلي؟ إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني^(٢).

النهى عن مواصلة السهر وعدم النوم:

روت عائشة رضي الله عنها، أنها جاءت عندها امرأة، ووجدتها النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها، فقال لها: يا عائشة من هذه؟ فقالت يا رسول الله، هذه امرأة لا تنام تبیت تصلي. فقال عليه السلام: لا تنام؟ بصيغة الاستفهام الإنكاري: لا تنام؟ قال عليه السلام: خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا، أو: لا يمل الله حتى تملاوا^(٢).

هذه الآيات والأحاديث التي أدرجناها هنا شرحنا بها ما أراد النبي صلى الله عليه وسلم وأرادت الشريعة الإسلامية أن تخفف به على البشر المطالبين بالعبادة وأن تيسر عليهم في دينهم عدلاً من الله تبارك وتعالى ورحمة بهم، وما أكثر ما تزخر به السنة من هذه الأحاديث.

حديث الثلاثة رهط:

روي عن أنس أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي ما هي؟ فلما قيل لهم كيف كان يعبد النبي صلى الله عليه وسلم ربه فكأنهم تقالوها، أي نسبوها إلى القلة، ووجدوها لا تتناسب ومقام النبي صلى الله عليه وسلم، فعلموا ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس كالناس، لأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأخذوا يتبجحون بما يعملون فقال أحدهم: أما أنا

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

فأصلي الليل أبداً . وقال الآخر : أما أنا فإني أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : فإني أعتزل النساء ولا أتزوج ، فبلغ إلى رسول الله ﷺ خبر هؤلاء ، فقال لهم أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ فقالوا نعم يا رسول الله فقال النبي ﷺ : «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١) .

تنديد الله في كتابه بالغلاة والمتطرفين :

قد ندد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوم غلاة متطرفين من أهل الكتاب ، فقال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ [المائدة : ٧٧] ، وندد النبي ﷺ بهؤلاء الغلاة فقال : إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يغلون في دينهم أو قال ﷺ : «إنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين»^(٢) . ومن هنا استخرج الفقهاء وعلماء التشريع قاعدة تقديم اليسر ، فكلما تعارض اليسر والعسر في الإسلام قدم اليسر ، اتباعاً لهدي النبي ﷺ ولإرادة الله في التشريع .

تشريعه سبحانه للرخص :

المثال السادس : وهو يدخل في هذا المعنى ، أن الله تبارك وتعالى شرع العزائم وشرع الرخص ، فشرع صيام رمضان ، وشرع الفطر في رمضان للمريض والمسافر ، وشرع الوضوء والغتسال ، وشرع التيمم لمن لا يجد الماء ، أو لا يقدر على استعماله ، وذهب النبي ﷺ إلى تفسير هذه الرخص

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٣٠٥٧) ، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس

يبين لنا أنها ليست استثناءات ، ولكنها عبادات ، فقال النبي ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ أَنْ تُوْتِيَ رَخْصَهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ تُوْتِيَ عَزَائِمَهُ»^(١) .

عدم مؤاخذة العباد بالخطيئة الأصلية :

المثال السابع : من التشريع أن العدل الإسلامي الإلهي أسقط المؤاخذة عن العبد في الإسلام بالخطيئة الأصلية . فالخطيئة الأصلية التي تقول بعض الشرائع القديمة أن الإنسان يولد فيها بحكم تسلسله من آدم ، لم يعتبرها الإسلام ولم يقرها ، فالإنسان يخلق بريئاً ، ولا عذاب قبل البعثة ، ولا عقاب إلا بتكليف ، ولا يرث الخطيئة عن أبيه ولا عن غيره ، ﴿وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم : ٣٩] .

الحسنات في الإسلام تذهب بالسيئات :

إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك فالحسنات في الإسلام يذهبن السيئات والحسنة في الإسلام بعشرة أمثالها ، والمرء إذا هم بحسنة ولم يفعلها كتبت له حسنة ، وإذا هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه ، هذا منتهى العدل والرحمة في العدل الإلهي الحكيم ، بل إن الله تبارك وتعالى أدرج في جملة المؤمنين المحسنين الذين يجازيهم الله بالحسنى قوماً يبتعدون عن كبائر الفواحش ، ولكن يلمون باللمم أي بصغار الذنوب ، فاعتبرهم الله في جملة المحسنين الذين يجازيهم ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَجْزَى

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٠٢٧) ، وابن حبان (٢٧٤٢) ، من حديث ابن

عمر رضي الله عنه .

الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴿٣٢﴾
[النجم: ٣١، ٣٢].

ولما كان هذا قد يصدّم المتزمتين ، وقد يصدّم المغالين ، فقال سبحانه وتعالى ردًّا على هؤلاء : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢] ، في أي تتداخلون إن مغفرتي واسعة ، وعدلي كبير .

فتح باب التوبة دون شرط أو قيد:

المثال الثامن : أن باب التوبة للمؤمنين مفتوح بدون شرط ولا قيد ولا واسطة ، فليس في الإسلام من يتقبل الاعتراف ، وليس في الإسلام حجاب بين الله وبين عباده ، عدل من الله سبحانه وتعالى حتى لا يتحكم فيهم الهوى ، ولا تتحكم فيهم الوسائط ، ولا تشترط عليهم الوسائط غفران الذنوب حسب شهواتهم وحسب أغراضهم ، إنما استثنى الله سبحانه وتعالى من التوبة ، أو سد باب التوبة على من مات كافرًا وعلى من بقي مصرًّا إلى أن حضره الموت فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] .

فأما في غير ذلك فرحمتي وسعت كل شيء ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ .

الأشياء المسكوت عنها رحمة من الله بنا:

المثال التاسع : أن الله تبارك وتعالى بين الحلال ، وبين الحرام وجعل بينهما منطقة وسطى تفصل بين الحلال والحرام ، وما أحسن ما في القرآن من هذا التعبير الجميل : التعبير بحدود الله ، فهي حدود ، حدود من جهة

الحلال ، ومن جهة الحرام ، والذي يخرق هذه الحدود ، فذلك تحد منه والذي يتجاوزها فذلك تعد منه ، ولكن بينهما منطقة لا تتمحض فيها الحلية ولا تتمحض فيها الحرمة ، فعفا الله عنها ، مصداق ذلك قول النبي ﷺ : «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحدد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان - الله تعالى يشرع لكل دقيقة ولكل حالة ، ولكنه قصد أن يترك هذا التشريع في هذا الميدان تخفيفاً على عباده - وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان - فلا تبحثوا عنها»^(١) .

وإن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس وسع في هذا توسيعاً كبيراً حتى قال : كل ما لم يذكر في القرآن صريحاً فهو مما عفا الله عنه ، ولكن العدل الإلهي يقف مراقباً على من يخترق الحدود ، فمن وقع في الشبهات وأراد أن يتجاوز هذه المنطقة إلى تلك فقد وقع في الحرام وقد تعدى على حمى الله ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه .

اعتبار العقل وعدم إهماله :

المثال العاشر : أن الله تبارك وتعالى لا يطالب عباده بالتصديق إلا في حدود عقولهم ، ولا يطالبهم بالإيمان بما يناقض عقولهم ، فالإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، يتقبله الإنسان بفطرته وهو من لحم ودم ، وهو من جسم وعقل ، فإذا وقع الاختلال في هذا الجهاز بين ما يميل إليه الجسم كعبادة ، وبين ما يعارضه العقل ، فضل الله العقل ، ولذلك نجد أن التنديد الذي ندد الله به سبحانه على من سبق المؤمنين والفرق

(١) سبق تخريجه .

الواضح الجليل الذي ميز هؤلاء عن أولئك أن الأولين كانوا يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢] ، بينما يجب أن يقول الآخرون ، أهل الشريعة الإسلامية ، إننا نؤمن ولكن عن عقل ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] ، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ، إلى غير ذلك من الآيات التي يذيل الله بها في القرآن الكريم كثيراً من الأحكام إيقاظاً للعقول ، وتنبيهاً لها لتستخدم فيما جعلت له .

غلبة صيغة العموم على قواعد الشريعة :

المثال الحادي عشر : أن قواعد الشريعة ونصوصها الإسلامية كثيراً ما تأتي في صيغة العموم دون أن تعنى بالتفاصيل ، وكثيراً ما تطبع أسلوبها المرونة لتبقى هذه التعاليم خالدة مدى الدهر ، وليمكن للناس أن يقيسوا الفروع على الأصول ، وأن يجتهدوا وأن يقيسوا ومن ثم امتازت الشريعة الإسلامية لأنها بهذا المعنى أو إحدى ميزاتها ، امتازت بأنها شريعة الكمال ، وشريعة السمو ، وشريعة الدوام ، والذين يقولون ما يفسرون قول الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، ويروحون يبحثون هل ذكر الله الجاذبية؟ وهل تحدث عمن يطلعون إلى القمر مخطئون ، فالشريعة الإسلامية لم تهتم بهذا ، وإن الله لم يفرط في الكتاب من شيء لأنه اهتم بالأصول ، وترافع عن الفروع والجزئيات ، وترك لعباده أن يستنبطوا ولو ردوه إلى الله والرسول لعلمه الذين يستنبطونه منهم . وبذلك يبقى القرآن محفوظاً : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

ترك التشريع في بعض الأمور رحمة:

المثال الثاني عشر: أن الله تبارك وتعالى ترك التشريع لعباده فيما لم يشرع لهم رحمة بهم ، فالاجتهاد رحمة ، قياس الفروع على الأصول رحمة ، وقياس الأشباه على الأشباه رحمة ليتوصل المسلمون والمجتهدون من القادرين عليه والمتوفرين على شروطه ، إلى تتميم الجزئيات ، وإلى تجديد شباب الدين كلما حدثت الأحداث ، ووقعت النوازل ، ووقعت الوقائع ليكونوا في مصداق الهدى النبوي الذي يأمر الناس بإعمال العقل وإعمال الفكر .

وفي رسالة القضاء ، أو دستور القضاة ، تلك الرسالة التي وجهها عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري وضمنه فيها قواعد القضاء قال له : الفهم ، الفهم ، فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنة ، اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك .

ومن رحمة الله بهؤلاء المجتهدين وتشجيعاً لهم ، وإنهاضاً لهممهم أنه أجرهم وآثرهم على كل حال فللمجتهد أجران إن أصاب ، وأجر إن أخطأ فهو حين يصيب يؤجر مرتين ، مرة على التوفيق والإصابة ، ومرة على المجهود الذي بذله ، وحين لا يصيب يؤجر على ذلك المجهود فقط وإن لم يؤجر على التوفيق والإصابة ، وفي ذلك تشجيع لتجديد التشريع ، وتشجيع للمجتهدين أن يعملوا وأن يجددوا دينهم ، وفي دينهم ما شاء وعلى طبق الأصول التي شرعها الله سبحانه والقواعد التي أسسها .

الإسلام دين الدنيا والآخرة:

المثال الثالث عشر: أن التوازن بين المصالح الدنيوية والتبعات الأخروية راعاها الله في التشريع ، فالإسلام دين ودنيا ، والإسلام سعي وعمل وعبادة ،

سعي في الحقل والمعمل والمكتب، وعبادة في المساجد، لا رهبانية في الإسلام ولا كهنوت، ولا يحرم الإسلام العمل ولا الزواج، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، بل إن الله سبحانه وتعالى في مقام الجنة وهي شيء عظيم، لم ينس مطالب الجسد فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ [طه: ١١٨] كأن الجوع والعري والفقر، العدو الذي يكافحه الله في كل مكان حتى في الجنة، وهي: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ ﴿٣٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

إرساء العدل سبب في إحسان العبادة:

وامتن الله على أهل البيت على عباده المؤمنين فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿٣﴾ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤]، ذلك أنه لا عبادة مادام البطن فارغاً، ولا عبادة ما دام الأمن لم يستتب، ولا عبادة ما دام العدل لم يستقر ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿٣﴾ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، وبذلك كانت أمة الإسلام أمة وسطاً، في الوقت الذي كانت فيه ديانة أخرى تأمر الناس بأن يكفروا عن ذنوبهم بقتل أنفسهم.

بقية الأمثلة على الرحمة في التشريع:

ما أكثر ما يمكن أن نذكره هنا من قواعد التشريع وقد اتفق أهل الأصول على أن قواعد التشريع كلها رحمة، وكلها مصلحة وليس فيها من إضرار بالعباد واتفقوا على أن كل تشريع لابد أن يكون فيه مصلحة، أو

دفع مفسدة، وأنه لا يمكن أن يكون شرع عبثًا، وأفعال الله تصان عن العبث، ولابن القيم هنا بحث قيم، ولكنني سأشير إليه باختصار، فقد ذكر في هذا المعنى عدة أمثلة تدل على أن العدل الإلهي رحمة، وعلى أن التشريع يجب أن يخضع لهاته المقاييس، ويفهم على هذا الأساس. وأشار إلى أنه قد تعترض التشريع إذا لم يفهم من التشريع بعض الأسرار فيمكن نسخه وتغييره أو إيقافه عند حد من الحدود.

المنكر لا يتغير إلا بمعروف:

إن الله تبارك وتعالى أمر بالنهاي عن المنكر، وذلك لجلب المصلحة، ودرء المفسدة، ولكن إذا كان المنكر يقام بالفتن وبالحرب الأهلية، وعلى الأشلاء، فإن الله لا يريد أن ينهى عن المنكر بهذه الطريقة، ويتعطل نص صريح في القرآن هو قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إيقاف حد السرقة في الجهاد والمجاعة:

يتعطل كما عطل النبي ﷺ قياسًا على ذلك قطع يد السارق في الغزو، فقطع يد السارق بنص القرآن ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. ولكن إذا سرق سارق من المؤمنين والمسلمين في الجهاد فإن النبي ﷺ أمر أن لا تقطع يده، ذلك لأنه قد يغتاز وقد تقوم فيه الحماية، فيلتحق بالكفار، ويكون هذا الحد قد أدى إلى ما هو أكبر منه، وهو ارتداد المسلمين وانتكاس صفوفهم.

كما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف الحد، حد السارق عام المجاعة، فلم يقطع يد السارق عام المجاعة، ذلك لأنه يرى أنه في حالة المجاعة وفي

حالة البؤس يمكن أن نعذر الناس وأن لا نحيلهم على المكاره، وأن لا نقطع أيديهم إلى غير ما ذكره ابن القيم مما يطول بنا المقام هنا .

والحاصل أن هذه الأمثلة الثلاثة عشر التي ذكرتها وكان يمكن أن أذكر غيرها وما أكثرها، تدل على أن العدل الإلهي عدل امتاز بالرحمة، وباللطف، وبالرفق، وبالسّر، وبرفع الحرج، ومن ذلك كانت الشريعة الإسلامية سهلة، وكان العمل بها لا يقتضي من المؤمن إلا شيئاً من الاستعداد والتقبل، ليتمكن أن يقوم بواجباته في هذه الحياة الدنيا، وبواجباته بالنسبة للحياة الأخرى .

عدل الناس مرتبط بالله تعالى :

العدل الإلهي طريقة وسنة، خطها الله لعباده، ونصب من نفسه هذا المثل، ولذلك فالعدل الذي يصدره الناس في أحكامهم وفي مجتمعهم مرتبط ارتباطاً أساسياً بالله سبحانه وتعالى، ولهذا قال الفقهاء في تعريف القاضي أنه : منفذ للشرع بالأحكام نيابة عن الإمام . فالقاضي في الحقيقة هو الله، والمنفذ للشرع هو القاضي هو الإمام، ومن استخلفهم من القضاة لتنفيذ الشريعة الإسلامية تحت مراقبته .

خطبة عمر بن عبد العزيز رحمته الله :

خطب عمر بن عبد العزيز رحمته الله وقد ولي الخلافة فقال : أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد صلّى الله عليه وآله، ألا وإني لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع . وتلك إشارة إلى فصل السلطة عرفها الإسلام قبل أن تعرفها القوانين الوضعية .

القانون في نظر الإسلام:

القانون في نظر الإسلام ميزان للحاكم والمحكوم ، ليس ردعاً للمحكوم بقدر ما هو أيضاً للحاكم ، حتى يعرف موازين الأمور ويسوس الناس بالقسطاس المستقيم .

معنى العدل في الإسلام:

العدل في الإسلام ليس فقط هو عدل القضاء ولكنه -العدل- هذا النظام الوسط الكبير الذي يقوم على أساس تلك الأسس المشبعة التي أشرنا إلى بعضها ، والذي يستلهم الرفق بعباده ، والذي يستهدف إقامة مجتمع متوازن سليم لا كراهية فيه ولا حقد ، ولا عصبية فيه ، وهذا الأساس منه ينطلق العدل في الإسلام .

ولئن كانت الدساتير والقوانين الوضعية قد اعتبر تحررها وتقدمها بقدر ما ضمننت لمن سمح لهم بها ، أو لمن وضعوها بقدر ما سمحت لهم من عدل ومساواة وحرية وكرامة ، فإن العدل الإسلامي ضمن من ذلك الكثير ، وأسس لذلك الأصول ، ولا نجد في الدساتير الوضعية إلا ذلك ، أو ترديد ذلك بعبارة أو بأخرى .

العدالة السياسية في الإسلام:

إن الإسلام من الناحية السياسية يبتدئ العدل الذي قلنا في تعريفه من الناحية اللغوية بأنه التسوية بقصد إصلاح المجتمع يبتدئ من التسوية أي من المساواة ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا حتى لمؤمن على غيره إلا بالتقوى ،

هنا هذا هو المقياس الوحيد ، فلا عصبية ، ولا عنصرية ، ولا طبقية ، وإنما هناك تساو ومساواة .

إن النبي ﷺ نفى حتى العصبية الدينية ، مرت جنازة بقرب النبي ﷺ فوقف لها ، فقليل يا رسول الله إنها جنازة يهودي فقال : أو ليست نفساً : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

المساواة أمام القضاء :

من هذه المساواة ، المساواة أمام القانون ، فالناس متساوون أمام القانون مصداق ذلك ، ما روي في الحديث أن امرأة من قريش سرت عقب فتح مكة ، فبلغ ذلك إلى علم قريش فأهمها أن محمداً ﷺ سيقطع يدها ، فأرسلت إليه ، وعرفت من ترسل ، أرسلت له حبه أسامة بن زيد ليستشفع فيها فجاء إلى النبي ﷺ فنهره النبي ﷺ وقال : أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم وقف خطيباً مع أن هذا الصحابي هو حب رسول الله ﷺ وقال : «ما بال أقوام يتشفعون في حد من حدود الله ، إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها»^(١) ، هذه المساواة أمام القانون تحرى الإسلام فيها تحرياً كبيراً حتى صار فيها إلى دقائق الأمور التي خفيت على التشريعات الحديثة ، فسوى الإسلام في مجلس القضاء بين المتخاصمين ، لا يقبل القاضي على أحد ولا يقبل على الآخر ، لا يقف لأحدهما دون أن يقف للآخر ، لا يبش في وجه أحدهما دون

(١) سبق تخريجه .

أن يبش في وجه الآخر ، لا يعاملهما إلا بمعاملة متساوية ، مصداق ذلك من الأثر ، أن يهوديًا خاصم علي بن أبي طالب عليه السلام ورفعته إلى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ابن عم رسول الله وصهره ، فلما وصلا أمام عمر بن الخطاب عليه السلام قال عمر بن الخطاب : قف يا أبا الحسن فاستنكر ذلك علي بن أبي طالب ، قال أتستنكر ذلك لأنني سويت بينك وبين خصمك في مجلس القضاء . قال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكن لأنك ناديتني بكنيتي تعظيمًا ولم تفعل ذلك مع خصمي .

ضمان قواعد الإسلام لمبدأ الشورى :

ضمنت قواعد الإسلام مبدأ من المبادئ العظيمة في الإسلام هو مبدأ الشورى ، أو الديمقراطية السياسية كما يمكن أن تسمى اليوم ، لم يحددها الإسلام بالحدود المتعارفة لأن الإسلام كما قلنا والتشريع الإلهي يهتم بالأصول دون الفروع ، ولكن الشورى نظمها النبي صلى الله عليه وآله بعد أن أمره الله بها في آيتين فقال : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] ، ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، نظمها صلى الله عليه وآله حيث كان الناس يجتمعون في المسجد لأخذ الرأي وتداول الرأي وللجهر بالرأي .

ونظمها صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله بعده ، وأفسح لها الإسلام - هذه الشورى - حتى وصلت إلى اختيار الخليفة ، وضاعت في بعض الأحيان على حسب قابلية الشعوب لهضم هذا المبدأ وعلى حسب استعدادهم لتحمل المسؤولية .

فالإسلام إذن حين يقرر مبدأ الشورى ومبدأ التشاور ، التشاور الذي يعقبه أخذ الرأي والاتفاق عليه بالأغلبية ضد الأقلية وبالتنفيذ ، ولكن حين يكون التشاور فإبداء الرأي مرغوب فيه ، والجهر به مرغوب فيه ،

ولكن حين ينتهي إلى قرار فليس على الأقلية إلا أن تلبى رأي الأغلبية وليس عليها إلا الطاعة والسمع لله ورسوله .

لم يقيد الإسلام بقيد فيمكن أن تكون الشورى بالاستفتاء العام وبالاقتراع المباشر أو بالتصويت درجة أو أكثر ، لم يقيد الإسلام في ذلك وإنما سن مبدأ التشاور وهو المبدأ الذي قامت عليه الديمقراطية .

أهداف الشورى وغاياتها :

الهدف من ذلك كله هو جمع الكلمة ، وتوحيد الرأي ، حتى إذا بغت طائفة من المؤمنين بعد ذلك ، وقامت وخرجت يجب قتالها وتعتبر قد نازعت الله ورسوله ، ويحكم فيها بما حكم القرآن ، والواقع أن هذا المبدأ قد يبدو لنا شيئاً سهلاً ، ولكن لتصور أنفسنا في القرن السابع الميلادي في ذلك الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الإغريقية والرومانية والفارسية قد انتهت واستسلمت إلى خنوع وإلى خضوع لأنظمتها ، فجاء الإسلام في ذلك الوقت ونادى بهاته المبادئ هنا يظهر الفرق فلا يجب أن نقيس هذه المبادئ بما نعرفه اليوم بعد التطور الذي حدث في العالم ، ومع هذا التطور فإن شأواً كبيراً من قواعد الإسلام لم يدرك بعد .

إن قواعد الشورى التي «تقوم عليها» يقوم عليها الإسلام الجهر بالرأي ، ومن حق المسؤولين أن يشجعوا ذلك قال أحد لعمر بن الخطاب : اتق الله يا عمر ، فتقرز لذلك بعض الصحابة فقال عمر بن الخطاب : لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم .

المساواة بين العباد في الأفعال والعبادة:

قد سوى الله بين جميع عباده في الأفعال والعبادة ، فالكل يقف أمام الله سواء ، في الصلاة في الحج ، في الجهاد ، الخدمة العسكرية يقفون في الجهاد متساوين ، ويقفون في الحج مجردين من المخيط ، ويقفون في الصلاة وقد سويت صفوفهم وذلك ليكونوا أمام الله سبحانه وتعالى سواسية ، كي يقيم القسطاس المستقيم في الحياة أيضاً .

والذين لم يفرض عليهم الجهاد من المتساكنين في ظل الإسلام فرضت عليهم الجزية وهي ضريبة الدفاع عن الحضيرة الإسلامية التي تحمي كيانهم ، وتصون معتقداتهم ، وسنرى كيف ضمن الإسلام فيما ضمن من حريات حرية العقيدة وحرية العبادة ، والناس متساوون في دفع الضرائب بكيفية تصاعدية لبيت المال ، كل على قدر ماله ، والفقراء متساوون منها جميعاً في الإعفاء ، فليس هناك في هذا الباب استثناء ولا امتياز ولا حظوة ، وذلك هو نظام التكافل الاجتماعي .

المساواة في فرص العمل والتعليم:

الدولة حين تسوي بينهم في العبادات تسوي بينهم في الحظوظ والفرص ، فلكل واحد أن يأخذ نصيبه في العمل والمسئولية على قدر كفاءته ، وعلى قدر أهليته ، وتسوي بينهم الدولة في فرص التعليم وفي فرص الصحة ، فالعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وطلب العلم واجب عيني فيما يتعلق بالعلوم الأساسية كعلوم الدين ، وواجب كفائي في العلوم الكمالية ، ولكن إذا لم تتوفر الإطارات للأمة فإنها تأثم لعدم توفرها على الإطارات الكافية ، ويكون جميع المسلمين قد أثموا بتركهم العلوم الكمالية ، كما يآثمون بتركهم العلوم الأساسية .

وهذا العلم يجب أن يطلب في كل مكان، ويتلقى من أي مكان، فاطلبوا العلم ولو في الصين وليس المراد به الإبعاد فقط، ولكن المراد أن يبعد طالب العلم النجعة في سبيل العلم، وأن يتلقاه عمن كان مسلمًا كان أو غير مسلم، اطلبوا العلم ولو في الصين يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالمًا أعلم من عالم المدينة.

المساواة في العلاج:

العلاج كان النبي ﷺ يقيم المصححات، ويعود المرضى، وكان عمر بن الخطاب يسأل عن ولاته أيزورون المرضى ويعودونهم أيوفرون لهم الصحة والعلاج أم لا، فتلك من المقاييس التي يمتاز بها الناجحون من العمال والولاة في عهد الإسلام، وقد ولى النبي ﷺ حتى الموالي بل قدمهم على غيرهم، ولاهم في إمارة المدينة، فأنا ب عنه بلال بن رباح وزيد بن حارثة في إمارة المدينة وغيرهم من الصحابة موجود، واعتنى النبي ﷺ بإسناد الأمور إلى أهلها وإن كانوا صغارًا، فأمر على بعث بعثه لمشارف الشام أسامة بن زيد، وفيهم وفي هذا البعث كبار الصحابة عمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، فاستنكروا ذلك واستصغروا أسامة بن زيد أن يكون أميرًا عليهم، فلم يقبل النبي ﷺ ذلك منهم.

ذلك لأن النبي ﷺ كان في آخر حياته وكان ينظر إلى تجديد الإطارات بإسناد المسؤولية إلى الكفاءة ولو من الشباب.

الجامعة الإسلامية لا تقيد بجنس ولا حدود:

الجامعة الإسلامية، جامعة لا تحدها جنسية، ولا حدود جغرافية، فالمسلم أخو المسلم يدخل في هذه الجامعة الإسلامية بدون جواز سفر،

ويحل بالجامعة الإسلامية على الرحب والسعة ، ويتحمل أقصى المسؤوليات وأعظمها إذا توفرت فيه الشروط في بلاد قد تعتبر غير بلاده باصطلاحنا الحديث ، ولكنها تعتبر وطنه باصطلاح الإسلام .

ويذكر التاريخ أسماء كثيرين ممن تولوا المسؤولية في بلاد غير بلادهم كابن خلدون ، وابن بطوطة ، وابن الخطيب ، وغيرهم ممن كانوا يتولون القضاء أو الوزارة أو الولاية في مصر وإن كانوا من تونس ، أو في المغرب وإن كانوا من الأندلس ، أو في عكس ذلك .

للحرية في الإسلام شروط:

الحرية التي ضمنها الإسلام حدها بشرطين : لا حرية مع الفوضى ، فيجب أن تكون الحرية هادفة ، وأن تكون الحرية بناءة وأن لا تكون حرية تخريب وتدمير ، تهدم المؤسسات ، وتعيث بها ، فكل حرية تضر بالصالح العام ، أو تضر بالنظام العمومي ، أو تهدم كيان الأمة ، أو تعبت بمقدساتها الروحية فليست بحرية ، والإسلام لا يضمنها .

حرية العقيدة:

ضمن الإسلام هذه الحرية وحدد وسيلتها بأن لا يجهر الإنسان بالقول بالسوء ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] ، وأن يجادل الإنسان بالحسنى . ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وأن يعرض عن الجاهلين فلا يعاملهم بنفس الأسلوب إذا ما تسفلوا ونزلوا . وضمن الله فيما ضمن من الحريات حرية العقيدة في القلب ، ليعبد الإنسان ربه كيف يشاء ، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا

أَنْتُمْ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٣﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٤﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٥﴾ [الكافرون: ١-٦]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

حرية العبادة:

ضمن حرية العبادة أوصى أبو بكر بعث أسامة بن زيد الذي تحدثنا عنه فيما سلف فقال فيما قال لهم: وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له أي في الكنائس، ومن ذلك وثيقة الأمان لنصارى نجران الذي أعطاه النبي ﷺ لهم وجاء فيها بأنها وحاشيتها جوار من الله، وذمة رسول الله ﷺ، على أموالهم، وعلى أنفسهم، وأرضهم، وملتهم، وبيعهم، أي كنائسهم لا يغير أسقف من أساقفتهم، ولا راهب من رهبانهم، ولا يطارد أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.

وكذلك الوثيقة التي أعطها عمر بن الخطاب لأهل إيليا بيت المقدس، وجاء فيها: هذا ما أعطى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أهل إيليا من الأمان أعطاهم أمانًا لأنفسهم وكنائسهم، بل وحتى صلبانهم، لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. فأين هذه الساحة الدينية من الحملات الهوجاء التي يقال إن المسلمين معرضون لها بالجملة في جهة من جهات الدنيا، والمسلمون لا يتحركون، والمسلمون يرون أن خمسين مليونًا من البشر يقال إنهم سيستأصلون، في الوقت الذي كان الإسلام في القرن السابع الميلادي يعطي الأمان للصليبان والكنائس والرهبان.

الأمة لا تجتمع على ضلالة:

ضمن الإسلام فيما ضمن ، اجتماع الرأي العام على الهدى لا على الضلال ، فقال النبي ﷺ : «ما رآه المسلمون حسناً فهو حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً فهو سيئ»^(١) ، ونهى ﷺ أن يكون المؤمن إمعة ، يتبع الناس قال عليه الصلاة والسلام : «لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»^(٢) .

النصيحة لله ولرسوله ولأئمة:

من ذلك النصيحة ، النصيحة لله ، ولرسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وهي من الدين ، ولكن بالأسلوب الحسن الذي أشرنا إليه فيما سبق ، فالمجادلة بالتي هي أحسن بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبقصد النفع وبقصد الاجتهاد في الرأي وبقصد الخير لا بقصد الشر والتحطيم والتهديم .

ضمان حرية المسكن:

ضمن الإسلام فيما ضمن من الحريات حرية المسكن لأهله ، فلا يقتحم على رجل بيته ، وهي من الحريات التي يتبجح بها اليوم ، وتضمها الدساتير في حين أن الإسلام قد تعرض لها في قول الله سبحانه وتعالى في سورة

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٣٧٩) ، والحاكم في «المستدرک» (٣ / ٨٣) موقوفاً على

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

النور: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ [النور: ٢٧، ٢٨] - بليلى أو نهار قال المفسرون - ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨] .

وضمن الإسلام للإنسان هذه الحرية فمنع التجسس عليه فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] .

حرية التظلم والشكوى:

ضمن الإسلام للإنسان حرية التظلم والشكوى كما في الحديث: «فمن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون مظلّمته فهو شهيد»^(١)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما روي عنه: أيما عامل ظلم أحداً وبلغني مظلّمته فلم أغيرها فأنا ظلمته، وهذا مقدار معرفة المسؤولية والاهتمام بها، حتى إن الظلم يقع على غير يد أمير المؤمنين فيقول أمير المؤمنين إن لم أغيرها بعد أن بلغتني فأنا ظلمته .

حرية التملك بشرط النفع والانتفاع:

ضمن الإسلام فيما ضمن حرية التملك، وحرية التصرف فيه، فحرية الملك حق مقدس، والدفاع عنه حق مشروع، «كل المسلم على

(١) أخرجه الترمذي (١٤٢١)، والنسائي في «المجتبى» (٤٠٩٤) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح .

المسلم حرام ، دمه ، وعرضه ، وماله ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد»^(١) .
وإذا كان الإسلام قد أباح الملكية الخاصة ، فقد قيدها بالنفع
وبالانتفاع بها ، فالإسلام لا يرضى عن تكديس الأموال دون أن تنفع
خيراتها على الناس ، وفي الحديث يروى أن النبي ﷺ قال : «من كانت
له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ليزرعها فإن أبى فلتمسك عليه
أرضه»^(٢) .

فحث الفلاحين ليزرعوا الأرض ، وليحرثوها ، أو ليعطوها لمن يزرعها من
صميم هذا الحديث ، ومصداقه هذا الحديث ، ومن صميم تعاليم الإسلام .

تقسيم الإسلام للميراث :

الإسلام إذ يريد هذه الملكية ويرعاها ولا يريد أن تتكدس دون أن
يستفيد الناس منها من أجل ذلك قسم الإسلام الميراث قسمه بنفسه ووقف
على قسمه بنفسه ، وحدد أنصيبه بنفسه ، وقال بعد ذلك ﴿وَمَنْ يَنْعَدْ حُدُودَ
اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٢٩] في آخر آيات الميراث .

وإذا عرفنا أن المجتمعات الإغريقية والرومانية والفارسية لم تكن تورث
المرأة . وإنما كانت تورث ، عرفنا الثورة الكبيرة التي قادها محمد ﷺ
بهدي من القرآن ، وأمر من القرآن في أمر توريث المرأة .

والنبي ﷺ أو الإسلام قاوم الاسترقاق وقد وجده كظاهرة طبيعية في
تلك المجتمعات التي كان يدعو إليها ، فمهد لإبطاله شيئاً فشيئاً ، ومع

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٤١) ، ومسلم (١٥٣٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

ذلك فإن النبي ﷺ قد ولى الموالي ، كان عمر بن الخطاب عندما طعن قال مروا صهيبيًا فليصل بالناس ، قال : لو كان سالم مولى أبي حذيفة موجودًا لاختارته للخلافة .

المساواة بين الرجل والمرأة:

سوى الإسلام بين الرجل والمرأة ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] . إن الله لا يضيع أجر عامل منكم من ذكر وأنثى بعضهم من بعض ، إنما النساء شقائق الرجال في الأحكام ، أو شقائق الرجال كما ورد في الحديث ، وإذا كان هذه التسوية قد يعترض عليها بعض لقول الله سبحانه وتعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] . فإن هذا الاعتراض غير وارد ، فقد ثبت في السنة أن رعاية البيت يشترك فيها الرجل والمرأة . «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها»^(١) . ولكن الرجل يأخذ دور القيادة ودور الرئاسة ، لأنه أولى به ، وخصوصًا إذا كانت المرأة غير قادرة وغير متعلمة ، فهذا الدور يرجع بالأصالة إلى الرجل .

أما ما يقال بأن الإسلام ورث المرأة أقل من الرجل ، فذلك غير وارد أيضًا ، لأن الإسلام إذا ورثها أقل من الرجل وهو صحيح ، فقد جعل نفقتها دائمًا على زوجها ، ودائمًا على أبيها قبل الزواج ، وقال الفقهاء إن نفقتها لا تسقط ولو كانت المرأة غنية ففي مقابل ذلك جاء هذا الفرق .

(١) سبق تخريجه .

العدالة الاجتماعية في الإسلام:

سأختصر شيئاً ما في العدالة الاجتماعية ، كما تنطلق المساواة السياسية من مبدأ مساواة الإنسان للإنسان والبشر للبشر ، تنطلق المساواة الاجتماعية في العدالة الاجتماعية من هذا المبدأ نفسه ، فالخلق كلهم عيال الله ، ورفض الإسلام كل شيء إلا جامعة العقيدة . فلا فروق ، ولا فوارق اجتماعية ، وركب ورتب الله المجتمع المثالي الإسلامي ووضع خلاياه ابتداء من الفرد ثم الأسرة التي أشرنا إلى معاشرتها على سبيل التزاوج الحر ، ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعُ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ، ويبقى الرجل قيماً على المرأة ورئيساً بالبيت مع أن مسئوليتهم مشتركة ما لم يحصل الإضرار ، فإذا حصل الضرر فإن الله قد شرع الطلاق ، ولم يعقده التعقيد الذي اتصفت به بعض الديانات الأخرى ، حتى أصبح مستحيل الوقوع ، وغير ممكن ومع ذلك فقد ذكر الله أن أبغض الحلال - مع ذلك - إلى الله ، الطلاق .

فالأُسرة ، والفرد ، ثم بعد ذلك طائفة من المجتمع ، قدمهم الله في العناية ، وفي التسوية ، هم الأقارب المتصلون برابطة الأبوة ، أو برابطة الأخوة ، أو برابطة المصاهرة ، فأوجب النفقة للآباء على الأبناء إذا كان آباؤهم عاجزين أو بلغوا سن الشيخوخة أو غير قادرين .

إيجاب نفقة المرأة على الرجل:

أوجب الله النفقة للمرأة على زوجها ، وكل ذلك من الإسلام لأجل تقويم المجتمع ، ولأجل تسوية المجتمع ، ولأجل أن تزول أسباب النفور والانحلال في المجتمع ، وقد رغب الله في الزواج ، وأوصى به النبي عليه

الصلاة والسلام : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»^(١) ، وذلك لأنه يرى في الزواج الوسيلة لحفظ النسل ، وللمحافظة على الوقوع في الأمراض المادية والمعنوية ، ولأجل تعويد هذا المجتمع السليم القائم على هذا التزاوج وهذا التعاشر بالحسنى وبالمعروف .

الوصية بالأقارب وذوي الأرحام :

دائرة القرابة وذوي الأرحام أوصى الله بهم ، ولكن لا لأن نعيدها جاهلية ، يتفاخر فيها الآباء بالأبناء ، ولا لنعيدها محظوظية ، ولكن هؤلاء الأرحام أوصى الله بهم وطلب أن يعتنى بهم ، في أول ما يعتني به المسلم في خلايا من خلايا مجتمعه .

مراعاة اليتيم والرفق به :

اليتامى نحافظ على أموالهم ونرفق بهم ، وننفق عليهم ، إذا لم يكن لهم مال ، ووعد الله الذين يأكلون أموالهم بالباطل بشر وعيد ، والأرامل ، والمثقلين بالديون ، يتحمل المجتمع كفالتهم ويقوم بهم ، والغرباء الذين انقطع بهم السبيل ، يتحمل مسئولية كفالتهم حتى يردهم إلى بلادهم بعد أن يعطيهم ما ينفقون ، وما يسدون به الحاجة .

التعاون والتعاطف بين جميع أفراد المجتمع :

هذا التعاون والتعاطف الكبير الذي يشمل خلايا المجتمع كله ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة : ٢] ، و«لا يؤمن

(١) سبق تخريجه .

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١)، وما أحسن قول الرسول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي»^(١)، كأنما يصور المجتمع في جهاز واحد، لا يمكن أن يفك عضو عن عضو، ولا يمكن أن يبقى طرف منه غير مغذى، ولا أن تصل التغذية إلى جزء منه دون أن تعم على الأجزاء الأخرى وإلا لم يكن هذا المجتمع مجتمعًا سليمًا، ولم يكن هذا المجتمع مجتمعًا قويًا وكان مجتمعًا مآله إلى الخراب ومآله إلى الفناء.

* * *

(١) سبق تخريجه .

المحاضرة الثالثة والعشرون بعد المائتين

طاعة الولاة في المعروف

خلق الله الخلق ووضع لهم أسسا يرجعون إليها في ترابطهم ، علم أن الناس لا يصلحهم إلا أن يكونوا مجتمعين مترابطة أمورهم ، يرجعون في أمورهم إلى قاعدة يستمدون منها ، ويرجعون إليها ، لذلك جعل الله سبحانه وتعالى أمر العباد في جميع أمورهم راجعا إلى أن يكون لهم رعاة يرعون مصالحهم ، ويدفعون عنهم النكبات ويساعدونهم في أمورهم وينظمون أحوالهم في حدود المصالح العامة في حدود ما يصلحهم ، وأمر العباد أن يطيعوهم ، وأن يجتهدوا في لم كلمتهم معهم ، لما في ذلكم من صلاح الأحوال وصلاح المآل ، لأن الناس إذا لم تكن لهم رابطة يرجعون إليها لم تتميز صفاتهم عن صفات الأنعام .

الأمر بالطاعة من تكريم الله للإنسان :

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، خلق الناس ، خلق بني آدم وكرمهم على كثير ممن خلق ، كرمهم بنعمة العقل يعرفون ما يضرهم وما ينفعهم ، ولم يتركهم جل وعلا إلى عقولهم ، لأن العقول قد تجنح لها أمور وقد تتراءى لها أشياء ، تظن أنها هي الفلاح والنجاح فلم يتركهم جل وعلا على هذه العقول تأمرهم وتنهاتهم ، بل وضع لهم رابطة على ألسنة الرسل وقال لهم : أطيعوني ، وقال لهم أطيعوا الرسل ، فيقول جل وعلا في محكم التنزيل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] .

طاعة أولي الأمر توفر الأمن في المجتمع:

لماذا يأمرنا الله سبحانه وتعالى بطاعة أولي الأمر؟ ها نحن أطعنا الله وأطعنا رسوله لأنه المبلغ عنه فما بال أولي الأمر؟ لأن طاعتهم فيها الفلاح وفيها لم الكلمة، ولأن مخالفتهم فيها الفرقة، وفيها استباحة المحرمات، وفيها سفك الدماء، وفيها التشبه بقطعان الماشية التي لا راعي يرعاها، بل إن من المواشي من يتخذ له راعيا يقوده في سيره ويحل إذا وقف هذا الراعي، فهؤلاء البشر اختارهم الله واستخلفهم في هذه الأرض جعلهم خلفاء فيها يعمرونها بالطاعة، لا بد لهم من قاعدة يصدرون عنها ويرجعون إليها، هذه القاعدة هي ولاة الأمر، لما فيها من الصلاح والاستقامة، مهما كلف الأمر، ما لم يكن هناك أمرا ظاهر البيان، واضحا لكل مستبصر ما لم تتروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان.

طاعة الأمير من طاعة الرسول ﷺ:

طاعة ولاة الأمر من طاعة الله، من طاعة رسول الله، مصداق ذلكم قول المصطفى ﷺ حيث يقول: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني»^(١). فربط ﷺ طاعة الأمير بطاعته وجعلها طاعة له، لما علم بل لما نفذ بصره ﷺ إلى المغيبات التي أطلعها الله عليها، لأن مخالفة الأمير وإن كان بشرا لا ينزل عليه الوحي، وإن كان يتصرف تصرفا غير كامل السلامة، لأن الطاعة فيها لم الكلمة، فيها لم الشعث، فيها جعل الأمة أمة متراصة متآخية.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السلامة في الطاعة والشر في الفرقة:

أثنى الله جل وعلا على المتحابين المتآمرين بالمعروف المتأخين المجتمعين المعتصمين بحبله فقال جل وعلا: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، لم لا نتفرق، لما في الفرقة من الضياع والمهانة، أرايتم ما حدث للعالم الإسلامي في قديمه وحديث من استباحة للبلاد، وتسلط على البيضة، وإخراج لبعض المسلمين عن أوطانهم، أكان هذا باتفاق المسلمين مع ولائهم؟ أم كان باختلافهم على ولائهم.

السلامة في طاعة الأمراء ولو كانوا جائرين:

معلوم أن النبي ﷺ قد علم أنه سيأتي ولاية فيهم نوع من الجور، وفيهم نوع من المخالفة، وفيهم نوع من عدم ركوب الجادة المستقيمة طوال الوقت، ومع ذلك يأمرنا بطاعتهم، لا لأن ما يفعلونه خيرا محضا، ولكن لأن مخالفتهم ومناذتهم شر محض، يقول ﷺ أو قريبا منه: «إنه سيكون بعدي أمراء تعرفون منهم وتنكرون، يعني أنهم تعرفون منهم أمرا معروفا، وترون منهم أمرا منكرا، فاصبروا»^(١).

مخالفة الأمير للشرع ومعصيته لا تنفي طاعته:

وفي خطابه للأَنْصار يقول: «سترون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٣)، ومسلم (١٠٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

يقول ﷺ لما أخبر عن الأمراء الذين يأتون فيما بعد : «يؤخرون الصلاة عن أوقاتها ترون منهم وتنكرون فقال ﷺ : أطيعوهم ما صلوا»^(١) . فإذا صلوا وعصوا ، وغشوا منكرا وضربوا وأخذوا شيئا من أموالنا أنطيعهم؟ يقول ﷺ : نعم إذن لم نطيعهم وهم يفعلون هذا؟ هل لأن ما يفعلونه طاعة لله؟ أم أنه معصية؟ لا ، هو معصية ، ولكن يفسره وبينه المصطفى ﷺ ، بينه بأنهم إن أحسنوا فلكم ولهم ، وإن أساءوا فعلينا وعليهم؟ لا! وإن أساءوا فعليهم^(٢) لأن هذا النظام الذي يجعله الله سبحانه وتعالى رابطة للبشر إذا هم لم يتقيدوا به على ما فيه من غضاضة وعدم استقامة تامة ، إذا لم يتمسكوا به ، هانوا .

ضرر الفرقة وعدم الاجتماع:

معلوم أن الذئاب إنما تأكل من الغنم القاصية . ومعلوم أن الناس إذا لم يكونوا ملتفين في حزمة واحدة ، يسهل على الأعداء تحطيمهم ، يتسلط الشيطان عليهم لأنهم غير مجتمعين ، وإلا لو اجتمعوا لما أصابهم ما أصابهم ، فكأن رسول الله ﷺ ينظر إلى المستقبل من خلال ستار الغيب ليرى نتائج اختلاف الناس على الأئمة ، ليرى ما يجز هذا الاختلاف على الأمة من المصائب المتلاحقة ، والويلات الماحقة التي جعلت المسلمين بدل أن يكونوا يغنمون في غزواتهم جعلتهم كما قال الأول .

ندمتم على قتل الأغرب بن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم في غزوه من غنيمة وأنتم لمن يغزوكم اليوم مغنم

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٣١٠) ، والدارقطني في «السنن» (٢/ ٥٥) من

حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

تفرق الناس يا عباد الله في بعض الأزمنة على الأئمة فأصبحوا مغنما للأعداء، وأصبح الأعداء فينا يتحكمون، لا لأننا أطعنا الولاة في جميع أمورنا، ولا لأننا صبرنا على الشدائد.

الصبر على الولاة أهون من الفرقة:

النبى ﷺ في المبايعة، في الدخول في الإسلام، يبايعنا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، في العسر واليسر، وعلى الأثرة، لم يرض رسولنا للناس وهو بالأمة رءوف أن يصبروا إذا ولي عليهم ولاة ظلمة، أن يصبروا على الجور وهم أمرهم الله سبحانه وتعالى بالعدل والإنصاف، وأثنى على المنصفين المقسطين، لم يأمرهم؟ يأمرهم ﷺ بما يأمرهم لعلمه أن الصبر على المعاصي أهون بكثير من الفرقة المتناهية التي تسفك بها الدماء وتنتهك فيها الأعراض، وتنهب فيها الأموال وتفرق فيها الكلمات، وتهون أمة الإسلام على أعداء الإسلام.

فضل الله على العرب وجمعهم بعد الفرقة:

إن هذه الأمة التي جمعها هذا الرباط العظيم، جمعها بعد أن كانت في جزيرة لا تعرف من المدنية شيئاً، لا تعرف رابطة تربطها إلا رابطة القبيلة المتفككة، لا تعرف نظاماً، أمة أمية، لا تعرف خط القلم، لا تعرف إلا الغزوات فيما بينها، وسلب للأموال، ووأد للبنات، وانتهاك للحرقات، وإغارة على الإخوة وأبناء العمومة؟ هكذا كانت جزيرة العرب، فجاء هذا الرباط من عند الله، فجمع بين المتخالفين، وألف بين المتباغضين، وأحيا هذه الأمة الميتة أحياءها، والمعلوم لمن درس التاريخ أن أمة من الأمم لا يمكن أن تبلغ المجد وترتقي إلى قمم العزة في فرصة وجيزة، بل

لا يمكن أن تقوم أمة وتصبح دولة عظيمة مرهوبة في الدنيا إلا بعد ما لا يقل عن مائة سنة، فانظروا إلى أمة ربط الله سبحانه وتعالى بين قلوبها وألف بينها كيف ارتقت؟ بل كيف شلت عروش الأعداء في مدة لا تتجاوز العشرين سنة، ما ذلكم ياعباد الله إلا لأن هذه الأمة التفتت حول قاعدة الترابط، قاعدة الولاية العامة، لا بما تمليه الحروب ولكن بما ينبع من القلوب، آمنت أن عزتها ومجدها واستقامة أمورها وتوحد كلمتها إنما هو بالتفافها وراء قيادة سليمة، وراء وال يأمرها وينهاها وإن لم توافقه في كثير من الأحيان، أو إن لم توافقه في بعض الأحوال مع ذلك تطيعه.

موقف الصحابة من الصديق وحروب الردة:

انظروا أيها الإخوان إلى موقف الصحابة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كيف استشارهم في حرب الردة فخالفه الصحابة أو جلهم، فلما عزم لم يقولوا خالفنا لا نطيعه، لا! لما عزم عرفوا أن عزهم ومجدهم باتباعه وعدم مخالفته لأنهم لو خالفوه لما قام للإسلام قائمة. ولأنهم لو خالفوه لأغار أعراب البادية على المدينة وانتهبوا أمهات المؤمنين، فجعل الله سبحانه باتباعهم والي أمرهم، وامتلأهم لأمره دونما موافقة من كثير منهم، جعل في ذلكم الخير وكان الرأي السليم، وكانت العزيمة الحقة أن اتبعوه رضي الله عنه.

موقف الصحابة من تجهيز جيش أسامة:

ثم استشارهم في قصة تجهيز جيش أسامة، فخالفه، فعزم على إنفاذه فلم يجدوا بدا من طاعته وامثال أمره، ولم يقل أحد منهم أنا فلان، أنا رأيي ذاك أخالفه، لا! فالمخالفة شر كبير ومع ذلك أطاعوه. فكانت في طاعتهم إياه العزة والمجد والهيبة.

عزة الأمة في الترابط:

هكذا يا عباد الله في فرصة وجيزة طبق الناس هذا الترابط العظيم فحصل لهم الخير والمجد .

عصيان الولاة أدى إلى التخاذل والذلة:

هكذا حصل بخلافه ، لما حصل على الأمة الإسلامية أنها لم تتقيد في حدود طاعة الولاة في كثير من الأمور ، حصل لهم اختلال الموازين . حصل لهم الافتراء في كل مكان ، فماذا حصل أيها المسلمون؟ كما قال الأول حينما تحدث عن الأندلس .

ما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهل يحكي انتفاخا صولة الأسد

هل جاء هذا يا عباد الله من اتباعهم للولاية العامة وإن كان فيها خطأ؟ أم جاء من الفرقة والتخاذل؟ طبعاً إنما جاء من تنكبهم الصراط المستقيم ، من إعراضهم عن الالتفاف وراء الولاية العامة كل مكان في كل زاوية ينبغ نابعة ، ويقول أنا لها ، ثم ماذا حصل لها؟ حصلت الذلة والفرقة والزعزعة والقلق والحيرة ، ثم التنفير والعياذ بالله ، ثم ما يؤلم النفوس ويذيب القلوب أسى وكمد . وهكذا يا عباد الله واقع المسلمين في كل زمن ؛ إذا هم التفوا وراء قيادتهم واتبعوا أمر الوالي ، ما لم يروا كفرا بواحا عندهم فيه من الله برهان .

لا تحل المعصية إلا عند الكفر البواح:

إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم فيه من الله برهان لم يتركنا رسولنا

ﷺ إلى مقتضيات عقولنا، إلى ما نفهم؛ ونقول هذا كذا وهذا كذا لا، لا بد أن يكون عندنا فيه من الله برهان.

يقول النبي ﷺ فيما يحكيه لنا عما سيحدث حينما سأله أحد السائلين، قال: يا رسول الله، أ رأيت - فيما يتعلق بالولاية الظلمة - إن سألونا حقهم ومنعونا حقنا؟ قال: «أعطوهم حقهم. واسألوا الله حقكم»^(١).

لم يقل امنعوهم، بل الأمر يتجاوز ذلكم يا عباد الله، يقول: أطيعوا الوالي، وإن أخذ مالك وضرب ظهرك، لا لأن هذا العمل أيها المسلمون خير محض، ولكن كما تعلمون.

جلب المصالح ودفع المفسد من قوام الشرع:

جاءت الشريعة بجلب المصالح ودرء المفسد فإذا كان هناك أمران فيها خير، الشريعة جاءت بأخذ أكثرهما نفعا وأعظمهما فائدة، وإذا كان هناك أمران كلاهما شر ولا بد من ركوب أحدهما، فركوب أدناهما ضررا جاءت به الشريعة، لأن الشريعة أيها المسلمون سمحة، ما جعل الله علينا في الدين من حرج، ملة أبينا إبراهيم فهذه الملة الحنيفية السمحة هي التي تأمرنا بهذا.

الوالي ليس حراً فيما يفعل:

لم يترك الله الوالي يتصرف كيفما حلا له الأمر ولم يتركه يأخذ ما يريد، دونما رقيب يراقبه، دونما زاجر يزجره، لا لم يتركه يعمل ما يشاء.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

دعاء النبي ﷺ على الولاة الظلمة :

يقول المصطفى ﷺ : «ما من امرئ يتولى أمرا من أمور هذه الأمة - أو كلمة نحوها - ثم لم يمحض لهم النصيحة إلا لم يدخل معهم الجنة» ؛ وفي رواية يقول ﷺ : «من ولي من أمر أمتي شيئا فلم يمحض لهم نصحا إلا كبه الله في النار» ، ويقول ﷺ : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم ، فاشقق عليه ، ومن ولي من أمور أمتي شيئا فرفق بهم فافرق به»^(١) .

هكذا يدعو نبينا ﷺ ، وكل نبي مستجاب الدعوة ، هكذا أخبرنا أن كل نبي مستجاب الدعوة ، يدعو لمن يرفق بأمرته من يمحضهم النصيحة ، ويدعو على من يشق عليهم .

شر الرعاء الحطمة :

يقول ﷺ : «إن شر الرعاء الحطمة»^(٢) . والحطمة هو الذي لا يراعى للرعية جانبا هو الذي لا يمحضها النصيحة ، هو الذي لا يسهر ليله في مصالحها ، هو الذي يتهاون بمصالح الأمة . همه أن يشبع رغباته ، أن يشبع نفسه من طموحها الشهواني ، من التسلط ، من سوم الناس سوء العذاب ، دونما رعاية لحقوقها . هذا أيها المسلمون يدعو عليه نبينا وحبينا ﷺ بالمشقة ، يدعو عليه بالويل والشور ، معلوم أن النبي ﷺ ، سوف تستجاب دعوته ، ومعلوم أن من يدعو عليه النبي ﷺ ليس في عيشة راضية ، ولن يفلح أبدا . لأنه ﷺ ما ينطق عن الهوى .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٠) من حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه .

فهكذا أيها المسلمون الإسلام يأمر الأمة أن تكون منقاد طيعة لولايتها ما لم يكن عندها برهان من الله على أن الوالي راكب للكفر البواح ، ثم لا يترك الوالي من دون وازع ومسلط على ضميره يؤنبه إذا هو جار ، بل يؤاخذه .

كل راع مسئول عن رعيته أمام الله :

يقول الله في محكم التنزيل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء : ٥٨] .

هذه موعظة ، يعظ الله بها كل من ولي ولاية سواء كانت هذه الولاية الولاية العظمى : الإمامة ، أو كانت ولاية خاصة ، فالأمة يقول الرسول ﷺ : «كلكم راع»^(١) وكل فرد من أمة الإسلام راع ، فإياه أن يهمل رعيته ، إياه أن يفرط في هذه الرعية ، إياه أن يتركها تتقاسمها السباع ، وتلعب بها الذئاب في مطاوي الأودية في منعرجاتها ، إياه أن يهملها فإن هناك سائلا يسأله يوم القيامة كيف حاط الرعية؟ كيف أدلى الأمانة ، كيف محضها النصيحة؟ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ثم يفصل النبي ﷺ هذه الرعاية تفصيلا واضحا ، يبدؤها من الرعاية العظمى ، وينتهي بها إلى رعاية الخادم في بيت سيده وفي مال سيده . فانظروا يا عباد الله كيف أن الرعاية وكيف أن الالتفاف وراء ولاة أمرنا أنه من ديننا ذلكم أيها المسلمون أن الدين الإسلامي ليس دين محراب فقط ، وإنما هو دين محراب ودين سياسة ، دين سيف وكتاب ، دين عزة ورفعة ، دين تنظيم ؛ نظم للناس أمورهم ، وعلمهم أن فرقة الجماعة ميتة جاهلية ، علمهم أن من نبذ العهد فقد خلع ربقة الإسلام .

(١) سبق تخريجه .

أكبر الغدر غدر الإمام برعيته :

يقول النبي ﷺ : «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، ويقال هذه غدره فلان بن فلان»^(١) . أو كما قال ﷺ . فابن عمر راوي الحديث يقول : ولا أرى أكبر غدرا من إنسان أعطى إماما صفقة يده . فهذه يا عباد الله الولاية في الإسلام ، رعاها حق الرعاية ولم يهملها ، جاء بأمر الراعي بالعدل والإنصاف وملاحظة أمور الأمة ، وجاء بسوق الأمة وراء الراعي لما في ذلكم من المصلحة المحققة ، لما في ذلكم من العزة الأكيدة . وإلا لو أنه ترك الناس إذا استغربوا أمرا وبغى كل واحد لحصل لهم ما أنتم عالمون به من واقع الأمم في القديم والحديث .

كيف جرت عليهم الولايات بسبب مخالفتهم لولاتهم وكيف سعدوا إذا هم تمسكوا بالبيعة الحق ولم ينفضوا يدا من طاعة إلا إذا رأوا كفرا بواحا .

ما الأمر إذا جار الولاية؟

يا عباد الله ، هكذا الولاية في الإسلام أمرها عظيم ، يقول النبي ﷺ : «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٢) ، أو كما قال ﷺ ، في هذه المقابلة يقول لنا : «ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية»^(٣) . فهل الدعوة إلى التمسك بالإمامة العامة دعوة جاهلية؟ أم أن الدعوة إلى غيرها هي الجاهلية . لا شك أن الإسلام من خيره ومجده أنه جعل الأمة تنقاد للوالي وإن جار ، فإن النبي ﷺ علم بل أخبرنا أن العدل التام لن يبقى

(١) أخرجه البخاري (٧١١١) ، ومسلم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٤) ، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

طويلا ، بل أخبرنا أن الخلافة ستبقى ما شاء الله ثم تكون ملكا عضودا . فهو مع ذلكم يعلم أن هناك أمورا ستحدث ، أمور نعرفها ونكرها ولم يقل : إذا رأيتم ما تنكرونه فانزعوا أيديكم من الطاعة ، بل يقول لنا اسمعوا وأطيعوا لدرجة أن من قتل في مثل هذا فهو شهيد ، هكذا يأمرنا ما لم يكن يا عباد الله الأمر بمعصية ، عند ذلكم تقف حدود أمر الوالي ، وتنتهي صلاحياته . فإذا أمرك بالمعصية فقل لا ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

صاحب الولاية الحقبة يأمر بطاعة الولاية:

إن الولاية الحقبة هي ولاية الله سبحانه وتعالى وإن الحاكمية المطلقة هي حاكمية الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي له الحكم المطلق والأمر المطلق ، وهو الذي لا يسأل عما يفعل ، لكن أمرنا أن نطيع الولاية ما لم يأمرنا بمعصية ، هكذا لم يقل أطيعوهم ما لم يعصوا هم ، بل أخبرنا ﷺ حينما قال له القائل : إذا كان هناك ولاية يعصون الله . قال ﷺ : «من كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع»^(١) .

من كره فقد برئ ، رأيت الوالي يرتكب منكرا ولم يرتكب كفرا بواحا عندك فيه من الله برهان ، فأكره عمله وأنت تكون قد برئت ، فإن أنكرت فقد سلمت

الإنكار على الولاية وأجر ذلك:

في معرض الإنكار يقول النبي ﷺ فيما يروى عنه : «أن أعظم الناس

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

أجرا من قال كلمة الحق عند السلطان الجائر»^(١) هكذا يقول ﷺ ، وألا تأخذك في الله لومة لائم ، وألا تخاف بالحق لومة لائم ؛ إذا أنت فعلت هذا وقلت كذا فأنت إن شاء الله من السالمين . لكن أيها المسلم ليس الإنكار أن تذهب على رءوس عامة الأمة وتقول لهم : لقد أخطأ الوالي وفعل وفعل ، فإن هذا ليس من الأمور الحميدة لأن هذا لا يزرع زرعاً طيباً ، وإنما يحمل الناس على مخالفة الأئمة وتفريق شمل الأمة .

ومعلوم ما في الفرقة والاختلاف من ويل وخسارة ، لكن أن تذهب إلى الوالي وتبين له أن عمله هذا عمل غير طيب ، وتنهيه عنه ، ولا يجوز لك أن تحسن له القبيح فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعدون الكلام الذي هو من اللسان وغير نابع من القلب نفاقاً ، جاء رجل إلى معاوية رضي الله عنه وتكلم في حق يزيد وأثنى عليه وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه وعن أبيه حاضراً . فكأن الرجل استحيا من عبد الله ، فلما انصرف . قال : يا أبا عبد الرحمن إنما لا نحصل مما في أيدي هؤلاء إلا بما سمعت . فما قال له عبد الله ؟ قال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ .

حكم النصيحة لولاة الأمر وكيف تكون؟

أنت كمسلم أنت كمؤمن ، تؤمن بالله واليوم الآخر ، تعرف أن محض النصيحة لولاة الأمر واجب عليك تماماً لا يجوز لك أن تحسن لهم القبيح وتثني على ما لا يستحق الثناء . لكن إن لم يسمعك الإنكار فاسكت ؛ قل خيراً وإلا فاصمت . أما أن تحسن القبيح فإنك قد أعنت على نقض

(١) أخرجه الترمذي (٢١٧٤) ، وأبو داود (٤٣٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

الإسلام عروة عروة . إذا لم يسعك التغيير فليسعك السكوت . والسكوت ناحيته واسعة وميدانه فسيح وأمره ميسر لكل أحد ، إنما الذي فيه مشقة فيه صعوبة إنما الذي فيه ثقل الإنكار : فهو الذي لا يتحملة إلا فحول الرجال ؛ أما السكوت فكلنا يستطيع أن يسكت ، ومن يطلع على ما في القلوب ؟ الله سبحانه وتعالى أعفاك من اطلاع الوالي على ما في ضميرك . فهو المتفرد بالاطلاع على الضمائر فأياك أن تخون فتكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النساء : ١٠٨] ، إياك أن تكون منهم ، بل كما أمرك النبي ﷺ أن تمحض ولادة أمر المسلمين النصيحة ، وتأتي إليهم في أمكنتهم وتقول لهم ، إن هذا أمر لا ينبغي وغير جائز ، وصلاح أحوالكم وصلاح مآلكم ، إنما ينبغي على تركه والإقلاع عنه .

النصيحة للولادة وعدم التشهير بهم :

يجب على المسلم أن يغير ما استطاع إلى ذلك سبيلا . أما أن يذهب المسلم فيسفه أعمال الوالي على رءوس الخلائق وعلى رءوس العامة يملأ قلوبهم الخالية من العلم والمعرفة بغضا للولادة وتفرقا عليها وكرهية لسلطانها ، فهذا ما لا يقره الإسلام . ولا يرتضيه العقل السليم هذا يا عباد الله نظام الإسلام ؛ ألا يشهر بأعمال الوالي وإن كان فيها جور ، بل ورد عن أحد الصحابة أنهم اشتكوا واليا من ولايتهم أمير مقاطعة فقال لهم أحد الصحابة لولايتي عليكم عشرون سنة خير من الهرج شهرا واحدا ، أي خير من الاختلاف والغوغاء وسفك الدماء .

بعض حسنات الولاية:

إن سفك دم امرئ مسلم واحد أعظم عند الله من زوال السموات والأرض ، ومعلوم أن نزع اليد من الطاعة ، ومعلوم أن الفرقة وخلاف الأئمة إنما ينتج عنه سفك الدماء ، واستباحة المحارم ، وإخلال نظام الأمة وقلقلتها ، وتفكيك عراها وفصم رباطها وقص صلاتها .

أهمية الوحدة وخطر الاختلاف على الأئمة:

الإسلام يريد من الأمة الإسلامية أن تكون مترابطة وإن وجد في ولائها جور وظلم . فإن ظلموا فحسابهم على الله ، أما نحن فعلينا طاعتهم ما لم نر هذا الذي بينه وبيننا ﷺ . فإننا أيها المسلمون إذا رجعنا بالنظر إلى ما وراءنا من قديم الزمان وحديثه وجدنا أن كل ما حدث للأمة الإسلامية في ماضي أمرها وحاضره إنما سببه الاختلاف على الأئمة ، وهكذا قص النبي عليه الصلاة والسلام علينا عن بني إسرائيل أنه لما اختلفوا على أئمتهم نزعنا الهيبة من قلوب أعدائهم ، وملئت قلوبهم هيبة وهلعا . وهكذا يحدث للأمة الإسلامية «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» ، قال الصحابة : أهم اليهود والنصارى ، قال ﷺ : فمن من الناس إلا أولئككم؟^(١) . ومن الناس الذين يشبه بهم المسلمون إلا أهل الكتاب الذين قبلنا .

سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بلاء:

علمنا ﷺ هذه التعليمات السامية لنجعلها نصب أعيننا ، ليجعلها المرء

(١) سبق تخرجه .

كلما استنكر من واليه أمرا . لا يقل هذا أمر منكرو النبي أمرنا بتغيير المنكرات ، لا! لا يكن ممن يقرأ : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ويسكت . بل يقرأها ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿[الماعون : ٤ ، ٥] . لا يقرأ : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده» . ثم يسكت بل يتم الحديث «فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١) ، أما أن يقرأ أول الحديث ويسكت ، أما أن يقرأ : «لتأخذن على يد السفية ولتأطرنه على الحق أطرا»^(٢) فيسكت فهذا ما لا ينبغي لأن للإسلام يا عباد الله أجزاء مترابطة ، إذا أخذت منه جزءا واحدا وتمسكت به أصابك من هذا الجزء هوس وخبل ، كما أصاب الخوارج هوس وخبل ، ذلكم أنهم استنكروا أمورا وظنوا أن الجميع تابعة لها ، فتمسكوا بجزئيات وهم كانوا يصلون ويصومون ويقرءون ويتعبدون ، يخبرنا النبي ﷺ أن أحدهم يحقر صلاته عند صلاتهم وصيامه عند صيامهم ، ولكن ماذا عباد الله؟ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ألاهم لا يصلون؟ ألاهم لا يصومون؟ ألاهم لا يقرءون القرآن؟ لا ولكن لأنهم نصبوا أنفسهم حربا على الأمة ، خلعوا الطاعة من ولاة الأمر ، خلعوا ربقة الطاعة فماتوا ميتة جاهلية ، خلغوا ربقة الطاعة فأحلوا في الأمة الفرقة ، وأحلوا فيها السيف ، فلم يرتفع كما أخبر المصطفى ولن يرتفع إلى يوم القيامة .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٤٧) ، وأبو داود (٤٣٣٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال

الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

حث النبي على الصبر على ولادة الجور:

ذلكم يا عباد الله هو ثمرة الفرقة وخلاف الأئمة، فإن أحسنوا فلنا ولهم، وإن أساءوا فعليهم. ولنا يقول النبي ﷺ: «اصبروا وإن أخذوا أموالكم» لا لأن عملهم مباح، ولكن لأن في هذا اجتماع الأمة، اصبروا ومع هذا يأمرهم بالعدل والإحسان والإنصاف، وترسم خطاه وخطى صحابته ﷺ: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»^(١)، هكذا يأمرنا ﷺ وينهانا عن ركوب الشطط، ويخبرنا أن سبيل الله واحدة وأن صراط الله مستقيم، وأن عن يمين الصراط سبلاً متعرجة، بنيات الطريق تقذف براكيها في الهاوية السحيقة.

علماء الأمة لا يقرّون الخروج على الولاة:

هذه يا عباد الله، من هذه البنيات، بنيات الطريق، مخالفة الولاة فيها شر عظيم ونكبة كبيرة وأنتم لا شك تعلمون، المتعلمون في الأمة الإسلامية من قديمها وحديثها لم يقرّوا خارجاً على الولاة بتاتا. معاوية بن أبي سفيان لما استتب له الأمر ﷺ بعد وفاة علي ﷺ، وتنزل الحسن، بايعه كبار الصحابة وهم أفضل منه، وأعظم فضلاً في الإسلام، وأعظم بلاء، وأقدم هجرة، وأقوى عزيمة في الدين، بايعوه ورضوا عن ولايته، بل بايع فيما وراء ذلك عبد الله بن عمر شيخ الصحابة في زمنه لما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان، بايعه وكتب له؛ هذه بيعتي وإن بني راضون بذلك، كيف فعل هذا وعبد الملك بن مروان قد نازع عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ، لا شك أن ابن الزبير غبار رجله يساوي عبد الملك بن

(١) سبق تخريجه.

مروان بل يساويه وأباه . ومع ذلك عبد الله بن عمر يبايعه ، لأن جمع الأمة الإسلامية فيه الخير والبركة .

خطر الفرقة الداخلية على الصف الإسلامي :

إن الأمة الإسلامية إذا حصل فيها فرقة داخلية لم تلتفت لتحسين حدودها من الأعداء ، ولم تلتفت لحماية ثغورها ، تنشغل بأمورها الداخلية في فرقتها في تناحرها ، وتترك الأعداء يعدون أنفسهم ، والله ما أمرنا بذلك بل أمرنا بأخذ العدة لا للتناحر فيما بيننا بل بأخذ العدة للأعداء . ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، ولم يقل وأعدوا للفرقة ما استطعتم من قوة . بل يأمرنا أن نطيع ولاية أمرنا فيبين لنا رسوله أن طاعة ولاية أمرنا من طاعة رسول الله ﷺ ، وأن طاعته ﷺ طاعة لله والله يقول له : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ويقول الله أيضا : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ، ومعلوم أن الرسول ﷺ إنما يدعوننا لما يحمينا ، وإنما يأمرنا بما ينجينا من هول يوم القيامة ، بما ينجينا من المخالفات المقيتة ، بل ينهانا نبينا ﷺ عن الفرقة أينما كانت ، فهكذا يا عباد الله الإسلام يأمر أن يتماسك الناس تماسكا تاما .

تشعب الموضوع وبيان المقصود منه :

موضوع الحديث يا عباد الله عن صلة الوالي بالرعية موضوع له أطراف ونواح واسعة ، لأن جميع الأمور الخاصة والعامة تدخل في أمر الولاية مع المحكومين ، فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ويحتاج إلى علم كثير ، ولكني كما قال الأول أحدثكم وأنا كمستبضع تمرا إلى أرض خيبر ، لأنكم تعلمون هذا وأكثر منه ، وإنما المقصود أن أتحدث معكم وأبين لنفسي أن الإسلام

واضح كل الوضوح ، وأن الإسلام لا يرضى مخالفة الوالي أيًا كان نوع هذه المخالفة ، ما لم يكن الوالي كافرا لا يصلي ، ما لم يكن عندنا في كفره من الله برهان . هكذا يأمرنا الإسلام .

بعض مهام الوالي تجاه رعيته :

على الوالي أن يرعى جانب الرعية ، وعليه أن يمحض للأمة النصيحة ، عليه ألا يأخذ أموالها إلا لينفقها في مصالحها ، عليه يسهر على مصالح الأمة عليه أن يتذكر فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف يحوط الأمة برعايته ويتفقد أحوالها بنفسه ، ومع ذلكم بسط الله له بسطا عظيما ، وأصبح مضرب المثل بالعدل والإنصاف والإيثار رضي الله عنه . والله سبحانه وتعالى جعل لنا في صحابة نبيه صلى الله عليه وسلم أسوة أيما أسوة .

خاتمة ودعاء :

وختم الكلام أن أفضل الأعمال اتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والاهتداء بهديه ، وإن من خير أعمالنا استغفارنا يا عباد الله ، وإن من خير أعمالنا دعاءنا لإخواننا المسلمين في سائر بلادهم ، فنسأل الله العلي العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا أن يهدينا صراطه المستقيم ، وأن يصلح ولاية أمر المسلمين في جميع بلادهم ، وأن يهديهم الصراط المستقيم ، وأن يجعلهم رعاة أمناء ، أتقياء حريصين على الخير ، ساهرين على الأمة بالرعاية الحسنة . مختارين للبطانة الصالحة التي تأمرهم بالخير وتذكرهم إن نسوا ، وتعينهم إذا هموا بفعل الخيرات ، بطانة طيبة تكون لهم سلاحا وتكون لهم عوناً مكيّنا ، كما نسأله جل وعلا أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم ما نصروا الإسلام ، وأن يعينهم على ما تحمّلوا فقد تحمّلوا حملا عظيما . فما من

أحدهم إلا كواحد من المسلمين إلا أنهم أثقل المسلمين حملاً . وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .

الدعاء للولادة خصوصاً :

فما الولادة يا عباد الله إلا من المسلمين ، إلا أنهم حملوا حملاً عظيماً ، فعلى قدر همهم حملوا . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يشبتهم ويعينهم ويملاً قلوبهم إيماناً وتقوى ، وأن يجعل أعمالهم خالصة لوجهه ، منقادة مع ما يرضي رسوله ﷺ ، دائرة على فلك الإسلام ، منه تصدر وإليه ترجع في جميع الأمور دقيقة وجليلة ، وأن يجعلهم تقاة حريصين في كل شيء ، معانين في جميع أعمالهم .

وهكذا يا عباد الله أمور المسلمين كل مسلم هو واحد من المسلمين ، عضو في الأمة الإسلامية يشتكي إذا تألم قطر من أقطار الإسلام ، ويفرح إذا عز قطر من أقطار الإسلام ، أعزكم الله بنور الإيمان ومكن لكم دينكم ، وجعلكم ممن أخبر الله عنهم في كتابه أنهم إذا مكن لهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

وختاماً اللهم صل وسلم وبارك على عبدك وخليتك ورسولك محمد الذي أخرجتنا به من الظلمات إلى النور . وأنقذتنا به من عذاب يوم القيامة ، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب .

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات : ١٨٠-١٨٢] .

المحاضرة الرابعة والعشرون بعد المائتين

شرح سورة الفاتحة

تمهيد :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ١-٧] .

أمور قامت عليها شريعة الإسلام :

إن رسالة الإسلام الخالدة التي أتى بها سيدنا محمد ﷺ على فترة من الرسل بشيرا ونذيرا ، وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، هذه الرسالة تقوم على التعريف بوحداية الله ، وألوهيته ، وربوبيته ، كما تقوم أيضا على تعريف الإنسان بنفسه ، وبشخصيته ، وبمركزه في الكون ، كما تقوم على ضبط العلاقة بين العبد وربّه ، وبين العبد وأخيه الإنسان ، وبين العبد وجميع الموجودات . على هذا قامت الرسالة الإسلامية ، على هذا قامت الشريعة المحمدية ، ثم قامت كذلك على عبادة الله ، والاستعانة به ، والاهتداء بهديه ، والسير على الطريق السوي ، الموصل إلى سعادة الدنيا وإلى نعيم الآخرة ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وسطية الشريعة الإسلامية :

هكذا كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ، كانت مصححة للمبادئ الخاطئة التي عرفت قبيل الإسلام، وكانت شريعة وسطا ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فقد جاءت شريعة الإسلام وسطا بين الذين أنكروا وجود الله سبحانه وتعالى، فقالوا: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وبين الذين زعموا أن الله ثالث ثلاثة، والذين قالوا المسيح ابن الله، والذين قالوا عزيز ابن الله، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وبين الذين عبدوا أصناما من حجارة: ﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، فجاء بعقيدة تثبت وجود الإله الواحد، فلا دهرية ولا تعدد، وقد جمع الإسلام كل هذا في القرآن الكريم في آياته المطولات، وفي آياته المختصرات .

سورة الفاتحة مجمع للأنوار الإلهية :

لكن جميع هذه الآيات، وجميع هاته المعاني، وجميع هاته الأفكار كلها ركزت وجمعت في الفاتحة، فكانت الفاتحة كمجمع للأنوار الإلهية، فإذا قرأها الإنسان، وتدبرها، وعرفها، واستعرض ألفاظها، ودقائقها، وأسرارها، كان بمنزلة من قرأ القرآن كله، كما سنوضحه بتوفيق الله فيما يلي، ولهذا فرضها الله سبحانه وتعالى في الصلاة، وجعل كل صلاة دونها غير مقبولة، لا صلاة بدون فاتحة، وكانت تكفي وحدها عن الباقي بإجماع الأئمة .

فضائل سورة الفاتحة في السنة:

قد ورد في فضل الفاتحة أحاديث متعددة :

حديث أبي هريرة:

من أشهرها حديث أبي هريرة : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» ، فإذا قال العبد : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، قال الله سبحانه وتعالى : حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، قال : أثنى علي عبدي ، فإذا قال : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، قال : مجدي عبدي ، وإذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله سبحانه وتعالى : هذه لي وهذه لعبدي ، وإذا قال : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين ، هذه لعبدي وأنا أعطي لعبدي ما سأل»^(١) .

فضلها في القرآن:

ورد فيها عدة أحاديث كثيرة ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليها في كتابه العزيز ممثنا على نبيه ﷺ حيث قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر : ٨٧] . والعارفون بالقرآن القارئون له ، والعارفون بأسلوبه ، يعلمون أن الله سبحانه وتعالى لا يوجه هذا الخطاب لنبيه بكاف الخطاب إلا في المنزلة الكبرى ، فقد قال سبحانه وتعالى في الشفاء على خلقه ، وعلى سلوكه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ، وقال له : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ .

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

حديث أبي سعيد بن أبي المعلى:

من أهم الأحاديث الواردة فيها حديث الإمام البخاري الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخارث بن أبي المعلى المتوفى سنة (٧٣) أو (٧٤هـ) كما حققه الحافظ ابن حجر، وقال غيره: إنه مات سنة (٧٦هـ)، ولقد قال الإمام الغزالي والرازي والبيضاوي نسبوا هذه القضية إلى أبي ذر، والراجح هو ما حققه الإمام ابن حجر في كتابه الفتح ولا عطر بعد عروس، فقد حقق أن راوي الحديث هو أبي سعيد الخارث بن أبي المعلى المتوفى سنة (٧٣هـ).

وأبو سعيد هذا لم يرو له البخاري إلا هذا الحديث.

قال أبو المعلى: قال أبو سعيد الخارث: كنت أصلي في المسجد فناداني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فلما انتهيت من الصلاة ذهبت إلى رسول الله ﷺ، فقال لي: «لماذا لم تجبني؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال له: لأعلمنك يا أبا سعيد سورة هي أعظم سورة في القرآن، -وعند خروجه من المسجد ألح الصحابي الجليل علي رسول الله ﷺ ليبين له هاتاه السورة، فقال له: يا أبا سعيد، الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

نوع الواو في قوله: «والقرآن العظيم»:

ذهب كثير من المحدثين وفي طليعتهم الحافظ ابن حجر رحمه الله، أن الواو في قول النبي ﷺ «والقرآن العظيم» هي واو بيانية، فتكون كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ

اللَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ [البقرة: ٩٨]، فعطف ميكائيل على جبرائيل إنما هو عطف بياني، وكقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، فإن النخل والرمّان هما داخلان في جنس الفاكهة، وهذا هو الذي عليه جمهور المحدثين وفي طليعتهم الحافظ ابن حجر، على أن معنى قول رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» أن الفاتحة سميت بالسبع المثاني، وسميت بالقرآن العظيم.

الواو عاطفة:

ذهب آخرون إلى أن الواو عاطفة، وأن خبر، والقرآن العظيم الذي أوتيته، على حذف الخبر، والمعنى الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته، هو الزائد عليها.

أرجح الآراء في نوع الواو:

يظهر من هذه التمحلات أن الأرجح والله تعالى أعلم، هو ما حققه الحافظ ابن حجر أن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه، سيدنا محمد ﷺ.

ما حقيقة التعظيم والتمجيد لسورة الفاتحة؟

هل هذه التسمية، وهذا الشاء الذي أثناه الله سبحانه وتعالى على الفاتحة، فسماها السبع المثاني، وامتن بها على رسوله ﷺ، وجعلها في مستوى ما امتن به الله سبحانه على رسوله، حين قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فهل هذا التمجيد والتعظيم إنما هو تعبدى، وإنما هو إظهار لفضيلة هذه السورة، أو إنه يقوم على أساس حقيقي؟

الفاتحة عنوان لكتاب الله ﷻ:

الواقع ، أن الفاتحة ثناء النبي ﷺ ، وثناء الله عليها من فوق سبع سموات هي حقيقة مبنية على واقع ، وكما سنوضح بحول الله فهي خلاصة وتركيز ، وتاج وديباجة ، وعنوان لكتاب الله سبحانه وتعالى ، ولهذا أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نرددّها وجوباً سبع عشرة مرة في اليوم ، في كل ركعة من ركعات الصلاة ، فلو أننا عرفناها ، وفهمناها ، وتحلينا بحليتها ، وأدركنا بعض أسرارها ، لكننا على حالة لا يمكن أن نتصور .

الكلام عن الاستعاذة:

قبل أن نتكلم عن الفاتحة ، ينبغي أن نتكلم عن التعوذ ، قال الله سبحانه وتعالى لنبيه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨] .

الاستعاذة تخلص من سلطان الشيطان:

إذا كان المؤمن مطلوباً منه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في كل عمل يعملّه ، أو في كل شيء يتخوف منه ، فأحرى أنه قبل أن يدخل في عرصات القرآن ، وقبل أن يدخل في ظلال القرآن ، أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى لا يكون للشيطان سلطان عليه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، والتعوذ لم يرد في القرآن بهذا اللفظ وإنما ورد في القرآن الأمر به ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

الشياطين نوعان: إنسي وجني:

الشیطان ليس هو كما يظن الكثيرون ، أنه مختصر ومقتصر على شیطان الجن ، بل إن الشياطين كما تكون من الجن ، تكون من الإنس ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وكثيرا من الناس هم على الإنسان أكثر من الشيطان ، فلذلك أمر الله سبحانه وتعالى أن يستعيز الإنسان قبل الدخول في أي عمل من الاستعاذة من الشيطان ، والشيطان سواء كان ماردا جنيا ، أو كان إنسانيا .

مواطن أمرنا فيها بالاستعاذة:

قد أمرنا بالاستعاذة في كثير من المواقف ، فقال الله سبحانه وتعالى لنبيه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ١٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿ [المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿ ٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ١-٥] ، وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس : ١] . فالاستعاذة مطلوبة وهي عند قراءة القرآن واجبة ، لأنها تحصن الإنسان ، وتخرجه من عالم الفتنة والغواية ، عالم الشياطين ، ويلج بها إلى عرصات الملائكة ، عرصات القرآن .

الكلام عن البسملة:

بعد الكلام عن التعوذ لابد من الوقوف قليلا عند البسملة ، «بسم الله الرحمن الرحيم» يسميها المفسرون البسملة اختزالا كما تسمى : لا حول

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، «حوقلة» ، وتسمى أيضا تسمية باعتبار أن فيها اسم الله .

هل البسملة من القرآن :

قد اختلف العلماء اختلافا كبيرا في البسملة هل هي من القرآن أو ليست من القرآن؟ وقد بلغ خلافهم في ذلك إلى عشرة مذاهب ، وقد خصت بكثير من التأليف ، فقد ألف فيها أبو بكر بن خزيمة صاحب الصحيح ، والحافظ أبو بكر وغيرهم من العلماء ، وقد وصل خلافهم فيها إلى عشرة أقوال ، والذي عليه المحققون ، والذي هو الصواب ، أن البسملة التي هي واردة في سورة النمل هي من القرآن قطعا ، حكاية في قصة سليمان عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل : ٣٠] ، هذه قطعا من القرآن .

أما البسملة الواردة في أوائل السور فقد اختلف فيها العلماء محدثو فقهاء المدينة ، والكوفة وفقهاؤها ، ومعهم الإمام مالك على أنها ليست من القرآن ، وذهب آخرون ومنهم الإمام الشافعي رحمته الله إلى أنها من القرآن ، وقال عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة : إن البسملة الواردة في أوائل جميع السور هي من القرآن ، وأن من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية ، هكذا ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

أسرار البسملة :

البسملة لها أسرار كثيرة وقد خصها كثير من العلماء والمفسرين بتأليف ، وقد ذكر الألويسي نقلا عن بعض العلماء أنه أوصل احتمالاتها ، وأسرارها ، إلى نحو (٣٦٦ ، ٣٩١ ، ٥) خمسة آلاف ألف وثلاثمائة ألف وواحد وتسعين ألفا وثلاثمائة وستة وستين احتمالا ، قال : قال العلامة

الألوسي وبعد اطلاعي على هذا، اختلوت إلى نفسي، وجلت في آفاق هاته الآية الكريمة، فأكرمني الله بأسرار وأنوار، يمكن أن أضربها في العدد الذي ذكره العلامة الآخر، وهذه الأعداد كلها وإن كنا لم نصل نحن إلى البعض منها، فإنما يدل كل هذا على اعتناء العلماء، وعلى فهمهم لها، وتقديرهم لها، قال العلامة الألوسي: ولما قضيت ليلتي متفكرا في هذا الموضوع «فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر» وردد البيت الذي يقال فيه:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

الهدف من البسملة وشرحها:

الحاصل من كل هذا هو القيمة في البسملة، والمراد من قراءة البسملة في أول كل آية هو الدخول إلى عرصات القرآن مستعينا بالله، تاليا باسمه.

ف «بسم الله الرحمن الرحيم»: الاسم معلوم، والله هو علم على الذات المقدسة، واختلف العلماء هل هو مشتق أو غير مشتق، مما لا فائدة في إطلاته، أما الرحمن، فهو وصف ذاتي، وقد اختلف العلماء كثيرا ما المراد بالرحمن وما المراد بالرحيم، وهل الرحيم تأكيد للرحمن وهل الرحمن خاص بنعيم الدنيا والآخرة؟ فيشمل المؤمنين والكافرين، ولذلك جاء في الحديث، رحمن الدنيا، والرحيم خاص بالآخرة، والذي عليه المحققون أن الرحمن وصف ذاتي، وهو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، ومرارا ذكر كأنه علم للذات، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهو وصف ذاتي، أما الرحيم فهو وصف فعلي يتعدى الغير، ولذلك ورد في القرآن: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]... إلخ.

معنى بسم الله الرحمن الرحيم:

البسملة تقرأ لأجل أن يدخل الإنسان إلى القرآن ، ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم أبتدئ عملي مستعينا ب : بسم الله الرحمن الرحيم ، والله المثل الأعلى ، فكما تصدر المحاكم ، وكما يكتب الكاتبون نيابة باسم الملك ، باسم رئيس الدولة ، فيقول باسم كذا . . . كذلك الإنسان لا يتجرأ على كتاب الله ، وتفهم معاني كتاب الله ، إلا آخذا الإذن من الله ، مستعينا باسمه ، بسم الله الرحمن الرحيم .

الأسماء الحسنى في البسملة:

هذا هو المراد من بسم الله الرحمن الرحيم ، والبسملة لما لها تشتمل على ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى : الله ، الدال على الوحدانية ، وعلى كمال الألوهية والربوبية ، وعلى الرحمن الرحيم لعباده ، جعلت شعارا للمسلمين ، فكان المسلمون لا يبدءون عملا ، ولا كتابا ، ولا حركة ، ولا أي شيء ، إلا قائلين بسم الله الرحمن الرحيم .

البسملة شعار المسلمين ودلالة ذلك:

أصبحت البسملة شعار المسلمين ، وإن جعل البسملة شعار المسلمين يدل على تزييف النظرية القائلة بأن المسلمين متواكلون لا يعملون ، وأن دين الإسلام هو دين جبري لا عمل فيه ولا اختيار ، فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم ، يدل على أن العبد له حرية ، وله عمل فعندما يريد أن يعمل ذلك العمل يستعين بالله ، ذاكر اسم الله الرحمن الرحيم .

كان هذا هو شعار المسلمين وقد أدرك المسلمون بهذا الشعار نصراً مبيناً، وفتحة عظيمة، لأن الإنسان في كل عمل يأتيه دينياً كان أو دنيوياً هو في حاجة إلى مشجع وإلى مقو، فكانوا يجدون في بسم الله الرحمن الرحيم معينا لهم فبسم الله الرحمن الرحيم انتصروا، وببسم الله الرحمن الرحيم فتحوا، وبباسم الله حضاراتهم، بباسم الله أنشئوا ما أنشئوا، لذلك كانت شعارا للمسلمين .

سورة الفاتحة مكية أم مدنية؟

بعد هاته الكلمات في البسملة والاستعاذة نتقل إلى الآيات الكريهات ،
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾ .

الحمد لله رب العالمين، هي سورة مكية بإجماع، ولم يقل بأنها غير مكية إلا القليل، وذهب بعضهم إلى أنها مكية ومدنية، أي أنها نزلت مرة في مكة، ونزلت مرة في المدينة، والراجح المعول عليه الذي أجمع عليه العلماء أنها نزلت في مكة ويدل على ذلك أن الله تعالى امتن بها على نبيه كما في سورة الحجر، وهي مكية بالإجماع، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، فلا يمكن أن يمتن عليه بسورة لم تنزل بعد فامتنانه على النبي ﷺ بهاته الآية في آية نزلت في مكة إجماعاً يدل على أن الفاتحة هي مكية . ثم إن الفاتحة تتلى في كل ركعة، وتتل في كل صلاة، فلم يكن من الأنسب أن تتأخر إلى هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

الخلاف حول عدد آياتها:

اختلف العلماء كذلك في عدد آياتها ، فقال بعضهم إنها ثمانية ، وقال بعضهم إنها سبعة ، وقال بعضهم إنها ستة ، ولكن الراجح والمعول عليه أنها سبعة ، إنما اختلفوا هل مع بسم الله الرحمن الرحيم ، وتكون أنعمت عليهم مدرجة بالآيات الأخرى ، وأما الإجماع يكاد يكون على أنها سبع آيات .

الفرق بين الحمد والشكر:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، الحمد هو الشئ بالجميل على من يفعل الجميل ، فهو لا يكون إلا على شيء فاعل حي مقابلة الفعل ، أما المدح فيكون للشيء الذي يعمل الجميل أو لا يعمل ، كما يكون للحي ويكون للميت ، أما الشئ يستعمل في المدح ، ويستعمل في الذم فيقول : أثنى عليه خيرا أو أثنى عليه شرا ، وأما الشكر فهو خاص بالشكر والشئ على نعمة معينة ، والمراد بالحمد هنا ، أن جميع أوصاف : الشئ والتبجيل والتعظيم هي لله سبحانه وتعالى ، خاصة لله رب العالمين ، الحمد لله .

معنى: الرب في قوله «رب العالمين»:

بعدما ذكر الله سبحانه وتعالى «الله» أتبعه «بالرب» ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، والرب هو الذي يربي الشيء وينميه ويغذيه لأن الله سبحانه وتعالى بعد أن خلق العباد بألوهيته رباهم وخلقهم رباهم تربية جسمية ، رباهم تربية شرعية رباهم بتوجيهات .

ما يندرج تحت الحمد من الآيات والسور:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هاته الآية الكريمة كما قلنا في الأول على أن الفاتحة هي مركز ومعبأ ومجمع لأنوار القرآن ، نرى أن هاته الآية الكريمة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اندرجت تحتها كثير من السور ، وكثير من الآيات .

الأولى سورة الأنعام:

نرى الله سبحانه وتعالى رب العالمين يقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام : ١ ، ٢] ، فكأن هذه الآية تفصيل ؛ لأن الخلق هو جزء من أجزاء الربوبية والألوهية ، فهنا تكلم على الخلق ، وعدد أنواعهم ، وذكر السموات والأرض ، حتى انتهى في الآية إلى مناظرة إبراهيم ، ونظره في ملكوت السموات والأرض ، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام : ٧٦] ، وهكذا صارت هاته السورة الكريمة المبتدأة بالحمد ، وكأنها تفصيل لما أجملته آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

الثانية : سورة الكهف:

إذا كانت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ، تولت تفصيل جانب من جوانب الربوبية والخلق ، فإن السورة الثانية المبتدأة بالفتح تولت جانبا آخر ، وهو الربوبية ، والتربية المعنوية ،

وكشف الغيب ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَبَكِّثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف : ١-٤] .

وهكذا تنتقل الآية في ضرب الأمثال والمواعظ والإتيان بالقصص ،
﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] ، وتمشي
وهي تخبر بأخبار أهل الكهف ، وما في قصتهم من الموعظة ، وما في قصتهم
من الدليل على البعث ، ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَسِطٌ ذِرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف : ١٨] ، إلى أن تنتهي ، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ
الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا
بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف : ١٠٩] .

الثالثة : سورة فاطر :

هكذا نتقل إلى السورة الثالثة وهي قول الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ
مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر : ١] .

هذه الآية أيضا تتكلم على الخلق أيضا ، وهو جزء داخل تحت الربوبية ،
ولكن في الآية الأولى عالج الله سبحانه وتعالى وذكر المسائل الأرضية ،
﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] ، وهنا ذكر عكسها الملائكة ، عالم
الأنوار ، عالم المعرفة ، ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ
مَّتَنَّى وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١] مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ
مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر : ١ ، ٢] .

الرابعة: سورة سبأ:

تأتي السورة الرابعة المبتدأ أيضا بالحمد وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١] ... إلخ ، وكذلك هذه السورة الرابعة .

فهنا أربع سور : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ... فكل هذه السور ، وهذه الآيات بمطالعتها وقراءتها تعالج أربعة مواضيع : تعالج قصة الخلق ، وقصة الربوبية ، ولكنها في سورة الأنعام تعالجها من ناحية ، وفي سورة الكهف تعالجها من ناحية أخرى ، وفي سور سبأ تعالجها من ناحية أخرى .

علاقة الحمد لله رب العالمين بالسور الأربعة :

هكذا إذا أخذت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وتبصرت فيه وفتح الله عليك بمعانيه ، ثم انتقلت إلى هاته السور الأربعة ، فكأنها عنوان لهاته السور كلها ، وتجدها إما تفسيرا لإجمالها ، وإما رافعة لإبهامها ، وإما تفصيلا لمجملها ، وتجدها ينحدر منها ماء عذب سلسيل ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ثم أعقب الله سبحانه وتعالى هذه الآية بوصفه الرحمن الرحيم ، فقد شرحنا ما يمكن شرحه منها في البسملة ، الرحمن الرحيم أتت وصفا للرب ، لرب العالمين .

والرب كان يتصوره بعض الوثنيين الإغريق إلها جبارًا عنيدًا سفاكًا ،
كما كانت تذكر الأساطير .

الله سبحانه وتعالى بعد أن أخبر أنه رب للعالمين ، مربيهم ، خالقهم ،
مدمهم دائمًا بإمداداته وألطافه أخبر أنه هو الرب الحقيقي ، هو الإله
الرحيم ، الرحمن الرحيم ، فهو يرحم عباده في الدنيا ويرحمهم في الآخرة .

العلاقة بين «رب العالمين» و«الرحمن الرحيم» :

في نعت الله سبحانه وتعالى بربوبيته بالرحمن الرحيم ، لطيفة ونكتة
ينبغي الوقوف عندها ، ذلك أن في هذا موعظة لمن كلفه بشيء على وجه
الأرض ، فالأستاذ في الفصل ، والأب في البيت ، والسيدة في بيتها ،
والقائد في قيادته ، والعامل في عمالته ، والوزير في وزارته ، والطبيب في
عيادته ، والملك في مملكته ، والرئيس في رئاسته ، والخليفة في خلافته ، الله
سبحانه وتعالى يقول : أنا الله ، أنا رب العالمين ، أنا الخالق ، أنا المكون ،
أنا الفاطر ، ومع ذلك فأنا رحمن رحيم ، فلذلك خذوا من صفاتي .

أثر: السلطان ظل الله في أرضه :

هذا هو السر في الحديث الوارد : «السلطان ظل الله في أرضه»^(١) ،
ومعنى : ظل الله في أرضه أن الله سبحانه وتعالى يعلم ذنوبنا ، ويعلم
ضعفنا ، ويعلم مساوئنا ، ومع ذلك سبحانه وتعالى ليس فاتحًا لجهنم
ليصلينا بها في كل دقيقة ولكنه سبحانه وتعالى يعاملنا في الدنيا برحمانيته ،
وفي الآخرة بعفوه ورحمته ، وكأنه يقول لعباده ، وكأنه يقول للمصلي أيها
المصلي إن وليت شيئًا أو إن ولاك الله شيئًا ، أو إن أعطاك الله مالا ، أو

(١) سبق تخريجه .

أعطاك الله جاهها، فكن مستمداً أوصافك من أوصافي، وسيرتك من سيرتي، كن رحيماً، الراحمون يرحمهم الرحمن.

وفي «الرحمن الرحيم» من البشارة ما لا يخفى على كثير من الناس خصوصاً من شبابنا اليوم يفرون من الديانة لأنهم لا يقرءونها أولاً ولا يعرفونها، ظانين بأن المسلم يجب أن يكون ملكاً، لا وكلاً، نحن بشر نمشي على الأرض، متركين من الحيوانية والإنسانية، ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، لو لم تعصوا لذهبت بكم ولأتيت بقوم يذنبون فيستغفرون... إلخ الحديث.

إشفاق الصديق ﷺ وبكاؤه:

الله تعالى ينظر إلى عباده رحماناً رحيماً، لما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، فبكى أبو بكر الصديق ﷺ، فتعجب الصحابة، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال له يا رسول الله كيف نضحك بعد هاته الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، من منا لا يعمل سوءاً؟ من منا لا تذهب به الشهوات؟ من منا لا تسيطر عليه أحياناً النزوات؟ فابتسم رسول الله ﷺ وقال: يا أبا بكر أو لا تدري أن الشوكة يشاكها المؤمن في قدمه تكون كفارة لذنبه؟ يا أبا بكر أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

وإنما المراد هو التمسك بحبل الله المتين، هو التوحيد، فإذا لابد للإنسان أن يكون مؤمناً موحدًا قائماً بالواجبات الأساسية، أما الضعف البشري فهو يعتري البشر جميعاً، والعصمة لمن عصمه الله من الملائكة والصديقين والمقربين.

الإنسان مخلوق ضعيف:

الأصل أن يكون الإنسان موحدًا لربه ، عارفًا بأنه خرج من التراب ، ومصنوعًا من التراب ، وسيعود للتراب ، وسيبعث بين يدي الواحد القهار الرحمن الرحيم ، فإذا أكرمه الله ووفق إلى حسنة فليقل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَنَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وإذا ضعف وصدرت منه فاحشة فليقل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

نكتة مهمة:

هنا نكتة يجب التنبيه عليها ، إذا تتبعنا الآيات في الكتاب الكريم وتبعنا ما ورد في الجزاء والعقاب ، نجد أن القرآن الكريم كثيرا لم يقل فيمن أتى بحسنة دخل الجنة ، ومن أتى بالسيئة دخل جهنم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٨ ، ٩] ، التقدير يرجع إليه ، فهو الذي يزن الأعمال ، وهو الذي يحسبها ، ورب عمل يصدر من إنسان في آخر عمره يكون كفارة لجميع ذنوبه ، ورب رجل يقضي عمره كله في العبادة والصلاة وفي آخر ساعة تكون سوء الخاتمة ، ولذلك أخوف ما يخاف العارفون من سوء الخاتمة ، ﴿ يَثْبِثُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، والأحاديث كثيرة وطويلة ، وقصة الإسرائيليين الذي قضى كل حياته وعزم على التوبة إلخ . . . يعرفها العلماء لا حاجة إلى تكراره .

دلالة إتباع «الرحمن الرحيم» لـ «رب العالمين»:

الإتيان بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، بعد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فيه من التطمين وفيه من التعليم ، أن نعامل من وكل إلينا أمرهم بحنان وشفقة ورحمة ، وليس معنى هذا أن المعاملة بالشفقة والرحمة هي التهاون والتسامح ، لا ، أحيانا يكون تسامح الأب مع ولده ظلما له وضررا له ، ولذلك ليس معنى الحنان والشفقة والرحمة هو الانحلال ، لا ، هو أن تساعد على معرفة طريق الخير ، وأن ترشده إلى طريق الخير ، وأن تضع له قانون الخير ، فإذا اعوج عن الطريق فيعاقب ، ويكون في معاقبته إحسان له .

الحدود في الإسلام كفارات:

الحدود في الإسلام كفارة ، فمن أقيم عليه الحد وكان مؤمنا خالصا قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥] ، فالقصاص إذا أقيم الحد على المسلم طبقا لتعاليم الإسلام فهو كفارة لذنبه ، ولذلك يكون الإنسان قد أحسن إلى المرء بإقامة الحد عليه ، لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

«يوم الدين» وبعض مشاهدته:

بعد أن أثنى الله سبحانه وتعالى على ألوهيته وربوبيته بما هو أهله ، أخبر سبحانه وتعالى أنه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، هذا الرب الرحيم ، هذا الرحمن الرحيم ، هو ملك يوم الدين ، يوم الجزاء ، أو يوم الحساب ، وهو يوم القيامة ، وقد وردت صور ومناظر ليوم القيامة في القرآن ، يطول الوقت عن عددها ، حتى إنها خصت بالتأليف ، فيوم الدين هو: ﴿يَوْمَ لَا

يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] ،
يوم الدين ، ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ
جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٧٨﴾
وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ [الزمر : ٦٧-٦٩] ، ﴿ إِذَا وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ لَئِيسَ لَوْفَعَتِهَا كَازِبَةٌ ﴿٢٠﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٢١﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ
رَجًّا ﴿٢٢﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٢٣﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ [الواقعة : ١-٦] .

ويقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ
لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٩] ، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ
[الحج : ٢] ، ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ﴿٢﴾
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ﴾ [الزلزلة : ١-٣] ، ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ
الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ [التكاثر : ١-٥] . إلخ . ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾
[الانشقاق : ١] ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار : ١] . . . إلخ فيمكن
إحصاء كثير من السور والآيات تجدها كلها تنتظم تحت قول الله سبحانه
وتعالى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

التهئية لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

بدأنا نرى أن كلام من لا ينطق عن الهوى سيدنا محمد ﷺ حينما قال : «أوتيت السبع المثاني» ، الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته ، فيها نحن نرى باختصار كيف نراها مركزه - آيات القرآن - حتى يمكن أن نجعل هذه الآية عنوانا لسبعة مواضع ، وينتظم القرآن انتظاما .

بعد أن عرفنا الله سبحانه وتعالى أنه هو الله الواحد الأحد الرب ، الرحمن الرحيم ، الذي كان بيده الخلق ، والنشء ، والتربية والرحمة ، وأنه هو الذي سيتولى الجزاء يوم يقول : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٦، ١٧] .

بعد هاته السور التي قرأناها ، وأسماء الله الحسنى التي ذكرنا ، يكون المؤمن الصادق قد لبس حلة من نور ، يكون قد تجرد بعد الاستعاذة ، وبعد البسملة ، وبعد ذكر الله ، وأوصافه الممجدة المقدسة ، يكون قد لبس حلة من نور ، وتجرد عن عالمه المادي ، وكأنه نسي نفسه ، وماله ، وولده ، كل شيء ، ولم يبق يشاهد إلا الله سبحانه وتعالى ، فقال متجها : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

أسلوب الالتفات في الآية:

يسمى هذا عند علماء البلاغة الالتفات ، وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، أو من غيرهما ، وقد وصف هذا في القرآن قال سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ﴾ [فاطر: ٩] ، فهذا انتقال من الغيبة

إلى المتكلم ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئٍ ﴾ [يونس : ٢٢] ، فكان الالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

الالتفات في هذه الآية من أعظم ما يكون لأنه انتقال بعد هذا التصوير ، بعد هذا العيش ، بعد هذا التجرد ، بعد أن عرف المسلم الواقع بين يدي الله أنه لا سيطرة لأحد عليه ، وأنه متجرد ، وأنه أمام الرب ، وأنه لا شيء يحجبه عن الرب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وهذه من الثورات التي أحدثها سيدنا محمد ﷺ فقد كان الرهبان يدعون أنهم وسطاء بين الناس وبين الله فجاء الإسلام فقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

فبإيائك نعبد وإيائك نستعين يقف الإنسان في مواجهة أمام الله سبحانه وتعالى .

الكلام عن العبادة والاستعانة :

إن الكلام على العبادة ، وعلى الاستعانة ، خصها العلامة ابن القيم بتأليف في ثلاث مجلدات سماه مدارج السالكين بين إيائك نعبد وإيائك نستعين .

أنواع العبادة :

العبادة تنقسم إلى نوعين : العبادة الخاصة ، والعبادة العامة .

العبادة العامة:

العبادة العامة هي العبادة المفروضة على كل موجود وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨]... إلخ. فهذه عبادة قهرية لجميع الموجودات يستوي فيها الإنس والجن، والحجر والشجر وكل شيء.

العبادة الخاصة:

العبادة الخاصة عبادة المحبة، وهي التفاني في خدمة المحبوب، التفاني المطلق، وهذه هي العبادة المراد بها إياك نعبد، فلا نعبد إلا إياك، ولهذا قدم المفعول عليه ليفيد الحصر كما هو قاعدة بلاغية ونحوية، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يعني نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة.

أقسام العبادة الخاصة:

العبادة الخاصة تندرج تحتها أقسام، فالعبادة الحقيقية هي العبادة بالإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ.

أقسام الناس في الإخلاص:

الناس بالإخلاص أربعة أقسام:

شخص مخلص متابع:

هناك مخلص تابع، وهذا هو مقام الصديقين والأولياء والصالحين، ومقام المؤمنين، أن يكون محبا لله، مخلصا عبادته إياه، تابعا لما أتى به

رسوله ، فلا يزيد في العبادة شيئاً ، ولا ينقص منها شيئاً ، فيكون محبا لله ، عابدا له ، والمحبة ليست محبة اللسان ، لكن هي المحبة التي تبرهن عليها الأعمال ، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فإن النبي ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، شرح لنا معنى المحبة ، ومعنى العبادة ، وهي أن يكون الإنسان مخلصا لله ، محبا له ، وعلامة الإخلاص والمحبة هي الامتثال للأوامر ، لأن من يحب محبوبا ولو في عالم الدنيا ، أقل واجباته أن يعمل ما يسره .

شخص لا هو مخلص ولا هو متابع :

هناك ناس لا هم مخلصون ولا هم متابعون ، وهؤلاء هم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] .

شخص مخلص غير متابع :

هذه هي عبادة ومحبة بعض الجاهال الذين يأتون الصلوات ولكن ليسوا متفقهين في الدين ، ولا يسألون أهل الذكر ، لأن كون الإنسان لا يعلم فليس ذلك عيبا ، ولكن ما هو معلوم من الدين بالضرورة لا عذر للإنسان فيه ، ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

شخص متابع غير مخلص :

هناك نوع آخر من العباد وهو تابع غير مخلص هؤلاء هم الذين يتظاهرون بالصلوات ، وبالصيام ، وبإداء الفرائض ، ولكن قلوبهم فارغة من الإيمان ، وهؤلاء هم أبعد الناس عن الله ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ

سَاهُونَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون : ٤-٧] ، وهم الذين وردت فيهم عدة أحاديث ، على أنه يحضر الرجل المعركة ولكنه يكون في جهنم ، لأن حضوره كان إنما ليقال إنه شجاع ، والأحاديث في هذا الموضوع طويلة جدا .

شعر في الرياء لأبي العلاء :

وإلى هؤلاء المرائين أشار أبو العلاء المعري رَحِمَهُ اللهُ بقوله :
 لعل أناسا في المحارب خوف بأي كناس بالمزامر أطرب
 إذا رمى كيدا بالصلاة مقيمها فتاركها عمدا إلى الله أقرب
 وهو في ذلك لا يزيد عن تفسير قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

فائدة عن المعري :

إن كثيرا من الناس يعتقدون أن أبا العلاء المعري ملحد شرير ، ولكن وقفت في بعض الكتب على أنه اجتمع مع ابن العربي فدخل أحد القراء فقال له أبو العلاء المعري : امتهن أي اذكر مهنتك فقال : مقرر ، فقال له : اقرأ لنا شيئا من القرآن ، وكان أبو العلاء المعري في حجته ، فأخذ يتلو القرآن ، وقرأ من سورة «ق» حتى وصل لقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] ، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] قال الحاضرون ومنهم ابن العربي والحاتمي ، فسقط أبو العلاء المعري إلى الأرض سقوطا حتى كدنا أن نقول إنه لن يرفع رأسه منها ، ثم أعطيناه ماء ، وقال فليل له ، حدثنا شيئا من شعرك فقال لهم : يغدو الفقير وكل شيء ضده والأرض تغلق دونه أبوابها

حتى الكلاب إذا رأت ذا بزة هشت إليه وحركت أذناها والمراد من هذا أن أبا العلاء المعري كان من الموحدين المخلصين ، لكن كان بشرا كالشعر ، وأسباب نعته من بعض العلماء بما نعتوه به لأسباب وردت في كتابه ، لزوم ما لا يلزم ، ولكن عند المنصفين على أنه إذا ردت الكلمات إلى حقائقها ، والأسباب إلى مسبباتها ، نجد أن أبا العلاء المعري من خيرة المسلمين في القرن الرابع .

غاية العبادة:

إن الإنسان إذا أخلص ، وعبد الله سبحانه وتعالى ، ما الغاية من هاته العبادة؟ هناك الجبرية يقولون : إن عبادته لا تزيد ولا تنقص ، وهناك القدرية قالوا : إنها عوض على أنه يعبد الله ليأخذ من عبادته عوضا ، وقال قوم إن الغاية من العبادة هي أن الإنسان يتريض حتى يحصل له نوع من السمو النفساني فتتكشف له عوالم الغيب ، وكل هؤلاء الثلاثة بدع في الدين ، وضد العقيدة المحمدية الإبراهيمية ﴿ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، فالإخلاص الحقيقي ، والعبادة الحقيقية هي كعبادة سيد العابدين ﷺ فهي عبادة من أجل العبادة ، لا بيع ولا شراء لا إلزام ولا إجبار ، وإنما هي عبادة المحب لحبيبه .

إن الإحاطة بأسرار الفاتحة ودقائقها شيء صعب متعذر والأمر يقتضي الكثير من الوقت والكثير من العناية والتدقيق والدرس ، والغاية التي توخيتها اليوم محاولة متواضعة لشرح الأسباب التي جعلت الفاتحة تعادل القرآن ، ولا تقبل أية صلاة بدونها ، قد بينت في أول هذا الحديث أن سبب ذلك يرجع إلى كون الفاتحة عنوان القرآن ومركزه ، وأن كل سورة

وآياته وأغراضه تدرج تحت آيات الفاتحة ، فالصراط المستقيم عنوان لما ورد في القرآن من الآيات من أوامر ونواه ، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١] ، إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، وفي آية أخرى : ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣] ، وكذلك الأمر في آية ، ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

الفرق الثلاثة في سورة الفاتحة:

هذه الفرق الثلاثة ، التي هي المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالون ، بها ابتدئ القرآن الكريم ، حيث قسم الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة الخلائق ثلاثة أقسام ، من متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لَتَتَّبِعَنَّهُ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

فهنا أنهى الله الحديث على المنعم عليهم المشار إليهم في الفاتحة ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

ثم تحدث سبحانه وتعالى عن الفرق الثانية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ، ثم بعد أن أنهى الله سبحانه وتعالى الحديث عن الكافرين ابتدأت الآيات في الحديث عن الضالين المضلين المنافقين : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] ، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩] .

حديث القرآن عن الطوائف الثلاث:

نتنقل من سورة إلى سورة ، ومن آية إلى آية ، فنجد أن القرآن يتحدث عن هاته الفرق .

سورة المؤمنون:

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون : ١-٦] ، ويقول تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان : ٦٣ ، ٦٤] ، ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان : ٧٤] .

وهكذا إذا تتبعنا المصحف كله نجد أن القرآن يتحدث عن الفرق الثلاثة : المفلحين ، والكافرين ، والضالين .

سورة الواقعة:

نتنقل مثلاً إلى الواقعة فنجد نفس الشيء سورة الواقعة ، ﴿ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة : ٣٩ ، ٤٠] ، ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ [الواقعة : ٢٧-٣٤] .

سورة الإنسان:

نتقل أيضا إلى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] فنجد أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴿[الإنسان: ٥، ٦]، إلى أن يقول: ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿[الإنسان: ١١، ١٢]، ويسير القرآن دائما يشرح هؤلاء الفرق الثلاثة حتى نقرأ في سورة الفجر: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿[الفجر: ٢٧-٣٠]. وبهاته الإشارات العابرة، يظهر واضحا أن الفاتحة التي اختارها الله ليقرأها المؤمن في الفروض وفي النوافل، حينما يرددها ويقرأها بإمعان، ويقرأها بتدبر فكأنه استعرض المصحف كله خصوصا إذا كان من الذين أكرمهم الله وكانوا من الحاملين لكتاب الله، فعندما يقرءون هاته الفاتحة ويتنزهون في عرصاتها، ويشمون روائح عطرها، كأنهم قرءوا القرآن كله، ولذلك يظهر من كل هذا أن النبي ﷺ حينما جعل هذا الحديث الشريف في ناحية تعادل القرآن كله، لأن الفاتحة هي عنوان القرآن، ومركزه التي تحتوي كل معانيه وكل أسرارها، وليس المصحف إلا شرحا وتفصيلا لما ورد فيها، فإذا صلى الإنسان بالقرآن كله يكون ترك شيئا مهما منه وهو الفاتحة، أما إذا صلى بالفاتحة فإنه يكون كأنها استحضر القرآن كله، وتدبر القرآن كله.

حال المؤمن مع الفاتحة في الصلاة:

يكون دائما في دقائق معدودة مستحضرا لعظمة الله، يفتح صلاته بعد التوجه إلى الله بقلب خاشع، قارئا البسملة مستعينا بالله أن يحميه من

الوسواس الخناس ، ثم يدخل إلى عالم الروحانيات فيحمد الله سبحانه وتعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وقد استحضر أمامه العظمة الإلهية ، واستحضر أمامه خلقه ووجوده ، والنعم التي أنعم الله عليه بها ، فيقول الحمد لله حمدا خاصا على النعم التي خصني بها ، وحمدا عاما على هذا الكون المتنوع الذي أبدعه وأنشأه رب العالمين ، عالم الملكوت ، عالم الأرواح ، العالم الذي كلما ازداد العلم تقدما ظهر أننا لا نمثل في الكون إلا الشيء القليل ، وما نراه اليوم من اكتشافات للفضاء ، ليست إلا تصديقا لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ويتنقل الإنسان من الحمد ومن التفكير في الكون وحاضره ومستقبله ، ثم يتجلى له عظمة هذا الكون ، عظمة خالق هذا الكون ، فلا يسعه إلا التوجه إليه بالعبادة وبالاستعانة ، ثم يرى أمامه طرقا ملتوية ، وبشرا مختلفوا يمينا ويسارا ووسطا ، اختلفوا مؤمنين وكافرين وجاحدين ، فيطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعله على الصراط المستقيم .

المحاضرة الخامسة والعشرون بعد المائتين

فضل الجهاد والسير

تمهيد:

انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

الطبيعة الفردية والمدنية في الخلقة الإنسانية:

إن الله تعالى بديع صنعته وجليل حكمته، قد أبرز هذه الحقيقة الإنسانية على صورة بديعة، جديرة بأن تتوله فيها العقول، وأن تهدي إلى الحق الذي حارت البرية فيه، فإنه تعالى قد ركب حقيقة الإنسان من طبيعتين مزدوجتين، هما الطبيعة المدنية الشخصية الفردية، والطبيعة الشخصية المدنية.

فالإنسان في حقيقته مؤلف من هاتين الشخصيتين المزدوجتين، فمقتضى شخصيته الأولى وهي الشخصية الفردية، شعور بالذات، وإحساس بالكيان الفردي في حدوده الجسدية، ومقتضى الطبيعة الثانية التي هي الشخصية المدنية، شعور آخر هو شعور بالانتماء لا بالذات، وهو الشعور الراجع إلى الكيان الاجتماعي الذي يقوم على اعتبار حدود اعتبارية عقلية غير الحدود الجسدية المادية، وباختلاف هاتين الطبيعتين وتنافرهما، فإن الله تعالى أقام النظام العالمي على الحكمة، ومقتضى هذه الحكمة التي

أقيم عليها نظام العالم هو دفع التنافر الحاصل بين الشخصيتين المزدوجتين الشخصية الفردية والشخصية المدنية .

كيف نرفع التنافر بين الشخصيتين؟

رفع هذا التنافر لا يمكن أن يكون برفع إحدهما ، فإن رفع الواقع محال ، ولكنه يكون بريضة وتهذيب للغريزة التي هي مقتضى الشخصية المدنية ، وهي غريزة الميل إلى الغير ، وحب الاعتضاد به ، والاستعانة به ، والانسجام معه ، وعلى ذلك فإن هذه الغريزة تربي وتراض ، كما تربي الغرائز وتراض ، وتكون وسيلة رياضتها وتربيتها هي المعرفة ، ولذلك وجه الله تعالى الناس إلى إدراك الحقيقة الأولى التي هي مرجع الشعور بهذا الكيان الاجتماعي ، وهي حقيقة الخالقية ، فقال تعالى : ﴿ يَكْتُمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ [الحجرات : ١٣] ، فبين الخلق وذكر به ، وجعل من مقتضى ذلك أن يكون الناس شاعرين بالوحدة المؤلفة بينهم ، التي تسوقهم إلى إبراز الشخصية المدنية في حقيقتها ، مهذبة مرادة غير عادية ولا معدوا عليها . وجعل للشخصية الأخرى حقيقة تكبحها وتمنعها من أن تكون عادية على الشخصية المقابلة ، وهي حقيقة التقوى التي مرجعها إلى الحقيقة العليا التي هي حقيقة الخالقية .

أهمية التقوى في توجيه الشخصيتين :

جعل الله تعالى التقوى وازعا للناس من أن تعدو فيهم الطبائع الفردية على الطبائع المدنية ، ووازعا من أن تكون الطبائع المدنية متوجهة إلى غايات السوء من حركاتها وتصرفاتها ، فجعل سبحانه وتعالى التقوى ملاك الشخصية الفردية ، وجعل التصرف فيها لأجل الاتصال بالشخصيات

الأخرى ، في النطاق المدني ، أو النطاق الاجتماعي ، قائمة على إدارك حقيقة التقوى ، وجعل التقوى القوة المصرفة والعامل الموجه ، فقال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة : ٢] ، وقال في تمام الآية الأخرى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وعلى هذا الازدواج بين الحقيقتين ، والترابط بين الشخصيتين بعد أن وقعت رياضة كل منهما بملاك واحد ، وتهذيبها بعامل واحد ، وهو عامل الشعور بالحقيقة العليا التي هي حقيقة الخالقية .

التربية الفردية والتربية الاجتماعية :

بهذا الاعتبار برز كائن اجتماعي هو مثل الكائن الفردي ، في أنه يشتمل على علتي بقاءه وهلاكه في قوامه وكيانه . وإذا كانت التربية هي الوصول بالمرء إلى كل كمال ممكن ، فإن التربية الفردية قد تكفلت بها قوانين ، هي عبارة عن الأحكام الشرعية المتعلقة بالفرد في علاقته مع نفسه ، وفي علاقته مع خالقه ، وفي علاقته مع العناصر الطبيعية عامة ، وفي علاقته مع أفراد النوع الإنساني الذي يرجع إليه ، وعلى الأساس الذي أقيمت عليه التربية الفردية ، وفصلت به قوانين الأحكام التي ترجع تفاصيلها إلى إحكام هذه التربية ، أقيمت التربية الاجتماعية أيضا ، وفصلت أحكامها في قوانين ترجع إلى تنظيم علاقات الأفراد بعضهم مع بعض بصورة تحقق معنى الاتصال الذي هو مقتضى الشخصية المدنية ، بدون أن تغطي الشخصية الفردية على ذلك بصورة يكون فيها الظلم ، أو يكون فيها العدوان ، أو تكون فيها الأنانية . وعلى ذلك أقيمت القوانين التي هي عبارة عن الأحكام

الشرعية التفصيلية المتعلقة بأحكام الجماعات ، فكانت القوانين في ذاتها ، وفي موضوعها متخالفة متميزة ، لكنها في حقيقتها ومنبعها ومصدرها متحدة ، لأنها جميعا راجعة إلى الحكم الشرعي الذي هو مبني على إدراك الحقيقة الكلية العليا ، التي هي معرفة الإنسان نسبه من خالقه .

دعائم قيام المجتمع الإسلامي :

أقيم المجتمع الإسلامي على هذه النظم التي منها القوانين الفردية ومنها القوانين الاجتماعية على أن يكون منظما بهذه القوانين التي ترجع إلى الناحية الفردية ، أو التي ترجع إلى الناحية الاجتماعية ، والتي تنبع كل منهما من نفس المنبع الذي تنبع منه الأخرى ، فأقام على ذلك المجتمع الكامل أو المجتمع الأفضل الذي هو الأمة الإسلامية ، فجعل قوام الأمة الإسلامية الدين ، وجعل التثامها مبني على صفتين :

صفات الأمة المتممة والمترابطة :

- الأولى : صفة تأسيسية ، وهي صفة الإنسانية التي باعتبارها وجهت الدعوة الإسلامية إلى أفراد النوع الإنساني على صورة عامة ، لأجل أن يشتركوا بطريقة متساوية فيما بينهم ، بريئة من العنصريات والطبقات ، لأن يكونوا من بني الإنسان بصفة عامة متساوية ، هذا المجتمع الذي دعا الله تعالى إلى تكوينه فكانت صفة التأسيس ، وهي الإنسانية صفة الأمة العامة ، أو صفة أمة الدعوة .

- ثم كانت الصفة الثانية : صفة تكوينية ، وهي صفة الانقياد الاختياري ، الذي ينشأ من الاطمئنان النفسي إلى حقيقة الدعوة التي وجهت إلى أفراد

النوع الإنساني، بحيث أن كل من اطمأن إلى ذلك من أفراد النوع الإنساني، واستجاب إلى تلك الحقيقة، انقاد انقيادا اختياريا، استسلم بمقتضاه للتكاليف التي نبعت من تلك الحقيقة، وهي الأحكام الشرعية، ومد يده لغيره ممن انقادوا مثله ذلك الانقياد الاختياري، لأجل أن يؤلف فيما بينه وبينهم، مجتمعا هو الذي تتمثل فيه الأمة الخاصة، أو أمة الإجابة، فكان تفرع النظم كلها ما تعلق منها بالصفة التأسيسية وهي الإنسانية، أو ما تعلق منها بالصفة التكوينية وهي الإيمانية، كانت تلك النظم كلها مفرعة عن المعرفة الأولى التي هي إدراك حقيقة الخالق تعالى، وكانت موزعة في تفرعها إلى نواحي العبادات والعادات والمعاملات.

وعلى ذلك استقام المجتمع المثالي أو الأمة الكاملة التي ضربها الله تعالى مثلا للمجتمعات الراقية بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وسائل للحفاظ على نظام الأمة وكيانها:

قد جعل الله تعالى لهذه الوحدة التي تكونت بالعوامل الناشئة من الحقيقة الإيمانية الأولى، أو المعرفة الإيمانية العليا، كون لها وسائل الحفاظ على ذاتها، والدفاع على كيانها بصنف من تلك النظم التي هي متفرعة عن الحقيقة الإيمانية الأولى، وهي النظم التي ترجع إلى الوسائل التي يطالب أفراد الأمة بأن يكونوا أنفسهم عليها بصورة تجعل منهم حمة لكيان هذه الأمة، وحفظة لوحدها، وقيمين على شخصيتها حتى لا تمتد إليها يد الانحلال والاضمحلال.

تشريع الجهاد وأحكامه :

ونظرا إلى ما في تكوين الفرد على هذه الصورة التي يكون بها حاميا للأمة ، حارسا لكيانها ، نظرا إلى ما في هذا من صعوبة ، وما يقتضيه تكوين الفرد عليه من تربية خاصة مبنية على اليقين الكامل الذي يدفع بالفرد إلى الإيثار ، ويوجب إليه فناء الشخصية الفردية في سبيل الشخصية المدنية الجماعية ، فإن الله تعالى شرع الجهاد وأحكامه ، وجعل الجهاد من الصعوبة ، بحيث يمتاز العامل به والمتخلق بخلقه ، على الذي لا يعمل به ولا يتخلق بخلقه ، نظرا إلى ما فيه من إفناء إحدى الشخصيتين في الأخرى بصورة تجعلها مستمدة منها غير طاعية عليها ، ومن هنا جاء ما للجهاد من المقام العظيم في الأحكام الدينية ، في فضل الجهاد بصفة عامة ، وفي تفاصيل الأحكام العملية التي تتعلق به ، مما تضمنته كتب الشريعة ، ومما جاء بأصل تشريعه نصوص القرآن العظيم ، ومما حفلت به أدلة السنة قولاً وعملاً وإقراراً ، الماثورة عن النبي ﷺ .

علة اختصاص الجهاد ببعض الأحكام دون غيره :

مدار تلك الأحكام التي اختص بها الجهاد في الدين الإسلامي إنما هو إلى ما بين الجهاد وبين إدراك الحقيقة الأولى التي هي منبع تصاريف الأحكام الدينية ، من اتصال وارتباط مباشر يجعل الجهاد ناشئاً عن الإدراك الكلي واليقين الكامل للحقيقة الأولى التي تفرعت عنها الأحكام الشرعية ، بحيث إذا لم يكن هنالك إيقان كلي ويقين كامل ، فإنه يصعب أن تتخلق النفس بخلق الجهاد ، وأن تستطيع الانقياد للأعمال التفصيلية التي جاءت بها الأحكام المتعلقة بالجهاد ، فإدراك حقيقة الوجود الإنساني ،

ونسبة وجود العبد من وجود الله تعالى ومرجعه إلى تصرف التكوين ،
وتصرف الخالقية ، هو الذي يجعل العبد مستعدا لأن يتخلق بخلق الجهاد ،
وطيعا بأن يمثل للأحكام التي جاءت متعلقة بذلك .

ومن هنالك سمي الذي يصاب في سبيل الله فيقتل لأجل موقفه في
الجهاد ، شهيدا ، واعتبرت تلك الصفة صفة الشهادة ، لأنها تعتمد على
الإيقان الكامل ، بحيث إن صاحبها لم يقف الموقف الذي وقفه إلا لأنه
شهد شهودا قلبيا تاما ، أصبح يساوي الشهود العياني ، الحقائق الإلهية
الكبرى ، والتصاريف التكوينية الأولى التي بمقتضاها يعرف العارفون
نسبة الفرد الإنساني من قوة الخالقية ، وإرادة التكوين الإلهي ، وبذلك ورد
قوله تعالى ينبه المؤمنين إلى ما قد لا ينتبه إليه غير الشهداء ، من الذين
أدركوا هذه الحقيقة إيقانا حتى كأنهم شاهدوها عيانا ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا
تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ [١٦٩] فَرِحِينَ بِمَا
ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١٧٠] يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [آل عمران : ١٦٩-١٧١] .

باب الجهاد والسير عند البخاري :

جاء هذا الكتاب من كتب «الجامع الصحيح» ، للإمام البخاري الذي
جعل عنوانه : «فضل الجهاد والسير» .

وقد جعل الإمام البخاري هذا الكتاب من كتب جامعه الصحيح
مشملا على الفضائل والأحكام والآداب التي ترجع إلى هذه الفريضة
المحكمة ، وهي فريضة الجهاد .

معنى كلمة «السير» وضبطها:

أضاف الإمام البخاري إلى الجهاد السير التي هي على اختيار جمهور الضابطين للبخاري وشرحه هكذا «سير» جمع سيرة ، لا السير كما هو مختار بعضهم من باب اعتبار السير طريقا إلى الجهاد ، أو جزءا منه ، إما من عطف الأصل على فرعه ، وإما من عطف الخاص على العام .

فإذا اعتبرنا الجهاد والسير وتراجم الأبواب التي اندرجت تحت هذا الكتاب ، تشهد بذلك ، فإن المراد بالسير التي أضافها إلى هذا الباب ، وعطفها على الجهاد ، هي أحوال النبي ﷺ غير ما جاء في باب بدء الوحي ، وغير ما جاء في كتاب المغازي ، وغير ما جاء من الأعمال الكثيرة ذات الحجة الشرعية التي هي مبثوثة في عموم أبواب الجامع الصحيح ، فيكون المراد بهذا إخراج طائفة من أعمال النبي ﷺ وآثاره ومتعلقاته التي هي ليست خاصة بالجهاد ، مقرونة إلى أخبار الجهاد ، والمراد بهذا إنما هو تغليب شرف الجهاد على مقاماته الشريفة كلها ﷺ ، فإن آثار النبي ﷺ باعتبار كونه قد جمع خصال الكمال يمكن أن تخرج في كتاب العلم ، ويمكن أن تخرج في كتاب الإيمان ، باعتبار أن النبي ﷺ سيد العلماء ، وأول المؤمنين ، ويمكن أن تخرج في كتاب الجهاد باعتبار كونه سيد المجاهدين ، فاختار الإمام البخاري تخريجها في كتاب الجهاد إشارة إلى أن الأغلب على مواقف النبي ﷺ وأحواله الشريفة ، إنما هو موقف الجهاد تشريفا للجهاد بذلك ، وتنويعا بمزيتة ، وشهادة للنبي بأنه لم يأل جهدا في تبليغ رسالته ، فكان فيها من المجاهدين الصادقين ﷺ .

ابتداء البخاري للكتاب بآية كريمة:

استهل الإمام البخاري هذا الكتاب بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، وجعل إيراد هذه الآية استهلالاً للباب، فابتدأ بذلك قبل تفصيل التراجع، وهذه إحدى الطريقتين للإمام البخاري في طوابع كتب جامعته الصحيح، فهو أحياناً يورد الترجمة العامة الشاملة التي هي ترجمة الكتاب، ثم يتبدئ بعدها بترجمة من التراجع التفصيلية التي هي تراجع الأبواب، ويستمر هكذا متابعاً ترجمة بترجمة، على أن التراجع جميعاً تندرج تحت العنوان الكلي الذي هو عنوان الكتاب، وأحياناً يتبدئ بذكر الترجمة الكلية التي هي الموضوع الشامل، وهي موضوع الكتاب، ويذكر آية تعتبر بالنسبة لما بعدها أصلاً، مما نعبر عنه تقريباً بأصل المشروعية، ثم يأتي بعد ذلك بأحاديث تنزل مما بعدها منزلة الملاك الكلي، كل هذا قبل أن يأتي بترجمة من تراجع الأبواب التفصيلية، ثم يشرع في تراجع الأبواب التفصيلية بصورة تجعل من تراجع الأبواب مرجعاً إلى المعنى الكلي الذي أخذ من الآية التي هي أصل المشروعية، ومن الأحاديث التي أتبعها بها.

طريقة البخاري في كتاب الجهاد والسير:

على ذلك درج هنا، فقال فضل الجهاد والسير، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، ثم أورد أربعة أحاديث، وبعد إيراد هذه الأحاديث الأربعة، ابتدأ بإيراد التراجع التفصيلية التي هي تراجع الأبواب، فأورد مائتين واثنين وعشرين ترجمة، هي عبارة عن مائتين واثنين وعشرين باباً، ترجع كلها إلى معاني الجهاد والسير، وتنظم

كلها تحت المعنى الكلي الذي اشتملت عليه الآية المفتوح بها ، وترجع كلها إلى المعنى الذي رجعت منه الأحاديث إلى تلك الآية ، باعتبار كون ذلك أساسا كليا ، وكون ما اشتملت عليه التراجم التفصيلية تفرعا عن ذلك المعنى ، وتشيدا لذلك الأساس .

علاقة الآية بما يليها من تراجم:

أورد الإمام البخاري آية ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ ، ثم أورد الأحاديث الأربعة التي جعلها في مجموعها سنداً لتأويل الآية ، على النحو الذي أراد أن يؤول الآية عليه ، بصورة تجعل الآية ملاكاً شاملاً لمعاني التراجم الآتية فيما بعد ، بحيث إن تفاصيل التراجم ترجع إلى مجملها وكيها ، وهذا المعنى وهو جعل الأحاديث سنداً لتأويل الآيات هي الطريقة التي يسير عليها الإمام البخاري باطراد فيما يرجع إلى آيات الأحكام ، مما ورد في عموم كتب الجامع الصحيح ، أو ما ورد في خصوص كتاب التفسير . فأورد هنا على هذه الطريقة أربعة أحاديث :

الحديث الأول : هو حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو سؤاله النبي ﷺ أي العمل أفضل ؟ فبين له النبي ﷺ ثلاثة أعمال ، جعل الجهاد ثالثها .

والحديث الثاني : هو حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، وهو حديث : «لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»^(١) .

والحديث الثالث : هو حديث عائشة رضي الله عنها ، وهو حديث تمنى الجهاد ، وإشارة النبي ﷺ بما يكون عوضاً عنه وقائماً مقامه ، أو راجعاً إلى معناه باعتبار .

(١) سبق تخريجه .

والحديث الرابع : هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث الذي سأل النبي ﷺ عن عمل يعدل الجهاد ، فقال له النبي ﷺ : « لا أجده »^(١) ، وبين له أن الذي يمكن أن يعدل الجهاد من الأعمال إنما هو عمل مستحيل لا يستطيع الإتيان به .

مزايا الجهاد في الأحاديث الأربعة :

هذه الأحاديث الأربع يرجع كل منها إلى بيان مزية للجهاد من ناحية .

مزايا الجهاد في الحديث الأول :

أما الحديث الأول ، وهو حديث ابن مسعود ، فهو يبين مقام الجهاد في ترتيب التكاليف ، ويبين أن من التكاليف ما يكون مقدما على الجهاد باعتبار ، وللشراح في ذلك أوجه معروفة مشهورة لا نطيل بها ، مرجعها إلى أن الترتيب في هذا إنما هو ترتيب بحسب الحال ، وإنما هو ترتيب بحسب الواقع الظاهري ، لأن الصلاة هي العمل الأول الذي يربط بين المؤمن وبين واجباته الإيمانية ، ولأن بر الوالدين أول عمل يصل فيما بينه وبين غيره من الأفراد على اعتبار ديني يكون في دائرة خاصة ، ثم يتوسع فيما بعد ذلك إلى الدائرة العامة التي تنتهي إلى إدراك واجب الجهاد .

مزايا الجهاد في الحديث الثاني :

أما الحديث الثاني ، وهو حديث ابن عباس الذي أخرجه الإمام البخاري في غير موضع من هذا الصحيح ، فهو يرجع إلى بيان الوجوب المطلق

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٥) ، ومسلم (١٨٧٨) .

للجهاد، باعتبار أن حكم الهجرة نسخ، وأن حكم الجهاد محكم، وأن الجهاد أساسه النية، وأنه يجب بحمل صيغة الأمر عند جمهور المحدثين والأصوليين على الوجوب، بقوله: «وإذا استنفرتم فانفروا»^(١).

مزايا الجهاد في الحديث الثالث:

الحديث الثالث، وهو حديث عائشة رضي الله عنها، حديث يبين أن الجهاد قد يسقط بالنسبة إلى البعض، وقد يعوضه عمل آخر، يساويه أو يدانيه بالنسبة إلى حالات خاصة، مثل الحالة التي سئل عنها وهي حالة عائشة رضي الله عنها التي سألت بلسان غيرها من النساء.

مزايا الجهاد في الحديث الرابع:

الحديث الرابع هو الحديث المعارض في دلالاته للحديث الثالث، وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يقضي بأن الجهاد لا يعوضه شيء، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن عمل يعدل الجهاد قال: «لا أجده».

الخلاصة من المعاني السابقة:

الذي يتحصل من هذه المعاني الأربع، ومن النواحي الأربع التي ترجع إليها، أن الجهاد واجب مؤكد، وأنه لا يعدله شيء إلا في حالات استثنائية، وباعتبارات خاصة، وهذا هو الذي سمي به الجهاد جهادا في سبيل الله، ومعلوم أن سبيل الله إنما هو السلوك الذي تسير عليه الأمة بدعوة من الله تعالى، وتكليف متعلق بأفرادها وجماعاتها من طريق الخطاب الشرعي،

(١) سبق تخريجه.

فسبيل الله هو دعوته بما اشتملت عليه الدعوة الإسلامية من عقائد وشرائع .
والجهاد في سبيل الله إنما هو حماية سبيل الله ، ومعنى حماية سبيل الله حماية
الدعوة التي هي مؤلفة من العقيدة والشريعة ، والتي هي السبيل الذي
دعيت الأمة لاتباعه .

وقد جاء الجهاد على صيغة فعال التي تدل على تقابل الفعل الحاصل من
طرفين ، لأنه عبارة عن دفع جهد بجهد ، ومغالبة قوة بقوة ، فالجهاد في
سبيل الله إنما هو حماية عقيدة الله تعالى وحماية شريعته ، بنصب القوة من
لدن المنتسب إلى الشريعة ، الحامي لها ، في وجه القوة الآتية من طرف آخر ،
حتى لا تطغى على الشريعة بالقوة أو القهر ، وذلك معنى كون كلمة الله
هي العليا ، أي أن تكون كلمة الله غالبة منصوره .

دلالة الآية الكريمة على فريضة الجهاد :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة : ١١١] ، هذه الآية مبينة لهذا المعنى ومؤكدة واجب
الجهاد على المؤمنين باعتبار كونهم مؤمنين ، قد تعاقدوا مع الله تعالى هذا
التعاقد ، وتعاهدوا معه جل شأنه هذا العهد الذي وصفه الله تعالى بقوله :
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ .

ارتباط الآية الكريمة بسوابقها ولواحقها :

لا شك أن بيان معنى هذه الآية الجليلة يرتبط إلى حد بعيد جداً بموقعها
من سياق الكلام الذي وردت فيه ، باعتبار موقعها مما قبلها ومما بعدها ،
وتفرع معناها عن المعاني التي مهدت لها مما ورد قبلها في وحدة الغرض الذي

اعتبرت هذه الآية جزءاً منه ، وذلك هو الغرض الذي سيقى له سورة الأنفال ، فينبغي لذلك أن يلتفت إلى سورة الأنفال لاستحضار معان ينبغي أن تكون أساساً وسنداً لفهم قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ ، وتأويل مرجع هذا المعنى .

آيات القتال في سورة الأنفال :

قال الله تعالى في سورة الأنفال : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال : ٣٧] ، ثم قال تعالى إنذاراً بالاستعداد للقتال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، ثم أنذر الله تعالى لهم إنذاراً أخيراً بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال : ٦١] ، ثم قولى جانب النبي ﷺ ، وألف نفسه الكريمة بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٢] ، ثم دعاه إلى إعلان دعوة القتال بقوله تعالى : ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال : ٦٥] ، فانتتهت سورة الأنفال ، وقد برز الشقان متقابلين : الشق المؤمن ، والشق الكافر ، فكان من الجدير أن تأتى البراءة موجهة إلى أحد الشقين من الشق الآخر ، موجهة إلى الكافرين من الله ورسوله والذين آمنوا ، وذلك إيذاناً بابتداء القتال .

عتاب الله للمتأقلين عن الجهاد :

لما آذن الله تعالى المؤمنين بأنهم سيبتدئون قتال الكافرين ، وأعلن البراءة من الكافرين ، ابتداءً يقوى جأش المؤمنين للثبات في مواقف القتال ، فجاء ذلك العتاب على تهاقل المؤمنين في الخروج مع النبي ﷺ ومناصرته .

أثر هذا العتاب على المنافقين وحالهم:

بهذا الثقل الذي نعي على المؤمنين ، وعوتبوا فيه ، أثر حال المنافقين باعتبار أنهم أصل الثقل والتخاذل ، فبين الله تعالى حقيقة المنافقين في نفوسهم ومواقفهم التي مرجعها إلى الريب وبين أن المنافقين ملحقون بالكفار لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة : ٦٨] .

حال الرسول والمؤمنين معه :

نظرا إلى ما قد يتبادر إلى الأذهان من قرن موقف المؤمنين وموقف المنافقين ، استدرك استدراكا بقوله : ﴿ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ [التوبة : ٨٨] ، فبين أن الإيمان فاصل بين الطائفتين ، وذكر المؤمنين الذين تابوا من موقع ضعفهم بقوله تعالى : ﴿ وَعَآخِرُونَ ءَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٢] ، فبين أن المواقف قد تشبهه ، وأن المؤمنين عرض لهم من ضعف أو من غيره أمر جعل موقفهم في ظاهره يشبه موقف المنافقين ، ولكنه أقام بين الموقفين فيصلا ، وهو مرجع العمل إلى حقيقته ونيته ، وإطلاع الله تعالى على الحقائق الكامنة وراء الأعمال ، فقال تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

قد تتشابه الأعمال ظاهرا ولكن:

بعد وضع هذا الميزان ، أو هذا الفيصل الذي هو رجوع كل من أعمال المؤمنين وأعمال المنافقين إلى علم الله تعالى وحكمه ، ذكر الله تعالى ما يأتي به المنافقون من الأعمال الزائفة التي يشبه أن يكون مرادها بها البر والتقوى ،

فذكر مسجد الضرار، وأشار إلى أنهم في بعض أعمالهم قد يتظاهرون بالبر، وأن ظواهر الأمور تتشابه، فالرسول ﷺ والمؤمنون الصادقون قد بنوا مسجدا، والمنافقون أيضا قد بنوا مسجدا، فالحقيقة المادية للعمل حقيقة واحدة، ولكنه أشار إلى الفرق الاعتباري باعتبار المعنى، وباعتبار النية بين هذين العاملين، فوصف عمل المنافقين بأنه كفر وعدوان وكيد، وأنه عمل غير ثابت، لأنه على شفا جرف هار، ووصف عمل المؤمنين بأنه عمل على التقوى، ووازن بين ما أقيم على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، وبين ما أسس على تقوى من الله ورضوان.

أصناف الناس حول الدعوة الإسلامية:

إلى هنا تحصل من هذا السياق الطويل أن الناس حول الدعوة الإسلامية على ثلاثة أصناف: مشرك، ومنافق، ومؤمن.

فالمشرك لم يتقبل الدعوة أصلا، وهو خلق ذو نفس متحجرة، لا تتفتح للخير وذو فكر معطل، لا يتفتح للنظر.

والمنافق تقبل الدعوة وأحجم، فلم يطمئن إليها، ولم يستقر عليها، فهو ذو نفس ضعيفة وفكر سخي.

وأما المؤمن، فإنه تقبل الدعوة ثابتا غير محجم، فنفس المؤمن نفس مشرحة قوية، وفكره فكر بصير قوي، ومرجع هذا الفارق في الحالتين النفسية والفكرية بين المؤمن من جهة وبين الكافرين والمنافقين من جهة أخرى، يرجع إلى النظر الأصلي الذي نشأ عليه المؤمن وشب عليه، ودرج عليه فكره، وربيت عليه نفسه، وهو عمل النظر الذي قام به لتحصيل الإيمان، وهذا النظر الذي دعا الله تعالى إليه، وجعله طريق الإيمان، وجعله أول الواجبات، هو أمر من غرائز الفطرة، ومن الطبائع الجبلية في الإنسان.

موانع إعمال الفطرة السليمة:

لكن أموراً من الموانع والحواجز قامت بين الناس وبين إعمال هذه الغريزة التي هي من آثار الفطرة ، ومن ولائد الجبلة .

وهذه الموانع ترجع إلى أسباب مختلفة منها سوء الإلف ، ومنها سوء التوجيه ، ومنها سوء الاعتقاد ، ومنها خلل التفكير إلى غير ذلك ، فإذا اندفعت الموانع والحواجز التي تحول بين الفكر الإنساني وبين النظر المؤدي إلى الإيمان الذي هو من ولائد الفطرة ، فإنه يستطيع أن ينظر نظراً طبيعياً ينتهي به إلى الإيمان ، وذلك أثر فطرته التي تكون بذود الموانع عنها ، وحمايتها من الحواجز والمعطلات فكرة سليمة .

حال المؤمن بعد انتفاء الموانع:

هذه الفكرة السليمة أو الفطرة القويمة التي يحتفظ بها المؤمن عندما يذود عن نفسه حواجز النظر التي قامت بين غيره من الناس ، وبين الحقيقة الإيمانية التي ينبغي أن ينتهي إليها من منهج النظر .

سلوك النظر الإيماني:

إنه يسلك النظر الإيماني الذي وجهت إليه الدعوة القرآنية ، وأقيمت عليه براهين العقيدة الإسلامية ، وهو المنهج الذي يعتمد الحواس والتجربة والعقل ، والذي يتجه إلى غاية هي تحصيل مدرك ، إما ظنياً وإما يقينياً وإما ضرورياً ، والذي يجعل مجال العمل لتصريف هذا المنهج للوصول إلى هذه الغاية ، الوجود من حيث هو ، فيجمع في نظره بين الوجود الحسي وبين الوجود الغيبي الذي يدرك بالعقل ، ويجعل من براهين

الوجود الحسي ما يثبت الوجود الغيبي بالبرهان التجريبي ، ثم بالبرهان العقلي ، حتى ينتهي إلى إدراك الحقيقة الإيمانية عن بينة بمقتضى النظر المستقيم الذي هو نتيجة الفطرة السليمة .

تساوي المظهر الحسي والمظهر الغيبي :

حينئذ يتساوى في نظر المؤمن المظهران : المظهر الحسي ، والمظهر الغيبي ، لأنه يصير مدركاً للمظهر الغيبي مقتنعاً به على معنى من الإدراك والاقتناع ، لا يقل عن إدراكه واقتناعه بالمظهر الحسي للوجود . بل إن المظهر الغيبي يزيد ترجحاً في ثبوته ويقينه ، لأنه ثبت من أقوى الدليلين وهو العقل ، فإن المعارف التي هي مستمدة من الطريق العقلي ، والتي هي مأخوذة في عداد المجردات ، تكون أقوى ثبوتاً وأتم رسوخاً من المعاني المتلقاة بالمدرجات الحسية أو بالمدرجات النقلية ، ولأجل ذلك عبر علماء البلاغة عن المعنى الحاصل بدلالة المحذوف بأنه حاصل من أقوى الدليلين ، واعتبروا المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن المعنى فيهما مأخوذ بطريق العقل لا بطريق النقل .

تجلي سلوك الهدى واختفاء سلوك الجحود :

من هذا اليقين الغيبي الذي يتساوى فيه الوجود المتعقل والوجود المحسوس ، يتفرع السلوك الذي يكون بالنسبة للمؤمن سلوك هدى مبني على اليقين ، ويكون بالنسبة للمنافق والكافر سلوك جحود وريب ، لأنه مبني على الإنكار والتعطيل ، أو مبني على الشك والتردد ، فتنفرد حينئذ نفس المؤمن بأنها التي تطيب الفداء في سبيل الله ؛ لأنها أيقنت بأن ذلك الأذى غير دائم ، وهذا هو أصل معنى العهد الإلهي الإنساني المشار إليه

بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة : ١١١] ، فإن موقع «إن» في صدر هذا الكلام ، قد أفاد معنى من الاستئناف البياني كما هو شأن «إن» في فواتح الجمل ، فكان هذا الاستئناف البياني مقتضيا تعليلا ، بحيث أصبح الحكم المتقرر من هذه الجملة ، وهي اشتراء الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، تعليلا لما تقدم من أن المنافقين يسلكون مسالك الريب والاضطراب ، وأن المؤمنين يسلكون مسالك اليقين .

وقد عبر عن هذا المعنى من اتصال البذل والقبول من الله تعالى وعبادة المؤمنين بالشراء ، نظرا إلى أنه عهد مبني على التزام بالحق ، والتزام بالواجب المقابل للحق ، وأن هذا العقد المبني على الحق والواجب يشتمل على طرفين هما : الله تعالى من جهة ، والمؤمنون من الجهة المقابلة . وأنه يشتمل على عوضين هما : النفس والمال من طرف المؤمنين ، والجنة من طرف الله تعالى .

دلالة التعبير بالشراء في الآية :

لا يخفى أن التعبير بالشراء هاهنا إنما هو توسع في معنى الشراء بجعله شاملا لمعنى العقد والعهد ، واستعمال الشراء بهذا المعنى الموسع فيه ، تنفيذا لمعنى الالتزام المؤكد الذي أراد الله تعالى بمحض فضله أن يقرره وجوبا لعباده المؤمنين المقاتلين المجاهدين . فالتعبير بالشراء هنا هو كالتعبير بالبيعة في العهد الذي يربط بين الأمة وأميرها ، باعتبار أنه عهد يتضمن حقوقا وواجبات . ويشتمل على طرفين ويقوم على عوضين متقابلين .

الاستئناف البياني الثاني في الآية:

قد جاء بعد هذا الاستئناف البياني الأول بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ استئناف بياني ثانٍ، وهو الاستئناف البياني الذي جاء به قوله تعالى: ﴿يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، فكان قوله: ﴿يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيانا لمعنى شراء الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، بمعنى أنهم يستبيحون فناء أموالهم، ويستبيحون هلاك مهجهم ونفوسهم لأجل أن الله تعالى دعاهم إلى ذلك، وبذل لهم في ذلك ما بذل وهو الجنة.

القراءات في قوله ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾:

قد جاء قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ مشتملا على صيغتين، صيغة المبني للفاعل، وصيغة المبني للنائب.

وقد اختلفت القراءتان في ترتيبهما، فالقراءة المشهورة هي الابتداء بالمبني للفاعل المفتوح حرف المضارعة، والثنية بالمبني للنائب المضموم حرف المضارعة: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

والقراءة التي هي خلاف القراءة المشهورة هي العكس، وهي الابتداء بالمبني للنائب المضموم حرف المضارعة ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾، والثنية بالمفتوح حرف المضارعة المبني للفاعل «يَقْتُلُونَ».

وقد بين المحققون من المفسرين تبعا لصاحب «الكشاف» أن مبنى هذه القراءة التي ربما أشاروا إلى ترجيحها من طرف خفي، أن الضمير في «يقتلون» و«يقتلون» إنما هو عائد إلى المؤمنين باعتبار كونهم جماعة واحدة.

وأن الذين يقتلون منهم هم صنف يستأثر الله به ويؤثره الله بما عنده ، وأن الذين يقتلون هم صنف يستبقيهم الله تعالى ، ويجعلهم منتظرين في حال أن الآخرين قضوا نحبهم ، لأجل أن يأخذوا بثأرهم ، فتكون العاقبة بذلك للمتقين على نحو ما ورد في الآية الأخرى من قوله تعالى : ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

دلالة تقدم هذه الآية على ما بعدها :

بهذا يكون القتال ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هو المتعاهد عليه المتبايع به ، ويكون ذكره وحده أولاً وفصله عن الأمور التي أتى ذكرها فيما بعد من باب الاختصار الادعائي ، أو من باب تخيل الاكتفاء بالشيء الذي هو أهم والذي هو الأعظم ، والذي هو الأصل ، والذي قد يغني هو عن غيره ، ولكن غيره لا يغني عنه .

مؤكدات العهد بالقتال في الآية الكريمة :

جاء هذا العهد مؤكداً بمؤكدات كثيرة ، أولها المفعول المطلق ، في قوله ﴿وَعَدًا﴾ ، والثاني الوصف الذي وصف به في قوله تعالى : ﴿حَقًّا﴾ ، والثالث بيان المحال الشريفة الثابتة التي أثبت فيها هذا الوعد وهي التوراة والإنجيل والقرآن .

ورابعا بيان أنه تكرر وتأكد ، وذلك بتكرر المحال التي وقع إثبات هذا الوعد فيها .

وخامسا بالتنويه ببأذله ، وأنه الأجدر بأن يكون الصادق في الوعد بقوله : ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ١١١] ، لأن الاستفهام

هنا استفهام إنكاري آيل إلى معنى نفي ، فكأنه قيل لا أحد أوفى بعهده من الله بمعنى أن الله تعالى هو الذي انفرد بالوفاء بالوعد حقاً ؛ لأن وفاء غير الله تعالى بالوعد يتوقف على تكوين الله تعالى ، وخلقته وتيسيره ، وتهيئة الأسباب التي هي ليست بطوع الواعد ، ولا بطوع غيره من الكائنات الجائزة ، ولأجل ذلك قيل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْكُمْ ﴾ ، بمعنى أن الله تعالى باعتبار كونه موصوفاً بالغنى المطلق هو الذي يكون جديراً إذا وعد وعداً بأن يكون وعده موثقاً به .

تفريع الاستبشار وتقريره على صورة الالتفات :

قد وقع بعد تأكيد هذا العهد تفريع عليه ، وذلك هو تفريع الاستبشار بقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقد وقع تقرير هذا المعنى من الاستبشار على صورة الالتفات الذي هو من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهذا الالتفات فيه انتقال من مقام الغيبة إلى مقام الخطاب ، وهو معنى يقتضي مزيد التنويه والعناية بالمؤمنين والإقبال من الله تعالى عليهم ، لأن الأعلى اعتبر الأسفل بعد ذكره ذكر الغيبة حاضراً بين يديه ، فأقبل عليه بالتعطف وبالبشرى ، فهو مقابل مقابل العكس للالتفات الذي وقع في قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لأنه من الأسفل للأعلى ، فإنه بعد أن وقع الثناء على الله تعالى بآيات التمجيد إلى درجة أن استحضار الله تعالى في نفس العبد ، قد تم بما وقع من ذكر صفاته العلا ، وقع التوجه إليه توجه الترامي والتعلق بقول المؤمن العابد المخلص : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ ﴾ . وهنا وقع

التوجه من الأعلى إلى الأسفل بحيث إن الله تعالى هو الذي استدنى عبده وأقبل عليه ، وميزه بخطاب البشري والكرامة ، بقوله : ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

بعض الخصال المتفرعة على ما سبق ذكره :

بعد هذا وقع العود إلى ذكر الخصال المتفرعة التي استغني عن ذكرها أولاً ، واكتفي عنها بإيراد ما ادعي أنه وحده المتعاهد عليه ، قال تعالى : ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة : ١١٢] .

بيان الآية لثلاثة أصول نفسية :

بين بذلك ثلاثة أصول نفسية من الأصول النفسية التي تتفرع عنها الكمالات الإنسانية ، والكرامات الكمالية التي يفوز بها الإنسان .

أصل الإرادة :

الإرادة التي تتمثل فيما في معنى التوبة من التصميم على الرجوع إلى الحق ، واتباع سبيل الهدى ، والتوجه إليه بعزيمة ثابتة .

الإخلاص :

الإخلاص الذي في معنى العابدين ، بناء على ما أخذه المفسرون من دلالة السياق من أن المراد بالعبادين هنا المخلصون في عبادتهم .

الرضا :

هو معنى الرضا النفسي الإيماني الذي أخذوه من قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .
فهذه هي الأصول النفسية الثلاثة ؛ الإرادة ، والإخلاص ، والرضا .

الأصول العملية الثلاثة في الآية :

أتبعت هذه الأصول النفسية بثلاثة من المظاهر العملية وهي : الصوم
الذي هو المراد بالسائحين على ما ذهب إليه القاضي البيضاوي ومن تبعه .
والصلاة الذي هو المراد بالراكعين الساجدين .

والتواصي بالحق الذي هو معنى الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر .
فكانت هذه ثلاثة من المظاهر العملية ، أحدها سلبي وهو الصوم
والثاني إيجابي وهو الصلاة ، والثالث تفاعلي انتشاري ، وهو معنى الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، باعتبار كونه قائما بمجموع الأمة شائعا بين
أفرادها فيكون صفة تفاعلية انتشارية فيها ، هي التي عبر عنها في الآية
الأخرى بقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ٣] ، فمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
بالنسبة لمجموع الأمة ، إنما هو التأمير والتناهي الذي عبر عنه بالتواصي
بالحق والتواصي بالصبر .

الصفة السابعة صفة شاملة في الآية

جاءت الصفة السابعة وهي الحافظون لحدود الله ، صفة شاملة راجعة
إلى الجميع مرجع الجمع والتلخيص ؛ لأن المراد بحدود الله ، كما نقل
الإمام البخاري عن ابن عباس : إنما هي الطاعة .

فالمراد بالحفظ الدوام عليها ، ومراده تزكية هؤلاء الذين أثبت لهم الأصول النفسية الشريفة ، وهي الإرادة والإخلاص والرضا ، والمظاهر العملية الزكية التي هي الصوم والصلاة والتواصي بالحق ، أنهم دائمون على ذلك ثابتون عليه ؛ لأن الدوام على الشيء هو القاضي بأن ينال جزأه بأوفى ما يكون عليه الجزاء ، ولأن الطاعات لما كانت من مقتضى شكر المنعم ، فإن الدوام عليها يقتضي مزيد النعمة .

تذليل الآية بشرى المؤمنين :

وقع التذليل بتأكيد البشري بقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢] ، فالمأمور بأن يبشر المؤمنين ، هو الخطاب الذي توجه إليه ، وهو المؤمنون أنفسهم ، فالمخاطب هنا ليس فردا معينا ، وإنما هو كما يقول علماء المعاني من يتأتى منه الاستماع إلى الخطاب ، وذلك معنى من التعريض بالتنويه بمقام المؤمنين وأنهم لا يكونون مستبشرين فقط ، وإنما يكونون مبشرين ؛ لأنهم بثقتهم بالوعد الإلهي ، ويقينهم به يكون بعضهم مبشرا لبعض بالجنة ، وعلى ذلك يكون معنى ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بشرهم بالجنة ؛ لأن النفوس التي تتحلّى بهذه الأصول ، وتسلك هذه المسالك وتدوم عليها هذا الدوام تكون النفوس الموقنة المؤمنة المطمئنة ، فكما جعل الله تعالى الإيمان هنا مقتضيا للبشارة بالجنة بطريق التصريح في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّهَا نَفَسُ الْمُطْمَئِنَّةِ ﴾ [٢٧] أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠] .

المحاضرة السادسة والعشرون بعد المائتين

مصادر الشريعة من الكتاب والسنة

نبذة تاريخية قبل بعثة النبي ﷺ:

موضوع هذا الحديث «مصادر الشريعة من الكتاب والسنة» وقبل أن ندخل في صلب الموضوع لابد أن نرجع إلى الوراء لتتذكر جميعاً كيف بزغ النور المحمدي على ظهر البسيطة فنجد أن الله تعالى الذي أكرم الإنسان وخلق في أحسن تقويم ، اقتضت مشيئته سبحانه أن يوالي البشرية بإمدادات متوالية متتالية من خيره ورحمته وعطفه وإحسانه ليهدى السبيل ، ويقودها إلى طريق الرشd ، فكانت من تلك الأمداد الرسالات والنبوات والكتب المنزل ، كلما جاء عهد أظلمت فيه مشاعل النور إلا وأضاءها الحق سبحانه وتعالى من جديد ، وكان القرن السابع الميلادي في آخره قد أصبحت فيه البشرية في سائر أطرافها ظلمات بعضها فوق بعض ، لا دول ولا حكام ولا ثقافة ولا علم ولا دين ولا حق ، وإنما هي الأوهام والخرافات والكهنوت والإقطاع والظلم والطغيان والجهالة السائدة في كل مكان ، والشرائع القائمة على الطغيان والمسخ والاستبداد والإرهاب ، فأصبح الإنسان في محنة ما بعدها محنة وكانت الدول المسيطرة إذ ذاك فارساً وبيزنطة والروم كلها على ضلال ، كلها سائرة نحو الخراب الكامل والدمار الشامل ، فأراد الله أن يمد البشرية بمدد من عنده أين يكون هذا المدد؟ شاءت الحكمة الإلهية أن يخرج هذا المدد من مكان لم يكن ينتظره أحد ، من جزيرة العرب .

ظهور النور المحمدي في الجزيرة العربية:

من تلك الصحراء القاحلة المهجورة المنسية شاء الله أن يجعل فيها منبع نور ومنار هدى ، حيث كانت وقتئذ ليس فيها سلطة كهنوت ولا سلطة حكم مركزي ولا دولة مهيمنة وإنما هم ناس يسرون في فجاج الأرض قبائل كل منها يعيش على حساب تقاليده وفي دائرة ما يستطيعه من قوة وعزلة ، فكانت مستعدة كل الاستعداد لأن ينبع فيها النور المحمدي ، وأن يجعل منها حصناً حصيناً للإسلام ، ومهداً لهذا الدين المحمدي لأنه إذا قام هذا الدين وابتدأ دعوته فلن يقاومه أحد ، لسنا هنا كما كنا أمام المسيحية ، ولسنا هنا كما كنا أمام اليهودية حيث كانت هناك دول قائمة تسيطر ، فكانت الدعوات تخرج مهضومة ، مغلوبة على أمرها ، وكانت النبوات والرسالات التي يأتي بها أولئك الأنبياء والرسل معرضة لكثير من الأخطار .

اختيار مكة من الجزيرة لخروج النور المحمدي:

أشرق نور سيدنا محمد ﷺ في مكة التي استطاعت أن يكون لها إشراق وإشعاع روحي ومادي على كافة القبائل العربية والجزيرة العربية ، مكة موطن الحج ومركز الكعبة ، موطن الأمن والأمان التي تتمتع بثقة وبنفوذ وبسمعة وبإشراق وإشعاع بين العرب أجمعين من جميع النواحي ، إشعاع روحي وإشعاع مادي وإشعاع أدبي ، في مكة هذه توجد قريش ، المتحدة المترابطة لكنها معتزة بوثنيتها الحاكمة في مكة لكنها لا تترك الحكم في يد رجل دون آخر . إنما هو حكم جماعي موزع على البطون والعشائر ، لكل عشيرة ولكل بطن من الحكم نصيب .

مكة هذه هي التي يرتفع فيها صوت الإسلام ، لأن الإسلام يحتاج إلى جند يعبأ لخدمته ، والإسلام يحتاج إلى قاعدة ينبعث منها وينطلق منها نحو العالم كله .

اختيار قريش من مكة لخروج النبي ﷺ :

جزيرة العرب إن ذكرت فأشرف من فيها وأكرم من فيها قريش ، ففي قريش وفي بلد قريش يجب أن تظهر الرسالة وأمام قريش يجب أن تهزأ الوثنية وأن تحطم الأصنام وأن يظهر دين الله بارزاً ، لأنه إذا برز في مكة برز عند العرب أجمعين وإذا انتصر في مكة انتشر في الجزيرة العربية كلها . كافح رسول الله ﷺ وثنية قريش ، وكانت عنيدة صلبة لكنها لم تكن تستطيع أن تقضي عليه لأنه منها وإليها ، كافح ما استطاع رسول الله ﷺ أن يكافح فكون الثلة الأولى للإسلام من أبناء قريش ليكونوا مدداً وسنداً في المرحلة القادمة الحاسمة . واقتضت حكمة الله بعدما تخلخلت قريش وزلزلت أركان الوثنية ، وتضعضت قوة قريش يعني تضعضع جبروتها ، تضعضع نفوذها الروحي القائم على الأوهام والوثنية ، تضعضع نفوذها المادي بعدما تخلخلت مكة ودخلت وحدتها عوامل الفرقة من أجل عقيدة جديدة ستكون إنقاذاً لقريش وإنقاذاً للعرب وإنقاذاً للإنسانية كلها .

الهجرة إلى المدينة المنورة:

عندما وقع كل ذلك أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة ، المدينة التي هي في الدرجة الثانية أمام مكة لا إشعاع روحي لها فلا كعبة فيها ، ولا إشعاع مادي فلا اقتصاد منظم في داخلها ، ولا وحدة بين سكانها ، فهناك

يهود، وهنالك نصارى، وهنالك أوس وخزرج بينهم ثارات قديمة إذا ذكروها هبوا إلى السلاح، في المدينة سيفتح الإسلام صفحته الجديدة، في المدينة سيعد الإسلام في يثرب أول مدينة إسلامية ينطلق منها نور محمد ﷺ نحو العالم.

وهاجر رسول الله ﷺ معباً مرفوقاً بالثلة الأولى من أبناء قريش من خيرتها وأكرم عناصرها، هاجرت معه فكانت هي الخميرة الأولى للمدينة المنورة، هي الخميرة الأولى التي يقلدها الأنصار، والتي يستقون منها تعاليم الدين، والتي يقلدونها في سائر المواقف؛ لأنها الثلة الأولى التي سبقت إلى الإسلام فعاشت في ظله أكثر من عشر سنوات، فهي تقوم بدور المعلم ودور المرشد ودور المشجع ودور الهادي، ودور الردء والحصن الحصين لسيدنا محمد ﷺ.

قيام الدولة الإسلامية في المدينة:

مضى الإسلام يخطو خطواته في يثرب فقامت أول مدينة إسلامية، قيل لها المدينة، هذا اسم إسلامي لم يكن لها قبل الإسلام، قيل لها المدينة لأن الإسلام منذ أول يوم قام ليكون مدنية وليكون حضارة وليكون شريعة، وليكون رسالة عامة إلى البشر، لم يقم على الهمجية ولا على البداوة، وإنما قام ليكون منبع الحضارة وأيد الله رسوله ﷺ في المدينة المنورة فتكونت في المدينة الدولة الإسلامية الأولى، وتكون في المدينة المجتمع الإسلامي الأول، ومضى القرآن الكريم الذي ابتدأ في مكة دفعات دفعات، واستطاع رسول الله ﷺ في ظل هذه الدولة الجديدة وداخل حدودها أن ينظم المجتمع الإسلامي وجاء الوقت ليضع الشريعة ويضع القوانين اللازمة لسير هذا

المجتمع ، سيره كأفراد وسيره كجماعة وسيره كدولة . وإذا كنا نرى أن الرسول ﷺ يأذن بالغزوات ويبعث السرايا ضد قريش فما ذلك إلا للدفاع عن تراب الإسلام الأول عن الدولة الإسلامية الأولى التي ترسمت حدودها واتضحت معالم هذه الدولة في الجزيرة العربية . فلم يكن يسمح بأن يطغى على حدودها طاغ ولا أن يخرق ترابها مخترق عدو .

نزل القرآن منجماً حسب الأحداث:

مضت حياة النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فكان كتاب الله ينزل على النبي ﷺ ولم يزل ينزل أكثر من عشرين سنة ، ينزل منجماً ، مقسماً لحكمة اقتضتها الإرادة الإلهية ينزل مقسماً منجماً ليتلقاه الرسول ﷺ وليثبت به فؤاده ، وينزل منجماً مقسماً ليلقيه إلى الناس وليرتله ترتيلاً ، وليمكنه في قلوب المؤمنين مرحلة بعد أخرى . فالدعوة الصالحة التي يراد لها أن تصل إلى الأعماق لا تكون طفرة أبداً وإنما تكون تدريجاً وحقناً واحدة بعد الأخرى ، وكان القرآن الكريم هو النص الأول والوثيقة الأولى من شريعة الإسلام التي برزت لتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

مبادئ العقيدة وأسسها:

كانت شريعة الإسلام نسخة ناطقة لعقيدته ، فهي مرآة من نفس عقيدته ، عقيدة الإسلام قامت على أن الله واحد ، عقيدة الإسلام قامت على أن الإنسانية واحدة ، وعلى أن الإنسان خلقه الله من نفس واحدة . عقيدة الإسلام قامت على تحطيم جميع الفوارق وجميع المظالم .

الشريعة مرآة للعقيدة:

الشريعة الإسلامية يجب أن تكون مرآة لهذه العقيدة تنسجم معها وتطبق مبادئها في واقع الحياة اليومي ، ومن أجل ذلك كانت شريعة الإسلام غير طبقية ، ومن أجل ذلك كانت شريعة الإسلام ليست خاصة بلون دون لون ولا بجنس دون جنس ، ومن أجل ذلك كانت شريعة الإسلام قائمة على العدل المطلق ، وعلى المصلحة العامة ، والخير العام .

حال النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة:

قضى رسول الله ﷺ بين ظهرائي أمته الفترة الثانية من حياته في المدينة ينظم هذه الدولة ويقيم دعائمها على أساس الشريعة الإسلامية ، ينزل الوحي فيتلوه ويرتله أمامهم ، ويأمر كتابه أن يكتبوه لأن القرآن منذ نزل ، نزل ليكتب فهو كتاب من عند الله . واسم الكتاب الذي أطلق يشعر بل يدل أوضح دلالة على وجود كتابته وتسجيله والقرآن جيء به وأطلق عليه القرآن ليقراً ، وليكون جارياً على ألسنة الناس في كل مكان وليكون هجيرى المسلمين صباح مساء يتلونه في صلواتهم في غدواتهم وروحاتهم .

ظهور السنة إلى جانب القرآن:

كان رسول الله ﷺ كما يذكر الوحي ويلقن الصحابة آيات القرآن الكريم ، كان الصحابة في نفس الوقت يجالسونه فيستفسرونه فيما أشكل عليهم من آيات القرآن ويستفتونه في الأحداث والوقائع التي تقع لهم كل يوم . وبقي رسول الله ﷺ يستجيب ويوضح كل ما أشكل ويفتي في كل ما حدث . فكانت نتيجة تلك الفتاوى وتلك البيانات النبوية هي السنة

النبوية فمضت السنة مع القرآن مقرونتين جنبًا إلى جنب منذ اليوم الأول الذي نزلت فيه أول سورة ، لا يفترق قرآن عن السنة .

تكليف النبي ﷺ بمهمتين :

الرسول ﷺ كلف بمهمتين ، مهمة التبليغ : ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] . ومهمة البيان : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] .

مهمة التبليغ :

التبليغ يقوم به عن الله فيبلغ القرآن إلى المؤمنين وتلك عملية لا نصيب له فيها إلا أنه يتلقاها ويبلغها بكامل الأمانة والصدق .

مهمة البيان :

المهمة الثانية ، أن يبين للمسلمين حقيقة هذا القرآن ومغزى هذا القرآن ، وأن يجعل من القرآن النظرية القرآنية حقائق واقعية عملية تسري في حياة الناس اليومية ، فالسنة كانت حينئذ هي التطبيق العملي الأول والتفسير الصحيح لمعاني القرآن في أول دولة إسلامية قامت على وجه الأرض .

السنة النبوية مفسرة للكتاب :

هكذا نجد أن الشريعة كانت منذ اليوم الأول كتابًا وسنة فلم تنفصل السنة عن الكتاب ولم ينفصل الكتاب عن السنة في أي وقت من الأوقات . وهذا طبيعي جدًا فمتى وجد الناس أن دولة من الدول تصدر قانونًا أو دستورًا دون أن تلحقه بلوائح تفسيرية توضح مغايزه وتحدد معالمه ،

ومتى كانت المحاكم مكتفية دون أن تضيف إلى القوانين نصوص الأحكام التي تصدرها يوماً بعد يوم، فتحدث فيها اجتهاداً جديداً، وتضيف بها ثروة قانونية جديدة، هي ثروة التفسير وتأويل لنصوص القانون. إن الإسلام لم يكن بدعاً فيما قام به الرسول ﷺ من تفسير القرآن وتوضيحه وشرحه، وهو القانون الأسمى بالسنة التي هي التطبيق العملي، واللائحة التفسيرية المستديمة.

قيام الشريعة على القرآن والسنة:

من هنا نجد أن المسلمين كانوا منطقيين مع أنفسهم لما جعلوا شريعتهم قائمة على الكتاب والسنة، ذلك أن المسلمين حينما ولوا وجوههم ليقبسوا شريعة أخرى أو ليبحثوا عن تنظيم أفضل فماذا كانوا يجدون في ذلك العهد بل حتى في هذا العهد، هل يجدون شريعة أسمى ولا أفضل أو أكمل من شريعة الإسلام؟ كلا والله.

لذلك كانوا منسجمين تمام الانسجام مع مشاعرهم ومع المثل الأعلى الذي يخالج ضمائرهم عندما قبلوا الكتاب والسنة وجعلوه أساس الشريعة المحمدية الإسلامية، وهاهنا لابد أن نلقي نظرة أقرب إلى أن تكون نظرة فنية في حدود البيانات والمعلومات العلمية المتعارفة في الفن الذي يتصل بهذا الموضوع؛ فالكتاب الذي سيكون مصدراً للتشريع، والذي سنستخلص منه الأحكام، علاقتنا به إذن علاقة فهم وعلاقة استنباط، فكيف نفهم القرآن؟ ما هو الطريق إلى فهمه؟

كيف نفهم القرآن الكريم؟

لقد كان الصحابة الذي نزل عليهم القرآن عربًا بطبيعتهم لا يحتاجون إلى تعلم لغة ولا إلى الإلمام بقواعد، ولا إلى أي شيء كانوا شرعًا في فهم القرآن، بل إذا كان الواحد منهم يحتاج إلى تفسير بعض الألفاظ، فذلك في كلمات قليلة محدودة، التي كانت رائجة في قبيلة دون أخرى أو في لهجة من اللهجات العربية دون بقية اللهجات، لكن المعنى العام كان واضحًا لكل العرب، لكن المسلمين الذين يأتون من بعد العرب كيف يمكن لهم أن يفهموا القرآن حتى لو كانوا عربًا، فإن اختلاطهم بالأمم الإسلامية التي دخلت في الدين، جعلهم يتأثرون بلغاتها وبلهجاتها، ويدخل في كلامهم اللحن، هم إذن محتاجون إلى وسيلة تمكنهم من فهم القرآن.

معرفة اللغة العربية:

أول وسيلة لفهم القرآن هي المعرفة باللغة العربية. وهاهنا يتساءل السائل ويقول، أليس القرآن معجزًا لعباد الله؟ أليست معجزة القرآن قائمة أبد الدهر؟ كيف يكون القرآن معجزًا وكيف نحاول نحن أن نفهمه رغمًا عن إعجازه؟

إعجاز القرآن لا ينافي تيسيره:

الواقع أن هذه نفسها معجزة أخرى للقرآن. فالقرآن المعجز من معجزته ومن إعجازه أنه ميسر للفهم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] إعجاز القرآن الذي يقوم ويستمد أساسه من معاني القرآن الكريمة إعجاز القرآن الذي يتجلى في كون المبادئ التي جاء بها

فوق العصر الذي نزلت فيه وفوق البيئة التي نشأت فيها ، القرآن الذي يتجلى إعجازه في كونه يحتوي على إشارات وتعليمات وتوجيهات إلهية لا تزال البشرية إلى الآن ليست في مستواها الرفيع ولا تزال البشرية إلى الآن لم تهضمها الهضم الكافي ، لأنها فوق مستواها الأناني الحقود ، القرآن المعجز الذي يتجلى إعجازه في ارتفاعه إلى مجالات أعلى وآفاق أوسع من كل ما عرفه الناس عند نزوله وبعد نزوله ، وبعد أربعة عشر قرناً من نزوله ، هذا القرآن رغمًا عن إعجازه يستطيع أن يفهمه الناس ، وكما قلت هذه نفسها معجزة ، لأن الله تعالى جاء به ليبين للناس ، جاء به هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين .

فإعجاز القرآن لا يتنافى مع تيسيره ومع توضيحه ، ولكن لا بد لمن يريد أن يدخل إلى حصن القرآن أن يطرق بابه ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] .

نزل القرآن بلغة العرب:

القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، واللغة العربية في ذلك العهد كانت هي اللغة الوحيدة التي أهلها الله لحمل رسالة الإسلام ذلك أن المنطقة التي توجد فيها جزيرة العرب والتي انطلق منها نور الإسلام ، كانت منطقة يسودها البغض والحقد فالإمبراطورية البيزنطية متعصبة ليونانياتها تكره اللاتينية واللاتين ، وامبراطورية روما ، تكره اليونان واليونانية وتناصب بينزنة العداء ، وفارس المسيطرة على قسط كبير من العالم ، تتنكر لهؤلاء وأولئك وتعتبر نفسها أعلى وأرقى وتعتبر عقيدتها أسمى وأكبر ، فهي لا ترضى مطلقاً أن تتنازل عن لغتها لصالح لغة اليونان أو لغة اللاتين ؛

وهذه التيارات الثلاث كانت هي التيارات الغالبة في ذلك الوقت من الناحية الثقافية والفكرية . والإسلام أراد الله أن يكون رسالة للعالم كله ، وأن يهدي البشرية كلها ، وأن يشق طريقه بكامل الحرية في فسحة وراحة واطمئنان .

فما هي اللغة التي تؤدي هذه الرسالة؟ هي اللغة العربية ، تلك اللغة المحايدة التي ليس لها أعداء وليس لها أصدقاء . تلك اللغة التي آتاها الله في عمق الجزيرة العربية صفاء أكثر من كل لغة أخرى ، وآتاها إشرافاً ورشاقة لا توجد في اللغات الثانية . وخلع عليها من الحلل ما جعلها أهلاً لأن تتحمل الرسالة أحسن أداء ، وأن تعبر عنها أدق تعبير ، فكانت اللغة العربية ، هي التي حملت رسالة الإسلام إلى جميع العالمين ، هذه اللغة التي جعلها الله مفتاح القرآن ولسانه الخالد . واللغة التي ستكون لغة العالم الإسلامي هي أول لغة عالمية يعرفها الناس بعشرات الملايين ومئات الملايين ، هذه اللغة العربية لا نستغني مطلقاً عن تعلمها وعن العناية بها وعن الإحاطة بها ، وعن جعلها هجيرى المسلمين ، لنبقى على صلة بالقرآن ، ومنتى قطعنا صلتنا بالعربية انقطعت لنا كل صلة بكتاب الله ، وبالتالي انقطعت جذور الإسلام من أرضنا وبلادنا . ففهم القرآن يتوقف قبل كل شيء على اللغة العربية ، على الإحاطة بها والإلمام بها ، لغة مفردات وتركيبات وأساليب ومعاني وبيان وسائر فروع اللغة .

كثير من الشبه سببها لجهل باللغة:

لا يكفي فقط أن نلم بها إلماماً سطحياً ، فقد نبه علماءنا رضوان الله عليهم إلى أن أكثر المقالات الفاسدة والشبه المضللة التي نشأت بين الفرق الإسلامية ، إنما كان منشؤها الجهل باللغة العربية ، كل التأويلات التي أولت بها الآيات ، تأويلات باطلة إن هي إلا ناشئة عن الجهل باللغة وعن

سوء الفهم للغة . وقد نبه على ذلك إمام الاشتقاق وإمام فقه اللغة أبو الفتح بن جني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الخصائص فعقد لذلك بابًا خاصًا ، «باب ما تؤمنه العربية من الاعتقادات الدينية» وأتى فيه بأمثلة عديدة توضح كيف أن الضلال والاشتباه والاختلاف في الإسلام بين الفرق ، إنما كان منشؤه الأول ، الجهل باللغة وعدم التمكن بمعرفتها ، وبالتالي تأويل القرآن على غير وجهه .

معرفة عادات العرب :

لأجل أن نفهم القرآن ، يجب أن نعرف عادات العرب ليس معنى ذلك أن القرآن كتاب عربي عنصري ، فإذا قرأت كتاب الله فإنك لن تجد فيه أثرًا للعنصرية ولا أثرًا للبيئة المحلية ، كل ما هنالك أن هنالك بعض آيات وخاصة منها ما يتعلق بشعائر الحج ، وبالأمر الباقية التي أقرها الإسلام ، من التقاليد التي لا تخالف مبادئ الإسلام ولا تناقض التوحيد ، هذه الآيات هي التي نجد فيها بعض الكلمات التي لا نستطيع أن نفهمها إلا إذا عرفنا عادات العرب والتقاليد التي كانوا عليها عند نزول القرآن ، فمعرفة هذه العادات والإلمام بها ضروري لفهم القرآن الكريم .

معرفة أسباب النزول :

لأجل أن نفهم القرآن لابد لنا من أن نعرف أسباب النزول لابد لنا من أن نبحت أين نزلت هذه الآية وفيما أنزلت هذه الآية ، وأسباب النزول ، لا نتقصاها لأجل أن نرضي غريزة تاريخية وحب الاستطلاع ولكننا نرمي من ذلك إلى صميم المعنى في الآية ، فإن أسباب النزول تقابل في علم المعاني والبيان ، المعرفة بمقتضى الحال . وأساس البلاغة في العربية في

كلامها العادي وفي قرآنها الكريم ، هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال مقتضى حال المخاطب مقتضى حال المخاطب فلا بد لنا أن نعرف اللحظة التي نزلت فيها الآية؟ من هم الذين كان يخاطبهم القرآن؟ ومن هم الذين كانوا يخاطبون الرسول؟ ونعرف كل الملابس التي أحاطت بالآية ، وهذا لا نتمكن منه إلا إذا ألمنا بالإمام الكافي بأسباب النزول .

ولقد كان سيدنا عبد الله بن مسعود أحد كتاب الوحي ، من أعلم الناس بأسباب النزول ، وكان يذكر معرفته هذه للمسلمين لأجل أن يتلقوا عنه هذا العلم النفيس ، النادر . فكان يقول : إني لأعلم كل آية من كتاب الله أين نزلت وفيما أنزلت . ولو علمت أن هنالك من يعرف شيئاً غير الذي أعرف وتصل إليه الإبل لركبت إليه» .

معرفة المكي والمدني:

لأجل أن نفهم القرآن ، القرآن نزل في مرحلتين ، مرحلة مكية ومرحلة مدنية ، والمرحلة المدنية مبنية على المرحلة المكية ، وكثير من الناس شاع عندهم أن القرآن المكي لم يكن فيه تشريع وأن القرآن المدني هو الذي ابتداء فيه التشريع ؛ وهذه فرية على الإسلام لأن القرآن وحدة لا تتجزأ ، فمنذ اللحظة التي آذن الله فيها بظهور الإسلام آذن به ليكون شريعة وعقيدة في وقت واحد . فالقرآن المكي محتو على أصول كثيرة من أصول التشريع ، والقرآن المدني متمم لتلك الأصول ومفرع عليها . فلأجل أن نفهم القرآن لابد لنا من أن نبني القرآن المدني على القرآن المكي . ثم هنالك قرآن تقدم في النزول وقرآن تأخر في النزول ، فلا بد أن نرتب المتأخر على المتقدم ، لأن معرفة المتأخر متوقفة على معرفة المتقدم .

ثم يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم رغم تعدد سورته مائة وأربع عشرة سورة رغم هذا التعدد هو في الواقع كلام واحد ، واحد لوحدة مصدره وهو الحق سبحانه وتعالى ؛ وواحد بوحدة المخاطبين به وهم الأمة المحمدية الإسلامية . فالقرآن على تعدد سورته وآياته ليس إلا كلاماً واحداً يجب أن ندرسه إذا أردنا الاستنباط منه ، وإذا أردنا أن نتلقى حكمه وأحكامه ؛ أن ندرسه على أساس أنه كتاب واحد . يرتبط أوله بآخره . ويرد آخره على أوله ، وهذا معنى قول العلماء : القرآن يفسر بعضه بعضاً .

تعدد علوم القرآن وتعدد فنونه :

إذا نظرنا إلى كتاب الله نجد أن هذا الكتاب الذي نحاول أن نفهمه لا يقتصر على فن واحد ولا على علم واحد . فهناك علوم كثيرة نبعت من القرآن فما هي هذه العلوم؟ هل القرآن موسوعة علوم؟ الواقع أن كتاب الله ليس موسوعة بمعنى الموسوعات التي تعارفها الناس ولكنه كتاب جاء لهداية الخلق ، فهو المنار الذي يضيء لكافة الباحثين عن الحق والحقيقة حيثما كانوا وأينما كانوا وعن أي بحث أرادوا؛ القرآن يعطيهم لمحات ويعطيهم إشراقات ويعطيهم بوارق تهديهم سواء السبيل ، القرآن بالنسبة إلى كل بحث في الطبيعة في الكون في الإنسان في الغريزة البشرية في التاريخ ، هو بمنزلة المنار الذي يكون في الميناء يضيء الطريق للسفن ويعرفها أن هنا مرسى يمكن فيها الإرساء . فكتاب الله يشرف على أفق الإنسانية كلها ويشرف من أعلى أعلاها ليبقى دائماً مشرفاً عليها وفوقها ، وهي تتلقف منه الهدى وتأخذ منه الشعلة المضيئة جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن . ولن يستنفد ذلك كلام الله .

قضية التشريع في القرآن الكريم:

القرآن يحتوي على كثير من النواحي التي تتصل بالهداية والتي تتصل بالإرشاد والتي تتصل بتكوين الدولة الإسلامية. وفي طليعة هذه الموضوعات التي جاء القرآن لأداء رسالتها؛ قضية التشريع ففي القرآن آيات خاصة بأحكامه، آيات تعتبر نصًّا على أحكام وآيات صالحة لاستنباط الأحكام، هذه الآيات ذكرها العلماء، منهم من اعتبرها فقلل عددها كالإمام ابن قيم الجوزية قصرها على مائة وخمسين آية، ومنهم من زاد توسط في عددها كفخر الدين الرازي فجعلها خمسمائة آية ومنهم من زاد أكثر مثل الإمام أبي بكر ابن العربي المعافري صاحب أحكام القرآن، فأوصلها إلى ثمانمائة وأربع وستين آية. وليس هناك من زاد على ذلك، اللهم إلا عز الدين بن عبد السلام، وشهاب الدين القرافي فهما اللذان اعترضا على هذا التحديد وقالوا؛ إن كتاب الله كله صفحة مفتوحة للاستنباط، لا توجد منه آية إلا ويمكن أن يستنبط منها حتى آيات القصص، حتى أخبار الأنبياء والرسول مع أمهم، كل ذلك يمكن أن نستخلص منه آدابًا وأخلاقًا وتوجيهات تفيد المسلمين، وهكذا نجد أن علماء الملة يختلفون في تحديد عدد آيات الأحكام طبقًا لهذه النظرية.

نوع الأحكام في القرآن الكريم:

غير أننا إذا نظرنا إلى كتاب الله لنبحث ما هو نوع الأحكام التي توجد فيه، هل هو كتاب مدونة فقه تحتوي على جزئيات القضايا وعلى ما يلزم لها؟ كلا كتاب الله هو كتاب كليات، هو كتاب توجيهات عليا. هو كتاب يضع الأساس لأجل أن تتكون في ظله شريعة إسلامية تهتدي بهديه، وتنسجم مع وحيه وتسير في ظله.

فالقرآن أكثر تعريفه بالأحكام كلي لا جزئي، والقرآن تضمن الضروريات والحاجيات والتحسينيات، أي تضمن جميع المصالح التي تتوقف عليها حياة الإنسان لسائر صنوفها وضروبها. والقرآن مادام مختصرًا وهو على اختصاره جامع مانع فلا يمكن أن يكون فيه كل جزئية. وإنما المعقول والمنطقي والواقع هو أنه لا يحتوي في عمومه إلا على الكليات التي تعتبر منازًا يهتدي به المجتهد المسلم. وهكذا كان كتاب الله يتجه دائمًا إلى الناحية العامة وإلى المبادئ العامة.

وجود بعض التشريعات الجزئية لحكمة معينة:

إذا كان هنالك شيء من التشريعات الجزئية، فتلك التشريعات جاءت جزئية مفصلة لحكمة اقتضاها الإسلام. مثال ذلك: تنظيم الأسرة الإسلامية؛ هذا التنظيم جاء في كتاب الله محددًا موضحًا بتفصيل كثير وبالغ، تفصيل للزواج والطلاق والوصية والإرث والتركه وسائر أجزاء التكوين العائلي، لم ذلك؟ لأن الله تعالى يريد أن تكون أسرة إسلامية على نمط متحد منسجم، مستمر لا يتبدل ولا يتغير لا عبر القرون ولا عبر الأجيال ولا عبر الأمم والشعوب، يريد أن يضع أساسًا للأمة الإسلامية لا يتخلف، تتماثل به مشاعرها ويتماثل به تكوينها؛ وذلك لا يتحقق إلا عن تكوين شرعي واحد لهذه الأسرة؛ فالأسرة الإسلامية في المغرب تعيش على النمط الذي تعيش عليه الأسرة الأندونيسية في أندونيسيا والذي تعيش عليه العائلة المصرية في مصر والذي تعيش عليه بقية العائلات الإسلامية الأخرى في كل مكان. نفس الأساس ونفس المبدأ. ونفس الرابطة ونفس العلاقة بين الأبوة والبنوة ونفس المواريث التي توزع هنا وهناك، ونفس الأنصباء في كل شيء.

هنا يقف القرآن ليفصل لأنه يريد أن يضع قاعدة أساسية يبنى عليها صرح الإسلام . والأمة الإسلامية إن هي إلا صرح كبير قام على أساس الخلقة الأولى التي هي الأسرة الإسلامية ، وهذا هو السر في وحدة الشعور الإسلامي في كل مكان وفي وحدة ردود الفعل الإسلامية إزاء الأحداث والوقائع في كل عصر . وهكذا نجد أن كتاب الله يفصل ما لا يتغير ، ويجمع كل ما تقتضي الحكمة تغييره حسب الزمان والمكان .

كل أبواب الشريعة أصلها بالكتاب أو السنة :

من هنا ننتقل إلى أن علماءنا رضوان الله عليهم ، استقصوا كتاب الله ، مضافاً إليه سنة الرسول ﷺ لأنها جزء لا يتجزأ من تفسيره وبيانه ، ووصلوا إلى أنه لا يوجد باب من أبواب الشريعة والفقه إلا وله أصل في كتاب الله وفي سنة رسول الله . ومن اللطائف أن ابن حزم الظاهري ، والظاهرية هم أشد الناس إيماناً بهذا المبدأ والذين تعمقوا فيه واعتبروا أن كتاب الله يغني حتى عن القياس ، وإن كانوا في واقع الأمر يقولون بكثير من الاستدلالات العقلية ، ولكن يسمونها بأسماء أخرى ، ابن حزم هذا قال : إنه ما من باب من أبواب الفقه إلا وله أصل في الكتاب والسنة ما عدا القراض ، فإني لم أجد له أصلاً ، فعقب عليه الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ وقال : كلا بل حتى القراض يوجد له أصل ، القراض إن هو إلا نوع من أنواع الإجارة والإجارة ثابت أصلها في القرآن ، ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيجٌ ﴾ [القصص : ٢٧] ، فالإجارة ثابت أصلها في القرآن وبالتالي فالقراض يعود أصله إلى القرآن .

وهكذا طالب علماءنا كل من يريد أن يدلي بدلوه في الاستنباط وفي استخراج الأحكام من كتاب الله ، كلما حدثت حادثة ووقعت واقعة أن يبذل جهده في تحصيل علمها أولاً من كتاب الله ، وأن يلتفت إلى أصلها في القرآن قبل أن يبحث أي شيء آخر ، فإن لم يجد ففي السنة النبوية ، فإن لم يجد في سنة رسول الله ﷺ ففي سنة الصحابة رضوان الله عليهم .

استنباط علي عليه السلام :

من اللطائف في هذا الباب ، أن علماءنا توصلوا إلى استنتاجات واستنباطات دقيقة من كتاب الله منها كمثال : هذا الاستنباط استنبطه سيدنا علي عليه السلام ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلُهُ ، وَفِصْلُهُ ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَفِصْلُهُ ، فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : ١٤] فجاء علي بن أبي طالب وجمع بين الآيتين ﴿ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ ﴿ وَفِصْلُهُ ، فِي عَامَيْنِ ﴾ ، أسقط العامين من ثلاثين شهراً . عامان للفصال والباقي للحمل ، فأثبت أن أقل أمد الحمل ستة أشهر ، وهذا من نواذر الاستنباط التي استنبطها أئمتنا من كتاب الله .

الإمام مالك رحمه الله :

إمامنا مالك رحمه الله ، جاء إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ [الحشر : ١٠] في وصف المؤمنين فذكر أن الذي يتجرأ على مقام الصحابة ويسبهم ليس له حق في الفيء الإسلامي ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ وهؤلاء لا يقولون : « اغفر لهم » ولكن يقولون كلمة أخرى .

الإمام ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ:

نجد الإمام ابن العربي المعافري من لطائف استدلالاته أن الإنسان لا يسمى إنساناً إلا إذا أصبح علقه وأنه قبل أن يكون علقه لا يسمى إنساناً وذلك أخذاً من قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢].

منذر القاضي:

نجد منذر بن سعيد القاضي الأندلسي الشهير صاحب الهيبة والمكانة الكبرى في الإسلام يذكر أن العربي وإن كان عربياً، فهو غير مطبوع على اللغة العربية، وهذا أمر معقول، إذ استعداد الإنسان للغة إنما هو استعداد عام فالله تعالى خلق للإنسان هذا الجهاز الصوتي لأجل أن يتكيف بحسب اللغات المختلفة والألسنة المختلفة، وهو قادر على أن يكيف نفسه بأي لغة شاء فالعربي ليس مجبواً بحكم الفطرة كما جبل الحيوان، وكما يفطر أي شيء آخر على أن يتكلم بهذه اللغة، استمد ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِمْ أَنْ تَكُونُوا كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٨]، ومتى خرج الإنسان من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً فبالتالي لا يعلم اللغة.

فطنة أعداء الدين إلى خطورة القرآن:

غير أن خصوم الإسلام الذين عرفوا قيمة القرآن وخطر القرآن وخطورة القرآن لم يفلتوا القرآن من هجماتهم من أول يوم. بل حاربوه وإن كان هذا الإسلام أول ما برز ولأول ما ظهر لم يخرج مهضوماً مهزوماً مغلوباً كما خرجت الملل الأخرى، إنما خرج من جزيرة العرب ورايته منصوره، وجنوده مظفرون، ودولته قائمة، يحمي قرآنه ويحمي كتابه، ويحمي شريعته،

وينشرها على العالمين، ويتقبل الناس فتوحاته وبعوثه بكل ارتياح وطمأنينة، هذا الإسلام رغماً عن كل ذلك فإن أعداءه لم يزالوا يترصدون به الدوائر، ذلك أن أول حملة نظمت ضد الكهنوت، وضد الرهبة، وضد استغلال الشعوب إنما كانت حملة القرآن الكريم. وإذا كان هناك أحد يدعي أن حملة قامت ضد الكهنوت وضد الرهبة، حملة لائكية بالمعنى الذي يتحدثون به، علمانية، وإن كانت في لسان دين، فتلك الحملة هي حملة القرآن ضد كل المقدسات المزورة المادية والروحية فهذا الإسلام وهذا القرآن عندما ظهر أمام الناس، أمام أعدائه تهبوه وكادوا له، ورأوا جيوشه تنتصر وتنتصر، ورأوا دولهم تنقرض دولة بعد أخرى، فما كان منهم إلا أن يحاربوه، لكن كيف يحاربونه؟ هل يستطيعون أن يواجهوا عقيدة بعقيدة، ومبدأ بمبدأ، وقانوناً بقانون ونظاماً بنظام؟

استخدام حملات التشويه والتضليل:

إن الإسلام إذا دخل في هذه المعركة المحدودة الواضحة فهو غالب منتصر لا محالة، إذن فليأخذوا الطريق بالالتواء وليصلوا إلى أغراضهم عن طريق التشويه والتزوير والتلفيق والتخيل، تخيل الفكر وبلبله الأفكار، وهذا ما قام به أعداء الإسلام؛ إنهم لم يواجهوا العقيدة الإسلامية بالهدم؛ لأنها عقيدة فوق عقيدتهم، ولم يواجهوا الإسلام بالهدم لأنه أسمى من سائر قوانينهم وشرائعهم، ولكنهم كادوا له بحملة التهريج وحملة التشويه وحملة التضليل.

ترجمة القرآن:

من أجل ذلك كانت أول مهمة قام بها الرهبان عندما سقطت طليطلة

وقامت مدرسة المترجمين فيها فأول مهمة قامت بها الكنيسة وعلى رأسهم بطرس المبجل هي القيام بترجمة القرآن ترجمته طبقاً لهوى ولكيد ولثأر ، ترجمة قائمة على التشويه والتضليل . فترجم القرآن وكانت هذه الترجمة عبارة عن تحريف لآياته وعن اختصار لبعض سورته ، وعن رد مزور ومزيف على محتوياته .

وقدمت هذه الترجمة باللغة اللاتينية إلى كافة شعوب المسيحية ، وإلى رجال الرهبنة في سائر أطراف الأرض . واستمرت هذه الترجمة تروج في أوروبا على أنها هي الوجه المشرق أو قل : الوجه المشوه للإسلام لأجل أن ينفروا أئمتهم من حضارة الإسلام وعقيدته وشريعته .

استمر خمسة قرون وجاءت النهضة الأوروبية وكان رجال النهضة أنفسهم بعضهم من سويسرا هو الذي قام بتجديد هذه الطبعة سيراً مع نفس التيار ، وأخذاً بنفس الفكرة ، والنهضة قامت لتحارب الكنيسة ولتهدم الكهنوت . ولكن أعداء الإسلام كانوا في نفس النهضة ورجالها ، وكانوا في نفس الكنيسة وأصحابها ؛ وذلك لأجل أن يحولوا بين دين الله وبين البشرية جمعاء .

ترجمة كتب العرب :

كانت دسيستهم الثانية هي أنهم جاءوا إلى كتب العرب فترجموها إلى اللاتينية ، وحالوا بين طوائف الأمم وبين طلاب الثقافة العربية أن يتصلوا بها مواجهة ورأساً ، لأن الرهبان هم الذين تولوا هذه الترجمة ، فاستلوا من سائر مترجماتهم كل ما يدل على الإسلام وأخذوا من ذلك كل ما يفيدهم وينفعهم ، وقدموا ذلك إلى من يريد الاطلاع على ما عند العرب لكن في

صورة غير حقيقية وغير كاملة، وفي صورة ناقصة، وبذلك حالوا بين الأوربيين وبين الإقبال على اللغة العربية مباشرة لتلقي ثقافتها والاطلاع على أسرارها. كل ذلك تفادياً من إشراق النور الإسلامي على بقية الأمم.

مهمة البيان وبعض ما يتعلق بها:

قلنا إن الله تعالى كلف رسوله بأمرين: بتبليغ القرآن وقد قلنا كلمة فيه، وبيان هذا القرآن. ونريد الآن أن نتقل إلى الكلام في هذا الموضوع.

كيف يكون بيان القرآن؟

بيان القرآن يتعلق بالسنة، قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُزِّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. كل هذه الآيات مع آيات أخرى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]. كلها فرضت على الرسول أن يقوم بالبيان، فكيف يكون هذا البيان؟ هذا البيان كان الطريقة الطبيعية والعادية أن يكون عن طريق السنة. فالسنة هي ماذا؟ هي الأحاديث التي يتحدثها الرسول ﷺ مع أصحابه، يشرح لهذا قضية ويفتي لهذا في قضية، ويوضح لهذا مشكلاً، ويحجب هذا عن سؤال سأل. وهكذا، فكان الرسول دائماً إلى جانب إبلاغ الوحي يقوم بوظيفة البيان، وهذا البيان لم يكن في حقيقة الأمر خارجاً عن كتاب الله إنما هو مقتبس من نور الله.

أليس النبي ﷺ هو الذي يتلقى الوحي من عند الله؟ إنه الذي يتلقى

الشريعة، وهو خير من يفسر هذه الشريعة، الرسول ﷺ كان يبين، لا يبين من عند نفسه ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤] كان يشرح القرآن شرحاً تفصيلياً في وقائع الإسلام اليومية، فهذه الوقائع اليومية تحتاج إلى تطبيق والآيات التي هي دستور القرآن من الذي يطبقها ومن الذي يعرف أين تطبق هذه الآية وأين تطبق الأخرى أفضل وأكرم من سيدنا محمد ﷺ؟ هنالك كان الرسول ﷺ يقوم بهذا الوجه ويؤدي هذه الرسالة.

ظهور طائفة القرآنيين ومهملي السنة:

نجد المسلمين تنبع فيهم فئة ضالة، هذه الفئة نشأت في عهد الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فَأَخَذَتْ تَقُول: يكفيننا كتاب الله، ما لنا وللسنة، السنة لا حاجة لنا بها يكفيننا كتاب الله، ذلك أنه في هذا العهد عهد الإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي كانت الحرية الفكرية قد بلغت مبلغها. وكانت هذه الحرية الفكرية الضاربة في العالم الإسلامي يستغلها أنصار الإسلام وخصومه على السواء. فقامت حركة الوضع، قام أفراد مدسوسون يريدون أن يفسدوا على الإسلام سيره، يدسون في الحديث النبوي وينسبون إلى الرسول ما لم يقل على الرغم من أنه ﷺ قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١) أخذوا يضعون الأحاديث وأخذت هذه الأحاديث تشيع بين الناس، وأخذت الثقة تتضاءل بالحديث النبوي، فأصبح حتى فريق من الأئمة المجتهدين يتحرون كامل التحري في قبول هذا الحديث أو ذاك، ويفضلون أحياناً أن يمشوا في طريق القياس والاجتهاد الشخصي على أن يقبلوا حديثاً لا يطمثون إليه.

(١) سبق تخريجه.

تأليف «الرسالة» وبيان حجية السنة:

وجد الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ هذه الأزمة، أزمة الثقة قائمة في العالم الإسلامي، أهل الرأي ينادون برأيهم ويستمرون فيه، وأهل السنة يكافحون في سبيل الدفاع عن ثكناتهم الإسلامية وحصونهم، ولكن أهل السنة كانوا أقرب إلى التقوى وأبعد عن الجدل وأقل استعداداً للمناظرة، والكفاح في سبيل العقيدة التي يستमितون فيها.

والشافعي رَحِمَهُ اللهُ أخذ من كلا الحسنيين أخذ من أهل السنة بنصيب وأخذ من أهل الرأي بنصيب، واتصل بالفرق وأصحاب المذاهب المختلفة فنال ثقافة مشتركة، جعلته يحس إحساس أهل السنة، ويجد عندهم من الأسلحة ما يستطيع به أن يدحض خصومه الذين يخاصمون السنة. فأخذ على عاتقه رَحِمَهُ اللهُ أن يؤلف رسالته في الأصول وهذه الرسالة تعتبر هي الكشف الأول في علم أصول الفقه.

وهو جزء عظيم من الفلسفة الإسلامية النابعة من صميم الإسلام، وجعل موضوع حجية السنة موضوعاً رئيسياً في هذه الرسالة. استدل له وكافح في سبيله ودافع عنه الدفاع المجيد، فرد للسنة كرامتها وأعطاهما حرمتها، وجعل أهل الرأي يطمئنون إلى أن هناك سنة وسنة. وإلى أن هناك حديثاً، وحديثاً وأن الحديث الصحيح لا يجب أن يلغى لحساب الحديث الباطل، وأن هناك مقاييس ومعايير يمكن أن توزن بها الأحاديث فيصح الصحيح ويضيع السقيم. وهكذا رَحِمَهُ اللهُ كان أول من كتب في نفس الرسالة أبحاثه الأولى في أصول الحديث، وأصول الحديث هي علم النقد الحديثي، هذا النقد الذي يتصل بالمتن وهو نص الحديث وبالسند وهم

رواة الحديث بحيث يعالج الباحث فيه الحديث من سائر جوانبه ، من ناحية الشكل ومن ناحية العمق ومن ناحية السلسلة التي تربط الحديث ببعضه ببعض ، وينتهي من ذلك إلى حقيقة الأمر في الحديث ، أهو صحيح أم غير صحيح؟

اللبنة الأولى في علم نقد الحديث النبوي:

كانت هذه البحوث التي دشنها الشافعي في نقد الحديث هي الخميرة الأولى في النقد المنهجي الذي نجده اليوم عند العلماء المحدثين ، ففي علم المنطق الحديث هناك اليوم ندرس المنطق الصوري الشكلي ، وندرس كذلك المنطق المنهجي ، مناهج العلوم ، وعلم الحديث وأصول الحديث هو الذي وضع الحجر الأساسي في المنهج النقدي في هذه العلوم ، وإذا قارناه ، وقد قارناه فعلاً ، القضايا والمبادئ والموازن التي توجد في المنهج النقدي عند المحدثين في الحقيقة إن هي إلا صدئ لما وجد في نقد الحديث عند علماء الحديث .

وهكذا رد الشافعي رَحِمَهُ اللهُ الحُرمة إلى السنة وشجع عليها . وأدنى مهمة أساسية في تدعيم دعائها .

جهود رجال السنة في حفظها:

منذ عهد الشافعي انطلقت السنة في جهادها وانطلق رجال السنة في تحصينها فكان أحمد بن حنبل تلميذ الشافعي ، هو أول من دشّن هذه الثلة الصالحة من رجال الحديث رَحِمَهُ اللهُ بمسنده الذي كتبه رَحِمَهُ اللهُ ، مسند أحمد بن حنبل ، الذي جمعه من سبعمائة وخمسين ألف حديث والذي قال : إذا

اختلف المسلمون في حديث فليظروا في مسندي فإن وجدوه فهو حديث رسول الله وإن لم يجدوه فلن يكون حديث رسول الله ﷺ فهو كذب وباطل . وكانت وفاته رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وإحدى وأربعين هجرية .

الإمام أبو محمد الدارمي:

تلاه بعد ذلك في نفس الكفاح من أجل السنة ونصرتها الدارمي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي ، فكتب «سنن» الدارمي ، وتوفي رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وخمسين للهجرة .

البخاري ومسلم:

وتلاه بعد ذلك البخاري رَحِمَهُ اللهُ أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل فكتب «الصحيح» ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وست وخمسين .

وتلاه بعد ذلك مسلم فكتب «صحيح» مسلم بن الحجاج النيسابوري وتوفي رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وإحدى وستين .

أصحاب السنن الأربعة والبزار:

تبعه بعد ذلك ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني فكتب «سننه» ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وثلاث وسبعين .

وتلاه بعد ذلك أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني فكتب السنن ، «سنن أبي داود» . ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين وخمس وسبعين .

وتلاه بعد ذلك الترمذي في «سننه» أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي الذي توفي سنة مائتين وتسع وسبعين .

وتلاه بعد ذلك البزار في «مسنده» ، وقد توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة مائتين واثنين وتسعين .

وتلاه بعد ذلك النسائي أبو عبد الرحمن فكتب «السنن» ، ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة ثلاثمائة وثلاث سنوات .

أبو يعلى وابن الجارود والطبراني :

تبعه بعد ذلك أبو يعلى في «مسنده» وتوفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ثلاثمائة وسبع .
وتلاه بعد ذلك ابن الجارود فكتب كتاب : «المنتقى في الأحكام» ، ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة ثلاثمائة وسبع أيضاً .
وتلاه بعد ذلك الطبراني سليمان بن أحمد فكتب ثلاثة معاجم ، ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة ثلاثمائة وستين .

الحاكم والبيهقي :

تبعه بعد ذلك الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري فكتب كتاب «المستدرک على الصحيحين» ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة أربعمائة وخمس .
وتلاه بعد ذلك البيهقي ، أحمد بن الحسين فكتب كتابه : «السنن الكبرى» ، ومات رَحِمَهُ اللهُ سنة أربعمائة وثمان وخمسين .

استقرار السنة كمصدر من مصادر التشريع :

كانت الدفعة القوية التي دفعها الشافعي المطلبي للحديث هي نقطة الانطلاق في صيانة هذه الثروة الطائلة من ثروات الإسلام والحفاظ عليها ونقلها إلى الأجيال جيلاً عن جيل .

وهكذا خرجت السنة منتصرة من المعركة، فاحتلت مكانتها ووقع الإجماع على التزامها، غير أن المسلمين تأدبا مع كتاب الله ووضعوا للأمر في نصابها، لم يجعلوا السنة في درجة الكتاب، بل جعلوها في الدرجة الثانية؛ ذلك لأنها بيان لكتاب الله، والبيان متأخر عن المبين في الدرجة وفي الوضع وفي المنزلة، والسنة كما قلنا لم تكن من صنع الرسول ﷺ ولا من هواه فإنها كانت مأخوذة من كتاب الله، مقتبسة منه، مثال ذلك حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «لا ضرر ولا ضرار»^(١). وقد أصبح مبدأ فقهياً شائعاً مسلماً في جميع المجالات، هذا الحديث عندما ننظر إلى كتاب الله، نجده مستقى من جملة آيات، استنبطه الرسول ﷺ من آيات قرآنية جزئية فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّنَعْدُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١]، في الحديث عن الزوجات، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، والله تعالى يقول: ﴿لَا تُضَارَّ وَلَدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] فاستخرج رسول الله ﷺ من هذه الجزئيات المتناسقة أن مبدأ الإضرار مبدأ يرفضه الدين ولا يقره الإسلام. وصدر من ذلك حديث النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار»^(١)، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «أعطيت جوامع الكلم»^(٢) فكانت هذه الكلمة على قصرها جامعة مانعة.

كل ما في السنة له أصل قرآني:

هكذا نجد أن الرسول ﷺ، إنما كان يتفياً ظلال القرآن ويسير من ورائها، مقتدياً مهتدياً. وليس في السنة إلا ما دل الكتاب عليه دلالة

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٣)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إجمالية أو تفصيلية . بل إنما دل عليه الكتاب في شكل أصول وكميات ، جاء في السنة في شكل فروع وجزئيات وتطبيقات عملية يومية .

وكما أن الكتاب أتى بتعريف المصالح جلبًا لها والمفاسد دفعًا لها وضمن جميع ما يتوقف عليه الإنسان من ضروريات وحاجيات وتحسينات ، فكذا نجد السنة أتت بتقريرها تفريعًا على الكتاب وبيانًا له من سائر جوانبه .

وكما تأصلت الضروريات الخمس ؛ حفظ الدين ، وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ العرض ، تأصلت في كتاب الله بآيات قرآنية فقد تفرعت في السنة النبوية على أحسن وجه وأكملته .

نكتة في هذا الباب :

من اللطائف في هذا الباب أن بعض العلماء المدققين آمن بأن السنة كلها مستمدة من القرآن ، فحاول محاولة جريئة كل الجراءة أخذ صحيح مسلم وأخذ يبحث في أحاديثه حديثًا حديثًا ، ويحاول أن يرجع كل حديث إلى نص من نصوص القرآن ، أو إشارة من إشاراته ، بالرغم أن الأحاديث هي أغلبها جزئيات وأن الآيات القرآنية أغلبها تشريعات كلية ، ولكنه حاول هذه المحاولة وسار فيها بخطوات واسعة فكان ذلك من أعجب الفنون التي وصل إليها العلماء المحدثون لإثبات بطريقة عملية أن السنة إن هي إلا وحي يوحى ، وإن هي إلا وليدة القرآن وخريجة المدرسة القرآنية . وكما أشرنا في القرآن الكريم إلى أن معرفة أسباب نزوله تفيد في فهمه ، فكذا السنة النبوية نجد أن الإحاطة بأسبابها تفيدنا فائدة كاملة في معرفة مغايزها ، فلأسباب ورود الحديث أيضًا فائدة كما لأسباب نزول القرآن فائدة أخرى ، فقد نبه على ذلك الإمام الشاطبي ، ونبه على ذلك ابن دقيق العيد وسجل

ابن دقيق العيد في «عمدة الأحكام» ، أن أحد معاصريه كان يؤلف تأليفاً خاصاً طريفاً في هذا الموضوع يبين فيه أسباب الأحاديث .

وهكذا نجد أن السنة لها مقامها المرموق في الإسلام ، ونجد أن جعلها مصدرًا من مصادر الشريعة أمر منطقي وطبيعي في ظل الشريعة الإسلامية .

إطلاقات السنة النبوية:

والآن نريد أن نتحدث عن إطلاقات السنة ، على ماذا تطلق السنة؟

السنة لغة الطريقة المعتادة:

السنة في اللغة يقول علماءنا ؛ إنها تطلق على الطريقة في اللغة ، يقال سنة فلان ، طريقته ، الطريقة المعتادة ، وسنة كل واحد ما عهدت منه المحافظة عليه والإكثار منه .

السنة في الشرع:

وهي في الشرع تطلق على جملة إطلاقات ، فأحياناً تطلق مقابل الفرض بمعنى النافلة والتطوع والمندوب والمستحب . وأحياناً تطلق مقابل البدعة ، بمعنى أن السنة ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، والبدعة ما أحدث مما يخالف ما كان عليه الرسول ﷺ .

السنة بالنسبة للقرآن:

وتطلق السنة في مقارنتها للكتاب . وهذا المعنى الأخير هو المعنى الذي يدخل في إطار درسنا هذا اليوم ، فنحن نتحدث عن مصادر الشريعة من الكتاب والسنة . السنة بهذا المعنى الأخير .

السنة مؤكدة للقرآن:

هذه السنة هي في الواقع إما أن تكون مؤكدة ومقررة لحكم القرآن؛ بمعنى أن آية قرآنية تحدثت عن موضوع من الموضوعات فيأتي حديث يكرر الحديث في نفس الموضوع تأكيداً لنفس المبدأ وتأييداً لنفس العقيدة.

السنة مفسرة ومفصلة للقرآن:

إما أن تكون مفسرة ومفصلة لما أجمل في القرآن تأتي الآية القرآنية وفيها نوع من الإجمال، يقول الله تعالى مثلاً: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] فيأتي الحديث ويبين نظام الصلاة ومواقيتها وفرائضها وكيفياتها على التمام والكمال.

ويأتي الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فيتحدث الرسول ﷺ ويحدد شعائر الحج. هذه سنة مفسرة ومفصلة لما أجمل في القرآن.

السنة المنشئة لحكم جديد:

النوع الثالث: السنة التي تنشئ حكماً سكت عنه القرآن بمعنى أنه يعتبر زيادة على القرآن، هذه السنة هي واقعة في كتاب الله ولا مجال لردها ولا لنقضها؛ لأنها جاءت عن الرسول الذي يوحى إليه ﷺ. وما جاء عن الرسول ﷺ ثابت وحق ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] من أطاع الرسول فقد أطاع الله، وهكذا نجد أن السنة تتنوع إلى ثلاثة أنواع:

- سنة مقررة .

- سنة مفسرة .

- سنة منشئة لحكم جديد .

مثال على أن القرآن الكريم أشار إلى الجمع ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، لم يأت شيء يتعلق بالخالة ولا بالعمة ، فجاءت السنة بتحريم الجمع بين المرأة وخالتها ، وبين المرأة وعمتها .

وأشار الرسول ﷺ إلى أن ذلك يؤدي إلى قطع الأرحام . فهذا حكم سني زائد على ما في القرآن ، ولكننا إذا دققنا في الواقع نجده منسجماً مع روح القرآن ، ومع الحكمة التي من أجلها منع القرآن الجمع بين الأختين التي منع منها الأمهات والبنات إلى غير ذلك .

تعريف السنة عند العلماء:

نبحث كذلك فنجد أن التعاريف التي قام بها العلماء للسنة في موضوعنا يختلف بعضها عن بعض .

تعريفات القدامى:

الآمدي رَحِمَهُ اللهُ عرف السنة بقوله : «ما صدر عن الرسول من الأدلة الشرعية مما ليس بمتلو ولا هو معجز ولا داخل في المعجز» .

والشاطبي عرف السنة بقوله : «ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص ، مما لم ينص عليه في الكتاب بل إن ما نص عليه من جهته» .

تعريفات المحدثين:

نجد علماء آخرين من علمائنا المحدثين منهم الدكتور موسى شاهين لاشين من رجالات الشريعة في جمهورية مصر العربية يعرف السنة بأنها الطريقة الشرعية التي جرى عليها عمل المسلمين ، ونجد في الهند كبير

علماء الهند الإمام الندوي الهندي يحدد السنة في معنى أدق ؛ السنة في نظره ليست كل حديث يروى ، ولا كل قول يقال عن النبي وينسب إليه وإنما هي الطريقة العملية المتواترة اليومية التي سار عليها الرسول ﷺ من أول يوم ابتداء فيه البعثة إلى أن لقي ربه .

صفة السنة التي تقتزن بالقرآن :

طريقة الرسول ﷺ في حياته الخاصة والعامة في معالجته لمشاكل الأمة الإسلامية الدينية والسياسية والعسكرية في مواجهته لسائر الأحداث والوقائع . ذلك النمط الذي عاش عليه الرسول ﷺ ، وسار عليه من أول يوم إلى آخر يوم هو الذي أعطى التطبيق العملي والتوجيه الحقيقي والتفسير الواقعي لنظريات القرآن . تلك هي السنة ، وتلك هي التي يجدر أن تكون مقرونة بالكتاب ، فعندما نقول : الكتاب والسنة ، ونضع إلى جانب الكتاب السنة إلى جانبه في صف واحد . فلا يمكن أن نقصد من ذلك حديثاً رواه شخص أو عملاً قام به النبي مرة واحدة ، أو حديثاً لم يروه إلى شخص واحد ، أو عملاً انتهى ولم يبرز في الأمة الإسلامية . وإنما بقيت له أصداء غامضة .

فالسنة إذن على هذا الوجه هي هذا النوع من العمل المتواتر المنقول عن رسول الله ﷺ .

نجد أن السنة بهذا المعنى هي التي كان لها الأثر الفعال في ضمان وحدة الأمة الإسلامية . فالأمة الإسلامية اختلفت في كثير من الأشياء ، ولكنها اختلفت في الأمور النظرية التي لم تتجاوز أقوالاً وألفاظاً ، هذا فسرهما بشكل ، والثاني فسرهما بشكل ثان ، والثالث فسرهما بشكل ثالث .

سيرة الرسول العملية وأثرها على وحدة الأمة:

أما السيرة العملية ، التي عاش عليها الرسول والذي عاش عليها الصحابة والذي شاهدته الأجيال ، جيلاً عن جيل والذي تلقته كلها بالقبول كنشاط حي متواصل مستمر ، هذه الحياة العملية هي التي انتقلت عبر الأقطار الإسلامية جيلاً عن جيل ، هي التي قلدها الأجيال الصاعدة عن الأجيال الأولى ، وهي التي انتقلت من مكان إلى مكان ، فالصلاة كما صلاها الرسول ﷺ هي صلاتنا جميعاً . والمواقيت التي وقتها الرسول ﷺ هي مواقيتنا جميعاً . وشعائر الحج التي نظمها الرسول وعاشها وطبقها هي الشعائر التي نعيشها جميعاً لا فرق بين سني وشيعي ، بين شرقي وغربي كل المسلمين سواسية في هذه السنة . فالسنة هي اللحام الأكبر للأمة الإسلامية ، وهي نقطة الانطلاق ونقطة الوحدة بين سائر طوائفها وأممها . وتلك بركة سيدنا محمد ﷺ .

مالك رحمه الله وتسمية كتابه بـ «الموطأ»:

مما يسعدنا أن نشير إليه في هذا المقام أن الإمام مالك رحمه الله ، نظر إلى هذا المعنى ، عندما سمى كتابه «الموطأ» ، فالموطأ في الحقيقة ، هو الطريق الذي مهده النبي ﷺ وأصحابه والذي سار عليه المسلمون جيلاً بعد جيل ، أطلق الإمام مالك هذا المعنى على كتابه ، على مجموعة الروايات التي رواها والتي صحت عنده باعتبارها صحيحة الأسانيد ثابتة المعنى ، تعتبر دستوراً للمسلمين ، فأطلق عليها كتاب «الموطأ» .

اعتبار الشرع لسنة أصحاب النبي ﷺ وفهمهم لماذا؟

هذه سنة الرسول ﷺ لا تكتمل إلا بسنة الصحابة رضوان الله عليهم .
لقوله ﷺ : «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنة رسوله»^(١) ، وفي نفس الوقت قال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(١) .

هؤلاء الصحابة نزل القرآن بلسانهم فهم أعرف الناس به وأكثر الناس فهماً لأساليبه ومعانيه وطرائقه ، وإذا كان لأحد أن يتكلم في فهمه وتأويله فهم أولى الناس بعد الرسول ﷺ فمعرفتهم بالسنة وبالشرعية معرفة هي أدق أنواع المعرفة ، هم يتلقونها من عند الشارع الأعظم ، يتلقونها ويتفهمونها على ضوء ظروفها ووقائعها ، غضة طرية في كامل حيويتها . فهم لذلك أحق الناس بفهم هذا الإسلام وبتأويله وبإعطاء الكلمة الأولى فيه بعد الرسول ﷺ فإذا كانت هناك جوانب لم تشملها السنة النبوية المروية عن الرسول ﷺ فهناك سنة الصحابة ، يجب أن تكون العماد الثاني لفهم الإسلام . ولا بد في ذلك من الإلمام بها والإطلاع عليها .

تعزيد الاجتهادات بآراء الصحابة وأقوالهم:

كان أئمة الاجتهاد رحمهم الله تعالى عندما يضعون اجتهاداتهم معرفة منهم بدرجة الصحابة في نفوسهم ونفوس المؤمنين كانوا يبحثون عما يقولون به أقوالهم ، ويدعمون به استشاداتهم ، فمالك يقول : إن القول

(١) سبق تخريجه .

الذي قلته قال به عمر بن الخطاب ، وأبو حنيفة يقول : إن هذا القول الذي قلته ، قال به عبد الله بن مسعود . وهكذا نجد لكل إمام سنًا من سنة الصحابة رضوان الله عليهم .

كلمة لخامس الخلفاء الراشدين :

من أحسن الكلام في هذا المقام كلمة عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس من الخلفاء الراشدين قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنًا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، من عمل بها مهتد ، ومن استنصر بها منصور ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا .

هكذا انتهى في تفسير السنة إلى أنها هي التفسير العملي والتطبيق اليومي لكتاب الله .

معنى كلمة الحديث وأقسامه :

ننظر بعد ذلك إلى الحديث فنجده يفترق عن السنة في معناه ؛ بمعنى أنه أحيانًا يكون أعم منها . فالحديث في الواقع يتألف من أقسام أربعة .

قسم منه يتعلق بالتاريخ ، فهذا حديث عن رسول الله ﷺ وصحابته والغزوات التي غزاها ، وسائر المسائل التي عاشها النبي ﷺ .

- وقسم يتعلق بالسلوك والتهذيب ، فكم من الأحاديث خاصة بالناحية التهذيبية الخلقية .

- وقسم يتعلق بتقوية الاعتقاد يتحدث عن التوحيد وعن النبوة وعن البعث وعن مسائل العقائد .

- والقسم الأخير يتعلق بالتشريع والأحكام .
- وهذا القسم الأخير الذي يتعلق بالتشريع والأحكام .
- إما أن يكون حكاية لقول نبوي .
- وإما أن يكون حكاية لفعل نبوي .
- وإما أن يكون حكاية لتقرير نبوي .

* * *

المحاضرة السابعة والعشرون بعد المائتين

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، أما بعد :

موضوع المحاضرة:

بالأسانيد المتصلة عن البخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وإلى خمسة من كبار مفسري كتاب الله :

قال الله تعالى ، قال جل جلاله ، وعمّ نواله ، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٧﴾ تَرْجَوْنَ عَقُوبَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَذَّيْبٌ ﴿٣٨﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٤١﴾ وَإِنَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٦] .

السورة وبعض المواقف المعادية للنبي ﷺ ودعوته :

هذه الآيات البينات لا بد أن أذكر أنها سورة من أعظم سور القرآن ، وهي سورة : حم السجدة ، أو حم فصلت ، وهذه السورة قرآنها كله مكى ، نزل على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة ، ولقد تضمن هذا القرآن ما كان بين رسول الله ﷺ في أول الأمر وبين أقاربه وعشيرته من قريش ، وما عومل به ﷺ حينما ابتدأت دعوته تنتشر في القبائل وفي القرى المجاورة لمكة .

حديث جابر رضي الله عنه في سبب نزول السورة :

هنا أذكر حديثاً نرويه عن الحاكم وعن البيهقي في «الشعب» ، رواه عن جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري ، وهذا الصحابي الجليل الذي جاء حديثه أول حديث في هذه الليلة المباركة ، هو أحد أحباء رسول الله ﷺ الذين كان رسول الله ﷺ يخصصهم بمحبته ، وهو صحابي ابن صحابي ، يعني ثلاثة من الصحابة ، الولد صحابي ، والأب صحابي ، والجد صحابي ، ونحن نعرف كثيراً من الأسر هكذا ، كان فيها الولد والوالد والجد كلهم صحابة ، أخذوا عن رسول الله ﷺ مثل أسامة بن زيد بن حارثة ، أسامة حب رسول الله ﷺ وابن حبه كما قال فيه ﷺ ، وجابر كذلك حب رسول الله ﷺ .

وجابر يروي لنا حديثاً هنا عن قضية قريش في هذه السورة ، قال جابر : إن قريشاً لما رأت أن أمر الإسلام قد انتشر في مكة بسبب دعوة النبي ﷺ ، وقد لاقى منهم ما لاقى ، قالوا تعالوا فلننظر من هو أعلم فينا بالكهانة والسحر والشعر ، فلنرسله إلى محمد ليرى ما عنده ، وليعرض عليه ما يريد ، ولننظر لنا في أمره ، حتى يكفيننا شره ، قال فاجتمعوا

فنظروا ، فإذا هم يقع اختيارهم على عتبة ، فاستدعوا عتبة وقالوا له : أنت الذي ستذهب إلى رسول الله ﷺ ، فجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد أنت أفضل من هاشم؟ ورسول الله لا يجيبه ، أنت أفضل من عبد الله؟ ورسول الله لا يجيبه ، أنت أفضل من عبد المطلب؟ ورسول الله لا يجيبه ، قال : لقد كان هؤلاء يا محمد يعبدون معنا أصنامنا ، يعرفون اللات والعزى ومناة ، ويحترمونهم ، وأنت جئت تسفه أحلامنا ، وما رأينا رجلاً أشأم على أمة منك ، فلا ننتظر إلا أن يكون مثل نداء الحبل ، فيختلط الحابل بالنابل ، ونقع بسيوفنا على بعضنا ، فما هذا يا محمد؟ فإن كان الذي دعاك إلى هذا أنك تريد المال ، جمعنا لك من الأموال من كل واحد منا حتى تكون أغنانا وأكثرنا مالا ، وإن كان الذي تريد رؤيا يصيبك من الجن بحثنا لك عن الطب بأموالنا ، وأخرجنا من خزائنا ما يكفي لهذا ، وإن كنت تريد الملك ملكناك علينا يا محمد لأنك من أوسطنا ومن أعظمنا بيوتا ، وإن كنت يا محمد تريد الباءة زوجناك بعشر من أفضل نسائنا ، فماذا تريد يا محمد؟ والنبي ﷺ ساكت لا يجيبه ، فلما انتهت عتبة من كلامه ، قال : انتهيت يا أبا الوليد؟ قال نعم ، فتلا ﷺ : ﴿ حَمَّ ۙ تَنْزِيلُ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَذَّبَ ۙ فَصِلَتْ ۙ أَيْتُهُ ۙ ﴾ [فصلت : ١-٣] ، وجعل ﷺ يقرأ القرآن حتى وصل إلى السجدة ، وسجد ﷺ ، ولما رفع من السجود ووصل إلى قوله الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ۝ ﴾ [فصلت : ١٣] ، أمسك عتبة بفم رسول الله ﷺ ، وقال : أناشدك الرحم أن تمسك يا محمد ، أما عندك غير هذا؟ قال : إن شئت فعلت ، فانظر ماذا ترى؟ فرجع عتبة إلى بيته .

موقف عتبة بن ربيعة:

في رواية أن عتبة رجع إلى قومه ، ولكن الأرجح ، في الرواية التي تواتروا عليها أنه رجع إلى بيته ، وغاب عنهم ، وقالوا ما نرى إلا أنه قد أثر عليه ، وأنه صبأ ودخل في دين محمد ، فذهب أبو جهل وذهب أبو سفیان وذهب الأخنس وذهبوا جميعا عنده ، وقالوا له لماذا تأخرت عنا؟ هل أثر فيك محمد؟ قال : وحق هذه البنية ، لقد قرأ علي كلاما ما سمعت مثله ، ما هو بالكهانة ولا بالسحر ولا بالشعر ، وما سمعت مثل هذا الكلام ، ولقد قال لي : إنه سيصيبنا ما أصاب عادًا وثمود من الصاعقة ، وعلمت أنه لا يكذب ، وأنه لا ينطق إلا بالحق ، فأمسكت بفمه ، يا قوم إنني أعرض عليكم أمرا : اتركوا الرجل فإن خرج عليه من غيركم من يصيبه بأذى كنتم في حل من دمه ، ولم يصبكم شيء ، وإن ظهر على الناس وظهرت دعوته كان هذا شرفا لكم ، فقالوا له : لقد أثر فيك محمد ، فقال : ما كان محمد ليؤثر في ، قالوا : إنما هذا سحر .

موقف النضر بن الحارث وبعض الشعراء:

وهكذا استمرت هذه المعركة بين محمد وبين قريش ، وجعلوا بعد هذا يستدعون الشعراء ويستدعون الكهنة والسحرة ، فاستدعوا النضر بن الحارث ، وكان رجلا يعلم شيئا كثيرا عن النصرانية ، كان إذا جلس محمد إلى التحدث إلى المسلمين القليلين الذين آمنوا به ، كان النضر بن الحارث يجلس مجلسه إذا قام فيحدثهم هو كذلك عن النصرانية ، ويحدثهم عما رواه من الشام ، وعما سمعه من نصارى الشام .

كان كذلك بعض الشعراء يأتون ويهجون النبي ﷺ ، وأقاموا دعاية ضده ، وجعلوا يناوئونه .

موقف أبي لهب:

في يوم من الأيام حينما رأى الأمر أنه لابد من أن يدعوهم دعوة صريحة ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [٢١٤] وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [الشعراء : ٢١٤ ، ٢١٥] ، صعد النبي ﷺ إلى الصفا ، وقال : «يا بني فلان ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة» ، حتى اجتمعوا عليه ، فلما اجتمعوا عليه ، قال : «أرايتم إذا أخبرتكم أنه سيصبحكم جيش أكنتم مصدقي أم لا؟» ، قالوا : ما جربنا عليك يا محمد من كذب ، قال «إني أنذركم عذاب يوم شديد» ، فقال عمه أبو لهب : ألهذا جمعتنا اليوم؟ تبا لك سائر اليوم ، فغضب ﷺ وارتج عليه واضطرب اضطرابا كثيرا حتى نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [١] مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿ [المسد : ١ ، ٢] ، فسري عن النبي ﷺ ، وعلم أن الله تعالى يدافع عنه .

موقف أهل الطائف:

ثم إنه ما زالت هذه المعركة كما قلت قائمة بين قريش وبين محمد ﷺ يتنوعون في إذايته ، يتعرضون إليه ، يرمونه بالحجارة في الطائف ، يمنعونه ﷺ من كل شيء .

موقف أبي جهل:

حتى إننا لنرى أنه في يوم من الأيام جاءه أبو جهل ، فرعون هذه الأمة ،

وسبه سبا قاذعا ، ولما جاء حمزة ، وكان لم يسلم بعد ، وحمزة عم رسول الله ، وأخوه من الرضاعة ، بلغه ما فعله أبو جهل برسول الله ﷺ ، وقد كان مولعا بالصيد ، جاء من الصيد فمر على أبي جهل ، وقال : أقلت لمحمد كيت وكيت ؟ قال : نعم ، فضربه بألة الصيد حتى شجه ، وأمسك أبو جهل إخوانه أن يقوموا لحمزة ، مخافة أن يقع ما لا تحمد عقباه ، وقال لقد بالغت في سب محمد .

إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما :

ذهب حمزة وأعلن إسلامه ، وإسلام حمزة هو إسلام عظيم ، لأن حمزة أسد الله تعالى ، الذي رفع الله به الإسلام ، وأعز به الدين ، شهيد أحد الذي بكاه النبي ﷺ وما رؤي ﷺ باكيا قط على أحد مثل بكائه على حمزة الذي قتله وحشي ، في قصة معروفة يوم أحد ، لما أسلم حمزة ، وأسلم عمر بن الخطاب ، واشتد الأمر على هؤلاء الناس ، نزل هذا القرآن ليقارع هؤلاء الناس ، نزل هذا القرآن الذي هو قرآن : حم السجدة ، حم فصلت ، ليفصل بين الحق والباطل ، ليضع الوعد والوعيد ، الوعد للمؤمنين الصادقين ، الذين جاءوا مع رسول الله ﷺ .

موقف قريش وأبي طالب مع النبي ﷺ :

نعم جاءت قريش إلى أبي طالب وقالت له : يا أبا طالب إننا مللنا مما فعل ولد أخيك فكفه عنا ، فجاء أبو طالب إلى النبي ﷺ ، وجعل يقول له : إن قومك يقولون ويقولون ، وسكت النبي ﷺ سكتة ، سكت لها الكون كله ، منتظرا ماذا سيقع ، أستتصر الوثنية على المسيحية ؟ وسيبقى العالم متخطبا في ضلالاته ، وسيبقى العالم متخطبا في تيهانه ، وستبقى هذه

الدنيا لا رأس لها ولا عقب ، وسيبقى الظلام مخيما عليها ، ولا يشع عليها أي نور ، أم أن هناك شيئا وراء هذا؟ لا ، لا ، نظر محمد ﷺ إلى القرآن الذي نزل عليه في أول الأمر حيث قال الله تعالى له : ﴿ وَالْضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) ﴾ [الضحى : ١-٨] ، إلى آخر السورة ، التفت ﷺ إلى عمه ، فالتفت معه التاريخ والتفت معه الكون ، والتفت معه الوجود ، وقال قولته العظيمة ، قال قولته الخالدة ، قال : «يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أتنازل عن هذا الأمر ، ما تنازلت عنه حتى يحكم الله بيني وبين قومي ، وهو خير الحاكمين» ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

كلمة النبي ﷺ وأثرها في نفوس أصحابه :

كانت هذه الكلمة كافية في أن ترسي قواعد الإسلام وأن ترسي أولئك الذين جاءوا حفاة عراة ، أولئك الذين جاءوا جياعا ، أولئك الفقراء الذين اجتمعوا حول رسول الله ، عثمان بن عفان ، أبو بكر الصديق ، كان تاجرا ، بلال ، أولئك الذين كانوا من الرعييل الأول ، عبد الله بن مسعود ، وما أدرك ما عبد الله ابن مسعود؟ راعي الغنم ، ذلك الذي قال فيه النبي ﷺ قوله عظيمة ، قال فيه عليه الصلاة والسلام : «من أراد أن يأخذ القرآن غضا طريا فليأخذه عن ابن أم عبد» صاحب النعل والوسادة ، وسادة رسول الله ﷺ ، ذلك الرجل الذي قال فيه ﷺ قوله ما سجلت لأبي بكر الصديق ، ولا لعمر بن الخطاب ، وإن كان مقام أبي بكر الصديق ، ومقام عمر أعظم من

مقام عبد الله بن مسعود، قال عليه الصلاة والسلام: «رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد»^(١) ذلك الذي قال فيه النبي ﷺ حينما صعد إلى الشجرة، وأسقطته الريح، قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده لقد علمت أن أعظم عند الله من جبل أحد»^(٢) نعم، نعم، هذه الكلمة التي قالها ﷺ، وانفجر عنها ذلك القلب الكبير، ذلك القلب المملوء بالإيمان، ذلك القلب الذي ليس فيه حظ للشيطان، هذه الكلمة فتحت الآفاق، وأضاءت العالم كله بأسره، وعلم أولئك القلة من الناس أنهم سيكونون كثرة، علموا أن الأمر أعظم مما هم فيه، وعلموا أن المسؤولية عليهم، وأنهم سيتحملون تأسيس دولة عظيمة لا تكاد تمضي عليها مائة وخمسون سنة، حتى تضرب في طول الأرض وعرضها، وحتى يدخل في دين الله ملايين من الخلق ومن المسلمين، وحتى تعلو المآذن في كل بقعة وفي كل أرض، كلها تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، هذه المعركة التي كانت قائمة، هذا القرآن، قرآن حم السجدة، هو الذي يبينها وهو الذي يضع فيها تفاصيل، وهو الذي يقول للمشركين هذا جزاؤكم، ويقول للمؤمنين المتقين هذا جزاؤكم، حم السجدة.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣/ ٣٥٩)، والبخاري في «مسنده» (١٩٨٦) من حديث

ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣/ ٣٥٨)، والطبراني في «الكبير» (٥٩) من حديث

قصة رضي الله عنه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

حديث أنس رضي الله عنه :

روى الإمام البيهقي في «الأسماء والصفات»، والحاكم، وعبد بن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ وحبیب رسول الله ﷺ، ذلك الصحابي الجليل، الذي قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟ وما شممت عنبرا ولا طيبا، ولا مسكا أطيب من ريح رسول الله، ولا لمست حريرا ولا خزا ألين من كفه ﷺ، هذا أنس بن مالك .

حديث السبعين ألفا :

روينا كذلك في نفس هؤلاء عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، قال : دخلت على أختي عائشة رضي الله عنها ورسول الله ﷺ يوحى إليه، فلما سري عنه قال : ناوليني ردائي، فناولته رداءه، فخرج ﷺ إلى المسجد، ووجد مذكرا يذكر، وجلس حتى انتهى، ثم قرأ ﷺ ما شاء أن يقرأ، وسجد ﷺ سجدة طويلة، وبعثت عائشة إلى ذويها وأقاربها تقول : إنني منذ عرفت رسول الله ما رأيته مثل اليوم، فاجتمعوا عليه، فإنكم ستسمعون منه ما تسمعون، وإذا بأبي بكر يسرع إلى المسجد، ويرى رسول الله ﷺ يقول له : يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما رأيته يا رسول الله؟ قال : سجدت لله سجودا طويلا على ما أبلاني في أمتي، قال : ما أبلاك في أمتك يا رسول الله؟ قال : إن الله تعالى قد أعطاني سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بلا عقاب ولا حساب، قال أبو بكر : هلا طلبت يا رسول الله أكثر من ذلك؟ قال : سألته عن أكثر من ذلك فأعطاني بكل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا آخرين، قال قلت يا رسول الله، هلا سألته أكثر من ذلك؟ فأشار بيده إلى صدره، فقال عمر فهمت يا رسول الله فهمت، هذا ما يتعلق بهذه السورة على سبيل الاختصار .

رد المشركين على النبي ﷺ كما حكى السورة:

نجد في سورة: حم فصلت، حم السجدة، أنهم قالوا لرسول الله: ﴿قُلُونَا فِي أَكْتَنِ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، لا نفقه ما تقول، كانوا إذا أراد أن يحدثهم ﷺ أو أن يقرأ القرآن أمامهم أكثروا من الصغير وأكثروا من التشويش على رسول الله ﷺ، كان ﷺ يخفض صوته، ثم كان في بعض الأحيان يرفع صوته، فأمره الله تعالى أن يقرأ بين بين.

بين يدي سبب نزول الآية:

نجد أن هذه الآية التي جاءت هنا، لها سبب نزول خاص، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقبل أن نذكر سببها يجب أن نذكر ما روي عن ابن عباس فيهما، ابن عباس - حبر الأمة وترجمان القرآن.

نبذة عن ابن عباس رضي الله عنهما:

عبد الله بن عباس وما أدراك ما عبد الله بن عباس؟ الذي دعا له النبي ﷺ فقال: اللهم علمه الحكمة وفقهه في الدين، عبد الله بن عباس الذي كان له موكب إذا خرج فيه يوازي موكب معاوية لجلال العلم الذي كان يتمتع به، عبد الله بن عباس الذي كان يستدعيه عمر ليأخذ عنه وليسأله، وليقول له: أفدني فيما وقع الخلاف فيه، أفدني عما سمعت من رسول الله، عبد الله بن عباس الذي كان يروي لنا كثيرا عن رسول الله وهو أحد المكثرين عن رسول الله، وكان يروي لنا عن خالته ميمونة وعن غيرها من أصحاب رسول الله.

وقبل أن نذكر سبب هذه الآية لابد أن نذكر هذا الحديث ، قال عبد الله ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أرجى آية في القرآن هي قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا...﴾» ، ولقد تكلموا في هذه الرواية ، وقالوا : إن الرواية التي هي أصح منها هي أن هذا الكلام هو من كلام عبد الله بن عباس ، فلنتركه ، ونقول هذا كلام عبد الله ابن عباس ، قالوا لعبد الله بن عباس ، وأين هي من قوله تعالى : ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] ، قال عبد الله بن عباس : وأنبيوا إلى الله ، واعملوا إلى الله ، أرجى آية في القرآن هي هذه .

ما جاء في تفسير الآية الكريمة :

هنا عند هذه الآية يجب علينا أن نقف وقفة إعظام وإجلال وإكبار ، لما ورد في تفسير هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ، هذه الآية الجليلة العظيمة ورد فيها تفسير عن أبي بكر الصديق ، سيد الصحابة .

نبذة عن الصديق رضي الله عنه :

خليفة رسول الله ﷺ ، صاحبه في الغار ، ذلك الذي قال فيه رسول الله ﷺ : «لا أحد أمن علي من أبي بكر ، واساني بماله ، وزوجني ابنته»^(١) ، ذاك الذي قال له رسول الله ﷺ : «إن للجنة ثمانية أبواب» ، وجعل النبي ﷺ يبين أبواب الجنة الثمانية وأن بابا يدخل منه الصائمون ، وبابا يدخل منه مفرح الصبيان ، وبابا يدخل منه المزكون فقال يا رسول الله : أ يوجد

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

من أمتك من يدخل من الأبواب الثمانية؟ قال : «نعم يا أبا بكر ، وأرجو أن تكون منهم»^(١) صاحبه في الغار ، مقام الصديقة عظيم جدا للغاية ، هو أكثر من مقام التحديث ، قال عليه الصلاة والسلام في عمر : «إن يكن في هذه الأمة محدثون فعمر» ومقام أبي بكر هو أعظم من مقام عمر بالإجماع وبإقرار عمر ، قال عمر رضي الله عنه دعانا رسول الله ﷺ ، وهو في صحيح البخاري ومسلم : لأن نأتي بأموالنا ، لأن نأتي بشيء من الصدقة ، قال ، فقلت اليوم أفضّل أبا بكر وجئت بنصف مالي ، وإذا بي لما دخلت جاء أبو بكر بهاله كله ، أما أنا فحين دخلت فقال لي رسول الله ما تركت لولدك وأهلك يا عمر ، قال : تركت لهم النصف يا رسول الله وجئت بالنصف ، ولما جاء أبو بكر قال ما تركت لأهلك ، قال تركت لهم الله ورسوله ، قال فعلمت أنني لا أفضّل أبا بكر أبدا بحال ، أبو بكر وما أدراك ما أبو بكر؟ يروي لنا هنا تفسيرا في هذه الآية ، ولنا تفسير في هذه الآية لعمر بن الخطاب ، وما أدراك ما عمر؟

نبذة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

الذي قال فيه ﷺ : «ما سلك في فج إلا سلك الشيطان فجاً آخر»^(٢) ، عمر وما أدراك ما عمر؟ وافقني ربي في ثلاث : قلت لرسول الله ﷺ هلا أمرت نساءك أن يحتجن فإنهن يراهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب ، قلت الله بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت آية التحريم آية الخمر ، وهكذا ، وموافقات عمر بن الخطاب كثيرة أوصلها بعضهم على الحقيقة

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٧) ، ومسلم (١٠٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٧) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

والتصحيح إلى واحد وعشرين موافقة ، عمر بن الخطاب الذي دخل على رسول الله ﷺ فوجد النساء قد يرفعن أصواتهن أمامه ، فقال : أترفعن أصواتكن أمام رسول الله ﷺ ، ثكلتكن أمهاتكن ، فأجابته المرأة الصحابية قالت : إن رسول الله ﷺ ليس بفظ ولا غليظ يا عمر ، أما أنت ففظ غليظ ، فقال ﷺ : «إيه ابن الخطاب ما سلكت فجاً إلا سلك الشيطان فجاً آخر»^(١) ، الذي قال فيه ﷺ ، أريت في المنام أنني أطوف بالجنة ، ورأيت قصراً من لؤلؤ وعلى بابه جارية تتوضأ ، فسألت لمن القصر! ف قيل لعمر ، فأردت أن أدخل فتذكرت غيرتك يا عمر ، فقال : أعليك أغار يا رسول الله وبكى^(٢) ، يروي لنا هنا كذلك تفسيراً لهذه الآية .

روايات أخرى في تفسير الآية الكريمة:

ونجد كذلك رواية عن عثمان تفسر لنا هذه الآية ، ونجد كذلك الحسن بن رسول الله بن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، تفسيراً لهذه الآية ، ونجد لها تفسيراً عن عبد الله بن عباس ، وتفسيراً عن قتادة بن دعامة السدوسي .

تفسير الصديق للآية:

لنبدأ بتفسير أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾؟ وما تقولون في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، فقالوا : الذين لم يلبسوا إيمانهم بذنوب ، ولم يلبسوا إيمانهم بالمعاصي ، وقالوا : ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، ثم

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٩) ، ومسلم (٢٣٩٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

ابتعدوا عن المعاصي ، فقال لقد حملتم الآيات غير محلها أو كما قال ، إنما تفسيرها : الذين قالوا ربنا الله ثم بقوا على قولهم لا إله إلا الله ولم يشركوا حتى ماتوا على الإسلام .

دليل الصديق على هذا التفسير:

عمدة أبي بكر في هذا ما روي عن النبي ﷺ ، وهو في الترمذي والنسائي ، عن عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن أن رسول الله ﷺ قال حينما قرأ قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، قال عليه الصلاة والسلام : «قالها كثير من الناس وكفروا ، فمن قالها وثبت على الإسلام دخل الجنة» ، إذن أبو بكر له مستند ، وهو أن النبي ﷺ فسرهما بما فسرهما به أبو بكر .

دليل آخر عن عمر:

روينا في الحاكم والبيهقي ، وعن عبد الله بن المبارك كذلك ، وعن جعفر بن منصور كذلك ، وعن مسدد بن سرهد بن مسربل رحمته الله ، هذا الإمام العظيم الذي يروي له البخاري ، ويروي له مسلم ، ويروي له أبو داود ، ويروي له النسائي ، ويروي له الترمذي ، ويروي له ابن ماجه ، هذا الذي قال فيه أصحابه : عاشرناه أربعين سنة ما علمنا أن صاحب الشمال كتب عليه خطيئة ، رحمته الله ونفعنا بذكره ، روينا عنهم جميعا أن عمر بن الخطاب رحمته الله كان على المنبر يخطب ، وأنه تلا قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، قال عمر : والله «بهذه العبارة أقسم بالله» ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ، قال عمر : والله الذين استقاموا الذين ثبتوا على دينهم ولم يراوغوا كما تراوغ الثعالب .

دليل عن الحسن بن علي:

وروينا عن الحسن ابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، الحسن سيد شباب أهل الجنة ، خرج عليه السلام - في حديث أم سلمة ، وهو حديث الترمذي - يحمل الحسن والحسين ، ويقول : «والله إنكم لتجنبون ، وتبخلون ، وتثبطون ، وإنكم لمن ربحان الله ، إن آخر وطأة وطئها الله بوج» .

نبذة عن فضائل الحسن والحسين:

خرج عليه السلام يحمل الحسن والحسين ، ويقول : «والله إنكم لتبخلون وتثبطون ، وإنكم لمن ربحان الله ، وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» . علماء الحديث رضوان الله عليهم قالوا : إن هذين حديثان مدرجان ، واحد أدرج في الآخر ، لأن : «إنكم لتبخلون وتثبطون ، وتجنبون» ، هذا معقول ، وإنكم لمن ربحان الله ، هذا معقول ، ولكن «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» ، هذا كلام غير مرتبط بالآخر ، فلعل الصحابي أدرج حديثا في حديث ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن يخبر الحسن والحسين بقرب وفاته ، فأشار إلى ذلك بقوله : «إنكم تبخلون» نعم ، الرجل يكون كريما ولكنه حينما يولد له الأولاد يخشى أن يتركهم فقراء ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : «لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»^(١) ، نعم يكون الإنسان شجاعا يأبى الضيم ، إذا ما سمع حسا أو سمع حركة ، حمل سلاحه وخرج للنجدة ، ولكنه حينما يولد له يقول : ربما تصادفني رصاصة فأموت وأولادي ما يزالون صغارا ، فمن لهم بعدي؟ فيتقهقر ، نعم يكون الإنسان محبا للأسفار كثيرا ، ولكنه يألف من ولده أنه يقوم معه

(١) سبق تخرجه .

إلى صلاة الصبح ، وهذا يحصل والله ، فيناديه بذلك الاسم الحلو ، فيكره السفر ، فيقول : من يقول لي غدا؟ ومن يناديني غدا؟ ومن يفرح بي غدا؟ ومن يبتسم لي غدا؟ فيكره السفر ، معقول ، ولكن وإن آخر وطأة وطئها الله بوج ، هذا إشارة منه ﷺ إلى أنه سيفارق الدنيا قريبا ، «وإنكم لمن ربحان الله» هذا الشاهد عندنا ، «وإنكم لمن ربحان الله» هذه عبارة لا يستطيع الإنسان أن يدركها إلا إذا كان له أولاد صغار ، وكان يقبل هؤلاء الأولاد ، وكان يفرح بهؤلاء الأولاد ، فإنه يشم فيهم رائحة الله تعالى ، فهم من ربحان الله حقيقة ، صدق رسول الله ﷺ . . هذا الحسن .

نبذة عن فضائل الزهراء عجل الله عنها :

أما أمه فاطمة الزهراء ، فلا أزيد عن حديث واحد في فضلها ، وفي عظمتها ، وفي مكانتها ، اللهم انفعنا بذكرها ، اللهم انفعنا بذكر أصحاب رسول الله ﷺ في هذا المجلس المبارك ، فاطمة الزهراء ، رويانا عن عائشة أم المؤمنين ، وهو في «الصحيحين» أنها قالت : إنه لما مرض ﷺ في يوم وفاته دعا فاطمة بنته ، وسارها فبكت ، ثم دعاها فسارها فضحكت ، قالت عائشة : ما عجبت كعجبي اليوم من بكاء وضحك في يوم واحد ، أخبريني ما قال لك رسول الله؟ قالت فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين : ما كنت لأفشي سر رسول الله ، فلما مات رسول الله ﷺ قالت فاطمة الزهراء لعائشة : الآن أفشي لك السر ، أما حديثه إلي المرة الأولى فقد أخبرني أنه سيموت من مرضه هذا ، وأما حديثه إلي المرة الثانية ، فقال : «يا فاطمة إنك أول أهلي لحوقا بي ، أترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟» بشرها ﷺ بأنها سيدة نساء العالمين .

تفسير الحسن للآية :

سيدنا الحسن له تفسير هنا ، كان الحسن إذا وصل إلى هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، كان يرفع أكفه ويقول : اللهم ارزقنا الاستقامة ، ونحن ندعو بدعاء الحسن : اللهم ارزقنا الاستقامة ، هذا هو : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ .

تفسير قتادة بن دعامة :

روينا عن عكرمة عن قتادة بن دعامة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، أقاموا الصلاة في أوقاتها ، وهل له دليل ؟ لا ينكر أحد على أن من لا يقيم الصلاة في أوقاتها لا يسمى مستقيماً ، فالشرط الأساسي في الإنسان المستقيم هو أن يأتي بالصلوات في أوقاتها .

الكلام في تفسير الآية الكريمة :

فلنبداً الآن في تفسير الآية الكريمة ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، قال علماء البلاغة إن الجملة إذا عرف طرفها أفادت الحصر ، كلام معقول ، معناه لا رب لنا إلا الله ، لا منعم علينا بنعمة الإيجاد ، لا منعم علينا بنعمة الإمداد ، إن الملهم لنا ، إن المكرم لنا سبحانه لا إله إلا هو ، حتى نرى بالبصيرة النافذة الأسماء والصفات ، ونرى بالبصيرة النافذة الأمر والنهي ، ونرى بالبصيرة النافذة الوعد والوعيد ، فإذا توفرت لنا هذه الأسباب الثلاثة ، توفرت لنا هذه الأشياء الثلاثة ، ورأينا بالبصيرة النافذة ، الأسماء والصفات ، ورأينا الأمر والنهي ، ورأينا الوعد والوعيد ، فكأننا نحصل على معرفة الرب ، ونحصل على معرفة الله جل جلاله ، وعم نواله يجب أن نعرف أن الله تعالى استوى على عرشه

استواء لا ثقابه ، وأن حكمه سبحانه لا إله هو نافذ ، وأن ملائكته يسرون من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ينفذون أوامره ، وأننا عبيد مسخرون ، وأنه ما خلقنا إلا لعبادته ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وأنه سبحانه لا إله إلا هو ، هو المعز المذل ، هو الخافض الرافع ، هو المعطي النافع ، لا إله إلا هو ، وأنه سبحانه لا إله إلا هو ، هو الظاهر لا شيء فوقه ، هو الباطن لا شيء دونه ، هو الأول لا شيء قبله ، هو الآخر لا شيء بعده ، تنزهت أسماؤه ، وتنزهت صفاته ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ، لا رب لنا إلا الله ، ﴿ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ ، استقامة هي تلك الاستقامة التي دعا بها الحسن ، تفسير عظيم وأي تفسير عظيم .

الكلام عن الحمد في «الفاتحة»:

قال الله تعالى في أم القرآن فاتحة الكتاب: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ابتدأ القرآن بحمده سبحانه لا إله إلا هو ، ونوع ، يعني إن كان الحامد الذي سيحمد الله تعالى ، سيحمده لأجل ما أسبغ على عباده من النعم الظاهرة والباطنة ، فهو رب العالمين ، وإن كان يحمده لأجل ما يصله منه في المستقبل ، وما يعمه من خيرات ، فهو رحمن رحيم ، وإن كان يحمده لأجل عظمته وجلاله وقهره ، فهو مالك يوم الدين ، هذا هو الحمد كله كما قال الإمام ابن قيم الجوزية رضوان الله عليه ، فالعمل السني ، البعيد عن الشبه ، الذي يساير كتاب الله وسنة رسول الله الذي ليس فيه بدع ، وليس فيه ضلالة ، وليس فيه شطحات ، وليس فيه أكاذيب ، هذه أشياء كلها مقدمات لماذا؟ مقدمات إلى التجرد عن كل

شيء ، إلى أن ينغمر الإنسان في أن يجعل نفسه في وسط هذه الأمم التي تعبد الله .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ :

كان المناسب أن يقول : إياك أعبد ، وهو في مقام التذلل ، ومقام الخضوع ، ومقام الانكسار ، ومقام الاحتقار ، ولكن لما كان يرجو أن تقبل منه العبادة في وسط الجماعة وفي وسط الأمة ، كان المناسب أن يقول : إياك نعبد ، أنا وغيري ، أنا في وسطهم يارب ، فاقبلني معهم يارب ، لأن عبادتي ليست بشيء بالنسبة إلى نفسي ، إياك نعبد ، وإياك نستعين .

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ :

ثم بعد ذلك ، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، دلنا على الصراط المستقيم ، ولما علم الله تعالى أن أصحاب الصراط المستقيم قليلون جداً ، أراد أن يسلي عباده القليلين المستقيمين ، فحشرهم مع من ؟ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، يا الله من تفسير يشكر العبد ربه عليه ، ويحمد الله أن وفقه .

والاهتمام بكتب الإمام ابن القيم : «زاد المعاد في هدي خير العباد» ، و«هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» . . . إن كل هذه الكتب التي كتبها الإمام ابن القيم تفهم ، وأنها سهلة ، وأنها لينة وذلك يرجع إلى طهارة القلب ، وإلى عظمة الصلاح ، وعظمة الدين ، الذي تمسك به هؤلاء الناس ، وإلى أن الله تعالى أكرمهم بالقربى ، وأكرمهم بأنه جعلهم هداة ، وجعل كلامهم ينتفع به .

معنى الاستقامة في آية «فصلت» :

هذا قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ، ثم استقاموا : تجردوا عن العوامل التي تضر الإنسان ، تجردوا عن الشبهات ، تجردوا عن أمراض القلب ، لا حسد ، ولا بغضاء ، ولا كبر ، ولا نفاق ، ولا خداع ، ولا غش ، ولا نميمة ، جمعوا أخلاق رسول الله ﷺ التي جاء بها ، وأنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) ، وأن الله تعالى امتدحه بأخلاقه فقال له : ﴿وَلِنَاكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ، وأنه جدير بنا ونحن أمة محمد ﷺ ، جدير بنا ونحن الأمة الوسط التي ستشهد على الناس ، جدير بنا ونحن سيفتخر بنا غدا رسول الله ﷺ ، جدير بنا ونحن سنكون أمامه ﷺ يوم القيامة ، جدير بنا وقد افتخر بنا قبل أن يرانا ، ولقد دخل ﷺ يوما إلى المقبرة ، والحديث في «الصحيحين» ، فقال : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، إنا إن شاء الله بكم لا حقون ، وددنا أننا رأينا إخواننا» . قال الصحابة : ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال : «بلى ، إخواني الذين يأتون من بعدي ، يود أحدهم لو رأي لافقداني بماله وولده والناس أجمعين» ، هكذا قال ﷺ فهو يسمينا إخوانه ﷺ ويسمينا أهله ﷺ فجدير بنا أن نكون عند حسن ظنه ﷺ جدير بنا أن نتخلق بأخلاقه ، جدير بنا أن نعرف أنه ﷺ قال : «ألا أخبركم بأحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجلس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقا ، الموطنون أكثافا ، الذين يألفون ويؤلفون»^(٢) ، جدير بنا أن نعرف عنه ﷺ أنه

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١ / ٣٦٢) ، والبيهقي في «الشعب» (٦ / ٢٣٢)

من حديث أبي سعيد جليله .

قال : «ألا أخبركم بأبعدكم مني ، وأبغضكم إلي ، وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون»^(١) .

كيف نطبق معنى الاستقامة عملياً :

جدير بنا أن تكون لنا أخلاق عالية سامية ، أن نرتفع عن سفاسف الأمور ، أن نربأ إلى العز ، أن نربأ إلى الشهامة ، أن نكون دائماً لا ننظر إلى المساوي ، أن نكون دائماً بيننا أخوة صافية ، أن تجتمع كلمتنا على الدين ، أن تجتمع كلمتنا على الله ، أن توحد قلوبنا على رفع راية الإسلام ، أن يشيع بيننا الحب في الله ، والبغض في الله ، أن يأخذ كل منا بيد الآخر حتى نكون قوة لا يستهان بها ، حتى لا يطمع فينا طامع ، حتى تحرر بلادنا ، حتى لا يبقى في البلاد الإسلامية أي نجس ، لا يبقى في البلاد الإسلامية أي دخيل ، لا يبقى في البلاد الإسلامية أي عميل ، لا يبقى في البلاد الإسلامية أي عنصر من العناصر الفاسدة ، نعم يجب على علماء الأمم الإسلامية أن يكونوا كتلة واحدة ، ويداً واحدة ، كما يجب على ملوك الإسلام وأمراء الإسلام أن تجتمع كلمتهم حتى يستقيم الأمر ، وحتى تكون الاستقامة حاصلة عند هذه الأمم ، وأن يحقق الله لنا الآمال ، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَغْنَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن : ١٦-١٦] ، فما بيننا وبين الخير إلا أن نستقيم ، وإلا أن نزيل كل اعوجاج ، وأن نزيل كل انحراف ، وأن نسلك الطريق الخير وأن نبتعد عن السوء ، وأن نبتعد عن المحرمات ، وأن نعمل ما أمكننا على تجنب محارم الله ، وأن نأتمر بأوامر الله تعالى ، أن نأمر

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أثر أبي هريرة رضي الله عنه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت : ٣٠] .

روى الحاكم والبيهقي ، والحكيم الترمذي ، وابن ماجه عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : تنزل عليهم الملائكة عند خروج الروح ، فيصاحبونهم إلى القبور ، ويقفون معهم عند البعث والنشور ، ويسلكون بهم الصراط المستقيم ، ولا يفارقونهم حتى يدخلوا بهم جنة النعيم ، وقد تواتر جميع المفسرين على نقل هذا النص بأكمله ، فما من مفسر إلا ونقل هذه العبارة ، وما أحلاها من عبارة !

معنى «تتنزل» ودلالاتها في الآية الكريمة :

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ، وتنزل الملائكة هكذا ، لم يذكر المفسرون ماذا تفيده عبارة ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ لم يقل الله تعالى تنزل الملائكة ، ونجد هذه العبارة متكررة في القرآن ، نجدها في قول الله تعالى في سورة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ [القدر : ١-٤] ، ونجدها كذلك ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم : ٦٤] ، نجد أن تنزل بمعنى تنزل ، الذي أستطيع أن أقرره هنا بحول الله وقوته ، أن الملائكة تأتي دفعة دفعة ، ينزل ملائكة ويتبعهم آخرون ،

ويتبعهم آخرون، وهذا ليس ببدع، وليس بمستغرب فإن الله تعالى له ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ونحن نعلم أن النبي ﷺ في كثير من الأذكار التي سمعها من بعض أصحابه، قال رأيت كذا وكذا من الملائكة، وعدّها بالآلاف تصعد إلى السماء تتسابق بالدعاء، فمن دعا بدعاء كذا، فيقول الصحابي: أنا يا رسول الله، فلا مانع من أن الله تعالى إكراماً للمؤمن الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً، للمؤمن المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، المؤمن الذي خلصت نيته، وطهر قلبه، وصفت جوارحه، المسلم الذي لا يمكن أن ينبع منه إلا الخير، ولا يصدر منه إلا الخير، ولا ينوي إلا الخير، ولا يعمل إلا الخير ولا يرى منه إلا الخير، ليس ببدع على الله تعالى أن يصاحبه الملائكة.

رأى آخر يتعلق بتنزل الملائكة:

بعض المفسرين يقولون بأن هذه الملائكة قد تكون تنزل عليه حتى قبل موته، معنى هذا أنه يكون إلهاماً يكون من الملهمين، يكون من المحدثين، النبي ﷺ قال: «إن يكن في هذه الأمة محدثون فعمرو»^(١) وقال: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه مما حرم الله»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

(٢) سبق تخريجه.

الرؤيا الصادقة ، وما أحلى هذا ، يراها المؤمن أو ترى له ، جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة ، حديث «الصحيحين» : «والرؤيا الصادقة يراها المؤمن أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة» ، ولماذا كان جزءاً من ست وأربعين جزءاً من النبوة؟ لأن مدة الوحي بالرؤيا بالنسبة إلى رسول الله ﷺ كانت ستة أشهر ، كان ﷺ كما قالت عائشة : لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - مدة ستة أشهر - ثم حجب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، إلى آخر الحديث ، فالرؤيا كان الوحي بها مدة ستة أشهر ، ومدة نزول الوحي منجماً ومفرقاً على رسول الله حسب الوقائع كان ثلاثاً وعشرين سنة ، فإذا كسرت الثلاث والعشرين أنصافاً صارت ستة وأربعين ، فيكون المؤمن له جزء من ستة وأربعين جزءاً من رؤيا النبي ﷺ من وحي النبي ﷺ وهذا مقام عظيم بالنسبة إلى المؤمن ، ونحن نعلم أن النبي ﷺ سوى بين واحد منا وبين نبي من أنبياء بني إسرائيل ، والله تعالى أكرم هذه الأمة المحمدية ، وليس بين هذه الأمة المحمدية وبين أن تعرج أرواحها ، وتطهر نفوسها ، وتسمو بها إلى أعلى عليين ، وتدرك كل ما تريد ، وأن تنال ما تشتهي ، وأن يحقق الله لها كل الآمال ، وأن ندرك كل ما نريد إلا أن نستقيم .

المراد بالخوف والحزن في الآية :

هنا يقول : ﴿تَتَزَلُّ عَلَيْهِمُ أَلْمَلِكُ أَلا تَخَافُوا﴾ [فصلت : ٣٠] ، لا تخافوا على ما تركتم وراءكم في الدنيا ، لا تخافوا على أولادكم ، فإنكم كنتم إلى الله ، كنتم لله تعالى في حياتكم فالله وليكم على أولادكم ، كنتم لله تعالى في شئونكم كلها ، فالله تعالى هو الذي يحوطهم بعنايته ، ومن

كان الله وليه على أولاده فلا يخاف عليهم ، هذا هو التفسير الصحيح ، لا تخافوا على ما تركتم وراءكم في الدنيا ، ولا تحزنوا على ما سيستقبلكم في الآخرة ، فليس أمامكم إلا البشارات ، وليس أمامكم إلا الخيرات ، ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت : ٣٠] ، وبعدها ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠] .

حديث أبي هريرة في ذكر سوق الجنة :

هنا ذكر الإمام ابن كثير حديثا روي في الترمذي ، و النسائي ، وهو حديث عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال أبو هريرة لسعيد بن المسيب : جمعني الله بك يا أخي في سوق الجنة ، فقال سعيد : أَللجنة يا أبا هريرة سوق؟ قال : نعم . ولقد صححوا هذا الحديث ، قال أبو هريرة : إن لله موعدًا مع أهل الجنة كيوم الجمعة ، ينادي المنادي فيجتمع الناس ، فيتجلى الله تعالى عليهم ، ويقول لهم : سلوني أعطكم ، فيقول العباد : نسألك يا رب الزيادة عما نحن فيه . هذا بخلاف الحديث الآخر الذي يخص الشهداء .

حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في رؤية الله :

حديث الترمذي الذي رويناه عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : «إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترتع في الجنة تأكل من طعامها ، وتشرب من مائها وتستظل بظل العرش ، ويطلع الله عليها اطلاعه فيقول : يا عبادي سلوني أعطكم ، فيقولون : يارب ما نسألك وقد أعطيتنا الجنة؟ فيقول : يا عبادي سلوني أعطكم ، فيقولون : يا رب ما نسألك وقد أعطيتنا الجنة فيقول : سلوني أعطكم فيقولون : يارب ما نسألك إلا أن ترد

أرواحنا إلى أجسادنا وترجعنا إلى الدنيا لنقاتل ونقتل في سبيلك» ، لأنهم يرون أن الجزاء أعظم من الفعل الذي فعلوا ، هذا بخلافه ، ويطمعون حينما دخلوا إلى الجنة ، وقرت الأرواح في الأجساد ، طمعوا في فضل الله أو أنهم يقصدون ما يقصدون ، فيتجلّى الله تعالى وتنصب منابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من كذا ، وكثبان من مسك ، وكثبان من كافور ، وليس فيهم من أدنى ، ويجلس القوم ويجلس الناس كلهم ، ويتجلّى الله تعالى علينا ، وتكون تلك هي أعظم نعمة في الجنة ، هي رؤية الله تعالى .

حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤية الله ﷻ :

قال عليه الصلاة والسلام : «أتضامون في القمر ليلة البدر؟» ، وفي رواية : «أتمارون في الشمس وفي القمر ليلة البدر؟ قالوا : لا يا رسول الله ، كذلك ترون ربكم ليس بينكم وبينه حجاب» ، ما أعظمها من منة ، ويقول الله تعالى : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] ويحاضر الله تعالى في الحديث : «ويحاضر الله تعالى كل واحد من هذه الأمة ، يقول له : يا عبدي أتذكر غدرتك يوم كذا ويوم كذا؟ فيقول : يارب أما وقد عفوت عني؟ فيقول له : لو لم أعف عنك لما أدخلتك إلى جنتي - ولكن يريد الله تعالى أن يذكر عباده ، ويريد سبحانه لا إله إلا هو أن يوسع عليهم - ثم تعلو سحابة فتمطر على الناس من الخير ، وتمطر عليهم من الطيب مما لم يشموا قبله مثله» ، هذا حديث أبي هريرة الذي يرويه عنه سعيد بن المسيب في قضية الجنة ، هذا الحديث أتينا به هنا عند قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت : ٣٠ ، ٣١] .

هكذا قال الإمام الزمخشري وقال الإمام البيضاوي ، وقال الإمام الفخر الرازي ، كل هؤلاء اتفقوا على أن القولة هي قولة الملائكة ، فالملائكة يقولون لأولئك المبشرين : نحن أولياؤكم كما كنا في الدنيا ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا ، وفي الحياة الآخرة ، معنى أولياؤكم : نحن رفقاؤكم ، هكذا فسر بعضهم : نحن رفقاؤكم ، وفسر بعضهم : نحن قرناؤكم ، ولا فرق بين رفقاء وقرناء ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [فصلت : ٣١] .

إضافة للشيخ المراغي في فهم الآية :

فهم بعض المفسرين رضوان الله عليهم ومنهم فضيلة شيخ الإسلام الشيخ المراغي رَحِمَهُ اللهُ ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ، الله تعالى ولي المؤمنين ، وهذا له نص من القرآن وله نص من السنة ، ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، وعلى كل حال من كان الله وليه كلف به الملائكة ، فكان الملائكة أولياءه أو كان هو ولي الجميع سبحانه لا إله إلا هو الكل بين يديه سبحانه لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ ﴾ :

ما تشتهي أنفسكم ، ما تريدون ، لكم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إن كل ما ورد في وصف الجنة من أحاديث ، وكل ما ورد فيها إنما هو تقريبي ، يقرب به الله تعالى للعقول ، وأما الحقيقة فهي فوق ما يظن الطان ، وفوق ما يتصور المتصور ، « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

(١) سبق تخريجه .

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ :

قال علماء التفسير رضوان الله عليهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ : ولكم فيها ما تتمنون .

إجراء لفظ الادعاء على حقيقته :

ولماذا نترك لفظ الادعاء هنا على حقيقته ، وعلى إطلاقه اللغوي ، فيكون أعم وأشمل ، ادعى فلان أن الدنيا كلها له ، فهي له ، هنا نقول له : من ادعى دعوى فلا بد له من حجة ، والمدعي مطالب بالبينة ، وهناك لا يطالب بالبينة ، هناك المدعي يدعي بما شاء فإنه أمام ربه العظيم ، أمام الخزائن التي لا تنفذ ، هناك المدعي يقول ما أراد ، فإنه ليس هناك مدعى عليه ، هناك المدعي ، وهناك المعطي ، المعطي العطاء الوافي الجزل ، فنترك الادعاء على حقيقته ، ونقول : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ .

من ادعى بأنه يريد الدنيا وما فيها مقدار ما في الدنيا وما فيها فإن الله يعطيه مقدار ما في الدنيا أضعافاً مضاعفة في الجنة كما في حديث الرجل الذي هو آخر من يخرج من النار : «يأمر الله به ليأتي إلى الجنة ، وحين يصل إلى بابها يظن أنها مملوءة ، فيرجع إلى الله فيقول : يارب إنها ملئت . هذا حديث صحيح «فيقول الله تعالى : أرجعوه ، فيرجع إلى الجنة ، وينظر ويرجع إلى الله ويقول : يارب إنها ملئت ، ثم يرجع ثم يقول الله تبارك وتعالى له : ادخل يا فلان ، ادخل يا عبدي» ، فيعطيه الله تعالى ما بين السماء والأرض في الجنة ، أو يعطيه الله تعالى مقدار الدنيا كلها في الجنة ، فيكون هذا حظه في الجنة ، وهذا فضل الله العظيم ، فالادعاء هنا نتركه على حقيقته .

معنى النزل في الآية الكريمة:

ونقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٦﴾ نَزْلًا ﴿هنا ما أحلى هذه العبارة التي جاءت في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٦﴾ نَزْلًا﴾ ضيافة وإكرامًا، النزل هنا بمعنى الضيافة، ضيافة من عند الغفور، الذي ستر ذنوبكم وستر عيوبكم، ولم يرد أن يؤاخذكم بها، ﴿نَزْلًا مِّنْ عَفْوٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢]، رحيم بكم، رءوف بكم، هذه ضيافة الله سبحانه لا إله إلا هو، وإذا كانت ضيافة العبد للعبد يتجلى فيها كرمه، وتتجلى فيها سماحته، ويمتدح الناس بعضهم بعضًا بالكرم، ويقال بأن فلانًا استضاف فلانًا، وأن فلانًا قدم له وقدم له، فما بالك بضيافة الله سبحانه لا إله إلا هو، الذي هو المعطي سبحانه لا إله إلا هو.

حب الله ﷻ لمن يسأله ويلج عليه:

هو الذي لا يمل سبحانه لا إله إلا هو، وهو الذي يحب العبد الملحاح، العبد الذي يكثر من السؤال، وهو القائل سبحانه لا إله إلا هو ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رويناه في «صحيح مسلم» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وما أحلى الحديث الذي يروى عن هؤلاء أن النبي ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وروينا كذلك في «صحيح الإمام البخاري» وفي «صحيح مسلم»، وفي «موطأ مالك»، وفي «مسند أحمد»، رضي الله عن الجميع، من طريق عبد الله بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «أما الركوع فعظموها فيه الرب، وأما السجود فادعوا

فيه بما شئتم ، فقمنا أن يستجاب لكم» أي فحقيق استجابة الله لكم ، يعني لا يخيبكم ويستجيب لكم ، هي قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ] ﴿٣٠﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَجِيمٍ ﴿٣١﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] .

بعض صفات النبي الكريم ﷺ :

هنا يدخل بنا القرآن إلى مقام عال ، إلى مقام تقاصرت فيه أعناق الباحثين ، إلى مقام طالما كتب فيه الكاتبون ، إلى مقام تتجلى فيه عظمة الله ، وتتجلى فيه عظمة رسول الله ﷺ ، إلى مقام يريد الله تعالى أن يذكر لنا عظمة محمد ﷺ ، ولقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم إذا وصل إلى هذه الآية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ [فصلت : ٣٣] ، يقول : هذا حبيب الله ، هذا صفوة الله ، هذا خير خلق الله ، هذا محمد بن عبد الله ، هذا الداعي إلى الله ، هذا الذي عمل بما دعا إليه الناس ، قيل : الآية نزلت في المؤذنين ، رويانا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أن هذا القرآن نزل في المؤذنين ، قالت عائشة : المؤذن يقول : حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، فيدعو الناس إلى الله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [فصلت : ٣٣] ، صلى ركعتين بين الأذان والإقامة .

فضل التأذين :

أطال المفسرون هنا في ذكر الأذان ، رويانا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لا أبالي إذا كنت مؤذناً ألا أجتهد للحج وألا أجتهد للجهاد ، ورويانا

عن عائشة أم المؤمنين وعن غيرها من الصحابة ، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(١) وروينا عن رسول الله ﷺ : «أن المؤذنين أول من يكسى غداً يوم القيامة»^(٢) ، وروينا في «صحيح الإمام البخاري» ، وفي «صحيح مسلم» ، عن عبد الله بن قيس عن أبيه أن النبي ﷺ قال : «إذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت فارفع صوتك بالأذان ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» .

الأذان وما أدراك ما الأذان ؛ وجهور الصحابة على أن الآية مكية ، والسورة مكية ، والأذان ما فرض وما وقع إلا في المدينة ، رآه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري ، وقصه على رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ قال له : «قصه على بلال فإنه أندى منك صوتاً» والمؤذنون عندهم ما يكرمون به في أحاديث كثيرة وردت عن الأذان والمؤذنين .

الآية نزلت في النبي محمد ﷺ :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت : ٣٣] ، هذا قرآن نزل في رسول الله ﷺ ، ومن أحسن من محمد ﷺ ؟ الذي جابهته قريش بقوتها ، جابهته قريش بعظمتها ، ظلمه أهله وأقاربه .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهند

(١) أخرجه مسلم (٣٨٧) من حديث معاوية رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠ / ٤٥٨) .

محمد ﷺ أفضل من دعا إلى الله :

من مثل محمد الذي وضع عليه سلى الجزور؟ من مثل محمد الذي وضعت في طريقه الأشواك؟ من مثل محمد الذي اتهم بالكهانة ، واتهم بالسحر ، واتهم أنه ما يعلمه إلا بشر ، مع أن ذلك الذي اتهموه بأنه يعلمه إنما كان نصرانيًا ، ولم يكن مسلمًا ، ﴿لَسَاكُ الَّذِي يُلْحِدُونَكَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] . لا ، من أحسن من محمد ﷺ الذي أتى ما لم يؤته غيره؟ من أحسن من محمد ﷺ الذي هو الشفيع المشفع؟ من أحسن من محمد ﷺ الذي حينما نزل عليه قول الله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى : ٥]؟ قال إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار ، من أحسن من محمد ﷺ الذي يقول غدا يوم القيامة : «أنا لها أنا لها» ، ويستأذن ربه فيؤذن له ، فيشفع لأمته ﷺ؟ من أحسن من محمد ﷺ الذي أعطي خمسًا لم يعطهن أحد من قبله ، نصر بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت له الغنائم ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس كافة ، وأعطى الشفاعة ، وجعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا ، من أحسن من محمد ﷺ وهو الذي يأتي غدا يوم القيامة شهيدًا على الأنبياء والمرسلين؟ من أحسن من محمد ﷺ وهو أكرم الخلق على الله؟ من أحسن من محمد ﷺ وله المعجزة العظمى ﷺ التي لا يمكن أبدًا بحال أن ينال منها الدهر ، ولا أن تنال منها القوة ، ولا أن تحركها لا ذرة ولا غيرها ، لا يمكن لقوة كيفما كانت أن تنال منها ، ألا وهي القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، نعم ، المعجزة الخالدة الباقية كتاب الله المعجزة العظمى ، من أحسن من محمد الذي أخبر بالمغيبات عليه الصلاة والسلام ، فقال لعائشة : «كيف بك إذا نبحت

عليك كلام الحوَّاب؟»^(١) وقال للصحابي : «كيف بك إذا ألبست سوارى كسرى»^(٢) ، وقال للآخرين : «إنكم ستفتحون القادسية ، وستدخلون بيوتاً تسمى الحمامات ، فلا تدخلوها إلا بالآزر ، ولا تدخلوها نساءكم إلا حليات أو مريضات»^(٣) ، من أحسن من محمد ﷺ وهو القائل : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٤) .

الاسترسال في عد فضائله ﷺ :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ ، من أحسن قولاً ممن جمع المسلمين على صعيد واحد ، جمعهم ليتدارسوا كتاب الله ، وليتدارسوا سنة رسول الله ، بشاره يحملها لنا التاريخ ، يحملها لنا القرآن ، من أحسن قولاً ممن جمعنا على كلمة الله ، وجمعنا على سنة رسول الله ، من أحسن قولاً ممن دعا العلماء من المشرق ومن المغرب ليقولوا كلمة الله ، لينشروا دعوة الله ، ليلغوا عن رسول الله ، ليقول كل واحد ما عنده ، اللهم حقق الأمانى ، وحقق الآمال لهذه الأمة فيما تصبو إليه ، من عز وكرامة ، ومجد ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت : ٣٣] ، نعم .

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
يجب على الإنسان إذا دعا إلى الله أن يبدأ بنفسه :

أبدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٧٣٢) ، والحاكم في «المستدرک» (٣ / ١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦ / ٣٥٧) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠١١) ، وابن ماجه (٣٧٤٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

(٤) سبق تخريجه .

إشارات مضيئة في حياة الداعية:

نعم ، ينبغي للمصلح وللداعي أن يكون هو في حد ذاته صالحا ، كامل الإيمان ، تقيا نقيًا طاهرًا ، حتى ينفع الله تعالى به ، وحتى تنتشر هذه الأنوار ، وتجد أنوار الرسول الأعظم ، تجد مكانًا رحبًا في صدره ، تجد مكانًا واسعًا ، تجد أين تسبح ، وأين تسير ، وأين تشع ، أما إذا كان صدره مملوءًا بالإحزن ، ومملوءًا بالبلاء ، فإنها لا تشع ، ولا يمكن أن تأتي بنتائجها ، نعم نور رسول الله ﷺ ، ينبغي أن يحل في قلوب طاهرة ، ينبغي أن يحل في صدور طاهرة ، فالطهارة قبل كل شيء ، طهارة الصدر قبل كل شيء ، طهارة الوجدان قبل كل شيء ، الإخلاص لله قبل كل شيء ، الإخلاص إذا كان فإن كل شيء يكون ، كلام القلب يصل إلى القلب ، والكلام الذي ينبعث من القلب يصل إلى القلب ، وفقنا الله وجعل كلامنا كله صادرًا عن إيمان ، وصادرًا عن إخلاص ، وصادرًا عن نصيحة خالصة لوجهه الكريم .

معنى الإسلام في الآية وضوابطه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] ، قال علماء التفسير رضوان الله عليهم ، ومنهم الإمام الفخر الرازي والإمام أبو حيان قالوا : ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، من المستسلمين الذين لا يعترفون لأنفسهم بشيء ، وأنا لا أقول إلا بتفسير آخر أرجحه على هذا ، أقول : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ، أقول : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ، وقال إنني الآن أستحق أن أكون

من المسلمين ، أما قبل الآن فإنني لست من المسلمين ، إسلامي كان ناقصاً حتى بلغت الدعوة ، وأديت الرسالة ، وحتى قمت بالواجب ، وحتى قمت بالعهد التي تركها رسول الله في عنقي .

طرف من فضل العلم وأهله :

نحن نعلم أن النبي ﷺ قال : «العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(١) ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، ونعلم أن النبي ﷺ قال : «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، فالعلماء أمامهم مسئولية عظيمة جداً للغاية ، فبقدر ما رفع الله قدرهم قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، إنما يخشى الله من عباد العلماء الأتقياء ، ورسول الله سيد الأتقياء ، إنما يخشى الله من عباده الصالحاء ، الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، سواء كانوا أطباء أو كانوا مهندسين ، ولكن الشرط فيهم أن يكونوا أتقياء وأن يكونوا صلحاء ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إذا كانوا صلحاء وكانوا أتقياء ، ليدخل رسول الله فيهم دخولا أوليا ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، وقال الله

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٩) ، وأبو داود (٣٦٥٨) ، وابن ماجه (٢٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن .

تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله الحكمة أي العلم فهو يقضي بها ويعلمها الناس»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رويناه عن جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري أنه جاءه رجل مسيرة شهرين يسأله عن حديث واحد قال جئتك يا جابر مسيرة شهرين أسألك عن مسألة واحدة، قال أبشر يا ابن أخي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر»، و«إنه يوزن مداد العلماء، ودماء الشهداء، فلا يعدل أحدهما الآخر»، و«إن عالما واحدا أشد على الشيطان من ألف عابد». وإذا أردنا أن نستقصي جميع ما ورد في شأن العلماء فإنه يطول بنا المقام، والمقصود هو ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾:

رجوع إلى ما كنا فيه من قبل، هم يا محمد قيضنا لهم قرناء من سوء يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، هم يا محمد قالوا: ﴿أَرَأَى الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٩]، سئل عبد الله بن عباس من هو هذا الذي أضلانا من الإنس والجن، قال حبر الأمة وترجمان القرآن: ابن آدم الأول، ما من واحد قتل واحدا إلا على الأول كفل القتل، والشيطان

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

إبليس ، ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت : ٢٩] ،
وهؤلاء قالوا : ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت : ٣٠] هنا قال الله تعالى :
﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ ، سيئة أولئك وحسنة هؤلاء ، فرق كبير
بين الحسنة والسيئة ، الحسنة تمحو السيئة ، الحسنة لها قيمتها عند الله ،
الحسنة من هم بها ولم يفعلها كتبت له حسنة .

دعوة الآية إلى مكارم الأخلاق :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت : ٣٤] ، فيما كان الله يلقيه لمحمد ﷺ من
مكارم الأخلاق ، هذا الذي ينبغي أن يقال ، ما كان الله تعالى يلقي لنبيه
محمد عليه الصلاة والسلام من مكارم الأخلاق ، نجد هنا أنه يقول له :
﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
[فصلت : ٣٤] ، ونجده يقول في سورة الأعراف : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٩٩ ، ٢٠٠] ، فالله تعالى هنا يعطي درساً لنبيه في
الأخلاق الكريمة ويعلمه ، نجد أن النبي ﷺ كان يعاني شدة وكان يعاني
ﷺ ما يعاني ، ولقد سبر الغور ، واستطاع ﷺ بعد محنته وبعد ما قاسى ،
وبعد ما رأى خلال التبليغ ، وخلال الدعوة التي كان يقوم بها ، وخلال
ما عهد إليه من هذا الأمر العظيم ، أن يقول : «شيتني هود وأخواتها»^(١) ،
لأن الله تعالى يقول له في هود ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [هود : ١١٢] .

(١) سبق تخريجه .

عتاب الله لنبيه ﷺ :

إذا أردنا أن نتبع ما ورد من هذا النوع في كتاب الله نجد أن الله تعالى كثيراً ما عاتب نبيه ﷺ في كثير من المواطن ، وفي كثير من المقامات ليرفع من مقامه ﷺ .

عتابه في ابن أم مكتوم :

نجد الوليد بن المغيرة يطمع النبي ﷺ في إسلامه ، ويأتي إليه ، وإلى جانب النبي ﷺ عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ، والنبي ﷺ يريد أن يأخذ من الآخر عسى أن يضمه إليه ؛ لأن الوليد بن المغيرة من أغنياء القوم ، ومن كبار قريش ، إذا أسلم فإن النبي ﷺ يهدم قريشاً به ، ولكنه حينما يأتي عبد الله بن أم مكتوم ويريد أن يتكلم يغض عنه النبي ﷺ بصره أو يلتفت عنه قليلاً ، ولكن حينما يرجع إلى منزله يعاتب نفسه قبل أن ينزل العتاب ، فينزل الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ [عبس : ١-٣] ، وبعد ذلك يقول رسول الله ﷺ كلما رأى عبد الله بن أم مكتوم ، «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ، ويكرمه ﷺ ويحبه ﷺ ، وكم لنا من أحاديث عن عبد الله بن أم مكتوم ، وعن مكان سكناه ، وعن طلبه للنبي ﷺ أن يبيع منزله ليتقل إلى قرب النبي ﷺ ، وعن إبقاء النبي ﷺ عليه ، وعن طلبه للنبي ﷺ من أن يذهب عنده ليصلي له في بيته مكاناً يتخذه مصلياً ، وعن كون النبي ﷺ جعل بيته مكاناً للنساء يتخذه النساء موئلاً للضرورة .

حديث فاطمة بنت قيس واعتادها عند ابن أم مكتوم:

جاءت فاطمة بنت قيس الفهرية عند رسول الله ﷺ بنت عم رسول الله ﷺ، قالت: «إن زوجي طلقني فبتّ طلاقاً، وإنه أرسل إلي بشعير فلم أرض به»، قال عليه الصلاة والسلام: «لا نفقة لك ولا سكنى» والحديث في البخاري ومسلم. فكان هذا عن غضب، لأن النبي ﷺ يريد أن يكسر من حدتها، لأنها قريشية وكانت ترى أنها شيء كبير جداً وأن زوجها لا شيء، أراد النبي أن يكسر من حدتها، قال لها: «لا نفقة لك...» قالت له: الله تعالى يقول: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، قال لها: «لا نفقة لك ولا سكنى»، قالت له: «إذن، أين أعتد يارسول الله؟» قال: «اعتدي عند أم فلان»، ثم قال: «لا، تلك امرأة يأتيها أصحابي، ولكن اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى لا يراك إذا وضعت ثيابك»، وعندنا خمس نسوة أحفظ والله الحمد أحاديثهن كلهن اللواتي أذن لهن رسول الله أن يعتدن عند ابن أم مكتوم: «اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى لا يراك إذا وضعت ثيابك، وإذا حللت فأذنيني»، وبقيت عند عبد الله بن أم مكتوم، فلما أتمت عدتها جاءت عند رسول الله ﷺ وقالت: «يارسول الله خطبني فلان ابن هبيرة ومعاوية بن أبي سفيان»، قال: «أما فلان ابن هبيرة فلا يضع عصاه عن عاتقه»، ضراب للنساء، أو كثير الأسفار، وأنت شريفة قرشية لا يعجبك حاله، لم ترضي بالشعير، فكيف ترضين بالعصا، قال: «ومعاوية صعلوك لا مال له»، لا إله إلا الله! ثم بعد ذلك تأتي الخلافة وتأتي الأموال ويأتي الخير، «ولكن أنكحي أسامة»، هي شريفة قرشية وهو مولى، قالت: أسامة! وأنغضت برأسها، قال: «نعم». أسامة حب رسول الله وابن حبه، كان يجلسه ﷺ في حجره مع

الحسن والحسين ، قالت : «فتزوجت أسامة فغبطني النساء عليه» ، حسدها النساء على أسامة ، وبركة النبي ﷺ بقيت معه ، الشاهد عندنا أن عبد الله بن أم مكتوم نزل فيه القرآن ، عاتب الله فيه نبيه ، والحديث ذو شجون .

حث الآية على الصبر وعدم الغضب :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، قال عبد الله بن عباس -حبر الأمة وترجمان القرآن- : الله تعالى يريد منا أن نستبدل الغضب بالصبر ، وألا يكون الإنسان ذا غضب ، وأن نستبدل الشدة باللين والرفق ، وأن يكون الإنسان ذا حلم واسع . ونحن نعرف كثيرا من أحاديث رسول الله في هذا الباب ، في كثير من الروايات أن صحابيا جاء عند رسول الله فقال : يا رسول الله أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، ونروي في الحاكم ، والترمذي ، وأبي داود ، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » ، الشديد هو الذي يملك نفسه عن الغضب ، فالنبي ﷺ يأمره الله تعالى هنا ويقول له : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، فالإنسان إذا قابلت جفاهه وغلظته بالحلم والرفق واللين ، فإنه سيجد وازعا من نفسه فيستحيي ، وأما إذا قابلت غلظته بمثلها فإنه يحتد ويغضب ويشتد ، وإن الغضب إذا قوبل بالغضب ربما يزيد ، والإسلام لا يأمرنا أن نقابل الغضب بالغضب ، بل يأمرنا بأن نغفو ونصفح .

دعوة النبي ﷺ إلى الصفح والعفو:

العفو والصفح دعا إليه الإسلام، دعا إليه رسول الله ﷺ ونحن نعلم أن النبي ﷺ وهو سيد الأولين والآخرين جاءه الأعرابي كما في «صحيح البخاري» وفي «صحيح مسلم»، وأمسك بعنقه حتى أثر الرداء في عنقه الكريم، فقال: «أعطني من مال الله»، قال عليه الصلاة والسلام: «المال مال الله، وأنا عبد الله، ولكن أيقاد منك؟» قال: لا، قال: «ولم؟» قال: «لأنك لا تجزي بالسيئة السيئة، ولكنك تعفو وتصفح»، فتبسم ﷺ، وأمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى بعير تمر، وعفا وصفح ﷺ، ونعلم أنه ﷺ كثيراً ما كان يرد جفوة قومه، وغلظة قومه، وجفاء قومه، وشدة قومه، وإذاية قومه، بقوله: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، قال له الله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُقْلِقْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، الصبر وما أدرك ما الصبر؟ الصبر نصف الإيمان، نصفان هناك لا ثالث لهما، الصبر على الشدائد نصف والشكر على النعم نصف.

فضل الصبر وجزاء الصابرين:

الصبر لم يحدد الله تعالى له أجراً، لقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وكل أعمالنا يدخلها الصبر، فلو لم نصبر لما توضحنا، لو لم نصبر لما صلينا، لو لم نصبر لما قمنا لصلاة الصبح، لو لم نصبر لما قمنا لصلاة العشاء، ورسول الله ﷺ يقول: «لو علمتم ما في العتمة والصبح لأتيتموهما ولو حبوا»، ورسول الله ﷺ يقول: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»، لو لم نصبر لما

صمنا ، لو لم نصبر لما امتنعنا عن طعامنا وشرابنا وشهوتنا من أجل ربنا ،
لو لم نصبر لما أدينا الزكاة وأعطينا طرفا من مالنا ، لو لم نصبر لما كظمنا
الغيظ ، لو لم نصبر لما ركبنا البحار ، وذهبنا إلى حج بيت الله الحرام ، وهكذا
ويستمر مدة طويلة من الزمن وهكذا ترجع كل أعمال ابن آدم إلى الصبر .

والصبر ما هو؟ هو حبس النفس عما تكره ، ولقد قال الله تعالى محمد
ابن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ، وقال : ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل :
١٢٧] ، وَالله تعالى جعل للصبر مقامات ، إما أن يكون المقام المحبوبة ،
وإما أن يكون المقام المعية .

المحاضرة الثامنة والعشرون بعد المائتين

مظاهر الحب لرسول الله ﷺ

تهديد:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

محاضرنا بعنوان «مظاهر الحب لحبينا محمد رسول الله ﷺ»، مظاهر، أمارات، وعلامات، وأدلة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحب لا يؤمر به، لا تقل لفلان أحبني بالأمر، ولا تلزم شخصاً بحبك. فإنما الحب اتفاق قلبي، إنما الحب مودة بين عاطفتين، بين شخصين، إنما الحب توافق، فإذا أردنا أن نتكلم عن حبنا لرسول الله محمد ﷺ فلا نجد في الأدلة دليلاً يأمر بالحب أمراً، أو يلزم به إلزاماً، إنما جاء القرآن بأسلوب جميل لبيان معنى الحب لرسول الله ﷺ وموجهه، إذا عرفت أن شخصاً يهتم بأمرك، ويسهر الليل لمصلحتك، ويعز عليه عنتك، ويشق عليه بؤسك، ويحرص على ما فيه إسعادك، كله رافة لك، رافة بك، ورحمة لك، فإنك بالطبع تميل إليه، بالطبع تبادل هذا الإحساس، وتفنى في شخصه؛ لأنه يريد لك الخير، ويعز عليه بؤسك، ويصعب عليه مشقتك، فهذا الشخص الذي تبرع بالحنان لك، والعطف عليك، يميل طبعك ميلاً إنسانياً ذاتياً إلى مبادلتة حباً بحب، وتفنى في شخصه.

من دواعي حبه ﷺ حزنه لشقتنا وتأله لآلئنا :

فلما أراد الله ﷻ ، أن يعرفنا قيمة حبنا للنبي محمد ﷺ ، لم يأمرنا بالحب أمراً ، وإنما بين لنا شخصية الرسول ﷺ ، وما يتحملة وما يلاقه من عنت ومشقة في سبيل إسعادنا ومصلحتنا ، فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ، من أنفسكم ، منكم ، من بني جلدتكم ، من أنفسكم ، من خيركم نسباً ، وأشرفكم أصلاً ، وأطهركم بيتاً ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ صعب عليه العنت الذي تلاقونه ، والمشقة التي تلاقىكم ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ، كل الحرص ، انحصرت رأفته فيكم ، ورحمته لكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، إن العنت الذي نقع فيه ، والمشقة التي نلاقها ، تعز على رسول الله وتصعب عليه في برزخه الشريف ، ويتمنى أنها لم تكن .

كيف يمكننا تحية رسول الله بعد موته :

فإذا أردنا أن نرسل تحية لرسو الله ﷻ في برزخه الشريف ، فعلينا أن نحسن سلوكنا في أنفسنا ، ونحسن عشرتنا فيما بيننا ، ونحسن تواصلنا وترابطنا ، وصلاتنا فيما بيننا ، لتقر عين الرسول ﷻ في برزخه الشريف ، لأنه يعز عليه عنتنا وفرقتنا وشتاتنا ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ .

رحمة النبي ﷺ بأمته :

يحرص الرسول ﷻ على مصلحتنا ، فهو أولى بنا من أنفسنا ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٦] ، كله رحمة ، وكله عطف ، فوق

عطف الأب، وفوق عطف كل عاطف، فالله ﷻ صاغه من الرحمة، ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾، وأي عنت نلاقه في حياتنا يعلم به رسول الله ﷺ، ويتمنى على الله أن يزول هذا العنت، وفي حياته ﷺ تمنى لنا الخير، وحرص عليه، وقرأ آيتين من كتاب الله وبكى، قرأ آية عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فبكى، وقرأ آية عن سيدنا عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فبكى، وجلس الرسول يبكي ويقول: «يا رب أمتي أمتي»، ويعيد الآيتين، ويبكي، فأرسل الله ﷻ جبريل، سل محمدًا ماذا يبكيه، فجاء جبريل وسأل النبي ﷺ ماذا يبكيك؟ قال: «أمتي»، إبراهيم يتمنى الخير لأمته ويقول: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ولم يقل من عصاني فعذبه بالنار، وعيسى سيقول يوم القيامة: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وأنا أقول: أمتي أمتي، وبكى الرسول، فأخبر جبريل ربه، والرب عليم، فقال له ربه: «يا جبريل أذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك فيهم أبدًا».

وهكذا نعرف صورة من مشقة الرسول ﷺ وحرصه على مصلحة أمته.

إدخار النبي ﷺ دعوته شفاعة لأمته:

الصورة الثانية، أن الرسول ﷺ فكر تفكيرًا اقتصاديًا جميلًا جدًا، تفكيرًا فيه أرقام، بل فاق كل الأرقام، لكل نبي دعوة مستجابة، دعوة واحدة، يدعو بها، دعوة واحدة مجابة، والدعوات الأخرى على كف

الرجاء، ولكن في يده دعوة مستجابة يضعها حيث شاء، واحدة، فاستعمل بعض الأنبياء دعواتهم، دعا نوح على قومه فأغرقهم الله بالطوفان، ودعا موسى على قوم فرعون فأغرقهم الله، وهكذا بعض الأنبياء استعملوا دعواتهم في الدنيا، والرسول ﷺ معه دعوة واحدة، وجاءت الأزمات ليستعملها ويستريح، فقال له عمر: يا رسول الله أليست لك دعوى مستجابة؟ وقال له غير عمر، ولكن الرسول ﷺ استعمل الاقتصاد الجميل، والفكرة الاقتصادية الجميلة، فاختبأ دعوته، وقال: «إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»^(١). هذا حرص وأي حرص على مصلحة المؤمنين، فإذا عرفنا أن الرسول حريص على مصلحتنا يشق عليه نزاعنا واختلافنا وتفككنا، عرفنا من ذلك كيف نحبه، وما مدى حبه له، وحملنا ذلك على حبه حملاً أدبياً ذاتياً إنسانياً، لا بالأمر ولا بالعصا، ولا بالسوط، وإنما بالدوافع الذاتية، والترابط المنطقي، والانفعال النفسي ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

صور مضيئة في حب النبي ﷺ:

نريد نموذجاً نعرف به مدى حب الصحابة والأتباع سيدنا رسول الله ﷺ.

بلال ابن رباح رضي الله عنه:

النموذج الأول بلال رضي الله عنه عاش بعد رسول الله ﷺ ولما احتضر وهو في سكرات الموت، ونزعات الروح، في النزع الأخير، قالت امرأته:

(١) سبق تخريجه.

«واكرباه»، فأفاق بلال رضي الله عنه وقال: «واطرباه! غدا ألقى الأحبة، محمداً وصحبه»، امرأته تقول: «واكرباه» من شدة ما يلاقي زوجها، ولكنه وهو في النزاع الأخير. وفي الصورة الشديدة، وفي خلاص الروح من الجسد، يقول: «واطرباه! واطرباه!» الطرب أكثر من الفرح، لأن الطرب انفعال ذرات الجسم وخلاياها، والخلايا في الجسم تنفعل للطرب، فبلال رضي الله عنه في نزاع الروح وسكرات الموت يطرب؛ لأنه بعد لحظات سيلقى رسول الله ﷺ، وأحباب رسول الله ﷺ.

موقف المرأة العجوز مع عمر رضي الله عنه:

وهناك امرأة عجوز، انقطعت من أحبابها، وعاشت وحدها في بيتها، تعول نفسها، وفي هزيع من الليل، الهزيع الأخير جلست وأوقدت المصباح، وجلست تنفش الصوف لتغزله في الصباح، بأجر لتعول نفسها، وكان عمر أميراً للمؤمنين، فخرج عمر ليلاً يعس في المدينة، ويحرس الناس قبيل الفجر، فوجد بيتاً فيه مصباح، وما العادة أن يكون فيه مصباح في ذلك الوقت، فقرب عمر من البيت، فسمع نشيداً، ما هذا النشيد؟ أهى آهات منكوب؟ وأنات حزين؟ وذكريات متألم وحيد؟ اقترب عمر من البيت، فسمع نشيداً، وأي نشيد؟ سمع تلك المرأة الوحيدة في بيتها التي انقطعت عن عائلها وزوجها وأولادها، سمعها تقول وهي تنفش الصوف:

على محمد صلاة الأبرار زين البرايا سيد الأخيار
صلى عليه الطيبون الأطهار قد كنت قواماً بكى بالأسحار
ياليت شعري والمتايا أطوار هل تجمعني وحيي الدار

اندهش عمر لهذا النشيد الجميل ، وهذه الصلوات في وقت السحر ، وهذا النشيد الذي يشرح الصدر ، فاقرب عمر وجلس على عتبة البيت يبكي ، وهي تعيد النشيد على محمد صلاة الأبرار .

دلالة النشيد على الفرح :

تأمل معي هذا النشيد بألفاته المفتوحة ، التي تستلزم فتح الشفتين ، ألفات مفتوحة ، وحروف ممدودة ، لأن الحزين يأتي بالتاء ، ويأتي بالحاء ، حاء الكدح ، وتاء التأم ، والحروف المشددة ليذرف الدمع مع التاء وسكونها ، والحاء وكدحها وأحزانها ، هذا نشيد الحزانى ، ولكن نشيد الفرحين المسرورين ، بألفات مفتوحة ، وحروف ممدودة ، اسمع النشيد معي :

على محمد صلاة الأبرار زين البرايا سيد الأخيار
صلى عليه الطييون الأطهار قد كنت قواماً بكى بالأسحار
ياليت شعري والمنايا أطوار هل تجمعني وحيي الدار
عمر على عتبة الباب يبكي .

مقارنة النشيد بما جاء عن امرأة فرعون :

اسمع نشيداً آخر لتعرف منه الفرق بين النشيدين ، امرأة فرعون حينما قيدها فرعون ، وصب عليها الشرر ، وضربها بالسياط ، لترجع عن إيمانها ، فإذا بها تنشد نشيداً فيه تاءات وتأوهات وآلام ، قالت امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحریم : ١١] ، يمكنك أن تكرر أسنانك على بعضها وأنت تقرأ الآية ، يمكن أن تضغط بأسنانك وتقرأ الآية فتحرك الشفتين

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١] هذا نشيد متألم يئن تحت السياط والشرر، مربوط بالأوتاد، مكتف بالحبال، تلاقيه الحروف التي تناسبه، تاءات، وتشديدات، وحاءات، وتألّمات. ولكن نشيد هذه العجوز بحروف مفتوحة، وألفات ممدودة لتملاً فمها، فتطرد الشيطان، وترضي الرحمن، وحيدة، وانقطعت عن عائلها، بدل أن تسلك مع الشيطان أفكاراً سيئة، وذكرات أليمة، وتتحسر على الأولاد، والزوج، والأب والإخوة، والزمان وما فيه، فيلعب بها الشيطان في وحدتها، إذا بها تسلي نفسها، وتذكر حبسها، وتصلي على نبيها، وتعبد ربها، وتتسلى في جلب القوت لنفسها، وعمل تجربته قوتاً لنفسها، فتقول :

على محمد صلاة الأبرار زين البرايا سيد الأخيار
صل على الطيبون الأطهار قد كنت قواماً بكى بالأسحار
يا ليت شعري والمنيا أطوار هل تجمعني وحيي الدار

تفاعل عمر رحمته الله مع النشيد :

عمر على الباب يبكي ويستمع لها، ثم قال : لها زيدي ، زيدي يا أختاه
قالت له : من؟ قال لها : عمر ، أمير المؤمنين؟ قالت له : ماذا تريد؟ قال لها
أسمع نشيدك في الصلاة على رسول الله ، وأدخلي عمر في دعائك ، لا تنسي
عمر ، يا أختاه فقالت :

على محمد صلاة الأبرار زين البرايا سيد الأخيار
صل على الطيبون الأطهار قد كنت قواماً بكى بالأسحار

يا ليت شعري والمنايا أطوار هل تجمعني وحييي الدار
وعمر فاغفر له يا غفار

كل ذلك وعمر يبكي ؛ لأن المرأة استغلت وقتها في طاعة الله ، إن
الشیطان يلعب بالناس الفارغين ، الذين ليسوا في عمل دنيا ولا عمل
آخرة ، إن لم تشغل نفسك بطاعة الله شغلتك نفسك بمعصية الله ، هذا
نموذج كريم في الذكريات الحسنة ، وحب رسول الله ﷺ .

مظاهر حب النبي ﷺ :

أما بعد ، فما هي مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ ؟

المظهر الأول : صفاء النفس ، وطهارة القلب ، وحسن النية ، وشرف
الضمير ، وطهارة الطوية .

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء
فطهارة النفس ، هي المظهر الأول لحبنا لرسول الله .

دليل المظهر الأول :

دليلي على ذلك ، روى الترمذي عن أنس بن مالك قال لي رسول الله
ﷺ : « يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد
فافعل » ، ثم قال لي : « يا بني وذلك من ستي ، ومن أحيا ستي فقد
أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة » .

حقيقة صفاء النفس كمظهر لمحبة النبي ﷺ :

في وسط هذه النكايات بين الناس ، وهذه المكاييد التي تعم الناس ،

وهذه الخصومات التي بين الناس ، ويرى الرسول ﷺ أن سنته وطريقته أن تكون خالص النية صافي القلب ، طاهر الضمير ، لا تضرر حقداً ، ولا تكيد كيذاً ، ولا تبیت علی غل ، ولا تنوي شراً ، وذلك يا بني من سنتي ، ومن أحيا سنتي فقد أحبني ، وإن تعاشر الناس على الضعن والنفاق ، وإن تعايش الناس على الكيد وضمائر السوء ، فكن أنت وحيد نفسك ، كن أنت الصافي النية ، الطاهر القلب ، الحلو الطوية ، وإن ضغن الناس وتكادوا يا بني وذلك من سنتي ، ومن أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة ، من الذي يقدر على هذه الطوية الطاهرة والنية الشريفة؟ لا يقدر عليها إلا من يدفع الثمن غالياً .

ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وما أغلى الحب إذا كان صفاء نية ، وطهارة طوية ، وشرف ضمير ، وإخلاص نفس ، إن المدعين كثيرون ، كثيرون يدعون الحب لرسول الله ﷺ ، ولكن ما كل دعوى تقبل إلا بدليل ، لو يعطى الناس بدعواهم ، لادعى الخلي حرقه الشجي ، ولكن الخلي خلي ، والشجي شجي ، إن الدعاوى كثيرة ، جاء رجل فوجد شيئاً يشبه الفضة ، فذهب إلى الصائغ يبيعه ، فقال له الصائغ : إنها حديد مطلي ، قال : إنها فضة ، فوضعها على النار ، فنفخ الكور ، فذهب الطلاء ، وبانت الحقيقة فقال الصائغ وهو يضرب كوره .

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدئ الكير عن خبث الحديد

إن الادعاء كثير ، منا كثيرون يدعون بدعاوى ، ولكن وقت الشد وقت البذل والعطاء ، وقت التكليف والتشريف ، تضع تلك الدعاوى وتطيح ، فأول مظهر من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ حسن النية ، وطهارة الطوية وشرف الضمير .

المظهر الثاني: حسن الخلق:**دليل المظهر الثاني :**

إن الرسول ﷺ قال في الحديث الصحيح : «إن من أحبكم إلي ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلي ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون ، والمتشدقون ، والمفيهقون»^(١) ، أي : المتكبرون .

حقيقة حسن الخلق كمظهر لمحبه ﷺ :

فحسن الخلق ، حسن المعاشرة ، إن الكبير يتحمل الصغير بحسن الخلق ، إن الغني يتحمل الفقير ببسط يده ، وحسن خلقه ، إن العالم يتحمل الجاهل بعلمه وحسن خلقه ، إن الواسع النعمة يتحمل ضيق النعمة بحسن خلقه ، إن المعافى في بدنه يتحمل المريض بحسن خلقه ، لو تعاشر الناس بحسن الخلق ، فإن حسن الخلق مظهر من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ ، يبدأ هو بالعدوان فتتحمله أنت بحسن خلقك ، وتبلع ريقك على شتائه ، أو تبسم لها بحسن خلقك ، فإن العظيم يتسم لصغائر أهل الصغار .

وهكذا حسن الخلق يا قوم مظهر الأكابر ، وحلية العظماء ، فالرسول ﷺ يبين لنا أن الناس حسني الأخلاق هم أقرب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ ، وأقرب الناس يوم القيامة إلى مجلس رسول الله ، وما أدراك ما مجلس رسول الله يوم القيامة؟ في الظل الظليل ، تحت اللواء المعقود ، عند الخوض

(١) سبق تخريجه .

المورود ، على يمين الرحمن ، في ظل العرش ، والناس هناك في هول الموقف خائفون ، والرسول في الظل الظليل ، تحت اللواء المعقود ، عند الحوض المورود ، فإذا أردت أن تكون مع الرسول في الظل الظليل ، تحت اللواء المعقود ، فحسن خلقك مع الناس ، لتكون قريب المجلس من رسول الله ﷺ ، كاد حسن الخلق أن يلحقك بمنازل الأبرار ، هذا هو المظهر الثاني من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ . حسن الخلق ، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، إن كثيرين ممن يدعون الحب ، يدعون بكلام ، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وما أغلاه إذا كان حسن خلق وعملاً وحسن تربية ، ورفعاً للصغير حتى يكبر ، وتحملاً للضعيف حتى يقوى ، وتعليماً للجاهل حتى يرشد ، وتحملاً للفقير حتى يشبع ، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وما أغلاه إذا كان صدقاً وحسن خلق ، وما أغلاه إذا كان اتباعاً لصفاء الضمير ، وما أغلاه إذا كان اتباعاً لنقاوة القلب .

الناحية الثالثة أو المظهر الثالث :

من مظاهر حبنا لرسو الله ﷺ تعبير جميل ، وشيء كاد أن ينساه الناس ، الجندي المجهول ، الرجل الذي يعمل لمجرد أن يعمل ، ليس من الضروري أن يكون في المقدمة أو في الصف الأول ، إن كان في الساقة فهو في الساقة ، وإن كان في المقدمة فهو في المقدمة ، وإن كان في المؤخرة فهو في المؤخرة ، لأنه يعمل وكفى ، جندي مجهول ، يعمل فيرضي الله ويرضى ضميره ، يعمل فينتج ، هذا مظهر ثالث من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ .

دليل المظهر الثالث :

قال رسول الله ﷺ فيها رواه الترمذي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله

ﷺ : «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك»، ثم نفى الرسول يده وقال : «عجلت منيته، قلت بواكيه، قل ترائه»، هذه أوصاف الجندي المجهول الذي يعمل في كل الميادين، فالرسول يقول : «إن أغبط أوليائي أتباعي» فالغبطة : هي أن تتمنى الشيء مثل الشيء، ترى عظيماً فتتمنى أن تكون مثله، مع بقاء النعمة للعظيم .

حقيقة التفاني ونكران الذات كمظهر للمحبة :

فالرسول يقول أتباعي كثيرون، وأغبطهم عندي، وأحبهم إلى نفسي، وأقربهم إلى قلبي، وأحلامهم صفة، وأعلامهم منزلة، الذي يتمنى الناس أن يكونوا مثله، «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ» : هو ظهر الفرس، مكان السرج، وهو المكان الذي يحمل الحمل، فالرسول يكني بذلك أنه خفيف شئون الحياة، خفيف متع الحياة، رزقه كفاف، الذي يأتي على قدر الذي يذهب، «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك»، ثم نفى الرسول يديه وقال : «عجلت منيته» : عمره خفيف، «قلت بواكيه» : غريب، وحيد، لم يترك شيئاً، فلم يبك أحد عليه إلا قليلاً «عجلت منيته، قلت بواكيه، قل ترائه» : لم يترك شيئاً من بعده، ولا ميراثاً، وهكذا نجد الرسول ﷺ يشيد بالجندي المجهول في الأمة، في الدولة .

عاقبة الرياسات وحب الظهور:

قاتل الله حب الرياسات ، حب الرياسة يعلم الكيد ، ويعلم الدس ، ويعلم الوقعة ، وإحراج الناس ، حب الرياسة يضع الشيء في غير موضعه ويقيم قيامة البيت ، لأن هناك قيامة صغرى ، وقيامة كبرى ، فالقيامة الكبرى فناء الكون ، ولكن لكل بيت قيامة صغرى ، سئل الرسول ﷺ متى الساعة؟ فقال : «إذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة» ، فقال الرجل : وما تضييع الأمانة؟ فقال ﷺ : «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(١) ، والمراد بذلك قيام الساعة الصغرى ، ساعة بيت ، قيام قيامة بيت من البيوت فيه حب الرياسة ، فيسند الأمر إلى غير أهله ، وتوضع الأمور في غير أوضاعها ، ولا يوضع الرجل الصالح في المكان الصالح ، وإنما تكون الأمور على قدر ما يدفع أو على قدر ما يبلغ الأمر عند عظيم ، وهكذا تقوم قيامة ذلك البيت إذا بني على هذا الكيد وحب الرياسات .

عاقبة التفاني ونكران الذات:

الرسول ﷺ يشيد بالجندي المجهول الذي يعمل ولا يشار إليه بالأصابع ، يعمل ولا يضع عمله أمام رئيس ليمدحه ، ولكنه يعمل لمجرد العمل ، هؤلاء هم أقرب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ ، وهم المنارات التي يهتدى بها ، هم المثل العليا ، هم الرقي الذي يتمنى أن يكون ، «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ» ، يا أتباع خير نبي ، يا جنود خير قائد ، يا أمة خير زعيم ، يا أمة خير رسول ؛ فالرسول يقول لنا : «إن

(١) سبق تخريجه .

أحبكم إلي»: إن أقربكم عندي ، إن أعلاكم مقامًا يحتذى ، ومثلاً يتمنى ، الجندي المجهول ، «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الزاد، خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة» مع فقره يصلي ويحسن الصلاة ، وينال منها حظاً جزيلاً ، «أحسن عبادة ربه» لم يجعله البؤس يفكر ويترك الصلاة والعبادة ، فهو يعبد الله على الفقر والغنى ، يعبد الله في العسر واليسر ، لأن الله لا يعبد لأنه أعطى ، وإنما يعبد لأنه يستحق العبادة ، «ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضاً في الناس -لا يعرف- لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك -لأنها متعة قليلة وتنتهي - عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه» ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً .

يا حسرتاه على حب زائف زائل:

يا حسرتاه ، جلس الناس للحب جلسات ، فمنهم من يقرأ دلائل الخيرات ، ومنهم من يسبح ، ومنهم من يتلو البردة ، ومنهم من يقول كذا ، ومنهم من ينشد نشيد كذا ، وعند القرش ، وعند المعاملة ، وعند الحق ، وعند إحقاق الحق ، وعند شهادة الحق ، وعند الطمع ، ينسى كل ما فات ، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وما أغلاه إذا كان عملاً لذات العمل ، وجندياً مجهولاً يعمل وإن لم يره قائده ، ويجاهد وإن لم يشهد له قائده ، وينفذ الأوامر ، ويصون الوطن ، ويحمي الحمى ، وإن لم يسمع به قائده ، فهو يحب العمل ، ويتقن العمل لذات العمل ، هذا مظهر من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ .

المظاهر الرابع: تقوى الله ﷻ :

دليل المظهر الرابع :

قول الرسول ﷺ لمعاذ : «يا معاذ إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا»^(١) .

حقيقة التقوى كمظهر لمحبة النبي ﷺ :

فالمتقي الذي يمثل الأوامر ويجتنب النواهي ، الذي يبعد الشر ؛ لأن التقوى أصلاً من الوقاية ، الذي يصون كرامته بوقاية ، ويصون شرفه بوقاية ، ويصون عرضه بوقاية ، ويصون ماله بوقاية ، ويصون وطنه ويحمي أمته ، ويصون دولته بوقاية ، فالمتقون هم أولى الناس صلة برسول الله ﷺ ، في شرق الأرض أو غربها ، في الصين أو في المغرب ، في غرب إفريقيا أو في شرق آسيا ، في جنوب الأرض أو في شمالها «إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا»^(٢) هذا مظهر جميل ، على مبدأ الحب لرسول الله ﷺ ، حتى لا يعتز قريب المكان بمكة ، أو يعتز قريب النسب ، أو يعتز شخص مع إهماله ، ويقول : أنا قريب من رسول الله ، نعم قريب ، ولكن بالعمل ، «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم» ، فقط ، إنما النسب الشريف مع العمل ما أحلاه ، الصلة الكريمة مع العمل ما أحلاها ، قرب المكان من مكة مع العمل ما أحلاه وما أغلاه ، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وما أغلاه إذا كان اتباعاً وافتداء وتقوى .

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢ / ٤١٤) ، والطبراني في «مسند الشاميين» (٩٩١) .

(٢) سبق تخريجه .

المظهر الخامس: كثرة السجود:**دليل المظهر الخامس:**

ما رواه الإمام مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، عن ربيعة ابن كعب أنه قال : كنت أبيت عند رسول الله ﷺ ففي ليلة أتيته بوضوئه وحادثه ، وبينما أخدمه قلت له : يا رسول الله أنا أخدمك ، فقال لي : «سل» فإذا ربيعة رحمته الله يتمنى أمنية عالية ويقول : أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال له الرسول : «أو غير ذلك يا ربيعة؟» غير هذا سل سؤالاً غير هذا ، سل قروشاً سل جلباباً ، أي شيء ، فقال : أتمنى مرافقتك في الجنة ، فإذا بالرسول ﷺ يحرص على أن يكون للحب ثمناً فقال له : «فأعني على نفسك بكثرة السجود» ، فالرسول ﷺ يجعل للحب مظهراً ويجعل للحب ثمناً ، حتى يكون له قيمة ، إن الشيء الذي تأخذه بثمن يكون غالباً عندك .

حقيقة كثرة السجود كمظهر لمحبة النبي ﷺ:

المظهر الخامس من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ كثرة السجود ، أن تعين نفسك مع الدعوات ، احمل نفسك قليلاً ، إذا أراد شخص أن يحملك وقد قعدت ، وضعفت ، فهمم معه لا تلقي بحملك كله على الأرض ، أيحملك أم يحمل جاذبية الأرض تجذبك ، أم يحمل الجسم الثقيل ، أم يحمل ارتخاءك ، فإذا هممت قليلاً أمكنه أن يرفعك ، فكذلك دعوات الآباء ، ورضا الأجداد ، وشراف النسب ، ودعوات الصالحين ، مع همتك قليلاً ، يمكنها أن تساعد في رفعك إلى أعلى .

المظهر السادس: صدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الجوار:

دليل المظهر السادس :

دليل ذلك ما روى الطبراني عن عبد الرحمن بن الحارث السلمي قال :
 كنا عند رسول الله ﷺ فدعا بطهور (ماء) فغمس يده ، فتوضأ ، فتبّعناه ،
 تتبّعنا الماء الذي سقط من أعضاء الرسول ﷺ ، فحسوناه (شربناه) ، فقال
 الرسول ﷺ : « ما حملكم على هذا؟ » قالوا : حب الله وحب رسوله ، فقال
 رسول الله ﷺ : « إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله ، فاصدقوا إذا حدثتم ،
 وأدوا إذا اتّمتتم ، وأحسنوا جوار من جاوركم » . ما أغلى الحب يا قوم :
 إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله ، فاصدقوا إذا حدثتم .

حقيقة الصدق كمظهر لمحبة النبي ﷺ :

هذا دليل عملي ، الصدق في المعاملات ، الصدق في نقل الأخبار ،
 الصدق العملي ، الصدق القولي ، الصدق في البيع والشراء ، الصدق في
 صلة الناس ، الصدق في مظهرك يطابق مخبرك ، الصدق في عمل وظيفتك ،
 الصدق في تحقيق أوصافك التي اتصفت بها ، هذا صدق عملي في تحقيق
 أوصافك التي اتصفت بها ، فأنت مسلم ، والمسلم من سلم المسلمون من
 لسانه ويده ، فإذا كنت مسلمًا ، فاصدق في تحقيق الوصف الذي اتصفت
 به ، لما سئل عبد المطلب لم سمّيته محمدًا ، قال : « أرجو أن يحمد الله في
 السماء ، وأن يحمد الناس في الأرض » ، فالرسول اسمه محمد ، فصدق
 الرسول في تحقيق وصف نفسه بالحمد ، فكذلك أنا واعظ أصدق في تحقيق
 وصف وظيفتي ، وكذلك كل شخص له صفة يصدق في تحقيقها ،
 « والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، « والمؤمن من أمنه الناس على

دمائهم وأمواهم»، «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، فخذ من وصفك تحقيقًا لعملك، وخذ من تسميتك تحقيقًا لمسالك.

فالصدق أولاً يكون في تطبيق الأوصاف على الموصوف، إن كنتم تريدون أن يحبكم الله ورسوله فاصدقوا إذا حدثتم، فاصدقوا باللسان، واصدقوا بالأوصاف التي اتصفتم بها، رجل القانون يصدق في تطبيق القانون كما تريد العدالة، رجل هندسة يصدق في تحقيق علمه كما أخذ في كليته، رجل علم، رجل تربية، وهكذا يكون الصدق القولي والصدق العملي.

أداء الأمانة كمظهر لمحبة ﷺ:

«فاصدقوا إذا حدثتم، وأدوا إذا ائتمتم» الأمانة، العمل الذي أسند إليك أمانة، وظيفتك، زراعتك، صناعتك، تجارتك، أسرار الدولة، أموال الدولة، تحت يدك أمانة.

إحسان الجوار كمظهر لمحبة ﷺ:

«وأدوا إذا ائتمتم، وأحسنوا جوار من جاوركم» الجار مع جاره يحسن، لا يعامله بالمثل، فإن المعاملة بالمثل لا تكون إحساناً، إنما الإحسان تفضل، فعبّر الرسول بالإحسان مع الجار، «وأحسنوا جوار من جاوركم» ولم يقل الرسول ﷺ مثلاً بمثل، وإنما قال: «وأحسنوا جوار من جاوركم»، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً، وما أغلى الحب إذا كان صدقاً في اللسان وفي العمل، وما أغلى الحب إذا كان أداء أمانة في الوظيفة، في مال الدولة، في الأسرار، في إتقان العمل، وفي الإحسان إلى الجار، إن ثمن الحب غالٍ.

المظهر السابع: الجمع بين الدين والدنيا:

ومن مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ شخص نال الإعجاب من رسول الله ﷺ ، امتلأ الرسول به إعجابًا ، فقال : « وإن من أعجب الرجال إلي رجل يؤمن بالله ورسوله ، ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ، ويعمر ماله ، ويحفظ دينه ، ويعتزل الناس »^(١) ، رجل جمع بين هذه الأوصاف ، يؤمن بالله ورسوله ، ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ، والصلاة عبادة أقوال وأفعال ، وحرركات ، وإيتاء الزكاة عبادة أموال ، يقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ، ويعمر ماله ، هذا تعبير جميل من رسول الله ﷺ ؛ لأن الناس انغزلوا ، فمن الناس من هو عابد ، للعبادة والمسجد فقط ، ومن الناس من هو يعمل للمال فقط ، ولكن الرسول يجمع بين الطرفين ، دين ودنيا ، « ويقوم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويعمر ماله »^(٢) ينمي ماله ، يثمر ماله ، ليكون له مال يزكي منه ، ليكون مرفوع اليد ، « فاليد العليا خير من اليد السفلى »^(٢) ، ليكون مرفوع الكرامة ، مرفوع الهامة ، « يعمر ماله ، ويحفظ دينه ، ويعتزل الناس »^(٢) .

المظهر الثامن: إكرام اليتيم:

إن الرسول ﷺ يعجب كل الإعجاب باليتيم ، وأحلى البيوت عند رسول الله ﷺ بيت فيه يتيم يكرم ، « إن أحب بيوتكم إلي بيت فيه يتيم يكرم »^(٢) .

(١) عزاه المنذري في «الترغيب» (٣ / ٢٩٧) لابن أبي الدنيا في «العزلة» .

(٢) سبق تخريجه .

المظهر التاسع: تمنى رؤيته ﷺ:

إن الرسول ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «من أشد أمتي حبًا لي أناس يكونون بعدي»^(١)، يتحدث الرسول عنا وعن شوقنا لرسول الله ﷺ، وعن مدى حبا لزيارة المدينة المنورة وللحج في بيت الله الحرام.

ظاهرة عجيبة في أهل مصر:

يتحدث الرسول عن هذا ويقول: «من أشد أمتي حبًا لي أناس يكونون بعدي، يتمنى الواحد منهم لو رآني بأهله وماله»^(٢)، وإن هذه الظاهرة موجودة في مصر أكثر وأكثر، فإنهم يتهافتون على الحج وعلى زيارة الروضة الشريفة، وتراهم أفواجًا يبذلون كل ما يملكون، ولقد كنت أتطلع إليهم في ميناء الإسكندرية وهم هناك فرحون مبتهجون كالطير يزف إلى مأواه، إلى وطنه، وإن الرسول ﷺ أخبرنا أن من مظاهر حبا له إكرام أهل البيت، وحب آل البيت، ففي الحديث الذي رواه أحمد رحمته الله يقول الرسول ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فحبنا لآل البيت، للعترة الطاهرة، للنسب الشريف، للذرية والسلالة المباركة، هو مظهر من مظاهر حبا لرسول الله ﷺ.

المظهر العاشر: الطاعة والامتثال:

ومن المظاهر التي تعجب في حبا لرسول الله ﷺ الطاعة والامتثال بلا جدال، فيقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) من حديث أبي هريرة رحمته الله.

(٢) سبق تخريجه.

تَسْلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٥] ، الطاعة بلا جدال شأن الأمانة ، شأن العظماء ، شأن الأحاب ، الطاعة بلا جدال ، ولكن كلمة «لكن» هذه مؤلمة ، أقول له يا أخي إن هذا الأمر مكروه ، فيقول : ولكن قال أبو حنيفة إن هذا الأمر لا ينبغي فيقول ولكن قال الأوزاعي إن هذا الأمر لا ينبغي ، فيقول ولكن قال فلان ، إن الأحاب يطرحون كلمة ولكن ، إذا أمر حبسهم بشيء فإنهم يمثلون الأمر بدون تفتيش ، وبدون جدال ، وتستسلم قلوبهم لامثال الأمر ، وامثال القهر في الأمر .

أمثلة على الامتثال والطاعة :

مر رسول الله ﷺ ليلة فاستمع إلى صلاة أبي بكر فوجدها خافتة واستمع إلى بيت عمر في صلاته فوجدها عالية ، فلما اجتمعا عند رسول الله في الصباح قال : «يا أبا بكر ، سمعتك تصلي خافت الصوت» ، فقال : يا رسول الله أناجي من يسمعني ، فأصلي بصوت خافت لأنني أناجي من يسمعني ، «وأنت يا عمر سمعتك ترفع الصوت في صلاتك» فقال : «أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان» ، فقال الرسول ﷺ لأبي بكر : «ارفع صوتك قليلاً» ، وقال لعمر : «اخفض من صوتك قليلاً»^(١) ، فما هي إلا الكلمة والسماع ، فما هو إلا الأمر من الحبيب والامتثال ، لم يقل عمر : ولكن ، ولم يقل أبو بكر : ولكن .

مثال آخر :

في مجلس من مجالس رسول الله ﷺ بعد ما نهى الرسول من التختم

(١) أخرجه الترمذي (٤٤٧) ، وأبو داود (١٣٢٩) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب .

بخواتم الذهب ، فإذا به يلتفت فيرى بجواره رجلاً يلبس خاتماً من ذهب ، فيمد الرسول يده ويخلع الخاتم من أصبعه ويطرحة بعيداً هناك في العرصة يلمع في ضوء الشمس ، ثم مر وخرج الرسول ومشى ، فقال الناس لذلك الرجل : اذهب وخذ خاتمك فانتفع به ، به ، فقال : لا والله ، شيء طرحته يد رسول الله لا يصل إلي أبداً ، انتهى الأمر .

حال المنافق عصيان الأمر وعدم امتثاله :

وهكذا يا قوم نجد أن الطاعة بلا جدال ، وتنفيذ الأمر بامثال مظهر كريم من مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ ، ووصف الله المنافقين والمؤمنين فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَتَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٤٧-٥٢] ، بين الله في هذه الآيات أن المنافق صاحب فرص ينتهزها ، في القول يحيط بقوله تأكيداً ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ كرر الله الباء في العطف وكان يمكن أن يقول : ويقولون آمنا بالله والرسول ، ولكن الله في تعبيره بين الإحاطة ، فالمنافقون محتاطون حتى في حرف الجر ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، إذا قلت له في مشكلة قال رسول الله يقول : يا أخي دعنا من هذا الكلام القديم ، قل

لي قال فلان قال «جان جاك روسو» ، إن السنة جميلة تحل المشاكل ، والقرآن يحل المشاكل في كل عصر وأوان ، لا نريد أن ننزل نريد أن نصعد ، نريد النهضة ، نريد السمو ، نريد العلوم الحديثة .

﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٩] ، ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور: ٤٨] ، وإذا كان لامرأة أحدهم مثلاً ميراث عند إختوتها يذهب ويقول : الشرع يعطيها كذا ، الشرع هذا هو الشرع الآن ! ولم يكن شرعاً حين قال المؤذن حي على الصلاة ! ولم يكن شرعاً حينما ناديناك إلى الحق وإلى الاحتكام لكتاب الله ! ولم يكن شرعاً حينما أمرناك بإخراج الزكاة ! هو شرع عندما تقبض الثمن ، عندما تأخذ ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ ﴿ ٤٩ ﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٩ ، ٥٠] .

حال المؤمن طاعة الأمر وامتناله :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ ٥١ ﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥١ ، ٥٢] .

فمن علامات حبنا لرسول الله ﷺ أن نرضى بحكم رسول الله في المسألة ، أن نفرح بالحل الذي يحله رسول الله ، أن نفرح بالقسمة التي يقسمها رسول الله ﷺ ، أن نفرح بالوضع الذي يضعه رسول الله ﷺ ؛ لأنه يضع الشيء في موضعه ، لا تنس : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، فالخريص عليك ، الرءوف بك ، الرحيم بك ، لا يحيف عليك أبداً .

المظهر الحادي عشر: قضاء حوائج الناس:

دليل المظهر الحادي عشر:

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: «أي الناس أحب إليك؟» فكان الجواب، قال ﷺ: «أحب العباد إلى الله أنفعهم للعباد».

حقيقة السعي في حوائج الناس كمظهر لمحبتهم ﷺ:

السائل يقول: «يا رسول الله أي الناس أحب إليك»، كان مقتضى الجواب أحب الناس إلي فلان أو أنفع الناس للناس، ولكن الرسول ﷺ لفت نظر السائل إلى مسألة هامة، فقال للسائل: «أحب العباد إلى الله أنفعهم للعباد»، فكأن الرسول يقول للسائل بدل أن تقول من أحب الناس إليك؟ هل أنا لي أحباب وحدي؟ إننا كلنا نريد حب الله ونطمع في حب الله، أحب العباد إلى الله أنفعهم للعباد، «وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، أو تمشي له في قضاء حاجة، والله لأن أمشي مع أخ لي في حاجة لأقضيها له أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهراً، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يثبتها ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ قلبه أمناً وإيماناً ورضاً ورجاء يوم القيامة»^(١).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦ / ٣٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

اقتران محبة الرسول بمحبة الله ﷺ:

هكذا يبين رسول الله ﷺ مظهرًا من مظاهر حب الله ، وحب الله يستتبع حب رسول الله ﷺ ، فوصلنا بالمسألة إلى ارتباط ، لا نقول هؤلاء أحباب رسول الله ﷺ ، وهؤلاء أحباب الله ، لا نحزبها أحزابًا ، ولا نفرقها شيعًا ، ولا نجعلها أقسامًا ، فالذي يحب الله يحب رسول الله ، والذي يحب رسول الله يحب الله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ولذلك يجمع الله في الآيات بين حبه وحب رسوله ، بين طاعته وطاعة رسوله في آية واحدة ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [النساء : ٦٩] ، ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] ، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة : ٩٢] ، وهكذا دائمًا نجد أن حب الله وحب رسول الله مقترنان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، من الثلاثة المؤمنين رجل يحب الله ورسوله ، «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» ، الله ورسوله ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وهكذا يا أخوة نجد أن الله ﷻ جمع حبه وحب رسوله في آية واحدة ، في أعمال متحدة ، حتى لا نجعلها شيعًا وأحزابًا ، وكان ﷺ يقول في دعائه : «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك» ألا ما أرخص الحب يا قوم إذا كان كلامًا!

المظهر الثاني عشر: إتقان العمل:

يقول النبي محمد ﷺ: «إن الله يحب من أحكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»^(١).

حقيقة إتقان العمل كمظهر لمحبه ﷺ:

إتقان العمل ، مظهر يعجبني والله إني أغار يا قوم إذا وجدت عملاً للأجانب متقناً ، لا يرجون ثواباً في الآخرة ويتقنون العمل ، نحن يا قوم أولى بإتقان العمل ، لأن المتقن لعمله منا يأخذ ثوابه مرتين : مرة في الدنيا بالأجر ، ومرة في الآخرة برضا الله والجنة ، فنحن لنا الامتياز . الدنيا لنا وللناس ، والآخرة لنا وحدنا ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، فالتقن لعمله من المسلمين المؤمنين يأخذ ثوابه مرتين : مرة في الدنيا بالأجر والتقدير ، ومرة في الآخرة برضا الله ﷻ ، ما أرخص الحب إذا كان تسبيحاً على سبحة أو كلاماً يقال ، «إن الله يحب من أحكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»^(١).

نريد أن يكون المظهر للمسلم ، صناعة من هذه؟ صناعة مسلم ، لأنها متقنة صناعة من هذه؟ نريد في المحلات التجارية النظام والإتقان ، والبضاعة الجيدة ، مظهرًا من مظاهر المسلمين ، الأموال واستثمارها مظهرًا من مظاهر المسلمين ، السفن التجارية في البحار وتجارها وأموالها مظهرًا من مظاهر المسلمين ، نريد المظهر العملي ، «إن الله يحب من أحكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»^(١).

(١) سبق تخريجه .

المظهر الثالث عشر: إغاثة المهوف:

يقول النبي ﷺ: «إن الله يحب إغاثة اللفهان»، تجد شخصاً متلهفاً على أمر، فتغيثه، وبيدك إغاثة على حق.

المظهر الرابع عشر: العدل بين الأولاد:

هذا مظهر آخر من مظاهر حبنا لله ورسوله، ومظهر جميل، «إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل»^(١) هذه الناحية يقع فيها كثيرون، فيفضل الولد على البنت، أو بعض الأولاد على البعض الآخرين، لا يا قوم إن هذا يغضب رسول الله إن الرسول تقرر عينه بالعدالة في بيوتنا وبين أولادنا، «إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل»^(٢).

المظهر الخامس عشر: جمال النفس والمظهر:

«إن الله جميل يحب الجمال»^(٣)، «ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٣).
«إن الله جميل يحب الجمال». والجمال يا سادة ليس معناه جمال الخدود فقط، والجمال ليس معناه حلاوة الثياب فقط، إنما الجمال دواء وترياق، ولطف، وتلطيف، رأيت عجالات القطار؟ تحتاج إلى زيت وشحم حتى لا يوجب الاحتكاك الشرار والنار، رأيت الأزمات الشديدة؟ تحتاج إلى حليم يجلها، وإلا وقع الخصام والنفور بين العائلات، استعمل الله الجمال

(١) عزاه صاحب «الكنز» (٤٥٣٥٠) لابن النجار من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨١٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وقال: هذا حديث

في هذه المواضع فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، في الخصومات استعمل الجمال، ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، ﴿فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿وَسَرِّحُوهُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، حتى في الطلاق إذا تعذرت العشرة وتعسر التوفيق، فليكن فراقًا جميلًا، فهذا هو معنى الجمال، «إن الله جميل يحب الجمال»^(١)، «ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٢).

المظهر السادس عشر: الرفق في الأمر كله:

«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(١) حديث صحيح رواه الإمام مسلم، الرفق: السهولة، العطف، الحنان، الشفقة، الترية، السمو بالناس، العلو بالناس، الطب للناس، علاج النفوس، «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(٢)، فإذا كان رفقا وسمو وتسامي وعلو وعلاج وطب للناس، هذا مظهر من مظاهر حبنا لله ولرسول الله.

المظهر السابع عشر: السهولة وطلاقة الوجه:

«إن الله يحب السهل الطلق»^(٢) السهل في المعاملة، السهل عند طلب الصلح، فلا يكن صلدًا ولا ألد، إنما يكون سهلاً ويطيع «إن الله يحب السهل الطلق»^(١) أتدرون ما الطلق؟ طلق المحيا أي الذي في وجهه ابتسامة، فأعط لنفسك طلاقة وابتسامة وإشراقاً، إن الله يحب السهل

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٠٥٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨٣) من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الطلق ، إن الله يحب السهل الطلق ، إن الله يحب الشخص الطلق الذي يضع نفسه وضعا رياضيا ، وفي عينه بريق ، بريق الذكاء والانتباه ، وفي حدوده وضع خاص ، وفي شفثيه ابتسامة خاصة ، إن الله يحب هذا الشخص ، إن الله يحب هذا المظهر من مظاهر الأمة .

المظهر الثامن عشر: السماحة والطيبة والكرم والنظافة:

إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء ، سمح القضاء ، إن الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله ، إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، جميل يحب الجمال ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، نظيف يحب النظافة ، «فنظفوا أفئيتكم ولا تشبهوا باليهود» ، الفناء العرصة عرصة الدار ، والرسول ﷺ يعلمنا فيقول : «فنظفوا أفئيتكم (العرصات) ولا تشبهوا باليهود»^(١) .

فكان الرسول يريد أن يجعلنا مثلاً أعلى حتى في مظهر البيوت ، في مظهر النظافة ، في مظهر الوجاهة ، في مظهر المناظر الحسنة .

المظهر التاسع عشر: الاحتراف لتحصيل الرزق:

ويقول الرسول ﷺ : «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف»^(١) ، كأن الله يكره العاقل الفارغ الذي لا ينتج ، إن الله يكره العبد الفارغ الذي ليس في عمل دنيا ولا عمل آخرة .

(١) سبق تخريجه .

المظهر العشرون: التقوى الخفية:

إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي، الجندي المجهول الذي تكلمنا عنه.

المظهر الحادي والعشرون: التعفف:

إن الله يحب العبد المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال، يحبه الله ﷻ، عياله واحتياجه لا يجعله يختلس، أو يغش أو يأخذ رشوة، أو يظلم، أو يضيع مال الدولة، أو يسرق، مع احتياجه واحتياج عياله، فهو مؤمن، فقير، متعفف، ولم يقل الرسول عفاً، لأن العف من وصل إلى العفة، إنما المتعفف المتكلف العفة؛ لأن الأمور تأتي بالتعود والمحاولة والتكلف، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتعفف يعفه الله، والعلم بالتعلم والحلم بالتحلم، والعادة بالتعود، فكل محاولة توصل إلى المران العملي، وكل تطبيق يوصل إلى الفن الواقعي، فإذا طبقت العلم عملاً صرت فنناً، صرت معلماً وفنائاً، فإذا طبقت التعود صرت صاحب عادة، إذا طبقت التعلم صرت عالماً، إذا طبقت التصبر صرت صابراً، والتجلد يعطيك الجلد، والتجمل يعطيك الجمال، وهكذا نجد رسول الله ﷺ يعلمنا التعود للخير، «إن الله يحب العبد المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال»^(١)، فإذا وجدنا مؤمناً فقيراً متعففاً صاحب عيال صابراً راضياً، قانعاً بما رزق الله، راضياً بالكفاف الذي أعطاه الله له، نقول هذا مظهر يسر رسول الله ﷺ ويسر الله، ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً، وما أغلى الحب إذا كان تحملاً ومرأناً وصبراً وتصبراً حتى يصير صابراً.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

المظهر الثاني والعشرون: الحب في الله:

روى الإمام مالك رحمته الله وأرضاه أن الله عز وجل قال في الحديث القدسي : «وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في ، والمتزاورين في ، والمتبازلين في»^(١) فالله يقول : «وجبت محبتي للمتحابين في»^(١) معنى متحابين في أي نحب بعضنا في الله لله ، بدون علة ، وعلامة المحبة لله ألا يزيد لها العطاء وألا ينقصها الجفاء ، فإذا أعطيتني فأنت حبيبي ، منعني فأنت حبيبي ، فالعطاء لا يزيد في الثقل ، ولا يزيد في الرق ، لأنني أحبك لصفات هي لله ، والعطاء ليس منها ، «وجبت محبتي للمتحابين في» ، فالله يوجب على نفسه وهو صاحب الفضل والعطاء الأول والأخير «وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في ، والمتزاورين في ، والمتبازلين في»^(١) فإذا كان عطاؤنا لله ، وزيارتنا لله ، وبغضنا لله ، وحبنا لله ، وحضورنا هنا لله ، وفي مجالس الخير لله ، وتبازلنا لله ، فقد استحققنا حب الله ، على طريق الوجوب ، والله أوجب على نفسه ، وهو الكريم ، «وجبت محبتي للمتحابين في»^(١) يا قوم ، وما جزاء من يحب الله ورسوله؟ جزاؤه جزاء عظيم .

دليل آخر لهذا المظهر:

أسمعتهم بالحديث الصحيح الذي فيه أن رجلاً قال : «يا رسول الله متى الساعة؟» فأراد الرسول أن يصرف السائل إلى ما هو أحسن ، فقال له : «وماذا أعددت لها؟» فسكت الرجل وكأنه استكان قليلاً ثم قال : «والله ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة إلا أني أحب الله ورسوله» ،

(١) سبق تخريجه .

فقال له الرسول : «فأنت مع من أحببت»^(١) فإذا أحببت الله وأحببت رسول الله ، فأنت في جوار الصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا ، ذلك الفضل من الله .

فائدة المظاهر السابقة في تحقيق محبة النبي ﷺ :

إن المؤمنين يجب أن يكون لهم مظهر مع المخبر ، لأن المخبر وحده لا يكفي ، والباطن وحده لا يكفي ، «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢) . فالنظر للعمل هو النظر للمظهر فلا بد أن يكون لنا مظاهر لحب الله وحب رسول الله ﷺ ، وهذه المظاهر أدلة ، هذه المظاهر إعلانات ، هذه المظاهر شعارات متبوعة بعمل ، وما أحلى الشعار إذا اتبع بعمل ، وما أرخص الحب إذا كان كلامًا ، وما أغلى الحب إذا دفعنا فيه الثمن ، ذمة ، عهدًا ، قوة ، نضالًا ، ذمامًا ، حراسة ، إيمانًا قويًا ، قوة في الدين ، محافظة على الكرامة محافظة على الوطن ، امتثالًا للخير ، مسارعة للخير ، سباقًا في طاعة الله ﷻ ، هذا هو برهان الحب ، يا أحباب الله ، يا أتباع خير نبي ، يا أمة خير زعيم ، إن الله ﷻ اشترط في الاتباع العمل ، إن الله ﷻ فينا العمل لنحقق الامتثال ونحقق الانتساب .

موقف موسى ﷺ مع قومه :

هناك في التاريخ القديم ، في الزمن الذي مضى بآلاف السنين قبل محمد ﷺ عبد قوم موسى العجل ، فجاء موسى فوجدهم عبدوا العجل فقال

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

لهم : ﴿ فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِكِكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٤] ، وأراد موسى أن يبرهن الله ﷻ أن قومه تابوا عن عبادة العجل ، فاختار من كل قبيلة رئيسها ، واختار سبعين رئيسًا من رؤساء القبائل ، وأخذهم إلى الجبل إلى محل المناجاة ، فوقف موسى يكلم ربه ، فاغتاظ السبعون رئيسًا ، وقالوا له : أنت تكلم نفسك من هذا؟ أرنا الله جهرة؟ من هو هذا الرب الذي تكلمه؟ هاته لنا أمامنا؟ لنعرف أنك رسول ، فأخذتهم الرجفة ، فماتوا ، فالتفت موسى فوجد القوم صرعى ، فأخذ موسى فقال : يارب إن هي إلا فتنتك ، وكل شيء بإرادتك ، وقال : واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ، فقال الله له : إن حسنتي ورضاي وفضلي سأكتبه للذين يتقون ، ﴿ وَأَخْنَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُوكَنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [١٥٥] وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٥-١٥٧] .

متابعة الموقف بالشرع والتحليل :

كل ذلك والقوم صرعى ، وموسى ﷺ في الموقف ينتظر ماذا يحدث لهم ، تصور معي ، لا تنس المنظر ، منظر مؤثر جدًا ، القوم صرعى ، ويقول

موسى : يارب ، اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ، إنا رجعنا إليك ، فيقول الله له بالجواب الشديد : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، تصور معي حال موسى في الموقف ، والقوم صرعى ، ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] المنظر لا زال مستمرا ، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، ولكن الله أحياهم له ، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] فبعثهم الله ورجع بهم موسى إلى قومه . ولكن في هذا الموقف يترك موسى حائرا ، وقومه صرعى ، ويبين لهم فضل محمد وأُمَّته ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

نداء ختامي:

يا أتباع خير نبي ، نوه الله بكم في التاريخ القديم ، وأعلى شأنكم في الزمن الماضي ، فحققوا مظاهر الإسلام وقواعده ، وليكن مظهرًا ومخبرًا ، وعملاً وإنتاجًا .

فهرس الموضوعات

المقدمة	٥
المحاضرة التاسعة عشرة بعد المائتين	٧
«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»	٧
نص الحديث الشريف في «الأربعين النووية»	٧
نص الحديث عند مسلم رَحِمَهُ اللهُ	٨
الفرق بين الحديث القدسي والنبوي والقرآن الكريم	٨
كلام المناوي والرد عليه	١٠
كلام العلماء عن الحديث	١٠
شرح الحديث سندًا	١١
أبو ذر الغفاري رَحِمَهُ اللهُ	١١
قصة إسلام أبي ذر رَحِمَهُ اللهُ	١١
ضيافة أبي ذر عند خاله	١١
إيقاع الحساد بينه وبين خاله	١١
خروج أبي ذر إلى مكة	١٢
عبادة أبي ذر قبل رؤيته للنبي ﷺ	١٢
إطعام أبي بكر له	١٣
أبو ذر رسول رسول الله إلى قومه	١٤
دخول غفار جميعها في الإسلام ببركة أبي ذر	١٤
أسلم حليفة غفار تدخل في الإسلام ببركة أبي ذر	١٤
تبشير النبي له بالجنة	١٥

فهرس الموضوعات

٣٦٣

- زهد أبي ذر رضي الله عنه ١٥
- أبو ذر الغفاري أمة وحده ١٥
- تأويل أبي ذر رضي الله عنه للآية ١٦
- أبو ذر أصدق الناس لهجة ١٦
- أبو ذر وكاء مليء علمًا ١٧
- رحيل أبي ذر إلى الشام ومواقفه مع معاوية رضي الله عنه ١٧
- مقام أبي ذر بالربذة حتى وفاته ١٧
- ما يستفاد من الترجمة ١٨
- عبارة : «فيما يرويه عن ربه» ١٩
- المقصود بالعباد في الحديث ١٩
- درجة العبودية من الدرجات ٢٠
- صفة العدل الإلهي في الحديث ٢٠
- دلالة هذه الطريقة في التعبير ٢١
- معنى الظلم ، وهل يوصف الله به ؟ ٢١
- إطلاق النفس على الله ، ودلالة ذلك ٢٢
- المعنى العام للعبارة الأولى في الحديث ٢٢
- اختلاف الروايات في قوله : «تظالموا» ٢٢
- بعض أنواع الظلم في الإسلام ٢٣
- ظلم الشرك بالله ٢٣
- ظلم المعاصي عمومًا ٢٤
- المعاصي الفردية ٢٥

- المعاصي الاجتماعية ٢٥
- أمر الله ﷻ بالعدل وحثه عليه ٢٥
- معنى العدل وفضله ٢٥
- الإمام العادل وما أعده الله له ٢٦
- تنفير النبي ﷺ من الظلم وأهله ٢٦
- الفقرة الثانية مترتبة على الأولى ٢٧
- المراد بالضلال في الحديث ٢٨
- معنى الضلال في آية سورة الضحى ٢٨
- وقوع التناقض الظاهري بين الشراح ٢٨
- رأي آخر في بيان هذه القضية ٢٩
- فلسفة الإسلام في قضية الفطرة ٣٠
- الفطرة تعني الميل لعبادة الله ٣١
- الفطرة تعني الاتصال بالجمال الإلهي ٣١
- عود إلى الحديث القدسي ٣٢
- هداية الله منوطة بطلبنا ٣٢
- الهداية تتحقق بالإسلام والامتثال له ٣٤
- معنى الفقرة الثالثة والرابعة من الحديث ٣٤
- نعمة الأكل والشرب واللباس ٣٥
- الدعاء إلى الهداية المعنوية في الصلاة عند المسلمين ٣٥
- الدعاء في صلاة النصارى!! ٣٥
- الفقرتان في الحديث ترشدان إلى النعم المادية ٣٦

فهرس الموضوعات

٣٦٥

- ٣٦ أمر الشريعة بالتوكل على الله الصحيح
- ٣٧ لا لتواكل الصوفية
- ٣٧ أهمية العمل في الإسلام
- ٣٨ كل عمل ابن آدم يُجزئ عليه
- ٣٨ فهم خاطئ للتوكل
- ٣٩ الجزاء على العمل محفوظ دنيا وآخرة
- ٤٠ درس عظيم من دروس الفاروق
- ٤٠ فرق بين مقالة الفاروق ومقالة الشيوعية
- ٤١ لماذا فعل عمر ذلك ؟
- ٤٢ طعامنا ، شرابنا ، كساؤنا ، محض فضل من الله
- ٤٢ استدلال خاطئ والرد عليه
- ٤٣ نفس المثال يدل على ضرورة العمل
- ٤٣ الفقرة الخامسة من الحديث
- ٤٤ المراد بالخطأ في العبارة
- ٤٤ دلالة ذكر الليل والنهار في هذه الفقرة
- ٤٥ الله غافر الذنب
- ٤٥ الاستغفار يحقق المغفرة
- ٤٦ أنواع المغفرة
- ٤٦ المغفرة التامة
- ٤٧ مغفرة التخفيف
- ٤٧ أمثلة على مغفرة التخفيف

- ٤٨ حرص النبي المعصوم على الاستغفار
- ٤٩ الله يغفر الذنب ولو تكرر مرارًا
- ٥٠ الولي أيضًا يخطئ ولكن..!
- ٥٠ انكسار العاصي خير من صولة المطيع
- ٥١ الفقرات التالية في الحديث
- ٥١ معنى الضر
- ٥١ الله عَزَّ وَجَلَّ غني عن العالمين
- ٥٢ الهدف من الطاعات
- ٥٢ الفقرة الأخيرة من الحديث
- ٥٢ دور الملائكة في إحصاء الأعمال
- ٥٣ جزاء الآخرة ثمرة لأعمال الدنيا
- ٥٣ الله عَزَّ وَجَلَّ أهل للحمد ، والنفس أهل للاتهام
- ٥٥ المحاضرة العشرون بعد المائتين
- ٥٥ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
- ٥٥ حديث أبي موسى عند البخاري
- ٥٥ الغرض من الحديث
- ٥٦ أثر ابن سيرين : عند مسلم
- ٥٦ الغرض من الأثر
- ٥٦ حديث «الموطأ»
- ٥٦ غرض الحديث
- ٥٧ مدخل للحديث عن أهمية الدين

فهرس الموضوعات

٣٦٧

- ٥٧ كلام الرافعي من وحي القلم
- ٥٨ الكلام عن النبي ﷺ وفضله
- ٥٨ النبي نموذج أخلاقي راقٍ للبشر
- ٥٩ النبي نموذج فريد لإصلاح المجتمع
- ٥٩ اجتماع الفضائل كلها في شخص محمد ﷺ
- ٦٠ الكلام عن الدين
- ٦٠ نظرة المسلم إلى الدنيا
- ٦٠ من أهم أغراض الشرع تحقيق سلامة النفس
- ٦١ انتشار الدين بأخلاقه سبب للسلام
- ٦١ بعض ما تضمنته الآية الكريمة
- ٦٢ المكي والمدني وأسباب النزول
- ٦٢ العلم بالمكي والمدني
- ٦٣ الخطاب المدني مبني على الخطاب المكي
- ٦٣ العلم بالمكي والمدني من أشرف العلوم
- ٦٣ الاختلاف في تقسيم المكي والمدني
- ٦٤ في ظلال سورة النور
- ٦٤ سورة النور سورة التربية والتزكية
- ٦٥ تحذير السورة من نكاح الزناة وحكمة ذلك
- ٦٥ ما يعتبر في الكفاءة في النكاح
- ٦٦ الإيمان وكرم الأخلاق من آثار نور الله في الكون
- ٦٧ كلام المفسرين في الآية

- ٦٩ الفرق بين الضياء والنور
- ٦٩ كلام ابن عطية
- ٧٠ سبب تمثيل هدى الله بالنور
- ٧١ وصف الصلاة بالنور والصبر بالضياء
- ٧١ تشبيه الاجتهاد بالضياء والتقليد بالنور
- ٧١ بعض مزايا الاجتهاد
- ٧٢ بعض مضار الجمود والتحجر
- ٧٢ الاجتهاد الجماعي هو الأحوط والأنسب لعصرنا
- ٧٣ شبهة والرد عليها
- ٧٣ سبب القول بانقطاع الاجتهاد
- ٧٤ حاجة الناس إلى نور العلم والإيمان
- ٧٥ أهل النور وأهل الظلام
- ٧٥ أهل العلم وأهل الجهل
- ٧٦ أصل اجتماعي إسلامي مهم
- ٧٦ حقيقة سريان النور في المخلوقات
- ٧٧ أسبقية القلب في إدراك حقيقة النور
- ٧٨ إدراك العلماء لطرف من هذا النور
- ٧٨ حقيقة العلاقة بين القرآن والمسائل العلمية
- ٧٩ علام يعود الضمير في «نوره»؟
- ٨٠ المراد بالنور في الآية!
- ٨٠ أحوال الناس مع النور يوم القيامة

- المثل في الآية الكريمة ٨١
- معنى المشكاة، والمصباح، والزجاجة ٨١
- قراءة «دريء» ٨٢
- زيت الزجاجة يخرج من شجرة مباركة ٨٢
- النور المعقول .. والنور المحسوس ٨٣
- مثل حسي لتقريب المعنى ٨٤
- المراد بالشجرة المباركة ٨٤
- الأسرار والمعاني في المثل ٨٥
- العلم والعمل هما مادة حياة القلب ٨٥
- مدار وضوح الإيمان على وضوح القلب وصفائه ٨٦
- رسالة عمر بن عبد العزيز إلى عامله ٨٧
- كيف يستكمل المسلم الإيمان؟ ٨٧
- مثل الإيمان مثل الشجرة الطيبة ٨٧
- الوصف بالبركة ورد في عدة مواضع ٨٨
- ليلة إنزال القرآن ٨٨
- وفي قصة موسى عليه السلام ٨٨
- أرض الأقصى وما حوله ٨٩
- البركة : معناها وشروطها ٨٩
- البركة من الله ٩٠
- أنواع الهداية ومعناها في الآية الكريمة ٩١
- معنى الهداية في الآية الكريمة ٩٢

- هداية الوجدان النفسي والإلهام الفطري ٩٢
- هداية الحواس والمشاعر ٩٣
- هداية العقل ٩٣
- هداية الدين وحاجة الإنسان إليها ٩٣
- ضرب الأمثال فيه إرشاد ونصح ٩٤
- المحاضرة الحادية والعشرون بعد المائتين ٩٦
- السمع والطاعة لله ولرسوله ٩٦
- القرآن خير شاغل في رمضان ٩٦
- اشتغال النبي ﷺ وبعده سلفنا الصالح بالقرآن ٩٦
- الوصية بكتاب الله والتخلق بأخلاقه ٩٧
- التخلق بأخلاق الله ٩٨
- أحاديث تدل على خلق الرحمة ٩٨
- بشرى لأهل القرآن ٩٩
- من هم أولو الألباب؟ ١٠٠
- صفات أولي الألباب ١٠١
- صفة الوفاء بالعهد ١٠١
- التحذير من خيانة العهد ١٠١
- حث القرآن على الوفاء بالعهد ١٠٢
- صفة الصبر ١٠٣
- أمر الله نبيه بالصبر ١٠٣
- بكاء النبي في الصلاة والصبر عليها ١٠٣

- ١٠٤ بكاءه ﷺ عند سماع القرآن
- ١٠٥ الرجوع إلى موضوع الدرس
- ١٠٥ الآية من سورة النور
- ١٠٥ الخلاف حول معنى النور في الآية
- ١٠٦ سبب التسمية
- ١٠٦ فضل إقامة الحد في الأمة
- ١٠٧ جلد الزاني غير المحصن ، ورجم المحصن
- ١٠٨ الأمر بتعليمها النساء
- ١٠٨ اللعان وشروطه
- ١٠٨ متى يجب اللعان؟
- ١٠٩ موانع الإرث
- ١١٠ ما ذكره البعض من ترك اللعان
- ١١٠ قضية الإفك وتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها
- ١١١ أحداث وأمور في قضية الإفك
- ١١٢ قضية الأشعرين
- ١١٣ قضية الاستئذان وآدابه
- ١١٣ قضية حمل الفتيات على البغاء
- ١١٣ الأمر بغض البصر
- ١١٤ الحث على تلاوة القرآن وحفظه
- ١١٥ السمع والطاعة لله والرسول
- ١١٥ سبب نزول الآية

- ١١٦..... القرآن العظيم هدى وشفاء
- ١١٨..... رقى النبي ﷺ
- ١١٨..... التصديق واليقين بالله طريق الشفاء
- ١١٩..... عود إلى سبب نزول الآية
- ١٢٠..... الاستفهام في الآية وغرضه
- ١٢٠..... أما المؤمنون فحاله غير ذلك
- ١٢١..... لماذا أفرد الضمير في «ليحكم»
- ١٢٢..... ما فرضه الله على المؤمنين إذا دعاهم
- ١٢٢..... معنى كلمة «الفائزين»
- ١٢٢..... القول في طاعة الأمير
- ١٢٣..... الحث على طاعة الأمير في المعروف
- ١٢٤..... هل البخاري مقلد أم مجتهد؟
- ١٢٥..... طاعة الوالدين في ترك صلاة الجماعة!
- ١٢٦..... الولاية العظمى وما يتفرع عنها
- ١٢٧..... حث الأمراء على العدل في الرعية
- ١٢٧..... وصية القرآن للأمراء بالعدل
- ١٢٨..... وصية السنة للأمراء بالعدل
- ١٣٠..... المحاضرة الثانية والعشرون بعد المائتين
- ١٣٠..... العدل إحدى ركائز الإسلام
- ١٣٠..... تمهيد
- ١٣٠..... تعريف العدل

- التعليق على التعريف ١٣٠
- فائدة لغوية ١٣١
- مادة العدل واشتقاقها ١٣١
- دلالة العدل على التسوية ١٣٢
- أقسام العدل ١٣٣
- الحض على العدل في الآيات المكية ١٣٤
- المقصود بالميزان في آية الرحمن ١٣٤
- عدل الإنسان مع قرنائه ١٣٥
- آيات تدل على العدل ١٣٥
- سبب نزول الآية الكريمة ١٣٥
- العبرة بعموم اللفظ ١٣٦
- ما يشمله لفظ الأمانات ١٣٦
- المنوط بالخطاب في الآية الكريمة ١٣٧
- أسلوب التأكيد في الآية ١٣٧
- دلالة إدراج كلمة العظة ١٣٧
- دلالة اسمى الله السميع والبصير في الآية ١٣٨
- العلاقة بين الآيتين ١٣٨
- من هم أولو الأمر؟ ١٣٩
- عند النزاع يرد الأمر إلى الله ورسوله ١٣٩
- نظير الآية الكريمة من القرآن ١٤٠
- المراد بالإحسان ١٤١

- ١٤١ إقامة العدل على النفس والأقربين
- ١٤٢ العدل يقرب من الله
- ١٤٢ أمر الأنبياء بالعدل أيضًا
- ١٤٣ تنديد القرآن بالظلم وأهله
- ١٤٣ نفي الله الظلم عن نفسه
- ١٤٤ اسم الله العدل
- ١٤٤ نكتة لغوية
- ١٤٥ الأدلة على عدل الله سبحانه وتعالى
- ١٤٥ لا عقاب قبل إقامة الحجة
- ١٤٥ لا عقاب قبل التكليف
- ١٤٦ انقسام الأحكام التكليفية وتنوعها
- ١٤٦ ارتباط التكليف بالأفعال والمقاصد
- ١٤٧ رفع الحرج عن غير المستطيع
- ١٤٨ التنديد بالمعسرين
- ١٤٨ موقف معاذ بن جبل
- ١٤٨ موقف الأعرابي المتبول في المسجد
- ١٤٨ النهي عن مواصلة القيام
- ١٤٩ النهي عن مواصلة السهر وعدم النوم
- ١٤٩ حديث الثلاثة رهط
- ١٥٠ تنديد الله في كتابه بالغلاة والمتطرفين
- ١٥٠ تشريعه سبحانه للرخص

فهرس الموضوعات

٣٧٥

- ١٥١ عدم مؤاخذه العباد بالخطيئة الأصلية
- ١٥١ الحسنات في الإسلام تذهب بالسيئات
- ١٥٢ فتح باب التوبة دون شرط أو قيد
- ١٥٢ الأشياء المسكوت عنها رحمة من الله بنا
- ١٥٣ اعتبار العقل وعدم إهماله
- ١٥٤ غلبة صيغة العموم على قواعد الشريعة
- ١٥٥ ترك التشريع في بعض الأمور رحمة
- ١٥٥ الإسلام دين الدنيا والآخرة
- ١٥٦ إرساء العدل سبب في إحسان العبادة
- ١٥٦ بقية الأمثلة على الرحمة في التشريع
- ١٥٧ المنكر لا يتغير إلا بمعروف
- ١٥٧ إيقاف حد السرقة في الجهاد والمجاعة
- ١٥٨ عدل الناس مرتبط بالله تعالى
- ١٥٨ خطبة عمر بن عبد العزيز رحمته الله
- ١٥٩ القانون في نظر الإسلام
- ١٥٩ معنى العدل في الإسلام
- ١٥٩ العدالة السياسية في الإسلام
- ١٦٠ المساواة أمام القضاء
- ١٦١ ضمان قواعد الإسلام لمبدأ الشورى
- ١٦٢ أهداف الشورى وغاياتها
- ١٦٣ المساواة بين العباد في الأفعال والعبادة

- المساواة في فرص العمل والتعليم ١٦٣
- المساواة في العلاج ١٦٤
- الجامعة الإسلامية لا تقيد بجنس ولا حدود ١٦٤
- للحرية في الإسلام شروط ١٦٥
- حرية العقيدة ١٦٥
- حرية العبادة ١٦٦
- الأمة لا تجتمع على ضلالة ١٦٧
- النصيحة لله ولرسوله وللأئمة ١٦٧
- ضمان حرية المسكن ١٦٧
- حرية التظلم والشكوى ١٦٨
- حرية التملك بشرط النفع والانتفاع ١٦٨
- تقسيم الإسلام للميراث ١٦٩
- المساواة بين الرجل والمرأة ١٧٠
- العدالة الاجتماعية في الإسلام ١٧١
- إيجاب نفقة المرأة على الرجل ١٧١
- الوصية بالأقارب وذوي الأرحام ١٧٢
- مراعاة اليتيم والرفق به ١٧٢
- التعاون والتعاطف بين جميع أفراد المجتمع ١٧٢
- المحاضرة الثالثة والعشرون بعد المائتين ١٧٤
- طاعة الولاية في المعروف ١٧٤
- الأمر بالطاعة من تكريم الله للإنسان ١٧٤

فهرس الموضوعات

٣٧٧

- طاعة أولى الأمر توفر الأمن في المجتمع ١٧٥
- طاعة الأمير من طاعة الرسول ﷺ ١٧٥
- السلامة في الطاعة والشر في الفرقة ١٧٦
- السلامة في طاعة الأمراء ولو كانوا جائرين ١٧٦
- مخالفة الأمير للشرع ومعصيته لا تنفي طاعته ١٧٦
- ضرر الفرقة وعدم الاجتماع ١٧٧
- الصبر على الولاية أهون من الفرقة ١٧٨
- فضل الله على العرب وجمعهم بعد الفرقة ١٧٨
- موقف الصحابة من الصديق وحروب الردة ١٧٩
- موقف الصحابة من تجهيز جيش أسامة ١٧٩
- عزة الأمة في الترابط ١٨٠
- عصيان الولاية أدنى إلى التخاذل والذلة ١٨٠
- لا تحل المعصية إلا عند الكفر البواح ١٨٠
- جلب المصالح ودفع المفاسد من قوام الشرع ١٨١
- الوالي ليس حرًا فيما يفعل ١٨١
- دعاء النبي ﷺ على الولاية الظلمة ١٨٢
- شر الرعاء الحطمة ١٨٢
- كل راع مسئول عن رعيته أمام الله ١٨٣
- أكبر الغدر غدر الإمام برعيته ١٨٤
- ما الأمر إذا جار الولاية؟ ١٨٤
- صاحب الولاية الحقة يأمر بطاعة الولاية ١٨٥

- الإنكار على الولاية وأجر ذلك ١٨٥
- حكم النصيحة لولاية الأمر وكيف تكون؟ ١٨٦
- النصيحة للولاية وعدم التشهير بهم ١٨٧
- بعض حسنات الولاية ١٨٨
- أهمية الوحدة وخطر الاختلاف على الأمة ١٨٨
- سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بلاء ١٨٨
- حث النبي على الصبر على ولاية الجور ١٩٠
- علماء الأمة لا يقرون الخروج على الولاية ١٩٠
- خطر الفرقة الداخلية على الصف الإسلامي ١٩١
- تشعب الموضوع وبيان المقصود منه ١٩١
- بعض مهام الوالي تجاه رعيته ١٩٢
- خاتمة ودعاء ١٩٢
- الدعاء للولاية خصوصًا ١٩٣
- المحاضرة الرابعة والعشرون بعد المائتين ١٩٤
- شرح سورة الفاتحة ١٩٤
- تمهيد ١٩٤
- أمور قامت عليها شريعة الإسلام ١٩٤
- وسطية الشريعة الإسلامية ١٩٥
- سورة الفاتحة مجمع للأنوار الإلهية ١٩٥
- فضائل سورة الفاتحة في السنة ١٩٦
- حديث أبي هريرة ١٩٦

فهرس الموضوعات

٣٧٩

- ١٩٦ فضلها في القرآن
- ١٩٧ حديث أبي سعيد بن أبي المعلى
- ١٩٧ نوع الواو في قوله : «والقرآن العظيم»
- ١٩٨ الواو عاطفة
- ١٩٨ أرجح الآراء في نوع الواو
- ١٩٨ ما حقيقة التعظيم والتمجيد لسورة الفاتحة؟
- ١٩٩ الفاتحة عنوان لكتاب الله ﷻ
- ١٩٩ الكلام عن الاستعاذة
- ١٩٩ الاستعاذة تخلص من سلطان الشيطان
- ٢٠٠ الشياطين نوعان : إنسي وجني
- ٢٠٠ مواطن أمرنا فيها بالاستعاذة
- ٢٠٠ الكلام عن البسملة
- ٢٠١ هل البسملة من القرآن
- ٢٠١ أسرار البسملة
- ٢٠٢ الهدف من البسملة وشرحها
- ٢٠٣ معنى **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**
- ٢٠٣ الأسماء الحسنی في البسملة
- ٢٠٣ البسملة شعار المسلمين ودلالة ذلك
- ٢٠٤ سورة الفاتحة مكية أم مدنية؟
- ٢٠٥ الخلاف حول عدد آياتها
- ٢٠٥ الفرق بين الحمد والشكر

- معنى : الرب في قوله «رب العالمين :» ٢٠٥
- ما يندرج تحت الحمد من الآيات والصور ٢٠٦
- الأولى سورة الأنعام ٢٠٦
- الثانية : سورة الكهف ٢٠٦
- الثالثة : سورة فاطر ٢٠٧
- الرابعة : سورة سبأ ٢٠٨
- علاقة الحمد لله رب العالمين بالصور الأربعة ٢٠٨
- قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٠٨
- العلاقة بين «رب العالمين» و«الرحمن الرحيم» ٢٠٩
- أثر : السلطان ظل الله في أرضه ٢٠٩
- إشفاق الصديق عليه السلام وبكاؤه ٢١٠
- الإنسان مخلوق ضعيف ٢١١
- نكتة مهمة ٢١١
- دلالة إتباع «الرحمن الرحيم» لـ «رب العالمين» ٢١٢
- الحدود في الإسلام كفارات ٢١٢
- «يوم الدين» وبعض مشاهده ٢١٢
- التهيئة لقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ فَسْتَعِينُ﴾ ٢١٤
- أسلوب الالتفات في الآية ٢١٤
- الكلام العبادة والاستعانة ٢١٥
- أنواع العبادة ٢١٥
- العبادة العامة ٢١٦

- أقسام الناس في الإخلاص ٢١٦
- شعر في الرياء لأبي العلاء ٢١٨
- فائدة عن المعري ٢١٨
- غاية العبادة ٢١٩
- الفرق الثلاثة في سورة الفاتحة ٢٢٠
- حديث القرآن عن الطوائف الثلاث ٢٢١
- سورة المؤمنون ٢٢١
- سورة الواقعة ٢٢١
- سورة الإنسان ٢٢٢
- حال المؤمن مع الفاتحة في الصلاة ٢٢٢
- المحاضرة الخامسة والعشرون بعد المائتين ٢٢٤
- فضل الجهاد والسير ٢٢٤
- تمهيد ٢٢٤
- الطبيعة الفردية والمدنية في الخلقة الإنسانية ٢٢٤
- كيف نرفع التنافر بين الشخصيتين؟ ٢٢٥
- أهمية التقوى في توجيه الشخصيتين ٢٢٥
- التربية الفردية والتربية الاجتماعية ٢٢٦
- دعائم قيام المجتمع الإسلامي ٢٢٧
- صفات الأمة الملتزمة والمترابطة ٢٢٧
- وسائل للحفاظ على نظام الأمة وكيانها ٢٢٨
- تشريع الجهاد وأحكامه ٢٢٩

- ٢٢٩ علة اختصاص الجهاد ببعض الأحكام دون غيره
- ٢٣٠ باب الجهاد والسير عند البخاري
- ٢٣١ معنى كلمة «السير» وضبطها
- ٢٣٢ ابتداء البخاري للكتاب بآية كريمة
- ٢٣٢ طريقة البخاري في كتاب الجهاد والسير
- ٢٣٣ علاقة الآية بما يليها من تراجم
- ٢٣٤ مزايا الجهاد في الأحاديث الأربعة
- ٢٣٥ مزايا الجهاد في الحديث الثالث
- ٢٣٥ مزايا الجهاد في الحديث الرابع
- ٢٣٥ الخلاصة من المعاني السابقة
- ٢٣٦ دلالة الآية الكريمة على فريضة الجهاد
- ٢٣٦ ارتباط الآية الكريمة بسوابقها ولواحقها
- ٢٣٧ آيات القتال في سورة الأنفال
- ٢٣٧ عتاب الله للمثاقلين عن الجهاد
- ٢٣٨ أثر هذا العتاب على المنافقين وحالهم
- ٢٣٨ حال الرسول والمؤمنين معه
- ٢٣٨ قد تتشابه الأعمال ظاهراً ولكن
- ٢٣٩ أصناف الناس حول الدعوة الإسلامية
- ٢٤٠ موانع إعمال الفطرة السليمة
- ٢٤٠ حال المؤمن بعد انتفاء الموانع
- ٢٤٠ سلوك النظر الإيماني

فهرس الموضوعات

٣٨٣

- ٢٤١ تساوي المظهر الحسي والمظهر الغيبي
- ٢٤١ تجلي سلوك الهدئ واختفاء سلوك الجحود
- ٢٤٢ دلالة التعبير بالشراء في الآية
- ٢٤٣ الاستئناف البياني الثاني في الآية
- ٢٤٣ القراءات في قوله ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾
- ٢٤٤ دلالة تقدم هذه الآية على ما بعدها
- ٢٤٤ مؤكدات العهد بالقتال في الآية الكريمة
- ٢٤٥ تفريع الاستبشار وتقريره على صورة الالتفات
- ٢٤٦ بعض الخصال المتفرعة على ما سبق ذكره
- ٢٤٦ بيان الآية لثلاثة أصول نفسية
- ٢٤٧ الأصول العملية الثلاثة في الآية
- ٢٤٧ الصفة السابعة صفة شاملة في الآية
- ٢٤٨ تذييل الآية ببشرى المؤمنين
- ٢٤٩ المحاضرة السادسة والعشرون بعد المائتين
- ٢٤٩ مصادر الشريعة من الكتاب والسنة
- ٢٤٩ نبذة تاريخية قبل بعثة النبي ﷺ
- ٢٥٠ ظهور النور المحمدي في الجزيرة العربية
- ٢٥٠ اختيار مكة من الجزيرة لخروج النور المحمدي
- ٢٥١ اختيار قريش من مكة لخروج النبي ﷺ
- ٢٥١ الهجرة إلى المدينة المنورة
- ٢٥٢ قيام الدولة الإسلامية في المدينة

- ٢٥٣ نزول القرآن منجمًا حسب الأحداث
- ٢٥٣ مبادئ العقيدة وأسسها
- ٢٥٤ الشريعة مرآة للعقيدة
- ٢٥٤ حال النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة
- ٢٥٤ ظهور السنة إلى جانب القرآن
- ٢٥٥ تكليف النبي ﷺ بمهمتين
- ٢٥٥ السنة النبوية مفسرة للكتاب
- ٢٥٦ قيام الشريعة على القرآن والسنة
- ٢٥٧ كيف نفهم القرآن الكريم؟
- ٢٥٧ معرفة اللغة العربية
- ٢٥٧ إعجاز القرآن لا ينافي تيسيره
- ٢٥٨ نزول القرآن بلغة العرب
- ٢٥٩ كثير من الشبه سببها لجهل باللغة
- ٢٦٠ معرفة عادات العرب
- ٢٦٠ معرفة أسباب النزول
- ٢٦١ معرفة المكي والمدني
- ٢٦٢ تعدد علوم القرآن وتعدد فنونه
- ٢٦٣ قضية التشريع في القرآن الكريم
- ٢٦٣ نوع الأحكام في القرآن الكريم
- ٢٦٤ وجود بعض التشريعات الجزئية لحكمة معينة
- ٢٦٥ كل أبواب الشريعة أصلها بالكتاب أو السنة

فهرس الموضوعات

٣٨٥

- استنباط علي عليه السلام ٢٦٦
- الإمام مالك رحمته الله ٢٦٦
- الإمام ابن العربي رحمته الله ٢٦٧
- منذر القاضي ٢٦٧
- فطنة أعداء الدين إلى خطورة القرآن ٢٦٧
- استخدام حملات التشويه والتضليل ٢٦٨
- ترجمة القرآن ٢٦٨
- ترجمة كتب العرب ٢٦٩
- مهمة البيان وبعض ما يتعلق بها ٢٧٠
- كيف يكون بيان القرآن؟ ٢٧٠
- ظهور طائفة القرآنيين ومهملي السنة ٢٧١
- تأليف «الرسالة» وبيان حجية السنة ٢٧٢
- اللجنة الأولى في علم نقد الحديث النبوي ٢٧٣
- جهود رجال السنة في حفظها ٢٧٣
- الإمام أبو محمد الدارمي ٢٧٤
- البخاري ومسلم ٢٧٤
- أصحاب السنن الأربعة والبخاري ٢٧٤
- أبو يعلى وابن الجارود والطبراني ٢٧٥
- الحاكم والبيهقي ٢٧٥
- استقرار السنة كمصدر من مصادر التشريع ٢٧٥
- كل ما في السنة له أصل قرآني ٢٧٦

- ٢٧٧ نكتة في هذا الباب
- ٢٧٨ إطلاقات السنة النبوية
- ٢٧٨ السنة لغة الطريقة المعتادة
- ٢٧٨ السنة في الشرع
- ٢٧٨ السنة بالنسبة للقرآن
- ٢٧٩ السنة مؤكدة للقرآن
- ٢٧٩ السنة مفسرة ومفصلة للقرآن
- ٢٧٩ السنة المنشئة لحكم جديد
- ٢٨٠ تعريف السنة عند العلماء
- ٢٨٠ تعريفات القدامى
- ٢٨٠ تعريفات المحدثين
- ٢٨١ صفة السنة التي تقترن بالقرآن
- ٢٨٢ سيرة الرسول العملية وأثرها على وحدة الأمة
- ٢٨٢ مالك رَحِمَهُ اللهُ وتسمية كتابه بـ «الموطأ»
- ٢٨٣ اعتبار الشرع لسنة أصحاب النبي ﷺ وفهمهم لماذا؟
- ٢٨٣ تعضيد الاجتهادات بآراء الصحابة وأقوالهم
- ٢٨٤ كلمة لخامس الخلفاء الراشدين
- ٢٨٤ معنى كلمة الحديث وأقسامه
- ٢٨٦ المحاضرة السابعة والعشرون بعد المائتين
- ٢٨٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾
- ٢٨٦ مقدمة

- ٢٨٦ موضوع المحاضرة
- ٢٨٧ السورة وبعض المواقف المعادية للنبي ﷺ ودعوته
- ٢٨٧ حديث جابر رضي الله عنه في سبب نزول السورة
- ٢٨٩ موقف عتبة بن ربيعة
- ٢٨٩ موقف النضر بن الحارث وبعض الشعراء
- ٢٩٠ موقف أبي لهب
- ٢٩٠ موقف أهل الطائف
- ٢٩٠ موقف أبي جهل
- ٢٩١ إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما
- ٢٩١ موقف قريش وأبي طالب مع النبي ﷺ
- ٢٩٢ كلمة النبي ﷺ وأثرها في نفوس أصحابه
- ٢٩٤ حديث أنس رضي الله عنه
- ٢٩٤ حديث السبعين ألف
- ٢٩٥ رد المشركين على النبي ﷺ كما حكى السورة
- ٢٩٥ بين يدي سبب نزول الآية
- ٢٩٥ نبذة عن ابن عباس رضي الله عنهما
- ٢٩٦ ما جاء في تفسير الآية الكريمة
- ٢٩٦ نبذة عن الصديق رضي الله عنه
- ٢٩٧ نبذة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ٢٩٨ روايات أخرى في تفسير الآية الكريمة
- ٢٩٨ تفسير الصديق للآية

- دليل الصديق على هذا التفسير ٢٩٩
- دليل آخر عن عمر ٢٩٩
- دليل عن الحسن بن علي ٣٠٠
- نبذة عن فضائل الحسن والحسين ٣٠٠
- نبذة عن فضائل الزهراء عليها السلام ٣٠١
- تفسير الحسن للآية ٣٠٢
- تفسير قتادة بن دعامة ٣٠٢
- الكلام في تفسير الآية الكريمة ٣٠٢
- الكلام عن الحمد في «الفاحة» ٣٠٣
- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ٣٠٤
- ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٣٠٤
- معنى الاستقامة في آية «فصلت» ٣٠٥
- كيف نطبق معنى الاستقامة عملياً ٣٠٦
- أثر أبي هريرة رضي الله عنه ٣٠٧
- معنى «تنزل» ودلالاتها في الآية الكريمة ٣٠٧
- رأى آخر يتعلق بتنزل الملائكة ٣٠٨
- المراد بالخوف والحزن في الآية ٣٠٩
- حديث أبي هريرة في ذكر سوق الجنة ٣١٠
- حديث سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه في رؤية الله ٣١٠
- حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤية الله تعالى ٣١١
- إضافة للشيخ المراغي في فهم الآية ٣١٢

فهرس الموضوعات

٣٨٩

- ٣١٢ قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾
- ٣١٣ قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾
- ٣١٣ إجراء لفظ الادعاء على حقيقته
- ٣١٤ معنى النزول في الآية الكريمة
- ٣١٤ حب الله ﷻ لمن يسأله ويلج عليه
- ٣١٥ بعض صفات النبي الكريم ﷺ
- ٣١٥ فضل التأذين
- ٣١٦ الآية نزلت في النبي محمد ﷺ
- ٣١٧ محمد ﷺ أفضل من دعا إلى الله
- ٣١٨ الاسترسال في عد فضائله ﷺ
- ٣١٩ إشارات مضيئة في حياة الداعية
- ٣١٩ معنى الإسلام في الآية وضوابطه
- ٣٢٠ طرف من فضل العلم وأهله
- ٣٢١ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾
- ٣٢٢ دعوة الآية إلى مكارم الأخلاق
- ٣٢٣ عتاب الله لنبيه ﷺ
- ٣٢٣ عتابه في ابن أم مكتوم
- ٣٢٤ حديث فاطمة بنت قيس واعتدادها عند ابن أم مكتوم
- ٣٢٥ حث الآية على الصبر وعدم الغضب
- ٣٢٦ دعوة النبي ﷺ إلى الصفح والعفو
- ٣٢٦ فضل الصبر وجزاء الصابرين

- المحاضرة الثامنة والعشرون بعد المائتين ٣٢٨
- مظاهر الحب لرسول الله ﷺ ٣٢٨
- تبيد ٣٢٨
- من دواعي حبه ﷺ حزنه لمشقتنا وتألمه لآلامنا ٣٢٩
- كيف يمكننا تحية رسول الله بعد موته ٣٢٩
- رحمة النبي ﷺ بأمته ٣٢٩
- إدخار النبي ﷺ دعوته شفاعاً لأمته ٣٣٠
- صور مضيئة في حب النبي ﷺ ٣٣١
- مظاهر حب النبي ﷺ ٣٣٥
- حقيقة صفاء النفس كمظهر لمحبة النبي ﷺ ٣٣٥
- المظهر الثاني : حسن الخلق ٣٣٧
- حقيقة حسن الخلق كمظهر لمحبه ﷺ ٣٣٧
- حقيقة التفاني ونكران الذات كمظهر للمحبة ٣٣٩
- عاقبة الرياسات وحب الظهور ٣٤٠
- عاقبة التفاني ونكران الذات ٣٤٠
- يا حسرتاه على حب زائف زائل ٣٤١
- المظاهر الرابع : تقوى الله ﷻ ٣٤٢
- حقيقة التقوى كمظهر لمحبة النبي ﷺ ٣٤٢
- المظهر الخامس : كثرة السجود ٣٤٣
- حقيقة كثرة السجود كمظهر لمحبة النبي ﷺ ٣٤٣
- المظهر السادس : صدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الجوار ٣٤٤

فهرس الموضوعات

٣٩١

- ٣٤٤ حقيقة الصدق كمظهر لمحبة النبي ﷺ
- ٣٤٥ أداء الأمانة كمظهر لمحبة ﷺ
- ٣٤٥ إحسان الجوار كمظهر لمحبة ﷺ
- ٣٤٦ المظهر السابع : الجمع بين الدين والدنيا
- ٣٤٦ المظهر الثامن : إكرام اليتيم
- ٣٤٧ المظهر التاسع : تمني رؤيته ﷺ
- ٣٤٧ ظاهرة عجيبة في أهل مصر
- ٣٤٧ المظهر العاشر : الطاعة والامثال
- ٣٤٨ أمثلة على الامثال والطاعة
- ٣٤٨ مثال آخر
- ٣٤٩ حال المنافق عصيان الأمر وعدم امثاله
- ٣٥٠ حال المؤمن طاعة الأمر وامثاله
- ٣٥١ المظهر الحادي عشر : قضاء حوائج الناس
- ٣٥١ حقيقة السعي في حوائج الناس كمظهر لمحبة ﷺ
- ٣٥٢ اقتران محبة الرسول بمحبة الله ﷻ
- ٣٥٣ المظهر الثاني عشر : إتقان العمل
- ٣٥٤ المظهر الثالث عشر : إغاثة الملهوف
- ٣٥٤ المظهر الرابع عشر : العدل بين الأولاد
- ٣٥٤ المظهر الخامس عشر : جمال النفس والمظهر
- ٣٥٥ المظهر السادس عشر : الرفق في الأمر كله
- ٣٥٥ المظهر السابع عشر : السهولة وطلاقة الوجه

المظهر الثامن عشر : السماحة والطيبة والكرم والنظافة	٣٥٦
المظهر التاسع عشر : الاحتراف لتحصيل الرزق	٣٥٦
المظهر العشرون : التقوى الخفية	٣٥٧
المظهر الحادي والعشرون : التعفف	٣٥٧
المظهر الثاني والعشرون : الحب في الله	٣٥٨
دليل آخر لهذا المظهر	٣٥٨
فائدة المظاهر السابقة في تحقيق محبة النبي ﷺ	٣٥٩
موقف موسى ﷺ مع قومه	٣٥٩
متابعة الموقف بالشرع والتحليل	٣٦٠
نداء ختامي	٣٦١
فهرس الموضوعات	٣٦٢



نور هة القراءة و السنة



أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام لجمعية فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو أمانة الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجزء الخامس عشر

المحاضرة التاسعة والعشرون بعد المائتين

كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به

التمهيد:

انطلاقاً من الحديث الشريف :

قال الشيخ الإمام ، الحافظ الهمام ، أمير المؤمنين في الحديث ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي رَحِمَهُ اللهُ ، باب هل يقول إني صائم إذا شتم :

حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج قال : أخبرني عطاء عن أبي صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله ﷻ : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جنة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم . والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح ، وإذا لقي ربه فرح بصومه » .

شرح الحديث الشريف:

هذا حديث عظيم يرويه شيخ المحدثين الإمام الحجة ، آية الدنيا ، وعلامة الزمان ، يرويه عن شيخ الحفاظ من صحابة رسول الله ﷺ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، الذي كان أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حفظاً وإتقاناً ببركة دعوة الرسول ﷺ له ، لما اشتكى أنه ينسى . فقال : « أبسط رداءك » . فبسطه ،

ثم قال : « اجمعه » ، فجمعه . فما نسي حديثا بعد ذلك ، رضي الله عنه وأرضاه ، ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين أدوا أمانة الله ، وبلغوا لنا رسالات الله ، عن خاتم النبيين ، وإمام المرسلين المبعوث رحمة لدنيانا وأخرانا ﷺ ، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين .

هذا حديث عظيم يجمع لطائف لا تكفيها محاضرة واحدة ، ولكن يحتاج إلى محاضرات كثيرة ، ولكننا نكتفي الآن باللطيفة الأولى منها بالفضيلة الأولى ، ولنا بعد ذلك عودة إن شاء الله بعد بيان الحديث القدسي ، والحديث النبوي .

لهذا الحديث شطران :

أول لطيفة من لطائف هذا الحديث العظيم أن صدره رواه النبي ﷺ عن ربه ، وهذا هو المراد بالحديث القدسي . إذ نسبه إلى الله تعالى فقال : قال الله تعالى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » .

الشرط الأول : الطرف القدسي :

هذا الشرط الأول نسبه رسول الله ﷺ إلى ربه ﷻ فكان حديثاً قدسياً منسوب إلى القدس .

والقدس : الطهر ، والنزاهة من النقص ، ومنه القدوس ، المنزه عن كل نقص وعيب .

فالحديث القدسي منزّه عن النقص ، منزّه عن اللغو ، منزّه عن الهذر ، منزّه عن الفحش ، وكذلك الحديث النبوي إلا أنه ﷺ أثر أن يقدم حديث ربه على حديثه أدبا وفضلا وتعلّيا وتهذيبا فصلوات الله وسلامه عليه ، أدبنا وعلمنا وزكّانا وربّانا فجزاه الله عنا أحسن ما يجزي نبيا عن أمته .

الشطر الثاني : ومعنى كلمة «جنة» :

الشطر الثاني : قوله صلوات الله وسلامه عليه : «والصيام جنة» ، أي : وقاية من الشيطان ووساوسه ومن الضرر في الدين والدنيا ، ومن التهمة . ومادة الجنة تدل على الستر الاكتنان والحماية .

فالجزء الثاني : «والصيام جنة» ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث : لا يفحش ، «ولا يصخب» : لا يضح ، «فإن سابه أحد أو قاتله» : تهيأ لقتاله وخصامه ، «فليقل : إني امرؤ صائم» : بلسانه أو بقلبه أو بهما معا وهو الأكمل .

قسمُ النبي ﷺ ودلالته :

«والذي نفس محمد بيده» : قسم جميل حبيب إلى النبي ﷺ «نفس محمد بيده» كلها بيد الله سبحانه وتعالى في كل وقت وفي كل لحظة «والذي نفس...» ويحلف ليؤكد فليس الحلف لشك ولا لريبة ولكنه للتأكيد والطمأنينة ، وما أحوج النفوس القلقة إلى الطمأنينة ، ولو كانت من سيد الأمانئ وسيد الأتقياء صلوات الله وسلامه عليه ، وله في جده إبراهيم الخليل أسوة حسنة ، إذ قال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِن لِّيُطْمِئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ [البقرة : ٢٦٠] . فهو ﷺ مطمئن القلب ، هادئ النفس ، ولكنه يريد أن يطمئن أمته ، ويريد أن يبين لهم أن

خلوف ، أي : تغير رائحة فم الصائم الذي يتضايق منه كثيرًا ، ويخشى أن يقترب من أحد ، هذا الخلوف أطيب عند الله من ريح المسك ، والرسول عليه الصلاة والسلام كان يكره الروائح الكريهة ، فما كان يأكل البصل ، ولكنه أجازه لغيره . وقد امتنع بعض أصحابه ﷺ وقال : أحرام هو يا رسول الله ؟ أو كما قال . فقال : « لا ، ولكني أناجي من لا تناجي » .

«أطيب عند الله من ريح المسك» : قربا ورضى وطمأنينة ، فكأنه ﷺ - والله المثل الأعلى - يقول : إذا كان الله سبحانه وتعالى يحب أن يقترب من عبده ، أو يحب أن يقترب عبده منه فليصم ، لأن هذا الصيام بتغير ريح الفم يقرب العبد من ربه كما يحب العبد - والله المثل الأعلى - أن يقترب من العبد الذي يتعطر بالمسك ، ويتطيب بالريح الطيبة .

«والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح» : إذا أفطر في آخر الشهر ، أو أفطر كل يوم في المغرب فنحن فرحون بحمد الله فله صمنا ، وعلى رزقه أفطرننا .

فالفرح عام شامل في شهر الصيام ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] . ويزداد الفرح عند نهاية شهر رمضان ، وعند لقاء الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر . بعد عمر طويل ، في عمل صالح جزيل ، وفي أعمال طيبة متقبلة بإذن الله رب العالمين .

لطائف الحديث الشريف :

هذا الحديث لسنا في مقام شرحه ، وإنما هي كلمات دعت إليها الضرورة حتى نأتس بالحديث فلا نتركه عاريا دون كلمات تبين مرماه ومقصده .

جمع بين رواية نبوية ورواية قدسية:

اللطيفة الأولى في هذا الحديث جمعه بين روايتين رواية قدسية عن الملك القدوس العزيز الحكيم ، ورواية نبوية ، فكان بين الحديث القدسي والحديث النبوي ، وهذا هو الشطر الأول من موضوع المحاضرة بين الحديث القدسي والحديث النبوي .

فمن لطائف هذا الحديث أنه جمع بين الرواية عن الله ﷻ ، والرواية عن رسول الله ﷺ حيث لم ينسبها إلى الله تعالى ؛ لأنه نسب إلى الله تعالى : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» . سطر من خمسة من الحديث ، الأربعة أخماس الثانية لم ينسبها إلى الله تعالى فكانت حديثاً نبوياً خالصاً يشرح به البشارة ، بشارة من ربه يشرحها في آداب الصوم ، وفي فضل الصوم ، وفيما ينبغي أن يتحلل به الصائمون المخلصون الذين يحبون أن يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا .

بشرنا النبي ﷺ بهذه البشارة وبين لنا ما ينبغي أن نقابلها به من الأدب والفضل وحسن المعاملة مع الخالق والمخلوق ، مع الصائمين ، ومع رب الصائمين ، رب العالمين رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم .

الفرق بين الحديث القدسي والنبوي:

هذا الشطر الأول ، أو النصف الأول من موضوع المحاضرة بين الحديث القدسي والحديث النبوي يتطلب منا بياناً واضحاً موجزاً عما هو الحديث القدسي والحديث النبوي .

كل ما ينطق الرسول ﷺ الصادق المصدوق ، الأمين المأمون ، لا شك في ذلك أبداً ، من شك في ذلك فقد خرج من رتبة الإسلام ، وقد خرج من

أمة محمد ﷺ الأمين المأمون المبلغ عن ربه ﷺ فكل ما بلغنا ، وكل ما نطق به فهو صادق فيه مصدق ، وهو عن الله تعالى . كيف ذلك؟ إذن يكون كل حديث يقوله الرسول ﷺ إذن يكون عن الله ويصح أن نسميه حديثاً قدسياً أو ربانياً ما دام هو عن الله ﷻ . لا ، المسألة تحتاج لشيء من الإيضاح الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى مصداق قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم : ١-٣] ، فهو لا ينطق عن الهوى ، ولا يتكلم إلا حقاً وإلا صدقاً ، سواء نطق بالقرآن الكريم أو بغير القرآن الكريم . لكن كلامه ﷺ له مقامات .

معنى كلمة «حديث» في اللغة :

الحديث قبل أن ندخل في الموضوع الحديث عبارة - في اللغة - عن الكلام ، أهل اللغة وأهل العربية يقولون إنه اسم مصدر من حدث ، لأن حدث تحديثاً ، المصدر ، حدث تحديثاً فهو محدث تكلم تكليماً فهو مكلم ، فالتحديث كالتكليم ، وزناً ومعنى .

لكن العرب لهم لطائف حينما يختصرون المصدر للتخفيف يقولون على المخفف إنه اسم مصدر . فالحديث بمعنى التحديث ، لكن لما خالف الصيغة تخفيفاً ، وكان بمعناها قالوا : إنه اسم مصدر ، وخففناه لأجل التيسير والتسهيل . ومن ذلك الكلام بمعنى التكليم ، فلك أن تقول : الكلام اسم مصدر من التكليم ، والتكليم هو المصدر الحقيقي هو المصدر الأصلي ، ولك أن تقول كقولك عطاؤنا ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ [ص : ٣٩] . العطاء اسم من الإعطاء ، العون أعاننا الله جميعاً على الخير ، العون أعانك الله عوناً ، المصدر الأصلي أعانه إعانة إنما أعانه عوناً اسم مصدر ، أعني كلمة مخففة عن المصادر فيها معنى المصدر ، ولكن نقصت عن حروف المصدر تخفيفاً .

الحديث في الاصطلاح:

الحديث في اللغة ضد السكوت هذا في اللغة وأما في اصطلاح علماء الحديث بالنسبة للنبي ﷺ، فالحديث كل ما تكلم به النبي ﷺ، أو فعله أو قرره، وافق عليه، يعني أو كان صفة من أوصافه ﷺ فقوله ﷺ: «الصيام جنة»، حديث فعله ﷺ بأنه كان يأكل الحلوى^(١)، وكان لا يأكل ما تعافه نفسه، حديث قدم إليه الضب فلم يأكله، ذوق، مكانة، مكارم، فضل، علم هدي، نور، «فقالوا يا رسول الله: أحرام هو؟ قال: لا، ولكني لم أجده في بلدي فأجدي أعافه» فتعافه نفسي، أو كما قال^(٢)، هذا حديث.

وصفه ﷺ الذي وصفه به أصحابه أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وأنه كان ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان خير الناس لأهله، كما قال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^(٣). حديث، فكل كلامه ﷺ كل أفعاله ﷺ وكل موافقاته على ما رآه حديث؛ لأنه لا يوافق على هوى - معصوم - ولا يوافق على باطل ولا يسكت على حق أبداً، فكل هذا حديث فهل هذا مراد هنا؟ لا.

الحديث المنوط به الكلام:

المراد هنا من الحديث نوع واحد فقط وهو الحديث القولي لمقابلته بالحديث القدسي لأننا لا نتكلم في أفعال الله ﷻ، ولا نتكلم في شئون الله ﷻ. إنما

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن

غريب صحيح.

نقابل الحديث القدسي بالحديث النبوي ، فنقابل قولاً بقول ، وحديثاً بحديث ، وكلاماً بكلام ، إذن خلصنا من هذا عل أن المراد بالحديث في هذا المقام القول فقط . فبين الحديث القدسي يعني : بين الكلام القدسي . وإن شئتم فقولوا الرباني ، وإن شئتم فقولوا الإلهي ، كل جائز ، وكله مصرح به وبين الحديث النبوي . ماذا بينهما من الفرق والإيضاح؟

ما يبلغه النبي ﷺ على أنواع:

الرسول ﷺ كما قدمنا لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول إلا عن ربه ، لكن هناك أشياء يقولها بنصها ، وأشياء يقولها بمعناها عن ربه ، وأشياء يقولها من عند نفسه وهي من عند ربه بالمعنى العام ؛ لأنه مبلغ عن الله ، والله سبحانه وتعالى أرسله إلى أمته إلى العالمين جميعاً إلى يوم الدين . فكل ما جاء به فهو عن الله ﷻ بالمعنى العام أولاً ، وذلك كما يرسل الملك - والله المثل الأعلى - يرسل رئيس ديوانه أو يرسل مثله الشخصي لشخص ملك من الملوك - والله المثل الأعلى - فيقول له بلغ أخي الملك أو الرئيس فلانا بلغه هذه الصحيفة بنصها وحرفها ، أو لا يقول ذلك وإنما يفهم الممثل الشخصي أنه مأمور بتبليغها نصاً وحرفاً وكلمة لا يزيد ولا ينقص ، هذا هو كتاب الله تعالى ، والله المثل الأعلى في السموات والأرض .

تبليغ النص القرآني:

إذا أمر الرسول ﷺ بأن يبلغ الكتاب فهو مأمور بتبليغه بنصه وحرفه لا ينقص حرفاً ولا يزيد حرفاً ، ولا يجوز أن يتغير أو يتبدل بمعنى من المعاني ولو أداه تمام الأداء لأنه قال له : بلغ عني هذه الصحيفة التي كتبتها بيدي ، أو أمرتك أن تكتبها بيدك بعد مراجعتي ، هذا هو كتاب الله تعالى

الذي : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [١٩٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ ١٩٤ ﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ [الشعراء : ١٩٣-١٩٥] . على قلب خاتم النبيين ، ﴿ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

هذا الكتاب نزل به جبريل بلغه عن رب العزة إلى خاتم النبيين ﷺ فلم يقص منه حرفا ولم يزد فيه حرفا على الرغم من أنه أنزل على سبعة أحرف ، على سبعة أوجه ، وهذا له فصل طويل عريض كلها من عند الله . الروايات التي تسمعونها نزلت من رب العزة على جبريل إلى النبي ﷺ بروايتها وبحروفها وتلقاها عنه أصحابه بطريق التواتر حفاظ لا يحصون عدا كلهم متقنون مأمونون حافظون ، محفظون ، كلهم أخذوا عن رسول الله ﷺ .

فهذا الكتاب العزيز هو النص الأول ، هو كتاب الله تعالى ، لا ينبغي أن نقول إنه حديث وإن كان يصح من حيث اللغة أن نقول حديث ، ولكن هو كتاب الله ﷻ : الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] . فهذا هو القسم الأول ، كتاب الله تعالى الذي ينطق به النبي ﷺ عن ربه .

بعض خصائص الكتاب الكريم:

هذا الكتاب يمتاز عن بقية الكتب السماوية ، فضلا عن الأحاديث القدسية ، فضلا عن الأحاديث النبوية ، بأنه المعجزة الكبرى لخاتم النبيين ﷺ ، فهو المعجزة الخالدة الباقية الدائمة التي أعجزت العرب جميعا - وهم أفصح الناس - عن أن يأتوا بمثله ثم أعجزتهم عن أن يأتوا بعشر سور منه ثم أعجزتهم عن أن يأتوا بأقصر سورة منه : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر : ١-٣] .

وإذا عجز أفصح الناس ، وأبلغ الناس ، وأفطن الناس ، وأذكى الناس في العالمين جميعا ، إذا عجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة منه فمن باب أولي وأحرى يعجز العالمون جميعا عن أن يأتوا بأقصر سورة منه .

السُّرُّ في منع ترجمة القرآن الكريم:

هذا هو السر في أن سادتنا وعلماءنا وقفوا في ترجمة القرآن وقفة الآساد في آجامها وقالوا لا يمكن بحال ترجمة القرآن العزيز ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد له إشارات وله عبارات ، وله مرامي لا تبلغها الترجمة وإن كانت على أيدي أعظم المترجمين وأفصح أهل اللسن أجمعين ، أهل اللسن لا يمكنهم بحال أن يترجموا هذا القرآن ، ولذلك اجتمعوا في عهد شيخنا الشيخ المراغي رَحِمَهُ اللهُ اجتمعوا أشهرًا وأيامًا وأعوامًا على ماذا؟ على فاتحة الكتاب فعجزوا أن يترجموها ، عجزوا أن يترجموا فاتحة الكتاب ، أم الكتاب ، عجزوا ، وبعد انفضوا .

وتعجبني كلمة من رجل عظيم من العظماء رحمة الله عليه كان يقول : أنا مطمئن إلى أنه لا يمكن أبدا أن يترجموا القرآن الكريم ، لأن القرآن الكريم أعجز العرب جميعا فدعهم كما يقول الله : ﴿ ذَرَّهُمْ فِي خَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، لا بد أن ينتهوا إلى أمر ، وانتهوا على أن لا شيء ، لا ترجمة ولا شيء وانتهى . رصدت أموال ، وضاعت أموال ، ولا فائدة في هذا وكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ، أو لو كانوا يعقلون أن يترجموا تفسير القرآن على أنه تفسير يتحمله صاحبه حتى لا ينسب الخطأ إذا وقع الخطأ في التفسير لا ينسب إلى القرآن إلى كلام الله تعالى .

فكاهة من الزمن الماضي:

إن شئتم أن تسمعوا فكاهة أذكرها من زمن طويل من ثلاثين سنة عن الشيخ المرحوم مصطفى صادق الرافعي فكاهة أذكرها، وأرجو أن تكون كما هي الآن في نفسي، أذكر أنه في ترجمة القرآن أحب أن يتفكه، فقال عن جماعة الفرنسيين في تراجمهم، نقل إليه هو لم يكن - يعني - يتقن الترجمة إنما كان ينقل إليه كرجل عظيم، فنقل إليه أن فرنسيًا عظيمًا عندهم عند أهله ترجم القرآن وفسر قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، هن «بانطالونات» لكم وأنتم «بانطالونات» هن. انظروا هذه سخافات هذيان.

فهذا الكتاب المقدس العزيز المحمي المحفوظ المحروس لا تناله الشياطين، وهذا الكتاب يمتاز على سائر الكتب السماوية بأنه باق إلى يوم القيامة، وبأنه معجز، وبأنه نزل للتحدي، وبأنه لا يمسه إلا المطهرون، وبأنه فيه البلاغة الفصحى، وفيه الأحكام والتشريع ومصالح الدين والدنيا، ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها إما عبارة وإما إشارة. بخلاف الكتب السابقة فليس فيها إعجاز، وليس فيها ما للقرآن الكريم من هذه المزايا، ولم يتعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ الكتب السماوية السابقة ومن أجل ذلك ضاعت، ومن أجل ذلك بدلت وغيّرت، وحصل فيها ما حصل مما تعلمون جميعاً والله الحمد في الأولى والآخرة.

لطيفة أخرى تخص كتاب الله:

هنا لطيفة من اللطائف ذكرتها الآن وأحب أن نذكرها جميعاً، امتياز هذا القرآن من حيث إنه نزل من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ ليس له أن يغير حرفاً وحاشاه ولا يبدل حرفاً إن كلمته قل التي تنزل من عند الله تثبت خاصة من خصائص القرآن الكريم خاصة ليست في الحديث النبوي ولا في الحديث

القدسي ولا في أي حديث آخر، ولا أدري إن كانت في الكتب السماوية السابقة أم لا؟ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، المفترض أنك إذا قلت لصاحبك : قل يقول مقول القول يعني إذا قلت لصاحبني وشيخي وحبيبي قل ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان : ٧٤] . قل رب اغفر لي ولأخي يقول : رب اغفر لي ولأخي ولا يقول : قل لأن قل من عندي أنا . قل من عندي . فهو يقول مقول القول ، هذا الشائع والمعروف في الكلام في الحديث القدسي ، وفي الحديث النبوي ، وفي الحديث العام ، لكن القرآن الكريم امتاز المزية ولعلها بعض عداده ، أما كلمة قل في سائر القرآن الكريم مثبتة في القرآن الكريم . ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ . ولا يجوز أن تقول : هو الله أحد ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن : ١] . ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ [الكهف : ١١٠] . هو لم يقرأها؟ لما يصلي بها أو يقرأها يقول : قل إنما أنا بشر مثلكم ، ولو جاز أن يغير أو أن يبدل أو أن يقتصر على المراد مما أنزل إليه لقال : إنما أنا بشر مثلكم ؛ لأن المعنى أن تقول مقول القول لا أن تقول القول نفسه فهذا من خصائص القرآن الكريم ، ومن بيان أنه ينزل من اللوح المحفوظ ، أو من بيت العزة ، أو من لدن حكيم خبير على النبي ﷺ بنصه وبحرفه وبمعناه ، تاماً كاملاً غير منقوص .

هذا هو القسم الأول : مما ينطق به الرسول ﷺ ، مما ينطق به ويأمرنا أن ننطق به وأن نقرأه ، نختمه في الأسبوع مرة أو في الشهر مرة ، ولا نزيد على ذلك ؛ لأنه أشد تفصيلاً أو تقصيلاً من الإبل في عقلها ، نفعنا الله بكتابته العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] . القرآن الكريم هو أشرف الأقسام وأعلاها وأرجاها قبولاً ونفعاً وبركة وخيراً وسعادة في الدنيا والآخرة ، ونتعبد به ، ونصلي به ، ونتقرب به ، إلى غير ذلك إلى أشياء كثيرة .

تبليغ الحديث القدسي:

القسم الثاني: مما ينطق به الرسول ﷺ يشبه القسم الأول في ناحية واحدة فقط، وهو أنه من عند الله ﷻ، لكن ليس نازلاً للتعب، ولا للتحدي، ولا للإعجاز، ولا للهداية والإرشاد، بالمعنى الذي نزل به القرآن الكريم، ولا بقراءته في الصلاة، ولا بمنع مس الجنب له. لما تنظر في غالب الأحاديث القدسية الربانية الإلهية تجدها قليلة، تجدها مائة حديث فأقل يعني الأحاديث التي رواها البخاري ومسلم في نظري لا تبلغ خمسين حديثاً التي رواها البخاري وحده أو مسلم وحده أو هما معا لا تبلغ في نظري خمسين حديثاً ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. كلنا طلاب علم فالمقصود بها بشارة فإنها كلها بشائر، وكلها لطائف، وتفريح للعبد، وتقريبه من ربه.

بعض نماذج للحديث القدسي:

يأتينا الآن نماذج الشطر الثاني من موضوع الدرس، نماذج لا أقول مختارة، وإنما نماذج متنوعة من الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، الأحاديث القدسية كما تسمعونها الآن: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(١)، «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»^(١)، «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»^(١). كلها تجدها بشائر ليس فيها أحكام وليس فيها نذر وليس فيها شيء - يعني - شديد: وعيد، لا كلها وعد تقريبا، أكثرها وعد وبشائر، وها هو الحديث الذي سمعناه الآن: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي...» يجزئ بكل عمل له، يجزئ بحد محدود إلا الصوم.

(١) سبق تخرجه.

فإنه يجزئى جزاء لا يعلمه سواي ، لا يعلمه إلا الله ، بشارت والرسول بين هذه البشارت ، وقال ما ينبغي لنا أن نقابل به هذه البشارت من الآداب والمكارم وحسن المعاملة مع الخالق والمخلوق . فهذا هو الحديث القدسي .

الفرق بين القرآن والحديث القدسي :

إذن ما هو الفرق بينه وبين القرآن الكريم ؟ الفرق بين الحديث القدسي وبين القرآن الكريم ، وإن كان كل من عند الله أن القرآن الكريم نزل بلفظه وبمعناه وبصحفه كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ، وأما الحديث القدسي فنزل من رب العزة على النبي ﷺ بمعناه فقط وإن كان يصح أن يكون أيضاً بمعناه فلا بأس إنما المعنى من عند الله واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وإن كنا نجد أن ألفاظ الحديث القدسي ليس فيها خلاف كثير مثل الحديث النبوي لماذا ؟ لأنها بشارة بشارت . فليست بحاجة إلى أن يقال كثيراً ، وليست بحاجة إلى أن يتناقلها الناس للأحكام وللهداية ، من أجل ذلك كانت محدودة ، وكانت محصورة ، وكانت الروايات فيها قليلة ليست كروايات الحديث النبوي ؛ لأن الحديث النبوي يجوز أن يروى بالمعنى ويجوز أن يختصره الرسول لمناسبة ، ويطول لمناسبة ، ويكرر لمناسبة كما يكرر البخاري الحديث النبوي لمناسبات كثيرة ، فيقول جبريل : إن ربك يقول لك كذا وكذا . أو بلغ عنه كذا وكذا ، فيبلغ عنه الرسول ﷺ بعبارة بليغة من عند نفسه ومن إنشائه فصار حديثاً قدسياً ؛ لأنه نزل من الله ﷻ ، واللفظ من عند النبي ﷺ يتصرف فيه ؛ لأنه موسع فيه عليه ، ليس مضيقاً فيه كالقرآن الكريم . حالة القرآن الكريم ينزل بواسطة جبريل ولا ينزل في منام ولا بإلهام ينزل بجبريل . إما أن يتمثل بشراً سوياً ، وإما أن يكون بالصفة الملكية المعروفة . إنما إلهام أو منام هذا جائز في الحديث القدسي .

فتلخص أن الحديث القدسي معناه من عند الله ﷻ ، ولا يشترط أن ينزل به جبريل ، بل يجوز أن يراه النبي ﷺ في المنام أو أن يلهم وإلهام الأنبياء حق ووحى ، فيلهم بأن الله يريد كذا أو أن الله يقول كذا . فيقول : قال الله تعالى . هذا فرق واضح ولا تجدون الإعجاز ولا التحدي في الحديث القدسي كما تجدونه في القرآن الكريم ، بل الحديث القدسي لفظه قريب من الحديث النبوي ؛ لأنه من عند النبي ﷺ في تعبيره وفي لفظه .

الحديث النبوي :

الحديث النبوي من عند النبي ﷺ بلفظه وبمعناه ! لكن إذا كان من عند النبي ﷺ بلفظه وبمعناه فكيف يكون إذن من عند الله بالمعنى العام ؟ هو من عند الله بالمعنى العام على أساس أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ولا يتكلم إلا في حدود ما أمره الله ﷻ ، والله يحميه ويحفظه ويعصمه وهو الصادق المصدوق ، والأمين المأمون ، وسيأتي لهذا مزيد إيضاح وبيان .

مثال توضيحي ولله المثل الأعلى :

كما قلت لكم -ولله المثل الأعلى- الملك لرئيس ديوان أو الشيخ يقول لأحد طلابه الطالب النجيب ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام يقول للسفير الذي يرسله ، أو يقول للأمير الذي يأمر . وهو يقول : «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني»^(١) . إذن الأمير كأنه ممثل شخصي للرسول ﷺ كالممثل الشخصي للملك ، ولله المثل الأعلى الممثل الشخصي

(١) سبق تخريجه .

أمين مأمون عند الملك ، والملك يطمئن إليه ولذلك رضي له أن يجعله مكانه في التبليغ وفي التصرف الحسن الجميل يفهم بالإشارة ، ويفهم بالبداهة ، ويحسن التصرف ، ويكون حكيماً لبقاً ، آتاه الله الحكمة ، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] . الممثل الشخصي ما اختاره ملكه إلا وهو مطمئن إليه ، إذن كل ما يقول الممثل الشخصي فهو من عند الملك بالمعنى العام ، حتى ولو لم يقل له الملك قل كذا وكذا فقد اطمأن إليه الملك ، هو حسن التصرف . راح فوجد ناساً في نزاع في خصام ، فحل هذا النزاع وهذا الخصام دون علم الملك لأنه لا يريد أن يشغل ملكه بكل صغيرة وبكل كبيرة ، شأن الملك عظيم وليس بحاجة إلى أن أشغل الملك بكل صغيرة وبكل كبيرة ، وهناك ما هو أعظم وأجل في شئون الدولة وفي شئون الأمة بل في شئون العام .

فالملك لم يقل له أصلح بين هؤلاء ، ولا فض نزاع هؤلاء ؛ إنما هو لحسن تصرفه ، ولأنه يعلم أنها الحكمة والمصلحة للأمة وللدولة وللملك نفسه وللممثل الشخصي نفسه ، وللشريعة نفسها ، ورضا الله ، وحباً في رسول الله ﷺ تصرف هذا التصرف الحكيم الحميد المحمود الذي كان جزاؤه في الدنيا أن يحمد الملك ويشني عليه ويشكره ويرضى عنه فإذا انضم إلى هذا رضا الله سبحانه وتعالى فقد تمت السعادة برضا مولاه في الدنيا ، ورضا مولاه الأعلى ﷻ .

هذا يمثل الحديث النبوي تصرف الرسول عليه الصلاة والسلام وقوله وكلامه ، دون أن ينزل وحي بهذا الكلام هذا تمثيل وتبيين للحديث النبوي ؛ لأنه من عند الله بالمعنى العام كما قلنا لأن الله رضي عنه ، كما أن الملك - والله المثل الأعلى - رضي عن تصرف الممثل الشخصي بدون علمه ، ولكن الله

سبحانه وتعالى يعلم كل كبيرة وصغيرة ، وأما الملك فهو بشر لا يعلم إلا ما أعلمه الممثل أو أعلمته الدولة ، أو طلب هو من الدولة ، هذا يمثل تصرف الرسول ﷺ : ف«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) .

حديث نبوي ، وهو من عند الله بالمعنى العام لأنه كلام يرضي الله ﷻ «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت»^(١) . رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري حديث نبوي وهو من عند الله ، «لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة»^(٢) ، حديث نبوي ؛ لأنه تكلم به الرسول ﷺ للهداية وللتشريع ، والله راض عنه وإن لم ينزل به وحي ، ولم ينزل به جبريل ولم يقل له قل هذا بلفظه ولا معناه . وإنما قاله الرسول ﷺ ؛ لأنه الأمين المأمون ، والصادق المصدوق ، والمعصوم من كل لغو ومن كل خطأ .

ماذا لو فعل النبي خلاف الأولى؟

إذا فرض أن الرسول ﷺ - حتى الذي اجتهد فيه وأخطأ فيه فهو حديث نبوي على فرض أنه أخطأ - مثلاً - ﷺ ، والخطأ بالنسبة له قد يكون حسنة عظيمة جداً بالنسبة إليها .

مثال ذلك :

لما قال لعبد الله بن أم مكتوم ولما أذن للذين استأذنه ، قال الله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٣] ، إذنه هذا أيضاً حديث نبوي ؛ لأنه من عند نفسه ومن عند الله بالمعنى العام إلا أن الله سبحانه وتعالى بين له أن غير هذا كان أولى . هو فعل ﷺ مقتضى خلقه الذي جبل

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٦) ، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

عليه من السماحة والعفو والمكارم ، فعل هذا ، ولكن الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى ، ويعلم أن قلوب هؤلاء تنطوي على الكيد وتنطوي على الغيظ وتنطوي على النفاق ، قال له وهو العليم الحكيم : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ، ما أجمل هذه الآية ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ، إن الله جميل يحب الجمال . الجمال ليس في المناظر في المعاني في الذوق : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ، قدمها بين يديه هكذا لأن الرسول ﷺ أخشى الناس لله ، وأتقى الناس لله ﷻ ، لما يعاتب من قبل الله يذوب خوفاً وخشية وهيبة من جلال الله ﷻ فقدم له ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ، لتسري عنه ﴿لَمْ أَذَنْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة : ٤٣] ، كان ينبغي أن ينتظر ، يتأنى ولكن مع هذا فالعفو و﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، والصفح وما إلى ذلك كله حديث نبوي إلا أن الله سبحانه وتعالى يعد له ويزكيه ويبين له أن الأولى كان كذا وكذا وكذا .

مثال آخر:

بالغ في رضا زوجاته ، والمرأة تريد أن تستقصي كل ما عند زوجها من الرضا ومن المكارم ومن العطاء ، بالغ في رضا زوجاته تمتع بشربة عسل عند زينب بنت عمته فغارت السيدة عائشة ، وغارت السيدة حفصة ، وتآمرت عليها ، فبالغ ، قال حرمت على نفسي العسل ، حديث نبوي أيضاً من عند الله بالمعنى العام ، لم ينزل به جبريل ، ولم يقل له قل كذا ولا كذا ولكن من السهل بين للرسول ﷺ أن هذا عفو زاد عن الحد . رقتك وجمالك وظرفك وحسن خلقك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ، دعا لأن تحرم العسل على نفسك ابتغاء مرضات زوجاتك . ولكن لا يصل بك

التلطف والترضية إلى هذا الحد ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١]، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾، لكن تنبه لمثلها فهو حديث نبوي حتى فيما يدعي المدعون أنه أخطأ فيه ، حديث نبوي بالمعنى العام من عند الله ﷻ ، والله ﷻ عدله وبينه .

خلاصة الفرق بين القرآن والحديث:

ظهر أن الحديث أعلى الحديث ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وهو كتاب الله سبحانه وتعالى الذي نزل به جبريل بلسان عربي مبين على قلب النبي الأمين ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وله خصائص وله معجزات وله مكانة عليا لا يساويه فيها شيء آخر من بقية الأحاديث هذا على حدة .

الثاني الحديث القدسي الذي تنزل به البشائر على النبي ﷺ من عند الله ﷻ بجبريل أيضا ، أو بإلهام ، أو بمنام ، هذا حديث قدسي رباني مطهر من عند الله ﷻ ولكنه لا يبلغ درجة الإعجاز ، ولا كثرة الأحكام ، ولا ينزل به جبريل بصفة خاصة كما نزل القرآن الكريم ولا ... إلخ .

الحديث النبوي عرفتموه . وتبين لنا إذن الأقسام الثلاثة : الحديث الإلهي الحديث الخاص القرآن العزيز ، تبين لنا الحديث القدسي ، تبين لنا الحديث النبوي .

ثمانية نماذج للحديث القدسي والحديث النبوي:

عرض لنماذج من الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية وقد شاء الله تعالى أن تكون نماذج ثمانية بعدد أبواب الجنة الثمانية فقد جاء في الحديث

الصحيح : «أن من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية»^(١) . فهذا نص على أن أبواب الجنة ثمانية مع أن الله سبحانه وتعالى نص في كتابه العزيز على أن أبواب جهنم سبعة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر : ٤٤] . فماذا؟ هل هناك من حكمة؟ هل هناك من طرفة؟ هل هناك من لطيفة في الفرق بين السبعة للجحيم ، والثمانية لجنات النعيم؟

أبواب النار سبعة وأبواب الجنة ثمانية ، ما الحكمة؟

نلتمس الحكمة وغيرنا يلتمس ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦] ، فنجد أن الكفار الذين يصلون النار ، ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة : ٢٠١] ، كانوا مشركين ، شركا عظيمًا و﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] ، كانوا مشركين لم يوحّدوا فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوحّدوا ، في الجحيم لها سبعة أبواب ، يوحّدوا في النار يعني لم يوحّدوا في الدنيا ، ولم يوحّدوا في أبواب الله ورزقه ، ولم يوحّدوا في شكر الله ، ولم يوحّدوا في هذه الدنيا التي جعلها الله طريقًا وقنطرة إلى الآخرة ، فكأنه -ولله المثل الأعلى يقول- لم توحّدوني ولم تؤمنوا بي في دنياكم فالآن وحدوني ، وآمنوا بي في دار الجحيم ، لها سبعة أبواب ليتذكروا أن جهنم وتر وأن الجنة . . . وإن شئتم فقولوا الجنة ثمانية والجحيم سبعة ، سبعة من ثمانية واحد ، الفرق بينهما التوحيد - يعني - فلذلك ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] ، إشارة إلى أن بين الجنة وبين النار سور واحد إشارة للتوحيد

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

يوحد فيه من لم يكن موحدًا في الدنيا ، فالجنة ثمانية أبواب والجحيم سبعة أبواب ، اطرح سبعة من ثمانية فالفرق واحد ، إشارة إلى الملك الواحد العظيم ، الواحد القهار الملك سبحانه وتعالى .

رواة الأحاديث أو النماذج الثمانية:

ثمانية أحاديث متنوعة ، متنوعة في الراوي بين أبي هريرة وإن كان أبو هريرة أخذ حظاً أوفى منه وبين أبي بكر ، وبين بعض الصحابة ، وبين عمر بن الخطاب ، والآن تسمعون هذه الأحاديث الثمانية مجرد سماع ، تطبيقاً للأحاديث القدسية والأحاديث النبوية ، ولذلك سيكون لنا مجرد تلاوة وتعليقات خفيفة عابرة لأنه ليس المقصود شرح الأحاديث ، كما قلنا ، وإنما المقصود الحديث القدسي والحديث النبوي وزادنا الله من فضله الكتاب العزيز فصاروا ثلاثة بعدما كانوا اثنين .

فالشرح إذن لا يعيننا الآن ، وإنما يعيننا من ناحية واحدة وهو الناحية التطبيقية الذي أسلفناه ، فربما نسينا شيئاً ، وسبحان ربي ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥٢] ، وإذا نسينا فيذكر بعضنا بعضاً ، وكلنا طلاب علم ، وكلنا متعاونون .

النموذج الأول:

الحديث الأول حديث الصيام : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» .

النموذج الثاني:

الحديث الثاني من أحاديث العرض عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «قال الله تعالى في حديث قدسي قال الله تعالى : أعددت لعبادي

الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا
 ﴿إِنْ شِئْتُمْ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[السجدة : ١٧]﴾ .

التعليق على الحديث:

لمناسبة تتجافى جنوبهم عن المضاجع المتقين -جعلنا الله وإياكم من المتقين
 وورزقنا الله وإياكم التقوى- بشرهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ بأنه أعد لهم
 في جناته ما لا عين رأت فوق ما تصف ، أبلغ وصف ، ما لا عين رأت ، ولا
 أذن سمعت ؛ لأنه عطاء إلهي فهو الآن عطاء إلهي أيضا لكن البشر لهم دخل
 فيه فهذا عطاء تناولته أيدي البشر فمعروف مهما بلغ . مهما بلغ من الترف
 ومن النعيم ومن السيارات ومن الطائرات ، ومن القصور ، فالبشر لهم دخل
 فيه ، وإن كان الله تعالى هو الذي هداهم ، يكفرون بنعمته يهديهم إلى هذه
 النعم العظيمة فيكون عملهم بعد ذلك كالكفار ، أصبح من عبادي مؤمن بي
 وكافر . لكن العطاء الذي في الآخرة ما لا عين رأت العين ما ترى حتى
 تستطيع أن تصف ولا أذن سمعت حتى يقول اللسان بعدها ولا خطر على
 قلب بشر ، إذن هو شيء فوق البشر شيء لا نعلمه وإذا كان المولى ﷺ الملك
 الأعلى يقول هذا إذن هذا شيء عظيم شيء عظيم جدا .

أحب أن أقول : هذا الجزاء ليس مقصورا على دار النعيم الجزاء في الدنيا
 أيضا ، أعد لعباده الصالحين في الدنيا ما لا عين رأت من نفحاته وإلهاماته
 ورضاه ، وبشائره التي لا تنقطع ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾
 تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
 تُوعَدُونَ ﴿[فصلت : ٣٠]﴾ هذه البشائر ، وهذه المتع الروحانية الربانية ما
 يمكنك أن تقول هي من عطاء الله سبحانه وتعالى في الدنيا مقدما لعطائه

في الآخرة بشرى المؤمن ، عاجل بشرى المؤمن فيسر بالكرامة ، ويسر بالفضل ، ويسر بالنفحات الربانية في دنياه قبل أخراه .

ويعجبني في هذا المقام قول العارف بالله تعالى ابن عطاء الله السكندري يقول : جل الله ربنا أن تعامله نقدا فيعاملك نسيئة ، لا تظن أن جزاءك مؤخر إلى يوم القيامة ، لا ، تأخذه في الحال تأخذ جزاءك في الحال معجلا أو بشارة معجلة وبقية الجزاء : في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

جزاء ليس بالمال فقط ولا بالقصور ولا بالسيارات فقط إنما بهذا وبالروح بالروحانية ، بالطيب بالهدوء بالرضا ، بالاستقرار بالحياة الطيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] . حياة تصل إلى أنها لا تصفها عين ولا أذن ولا خطرت على قلب بشر ، وأنتم تعلمون في هذا الشيء الكثير . «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . واقراءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾»^(١) .

التعليق على الحديث الأول :

الحديث الأول من اللطائف التي فيه أن طرفه الأول حديث قدسي الطرف الثاني الأكبر قليلا حديث نبوي فقط اثنين .

بعض اللطائف في الحديث الأول :

إنما هذا الحديث على صغره فيه لطائف ثلاثة : يمتاز بأنه في رمضان ، وبشائر رمضان كذلك ليكون فيه توازن يعني هذا له فضائل من جهة وهذا

(١) سبق تخرجه .

له فضائل من جهة ، فهذا في رمضان وفضل رمضان ، وبشائر رمضان ، ومكارم رمضان ، وآداب رمضان ، ولكن مقصور على الطرف الأول وهو الحديث القدسي والطرف الثاني الحديث النبوي وهو نوع من الأنواع القليلة جدًا أن ترى حديثا جمع بينهما .

لطائف الحديث الثاني:

وأقل من ذلك الحديث الثاني الذي جمع بين الثلاثة انظروا : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»^(١) . إلى هنا انتهى الحديث القدسي «على قلب بشر» . لماذا؟ لأنه هنا انتهى الحديث القدسي واقرأوا إن شئتم . كلمة : اقرءوا : واحد : اثنين . إن شئتم : ثلاثة . هذا حديث نبوي . ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، كلام الله رب العالمين . هذا حديث جامع بين الأصناف الثلاثة التي سمعتموها الآن . وما رأيت حديثا قدسيا جمع بين الأصناف الثلاثة إلا هذا الحديث . وإن كنتم تذكرون فخبروني ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، فقال : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١) حديث قدسي . «واقرأوا إن شئتم» . في الوسط حلقة اتصال بين الحديث القدسي الرباني ، وبين الكلام العزيز المعجز الرباني ، والطرف هو كلام الله رب العالمين في القرآن الكريم .

النموذج الثالث:

الحديث الذي رواه البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه ﷻ قال الله تعالى : «من عادى لي وليا فقد آذنته

(١) سبق تخريجه .

بالحرب» بشارة من عادئ لي وليا؛ مجاهدًا في سبيل الله، عالمًا من علماء الخشية لا علماء الرواية ولا علماء الجدل، ربانيًا كالحسن البصري. والحسن بن علي ابن بنت رسول الله ﷺ.

الأئمة العلماء العاملون الصديقون، المجاهدون، المقيمون المرابطون كل هؤلاء أولياء الله، يحميهم ويدافع عنهم: «من عادئ لي وليا فقد آذنته بالحرب» ومن يطيق حرب الله؟ آذنت: أعلنت، أي: أعلنت عليه الحرب، هل تطيق الدنيا كلها أن تقف أمام رب العزة في حرب؟ معاذ الله. معاذ الله. «من عادئ لي وليا فقد آذنته بالحرب» أعلنت عليه الحرب، فليحذر.

طريق الولاية كما ورد في الحديث:

أراد بعد ذلك أن يبين طريق الولاية المولى ﷺ يبين طريق الولاية «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه» الفريضة أولا والنافلة، ثانيا يتقرب إلي بالنوافل - بعد الفرائض - حتى أحبه - فالنوافل طريق المحبة، نوافل الصلاة، نوافل الصيام، نوافل الزكاة، نوافل الأمر بالمعروف، نوافل الهداية، نوافل الخير، الحسنات، السنة الحسنة، المجالس الطيبة، الاستماع لأهل العلم، الانتفاع بأهل العلم، تذكير أهل العلم. «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها». أكون له كل شيء، يقول أنا معه في كل شيء لا يحتاج إلى شيء، لا يحتاج، يعني لا يمشي إلا بي، ولا يتحرك إلا بي، ولا يسمع إلا بي، يكون موفقا أوفقه

وأسدده ، فهو عبد مخلص ، فيسدده ويجزيه الخير ، ويوجهه للخير ، «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني - يعني - إشارة إلى أن المسألة ليست عيباً ، هو مشغول بذكرى ، «ومن شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل مما أعطي السائلين»^(١) . لكن إن سألتني ، أحياناً يقسم على الله لئن سألتني لأعطينه من عطائي الذي لا ينفد من خزائني ، خزائني لا تنفذ ، ولا تنقص . ولئن سألتني وفي رواية إن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني ، وفي رواية : لئن استعاذ بي لأعيذنه ، هذا الحديث رواه البخاري وحده .

الحديثان السابقان اشترك فيهما البخاري ومسلم شيخا المحدثين ، وهذا رواه البخاري وحده ، هذا نوع من التنوع . إنما أبو هريرة أيضاً أخذ الحظ الأوفر في الثلاثة وآتٍ في الرابع أيضاً .

النموذج الرابع :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى - وفي رواية قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ - : حمدني عبدي» . هي الصلاة : الحمد لله رب العالمين . قال العلماء : الصلاة هنا معناها الفاتحة أم القرآن ؛ لأنها عماد الصلاة ، ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فكأنه يقول قسمت الفاتحة وإنما عبر بالصلاة للإشارة إلى

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) ، والدارمي (٣٣٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

عظمة الصلاة وجلالها ولأنها صلة بين العبد وربّه ، الصلاة صلة بين العبد وربّه . كيف نسمي من لم يصل مسلماً؟ لا يمكن أبداً أبداً . إن سميناه مسلماً فإنما نسميه على سبيل المجاز ، أو على سبيل يعني التأليف نؤلفه لئلا ينفر منه إنما هو في الواقع غير مسلم ويخشى عليه .

قسمت الصلاة أي الفاتحة بدليل : فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى حمدي عبدي يفرح بهذا - والله المثل الأعلى - «وإذا قال العبد ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ . قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي» . وقال مرة : فوض إلي عبدي . ولعله روي مرة هكذا ومرة هكذا . رواية رأيتها في الأنوار لابن محيي الدين . «فإذا قال : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال تعالى : مجدي عبدي . فإذا قال : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . قال الله تعالى فوض إلي عبدي أو قال مجدي عبدي ، فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين قال الله تعالى : هذه لعبدي ولعبدي ما سألت» ، إياك نعبد نخصك بالعبادة ، «فإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، قال : هذه بيني وبين عبدي» . إياك نعبد : لله ، وإياك نستعين : للعبد ، يستعين به . «فإذا قال : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ٢ ، ٣]» .

خاطرة:

يبدو لي خاطر ، الصلاة هي الصلة بين العبد وربّه وكأن الصلاة صلة لما تعلق العبد بربه بالصلاة فتحت الصاد فتحت بعدما كانت مكسورة به هو كان مكسورا وكان مخفوضا كذلك وبعد أن صلى رفعه الله وفتح له الأبواب ففتحت الصاد ومدت اللام كأنها جبل ممدود بين العبد وربّه يصله به .

موقف دعوي:

التقيت مع أحد الضباط في طنطا وأنا راكب القطار يسمى مكيفًا ، فدخلت وجلست ثم حانت الصلاة فقلت له : نصلي . فقال لي : أنا والله متعب جدًا وسأفعل عندما أصل البيت . وبعد ذلك تدرجت معه في الكلام فتبين أنه لا يصلي ، ثم انتقل إلى شيء آخر وقال : ما الحاجة إلى الصلاة ، ما دام الإنسان لا يؤذي الناس ، ولا يفعل منكرا ، ليس بحاجة إلى الصلاة؟ قلت له : وهل هناك منكر أكثر من أن يترك الصلاة ، يقطع الصلة بينه وبين الله ، فيحدث القطيعة مكانها ، الصلاة صلة ، فإذا ترك الصلاة فقد قطع ما بينه وبين الله ، فقد أذى نفسه ، التفت إلي وقال : هذا كلام لم أسمعه من قبل . قلت له : وقد سمعت الآن ، فليس لك عذر . قال لي أعاهدك على أن أصلي . قلت له من الآن كل شيء موجود . قال أذهب إلى مصر الجديدة وأكلمك في الهاتف وأخبرك بأني بدأت . وفعلا ذهب إلى مصر الجديدة ، وكلمني وزارني هو وزوجه ، وعاهدتهما على الصلاة لا يقطعانها - يعني لمدة - والله يهدينا جميعا سواء السبيل .

النموذج الخامس:

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﻋَﻠَﻴْْهِ أنه قال : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا» ، وفي رواية : «فلا تظالموا» ، لا يظلم بعضكم بعضا ، «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، أبواب فضلي كثيرة واسعة يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم

وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني . فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط (الإبرة) إذا أدخل البحر» . لو قال : لا ينقص شيئاً ، لا تكون أبلغ من قوله : إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ؛ لأن هذه محسوسة المخيط يغمس في البحر ، فهل يأخذ شيئاً؟ لا يأخذ شيئاً ، كذلك إذا نقصت خزائن الله أو نقص ملك الله فكأن هذا ينقص كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم» أحصيها وأعدّها وأكتبها وأعلمها ثم أوفيكم إياها جزاءها . ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ، «فمن وجد خيراً فليحمد الله» لأنه مني ، لا يسوق الخير إلا الله ، ولا يعين على الخير إلا الله ﴿وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] «ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» . رواه مسلم .

نماذج الأحاديث النبوية:

نكتفي بثلاثة من الأحاديث النبوية لأنها معروفة إنما نكتفي بها على سبيل البشارة من جهة ، والموازنة من جهة ، ولثلاث نظماً شطراً دون شطر ، وإن كانت الأحاديث النبوية هي أكثر الأحاديث - يعني - مائة ألف حديث أو ما يقرب من ذلك ، أو على حسب العد في الحديث ، أحيانا يقطعون الحديث وأحيانا يعدون نصفه حديثاً وأحيانا - يعني - أحاديث كثيرة جداً لا تعد . وأما الأحاديث القدسية فهي قليلة كما قلت لكم .

النموذج السادس:

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» تكون هجرته إلى الله ورسوله ، الجزاء ليس له تقدير يعني إلا أن يعاد الشرط ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله هذا شرط ، الجزاء أين لا يقدر ، إذن ما دام المشهود به جزاء لأننا لا ندركه ، والجزاء عند الله تعالى : نعيد الشرط : «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» ، يعني أن الجزاء عظيم ولذلك أعدنا الشرط كما كان ، «ومن كانت هجرته إلى دنيا أو لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها»^(١) ، وفي رواية : «يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» . يعني هو ودنياه وهو وامراته - يعني - لا شأن له ولا تقبل هجرته ، ولا يقبل سعيه ، ولا يقبل جهاده . لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .

من لطائف هذا الحديث:

هذا الحديث من لطائفه أن البخاري ابتداءً به كتابه ، والإمام النووي ابتداءً به «الأربعين النووية» ، وابتداءً به كتاب «بستان العارفين» ، وكثير من العلماء المؤلفين في الحديث وغير الحديث يبتدئون كتبهم بهذا الحديث استبشارا وقدوة ، وكذلك فعل النووي في «رياض الصالحين» ، ابتداءً به كتابه في باب الإخلاص ، إشارة إلى الإخلاص وحسن النية وحسن الجزاء عند الله تعالى ، وهذا الحديث رواه أمير المؤمنين عمر .

(١) سبق تخريجه

النموذج السابع:

عن أبي بكرة وهذا الحديث رواه الشيخان رحمهما الله أن النبي ﷺ قال :
«شهران لا ينقصان» . بشارة ، «شهران لا ينقصان ، شهرا عيد : رمضان ،
وذو الحجة» ، رواه البخاري ومسلم عن أبي بكرة واللفظ للبخاري .

«شهران لا ينقصان» كثيرا ما صمنا : (٢٩) تسعة وعشرين والرسول ﷺ صام تسعة رمضانات ، ويقال : إنه صام من التسعة سبعة ناقصة ،
يقال : والعلم عند الله تعالى الغرض أنه صام تسعة وعشرين أكثر من
ثلاثين قطعا ، إما ستة وإما سبعة . فكيف لا ينقصان قال لا ، هذه من
لطائف الحديث ومن لطائف الرسول عليه الصلاة والسلام : لا ينقصان
في الأجر والثواب ، يعني إن كان الشهر تسعة وعشرين فلا تظنوا أن هذا
اليوم محسوب عليكم ، فالرجل العامل لما يكون صاحب عمل ويأخذ يوم
راحة أو يوم رياضة يحسبه له ويعطيه أجره ، فما بالك برب العزة الملك
الأعلى الذي لا تنفذ خزائنه ، تسعة وعشرين مثل ثلاثين ؛ لأن الصيام
ليس بالعدد ، بالعدد المعروف من غير الرؤية : «صوموا لرؤيته وأفطروا
لرؤيته»^(١) فصيام شهر رمضان تسعة وعشرين كامل ، كامل مثل الثلاثين ،
«شهران لا ينقصان ، شهرا عيد رمضان وذو الحجة» أيضا لما يكون تسعة
وعشرين الحج كامل ، والمناسك كاملة ، والشعائر كاملة ، لا ينقص الأجر
أبدا ، لأن هذين الشهرين مبنيان على الرؤية كسائر الشهور ، وهذه إشارة إلى
أن الله سبحانه وتعالى يعد الأجر كاملا سواء كان الشهر كاملا أو غير كامل .

(١) سبق تخرجه .

النموذج الثامن :

هذا النموذج الثامن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأجمله وأحسنه ، إلا موضع لبنة ، فصار الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(١).

التعليق على الحديث :

ما أجمل التشبيه . قصر جميل ، لكن فيه زاوية ناقصة - ما فيه نقص هنا الحمد لله - حاجة قديمة فيها نقص ، الناس يعجبون ويطوفون ويشنون ويدهشون ، ولكن يتأثرون حينما يجدون لبنة ناقصة ، هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال النبي ﷺ : «أنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين» فشبّه ﷺ إخوانه الأنبياء من قبله من لدن آدم إلى موسى إلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بمن بنى بيتا فكمّله إلا هذه اللبنة أبقيها حتى يأتي أوانها ، فجاء أوانها وختمت بخاتم النبيين وإمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إذن هذا الرسول ﷺ الأمين المأمون والصادق المصدوق مكمل للشرائع السابقة وموفّ لها ، فهو ﷺ به تكمل الشريعة ، وبه تكمل ملة إبراهيم ، وبه يكمل هذا الدين ، وبه يكمل الله مكارم الأخلاق كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، وجاء في موطأ مالك : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، فمكارم الأخلاق موجودة ، إنما ينقصها شيء وليست بدائمة فجاء الرسول ﷺ فكمّلها وأدامها ، وأبقاها الله به وبالكتاب الذي أنزل عليه بالكتاب العزيز إلى يوم الدين ، فجزاه الله عنا أحسن الجزاء ، جزاه الله عنا خير ما يجزي نبيا عن أمته .

المحاضرة الثلاثون بعد المائتين

الإخبات والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

نصيحة نبوية إلى أبي ذر رضي الله عنه:

جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر: «يا أبا ذر، لأن تغدو إلى المسجد فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة»^(١)، ذلك أن كتاب الله فيه الوعظ والإرشاد والتذكير، وهو جامع لجميع أنواع النفع، فالانكباب عليه والاشتغال بتحصيله ودراسته وتفسيره هو عند الله تعالى أعظم من صلاة النافلة.

وقد جاء عن بعض العلماء أن الصلاة على النبي ﷺ تفضل على النافلة، فأحرى كتاب الله تعالى، ولذلك يقول ﷺ لأبي ذر: «لأن تغدو إلى المسجد فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة»^(٢).

يعرف مقدار العلم، ومقدار العلماء، ويجمع عليه العلماء ويدارسهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، اقتداء برسول الله ﷺ الذي كان جبريل يدارسه القرآن في شهر رمضان.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

الآية وسورتها:

هذه الآية الكريمة هي من سورة الحج التي وقع الخلاف فيها ، هل هي مكية أو مدنية؟ جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مدنية ، وقال به كثير ، وجاء عنه أيضا أنها مكية إلا آيات منها .

مادة التبشير في القرآن:

أيًا ما كان فجاءت هذه المادة التي هي مادة التبشير المأخوذة من البشارة في القرآن في مواضع كثيرة ، تقرب من السبعين موضعا .

جاءت بصيغة الأمر ، وبصيغة الماضي ، وبصيغة المضارع ، وبصيغة اسم الفاعل ، وبصيغة المصدر ، وبصيغة أخرى كما تسمعون بحول الله تعالى وقوته ، فقد جاءت صيغة الأمر في هذه الآية الكريم .

من المخاطب في الآية؟

اختلف المفسرون من المخاطب بقوله ﴿وَبَشِّرِ﴾ ، فهناك من قال إن المخاطب بالتبشير هو البشير النذير ﷺ ، ومنهم من قال إنه يمكن أن يخاطب غيره ، وذلك لأن الأصل عند علماء البلاغة في الخطاب أن يكون لمعين ، وقد يترك ليعم غيره كما قال القزويني في «التلخيص» : والأصل في الخطاب أن يكون للمعين ، وقد يترك ليعم غيره ، أي غير المعين ، ولذلك قال العلماء هنا -علماء التفسير- يجوز أن يكون المبشر هو النبي ﷺ وأن يكون غيره من كل من يصلح للتبشير ، ومن كل من كانت فيه أهلية للتبشير .

التبشير قد يسند إلى الله أو النبي أو القرآن:

من الآيات القرآنية نفهم أن التبشير أسند للنبي ﷺ في آيات ، وأسند الله إلى نفسه في آيات ، وأسند إلى القرآن العظيم في آيات .

تبشير النبي ﷺ:

قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى التي جاء فيها التبشير: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] . فهذا الأمر قالوا إنه لسيدنا محمد ﷺ ، وقال المفسرون : يصح أن يكون لغيره .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] .

تبشير القرآن:

جاءت آية أخرى بين هذين الأمرين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧] .

فالبشرى هنا أسندت للقرآن ووصف بها القرآن ، وجعل القرآن بشرى للمؤمنين ؛ لأنه يبشر وينذر ، ويعظ ويحذر ، ويرغب ويرهب ، ويعد ويوعد ، لأجل ذلك كان بشرى .

تبشير الله ﷻ:

يقول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي نفس السورة: ﴿يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، فجاءت مادة البشرى بصيغة الفعل المضارع، وكذلك في نفس السورة يقول مولانا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. والضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ يعود إلى القول الذي قاله النبي ﷺ يوم بدر أو يوم أحد: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: هذه البشارة، ما جعل الله قول النبي ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر والتأييد، وإلا فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصر، ولذلك عقب هذا الكلام بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فلا يغتر الإنسان في الجهاد بعدده أو بقوته، لانه لا ناصر إلا الله ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وناهيك بما وقع في قضية حنين، فإن المسلمين اغتروا بكثرتهم وأعجبهم كثرتهم، واضطروا إلى أن يعتمدوا عليها، فقال الله لهم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

كَثَرْتَكُمْ فَلَمْ تَعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

الاستبشار بمعنى: الفرح:

جاءت هذه المادة أيضا في نفس السورة بصيغة الفعل المضارع من الاستبشار، وهو الفرح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿٣١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ... ﴿﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١] إلى آخر الآية، فهذا الاستبشار بمعنى الفرح، ومنه كما سيأتي: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ومنه ما سيأتي من قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ ﴿﴾ [التوبة: ١١١].

صيغة اسم الفاعل: «مبشرين»:

جاءت هذه المادة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، بصيغة اسم الفاعل، وجاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وجاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

البشارة بالريح:

جاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ (نُشْرًا) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، قرئ ﴿بشرا﴾، من البشارة. ومعناه أن الله تعالى يرسل الرياح لتبشر عباده المؤمنين بأنه سيغيثهم، ويسقيهم متى احتاجوا إلى ذلك، ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْعَدِيدِ مَوْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْنَهٗ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦] فالرياح بصيغة الجمع تكون بشارة بنزول المطر عند الاحتياج إليه، بخلاف الريح فإنها جاءت في القرآن للعذاب: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]، إلا في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، فإن هذه ريح النصر، وهذه ريح الصبا، التي نصر الله بها سيدنا محمداً ﷺ، نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور.

البشير والبشري:

جاءت المادة أيضا في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا إِنَّا إِلَّا نَذِيرٌ وَكَثِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وجاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِنُطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]، جاءت أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

تبشير الله للمؤمنين المهاجرين المجاهدين:

في «صحيح الإمام مسلم» يحدث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه قال :
«كنت عند منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة ، فقال رجل : ما أبالي بعد
الإسلام أن لا أعمل عملاً إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : ما أبالي بعد
الإسلام أن أعمل عملاً إلا أن أعمار المسجد الحرام ، وقال رجل ثالث :
الجهاد أفضل مما قلتم ، فزجرهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رفع
أصواتهم عند منبر رسول الله ﷺ ، وكان اليوم يوم جمعة ، وقال : إن صليت
الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، فدخل
فسأل النبي ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ
وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [النساء: 101] الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [البقرة: 217] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ هُمْ
فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢١٩﴾
[التوبة : ١٩-٢٢] .

تبشير إبراهيم بالولد:

جاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴾ [هود:
٦٩] ، البشارة بالولد أو هلاك قوم لوط ، ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ
﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا
أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ فُتِحَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ

يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَيْلَئِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ [هود: ٦٩-٧٢] إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

البشارة في سورة يوسف:

جاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى في سورة يوسف: ﴿(يَا بُشْرَاي) هَذَا غُلَمٌ﴾ [يوسف: ١٩]، بعد قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَادْأَلَى دَلْوَهُ قَالَ (يَا بُشْرَاي) هَذَا غُلَمٌ﴾ [يوسف: ١٩]، فنادى البشرى مضافة إلى ياء المتكلم ﴿(يَا بُشْرَاي) هَذَا غُلَمٌ﴾ أي يا بشرى هذا أوان حضورك، هذا هو الوقت الذي ينبغي أن تحضري فيه لهذه البشارة العظيمة التي كانت سببا في الحصول على غلام ﴿يَكْبُشْرَى هَذَا غُلَمٌ﴾، وهناك من قال: إن بشرى هنا اسم صاحب هذا الوارد ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَادْأَلَى دَلْوَهُ قَالَ يَكْبُشْرَى هَذَا غُلَمٌ﴾ [يوسف: ١٩]، يعني نادى صاحبها له يسمى بشرى، ولكن قال المفسرون التحقيق: الأول.

وجاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]. البشير قالوا يهوذا هو الذي جاء بقميص يوسف ملطخا بالدم، فأحزن أباه يعقوب، فجاء بقميصه أيضا ليفرحه كما أحزنه ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦].

البشارة في سورة الحجر والنحل:

جاءت هذه المادة أيضا في سورة الحجر في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا لَا نَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٩٢] قال أبشرتُموني على أن مَسَيَّ

الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيزِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥٣-٥٦].

وجاءت هذه المادة أيضا في سورة النحل في قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] ، القرآن بشرى للمسلمين ، وكذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

بشارة القرآن الكريم:

جاءت هذه البشارة مسندة إلى القرآن العظيم في قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ [الإسراء: ٩، ١٠] ، فالقرآن يبشر المؤمنين بأن لهم أجرا كبيرا ، ويبشر المؤمنين أيضا بأن الكافرين أعد لهم عذابا أليما ، وهناك من قال : إن قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وينذر الكافرين بأن لهم عذابا أليما .

وجاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى : ﴿قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿٢﴾ مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ [الكهف: ٢-٤].

وفي سورة مريم والحج والفرقان:

جاءت هذه المادة أيضا في سورة مريم في قوله جل ذكره: ﴿يَرْكَرِيَّا إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وجاءت هذه المادة أيضا في آية المحاضرة وهي قول الله تبارك وتعالى:
﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢١] الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى
مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

وجاءت هذه المادة أيضا في قوله جل من قائل في نفس سورة الحج:
﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وجاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ
لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وفي سورة النمل والعنكبوت:

جاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل:
﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْعَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [١] هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١-٣].

وجاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا
ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وفي سورة الروم والأحزاب:

جاءت أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ
مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ سَخِرَاجًا مِّنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وجاءت هذه المادة أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وجاءت أيضا في هذه السورة نفسها بعد هذه الآية: ﴿وَدَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا﴾ ﴿[الأحزاب: ٤٧-٤٧].

وفي سورة يس والصفات والزمر:

جاءت أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وجاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى . . .﴾ [الصفات: ١٠١، ١٠٢].

وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْهُ بِسَحَقٍ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١١٢].

وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَلْبَابُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وفي فصلت والشورى والحديد والصف:

جاءت أيضا في سورة فصلت في قول الله تبارك وتعالى: ﴿حَمَّ
تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ١-٤].

وجاءت أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].
وجاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿بُشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وجاءت أيضا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي
إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ
أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]، وهذه آخر آية في القرآن ذكرت فيها البشرى، فإذا
عددنا هذه المواضع نجدها تزيد على الستين موضعا.

دلالة البشارة حال الإطلاق والتقيد:

يستفاد من هذه الآيات أن البشرى إذا أطلقت فإنها لا تكون إلا بخير،
إن هذه المواضع كلها وقعت فيها البشارة بخير، وقد نسينا قول الله تبارك
وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾
[فصلت: ٣٠]، وهذا أحد قولي اللغويين، فإنهم يقولون: إن البشارة
(القول الأول عندهم) أن البشارة إذا أطلقت لا تكون إلا بما يسر، لأنها

مشتقة من البشر وهو السرور ، لأنها يظهر أثرها في أسارير الوجه ، ولذلك قالوا إذا أطلقت لا تكون إلا بخير .

وهناك من قال : إن التبشير في أصل اللغة يصح أن يستعمل في البشارة بخير ، أو في البشارة بالشر ، نعم إذا كانت بالشر فإنها تقيد .

وعلى أي حال يفهم من القرآن أن البشارة متى أطلقت فإنها لا تكون إلا بخير ، لأن كل ما سرد من الآيات التي ذكرت فيها مادة البشارة فإنما كانت بخير .

البشارة المقيدة:

هناك آيات جاءت فيها البشارة مقيدة ، لا تزيد على أربع آيات ، أولها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩] .

الثانية : قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤] .

الثالثة : قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجن: ٧، ٨] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ أَنْتَ الْكَاذِبُ الْحَكِيمُ ﴾ [الأنعام: ١-٤] .

﴿ وَمَنْ أُلْتَمِسَ مِنْ شَيْءٍ لَّهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [التوبة: ٦] . وإذا نتل على آية أئنا ولي مستكبراً كان لم يسمعها كان في أذنيه وقراً فبشيرة عذاب أليم ﴿ [لقمان: ٦، ٧] .

وأياً ما كان فالحمد لله إن البشارة الواردة في القرآن لم تستعمل إلا في البشارة بما يسر ، وبما يفرح ، فينبغي للمؤمن أن يتدبر القرآن العظيم ، وأن يتخلق بما يوجب له البشارة .

استدراك لبعض الآيات في البشارة:

لقد غفلنا أيضاً عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [١٣] لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [يونس : ٦٣ ، ٦٤] ، ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ، هذه الآية جاءت بعد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١٣] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] .

قال العلماء : الأصل في الواو واللام والياء ، أن يدل على مادة القرب ، فحينئذ الولي هو الذي يتقرب إلى الله تعالى بما يرضيه ، الولي هو المحفوظ من الذنوب ، لأن الأنبياء معصومون ، والأولياء محفوظون ، والمنكرون محرومون ، كما يقول بعض العلماء ، لأجل ذلك ينبغي للمؤمن الصالح أن يسارع إلى ما يوجب له البشارة في الدنيا والآخرة ، وهي : التقوى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١٣] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ [١٣] لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] ، قالوا : البشراى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، هي التي يفسرها قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [٣٢] نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿ [٣٢] نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿ [فصلت : ٣٠-٣٢] .

عود إلى الآية موضوع الدرس:

نرجع إلى الآية القرآنية التي هي آية المحاضرة ، وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ .

معنى المخبتين:

المخبثون جمع مخبت ، وهو مشتق كما قال علماء اللغة من الخبت ، والخبت هو المكان المظلم من الأرض ، ولأجل ذلك قالوا معنى المخبثين ، المتواضعين ، وهناك من قال المخبثون : الخاشعون ، وهناك من قال المخبثون الصابرون ، وهناك من قال المخبثون : هم الذين لا يظلمون ولا ينتصرون إذا ظلموا ، هذا كمال في الإنسان ، بحيث لا يظلم غيره ، وإذا ظلمه غيره لا ينتصر ، وإن كان الله تبارك وتعالى أباح له أن ينتصر حينما قال : ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] ، وحينما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] ، وحيث قال جلت عظمتة : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] ، وحيث قال عز من قائل : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] ، وحيث قال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] ، وإن كان الصبر أولى وأرفع درجة ، ولكن إذا أراد الإنسان أن يرد على من ظلمه ويقول له مثل ما قال له ، فلا محذور في ذلك ، ولا شيء من جهة الشرع . لأجل ذلك قالوا : المخبثون هم الخاشعون ، المتواضعون ، المظمتون ، الخائفون ، الوجلون ، ولأجل ذلك جاء بعدها قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] . أي خافت .

فلا يكون الإنسان مبشراً من الله إلا إذا كان متصفا بهذه الصفة ، وهو أنه متى سمع ذكر الله فإنه يخشع ويوجل ويخاف ، وتدركه الخشية ، وهذا دليل على العلم ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٣٤ الذين إذا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٣٤ ، ٣٥] ، وهذه صفة من صفات المؤمنين ، ذكرها مولانا جلت عظمته في قوله عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ٢ الذين يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ٣ أولئك هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢-٤] .

دلالة الحصر في الآية الكريمة :

الإتيان بأداة الحصر أولاً ، والختم بالجملة التي المسند إليه فيها اسم إشارة ، يفيد أن الحصر ، حصر الإيمان فيمن اتصف بهذه الصفات التي هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ، إذا تليت عليهم آياته فاستمعوا لها ازدادوا إيماناً ، لأن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب الإمام البخاري والمحققين من علماء السنة وعلماء الكلام ، فإنهم يقولون : الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، وإلى ذلك يشير الإمام اللقاني في «جوهرة التوحيد» ، حيث يقول :

ورجحت زيادة الإيمان بما تزيد طاعة الإنسان

ونقصه بنقصها .

دليل زيادة الإيمان ونقصانه :

يدل عليه قول الله تعالى : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ، ويدل عليه أيضا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] ، إلى غير ذلك مما ذكره الإمام البخاري في كتاب الإيمان ، استدلالا على أن الإيمان يزيد وينقص ، لأجل هذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ، زادتهم أعمالا كثيرة ، زادتهم طاعات وعبادات ، لأنهم آمنوا بالقرآن وصدقوا به ، واقشعر جلدتهم من أجله وخافوا الله ، ووجلّت قلوبهم ، فحملهم ذلك على زيادة الطاعات ، وعلى الزيادة من الأعمال الحسنة التي يجدونها ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُوْا ﴾ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] ، لا يتوكلون على غير الله ، قطعوا النظر عما سوى الله ، لا يخطر ببالهم غير الله ، لا يشتغلون بغير ذكره ، لا يشتغلون بغير مشاهدته ، لا يشتغلون بغير مراقبته لا يعتقدون أحدا يضر أو ينفع سواه سبحانه لا إله إلا هو : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، سبحانه لا إله إلا هو .

صفة التوكل على الله :

ينبغي للمؤمن الصالح أن يتوكل على ربه حق التوكل ، قال الله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ، وقال جلت عظمتة : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٢] ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣] ، إلى غير ذلك من الآيات المرغبة في التوكل على الله سبحانه لا إله إلا هو ، لأنه هو المعطي وهو المانع وهو الخافض وهو الرافع وهو الضار وهو النافع ، سبحانه لا إله إلا هو : ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر : ٢] .

الله قل وذو الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا في الحال والماضي والاستقبال
فالواجب على المؤمن الصالح ، وعلى العبد الموقن ، أن لا يتوكل إلا على مولاه ، وأن لا يعتمد إلا على خالقه الذي أنشأه وسواه ، وهذا هو الواجب .

بعض صفات المؤمنين في الآية :

وصف الله المؤمنين بهذه الصفات حيث قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، فهذه الصفات ذكرها سبحانه وتعالى للمؤمنين وحصر الإيمان فيها ، بحيث إن لم تكمل هذه الصفات في المؤمن فإيمانه ليس بكامل .

وجل القلب وزيادة الإيمان والتوكل :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ - هذه هي الأولى -
 ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ هذه هي الثانية - ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ - هذه الثالثة - ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ - هذه الرابعة -
 ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ - هذه هي الصفة الخامسة .

إقامة الصلاة :

الذين يقيمون الصلاة ، ما من آية في القرآن إلا والله تعالى ينص على إقامة الصلاة ، لا على وجوبها ، وذلك لأن المقصود من العبد أن يقف أمام سيده وقوف إجلال ، وقوف إكبار ، وقوف إعظام ، وقوف مناجاة ، يغتنم هذه الفرصة لأن الصلاة صلة بين الله وبين عباده ، لأنه ينبغي له أن يتأمل ويفكر فيما جاء عن النبي ﷺ في الحديث القدسي ، الذي يرويه الإمام مالك في «الموطأ» ، ويرويه كذلك الإمام مسلم في «صحيحه» رضي الله عنهم أجمعين ، ذلك هو قول النبي ﷺ ، قال الله ﷻ : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» .

إطلاق الصلاة على الفاتحة :

يقول العلماء : الصلاة هنا أطلقت على الفاتحة ، ولماذا أطلقت على الفاتحة ؟ لأن أعظم أركان الصلاة الفاتحة كما يقولون : الحج عرفة ، لما كان أعظم أركان الحج هو الوقوف بعرفة أطلق عليه أنه هو الحج ، فقل : الحج عرفة ، كذلك لما كان أعظم أركان الصلاة الفاتحة ، أطلق عليها أنها صلاة ، لذلك قال الله تعالى : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» والمراد بالصلاة قلنا الفاتحة .

آيات الفاتحة سبعة :

الفاتحة كما تعلمون تشتمل على سبع آيات : ثلاث منها خاصة بمولانا سبحانه لا إله إلا هو ، وثلاث منها خاصة بالعبد ، وواحدة بين الله تعالى وبين عبده .

ثلاث آيات خاصة لله :

أما الثلاث الخاصة بمولانا سبحانه وتعالى في مقام المكاملة ، ذلك لأن الفاتحة مكاملة بين الله وبين عبده ، فالآية الأولى هي : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، حينما يقول العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ لا شك أنه يعترف بأن الشاء هو مستحق لله ، والذي يستحقه هو الله سبحانه لا إله إلا هو ، ولا يستحقه غيره ، الحمد لله ، وحينما يلفظ بقوله : ﴿ لِلَّهِ ﴾ ، هذا موطن إقرار بالألوهية ، وحينما يقول : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، هذا موطن إقرار بالربوبية ، لأنه هو رب العالمين ، سبحانه لا إله إلا هو ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولذلك يقول الله تعالى : «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، قال الله : حمدي عبدي ، وإذا قال العبد : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ هذا اعتراف وإقرار من العبد بأن الله تعالى هو المستحق لجميع صفات الكمال سبحانه لا إله إلا هو ، ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ . هنا يقول الله تبارك وتعالى : «أثنى علي عبدي ، فإذا قال العبد : ﴿ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، قال الله : مجدي عبدي»^(١) وهنا يقر العبد ، ويكون هذا الموطن من الفاتحة ومن المكاملة موطن إقرار بأن الله هو الذي يملك يوم الدين ، وهو الذي يملك يوم الجزاء ، ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

(١) سبق تخريجه .

﴿كَسَبَتْ لَا تُظْلَمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، ﴿لَمَنِ أُمْلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، سبحانه لا إله إلا هو .

العبد يعترف لله تبارك وتعالى ويقر له بأنه هو الذي يملك يوم الجزاء ، لأن الدين في اللغة هو الجزاء .

وهذا هو الذي عبر عنه الله تعالى في الحديث القدسي : «يقول العبد : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول الله : مجدي عبدي» .

آية مشتركة بين الله وبين العبد:

جاءت الآية المشتركة بين الله وبين عبده وهي : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، هذا الاعتراف الحاصل من العبد في هذا الموطن بالعبودية فإنه يعترف بأنه عبد الله ، والعبودية خاصة بالله ، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، فهو إقرار بالعبودية ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، هذا اعتراف من العبد بالعجز ، واعتراف منه بأنه متصف بأوصاف العبودية ، لأن أوصاف العبد العجز عن كل شيء ، وذلك لأن الله تعالى هو القادر .

لذلك كان بعض الصالحين يدعو فيقول : يا غني ، من للفقر غيرك ، يا قوي من للضعيف غيرك؟ يا قادر من للعاجز غيرك؟ يا عزيز من للذليل غيرك؟

لذلك حينما يقول العبد ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فإنه يعترف بأنه عاجز عن جميع أموره ، وأنه لا يمكنه أن يحصل عليها إلا إذا أعانه ربه ، وأعطاه ما يطلب ، ولأجل ذلك يتخلص إلى الدعاء في حسن التخلص من ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، إلى قوله جلت عظمتة : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

حيث إننا عاجزون لا قدرة لنا على أن نقوم نفوسنا ، لا قدرة لنا على أن نصلح أحوالنا ، لا قدرة لنا على أن ننفع نفوسنا ، لا قدرة لنا على أن نكون عبادًا مخلصين ، لا قدرة لنا على أي شيء من الأشياء ، بل نحن عاجزون ، وبك نستعين ، ولأجل ذلك نتوجه إليك يا مولانا بالدعاء ، فنقول : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ .

ثلاث آيات خاصة بالعبد :

هذه ثلاث آيات هي للعبد ، وللعبد ما سأل ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، هذه هي الآية الأولى ، ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، هذه هي الثانية . ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، هذه هي الثالثة ، ويقول العلماء : هذا من الأدلة التي تؤيد الذين يقولون إن النبي ﷺ لم يسم -يعني قبل الفاتحة- وذلك لأن هذا الحديث ليست فيه التسمية ، وقد قال الله فيه : «قسمت الصلاة» -يعني الفاتحة- ففاتحة الكتاب سبع آيات على ما ذكرنا ، الآيات الثلاث الأولى ، خاصة بالله ، والآيات الأخيرة الثلاث ، خاصة بالعبد ، والآية المتوسطة بينهما ، هي مشتركة بين الله تعالى وبين عبده ، فهي مكاملة بين الله تعالى وبين عبده في الصلاة ، ولأجل ذلك ينبغي للعبد أن يقيم صلاته ، وإقامة الصلاة الإتيان بها .

إفادة أخرى في الحديث الشريف :

يقول العلماء أيضًا مما يستفاد من هذا الحديث ، أن القرآن العظيم على كل حال فيه الشفاء ، وفيه النور ، وهو الهدى واجتمع فيه ما افترق في غيره ، ولأجل ذلك كانت جميع معانيه مجموعة في الفاتحة ، لأن الإنسان لو

أمكنه أن يشرح فاتحة الكتاب شرحًا واسعًا ، وأن يطالع كل ما قيده العلماء حولها من النصوص ، ومن الفهوم ، ومن الغوامض ، لعجز عن ذلك ، لأنها جامعة ، وهي أم القرآن كما هو معلوم .

المقصود بإقامة الصلاة في الآية :

الشاهد عندنا في أن إقامة الصلاة المقصود منها هو أدائها على أحسن حال ، فلذلك أن يؤديها الإنسان في وقتها المختار ، أول الوقت رضوان الله ، ووسطه رحمة الله ، وآخره عفو الله ، وفي «صحيح الإمام البخاري» في كتاب مواقيت الصلاة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «سألت رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال؟ فقال : الصلاة لوقتها ، قلت : ثم أي؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أي؟ قال : الجهاد في سبيل الله» . قال عبد الله ابن مسعود : حدثني بهن رسول الله ﷺ ، ولو استزدته لزادني .

فلأجل ذلك الصلاة شيء عظيم ، ولإقامتها المحافظة عليها في أول أوقاتها ، فمن أراد الحصول على رضوان الله فليأت إلى حضرة الله ، فإنه دعاك لحضرته ، ليكرمك ، دعاك إلى مناجاته ليجللك ، دعاك إلى مناجاته ليعطيك ، دعاك إلى مناجاته ليكملك ، دعاك إلى مناجاته لينقلك إلى حضرته ، سبحانه لا إله إلا هو ، المصلي يناجي ربه ، كما يقول سيدنا ﷺ ، ففي البخاري جاء في أحاديث كثيرة أن المصلي يناجي ربه .

وكذلك روى الإمام مالك في «الموطأ» أن النبي ﷺ خرج على أصحابه ليلاً وهم يصلون ، ويجهر بعضهم على بعض بالقرآن ، فقال لهم ﷺ : «إن أحدكم إذا صلى فإنما يناجي ربه ، فلينظر بم يناجي ، ولا يجهر بعضهم على بعض بالقرآن» .

فإذًا نهانا سيدنا ﷺ عن أن يجهر بعضنا على بعض بكتاب الله ، فمن باب أولى وأحرى لا يجوز لنا أن نجهر على المصلي بغير كتاب الله ولا بكتاب الله ، ولأجل ذلك ما يفعله كثير من الناس من أنهم يأتون إلى المساجد ويقرءون برفع الصوت ، ويشوشون على المصلين ، فهو ليس من الدين في شيء بدليل هذا الحديث الشريف ، ولذلك يقول في «المختصر» : وأقيم القارئ في المسجد يوم خميس أو غيره .

فيجب على من ولاه الله الأمر أن يغير هذه المناكير ، وذلك لأنه لا سبب للمناجاة ، ولا سبيل للحضور في الصلوات ، ولا سبيل لإصلاح الإنسان نفسه إلا إذا وجد من يعينه ، وإلا إذا كان هناك من ينقي طريقه من المشوشات ، ومن الأمور التي لا تتركه يخشع في صلاته .

الخشوع في الصلاة من إقامة الصلاة:

إن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ ، ٢] ، أما إذا كان الإنسان يصلي بلا قلب ، فقد قال الشيخ إسماعيل بن المقرئ في قصيدة له :

تصلي بلا قلب صلاة بمثلها يكون الفتى مستوجباً للعقوبة

وقال الشيخ الأكبر الشيخ أبو العباس :

كم من مصل ما له من صلاته سوى رؤية المحراب والخفض والرفع

يرى شخصه فوق الحصيرة قائماً وهمته في السوق في الأخذ والدفع

وقال أيضاً :

رفعوا الأنامل للصلاة وكبروا فبدا الخشوع بخوفهم يترنم

وبدت سواكب دمعهم مسبولة خوفاً لما قد أخرجوا أو قدموا
هذي صلاة المتقين، وغيرهم نائي الفؤاد واللسان يكلم

حال النبي ﷺ والسلف الصالح في الصلاة:

قد علمنا أن سيدنا محمداً ﷺ كان يسمع لصدره الشريف أزيز كأزيز
المرجل من البكاء وهو في الصلاة ﷺ، وكذلك اقتدى به خلفاؤه
الراشدون، أبو بكر، وعمر، وعثمان.

فأبو بكر رضي الله عنه كان رقيق القلب، كثير البكاء، كثير الدمع، لا يمسك
عينه، ولذلك قالت عائشة: «إن أبا بكر رجل أسيف متى يقوم مقامك
لا يسمع الناس من البكاء، فلو أمرت غيره؟» في الحديث المشهور المعلوم
المكرر في «صحيح الإمام البخاري»، وكذلك سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه،
كان إذا قام في الصلاة يسمع له نشيج من البكاء رضي الله عنه، وكذلك سيدنا
عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان يقرأ القرآن كله في ركعة الوتر مع البكاء، فهو
من أجل الصحابة الذين ختموا القرآن في ليلة، ونحا نحوه أسيد بن
حضير، وتميم الداري، ومن الأئمة، الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

وكان الإمام البخاري رحمته الله يقرأ القرآن في رمضان في كل يوم ختمة،
وفي العشر الأواخر يزيد عشر ختمات، فيتم أربعين ختمة في الشهر كله
رضي الله عنه، ونفعنا بذكرهم.

الكلام عن البكاء في الصلاة:

يقول فقهاؤنا في قضية البكاء: إنه إذا كان للتخشع فإنه جائز مطلوب،
ذلك لأن الإنسان تحمله الخشية، والخوف، والوجل من الله على أن تسيل
دموعه، وإذا خاف من الله وبكى فإنه كما تعلمون يكون أحد السبعة

الذين جاءوا في حديث البخاري ومسلم : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ﷺ ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة أخفاها - أو فأخفاها - حتى لا تعلم - أو حتى لا تعلم - شمله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» .

كلام للحافظ ابن حجر العسقلاني :

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» : «يحتمل أن يكون البكاء بكاء خشية وحزن وخوف ، ويحتمل أن يكون بكاء فرح ؛ لأنه إذا وقع له التجلي بصفة الجمال فيكون بكاءه بكاء فرح ، وإذا وقع له التجلي بصفة الجلال يكون بكاءه بكاء خوف وخشية ، وعلى أي حال ، فالبكاء في الصلاة وفي غيرها من خشية الله محمود ، وجاءت فيه أحاديث كثيرة في «الصحيحين» وغيرهما أن الله تبارك وتعالى لا يعذب جسدا سقطت عليه دمعة من العين من خشية الله» .

فينبغي للإنسان أن يكون على بينة من هذا ، وأن يعلم أن الله تبارك وتعالى ينبغي لعباده أن يخضعوا له ، وأن يبكوا خشية منه سبحانه لا إله إلا هو ، وأن يخشعوا في صلاتهم ، وبذلك تكون صلاتهم يعني صلاة المفلحين الناجحين الرابعين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿١﴾ .

ليس كل مصل مقيماً للصلاة :

رضي الله عن الإمام ابن عطاء الله الذي يقول : ليكن همك إقامة الصلاة لا وجودها ، فما كل مصل مقيم ، والله تعالى لم يقل لنا صلوا ، بل قال : أقيموا

الصلاة وآتوا الزكاة، أول آية من القرآن العظيم تقول: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ الَّذِي هُوَ يَلْعَنُ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ويقول جلت عظمتها في نفس السورة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

الآيات القرآنية التي وردت في القرآن العظيم ورد فيها الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن هذا ما نحن فيه من قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣]، فإقامة الصلاة هي المأمور بها كتابًا وسنة، حتى الأحاديث، حديث سيدنا جبريل: «حينما سأل سيدنا محمدًا ﷺ عن الإسلام، قال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»^(١)، وكذلك في قوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة»^(١).

آية جمعت للكمالات الإنسانية:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾، أو ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ [البقرة: ١٧٧]، على القراءات التي ذكرها العلماء علماء التفسير وعلماء القراءات، ﴿أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولكن البر أو - ولكن البر - ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾، «هكذا برّ بمعنى بار» ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) سبق تخريجه.

الْآخِرِ وَالْمَلَكَةِ وَالْكَتَبِ وَالنَّبِيِّنَ وَعَاتَى الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ .

حتى قال العلماء إن هذه الآية هي مستجمعة لجميع الكمالات الإنسانية
هذه الآية التي هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ ، إلى آخرها ،
تستجمع جميع الكمالات الإنسانية على كثرة طرقها ، وتشعبها ، وذلك
لأنها محصورة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، والمواساة
إلى آخره .

صحة الاعتقاد :

أما صحة الاعتقاد فأشير إليه بقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَكَةِ وَالْكَتَبِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ ﴿البقرة: ٢٧٧﴾ .

حسن المعاشرة :

أما حسن المعاشرة فأشير إليه بقوله تعالى : ﴿وَعَاتَى الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى
الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ .

تهذيب النفس :

أما تهذيب النفس فهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿وَعَاتَى الْمَالِ عَلَى
حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ﴾ ، ﴿الْبَأْسَاءِ﴾ كما تعلمون : الفقر ، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ : الضر ، ﴿وَحِينَ
الْبَأْسِ﴾ : حين لقاء العدو ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، في الإيمان ، ﴿وَأُولَئِكَ
هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾ .

فقال النبي ﷺ: «من استجمع هذه الأمور فقد استكمل الإيمان» أو كما قال ﷺ.

صفة الإنفاق عند المؤمنين:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٢، ٣] ينفقون النفقة الواجبة والنفقة غير الواجبة.

النفقة الواجبة:

هي النفقة على العيال، وعلى الأولاد الصغار، وعلى غير ذلك مما يجب على الإنسان، وكذلك النفقة في الحج والنفقة في الجهاد فهذه من أنواع النفقات الواجبة.

النفقة غير الواجبة:

هي ما سوى هذا كالتصدق، ورحمة الفقراء والمساكين والبنائين. الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، من لا يرحم لا يرحم، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

أمر الله للمؤمنين بالإنفاق:

نفقة المال شيء عظيم أمر الله تبارك وتعالى بها حيث قال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلَفُهُ﴾ [سبا: ٣٩].

النفقة في سبيل الله :

هناك نفقة يضاعفها الله تعالى بسبعمائة ضعف ، وهي النفقة في سبيل الله ، كما قال جلت عظمته : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

أمور تحبط أجر النفقات :

ينبغي للمنفق أن يقصد بنفقته وجه الله حتى يؤجر عليها ، وأن لا يكون مرئياً ، يقصد أن يراه الناس أو أن يسمع الناس به ، فإن الله لا يقبل عمله متى ما كانت فيه شائبة من الرياء ، وذلك لأن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما خالص له ، والرياء جاء في الحديث ، أنه الشرك الأصغر ، كما أن الشرك الأكبر هو أن تعتقد أن مع الله إلهاً آخر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقد قال الله تعالى في مدح من ينفق في سبيل الله غير مرء : ﴿ لَا بُطْلُواْ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [٢٦٣] يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا بُطْلُواْ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة : ٢٦٣] ، [٢٦٤] ، وضرب الله لذلك مثلاً قال : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٢٦٤] وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٤ ، ٢٦٥] .

وما أحسن ختم هذه الآية بهذا الوعيد الشديد الذي يستفاد منه أن من أشرك مع الله غيره ، وراعي أو سمع ، فإن الله بصير بعمله ، وأنه سبحانه وتعالى لا يشبهه عليه ، ولا يقبله منه : ﴿ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] .

الوعيد الشديد لأهل الرياء والسمعة :

جاء في «صحيح الإمام مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله المال ، ورجل آتاه العلم ، ورجل آتاه الشجاعة ، فيوقف الأول بين يديه - الذي آتاه المال - فيقول له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ، يقول : بلى يارب ، فيقول : فماذا عملت فيما أعطيتك؟ فيقول : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق المال فيها إلا وقد أنفقت ، فيقول الله له كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : إنما أنفقت ليقال فلان جواد ، وقد قيل ، اذهبوا به إلى النار ، ثم يوقف العالم بين يديه ويقول له : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : فماذا عملت فيما علمت؟ فيقول : تعلمت فيك العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، فيقول الله له - المطلع على الضمائر والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يقول له - : كذبت ، وتقول له الملائكة كذبت ، ويقول الله : إنما قرأت ليقال فلان قارئ ، وتعلمت العلم ليقال فلان عالم ، وقد قيل ، اذهبوا به إلى النار ، ثم يؤتى بالشجاع فيقول له : ألم أعطك الشجاعة؟

فيقول : بل يارب ، فيقول : فماذا عملت فيها؟ يقول : يارب قاتلت فيك حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة له : كذبت ، ويقول الله : إنما قاتلت ليقال فلان جريء شجاع - يعني - وقد قيل ، اذهبوا به إلى النار ، فقال لهم النبي ﷺ : أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [١٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْتَارُ وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [هود: ١٥، ١٦] ، ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] .

الأمر صعب ، والإنسان في مكان الامتحان ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢] ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

ما المراد بالرزق الكريم؟

هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [٢] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ ﴾ متفاوتة المرتبة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢-٤] ، الرزق الكريم هو الجنة ، الأجر الكريم هو الجنة ، ورزق كريم لأنه من عند الله ، وما بالك بالرزق الذي هو من الكريم لا يكون إلا كريماً فهو كريم ، رزق كريم ، من رب كريم ﴿ هَلْ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أجر الصابرين على المصائب:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، الصابرين على ما أصابهم في سبيل الدعوة إلى الإسلام، كما أصاب سيدنا محمدًا ﷺ، فقد شجوا وجهه، وكسروا ربايعيته، وفعلوا ما فعلوا، ومثلوا بعمه سيدنا حمزة، وحلف أن يمثل بسبعين من أشرافهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧]، فالصابر جزاؤه على الله: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولذلك يقول الله في آية أخرى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، ليس المراد أنه يقول هذا بلسانه بل المراد أنه يكون قلبه مطمئنًا ساكنًا راضيًا بقضاء الله تعالى وقدره، لا يجزع عند المصيبة ليكون ممن أثنى الله عليه، وأعطاه عدلين وعلاوة في هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾، والمصيبة هي كل نكبة تصيب الإنسان في بدنه أو في ولده أو في ماله أو في أهله أو في أصدقائه أو في أحبائه... كيفما كان الأمر ينبغي له أن يرجع إلى الله تبارك وتعالى، وأن يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه الإيمان لا يكمل إلا إذا آمن الإنسان بالقضاء والقدر.

ماذا يقول المؤمن إذا أصابته مصيبة:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ، جاء في الحديث أن سيدنا محمدًا ﷺ لما مات أبو سلمة وحزنت عليه زوجته ولم تصبر فأمرها ﷺ أن تقول : «اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرًا منها» ، فقالت له يا رسول الله ، ومن خير من أبي سلمة ، فأعقبها الله من هو خير ، وهو سيدنا محمد ﷺ الذي هو خير من العالم كله .

وجاء في الحديث عن عائشة ؓ : «أن النبي ﷺ كان جالسًا فانطفأ السراج ، فقال ﷺ : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ، فقالت عائشة : يا رسول الله إنما هو السراج انطفأ ، يعني هذا لا يعد مصيبة في نظرها ، فأجابها ﷺ بقوله : كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة»^(١) فلهذا ينبغي للإنسان أن يصبر ويحتسب .

الصلاة تعلم الأخلاق الكريمة:

قال العلماء : حضر بعض الصالحين إلى الإسكندرية فاجتمع عليه علماءؤها وطلبتها ليعنفوه ويلقوا عليه أسئلة بقصد تعنيته ، فدخلوا عليه وسلموا وجلسوا ، فالتفت إليهم وقال لهم : هل صليتم؟ قالوا : وهل فينا من لا يصلي؟! قال : هل أنتم ممن إذا أصابه الشر لا يجزع ، وإذا أصابه الخير لا يمتنع؟! قالوا : لا ، قال : إذن ما صليتم أبدًا ، إن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] ، إذن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

(١) عزاه صاحب «الكنز» (٦٦٣٩) لابن السني في «عمل اليوم و الليلة» عن أبي إدريس الخولاني مرسلًا .

إذن الصلاة لا تترك في الإنسان خلقاً ذميماً ، حينما يعلم أن من إذا مسه الشر جزع ، وإذا مسه الخير منع ، ليس من المصلين ، فإنه يتنزه عن هذين الخلقين ، ويكون من المصلين بحيث إذا مسه الشر لا يجزع ، وإذا مسه الخير لا يمنع ، كذلك إذا علم أن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، فإنه إذا كان يصلي فلا يناسب أن يخلط العبادة بمعصية ، أن يخلط الطاعة بمعصية ، أنا من المصلين والله يقول : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، فلا يجمل بي أن أقرب منكراً ، أو أتعاطى فاحشة من الفواحش ، ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، وقد قال ﷺ : «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً»^(١) ، وفي رواية أخرى : «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»^(٢) .

حقيقة العبودية والاستعانة :

ورد في الخبر أن الله تبارك وتعالى إذا قال العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، يقول الله له : كذبت ، لو كنت تعبد إياي لم تخف ولم ترج سواي ، ولو كنت تستعين بي لم تسكن إلى مالك وأهلك ، فلينظر الإنسان إلى هذه النصوص الشريفة التي يرشدنا بها سيدنا محمد ﷺ ويحضننا بها على أن نكون متصفين بعالي الأخلاق ، متنزهين عن سفاسفها ، ذلك لأنه ﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٦٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

وقد أمرنا ﷺ ونهانا ، وحذرنا وأنذرنا ، وبشرنا ورغبنا ورهبنا ، وما قصر من نصائحه معنا ﷺ ، فلأجل ذلك الواجب علينا أن نكون من المتأملين الذين يتأملون القرآن ويتلونه حق تلاوته ، ويؤمنون به ، ويتدبرونه ، ويعملون بما فيه ، ويعملون بما أتى به سيدنا محمد ﷺ ، وهذا هو الإسلام ، وهذه حقيقة المسلم وحقيقة المؤمن .

من هو المنوط بالتبشير:

أما من لا يفعل شيئاً من ذلك فإنه خارج من المبشرين ، لأن الله يقول : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج : ٣٤ ، ٣٥] ، فمن جمع بين هذه الأمور الأربعة فإنه يكون مبشراً من قبل رسول الله ﷺ بأمر من الله ، ومن لم يجمع بين هذه الأمور ، ولم يرفع بذلك رأساً ، ولم يلتفت إلى هذه الأوامر وإلى هذه الرغائب ، فإنه يحرم من البشارة .

لا بشرى للمجرمين:

الذي يدل على هذا وإن كان ذلك في خصوص -يعني- الكفار ، ولكن ربما يفهم من اللفظ أن من كان متصفاً بصفة كصفات الكفار فإنه يجري مجراهم ، يقول مولانا في هذا الموضوع سبحانه لا إله إلا هو : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان : ٢٢] ، وإن كان هذا ورد في حق المشركين الذين طلبوا أن ينزل عليهم الملك ، أن يروا الملائكة ، أو يتجلى لهم الحق سبحانه وتعالى فيرونها ، ويخبرهم بأن رسول الله ﷺ نبي رسول : ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٢١] ، انظر إلى هذه الأوصاف وتأمل فيها .

قال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ، قال علماء التفسير: يوم يرون الملائكة عند الموت، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرََهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأنت الله ليس بظالمٍ للعبيد ﴿[الأنفال: ٥٠]، وإن كانت هذه الآية خاصة بالكفار فهناك في القرآن ما يجر ذيله على أن البشري إنما هي للمؤمنين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتٍ أَلَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٣، ٦٤].

فهذه الآية تفيد أن المؤمن إذا كان يتقي الله ويخافه، فإنه يبشر في الدنيا ويبشر في الآخرة، كما يفيد قوله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

صفات البشر:

التبشير ينبغي أن يقوم به كل من أنس من نفسه أهلية، كل من أنس من نفسه قدرة على التبشير ينبغي له أن يبشر، وقد أمر ﷺ بالتبشير، ففي البخاري أنه لما بعث سيدنا أبا موسى الأشعري وسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قال لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا...» إلخ. وقال عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام أحمد وغيره: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة».

الرسول ﷺ يقول: بشر، بشر أيها المسلم، بشر أيها الفقيه، بشر أيها العالم، بشر أيها المحدث، بشر أيها المؤمن، وذلك لأنه إذا بشرت،

وهدى الله على يديك رجلاً واحداً فذلك خير لك من الدنيا وما فيها كما جاء عن سيد البشر ﷺ .

بشر هذه الأمة بالتمكين والنصر والدين ، لكن من عمل منهم عمل الآخرة لأجل الدنيا فليس له في الآخرة من نصيب بشرى هذه الأمة الرؤيا الصالحة .

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركناً غير منهدم
لما دعا الله داعيناً لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

بشرى لقلب الهائم المحزون بشرى له بإيابك الميمون
أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه قول المبشر بعد اليأس بالفرج
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

خاتمة ودعاء:

على كل حال هذه المادة المتعلقة بالتبشير كما تعلمون فقد جاءت في القرآن متنوعة ، ونرجو الله تبارك وتعالى أن نكون من المبشرين الذين بشرهم بالقرآن .

ومن اندرج في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿٣١﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم

يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٢].

ونسأل الله تبارك وتعالى أن يختم لنا بخاتمة حسنة، وأن يجعلنا من
المقبولين، وأن يجعلنا من المبشرين، وأن يلطف بنا ويتولانا، ويتولى جميع
أمة سيدنا محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها وأن يتولى رؤساءها
وأمرائها وجميع ولاية أمرها، وأن يزرع الله في قلوبهم العطف والرحمة على
الرعايا، وأن يؤلف بين قلوب عباده المؤمنين، وأن يجعل هذا الشهر
المبارك شهراً عظيماً، يتقبل فيه جميع أعمال عباده المؤمنين، ويعفو عن
سيئاتهم، ويكرمهم ويعتقهم من النار، ويتجاوز عنهم ويصفح، فقد
رغبنا في الصفح والعفو، وهو العفو القدير، سبحانه لا إله إلا هو.

المحاضرة الحادية والثلاثون بعد المائتين

السبع الموبقات

الحديث موضوع الدرس:

روى البخاري فقال حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال حدثنا سليمان عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» .

من أخرج الحديث من الأئمة:

هذا الحديث الكريم أخرجه الإمام البخاري في عدة أبواب ، أخرجه في باب قذف المحصنات ، وأخرجه في كتاب الوصايا ، وأخرجه في كتاب الطب ، وكذلك أخرجه الإمام مسلم رحمته الله في كتاب الإيمان ، وأخرجه أبو داود في كتاب التفسير ، وأخرجه النسائي في كتاب الوصايا والتفسير ، فهو من الأحاديث التي أخرجها هؤلاء الأئمة الأربعة رضوان الله تعالى عليهم .

المراد بالموبقات الأمور باجتنابها:

الحديث الشريف يوضح لنا الكبائر وهي الموبقات ، ولذلك جاء في حديث آخر : «الكبائر الشرك بالله»^(١) ، فالمراد بالموبقات التي أمرنا باجتنابها الرسول ﷺ هي الذنوب الكبائر .

(١) سبق تخريجه .

دلالة قوله ﷺ «اجتنبوا»:

لفظ اجتنبوا هو أبلغ في الأمر باجتنب المحرمات ، وذلك لأنه يقتضي الابتعاد عن هذه الذنوب التي نص عليها الرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف ، «اجتنبوا» وقد جاء القرآن موافقاً لهذا ، أمرنا باجتنب المحرمات الكثيرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [٣٠] حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [الحج : ٣٠ ، ٣١] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَفَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة : ٩٠] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] ، فلفظ الاجتناب كما ورد في القرآن ، كذلك ورد في سنة سيدنا محمد ﷺ . فالقرآن والسنة متفقان في التعبير بلفظ الاجتناب .

أيهما أبلغ : الاجتناب أم التحريم؟

الاجتناب أبلغ من لفظ التحريم ، وذلك لأن الله تبارك وتعالى يأمرنا بالتباعد عن هذه الأشياء التي أمر باجتنابها ، ولأجل ذلك يقول المرشد الأعظم ، والناصح الأكرم ، ﷺ ، الذي هو حريص علينا ، ويعز عليه كل ما يعنتنا ، يقول لنا : «اجتنبوا» ، لأجل أن يصلح مجتمعنا ، ولأجل أن تتم أمورنا ، لأن الله تبارك وتعالى إذا أنعم على قوم نعمة ، فإنه لا يغيرها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، كما قال جلت عظمته ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٣] ، فما دمننا نمثل أوامر الله وأوامر رسول الله ﷺ إلا والنعمة تتوالى علينا ، وتتوارد علينا بكثرة ، نعم إذا بدلنا وغيرنا وخالفنا ولم نمثل فإن الله تبارك وتعالى ربما غير تلك النعمة بحلول النعمة بنا ، ولأجل ذلك

سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذَلَّةٌ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فجزاء النصر هو التقوى، ونحن قد أنعم الله علينا كذلك بالإيمان فكان الجزاء الواجب علينا شكر الله، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه.

الاجتناب والامتنال وأثر كل منهما على النفس:

الاجتناب أشد على النفس من الامتنال، ولأجل ذلك لا يصدر إلا من الصديقين. أما امتثال الأوامر، فإنه يكون سهلاً، نعم الاجتناب هو الصعب، ولأجل ذلك لا يصدر إلا من صديق، ولأجل هذا يقرر علينا المصطفى ﷺ أوامره الشريفة بأن نجتنب كل ما فيه هلاكنا، كل ما يوبقنا، كل ما يهلكنا يجب علينا اجتنابه، امتثالاً لأوامر الرسول ﷺ ولأجل هذا يقول الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات».

معنى الموبقات: المهلكات:

الموبقات المهلكات في «صحيح الإمام مسلم»، الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها، إما أن يعتق الإنسان نفسه إذا اجتنب الكبائر، وإما أن يوبقها إذا وقع في الكبائر.

ولأجل هذا يقول الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» أي المهلكات يقول: وبق يبق من باب جلس يجلس، وتقول: وبق يوبق كعلم يعلم، إذا هلك هو في حد ذاته، تقول أوبقه عمله إذا أوقعه في الهلاك، ولأجل هذا يقول الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات».

أنواع الذنوب:

إن الذنوب كما قال علماءنا تنقسم إلى كبائر وصغائر ، هذا هو التحقيق .

تعريف ابن مسعود رضي الله عنه للكبيرة :

إن كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : الكبائر هي كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى قوله جلت عظمتة : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] .

تعريف ابن عباس رضي الله عنهما لها :

عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول : كل معصية فهي كبيرة ، وبه قال أبو إسحاق الإسفراييني رحمته الله ، وقال القاضي عياض : هو مذهب المحققين ، وذلك لأن كل معصية لا تليق بجلال الله ، فحينئذ كل معصية فهي كبيرة بالنسبة إلى جلال الله ، فحينئذ الذنوب كلها كبائر ، ليست فيها صغائر ، هكذا يقول عبد الله بن عباس ، وهكذا يقول : أبو إسحاق الإسفراييني وقال القاضي عياض إنه هو مذهب المحققين .

عند أهل الحديث والتفسير الذنوب صغائر وكبائر :

لكن الذي عليه علماء الحديث ، وكذلك علماء التفسير ، هو أن الذنوب كبائر وصغائر .

دليل ذلك :

لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] ، فقد نص سبحانه وتعالى على أن اجتناب الكبائر سبب في تكفير السيئات ، وليست السيئات من الصغائر .

دليل ثان :

جاء في الحديث أنه يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها ، قال فتقول الملائكة له : عملت كذا يوم كذا ، في وقت كذا في مكان كذا وهو مقر لا ينكر ، مشفق من كبارها . فيقول الله تبارك وتعالى : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة ، فيقول العبد حينما يرى هذا التفضل ، ويرى هذا الإكرام ، ويرى هذا الخير الذي يتفضل الله به على عباده ، أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة ، يقول ذلك الرجل : إن لي ذنوبا ما أراها هاهنا ، يشير إلى الذنوب الكبائر ، إنه إنما عرضت عليه الصغائر ، أما الكبائر فقد أمر الملائكة بأن يخبئوها .

دليل ثالث :

جاءت أحاديث تدل على أن الصلاة مثلا ، والحج ، والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر ، فحينئذ هذه الأمور يعنى الحج والصلاة والاعتبار إنما تكفر الذنوب الصغائر .

ما يكفر الكبائر من الذنوب :

أما الكبائر فلا يكفرها إلا عفو الله ، أو التوبة النصوح ، أو الحج المبرور ، عفو الله إذا أراد أن يعفو ، فإنه سبحانه وتعالى يكفر هذه الذنوب عن عباده .

عفو الله ﷻ :

يدل على ذلك قوله ﷻ : «فمن وفي أو وفي منكم» في حديث حذيفة ابن اليمان الذي ذكره الإمام البخاري في كتاب الإيمان «فمن وفي منكم بذلك فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب في الدنيا فهو له كفارة ، ومن ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» .

الحج المبرور:

الحج المبرور ، لما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١) .

التوبة النصوح:

التوبة النصوح التي يقول الله فيها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحريم : ٨] .

ما عليه أهل التحقيق من العلماء:

الذي عليه المحققون من علماء التوحيد أن الذنوب قسمان : صغائر وكبائر ، نعم الكبائر يجب على الإنسان أن يتوب منها في الحال .

هل تنقض التوبة إذا رجع العبد للكبائر:

إذا عاد فهل ينتقض قبول التوبة منه؟ مسألة خلافية بين أهل السنة وغيرهم ، وإلى ذلك يشير الإمام اللقاني في «جوهرة التوحيد» بقوله :

ثم الذنوب عندنا قسمان صغيرة كبيرة فالثاني منه المتاب واجب في الحال ولا انتقاض إن يعد للحال لكن يجدد توبة لما اقترف وفي القبول شأنه قد اختلف

على كل حال الذنوب الكبائر إذا ارتكبها الإنسان وتاب منها ، فإنه تقبل توبته ، وإذا عاد فهل تنقض هذه التوبة أو لا تنقض ، التحقيق أنها لا تنقض ، «ولا انتقاض إن يعد للحال» .

لكن يجدد توبة لما اقترف وفي القبول شأنه قد اختلف

(١) أخرجه البخاري (١٨١٩) ، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الخلاف في قبول توبة المكرر للذنوب:

في القبول يعني وفي قبول التوبة بعد تكرار الذنب وصدوره من العبد مرارا متعددة، فاختلف رأيهم، هناك من يقول بالقبول، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقوله جلت عظمتة: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [٦٨] إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿٦٩﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، يعني فإن الله تعالى يتوب عليه. وعلى كل حال ينبغي للإنسان أن يتوب على حذر، وأن يتوب كلما أحدث ذنبا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٢٥] أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]، هذا حاصل ما ذكره العلماء في مسألة انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر.

هل تنقلب الكبيرة إلى فاحشة؟

قالوا إن الكبيرة ربما تنقلب فاحشة، معناه أن الذنب يكون كبيرا، ولكنه يصير فاحشة، أي يزداد فحشا وقبحا، وذلك كشرب الخمر مثلا، فإنه كبيرة، ولكنه إذا وقع في رمضان، أو وقع في الحرم، يعني في مكة المكرمة، أشد والإنسان مستحل له، أو جهر به، فإنه يصير فاحشة، يعني تنقلب الكبيرة فاحشة.

هل تنقلب الصغيرة إلى كبيرة؟

كذلك الصغيرة فإنها ربما انقلبت كبيرة ، قالوا فإذا سرق الإنسان ما دون النصاب فذلك ذنب صغير ، نعم إذا سرقه من ضعيف يؤدي به الحال إلى أن يتأثر بتلك السرقة ، فإنه يصير في حقه كبيرة هذا ما حققه الحليمي في «المنهاج» ، وهو أن الكبيرة قد تنقلب فاحشة ، والصغيرة قد تنقلب كبيرة ، وأيًا ما كان فقد سئل عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الذنوب أهى سبع؟

فقال : هي إلى السبعين أقرب ، وفي رواية عنه : هي إلى السبعمائة أقرب ، ثم قال : لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار .

فضل الله عظيم ورحمته واسعة :

قال ابن عطاء الله في هذا المعنى : لا كبيرة إذا واجهك فضله ، ولا صغيرة إذا قابلك عدله ، وعلى كل حال ما ثم إلا فضل الله ، وما ثم إلا كرمه ، وما ثم إلا رحمته ومغفرته ، ولأجل ذلك سبحانه وتعالى لم يؤيسنا ولم يقنطنا ، بل فتح باب التوبة في وجوهنا ، والتوبة مقبولة ما لم تطلع الشمس من مغربها ، وما لم يغرغر الإنسان ، فلأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يتوب ويستغفر ، ما أذنب من تاب ، ولو عاد في اليوم سبعين مرة ، هذا هو الذي ينبغي للإنسان أن يعتقد .

أول الموبقات الشرك بالله :

النبي ﷺ يأمرنا باجتنب هذه السبع الموبقات ، أولها الشرك بالله ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء : ٣٦] ،

وقال جلت عظمتة : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، وقال جل من قائل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

الشرك أعظم الذنوب:

هذا الشرك هو ذنب ، وهو من أكبر الذنوب ، في صحيح الإمام البخاري عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» ، قال قلت ثم أي ، قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قال قلت ثم أي ، قال أن تزاني حليلة جارك» .

فعلى كل حال ، أكبر الكبائر وأعظم الذنوب ، وأفحش الفواحش ، هو الإشراف بالله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦] ، ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧] ، هذا هو التوحيد ، وهو الذي ينبغي للإنسان أن يكون عليه ثبتنا الله عليه حتى نلقاه موحدين ، اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] ، وإنك لا تخلف الميعاد ، وإنا ندعوك كما هديتنا للإسلام ألا تنزعه منا حتى نتوفانا ونحن مسلمون .

الشرك ذنب لا يغفر . ١.

الشرك بالله ذنب عظيم لا يغفر، نعم كل هذه الذنوب إذا تاب الإنسان وأقلع ورجع إلى الله تعالى فإنه ثواب رحيم سبحانه لا إله إلا هو، هذا قوله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك بالله».

أنواع الشرك

الشرك ينقسم إلى قسمين: أصغر وأكبر، وجلي وخفي.

الشرك الأكبر:

أما الشرك الأكبر فهو ما ذكرنا هو أن الإنسان يعتقد أن مع الله إلهًا آخر، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فإنه سبحانه وتعالى واحد، وقد جاء في القرآن دلائل على أنه لا يمكن أن يكون في الكون إلهان، قال الله جلّت عظمته ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال في آية أخرى، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، واليهود والنصارى يقال فيهم مشركون كذلك، ذلك لأن اليهود قالوا عزيز ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، ولأجل ذلك سجل الله عليهم الشرك، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، هذا هو الشرك الأكبر، وهذا هو الشرك الجلي.

الشرك الأصغر :

أما الشرك الأصغر والشرك الخفي فهو أن يعمل الإنسان عملاً يشرك فيه مع الله غيره ، كأن يصلي ليراه الناس ، أو يتصدق ليراه الناس ، أو يقرأ ليراه الناس أو يفعل فعلاً من أفعال الآخرة ، من أفعال الطاعة كي يراه الناس ، فهذا والعياذ بالله هو الشرك الأصغر .

وقد قال ﷺ : «اتقوا الرياء فإنه الشرك الأصغر»^(١) ، وفي رواية أخرى : «وهو أخفى من دبيب النمل» قالوا : كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ قال : «قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه»^(٢) ، جاء أن العبد يقول هذا ثلاث مرات في اليوم .

الرياء يحبط العمل :

الرياء يحبط العمل ، ولا يمكن للإنسان أن يجازي على عمله ، جاء في الحديث أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله للمرائي : «اذهب إلى الذي كنت تعمل لأجله يجازك»^(٣) ، أي يثبك على عملك ، لأن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجه الله . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] .

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، قال عليه الصلاة والسلام : «يا أيها الناس ، اتقوا الله وأخلصوا أعمالكم ، ولا تقولوا

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ٤٠٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥ / ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه .

هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شيء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم ، وليس لله منها شيء .

الأمر بإخلاص العمل وعدم إبطاله :

ينبغي للمؤمن أن يحافظ على أن يكون عمله خالصا لوجه الله ، وأن لا يرائي ، لأن الرياء من شأن الكافرين ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

فهذه الآية تفيدنا أولا أن ثواب المرائين لا يقدرُونَ على تحصيله ، لأن الله تعالى يقول لهم يوم القيامة ، اذهبوا إلى الذين كنتم تعملون لأجلهم ، مجازوكم على أعمالكم ، أما هو سبحانه وتعالى فلا يقبل إلا ما خلص له ، وكذلك تفيد أن الرياء والمن بالعطاء ، والأذى من شأن الكافرين ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي الذين يتخلقون بهذه الأخلاق ويتصفون بهذه الصفات ، ففيه تحذير للمؤمنين من أن يكونوا متصفين بصفات الكافرين ، ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، فشبّه الله تعالى المان صدقته ، والمؤذي بالمرائي الذي يكون إنفاقه لأجل رياء الناس ، هذا لا ثواب له ، ولا جزاء له ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أخلص يكفك العمل القليل :

أخلص عملك يكفك العمل القليل كما هو معلوم «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما أو متعلما»^(١) ، وفي رواية : «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ما ابتغي به وجه الله»^(٢) هذه هي الخصلة الأولى من الخصال السبع التي حضنا الرسول ﷺ على اجتنابها حتى يكون مجتمعنا مجتمعاً فاضلاً ، لا يتحلّى إلا بالفضائل ، ويتخلّى عن جميع الرذائل ، وهذا شأن المؤمنين «اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك»^(٣) ، إما أن يكون أكبر كما قلنا وإما أن يكون أصغر وهو الرياء .

السحر : ضرره وحكمه :

قال النبي ﷺ : «والسحر» كذلك هذا حرام ، وهو حوب كبير ووزر عظيم ، لأنه يزلزل العقائد ، ولا تطمئن معه النفوس ، وربما قتل ذلك المسحور ، وربما أمرضه ، وربما خذله ، قال الإمام الشافعي السحر يقتل ، ويمرض ، ويخذل ، ولأجل ذلك كان من الموبقات ، لأنه فيه تخييل ، وفيه مثلاً أن الإنسان يرتكب شيئاً يخيل به على اعتقادات الناس ، وعلى نياتهم ، فلأجل ذلك حرمه علينا الشارع . وقال إنه من الموبقات ، وتعلمه حرام ، وتعليمه حرام ، كما قاله جماعة من الصحابة والتابعين ، وكذلك الإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عن الجميع .

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٦١٢) ، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٢٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه .

متى يجوز تعلمه؟

قالوا إذا تعلمه الإنسان لأجل أن يأمنه ، ولأجل أن يحذر منه غيره ، ولأجل أن يكون منه على بصيرة ، فإنه لا بأس بذلك ، كما قالوه في تعلم الأديان الباطلة بقصد التحذير والتنفير منها ، فإنه لا بأس أن يدرس الإنسان الأديان الباطلة كأديان مثلاً الكتابيين ، وأديان المجوس ، وأديان غيرهم لأجل أن يعرفها ويعرف معتقداتهم الفاسدة ، ويكون منها على بصيرة حتى ينفر منها جميع الناس ، وحتى يحذر هو منها كذلك ، كذلك تعلم السحر إن كان بهذه النية وبهذه المثابة ، فإنه لا ينبغي أن يقال فيه إنه حرام ، يعني إن تعلمه أو تعليمه حرام . أما كون الإنسان يسحر غيره فهو من الذنوب الموبقات الكبائر التي لا يكفرها إلا عفو الله كما قلنا ، أو الحج المبرور ، أو التوبة النصوح .

إطلاقات السحر:

السحر له إطلاقات ثلاث :

الإطلاق الأول : وهو أنه يطلق على كل ما دق إلى آخره ولطف واستهال غيره ، فإنك تقول سحرت فلانا إذا استملته ، وتقول سحرته كذلك بالتشديد إذا استملته ، هذا هو السحر ، ومعناه أنك استملته إما بأخلاقك الفاضلة ، أو بآدابك ، أو بتواضعك ، أو بغير ذلك من الصفات المحمودة ، حتى إنك سحرته وجعلته كالمسحور يلهج بك ، ومنه قوله ﷺ : «إن من البيان لسحراً»^(١) فإن البلغاء من الناثرين والناظمين يأتون بالعجب العجائب فيسحرون بذلك الألباب ، ويستميلون قلوب الناس إليهم ،

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وما ذاك إلا لبلاغة كلامهم وفصاحتهم ، ولأجل ذلك يقول النبي ﷺ :
«إن من البيان لسحرا» ، ومنه سحر العيون إلى آخره ، وعلى كل حال هذا
 أحد إطلاقاته .

الإطلاق الثاني : هو أنه يطلق على تخيلات لا حقيقة لها ، وإنما يقوم بها
 الإنسان إما بسبب تعاطيه لشعوذة ، أو بسبب يعني معرفته لصناعة خفية
 يجهلها كثير من الناس ، حتى إنهم إذا رأوا ذلك تعجبوا منه ، وربما
 استعانوا على ذلك ، يعني بطبيعة الأشياء ، قال كالحجر المغناطيس ، فإنه
 ربما جعلوه لاجتذاب شيء فيظن الرائي أن ذلك الشيء اجتذب بغير
 سبب ، والحال أن هناك سببا ، وكذلك قالوا في سحرة فرعون : إنهم عمدوا
 إلى الحبال والعصي فخلقوها بالزئبق كدرهم أو الزئبق كزبرج ثم جعلوها
 في الشمس فصارت يعني تتحرك ، فتخيل إلى هؤلاء الحاضرين أنها تسعى
 كما قال الله تعالى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه : ٦٦] ، هذه طبيعة
 الأشياء هذا هو النوع الثاني من أنواع السحر تخيلات لا حقيقة لها ، وإنما
 هي من باب الشعوذة أو من باب الصناعة الخفية التي يستعان عليها
 بطبيعة الأشياء كحجر المغناطيس ، قال بعض الشعراء :

كأنما العرش مغناطيس جوهرنا فحيثما حل يلقى حوله الجواهر

فعلى كل حال المغناطيس هو يجذب الحديد وغيره مما من طبيعة المغناطيس
 أن يجذبه .

الإطلاق الثالث : كذلك يطلق السحر على نوع آخر إطلاقاً ثالثاً وهو
 يعني السحر ، وهو الذي يؤتى به من قبل الشياطين الذين يسترقون
 السمع ، والذين يتقرب إليهم الساحر بعبادتهم وطاعتهم ، وبفعل المعاصي ،
 فهذا السحر يؤثر على القلوب يعني بالحب والبغض ، ويؤثر على الأجسام

بالسقم والألم ، تارة يجد الإنسان وجعاً في بعض أعضائه ، وتارة يجد مرضاً في ذاته كلها ، وذلك بسبب هذا السحر الذي يتعاطاه هؤلاء الناس الذين يتلقونه من الشياطين ، لأنهم يخدمونهم ويتقربون إليهم بالمعاصي .

هذا السحر بجميع أنواعه إلا النوع الأول منه فإنه حرام ، وهو من الموبقات :

أما النوع الأول فهو من السحر الحلال «إن من البيان لسحراً» هذا هو الذي يعبر عنه الناس بالسحر الحلال ، إلى آخره ، وهو قوله ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول الله؟ قال : الشرك بالله ، والسحر» .

قتل النفس :

الثالث قتل النفس المحترمة التي لا ينبغي للمؤمن أن يقتلها ، ولا يخطر في قلبه ذلك ، ولا ترضى له نفسه الأبية أن يعتمد إلى نفس تتمتع بالحياة ، فيزهق روحها ، وييتم صبيانها ، ويرمل نساءها ، هذا مما نهت عنه الشريعة الإسلامية ، ومما أمر الله تعالى بحده بالقصاص ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

ولهذا يقول الرسول ﷺ : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة »^(١) فلا يجوز أن يقتل أحد سواء يعني كان القتل عمداً عدواناً ، أو كان لأجل خشية الفقر ، أو كان لأجل خشية العار ، فقتل النفس يشمل جميع أنواع

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

القتل ، قتل الإنسان عمداً عدواناً ، وقتل الولد خشية أن يطعم معه ، وقتل البنت يعني خشية العار ، الكل نهى الله عنه ، وكل داخل تحت قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، والكل داخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

فقتل النفس يشمل قتل الإنسان غيره ، ويشمل قتل الإنسان ولده خشية أن يطعم معه .

القتل عده ابن مسعود رحمته الله من أعظم الذنوب :

الثاني من أكبر الكبائر التي حدثنا بها سيدنا عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال له أي الذنب أعظم قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : ثم أي ، قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » ، ثم نزل تصديق ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

جزاء القاتل في الآخرة ، وهل له توبة ؟

قتل النفس هو الذي أشار الله إليه بقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] حتى قال سيدنا عبد الله بن عباس : لا تقبل توبة قاتل النفس عمداً عدواناً ، وعلى كل حال ، إن القتل كذلك يشمل قتل الإنسان نفسه ، فلا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه ، وقتل النفس ، إما بأن

يباشر قتلها بأحد الأسباب ، بأن يتردى من شاهق جبل ، أو يتحسى سما ، أو يجأ بطنه بحديدة .

جزاء المنتحر:

جاء في «صحيح البخاري»: «أنه من تردى من جبل ، فإنه يتردى كذلك في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فإنه يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه ، فإنه يتحسى سما كذلك في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا» وهذه والعياذ بالله هي جزاء الانتحار ، فإن كثيرًا من الناس يعني ربما ينتحر إما لكونه لم يجد من الدنيا ما يفي بحظوظه التي يتشوف إليها ، أو لكونه ظلم ، أو لكونه كذا ، ولسبب من الأسباب ، فينتحر ، فإذا انتحر على كيفية من هذه الكيفيات الثلاث ، فإنه والعياذ بالله يعذب في نار جهنم على الكيفية التي انتحر عليها ، يموت المرء على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه والعياذ بالله ، وهذا المعنى هو الذي أشار الله إليه بقوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء : ٢٩] .

قد يكون قتل النفس بارتكاب المعاصي:

هناك من قال : إن قتل النفس ليس بالقتل الحقيقي ، بل هو بارتكاب المعاصي ، فإن الإنسان إذا ارتكب المعاصي الكثيرة يؤديه ذلك إلى أن يموت قلبه ، وإلى أن يتجلى على قلبه الران ، فيصير لا يهتدي لمصالحه ، ولا يتجنب مضاره ، إنه كلما أذنب ذنبًا نكتت على قلبه نكتة سوداء ، ثم إن هذه النكت تكثر حتى تغشي قلبه فيصير والعياذ بالله لا يهتدي لمصالحه ، وهو الران الذي ذكره الله في القرآن : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] .

والمعاصي بريد الكفر، ومعناه أن الإنسان إذا كان معتكفاً على المعاصي، منهمكاً فيها والعياذ بالله مصرّاً عليها، فربما أدته إلى الكفر، كما أن البريد يرسل الرسائل إلى أربابها، كذلك المعاصي والعياذ بالله توصل العبد إلى الكفر.

نماذج من قتل النفس:

ينبغي لنا أن نجتنب القتل مطلقاً، سواء أكان متعلقاً بنفس من النفوس، كما إذا قتل الإنسان غيره عمداً عدواناً، أو قتل ولده خشية الفقر، أو قتل بنته خشية العار، والكل في القرآن.

قتل النفس:

أما قتل النفس فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

قتل الابن:

أما قتل الابن خشية أن يطعم مع الإنسان فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

قتل البنت:

أما قتل البنت مخافة العار، فإليها الإشارة بقوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩].

قتل الإنسان نفسه :

أما قتل الإنسان نفسه فإنه الإشارة بقوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء : ٢٩] ، وهو معنى قول الرسول ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق» .

أكل الربا :

أكل الربا هذا هو الموبق الثالث وهو أكل الربا .

الربا لغة :

الربا في اللغة هي الزيادة ، تقول ربا المال يربو إذا زاد ونما .

من شرور الربا ومساوئه :

يقول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٢٠] وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٠-١٣٢] .

فالربا والعياذ بالله سبب للافتقار ، وسبب للمحق ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ [البقرة : ٢٧٦] ، ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ [البقرة : ٢٧٥] أي الذين يربون ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

هل البيع مثل الربا؟

كما أن الإنسان يبيع فيحصل له الربح بسبب بيعه السلعة بأكثر مما

اشتراه بها، فكَذَلِكَ الرِّبَا يُعْطَى دَرَاهِمًا بِدَرَاهِمِينَ مِثْلًا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، ذَلِكَ لِأَنَّ الْبَيْعَ أَخَذَ فِيهِ الْإِنْسَانُ عَوْضًا، وَذَلِكَ الْعَوْضُ رَبِّمَا يَرَبُو ثَمَنَهُ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُ ضِيَاعٌ، بِخِلَافِ الرِّبَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ دَفَعَ دَرَاهِمِينَ فِي دَرَاهِمٍ، فَدَرَاهِمٌ فِي مَقَابِلَةِ دَرَاهِمٍ، وَدَرَاهِمٌ زَائِدٌ لَيْسَ فِي مَقَابِلَتِهِ شَيْءٌ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاسُوا، قَاسُوا قِيَاسًا فَاسِدًا لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْبَابَيْنِ بَابًا وَاحِدًا، فَلَا قِيَاسَ مَعَ وَجُودِ الْفَارِقِ، لِأَنَّهُمْ قَاسُوا الرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ، مَعَ أَنَّ الْبَيْعَ شَيْءٌ وَالرِّبَا شَيْءٌ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ أَخَذَهُ، ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] والعياذ بالله .

بعض صور الربا:

يجب على المسلمين أن يجتنبوا الربا، ولقد كثر التعامل بالربا، ويرتكبون ذلك في صور كثيرة، فربما جاء شخص ورهن لشخص آخر ضيعة له أو دارًا له في دراهم من سلف، مع أن القرض الذي يجزى نفعًا للمقرض هو حرام، وهو والعياذ بالله من الكبائر كما عده ابن حجر في «الزواجر في النهي عن اقتراف الكبائر» القرض الذي يجزى نفعًا للمقرض، القرض جائز في الشريعة الإسلامية، ولكن شرطه الوحيد ألا يجزى منفعة .

القرض جائز وفعل جاري في كل شيء ما عدا الجواري
وشرطه ألا يجزى منفعة وحاكم بذلك كل منعه
فإذا جر منفعة يقول المختصر، يعني من المحرمات إذا جر القرض منفعة .

فهم خاطئ:

يريدون مثلاً أن يرهنوا ولكنهم بعيدون عن الرهن ، فإن الرهن الذي أباحه الله بينه لنا سيدنا رسول الله ﷺ ، ذلك أنه ﷺ اشترى ما اشترى من الشعير ثلاثين صاعاً من يهودي ، ورهن عنده درعاً ، آلة من آلات الحرب ، فهذا هو الرهن الجائز ، هو أن يكون الدين مترتباً من بيع لا من السلف ، أما إذا كان الدين من سلف ، فإن الرهن باطل ، وهو سلف جر نفعاً ، ويجب على الولاية والقضاة والحكام أن يفسخوا هذه العقدة ، وأن يردوا المال إلى ربه ، ويحكموا على ذلك المنتفع بكراء الدار مثلاً أو بمنفعة ذلك الشيء المرهون أن يرد النفع بعد تقويمه بما يساويه من العرفاء الذين مثلاً يعرفون الأثمان وقيم الأشياء .

فلأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة ، وأن يعمل أن المتعامل بالربا يؤديه ذلك إلى محق غناه وذهابه ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، ولكننا نرتكب الربا ، وإن كان الأكل ملعوناً ، والموكل ملعوناً ، والكاتب ملعوناً ، والشاهد ملعوناً ، فإن النبي ﷺ لعن أكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده ، الكل ملعونون على لسان سيدنا محمد ﷺ .

صورة مخزية لصاحب المال:

إن الإنسان ينتهز الفرصة يعني الناس أرباب الأموال ينتهزون الفرص كالضعف والفقر إلى آخره ، فيأتي الرجل وهو مفتقر يعني يصح له أن يأخذ الصدقة ، فيعمد هذا الغني إليه ويسلفه الدرهم بدرهم ونصف مثلاً ، والمائة بمائة وخمسين ، وربما أسلفه المائتين بثلاثمائة ، وهكذا ، ثم إنه

إذا حل الأجل يقول له : إما أن تؤدي ، وإما أن تزيد في الربا ، فإنه يزيده ، وهكذا حتى إن كان له مثلاً مسكن أو كانت له ضيعة ، فإنه يأخذها منه ، فيبقى الرجل لا يجد مسكناً يأوي إليه ، ولا يجد مسكناً يؤوى إليه بنيه وزوجته وغير ذلك من أسرته .

ولأجل هذا والعياذ بالله اتصلت بنا الأجانب ، فصارت تتعاطى الربا حتى إنها أخذت كثيراً من ضياعنا وأموالنا ، يعني واستعمرتنا استعماراً اقتصادياً ، وهو أخطر أنواع الاستعمار كما هو معلوم .

حرمة الربا بالكتاب والسنة والإجماع:

ينبغي للمسلمين قاطبة أن لا يتعاطوا الربا ، وأن لا يحوموا حوله ، وذلك لأنه محرم بالكتاب والسنة والإجماع ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : «الدرهم الواحد من الربا يصيبه الرجل من الربا أشد عند الله من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل في الإسلام»^(١) ، والعياذ بالله الدرهم الواحد يصيبه الرجل من الربا أعظم في الإثم عند الله من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل في الإسلام .

وجاء في رواية : «من ثلاث وثلاثين زنية» ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم ، من أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم ، ونحن لا نبالي فإننا نقع في أعراض إخواننا والعياذ بالله ، ونقرضهم بمقاريض ألسنتنا ، ونرتكب الذنوب العظيمة التي إن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين بسبب ارتكاب هذه الذنوب الكبيرة .

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥ / ٢٢٥) من حديث عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه .

حال آكلي الربا في الآخرة:

جاء أن النبي ﷺ لما كان ليلة الإسراء مر على نهر من دم ، فإذا سباح يسبح في النهر ، وإذا رجل يعني على شاطئ النهر قد جمع حجارة ، فكلما جاء ذلك السباح ليخرج فتح فاه فألقمه حجرا ، ثم رجع يسبح ما شاء الله أن يسبح ، ثم يرجع فيفغر فاه فيلقمه حجرا ، وهكذا يعذب ، فقال يا جبريل من هذا؟ قال : «هذا آكل الربا»^(١) ، من أجل هذا حذرنا الرسول الأعظم والنبي الأكرم من الربا وتعاطيه شفقة علينا وحرصا علينا ورحمة بنا جزى الله عنا سيدنا محمدا ﷺ بها هو أهله ، لذلك قال النبي ﷺ ، وأكل الربا .

أكل مال اليتيم:

قال : «وأكل مال اليتيم» كذلك ، فهذا هو الموبق الرابع ، أكل مال اليتيم فإن كثيرا من الناس لا شغل لهم إلا أن يكونوا أوصياء على المحاجير وعلى الأيتام ، ويعمدوا إلى أموالهم فيأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ، والله تعالى نهانا عن ذلك .

فقال : ﴿ حَقَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ [النساء : ٦] ، لا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم ، ﴿ أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ أن وما دخلت عليه مسبقة بمصدر ، مفعول لأجله ، ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا ﴾ في حال كونكم مبادرين .

وفي حال كونكم مسرفين خشية أن يكبروا ، يعني تنتهزون فرصة صغر المحاجير فتأخذون أموالهم وتجتاحونهم أيها المسلم كن على بصيرة ، واعتقد

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

أن الله تعالى يختبرك إذ جعلك وصيًا أو جعلك مقدمًا على محجور لأجل أن تحسن أولاً تحسن .

جزاء الإحسان لليتيم:

إن أحسنت فإن الله تعالى يجزيك بالإحسان ، وتكون مع النبي ﷺ في الجنة ، كما قال ﷺ : «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»^(١) ، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ﷺ .

كما تدين تدان:

أما إذا أسأت واجتحت أموالهم يعني وقضيت عليهم وعلى ثروتهم ، فاعلم أن الله تعالى سيجزيك من جنس عملك ، لا شك أنك ستموت ، وتحلف ذرية ضعافاً ، فيعاملها ذلك الوصي أو ذلك المقدم معاملة كالمعاملة التي عاملت بها أبناء غيرك ، ولأجل ذلك ينهك الله إلى هذا حينما يقول : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ٩٠ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٩١﴾ [النساء : ٩ ، ١٠] . واعتبر أنك تمقت كون غيرك يتسلط على أولادك ، فيجتاح ثروتهم ويمزقها تمزيقاً ، فكما تمقت ذلك من نفسك فكذلك امقته بالنسبة إليك وإلى أولاد غيرك ، لأنه «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١) ، هذه هي شريعتنا ، وهذه هي وصايا رسولنا ﷺ ، وهذه هي الأوامر التي يأمرنا بها سيدنا محمد ﷺ ، ولذلك يقول الرسول ﷺ : «وأكل مال اليتيم» . بل الواجب

(١) سبق تخريجه .

علينا أن نرعى ماله ، وأن نحفظه ، وأن نخالطه ، ذلك أن الله تعالى يقول : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَنَّى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

سبحانه لا إله إلا هو ، فالمفسد يجازى على إفساده ، والمصلح يجازى على إصلاحه ، راقب مولاك واخشه في السر والعلانية ، وإياك أن تقرب ذنبا من الذنوب التي نهاك عنها ، أو نهاك عنها رسول الله ﷺ وعلى آله ، إن طاعة الرسول هي طاعة الله ، قال الله جل ذكره ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] .

عاقبة الإساءة لليتيم وأكل ماله :

«وأكل مال اليتيم» ولأجل ذلك لا نعرف ما يحل بنا من المصائب لا نعرف له سببا ، مع أن الأسباب كثيرة جدا ، فإننا نرتكب المعاصي غير مباليين ، ولا مكترثين ، ونرتكب ما نهينا عنه أشد الارتكاب ، ولا نعرف أن الله تبارك وتعالى يراقبنا ويحاسبنا ويجازينا على ذلك ، وما ذلك إلا لغفلتنا ، قال الله تعالى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١] ، فنحن نسمع الآيات القرآنية ونسمع الأحاديث النبوية ومع ذلك لا نعمل بها ، ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَاسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء : ٢ ، ٣] ، هذا القرآن يعني يثير أسماعنا إلى أنه ينبغي لنا أن لا نغفل عن الآيات القرآنية ، وأن نكون من المتشبهين بما جاء في القرآن العظيم ، وبما جاء عن سيدنا محمد ﷺ وعلى آله ، وأن لا نأكل أموال اليتامى وأن نحفظها ، وننميها ونكثرها ، حتى

يبلغوا أشدهم ، حتى يبلغوا خمس عشرة سنة أو ثمان عشرة سنة ، فإذا ما بلغوا فإننا نختبرهم ، فإن أنسنا وأحسننا منهم بالرشد فإننا ندفع إليهم أموالهم ، ولا نأكلها كما أمرنا الله ﷻ بذلك ، لأجل هذا يقول الرسول ﷺ : «وأكل مال اليتيم» .

التولي يوم الزحف:

قال النبي ﷺ «والتولي يوم الزحف» هذا كذلك من الذنوب الكبائر ، وهو أننا إذا كنا في الجهاد والتقت الفئتان ، ووقعت الملحمة ، فإنه لا يجوز للإنسان أن يفر أبدا بحال ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] .

متى يجوز التولي يوم الزحف؟

اللهم إلا إذا ولى الإنسان الدبر لأجل خدعة من خدع الحرب ، ومكيده من مكاييد الحرب فإنه لا بأس بذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ [الأنفال : ١٦] ، ذلك أنه أرى العدو أنه فر والحال أنه ما فر ، وإنما فر ليعيد الكرة ويرجع على عدوه ، فهذا من مكاييد الحرب وخدعه ، و«الحرب خدعة» كما ورد .

ولأجل هذا لا بأس بالفرار بهذا المعنى ، وكذلك إذا بقي الإنسان في فئة قليلة ، وأراد أن ينضاف إلى فئة أخرى ، فإنه إذا فر إليها فإنه لا يكون عليه هذا الوزر العظيم ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَى فِتَّةٍ ﴾ لا ينبغي للإنسان أن يجبن لأن الجبن فيه إذلال للمسلمين ، وفيه الفت في عضدهم ، وفيه استيلاء الكفار عليهم وإذلال للمسلمين .

لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا:

نحن لا ينبغي لنا أن نتسبب في ذلك لأننا نعتقد أن الله ينصرنا ،
وأن الله معنا ، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب علينا ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا
كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة : ٥١] .

قال سيدنا علي بن أبي طالب كنت أحترس فلما نزلت هذه الآية صرت
أرمي بنفسي في مواطن الحرب غير مكترث كذلك الرسول ﷺ فإنه كان
اتخذ الحراس ، ولكن حينما نزل عليه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ
النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] ، أخرج نفسه ﷺ من القبة التي كان فيها وقال :
«يا أيها الناس ، انصرفوا عني فقد عصمني ربي»^(١) هكذا ينبغي للإنسان
أن يكون اعتماده على الله ، وأن يكون يعني دائما يشاهد الله ويراقبه ، وأنه
هو الناصر له والمؤيد له ، والحافظ له .

التوكل سبب من أسباب النصر على الأعداء:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ
بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

مفهوم الآية أن الإنسان إذا لم يتوكل على الله فإيمانه ليس بكامل ،
فينبغي للإنسان ويجب عليه أن يتوكل على الله ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] ، سبحانه لا إله إلا هو ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] ، ولذلك يقول في «المختصر»
عطفا على المحرمات في باب الجهاد : وفرار إن بلغ المسلمون النصف ،
يعني نصف العدو . فإذا كان المسلمون مثلا مائة والعدو مائتين ، فإنه يحرم

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦) من حديث عائشة ؓ ، وقال الترمذي : حديث غريب .

الفرار ، وكذلك إذا بلغ المسلمون اثني عشر ألفا ، فإنه لا يجوز الفرار ، ولو كان العدو ضعفين فأكثر . إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ أَكُنْ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦] . هذا هو الفرار من الزحف ، فينبغي للمؤمن أن يكون على بصيرة عظيمة وأن يوطد نفسه على الشجاعة والإقدام ، وذلك لأن الجبن لا يفيد .

الحث على الشجاعة والإقدام عند لقاء العدو:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة وليس في الجبن ما ينجي من القدر

لا أقعد الجبن عن الهيجاء ولو توالى زمرة الأعداء

هكذا ينبغي للإنسان أن تكون لديه شجاعة عظيمة ، وأن لا يفرع من الكفار ، وذلك لأن إيمانه يحمله على أن يصبر وعلى أن يموت في سبيل العزة والكرامة ، خصوصا إذا كان يعتقد أنه لا بد أن يموت ، وإذا كان الموت آتيا لا محالة ، فهو في سبيل الشرف أحسن ، وأعلى وأفضل ، لأجل ذلك فالله تعالى يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ [١٥، ١٦] وقال الله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [الأنفال: ١٧] الله معنا ، الله ناصرنا ، الله هو الذي ينصرنا ويعيننا ، ويحملنا على أن نتقدم ، ويكون أميرنا هو المتقدم كما كان الصحابة يقولون .

وقال نبي المسلمين تقدموا وأحب إلينا أن تكون المقدمة

النبي ﷺ يتمنى الشهادة:

النبي ﷺ يتمنى أن يموت في الجهاد، ويحييه الله، ثم يموت في الجهاد، ويحييه الله، ثم يموت في الجهاد، ويحييه الله، ثم يموت في الجهاد، لذلك يقول كما في الصحيح: «لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ، ثم أقتل ثم أحيأ، ثم أقتل ثم أحيأ». يعني ﷺ يجب أن تتكرر شهاداته مرارا متعددة، والشهداء عند ربهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، هذا هو حاصل ما يتعلق بقول الرسول ﷺ والتولي يوم الزحف.

القتال بين طائفتين من المؤمنين:

أما مسألة النزاع الذي يقوم بين طائفتين من المسلمين، فهي مسألة منصوص عليها في الشريعة الإسلامية، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَلِإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتَنُوا أَلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

دور الإمام في الإصلاح:

إذا بغت طائفة من المسلمين على طائفة أخرى، فإن الإمام يصلح بين الطائفتين، ويشير عليهم بالصلح، وينذرهم ويحذرهم، ويخوفهم عاقبة الحرب والقتال، حتى إذا ما انتهوا ولم يريدوا أن يكفوا فإنه يجوز أن نقاتل تلك الطائفة الباغية، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتَنُوا أَلَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات: ٩] بمثل هذا قال بعض الشعراء:

يا عاهلا يبغى عليه بحده اصدع بأمرك إننا من جنده
نصلي البغي سعيه ونذيقه شر الهوان بكيده وبجده

هي قصيدة طويلة الذيل ، ولكن المقصود عندنا أنه أشار في طالعها إلى هذه القضية .

«يا عاهلا يبغى عليه بحده» .

وعنده في قوله «بحده» يعني تورية له معنيان ، وكل ذلك لا يخفى لأجل ذلك ، مسألة الطائفة الباغية قال فيها الله تعالى : ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ وَرَجَعْتَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَهُ بِه فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] .

ما الحكم إذا التقى المسلمان بسيفيهما؟

أما إذا وقع التقاتل بين مسلمين يعني هذا جرد سيفه ، والآخر كذلك جرد سيفه ، وكل منهما رام وقصد وأفرط في أن يبادر بقتل صاحبه ، فإن هذين الشخصين هما اللذان أشار إليهما الرسول ﷺ بقوله كما في البخاري : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار ، قلنا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» .

فبين لنا ﷺ أنه عنده فرق الإرادة القوية وأنه عازم كل العزم على قتل صاحبه ، ولأجل ذلك كان في النار كالقاتل «إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار ، قلنا يا رسول الله هذا القاتل -يعني استحق النار ، لكونه ارتكب جريمة القتل- فما بال المقتول؟ -فما شأنه يعني يدخل النار؟- فقال ﷺ : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» ، لولا أن ضربة صاحبه أنفذت مقاتله ، وجعلته طريحاً على الأرض ، ومنجدلاً في دمه ، لكان هو القاتل ، وكان صاحبه قتيلاً ، ولكن لما كان عنده الحرص ، وكان عنده العزم إلى آخره ، فلذلك عومل بهذا ، وجوزي عليه .

شبهات والرد عليها:

لا يرد علينا أن الله تبارك وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن حديث النفس ، فإن هذا أي حديث النفس إنما هو مجرد فكرة تخطر على قلب الإنسان هذا حديث النفس ، أما كون الإنسان يريد ويعزم ويصمم ويفرط في إرادة قتل صاحبه ، فهذا أكبر من حديث النفس ، فهو مؤاخذ به ، ولا يرد علينا قول صاحب «جمع الجوامع» في الخاتمة : وحديث النفس ما لم تعمل أو تتكلم ، والهـم مغفوران ، فإن هذا على كل حال حقيقة إن كان حديث النفس هو مجرد فكرة خطرت في قلب الإنسان ، فإنه لا يؤاخذ بها ، أما هذان الشخصان فكل منهما كان حريصا على قتل صاحبه ، هذا يريد أن يقتل صاحبه ، والآخر يريد أن يقتل ، ولكن سبقت الإرادة ، إرادة الله فقتل أحدهما قبل الآخر فبقي الآخر لم يقتل ، فلذلك القاتل في النار ، والمقتول كذلك في النار ، لأنه كان حريصا على قتل صاحبه .

أما ما ورد من قول الله تبارك وتعالى وهو من الكبائر أيضا الإلحاد في الحرم ، وهو أن يخطر على قلب إنسان ، وهو في بيت الله الحرام ذنب من الذنوب فهو من الكبائر ، وهو الذي أشار الله إليه بقوله : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] حتى قالوا لو خطر على قلب إنسان ، وهو في بيت الله الحرام ، أن يقتل رجلا بعدن لعذبه الله تعالى ذلك لأن الله تعالى أحترم الحرم وقده وأجله وعظمه وأمر الإنسان أن لا يخطر على باله شيء من الذنوب وهو بالحرم . فهذا على حال كأنه مخصص لعدم المؤاخذه بحديث النفس : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

ومن المعلوم عند علماء الأصول أن القرآن يخص الحديث والحديث يخص القرآن ، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

في مسألة الرجلين توفرت الإرادة القوية :

أما قضية الرجلين اللذين التقيا بسيفيهما ، فقد كان عند كل واحد منهما أكثر من حديث النفس ، كانت عنده فرط الإرادة القوية ، بحيث كان مصممًا عازمًا على قتل صاحبه ، أما مجرد الهم فهو غير مؤاخذ به ، ولذلك جاء في حديث سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه » .

نعم الهم غير مؤاخذ به ، وكذلك في حديث سيدنا أبي هريرة والكل في البخاري : « إذا أراد العبد أن يعمل حسنة ولم يعملها ، فإن الله تعالى يقول اكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل سيئة ولم يعملها ، فإن الله تعالى يكتبها له كذلك حسنة » ، لأن هذا أراد أن يعمل ، والإرادة غير الهم ، أما العزم فهو أقوى من الهم ، العزم مؤاخذ به والهم غير مؤاخذ به ، وهو معنى قول ابن السبكي في « جمع الجوامع » : وحديث النفس ما لم به تتكلم أو تعمل والهم مغفوران ، وهذا ما يتعلق بقول الرسول ﷺ وعلى آله « والتولي يوم الزحف » .

أما مسألة كون الإنسان يموت دون ماله ، أو دون عرضه ، أو دون أسرته ، أو دون . . . إلى غير ذلك من الأمور التي هي له ، فإنه إذا قاتل حتى قتل ، فإنه شهيد كما جاء في الحديث .

قذف المحصنات :

الموبق السابع هو قول النبي ﷺ : « وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

دلالة استخدام لفظة: «القذف»:

القذف هكذا بالذال المعجمة هو الرمي ، والرمي من المعلوم أنه يكون باليد إلى آخره ، ولكنه استعمل الرمي هنا باب رمي المحصنات ، ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور : ٤] ، ولكنه استعمل الرمي فيما هو من شأن اللسان مع أن الرمي يكون باليد ، لما كان جرح اللسان كجرح اليد ، كما يقول النابغة : وجرح اللسان كجرح اليد ، ولما كان جرح اللسان كجرح اليد استعمل الرمي يعني الشتم بالقذف أستعير إليه الرمي ، فقال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور : ٤] .

معنى «المحصنات» في الحديث:

رمي المحصنات ، يقال المحصنات ويقال المحصنات أما المحصنات بصيغة اسم المفعول فهن اللاتي أحصن فروجهن بعفتهم وعدم تشوفهن للخنأ ، وأما المحصنات فهن اللاتي أحصن فروجهن وهن اللاتي أحصنهن الله أي جعلهن في حصن منيع من أن يتشوفن إلى البغي وإلى الزنا ، هذا هو المحصنات أو المحصنات ، كما قال العلماء إنه يصح فتح الصاد وكسرهما باعتبارين إلى آخره ، وأما المحصنة هي التي يدل عليها قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحریم : ١٢] فنسب الإحصان إليها ، فيقال فيها محصنة ، أما اللاتي أحصنهن الله ، وأكرمهن الله ، وطهرهن الله ، وبرأهن الله ، فيقال فيهن محصنات ، ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ .

الذكر والأنثى في هذا الأمر سواء:

قال العلماء : إنه لا فرق بين الذكر والأنثى ، وأن كل من رمى شخصاً بالزنا فإنه يحد حد القذف . وهو ثمانون جلدة ، إلى آخره ، سواء أكان ذلك

متعلقا بالرجل أم متعلقا بالمرأة ، وإنما خصت الآية النساء بالذكر ، لأن القضية كما تعلمون وردت في حق سيدتنا عائشة رضي الله عنها وأرضائها ، **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ﴾** [النور: ١١] . . . **﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾** [النور: ٢٦] إلى آخره .

قال العلماء : إنه لا فرق بين الذكر والأنثى بالإجماع فإذا ما قذف الإنسان شخصًا بالزنا ، أو قذف امرأة بالزنا فإنه يحد حد القذف ، وهو ثمانون جلدة ، وكذلك إذا قذف زوجته بالزنا ، فإنه إذا سكت حتى ظهر الحمل فإنه لا يقبل منه ذلك ، ويحد حد القذف كما هو معلوم في دواوين الفقه .

اللعان بين الرجل وزوجته مشروع:

وساكت والحمل حمل بين يحد مطلقا ولا يلتعن من شرط اللعان أن يعتمد الإنسان على أنه طلقها في طهر لم يمسه فيها ، فإذا طلق الإنسان زوجته في طهر لم يمسه فيها ثم ظهر بعد ذلك حمل فله أن يلاعن فيه ، واللعان جاء في القرآن ، فلا معنى لجريان العمل بتركه ، ولا معنى لقول صاحب العمل .

واترك لفاسق وغيره اللعان وهو لفاسق فقط بدون ثان ولقول صاحب الزقافية : وترك لعان مطلقا أو لفاسق ، فإنه لا يمكن أن نترك شيئا جاء في القرآن ، والله تعالى يقول : **﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** **﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾** [النور: ٦ ، ٧] .

وأيًا ما كان فاللعان أمره معلوم من الدين .

تبويب البخاري رَحِمَهُ اللهُ لِلْقَذْفِ فِي «صحيحه» :

مسألة القذف ، هي التي أشار إليها الإمام البخاري هنا ، وبوب إليها ، فقال : باب رمي المحصنات ، ومعناه أنه من رمى محصنة عفيفة لا تتشوف إلى الزنا ، بل هي مشغلة بتدبير شئونها وبيتها وتربية أولادها ، لأنها تعلم أنها المدرسة الأولى للطفل ، ولأنها التي ستهذب أبناءها ، وتخرجهم نبلاء أذكياء في غاية الفطنة ، فلاجل ذلك لا تكون لها التفاتات إلى الزنا ومع ذلك يرمونها بالعاهرة بدل الطهارة ، ويقذفونها بالزنا بدل البراءة ، فهو لاء قد ارتكبوا إثماً عظيماً ، موبقاً مهلكاً ، ولأجل ذلك النبي ﷺ ، يعده من الموبقات «وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» .

حكم قذف الكافر والحر للعبد :

أما كون الإنسان يعمد إلى كافر فيقذفه فإنه لا حد في ذلك . أما المملوك فإنه لا يحد الحر بقذف مملوكه ، نعم جاء في الحديث أنه يحد يوم القيامة لأن يوم القيامة يستوي فيه الأحرار والعبيد فلا تبقى عبودية لأحد على أحد ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] ، لأجل هذا قال العلماء : إن المملوك يعني إذا قذف لا يحد قاذفه ، نعم في الدنيا ، أما في الآخرة فقد ورد ما يقتضي أنه يحد ، فلاجل ذلك ينبغي للإنسان أن يحبس لسانه وألا يتركه يتكلم بكل كلام فحش ، بحيث يوقع نفسه في الموبقات من حيث لا يشعر ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها .

هل الموبقات منحصرة في هذه السبعة؟

تكلم العلماء على كون الحديث إنما أتى بهذه السبع مع أن الكبائر كما قال سيدنا عبد الله بن عباس : «هي إلى السبعمئة أقرب» . وفي رواية : «إلى

السبعين أقرب». فقد جاء في «صحيح الإمام البخاري»: أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»، كما يروى عن سيدنا أبي بكر، نفيع بن الحارث: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»، عرض عليهم ﷺ ليحدثهم بأكبر الكبائر، قالوا بلى. قال: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين.

عقوق الوالدين:

عقوق الوالدين، هو من الذنوب الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وذلك لأن العاق جازى الإحسان بالإساءة، وجازى ما عاناه والداه من تربيته بالإساءة إليهما، وما كان من حقه أن يفعل، بل الواجب مقابلة الإحسان بالإحسان، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

تعجيل عقوبته في الدنيا:

قال النبي ﷺ: «كل الذنوب يؤجل الله منها ما شاء إلى الآخرة، إلا عقوق الوالدين، فإنه يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات»، وهذا هو معنى قول العامة، ذلك يكون موروثاً، فإذا وجدنا عاقاً فربما كان والده كذلك عاقاً.

أمر النبي ﷺ ببر الوالدين:

أمر النبي ﷺ بأن نبر والدينا، جاء في الحديث عنه ﷺ أنه رقي المنبر درجة الثلاث، فلما رقي الدرجة الأولى قال: «آمين»، فلما رقي الثانية قال: «آمين»، فلما رقي الثالثة قال: «آمين». فلما فرغ من حديثه، قال الصحابة: يا رسول الله، قد سمعنا منك اليوم شيئاً ما سمعناه من ذي قبل، فقال لهم النبي ﷺ: «إن جبريل عرض لي في الدرجة الأولى، فقال من أدرك والديه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخله الجنة، فأبعده الله، قل

آمين ، فقلت آمين . وقال في الثانية من أدرك رمضان ولم يغفر له فأبعده الله ، قل آمين ، فقلت آمين . . وقال في الثالثة من ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فأبعده الله ، قل آمين ، فقلت آمين»^(١) .

مسائل مهمة بالحديث:

هذه المسائل الثلاث ينبغي للإنسان أن يكون منها على بصيرة :

المسألة الأولى : هي مسألة الوالدين ، فالإنسان إذا أدرك والديه الكبير عنده أو أحدهما فلم يدخله الجنة ، فلم يبر بهما ، ولم يواسهما ، ولم يقيم بشئونهما ، ولم يطعهما ، ولم يقل لهما قولاً كريماً ، ولم يخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، فهذا دعا عليه سيدنا جبريل بالبعد من رحمة الله ، وأمن على دعائه سيدنا رسول الله ، وما بالك بدعاء دعا به الأمين جبريل ، وأمن عليه النبي الجليل ﷺ وعلى آله ، لا شك أنه مستجاب .

المسألة الثانية : من أدرك رمضان ولكنه قطعه في الفحشاء والمنكر ، وقطعه فيما كان يقطع سائر الأيام من غير رمضان ، يعني في اللهو واللعب وغير ذلك ، مما لا يليق بعظمة رمضان ، ولم يكتسب فيه أموراً تكون سبباً في مغفرة ذنوبه ، فهذا كذلك دعا عليه سيدنا جبريل بأن يبعده الله من رحمته ، وأمن على دعائه سيدنا محمد ﷺ .

حال النبي ﷺ في رمضان:

كان النبي ﷺ إذا دخل رمضان ما ترك أسيراً إلا وأطلقه ، ولا سائلاً إلا وأعطاها ، واعتزل فراشه الشهر كله ﷺ ، وكان ﷺ يكون أجود بالخير من

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٤٠ / ٢) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

الريح المرسلة ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقيه جبريل فيدارسه القرآن ، فلهو ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

فضل رمضان على أمة الإسلام:

رمضان شهر عظيم أكرم الله به هذه الأمة المحمدية ، لكي تنتهز هذه الفرصة ، فتعبد الله تعالى وتأتي بأعمال تجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، فالتسبيحة فيه بألف تسبيحة فيما سواه ؛ لأن الحسنه تعظم بحسب الزمان ، والمكان ، والشخص ، وكذلك السيئة تعظم بحسب الزمان ، والمكان ، والشخص ، ولأجل ذلك يقولون شرب الخمر في رمضان أقبح وأفحش منه في غيره ، وذلك لأنه انتهك حرمة رمضان ، ولم يعتبر هذا الشهر الذي سيكون شاهداً عليه ، يشهد على المحسن بالإحسان ، وعلى المسيء بالإساءة ، لم يعتبر حرمة هذا الشهر الذي يعتق الله تعالى فيه كل ليلة عند الإفطار ستائة ألف عتيق من النار ، فإذا كان آخر يوم من رمضان أعتق الله فيه مقدار ما أعتق في الشهر كله ، لم يحترم رمضان ، بل أمضاه كله في اللهو واللعب والزهو وغير ذلك من الأمور التي لا تليق بالمسلم ، فإن رمضان شهر الصيام ، وشهر القيام ، وشهر الذكر وشهر تلاوة القرآن ، وشهر التسبيح والتقديس ، فلا تضيع أوقاته الحسان بل كن منها على بصيرة تامة واحفظها ، وإياك أن تتعرض لدعاء سيدنا جبريل ، من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله ، قل آمين فقلت آمين .

المسألة الثالثة : هي مسألة ذكر المصطفى ﷺ وعلى آله ، ينبغي لكل مسلم إذا سمع ذكره ﷺ ، سواء ذكر باسم ظاهر ، أو باسم مضمّر ، أو باسم إشارة ، أو اسم موصول أو بغير ذلك فإنه ينبغي للإنسان أن يصلي عليه ﷺ وعلى آله .

حكم الصلاة على النبي ﷺ:

قال علماؤنا : إن الصلاة تجب عليه عند ذكره ﷺ وعلى آله ، وإياك أن تضع هذه الفرص ، وإياك أن تكون من الغافلين ، الذين يسمعون ذكر المصطفى ﷺ ولا يصلون عليه فإنك ستعرض بذلك إلى دعاء الأئمة جبريل ، وتأمين الرسول الجليل ﷺ وعلى آله .

من العواقب الوخيمة للعقوق:

عقوق الوالدين هو من أكبر الكبائر ، كما قال الرسول ﷺ ، ومن أعظم وأقبح نتائجه هو أنه يعسر النطق بالشهادة عند خروج الروح ، جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ بلغه عن رجل أنه يحتضر ، فذهب ﷺ ليعوده ، فجلس عنده ، فقال له : « قل لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، فقال : لا أستطيع فصار ﷺ يسأل : « هل يصلي؟ » قالوا : نعم ، « هل يصوم؟ » قالوا : نعم ، « هل حج؟ » قالوا : نعم ، « هل أدى جميع أركان الإسلام؟ » قالوا : نعم . فقال ﷺ : « هل له أم؟ » قالوا : نعم ، قال : « كيف حاله معها؟ » فقالوا يا رسول الله : ربما بينهما سوء تفاهم ، فأمر بها رسول الله ﷺ فأحضرت ، فقال لها : « أرايت لو أججت نارا فإنك - مثلاً - إذا شفعت في ولدك فإننا لا نلقيه في هذه النار ، وإذا لم تشفعي فيه فإننا ألقيناه في هذه النار ، أكنت تشفعين فيه؟ » قالت يا رسول الله : وكيف أقدر على أن يلقى ولدي في النار ، لا أقدر ، بل أشفع فيه ، قال : « إن كان الأمر كذلك فأشهدني الله ثم أشهدني أنك قد رضيت عنه » ، قالت : أشهد الله وأشهدك أنني قد رضيت عنه ، فقال له الرسول : « قل » فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فخرجت روحه ، فقال ﷺ : « الحمد لله الذي أنقذه بي من النار » .

وهكذا شأن العظماء فإنهم يتفقدون أصحابهم ، ويلقونهم ما غفلوا عنه ، ويحضرون لعل حضورهم تكون فيه بركة عظيمة ينقذ الله أصحابهم بها من الغفلات ومن الوقوع في النار ، بسبب كثرة السيئات .

ما يدل على فضل البر وقبح العقوق:

قد علمتم أن سيدنا رسول الله ﷺ جاءه رجل يستأذنه في الجهاد فقال له : «ألك أم؟» قال : نعم ، فقال : «الزم رجلها فإن الجنة ثم» .

وجاءه رجل يستأذنه في الجهاد فقال : «أحي والداك؟» قال : نعم ، قال : «ففيهما فجاهد»^(١) في طاعتها ، وجاهد في البرور بهما ، وجاهد في الدعاء لهما ، وجاهد في طلب الرحمة لهما ، فقدم ﷺ برور الوالدين على الجهاد ، وهكذا ينبغي للإنسان أن يبر والديه سواء كانوا أحياء أو أمواتاً . أما البرور في حال الحياة فبخدمتهم ، وطاعتهم ، والدعاء لهم ، وطلب رضاهم ، وأما بعد الموت ، فبالدعاء لهم ، وزيارة قبرهم كذلك ، ولذلك ورد : «من زار قبر والديه كل جمعة كتب باراً» .

زر والديك وقف على قبريهما فكأنني بك قد نقلت إليهما
لو كنت حيث هما وكانا بالبقا زارك حبوا لا على قدميهما
أنسيت عهدهما عشية أسكنا دار البلى وسكنت في داريهما
ما كان ذنبهما إليك وإنما منحاك صفو الود من نفسيهما
إلى آخر الشعر الذي ذكره الإمام الرهوني ، وكذلك الشيخ كنون في حاشيتيهما على الزرقاني .

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤) ، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

وعلى كل حال ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة من أمر الوالدين ، وأن يبرهما ، وأن يدعو لهما ، وأن لا ينسى الإحسان إليهما ، وليعتقد أن الجزاء من جنس العمل فإذا لم يبر والديه ، فلن يبره أولاده ، كما قلنا كل الذنوب يؤجل الله منها ما شاء إلى الآخرة إلا عقوق الوالدين ، فإنه يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات .

للأم ثلاثة أرباع البر:

ينبغي للإنسان أن يعلم أن النبي ﷺ قد أعطى الأم ثلاثة أرباع البر ، وأعطى الأب الربع الواحد ، جاء رجل من الصحابة فقال يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال : «أمك» قال : ثم من؟ قال : «أمك» . قال ثم من؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من قال : «أبوك»^(١) . فأعطى ﷺ للأم ثلاثة أرباع البر وأعطى للأب الربع الواحد ، لا شك أن هذا ظاهر ولا يحتاج إلى تعليل ؛ لأن النبي ﷺ على كل حال ينص لنا على أن الأم قاست من الشدائد ما لم يقاسه الوالد ، وعلى كل حال الكبائر كثيرة جدًّا ، ولم يمكن استيفاؤها ، ونرجو الله تعالى أن ينفعنا بما تلي منها ، وما قرئ منها ، وإن سنحت فرصة أخرى إن شاء الله فستتم الباقي .



(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المحاضرة الثانية والثلاثون بعد المائتين

القرآن معجزة خالدة

التمهيد:

انطلاقاً من قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وأعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»

بالسند المتصل إلى الشيخ الإمام الحافظ الحجة الهمام أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل بن المغيرة البخاري رحمه الله تعالى ورضي الله عنه بسنده في كتاب: فضائل الأعمال إلى سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا وأعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة».

موضوع الدرس:

القرآن معجزة خالدة، وهذه الكلمة الكريمة هي التي تنطبق تماماً على هذا الحديث الشريف الذي روينا في «صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه»، وهذا الحديث الشريف يدل على معان كثيرة وهو أقوى الأحاديث دلالة على إعجاز القرآن وعلى أن معجزته ليست مقصورة في الزمان الأول؛ ولكنها عامة في الزمان الأول والآخر وسنشرح ألفاظ هذا الحديث، ثم بعد ذلك نخرج على موضوع المعجزة القرآنية وكونها خالدة بخلود الأبد، ثم بعد ذلك نذكر وجوه الإعجاز التي ذكرها علماء البيان، ثم المعاني التي أشار إليها العلماء المحدثون، كل ذلك بعبارات وجيزة.

خلاصة ما قيل في معجزة النبي ﷺ:

أما قول النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وأعطي ما على مثله آمن البشر» هذا الحديث شرحه الشراح على وجوه كثيرة، ولكن خلاصة تلك الشروح كلها يؤول إلى معنى واحد، وهو أن المعجزة التي أعطيها الأنبياء من قبل كانت كلها من قبيل المحسوس، وأما المعجزة التي أعطيها نبينا ﷺ فكانت وحيا فإنها من قبيل المعقول، وبما أن المعجزة الحسية إنما تقع باعتبار الوقت الذي وقعت فيه بحيث إذا فات ذلك الوقت تصير خبراً محضاً يتناقله الناس ويرويه الرواة، فإن المعجزة العقلية تدوم بدوام عقول الإنسان، فإن البرية تتجدد وأمواج الخلائق تتكون، ولكل واحد منهم عقل، وللجميع عقول يمكنهم أن يدركوا بها هذه المعجزة فتبقى معجزة النبي ﷺ خالدة بخلود الأبد، بينما معجزة الأنبياء السابقين مقصورة على الوقت الذي ولدوا فيه، والذي تحدوا فيه أمهم في ذلك الوقت.

تعريف المعجزة والإعجاز القرآني:

المعجزة في اللغة وفي الاصطلاح: هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي مع عدم دعوى المعارضة.

ثم إن هذا التركيب الإضافي حينما نقول الإعجاز القرآني، إنما معناه إعجاز القرآن الخلائق أن يأتوا بمثل ما تحداهم عليه النبي ﷺ فهو من قبيل إضافة الفعل والمصدر إلى الفاعل. الفاعل هو القرآن الذي يضاف إليه أنه أعجز الخلائق عن الإتيان بمثل ما تحداهم بمثله من أي القرآن الكريم؟ مع حذف الفعل وما تعلق به والتقدير في ذلك إعجاز كتاب الله لخلق الله عن أن يأتوا بمثل ما تحداهم به من القرآن، أو من عشر سور أو من سورة واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى.

المقصود بالإعجاز:

المقصود بالإعجاز ليس ذات الإعجاز ، وإنما المقصود هو آثار الإعجاز ، فكأن الإعجاز حينما يقع ، الله سبحانه وتعالى لا غرض له فيه أن يثبت عجز الخلائق عن شيء من الأشياء . لا فيما يرجع للقرآن ولا فيما يرجع للمعجزات الحسية التي كانت تقع للأنبياء السابقين ، وإنما المقصود آثار ذلك الإعجاز فالإنسان حينما يثبت عجزه عن الإتيان بمثل ما تحداه به النبي ﷺ يكون قد اعترف بعد ذلك ضمناً وتبعاً لذلك العجز بأن هذا الشيء الذي عجز عنه هو قد عجز عنه جميع الخلائق . إذن فهو ليس من الأمور الموافقة للعادة ، وإذن فهو من عند الله سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود من إثبات الإعجاز هو إقناع الذين عجزوا بأن يؤمنوا بصدق نبوة سيدنا محمد ﷺ وأنها جاءت من عند الباري تبارك وتعالى .

دلائل الإعجاز القرآني:

هذا الإعجاز ثابت بدليل هذا الحديث الذي قلناه : «ما من الأنبياء نبي» أي لم يكن هنالك نبي من الأنبياء إلا وقد آتاه الله معجزة بحسب الحاجة التي يتوقف عليها ذلك العصر ، وبحسب الجو الذي كان موجودا في ذلك العصر . وهي على كل حال معجزة حسية جديدة بأن يقبلها الناس ، وأن يصدقوا بها بسرعة . ولا سيما في ذلك الوقت الذي كان مستوى عقل الإنسانية لا زال بسيطاً ، ولا زال ساذجاً . بل قال العلماء : إن قبول أولئك الأمم لتلك المعجزات الحسية يدل على بلادتهم ، بينما الأمة الإسلامية جاءت في موعد من الرقي البشري ، ومن التقدم الفكري الإنساني ، ولذلك كانت معجزتها عقلية ، ويدل ذلك على ذكاء هذه الأمة وفطنتها ؛ لأنها لا تكتفي بالحسيات .

معجزات النبي ليست عقلية فقط :

ليس معنى هذا أن المعجزات التي وقعت لسيدنا محمد ﷺ كانت كلها عقلية ، بل هنالك معجزات حسية ، كما سأبين ذلك . وإنما المقصود أن الأمة قد كانت على موعد مع النبي ﷺ وهو وأمته كانوا على موعد من التطور الإنساني والنضج البشري الفكري وكذلك من الرشد الديني ؛ لأن هذا الدين هو الذي نزل آخر الأديان وهو الذي جاء بالرسالة التي ستبقى رسالة خالدة لجميع الشعوب وتدعى لها جميع الأمم وهي الرسالة التي يجب على كل بشر كيف ما كان أن يؤمن بها ولا يرجو النجاة من الله إلا إذا صدق بها وبنوة سيدنا محمد ﷺ ؛ فلذلك قال في الحديث : «ما من الأنبياء نبي إلا وأعطى ما على مثله آمن البشر» أي أعطي معجزة من شأنها أن يؤمن بها البشر وهذه هي المعجزة الحسية ، «وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي» أي إن المعجزة التي أعطيتها كانت عقلية وليست بحسية ، فلذلك فأنا أرجو نظرا لكون العقول الكثيرة التي ستبقى على ممر الأزمان ، أتخداها بهذا القرآن ، فأنا أرجو أن يكون التابعون لي أكثر من تابعي الأمم السابقة يوم القيامة ، وهذا رجاء من النبي ﷺ نرجو الله تعالى أن يحققه وأن يعمم الإسلام في جميع العصور ، وفي جميع الأزمنة والأمكنة .

المراد بالمعجزة الحسية والمعجزة العقلية :

إن المعجزة كما قلنا إما معجزة حسية وإما معجزة عقلية ، والمعجزة الحسية كمثل المعجزات التي وقعت للأنبياء السابقين كناقاة صالح ، وكذلك السحر الذي كان في زمن سيدنا موسى فانقلب به العصا حية ، وخروج يد موسى بيضاء نقية من غير سوء ، وكذلك المعجزة الكبرى

وهي انفلاق البحر حينما ذهب مع فرعون فنجاه الله تعالى وأغرق فرعون ، وكذلك المعجزات التي وقعت لسيدنا عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

معجزة النبي من جنس ما برع فيه قومه :

قال علماء الكلام : والمعجزة كانت تابعة في الوقت للجو الذي كان موجودا فيه النبي ﷺ فذلك الوقت الذي كان فيه زمن سيدنا موسى كان الجو المنتشر في ذلك الوقت عند المصريين وعند البابليين هو معرفتهم بكثير من أنواع العلوم ، وفي مقدمتها السحر ، فقد كان أولئك الروساء يأتون بالسحر المدهش . حتى وصفه القرآن بقوله : ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] فهو سحر عظيم ، كانوا يستعملونه بسبب المعرفة العلمية التي ورثوها عن بابل . وإذا قلنا العلوم فإن العلوم في الحقيقة كما كان يفسرها البابليون منها ما كان صوابا ومنها ما كان مخطئا . فأعطى الله سيدنا موسى معجزة بزت أنواع السحر الذي كان يعرفه أولئك القوم والعلوم التي كانوا يدركونها ، وفي زمن سيدنا عيسى عليه السلام كان الجو انتشر فيه الطب وتقدم تقدما عظيما فأعطى الله سيدنا عيسى معجزة كبيرة وهي إبراء الأكمه والأبرص ، بل تجاوز ذلك إلى إحياء الموتى بإذن الله فبز بذلك الأطباء وعلماء الطب على الإطلاق .

عصر ظهور معجزة النبي محمد ﷺ :

لما كان العصر الذي ولد فيه سيدنا محمد ﷺ بالنسبة للأمة العربية كان عصر البلاغة وازدهار فنون القول من الشعر والنثر والسجع وغير ذلك من أنواع الفنون الأدبية التي كانت معروفة عند العرب ، فإن الله تعالى

أعطى نبيه معجزة فاقت تلك المعجزات كلها الكلامية حتى تفوق عليهم ، فلم يستطيعوا وتحداهم فلم يقدرُوا وقال لهم لن تفعلوا فلم يفعلوا ، فهذا هو السر في كون معجزته ﷺ كانت بلاغية من قبيل الكلام ، وذلك هو معنى هذا الحديث الشريف : «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي مثل ما آمن على مثله البشر» ، أي إلا ما آمن مغلوبًا على مثله البشر بطريق الاقتناع بذلك ، ومعجزة الأنبياء السابقين خاصة بعصورهم ، وأما معجزة سيدنا محمد ﷺ فإنها دائمة بطول الدهر . وهي معجزة في عصره ﷺ ، ومعجزة في كل عصر جاء بعد عصره ﷺ وهي معجزة في عصرنا .

معجزة القرآن تتحدى العالمين:

القرآن يتحدى كل أحد من العرب ومن غيرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، من العرب أن يأتوا به في لفظه ومعناه ، ومن غير العرب أن يأتوا بالمعاني والمعارف والهداية والإرشادات التي يحتويها كتاب الله تعالى . ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك أبدا ، وقد ثبتت المعجزة بالفعل . فإن التحدي واقع باستمرار والعجز ثابت بالاستمرار .

واللغة العربية محفوظة دائمة والعرب لا يزالون موجودين من المسلمين ومن غيرهم فصحاء بلغاء ، ومع ذلك لم يقدر أحد منهم أن يتحدى الناس أو يقول بمعجزة جديدة ، أو يأتي بكتاب بين يقنع الناس به . وكل ما وقع في بعض العصور هو بعض الهراءات التي جاء بها بعض المتنبيين مما لا قيمة لها .

محاولة كاذبة خاطئة:

من ذلك ما فعله مسيلمة الكذاب الذي كان ادعى النبوة في بني حنيفة فإنه قد ادعى أنه يستطيع أن يأتي بمعارضة لأقصر سورة في كتاب الله ،

وهي سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] . فجاء بهراء يقول فيه
 إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر . إن مبغضك لكافر ، هكذا جاء
 به مسيلمة الكذاب ، وجاء بمعارضة لسورة الفيل . فقال : الفيل وما
 أدراك ما الفيل ، له ذنب قصير وخرطوم طويل ، في كلام مثل هذا وجاء في
 سورة الضفدعة : يا ضفدع بنت ضفدع نقي ما شئت تنقين نصفك في
 الماء ونصفك في الطين . لا الماء تشربين ، ولا الطين تمنعين . وجاء في آية
 أخرى عنده : والطاحنات طحنا ، فالعاجنات عجنا ، فالخابزات خبزنا ، إلى
 غير ذلك من هذه الخزعبلات والخرافات التي جاء بها مسيلمة الكذاب .

رأي الرافعي في مسيلمة الكذاب :

يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه «تاريخ أدب اللغة العربية» في
 القسم المتعلق بإعجاز القرآن : إنه يعتقد أن مسيلمة الكذاب ، ما كان
 يقصد لمعارضة القرآن ، وإنما كان يقصد أن يرتفع في جو بني حنيفة
 بأسلوب من الأساليب التي كانت معروفة عند الكهنة من الأساليب التي
 كانت عند العرافين . العرافون كانوا يأتون بكلام مسجوع ، كما وقع
 بزعمهم أنهم سمعوا الجن يتكلم ويقول : يوم جليح وأمر نجيح ورجل
 فصيح يقول لا إله إلا الله وقصدوا بذلك إسلام سيدنا عمر بن الخطاب
 فهو يقلد هؤلاء القوم في هذه الأساليب عسى أن يرتفع في وسط قومه إلى
 الدرجة التي يكون فيها مثل العرافين الموجودين في ذلك العصر . وأما
 النبوة فهي من طينة أخرى . وأما القرآن فهو أسلوب غير هذا الأسلوب ،
 ثم بعد ذلك نسبوا إلى جماعة أمثال الجاحظ ، قالوا : إنه قلد القرآن . مع أن
 الجاحظ ألف كتاباً في بيان إعجاز القرآن وكتابه معروف . وقد تكلم عليه
 العلماء الذين كتبوا في إعجاز القرآن ونقلوا عنه .

ما نسب إلى المعري من تقليد القرآن :

كذلك نسبوا إلى المعري أنه أراد أن يقلد القرآن مع أن المعري في أشعاره وفي كلامه كله يدل على إيمانه بإعجاز النبي ﷺ ، حتى إنه لما ألف شرحه لديوان المتنبي سماه بمعجز أحمد ، وآخر الخرافيين الذين أرادوا أن يقلدوا القرآن وأن يأتوا بكتاب على غرار كتاب الله تعالى الطائفة البهائية في القرن الماضي ، حيث ألف رئيسها كتاباً سماه الأقدس . ثم جاء فيه بخرافات من جملتها أنه منع من تعليم كل العلوم إلا هذا الكتاب ، فلما رأى أتباعه أن ذلك سيضر بهم كتموا هذا الكتاب وطووه إلى وقت يمكنهم أن ينشروه فيه بعد ذلك ، وقد وقع من بعض مدعي المهدوية في الهند كذلك مثل هذا العمل ، ولكن كلامهم كله كان خرافياً ، ولم يأت بحجة قاطعة ، وبقيت معجزة النبي ﷺ قائمة مدئ الأزمان . ومعجزة النبي ﷺ ثابتة :

أولاً : لأن النبوة مبنية عليها ، بحيث البحث في إعجاز القرآن شيء ضروري ؛ لأن نبوة النبي ﷺ ثابتة ؛ ولأن نبوته ﷺ مبنية على إعجاز القرآن ، فإذا لم يثبت إعجاز القرآن ، فإن ذلك يضر بثبوت نبوة محمد ﷺ وإذا لم تثبت نبوة محمد ﷺ فإنه لا يمكن أن تثبت نبوة نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل ولا معجزة من المعجزات وإليكم البيان .

القرآن سبب في هداية الناس إلى الحق :

أما من وجهة ثبوت المعجزة إلى النبي ﷺ فهذا شيء ضروري لأن القرآن قد اعتبر ذلك شيئاً أساسياً ﴿الرَّكَتُوبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم : ١] فجعل القرآن سبباً وسبيلاً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولا يمكن أن يكون سبيلاً لإخراج

الناس من الظلمات إلى النور إلا إذا كان حجة ، ولا يمكن أن يكون حجة على الناس إلا إذا كان معجزة ، وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ، فلو لا أن سماع كلام الله حجة عليه ، ما كان لإسماعه كلام الله فائدة ، وإنما المقصود بذلك إقامة الحجة عليه ليؤمن أو ليكذب فتكون الحجة قائمة عليه ، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على نبيه وبين في غير ما آية أن إنزاله كان ليكون هداية وتبشيرا وإنذارا للناس ولا تكون به البشارة والندارة والهداية ، إلا إذا كان حجة ، ولا يمكن أن يكون حجة إلا إذا كان معجزة خارقة للعادة ، وتحدى به النبي ﷺ الناس وآمنوا بذلك التحدي وصدقوا وقبلوا أو كذبوا فكفروا .

الإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور:

نحن إذا تتبعنا السور القرآنية المفتوحة بالحروف المقطوعة التي فيها «الم» أو «الر» أو «يس» أو «طس» أو «طسم» «حم» أو «حم عسق» ، أو غير ذلك من هذه السور ، فواتح السور التي فيها الحروف المقطوعة إذا نحن حللنا عناصر هذه السور كلها نجدها قائمة على هذا المعنى . أي على إثبات أن القرآن الكريم والرسالة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ إنما هي مركبة من كلام العرب وإنما هي مركبة من هذه الحروف المقطوعة التي يبتدئ بها القرآن الكريم هذه السور الكريمة .

سورة البقرة:

إذا أخذنا ﴿الْمَ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١، ٢﴾ إلى آخر السورة ، نجد أن فيها كلامًا كثيرًا عن قضية الإعجاز ، والبداية بدأ

بقوله ﴿الْمَ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿﴾ يعني هذا الكتاب المقروء عليكم الذي لا شك فيه ليس شيئاً خارجاً عما ألفتموه من الكلام والجمل المترتبة من هذه الحروف المقطوعة «الم» إلى غيرها من الحروف التسعة والعشرين المعروفة عند العرب ، وإنما ذكر الألف لأن بها البداية وذكر اللام لأنها من الحروف المتوسطة ، وذكر الميم لأنها من الحروف المتأخرة ، وقد أراد بذلك والله أعلم الدلالة على ما وراءها من الحروف .

المقصود أن هذه السور الكريمة تدل على أن القرآن كله مركب من الحروف ومن الكلمات التي تنطقون بها ، وهذه الحروف التي تكتبونها وهذه الأشياء التي تقرأونها هي التي جئكم فيها بكتاب ، ولكن هذا الكتاب ليس كالكتب التي تعرفون فلذلك أنا أتحداكم أن تأتوا بحديث مثله ، أو تأتوا بعشر سور مثله مفتریات ، أو تأتوا بسورة من مثله ، فوقع التحدي بهذه الأحوال كلها .

سورة غافر:

إذا قرأنا مثلاً من هذه السورة : ﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِّدُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ﴿غافر: ١-٤﴾ .

معنى الكفر في الآية:

نجد القرآن يقول : ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] والكفر هنا بمعنى الجحود ؛ لأن الكفر أنواع . ومعناه هنا الكفر بمعنى الجحود ، فما يجادل في آيات الله المنزلة على نبيه ﷺ إلا الذين عرفوه ، والذين صدقوا به في داخل أنفسهم ، ولكن كفروا به ظاهراً وجحدوه ؛

لأنه طغت عليهم أنفسهم ، فلم يستطيعوا أن يعترفوا بالحقيقة . فجعل جداهم في ثبوت القرآن كفرا وجحودا .

حال الأمم مع أنبيائهم:

بعد ذلك قرن هذا الشيء الذي وقع من العرب ، بما وقع من غيرهم من أمم الأنبياء السابقين حيث قال : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر : ٥] ، فبين أن هذا الجدل وأن مقاومة الأنبياء هي من سنن البشر ، وأنه كما وقع ذلك لسيدنا محمد ﷺ فقد وقع ذلك للأنبياء السابقين من قبله وليس هو بدعا من الرسل حتى يخرج عن هذه الأشياء التي وقعت لمن قبله من الأنبياء والرسل .

ولكن القرآن بين لنا أن هذه المقاومة والجدال العنيف الذي يقع من الجاحدين ينتهي دائما بالبطلان وبالفشل الذريع ، فلذلك قال ﴿ فَآخَذْنَاهُمْ ﴾ [غافر : ٥] ، يعني غلبتهم ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٥] .

حال المؤمنين بالمعجزة والكافرين بها:

ثم بعد ذلك في هذه السورة تحدث بالتطويل في جملة آيات عن كل ما يرجع لدم الكافرين والثناء على المؤمنين ، وأن الملائكة الذين يحفون حول العرش ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧] وهذا يدل على أن المؤمنين بإعجاز القرآن يستحقون أن تستغفر لهم الملائكة ، وهم يسبحون بحمد الرحمن ، أما الذين يكفرون بهذا الإعجاز فإنهم في الحقيقة مذمومون مقهرون .

عاقبة المكذبين لمعجزات رب العالمين:

ثم بعد ذلك في آخر السورة، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [غافر: ٢١] فكما أخذهم بذنوبهم يمكنه أن يأخذ هؤلاء الذين لا يبلغون مبلغ الشدة والقوة التي كانت لأوثك؛ فبين سبحانه وتعالى أن الإيمان لا بد أن يؤدي إلى النصر، ولا بد من أن يؤدي إلى الفوز المبين، وأن الكفر والإلحاد لا بد أن ينتهي إلى الاضمحلال وإلى نهاية الأمم والشعوب وإلى أن يأخذهم الله بذنوبهم.

رأي لجمال الدين الأفغاني:

قد بين جمال الدين الأفغاني في كتابه «الرد على الدهريين» ذلك بعرض تاريخي مهم. حيث استعرض كل الأمور التي وقعت للأمم السابقة ذوي الحضارات الراقية، وكيف أنهم حينما ابتعدوا عن الدين الحق سقطوا، وحينما آمنوا بالدين الحق ارتفعوا، وذلك ما وقع للمسلمين أيضا؛ فإنهم حينما اتبعوا دينهم وسلكوا شريعة نبيهم، ارتقوا وتقدموا، ثم أصابهم بعد ذلك آفة الانحطاط، فإذا هم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى وإلى دينه الكريم، فإنهم لا بد أن يجبر الله تعالى كسرهم، هذا ما يتعلق بالقسم الأول وهو كون القرآن قد بين بنفسه حجته وقد بين بنفسه إعجازه بهذه الآيات سردت لكم باختصار وإيجاز.

السبب الثاني لثبات معجزة القرآن وخلودها:

أما القسم الثاني من هذا البحث فهو أن إعجاز القرآن ثابت ووجه دلالاته ما هو؟

ثبوت نقل النص القرآني بالتواتر:

وجه الدلالة هو ثبوت القرآن ثبوتاً قطعياً وأنه خرج من بين شفهي النبي ﷺ لا يشك في ذلك شك ، فنحن إذا تتبعنا التاريخ لا نجد كتاباً من الكتب ، ولا خبر نبي من الأنبياء ثابتاً بالتواتر كما ثبت القرآن ؛ فإن سيدنا محمداً ﷺ لبث في قومه ثلاثاً وعشرين سنة ، نصفها في مكة ونصفها بالمدينة ، وفي كل هذه المدة كان يتلو عليهم آيات من كتاب الله ، وكانوا يسجلونها ، وكانوا يحفظونها ، حتى اجتمع هذا القرآن الذي بين دفتي المصحف كتبه المسلمون وكتبه الصحابة ، وحفظه بعض الصحابة في صدورهم وكتبه كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وبعث ببعضه ﷺ مع رسله إلى الذين كتب إليهم ، مع سفرائه إلى الرؤساء الذين وجه إليهم سفارات ، وانتقل ذلك مع ولاية أمره إلى الأماكن والبقاع ، فاطلع على القرآن الكثير من المؤمنين والكافرين ، وكلهم عرفوا أن ما في القرآن مخالف لهم . كما عرف المؤمنون أن ما في القرآن موافق لهم ، ولم يمت ﷺ حتى كان القرآن مجموعاً في الحفظ مجموعاً في اللخاف ، وفي جرائد النخل وفي غير ذلك من الأوراق التي كان يكتب بها .

جمع القرآن في عهد أبي بكر ثم في عهد عثمان :

جمع سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه القرآن الكريم من صدور الرجال ومن هذه الأوراق التي كتبت في عهد النبي ﷺ ثم بعد ذلك جمع مرة أخرى في زمن سيدنا عثمان جمع من تلك الأوراق نفسها ومن النسخة التي كتبها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وكانت محفوظة عند صفية ، وجمعها كذلك من صدور الرجال الذين كانوا حفاظاً لكتاب الله تبارك وتعالى ومنذ ذلك الوقت وزع سيدنا عثمان المصاحف على الآفاق وانتشرت وفي

كل عصر وفي كل جيل يكثر من حفاظ القرآن الملايين ، وكذلك من كتابه الملايين ، ويكثر كذلك من المصاحف المنشورة في البقاع الملايين .

حال الناس في حفظهم لكتاب الله :

بعض الناس يحفظ القرآن للتعبد به وبعضهم يحفظه لدراسته ، وبعضهم يحفظه لخدمته من جهة القراءة ، وبعضهم يحفظه لخدمته من جهة اللغة ، وبعضهم يحفظه لخدمته من جهة التفسير والتأويل ، وبعضهم يحفظه من جهة الرسم وبعضهم يحفظه من جهة استنباط العلوم وبعضهم يحفظه من جهة النحو وبعضهم يحفظه من جهة الصرف ، وبعضهم استفاد به الأحكام الشرعية ، ودرس الأحكام ، وغير ذلك من الأمور التي اشتغل بها المسلمون ، والتي كان القرآن سبباً في إيجاد العلوم التي اشتغلوا بها واستفادوها منه ، من لفظه ومن معناه ومن دراسته ومن تأويله . فهذا القرآن الذي نقل هكذا منذ ذلك الوقت ، ثم لما ظهرت الطباعة صار يطبع منه الملايين في كل شهر ، بل المليارات في كل سنة ، في كل بلد من بلاد الإسلام ، وفي كل أرض من أرض الله سبحانه وتعالى يوزع هذا القرآن وينتشر في كل الآفاق ، ومع ذلك فلم يحدثنا التاريخ في وقت من الأوقات أن هنالك تناقضاً في هذه الآيات أو نقصاً في هذا القرآن أو تبديلاً في هذا الكتاب الكريم إنه لا يزال محفوظاً كما هو . فلا يشك شك وهو جاد في شكه أن هذا الأمر قد خرج من بين شفتي النبي ﷺ فإذا لم يثبت هذا ؛ فإنه لا يمكن أن يثبت غيره .

حال بقية الكتب من حيث النقل والثبوت :

إن الكتب المقدسة التي للأمم السابقة لا يمكن أن تفتخر بمثل هذا الثبوت ، لا يمكن أن تفتخر بهذا التواتر الذي هو موجود بصفة قطعية .

تحريف التوراة بعد ضياعها :

إن التوراة - من المعلوم والذي اتفق عليه جميع العلماء من اليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم - التي كان يعلمها سيدنا موسى عليه السلام لقومه قد ضاعت ، ولم تبق منها إلا نسخة واحدة كانت عند العازار وأن هذه النسخة بعد ذلك قد غرقت في البحر فجميع النسخ الأصلية قد ضاعت والتوراة الموجودة الآن إنما هي بعض مما كتبه العازار بأمر ملك من ملوك البابليين بعد أن زال اضطهادهم السابق الأول ، وأذن لهم في كتابة المصحف وأذن للعازار في أن يكتب لبني إسرائيل كتاب الرب تعالى ، كما تتحدث بذلك أخبار التوراة نفسها ، ولذلك نجد في التوراة الموجودة التي هي باللغة العبرانية آلاف الكلمات البابلية ونجد فيها اختلافاً مع ما هو موجود في الآثار الثابتة عن سيدنا موسى وفي الأشياء المعروفة من الديانات السابقة واللاحقة والتي يتحدث بها القرآن الذي هو المهيمن على أخبار جميع الكتب السماوية .

تحريف الإنجيل عما جاء به عيسى عليه السلام :

أما الإنجيل فجميع العلماء متفقون على أنه ليس هو الإنجيل الذي قرأه سيدنا عيسى عليه السلام ؛ لأن الحواريين لم يحفظوا هذا الإنجيل ولم ينقلوه إلينا ، أما هذه النسخة التي توزع منها نسخ كثيرة ، فإنما هي قطع كان يحفظها بعض الناس ممن كانوا يدعون أنهم استفادوا من الحواريين ولم تجمع ، ويتفق النصارى في مؤتمر خاص إلى زمن القسطنطين إمبراطور روما الذي تنصر لأجل سبب سياسي ، والذي قبل أن يجمع أربعة كتب من الأناجيل الموجودة ثلاثمائة سنة بعد موت المسيح عليه السلام . ثم منذ جمع هذا الإنجيل في ذلك الوقت وقع فيه تحريف وتبديل وتغيير ، وقد ألف العلامة رينان كتاباً بين فيه

بالحجج القاطعة أن التبديل والتغيير وقع في هذا الإنجيل في طول الزمان ، وفي مختلف العصور وهو يذكر لك في العصر الفلاني ، حذفت الجمل الفلانية وفي العصر الفلاني أضيفت الجمل الفلانية . وفي العصر الفلاني وقع كذا وكذا . . . وهذا هو السبب الذي جعل البابا يحكم على كتب رينان أنها ممنوعة من أن تقرأ وبأنها كفر وإلحاد هذا كله يدل على أنه لا يمكن بصفة قاطعة أن يثبت لنا ثبوتًا تاريخيًا وثبوتًا متواترًا ، أي كتاب من الكتب السابقة .

القرآن ثبت إعجازه بالتواتر:

القرآن وحده الذي هو ثابت بهذه الطريقة التي قلت لكم بالتواتر ، وهو وحده الذي قال عن بني إسرائيل إنهم ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة : ١٤] .

وأثبت لهم أنهم لا يزالون محافظين على حظ مما ذكروا به ولولا هذه الآية القرآنية التي ثبتت عن رسول الله ﷺ والتي هي بوحى من السماء ، ما كان لأحد من البشر يبحث بحثًا علميًا أن يتيقن أن اليهود أو النصارى لا يزالون محافظين ولو على حظ مما ذكروا به مما أنزل الله على موسى وعيسى .

فلذلك قلنا إنه إذا لم يثبت إعجاز القرآن ولم تثبت نبوة سيدنا محمد ﷺ فلا يمكن من الوجهة العلمية ومن الوجهة المنطقية أن يثبت أي دين من الأديان بالمرة ، فثبوت الأديان السابقة متوقف على الثبوت المنطقي ، وعلى الثبوت التاريخي لنبوة سيدنا محمد ﷺ ولإعجاز القرآن ، والقرآن لا يبخل بذلك ، وهو يؤكد أن قيمته ستبقى دائمة ، وأنه لا يبلى على كثرة الرد ، وأنه سيحيا دائما خالداً بإعجازه الماضي وبإعجازه الحاضر ، هذا من جهة ثبوته إلى نبينا ﷺ .

لماذا لا يكون القرآن من عند محمد؟

قد يقول قائل : نحن لا نشك في أن هذا القرآن قد ثبت وقد تواتر عن سيدنا محمد ﷺ ، ولكن أفلا يمكن أن يكون من صنع محمد وليس من وحي الله؟

أدلة بطلان هذه الشبهة:

نقول لهم : لا ، دليل ذلك كثير ، من جملة .

أولاً : سبب ومكان وطريقة النزول وترتيب الآيات :

إن هذا القرآن قد نزل منجماً بحسب الوقائع والحوادث ، ثم كان كلما نزلت آية يقول سيدنا محمد ﷺ لكتابه : ضعوا هذه الآية في المكان الفلاني من السورة الفلانية . فلم يمت ﷺ حتى كان القرآن مجموعاً مرتباً بآياته ، فترتيب الآيات هو توقيفي وليس اجتهدانياً ، وقد وقع في زمنه ﷺ وإنما وقع الجمع بعد ذلك كما قلت لكم في زمن أبي بكر مما حفظه الناس ، ومما كتبه الصحابة رضوان الله عليهم . فالقرآن إذن في هذا الترتيب نجد الاختلاف بين سنة النزول وبين المكان الذي توضع فيه هذه الآية . فنحن مثلاً نرى في آخر القرآن ترتيباً ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] بينما نرى أن ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... ﴾ هي أول آية نزلت من القرآن الكريم ، ونرى آيات من كتاب الله في سورة البقرة ، وهي آخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، تسعة أيام قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ونرى هذا الترتيب لائقاً سواء في السور الكبيرة التي نزلت منجمة وبقطع مختلفة ، مثل سورة البقرة التي نزلت في ثلاث وثمانين دفعة .

ونجد نفس الانسجام ونفس التوفيق في السورة التي نزلت دفعة واحدة كسورة آل عمران كما هو مذهب الجمهور في نزولها ، فإذا جمعنا بين سورة البقرة التي نزلت في ثلاث وثمانين مناسبة وبين سورة آل عمران التي نزلت في مناسبة واحدة ، وفي دفعة واحدة ، نجد أن هذا لا يمكن أن يقع إلا بإعجاز من الباري ﷻ لأنك لو جئت تجمع الآيات وترتبها هذا الترتيب على هذه الصفة لا يمكنك أن تززع آية من مكانها إلى مكان آخر إلا وفسد المعنى وذهب الإعجاز .

حكم التنكيس في قراءة القرآن :

قال العلماء : إنه يحرم على الإنسان أن يقرأ القرآن من أسفل إلى أعلى ولم يبيحوا ذلك إلا للتلامذة الصغار ؛ لأنهم يتعلمون وكرهوا ذلك في الصلاة . قالوا : إنه يكره للإنسان أن يقرأ في السورة وينتكس في السورة التي بعدها ، وأما في التلاوة وفي الترتيل فإن ذلك حرام كما اتفق عليه العلماء لأن الإعجاز يمس به ذلك التنكيس ؛ لأن الترتيب الذي وقع فيه حظ من الإعجاز ، ولذلك تكون من علوم القرآن علم المناسبة ، فقد ألف العلماء كتباً كثيرة باجتهادهم في فهم المناسبة بين هذه الآية والتي بعدها ، والمناسبة بين هذه السورة والتي بعدها .

ثانياً : الفرق الواضح بين النظم النبوي والقرآني :

يقول قائل : يمكن مع ذلك أن يقع هذا الشيء وأن يتوفق لرجل عبقري ، نقول لهم : ها هو كلام الرسول ﷺ الحديث النبوي بين يديكم إنه توجد في كل مكتبة عشرات الكتب بل مئات الكتب المملوءة بالأحاديث النبوية ، وقد جمع الحافظ السيوطي نحو المائة ألف حديث وتدارك عليه إدريس العراقي

الحافظ عشرة آلاف حديث على كل حال هناك عشرات الآلاف من الأحاديث النبوية ، هلموا ونظموا جمعية أو لجنة كيفما شئتم وأزيلوا الأسانيد ، ورتبوا هذه الأحاديث كما رتب القرآن واعرضوا هذا القرآن على هذا الحديث وهل تستطيع ترتيب الحديث كترتيب القرآن ، إذا كان كلام النبي نريد أن نرتبه ولا نستطيع ، هذا تحدّي عصري لجميع الشعوب ولجميع العلماء لا يمكنهم أن يرتبوا الحديث كما رتب القرآن ترتيباً توقيفياً .

البون الواسع بينهما من حيث البلاغة :

نقطة أخرى وهي أن القرآن إذا قارناه بكلام رسول الله ﷺ فإننا نجد البون شاسعاً في الفصاحة والبلاغة ، فليس كلام الله ككلام الرسول سيدنا محمد ﷺ ، لاشك أن كلامه أفصح كلام يصدر من إنسان ولكن مع ذلك فهو لا يوازي البلاغة والفصاحة الموجودة في كتاب الله تبارك وتعالى وها هو الحديث وها هو القرآن الكريم .

الحديث القدسي مقارنة بالقرآن :

الحديث القدسي الذي هو من كلام الله ، وإنما عبر عنه النبي ﷺ بعبارة من عنده ، مع ذلك لا يبلغ ولا يصل ولو عشر معشار البلاغة التي في كلام الباري ﷻ ، فدل ذلك على أنه لا يمكن أن يعتبر القرآن إلا معجزاً صادراً من الباري ﷻ ، ولا يمكن أن يكون صدر من إنسان .

النبي أمي فكيف أتى بالقرآن؟

هناك نقطة مهمة أخرى هي أن سيدنا محمداً ﷺ ثبت ثبوتاً قطعياً أنه كان أمياً لا يعرف الكتابة ولا القراءة ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا

فَخُطِّهُ، يَمِينُكَ إِذَا لَا زَنَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقد قال لهم ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] لبث فيهم ﷺ أربعين سنة فلم يقل لهم شعرا ولم يخطب فيهم خطابة واضحة فصيحة ولم يبين لهم كلاما أو حكما، ولم يحضر معهم تلك المواسم التي كانت ينظمونها كعكاظ وذي المجنة من المواسم العربية التي كانوا يتبارون فيها ويتفاخرون، ما حضرها ﷺ ولا تفاخر مع أحد ولا تبارى مع أحد في الكلام لم يعرفه الناس قاطبة، وقد كانوا يخالطونه ويعاشره و ذلك لكونه أميئا صادقا ذا مروءة و ذا كرم و ذا إحسان، ولكن لم يعرفوا عنه أبدا أنه شاعر أو أنه فصيح، أو أنه خطيب، أو أنه متكلم، أو أنه دارس أو أنه يتردد على أحد ليدرس عليه كما ادعوا بعد ذلك.

قالوا: تعلم النبي من الرهبان:

لقد قالوا إنه ﷺ تعلم من بعض الرهبان. قد رموه بذلك حينما انتقل ﷺ إلى الشام، ولكن إذا نظرنا من الوجهة التاريخية نجد أن سيدنا محمداً ﷺ انتقل فعلاً إلى الشام وهو صغير لم يبلغ العشرة أعوام مع عمه ولما ذهب هناك في الطريق خاف عليه من اليهود عمه فردّه، ولم يبق معه إلا بضعة أيام، فلا يمكنه أن يكون قد تعلم فيها شيئاً، ولا يمكن لرجل من مطلق الناس أن يتعلم لا من الرهبان ولا من غيرهم شيئاً من الأشياء في تلك المدة القصيرة، ثم إنه سافر بعد ذلك مع غلامه ميسرة في تجارة لخديجة في قراض، ولكنه لم يتجاوز حدود المدينة بصره، باع فيها البضائع ثم رجع، بحيث لم يمكث إلا بضعة أيام في هذه الرحلة وعمره خمس وعشرون سنة. على كل حال من جهة السن كان يمكن ولكنه لم يمكث إلا بضعة أيام ثم رجع، ثم ماذا يتعلم من هؤلاء القوم؟

مع النظر البسيط يظهر الفرق الشاسع:

ها هي الكتب المقدسة والمعارف التي كانت موجودة عند أولئك الناس في ذلك الوقت ، وها هو القرآن الكريم بين ظهرانينا ، فكيف يمكن إذا قارنا أن نجد في تلك الكتب عشر معشار ما في القرآن من المعارف ومن العلوم التي سنين بعضها . فكتاب الله تعالى دائرة معارف بعيدة عن أن تكون شبيهة بمثل تلك الكتب . لقد ذكر القرآن أشياء مما ذكرته الكتب المقدسة السابقة ، ولكنه اختلف معهم في أشياء كثيرة . فإن القرآن الكريم يتحدث لنا عن قصة ذبح البقرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] هذه القصة غير موجودة في التوراة . فمن أين جاء بها محمد ﷺ ، ونجد كذلك قصة العزيز . فإن القرآن يقول : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقد شنع اليهود في عصره ﷺ عليه وقالوا : إن النبي يقولنا ما لا نقوله . فنحن لا نقول إن العزيز ابن الله .

هل عبدٌ عزيز من دون الله؟

قد بقيت هذه المسألة مجهولة عند كثير من العلماء حتى القرن العشرين ، حيث جاءت الحفريات في مصر تثبت أن العزيز كان معبودا لقدماء المصريين ؛ لأن قدماء المصريين كانوا يوحدون الله أولا ثم انتقلوا بعد ذلك إلى عبادة الشمس ، وكانوا يسمون الشمس بالأزار ويسميه الأوريون هذا الإله المعبود عندهم بالأوزيريس . فهذا العزيز الذي كان عند قدماء المصريين في مرحلة من مراحل التاريخ إنما كان قدماء بني إسرائيل في مصر اقتبسوا هذه العبادة من قدماء المصريين هذا ما عثر عليه في الحفريات الموجودة في مصر في إحدى

الحفريات المهمة ، وهي تثبت معجزة القرآن ، وصدقه فيما يخبر به ، وإن كذبه اليهود الذين كانوا في جزيرة العرب ، لأنهم لم يكونوا يعرفون هذا النوع من الحديث عندهم ولا من خبر أسلافهم .

قصة المسيح ﷺ في القرآن :

إن في القرآن أشياء كثيرة مختلفة ، تختلف عما في التوراة والإنجيل من هذه المسائل المذكورة قصة المسيح ، ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [١٥٧: النساء] ، الإنجيل يقول : إن المسيح قد صلب ، وإنه قد قتل والنبي لا يقول إن المسيح ابن الله بل إن القرآن يقول : إنه رسول عبد الله ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١] وأما المسيحيون فيقولون إنه ابن الله . فهذا الاختلاف الكبير هل تعلمه من أولئك الرهبان ومن أولئك القسس؟ من أين جاء به؟ إذن المعجزة ثابتة ثبوت التواتر حيث إن القراءة ثابتة ثبوت التواتر وكونه خرج من بين شفطي النبي ﷺ القرآن ثابت بدون شك أنه من عند الله نظرا لكون الأشياء التي بينها وفي مقدمتها كونه جاء من عند نبي أمي .

ثالثاً: تحدي القرآن لمعارضيه :

المسألة الثالثة : هي أن سيدنا محمداً ﷺ تحداهم بذلك فقد قال لهم مرة ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤] فلم يأتوا وقال لهم ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣] .

دلالة استخدام «إن» في الآية:

تأملوا في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ [البقرة: ٢٣] إن كنتم تستعمل القرآن ﴿إِنْ﴾ . وهذه من دلائل الإعجاز البلاغية . استعمل ﴿إِنْ﴾ ولم يستعمل «إذا» لأن «إذا» تستعمل في التحقق . وأما ﴿إِنْ﴾ فإنها تستعمل في الشيء المشكوك فيه . ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ يعني القرآن يشكك في كون أولئك الذين يرتابون في صدق النبي ﷺ فهو يتنبأ بأنهم في الحقيقة لا يشكون ، وإنما يجحدون ، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ ، و﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، هذا في الحقيقة يدل على أنه يشك في كونهم صادقين فيما يزعمون وفيما يدعون . فلذلك قال : ﴿إِنْ﴾ ولم يقل «إذا» . الأخيرة ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] .

علام يعود الضمير في كلمة «مثله»؟

الشيخ محمد عبده يقول : إن الضمير هنا يعود على رسول الله ﷺ ، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ لا من القرآن ، يعني ليكون الإعجاز أبلغ ، فأتوا بسورة مثل القرآن من مثل رجل أمي كمحمد ﷺ .

وبعض المفسرين يقول : إن الضمير يعود على القرآن نفسه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ وادَّعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] .

التحدي الصارخ لأهل مكة:

هذا التحدي وقع والنبي ﷺ لا يزال بمكة . ما يزال مستضعفاً هو وقومه . وما يزال قومه معذبين وفيهم المهاجرون إلى الحبشة . وهم يتآمرون عليه ﷺ ، وهو يتحداهم بهذا الكلام . ثم نزلت بعد ذلك آية أخرى في مثل هذا المعنى :

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ في المدينة المنورة . وهي تحد من الرسول ﷺ لأولئك القوم . وقد لبث ﷺ دائماً يقرأ القرآن على الأفراد وعلى الجماعات ويتحداهم ويقول : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ ، وهم يحاربونه وهم يقاومونه بجميع أنواع المقاومة وبجميع أنواع الحرب وقد سفه أحلامهم ، وسب آهاتهم ، واستعمل فيهم السيف ، وأخذ أموالهم وقتل أرواحهم ، ومع ذلك ما استطاعوا أن ينفكوا من هذه القضية ويقولوا له : ها هو قرآن مثل قرآنك أو ها هي سورة مثل سورتك . ويتحرون .

العادة أن الإنسان حينما يكون عنده خصم يتحداه بشيء من هذا القبيل ، يمكنه أن يأتي ويدفع عنه الضيم . لأن هؤلاء القوم الذين جادوا بأنفسهم لو استطاعوا أن يأتوا بسورة لما جادوا بأنفسهم ، ومع ذلك كانوا فصحاء بلغاء . وقد قاوموا بالشعر والمجموعة الشعرية التي قالها شعراء الجاهلية في هجو المسلمين ، وفي الحروب وفي الملاحم وفي مقاومة الإسلام ، في الحقيقة مجموعة عظيمة جدا . لها قيمة تاريخية ، ولها قيمة بلاغية مهمة ، ربما تفوقت على شعر الشعراء الإسلاميين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ، اللهم إلا ما كان من حسان وعبد الله بن رواحة وأضرابهما ، فهذه البلاغة وهذه الفصاحة لم تستطع أن تأتي بغير الشعر ، ولم تستطع أن تأتي بغير الكلام المسجوع ، ولم تستطع أن تأتي بأي شيء . والنبي ﷺ يتلو عليهم مدح القرآن . قال تعالى : ﴿نَقَّشَ لَهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] . ويشني الله على كتابه بجميع الأنواع فقد أنزل سبحانه السبع المثاني والقرآن العظيم ، ويتحداهم ويقول لهم : ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] ومع ذلك لن يفعلوا ، هذا القول ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ مبالغة في الإلحاح عليهم وفي تحديهم ، لأن الرجل إذا

قال للإنسان إذا كنت صلياً فاعمل ، ولم يستطع أن يعمل معنى ذلك غاية الغاية في العجز الذي وصل إليه العرب ، وهم أمراء الكلام ، وهم أمراء البلاغة ، وهم أمراء الفصاحة .

دلائل الإعجاز القرآني:

إذا نحن نظرنا في كتاب الله سبحانه وتعالى من جهة دلائل الإعجاز ، فإننا نجد فيه أنواعاً كثيرة . وقد درسها العلماء ، علماء السلف وفي مقدمتهم الإمام الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ الذي يعتبر كتابه إلى الآن في إعجاز القرآن أحسن كتاب صدر في هذا الموضوع . وقد جعل لذلك وجوها كثيرة نختصر منها بعض هذه الوجوه .

الإخبار بالمغيبات:

من جملة ما في القرآن من الإخبار بالمغيبات . فإن كتاب الله قد أخبر بمغيبات كثيرة . وهذه المغيبات منها ما يرجع إلى الماضي ومنها ما يرجع إلى حاضر الإسلام في ذلك الوقت ، ومنها ما يرجع للمستقبل . فأما ما يرجع للماضي ، فهو ما قصه القرآن الكريم من أخبار النبيين ، ومن أخبار مقاومة الناس لهم ، خبر نوح ، وخبر إبراهيم ، وخبر موسى ، وخبر عيسى ، وخبر يوسف وغير ذلك من القصص المذكورة في كتاب الله تعالى .

إخباره عن قصص الماضين:

هذا الخبر الماضي لم يكن ممكناً أن يعرفه ﷺ وهو نبي أمي ، وإنما كان يمكنه أن ينزل إليه بوحى من السماء ، وقد نزل عليه عليه الصلاة والسلام . وفي كل آية يقول الله له ، ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ ﴾

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ [آل عمران : ٤٤] ، إلى آخر الآيات الكثيرة التي لا يسع الوقت لذكرها . ومع ذلك فقد ثبت ثبوتاً قطعياً أن تلك القصص موافقة لما في كتب الأنبياء إلا الأشياء التي انفرد بها القرآن الكريم مما ذكرت لكم .

إخباره عن غيبيات كالعرش والجنة والنار إلخ:

أما في حاضره ﷺ ، فالمعجزات التي ذكرها عن العالم الغيبي عن العرش ، والكرسي ، والجنة ، والنار ، وأخبار الآخرة ، والملائكة وقيام الساعة ، وغير ذلك من هذه الأشياء ، التي هي معجزات لا يمكن أن يعرفها الإنسان إلا بوحي من الباري ﷻ .

إخباره بأشياء مستقبلية:

هنالك معجزات كانت تتنبأ بما سيقع في ذلك الوقت ، ووقعت بالفعل ومن ذلك قوله تعالى في قصة الروم : ﴿الْعَمَّ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الروم : ١-٥] .

فهذه القصة معروفة ، وهو أنه في سنة ٦١٤م قامت حروب عنيفة بين الفرس والروم ، وهذه الحرب وقعت في أرض الروم . كما قال تعالى : ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ ، أي في أقرب الأرض وهي الشرق الأدنى وهي Orientale Romlaly وقعت في ذلك المكان الحرب في هذه المدة ، وانهم فيه الروم . لأنهم غزوا في عقر دارهم فانهزموا ، فصار المشركون يشنعون على

المسلمين ويقولون لهم : إن الروم أهل كتاب والفرس وثنيون ومع ذلك فقد تغلب الوثنيون على أهل الكتاب . كذلك ستتغلب نحن عليكم ، فتألم المسلمون لذلك . فأنزل الله البشارة لهم . وقال لهم : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٢-٤] والبضع في اللغة العربية هو ما بين الثلاثة إلى التسعة أعوام . ولم تصل سنة ٢٢ حتى كان الروم يغلبون الفرس ، وانتصروا عليهم مع أنه لم يكن ينتظر أبداً أن هذه الغلبة ستقع بالفعل .

التنبؤ بنصر المسلمين في بدر:

وقع تنبؤ أكثر من ذلك في هذه الآية نفسها ، ونصر مبين للمؤمنين ، لأن في الآية أنه حينئذ يفرح المؤمنون بنصر عزيز عليهم . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ . لأنه في سنة (٢٢) وهي السنة الثانية للهجرة . وهي التي وقع فيها انتصار المسلمين في غزوة بدر ، فقد جمع الله في هذه الآية بشارتين عظيمتين . وهي إخباره بانتصار الروم على فارس . وإخباره بانتصار المسلمين في غزوة بدر ، والوقت الذي نزلت فيه تلك النبوة كان المسلمون في مكة ، ولم يكن يظهر للمسلمين أي نصر ولا أسباب نصر ، كما أنه لم يكن يظهر للملاحظين السياسيين كما يقولون بعبارة العصر أي ممكن لنصر الروم على فارس . لأنها غلبت في دارها ، ولأن فارس كانت قد تقدمت عليها من عدة جهات ، وزادها هذا النصر تفوقا وامتيازا . وقد كان راهن سيدنا أبو بكر الصديق لإيمانه بما في القرآن مع بعض المشركين على أن نبوة الرسول في هذه الآية الكريمة ستتحقق لا محالة . وربح أبو بكر الصديق الرهان في هذه الموقعة حَقَّقَ .

تنبيه بحفظ الله لنبيه وعصمته من الناس :

من جملة هذه النبوءات قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فإن سيدنا محمدًا ﷺ قد كان له حراس يحرسونه فلما نزلت هذه الآية قال لهم : «أيها الناس اذهبوا لحال سييلكم ، فإن الله قد وعدني العصمة فسيعصمني» . ويمكن للإنسان أن يخون من يشاء ، ولكن لا يمكنه أن يخون نفسه ، وأن يذهب حراسه ، ويقول لهم إن الله سينصري . وبالفعل فقد نصره الله . فما استطاع أحد من المشركين أن ينال منه عليه الصلاة والسلام ، بل قال سيدنا علي : إنا كنا إذا حمي الوطيس واشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فكان يكون أقربنا في الحرب إلى العدو .

مشهد للعصمة في غزوة ذات الرقاع :

روى جابر بن عبد الله فيما أخرجه الإمام مسلم في غزوة ذات الرقاع قال : كنا إذا ذهبنا في الغزوات ، ووجدنا شجرة فيها ظل ، تركناها لرسول الله ﷺ . فلما وصلنا لذات الرقاع ، أتينا لشجرة وقلنا لرسول الله ﷺ استظل فيها . فاستظل فيها ﷺ وعلق سيفه فيها . فبينما هو كذلك إذ جاء رجل من المشركين وأخذ السيف وتقلده ، وقال للنبي ﷺ أتحاف مني ، قال : لا . فإن الله يعصمني منك ، قال : إني سأقتلك . قال : لا تستطيع . فارتعد ذلك الرجل وأنزل السيف في مكانه وذهب لحال سييله ، هذه القصة وقعت في غزوة ذات الرقاع . ومن المناسب أن ننبه إلى أن غزوة ذات الرقاع هي التي شرع الله فيها للمسلمين صلاة الخوف . ومع ذلك فقد كان ﷺ مطمئنًا آمنًا لأن الله تعالى قد طمأنه وأمنه على ذلك ، والله سبحانه وتعالى قد أيده بنصر من عنده ، وقد أيده بكثير من الآيات البينات .

ومن الدلائل كثير من المعارف والتشريعات:

من دلائل الإعجاز نوع كثير من المعارف ونوع كثير من التشريعات التي وقعت في القرآن الكريم . والتي أصلحت فلسفة الفلاسفة وفكرة المفكرين ، ورسالة الرسل وأعمال المشرعين وغير ذلك من الأمور .

دور التوحيد في الإصلاح:

نحن نرى أن التوحيد قد أصلح ، وقد كان الناس يعبدون الأوثان والأصنام ، وكان النصارى يعبدون المسيح عليه الصلاة والسلام . وكان اليهود يعبدون العزيز ، ويقولون إنه ابن الله . وكان العرب يتعزون بذلك من المشركين . ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨]، فكانوا يتعزون بكون النصارى يعبدون المسيح ويقولون هل آلهتنا أحسن من المسيح أو أقل؟ فيفضلون آلهتهم على المسيح . فكانوا يحتجون بعبادة المسيحيين للمسيح بن مريم على النبي ﷺ ، بينما النبي يحترم المسيح ويذكره كنبى رسول . ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧] وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [٦١] مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴿[ص: ٦٠، ٧]. يعني ما سمعنا بهذا التوحيد الذي تقوله يا محمد والذي تقرأه في قرآنك في الملة الآخرة ، وهي الملة المسيحية . فكانوا يتسلون ويحتجون بعبادة المسيحيين للمسيح ، ومع ذلك فإن القرآن كان يواجههم بهذا الخطاب ، ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ، ﴿يَتَاهَلِ

الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴿﴾ [النساء : ١٧١] .

فنحن نرى أن هذا القرآن الكريم كيف كان يخاطب الناس ، وكيف كان ينبه إلى الواحدية الإلهية ، وإلى تنقية الدين الحقيقي ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿﴾ [النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

وبعد ذلك يقول لهم : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] . فهو نبي ورسول .

الإسلام دين يهتم بالعقل :

إن الإسلام كان يدعوهم إلى العقل وإلى التدبر وإلى التفكير ، وقد ذكر العقل في القرآن سبعاً مرة ، بينما لم يذكر في الإنجيل ولا في التوراة ولا مرة واحدة ، وهذا يدل على أن القرآن هو دين العقل ودين المعرفة ، ودين الخلود .

القرآن بما فيه من إعجاز يفوق كل الشرائع السابقة :

إن هذا الموضوع لا بد أن نأخذه من أطرافه لثلا يكون ناقصاً وإلا فهو يحتاج إلى أبحاث كثيرة . فالحقيقة أن من جملة دلائل الإعجاز ، هي كون الأشياء المذكورة في القرآن من هذه الآيات البينات ، فاقت كل ما سبق من الشرائع ومن الأمور السابقة . ولم يأت منذ ثلاثمائة سنة أي عالم أو أي مشرع بما من شأنه أن يزحزح الثقة في هذه الأشياء الموجودة في القرآن . وهذا الإعجاز دليل من الدلائل العصرية لإعجاز القرآن ، بل إننا في هذا

العصر نكتشف أن تعاليم القرآن وما فيه من الأشياء ، الحقيقة هي صالحة لهذا العصر ، وكأنها ولدت في هذا العصر . حقيقة من حين لآخر يقوم بعض المستشرقين أو بعض أذئابهم فيحتجون ببعض الحجج أو يشوهون بعض الأشياء ، وربما يأخذون بعض الإشكالات التي يذكرها العلماء المسلمون السابقون فيأتون بها ، ولا يأتون بالجواب الذي يذكره . لأن النزاهة العلمية ليست موجودة عندهم ، والمقصود منهم أن يثبتوا أن معجزة القرآن لم تستمر ولن تستمر . ولكنهم في الواقع بصفة جدية وبصفة علمية لا يمكن لأحد أن ينال من أي شيء أثبتته القرآن .

النظريات العلمية في القرآن الكريم :

كثير من علماء السلف رضوان الله عليهم ، ومن العلماء السلفيين المصلحين وفي مقدمتهم الشيخ عبده رَحِمَهُ اللهُ ، والسيد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ وغيرهما من العلماء السلفيين يضربون الوتر على معنى ، وهو أن القرآن كتاب هداية وإرشاد ، وليس كتاب علوم . في الحقيقة هذه فكرة قديمة موروثة عن المسلمين ، وذلك لأنهم يخافون من أنه إذا وقع تطور في العلم . لأن العلم في الحقيقة لا يثبت على حال . وكما يقول العلماء إن العلم لا يعد بشيء ، ونقصد بالعلم الآن ليس المعنى القديم بل هو المعنى الحديث الذي هو "Science العلم لا يعد بشيء لأن اليوم العلماء يعتقدون شيئا يأتي عالم آخر غدا أو بعد غد فيغير المعنى ويثبت خلاف ذلك . فيخاف هؤلاء الناس من أن القرآن تثبت عليه مخالقات مع العلم . وهذا في الحقيقة وقع مثله للمسيحيين ، وأثر الشيء الذي وقع للمسيحيين في أفكار المسلمين اليوم في هذا المعنى .

الخلاف حول جمود الأرض وحركتها:

إن المسيحيين في العصور السابقة كانوا يعتقدون مثلاً بجمود الأرض وبعدم ثبوتها، وهم في ذلك في الحقيقة تابعون للكنيسة الأرثوذكسية التي كفرت كل من قال بخلاف ذلك. ومعتمدون في الأصل على المذهب الأرسطاطاليسي لأن أرسطاطاليس كان يقول بأن الأرض ثابتة جامدة لا تتغير، وهم قد أخطئوا، لأنهم كانوا يقولون إن الفكرة والفلسفة الأرسطاطاليسية يجب أن تؤخذ كلها ولا يمكن أن يزول عنها شيء. وكانوا يعتبرون أن سقوط الدليل يؤدي إلى سقوط المدلول.

وهذه النقطة اتفقوا فيها مع الإمام الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ الذي كان يعتبر الدليل يجب ألا ينمحي؛ لأن سقوط الدليل يؤدي إلى سقوط المدلول.

سقوط الدليل لا يفيد جزماً سقوط المدلول:

لكن علماء المسلمين تداركوا الأمر، فإن إمام الحرمين قد بين فشل هذه الفكرة وسقوطها، وأنه يمكن أن يسقط الدليل ويبقى المدلول صحيحاً. ويبحث له عن دليل آخر. فلا معنى لأن نتمسك نحن بدليل جاء به فكر نظار أو فيلسوف ونقول إن هذا شيء مقدس لأنه يتعلق بإثبات شيء مقدس، كلا؟ فإمام الحرمين أنقذ الفكرة الإسلامية من هذا الشيء الذي بقي عند المسيحيين، وكل الناس يعرفون التطور التاريخي الذي وقع في مسألة الأرض ودورانها، والأفلاك ودورانها، لما أراد كليلي أن يثبت ذلك فإن المدرسة الأرسطاطاليسية مؤيدة بالكنيسة الكاثوليكية كلهم كانوا ضده، حتى إنهم حكموا عليه بالإعدام من أجل ذلك، بينما كان القرآن يقول: ﴿يُكَوِّرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلٍ﴾ [الزمر: ٥].

فيثبت كروية الأرض . ومع ذلك كان علماء المسلمين يتأولون هذه الآية لكي يتفقوا مع ما هو مشهور عند العلماء من كون الأرض ليست كرة ، ومن كونها جامدة ومن كونها لا تتحرك .

تجربة القسيس موش :

من المعلوم أنه في القرن التاسع عشر ، وقعت معركة عنيفة عند المسيحيين لما قام الأب لاموني (موش) ليس صاحب فكرة الشخصية وكان ممن فسروا الإنجيل ، وقام بمحاولات عصرية لأن يفعل مثل ما فعل القديس طوماس في القرن الماضي ، حينما اقتبس فلسفة أرسطو ، وأتى بأدلة عصرية على ذلك ، ولكن كتاب رينان كان قد صدر ، وخشيت الكنيسة من الأمر ، فأصدرت الكنيسة بحرمان هذا الأب من حظيرة الكنيسة نفسها ، ومنعت البحث في هذا الموضوع من الوجهة العلمية . فقالوا في ذلك الوقت ، أخذ العلم استقلاله ، يعني أن العلم استقل عن الدين ، استقلال العلم عن الدين صحيح .

نظرة الإسلام للعلم :

الإسلام لم يقل أبداً إن العلم جزء من الدين ، ولكن قال الدين لا يعارض العلم . القرآن جاء دائماً ينظر إلى العلم ويقول : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكَرُونَ﴾ ، ولذلك قامت الآن مدرسة من جماعة أهل العلم الدارسين للعلوم العصرية ، الكيمياء ، الطبيعة ، الدارسين لعلوم الرياضيات وأخذوا يبحثون في القرآن ، ويستخرجون منه الكنوز العظيمة في هذا الموضوع الذي تثبت معجزة القرآن لكونه صدر من رجل أُمي منذ ثلاثة عشر قرناً ، وهو يبطل المعلومات التي كانت في ذلك العصر عند جميع الناس .

بعض النظريات العلمية في القرآن:

يؤكد القرآن معلومات يكتشف العلم الحديث ثبوتها وصدقها . كما قلنا في قضية كروية الأرض .

نظرية التلقيح عن طريق الريح:

يمكن أن نذكر في قضية ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ ﴾ [الحجر: ٢٢] يعني الرياح تنقل التلقيح من ذكر الشجرة إلى أنثاها من غير تلقيح . وقضية تلقيح الأشجار كانت معروفة عند العرب ، ولكن في القرن الماضي تم اكتشافها عند الأوروبيين ، وقام عالم إنجليزي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة أوكسفورد «إدجيري» قال : إن رعاة الإبل من العرب قد عرفوا هذا التلقيح منذ ثلاثة عشر قرناً ، نعم عرفوا هذا التلقيح منذ ثلاثة عشر قرناً ، كانوا ينقلون بأيديهم طلع النخل طلع الذكر إلى الأنثى . ولكنهم ما كانوا يعرفون ما تحدث به القرآن ، ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ ﴾ [الحجر: ٢٢] الرياح هي التي تنقل التلقيح من بعض النباتات إلى بعضها .

عدم معرفة النبي ﷺ ببعض النظريات العلمية في عصره:

ظهر لي فكر أقوله هنا ، وهو أنه ﷺ لم يكن يعرف ما تعرفه العرب ، ودليل ذلك الحديث الذي ثبت في الكتب الصحيحة أن النبي ﷺ مر ذات يوم بالصحابه وهم يلحقون النخل فقال لهم ماذا تفعلون؟ قالوا : نلقح النخل فقال : ما التلقيح إنه لا شيء ، فتركوه ، ولكن النخل لم يأت ولم ينجب بمثل ما ينبج في العادة حينما كانوا يلحقونه ، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقال لهم : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»^(١) . وقد استدل العلامة ابن

(١) سبق تخريجه .

خلدون بهذا الحديث على أن المسائل العلمية والدينية راجعة إلينا، وأن النبي ﷺ إذا تكلم في هذه الموضوعات إنما هو متكلم كواحد من الناس، وأن العبرة بما يشته العلم، وبما يدل عليه العلم. فنأخذ من هذا الحديث أن النبي ﷺ لم يكن يعرف ما كان يعرفه العرب من ذلك التلقيح للأشجار. ومع ذلك جاءنا بهذه الآيات القرآنية: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ التي تفوق ما كان معروفا في عصره ﷺ.

نظرية انفتاح السماء عن الأرض:

نجد القرآن يتحدث عن السماء، ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] هاتان المعجزتان لم تكونا معروفتين عند العلماء القدماء، بل كان المسلمون يتأولون هذه الآيات، كون السماء والأرض لما كانتا بخارا دخائنا في السماء يغشى الناس كما في الآية الأخرى. لما كانت على تلك الصفات، ثم بعد ذلك وقعت رجة جيولوجية فانفتقت الأرض عن السماء كما يتحدث بذلك العلماء اليوم. هذه معجزة لما أخبر به النبي ﷺ من قبل ثلاثة عشر قرنا.

نظرية الماء في القرآن الكريم:

كذلك ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ فما كان الناس يعتقدون أن الماء هو سبب الحياة في كل شيء، حتى جاء العلماء بعد ذلك يشبونه في هذا العصر. فأثبتوا بذلك معجزة القرآن التي تحدث بها في هذه الآية الكريمة. وكذلك كون أن الله تعالى قال لنا: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]. وقال لنا في مسألة النبات ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْرُؤٍ﴾ [الحجر: ١٩]

هذه العبارة ، الموزون . فلن نجد في شعر من الشعراء ولا في كلام من كلام العلماء السابقين يعني من كلام الباحثين أو الكتاب لا العرب ولا غيرهم ، نقرأ شعر (هomer) نقرأ شعر اليونان وشعر الأوربيين ، وشعر العرب لا يمكننا أن نجد أحدا يصف في شعره النبات بأنه موزون . ولكن القرآن وصفه بذلك . ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ والعلم اليوم يبين معنى قوله تعالى : ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وهو أن كل نبات وكل نبتة وكل شيء من الأشياء مركب من عناصر متعددة ، وهذه العناصر تبلغ من الدقة إذا أخذت بالوزن لا بد أن توزن بعشرات الجرامات والملي جرام .

فهذا ما يدل على إعجاز القرآن ؛ لأن هذا لا يمكن أن يكون عرفه رجل في ذلك العصر كيفما كان ، فكيف برجل أُمي في بلاد العرب؟ هذا من معجزاته ﷺ .

هل القرآن الكريم كتاب نظريات علمية :

إن القرآن فيه كنوز كثيرة من هذا النوع ، وأن السلف الصالح بذلوا مجهودهم في التفسير . واليوم لا يمكننا أن نتجاهل هذه المعارف ، لأن القرآن يخاطب العوام كما يخاطب الخواص ، فالعلماء والعارفون بالعلم ينبغي لهم أن يدرسوا القرآن ، وأن يتفهموا هذه النواحي ويكتشفوا منها أشياء تدلهم على العلم . هو في الحقيقة ليس كتاب علم حقيقة ، ليس مصنفًا في العلم كالمصنفات التي تؤلف لدراسة فن من الفنون ، ولكنه حينما يتكلم في الكون أو في شيء من الأشياء ، يتكلم بلغة العلم ، ويأتي بالأشياء الموافقة للحقيقة .

ضابط التعامل مع آيات الإعجاز العلمي في القرآن :

علماؤنا السابقون قد بينوا لنا الطريقة التي يجب أن نسلکها ، نأخذ ما في العلم إن كان موافقاً لكتاب الله ، ما يأتي به العلم ، إن كان موافقاً لكتاب الله فذاك ، وإن كان مخالفاً لكتاب الله فإننا نؤمن بالقرآن ونؤمن بالعلم . هذه النظرية الإسلامية . نؤمن بما يقوله العلماء ، ولكن نقول إن العلم لا يمكن أن يكون قطعياً لأنه شيء ظني ؛ ولأنه لا يعد شيئاً كما يقول العلماء أنفسهم **La Science ne promis rien** لأنه يتبدل ويتغير . ولكن نؤمن بالعلم ونتبع العلم ، ونؤمن بالقرآن ونقول ما قاله الله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] هذه هي الطريقة التي خطها العلماء السابقون ، فالقرآن حقيقة ليس كتاب علم ، ولكنه كتاب يضع أرض العلم . يضع الأسلوب الذي يجب أن يتبع بالعلم .

كلام السيد حنفي أحمد :

قال السيد حنفي أحمد في كتاب له ، وهو من أنصار هذه النظرية وله مؤلف قيم جداً وهو كتابه : «معجزة القرآن فيما يرجع لعلوم الأقوال» قال : إن الطريقة التي يجب أن تتبع هي عكس الطريقة التي كانت متبعة من قبل . كان العلماء يدرسون كل آية على حدة ، لأن هذه العلوم الكونية مبثوثة في القرآن في أماكن متعددة . ولكن لا يجمعونها في مكان واحد لدراستها . فهو يقول : إذا أردنا أن نجمع ونفهم هذه المعجزات ، فينبغي لنا أن نجتمعها في مكان واحد كما يقع للمكتشف العلمي ، فإنه يكتشف الجزئيات ثم بعد ذلك يجمع تلك الجزئيات ، ويجمعها في اكتشاف عام يكون معجزة أخرى تظهر للعلم .

مثال من القرآن:

أستدل على ذلك بمثال بسيط من القرآن الكريم وهو أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] هذه آية، وفي آية أخرى قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] وفي آية أخرى قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣] إذا أخذنا كل آية على حدها ربما نجد هناك تناقضا، وإذا جمعنا هذه الآيات نقع في اكتشاف ما اكتشفه العلم الحديث تماما. فقله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ أول ملاحظة هو أنه ذكر النجوم في هذه الآية، ولم يذكر الكواكب. والكواكب كما تعلمون هي غير النجوم، السر في ذلك هو كون النجوم لها الإنارة من ذاتها، ضياؤها من ذاتها. وليس مقتبسا من غيرها، فهي التي تكون فيها الإنارة مستمرة ثابتة. ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ واصطلاح القرآن أنه يطلق الضياء على ما هو من ذات الكوكب من ذات الجرم السماوي ليكون التعبير أحسن، ويطلق النور على ما هو من المكتسب، على ما هو جرم يكتسب النور من غيره ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ [يونس: ٥]؛ لأن القمر يكتسب نوره من الشمس، وهذا اصطلاح القرآن في جميع الآيات إذا نحن تتبعناها. فنجد أن النجوم تضيء من نفسها. في الآية الثانية قال: ﴿وَعَلَّمَكُم بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لأن له النور من نفسه. وعلامات هذه تدل على أن النجم ثابت وربما يفهم منها أن هذا النجم لا يتحرك، فإذا أخذنا هذه الآية وحدها تبقى في شك من دلالة القرآن، ومن توافقها مع العلم الحديث.

النظر في آية الطارق مع الآيات السابقة :

إذا أخذنا الآية الثالثة من بعد ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق : ١، ٢] الطارق في اللغة هو الشيء الذي يأتي في وقت معين من ليل أو نهار، يطرق البيت من ليل أو نهار، فهو الذي يطرق المكان من ليل أو نهار، والطرق لا يكون إلا بالحركة ؛ لأنه ينتقل من مكان إلى مكان، ويطرق المكان، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ النجم الثاقب [الطارق : ١-٣] وقد وصفه بالثاقب لكون ضوءه قوياً ومستمراً. ولكي نفهم ويزول ذلك الشك في كون النجوم ثابتة في السماء قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه : ٤]، فقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ فالسموات كل ما أظلم الإنسان والمقصود بها النجوم والكواكب . فهذا يبين أنها علًا لأنه لم يقدر مسافة البعد و﴿الْعُلَى﴾ هذه العبارة تدل على أن علوها مرتفع جدًا . وقد عرفنا أن القرآن يصف السموات طباقًا ، وأن بعضها فوق بعض ، فهذه السموات وهذه النجوم والأجرام والكواكب هي المرتفعة العالية إلى أسمى درجات العلو التي تقدر بملايين السنين في الدقيقة الواحدة في المسافة ولكن مع ذلك قال ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ وترك لنا نحن أن نكتشف هذه المسافة على حقيقتها ، فلما سمعنا هذه الآية : ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ووصفها بالعلو تبين لنا أن هذه النجوم التي نراها في السموات نراها بعيدة ، ولذلك نخيل للرائي أنها ثابتة وليست بثابتة ، وهذا مقصود القرآن ، وهذا ما يقوله علماء العصر الحديث لبيان أنها ثابتة .

مثال آخر:

نجد هذه الآثار التي تقع الآن والمجهودات التي تبذل لاكتشاف الفضاء نجد القرآن الكريم يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فنجد الله تعالى يشير إلى أن السموات المخلوقة فيها دواب وهو مقتضى القرآن ، فإن هذه الأجرام التي يبحثون عنها فيها سكان ، هل هي من جنس الأناسي أو غيرها ﴿وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] هي مفصولة ﴿كَأَنَّا رَتَقًا فَقَنَقْنَاهُمَا﴾ ولكن في استطاعة هذه الدواب الموجودة في الأرض والسماء أن تجتمع فيها بينهما إذا يشاء الله سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ نحن نستعمل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ، إذا التقى إنسان بآخر . أو قال له متى نراك أو شيئاً من هذا المعنى ولكن معنى الآية أعمق من هذا .

الخلاصة:

إن القرآن يرشدنا إلى الدراسة وإلى البحث فهو ليس كتاب تنبؤ ، وليس كتاب علم بمعنى المصنفات العلمية . ولكن فيه إرشادات للخواص وللعلماء . وينبغي للعلماء العارفين بالعلم ألا يهملوا هذا الجانب من البحث لأن فيه تنويراً للعقول ، ولأن فيه إرشاداً ، لما في القرآن من كنوز ومن ثمرات .

* * *

المحاضرة الثالثة والثلاثون بعد المائتين

من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد

حديث يعدل ثلث الإسلام:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» إن هذا الحديث الشريف عده العلماء ثلث الإسلام؛ ذلك لأن المردود الذي لا يوافق الشريعة إما أن يكون بدعة، والرسول ﷺ يقول في حديث آخر: «وكل محدثة بدعة»^(١) وهذا محدث، فيكون بدعة.

وإما أن يكون معصية لأنه مخالفة، ومن المعلوم أن أفعال المكلفين تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

إما أن يقتضيها الفعل والأمر، ويشمل الوجوب والمندوب، وإما أن يقتضيها النهي، ويشمل المكروه والمحرم، وإما أن يقتضيها التخيير وهو المباح. فبهذا الاعتبار هذا الحديث الشريف عده العلماء ثلث الإسلام.

أحاديث عدها العلماء عمدة الدين:

وهذا الحديث الجامع له نظائر أخرى من أحاديث أخرى، عدها العلماء عمدة هذا الدين. وهي:

حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه:

قوله ﷺ: في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) سبق تخريجه.

«الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»^(١) .

حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

من الأحاديث الواردة في هذا المعنى ، حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١) . فالنية في هذا الحديث ترشدنا إلى أنه لا بد في الأعمال الصالحة من النية الصادقة حتى يكون العمل مخلصاً لله تبارك وتعالى .

والحديث يقول : «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» هذا الشرط وجوابه لا بد فيه من تقدير حتى يرتبط الجواب مع الشرط ، من كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصدا ، فهجرته إلى الله ثوبا وأجرا . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها كمهاجر أم قيس ، فهجرته إلى ما هاجر إليه . وهي هاته المرأة التي يريد نكاحها .

حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

كذلك من الأحاديث الجامعة في هذا الموضوع حديث أبي هريرة أن

(١) سبق تخريجه .

النبي ﷺ قال : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١) ، أي ما لا يهمه بحيث يكون قائماً بواجباته نحو ربه ونحو نفسه ونحو أهله ونحو أمته ، فإذا كان ذلك فذلك من حسن إسلامه .

حديث سهل بن سعد الساعدي رحمته الله :

من الأحاديث الواردة في هذا المعنى حديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال : «ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»^(١) ، قال هذا لمن سأله عن عمل يحبه الله من أجله ، ويحبه الناس من أجله ؛ فقال : «ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» . ولذلك اعتنى العلماء بهذه الأحاديث حتى قال قائلهم :

عمدة الدين عندنا كلمات مسندات من قول خير البرية
اترك المشبهات وازهد ودع ما لا ليس يعينك واعملن بنية

في ظلال الحديث وفوائده :

هذا الحديث الشريف الذي يقول : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» الظرف الذي قيل فيه هذا الحديث لا بد أن يكون ظرفاً تبين في معناه معالم الديانة الإسلامية ، واتضحت لدى الخاص والعام ؛ حتى أن النبي ﷺ يقول : «من أحدث في أمرنا هذا» أي في ديننا ، الذي بيناه وبلغناه للناس طبق ما يأمر به الله تبارك وتعالى : «ما ليس منه فهو رد» أي فحذره رد ، أي مردود ، من إطلاق المصدر - كما يقول أهل اللغة العربية - وإرادة اسم المفعول .

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رحمته الله .

في الحديث إبطال لتقسيم البدعة:

في هذا الحديث إبطال لمن قسم البدعة من الفقهاء إلى أقسام الوجوب ، والندب ، والحرمة ، والكراهة ، والإباحة ؛ لأن كل ما اتصف بالبدعة فهو مردود على صاحبه ، وأما البدعة الواجبة فلا بد أن يشهد لها أصل كما سيأتي عند الكلام على المصالح المرسله التي اجتهد فيها الصحابة والتابعون لوجود المناسب الذي تعلق عليه الأحكام . فإذا تبينت معنى البدعة فهي مردودة ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ، فإذا أراد الشخص الذي أحدث في أمر الدين ما ليس منه أن يوهمنا بأن هذا فيه الخير ، يقال : إن النبي ﷺ يقول : « محدثات الأمور بدعة وكل بدعة ضلالة » فإذا أردت تخصيص هذه البدعة بأمر من الأمور فعليك أن تأتي بدليل خاص . فإذا لم يأت بدليل خاص يكون حكم البدعة مستمرا على عمله ومنطبقا عليها .

وهذا الحديث هو كما قلنا قيل في ظرف خاص مثل الحديث الآخر الذي يقول : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك »^(١) .

فالطريقة المسنونة التي تركنا النبي ﷺ عليها ، هي طريقة النجاة والسنة والعمل الصالح ، فإذا جاء أحد واخترع اختراعا في الدين له شبهة فيه ويقول : إن هذا فيه الخير ، علينا أن نرده عليه ، ونقول له : إنه لا خير في مخالفة السنة .

(١) سبق تخريجه .

تعريف البدعة يتضح بتعريف السنة:

إذا كانت البدعة هي المرادة في هذا الحديث فإن البدعة تتبين وتتوضح إذا قارناها بالسنة لأنها تقال في مقابلة السنة ، والسنة هي الطريقة المسلوكة ، وإذا أطلقت تنصرف إلى الطريقة المحمودة التي كان عليها الرسول ﷺ .

إزالة اللبس في حديث جابر رضي الله عنه :

جاء في الحديث الشريف الذي رواه جابر بن عبد الله أنه قال : كنا في صدر النهار عند النبي ﷺ ، فجاء قوم حفاة عراة ، مجتأبي النار أو العباء ، متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر - أي من قبيلة مضر - فتمعر - أي تغير - وجه رسول الله ﷺ فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن ثم صلى ، فخطب الناس وقال : اتقوا الله ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء : ١] ، و﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] ، ثم قال ﷺ : « تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال ولو بشق تمره » . قال فجاء رجل من الأنصار بصرة - أي من الدراهم - كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ؛ حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهب ، فقال ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » ^(١) .

(١) سبق تخريجه .

فقال : «من سن سنة حسنة» ، فهل هذه السنة ، هذا الصحابي هو الذي سنّها أم أنها كانت مسنونة ، وإنما هذا الصحابي أحياها في هذا المظهر الجميل ؟ إن هذه السنة كانت مسنونة ؛ لأن الصدقة مطلوبة من أول الإسلام ، والإحسان مطلوب من أول الإسلام ، منذ بعث النبي ﷺ في مكة المكرمة قبل هجرته إلى المدينة .

ولكن هذا الصحابي الجليل أحيا هذه السنة فنسب إليه ﷺ أنه سنّها ، تقديرًا لمجهوده وعمله . وعلى هذا السنة يجب بيانها حتى نتعرف على ما يقابلها من البدعة .

السنة هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته :

السنة هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته ، يعني إذا بلغه شيء وأقره عمن ينقاد لدين الإسلام فيكون ذلك من سنته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لا يقر على باطل ، فالفعل منسوب إليه ، والقول منسوب إليه ، والسكوت عما رآه إذا كان مخالفا فإنه لا يقر أحدا على ذلك . وإذا كان موافقا يكون من سنته .

ثم إن هذه الأقوال وهذه الأفعال الصادرة عن النبي ﷺ بحث فيها علماء الأصول فبينوا ما يختص به عليه الصلاة والسلام وما لا يختص به ، حتى نتعرف طريق السنة أين هي .

الأمر الجبلي للنبي ﷺ :

إذا كان فعل الرسول ﷺ من الأمور الجبلية التي تقتضيها الحياة البشرية ، كالأكل والنوم وما شابه ذلك ، فإن هذا لا يكون سنة بمعنى أنه يطلب من كل أحد أن يعمل هذا العمل ؛ لأن النبي عمله .

أُمُور من خصوصياته ﷺ :

إذا كانت أعماله أو أفعاله من خصوصياته ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كان مختصا بخصوصيات :

الوصال في الصوم :

كان ﷺ مختصا بأمور كالوصال في الصوم ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينقطع عن الأكل والشرب ليلا ونهارا مدة طويلة وينهى أصحابه عن اتباعه رفقا بهم في هذا المعنى فإنهم كانوا يريدون أن يواصلوا كما يواصل النبي ﷺ فينهاهم عن ذلك ؛ لأنه قال : «إني أبیت يطعمني ربي ويسقيني»^(١) . وليس المقصود كما قال الحافظ ابن القيم ، أن الطعام والشراب يأتيه من عند الله ، إنما ذلك فيما يفيضه الله عليه من لذة مناجاته ومعارفه ، وإلا لو كان الطعام والشراب يأتي إليه لم يكن صائما فضلا عن أن يكون مواصلا .

الزيادة في الزواج على أربع وحرمة الصدقة :

من ذلك أيضا الزيادة في الزواج على الأربع ، ومن ذلك حرمة الصدقة عليه ، فلا يقول الضعيف المسكين إني لا أقبل الصدقة ؛ لأن النبي ﷺ كان لا يقبلها ؛ لأن عدم قبول الصدقة هو من خصوصيات هذا النبي الكريم ، فإنه كان عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة .

وفي هذا المعنى قطع عليه الصلاة والسلام صلاته بالماديات من أصلها ؛ لأنه حرم الصدقة عليه وعلى آله . فالزكاة المفروضة على المؤمنين لا تحل لمحمد ولا لآل محمد .

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٥) ، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

لا يورث النبي ﷺ :

إن الميراث الذي يورثه النبي ﷺ ، لا يحل لآله ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قطع صلته بالمادة حتى لا يتهم بأنه كان يعمل لشخصيته ، بل هو كان يعمل لله كغيره من النبيين والمرسلين ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿يَقُومُوا أَتْبَعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ [يس : ٢٠ ، ٢١] ، ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص : ٨٦] على هذا ، النبي ﷺ له خصوصيات .

أُمُور تَشْرِيعِيَّة :

أما الأمور الأخرى التي كان يفعلها النبي ﷺ فمنها بيانه للشرائع .

تفصيل المجل في القرآن مثل كيفية الصلاة :

إذا وردت آية في القرآن الكريم فيها إجمال كان النبي ﷺ يبينها ليعمل المؤمنون بها ، وهذا البيان له حكم المبين ، فإذا كان الأمر واجبا كـ ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ تكون الصلاة واجبة ، وإذا كان الأمر غير واجب يكون الحكم هو ما بينه الرسول ﷺ ، فإذا قال الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة : ٤٣] ، وجاء النبي ﷺ وبين لنا عدد ركعات الصلاة وسجودها ، والقراءة التي تكون فيها ، يكون هذا البيان له حكم المبين ، أي حكم الوجوب ، فعلينا أن نصلي كما قال النبي ﷺ في الحديث الشريف لأصحابه : «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

بيانه لمقادير الزكاة وضوابط إخراجها :

كذلك الزكاة ، ورد في الآية الشريفة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، فجاء عليه الصلاة والسلام وبين المقادير التي تؤخذ من الزكاة ، والأموال التي تؤخذ منها الزكاة ، فعلينا أن نتبع هذه الأحكام التي بينها النبي ﷺ ؛ أما إذا منعها الناس ، فعلينا أن نسلك معهم ما سلكه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما توفي النبي ﷺ ، فارتد كثير من العرب وبعضهم لم يرتدوا وإنما منعوا الزكاة .

شبهة مانعي الزكاة في عهد أبي بكر رضي الله عنه :

قال مانعوا الزكاة شبهة أرادوا بها أن يمنعوا أموالهم وتكون لهم شبهة : قالوا : إن الله تبارك وتعالى قال لنبيه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، فصلوات النبي ﷺ كانت في مقابلة الأموال التي يأخذها منا في مقابلة الزكوات ، وأنتم لستم بأنبياء حتى تكون لكم هذه الصفة ؛ فلذلك نحن لا نزكي ولا ندفع الصدقة إليكم ؛ لأنكم فقدتم العوض الذي كان النبي ﷺ يعوضنا به عما ندفعه من الصدقات إليه .

الرد على هذه الشبهة :

لكن هذه شبهة لا قيمة لها ؛ لأن هذا الدين هو دين خالد سواء في حياة النبي أو بعد موت النبي ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ولهذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما قام يحارب المرتدين القول الذي يدل على منعهم للزكاة : «والله لو منعوني عقالا

كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»^(١) هذا معناه أنهم لم يرتدوا ، يعني أنهم كفروا بالله إطلاقاً بل كثير منهم منع الزكاة ، وبعضهم ارتد واتبع المتنبيين الكذابين الذين ادعوا النبوة في جزيرة العرب ، فعلى هذا ما بينه النبي ﷺ للأمة من كتاب الله عملاً بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] يكون له حكم هذا البيان .

فعله ﷺ دون الأمور الثلاثة السابقة :

إذا قدمنا ما يكون جبلاً للإنسان ، وما يكون خاصاً بالنبي ﷺ ، وما يكون بياناً للآيات الكريمة ، يبقى فعل النبي ﷺ دون هذه الأشياء الثلاثة ، وهو :

- إما أن تظهر عليه القربة .

- وإما أن لا تظهر عليه القربة .

وإذا ظهرت عليه القربة ، من غير أن يكون هناك أمر قولي من النبي ﷺ ، إذا ظهرت عليه القربة ، قال الأصوليون ، إنه يكون للوجوب ، لأن الله تبارك وتعالى يأمرنا بالافتداء بالنبي ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ويقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] . ولكن البعض الآخر ، قال إنه إذا لم يرد أمر بالفعل على كل حال يكون مندوباً ولا يكون واجباً ، وإن ظهرت عليه القربة ؛ لأنه يرتفع عن درجة المباح لفعل النبي ﷺ ، والدرجة التي بعد المباح إلى جهة الوجوب هي المطلوبة والندب ، فلذلك يكون هذا الأمر الذي فعله النبي ﷺ يندب لأئمة أن تتخذة قدوة فيه وأن تتبعه .

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٥) ، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال البعض بالوقف، وقال البعض بالإباحة، وكذلك قالوا في الأفعال التي لم يظهر فيها من النبي ﷺ قربة، وعلى هذا يتبين أن السنة المطلوبة منا أن نعملها ونتبع فيها النبي ﷺ إذا جاءنا أمر منه اتبعناه، وإذا كان مطلق الفعل - فإما أن يكون هذا الفعل بياناً للآيات، فتتبعها على حسب ما في تلك الآيات، إذا كانت آيات إحسان فوق التطوع بالصدقات نكون متبعين فيها للنبي على أنها إحسان، وإذا كانت آيات تأمر بالوجوب سواء في الصلاة أو في الزكاة أو في حدود الله، أو فيمن يفسدون في الأرض بغير حق، أو غير ذلك أو في قطع يد السارق فإننا نتبع فيها النبي ﷺ على حسب ما بينه.

وما عدا ذلك من الأشياء التي كان يتركها ولا يأمر بها أو ينهى عنها، فإنها داخلية في هذا الحديث الشريف الذي نتناوله «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». أي مردود على صاحبه.

حادثة الثلاثة نفر السائلين عن عبادته ﷺ:

يمكن أن يمثل لهذا بما أراده بعض الصحابة رضي الله عنهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن نفراً جاءوا إلى بيت النبي ﷺ فسألوا عن عبادته وعن أحواله، فكأنهم تقالوها، فقال بعضهم: «أصلي ولا أنام». وقال بعضهم: «أصوم ولا أفطر»، وقال بعضهم: «لا أتزوج النساء». فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا. لكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١)، فهذا إذا كان الإنسان انقطع عن العمل وأراد المبالغة في التعبد فإن النبي ﷺ ينهاه ويرد عليه هذا العزم.

(١) سبق تخريجه.

كلام نفيس للإمام الشاطبي:

قال الإمام الشاطبي : إن الشريعة ينبغي أن تؤخذ على أنها صورة كلية يفسر بعضها بعضا ، فهي مثل الإنسان السوي الذي له عيان وله رجلان وله يدان وله غير ذلك من الأعضاء ، فلا يمكن أن تسمى اليد وحدها إنساناً ، ولا الرجل وحدها ، ولا الرأس وحده ، بل مجموعه يكون هو الإنسان . كذلك هذه الشريعة المطهرة ، فيها أوامرها ونواهيها ، فيها المطلق الذي يطلق في جهة ويقيد في جهة أخرى ، ويحمل اللفظ المطلق على اللفظ المقيد ويقيد الجميع ، فيها الجزئي والكلي ، وفيها الناسخ والمنسوخ ، لأجل هذا ينبغي أن تؤخذ هذه الشريعة كلية يفسر بعضها بعضا ويحمل خاصها وعامها على ما يناسب كل مقام .

تعريف الشاطبي للبدع:

قد وضح الشاطبي أن البدعة ما اخترع في الدين ، فهي إذن طريقة مخترعة في الدين يقصد بها المبالغة في التعبد ، وهناك تفسير آخر للبدعة باعتبار شمولها للأمور العادية ، وهي طريقة مخترعة في الدين يقصد بها ما يقصد بالطريقة الشرعية ، وهذا يتطلب منا فصلاً بين الأمور التعبدية والأمور المعقولة المعنى التي هي غير تعبدية . فما كان معقول المعنى كالصلوات وكالزكاة وكالصيام وكالتجهد من جميع أمور العبادات ، والصلاة على الجنائز ، لماذا كان التكبير كذا أو لماذا كانت القراءة كذا ؟ أو ما أشبه ذلك . فإنها من الأمور التعبدية ، فإذا جاء أحد وقال لنا : إن الصلاة سأنقص منها أو سأزيد فيها ، فإننا نقول له إن هذه بدعة في الدين لا يقرها شرع الإسلام بأي حال من الأحوال . وإذا جاء آخر وقال لنا : إننا نعتقد في

الأمر أو في ألفاظ الشريعة إنما هي رموز لمعان يعرفها أهل الباطن ، كما فعل الباطنية ، نقول لهم : إن هذا محاربة للشريعة فلا يقبل منكم هذا ، وأن الشريعة على ظواهرها لا بد من إقامتها لأنها نزلت بلسان عربي مبين ، وعلى أساس ذلك فهمها خير القرون ، فهمها الصدر الأول ، والتابعون ، والتابعون لهم بإحسان ، الذين قال فيهم النبي ﷺ : «خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»^(١) .

فالقرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية والفضل هي التي تلقت الشريعة من النبي ﷺ وطبقتها ، وأدركت بتطبيقها ما لا يزال آثاره إلى الآن ، وحتى الآن من نشر دعوة الإسلام في مختلف أقطار الأرض ، ومن إقامة الحق . ومن تطبيق هذه الشريعة تطبيقاً كان المثل الأعلى في العدالة الاجتماعية ، وفي عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي التزام الطاعات ، كما أمر بها النبي ﷺ وكما حض عليها في قوله عليه الصلاة والسلام : «تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١) .

هل تدخل أمور المعاملات ونحوها في الحديث؟

هناك أمور أخرى معقولة المعنى وهي التي يريد بعض المحدثين أن يجعلها من مشمولات هذا الحديث . وهي أمور البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، والمعاملات ، والوصايا ، والهبات ، وغير ذلك . فإنها أمور معقولة المعنى ، وهي تفيد في الحياة الاجتماعية ، ولذلك أراد بعضهم أن يدخلها في قول النبي ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

محمد بن قاسم يطبق الحديث على الوصايا :

روي عن محمد بن القاسم أنه سأل رجل فقال له : رجل له ثلاثة مساكن ، أوصى بثلاث كل مسكن منها ، أوصى به إما لشخص أو لمصلحة من مصالح الدين فقال القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : يجمع ذلك كله في مسكن واحد ، ثم قال : أخبرني عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» . فطبق هذا الحديث على الوصايا ، والوصايا ، كما قلنا هي من الأمور المعقولة المعنى ، ولكن معقولة المعنى من جهة الأخذ والعطاء ، وفيها شائبة التعبد كما يقول الإمام الشاطبي في هذا الموضوع ؛ لأن المطلوب فيها أن تكون على سنن الشرع ، وليس المطلوب أن تكون فقط كل يعمل حسبما يشتهي بل يجب أن تكون على الطريقة التي أمر بها الشرع ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء : ٢٩] .

ما الحال في الهبة؟

إذا وهب شخص لآخر هبة من الهبات فإنه يكون حاله بين أمرين : إما أن يهبه للشخص الأجنبي ، وإما أن يهبه لأحد أولاده دون بقية الآخرين ، فالهبة حق تصرف الشخص في ماله واقع شرعاً وعقلاً ، ولكن التصرف فيه إذا كان للأجنبي الذي لا يتهم عليه فإنه يكون ذلك صحيحاً ، وإذا كان لأحد أبنائه فإن الشرع يحذره من ذلك وينهاه عنه . لماذا؟ لأن الرجل إذا كان له أولاد يريد منهم أن يكونوا كلهم بارين به فإذا أعطى أحدهم ومنع الآخر يكون قد بعث الحقد في نفس الذي لم يعطه على أخيه ، وتكون صلة الرحم المطلوبة شرعاً غير واقعة ، ولهذا ورد عن النعمان بن بشير قال : إن

أباه بشيرًا أتى به النبي ﷺ فقال : «إني نحلّت ابني هذا غلامًا كان لي ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أكل ولدك ، نحلّتهم مثل هذا ، قال : لا» فقال عليه الصلاة والسلام «فارتجعوا»^(١) ، وفي رواية : «أتريد أن يكونوا لك في البر سواء» . قال : «نعم» قال : «فارتجعوا»^(٢) ، وفي رواية : «إني لا أشهد على جور»^(٣) ، وفي رواية : «أشهد على هذا غيري»^(٤) .

هذه هبة أو وصية من شخص لبعض أولاده دون بعض ؛ النبي ﷺ ينهى عن هذا .

مناقشة ما ذهب إليه المالكية في هذا الشأن :

قد يقال إن المالكية يذهبون إلى أن هذا إنما هو على جهة النذب فقط وعلى جهة الاستحباب ، وإذا وقع يجوز ، ويستدلون بدليل هو أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نحل السيدة عائشة رضي الله عنها جاد عشرين وسقًا من تمر الغابة ، فلما حضرته الوفاة قال لها : «إني كنت نحلّتك جاد عشرين وسقًا فلو كنت جدّتيه واحتزّتيه لكان لك ، وإنما اليوم هو مال وارث وإنما هما أخواك وأختك» وكان محمد بن أبي بكر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعائشة هي الموجودة ، فقالت له : «أين الأخت الأخرى؟» . قال : «بطن أراه أنثى» ، فكان كما قال ، استدل المالكية بهذا على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان خليفة الرسول ﷺ وأنه لم يكن يؤثر بعض الأولاد على بعض ،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٦) ، ومسلم (١٦٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٠) ، ومسلم (١٦٢٣) .

(٤) سبق تخريجه .

فعل هذا ، فاستدلوا أن هذا جائز وأن عدم الإيثار إنما هو مندوب إلي لكن إذا وقع يمضي ، ولكن المتأمل في حال السيدة عائشة رضي الله عنها بعد وفاة النبي ﷺ وهي دون العشرين عاما . وفي حالة أن الآية تقول : ﴿ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] فقد بقيت لا تتزوج ، ولا ترث ؛ لأن النبي ﷺ لم يورث ، وأبو بكر الصديق كان فخرا له مصاهرة النبي بهذه السيدة الكريمة التي هي أفقه النساء على الإطلاق ، وهي أحب أزواج النبي ﷺ إليه ، إلا فيما يتعلق بخديجة ففيه خلاف شهير كما يقول الحافظ ابن حجر في «كتاب التقريب» ، من رأى هذه الأحوال يعرف أن ملاحظة المالكية هنا هي ضعيفة وأن هذا المدرك ضعيف ، والدليل على ذلك أن الخير كله في اتباع الرسول ﷺ وتطبيق أوامره ؛ لأن هذه الوصايا أحدثت في جميع الأمم الإسلامية خلافات بين العائلات لا حد لها ، وتنافرا لا حد له ؛ فلذلك ينبغي الرجوع إلى هذا . نعم هذه البدعة التي تتناول في نظر بعض المجتهدين الأمور العادية المعقولة المعنى كما قلنا .

ماهية البدعة المتوعد عليها بالنار:

ذهب أغلب المحدثين والفقهاء المجتهدين إلى أن البدعة المتوعد عليها بالنار والتي هي ضلالة ، هي في غير هذا ، هي خاصة بالأمور التعبديات ، وهي إما أن تكون اعتقادية ، وإما أن تكون عملية ، إما أن تكون فعلية ، وإما أن تكون تركية .

فالعقائد إذا جاء أحد واعتقد عقيدة فاسدة وأراد أن يقود إليها بشبهة من بعض الآيات أو الأحاديث نقول له إن هذه القضية التي اخترعتها

عرضناها على كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة فوجدناها مخالفة لها ،
ولذلك فهي مردودة ، وهي ضلالة في الدين .

وخير أمور الناس ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع
كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ .

هل في الشرع بدع مستحسنة؟

هناك أمور أخرى تتعلق بهذا الموضوع ، وهو أن بعض البدع ، أو بعض السنن أو الأفعال بالمكلفين رام بعض الناس أن يجعلها من البدع المستحسنة ، ولكن هنا وقف الإمام الشاطبي وغيره من العلماء موقف المنع ، وقال لهم : إن البدع كلها قبيحة . نعم إذا كان هناك ما يقتضي فعل الشيء فينظر فيه .

الاستشهاد بقصة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صلاة القيام :

قد مثلوا لهذا بجمع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الناس المتطوعين في قيام الليل في رمضان على إمام واحد ؛ لأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خرج إلى المسجد فوجد الناس أوزاعا كل واحد يصلي لنفسه ، وتصلي بعض الجماعات مع بعضها ، فقال : لو جمعناهم على إمام واحد لكان أولى ، فجمعهم على إمام واحد ، فقال : نعم البدعة هذه ، ولكن المحدثون الآخرون يقولون : إن النبي ﷺ كان قد جمع بالناس ليالي في رمضان ، جمع اليوم الأول والثاني وفي الثالث لم يخرج فيه أو في اليوم الرابع وقال لهم : « قد سمعت الذي قد كان منكم » ، لأنه كان عليه الصلاة والسلام جمع بجماعة قليلة وفي الليلة الثانية كثر الناس وفي الليلة الثالثة كذلك ، فخشي عليه الصلاة والسلام أن يفرض ذلك على أمته فلم يخرج حتى لا يعتادوها ويقع فرضها شفقة منه ورحمة

بأمرته عليه الصلاة والسلام ، فلما زال المانع وهو وقت التشريع وخشية
الفرضية وجاء عهد عمر أمر عمر بإقامة هذه الصلاة جماعة كما كان قد
سنها النبي ﷺ قبل ذلك .

معنى قوله ﷺ : « سنة الخلفاء » :

هناك أحاديث أخرى تقول : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين
المهتدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(١) ، هذه السنن
المذكورة في هذا الحديث ؛ هل هي سنن تخالف سنة النبي ﷺ؟ أو تستقل
بتشريع خاص حتى يقال إنها سنة الخلفاء وليست سنة الرسول؟ قال شراح
الحديث هنا : إنه لم يكن لأي خليفة راشد أن يخترع سنة من عنده ، ويقال :
إن هذه سنة فلان ، وإنما كانت سنتهم هي متابعة النبي ﷺ في القيام بإعلاء
كلمة الله ، وجهاد المشركين ، وتقوية شعائر الدين ، وتطبيق الشريعة
الإسلامية ؛ فهذه هي السنة التي أمر النبي ﷺ باتباعها ؛ لأن الخلفاء هم
الذين كانوا يطبقون شرع النبي ﷺ تطبيقاً كاملاً بلا هوادة فيه .

وعلى هذا ، فسنة الخلفاء الراشدين هل تستقل بالتشريع أو لا تستقل
بالتشريع ؟ الجواب : أنها لا تستقل بالتشريع .

المصلحة المرسلة وكلام العلماء حولها :

بقي هناك أمور قد رآها بعض المجتهدين أنها قد تطلق عليها اسم البدعة
ولكنها ليست من البدعة وهي أمور دعت إليها حاجة المجتمع الإسلامي حتى
يبقى قوياً محفوظ الكيان ، محفوظ الأمن ، قائم الشخصية والذات ، وذلك

(١) سبق تخريجه .

ما يسمى بالمصالح المرسلة. فهي ليست من البدع في شيء، ولذلك ذكر الإمام الشاطبي هنا أموراً وهو أن هذه الوسائل هذه المصالح المرسلة اعتمدها الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ ؛ ولم يقل بها الشافعي ، وقال أبو حنيفة بالتفصيل ، أما الإمام الغزالي فقال إنها إن كانت في الضروريات فهي مقبولة ، وإن كانت في الأمور الحاجية ففيها تردد قبلها في بعض كتبه ولم يقبلها في البعض الآخر ، وإن كانت من قبيل التحسينات والكماليات فهي غير معتبرة .

ما هي الضروريات والحاجيات والتكميليات :

فما هي الضروريات؟ وما هي الحاجيات؟ وما هي التكميليات؟ هنا يذكر علماء الأصول أن الضروريات التي جاءت بحفظها جميع الملل هي : الدين والنفس والعقل والمال والنسل ، فإذا كانت تتعلق بالدين يحتاج إليها الدين في تقوية مركزه ، وإن كان يحتاج العقل في حفظه حتى لا يفسد ، أو كان يحتاج إليها النسل أو كان يحتاج إليها المال ، وأنه لا بد من حفظه ؛ لأن المال هو أساس العمران ، كما أن العدل هو أساس الملك ، وكذلك فالدين والنفس والعقل والمال والنسل هي الأمور الضرورية في الشريعة ، وقد جاءت بالمحافظة عليها جميع الملل والأديان .

وهناك أمور تسمى بالحاجيات وهي ما يتعلق برفع الحرج في التشريعات كرفع الحرج في الدين ، وإذا اضطر الإنسان إلى شيء فإن الاضطرار يبيح له تناول بعض الأشياء .

أما الكماليات والتحسينات ، فما يتعلق بحكم العشرة ، وبالأخلاق الكريمة وبالإحسان وبالفضائل وكذا ، وكذا فهذه إذا اعتبرنا الأمور الحاجيات ، تتوقف على أمر من الأمور ، فإن ذلك يكون من قبيل المصالح

المرسلة ، فالأشياء الواردة في هذا المعنى إما أن تكون معتبرة قطعاً وباتفاق وهي كالقصاص مثلاً ، حفظاً على حياة الناس ، وإما أن تكون غير معتبرة ؛ لأنها غير مبنية على أساس . وإما أن تدعو إليها الحاجة الضرورية الملحة .

الضابط في إعمال المصلحة المرسلة :

إذا دعت الضرورة إلى أشياء ، فإن الإمام مالكا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ بهذه المصالح ؛ لتوقف الحياة الاجتماعية الإسلامية عليها توقفاً كلياً .

مثال : جمع القرآن الكريم :

إن النبي ﷺ كان له كتبه يكتبون القرآن ، فلما توفي النبي ﷺ وجاءت حروب الردة ، وكان يوم اليمامة الذي قتل فيه كثير من القراء . جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق وقال له : «إني أخاف أن يستحرق القتل بالقراء ، فيضيع كثير من القرآن» ، فأمر بجمع القرآن ؟ . وقال له : «كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ» . قال : «فلم يزل عمر به يقول : إنها والله خير ، إنه والله خير حتى انشرح له صدر أبي بكر» . فأمر زيد بن ثابت أن يتتبع الكتابات وأن يتلقف من أفواه الحفاظ القرآن الكريم وينسخه في صحف فنسخه فكانت تلك الصحف عند حفصة أم المؤمنين ابنة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

حتى إذا كان وقت عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وذهب حذيفة بن اليمان يغازي أهل الشام والعراق ، وجد اختلافاً بينهم يقع في قراءة القرآن ، فأهمه هذا الأمر ، ورجع إلى عثمان وقال له : «أدرك هذه الأمة قبل أن يقع فيها كما وقع لبني إسرائيل من الاختلاف في كتاب الله» . فجمع عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وغيره وأبي بن كعب ، وأمرهم أن يجمعوا القرآن

في مصاحف متعددة، وأرسل في كل أفق مصحفًا، وأمرهم بإحراق ما عداه حتى يبقى كتاب الله تبارك وتعالى على نمط واحد، من دون أن يقع فيه اختلاف، وهذا العمل وقع إجماع الصحابة عليه من غير أن يكون فيه نص من النبي ﷺ، وإن كان القرآن يسمى كتابًا، والنبي ﷺ كان يتخذ كتابًا، وكونه يسمى كتابًا يؤذن بكتابته، ولكن التصريح بجمعه وكتابته لم يقع فيه نص من النبي ﷺ.

فهل نقول بمقتضى هذا الحديث ونطبقه عليه؟ ونقول كل من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد؟ لا؛ لأن هذا أمر يتعلق بحفظ الدين، وحفظ الدين هو ضرورة، وحفظ الشريعة ضرورة، والنبي ﷺ قال: «فليبلغ الشاهد الغائب»^(١)، وقال: «نصر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فبلغها قرب حامل فقه إلّا من هو أفقه منه»^(١).

هذا مثال من الأمثلة التي هي من المصالح المرسلّة التي يقول بها الإمام مالك.

المقصود بقوله ﷺ: «أمرنا»:

قوله عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا»^(١) يخرج عن أمرنا، أمر الدنيا، فأمرنا المقصود به هو الدين في مجموعه، فإذا أحدث شخص في أمر الدنيا حدثًا، يطلب فيه أن لا يضر بالغير، وله أن يفعل ما يشاء ما لم يصادم أصلًا من أصول الشريعة التي جاء بها؛ لأنه إذا صادم أصلًا من أصول الشريعة الإسلامية يكون هذا الحدث واقعًا متصلًا بأمر النبي ﷺ وبشريعته، فيكون مردودًا من هذا الوجه فقط.

(١) سبق تخريجه.

مثال ثان : حد شرب الخمر :

هناك مثال آخر ، ذكره الإمام الشاطبي من المصالح المرسله ، وهو حد الشاربين للخمر ؛ لأن الدين كما قلنا من أموره الضرورية المحافظة على الدين ، والمحافظة على العقل ، والآية الكريمة تقول : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] ، فإذا كثر الشاربون للخمر فإنما يفسدون عقولهم بذلك ؛ لأن العقل يكون سليما ، فإذا خامره وذهبت الخمر بالعقل مدة من الزمن فكأن تلك المدة تكون ناقصة من عمر الشخص ، فإذا أراد عملا فيها لا يستطيع أن يعمل ؛ فلذلك حرم النبي ﷺ وحرم القرآن الخمر ، فالمقبلون عليها يكونون مقبلين على أمر مخالف ، وقد وقع تعزيرهم في زمن النبي ﷺ ، فكانوا يضربون بالجريد ، بجريد النخل كل من شرب الخمر يضرب بجريد النخل بعدما حرمت الخمر .

استشارة عمر للصحابه في حد الخمر :

لما كان عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كتب إليه خالد بن الوليد : إن الناس قد تتابعوا في الخمر واحتقروا العقوبة ، فجمع الصحابة رضي الله عنهم واستشارهم ، فلما استشارهم أقرروا الحد بثمانين جلده ، وقد كان في عهد أبي بكر وقع حده بأربعين ، فزاد فيه عمر على الحد الذي وقع في زمن أبي بكر ، يعني هذا التأديب بلغ إلى ثمانين .

وفي رواية أن عليا رضي الله عنه أقر هذا الحد وقال : إنه من سكر هذلي ، بدأ يهذي وبدأ يفضح الأسرار سواء كانت أسرار الدولة أو أسرار بيته أو أسرار تجارته ، ولكن هذا الحديث أنكره كثير من العلماء وقالوا : إنه

معضل ، وأنكره ابن حزم كذلك ، فالصواب هو الاقتصار على استشارة عمر وأن هذا الحد أقره الصحابة بعد الشورى الإسلامية التي طبقوها تطبيقاً حقيقياً ؛ لأن النوازل التي كانت تنزل بهم كان يجتمع الصحابة رضوان الله عليهم ويقررون فيها .

مثال آخر : تضمين الصناع :

هناك أيضاً أمر آخر وهو : تضمين الصناع .

هذا الأمر أيضاً يتعلق بحفظ الأموال وهو من المصالح المرسلّة فحكم الصحابة بتضمين الصناع ؛ بمعنى أن الشخص إذا أعطى للنجار ألواحاً يصنع له بها باباً ، أو أعطاه جلباباً أو ثوباً يخيطه له أو ما شابه ذلك ، وادعى الصانع الضياع لهذا الشيء هل يضمّنه أو لا يضمّنه؟ قال علي رضي الله عنه : إنه لا يصلح الناس إلا ذلك ؛ لأننا إذا اعتبرنا أن الصناع أمين ، وأنه إذا ادعى تلف المصنوع يصدق تضييع أموال كثيرة على الناس ، وإذا ضمّناه ، وعرف أنه مسئول عما يصنعه في هذا الشيء فإنه على كل حال يحفظه ويحافظ عليه .

استشكال والرد عليه :

قد يقال : إن البعض من الناس لا يفرط ويضيع له الشيء ، فيكون غارماً له من غير أن يكون متعدياً ، وفي هذا ظلم ، ولكن قال الفقهاء هاهنا إنهم إذا قيس ما يضيع بالتعدي وما يضيع بالأموال السماوية يكون ما يضيع بالتعدي أكثر ؛ لأن الإنسان إذا عرف أنه مسئول يحافظ على الشيء ، وفي النادر إذا وقع شيء فحفظ مصالح العامة تقدم على المصالح الخاصة لهذه الطائفة مثلاً الصانعة .

حبس المتهم:

كذلك هناك أمر آخر يتعلق بالأمن العام على الأموال أو على الأنفس أو على الأعراض ، وهو قضية المتهمين ، هل يحبس المتهم أو يضرب؟ في عهد النبي ﷺ لم يكن حبس بالمرة ، وفي عهد خلفائه كان هناك الحبس ، ولكن هل يحبس خصوص الغرماء المدينين الذين لم يؤدوا . . أو الذين اعتدوا . . أو كذا أو كذا . . أو يحبس المتهمون إذا حامت حولهم الشبه؟

قال الإمام مالك بجواز حبس المتهم ، وقال أصحابه بجواز ضرب المتهم ؛ وعلى هذا جرى العمل ، قالوا : لأن حفظ الأموال من السراق والغصاب يكون هذا ضماناً له ، وقد يكون هناك بريء . ولكن قالوا : إن الحبس أو الضرب لا يكون بمجرد التهمة المجردة ، وإنما يكون بالتهمة القوية ؛ ولذلك كان العمل لأجل حفظ الأمن هو الحبس في التهم والضرب إذا اقتضى الحال . وهذا يقتضي خلاف ما عليه العمل من البراءة الكلية في جميع المتهمين سواء كانوا متهمين قبل ذلك أو لا .

قتل الجماعة بالواحد:

هناك قضية أخرى ، وهي قتل الجماعة بالواحد ؛ لأن الشريعة الإسلامية تتطلب ذلك ، وإن هذا الموضوع لا زال طويلاً ؛ لأن الأمثلة التي ساقها الإمام الشاطبي فيما يتعلق بهذا تبلغ العشرة ، وكلها مهمة .

المحاضرة الرابعة والثلاثون بعد المائتين

لزوم العمل بالسنة النبوية الشريفة

موضوع الدرس:

قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدرس الشافعي : أخبرنا سفيان بن عيينة عن سهل هو : أبو النضر مولى عمر بن عبيدالله سمع عبيدالله بن أبي رافع يحدث عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » .

رجال الحديث كما ذكرهم الشافعي :

هذا الحديث الذي يرويه الإمام الشافعي مسندا إلى النبي ﷺ ، أورده في «مسنده» في «كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة» ، وهو في سنده يشتمل على أربعة رجال :

سفيان بن عيينة :

الأول : هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ، ميمون الهلالي الكوفي ، المولود بالكوفة سنة سبع ومائة ، والمتوفى بمكة المكرمة سنة ثمان وتسعين ومائة . وقد كان هذا العلم ثقة حجة فقيها حافظا إماما ، وقد تصدر للتدريس ورواية الحديث النبوي الشريف بمكة المكرمة في الحرم المكي ، وذلك سنة اثنتين وأربعين ومائة ، وقد كان من أصحاب الزهري ، ومن أتقى أصحابه ، وكان من أثبت الناس في عمرو بن دينار .

وقد ذكر الشافعي أن هذا الرجل الفذ ، والعلم المتميز ، كان هو والإمام مالك قرينين ، لولاهما لذهب علم الحجاز .
وقد ترك لنا سفيان بن عيينة مع ما رواه للناس من حديث رسول الله ﷺ تفسيراً للقرآن ، وكتاباً جامعاً في الحديث .

سالم أبو النضر :

أما الرجل الثاني ، وهو سالم أبو النضر بن أبي أمية المدني ، فهو مولى عمر بن عبيد الله التميمي ، توفي سنة تسع وعشرين ومائة ، في خلافة مروان بن محمد ، وكان رجلاً صالحاً ، ذكره ابن عبد البر فوثقه وقال عنه : أجمعوا على أنه ثقة ، وثبت .

عبيد الله بن أبي رافع :

والثالث في الإسناد : هو عبيد الله بن أبي رافع المدني ، مولى رسول الله ﷺ .
روى عن أبيه أسلم ، وعن أمه سلمى ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة ، وشقران مولى النبي ﷺ ، وعنه الكثير من الرجال ، وهو أيضاً من الثقات عند الرازي والخطيب وابن حبان وابن سعد ، وهو كثير الحديث .

أبو رافع القبطي :

أما الراوي عن رسول الله ﷺ والمتلقي لهذا الحديث عنه ، فهو أبو رافع القبطي الذي أسلم بعد أن بشر رسول الله ﷺ بإسلام العباس عمه . واسم أبي رافع القبطي السلم ، وقيل : إبراهيم ، وقد أعتقه كما قلنا رسول الله ﷺ ، فهو مولاه ، أسلم قبل بدر ، ولم يشهدها ، وشهد أحدًا والوقائع بعدها .
سمع النبي ﷺ وروى عن ابن مسعود ، وعنه كثير من الناس . وكانت

وفاته بعد مقتل عثمان رضي الله عنه في خلافة الإمام علي . وله ثمانية وستون حديثاً ، ذكر منها البخاري واحداً ، وذكر مسلم ثلاثة .

مصادر الحديث ورواياته المختلفة :

هذا الحديث - حديث أبي رافع - يتكون من فقرة واحدة . وأورده أصحاب السنن ، فذكره الشافعي في «كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة» من «مسنده» ، وذكره أبو داود في «كتاب السنة» في باب لزوم السنة . وأورده الترمذي في «سننه» ، في «كتاب العلم» ، في باب ما نهى عن أن يقال عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكره ابن ماجه في «مقدمة سننه» ، في باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتعليق على من عارضه ، وذكره الإمام أحمد في «مسنده» في حديث أبي رافع ، وذكره الحاكم في «مستدركه» ، والذهبي في مختصره ، وذلك في كتاب العلم . ذكره من رواية الحميدي ، وعرضه بروايتين أخريين :

الرواية الأولى هي : رواية ابن وهب عن مالك عن أبي النضر عن ابن أبي رافع مرسلًا .

والثانية : رواية الليث بن سعد عن أبي النضر عن موسى بن عبد الله بن قيس عن أبي رافع ، موصولاً ومرفوعاً .

أحاديث في معنى حديث أبي رافع :

قد وردت في كتب السنة كثير من الأحاديث في هذا المعنى ، هي شواهد له . من ذلك ما رواه المقدم بن معدي كرب ، وما أسنده محمد بن المنكدر ، وما حدث به العرباض بن سارية ، وما رواه أبو هريرة رضي الله عن جميعهم .

حديث المقدام بن معدي كرب:

أما حديث المقدام فهو قطعة من حديث ذات فقرتين، اختلفتا في الرواية لفظاً وتركيباً، والصيغة الأولى التي ورد بها حديثه هي التي أوردها أبو داود، وهي بلفظ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه» أي اعتقاداً. وورد الحديث بهذا اللفظ أيضاً عند الإمام أحمد في «مسنده».

رواية الترمذي للحديث:

وأما الصيغة الثانية التي ورد بها الحديث فهي مختلفة عن السياق الأول، وفيها تغيير، وقد أوردها الترمذي بلفظ: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله».

رواية ابن ماجه والدارمي للحديث:

بمثل هذه الرواية - رواية الترمذي - أو قريباً منها أورد الحديث ابن ماجه في «مقدمته»، وكذلك الدارمي في «مقدمة سننه»، في باب «السنة قاضية على الكتاب».

حديث ابن المنكدر عند الشافعي والترمذي:

وأما ابن المنكدر فحديثه من فقرة واحدة، وهو بلفظ حديث أبي رافع، أورده الشافعي والترمذي مرسلاً.

حديث العرباض عند أبي داود :

وحديث العرباض بن سارية جزء من حديث يتكون من فقرتين .
ومحل الشاهد : هو ما أورده أبو داود من حديث طويل ، قوله : أي قول
رسول الله ﷺ بهذه الرواية : «أحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن
الله لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن ، ألا وإنني قد وعظت وأمرت ونهيت عن
أشياء ، وإنها كمثل القرآن أو أكثر عددًا» .

حديث أبي هريرة عند أحمد :

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه وإن كان في المعنى يختلف عما أورده قليلاً ،
فهو يتكون من فقرتين أيضاً ، أورده الإمام أحمد في «مسنده» بلفظ :
«لأعرفن أحداً منكم أتاه عني حديث ، وهو متكئ على أريكته فيقول : اتل
علي به قرآناً ، ما جاءكم عني من خير قلته أو لم أقله فأنا أقوله ، وما أتاكم
عني من شر فأنا لا أقول الشر» .

الفهم الصحيح يستلزم النظر في كل النصوص :

وبالنظر في هذه النصوص المختلفة التي يعضد بعضها بعضاً ، وبالمقارنة
بينها نلمس اختلافاً في هذه الروايات ، اختلافاً في اللفظ وفي الترتيب ،
وفي الأصل وفي الزيادة ؛ لأن الزيادة وردت أحياناً في مقدمة الحديث ،
ومرة في نهايته ، وبألفاظ مختلفة .

وعندما يهْمُ المرء أن يفيد من هذا الحديث ، لا يجوز أن يقتصر على
النص الذي أورده الإمام الشافعي ، بل ينبغي أن ينظر إلى النصوص كلها
مجتمعة ملتقية على إبراز المعنى الأساسي الذي أراده رسول الله ﷺ من
قوله . فقوله ﷺ : «لا ألفين» ، إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام نهى

عن أن يكون في الناس من يتصف بهذا الوصف ، أي وصف الجحود والإعراض عن سنة رسول الله ﷺ . ولذلك قال : « لا ألفين » ، أي لا أجدن ، لا أحب أن أجد منكم أحداً بمثل هذا الوصف . وقوله عليه الصلاة والسلام : « على أريكته » هي بيان لحال المعرض ، المعرض عن الحديث الذي لا يلتفت إليه . وهذه كناية عن الترف الذي يوغل فيه الإنسان فيكون بسببه متكبراً ، ثم يدخله البطر في مجالات تبعده عن الحق ، ولا تجعله يطلب البحث ولا العلم .

ولذلك اعتبروا المعرضين عن سنة رسول الله ﷺ على هذا الوصف يجلسون على الأرائك ويتكاسلون ، ولا يلتفتون ولا يُعْتَوْنَ بالحديث ، ولا يبحثون عن العلم ولا يطلبونه .

دلائل النبوة في الحديث الشريف :

أما قوله ﷺ : « ألا يوشك رجل شبعان على أريكته » فهو تنبؤ منه عليه الصلاة والسلام . وقد عُدَّ هذا الحديث من دلائل النبوة ، وذكره البيهقي في كتابه « دلائل النبوة » في الجزء الثالث .

الترهيب من مخالفة سنة النبي ﷺ :

قوله ﷺ : « لأعرفن أحدكم أتاه عني حديث وهو متكئ » ، فيه إشارة إلى أنه يخوفه ويهدده ، وكأنه يقول له : قد انكشف أمره ، ولذلك ينبغي أن يتوب إلى ربه .

وهذا الوصف ، وهو وصف الإعراض عن سنة رسول الله ﷺ ، وعدم الاستجابة لقوله ، وعدم الامتثال لأمره ونهيه ، مما ورد في كلامه أو من فعله أو في تقريراته ، اتصف به الأفراد ، كما اتصفت به الفرق والجماعات .

اتصف به الأفراد الذين لا يمكن أن نطلق عليهم وصف الإسلام، لأنهم إن رفضوا الإيمان أو التسليم بهذه الأحاديث اعتقادًا فقد كفروا، فإن الحديث جزء من الوحي، وأمرنا أن نتبع رسول الله ﷺ، وأن نمثل قوله، وأن نتبع أمره، فمن أعرض عن ذلك فهو كافر، ومن كان بدون ذلك متوائماً متهاوناً فهو فاسق، ومن أجل ذلك نجد هذه الجماعة تعرض عن السنة وتعلن عن بغضها، وتطعن فيها. وذلك إما وهماً أو جهلاً.

وفي الحديث توجيهه وتقريره بجانب التحذير والتخويف، وهو قوله ﷺ في مجال الإنكار على هؤلاء: «إني أوتيت القرآن ومثله معه»، وهذا الذي أوتيته رسول الله ﷺ هو البيان، لأن رسول الله ﷺ كان مأموراً بأن يبين للناس، وهذا البيان يأتيه من الله، فهو وحي.

الحث على التزام السنة كما يلتزم القرآن:

قوله ﷺ: «أحسب أحدكم أن الله لم يحرم شيئاً إلا في القرآن»، وقوله: «إن ما حرم رسول الله كما حرم الله»، وقوله: «ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء أمرت بها وهي كمثل القرآن أو أكثر»، يريد بذلك عددها.

الطوائف المنحرفة في فهم الحديث:

طوائف المسلمين الذين انحرفوا، أو لم يستجيبوا للحديث ولم يأخذوا به طائفة رفضته ولم تعمل به، وهم الروافض. وكذلك النظامية من المعتزلة. وطائفة لم ترفضه، ولكنها أخضعته لشروطها، وهي غير الشروط التي ذهب إليها جمهور أهل السنة، ومن هؤلاء: الخوارج، والشيعة، والمعتزلة.

فهناك أسباب وظروف اجتماعية وسياسية دفعتهم لأن يضعوا شروطاً خاصة بهم لقبول الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ.

تصيد المستشرقين لأخطاء الفرق وضلالها :

جاء بعد ذلك المستشرقون ، فتصيدوا من هذه المواقف ومن كلام أصحاب الأهواء والفرق ما ذهبوا إليه من حجج ، أرادوا بها إبطال الأخذ بالسنة ، وصرف الناس عنها ، فكان سبباً للهجوم على الفكر الإسلامي ، وطريقاً للغزو الفكري ، مكنهم من تحدي الناس في قرآنهم ، وفي سيرة نبيهم ، وفي حديث رسولهم ، يريدون بذلك أن يضعفوا تمسك المسلمين بدينهم ، وصرفهم عن حقيقتهم ، واستلاب هويتهم .

افتراءات باطلة واستشهاد في غير محله :

هذه الافتراءات أو الدعاوى التي لا حد لها هي في الواقع حجج ملفقة ، سبق لأهل العلم أن وقفوا عندها وردوها .

شبهة القرآن مفصل لا يحتاج إلى تفصيل :

من بين هذه الحجج قولهم : إن القرآن مفصل لا يحتاج إلى تفصيل ، إنه في دلالته بين لا داعي إلى بيانه ، وقد قال تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقال سبحانه ﴿ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .

الرد على ذلك :

هذا الموقف غير صحيح ، لأن المراد بالشمول في القرآن والاعتناء بكل ما ورد في الدين الإسلامي من حقائق ، ليس هو الأحكام الجزئية ، ولا القضايا التفصيلية ، وإنما المراد أصل الدين ، وقواعد الأحكام العامة . والدليل على

هذا أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ ببيان ما في القرآن من آيات ، وما فيه من أحكام وقواعد عامة ليجليها للناس ، وليصبحوا على اتصال بها ، وإفادة منها ، وهذا كقوله ﷻ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل : ٦٤] .

وكانت وظيفة رسول الله ﷺ بحكم هاتين الآيتين هي البلاغ للناس ، أو الإبلان للناس ، ثم الشرح والبيان ، وهذا ما يعنيه قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن المراد من الكتاب : القرآن ، وأن المراد من الحكمة : السنة .

شبهة أن القرآن تولى الله حفظه بخلاف السنة :

جاءت بعد ذلك كثير من الحجج الملفقة التي ادعاها هؤلاء المستشرقون فقالوا : إن القرآن قد تولى الله حفظه ، ولم يتول حفظ السنة النبوية كما حفظ القرآن ، وأن رسول الله ﷺ اتخذ كُتَّابَ وحي ، وأمرهم بتدوين الآيات في محلها ، ولم يأمر بمثل ذلك بتدوين السنة النبوية ، بل ربما منع من كتابتها .

الرد على ذلك :

هذه الحجة ليست بشيء ؛ لأن الحفظ المقصود من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] هو حفظ الشرع والدين . والذي يدل على ذلك أمر الله سبحانه وتعالى الناس بأن يسألوا أهل الذكر ليعلموا ما في الكتاب عن طريق ما حدث به رسول الله ﷺ .

وأما التهمة الثانية فهي : ادعائهم الوضع ، وقد كثر الوضع بالفعل في بعض القرون ، وخاصة من القصاصين ، ورأينا جنودًا من العلماء المسلمين يقفون لحراسة السنة النبوية الشريفة مما يمكن أن يدخلها من كلام الوضاعين . وقال رسول الله ﷺ ، أو فيما روي أنه قال : «إن الحديث سيفشو ، فما أتاكم يوافق القرآن فهو عني ، وما أتاكم عني مخالفاً للقرآن فليس مني»^(١) .

هذا الحديث لم يسلم به النقاد ، وقالوا : حديث منقطع ، وليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن ، وإن ذكر بعضهم ، أي بعض الصحابة بأنهم يعرضون الأحاديث على القرآن ليتأكدوا من صحتها ، ولكن ذلك كان الفينة بعد الفينة ، عندما يحصل التعارض بين الأحكام ، فيقع الترجيح بهذه الطريقة .

شبهة أخرى والرد عليها :

الدعوى الأخرى ، هي قول بعض المتأخرين من المستشرقين بأن الحديث تعلق به المسلمون لحبهم لنبیهم ، ولكنهم في الواقع لا يمكن أن يحقق لهم شيئاً في هذه الحياة الدنيا ، لأن الحديث لا يمكن أن يحل مشاكلهم ، وهذا كلام باطل يدل على بطلانه تأسيس أمة ، وبناء دولة ، وتهذيب الفرد المسلم في حياة رسول الله ﷺ عندما كان يتلقى الناس عنه هذه الحكمة ، يأخذون بآداب النبوة ، ويسیرون على الدرب الذي رسمه لهم ليكونوا من العاملين ومن الصالحين .

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢٠٨ / ٤) من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام .

اتخاذ المنهج غير العلمي في النقد:

الذي أستغرب هو أن هذه المقالات التي لا صحة لها هي مقالات لا بد من ردها . وطريق ردها هو النظر إلى الإطار الذي وضعت فيه ، فقد قرأت أنا شخصيًا كثيرًا من مقالات هؤلاء فوجدتهم في هذا المقام يستشهدون بكلام الدميري في كتاب «الحيوان» ، وبالثعالبي في «ثمار القلوب» ، وببديع الزمان الهمذاني في «مقاماته» ، ويدخلون ذلك للفصل في بعض القضايا الفكرية والعلمية الواردة في الأحاديث النبوية الشريفة ، ويكذبون ما ورد عن الإمام مالك .

فهذا من السخف في ارتكاب الضرر ، ومن البعد عن المناهج العلمية المعتمدة . فرأيانهم يحكمون نصوص الأدب في السنة ، ونصوص التاريخ في الفقه ، وكانت لهم جهود كثيرة ، ومواقفهم مبنية على سوء الظن من جهة وسوء الفهم من جهة ثانية ، سوء الظن بالسنة وسوء الفهم لها ، وسوء الظن بعلماء الإسلام أيضا .

وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى تفريغ الدين الإسلامي من السنة النبوية ، وتعطيل مفاهيم الكتاب ، ونسف التشريع الإسلامي وتطبيقاته بلا رجعة ، والدعوة إلى التفسخ والتحلل ، إيمانًا منهم بما يدعونه من وجوب الأخذ بالحرية ، وأسباب التحرر الفكري والعقلي .

شر خلف لشر سلف:

تبع هؤلاء المستشرقين ثلة من المسلمين الذين أضاعوا طريق الهداية ولم يدركوا حقائق الإسلام ، ولا التشريع الإسلامي ، فكانوا من الضالين المضلين . ومن بين هؤلاء إسماعيل أدهم في كتابه : «رسالة عن تاريخ

السنة» وقد نشر هذا الكتاب تبعاً في : «مجلة المنار» . ثم توفيق صدقي الذي وضع كتاباً سماه : «الإسلام هو القرآن وحده» ، وكذلك محمود أبو رية ، الذي وضع كتاباً سماه : «أضواء على السنة المحمدية» .

وكما ظهرت هذه البدعة في المشرق العربي فإنها ظهرت أيضاً في المجتمعات التي تؤمن بالسنة ، وتحافظ عليها وتتمسك بها ، وذلك بتأثير وتوجيه من السياسة البريطانية . وقد رأينا هذا يبدر ويحصل من عالم كبير مسلم ، هو أحمد خان عندما انحرف ، وكذلك المولوي جراح علي ، الذي وضع كتاب : «أعظم الكلام في ارتقاء الإسلام» ، وعبد الله الجكروالي الذي وضع كتاب : «الصلاة القرآنية» ، وأحمد دين ، صاحب كتاب : «الأمة المسلمة» ومحمد أسلم الجراجوري الذي وضع رسائل أخرى نشرها في وقته ، وغلाम أحمد برويز ، صاحب : «طلوع الإسلام» ، وهو صاحب الفئة الضالة التي سمت نفسها بأهل القرآن ، والتي جعلت شعارها البعد عن السنة ، ومقاطعتها والطعن فيها .

دور علماء الأمة في الذب عن السنة:

هذا الوضع احتاج من المسلمين إلى أن ينبهوا إلى هذه الأخطار ، وكان من بين المعاصرين الذين تولوا الدفاع عن السنة وتصحيح المفاهيم وبيان هذه الحقائق للناس : الشيخ مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللهُ ، في كتابه : «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ، وعبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، صاحب كتاب : «الأنوار الكاشفة» ، ومحمد عبد الرزاق حمزة ، صاحب : «ظلمات أبي رية» ، ومحمد أبو شهباء شابا ، صاحب : «دفاع عن السنة» ، وثناء الله الأمر تسري . ومحمد مصطفى الأعظمي . وأبو إسحاق الحويني . وغيرهم من المحدثين والدعاة .

طريق الهداية التمسك بالكتاب والسنة:

ونحن إذا أردنا أن نبحث عن المنهج الرشيد الذي لا بد للمسلمين أن يأخذوا به ، حماية لكيانهم ، واحتياطاً لأمر دينهم ، واتباعاً لسنة رسولهم ، وامثالاً لقول ربهم ، إنما يكون ذلك بالتمسك بالأصلين : الكتاب والسنة . وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ في بلاغه الذي رواه عنه الإمام مالك رحمه الله في «موطأه» ، والذي يقول فيه : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه» .

والمسلمون يعتقدون أن الحديث وحي . فقد قال الله جل جلاله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] . وكانت تنزل الآية من القرآن حتى ينزل تأويلها وحياً من الله . وقد قال بعضهم في ذلك : فهو المفسر ، أي الحديث .

فهو المفسر للكتاب وإنما نطق النبي لنا به عن ربه

السنة تبين القرآن وتفصله:

وذهب سعيد بن المسيب وهو إمام أهل الحجاز رحمه الله إلى القول بأن السنة من الكتاب ، لكونها تفصله ، ولكونها تبين مجمله ، ولكونها تقيده مطلقه ، ولكونها تخصص عامه . فلا يمكن أن تكون شيئاً أجنبياً عنه .

وكان ابن مسعود وعثمان رضي الله عنهما يقولان : كنا لا نقرأ عشر آيات من القرآن إلا توقفنا ، فلا نتجاوزها حتى نتعلم من النبي ﷺ ما فيها من علم وعمل .

الأمر باتباع أمر النبي ﷺ واجتناب نهيه:

قد وردت الأوامر من الله تعالى في الوجوب بالأخذ بالسنة . وذلك قوله

ﷺ، وهو الكلمة الجامعة في هذا الموضوع، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وفي آيات أخرى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

السنة تحتوي على أحكام ومعاملات وغير ذلك:

السنة النبوية الشريفة شيء، له من السعة والانتشار والأهمية والعناصر ما لا يمكن أن يخطر ببال أحد. ففيها: الأدب والبر، والصلة، وفي السنة الأحكام الشرعية، وفيها الغزوات، وفيها المناقب، وفيها الأمثال، وفيها تفسير القرآن، وهكذا تتعدد الجوانب، جوانب السنة.

فالناس لا يفرقون بين الأخذ بالسنة في الأول أبدا، ويلتزمون الاهتداء عن طريقها إلى ما يريده الله ورسوله.

ولذلك وجدنا محمد أسد في كتابه: «المسلمون على مفترق الطرق» يتحدث في الفصلين الأخيرين من كتابه عن شخصية رسول الله ﷺ، ويقول: إن السنة هي الطريق الوحيد لفهم النهضة الإسلامية، وللحفاظ على الكيان، وللوقاية من الانحلال. وهي -أي السنة-: التفسير العلمي للقرآن. وهذا ما قالته عائشة رضي الله عنها، عندما سئلت: «ما كان خلق رسول الله؟ قالت: «كان خلقه القرآن».

ثم عندما نتلو هذه الأحاديث ونتأدب بها ، فإن الإنسان يجد نفسه أمام أمرين : الأمر الأول : الاتباع لرسول الله ، والأمر الثاني -إن هو أخل بهذا الواجب ، وهو الاتباع لرسول الله- : المراقبة لنفسه فيما يصدر عنه ، ليعود إلى الله وليتوب إلى رشده .

تقسيم العلماء للسنة من حيث الاتباع:

أما التقسيم الذي ذهب إليه العلماء في التفريق بين ما يجب اتباعه من السنة والالتزام به ، وبين ما يجوز الأخذ به أو يحسن الأخذ به من غير إلزام ، فذلك ما عناه كثير من العلماء . أذكر أولاً في هذا الباب : النووي ، عندما فرق بين الأحاديث التشريعية وغيرها من الأحاديث . وأجد هذا بعد ذلك عند القرافي في «الفروق» ، في الفرق السادس والثلاثين عندما تحدث عن قاعدة تصرف رسول الله بالقضاء ، وقاعدة تصرفه بالفتوى ، وقاعدة تصرفه بالإمامة ، فكانت هذه الأحاديث التي ترجع للأبواب الثلاثة من التشريع الذي لا بد من الأخذ به . ثم وجدنا ابن القيم في كتابه : «زاد المعاد» يتعرض إلى التشريع الذي ورد في الغزوات ، كفقه غزوة حنين .

ثم نجد الشاطبي في «موافقاته» يفرق بين هذين النوعين : التشريعي ، وما ليس بتشريعي . ثم الشيخ شلتوت في المتأخرين ، وذلك في الكتاب الذي ألقاه محاضرات على طلابه ، وهو : «فقه القرآن والسنة» وذلك في خصوص باب القصاص . ثم أجد الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ ، في كتابه «مقاصد الشريعة» يتعرض في فصل نفيس سماه : فصل انتصاب الشارع للتشريع . ذكر فيه أن أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته تتنوع اثني عشر نوعاً . فمنها التشريع ، ومنها الفتوى ، ومنها القضاء ، ومنها الإمارة ،

ومنها الهدي والصلح والإشارة على المستشار، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرد عن الإرشاد، أي المسائل الفطرية التي كان يلابسها ﷺ.

الصحابة خير النماذج في تطبيق سنة نبيهم ﷺ:

فإذا نحن تأملنا هذا، وأدركنا السر في وجوب الأخذ بكتاب الله أولاً، وبسنة رسول الله لفهم القرآن، ولنكون على بينة مما يريد منا رسول الله ﷺ، إمامنا وقائدنا وهادينا، وداعينا إلى الخير والحق - فإن خير الناس في ذلك الذين ينبغي أن نأتسي بهم، هم صحابته الأكرمون. وهؤلاء الصحابة هم الذين التزموا التزاماً كاملاً بالسنة النبوية الشريفة، وكانوا يختلفون عليها، عندما تختلف الرواية بينهم؛ لأن بعضهم يكون قد سمع ما لم يسمعه الآخر.

ودليل ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه، وعمر كذلك، كانوا يخرجون عندما يشتد الأمر، أو يريدون الحكم في قضية ولا يجدون أصلاً، فيسألون: هل من حديث في هذه القضية؟ وقد وقع ذلك كثيراً، وتاريخ التشريع الإسلامي شاهد به.

فهؤلاء الصحابة هم الذين ذكرهم علماؤنا بكل تقدير وتبجيل، وقالوا: إن الصحابة قد سمعوا عن النبي ﷺ الأحاديث الكثيرة، ورأوا منه من الأحوال المشاهدة، وعلموا بقلوبهم من مقاصده ودعوته ما يوجب فهم ما أراد بكلامه، وهو ما يتعذر على من بعدهم مساواتهم فيه.

فليس من سمع وعلم ورأى من حال المتكلم كمن كان غائباً لم ير ولم يسمع، أو سمع وعلم بواسطة أو بوسائط كثيرة. وإذا كان للصحابة رضي الله عنهم من ذلك ما ليس لمن بعدهم، كان الرجوع إليهم في ذلك دون غيرهم متعيناً قطعاً.

أهل الحديث تبع للصحابة رضي الله عنهم في ذلك :

رأينا بعد ذلك تنفيذًا لهذه الخطة والتزامًا بها ، وسيرًا على المنهج الرابع الذي جاءت به جهود العلماء والمسلمين في هذا الميدان ، اعتماد كلام أهل الحديث ، وأهل الحديث ليسوا بالأمر القليل ولا الصغير ، فإنهم كما قال عنهم علماء هذا الفن : ينفون عن الحديث تحريف الغالين ، أي ما يقع في كلام الناس والوضاعين من غلو ، ويدفعون انتحال المبطلين ، وهم الوضاعون ، ويدفعون تأويل الجاهلين ، وهو ما يقع من الناس من سوء فهم .

ولذلك فإن أهل الحديث بما نعرف من آثارهم وكتبهم في مختلف الفنون : في تدوين السنة ، وفي المصطلح ، وفي التجريح والتعديل ، وفي علوم الحديث ، التي بلغت خمسة وستين نوعًا ، وفي الطبقات ، وفي علم الرجال ، هم من أعظم الناس صدقا وأمانة وديانة ، ومن أوفرهم عقولا ، وأشدهم تحفظا وتحريا للصدق ، ومجانبة للكذب . وإن أحدا منهم لا يجابي في ذلك أباه ولا ابنه ، ولا شيخه ولا صديقه ، وإنهم حرروا الرواية عن رسول الله ﷺ تحريرا لم يبلغه أحد سواهم ، لا من الناقلين عن الأنبياء ، ولا من غير الأنبياء .

وهم شاهدوا شيوخهم على هذه الحال وأعظم ، وأولئك شاهدوا من فوقهم كذلك وأبلغ ، حتى انتهى الأمر إلى من أثنى الله عليهم أحسن الثناء ، وأخبر برضاه عنهم ، واختياره لهم ، واتخاذهم شهداء على الأمم يوم القيامة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

في مدح علم الحديث وأهله :

الذي يشير إلى أهمية علم الحديث بعد ممارسته والاطلاع على خفاياه ،
والوقوف على كنوزه وما فيه من علم : قول القرطبي أبي بكر رَحِمَهُ اللهُ :

نور الحديث مبین فادن واقتبس واحد الركاب له نحو الرضي الندس
ما العلم إلا كتاب الله أو أثر يجلو بنور هداه كل ملتبس
نور لمختلف ، خير للتمس حتى لمحتس نعمى لمبتس
واقف النبي وأتباع النبي وخذ من هديه أبداً تدنو إلى قبس
واسلك طريقهم واتبع فريقهم تكن رفيقهم في حضرة القدس

المحاضرة الخامسة والثلاثون بعد المائتين

الإنسان والقرآن

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾  أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] .

موضوع الدرس :

موضوعنا هو بيان أنه ليس هناك خارج الإسلام كرامة للإنسان ، ولا خارج شريعته الإلهية منهج لتحقيق تلك الكرامة ، وأن خطاب القرآن للإنسان قد جلى هذا التكريم الإلهي تجلية واضحة في مختلف مستويات وجود الإنسان ، وذلك أن القرآن ينطوي على المبادئ الكلية التي تعدُّ المرجع الأساسي لأخلاق الإنسان في مقابل كل النظريات الأخلاقية ، والفلسفات الغربية القديمة والحديثة .

أقسام الموضوع :

وتناولي للموضوع عبر أقسام ثلاثة :

الأول : تمهيد يتعرض للأزمة الحضارية الراهنة التي تفرض على الإنسان مراجعة مبادئه وسلوكه .

الثاني : يكون بمثابة إطلالة على منظور الفكر الغربي للإنسان وما ترتب على هذا التطور من نظريات أخلاقية ، وسلوك تطبيقي .

الثالث : وهو لب الموضوع . تحديد منظور الإسلام للإنسان وما يترتب عليه من مبادئ أخلاقية تنطلق أساسًا نحو تأسيس التكريم الإنساني تأسيسًا وجوديًا ، ثم جزائيا بعد ذلك .

أما الجانب الأول : فأحاول فيه أن أبرر تناول الموضوع من جديد ، ولا بد هنا من وضع الأزمة الأخلاقية للإنسان في بعدها الحقيقي ، ولا سيما في عصرنا هذا ، عصر التقدم التكنولوجي والمعرفي الذي أتاح للإنسان الغربي خاصة ما أتاح له من ألوان التفوق والتقدم والاستعلاء ، والادعاء العريض بأنه وحده حامي حقوق الإنسان والمؤسس لكرامة الإنسان ، والشاهد على تطبيق شروط هذه الكرامة بالنسبة للآخرين ، والحديث عن أزمة الإنسان الروحية له ما يبرره ، سواء بالنسبة للعالم الإسلامي أو للعالم الغربي المسيحي أو العلماني ، لأن لكل من العالمين المختلفين تظاهراتهم للأزمة الأخلاقية ؛ وهو إن يختلف في مظاهره وسلوكه ومساراته بين عالمنا وعالم الغرب ، فإنه يتماثل في نتائجه ومآلاته .

الأزمة الأخلاقية في المجتمعات الغربية :

هناك من ناحية المجتمعات الغربية التي يتوافر لها الرخاء المادي ، ومع ما فيها من التقدم العلمي ، والنظام السياسي الذي يكفل الحقوق والحريات والضمانات المادية ، وتمارس فيه كل الفعاليات الإنسانية ، على نحو ما يعود على أفرادها بالمزيد من التقدم والتنظيم والتخطيط . مع كل ذلك فهذه المجتمعات تعاني أزمات أخلاقية وروحية لا تغيب شمس أي يوم فيها إلا عن مزيد من تفاعلاتها وتراكم مآثمها وشيوع مفاسدها وتناقضاتها ، هذه هي المجتمعات الغربية .

الأزمة في مجتمعاتنا الإسلامية:

هناك من ناحية أخرى مجتمعاتنا التي يتوافر لها ميراث أثيل من القيم الروحية، والعقيدة الدينية الوافية بكل مطالب الإنسان الحياتية، ومع ذلك فهذه المجتمعات فقيرة برغم غناها البشري والطبيعي، متشردة برغم الأواصر الروحية الجامعة بينها، متخلفة بكل مقاييس التحليل، فاقدة لكل أسباب الكرامة والحقوق الإنسانية إلا من أخذ الله بيده، ولا تغيب شمس يوم من أيامها إلا عن مزيد من تفاعلات التمزق والصراع، وهكذا يبدو العالمان، العالم الغربي المتقدم، والعالم الإسلامي المتخلف نموذجين لنهجين مختلفين في الممارسة الحضارية:

أولهما: منهج يتمثل في تعطيل مبادئ العقيدة وفعالية العقل مع التبعية للتقليد والاستسلام للإحباط، وهذا هو غالب ما يطبع واقعنا.

والثاني: منهج يتمثل في إقصاء أي عقيدة روحية، وتعطيل فعالية الإنسان الروحية، وسد الأفق أمام الإنسان نحو استشراق عبودية خالقه تعالى، وهذا هو الواقع الذي يعيش فيه الغرب.

وجه الشبه بين النهجين:

هناك إذن بؤس مادي وبؤس روحي يتقاسمه العالمان، يأخذ أحدهما طابع التخلف وهو أخطر وأدهى، ويأخذ الآخر طابع اختلال التوازن.

حقيقة الإنسان في الفكر الغربي وأثر ذلك أخلاقياً:

نستطيع أن ننفذ إلى جوهر الأزمة الغربية إذا ما استعرضنا تطور المنظور الغربي للإنسان، وكيف عجز هذا الإنسان عن إيجاد قاعدة تقوم عليها ثوابت

الأخلاق . وما ذلك إلا لأن الإنسان الغربي لم يهتد إلى معرفة حقيقة الإنسان الكلية ، فالبحت عن حقيقة الإنسان من منظور الفكر الغربي ابتداءً من الفكر اليوناني ، ومروراً بالفكر المسيحي اللاهوتي ، وانتهاءً بالفكر المادي العلمي التجريبي قد انتهى إلى تمزيق وحدة الإنسان وتغييب هويته ، وحصر علة وجوده في مجرد الصدفة ، فترتب عن هذا العزل في التصور ما ترتب من أزمة روحية للإنسان الغربي ولحضارته ، وهي أزمة اختلفت مناهج الغربيين أنفسهم في تحليلها ووصفها ، وكان من نتائجها عندهم ما سموه بالاغتراب أو الاستلاب ، ولذلك لم يستطع الفكر الغربي منذ أقدم عصورهم أو ابتداء من أصوله اليونانية أن يؤسس أخلاقاً ثابتة للإنسان ؛ إذ تجاذبت نظرية الأخلاق منذ ذلك العصر مبادئ اللذة والسعادة والمنفعة ، باعتبار هذه المبادئ هي البواعث والغايات والآليات المحركة لأخلاق الفرد .

تصور الفلسفة اليونانية للإنسان (مبدأ اللذة والحكمة) :

الفلسفة اليونانية حين تصورت الإنسان كائنًا منفعلًا انفعاليًا آليًا بنظام الكون أو بالطبيعة ، كما يقولون ، لم يكن أمامها خيار إلا أن تعتبر الإنسان إما أن يسعى لتحقيق غرائزه المادية سعيًا وراء مبدأ اللذة من حيث هو جسم ، وسعيًا لتحقيق مطلب الحكمة والتعقل ، من حيث هو صاحب عقل ، وقال بمبدأ اللذة وحدها الفيلسوف «أبيقور» ، وقال بمبدأ الحكمة وحدها «أرسطو» ، وتفرعت عن هذين المبدئين الأخلاقيين نظريات أخلاقية ، شطرت الإنسان إلى شطرين لا علاقة لأحدهما بالآخر ، فإما أن الإنسان طبيعة مادية متحركة وراء رغبات غريزية لا يني يشبعها الإنسان بغير حرج أو حدود أو روادع ، وإما إنسان مثالي متعال لا علاقة له بالواقع المادي .

نظرة الفكر المسيحي الكنسي للإنسان (الخطيئة الأصلية):

آلت مقاليد التوجيه الأخلاقي في أوروبا في العصور الوسطى إلى الفكر المسيحي الكنسي، الذي غيّر معادلة البحث عن الإنسان وسد آفاق البحث الأخلاقي بنظرية الخطيئة الأصلية والتكفير، التي بمقتضاها أن الإنسان يولد موزورا بذنب غيره، ويتحمل خطيئة أصلية لا حيلة له في دفعها، وأنه يمضي بين اللعنة والنعمة بقدر من الأقدار، لا نصيب له فيما يكتسبه.

العصر الحديث وظهور المبادئ الجديدة:

حلت العصور الحديثة، فإذا هذه التصورات الأخلاقية السابقة تمسح كلها بمبدأ جديد، هو مبدأ المنفعة الأخلاقية، أو مبدأ الصراع الطبقي.

مبدأ المنفعة:

مبدأ المنفعة كما حدده «بنطان» أو «جون ستيورت»، حول الأخلاق الإنسانية إلى ورقة نقدية، محددة القيمة والوظيفة، ولا عبرة بعد ذلك بالمقاصد والغايات، وكان مبدأ المنفعة هذا وراء تبرير التوسع الإمبريالي، وحركات الاستعمار الغربي التي جرت على الإنسانية المستضعفة ما جرت من ويلات.

مبدأ الصراع الطبقي:

مبدأ الصراع الطبقي سوغ للإنسان في ظل أوضاع مادية معينة أن يبحث القيم الأخلاقية من جذورها بالمرّة، وأن يصير الإنسان مجرد كم في القطيع البشري.

تصور الفكر الغربي للإنسان تصور مهزوز:

إن تحليل الفكر الغربي لطبيعة الإنسان يوقفنا لا محالة على هذه المرجعيات الأساسية ، هذه المرجعيات التي يبدو فيها التصور عن الإنسان تصورا مهزوزا .

الثورة البيولوجية تكشف عن حقيقة الإنسان الحيوانية:

من المعلوم أنه كان من نتائج الثورات العلمية والصناعية التي تحققت في تاريخ أوروبا الحديث تراجع تلك الأفكار والقيم الدينية المسيحية ، أو الأفكار المثالية اليونانية ، تراجعت كلها أمام تطور نزعات المادية الجديدة ، حيث أصبحت العلوم التجريبية سيدة الموقف ، وجاءت الثورة البيولوجية لتكشف في نظر الكثيرين عن هوية الإنسان الحيوانية ، ويمكن أن نعتبر العالم الإنجليزي «جوليان هورتسلي» المتوفى في السبعينيات من القرن الماضي واحداً من مئات العلماء المرموقين ، والفلاسفة البيولوجيين الذين كان لهم تأثير نافذ في الفكر السياسي والأخلاقي في الغرب في الوقت الراهن .

كلام جوليان هورتسلي حول حقيقة الإنسان:

قال هذا الكاتب العالم في كتابه : «الإنسان والعالم الحديث» : «إن رأي الإنسان في نفسه فيما يتعلق بمركزه بين الإنسانية والحيوانية ، ظل متأرجحا كبندول الساعة ، تارة تتسع الأدومة الفاصلة بين الإنسان وبين الحيوان ، وتارة تضيق الهوة إلى حد كبير . وفي تحليله قرر أن الإنسان البدائي كان يسلم فقط بما بينه وبين الحيوانات من قرابة ، بل إنه كان يضيفي على الحيوانات كثيرا من خصائصه . وبمجيء المدنية والتنظيم الاقتصادي والسياسي وظهور الأديان ، اتجه الإنسان إلى تأليه نفسه ، واعتباره أو اعتبار ذاته سيدة العالم ، ثم

وصل المد في الفكر الغربي - كما يقول «أستلي» - لإعلاء شأن الإنسان في الفكر المسيحي والفلسفة الديكارتية إلى غايته .

ظهور الداروينية وانكشاف حيوانية الإنسان :

بظهور الداروينية انكشف واقع الإنسان على أنه حيوان على ضوء العلم ، لا على الإحساس الساذج ، فالإنسان في نظره حيوان كغيره من الحيوانات ، ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية والمثل العليا الإنسانية لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديرًا أكثر من الدودة الشريطية ، أو بكتير «باشليس» ، والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح للإنسان ، ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة .

متابعة جولييان لكلامه :

ثم يضيف هذا الفيلسوف البيولوجي قائلاً : «وبالقضاء على النظم الدينية والخلقية والسياسية القديمة أصبح الإنسان في حاجة ملحة إلى نظام من القيم والمثل العليا جديد ، وهذا ما يدفعه حالياً إلى إعادة البحث بدقة أكثر في مركزه البيولوجي ، وتبقى الحقيقة ، يقول : إن البندول يميل ، يميل مرة أخرى للتمييز بين الإنسان والحيوان بعد نظرية البيولوجيين التطوريين ، إذ لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً ؛ لأن هذا واقع لا مفر منه ، ولكنه على الأقل بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً .

المبدأ العام في تأسيس القيم الأخلاقية :

من الحق أن يتساءل الإنسان بعد هذه الإمامة بالتطورات العامة عن الإنسان في الفكر الأوروبي ، من حقه أن يتساءل عن المبدأ العام الذي يرجع

إليه الإنسان في تأسيس كل قيمة أخلاقية ، أو قيمة ما يستهدفه الإنسان في حياته ، إذا كان هذا الإنسان مجرد حيوان غريب ألقت به صدفة التطور على قمة حشد هائل من الكائنات الحية ، فأى كرامة للإنسان في ظل هذا الصراع البيولوجي المتطور سوى ما يؤهله إليه نمو مخه وفعالياته البيولوجية؟! ألا يتبادر إلى الذهن حينئذ أن الكرامة التي يزعمها الإنسان لنفسه مجرد ادعاء لتعويض الشعور بعث الوجود وتفاهته ، وأن ما يؤسس على هذه الكرامة المصطنعة من حقوق طبيعية وسياسية واجتماعية ، ليست سوى قانون للعبة اجتماعية أو لعبة وجود عابر ليس بعده مصير أو بقاء أو جزاء .

إن حصيلة الفكر الغربي في المجال الأخلاقي تجعلنا نستنتج أسباب الحيرة التي يتخبط فيها الفكر الغربي ، وما أفرزته هذه الحيرة من تدهور أخلاقي ، وتعاसे نفسية ، وتناقض مفرع بين التقدم المادي والتكنولوجيا من جهة ، والتدهور الأخلاقي والسلوكي من جهة أخرى .

أثر العقيدة في التفريق بين فكر الإنسان المسلم والكافر:

إذا كان الإنسان الغربي يعجز عن الفصل بين تقدمه وتدهور أخلاقه باعتباره يعيش تجربة تاريخية يتفاعل مع سلبياتها وإيجابياتها ، بل ويعجز عن إيقاف جدلية التقدم والتدهور في مسيرها المختل ؛ فإن الإنسان المسلم بحكم كونه عاش تجربة تاريخية مختلفة يستطيع الفصل بين أسباب التقدم وعوامل التدهور بفضل عقيدته ، وبفضل هدي قرآنه الكريم الذي هو خطاب للإنسان في كل زمان ومكان .

في الحقيقة إن الفرق بين التصورين اللذين للغرب أو العالم الإسلامي عن الإنسان هو مفرق الطرق بين الحركتين التاريخيتين ، الإسلام ، والغرب ،

بل هنا موضع التقاطع بين الحضارة الإسلامية والغربية ، اعتمادا على ما لكل منهما من منظور خاص للإنسان .

كيفية تحديد المنظور الإسلامي للإنسان :

لكي نحدد منظور الإسلام للإنسان ، علينا أن نعود إلى القرآن ، لا باعتباره - وحسب - كتاب هداية وتشريع ، ولكن باعتباره كذلك علما مطلقا ، خاطب الإنسان في كل زمان ومكان ، من خارج قدراته العقلية والطبيعية . قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦] .

دواعي الخطاب القرآني في عصر النزول وفي عصرنا :

نعود إذن إلى القرآن لنجده يخاطب عصرنا بنفس الدواعي حين خاطب إنسان عصر النزول ، بل دواعي الخطاب في عصرنا هي أشد من دواعي الخطاب في أي عصر من العصور السالفة ، لماذا؟ لأن تلك العصور لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه من الوجود ، ولا عن مصدر قيم هذا الوجود كما أجبنا عصرنا إلى البحث والتفاعل ؛ لأنه لم يكن في القرون السالفة من تطور المعارف وارتقاء العلوم والاكتشافات بهذا القدر الهائل الذي كان من نتائجه السلبية أنه ضيع وحدة الفكر الإنساني ، ولم تكن القرون السالفة من الحيرة والشك في حقائق الدين الإلهي والاعتزاز بالعقل بمثل ما نحن عليه اليوم .

حاجة عصرنا إلى الخطاب الإلهي:

وأخيرا وليس آخرا: فإن عصرنا هو كما وصف أحد المفكرين الأوروبيين، عصر ضياع الإنسان وسط قطيعه. فالحياة العقلية والروحية لإنسان الغرب تجري كلها في قنوات المنظمات والسلطات والجماعات والعصاة، والكتل والقوى التي تملك وحدها حق إنتاج الخطاب ووسائل الخطاب. وهكذا تضائل معنى الحرية الإنسانية إلى حد يستحيل معه على الإنسان أن يحقق أو يطمع في تحقيق استقلال نفسه، أو مواجهة الجمهور بما يعتقده الجمهور، فحاجة عصرنا إذن إلى الخطاب الإلهي الذي يعلو على كل رأي ومذهب، ويصحح النظرة الإنسانية من خارج دوافعها وإدراكاتها النسبية، ويقوم السلوك ويشفي الصدور، ويبدد الأهواء، أكبر من كل حاجة عرفها الإنسان.

وبهذا العموم والشمول اللذين في القرآن أو في منهج القرآن كان القرآن وسيظل خطابا لكل زمان ومكان ما دامت هناك أوضاع إنسانية مخالفة للمنهج الذي دعا إليه في العقيدة والسلوك.

ما يتضمنه المنهج القرآني للتصحيح:

لقد تضمن القرآن منهجا كلياً للتصحيح بمعنيين:

المعنى الأول: إنه حمل منهجا شاملا لكل أوضاع الإنسان في حياته العقلية والنفسية والاجتماعية باعتبار الإنسان فردا، وباعتباره جماعة، وباعتباره ذاتا وروحاً تبحث عن مستقر لها، وباعتباره مادة وغرائز تبحث عن مقومات بقائها، وباعتباره حاكما يملك السلطة، وباعتباره محكوماً ينقاد لتلك السلطة.

المعنى الثاني: إنه اهتم بالكليات في تلك الأوضاع لا بالجزئيات، ونفذ إلى جوهر الحياة الإنسانية في مواقفها وأوضاعها، ولم يقف على متغيراتها التي

تتبدل حسب العصور . لذلك خاطب القرآن جميع معتقدات عصره وجميع الأهواء والنزعات المتواجدة في ذلك العصر : المؤهلة منها والمنكرة للألوهية ، النازعة نزوعاً روحياً مغالياً ومتطرفاً ، أو النازعة نزوعاً مادياً مغالياً متطرفاً .

خاطب القرآن الكريم كل هذه الجماعات خطاب من يرد الجميع إلى أصول الأشياء ، وإلى النظر نظرة البداهة والفطرة والعقل السليم ، داعياً منذ البداية إلى الاستدلال بالظاهر على الباطن ، وبالمتغير على الثابت ، مستعملاً كل ضروب القياس العقلي ، الهادية إلى الحمد ، كقياس العلة وقياس الدلالة ، وقياس الشبه . ولذلك علم العقل وسدد نظره ، وانتهى به إلى تحديد طبيعة الإنسان الوجودية والوظيفية على حد سواء ، بل إن القرآن الكريم أضاء الظلمات التي كان يتخبط فيها الإنسان في العصر الجاهلي ، وحول الإنسان الذي كان يعيش جثة مشحونة بالغرائز إلى كائن يفتح عينيه على حقائق الوجود ، ويتحرر من القيود ، ويتطلع إلى الكمال ، ويستشرف الحق ، كل ذلك بفضل كون العقيدة التي جاء بها حددت للإنسان مكانته بعد أن كان مغيباً عنها ، وحددت له مسؤولياته بعد أن كان مقصي عنها ، وكرمه تكريماً أزلياً ووجودياً ، ثم اجتماعياً بعد أن كان خاضعاً لرقه الجسمي والروحي .

ما تضمنه القرآن عن حقيقة الإنسان :

ماذا تضمن القرآن عن حقيقة الإنسان؟ تحدث القرآن عن الإنسان في معارض كثيرة ، فكشف لنا عن حقائق متعددة تتعلق بإيجاده وبطبيعته وبمصيره وبغرائزه ومؤهلاته ، وبمكابدته وصراعه ، وبعثه وحسابه ، أي إن القرآن صور لنا رحلة الإنسان من مبدئه إلى معاده ، فقال : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ [الأعراف: ١٠، ١١]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَكَ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴿٢٢﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١-٤].

حقائق أربع تضمنتها الآيات السابقة:

تلفت نظرنا في الآيات السالفة الذكر أربع حقائق، من بين حقائقها الكثيرة:

الحقيقة الأولى: كون الإنسان قد خلق بإرادة خالقه من طبيعة مزدوج فيها المادة والروح.

ثاني تلك الحقائق: كون هذا الإنسان قد مكن له في الأرض تمكيناً يتيح له الارتقاء بكل شيء في الأرض والطبيعة، لجعل حياته أسعد وأرقى.

ثالث تلك الحقائق: تأهيل الإنسان بمؤهلات وأسباب تجعله متمكناً من التصرف في الكون الطبيعي، وفي مقدمة تلك المؤهلات العقل والبيان.

رابع تلك الحقائق: إن في هذا الوجود المحيط بالإنسان قوة امتثلت لأمر الله، للانقياد للإنسان في خدمته هم الملائكة، وفيه قوة ظلت متأبية متمردة تناور الإنسان وترصد له، وأن الإنسان واقع بين القوتين اختباراً وابتلاء.

وفي ظل الحقائق الثلاث الأولى يعيش الإنسان في كونه متكامل قواه ، وتتظافر على إسعاد الإنسان وتحقيق أغراضه ، وأنه ليس بينه وبين عالمه أي تناقض أو صراع ، كما أنه لا مكان في هذا العالم للصدفة أو العبث ، أما في ظل الحقيقة الرابعة فيعيش الإنسان في ابتلاء بين الخير والشر النابعين من طبيعته المزدوجة ومن وجود قوى جاذبة لكل من المادة والروح .

حديث القرآن عن الغاية من خلق الإنسان :

أما عن الغاية من خلق الإنسان فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وأن هذا الخلق من ورائه حكمة ، حكمة تعم خلق الكون كله ، بحيث لم يكن هذا الكون حادثاً بالمصادفة ولا وجد عبثاً ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلَاءَ تَتَذَكَّرُ مِنْهُ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦ ، ١٧] .

حديث القرآن عن مصير الإنسان :

وعن مصير الإنسان ومعهاده يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] . ويقول تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ [النجم : ٣٩-٤١] . وبهذا تكون الحياة الإنسانية على خلاف التصور الغربي ، حياة هادفة ، وجدت لحكمة وتسير نحو غاية مرسومة ، وللإنسان فيها سعي منظور إليه ، مجزي عليه ، محض إلى نعيم مقيم أو عذاب مهين .

حديث القرآن عن حقيقة التكليف والمسئولية :

لكن أهم حقيقة يبرزها القرآن عن الإنسان هي كون هذا الإنسان قد

جعله الله مكلفاً أو كائناً مسئولاً ، وهذا يعني أن الإنسان ينطوي على هدف من إيجاده ، وعلى مسئولية ينهض بها في حياته ، فيسعد بها أو يشقى وكل ذلك لا يمكن أن يتصور إلا في نظام قائم على الحق والعدل . ويشهد بهذا النظام الكوني الإنسان نفسه ، عندما يبلغ شأواً بعيداً في العلم ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

ومن هذا الأصل الكوني الشامل القائم على القسط ، يستمد الإنسان كل قيم وجوده بالكرامة ، والمسئولية ، والحرية ، والالتزام . ومن مجموع ذلك يتكون معنى التكليف ، فقد عبر عنه القرآن بالأمانة ، ومن أجل تلك الأمانة يوصف الإنسان بالعدل إن نهض بها ، والجور إن حاد عنها ، ويوصف بالعلم إن علمها ، وبالجهل إن جهلها ، ويوصف بالخير إن حققها ، وبالشر إن خانها ، ويوصف بالفوز والسعادة إن انتهى إلى ثوابها ، وبالشقاء والإجرام إن استحق العقاب الأبدي على التكر لها . قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة هنا في أعم معانيها هي التكليف ، وكل ما قاله المفسرون ينتهي لا محالة إلى تصور مؤتمن ومؤتمن ومؤتمن عليه ، أي سائل ومسئول ، ومسئولية .

أنواع التكليف المترتب على الائتمان :

هذا الائتمان يؤول إلى تكليف الإنسان ، إما بالطاعة كما قالت طائفة من المفسرين ، وما في معنى الطاعة من ضروب العبادات ، وإما بالإقرار بدلائل الوحداية ، الألوهية والربوبية ، كما قالت طائفة أخرى من المفسرين ، وإما

بالالتزام بكل أخلاق الوفاء ، والالتزام على الحقوق الإنسانية والإنصاف في الحكم كما قالت طائفة ثالثة ، وإما بالقيام بتبعية العقل في التمييز والاستدلال والنظر ، ونصرة الحق على الباطل كما قالت فئة رابعة ، وإما هو التكليف بالخلافة ، خلافة الله في الأرض وتعميرها وتدبير المعاش ، وتهيئة المجال لحياة أفضل كما قالت فئة خامسة .

دلالة وصف الإنسان في الآية بالظلم والجهل :

إنما وصف الإنسان في الآية بكونه ظلوما ؛ لأنه وحده يتعدى الحدود ، وهو يعلم تلك الحدود ، ويجترئ على الباطل وهو يعلم أنه باطل ، ليسوغ لنفسه ما لا يسوغه حق أو عدل أو قانون . وإنما وصف الإنسان في الآية بكونه جهولا ؛ لأنه يتعدى تلك الحدود ويجهل أنه يتعدها ، أو لأنه مطالب بأن يعرف تلك الحدود قبل أن يسلكها ، ولكنه كثيرا ما يتصرف عن جهل ، ويجهل أنه يجهل .

ما يقتضيه التكليف من أمور :

الإنسان في القرآن ، مسئول أو مكلف ، ويقتضي هذا التكليف كونه مستعدا من حيث فطرته وملكاته وقواه لتحمل أعباء التكليف ، ولشروط التكليف الجمع بين شرطي الحرية والالتزام ، فلا يتصور في الكائن الإنساني من منظور القرآن حرية غير مقيدة ، كما لا يتصور فيه التزام غير مدعوم بالحرية ، حرية التصرف والسلوك .

فالتكليف الذي هو ميزة الإنسان بين جميع الكائنات مؤسس على قاعدة التأهيل الوجودي لممارسة ما حباه الله به من مؤهلات وقوى عقلية . وإلى هذه القوة العقلية والنفسية الهائلة وقعت الإشارة في معرض المقارنة بين

طبيعة الإنسان التي تحملت الأمانة بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها ، وهي ما هي من العظمة والشدة ، وترامي الأبعاد ، بحيث يبدو الإنسان إزاءها من حيث الحجم والهيئة ذرة ضائعة في أبعادها ، ولكن المؤهلات العظمى للإنسان ليست بالحجم ولا بالكثافة ولا بالقوة المادية اللامتناهية كما في الأرض والجبال وما في معناهما ، وإنما هي قوى عقلية ووجدانية قابلة لكل كمال .

وجماع هذه القوى هو الذي يحقق معنى التكريم الشامل المنصوص عليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان :

يمكن تفصيل هذا التكريم الإلهي للإنسان في أربعة مظاهر كبرى ، وهي :

أولاً : التكريم بالإيجاد في أحسن تقويم .

ثانيها : التكريم بتسخير الكون الطبيعي للإنسان .

ثالثها : التكريم بالعقل والبيان .

رابعها : التكريم بالخطاب الإلهي ببعثة الرسل لإنزال الكتب السماوية .

المظهر الأول للتكريم :

المظهر الأول في التكريم هو الإيجاد في أحسن تقويم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ١-٤] .

المظهر الثاني للتكريم:

هذا التكريم معبر عنه في أكثر من آية ، منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] الآية . والمراد بالخلافة في الأرض عند المحققين ، الخلافة في العالم الطبيعي ، أي عالم الكون والنشوء والارتقاء والتطور ، حسب سنن الله في خلقه ، فالإنسان بحكم مؤهلاته العقلية وقواه الطبيعية يقوم في العالم الأرضي بعمارة الأرض ، وسياسة الاجتماع ، وحفظ النوع الإنساني ، واستيفاء حاجات صلاحه في المبدأ والمعاد .

والخلافة هنا معناها كما يرى العارفون ، كون الإنسان وسطا بين العالم العلوي وبين العالم السفلي المادي ، فهو يستمد من العالم العلوي ما يفيضه عليه هذا العالم من معارف وهداية ومدد رباني ، وهو بدوره أي الإنسان يفيض على العالم المادي ما ينتظم به صلاحه وارتقاؤه . وبطبيعة الحال لا يمكن التوسط بين عالم روحاني محض ، وعالم مادي محض إلا بمتوسط مركب من الطبيعتين ، قابل على التجرد من ناحية ، والتلقي من الأعلى من ناحية ، وقابل من ناحية أخرى على التحكم والتواصل مع الأدنى ، وهذه طبيعة الإنسان المزدوجة التي تبلغ كما لها الأعلى في شخصية النبي ﷺ وكل نبي من الأنبياء ؛ لأنه تجتمع فيه الكمالات الروحية والمادية .

المظهر الثالث من مظاهر التكريم:

أما تأهيل الإنسان بالعقل والبيان أو النطق والإبلاغ ، فهو الأمر الجامع لخصوصيات الوعي والتعبير عن الوعي . وإذا تعمقنا دلالة البيان أو اللغة التي يقوم عليها المعنى الأساسي للتكريم ، وجدنا أن البيان هو الخيط

الرابط بين كل أجزاء الوجود ، فوجود الأشياء في حد ذاتها كون أو وجود موضوعي ، ووعي الإنسان لذلك الوجود الموضوعي ووعي ذاتي مستقل ، واللغة هي الوصلة بين الموضوعي والذاتي ، ووجود الإنسان في حد ذاته كون مستقل عن سائر الأفراد وغيرهم . وغيره من الأفراد هم أيضا ذوات مستقلة لها نفس الاستقلال ، واللغة هي الرابطة بين هؤلاء الأفراد ، وأشياء الوجود كلها في تناحر وانعزال بعضها عن بعض ، واللغة هي واسطة التثامها وانتظامها في الوعي .

وأخيراً فإن الوجود الإنساني بكل تجاربه ومعقولاته ومكاسبه لا يتحقق إلا في زمان أو أزمنة متنافرة ، يستقل بعضها عن بعض ، واللغة هي الوصلة بين تلك الأزمان ، إنها ذاكرة الذاكرة ، فاللغة بهذه المعاني كلها تعادل الوجود ، وتعادل ووعي الوجود ، ولولاها لكان الإنسان ذرة ضائعة لا صلة لها بشيء ، ولا صلة لشيء بها كما هو شأن الحيوان ، ولهذا ورد في القرآن التعريف بأعظم المنن الإلهية على الإنسان ، وهي أنه عندما أوجده الله تعالى قرن إيجاده بالبيان فقال تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ ۝﴾ [الرحمن : ١-٤] .

وأعظم ما ينطوي عليه البيان الذي امتن به الله على الإنسان هو كونه مصدر تلقي خطاب ربه ، فبفضل ما أعطى الله الإنسان من بيان علمه إياه ، هياه للبيان الإلهي ، وهذا ما يفضي بنا إلى النمط الرابع من أنماط التكريم . وهو التكريم بخطاب الله تعالى .

المظهر الرابع من مظاهر التكريم :

المظهر الذي أنتهي إليه هو أن خطاب القرآن هو أعظم تكريم للإنسان ،

يتجلى حقيقة في خطاب الخالق جل وعلا إلى هذا المخلوق من خلال الكتب السماوية المنزلة ، ومن خلال الشرائع الإلهية التي حملها طائفة من الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى أقوامهم ، وهو تكريم يشعر الإنسان مرة أخرى بأنه لم يخلق عبثا ولا ترك هملا ، وإنما خلق للقيام برسالة ، وأعين على ذلك بالعقل الغريزي ، ثم بالعقل المستفاد من المعارف ، والعلوم ثم بالعقل الاستدلالي الجامع بين عالم الغيب والشهادة ، ثم أعين بالوحي فيما لا سبيل لإدراكه بالعقل ، حين اصطفى الله لرسالته رسلا من الملائكة ومن الناس ، قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءِيتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٣٥، ٣٦] .

ثم ختم الرسالات والكتب السماوية بالرسالة المحمدية ، وبالخطاب القرآني ، وبخطاب القرآن للإنسان ، واستمرار هذا الخطاب محفوظا ، وبقائه متلوا متدارسا ، متعبدا بتلاوته ، متجدد العطاء والتوجيه والإرشاد في كل قراءة ، متجدد الإجابة عن كل مسألة ، لم تبق ضرورة باستمرار بعثة الرسل ، فختمت الرسالات بالرسالة المحمدية ، وتجلي معنى ختم الرسالة بحضور القرآن المستمر عبر التاريخ ، وبجعل الإنسان مسئولا عن نفسه بعد تحريره من كل قيد يكبل إرادته ، أو يحجب عنه الحق .

دور القرآن في تحرير العقل وتكريم الإنسان :

القرآن قد خاطب العقل ، وجعله قيما بالحياة بعد الوحي ، فأنكر على العقل التجديد بغير علم ، وأنكر عليه التبعية للسلطة الجائرة ، وأنكر عليه الصمت على الظلم والفساد ، وأنكر عليه الاستسلام للأقوياء بغير حق ، وأنكر عليه الخضوع لغير خالقه ، ذلكم هو تحرير الإنسان في الإسلام ،

تحريرًا لا يتقيد فيه بغير قيم الدين وحدوده ، وهو في الوقت نفسه تكريمه من عدة نواحٍ كما رأينا .

وأعظم هذه النواحي هي خطاب القرآن نفسه ، وخطاب القرآن للإنسان هو خطاب الله تعالى خالق الإنسان للإنسان بكلامه الأزلي الذي انتظمت به سنن السماء والأرض ومن فيهن . ففي مجرد خطابه تعالى تكريم ، وفي مضمون ما جاء به تكريم ، وفي جعل الإنسان قادرًا على تلقيه وإدراك مقاصده تكريم . ولذلك رد القرآن على منكري نبوة محمد ﷺ حين طالبوا بآياتهم الخارقة للعادة تثبت هذه النبوة ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] .

بعض خصائص المعجزة القرآنية:

في هذه الآية إشارة إلى مزايا أساسية في المعجزة القرآنية تنفرد بها بين جميع المعجزات ، أريد أن أختم بها .

الخصيصة الأولى :

إن القرآن يتلى ، وتتجدد تلاوته ، فينتشر إعجازه والخبر به ، والانتفاع بهديه ، عبر الأزمنة والأمكنة ، بغير انقطاع أو حاجز بينه وبين بني الإنسان .

الخصيصة الثانية :

أنه يتلى ، فيتدبر وتعقل معانيه ، ويعرض على العقول عرضا ، وتسمعه الأذان ، وتعيه القلوب ، فهو تكريم للإنسان من حيث هو كائن عاقل ،

يخاطب فيه أشرف ما فيه ، وهو العقل والقلب ، ولا يكتفي بخطاب حسه وحواسه ، كما في المعجزات السابقة .

الخصيصة الثالثة :

إنه رحمة سابغة ، وهداية شاملة ، فهو إلى جانب كونه معجزة دالة على الصدق ، رحمة متضمنة للشريعة العادلة ، والأخلاق اللائقة ، والتكريم الفعلي للإنسان بمضمون خطابه تعالى .

الخصيصة الرابعة :

إنه كتاب متلو ، وفيه حض لكل مسلم ضمناً على أن يرقى بالتعلم لقراءة القرآن وتلاوته ، فكأن معجزة القرآن تحمل أمة الإسلام على أن تبرأ كلها من معرة الأمية منذ أول يوم نزل فيه خطاب الله تبارك تعالى للإنسان ، ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] . هكذا خاطب الحق تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ في أول ما نزل من الوحي ، وهي آيات خمس تتضمن حقائق عالية .



المحاضرة السادسة والثلاثون بعد المائتين دية المرأة في الإسلام

تمهيد:

الحمد لله العزيز الحكيم ، الحكيم في خلقه وأمره فلم يخلق شيئاً عبثاً ، ولم يتركه سدى ، سبحانه وتعالى ، وأصلي وأسلم على محمد ﷺ وبعد :

فإن حكمة الله ﷻ في تشريعاته تتجلى للعارفين من عباده ، وقد تخفى على كثير من الناس ، لكن يجب أن يعلم كل مسلم أن أوامر الله وتشريعاته لا بد أن تنطوي على حكم معينة علمها من علمها وجهلها من جهلها ، وواجب المسلمين تجاه ذلك أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، كل من عند ربنا الحكيم العليم .

موضوع الدرس :

اليوم نتحدث عن أمر تتجلى فيه حكمة التشريع أمام أهل العلم ، لكنها تخفى على كثير من الناس ، ألا وهو الحديث عن دية المرأة في النفس أو الأعضاء ، إذا وقعت على المرأة جناية بطريق الخطأ .

لقد ميزت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية بين العمد والخطأ في الجناية على النفس البشرية ، أو على ما دون النفس من أعضاء الجسم الإنساني ، وقد جاء الإسلام بشرعة القصاص في جناية العمد العدوانى ، أما في حالة الخطأ فقد أوجب الدية ، وهي مقدار محدد من المال .

فما مقدارها الشرعي؟ وهل من فرق بين الرجل والمرأة؟

إن القرآن العظيم قد أمر بأداء الدية في جناية الخطأ على النفس ولم يبين مقدارها ، وذلك في قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ [النساء : ٩٢] .

وكالعادة في مجملات القرآن ، قد بين رسول الله ﷺ مقدار الدية الواجبة تفصيلا ، كما ثبت أيضا عنه ﷺ أن الدية يختلف مقدارها بين الرجل والمرأة .

مقدار الدية في الجناية على النفس :

أولاً : دية الرجل الحر عن النفس ، ثبت عنه ﷺ أنه قدر دية الرجل الحر المسلم بمائة من الإبل ، متفاوتة الأسنان والأوصاف . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كانت الديات على عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار من الذهب ، أو ثمانية آلاف درهم من الورق (أي الفضة) أي بمعدل عشرة دراهم لكل دينار . وروى ابن أبي شيبة عن عطاء أن رسول الله ﷺ وضع الدية على الناس في أموالهم ، فوضع على أهل الإبل مائة بعير ، وعلى أهل الشاة ألفي شاة من الغنم ، وعلى أهل البقر مائتي بقرة ، وعلى أهل البرود (أي تجار الملابس) مائتي حلة . ومعروف أن الحلة قطعتان : إزار ورداء .

وقد فصل المحدثون والفقهاء هذا التنوع فيما يؤدى من الأموال عن الدية بأنه إنما كان لتسهيل الأداء على المكلف ، فالجاني من أهل البادية أهون عليه أداء الإبل ، ومن أهل الفلاحة والزراعة أهون عليه أداء الغنم والبقر ، ومن أهل الحواضر والتجارة أهون عليه أداء الدراهم أو الحلل .

هذا -إجمالاً- ما يتعلق بدية الرجل في الجناية على النفس .

دية الرجل عما دون النفس:

إن الجناية على ما دون النفس من أجزاء الجسم الإنساني أو أعضائه ذات صور كثيرة، ودية العضو تسمى: أرشا. وفي الأرش الواجب عنها على الجاني تفصيل يطول شرحه بحسب نوع الجناية، وبعض ذلك التفصيل في دية ما دون النفس وارد في السنة النبوية، وبعضه قرره الفقهاء من الصحابة فمن بعدهم بطريق الاجتهاد والقياس، وكل ذلك التفصيل الطويل في الصور الكثيرة لا محل له في نطاق موضوعنا هذا، ولكن لا بد من عرض بعضه بإجمال، في طريق الوصول إلى المحطة المقصودة في موضوعنا: دية المرأة.

الدية في الأعضاء البشرية:

سبق في السنة النبوية بشأن جناية الخطأ على ما دون النفس، أن العضو الفريد في جسم الإنسان، كاللسان والأنف، فيه دية نفس كاملة. وأن العضو المزدوج كاليد والرجل والعين، فيه نصف دية النفس، وأن في كل أصبع من أصابع اليدين: عشر الدية (أي عشر من الإبل).

وهذا قد تبناه جمهور المحدثين والفقهاء إجمالاً، ونقول هنا: إجمالاً؛ لأن هناك اختلافات فرعية اجتهادية في الآراء والفتاوى بسبب اختلاف حالة العضو وموقعه ودرجة تأثيره، وضرر فقدته من جسم الإنسان. فحاجبا الرجل وثدياه ليسا كحاجبي المرأة وثدييها، والشفة السفلى أهم من العليا، ولسان الأخرس ليس كلسان الناطق، واليد الشلاء ليست كالسليمة، والإبهام من الأصابع ليس كالخنصر، وعين الأعور إذا فقئت بخطأ ليست كإحدى عيني سواه، إلى غير ذلك من حالات وصور كثيرة، فاختلقت الآراء الاجتهادية في نسبة حصة بعض الأعضاء، أو بعض الحالات من الدية الكاملة.

وكل تلك الحالات التفصيلية التي تناولها بعض الفقهاء التابعين ، ثم أئمة المذاهب الفقهية ، لم يأت عنها في السنة النبوية شيء ، فكان لا بد فيها من الاجتهاد ، ومن اختلاف الآراء في بعضها . وهذا كله بالنسبة إلى دية الرجال . فماذا عنه بالنسبة إلى المرأة؟ وهو الجانب المقصود بموضوعنا هذا .

دية المرأة:

في موضوع دية المرأة تواجهنا أيضا حالتان :

الأولى : دية نفسها إذا قتلت بخطأ .

والثانية : دية ما دون نفسها من الأعضاء وأجزاء البدن .

الحالة الأولى دية المرأة عن النفس : إن جمهور الصحابة والتابعين وعلماء الأمة من أهل الحديث والفقهاء مجمعون على أن دية المرأة إذا قتلت بخطأ هي نصف دية الرجل .

دية المرأة نصف دية الرجل ودليل ذلك:

مستندهم جميعا في ذلك : حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «دية المرأة نصف دية الرجل»^(١) .

وقال ابن رشد في «بداية المجتهد» : إنهم اتفقوا في دية المرأة أنها على النصف من دية الرجل في النفس فقط ، واختلفوا فيما دون النفس .

شبهة علمانية خبيثة:

أقول : وقد أصبحت هذه القضية ، أعني نقصان دية المرأة عن دية الرجل

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٨ / ٩٥) .

بقدر النصف في حكم الشريعة الإسلامية تثير في عصرنا الحاضر نوعاً من الحساسية في الأوساط التي ترفع شعار التقدمية، بعد أن أصبحت المرأة تزاحم الرجل بمنكب ضخمة في مختلف المجالات والميادين: في الجامعات طالبة وأستاذة، وفي جميع الوظائف العامة في الدولة، وفي المحاماة القانونية أمام القضاء، وفي المجالس النيابية والوزارات، بل وفي رئاسة الدولة، وكل ميدان آخر.

وهنا يتساءلون: هل المرأة في نظر الإسلام نصف إنسان حتى تكون ديتها نصف دية الرجل، ونحن في القرن الحادي والعشرين، وقد خصصت المنظمات الدولية عامًا خاصًا أسمته عام المرأة، تقديرًا لمكانتها وإنصافًا لها؟

وهكذا يتجاهلون كل ما جاء به الإسلام من إنصاف للمرأة، ومن إحياء لحقوقها التي كانت قبله ممتدة، ومن حفاظ على كرامتها وحماية لها، ويستنكرون أن تكون ديتها نصف دية الرجل.

موقف فريد:

بهذه المناسبة أذكر أنه لما أراد الرئيس الباكستاني السيد ضياء الحق رَحِمَهُ اللهُ، إصدار قانون للقصاص والديات وفقًا لأحكام الإسلام، ووضع مشروع القانون، وجاء فيه أن دية المرأة نصف دية الرجل، قام في وجهه فئات التقدميين من بعض وزرائه، ومن رجال القانون والجامعيين، والقيادات النسائية، فاستدعى بعض فقهاء الشريعة وقاموا بمناقشتهم، فاقنعوا جميعًا بحكمة ما جاءت به الشريعة الإسلامية وعدالتها في ذلك، وكانت القيادات النسائية نفسها في طليعة المقتنعين، بعد أن أوضحوا لهم. وقد أثبتنا النقاط التالية التي كانت غائبة عن أذهانهم:

دحض الشبهة السابقة والرد عليها:

النقطة الأولى: أن قضية الدية المالية ليست مشروعة في القتل الإجرامي المتعمد، وإنما هي محصورة في قتل الخطأ الذي انتفت منه فكرة التعدي على الروح الإنسانية، وقد يكون الفاعل المخطئ أكثر ألماً وأسفاً لما حصل منه دون قصد إجرامي. فقد تقتل الأم طفلها الوحيد إذا غلبها النوم، وهو بجانبها ترضعه فانقلبت عليه واختنق، ثم تطوي عمرها حزينة عليه.

النقطة الثانية: أن الدية الشرعية ليست عقوبة زاجرة، وإنما هي تعويض عن الضرر المادي الذي لحق بآل القتل؛ لأن المخطئ هو الأولى بأن يتحمل هذا التعويض ولو كان حسن النية.

ومبدأ التعويض هذا تقوم عليه نظم العالم المتمدن أجمع، في كل ضرر في الأنفس أو الأموال نشأ من خطأ غير مقبول.

ومن قواعد هذا الخطأ ومسلماته أن التعويض في كل فعل ضار يجب أن يكون بقدر الضرر المباشر الحاصل للمتضرر.

الناحية العقلية:

انطلاقاً من هذا المبدأ، وخلال المناقشات في باكستان، حول مشروع قانون القصاص والديات، طرح على جميع الفئات السؤال التالي:

هل في واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية في جميع البلاد حتى في أمريكا وأوروبا، في الحالات العادية بوجه عام من الناحية المادية يكون ضرر الأسرة بفقد ربها هو الضرر الأكبر، أو بفقد ربتهما؟

فكان الجواب من جميع الفئات أن فقدان رب الأسرة هو الأعظم ضرراً

عليها ، حتى في البلاد التي يتساوي فيها الرجل والمرأة في جميع الحقوق والميادين ، ذلك لأن النشاط العملي والاكتسابي من رب الأسرة ، ومردوده عليها يبقى ، فهو العضو الأساسي ، وعماد الخيمة في حياة الأسرة .

مناقشة سلفية طريفة:

في هذا المقام تروى مناقشة طريفة بين سعيد بن المسيب وربيعه بن أبي عبد الرحمن ، رواها مالك رحمته الله في «الموطأ» ، ونقلها ابن رشد في «بداية المجتهد» ، كما نقلتها كتب التراجم ، وقد جاء في كتاب العقول وهي الديات من «الموطأ» تحت عنوان : «ما جاء في عقل الأصابع» . ما يلي :

عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، أنه قال : سألت سعيد بن المسيب : كم في إصبع المرأة؟ فقال : عشر من الإبل ، فقلت : كم في أصبعين؟ قال : عشرون من الإبل ، فقلت : كم في ثلاث؟ فقال : ثلاثون من الإبل ، فقلت : كم في أربع؟ قال : عشرون من الإبل ، فقلت : أحيان عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها؟! أي ديتها ، فقال سعيد : أعراقي أنت؟ فقلت : بل عالم متثبت ، أو جاهل متعلم ، فقال سعيد : هي السنة يا ابن أخي .

أقول : سنرى قريبا تعليق الإمام الشافعي على قول سعيد : هي السنة . ويتجلى من هذه القصة مدى الغرابة التي تبدو في رأي هذا الفريق الأول من أئمة العلم في هذا الموضوع .

فكيف يمكن أن يفهم أن تكون دية ثلاث أصابع ثلاثين من الإبل ، ودية أربع أصابع عشرين؟ فهذه الغرابة والتناقض في الحكم كان لهما تأثير واضح في موقف الفريق الثاني من هذا الحديث .

إزالة الإشكال واللبس:

الفريق الثاني من أئمة الفقه رأوا في حديث عمرو بن شعيب المذكور هذا حكماً غريباً مبيناً للمعقول، فإن زيادة ضرر الجناية تقتضي زيادة التعويض فيها لا خفضه، فالتمسوا المخرج من هذا الإشكال، فوجدوه في حديث معاذ رضي الله عنه عن دية المرأة: أنها نصف دية الرجل، فرأوا أنه عام يشمل دية النفس فما دونها، أو أنه يتناول دية نفس المرأة بلفظه، ودية ما دون نفسها بطريق القياس، ورأوه بذلك معارضاً لحديث عمرو بن شعيب الذي أوجب التساوي في الدية إلى حد الثلث وما أدنى إليه تطبيقه من حكم غريب فتركوه، وأخذوا بحديث معاذ وعمموه على دية النفس وما دونها. وبهذا أيضاً أخذ عمر وعلي رضي الله عنهما، وبهذا النظر أخذ أبو حنيفة، وبه أيضاً أخذ الشافعي في مذهبه الجديد، حيث رجع عن رأيه القديم الذي كان فيه مع الفريق الأول.

تعليق الشافعي على كلام ابن المسيب:

في هذا المقام يقول الإمام الشافعي رحمته الله معللاً رجوعه عن رأيه القديم، فيما أخرجه عنه البيهقي، وفيما رواه عنه صاحب «التلخيص»، ما نصه: يقول الشافعي:

إن قول سعيد بن المسيب: «إنه من السنة»، يشبه أن يكون معناه أنه وارد عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن عامة من أصحابه، ثم قال: وكان مالك أيضاً يذكر أنه السنة، وكنت أتابعه عليه، وفي نفسي منه شيء، ثم علمت أنه يريد -أي مالك رحمته الله- أنه سنة أهل المدينة، فرجعت عنه، والقياس أولى بنا في ذلك. انتهى كلام الشافعي في تعليل رجوعه عن رأيه القديم.

ولتأمل في قوله ﷺ : «وكنّت أتابعه ، وفي نفسي منه شيء» ، فإنه يشير إلى الغرابة الكبيرة في رأي الفريق الأول ، والنتيجة العجيبة التي أداها في دية أصابع المرأة ونحوها من الجراحات أن دية ثلاث أصابع ثلاثون من الإبل ، ودية أربع عشرون .

الفهم الصحيح لحديث عمرو بن شعيب أن هذا الحديث تضمن مساواة دية المرأة لدية الرجل حتى تبلغ الثلث من ديته ، لم يكن في ظاهره يثير مشكلة أو استغراباً ، لولا الأمثلة التطبيقية التي أوردتها من أخذوا به في دية أصابع المرأة .

فهم جديد يجمع بين النصوص :

إنني منذ دراستي الشرعية الأولى التي كان شأننا فيها التلقي عن شيوخنا ، والحفظ دون مناقشة ، كنت أستشكل في نفسي جواب ابن المسيب لربيع بن أبي عبد الرحمن أن دية ثلاث أصابع : ثلاثون من الإبل . ودية أربع أصابع من المرأة عشرون ، وكنّت ألوك ذلك في فكري فلا أسيغه ، ثم تعتريني خشية من قوله : إنه السنة ، فأصرف فكري عن الموضوع .

وإنني لذلك ، إذا بفكرة مفاجئة تنقذ في ذهني ، ويبدو لي في هذا الحديث النبوي الجليل معنى غير ما بينه السلف الأوائل ﷺ أجمعين ، وأيقنت من فوري أنه هو الفهم الصحيح لهذا الحديث ، وبه تتجلى حكمة ووجاهة ، بدلا من المشكلة التناقضية .

فالفكرة التي لاحت لي في معنى هذا الحديث هي : أن الدية فيما دون النفس يتساوي فيها الرجال والنساء إلى حد الثلث من دية النفس الكاملة ، فإذا كانت جناية الخطأ تزيد ديتها عن ثلث دية النفس ، فعندئذ تنصف دية

المرأة في القسم الزائد فقط ، ولا يسري التنصيف على الثلث الأول الذي وجب فيه التساوي بين الرجل والمرأة . أي إن التنصيف عندما يتجاوز الأرض ثلث الدية الكاملة عن النفس ، هذا التنصيف لا ينبغي أن يطبق بمفعول رجعي على الثلث الأول الذي حصل فيه التساوي ، فينقض هذا التساوي الذي أوجبه الحديث النبوي فيه ؛ إذ ليس في الحديث ما يدل على الرجعي ، وإنما أوحى به تفسير الرواة الأول ، وتمثيلهم التطبيقي .

وبهذا الفهم للحديث تظهر الحكمة في تساوي دية الجراحات بين المرأة والرجل إلى حد الثلث من الدية كاملة ، وحكمة تنصيف ما زاد عن ذلك ؛ لأن الدية تعويض عن الضرر كما سلف بيانه . فإن أثر الضرر في انعكاساته على حياة المجني عليه ونشاطه الاكتسابي لا يختلف بين الرجل والمرأة في الحدود الصغرى كالظفر والإصبع ، وإنما يتفاوت بينهما في الحدود الكبرى .

كلام الإمام الشوكاني عن الحديث:

وأخيراً ، وأنا أكتب هذا البحث ، خطر لي أن أرجع إلى الإمام الشوكاني في كتابه العظيم : «نيل الأوطار» لأرى ما فيه ، وأستعين بما ينقله ويستقصيه ، ولم أكن راجعته في هذا الموضوع من قبل ، لأنه لم يكن عندي ، فإذا بي أجده قد سبقني إلى هذا الفهم الجديد في حديث عمرو بن شعيب وانتقد الفهم التقليدي السابق ، ووجدته يقول عن دية المرأة ما نصه بالحرف الواحد : «لا يدل حديث عمرو بن شعيب إلا على أن أرشها (أي المرأة) في الثلث فما دون ، مثل أرش الرجل ، وليس في ذلك دليل على أنها إذا حصلت المجاوزة للثلث لزم تنصيف ما لم يجاوز الثلث ؛ فالأولى أن يحكم في

الجنايات المتعددة بمثل أرش الرجل في الثلث فما دون ، وبعد المجاوزة (أي مجاوزة الثلث) يحكم بتنصيف الزائد على الثلث فقط ، لئلا يقتحم الإنسان في مضيق مخالف للعدل والعقل والقياس بلا حجة نيرة» «نيل الأوطار» (ج ٧ ص ٢٢٦) .

كم ترك الأول للآخر!

أثلج صدري هذا الكلام منه ، وقويت ثقتي بما فهمته ، وزادت مكانة الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في نفسي ، وهو ممن يعتبرون معاصرين ، لقرب عهده منا ، ورددت المثل السائل : كم ترك الأول للآخر . وأنشدت قول القائل :

قل لمن لا يرى للمعاصر شيئا ويرى للمقدم التقديما
إن ذاك القديم كان حديثا وسيغدو هذا الحديث قديما
والحمد لله أولا وآخرا .

المحاضرة السابعة والثلاثون بعد المائتين

القرآن واللغة العربية

العربية لغة القرآن:

أقول بعون الله وتوفيقه ، قال الله تعالى : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨] . هذه الآية الكريمة هي إحدى آيات في كتاب الله ﷻ ، نص فيها المولى جل جلاله على عروبة القرآن ، ويجمع العلماء على أن معنى كون القرآن عربيا أنه نزل بلغة العرب ، نزل بهذه اللغة الشريفة الكريمة كما يقول أبو الفتح بن جني ، ذلك الإمام الكبير : نزل بها كما عرفت وبما فيها من الظواهر اللغوية ، استعملها القرآن ورقي بها إلى أن وصل بها إلى درجة الإعجاز ، فما في هذه اللغة من الظواهر مثل الذكر ، والحذف ، والتقديم ، والتأخير ، والإظهار والإضمار ، كلها استعملها القرآن استعمالا يعجز البشر في طريقة التركيب وطريقة المعنى الذي استعملت فيه .

ظاهرة الإعراب في القرآن الكريم والسنة:

من أظهر هذه الظواهر ظاهرة الإعراب ، تلك الظاهرة الدقيقة التي جاء القرآن بها ليدل على أن اللغة العربية لغة إعراب ، الإعراب فيها كان سليقة وسجية ، فجاء القرآن معربا غاية الإعراب ، والإعراب ظاهرة جليلة ، هي جمال في الكلام ، وهي كذلك تؤدي وظيفة جليلة في الفرق بين المعاني وبيان وظائف الكلام في الجمل ، ولكن الظاهرة التي تلفت النظر في الظواهر اللغوية التي استعملها القرآن هي ظاهرة الإيجاز ، ذلك الأسلوب الذي يعني عدم الإطالة في الكلام ، وعدم التوسع فيه والإطناب . والإيجاز والمساواة

من الظواهر اللغوية التي تدرس في البلاغة العربية ، ولكن القرآن استعمل أسلوب الإيجاز استعمالاً واسعاً ، واستعمالاً جيداً ممتازاً .

دليلها من السنة :

تلك الظاهرة دل عليها كلام الرسول ﷺ ، على أنه قد بعث بها ، وهو ما دل عليه هذا الحديث الشريف : « **وبعثت بجوامع الكلم** » ، هذا الحديث روي في صحاح السنة ، رواه الإمام البخاري . وأخرجه في ثلاثة كتب من « **صحيحه** » : في كتاب الجهاد ، وكتاب التعبير ، وكتاب الاعتصام . بهذا اللفظ : « **بعثت بجوامع الكلم** » . كما أخرجه الإمام مسلم في « **صحيحه** » ، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، وكلاهما أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو جزء من حديث في جميع رواياته ، وهو في رواية مسلم . يقول عليه الصلاة والسلام : « **فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، وأحلت لي الغنائم ، ونصرت بالرعب ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الناس كافة ، وختم بي الأنبياء** » .

معنى « جوامع الكلم » الواردة في الحديث :

هذا الحديث نفسه من جوامع الكلم ، فالرسول ﷺ عندما يقول : « **بعثت بجوامع الكلم** » ، كأنه يصف القرآن بالإيجاز ، وعدم الإكثار من الكلمات ، مع الاكتناز بالمعاني ، ولذلك اتفق العلماء على تفسير جوامع الكلم على أنه المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وهذا التفسير توارد عليه علماء الحديث وعلماء اللغة ، نجده في شروح كتب الصحاح ، ونجده أيضاً في المعاجم اللغوية ، كلهم يفسرونه هذا التفسير ، حتى إن الإمام البخاري نقله في « **الصحيح** » ، ونسبه إلى الزهري ، على أن المراد من جوامع

الكلم : أن يجمع الله الأمور الكثيرة التي كانت في الكتب قبل القرآن ، يجمعها في الأمر الواحد أو الأمرين أو نحو ذلك ، وفسرها كثير من العلماء بهذا التفسير ، والجمهور على أن المراد بجوامع الكلم في هذا الحديث هو القرآن ، جمهور العلماء على اختلاف تخصصاتهم يقولون : إن المراد من جوامع الكلم هو القرآن الكريم ، وهذا يصدق أيضا على كلام رسول الله ﷺ فقد كان من صفاته أن يتكلم بجوامع الكلم ، وله جوامع كلم كثيرة ، تحمل المعاني الغزيرة في الألفاظ القليلة ، وهذا معنى هذا التركيب .

دلالة قوله ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم » :

كأن الرسول ﷺ يشير لنا ، ويعلمنا أن الإيجاز هو الظاهرة الكبرى في القرآن الكريم ، وكأنه الوصف الشامل لجميع الظواهر اللغوية التي استعملها من لغة العرب ، فجعل هذه الجملة عنوانا لكتاب الله ﷻ ، ويكفيه أنه جعلها إحدى المزايا الست التي فضل بها على الأنبياء ، ولأن الله تبارك وتعالى أراد لنبيه أن تكون معجزته معجزة متلوة بلغة العرب ، معجزة خالدة ، هي القرآن الكريم ، الموصوف بالبلاغة العالية ، البالغة حد الإعجاز ، ولذلك هو جوامع كلم ، ويحوي المعاني الغزيرة في الألفاظ القليلة .

الدليل على أن جوامع الكلم هو القرآن :

يدل على أن المراد من هذا الحديث هو القرآن ، وأن المراد وصف إعجازه باعتباره جوامع كلم ، أن الإمام البخاري عندما أخرج الحديث في الباب الأخير باب الاعتصام ، أخرجه بعنوان : « باب : بعثت بجوامع الكلم » . وضم تحت هذا العنوان ، وذكر مع هذا الحديث المتفق عليه ، ذكر الحديث الآخر الذي ينص على أن معجزة النبي ﷺ هي القرآن ، قال عليه

الصلاة والسلام : «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» .

هذا واضح كل الوضوح بأن معجزة النبي العظيم هي القرآن ، هي جوامع الكلم ، هذا العنوان الذي أطلقه النبي ﷺ على القرآن .

معجزة القرآن معجزة عقلية خالدة:

هذه المعجزة هي معجزة عقلية خالدة ، لأنها متلوة ومستمرة الوجود ، وكونها من جوامع الكلم ، أو هي جوامع الكلم ، هذا يقوي كونها معجزة عقلية ؛ لأن جوامع الكلم التي تكتنز بالمعاني فيها من الدلالات العقلية ، وتحتاج إلى العقل المفكر المدبر المتدبر الذي يخرج تلك المعاني ، ويعيها ويفصلها ، فهي أدل وأوغل في الدلالة العقلية ، ومحتاجة أكثر من الكلام المسهب الطويل ، الذي يفهم بسهولة أو بسهولة أكثر ، مما يحتاج إليه الكلام القليل اللفظ المكتنز بالمعاني ، ولذلك فالرسول ﷺ اختلفت معجزته .

أغلب معجزات الأنبياء حسية:

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات» -من المعجزات- «ما مثله آمن» ، ما مثل معجزته تكون معجزة نافعة في وقتها وصالحة لوقتها ، وفيها دلالة على عجز البشر عن مثلها ؛ لأن أغلب معجزات الأنبياء هي معجزات حسية ، يخاطب بها ويلزم من يشاهدها ، وتكون في موضوع بارز في ثقافة ذلك العصر أو في علم ذلك العصر أو فيما جرت به العادة ، مثل معجزة موسى ، العصا التي انقلبت حية ، وتلقفت ما صنع السحرة ؛ لأن السحر والسحرة هم الظاهرة المتميزة في ذلك الحين ، وكذلك إحياء عيسى الموتى ،

وإبرأؤه الأكمه والأبرص ، كان الطب والأطباء في عصر عيسى هم الأكثر ، والطب هو الثقافة المسيطرة في المجتمع في ذلك الحين ، كان نوع المعجزة مما يعجز عنه البشر باعتبار أقوى الوسائل المتوفرة في ذلك الحين ، هذه معجزات تنفع في إقناع البشر في ذلك الحين أتباع الأنبياء السابقين .

ولكن معجزة محمد عليه الصلاة والسلام ، معجزة مستمرة ، لأنه أرسل للناس كافة ، كما جاء في الحديث السابق ، فمعجزته لا بد أن تكون خالدة ومستمرة ، فاقترضت حكمة الله ﷻ أن تكون قرآنا يتلى ، وأن تكون بلغة العرب ، هذه اللغة التي استعملها القرآن ، فكان استعماله إياها شهادة بقدرتها على التعبير عن هذه المعجزة الخالدة ، وتلك شهادة لا تعادها شهادة أخرى .

دليل عروبة القرآن الكريم:

دلت هذه المعجزة على عروبة القرآن أيضا ؛ لأنها معجزة مستمرة متلوة بهذه اللغة التي يعرفها العرب قبل أن ينزل كتاب الله ﷻ ، هذه الشهادة بعروبة القرآن نص عليها القرآن نفسه كما قلنا في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ قرءانا عربيا غير ذي عوج لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ [الزمر: ٢٧، ٢٨] ، فهو قرآن عربي غير ذي عوج ، مستقيما سليما خاليا من فساد النظم ، ومن الانحراف ، ومن التعارض ، ومن كل العيوب التي قد نلاحظها أو توجد بكثرة في كلام البشر ، فهو غير ذي عوج ، خاليا من كل عوج ، ولذلك استعمل القرآن غير ذي عوج ، ولم يستعمل كلمة معوج ، ليدل على أنه خال تماما من العوج .

وهناك آيات كثيرة أثبت فيها المولى جل وعلا عروبة كتابه بالنص ، كما أنه عندما أنزل الآيات في عروبة القرآن وإثباتها ، نفى أن يكون فيه لسان

غير عربي في آيتين من آيات الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وفي الآية الأخرى من سورة فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] هذا الاستفهام استفهام إنكاري، ومعناه أقرآن أعجمي، ونبي عربي، أو ومرسل إليه عربي، والمعنى لا يمكن أن يكون كذلك؛ لأن الاستفهام الإنكاري إذا دخل على الإثبات فإنه يكون نفياً، أي لا يمكن أن يكون القرآن أعجمياً، والنبي المرسل عربياً، وهذا يوصلنا إلى الحكمة التي أنزل بها القرآن عربياً غير أعجمي؛ لأن الرسول عربي، أرسل في أمة عربية، ولا بد أن تخاطب هذه الأمة بلغتها، والآيات نفسها التي دلت على عروبة القرآن تشير إلى هذا المعنى؛ لأن كل آية تشير إلى الحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، فكون الرسول ﷺ منذراً ومبشراً لا يمكن أن يفهم خطابه، وأن يصل إلى قلوب الناس وعقولهم إلا إذا خاطبهم باللغة التي يفهمونها: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]، قوماً لداً، شديدي الخصومة، جمع ألد، وهو شديد الخصومة.

حكمة الله في بعثه الرسل بلسان قومهم:

تيسير القرآن بلسان محمد عليه الصلاة والسلام ليؤدي الرسالة وليبلغ الأمانة، وليهدي الناس الذين أرسل فيهم إلى الحق، وقد كانت رسالته عامة، وتلك حكمة الله في بعث الرسل أن يرسلهم بلغة أقوامهم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، إلا بلغة قومه،

والقرآن لم يعبر باللغة ، وإنما عبر باللسان في كل الآيات التي استعمل فيها ما يدل على هذه الكلمة ، فحكمة الله اقتضت أن يرسل الأنبياء بلغة أقوامهم ، ولكن محمداً عليه الصلاة والسلام أرسل للناس كافة ، أرسل للناس جميعا ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وكما في الحديث الذي ذكرناه ، أنه أرسل للناس كافة وإرساله إلى الناس كافة يقتضي أن يؤمنوا به ، وأن يتبعوه وأن يعرفوه ، وأن يعرفوا الكتاب الذي هو معجزته ، ومعرفة كتاب الله ﷺ تقتضي أن تكون لغته عليه الصلاة والسلام هي لغة جميع المسلمين ، لأنهم أتباعه ، هم أمة الاستجابة ، فإذا كان العرب قومه من حيث النسب والأصل ، فإن المسلمين جميعا أمته ، باعتباره مرسلا إليهم ، وإرساله إليهم يقتضي أن يعرفوه ، وأن يعرفوا دينه ولا يمكن ذلك إلا بتلاوة شيء من هذا الكتاب المعجز الخالد الذي هو دستور الإسلام . والكتاب الذي تؤخذ منه الأحكام ، وبناء على ذلك ، تكون لغة العرب ، عقلا ، ومنطقا ، ودينا ، هي لغة المسلمين جميعا ؛ لأنها لغة كتابهم .

كلام نفيس للإمام الشافعي :

نجد الإمام الشافعي في «الرسالة» يتحدث عن هذا الموضوع حديثا طيبا ، يقول : أولى الناس بالفضل باللسان من لسانه لسان النبي ﷺ ، ولا يجوز أن يكون أصحاب لسان النبي ﷺ أتباعا ، تبعا لغيرهم في لسانهم ، وإنما الحق أن يتبع أولئك من لسانهم لسان النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لأن اللغة العربية هي لغة القرآن ، والقرآن ، المسلمون مكلفون بفهمه ومعرفته ، وتلاوته جميعا ، ولذلك نجد الأئمة من أمثال الإمام الشافعي

يدعون كل مسلم أن يبذل ما في وسعه أن يتعلم من هذا اللسان ما يؤدي به عبادته وما يتلو به كتاب ربه ، وما يستطيع أن يفهم به هذا الكتاب ، وأن يتدبره وأن يعيه .

معنى العروبة وضابطها :

ثم إن العروبة ليست بالدم والنسب فقط ، وإنما من تكلم العربية فهو عربي ، فالعروبة لغة وانتماء وثقافة ، ولذلك نجد في لسان العرب نصا يقول : إن العرب كانوا يقولون : إن كل من سكن بلاد العرب ، ونطق لغتها فهو عربي ، وهناك ما يشهد بهذا القول ، فإننا نجد شعراء عاشوا في صدر الإسلام والعصر الجاهلي ولم يكونوا عربا وإنما عاشوا هناك فأصبحوا عربا ، بحكم لسانهم ، بحكم إتقانهم للغة العربية ، حتى إنهم أصبحوا من فحول الشعراء الذين يستشهد بكلامهم .

وجه التلازم بين العربية والقرآن :

فاللغة العربية هي لغة القرآن ، والتلازم بينها وبين القرآن واضح كل الوضوح ، فهو كتابها الأكبر ، وهو الكتاب الذي انتشرت بانتشاره ، وخرجت من شبه الجزيرة العربية لسانا لدعوته ، فدخلت كل مكان دخلت فيه دعوة الإسلام وانتشرت ، وأصبحت لغة مقدسة كما يقول بعض المستشرقين ، أصبحت لغة المسلمين جميعا ، ولغة حضارتهم ، يكتب بها علماءهم ويسجلون أفكارهم ، ويفضلونها على لغتهم أو على لغاتهم الأصلية التي كان يتكلمها شعوبهم قبل أن تدخل في الإسلام ، والشواهد على ذلك كثيرة ومعروفة ، وما كتبه العلماء غير العرب بغير هذه اللغة هو أضعاف أضعاف ما كتبه العلماء العرب بها ، ولذلك كانت لغة الشعوب الإسلامية بعد الشعب

العربي ، وقد دخلت في كل مكان محفوظة بحفظ القرآن ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، فهو كتابها وناشرها وحاميها ، وهي في نفس الوقت اللغة التي لا يفهم إلا بها .

لا يفهم القرآن إلا بعد فهم اللغة العربية :

لذلك يجمع العلماء اللغويون والإسلاميون على أنه لا يعرف فضل القرآن ، ولا يستطيع أن يتعمق في فهم القرآن من لا يتقن لغة القرآن ، والفهم والتعمق في معانيه يكون بقدر الحصيلة اللغوية ، أو بقدر الفهم اللغوي ، وبقدر التمكن من هذه اللغة ، لغة القرآن الكريم .

عبد القاهر الجرجاني يلوم تاركي الإعراب :

لذلك تجد العلماء يشترطونها دليلا على التلازم بين القرآن ولغته ، لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر ، وإذا ما فقد كما يقول عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن النحو باعتباره بديلا للسليقة اللغوية ، يتحدث عن علم الإعراب ويلوم من حوله بتركهم له في عصره ، وهو من جرجان ، يلوم الذين ينقدون اللغة العربية ، ويهملون دراستها ، ويقول : إذا ضاع علم الإعراب فإنه يضيع القرآن ، لأن القرآن لا يفهم إلا بهذه اللغة ، ونزل بلغة العرب التي كان يتكلمها العرب بالسليقة ، قبل أن تصبح علوما مدونة ، أما بعد نزوله ، وخروج هذه اللغة من شبه الجزيزة وما اعترأها ودخل فيها من اللحن ، بإقبال المسلمين عليها ، وباختلاف العرب بغيرهم اختلافا واسعا -دعت الحاجة إلى أن تقنن ، وأن تصبح علوما بعد أن كانت لغة فصحي ، يتكلم بها أهلها ولا يلحنون .

ماذا نقصد باللغة الفصحى؟

عندما نقول : اللغة العربية ونتحدث عن لغة القرآن ، فإننا نعني تلك اللغة الفصيحة التي كانت مستعملة في عصر نزول القرآن ، أما بعد انتشار اللغة العربية مع الإسلام فإنها أصبحت علوما وقوانين للنطق ، وضوابط محددة ، من أخطأها فإنه يكون كلامه غير صحيح .

أدلة التلازم بين اللغة والقرآن :

وتجد في فكرنا اللغوي ما يدل على التلازم بين القرآن ولغته .

أولاً : القرآن هو الأصل الأول للعلوم اللغوية :

أول هذه الأمور التي تدل على هذا التلازم أنه من المعلوم عند العلماء اللغويين وعلماء الإسلام بعامه أن علوم اللغة العربية وعلى رأسها النحو ، إنما استنبط من الكلام الفصيح ، كلام على رأسه القرآن ، لأن القرآن هو النص المتواتر الذي يفيد العلم اليقيني ، والقرآن هو الأصل الأول لعلوم اللغة العربية أو للعلوم اللغوية ، وهذا الأصل وهذه اللغة أو هذه العلوم محفوظة به ، فإنها تقاس صحتها بمدى موافقتها لهذا النص ، ومدى مطابقتها لما جاء فيه من ظواهر النطق ، فإذا ما ابتعدت عنه أوجدت فيها أمور ، أو جعل فيها تجديد ، يبعدها عن هذا الأصل ، أو يخالف بها عن هذا الأصل ، أو لا يعطي ما يستحدث فيها ما يعطيه القرآن من الفصاحة والسلامة اللغوية ، إذا حصل شيء من ذلك فإنه يحكم عليه بالخطأ ، لأن صحتها مقيسة بهذا الأصل الذي يجب أن توزن به ، فالعلوم اللغوية محكومة بهذا الأصل ، ولا يمكن أن تقبل إلا إذا وافقته ، ولذلك هناك

التلازم واضح بين علوم اللغة والتي لا يفهم القرآن إلا بها ، وصحتها محفوظة بهذا الأصل ، فكلاهما راجع للآخر ، لكن العلوم هي وسيلة لفهم القرآن ، أما القرآن فهو الأصل الذي يحتكم إليه مع كلام العرب الفصيح في العصر الذي كان كلام العرب فيه سليما من اللحن .

ثانياً : القراءات القرآنية لا بد أن توافق اللغة :

أما الأمر الثاني الذي يدل على التلازم بين اللغة والقرآن ، أنه من المعلوم عند علماء القراءات ، أن القراءات القرآنية أي قراءة قرآنية لا تقبل إلا إذا كانت موافقة لوجه من وجوه العربية ، ومطابقة لوجه من وجوه العربية ، فهو شرط أساسي ، إلى جانب التواتر ، وموافقة الرسم العثماني ، ومن المعلوم أن القراءات القرآنية تمثل اللهجات العربية ، وإن كان القرآن لا يقرأ إلا بما ثبتت روايته ، لا يقرأ بالاجتهاد وبموافقة العربية فقط ، ولكنه إذا وجدنا قراءة تخرج عن العربية أو ادعاها أحد الناس فإننا لا نقبلها .

ثالثاً : اشتراط العلم باللغة على مفسر القرآن :

كذلك يشترط العلماء لمن يريد أن يفسر كتاب الله وأن يتعمق في معانيه ، أن يكون عالماً بعلوم اللغة العربية أو بطائفة من العلوم العربية ، متمكناً من معرفتها ، قوياً في تحصيلها ، له ملكة فيها ، وقادر على استعمالها استعمالاً جيداً ، فتفسير القرآن بالرأي أو بالعقل لا بد فيه من معرفة العربية ، والتمكن فيها ، ولا يكفي المعرفة السطحية أو المعرفة الضئيلة الضحلة . فالعربية إذاً شرط في تفسير القرآن ، ولا يمكن أن يتعاطى تفسير القرآن من يجهل اللغة أو من لم يتعمق في لغته ، وهذا الشرط نراه مستمراً في جميع عصور الإسلام ، أو نجده بين العلماء لا يتركونه أبداً .

رابعاً : اشتراط العلم باللغة لكل مجتهد في الدين :

كذلك نرى علماء الأصول يشترطون في الاجتهاد ، أو في المجتهد شروطاً ، ونجد من بين هذه الشروط الواجبة ، الواجب توفرها في المجتهد ، أن يكون واسع المعرفة بلسان العرب ، واسع الاطلاع ، له قدرة وملكة على استعمال اللغة العربية استعمالاً جيداً من حيث النصوص ، ومن حيث القواعد ، أما أن يجتهد أو أن يفتح باب الاجتهاد لكل لأحد ، وكل من قرأ نصاً قد يقرؤه ولا يفهمه ، أو يعرضه ولا يفهمه ، ويقول : إني مجتهد أو إني مستقل بالرأي في فهم الشريعة ، فهذا الأمر لا يقره علماء الإسلام ، أو يقره علماء الأصول ، وإنما يشترطون المعرفة الجيدة الواسعة في لغة العرب . هذه الشروط تدلنا على أن اللغة العربية هي الوسيلة ، هي الأداة لفهم القرآن .

ونجد الإمام الشاطبي أبا إسحاق الشاطبي الغرناطي يتحدث في كتابه «الاعتصام» وغيره ، يتحدث حديثاً عذباً جيداً عن اشتراط فهم العربية ، والتمكن فيها لمن يريد أن يجتهد أو يريد أن يفسر كتاب الله ﷻ .

خامساً : عدم فهم اللغة سبب في الإلحاد :

أما الأمر الخامس الذي يلفت النظر في التلازم بين العربية والقرآن ما لاحظته كثير من اللغويين والشرعيين ، أن السبب الأكبر في إلحاد الملحدون في عصر من عصور الإسلام أو فيما سلف من العصور ، سبب إلحادهم وخروجهم عن حدود الشريعة هو جهلهم باللغة ، وضعفهم في اللغة ، وعدم قدرتهم على فهم معاني القرآن فهماً جيداً ، هم لم يتدربوا على الأساليب الفصحى ولم يتعاطوا فهمها تعاطياً جيداً ، ولذلك يضلون في كثير من تفسير آيات الله ، خصوصاً المتشابهة من الآيات .

علماء الإسلام يردون على الملحدين :

ونجد أربعة من العلماء تولوا هذا الموضوع بالشرح والتحليل : هؤلاء الأربعة :

ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» :

ابن قتيبة عبد الله بن مسلم المشهور بابن قتيبة ، هذا العالم اللغوي المعروف المتوفى سنة (٢٣٦هـ) ألف كتابه : «تأويل مشكل القرآن» بإحساسه الديني واللغوي ، وذكر في مقدمته السبب الذي ألف من أجله هذا الكتاب ، فهو إنما ألفه للرد على الملحدين بالمنهج اللغوي وذكر في مقدمته أن بعض الملحدين طعنوا في كتاب الله ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، بأفهام كليلة ، وأنظار علية ، ونظر مدخول ، هم لم يكونوا مستعدين للتفسير والفهم ، فحرفوا الكلام عن مواضعه ، ثم رموا القرآن الكريم بالتناقض والاستحالة واللحن ، رموه ووصفوه بأشياء لا يمكن أن تكون فيه ، فتناول هو الآيات أو الأساليب ، وبين في أول الكتاب أن القرآن جاء بمذاهب العرب في الكلام ، وبلغه العرب ، فلا يفهم إلا بمنهج العرب في الكلام .

أبو إسحاق الزجاج في «معاني القرآن» :

ثم نجد عالما آخر أيضا هو أبو إسحاق الزجاج في كتابه : «معاني القرآن» ، وهذا الإمام توفي سنة (٣١٠هـ) نجده عند قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] ، في هذه الآية يتعرض لما يثيره بعض الملحدين من التساؤل ، ويرمون القرآن بالتناقض ويقولون : إن هناك آيات في القرآن تنفي التكلم يوم القيامة والنطق ، وآيات تثبت التكلم

والنطق ، مما يدل على التناقض في هذا الكتاب ، ففي هذه الآية ، يوجد تكلم ولكنه بإذن الله ﷻ ، وفي آية أخرى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنِدُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] ليس هناك نطق ، وآية أخرى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ [النحل : ١١١] ، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢٤] ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٣٩] .

فظاهر هذه الآيات التناقض كما فهم هؤلاء الملحدون ، فتولى الرد عليهم بالمنهج اللغوي ، وبما قاله اللغويون الصالحون ، حيث قالوا : إن المنفي غير المثبت في هذه الآيات ، فالمنفي هو أن يتكلموا بحجة تنفعهم ، أن يقبل عذرهم ، هذا منفي ولا يكون ، وإنما المثبت هو أن يسألوا سؤال توبيخ وتقرير وتقرير لهم بذنوبهم ، فسؤالهم سؤال توبيخ ، وأما السؤال المنفي فهو السؤال الذي ينفعهم أو يكون فيه رحمة لهم وخير ، أو أن يكون النفي والإثبات بحسب المواقف ، فيوم القيامة طويل ، قد يكون في بعض المواقف سؤال وفي بعضها لا سؤال ، وهذا أيضا يدعونا إلى القول بالتلازم بين القرآن ولغته ، وأن المنهج اللغوي ضروري في فهم القرآن .

أبو الفتح بن جني في «الخصائص» :

عالم ثالث هو أبو الفتح بن جني ، هذا العالم اللغوي الجليل ، عقد بابا في كتابه القيم : «الخصائص» عنوانه «باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية» ، أي : فيما يوفره ويوجده علم العربية من الاعتقادات الدينية ، وتحدث عن هذا الباب حديث المعجب به ، ويقول : إنه من أشرف أبواب كتابه ، وإن الانتفاع به ليس له نهاية . وعرض في هذا الباب لما يثيره الملحدون أو الذين يؤولون القرآن تأويلا غير صحيح ، فعرض كثيرا من

الآيات التي تعتبر من المتشابه ، والتي ظواهرها لا تليق بالله تبارك وتعالى ،
يعني هي من آيات الصفات التي تعتبر من المتشابه ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ
تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦] .

فبعض الذين لا يفهمون هذا التعبير ، قد يجعلونه جنبا عضويا ، ولكن
هو المراد كما يفسر ابن جني : فيما فرطت فيما بيني وبين الله ؛ لأنك تقول :
هذا بجنب هذا ، وهو استعمال لغوي ، أي بالإضافة إليه والنسبة إليه .
كذلك ﴿ فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] ، ربما وصفوا الله بالوجه الحسي ،
لأنهم يؤولون القرآن تأويلا غير صحيح ، واللغة العربية فيها من السعة ما
تحمل هذه الآيات على غير ظاهرها بالأسلوب العربي .

وابن جني في آخر هذا الباب يقول : «لولا ما تعطيه اللغة من قوة النفس
ودربة العقل ما فطنا» ، معنى كلامه ما فطنا أو انتبهنا لهذا اللون من التعبير .
ثم هو يثني على العالم الجليل قطرب اللغوي ، أو محمد بن المستنير المتوفى
سنة ٢٠٦هـ ، والذي ألف كتابا في الرد على الملحدين ، وهو فيما يظهر
أيضا بهذا المنهج اللغوي . فابن جني في الواقع استعرض في هذا الباب جملة
من الآيات ، وأعطانا مفاتيح كثيرة لفهم الآيات فهما صحيحا .

الشاطبي يرد الإلحاد إلى أسباب ثلاثة :

أما العالم الجليل أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي ، فقد تولى هذا الموضوع
بالشرح والتحليل وتوسع فيه ، ورد أسباب الضلال إلى أسباب ثلاثة :
أولها : الجهل باللغة .

ثانيها : تحسين الظن بالعقل ، والاعتماد على العقل أكثر مما يطيق .

السبب الثالث : هو اتباع الهوى .

وفصل هذه الأسباب في أربعة وهي : الجهل بالأدوات ، والجهل بالمقاصد ، ثم تحسين الظن بالعقل ، واتباع الهوى . وقد بين ذلك بيانا جيدا ، وهم يجمعون أربعتهم على أن الجهل باللغة يفسد تأويل القرآن الكريم ، ويضل الذين لا يتفكرون أو لا يعتمدون على غيرهم عندما يجهلون ؛ مما يدلنا على التلازم بين هذه اللغة وبين الكتاب العزيز .

حكم تعلم العربية :

هناك مسألة قصيرة أخيرة لا نطيل فيها الكلام ، وهو ما يراه علماء الشريعة من أن تعلم العربية فرض كفاية ، وعلى كل مسلم أن يتعلم من هذه اللغة ما يستطيع أن يتدبر به معاني كتاب الله ، ويفهم به شيئا من دينه ويؤديه خير الأداء ، ثم هم يكرهون كل الكراهية أن يتهاون المسلم بلغة القرآن ، أو أن يتخلى عنها لغيرها ، أو يجعلها تتأثر بغيرها دون ضابط ودون حد ، هذه الظاهرة يكرهونها أشد الكراهية ، ويدعون المسلمين إلى المحافظة على لغتهم ، وأن لا يقترضوا من اللغات الأخرى ، إلا بالمنهج الذي نص عليه علماء اللغة ، وهو أن تكون الكلمة خالصة الحروف بالعربية ، وأن تكون على وزن عربي معروف ، وأن يجد المسلمون في ربط اللغة العربية بالقرآن تعلما وتعلما ، فإن العربية في تاريخها الطويل إنما عاشت بالقرآن وازدهرت بالقرآن وهي وسيلتنا لفهم القرآن ، وفي العصر الحديث العلم أصبح شعبيا عاما تضبط فيه الوسائل والأهداف ؛ فلا بد أن نأخذ هذا في اهتمامنا ، والله الأمر من قبل ومن بعد .



المحاضرة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

فضل النبي ﷺ في تماسك أمته

تمهيد:

اقتضت عناية الله أن يخلص البشر كلما ضعفت نفوس مجتمعاتهم عن استيفائها لشئون الحق وعن محافظتها على مصالح الإنسانية، فكانت إذا أخفقت في النفوس أنوار الرشاد، وسادت في الناس مظاهر الفساد، تداركهم برسول يبعث إلى أمته، ويرسله إلى خصوص قومه، فيجعل نفوسهم بمقتضى تعاليمه، مؤهلة لأن تستمد طهارتها من أنوار الوحي، وتقتبس ضياءها من هدى رسالة نبيها.

محمد ﷺ نموذج للإنسان الكامل:

وقد ختم سبحانه رسالاته إلى الأرض بحبيبنا محمد ﷺ موضحاً ومبيناً على أنه ﷺ أرسل إلى الناس عامة، وأرسله لهداية الخلق كافة، فإليه ﷺ تناهت الرسالات الإلهية، وبه ﷺ تكاملت النبوات البشرية. لقد جعل الله سبحانه نفس رسوله الكريمة المثالية محلاة بسائر الكمالات الإنسانية، فهي أصفى النفوس وأنقاها، إنها تجوب وهي لا تتعدى نطاقها الإنساني وركابها النبوي، في كل من عالمي الملك والملكوت، وتستوفي سائر طاقات الإفادة والاستفادة، ونفسه ﷺ متخلصة من أية شائبة قد تعوقه عن القيام بمهمته الكبرى، وأداء أمانته العظمى. فهو ﷺ مشمول بعناية الله لا يستطيع أي مصل أن يناله بإضلال، لأن عناية الله عصمت إنسانيته وصانت بشريته، فهي إذن كمال شهد بذلك رب العالمين، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ
وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿النساء: ١١٣﴾ .

حفظ الله ﷻ لنبيه ومن سلك مسلكه :

هذا الآية السابقة وتتلوها آيتان يتجلى منها الكمال الإنساني ، حين يبلغ إلى أعلى درجاته ، فهو في مجالات ذلك الكمال الإنساني مشمول بالعناية الربانية ، ومحفوف بالألطف الإلهية ، فالإذيات والإضلالات لا يمكن أن تنال منه ، وكل محاولات السوء لا بد أن تبوء بالفشل ، فالواصل إلى الكمال الإنساني هو من بعثه الله رحمة للعالمين ، وحفظا للناس أجمعين ، وحلته هذه التي كساه الله إياها ، قد اكتست بها أمته المؤمنة ، فهي بتماسكها وفي اعتمادها على ربها لا ينالها كيد الكائدين ، ولا تكون بتماسكها وفي اعتمادها على ربها إلا محفوظة من كيد الكائدين ، ولا تؤوب ممن يكيد لها إلا بالانتصار المبين ، أمر الله الإنسان أن يسلك مسلكها وسبيلها ، وهدد وحذر من أن يحاد عن سبيلها ، كما يدل على هذا قوله سبحانه في الآية التالية : ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] .

سبب نزول الآيات :

الحقيقة أنها إحدى عشرة آية ، كلهن متصلات بسبب النزول ، فقد رجح مختلف المفسرين أن سبب النزول هو ما رواه الإمام الترمذي في «سننه» بالسند المتصل إلى الحافظ الحجة الإمام أبي عيسى الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ : حدثنا محمد بن أحمد بن أبي شعيب ، أبو مسلم الحراني ، قال : نا محمد بن مسلمة الحراني ، نا محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان قال : كان أهل بيت منا بنو أبيرق ، بشر وبشير ، ومبشر ، وكان بشير

رجلا منافقا، يقول الشعر، يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض الرجال يقول: قال فلان كذا وكذا.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا الشعر قالوا: والله ما قال هذا الشعر إلا بشير، إلى آخر الحديث، يتابعه الإمام الترمذي، وهو طريق طويل إلى أن قال عن قتادة: قدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفادة رفدا من الدرملك (هو الدقيق الممتاز)، أي: حملا من الدرملك، فوضعه في بيت، وفي البيت سلاح، درع وسيف، فعدي في الليل على البيت، فنقبت مسربة عمي، وأخذ الطعام والشراب، فلما أصبح قال لي عمي رفادة بن زيد: يا ابن أخي إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، وأخذ طعامنا وسلاحنا، فتحسسنا في الدار، فقليل لنا: إن بني أبيرق قد استوقدوا هذه الليلة، وما نرى فيما ترى إلا على بعض طعامكم.

فلما شعر بنو أبيرق بأنهم سيفتضحون، حولوا ما أخذوه إلى بيت شخص يقال له: ابن سهل، فلما شعر بذلك هدد من اتهمه بالسرقة، وطلب رفاة من ابن أخيه قتادة أن يتوجه إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «سأرى»، أما بنو أبيرق فقد توجهوا عند أسيد بن ربيعة وجمعوا حوله جماعة من الناس وتوجهوا إلى رسول الله ﷺ وصاروا يشبتون أنهم براء، فأنزل الله ﷻ بعد أن جاء قتادة إلى رسول الله ﷺ، وقال له: «عمدت إلى قوم ذكر فيهم إصلاح وسلام تتهمهم بالسرقة من غير ثبت ولا بينة»، فقال قتادة: ولوددت أنني خرجت من بعض مالي، ولم أعرض الأمر على رسول الله ﷺ، وقال رفاة: يفعل الله ما يشاء. نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَلَا تَجْدِلْ عَنِ الَّذِينَ

يَحْتَنُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٢﴾ [النساء: ١٠٥-١١٢] إلى أن قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. فرد السلاح إلى صاحبه رفاعه، فقال: هو في سبيل الله.

ظروف القصة وما يلزم الناظر فيها:

القصة قبل كل شيء هي تقاض، وهذا التقاضي لم تتبين حقيقته إلا بالوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، والناظر في القصة ليستتج منها لابد أن تكون نظره لها جهتان:

أولاهما: وسيلة الإثبات، فقتادة رحمته الله ليس هو الذي ذهب ماله، وإنما هو جاء بأمر من عمه، فصاحب الدعوى لم يقيم بنفس العمل.

ثانيتهما: حين جاء إلى رسول الله ﷺ جاء مستندا على مجرد قرائن. وتلك القرائن قد تكون حقا قد أثبت الواقع، وقد لا تكون مثبتة للواقع، ولذلك قال له رسول الله ﷺ: «من غير ثبت ولا بينة».

ثم ثالثا: من جملة تلك القرائن أن قتادة يعرف أن عمه ذو يسر يمكنه أن يشتري الدرهم الذي هو الدقيق الممتاز، الذي كانت القوافل تأتي به من

الشام ، ويعلم أن بني أبيرق فقراء ، فقد يكون ذلك الطعام طعامه ، ثم أيضا هذا الذي قام به بنو أبيرق هو شهادة جماعة من الناس ، أكدت سلامتهم ، فترجحت بحسب الظاهر حجتهم هذه النظرة حين نزل القرآن .

النبي ﷺ قدوة للأمة في تنفيذ الأمر التشريعي :

الأمر هو أمر تشريع ، لأن المعصوم ﷺ إنما ييسر الله له هذا المنهج ليسلكه من أجل أن يشرع لأمرته فقط حتى يكون الحكم بالظاهر سائدا ، ولكن إذا تحقق الحكم بالظاهر ، فبمقتضى ما نزل من القرآن أنه لا يمكن بحال أن يكون الحكم الظاهر مبطلا للحكم أبدا ، فالحكم بالظاهر لا يحول الحق باطلا ، ولا يحول الباطل حقا ، ولا يجعل كذلك الحرام حلالا ، ولا الحلال محرما . هذا شيء يمتاز به المسلمون ، حتى وإن استطاع من يأتي بالحجة أنها له ، وهو يعلم أنه باطل فهي قطعة من النار يأخذها . وبمقتضى هذه النظرة قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها»^(١) . والشريع على هذا الحال كثير كقوله ﷺ : «لست أنسى ، ولكن أنسى لأسن»^(٢) .

النظرة الثانية للقصة :

هي أن الذين حاولوا أن يثبتوا أنهم على حق إنما هي هم فقط ، وليس أمرا عمليا أمكن الوصول منه إلى الإضرار أو إلى الإساءة ، أو إلى غير ذلك من

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٢٥) بلاغا عن النبي ﷺ .

وسائل التنقيص لرسول الله ﷺ ، فهو أعلى من كل ذلكم ، لأن الاتجاهات التي يمكن أن تكون لمن يريد أن يحقق إضرارا تأخذ مراحل ثلاثة :

مراحل الإضرار بالناس :

أولها : هي مرحلة الطمع ، والطمع هو أمل يخطر بالبال على أن يكون صاحب السوء يريد أن يحققه .

المرحلة الثانية : هي مرحلة الهم بما كان من أجله وجود الطمع ، والهم هو العزم على تحقيق الفعل .

والمرحلة الثالثة : هي التطبيق العملي لذلك الفعل .

حال النبي ﷺ مع المراحل الثلاثة :

فبالنسبة للرسول ﷺ لا يمكن بحال أن تتحقق المرحلة الثالثة أبدا ، فهو أمر مستحيل عرضي ، تحقق بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَلَّهِ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] . فالإضرار به لا يصله أبدا ، لأن الله تكفل بحفظه ، ما حاوله المشركون هو أكبر شاهد ، ولذلك فإن وصول الأذى إليه مستحيل عرضا كما قلنا ، والمستحيل العرضي هو الذي يكون بحسب الأصل ممكنا ، ثم يعرض له من قبل الشرع ما يصيره واجبا . أما مرحلة الهم لأجل فعل الشيء والعزم فرسول الله ﷺ هو أيضا محفوظ من أن تناله ، ومصون من أن تدركه ، بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء : ١١٣] .

أما مجرد الأمل فهو أيضا قد حصنه الله منه ونبهه منه بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٢] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣] . هذه هي ظروف القصة .

شخصيات القصة :

بشير :

فبشير هذا ظهر نفاقه واتضح ، ففر إلى المشركين ، ونزل على امرأة بلغ خبرها حسان ، فهجأها وختم أبيات هجوه بقوله :

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم وفيما نبي عنده الوحي واضح
فقد طردت من جاء عندها وهو بشير ، وقالت له : أهديتني شعر
حسان ، وهذا ضُبط وهو ينقب سورا فسقط عليه ومات كافرا .

قتادة بن النعمان رحمته الله :

أما قتادة الذي عزز الله قوله بكتابه وبالآية الكريمة فهو من هو ، أعطاه
رسول الله ﷺ عرجون نخلة في الليل ، فتحول إلى نور هداه في طريقه حتى
وصل إلى بيته ، وسالت عيناه على خده في إحدى الغزوات ، قيل : إنها
بدر ، فردها رسول الله ﷺ إلى موضعها وقال : «اللهم حسن نظره»^(١) ، فما
لحقها سوء ، ولما توفي وهي أحسن عينيه ، جاء أحد حفدته إلى عمر بن
عبد العزيز بخارج المدينة ، فقال له : من الرجل ؟ فقال :

أنا ابن الذي سألت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول عهدا فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

الآية الكريمة التي هي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣ / ٣٣٤) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٣٦٤) .

لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴿[النساء: ١١٣]﴾ إلى آخرها . هي وإن كانت في نطاق سبب النزول ، فالناظر إلى جميع الآيات الإحدى عشرة يجد أنها في الحقيقة لا ترمز بكل قوة ولا بشيء كثير إلى سبب النزول ، لأنها عامات .

ويمكن أن يستشعر سبب النزول ابتداء من قول الله تعالى : ﴿وَلَا تُجَدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧] إلى ما بعدها . والواقع أن سبب النزول لا يخص ، فالقاعدة الأصولية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . قال ابن السبكي : «والوارد على سبب الخاص ، معتبر عمومه عند الأكثر ، والعام الوارد على سبب الخاص معتبر عمومه عند الأكثر» .

اشتملت الآية الكريمة على أربع فقرات :

الفقرة الأولى في الآية الكريمة :

أولاهن : قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣] .

معنى الفضل في الآية :

الفضل له ثلاث معان : أولها : الزائد على الاقتصاد . ثانيها : ما فضل عن الشيء ، والثالث : هو الإحسان ابتداء بلا علة ، وهذا هو الذي يناسب هنا . ولذلك تحمل عليه الآية . فالفضل حين يكون عطاء بدون منة فهو الذي يقال فيه فضل بالنسبة لرسول الله ﷺ .

والرحمة الأصل فيها رقة في القلب وانعطاف ، وهذا إنما يليق بالحديث فقط ، وتعالى الله عن هذا المعنى ، ولذلك فهي تفسر بلازمها ، ولازمها اختلف إبراهيم . فالإمام أبو بكر الباقلاني قال : «إن لازم الرحمة الذي

يمكن أن يكون مناسباً لله تبارك وتعالى هو إيصال الإنعام إلى العباد بالفعل ، وعلى هذا تكون الرحمة بمقتضى هذا المفهوم هي من صفات الأفعال ، وهي حادثة على أحد القولين .

واللازم عند الأشعري هو إرادة الإنعام ، وإرادة الإنعام يقتضي أن تكون الرحمة هي صفة قديمة . فالذي يقول : إنها من صفات الأفعال فصفت الأفعال ترجع إلى صفة واحدة ، وهي صفة التكوين ، وصفة التكوين هذه لأنها مكونة من القدرة ، فهي التعلق بالتنجيزي للقدرة وهي عند الإمام الأشعري حادثة ، فجميع صفات الأفعال حادثة ، نظراً لكونه يعتبر هذه الصفة حادثة ، وهي عند أبي منصور الماتريدي ومن تبعه هي قديمة ، ولكل حجته ، وبسط ذلك موجود في كتب أصول الدين .

دلالة اجتماع الفضل والرحمة في الآية :

واجتماع الفضل والرحمة في الآية : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ... ﴾ إما لكون الفضل يحمل على أن المراد به أن الله ﷻ يطلع رسوله بالوحي ، وأن الرحمة تحمل على أن الله ﷻ يعصم رسوله من أن يقع في الزلل . ولكن مقتضى المناسبة لسبب النزول أن يكون الفضل هو ما يمكن أن يطلع الله عليه نبيه من جميع ما يمكن أن يلحقه من بعض الذين يريدون الإساءة سواء قليلاً أو كثيراً . وأما الرحمة فهي ذلك الحفظ الذي يحققه الله له سبحانه ﷻ ، والههم هو العزم على تحقيق الفعل ، ولو لم يحقق بالفعل .

معنى بعض المفردات في الآية الكريمة :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ ﴾ . والطائفة إما من الناس وهي الجماعة منهم ، وإما من الشيء وهي القطعة منه .

والإضلال : هو محاولة إظهار الباطل حقا ، ليعبد من يراد به الإضلال عن نطاق الحق .

نوع القضية المنطقية في الآية :

هذه القضية هي قضية خبرية ليست حملية وهي شرطية متصلة ، رابط الثاني بالمقدم فيها هو حرف «لولا» الداخلة على الجملة الاسمية ، فيفيد امتناع حصول مضمون الثاني لوجود مضمون المقدم . فيكون المعنى هكذا ، امتنع أن يحقق الذين أرادوا وهموا الإيذاء ، امتنع عملهم وبطل لوجود فضل الله تبارك وتعالى على رسوله . هذه هي الفقرة الأولى .

الفقرة الثانية في الآية الكريمة :

هي قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النساء : ١١٣] . وهي مؤلفة من قضيتين اثنتين خبريتين : أولهما فيها القصر بما وإلا ، وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ [النساء : ١١٣] ، والقصر هنا قصر قلب ، لأن فيه قلب ما أملوه من إيهامهم أنهم سيستطيعون أن يوصلوا ما أرادوه إلى رسول الله ﷺ إلى حقيقة أدركوها ، وأن الدائرة دارت عليهم ، وازداد لتأكيد هذا القصر بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، فإن «شيء» هي مفعول مطلق من فعل يضررون ، ودخل عليها «من» لتأكيد هذه الشيئية ، أي : لا يمكن أن يصلح من أي أحد ، كبر شأنه أو قل ، اشتدت وسائل إيذائه أو قلت ، كانت عنده جميع مبررات النجاح أو لم تكن عنده مجتمعة ، لا يمكنهم أن يدركوك بأذى قليل ، قليل جدًا ، فأحرى أن يكون الأكثر . فالتنوين للقلة .

الفقرة الثالثة في الآية الكريمة:

ثم إن الله تبارك وتعالى في الفقرة الثالثة بين أن فضل الله على رسوله ليس محصوراً في أن يدفع عنه الأذى ، بل هو مع هذا يجلب الله له الخيرات ، ويوفر له المكرمات ، ويأتيه بأشياء أصبحت عندهم ذاتية ، وتصبح عند أمتة حقيقة بالتبع ولكنها ليست بذاتية . من جملة ذلك أن أكرمه الله تبارك وتعالى بالكتاب ، وأكرمه بالحكمة ، وأكرمه بأن علمه ما لم يكن يعلم . وذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء : ١١٣] .

القضية الأولى في الآية الكريمة:

هما قضيتان أي جملتان : أولاهما قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ . الكتاب : هو علم بالغلبة ، وهو القرآن ، أنزله سبحانه وتعالى على رسوله ، فهو قديم لفظاً ومدلولاً ، وقد بسط الإمام اليوسي في شرحه لمقدمة السنوسي الكلام في قضية القرآن الكريم ، وقسم الأمر إلى ستة أقسام ، نقلها إدريس الوزاني في حاشيته على شرح الشيخ الطيب بن كيران . وهي من أمتع ما يرجع إليه ، والمقصود أن الله تبارك وتعالى أنزل الكتاب لفظاً ومدلولاً ، فلا يد لأبي بشر في وضعه ، ولا طاقة لأي فرد في نظمه ، بل ولا استطاعة له في تنظيمه .

تنزه القرآن الكريم عن المعارضة والمماثلة:

لقد درسه العرب والعجم ، واهتم به الدهاة من مختلف الأمم فلم يستطيعوا فرادى أو مجتمعين أن يأتوا منه بسورة ، فأحرى أن يعارضوه

بالمرّة: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

التأكيد على هذه الحقيقة:

ثم إن الله تبارك وتعالى أكد هذه الحقيقة بقوله ﷻ: ﴿وَلِئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٩٢] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. فالتأكيد بأن واللام في «نزل» مع قوله تعالى بصيغة التفعيل تنزيل يؤكد أن حقيقة إنزاله كائنة بدون معارضة، فهو مثل أعلى في آداب اللغة العربية، وهو أيضا مثل أعلى في فصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه وروعة أساليبه. فهي نعمة كبرى تعدى نطاقها رسول الله ﷺ لتشمل أمته، بل وتشمل الإنسانية كلها، فحقائق القرآن تتوالى، وتظهر برهة بعد برهة، وتتجلى فترة بعد فترة، وجيلا بعد جيل، وعصر بعد عصر، كلما عاد إليه الإنسان وجد جديدا، وكلما تدبر فيه أخذ منه الكثير كأنه نزل الساعة، ولذلك أمرنا الله بالتدبر فيه على الدوام، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

معنى الحكمة في الآية الكريمة:

والحكمة هنا حملت على كثير من المعاني، ولكنني شخصيا تبين لي أن الأولى أن تحمل كما فسر الإمام الشافعي الحكمة بأنها السنة، أن تحمل على خصوص السنة. فالله أنزل معانيها وجعل ألفاظها تأتي من قبل رسول الله ﷺ، فلا ينطق ﷺ إلا بما أمره الله به أن يقول، وإلا بما هو وحي بمقتضى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

السنة مبينة للقرآن:

ثم إن هذه السنة هي تبين لكتاب الله ﷻ، لأن الله تعالى شهد له بذلك فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. فالآية الكريمة ذكر فيها التنزيل بعد تقدمه بصيغة الإنزال، وذكر التبيين بصيغة التفعيل لنعلم جميعاً أن كل وسائل المعرفة، وكل وسائل الوصول إلى الحقائق، وكل وسائل كشف الحجب عما يمكن أن يدركه الإنسان من الخير، لا بد أن يجده في كتاب الله مبيناً من قبل رسول الله ﷺ.

وذلك البيان، له وسائل الاستمرار إلى ما بعد عهد رسول الله ﷺ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، فهو أشبه بعطف العام على الخاص، وأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فهو عود على بدء، وهو أيضاً يؤكد أن ما قاله الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ١١٣]. هو حقيقة تامة ثابتة، هذا الذي حققه الله لرسوله، هو مشمول لأمته، فأمة محمد ﷺ معصومة، وقد بين ذلك الإمام الشاطبي، والمثل في أمتنا هذه، فإنها والحمد لله في ركاب الخير سائرة، بقيت تسير في مقتضى الهدى الإسلامي، فجعلها الله مصونة وموفقة.



المحاضرة التاسعة والثلاثون بعد المائتين

ذكر الله ﷻ

أسباب اختيار الموضوع:

إن الذي شدني إلى معالجة هذا الموضوع والبحث فيه ما رأيت من شدة اهتمام كتاب الله سبحانه وتعالى بالذكر .

حث القرآن على الذكر بعد الشدائد والأزمات:

لقد رأيت أن القرآن يضع الذكر في حياة المسلمين، بل من سلم درجات الحقائق الإسلامية في مرتبة الضرورات . ما وقفت على آية يواسي فيها بيان الله سبحانه وتعالى رسوله أمام شدة انتابته إلا وينبهه إلى علاج من ذكر الله سبحانه وتعالى . ألم يقل فيما قال : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩] . ألم يقل : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ۖ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٤، ٢٥] .

حث القرآن على الذكر عند لقاء العدو:

ما رأيت القرآن يتحدث عن جيش من الأعداء يحدقون بالمسلمين ويبحث المسلمون آنذاك عن علاج للتحرر من هذا البغي والعدوان، إلا ويضع كتاب الله سبحانه وتعالى ذكر الله ﷻ في مقدمة هذه العلاجات . ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] .

حث القرآن على الذكر في كل حال:

ثم إننا نقرأ ما يشبه الدستور التام الجامع لهذه الحقيقة الكونية الكبرى في الآية التي هي منطلق درسنا هذا ، وهي قول الله ﷻ : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

إعراض كثير من الناس عن هذا الأمر:

هذا إلى جانب ما ألاحظ من إعراض كثير من المسلمين عن هذه الضرورة الكبرى التي يوصي بها كتاب الله سبحانه وتعالى عباده صباح مساء ، فهذا ما دفعني إلى معالجة هذا البحث ، وإلى ذكره وتحليله ، لعلنا نتنبه إلى الضرورة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتنبه إليها .

سؤال وجواب:

ولكني أقول أيضا : إنني فكرت ، أليس في القناعة العقلية بما تنزل من عند الله ﷻ من حقائق الإسلام ما يغني عن الذكر والمداومة عليه؟ أليس في العقيدة التي مركزها العقل ما يجعل العقل خير هاد للإنسان إلى صراط الله ﷻ؟ وهل بعد ذلك من ضرورة تدعو إلى وضع ذكر الله ﷻ في هذه المرتبة العليا؟

وعرفت الجواب من تلك القاعدة العلمية التي ما زال علماء التربية والنفس يرددونها ، وهي : أن انقياد الإنسان إلى عواطفه ووجداناته أشد وأكثر من انصياعه لقراراته وقناعاته العقلية .

فكلما قام تناقض وتعارض بين يقين عقلي اصطبح به فكر الإنسان ، وبين هوى من أهواء النفس يصبو إليه الإنسان ، فإن الغلبة في الغالب إنما

تكون لهوى النفس ، هذه حقيقة معروفة ، ومن ثم كانت الحاجة إلى التربية .
فالتربية مهما تنوعت أشكالها ، ومهما اختلفت فنونها وسبلها إنما هي عبارة
عن السعي إلى تطويع العاطفة لقرار العقل ، ولولا أن العاطفة دائمة هي
التي تحتاج بصاحبها ، وتدعوه إلى أن يقفز فوق قناعاته العقلية ، لما كانت
ثمة حاجة إلى التربية قط .

ما الحل عند غلبة العاطفة والشهوة على النفس؟

هنا يتساءل الإنسان . فإذا وقف الإنسان أمام مفترق الطرق بين يقين
عقلي يدعوه إلى اتباع صراط الله ﷻ ، وبين أهواء وعواطف ، وشهوات
جامحة تجمع بكيانه ، ورأى أن الغلبة إنما هي لهذه العواطف والأهواء ،
إلام الملاذ؟ وكيف السبيل إلى أن يتحرر من شهواته وأهوائه ، لينقاد إلى
قرار عقله؟ الدواء هو : ذكر الله سبحانه وتعالى .

وعندما تتنوع التربية عند علماء التربية ، ويتفننون في السبل إليها ، فإن
السبيل إلى أن ينصاع الإنسان إلى يقينه العقلي ، ولقراره الاعتقادي متحررا
من شهواته وأهوائه ، إنما هي المداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى .

الغاية من ذكر الله تعالى يقظة القلب:

أنا لا أعني بذكر الله سبحانه وتعالى كلمة يرددها اللسان وإن كان ذلك
ذكرا ، وإن كان الإنسان مثابا على ذلك ، بل إن رسول الله ﷺ قد قال : « لا
يزال لسانك رطبا بذكر الله »^(١) ، ولكن تحريك اللسان بالذكر سبيل إلى

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه ،
وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

غاية ، والغاية إنما هي يقظة العقل ، ويقظة القلب ، وتوجه الفؤاد إلى عظمة الله سبحانه وتعالى ، وامتلاء الوجدان بصفات الربوبية في ذات الله ﷻ . ومن ثم يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ، ثم يؤكد هذا المعنى ثانية ، بقوله : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

هذا هو الدواء ، الذي لا دواء بعده ولا قبله ، بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، الذي يحرر الإنسان من ربة أهوائه ، ويجعله ينصاع لقناعاته العقلية ، ولإيمانه الفكري بالطريق الذي ينبغي أن يسير عليه .

الإنسان كائن ثلاثي التركيب :

أزيد هذه المسألة إيضاحا وتحقيقا ، إن أمكن . نحن نعلم أن الإنسان ، كما قال العلماء قديما : ثلاثي التركيب .

المركب الأول والثاني : الجسد والغرائز :

فهو مركب من هذا القفص الجسدي الذي لا قيمة له في الحقيقة . ثم هو مركب من جملة غرائز أرضية ترابية تهتاج به ، وتدفعه إلى كثير من الشهوات والأهواء ، ولذلك حكمة ووظيفة .

المركب الثالث : الروح :

الركن الثالث الذي يتكون الإنسان منه هو هذه الروح التي هي سر من أسرار الله سبحانه وتعالى . هذا السر الذي إذا أشرق على الدماغ تكون منه الفكر والوعي ، وإذا أشرق على عضلة القلب تكونت منه العواطف والوجدانات الدافعة والراعدة والممجدة ، أي الحب والتعظيم والخوف .

وإذا أشرقت أو انعكست هذه الروح إلى الخلايا تكون منها ذلك الشعور .
ومصدر ذلك كله واحد ، ألا وهو الروح .

هذه الروح هابطة من الملاء الأعلى ، وليست نابعة من الأرض ولا من
تراب الأرض . هذه الروح تظل في حنين إلى العالم الذي أهبطت منه . هذه
الروح موصولة النسب بالله سبحانه وتعالى ، أيا كان الجسد الذي أهبطت
إليه هذه الروح .

أجل . ألم يقل الله سبحانه وتعالى خطابا للملائكة ، عن آدم : ﴿ فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] . إنها روح
منسوبة إلى الله ﷻ ، نسبة تشريف ، ونسبة تجعل الإنسان ييأس من أن
يعلم كنه هذه الروح .

إذن فهذه الروح في أعماق كل فرد من الناس تظل في حنين إلى خالقها ،
تظل في شوق إلى بارئها ، هذه حقيقة لا شك فيها ، وهذا معنى من معاني
قول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي : «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ،
ثم إن الشياطين أتهمهم فاجتالهم»^(١) . وهذا معنى قول الله سبحانه
وتعالى : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] .

السبب في بُعد الروح عن عالمها :

لكن لماذا لا نشعر بحنين أرواحنا هذه؟ لماذا ، ونحن نتأمل جيدا ، لا
نشعر بشوقها إلى العالم الذي أهبطت منه؟

السر في ذلك أن هذه الروح محاطة بعالم من الغرائز ، لها ضجيجها ولها

(١) سبق تخريجه .

أهواؤها . هذه الروح محاطة بعالم من الأهواء . فإذا تصاعدت مشاعر الروح اصطادتها هذه الأهواء والغرائز ، وصادرتها وترجمتها لحسابها .

فالإنسان نزاع إلى حب الجمال ، وهذا شعور روحاني متجه إلى الملاء الأعلى ، إلى الجميل الأوحى الذي لا جميل سواه . ولكن هذا الشعور إذا اصطدم بشهوات النفس وبأهوائها ، فإن هذا الشعور يترجم لمصلحة الأهواء والشهوات ، ويقف الإنسان أمام الصور وأمام الأشكال وأمام المظاهر ، ولا يواصل طريقه إلى الملاء الذي تتجه الروح إليه .

وهذه الروح نزاعة إلى حب واحد ، حب بارئها ، حب خالقها ، حب مصورها . ولكن هذا الحب إذ يتعالى من أعماق القلب والفؤاد يصطدم بالشهوات والأهواء والغرائز ، فتصادر هذه الغرائز هذا الحب لحسابها . وهكذا يعيش أحدنا وهو يتصور أن حبه موزع بين الصور والأشكال ، وأن تأثيره موزع بين هذه الدنيا وشهواتها وأهوائها ، والحقيقة ليست كذلك .

دواء الروح حتى تتصل بعالمها :

ما هو الدواء الذي يحرر الروح من أسر هذه الشهوات والأهواء؟ ما هو الدواء الذي إن استعملناه أدركنا حين هذه الروح؟ وعرفنا إلى من تتشوق ، وتفاعلت مشاعرنا مع أرواحنا هذه؟ لا دواء لذلك أبداً إلا مراقبة الله ﷻ . لا دواء لذلك أبداً إلا العكوف على ذكر الله سبحانه وتعالى . أي تذكر الله ﷻ . لا دواء لذلك سوى أن أربط بين المخلوقات وخالقها ، فأنظر إلى ما أبدع الله سبحانه وتعالى ، ولكنني أنظر إليها من خلال صفات الخالق ، من خلال صفات المبدع ﷻ . ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

السبيل إلى ذلك هو الاستمرار والدوام على ذكر الله ﷻ ، كما أمر الله سبحانه وتعالى . وهذا المعنى الذي أقول إنما صدر عنه العلماء من خلال قرار علمي ،

قبل أن يصدروا من خلال تصور ديني . ولعل القصيدة المشهورة لأبي علي بن سينا ، جاءت تعبيراً عن هذا الكلام ، والتي يقول في مطلعها عن الروح :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره إليك وربما ألفت وصالك وهي ذات تمنع
ألفت وما ألفت فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
تبكي وقد ذكرت عهداً بالحمى بمدامع همي ولما تطلع

هذه حقيقة ذكرها العلماء ، من خلال منظور علمي ، قبل أن يتبينوها من خلال نقول دينية ، وإنما العلم يسجد في هذا لحقائق الدين .

فإذا أدركنا هذه الحقيقة فإن بوسعنا أن نعلم أن الإنسان إذا أسلم نفسه لإيمانه العقلاني بالله ﷻ ، وانصاع لهذا الإيمان العقلي المجرد ، فهيئات أن يصل من خلال ذلك إلى الله ﷻ . إن تضاريس الشهوات والأهواء تقف له على الطريق ، إن الغرائز المجنحة عن يمين صراط الله وشماله تتجاذبه . لابد أن يأوي إلى ركن ركين من هذا الدواء من البقاء والديمومة على ذكر الله سبحانه وتعالى . هذا الدواء الذي يحرر الروح من هزالها . هذا الدواء الذي يحرر الروح من أسر الشهوات والأهواء التي تحيط بها . وإذا بها تقوى ثم تقوى ثم تشتد إلى أن تهيم هذه الروح بعد ذلك على الغرائز والشهوات .

ليس المطلوب أن يستحيل البشر ملكاً ولكن!!

ليس المطلوب هنا أن يتحول الإنسان من خلال سمو الروح عن طريق ذكر الله ، ليس المأمول أو المطموع أن يتحول إلى ملك . فالبشر لابد أن يبقى بشراً ، وإنسانية الإنسان لن تنفك عنه ، بل إن مزية الإنسان على الملائكة إنما تكمن في هذه الخصيصة .

لكن الذي يتم بعد أن نتعهد الروح بهذا الغذاء الدائم المستمر أن صلحاً يتحقق بين هذه الروح وبين الغرائز الجسدية ، وأن تنسيقاً يتم ويكون الحكم على كل حال لهذه الروح الموصولة النسب إلى الله سبحانه وتعالى .

فالإنسان يعيش لرزقه ولطعامه وشرابه ، ويبحث عما يشبع رغباته وشهواته وأهواءه ، ولكن يتحرك تحت مظلة حكم الله ﷻ ، بقيادة من هذه الروح الموصولة بالله سبحانه وتعالى .

كيف لا؟ وهو يقرأ قول الله ﷻ : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] ، يقرأ قول الله ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] .

ولكن شتان ما بين من يتجه إلى هذه الحياة ليعمرها بسائق من التعلق بها ، بسائق من الحب المتكالب عليها ، وبين من يتجه إلى هذا العمل ذاته ، بسائق من عمل وظيفي أقامه الله ﷻ عليه . هذا هو فرق ما بين العبد المؤمن حقاً ، وهو الذي توج إيمانه بذكر الله سبحانه وتعالى ، وبين الإنسان التائه أو الشارد عن صراط الله ﷻ .

حقيقة واقعة لا مرء فيها:

وأحب هنا أن أوضح حقيقة ، لعلها تجسد واقعاً ، له جانب سلبي وله جانب إيجابي ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يحررنا من جوانبنا السلبية كلها .

عندما نراجع إيماننا العقلي بالله ﷻ نجد أننا مؤمنون بالمعاد ، وأننا مؤمنون بمصير الإنسان بعد الموت .

وعندما نراجع كتاب الله الذي آمننا بأنه كتابه ، نلاحظ أن الله قد ضمن لنا معاشنا ، لكنه طلب منا أن نبني لأنفسنا معادنا . كل هذا نراه مثبتاً في

كتاب الله ، ثم نراه منعكسًا إلى إيمان وعقل في عقولنا ، ومع ذلك فإننا نعود إلى واقعنا وسلوكنا على الأغلب ، إلا من رحم الله ، فنجد أننا نعيش في قلق دائم تجاه ما قد ضمنه الله لنا ، ونعيش في طمأنينة دائمة تجاه ما قد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نخافه . أليس هذا التشاكس بين واقعنا وبين مبادئ العقيدة المرتكزة في عقولنا تشاكسًا يدعو إلى علاج؟ لكن ما مصدر هذا التشاكس؟

مصدره أننا بعيدون عن ذكر الله ﷻ ، غرسنا الإيمان يقينًا في عقولنا ، ثم لم نحوله عاطفة إلى قلوبنا ، وسبيل تحويل الإيمان من اليقين العقلي إلى الوجدان القلبي ، إنما هو طريق طويل من ذكر الله ﷻ .
أي : أن يكون القلب يقظًا لمراقبة الله سبحانه وتعالى .

من ثمرات الذكر: اطمئنان القلب وقلقه!!

لنلاحظ كيف أن القرآن يجعل للذكر ثمرتين قد تبدوان متناقضتين ، يقول مرة : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] ، ويقول في موضع آخر : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] ، كيف هذا؟

كيف يكون الذكر أنا يصدر الطمأنينة الراضية ، ثم يثمر في الوقت ذاته الوجل والقلق والاضطراب؟ ليس في الأمر أي اختلاف أو أي تناقض قط .

أولاً : اطمئنان القلب :

ذلك ، لأن معنى بيان الله ﷻ ، أن الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى ، يجعل الإنسان مطمئنًا بالنسبة للحياة التي يعيشها ، لا يقلق من أجل رزق ، على الرغم من أنه يسعى لرزقه ، لا يقلق من أجل بناء حياته المعاشية الدنيوية ، على الرغم من أنه مكلف بالسعي إليه .

لا يقلق ذلك لأن ذكر الله ﷻ ، زاد الثقة بالله سبحانه وتعالى في كيانه .
 ألم يقل الله ﷻ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ
 وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه : ١٣٢] . ألم يقل الله ﷻ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ
 ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

كان هذا الكلام يمر بالذهن دون أن يقف الإنسان عنده بيقين ، فلما
 أكثر الإنسان من ذكر الله ، تنامت الثقة بالله ﷻ بين الجوانح . ومن ثم
 يعيش الإنسان ، مهما رأى معكرات الحياة من حوله ، يعيش في طمأنينة .

ثانياً : قلق القلب !!

لكن هذا الذكر ذاته يفجر بين جوانحه قلقاً من نوع آخر ، إنه يفجر
 بين جوانحه القلق من المال . الخوف من العاقبة التي هو آيل إليها . ذلك
 لأنه يعيش مع قول الله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
 رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] . هؤلاء الذين يتحدث عنهم بيان الله ﷻ ، هم
 الذين يؤتون ما آتوا من الطاعات ، ومن البر ، ولكنهم مع ذلك في قلق
 دائم : لعل شائبة من شوائب الأهواء تسربت إلى عملي ، لعل سوءا بدر
 مني فأطار كل الصالحات التي وفقني الله ﷻ إليها .

وهكذا فإن ذكر الله سبحانه وتعالى يحقق نتيجتين ، قد تبدوان متناقضتين ،
 ولكنها متكاملتان في الحقيقة ، والإنسان المؤمن لا يمكن أن يكون عضواً في
 هذا المجتمع المسلم إلا إذا سار مطمئناً إلى ثقة الله في مناكب الأرض بالنسبة
 لمعاشه ، ثم سار خائفاً قلقاً وجلاً ، بالنسبة للمال الذي ينتظره .

كل هذا لا يتحقق إلا من خلال ذكر الله سبحانه وتعالى .

مشكلة مهمة تحتاج حلاً:

مع ذلك فالمشكلة التي تشغل البال لا تكمن في هذا الجانب فقط . إن الذي يشغل بالي والذي جعلني أفكر في طرح هذا العلاج ، لعلنا نستعمله ، فتخلص بذلك من كثير من مشكلاتنا ، أننا ونحن نشط للنهوض بكثير من الأعمال الإسلامية ، وأنا لا أتحدث عن الجانحين ولا عن الشاردين الذين أسأل الله لنا ولهم الهداية ، بل أتحدث عن الناس الذين ينشطون في الأعمال الإسلامية ، وينهضون بما يمكن أن نسميه الدعوة - ما الذي نلاحظه؟

نلاحظ أن تنافسا عجيبا يتم على هذا الطريق بين فئات كانت ينبغي أن تكون فئة واحدة ، نلاحظ أن مظاهر من التشاكس تتنامي بين هذه الفئات ، نلاحظ أن الجهود كثيرة ، وأن الأعمال وفيرة ، ثم نبحت عن الثمار لا نكاد نجد ثمارا ، بل أكاد أقول : نجد أنفسنا أمام ذلك المثل العربي القائل : «أسمع جعجعة ولا أرى طحنا» .

سبب المشكلة :

هذه مشكلة ، كلنا نشعر بها . ترى ما سببها؟ وإلام مردها؟

مردها فيما أتصور أننا نظرنا إلى الإسلام ، وهو أشبه ما يكون بشجرة عظيمة الجذع ، ضاربة بجذورها في تربتها المقدسة ، كثيرة الأغصان . نظرنا إلى هذه الشجرة المباركة ، فتعاملنا منها فقط مع الأغصان ، فضعنا بين هذه الأغصان .

نحن نتعامل مع أنظمة الإسلام الفوقية ، نحن نفهم أو نأخذ من الإسلام أو نخدم الإسلام من حيث إنه مجموعة أحكام ، من حيث إنه

أنظمة تقارع أنظمة . من حيث إنه مبادئ سلوكية عامة ، والإسلام فيه هذا كله ، ولكن هذه الأنظمة كلها مرتبطة بجذع ، فإن أردنا أن نخدم فعلا هذه الأغصان ، فالخدمة تبدأ بخدمة التربة .

إنما تبدأ الخدمة بخدمة هذا الجذع ، نرعى هذا الجذع بالسقيا ، نرعى هذا الجذع بالرعاية . وإذا بالأغصان تنامي ، قد تتكاثر ، ولكنها متفجرة من جذع واحد .

المشكلة التي نعاني منها : أننا اتجهنا رأسا إلى الأغصان ، ولم نسر إلى الأغصان عبر تربية النفس ، لم نسر إلى الأغصان عبر تهذيب النفس ، وليس - لا والله - من سبيل إلى تربية النفس ، إلا أن يتخذ الإنسان لنفسه وظيفة من ذكر الله ﷻ يدوم عليها .

حل المشكلة :

لو أننا بدأنا الرحلة المباركة ، سعيا إلى خدمة الإسلام ، واتجاهها إلى الدعوة إلى الله ﷻ ، من تهذيب القلوب والنفوس ، وتركيب القلوب والضمائر . وكان غذاؤنا دائما في هذا الصدد الإكثار من ذكر الله ﷻ ، كما علمنا رسول الله ﷺ ، وكما كان يفعل المصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذن لرأينا أن الإخلاص يبذل كل هذه الآفات التي نراها على سطح كثير من الحركات والأعمال الإسلامية المباركة إن شاء الله تعالى .

لن يقع تنافس ، لن يقع شقاق ، لن يقع اختلاف ، وفيه يقع الاختلاف؟ وهل وحد الناس إلا إسلامهم . أفيكون الإسلام الذي وحد الناس من قبل هو ذاته الإسلام الذي يفرق الناس اليوم؟ لا ، والله .

ذكر الله ﷻ سبب للاجتماع والانتلاف:

لو أننا بدأنا أو اتخذنا لأنفسنا غذاء ونحن نسير في رحلتنا المباركة في السعي إلى إقامة المجتمع الإسلامي كما نقول ، لو أننا اتخذنا مع ذلك صباح مساء غذاء من ذكر الله ﷻ ، لأشرقت حنايا قلوبنا بحب عظيم لله ﷻ ، تحترق كل أنواع المحبة في ضرامها ، ولرأينا أنفسنا مشدودين إلى واحد لا ثاني له ، ألا وهو البحث عن رضى الله سبحانه وتعالى . ومن ثم تتساقط كل الحواجز ، وكل الفوارق .

قد نعيش في اختلاف ، لكنها اختلافات تعاونية ، وليس اختلافا يبعث على شقاق .

ولقد بحثت طويلا عن أي طريق آخر يجعل هذه الأعمال الإسلامية على صعيد عالمنا العربي والإسلامي مكلوءا بعناية الله ، بحثت عن حصن ما ، فلم أجد - لا ، والله - غير حصن ذكر الله سبحانه وتعالى .

تصور خاطئ:

أظن أنني لست مبالغا إن قلت : إن كثيرا من المسلمين آل بهم الأمر إلى أن يتصوروا أن الذكر مهمة ينبغي أن ينصرف إليها العامة من الناس ، أو ينبغي أن ينصرف إليها الذين لا يشغلهم شيء بالنسبة للنهوض بواجب الدعوة إلى الله ﷻ ، وهو تصور خطير للغاية .

بل أنا الذي شاء الباري ﷻ أن أسير في طريق الدعوة إلى الله ، أنا الذي أحتاج إلى الذكر أكثر من غيري . والحديث حديث ذو شجون .

المحاضرة الأربعون بعد المائتين

أثر النية على صحة المعاملات وفسادها في الفقه والقانون

تمهيد:

انطلاقاً من قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» . سألقي نظرة على هذا الحديث ، وكيف تناوله الإمام البخاري ، ثم أتطرق إلى ذكر أهميته ، ونسوق بعض الأحكام التي استنبطت منه ، ثم نخلص إلى الكلام على تأثير النية على صحة المعاملات وفسادها في كل من الفقه الإسلامي ، والقانون الوضعي . وبالله التوفيق .

الحديث كما عند البخاري رحمه الله :

استهل الإمام البخاري كتابه الذي جمع فيه ما ثبت له أنه أصح الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ هكذا : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، وقول الله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣] .

حدثنا الحميدي قال : حدثنا سفيان عن يحيى بن سعيد الأنصاري قال : أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي ، أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

وقد وردت هذه البداية في رواية أبي ذر والأصيلي عن البخاري بغير «باب» ، بينما ثبت ذكر كلمة «باب» في رواية غيرهما .

ومن ذكرها ، لهم فيها ثلاث روايات : باب كيف كان بدء الوحي ،
وباب كيف كان بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي .

الأولى : على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : هذا باب يذكر فيه كيف
كان بدء الوحي .

والثانية : بنفس الإعراب إلا أنه على تقدير : هذا باب ذكر كيفية بدء
الوحي .

والثالثة : فتحمل على أن كلمة : «باب» سقت للتعداد ، ولذلك لا محل
لها من الإعراب . ويكون ما بعدها وهو : كيف كان بدء الوحي ، مفعولا
لفعل محذوف ، تقديره : أذكر كيفية بدء الوحي ، أو في محل جر على تقدير :
أبتدئ بذكر كيفية بدء الوحي .

أول الانتقادات على «صحيح البخاري»:

أول انتقاد وجه إلى البخاري في «صحيحه» ، يتمثل في كونه لم يبدأ
بحمد الله ، ولا بشهادة التوحيد ، مما يعد مخالفة للحديثين اللذين رواهما
المحدثون ، مثل أبي داود وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ
قال : «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» ^(١) وقوله ﷺ :
«كل خطبة ليس فيها شهادة فهي كاليد الجذماء» ^(٢) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الترمذي (١١٠٦) ، وأبو داود (٤٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال
الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

الرد على ذلك:

أجيب على هذا الانتقاد بجوابين : أحدهما : أن هذين الحديثين لا يتوفران على الشروط التي اشترطها الإمام البخاري للحديث الصحيح ، مما يعني أنهما لا يعتبران صحيحين عنده ، ولذلك لم يعمل بهما ، ومن ثم لا يمكن الاحتجاج عليه بما ورد فيهما .

ولكننا لا نتفق مع أصحاب هذا الجواب ، لأن هذين الحديثين مما تلقته الأمة بالقبول ، ومضى العمل على مقتضاهما منذ عهد رسول الله ﷺ حيث دأب ﷺ على أن يبدأ كل خطبه ورسائله وكتبه بالحمد والتشهد ، وكذلك فعل الصحابة والتابعون ، وكل من ألف أو كتب في علم من العلوم الإسلامية .

أما الجواب الثاني : فهو يتلخص في أن هذين الحديثين لا يدلان على وجوب كتابة الحمد والشهادة في أول الكتاب أو الخطبة ، وإنما يدلان على الأمر بالبدء بالحمد والتشهد .

ومما لا شك فيه أن البخاري لم يكتب حرفاً من كتابه إلا بعد أن حمد الله واستعان به ، وصلى على رسوله .

وهذا الجواب وإن كان مقبولا ، إلا أنه لا يكفي في الاعتذار عن الإمام البخاري . إلا أن يقال : إنه بادر إلى البداية بكلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ ، أمثالا لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات : ١] . خصوصا وأنه افتتح كتابه بهذا الحديث ليبين حسن نيته في تأليفه لهذا الكتاب ، وأنه إنما قصد به وجه الله وخدمة سنة رسوله .

علة جمع البخاري بين الآية والحديث:

قد علل بعض الشراح جمع البخاري في أول كتابه بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ليشعرنا بأن الديانات السماوية كلها تشتمل على هذه القاعدة، فكأنه قال: إن الله أوحى إلى الرسل منذ نوح إلى محمد ﷺ: أن الأعمال بالنيات.

وقال آخرون: إنه لما كان الغرض من هذا الكتاب الذي ألفه البخاري جمع السنة، فقد صدره ببدء الوحي. ولما كان المقصود من الوحي بيان الأعمال الشرعية، فقد ثنى بحديث الأعمال بالنيات، ليبين أن الأعمال الشرعية كلها تعتبر بمقاصدها ونيات أصحابها.

وأرى أنه لا مانع من أن يكون البخاري قد قصد بافتتاح كتابه المخصص لجمع السنة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: أن يبين ويؤكد أن السنة التي سيجمعها وحي أيضا، أوحى الله بها إلى نبيه ﷺ، كما أوحى إليه القرآن، وأن مرتبتها في الشريعة الإسلامية لا تقل عن مرتبة القرآن، ما دام أن كلا منهما من عند الله.

الحديث من حيث الرواية:

هذا الحديث باللفظ الذي رواه الإمام البخاري من الأحاديث المشهورة التي رويت قبل عصر التدوين برواية الآحاد، ثم اشتهرت في عصر التدوين، وتلقاها العلماء بالقبول، وتنقلها المحدثون في جميع الآفاق.

ذلك أن هذا الحديث لم يروه عن النبي ﷺ إلا عمر بن الخطاب، ولم يروه عن عمر إلا صحابي واحد هو علقمة، ولم يروه عن علقمة إلا محمد

ابن إبراهيم ، ولم يروه عن محمد بن إبراهيم إلا يحيى بن سعيد ، ثم اشتهر بعد ذلك حتى بلغ عدد من رواه عن يحيى بن سعيد مائتين وخمسين ، وقيل : ثلاثمائة ، وقيل : سبعمائة ، وإن كان العلامة ابن حجر استبعد هذا المعنى ، هذه الأعداد ، وذكر أنه تتبع رواته عن يحيى بن سعيد ، فما قدر على أن يكمل المائة . ولكن مع ذلك يبقى حديثا مشهورا ، لأن الحديث الذي يروى عن مائة من الناس على الأقل ، حديث مشهور .

أحاديث أخرى في معنى هذا الحديث :

إذا تبين لنا أنه حديث مشهور من حيث وروده بهذا اللفظ ، فإنه من المتواتر المعنوي ، لأن الأحاديث التي وردت في معناه عديدة جداً ، ومن روايات مختلفة ، وبألفاظ تدل على نفس القاعدة .

منها الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» . ومنها الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه : «أن الناس يبعثون على نياتهم» ، وغيرهما .

إيراد البخاري للحديث مختصراً في أول كتابه :

ينبغي الإشارة إلى أن هذا الحديث أورده البخاري في أول كتابه مختصراً ، حيث اقتصر كما رأينا على وجه واحد من الوجهين اللذين قسم إليهما النبي ﷺ هجرة المهاجر . فقد قال ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

اختلاف الشراح في سبب ذلك:

نجد البخاري اقتصر على الشق الثاني في هذه البداية ، وقد اختلف الشراح في سبب هذا الخرم وممن وقع ، وفي ذلك يقول الخطابي شارح «الصحيح» : وقع هذا الحديث في روايتنا ، وجميع نسخ أصحابنا مخروما قد ذهب شطره . ولست أدري - يقول الخطابي - كيف وقع هذا الإغفال ، ومن جهة من عرض من رواته . فقد ذكره البخاري من غير طريق الحميدي مستوفى ، وقد رواه لنا الأثبات من طريق الحميدي تاما .

والغالب أن الخطابي إنما يتستر على البخاري ، وإلا فهو يعلم كما يعلم جميع المهتمين بالحديث ، أن هذا الإسقاط وقع من البخاري نفسه ، كما يقع منه في غير هذا الحديث ، حيث إنه يعمد إلى اختصار الحديث ، حينما يعيده بعد أن يذكره كاملا ؛ غير أنه في هذه المرة خالف قاعدته هذه ، حينما بدأ بالحديث مختصرا ، ثم ساقه بعد ذلك في مكان آخر مطولا ، كما هو الحال في كتاب الأيمان والندور .

ولذلك يقول العلامة ابن العربي : لا عذر للبخاري في إسقاطه ، لأن الحميدي شيخه قد رواه في مسنده تاما .

اعتذار العلماء عن الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ :

بعض العلماء اعتذروا عن البخاري بأنه ربما حذف تلك الجملة التي تحدد الجزاء على العمل ، الذي يكون خالصا لوجه الله ، مخافة أن يفهم من تصريحه بها أنه يزكي نفسه ، وأنه يتباهى بأن عمله في جمع الحديث الصحيح كان بنية خالصة لله ، امثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢] . ويمكن أن يكون قد قصد بحذفه أيضا

لبعض ألفاظ الحديث أن ينبه من أول الأمر على أنه يتفق مع العلماء الذين يميزون رواية الحديث مختصرة ، والإتيان بمعناه دون ألفاظه .

ذلك أن أغلب المحدثين أجازوا أن يقتصر الراوي على جزء من الحديث حينما يتطلب الأمر ذلك ، كما هو الحال في معرض الاحتجاج ، ولكن يشترط حينئذ أن يكون الراوي عارفاً ببداية الكلام ونهايته ، لأن ذلك يجنبه ما يمكن أن يقع من خطأ عند تقطيع الحديث وحذف ما له تعلق بالمذكور .

اختلاف الرواة في قوله ﷺ : الأعمال بالنيات :

إن هذه الرواية وردت بلفظ : «الأعمال بالنيات» ، بالجمع فيها ، إما لإفادة أن الأعمال كثيرة ، وأن لكل عمل منها نية تخصه ، وإما ليدل على أنه قد تكون لكل عمل من هذه الأعمال عدة نيات تدفع إليه ، ويهدف صاحبه إليها جميعاً .

ووقع في معظم الروايات بلفظ : «إنما الأعمال بالنية»^(١) ، وتعني هذه الرواية : أن الأعمال لها مصادر متعددة ، هي المعبر عنها بالجوارح ، حيث إن عمل اليد غير عمل اللسان ، وعمل السمع غير عمل العين ، ولذلك كان من المناسب التعبير عنها بالجمع : إنما الأعمال .

أما النية فتصدر عن القلب وهو واحد ، فكان من المناسب أن تذكر بالافراد : النية .

وورد في لفظ آخر : «العمل بالنية»^(٢) ، ولفظ العمل حينئذ يراد به العموم أي : لكل عمل نية .

(١) أخرجه البخاري (٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٠) .

مصدر الاختلاف في لفظ الحديث:

نتساءل عن مصدر هذا الاختلاف ، هل وقع من النبي ﷺ ، حيث عبر مرة بلفظ الأعمال بالنيات ، ومرة : الأعمال بالنية . ومرة : العمل بالنية؟ ويؤيد هذا أن النبي ﷺ كان يكرر ما يقوله ثلاث مرات ، لیسمعه أصحابه ويحفظونه . أو إن الاختلاف وقع من الراوي للحديث . ومن هو هذا الراوي الذي عبر مرة بلفظ ، ومرة بلفظ آخر؟

يغلب على الظن أن هذا الخلاف في التعبير لم يقع من النبي ﷺ ؛ لأن الحديث لم يروه إلا عمر بن الخطاب ، مما يدل على أن النبي ﷺ لم يقله إلا مرة واحدة ، ولذلك لم يروه غيره .

ويبعد أن يكرر النبي ﷺ جملة في مناسبة واحدة ، ويغير ألفاظها في نفس المرة ، وإنما نعهد منه ﷺ أنه حينما يكرر كلاما في مرة واحدة ، يأتي بنفس الأسلوب والعبارة ، كما في حديث : «ألا وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور»^(١) ، وكما في قوله ﷺ : «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل»^(٢) ، وكما في قوله ﷺ : «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»^(٣) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الترمذي (١١٠٢) ، وأبو داود (٢٠٨٣) ، وابن ماجه (١٨٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٥) ، وابن ماجه (١٩٦٧) .

ولذلك نرى أن هذا التغيير وقع من الإمام البخاري ، لأنه رواه بسند واحد من ابتدائه إلى انتهائه ، ثم ساقه في موضع تاما ، وفي موضع مقتصرا على بعضه .

حكم رواية الحديث بالمعنى :

أجاز أغلب رجال الحديث أن يروى الحديث بمعناه بشرطين : أحدهما أن يكون من يروي الحديث بمعناه عالما باللغة العربية ودلالات ألفاظها ، وبذلك يتمكن من المحافظة على معنى الحديث عندما يعبر عنه بلفظ غير اللفظ الذي تحمله به . ثانيهما أن لا ينسب الحديث الذي رواه بمعناه إلى أحد كتب الحديث الذي رواه بلفظ آخر ، بحيث لا يقول مثلاً : روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « لا عمل إلا بالنية » ؛ لأن البخاري لم يرو الحديث بهذا اللفظ .

ومعلوم أن ألفاظ المحدثين حبس عليهم لا يجوز تغييرها ، ولأن الناقل يجب أن يكون أميناً في نسبة الألفاظ إلى أصحابها .

بعض ما قيل عن هذا الحديث :

تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم هذا الحديث حتى قالوا : إنه ليس في أخبار النبي ﷺ حديث أجمع من هذا الحديث ، ولا أغنى منه ، ولا أكثر فائدة .

كما اتفق الأئمة : عبد الرحمن بن مهدي ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وعلي بن المديني ، وأبو داود ، والترمذي ، والدارقطني ، وحزمة الكنانى على أنه يمثل ثلث الإسلام .

وقال الشافعي أيضاً : إن هذا الحديث يدخل في سبعين باباً من العلم .

واتفقت كلمة العلماء من محدثين وأصوليين وفقهاء على أن أحكام الشرع جمعت في أربعة أحاديث ، هذا أحدها ، وثانيها قوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »^(١) ، وثالثها حديث : « الحلال بين والحرام بين »^(١) ، ورابعها قوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) .

تعريف النية :

عرف العلماء النية بأنها عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، حالا أو مآلا .

بعض الأحكام المستنبطة من الحديث :

أولاً : أنه لا يجوز لأي شخص أن يقدم على عمل ما قبل أن يعرف حكم الله فيه ، لأن كل عمل لا يكون صحيحا في نظر الشرع إلا إذا اقترن بنية مقبولة ، ولا تقبل النية إلا إذا كان صاحبها يعرف النية التي يقرها الشرع ، ويشترطها في كل عمل .

ثانياً : أن الغافل لا تكليف عليه ؛ لأن النية شرط في العمل ، والغافل لا نية له ، ولذلك لا يطلب منه أن يقوم بعمل غفل عنه ، ولم تتجه نيته إليه .

ثالثاً : أن المعدوم شرعا كالمعدوم حسا ؛ لأن من صلى مثلا وهو ينوي بصلاته التظاهر بقيامه بالواجب أمام الناس فقط ، فكأنه لم يصل بتاتا .

رابعاً : أن العامل لا يحصل له من الأجر إلا ما نواه وقصده بعمله ، ولا يحصل له ما لم ينوه . ولهذا لا يؤجر من صام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس من غير أن ينوي بصومه التقرب إلى الله .

(١) سبق تخريجه .

المستثنى من هذا الحكم:

يستثنى من ذلك بعض الحالات التي دلت أدلة أخرى على حصول الأجر من بعض الأعمال بدون نية فاعلها .

من ذلك : من دخل المسجد وبادر بأداء الصلاة المفروضة قبل أن يجلس فإنه يحصل له - زيادة على أجر تلك الفريضة - أجر تحية المسجد ولو لم ينو بصلاته إلا أداء الفريضة ، ولم يخطر بباله تحية المسجد .

ومن ذلك أيضا من يحرك لسانه بالأدعية أو بالأذكار ، فإنه يحصل له الأجر ولو لم ينو شيئا ، بأن كان غافلا ، أو كان مشغولا أثناء تحريك لسانه بشيء آخر .

خامسا : أن الأجر على العمل لا يثبت إلا من الوقت الذي نوى فيه العامل أنه يقوم بعمله لوجه الله ، ولا تنسحب على ما مضى من ذلك العمل . فمن لم يأكل من طلوع الفجر ، ثم نوى قبل الزوال أن يصوم ذلك اليوم تطوعا ، لم يحصل له الأجر على الصوم إلا ابتداء من وقت نيته ، ولا يحصل له الأجر ابتداء من الفجر ، لأنه لم ينو ، بمعنى أن النية ليس لها أثر رجعي .

المستثنى من هذه القاعدة:

ولكن يستثنى من هذه القاعدة ما ثبت بأدلة أخرى أن النية تنعطف على الماضي ، وذلك تفضلا من الله تعالى .

من ذلكم قوله ﷺ : «من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدركها»^(١) أي : أدرك أجر الجماعة ، كأنه صلى مع الجماعة من أول الصلاة .

(١) أخرجه الترمذي (٥٢٤) ، والنسائي في «المجتبى» (٥٥٣) ، وابن ماجه (١١٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم .

سادسًا: أن العمل الواحد يمكن أن تتعدد فيه النيات الدافعة إليه ،
 والباعثة عليه ، كأن ينوي الإنسان بالدخول إلى المسجد أنه سيؤدي الفريضة
 الواجبة عليه ، وأنه سيحصل على فضيلة الجماعة ، وأنه سيعمر بيت الله ،
 وأنه يتخلى عن الماديات ومشاغل الحياة خلال تلك المدة ، ليلتجئ إلى الله
 ويستعين به . وفي البيع مثلاً ، ينوي أنه يمثل أمر الله بالسعي في الأرض ،
 والعمل المثمر ، وأنه يبتغي الربح الحلال ، وأنه يعمل لإعانة أسرته
 والتوسعة على أولاده وزوجته ، وأنه يعين إخوانه على الحصول على ما
 يعسر عليهم الحصول عليه ، إلى غير ذلك من النيات الحسنة التي تزيد في
 أجر المؤمن من العمل الواحد .

ولهذا كان علماءنا المربون يوصون تلامذتهم ومريديهم بأن يكونوا
 تجاراً مع الله عن طريق تكثير النيات الحسنة في كل عمل مشروع ، عبادة
 كان أو معاملة .

حكم من خلط بين نية حسنة ونية سيئة:

بما أن العمل يتبع النية فإنه مما لا شك فيه أن من خلط في عمله بين نية
 حسنة وأخرى سيئة ، كمن زاول البيع بنية أن يحصل على الربح ، وكان
 الباعث الدافع له على ذلك هو نيته في أن ينفق ذلك الربح على شهواته
 التي لا يقرها الشرع ، فسيجازى على نيته الحسنة والسيئة كليهما .

كما أنه مما لا شك فيه أن من كانت نيته سيئة كلها فإن عمله سيكون كله
 غير مقبول ، وقد اتفقت المذاهب على هذه القاعدة التي تقضي بأن
 الإنسان في الآخرة يجازى على العمل بحسب نيته ، فيكون ما قام به من

أعمال في الدنيا مقبولا ومأجورا عليه إذا كانت نيته موافقة لمراد الشرع ،
وتكون أعماله غير مقبولة إذا كانت مخالفة لمقصود الشرع .

أثر النية على العمل قضائياً :

نتساءل الآن عما إذا كان للنية تأثير على صحة العمل وفساده من الناحية
القضائية . أي : هل يمكن أن نحكم على عمل معين كالبيع أو الهبة بأنه
صحيح أو فاسد ، بالنظر إلى نية صاحبه؟ أو إن أثر النية يقتصر على قبول
العمل أو عدم قبوله في الآخرة؟ أما في الدنيا فإننا نحكم بالصحة أو
الفساد بحسب توفر الأركان والشروط ، بقطع النظر عن النوايا والبواعث؟

وقبل أن أتكلم على آراء الفقهاء المسلمين في هذا الموضوع ، أذكر
بموقف القوانين الوضعية اللاتينية منها بالخصوص ، من تأثير النية على
صحة المعاملات ، ليتأتى لنا أن نقارن بين ما وصلت إليه هذه القوانين في
العصر الحاضر ، وبين ما قرره الفقهاء منذ مئات السنين .

القانون الروماني :

نوجز القول بأن القانون الروماني كان لا يعير للنية أي اهتمام ، لأنه كان
يعتد بالشكليات ، ويشترط لصحة المعاملات أن تأتي على الشكل المطلوب
لتكون صحيحة ، ثم لا يهمه أن تكون نية المتعامل حسنة أو سيئة .

القانون الفرنسي :

هذا ما تمسك به رجال القانون في فرنسا طيلة قرون عديدة ، حيث
انحصرت همتهم في شرح القانون الروماني والتعليق عليه ؛ ولذلك يسمون
بالفقهاء المحشين .

الفقيه دوما وكتابه «القوانين المدنية»:

في القرن السابع عشر أبرز الفقيه المشهور «دوما» في كتابه «القوانين المدنية» وفقا للقانون الطبيعي ، فكرة «السبب» ، ونسقتها تنسيقا لم يكن معروفا من قبل ، مما جعل رجال الفقه يتأثرون به ، وينقلون نظريته إلى القانون المدني عند تدوينه في أوائل القرن التاسع عشر .

ظهور النظرية التقليدية للسبب:

من هذا القانون تسربت هذه الفكرة إلى القوانين المستمدة منه ، وهي التي أصبحت تعرف بالنظرية التقليدية للسبب ، وهي تفرق كما هو معروف ، بين ما يسمى بالسبب القصدي ، أي : النية التي دفعت الإنسان إلى التعاقد ، وبين الباعث أي النوايا التي حركت الإرادة وحفزت صاحبها إلى التصرف ، فاهتمت هذه النظرية بالسبب القصدي ، واشترطت أن يكون مشروعا وموجودا ، واستبعدت البواعث الدافعة فلم تعتبرها مؤثرة على فساد العقد ولو كانت غير مشروعة .

ولهذا لقيت هذه النظرية من النقد والتجريح أكثر مما لقيته من التأييد والقبول ؛ لأنها قصرت عن الدفاع عن المجتمع عن طريق القول ببطالان العقود التي يكون الباعث إليها غير مشروع .

ظهور النظرية الحديثة للسبب:

هذا ما حدا برجال القضاء في فرنسا في أوائل القرن العشرين إلى ابتداء ما يسمى بالنظرية الحديثة في السبب . تلك النظرية التي تتلخص في أنه يجب التوسع في مفهوم السبب المذكور في القانون ، بجعله شاملا للسبب

القصدي المباشر والسبب الدافع إلى التعاقد . أي إنه يجب الاعتداد بالنوايا كلها : المحركة والدافعة ، الشيء الذي يعطي الفرصة للمحاكم لمراقبة العقود ، وحماية المجتمع من ذوي النوايا السيئة .

وبهذا لا تقتصر مهمة السبب على كونه قيذا على الإرادة من الناحية الفنية عند تكوين العقد ، بل يصبح السبب كذلك قيذا على الإرادة من الناحية الاجتماعية ، فيبدو عنصرا خلقيا يحول دون استخدام وسيلة مشروعة ، بنية الوصول إلى أغراض غير مشروعة .

وهكذا أصبحت النظرية الحديثة في السبب تشترط لصحة العقد أن يكون كل من السبب القصدي والباعث مشروعا ، وإلا بطل العقد ، أي أن تكون كل النوايا المحركة والدافعة لتكوين الإرادة طيبة وحسنة .

ونرجع الآن إلى الفقه الإسلامي لنرى أن تطبيق الفقهاء لهذا الحديث وأمثاله مكنهم منذ القديم من الوصول إلى ما لم يتوصل إليه رجال القانون الوضعي إلا في هذا العصر .

أسبقية الشريعة الإسلامية لنظريات أوربا :

نبدأ الموضوع بالإشارة إلى أن الشريعة الإسلامية سجلت سبق المطلق في تقرير مبدأ رضائية العقود قبل أن تعرفه أوربا بقرون عديدة ، وفي ذلك يقول الدكتور المرحوم عبد الرزاق السنهوري : «الذي يلفت النظر في أحكام العقد قاعدة أساسية قررها الفقهاء ، تقضي بأن الإيجاب والقبول وحدهما كافيان في إنشاء العقد ، ووجه الغرابة في ذلك أن هذه القاعدة على بساطتها ، وكونها من بديهيات القانون الحديث لم يصل القانون الروماني

على عراقته إلى تقريرها كقاعدة عامة ، حتى في آخر مراحل تطوره» . انتهى كلام الدكتور عبد الرزاق السنهوري .

وهذا يعني أن الإسلام حرر الإرادة من الشكليات التي كانت القوانين والأعراف السائدة في جميع المجتمعات تفرضها ، وتجعلها شرطا أساسيا في كل تصرف . وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] .

وورد في «صحيح مسلم» ، أن النبي ﷺ : «نهى عن بيع الحصة والمنازمة والملازمة» ، وهي بيوع شكلية كانت سائدة بين العرب .

اعتبار فقهاء الإسلام جميعهم للنوايا والمقاصد :

فيما يتعلق بالنوايا والمقاصد نشير إلى أن الفقهاء المسلمين في جميع المذاهب يتفقون على بطلان العقود التي يكون السبب المباشر فيها غير مشروع ، ولكنهم يسمونه بالمقصد الأصلي أي الغاية التي جعل الشارع العقد طريقا للوصول إلى تحقيقها . ذلك أن المشرع شرع للناس العقود ، للوصول إلى أغراضهم بواسطتها ، وعين لكل عقد مقصدا يجب أن تتجه نية المتعاقد إلى تحقيقه من وراء عقده .

تظاهر أدلة الشرع على اعتبار القصد :

يقول الإمام ابن القيم : «وقد تظاهرت أدلة الشرع وقواعده على أن القصد معتبرة ، وأنها تؤثر في صحة العقد وفساده ، وفي حله وحرمة . وبعد أن أتى بتسعة وتسعين دليلا على منع ما يؤدي إلى الحرام ولو كان

جائزا في نفسه ، قال : وهذا كله يدل على أن صور العقود غير كافية في حلها ، وحصول أحكامها ، إلا إذا لم يقصد بها صاحبها قصدا سيئا .

نماذج ذلك من كتب الفقه المالكي :

بالرجوع إلى كتب الفقه المالكي ، ابتداء من «موطأ الإمام مالك» الذي ألف في أوائل القرن الثاني للهجرة ، أي منذ اثني عشر قرناً ، وانتهاء بـ«نوازل المهدي الوزاني» ، الذي ألف في أوائل القرن الماضي ، نجد أمثلة لا تحصى في جميع أبواب الفقه ، للعقود والتصرفات التي قرر الفقهاء أنها باطلة ؛ لأن نوايا أصحابها كانت سيئة ، والبواعث الدافعة إليها غير مشروعة .

ففي «المدونة» للإمام سحنون : أن إجارة الدكان لمن ينوي أن يبيع فيه خمرا إجارة باطلة .

وفي «الشرح الكبير» للعلامة الدردير : أن كل بيع تبين أن صاحبه نوى به أمرا لا يجوز ، بيع باطل . ومعلوم أن نكاح المتعة نكاح فاسد ؛ لأن الطرفين لا ينويان ما قصده الشرع من الزواج وهو الاستمرار .

وفي باب الوصايا يقرر الفقهاء أن الوصية التي يهدف الموصي من ورائها إلى تحقيق غرض غير مشروع يحكم بطلانها .

وفي باب منع الضرر يصرحون بأن من هدم جداره الذي يستر جاره بنية أن يضر بجاره وأن يفضحه ، يلزم بإعادة بناء ذلك الجدار ، نظرا لنيته السيئة .

غير أنه لما كان الباعث أمرا شخصيا خارجا عن العقد ، ويتغير بتغير نية صاحبه ، لذلك لا يمكن أن يؤدي الباعث غير المشروع إلى بطلان العقد ،

إلا إذا كان متصلا بالطرفين معا ، وإلا لم يكن له أثر على العقد ؛ لأن مبدأ استقرار المعاملات يستدعي أنه لا يمكن أي متعاقد من التحلل من التزامه لمجرد ادعائه أن الباعث الذي دفعه إلى التعاقد كان باعثا غير مشروع .

الخلاف حول درجة اتصال الباعث بطرفي العقد :

بما أن اتصال الباعث بطرفي العقد له درجات ، أعلاها اتفاقهما على الباعث ، وأدناها مجرد علم أحد الطرفين بالباعث الذي دفع صاحبه إلى التعاقد معه ، فقد ثار خلاف بين رجال القانون حول تحديد الدرجة التي يعتبر فيها الباعث الذي دفع أحد المتعاقدين إلى إبرام العقد متصلا بالطرف الآخر ، حتى إذا كان ذلك الباعث غير مشروع ، أمكن الحكم بطلان العقد .

رأي كاربيتان في هذا الأمر :

يتشدد «كاربيتان» وحده في الأمر ، فيرى أن الباعث غير المشروع لا يكون له أثر في أي عقد ، إلا إذا وقع الاتفاق عليه بين الطرفين ، بحيث لو اكترى شخص دارا مثلا ليجعلها ناديا للقمار لم يحكم بطلان العقد ، إلا إذا كان المكري قد تعاقد مع المكثري على هذا الأساس ، وذكر ذلك في العقد صراحة أو ضمنا .

رأي بقية رجال القانون :

أما باقي رجال القانون ، فيفرون بين عقود التبرع وعقود المعاوضات ففي عقود التبرع يرى أكثرهم ، ومنهم «جوسران» أن الباعث غير المشروع يؤدي إلى بطلانها ولو لم يعلمه المتبرع عليه ، أما عقود المعاوضات فلا يكون فيها الباعث غير المشروع مؤديا إلى بطلانها إلا إذا كان الطرف الآخر عالما به .

اعتداد فقهاء الإسلام بالنوايا كلها :

نجد نفس هذه الآراء في الفقه الإسلامي ، فقد رأينا أن فقهاءنا يعتقدون بالنوايا كلها : الدافعة والمحركة ، ويعتبرون العقد الذي يكون الباعث إليه غير مشروع عقدا باطلا .

شرط اتصال الباعث غير المشروع بطرفي العقد :

لكنهم يشترطون أيضا أن يكون الباعث غير المشروع متصلا بالطرفين معا ، وإلا لم يكن مؤثرا في فساد العقد ، وذلك محافظة منهم كذلك على استقرار المعاملات ، وحرصا على مصلحة التعاقد الذي لم يدفعه إلى التعاقد باعث غير مشروع ، ولا اتصل به الباعث الذي دفع صاحبه إلى التعاقد معه .

قد صرح ابن قدامة بهذا الشرط ، حيث قال في «المغني» : إذا ثبت هذا ، يعني حرمة بيع العنب لمن ينوي أن يعصره خمرًا وبطلانه ، فإنما يقول : فإنما يحرم البيع ويبطل إذا علم البائع قصد المشتري ذاك ، إما بقوله أو بقرائن الأحوال .

أسبقيّة فقهاء الإسلام لأهل القانون :

قد استخلصت من كتب الفقه الإسلامي ما يثبت أن فقهاءنا عرفوا نفس الآراء ، التي قال بها رجال القانون ، ونلخصها كما يلي :

أولا : يرى الحنفية والشافعية أن الباعث غير المشروع لا يؤدي إلى بطلان العقد إلا إذا ذكر في العقد صراحة أو ضمنا . جاء في «بدائع الصنائع» ، عند الكلام على إباحة تأجير الدار لمن يتخذها كنيسة ، قولهم : وهذا إذا لم يشترط ذلك في العقد ، أما إذا شرط بأن استأجر ذمي دارا من

مسلم في مصر من أمصار المسلمين ليتخذها مصلى للعامة ، لم تجز الإجارة ، لأنه استئجار على المعصية .

وهذا هو نفس ما يذهب إليه «كاربيتان» كما رأينا .

ثانياً : يفرق المالكية بين التبرعات والمعاوضات ، فيتفقون على أن الباعث غير المشروع يؤدي إلى بطلان التبرعات ولو لم يعلمه المتبرع عليه ، بينما يختلفون فيما يتعلق بعقود المعاوضات ، فمنهم من يجريها مجرى التبرعات ، ومنهم من يرى أن هذه العقود لا تبطل إلا إذا كان الطرف الآخر عالماً بالباعث غير المشروع ، الذي دفع صاحبه إلى التعاقد .

وهذا هو نفس رأي «جوسران» وفريقه .

وهكذا يتبين أن الفقهاء المسلمين توصلوا منذ قرون إلى استنباط الأحكام التي لم يتوصل إليها رجال القانون الوضعي إلا في القرن العشرين ، وأن علماءنا المتقدمين سبقوا هؤلاء المتأخرين إلى تقرير القواعد التي تحافظ على الأخلاق الحميدة ، وتجنب المجتمع من النتائج الوخيمة التي يتوخاها ذوو النوايا السيئة من المعاملات التي يكون ظاهرها مستجمعا للأركان والشروط ، ولكن أصحابها يتخذونها وسيلة لأغراضهم الشخصية التي تضر بالمجتمع ، وتحالف ما قصده الشرع بالمعاملات من النفع العام .

أهلية المسلمين للأسبقية والصدارة:

لا غرابة في أن يسبق المسلمون غيرهم إلى استنباط الأحكام التي تحقق العدالة ، وتدفع الظلم ، وتحارب الرذيلة ، وتقطع الطريق على ذوي النيات السيئة والمقاصد المشبوهة ؛ لأن فقهاءنا يسيرون على هدي المصدرين الخالدين

الذين قال فيها ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي»^(١)، ولأنهم يعملون بإخلاص وتفان، ويعتبرون عملهم جهادا في سبيل الله، وبذلك هداهم الله، ووفقهم لخدمة الصالح العام، تنفيذ لما وعد به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وما تزال هذه الهداية والعناية تحف بالمجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر تعاليمه.



(١) سبق تخرجه .

المحاضرة الحادية والأربعون بعد المائتين

الميزان في القرآن

تمهيد:

المفاتيح الأولى لكل علم ومعرفة هي التعريفات ، أو التعرف على الأسماء والمصطلحات .

وإننا لنلاحظ هذا المفتاح في القصة الأولى للمعرفة البشرية . ففي قصة خلافة آدم ﷺ في الأرض نقرأ قول الله تبارك وتعالى اسمه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٣١-٣٣] قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣١-٣٣] .

إذن فالتعرف على الأسماء هو مفتاح أول لكل علم . وقد ورد في الآثار أن الأسماء التي علمها الله آدم هي الأسماء التي يتعارف بها الناس ، والتي تشمل الناس والدواب ومواقع الأرض من جبال وسهول وأودية ونبات وكل شيء .

تعريف الميزان لغة:

البدار الأول في التعرف على الميزان لغة ينبغي أن يكون بادئ ذي بدء إلى لسان العرب ، فما الميزان في لسان العرب؟

قال أبو منصور الثعالبي : ورأيت العرب يسمون الأوزان التي يوزن بها التمر وغيره المسواة من الحجارة والحديد : الموازين ، واحدها ميزان ، وهي المثاقيل ، واحدها مثقال .

ويقال للآلة التي يوزن بها الأشياء : ميزان أيضا . وروى جويبر عن الضحاك أن الميزان : العدل . قال : وذهب إلى قوله : هذا وزن هذا ، وإن لم يكن مما يوزن . وتأويله أنه قام في النفس مساويا لغيره ، كما يقوم الوزن في مرآة العين . وقال قعنب ابن أم صاحب :

مثل العصافير أحلاما ومقدرة لو يوزنون بزف الريش ما وزنوا

أي لا يساوون .

وعند ابن بري : وازنت بين الشيئين موازنة ووزانا ، وهذا يوازن هذا إذا كان على زنته أو كان يحاذيه .

ومن الأمثلة : قام ميزان النهار ، أي انتصف . ومن معاني الشيء الموزون أنه القدر المعلوم وزنه وقدره .

والميزان المقدار . وقد أنشد ثعلب :

قد كتتم قبل لقائكم ذا مجرة عندي لكل مخاصم ميزانه

أي مقداره .

بعد هذا انتقل إلى المعنى المنهجي ، المستدعي لزوما تسلسلا في الذهن والتفكير ، وتدرجا زمنيا موصولا في السياق . وهذا المعنى المنهجي ، هو مصدر العلم والمعرفة بالميزان . بمعنى : كيف ننطلق من المفهوم اللغوي إلى المفهوم الموضوعي للميزان؟ ومن أين نأخذ هذا المفهوم الموضوعي؟

أثر القرآن الكريم على اللفظ العربي:

إن مصدر العلم بالميزان -موضع الحديث- هو القرآن الكريم . وقبل إيراد النص القرآني ينبغي فتح الوعي على النقلة العظيمة التي انتقلها لفظ

الميزان بعد الاستعمال القرآني . فمن إعجاز القرآن العظيم أنه جدد اللفظ العربي وأحياه ووسع مداه ، ورقاه في الاستعمال ، إذ جعله وعاء لأرفع المعاني ، وأثراها مضمونا ، وأنفسها قيمة ، وأجملها غاية ، مثلا : الصلاة في الإسلام مفهوم ضخم ورفيع ، ومفعم بثروة كبرى من المقاصد والأعمال والأحكام ، ولا شك أن هذا المفهوم قد جدد لفظ الصلاة في لسان العرب ، وارتقى به أيما رقي . وهكذا كان للقرآن العظيم أثر كبير في الارتقاء بلغة العرب ، وتوسيع مداها واستعمالاتها .

ولقد أخذ لفظ الميزان أو اسمه حظه الموفور من السمو القرآني ، حين استعمله القرآن الكريم كونيا وتشريعيا .

مصدر العلم بالميزان وأنواعه :

إن مصدر العلم في قضيتنا هذه ، والقيدها هنا من مقتضى المناسبة فحسب ، هو القرآن الكريم . ولقد علمنا هذا الكتاب الذي فصله الله على علم أن هناك ميزانين : الميزان الكوني ، والميزان التشريعي .

الميزان الكوني :

إن كل شيء في هذا الكون قائم بميزان ، مقدر بقدر ، محسوب بحساب ، مخلوق بحق ، أي بحكمة وثبات واطراد ، وهنا طائفة من الأدلة تنهت في وضوح الدلالة ، وتكامل المضمون ، واتحاد الغاية ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۖ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۖ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۚ ﴾ [الحجر : ١٩-٢١] . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٥﴾ [الرحمن : ٥-٨] . ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۚ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۚ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۚ﴾ [الأعلى : ١-٣] . ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۚ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۚ﴾ [يس : ٣٨-٤٠] . ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۚ﴾ [الفرقان : ٢] . ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ﴾ [يونس : ٥] . ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۚ﴾ [البقرة : ٢٢٠] . ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۚ﴾ [القمر : ٤٩] . ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ﴾ [الطلاق : ٣] .

أثر العلم بالميزان الكوني:

لقد خلق الله تعالى الكون ، وأقامه على ميزان كوني لا يتبدل ، ﴿لَا يَبْدِلُ﴾ [الروم : ٣٠] لماذا؟ من الفقه الكوني أن نعلم أن الوزن والتقدير والجعل والحساب والتسوية ، كل ذلك قائم بالحق ، والحق هو الأمر الثابت ، الذي لا يتغير . ومن المعلوم في دين الإسلام بالضرورة أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض بالحق ، ومن ثم فهي قائمة على سنة الثبات ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ﴾ [الحجر : ٨٥] . لا جرم أن العلم بميزان الله الكوني أعظم وأشرف من أن يكون محض متعة ذهنية تمتع صاحبها بالتصور المجرد فحسب .

العلم بالميزان الكوني يحمل على تعميق الإيمان وثباته :

لا جرم أن الإيمان العميق البصير بالميزان الكوني يحمل المؤمن على أن ينظر إلى الكون نظرة متزنة محسوبة جادة ، وعلى أن يسلك سلوكا مسئولا دوما ، يحمله على العلم الراسخ بأن لا عبث ولا لعب في هذا الكون ، ويكفه عن أن يتخذ الحياة تبطلا وهوا ولعبا . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيشَةٍ لَّوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ أَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [١٦-١٨] .

العلم بالميزان الكوني يحرر من الأوهام والظنون :

كذلك يحمل الميزان الكوني المؤمن على التحرر التام ، والنقاها الكاملة من الظنون والأوهام التي نسج منها الجاهلون تصوراتهم ومفاهيمهم عن السنن والموازين الكونية ، وهي تصورات ومفاهيم تؤدي إلى تحطيم موازين التفاضل الحق بين الناس . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [٢٧-٢٨] .

العلم بالميزان الكوني يحمل على التفكير السديد :

كذلك يحمل الميزان الكوني المؤمن على الترقى اللطيف الشريف إلى مستوى التفكير السديد في الكون : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [١٩٠-١٩١] .

قرن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة صفة أولى الألباب بأنهم يتفكرون في خلق السماوات ، إضافة إلى أنهم يذكرون الله قياما وقعودا . ونتيجة هذا التفكير ما قالوه : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] . نزهوا الله سبحانه وتعالى عن أن يكون هذا الخلق عبثا ، وإن الذين يعتقدون خلق هذا الكون ، عبثا وباطلا أو يقولون هذا القول ، إن مصيرهم إلى النار ، والعياذ بالله .

العلم بالميزان الكوني يحمل على الإيجابية في التعامل :

والإيمان العميق بالميزان الكوني يحمل الإنسان على التعامل السوي المثمر مع هذا الكون . ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ . هنا محل الشاهد ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

العلم بالميزان الكوني يحمل على الاستقامة والسعادة :

وكأين من مهتم بتاريخ الإنسانية وحضارتها ، اهتمام تخصص أو اطلاع ، قد أدرك أن أحد الأسباب الرئيسة في انحراف الناس وتعاستهم هو جهلهم بالميزان الكوني الذي نصبه الله للناس ، وأخضعهم جميعا لحكمه الذي لا يحابي أحدا قط .

محاولات مكروبة للتفلت من الميزان الكوني :

لقد نشأت مذاهب عبثية في القديم والحديث ، تزعم أنه ليست هناك ضوابط ولا غايات وجودية نظامية ، وكانت تلك محاولات مكروبة للتفلت المكشوف من ميزان لا يمكن أن يفلت منه أحد .

ثم نشأت مذاهب تربي الناس ، وتعددهم فلسفيا وعمليا للصدام مع سنن الله وموازينه في الكون . وبقدر جرأة الصدام وحدثه وسرعته كان انهيار تلك المذاهب حادا وسريعا .

الشيوعية خير مثال :

الشيوعية هي المثال القريب للوعي . ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٣﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنْذُرُ ﴿٤﴾ [القمر : ٣-٥] . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ ﴾ [القمر : ٣-٦] . مستقر على السنة المطردة ، قائم على الميزان المنصوب . إن الأصل في سلوك البشر أن يكون مكيفا مع الميزان . ومن هذا التكيف الإبقاء على الكوكب الأرضي صالحا للسكنى كما خلقه الله . ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

بعض آثار الانحراف عن الميزان :

إذا حصل الإفساد على يد الإنسان ، وكانت النتيجة كما وصف الله جل شأنه ، ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

التلوث البيئي وآثاره الضارة :

تلوث البيئة ، والتأثير الضار في الغلاف الجوي ، هو مما كسبت أيدي الناس الذين لم يذكروا بقول الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن : ٧، ٨] . ومن الطغيان في الميزان الإسراف في استعمال كل ما من شأنه أن يلوث بيئة الإنسان وغلافها .

يقول أحد العلماء عن الغلاف الجوي : إن أي استعراض للأسس العلمية للقلق بشأن الغلاف الجوي ، يشير إلى أن المشكلات في الهواء أكثر إزعاجاً مما يبدو لنا من ملاحظتنا اليومية للعالم المحيط بنا . وأحد الأسباب التي تدعو إلى استنتاج أن المشكلات أكثر خطورة مما تبدو هو أن جذورها تتداخل بعمق في طبيعة الحضارة الإنسانية وتاريخها .

ويؤكد هذا السبب أنه ليس هناك حل سهل للمشكلة . هذا عن الميزان الكوني .

الميزان التشريعي:

أما الميزان التشريعي أو الميزان الشرعي ، وهو بلا شك يتسق مع الميزان الكوني وقد عرفنا الميزان الكوني أو شيئاً عنه ، فما الميزان التشريعي؟

الأمر فيه إجمال وتفصيل:

أولاً : الإجمال :

أما الإجمال فقد انتظمته سياقات ثلاثة من الكتاب المبين ، سياق سورة الرحمن : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧-٩] . وسياق سورة الشورى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] . وسياق سورة الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

ثانيا : التفصيل وهو مستويان :

أما التفصيل فهو مستويان : مستوى المفاهيم والكلمات القرآنية المطابقة أو المماثلة لمفهوم الميزان ، ومستوى المجالات المتنوعة التي تستغرقها كلمات الميزان وما في حكمها ، توكيدا بعد توكيد ، وتنسيقا محبوكا معجزا ، يفصل ما أوجزته آية النساء : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

المستوى الأول كلمات ومفاهيم مماثلة :

مستوى الكلمات أو المفاهيم المماثلة : من ذلك كلمة القسط ، ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] . ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة : ٤٢] . ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] . ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] . ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [الأعراف : ٢٩] . ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٥] .

كلمة قسط :

فكلمة «قسط» تعضد في المضمون والمقصد كلمة «ميزان» ، وتنزع معها منزعا واحدا : قيام حياة الناس على ميزان تشريعي نصبه الله لهم ، لأجل أن لا يبغي أحد على أحد .

كلمة عدل:

ومن هذه الكلمات كلمة عدل . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١] . ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] . ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] . ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] .

وأصعد الكلم إلى ذروته فأقول : إن من تمام العدل أن يكون الميزان ثابتا لا يضطرب ولا يطيش ، سواء مثل الميزان في الكلمة المشتقة من الفعل الثلاثي : «وزن» ، أو أنساب مفهومه في كلمتي : القسط والعدل .

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته وعدله أن جعل الميزان خالدا ثابتا لا يثبت ولا يضطرب . فكللمات : «ميزان» و«قسط» و«عدل» هي من كلمات الله في كتابه الكريم . والقرآن ثابت لا يتبدل ، ﴿ وَلَا مُبْدَلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٣٤] ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدَلٌ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥] ، ﴿ لَا بُدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ٦٤] . والثبات مقترن بالخلود والحفظ والعصمة من الهوى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] . ﴿ وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْوَحِيُّ الْيُحْيِي ﴾ [النجم: ٣، ٤] .

المصادر الرئيسية للضلال:

لقد تبين من الاستقراء التاريخي لمسيرة البشرية أن هناك مصدرين رئيسيين للضلال البشري في القديم والحديث : فقدان الميزان ، أو تعمد الانحراف به ، والتطيف فيه ، سواء أكان هذا الميزان حسيا ، أم كان معنويا .

المصدر الأول: فقدان الميزان:

إذا نظر الإنسان إلى الأمم في القديم وفي الحديث يجد أن سبب الضلال وسبب الضياع هو فقدان الميزان الثابت الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على البشر، أو تعمد الانحراف به. وهذا واضح في الأمم غير الإسلامية، وكذلك في الأمة الإسلامية، حتى هذه الأمة التي لديها ميزان ثابت إذا تعمدت الانحراف بهذا الميزان كان لها من الضلال على قدر انحرافها عن هذا الميزان. أما الأمم التي فقدت الميزان وفقدت هداية الله سبحانه وتعالى، فكانت أشد ضلالاً، وأشد ضياعاً لأنها افتقدت هذا الميزان.

كلام الشاطبي حول عصمة الشريعة من التحريف:

للإمام أبي إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ جمل المعية لمحة في هذا المقام، أي في مقام عصمة الشريعة وخلودها.

لمحة عن الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ:

الإمام الشاطبي معروف ومشهور، من أعظم العلماء والمفكرين في تاريخ الفكر الإسلامي. وإذا كان العلماء والمفكرون في بلاد المغرب ليسوا في حاجة إلى التعريف بهذا الإمام أو الحديث عنه، فإننا في بلاد المشرق في حاجة إلى التلمذ عليه، وإلى التعرف على آرائه ودراساته وأبحاثه. ويكفي هذا الإمام العظيم فخراً ما جلاه ووضحه في مقاصد الشريعة وأسرارها وکلياتها، سواء أكان ذلك في الأصول أم الفروع.

هذا الإمام العظيم الذي طرق هذا الموضوع الهام، ولا نزال نعتقد أن في أعناق العلماء ديناً وأمانة عظيمة تجاه هذا العلم الذي ابتدره هذا الإمام، ألا وهو علم المقاصد والأسرار. فنحن في حاجة في حاضرتنا وفي مجتمعاتنا

الإسلامية إلى تجلية هذا العلم ، في حاجة إلى نقله إلى الأمم الأخرى ليدركوا عظمة هذه الشريعة ، وعظمة علمائها ومفكرها .

الأدلة على حفظ الشريعة وخلودها :

هذا الإمام له كلام في عصمة الشريعة الإسلامية وخلودها في كتابه : «الموافقات» . هذا الكتاب العظيم يقول فيه : إن هذه الشريعة المباركة معصومة ، كما أن صاحبها ﷺ معصوم ، وكما أن أمته في ما اجتمعت عليه معصومة ، ويتبين ذلك بوجهين :

الدليل الأول :

الأدلة الدالة على ذلك تصرّحاً وتلويحاً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وقوله : ﴿ كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ﴾ [هود : ١] . فأخبر أنه يحفظ آياته ويحكمها حتى لا يخالطها غيرها ، ولا يداخلها التغير والتبديل . والسنة وإن لم تذكر فإنها مبينة له ، ودائرة حوله ، فهي منه ، وإليه ترجع في معانيها . فكل واحد من الكتاب والسنة يعضد بعضه بعضاً ، ويشد بعضه بعضاً . وهذا يدل على أنه لا غنى للكتاب عن السنة ، لأن السنة النبوية هي بيان لكتاب الله الكريم وتفسير له ، كما أنه لا غنى للسنة عن كتاب الله سبحانه وتعالى ، لأن كتاب الله هو الأصل ، وهو الأساس .

وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . والدين يشمل الكتاب والسنة .

هذا الدليل الأول على عصمة الشريعة ، وهو : حفظها من قبل الله ، كما ذكر هذا الإمام العظيم .

الدليل الثاني:

أما الدليل الثاني، فقال عنه الشاطبي: والثاني: الاعتباري الوجودي من زمن الرسول ﷺ إلى الآن، وذلك أن الله ﷻ وفر دواعي الأمة للذب عن الشريعة والمناضلة عنها بحسب الجملة والتفصيل.

أما القرآن الكريم، فقد قيض الله له حفظة بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف من الأطفال الأصاغر، فضلا عن القراء الأكابر. وهكذا جرى الأمر في جملة الشريعة، فقيض الله لكل علم رجالا حفظه على أيديهم.

ثم طفق هذا الإمام الجليل يشير إلى الفحول الجهابذة في كل علم حفظه الله بهم، ثم استدل الشاطبي بهذا الواقع الوجودي العملي المطرد على أنه تصديق عملي للحفظ المنصوص عليه في الكتاب الكريم.

الميزان الصحيح الذي نحتكم إليه:

تبقى بعد ذلك مسئولية البشر في الاستعداد للاحتكام إلى الميزان المعصوم الثابت الخالد. ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَقَدْ وُهِدَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه الكريم. أما الرد إلى الرسول ﷺ فهو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته ﷺ وهديه بعد مماته. والحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه. فالحمد لله، فإن الأمة ذات الميزان الثابت أحسن حالا، وأسعد وجودا، وأعني بها أمة الإسلام. هي أحسن حالا وأسعد وجودا، وإن انحرفت أو انحرف جمع منها، من الأمم التي فقدت الميزان.

فالأمة ذات الميزان الثابت إذا أسرفت على نفسها ، ثم صحا ضميرها ، وعزمت على المثاب ، فإن قاعدة الرجوع موجودة ، ومقياس الاستقامة منصوب .

عاقبة التنكب عن الميزان الصحيح:

وكأين من آحاد من هذه الأمة قد عثرت أقدامهم فيما لا يليق ، وكأين من أجيال أزها إلى المعاييب من حرفته الأز . بيد أن هذه الآحاد والأجيال ركضت نحو الله من جديد ، وأقبلت تمشي ، فأقبل إليها يهرول جل ثناؤه ، فصلحت واستقامت . كيف تحقق ذلك؟ إنما تحقق بالميزان الثابت المضيء الموحى ، الهادي إلى التي هي أقوم .

أما الأمم التي فقدت الميزان الثابت فكيف تستقيم؟ وبأي مقياس تنوي وتعمل؟ وأي غاية تقصد؟

العلة من سوق هذه المفارقة:

ما سيقّت هذه المفارقات للمفاخرة والمباهاة ، فليس يحسن بمسلم أن يتخذ من نعمة الله عليه ذريعة لتعير الآخرين ، وإنما استدعيت هذه المفارقات ابتغاء أمرين :

الأول : الحفز على ملء الجوانح والمشاعر بمعاني الشكر الجزيل لله على نعمة الإسلام ، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نشكره على نعمه ، ووعدنا المزيد على هذا الشكر : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧] .

الثاني : الترغيب في دعوة الآخرين ليظفروا بما يظفر به المسلمون من الاهتداء بالميزان الثابت ، والمقياس المستقيم ، والمعيار الذي يعرج به الإنسان

إلى ذروة الكمال الميسور . وهذه المعاني ونظائرها هي التي حملت الصحابة رضوان الله عليهم على الخروج من جزيرة العرب هداة مهتدين ، يحبون أن ينعم الناس بما نعموا به من فرقان منير ، ومنهج قويم . وهذه رسالة الأمة الإسلامية في كل وقت ، تأخذ هذه الرسالة رحمة للناس ورحمة للعالمين ، تحرص على أن تخرج الناس بها من الظلمات إلى النور .

هذا هو المستوى الأول في الكلام عن الميزان التشريعي ، وهو مستوى المفاهيم والكلمات القرآنية .

المستوى الثاني: مجالات هدي الميزان التشريعي:

أما المستوى الثاني فهو مستوى المجالات والحقول التي يفصل فيها هدي الميزان . وهذه المجالات تستغرق كل جوانب الحياة في علاقة الإنسان مع خالقه ، في عقيدته وعبادته ، في علاقته مع نفسه ، في مطعمه وملبسه ومنكحه ، في علاقته مع من حوله ، سواء أكانت هذه العلاقة في المجتمع الصغير المحدود الذي يعيش فيه الإنسان ، أم كانت في علاقة المجتمع المسلم والأمة الإسلامية مع المجتمعات الأخرى .

إذن الميزان يستغرق كل جوانب الحياة ، وكل شئون الحياة ، ومن المتعذر استقراء هذه المجالات ، ولكنني أنتقي مجالات محددة ، لها علاقة مباشرة بالتعامل ، وبحياتنا الخاصة والعامة :

ميزان السوق التجارية:

المجال الأول : ميزان السوق التجارية . أي : استقامة السوق على الميزان والقسط والعدل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٢١﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ

مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين : ١ - ٦] . ﴿٧﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٨﴾ [الإسراء : ٣٥] .

مظاهر عناية الرب سبحانه بهذا الأمر:

من جميل عناية الرب تعالى ذكره بهذا الأمر ، أنه ابتعث نبيا رسولا هو شعيب عليه السلام ، لنصب ميزان العدل والقسط لضبط حركة السوق واستقامتها : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [١٧٧] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ [الشعراء : ١٧٧ - ١٨٣] .

قال ابن كثير رحمته الله في «التفسير» : وقد أهلك أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان ، يقصد أمة شعيب .

ميزان القضاء:

المجال الثاني : ميزان القضاء ، والتزام الميزان فيه أظهر وأولى . ذلك أن مسئولية القضاء الأساسية هي نصب ميزان العدالة . ولأمر طارئ اتخذ القضاء في غير بلد الميزان شعارا له .

أمور يستقيم بها ميزان القضاء:

لا يستقيم ميزان القضاء إلا بثلاثة أمور : العلم بالشرع : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] . الحياد

والنزاهة : ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] . اجتناب الهوى :
﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] .

ميزان العلاقة بين الحاكم والمحكوم:

المجال الثالث : ميزان العلاقة بين الحاكم والمحكوم . والركيزة الكبرى
المشتركة لهذا الميزان هي : الموالاة ، وتبادل الولاء : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] .

الحاكم والمحكوم أمة متضامنة ، لا بد أن تكون بينهم الموالاة ، ولا بد أن
يكون بينهم التعاون ، ولا بد أن يكون بينهم التضامن ، ثم يأتي بعد ذلك
التوازن في المسؤوليات والواجبات ، أو الحقوق والواجبات .

ميزان مسئولية الحاكم تجاه المحكوم:

ميزان مسئولية الحاكم تجاه المحكوم هو العدل : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ، والشورى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران :
١٥٩] . وتحقيق المصالح العامة . ولقد قال عمر بن عبدالعزيز رحمته الله : « لو لم
تتم مصالح الناس إلا ببعض من أعضائي لكان ذلك عندي مرضيا » .

فإذا أقام الحاكم العدل والشورى ، وحقق المصالح العامة للأمة ، فإن
على الأمة واجبا ضحيا تجاه هذا الحاكم .

ميزان مسئولية المحكوم تجاه الحاكم:

أول هذا الواجب هو الطاعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد قرن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الأمر بطاعة أولي الأمر، قرنه بطاعة الله وطاعة رسوله، مما يدل دلالة واضحة على أن طاعة أولي الأمر من طاعة الله، ومن طاعة رسوله ﷺ. وأن هذه الطاعة ينبغي أن تكون متفقة مع طاعة الله ومع طاعة رسوله ﷺ.

الواجب الثاني: النصيح بالحسنى. ولقد قال رسول الله ﷺ، موجهها الحديث للأمة في موقفها مع أئمتها وحكامها: «وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وَلَاهِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». والمناصحة فيها معنى الحب، فيها معنى الحرص، فيها معنى التضامن، فيها معنى الرشد. ولا شك أن المناصحة، فيها فوائد عظيمة وكبيرة، تجنبها الأمة من خلال مناصحة أولياء أمورها.

الواجب الثالث: الدعاء له. وأشير إلى قول الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ، في هذا المجال، حينما قال: لو كانت لي دعوة مستجابة لوهبتها للسلطان، وهذا المعنى فيه الحب، وفيه المحبة للحاكم، وفيه المحبة للإمام، وفيه الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى، أن ينصر هذا الإمام، وأن يعين هذا الإمام، وأن يسدد خطواته وأعماله.

هذه هي الركائز الأساسية في علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكوم بالحاكم في ميزان الإسلام.

ميزان المفاهيم والمسالك:

المجال الرابع : ميزان المفاهيم والمسالك . ولا شك أن المفاهيم هي التي تدفع إلى السلوك ، وهي المنطلق الأول للأعمال . وهذا الميزان يقوم على التوسط والاعتدال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وعلى الرفق : إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وعلى مجافاة الغلو في القول والعمل والسلوك . يقول ﷺ : «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»^(١) .

ميزان الأعمال:

المجال الخامس : ميزان الأعمال . ويقوم على العلم بالإيمان الصحيح ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] . والعلم قبل القول والعمل ، ويقوم على صلاح النية : «إنما الأعمال بالنيات» . ويقوم على المنافع العامة : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] . ويقوم على الإبداع والإحسان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢] .

(١) سبق تخريجه .

ميزان الصلة بالتاريخ:

المجال السادس: ميزان الصلة بالتاريخ. ويقوم هذا الميزان على دعامتين متكاملتين أو متساندتين: دعامة الاعتزاز بصالح من سلف، والاعتداء بهم. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ودعامة التعرض لفضل الله في فهم الدين، وهو فضل عداه سبحانه إلى كل جيل. قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢] ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الجمعة: ٣، ٤].

ميزان العلاقات الدولية:

المجال السابع: ميزان العلاقات الدولية. ويقوم هذا الميزان على التعارف ابتغاء التفاهم، وتبادل المنافع: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. كما يقوم على العدل مع الآخرين، وإن كانوا ذوي شنان: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ويقوم على القسط والبر مع من لا يؤذوننا في ديننا، ولا يعطلون مصالح ديننا: ﴿لَا يَنْهَنُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]. وعلى المعاملة بالمثل مع الذين يؤذوننا في ديننا، ويعطلون

مصالح ديانا: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة : ٩] .

ميزان الحوار مع أهل الأديان الأخرى:

المجال الثامن: ميزان الحوار مع أهل الأديان الأخرى ﴿قُلْ يَتَاهَلَّ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ويقوم على مجادلتهم بالحسنى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ميزان الاتصال بالحضارات:

المجال التاسع: ميزان الاتصال بالحضارات. وتوضع هذه الصلة في كفتي الميزان. في الكفة الأولى نفي الجمود. بمعنى أنه لا يجوز الانغلاق دون الآخرين، إذ إن هذا الانغلاق يسد فرص الدعوة ويفوت المصالح الحيوية. ولقد قال رسول الله ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»^(١). وفي الكفة الأخرى نفي الضياع والذوبان، إذ ليس من العدل تجريدها من تميزها الفكري والحضاري، ومن وسطيتها الخاصة.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خلاصة الكلام عن الميزان:

إن هذا الميزان الذي أنزله الله سبحانه وتعالى ونصبه لعباده يتنظم كل مفهوم، وكل نية، وكل عمل، وكل سلوك، وكل مجال من مجالات هذه الحياة. وينبغي أن يوزن ذلك كله بالميزان الحق القسط والعدل ومهما ابتعد الناس عن هذا الميزان، فإنه من المستطاع الرجوع إليه، والتعامل معه بخلوص نية، واستنارة عقل، وثبات إرادة وعزم.

والعودة لا ينبغي أن تكون مجرد أمنية تتمنى العودة أو الاحتكام إلى هذا الميزان، تلزم أن يحيل المفاهيم الآنفة إلى خطط علمية وعملية جادة تتبدى في التربية والتعليم والقضاء، والحركة الثقافية والأدبية، والإعلام والدعوة، والخطاب السياسي، والنشاط الدبلوماسي، وتتبدى في العلاقات الخارجية، كما تتبدى على المستويات المحلية.

وهنا تأتي مسؤولية الأمة الإسلامية، سواء أكان الأمر يتعلق بحكامها، أم بعلمائها ومفكرها والمسؤولين فيها للتخطيط للعودة إلى كتاب الله تعالى واستلهاهم ما فيه من هدي وخير، لتسير هذه الأمة عليه.

خاتمة:

لقد علل الله سبحانه وتعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب بعلّة جليلة كلية، وهي: قيام الناس بالقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

المحاضرة الثانية والأربعون بعد المائتين

دور القاضي في الإسلام

ما تعنيه كلمة قاضٍ وأدلة ذلك:

دور القاضي في الإسلام ، دور فريد ، ليس دور الحكم فقط . أنا لا أعني بالقاضي مجرد من يولى من قبل الحاكم ليخبر بحكم شرعي عن حادثة أو ليلزم بحكم شرعي من يتخاصمون إليه بل يشمل مفهوم القاضي هذا القاضي وكل من يرفع إليه قضية ، سواء في محيط الأسرة ، أو في محيط المجتمع ، ولي من الصدر الإسلامي عدة أدلة على أن القاضي في صدر الإسلام لم يكن يتوقف في قضائه بكتاب الله أو بسنة رسوله ﷺ على أن يولى من قبل الحاكم ، وإنما عادة كما يذكر القرآن : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٣٥] . فالقاضي هو الحكم .

حكم ابن عباس رضي الله عنهما مع المرأتين:

ابن عباس في إحدى المرات رفعت إليه قضية : أن امرأتين كانتا تخيطان ببعض الإبر ، ذلك كما يروي البخاري في «صحيحه» ، وإذا بالإبرة تضر أو تدمي إحدى المرأتين ، وترفع إلي ابن عباس هذه القضية وتدعي على الأخرى أنها أسالت دمها ، ماذا قال ابن عباس رحمهما الله ؟ قال : ويا أروع ما قال : «ذكروها بالله ، واقرأوا عليها قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : ٧٧] إلى آخر الآية وإذا بالمرأة تذكر فعلا ، وتنفى إلى أمر الله ، وتعتزف بأنها هي التي أضرت نفسها .

حكم أم المؤمنين عائشة مع أبي سلمة رضي الله عنهما :

أم المؤمنين عائشة يرفع إليها ، أو يذكر لها أبو سلمة بن عبد الرحمن ذلك كما يروي البخاري أيضا في كتاب المظالم ، أن بينه وبين بعض الناس نزاعاً على أرض ، وإذا بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : يا أبا سلمة ، اجتنب الأرض ، فقد سمعت الرسول ﷺ يقول : « من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة » . إذن فالقاضي الذي أعني الحديث عنه ، أشمل من القاضي المولى أو القاضي الموظف .

سبب اختيار الموضوع :

راقني هذا الموضوع لأن هذا الدور الذي قام به النبي ﷺ ، أول قاض لنا نحن المسلمين ، كان دورا يتمثل في التذكير بالله واليوم الآخر ، كمقتدر على المحاسبة .

بشرية الرسول ﷺ تقتضي حكمه بالظاهر :

بما أن الرسول ﷺ بشر ، وبما أنه يسن لنا إن أردنا أن نقضي في الخصومة ، وهو لا يملك إلا أن يحكم بالظاهر ، وقد يكون الخصم أو أحد الخصمين أبلغ من الآخر في الاحتجاج أو في سياقه الأدلة ، فيأخذ ما ليس له بحق عن طريق المقدمات التي تفضي بالضرورة إلى النتائج ، أو عن طريق القواعد الإسلامية ، البيئة على المدعي ، واليمين على المنكر .

دور النبي ﷺ كقاض في التذكير بالله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ :

كان النبي ﷺ يقوم بدور خاص ، هو الوصول إلى شغف قلب المتقاضيين ، وتعريف كل منهما أن القاضي الأعظم هو الذي يفصل ، وهو الذي يراقب ،

وهو الذي يحاسب ، وهو الذي لا يجوز له أي تحايل مما يمكن أن يتحايل به محام أو مترافع ، «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته» ، يعني أبلغ بحجته أو أقوى أو أمهر أو أشد ذكاء أو تحايلا ، «لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له» ، يعني أحكم ، وأقضي .

نوع الفاء في قوله ﷺ فأقضي :

أرى بعض الشراح أو بعض المصنفين يتركها بدون ضبط بالشكل ، والبعض يذكرها أو يأتي بها منصوبة في رواية أخرى فأحسب . أن الفاء هنا قد تكون استئنافية ، يعني فإنما أقضي له حسب ما أرى أو حسب الأدلة ، أو تكون مترتبة وهي المعروفة بفاء السببية أو واو المعية مترتبة على الترجي الذي ذكرها النبي ﷺ بقوله : «لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له» . وعلى كل فإن المعنى في جوهره لا يختلف ، لكن النبي ﷺ يقول : «فمن قضيت له بحقه شيئا أو فمن قضيت له من أخيه شيئا» .

دلالة التنكير لكلمة شيئا :

كلمة «شيئا» جاءت هنا منكرة لتؤكد على ما أريد أن يظل في مفهوم القاضي ، لماذا؟ لأن كلمة شيئا سوف تتسع للحق المادي ، وللحق الجنائي ، الحق المدني ، الحق الأدبي ، حتى ما بين المرء وزوجه ، أو ما بين المرء وبنيه أو ما بين المرء وجاره ، ما يتعلق بما هو أشمل من أن تكون الحقوق في إطار المال .

عود إلى سبب اختيار الموضوع :

أحب أن أضيف أن هذا الموضوع راقتني بهذا التفرد في هذا الدور الذي لا أكاد ألمح له معلما في القضاء البشري ، ذلك أن هذا الوعظ لا بد أن يؤسس

على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما لم يكن إيمان فكيف يمكن أن يكون وعظا . وقديما قالوا لنوح عليه السلام : ﴿يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود : ٣٢] ، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء : ١٣٦] . لماذا؟ لأنهم كانوا أبعد ما يكونون عن التربية الإيمانية ، أو عن الثقافة الدينية أو عن الممارسة الدينية .

طريقة أوربية :

من الطرائف التي تبعث على الرثاء والإشفاق أن بعض البلاد الأوربية منذ نحو عام تقريبا ظهر فيها بعض الأمراض الخبيثة ، نهوا عليها الأطباء ألا يكونوا متعددين لوظائفهم الطبية ، وألا يجعل كل واحد منهم نفسه واعظا لمرضاه ، هم في هذا منطقيون مع أنفسهم ، لأنهم أبعد ما يكونون عن الإيمان ، لكنهم أيضا أبعد ما يكونون عن القاعدة التي يمكن أن يقوم فيها الطبيب باستئصال شأفة المرض حتى لا يعاوده غير هذا المريض أو حتى لا يعود إلى هذا المريض مرة أخرى .

استخدام الآية والحديث في الوعظ :

إن هذا الموضوع أيضا بعثني على أن أتدارس كيف سلك المحدثون في عرض هذا الموضوع ، البخاري مثلا فرق رواية هذا الحديث ، واستشهد بهذه الآية ، لأن هذه الآية ، وهذا الحديث كليهما وعظ بهما النبي صلى الله عليه وسلم .

وعظ النبي صلى الله عليه وسلم بالآية لرجلين :

الآية وعظ بها النبي صلى الله عليه وسلم رجلين : الأول كان يريد ، أن ينفق سلعته أو يروج سلعته عن طريق اليمين الكاذبة ، يحلف أنه اشتراها بما لم يشتريها

به ، فأنزل الله ﷻ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : ٧٧] الآية .

قصة الرجلين مع النبي ﷺ :

الأشعث بن قيس اختلف أو اختصم مع ابن عم له ، سواء أكان ابن عمه هذا يهوديا كما تحكي بعض الروايات ، أو أسلم بعد هذا ، لأنه نجح معه الوعظ والتأثير ، واختصم الأشعث معه ، وقال النبي ﷺ كما هي القاعدة : «بيتك يا أشعث على أن هذه الأرض لك»^(١) . والصورة تتكرر كثيرا ، لأن الناس الذين تتواصل صلاتهم ، ثم تتقاطع ، الآباء والأجداد يورثون مواريث لا تقسم ، وتكون بيد بعض الورثة ، ويمضي عهد على هذا الوضع لليد ، ثم يأتي من يحس أن له حقا ، ومن تضيق به حاله فيقول : إن هذه الأرض ليست لعمي أو ليست لخالي أو ليست لابن عمي إلى آخره ، وإنما هي ميراث ، فيقال : أقم دليلك أو أقم بيتك ، فلا تكون هناك بينة ، وحيث لا يعود الحق إلا أن يكون هنا معين إيماني يترك ما ليس للمرء فيه بحق أو ما ليس للمرء فيه حق ، على النحو الذي سنورد الآن عن طريق ما جاءنا من السنة النبوية المطهرة .

الأشعث بن قيس اختصم مع ابن عم له ، وطالبه النبي ﷺ بالبينة ، فلم تكن حاضرة ، وقال ﷺ : «إذن يحلف» وإذا بالأشعث يقول : إنه رجل فاجر ، وإنه لو حلف يذهب مالي يا رسول الله ، فإذا برسول الله ﷺ يتلو هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : ٧٧]^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (٦٦٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

الذين شرحوا الحديث والذين تولوا شرح الآية أيضا على أنه لا مانع من أن يكون للآية أكثر من سبب نزول ، والعبرة كما هو معلوم في القضية أو القاعدة المشهورة ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . سواء أكان هذا سبب نزول أو ذاك .

أثر الآية الكريمة في الوعظ:

إن التأثير بالآية كان ناجحا وكان مفيدا ، لأن هذا الذي ذُكر بهذه الآية ربما مست شغاف قلبه ، وإذا به يعود إلى النبي ﷺ يقول : يا رسول الله : «أصلح ما بيني وبينه» ، في إحدى الروايات أن من كانت يده على هذه الأرض قال : «ماذا لمن تركها يا رسول الله؟» لأن في بعض الروايات تقول : إن امرأ القيس اختصم مع حضرمي ، وإن امرأ القيس كان هو الذي وضع يده ، وإنه قال للنبي ﷺ ماذا لمن ترك يا رسول الله؟ قال : «الجنة» .

متابعة أحداث القصة:

نحن بين أمرين : أحدهما محق والآخر مبطل ، أما المحق فهو يوشك أن يضع يده لكنه ليست معه بينة ، هذا مبطل يحذر ، فإذا به يقول : ماذا لي إن تركتها؟ لك إن تركتها الجنة ، ولغيرك إن ظل ممسكا بها النار ، وإذا بنا نرى الاثنين معا كما تأتي قصة أخرى ، كما تحكيها أم سلمة في هذا : «إنكم تختصمون إلي» . فأصلها أن النبي ﷺ سمع جلبة بباب حجرته ، فخرج ولم يكن يسمع ثم يسكت فخرج : ماذا؟ وحكوا القصة المقاربة لهذا الذي سقته الآن ، وقال ﷺ موعظته هذه : «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» يعني لا يكن همكم أن يكون المرء أقوى

حجة من غيره ، ولا يكن هدفكم أن يظفر أحدكم بهذه اللعاعة من الدنيا ، فانظروا ماذا بعد «فمن قطعت له بحق أخيه شيئاً أو من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه» . في رواية ثانية : «فليأخذها أو ليتركها» . وسنعود إلى هذه النقطة بعد قليل ، لكن بعض الروايات تقول : إن كلا الخصمين عندما استمع إلى هذا الحديث النذير ، وقد بعث النبي ﷺ بشيرا ونذيرا ، عندما تحدث النبي ﷺ بهذه النذارة ، إذا بكل منهما يقول ماذا؟ يقول كل منهما : حقي لصحابي ، ويرفع كل منهما يده عن هذه الأرض .

من ثمرات التربية النبوية :

لعلنا نستغرب كيف يكون المرء محقا ويرفع يده عما هو بحق له . لقد تعلموا من النبي ﷺ أن من ترك حقه ، له الجنة ، كما تعلموا منه أن من أخذ حق غيره له النار ، إذن من الذي يقوم عن هذا الأمر الدنيوي أو المادي ، إن كان صاحب حق فعوضه الجنة ولا عوض بعده ولا تثنين أعظم منه ، وإن كان مبطلا فما له يأخذ شيئاً يساق به إلى النار أو يأتي به . كما تحكي بعض الروايات علامة من العلامات التي تدل على أنه قد أخذ حق غيره ، كما قال النبي ﷺ : «يجيء به إسظاما» يعني قطعة من النار يوم القيامة ، وهذا يقولون عنه من مجاز التشبيه ، يعني يعذب بالنار كما لو كانت النار قطعة فعلا يحملها أو يعذب بها . إذن هذا الذي رأيناه أو شهدناه لم نجده على الساحة التي نشهد فيها الآن قضاء .

قضاء النبي ﷺ بين الرجلين :

ماذا قال ﷺ عندما استمع من كل منهما سماع حق وصدق أنه لا يجب أن يأخذ هذه الأرض ، قال -ويا أروع ما قال : «أما وإذ قتلتما ما قتلتما أو فعلتما ما

فعلتما لأنهما معا بكيا ، قال : **«فاذهبا فاققسماها ، ثم تحروا الحق ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه»** ، ما أروع هذا البيان! ولا أكاد أقف على هذه الصورة من قاض بشري عبر التاريخ . اذهبا فاققسماها . ممكن لأي قاض عند النزاع على شيء أن يقول : اذهبا فاققسما ، ثم تحروا الحقيقة ، أو توخوا الحق والعدل ، هذا أمر نبوي ، ثم ماذا؟ ثم استهما ، أيضا لنقول : إن القرعة إحدى الوسائل التي تحسم النزاعات ، لكن أن يصل الأمر إلى نبينا ﷺ أن يقول بعد هذا كله ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه ، يعني لتطب نفسيكما ، أو ليطب كل منكما نفسه ، ولا يكن مما يداخلكم أو لا يكن مترسبا في نفس أي منكم شيء ، بل يسامح كل منكما صاحبه وهذا الذي نقول : إن للقاضي دورا أن لا يقف عند حد الإعلام بالحكم أو الإلزام به ، لا ، إن له دورا ، لماذا؟ لأن هناك حرصا وسوف أسوق له الدليل الآن .

حرص الشريعة على إزالة العداء بين المسلمين :

إن هناك حرصا من الشريعة الإسلامية على أن لا يكون هناك عداء ، وأن لا يكون هناك صراع ، وأن لا يكون هناك شعور عدواني أو سلوك عدواني ، بل أن يخرج الخصمان يدهما معا من المحكمة ، لا أن يخرج كل منهما يتربص بالآخر الدوائر ، أن يقول النبي ﷺ : **«ليحلل كل منكما صاحبه»** ، يعني صاحب الأرض ، لا بد أن تكون نفسه طيبة أن سيأخذ قربه جزءا منها أو قسما منها أو شطرها ، وهذا الذي أخذ هذا الشطر ، ربما تكون في نفسه بعض الترسبات .

أما النصف الآخر أحسن أو أروع أو أكثر رواجاً ، ليحلل كل منكما صاحبه ، وستخرجان معا يدكما معا ، وقلوبكما معا متصافية ، ونفوسكما

متأخية . لماذا؟ لأن الإسلام حريص على أن تكونوا الأسرة الواحدة جميعا ، وعلى أن يكون المجتمع كله جميعا .

لكن إذا تساءلنا متى يمكن أن يتم هذا الأمر ، ومتى يمكن أن يقوم القاضي بهذا الدور؟ لا يمكن أن يقوم به إلا في مناخ إسلامي .

عناية علماء الحديث بالآية والحديث:

من عجب أن علماء المحدثين ، سواء أكانوا مصنفين أم كانوا شراحا ، عنوا بهذا الجانب التربوي أيما عناية ، البخاري مثلا ساق حديث أم سلمة في كتاب المظالم ، ثم في كتاب الشهادات ، ثم في كتاب الإيمان ، ثم في كتاب الحيل ، ثم في كتاب الأحكام ، والأحكام يعني بها كتاب الأقضية أو كتاب القضاء . الآية الكريمة ساقها البخاري وساق قصتها في المظالم في كتاب المظالم ، ثم ساقها بطبيعة الحال في كتاب التفسير ، تفسير سورة آل عمران ، وهي الآية السابعة والسبعون ، ثم في كتاب الإيمان . هذا السياق قد لا يتسع الوقت لعرضه .

بعض أحاديث البخاري في كتاب المظالم:

دعونا نعيش بعض سياقات البخاري في كتاب المظالم ، وهو أول سياق لهذا الحديث ، حديث أم سلمة يسوق قبله عدة أبواب وعدة آيات وعدة أحاديث ، وكأن البخاري يهمس في آذاننا أن من يريد أن يقرأ سطرا من سطور السنة النبوية ، عليه أن يقرأ ما يتصل بهذا السطر سابقا ولاحقا ، يبدأ كتاب المظالم بكتاب المظالم والغصب ، ولا يسوق في هذا الباب أحاديث وإنما يسوق بعض الآيات التي تحذر من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، والتي تنذر بحساب الله تعالى لهذا الظلم في الآخرة ، ثم يشفع هذا الباب بباب القصاص ، قصاص المظالم ، وكأنها أراد البخاري أن يكمل الصورة أنه يحدثنا

أو يتلو علينا الآيات التي تتحدث عن وخامة العقابة في الآخرة ، وما دام الأمر أمر الآخرة ، لماذا لا يسوق حديث المقاصة ، لكنه يسوق حديث المبشر .

حديث أبي سعيد :

يروى البخاري في هذا حديث أبي سعيد الخدري : «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون مظالم بينهم ، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة» . هذه المقاصة سوف يحدثنا بقصتها لكن نوع آخر في الدنيا حتى لا تؤجل هذه المقاصة إلى يوم الآخرة .

حديث ابن عمر رضي الله عنهما :

لكنه بعد أن يذكر هذه المقاصة ويذكر أن المرء لن يذهب إلى الجنة وهو يعشقها وهو يعمل بدخولها إلا بعد هذه المقاصة يرينا منهج الإسلام في تكوين شخصية المسلم ، أو في التأسيس للبناء القيم الذي تتكون به شخصية المسلم ، فيحدثنا في الباب الثالث عن باب لا يظلم المسلم المسلم ، ولا يسلمه . وهذا الباب ، يسوق فيه حديث ابن عمر : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» ثم ينتهي الحديث بقوله ﷺ : «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» .

حديث أنس رضي الله عنه :

«المسلم أخو المسلم» ، إشعار المسلم أو تذكيره بالأخوة هنا له إيجاهه النفسي ، ثم ماذا المسلم أخو المسلم ، فكيف يظلمه؟ بل كيف يسلمه إلى من يظلمه؟ بل كيف لا يكون في حاجته؟ وقد أكون في حاجة إلى أخي المسلم ليرفع عني ظلما ، أو لينقذني من ظلم نفسي ، أو لينقذني أكون ظلما

لغيري . ومن هنا يأتي الباب التالي مباشرة . باب أعن أخاك ظلما أو مظلوما ، وحديث أنس بهذا النص ، ومن المعلوم أن الإسلام عرفنا أو نقلنا إلى مفهوم جديد خاص بهذا الحديث .

حديث أنس رضي الله عنه وحال أهل الجاهلية :

لقد كان المرء في الجاهلية يعين أخاه ظلما أو مظلوما ، وهذا أحد الأمثال التي كان يتمثل بها العربي ، لكن كما يقول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

أو كما يقول القائل : أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب . لا ، لقد جاء الإسلام ليقول : انصر أخاك ظلما أو مظلوما ، فلما سألوه يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوما يعني نرفع عنه الظلم ، فكيف ننصره ظلما؟ قال : بأن تزجروه عن الظلم ، كأن الإسلام يريد من المسلم ماذا؟ المسلم لا يظلم أخاه ، ولا يسلمه إلى من يظلمه ، ثم إذا رآه وقد ظلمه غيره لا يقف موقف اللامبالي ، ولا يقف موقف السلبية ، وإنما يحاول بحكمته التي يحرص فيها أيضا على العلاقات الحميمة بين أفراد المجتمع أن يرفع الظلم عن أخيه ، فإذا ما رأى أخاه ظلما ، كان عليه هو أن يردعه عن الظلم ، وبالتالي إزالة للمشاعر العدوانية من المجتمع المسلم كهذه الإزالة ، بل أي استقصاء لكل هذه النوازع والدوافع كهذا الاستقصاء الذي يستقصي به البخاري هذا الأمر .

حديث البراء بن عازب :

إن البخاري يحدثنا بعد هذا عما ينبغي أن يشغل به المرء نفسه ، لا يشغل المرء نفسه بأن يظلم إخوته في المجتمع وهو يعلم جليا أن المسلم هو

من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأن المؤمن هو من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، إذن لا ينبغي أو لا يسوغ في عرف الإسلام والعقل أن يشغل المرء نفسه بظلم الآخرين ، وإنما ينبغي أن يكون ما يعمق علاقته بالآخرين ، وبالتالي أراني النبي ﷺ أو أراني البخاري عن طريق إirاده لحديث البراء بن عازب عن واجبات المسلم نحو إخوته المسلمين كيف ينبغي أن يقوم أو أن يشغل نفسه بالواجبات الاجتماعية ، بإشاعة السلام بين أفراد المجتمع ، بعيادة المريض ، بفك العاني أو الأسير ، إلى آخر ما ينبغي أن يقوم به المؤمن ، تعميقاً لأواصر الإنسانية ، وليس تفريقاً بين المؤمنين ، وليس إرصاداً لمن حارب الله ورسوله .

باب الانتصار من الظالم عند البخاري:

إن الإنسان قد يتقاعس عن نصره أخيه الإنسان ، وقد يرى المسلم نفسه وحيداً ، ولماذا نصب القاضي إذن؟ لقد أرانا البخاري أن الإسلام فسح المجال للمرء إذا تقاعس عنه إخوانه ، فلا ينبغي أن يرضى بالذل ولا بالهوان ، وإنما بالطريق الحكيم يرفع ظلامته إلى القاضي لينصفه القاضي ممن ظلمه ، وقد تقاعس عنه أفراد المجتمع ، لكن البخاري يعنون لهذا الباب بعناوين جميلة فيقول : باب الانتصار من الظالم ، ثم يورد قول إبراهيم النخعي عن السلف رضوان الله عليهم أنهم كانوا يكرهون أن يستذلوا ، فإذا قدروا عفووا .

العفو عند المقدرة شيمة أهل الإيمان:

إن البخاري يعطي الفرصة لمن يريد أن يتتصر حتى لا تكون بالنفوس سخائم حقد على أفراد المجتمع ، أمامنا القاضي فلتحاكم إليه . لكن ينبغي أن نعي شيئاً هاماً ، وهو أننا إذا كان الإسلام قد فتح لنا هذا الباب حتى لا نذل

ونخزئ ، فينبغي أن نعفو إذا قدرنا ، تعميقا أيضا لما بيننا من آصرة ينبغي أن نحرص عليها ، حتى إذا قدرنا على خصمنا عفونا . ويورد فيما يورد قوله تعالى : ﴿ وَجَزَّوْاْ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

الإمام البقاعي والحكمة من كلمة «أصلح» :

الإمام البقاعي هنا يلفت نظرنا إلى الحكمة من كلمة «وأصلح» من قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ، لا يكفي أن نعفو ، ولكن ينبغي أن نقبل مساعي الصلح بيننا وبين من نتخاصمه أو من نتحاكم بالقضاء بشأنه ، ينبغي أيضا أن أسعى أنا الخصم في أن أحسن ما بيني وبين الناس . ولا أدل على هذا مما ذكره أو ساقه ابن حجر ، أن أحد الخصمين في قضية الأشعث قال للنبي ﷺ : «أصلح بيني وبينه» . كأن الإسلام في الوقت الذي يفتح فيه باب الانتصاف من الظالم ﴿ وَجَزَّوْاْ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] ، يقيد هذا بأمر هام جدا هو كلمة المماثلة ، لأنه من الذي يمكنه أن يجزي السيئة بمثلها في الكم وفي الكيف؟ إن الذي يشتم بكيفية ، يشتم غيره أضعافا مضاعفة ، إن الذي يضرب باليد ، يضرب بانفعال ، وقد يضرب بكعب السلاح مثلا ، إن المرء قد لا يملك نفسه أن يجزي السيئة بالسيئة . فالذي أتيج لي أن أجزي السيئة بالسيئة لا أزيد ، وقد يضبطني هذا الأمر عن أن أجري إلى الانتصاف النفسي .

باب عفو المظلوم :

يفتح الإسلام بعد هذا باب العفو فيقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] . لا يقتصر على كلمة العفو ، لأن الإسلام يمضي بعيدا بعيدا لا يقتصر على العفو ، ولكن يشرع لنا أن نسعى في إصلاح ما

بيننا ، حتى لا يكون بيننا إلا ما أشارت إليه الآية الكريمة ، حديثا عن النبي ﷺ وعن صحابته : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] . إذن أدلة كما تحكي آية المائدة أيضا : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] . إذن العفو والإصلاح .

وأمر آخر هو الإحسان إلى المسيء .

إن الإسلام يمضي بعيدا حين يفتح باب العفو بعد باب الانتصاف وباب الإصلاح بيني وبين خصمي ، ثم باب ماذا؟ ثم باب الإحسان إلى من ظلمني أو أساء إلي . وإذا كان الأجر لي على العفو ، فماذا يكون الأجر على الإصلاح ، ماذا يكون الأجر إن أحسنت إلى من أساء إلي . ولعلنا نعشو إلى ضوء قوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

باب الظلم ظلمات يوم القيامة :

بعد هذا الباب يحاول البخاري أن يذكرنا مرة أخرى أن لا ننسى أن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ثم يطلع علينا بعد هذا بحديث عن ألد الخصم ، وعن اللاحن بحجته ، وهو تمهيد إذن أي تمهيد لتقويم الظلم في ذاته بعد بيان المنهج ، أو البناء القيم للمسلم في تكوين شخصيته ، بعد بيان الحرص على أن يظل السباح ، وتظل السباحة ، ويظل الوفاق والوئام بين أفراد المجتمع .

انتقال البخاري إلى باب آخر من الصحيح :

يذكرنا بهذا ثم يدلف إلى إحدى وسائل التشبث بأهداب الدنيا ، ومن هذه الوسائل ما أشار إليه بقوله ﷺ : « إن أبغض الرجال الألد الخصم » ، ومن هذه

الوسائل : «لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» ، ومن هذه الوسائل الأيمان أو التوسل باليمين التي يتظاهر بها المرء أن يكون صاحب حق بينما هو غير ذي حق ، وهذه الأمور الثلاثة تحدث عن الاثنين الأولين في كتاب المظالم ، ثم تحدث عن الأمر الآخر في كتاب الأيمان . معنى هذا أن البخاري كان حريصا على أن ينأى بنا عن اللجاجة في الخصومة .

معنى قوله ﷺ : «الألد الخصم» :

والألد إما أن نقول : إنه مأخوذ من اللديدين وهما صفحتا العنق ، إشارة إلى أن لديد الخصم هو ما ذكر البخاري في كتاب الأحكام ، هو الدائم الخصومة ، والخصم هو الشديد صيغة مبالغة . إذن أخذنا الشدة في الخصومة من الخصم ، وأخذنا يعني الاستمرار في الخصومة من الألد ، جمعه لد ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم : ٩٧] يعني عوجا عن الحق ، منحرفين عن الحق ودائمي الخصومة ، هذه الديمومة جاءت من أنه عندما يؤخذ عنه طريق ينسرب إلى طريق آخر ، عندما يتفطن القاضي لحجة أو لمادة قانونية فيأخذ على القاضي من باب آخر ، أو عندما يؤخذ عليه هذا الجانب يأخذ جانبا آخر . إن ألد الخصم هو من يستعمل طاقته وفكره وماله وكل وسائل الإبانة عن أنه صاحب حق ، وهو ليس بصاحب حق . ومن ذلك اليمين ، ومن ذلك اللحن بالحجة . الألد الخصم هو يعني أشد أنواع المتخاصمين ، وهو في تصوري يعم كل الوسائل . وحينما تروي عائشة قوله ﷺ : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» ، معنى هذا أن البخاري يريد أن ينفرنا من أن نكون مستديمي الخصومة ، أو شديدي الخصومة ، وهو يحبنا ولا شك فيما سبق أن حبينا فيه .

سبب تقديم رواية مسلم في حديث أم سلمة :

الوسيلة التالية ما جاء في حديث أم سلمة ، قد اخترت رواية مسلم في صحيحه ، والحق أن هذا الحديث فرقه البخاري فيما سبق أن ذكرت ، وجاء بالصيغ المختلفة هي صيغة الإمام مسلم في «صحيحه» ولم أخترها إلا لأنها هي الأولى ، لأن البخاري عندما يومئ ببعض صيغه إنما يومئ بهذه الإيماة ليوائم بين هذه الصيغة أو بين هذه الرواية ، وبين ما ساق من ترجمة . وكلنا نعرف فقه البخاري في تراجمه ، وإن من أراد أن يأخذ الدليل على أن المحدثين ليسوا زوامل أسفار ، وإنما هم أناس يستنبطون الأحاديث النبوية ليستخرجوا منها أسرارها وأحكامها وفقهها وما ترمي إليه من دلالات ومن إحياءات . المحدثون وعلى رأسهم البخاري ، ركزوا هذه الاستخلاصات في هذه التراجم التي أوما بها البخاري . الإمام مسلم قيل : إنه هو الذي عنون لكتبه ولأبوابه ، وقيل : إن شراحه هم الذين تصدوا لهذه العنونة في أبوابهم ، وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن مسلماً يجمع الروايات في موطن واحد ، أما البخاري فيفرقها . ولهذا كان الذي يريد أن يفيد من البخاري كان عليه أن يقتفي آثار البخاري أو آثار خطوات البخاري في هذه الكتب ، ومن هنا آثرت صيغة أو رواية مسلم ، لأنها هي الرواية الجامعة ، هذه الرواية أيضاً هي أحسن الروايات فيما يتعلق بوضوح الحجة .

وقفة مع رواية البخاري للحديث :

لكنني أردت أن أذكر رواية البخاري . مثلاً البخاري في كتاب الأحكام يذكر من وظائف القاضي موعظة الخصم ، ثم يسوق رواية أم سلمة ،

ويقتصر على قوله : « فلا تأخذه » ، لماذا؟ لقد حاولت أن أستكشف لماذا اقتصر على هذه الرواية فلا يأخذه ، بينما جاء في باب من قضى وقضى له بحق أخيه فلا يأخذه ، فإن قضاء الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، وساق رواية : « فليأخذها أو يتركها » ، وقفت بعض الشيء أو بعض الوقت وقلت : لعل البخاري عندما جاء بباب الموعظة ، الموعظة تعني التحذير والإنذار . إذن فهي تتلاءم تماما مع الرواية فلا يأخذها . وكلا الروايتين قد جاءت وصحت ، أما عندما اطمأن بالعنوان الذي ساقه أولا : من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه إلى آخره لم يكن عليه بأس أن يقول : فليأخذها أو يتركها حتى لا يتصور القارئ أن هذا أمر تخيري ، له أن يأخذ أو يترك ، لأن الأمر هنا ليس أمر تخيير إنما هو أمر تهديد كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] . هناك إذن لمحة أو لمحات عديدة من البخاري .

الجانب التربوي عند البخاري رحمته الله في « صحيحه » :

أحب أن أقول :

إن البخاري رحمته الله يتعب من يجري وراء تراجمه أو وراء رواياته ، لكن البخاري رجل تربوي في المقام الأول ، وإذا كنت أريد أن أختتم هذا الحديث ، فلعلي أريد ترجمة البخاري لهذا الحديث حديث أم سلمة في أبواب الشهادات ، في كتاب الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين ثم يقول - وكأنها يناجي قارئه - قال النبي ﷺ : « لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض » ، ويقتصر على هذا ثم يقول : وقال طاووس وإبراهيم : البينة العادلة أحق من اليمين الفاجرة ، كأنها يريد أن يقول : إن الحق لا يموت

بالتقادم كما هو شأن القانون ، وكأنما يقول : إذا ظهرت البيئة قضينا بها ، وهو يقول : «البيئة أحق بالقضاء» إذن كان البخاري تربويا ، وكنا أحوج ما نكون إلى هذا الأسلوب التربوي لو أننا أردنا أن نأخذ المنهج التربوي من السنة النبوية في قضية كهذه . فعلينا أن نستقصي روايات البخاري بتراجمه في هذه الكتب ، ثم علينا أيضا أن نعدو وراء شراح هذا الحديث في كتب الشروح ، ثم علينا أيضا أن نعقد دراسة مقارنة بين ما عند الله وما عند الناس ، فذلك الدين القيم ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ونحن أمرنا أن نقيم وجهنا حنيفا لله ﷻ . وأحسب أن هذا المنهج بكل مكوناته هو الجدير بأن يربي لنا المسلم الذي ينأى عن العدوانية ، والقاضي الذي يتحرى الحق فيقوم بواجبه في وعظ الخصم . ثم إن المنهج الذي أتى به أساتذتنا المحدثون ليس منهج نقل الرواية فحسب ، وإنما هو منهج علمي ومنهج تربوي في المقام الأول .



المحاضرة الثالثة والأربعون بعد المائتين

أثر التربية الإسلامية في المعاملات

سبب اختيار الموضوع:

إنني قد اخترت لموضوع درسي هذه الوصية النبوية العظيمة ، نظرا لما احتوت عليه من توجيهات حكيمة ونظرات عميقة ، ومنطلقات أساسية لمناهج التربية الإسلامية ، مع ما يترتب على هذه التربية من آثار في سلوك الناس ومعاملاتهم ، ومن ترويضهم على الخير وتوجيههم إلى مطالب الكمال ، وإقامتهم على موارد القناعة والرضا ، وربطهم بأواصر الحب والمودة ، فيسلكون مسالكهم في الحياة ، ويبغون مطالبهم منها ، مراقبين في ذلك حدود الله ، مراعين حقوق الناس ، ولأن كثيرا من المحدثين وقفوا عندها ، واستنبطوا منها أمورا يطالب بالإحاطة بها كل من يخشى الله ويرجو رحمته .

موضوع الدرس حديث أبي ذر رضي الله عنه :

هذه الوصية جاءت في حديث أخرجه الإمام الحافظ ، أبو عيسى الترمذي في «جامعه الصحيح» ، في باب معاشره الناس ، من رواية شيخه إمام الحفاظ ، وسيد العلماء العاملين في زمانه ، سفيان بن سعيد الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، فقيه الكوفة ومفتيها القرشي الأسدي ، عن ميمون بن أبي شبيب الربعي أبي نصر المحدث الفاضل التاجر الخير ، عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «اتق الله حيثما كنت» .

حديث معاذ رضي الله عنه :

أخرجه أيضا بهذا الإسناد عن حبيب عن ميمون عن معاذ عن النبي ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . قال العلامة ابن رجب الحنبلي البغدادي : فهذا الحديث قد اختلف في إسناده ، فقليل فيه : عن حبيب عن ميمون أن النبي ﷺ وصى بذلك ، فيكون مرسلا ، لأن الصحابي منه أسقط ، ورجح الدارقطني هذا المرسل . والحافظ الترمذي قال فيه : حديث حسن . وما وقع في بعض النسخ من تصحيحه فبعيد .

روايات أخرى لوصية النبي ﷺ :

قال البغدادي : وقد روي عن النبي ﷺ أنه وصى بهذه الوصية معاذا وأبا ذر من وجوه آخر .

فقد أخرج البزار من حديث ابن لهيعة عن أبي الزبير عن أبي الطفيل عن معاذ أن النبي ﷺ بعثه إلى قوم ، فقال : يا رسول الله ، أوصني ، فقال : « أفش السلام ، وابذل الطعام ، واستحي من الله استحياء رجل ذي هبة من قومك ، وإذا أسأت فأحسن ، ولتحسن خلقك للناس ما استطعت » .

وخرج الطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن معاذ بن جبل أراد سفرا ، فقال : يا رسول الله ، أوصني ، فقال : « اعبد الله ولا تشرك به شيئا » ، قال : يا رسول الله زدني ، قال : « استقم ، ولتحسن خلقك للناس » .

وأخرج الإمام أحمد من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال له : « أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانته ، وإذا

أسأت فأحسن ، ولا تسألن أحدا عن شيء وإن سقط سوطك ، ولا تقبض أمانة ، ولا تقض بين اثنين .

وأخرج أيضا من حديث آخر عن أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله علمني عملا يقربني من الجنة ويباعدني عن النار ، قال : «إذا عملت سيئة فاعمل حسنة وإنها عشر أمثالها» ، قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال : «هي أحسن الحسنات» .

وخرج ابن عبد البر في «التمهيد» بإسناده عن أنس قال : بعث رسول الله ﷺ معاذا إلى اليمن ، فقال : «يا معاذ ، اتق الله ، وخالق الناس بخلق حسن ، وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة» ، فقال : قلت : يا رسول الله ، لا إله إلا الله من الحسنات؟ قال : «هي من أكبر الحسنات» ، وقد رويت وصية معاذ من حديث عبد الله بن عمرو وغيره بسياق مطول من وجوه ، فليرجع إليه .

المناهج التربوية في وصية النبي ﷺ :

في هذا الحديث الشريف الذي لا تتجاوز كلماته اثنتي عشرة كلمة ، حدد فيه الرسول ﷺ مناهج التربية الإسلامية للإنسان ، ورسم له الاتجاهات الصحيحة للمعاملة الحسنة مع الله ومع عباده . يقول الرسول الأكرم : «اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن» . بهذه الدرر المضيئة ، يرسم الرسول الأكرم الخطوط العريضة للتربية الإسلامية . هذه التربية التي ينفرد الإسلام فيها عن غيره ، في تصوره للمعاني الأخلاقية ، وفي تعميق هذه الأخلاق في كيان الفرد والمجتمع ، كما يختلف عن غيره في تصوره للفعاليات والعوامل الكفيلة بصيانة الحياة ، من كل ما يهدد إنسانيتها ، ومن كل ما يهبط بقيمتها

الأخلاقية ، فهو يحرص أول ما يحرص في نطاق صيانة المجتمع ، وتوفير السلامة له ، وعلى تكوين الأفراد وتربيتهم ، وإعدادهم لمواجهة الحياة ومفاتها بالحكمة والموعظة الحسنة .

أثر هذه التربية على الإنسان :

إن هذه التربية من شأنها أن تحقق لكل فرد قوامته على نفسه ، وسلطانة العقيدي على نوازعه وغرائزه ، حيث تعاف نفسه تلقائيا الخبائث والمنكرات ، دونما حاجة إلى رقابة من الخارج .

ما تهدف إليه وصايا الرسول ﷺ :

المتتبع لوصايا الرسول وتوجيهاته يجدها دائما وأبدا تهدف إلى عقد الصلة الدائمة بين الإنسان وبين ربه في كل لحظة من اللحظات ، تحقيقا لاستقامة حياة الإنسان وخضوعها للمنهج الرباني في جميع مجالات الحياة . إن شعور الإنسان بأن الله قريب منه يسمعه ويراه ، ويحصى حركاته وسكناته ، ويسجل سيئاته وحسناته ، يبعث في نفسه الرهب والرغب والاطمئنان ، الرهب من مخالفة الله وعصيانه ، والرغب في رحمة الله ورضوانه ، والاطمئنان إلى عدله وإحسانه .

تأكيد القرآن الكريم لهذه الأهداف :

القرآن الكريم يشير إلى هذه المعاني في كثير من المواقع والآيات . منها قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [العلق : ١١-١٤] ، وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴿١٥﴾ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي

أَلْأَرْضُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمَّا تَوْسُوسًا بِهِ، فَقَسَفُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

العبادة وأثرها في السمو بالروح الإنسانية:

من أجل بعث هذه الصلة في أعماق الإنسان، شرع الإسلام العبادة لتنظيم وتنمية هذا العروج الروحي، الذي يرتقي بالإنسان دائما إلى الأعلى، ويدفعه دوما إلى الأسمى. إن العبادة في مدلولها الحقيقي ومردودها الأصيل هي بعث للطاقة الروحية التي توقظ القلب وتحية، وتجعله يمارس وظيفته الهادية في حياة الإنسان. وبملاحظة هذه القيم الروحية والمبادئ السامية تستقيم حياة الناس، وتحسن معاملتهم، وتيسر لهم الأمور.

اشتمال الوصية على ثلاثة حقوق:

إن الرسول ﷺ جمع في هذه الوصية - إلى جانب التربية الإنسانية الصحيحة - أحكاما كثيرة وأمورا جليلة يحتاج إلى معرفتها والاطلاع عليها كل أحد، ويطالب بالإحاطة بها كل من يخشى الله ويرجو رحمته، فهي جامعة لحقوق الله وحقوق عباده. والقيام بهذه الحقوق عزيز جدا، لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين، والذين اصطفاهم الله لقيادة الشعوب وتربيتها.

يقول الرسول لمعاذ: «اتق الله حيثما كنت» فهذه الوصية، كما قرأنا في شروحها الكثيرة، تشتمل على ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المكلف، وحق العباد، وأول هذه الحقوق وأهمها حق الله، وهو قول الرسول ﷺ: «اتق الله حيثما كنت». أي في الخلوة والجلوة، والشدة والرخاء، وفي أي زمان أو مكان يكون.

وصية الله ﷻ للأولين والآخرين بالتقوى:

التقوى وصية الله للأولين والآخرين . قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] . وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته ، واجتناب معاصيه .

إضافة التقوى إلى الله ﷻ:

تارة تضاف التقوى إلى اسم الله ﷻ كقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦] ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨] . فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه ، وهو أعظم ما يتقى ، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي . قال تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] . وقال تعالى : ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ [المذثر: ٥٦] . فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في شئون عباده حتى يعبدوه ويطيعوه ، لما يستحقه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس . وفي الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ . قال الله تعالى في الحديث القدسي : «أنا أهل التقوى ، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها آخر فأنا أهل أن أغفر له» .

إضافة التقوى إلى عذاب الله ﷻ أو مكانه أو زمانه :

وتارة تضاف التقوى إلى عذاب الله وإلى مكان عقابه كالنار ، وإلى

زمانه . قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] .
وقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : ٤٨] .

تعريف التقوى :

يدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات ، وترك المحرمات والشبهات ،
وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات ، وترك المكروهات ، وهي أعلى
درجات التقوى . وبعبارة أخرى ، التقوى هي مرحلة النضج الكامل
المتفاعل مع الإسلام والإيمان والإحسان ، فهي علم وعمل ، وهي ملكة
قلبية وسلوك ، وهي حالة ينسجم فيها العقل مع القلب مع الجوارح ،
وهي هبة الله لمن أسلم وآمن وعمل وأحسن .

التقوى من أعظم ثمرات الإيمان :

السائرون إلى الله يقولون : إذا تمكن الإيمان من القلب ورسخت
جذوره في النفس ، أثمر حالة من الحالات التي تفجر الطاقات الكامنة ،
والقوة التي وهبها الله للإنسان ، فينبعث للخير انبعاث المحب ، وينصرف
عن الشر انصراف الكاره ، ويكون شأنه كما وصف الله سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ
اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ
هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [٧] فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٧، ٨] .
هذه الحالة تسمى بالتقوى عندهم ، وقال الرسول ﷺ : « لا يبلغ العبد أن
يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس »^(١) . وإنه

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) من حديث عطية السعدي رضي الله عنه ،

وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

لا يتصف بهذه الصفة إلا من امتحن الله قلوبهم للتقوى ، وأعدهم للقيام بمواريث النبوة ، وأعباء الرسالة ، وهياهم للعبودية الحقة ، والجندية التي لا تخاف في الله لومة لائم . وهذه منزلة لا يصل إليها إلا من راض نفسه بترك الشهوات والشبهات ، وجاهدها في ذات الله حتى تذوق حلاوة الإيمان ، وطعم اليقين .

فالتقوى نتيجة حتمية ، وثمرة طبيعية للشعور بالإيماني العميق الذي يتصل بمراقبة الله ﷻ ، والخشية منه ، والخوف من غضبه وعقابه ، والطمع بعفوه وثوابه .

تعريفات أخرى للتقوى :

هي كما عرفها العلماء : ألا يراك الله حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك ، أو هي كما قال البعض : اتقاء عذاب الله سبحانه بصالح العمل ، والخشية من الله ﷻ في السر والعلن .

ومن هنا كان اهتمام القرآن بالتقوى اهتماما زائدا ، فهو يحض عليها في كثير من آياته البينات ، لأنها جماع كل بر ، ومصدر كل خير ، وأصل كل صلاح للأفراد والجماعات . قال زين الدين أبو الفرج بن رجب البغدادي في شرحه لهذا الحديث : وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات ، ثم قال أبو هريرة وقد سئل عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال : نعم . قال : فكيف صنعت؟ قال إذا رأيت الشوك عدلت عنه وشمريت واجتهدت ، قال : ذاك التقوى . وعلق آخر على هذا فقال : التقوى حساسية في الضمير ، وشفافية في الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوق لأشواك الطريق ، طريق الحياة التي تتجاذبه فيها أشواك الرغائب والشهوات ،

وأشواق المطامع والمطامح ، وأشواق المخاوف والهواجس ، وتقوى الله فضلا عن أنها تملأ قلب المؤمن بخشية الله والمراقبة له ، هي منبع الفضائل كلها ، والسبيل الوحيد في اتقاء المفسد والشرور والآثام والأشواق . بل هي الوسيلة الأولى التي توجد في الفرد وعيه الكامل بمجمعه ولكل من يلتقي معه من أبناء الحياة . وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يُتقى ثم يُتقى ، قالوا : كيف يكون متقيا من لا يرى ما يتقى ؟

أمور لا تتم التقوى بدونها :

تقوى الله لا تتم إلا بأمرين :

أولا : فقه في دين الله ، ومعرفة ما فيه من سمو ونبل وحكمة .

ثانيا : قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة بحمل النفس على الاضطلاع بالتبعات والتكاليف . فبالمعرفة من جانب ، والإرادة من جانب آخر ، يستطيع المرء أن يبصر الطريق ، ويسير على الجادة دون تعثر أو انحراف ، وقد أشار القرآن إلى هذين الأمرين في معرض الثناء على بعض الأنبياء فقال : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص : ٤٥] . فأولو الأيدي : أصحاب القوة ، هم كذلك أصحاب فقه في الدين وبصر به ، هذا عن التقوى .

فضائل المتقين وخصالهم :

أما المتقون فهم في حرز الرحمن وكنفه ، يكلؤهم برعايته ، ويحييهم في عافيته ، ويحفظهم من السوء ، ويمنعهم أحزان الماضي وآلام المستقبل ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أُولِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١٧] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةَ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾ [يونس : ٦٢-
٦٤]. وهم دائماً موضع نظر الله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ
هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨].

قال معاذ بن جبل : ينادى يوم القيامة : أين المتقون ؟ فيقومون في كنف
من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر ، قالوا : من المتقون يا أبا عبد الرحمن ؟
قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله في العبادة ، قال عمر
بن عبد العزيز : ليس تقوى الله بصيام النهار ، ولا بقيام الليل ، والتخليط
فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ،
فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير .

وعن أبي الدرداء قال : تمام التقوى أن يتقي العبد ربه حتى يتقيه من
مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً ،
يكون حجاباً بينه وبين الحرام ، فإن الله قد بين للعباد الذين مصيرهم إليه ،
فقال : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تعمله ، ولا
شيئاً من الشر أن تتقيه .

إذا تمكن خلق التقوى في نفوس الناس ، واستقر في قلوبهم ، سكنت في
مشاعرهم خشية خاشعة لله ، ترجو رحمته ، وتحشى عذابه ، فلا يتصرف
الإنسان في سر أو جهر إلا ووجد لهذا الإحساس صدئ في نفسه ، قد
يقوى عند بعض الناس فيبلغ مبلغ التحكم المطلق . وهنا تتمحض أعمال
الإنسان للخير ، وتخلص للإحسان ، ويصبح في حق الإنسانية شجرة طيبة
مباركة ، تجود بظلها الظليل وثمرها الكريم .

اهتمام التربية الإسلامية بالإنسان ورغباته :

لعل التربية الإسلامية هي أكمل تربية وأقدرها على تنشئة هذا الإنسان المسوئ على تلك الصورة الكريمة ، والمهيأ لإدراك أكرم الغايات وأوفاهها في مطالب الدنيا والآخرة جميعاً . فالإسلام في تربيته يعترف بالإنسان على أنه إنسان ، له مطالبه التي لا تنتهي ، وله آماله التي لا تحد ، ثم يعترف به على أنه بشر يخطئ ويأثم . وعلى هذا التقدير يضع الإسلام منهج التربية الصحيحة للإنسان ، فهو لا يسلبه حقه في الحياة ، ولا يقتل في نفسه ما يحيش بها من رغبات ، ولا يطفئ ما يشع في أعماقه من آمال ، وإنما يهذب من أطماعه الطاغية ، ويصلح من آماله الكاذبة ، ويبصره بالكريم الطيب من الغايات ، ويمثل له السليم المتين من الأسباب ، ثم يدفع به في رفق وقوة إلى مطالبه غير مضيق عليه في اتجاه ، ولا واقف به عند حد .

الحكمة من تشريع التوبة من الذنوب :

إن الإنسان في معرض الخطأ لأنه إنسان ، وهو بمعرض الزلل لأنه بشر ، فإذا أخطأ أو زل كان له إلى الله توبة ، وكان له من الله قبول ومغفرة ، هكذا تقتضي الحكمة الحكيمة ، أن تقيل العاثر من عثرته ، وتمد إليه يدا رحيمة حانية هادئة ، تقوي من عزمه ، وتكشف له معالم الطريق ، ولو جرى الأمر على غير هذا ، فلم يكن للعاثر إقالة ، ولا للمذنب توبة ، لذهب اليأس بالعصاة والمذنبين إلى أحد أمرين : إما إلى عزلة قاتلة في ندم كثيف ، لا تشف منه شعاعة أمل ، وهذا هو المسخ الذي يحيل الإنسان إلى عالم الأموات ، وإما إلى تحلل وانحلال لا يبقى على فضيلة أو خلق ، هكذا تكون موجات اليأس دائماً لا تدفع باليائسين إلا إلى هذين الطرفين المتناقضين المهلكين من أطراف الحياة .

والإسلام لا يترك مذنباً أبداً على يأس ، فهو يفتح باب الأمل والرجاء ، ويدعو العصاة والمذنبين إلى التوبة والاستغفار ، وإنه سبحانه يغفر لهم ما دعوه ورجوه ، مهما عظم الجرم ، وكبر الإثم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَكِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [النساء : ١١٠] . وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] . إنه لا شيء أقتل للنفوس من اليأس . إنه ظلام دامس يقتل ويملاً دنيا الإنسان بالأشباح المخيفة ، والخيالات الكاذبة .

المؤمن مأمور بالتقوى الشاملة التي تصحبه حيثما كان . ولكن إذا خانته عزمه ، وخذله إيمانه في حال من أحوال ضعفه الإنساني فواقع ذنبا أو ارتكب إثماً فذاك ، ولكن له إلى الله رجعة يصحح بها أمره ، ويصلح فيها شأنه . فليتجه إلى الله وليقبل عليه بالعمل الطيب .

«وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ، إن الحسنات يذهبن السيئات . وذهاب السيئة ومحوها يملأ قلب المذنب ثقة و يقينا ، ويعود إليه ما ذهب من طمأنينته ، فيجد نفسه على أرض صلبة ، يستطيع أن يثبت قدميه فوقها ، وأن يتجه قويا إلى غايته . يقول الرسول ﷺ : «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»^(١) .

نظرة الإسلام الرحيمة إلى الإنسانية :

بهذه النظرة الرحيمة ينظر الإسلام إلى الإنسانية ، ويقدم لها الدواء الناجع لدائها ، فلم يجرداها مما فيها من غرائز دافعة إلى حب الحياة ، ورغبات متطلعة

(١) سبق تخريجه .

إلى مباحج الدنيا ومتعها ، وإنما يفيض عليها من تعاليمه السمحة ما يخفف من شدتها ويكسر من حدتها ، ويمسك من جماحها لتستقيم على الطريقة ، آخذة من الدنيا بنصيب ، وذلك جدير بأن يجعل من الإنسان إنسانا بشرا ، لا ملكا كريما ، ولا شيطانا رجيا . إنه الإنسان الذي أراده الله أن يكون خليفة في الأرض : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] الآية .

إنها دنيا الناس ، وأرض البشر ، فيها الخير والشر ، والإحسان والإساءة ، وخير أحوالها أن يكون فيها الخير إلى جانب الشر ، والإحسان إلى جانب الإساءة . أما أن تكون خيرا صرفا وإحسانا خالصا ، فلا .

حق العباد في الحديث الشريف :

نتقل إلى حق العباد . يقول الرسول ﷺ : «وخالق الناس بخلق حسن» . هذا أصل الإسلام كله ، ومجمع أحكامه وتعاليمه ، وإليه تشير الحكمة الإسلامية الماثورة : «الدين المعاملة» . فالمعاملة هي الميزان الذي يوزن به الإنسان وما عليه من خلق ، والمعاملة لا غنى للإنسان عنها في كل يوم من أيام حياته ، بل في كل حركة من حركاته ، فهي التي تربط الإنسان بالمجتمع . إنها المعاملة اليومية التي تجري عليها حياة الناس وأرزاقهم ، وترتبط بها حاجاتهم ومعايشهم . ولهذا حرص الدين على أن يبين للناس المبادئ التي تقوم عليها هذه العلاقة الاجتماعية ، والآداب التي يجب أن يلتزمها الناس في معاملاتهم المالية وغيرها ؛ ليكون ذلك سبيلا إلى التعاون والمودة والثقة بين الناس .

المعاملة أمانة وصدق:

المعاملة أمانة وصدق ، ووفاء بالعهد ، لقول الرسول ﷺ : «ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان»^(١) .

المعاملة أخلاق:

المعاملة أخلاق ، وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، بل إنه لا دين لمن لا خلق له ، ونبينا ﷺ ما بعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، والأخلاق معناها الإعراض عن أعراض الناس ، وأن يعيش الإنسان في مجتمعه عاملا مع غيره ما يحبه لنفسه ، ممثلا أمر رسول الله ﷺ : «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»^(٢) . والإنسان إذا حسنت معاملته للناس ، واستندت على الأخلاق الفاضلة الطيبة ، ضمن حبههم ونال ثقتهم ، واكتسب مدحهم وثناءهم ، وتلك أسباب النجاح ، النجاح الدائم ، الذي يثبت لعواصف الحياة وأعاصيرها ، وهذا ما تشهد به التجربة الواقعة في كل مجال من مجالات الحياة ، وفي أي متجه من متجهاتها . المعاملة الطيبة المستندة إلى خلق كريم هي التي تحقق النجاح وتضمن دوامه واستمراره .

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦ / ٣٨٣) .

قضية الدين المعاملة:

«الدين المعاملة»، قضية صادقة، وتحديد دقيق لحقيقة الدين، وأهداف الهداية الربانية، هذه القضية لو عرفها الناس حق المعرفة لاتخذوها شعارا لهم، وميزانا يزنون به أعمالهم، ومقياسا يقيسون به مدى اتصالهم بالدين الصحيح أو بعدهم عنه، لو عرفوا هذه القضية لجعلوها سبيل نجاحهم، وأصل سعادتهم، ومصدر حياتهم. ولكن كثيرا من الناس عن هذه الحقيقة غافلون.

والمعاملة هي شيء طبيعي يحتاج الناس إليه في كل أعمالهم. والمحسنون الذين يحبهم الله هم الذين يحسنون مع الله في العبادة، ويحسنون مع خلق الله في المعاملة، فالمؤمنون المحسنون هم الذين امتلأت قلوبهم بخشية الله وسلطانه، وآمنوا بغيرته على الحق وعلى الضعيف. ويظهر ذلك الإيمان في أخلاقهم، فلا حقد، ولا حسد، ولا غل، ولا نميمة، ولا تأمر، ولا غير ذلك، كما يظهر ذلك في معاملتهم، فلا غش، ولا تدليس، ولا نكوص عن العهود، ولا مخاصمة، ولا احتيال على أكل أموال الناس بالباطل، ولا كذب في الحديث، ولا تشويه للأقوال ولا خيانة للأمانة.

«الدين المعاملة» عقيدة نقية، وشخصية سخية، وقلوب ودية، كل هذا هو ما تشير إليه هذه العبارة الجامعة المانعة.

أهمية المعاملة في حياة الناس:

العلماء حصروا الإسلام في المعاملة، لأن المعاملة لها أهمية كبيرة في حياة الناس، وإنما حصروها لأهميتها، كما قالوا: الحج عرفة، وكما قالوا: الدين النصيحة، قالوا: الدين المعاملة.

نماذج للمعاملة الحسنة :

المعاملة سنذكر نماذج على حسنها ، كما قال صاحب «الإحياء» في إحيائه .

يونس بن عبيد :

ذكر أن يونس بن عبيد كان عنده حلل مختلفة الأثمان ، حلل قيمة ، كل واحدة منها أربعمئة ، وحلل قيمة ، كل واحدة مائتان ، فذهب إلى المسجد ليصلي ، وخلف ابن أخيه في الدكان ، جاء أعرابي وطلب حلة بأربعمئة ، فعرض عليه ابن أخيه حلة بمائتين ، فرضيها وقبلها ، واشتراها أي بأربعمئة درهم ، فأخذها ومشى بها على يديه ، فلقى يونس بن عبيد في الطريق ، فعرف حلته ، فقال له : بكم اشتريت هذه الحلة ؟ قال : بأربعمئة ، قال : هذه لا تساوي أكثر من مائتين ، ارجع فردها إلى صاحبها ، قال : هذه في بلدنا تباع بخمسمئة ، وأنا ارتضيها فاشتريتها ، قال له : ارجع فإن النصح في الدين خير من الدنيا وما فيها ، فرده إلى الدكان ، ورد عليه مائتين ، وخاصم ابن أخيه ، وقتله ، وقال له : أما استحييت ، أما اتقيت الله ؟ تربح أكثر من الثمن ، وتترك النصح للمسلمين ، فقال له ابن أخيه : والله ما أخذها إلا وهو راض بها ، فقال : فهلا رضيت له ما ترضى لنفسك ؟

عبد الله بن دينار :

ويذكرون هنا مثلاً آخر ، عن عبد الله بن دينار ، قال : خرجت مع عمر ابن الخطاب إلى مكة ، فعرضنا في الطريق ، فانحدر إلينا راع للغنم ، فقال له الخليفة : بعني شاة من هذه الغنم ، قال : إنني مملوك ، قال له : قل لسيدك : أكلها الذئب ، قال الراعي : وأين الله ؟ فبكى عمر بن الخطاب ، وغدا مع الراعي إلى سيده ، فاشتراه منه وأعتقه ، وقال له : أعتقتك هذه

الكلمة في الدنيا ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة . والمعاملة شيء مهم في حياة الناس ، وهذا شيء أهملناه ولا نعد فيه المحاضرات والدروس ، وإن كان ذا أهمية كبرى .

الإيمان وأثره في تربية النفس:

ليس هناك شيء في الحياة له الأثر الأكبر في نفوس الناس كالدين . وإن أول باب سطره النبي ﷺ في كتاب تربية المسلم وتوجيهه هو الإيمان بالله تبارك وتعالى .

قال عبد الله بن جندب : كنا شبانا أقوياء في عهد رسول الله ﷺ ، فأوتينا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فزددنا إيماناً ، ورسول الله ﷺ كان يعمق هذا الإيمان في عواطفهم وقلوبهم مما يتلوه عليهم من آيات القرآن الكريم ، وما يبعث فيهم من روحه الأبية القوية وأخلاقه العلوية فقد سارت فهم سيرة المربي الحكيم ، العليم بالطبائع البشرية ، والغرائز الإنسانية ، واستطاع أن يجعل منهم قدوة قفزت بالدعوة قفزات لم يسجلها التاريخ لدعوة من الدعوات .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يمنحهم ألقاباً ، حفزا لجهودهم ، وتقديراً لأعمالهم ، فقد لقب أبا بكر بالصدیق غداة الإسراء والمعراج ، ولقب عمار بن ياسر بالطيب المطيب ، وفي غزة بدر لقب عمر بن الخطاب بأبي حفص ، ويوم حنين لقب طلحة بالجواد لكثرة إنفاقه على الجيش .

وكان ﷺ يسند إلى الشباب مقاليد القيادة على حداثة أسنانهم ، فقد أعطى الراية يوم بدر لعلي ، وسنه عشرون سنة ، وأعطى زيد بن ثابت الراية يوم تبوك وهو ابن عشرين عاماً ، وعقد اللواء بيده الشريفة لأسامة

بن زيد على جيش ضم كبار الصحابة ، وسنه يومئذ سبع عشرة سنة . وكان هؤلاء الأصحاب الذين نشئوا في المدرسة المحمدية مثلاً عالياً في الإقدام والشجاعة والعلم والمعرفة ، كانوا يحملون لواء النصر إذا جاهدوا ، ويفجرون ينباع العلم إذا فكروا ، ويبسطون لواء العدل إذا حكموا .

التربية الإسلامية ليست حكراً على الرجال :

لم تكن هذه التربية العظيمة التي جاء بها الإسلام ، وأقام عليها دعائم المجتمع المسلم قاصرة على الرجال وحدهم ، بل شملت النساء المسلمات كذلك . وقد برزت في العصور المختلفة كثرات منهن ففي عصر النبوة رأينا السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عارفة بأيام العرب وأشعارهم ، فقيهة فصيحة ، راوية لأحاديث الرسول ﷺ ، ورأينا الخنساء الشاعرة المشهورة ، وموقفها الفذ يوم القادسية ، وقولها عندما علمت باستشهاد أبنائها الأربع في المعركة : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . وكثيرات لا يتسع المقام لذكرهن .



المحاضرة الرابعة والأربعون بعد المائتين

طهارة أصول النبي ﷺ

موضوع الدرس:

حديثنا يتعلق ببعض أحوال رسول الله ﷺ، التي هي جانب مشرق من جوانب سيرته عليه الصلاة والسلام، وهو طهارة محتده.

بالسند المتصل إلى الحافظ الحجة الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: حدثنا محمد بن مهران، ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم جميعاً عن الوليد.

قال محمد بن مهران: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار شداد قال: سمعت واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

جانب الموضوع:

سيكون هذا الموضوع على مرحلتين رئيسيتين؛ لأن الأمر يتطلب الإيجاز، والمجال في الكلام عليه واسع جداً.

أول الجانبين هو: الكلام باختصار على سند الحديث.

والثاني هو: أنني أثناء شرح الحديث، سأعالج طهارة أصول رسول الله ﷺ، وحكم دراسة أحواله ﷺ، وتحقيق المقارنة بين علو النسب وبين ما يشاع من تركيز الحقوق، وكيف أن الله تبارك وتعالى جعل رسوله دائماً يحقق الخير الكامل للإنسانية بكاملها.

الكلام عن سند الحديث:

هذا الحديث الشريف ، شيوخ الإمام مسلم فيه خمسة ، ولكن السند قد تحقق بأربعة إلى الصحابي ، فهو من رباعيات الإمام مسلم .

شيوخ الإمام مسلم في الحديث:

إنما كان شيوخه خمسة لكونه روى مباشرة عن شيخين اثنين ، وهما : محمد بن مهران ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم ؛ لأنه قال : حدثنا محمد ابن مهران ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم .

وكأن الإمام مسلماً أراد أن يتجه إلى جانب واحد في السند ، فقال - بعلمه الدقيق - بلسان حاله : إنني وإن توجهت إلى تركيز السند على محمد ابن مهران ، فإنه موصول كذلك بواسطة محمد بن عبد الرحمن بن سهم ؛ لأنه قال : جميعاً عن الوليد .

فإذا كان محمد بن عبد الرحمن بن سهم يروي عن الوليد ، فإن محمد بن مهران كذلك قد روى عن الوليد حسبما ركز تحقيقه الإمام مسلم ، وما بعد الوليد هو أيضاً متلقي إلى محمد بن عبد الرحمن ، فكان السند بالنسبة للشيخين موصولاً .

ولكن التساؤل هو : لماذا اتجه في تركيز السند إلى محمد بن مهران ، وترك مواصلة السند بواسطة محمد بن عبد الرحمن بن سهم ؟ فبالإمكان أن يجعل هذا السند على حدة ، وذلك السند على حدة . وأن يجعل ذلك السند الآخر على حدة .

إن الأمر ليس أمر اختصار ، بل هناك نكتة ظهرت ، وستبين إن شاء الله من الكلام على شيوخ الإمام مسلم في هذا السند .

الشيخ الأول: محمد بن مهران الرازي:

أول شيوخه الذي تلقى منه مباشرة هو محمد بن مهران الرازي ، أبو جعفر ، من أكبر أئمة الحديث ، وهو من الحفاظ ، روى عنه الإمام البخاري ، والإمام مسلم ، وأبو داود . وروى عن خلق كثير ، من بينهم : ابن علي ، وسواه . ذكره ابن حبان في «الثقات» ، وهو من شيوخ خراسان ، وذكر الإمام البخاري في «تاريخه» أنه توفي سنة تسع وثلاثين ومائتين .

الشيخ الثاني: محمد بن عبد الرحمن:

محمد بن عبد الرحمن - هذا - هو أيضا شيخ الإمام مسلم وقد وثقه ابن حبان ، ولكنه قال : «قد تكون له بعض الأشياء ضعيفة» .

فعل الإمام مسلم لم يتخل - بمقتضى أمانة التلقي - عن النقل عن هذا الرجل ، ونظرا لما وجدنا أن ابن حبان شهد له بكونه ثقة ، ولكنه قد تحدث له في بعض الأحيان عن بعض النقل الضعيف ، عزز الإمام مسلم روايته عن محمد بن مهران بما تلقاه عن محمد بن عبد الرحمن ، واتجه إلى السند إلى محمد بن مهران ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، نجد أن الإمام مسلما يروي الحديث عن محمد بن مهران بصيغة التحديث ، ويرويه محمد بن مهران عن الوليد بالتحديث كذلك ، وعن عطاء بالتحديث كذلك ، فقد تكون روايته عن محمد بن عبد الرحمن ليست موصولة السند بالتحديث إلى عطاء .

وعلى كل حال فإن هذا الشيخ الثاني الذي هو محمد بن عبد الرحمن ، هو أيضا مشهود له بالثقة ، وتوفي سنة ثلاث وأربعين ومائة .

الشيخ الثالث: أبو الوليد القرشي:

شيخهما في الحديث هو: أبو الوليد القرشي، مولى بني أمية، وهو من المحدثين الكبار، شهد له مختلف الذين تكلموا في التعديل والتجريح بالثقة، وهو أيضا من جملة من تلقى عن الثقات، وأعطى الحديث للكثيرين الذين هم أئمة، وتوفي سنة خمس وتسعين ومائة.

الشيخ الرابع: الإمام الأوزاعي:

الشيخ الرابع في هذا السند هو: الأوزاعي، الإمام الكبير، والمحدث الجليل، والفقيه المجتهد، الذي تركز مذهبه في الشام، وانتشر في بعض الفترات حتى وصل إلى المغرب.

هذا الإمام روى عن كثير من التابعين، وتلقى عنه الحديث الكثيرون. قال إسحاق بن راهويه: إذا اجتمع على أمر: الأوزاعي، والثوري، ومالك، وعطاء، فذلك الأمر هو من السنة.

على كل حال، يذكر العلماء علماء مصطلح الحديث أن السند الذي فيه الأوزاعي عن سليمان بن عطية عن مختلف الصحابة هو من أصح أسانيد الشام، ولذلك يقول الإمام السيوطي:

للشام الأوزاعي عن سلمان عن الصحاب فائق إتقاناً

ومن المعلوم أن الإمام السيوطي في «ألفيته»، حين تعرض إلى أصح الأسانيد قسم هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام: إلى أصح الأسانيد مطلقاً، وهذا قد اشترك فيه مع ذكره، الحافظ العراقي في «ألفيته»، واختص هو بذكر أصح الأسانيد إلى بعض الصحابة، وذكر بعض الأسانيد إلى مختلف الأقطار كالشام كما هنا.

الشيخ الخامس: أبو عمار:

الإمام الخامس: هو شداد أبو عمار، هو أيضا ممن تلقى عن كثير من الصحابة، وأعطى الحديث لكثير من التابعين، وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة.

الراوي الأعلى للحديث:

الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع قد أسلم رحمته الله قبل غزوة تبوك وحضرها، وكان من أهل الصفة، كما ذكر ابن إسحاق. ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى جاء إلى الشام، وبقي يجاهد في سبيل الله، وهو آخر من مات من الصحابة في دمشق على ما ذكر الرواة، توفي سنة ثلاث وثمانين.

بعض اللطائف في سند الحديث:

من لطائف هذا السند أنه جمع بين التحديث، والسماع، والعنونة، هذا الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الفضائل قال: باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه. لم ينفرد مسلم بروايته وحده بل رواه أيضا الإمام الترمذي بروايتين اثنتين:

إحدهما السند عنده فيه رباعي. رواه عن خلاد، وخلاد هذا رواه عن محمد بن مصعب، ومصعب رواه عن عطاء إلى آخر السند.

ورواه مرة ثانية عن محمد بن إسماعيل البخاري صاحب «الصحیح»، ومحمد بن إسماعيل رواه عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي. وسليمان هذا رواه عن الوليد عن عطاء عن أبي عامر عن الصحابي الجليل واثلة، فهو خامسي السند.

إلا أن البحث هنا هو أن الحديث حدث به الإمام البخاري لكون الإمام الترمذي قال في سننه : حدثنا محمد بن إسماعيل ، ومحمد بن إسماعيل هو أيضا قال : حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ، فهو قد حدث بالحديث ، ولم يذكره في صحيحه ، فلماذا؟

هذا أمر دعا إلى التنقيب ، لقد وجدت أن الحافظ ابن حجر في «تمهيد التمهيد» . ذكر فيما ذكر الشهادات التي ذكرت عن سليمان بن عبد الرحمن أنه ثقة ، ولكن هو أيضا قد ثبت له أنه روى بعض المناكير .

إذا كان الأمر هكذا ، فالبخاري لم يجمع كل ما سمعه في «صحيحه» ، وإنما جمع ما يتقن أنه تام الصحة ، إلا بعض ما نوقش فيه ، وهو أمر مبسوط ومعروف في كتب الحديث وكتب المصطلح .

وإذن فقد يروي الحديث ولكنه لا يذكره في «صحيحه» ، وقد نصوا على أنه لم يذكر في «صحيح البخاري» ، وفي «صحيح مسلم» ، جميع ما روي عن رسول الله ﷺ من الصحاح ، وبذلك فقد وجد الكثير الكثير من الأحاديث الصحيحة خارج نطاق «كتاب مسلم» ، و«صحيح الإمام البخاري» .

معنى الاصطفاء وأنواعه ومراحله :

قال رسول الله ﷺ : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل» .

الاصطفاء هو : أخذ الشيء الخالص من شيء آخر كان معه ، ولكنه أقل منه . هذا الاصطفاء شهد الله بتحقيقه لكثير ممن اصطفاهم واختارهم ؛ لأن الاصطفاء الذي جعله الله للناس ، إما اصطفاء في أصلهم وتكوينهم وسلسلة وجودهم ، وإما اصطفاء بإنعامات عليهم ، وإما أن يحققه الله بالجمع بين الأمرين فيمن شاء ، فهو سبحانه يذكر بأنه اصطفى سيدنا

آدم ، واصطفى كذلك سيدنا نوحا ، واصطفى إبراهيم وآله ، واصطفى مريم ، وهكذا ، واصطفى موسى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف : ١٤٤] الخ .

مراحل الاصطفاء كما ذكر الإمام ابن العربي هي ثمانية :

أولها اصطفاء الله آدم .

وتأكد مزيد الاصطفاء حين بعث الله نوحا فكان الاصطفاء أقوى في نوح ، خصوصا وقد جعله الله مرسلا يبلغ دعوة لهداية قومه .

ثم الاصطفاء الثالث الذي هو أقوى حققه الله لإبراهيم ، والاصطفاء الرابع الذي هو أقوى حققه الله لإسماعيل .

فهذه الاصطفاءات هي اصطفاءات فردية ، ولكن خيرها تنقل من الفرد ليرتكز في فرد آخر ، ولذلك لم يذكر رسول الله ﷺ الاصطفاء الرابع إلى إسماعيل من سيدنا إبراهيم ، وإلى سيدنا إبراهيم من سيدنا نوح ، وإلى نوح من سيدنا آدم .

فهو ﷺ قد نص على الاصطفاء الذي اتسع نطاقه ليشمل جمعا من الناس وقبيلة من البشر ، فقال : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، أَوْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ» .

بقية ألفاظ الحديث :

الولد جنس «معرفة» يشمل المتعدد ، والولد هو جمع ولد ، إذن فالجماعة المصطفاة التي تبلورت أخيرا في رسول الله ﷺ هي من كنانة . ثم زاد الله في الاصطفاء حتى تحقق لقريش ، وهو مضر وأبناؤه على أصح أقوال ثلاثة .

ثم زاد الله في ذلك الاصطفاء حتى تحقق في بني هاشم ، واجتمع الخير كله في الاصطفاء التناسلي الذي هو سلسلة خالصة من أية شبهة ، فتركز في رسول الله ﷺ ، ليقول الله ﷻ في حق من ينعكس اصطفاءه عليه : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : ٣٣] فأهل البيت قد أخذوا الاصطفاء من منبعه الكامل ومن متفجره الشامل .

طهارة النسب الشريف من الشوائب :

لقد أجمع علماء الحديث والفقه والتفسير ، وكل من له صلة بالاجتهاد العلمي في نطاق الإسلام ، أن أصول رسول الله ﷺ هي طاهرة من أية شائبة ، ويتعزز هذا بالكثير من الأحاديث .

روى الإمام البيهقي في «سننه» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، ما ولدني إلا نكاح الإسلام » . فهذا الحصر شامل وحقيقي ، وتام ليس ادعائيا ، لم يخرج عن نطاق ما تحقق فيه الحصر أي شيء .

فهو ﷺ سالم ، هو من الأصلاب النقية إلى الأصلاب الطاهرة ، حتى تلقى الوجود من قبل أبويه ﷺ ، شاء الله أن يوجد كما يوجد بقية الناس ، وكما يوجد عامة الناس ، وبعد وجوده يخصص الله له العطايا ، ويعطيه المزايا .

كلام السهيلي رحمته الله :

قد ذكر الإمام السهيلي أن كون رسول الله ﷺ قد جعل الله تسلسله من أب وأم باستمرار إلى أن يوجد ، لا يلزم منه أن يكون عيسى أو آدم ، الذي جعل الله الخلق بالنسبة لعيسى من جانب أمه فقط ، وبالنسبة لآدم بدون

أب وأم ، لا يقتضي التفضيل ؛ لأن رسول الله ﷺ جعله الله قدوة أسمى ، ومثلاً أعلى ، فقد تحققت فيه البشرية بسائر ملابساتها ، ليتبين فضل الله كيف يتحقق للناس فرادى وجماعات ، وليؤهل الله ﷺ رسوله لتكون دعوته متوافقة مع العقل ومع الشعور ومع الوجدان ، ولتكون هادية لكل من يرجع إليها ؛ لأنه يجد كل ملابساتها راجعة إلى ما يتصل بالبشرية ، إلى ما يتصل بما يعطيه الله للبشر ، من خير وفضل وهدى وتوفيق وسداد .

ولذلك كان رسول الله ﷺ على هذا المنهاج .

قوله ﷺ : « ما ولدني إلا نكاح الإسلام » :

قوله ﷺ : « ما ولدني إلا نكاح الإسلام » ، التشبيه هنا تام ، رغم كون وجود ما قد يتساءل عنه .

فمثلاً ، شيث تزوج بأخته ، وإبراهيم أخذ هاجر وهي مستولدة . فالمهم أن التشبيه يتحقق بأدنى ملابس ، والملابسة هنا هو أن جميع آبائه ﷺ من لدن آدم إلى أمه ، كان الاتصال بعقد صحيح سالم ، محقق لطهارة الاتصال .

ويتعزز هذا الحديث بما رواه الطبراني في «الأوسط» ، أنه ﷺ قال : «خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ، لا تتشعب شعبتان ، إلا كنت في خيرهما» .

وكذلك ما رواه أبو نعيم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يلتق أبواي قط على سفاح ؛ لقد جعل الله طهارة الأنساب متسلسلة تنتقل من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، حتى خرجت مصفى» أو كما قال ﷺ .

تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾:

روى الإمام البيهقي ما يعزز هذا ، وقد قال في رواية الإمام البيهقي عن رسول الله ﷺ ، أنه ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]: أي من نبي إلى نبي حتى أخرجتك نبيا ، والنبي إلى نبي أي: من اصطفاء إلى اصطفاء ؛ لأن النبوة بالنسبة لما عدا من بعثهم الله أو حقق لهم البعثة إذا ذكرت ، فإنما تذكر - وهذا ما تبين لي - على أوسع معانيها ، لتكون مقرونة بالاصطفاء . كما أن الوحي جعله الله لمن ألهمه الله ، كإلهامه سبحانه وتعالى لأم موسى ، فجعله وحيا إذ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخْزِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] .

الإيمان ببشرية الرسول ﷺ:

طهارة أصول المصطفى توجب أن نعتقد أنه بشر ، فهو ﷺ بشر ، شهد له بذلك رب العالمين . فلا يمكن بحال أن تتحرك المحبة إلى درجة أن تخرج عن نطاقها ، وتجعل رسول الله ﷺ خارجا عن نطاق البشرية ، كما فعل من أله عيسى ، وجعله يحمل الروح القدسية ، ولذلك فهو بشر .

شهد له الله بذلك فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] . فتحقيق بشريته متفق عليه ، كتابا وسنة وإجماعا .

الإيمان بأنه عربي:

أيضا يجب الإيمان بأنه عربي ، وهو أمر قد وقع عليه الإجماع كما شهدت به السنة الصحيحة ، وورد النص به في كتاب الله العزيز ، لقد قال الله

تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

الكلام حول طهارة النسب في الاعتقاد:

ثم إن طهارة نسبه ﷺ كما تحققت في جانبها المادي ، تحققت عند الكثيرين من الباحثين الذين محصوا البحث قديما وحديثا على أنها متحققة أيضا حتى في الاعتقاد ، ذلك أن الأئمة اختلفوا .

القول الأول:

منهم من قال : إن آباء وأجداد رسول الله ﷺ هم من أهل الفترة . ومن ذهب إلى هذا ، الإمام الشافعي ، وغيره كثيرون ، فيكون كما ذكر الإمام عز الدين بن عبد السلام ، يكون رسول الله ﷺ قد وجد من آباءه من هم على دين من قبلهم ، كدين إسماعيل ، وهم الذين قربوا من عهده ، لا الذين بعدوا عن عهده ؛ لأن المسافة الزمنية بين بعثة عيسى وبعثة محمد بلغت (٥٧١) سنة .

إحدى وسبعون وخمسة بين الرسول ومسيح الأمة

على كل حال ، فإذا طال العهد ، فإن الآباء يكونون على الفترة وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] . فتكون عبادتهم لله في حالة في فترة الفترة ، هي عبادة فطرية ، تحقيقا لما قاله سبحانه وتعالى : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] . ولما قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة»^(١) . هذا هو القول الأول .

(١) سبق تخريجه .

القول الثاني:

القول الثاني : هو أن جميع آبائه ﷺ من لدن آدم إلى عبد الله هم كانوا على دين إبراهيم ، واستشهد دحلان في سيرته ، بأن عبد الله حين دعت المرأة إلى نفسها ، قال البيتين المشهورين اللذين هما مغموران بتوحيده لله تبارك وتعالى :

أما الحرام فالمناة دونه والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

بعض صفات النبي ﷺ بين الإنكار والجهل:

من أنكر عروبه أو بشريته ﷺ فالإجماع أنه خارج عن نطاق الإسلام . واعتقاد أنه من أكرم الناس نسبا وأشرفهم قدرا هو أيضا من الواجبات ، بل جعلها الله سنة متبعة بالنسبة لسائر الأنبياء المتقدمين . ﴿وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِ﴾ [ص: ٤٧] . وإذا كان الأمر هكذا ، فيجب أيضا اعتقاد أن رسول الله ﷺ من أكرم الناس نسبا ، فمن جهل هذا فقد ذكر الإمام الألويسي نقلا عن العز بن عبد السلام أنه يعلم ، فإذا اعتقد بعد ذلك فإنه من أكبر العصاة .

هذا جانب ، هو جانب نسبه ﷺ ، أذكره لأوسع النطاق ، إنه مما يشاع أمران :

أولهما : أن علم الأنساب هو علم لا ينفع ، وجهل لا يضر ، ومما يشاع ثانيا : أن الناس لابد أن يكونوا متساوين في الأصل ، فلا تفضيل فلا شيء ، ولا شيء . واتسع نطاق هذه الدعاية إلى أن نسبت الحقوق للإنسان فقط ، وجرد من خلق الإنسان ومن وجهه إلى تحقيق الفضائل عن أن ينسب الحق إليه ، فصرنا نسمع حقوق الإنسان .

أنواع الحقوق في الإسلام:

مع أن الحقوق عند المسلمين منقسمة إلى ثلاثة أقسام: حقوق لله صرفة، وحقوق للعبد أي للإنسان، وحقوق وقع فيها الاشتراك بين ما هو حق للإنسان وحق لله تعالى، وتفصيل هذا يستدعي الكثير من الطول.

حق الله ﷻ:

من حقوق الله الصرفة: أن يعبد وحده دون سواه؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمن باعد نفسه عن هذا النطاق فقد أبعد الله عنه، ومن أبعد الله عنه فلا يمكن أن يكون له أي نجاح في هذه الدنيا.

ومن جملة حقوق الله التي نص عليها الأئمة: الحقوق العامة التي لا يقدر الإنسان على القيام بها وحده وتوكل إلى الإمام ليسهر عليها، أو يوكل إلى من يقوم بشئون الضعيف تحقيقها، فهذه إن وقع التقصير فيها، فإن الله يؤاخذ عليها قبل أن يؤاخذ عليها الإنسان، فهي أيضا من حقوق الله.

حقوق العباد:

حقوق الناس هي الحقوق العامة التي تتحقق في تعاملهم في الجوار، وفي التعامل بالبيع والشراء، وفي الأخذ والعطاء، وفي التعايش اليومي، وفي غير ذلك مما يتحقق بين الناس في الحياة الدنيا.

حقوق مشتركة:

الحقوق التي يشترك فيها حقوق الله وحقوق الناس هي التي تجمع بينهما، والأمثلة كثيرة.

إن حقوق الإنسان لا تتعارض بحال مع ما دعا إليه الله من أن يعطي لكل ذي فضل فضله ، وأن يحقق لصاحب المزية مزيته . فرسول الله ﷺ أعز الأوصاف التي كان يعتز بها هو وصف العبودية ، فإن الله تعالى خاطبه بها ، وأضافه إليه فقال : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء : ١] فهي إضافة تشريف ، وإنساب هذا الخير حتى للمؤمنين ، فهم أيضا عباد الله إذ يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر : ٤٢] . ومن أعظم العز للمسلمين أن يضافوا إلى الله بوصف العبودية ، ولذلك قال القاضي عياض :

ومما زادني شرفا وتيها وكدت بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نيبا

حكم دراسة نسب النبي ﷺ وأحواله :

إن دراسة نسبه ﷺ هي واحدة من دراسة أحواله ﷺ ، والأحوال هو ما يرجع - لأننا نأخذها بمفهومها الخاص - إلى مراحل حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة ، من معرفة أسمائه ، ومعرفة أولاده ، يعني : الراجعة إليه شخصيًا ومعرفة طريقة عيشه ، ومعرفة مولده إلى غير ذلك من الأحوال . ولقد اعتنى العلماء بهذا الجانب اعتناء كبيرا .

فمثلا : أبو فارس أحمد الرازي ، له مختصر في السير ، أول شيء بدأ به ، شهد بأن معرفة أحوال رسول الله ﷺ هي من الواجبات على سائر المسلمين .

ومن صرح بالوجوب أيضا صاحب «المرصد» فقد قال :

وعلم ما به يشخص وجب من موطن واسم ووقت ونسب

وقال كذلك أحد أئمة الإسلام في قرطبة يوم أن كان الإسلام هناك ،
قال أبياتا رائعة .

على كل حال ، هناك شواهد ترجع إلى الكثير من القصائد ، وترجع إلى
كثير من الشهادات بأن معرفة أحوال رسول الله ﷺ هي من الواجبات .
وممن صرح بذلك أيضا الإمام السهيلي ، والإمام القرافي وزاد فقال : إن
الاعتقاد ومعرفة أحواله ﷺ هو أمر واجب راجع إلى الاعتقاد لا إلى
العمل . فمعرفة الأحوال هي من أكبر الواجبات ، وهي جانب عظيم من
جوانب سيرته ﷺ .

المحاضرة الخامسة والأربعون بعد المائتين

من لوازم إرادة الخير الفقه في الدين

موضوع الدرس:

إن موضوع الدرس : التفقه في الدين من لازم إرادة الخير الجزيل .

فقه البخاري في ترجمته لحديث الدرس:

قد ترجم الإمام البخاري في «صحيحه» لحديث الدرس باب : «من يرد الله به خيرا يفقهه» بهذا عقد الترجمة . وتعلمون أن من صنيع الإمام البخاري ومن منهجيته ، أنه يضمن الترجمة فقه الحديث . فهو ترجم بصدده : من يرد الله به خيرا يفقهه ، إلا أنه أول ما يلحظ أنه لم يذكر ما يتعلق بالجزاء ، كما صنع في نفس الحديث ، بعدما ساقه سابقا معلقا ، بحذف سنده برمته . فقال : باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

معنى الدين في الحديث الشريف:

يفقهه في الدين : أي في علوم الدين الثلاثة ، وهي علم العقائد وأصول الدين ، وعلم الفروع ، وعلم الأخلاق ، والأخلاق التي جاء ﷺ لإتمامها كما في حديث : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) والتي أجمعت عليها سائر الأمم ، وجاء ﷺ لتتميمها . هذه الثلاثة كلها من مشمول الترجمة .

إلا أنه بعد الخوض في مباحث الحديث ، سنصل إلى نتيجة وهي : أن المطابق للترجمة من العلوم الثلاثة ، إنما هو علم الفروع ، حيث يجتهد

(١) سبق تخريجه .

المجتهد ، وحيث يظهر الفرق بين من وفق وقدر له في سابق الأزل ، أن يكون على استعداد لخوض غمار الاستنتاج الفقهي ، واستخراج الأحكام واستنباطها من الكتاب والسنة ، وغيره .

تخريج الحديث الشريف من كتب السنة :

الحديث من حيث إخراجه : أخرجه الإمام أحمد والشيخان عن معاوية رضي الله عنه ، كما أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كما أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة .

صنيع الإمام البخاري مع الحديث في الصحيح :

لقد كرهه الإمام البخاري في «صحيحه» مراعيًا - حسب منهجيته- ما يناسب الباب ، مما اشتمل عليه الحديث . فنراه ساق حديث الدرس في باب العلم ، للمناسبة بين أول بحث من مباحثه الثلاثة ، وهو فضل التفقه في الدين . وساقه في باب فضل الخمس ، ومن ثم أورده الإمام مسلم في باب الزكاة للمناسبة بين ما ورد فيه من أن المعطي في الحقيقة هو الله سبحانه ، والرسول ﷺ ، كما أخبر - وهو الصادق المصدوق- عن نفسه : «**ولإنما أنا قاسم والله يعطي**» . فالمناسبة أن هذا من الصدقات ، ولذلك ساقه هناك وساقه في باب الاعتصام ، لما ورد في الحديث ، من أنه سيبقى الأمة الإسلامية المحمدية قائمة على دين الله حتى يأتي أمر الله .

فإن قيل : إن المناسب أن يذكر هذا الحديث - لمراعاة ما ذكر - عند الكلام عن أشراط الساعة ؛ ولأنه أنسب ، لكن من تأمل وجد أنه أدرجه في الاعتصام ، لالتفاتة كانت منه ، وهي أنه بإدراجه فيه يفهم استمرار الاجتهاد حتى تأتي الريح اللينة .

ألفاظ الترجمة عند البخاري:

إن الترجمة كما قلنا : عقدها بطرف من الحديث ، وهو : «من يرد الله به خيرا يفقهه» ، وهي عبارة عن تركيب مشتمل على شرط وجواب .

قوله : «مَنْ» :

ذلك أن «من» هي موصولية ، ولكن متضمنة معنى الشرط ، فاحتاجت إلى شطر وجواب ؛ لأن من القواعد أن الموصول يسلك به مسلك الشرط ، فيتطلب شرطا وجوابا .

القصة بين ابن عرفة وابن مرزوق:

القصة الواقعة بين ابن عرفة والإمام ابن مرزوق مشهورة ، حيث استشكل الإمام ابن عرفة ، رحم الله الجميع : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف : ٣٦] . فاستشكل كون الموصول يطلب جوابا ، وكان ممن حضر في درسه الإمام ابن مرزوق ، فلما استشكل الشيخ ذلك أنشد قول القائل :

ولا تحفرن بئرا تريد بها أخا فإنك فيها أنت من دونه تقع
كذاك الذي يبغي على الناس ظلما تصبه على رغم عواقب ما صنع
فالشاهد في البيت الثاني :

كذاك الذي يبغي على الناس ظلما تصبه

حيث إن الموصول وجد له جواب ولما أعلن هذا ابن مرزوق ، قال الشيخ ابن عرفة : لعل المتكلم ابن مرزوق فقال : نعم ابن مرزوق . ثم إنه صحبه في التوجه إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج إلى آخر ما تعلمون من القصة .

دلالة مجيء الشرط بصيغة المضارع في الحديث:

إن الشرط ورد بصيغة المضارع ، وهي على معنى الماضي ، فيكون التقدير : من أراد الله به خيرا في سابق أزله ففقهه ، وفهمه الأشياء ، ورزقه فهما يستطيع بواسطته أن يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة .

فالصيغة خرجت عن مقتضى الظاهر ، وما ذاك إلا لسر بياني وهو : استحضر الصورة الواقعة في الماضي ، فتكون كأنها مشاهدة ، فيستدل بها المستدل على عظمة الباري ، وعجيب صنعه ، وباهر قدرته .

فاستحضر الصورة هي النكته التي لأجلها استعملت صيغة المضارع - التي هي في الأصل للاستقبال - في معنى الماضي .

تعلق الغرض في الحديث بعلم الفروع:

إنه سبق التنبيه على أن علوم الدين وإن كانت ثلاثة ، ولكن الغرض تعلق هنا بعلم الفروع ، دون علم أصول الدين ، ودون علم الأخلاق .

فإن قيل : ما الذي حمل على الانتقال من العام إلى الخاص ؟ الجواب : أن كلا من العلمين ، لا علم الاعتقاد ، ولا علم الأخلاق متفق عليه . وبعبارة : اتفقت الأديان على مضمونها ، وجاء كل رسول إلى قومه بهما ، فهما محط اتفاق ، والغرض متعلق بما هو من قبيل الاختلاف ، إذ هو محك الأنظار ، ومجال تفاوت الفهوم ، حيث يتحقق القصد الذي من أجله عقدت الترجمة لهذا الحديث ، وهو التفقه في الدين . فهذا وجه التخصيص . فمن أراد الله به خيرا ففقهه في الدين ، هو على معنى : أنه قذف في قلبه نورا يستطيع بواسطته أن يعالج المشاكل ، وأن يتفهم أسرار التشريع وأن يتذوق الأشياء على وجهها .

دليل هذا الأمر من السنة:

هذا أصله من السنة ثابت في بعض الأحاديث التي مضمونها أنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي ، فيعلنه للصحابة ، ثم منهم من يأخذ بظاهره ولا يتعداه ولا يغوص ، ولا يستنتج ولا يستنبط وإنما يقف مع الظاهر ، ومنهم من كان يغوص ويتمعن ويستنتج ، وما ذاك إلا لأن هذا الثاني ممن تفضل الله عليه ، فقف في قلبه نورا استطاع بواسطته أن يبحث وأن يدقق ، وأن ينظر في الأشياء ، وأن يبحث في بطون النصوص وأن يتعامل معها ويبحث في سر الشارع وحكمته ، وفي العلل ، وهل هناك قاذح يقدر فيها ، أو مسلمة فيستخدمها ، والعلة كما لا يخفى هي : أهم ركن من أركان القياس .

هذا ، وهنا يظهر لنا الفرق بين من أراد الله به خيرا فقهه ، وبين من لم يرد به خيرا فلم يفقهه .

معنى قوله : «يفقهه» وأقسام الفهم:

التفقه مصدر : فقه مضعف فقه ، إذا علم وفهم ، وضعف لإفادة التعدية . ثم إن الفهم على قسمين : فهم في أحكام الله ، وفهم عن الله .

فهم في أحكام الله ، وهو الذي يحتاج إلى التعلم ، ولا بد فيه من الحفظ وتكريس المسائل ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الأوراق ، ومراجعة ومطالعة صحاح الكتب ، وهو الذي ورد التنصيص عليه آخر رواية من روايات الحديث ، وهي السابقة للإمام البخاري ، والتي أوردها معلقة وهي : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما العلم بالتعلم» .

فهم عن الله :

والفهم عن الله ، ذاك موهبة ونور يقذفه الله في قلب من تفضل عليه ، فلا يحتاج إلى شيخ ولا إلى غيره .

ثم إن هذا الثاني مترتب عن الأول ، بمعنى أنه بعدما يتعلم يعمل بعلمه ؛ لأن روح العلم العمل به . حينئذ يتفضل الله عليه فيقذف في قلبه نورا ، وهذا من قبيل الموهبة ، والذي ترشد إليه الآية : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

ولترتب هذا على الأول نرى الإمام البخاري ، وما أدق صنيعه ، قد قدم الأول في الصحيح ، وآخر حديث الدرس ، وجمع بينهما لبيان الفرق بين الفهمين : الفهم في أحكام الله ، والفهم عن الله .

انعقاد الترجمة للتفقه في علم الفروع :

قلنا : إن الترجمة معقودة للتفقه في علوم الدين ، وهي : ثلاثة ، ولكن بعد إخراج ما اتفقت عليه الأمم عقائديا وأخلاقا ، يبقى علم الفروع والأحكام ، تلك الأحكام التي كان يرسل ويبعث كل رسول لقومه بما اقتضته الحكمة الإلهية منها ، فيأتيهم بما يناسب ظروفهم وأحوالهم إلى أن بعث خاتم الرسل ﷺ فجاء بالشرعة التي هي خاتمة الشرائع ، وقد أخذ - بأمر إلهي - بعض الأحكام من تلك الشرائع ، وأقرها في الإسلام ضمن أحكامه ، وترك ﷺ ما عداها . وهذا منشأ القاعدة الأصولية ، وهي : شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد نسخ .

المراد بالدين في آية المائدة:

ثم إن هذه الأحكام هي المرادة بالدين في الآية : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] أي أحكام دينكم وفرائضه ، وهي قد أعلنت أن ما قدر الله لهذه الأمة من الأحكام قد انتهى في ذلك اليوم الذي هو يوم عرفة .

ومن أجل ذلك بكى عمر رضي الله عنه لما سمع الآية ، ولما سأله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك؟ قال : إذا تم شيء بدأ ناقصه . فقال صلى الله عليه وسلم صدقت . فكان نزول الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخلاف حول المقصود بالرأي في حديث معاذ:

بناء على ما تقدم من أن الغرض هنا ، إنما تعلق بعلم الفروع من بين علوم الدين الثلاثة ؛ لأنه محط الاختلاف ، وعلى ما ورد في حديث معاذ رضي الله عنه من أنه لما سأله صلى الله عليه وسلم بم يقضي؟ قال : بكتاب الله ، إلخ حيث آل الأمر إلى الرأي ، فأقره صلى الله عليه وسلم عليه ^(١) .

الرأي الذي اختلفت فيه المدرستان : مدرسة العراق ، ومدرسة السنة بالمدينة في تفسيره . ففسرته مدرسة العراق بالقياس ، وفسرته مدرسة المدينة بالمصلحة ، والكل صواب ؛ لأن الرأي يعمهما وغيرهما من كل ما يعتبر طريقاً للاجتهاد به .

وللتحقق بهذا الأمر ، نرجع إلى المنبع الأصلي ، إلى المشرع الأعظم صلى الله عليه وسلم ، حيث نجد أنه صلى الله عليه وسلم كانت له اجتهادات شرع بها لأئمة الاجتهاد باستخدام الرأي ، أي شرعه لمن استأنس من نفسه أهلية الخوض فيه .

(١) سبق تخريجه .

بعض النماذج لاجتهاد النبي ﷺ :

من اجتهاده ﷺ بالرأي بمعنى القياس قياسه ﷺ القبلة في رمضان على المضمضة في عدم بطلان الصوم ، وذلك لما سأل عمر رضي الله عنه ، وقد قبل أهله في رمضان ، فقال له ﷺ : «أرأيت لو تمضمضت وأنت صائم؟» قلت : لا بأس به . قال : «فقيم؟» .

وفي رواية : «فمه» ، أي كف عن هذا . فقام ﷺ القبلة على المضمضة في عدم إفساد الصوم ، ولم يكتفِ ﷺ بإجابة السائل بأن القبلة لا تفسد وأن صيامه صحيح ، بل نظر له بشيء مماثل ، وهو أسلوب في الجواب يدل على استعماله ﷺ القياس .

نموذج آخر:

من اجتهاده ﷺ بالرأي ، مراعاة المصلحة ، وذلك عندما استحسن جواز بيع الرطب بالتمر ، مع أن القياس في الأصل يقتضي المنع ، ولكنه ﷺ أجازه للمصلحة . ومعلوم ما كان يقاسيه أصحاب العرايا مع من يتبرعون ويتصدقون عليهم بالتمر ، فذاك شيء مفروغ منه ، ولا نطيل به . لذلك راعى المصلحة ﷺ فشرع جواز بيع الرطب بالتمر ، وإن كان منهيا عنه في الأصل لما ذكر .

نموذج ثالث:

أجاز ﷺ قطع نوع من شجر الحرم وإن كان القياس يقتضي منعه ، وذلك بطلب من عمه العباس رضي الله عنه بعدما أعلن له أن الناس محتاجون إلى هذا النوع من الشجر ، وأنهم لا غنى لهم عنه . فاستحسن ﷺ جواز قطعه ، واستثناه من عموم منع قطع شجر الحرم .

اجتهاد الخلفاء والصحابة بعد نبيهم ﷺ :

تابع الصحابة الذين بلغوا درجة الاجتهاد - وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون - نهج النبي ﷺ فاجتهدوا رحمهم الله .

الصديق أبو بكر رحمته الله :

هذا أبو بكر رحمته الله لما سأله سائل عن الكلالة ، أجاب بأن الكلالة : أن لا يكون للشخص والد ولا ولد ، وهي إجابة كانت باجتهاد منه ، يدل على ذلك أنه بعدما أجابه ، قال : فإن كان هذا صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان .

الفاروق عمر رحمته الله :

هذا الخليفة الفاروق رحمته الله نجده اجتهد اجتهادات عديدة ، تقتصر على البعض منها لضيق المقام :

منها : أنه قاس الخمر على الشحوم في تحريم ثمنها ، عملا بالثابت في السنة : «إذا حرم الله شيئا حرم ثمنه»^(١) . وذلك أنه لما بلغه أن سمرة بن جندب قبل وحاز الخمر في العشر ، ثم خللها وباعها ، استنكره ، وقال : قاتل الله سمرة ، أما علم أن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه ، فهذا هو اجتهاد بطريق القياس .

ونراه اجتهد في قضية إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم ، بعدما قويت شوكة الدولة الإسلامية واستغنى الإسلام عنهم ، وتخلف مقصد الشارع وهو تأليف قلوبهم بالمال عندما كان الإسلام محتاجا لهم .

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٨٨) من حديث ابن عباس رحمهم الله .

ولما قام الإسلام على قدميه ، وعلا مناره ، واستغنى عنهم ، تعامل ﷺ مع النص وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة : ٦٠] الآية . ودار مع العلة حيث يدور الحكم معها وجوداً وعدماً ، وأعلن اجتهداً منه منعهم منها ، ورأى أن الفقراء والمساكين من المسلمين أولى منهم ، والحالة هذه .

ونراه اجتهد برأيه فمنع التزوج بالكتابات ، وإن كان حله منصوصاً عليه في القرآن الكريم : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [المائدة : ٥] .

لكنه جاء الموقف الذي اهتم فيه الخليفة عمر ﷺ بإبان فتح فارس ، لما رأى الفاتحين أخذت نفوسهم ، والبشرية ملازمة للإنسان ، تنجح إلى النساء الفارسيات ، أعلن منع التزوج بهن ، وإن كان حله منصوصاً عليه في قوله جل وعلا : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، وذلك لما يخشى من الفتنة بين المسلمات بسبب إغراض المسلمين عن التزوج منهن ، فهو بذلك قد تعامل مع النص القرآني وراعى المصلحة .

عثمان ﷺ :

نرى الخليفة عثمان ذا النورين ﷺ ، اجتهد في المطلقة البائنة عن زوجها الذي طلقها في مرض موته ، فأعلن توريثها ، مع العلم أن مقتضى الزوجية هي سبب الإرث ، وأنه زال بالطلاق ، وانحلت العقدة ولم يبق اتصال بينهما ، ولذلك لا محل لإرثها .

نعم ، هذا لو أنه طلقها في حال الصحة ، أما وقد طلقها في حال المرض ، فقد تورط في التهمة ، وصار بحيث يظن به أنه إنما طلقها ليحرمها من الإرث ، ولذلك أعلن ﷺ اجتهداً منه ، توريثها ، معاملة له بنقيض قصده السيئ .

علي عليه السلام :

نرى الخليفة علياً عليه السلام قاس السكران على القاذف ، وذلك بعدما دار النقاش ، ووقعت المشورة في هذه المسألة ، فقال بالزيادة في العدد ، وبارتفاعه من الأربعين إلى ثمانين جلدة ، قياساً على القاذف ، ووجه ذلك بأنه إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري ، فرأى أن يجلد ثمانين جلدة كما يجلد القاذف . ونراه قاس قتل الجماعة بالواحد على القطع إذا سرق الجماعة .

هذه بعض اجتهادات ، من تأمل فيها وجدها كلها مسيطرة لما أسسه المشرع الأعظم ﷺ في مجال الاجتاد ، سواء على طريق القياس أو على طريق المصلحة ، أو على أي سبيل من السبل المقررة أصولياً .

وقفة مع قاعدة: لا اجتهد مع النص:

ينبغي هنا أن ينبه على شيء ، كثيراً ما تثار المسائل حوله ، أو يقع الإنسان في إشكال بسببه ، وهو أنهم يقولون : من القواعد إنه لا اجتهد مع وجود النص ، وأن معناه ، أننا مهما وجدنا النص إلا ولم يكن لنا سبيل للاجتهد ، مع أن بعض هذه الصور التي مرت هي اجتهادات مع وجود النص ، لذلك ينبغي أن يقال : إنه لا معنى لأخذ القاعدة هكذا على إطلاقها ، بل يقيد المنع بما إذا كان النص قطعي الدلالة ، كما أنه قطعي الثبوت . فمثلاً الآية القرآنية هي قطعية الثبوت ، وهل هي قطعية الدلالة بالنظر للحكم الذي استنبطه المجتهد منه؟ الجواب : لا ؛ لأن الاجتهاد مفض إلى حصول الظن للمجتهد بأنها - أي الآية - تدل على الحكم ، وهو قد يصيب في ظنه فيكون له أجران ، وقد يخطئ فيكون له أجر الاجتهاد كما جاء في الحديث ، بخلاف ما إذا كان قطعي

الأميرين ، وذلك كالنصوص الواردة في عدد الركعات في الصلوات مثلا ،
والمقادير في الكفارات والفرائض التي فرضها الله ليتوارث الناس على حسب
ما أنزل الله على سيد المرسلين ﷺ ، من كون الأبوين يكون لكل واحد منهما
السدس إن كان له ولد . . . إلخ ، وأن الزوجة لها الربع أو الثمن ، وأن الزوج
له النصف أو الربع .

فهذه الأعداد والمقادير والحدود والفرائض لا مجال للاجتهاد فيها ؛ لأن
نصوصها من قبيل النصوص القطعية الثبوت والدلالة معا .

رد الدعاوى القائلة بغلق باب الاجتهاد :

ينبغي أن لا يخوض في مضمار الاجتهاد إلا من له استعداد لذلك ، من
غير أن يترك المجال لمن يتطفل ، الأمر الذي كان من الأسباب التي جعل
تلك الرائجة تروج ، وإن لم يكن لها أصل ، وهي أن باب الاجتهاد قد أغلق
وانسد مع أنه لم ينسد ، لعدم وجود أصل لإغلاقه وسده كما تقدم ، وإلا فقد
كانت تستجد في كل عصر أحداث وتقع مشاكل فيتصدى ذوو أهلية
الاجتهاد لإيجاد حلول لها ، وهل هذا إلا معنى الاجتهاد .

نعم هناك فترة خاف فيها الأئمة المحتاطون من دجل وتطفل بعض من
ليس أهلا للخوض في المسائل الاجتهادية أن يتدخل ، فقالوا سدًا لهذه
الذريعة : إنه لا سبيل للاجتهاد ، وغرضهم صد أولئك وإبعادهم عن
الميدان لهذا السبب أو لغيره من الأسباب المشار إليها .

قوله ﷺ : «أنا قاسم والله يعطي» :

قال ﷺ : «وإنما أنا قاسم والله يعطي» . أي إنه إنما هو قاسم لما هو مأمور

بتبليغه مما يوحى إليه به وإلقائه على الصحابة من غير تمييز ولا تخصيص بل يسوي بينهم ، والله هو الذي يعطي الفهم لكل واحد طبق المقدر له ، استعدادا لإدراك المعاني ، وهذا على ما قال الطيبي من أئمة الحديث . وقال غيره : إن سبب الحديث أنه ﷺ خص بعض الصحابة بزيادة عند قسمة غنيمة - اقتضتها المصلحة - وهو لا يقول ولا يفعل إلا بأمر الله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] ، فتعرض أحد الحاضرين ، فرد عليه رسول الله ﷺ بقوله : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم» الحديث ، أي إنه قاسم ، والله هو المعطي على الحقيقة . سواء للمعنويات أو للحسيات ؛ فبهذا يجمع بين التفسيرين ولا إشكال .

ولا يرد عليه أنه بمقتضى القاعدة البيانية ، وهي أن المحصور يأتي بعد أداة إن ، حصر ﷺ في صفة القسم . ومع أن له عدد الصفات ؛ لأنه يقال : إن الحصر هاهنا إضافي ، أي بالنسبة إلى العطاء ، وعبر به للرد على من يعتقد أنه معط وقاسم .

دلالة التعبير بلفظ: «الأمة» في الحديث الشريف:

قال ﷺ : «ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

في الرواية التي بين أيدينا : «لن تزال هذه الأمة» ، وفي رواية : «لا تزال طائفة من أمتي» ، وغاية ما ثم أنه أطلق عليها في الرواية التي بين أيدينا لفظ أمة مع أنها طائفة ، وذلك لمسوخ وهو اعتبارها وإن كانت طائفة ، أنها أمة ، وذلك باعتبار ما اتصفت به ، وهو القيام على الدين والسهر عليه إلى أن تقوم الساعة .

ومعلوم أنه يعبر بالأمّة حتى عن الفرد كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] .

المراد بقوله ﷺ: «أمر الله»:

والمراد بأمر الله الأول دينه القويم ، أي أن هذه الطائفة - وهذه بشارة عظيمة - ستبقى متمسكة بدينها ، ومحافضة على امتثال الأوامر واجتناب النواهي الذي هو مدلول التقوى حتى يأتي أمر الله .

ثم إن في هذا الأمر وجهين :

١- حتى تقوم الساعة .

٢- حتى تهب الريح اللينة التي ثبت في السنة أنها تقبض روح كل مؤمن كان في قلبه مثقال ذرة من خير وإيمان ، فلا يبقى إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

إلا أن الصواب هو الثاني ؛ لأنه تبقى فترة بين ذهاب أولئك الصالحين الذين بقوا متمسكين بحبل الله المتين ، ومحافظين على شريعته إلى أن تهب بمقتضى القدرة الإلهية ، وبين شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ، كما ورد في حديثين أخرجهما الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «إن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق» وفي رواية : «لا تقوم الساعة حتى لا يبقى من يقول : الله الله» .

فهرس الموضوعات

المحاضرة التاسعة والعشرون بعد المائتين	٧
كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به	٧
التمهيد	٧
شرح الحديث الشريف	٧
لهذا الحديث شطران	٨
الشرط الأول : الطرف القدسي	٨
الشرط الثاني : ومعنى كلمة «جنة»	٩
قسّم النبي ﷺ ودلالته	٩
لطائف الحديث الشريف	١٠
جمع بين رواية نبوية ورواية قدسية	١١
الفرق بين الحديث القدسي والنبوي	١١
معنى كلمة «حديث» في اللغة	١٢
الحديث في الاصطلاح	١٣
الحديث المنوط به الكلام	١٣
ما يبلغه النبي ﷺ على أنواع	١٤
تبليغ النص القرآني	١٤
بعض خصائص الكتاب الكريم	١٥
السُّرُّ في منع ترجمة القرآن الكريم	١٦
فكاهة من الزمن الماضي	١٧
لطيفة أخرى تخصّ كتاب الله	١٧

١٩	تبليغ الحديث القدسي
١٩	بعض نماذج للحديث القدسي
٢٠	الفرق بين القرآن والحديث القدسي
٢١	الحديث النبوي
٢١	مثال توضحي والله المثل الأعلى
٢٣	ماذا لو فعل النبي خلاف الأولى؟
٢٣	مثال ذلك
٢٤	مثال آخر
٢٥	خلاصة الفرق بين القرآن والحديث
٢٥	ثمانية نماذج للحديث القدسي والحديث النبوي
٢٦	أبواب النار سبعة وأبواب الجنة ثمانية ، ما الحكمة؟
٢٧	رواة الأحاديث أو النماذج الثمانية
٢٧	النموذج الأول
٢٧	النموذج الثاني
٢٨	التعليق على الحديث
٢٩	التعليق على الحديث الأول
٢٩	بعض اللطائف في الحديث الأول
٣٠	لطائف الحديث الثاني
٣٠	النموذج الثالث
٣١	طريق الولاية كما ورد في الحديث
٣٢	النموذج الرابع

خاطرة	٣٣
موقف دعوي	٣٤
النموذج الخامس	٣٤
نماذج الأحاديث النبوية	٣٥
النموذج السادس	٣٦
من لطائف هذا الحديث	٣٦
النموذج السابع	٣٧
النموذج الثامن	٣٨
التعليق على الحديث	٣٨
المحاضرة الثلاثون بعد المائتين	٣٩
الإخبارات والإنباء إلى الله سبحانه وتعالى	٣٩
نصيحة نبوية إلى أبي ذر رضي الله عنه	٣٩
الآية وسورتها	٤٠
مادة التبشير في القرآن	٤٠
من المخاطب في الآية؟	٤٠
التبشير قد يسند إلى الله أو النبي أو القرآن	٤١
تبشير النبي ﷺ	٤١
تبشير القرآن	٤١
تبشير الله ﷻ	٤٢
الاستبشار بمعنى: الفرع	٤٣
صيغة اسم الفاعل: «مبشرين»	٤٣

٤٤	البشارة بالريح
٤٤	البشير والبشرى
٤٥	تبشير الله للمؤمنين المهاجرين المجاهدين
٤٥	تبشير إبراهيم بالولد
٤٦	البشارة في سورة يوسف
٤٦	البشارة في سورة الحجر والنحل
٤٧	بشارة القرآن الكريم
٤٨	وفي سورة مريم والحج والفرقان
٤٨	وفي سورة النمل والعنكبوت
٤٨	وفي سورة الروم والأحزاب
٤٩	وفي سورة يس والصفات والزمر
٥٠	وفي فصلت والشورى والحديد والصف
٥٠	دلالة البشارة حال الإطلاق والتقيد
٥١	البشارة المقيدة
٥٢	استدراك لبعض الآيات في البشارة
٥٣	عود إلى الآية موضوع الدرس
٥٣	معنى المخبتين
٥٤	دلالة الحصر في الآية الكريمة
٥٥	دليل زيادة الإيمان ونقصانه
٥٦	صفة التوكل على الله
٥٦	بعض صفات المؤمنين في الآية

- ٥٧ وجل القلب وزيادة الإيمان والتوكل
- ٥٧ إقامة الصلاة
- ٥٧ إطلاق الصلاة على الفاتحة
- ٥٨ آيات الفاتحة سبعة
- ٥٨ ثلاث آيات خاصة لله
- ٥٩ آية مشتركة بين الله وبين العبد
- ٦٠ ثلاث آيات خاصة بالعبد
- ٦٠ إفادة أخرى في الحديث الشريف
- ٦١ المقصود بإقامة الصلاة في الآية
- ٦٢ الخشوع في الصلاة من إقامة الصلاة
- ٦٣ حال النبي ﷺ والسلف الصالح في الصلاة
- ٦٣ الكلام عن البكاء في الصلاة
- ٦٤ كلام للحافظ ابن حجر العسقلاني
- ٦٤ ليس كل مصلي مقيمًا للصلاة
- ٦٥ آية جمعت للكمالات الإنسانية
- ٦٦ صحة الاعتقاد
- ٦٦ حسن المعاشرة
- ٦٦ تهذيب النفس
- ٦٧ صفة الإنفاق عند المؤمنين
- ٦٧ النفقة الواجبة
- ٦٧ النفقة غير الواجبة

- ٦٧ أمر الله للمؤمنين بالإنفاق
- ٦٨ النفقة في سبيل الله
- ٦٨ أمور تحبط أجر النفقات
- ٦٩ الوعيد الشديد لأهل الرياء والسمعة
- ٧٠ ما المراد بالرزق الكريم؟
- ٧١ أجر الصابرين على المصائب
- ٧٢ ماذا يقول المؤمن إذا أصابته مصيبة
- ٧٢ الصلاة تعلم الأخلاق الكريمة
- ٧٣ حقيقة العبودية والاستعانة
- ٧٤ من هو المنوط بالتبشير
- ٧٤ لا بشرى للمجرمين
- ٧٥ صفات المبشر
- ٧٦ خاتمة ودعاء
- ٧٨ المحاضرة الحادية والثلاثون بعد المائتين
- ٧٨ السبع الموبقات
- ٧٨ الحديث موضوع الدرس
- ٧٨ من أخرج الحديث من الأئمة
- ٧٨ المراد بالموبقات المأمور باجتنابها
- ٧٩ دلالة قوله ﷺ «اجتنبوا»
- ٧٩ أيهما أبلغ : الاجتناب أم التحريم؟
- ٨٠ الاجتناب والأمثال وأثر كل منهما على النفس

- معنى الموبقات : المهلكات ٨٠
- أنواع الذنوب ٨١
- ما يكفر الكبائر من الذنوب ٨٢
- عفو الله ﷻ ٨٢
- الحج المبرور ٨٣
- التوبة النصوح ٨٣
- ما عليه أهل التحقيق من العلماء ٨٣
- هل تنقض التوبة إذا رجع العبد للكبائر ٨٣
- الخلاص في قبول توبة المكرر للذنوب ٨٤
- هل تنقلب الكبيرة إلى فاحشة؟ ٨٤
- هل تنقلب الصغيرة إلى كبيرة؟ ٨٥
- فضل الله عظيم ورحمته واسعة ٨٥
- أول الموبقات الشرك بالله ٨٥
- الشرك أعظم الذنوب ٨٦
- الشرك ذنب لا يغفر !! ٨٧
- أنواع الشرك ٨٧
- الرياء يحبط العمل ٨٨
- الأمر بإخلاص العمل وعدم إبطاله ٨٩
- أخلص يكفك العمل القليل ٩٠
- السحر : ضرره وحكمه ٩٠
- متى يجوز تعلمه؟ ٩١

- ٩١ إطلاقات السحر
- ٩٣ قتل النفس
- ٩٤ القتل عده ابن مسعود رحمته الله من أعظم الذنوب
- ٩٤ جزاء القاتل في الآخرة ، وهل له توبة ؟
- ٩٥ جزاء المنتحر
- ٩٥ قد يكون قتل النفس بارتكاب المعاصي
- ٩٦ نماذج من قتل النفس
- ٩٦ قتل النفس
- ٩٦ قتل الابن
- ٩٦ قتل البنت
- ٩٧ قتل الإنسان نفسه
- ٩٧ أكل الربا
- ٩٧ من شرور الربا ومساوئه
- ٩٧ هل البيع مثل الربا
- ٩٨ بعض صور الربا
- ٩٩ فهم خاطئ
- ٩٩ صورة مخزية لصاحب المال
- ١٠٠ حرمة الربا بالكتاب والسنة والإجماع
- ١٠١ حال آكلي الربا في الآخرة
- ١٠١ أكل مال اليتيم
- ١٠٢ جزاء الإحسان لليتيم

- كما تدين تدان ١٠٢
- عاقبة الإساءة لليتيم وأكل ماله ١٠٣
- التولي يوم الزحف ١٠٤
- متى يجوز التولي يوم الزحف؟ ١٠٤
- لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ١٠٥
- التوكل سبب من أسباب النصر على الأعداء ١٠٥
- الحث على الشجاعة والإقدام عند لقاء العدو ١٠٦
- النبي ﷺ يتمنى الشهادة ١٠٧
- القتال بين طائفتين من المؤمنين ١٠٧
- دور الإمام في الإصلاح ١٠٧
- ما الحكم إذا التقى المسلمان بسيفيهما؟ ١٠٨
- شبهات والرد عليها ١٠٩
- في مسألة الرجلين توفرت الإرادة القوية ١١٠
- قذف المحصنات ١١٠
- دلالة استخدام لفظة: «القذف» ١١١
- معنى «المحصنات» في الحديث ١١١
- الذكر والأنثى في هذا الأمر سواء ١١١
- اللعان بين الرجل وزوجته مشروع ١١٢
- تبويب البخاري رَحِمَهُ اللهُ للقذف في «صحيحه» ١١٣
- حكم قذف الكافر والحر للعبد ١١٣
- هل الموبقات منحصرة في هذه السبعة؟ ١١٣

١١٤	عقوق الوالدين
١١٤	تعجيل عقوبته في الدنيا
١١٤	أمر النبي ﷺ ببر الوالدين
١١٥	مسائل مهمة بالحديث
١١٥	حال النبي ﷺ في رمضان
١١٦	فضل رمضان على أمة الإسلام
١١٧	حكم الصلاة على النبي ﷺ
١١٧	من العواقب الوخيمة للعقوق
١١٨	ما يدل على فضل البر وقبح العقوق
١١٩	للأم ثلاثة أرباع البر
١٢٠	المحاضرة الثانية والثلاثون بعد المائتين
١٢٠	القرآن معجزة خالدة
١٢٠	التمهيد
١٢٠	موضوع الدرس
١٢١	خلاصة ما قيل في معجزة النبي ﷺ
١٢١	تعريف المعجزة والإعجاز القرآني
١٢٢	المقصود بالإعجاز
١٢٢	دلائل الإعجاز القرآني
١٢٣	معجزات النبي ليست عقلية فقط
١٢٣	المراد بالمعجزة الحسية والمعجزة العقلية
١٢٤	معجزة النبي من جنس ما برع فيه قومه

- عصر ظهور معجزة النبي محمد ﷺ ١٢٤
- معجزة القرآن تتحدى العالمين ١٢٥
- محاولة كاذبة خاطئة ١٢٥
- رأي الرافعي في مسيلمة الكذاب ١٢٦
- ما نسب إلى المعري من تقليد القرآن ١٢٧
- القرآن سبب في هداية الناس إلى الحق ١٢٧
- الإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور ١٢٨
- سورة البقرة ١٢٨
- سورة غافر ١٢٩
- معنى الكفر في الآية ١٢٩
- حال الأمم مع أنبيائهم ١٣٠
- حال المؤمنين بالمعجزة والكافرين بها ١٣٠
- عاقبة المكذبين لمعجزات رب العالمين ١٣١
- رأي لجمال الدين الأفغاني ١٣١
- السبب الثاني لثبات معجزة القرآن وخلودها ١٣١
- ثبوت نقل النص القرآني بالتواتر ١٣٢
- جمع القرآن في عهد أبي بكر ثم في عهد عثمان ١٣٢
- حال الناس في حفظهم لكتاب الله ١٣٣
- حال بقية الكتب من حيث النقل والثبوت ١٣٣
- تحريف التوراة بعد ضياعها ١٣٤
- تحريف الإنجيل عما جاء به عيسى المسيح ١٣٤
- القرآن ثبت إعجازه بالتواتر ١٣٥

فهرس الموضوعات

٣٩٥

- لماذا لا يكون القرآن من عند محمد؟ ١٣٦
- أدلة بطلان هذه الشبهة ١٣٦
- حكم التنكيس في قراءة القرآن ١٣٧
- البون الواسع بينهما من حيث البلاغة ١٣٨
- الحديث القدسي مقارنة بالقرآن ١٣٨
- النبي أميٌّ فكيف أتى بالقرآن؟ ١٣٨
- قالوا: تعلم النبي من الرهبان ١٣٩
- مع النظر البسيط يظهر الفرق الشاسع ١٤٠
- هل عبدٌ عزيز من دون الله؟ ١٤٠
- قصة المسيح عليه السلام في القرآن ١٤١
- ثالثًا: تحدي القرآن لمعارضيه ١٤١
- دلالة استخدام «إن» في الآية ١٤٢
- علام يعود الضمير في كلمة «مثله»؟ ١٤٢
- التحدي الصارخ لأهل مكة ١٤٢
- دلائل الإعجاز القرآني ١٤٤
- الإخبار بالمغيبات ١٤٤
- إخباره عن قصص الماضين ١٤٤
- إخباره عن غيبات كالعرش والجنة والنار إلخ ١٤٥
- إخباره بأشياء مستقبلية ١٤٥
- التنبؤ بنصر المسلمين في بدر ١٤٦
- تنبؤه بحفظ الله لنبيه وعصمته من الناس ١٤٧
- مشهد للعصمة في غزوة ذات الرقاع ١٤٧

- ومن الدلائل كثير من المعارف والتشريعات ١٤٨
- دور التوحيد في الإصلاح ١٤٨
- الإسلام دين يهتم بالعقل ١٤٩
- القرآن بما فيه من إعجاز يفوق كل الشرائع السابقة ١٤٩
- النظريات العلمية في القرآن الكريم ١٥٠
- الخلافا حول جمود الأرض وحركتها ١٥١
- سقوط الدليل لا يفيد جزماً سقوط المدلول ١٥١
- تجربة القسيس موش ١٥٢
- نظرة الإسلام للعلم ١٥٢
- بعض النظريات العلمية في القرآن ١٥٣
- نظرية التلقيح عن طريق الريح ١٥٣
- عدم معرفة النبي ﷺ ببعض النظريات العلمية في عصره ١٥٣
- نظرية انفتاح السماء عن الأرض ١٥٤
- نظرية الماء في القرآن الكريم ١٥٤
- هل القرآن الكريم كتاب نظريات علمية ١٥٥
- ضابط التعامل مع آيات الإعجاز العلمي في القرآن ١٥٦
- كلام السيد حنفي أحمد ١٥٦
- مثال من القرآن ١٥٧
- النظر في آية الطارق مع الآيات السابقة ١٥٨
- مثال آخر ١٥٩
- الخلاصة ١٥٩

المحاضرة الثالثة والثلاثون بعد المائتين	١٦٠
من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد	١٦٠
حديث يعدل ثلث الإسلام	١٦٠
أحاديث عدّها العلماء عمدة الدين	١٦٠
حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١٦١
حديث أبي هريرة رضي الله عنه	١٦١
حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه	١٦٢
في ظلال الحديث وفوائده	١٦٢
في الحديث إبطال لتقسيم البدعة	١٦٣
تعريف البدعة يتضح بتعريف السنة	١٦٤
إزالة اللبس في حديث جابر رضي الله عنه	١٦٤
السنة هي أقوال النبي صلى الله عليه وآله وأفعاله وتقاريراته	١٦٥
الأمور الجبلية للنبي صلى الله عليه وآله	١٦٥
أمور من خصوصياته صلى الله عليه وآله	١٦٦
الوصال في الصوم	١٦٦
الزيادة في الزواج على أربع وحرمة الصدقة	١٦٦
لا يورث النبي صلى الله عليه وآله	١٦٧
أمور تشريعية	١٦٧
تفصيل المجمل في القرآن مثل كيفية الصلاة	١٦٧
بيانه لمقادير الزكاة وضوابط إخراجها	١٦٨
شبهة مانعي الزكاة في عهد أبي بكر رضي الله عنه	١٦٨

- ١٦٩..... فعله ﷺ دون الأمور الثلاثة السابقة .
- ١٧٠..... حادثة الثلاثة نفر السائلين عن عبادته ﷺ .
- ١٧١..... كلام نفيس للإمام الشاطبي .
- ١٧١..... تعريف الشاطبي للبدع .
- ١٧٢..... هل تدخل أمور المعاملات ونحوها في الحديث ؟
- ١٧٣..... محمد بن قاسم يطبق الحديث على الوصايا .
- ١٧٣..... ما الحال في الهبة ؟
- ١٧٤..... مناقشة ما ذهب إليه المالكية في هذا الشأن .
- ١٧٥..... ماهية البدعة المتوعد عليها بالنار .
- ١٧٦..... هل في الشرع بدع مستحسنة ؟
- ١٧٦..... الاستشهاد بقصة عمر رضي الله عنه في صلاة القيام .
- ١٧٧..... معنى قوله ﷺ : «سنة الخلفاء» .
- ١٧٧..... المصلحة المرسلة وكلام العلماء حولها .
- ١٧٨..... ما هي الضروريات والحاجيات والتكميليات .
- ١٧٩..... الضابط في أعمال المصلحة المرسلة .
- ١٨٠..... المقصود بقوله ﷺ : «أمرنا» .
- ١٨١..... استشارة عمر للصحابة في حد الخمر .
- ١٨٢..... استشكال والرد عليه .
- ١٨٣..... حبس المتهم .
- ١٨٣..... قتل الجماعة بالواحد .

- المحاضرة الرابعة والثلاثون بعد المائتين ١٨٤
- لزوم العمل بالسنة النبوية الشريفة ١٨٤
- موضوع الدرس ١٨٤
- رجال الحديث كما ذكرهم الشافعي ١٨٤
- مصادر الحديث ورواياته المختلفة ١٨٦
- أحاديث في معنى حديث أبي رافع ١٨٦
- حديث المقدام بن معدي كرب ١٨٧
- رواية الترمذي للحديث ١٨٧
- رواية ابن ماجه والدارمي للحديث ١٨٧
- حديث ابن المنكدر عند الشافعي والترمذي ١٨٧
- حديث العرباض عند أبي داود ١٨٨
- حديث أبي هريرة عند أحمد ١٨٨
- الفهم الصحيح يستلزم النظر في كل النصوص ١٨٨
- دلائل النبوة في الحديث الشريف ١٨٩
- الترهيب من مخالفة سنة النبي ﷺ ١٨٩
- الحث على التزام السنة كما يلتزم القرآن ١٩٠
- الطوائف المنحرفة في فهم الحديث ١٩٠
- تصيد المستشرقين لأخطاء الفرق وضلالها ١٩١
- افتراءات باطلة واستشهاد في غير محله ١٩١
- شبهة القرآن مفصل لا يحتاج إلى تفصيل ١٩١
- شبهة أن القرآن تولى الله حفظه بخلاف السنة ١٩٢

- شبهة أخرى والرد عليها ١٩٣
- اتخاذ المنهج غير العلمي في النقد ١٩٤
- شر خلف لشر سلف ١٩٤
- دور علماء الأمة في الذب عن السنة ١٩٥
- طريق الهداية التمسك بالكتاب والسنة ١٩٦
- السنة تبين القرآن وتفصله ١٩٦
- الأمر باتباع أمر النبي ﷺ واجتناب نهيه ١٩٦
- السنة تحتوي على أحكام ومعاملات وغير ذلك ١٩٧
- تقسيم العلماء للسنة من حيث الاتباع ١٩٨
- الصحابة خير النماذج في تطبيق سنة نبيهم ﷺ ١٩٩
- أهل الحديث تبع للصحابة رضي الله عنهم في ذلك ٢٠٠
- في مدح علم الحديث وأهله ٢٠١
- المحاضرة الخامسة والثلاثون بعد المائتين ٢٠٢
- الإنسان والقرآن ٢٠٢
- موضوع الدرس ٢٠٢
- أقسام الموضوع ٢٠٢
- الأزمة الأخلاقية في المجتمعات الغربية ٢٠٣
- الأزمة في مجتمعاتنا الإسلامية ٢٠٤
- وجه الشبه بين المنهجين ٢٠٤
- حقيقة الإنسان في الفكر الغربي وأثر ذلك أخلاقياً ٢٠٤
- تصور الفلسفة اليونانية للإنسان (مبدأ اللذة والحكمة) ٢٠٥

فهرس الموضوعات

٤٠١

- نظرة الفكر المسيحي الكنسي للإنسان (الخطيئة الأصلية) ٢٠٦
- العصر الحديث وظهور المبادئ الجديدة ٢٠٦
- تصور الفكر الغربي للإنسان تصور مهزوز ٢٠٧
- الثورة البيولوجية تكشف عن حقيقة الإنسان الحيوانية ٢٠٧
- كلام جوليان هورتسلي حول حقيقة الإنسان ٢٠٧
- ظهور الداروينية وانكشاف حيوانية الإنسان ٢٠٨
- متابعة جوليان لكلامه ٢٠٨
- المبدأ العام في تأسيس القيم الأخلاقية ٢٠٨
- أثر العقيدة في التفريق بين فكر الإنسان المسلم والكافر ٢٠٩
- كيفية تحديد المنظور الإسلامي للإنسان ٢١٠
- دواعي الخطاب القرآني في عصر النزول وفي عصرنا ٢١٠
- حاجة عصرنا إلى الخطاب الإلهي ٢١١
- ما يتضمنه المنهج القرآني للتصحيح ٢١١
- ما تضمنه القرآن عن حقيقة الإنسان ٢١٢
- حقائق أربع تضمنتها الآيات السابقة ٢١٣
- حديث القرآن عن الغاية من خلق الإنسان ٢١٤
- حديث القرآن عن مصير الإنسان ٢١٤
- حديث القرآن عن حقيقة التكليف والمسئولية ٢١٤
- أنواع التكليف المترتب على الائتمان ٢١٥
- دلالة وصف الإنسان في الآية بالظلم والجهل ٢١٦
- ما يقتضيه التكليف من أمور ٢١٦

٢١٧.....	مظاهر التكريم الإلهي للإنسان
٢١٧.....	المظهر الأول للتكريم
٢١٨.....	المظهر الثاني للتكريم
٢١٨.....	المظهر الثالث من مظاهر التكريم
٢١٩.....	المظهر الرابع من مظاهر التكريم
٢٢٠.....	دور القرآن في تحرير العقل وتكريم الإنسان
٢٢١.....	بعض خصائص المعجزة القرآنية
٢٢٣.....	المحاضرة السادسة والثلاثون بعد المائتين
٢٢٣.....	تمهيد
٢٢٣.....	موضوع الدرس
٢٢٤.....	مقدار الدية في الجناية على النفس
٢٢٥.....	دية الرجل عما دون النفس
٢٢٥.....	الدية في الأعضاء البشرية
٢٢٦.....	دية المرأة
٢٢٦.....	دية المرأة نصف دية الرجل ودليل ذلك
٢٢٦.....	شبهة علمانية خبيثة
٢٢٧.....	موقف فريد
٢٢٨.....	دحض الشبهة السابقة والرد عليها
٢٢٨.....	الناحية العقلية
٢٢٩.....	مناقشة سلفية طريفة
٢٣٠.....	إزالة الإشكال واللبس

- ٢٣٠ تعليق الشافعي على كلام ابن المسيب
- ٢٣١ فهم جديد يجمع بين النصوص
- ٢٣٢ كلام الإمام الشوكاني عن الحديث
- ٢٣٣ كم ترك الأول للآخر!
- ٢٣٤ المحاضرة السابعة والثلاثون بعد المائتين
- ٢٣٤ القرآن واللغة العربية
- ٢٣٤ العربية لغة القرآن
- ٢٣٤ ظاهرة الإعراب في القرآن الكريم والسنة
- ٢٣٥ دليلها من السنة
- ٢٣٥ معنى «جوامع الكلم» الواردة في الحديث
- ٢٣٦ دلالة قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»
- ٢٣٦ الدليل على أن جوامع الكلم هو القرآن
- ٢٣٧ معجزة القرآن معجزة عقلية خالدة
- ٢٣٧ أغلب معجزات الأنبياء حسية
- ٢٣٨ دليل عروبة القرآن الكريم
- ٢٣٩ حكمة الله في بعثه الرسل بلسان قومهم
- ٢٤٠ كلام نفيس للإمام الشافعي
- ٢٤١ معنى العروبة وضابطها
- ٢٤١ وجه التلازم بين العربية والقرآن
- ٢٤٢ لا يفهم القرآن إلا بعد فهم اللغة العربية
- ٢٤٢ عبد القاهر الجرجاني يلوم تاركي الإعراب

- ٢٤٣ ماذا نقصد باللغة الفصحى ؟
- ٢٤٣ أدلة التلازم بين اللغة والقرآن
- ٢٤٦ علماء الإسلام يردون على الملحددين
- ٢٤٨ الشاطبي يرد الإلحاد إلى أسباب ثلاثة
- ٢٤٩ حكم تعلم العربية
- ٢٥٠ المحاضرة الثامنة والثلاثون بعد المائتين
- ٢٥٠ فضل النبي ﷺ في تماسك أمته
- ٢٥٠ تمهيد
- ٢٥٠ محمد ﷺ نموذج للإنسان الكامل
- ٢٥١ حفظ الله ﷻ لنبيه ومن سلك مسلكه
- ٢٥١ سبب نزول الآيات
- ٢٥٣ ظروف القصة وما يلزم الناظر فيها
- ٢٥٤ النبي ﷺ قدوة للأمة في تنفيذ الأمر التشريعي
- ٢٥٤ النظرة الثانية للقصة
- ٢٥٥ مراحل الإضرار بالناس
- ٢٥٥ حال النبي ﷺ مع المراحل الثلاثة
- ٢٥٦ شخصيات القصة
- ٢٥٦ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
- ٢٥٧ معنى الفضل في الآية
- ٢٥٨ دلالة اجتماع الفضل والرحمة في الآية
- ٢٥٨ معنى بعض المفردات في الآية الكريمة

٢٥٩.....	نوع القضية المنطقية في الآية
٢٦٠.....	الفقرة الثالثة في الآية الكريمة
٢٦٠.....	القضية الأولى في الآية الكريمة
٢٦٠.....	تنزه القرآن الكريم عن المعارضة والمخالفة
٢٦١.....	التأكيد على هذه الحقيقة
٢٦١.....	معنى الحكمة في الآية الكريمة
٢٦٢.....	السنة مبينة للقرآن
٢٦٣.....	المحاضرة التاسعة والثلاثون بعد المائتين
٢٦٣.....	ذكر الله ﷻ
٢٦٣.....	أسباب اختيار الموضوع
٢٦٣.....	حث القرآن على الذكر بعد الشدائد والأزمات
٢٦٣.....	حث القرآن على الذكر عند لقاء العدو
٢٦٤.....	حث القرآن على الذكر في كل حال
٢٦٤.....	إعراض كثير من الناس عن هذا الأمر
٢٦٤.....	سؤال وجواب
٢٦٥.....	ما الحل عند غلبة العاطفة والشهوة على النفس؟
٢٦٥.....	الغاية من ذكر الله تعالى يقظة القلب
٢٦٦.....	الإنسان كائن ثلاثي التركيب
٢٦٧.....	السبب في بُعد الروح عن عالمها
٢٦٨.....	دواء الروح حتى تتصل بعالمها
٢٦٩.....	ليس المطلوب أن يستحيل البشر ملكاً ولكن!!

- ٢٧٠ حقيقة واقعة لا مرأى فيها
- ٢٧١ من ثمرات الذكر : اطمئنان القلب وقلقه!!
- ٢٧٣ مشكلة مهمة تحتاج حلاً
- ٢٧٣ سبب المشكلة
- ٢٧٤ حل المشكلة
- ٢٧٥ ذكر الله ﷻ سبب للاجتماع والاتلاف
- ٢٧٥ تصوّر خاطئ
- ٢٧٦ المحاضرة الأربعون بعد المائتين
- ٢٧٦ أثر النية على صحة المعاملات وفسادها في الفقه والقانون
- ٢٧٦ تمهيد
- ٢٧٦ الحديث كما عند البخاري رَحِمَهُ اللهُ
- ٢٧٧ أول الانتقادات على «صحيح البخاري»
- ٢٧٨ الرد على ذلك
- ٢٧٩ علة جمع البخاري بين الآية والحديث
- ٢٧٩ الحديث من حيث الرواية
- ٢٨٠ أحاديث أخرى في معنى هذا الحديث
- ٢٨٠ إيراد البخاري للحديث مختصراً في أول كتابه
- ٢٨١ اختلاف الشراح في سبب ذلك
- ٢٨١ اعتذار العلماء عن الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ
- ٢٨٢ اختلاف الرواة في قوله ﷺ : الأعمال بالنيات
- ٢٨٣ مصدر الاختلاف في لفظ الحديث

٢٨٤	حكم رواية الحديث بالمعنى
٢٨٤	بعض ما قيل عن هذا الحديث
٢٨٥	تعريف النية
٢٨٥	بعض الأحكام المستنبطة من الحديث
٢٨٦	المستثنى من هذا الحكم
٢٨٦	المستثنى من هذه القاعدة
٢٨٧	حكم من خلط بين نية حسنة ونية سيئة
٢٨٨	أثر النية على العمل قضائياً
٢٨٨	القانون الروماني
٢٨٨	القانون الفرنسي
٢٨٩	الفقيه دوما وكتابه «القوانين المدنية»
٢٨٩	ظهور النظرية التقليدية للسبب
٢٨٩	ظهور النظرية الحديثة للسبب
٢٩٠	أسبقية الشريعة الإسلامية لنظريات أوروبا
٢٩١	اعتبار فقهاء الإسلام جميعهم للنوايا والمقاصد
٢٩١	تظاهر أدلة الشرع على اعتبار القصد
٢٩٢	نماذج ذلك من كتب الفقه المالكي
٢٩٣	الخلافا حول درجة اتصال الباعث بطرفي العقد
٢٩٣	رأي كاربيتان في هذا الأمر
٢٩٣	رأي بقية رجال القانون
٢٩٤	اعتداد فقهاء الإسلام بالنوايا كلها

٢٩٤	شرط اتصال الباعث غير المشروع بطرفي العقد
٢٩٤	أسبقية فقهاء الإسلام لأهل القانون
٢٩٥	أهلية المسلمين للأسبقية والصدارة
٢٩٧	المحاضرة الحادية والأربعون بعد المائتين
٢٩٧	الميزان في القرآن
٢٩٧	تمهيد
٢٩٧	تعريف الميزان لغة
٢٩٨	أثر القرآن الكريم على اللفظ العربي
٢٩٩	مصدر العلم بالميزان وأنواعه
٢٩٩	الميزان الكوني
٣٠٠	أثر العلم بالميزان الكوني
٣٠١	العلم بالميزان الكوني يحمل على تعميق الإيمان وثباته
٣٠١	العلم بالميزان الكوني يحرر من الأوهام والظنون
٣٠١	العلم بالميزان الكوني يحمل على التفكير السديد
٣٠٢	العلم بالميزان الكوني يحمل على الإيجابية في التعامل
٣٠٢	العلم بالميزان الكوني يحمل على الاستقامة والسعادة
٣٠٢	محاولات مكروبة للتفلت من الميزان الكوني
٣٠٣	الشيوعية خير مثال
٣٠٣	بعض آثار الانحراف عن الميزان
٣٠٣	التلوث البيئي وآثاره الضارة
٣٠٤	الميزان التشريعي

فهرس الموضوعات

٤٠٩

- الأمرفه إجمال وتفصيل ٣٠٤
- المستوى الأول كلمات ومفاهيم مماثلة ٣٠٥
- كلمة قسط ٣٠٥
- كلمة عدل ٣٠٦
- المصادر الرئيسة للضلال ٣٠٦
- المصدر الأول : فقدان الميزان ٣٠٧
- كلام الشاطبي حول عصمة الشريعة من التحريف ٣٠٧
- لمحة عن الإمام الشاطبي رحمته الله ٣٠٧
- الأدلة على حفظ الشريعة وخلودها ٣٠٨
- الدليل الأول ٣٠٨
- الدليل الثاني ٣٠٩
- الميزان الصحيح الذي نحتكم إليه ٣٠٩
- عاقبة التنكب عن الميزان الصحيح ٣١٠
- العلة من سوق هذه المفارقة ٣١٠
- المستوى الثاني : مجالات هذي الميزان التشريعي ٣١١
- ميزان السوق التجارية ٣١١
- مظاهر عناية الرب سبحانه بهذا الأمر ٣١٢
- ميزان القضاء ٣١٢
- أمور يستقيم بها ميزان القضاء ٣١٢
- ميزان العلاقة بين الحاكم والمحكوم ٣١٣
- ميزان مسؤولية الحاكم تجاه المحكوم ٣١٣

- ميزان مسئولية المحكوم تجاه الحاكم ٣١٤
- ميزان المفاهيم والمسالك ٣١٥
- ميزان الأعمال ٣١٥
- ميزان الصلة بالتاريخ ٣١٦
- ميزان العلاقات الدولية ٣١٦
- ميزان الحوار مع أهل الأديان الأخرى ٣١٧
- ميزان الاتصال بالحضارات ٣١٧
- خلاصة الكلام عن الميزان ٣١٨
- خاتمة ٣١٨
- المحاضرة الثانية والأربعون بعد المائتين ٣١٩**
- دور القاضي في الإسلام ٣١٩**
- ما تعنيه كلمة قاضي وأدلة ذلك ٣١٩
- حكم ابن عباس رضي الله عنهما مع المرأتين ٣١٩
- حكم أم المؤمنين عائشة مع أبي سلمة رضي الله عنهما ٣٢٠
- سبب اختيار الموضوع ٣٢٠
- بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم تقتضي حكمه بالظاهر ٣٢٠
- دور النبي صلى الله عليه وسلم كقاض في التذكير بالله ﷻ ٣٢٠
- نوع الفاء في قوله صلى الله عليه وسلم فأقضي ٣٢١
- دلالة التنكير لكلمة شيئاً ٣٢١
- عود إلى سبب اختيار الموضوع ٣٢١
- طريقة أوربية ٣٢٢

فهرس الموضوعات

٤١١

- استخدام الآية والحديث في الوعظ ٣٢٢
- وعظ النبي صلى الله عليه وسلم بالآية لرجلين ٣٢٢
- قصة الرجلين مع النبي صلى الله عليه وسلم ٣٢٣
- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ٣٢٤
- أثر الآية الكريمة في الوعظ ٣٢٤
- متابعة أحداث القصة ٣٢٤
- من ثمرات التربية النبوية ٣٢٥
- قضاء النبي صلى الله عليه وسلم بين الرجلين ٣٢٥
- حرص الشريعة على إزالة العداء بين المسلمين ٣٢٦
- عناية علماء الحديث بالآية والحديث ٣٢٧
- بعض أحاديث البخاري في كتاب المظالم ٣٢٧
- حديث أبي سعيد ٣٢٨
- حديث ابن عمر رضي الله عنهما ٣٢٨
- حديث أنس رضي الله عنه ٣٢٨
- حديث أنس رضي الله عنه وحال أهل الجاهلية ٣٢٩
- حديث البراء بن عازب ٣٢٩
- باب الانتصار من الظالم عند البخاري ٣٣٠
- العفو عند المقدرة شيمة أهل الإيمان ٣٣٠
- الإمام البقاعي والحكمة من كلمة «أصلح» ٣٣١
- باب عفو المظلوم ٣٣١
- باب الظلم ظلماً يوم القيامة ٣٣٢

انتقال البخاري إلى باب آخر من الصحيح	٣٣٢
معنى قوله ﷺ: «الألد الخصم»	٣٣٣
سبب تقديم رواية مسلم في حديث أم سلمة	٣٣٤
وقفة مع رواية البخاري للحديث	٣٣٤
الجانب التربوي عند البخاري رحمه الله في «صحيحه»	٣٣٥
المحاضرة الثالثة والأربعون بعد المائتين	٣٣٧
أثر التربية الإسلامية في المعاملات	٣٣٧
سبب اختيار الموضوع	٣٣٧
موضوع الدرس حديث أبي ذر رحمه الله	٣٣٧
حديث معاذ رحمه الله	٣٣٨
روايات أخرى لوصية النبي ﷺ	٣٣٨
المناهج التربوية في وصية النبي ﷺ	٣٣٩
أثر هذه التربية على الإنسان	٣٤٠
ما تهدف إليه وصايا الرسول ﷺ	٣٤٠
تأكيد القرآن الكريم لهذه الأهداف	٣٤٠
العبادة وأثرها في السمو بالروح الإنسانية	٣٤١
اشتمال الوصية على ثلاثة حقوق	٣٤١
وصية الله ﷻ للأولين والآخرين بالتقوى	٣٤٢
إضافة التقوى إلى الله ﷻ	٣٤٢
إضافة التقوى إلى عذاب الله ﷻ أو مكانه أو زمانه	٣٤٢
تعريف التقوى	٣٤٣

فهرس الموضوعات

٤١٣

٣٤٣	التقوى من أعظم ثمرات الإيمان
٣٤٤	تعريفات أخرى للتقوى
٣٤٥	أمور لا تتم التقوى بدونها
٣٤٥	فضائل المتقين وخصالهم
٣٤٧	اهتمام التربية الإسلامية بالإنسان ورغباته
٣٤٧	الحكمة من تشريع التوبة من الذنوب
٣٤٨	نظرة الإسلام الرحيمة إلى الإنسانية
٣٤٩	حق العباد في الحديث الشريف
٣٥٠	المعاملة أمانة وصدق
٣٥٠	المعاملة أخلاق
٣٥١	قضية الدين المعاملة
٣٥١	أهمية المعاملة في حياة الناس
٣٥٢	نماذج للمعاملة الحسنة
٣٥٣	الإيمان وأثره في تربية النفس
٣٥٤	التربية الإسلامية ليست حكراً على الرجال
٣٥٥	المحاضرة الرابعة والأربعون بعد المائتين
٣٥٥	طهارة أصول النبي ﷺ
٣٥٥	موضوع الدرس
٣٥٥	جانبا الموضوع
٣٥٦	الكلام عن سند الحديث
٣٥٦	شيوخ الإمام مسلم في الحديث

- الشيخ الأول : محمد بن مهران الرازي ٣٥٧
- الشيخ الثاني : محمد بن عبد الرحمن ٣٥٧
- الشيخ الثالث : أبو الوليد القرشي ٣٥٨
- الشيخ الرابع : الإمام الأوزاعي ٣٥٨
- الشيخ الخامس : أبو عمار ٣٥٩
- الراوي الأعلى للحديث ٣٥٩
- بعض اللطائف في سند الحديث ٣٥٩
- معنى الاصطفاء وأنواعه ومراحلته ٣٦٠
- بقية ألفاظ الحديث ٣٦١
- طهارة النسب الشريف من الشوائب ٣٦٢
- كلام السهيلي رحمته الله ٣٦٢
- قوله ﷺ : « ما ولدني إلا نكاح الإسلام » ٣٦٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ ٣٦٤
- الإيمان ببشرية الرسول ﷺ ٣٦٤
- الإيمان بأنه عربي ٣٦٤
- الكلام حول طهارة النسب في الاعتقاد ٣٦٥
- القول الأول ٣٦٥
- القول الثاني ٣٦٦
- بعض صفات النبي ﷺ بين الإنكار والجهل ٣٦٦
- أنواع الحقوق في الإسلام ٣٦٧
- حق الله ﻋَﻠَﻴْكَ ٣٦٧

- ٣٦٧ حقوق العباد
- ٣٦٧ حقوق مشتركة
- ٣٦٨ حكم دراسة نسب النبي ﷺ وأحواله
- ٣٧٠ المحاضرة الخامسة والأربعون بعد المائتين
- ٣٧٠ من لوازم إرادة الخير الفقه في الدين
- ٣٧٠ موضوع الدرس
- ٣٧٠ فقه البخاري في ترجمته لحديث الدرس
- ٣٧٠ معنى الدين في الحديث الشريف
- ٣٧١ تخريج الحديث الشريف من كتب السنة
- ٣٧١ صنيع الإمام البخاري مع الحديث في الصحيح
- ٣٧٢ ألفاظ الترجمة عند البخاري
- ٣٧٢ قوله : «مَنْ»
- ٣٧٢ القصة بين ابن عرفة وابن مرزوق
- ٣٧٣ دلالة مجيء الشرط بصيغة المضارع في الحديث
- ٣٧٣ تعلق الغرض في الحديث بعلم الفروع
- ٣٧٤ دليل هذا الأمر من السنة
- ٣٧٤ معنى قوله : «يفقهه» وأقسام الفهم
- ٣٧٥ فهم عن الله
- ٣٧٥ انعقاد الترجمة للتفقه في علم الفروع
- ٣٧٦ المراد بالدين في آية المائدة
- ٣٧٦ الخلاف حول المقصود بالرأي في حديث معاذ

بعض النماذج لاجتهاد النبي ﷺ	٣٧٧
نموذج آخر	٣٧٧
نموذج ثالث	٣٧٧
اجتهاد الخلفاء والصحابة بعد نبيهم ﷺ	٣٧٨
الصديق أبو بكر رضي الله عنه	٣٧٨
الفاروق عمر رضي الله عنه	٣٧٨
عثمان رضي الله عنه	٣٧٩
علي رضي الله عنه	٣٨٠
وقفة مع قاعدة : لا اجتهاد مع النص	٣٨٠
رد دعاوى القائلة بغلق باب الاجتهاد	٣٨١
قوله ﷺ : «أنا قاسم والله يعطي»	٣٨١
دلالة التعبير بلفظ : «الأمة» في الحديث الشريف	٣٨٢
المراد بقوله ﷺ : «أمر الله»	٣٨٣
فهرس الموضوعات	٣٨٤

